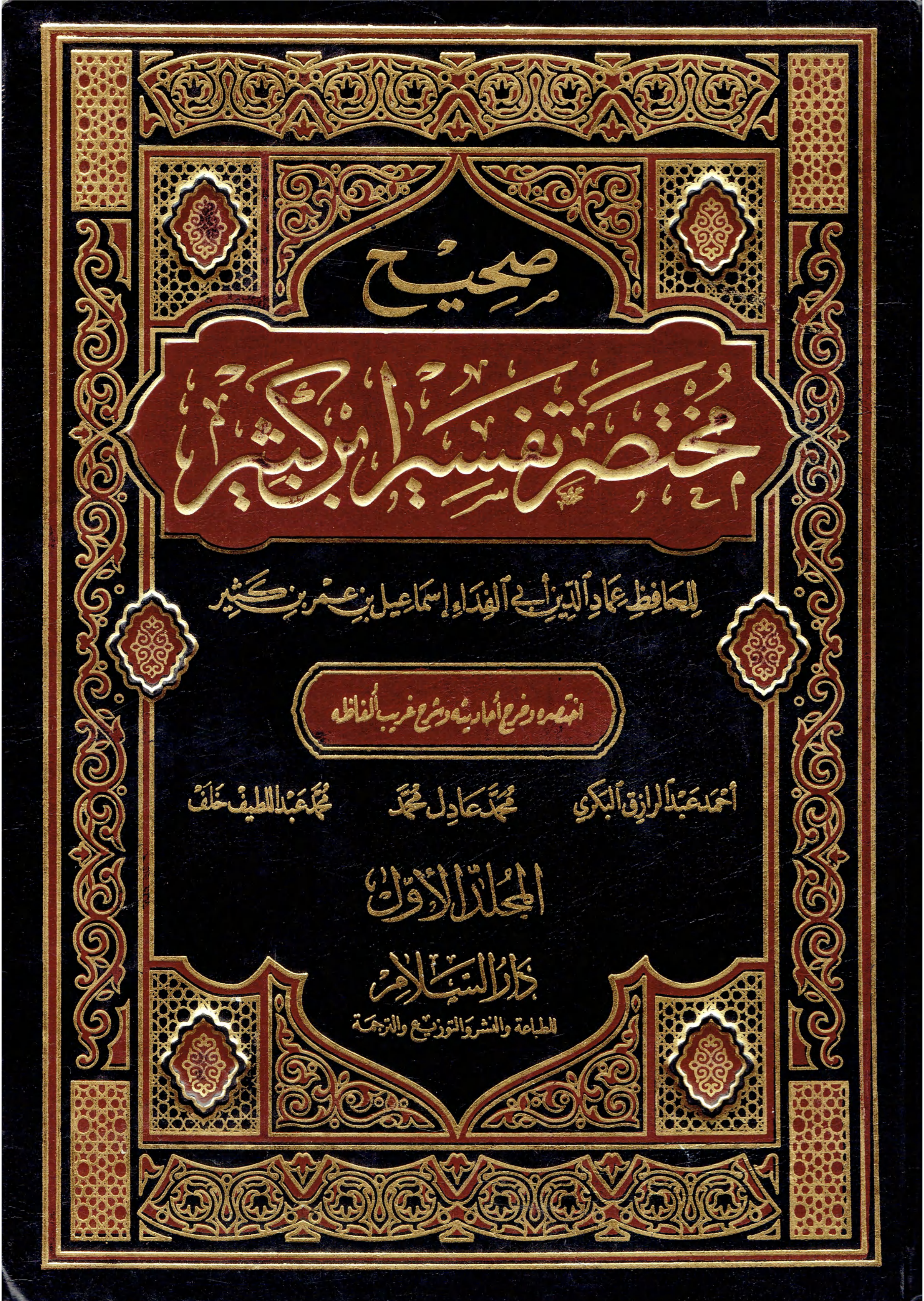
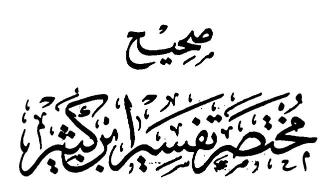

صحيح
مختصر تفسير ابن كثير
للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير
اختصره وخرج أحاديثه وشرح غريب ألفاظه
أحمد عبد الرازق البكري
محمد عادل محمد
محمد عبد اللطيف خلف
المجلد الأول
دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة


صحيح
مختصر تفسير ابن كثير

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م
الطبعة الثانية
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م
الطبعة الثالثة
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م، ٢٠٠٠م، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

القاهرة - جمهورية مصر العربية
الإدارة: ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف: ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس: ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة: فرع الأزهر: ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف: ٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة: فرع مدينة نصر: ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف: ٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
بريديًا: ص.ب ١٦١ الغورية الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني: info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت: www.dar-alsalam.com

صحيح

مختصر تفسير ابن كثير

للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير

اختصره وخرج أحاديثه وشرح غريب ألفاظه

أحمد عبد الرازق البكري | محمد عادل محمد | محمد عبد اللطيف خلف

المجلد الأول

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

نحمدك اللهم حمدًا يوافي النعم ، ونشكرك اللهم أن هيأتنا لخدمة كتابك وسنة نبيك ، ونسألك من فضلك العميم مزيدًا من الرعاية والتوفيق .

ونصلي ونسلم على خير الخلق عندك ، وأحبهم إليك ، وأكرمهم لديك ، سيدنا محمد ﷺ الذي اصطفيته للرسالة ، وأيدته بالمعجزة ، وآتيته من جوامع الكلم ما طوى به غزير المعاني في اليسير من الألفاظ ، فكان بيانه النبوي الشريف أبلغ ما عرفت العربية بعد كتاب اللّه العزيز ، وبهما هدى اللّه الضال ، وعلَّم الجاهل ، وأرشد الحائر .

فصلواتك اللهم وسلامك على نبيك الكريم ، وعلى آله وصحبه ، ومن دعا بدعوته ، واهتدى بهديه إلى يوم الدين .

أما بعد :

هذا مختصرٌ محققٌ لتفسير القرآن العظيم للعلامة الإمام الحافظ الثبت الثقة أبي الفداء إسماعيل ابن كثير ، والذي تقدمة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة التي دأبت على تقديم كتب التراث للقارئ في ثوب قشيب ؛ ولما كان لهذا العالم الجليل وكتابه « تفسير القرآن العظيم » دور عظيم في عالم التفسير ، فنود أن نلقي الضوء على حياة هذا العالم الجليل وذلك من خلال عرض لترجمة خاصة به .

فما لاشك فيه أن « علم التفسير » من أهم العلوم الإسلامية التي حرص المسلمون منذ عهد النبي ﷺ وحتى عصرنا الحالي على تعلمها ، والنهل من معينها ؛ لذا فقد عني الصحابة ومن بعدهم التابعين ثم تابعيهم على تعليم هذا العلم حتى أطلق الصحابة على الصحابي الجليل عبد اللّه بن عباس رضي الله عنهما ترجمان القرآن ، ثم كما فقد عني العلماء منذ القرن الأول بموضع الكتب التي تجمع علم التفسير واستمرت هذه العناية بذلك العلم حتى عصرنا الحالي .

ويعد « تفسير القرآن العظيم » المشهور بتفسير ابن كثير ، من الكتب الجامعة التي لا غنى لكل بيت مسلم عنها ، وذلك لما يحويه بين دفتيه من علم غزير ونفع للإسلام والمسلمين ، لذا فإن هذا الكتاب قد ظل على مر العصور مرجعًا مهمًّا للعلماء وطلاب العلم يستقون من معينه ما يروون به ظمأهم ، لذا فقد حرصنا على تقديم هذا التفسير في صورة معاصرة ، وطريقة سهلة واضحة خالية من الإسرائيليات والآثار الموضوعة ، مع الاحتفاظ بروح المؤلف ومنهجه في كتابه ، وذلك حتى يستفيد القارئ المسلم .

ترجمة ابن كثير

حياته :

هو الإمام الحافظ الحجة عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن كثير بن درع القرشي من بني حصلة .

ولد في قرية مجدل إحدى قرى بصرى سنة (٧٠١ هـ) لأب كان يعمل خطيبًا لتلك القرية ، وقد توفي أبوه وهو في الثانية من عمره فنشأ يتيمًا .

انتقل ابن كثير بعد وفاة والده مع إخوته من مجدل إلى دمشق ، وكان ذلك في سنة (٧٠٧ هـ) وقام على رعايته وتعليمه شقيقه الأكبر عبد الوهاب .

كانت نشأة الإمام الحافظ ابن كثير مليئة بالأحداث الخطيرة ، فقد شهد هجوم التتار على الشام ، ومحاولات الصليبيين الهجوم على البلاد الإسلامية ، ومع ذلك فلم تزده هذه الأحداث إلا قوة وصلابة .

تعلمه :

بدأ ابن كثير في تعلم القرآن الكريم ككثير من علماء عصره ، واستطاع حفظه وتلاوته وهو في العاشرة من عمره .

وتلقى ابن كثير العلم على يد نخبة كبيرة من علماء عصره ، وعلى رأسهم صهره الحافظ المزي المتوفى سنة (٧٤٢ هـ) (مؤلف كتاب تهذيب الكمال) الذي تأثر به ابن كثير تأثرًا كبيرًا . كما تأثر بمؤرخ الشام القاسم بن محمد البرزالي المتوفى سنة (٧٣٩ هـ) .

كما كان لشيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية المتوفى سنة (٧٢٨ هـ) أثر كبير في حب ابن كثير للعلم ، إذ كانت له به خصوصية ، حيث كان من تلامذته المخلصين ، وكان يفتي برأيه .

شيوخه :

تلقى الإمام الحافظ ابن كثير العلم على يد نخبة كبيرة من العلماء ، إضافة إلى ما سبق ذكرهم ، ومن هؤلاء :

في الحديث والتاريخ :

- مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي المتوفى سنة (٧٤٨ هـ) .

أصول الفقه :

الإمام ابن قاضي شهبة المتوفى سنة (٧٢٦ هـ) .

الحديث :

القاسم ابن عساكر المتوفى سنة (٧٢٣ هـ) .

أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن الفزاري المعروف بالفركاح المتوفى سنة (٧٢٩ هـ) .

أحمد بن أبي طالب الحجار المعروف بابن الشحنة المتوفى سنة (٧٣٠ هـ) .

الشعر :

نجم الدين موسى بن علي محمد المتوفى سنة (٧١٦ هـ) .

كما أخذ بقية العلوم عن مجموعة من العلماء والشيوخ أمثال ابن الشيرازي وإسحاق الآمدي وأبي موسى القرافي وأبي الفتح الدبوسي .

مكانته العلمية :

يعد الإمام الحافظ ابن كثير من الحفاظ المحدثين ، وقد ذكره السيوطي في طبقات الحفاظ في الطبقة الثالثة والعشرين .

استطاع الإمام الحافظ ابن كثير أن يكوّن لنفسه شخصية متميزة مكنته من أن يكون أحد علماء عصره الذين يشار إليهم بالبنان ؛ لذا فقد كان يقصده طلاب العلم من كل بقاع الأرض لتلقي العلم على يديه ، كما كانت له الريادة والمكانة العلمية المتميزة والتي تمكنه من أن يتولى مشيخة أم صالح بعد وفاة شيخه الإمام الذهبي سنة (٧٤٨ هـ) ومشيخة دار الحديث الأشرفية بعد وفاة شيخها تقي الدين السبكي سنة (٧٥٦ هـ) .

كما درس بالنجيبية والجامع الفوقاني ، كما كانت له مشاركة في صنع القرارات الحربية كما فعل مع السلطان بإرشاده إلى ما يفعله مع أهل قبرص لردعهم .

آثاره ومؤلفاته :

خلف الإمام الحافظ إسماعيل بن كثير بعد وفاته تراثًا علميًا كبيرًا ، لم يصلنا منه إلا النذر اليسير ، ومن أشهر هذه المؤلفات .

- كتاب البداية والنهاية ، وهو يعد من أهم المراجع التاريخية ، استقى منه جميع المؤرخين ممن أتوا بعده ، حيث اعتمد فيه على منهج المحدثين في ذكر سلسلة السند حيث قام بدمج التاريخ بالرواية والتفسير .
- الاجتهاد في طلب الجهاد الذي حكى فيه أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين خلال القرن الثامن ، ويعتبر الكتاب وثيقة تاريخية ؛ نظرًا لأن مؤلفها قد عاصر الأحداث .
- اختصار علوم الحديث الذي اختصر فيه مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث .
- السيرة النبوية الذي أخرج من كتابه البداية والنهاية .
- أحاديث التوحيد والرد على الشرك .
- جامع المسانيد .
- طبقات الشافعية .
- هذا إضافة إلى غيرها من الكتب المفقودة مثل :

- التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل .
- الكواكب الدراري في التاريخ .
- سيرة الشيخين .
- الواضح النفيس في مناقب الإمام محمد بن إدريس .
- شرح صحيح البخاري .

وغيرها من الكتب التي ذكرها حاجي خليفة في كشف الظنون والداوودي في طبقات المفسرين والسيوطي في ذيل تذكرة الحفاظ .

ويأتي على رأس مصنفاته تفسير القرآن العظيم المشهور بتفسير ابن كثير .

رأي علماء عصره فيه :

- قال عنه الداودي في طبقات المفسرين : (كان أحفظ من أدركناه لمتون الحديث ، وأعرفهم بتخريجها ورجالها وصحيحها وسقيمها ، وكان أقرانه يعترفون بذلك ... وكان (فقيها جيد الفهم ، صحيح الدين) .
- وقال عنه النعيمي : (وكانت له أجوبة مسكتة) .
- وقال عنه الحافظ الذهبي : (خرج وناظر وصنف وفسر وتقدم) وقال أيضًا : (الإمام المفتي المحدث البارع ، فقيه متفنن ، ومحدث متقن ، ومفسر نقال) .
- وقال عنه أبو المحاسن الحسيني : (أفتى ودرس وناظر وبدع في الفقه والتفسير والنحو ، وأمعن النظر في الرجال والعلل) .
- وقال عنه السيوطي : (له التفسير الذي لم يؤلف على نمطه مثله) .
- وقال عنه السبكي : (اشتمل عصرنا على أربعة من الحفاظ وبينهم عموم وخصوص : المزي والبرزالي والذهبي ، والشيخ الوالد (يقصد ابن كثير) لا خامس لهم في عصرهم) .

أسلوبه في الحياة :

كان يتحاشى الإدلاء برأيه الصريح في القضايا السياسية ؛ لذا فقد امتنع عند الإفتاء في أمور كثيرة كانت ستؤدي إلى الانقلاب على السلطان ، والثورة عليه ، كما كان يمتنع عن الإفتاء ضد أي قاض ؛ لأن في الفتوى تشويش على الحكام [١] .

وعلى الرغم من تحفظه في إبداء رأيه حول التغيير إلا أنه كان صريحًا في التعامل .

منهجه في التفسير :

غلب على أسلوبه طابع التحديث ويتضح ذلك في مؤلفاته الكثيرة التي بين أيدينا ، فقد اشتملت هذه المصنفات على موسوعة تفسيرية وحديثية وتاريخية ، ويتضح ذلك بشكل كبير في تفسيره الذي

---

(١) البداية (٢١٦/١٤) .

حرص أن يفسر فيه القرآن بالقرآن ثم بالسنة الصحيحة ثم بأقوال السلف الصالح .

وفاته :

توفي الإمام الحافظ حجة عصره أبو الفداء إسماعيل بن كثير في (شعبان ٧٧٤ هـ) عن عمر يقارب ٧٣ سنة ، ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه الإمام تقي الدين ابن تيمية ورثاه بعض طلابه بقوله :

لفَقْدِك طلابُ العلومِ تأَسَّفُوا وجادوا بدمعٍ لا يَبيدُ غزير
ولو مَزَجُوا ماءَ المدامعِ بالدِّما لكانَ قليلًا فيكَ يا ابن كثير

منهج الاختصار والتحقيق

أولًا : الاختصار :

اعتمدنا في اختصار هذا الكتاب على خمس نسخ مختلفة ، قديمة وحديثة لتفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) حتى نتفادى أي خطأ أو سقط في أي نسخة من النسخ .

اختصرنا الكتاب على النحو التالي :

١ - قمنا بحذف سلسلة السند كلها عدا راوي الحديث أو الأثر .

٢ - حذفنا جميع الإسرائيليات الموجودة بالكتاب ، سواء كانت هذه الإسرائيليات أخبارًا أو آثارًا .

٣ - قمنا بحذف جميع الأحاديث الموضوعة والمنكرة .

٤ - قمنا بحذف جميع الأحاديث الضعيفة التي ليس لها ما يقويها من السند ، وأبقينا على الحديث الضعيف الذي له روايات أخرى تقويه عملًا بالقول القائل : (الأحاديث الضعيفة يقوي بعضها بعضًا) . وكذلك أبقينا على الأحاديث الضعيفة المشتهرة على ألسنة الناس ، وقد أشرنا إلى ضعف هذه الأحاديث في الهامش ، وذلك حتى يعلم القارئ وضع هذه الأحاديث وضعفها .

٥ - قمنا بحذف الأحاديث المكررة بنفس المعنى ، وكان اختيارنا لأصح هذه الأحاديث ، وإذا كان الحديث مكررًا لمرات كثيرة كنا نبقي على حديثين أو ثلاثة ، وذلك حتى لا يتعرض القارئ للضجر أو الملل مع المحافظة على الانسجام والترابط في المعنى .

ثانيًا : التحقيق :

- قمنا بضبط الأحاديث النبوية والآثار ضبطًا كاملًا حتى نسهل على القارئ نطق الحديث أو الأثر بشكله الصحيح ، ورغبة في الوصول إلى المعنى بدقة ووضوح .

٢ - قمنا بتخريج جميع الأحاديث والآثار الواردة في الكتاب تخريجًا علميًا من المصادر الأصيلة ، حيث قمنا بذكر اسم الكتاب ورقم الحديث ، وإذا كان الكتاب غير مقسم إلى أبواب كمسند الإمام أحمد ، فقد قمنا بذكر الجزء ورقم الصفحة .

٣ - قمنا بتخريج جميع القراءات القرآنية الموجودة في الكتاب من مصادرها الأصلية ، وعزونا القراءة إلى قارئها ، وذكرنا القراءات المختلفة في اللفظ الواحد ، وذكرنا مصدرنا في هذا التخريج بذكر اسم الكتاب ورقم الجزء أو الصفحة ، وأعددنا فهرسًا لها في نهاية الكتاب .

٤ - قمنا بعزو الشعر إلى قائليه على قدر ما أتيح لنا ، وذكرنا مكان هذا الشعر وقائليه ، والكتب التي ذكر فيها .

٥ - قمنا بشرح غريب الألفاظ التي رأينا أن قارئ اليوم ربما لا يعرفها ، فشرحنا معانيها ومقصودها في الآية أو الحديث ، وذلك بعد الرجوع إلى كتب غريب الحديث وأمهات معاجم اللغة كلسان العرب والقاموس المحيط والمعجم الوسيط وغيرها .

٦ - اعتمدنا في تخريج بعض الآثار على كتب التفسير الكبيرة مثل : تفسير الطبري والدر المنثور للسيوطي وتفسير القرطبي ، وذلك لتوثيق الأثر وبيان وجوده ، وذلك بذكر الجزء والصفحة .

٧ - قمنا بإعداد فهارس علمية للكتاب جمعنا فيها جميع الأحاديث والآثار الواردة بالكتاب ، مرتبة ترتيبًا ألفبائيًّا ، وذلك بذكر طرف الحديث أو الأثر ، ومكان وجوده في الكتاب بذكر الجزء والصفحة . وإذا كان الحديث أو الأثر ذكر أكثر من مرة في الاستشهاد ، فإننا نذكر مكان وجوده ، وذلك بهدف عموم الفائدة وسهولة الوصول إلى مواضع الأحاديث والآثار داخل الكتاب .

وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا

قسم التحقيق والمراجعة بدار السلام

أحمد عبد الرازق البكري   محمد عادل محمد   محمد عبد اللطيف خلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة ابن كثير

قال الشيخ الإمام الأوحد ، البارع الحافظ المتقن ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن الخطيب أبي حفص عمر بن كثير البصروي الشافعي ، رحمه الله تعالى ورضي عنه :

الحمد لله الذي افتتح كتابه بالحمد فقال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ وافتتح خلقه بالحمد فقال تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ واختتمه بالحمد فقال بعد ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار : ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ فله الحمد في الأولى والآخرة ، أي في جميع ما خلق وما هو خالق ، هو المحمود في ذلك كله كما يقول المصلي « اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد » ولهذا يُلهم أهل الجنة تسبيحه وتحميده كما يُلهمون النَّفَس ، أي يسبّحونه ويحمدونه عدد أنفاسهم ؛ لما يرون من عظيم نعمه عليهم ، وكمال قدرته ، وعظيم سلطانه ، وتوالي مننه ، ودوام إحسانه إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

والحمد لله الذي أرسل رسله ﴿ مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ وختمهم بالنبي الأمي العربي المكّي الهادي لأوضح السبل ، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن ، من لدن بعثته إلى قيام الساعة كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم ، وأسود وأحمر ، وإنس وجان ، فهو نذير له ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده ، بنص الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِى لَهُمْ ﴾ وقال رسول الله ﷺ : « بُعِثْتُ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ » (١) قال مجاهد : يعني الإنس والجن . فهو صلوات الله وسلامه

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١١٦) ، وابن حبان في صحيحه (٢٠٠) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٦٥) .

عليه رسول الله إلى جميع الثقلين : الإنس والجن ، مبلّغًا لهم عن الله تعالى ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه ندبهم إلى تفهّمه فقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ .

فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله وتفسير ذلك ، وطلبه من مظانه ، وتعلُّم ذلك وتعليمه كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فذمّ الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المنزل عليهم وإقبالهم على الدنيا وجمعها واشتغالهم بغير ما أُمروا به من اتباع كتاب الله .

فعلينا - أيها المسلمون - أن ننتهي عمّا ذمّهم الله تعالى به ، وأن نأتمر بما أمرنا به من تعلُّم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه ، وتفهُّمه وتفهيمه ، قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها ، كذلك يلين القلوب بالإيمان والهدى بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي ، والله المؤمل المسؤول أن يفعل بنا هذا إنه جواد كريم .

فإن قال قائل : فما أحسن طرق التفسير ؟

فالجواب : إنَّ أصح الطرق في ذلك أن يفسّر القرآن بالقرآن ، فما أُجمِلَ في مكانٍ فإنه قد بسط في موضع آخر ، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنّة ؛ فإنها شارحة للقرآن وموضحة له ، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمّد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى : كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ولهذا قال رسول الله ﷺ : « أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ القُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ » (١) يعني السنّة . والسنة أيضًا تنزل عليهم بالوحي كما ينزل القرآن إلّا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن ، وقد استدل الإمام الشافعي رحمه الله تعالى وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك .

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه فإن لم تجده فمن السنّة كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن « فَبِمَ تَحْكُمُ ؟ » قال : بكتاب الله . قال : « فَإِنْ لَمْ تَجِدْ ؟ » قال بسنّة رسول الله ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٣١) ، وأبو داود في السنن (السنة ب ٦) بلفظ : « أوتيت الكتاب » .

قال : « فَإِنْ لَمْ تَجِدْ ؟ » قال : أجتهد رأيي ، قال : فضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال : « الحَمْدُ للهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللهِ » (١) . وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنّة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك ، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح ، لا سيّما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين ، والأئمة المهتدين المهديين ، وعبد الله بن مسعود ﷺ . قال ابن مسعود : والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلّا وأنا أعلم فيمن نزلت ، وأين نزلت ، ولو أعلمُ مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته . وقال أيضًا : كان الرجل منا إذا تعلَّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن . وقال أبو عبد الرحمن السلمي : حدَّثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ ، وكانوا إذا تعلّموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا .

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ وترجمان القرآن ، ببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال : « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ » (٢) وعن عبد الله بن مسعود قال : نعم الترجمان للقرآن ابن عبّاس . وقد مات ابن مسعود ﷺ في سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح ، وعمَّر بعده عبد الله بن عباس ستًّا وثلاثين سنة ، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود . وقال أبو وائل : استخلف عليٌّ عبدَ الله بن عباس على . الموسم ، فخطب الناس ، فقرأ في خطبته سورة البقرة ، وفي رواية : سورة النور ، ففسرها تفسيرًا لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا .

ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدي الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين : ابن مسعود وابن عبّاس ، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله حيث قال : « بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً ، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ من النَّارِ » (٣) ولهذا كان عبد الله بن عمرو ﷺ قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب ، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك .

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد ، فإنها على ثلاثة أقسام :

أحدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق ؛ فذاك صحيح .

والثاني : ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه .

والثالث : ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ؛ فلا نؤمن به ولا نكذّبه ، ويجوز حكايته لما تقدم ، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني ؛ ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيرًا ، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك ، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم ، وعددهم ، وعصا موسى من أي الشجر كانت ، وأسماء الطيور التي أحياها الله

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧/١) وأبو داود في السنن (الأقضية ١٩) وابن ماجه في السنن (مناسك ٣٨) .

(٢) أخرجه البخاري في العلم (٧٥) ومسلم في فضائل الصحابة (١٣٨) وأحمد في مسنده (٣٢٧/١) .

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١) والترمذي في السنن (٢٦٦٩) والدارمي في السنن (١٣٦/١) .

لإبراهيم ، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة ، ونوع الشجرة التي كلَّم اللَّه منها موسى ، إلى غير ذلك مما أبهمه اللَّه تعالى في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دينهم ولا دنياهم . ولكن نَقْلُ الخلاف عنهم في ذلك جائز كما قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا ، فإنه تعالى حكى عنهم ثلاثة أقوال ضعَّف القولين الأولين وسكت عن الثالث ، فدل على صحته ؛ إذ لو كان باطلًا لرده كما ردهما ، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته فقال في مثل هذا : ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلَّا قليل من الناس ممن أطلعه اللَّه عليه فلهذا قال : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾ أي لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ، ولا تسألهم عن ذلك ؛ فإنهم لا يعلمون من ذلك إلَّا رجم الغيب ؛ فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف ، أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام ، وأن تنبه على الصحيح منها ، وتبطل الباطل ، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته ، فتشتغل به عن الأهم فالأهم .

فأما من حكى خلافًا في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص ؛ إذ قد يكون الصواب في الذي تركه . أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضًا ، فإن صحح غير الصحيح عامدًا فقد تعمد الكذب ، أو جاهلًا فقد أخطأ . وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته أو حكى أقوالًا متعددة لفظًا ، ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى ، فقد ضيع الزمان ، وتكثَّر بما ليس بصحيح ، فهو كلابس ثوبي زور ، واللَّه الموفق للصواب .

فصل : إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر ؛ فإنه كان آية في التفسير ، كما قال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته ، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها . وقال ابن أبي مليكة : رأيت مجاهدًا سأل ابن عبّاس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه قال : فيقول له ابن عباس : اكتب ، حتى سأله عن التفسير كله . ولهذا كان سفيان الثوري يقول : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به . وكسعيد بن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء ابن أبي رباح ، والحسن البصري ، ومسروق بن الأجدع ، وسعيد بن المسيَّب ، وأبي العالية ، والربيع ابن أنس ، وقتادة ، والضحاك بن مزاحم ، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم ، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافًا فيحكيها أقوالًا ، وليس كذلك ؛ فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره ، ومنهم من ينص على الشيء بعينه ، والكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن فليتفطن اللبيب لذلك واللَّه الهادي .

وقال شعبة بن الحجاج وغيره : أقوال التابعين في الفروع ليست حجة فكيف تكون حجة في التفسير ؟ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم وهذا صحيح . أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة ، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على قول بعض ولا على من

بعدهم ، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنّة أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة في ذلك .

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام لما رواه ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « مَنْ قَالَ فِي القُرْآنِ بِرَأْيِهِ أَوْ بِمَا لَا يَعْلَمُ ؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » (١) وعن جندب أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قَالَ فِي القُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَقَدْ أَخْطَأَ » . وفي لفظ لهم « مَنْ قَالَ فِي كِتَابِ اللَّهِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ » (٢) أي لأنه قد تكلّف ما لا علم له به وسلك غير ما أمر به ، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه ، كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار ، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر ، لكن يكون أخف جرمًا ممن أخطأ والله أعلم . وهكذا سمى الله القذفة كاذبين فقال : ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَآءِ فَأُولَٰٓئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَٰذِبُونَ ﴾ فالقاذف كاذب ، ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر ؛ لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به ، ولو كان أخبر بما يعلم ؛ لأنه تكلف ما لا علم له به والله أعلم . ولهذا تحرّج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به كما روي عن أبي معمر قال : قال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه : وأيّ أرض تقلّني ؟ وأي سماء تظلني ؟ إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم . وعن إبراهيم التيمي أن أبا بكر الصدّيق سئل عن قوله تعالى ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ فقال : أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني ؟ إذا أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم . وعن حميد عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا لهو التكلف يا عمر . وقال حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال : كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفي ظهر قميصه أربع رقاع فقرأ ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ فقال : فما الأب ، ثم قال : إن هذا لهو التكلف فما عليك أن لا تدريه ؟ .

وهذا كله محمول على أنهما رضي الله عنهما إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب ، وإلا فكونه نبتًا من الأرض ظاهر لا يجهل كقوله تعالى : ﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا ﴾ الآية . وعن ابن عبّاس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها فأبى أن يقول فيها .

وعن ابن أبي مليكة قال : سأل رجل ابن عبّاس ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ فقال له ابن عبّاس : فما ﴿ يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ فقال له الرجل : إنما سألتك لتحدثني ، فقال ابن عبّاس : هما يومان ذكرهما الله في كتابه ، الله أعلم بهما ، فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم . وعن الوليد بن مسلم قال : جاء طلق بن حبيب إلى جندب بن عبد الله فسأله عن آية من القرآن ؟ فقال : أحرج عليك إن كنت مسلمًا لما قمت عني ، أو قال : أن تجالسني . وعن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سُئل عن تفسير آية من القرآن قال : إنا لا نقول في القرآن شيئًا . وقال الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يتكلم إلّا في المعلوم من القرآن . وعن عمرو بن مرة قال : سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن فقال : لا تسألني عن القرآن وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شيء يعني عكرمة . وعن يزيد بن أبي يزيد قال : كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحرام والحلال وكان أعلم الناس ، فإذا سألناه عن تفسير آية من

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٥١) وأحمد في مسنده (١/٢٣٣) والطبراني في الكبير (٢/١٧٥) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (العلم باب ٥) .

القرآن سكت كأن لم يسمع . وعبيد الله بن عمر قال : لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير ، منهم : سالم بن عبد الله ، والقاسم بن محمّد ، وسعيد بن المسيب ، ونافع . وعن هشام بن عروة قال : ما سمعت أبي يؤول آية من كتاب الله قط . وقال محمّد بن سيرين : سألت عبيدة يعني السلماني عن آية من القرآن فقال : ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أُنزل القرآن ، فاتق الله وعليك بالسداد . وعن عبد الله بن مسلم بن يسار عن أبيه قال : إذا حدثت عن الله حديثًا فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده ، وعن مغيرة عن إبراهيم قال : كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه . وقال الشعبي : والله ما من آية إلّا وقد سألت عنها ولكنها الرواية عن الله ﷻ وعن مسروق قال : اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله .

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه . فأما من تكلّم بما يعلم من ذلك لغة وشرعًا فلا حرج عليه ، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير ، ولا منافاة ؛ لأنهم تكلموا فيما علموه ، وسكتوا عما جهلوه ، وهذا هو الواجب على كل أحد ، فإنه كما يجب السكوت عمّا لا علم له به ، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه لقوله تعالى : ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ ولما جاء في الحديث الذي روي من طرق « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْم الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » (١) .

وأما الحديث الذي رواه أبو جعفر بن جرير عن عائشة قالت : ما كان النبيّ ﷺ يفسر شيئًا من القرآن إلّا آيات بعدد ، علمهن إياه جبريل ﷺ . فإنه حديث منكر غريب وجعفر هذا هو ابن محمّد بن خالد بن الزبير بن العوام القرشي الزبيري ، قال البخاري : لا يتابع في حديثه ، وقال الحافظ أبو الفتح الأزدي : منكر الحديث ، وتكلم عليه الإمام أبو جعفر بما حاصله أن هذه الآيات مما لا يعلم إلّا بالتوقيف عن الله تعالى مما وقفه عليها جبرائيل ، وهذا تأويل صحيح لو صح الحديث ؛ فإن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه ، ومنه ما يعلمه العلماء ، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها ، ومنه ما لا يعذر أحد في جهالته كما صرح بذلك ابن عبّاس عن أبي الزناد قال : قال ابن عبّاس : التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه أحد إلّا الله .

مقدمة مفيدة

تذكر في أول التفسير قبل الفاتحة

عن قتادة قال : نزل في المدينة من القرآن : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال وبراءة والرعد والنحل والحج والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والرحمن والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق ، و ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ إلى رأس العشر و ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ و ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ هؤلاء السور نزلت بالمدينة وسائر السور

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٩٥/٢) والترمذي في السنن (٢٦٤٩) .

بمكة .

فأمّا عدد آيات القرآن العظيم فستة آلاف آية ، ثم اختلف فيما زاد على ذلك على أقوال : فمنهم من لم يزد على ذلك ، ومنهم من قال : ومائتا آية وأربع آيات ، وقيل : وأربع عشرة آية ، وقيل : ومائتان وتسع عشرة آية ، وقيل ومائتان وخمس وعشرون آية ، أو ست وعشرون آية ، وقيل : ومائتان وست وثلاثون آية ، حكى ذلك أبو عمرو الداني في كتابه البيان . وأما كلماته فقال عطاء ابن يسار : سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة . وأما حروفه فقال مجاهد : هذا ما أحصينا من القرآن وهو ثلاثمائة ألف حرف وواحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفًا ، وقال الفضل عن عطاء بن يسار : ثلاثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألفًا وخمسة عشر حرفًا . وقال سلام أبو محمّد الحماني : إن الحجاج جمع القراء والحفاظ والكتّاب فقال : أخبروني عن القرآن كله كم من حرف هو ؟ قال : فحسبنا فأجمعوا أنه ثلاثمائة ألف حرف وأربعون ألفًا وسبعمائة وأربعون حرفًا ، قال : فأخبروني عن نصفه فإذا هو إلى الفاء من قوله في الكهف ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ وثلثه الأول عند رأس مائة آية من براءة ، والثاني على رأس مائة أو إحدى ومائة من الشعراء ، والثالث إلى آخره ، وسُبُعُه الأول إلى الدال من قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ﴾ والسبع الثاني إلى الباء من قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ ﴾ والثالث إلى الألف الثانية من قوله تعالى في الرعد : ﴿ أُكُلُهَا ﴾ والرابع إلى الألف في الحج من قوله : ﴿ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ والخامس إلى الهاء من قوله في الأحزاب : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ والسادس إلى الواو من قوله تعالى في الفتح : ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾ والسابع إلى آخر القرآن .

وأما التحزيب والتجزئة : فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما في الربعات بالمدارس وغيرها وقد ذكرنا فيما تقدم الحديث الوارد في تحزيب الصحابة للقرآن ، والحديث في مسند الإمام أحمد وسنن أبي داود وابن ماجه وغيرهم عن أوس بن حذيفة أنه سأل أصحاب رسول الله ﷺ في حياته : كيف تحزّبون القرآن ؟ قالوا : ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل من قاف حتى تختم (١) .

فصل : واختلف في معنى السورة مما هي مشتقة ؟ فقيل : من الإبانة والارتفاع ، قال النابغة :

ألم تر أن اللّـه أعطاكَ سورةً　　ترى كلَّ ملكٍ دونها يتذبذبُ

فكأن القارئ ينتقل بها من منزلة إلى منزلة . وقيل : لشرفها وارتفاعها كسور البلدان . وقيل : سميت سورة لكونها قطعة من القرآن وجزءًا منه مأخوذ من أسآر الإناء وهو البقية ، وعلى هذا فيكون أصلها مهموزًا ، وإنما خففت الهمزة فأبدلت الهمزة واوًا لانضمام ما قبلها . وقيل : لتمامها وكمالها لأن العرب يسمون الناقة التامة سورة . (قلت) : ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها كما يسمى سور البلد لإحاطته بمنازله ودوره . وجمع السورة سور بفتح الواو وقد تجمع على سورات

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٩) وابن ماجه في السنن (إقامة ١٧٨) .

وسوّرات .

وأما الآية فمن العلامة على انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصاله ، أي هي بائنة عن أختها ومنفردة ، قال اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ ﴾ وقيل : لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه كما يقال : خرج القوم بآياتهم أي بجماعاتهم قال الشاعر :

خرجنا من النقبين لا حي مثلنا بآيتنا نزجي اللقاح المطافلا

وقيل : سميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها ، قال سيبويه : وأصلها أيية مثل أكمة وشجرة ، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفًا فصارت آية بهمزة بعدها مدة . وقال الكسائي : أصلها آيية على وزن آمنة فقلبت ألفًا ثم حذفت لالتباسها . وقال الفراء : أصلها أيّية بتشديد الياء الأولى فقلبت ألفًا كراهية التشديد فصارت آية وجمعها آي وآيات وآياي .

وأما الكلمة فهي اللفظة الواحدة وقد تكون على حرفين مثل ما ولا ولك . وقد تكون أكثر ، وأكثر ما تكون عشرة أحرف مثل ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ و ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ و ﴿ فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ ﴾ . وقد تكون الكلمة الواحدة آية مثل ﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴾ ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾ ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴾ وكذلك ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿ طه ﴾ و ﴿ يسٓ ﴾ و ﴿ حمٓ ﴾ في قول الكوفيين و ﴿ حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ﴾ عندهم كلمتان وغيرهم لا يسمي هذه آيات بل يقول : هذه فواتح السور ، وقال أبو عمرو الداني : لا أعلم كلمة هي وحدها آية إلَّا قوله تعالى : ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ بسورة الرحمن .

فصل : قال القرطبي : أجمعوا على أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية ، وأجمعوا أن فيه أعلامًا من الأعجمية كإبراهيم ونوح ولوط ، واختلفوا هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية فأنكر ذلك الباقلاني والطبري وقالا : ما وقع فيه مما يوافق الأعجمية فهو من باب ما توافقت فيه اللغات .

سورة الفاتحة

يقال لها : (الفاتحة) أي فاتحة الكتاب خطًّا وبها تفتح القراءة في الصلوات ، ويقال لها : (أم الكتاب) عند الجمهور وقد ثبت ذلك في الصحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « الحَمْدُ للّه ربِّ العَالَمِينَ أمُّ القُرْآن ، وَأمُّ الكِتابِ ، وَالسَّبعُ المَثَاني ، وَالقُرْآنُ العَظيم »[(١)] ويقال لها : (الحمد) ويقال لها : (الصلاة) لقوله ﷺ عن ربه : « قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ ، فإذا قالَ العَبْدُ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قالَ اللّه : حَمِدَني عَبْدِي »[(٢)] فسميت الفاتحة : صلاة لأنها شرط فيها . ويقال لها (الشفاء) لما روي عن أبي سعيد مرفوعًا « فَاتِحَةُ الكِتَابِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ سُمٍّ »[(٣)] ويقال لها : (الرقية) لقوله ﷺ : لرجل رقى بها « وَمَا يُدرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ ؟ »[(٤)] وروى الشعبي عن ابن عبّاس أنه سماها : (أساس القرآن) قال :وأساسها بسم اللّه الرّحمن الرّحيم ، وسماها سفيان بن عيينة (بالواقية) وسماها يحيى بن أبي كثير (الكافية) لأنها تكفي عما عداها ولا يكفي ما سواها عنها ، كما جاء في بعض الأحاديث المرسلة « أم القرآن عوض من غيرها وليس من غيرها عوض منها »[(٥)] .

وهي مكية وقيل : مدنية ويقال : نزلت مرتين : مرة بمكة ومرة بالمدينة . والأول أشبه لقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي ﴾ وهي سبع آيات بلا خلاف ، واختلفوا في البسملة هل هي آية مستقلة من أولها ، أو بعض آية ، أو لا تعد من أولها بالكلية ، والفقهاء على ثلاثة أقوال كما سيأتي تقريرها في موضعه إن شاء اللّه تعالى .

وكلماتها خمس وعشرون كلمة ، وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفًا . وسميت أم الكتاب لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف ، ويبدأ بقراءتها في الصلاة ، وقيل : إنما سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله إلى ما تضمنته . قال ابن جرير : والعرب تسمي كل جامع أمر أو مقدم لأمر إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع : أمًّا ، فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ : أم الرأس ، ويسمون لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها أمًّا ومنه قول ذي الرمة :

على رأسه أم لنا نقتدي بها ... جماع أمور ليس نعصي لها أمرًا

وسميت مكة أم القرى لتقدمها أمام جميعها وجمعها ما سواها ، وقيل : لأن الأرض دحيت منها . وصح تسميتها بالسبع المثاني ؛ لأنها تثنى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة .

عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال في أم القرآن : « هِيَ أُمُّ القُرْآنِ ، وَهِيَ السَّبْعُ المَثَاني ، وَهِيَ القُرْآنُ العَظِيمُ »[(٦)] . وعن أبي هريرة أيضًا قال : قال رسول اللّه ﷺ : « الحَمْدُ للّه رَبِّ العَالَمِينَ سَبْعُ آيَاتٍ : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ إحْدَاهُنَّ ، وَهِيَ السَّبْعُ المَثَاني وَالقُرْآنُ العَظِيمُ ، وَهِيَ أُمُّ الكِتَابِ ، وَفَاتِحَةُ الكِتَابِ »[(٧)] وروى عن علي وابن عبّاس وأبي هريرة أنهم فسروا قوله تعالى : ﴿ سَبْعًا

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (١٤٥٧) والهندي في كنز العمال (٢٥٠٥) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٥٣) والبيهقي في السنن (٣٧/٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٦٧/٢) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/١) ، والعجلوني في كشف الخفا (١٠٦/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٠٧) ومسلم في فضائل الصحابة (١٦٩) وأبو داود في السنن (٣١٨٥) والترمذي في السنن (٢٠٦٤) .

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٣٨/١) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٨/٢) .

(٧) أخرجه البيهقي في السنن (٤٥/٢) والهندي في كنز العمال (٢٥١٩) .

مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ بالفاتحة وأن البسملة هي الآية السابعة منها ، وقيل لابن مسعود : لمَ لمْ تكتب الفاتحة في مصحفك ؟ فقال : لو كتبتها لكتبتها في أول كل سورة ، يعني حيث يقرأ في الصلاة ، قال : واكتفيت بحفظ المسلمين لها عن كتابتها وقد قيل : إن الفاتحة أول شيء أنزل من القرآن .

ذكر ما ورد في فضل الفاتحة

عن أبي سعيد بن المعلى ﷺ قال : كنت أصلي فدعاني رسول الله ﷺ ، فلم أجبه حتى صليت قال : فأتيته فقال : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي ؟ » قال : قلت : يا رسول الله إني كنت أصلي قال : « ألم يقلِ الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ » ثم قال : « لأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ » قال : فأخذ بيدي ، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت : يا رسول الله إنك قلت : لأعلمنَّك أعظم سورة في القرآن قال : « نَعَم ، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُه » (١) .

وعن أُبيّ بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا أَنْزَلَ اللَّه فِي التَّوْرَاةِ وَلاَ فِي الإِنْجِيلِ مِثْلَ أُمِّ القُرْآنِ ، وَهِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَهِيَ مَقْسُومَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ » (٢) . وعن جابر قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد أهرق الماء فقلت : السلام عليك يا رسول الله ، فلم يرد عليَّ قال : فقلت : السلام عليك يا رسول الله فلم يرد عليَّ قال : فقلت : السلام عليك يا رسول الله فلم يرد عليَّ قال : فانطلق رسول الله ﷺ يمشي وأنا خلفه حتى دخل رحله ، ودخلت أنا المسجد فجلست كئيبًا حزينًا فخرج عليَّ رسول الله ﷺ وقد تطهر فقال : « عَلَيْكَ السَّلامُ وَرَحْمَةُ اللَّه وَبَرَكَاتُهُ ، وَعَلَيْكَ السَّلامُ وَرَحْمَةُ اللَّه وَبَرَكَاتُهُ ، وَعَلَيْكَ السَّلامُ وَرَحْمَةُ اللَّه » ثم قال : « أَلاَ أُخْبِرُكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَابِرٍ بِأَخْيَرِ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ ؟ » قلت : بلى يا رسول الله قال : « اقْرَأْ الحَمْدُ للَّه رَبِّ العَالَمِينَ حَتَّى تَخْتِمَهَا » (٣) .

وعن أبي سعيد الخدري قال : كنا في مسير لنا فنزلنا فجاءت جارية فقالت : إن سيد الحي سليم وإن نفرنا غيب ، فهل منكم راق ؟ فقام معها رجل ما كنا نأبه برقيه فرقاه فبرأ فأمر له بثلاثين شاة وسقانا لبنًا فلما رجع قلنا له : أكنت تحسن رقية أو كنت ترقي ؟ قال : لا ما رقيت إلا بأم الكتاب قلنا : لا تحدثوا شيئًا حتى نأتي ونسأل رسول الله ﷺ ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال : « وَمَا كَانَ يُدْرِيهِ أَنَّهَا رُقْيَةٌ اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْم » (٤) .

وعن ابن عبّاس قال : بينا رسول الله ﷺ وعنده جبرائيل إذ سمع نقيضًا فوقه ، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال : هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط قال : فنزل منه ملك فأتى النبيّ ﷺ فقال : أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة لم تقرأ حرفًا منها إلا أوتيته (٥) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤٥٠) وابن خزيمة في صحيحه (٨٦٢) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣١٢٥) والنسائي في السنن (٢/١٣٩) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٧٧) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/١٨١ ، ٣١٠) .

(٤) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٠٧) .

(٥) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٨٠٦) .

الكلامُ على مَا يَتَعلَّقُ بِهذَا الحَدِيثِ بِمَا يَخْتَصُّ بِالفَاتِحَةِ مِنْ وُجُوه

أحدها : أنه قد أطلق فيه لفظ الصلاة ، والمراد القراءة كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ أي بقراءتك . كما جاء مصرحًا به في الصحيح عن ابن عبّاس ، وهكذا قال في هذا الحديث : « قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ » ثم بيَّنَ تفصيل هذه القسمة في قراءة الفاتحة ، فدل على عظمة القراءة في الصلاة ، وأنها من أكبر أركانها ؛ إذ أطلقت العبادة وأريد بها جزء واحد منها وهو القراءة ، كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة في قوله : ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ ، والمراد صلاة الفجر . كما جاء مصرحًا به في الصحيحين « أَنَّه يَشْهَدُهَا مَلاَئِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةُ النَّهَارِ » (١) فدل هذا كله على أنه لابد من القراءة في الصلاة ، وهو اتفاق من العلماء ، ولكن اختلفوا في مسألة نذكرها في الوجه الثاني ، وذلك أنه هل يتعين للقراءة في الصلاة غير فاتحة الكتاب أم تجزئ هي أو غيرها ؟ على قولين مشهورين :

القول الأول : فعند أبي حنيفة ومن وافقه من أصحابه وغيرهم ، أنها لا تتعين ، بل مهما قرأ به من القرآن أجزأه في الصلاة ، واحتجوا بعموم قوله تعالى : ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ وبما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة في قصة المسيء في صلاته أن رسول الله ﷺ قال له : « إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاَةِ فَكَبِّرْ ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ » (٢) قالوا : فأمره بقراءة ما تيسّر ، ولم يعيّن له الفاتحة ، ولا غيرها فدل على ما قلنا .

والقول الثاني : أنه تتعين قراءة الفاتحة في الصلاة ، ولا تجزئ الصلاة بدونها ، وهو قول بقية الأئمة مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم ، وجمهور العلماء ، واحتجوا على ذلك بهذا الحديث المذكور حيث قال صلوات الله وسلامه عليه : « مَنْ صَلَّى صَلاَةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ القُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ » (٣) والخداج هو الناقص كما فُسّر به في الحديث « غير تمام » ، واحتجوا أيضًا بما روي عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ » (٤) .

ثم إن مذهب الشافعي وجماعة من أهل العلم أنه تجب قراءتها في كل ركعة ، وقال آخرون : إنما تجب قراءتها في معظم الركعات ، وقال الحسن وأكثر البصريين : إنما تجب قراءتها في ركعة واحدة من الصلوات أخذًا بمطلق الحديث « لا صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ » وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي : لا تتعين قراءتها ، بل لو قرأ بغيرها أجزأه لقوله تعالى : ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ وقد روي عن أبي سعيد مرفوعًا « لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ بِالحَمْدِ وَسُورَةٍ فِي فَرِيضَةٍ أَوْ غَيْرِهَا » (٥) .

والوجه الثالث : هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم ؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٧/٢) ، (٣١٢/٢) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٢) والبيهقي في السنن (٣٨٠/٢) ، والطبراني في الكبير (٣٠/٥) .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٣٨) والترمذي في السنن (٣١٢) وأبو داود في السنن (٨٢١) .

(٤) أخرجه البخاري في الأذان (٧٥٦) ومسلم في الصلاة (٣٤) وأبو داود في السنن (٨٢٢) والترمذي في السنن (٢٤٧) .

(٥) أخرجه ابن ماجه في السنن (٧٣٧) والبغوي في شرح السنة (٤٥/٣) .

أحدها : أنه تجب عليه قراءتها ، كما تجب على إمامه لعموم الأحاديث المتقدمة .

والثاني : لا تجب على المأموم قراءة بالكلية للفاتحة ولا غيرها ، لا في صلاة الجهرية ، ولا في صلاة السرية لما روي عن جابر بن عبد الله عن النبيّ ﷺ أنه قال : « مَنْ كَانَ لَهُ إِمَامٌ فَقِرَاءَةُ الإِمَامِ لَهُ قِرَاءَةٌ » (١) .

والقول الثالث : أنه تجب القراءة على المأموم في السرية لما تقدم ، ولا يجب ذلك في الجهرية لما ثبت عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا ، وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا » (٢) ، وهو قول قديم للشافعي ورواية عن الإمام أحمد بن حنبل .

والغرض من ذكر هذه المسائل ههنا بيان اختصاص سورة الفاتحة بأحكام لا تتعلق بغيرها من السور . وروي عن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا وَضَعْتَ جَنْبَكَ عَلَى الفِرَاشِ وَقَرَأْتَ فَاتِحَةَ الكِتَابِ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ فَقَدْ أَمِنْتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا المَوْتَ » (٣) .

تَفْسِيرُ الاسْتِعَاذَةِ وَأَحْكَامِهَا

قال الله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها ، وهو أن الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الإنسي ، والإحسان إليه ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى الموالاة والمصافاة ، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة ؛ إذ لا يقبل مصانعة ولا إحسانًا ، ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ وقال : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ وقد أقسم للوالد آدم ﷺ أنه له لمن الناصحين ، وكذب فكيف معاملته لنا وقد قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ .

قالت طائفة من القراء وغيرهم : يتعوذ بعد القراءة ، واعتمدوا على ظاهر سياق الآية ، ولدفع الإعجاب بعد فراغ العبادة ، وعن مالك رحمه الله : أن القارئ يتعوذ بعد الفاتحة ، واستغربه ابن العربي ! . وحكى قولا ثالثًا ، وهو الاستعاذة أولًا وآخرًا جمعًا بين الدليلين ، والمشهور الذي عليه الجمهور ، أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة لدفع الموسوس عنها ، ومعنى الآية عندهم ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٨٥٠) والبيهقي في السنن (١٦٠/٢) والألباني في الضعيفة (٥٩١) .
(٢) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة (١١١٣) ومسلم في الصلاة (٧٩ ، ٨٠) وأبو داود في السنن (٦٠٣) .
(٣) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٤١٦/١) .

ﵟٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِﵞ أي إذا أردت القراءة ، كقوله تعالى : ﵟإِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡﵞ الآية أي إذا أردتم القيام ، والدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ بذلك . فعن أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبَّر قال : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ ، وَلاَ إِلَهَ غَيْرُكَ ، ثُمَّ يَقُولُ : لاَ إِلَه إِلاَّ اللَّه - ثَلاثًا ثُمَّ يَقُولُ - أَعُوذُ بِاللَّه السَّمِيعِ العَلِيمِ ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، مِنْ هَمْزِه وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ » (١) ، وقال الترمذي : هو أشهر شيء في هذا الباب ، وقد فسَّر الهمز بالموتة وهي الخنق ، والنفخ بالكبر ، والنفث بالشعر . وعن جبير بن مطعم قال : رأيت رسول الله ﷺ حين دخل في الصلاة قال : « اللَّه أَكْبَرُ كَبِيرًا - ثَلاثًا - الحَمْدُ للَّه كَثِيرًا - ثَلاثًا - سُبْحَانَ اللَّه بُكْرَةً وَأَصِيلاً - ثَلاثًا - اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ » (٢) قال عمر : وهمزه الموتة ونفخه الكبر ونفثه الشعر . وعن معاذ بن جبل ﷺ قال : استب رجلان عند النبيّ ﷺ فغضب أحدهما غضبًا شديدًا حتى يخيل إليّ أن أحدهما يتمزع أنفه من شدة غضبه فقال النبيّ ﷺ : « إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ مِنَ الغَضَبِ » فقال : ما هي يا رسول اللَّه ؟ قال : يقول : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم » قال : فجعل معاذ يأمره فأبى وجعل يزداد غضبًا (٣) .

وقد روي أن جبريل عليه السلام أول ما نزل بالقرآن على رسول اللَّه ﷺ أمره بالاستعاذة .

مسألة : وجمهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة ليست بمتحتمة يأثم تاركها . وحكى الرازي عن عطاء بن أبي رباح وجوبها في الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة قال : وقال ابن سيرين : إذا تعوّذ مرة واحدة في عمره ، فقد كفى في إسقاط الوجوب ، واحتج الرازي لعطاء بظاهر الآية ﵟفَٱسۡتَعِذۡﵞ وهو أمر ظاهره الوجوب ، وبمواظبة النبيّ ﷺ عليها ، ولأنها تدرأ شر الشيطان ، وما لا يتم الواجب إلَّا به فهو واجب ؛ ولأن الاستعاذة أحوط ، وهو أحد مسالك الوجوب ، وقال بعضهم : كانت واجبة على النبيّ ﷺ دون أمته ، وحكي عن مالك أنه لا يتعوذ في المكتوبة ، ويتعوذ لقيام رمضان في أول ليلة منه .

مسألة : وقال الشافعي في الإملاء : يجهر بالتعوذ ، وإن أسرَّ فلا يضر ، وقال في الأم بالتخيير ؛ لأنه أسر ابن عمر وجهر أبو هريرة ، واختلف قول الشافعي فيما عدا الركعة الأولى هل يستحب التعوذ فيها على قولين ؟ ورجح عدم الاستحباب ، واللَّه أعلم ، فإذا قال المستعيذ : أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم كفى ذلك عند الشافعي وأبي حنيفة ، وزاد بعضهم : أعوذ باللَّه السميع العليم ، وقال آخرون : بل يقول : أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم ، إن اللَّه هو السميع العليم . وحكي عن بعضهم أنه يقول : أستعيذ باللَّه من الشيطان الرجيم ؛ لمطابقة أمر الآية .

مسألة : ثم الاستعاذة في الصلاة ، إنما هي للتلاوة وهو قول أبي حنيفة ومحمَّد . وقال أبو

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦٩/٣) والترمذي في السنن (٢٤٢) وأبو داود في السنن (٧٧٥) وابن ماجه في السنن (٨٠٤) .
(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٢٠) وأبو داود في السنن (٧٦٤) والحاكم في المستدرك (٤٣٥/١) ، ابن ماجه في السنن (٨٠٧) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٤٧٨٠) والطبراني في الكبير (١١٦/٧) والترمذي في السنن (٣٤٥٢) .

يوسف : بل للصلاة ؛ فعلى هذا يتعوذ المأموم ، وإن كان لا يقرأ ، ويتعوذ في العيد بعد الإحرام وقبل تكبيرات العيد . والجمهور بعدها قبل القراءة .

ومن لطائف الاستعاذة : أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث ، وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدرة ، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه ، ولا يقبل مصانعة ، ولا يدارى بالإحسان ، بخلاف العدو من نوع الإنسان ، كما دلت على ذلك آيات من القرآن في ثلاث من المثاني . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ ، وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشري فمن قتله العدو الظاهر البشري كان شهيدًا ، ومن قتله العدو الباطني كان طريدًا ، ومن غلبه العدو الظاهري كان مأجورًا ، ومن قهره العدو الباطني كان مفتونًا أو موزورًا ، ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان .

فصل : والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله تعالى ، والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر ، والعياذة تكون لدفع الشر ، واللياذ يكون لطلب جلب الخير كما قال المتنبي :

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤَمِّلُهُ وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّنْ أُحَاذِرُهُ
لاَ يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ وَلاَ يَهِيضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ

ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : أي أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي ، أو يصدني عن فعل ما أمرت به ، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه . فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلّا الله ، ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الإنس ، ومداراته بإسداء الجميل إليه ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى ، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن ؛ لأنه لا يقبل رشوة ، ولا يؤثر فيه جميل ؛ لأنه شرير بالطبع ، ولا يكفه عنك إلّا الذي خلقه . وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة ؛ قوله في الأعراف : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ ، فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر ثم قال : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ .

والشيطان في لغة العرب مشتق من شطن إذا بعد فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر ، وبعيد بفسقه عن كل خير .

ولهذا يسمون كل من تمرد من جني وإنسي وحيوان شيطانًا ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ ﴾ ، وعن أبي ذر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا ذر تَعوذْ بالله مِنْ شَيَاطِينِ الإنْسِ وَالجِنِّ » فقلت : أو للإنس شياطين ؟ قال : « نعم » (١) . وعن أبي ذر أيضًا قال : قال رسول الله ﷺ : « يَقْطَعُ الصَّلاَةَ : المرْأَةُ ، والحِمَارُ ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٥/٥) والنسائي في السنن (٢٧٥/٨) .

والكَلْبُ الأَسْوَدُ » فقلت : يا رسول الله ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر؟ فقال : « الكَلْبُ الأَسْوَدِ شَيْطَانٌ » [(١)] .

والرجيم فعيل بمعنى مفعول أي أنه مرجوم مطرود من الخير كله ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ .

(١) أخرجه مسلم في الصلاة(٢٦٦) وأحمد في مسنده(٨٦/٤) والبيهقي في السنن(٢٧٤/٢) والزيعلي في نصب الراية(٨١/٢) .

تفسير البسمَلة وأحكامها

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ افتتح بها الصحابة كتاب اللّه ، واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل ثم اختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة ، أو من أول كل سورة كتبت في أولها ؟ أو أنها بعض آية من كل سورة ، أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها ، أو أنها إنما كتبت للفصل لا أنها آية ؟ والعلماء في ذلك على أقوال : فعن ابن عبّاس رضي الله عنهما ، أن رسول اللّه ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ (١) . وعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول اللّه ﷺ قرأ البسملة في أول الفاتحة في الصلاة ، وعدها آية .

وممن حكي عنه أنها آية من كل سورة إلّا براءة : ابن عبّاس وابن عمر وابن الزبير وأبو هريرة وعلي ، ومن التابعين عطاء وطاوس وسعيد بن جبير ومكحول والزهري ، وبه يقول عبد اللّه بن المبارك والشافعي وأحمد ابن حنبل وغيرهم .

وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما : ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور ، وقال داود : هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها ، وهذا رواية عن الإمام أحمد بن حنبل ، وحكاه أبو بكر الرازي عن أبي الحسن الكرخي وهما من أكابر أصحاب أبي حنيفة رحمهم اللّه .

فأما الجهر بها فمفرع على هذا فمن رأى أنها ليست من الفاتحة ، فلا يجهر بها ، وكذا من قال : إنها آية في أولها ، وأما من قال : بأنها من أوائل السور ، فاختلفوا ؛ فذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة ، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين ، وأئمة المسلمين سلفًا وخلفًا فجهر بها من الصحابة : أبو هريرة وابن عمر وابن عباس ومعاوية ، ومن التابعين عن سعيد بن جبير ، وعكرمة ، والزهري ، وعلي بن الحسن وسعيد بن المسيب ، وعطاء وطاوس ومجاهد ، وغيرهم كثيرون ، والحجة في ذلك أنها بعض الفاتحة فيجهر بها كسائر أبعاضها ، وروي عن أبي هريرة : أنه صلى فجهر في قراءته بالبسملة وقال بعد أن فرغ : إني لأشبهكم صلاة برسول اللّه ﷺ ، وروي عن ابن عبّاس ، أن رسول اللّه ﷺ كان يفتتح الصلاة ببسم اللّه الرحمن الرحيم ، وعن ابن عبّاس قال : كان رسول اللّه ﷺ يجهر ببسم اللّه الرحمن الرحيم (٢) .

وعن أنس بن مالك أنه سئل عن قراءة النبيّ ﷺ فقال : كانت قراءته مدًّا ، ثم قرأ بسم اللّه الرحمن الرحيم يمد بسم اللّه ويمد الرحمن ويمد الرحيم (٣) . وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت : كان رسول اللّه ﷺ يقطع قراءته : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (٤) . وعن أنس أن معاوية صلى بالمدينة فترك البسملة ، فأنكر عليه من حضره من المهاجرين ذلك ، فلما صلى المرة الثانية بسمل . وذهب آخرون أنه لا يجهر بالبسملة في الصلاة وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة وعبد اللّه بن مغفل وطوائف من سلف التابعين والخلف ، وهو مذهب أبي حنيفة والثوري وأحمد بن حنبل . وعند الإمام مالك أنه لا يقرأ البسملة

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٧٨٨) والبيهقي في السنن (٤٢/٢) .

(٢) أخرجه الدارقطني في السنن (٣٠٢/١) .

(٣) أخرجه الدارقطني في السنن (٣٠٨/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٢/٦) والترمذي في السنن (٢٩٤٧) والحاكم في المستدرك (٢٣٢/٢) .

بالكلية لا جهرًا ولا سرًّا ، واحتجوا بما ورد عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير ، والقراءة بالحمد لله رب العالمين (١) ، وبما ورد عن أنس بن مالك قال : صليت خلف النبيّ ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ، فكانوا يفتتحون بالحمد لله رب العالمين ، ولمسلم : لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها (٢) .

فَصْلٌ في فَضْلِهَا

عن ابن عباس أن عثمان بن عفان سأل رسول الله ﷺ عن بسم الله الرحمن الرحيم؟ فقال : « هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اسْمِ اللَّهِ الأَكْبَرِ إِلَّا كَمَا بَيْنَ سَوَادِ العَيْنَيْنِ وَبَيَاضِهِمَا مِنَ القُرْبِ » (٣) وعن عاصم قال : سمعت أبا تميمة يحدث عن رديف النبيّ ﷺ قال : عثر بالنبيّ ﷺ ، فقلت : تعس الشيطان ، فقال النبيّ ﷺ : « لاَ تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ ؛ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ : تَعِسَ الشَّيْطَانُ ، تَعَاظَمَ وَقَالَ : بِقُوَّتِي صَرَعْتُهُ ، وَإِذَا قُلْتَ : بِاسْمِ اللَّهِ ؛ تَصَاغَرَ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابِ » (٤) . فهذا من تأثير بركة بسم الله ، ولهذا تُستحب في أول كل عمل وقول . فتستحب في أول الخطبة ، وتستحب البسملة عند دخول الخلاء . وتستحب في أول الوضوء ، لما ورد عن أبي هريرة مرفوعًا : « لاَ وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ » (٥) .

ومن العلماء من أوجبها عند الذكر ههنا ، ومنهم من قال بوجوبها مطلقًا . وكذا تستحب عند الذبيحة في مذهب الشافعي وجماعة ، وأوجبها آخرون عند الذكر ومطلقًا في قول بعضهم . وتستحب عند الأكل لما ورد أن رسول الله ﷺ قال لربيبه عمر بن أبي سلمة : « قُلْ بِاسْمِ اللَّهِ ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ » (٦) ومن العلماء من أوجبها والحالة هذه ، وكذلك تستحب عند الجماع ؛ لما ورد عن ابن عبّاس أن رسول الله ﷺ قال : « لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ : بِاسْمِ اللَّهِ ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا ، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا » (٧) .

ومن ههنا ينكشف لك أن القولين عند النحاة في تقدير المتعلق بالباء في قوله : باسم الله هل هو اسم أو فعل متقاربان ، وكل قد ورد به القرآن ، أما من قدّره باسم تقديره باسم الله ابتدائي ، فلقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، ومن قدّره بالفعل أمرًا أو خبرًا نحو : أبدأ باسم الله ، أو ابتدأت باسم الله ، فلقوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ وكلاهما صحيح . فإن الفعل لابدَّ له من مصدر ، فلك أن تقدّر الفعل ومصدره ، وذلك بحسب الفعل الذي

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٩٤/٦) وأبو داود في السنن (٧٨٣) والدارمي في السنن (٢٨١/١) ، والبيهقي في السنن (٨٥/٢) .
(٢) أخرجه أحمد في المسند (١١٤/٣) ، والدارمي في السنن (٢٨٣/١) .
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٥٢/١) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٧١/٥) ، والحاكم في المستدرك (٢٩٢/٤) ، وأبو داود في السنة (٤٩٨٢) .
(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥) وأبو داود في السنن (١٠١) وابن ماجه في السنن (٣٩٧) وأحمد في مسنده (٤١/٣) .
(٦) أخرجه الطبراني في الكبير (١٤/٩) .
(٧) أخرجه البخاري في الوضوء (١٤١) ومسلم في النكاح (١١٦) وأبو داود في السنن (٢١٦١) .

سميت قبله ، إن كان قيامًا أو قعودًا أو أكلًا أو شربًا أو قراءة أو وضوءًا أو صلاةً ؛ فالمشروع ذكر اسم الله في الشروع في ذلك كله تبركًا وتيمنًا واستعانة على الإتمام والتقبل .

وأما مسألة الاسم هل هو المسمى أو غيره ؟ ففيها للناس ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الاسم هو المسمى .

قالت الحشوية والكرامية والأشعرية : الاسم نفس المسمى وغير نفس التسمية .

وقالت المعتزلة : الاسم غير المسمى ونفس التسمية .

والمختار عندنا : أن الاسم غير المسمى وغير التسمية . ثم نقول : إن كان المراد بالاسم هذا اللفظ الذي هو أصوات متقطعة وحروف مؤلفة ، فالعلم الضروري حاصل أنه غير المسمى . وإن كان المراد بالاسم ذات المسمى ، فهذا يكون من باب إيضاح الواضحات ، وهو عبث . فثبت أن الخوض في هذا البحث على جميع التقديرات يجري مجرى العبث . ثم شرع يستدل على مغايرة الاسم للمسمى ، بأنه قد يكون الاسم موجودًا والمسمى مفقودًا كلفظة المعدوم ، وبأنه قد يكون للشيء أسماء متعددة كالمترادفة ، وقد يكون الاسم واحدًا والمسميات متعددة كالمشترك ، وذلك دال على تغاير الاسم والمسمى . وأيضًا فالاسم لفظ وهو عرض، والمسمى قد يكون ذاتًا ممكنة أو واجبة بذاتها . وأيضًا فلفظ النار والثلج لو كان هو المسمى لوجد اللافظ بذلك حر النار أو برد الثلج ونحو ذلك ، ولا يقوله عاقل .

﴿ ٱللَّهُ ﴾ علم على الرب تبارك وتعالى ، يقال : إنه الاسم الأعظم ؛ لأنه يوصف بجميع الصفات ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ وقال تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا ، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ » (١) .

وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى ، ولهذا لا يعرف في كلام العرب له اشتقاق من فعل يفعل ، فذهب من ذهب من النحاة إلى أنه اسم جامد لا اشتقاق له ، وقد نقله القرطبي عن جماعة من العلماء منهم الشافعي والخطابي وإمام الحرمين والغزالي وغيرهم ، وروي عن الخليل وسيبويه أن الألف واللام فيه لازمة . قال الخطابي : ألا ترى أنك تقول : يا أللَّه ولا تقول : يا ألرحمن ؟ فلولا أنه من أصل الكلمة ؛ لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام ، وقيل : إنه مشتق ، واستدلوا عليه بقول رؤبة بن العجاج :

لِلَّـهِ دَرُّ الْغَـانِيَـاتِ الْمُدَّهِ سَبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأَلُّهِي

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٩٢) ومسلم في الذكر والدعاء (٦) والترمذي في السنن (٣٥٠٧) وأحمد في مسنده (٢/٤٩٩) ، والحاكم في المستدرك (١/١٦) .

فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر ، وهو التأله من أله يأله إلاهة وتألهًا . وقد استدل بعضهم على كونه مشتقًّا بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ ونقل سيبويه عن الخليل أن أصله إلاه مثل فعال ، فأدخلت الألف واللام بدلًا من الهمزة ، قال سيبويه : مثل الناس أصله أناس وقيل : أصل الكلمة لاه فدخلت الألف واللام للتعظيم .

وقيل : هو مشتق من وله إذا تحير والوله ذهاب العقل ، يقال : رجل واله وامرأة ولهى ومولوهة إذا أرسل في الصحراء ، فالله تعالى يحير أولئك والفكر في حقائق صفاته ، فعلى هذا يكون ولاه فأبدلت الواو همزة : كما قالوا : في وشاح : إشاح وقال الرازي : إنه مشتق من ألهت إلى فلان أي سكنت إليه فالعقول لا تسكن إلَّا إلى ذكره ، والأرواح لا تفرح إلَّا بمعرفته لأنه الكامل على الإطلاق دون غيره قال الله تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ، والمعنى أن العباد مألوهون مولعون بالتضرع إليه في كل الأحوال . وقد اختار الرازي أنه اسم غير مشتق البتة ، وذكر أنه لو كان مشتقًّا لاشترك في معناه كثيرون ، ومنها أن بقية الأسماء تذكر صفات له ، فتقول : الله الرحمن الرحيم الملك القدوس ، فدل أنه ليس بمشتق قال : فأما قوله تعالى : ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱللَّهِ ﴾ على قراءة الجر فجعل ذلك من باب عطف البيان ، ومنها قوله تعالى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ ، وفي الاستدلال بهذه على كون هذا الاسم جامدًا غير مشتق نظر ، والله أعلم .

﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ، ورحمن أشد مبالغة من رحيم . وزعم بعضهم أنه غير مشتق إذ لو كان كذلك لاتصل بذكر المرحوم وقد قال : ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ وذكر عن المبرد أن الرحمن اسم عبراني ليس بعربي ، قال أحمد بن يحيى : الرحيم عربي والرحمن عبراني فلهذا جمع بينهما ، قال أبو إسحاق : وهذا القول مرغوب عنه . وقال القرطبي : والدليل على أنه مشتق ما ورد عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : أَنَا الرَّحْمنُ خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنِ اسْمِي ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ » (١) وهذا نص في الاشتقاق ، فلا معنى للمخالفة والشقاق ، وإنكار العرب لاسم الرحمن لجهلهم بالله وبما وجب له . قال أبو علي الفارسي : الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى والرحيم إنما هو من جهة المؤمنين قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ وقال ابن عبّاس : هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر أي أكثر رحمة ، ثم حكي عن الخطابي وغيره ، أنهم استشكلوا هذه الصفة وقالوا : لعله أرفق كما في الحديث « إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ ، وَإِنَّهُ يُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ » (٢) وقال ابن المبارك : الرحمن إذا سئل أعطى ، والرحيم إذا لم يسأل يغضب ، وقد ورد عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ » (٣) وقال الشاعر :

اللَّه يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَي آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

واسمه تعالى الرحمن خاص به لم يسم به غيره كما قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٤٨/١) والبيهقي في السنن (٢٦/٧) .
(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٧٧) وأبو داود في السنن (٤٨٠٧) وأحمد في المسند (٨٧/٤) ومالك في الموطأ (٩٧٩) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٧٣) .

مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ، ولما تجهرم مسيلمة الكذاب ، وتسمى برحمن اليمامة كساه الله جلباب الكذب وشهّر به ، فلا يقال إلّا مسيلمة الكذّاب ، فصار يضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضر من أهل المدر ، وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب .

وقد زعم بعضهم ، أن الرّحيم أشد مبالغة من الرّحمن ؛ لأنه أكّد به والمؤكد لا يكون إلّا أقوى من المؤكد ، والجواب أن هذا ليس من باب التأكيد ، وإنما هو من باب النعت ولا يلزم ما ذكروه ، وعلى هذا فيكون تقدير اسم الله الذي لم يسم به أحد غيره ، ووصفه أولًا بالرحمن الذي منع من التسمية به لغيره ، كما قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ، وإنما تجهرم مسيلمة اليمامة في التسمي به ولم يتابعه على ذلك إلا من كان معه في الضلالة .

وأما ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ : فإنه تعالى وصف به غيره حيث قال : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، والحاصل أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره ، ومنها ما لا يسمى به غيره كاسم الله والرّحمن والخالق والرّازق ونحو ذلك ، فلهذا بدأ باسم الله ووصفه بالرحمن لأنه أخص وأعرف من الرحيم ؛ لأن التسمية أولًا إنما تكون بأشرف الأسماء ، فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص . فإن قيل : فإذا كان الرحمن أشد مبالغة ، فهلا اكتفى به عن الرحيم ؟ فقد روي أنه لما تسمى غيره تعالى بالرحمن جيء بلفظ الرحيم ليقطع الوهم بذلك ؛ فإنه لا يوصف بالرحمن الرحيم إلا الله تعالى ، وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن حتى رد الله عليهم ذلك بقوله : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ وقال كفار قريش يوم الحديبية ، لما قال رسول الله ﷺ لعلي : « اكْتُبْ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ » ، فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم »[1] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ ، والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم ، فإنه قد وجد في أشعارهم الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن .

قال سلامة بن جندب الطهوي :

عَجِلْتُمْ عَلَيْنَا إِذْ عَجِلْنَا عَلَيْكُمُ وَمَا يَشَأِ الرَّحْمنُ يَعْقِدْ وَيُطْلِقِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

القراء السبعة على ضم الدال في قوله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ هو مبتدأ وخبر ، وروي عن سفيان بن عيينة ورؤبة بن العجاج أنهما قالا : ﴿ الحمدَ لِلَّهِ ﴾ بالنصب وهو على إضمار فعل ، وقرئ ﴿ الحمدِ لِلَّهِ ﴾ بكسر الدال إتباعًا للأول والثاني[2] .

قال ابن جرير : معنى ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ الشكر للّه خالصًا دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما برأ من خلقه بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد ، في تصحيح الآلات لطاعته ، وتمكين جوارح الأجسام المكلفين لأداء فرائضه ، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق ، وغذاهم به من نعيم العيش ، من غير استحقاق منهم ذلك عليه ، ومع ما نبههم

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٥/٤) والبيهقي في السنن (٢٢٠/٩) والزيلعي في نصب الراية (٣٨٩/٣) .
(٢) قراءة الكسر هي قراءة أبو نهيك ، أما قراءة الفتح فهي قراءة ابن السميفع وهما قراءتان شاذتان (انظر : زاد المسير ١١/١) .

عليه ودعاهم إليه ، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم ، فلربنا الحمد على ذلك كله أولًا وآخرًا . وقال ابن جرير : الحمد للّه ثناء أثنى به على نفسه ، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه ، فكأنه قال : قولوا الحمد للّه . قال : وقد قيل : إن قول القائل : الحمد للّه ثناء عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وقوله : الشكر للّه ثناء عليه بنعمه وأياديه ، ثم شرع في رد ذلك بما حاصله أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلًّا من الحمد والشكر مكان الآخر ، واشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين ، أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية ، والشكر لا يكون إلّا على المتعدية ، ويكون بالجنان واللسان والأركان كما قال الشاعر :

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا

ولكنهم اختلفوا أيهما أعم الحمد أو الشكر ؟ فقيل : الحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه ؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية ، تقول : حمدته لفروسيته وحمدته لكرمه ، وهو أخص لأنه لا يكون إلّا بالقول ، والشكر أعم من حيث ما يقعان عليه ؛ لأنه يكون بالقول والفعل والنية . وهو أخص لأنه لا يكون إلّا على الصفات المتعدية ، لا يقال شكرته لفروسيته ، وتقول : شكرته على كرمه وإحسانه إلي . هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين .

وقيل : الحمد نقيض الذم تقول : حمدت الرجل أحمده حمدًا ومحمدة فهو حميد ومحمود . والتحميد أبلغ من الحمد ، والحمد أعمّ من الشكر ، والشكر : هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف ، يقال : شكرته وشكرت له وباللام أفصح ، وأما المدح فهو أعمّ من الحمد لأنه يكون للحي وللميت وللجماد أيضًا ، كما يمدح الطعام والمكان ونحو ذلك ، ويكون قبل الإحسان وبعده ، وعلى الصفات المتعدية واللازمة أيضًا .

ذِكرُ أقوَالِ السَّلَفِ فِي الحَمْد

قال عمر لعلي - وأصحابه عنده - لا إله إلّا اللّه وسبحان اللّه واللّه أكبر قد عرفناها ، فما الحمد للّه ؟ قال علي : كلمة أحبها اللّه تعالى لنفسه ، ورضيها لنفسه ، وأحب أن تقال . وعن جابر بن عبد اللّه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أَفْضَلُ الذِّكْرِ لاَ إِلَهَ إِلّا اللّه ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الحَمْدُ للّه » [(١)] ، وعن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مَا أَنْعَمَ اللّه عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً فَقَالَ : الحَمْدُ للّه ، إِلّا كَانَ الَّذِي أَعْطَى أَفْضَلَ مِمَّا أَخَذَ » [(٢)] وعن ابن عمر أن رسول اللّه ﷺ حدثهم : « أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللّه قَالَ : يَا رَبِّ لَكَ الحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ ، وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ ، فَعَضَلَتْ بِالمَلَكَيْنِ فَلَمْ يَدْرِيَا كَيْفَ يَكْتُبَانِهَا فَصَعَدَا إلى اللّه ، فَقَالاَ : يَا رَبَّنَا إِنَّ عَبْدًا قَدْ قَالَ مَقَالَةً لاَ نَدْرِي كَيْفَ نَكْتُبُهَا ؟ قَالَ اللّه - وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا قَالَ عَبْدُه - مَاذَا قَالَ عَبْدِي ؟ قَالاَ : يَا رَبِّ إِنَّهُ قَالَ : لَكَ الحَمْدُ يَا رَبِّ ، كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ . فَقَالَ اللّه لَهُمَا : اكْتُبَاهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي حَتَّى يَلْقَانِي فَأَجْزِيهِ بِهَا » [(٣)] .

والألف واللاّم في الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه للّه تعالى ، كما جاء في الحديث :

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٨٣) وابن ماجه في السنن (٣٨٠٠) والحاكم في المستدرك (٤٩٨/١) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٠٧/١) ، وابن ماجه في السنن (٣٨٠٥) .
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٤٤/١٢) .

« اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ كُلُّهُ ، وَلكَ المُلْكُ كُلُّهُ ، وَبِيَدِكَ الخَيْرُ كُلُّهُ ، وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الأَمْرُ كُلُّهُ » [١] .

والربُّ هو المالك المتصرِّف ، ويطلق في اللغة على السيد وعلى المتصرف للإصلاح وكل ذلك صحيح في حق اللَّه تعالى . ولا يستعمل الرب لغير اللَّه ، بل بالإضافة تقول : رب الدار رب كذا ، وأما الرب فلا يقال إلاَّ للَّه ﷻ ، وقد قيل : إنه الاسم الأعظم .

و ﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ جمع عالم ، وهو كل موجود سوى اللَّه عزّ وجلّ والعالم جمع لا واحد له من لفظه ، والعوالم أصناف المخلوقات في السموات وفي البر والبحر ، وكل قرن منها وجيل يسمى عالمًا أيضًا .

عن ابن عبّاس ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الحمد للَّه الذي له الخلق كله السموات والأرض ، وما فيهن ، وما بينهن مما نعلم ومما لا نعلم . وفي رواية : رب الجن والإنس ، واستدل القرطبي لهذا القول بقوله تعالى : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ وهم الجن والإنس .

والعالم مشتق من العلامة قلت : لأنه علم دال على وجود خالقه وصانعه ووحدانيته كما قال ابن المعتز :

فَيَا عَجَبا كَيْفَ يُعْصَى الإِلَهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَة تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قال القرطبي : إنما وصف نفسه بالرَّحمن الرَّحيم بعد قوله رب العالمين ليكون من باب قرن الترغيب بالترهيب ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لَوْ يَعْلَمُ المُؤْمِنُ ما عِنْدَ اللَّه مِنَ العُقُوبَةِ مَا طَمِعَ في جَنَّتِهِ أَحَدٌ ، وَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّه مِنَ الرَّحْمَةِ ما قَنِطَ مِنْ رَحْمَتِهِ أَحَدٌ » [٢] .

﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ قرأ بعض القراء ﴿ ملكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ وقرأ آخرون ﴿ مَٰلِكِ ﴾ وكلاهما صحيح متواتر في السبع [٣] ، ويقال : ملك بكسر اللام وبإسكانها ، ويقال : مليك أيضًا ، وأشبع نافع كسرة الكاف فقرأ ﴿ ملكي يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ . وقد روي من طرق متعددة أن رسول اللَّه ﷺ كان يقرؤها ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ومالك مأخوذ من الملك كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ وملك مأخوذ من الملك كما قال تعالى : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه لأنه قدم تقدم الإخبار بأنه رب العالمين ، وذلك عام في الدنيا والآخرة ، وإنما أضيف إلى يوم الدين ؛ لأنه لا يدعي أحد هنالك شيئًا ولا يتكلم أحد إلَّا بإذنه ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ وعن ابن عبّاس في ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ يقول : لا يملك أحد معه في ذلك اليوم حكمًا كملكهم في الدنيا .

قال : و ﴿ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ يوم الحساب للخلائق ، وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر ، إلا من عفا عنه ، وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف وهو ظاهر .

والملك في الحقيقة هو اللَّه ﷻ قال اللَّه تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ﴾ وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا : « أَخْنَعُ اسْم عِنْدَ اللَّه رَجُلٌ تَسَمَّى بِمَلِكِ الأَمْلاكِ وَلاَ مَالِكَ إِلَّا

(١) ذكره المنذري في الترغيب (٢/٤٤١) .
(٢) أخرجه مسلم في التوبة (٢٣) والترمذي في السنن (٣٥٤٢) وأحمد في مسنده (٢/٣٩٧) والألباني في الصحيحة (١٦٣٤) .
(٣) قرأ عاصم والكسائي ويعقوب وخلف (مالك) والباقون بغير الألف (انظر : تقريب النشر ص ٧) .

الله » (١) وعنه عن رسول الله ﷺ قال : « يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِه ثُمَّ يَقُولُ أَنَا المَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ ؟ أَيْنَ الجَبَّارُونَ ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ ؟ » (٢) وفي القرآن العظيم ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ فأما تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ وقوله ﷺ : « مثل الملوك على الأسرة » (٣) .

و ﴿ ٱلدِّينِ ﴾ الجزاء والحساب كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ ﴾ وفي الحديث : « الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ » (٤) أي حاسب نفسه لنفسه كما قال عمر ﷺ : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم (٥) .

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ العبادة في اللغة من الذلة يقال : طريق معبد وبعير معبد أي مذلّل . وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف . وقدّم المفعول وهو إياك وكرّر للاهتمام والحصر ، أي لا نعبد إلّا إيّاك ، ولا نتوكّل إلّا عليك ، وهذا هو كمال الطاعة . والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين ، وهذا كما قال بعض السلف : الفاتحة سر القرآن وسرها هذه الكلمة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فالأول تبرؤ من الشرك ، والثاني تبرؤ من الحول والقوة ، والتفويض إلى الله ﷻ وهذا المعنى في غير آية من القرآن ، وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب ، وهو مناسبة لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى فلهذا قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وفي هذا دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى ، وإرشاده لعباده بأن يثنوا عليه بذلك ، ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك ، وهو قادر عليه ، وعن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ » (٦) . وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، إِذَا قَالَ العَبْدُ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قَالَ اللَّهُ : حَمِدَنِي عَبْدِي ، وَإِذَا قَالَ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قَالَ اللَّه : أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ قَالَ اللَّهُ : مَجَّدَنِي عَبْدِي ، وَإِذَا قَالَ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قَالَ : هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قَالَ : هَذَا لِعَبْدِي ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ » (٧) . وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ يعني إياك نوحد ، ونخاف ، ونرجوك يا ربنا لا غيرك ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ على طاعتك ، وعلى أمورنا كلها . وقال قتادة :

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٣٧) والبيهقي في السنن (٣٠٧/٩) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨١٢) ومسلم في صفات المنافقين (٢٣) وابن ماجه في السنن (١٩٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٧٩٩) ومسلم في الإمارة (١٦٠) ، وأحمد في مسنده (٢٤٠/٣) .

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢٤/٤) والحاكم في المستدرك (٥٧/١) ، والبيهقي في السنن (٢٥١/٤) والطبراني في الكبير (٣٤١/٧) .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٥٩) .

(٦) أخرجه البخاري في الأذان (٧٥٦) ومسلم في الصلاة (٣٤) وأبو داود في السنن (٨٢٢) والنسائي في السنن (١٣٧/٢) .

(٧) أخرجه مسلم في الصلاة (٣٨ ، ٤٠) ، والنسائي في السنن (١٣٦/٢) وأحمد في المسند (٢٤١/٢) ، والترمذي في السنن (٩٥٣) .

يأمركم أن تخلصوا له العبادة وأن تستعينوه على أموركم ، وإنما قدم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ على ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ لأن العبادة له هي المقصودة ، والاستعانة وسيلة إليها ، والاهتمام والجزم تقديم ما هو الأهم فالأهم .

فإن قيل : فما معنى النون في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فإن كانت للجمع ، فالداعي واحد ، وإن كانت للتعظيم ، فلا يناسب هذا المقام ؟

وقد أجيب بأن المراد من ذلك ، الإخبار عن جنس العباد ، والمصلي فرد منهم ، ولا سيما إن كان في جماعة أو إمامهم ، فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين بالعبادة التي خلقوا لأجلها وتوسط لهم بخير . ومنهم من قال : يجوز أن تكون للتعظيم ، كأن العبد قيل له : إذا كنت داخل العبادة ، فأنت شريف ، وجاهك عريض ، فقال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وإن كنت خارج العبادة ، فلا تقل نحن ، ولا فعلنا ولو كنت في مائة ألف أو ألف ألف لاحتياج الجميع إلى الله ﷻ وفقرهم إليه . ومنهم من قال : إياك نعبد ، ألطف في التواضع من إياك عبدنا ، لما في الثاني من تعظيم لنفسه من جعله نفسه وحده أهلًا لعبادة الله تعالى ، الذي لا يستطيع أحد أن يعبده حق عبادته ، ولا يثني عليه كما يليق به ، والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى .

وقد سمى الله رسوله ﷺ بعبده في أشرف مقاماته فقال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ، ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ ، ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ فسمّاه عبدًا عند إنزاله عليه ، وعند قيامه في الدعوة وإسرائه به ، وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين حيث يقول : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ .

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ قراءة الجمهور بالصاد ، وقرئ السراط وقرئ بالزاي (١) .

لما تقدم الثناء على المسؤول تبارك وتعالى ناسب أن يعقب بالسؤال كما قال : « فَنِصْفُهَا لِي ، وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ » وهذا أكمل أحوال السائل أن يمدح مسئوله ، ثم يسأل حاجته وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ لأنه أنجح للحاجة وأنجع للإجابة ، ولهذا أرشد الله إليه لأنه الأكمل . وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه ، كما قال موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ، وقد يتقدّمه مع ذلك وصف مسئول كقول ذي النون : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . وقد يكون بمجرد الثناء على المسئول كقول الشاعر :

أَأَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي ... حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ الحَيَاءُ
إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ المَرْءُ يَوْمًا ... كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ

والهداية ههنا الإرشاد والتوفيق ، وقد تعدى الهداية بنفسها كما هنا ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

---

(١) روى رويس وابن مجاهد عن قنبل (السراط ، وسراط) حيث أتى بالسين والباقون بالصاد ، وأشم خلف عن حمزة الصاد زايًا (الزراط) في جميع القرآن واختلف عن خلاد ، وبه قرأ أبو عمرو الداني (انظر : تقريب النشر ص ٧) .

فتضمن معنى ألهمنا أو وفقنا أو ارزقنا أو أعطنا .

وأمّا ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ فقال الطبري : أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعًا على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ، وذلك في لغة جميع العرب . والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصر ، قال : ثم تستعير العرب الصِّراط فتستعمله في كل قول وعمل ووصف باستقامه أو اعوجاج ، فتصف المستقيم باستقامته ، والمعوج باعوجاجه .

ثم اختلفت عبارات المفسِّرين من السلف والخلف في تفسير الصِّراط ، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد وهو المتابعة لله وللرسول .

فروي أنه كتاب الله ، فعن علي بن أبي طالب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ كِتَابُ اللَّه » (١) .

وقيل : هو الإسلام ، فعن ابن عباس قال : قال جبريل لمحمّد عليه السلام : « قل يا محمد اهدنا الصراط المستقيم » يقول : ألهمنا الطريق الهادي ، وهو دين الله الذي لا اعوجاج فيه ، وعنه في قوله تعالى : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ قال : ذاك الإسلام ، وقال ابن الحنفية في قوله تعالى : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ قال : هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره . وعن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال : « ضَرَبَ اللَّه مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَى جَنْبَتِي الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ ، وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلاَ تَعْوَجُوا . وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ الإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ قَالَ : وَيْحَكَ لاَ تَفْتَحْهُ ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ ، فَالصِّرَاطُ الإِسْلاَمُ ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّه ، وَالأَبْوَابُ المُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللَّه ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّه ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّه فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ » (٢) .

وقال مجاهد : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ قال : الحق وهذا أشمل ، ولا منافاة بينه وبين ما تقدَّم .

وعن أبي العالية ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ قال : هو النبيّ ﷺ وصاحباه من بعده ، قال عاصم : فذكرنا ذلك للحسن فقال : صدق أبو العالية ونصح .

وكل هذه الأقوال صحيحة وهي متلازمة . فإن من اتبع النبي ﷺ ، واقتدى باللذين من بعده أبي بكر وعمر ، فقد اتبع الحق ، ومن اتبع الحق ، فقد اتبع الإسلام ، ومن اتبع الإسلام ، فقد اتبع القرآن ؛ وهو كتاب الله وحبله المتين وصراطه المستقيم ، فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضًا ولله الحمد .

فإن قيل : فكيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها وهو متصف بذلك ؟ فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا ؟ .

فالجواب : أن لا ، ولولا احتياجه ليلًا ونهارًا إلى سؤال الهداية لما أرشده الله تعالى إلى ذلك ، فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تثبيته على الهداية ورسوخه فيها وتبصره وازدياده منها

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٢٩٦٧) وعزاه للديلمي في مسند الفردوس .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٢/٤) والحاكم في المستدرك (٧٣/١) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢٤٤/٣) .

واستمراره عليها ، فإن العبد لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء اللّه ، فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمده بالمعونة والثبات والتوفيق ؛ فالسعيد من وفقه اللّه تعالى لسؤاله ؛ فإنه تعالى قد تكفل بإجابة الداعي إذا دعاه ، ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار وقد قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ الآية فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان وليس ذلك من باب تحصيل الحاصل ؛ لأن المراد الثبات والاستمرار ، والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك ، واللّه أعلم . وقال تعالى آمرًا لعباده المؤمنين أن يقولوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ وقد كان الصدّيق ﷺ يقرأ بهذه الآية في الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سرًّا ، فمعنى قوله تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلى غيره .

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ مفسّر للصراط المستقيم ، وهو بدل منه عند النحاة ، ويجوز أن يكون عطف بيان .

والذين أنعم اللّه عليهم هم المذكورون في سورة النساء حيث قال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ وعن ابن عبّاس : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ بطاعتك وعبادتك من ملائكتك وأنبيائك والصدّيقين والشهداء والصالحين .

وقوله تعالى : ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قرأ الجمهور ﴿ غَيْرِ ﴾ بالجر على النعت ، وقرئ بالنصب على الحال ، والمعنى : اهدنا الصّراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعتهم ، وهم أهل الهداية والاستقامة والطاعة للّه ورسله ، وامتثال أوامره ، وترك نواهيه وزواجره ، غير صراط المغضوب عليهم ، وهم الذين فسدت إرادتهم ، فعلموا الحق وعدلوا عنه ، ولا صراط الضّالّين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق . وأكد الكلام بلا ليدل على أن ثم مسلكين فاسدين وهما طريقة اليهود والنصارى . وقد زعم بعض النحاة أن غير ههنا استثنائية ، فيكون على هذا منقطعًا لاستثنائهم من المنعم عليهم ، وليسوا منهم وما أوردناه أولى . ومنهم من زعم أن لا في قوله تعالى : ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ زائدة وأن تقدير الكلام عنده غير المغضوب عليهم والضالين واستشهد ببيت العجاج :

فـي بِـئْـرِ لا حُـورٍ سَـرَى وَمَـا شَـعَـرْ

أي في بئر حور والصحيح ما قدمناه ، وروي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه كان يقرأ غير المغضوب عليهم وغير الضالين ، وهذا إسناد صحيح . وكذلك حكي عن أُبيّ بن كعب أنه قرأ كذلك ، وهو محمول على أنه صدر منهما على وجه التفسير . فيدل على ما قلناه من أنه إنما جيء بلا لتأكيد النفي لئلا يتوهم أنه معطوف على الذين أنعمت عليهم ، وللفرق بين الطريقتين ليجتنب كل واحدٍ منهما ، فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به ، واليهود فقدوا العمل والنصارى فقدوا العلم ، ولهذا كان الغضب لليهود والضلال للنصارى ؛ لأن من علم وترك استحق الغضب ، بخلاف من لم يعلم ، والنصارى لما كانوا قاصدين شيئًا لكنهم لا يهتدون إلى طريقه لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه وهو اتباع الحق ضلوا ، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه ، لكن أخصّ أوصاف اليهود الغضب

كما قال تعالى عنهم : ﴿ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ وأخص أوصاف النصارى الضلال كما قال تعالى عنهم : ﴿ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ، وبهذا جاءت الأحاديث والآثار ؛ فعن عدي بن حاتم قال : جاءت خيل رسول الله ﷺ فأخذوا عمتي وناسًا ، فلما أتوا بهم إلى رسول الله ﷺ صفوا له فقالت : يا رسول الله ! نأى الوافد وانقطع الولد وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة فمُنّ علي منّ الله عليك ، قال : « مَنْ وَافِدُكِ ؟ » قالت : عدي بن حاتم ، قال : « الَّذِي فَرَّ مِنَ اللَّه وَرَسُولِهِ » قالت : فمُنَّ علي ، فلما رجع ورجل إلى جنبه ترى أنه علي قال : سليه حملانًا ، فسألته ، فأمر لها ، قال : فأتتني ، فقالت : لقد فعلت فعلة ما كان أبوك يفعلها ، فإنه قد أتاه فلان فأصاب منه ، وأتاه فلان فأصاب منه ، فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان وذكر قربهم من النبيّ ﷺ قال : فعرفت أنه ليس بملك كسرى ولا قيصر فقال : « يا عَدِيُّ مَا أَفَرَّكَ ؟ أَنْ يُقَالَ : لا إِلَهَ إِلَّا اللَّه ، فَهَلْ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّه ؟ ما أَفَرَّكَ ؟ أَنْ يُقَالَ : اللَّه أَكْبَرُ ، فَهَلْ شَيْءٌ أَكْبَرُ مِنَ اللَّه ﷻ ؟ » قال : فأسلمت ، فرأيت وجهه استبشر ، وقال : « إِنَّ المَغْضُوبَ عَلَيْهِمُ اليَهُودَ ، وَإِنَّ الضَّالِّينَ النَّصَارَى » . قلت : عن عدي بن حاتم قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ قال : « هم اليهود » ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قال : « النَّصارى هم الضالون » (١) .

وفي السيرة عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه لما خرج هو وجماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف قالت له اليهود : إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب اللَّه فقال : أنا من غضب اللَّه أفر ، وقالت له النصارى : إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من سخط اللَّه فقال : لا أستطيعه ، فاستمر على فطرته وجانب عبادة الأوثان ودين المشركين ، ولم يدخل مع أحد من اليهود ولا النصارى ، وأما أصحابه فتنصروا ودخلوا في دين النصرانية ، لأنهم وجدوه أقرب من دين اليهود إذ ذاك ، وكان منهم ورقة بن نوفل حتى هداه اللَّه بنبيه لما بعثه آمن بما وجد من الوحي ﷺ .

مسألة : والصحيح من مذاهب العلماء أنه يغتفر الإخلال بتحرير ما بين الضاد والظاء لقرب مخرجيهما وذلك أن الضاد مخرجها من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس ، ومخرج الظاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ؛ ولأن كلًّا من الحرفين من الحروف المجهورة ، ومن الحروف الرخوة ومن الحروف المطبقة ، فلهذا كله اغتفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يميز ذلك واللَّه أعلم ، وأما حديث « أَنَا أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ » (٢) ، فلا أصل له واللَّه أعلم .

فصل : اشتملت هذه السورة الكريمة وهي سبع آيات على حمد اللَّه وتمجيده والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا ، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين ، وعلى إرشاده عبيده إلى سؤاله والتضرّع إليه والتبرئ من حولهم وقوّتهم ، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية تبارك وتعالى ، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل ، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصِّراط المستقيم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٨/٤) ، والطبراني في الكبير (١٠٠/١٧) .

(٢) هذا الحديث من الأحاديث المشتهرة عند العامة ، وقد ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٣٣٢/١) ، والفتني في تذكرة الموضوعات (٨٧) والشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة (٣٤١) .

وهو الدين القويم ، وتثبيتهم عليه حتى يقضي لهم بذلك إلى جواز الصِّراط الحسية يوم القيامة المفضي بهم إلى جنَّات النعيم في جوار النبيّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين . واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة ، والتحذير من مسالك الباطل ، لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة ، وهم المغضوب عليهم والضالون ، وما أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ . وحذف الفاعل في الغضب في قوله تعالى : ﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة كما قال تعالى : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم ﴾ الآية ، وكذلك إسناد الضلال إلى من قام به ، وإن كان هو الذي أضلهم بقدره كما قال تعالى : ﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرۡشِدًا ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والإضلال ، لا كما تقول الفرقة القدرية ومن حذا حذوهم من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه ، ويحتجّون على بدعتهم بمتشابه من القرآن ويتركون ما يكون فيه صريحًا في الرد عليهم ، وهذا حال أهل الضلال والغي ، وقد ورد في الحديث الصحيح : « إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّه فَاحْذَرُوهُمْ » [١] يعني في قوله : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ ﴾ فليس ، بحمد اللَّه ، لمبتدع في القرآن حجة صحيحة لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل مفرقًا بين الهدى والضلال وليس فيه تناقض ولا اختلاف ؛ لأنه من عند اللَّه تنزيل من حكيم حميد .

فصل : يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها آمين ، ومعناه اللَّهمّ استجب والدليل على استحباب التأمين ما روي عن أبي هريرة قال : كان رسول اللَّه ﷺ إذا تلا ﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قال : « آمين » حتى يسمع من يليه من الصف الأول [٢] . ولمسلم أن رسول اللَّه ﷺ قال : « إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ آمِين وَالْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ آمِين فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » [٣] قيل بمعنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الزمان ، وقيل في الإجابة ، وقيل في صفة الإخلاص .

وعن ابن عبّاس ، قال : قلت : يا رسول اللَّه ما معنى آمين ؟ قال : « رَبِّ افْعَلْ » . وقال الترمذي : معناه لا تخيب رجاءنا . وقال الأكثرون : معناه اللَّهمّ استجب لنا .

وقد اختلف أصحابنا في الجهر بالتأمين للمأموم في الجهرية ، وحاصل الخلاف أن الإمام إن نسي التأمين جهر المأموم به قولًا واحدًا ، وإن أمَّن الإمام جهرًا فالجديد أنه لا يجهر المأموم ، وهو مذهب أبي حنيفة ورواية عن مالك ؛ لأنه ذكر من الأذكار ، فلا يجهر به كسائر أذكار الصلاة . والقديم أنه يجهر به وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل والرواية الأخرى عن مالك لما تقدم « حَتَّى يُرْتَجَّ الْمَسْجِدُ » . ولنا قول آخر ثالث أنه : إن كان المسجد صغيرًا لم يجهر المأموم لأنهم يسمعون قراءة

---

(١) ذكره البيهقي في الأسماء والصفات (٤٥٧) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٩٣٤) وأحمد في مسنده (٣١٦/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٧٨١) ومسلم في الصلاة (٧٤) وأحمد في مسنده (٤٥٩/٣) والبيهقي في السنن (٥٥/٢) .

الإمام ، وإن كان كبيرًا جهر ليبلغ التأمين من في أرجاء المسجد .

قلت : ومن هنا نزع بعضهم في الدلالة بهذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فذكر الدعاء عن موسى وحده ومن سياق الكلام ما يدل على أن هارون أمَّن فنزل منزلة من دعا لقوله تعالى : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ فدل ذلك على أن من أمَّن على دعاء فكأنما قاله ، فلهذا قال من قال : إن المأموم لا يقرأ لأن تأمينه على قراءة الفاتحة بمنزلة قراءتها ولهذا جاء في الحديث « وَمَنْ كَانَ لَهُ إِمَامٌ فَقِرَاءَةُ الإِمَامِ لَهُ قِرَاءَةٌ » (١) وكان بلال يقول : لا تسبقني بآمين يا رسول الله (٢) . فدل هذا المنزع على أن المأموم لا قراءة عليه في الجهرية .

(١) أخرجه البيهقي في السنن (١٦١/٢) والدارقطني في السنن (٣٢٦/١) وابن ماجه في السنن (٨٥٠) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢١٩/١) والبيهقي في السنن (٥٦/٢) والطبراني في الكبير (٣١١/٦) .

سورة البقرة

وآياتها ست وثمانون ومائتان

ذِكْرُ مَا وَرَدَ في فَضْلِها

عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : « البَقَرَةُ سَنَامُ القُرْآنِ وَذِرْوَتُهُ ، نَزَلَ مَعَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهَا ثَمَانُونَ مَلَكًا ، وَاسْتُخْرِجَتْ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ فَوُصِلَتْ بِهَا - أَوْ فَوُصِلَتْ بِسُورَةِ البَقَرَةِ - ويس قَلْبُ القُرْآنِ لاَ يَقْرَؤُهَا رَجُلٌ يُرِيدُ اللَّه وَالدَّارَ الآخِرَةَ إِلاَّ غُفِرَ لَهُ ، وَاقْرَأُوهَا عَلَى مَوْتَاكُمْ » [١] وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا ؛ فَإِنَّ البَيْتَ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ البَقَرَةِ لاَ يَدْخُلُهُ الشَّيْطَانُ » [٢] . وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ أَلْفِيَنَّ أَحَدُكُمْ يَضَعُ إِحْدَى رِجْلَيْهِ عَلَى الأُخْرَى يَتَغَنَّى وَيَدَعُ سُورَةَ البَقَرَةِ يَقْرَأُوهَا ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ البَيْتِ تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ البَقَرَةِ ، وَإِنَّ أَصْغَرَ البُيُوتِ الجُوفُ الصِّفْرُ مِنْ كِتَابِ اللَّه » [٣] .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : بَعَثَ رَسُولُ اللَّه ﷺ بَعْثًا وَهُمْ ذَوُو عَدَدٍ فَاسْتَقْرَأَهُمْ فَاسْتَقْرَأَ كل واحد منهم ما معه من القرآن فأتى على رجل من أحدثهم سنًّا فقال : « مَا مَعَكَ يَا فُلاَنُ ؟ » فقال : معي كذا وكذا وسورة البقرة فقال : « أَمَعَكَ سُورَةُ البَقَرَةِ ؟ » قال : نعم ، قال : « اذْهَبْ فَأَنْتَ أَمِيرُهُمْ » فقال رجل من أشرافهم : والله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلَّا أني خشيت أن لا أقوم بها . فقال رسول الله ﷺ : « تَعَلَّمُوا القُرْآنَ وَاقْرَؤُوهُ ، فَإِنَّ مَثَلَ القُرْآنِ لِمَنْ تَعَلَّمَهُ فَقَرَأَهُ وَقَامَ بِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ مَحْشُوٍّ مِسْكًا يَفُوحُ رِيحُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَمَثَلُ مَنْ تَعَلَّمَهُ فَيَرْقُد وَهُوَ فِي جَوْفِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ أُوكِيَ عَلَى مِسْكٍ » [٤] وعن أسيد بن حضير ﷺ قال : بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة - وفرسه مربوطة عنده - إذ جالت الفرس ، فسكت فسكنت ، فقرأ فجالت الفرس ، فسكت فسكنت ، ثم قرأ فجالت الفرس ، فانصرف ، وكان ابنه يحيى قريبًا منها ، فأشفق أن تصيبه فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها ، فلما أصبح حدث النبيّ ﷺ فقال : « اقْرَأْ يَا ابْنَ حضير » قال : قد أشفقت يا رسول الله على يحيى ، وكان منها قريبًا ، فرفعت رأسي وانصرفت إليه فرفعت رأسي إلى السماء ، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها قال : « وَتَدْرِي مَا ذَاكَ ؟ » قال : لا ، قال : « تِلْكَ المَلاَئِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحْتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا لاَ تَتَوَارَى مِنْهُمْ » [٥] وعن جرير بن يزيد أن أشياخ أهل المدينة حدَّثوه أن رسول الله ﷺ قيل له : ألم تر ثابت بن قيس بن شماس لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح قال : « فَلَعَلَّهُ قَرَأَ سُورَةَ البَقَرَةِ » قال : فسألت ثابتًا ، فقال : قرأت سورة البقرة [٦] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦/٥) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٦٩/٢) ، والسيوطي في جمع الجوامع (١٠٣١١) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢١٢) والترمذي في السنن (٢٨٧٧) وأحمد في مسنده (٣٣٧/٢) .

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣١٢/٦) والهندي في كنز العمال (٢٥٥١) .

(٤) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٢٨٧٦) .

(٥) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠١٨) .

(٦) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٥٧/٩) .

ذِكْرُ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِهَا مَعَ آلِ عِمْرَان

عن عبد اللّه بن بريدة عن أبيه قال : كنت جالسًا عند النبي ﷺ فسمعته يقول « تَعَلَّمُوا سُورَةَ البَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا البَطَلَةُ » قال : ثم سكت ساعة ثم قال : « تَعَلَّمُوا سُورَةَ البَقَرَةِ وَآلَ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا الزَّهْرَاوَانِ يُظِلاَّنِ صَاحِبَهُمَا يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ ، وَإِنَّ القُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ فَيَقُولُ لَهُ : هَلْ تَعْرِفُنِي ؟ فَيَقُولُ : مَا أَعْرِفُكَ فَيَقُولُ : أَنَا صَاحِبُكَ القُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الهَوَاجِرِ وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ ، وَإِنَّكَ اليَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ ، فَيُعْطَى المُلْكَ بِيَمِينِهِ وَالخُلْدَ بِشِمَالِهِ ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَانِ لاَ يَقُومُ لَهُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا فَيَقُولاَنِ : بِمَ كُسِينَا هَذَا ؟ فَيُقَالُ : بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا القُرْآنَ ، ثُمَّ يُقَالُ : اقْرَأْ وَاصْعَدْ فِي دَرَجِ الجَنَّةِ وَغُرَفِهَا فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ هَذًّا كَانَ أَوْ تَرْتِيلًا » (١) .

الزهراوان : المنيرتان ، والغياية ما أظلك من فوقك . والفرق : القطعة من الشيء ، والصواف : المصطفة المتضامة ، والبطلة : السحرة ، ومعنى لا تستطيعها أي لا يمكنهم حفظها ، وقيل : لا تستطيع النفوذ في قارئها . ومن ذلك حديث النواس بن سمعان قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « يُؤْتَى بِالقُرْآنِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُمْ سُورَةُ البَقَرَةِ وَآل عِمْرَانَ » وضرب لهما رسول اللّه ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد قال : « كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ وَبَيْنَهُمَا شَرْقٌ ، أَوْ كَأَنَّهُما فرقانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ يُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا » (٢) .

ذِكْرُ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِ السَّبْعِ الطِّوَال

عن واثلة بن الأسقع عن النبيّ ﷺ قال : « أُعْطِيتُ السَّبْعَ الطُّوَلَ مكان التَّوْرَاةِ ، وَأُعْطِيتُ المِئِينَ مَكَانَ الإِنْجِيلِ ، وَأُعْطِيتُ المَثَانِيَ مَكَانَ الزَّبُورِ وَفُضِّلْتُ بِالمُفَصَّل » (٣) ، وعن عائشة أن رسول اللّه ﷺ قال : « مَنْ أَخَذَ السَّبْعَ الأُوَلَ مِنَ القُرْآنِ فَهُوَ حَبْرٌ » (٤) وعن سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى ﴾ قال : هي السبع الطول ؛ البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس ، قال : وقال مجاهد هي السبع الطول .

فصل : والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف وهي من أوائل ما نزل بها ، ولكن قوله تعالى فيه : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ الآية يقال : إنها آخر ما نزل من القرآن ويحتمل أن تكون منها ، وكذلك آيات الربا من آخر ما نزل ، وكان خالد بن معدان يسمي البقرة فسطاط القرآن . وعن ابن عبّاس : نزلت بالمدينة سورة البقرة ، وعن عبد اللّه بن الزبير قال : نزلت بالمدينة سورة البقرة ، وعن ابن مسعود أنه رمى الجمرة من بطن الوادي ، فجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه ، ثم قال : هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٨/٥) والدارمي في السنن (٤٥٠/٢) ، والحاكم في المستدرك (٥٦٠/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٣/٤) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٧/٤) والطبراني في الكبير (٧٦/٢٢) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٧٣/٦) والحاكم في المستدرك (٥٦٤/١) .

وعن عتبة بن مرثد قال : رأى النبيُّ ﷺ في أصحابه تأخرًا فقال : « يَا أَصْحَابَ سُورَةِ البَقَرَةِ »[(١)] وأظن هذا كان يوم حنين يوم ولوا مدبرين أمر العباس فناداهم : « يَاأَصْحَابَ الشَّجَرَةِ » يعني أهل بيعة الرضوان لينشطهم بذلك فجعلوا يقبلون من كل وجه وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مسيلمة جعل الصحابة يفرون لكثافة جيش بني حنيفة فجعل المهاجرون والأنصار يتنادون يا أصحاب سورة البقرة حتى فتح الله عليهم رضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴾ قد اختلف المفسّرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السور ، فمنهم من قال : هي ممّا استأثر الله بعلمه فردوا علمها إلى الله ولم يفسروها .

ومنهم من فسرها ، واختلف هؤلاء في معناها ، قال ابن زيد بن أسلم : إنما هي أسماء السور . وعن مجاهد أنه قال : ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿ حمٓ ﴾ و ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ و ﴿ صٓ ﴾ فواتح افتتح الله بها القرآن ، وعن ابن أبي نجيح أنه قال : ﴿ الٓمٓ ﴾ اسم من أسماء القرآن ، ولعل هذا يرجع إلى معنى أنه اسم من أسماء السور ، فإن كل سورة يطلق عليها اسم القرآن فإنه يبعد أن يكون ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ اسمًا للقرآن كله ؛ لأن المتبادر إلى فهم سامع من يقول : قرأت ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ إنما ذلك عبارة عن سورة الأعراف لا لمجموع القرآن .

وقيل : هي اسم من أسماء الله تعالى ، فقال الشعبي وغيره : فواتح السور من أسماء الله تعالى ، وعن شعبة قال : سألت السدي عن ﴿ حمٓ ﴾ و ﴿ طسٓ ﴾ و ﴿ الٓمٓ ﴾ فقال : قال ابن عبّاس : هي اسم الله الأعظم .

وعن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ ﴿ الٓمٓ ﴾ قال : أما ﴿ الٓمٓ ﴾ فهي حروف استفتحت من حروف هجاء أسماء الله تعالى .

قلت : مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفًا وهي (ا ، ل ، م ، ص ، ر ، ك ، هـ ، ي ، ع ، ط ، س ، ح ، ق ، ن) يجمعها قولك : نص حكيم قاطع له سر . وهي نصف الحروف عددًا والمذكور منها أشرف من المتروك وبيان ذلك من صناعة التصريف . قال الزمخشري : وهذه الحروف الأربعة عشرة مشتملة على أصناف أجناس الحروف يعني من المهموسة والمجهورة ، ومن الرخوة والشديدة ، ومن المطبقة والمفتوحة ، ومن المستعلية والمنخفضة ، ومن حروف القلقلة . وقد سردها مفصلة ثم قال : فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته . وهذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها . وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله ، ومن ههنا لخص بعضهم في هذا المقام كلامًا فقال : لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثًا ولا سدى ؛ ومن قال من الجهلة : إن في القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية فقد أخطأ خطأً كبيرًا ، فتعين أن لها معنى في نفس الأمر ، فإن صح لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به ، وإلا وقفنا حيث وقفنا وقلنا : ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ .

قال الزمخشري : ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن وإنما كررت ليكون أبلغ في التحدّي والتبكيت ، كما كررت قصص كثيرة وكرر التحدي الصريح في أماكن قال : وجاء منها على

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه(٥٤٦٥) وسعيد بن منصور في سننه(٢٩٠٨)

حرف واحد كقوله : ﴿ صٓ ﴾ ﴿ نٓ ﴾ ﴿ قٓ ﴾ . وحرفين مثل ﴿ حمٓ ﴾ وثلاثة مثل ﴿ الٓمٓ ﴾ وأربعة مثل ﴿ الٓمٓرٰ ﴾ و﴿ الٓمٓصٓ ﴾ وخمسة مثل ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ و ﴿ حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ﴾ لأن أساليب كلامهم على هذا من الكلمات ما هو على حرف وعلى حرفين وعلى ثلاثة وعلى أربعة وعلى خمسة لا أكثر من ذلك .

قلت : ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلابد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن ، وبيان إعجازه وعظمته . وهذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع في تسع وعشرين سورة .

وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد ، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم ، فقد ادعى ما ليس له ، وطار في غير مطاره .

﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ أي هذا الكتاب وذلك بمعنى هذا ، والعرب تعارض بين اسمي الإشارة ، فيستعملون كلًّا منهما مكان الآخر وهذا معروف في كلامهم ، وقال الزمخشري : ذلك إشارة إلى ﴿ الٓمٓ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ وقد ذهب بعض المفسرين أن ذلك إشارة إلى القرآن الذي وعد الرسول ﷺ بإنزاله عليه .

ومن قال : إن المراد بذلك الكتاب الإشارة إلى التوراة والإنجيل ، كما حكاه ابن جرير وغيره فقد أبعد النجعة ، وأغرق في النزع ، وتكلّف ما لا علم له به .

والريب الشك ، وعن أناس من أصحاب رسول اللّه ﷺ قالوا : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ : لا شك فيه .

ومعنى الكلام أن هذا الكتاب هو القرآن لا شك فيه أنه نزل من عند اللّه ، وقال بعضهم : هذا خبر ومعناه النهي أي لا ترتابوا فيه .

ومن القراء من يقف على قوله تعالي : ﴿ لَا رَيْبَ ﴾ ويبتدئ بقوله تعالى : ﴿ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ، والوقف على قوله تعالى : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أولى للآية التي ذكرناها ؛ ولأنه يصير قوله تعالى : ﴿ هُدًى ﴾ صفة للقرآن وذلك أبلغ من كون ﴿ فِيهِ هُدًى ﴾ .

و ﴿ هُدًى ﴾ يحتمل من حيث العربية أن يكون مرفوعًا على النعت ومنصوبًا على الحال ، وخصت الهداية للمتقين كما قال : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن لأنه هو في نفسه هدى ولكن لا يناله إلّا الأبرار ، وعن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول اللّه ﷺ ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يعني نورًا للمتّقين . وقال ابن عباس : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ قال : هم المؤمنون الذين يتّقون الشرك بي ويعملون بطاعتي .

وعن ابن عباس ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ قال : الذين يحذرون من اللّه عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى ، ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به . وقيل : الذين يجتنبون كبائر الإثم . واختيار ابن جرير أن الآية تعم ذلك كله . وهو كما قال . وقد روي عن عطية السعدي قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لاَ يَبْلُغُ

العَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ المُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لاَ بَأْسَ بِهِ حَذَرًا مِمَّا بِهِ بَأْسٌ »[١] وعن ميمون أبي حمزة قال : كنت جالسًا عند أبي وائل فدخل علينا رجل يقال له : أبو عفيف من أصحاب معاذ فقال له شقيق بن سلمة : يا أبا عفيف ألا تحدِّثنا عن معاذ بن جبل ؟ قال : بلى ، سمعته يقول : يحبس الناس يوم القيامة في بقيع واحد فينادي مناد أين المتقون ؟ فيقومون في كنف الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر ، قلت : من المتقون ؟ قال : قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان ، وأخلصوا الله العبادة فيمرون إلى الجنّة .

ويطلق الهدى ويراد به ما يقر في القلب من الإيمان ، وهذا لا يقدر على خلقه في قلوب العباد إلَّا الله ﷻ. قال الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ ، وقال : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات .

ويطلق ويراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والإرشاد إليه قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وأصل التقوى التوقي ممّا يكره لأن أصلها وقى من الوقاية قال النابغة :

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ فَتَنَاوَلَتْهُ وَاتَّقَتْنَا بِالْيَدِ

وقد قيل : إن عمر بن الخطاب سأل أُبيّ بن كعب عن التقوى ، فقال له : أمَا سلكتَ طريقًا ذا شوك ؟ قال : بلى ، قال : فما عملت ؟ قال : شمرت واجتهدت قال : فذلك التقوى . وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال :

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى
وَاصْنَعْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْ ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لاَ تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الجِبَالَ مِنَ الحَصَى

وعن أبي أمامة ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا اسْتَفَادَ المَرْءُ بَعْدَ تَقْوَى اللَّهِ خَيْرًا مِنْ زَوْجَةٍ صَالِحَةٍ ، إِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ ، وَإِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ ، وَإِنْ أَقْسَمَ عَلَيْهَا أَبَرَّتْهُ ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا نَصَحَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ »[٢] .

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ .

عن عبد الله قال : الإيمان التصديق . وقال ابن عبّاس ﵄ : يؤمنون يصدقون . وعن الزهري : الإيمان العمل . وعن الربيع بن أنس : يخشون .

قال ابن جرير : والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولًا واعتقادًا وعملًا ، وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق بالعمل ، والإيمان كلمة جامعة للإيمان بالله وكتبه ورسله وتصديق الإقرار بالفعل .

قلت : أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض ، وقد يستعمل في القرآن والمراد به ذلك . كما قال تعالى : ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وكما قال إخوة يوسف لأبيهم : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ ، وكذلك إذا استعمل مقرونًا مع الأعمال كقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فأما إذا استعمل مطلقًا فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلَّا اعتقادًا وقولًا وعملًا . هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٥١) وابن ماجه في السنن (٤٢١٥) والبيهقي في السنن (٣٣٥/٢) .
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٦٤/٨) وابن ماجه في السنن (١٨٥٧) والمنذري في الترغيب (٤١/٣) .

بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيدة وغير واحد إجماعًا : أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص .

ومنهم من فسره بالخشية كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ والخشية خلاصة الإيمان والعلم .

وأما الغيب المراد ههنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه ، وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد ، قال أبو العالية في قوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ قال : يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه ، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث ، فهذا غيب كله . وعن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبيّ ﷺ : أما الغيب فما غاب عن العباد من أمر الجنّة وأمر النار وما ذكر في القرآن . وقال ابن عباس ﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ قال : بما جاء منه - يعني من الله تعالى وقيل : الغيب : القرآن .

﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ .

أي يقيمون الصلاة بفروضها . وقال الضحاك عن ابن عباس : إقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها . وقال قتادة : إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها . وقال مقاتل بن حيان : إقامتها المحافظة على مواقيتها وإسباغ الطهور فيها وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها والتشهد والصلاة على النبيّ ﷺ فهذا إقامتها .

وقال ابن عبّاس : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ قال : زكاة أموالهم . وعن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ قال : نفقة الرجل على أهله ، وهذا قبل أن تنزل الزكاة . وقال الضحاك : كانت النفقات قربانًا يتقربون بها إلى الله على قدر ميسرتهم وجهدهم ، حتى نزلت فرائض الصدقات سبع آيات في سورة براءة مما يذكر فيهن الصدقات ؛ هن الناسخات المثبتات .

واختار ابن جرير أن الآية عامة في الزكاة والنفقات ، فإنه قال : وأولى التأويلات وأحقّها بصفة القوم أن يكونوا لجميع اللازم لهم في أموالهم مؤدين ، زكاة كانت ذلك أو نفقة من لزمته نفقته من أهل أو عيال وغيرهم ممن يجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك ؛ لأن الله تعالى وصفهم ومدحهم بذلك ، وكل من الإنفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه .

قلت : كثيرًا ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال . فإن الصلاة حق الله وعبادته ، وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده ، والابتهال إليه ودعائه والتوكل عليه ، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم ، وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك ، ثم الأجانب ، فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ولهذا ثبت عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلٰه إِلَّا اللّٰه وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللّٰه ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ ، وَحَجِّ البَيْتِ »[1] وأصل الصلاة في كلام العرب الدعاء . ثم استعملت الصلاة في الشرع في ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة في الأوقات المخصوصة بشروطها المعروفة وصفاتها وأنواعها المشهورة . قال ابن جرير : وأرى أن الصلاة سميت صلاة لأن المصلي يتعرض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعمله ، مع ما يسأل ربه من حاجاته . وقيل هي مشتقة من الصلي ، وهو الملازمة للشيء من قوله

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٨) ومسلم في الإيمان (٢٠) والترمذي في السنن (٢٦٠٩) وأحمد في مسنده (٣٦٤/٤) .

تعالى : ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ ﴾ أي لا يلزمها ويدوم فيها ﴿ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴾ واشتقاقها من الدعاء أصح وأشهر .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ .

أي يصدّقون بما جئت به من الله ، وما جاء به مَنْ قبلك من المرسلين ، لا يفرّقون بينهم ، ولا يجحدون ما جاءوهم به من ربّهم . ﴿ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ أي بالبعث والقيامة والجنّة والنار والحساب والميزان . وإنما سميت الآخرة لأنها بعد الدنيا . وقد اختلف المفسّرون في الموصوفين هنا ومن هم : على ثلاثة أقوال حكاها ابن جرير :

أحدها : أن الموصوفين أولًا هم الموصوفون ثانيًا وهم كل مؤمنٍ ، مؤمنو العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم .

والثاني : هما واحد وهم مؤمنو أهل الكتاب ، وعلى هذين تكون الواو عاطفة صفات على صفات .

والثالث : أن الموصوفين أولًا مؤمنو العرب والموصوفون ثانيًا بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ لمؤمني أهل الكتاب ، ويستشهد لذلك بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ وبما ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال : « ثَلاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِي ، وَرَجُلٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ ، وَرَجُلٌ أَدَّبَ جارِيَتَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا » (١) . وأما ابن جرير فما استشهد على صحة ما قال إلّا بمناسبة ، وهي أن الله وصف في أول هذه السورة المؤمنين والكافرين ، فكما أنه صنّف الكافرين إلى صنفين كافر ومنافق ، فكذلك المؤمنون صنفهم إلى صنفين عربي وكتابي .

قلت : والظاهر قول مجاهد أنه قال : أربع آيات من سورة البقرة في نعت المؤمنين ، وآيتان في نعت الكافرين ، وثلاث عشرة في المنافقين ، فهذه الآيات الأربع عامات في كل مؤمن اتصف بها من عربي وعجمي وكتابي من إنسي وجني وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى ، بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها ، فلا يصح الإيمان بالغيب ، وإقام الصلاة والزكاة ، إلّا مع الإيمان بما جاء به رسول الله ﷺ ، وما جاء به من قبله من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، والإيقان بالآخرة ، كما أن هذا لا يصح إلّا بذاك وقد أمر الله المؤمنين بذلك كما قال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أمر جميع المؤمنين بالإيمان بالله وكتبه . لكن لمؤمني أهل الكتاب خصوصية وذلك أنهم يؤمنون بما بأيديهم مفصلًا فإذا دخلوا في الإسلام وآمنوا به مفصلًا كان لهم على ذلك الأجر مرتين ، وأما غيرهم فإنما يحصل له الإيمان بما تقدم مجملًا ، كما جاء في الصحيح « إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الكِتابِ فَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ وَلاَ تُصَدِّقُوهُمْ وَلكِنْ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ » (٢) . ولكن قد يكون إيمان كثير من العرب بالإسلام الذي بعث به محمّد ﷺ أتم وأكمل وأعم وأشمل من إيمان من دخل منهم في الإسلام ، فهم وإن حصل لهم أجران من تلك الحيثية فغيرهم يحصل له من التصديق ما ينيف ثوابه على الأجرين اللذين حصلا لهم .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١١١٦) والنسائي في السنن (٦/١١٥) ، وأحمد في مسنده (٤/٤٠٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٣٦) .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي المتصفون بما تقدّم من الإيمان بالغيب ، وإقام الصلاة ، والإنفاق من الذي رزقهم الله ، والإيمان بما أنزل إلى الرسول ومن قبله من الرسل ، والإيقان بالدار الآخرة ، وهو مستلزم الاستعداد لها من الأعمال الصالحة وترك المحرمات ﴿ عَلَىٰ هُدٗى ﴾ أي على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ أي في الدنيا والآخرة .

وقال ابن جرير : فإنهم على نور من ربهم وبرهان واستقامة وسداد بتسديده إياهم وتوفيقه لهم ، وتأويل قوله تعالى : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ أي المنجحون المدركون ما طلبوا عند الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله من الفوز بالثواب ، والخلود في الجنات والنجاة مما أعد الله لأعدائه من العقاب .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي غطوا الحق وستروه ، وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك ، سواء عليهم إنذارك وعدمه ، فإنهم لا يؤمنون بما جئتهم به . أي إن من كتب الله عليه الشقاوة فلا مسعد له ، ومن أضله فلا هادي له ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات وبلغهم الرسالة ، فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر ، ومن تولى فلا تحزن عليهم ولا يهمنك ذلك ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴾ ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴾ وقال ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ : كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى ، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلّا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول ، ولا يضل إلّا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول .

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ .

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ ﴾ أي طبع الله ، وقال قتادة في هذه الآية : استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، فلا يبصرون هدى ، ولا يسمعون ، ولا يفقهون ، ولا يعقلون . قال مجاهد : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾ قال : الطبع ثبتت الذنوب على القلب فحفّت به من كل نواحيه حتى تلتقي عليه ، فالتقاؤها عليه الطبع ، والطبع الختم . وقال ابن جرير ، وقال بعضهم : إنما معنى قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾ إخبار من الله عن تكبرهم ، وإعراضهم عن الاستماع لما دعوا إليه من الحق ، كما يقال : إن فلانًا أصم عن هذا الكلام ، إذا امتنع من سماعه ، ورفع نفسه عن تفهمه تكبرًا ، قال : وهذا لا يصح لأن الله تعالى قد أخبر أنه هو الذي ختم على قلوبهم وأسماعهم .

قلت : وقد أطنب الزمخشري في تقرير ما رده ابن جرير ههنا وتأول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جدًّا وما جرأه على ذلك إلّا اعتزاله لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيح عنده يتعالى الله عنه في اعتقاده ولو فهم قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ ﴾ وقوله : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم ، وحال بينهم وبين الهدى ، جزاء وفاقًا على تماديهم في الباطل وتركهم الحق ، وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح ، فلو أحاط علمًا بهذا ما قال : والله أعلم .

قال القرطبي : وأجمعت الأمة على أن الله ﷻ قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم كما قال : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ وذكر حديث تقليب القلوب : « وَيَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ » (١) وذكر حديث حذيفة الذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ قال : « تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كَالحَصِيرِ عُودًا عُودًا ، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نَكَتَ فِيهِ نُكْتَةً سَوْدَاءَ ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نَكَتَ فِيهِ نُكْتَةً بَيْضَاءَ ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمواتُ والأَرْضُ ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مرْبَادٌّ كَالكُوزِ مُجْخِيًا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا » (٢) وقال ابن جرير : والحق عندي في ذلك ما صح بنظيره الخبر عن رسول الله ﷺ ، فعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَعْتَبَ ؛ صُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُو قَلْبَهُ ؛ فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ » (٣) قال ابن جرير : فأخبر رسول الله ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها ، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع ، فلا يكون للإيمان إليها مسلك ، ولا للكفر عنها مخلص ، فذلك هو الختم والطبع الذي ذكر في قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلَّا بفض ذلك عنها ثم حلها ، فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلا بعد فض خاتمه وحله رباطه عنها .

واعلم أن الوقف التام على قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ جملة تامة فإن الطبع يكون على القلب وعلى السمع ، والغشاوة وهي الغطاء يكون على البصر ، فعن ابن عبَّاس : الغشاوة على أبصارهم ، وقال ابن جريج : الختم على القلب والسمع ، والغشاوة على البصر .

لما تقدم وصف المؤمنين في صدر السورة بأربع آيات ، ثم عرَّف حال الكافرين بهاتين الآيتين ، شرع الله تعالى في بيان حال المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس ، أطنب في ذكرهم بصفات متعددة كل منها نفاق ، كما أنزل سورة براءة فيهم ، وسورة المنافقين فيهم ، وذكرهم في سورة النور وغيرها من السور ، تعريفًا لأحوالهم لتجتنب ويجتنب من تلبس بها .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

النفاق هو إظهار الخير ، وإسرار الشر وهو أنواع : اعتقادي ، وهو الذي يخلد صاحبه في النار ، وعملي وهو من أكبر الذنوب ، قال ابن جريج : المنافق يخالف قوله فعله ، وسره علانيته ، ومدخله مخرجه ، ومشهده مغيبه ، وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكّة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه ، فمن الناس من كان يظهر الكفر مستكرهًا ، وهو في الباطن مؤمن ، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج ، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب ، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم ، وكانوا ثلاث قبائل بنو

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٢٢) وأحمد في مسنده (٢٥١/٦) والحاكم في المستدرك (٢٨٩/٢) .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٣١) والمنذري في الترغيب (٢٣١/٣) .
(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٢٤٤) والحاكم في المستدرك (٥١٧/١) وأحمد في مسنده (٢٩٧/٢) والبيهقي في السنن (١٨٨/١٠) .

قينقاع حلفاء الخزرج ، وبنو النضير ، وبنو قريظة حلفاء الأوس ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج ، وقلة من أسلم من اليهود إلَّا عبد الله بن سلام ﷺ ، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضًا ؛ لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة ، فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته ، وأعز الإسلام وأهله ، قال عبد الله بن أبي ابن سلول وكان رأسًا في المدينة وهو من الخزرج وكان سيد الطائفتين في الجاهلية ، وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم ، فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه ، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله ، فلما كانت وقعة بدر قال : هذا أمر قد توجه فأظهر الدخول في الإسلام ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته ، وآخرون من أهل الكتاب ، فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب ، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد نافق ؛ لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرهًا بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة .

عن ابن عبّاس ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني المنافقين من الأوس والخزرج ، ومن كان على أمرهم ، ولهذا نبّه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون ، فيقع لذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم ، ومن اعتقاد إيمانهم وهو كفار في نفس الأمر ، وهذا من المحذورات الكبار أن يظنَّ بأهل الفجور خير فقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي يقولون ذلك قولًا ليس وراءه شيء آخر .

وقوله تعالى : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان ، مع إسرارهم الكفر ، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك ، وأن ذلك نافعهم عنده ، وأنه يروج عليه ، كما قد يروج على بعض المؤمنين ؛ ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ يقول : وما يغرون بصنيعهم هذا ، ولا يخدعون إلَّا أنفسهم وما يشعرون بذلك من أنفسهم .

عن ابن جريج في قوله تعالى : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ ﴾ قال : يظهرون لا إله إلَّا الله يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم وفي أنفسهم غير ذلك . وقال قتادة : نعت المنافق عند كثير : خنع الأخلاق ، يصدق بلسانه ، وينكر بقلبه ، ويخالف بعمله ، يصبح على حال ويمسي على غيره ، ويمسي على حال ويصبح على غيره ، ويتكفأ تكفؤ السفينة كلما هبت ريح هبت معها .

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ .

عن ابن مسعود وابن عبّاس وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ في هذه الآية ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ قال : شك ﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ قال : شكًا ، وعن طاووس : يعني الرياء . وقال ابن عبّاس : نفاق ﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ قال : نفاقًا وهذا كالأوّل .

وقوله : ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ وقرئ (يكذّبون) (١) وقد كانوا متصفين بهذا وهذا ، فإنهم كانوا كذبة ويكذبون بالغيب يجمعون بين هذا وهذا .

وقد سئل القرطبي وغيره من المفسرين عن حكمة كفّه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين مع

(١) وهي قراءة جمهور القراء (انظر : زاد المسير ٣١/١) .

علمه بأعيان بعضهم ، وذكروا أجوبة عن ذلك منها : أنه ﷺ قال لعمر ﷺ : « أَكْرَهُ أَنْ يَتَحَدَّثَ العَرَبُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ » (١) ومعنى هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تغير لكثير من الأعراب عن الدخول في الإسلام ، ولا يعلمون حكمة قتله لهم ، وأن قتله إياهم إنما هو على الكفر ، فإنهم إنما يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم ، فيقولون : إن محمّدًا يقتل أصحابه ، قال القرطبي : وهذا قول علمائنا وغيرهم كما كان يعطي المؤلفة مع علمه بسوء اعتقادهم . قال ابن عطية : وهي طريقة أصحاب مالك نص عليه محمّد بن الجهم والقاضي إسماعيل والأبهري وعن ابن الماجشون . ومنها : ما قال مالك : إنما كف رسول الله ﷺ عن المنافقين ليبين لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه . قال القرطبي : وقد اتفق العلماء عن بكرة أبيهم على أن القاضي لا يقتل بعلمه ، وإن اختلفوا في سائر الأحكام قال : ومنها ما قال الشافعي : إنما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم ؛ لأن ما يظهرونه يجبّ ما قبله . ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَإِذَا قَالُوها ؛ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ ﷻ » (٢) ومعنى هذا : أن من قالها جرت عليه أحكام الإسلام ظاهرًا ، فإن كان يعتقدها وجد ثواب ذلك في الدار الآخرة ، وإن لم يعتقدها لم ينفعه جريان الحكم عليه في الدنيا . ومنها ما قاله بعضهم أنه : إنما لم يقتلهم لأنه كان لا يخاف من شرهم مع وجوده ﷺ بين أظهرهم ، يتلو عليهم آيات الله مبينات ، فأما بعده فيقتلون إذا أظهروا النفاق وعلمه المسلمون قال مالك : المنافق في عهد رسول الله ﷺ هو الزنديق اليوم .

قلت : وقد اختلف العلماء في قتل الزنديق إذا أظهر الكفر هل يستتاب أم لا ، أو يفرق بين أن يكون داعية أم لا ، أو يتكرر منه ارتداده أم لا ، أو يكون إسلامه ورجوعه من تلقاء نفسه أو بعد أن ظهر عليه ؟

تنبيه : قول من قال : كان عليه الصلاة والسلام يعلم أعيان بعض المنافقين ، إنما مستنده حديث حذيفة ابن اليمان في تسمية أولئك الأربعة عشر منافقًا في غزوة تبوك الذين هموا أن يفتكوا برسول الله ﷺ في ظلماء الليل عند عقبة هناك ، عزموا على أن ينفروا به الناقة ليسقط عنها ، فأوحى الله إليه أمرهم فأطلع على ذلك حذيفة ، ولعل الكف عن قتلهم كان لمدرك من هذه المدارك أو لغيرها والله أعلم .

فأما غير هؤلاء فقد قال الله تعالى : ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴾ ففيها دليل على أنه لم يغر بهم ، ولم يدرك على أعيانهم ، وإنما كان تذكر له صفاتهم فيتوسمها في بعضهم كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ وقد كان من أشهرهم بالنفاق عبد الله بن أبي ابن سلول ، وقد شهد عليه زيد بن أرقم بذلك الكلام الذي سبق في صفات المنافقين ، ومع هذا لما مات صلى عليه النبيّ ﷺ وشهد دفنه ، كما يفعل ببقية المسلمين ، وقد عاتبه عمر بن الخطاب ﷺ فيه فقال : « إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ تَتَحَدَّثَ العَرَبُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ » .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٣٣/٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٤) ومسلم في الإيمان (٣٦) والنسائي في السنن (٦/٦ ، ٧) .

عن ابن مسعود قال : هم المنافقون ، أما ﴿ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ قال : الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية ، وعن أبي العالية في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ قال : يعني لا تعصوا في الأرض وكان فسادهم ذلك معصية الله ؛ لأنه من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصيته فقد أفسد في الأرض ؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ قال مجاهد : إذا ركبوا معصية الله فقيل لهم : لا تفعلوا كذا وكذا قالوا : إنما نحن على الهدى مصلحون . وعن سلمان الفارسي في هذه الآية قال : ما جاء هؤلاء . قال ابن جرير : يحتمل أن سلمان ﷺ أراد بها أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فسادًا من الذين كانوا في زمن النبي ﷺ لا أنه عنى أنه لم يمض ممن تلك صفته أحد ، قال ابن جرير : فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم ، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه ، وتضييعهم فرائضه ، وشكّهم في دينه الذي لا يقبل من أحد عمل إلّا بالتصديق به ، والإيقان بحقيقته ، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم مقيمون من الشك والريب ، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلًا ، فذلك إفساد المنافقين في الأرض ، وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ أي نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ قال ابن عباس : ألا إن هذا الذي يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد ، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فسادًا .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ ﴾ للمنافقين ﴿ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ ﴾ أي كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنّة والنار ، وغير ذلك مما أخبر المؤمنين به وعنه ، وأطيعوا الله ورسوله في امتثال الأوامر وترك الزواجر ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ يعنون - لعنهم الله - أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم ، يقولون : أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء ؟ والسفهاء جمع سفيه ؛ لأن الحكماء جمع حكيم والحلماء جمع حليم . والسفيه : هو الجاهل الضعيف الرأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار ، وقد تولّى سبحانه جوابهم في هذه المواطن كلها فقال : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ فأكد وحصر السفاهة فيهم ﴿ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ يعني ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل ، وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى والبعد عن الهدى .

﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

يقول تعالى : وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا : آمنا وأظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافات غرورًا منهم للمؤمنين ونفاقًا ومصانعة وتقية ، وليشركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ ﴾ يعني إذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم ، فضمّن خلوا معنى انصرفوا لتعديته بإلى ليدل على الفعل المضمر والفعل الملفوظ به ، ومنهم من قال : (إلى) هنا بمعنى (مع) والأول أحسن ، وقال أبو مالك : ﴿ خَلَوْاْ ﴾ يعني مضوا و ﴿ شَيَٰطِينِهِمْ ﴾ سادتهم و كبراؤهم ورؤساؤهم من أحبار اليهود

ورؤوس المشركين والمنافقين . وعن ناس من أصحاب النبيّ ﷺ ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ ﴾ : يعني هم رؤساؤهم في الكفر . وقال الضحاك عن ابن عباس : وإذا خلوا إلى أصحابهم وهم شياطينهم . وقوله تعالى : ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ أي إنا على مثل ما أنتم عليه ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعب بهم . وعن ابن عبّاس : قالوا إنما نحن مستهزئون ساخرون بأصحاب محمّد ﷺ .

وقوله تعالى جوابًا لهم ومقابلة لهم على صنيعهم : ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أخبر تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ ﴾ الآية ، قال : فهذا وما أشبهه من استهزاء اللَّه تعالى ذكره وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين ، وأهل الشرك به عند قائل هذا القول ، وقال آخرون : بل استهزاؤه بهم توبيخه إياهم ولومه لهم على ما ركبوا من معاصيه والكفر به . وقال آخرون : إن معنى ذلك أن اللَّه أخبر عن المنافقين أنهم إذا دخلوا إلى مردتهم قالوا : إنا معكم على دينكم في تكذيب محمّد ﷺ وما جاء به ، وإنما نحن بما نظهر لهم من قولنا لهم مستهزئون ، فأخبر تعالى أنه يستهزئ بهم فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا يعني من عصمة دمائهم وأموالهم خلاف الذي لهم عنده في الآخرة ، يعني من العذاب والنكال . ثم شرع ابن جرير يوجه هذا القول وينصره ؛ لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن اللَّه ﷻ بالإجماع ، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبيّ ﷺ : يمدهم يملي لهم . وقال مجاهد : يزيدهم ، قال ابن جرير : والصواب نزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عتوهم وتمردهم ، والطغيان هو المجاوزة في الشيء . وقال ابن جرير : والعمه : الضلال يقال : عمه فلان يعمه عمهًا وعموهًا إذا ضل ، قال : وقوله ﴿ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ في ضلالتهم وكفرهم الذي غمرهم دنسه وعلاهم رجسه ، يترددون حيارى ضلالًا لا يجدون إلى المخرج منه سبيلًا ؛ لأن اللَّه قد طبع على قلوبهم وختم عليها وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها ، فلا يبصرون رشدًا ولا يهتدون سبيلًا . وقال بعضهم : العمى في العين والعمه في القلب وقد يستعمل العمى في القلب أيضًا .

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ .

عن ابن عبّاس ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ أي الكفر بالإيمان . وقال مجاهد : آمنوا ثم كفروا . وقال قتادة : استحبوا الضلالة على الهدى . وحاصل قول المفسرين فيما تقدّم : أن المنافقين عدلوا عن الهدى إلى الضلال ، واعتاضوا عن الهدى بالضلالة ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ أي بذلوا الهدى ثمنًا للضلالة وسواءً في ذلك من كان قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر ، أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى ، كما يكون حال فريق آخر منهم ، فإنهم أنواع وأقسام ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ أي ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة ، وما كانوا مهتدين أي راشدين في صنيعهم ذلك ، وقال قتادة : قد واللَّه رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة ، ومن الجماعة إلى الفرقة ، ومن الأمن إلى الخوف ، ومن السنّة إلى البدعة .

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ .

يقال : مَثَل ومِثْل ومثيل والجمع أمثال ، وتقدير هذا المثل : أن اللَّه سبحانه شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى ، بمن استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها ، وأبصر بها ما عن يمينه وشماله ، وتأنس بها ، فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره ، وصار في ظلام شديد ، لا يبصر ولا يهتدي ، وهو مع هذا فهو أصم لا يسمع ، أبكم لا ينطق ، أعمى لو كان ضياء لما أبصر ، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك ، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضًا عن الهدى ، واستحبابهم الغي على الرشد ، وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا ، كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع ، واللَّه أعلم .

وقال بعضهم : تقدير الكلام مثَّل قصتهم كقصة الذين استوقدوا نارًا .

قلت : وقد التفت في أثناء المثل من الواحد إلى الجمع في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ۝ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ وهذا أفصح في الكلام وأبلغ في النظام ، وقوله تعالى : ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ أي ذهب عنهم بما ينفعهم وهو النور ، وأبقى لهم ما يضرهم وهو الإحراق والدخان ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ ﴾ وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق ﴿ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ لا يهتدون إلى سبيل خير ولا يعرفونها وهم مع ذلك ﴿ صُمٌّ ﴾ لا يسمعون خيرًا ﴿ بُكْمٌ ﴾ لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿ عُمْيٌ ﴾ في ضلالة وعماية البصيرة فلهذا ﴿ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ إلى ما كانوا عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة .

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۝ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

هذا مثل آخر ضربه اللَّه تعالى لضرب آخر من المنافقين ، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة ، ويشكون تارة أُخرى ، فقلوبهم في حال شكّهم وكفرهم وترددهم ﴿ كَصَيِّبٍ ﴾ والصيب المطر ، وقال الضحاك : هو السحاب ، والأشهر : هو المطر نزل من السماء في حال ظلمات : وهي الشكوك والكفر والنفاق ، ورعد : وهو ما يزعج القلوب من الخوف ، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع .

والبرق : هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان ، ولهذا قال : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أي ولا يجدي عنهم حذرهم شيئًا ؛ لأن اللَّه محيط بقدرته ، وهم تحت مشيئته وإرادته ثم قال : ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ أي لشدته وقوته في نفسه وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للإيمان . وقال ابن عبّاس : يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين ؛ لشدة ضوء الحق ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾ أي كلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به واتبعوه ، وتارة تعرض لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين . وقال ابن عبّاس ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ﴾ يقول : كلما أصاب المنافقين من عز الإسلام اطمأنوا إليه ، وإذا أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر ، يعرفون الحق ويتكلّمون به فهم من قولهم به على استقامة ، فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا أي متحيرين . وهكذا يكونون يوم القيامة عندما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم ، فمنهم من يعطى من النور ما يضيء له مسيرة فراسخ وأكثر

من ذلك ، وأقل من ذلك ، ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضيء أخرى ، ومنهم من يمشي على الصراط تارة ويقف أخرى ، ومنهم من يطفأ نوره بالكلية وهم الخلص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ .

فتلخص من ذلك : أن المؤمنين صنفان : مقربون وأبرار ، وأن الكافرين صنفان دعاة ومقلدون ، وأن المنافقين أيضًا صنفان : صنف منافق خالص ، ومنافق فيه شعبة من نفاق ، فعن عبد الله بن عمرو عن النبيّ ﷺ « ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ » (١) استدلوا به على أن الإنسان قد تكون فيه شعبة من إيمان وشعبة من نفاق ، وعن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ ؛ قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يُزْهِرُ ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلافِهِ ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ ، وَقَلْبٌ مُصفحٌ ، فَأَمَّا الْقَلْبُ الأَجْرَدُ فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ فَسِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الأَغْلَفُ فَقَلْبُ الكَافِرِ ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ الخَالِصِ ، عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصفحُ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ ، وَمَثَلُ الإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ البَقْلَةِ يُمِدُّهَا المَاءُ الطَّيِّبُ ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ القَرْحَةِ يُمِدُّهَا القَيْحُ والدَّمُ ، فَأَيُّ المَادَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قال ابن عبّاس : لما تركوا من الحق بعد معرفته ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وعنه : أي إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير . وقال ابن جرير : إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع ؛ لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته ، وأخبرهم أنه بهم محيط ، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير ، ومعنى قدير قادر ، كما معنى عليم عالم ، وذهب ابن جرير ومن تبعه من كثير من المفسّرين إلى أن هذين المثلين مضروبان لصنف واحد من المنافقين .

قلت : وهذا يكون باعتبار جنس المنافقين فإنهم أصناف ، ولهم أحوال وصفات ، كما ذكرها الله تعالى في سورة براءة يذكر أحوالهم وصفاتهم ، فجعل هذين المثلين لصنفين منهم أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم ، والله أعلم ، كما ضرب المثلين في سورة النور لصنفي الكفار الدعاة والمقلّدين في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ إلى أن قال : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾ الآية فالأول للدعاة الذين هم في جهل مركب ، والثاني لذوي الجهل البسيط من الأتباع المقلّدين .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود ، وإسباغه عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة ، بأن جعل لهم الأرض فراشًا أي مهدًا كالفراش مقررة

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٤) ومسلم في الإيمان (١٠٦) والترمذي في السنن (٢٦٣٢) وأحمد في مسنده (١٨٩/٢) جميعهم بلفظ « أربع من كن فيه » وليس « ثلاث » .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧/٣) والطبراني في الصغير (١١٠/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦٣/١) .

موطأة ، مثبتة كالرواسي الشامخات ، والسماء بناء وهو السقف ، وأنزل لهم من السماء ماء ، والمراد به السحاب ههنا في وقته عند احتياجهم إليه ، فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد ، رزقًا لهم ولأنعامهم كما قرر هذا في غير موضع من القرآن ، ومضمونه : أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم ، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره ، ولهذا قال : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ عن ابن مسعود قال : قلت : يا رسول اللّه أي الذنب أعظم عند اللّه ؟ قال : « أَنْ تَجْعَلَ للّه نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ » (١) . وعن معاذ : « أتدري ما حقّ اللّه على عباده ؟ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » (٢) . وعن الطفيل بن سخبرة أخي عائشة أم المؤمنين لأمها قال : رأيت فيما يرى النائم كأني على نفر من اليهود فقلت من أنتم ؟ قالوا : نحن اليهود ، قلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : عزيرًا ابن اللّه ، قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء اللّه وشاء محمّد ، قال : ثم مررت بنفر من النصارى فقلت : من أنتم ؟ قالوا : نحن النصارى ، قلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : المسيح ابن اللّه ، قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء اللّه وشاء محمّد ، فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ، ثم أتيت النبيّ ﷺ فأخبرته فقال : « هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا ؟ » قلت : نعم ، فقام فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال : « أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا فَلاَ تَقُولُوا : مَا شَاءَ اللّه وَشَاءَ مُحَمَّدٌ ، وَلَكِنْ قُولُوا : مَا شَاءَ اللّه وَحْدَهُ » (٣) .

عن ابن عبّاس قال : قال اللّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ للفريقين جميعًا من الكفّار والمنافقين ، أي وحدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم . وعنه في قول اللّه ﷻ ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ قال : الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل ، وهو أن يقول : واللّه وحياتك يا فلان وحياتي ، ويقول : لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة ، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه : ما شاء اللّه وشئت ، وقول الرجل : لولا اللّه وفلان لا تجعل فيها فلان .

ذِكْرُ حَدِيثٍ فِي مَعنى هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَة

عن الحارث الأشعري أن نبيَّ اللّه ﷺ قال : « إِنَّ اللّه عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ يَحْيَى بنَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلامُ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ ، وأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ ، وَأَنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِىءَ بِهَا ، فَقَالَ لَهُ عِيسَى عليه السلام : إِنَّكَ قَدْ أُمِرتَ بِخَمْسِ كلمات أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ ، وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ ، فَإِمَّا أَنْ تُبَلِّغَهُنَّ وَإِمَّا أَنْ أُبَلِّغُهُنَّ ؟ فَقَالَ : يَا أَخِي إِنِّي أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أُعَذَّبَ أَوْ يُخْسَفَ بِي ، قَالَ : فَجَمَعَ يَحْيَى بنُ زَكَرِيا بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ المَقْدِسِ حَتَّى امْتَلأَ المَسْجِدُ ، فَقَعَدَ عَلَى الشَّرَفِ فَحَمِدَ اللّه وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّ اللّه أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ . أَوَّلُهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللّه وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِوَرِقٍ أَوْ ذَهَبٍ ، فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي غَلَّتَهُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ ، فَأَيُّكُمْ يَسُرُّهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ ؟ وَإِنَّ اللّه خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فَاعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا . وَأَمَرَكُمْ بِالصَّلاَةِ ، فَإِنَّ اللّه

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٦١) ومسلم في الإيمان (١٤١) والنسائي في السنن (٩٠/٧) والترمذي في السنن (٣١٨٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٤/٥) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٧٢/٥) والطبراني في الكبير (٣٨٩/٨) .

يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلاَ تَلْتَفِتُوا . وَأَمَرَكُمْ بِالصِّيَامِ ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ مَعَهُ صرَّةٌ مِنْ مِسْكٍ فِي عِصَابَةٍ كُلُّهُمْ يَجِدُ رِيحَ المِسْكِ ، وَإِنَّ خَلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ . وَأَمَرَكُمْ بِالصَّدَقَةِ فَإِنَّ مَثَلَ ذلك كمثل رَجُلٍ أَسَرَهُ العَدُوُّ فَشَدُّوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ ، وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ ، وَقَالَ لَهُمْ : هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْتَدِيَ نَفْسِي مِنْكُمْ ؟ فَجَعَلَ يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ . وَأَمَرَكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ العَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ فَأَتَى حِصْنًا حَصِينًا فَتَحَصَّنَ فِيهِ ، وَإِنَّ العَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ » قال : وقال رسول اللَّه ﷺ : « وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ ، اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ : الجَمَاعَةُ وَالسَّمْعُ وَالطَّاعَةُ والهِجْرَةُ والجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ الجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلاَمِ مِنْ عُنُقِهِ ، إِلَّا أَنْ يُرَاجِعَ ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى جَاهِلِيَّةٍ فَهُوَ جِثِيُّ جَهَنَّمَ » قالوا : يا رسول اللَّه وإن صام وصلّى ؟ فقال : « وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ فَادْعُوا المُسْلِمِينَ بِأَسْمَائِهِمْ عَلَى مَا سَمَّاهُمُ اللَّهُ عَجَلَّ المُسْلِمِينَ المُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ » (١) .

وعن أبي حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى فقال لهم : دعوني فإني مفكر في أمر قد أخبرت عنه ، ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر ، وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها ، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها ، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد ، فقالوا : هذا شيء لا يقوله عاقل ! فقال : ويحك هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي ، وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ، ليس لها صانع ! فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه . وعن الشافعي أنه سئل عن وجود الصانع فقال : هذا ورق التوت طعمه واحد ، تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم ، وتأكله النحل فيخرج منه العسل ، وتأكله الشاة والبقر والأنعام فتلقيه بعرًا وروثًا ، وتأكله الظباء فيخرج منها المسك وهو شيء واحد . وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد :

تَأَمَّلْ فِي نَبَاتِ الأَرْضِ وَانْظُرْ ... إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ المَلِيكُ
عُيُونٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ ... بِأَحْدَاقٍ هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ
عَلَى قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ ... بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلّا هو ، فقال مخاطبًا للكافرين : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ يعني محمدًا ﷺ ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ ﴾ من مثل ما جاء به ، إن زعمتم أنه من عند غير اللَّه فعارضوه بمثل ما جاء به ، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون اللَّه ، فإنكم لا تستطيعون ذلك . قال ابن عبّاس : شهداءكم أعوانكم . وقال أبو مالك : شركاءكم أي قومًا آخرين يساعدونكم على ذلك ، أي استعينوا بآلهتكم في ذلك يمدونكم وينصرونكم . وقد تحدّاهم اللَّه تعالى بهذا في غير موضع من القرآن

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٦٣) والحاكم في المستدرك (١١٨/١) ، وأحمد في مسنده (٢٠٢/٤) .

فقال في سورة القصص : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ وقال في سورة سبحان : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ وقال في سورة هود : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ وكل هذه الآيات مكية ، ثم تحدّاهم بذلك أيضًا في المدينة فقال في هذه الآية : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ ﴾ أي شك ﴿ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ يعني محمّدًا ﷺ ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ يعني من مثل القرآن ، فإنه تحداهم كلهم متفرقين ومجتمعين سواء في ذلك أميهم وكتابيهم ، وذلك أكمل في التحدي وأشمل من أن يتحدى آحادهم الأميين ، ممن لا يكتب ولا يعاني شيئًا من العلوم ، ولهذا قال تعالى ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ أي ولن تفعلوا ذلك أبدًا ، وهذه أيضًا معجزة أخرى ، وهو أنه أخبر خبرًا جازمًا مقدمًا غير خائف ولا مشفق ، أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين ، ودهر الداهرين ، وكذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ، ولا يمكن ، وأنّى يتأتى ذلك لأحد . والقرآن كلام اللَّه خالق كل شيء ، وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين ، ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونًا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ، ومن جهة المعنى قال اللَّه تعالى : ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه ، أو بالعكس على الخلاف ، فكلّ من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذى ولا يداني ، فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ، ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء ، وأمر بكل خير ونهى عن كل شر ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ أي صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام ، فكله حق وصدق وعدل وهدى ، ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء ، كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلَّا بها ، كما قيل في الشعر : إن أعذبه أكذبه ، وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو الخمر أو في مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة أو مخافة أو سبع أو شيء من المشاهدات المتعينة ، التي لا تفيد شيئًا إلَّا قدرة المتكلم المعين على الشيء الخفي أو الدقيق ، أو إبرازه إلى الشيء الواضح ، ثم تجد له فيه بيتًا أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد وسائرها هذر لا طائل تحته .

وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلًا وإجمالًا ، ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير ، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة ، سواء كانت مبسوطة أو وجيزة ، وسواء تكررت أم لا ، وكلما تكرّر حلا وعلا ، لا يخلق عن كثرة الرد ، ولا يمل منه العلماء ، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات ، فما ظنك بالقلوب الفاهمات ، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان ، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن ، وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي اشتملت على الأمر بكل معروف ، حسن نافع ، طيب محبوب ، والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء ، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف : إذا سمعت اللَّه تعالى يقول في القرآن : يا أيها الذين آمنوا فأرعها سمعك فإنها خير يأمر به أو شر ينهى عنه ، وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال ، وفي وصف الجنّة والنار وما أعد اللَّه فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم بشرت به وحذرت وأنذرت ، ودعت إلى فعل

الخيرات واجتناب المنكرات ، وزهدت في الدنيا ورغبت في الأخرى ، وثبتت على الطريقة المثلى ، وهدت إلى صراط الله المستقيم ، وشرعه القويم ، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم . فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ البَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ » (١) وقوله ﷺ : « وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا » أي الذي اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه بخلاف غيره من الكتب الإلهية ، فإنها ليست معجزة عند كثير من العلماء .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أما الوقود فهو ما يلقى في النار لإضرامها كالحطب ونحوه ، والمراد بالحجارة ههنا : هي حجارة الكبريت ، العظيمة السوداء الصلبة المنتنة ، وهي أشد الأحجار حرًا إذا حميت أجارنا الله منها ، كما قال عبد الله بن مسعود وغيره .

وقوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ الأظهر أن الضمير في أعدت عائد إلى النار التي وقودها الناس والحجارة ، ويحتمل عوده إلى الحجارة كما قال ابن مسعود ، ولا منافاة بين القولين في المعنى ، لأنهما متلازمان . و ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ أي أرصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله ، قال ابن عبّاس : أي لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر . وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ أي أرصدت وهيئت ، وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك منها « تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ » (٢) وغير ذلك من الأحاديث المتواترة في هذا المعنى .

تَنبيهٌ يَنبَغِي الوُقُوفُ عَلَيهِ

قوله تعالى : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ وقوله في سورة يونس ﴿ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ يعم كل سورة في القرآن ، طويلة كانت أو قصيرة ؛ لأنها نكرة في سياق الشرط ، فتعم كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين ، كما هو مقرر في موضعه ، فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها ، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعًا بين الناس سلفًا وخلفًا ، وقد قال الرازي في تفسيره : فإن قيل : قوله تعالى ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ يتناول سورة الكوثر وسورة العصر وقل يا أيها الكافرون ، ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله ، أو بما يقرب منه ، ممكن . فإن قلتم : إن الإتيان بمثل هذه السور خارج عن مقدار البشر ، كان مكابرة ، والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق بالتهمة إلى الدين قلنا : فلهذا السبب اخترنا الطريق الثاني ، وقلنا : إن بلغت هذه السورة في الفصاحة حد الإعجاز ، فقد حصل المقصود ، وإن لم يكن كذلك كان امتناعهم من المعارضة مع شدة دواعيهم إلى تهوين أمره معجزًا ، فعلى التقديرين يحصل المعجز ، هذا لفظه بحروفه . والصواب أن كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها ، طويلة كانت أو قصيرة . قال الشافعي رحمه الله : لو تدبّر الناس هذه السورة لكفتهم ﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ وقد روينا عن عمرو بن العاص أنه وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم ، فقال له مسيلمة : ماذا أنزل على

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥١/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٥٠) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٦) وأحمد في مسنده (٣١٤/٢) .

صاحبكم بمكة في هذا الحين ؟ فقال له عمرو : لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة ، فقال : وما هي ؟ فقال : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ ففكر ساعة ثم رفع رأسه فقال : ولقد أنزل عليّ مثلها فقال : وما هو ؟ فقال : يا وبر يا وبر إنما أنت أذنان وصدر وسائرك حقر فقر ، ثم قال : كيف ترى يا عمرو فقال له عمرو : والله إنك لتعلم أنك لأعلم أن تكذب .

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى ما أعده لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال ، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله ، الذين صدَّقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة ، وهذا معنى تسمية القرآن مثاني ، وهو أن يذكر الإيمان ويتبع بذكر الكفر أو عكسه ، أو السعداء ثم الأشقياء أو عكسه ، وحاصله ذكر الشيء ومقابله . قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ فوصفها بأنها تجري من تحتها الأنهار ، أي من تحت أشجارها وغرفها وفي الحديث : « أَنْهَارُ الجَنَّةِ تَفَجَّرُ مِنْ تَحْتِ تِلاَلٍ ، أَوْ مِنْ تَحْتِ جِبَالِ المِسْكِ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ عن ابن عبّاس وابن مسعود وناس من الصحابة قالوا : هذا الذي رزقنا من قبل ، قال : إنهم أتوا بالثمرة في الجنّة فلما نظروا إليها قالوا : هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا . وقال عكرمة : ﴿ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ : معناه مثل الذي كان بالأمس . ﴿ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ يؤتى أحدهم بالصحفة من الشيء فيأكل منها ، ثم يؤتى بأخرى فيقول : هذا الذي أتينا به من قبل ، فتقول الملائكة : كُلْ فاللون واحد والطعم مختلف . وهو قول الله تعالى : ﴿ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ وقال أبو العالية : يشبه بعضه بعضًا ، ويختلف في الطعم . وقال عبد الرَّحمن بن يزيد بن أسلم : يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا ، التفاح بالتفاح ، والرمان بالرمان ، قالوا في الجنة : هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا ، وأتوا به متشابهًا يعرفونه ، وليس هو مثله في الطعم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ أي من القذر والأذى . وقال مجاهد : من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمني والولد .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ هذا هو تمام السعادة ، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع ، فلا آخر له ، ولا انقضاء ، بل في نعيم سرمدي أبدي على الدوام .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

عن ابن عبّاس وابن مسعود وناس من الصحابة : لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين ، قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال ، فأنزل الله هذه الآية إلى قوله تعالى : ﴿ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ وعن

(١) ذكره الهيثمي في موارد الظمآن (٢٦٢٢) .

قتادة : لما ذكر الله تعالى العنكبوت والذباب ، قال المشركون : ما بال العنكبوت والذباب يذكران ؟ فأنزل الله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ وعن الربيع بن أنس في هذه الآية قال : هذا مثل ضربه الله للدنيا أن البعوضة تحيا ما جاعت ، فإذا سمنت ماتت ، وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب لهم هذا المثل في القرآن ، إذا امتلأوا من الدنيا رِيًّا أخذهم الله عند ذلك ، فهذا اختلافهم في سبب النزول . وقد اختار ابن جرير ما حكاه السدي ، لأنه أمس بالسورة وهو مناسب ، ومعنى الآية : أنه تعالى أخبر أنه لا يستحيي أي لا يستنكف ، وقيل : لا يخشى ، أن يضرب مثلًا ما ؛ أي : أيَّ مثل كان ، بأي شيء كان ، صغيرًا كان أو كبيرًا ، وما ههنا للتقليل ، وتكون ﴿ بَعُوضَةً ﴾ منصوبة على البدل ، كما تقول : لأضربن ضربًا ما ، فيصدق بأدنى شيء ، أو تكون ﴿ مَّا ﴾ نكرة موصوفة ببعوضة ، واختار ابن جرير أن ﴿ مَّا ﴾ موصولة ، و ﴿ بَعُوضَةً ﴾ معربة بإعرابها ، قال : وذلك سائغ في كلام العرب ؛ أنهم يعربون صلة ما ومن بإعرابهما ؛ لأنهما يكونان معرفة تارة ونكرة أخرى ، كما قال حسان بن ثابت :

يَكْفِي بِنَا فَضْلًا عَلَى منْ غَيْرِنا حبُّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ إِيَّانا

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ فيه قولان : أحدهما : فما دونها في الصغر والحقارة ، كما إذا وصف رجل باللؤم والشح ، فيقول السامع : نعم ، وهو فوق ذلك - يعني فيما وصفت - والثاني : فما فوقها لما هو أكبر منها ؛ لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة ، وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فوقها إِلَّا كُتِبَ لَهُ بها دَرَجَةٌ ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ » (١) فأخبر أنه لا يستصغر شيئًا يضرب به مثلًا ، ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة ، كما لا يستنكف عن خلقها ، كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بها ، كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ وفي القرآن أمثال كثيرة : قال بعض السلف إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لأن الله قال : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ الأمثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون ويعلمون أنها الحق من ربهم ويهديهم الله بها .

وقال قتادة : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ أي يعلمون أنه كلام الرحمن ، وأنه من عند الله . وقال أبو العالية : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ يعني هذا المثل .

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة : يضل به كثيرًا ، يعني به المنافقين ، ويهدي به كثيرًا ، يعني به المؤمنين ، فيزيد هؤلاء ضلالة إلى ضلالتهم لتكذيبهم بما قد علموه حقًّا يقينًا من المثل الذي ضربه الله بما ضرب لهم ، وأنه لما ضرب له موافق ، فذلك إضلال الله إياهم به ، ويهدي به - يعني المثل - كثيرًا من أهل الإيمان والتصديق ، فيزيدهم هدى إلى هداهم ، وإيمانًا لتصديقهم بما قد علموه حقًّا يقينًا أنه موافق لما ضربه الله له مثلًا ، وإقرارهم به ، وذلك هديًا من الله لهم به ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ : هم

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٢٦) والطبراني في الصغير (١/٢٥٠) .

المنافقون . وعن مصعب بن سعد قال : سألت أبي فقلت : قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ إلى آخر الآية ، فقال : هم الحرورية . وهذا الإسناد وإن صح عن سعد بن أبي وقاص ، فهو تفسير على المعنى ، لا أن الآية أريد منها التنصيص على الخوارج الذين خرجوا على عليٍّ بالنهروان ، فإن أولئك لم يكونوا حال نزول الآية ، وإنما هم داخلون بوصفهم فيها مع من دخل ؛ لأنهم سموا خوارج لخروجهم عن طاعة الإمام والقيام بشرائع الإسلام ، والفاسق في اللغة هو الخارج عن الطاعة أيضًا ، وتقول العرب : فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها ، ولهذا يقال للفأرة : فويسقة لخروجها عن جحرها للفساد . وثبت عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « خَمْس فَوَاسِق يُقْتَلْنَ فِي الحِلِّ وَالحَرَمِ ؛ الغُرَابُ والحِدَأَةُ والعَقْرَبُ والفَأْرَةُ وَالكَلْبُ العَقُورُ » (١) فالفاسق يشمل الكافر والعاصي ولكن فسق الكافر أشد وأفحش ، والمراد به من الآية الفاسق الكافر بدليل أنه وصفهم بقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ وهذه الصفات صفات الكفّار المباينة لصفات المؤمنين .

وقد اختلف أهل التفسير في معنى العهد الذي وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه ، فقال بعضهم : هو وصية الله إلى خلقه ، وأمره إيّاهم بما أمرهم به من طاعته ، ونهيه إيّاهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه وعلى لسان رسله ، ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به .

وقال آخرون : بل هي في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم ، وعهد الله الذي نقضوه هو ما أخذه الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها ، واتباع محمَّد ﷺ إذا بعث ، والتصديق به بما جاء به من عند ربهم ، ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته ، وإنكارهم ذلك وكتمانهم علم ذلك على الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبيننه للناس ولا يكتمونه ، فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلًا .

وقال آخرون : بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق ، وعهده إلى جميعهم في توحيده ما وضع لهم من الأدلة على ربوبيته ، وعهده إليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثله ، الشاهدة لهم على صدقهم ، قالوا : ونقضهم ذلك تركهم الإقرار بما قد تبينت لهم صحته بالأدلة ، وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق . وقال آخرون : العهد الذي ذكره تعالى هو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذي وصِف في قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ ﴾ ونقضهم ذلك تركهم الوفاء به .

قال أبو العالية : هي ست خصال من المنافقين ، إذا كانت فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال : إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا اؤتمنوا خانوا ، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وأفسدوا في الأرض ، وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الخصال الثلاث : إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا اؤتمنوا خانوا . وقوله : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ قيل : المراد به صلة الأرحام والقرابات . وقيل : المراد أعم من ذلك فكل ما أمر الله بوصله وفعله ، فقطعوه وتركوه .

(١) أخرجه البخاري في جزاء الصيد (١٨٢٩) ومسلم في الحج (٧٣) والنسائي في السنن (٥/٢١٠) وأحمد في مسنده (٦/١٦٤) .

وقال مقاتل بن حيان في قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ قال : في الآخرة ، وقال ابن عبّاس : كل شيء نسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسر فإنما يعني به الكفر ، وما نسبه إلى أهل الإسلام فإنما يعني به الذنب . وقال ابن جرير : الخاسرون هم الناقصون أنفسهم حظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته ، كما يخسر الرجل في تجارته بأن يضع من رأس ماله في بيعه ، وكذلك المنافق والكافر خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة ، أحوج ما كانوا إلى رحمته .

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى محتجًا على وجوده وقدرته وأنه الخالق المتصرف في عباده : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ أي كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ﴾ أي وقد كنتم عدمًا فأخرجكم إلى الوجود . عن ابن عبّاس : كنتم أمواتًا في أصلاب آبائكم لم تكونوا شيئًا حتى خلقكم ، ثم يميتكم موتة الحق ، ثم يحييكم حين يبعثكم قال : وهي مثل قوله ﴿ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ قال : كنتم ترابًا قبل أن يخلقكم فهذه ميتة ، أحياكم فخلقكم فهذه حياة ، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى ، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى : فهذه ميتتان وحياتان ، فهو كقوله : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

لما ذكر تعالى دلالة من خلقهم وما يشاهدونه من أنفسهم ، ذكر دليلًا آخر مما يشاهدونه من خلق السموات والأرض فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ أي قصد إلى السماء ، والاستواء ههنا متضمن معنى القصد والإقبال ؛ لأنه عدي بإلى فسواهن أي فخلق السماء سبعًا ، والسماء ههنا اسم جنس فلهذا قال : ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي وعلمه محيط بجميع ما خلق ، كما قال : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ وتفصيل هذه الآية في سورة السجدة وهو قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ ففي هذا دلالة على أنه تعالى ابتدأ بخلق الأرض أولًا ، ثم خلق السموات سبعًا ، وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك ، فقد قيل : إن ثم ههنا إنما هي لعطف الخبر على الخبر ، لا لعطف الفعل على الفعل كما قال الشاعر :

قُـلْ لِمَنْ سَـادَ ثُـمَّ سَـادَ أَبُـوهُ ثُـمَّ قَـدْ سَـادَ قَبْـلَ ذَلِـكَ جَـدُّهْ

قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ قال : خلق الله الأرض قبل السماء ، فلما خلق الأرض ثار منها دخان فذلك حين يقول : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ قال : بعضهن فوق بعض ، وسبع أرضين يعني بعضها تحت بعض ، وهذه الآية دالة على أن الأرض خلقت قبل السماء كما قال في آية السجدة : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي

أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ فهذه وهذه دالتان على أن الأرض خلقت قبل السماء ، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعًا بين العلماء ، إلَّا ما نقله ابن جرير عن قتادة أنه زعم أن السماء خلقت قبل الأرض ، وقد توقف في ذلك القرطبي في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ قالوا : فذكر خلق السماء قبل الأرض . وفي صحيح البخاري أن ابن عبّاس سئل عن هذا بعينه ، فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء ، وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء . وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديمًا وحديثًا ، وعن أبي هريرة قال : أخذ رسول اللَّه ﷺ بيدي فقال : « خَلَقَ اللَّه التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ ، وَخَلَقَ الجِبَالَ فِيهَا يَوْمَ الأَحَدِ ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ فِيهَا يَوْمَ الاثْنَيْنِ ، وَخَلَقَ المَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلاثَاءِ ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبعَاءِ ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الخَمِيسِ ، وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ العَصْرِ يَوْمَ الجُمُعَةِ ، مِنْ آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ العَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ »(١) .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

يخبر تعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ أي واذكر يا محمّد إذ قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك . ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ أي قومًا يخلف بعضهم بعضًا ، قرنًا بعد قرن وجيلًا بعد جيل ، وليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط كما يقوله طائفة من المفسرين ، بل الخلاف في ذلك كثير ، والظاهر أنه لم يرَ آدم عينًا ، إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك ، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص ، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية ، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمأ مسنون ، أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم ، قاله القرطبي ، أو أنهم قاسوهم على من سبق كما سنذكر أقوال المفسرين في ذلك .

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على اللَّه ولا على وجه الحسد لبني آدم ، كما قد يتوهمه بعض المفسرين ، وقد وصفهم اللَّه تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول أي لا يسألونه شيئًا لم يأذن لهم فيه ، وههنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقًا . قال قتادة : وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها فقالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ الآية ، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك يقولون : يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء ، فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك ، أي نصلّي لك كما سيأتي ، أي ولا يصدر منا شيء من ذلك ، وهلّا وقع الاقتصار علينا ؟ قال اللَّه تعالى مجيبًا لهم

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٢٧) وأحمد في مسنده (٣٢٧/٢) والبيهقي في السنن (٣/٩) .

عن هذا السؤال : ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم ، فإني سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل ، ويوجد منهم الصدّيقون والشهداء والصالحون والعبّاد والزهاد ، والأولياء والأبرار والمقرّبون والعلماء العاملون والخاشعون والمحبّون له تبارك وتعالى ، المتّبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم ، وقد ثبت في الصحيح أن الملائكة إذا صعدت إلى الرب تعالى بأعمال عباده يسألهم وهو أعلم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : أتيناهم وهو يصلون وتركناهم وهم يصلون ، وذلك لأنهم يتعاقبون فينا ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر فيمكث هؤلاء ويصعد أولئك بالأعمال كما قال عليه الصلاة والسلام : « يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ » (١) فقولهم : أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون ، من تفسير قوله لهم : ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ وقيل : معنى قوله تعالى جوابًا لهم ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ إني لي حكمة مفصلة في خلق هؤلاء ، والحالة ما ذكرتم لا تعلمونها ، وقيل : إنه جواب ﴿ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ ﴾ فقال : ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ أي من وجود إبليس بينكم ، وليس هو كما وصفتم أنفسكم به ، وقيل بل تضمن قولهم : ﴿ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ ﴾ طلبًا منهم أن يسكنوا الأرض بدل بني آدم ، فقال الله تعالى لهم : ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ من أن بقاءكم أصلح لكم وأليق بكم ، ذكرها الرازي من غيرها من الأجوبة ، والله أعلم .

ذِكْرُ أَقْوَالِ المُفَسِّرِين بِبَسْطِ مَا ذَكَرْنَاه

قال ابن جرير فيما رواه عن ابن عبّاس قال : إن أول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء وقتل بعضهم بعضًا قال : فبعث الله إليهم إبليس فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ، ثم خلق آدم فأسكنه إياها ، وقال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم : قال الله للملائكة : إني أريد أن أخلق في الأرض خلقًا وأجعل فيها خليفة ، وليس لله ﷻ خلق إلّا الملائكة والأرض ، وليس فيها خلق ﴿ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا ﴾ . وعن أبي العالية في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ ﴾ إلى قوله ﴿ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ قال : خلق الله الملائكة يوم الأربعاء ، وخلق الجان يوم الخميس ، وخلق آدم يوم الجمعة ، فكفر قوم من الجن ، فكانت الملائكة تهبط إليهم من الأرض فتقاتلهم ببغيهم ، وكان الفساد في الأرض ، فمن ثم قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها كما أفسدت الجن ، ويسفك الدماء كما سفكوا (٢) .

وقال محمّد بن إسحاق : ﴿ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ ﴾ قال : لا نعصي ، ولا نأتي شيئًا تكرهه . وقال ابن جرير : التقديس هو التعظيم والتطهير . ومنه قولهم : سبوح قدوس ، يعني بقولهم : سبوح ، تنزيه له ، وبقولهم : قدوس ، طهارة وتعظيم له . وكذلك قيل للأرض : أرض مقدسة ، يعني بذلك المطهرة ، فمعنى قول الملائكة إذًا : ﴿ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ ﴾ ننزهك ونبرئك مما يضيفه إليك أهل الشرك بك ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ ﴾ ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٤) وابن ماجه في السنن (١٩٥) وأحمد في مسنده (٤٠١/٤) .
(٢) تفسير الطبري (٢٩٢/١ ، ٢٩٣) .

من الأدناس ، وما أضاف إليك أهل الكفر بك (١) . وعن أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ سُئِل : أي الكلام أفضل ؟ قال : « مَا اصْطَفَى اللَّه لِمَلَائِكَتِهِ سُبْحَانَ اللَّه وَبِحَمْدِهِ » (٢) .

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ قال قتادة : فكان في علم اللَّه أنه سيكون في تلك الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنوا الجنة .

وقد استدل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ويقطع تنازعهم ، وينتصر لمظلومهم من ظالمهم ، ويقيم الحدود ، ويزجر عن تعاطي الفواحش ، إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا تمكن إقامتها إِلَّا بالإمام ، وما لا يتم الواجب إِلَّا به فهو واجب . والإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنّة في أبي بكر ، أو بالإيماء إليه كما يقول آخرون منهم ، أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصدّيق بعمر بن الخطاب ، أو بتركه شورى في جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر ، أو باجتماع أهل الحَل والعقد على مبايعته ، أو بمبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور ، وحكى على ذلك إمام الحرمين الإجماع واللَّه أعلم . أو بقهر واحد الناس على طاعته ، فتجب لئلا يؤدي ذلك إلى الشقاق والاختلاف ، وقد نص عليه الشافعي . وهل يجب الإشهاد على عقد الإمامة ؟ فيه خلاف فمنهم من قال : لا يشترط وقيل : بلى ، ويكفي شاهدان . وقال الجبائي : يجب أربعة وعاقد ومعقود له ، كما ترك عمر ﷺ الأمر شورى بين ستة ، فوقع الأمر على عاقد ، وهو عبد الرّحمن بن عوف ، ومعقود له ، وهو عثمان ، واستنبط وجوب الأربعة الشهود من الأربعة الباقين ، وفي هذا نظر واللَّه أعلم .

ويجب أن يكون ذكرًا حرًّا بالغًا عاقلًا مسلمًا عدلًا مجتهدًا بصيرًا سليم الأعضاء خبيرًا بالحروب والآراء قرشيًّا على الصحيح ، ولا يشترط الهاشمي ولا المعصوم من الخطأ ، خلافًا للغلاة والروافض . ولو فسق الإمام هل ينعزل أم لا ؟ فيه خلاف ، والصحيح أنه لا ينعزل لقوله عليه الصلاة والسلام : « إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ » (٣) . وهل له أن يعزل نفسه فيه خلاف ، وقد عزل الحسن بن علي ﷺ نفسه وسلم الأمر إلى معاوية ، لكن هذا لعذر ، وقد مدح على ذلك . فأما نصب إمامين في الأرض أو أكثر فلا يجوز ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ جَاءَكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَكُمْ فَاقْتُلُوهُ كَائِنًا مَنْ كَانَ » (٤) وهذا قول الجمهور . وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد ، منهم إمام الحرمين ، وقالت الكرامية : يجوز اثنان فأكثر ، كما كان علي ومعاوية إمامين واجبي الطاعة ، قالوا : وإذا جاز بعث نبيين في وقت واحد وأكثر جاز ذلك في الإمامة ، لأن النبوة أعلى رتبة بلا خلاف . وحكى إمام الحرمين عن الأستاذ أبي إسحاق أنه جوز نصب إمامين فأكثر إذا تباعدت الأقطار واتسعت الأقاليم بينهما ، وتردد إمام الحرمين في ذلك ، قلت : وهذا يشبه حال الخلفاء بني العباس بالعراق ، والفاطميين بمصر ، والأمويين بالمغرب ، ولنقرر هذا كله في موضع آخر من كتاب الأحكام ، إن شاء اللَّه تعالى .

---

(١) تفسير الطبري (٣٠٤/١) .
(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٨٤) والألباني في الصحيحة (٤٨٤/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٥٦) ومسلم في الإمارة (٤٢) وأحمد في مسنده (٣١٤/٥) .
(٤) أخرجه مسلم في الإمارة (٥٩) وأحمد في مسنده (٢٤/٥) .

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم ، وهذا كان بعد سجودهم له ، وإنما قدم هذا الفصل على ذاك لمناسبة ما بين هذا المقام ، وعدم علمهم بحكمة خلق الخليقة حين سألوا عن ذلك فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون ، ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ، ليبيّن لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم فقال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ قال ابن عبّاس : علّمه أسماء ولده إنسانًا إنسانًا ، والدوابَّ فقيل : هذا الحمار ، هذا الجمل ، هذا الفرس . وقال : هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس إنسان ودواب وسماء وأرض وسهل وبحر وخيل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها .

عن أنس عن النبيّ ﷺ قال : « يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ : لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ : أَنْتَ أَبُو النَّاسِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا ، فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ فَيَسْتَحْيِي ، ائْتُوا نُوحًا فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ ، فَيَأْتُونَهُ ، فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، وَيَذْكُرُ سُؤَالَهُ رَبَّهُ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ فَيَسْتَحْيِي ، فَيَقُولُ : ائْتُوا خَلِيلَ الرَّحْمنِ فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، فَيَقُولُ ائْتُوا مُوسَى عَبْدًا كَلَّمَهُ اللَّهُ وَأَعْطَاهُ التَّوْرَاةَ ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، وَيَذْكُرُ قَتْلَ النَّفْسِ بِغَيْرِ نَفْسٍ فَيَسْتَحْيِي مِنْ رَبِّهِ ، فَيَقُولُ ائْتُوا عِيسَى عَبْدَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ وَكَلِمَةَ اللَّهِ وَرُوحَهُ فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، ائْتُوا مُحَمَّدًا عَبْدًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ، فَيَأْتُونِي فَأَنْطَلِقُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ عَلَى رَبِّي فَيَأْذَنُ لِي فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ سَاجِدًا فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ يُقَالُ : ارْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلْ تُعْطَهْ وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهِ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي مِثْلَهُ ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ، ثُمَّ أَعُودُ الثَّالِثَةَ ، ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ ، فَأَقُولُ : مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ وَوَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ » (١) . ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ ﴾ يعني المسميات ، ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة فقال : ﴿ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ أني لم أخلق خلقًا إلا كنتم أعلم منه ، فأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين .

قال ابن عباس ﴿ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ : إن كنتم تعلمون أني لم أجعل في الأرض خليفة ، وقال ابن جرير : وأولى الأقوال في ذلك تأويل ابن عباس ومعنى ذلك فقال : أنبئوني بأسماء من عرضته عليكم أيها الملائكة القائلون : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ من غيرنا أم منا ، فنحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك . إن كنتم صادقين في قيلكم إني جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عصاني وذريته ، وأفسدوا وسفكوا الدماء ، وإن جعلتكم فيها أطعتموني واتبعتم أمري بالتعظيم لي والتقديس ، فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم ، فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أحرى أن تكونوا غير عالمين ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ هذا

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٧٦) ومسلم في الإيمان (٣٢٣) وأحمد في مسنده (٣/١١٦) .

تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلَّا بما شاء ، وأن يعلموا شيئًا إلَّا ما علّمهم الله تعالى ولهذا قالوا : ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي العليم بكل شيء الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك ما تشاء ومنعك ما تشاء لك الحكمة في ذلك والعدل التام .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ قال زيد بن أسلم : قال : أنت جبرائيل ، أنت ميكائيل ، أنت إسرافيل ، حتى عدَّد الأسماء كلها حتى بلغ الغراب . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ قال : اسم الحمامة والغراب واسم كل شيء ، قال الله تعالى للملائكة ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ أي ألم أتقدم إليكم أني أعلم الغيب الظاهر والخفي .

قوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ قال ابن عباس : أعلم السر كما أعلم العلانية ، يعني ما كتم إبليس في نفسه من الكبر والاغترار . وقال الحسن وقتادة : هو قولهم : ما يخلق ربنا خلقًا إلَّا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه . وقال الربيع بن أنس : فكان الذي أبدوا هو قولهم : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، وكان الذي كتموا بينهم هو قولهم : لن يخلق ربنا خلقًا إلَّا كنا أعلم منه وأكرم ، فعرفوا أن الله فضل عليهم آدم في العلم والكرم . وأولى الأقوال في ذلك قول ابن عبّاس وهو أن معنى قوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ... ﴾ وأعلم مع علمي غيب السموات والأرض ما تظهرونه بألسنتكم وما كنتم تخفون في أنفسكم ، فلا يخفى علي شيء ، سواء عندي سرائركم وعلانيتكم ، والذي أظهروه بألسنتهم قولهم : أتجعل فيها من يفسد فيها ، والذي كانوا يكتمون ما كان عليه منطويًا إبليس من الخلاف على الله في أوامره والتكبر عن طاعته ، قال : وصح ذلك كما تقول العرب : قتل الجيش وهزموا ، وإنما قتل الواحد أو البعض وهزم الواحد أو البعض ، فيخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته ، حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، وقد دل على ذلك أحاديث أيضًا كثيرة .

والغرض أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم ، دخل إبليس في خطابهم ؛ لأنه وإن لم يكن من عنصرهم ، إلَّا أنه كان قد تشبّه بهم وتوسم بأفعالهم ، فلهذا دخل في الخطاب لهم وذم في مخالفة الأمر ، ولهذا قال ابن عباس : كان إبليس اسمه عزازيل ، وكان من أشراف الملائكة من ذوي الأجنحة الأربعة ، ثم أبلس بعد .

وقال عبد الله بن بريدة في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ : من الذين أبوا فأحرقتهم النار . وقال أبو العالية : من العاصين . وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ : فكانت الطاعة لله والسجدة لآدم أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته . وقال بعض الناس : كان هذا سجود تحية وسلام وإكرام كما قال تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ وقد كان هذا مشروعًا في الأمم الماضية ولكنه نسخ في ملّتنا . قال معاذ : قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم ، فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك فقال :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٢٧) .

« لاَ ، لَوْ كُنتُ آمِرًا بَشَرًا أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ لأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا » (١) .

وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ حسد عدو الله إبليس آدم عليه السلام على ما أعطاه الله من الكرامة ، وقال أنا ناري وهو طيني وكان بدء الذنوب الكبر استكبر عدو الله أن يسجد لآدم عليه السلام .

قلت : وقد ثبت في الصحيح « لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبرٍ » (١) وقد كان في قلب إبليس من الكبر ، والكفر ، والعناد ما اقتضى طرده وإبعاده عن جناب الرحمة وحضرة القدس . قال بعض المعربين ﴿ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ أي وصار من الكافرين بسبب امتناعه .

وقال ابن فورك : تقديره : وقد كان في علم الله من الكافرين ، ورجحه القرطبي ، وذكر ههنا مسألة فقال : قال علماؤنا : من أظهر الله على يديه ممن ليس بنبي كرامات وخوارق للعادات ، فليس ذلك دالًا على ولايته ، خلافًا لبعض الصوفية والرافضة . هذا لفظه ثم استدل على ما قال بأنا لا نقطع بهذا الذي جرى الخارق على يديه أنه يوافي الله بالإيمان ، وهو لا يقطع لنفسه بذلك ، يعني والولي الذي يقطع له بذلك في نفس الأمر ، قلت : وقد استدل بعضهم على أن الخارق قد يكون على يدي غير الولي ، بل قد يكون على يد الفاجر والكافر أيضًا بما ثبت عن ابن صياد أنه قال : هو الدخ حين خبأ له رسول الله ﷺ : ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴾ وبما كان يصدر عنه أنه كان يملأ الطريق إذا غضب ، حتى ضربه عبد الله بن عمر . وبما ثبتت به الأحاديث عن الدجال ؛ بما يكون على يديه من الخوارق الكثيرة ، من أنه يأمر السماء أن تمطر فتمطر ، والأرض أن تنبت فتنبت ، وتتبعه كنوز الأرض مثل اليعاسيب ، وأنه يقتل ذلك الشاب ثم يحييه ، إلى غير ذلك من الأمور المهولة . وكان الليث بن سعد يقول : إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ، ويطير في الهواء ، فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنّة . فقال الشافعي : قصر الليث رحمه الله ، بل إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ، ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة . وقد حكى الرازي وغيره قولين للعلماء ؛ هل المأمور بالسجود لآدم خاص بملائكة الأرض ، أو عام في ملائكة السماوات والأرض ، وقد رجح كلًا من القولين طائفة ، وظاهر الآية الكريمة العموم ﴿ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ۝ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ﴾ فهذه أربعة أوجه مقوية للعموم والله أعلم ..

﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ .

يقول الله تعالى إخبارًا عما أكرم به آدم ، بعد أن أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس ، أنه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء ، ويأكل منها ما شاء رغدًا ، أي هنيئًا واسعًا طيبًا .

وقد اختلف في الجنة التي أسكنها آدم هي في السماء أم في الأرض ؟ فالأكثرون على الأول .

وسياق الآية يقتضي أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة . وأما قوله : ﴿ وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم ، وقد اختلف في هذه الشجرة ما هي ؟ فقال ابن عبّاس : الشجرة التي نهي عنها آدم عليه السلام هي الكرم . وعن عكرمة عن ابن عبّاس قال : هي السنبلة ، وعن مجاهد عن ابن

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧) والترمذي في السنن (١٩٩٩) وأبو داود في السنن (٤٠٩١) .

عباس قال : هي البر ، وعن أبي مالك قال : هي النخلة ، وعن مجاهد قال : هي التينة .

فهذه أقوال ستة في تفسير هذه الشجرة . والصواب في ذلك أن يقال : إن اللَّه عز وجل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنّة ، دون سائر أشجارها ، فأكلا منها ، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين ؛ لأن اللَّه لم يضع لعباده دليلًا على ذلك في القرآن ولا من السنّة الصحيحة .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا ﴾ يصح أن يكون الضمير في قوله : ﴿ عَنْهَا ﴾ عائدًا إلى الجنّة ، فيكون معنى الكلام كما قرأ عاصم فأزالهما أي فنحاهما ، ويصح أن يكون عائدًا على أقرب المذكورين وهو الشجرة فيكون معنى الكلام كما قال الحسن وقتادة : فأزلهما أي من قبل الزلل ، فعلى هذا يكون تقدير الكلام ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا ﴾ أي بسببها ، قال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ أي من اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنيء والراحة ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي قرار وأرزاق وآجال إلى حين أي إلى وقت مؤقت ومقدار معين ، ثم تقوم القيامة .

وعن ابن عبّاس قال : ما أسكن آدم الجنة إلّا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس (١) ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الجُمُعَةِ ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا » (٢) .

وقال الرازي : اعلم أن في هذه الآية تهديدًا عظيمًا عن كل المعاصي من وجوه ؛ الأول : أن من تصور ما جرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل شديد من المعاصي قال الشاعر :

يَا نَاظِرًا يَرْنُو بِعَيْنَيْ رَاقِدِ ... وَمُشَاهِدًا لِلْأَمْرِ غَيْرَ مُشَاهِدِ
تَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي ... دَرَجَ الجِنَانِ وَنَيْلَ فَوْزِ العَابِدِ
أَنَسِيتَ رَبَّكَ حِينَ أَخْرَجَ آدَمًا ... مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدِ

عن فتح الموصلي أنه قال : كنا قومًا من أهل الجنة فسبانا إبليس إلى الدنيا ، فليس لنا إلّا الهم والحزن حتى نرد إلى الدار التي أخرجنا منها . فإن قيل : فإذا كانت جنّة آدم التي أخرج منها في السماء كما يقوله الجمهور من العلماء ، فكيف تمكن إبليس من دخول الجنّة وقد طرد من هنالك طردًا قدريًا ، والقدري لا يخالف ولا يمانع ؟ فالجواب أن هذا بعينه استدل به من يقول : إن الجنّة التي كان فيها آدم في الأرض لا في السماء ، وأجاب الجمهور بأجوبة ؛ أحدها أنه منع من دخول الجنّة مكرمًا ، فأما على وجه السرقة والإهانة فلا يمتنع . وقد قال بعضهم : يحتمل أنه وسوس لهما ، وهو خارج باب الجنّة . وقال بعضهم : يحتمل أنه وسوس لهما وهو في الأرض وهما في السماء .

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

قال أبو إسحاق السبيعي عن رجل من بني تميم قال : أتيت ابن عباس فسألته ما الكلمات التي تلقى آدم من ربه ؟ قال : علم شأن الحج . وعن أُبيّ بن كعب قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « قَالَ آدَمُ عليه السلام أَرَأَيْتَ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٤٢/٢) .
(٢) أخرجه مسلم في الجمعة (١٧) وأبو داود في السنن (١٠٤٦) والترمذي في السنن (٤٩١) والنسائي في السنن (١١٤/٣) .

يَا رَبِّ إِنْ تُبْتُ وَرَجِعْتُ أَعَائِدِي إِلَى الجَنَّةِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾ »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي إنه يتوب على من تاب إليه وأناب .

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حين أهبطهم من الجنّة ، والمراد الذرية ، إنه سينزل الكتب ، ويبعث الأنبياء والرسل .

﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ ﴾ أي من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا ، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أي مخلّدون فيها ، لا محيد لهم عنها ولا محيص . وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَلاَ يَمُوتُونَ فِيهَا وَلاَ يَحْيَوْنَ ، وَلكِنْ أَقْوَامٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِخَطَايَاهُمْ فَأَمَاتَتْهُمْ إِمَاتَةً ، حَتَّى إِذَا صَارُوا فَحْمًا أُذِنَ فِي الشَّفَاعَةِ »[2] وزعم بعضهم أنه تأكيد وتكرير كما يقال قم قم ، وقال آخرون : بل الإهباط الأول من الجنّة إلى السماء الدنيا ، والثاني من سماء الدنيا إلى الأرض .

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ .

يأمر تعالى بني إسرائيل بالدخول في الإسلام ، ومتابعة محمّد عليه من اللّٰه أفضل الصّلاة والسّلام ، ومهيجًا لهم بذكر أبيهم إسرائيل ، وهو نبي اللّه يعقوب عليه السلام ، وتقديره : يا بني العبد الصالح المطيع للّه كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق ، كما تقول يا ابن الكريم افعل كذا ؛ يا ابن الشجاع بارز الأبطال ، يا ابن العالم اطلب العلم ، وعن عبد اللّه بن عبّاس قال : حضرت عصابة من اليهود نبي اللّه ﷺ فقال لهم : « هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبُ ؟ » ، قالوا : اللهم نعم ، فقال النبي ﷺ : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ »[3] .

وقوله تعالى ﴿ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ قال مجاهد : نعمة اللّٰه التي أنعم بها عليهم فيما سمى ، وفيما سوى ذلك ، أن فجر لهم الحجر ، وأنزل عليهم المنّ والسلوى ، ونجاهم من عبودية آل فرعون . وقال أبو العالية : نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرسل ، وأنزل عليهم الكتب ، قلت : وهذا كقول موسى عليه السلام لهم فعن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي بلائي عندكم وعند آبائكم لما كان نجاهم من فرعون وقومه .

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ قال : بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي ﷺ إذ جاءكم أنجز لكم ما وعدتكم عليه من تصديقه واتباعه ، بوضع ما كان عليكم من الآصار والأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم التي كانت من أحداثكم . وقال آخرون : هو الذي أخذ اللّٰه عليهم في التوراة ،

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٨١/١) .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٠٨) وابن ماجه في السنن (٤٣٠٩) وأحمد في مسنده (١١/٣) ، والحاكم في المستدرك (٦١٩/٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٣/١ ، ٢٧٨) .

أنه سيبعث من بني إسماعيل نبيًا عظيمًا يطيعه جميع الشعوب ، والمراد به محمّد ﷺ ، فمن اتبعه غفر الله له ذنبه ، وأدخله الجنّة ، وجعل له أجرين . قال أبو العالية : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي ﴾ قال : عهده إلى عباده دين الإسلام وأن يتبعوه . ﴿ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ أرضى عنكم وأدخلكم الجنّة .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ أي فاخشون ، قال ابن عبّاس : أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات التي قد عرفتم ، من المسخ وغيره ، وهذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب ، فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة ، لعلهم يرجعون إلى الحق ، واتباع الرسول ﷺ ، والاتّعاظ بالقرآن وزواجره ، وامتثال أوامره ، وتصديق أخباره ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

ولهذا قال : ﴿ وَءَامِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ يعني به القرآن الذي أنزل على محمّد ﷺ النبيّ الأمي العربي ، بشيرًا ونذيرًا وسراجًا منيرًا ، مشتملًا على الحق من الله تعالى ، مصدقًا لما بين يديه من التوراة والإنجيل . قال أبو العالية في قوله تعالى : ﴿ وَءَامِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ يقول : يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصدّقًا لما معكم ، يقول : لأنهم يجدون محمّدًا ﷺ مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل .

وقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ قال ابن عبّاس : ولا تكونوا أول كافر به وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم . قال أبو العالية : يقول : ولا تكونوا أول من كفر بمحمّد ﷺ يعني من جنسكم أهل الكتاب ، بعد سماعكم بمبعثه . واختار ابن جرير أن الضمير في قوله : به عائد على القرآن الذي تقدم ذكره في قوله : ﴿ بِمَا أَنزَلْتُ ﴾ وكلا القولين صحيح لأنهما متلازمان ؛ لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمّد ﷺ ، ومن كفر بمحمّد ﷺ فقد كفر بالقرآن وأما قوله : ﴿ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ فيعني به أول من كفر به من بني إسرائيل ؛ لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير ، وإنما المراد أول من كفر به من بني إسرائيل مباشرة ، فإن يهود المدينة أول بني إسرائيل خوطبوا بالقرآن ، فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ يقول : لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها ، فإنها قليلة فانية ، قال سعيد بن جبير : إن آياته كتابه الذي أنزله إليهم ، وإن الثمن القليل الدنيا وشهواتها . وقيل : معناه لا تعتاضوا عن البيان والإيضاح ونشر العلم النافع في الناس ، بالكتمان واللبس ، لتستمروا على رياستكم في الدنيا القليلة الحقيرة الزائلة عن قريب . فعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهَ اللَّهِ لا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ » (١) فأما تعليم العلم بأجرة ، فإن كان قد تعين عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرة ، ويجوز أن يتناول من بيت المال ما يقوم به حاله وعياله ، فإن لم يحصل له منه شيء وقطعه التعليم عن التكسب فهو كما لم يتعين عليه ، وإذا لم يتعين عليه فإنه يجوز أن يأخذ عليه أجرة عند مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء ؛ فعن أبي سعيد في قصة اللديغ « إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللَّهِ » (٢) وقوله في قصة المخطوبة : « زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ » (٣) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٨/٢) ، والحاكم في المستدرك (٨٥/١) ، وابن ماجه في السنن (٢٥٢) .
(٢) أخرجه البيهقي في السنن (١٢٤/٦) ، والدارقطني في السنن (٦٥/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٧) وأبو داود في السنن (٢١١١) والترمذي في السنن (١١١٤) والدارمي في السنن (١٤٢/٢) .

وقوله : ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ التقوى : أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله . ومعنى قوله : ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ أنه تعالى يتوعدهم فيما يتعمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه ، ومخالفتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ .

يقول تعالى ناهيًا لليهود عما كانوا يتعمدونه من تلبيس الحق بالباطل ، وتمويهه به ، وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فنهاهم عن الشيئين معًا ، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به . ولهذا قال ابن عبّاس : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ لا تخلطوا الحق بالباطل ، والصدق بالكذب . وقال أبو العالية : ولا تخلطوا الحق بالباطل ، وأدوا النصيحة لعباد الله من أمة محمّد ﷺ ، وقال قتادة : ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام ، وأنتم تعلمون أن دين الله الإسلام ، وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله .

﴿ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به ، وأنتم تجدونه مكتوبًا عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم . وقال مجاهد والسدي وغيرهما : ﴿ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ ﴾ يعني محمّدًا ﷺ .

قلت : وتكتموا يحتمل أن يكون مجزومًا ، ويحتمل أن يكون منصوبًا ، أي لا تجمعوا بين هذا وهذا ، كما يقال : لا تأكل السمك وتشرب اللبن ، قال الزمخشري : وفي مصحف ابن مسعود وتكتموا الحق ، أي في حال كتمانكم الحق ، ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ حال أيضًا ، ومعناه وأنتم تعلمون الحق . ويجوز أن يكون المعنى وأنتم تعلمون ما في ذلك من الضرر العظيم على الناس ، من إضلالهم عن الهدى ، المفضي بهم إلى النار إن سلكوا ما تبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لتروّجوه عليهم ، والبيان : الإيضاح ، وعكسه الكتمان وخلط الحق بالباطل .

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ أمرهم أن يصلّوا مع النبيّ ﷺ وأن يؤتوا الزكاة أي يدفعونها إلى النبيّ ﷺ ، وأن يركعوا مع الراكعين من أمة محمّد ﷺ ، يقول : كونوا معهم ومنهم . وقال ابن عبّاس : يعني بالزكاة طاعة الله والإخلاص . وقيل : صدقة الفطر . وقوله تعالى : ﴿ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ أي وكونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم ، ومن أخص ذلك وأكمله الصلاة . وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة .

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب ، وأنتم تأمرون النّاس بالبر ، وهو جماع الخير ، أن تنسوا أنفسكم فلا تأتمرون بما تأمرون الناس به ، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصّر في أوامر الله ؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم ، فتنتبهوا من رقدتكم ، وتتبصروا من عمايتكم . عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ قال : كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وبالبر ، ويخالفون ، فعيَّرهم الله ﷻ .

﴿ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من

التوراة ، وتتركون أنفسكم أي وأنتم تكفرون بما فيها من عهدي إليكم في تصديق رسولي ، وتنقضون ميثاقي ، وتجحدون ما تعلمون من كتابي . وقال ابن عبّاس في هذه الآية : أتأمرون الناس بالدخول في دين محمّد ﷺ وغير ذلك مما أمرتم به من إقام الصلاة وتنسون أنفسكم . والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم ، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه ، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له ، بل على تركهم له ، فإن الأمر بالمعروف معروف ، وهو واجب على العالم ، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ولا يتخلف عنهم .

قلت : لكنه والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية لعلمه بها ومخالفته على بصيرة ، فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم ، ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك .

عن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ ، قَالَ : قُلْتُ : مَنْ هَؤُلاءِ ؟ قَالُوا : خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ، مِمَّنْ كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ » (١) .

وعن أبي وائل قال : قيل لأسامة وأنا رديفه : ألا تكلم عثمان ؟ فقال : إنكم ترون أني لا أكلمه إلّا أسمعكم ، إني لأكلمه فيما بيني وبينه دون أن أفتتح أمرًا أحب أن أكون أول من افتتحه ، والله لا أقول لرجل إنك خير الناس وإن كان عليّ أميرًا بعد أن سمعت رسول الله ﷺ يقول . قالوا : وما سمعته يقول ؟ قال : سمعته يقول : « يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ بِهِ أَقْتَابُهُ ، فَيَدُورُ بِهَا فِي النَّارِ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ ، فَيطيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ : يَا فُلانُ مَا أَصَابَكَ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُنَا بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ ؟ فَيَقُولُ : كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ » (٢) . وقد ورد في بعض الآثار أنه يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة ، ليس من يعلم كمن لا يعلم . وعن ابن عبّاس أنه جاءه رجل فقال : يا ابن عبّاس : إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، قال : أبلغت ذلك ؟ قال : أرجو ، قال : إن لم تخشَ أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل ، قال : وما هن ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ أحكمت هذه ؟ قال : لا ، قال : فالحرف الثاني ، قال : قوله تعالى : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ أحكمت هذه ؟ قال : لا ، قال : فالحرف الثالث ، قال : قول العبد الصالح شعيب ﵇ ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ ﴾ أحكمت هذه الآية ؟ قال : لا ، قال : فابدأ بنفسك .

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عبيده فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة بالاستعانة بالصبر والصلاة ، قال مقاتل في تفسير هذه الآية : استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة ، فأما الصبر فقيل إنه الصيام

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٠/٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (١٢٤/١) .
(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٣٨) وأحمد في مسنده (٢٠٥/٥) والبيهقي في السنن (٩٥/١٠) والألباني في الصحيحة (٢٩٢) .

نص عليه مجاهد ، قال القرطبي وغيره : ولهذا يسمى رمضان شهر الصبر ، فعن رجل من بني سليم عن النبيّ ﷺ قال : « الصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ » (١) وقيل : المراد بالصبر الكف عن المعاصي ، ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعلاها فعل الصلاة . وعن عمر بن الخطّاب ﷺ قال : الصبر صبران : صبر عند المصيبة حسن ، وأحسن منه الصبر عن محارم اللّه . وعن سعيد بن جبير قال : الصبر اعتراف العبد للّه بما أصيب فيه ، واحتسابه عند اللّه ، ورجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلّا الصبر . وقال أبو العالية في قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ قال : على مرضاة اللّه واعلموا أنها من طاعة اللّه ، وأما قوله : ﴿ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ إن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر كما قال تعالى : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ الآية . قال حذيفة ، يعني ابن اليمان ﷺ : كان رسول اللّه ﷺ إذا حزبه أمر صلى (٢) . وقال ابن جرير : وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه مر بأبي هريرة وهو منبطح على بطنه فقال له : « أشكم درد » ومعناه أيوجعك بطنك ؟ قال : نعم ، قال : « قُمْ فَصَلِّ فَإِنَّ الصَّلَاةَ شِفَاءٌ » (٣) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ أي مشقة ثقيلة . ﴿ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ قال ابن عبّاس : يعني المصدقين بما أنزل اللّه ، وقال مجاهد : المؤمنين حقًّا ، وقال أبو العالية : إلّا على الخاشعين الخائفين ، وقال مقاتل ، وقال الضحّاك : إنها لثقيلة إلّا على الخاضعين لطاعته ، الخائفين سطوته ، المصدقين بوعده ووعيده . وفي الحديث : « لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ » (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ هذا من تمام الكلام الذي قبله أي أن الصلاة أو الوصاة لثقيلة ﴿ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ ﴾ أي يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة ، معروضون عليه ﴿ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ ، أي أمورهم راجعة إلى مشيئته يحكم فيها ما يشاء بعدله ، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات .

فأما قوله : ﴿ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : العرب قد تسمي اليقين ظنًّا والشك ظنًّا ، نظير تسميتهم الظلمة سدفة والضياء سدفة ، والمغيث صارخًا والمستغيث صارخًا ، وما أشبه ذلك من الأسماء التي يسمى بها الشيء وضده .

قال : والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظن في معنى اليقين أكثر من أن تحصر . وعن مجاهد قال : كل ظن في القرآن فهو علم .

قلت : وفي الصحيح : أن اللّه تعالى يقول للعبد يوم القيامة : « أَلَمْ أُزَوِّجْكَ ، أَلَمْ أُكْرِمْكَ ، أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ وَالإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ ؟ » فيقول : بلى فيقول اللّه تعالى : « أَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ ؟ » فيقول : لا ، فيقول اللّه : « اليَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي » (٥)

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٥/٥) .
(٢) أخرجه أبو داود (١٣١٩) وأحمد في مسنده (٣٨٨/٥) .
(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٤٥٨) والعقيلي في الضعفاء (٤٨/٢) .
(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٦١٦) وأحمد في مسنده (٢٣٧/٥) والمنذري في الترغيب (٥٢٨/٣) .
(٥) أخرجه مسلم في الزهد (١٦) .

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ .

يذكرهم تعالى بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم ، وما كان فضلهم به من إرسال الرسل منهم ، وإنزال الكتب عليهم ، وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم ، عن أبي العالية في قوله تعالى : ﴿ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ قال : بما أعطوا من الملك والرسل والكتب ، على عالم من كان في ذلك الزمان ، فإن لكل زمان عالمًا . ويجب الحمل على هذا ؛ لأن هذه الأمة أفضل منهم ؛ لقوله تعالى خطابًا لهذه الأمة : ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُم ﴾ وقوله ﷺ : « أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّه » (١) . وقيل : إنهم فضلوا على سائر الأمم لاشتمال أمتهم على الأنبياء منهم ، حكاه القرطبي في تفسيره وفيه نظر ؛ لأن العالمين عام يشمل من قبلهم ومن بعدهم من الأنبياء ، فإبراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم ، ومحمّد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق ، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة ، صلوات اللَّه وسلامه عليه .

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٍ شَيۡـًٔا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٌ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ .

لما ذكرهم تعالى بنعمه أولًا عطف على ذلك التحذير من طول نقمه بهم يوم القيامة فقال : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٍ شَيۡـًٔا ﴾ أي لا يغني أحد عن أحد .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ يعني من الكافرين .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٌ ﴾ أي لا يقبل منها فداء . وقال : ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡ ﴾ الآية فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به ، ووافوا اللَّه يوم القيامة على ما هم عليه ، فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ، ولا شفاعة ذي جاه ، ولا يقبل منهم فداء ولو بملء الأرض ذهبًا . وقال علي ﷺ في حديث طويل : والصرف والعدل التطوع والفريضة . وهذا القول غريب ههنا ، والقول الأول أظهر في تفسير هذه الآية ، وقد ورد حديث يقويه ، وهو ما قال ابن جرير : فعن عمرو بن قيس الملائي عن رجل من بني أمية من أهل الشام أحسن عليه الثناء ، قال : قيل : يا رسول اللَّه ، ما العدل ؟ قال : « العَدْلُ الفِدْيَةُ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ أي ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب اللَّه ، كما تقدّم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه ، ولا يقبل منهم فداء ، هذا كله من جانب التلطف ، ولا لهم ناصر من أنفسهم ولا من غيرهم أي أنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة ولا ينقذ أحدًا من عذابه منقذ ، ولا يخلص منه أحد ، ولا يجير منه أحد . قال ابن جرير وتأويل قوله : ﴿ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ يعني أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر ، كما لا يشفع لهم شافع ، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية ، بطلت هنالك المحاباة ، واضمحلت الرُّشى والشفاعات ، وارتفع من القوم التناصر والتعاون ، وصار الحكم إلى الجبار العدل ، الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء ، فيجزي بالسيئة مثلها ، وبالحسنة أضعافها ، وذلك نظير قوله تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ۝٢٤ مَا لَكُمۡ لَا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٥) والحاكم في المستدرك (٨٤/٤) والطبراني في الكبير (٤٢٤/١٩) .
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦٨/١) والطبري في تفسيره (٣٨٣/١) .

نَاصِرُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ .

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ ، أي خلصتكم منهم ، وأنقذتكم من أيديهم ، صحبة موسى عليه السلام ، وقد كانوا يسومونكم أي يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب ، وذلك أن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته ، رأى نارًا خرجت من بيت المقدس فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر ، إلَّا بيوت بني إسرائيل ، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل . ويقال بعد تحدث سماره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به دولة ورفعة ، فعند ذلك أمر فرعون لعنه الله بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل ، وأن تترك البنات ، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأرذلها ، وههنا فسر العذاب بذبح الأبناء ، وفي سورة إبراهيم عطف عليه كما قال : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ ومعنى يسومونكم : يولونكم .

وقيل : يديمون عذابكم . و ﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ علم على كل من ملك مصر كافرًا من العماليق ، كما أن قيصر علم على كل من ملك الروم مع الشام كافرًا ، وكسرى لمن ملك الفرس ، وتبع لمن ملك اليمن كافرًا ، والنجاشي لمن ملك الحبشة ، وبطليموس لمن ملك الهند ، ويقال : كان اسم فرعون الذي كان في زمن موسى عليه السلام الوليد بن مصعب بن الريان ، وقيل : مصعب بن الريان ، فكان من سلالة عمليق بن الأود بن إرم بن سام بن نوح وكنيته أبو مرة ، وأصله فارسي من اصطخر .

وقوله تعالى : ﴿ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ قال ابن جرير : وفي الذي فعلنا بكم من إنجائنا آباءكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم ، أي نعمة عظيمة عليكم في ذلك . وقال ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ قال : نعمة . وأصل البلاء الاختبار وقد يكون للخير والشر كما قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ قال ابن جرير : وأكثر ما يقال في الشر : بلوته أبلوه بلاء ، وفي الخير : أبليه إبلاء وبلاء .

جَزَى اللَّهُ بالإِحْسَانِ مَا فَعَلاَ بِكُمْ وَأَبْلاَهُمَا خَيْرَ البَلاَءِ الَّذِي يَبْلُو (١)

قال : فجمع بين اللغتين ؛ لأنه أراد فأنعم الله عليهما خير النعم ، التي يختبر بها عباده . وقيل : المراد بقوله ﴿ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ ﴾ إشارة إلى ما كانوا فيه من العذاب المهين من ذبح الأبناء واستحياء النساء . وقال الجمهور : الإشارة إلى الذبح ونحوه والبلاء ههنا في الشر ، والمعنى : وفي الذبح مكروه وامتحان .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ معناه وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون وخرجتم مع موسى عليه السلام ، خرج فرعون في طلبكم ففرقنا بكم البحر ، ﴿ فَأَنجَيْنَٰكُمْ ﴾ أي خلصناكم منهم وحجزنا بينكم وبينهم وأغرقناهم وأنتم تنظرون ، ليكون ذلك أشفى لصدوركم وأبلغ في إهانة عدوكم . قال ابن عبّاس : قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى من قصيدة يمدح بها سنان بن حارثة المري (انظر : تفسير الطبري ٣٩٢/١) .

يوم عاشوراء ، فقال : « مَا هَذَا اليَوْمِ الَّذِي تَصُومُونَ ؟ » قالوا : هذا يوم صالح ، هذا يوم نجّى الله عزّ وجل فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ » فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصومه [(١)] .

﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

يقول تعالى : واذكروا نعمتي عليكم في عفوي عنكم لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه عند انقضاء أمد المواعدة ، وكانت أربعين يومًا ، قيل : إنها ذو القعدة بكماله وعشر من ذي الحجة ، وكان ذلك بعد خلاصهم من فرعون وإنجائهم من البحر وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ يعني التوراة ﴿ وَالْفُرْقَانَ ﴾ وهو ما يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلالة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ وكان ذلك أيضًا بعد خروجهم من البحر .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ .

هذه صفة توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل . قال الحسن البصري رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ فقال : ذلك حين وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع حتى قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ الآية . قال : فذلك حين يقول موسى : ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ وقال سعيد بن جبير وغيره : ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ أي إلى خالقكم قلت : وفي قوله ههنا ﴿ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ تنبيه على عظم جرمهم ، أي فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره . وعن ابن عبّاس قال : قال موسى لقومه : ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ ، قال : أمر موسى قومه عن أمر ربه عز وجل ، أن يقتلوا أنفسهم قال : وأخبر الذين عبدوا العجل فجلسوا ، وقام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم ، وأصابتهم ظلمة شديدة فجعل يقتل بعضهم بعضًا ، فانجلت الظلمة عنهم وقد جلوا عن سبعين ألف قتيل ، كل من قتل منهم كانت له توبة ، وكل من بقي كانت له توبة . وقال قتادة : أمر القوم بشديد من الأمر ، فقاموا يتناحرون بالشفار ، يقتل بعضهم بعضًا ، حتى بلغ الله فيهم نقمته ، فسقطت الشفار من أيديهم فأمسك عنهم القتل ، فجعل لحيهم توبة ، وللمقتول شهادة . وقال ابن إسحاق : لما رجع موسى إلى قومه وأحرق العجل ، وذراه في اليم ، خرج إلى ربه بمن اختار من قومه ، فأخذتهم الصاعقة ، ثم بعثوا فسأل موسى ربه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل ، فقال : لا إلّا أن يقتلوا أنفسهم ، قال : فبلغني أنهم قالوا لموسى : نصبر لأمر الله ، فأمر موسى من لم يكن عبد العجل أن يقتل من عبده ، فجلسوا بالأفنية ، وأصلت عليهم القوم السيوف ، فجعلوا يقتلونهم ، فهش موسى فبكى إليه النساء والصبيان يطلبون العفو عنهم ، فتاب الله عليهم وعفا عنهم ، وأمر موسى أن ترفع عنهم السيوف .

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام (١٢٨) وأحمد في مسنده (٣١٠/١) .

بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾ في بعثي لكم بعد الصعق ، إذ سألتم رؤيتي جهرة عيانًا ، مما لا يستطاع لكم ولا لأمثالكم قال ابن عبّاس في هذه الآية : ﴿ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً ﴾ قال : علانية ، وقال الربيع بن أنس : هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه ، قال : فسمعوا كلامًا فقالوا : ﴿ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً ﴾ قال : فسمعوا صوتًا فصعقوا ، يقول : ماتوا . وقال مروان بن الحكم فيما خطب به على منبر مكة : الصاعقة صيحة من السماء . وقال السدي في قوله ﴿ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾ الصاعقة : نار . وقال عروة بن رويم في قوله : ﴿ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴾ قال : صعق بعضهم وبعض ينظرون ، ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء . وقال الربيع بن أنس : كان موتهم عقوبة لهم ، فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم .

قوله : ﴿ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً ﴾ والمراد السبعون المختارون منهم ، ولم يحك كثير من المفسرين سواه وقد أغرب الرازي في تفسيره حين حكى في قصة هؤلاء السبعين أنهم بعد إحيائهم قالوا : يا موسى إنك لا تطلب من اللَّه شيئًا إلَّا أعطاك فادعه أن يجعلنا أنبياء ، فدعا بذلك فأجاب اللَّه دعوته ، وهذا غريب جدًّا إذ لا يعرف في زمان موسى نبي سوى هارون ، ثم يوشع بن نون ، وقد غلط أهل الكتاب أيضًا في دعواهم أن هؤلاء رأوا اللَّه عَجَّلَ ، فإن موسى الكليم عليه السلام قد سأل ذلك فمنع منه فكيف يناله هؤلاء السبعون ؟

القول الثاني في الآية : قال عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم في تفسير هذه الآية : قال لهم موسى ، لما رجع من عند ربه بالألواح قد كتب فيها التوراة فوجدهم يعبدون العجل ، فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا ، فتاب اللَّه عليهم ، فقال : إن هذه الألواح فيها كتاب اللَّه فيه أمركم الذي أمركم به ، ونهيكم الذي نهاكم عنه ، فقالوا : ومن يأخذه بقولك أنت ؟ لا واللَّه حتى نرى اللَّه جهرة حتى يطلع اللَّه علينا فيقول : هذا كتابي فخذوه ، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى وقرأ قول اللَّه : ﴿ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً ﴾ قال : فجاءت غضبة من اللَّه فجاءتهم صاعقة بعد التوبة فصعقتهم ، فماتوا أجمعون ، قال : ثم أحياهم اللَّه من بعد موتهم وقرأ قول اللَّه ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ فقال لهم موسى : خذوا كتاب اللَّه فقالوا : لا ، فقال أي شيء أصابكم ؟ فقالوا : أصابنا أنا متنا ثم أحيينا ، قال : خذوا كتاب اللَّه ، قالوا : لا ، فبعث اللَّه ملائكة فنتقت الجبل فوقهم . وهذا السياق يدل على أنهم كلفوا بعدما أحيوا . وقد حكى الماوردي في ذلك قولين : أحدهما أنه سقط التكليف عنهم لمعاينتهم الأمر جهرة حتى صاروا مضطرين إلى التصديق ، والثاني أنهم مكلفون لئلا يخلو عاقل من تكليف قال القرطبي : وهذا هو الصحيح ؛ لأن معاينتهم للأمور الفظيعة لا تمنع تكليفهم ، لأن بني إسرائيل قد شاهدوا أمورًا عظامًا من خوارق العادات ، وهم في ذلك مكلفون ، وهذا واضح واللَّه أعلم .

﴿ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم ، شرع يذكرهم أيضًا بما أسبغ عليهم من النعم فقال : ﴿ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ ﴾ وهو جمع غمامة ، سمي بذلك لأنه يغم السماء أي يواريها ويسترها ، وهو السحاب

الأبيض ظللوا به في التيه ليقيهم حر الشمس . قال ابن عبّاس ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾ قال : غمام أبرد من هذا وأطيب ، وهو الذي يأتي الله فيه في قوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر . قال ابن عبّاس : وكان معهم في التيه .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ ﴾ اختلفت عبارات المفسرين في المنّ ما هو ؟ .

والظاهر والله أعلم أنه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك ، مما ليس لهم فيه عمل ولا كد ، فالمنّ المشهور إن أكل وحده كان طعامًا وحلاوة ، وإن مزج مع الماء صار شرابًا طيبًا ، وإن ركب مع غيره صار نوعًا آخر ، لكن ليس هو المراد من الآية وحده ، والدليل على ذلك قول سعيد بن زيد ﷺ قال : قال النبيّ ﷺ : « الكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ » [(١)] . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « العَجْوَةُ مِنَ الجَنَّةِ وَفِيهَا شِفَاءٌ مِنَ السُّمِّ ، وَالكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ » [(٢)] .

وأما السلوى فقال ابن عبّاس : السلوى طائر يشبه بالسماني ، كانوا يأكلون منه . وعن عكرمة : السلوى طير كطير يكون بالجنة ، أكبر من العصفور أو نحو ذلك . وقال قتادة : السلوى كان من طير إلى الحمرة تحشرها عليهم الريح الجنوب ، وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك ، فإذا تعدى فسد ولم يبق عنده ، حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه ؛ لأنه كان يوم عبادة لا يشخص فيه لشيء ولا يطلبه . وقال وهب بن منبه : السلوى طير سمين مثل الحمامة كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت .

وقال السدي : لما دخل بنو إسرائيل التيه قالوا لموسى ﷺ : كيف لنا بما ههنا ؟ أين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المنّ ، فكان ينزل على شجر الزنجبيل ، والسلوى وهو طائر يشبه السماني أكبر منه ، فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير فإن كان سمينًا ذبحه ، وإلّا أرسله فإذا سمن أتاه ، فقالوا هذا الطعام فأين الشراب ؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا ، فشرب كل سبط من عين ، فقالوا : هذا الشراب فأين الظل ؟ فظلل عليهم الغمام ، فقالوا : هذا الظل فأين اللباس ؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان ولا يتخرق لهم ثوب فذلك قوله تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ . وقوله : ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ قال ابن عطية : السلوى طير بإجماع المفسرين ، وقد غلط الهذلي في قوله : إنه العسل .

وقوله تعالى : ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ أمر إباحة وإرشاد وامتنان ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم ، هذا ما شاهدوه من الآيات البينات ، والمعجزات القاطعات ، وخوارق العادات ، ومن ههنا تتبين فضيلة أصحاب محمّد ﷺ ورضي عنهم على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم ، مع ما كانوا معه في أسفاره وغزواته منها عام تبوك في ذلك القيظ والحر الشديد والجهد ، لم يسألوا خرق عادة

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن(٤٦٣٩) ومسلم في الأشربة(١٥٧) والبيهقي في السنن(٣٤٥/٩)
(٢) أخرجه الترمذي في السنن(٢٠٦٨) وأحمد في مسنده(٣٥٦/٢) والدارمي في السنن(٣٣٨/٢) .

ولا إيجاد أمر ، مع أن ذلك كان سهلًا على النبي ﷺ ، ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه في تكثير طعامهم ، فجمعوا ما معهم فجاء قدر مبرك الشاة ، فدعا اللّه فيه وأمرهم فملأوا كل وعاء معهم ، وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأل اللّه تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم ، فشربوا وسقوا الإبل وملؤوا أسقيتهم ، ثم نظروا فإذا هي لم تجاوز العسكر . فهذا هو الأكمل في اتباع الشيء مع قدر اللّه مع متابعة الرسول ﷺ .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ۝ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ .

يقول تعالى لائمًا لهم على نكولهم عن الجهاد ودخولهم الأرض المقدسة لما قدموا من بلاد مصر بصحبة موسى عليه السلام ، فأمروا بدخول الأرض المقدسة التي هي ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل ، وقتال من فيها من العماليق الكفرة ، فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا ، فرماهم اللّه في التيه عقوبة لهم ، وقيل : إن هذه البلدة هي بيت المقدس وقيل : هي أريحاء . ويحكى عن ابن عبّاس وعبد الرّحمن بن زيد ، وهذا بعيد لأنها ليست على طريقهم وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحاء ، وأبعد من ذلك قول من ذهب إلى أنها مصر ، والصحيح الأول أنها بيت المقدس ، وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون عليه السلام ، وفتحها اللّه عليهم عشية جمعة ، وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلًا حتى أمكن الفتح ، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب ، باب البلد ﴿ سُجَّدًا ﴾ أي شكرًا للّه تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر ، ورد بلدهم عليهم ، وإنقاذهم من التيه والضلال .

وكان ابن عبّاس يقول في قوله تعالى : ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ أي ركعًا ، وحكي عن بعضهم أن المراد ههنا بالسجود الخضوع لتعذر حمله على حقيقته . وقال ابن عبّاس : كان الباب قبل القبلة . وقال الضحاك : هو باب الحطة من باب إيلياء بيت المقدس . وعن عبد اللّه بن مسعود : قيل لهم : ادخلوا الباب سجدًا فدخلوا مقنعي رءوسهم أي رافعي رءوسهم خلاف ما أمروا .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ أي : مغفرة استغفروا . وقال ابن عباس : قولوا هذا الأمر حق كما قيل لكم . وقال عكرمة : قولوا لا إله إلّا اللّه ، ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ قال قتادة : هذا جواب الأمر ، أي إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات ، وضاعفنا لكم الحسنات .

وحاصل الأمر أنهم أمروا أن يخضعوا للّه تعالى عند الفتح بالفعل والقول ، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها ، والشكر على النعمة عندها ، والمبادرة إلى ذلك من المحبوب عند اللّه تعالى ، فسره بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر . وفسّره ابن عبّاس بأنه نعي إلى رسول اللّه ﷺ أجله فيها . وأقرّه على ذلك عمر رضي الله عنه ، ولا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك عند ذلك ، ونعى إليه روحه الكريمة أيضًا ، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يظهر عليه الخضوع جدًّا عند النصر ، كما روي أنه كان يوم الفتح - فتح مكة - داخلًا إليها من الثنية العليا وإنه لخاضع لربه حتى أن عثنونه ليمس مورك رحله شكرًا للّه على ذلك ، ثم لما دخل البلد اغتسل وصلى ثماني ركعات ، وذلك ضحى ، فقال بعضهم : هذه صلاة الضحى ، وقال آخرون : بل هي صلاة الفتح ، فاستحبوا للإمام وللأمير إذا فتح بلدًا أن يصلي فيه ثماني ركعات عند

أول دخوله ، كما فعل سعد بن أبي وقاص ﷺ لما دخل إيوان كسرى ، صلى فيه ثماني ركعات ، والصحيح أنه يفصل بين كل ركعتين بتسليم ، وقيل يصليها كلها بتسليم واحد والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ عن أبي هريرة ﷺ عن النبيّ ﷺ قال : « قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ ، فَبَدَّلُوا وَقَالُوا : حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ »[١] .

وحاصل ما ذكره المفسرون وما دلّ عليه السياق أنهم بدّلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا سجدًا ، فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم ، رافعي رءوسهم ، وأمروا أن يقولوا : حطة ، أي احطط عنا ذنوبنا وخطايانا ، فاستهزأوا فقالوا : حنطة في شعيرة ، وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وهو خروجهم عن طاعته . ولهذا قال : ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ عن ابن عبّاس : كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب . وقال أبو العالية : الرجز الغضب . وقال الشعبي : الرجز إما الطاعون وإما البرد . وعن سعد بن مالك وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت ﷺ قالوا : قال رسول الله ﷺ : « الطَّاعُونُ رِجْزُ عَذَابٍ ، عُذِّبَ بِهِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ »[٢] ، وعن أسامة بن زيد عن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ هَذَا الوَجَعَ وَالسَّقَمَ رِجْزٌ ، عُذِّبَ بِهِ بَعْضُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ »[٣] .

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ .

يقول تعالى : واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى ﷺ حين استسقاني لكم ، وتيسيري لكم الماء ، وإخراجه لكم من حجر يحمل معكم ، وتفجيري الماء لكم منه من ثنتي عشرة عينًا ، لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها ، فكلوا من المنّ والسلوى ، واشربوا من هذا الماء الذي أنبعته لكم ، بلا سعي منكم ولا كد ، واعبدوا الذي سخّر لكم ذلك ﴿ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها وقد بسطه المفسرون في كلامهم كما قال ابن عبّاس ﷺ : وجعل بين ظهرانيهم حجر مربع ، وأمر موسى ﷺ فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا ، في كل ناحية منه ثلاث عيون ، وأعلم كل سبط عينهم يشربون منها ، لا يرتحلون من منقلة إلّا وجدوا ذلك معهم بالمكان الذي كان منهم بالمنزل الأول .

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ ﴾ .

يقول تعالى : واذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المنّ والسلوى طعامًا طيبًا نافعًا هنيئًا سهلًا ، واذكروا دبركم وضجركم مما رزقناكم ، وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنيئة ، من البقول ونحوها مما سألتم .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٤١) ومسلم في التفسير (٦٥) وأحمد في مسنده (٣١٢/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٣) ومسلم في السلام (٩٢) .
(٣) أخرجه مسلم في السلام (٩٦) والطبراني في الكبير (٩٣/١) .

قال الحسن البصري : فبطروا ذلك فلم يصبروا عليه ، وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه ، وكانوا قومًا أهل أعداس وبصل وبقل وفوم ، فقالوا : ﴿ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ وإنما قالوا على طعام واحد وهم يأكلون المنّ والسلوى ؛ لأنه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم . فهو مأكل واحد .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ فيه تقريع لهم وتوبيخ على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنيئة مع ما هم فيه من العيش الرغيد والطعام الهنيء الطيب النافع . وقوله تعالى : ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا ﴾ هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف في مصاحف الأئمة العثمانية ، وهو قراءة الجمهور بالصرف . قال ابن جرير : ولا أستجيز القراءة بغير ذلك لإجماع المصاحف على ذلك . وقال ابن عبّاس : ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا ﴾ قال : مصرًا من الأمصار . وقال ابن جرير : وقع في قراءة أبيّ بن كعب وابن مسعود ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مصرَ ﴾ من غير إجراء يعني من غير صرف [(١)] . ثم روي عن أبي العالية والربيع بن أنس أنهما فسرا ذلك بمصر فرعون . قال ابن جرير : ويحتمل أن يكون المراد مصر فرعون على قراءة الإجراء أيضًا . ويكون ذلك من باب الاتباع لكتابة المصحف كما في قوله تعالى : ﴿ قَوَارِيرَا۟ ۝ قَوَارِيرَا۟ ﴾ ثم توقف في المراد ما هو أمصر فرعون أم مصر من الأمصار ، وهذا الذي قاله فيه نظر ، والحق أن المراد مصر من الأمصار كما روي عن ابن عبّاس وغيره ، والمعنى على ذلك لأن موسى عليه السلام يقول لهم : هذا الذي سألتم ليس بأمر عزيز بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموه ، فلن يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه . ولهذا قال : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ أي ما طلبتم ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه والله أعلم .

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ أي وضعت عليهم ، وألزموا بها شرعًا وقدرًا ، أي لا يزالون مستذلين ، من وجدهم استذلهم وأهانهم ، وضرب عليهم الصغار ، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء مستكينون .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ قال الضحاك : استحقوا الغضب من الله . وقال الربيع بن أنس : فحدث عليهم غضب من الله . وقال سعيد بن جبير : استوجبوا سخطًا . وقال ابن جرير : انصرفوا ورجعوا ، ولا يقال : باء إلَّا موصولًا إما بخير وإما بشر ، يقال منه باء فلان بذنبه يبوء به بوءًا وبواء ، إذا رجعوا منصرفين متحملين غضب الله ، قد صار عليهم من الله غضب ، ووجب عليهم من الله سخط .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ يقول تعالى : هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة وإحلال الغضب بهم من الذلة ، بسبب استكبارهم عن اتباع الحق ، وكفرهم بآيات الله ، وإهانتهم حملة الشرع ، وهم الأنبياء وأتباعهم ، فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم ، فلا كفر أعظم من هذا ، إنهم كفروا بآيات الله ، وقتلوا أنبياء الله بغير الحق ،

---

(١) وهي قراءة الحسن وطلحة بن مصرف والأعمش (انظر : زاد المسير ٨٩/١) .

ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ النَّاسِ » [(١)] وقال ابن مسعود : كنت لا أحجب عن النجوى ، ولا عن كذا ، ولا عن كذا ، فأتيت رسول الله ﷺ وعنده مالك بن مرارة الرهاوي فأدركته من آخر حديثه وهو يقول : يا رسول الله قد قسم لي من الجمال ما ترى ، فما أحب أن أحدًا من الناس فضلني بشراكين فما فوقهما ، أليس ذلك هو البغي ؟ فقال : « لاَ لَيْسَ ذَلِكَ مِنَ البَغْيِ وَلكِنَّ البَغْيِ مَنْ بَطِرَ ، أَوْ قَالَ : سَفه الحقَّ وَغَمَطَ النَّاسَ » [(٢)] يعني رد الحق ، وانتقاص الناس ، والازدراء بهم ، والتعاظم عليهم ، ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبوه من الكفر بآيات الله ، وقتلهم أنبياءه ، أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد ، وكساهم ذلًا في الدنيا موصولًا بذل الآخرة ، جزاءً وفاقًا . وعن عبد الله بن مسعود قال : كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي ثم يقيمون سوق بقلهم من آخر النهار . وعن ابن مسعود أيضًا أن رسول الله ﷺ قال : « أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ رَجُلٌ قَتَلَهُ نَبِيٌّ أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا وَإِمَامُ ضَلاَلَةٍ ، وَمُمَثِّلٌ مِنَ المُمَثِّلِينَ » [(٣)] .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ وهذه علة أخرى في مجازاتهم بما جوزوا به أنهم كانوا يعصون ويعتدون ، فالعصيان فعل المناهي ، والاعتداء المجاوزة في حد المأذون فيه ، والمأمور به .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

لما بيَّن تعالى حال من خالف أوامره ، وارتكب زواجره ، وتعدَّى في فعل ما لا إذن فيه ، وانتهك المحارم ، وما أحلّ بهم من النكال ، نبه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع ، فإن له جزاءَ الحسنى ، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة ، كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية ، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ، ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه .

وقال سلمان ﷺ : سألت النبيَّ ﷺ عن أهل دين كنت معهم ، فذكرت من صلاتهم وعبادتهم ، فنزلت ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ إلى آخر الآية ، وقال السدي : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ الآية نزلت في أصحاب سلمان الفارسي بينما هو يحدث النبيَّ ﷺ إذ ذكر أصحابه فأخبره خبرهم ، فقال : كانوا يصلون ، ويصومون ، ويؤمنون بك ، ويشهدون أنك ستبعث نبيًا ، فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال له نبي الله ﷺ : « يَا سَلْمَانُ هُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ » فاشتد ذلك على سلمان ، فأنزل الله هذه الآية فكان إيمان اليهود أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى ﵇ ، حتى جاء عيسى ، فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى فلم يدعها ولم يتبع عيسى كان هالكًا ، وإيمان النصارى أن من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمنًا مقبولًا منه ، حتى جاء محمّد ﷺ فمن لم يتبع محمَّدًا ﷺ منهم ويدع ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل كان هالكًا . قلت : وهذا لا ينافي ما روي عن ابن عباس ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الآية - قال - فأنزل الله بعد ذلك

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٥/١) .
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٦٠/١٠) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٨١/١) والهندي في كنز العمال (٩٣٦٦) .

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ . فإن هذا الذي قاله ابن عبّاس إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملًا ، إلّا ما كان موافقًا لشريعة محمّد ﷺ بعد أن بعثه بما بعثه به ، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة .

فاليهود أتباع موسى عليه السلام الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة في زمانهم . واليهود من الهوادة ، وهي المودة أو التهود ، وهي التوبة كقول موسى عليه السلام : ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أي تبنا فكأنهم سموا بذلك في الأصل لتوبتهم ومودتهم في بعضهم لبعض ، وقيل لنسبتهم إلى يهودا أكبر أولاد يعقوب ، وقال أبو عمرو بن العلاء : لأنهم يتهودون أي يتحركون عند قراءة التوراة ، فلما بعث عيسى ﷺ وجب على بني إسرائيل اتباعه والانقياد له ، فأصحابه وأهل دينه هم النصارى ، وسموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم ، وقد يقال لهم أنصار أيضًا كما قال عيسى عليه السلام : ﴿ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ وقيل : إنهم إنما سموا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضًا يقال لها ناصرة ، والله أعلم . والنصارى جمع نصران ، كنشاوى جمع نشوان ، وسكارى جمع سكران ، ويقال للمرأة نصرانة .

فلما بعث الله محمّدًا ﷺ خاتمًا للنبيين ورسولًا إلى بني آدم على الإطلاق وجب عليهم تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، والانكفاف عما عنه زجر ، وهؤلاء هم المؤمنون حقًّا ، وسميت أمة محمّد ﷺ مؤمنين لكثرة إيمانهم ، وشدة إيقانهم ؛ ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية .

وأما الصابئون فقد اختلف فيهم ، فقال مجاهد : هم قوم بين المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين ، وقال الضحاك : فرقة من أهل الكتاب يقرأون الزبور ؛ ولهذا قال أبو حنيفة وإسحاق : لا باس بذبائحهم ومناكحتهم . وقال الحسن : هم قوم يعبدون الملائكة .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى مذكرًا بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له واتباع رسله ، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق ، رفع الجبل فوق رءوسهم ليقروا بما عوهدوا عليه ، ويأخذوه بقوة وحزم وامتثال ، فالطور هو الجبل ، ونص على ذلك ابن عبّاس ومجاهد وغير واحد ، وهذا ظاهر ، وفي رواية عن ابن عبّاس الطور ما أنبت من الجبال ، وما لم ينبت فليس بطور . وقال الحسن في قوله : ﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ يعني التوراة . وقال قتادة : القوة : الجد وإلّا قذفته عليكم ، قال : فأقروا أنهم يأخذون ما أوتوا بقوة ، ومعنى قوله : وإلّا قذفته عليكم أي أسقطته عليكم ، يعني الجبل . قوله ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ ﴾ أي : اقرأوا ما في التوراة واعملوا به .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ ﴾ يقول تعالى : ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه ، وانثنيتم ونقضتموه ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ أي بتوبته عليكم وإرساله النبيين والمرسلين إليكم ﴿ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ بنقضكم ذلك الميثاق في الدنيا والآخرة .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ﴾ يا معشر اليهود ، ما أحل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله ، وخالفوا عهده وميثاقه ، فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره ، إذ كان مشروعًا لهم فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت ، بما وضعوا لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت ، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل ، فلم تخلص منها يومها ذلك ، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت ، فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة ، وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر ، وليست بإنسان حقيقة ، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ، ومخالفة له في الباطن ، كان جزاؤهم من جنس عملهم .

وقوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ قال مجاهد : مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة . وإنما هو مثل ضربه الله ، وقال ابن عبّاس : فجعل الله منهم القردة والخنازير ، فزعم أن شباب القوم صاروا قردة وأن الشيخة صاروا خنازير . وقال الضحّاك عن ابن عبّاس : فمسخهم الله قردة بمعصيتهم يقول : إذ لا يحيون في الأرض إلَّا ثلاثة أيام ، قال : ولم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل ، وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخلق في الستة الأيام التي ذكرها الله في كتابه ، فمسخ هؤلاء القوم في صورة القردة وكذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء ، ويحوله كما يشاء .

قلت : والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ ، من أن مسخهم إنما كان معنويًا لا صوريًا ، بل الصحيح أنه معنوي صوري والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا ﴾ الضمير في ﴿ فَجَعَلْنَاهَا ﴾ عائد إلى القردة ، وقيل على الحيتان ، وقيل : على العقوبة ، وقيل : على القرية ، حكاها ابن جرير . والصحيح أن الضمير عائد على القرية ، أي فجعل الله هذه القرية والمراد أهلها بسبب اعتدائهم في سبتهم ﴿ نَكَالًا ﴾ أي عاقبناهم عقوبة فجعلناها عبرة كما قال الله عن فرعون : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ أي من القرى ، قال ابن عبّاس : يعني جعلناها بما أحللنا بها من العقوبة ، عبرة لما حولها من القرى . وقال أبو العالية والربيع : ﴿ وَمَا خَلْفَهَا ﴾ لما بقي بعدهم من الناس من بني إسرائيل أن يعملوا مثل عملهم ، وكان هؤلاء يقولون : المراد لما بين يديها وما خلفها في الزمان . وهذا مستقيم بالنسبة إلى من يأتي بعدهم من الناس أن تكون أهل تلك القرية عبرة لهم ، وأما بالنسبة إلى من سلف قبلهم من الناس فكيف يصح هذا الكلام أن تفسر الآية به وهو أن يكون عبرة لمن سبقهم ؟ وهذا لعل أحدًا من الناس لا يقوله - بعد تصوره - فتعين أن المراد بما بين يديها وما خلفها في المكان وهو ما حولها من القرى .

وحكي الرازي ثلاثة أقوال : أحدها : أن المراد بما بين يديها وما خلفها من تقدمها من القرى بما عندهم من العلم ، بخبرها بالكتب المتقدمة ومن بعدها . والثاني : المراد بذلك من بحضرتها من القرى والأمم . والثالث : أنه تعالى جعلها عقوبة لجميع ما ارتكبوه من قبل هذا الفعل وما بعده ، وهو قول الحسن .

قلت : وأرجح الأقوال المراد بما بين يديها وما خلفها من بحضرتها من القرى ، يبلغهم خبرها وما حل بها .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ قال ابن عباس : هم الذين من بعدهم إلى يوم القيامة . وقال السدي : أمة محمد ﷺ .

قلت : المراد بالموعظة ههنا الزجر ، أي جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال ، في مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله ، وما تحيلوا به من الحيل ، فليحذر المتقون صنيعهم ، لئلا يصيبهم ما أصابهم . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ اليَهُودُ ، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللهِ بِأَدْنَى الحِيَلِ » (١) .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ .

يقول تعالى : واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة ، وبيان القاتل من هو بسببها ، وإحياء الله المقتول ، ونصه على من قتله منهم .

ذِكْرُ بَسْطِ القِصَّة

عن عبيدة السلماني قال : كان رجل من بني إسرائيل عقيمًا لا يولد له ، وكان له مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه ، فقتله ثم احتمله ليلًا ، فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم ، حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض ، فقال ذوو الرأي منهم والنهى : علامَ يقتل بعضكم بعضًا وهذا رسول الله فيكم ؟ فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ قال : فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم ، حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها ، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها ، فقال : والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبًا ، فأخذوها بملء جلدها ذهبًا ، فذبحوها ، فضربوه ببعضها فقام ، فقالوا : من قتلك ؟ فقال : هذا - لابن أخيه - ثم مال ميتًا ، فلم يعط من ماله شيئًا ، فلم يورث قاتل بعد .

﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ۞ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ۞ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۞ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ .

أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم ، ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم ، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم ، كما قال ابن عبّاس وغير واحد ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم فقالوا ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾ أي ما هذه البقرة ، وأي شيء صفتها ، قال ابن جريج : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا أُمِرُوا بِأَدْنَى بَقَرَةٍ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا شَدَّدُوا شَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَثْنُوا لَمَا بُيِّنَتْ لَهُمْ آخِرَ الأَبَدِ » (٢) قال : ﴿ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ﴾ أي لا كبيرة هرمة ، ولا صغيرة لم يلحقها الفحل ، وقال الضحاك عن ابن عبّاس ﴿ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾

(١) ذكره الألباني في إرواء الغليل (٥/٣٧٥) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١/٧٧) .

نصف بين الكبيرة والصغيرة ، وهي أقوى ما يكون من الدواب والبقر ، وأحسن ما تكون . وقال السدي : العوان النصف التي بين ذلك ، التي قد ولدت وولد ولدها . وقال عطية العوفي : ﴿ فَاقِعٌ لَوْنُهَا ﴾ تكاد تسود من صفرتها . وقال سعيد بن جبير : صافية اللون . وقال شريك عن معمر : صاف . وقال العوفي في تفسيره عن ابن عبّاس : شديدة الصفرة ، تكاد من صفرتها تبيض . وقال السدي ﴿ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ : أي تعجب الناظرين . وقال وهب بن منبه : إذا نظرت إلى جلدها تخيلت أن شعاع الشمس يخرج من جلدها . وفي التوراة أنها كانت حمراء فلعل هذا خطأ في التعريب ، أو كما قال الأول : إنها كانت شديدة الصفرة تضرب إلى حمرة وسواد ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ أي لكثرتها فميز لنا هذه البقرة وصفها وحلها لنا ﴿ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ ﴾ إذا بينتها لنا ﴿ لَمُهْتَدُونَ ﴾ إليها .

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ ﴾ أي إنها ليست مذللة بالحراثة ، ولا معدة للسقي في الساقية ، بل هي مكرمة حسنة صبيحة مسلّمة صحيحة لا عيب فيها .

﴿ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أي ليس فيها لون غير لونها . وقال قتادة ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ : لا عيب فيها . وقال عطاء الخرساني : مسلّمة القوائم والخلق لا شية فيها . وقال مجاهد : لا بياض ولا سواد . وقال أبو العالية والحسن : ليس فيها بياض .

﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ قال قتادة : الآن بينت لنا . ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ قال ابن عبّاس : كادوا أن لا يفعلوا ، ولم يكن ذلك الذي أرادوا لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها ، يعني أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلّا بعد الجهد ، وفي هذا ذم لهم ، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلّا التعنت ، فلهذا ما كادوا يذبحونها . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إنهم اشتروها بمال كثير ، وفيه اختلاف ، ثم قد قيل في ثمنها غير ذلك .

مسألة : استدل بهذه الآية في حصر صفات هذه البقرة حتى تعينت أو تم تقييدها بعد الإطلاق على صحة السلم في الحيوان كما هو مذهب مالك والأوزاعي والليث والشافعي وأحمد وجمهور العلماء سلفًا وخلفًا ، بدليل ما ثبت عن النبيّ ﷺ : « لاَ تَنْعَتُ المَرْأَةُ المَرْأَةَ لِزَوْجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا » (١) وكما وصف النبي ﷺ إبل الدية في قتل الخطأ وشبه العمد بالصفات المذكورة بالحديث . وقال أبو حنيفة والثوري والكوفيون : لا يصح السلم في الحيوان لأنه لا تنضبط أحواله .

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

قال البخاري : ﴿ فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ اختلفتم . وقال الضحاك : اختصمتم فيها . وقال ابن جريج : قال بعضهم : أنتم قتلتموه ، وقال آخرون : بل أنتم قتلتموه .

﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ قال مجاهد : ما تغيبون . وقال المسيب بن رافع : ما عمل رجل

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٧٣/١٠) بلفظ « لا تصف » بدلًا من « لا تنعت » .

حسنة في سبعة أبيات إلَّا أظهرها اللَّه ، وما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات إلَّا أظهرها ، وتصديق ذلك في كلام اللَّه ﴿ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة ، فالمعجزة حاصلة به ، وخرق العادة به كائن ، وقد كان معينًا في نفس الأمر ، فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبيَّنه اللَّه تعالى لنا ، ولكنه أبهمه ولم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيانه فنحن نبهمه كما أبهمه اللَّه . ولهذا قال ابن عبَّاس : إن أصحاب بقرة بني إسرائيل طلبوها أربعين سنة حتى وجدوها عند رجل في بقر له ، وكانت بقرة تعجبه ، قال : فجعلوا يعطونه بها فيأبى ، حتى أعطوه ملء مسكها دنانير فذبحوها ، فضربوه - يعني القتيل - بعضو منها فقام تشخب أوداجه دمًا ، فقالوا له : من قتلك ، قال : قتلني فلان .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي فضربوه فحيي ، ونبَّه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل ، جعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد ، وفاصلًا ما كان بينهم من الخصومة والعناد ، واللَّه تعالى قد ذكر في هذه السورة ما خلقه من إحياء الموتى في خمسة مواضع . ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ وهذه القصة ، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، وقصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها ، وقصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة ، ونبَّه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميمًا ، فعن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه ، قال : قلت : يا رسول اللَّه ، كيف يحيي اللَّه الموتى ؟ قال : « أَمَا مَرَرْتَ بِوَادٍ مُمْحِلٍ ، ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ خَضِرًا » ؟ قال : بلى . قال : « كَذَلِكَ النُّشُورُ » أو قال : ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[(١)] .

مسألة : استدل لمذهب الإمام مالك في كون قول الجريح : فلان قتلني لوثًا ، بهذه القصة لأن القتيل لما حيي سئل عمن قتله فقال : فلان قتلني . فكان ذلك مقبولًا منه ؛ لأنه لا يخبر حينئذ إلَّا بالحق ولا يتهم والحالة هذه ، ورجحوا ذلك لحديث أنس أن يهوديًا قتل جارية على أوضاح لها ، فرضخ رأسها بين حجرين فقيل : « من فعل بك هذا ، أفلان ؟ أفلان ؟ » حتى ذكروا اليهودي فأومأت برأسها ، فأخذ اليهودي فلم يزل به حتى اعترف ، فأمر رسول اللَّه ﷺ أن يرض رأسه بين حجرين[(٢)] . وعند مالك إذا كان لوثًا ، حلف أولياء القتيل قسامة ، وخالف الجمهور في ذلك ، ولم يجعلوا قول القتيل في ذلك لوثًا .

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى توبيخًا لبني إسرائيل ، وتقريعًا لهم على ما شاهدوه من آيات اللَّه تعالى وإحيائه الموتى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ كله ﴿ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ ﴾ التي لا تلين أبدًا ، ولهذا نهى اللَّه المؤمنين عن مثل حالهم ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ .

قال ابن عبَّاس : لما ضرب المقتول ببعض البقرة جلس أحيا ما كان قط ، فقيل له : من قتلك ؟ قال : بنو أخي قتلوني ، ثم قبض ، فقال بنو أخيه حين قبضه اللَّه : واللَّه ما قتلناه ، فكذبوا بالحق بعد

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده(١٢/٤) .   (٢) أخرجه مسلم في القسامة(١٧)

أن رأوه ، فقال الله : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ يعني أبناء أخي الشيخ ﴿ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية ، بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات ، فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها ، أو أشد قسوة من الحجارة ، فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية ، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جاريًا ، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله وفيه إدراك لذلك بحسبه ، عن مجاهد أنه كان يقول : كل حجر يتفجر منه الماء ، أو يتشقق عن ماء ، أو يتردى من رأس جبل لمن خشية الله ، نزل بذلك القرآن . وقال ابن عبّاس ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ أي وإن من الحجارة لألين من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . وقال أبو علي الجياني في تفسيره : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ هو سقوط البرد من السحاب . وقال يحيى بن يعقوب في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ﴾ قال كثرة البكاء ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ ﴾ قال : قليل البكاء ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ قال : بكاء القلب من غير دموع العين .

وقد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز ، وهو إسناد الخشوع إلى الحجارة ، كما أسندت الإرادة إلى الجدار في قوله : ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ قال الرازي والقرطبي وغيرهما من الأئمة : ولا حاجة إلى هذا ، فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ وفي الصحيح : « هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ » (١) ، وكحنين الجذع المتواتر خبره . وفي الصحيح «إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ » (٢) وفي صفة الحجر الأسود أنه يشهد لمن استلم بحق يوم القيامة ، وغير ذلك مما في معناه ، وحكى القرطبي قولًا أنها للتخيير أي مثلًا لهذا وهذا .

تنبيه : اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى : ﴿ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ بعد الإجماع على استحالة كونها للشك فقال بعضهم : أو ههنا بمعنى الواو وتقديره : فهي كالحجارة وأشد قسوة : كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ .

وقال آخرون : معنى ذلك ﴿ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ عندكم . وقال آخرون : المراد بذلك الإبهام على المخاطب ، كما قال أبو الأسود :

أُحِبُّ مُحَمَّدًا حُبًّا شَدِيدًا ... وَعَبَّاسًا وَحَمْزَةَ وَالوَصِيَّا
فَإِنْ يَكُ حُبُّهُمْ رُشْدًا أُصِبْهُ ... وَلَيْسَ بِمُخْطِئٍ إِنْ كَانَ غَيًّا

وقال ابن جرير : قالوا : ولا شك أنّ أبا الأسود لم يكن شاكًا في أن حب من سمى رشد ، ولكنه أبهم على من خاطبه . قال : وقد ذكر عن أبي الأسود ، أنه لما قال هذه الأبيات قيل له : شككت فقال : كلا والله ، ثم انتزع بقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فقال : أو كان شاكًا من

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٩/٣) .
(٢) أخرجه مسلم في الفضائل (٢) وأحمد في مسنده (٩٥/٥) والدارمي في السنن (١٢/١) .

أخبر بهذا من الهادي منهم ومن الضال ؟ وقال بعضهم : معنى ذلك : فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلين ، إما أن تكون مثل الحجارة في القسوة ، وإما أن تكون أشد منها في القسوة . قال ابن جرير : ومعنى ذلك على هذا التأويل فبعضها كالحجارة قسوة ، وبعضها أشد قسوة من الحجارة ، قلت : وهذا القول الأخير يبقى شبيهًا بقوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ مع قوله : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي : أن منهم من هو هكذا ومنهم من هو هكذا . وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « لَا تُكْثِرُوا الكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّه ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّه قَسْوَةُ القَلْبِ ، وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللَّه القَلْبُ القَاسِي » (١) .

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٧٦ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ ﴾ أي ينقاد لكم بالطاعة هؤلاء الفرقة الضالّة من اليهود ، الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه ، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ ﴾ أي يتأولونه على غير تأويله ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ أي فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة وهم يعلمون أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله ، قال اللَّه تعالى لنبيه ﷺ ولمن معه من المؤمنين يؤيسهم منهم ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ وليس قوله : يسمعون التوراة كلهم قد سمعها ، ولكن هم الذين سألوا موسى رؤية ربهم فأخذتهم الصاعقة فيها . وقال السدي : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ ﴾ قال : هي التوراة حرَّفوها . وهذا الذي ذكره السدي أعم مما ذكره ابن عبّاس وابن إسحاق ، وإن كان قد اختاره ابن جرير لظاهر السياق ؛ فإنه ليس يلزم من سماع كلام اللَّه أن يكون منه كما سمعه الكليم موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ، وقد قال اللَّه تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ أي مبلغًا إليه ، ولهذا قال قتادة في قوله : ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ قال : هم اليهود ، كانوا يسمعون كلام اللَّه ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ووعوه .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ قال ابن عباس : أي أن صاحبكم رسول اللَّه ، ولكنه إليكم خاصة وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : لا تحدثوا العرب بهذا ، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم ، فأنزل اللَّه ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ أي تقرون بأنه نبي ، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه ، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر ونجد في كتابنا ، اجحدوه ولا تقروا به . يقول اللَّه تعالى : ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ وقال الضحاك عن ابن عبّاس : يعني المنافقين من اليهود ، كانوا إذا لقوا أصحاب محمّد ﷺ قالوا : آمنا . وقال السدي : هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ، ثم نافقوا . قال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم : كان رسول اللَّه ﷺ قد قال : « لَا يَدْخُلَنَّ عَلَيْنَا قَصَبَةَ المَدِينَةِ إِلَّا مُؤْمِنٌ » فقال رؤساؤهم من أهل الكفر والنفاق :

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤١١) والمنذري في الترغيب (٥٣٨/٣) والألباني في الضعيفة (٩٢٠) .

اذهبوا فقولوا : آمنا واكفروا إذا رجعتم إلينا ، فكانوا يأتون المدينة بالبكر ، ويرجعون إليهم بعد العصر . وقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ وكانوا يقولون ، إذا دخلوا المدينة : نحن مسلمون ، ليعلموا خبر رسول الله ﷺ وأمره ، فإذا رجعوا رجعوا إلى الكفر ، فلما أخبر الله نبيّه ﷺ قطع ذلك عنهم فلم يكونوا يدخلون . وكان المؤمنون يظنون أنهم مؤمنون فيقولون : أليس قد قال الله لكم كذا وكذا ؟ فيقولون بلى . فإذا رجعوا إلى قومهم يعني الرؤساء فقالوا : ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ الآية ، يعني بما أنزل عليكم في كتابكم من نعت محمّد ﷺ قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ قام النبي ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم ، فقال : « يا إخوان القردة والخنازير ويا عبدة الطاغوت » فقالوا : من أخبر بهذا الأمر محمّدًا ؟ ما خرج هذا القول إلّا منكم ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ بما حكم الله للفتح ليكون لهم حجة عليكم (١) . قال ابن جريج عن مجاهد : هذا حين أرسل إليهم عليًا فآذوا محمّدًا ﷺ .

﴿ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ هؤلاء الناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا ، فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذبوا به ، فقال بعضهم لبعض ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ من العذاب ليقولوا : نحن أحب إلى الله منكم .

وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ قال أبو العالية : يعني ما أسروا من كفرهم بمحمّد ﷺ وتكذيبهم به ، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم ، وقال الحسن : كان ما أسروا أنهم كانوا إذا تولوا عن أصحاب محمّد ﷺ وخلا بعضهم إلى بعض تناهوا أن يخبر أحد منهم أصحاب محمّد ﷺ بما فتح الله عليهم مما في كتابهم ، خشية أن يحاجّهم أصحاب محمّد ﷺ بما في كتابهم عند ربهم ، ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ يعني حين قالوا لأصحاب محمّد ﷺ آمنا .

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٥ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾ أي ومن أهل الكتاب . والأميون جمع أمي وهو الرجل الذي لا يحسن الكتابة . وهو ظاهر في قوله تعالى : ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي لا يدرون ما فيه . ولهذا في صفات النبيّ ﷺ : أنه الأمي لأنه لم يكن يحسن الكتابة . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « إِنَّا أُمَّةٌ أُمية لاَ نَكْتُبُ وَلاَ نَحْسُبُ ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا » (٢) أي لا نفتقر في عباداتنا ومواقيتها إلى كتاب ولا حساب . وقال ابن جرير : نسبت العرب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه في جهله بالكتاب دون أبيه .

قال ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ إِلَّآ أَمَانِىَّ ﴾ يقول : إلّا قولًا يقولونه بأفواههم كذبًا . وقال مجاهد : إلّا كذبًا . وقال ابن جريج عن مجاهد : أناس من اليهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئًا ، وكانوا يتكلمون بالظن بغير ما في كتاب الله ، ويقولون : هو من الكتاب ، أماني يتمنونها .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٨١/١) .
(٢) أخرجه مسلم في الصيام (١٥) وأبو داود في السنن (٢٣١٩) وأحمد في مسنده (٥٢/٢) .

وقال قتادة ﴿ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴾ : يتمنون على الله ما ليس لهم ، قال ابن جرير : والأشبه بالصواب قول ابن عباس . وقال مجاهد : إن الأميين الذين وصفهم الله تعالى أنهم لا يفقهون من الكتاب الذي أنزله الله تعالى على موسى شيئًا ، ولكنهم يتخرصون الكذب ، ويتخرصون الأباطيل كذبًا وزورًا ، والتمني في هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه ، ومنه الخبر المروي عن عثمان بن عفان ﷺ ما تغنيت ولا تمنيت يعني ما تخرصت الباطل ولا اختلقت الكذب .

قال ابن عبّاس : ﴿ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ أي ولا يدرون ما فيه ، وهم يجدون نبوتك بالظن . وقال مجاهد ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ يكذبون . وقال قتادة وأبو العالية والربيع : يظنون بالله الظنون بغير الحق .

قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ الآية هؤلاء صنف آخر من اليهود وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله ، وأكل أموال الناس بالباطل . والويل : الهلاك والدمار ، وهي كلمة مشهورة في اللغة . ويل : صديد في أصل جهنم . وقال عطاء بن يسار : الويل وادٍ في جهنم لو سيرت فيه الجبال لماعت . وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال : « وَيْلٌ وَادٍ في جَهَنَّمَ يَهْوِي فِيهِ الكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَهُ » (١) . وعن ابن عبّاس : الويل المشقة من العذاب . وقال الخليل بن أحمد : الويل شدة الشر . وقال سيبويه : ويل لمن وقع في الهلكة ، وويح لمن أشرف عليها . وقال الأصمعي : الويل تفجع ، والويح ترحم . وقال غيره : الويل الحزن . وقال الخليل : وفي معنى ويل ويح وويش وويه وويك وويب ، ومنهم من فرق بينها . وقال بعض النحاة : إنما جاز الابتداء بها وهي نكرة لأن فيها معنى الدعاء ، ومنهم من جوز نصبها بمعنى ألزمهم ويلًا . قلت : لكن لم يقرأ بذلك أحد .

وعن ابن عبّاس ﷺ ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ قال : هم أحبار اليهود . وقال السدي : كان ناس من اليهود كتبو كتابًا من عندهم يبيعونه من العرب ، ويحدثونهم أنه من عند الله ، فيأخذوا به ثمنًا قليلًا .

وقوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ أي فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان والافتراء ، وويل لهم مما أكلوا به من السحت .

﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى إخبارًا عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسّهم النار إلّا أيامًا معدودة ، ثم ينجون منها ، فردَّ الله عليهم ذلك بقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا ﴾ أي بذلك ، فإن كان قد وقع عهد فهو لا يخلف عهده ، ولكن هذا ما جرى ولا كان ولهذا أتى بأم التي بمعنى بل ، أي بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه .

عن ابن عبّاس : إن اليهود كانوا يقولون : إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما نعذب بكل ألف سنة يومًا في النار ، وإنما هي سبعة أيام معدودة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴾ إلى

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣١٦٤) وأحمد في مسنده (٣/٧٥) والحاكم في المستدرك (٤/٥٩٦) .

قوله : ﴿ خَـٰلِدِينَ ﴾ . وقال عكرمة : خاصمت اليهود رسول الله ﷺ فقالوا : لن ندخل النار إلّا أربعين ليلة ، وسيخلفنا فيها قوم آخرون ، يعنون محمّدًا ﷺ وأصحابه ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ بيده على رؤوسهم « بَلْ أَنْتُمْ خَالِدُونَ وَمُخَلَّدُونَ لاَ يَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَحَدٌ » ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً ﴾ الآية [١] . وعن أبي هريرة قال : لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم ، فقال رسول الله ﷺ : « اجْمَعُوا لِي مَنْ كَانَ مِنَ اليَهُودِ ههُنَا » فقال لهم رسول الله ﷺ : « مَنْ أَبُوكُمْ » ؟ قالوا : فلان ، قال : « كَذَبْتُمْ بَلْ أَبُوكُمْ فُلاَنٌ » ، فقالوا : صدقت وبررت ، ثم قال لهم : « هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ ؟ » قالوا : نعم يا أبا القاسم ، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « مَنْ أَهْلِ النَّارِ ؟ » ، فقالوا : نكون فيها يسيرًا ثم تخلفونا فيها ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « اخْسَؤُوا وَاللهِ لاَ نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا » ثم قال لهم رسول الله ﷺ : « هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ ؟ » قالوا : نعم يا أبا القاسم ، قال : « هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا » فقالوا : نعم ، قال : « فَمَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ » فقالوا : أردنا إن كنت كاذبًا أن نستريح منك ، وإن كنت نبيًّا لم يضرك [٢] .

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ليس الأمر كما تمنيتم ، ولا كما تشتهون ، بل الأمر أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته ، وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة ، بل جميع أعماله سيئات ، فهذا من أهل النار ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي آمنوا بالله ورسوله ، وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشريعة ، فهم من أهل الجنّة .

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾ أي عمل مثل أعمالكم ، وكفر بمثل ما كفرتم به ، حتى يحيط به كفره فما له من حسنة . وفي رواية عن ابن عبّاس قال : الشرك . وقال السدي : السيئة الكبيرة من الكبائر وقال مجاهد : ﴿ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾ بقلبه . وقال الربيع بن خيثم : الذي يموت على خطاياه من قبل أن يتوب . وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى والله أعلم . ويذكر ههنا الحديث الذي روي عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ » [٣] وإن رسول الله ﷺ ضرب لهم مثلًا كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة ، فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود ، والرجل يجيء بالعود ، حتى جمعوا سوادًا وأججوا نارًا ، فأنضجوا ما قذفوا فيها [٤] .

﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانًا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ .

يذكر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر ، وأخذه ميثاقهم على ذلك ، وأنهم تولوا عن ذلك كله وأعرضوا قصدًا وعمدًا وهم يعرفونه ويذكرونه ، فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، وبهذا أمر جميع خلقه ، وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها ، وهو حق الله تبارك وتعالى أن يعبد

---

(١) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٢٤٦/١٠) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥١/٢) والبغوي في شرح السنة (٢٣/١٤) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣١/٥) والألباني في الصحيحة (٣٨٩) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٢/١) .

وحده لا شريك له ، ثم بعده حق المخلوقين ، وآكدهم بذلك حق الوالدين ، ولهذا يقرن تبارك وتعالى بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالى : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وفي الصحيحين عن ابن مسعود قلت : يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ قال : « الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا » قلت : ثم أي ؟ قال : « بِرُّ الوَالِدَيْنِ » قلت : ثم أيّ ؟ قال : « الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّه » (١) . ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رجلًا قال : يا رسول الله من أبر ؟ قال : « أُمَّكَ » قال : ثم مَن ؟ قال : « أُمَّكَ » قال ثم من ؟ قال : « أَبَاكَ ، ثُمَّ أَدْنَاكَ ، ثُمَّ أَدْنَاكَ » (٢)

وقوله تعالى : ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ قال الزمخشري : خبر بمعنى الطلب وهو آكد ، وقيل : كان أصله ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ كما قرأها من قرأها من السلف ، فحذفت أن فارتفع . وحكي عن أبيّ وابن مسعود أنهما قرآها (لا تعبدوا إلا الله) ونقل هذا التوجيه القرطبي في تفسيره عن سيبويه . قال واختاره الكسائي والفراء . قال : ﴿ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ وهم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء والمساكين الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم . وقوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ أي كلموهم طيبًا ولينوا لهم جانبًا ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف ، كما قال الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ فالحسن من القول يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحلم ويعفو ويصفح ، ويقول للناس حسنًا ، كما قال الله ، وهو كل خلق حسن رضيه الله .

عن أبي ذر ﷺ ، عن النبيّ ﷺ أنه قال : « لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئًا ، وَإِنْ لَمْ تَجِدْ ؛ فَالْقَ أَخَاكَ بِوَجْهٍ مُنْطَلِقٍ » (٣) وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسنًا ، بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل ، فجمع بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي ، ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمتعين من ذلك وهو الصلاة والزكاة فقال : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله ، أي تركوه وراء ظهورهم ، وأعرضوا عنه عن عمد ، بعد العلم به ، إلّا القليل منهم .

وقد أمر الله هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء بقوله : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها ولله الحمد والمنة .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝٨٤ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٨٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٣٤) ومسلم في الإيمان (١٣٩) وأحمد في مسنده (٤١٠/١) .
(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١) وأحمد في مسنده (٣٢٧/٢) والترمذي في السنن (١٨٩٧) .
(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٤٤) وأحمد في مسنده (٦٣/٥) .

يقول تبارك وتعالى منكرًا على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة ، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج ، وذلك أن الأوس والخزرج وهم الأنصار ، كانوا في الجاهلية عباد أصنام ، وكانت بينهم حروب كثيرة ، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل : بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج ، وبنو قريظة حلفاء الأوس ، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه ، فيقتل اليهودي أعداءه ، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر ، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم ، ويخرجونهم من بيوتهم ، وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال ، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملًا بحكم التوراة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضًا ، ولا يخرجه من منزله ، ولا يظاهر عليه كما قال تعالى : ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾ وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَوَاصُلِهِمْ بِمَنْزِلَةِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أي ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ ﴾ .

عن السدي قال : كانت قريظة حلفاء الأوس ، وكانت النضير حلفاء الخزرج ، فكانوا يقتتلون في حرب بينهم ، فتقاتل بنو قريظة مع حلفائها ، النضير وحلفاءهم ، وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفاءها ويغلبونهم ، فيخربون ديارهم ويخرجونهم منها ، فإذا أسر رجل من الفريقين كلاهما ؛ جمعوا له حتى يفدوه ، فتعيرهم العرب بذلك ويقولون : كيف تقاتلونهم وتفدونهم ؟ قالوا : إنا أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم ، قالوا : فلمَ تقاتلونهم ؟ قالوا : إنا نستحيي أن تستذل حلفاؤنا ، فذلك حين عيَّرهم الله تبارك وتعالى فقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ ﴾ الآية . وقال الشعبي : نزلت هذه الآية في قيس بن الحطيم ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ ﴾ الآية . وقال السدي عن عبد خير : غزونا مع سلمان بن ربيعة الباهلي بلنجر ، فحاصرنا أهلها ففتحنا المدينة وأصبنا سبايا ، واشترى عبد الله بن سلام يهودية بسبعمائة ، فلما مر برأس الجالوت نزل به فقال له عبد الله : يا رأس الجالوت هل لك في عجوز ههنا من أهل دينك تشتريها مني ، قال : نعم ، قال : أخذتها بسبعمائة درهم ، قال : فإني أربحك سبعمائة أخرى ، قال : فإني قد حلفت أن لا أنقصها من أربعة آلاف ، قال : لا حاجة لي فيها ، قال : والله لتشترينها مني أو لتكفرن بدينك الذي أنت عليه ، قال : ادن مني ، فدنا منه فقرأ في أذنه مما في التوراة : إنك لا تجد مملوكًا من بني إسرائيل إلا اشتريته فأعتقته ، ﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ قال : أنت عبد الله بن سلام ؟ قال : نعم ، قال : فجاء بأربعة آلاف فأخذ عبد الله ألفين ورد عليه ألفين .

والذي أرشدت إليه الآية الكريمة وهذا السياق ، ذمُّ اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٦) وأحمد في مسنده (٢٧٠/٤) والبيهقي في السنن (٣٥٣/٣) .

صحتها ومخالفة شرعها مع معرفتهم بذلك ، وشهادتهم له بالصحة ، فلهذا لا يؤمنون على ما فيها ولا على نقلها ، ولا يصدقون فيما كتموه من صفة رسول الله ﷺ ونعته ومبعثه ومخرجه ومهاجره ، وغير ذلك من شؤونه التي أخبرت بها الأنبياء قبله عليهم الصلاة والسلام ، واليهود - عليهم لعائن الله - يتكاتمونه بينهم ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ﴾ جزاء على مخالفتهم كتاب الله الذي بأيديهم ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي استحبوها على الآخرة واختاروها ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي لا يفتر عنهم ساعة واحدة ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي ولا يجيرهم منه .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ .

ينعت تبارك وتعالى بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء ، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم ، فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب وهو التوراة ، فحرّفوها وبدلوها وخالفوا أوامرها وأوّلوها ، وأرسل الرسل والنبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ﴾ قال السدي عن أبي مالك : أتبعنا . وقال غيره : أردفنا . والكل قريب كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم . فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام ، ولهذا أعطاه الله من البينات وهي المعجزات . قال ابن عبّاس من إحياء الموتى ، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله ، وإبراء الأسقام ، وإخباره بالغيوب ، وتأييده بروح القدس وهو جبريل عليه السلام ، ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به ، فاشتد تكذيب بني إسرائيل له وحسدهم وعنادهم ، لمخالفة التوراة في البعض كما قال تعالى إخبارًا عن عيسى : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ الآية فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ المعاملة ، ففريقًا يكذبونه ، وفريقًا يقتلونه ، وما ذاك إلا لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم ، وبالإلزام بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها ، فلهذا كان ذلك يشق عليهم فكذبوهم ، وربما قتلوا بعضهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ .

والدليل على أن روح القدس هو جبريل ما روي عن عائشة أن رسول الله ﷺ وضع لحسّان بن ثابت منبرًا في المسجد فكان ينافح عن رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ أَيِّدْ حَسَّانَ بِرُوحِ القُدُسِ كَمَا نَافَحَ عَنْ نَبِيِّكَ » (١) وفي بعض الروايات أن رسول الله ﷺ قال لحسان : « اهْجُهُمْ - أو هاجهم - وَجِبْرِيلُ مَعَكَ » (٢) وفي شعر حسان قوله :

وَجِبْرِيلٌ رَسُولُ اللَّهِ فِينَا ... وَرُوحُ القُدسِ لَيْسَ بِهِ خَفَاءُ

أقوال أخر : وقال ابن عباس ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ هو الاسم الأعظم الذي كان عيسى يحيي به

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٥١) وأحمد في مسنده (٥/٢٢٢) .
(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٢٣) ومسلم في فضائل الصحابة (١٥٣) وأحمد في مسنده (٤/٣٠٢) .

الموتى . وقال ابن أبي نجيح : الروح هو حفظة على الملائكة . وقال الربيع بن أنس : القدس هو الرب تبارك وتعالى . وقال السدي : القدس البركة . وقال الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ إنما لم يقل وفريقًا قتلتم ؛ لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل أيضًا ، لأنهم حاولوا قتل النبيّ ﷺ بالسم والسحر ، وقد قال ﷺ في مرض موته : « مَا زَالَتْ أَكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَاوِدُنِي ، فَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ أَبْهَرِي » (١) .

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ أي في أكنة ، وقال : أي لا تفقه . وقال : هي القلوب المطبوع عليها فلا تعي ولا تفقه . وقرأ ابن عبّاس وعطاء : ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أي طردهم الله وأبعدهم من كل خير ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ قال قتادة : معناه لا يؤمن منهم إلّا القليل ، وعن حذيفة قال : « القلوب أربعة » فذكر منها « وقلب أغلف مغضوب عليه ، وذاك قلب الكافر » (٢) . وعن الحسن في قوله : ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ قال : لم تختن ، وهذا القول يرجع معناه إلى ما تقدم من عدم طهارة قلوبهم ، وأنها بعيدة من الخير . وعن ابن عبّاس ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ : أي أوعية للعلم ، وعلى هذا المعنى جاءت قراءة بعض الأنصار فيها ، حكاه ابن جرير ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلُفٌ ﴾ بضم اللام نقلها الزمخشري أي جمع غلاف أي أوعية بمعنى أنهم ادَّعوا أن قلوبهم مملوءة بعلم لا يحتاجون معه إلى علم آخر ، كما كانوا يفتون بعلم التوراة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي ليس الأمر كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها .

وقد اختلفوا في معنى قوله : ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ وقوله : ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فقال بعضهم : فقليل من يؤمن منهم ، وقيل : فقليل إيمانهم ، بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب ، ولكنه إيمان لا ينفعهم ، لأنه مغمور بما كفروا به من الذي جاءهم به محمّد ﷺ وقال بعضهم : إنما كانوا غير مؤمنين بشيء وإنما قال : ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ وهم بالجميع كافرون كما تقول العرب قلما رأيت مثل هذا قط . تريد ما رأيت مثل هذا قط .

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ يعني اليهود ﴿ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ وهو القرآن الذي أنزل على محمّد ﷺ ﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ يعني من التوراة وقوله : ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم ، يقولون : إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، وعن قتادة الأنصاري عن أشياخ منهم قال : فينا والله وفيهم ، يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة يعني ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ قالوا : كنا قد علوناهم قهرًا دهرًا في الجاهلية ، ونحن أهل شرك وهم

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي(٤٤٢٨) والدارمي في المقدمة(٧) وأحمد في مسنده(١٨/٦) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند(١٧/٣) والطبراني في الصغير(١١٠/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد(٦٣/١) .

أهل كتاب ، وهم يقولون : إن نبيًّا سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه ، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به ، قال ابن عبّاس : أن يهودًا كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة : يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمّد ﷺ ونحن أهل شرك ، وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته ، فقال سلاّم بن مشكم - أخو بني النضير - ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكر لكم . فأنزل الله في ذلك من قولهم ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ الآية .

﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

قال مجاهد : ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ﴾ : يهود شروا الحق بالباطل ، وكتمان ما جاء به محمّد ﷺ بأن يبينوه . وقال السدي : بئسما أعتاضوا لأنفسهم فرضوا به ، وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمّد ﷺ ، عن تصديقه ومؤازرته ونصرته ، وإنما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية لـ ﴿ أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ ولا حسد أعظم من هذا . قال ابن عبّاس : ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ أي أن الله جعله من غيرهم ﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ : فغضب عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهي معهم ، وغضب بكفرهم بهذا النبي الذي بعث الله إليهم .

قلت : ومعنى ﴿ فَبَآءُو ﴾ استوجبوا واستحقوا واستقروا بغضب على غضب . وقال أبو العالية : غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى ، ثم غضب الله عليهم بكفرهم بمحمّد ﷺ وبالقرآن . قال السدي : أما الغضب الأول فهو حين غضب عليهم في العجل ، وأما الغضب الثاني فغضب عليهم حين كفروا بمحمّد ﷺ . وعن ابن عبّاس مثله .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ لما كان كفرهم سببه البغي والحسد ، ومنشأ ذلك التكبّر ، قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة ، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبيّ ﷺ قال : « يُحْشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ النَّاسِ ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ ، حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ بُولَسَ ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الخَبَالِ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ » (١) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٩١ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب ﴿ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ على محمّد ﷺ وصدقوه واتبعوه ﴿ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ أي يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ، ولا نقر إلّا بذلك ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾ يعني بما بعده ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ أي

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٩٢) وأحمد في مسنده (١٧٨/٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٨٨/٤) .

وهم يعلمون أن ما أنزل على محمّد ﷺ ﴿ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ منصوبًا على الحال ، أي في حال تصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل ، فالحجة قائمة عليهم بذلك كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم ، فلم قتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم ، والحكم بها ، وعدم نسخها ، وأنتم تعلمون صدقهم ؟ قتلتموهم بغيًا وعنادًا واستكبارًا على رسل اللّه ، فلستم تتبعون إلّا مجرد الأهواء والآراء والتشهي .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي بالآيات الواضحات ، والدلائل القاطعات ، على أنه رسول اللّه ، وأنه لا إله إلّا اللّه ، والآيات البينات هي : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد وفرق البحر وتظليلهم بالغمام والمنّ والسلوى والحجر ، وغير ذلك من الآيات التي شاهدوها ، ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ أي معبودًا من دون اللّه في زمان موسى وأيامه ، وقوله : ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أي من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة اللّه ﷺ .

﴿ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ أي وأنتم ظالمون في هذا الصنيع الذي صنعتموه من عبادتكم العجل ، وأنتم تعلمون أنه لا إله إلّا اللّه .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

يعدد ﷻ عليهم خطأهم ومخالفتهم للميثاق ، وعتوهم وإعراضهم عنه ، حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ، ثم خالفوه ولهذا ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ وقد تقدم تفسير ذلك ﴿ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ قال قتادة : أي أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم . وعن بلال بن أبي الدرداء عن النبيّ ﷺ قال : « حُبُّكَ الشَّيءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ » (١) .

وقوله : ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي بئسما تعتمدونه في قديم الدهر وحديثه ، من كفركم بآيات اللّه ، ومخالفتكم الأنبياء ، ثم اعتمادكم في كفركم بمحمّد ﷺ ، وهذا أكبر ذنوبكم وأشد الأمور عليكم ، إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين ، المبعوث إلى الناس أجمعين ، فكيف تدّعون لأنفسكم الإيمان ، وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة ، من نقضكم المواثيق ، وكفركم بآيات اللّه ، وعبادتكم العجل من دون اللّه !؟.

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ .

عن ابن عبّاس ﷺ : يقول اللّه تعالى لنبيّه محمّد ﷺ : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب ،

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٥١٣٠) وأحمد في مسنده (٤٥٠/٦) .

فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ أي يعلمهم بما عندهم من العلم ، بل والكفر بذلك ولو تمنوه يوم قال لهم : ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلّا مات . وقال ابن عبّاس : ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ ﴾ : فسلوا الموت . وقال عكرمة قوله : ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قال : قال ابن عبّاس : لو تمنى يهود الموت لماتوا . وقال ابن جرير في تفسيره : وبلغنا أن النبيّ ﷺ قال : « لَوْ أَنَّ اليَهُودَ تَمَنَّوا المَوتَ لَمَاتُوا ، وَلَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَرَجَعُوا لاَ يَجِدُونَ أَهْلاً وَلاَ مَالاً » (١) . فهم - عليهم لعائن اللّه تعالى - لما زعموا أنهم أبناء اللّه وأحباؤه ، وقالوا : ﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ دعوا إلى المباهلة ، والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين ، فلما نكلوا عن ذلك ، علم كل أحد أنهم ظالمون ؛ لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك ، فلما تأخروا علم كذبهم . وهذا كما دعا رسول اللّه ﷺ وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة ، وعتوهم وعنادهم إلى المباهلة ، فقال تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض : واللّه لئن باهلتم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف ، فعند ذلك جنحوا للسلم وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، فضربها عليهم ، وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح أمينًا .

وأما من فسر الآية على معنى ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي في دعواكم ، فتمنوا الآن الموت ، ولم يتعرض هؤلاء للمباهلة ، كما قرره طائفة من المتكلمين وغيرهم . ومال إليه ابن جرير بعدما قارب القول الأول ، فإنه قال : القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ ﴾ الآية . فهذه الآية مما احتج اللّه سبحانه لنبيه ﷺ على اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجره ، وفضح بها أحبارهم وعلماءهم ، وذلك أن اللّه تعالى أمر نبيه ﷺ إلى قضية عادلة فيما كان بينه وبينهم من الخلاف ، كما أمره أن يدعو الفريق الآخر من النصارى إذ خالفوه في عيسى ابن مريم عليه السلام وجادلوه فيه إلى مفاصلة بينه وبينهم من المباهلة ، فقال لفريق اليهود : إن كنتم محقين فتمنوا الموت ، فإن ذلك غير ضاركم إن كنتم محقين فيما تدّعون من الإيمان وقرب المنزلة من اللّه لكم ، لكي يعطيكم أمنيتكم من الموت إذا تمنيتم ، فإنما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصبها وكدر عيشها ، والفوز بجوار اللّه في جناته ، إن كان الأمر كما تزعمون من أن الدار الآخرة لكم خاصة دوننا ، وإن لم تعطوها علم الناس أنكم المبطلون ونحن المحقون في دعوانا ، وانكشف أمرنا وأمركم لهم ، فامتنعت اليهود عن الإجابة إلى ذلك لعلمها ، أنها إن تمنت الموت هلكت ، فذهبت دنياها وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها ، كما امتنع فريق النصارى الذين جادلوا النبيّ ﷺ في عيسى إذ دعوا للمباهلة من المباهلة .

فهذا الكلام منه أوله حسن ، وآخره فيه نظر ، وذلك أنه لا تظهر الحجة عليهم على هذا التأويل ، إذ يقال : إنه لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون في دعواهم أنهم يتمنون الموت ، فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمني الموت ، وكم من صالح لا يتمنى الموت ، بل يود أن يعمر ليزداد خيرًا ، وترتفع درجته

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٨/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣١٤/٦) .

في الجنة ، ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا : فها أنتم تعتقدون أيها المسلمون أنكم أصحاب الجنّة ، وأنتم لا تتمنون في حال الصحة الموت ، فكيف تلزموننا بما لا يلزمكم ، وهذا كله إنما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى ، فأما على تفسير ابن عبّاس فلا يلزم عليه شيء من ذلك ، بل قيل لهم كلام نصف ، إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء اللَّه من دون الناس ، وأنكم أبناء اللَّه وأحباؤه ، وأنكم من أهل الجنّة ومن عداكم من أهل النار ، فباهلوا على ذلك ، وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم ، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة ، فلما تيقنوا ذلك وعرفوا صدقه ، نكلوا عن المباهلة لما يعلمون من كذبهم وافترائهم ، وكتمانهم الحقّ من صفة الرسول ﷺ ونعته ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحققونه ، فعلم كل أحد باطلهم وخزيهم وضلالهم وعنادهم ، عليهم لعائن اللَّه المتتابعة إلى يوم القيامة . وسميت هذه المباهلة تمنيًا ؛ لأن كل محق يود لو أهلك اللَّه المبطل المناظر له ، ولا سيما إذا كان في ذلك حجة له في بيان حقه وظهوره ، وكانت المباهلة بالموت ؛ لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة ، لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ ﴾ أي على طول العمر لما يعلمون من مآلهم السيئ وعاقبتهم عند اللَّه الخاسرة ؛ لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم ، وما يحاذرون منه واقع بهم لا محالة ، حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم ، وهذا من باب عطف الخاص على العام .

عن ابن عبّاس ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ قال : الأعاجم . وقال الحسن البصري ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ ﴾ قال : المنافق أحرص الناس ، وأحرص من المشرك على حياة ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ ﴾ أي يود أحد اليهود وقال أبو العالية : يود أحد المجوس . قال ابن عبّاس ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قال : هو كقول الفارسي : (ده هزارسال) يقول عشرة آلاف سنة .

وعن ابن عبّاس ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾ أي وما هو بمنجيه من العذاب ، وذلك أن المشرك لا يرجو بعثًا بعد الموت ، فهو يحب طول الحياة ، وأن اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي بما ضيع ما عنده من العلم . وقال العوفي عن ابن عباس : هم الذين عادوا جبرائيل . ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أي خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر ، وسيجازي كل عامل بعمله .

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ .

قال الطبري : أجمع أهل العلم بالتأويل جميعًا أن هذه الآية نزلت جوابًا لليهود من بني إسرائيل ، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم ، وأن ميكائيل ولي لهم ، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك ، فقال بعضهم : إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول اللَّه ﷺ في أمر نبوّته .

ذكر من قال ذلك : عن ابن عبّاس قال : حضرت عصابة من اليهود رسول اللَّه ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم ، حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلَّا نبي ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « سَلُوا عَمَّا شِئْتُمْ ، وَلَكِنِ اجْعَلُوا لِي ذِمَّةً وَمَا أَخَذَ يَعْقُوبُ عَلَى بَنِيهِ ، لَئِنْ أَنَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَعَرَفْتُمُوهُ لَتُتَابِعُنَّنِي عَلَى الإِسْلَامِ » فقالوا : ذلك لك ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « سَلُوا عَمَّا شِئْتُمْ » قالوا : أخبرنا عن أربع خلال

نسألك عنهن ، أخبرنا أي الطعام حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل ، وكيف يكون الذكر منه والأنثى ؟ وأخبرنا بهذا النبي الأمي في التوراة ، ومن وليه من الملائكة ؟ فقال النبيّ ﷺ : « عَلَيْكُمْ عَهْدُ اللَّهِ لَئِنْ أَنَا أَنْبَأْتُكُم لَتُتَابِعُنَّنِي ؟ » فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق فقال : « نَشَدْتُكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبَ مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا فَطَالَ سَقَمُهُ مِنْهُ ، فَنَذَرَ لِلَّهِ نَذْرًا لَئِنْ عَافَاهُ اللَّهُ مِنْ مَرَضِهِ لَيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَيْهِ ، وَكَانَ أَحَبُّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحُومَ الإِبِلِ ، وَأَحَبُّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانَهَا ؟ » فقالوا : اللهم نعم ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلَّا هوَ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ غَلِيظٌ أَبْيَضُ ، وَأَنَّ مَاءَ الْمَرْأَةِ رَقِيقٌ أَصْفَرُ ، فَأَيُّهُما عَلاَ كَانَ لَهُ الوَلَدُ وَالشَّبَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ ﷻ ؟ ، وَإِذَا عَلاَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ كَانَ الوَلَدُ ذَكَرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَإِذَا عَلاَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ كَانَ الوَلَدُ أُنْثَى بِإِذْنِ اللَّهِ ﷻ» قالوا : اللهم نعم قال : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ ، وَأَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الأُمِّيَّ تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلاَ يَنَامُ قَلْبُهُ ؟ » قالوا : اللهم نعم ، قال : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ » قالوا : أنت الآن فحدِّثنا من وليك من الملائكة ، فعندها نجامعك أو نفارقك قال : « فَإِنَّ وَلِيِّي جِبْرِيلُ ، وَلَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا وَهُوَ وَلِيُّهُ » قالوا : فعندها نفارقك ، ولو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك ، قال : « فَمَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُصَدِّقُوهُ ؟ » قالوا : إنه عدونا فأنزل اللَّه ﷻ : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ إلى قوله ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ فعندها باءوا بغضب على غضب (١) .

قال البخاري : قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ قال عكرمة : جبرا ، وميك ، وإسراف : عبد ، إيل : اللَّه (٢) . وعن أنس بن مالك قال : سمع عبد اللَّه بن سلام بمقدم رسول اللَّه ﷺ وهو في أرض يخترف ، فأتى النبيّ ﷺ فقال : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلَّا نبي : ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنّة ؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال : « أَخْبَرَنِي بِهَذِهِ جِبْرَائِيلُ آنِفًا » قال : جبريل ؟ قال : « نَعَمْ » قال : ذاك عدو اليهود من الملائكة ، فقرأ هذه الآية : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ « وَأَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ : فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ : فَزِيَادَةُ كَبِدِ الحُوتِ ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَ الوَلَدُ ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ نَزَعَتْ » قال : أشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وأنك رسول اللَّه . يا رسول اللَّه إن اليهود قوم بهت ، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني ، فجاءت اليهود فقال لهم رسول اللَّه ﷺ : « أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ بنُ سَلامٍ فِيكُمْ ؟ » قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا قال : « أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ » قالوا : أعاذه اللَّه من ذلك ، فخرج عبد اللَّه فقال : أشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وأشهد أن محمّدًا رسول اللَّه ، فقالوا : هو شرنا وابن شرّنا وانتقصوه ، فقال : هذا الذي كنت أخاف يا رسول اللَّه (٣) . ومن الناس من يقول : إيل عبارة عن عبد ، والكلمة الأخرى هي اسم اللَّه ؛ لأن كلمة إيل لا تتغير في الجميع ، فوازنه عبد اللَّه ، عبد الرّحمن ، عبد الملك ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٨/١) وأبو نعيم في دلائل النبوة (٢٦٦/٦) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (باب قوله : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٨٠) .

عبد القدوس ، عبد السّلام ، عبد الكافي ، عبد الجليل ، فعبد موجودة في هذا كله ، واختلفت الأسماء المضاف إليها ، وكذلك جبرائيل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل ونحو ذلك . وفي كلام غير العرب يقدمون المضاف إليه على المضاف ، والله أعلم .

عن الشعبي قال : نزل عمر الروحاء ، فرأى رجالًا يبتدرون أحجارًا يصلون إليها ، فقال : ما بال هؤلاء؟ قالوا : يزعمون أن رسول الله ﷺ صلى ههنا ، قال : فكفر ذلك ، وقال : أيما رسول أدركته الصلاة بواد صلاها ثم ارتحل فتركه ، ثم أنشأ يحدثهم فقال : كنت أشهد اليهود من مدراسهم [1] فأعجب من التوراة كيف تصدق القرآن ، ومن القرآن كيف يصدق التوراة ، فبينما أنا عندهم ذات يوم قالوا : يا ابن الخطاب ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك ، قلت : ولم ذلك ؟ قالوا : لأنك تغشانا وتأتينا ، فقلت : إني آتيكم فأعجب من القرآن كيف يصدق التوراة ، ومن التوراة كيف تصدق القرآن ، قالوا : ومر رسول الله ﷺ فقالوا : يا ابن الخطاب ذاك صاحبكم فالحق به ، قال : فقلت لهم عند ذلك : نشدتكم بالله الذي لا إله إلّا هو ، وما استرعاكم من حقه ، وما استودعكم من كتابه ، هل تعلمون أنه رسول الله ؟ قال : فسكتوا ، فقال لهم عالمهم وكبيرهم : إنه قد غلظ عليكم فأجيبوه ، قالوا : فأنت عالمنا وكبيرنا فأجبه أنت ، قال : أما إذا نشدتنا بما نشدتنا ، فإنا نعلم أنه رسول الله ، قلت : ويحكم إذًا هلكتم ، قالوا : إنا لم نهلك ، قلت : كيف ذلك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ولا تتبعونه ولا تصدقونه ؟!! قالوا : إن لنا عدوًّا من الملائكة وسلمًا من الملائكة ، وإنه قرن بنبوته عدونا من الملائكة ، قلت : ومن عدوكم ومن سِلْمكم ؛ قالوا : عدونا جبريل ، وسلمنا ميكائيل ، قالوا : إن جبرائيل ملك الفظاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا ، وإن ميكائيل ملك الرحمة والرأفة والتخفيف ونحو هذا ، قال : قلت : وما منزلتهما من ربهما ﷺ ؟ قالوا : أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، قال : فقلت : فوالذي لا إله إلّا هو إنهما والذي بينهما لعدوّ لمن عاداهما ، وسلم لمن سالمهما ، وما ينبغي لجبرائيل أن يسالم عدو ميكائيل ، وما ينبغي لميكائيل أن يسالم عدوَّ جبرائيل ، قال : ثم قمت فاتبعت النبي ﷺ فلحقته وهو خارج من خوخة لبني فلان فقال : « يَا ابْنَ الخَطَّابِ أَلاَ أُقْرِئُكَ آياتٍ نَزَلْنَ قَبْلُ » فقرأ عليّ : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ حتى قرأ الآيات ، قال : قلت : بأبي وأمي أنت يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق ، لقد جئت أنا أريد أن أخبرك ، وأنا أسمع اللطيف الخبير قد سبقني إليك بالخبر [2] .

وأما تفسير الآية فقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي من عادى جبرائيل فليعلم أنه الروح الأمين ، الذي نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له في ذلك ، فهو رسول من رسل الله ملكي ، ومن عادى رسولًا فقد عادى جميع الرسل ، كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل ، وكما أن من كفر برسول فإنه يلزم الكفر بجميع الرسل ، وكذلك من عادى جبرائيل فإنه عدوّ لله ؛ لأن جبرائيل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه ، وإنما ينزل بأمر ربه ، وقد روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالحَرْبِ » [3] ولهذا غضب

---

(١) مدراسهم : المكان الذي يتذاكرون فيه كتابهم .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره ٦٠٨/١ .
(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٢١٩/١٠) .

الله لجبرائيل على من عاداه ، فقال تعالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي من الكتب المتقدمة ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي هدى لقلوبهم ، وبشرى لهم بالجنة ، وليس ذلك إلَّا للمؤمنين ثم قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ يقول تعالى من عاداني وملائكتي ورسلي ، ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر ، ﴿ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ وهذا من باب عطف الخاص على العام ، فإنهما دخلا في الملائكة في عموم الرسل ، ثم خصصا بالذكر ؛ لأن السياق في الانتصار لجبرائيل ، وهو السفير بين الله وأنبيائه ، وقرن معه ميكائيل في اللفظ ؛ لأن اليهود زعموا أن جبرائيل عدوهم ، وميكائيل وليهم ، فأعلمهم الله تعالى أن من عادى واحدًا منهما فقد عادى الآخر ، وعادى الله أيضًا ؛ ولأنه أيضًا ينزل على أنبياء الله بعض الأحيان ، كما قرن برسول الله ﷺ في ابتداء الأمر ، ولكن جبرائيل أكثر وهي وظيفته ، وميكائيل موكل بالنبات والقطر ، هذا بالهدى وهذا بالرزق ، كما أن إسرافيل موكل بالنفخ في الصور للبعث يوم القيامة ، ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول : « اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّموَاتِ والأَرْض ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ فيه إيقاع المظهر مكان المضمر ، حيث لم يقل فإنه عدو ، بل قال : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ كما قال الشاعر :

لاَ أَرَى المَوْتَ يَسْبِقُ المَوْتَ شَيْءٌ ... سَبَقَ المَوْتُ ذَا الغِنَى وَالفَقِيرا

وإنما أظهر الله هذا الاسم ههنا لتقرير هذا المعنى وإظهاره ، وإعلامهم أن من عادى وليًا لله ، فقد عادى الله ، ومن عادى الله فإن الله عدو له ، ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة .

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ .

قال الإمام أبو جعفر في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ الآية أي أنزلنا إليك يا محمّد علامات واضحات دالّات على نبوّتك ، وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود ، ومكنونات سرائر أخبارهم ، وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل ، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلَّا أحبارهم وعلماؤهم ، وما حرّفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم التي كانت في التوراة ، فأطلع الله في كتابه الذي أنزله على نبيّه محمّد ﷺ ، فكان في

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠٠) والترمذيّ في السنن (٣٤٢٠) والنسائي في السنن (٢٧٨/٨) .

ذلك من أمره الآيات البيّنات لمن أنصف من نفسه ، ولم يدعها إلى هلاكها الحسد والبغي ، إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمّد ﷺ من الآيات البينات ، التي وصف من غير تعلم تعلمه من بشر ، ولا أخذ شيئًا منه عن آدمي . قال ابن عبّاس : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ يقول : فأنت تتلوه عليهم ، وتخبرهم به غدوة وعشية وبين ذلك ، وأنت عندهم أمي لم تقرأ كتابًا ، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه ، يقول اللَّه تعالى لهم في ذلك عبرة وبيان ، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون .

وقال ابن عبّاس : قال ابن صوريا القطويني لرسول اللَّه ﷺ : يا محمّد ما جئتنا بشيء نعرفه ، وما أنزل اللَّه عليك من آية بينة فنتبعك ، فأنزل اللَّه في ذلك : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ . وقال مالك بن الصيف : حين بعث رسول اللَّه ﷺ ، وذكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق ، وما عهد إليهم في محمّد ﷺ : واللَّه ما عهد إلينا في محمّد ، وما أخذ علينا ميثاقًا . فأنزل اللَّه تعالى : ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ وقال الحسن البصري : ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه إلّا نقضوه ونبذوه ، يعاهدون اليوم وينقضون غدًا . وقال السدي : لا يؤمنون بما جاء به محمّد ﷺ . وقال قتادة : ﴿ نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ أي نقضه فريق منهم . وقال ابن جرير : أصل النبذ الطرح والإلقاء ، ومنه سمي اللقيط منبوذًا ، ومنه سمي النبيذ وهو التمر والزبيب إذا طرحا في الماء .

قلت : فالقوم ذمهم اللَّه بنبذهم العهود التي تقدم إليهم في التمسك بها والقيام بحقها ، ولذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة ، الذي في كتبهم نعته وصفته وأخباره ، وقد أمروا فيها باتباعه ومؤازرته ونصرته .

وقال السدي : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ لما جاءهم محمّد ﷺ ، عارضوه بالتوراة فخاصموه بها ، فاتفقت التوراة والقرآن ، فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت ، فلم يوافق القرآن فذلك قوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وقال قتادة في قوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قال : إن القوم كانوا يعلمون ، ولكنهم نبذوا علمهم وكتموه وجحدوا به ، وقال ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ : وكان حين ذهب ملك سليمان ، ارتد فئام من الجن والإنس واتبعوا الشهوات ، فلما أرجع اللَّه إلى سليمان ملكه ، وقام الناس على الدين كما كان ، وإن سليمان ظهر على كتبهم فدفنها تحت كرسيه ، وتوفي سليمان ﷺ حدثان ذلك ، فظهر الإنس والجن على الكتب بعد وفاة سليمان ، وقالوا : هذا كتاب من اللَّه نزل على سليمان فأخفاه عنه ، فأخذوا به فجعلوه دينًا ، فأنزل اللَّه تعالى ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ الآية . واتبعوا الشهوات التي كانت تتلو الشياطين وهي المعازف واللعب وكل شيء يصد عن ذكر اللَّه .

وقال الربيع بن أنس : إن اليهود سألوا محمّدًا ﷺ زمانًا عن أمور من التوراة ، لا يسألونه عن شيء من ذلك إلّا أنزل اللَّه ﷻ ما سألوه عنه فيخصمهم ، فلما رأوا ذلك قالوا : هذا أعلم بما أنزل

الله إلينا منا ، وإنهم سألوه عن السحر وخاصموه به فأنزل الله عزَّ وجلَّ ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ وإن الشياطين عمدوا إلى كتاب ، فكتبوا فيه السحر والكهانة وما شاء الله من ذلك ، فدفنوه تحت كرسي مجلس سليمان ، وكان عليه السلام لا يعلم الغيب ، فلما فارق سليمان الدنيا استخرجوا ذلك السحر وخدعوا الناس ، وقالوا : هذا علم كان سليمان يكتمه ويحسد الناس عليه ، فأخبرهم النبيّ ﷺ بهذا الحديث فرجعوا من عنده ، وقد خرجوا وقد أدحض الله حجتهم .

وقال الحسن : ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ قال : ثلث الشعر ، وثلث السحر ، وثلث الكهانة . وعنه أيضًا قال : وتبعته اليهود على ملكه ، وكان السحر قبل ذلك في الأرض لم يزل بها ، ولكنه إنما اتبع على ملك سليمان .

فهذه نبذة من أقوال أئمة السلف في هذا المقام ، ولا يخفى ملخص القصة والجمع بين أطرافها ، وأنه لا تعارض بين السياقات على اللبيب الفهم والله الهادي .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ ﴾ أي واتبعت اليهود الذين أوتوا الكتاب ، من بعد إعراضهم عن كتاب الله الذي بأيديهم ، ومخالفتهم لرسول الله محمّد ﷺ ، ما تتلوه الشياطين ، أي ما ترويه وتخبر به وتحدثه الشياطين على ملك سليمان ، وعداه بعلى ؛ لأنه تضمن تتلو تكذب . وقال ابن جرير : ﴿ عَلَىٰ ﴾ ههنا بمعنى في ، أي ، تتلو في ملك سليمان قلت : والتضمن أحسن وأولى والله أعلم . وقول الحسن البصري رحمه الله : وكان السحر قبل زمن سليمان بن داود ، صحيح لاشك فيه ؛ لأن السحرة كانوا في زمان موسى عليه السلام ، وسليمان بن داود بعده كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ ﴾ الآية ثم ذكر القصة بعدها ، وفيها ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ ، وقال قوم صالح – وهم قبل إبراهيم الخليل عليه السلام – لنبيهم صالح ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ أي المسحورين على المشهور .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ اختلف الناس في هذا المقام ، فذهب بعضهم إلى أن (ما) نافية ، أعني التي في قوله : ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ ﴾ قال القرطبي : ما نافية ومعطوف على قوله : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ ﴾ ثم قال : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ ﴾ وذلك أن اليهود كانوا يزعمون أنه نزل به جبريل وميكائيل ، فأكذبهم الله وجعل قوله : ﴿ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ ﴾ بدلًا من الشياطين ، قال : وصح ذلك ، إما لأن الجمع يطلق على الاثنين كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ ﴾ أو لكونهما لهما أتباع ، أو ذكرا من بينهم لتمردهما . تقدير الكلام عنده : يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ، ثم قال : وهذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح ، ولا يلتفت إلى ما سواه . وروي عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ ﴾ الآية ، يقول : لم ينزل الله السحر . وبإسناده عن الربيع بن أنس قال : ما أنزل الله عليهما السحر . قال ابن جرير : فتأويل الآية على هذا : واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر ، وما كفر سليمان ، ولا أنزل الله السحر على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا

يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ، فيكون قوله : ﴿ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ﴾ من المؤخر الذي معناه المقدم ، قال : فإن قال لنا قائل : كيف وجه تقديم ذلك ؟ قيل : وجه تقديمه أن يقال : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ من السحر ، وما كفر سليمان ، وما أنزل الله السحر على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ، فيكون معنيًّا بالملكين جبريل وميكائيل عليهما السلام ؛ لأن سحرة اليهود فيما ذكرت كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود ، فأكذبهم الله بذلك ، وأخبر نبيّه محمّدًا ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر ، وبرأ سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر ، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين ، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل ، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان اسم أحدهما هاروت واسم الآخر ماروت ، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس وردًّا عليهم .

ذِكْرُ الحَدِيثِ الوَارِدِ في ذلك إن صَحَّ سَنَده وَرَفْعُه وَبَيَان الكَلام عليه : عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه سمع نبي الله ﷺ يقول : « إِنَّ آدَمَ عليه السلام لَمَّا أَهْبَطَهُ اللَّهُ إِلَى الأَرْضِ قَالَتِ المَلاَئِكَةُ : أَيْ رَبِّ ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ قَالُوا : رَبَّنَا نَحْنُ أَطْوَعُ لَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَلاَئِكَةِ : هَلُمُّوا مَلَكَيْنِ مِنَ المَلاَئِكَةِ حَتَّى نُهْبِطَهُمَا إِلَى الأَرْضِ فَنَنْظُر كَيْفَ يَعْمَلاَنِ ، قَالُوا : رَبَّنَا هَارُوتُ وَمَارُوتُ ، فَأُهْبِطَا إِلَى الأَرْضِ ، وَمُثِّلَتْ لَهُمَا الزُّهْرَةُ امْرَأَةً مِنْ أَحْسَنِ البَشَرِ ، فَجَاءَتْهُمَا فَسَأَلاَهَا نَفْسَهَا ، فَقَالَتْ : لاَ وَاللَّهِ حَتَّى تَتَكَلَّمَا بِهَذِهِ الكَلِمَةِ مِنَ الإِشْرَاكِ ، فَقَالاَ : وَاللَّهِ لاَ نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا أَبَدًا ، فَذَهَبَتْ عَنْهُمَا ثُمَّ رَجَعَتْ بِصَبِيٍّ تَحْمِلُهُ ، فَسَأَلاَهَا نَفْسَهَا ، فَقَالَتْ : لاَ وَاللَّهِ حَتَّى تَقْتُلا هَذَا الصَّبِيَّ ، فَقَالاَ : لاَ واللَّهِ لاَ نَقْتُلُهُ أَبَدًا ، فَذَهَبَتْ ثُمَّ رَجَعَتْ بِقَدَحِ خَمْرٍ تَحْمِلُهُ ، فَسَأَلاَهَا نَفْسَهَا فَقَالَتْ : لا واللَّهِ حَتَّى تَشْرَبَا هَذَا الخَمْرَ ، فَشَرِبَا فَسَكِرَا ، فَوَقَعَا عَلَيْهَا ، وَقَتَلاَ الصَّبِيَّ ، فَلَمَّا أَفَاقَا قَالَتِ المَرْأَةُ : وَاللَّهِ مَا تَرَكْتُمَا شَيْئًا أَبَيْتُمَاهُ عَلَيَّ إِلَّا قَدْ فَعَلْتُمَاهُ حِينَ سَكِرْتُمَا ، فَخُيِّرَا بَيْنَ عَذَابِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الآخِرَةِ فَاخْتَارَا عَذَابَ الدُّنْيَا »(١) .

ذِكْرُ الآثَارِ الوَارِدَةِ فِي ذلكَ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعين رضي الله عنهم أجمعين

روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدي والحسن البصري وغيرهم ، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين ، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل ؛ إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب ، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى والله أعلم بحقيقة الحال .

وقد ورد في ذلك أثر غريب وسياق عجيب في ذلك أحببنا أن ننبه عليه ، عن عائشة زوج النبيّ ﷺ أنها قالت : قدمت عليّ امرأة من أهل دومة الجندل ، جاءت تبتغي رسول الله ﷺ بعد موته حداثة ذلك ، تسأله عن أشياء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به ، وقالت عائشة رضي الله عنها لعروة :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٤/٢) والبيهقي في السنن (٥/١٠) والألباني في الضعيفة (١٧٠) .

يا ابن أختي ، فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله ﷺ فيشفيها ، فكانت تبكي حتى إني لأرحمها وتقول : إني أخاف أن أكون قد هلكت : كان لي زوج فغاب عني ، فدخلت عليّ عجوز فشكوت ذلك إليها ، فقالت : إنْ فعلت ما آمرك به فأجعله يأتيك ، فلما كان الليل جاءتني بكلبين أسودين ، فركبت أحدهما وركبت الآخر ، فلم يكن شيء حتى وقفنا ببابل ، وإذا برجلين معلقين بأرجلهما فقالا : ما جاء بك ؟ قلت : نتعلم السحر ، فقالا : إنما نحن فتنة فلا تكفري ، فارجعي فأبيت ، وقلت : لا ، قالا : فاذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه ، فذهبت ففزعت ولم أفعل ، فرجعت إليهما ، فقالا : أفعلت ؟ فقلت : نعم ، فقالا : هل رأيت شيئًا ؟ فقلت : لم أرَ شيئًا ، فقالا : لم تفعلي ، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري ، فأربيت وأبيت ، فقالا : اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه ، فذهبت فاقشعررت وخفت ، ثم رجعت إليهما وقلت : قد فعلت ، فقالا : فما رأيت ؟ قلت : لم أرَ شيئًا ، فقالا : كذبت لم تفعلي ارجعي إلى بلادك ولا تكفري ، فإنك على رأس أمرك فأربيت وأبيت ، فقالا : اذهبي إلى التنور فبولي فيه فذهبت إليه فبلت فيه ، فرأيت فارسًا مقنعًا بحديد خرج مني فذهب في السماء وغاب حتى ما أراه ، فجئتهما فقلت : قد فعلت ، فقالا : فما رأيت ، قلت : رأيت فارسًا مقنعًا خرج مني ؛ فذهب في السماء وغاب حتى ما أراه ، فقالا : صدقت ذلك إيمانك خرج منك . اذهبي ، فقلت للمرأة : والله ما أعلم شيئًا ، وما قالا لي شيئًا ، فقالت : بلى لم تريدي شيئًا إلَّا كان ، خذي هذا القمح فابذري فبذرت وقلت : اطلعى فطلعت ، وقلت : احقلي فأحقلت ، ثم قلت ، افركي فأفركت ، ثم قلت : ايبسي فأيبست ، ثم قلت : اطحني فأطحنت ، ثم قلت : اخبزي فأخبزت ، فلما رأيت أني لا أريد شيئًا ، إلَّا كان سقط في يدي وندمت ، والله يا أم المؤمنين ما فعلت شيئًا ولا أفعله أبدًا .

وقد استدل بهذا الأثر من ذهب إلى أن الساحر له تمكن في قلب الأعيان ؛ لأن هذه المرأة بذرت واستغلت في الحال . وقال آخرون : بل ليس له قدرة إلَّا على التخييل كما قال تعالى : ﴿ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴾ استدل به على أن بابل المذكورة في القرآن هي بابل العراق ، لا بابل دیناوند كما قاله السدي وغيره ، ثم الدليل على أنها بابل العراق : ما قال أبو صالح الغفاري أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مر ببابل وهو يسير ، فجاءه المؤذن يؤذنه بصلاة العصر ، فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة ، فلما فرغ قال : إن حبيبي ﷺ نهاني أن أصلي بأرض المقبرة ، ونهاني أن أصلي ببابل فإنها ملعونة (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ ﴾ عن الحسن البصري أنه قال في تفسير هذه الآية : نعم أنزل الملكان بالسحر ، ليعلما الناس البلاء الذي أراد الله أن يبتلي به الناس ، فأخذ عليهم الميثاق أن لا يعلما أحدًا حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر . وقال ابن جريج في هذه الآية : لا يجترئ على السحر إلَّا كافر ، وأما الفتنة فهي المحنة والاختبار ومنه قول الشاعر :

وَقَدْ فُتِنَ النَّاسُ فِي دِينِهِمْ وَخَلَّى ابْنُ عَفَّانَ شَرًّا طَوِيلا

---

(١) أخرجه : البيهقي في السنن ٢/٤٥١ .

وقد استدل بعضهم بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر ، واستشهد له بالحديث : « مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ سَاحِرًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ »[١] .

وقوله تعالى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ أي فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ، ما يتصرفون به فيما يتصرفون من الأفاعيل المذمومة ، ما إنهم ليفرقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف ، وهذا من صنيع الشياطين وسبب التفريق بين الزوجين ما يخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو نحو ذلك ، أو عقد أو بغضة أو نحو ذلك ، من الأسباب المقتضية للفرقة ، والمرء عبارة عن الرجل وتأنيثه امرأة ، ويثنى كل منهما ولا يجمعان ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ قال سفيان الثوري : إلّا بقضاء الله . وقال محمّد بن إسحاق : إلّا بتخلية الله بينه وبين ما أراد . وقال الحسن البصري : ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ قال : نعم من شاء الله سلطه عليه ، ومن لم يشأ الله لم يسلط ، ولا يستطيعون من أحد إلّا بإذن الله ، كما قال الله تعالى . وفي رواية عن الحسن أنه قال : لا يضر هذا السحر إلّا من دخل فيه .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ أي يضرهم في دينهم ، وليس له نفع يوازي ضرره ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ أي ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول ﷺ ، لمن فعل فعلهم ذلك أنه ما له في الآخرة من خلاق . قال ابن عبّاس وغيره : ما له في الآخرة من جهة عند الله ، وقال الحسن : ليس له دين .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ يقول تعالى : ﴿ وَلَبِئْسَ ﴾ البديل ما استبدلوا به من السحر عوضًا عن الإيمان ومتابعة الرسول ، لو كان لهم علم بما وعظوا به ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ أي ولو أنهم آمنوا بالله ورسله ، واتقوا المحارم ، لكان مثوبة الله على ذلك خيرًا لهم مما استخاروا لأنفسهم ، ورضوا به .

وقد استدل بقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ ﴾ من ذهب إلى تكفير الساحر ، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وطائفة من السلف ، وقيل : بل لا يكفر ولكن حده ضرب عنقه ، لما رواه الشافعي وأحمد بن حنبل ، عن جندب الأزدي أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ »[٢] . وقد روي من طرق متعددة أن الوليد بن عقبة كان عنده ساحر يلعب بين يديه ، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه ، فقال الناس : سبحان الله يحيي الموتى ، ورآه رجل من صالحي المهاجرين ، فلما كان الغد جاء مشتملًا على سيفه ، وذهب يلعب لعبه ذلك ، فاخترط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر ، وقال : إن كان صادقًا فليحيي نفسه ، وتلا قوله تعالى :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٩/٢) وأبو داود في السنن (٣٩٠٤) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٤٦٠) والحاكم في المستدرك (٣٦٠/٤) ، والطبراني في الكبير (١٧٢/١٢) والدارقطني في السنن (١١٤/٣) .

﴿ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ ، فغضب الوليد إذ لم يستأذنه في ذلك فسجنه ثم أطلقه ، والله أعلم . وعن حارثة قال : كان عند بعض الأمراء رجل يلعب ، فجاء جندب مشتملًا على سيفه فقتله ، قال : أراه كان ساحرًا ، وحمل الشافعي رحمه الله قصة عمر وحفصة على سحر يكون شركًا ، والله أعلم .

فصل : حكى أبو عبد الله الرازي في تفسيره عن المعتزلة أنهم أنكروا وجود السحر ، قال : وربما كفَّروا من اعتقد وجوده ، قال : وأما أهل السنَّة فقد جوَّزوا أن يقدر الساحر أن يطير في الهواء ، ويقلب الإنسان حمارًا ، والحمار إنسانًا ، إلَّا أنهم قالوا : إن الله يخلق الأشياء عندما يقول الساحر : تلك الرقى والكلمات المعينة ، فأما أن يكون المؤثر في ذلك هو الفلك والنجوم فلا ، خلافًا للفلاسفة والمنجمين والصابئة ، ثم استدل على وقوع السحر وأنه بخلق الله تعالى بقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ومن الأخبار بأن رسول الله ﷺ سحر ، وأن السحر عمل فيه ، وبقصة المرأة مع عائشة رضي الله عنها ، وما ذكرت تلك المرأة من إتيانها وتعلمها السحر ، قال : وبما يذكر في هذا الباب من الحكايات كثيرة ، ثم قال بعد هذا :

مسألة : في أن العلم بالسحر ليس بقبيح ولا محظور : اتفق المحققون على ذلك ؛ لأن العلم لذاته شريف ، وأيضًا لعموم قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ولأن السحر لو لم يكن يعلم ، لما أمكن الفرق بينه وبين المعجزة ، والعلم بكون المعجز معجزًا واجب ، وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب ، فهذا يقتضي أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجبًا ، وما يكون واجبًا فكيف يكون حرامًا وقبيحًا ؟ هذا لفظه بحروفه في هذه المسألة . وهذا الكلام فيه نظر من وجوه : أحدها : قوله : العلم بالسحر ليس بقبيح ، إن عني به ليس بقبيح عقلًا ، فمخالفوه من المعتزلة يمنعون هذا ، وإن عني أنه ليس بقبيح شرعًا ، ففي هذه الآية الكريمة تبشيع لتعلم السحر ، وفي الصحيح : « مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ » (١) وفي السنن « مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً وَنَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ » (٢) . وقوله : ولا محظور ، اتفق المحققون على ذلك ، كيف لا يكون محظورًا مع ما ذكرناه من الآية والحديث ، واتفاق المحققين يقتضي أن يكون قد نص على هذه المسألة أئمة من العلماء أو أكثرهم ، وأين نصوصهم على ذلك ؟ ثم إدخاله علم السحر في عموم قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فيه نظر ؛ لأن هذه الآية إنما دلت على مدح العالمين العلم الشرعي ، ولم قلت إن هذا منه ، ثم ترقيه إلى وجوب تعلمه بأن لا يحصل العلم بالمعجز إلَّا به ضعيف ، بل فاسد ؛ لأن أعظم معجزات رسولنا عليه الصلاة والسلام هي القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ثم إن العلم بأنه معجز لا يتوقف على علم السحر أصلًا ، ثم من المعلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم كانوا يعلمون المعجز ويفرقون بينه وبين غيره ، ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تعلموه ، ولا علموه ، والله أعلم .

ثم قد ذكر أبو عبد الله الرازي أن أنواع السحر ثمانية :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٩/٢) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (١١٢/٧) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٢/٤) .

النوع الأول : سحر الكذّايين والكشدانيين الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتحيرة وهي السيارة ، وكانوا يعتقدون أنها مدبرة العالم ، وأنها تأتي بالخير والشر ، وهم الذين بعث اللَّه إليهم إبراهيم الخليل ﷺ مبطلًا لمقالتهم ، ورادًّا لمذهبهم ، وقد استقصى في (كتاب السر المكتوم ، في مخاطبة الشمس والنجوم) المنسوب إليه كما ذكرها القاضي ابن خلكان وغيره ، ويقال : إنه تاب منه ، وقيل : بل صنفه على وجه إظهار الفضيلة ، لا على سبيل الاعتقاد ، وهذا هو المظنون به ، إلا أنه ذكر فيه طريقهم في مخاطبة كل من هذه الكواكب السبعة ، وكيفية ما يفعلون وما يلبسونه وما يتنسكون به .

والنوع الثاني : سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية : ثم استدل على أن الوهم له تأثير بأن الإنسان يمكنه أن يمشي على الجسر الموضوع على وجه الأرض ، ولا يمكنه المشي عليه إذا كان ممدودًا على نهر أو نحوه ، قال : وكما أجمعت الأطباء على نهي المرعوف عن النظر إلى الأشياء الحمر ، والمصروع إلى الأشياء القوية اللمعان أو الدوران ، وما ذاك إلَّا لأن النفوس خلقت مطيعة للأوهام . قال : وقد اتفق العقلاء على أن الإصابة بالعين حق . وله أن يستدل على ذلك بما ثبت في الصحيح أن رسول اللَّه ﷺ قال : « العَيْنُ حَقٌّ ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ القَدَرَ لَسَبَقَتْهُ العَيْنُ » [1] قال : فإذا عرفت هذا فنقول : النفس التي تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قوية جدًّا فتستغني في هذه الأفاعيل عن الاستعانة بالآلات والأدوات ، وقد تكون ضعيفة فتحتاج إلى الاستعانة بهذه الآلات ، وتحقيقه أن النفس إذا كانت متعلية على البدن ، شديدة الانجذاب إلى عالم السماوات ، صارت كأنها روح من الأرواح السماوية ، فكانت قوية على التأثير في مواد هذا العالم ، وإذا كانت ضعيفة ، شديدة التعلق بهذه الذات البدنية ، فحينئذ لا يكون لها تأثير البتة إلَّا في هذا البدن ، ثم أرشد إلى مداواة هذا الداء بتقليل الغذاء ، والانقطاع عن الناس والرياء .

قلت : وهذا الذي يشير إليه هو التصرف بالحال ، وهو على قسمين : تارة تكون حالًا صحيحة شرعية ، يتصرف بها فيما أمر اللَّه ورسوله ﷺ ويترك ما نهى اللَّه تعالى عنه ورسوله ﷺ ، فهذه الأحوال مواهب من اللَّه تعالى ، وكرامات للصالحين من هذه الأمة ، ولا يسمى هذا سحرًا في الشرع . وتارة تكون الحال فاسدة ، لا يمتثل صاحبها ما أمر اللَّه ورسوله ﷺ ، ولا يتصرف بها في ذلك ، فهذه حال الأشقياء المخالفين للشريعة ولا يدل إعطاء اللَّه إياهم هذه الأحوال على محبته لهم ، كما أن الدجال له من الخوارق للعادات ما دلت عليه الأحاديث الكثيرة ، مع أنه مذموم شرعًا - لعنه اللَّه - وكذلك من شابهه من مخالفي الشريعة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وبسط هذا يطول جدًّا وليس هذا موضعه .

والنوع الثالث من السحر : الاستعانة بالأرواح الأرضية وهم الجن ، خلافًا للفلاسفة والمعتزلة وهم على قسمين : مؤمنون ، وكفار وهم الشياطين . قال : واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية ، لما بينهما من المناسبة والقرب ، ثم إن أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقى والدخن والتجويد ، وهذا النوع هو المسمى بالعزائم وعمل التسخير .

النوع الرابع من السحر التخيلات : والأخذ بالعيون والشعبذة ، ومبناه على أن البصر قد يخطئ

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٤٤) ومسلم في السلام (٤٢) والترمذي في السنن (٢٠٦١) وأحمد في مسنده (٢/ ٤٢٠) .

ويشتغل بالشيء المعين دون غيره ، ألا ترى ذا الشعبذة الحاذق يظهر عمل شيء يذهل أذهان الناظرين به ، ويأخذ عيونهم إليه ، حتى إذا استفرغهم الشغل بذلك الشيء بالتحديق ونحوه ، عمل شيئًا آخر عملًا بسرعة شديدة ، وحينئذ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه فيتعجبون منه جدًا ، ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمله ، ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجه ، لفطن الناظرون لكل ما يفعله . قال : وكلما كانت الأحوال تفيد حسن البصر نوعًا من أنواع الخلل أشد ، كان العمل أحسن ، مثل أن يجلس المشعبذ في موضع مضيء جدًا أو مظلم ، فلا تقف القوة الناظرة على أحوالها والحالة هذه .

قلت : وقد قال بعض المفسّرين : إن سحر السحرة بين يدي فرعون إنما كان من باب الشعبذة .

النوع الخامس من السحر : الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب آلات مركبة على النسب الهندسية ، كفارس على فرس في يده بوق ، كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق من غير أن يمسه أحد ، ومنها الصور التي تصورها الروم والهند حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان ، حتى يصورونها ضاحكة وباكية ، إلى أن قال : فهذه الوجوه من لطيف أمور التخاييل قال : وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل .

قلت : يعني ما قاله بعض المفسرين : إنهم عمدوا إلى تلك الحبال والعصي فحشوها زئبقًا ، فصارت تتلوى بسبب ما فيها من ذلك الزئبق ، فيخيل إلى الرائي أنها تسعى باختيارها .

قال الرازي : ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات ، ويندرج في هذا الباب علم جر الأثقال بالآلات الخفيفة . قال : وهذا في الحقيقة لا ينبغي أن يعد من باب السحر ؛ لأن لها أسبابًا معلومة يقينية من اطلع عليها قدر عليها .

قلت : ومن هذا القبيل حيل النصارى على عامتهم ، بما يرونهم إياه من الأنوار ، كقضية قمامة الكنيسة التي لهم ببلد المقدس ، وما يحتالون به من إدخال النار خفية إلى الكنيسة ، وإشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروج على الطغام منهم ، وأما الخواص فهم معترفون بذلك ، ولكن يتأولون أنهم يجمعون شمل أصحابهم على دينهم ، فيرون ذلك سائغًا لهم . وفيه شبهة على الجهلة الأغبياء من متعبدي الكرامية ، الذين يرون جواز وضع الأحاديث في الترغيب والترهيب ، فيدخلون في عداد من قال رسول الله ﷺ فيهم : « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » (١) وقوله : « حَدِّثُوا عَنِّي وَلاَ تَكْذِبُوا عَلَيَّ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَكْذِب عَلَيَّ يَلِج النَّارَ » (٢) ثم ذكر ههنا حكاية عن بعض الرهبان ، وهو أنه سمع صوت طائر حزين الصوت ضعيف الحركة ، فإذا سمعته الطيور ترق له ، فتذهب فتلقي في وكره من ثمر الزيتون ليتبلغ به ، فعمد هذا الراهب إلى صنعة طائر على شكله ، وتوصل إلى أن جعله أجوف ، فإذا دخلته الريح يسمع منه صوت كصوت ذلك الطائر ، وانقطع في صومعة ابتناها وزعم أنها على قبر بعض صالحيهم ، وعلق ذلك الطائر في مكان منها ، فإذا كان زمان الزيتون فتح بابًا من ناحيته ، فيدخل الريح إلى داخل هذه الصورة ، فيسمع صوتها كل طائر في شكله أيضًا ، فتأتي الطيور فتحمل من

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (١٠٧) وأبو داود في السنن (٣٦٥١) وأحمد في مسنده (١٦٧/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦/٣) والحميدي في مسنده (١١٦٥) .

الزيتون شيئًا كثيرًا ، فلا ترى النصارى إلّا ذلك الزيتون في هذه الصومعة ولا يدرون ما سببه ، ففتنهم بذلك وأوهم أن هذا من كرامات صاحب هذا القبر ، عليهم لعائن اللّه المتتابعة إلى يوم القيامة .

النوع السادس من السحر : الاستعانة بخواص الأدوية يعني في الأطعمة والدهانات قال : واعلم أنه لا سبيل إلى إنكار الخواص ، فإن تأثير المغناطيس مشاهد .

قلت : يدخل في هذا القبيل كثير ممن يدعي الفقر ، ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص ، مدعيًا أنها أحوال له من مخالطة النيران ومسك الحيات إلى غير ذلك من المحالات .

النوع السابع من السحر : التعليق للقلب ، وهو أن يدعي الساحر أنه عرف الاسم الأعظم ، وأن الجن يطيعونه وينقادون له في أكثر الأمور ، فإذا اتفق أن يكون السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز ، اعتقد أنه حق وتعلّق قلبه بذلك ، وحصل في نفسه نوع من الرعب والمخافة ، فإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة ، فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء .

قلت : هذا النمط يقال له : التنبلة ، وإنما يروج على ضعفاء العقول من بني آدم . وفي علم الفراسة ما يرشد إلى معرفة كامل العقل من ناقصه ، فإذا كان النبيل حاذقًا في علم الفراسة ، عرف من ينقاد له من الناس من غيره .

النوع الثامن من السحر : السعي بالنميمة ، والتقريب من وجوه خفيفة لطيفة : وذلك شائع في الناس .

قلت : النميمة على قسمين : تارة تكون على وجه التحريش بين الناس ، وتفريق قلوب المؤمنين ، فهذا حرام متّفق عليه ، فأما إن كانت على وجه الإصلاح بين الناس ، وائتلاف كلمة المسلمين كما جاء في الحديث « لَيْسَ بِالكَذَّابِ مَنْ يَنُمُّ خَيْرًا » (١) أو يكون على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة ، فهذا أمر مطلوب كما جاء في الحديث : « الحَرْبُ خُدْعَةٌ » (٢) وكما فعل نعيم بن مسعود في تفريقه بين كلمة الأحزاب وبين قريظة ، جاء إلى هؤلاء فنمَّ إليهم عن هؤلاء كلامًا ، ونقل من هؤلاء إلى أولئك شيئًا آخر ، ثم لأم بين ذلك فتناكرت النفوس وافترقت ، وإنما يحذو على مثل هذا الذكاء ذو البصيرة النافذة ، واللّه المستعان .

ثم قال : فهذه جملة الكلام في أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه .

قلت : وإنما أدخل كثيرًا من هذه الأنواع المذكورة في فن السحر للطافة مداركها ؛ لأن السحر في اللغة عبارة عما لطف وخفي سببه ، ولهذا جاء في الحديث : « إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا » (٣) وسمي السحور لكونه يقع خفيًا آخر الليل ، والسحر : الرئة وهي محل الغذاء ، وسميت بذلك لخفائها ولطف مجاريها إلى أجزاء البدن وغضونه ، كما قال أبو جهل يوم بدر لعتبة : انتفخ سحره ، أي انتفخت رئته من الخوف . وقال تعالى : ﴿ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي أخفوا عنهم عملهم ، واللّه أعلم .

وقال أبو عبد اللّه القرطبي : وعندنا أن السحر حق ، وله حقيقة يخلق اللّه عنده ما يشاء ، خلافًا للمعتزلة وأبي إسحاق الإسفراييني من الشافعية حيث قالوا : إنه تمويه وتخييل ، قال : ومن السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة ، والشعوذي البريد ، لخفة سيره ، قال ابن فارس : وليست هذه الكلمة من كلام أهل البادية .

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٠١) والبيهقي في السنن (١٩٧/١٠) .
(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٧) وأبو داود في السنن (٢٦٣٦) والترمذي في السنن (١٦٧٥) وأحمد في مسنده (٣١٤/٢) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٥٠٠٧) وأحمد في مسنده (٢٦٣/٤) والحاكم في المستدرك (٦١٣/٣) .

قال القرطبي : ومنه ما يكون كلامًا يحفظ ، ورقى من أسماء الله تعالى ، وقد يكون من عهود الشياطين ، ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك قال : وقوله عليه الصلاة السلام : « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا » يحتمل أن يكون مدحًا كما تقوله طائفة ، ويحتمل أن يكون ذمًّا للبلاغة ، قال : وهذا أصح ، قال : لأنها تصوب الباطل حتى توهم السامع أنه حق ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِيَ لَهُ » (١) الحديث .

فصل : وقد ذكر الوزير أبو المظفر يحيى بن محمّد بن هبيرة رحمه الله في كتابه (الإشراف على مذاهب الأشراف) بابًا في السحر فقال : أجمعوا على أن السحر له حقيقة ، إلّا أبا حنيفة فإنه قال : لا حقيقة له عنده ، واختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله ، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد : يكفر بذلك ، ومن أصحاب أبي حنيفة من قال : إن تعلّمه ليتقيه أو ليجتنبه فلا يكفر ، ومن تعلّمه معتقدًا جوازه أو أنه ينفعه كفر ، وكذا من اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر . وقال الشافعي رحمه الله إذا تعلّم السحر قلنا له صف لنا سحرك ، فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرّب إلى الكواكب السبعة ، وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر ، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر ، قال ابن هبيرة : وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله ؟ فقال مالك وأحمد : نعم ، وقال الشافعي وأبو حنيفة : لا فأما إن قتل بسحره إنسانًا ؛ فإنه يقتل عند مالك والشافعي وأحمد ، وقال أبو حنيفة : لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك ، أو يقر بذلك في حق شخص معين ، وإذا قتل ؛ فإنه يقتل حدًّا عندهم ، إلّا الشافعي فإنه قال : يقتل والحالة هذه قصاصًا ، قال : وهل إذا تاب الساحر تقبل توبته ؟ فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد في المشهور عنهم : لا تقبل ، وقال الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى : تقبل ، وأما ساحر أهل الكتاب فعند أبي حنيفة أنه يقتل كما يقتل الساحر المسلم ، وقال مالك وأحمد والشافعي : لا يقتل ، يعني لقصة لبيد بن الأعصم ، واختلفوا في المسلمة الساحرة ؛ فعند أبي حنيفة أنها لا تقتل ولكن تحبس ، وقال الثلاثة : حكمها حكم الرجل والله أعلم . وقال أبو بكر الخلال : أخبرنا أبو بكر المروزي قال : قرأ على أبي عبد الله - يعني أحمد بن حنبل - عمر بن هارون أخبرنا يونس عن الزهري قال : يقتل ساحر المسلمين ولا يقتل ساحر المشركين ؛ لأن رسول الله ﷺ سحرته امرأة من اليهود فلم يقتلها . وقد نقل القرطبي عن مالك رحمه الله أنه قال في الذمي : يقتل إن قتل سحره ، وحكى ابن خويز منداد عن مالك روايتين في الذمي إذا سحر : إحداهما : أنه يستتاب ، فإن أسلم وإلّا قتل ، والثانية : أنه يقتل وإن أسلم ، وأما الساحر فإن تضمن سحره كفرًا ؛ كفر عند الأئمة الأربعة وغيرهم لقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ لكن قال مالك : إذا ظهر عليه لم تقبل توبته ؛ لأنه كالزنديق ؛ فإن تاب قبل أن يظهر عليه ، وجاءنا تائبًا قبلناه ، فإن قتل سحره قتل ، قال الشافعي : فإن قال : لم أتعمد القتل ؛ فهو مخطئ تجب عليه الدية .

مسألة : وهل يسأل الساحر حلًّا لسحره ؟ فأجازه سعيد بن المسيّب فيما نقله عنه البخاري ، وقال عامر الشعبي : لا بأس بالنشرة ، وكره ذلك الحسن البصري ، وفي الصحيح عن عائشة أنها قالت : يا رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٨٠) ومسلم في الأقضية (٤) وأحمد في مسنده (٢٠٣/٦) .

هلا تنشرت ، فقال : « أَمَّا اللَّه فَقَدْ شَفَانِي وَخَشِيتُ أَنْ أَفْتَحَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا » (١) .

وحكى القرطبي عن وهب : أنه قال : يؤخذ سبع ورقات من سدر ، فتدق بين حجرين ، ثم تضرب بالماء وهو يقرأ عليها آية الكرسي ، ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات ، ثم يغتسل بباقيه فإنه يذهب ما به ، وهو جيد للرجل الذي يؤخذ عن امرأته .

قلت : أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل اللّه على رسوله في إذهاب ذلك ، وهما المعوذتان ، وفي الحديث : « لَمْ يَتَعَوَّذِ المُتَعَوِّذُ بِمِثْلِهِمَا » (٢) ، وكذلك قراءة آية الكرسي فإنها مطردة للشيطان .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

نهى اللّه تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم ، وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص - عليهم لعائن اللّه - فإذا أرادوا أن يقولوا : اسمع لنا يقولوا : راعنا ، ويورُّون بالرعونة ، وقد جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا إنما يقولون : السام عليكم ، والسام هو الموت ، ولهذا أمرنا أن نرد عليهم (وعليكم) وإنما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا ، والغرض أن اللّه تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولًا وفعلًا ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول اللّه ﷺ : « بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّه وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي ، وَجُعِلَتِ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي . وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ » (٣) . وعن ابن معن وعون أو أحدهما أن رجلًا أتى عبد اللّه بن مسعود فقال : اعهد إليّ ، فقال : إذا سمعت اللّه يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فأرعها سمعك ؛ فإنه خير يأمر به ، أو شر ينهى عنه . وقال الأعمش عن خيثمة قال : ما تقرأون في القرآن ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فإنه في التوراة يا أيها المساكين . وقال ابن عبّاس : ﴿ رَٰعِنَا ﴾ أي أرعنا سمعك . وقال أيضًا : كانوا يقولون للنبي ﷺ : أرعنا سمعك ، وإنما راعنا كقولك : عاطنا . وقال مجاهد : ﴿ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا ﴾ : لا تقولوا : خلافًا ، وفي رواية : لا تقولوا : اسمع منا ونسمع منك . وقال عطاء : ﴿ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا ﴾ كانت لغة تقولها الأنصار فنهى اللّه عنها . وقال السدي : كان رجل من اليهود من بني قينقاع يدعى رفاعة بن زيد يأتي النبيّ ﷺ فإذا لقيه فكلمه قال : أرعني سمعك واسمع غير مسمع ، وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تفخم بهذا ، فكان ناس منهم يقولون : اسمع غير مسمع غير صاغر : وهي كالتي في سورة النساء ، فتقدم اللّه إلى المؤمنين أن لا يقولوا : راعنا . وقال ابن جرير : والصواب من القول في ذلك عندنا أن اللّه نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيّه ﷺ راعنا ؛ لأنها كلمة كرهها اللّه تعالى أن يقولوها لنبيّه ﷺ نظير الذي ذكر عن النبيّ ﷺ أنه قال : « لا تَقُولُوا لِلْعِنَبِ : الكَرْم ، وَلَكِنْ قُولُوا : الحَبَلَةُ ، وَلَا تَقُولُوا : عَبْدِي ، وَلَكِنْ قُولُوا : فَتَايَ » (٤) وما أشبه ذلك .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٩٦/٦) . (٢) أخرجه النسائي في السنن (٢٥١/٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٩٢/٢) والزيلعي في نصب الراية (٣٤٧/٤) . (٤) أخرجه مسلم في الأدب (١١) وأحمد في مسنده (٥٠٩/٢) .

وقوله تعالى : ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يبيّن بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين ، الذين حذّر الله تعالى من مشابهتهم للمؤمنين ، ليقطع المودة بينهم وبينهم ، ونبّه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل ، الذي شرعه لنبيّهم محمّد ﷺ حيث يقول تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ ما نبدل من آية . وقال مجاهد : أي ما نمحو من آية ، وقال نثبت خطها ونبدل حكمها ، حدث به عن أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . وقال الضحاك : ما ننسك ، وقال عطاء : أما ﴿ مَا نَنسَخْ ﴾ فما تترك من القرآن . وقال ابن أبي حاتم : يعني ترك فلم ينزل على محمّد ﷺ . وقال السدي : نسخها قبضها . وقال ابن جرير : ما ننقل من حكم آية إلى غيره فنبدله ونغيّره ، وذلك أن نحول الحلال حرامًا ، والحرام حلالًا ، والمباح محظورًا ، والمحظور مباحًا ، ولا يكون ذلك إلّا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة ، فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ ، وأصل النسخ من نسخ الكتاب ، وهو نقله من نسخة أخرى إلى غيرها ، فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره ، إنما هو تحويله ، ونقل عبارة إلى غيرها ، وسواء نسخ حكمها أو خطها ؛ إذ هي في كلتا حالتيها منسوخة . وأما علماء الأصول فاختلفت عباراتهم في حد النسخ ، والأمر في ذلك قريب ؛ لأن معنى النسخ الشرعي معلوم عند العلماء ، ولحظ بعضهم أنه رفع الحكم بدليل شرعي متأخر ، فاندرج في ذلك نسخ الأخف بالأثقل وعكسه ، والنسخ لا إلى بدله . وأما تفاصيل أحكام النسخ ، وذكر أنواعه وشروطه فمبسوطة في أصول الفقه . وعن سالم عن أبيه قال : قرأ رجلان سورة أقرأهما رسول الله ﷺ ، فكانا يقرآن بها ، فقاما ذات ليلة يصليان ، فلم يقدرا منها على حرف ، فأصبحا غاديين على رسول الله ﷺ ، فذكرا ذلك له ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّهَا مِمَّا نُسِخَ وَأُنْسِيَ فَالهَوْا عَنْهَا » (١) فكان الزهري يقرؤها : ﴿ ما ننسخ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ بضم النون الخفيفة .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ فقرئ على وجهين ﴿ ننسأها ﴾ و ﴿ نُنسِهَا ﴾ فأما من قرأها بفتح النون والهمزة بعد السين فمعناه نؤخرها . قال ابن عبّاس : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسأها ﴾ يقول : ما نبدل من آية أو نتركها لا نبدلها . وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود : نثبت خطها ونبدل حكمها . وقال عبد بن عمير ومجاهد وعطاء : يعني الناسخ من المنسوخ . وقال أبو العالية نؤخرها ونرجئها . عن ابن عبّاس قال : خطبنا عمر رضي الله عنه فقال : يقول الله عز وجل : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسأها ﴾ (٢) أي نؤخرها . وأما على قراءة : ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ فقال قتادة : كان الله عز وجل ينسي نبيّه ﷺ ما يشاء ، وينسخ ما يشاء .

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٨٨/١٢) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٤/٧) .

(٢) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو (انظر : زاد المسير ١٢٧/١) .

وقال الحسن : إن نبيكم ﷺ قرأ قرآنًا ثم نسيه . وقال ابن عبّاس : كان مما ينزل على النبيّ ﷺ الوحي بالليل ، وينساه بالنهار ، فأنزل اللَّه ﷻ ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ . عن القاسم بن ربيعة قال : سمعت سعد بن أبي وقاص يقرأ ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ قال : قلت له : فإن سعيد بن المسيب يقرأ ﴿ أَوْ ننساها ﴾ قال : فقال سعد : إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب قال : قال اللَّه جل ثناؤه : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ . وعن ابن عبّاس قال : قال عمر عَليٌّ أقضانا ، وأُبي أقرؤنا ، وإنَّا لندع من قول أُبيٍّ وذلك أن أبيًّا يقول : لا أدع شيئًا سمعته من رسول اللَّه ﷺ ، واللَّه يقول : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ أي في الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين ، قال ابن عبّاس : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ ﴾ يقول : خير لكم في المنفعة ، وأرفق بكم . وقال السدي : نأت بخير من الذي نسخناه ، أو مثل الذي تركناه . وقال قتادة : آية فيها تخفيف ، فيها رخصة ، فيها أمر ، فيها نهي .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يرشد عباده تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء ، فله الخلق والأمر ، وهو المتصرّف ، فكما خلقهم كما يشاء ، ويسعد من يشاء ، ويشقي من يشاء ، ويصح من يشاء ، ويمرض من يشاء ، ويوفق من يشاء ، ويخذل من يشاء ، كذلك يحكم في عباده بما يشاء ، فيحل ما يشاء ويحرّم ما يشاء ، ويبيح ما يشاء ويحظر ما يشاء ، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه ، ولا يُسأل عما يفعل ، وهم يسألون ، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى ، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى ، فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره ، واتباع رسله في تصديق ما أخبروا ، وامتثال ما أمروا وترك ما عنه زجروا ، وفي هذا المقام رد عظيم ، وبيان بليغ ، لكفر اليهود وتزييف شبهتهم - لعنهم اللَّه - في دعوى استحالة النسخ إما عقلًا كما زعمه بعضهم جهلًا وكفرًا ، وإما نقلًا كما تخرصه آخرون منهم افتراءً وإفكًا . قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : فتأويل الآية : ألم تعلم يا محمّد أن لي ملك السموات والأرض وسلطانهما دون غيري ، أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء ، وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء ، وأنهى عما أشاء ، وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامي التي أحكم بها في عبادي بما أشاء ، إذ أشاء ، وأقر فيهما ما أشاء ، ثم قال : وهذا الخبر وإن كان خطابًا من اللَّه تعالى لنبيّه ﷺ على وجه الخبر عن عظمته ، فإنه منه جل ثناؤه تكذيب لليهود ، الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة ، وجحدوا نبوة عيسى ومحمَّد عليهما الصلاة والسلام ، لمجيئهما بما جاءا به من عند اللَّه ، بتغيير ما غير اللَّه من حكم التوراة ، فأخبرهم اللَّه أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما ، وأن الخلق أهل مملكته وطاعته ، وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه ، وأن له أمرهم بما يشاء ونهيهم عما يشاء ، ونسخ ما يشاء ، وإقرار ما يشاء ، وإنشاء ما يشاء ، من إقراره وأمره ونهيه .

قلت : الذي يحمل اليهود على البحث في مسألة النسخ ، إنما هو الكفر والعناد ؛ فإنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام اللَّه تعالى ؛ لأنه يحكم ما يشاء ، كما أنه يفعل ما يريد ، مع أنه قد

---

(١) أخرجه : البخاري في تفسير القرآن (٤٤٨١) وأحمد في مسنده ١١٣/٥ .

وقع في كتبه المتقدمة ، وشرائعه الماضية ، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه ، ثم حرَّم ذلك ، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ، ثم نسخ حل بعضها ، وكان نكاح الأختين مباحًا لإسرائيل وبنيه ، وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها ، وأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده ثم نسخه قبل الفعل ، وأمر جمهور بني إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم ، ثم رفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم القتل ، وأشياء كثيرة يطول ذكرها ، وهم يعترفون بذلك ويصدفون عنه ، وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية ، فلا يصرف الدلالة في المعنى ؛ إذ هو المقصود ، وكما في كتبهم مشهورًا من البشارة بمحمّد ﷺ والأمر باتباعه ، فإنه يفيد وجوب متابعته عليه الصلاة والسلام ، وأنه لا يقبل عمل إلّا على شريعته ، وسواء قيل : إن الشرائع المتقدمة مغياة إلى بعثه عليه الصلاة والسلام فلا يسمى ذلك نسخًا ؛ لقوله : ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ وقيل : إنها مطلقة ، وإن شريعة محمّد ﷺ نسختها ، فعلى كل تقدير ، فوجوب متابعته متعين ؛ لأنه جاء بكتاب هو آخر الكتب عهدًا بالله تبارك وتعالى ، ففي هذا المقام بيَّن تعالى جواز النسخ ردًّا على اليهود - عليهم لعنة الله - حيث قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الآية فكما أن له الملك بلا منازع ، فكذلك له الحكم بما يشاء ، والمسلمون كلهم متّفقون على جواز النسخ في أحكام الله تعالى ؛ لما في ذلك من الحكمة البالغة ، وكلهم قال بوقوعه . وقال أبو مسلم الأصفهاني المفسر : لم يقع شيء من ذلك في القرآن ، وقوله ضعيف مردود مرذول ، وقد تعسف في الأجوبة عما وقع من النسخ ، فمن ذلك قضية العدة بأربعة أشهر وعشر بعد الحول ، لم يجب عن ذلك بكلام مقبول ، وقضية تحويل القبلة إلى الكعبة عن بيت المقدس لم يجب بشيء ، ومن ذلك نسخ مصابرة المسلم لعشرة من الكفرة ، إلى مصابرة الاثنين ، ومن ذلك نسخ وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ وغير ذلك ، والله أعلم .

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۗ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ .

نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبيّ ﷺ عن الأشياء قبل كونها ، وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم ، ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه ، فلعله أن يحرم من أجل تلك المسألة ؛ ولهذا جاء في الصحيح : « إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ » (١) . ولما سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد مع امرأته رجلًا ، فإن تكلم تكلم بأمر عظيم ، وإن سكت سكت على مثل ذلك ، فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها ، ثم أنزل الله حكم الملاعنة . وعن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ كان ينهى عن قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال (٢) . وفي صحيح مسلم : « ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَإِنْ نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ » (٣) وهذا إنما قاله بعدما أخبرهم أن الله كتب عليهم الحج فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثًا ، ثم قال عليه الصلاة والسّلام : « لاَ ، وَلَوْ قُلْتُ :

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٩) ومسلم في الفضائل (١٣٢) وأبو داود في السنن (٤٦١٠) والحاكم في المستدرك (٣/٦٢٦) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٢٥٠) .
(٣) أخرجه مسلم في الفضائل (١٣١) وأحمد في مسنده (٢/٤٨٢) ، والبيهقي في السنن (٤/٢٥٣) .

نَعَمْ لَوَجَبَتْ ، وَلَوْ وَجَبَتْ لَمَا اسْتَطَعْتُمْ » ثم قال : « ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ »(١) الحديث . ولهذا قال أنس بن مالك : نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع . وعن البراء بن عازب قال : إن كان ليأتي علي السنة أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن الشيء فأتهيب منه ، وإن كنا لنتمنى الأعراب .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ أي بل تريدون ، أو هي على بابها في الاستفهام ، وهو إنكاري ، وهو يعمّ المؤمنين والكافرين ، فإنه عليه الصلاة والسلام رسول الله إلى الجميع ، قال ابن عبّاس : قال رافع بن حريملة ووهب بن زيد : يا محمّد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه ، وفجر لنا أنهارًا نتبعك ونصدقك . فأنزل الله من قولهم : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ .

وقال أبو العالية في قوله تعالى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ قال : قال رجل : يا رسول الله لو كانت كفارتنا ككفارة بني إسرائيل فقال النبيّ ﷺ : « اللهُمَّ لا نَبْغِيها - ثلاثًا - مَا أَعْطَاكُمُ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا أَعْطَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِذَا أَصَابَ أَحدهم الخَطِيئَة وَجَدَهَا مَكْتُوبَةً عَلَى بَابِه وَكَفَّارتها ، فإن كفَّرها كَانَت لَهُ خزيًا في الدُّنْيَا ، وَإِنْ لم يُكَفِّرْهَا كَانَتْ لَهُ خِزْيًا فِي الآخِرَةِ ، فَمَا أَعْطَاكُمُ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا أَعْطَى بَنِي إِسْرَائِيلَ »(٢) قال : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ وقال : « الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ والجُمُعَةِ إِلَى الجُمُعَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ »(٣) وقال : « مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ ، وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً ، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً وَاحِدَةً ، وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرَ أَمْثَالِهَا ، وَلاَ يَهْلِكُ عَلَى اللَّه إِلَّا هَالِكٌ »(٤) فأنزل الله ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ .

والمراد أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعنُّت والاقتراح ، كما سألت بنو إسرائيل موسى ﷺ تعنتًا وتكذيبًا وعنادًا .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ﴾ أي ومن يشتر الكفر بالإيمان ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أي فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال . وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها على وجه التعنت والكفر .

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

يحذِّر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفَّار من أهل الكتاب ، ويعلمهم بعداوتهم لهم في

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣١٣) . (٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١/١٠٧) .
(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (١٤) والترمذي في السنن (٢١٤) وأحمد في مسنده (٢/٤٠٠) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٣٤) والطبراني في الكبير (١٢/١٦١) .

الباطن والظاهر ، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم وفضل نبيّهم ، ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو أو الاحتمال حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح ، ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ويحثّهم على ذلك ويرغبهم فيه ، عن ابن عبّاس قال : كان حيي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود للعرب حسدًا ؛ إذ خصهم الله برسوله ﷺ وكانا جاهدين في ردّ الناس عن الإسلام ما استطاعا ، فأنزل الله فيهما : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم ﴾ الآية . وقال الزهري في قوله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ قال : هو كعب بن الأشرف . وقال عبد الله بن كعب عن أبيه : أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعرًا ، وكان يهجو النبيّ ﷺ ، وفيه أنزل الله ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم ﴾ إلى قوله : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا ﴾ وقال ابن عبّاس : إن رسولًا أميًّا يخبرهم بما في أيديهم من الكتب والرسل والآيات ، ثم يصدق بذلك كله مثل تصديقهم ، ولكنهم جحدوا ذلك كفرًا وحسدًا وبغيًا ، وكذلك قال الله تعالى : ﴿ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ يقول : من بعد ما أضاء لهم الحق لم يجهلوا منه شيئًا ، ولكن الحسد حملهم على الجحود فعيرهم ووبخهم ولامهم أشد الملامة ، وشرع لنبيّه ﷺ وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل الله عليهم ، وما أنزل من قبلهم ، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم . وقال الربيع بن أنس : ﴿ مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ : من قبل أنفسهم . وقال أبو العالية : ﴿ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ : من بعد ما تبيّن أن محمّدًا رسول الله يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل ، فكفروا به حسدًا وبغيًا إذ كان من غيرهم .

وقوله : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ نسخ ذلك قوله : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ فنسخ هذا عفوه عن المشركين ، قال السدي : إنها منسوخة بآية السيف ، ويرشد إلى ذلك أيضًا قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ وقال أسامة بن زيد : كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى (١) . قال الله : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وكان رسول الله ﷺ يتأول من العفو ما أمره الله به ، حتى أذن الله فيهم بالقتل فقتل الله به من قتل من صناديد قريش (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ﴾ يحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم ، وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة ، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، حتى يمكن لهم الله النصر في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ يعني أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل ، ولا يضيع لديه ، سواء كان خيرًا أو شرًّا ، فإنه سيجازي كل عامل بعمله . وقال أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ : هذا الخبر من الله للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين أنهم مهما فعلوا من خير أو شر ، سرًّا أو علانية ، فهو به بصير ، لا يخفى عليه منه شيء ، فيجزيهم بالإحسان خيرًا ، وبالإساءة مثلها ، وهذا

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٢٠٧) والهندي في كنز العمال (٣٧٢٧١) .
(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٢٠٧) والبيهقي في السنن (٩/١٠) .

الكلام وإن كان قد خرج مخرج الخبر ، فإن فيه وعدًا ووعيدًا وأمرًا وزجرًا ؛ وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ، ليجدُّوا في طاعته إذ كان ذلك مذخورًا لهم عنده ، حتى يثيبهم عليه كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ﴾ وليحذروا معصيته . قال : وأما قوله : ﴿ بَصِيرٌ ﴾ فإنه مبصر ، صرف إلى بصير كما صرف مبدع إلى بديع ، ومؤلم إلى أليم ، والله أعلم .

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه ، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنّة إلّا من كان على ملّتها ، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم ، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك ، وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلّا أيامًا معدودة ، ثم ينتقلون إلى الجنّة ، ورد عليهم تعالى في ذلك ، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ وقال أبو العالية : أماني تمنوها على الله بغير حق . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ أي يا محمّد ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أي حجتكم ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي فيما تدعونه .

ثم قال تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي من أخلص العمل للّه وحده لا شريك له ، وقال أبو العالية : من أخلص للّه . وقال سعيد بن جبير : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ : أخلص ﴿ وَجْهَهُ ﴾ قال : دينه ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي اتبع فيه الرسول ﷺ ، فإن للعمل المتقبل شرطين ؛ أحدهما : أن يكون خالصًا للّه وحده ، والآخر : أن يكون صوابًا موافقًا للشريعة ، فمتى كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يتقبل ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ » (١) فعمل الرهبان ومن شابههم وإن فرض أنهم مخلصون فيه للّه ، فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعًا للرسول ﷺ المبعوث إليهم وإلى الناس كافة ، وفيهم وأمثالهم قال الله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ وأما إن كان العمل موافقًا للشريعة في الصورة الظاهرة ، ولكن لم يخلص عامله القصد للّه ، فهو أيضًا مردود على فاعله ، وهذا حال المرائين والمنافقين .

وقوله : ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور ، وآمنهم مما يخافونه من المحذور ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فيما يستقبلونه ، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما مضى مما يتركونه ، كما قال سعيد بن جبير : ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني في الآخرة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ يعني لا يحزنون للموت .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ بيّن به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاندهم ، عن ابن عبّاس قال : لما قدم أهل

(١) أخرجه مسلم في الأقضية (١٨) وأحمد في مسنده (١٨٠/٦) .

نجران من النصارى على رسول الله ﷺ ، أتتهم أحبار يهود ، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ ، فقال رافع بن حرملة : ما أنتم على شيء وكفر بعيسى والإنجيل ، وقال من أهل نجران من النصارى لليهود : ما أنتم على شيء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل الله في ذلك من قولهما : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ قالا : إن كلًّا يتلو في كتابه تصديق من كفر به ، أن يكفر اليهود بعيسى ، وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى ، وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى ، وما جاء من التوراة من عند الله ، وكل يكفر بما في يد صاحبه . وقال مجاهد : قد كان أوائل اليهود والنصارى على شيء . وقال قتادة : بلى قد كانت أوائل النصارى على شيء ، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا وقال الربيع بن أنس : هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ ، وهذا القول يقتضي أن كلًّا من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرى ، ولكن ظاهر سياق الآية يقتضي ذمهم فيما قالوه ، مع علمهم بخلاف ذلك ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ أي وهم يعلمون شريعة التوراة والإنجيل ، كل منهما قد كانت مشروعة في وقت ، ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عنادًا وكفرًا ومقابلة للفاسد بالفاسد .

وقوله ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ بيَّن بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا به من القول ، وهذا من باب الإيماء والإشارة . وقد اختلف فيمن عنى بقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فقال قتادة : ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قال : وقالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم . وقال ابن جريج : قلت لعطاء : من هؤلاء الذين لا يعلمون ؟ قال : أمم كانت قبل اليهود والنصارى ، وقبل التوراة والإنجيل . وقال السدي : فهم العرب قالوا : ليس محمَّد على شيء ، وقال الطبري : إنها عامة تصلح للجميع ، وليس ثم دليل قاطع يعين واحدًا من هذه الأقوال ، والحمل على الجميع أولى .

وقوله تعالى : ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد . ويفصل بينهم بقضائه العدل ، الذي لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

اختلف المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعوا في خرابها على قولين :

أحدهما : هم النصارى . حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس .

القول الثاني : المشركون الذين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية وبين أن يدخلوا مكة ، حتى نحر هدية بذي طوى ، وهادنهم وقال لهم : « مَا كَانَ أَحَدٌ يَصُدُّ عَنْ هَذَا البَيْتِ ، وَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى قَاتِلَ أَبِيهِ وَأَخِيهِ فَلاَ يَصُدُّهُ » فقالوا : لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق .

وفي قوله : ﴿ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾ قال : إذ قطعوا من يعمرها بذكره ، ويأتيها للحج والعمرة . وقال ابن عبّاس : إن قريشًا منعوا النبيّ ﷺ الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام ، فأنزل الله :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ ثم اختار ابن جرير القول الأول ، واحتج بأن قريشًا لم تسع في خراب الكعبة ، وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس .

قلت : والذي يظهر والله أعلم ، القول الثاني ؛ لأن النصارى إذا منعت اليهود من الصلاة في بيت المقدس ، كان دينهم أقوم من دين اليهود ، وكانوا أقرب منهم ، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولًا إذ ذاك ؛ لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، وأيضًا فإنه تعالى لما وجه الذم في حق اليهود والنصارى ، شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة ، ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام ، وأما اعتماده على أن قريشًا لم تسع في خراب الكعبة ، فأي خراب أعظم مما فعلوا ؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه ، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم فأي خراب لها أعظم من ذلك ، وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط ، إنما عمارتها بذكر الله فيها ، وإقامة شرعه فيها ، ورفعها عن الدنس والشرك .

وقوله تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ هذا خبر معناه الطلب ، أي لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها ، إلَّا تحت الهدنة والجزية ، ولهذا لما فتح رسول الله ﷺ مكة أمر من العام القابل في تسع أن ينادى برحاب منى : « أَلَا لَا يَحُجَّنَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ ، وَلَا يَطُوفَنَّ بِالبَيْتِ عُرْيَانٌ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ أَجَلٌ فَأَجَلُهُ إِلَى مُدَّتِهِ » (١) وهذا إذا كان تصديقًا وعملًا بقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ ، وقال بعضهم : ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلَّا خائفين ، على حال التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم ، فضلًا أن يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها . والمعنى : ما كان الحق والواجب إلَّا ذلك ، لولا ظلم الكفرة وغيرهم . وقيل : إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد ، وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلَّا خائفًا يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم . وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام ، وأوصى رسول الله ﷺ أن لا يبقى بجزيرة العرب دينان (٢) ، وأن يجلي اليهود والنصارى (٣) منها ولله الحمد والمنة ، وما ذاك إلَّا تشريف أكناف المسجد والحرام ، وتطهير البقعة التي بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافة بشيرًا ونذيرًا صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا هو الخزي لهم في الدنيا ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام ، صُدوا عنه ، وكما أجلوهم من مكة أُجلوا عنها ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ على ما انتهكوا من حرمة البيت وامتهنوه ، من نصب الأصنام حوله ، ودعاء غير الله عنده ، والطواف به عريًا ، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله .

قلت : وهذا لا ينفي أن يكون داخلًا في معنى عموم الآية ، فإن النصارى لما ظلموا بيت المقدس

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٦٢٢) .
(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢١/٤) .
(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٢٠٨/٩) وأحمد في مسنده (١٩٦/١) .

بامتهان الصخرة التي كانت تصلي إليها اليهود ، عوقبوا شرعًا وقدرًا بالذلة فيه إلَّا في أحيان من الدهر أشحن بهم بيت المقدس ، وكذلك اليهود لما عصوا الله فيه أيضًا أعظم من عصيان النصارى ، كانت عقوبتهم أعظم ، والله أعلم . وفسر هؤلاء الخزي في الدنيا بخروج المهدي ، وفسره قتادة بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون . والصحيح أن الخزي في الدنيا أعم من ذلك كله ، وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، عن بشر بن أرطأة قال : كان رسول الله ﷺ يدعو « اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الأُمُورِ كُلِّها ، وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الآخِرَةِ » (١) .

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

وهذا - والله أعلم - فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا من مكة ، وفارقوا مسجدهم ومصلاهم ، وقد كان رسول الله ﷺ يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه . فلما قدم المدينة وجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا ، ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد ، ولهذا يقول تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ قال أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الناسخ والمنسوخ : عن ابن عبّاس قال : أول ما نسخ لنا من القرآن فيما ذكر لنا والله أعلم شأن القبلة . قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ فاستقبل رسول الله ﷺ فصلى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق ، ثم صرفه إلى بيته العتيق ونسخها ، فقال : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ وقال مجاهد : حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها ، الكعبة . وقال ابن جرير : وقال آخرون : بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه إلى الكعبة ، وإنما أنزلها ليعلم نبيّه ﷺ وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة حيث شاءوا من نواحي المشرق والمغرب ؛ لأنهم لا يوجهون وجوههم وجهًا من ذلك وناحية إلَّا كان جل ثناؤه في ذلك الوجه وتلك الناحية ؛ لأن له تعالى المشارق والمغارب ، وأنه لا يخلو منه مكان ، قالوا : ثم نسخ ذلك بالفرض الذي فرض عليهم ، التوجه إلى المسجد الحرام هكذا قال . وفي قوله : وأنه تعالى لا يخلو منه مكان إن أراد علمه تعالى فصحيح ، فإنَّ علمه تعالى محيط بجميع المعلومات ، وأما ذاته تعالى فلا تكون محصورة في شيء من خلقه ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا . قال ابن جرير : وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ إذنًا من الله أن يصلي المتطوع حيث توجه من شرق أو غرب ، في سفره وفي حال المسايفة وشدة الخوف . وعن ابن عمر أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته . ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك ويتأول هذه الآية : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ (٢) . وعن ابن عمر أنه كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها ، ثم قال : فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالًا قيامًا على أقدامهم ، وركبانًا مستقبلي القبلة وغير مستقبليها . قال نافع : ولا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلَّا عن النبيّ ﷺ .

مسألة : ولم يفرق الشافعي في المشهور عنه بين سفر المسافة وسفر العدوى ، فالجميع عنه يجوز

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨١/٤) والحاكم في المستدرك (٥٩١/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٤٤/٢ والطبراني في الكبير ٤٤٨/١٢ .

التطوع فيه على الراحلة ، وهو قول أبي حنيفة خلافًا لمالك وجماعته ، واختار أبو يوسف وأبو سعيد الإصطخري التطوع على الدابة في المصر ، وحكاه أبو يوسف عن أنس بن مالك ﷺ ، واختاره أبو جعفر الطبري حتى للماشي أيضًا .

قال ابن جرير : وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية في قوم عميت عليهم القبلة فلم يعرفوا شطرها ، فصلوا على أنحاء مختلفة ، فقال الله تعالى : لي المشارق والمغارب فأين وليتم وجوهكم ، فهناك وجهي وهو قبلتكم ، فيعلمكم بذلك أن صلاتكم ماضية .

عن جابر قال : كنا مع رسول الله ﷺ في مسير فأصابنا غيم فتحيرنا ، فاختلفنا في القبلة ، فصلى كل رجل منا على حدة ، وجعل أحدنا يخط بين يديه لنعلم أمكنتنا ، فذكرنا ذلك للنبي ﷺ فلم يأمرنا بالإعادة ، وقال : « قد أجزأت صلاتكم » (١) . وأما إعادة الصلاة لمن تبين له خطؤه ففيها قولان للعلماء وهذه دلائل على عدم القضاء ، والله أعلم .

قال ابن جرير : وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية في سبب النجاشي ، فعن قتادة أن النبيّ ﷺ قال : « إِنَّ أَخًا لَكُمْ قَدْ مَاتَ فَصَلُّوا عَلَيْهِ » (٢) وذكر القرطبي أنه لما مات صلى عليه رسول الله ﷺ فأخذ بذلك من ذهب إلى الصلاة على الغائب ، قال : وهذا خاص عند أصحابنا من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه عليه الصلاة والسلام شاهده حين سوّي عليه ، طويت له الأرض . الثاني : أنه لما لم يكن عنده من يصلي عليه صلى عليه ، واختاره ابن العربي ، قال القرطبي : ويبعد أن يكون ملك مسلم ليس عنده أحد من قومه على دينه ، وقد أجاب ابن العربي عن هذا لعلهم لم يكن عندهم شرعية الصلاة على الميت ، وهذا جواب جيد . الثالث : أنه عليه الصلاة والسلام إنما صلى عليه ليكون ذلك كالتأليف لبقية الملوك ، والله أعلم .

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَأَهْلِ الشَّامِ وَأَهْلِ الْعِرَاقِ » (٣) وله مناسبة ههنا . قال ابن جرير : ويحتمل فأينما تولوا وجوهكم في دعائكم لي فهنالك وجهي ، أستجيب لكم دعاءكم ، قال مجاهد : لما نزلت ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ قالوا : إلى أين ، فنزلت ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ قال ابن جرير : ومعنى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ يسع خلقه كلهم بالكفاية والجود والإفضال ، وأما قوله : ﴿ عَلِيمٌ ﴾ فإنه يعني عليم بأعمالهم ما يغيب عنه منها شيء ، ولا يعزب عن علمه ، بل هو بجميعها عليم .

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

اشتملت هذه الآية الكريمة والتي تليها على الرد على النصارى - عليهم لعائن الله - وكذا من

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٠٦/١) والبيهقي في السنن (١٠/٢) .
(٢) أخرجه مسلم في الجنائز (٦٦) وأحمد في مسنده (٣٣٣/٤) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣٤٢) وابن ماجه في السنن (١٠١١) والنسائي في السنن (١٧٢/٤) .

أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب ، ممن جعل الملائكة بنات الله ، فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم : إن لله ولدًا فقال تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ أي تعالى وتقدّس وتنزّه عن ذلك علوًّا كبيرًا ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي ليس الأمر كما افتروا ، وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهنّ ، وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء ، والجميع عبيد له وملك له ، فكيف يكون له ولد منهم ، والولد إنما يكون متولدًا من شيئين متناسبين ، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه ، ولا صاحبة له فكيف يكون له ولد؟ كما قال تعالى : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فقرر تعالى أنه السيد العظيم الذي لا نظير له ولا شبيه له ، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة ، فكيف يكون له منها ولد ؟ وعن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ قال : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ ؛ فَيَزْعُمُ أَنِّي لا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ ؛ فَقَوْلُهُ : إِنَّ لِي وَلَدًا ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا » (١) .

وقوله : ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ قال ابن عباس : مصلون . وقال أبو مالك : مقرّون له بالعبودية . وقال الربيع بن أنس : قائم يوم القيامة . وقال السدي : مطيعون يوم القيامة . وقال مجاهد : طاعة الكافر في سجود ظله وهو كاره ، وهو اختيار ابن جرير يجمع الأقوال كلها ، وهو أن القنوت الطاعة والاستكانة إلى الله وهو شرعي وقد روي ، ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾ . عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال : « كُلُّ حَرْفٍ مِنَ الْقُرْآنِ يُذْكَرُ فِيهِ الْقُنُوتُ فَهُوَ الطَّاعَةُ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي خالقهما على غير مثال سبق . قال مجاهد والسدي : وهو مقتضى اللغة ، ومنه يقال للشيء المحدث بدعة ، والبدعة على قسمين : تارة تكون بدعة شرعية ، كقوله : « فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ » (٣) وتارة تكون بدعة لغوية كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن جمعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم : نعمت البدعة هذه ، وقال ابن جرير : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ : مبدعهما وإنما هو مفعل فصرف إلى فعيل ، كما صرف المؤلم إلى الأليم ، ومعنى المبدع المنشئ والمحدث ما لا يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد ، قال : ولذلك سمي المبتدع في الدين مبتدعًا لإحداثه فيه ما لم يسبق إليه غيره ، وكذلك كل محدث قولًا أو فعلًا لم يتقدم فيه متقدم ، فإن العرب تسميه مبتدعًا .

قال ابن جرير : فمعنى الكلام : سبحان الله أن يكون له ولد ، وهو مالك ما في السموات والأرض تشهد له جميعها بدلالتها عليه بالوحدانية ، وتقرّ له بالطاعة ، وهو بارئها وخالقها وموجدها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه ، وهذا إعلام من الله لعباده أن ممن يشهد له بذلك المسيح الذي أضافوا إلى الله بنوته ، وإخبار منه لهم أن الذي ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال ، هو الذي ابتدع المسيح عيسى من غير والد بقدرته .

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (١١٢/٤) والطبراني في الكبير (٣٧٦/١٠) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢٠/٦)
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٦/٤) والطبراني في الكبير (٢٤٦/١٨) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ يبيّن بذلك كمال قدرته وعظيم سلطانه ، وأنه إذا قدّر أمرًا وأراد كونه ، فإنما يقول له : كن ؛ أي مرة واحدة ، فيكون ؛ أي فيوجد على وفق ما أراد .

ونبه بذلك أيضًا على أن خلق عيسى بكلمة كن فكان كما أمره الله ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

عن ابن عبّاس قال : قال رافع بن حرملة لرسول الله ﷺ : يا محمّد إن كنت رسولًا من الله ، كما تقول ، فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه ، فأنزل الله في ذلك من قوله : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ ﴾ (١) . وحكى القرطبي ﴿ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ ﴾ أي يخاطبنا بنبوتك يا محمّد قلت : وهو ظاهر السياق . وقال السدي في تفسير هذه الآية : هذا قول كفّار العرب ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ هم اليهود والنصارى ، ويؤيد هذا القول ، وأن القائلين ذلك هم مشركو العرب قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ الآية إلى غير ذلك من الآيات الدالّة على كفر مشركي العرب ، وعتوهم وعنادهم ، وسؤالهم ما لا حاجة لهم به إنما هو الكفر والمعاندة كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم .

وقوله تعالى : ﴿ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ ﴾ أي أشبهت قلوب مشركي العرب ، قلوب من تقدمهم في الكفر والعناد والعتو .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي قد أوضحنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى ، لمن أيقن وصدق واتبع الرسل ، وفهم ما جاءوا به عن الله تبارك وتعالى ، وأما من ختم الله على قلبه وسمعه ، وجعل على بصره غشاوة ، فأولئك قال الله فيهم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ .

عن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ قال : « أُنْزِلَتْ عَلَيَّ ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ قَالَ : « بَشِيرًا بِالجَنَّةِ وَنَذِيرًا مِنَ النَّارِ » .

وقوله : ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ قراءة أكثرهم (ولا تُسأل) بضم التاء على الخبر ، وفي قراءة أبي بن كعب (وما تسأل) وقرأ آخرون (لا تسأل) بضم التاء على النهي ؛ أي لا تسأل عن حالهم (٢) . عن محمّد بن كعب القرظي : قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيْتَ شِعْرِي مَا فَعَلَ أَبَوَايَ ، لَيْتَ شِعْرِي مَا فَعَلَ أَبَوَايَ ؟ » فنزلت ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فما ذكرهما حتى توفاه الله ﷻ (٣) . قال القرطبي : وهذا كما يقال : لا تسأل عن فلان أي قد بلغ فوق ما تحسب

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره ٧١٥/١ .

(٢) قرأ نافع (ولا تسأل) بفتح التاء والباقون بضمها (انظر : حجة القراءات ص ١١١) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١١١/١) .

وقد ذكرنا في التذكرة أن اللّه أحيا له أبويه حتى آمنا به ، وأجبنا عن قوله : « إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ » (١) . قلت : والحديث المروي في حياة أبويه عليه الصلاة والسلام ، ليس في شيء من الكتب الستة ولا غيرها ، وإسناده ضعيف واللّه أعلم . وقد رد ابن جرير هذا القول المروي عن محمّد بن كعب وغيره في ذلك لاستحالة الشك من الرسول ﷺ في أمر أبويه ، واختار القراءة الأولى ، وهذا الذي سلكه ههنا فيه نظر ؛ لاحتمال أن هذا كان في حال استغفاره لأبويه قبل أن يعلم أمرهما ، فلما علم ذلك تبرأ منهما وأخبر عنهما من أهل النار ، كما ثبت هذا في الصحيح ، ولهذا أشباه كثيرة ونظائر ولا يلزم ما ذكر ابن جرير ، واللّه أعلم .

وعن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد اللّه بن عمرو بن العاص فقلت : أخبرني عن صفة رسول اللّه ﷺ في التوراة فقال : أجل واللّه إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، لا فظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلّا اللّه ، فيفتح به أعينًا عميًا ، وآذانًا صمًّا ، وقلوبًا غلفًا (٢) .

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ .

قال ابن جرير : يعني قوله جلّ ثناؤه : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ ﴾ وليست اليهود يا محمّد ولا النصارى براضية عنك أبدًا ، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم ، وأقبل على طلب رضا اللّه في دعائهم إلى ما بعثك اللّه به من الحق . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ ﴾ أي قل يا محمّد : إن هدى اللّه الذي بعثني به هو الهدى ، يعني هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل . وقال قتادة : وبلغنا أن رسول اللّه ﷺ كان يقول : « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللّه » (٣) ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى ، بعدما علموا من القرآن والسنّة عياذًا باللّه من ذلك ، فإن الخطاب مع الرسول والأمر لأمته . وقد استدل كثير من الفقهاء بقوله : ﴿ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ ﴾ حيث أفرد الملة على أن الكفر كله ملة واحدة ، فعلى هذا لا يتوارث المسلمون والكفّار ، وكل منهم يرث قرينه سواء كان من أهل دينه أم لا ؛ لأنهم كلهم ملة واحدة ، وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد في رواية عنه ، وقال في الرواية الأخرى كقول مالك : إنه لا يتوارث أهل ملتين شتى .

وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ قال قتادة : هم اليهود والنصارى ، وقال : هم

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٤٧) وأحمد في مسنده (٣/١١٩) والبيهقي في السنن (٧/١٩٠) ، وأبو داود في السنن (٤٧١٨) .
(٢) أخرجه : البخاري في تفسير القرآن (٤٤٣٨) .
(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٤٧) وأبو داود في السنن (٢٤٨٤) والترمذي في السنن (١٢٢٩) وأحمد في مسنده (٤/٤٢٥) .

أصحاب رسول الله ﷺ . قال ابن مسعود : والذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرّم حرامه ، ويقرأه كما أنزله الله ، ولا يحرف الكلم عن مواضعه ، ولا يتأول منه شيئًا على تأويله . وقال الحسن البصري : يعملون بمحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه ، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه .

وقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ ﴾ خبر عن ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ أي من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته ، آمن بما أرسلتك به يا محمّد كما قال تعالى : ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ ﴾ الآية . أي إذا أقمتموها حق الإقامة ، وآمنتم بها حق الإيمان ، وصدقتم ما فيها من الأخبار بمبعث بمحمّد ﷺ ونعته وصفته والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته ، قادكم ذلك إلى الحق ، واتباع الخير في الدنيا والآخرة ، وفي الصحيح : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ، ثُمَّ لاَ يُؤْمِنُ بِي ؛ إِلَّا دَخَلَ النَّارَ » (١) .

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ .

قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة ، وكررت ههنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم ونعته واسمه وأمره وأمته ، فحذرهم من كتمان هذا ، وكتمان ما أنعم به عليهم ، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية والدينية ، ولا يحسدوا بني عمّهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم ، ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه والحيد عن موافقته ، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين .

﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا على شرف إبراهيم خليله عليه السلام ، وإن الله تعالى جعله إمامًا للناس يقتدى به في التوحيد ، حين قام بما كلّفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي ، ولهذا قال : ﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ ﴾ أي : واذكر يا محمّد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين ، الذين ينتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها ، وإنما الذي هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين ، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم ؛ أي اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي ﴿ فَأَتَمَّهُنَّۖ ﴾ أي قام بهن كلهن . وقوله تعالى ﴿ بِكَلِمَٰتٖ ﴾ أي بشرائع وأوامره ونواه ، فإن الكلمات تطلق ويراد بها الكلمات القدرية ، كقوله تعالى عن مريم عليها السلام : ﴿ وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴾ وتطلق ويراد بها الشرعية كقوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ ﴾ أي كلماته الشرعية ، وهي إما خبر صدق ، وإما طلب عدل إن كان أمرًا أو نهيًا ، ومن ذلك هذه الآية الكريمة ﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ ﴾ أي قام بهن ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ ﴾ أي جزاء على ما فعل ، كما قام بالأوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوة وإمامًا يقتدى به ، ويحتذى حذوه .

وقد اختلف في تعيين الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم الخليل عليه السلام ، فروي عن ابن عباس : أن

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٤٠) والألباني في الصحيحة (١٥٧) .

الله ابتلاه بالمناسك ، وروي أيضًا : ابتلاه بالطهارة خمس في الرأس وخمس في الجسد ، في الرأس قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس ، وفي الجسد تقليم الأظفار وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء . قلت : وقريب من هذا ما ثبت عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « عَشْرٌ مِنَ الفِطْرَةِ : قَصُّ الشَّارِبِ ، وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ ، والسِّوَاكِ ، وَاسْتِنْشَاقُ المَاءِ ، وَقَصُّ الأَظْفَارِ ، وَغَسْلُ البَرَاجِمِ ، وَنَتْفُ الإِبِطِ ، وَحَلْقُ العَانَةِ ، وَانْتِقَاصُ المَاءِ ، وَنَسِيتُ العَاشِرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ المَضْمَضَةُ »(١) . قال وكيع : انتقاص الماء يعني الاستنجاء ، وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال : « الفِطْرَةُ خَمْسٌ : الخِتَانُ ، والاسْتِحْدَادُ ، وَقَصُّ الشَّارِبِ ، وَتَقْلِيمُ الأَظْفَارِ ، وَنَتْفُ الإِبِطِ »(٢) . وعن ابن عبّاس أنه كان يقول في تفسير هذه الآية : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ عشر ؛ ست في الإنسان وأربع في المشاعر ، فأما التي في الإنسان : حلق العانة ، ونتف الإبط ، والختان ، وتقليم الأظفار ، وقص الشارب ، وغسل يوم الجمعة ، والأربعة التي في المشاعر : الطواف ، والسعي بين الصفا والمروة ، ورمي الجمار ، والإفاضة . وعن ابن عبّاس قال : الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهن ، فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم ، ومحاجته نمروذ في الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلافه ، وصبره على قذفه إياه في النار ليحرقوه في الله على هول ذلك من أمرهم ، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده في الله حين أمره بالخروج عنهم ، وما أمره به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله ، وما ابتلي به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه ، فلما مضى على ذلك من الله كله وأخلصه للبلاء قال الله له : ﴿ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ على ما كان من خلاف الناس وفراقهم . وقال قتادة : كان الحسن يقول : إي والله لقد ابتلاه بأمر فصبر عليه ، ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر فأحسن في ذلك وعرف أن ربه دائم لا يزول ، فوجه وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما كان من المشركين ، ثم ابتلاه بالهجرة فخرج من بلاده وقومه حتى لحق بالشام مهاجرًا إلى الله ، ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة فصبر على ذلك ، وابتلاه بذبح ابنه ، والختان فصبر على ذلك . وعن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيّب يقول : إبراهيم عليه السلام أول ما اختتن ، وأول من ضاف الضيف ، وأول من قلم أظفاره ، وأول من قص الشارب ، وأول من شاب ، فلما رأى الشيب قال : يا رب ما هذا ؟ قال : وقار ، قال : يا رب زدني وقارًا .

قال أبو جعفر بن جرير ما حاصله : أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر ، وجائز أن يكون بعض ذلك ، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين ، إلَّا بحديث أو إجماع ، قال : ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ، ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له .

وقوله : ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ لما جعل الله إبراهيم إمامًا سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته ، فأجيب إلى ذلك ، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون ، وأنه لا ينالهم عهد الله ، ولا يكونون أئمة ، فلا يقتدى بهم ، والدليل على أنه أجيب إلى طلبته قوله تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ﴾ فكل نبي أرسله الله ، وكل كتاب أنزله الله

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٥٦) وأبو داود في السنن (٥٣) وابن ماجه في السنن (٢٩٣) وأحمد في مسنده (١٣٧/٦) .
(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٩٧) ومسلم في الطهارة (٥٠) وأبو داود في السنن (٤١٩٨) والنسائي في السنن (١٤/١) .

بعد إبراهيم ، ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه .

وأما قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فقد اختلفوا في ذلك ، فقال مجاهد : إنه سيكون في ذريتك ظالمون . وقال أيضًا : لا يكون إمام ظالم ، وفي رواية : لا أجعل إمامًا ظالمًا يقتدى به . وقال : لا يكون إمام ظالم يقتدى به . قوله : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ أما من كان منهم صالحًا فأجعله إمامًا يقتدى به ، وأما من كان ظالمًا فلا ، ولا نعمة عين . وقال سعيد بن جبير : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ : المراد به المشرك ، لا يكون إمام ظالم ، يقول : لا يكون إمام مشرك . وقال عطاء : ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ قال : ومن ذريتي فأبى أن يجعل من ذريته إمامًا ظالمًا ، قلت لعطاء : ما عهده ؟ قال : أمره . وعن ابن عبّاس قال : ليس للظالمين عهد وإن عاهدته أنقضه . وقال قتادة : لا ينال عهد الله في الآخرة الظالمين ، فأما في الدنيا فقد ناله الظالم فآمن به وأكل وعاش . وقال الضحاك : لا ينال طاعتي عدوّ لي يعصيني ، ولا أنحلها إلّا وليا يطيعني . وعن علي ابن أبي طالب عن النبيّ ﷺ قال : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ قال : « لاَ طَاعَةَ إِلَّا فِي المَعْرُوفِ »(١) .

واختار ابن جرير أن هذه الآية وإن كانت ظاهرة في الخبر أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالمًا ، ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل عليه السلام أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه كما تقدم عن مجاهد وغيره والله أعلم . وقال ابن خويز منداد المالكي : الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ولا حاكمًا ولا مفتيًا ولا شاهدًا ولا راويًا .

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ .

قال ابن عبّاس : لا يقضون منه وطرًا ، يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم ثم يعودون إليه . وعن عبدة بن أبي لبابة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ قال : لا ينصرف عنه منصرف ، وهو يرى أنه قد قضى منه وطرًا .

وقال عطاء الخراساني ﴿ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي مجمعًا ﴿ وَأَمْنًا ﴾ قال ابن عباس : أي أمنًا للناس .

ومضمون ما فسر به هؤلاء الأئمة هذه الآية : أن الله تعالى يذكر شرف البيت ، وما جعله موصوفًا به شرعًا وقدرًا من كونه مثابةً للناس ، أي جعله محلًّا تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه ولا تقضي منه وطرًا ، ولو ترددت إليه كل عام استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ إلى أن قال : ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ ويصفه تعالى بأنه جعله أمنًا ، من دخله أمن ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمنًا . وقال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم : كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يعرض له ، كما وصف في سورة المائدة بقوله تعالى : ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾ أي يدفع عنهم بسبب تعظيمها السوء ، قال ابن عبّاس : لو لم يحج الناس هذا البيت لأطبق الله السماء على الأرض ، وما هذا الشرف إلّا لشرف بانيه أولًا وهو خليل الرحمن ، وفي هذه الآية الكريمة نبه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده ، فقال : ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ وقد اختلف المفسرون في المراد بالمقام ما هو ؟ فقال ابن عبّاس : مقام إبراهيم الحرم كله . وقال : أما مقام إبراهيم الذي ذكر ههنا فمقام إبراهيم هذا الذي في المسجد ، ثم قال : ومقام إبراهيم ، يعد كثير مقام إبراهيم الحج كله . ثم فسره لي عطاء فقال : التعريف وصلاتان بعرفة والمشعر ومنى ورمي الجمار والطواف بين الصفا والمروة ، فقلت : أفسره ابن عبّاس ؟ قال : لا ، ولكن قال : مقام إبراهيم الحج كله . قلت : أسمعت ذلك لهذا أجمع ؟

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (٣٩) وأحمد في مسنده (٤٣٢/٤) والبيهقي في السنن (١٥٦/٨) والحاكم في المستدرك (٤٤٣/٣) .

قال : نعم سمعته منه . وقال سعيد بن جبير : ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ قال : الحجر مقام إبراهيم نبي الله ، قد جعله الله رحمة ، فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجارة ، ولو غسل رأسه كما يقولون لاختلف رجلاه . وقال السدي : المقام الحجر الذي وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم حتى غسلت رأسه .

وعن أنس بن مالك قال : قال عمر بن الخطاب : وافقت ربي في ثلاث ، أو وافقني ربي في ثلاث : قلت : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلّى فنزلت ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ وقلت : يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب ، قال : وبلغني معاتبة النبيّ ﷺ بعض نسائه فدخلت عليهن ، فقلت : إن انتهيتن أو ليبدّلن الله رسوله خيرًا منكن ، حتى أتيت إحدى نسائه قالت : يا عمر أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت ، فأنزل الله ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ ﴾ الآية (١) .

وعن جابر قال : استلم رسول الله ﷺ الركن ، فرمل ثلاثًا ومشى أربعًا ، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين (٢) . ولما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ، ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار ، وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه ، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها ، وهكذا حتى تم جدران الكعبة ، وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه ، ولم يزل هذا معروفًا تعرفه العرب في جاهليتها ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة اللامية :

وَمَوْطِئُ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةٌ ... عَلَى قَدَمَيهِ حَافِيًا غَيْرَ نَاعِلِ

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضًا ، فعن أنس بن مالك قال : رأيت المقام فيه أصابعه عليه السلام وأخمص قدميه ، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم . وقال قتادة : إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه . وقد تكلفت هذه الأمة شيئًا ما تكلفته الأمم قبلها ، ولقد ذكر لنا من رأى أثر عقبه وأصابعه فيه فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتى اخلولق وانمحى . قلت : وقد كان هذا المقام ملصقًا بجدار الكعبة قديمًا ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك ، وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة ، أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك ، ولهذا - والله أعلم - أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف ، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه ، وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتباعهم ، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ : « اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ » (٣) وهو الذي نزل القرآن بوفاقه في الصلاة عنده ، ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين . قال عطاء وغيره : أول من نقله عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وقال مجاهد : أول من أخر المقام إلى موضعه الآن عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وعن عائشة رضي الله عنها أن

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٨٣) ، والبيهقي في السنن (٨٨/٧) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٥٩) والبغوي في شرح السنة (١٣٤/٧) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣٨٠٥) والحاكم في المستدرك (٧٥/٣) وأحمد في مسنده (٣٩٩/٥) وابن ماجه في السنن (٩٧) .

المقام كان زمان رسول الله ﷺ وزمان أبي بكر ﷺ ملتصقًا بالبيت ثم أخره عمر بن الخطاب ﷺ . وقال سفيان بن عيينة إمام المكيين في زمانه : كان المقام من سقع البيت على عهد رسول الله ﷺ فحوله عمر إلى مكانه بعد النبيّ ﷺ وبعد قوله : ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ قال : ذهب السيل به بعد تحويل عمر إياه من موضعه هذا فرده عمر إليه . وقال سفيان : لا أدري كم بينه وبين الكعبة قبل تحويله : وقال سفيان : لا أدري أكان لاصقًا أم لا ؟ فهذه الآثار متعاضدة على ما ذكرنا والله أعلم .

﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

قال الحسن البصري قوله : ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ ﴾ أمرهما الله أن يطهراه من الأذى والنجس ، ولا يصيبه من ذلك شيء . وقال ابن جريج : قلت لعطاء : ما عهده ؟ قال : أمره . والظاهر أن هذا الحرف إنما عدي بإلى ؛ لأنه في معنى تقدمنا وأوحينا . وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ ﴾ قال : من الأوثان . وقال مجاهد وسعيد بن جبير : إن ذلك من الأوثان والرفث وقول الزور والرجس . وعن سعيد بن جبير قال في قوله تعالى : ﴿ لِلطَّآئِفِينَ ﴾ : يعني من أتاه من غربة ﴿ وَٱلْعَٰكِفِينَ ﴾ المقيمين فيه . وقال عطاء : من انتابه من الأمصار فأقام عنده ، وقال لنا ونحن مجاورون : أنتم من العاكفين . وعن ثابت قال : قلنا لعبد الله بن عبيد بن عمير : ما أراني إلّا مكلم الأمير أن أمنع الذين ينامون في المسجد الحرام فإنهم يجنبون ويحدثون ، قال : لا تفعل ، فإن ابن عمر سئل عنهم فقال : هم العاكفون . قلت : وقد ثبت في الصحيح : أن ابن عمر كان ينام في مسجد الرسول ﷺ وهو عزب(١) .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ فقال ابن عباس : إذا كان مصليًا فهو من الركع السجود .

قال ابن جرير رحمه الله : فمعنى الآية : وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين ، والتطهير الذي أمرهما به في البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومن الشرك ، ثم أورد سؤالًا فقال : فإن قيل : فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت شيء من ذلك الذي أمر بتطهيره منه ، وأجاب بوجهين : أحدهما : أنه أمرهما بتطهيره مما كان يعبد عنده زمان قوم نوح من الأصنام والأوثان ليكون ذلك سنة لمن بعدهما ، إذ كان الله تعالى قد جعل إبراهيم إمامًا يقتدى به كما قال عبد الرّحمن بن زيد ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ ﴾ قال : من الأصنام التي يعبدون التي كان المشركون يعظمونها ، قلت : وهذا الجواب مفرع على أنه كان يعبد عنده أصنام قبل إبراهيم عليه السلام ، ويحتاج إثبات هذا إلى دليل عن المعصوم محمّد ﷺ .

الجواب الثاني : أنه أمرهما أن يخلصا في بنائه لله وحده لا شريك له ، فيبنياه مطهرًا من الشرك والريب ، كما قال جلّ ثناؤه : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾ قال : فكذلك قوله : ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ ﴾ أي ابنياه على طهر من الشرك بي والريب ، كما قال السدي : ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ ﴾ ابنيا بيتي للطائفين ،

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة(٤٤٠) والنسائي في السنن(٧٢٢) .

وملخص هذا الجواب : أن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يبنيا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له ، للطائفين به والعاكفين عنده والمصلين إليه من الركع السجود .

وقد اختلف الفقهاء أيهما أفضل ، الصلاة عند البيت أو الطواف به ؟ فقال مالك رحمه الله : الطواف به لأهل الأمصار أفضل ، وقال الجمهور : الصلاة أفضل مطلقًا ، وتوجيه كل منهما يذكر في كتاب الأحكام ، والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته المؤسس على عبادته وحده لا شريك له ، ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه ، ثم ذكر أن البيت إنما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له ، إما بطواف أو صلاة ، فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة : قيامها ، وركوعها ، وسجودها ، ولم يذكر العاكفين ؛ لأنه تقدم ﴿ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾ ، وفي هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين ، واكتفى بذكر الركوع والسجود عن القيام ؛ لأنه قد علم أنه لا يكون ركوع ولا سجود إلَّا بعد قيام ، وفي ذلك أيضًا رد على من لا يحجه من أهل الكتابين اليهود والنصارى ؛ لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وإسماعيل ، ويعلمون أنه بنى هذا البيت للطواف في الحج والعمرة وغير ذلك ، وللاعتكاف والصلاة عنده ، وهم لا يفعلون شيئًا من ذلك ، فكيف يكونون مقتدين بالخليل وهم لا يفعلون ما شرع الله له ؟ وقد حج البيت موسى بن عمران وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما أخبر بذلك المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى .

وتقدير الكلام إذًا : ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ أي تقدمنا بوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ أي طهراه من الشرك والريب ، وابنياه خالصًا لله ، معقلًا للطائفين والعاكفين والركع السجود . وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة ومن قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّما بُنِيَتِ المَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ » (١) .

وقد اختلف الناس في أول من بنى الكعبة ؟ فقيل : الملائكة قبل آدم وقيل : آدم ، وغالب من يذكر هذا إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب ، وهي مما لا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليها بمجردها ، وأما إذا صح حديث في ذلك فعلى الرأس والعين .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان الناس إذا رأوا أول الثمر ، جاءوا به إلى رسول الله ﷺ فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال : « اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا في ثَمَرِنَا ، وَبَارِكْ لَنَا في مَدِينَتِنَا ، وَبَارِكْ لَنَا في صَاعِنَا ، وَبَارِكْ لَنَا في مُدِّنَا ، اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ ، وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ ، وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ لِمَكَّةَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ » ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر (٢) وعن رافع بن خديج قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ ، وَإِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لابَتَيْهَا » (٣) . وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأبي طلحة : « الْتَمِسْ لِي غُلَامًا مِنْ غِلْمَانِكُمْ يَخْدِمُنِي » فخرج بي أبو طلحة يردفني وراءه ، فكنت أخدم رسول الله ﷺ كلما نزل ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦١/٥) .
(٢) أخرجه مسلم في الحج (٤٧٦) وأحمد في مسنده (١٢٤/٢) والبيهقي في السنن (١٩٧/٥) .
(٣) أخرجه مسلم في الحج (٤٥٦) وأحمد في مسنده (١٤١/٤) والبيهقي في السنن (١٩٨/٥) .

وقال في الحديث : ثم أقبل حتى إذا بدا له أحد قال : « هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ » فلما أشرف على المدينة قال : « اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ جَبَلَيْهَا ، مِثْلَ مَا حَرَّمَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مُدِّهِمْ وَصَاعِهِمْ » (١) والأحاديث في تحريم المدينة كثيرة وإنما أوردنا منها ما هو متعلق بتحريم إبراهيم عليه السلام لمكة ، لما في ذلك من مطابقة الآية الكريمة . وتمسك بها من ذهب إلى أن تحريم مكة إنما كان على لسان إبراهيم الخليل ، وقيل : إنها محرمة منذ خلقت مع الأرض وهذا أظهر وأقوى والله أعلم .

وقد وردت أحاديث أُخر تدل على أن الله تعالى حرّم مكة قبل خلق السموات والأرض كما ورد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إِنَّ هَذَا البَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ القِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ؛ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، لاَ يُعْضَدُ شَوْكُهُ ، وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهُ ، وَلاَ يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا ، وَلاَ يُخْتَلَى خَلاَهَا » فقال العبّاس : يا رسول الله ، إلّا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم فقال : « إِلَّا الإِذْخَرَ » (٢) . وعن أبي شريح العدوي أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة : ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح سمعته أذناي ، وأبصرته عيناي حين تكلم به ، إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ ، فَلاَ يَحِلُّ لاِمْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا ، وَلاَ يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُولُوا : إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا اليَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ » فقيل لأبي شريح : ما قال لك عمرو ؟ قال : أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح ، إن الحرم لا يعيذ عاصيًا ، ولا فارًّا بدم ، ولا فارًّا بخربة (٣) .

فإذا علم هذا فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم عليه السلام حرمها ؛ لأن إبراهيم بلَّغ عن الله حكمه فيها ، وتحريمه إياها ، وأنها لم تزل بلدًا حرامًا عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها ، كما أنه قد كان رسول الله ﷺ مكتوبًا عند الله خاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في طينته ، ومع هذا قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ الآية ، وقد أجاب الله دعاءه بما سبق في علمه وقدره .

وقوله تعالى إخبارًا عن الخليل أنه قال : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ أي من الخوف ، أي لا يرعب أهله ، وقد فعل الله ذلك شرعًا وقدرًا . وقد تقدمت الأحاديث في تحريم القتال فيه . فعن جابر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لاَ يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السِّلاَحَ » (٤) وقال في هذه السورة : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ أي اجعل هذه البقعة بلدًا آمنًا ، وناسب هذا ؛ لأنه قبل بناء الكعبة . وقال تعالى في سورة إبراهيم : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا ﴾ وناسب هذا هناك ؛ لأنه – والله

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٦٣) والنسائي في السنن (٢٧٤/٨) وأحمد في مسنده (١٥٩/٣) والبيهقي في السنن (١٢٥/٩) .
(٢) أخرجه مسلم في الحج (٤٤٥) والبيهقي في السنن (١٩٥/٥) والبغوي في شرح السنة (٢٩٤/٧) .
(٣) أخرجه مسلم في الحج (٤٤٦) وأحمد في مسنده (٣٨٥/٦) والبيهقي في السنن (٢١٢/٩) .
(٤) أخرجه البيهقي في السنن (١٥٥/٥) .

أعلم - كأنه وقع دعاء مرة ثانية بعد بناء البيت ، واستقرار أهله به ، وبعد مولد إسحاق الذي هو أصغر سنًّا من إسماعيل بثلاث عشرة سنة ، ولهذا قال في آخر الدعاء : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ قال أُبيّ بن كعب : هو قول اللَّه تعالى . قال : وقرأ آخرون ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأَمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ ٱضْطَرَّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ : فجعلوا ذلك من تمام دعاء إبراهيم ، وكان ابن عبّاس يقول : ذلك قول إبراهيم يسأل ربه أن من كفر فأمتعه قليلًا . وقال مجاهد : ومن كفر فأرزقه رزقًا قليلًا أيضًا ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ قال محمّد بن إسحاق : لما عنَّ لإبراهيم الدعوة على من أبى اللَّه أن يجعل له الولاية انقطاعًا إلى اللَّه ومحبته ، وفراقًا لمن خالف أمره وإن كانوا من ذريته ، حين عرف أنه كائن منهم ظالم لا يناله عهده بخبر اللَّه له بذلك ، قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ فإني أرزق البر والفاجر وأمتعه قليلًا .

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي ثم ألجئه بعد متاعه في الدنيا وبسطنا عليه من ظلها ، إلى عذاب النار وبئس المصير ، ومعناه : أن اللَّه تعالى ينظرهم ويمهلهم ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وفي الصحيح : « إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [1] .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فالقواعد جمع قاعدة ، وهي السارية والأساس ، يقول تعالى : واذكر يا محمّد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت ، ورفعهما القواعد منه ، وهما يقولان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ . وقال بعض المفسّرين : الذي كان يرفع القواعد هو إبراهيم والداعي إسماعيل ، والصحيح أنهما كانا يرفعان .

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان ، خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنة فيها ماء ، فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها على صبيها ، حتى قدم مكة فوضعهما تحت دوحة ثم رجع إبراهيم إلى أهله ، فأتبعته أم إسماعيل حتى بلغوا كداء نادته من ورائه يا إبراهيم إلى من تتركنا ؟ قال : إلى اللَّه ، قالت : رضيت باللَّه قال : فرجعت فجعلت تشرب من الشنة ويدر لبنها على صبيها ، حتى لما فني الماء قالت : لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحدًا ، فذهبت فصعدت الصفا فنظرت هل تحس أحدًا فلم تحس أحدًا ، فلما بلغت الوادي سعت حتى أتت المروة ، وفعلت ذلك أشواطًا حتى أتمت سبعًا ، ثم قالت : لو ذهبت فنظرت ما فعل الصبي فذهبت فنظرت ، فإذا هو على حاله كأنه ينشغ للموت ، فلم تقرها نفسها فقالت : لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحدًا فذهبت فصعدت الصفا ، فنظرت ونظرت فلم تحس أحدًا ، حتى أتمت سبعًا ، ثم قالت : لو ذهبت فنظرت ما فعل ، فإذا هي بصوت فقالت : أغث إن كان عندك خير ، فإذا جبريل عليه السلام قال : فقال

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٦) ومسلم في البر والصلة (١٦) والبيهقي في السنن (٩٤/٦) والترمذي في السنن (٣١١٠) .

بعقبه هكذا ، وغمز عقبه على الأرض ، قال : فانبثق الماء ، فدهشت أم إسماعيل ، فجعلت تحفر قال : فقال أبو القاسم ﷺ : « لَوْ تَرَكَتْهُ لَكَانَ المَاءُ ظَاهِرًا » قال : فجعلت تشرب من الماء ، ويدر لبنها على صبيها ، قال : فمرّ ناس من جرهم ببطن الوادي ، فإذا هم بطير كأنهم أنكروا ذلك ، وقالوا : ما يكون الطير إلّا على ماء ، فبعثوا رسولهم فنظر فإذا هم بالماء ، فأتاهم فأخبرهم فأتوا إليها فقالوا : يا أم إسماعيل أتأذنين لنا أن نكون معك ونسكن معك ؟ فبلغ ابنها ونكح منهم امرأة . قال : ثم إنه بدا لإبراهيم ﷺ فقال لأهله : إني مطلع تركتي ، قال : فجاء فسلم فقال : أين إسماعيل ؟ قالت امرأته : ذهب يصيد ، قال : قولي له : إذا جاء : غير عتبة بابك ، فلما أخبرته قال : أنت ذاك فاذهبي إلى أهلك ، قال : ثم إنه بدا لإبراهيم فقال : إني مطلع تركتي ، قال : فجاء فقال : أين إسماعيل ؟ فقالت امرأته : ذهب يصيد ، فقالت : ألا تنزل فتطعم وتشرب ؟ فقال : ما طعامكم وما شرابكم ؟ قالت : طعامنا اللحم ، وشرابنا الماء ، قال : اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم ، قال : فقال أبو القاسم ﷺ : « بَرَكَةٌ بِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ » . قال : ثم إنه بدا لإبراهيم ﷺ ، فقال لأهله : إني مطلع تركتي ، فجاء فوافق إسماعيل من وراء زمزم يصلح نبلًا له ، فقال : يا إسماعيل إن ربّك ﷻ أمرني أن أبني له بيتًا ، فقال : أطع ربك ﷻ ، قال : إنه قد أمرني أن تعينني عليه ، فقال : إذن أفعل - أو كما قال - قال : فقام فجعل إبراهيم يبني ، وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ قال : حتى ارتفع البناء ، وضعف الشيخ عن نقل الحجارة ، فقام على حجر المقام فجعل يناوله الحجارة ويقولان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (١) .

وعن ابن عبّاس ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ ﴾ قال : القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك . وعن عطاء قال : قال آدم : إني لا أسمع أصوات الملائكة ، قال بخطيئتك ، ولكن اهبط إلى الأرض فابن لي بيتًا ، ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف ببيتي الذي في السماء ، فيزعم الناس أنه بناه من خمسة أجبل من حراء وطور زيتا وطور سيناء والجودي ، وكان ربضه من حراء ، فكان هذا بناء آدم حتى بناه إبراهيم ﵇ بعد .

وقال البخاري ؒ : قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ ﴾ الآية . القواعد أساسه واحدها قاعدة ، والقواعد من النساء واحدتها قاعدة . عن عائشة زوج النبيّ ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال : « أَلَمْ تَرَي أَنَّ قَوْمَكِ حِينَ بَنَوا البَيْتَ اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ ؟ » فقلت : يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم ؟ قال : « لَوْلاَ حَدَثَانُ قَوْمِكِ بِالكُفْرِ » فقال عبد الله بن عمر : لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله ﷺ ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر ، إلّا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم ﵇ (٢) . وعن عبد الله بن عمر عن عائشة عن النبيّ ﷺ قال : « لَوْلاَ أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ - أو قالَ : بكفر - لأَنْفَقْتُ كَنْزَ الكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ اللَّه ، وَلَجَعَلْتُ بَابَهَا بِالأَرْضِ ، وَلأَدْخَلْتُ فِيهَا الحِجْرَ » (٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٦٥) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٨٤) .
(٣) أخرجه البخاري في الحج (١٥٨٥) ومسلم في الحج (٤٠٥) وأحمد في مسنده (٦/١٨٠) ، والدارمي في السنن (٢/٥٤) .

ذِكْر بِنَاءِ قُرَيش الكَعْبَة بَعد إبْرَاهِيم الخَلِيْل عليه السلام
وَقَبْل مَبْعَث رَسُول اللَّه ﷺ بخمسِ سِنين

وقد نقل معهم في الحجارة ، وله من العمر خمس وثلاثون سنة صلوات اللَّه وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين . قال محمّد بن إسحاق بن يسار في السيرة : ولما بلغ رسول اللَّه ﷺ خمسًا وثلاثين سنة ، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة ، وكانوا يهمّون بذلك ليسقفوها ، ويهابون هدمها ، وإنما كانت رضمًا فوق القامة ، فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وذلك أن نفرًا سرقوا كنز الكعبة ، وإنما كان يكون في بئر في جوف الكعبة ، وكان الذي وجد عنده الكنز دويك مولى بني مليح بن عمرو من خزاعة ، فقطعت قريش يده ، ويزعم الناس أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك ، وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت ، فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها ، وكان بمكة رجل قبطي نجار ، فهيأ لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها ، وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كانت تطرح فيها ما يهدى لها كل يوم ، فتشرف على جدار الكعبة ، وكانت مما يهابون ، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلّا احزألت وكشت وفتحت فاها ، فكانوا يهابونها ، فبينما هي يومًا تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع ، بعث اللَّه إليها طائرًا فاختطفها فذهب بها ، فقالت قريش : إنّا لنرجو أن يكون اللَّه قد رضي ما أردنا ، عندنا عامل رفيق ، وعندنا خشب ، وقد كفانا اللَّه الحية ، فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنيانها قام ابن وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم فتناول من الكعبة حجرًا فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه ، فقال : يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلّا طيبًا ، لا يدخل فيها مهر بغي ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس ، قال ابن إسحاق : والناس ينتحلون هذا الكلام للوليد بن المغيرة بن عبد اللَّه بن عمرو بن مخزوم ، قال : ثم إن قريشًا تجزأت الكعبة ، فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة ، وكان من بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم ، وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم ، وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ولبني أسد بن عبد العزى بن قصي ولبني عدي بن كعب بن لؤي وهو الحطيم ، ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه ، فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدؤكم في هدمها ، فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول : اللهم لم ترع ، اللهم إنا لا نريد إلّا الخير ، ثم هدم من ناحية الركنين ، فتربص الناس تلك الليلة وقالوا : ننظر ، فإن أصيب لم نهدم منها شيئًا ، ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شيء فقد رضي اللَّه ما صنعنا ، فأصبح الوليد من ليلته غاديًا على عمله ، فهدم وهدم الناس معه ، حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس - أساس إبراهيم عليه السلام ، أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة آخذ بعضها بعضًا ، قال : فحدثني بعض من يروي الحديث أن رجلًا من قريش ممن كان يهدمها أدخل عتلة بين حجرين منها ليقلع بها أيضًا أحدهما ، فلما تحرك الحجر انتفضت مكة بأسرها فانتهوا عن ذلك الأساس .

قال ابن إسحاق : ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن ، يعني الحجر الأسود فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تحاوروا وتخالفوا وأعدوا للقتال ، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دمًا ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة ،

فسموا « لعقة الدم » فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسًا ، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا ، فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وكان عامئذ أسن قريس كلهم قال : يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه ، أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه ففعلوا ، فكان أول داخل رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا ، هذا محمّد ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ : « هلمّ إلي ثوبًا » فأتي به فأخذ الركن يعني الحجر الأسود . فوضعه فيه بيده ، ثم قال : « لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ ، ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعًا » ففعلوا ، حتى إذا بلغو به موضعه وضعه هو بيده ﷺ ، ثم بنى عليه ، وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي الأمين ، فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا .

قال ابن إسحاق : وكانت الكعبة على عهد النبيّ ﷺ ثمانية عشر ذراعًا ، وكانت تكسى القباطي ، ثم كسيت بعد البرود ، وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف (١) . قلت : ولم تزل على بناء قريش حتى احترقت في أول إمارة عبد الله بن الزبير بعد سنة ستين ، وفي آخر ولاية يزيد بن معاوية لما حاصروا ابن الزبير ، فحينئذ نقضها ابن الزبير إلى الأرض ، وبناها على قواعد إبراهيم ﷺ ، وأدخل فيها الحجر ، وجعل لها بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا ملصقين بالأرض ، كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ ، ولم تزل كذلك مدة إمارته حتى قتله الحجاج فردّها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مروان له بذلك . عن عطاء قال : لمّا احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشام ، فكان من أمره ما كان تركه ابن الزبير ، حتى قدم الناس الموسم يريد أن يحزيهم أو يجيروهم على أهل الشام ، فلما صدر الناس قال : يا أيها الناس أشيروا علي في الكعبة أنقضها ثم أبني بناءها ، أو أصلح ما وهي منها ؟ قال ابن عبّاس : إنه قد خرق لي رأي فيها ، أرى أن تصلح ما وهي منها ، وتدع بيتًا أسلم الناس عليه ، وأحجارًا أسلم الناس عليها ، وبعث عليها النبيّ ﷺ ، فقال ابن الزبير : لو كان أحدهم احترق بيته ما رضي حتى يجدده ، فكيف بيت ربكم ﷻ؟ إني مستخير ربي ثلاثًا ثم عازم على أمري ، فلما مضت ثلاث أجمع رأيه على أن ينقضها ، فتحاماها الناس أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء ، حتى صعده رجل فألقى منه حجارة ، فلما لم يره الناس أصابه شيء تتابعوا فنقضوه حتى بلغوا به الأرض ، فجعل ابن الزبير أعمدة يستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤه ، وقال ابن الزبير : إني سمعت عائشة ﵂ تقول : إن النبيّ ﷺ قال : « لَوْلاَ أَنَّ النَّاسَ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِكُفْرٍ ، وَلَيْسَ عِنْدِي مِنَ النَّفَقَةِ مَا يُقَوِّينِي عَلَى بِنَائِهِ ، لَكُنْتُ أَدْخَلْتُ فِيهِ مِنَ الحِجْرِ خَمْسَةَ أَذْرُعٍ ، وَلَجَعَلْتُ لَهُ بَابًا يَدْخُلُ النَّاسُ مِنْهُ ، وَبَابًا يَخْرُجُونَ مِنْهُ » (٢) قال : فأنا أجد ما أنفق ولست أخاف الناس ، قال : فزاد فيه خمسة أذرع من الحجر ، حتى أبدى له أسًّا ، فنظر الناس إليه فبنى عليه البناء ، وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعًا ، فلما زاد فيه استقصر ، فزاد في طوله عشرة أذرع ، وجعل له بابين أحدهما يدخل منه ، والآخر يخرج منه ، فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك يستجيزه بذلك ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أسٍّ نظر إليه العدول من أهل مكة ،

---

(١) انظر القصة في : السيرة النبوية لابن هشام (٢٠٤/١ - ٢١١) .

(٢) سبق تخرجه .

فكتب إليه عبد الملك إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء ، أما ما زاده في طوله فأقره ، وأما ما زاد فيه من الحجر فردّه إلى بنائه ، وسد الباب الذي فتحه ، فنقضه وأعاده إلى بنائه .

وقد كانت السنّة إقرارًا ما فعله عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ؛ لأنه هو الذي وده رسول الله ﷺ ولكن خشي أن تنكره قلوب بعض الناس لحداثة عهدهم بالإسلام ، وقرب عهدهم من الكفر ، ولكن خفيت هذه السنة على عبد الملك بن مروان ، ولهذا لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روت ذلك عن رسول الله ﷺ قال : وددنا أنا تركناه وما تولى ، وعن أبي قزعة أن عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذ قال : قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين ، يقول سمعتها تقول : قال رسول الله ﷺ : « يَا عَائِشَةُ لَوْلَا حَدَثَانُ قَوْمِكِ بِالكُفْرِ ، لَنَقَضْتُ الكَعْبَةَ حَتَّى أَزِيدَ فِيهَا مِنَ الحِجْرِ ، فَإِنَّ قَوْمَكِ قَصَّرُوا فِي البِنَاءِ » فقال الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة : لا تقل هذا يا أمير المؤمنين ، فإني سمعت أم المؤمنين تحدث هذا ، قال : لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزبير .

ولكن بعدما رجع الأمر إلى هذا الحال فقد كره بعض العلماء أن يغير عن حاله ، كما ذكر عن أمير المؤمنين هارون الرشيد أو أبيه المهدي أنه سأل الإمام مالكًا عن هدم الكعبة وردها إلى ما فعله ابن الزبير ، فقال له : ما لك يا أمير المؤمنين لا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك ، لا يشاء أحد أن يهدمها إلّا هدمها ، فترك ذلك الرشيد ، ولا تزال - والله أعلم - هكذا إلى آخر الزمان إلى أن يخربها ذو السويقتين من الحبشة كما ثبت عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يُخَرِّبُ الكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الحَبَشَةِ ، وَيَسْلُبُهَا حِلْيَتَهَا وَيُجَرِّدُهَا مِنْ كِسْوَتِهَا ، وَلَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ أُصَيْلِعَ أُفَيْدِعَ ، يَضْرِبُ عَلَيْهَا بِمِسْحَاتِهِ وَمِعْوَلِهِ »[(١)] - الفدع زيغ بين القدم وعظم الساق وهذا - والله أعلم - إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج ، لما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيُحَجَّنَّ البَيْت وَلَيُعْتَمَرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ »[(٢)] .

وقوله تعالى حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ قال ابن جرير : يعنيان بذلك واجعلنا مستسلمين لأمرك ، خاضعين لطاعتك ، لا نشرك معك في الطاعة أحدًا سواك ، ولا في العبادة غيرك .

قوله : ﴿ وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ أي مخصلين لك ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ مخلصة ، وعن سلام بن أبي مطيع في هذه الآية : ﴿ وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ ﴾ قال : كانا مسلمين ولكنهما سألاه الثبات .

وقال عكرمة : ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ قال الله : قد فعلت ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ قال الله : قد فعلت . وقال السدي : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ : يعنيان العرب . قال ابن جرير : والصواب أنه يعم العرب وغيرهم ؛ لأن من ذرية إبراهيم بني إسرائيل ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ .

قلت : وهذا الذي قاله ابن جرير لا ينفيه السدي ؛ فإن تخصيصهم بذلك لا ينفي من عداهم ،

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٥٩٦) ومسلم في الفتن (٥٧) والنسائي في السنن (٢١٦/٥) والحاكم في المستدرك (٤٥٣/٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٤/٣) والحاكم في المستدرك (٤٥٣/٤) .

والسياق إنما هو في العرب ولهذا قال بعده : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ الآية .

والمراد بذلك محمّد ﷺ ، وقد بعث فيهم كما قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ ومع هذا لا ينفي رسالته إلى الأحمر والأسود لقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ وغير ذلك من الأدلة القاطعة ، وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . وهذا القدر مرغوب فيه شرعًا ، فإن من تمام محبة عبادة اللّه تعالى أن يحب أن يكون من صلبه من يعبد اللّه وحده لا شريك له ، ولهذا لما قال اللّه تعالى لإبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وقد ثبت عن النبيّ ﷺ ، أنه قال : « إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ ، صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » (١) .

﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ أخرجها لنا ، علمناها . وقال مجاهد : مذابحنا .

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

يقول تعالى إخبارًا عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم ، أن يبعث اللّه فيهم رسولًا منهم ، أي من ذرية إبراهيم ، وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر اللّه السابق في تعيين محمّد صلوات اللّه وسلامه عليه رسولًا في الأميين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن ، فعن العرباض بن سارية ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إِنِّي عِنْدَ اللّه لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ ، دَعْوَةَ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبِشَارَةَ عِيسَى بِي ، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ ، وَكَذَلِكَ أُمَّهَاتُ النَّبِيِّينَ يَرَيْنَ » (٢) .

والمراد أن أول من نوه بذكره وشهره في الناس إبراهيم عليه السلام ، ولم يزل ذكره في الناس مذكورًا مشهورًا سائرًا حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بني إسرائيل نسبًا ، وهو عيسى ابن مريم عليه السلام ، حيث قام في بني إسرائيل خطيبًا وقال : ﴿ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ ولهذا قال في هذا الحديث : « دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبُشْرَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ » .

وقوله : « وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورَ الشَّامِ » (٣) قيل : كان منامًا رأته حين حملت به ، وقصته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم ، وكان ذلك توطئة وتخصيصًا للشام بظهور نوره ، إشارة إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام ، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلًا للإسلام وأهله ، وبها ينزل عيسى ابن مريم ، إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها ، ولهذا جاء في الصحيحين « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ ،

(١) أخرجه مسلم في الوصية (١٤) بلفظ : « إذا مات الإنسان » والترمذي في السنن (١٣٧٦) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤١٨/٢) والبيهقي في دلائل النبوة (٩/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٣/٨) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٢/٥) .

حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ »[1] وفي صحيح البخاري : «وَهُمْ بِالشَّامِ »[2] وعن أبي العالية في قوله : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ يعني أمة محمد ﷺ فقيل له : قد استجيب لك ، وهو كائن في آخر الزمان . وكذا قال السدي وقتادة .

قوله تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ﴾ يعني القرآن ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ يعني السنة . وقيل : الفهم في الدين ، ولا منافاة . ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ يعني طاعة الله والإخلاص . وقوله : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي العزيز الذي لا يعجزه شيء ، وهو قادر على كل شيء الحكيم في أفعاله وأقواله ، فيضع الأشياء في محالها لعلمه وحكمته وعدله .

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى ردًّا على الكفّار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله ، المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء ، فإنه جرد توحيد ربّه تبارك وتعالى ، فلم يدع معه غيره ، ولا أشرك به طرفة عين ، وتبرأ من كل معبود سواه ، وخالف في ذلك سائر قومه ، حتى تبرأ من أبيه قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ ولهذا وأمثاله قال تعالى : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ أي ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره ، بتركه الحق إلى الضلال ، حيث خالف طريق من اصطفى في الدنيا للهداية والرشاد من حداثة سنه إلى أن اتخذه الله خليلًا ، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء ، فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملّته ، واتبع طرق الضلالة والغي ، فأي سفه أعظم من هذا ؟ أم أي ظلم أكبر من هذا ؟ قال أبو العالية وقتادة : نزلت هذه الآية في اليهود أحدثوا طريقًا ليست من عند الله ، وخالفوا ملة إبراهيم فيما أحدثوه .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي أمره الله بالإخلاص له ، والاستسلام والانقياد ، فأجاب إلى ذلك شرعًا وقدرًا . وقوله : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ أي وصى بهذه الملة وهي الإسلام لله ، أو يعود الضمير على الكلمة وهي قوله : ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة ، ووصوا أبناءهم من بعدهم ، وقد قرأ بعض السلف ﴿ وَيَعْقُوبُ ﴾ بالنصب عطفًا على بنيه كأن إبراهيم يوصي بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحاق وكان حاضرًا ذلك ، وقد ادعى القشيري فيما حكاه القرطبي عنه أن يعقوب إنما ولد بعد وفاة إبراهيم ، ويحتاج مثل هذا إلى دليل صحيح ، والظاهر والله أعلم أن إسحاق ولد له يعقوب في حياة الخليل وسارة ؛ لأن البشارة وقعت بهما في قوله : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ وقد قرئ بنصب يعقوب ههنا على نزع الخافض[3] ، فلو لم يوجد يعقوب في حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحاق كبير فائدة . قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ وهذا

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٢٢٩) وابن ماجه في السنن (٦) وأحمد في مسنده (٩٧/٤) . (٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٤١) .

(٣) قرأ ابن عامر وحمزة وحفص ﴿ وَيَعْقُوبُ ﴾ بنصب الباء والباقون برفعها (انظر : تقريب النشر ص : ١٢٥) .

يقتضي أنه وجد في حياته ، وأيضًا فإنه باني بيت المقدس كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة ، وثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر قلت : يا رسول اللَّه أي مسجد وضع أول ؟ قال : « المَسْجِدُ الحَرَامُ » ، قلت : ثم أي ؟ قال : « بَيْتُ المَقْدِسِ » قلت : كم بينهما ؟ قال : « أَرْبَعُونَ سَنَةً » (١) الحديث . فزعم ابن حبان أن بين سليمان الذي اعتقد أنه باني بيت المقدس - وإنما كان جدده بعد خرابه وزخرفه - وبين إبراهيم أربعين سنة ، وهذا مما أنكر على ابن حبان ، فإن المدة بينهما تزيد على ألوف السنين .

وقوله : ﴿ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي أحسنوا في حال الحياة ، والزموا هذا ليرزقكم اللَّه الوفاة عليه ، فإن المرء يموت غالبًا على ما كان عليه ، ويبعث على ما مات عليه ، وقد أجرى اللَّه الكريم عادته بأن من قصد الخير وفق له ويسر عليه ، ومن نوى صالحًا ثبت عليه ، وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النارِ فيدْخُلُها ، وإنَّ الرجلَ ليعمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النارِ حتَّى مَا يكونُ بينَهُ وبيْنَهَا إِلَّا باعٌ أو ذِراعٌ ، فيسْبِقُ عليهِ الكتابُ ، فيعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا » (٢) لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ، وبعمل أهل النار فيما يبدو للناس .

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى محتجًا على المشركين من العرب أبناء إسماعيل ، وعلى الكفار من بني إسرائيل - وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام - بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصَّى بنيه بعبادة اللَّه وحده لا شريك له ، فقال لهم : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ وهذا من باب التغليب ؛ لأن إسماعيل عمُّه ، والعرب تسمي العم أبًا . وقد استدل بهذه الآية الكريمة من جعل الجد أبًا وحجب به الإخوة ، وقال مالك والشافعي وأحمد : في المشهور عنه أنه يقاسم الإخوة ، وحكي ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت وجماعة من السلف والخلف ، واختاره صاحبا أبي حنيفة القاضي أبو يوسف ومحمّد بن الحسن ، ولتقريرها موضع آخر . وقوله : ﴿ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ أي نوحده بالألوهية ، ولا نشرك به شيئًا غيره ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ أي مطيعون خاضعون . والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة ، وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم ، قال ﷺ : « نَحْنُ مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عِلَّاتٍ دِينُنَا وَاحِدٌ » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ أي مضت ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ أي أن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيرًا يعود نفعه عليكم ، فإن لهم أعمالهم التي عملوها ، ولكم أعمالكم ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ولهذا جاء في الأثر : « مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ » (٤) .

(١) أخرجه مسلم في المساجد (١ ، ٢) وأحمد في مسنده (١٥٧/٥) ، والنسائي في السنن (٣٢/٢) وابن ماجه في السنن (٧٥٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٢/٥) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٣/٢) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٢/٢)

﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

عن ابن عبّاس قال : قال عبد اللّه بن صوريا الأعور لرسول اللّه ﷺ : ما الهدى إلّا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمّد تهتد .. وقالت النصارى مثل ذلك ، فأنزل اللّه ﷻ ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ﴾ وقوله : ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ﴾ أي لا نريد ما دعوتمونا إليه من اليهودية والنصرانية ، بل نتبع ﴿ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ﴾ أي مستقيمًا . وقال مجاهد : مخلصًا . وقال ابن عبّاس : حاجًا . وقال أبو العالية : الحنيف الذي يستقبل البيت بصلاته ، ويرى أن حجه عليه إن استطاع إليه سبيلًا . وقال أبو قلابة : الحنيف الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم . وقال قتادة : الحنيفية شهادة أن لا إله إلّا اللّه يدخل فيها تحريم الأمهات والبنات والخالات والعمات وما حرم اللّه ﷻ والختان .

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ .

أرشد اللّه تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمّد ﷺ مفصلًا ، وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملًا ، ونص على أعيان من الرسل ، وأجمل ذكر بقية الأنبياء ، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم ، بل يؤمنوا بهم كلهم ، ولا يكونوا كمن قال اللّه فيهم : ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ . عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ، ويفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول اللّه ﷺ : « لاَ تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ ، وَقُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أَنْزَلَ اللّهُ » (١) وعن ابن عبّاس قال : كان رسول اللّه ﷺ أكثر ما يصلي الركعتين اللتين قبل الفجر بـ ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ الآية والأخرى بـ ﴿ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) وقال قتادة : الأسباط بنو يعقوب ، اثنا عشر رجلًا ، ولد كل رجل منهم أمة من الناس ، فسموا الأسباط . وقال الخليل بن أحمد وغيره : الأسباط في بني إسرائيل ، كالقبائل في بني إسماعيل ، وقال الزمخشري : الأسباط حفدة يعقوب ، ذراري أبنائه الاثنى عشر . وقال البخاري : الأسباط قبائل بني إسرائيل (٣) . وهذا يقتضي أن المراد بالأسباط ههنا شعوب بني إسرائيل ، وما أنزل اللّه من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم ، قال القرطبي : وسموا الأسباط من السبط ، وهو التتابع فهم جماعة . وقيل : أصله من السبط بالتحريك وهو الشجر ، أي في الكثرة بمنزلة الشجر ، الواحدة سبطة . وعن ابن عبّاس قال : كل الأنبياء من بني إسرائيل إلّا عشرة ، نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمّد عليهم الصلاة والسلام . قال القرطبي : والسبط الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد .

﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٣٧ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ ﴾ يعني الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ﴿ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾ يا أيها

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٦٢) والبيهقي في السنن (١٠/١٦٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٦٥) .
(٣) أخرجه البخاري في التفسير (تفسير سورة الأعراف) .

المؤمنون من الإيمان بجميع كتب اللَّه ورسله ، ولم يفرّقوا بين أحد منهم ﴿ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ﴾ أي فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه . ﴿ وَّإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي عن الحق إلى الباطل ، بعد قيام الحجة عليهم ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي فسينصرك عليهم ويظفرك بهم ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

وقوله : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾ قال ابن عبّاس : دين اللَّه . وانتصاب ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾ إما على الإغراء كقوله ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ﴾ أي الزموا ذلك ، وقال بعضهم : بدلًا من قوله : ﴿ مِّلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ وقال سيبويه : هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله : ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ كقوله : ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ .

وقد ورد في حديث ابن عبّاس أن نبيّ اللَّه ﷺ قال : « إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ يَصْبغُ رَبُّكَ ؟ فَقَالَ : اتَّقُوا اللَّهَ ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ يَا مُوسَى سَأَلُوكَ هَلْ يَصْبَغُ رَبُّكَ ؟ فَقُلْ : نَعَمْ ، أَنَا أَصْبغُ الأَلْوَانَ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ وَالأَسْوَدَ وَالأَلْوَانَ كُلَّهَا مِنْ صِبْغِي » وأنزل اللَّه على نبيه ﷺ ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ (١) .

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ۝ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول اللَّه تعالى مرشدًا نبيّه صلوات اللَّه وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين : ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ ﴾ أي تناظروننا في توحيد اللَّه ، والإخلاص له ، والانقياد ، واتباع أوامره ، وترك زواجره ﴿ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ المتصرف فينا وفيكم ، المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له ﴿ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ أي نحن برآء منكم ومما تعبدون ، وأنتم برآء منا ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وقال في هذه الآية الكريمة ﴿ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ أي نحن برآء منكم ، كما أنتم برآء منا ، ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ أي في العبادة والتوجه ، ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم ، إما اليهودية وإما النصرانية فقال : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ يعني بل اللَّه أعلم ، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هودًا ولا نصارى .

وقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ قال الحسن البصري : كانوا يقرأون في كتاب اللَّه الذي أتاهم إن الدين الإسلام ، وإن محمّدًا رسول اللَّه ، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية ، فشهدوا للَّه بذلك وأقرّوا على أنفسهم للَّه ، فكتموا شهادة اللَّه عندهم من ذلك ، وقوله : ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد ووعيد شديد ، أي أن علمه محيط بعلمكم وسيجزيكم عليه . ثم قال تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ أي قد مضت ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ أي لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ وليس يغني عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة منكم لهم ، ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم ، حتى تكونوا منقادين مثلهم لأوامر اللَّه ، واتباع رسله الذين بعثوا مبشرين ومنذرين ، فإنه من كفر بنبي

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٤١/١) .

واحد فقد كفر بسائر الرسل ، ولا سيما بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من المكلفين صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين .

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

قال الزجاج : المراد بالسفهاء ههنا مشركو العرب ، وقال مجاهد : أحبار يهود ، وقال السدي : المنافقون ، والآية عامة في هؤلاء كلهم ، وعن البراء قال : كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس ، ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله ، فأنزل الله ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ فقال رجال من المسلمين : وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة ، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس ، فأنزل الله ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ وقال السفهاء من الناس ، وهم أهل الكتاب : ﴿ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ فأنزل الله : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾ إلى آخر الآية (١) .

وقد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة ، وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله ﷺ أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس ، فكان بمكة يصلي بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة ، وهو مستقبل صخرة بيت المقدس ، فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما ، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس قاله ابن عبّاس والجمهور ، ثم اختلف هؤلاء هل كان الأمر به بالقرآن أو بغيره ؟ على قولين ، وحكي عن عكرمة وأبي العالية والحسن البصري أن التوجه إلى بيت المقدس كان باجتهاده عليه الصلاة والسلام ، والمقصود أن التوجه إلى بيت المقدس بعد مقدمه ﷺ المدينة ، واستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهرًا ، وكان يكثر الدعاء والابتهال أن يوجه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم عليه السلام ، فأجيب إلى ذلك وأمر بالتوجه إلى البيت العتيق ، فخطب رسول الله ﷺ الناس فأعلمهم بذلك ، وكان أول صلاة صلاها إليها صلاة العصر ، وقيل : الظهر ، وذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن تحويل القبلة نزل على رسول الله وقد صلى ركعتين من الظهر ، وذلك في مسجد بني سلمة ، فسمي مسجد القبلتين . وفي حديث نويلة بنت مسلم أنها جاءهم الخبر بذلك ، وهم في صلاة الظهر ، قالت : فتحول الرجال مكان النساء ، والنساء مكان الرجال ، وأما أهل قباء فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر من اليوم الثاني ، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : بينما الناس بقباء في صلاة الصبح ، إذ جاءهم آتٍ فقال : إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة (٢) .

وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلَّا بعد العلم به ، وإن تقدم نزوله وإبلاغه ؛ لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء والله أعلم . ولما وقع هذا حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد (١٥) وأحمد في مسنده (٢٨٤/٣) ، والبيهقي في السنن (٣/٢) .
(٢) أخرجه النسائي في السنن (٢٤٤/١) .

والكفرة من اليهود ارتياب وزيغ عن الهدى وتخبيط وشك ، وقالوا : ﴿ مَا وَلَّـٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ أي قالوا : ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا وتارة يستقبلون كذا ، فأنزل اللّه جوابهم في قوله : ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ أي الحكم والتصرف والأمر كله للّه ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ و ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ أي الشأن كله في امتثال أوامر اللّه ، فحيثما وجهنا توجهنا ، فالطاعة في امتثال أمره ، ولو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة ، فنحن عبيده ، وفي تصرفه ، وخدامه حيثما وجهنا توجهنا ، وهو تعالى له بعبده ورسوله محمّد صلوات اللّه وسلامه عليه وأمته عناية عظيمة ، إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن ، وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له ، أشرف بيوت اللّه في الأرض ؛ إذ هي بناء إبراهيم الخليل ﷺ ، ولهذا قال : ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وقد روي عن عائشة قالت : قال رسول اللّه ﷺ ، يعني في أهل الكتاب : « إِنَّهُمْ لاَ يَحْسُدُونَنَا عَلَى شَيْءٍ كَمَا يَحْسُدُونَنَا عَلَى يَوْمِ الجُمُعَةِ الَّتِي هَدَانَا اللّه لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا ، وَعَلَى القِبْلَةِ الَّتِي هَدَانَا اللّه لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا ، وَعَلَى قَوْلِنَا خَلْفَ الإِمَامِ آمِين » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ يقول تعالى : إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم ﷺ ، واخترناها لكم ، لنجعلكم خيار الأمم ، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم ؛ لأن الجميع معترفون لكم بالفضل . والوسط ههنا الخيار والأجود ، كما يقال : قريش أوسط العرب نسبًا ودارًا ، أي خيرها ، وكان رسول اللّه ﷺ وسطًا في قومه ، أي أشرفهم نسبًا ، ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات ، وهي العصر كما ثبت في الصحاح وغيرها . ولما جعل اللّه هذه الأمة وسطًا خصها بأكمل الشرائع ، وأقوم المناهج ، وأوضح المذاهب . فعن أبي سعيد قال : قال رسول اللّه ﷺ : « يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ : هَلْ بَلَّغْتَ ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيُدْعَى قَوْمُهُ فَيُقَالُ لَهُمْ : هَلْ بَلَّغَكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ ، وَمَا أَتَانَا مِنْ أَحَدٍ ، فَيُقَالُ لِنُوحٍ : مَنْ يَشْهَدُ لَكَ ؟ فَيَقُولُ : مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ » ، قال : فذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ قَالَ : وَالوَسَطُ العَدْلُ ، فَتُدْعَوْنَ فَتَشْهَدُونَ لَهُ بِالبَلاَغِ ثُمَّ أَشْهَدُ عَلَيْكُمْ » (٢) .

وروي عن جابر بن عبد اللّه قال : شهد رسول اللّه ﷺ جنازة في بني مسلمة ، وكنت إلى جانب رسول اللّه ﷺ فقال بعضهم : واللّه يا رسول اللّه لنعم المرء كان ، لقد كان عفيفًا مسلمًا وكان ، وأثنوا عليه خيرًا ، فقال رسول اللّه ﷺ : « أَنْتَ بِمَا تَقُولُ » فقال الرجل : اللّه أعلم بالسرائر ، فأما الذي بدا لنا منه فذاك ، فقال النبيّ ﷺ : « وَجَبَتْ » ، ثم شهد جنازة في بني حارثة وكنت إلى جانب رسول اللّه ﷺ فقال بعضهم : يا رسول اللّه بئس المرء كان ، إن كان لفظًا غليظًا فأثنوا عليه شرًا ، فقال رسول اللّه ﷺ لبعضهم : « أَنْتَ بِالَّذِي تَقُولُ » ، فقال الرجل : اللّه أعلم بالسرائر ، فأما الذي بدا لنا منه فذاك . فقال رسول اللّه ﷺ : « وَجَبَتْ » قال مصعب بن ثابت : فقال لنا عند ذلك محمّد بن كعب : صدق رسول اللّه ﷺ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥/٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٢/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٩) وأحمد في مسنده (٣٢/٣) .

ثم قرأ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (١) ، وعن أبي الأسود أنه قال : أتيت المدينة فوافقتها وقد وقع بها مرض ، فهم يموتون موتًا ذريعًا ، فجلست إلى عمر بن الخطاب فمرت به جنازة فأثني على صاحبها خير ، فقال : وجبت ثم مر بأخرى فأثني عليها شر ، فقال عمر : وجبت . فقال أبو الأسود : ما وجبت يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت كما قال رسول اللَّه ﷺ : « أَيُّمَا مُسْلِمٍ شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيْرٍ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ » قال : فقلنا : وثلاثة ؟ قال : فقال : « وَثَلَاثَةٌ » قال : فقلنا : واثنان قال : « وَاثْنَانِ » ثم لم نسأله عن الواحد (٢) . وعن أبي بكر بن أبي زهير الثقفي عن أبيه : قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ بالبناوة يقول : « يُوشِكُ أَنْ تَعْلَمُوا خِيَارَكُمْ مِنْ شِرَارِكُمْ » قالوا : بمَ يا رسول اللَّه ؟ قال : « بِالثَّنَاءِ الحَسَنِ ، وَالثَّنَاءِ السَّيِّئِ ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّه فِي الأَرْضِ » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ يقول تعالى : إنما شرعنا لك يا محمّد التوجه أولًا إلى بيت المقدس ، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ، ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت ، ﴿ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ ، أي مرتدًا عن دينه ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً ﴾ أي هذه الفعلة وهي صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة ، أي وإن كان هذا الأمر عظيمًا في النفوس ، إلاَّ على الذين هدى اللَّه قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول ، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه ، وأن اللَّه يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، فله أن يكلّف عباده بما شاء ، وينسخ ما يشاء ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك ، بخلاف الذين في قلوبهم مرض ، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكًا ، كما يحصل للذين آمنوا إيقان وتصديق ؛ ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول ﷺ واتباعه في ذلك ، وتوجه حيث أمره اللَّه من غير شك ولا ريب ، من سادات الصحابة . وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلوا إلى القبلتين .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ أي صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك ، ما كان يضيع ثوابها عند اللَّه . وفي الصحيح عن البراء قال : مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس ، فقال الناس : ما حالهم في ذلك ؟ فأنزل اللَّه تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ (٤) . وعن ابن عبّاس : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ أي بالقبلة الأولى ، وتصديقكم نبيكم واتباعه إلى القبلة الأخرى ، أي ليعطيكم أجرهما جميعًا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ . وقال الحسن البصري : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ أي ما كان اللَّه ليضيع محمّدًا ﷺ وانصرافكم معه حيث انصرف ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وفي الصحيح أن رسول اللَّه ﷺ رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها ، فجعلت كلما وجدت صبيًّا من السبي أخذته فألصقته بصدرها ، وهي تدور على ولدها ، فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ » ؟ قالوا : لا يا رسول اللَّه . قال : « فَوَاللَّه للَّه أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا » (٥) .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (١٢٣/١٠) والنسائي في السنن (٤٩/٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢/١ ، ٣٠) . (٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٨٦) .
(٤) أخرجه النسائي في السنن (٥١/٤) وأحمد في السنن (٣٠/١٠) والبيهقي في السنن (٧٥/٤) .
(٥) أخرجه مسلم في التوبة (٢٢) والطبراني في الصغير (٩٨/١) .

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : كان أول ما نسخ من القرآن القبلة ، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة ، وكان أكثر أهلها اليهود ، فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود ، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرًا ، وكان يحب قبلة إبراهيم ، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء ، فأنزل الله ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ فارتابت من ذلك اليهود وقالوا : ﴿ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ وقال : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ . وروي عن ابن عبّاس قال : كان النبيّ ﷺ إذا سلم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء ، فأنزل الله : ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ إلى الكعبة إلى الميزاب يؤم به جبرائيل عليه السلام. وروي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «البَيْتُ قِبْلَةٌ لِأَهْلِ المَسْجِدِ ، وَالمَسْجِدُ قِبْلَةٌ لِأَهْلِ الحَرَمِ ، وَالحَرَمُ قِبْلَةٌ لِأَهْلِ الأَرْضِ في مَشَارِقِهَا وَمَغَارِبِهَا مِنْ أُمَّتِي »(١) .

وقوله : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا ، ولا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة في حال السفر ، فإنه يصليها حيثما توجه قالبه ، وقلبه نحو الكعبة ، وكذا في حال المسايفة في القتال يصلي على كل حال ، وكذا من جهل جهة القبلة يصلي باجتهاده وإن كان مخطئًا في نفس الأمر ؛ لأن الله تعالى لا يكلّف نفسًا إلّا وسعها .

مسألة : وقد استدل المالكية بهذه الآية على أن المصلي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده ، كما ذهب إليه الشافعي وأحمد وأبو حنيفة ، قال المالكية : بقوله : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ فلو نظر إلى موضع سجوده ، لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء ، وهو ينافي كمال القيام . وقال بعضهم : ينظر المصلي في قيامه إلى صدره . وقال شريك القاضي : ينظر في حال قيامه إلى موضع سجوده ، كما قال جمهور الجماعة لأنه أبلغ في الخضوع ، وآكد في الخشوع ، وقد ورد به الحديث ، وأما في حال ركوعه فإلى موضع قدميه ، وفي حال سجوده إلى موضع أنفه ، وفي حال قعوده إلى حجره .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ أي واليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرافكم عن بيت المقدس ، يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها ، بما في كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمته ، وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة ، ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسدًا وكفرًا وعنادًا ، ولهذا تهددهم تعالى بقوله : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم ، ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم ، ولهذا قال ههنا : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢/١٠) والزيلعي في نصب الراية (١/٣٤٧) .

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ وقوله : ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به ، وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم ، فهو أيضًا مستمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته ، وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله ، ولا كونه متوجهًا إلى بيت المقدس لكونها قبلة اليهود ، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى ، ثم حذر تعالى عن مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى ، فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره ، ولهذا قال مخاطبًا للرسول والمراد به الأمة ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ .

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ .

يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ ، كما يعرف أحدهم ولده ، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا ، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صغير : « ابْنُكَ هَذَا » ؟ قال : نعم يا رسول الله أشهد به ، قال : « أَمَا إِنَّهُ لاَ يَخْفَى عَلَيْكَ وَلاَ تَخْفَى عَلَيْهِ » (١) . قال القرطبي : ويروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمّدًا كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ، وإني لا أدري ما كان من أمه . قلت : وقد يكون المراد ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ من بين أبناء الناس كلهم ، لا يشك أحد ولا يمتري في معرفة ابنه إذا رآه من أبناء الناس كلهم . ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإتقان العلمي ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ أي ليكتمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي ﷺ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ثم ثبّت تعالى نبيّه ﷺ والمؤمنين ، وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك فقال : ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ .

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

قال ابن عبّاس : ولكل وجهة هو موليها ، يعني بذلك أهل الأديان ، يقول لكل قبيلة قبلة يرضونها ، ووجهة الله حيث توجه المؤمنون . وقال أبو العالية : لليهودي وجهة هو موليها ، وللنصراني وجهة هو موليها ، وهداكم أنتم أيتها الأمة إلى القبلة التي هي القبلة . وقال الحسن : أمر كل قوم أن يصلوا إلى الكعبة وقال : ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو قادر على جمعكم من الأرض ، وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم .

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ .

هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض ، وقد اختلفوا في حكمة هذا التكرار ثلاث مرات ، فقيل : تأكيد لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام ، وقيل : بل هو منزل على أحوال ، فالأمر الأول لمن هو مشاهد الكعبة ، والثاني لمن هو في مكة غائبًا عنها ، والثالث لمن هو في بقية البلدان ، وقال

(١) أخرجه أحمد في مسنده(١٦٣/٤) وأبو داود في السنن(٤٤٩٥) والألباني في الصحيحة(٩٩٠) .

القرطبي : الأول لمن هو بمكة ، والثاني لمن هو في بقية الأمصار ، والثالث لمن خرج في الأسفار ، ورجح هذا الجواب القرطبي ، وقيل : إنما ذكر ذلك لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق : فقال أولًا : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ فذكر في هذا المقام إجابته إلى طلبته ، وأمره بالقبلة التي كان يود التوجه إليها ويرضاها . وقال في الأمر الثاني : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فذكر أنه الحق من اللَّه ، وارتقاءه المقام الأول حيث كان موافقًا لرضا الرسول ﷺ ، فبين أنه الحق أيضًا من اللَّه يحبه ويرتضيه . وذكر في الأمر الثالث حكمة قطع حجة المخالف من اليهود ، الذين كانوا يتحججون باستقبال الرسول إلى قبلتهم ، وقد كانوا يعلمون بما في كتبهم أنه سيصرف إلى قبلة إبراهيم عليه السلام ، إلى الكعبة ، وكذلك مشركو العرب انقطعت حجتهم لما صرف الرسول ﷺ عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التي هي أشرف ، وقد كانوا يعظمون الكعبة وأعجبهم استقبال الرسول إليها . وقيل غير ذلك من الأجوبة عن حكمة التكرار .

وقوله : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ أي أهل الكتاب ؛ فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة ، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين ، ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس وهذا أظهر ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ يعني مشركي قريش . ووجه بعضهم حجة الظلمة وهي داحضة أن قالوا : إن هذا الرجل يزعم أنه على دين إبراهيم ، فإن كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم فلم يرجع عنه ، والجواب أن اللَّه تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أولًا لما له تعالى في ذلك من الحكمة ، فأطاع ربه تعالى في ذلك ، ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم وهي الكعبة فامتثل أمر اللَّه في ذلك أيضًا ، فهو صلوات اللَّه وسلامه عليه مطيع للّه في جميع أحواله ، لا يخرج عن أمر اللَّه طرفة عين ، وأمته تبع له ، وقوله : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾ أي لا تخشوا شبه الظلمة المتعنتين ، وأفردوا الخشية لي ، فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه . وقوله : ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ عطف على ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ أي لأتم نعمتي عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة ، لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي إلى ما ضلت عنه الأمم هديناكم إليه ، وخصصناكم به ، ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها .

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ .

يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثه الرسول محمّد ﷺ إليهم يتلو عليهم آيات اللَّه مبينات ، ويزكيهم أي يطهرهم من رذائل الأخلاق ، ودنس النفوس ، وأفعال الجاهلية ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويعلمهم الكتاب وهو القرآن ، والحكمة وهي السنّة ، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، فكانوا في الجاهلية الجَهْلاء يسفهون بالقول القرّاء ، فانتقلوا ببركة رسالته ، ويمن سفارته ، إلى حال الأولياء ، وسجايا العلماء ، فصاروا أعمق الناس علمًا ، وأبرهم قلوبًا ، وأقلهم تكلفًا ، وأصدقهم لهجة . وذمّ من لم يعرف قدر هذه النعمة فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ يعني بنعمة اللَّه محمدًا ﷺ ، ولهذا ندب اللَّه المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ، ومقابلتها بذكره وشكره ، وقال : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ عن زيد بن أسلم أن موسى عليه السلام قال : يا رب كيف أشكرك ؟ قال

له ربّه : تذكرني ولا تنساني ، فإذا ذكرتني فقد شكرتني ، وإذا نسيتني فقد كفرتني . وقال الحسن البصري في قوله : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ قال : اذكروني فيما افترضت عليكم ، أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسي . وعن سعيد بن جبير : اذكروني بطاعتي ، أذكركم بمغفرتي ، وعن ابن عبّاس قال : ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه . وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : يَا ابْنَ آدَمَ إِنْ ذَكَرْتَنِي فِي نَفْسِكَ ذَكَرْتُكَ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُكَ فِي مَلأٍ مِنَ المَلائِكَةِ - أَوْ قَالَ : فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُ - وَإِنْ دَنَوْتَ مِنِّي شِبْرًا دَنَوْتُ مِنْكَ ذِرَاعًا ، وَإِنْ دَنَوْتَ مِنِّي ذِرَاعًا دَنَوتُ مِنْكَ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَيْتَنِي تَمْشِي أَتَيْتُكَ هَرْوَلَةً » (١)

وقوله : ﴿ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ أمر الله تعالى بشكره ، ووعد على شكره بمزيد الخير ، وعن أبي رجاء العطاردي قال : خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خزّ ، لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده ، فقال : إن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ نِعْمَةً فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ » (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ۝ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ .

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر ، شرع في بيان الصبر والإرشاد والاستعانة بالصبر والصلاة ، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها ، أو في نقمة فيصبر عليها ، كما جاء في الحديث « عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لاَ يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ : إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ » (٣) . وبيّن تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب الصبر والصلاة كما تقدم في قوله : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ وفي الحديث : أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر صلى (٤) . والصبر صبران : فصبر على ترك المحارم والمآثم ، وصبر على فعل الطاعات والقربات ، والثاني أكثر ثوابًا ؛ لأنه المقصود وأما الصبر الثالث - وهو الصبر على المصائب والنوائب - فذاك أيضًا واجب كالاستغفار من المعايب ، قال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم : الصبر في بابين الصبر لله بما أحب وإن ثقل على الأنفس والأبدان ، والصبر لله عما كره وإن نازعت إليه الأهواء ، فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يسلم عليهم إن شاء الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾ يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون ، كما جاء الحديث أن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش ، فاطلع عليهم ربك اطلاعه فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا : يا ربنا وأي شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك ؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا ، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا ، قالوا : نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى - لما يرون من ثواب الشهادة - فيقول الرب ﷻ : إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون (٥) .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٨/٣) والمنذري في الترغيب (٤٠١/٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٨/٤) ، والمنذري في الترغيب (٤٤٥/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٠/١٠) .
(٣) أخرجه مسلم في الزهد (٦٣) بنحوه. (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٨/٥) وأبو داود في السنن (١٣١٩) .
(٥) أخرجه : مسلم في الإمارة (١٢١) والمنذري في الترغيب والترهيب ٣٢٦/٢ .

مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ .

أخبرنا تعالى أنه يبتلي عباده ، أي يختبرهم ويمتحنهم ، فتارة بالسراء ، وتارة بالضراء من خوف وجوع ، فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه ، ولهذا قال : ﴿ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾ . وقال ههنا : ﴿ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ ﴾ أي بقليل من ذلك ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ ﴾ أي ذهاب بعضها ﴿ وَٱلْأَنفُسِ ﴾ كموت الأصحاب والأقارب والأحباب ﴿ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ ﴾ أي لا تغل الحدائق والمزارع كعادتها . قال بعض السلف : فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة . وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده فمن صبر أثابه ، ومن قنط أحل به عقابه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ وقد حكى بعض المفسرين أن المراد من الخوف ههنا خوف الله ، وبالجوع صيام رمضان ، وبنقص الأموال الزكاة ، والأنفس الأمراض ، والثمرات الأولاد ، وفي هذا نظر .

ثم بيَّن تعالى من الصابرون الذين شكرهم فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ أي تسلوا بقولهم هذا عما أصابهم ، وعلموا أنهم ملك للّه يتصرف في عبيده بما يشاء ، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة ، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة . ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ ﴾ أي ثناء من الله عليهم . قال سعيد بن جبير : أي أمنة من العذاب ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : نعم العدلان ونعمت العلاوة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ ﴾ فهذا العدلان ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ فهذه العلاوة وهي ما توضع بين العدلين، وهي زيادة في الحمل فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضًا .

وقد ورد في ثواب الاسترجاع وهو قول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ اللَّهُمَّ أجُرْني في مُصِيبَتِي وَاخْلُفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا ؛ إِلَّا آجَرَهُ اللَّه في مُصِيبَتِهِ وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا » ، قالت : فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ ، فأخلف الله لي خيرًا منه : رسول الله ﷺ (١) . وعن أبي سنان قال : دفنت ابنًا لي فإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة - يعني الخولاني - فأخرجني وقال لي : ألا أبشرك ؟ قلت : بلى ، قال : حدَّثني الضحاك بن عبد الرَّحمن بن عوزب عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « قَالَ اللَّه : يَا مَلَكَ المَوْتِ قَبَضْتَ وَلَدَ عَبْدِي ، قَبَضْتَ قُرَّةَ عَيْنِهِ وَثَمَرَةَ فُؤَادِهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَمَا قَالَ ؟ قَالَ : حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ ، قَالَ : ابْنُوا لَهُ بَيْتًا في الجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ » (٢) .

﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ .

عن عروة عن عائشة قالت : قلتُ : أرأيت قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ ﴾ قلت : فوالله ما على أحد جناح أن لا يتطوف بهما ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٣٠٩) والمنذري في الترغيب (٤/٣٣٦) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٤١٥) .

فقالت عائشة : بئسما قلت يا ابن أختي ، إنها لو كانت على ما أولتَهَا عليه كانت : فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل ، وكان من أهلَّ لها يتحرج أن يطوَّف بالصفا والمروة ، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوَّف بالصفا والمروة في الجاهلية ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ قالت عائشة : ثم قد سنَّ رسول الله ﷺ الطواف بهما ، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما (١) . وذكر القرطبي في تفسيره عن ابن عبّاس قال : كانت الشياطين تفرق بين الصفا والمروة الليل كله ، وكانت بينهما آلهة ، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن الطواف بينهما فنزلت هذه الآية (٢) . قلت : ذكر محمّد بن إسحاق في كتاب السيرة أن إسافًا ونائلة كانا بشرين فزنيا داخل الكعبة ، فمسخا حجرين ، فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس ، فلما طال عهدهما عبدا ، ثم حولا إلى الصفا والمروة ، فنصبا هنالك ، فكان من طاف بالصفا والمروة يستلمهما ، ولهذا يقول أبو طالب في قصيدته المشهورة :

وَحَيْثُ يُنِيخُ الأَشْعَرُونَ رِكَابَهُمْ … لِمُفْضِي السُّيُولِ مِنْ إِسَافٍ وَنَائِلِ

وفي الصحيح : أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج من باب الصفا وهو يقول : ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ ثم قال : « أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّه بِهِ » (٣) . وعن حبيبة بنت أبي تجراة قالت : رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى ، حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره وهو يقول : « اسْعَوْا فَإِنَّ اللَّه كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ » (٤) وقد استدل بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعي بين الصفا والمروة ركن في الحج ، كما هو مذهب الشافعي ومن وافقه ، ورواية عن أحمد وهو المشهور عن مالك . وقيل : إنه واجب وليس بركن ، فإن تركه عمدًا أو سهوًا جبره بدم ، وهو رواية عن أحمد وبه يقول طائفة ، وقيل : بل مستحب ، وإليه ذهب أبو حنيفة ، قال القرطبي : واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ والقول الأول أرجح ؛ لأنه عليه الصلاة والسّلام طاف بينهما وقال : « لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ » (٥) فكل ما فعله في حجته تلك واجب لابد من فعله في الحج ، إلا ما خرج بدليل والله أعلم . فبيَّن تعالى أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله ، أي مما شرع الله تعالى لإبراهيم في مناسك الحج ، وقد تقدم في حديث ابن عباس أن أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر وترددها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها لما نفد ماؤهما وزادهما ، حين تركهما إبراهيم عليه السلام هنالك ، وليس عندهما أحد من الناس ، فلما خافت على ولدها الضيعة هنالك ونفد ما عندهما ، قامت تطلب الغوث من الله ﷻ ، فلم تزل تتردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متذللة خائفة وجلة مضطرة فقيرة إلى الله ﷻ ، حتى كشف الله كربتها ، وآنس غربتها ، وفرج شدتها ، وأنبع لها زمزم التي ماؤها طَعَامُ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٩٥) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٩٥) .
(٣) أخرجه مسلم في الحج (١٤٧) والبيهقي في السنن (٩٣/٥) والدارمي في السنن (٤٦/٢) .
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٠/٤) والبغوي في شرح السنة (١٤١/٧) .
(٥) أخرجه مسلم في الحج (٣١٠) وأحمد في مسنده (٣٣٧/٣) والبيهقي في السنن (١٣٠/٥) .

طعْم ، وَشِفَاءُ سُقْم ، فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى اللَّه في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه ، وأن يلتجئ إلى اللَّه ﷻ لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب ، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم ، وأن يثبته عليه إلى مماته ، وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة كما فعل بهاجر عليها السلام .

وقوله : ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ قيل : زاد في طوافه بينهما على قدر الواجب ثامنة وتاسعة ونحو ذلك ، وقيل : يطوف بينهما في حجة تطوع أو عمرة ، وقيل : المراد تطوع خيرًا في سائر العبادات . وقوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أي يثيب على القليل بالكثير ، عليم بقدر الجزاء فلا يبخس أحدًا ثوابه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ .

هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة ، والهدي النافع للقلوب ، من بعد ما بينه اللَّه تعالى لعباده في كتبه التي أنزلها على رسله . قال أبو العالية : نزلت في أهل الكتاب ، كتموا صفة محمّد ﷺ ، ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك ، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء ، حتى الحوت في الماء والطير في الهواء ، فهؤلاء بخلاف العلماء ؛ فيلعنهم اللَّه ويلعنهم اللاعنون . وقد ورد عن أبي هريرة وغيره أن رسول اللَّه ﷺ قال : « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْم فَكَتَمَهُ ؛ أُلْجِمَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَام مِنْ نَارٍ » (١) . والذي في الصحيح عن أبي هريرة أنه قال : لولا آية في كتاب اللَّه ما حدثت أحدًا شيئًا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ ﴾ الآية . وعن البراء بن عازب قال : كنا مع النبيّ ﷺ في جنازة فقال : « إِنَّ الكَافِرَ يُضْرَبُ ضَرْبَةً بَيْنَ عَيْنَيْهِ يَسْمَعُهَا كُلُّ دَابَّةٍ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ ، فَتَلْعَنُهُ كُلُّ دَابَّةٍ سَمِعَتْ صَوْتَهُ ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّه تَعَالَى : ﴿ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ يَعْني دَوَابَّ الأَرْضِ » (٢) . وقال مجاهد : إذا أجدبت الأرض قالت البهائم : هذا من أجل عصاة بني آدم ، لعن اللَّه عصاة بني آدم . وقد جاء في الحديث : إن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر (٣) ، وجاء في هذه الآية أن كاتم العلم يلعنه اللَّه والملائكة والناس أجمعون واللاعنون أيضًا ، وهم كل فصيح وأعجمي إما بلسان المقال أو الحال ، أو لو كان له عقل ويوم القيامة ، واللَّه أعلم .

ثم استثنى اللَّه تعالى من هؤلاء من تاب إليه فقال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا ﴾ أي رجعوا عما كانوا فيه ، وأصلحوا أعمالهم ، وبينوا للناس ما كانوا يكتمونه ﴿ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر أو بدعة ، إذا تاب إلى اللَّه تاب اللَّه عليه . وقد ورد أن الأمم السابقة لم تكن التوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم ، ولكن هذا من شريعة نبي التوبة ونبي الرحمة صلوات اللَّه وسلامه عليه . ثم أخبر تعالى عمن كفر به واستمر به الحال إلى مماته بأن ﴿ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١٠١/١) والترمذي في السنن (٢٦٤٩) .
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦٢/١) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٦٨٢) والمنذري في الترغيب (٩٤/١) .

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي في اللعنة التابعة لهم إلى يوم القيامة ، ثم المصاحبة لهم في نار جهنم التي ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ فيها أي لا ينقص عما هم فيه ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي لا يغير عنهم ساعة واحدة ، ولا يفتر ، بل هو متواصل دائم فنعوذ بالله من ذلك . قال أبو العالية وقتادة : إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله ، ثم تلعنه الملائكة ، ثم يلعنه الناس أجمعون .

فصل : لا خلاف في جواز لعن الكفار ، وقد كان عمر بن الخطاب ﷺ ومن بعده من الأئمة يلعنون الكفرة في القنوت وغيره ، فأما الكافر المعين فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يلعن ؛ لأنا لا ندري بما يختم الله له . واستدل بعضهم بالآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ . وقالت طائفة أخرى : بل يجوز لعن الكافر المعين ، واختاره الفقيه أبو بكر بن العربي المالكي ، ولكنه احتج بحديث فيه ضعف ، واستدل غيره بقوله ﷺ في قصة الذي كان يؤتى به سكران فيحده ، فقال رجل : لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تَلْعَنْهُ ، فإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّه وَرَسُولَهُ » (١) فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يلعن ، والله أعلم .

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى عن تفرده بالإلهية ، وأنه لا شريك له ولا عديل له ، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصَّمد الذي لا إله إلَّا هو وأنه الرحمن الرحيم . عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اسْمُ اللَّهِ الأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ و﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ » (٢) ثم ذكر الدليل على تفرُّده بالإلهية بخلق السموات والأرض وما فيهما وما بين ذلك ، مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته فقال :

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها ، وكواكبها السيّارة والثوابت ودوران فلكها ، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع ، واختلاف الليل والنهار ، هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه ، لا يتأخر عنه لحظة وتارة يطول هذا ويقصر هذا ، وتارة يأخذ هذا من هذا ، ثم يتعاوضان ﴿ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾ أي في تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس ، والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم ، ونقل هذا إلى هؤلاء ، وما عند أولئك إلى هؤلاء ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ أي على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها ، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه ، لا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾ أي فتارة تأتي بالرحمة وتارة تأتي بالعذاب ، وتارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب ، وتارة تسوقه وتارة تجمعه ، وتارة

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٣١٢/٨) والهندي في كنز العمال (١٣٧٤٩) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (١٤٩٦) والترمذي في السنن (٣٤٧٨) وابن ماجه في السنن (٣٨٥٥) .

تفرقه ، وتارة تصرفه ، ثم تارة تأتي من الجنوب وهي الشامية ، وتارة تأتي من ناحية اليمن ، وتارة صبا وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة ، وتارة دبورًا وهي غربية تنفذ من ناحية دبر الكعبة ﴿ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي سائر بين السماء والأرض ، مسخر إلى ما يشاء اللَّه من الأراضي والأماكن ، كما يصرفه تعالى ﴿ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية اللَّه تعالى .

عن ابن عبّاس قال : أتت قريش محمّدًا ﷺ فقالوا : يا محمّد ، إنا نريد أن تدعو ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا ، فنشتري به الخيل والسلاح فنؤمن بك ونقاتل معك قال : « أَوْثِقُوا لِي لَئِنْ دَعَوْتُ رَبِّي فَجَعَلَ لَكُمُ الصَّفَا ذَهَبًا لَتُؤْمِنُنَّ بِي » فأوثقوا له ، فدعا ربه فأتاه جبريل فقال : إن ربك قد أعطاهم الصفا ذهبًا ، على أنهم إن لم يؤمنوا بك عذبهم عذابًا لم يعذبه أحدًا من العالمين ، قال محمّد ﷺ : « رَبِّ لاَ بَلْ دَعْنِي وَقَوْمِي فَلأَدْعُهُمْ يَوْمًا بِيَوْمٍ » فأنزل اللَّه ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) فبهذا يعلمون أنه إله واحد وأنه إله كل شيء وخالق كل شيء .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ .

يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا ، وما لهم في الدار الآخرة ، حيث جعلوا له أندادًا أي أمثالًا ونظراء يعبدونهم معه ، ويحبونهم كحبه ، وهو اللَّه لا إله إلّا هو ، ولا ضد له ، ولا ندّ له ، ولا شريك معه . عن عبد اللَّه بن مسعود قال : قلت : يا رسول اللَّه أي الذنب أعظم ؟ قال : « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ » (٢) .

وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ ولحبّهم للّه وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له ، لا يشركون به شيئًا ، بل يعبدونه وحده ، ويتوكلون عليه ، ويلجأون في جميع أمورهم إليه . ثم توعّد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك فقال : ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ قال بعضهم : تقدير الكلام : لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة للّه جميعًا ، أي أن الحكم له وحده لا شريك له ، وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ فلو يعلمون ما يعاينونه هنالك ، وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم ، لانتهوا عمّا هم فيه من الضلال .

ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم ، وتبري المتبوعين من التابعين فقال : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ ﴾ تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا ، فتقول الملائكة : ﴿ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ والجنّ أيضًا تتبرأ منهم ويتنصلون من عبادتهم لهم ، وقال الخليل لقومه : ﴿ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦٣/١) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠١) ومسلم في الإيمان (١٤١) والنسائي في السنن (٨٩/٧) وأبو داود في السنن (٢٣١٠) .

قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴾ أي عاينوا عذاب الله ، وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص ، ولم يجدوا عن النار معدلًا ولا مصرفًا . وقوله : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ ﴾ أي لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم ، فلا نلتفت إليهم بل نوحد الله وحده بالعبادة ، وهم كاذبون في هذا بل لو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ، كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك ولهذا قال : ﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ ﴾ أي تذهب وتضمحل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾

لما بين تعالى أنه لا إله إلّا هو ، وأنه المستقل بالخلق ، شرع يبين أنه الرزّاق لجميع خلقه ، فذكر في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالًا من الله طيبًا ، أي مستطابًا في نفسه ، غير ضار للأبدان ولا للعقول ، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان ، وهي طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه ، من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها ، مما كان زينه لهم في جاهليتهم . كما في حديث عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : إِنَّ كُلَّ مَالٍ مَنَحْتُهُ عِبَادِي فَهُوَ لَهُمْ حَلالٌ » وفيه : « وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ ، فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ » (١) وعن ابن عبّاس قال : تليت هذه الآية عند النبيّ ﷺ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا ﴾ فقام سعد بن أبي وقاص فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة فقال : « يَا سَعْدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَقْذِفُ اللُّقْمَةَ الحَرَامَ فِي جَوْفِهِ مَا يَتَقَبَّلُ مِنْهُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، وَأَيُّمَا عَبْدٍ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنَ السُّحْتِ وَالرِّبَا فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ » (٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴾ تنفير عنه وتحذير منه ، قوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ ﴾ قيل : كل معصية لله فهي من خطوات الشيطان . وقال عكرمة : هي نزغات الشيطان . وقال أبو مجلز : هي النذور في المعاصي . وقال مسروق : أتي عبد الله بن مسعود بضرع وملح فجعل يأكل ، فاعتزل رجل من القوم ، فقال ابن مسعود : ناولوا صاحبكم ، فقال : لا أريده ، فقال : أصائم أنت ؟ قال : لا ، قال : فما شأنك ؟ قال : حرمت أن آكل ضرعًا أبدًا ، فقال ابن مسعود : هذا من خطوات الشيطان ، فاطعم وكفّر عن يمينك . وعن أبي رافع قال : غضبت أمي يومًا على امرأتي ، فقالت : هي يومًا يهودية ويومًا نصرانية ، وكل مملوك لها حر إن لم تطلق امرأتك ، فأتيت عبد الله بن عمر ، فقال : إنما هذه من خطوات الشيطان ، وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة وهي يومئذ أفقه امرأة في المدينة ، وأتيت عاصمًا وابن عمر فقالا مثل ذلك .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٦/٤) والطبراني في الكبير (٣٦٢/١٧) .
(٢) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٥٤٧/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩١/١٠) .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة ، وأغلظ منها الفاحشة كالزنى ونحوه ، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم ، فيدخل في هذا كل كافر وكل مبتدع أيضًا .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ ﴾ لهؤلاء الكفرة من المشركين : ﴿ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ على رسوله ، واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل ، ﴿ قَالُوا ﴾ في جواب ذلك : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا ﴾ أي ما وجدنا ﴿ عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ ، أي من عبادة الأصنام والأنداد . قال الله تعالى منكرًا عليهم : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ ﴾ أي الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم ﴿ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ أي ليس لهم فهم ولا هداية . وعن ابن عبّاس أنها نزلت في طائفة من اليهود دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام فقالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، فأنزل الله هذه الآية . ثم ضرب لهم تعالى مثلًا ، فقال : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل ، كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها ، بل إذا نعق بها راعيها أي دعاها إلى ما يرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه ، بل إنما تسمع صوته فقط . وقيل : إنما هذا مثل ضرب لهم في دعائهم الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئًا ، اختاره ابن جرير ، والأول أولى ؛ لأن الأصنام لا تسمع شيئًا ولا تعقله ولا تبصره ، ولا بطش لها ولا حياة فيها .

وقوله : ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾ أي صم عن سماع الحق ، بكم لا يتفوهون به ، عمي عن رؤية طريقه ومسلكه ﴿ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي لا يعقلون شيئًا ولا يفهمونه .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى ، وأن يشكروه تعالى على ذلك إن كانوا عبيده ، والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة ، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة ، فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّه طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللَّه أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَٰتِ وَاعْمَلُوا صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ وَقَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ ، يارَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ ؛ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ ؟ » [1] . ولما امتن تعالى عليهم برزقه ، وأرشدهم إلى الأكل من طيبه ، ذكر أنه لم يحرم عليهم من ذلك إلا الميتة ، وهي التي تموت حتف أنفها من غير تذكية ، وسواء كانت منخنقة أو موقوذة أو مُتردية أو نطيحة أو عدا عليها السبع ، وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر لقوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ ﴾ وقوله ﷺ في البحر : « هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٦٥) وأحمد في مسنده (٢/٣٢٨) .

مَيْتَتُهُ » (١) وحديث ابن عمر مرفوعًا « أُحِلَّ لَنَا مِيتَتَانِ وَدَمَانِ السَّمَكُ وَالجَرَادُ ، والكَبِدُ وَالطِّحَالُ » (٢) .

مسألة : ولبن الميتة وبيضها المتصل بها نجس عند الشافعي وغيره ؛ لأنه جزء منها ، وقال مالك في رواية : هو طاهر إلَّا أنه ينجس بالمجاورة ، وكذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف ، والمشهور عندهم أنها نجسة ، وقد أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة من جبن المجوس ، فقال القرطبي في التفسير : ههنا يخالط اللبن منها يسير ، ويعفى عن قليل النجاسة إذا خالط الكثير من المائع . وعن سلمان ﷺ : سئل رسول الله ﷺ عن السمن والجبن والفراء فقال : « الحَلَالُ مَا أَحَلَّ اللَّه فِي كِتَابِهِ ، وَالحَرَامُ مَا حَرَّمَ اللَّه فِي كِتَابِهِ ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ مِمَّا عَفَا عَنْهُ » (٣) وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير ، سواء ذكي أم مات حتف أنفه ، ويدخل شحمه في حكم لحمه ، إما تغليبًا ، أو أن اللحم يشمل ذلك ، أو بطريق القياس على رأي . وكذلك حرم عليهم ما أُهلّ به لغير الله ، وهو ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام ونحو ذلك ، مما كانت الجاهلية ينحرون له . وعن الحسن البصري أنه سئل عن امرأة عملت عرسًا للعبها فنحرت فيه جزورًا ، فقال : لا تؤكل ؛ لأنها ذبحت لصنم . وعن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عما يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين ، فقالت : ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه ، وكلوا من أشجارها .

ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها عند فقد غيرها من الأطعمة فقال : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ أي في غير بغي ولا عدوان وهو مجاوزة الحد ﴿ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ أي في أكل ذلك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . وقال مجاهد : فمن اضطر غير باغ ولا عاد ، قاطعًا للسبيل أو مفارقًا للأئمة ، أو خارجًا في معصية الله ، فله الرخصة ، ومن خرج باغيًا أو عاديًا أو في معصية الله ؛ فلا رخصة له ، وإن اضطر إليه . وعن ابن عباس : قال : ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ في الميتة ﴿ وَلَا عَادٍ ﴾ في أكله .

مسألة : إذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير ، بحيث لا قطع فيه ولا أذى ، فإنه لا يحل له أكل الميتة ، بل يأكل طعام الغير بغير خلاف - كذا قال - ثم قال : وإذا أكله والحالة هذه هل يضمن أم لا ؟ فيه قولان هما روايتان عن مالك ، عن عباد بن شرحبيل العنزي قال : أصابتنا عامًا مخمصة ، فأتيت المدينة ، فأتيت حائطًا فأخذت سنبلًا ففركته وأكلته ، وجعلت منه في كسائي ، فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي ، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال للرجل : « مَا أَطْعَمْتَهُ إِذْ كَانَ جَائِعًا وَلاَ سَاعِيًا ، وَلاَ عَلَّمْتَهُ إِذْ كَانَ جَاهِلًا » فأمره فرد إليه ثوبه ، وأمر له بوسق طعام أو نصف وسق (٤) . وعن شعيب عن أبيه عن جده سئل رسول الله ﷺ عن الثمر المعلق فقال : « مَنْ أَصَابَ مِنْهُ مِنْ ذِي حَاجَةٍ بِفِيهِ غَيْرَ مُتَّخِذٍ خُبْنَةً فَلاَ شَيْءَ عَلَيْهِ » (٥) وعن مسروق قال : من اضطر فلم يأكل ولم يشرب ثم مات دخل النار ، وهذا يقتضي أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة .

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٨٣) والترمذي في السنن (٦٩) والنسائي في السنن (١/ ٥٠) والدارمي في السنن (٢/ ٩١) ومالك في الموطأ (٢٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٩٧) والبيهقي في السنن (٩/ ٢٥٧) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ١١٥) والترمذي في السنن (١٧٢٦) وابن ماجه في السنن (٣٣٦٧) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٢٩٨) .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (١٢٨٩) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يعني اليهود الذين كتموا صفة محمّد ﷺ في كتبهم التي بأيديهم ، مما تشهد له بالرسالة والنبوة ، فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم . وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم آباءهم ، فخشوا - لعنهم اللّٰه - إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم ، فكتموا ذلك إبقاء على ما كان يحصل لهم من ذلك ، وهو نزر يسير فباعوا أنفسهم بذلك ، واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن اللّٰه بذلك النزر اليسير ، فخابوا وخسروا في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فإن اللّٰه أظهر لعباده صدق رسوله بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات ، فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه ، وصاروا عونًا له على قتالهم ، وباءوا بغضب على غضب ، وذمهم اللّٰه في كتابه في غير موضع ، فمن ذلك هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ ﴾ وهو عرض الحياة الدنيا ﴿ أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ أي إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق ، نارًا تأجج في بطونهم يوم القيامة ، وفي الحديث عن رسول اللّٰه ﷺ أنه قال : « إِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ أَوْ يَشْرَبُ فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ إِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ » (١) .

وقوله : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وذلك لأنه تعالى غضبان عليهم ؛ لأنهم كتموا وقد علموا ، فاستحقوا الغضب فلا ينظر إليهم ﴿ ولا يزكيهم ﴾ أي يثني عليهم ويمدحهم ، بل يعذبهم عذابًا أليمًا . وعن أبي هريرة عن رسول اللّٰه ﷺ : « ثَلَاثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : شَيْخٌ زَانٍ ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ » (٢) . ثم قال تعالى مخبرًا عنهم : ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ أي اعتاضوا عن الهدى ، وهو نشر ما في كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء واتباعه وتصديقه ، استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عن الضلالة ، وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته في كتبهم ﴿ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ ﴾ أي اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب ، وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة . وقوله تعالى : ﴿ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ يخبر تعالى أنهم في عذاب شديد عظيم هائل ، يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك ، مع شدة ما هم فيه من العذاب والنكال والأغلال عياذًا باللّٰه من ذلك . وقيل : معنى قوله : ﴿ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ أي فما أدومهم لعمل المعاصي التي تفضي بهم إلى النار .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ ﴾ أي إنما استحقوا هذا العذاب الشديد ؛ لأن اللّٰه تعالى أنزل على رسوله محمّد ﷺ وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل ، وهؤلاء اتخذوا آيات اللّٰه هزوًا ، فكتابهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره ، فخالفوه وكذبوه ، وهذا الرسول الخاتم يدعوهم

---

(١) أخرجه مسلم في اللباس(١) والبيهقي في السنن(١٤٥/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد(٧٤٤٦) ومسلم في الإيمان(١٧١) والنسائي في السنن(٢٤٥/٧) وأحمد في مسنده(١٦٢/٥) .

إلى الله تعالى ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وهم يكذبونه ويخالفونه ويجحدونه ويكتمون صفته ، فاستهزأوا بآيات الله المنزلة على رسله ، فلهذا استحقوا العذاب والنكال ولهذا قال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ .

﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ .

اشتملت هذه الآية الكريمة على جمل عظيمة ، وقواعد عميقة ، وعقيدة مستقيمة . جاء رجل إلى أبي ذر فقال : ما الإيمان ؟ فقرأ عليه هذه الآية ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ ﴾ حتى فرغ منها ، فقال الرجل : ليس عن البر سألتك ، فقال أبو ذر : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فسأله عما سألتني عنه ، فقرأ عليه هذه الآية ، فأبى أن يرضى كما أبيت أن ترضى ، فقال له رسول الله ﷺ وأشار بيده : « المُؤْمِنُ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً سَرَّتْهُ وَرَجَا ثَوَابَهَا ، وَإِذَا عَمِلَ سَيِّئَةً أَحْزَنَتْهُ وَخَافَ عِقَابَهَا » (١) .

وأما الكلام على تفسير هذه الآية فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولًا بالتوجه إلى بيت المقدس ، ثم حولهم إلى الكعبة ، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين ، فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك ، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله ﷻ وامتثال أوامره ، والتوجه حيثما وجه ، واتباع ما شرع ، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل ، وليس في لزوم التوجه إلى جهةٍ من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة ، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه . ولهذا قال : ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الآية . وقال ابن عبّاس في هذه الآية : ليس البر أن تصلوا ولا تعملوا ، فهذا حين تحول من مكة إلى المدينة ، ونزلت الفرائض والحدود ، فأمر الله بالفرائض والعمل بها . وقال الثوري : ﴿ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ الآية قال : هذه أنواع البرّ كلها ، وصدق رحمه الله فإن من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها ، وأخذ بمجامع الخير كله ، وهو الإيمان بالله ، وأنه لا إله إلّا هو ، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله ﴿ وَالْكِتَابِ ﴾ وهو يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب ، الذي انتهى إليه كل خير ، واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة ، ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله ، وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمّد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، وقوله تعالى : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ أي أخرجه وهو محب له ، راغب فيه . نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف كما ثبت من حديث أبي هريرة مرفوعًا : « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ ؛ تَأْمُلُ الغِنَى ، وَتَخْشَى الفَقْرَ » (٢) .

وقوله : ﴿ ذَوِي الْقُرْبَىٰ ﴾ وهم قرابات الرجل ، وهم أولى من أعطي من الصدقة كما ثبت في الحديث : « الصَّدَقَةُ عَلَى المَسَاكِينِ صَدَقَةٌ ، وَعَلَى ذَوِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ : صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ ، فَهُمْ أَوْلَى

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦٩/١) .
(٢) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٤٨) ومسلم في الزكاة (٩٢) وأحمد في مسنده (٤١٥/٢) والنسائي في السنن (٦٨/٥) .

النَّاسِ بِكَ وَبِبِرِّكَ وَإِعْطَائِكَ »(١) ، وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم في غير موضع من كتابه العزيز .

﴿ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ هم الذين لا كاسب لهم ، وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب ، وعن علي عن رسول الله ﷺ قال : « لاَ يُتْمَ بَعْدَ حِلْمٍ »(٢) . ﴿ وَٱلْمَسَٰكِينَ ﴾ وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناهم ، فيعطون ما تسد به حاجتهم وخلتهم ، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لَيْسَ المِسْكِينُ بِهذَا الطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ ، وَاللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ ، وَلكِنَّ المِسْكِينَ الَّذِي لا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ ، وَلاَ يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ »(٣) ﴿ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وهو المسافر المجتاز الذي قد فرغت نفقته ، فيعطى ما يوصله إلى بلده ، وكذا الذي يريد سفرًا في طاعة فيعطى ما يكفيه في ذهابه وإيابه ، ويدخل في ذلك الضيف ، وعن ابن عبّاس قال : ابن السبيل هو الضيف الذي ينزل بالمسلمين . ﴿ وَٱلسَّآئِلِينَ ﴾ وهم الذي يتعرضون للطلب ، فيعطون من الزكوات والصدقات ، كما ورد عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها - قال : قال رسول الله ﷺ : « لِلسَّائِلِ حَقٌّ وَإِنْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ »(٤) ﴿ وَفِي ٱلرِّقَابِ ﴾ وهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابتهم . وعن فاطمة بنت قيس قالت : قال رسول الله ﷺ : « فِي المَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ » ثم قرأ : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَفِي ٱلرِّقَابِ ﴾(٥) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي وأتم أفعال الصلاة في أوقاتها ، بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها ، على الوجه الشرعي المرضي . وقوله : ﴿ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ يحتمل أن يكون المراد به زكاة النفس وتخليصها من الأخلاق الدنيئة الرذيلة ، ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال ، ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين ، إنما هو التطوع والبر والصلة .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ﴾ كقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾ وعكس هذه الصفة النفاق كما صح في الحديث « آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاَثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ »(٦) وفي الحديث الآخر « وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ »(٧) وقوله تعالى : ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ أي في حال الفقر وهو البأساء ، وفي حال المرض والأسقام وهو الضراء ﴿ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ أي في حال القتال والتقاء الأعداء ، وإنما نصب ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ على المدح والحث على الصبر في هذه الأحوال لشدته وصعوبته ، والله أعلم . وقوله : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ﴾ أي هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم ؛ لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال ، فهؤلاء هم الذين صدقوا ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٤/٤) والترمذي في السنن (٦٥٨) وابن ماجه في السنن (١٨٤٤) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٢٨٧٣) والبيهقي في السنن (٥٧/٧) ، والطبراني في الصغير (٩٦/١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٤/١) والنسائي في السنن (٨٥/٥) وابن خزيمة في صحيحه (٢٣٦٣) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠١/١) وأبو داود في السنن (١٦٦٥) والطبراني في الكبير (١٤١/٣) والألباني في الصحيحة (١٥٥/١) .
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٧٢/١) والبخاري في التاريخ الكبير (٩٠/٣) .
(٦) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٨٢) ومسلم في الإيمان (١٠٧) وأحمد في مسنده (٣٥٧/٢) .
(٧) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٩٥) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٨ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

يقول تعالى : كتب عليكم العدل في القصاص أيها المؤمنون ، حركم بحركم ، وعبدكم بعبدكم ، وأنثاكم بأنثاكم ، ولا تتجاوزا وتعتدوا كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم . وسبب ذلك قريظة والنضير ، كانت بنو النضير قد غزت قريظة في الجاهلية وقهروهم ، فكان إذا قتل النضري القرظي لا يقتل به بل يفادى بمائة وسق من التمر ، وإذا قتل القرظي النضري قتل ، وإن فادوه فدوه بمائتي وسق من التمر ضعف دية القرظي ، فأمر الله تعالى بالعدل في القصاص ، ولا يتبع سبيل المفسدين المحرفين المخالفين لأحكام الله فيهم كفرًا وبغيًا فقال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ . وذكر في سبب نزولها عن سعيد بن جبير في قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ يعني إذا كان عمدًا الحر بالحر ، وذلك أن حيين من العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل ، فكان بينهم قتل وجراحات ، حتى قتلوا العبيد والنساء ، فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا ، فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر في المدة والأموال ، فحلفوا أن لا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم ، والمرأة منا الرجل منهم ، فنزل فيهم : ﴿ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ . وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ أنهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة ، ولكن يقتلون الرجل بالرجل ، والمرأة بالمرأة ، فأنزل الله ﴿ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ ﴾ فجعل الأحرار في القصاص سواء فيما بينهم من العمد ، رجالهم ونساؤهم في النفس وفيما دون النفس ، وجعل العبيد مستويين فيما بينهم من العمد في النفس ، وفيما دون النفس رجالهم ونساؤهم .

مسألة : ذهب أبو حنيفة إلى أن الحر يقتل بالعبد لعموم آية المائدة ، وإليه ذهب الثوري وابن أبي ليلى وداود ، وهو مروي عن عليّ وابن مسعود وغيرهما . قال البخاري وعلي بن المديني وإبراهيم النخعي والثوري في رواية عنه : ويقتل السيد بعبده لعموم حديث الحسن عن سمرة : «مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلْنَاهُ ، وَمَنْ جَدَعَ عَبْدَهُ جَدَعْنَاهُ ، وَمَنْ خَصَاهُ خَصَيْنَاهُ » (١) وخالفهم الجمهور فقالوا : لا يقتل الحر بالعبد ؛ لأن العبد سلعة لو قتل خطأ لم يجب فيه دية ، وإنما تجب فيه قيمته ؛ ولأنه لا يقاد بطرفه ، ففي النفس بطريق الأولى ، وذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر ، وعن علي قال : قال رسول الله ﷺ : «لاَ يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ » (٢) ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا ، وأما أبو حنيفة : فذهب إلى أنه يقتل به لعموم آية المائدة .

مسألة : قال الحسن وعطاء : لا يقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية ، وخالفهم الجمهور لآية المائدة ، ولقوله عليه الصلاة والسّلام : «الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ » (٣) وقال الليث : إذا قتل الرجل امرأته لا يقتل بها خاصة .

مسألة : ومذهب الأئمة الأربعة والجمهور أن الجماعة يقتلون بالواحد : قال عمر في غلام قتله سبعة فقتلهم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢/٥) والنسائي في السنن (٢١/٨) والترمذي في السنن (١٤١٤) والحاكم في المستدرك (٣٦٧/٤).
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٠٠٦) والترمذي في السنن (١٤١٢) وابن ماجه في السنن (٢٦٥٩).
(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٦٨٣) وأبو داود في السنن (٢٧٥١) والبيهقي في السنن (٢٩/٨).

وقال : لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم ، ولا يعرف له في زمانه مخالف من الصحابة ، وذلك كالإجماع . وحكي عن الإمام أحمد رواية أن الجماعة لا يقتلون بالواحد ، ولا يقتل بالنفس إلَّا نفس واحدة .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ قال ابن عبَّاس : ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد . وقال : يعني فمن ترك له من أخيه شيء ، يعني أخذ الدية بعد استحقاق الدم ، وذلك العفو ﴿ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ يقول : فعلى الطالب اتباع بالمعروف إذا قبل الدية ﴿ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ يعني من القاتل من غير ضرر ولا معك ، يعني المدافعة .

مسألة : قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رواية ابن القاسم عنه وهو المشهور وأبو حنيفة وأصحابه والشافعي وأحمد في أحد قوليه : ليس لولي الدم أن يعفو على الدية إلَّا برضا القاتل ، وقال الباقون : له أن يعفو عليها وإن لم يرض .

مسألة : وذهب طائفة من السلف إلى أنه ليس للنساء عفو .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ يقول تعالى : إنما شرع لكم أخذ الدية في العمد تخفيفًا من الله عليكم ورحمة بكم مما كان محتومًا على الأمم قبلكم من القتل أو العفو . وعن ابن عبّاس قال : كتب على بني إسرائيل القصاص في القتلى ولم يكن فيهم العفو فقال الله لهذه الأمة : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد ، ذلك تخفيف مما كتب على بني إسرائيل ومن كان قبلكم ﴿ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ قال قتادة : ﴿ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ رحم الله هذه الأمة وأطعمهم الدية ، ولم تحل لأحد قبلهم ، فكان أهل التوراة إنما هو القصاص ، وعفو ليس بينهم أرش ، وكان أهل الإنجيل ، إنما هو عفو أمروا به ، وجعل لهذه الأمة القصاص والعفو والأرش .

وقوله : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يقول تعالى : فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها ، فله عذاب من الله أليم موجع شديد . وهكذا روي عن ابن عبّاس ومجاهد وعطاء وغيرهم أنه هو الذي يقتل بعد أخذ الدية . وعن أبي شريح الخزاعي أن النبيّ ﷺ قال : « مَنْ أُصِيبَ بِقَتْلٍ أَوْ خَبلٍ ؛ فَإِنَّهُ يَخْتَارُ إِحْدَى ثَلاثٍ : إِمَّا أَنْ يَقْتَصَّ ، وَإِمَّا أَنْ يَعْفُوَ ، وَإِمَّا أَنْ يَأْخُذَ الدِّيَةَ ، فَإِنْ أَرَادَ الرَّابِعَةَ ؛ فَخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ ، وَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ ؛ فَلَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا » (١) .

وقوله : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ يقول تعالى : وفي شرع القصاص لكم ، وهو قتل القاتل حكمة عظيمة ، وهي بقاء المهج وصونها ؛ لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه ، فكان في ذلك حياة للنفوس . وفي الكتب المتقدمة القتل أنفى للقتل ، فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح وأبلغ وأوجز ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ قال أبو العالية : جعل الله القصاص حياة ، فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل ﴿ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ يقول : يا أولي العقول والأفهام والنهى ، لعلكم تنزجرون وتتركون محارم الله ومآثمه ، والتقوى اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾
فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ
إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١/٤) وابن ماجه في السنن (٢٦٢٣) والدارمي في السنن (١٨٨/٢) والدارقطني في السنن (٩٦/٣) .

اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين ، وقد كان ذلك واجبًا على أصح القولين قبل نزول آية المواريث ، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه ، وصارت المواريث المقدرة فريضة من الله يأخذها أهلوها حتمًا من غير وصية ، ولا تحمل منة الموصي ، ولهذا جاء عن عمرو بن خارجة قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول : « إِنَّ اللَّه قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ؛ فَلاَ وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ » (١) وعن يونس بن عبيد قال : جلس ابن عبَّاس فقرأ سورة البقرة حتى أتى هذه الآية ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ فقال : نسخت هذه الآية . وقال ابن عبَّاس في قوله : ﴿ ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ قال : كان لا يرث مع الوالدين غيرهما ، إلَّا وصية للأقربين ، فأنزل الله آية الميراث فبين ميراث الوالدين ، وأقر وصية الأقربين في ثلث مال الميت .

والعجب من أبي عبد الله محمّد بن عمر الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ كيف حكى في تفسيره الكبير عن أبي مسلم الأصفهاني أن هذه الآية غير منسوخة ، وإنما هي مفسرة بآية المواريث ، ومعناه كتب عليكم ما أوصى الله به من توريث الوالدين والأقربين من قوله : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾ قال : وهو قول أكثر المفسّرين والمعتبرين من الفقهاء ، قال : ومنهم من قال : إنها منسوخة فيمن يرث ، ثابتة فيمن لا يرث ، وهو مذهب ابن عبَّاس والحسن ومسروق وطاووس والضحاك ومسلم بن يسار والعلاء بن زياد . قلت : وبه قال أيضًا سعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان ولكن على قول هؤلاء ، لا يسمى هذا نسخًا في اصطلاحنا المتأخر ؛ لأن آية المواريث إنما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه عموم آية الوصاية ؛ لأن الأقربين أعم ممن يرث ومن لا يرث ، فرفع حكم من يرث بما عين له ، وبقي الآخر على ما دلت عليه الآية الأولى ، وهذا إنما يتأتى على قول بعضهم أن الوصاية في ابتداء الإسلام إنما كانت ندبًا حتى نسخت ، فأما من يقول : إنها كانت واجبة وهو الظاهر من سياق الآية فيتعين أن تكون منسوخة بآية الميراث ، كما قاله أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء ، فإن وجوب الوصية للوالدين والأقربين الوارثين منسوخ بالإجماع ، بل منهي عنه للحديث المتقدم « إِنَّ اللَّه قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلاَ وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ » فآية الميراث حكم مستقل ، ووجوب من عند الله لأهل الفروض والعصبات ، رفع بها حكم هذه بالكلية ، بقي الأقارب الذين لا ميراث لهم يستحب له أن يوصي لهم من الثلث ؛ استئناسًا بآية الوصية وشمولها ، ولما ثبت عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ » قال ابن عمر : ما مرت عليّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلَّا وعندي وصيتي (٢) .

وقوله : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ أي مالًا . ثم منهم من قال : الوصية مشروعة سواء قل المال أو كثر كالوراثة ، ومنهم من قال : إنما يوصي إذا ترك مالًا جليلًا ، ثم اختلفوا في مقداره ، قيل لعلي رضي الله عنه : إن رجلًا من قريش قد مات وترك ثلاثمائة دينار أو أربعمائة ولم يوص ؟ قال : ليس بشيء إنما قال الله : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ . عن عروة أن عليًا دخل على رجل من قومه يعوده فقال له : أوص ؟ فقال له علي : إنما قال الله : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ ﴾ إنما تركت شيئًا يسيرًا ، فاتركه لولدك . وقال ابن عبَّاس : من لم يترك ستين دينارًا لم يترك خيرًا .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن(٢٧١٣) والترمذي في السنن(٢١٢٠) والنسائي في السنن(٢٤٧/٦) وأحمد في مسنده(٢٣٨/٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤/٢) والنسائي في السنن(٢٣٩/٦) .

وقال طاووس : لم يترك خيرًا من لم يترك ثمانين دينارًا . وقال قتادة : كان يقال : ألفًا فما فوقها .

وقوله : ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ أي بالرفق والإحسان . وعن الحسن قوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ فقال : نعم الوصية ، حق على كل مسلم أن يوصي إذا حضره الموت بالمعروف غير المنكر ، والمراد بالمعروف أن يوصي لأقربيه وصية لا تجحف بورثته ، من غير إسراف ولا تقتير ، كما ثبت في الصحيحين أن سعدًا قال : يا رسول الله ، إن لي مالًا ولا يرثني إلَّا ابنة لي أفأوصي بثلثي مالي ؟ قال : « لاَ » ، قال : فبالشطر ؟ قال : « لاَ » ، قال : فالثلث ؟ قال : « الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ » (١) . وفي صحيح البخاري أن ابن عباس قال : لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع ، فإن رسول الله ﷺ قال : « الثُّلُثُ ، والثُّلُثُ كَثِيرٌ » (٢) .

وقوله : ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يقول تعالى : فمن بدل الوصية وحرَّفها فغيَّر حكمها وزاد فيها أو نقص ، ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى ﴿ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ﴾ قال ابن عبّاس وغير واحد : وقع أجر الميت على الله ، وتعلق الإثم بالذين بدَّلوا ذلك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي قد اطلع على ما أوصى به الميت ، وهو عليم بذلك ، وبما بدله الموصى إليهم .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا ﴾ الجنف الخطأ ، وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها ، بأن زادوا وارثًا بواسطة أو وسيلة ، كما إذا أوصى ببيعة الشيء الفلاني محاباة ، أو أوصى لابن ابنته ليزيدها ، أو نحو ذلك من الوسائل إما مخطئًا غير عامد بل بطبعه وقوة شفقته من غير تبصر ، أو متعمدًا آثمًا في ذلك ، فللوصي والحالة هذه أن يصلح القضية ويعدل في الوصية على الوجه الشرعي ، ويعدل عن الذي أوصى به الميت إلى ما هو أقرب الأشياء ، وأشبه الأمور به ، جمعًا بين مقصود الموصي والطريق الشرعي ، وهذا الإصلاح والتوفيق ليس من التبديل في شيء ، ولهذا عطف هذا فبينه على النهي عن ذلك ، ليعلم أن هذا ليس من ذلك بسبيل ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً ، فَإِذَا أَوْصَى حَافَ فِي وَصِيَّتِهِ ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِشَرِّ عَمَلِهِ فَيَدْخُلُ النَّارَ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةً ، فَيَعْدِلُ فِي وَصِيَّتِهِ ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ » قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ الآية (٣) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا للمؤمنين من هذه الأمة ، وآمرًا إياهم بالصيام ، وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنيّة خالصة لله ﷻ ، لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة ، وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم ، فلهم فيه أسوة وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض ، أكمل مما فعله أولئك ، ولهذا قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ

---

(١) أخرجه البخاري في النفقات (٥٣٥٤) . (٢) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٤٣) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٧٠٤) وأحمد في مسنده (٢٧٨/٢) .

عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ لأن الصوم فيه تزكية للبدن ، وتضييق لمسالك الشيطان ، ولهذا ثبت في الصحيحين : « يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ » (١) ثم بيَّن مقدار الصوم ، وأنه ليس في كل يوم ، لئلا يشق على النفوس ، فتضعف عن حمله وأدائه ، بل في أيام معدودات ، وقد كان هذا في ابتداء الإسلام يصومون من كل شهر ثلاثة أيام ، ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان ، وقد روي أن الصيام كان أولًا كما كان عليه الأمم قبلنا ، من كل شهر ثلاثة أيام ، ولم يزل هذا مشروعًا من زمان نوح إلى أن نسخ اللَّه ذلك بصيام شهر رمضان . وعن عبد اللَّه ابن عمر قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « صِيَامُ رَمَضَانَ كَتَبَهُ اللَّه عَلَى الأُمَمِ قَبْلَكُمْ » (٢) .

ثم بيَّن حكم الصيام على ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام فقال : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ ﴾ أي المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر ، لما في ذلك من المشقة عليهما ، بل يفطران ويقضيان بعدة ذلك من أيام أخر ، وأما الصحيح المقيم الذي يطيق الصيام ، فقد كان مخيرًا بين الصيام وبين الإطعام ، إن شاء صام ، وإن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكينًا ، فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم فهو خير ، وإن صام فهو أفضل من الإطعام . قال ابن مسعود وابن عبَّاس ومجاهد وغيرهم من السلف : ولهذا قال تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ .

عن معاذ بن جبل ﷺ قال : أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال ، وأحيل الصيام ثلاثة أحوال ، فأما أحوال الصلاة : فإن النبي ﷺ قدم المدينة وهو يصلي سبعة عشر شهرًا إلى بيت المقدس ، ثم إن اللَّه ﷻ أنزل عليه ﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ ﴾ الآية ، فوجهه اللَّه إلى مكة هذا حول ، قال : وكانوا يجتمعون للصلاة ويؤذن بها بعضهم بعضًا حتى نقسوا أو كادوا ينقسون ، ثم إن رجلًا من الأنصار يقال له : عبد اللَّه بن زيد بن عبد ربه أتى رسول اللَّه ﷺ فقال : يا رسول اللَّه ، إني رأيت فيما يرى النائم ولو قلت : إني لم أكن نائمًا لصدقت ، إني بينا أنا بين النائم واليقظان إذ رأيت شخصًا عليه ثوبان أخضران ، فاستقبل القبلة فقال : اللَّه أكبر اللَّه أكبر ، أشهد أن لا إله إلَّا اللَّه - مثنى - حتى فرغ من الأذان ، ثم أمهل ساعة ثم قال مثل الذي قال : غير أنه يزيد في ذلك : قد قامت الصلاة - مرتين - قال رسول اللَّه ﷺ : « عَلِّمْهَا بِلالًا فَلْيُؤَذِّنْ بِهَا » فكان بلال أول من أذن بها ، قال : وجاء عمر بن الخطاب ﷺ قال : يا رسول اللَّه ، قد طاف بي مثل الذي طاف به ، غير أنه سبقني (٣) . فهذان حالان ، قال : وكانوا يأتون الصلاة وقد سبقهم النبيّ ﷺ ببعضها فكان الرجل يشير إلى الرجل إذن كم صلى ؟ فيقول : واحدة أو اثنتين فيصليهما ، ثم يدخل مع القوم في صلاتهم ، قال : فجاء معاذ فقال : لا أجده على حال أبدًا إلَّا كنت عليها ، ثم قضيت ما سبقني : قال : فجاء وقد سبقه النبيّ ﷺ ببعضها قال : فثبت معه ، فلما قضى رسول اللَّه ﷺ قام فقضى ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّهُ قَدْ سَنَّ لَكُمْ مُعَاذٌ ، فَهَكَذَا فَاصْنَعُوا » (٤) فهذه ثلاثة أحوال . وأما أحوال الصيام : فإن رسول اللَّه

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٥) ومسلم في النكاح (١) وابن ماجه في السنن (١٨٤٥) وأحمد في مسنده (٤٢٤/١) .

(٢) ذكره ابن حجر في فتح الباري (١٧٨/٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٦/٥) والبيهقي في السنن (٣٩١/١) والدارقطني في السنن (٢٤٢/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٦/٥) .

ﷺ قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام وصام عاشوراء ، ثم إن اللّٰه فرض عليه الصيام وأنزل اللّٰه تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ ﴾ فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكينًا فأجزأ ذلك عنه ، ثم إن اللّٰه ﷻ أنزل الآية الأخرى ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ ﴾ فأثبت اللّٰه صيامه على المقيم الصحيح ، ورخص فيه للمريض والمسافر ، وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام ، فهذان حالان ، قال : وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا ، فإذا ناموا امتنعوا ، ثم إن رجلًا من الأنصار يقال له : صرمة كان يعمل صائمًا حتى أمسى فجاء إلى أهله فصلى العشاء ثم نام ، فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح صائمًا فرآه رسول اللّٰه ﷺ وقد جهد جهدًا شديدًا فقال : « ما لي أَرَاكَ قَدْ جَهِدْتَ جُهْدًا شَدِيدًا ؟ » قال : يا رسول اللّٰه ، إني عملت أمس فجئت حين جئت فألقيت نفسي فنمت فأصبحت حين أصبحت صائمًا ، قال : وكان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام ، فأتى النبيّ ﷺ فذكر له ذلك فأنزل اللّٰه ﷻ : ﴿ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ ﴾ إلى قوله ﴿ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ ﴾ كما قال معاذ ﷺ : كان في ابتداء الأمر من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكينًا ، وعن سلمة بن الأكوع أنه قال : لما نزلت ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ ﴾ كان من أراد أن يفطرْ يفتدي حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها . وعن ابن عبّاس قال : نزلت هذه الآية ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ ﴾ في الشيخ الكبير الذي لا يطيق الصوم ثم ضعف ، فرخص له أن يطعم مكان كل يوم مسكينًا .

فحاصل الأمر أن النسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه بقوله : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ ﴾ وأما الشيخ الفاني الهرم الذي لا يستطيع الصيام فله أن يفطر ولا قضاء عليه ؛ لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيها من القضاء ، ولكن هل يجب عليه إذا أفطر أن يطعم عن كل يوم مسكينًا إذا كان ذا جدة ؟ فيه قولان للعلماء : أحدهما : لا يجب عليه إطعام لأنه ضعيف عنه لسنه ؛ فلم يجب عليه فدية كالصبي ؛ لأن اللّٰه لا يكلّف نفسًا إلّا وسعها ، وهو أحد قولي الشافعي ، والثاني : وهو الصحيح وعليه أكثر العلماء أنه يجب عليه فدية عن كل يوم كما فسره ابن عبّاس وغيره من السلف على قراءة من قرأ ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ ﴾ أي يتجشمونه كما قاله ابن مسعود وغيره ، وهو اختيار البخاري فإنه قال : وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام فقد أطعم أنس بعدما كبر عامًا أو عامين عن كل يوم مسكينًا خبزًا ولحمًا وأفطر (٢) . ومما يلتحق بهذا المعنى الحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما ، ففيهما خلاف كثير بين العلماء ، فمنهم من قال : يفطران ويفديان ويقضيان ، وقيل : يفديان فقط ولا قضاء ، وقيل : يجب القضاء بلا فدية ، وقيل : يفطران ولا فدية ولا قضاء ، وقد بسطنا هذه المسألة مستقصاة في كتاب الصيام الذي أفردناه وللّٰه الحمد والمنة .

﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٤٧) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (باب ٢٥) .

بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم ، وكما اختصه بذلك قد ورد الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء ، فعن واثلة يعني ابن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال : « أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ لِسِتٍّ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ ، وَالإِنْجِيلُ لِثَلَاثَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ لأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ » (١) . وأما الصحف والتوراة والزبور والإنجيل فنزل كل منها على النبي الذي أنزل عليه جملة واحدة ، وأما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه ، ثم نزل بعد مفرقًا بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ . عن ابن عبّاس أنه سأل عطية بن الأسود فقال : وقع في قلبي الشك : قول الله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ وقد أنزل في شوال وفي ذي القعدة وفي ذي الحجة وفي المحرم وصفر وشهر ربيع فقال ابن عبّاس : إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر ، وفي ليلة مباركة جملة واحدة ، ثم أنزل على مواقع النجوم ترتيلًا في الشهور والأيام . وعن ابن عبّاس قال : أنزل القرآن في النصف من شهر رمضان إلى سماء الدنيا ، فجعل في بيت العزة ، ثم أنزل على رسول الله ﷺ في عشرين سنة لجواب كلام الناس .

وقوله : ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ هذا مدح للقرآن الذي أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقه واتبعه ﴿ وَبَيِّنَٰتٍ ﴾ أي ودلائل وحجج بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها ، دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال ، والرشد المخالف للغي ، ومفرقًا بين الحق والباطل ، والحلال والحرام . وقد روي عن بعض السلف أنه كره أن يقال : إلّا شهر رمضان ، ولا يقال : رمضان .

وقوله : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ هذا إيجاب حتم على من شهد استهلال الشهر ، أي كان مقيمًا في البلد حين دخل شهر رمضان ، وهو صحيح في بدنه أن يصوم لا محالة ، ونسخت هذه الآية الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحًا مقيمًا أن يفطر ويفدي بإطعام مسكين عن كل يوم كما تقدم بيانه ، ولما ختم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر في الإفطار بشرط القضاء فقال : ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ معناه ومن كان به مرض في بدنه يشق عليه الصيام معه أو يؤذيه أو كان على سفر أي في حالة السفر ، فله أن يفطر ، فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره في السفر من الأيام ، ولهذا قال : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ أي إنما رخص لكم في الفطر في حال المرض والسفر مع تحتمه في حق المقيم الصحيح تيسيرًا عليكم ورحمة بكم .

وههنا مسائل تتعلق بهذه الآية :

إحداها : أن من كان مقيمًا في أول الشهر ، ثم سافر في أثنائه ، فليس له الإفطار بعذر السفر والحالة هذه لقوله : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ وإنما يباح الإفطار لمسافر استهل الشهر وهو مسافر . وهذا القول غريب نقله أبو محمّد ابن حزم في كتابه المحلى عن جماعة من الصحابة والتابعين ، وفيما حكاه عنهم نظر ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٧/٤) والألباني في الصحيحة (١٥٧٥) .

فإنه قد ثبتت السنّة عن رسول الله ﷺ أنه خرج في شهر رمضان لغزوة الفتح فسار حتى بلغ الكديد ثم أفطر وأمر الناس بالفطر .

الثانية : وجوب الإفطار في السفر لقوله تعالى : ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ والصحيح قول الجمهور إن الأمر في ذلك على التخيير ، وليس بحتم ؛ لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان قال : فمنا الصائم ومنا المفطر ، فلم يعب الصائم على المفطر ، ولا المفطر على الصائم (١) . فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام ، بل الذي ثبت من فعل رسول الله ﷺ أنه كان في مثل هذه الحالة صائمًا فعن أبي الدرداء قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حر شديد ، حتى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة (٢) .

الثالثة : الصيام في السفر أفضل من الإفطار لفعل النبيّ ﷺ كما تقدم ، وقالت طائفة : بل الإفطار أفضل أخذًا بالرخصة ، ولما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن الصوم في السفر فقال : « مَنْ أَفْطَرَ فَحَسَنٌ ، وَمَنْ صَامَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ » (٣) . وقال : « عَلَيْكُمْ بِرُخْصَةِ اللَّهِ الَّتِي رَخَّصَ لَكُمْ » (٤) . وقالت طائفة : هما سواء ، لحديث عائشة أن حمزة بن عمرو الأسلمي قال : يا رسول الله إني كثير الصيام أفأصوم في السفر ؟ فقال : « إِنْ شِئْتَ فَصُمْ ، وَإِنْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ » (٥) . وقيل : إن شق الصيام فالإفطار أفضل ، لحديث جابر أن رسول الله ﷺ رأى رجلًا قد ظلّل عليه فقال : « مَا هَذَا ؟ » قالوا : صائم ، فقال : « لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ » (٦) ، فأما إن رغب عن السنة ورأى أن الفطر مكروه إليه فهذا يتعين عليه الإفطار ويحرم عليه الصيام والحالة هذه ، لما جاء في مسند الإمام أحمد وغيره عن ابن عمر وجابر وغيرهما : من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة (٧) .

الرابعة : القضاء هل يجب متتابعًا أو يجوز فيه التفريق فيه قولان : أحدهما : أنه يجب التتابع لأن القضاء يحكي الأداء . والثاني : لا يجب التتابع بل إن شاء فرق وإن شاء تابع ، وهذا قول جمهور السلف والخلف وعليه ثبتت الدلائل ، لأن التتابع إنما وجب في الشهر لضرورة أدائه في الشهر ، فأما بعد انقضاء رمضان ؛ فالمراد صيام أيام عدة ما أفطر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ وعن أبي قتادة عن الأعرابي الذي سمع النبيّ ﷺ يقول : « إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ ، إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ » (٨) وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن : « بَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا ، وَيَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا ، وَتَطَاوَعَا وَلاَ

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (١٨٨/٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٩/٣) .
(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٠/٣) وعزاه للبزار .
(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦١/٣) .
(٤) أخرجه مسلم في الصيام (٩٢) والمنذري في الترغيب (١٣٣/٢) .
(٥) أخرجه البيهقي في السنن (٢٤٣/٤) .
(٦) أخرجه النسائي في السنن (١٧٦/٤) وابن ماجه في السنن (١٦٦٤) والترمذي في السنن (٧١٠) .
(٧) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٨/٤) .
(٨) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٨/٤) والألباني في الصحيحة (١٦٣٥) .

تَخْتَلِفَا »[١] وفي السنن والمسانيد أن رسول اللَّه ﷺ قال : « بُعِثْتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ »[٢] .

ومعنى قوله : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ ﴾ أي إنما أرخص لكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار ، لإرادته بكم اليسر ، وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم وقوله : ﴿ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ أي ولتذكروا اللَّه عند انقضاء عبادتكم . وجاءت السنّة باستحباب التسبيح والتحميد والتكبير بعد الصلوات المكتوبات . قال ابن عبّاس : ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول اللَّه ﷺ إلّا بالتكبير ، ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر من هذه الآية ﴿ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ حتى ذهب داود بن علي الأصبهاني الظاهري إلى وجوبه في عيد الفطر لظاهر الأمر في قوله : ﴿ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ وفي مقابلته مذهب أبي حنيفة رحمة اللَّه أنه لا يشرع التكبير في عيد الفطر والباقون على استحبابه على اختلاف في تفاصيل بعض الفروع بينهم . وقوله : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي إذا قمتم بما أمركم اللَّه من طاعته بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده ، فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ .

عن الحسن قال : سأل أصحاب رسول اللَّه ﷺ : أين ربنا ؟ فأنزل اللَّه ﷻ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ الآية ، وقال ابن جريج عن عطاء أنه بلغه لما نزلت ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ قال الناس : لو نعلم أي ساعة ندعو ؟ فنزلت : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ وعن أبي موسى الأشعري قال : كنا مع رسول اللَّه ﷺ في غزوة ، فجعلنا لا نصعد شرفًا ولا نعلو شرفًا ، ولا نهبط واديًا إلّا رفعنا أصواتنا بالتكبير ، قال : فدنا منا فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا ، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ ، يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَةً مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ ؟ لا حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّه »[٣] وعن أنس ﷺ أن النبيّ ﷺ قال : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي »[٤] .

قلت : وهذا كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ وقوله لموسى وهارون عليهما السلام : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ والمراد من هذا أنه تعالى لا يخيب دعاء داع ، ولا يشغله عنه شيء ، بل هو سميع الدعاء ، ففيه ترغيب في الدعاء وأنه لا يضيع لديه تعالى . وعن سلمان الفارسي ﷺ ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيَسْتَحِي أَنْ يَبْسُطَ العَبْدُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ يَسْأَلُهُ فِيهِمَا خَيْرًا فَيَرُدَّهُمَا خَائِبَتَيْنِ »[٥] . وعن أبي سعيد أن النبيّ ﷺ قال : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللَّهَ ﷻ بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلاَ

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٨) ومسلم في الجهاد (٧) وأحمد في مسنده (٤١٧/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٦/٥) .

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٩٢) وأبو داود في السنن (١٥٢٨) والبيهقي في السنن (١٨٤/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥) ومسلم في الذكر والدعاء (١) وأحمد في مسنده (٢١٠/٣) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٨/٥) والحاكم في المستدرك (٥٣٥/١) .

قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ : إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الأُخْرَى ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا » قالوا : إذن نكثر قال : « اللَّهُ أَكْثَرُ » (١) .

وعن عبد اللَّه بن عمرو أن رسول اللَّه ﷺ قال : « الْقُلُوبُ أَوْعِيَةٌ ، وَبَعْضُهَا أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ أَيُّهَا النَّاسُ فَاسْأَلُوهُ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ ، فَإِنَّهُ لاَ يَسْتَجِيبُ لِعَبْدٍ دَعَاهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَافِلٍ » (٢) وعن أنس عن النبيّ ﷺ قال : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ وَاحِدَةٌ لَكَ وَوَاحِدَةٌ لِي وَوَاحِدَةٌ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، فَأَمَّا الَّتِي لِي فَتَعْبُدُنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا ، وَأَمَّا الَّتِي لَكَ فَمَا عَمِلْتَ مِنْ شَيْءٍ أَوْ عَمَلٍ وَفَّيْتُكَهُ ، وَأَمَّا الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَمِنْكَ الدُّعَاءُ وَعَلَيَّ الإِجَابَةُ » (٣) .

وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة ، بل وعند كل فطر ، وعن عبد اللَّه بن عمرو قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « لِلصَّائِمِ عِنْدَ إِفْطَارِهِ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ » فكان عبد اللَّه بن عمرو إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا(٤) . وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « ثَلاَثَةٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ : الإِمَامُ العَادِلُ ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللَّهُ دُونَ الْغَمَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَيَقُولُ : بِعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ » (٥) .

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ .

هذه رخصة من اللَّه تعالى للمسلمين ، ورفع لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام ، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء ، أو ينام قبل ذلك ، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة ، فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة . والرفث هنا هو الجماع . وقوله : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ ﴾ يعني هنَّ سكن لكم ، وأنتم سكن لهن ، وقال الربيع بن أنس : هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن ، وحاصله أن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويماسه ويضاجعه ، فناسب أن يرخص لهم في المجامعة في ليل رمضان ، لئلا يشق ذلك عليهم ويحرجوا .

وكان السبب في نزول هذه الآية ما ورد عن البراء بن عازب قال : كان أصحاب النبيّ ﷺ إذا كان الرجل صائمًا فنام قبل أن يفطر ، لم يأكل إلى مثلها ، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائمًا ، وكان يومه ذلك يعمل في أرضه ، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال : هل عندك طعام ، قالت : لا ولكن انطلق فأطلب لك ، فغلبته عينه فنام ، وجاءت امرأته فلما رأته نائمًا قالت : خيبة لك أنمت ؟ فلما انتصف النهار

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨/٣) والحاكم في المستدرك (٤٩٣/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٧/٥) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٧/٢) والمنذري في الترغيب (٤٩١/٢) .
(٤) ذكره الهندي في كنز العمال (٢٣٥٩٢) والسيوطي في الدر المنثور (١٨٠/١) .
(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٢٦) وابن ماجه في السنن (١٥٧٢) والبيهقي في السنن (٣٤٥/٣) .

غشي عليه ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ ففرحوا بها فرحًا شديدًا .

وعن أبي هريرة في قول الله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ قال : كان المسلمون قبل أن تنزل هذه الآية إذا صلوا العشاء الآخرة حرم عليهم الطعام والشراب والنساء حتى يفطروا ، وإن عمر بن الخطاب أصاب أهله بعد صلاة العشاء ، وإن صرمة بن قيس الأنصاري غلبته عيناه بعد صلاة المغرب فنام ولم يشبع من الطعام ، ولم يستيقظ حتى صلى رسول الله ﷺ العشاء فقام فأكل وشرب ، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك فأنزل الله عند ذلك ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ﴾ يعني الرفث مجامعة النساء ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ يعني تجامعون النساء وتأكلون وتشربون بعد العشاء ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ ﴾ يعني جامعوهن ﴿ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ يعني الولد ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ فكان ذلك عفوًا من الله ورحمة(١) .

وقوله : ﴿ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ قال أبو هريرة وابن عبّاس والضحاك وقتادة وغيرهم . يعني الولد . وقيل : يعني الجماع . وقيل : ليلة القدر .

وقوله : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ أباح تعالى الأكل والشرب مع ما تقدم من إباحة الجماع في أي الليل شاء الصائم ، إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل ، وعبر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود ، ورفع اللبس بقوله : ﴿ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ كما جاء في الحديث الذي روي عن سهل بن سعد : قال : أنزلت ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴾ ولم ينزل ﴿ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود ، فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما ، فأنزل الله بعد ﴿ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ فعلموا أنما يعني الليل والنهار(٢) . وقال عدي بن حاتم : لما نزلت هذه الآية ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴾ عمدت إلى عقالين أحدهما أسود والآخر أبيض ، قال : فجعلتهما تحت وسادتي ، قال : فجعلت أنظر إليهما فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت ، فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بالذي صنعت فقال : « إِنَّ وِسَادَكَ إِذًا لَعَرِيضٌ ، إِنَّمَا ذلِكَ بَيَاضُ النَّهَارِ مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ »(٣) .

وفي إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور ، لأنه من باب الرخصة ، والأخذ بها محبوب ، ولهذا وردت السنّة الثابتة عن رسول الله ﷺ بالحث على السحور ، فعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً »(٤) . وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ فَضْلَ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكْلَةُ السَّحُورِ »(٥) وقد ورد في الترغيب في السحور أحاديث كثيرة حتى ولو بجرعة من ماء تشبهًا بالآكلين ، ويستحب تأخيره إلى وقت انفجار

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن(٢٩٦٨) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن(٤٥١١) .

(٣) أخرجه مسلم في الصيام(٣٣) وأبو داود في السنن(٢٣٤٩) والطبراني في الكبير(٣٩/١٧) .

(٤) أخرجه البخاري في الصوم(١٩٢٣) ومسلم في الصيام(٤٥) والترمذي في السنن(٧٠٨) وابن ماجه في السنن(١٦٩٢) .

(٥) أخرجه أبو داود في السنن(٢٣٤٣) والنسائي في السنن(١٤٦/٤) ، وأحمد في مسنده(١٩٧/٤) والبيهقي في السنن(٢٣٦/٤) .

الفجر ، كما جاء عن أنس بن مالك عن يزيد بن ثابت ، قال : تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلى الصلاة ، قال أنس : قلت لزيد : كم كان بين الأذان والسحور ؟ قال : قدر خمسين آية[١] . وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الإِفْطَارَ وَأَخَّرُوا السُّحُورَ »[٢] وقد ورد أحاديث كثيرة أن رسول الله ﷺ سماه الغذاء المبارك . وعن حذيفة قال : تسحرنا مع رسول الله ﷺ وكان النهار إلّا أن الشمس لم تطلع[٣] . وحمله على أن المراد قرب النهار كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي قاربن انقضاء العدة فإما إمساك بمعروف أو ترك للفراق ، وهذا هو المتعين حمل الحديث عليه أنهم تسحروا ولم يتيقنوا طلوع الفجر ، حتى أن بعضهم ظن طلوعه ، وبعضهم لم يتحقق ذلك . وقد روي عن طائفة كثيرة من السلف أنهم تسامحوا في السحور عند مقاربة الفجر .

وحكى ابن جرير في تفسيره عن بعضهم أنه إنما يجب الإمساك من طلوع الشمس كما يجوز الإفطار بغروبها . قلت : وهذا القول ما أظن أحدًا من أهل العلم يستقر له قدم عليه ، لمخالفته نص القرآن في قوله : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ وقد ورد عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « لاَ يَمْنَعُكُمْ أَذَانُ بِلالٍ عَنْ سُحُورِكُمْ فَإِنَّهُ يُنَادِي بِلَيْلٍ ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى تَسْمَعُوا أَذَانَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ ؛ فَإِنَّهُ لاَ يُؤَذِّنُ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ »[٤] وعن قيس بن طلق عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « لَيْسَ الْفَجْرُ الْمُسْتَطِيلُ فِي الأُفُقِ ، وَلَكِنِ الْمُعْتَرِضُ الأَحْمَرُ »[٥] وعن محمّد ابن عبد الرحمن بن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « الْفَجْرُ فَجْرَانِ : فَالَّذِي كَأَنَّهُ ذَنَبُ السِّرْحَانِ لاَ يُحَرِّمُ شَيْئًا ، وَإِنَّمَا هُوَ الْمُسْتَطِيرُ الَّذِي يَأْخُذُ الأُفُقَ ، فَإِنَّهُ يُحِلُّ الصَّلاةَ وَيُحَرِّمُ الطَّعَامَ »[٦] وعن عطاء سمعت ابن عبّاس يقول : هما فجران ، فأما الذي يسطع في السماء ، فليس يحل ولا يحرم شيئًا ، ولكن الفجر الذي يستنير على رءوس الجبال هو الذي يحرم الشراب . وقال عطاء : فأما إذا سطع سطوعًا في السماء ، وسطوعه أن يذهب في السماء طولًا فإنه لا يحرم به شراب للصائم ولا صلاة ولا يفوت به الحج ، ولكن إذا انتشر على رءوس الجبال حرم الشراب للصيام وفات الحج .

مسألة : ومن جعله تعالى الفجر غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام ، يستدل على أنه من أصبح جنبًا فليغتسل وليتم صومه ولا حرج عليه ، وهذا مذهب الأئمة الأربعة وجمهور العلماء سلفًا وخلفًا لما روي عن عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما أنهما قالتا : كان رسول الله ﷺ يصبح جنبًا من جماع غير احتلام ، ثم يغتسل ويصوم[٧] . وفي حديث أم سلمة : ثم لا يفطر ولا يقضي . وعن عائشة أن رجلًا قال : يا رسول الله تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « وَأَنَا تُدْرِكُنِي الصَّلاَةُ وَأَنَا جُنُبٌ فَأَصُومُ » فقال : لست مثلنا يا رسول الله ؛ قد غفر الله لك ما تقدم

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم(١٩٢١) والهيثمي في مجمع الزوائد(١٥٣/٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده(١٧٢/٥) . (٣) أخرجه : النسائي في السنن ١٤٢/٤ .
(٤) أخرجه البخاري في أخبار الآحاد(٧٢٤٧) ومسلم في الصيام(٣٥) وابن ماجه في السنن(١٦٩٦)
(٥) أخرجه أحمد في مسنده(٢٣/٤) .
(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك(١٩١/١) والبيهقي في السنن(٣٧٧/٢) ، والدارقطني في السنن(٢٦٨/١)
(٧) أخرجه أحمد في مسنده(٢٠٣/٦) والنسائي في السنن(١٨٣/١)

من ذنبك وما تأخر ، فقال : « وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي » (١) . فأما الحديث الذي روي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ صَلَاةِ الصُّبْحِ وَأَحَدُكُمْ جُنُبٌ فَلَا يَصُمْ يَوْمَئِذٍ » (٢) فإنه حديث جيد الإسناد على شرط الشيخين كما ترى وهو في الصحيحين عن أبي هريرة عن الفضل بن عباس عن النبيّ ﷺ ، فمن العلماء من علل هذا الحديث بهذا ، ومنهم من ذهب إليه ، ومنهم من ذهب إلى التفرقة بين أن يصبح جنبًا نائمًا فلا عليه ، لحديث عائشة وأم سلمة ، أو مختارًا فلا صوم له ؛ لحديث أبي هريرة ، ومنهم من فرق بين الفرض فيتم فيقضيه ، وأما النفل فلا يضره ، ومنهم من ادعى نسخ حديث أبي هريرة بحديثي عائشة وأم سلمة ، ولكن لا تاريخ معه . وادعى ابن حزم أنه منسوخ بهذه الآية وهو بعيد أيضًا ؛ إذ لا تاريخ بل الظاهر من التاريخ خلافه ، ومنهم من حمل حديث أبي هريرة على نفي الكمال فلا صوم له لحديث عائشة وأم سلمة الدالين على الجواز ، وهذا المسلك أقرب الأقوال وأجمعها .

﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ يقتضي الإفطار عند غروب الشمس حكمًا شرعيًا كما جاء عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَهُنَا ، وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَهُنَا ، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ » (٣) . وعن سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الفِطْرَ » (٤) ولهذا ورد في الأحاديث الصحيحة النهي عن الوصال وهو أن يصل يومًا بيوم آخر ، ولا يأكل بينهما شيئًا ، فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تُوَاصِلُوا » قالوا : يا رسول الله إنك تواصل قال : « فَإِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي » قال : فلم ينتهوا عن الوصال ، فواصل بهم النبيّ ﷺ يومين وليلتين ثم رأوا الهلال ، فقال : « لَوْ تَأَخَّرَ الهِلَالُ لَزِدْتُكُمْ » كالمنكل لهم (٥) . فقد ثبت النهي عنه من غير وجه ، وثبت أنه من خصائص النبيّ ﷺ ، وأنه كان يقوى على ذلك ويعان ، والأظهر أن ذلك الطعام والشراب في حقه إنما كان معنويًا لا حسيًا ، وإلَّا فلا يكون مواصلًا مع الحسي .

وأما من أحب أن يمسك بعد غروب الشمس إلى وقت السحر ، فله ذلك ، كما في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تُوَاصِلُوا ، فَأَيُّكُمْ أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ فَلْيُوَاصِلْ إِلَى السَّحَرِ » قالوا : فإنك تواصل يا رسول الله قال : « إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي أَبِيتُ لِي مُطْعِمٌ يُطْعِمُنِي وَسَاقٍ يَسْقِينِي » (٦) . وقد روى ابن جرير عن عبد الله بن الزبير وغيره من السلف أنهم كانوا يواصلون الأيام المتعددة وحمله على أنهم كانوا يفعلون ذلك رياضة لأنفسهم ، لا أنهم كانوا يفعلونه عبادة . ويحتمل أنهم كانوا يفهمون من النهي أنه إرشاد من باب الشفقة ، كما جاء في حديث عائشة رحمة لهم ، فكان ابن الزبير وابنه عامر ومن سلك سبيلهم يتجشمون ذلك ويفعلونه ؛ لأنهم كانوا يجدون قوة عليه ، وقد ذكر عنهم أنهم كانوا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦٧/٦ ، ٢٤٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٤/٢) .
(٣) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٥٤) وأحمد في مسنده (٢٨/١) .
(٤) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٥٧) وأحمد في مسنده (٣٣١/٥) .
(٥) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٦١) وأحمد في مسنده (٥٧/٣ ، ١٧٠) .
(٦) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٦٧) .

أول ما يفطرون على السمن والصبر ، لئلا تتخرق الأمعاء بالطعام أولًا . وقد روي عن ابن الزبير أنه كان يواصل سبعة أيام ، ويصبح في اليوم السابع أقواهم وأجلدهم . وقال أبو العالية : إنما فرض اللَّه الصيام بالنهار ، فإذا جاء بالليل فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ﴾ عن ابن عبَّاس هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غير رمضان ، فحرّم اللَّه عليه أن ينكح النساء ليلًا أو نهارًا ، حتى يقضي اعتكافه . وقال الضحاك : كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد جامع إن شاء ، فقال اللَّه تعالى : ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ﴾ أي لا تقربوهن ما دمتم عاكفين في المسجد ولا في غيره . وهذا هو الأمر المتفق عليه عند العلماء ، أن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفًا في مسجده ، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لابد له منها فلا يحل له أن يثبت فيه إلَّا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك ، من قضاء الغائط أو الأكل ، وليس له أن يقبل امرأته ، ولا أن يضمها إليه ، ولا يشتغل بشيء سوى اعتكافه ، ولا يعود المريض لكن يسأل عنه وهو مار في طريقه . وللاعتكاف أحكام مفصلة منها ما هو مجمع عليه بين العلماء ، ومنها ما هو مختلف فيه . وقد ذكرنا قطعة صالحة من ذلك في آخر كتاب الصيام وللَّه الحمد والمنة ، ولهذا كان الفقهاء المصنفون يتبعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف اقتداء بالقرآن العظيم ، فإنه نبه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم .

وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبيه على الاعتكاف في الصيام أو في آخر شهر الصيام ، كما ثبت في السنّة عن رسول اللَّه ﷺ أنه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه اللَّه ﷻ ، ثم اعتكف أزواجه من بعده [(١)] . وفي الصحيحين أن صفية بنت حيي كانت تزور النبي ﷺ وهو معتكف في المسجد فتحدثت عنده ساعة ، ثم قامت لترجع إلى منزلها ، وكان ذلك ليلًا ، فقام النبيّ ﷺ ليمشي معها حتى تبلغ دارها ، وكان منزلها في دار أسامة بن زيد في جانب المدينة ، فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار ، فلما رأيا النبيّ ﷺ أسرعا ، وفي رواية تواريا أي حياء من النبيّ ﷺ لكون أهله معه ، فقال لهما ﷺ : « عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ » أي لا تسرعا ، واعلما أنها صفية بنت حييّ أي زوجتي ، فقالا : سبحان اللَّه يا رسول اللَّه ! فقال ﷺ : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا » أَوْ قَالَ : « شَرًّا » [(٢)] قال الشافعي رحمه الله : أراد عليه السلام أن يعلم أمته التبري من التهمة في محلها لئلا يقعا في محذور ، وهما كانا أتقى للَّه من أن يظنا بالنبي ﷺ شيئًا . ثم المراد بالمباشرة إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيل ومعانقة ونحو ذلك ، فأما معاطاة الشيء ونحوه فلا بأس به ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول اللَّه ﷺ يدني إلي رأسه فأرجله وأنا حائض ، وكان لا يدخل البيت إلَّا لحاجة الإنسان ، قالت عائشة : ولقد كان المريض يكون في البيت فما أسأل عنه إلَّا وأنا مارة [(٣)] .

وقوله : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ أي هذا الذي بيناه وفرضناه وحددناه من الصيام وأحكامه وما أبحنا

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتكاف (٢٠٣٣) وأحمد في مسنده (١٤١/٥) .
(٢) أخرجه البخاري في الاعتكاف (٢٠٣٥) وأحمد في مسنده (٣٣٧/٦) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٤/٦) .

فيه وما حرمنا وذكرنا غاياته ورخصه وعزائمه ، حدود الله أي شرعها الله وبينها بنفسه ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ أي لا تجاوزوها وتتعدوها . وكان الضحاك ومقاتل يقولان في قوله : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أي المباشرة في الاعتكاف . ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ ﴾ أي كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفاصيله ، كذلك يبين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي يعرفون كيف يهتدون وكيف يطيعون .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

عن ابن عبّاس : هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بينة ، فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام ، وهو يعرف أن الحق عليه ، وهو يعلم أنه آثم آكل الحرام . وقد ورد عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال : « أَلَا إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَإِنَّمَا يَأْتِينِي الخَصْمُ ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَأَقْضِيَ لَه ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقٍّ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنْ نَارٍ ، فَلْيَحْمِلْها أَوْ لِيَذَرْهَا » [(١)] فدلت هذه الآية الكريمة وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر ، فلا يحل في نفس الأمر حرامًا هو حرام ، ولا يحرم حلالًا هو حلال ، وإنما هو ملزم في الظاهر ، فإن طابق في نفس الأمر فذاك وإلّا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي تعلمون بطلان ما تدعونه وتروجونه في كلامكم . قال قتادة : اعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضي لا يحل لك حرامًا ولا يحق لك باطلًا ، وإنما يقضي بنحو ما يرى وتشهد به الشهود ، والقاضي بشر يخطئ ويصيب ، واعلموا أن من قضي له بباطل أن خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة ، فيقضي على المبطل للمحق بأجود مما قضي به للمبطل على المحق في الدنيا .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

عن ابن عبّاس سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلّة فنزلت هذه الآية ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾ يعلمون بها حل دينهم ، وعدة نسائهم ، ووقت حجهم . وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « جَعَلَ اللَّهُ الأَهِلَّةَ مَوَاقِيتَ لِلنَّاسِ ، فَصُومُوا لِرُؤْيَتِهِ ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَعُدُّوا ثَلَاثِينَ يَوْمًا » [(٢)] .

وقوله : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ قال البخاري : عن البراء قال : كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ [(٣)] وعن جابر كانت قريش تدعى الحمس ، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام ، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام ، فبينما رسول الله ﷺ في بستان إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر من الأنصار ، فقالوا : يا رسول الله : إن قطبة بن عامر رجل تاجر وإنه خرج معك من الباب فقال له : « مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ » قال : رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت فقال : « إِنِّي أَحْمَسُ » قال له : فإن ديني دينك ؟ فأنزل

---

(١) أخرجه البخاري في اللقطة (٢٤٥٨) . (٢) أخرجه الدارقطني ١٦٣/٢ .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن باب : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ ﴾ .

الله ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي اتقوا الله فافعلوا ما أمركم به ، واتركوا ما نهاكم عنه ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ غدًا إذا وقفتم بين يديه ، فيجازيكم على التمام والكمال .

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

عن أبي العالية في قوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ قال : هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة ، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله ، ويكف عمن كف عنه ، حتى نزلت سورة براءة . وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم حتى قال : هذه منسوخة بقوله : ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ وفي هذا نظر لأن قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ إنما هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله ، أي كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم كما قال : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ ولهذا قال في هذه الآية ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ أي لتكون همتكم منبعثة على قتالهم كما همتهم منبعثة على قتالكم ، وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصًا .

وقوله : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ أي قاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا في ذلك ، ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي ، كما قاله الحسن البصري من المثلة والغلول ، وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم ، والرهبان وأصحاب الصوامع ، وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة . كما قال ذلك ابن عبّاس وعمر بن عبد العزيز ومقاتل بين حيان وغيرهم . ولهذا جاء عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اغْزُوا في سَبِيلِ الله ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله ، اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تُمَثِّلُوا ولا تَقْتُلُوا الوَلِيدَ وَلاَ أَصْحَابَ الصَّوامِعِ » (٢) . وعن ربعي بن حراش قال : سمعت حذيفة يقول : ضرب لنا رسول الله ﷺ أمثالاً واحد وثلاثة وخمسة وسبعة وتسعة وأحد عشر ، فضرب لنا رسول الله ﷺ منها مثلًا ، وترك سائرها قال : « إِنَّ قَوْمًا كَانُوا أَهْلَ ضَعْفٍ وَمَسْكَنَةٍ ، قَاتَلَهُمْ أَهْلُ تَجَبُّرٍ وَعَدَاوَةٍ ، فَأَظْهَرَ اللهُ أَهْلَ الضَّعْفِ عَلَيْهِمْ ، فَعَمَدُوا إِلَى عَدُوِّهِمْ فَاسْتَعْمَلُوهُمْ وَسَلَّطُوهُمْ فَأَسْخَطُوا اللهَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ » (٣) هذا حديث حسن الإسناد ومعناه أن هؤلاء الضعفاء لما قدروا على الأقوياء فاعتدوا عليهم فاستعملوهم فيما لا يليق بهم ، أسخطوا الله عليهم بسبب هذا الاعتداء . ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس ، وقتل الرجال ، نبّه تعالى على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصد عن سبيله ، أبلغ وأشد وأعظم وأطم من القتل ، ولهذا قال : ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ قال أبو مالك : أي ما أنتم مقيمون عليه أكبر من القتل . وقوله : ﴿ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ كما جاء في الصحيحين « إِنَّ هَذَا البَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ ؛ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، وَلَمْ يَحِلَّ إِلَّا سَاعَةً مِنْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٢٨) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٣٥٢ ، ٣٥٨) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٤٠٧) .

نَهَار ، وَإِنَّهَا سَاعَتِي هَذِهِ ، حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، لا يُعْضَدُ شَجَرُهُ ، وَلاَ يُخْتَلَى خَلاَهُ ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُولُوا : إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ » (١) يعني بذلك صلوات الله وسلامه عليه قتاله أهله يوم فتح مكة ، فإنه فتحها عنوة ، وقتلت رجال منهم عند الخندمة ، وقيل : صلحًا لقوله : « مَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ المَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ » (٢) .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ يقول تعالى : ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام إلَّا أن يبدؤوكم بالقتال فيه ، فلكم حينئذ قتالهم وقتلهم دفعًا للصائل ، كما بايع النبي ﷺ أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال لما تألبت عليه بطون قريش ومن والاهم من أحياء ثقيف والأحابيش عامئذ ، ثم كف الله القتال بينهم فقال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي فإن تركوا القتال في الحرم ، وأنابوا إلى الإسلام والتوبة ، فإن الله يغفر ذنوبهم ، ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله ، فإنه تعالى لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب منه إليه ، ثم أمر الله بقتال الكفار ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أي شرك ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ أي يكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان ، فعن أبي موسى الأشعري قال : سئل النبيّ ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّه » (٣) . وفي الصحيحين « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا : لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّه ، فَإِذَا قَالُوهَا ؛ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّه » (٤)

وقوله : ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ يقول تعالى : فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك وقتال المؤمنين ، فكفوا عنهم ، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ، ولا عدوان إلَّا على الظالمين . وعن ابن عمر قال : أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا : إن الناس ضيعوا وأنت ابن عمر وصاحب النبيّ ﷺ فما يمنعك أن تخرج ؟ فقال : يمنعني أن الله حرم دم أخي ، قالا : ألم يقل الله : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ ؟ فقال : قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله ، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة وحتى يكون الدين لغير الله . وعن نافع أن رجلًا أتى ابن عمر فقال : يا أبا عبد الرحمن ، ما حملك على أن تحج عامًا وتقيم عامًا وتترك الجهاد في سبيل الله ﷻ ، وقد علمت ما رغب الله فيه ؟ فقال : يا ابن أخي ، بني الإسلام على خمس : الإيمان بالله ورسوله ، والصلاة الخمس ، وصيام رمضان ، وأداء الزكاة ، وحج البيت . قالوا : يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ قال : فعلنا على عهد رسوله ﷺ وكان الإسلام قليلًا ، فكان الرجل يفتن في دينه إما قتلوه أو عذبوه ، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة ، قال : فما قولك في علي وعثمان ؟ قال : أمّا عثمان : فكان الله عفا عنه ، وأما أنتم فكرهتم أن يعفو عنه ، وأمّا علي : فابن عم رسول الله ﷺ وختنه فأشار بيده فقال : هذا بيته حيث ترون .

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٥٨٧) وأحمد في مسنده (٢٥٩/١) والنسائي في السنن (٢٨٧٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٣٨/٢) .
(٣) أخرجه البخاري في العلم (١٢٣) والنسائي في السنن (٣١٣٦) وأحمد في مسنده (٣٩٧/٤) .
(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٤) وأحمد في مسنده (٣٧٧/٢) .

﴿ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ .

قال ابن عبّاس والضحاك والسدي وغيرهم : لما سار رسول اللّٰه ﷺ معتمرًا في سنة ست من الهجرة ، وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت ، وصدّوه بمن معه من المسلمين في ذي القعدة وهو شهر حرام ، حتى قاضاهم على الدخول من قابل فدخلها في السنة الآتية ، هو ومن كان من المسلمين وأقصه اللّٰه منهم ، فنزلت في ذلك هذه الآية ﴿ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ ﴾ . وعن جابر بن عبد اللّٰه قال : لم يكن رسول اللّٰه ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلَّا أن يغزى وتغزوا ، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ . ولهذا لما بلغ النبيّ ﷺ وهو مخيم بالحديبية أن عثمان قتل وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين ، بايع أصحابه وكانوا ألفًا وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين ، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل كف عن ذلك وجنح إلى المسالمة والمصالحة فكان ما كان . وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين وتحصن فلّهم بالطائف ، عدل إليها فحاصرها ودخل ذو القعدة وهو محاصر لها بالمنجنيق ، واستمر عليها إلى كمال أربعين يومًا ، كما ثبت في الصحيحين عن أنس ، فلما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها ولم تفتح ، ثم كر راجعًا إلى مكة واعتمر من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين (١) ، وكانت عمرته هذه في ذي القعدة أيضًا عام ثمان صلوات اللّٰه وسلامه عليه . وقوله : ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾ أمر بالعدل حتى في المشركين ، وعن ابن عبّاس أن قوله : ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾ نزلت بمكة حيث لا شوكة ولا جهاد ، ثم نسخ بآية القتال بالمدينة . وقد رد هذا القول ابن جرير ، وقال : بل الآية مدنية بعد عمرة القضاء ، وعزا ذلك إلى مجاهد رحمه الله . وقوله : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ أمر لهم بطاعة اللّٰه وتقواه ، وإخبار بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ .

قال حذيفة : نزلت في النفقة . وعن أسلم أبي عمران قال : حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه ومعنا أبو أيوب الأنصاري ، فقال ناس : ألقى بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : نحن أعلم بهذه الآية إنما نزلت فينا : صحبنا رسول اللّٰه ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه ، فلما فشا الإسلام وظهر اجتمعنا معشر الأنصار تحببًا ، فقلنا : قد أكرمنا اللّٰه بصحبة نبيه ﷺ ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله ، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد ، وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما فنزل فينا ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ ﴾ فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد (٢) .

وقال رجل للبراء بن عازب : إن حملت على العدو وحدي فقتلوني أكنت ألقيت بيدي إلى التهلكة ؟ قال : لا ، قال اللّٰه لرسوله : ﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ ﴾ وإنما هذه في النفقة ، وقال بعد قوله : ﴿ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ ﴾ : ولكن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب فيلقي بيده إلى التهلكة ولا يتوب (٣) .

---

(١) انظر البخاري في المغازي (٤٣٢٥) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٧٢) .
(٣) ذكره الطبري في تفسيره (٢/٢٧٧) .

وقال عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث :أنهم حاصروا دمشق ، فانطلق رجل من أزد شنوءة فأسرع إلى العدو وحده ليستقبل ، فعاب ذلك عليه المسلمون ، ورفعوا حديثه إلى عمرو بن العاص ، فأرسل إليه عمرو فرده ، وقال عمرو : قال الله : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ . وعن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ قال : ليس ذلك في القتال ، إنما هو في النفقة أن تمسك بيدك عن النفقة في سبيل الله ، ولا تلق بيدك إلى التهلكة . وعن الضحاك بن أبي جبير قال : كانت الأنصار يتصدقون وينفقون من أموالهم ، فأصابتهم سنة فأمسكوا عن النفقة في سبيل الله فنزلت ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ وقال الحسن البصري : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ قال : هو البخل . وعن النعمان بن بشير في قوله : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ : أن يذنب الرجل الذنب فيقول : لا يغفر لي ، فأنزل الله ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وعن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ قال : وذلك أن رجالًا كانوا يخرجون في بعوث يبعثها رسول الله ﷺ بغير نفقة ، فإما أن يقطع بهم وإما كانوا عيالًا فأمرهم الله أن يستنفقوا مما رزقهم الله ، ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة ، والتهلكة أن يهلك رجال من الجوع والعطش أو من المشي . وقال لمن بيده فضل : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ومضمون الآية الأمر بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات ، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء ، وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم ، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده ، ثم عطف بالأمر بالإحسان وهو أعلى مقامات الطاعة فقال : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

لما ذكر تعالى أحكام الصيام وعطف بذكر الجهاد ، شرع في بيان المناسك ، فأمر بإتمام الحج والعمرة ، وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما . ولهذا قال بعده : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ ﴾ أي صددتم عن الوصول إلى البيت ومنعتم من إتمامهما . ولهذا اتفق العلماء على أن الشروع في الحج والعمرة ملزم ، سواء قيل بوجوب العمرة أو باستحبابها كما هي قولان للعلماء ، وعن علي أنه قال في هذه الآية : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ قال : أن تحرم من دويرة أهلك ، وعن سفيان الثوري أنه قال في هذه الآية : إتمامهما أن تحرم من أهلك لا تريد إلّا الحج والعمرة ، وتهل من الميقات ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة ، حتى إذا كنت قريبًا من مكة قلت : لو حججت أو اعتمرت ، وذلك يجزئ ولكن التمام أن تخرج له ولا تخرج لغيره . وقال مكحول : إتمامهما إنشاؤهما جميعًا من الميقات . وعن الزهري قال : بلغنا أن عمر قال في قول الله : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ من تمامهما أن تفرد كل واحد منهما من الآخر ، وأن تعتمر في غير أشهر الحج ، إن الله تعالى يقول : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾ . وقال القاسم بن محمّد : إن العمرة في أشهر الحج ليست بتامة ، فقيل له فالعمرة

في المحرم قال : كانوا يرونها تامة . وهذا القول فيه نظر ، لأنه قد ثبت أن رسول الله ﷺ اعتمر أربع عمر كلها في ذي القعدة ، عمرة الحديبية في ذي القعدة سنة ست ، وعمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع ، وعمرة الجعرانة في ذي القعدة سنة ثمان ، وعمرته التي مع حجته أحرم بهما معًا في ذي القعدة سنة عشر ، وما اعتمر في غير ذلك بعد هجرته (١) ، ولكن قال لأم هانئ : « عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ حَجَّةً مَعِي » (٢) وما ذاك إلَّا لأنها كانت قد عزمت على الحج معه عليه الصلاة والسلام فاعتاقت عن ذلك بسبب الطهر ونص سعيد بن جبير على أنه من خصائصها .

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ : أي أقيموا الحج والعمرة . وقال ابن عباس : من أحرم بحج أو بعمرة فليس له أن يحل حتى يتمهما تمام الحج يوم النحر ، إذا رمى جمرة العقبة وطاف بالبيت وبالصفا والمروة فقد حل . وقال ابن عبّاس أيضًا : الحج عرفة والعمرة الطواف ، وكذا روي عن إبراهيم بن علقمة أنه قال : وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت . وعن إبراهيم أنه قرأ (وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت). وقرأ الشعبي ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ العمرةُ لِلَّهِ ﴾ برفع العمرة ، وقال : ليست بواجبة . وروي عنه خلاف ذلك ، وقد وردت أحاديث كثيرة من طرق متعددة عن أنس وجماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ جمع في إحرامه بحج وعمرة ، وثبت عنه في الصحيح أنه قال لأصحابه : « مَنْ كَانَ مَعَهُ هَدْيٌ فَلْيُهِلَّ بِحَجٍّ وَعُمْرَةٍ » (٣) وقال في الصحيح أيضًا : « دَخَلَتِ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » (٤) .

والذي ورد في الصحيحين عن يعلى بن أمية في قصة الرجل الذي سأل النبيّ ﷺ وهو بالجعرانة فقال : كيف ترى في رجل أحرم بالعمرة وعليه جبة وخلوق ، فسكت رسول الله ﷺ ثم جاءه الوحي ، ثم رفع رأسه فقال : « أَيْنَ السَّائِلُ » فقال : ها أنا ذا فقال : « أَمَّا الْجُبَّةُ فَانْزِعْهَا ، وَأَمَّا الطِّيبُ الَّذِي بِكَ فَاغْسِلْهُ ، ثُمَّ مَا كُنْتَ صَانِعًا فِي حَجِّكَ فَاصْنَعْهُ فِي عُمْرَتِكَ » (٥) .

وقوله : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ ذكروا أن هذه الآية نزلت في سنة ست ، أي عام الحديبية حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت ، وأنزل الله في ذلك سورة الفتح بكمالها ، وأنزل لهم رخصة أن يذبحوا ما معهم من الهدي ، وكان سبعين بدنة ، وأن يحلقوا رؤوسهم ، وأن يتحللوا من إحرامهم ، فعند ذلك أمرهم عليه الصلاة والسّلام بأن يحلقوا رؤوسهم ، وأن يتحللو فلم يفعلوا انتظارًا للنسخ ، حتى خرج فحلق رأسه ، ففعل الناس وكان منهم من قصّر رأسه ولم يحلقه ، فلذلك قال ﷺ : « رَحِمَ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ » قالوا : والمقصّرين يا رسول الله ؟ فقال في الثالثة : « وَالْمُقَصِّرِينَ » (٦) وقد كانوا اشتركوا في هديهم ذلك كل سبعة في بدنة ، وكانوا ألفًا وأربعمائة ، وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم ، وقيل : بل كانوا على طرف الحرم . ولهذا اختلف العلماء هل يختص الحصر بالعدو فلا يتحلل إلَّا من حصره عدو لا مرض ولا غيره ؟ على قولين :

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (١٧٨٠) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٢/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في الحج (١٦٣٨) وأحمد في مسنده (١٧٧/٦) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٣/١) والحاكم في المستدرك (٦١٩/٣) .
(٥) أخرجه البخاري في العمرة (١٧٨٩) وأحمد في مسنده (٢٢٤/٤) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (١١٩/٤) والبيهقي في السنن (١٣٤/٥) .

أولهما عن ابن عباس : لا حصر إلّا حصر العدو ، فأما من أصابه مرض أو وجع أو ضلال فليس عليه شيء ، إنما قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ ﴾ فليس الأمن حصرًا . والقول الثاني : أن الحصر أعم من أن يكون بعدو أو مرض أو ضلال وهو التوهان عن الطريق أو نحو ذلك ، وعن الحجاج بن عمرو الأنصاري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ كُسِرَ أَوْ وَجِعَ أَوْ عَرِجَ فَقَدْ حَلَّ ، وَعَلَيْهِ حَجَّةٌ أُخْرَى » (١) . قال : فذكرت ذلك لابن عبّاس وأبي هريرة فقالا : صدق وقال الثوري : الإحصار من كل شيء آذاه ، وثبت عن عائشة أن رسول الله ﷺ دخل على ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب فقالت : يا رسول الله إني أريد الحج وأنا شاكية ، فقال : « حُجِّي وَاشْتَرِطِي أَنَّ مَحلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي » (٢) فذهب من ذهب من العلماء إلى صحة الاشتراط في الحج لهذا الحديث ، وقد علق الإمام الشافعي القول بصحة هذا المذهب على صحة هذا الحديث .

وقوله : ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ عن علي بن أبي طالب أنه كان يقول : ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ شاة وهو مذهب الأئمة الأربعة . وقال ابن عبّاس : الهدي من الأزواج الثمانية ، من الإبل والبقر والمعز والضأن . وعن عائشة وابن عمر أنهما كانا لا يريان ما استيسر من الهدي إلّا من الإبل والبقر . قلت : والظاهر أن مستند هؤلاء فيما ذهبوا إليه قصة الحديبية ، فإنه لم ينقل عن أحد منهم أنه ذبح في تحلله ذلك شاة ، وإنما ذبحوا الإبل والبقر ، فعن جابر قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بقرة . وعن ابن عبّاس قال : بقدر يسارته . وقال : إن كان موسرًا فمن الإبل ، وإلّا فمن البقر ، وإلّا فمن الغنم . وقال عروة عن أبيه : إنما ذلك فيما بين الرخص والغلاء ، والدليل على صحة قول الجمهور فيما ذهبوا إليه من إجزاء ذبح الشاة في الإحصار أن الله أوجب ذبح ما استيسر من الهدي أي مهما تيسر مما يسمى هديًا ، والهدي من بهيمة الأنعام ، وهي الإبل والبقر والغنم ، وقد ثبت عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : أهدى النبيّ ﷺ مرة غنمًا (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ وليس معطوفًا على قوله : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ كما زعمه ابن جرير رحمه الله ، لأن النبيّ ﷺ وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم ، فأما في حالة الأمن والوصول إلى الحرم فلا يجوز الحلق ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ﴾ ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة إن كان قارنًا ، أو من فعل أحدهما إن كان مفردًا أو متمتعًا ، كما ثبت عن حفصة أنها قالت : يا رسول الله ما شأن الناس حلّوا من العمرة ولم تحلّ أنت من عمرتك ؟ فقال : « إِنِّي لَبَّدْتُ رَأْسِي وَقَلَّدْتُ هَدْيِي فَلاَ أُحِلُّ حَتَّى أَنْحَرَ» (٤) .

وقوله : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ عن كعب بن عجرة قال : أتى عليّ النبيّ ﷺ وأنا أوقد تحت قدر ، والقمل يتناثر على وجهي ، أو قال حاجبي ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤٥٠) والبيهقي في السنن (٥/٢٢٠) والحاكم في المستدرك (١/٤٧٠) .
(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٥/٢٢٢) وأحمد في مسنده (٦/١٦٤) .
(٣) أخرجه البخاري في الحج (١٧٠١) والبيهقي في السنن (٥/٢٣٢) .
(٤) أخرجه البخاري في الحج (١٥٦٦) وأحمد في مسنده (٦/٢٨٤) والبيهقي في السنن (٥/١٣٤) .

فقال : « يُؤْذِيكَ هَوَامُّ رَأْسِكَ ؟ » قلت : نعم ، قال : « فَاحْلِقْهُ وَصُمْ ثَلاثَةَ أَيَّام ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ ، أَوْ انسُكْ نَسِيكَةً » قال أيوب : لا أدري بأيتهن بدأ (١) .

قلت : وهو مذهب الأئمة الأربعة وعامة العلماء أنه يخير في هذا المقام ، إن شاء صام ، وإن شاء تصدّق بفرق ، وهو ثلاثة آصع لكل مسكين نصف صاع ، وهو مدَّان ، وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على الفقراء ، أي ذلك فعل أجزأه ، ولما كان لفظ القرآن في بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل ﴿ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ ولما أمر النبيّ ﷺ كعب بن عجرة بذلك ، أرشده إلى الأفضل ، فالأفضل فقال : انسك شاة ، أو أطعم ستة مساكين ، أو صم ثلاثة أيام (٢) ، فكل حسن في مقامه ولله الحمد والمنة .

سأل إبراهيم سعيد بن جبير عن هذه الآية ﴿ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ فأجاب بقول يحكم عليه طعام ، فإن كان عنده اشترى شاة ، وإن لم يكن قومت الشاة دراهم وجعل مكانها طعام فتصدق ، وإلَّا صام لكل نصف صاع يومًا . قال إبراهيم : كذلك سمعت علقمة يذكر قال : لما قال لي سعيد بن جبير : من هذا ما أظرفه ؟ قال : قلت : هذا إبراهيم ، فقال : ما أظرفه كان يجالسنا ، قال : فذكرت ذلك لإبراهيم قال : فلما قلت يجالسنا انتفض منها . وعن الحسن قال : إذا كان بالمحرم أذى من رأسه حلق ، وافتدى بأي هذه الثلاثة شاء ، والصيام عشرة أيام ، والصدقة على عشرة مساكين ، كل مسكين مكوكين مكوكًا من تمر ومكوكًا من بر ، والنسك شاة . وعن الحسن وعكرمة قالا : إطعام عشرة مساكين . وهذان القولان قولان غريبان فيهما نظر ، لأنه قد ثبتت السنّة في حديث كعب بن عجرة الصيام ثلاثة أيام لا ستة ، أو إطعام ستة مساكين ، أو نسك شاة ، وأن ذلك على التخيير كما دل عليه سياق القرآن ، وأما هذا الترتيب فإنما هو معروف في قتل الصيد كما هو نص القرآن ، وعليه أجمع الفقهاء هناك ، بخلاف هذا والله أعلم .

وعن طاووس أنه كان يقول : ما كان من دم أو طعام فبمكة ، وما كان من صيام فحيث شاء . وعن أبي أسماء مولى ابن جعفر قال : حجَّ عثمان بن عفان ومعه علي والحسين بن علي ، فارتحل عثمان ، قال أبو أسماء : وكنت مع ابن جعفر ، فإذا نحن برجل نائم وناقته عند رأسه ، قال : فقلت : أيها النائم ، فاستيقظ فإذا الحسين بن علي قال : فحمله ابن جعفر حتى أتينا به السقيا قال : فأرسل إلي علي ومعه أسماء بنت عميس قال : فمرضناه نحوًا من عشرين ليلة ، قال : قال علي للحسين : ما الذي تجد ؟ قال : فأومأ بيده إلى رأسه قال : فأمر به علي فحلق رأسه ، ثم دعا ببدنة فنحرها ، فإن كانت هذه الناقة عن الحلق ففيه أنه نحرها دون مكة ، وإن كانت عن التحلل فواضح .

وقوله : ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ أي فإذا تمكنتم من أداء المناسك ، فمن كان منكم متمتعًا بالعمرة إلى الحج ، وهو يشمل من أحرم بهما ، أو أحرم بالعمرة أولًا ، فلما فرغ منها أحرم بالحج ، وهذا هو التمتع الخاص ، وهو المعروف في كلام الفقهاء ، والتمتع العام يشمل القسمين كما دلت عليه الأحاديث الصحاح ، فإن من الرواة من يقول : تمتع رسول الله ﷺ وآخر يقول : قرن ، ولا خلاف أنه ساق هديًا ، وقال تعالى : ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ أي فليذبح ما قدر

(١) أخرجه البيهقي في السنن (١٨٧/٥) والترمذي في السنن (٢٩٧٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤١/٤) .

عليه من الهدي ، وأقله شاة ، وله أن يذبح البقر ؛ لأن رسول الله ﷺ ذبح عن نسائه البقر . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ذبح البقر عن نسائه وكن متمتعات (١) . وفي هذا دليل على مشروعية التمتع كما جاء في الصحيحين عن عمران بن حصين قال : نزلت آية المتعة في كتاب الله ، وفعلناها مع رسول الله ﷺ ، ثم لم ينزل قرآن يحرمها ، ولم ينه عنها حتى مات ، قال رجل برأيه ما شاء . قال البخاري : يقال إنه عمر (٢) وهذا الذي قاله البخاري قد جاء مصرحًا به أن عمر كان ينهى الناس عن التمتع ، ويقول : إن نأخذ بكتاب الله فإن الله يأمر بالتمام يعني قوله : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ وفي نفس الأمر لم يكن عمر رضي الله عنه ينهى عنها محرمًا لها ، إنما كان ينهى عنها ليكثر قصد الناس للبيت حاجين ومعتمرين .

وقوله : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ يقول تعالى : فمن لم يجد هديًا فليصم ثلاثة أيام في الحج أي في أيام المناسك ، قال العلماء : والأولى أن يصومها قبل يوم عرفة في العشر ، أو من حين يحرم لقوله في الحج . ومنهم من يجوز صيامها من أول شوّال ، وجوز الشعبي صيام يوم عرفة وقبله يومين . وقال ابن عبّاس : إذا لم يجد هديًا فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة ، فإذا كان يوم عرفة الثالث ، فقد تم صومه ، وسبعة إذا رجع إلى أهله ، وعن ابن عمر قال : يصوم يومًا قبل يوم التروية ، ويوم التروية ، ويوم عرفة . فلو لم يصمها أو بعضها قبل العيد ، فهل يجوز أن يصومها في أيام التشريق ؟ فيه قولان للعلماء وهما للإمام الشافعي أيضًا : القديم منهما أنه يجوز له صيامها ، لقول عائشة وابن عمر : لم يرخص في أيام التشريق أن يصمن إلّا لمن لا يجد الهدي . وعن علي أنه كان يقول : من فاته صيام ثلاثة أيام في الحج صامهن أيام التشريق . وإنما قيل ذلك لعموم قوله : ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ ﴾ والجديد من القولين أنه لا يجوز صيامها أيام التشريق ، لما روي عنه ﷺ : « أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرِ اللَّهِ عز وجل » (٣) .

وقوله : ﴿ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ فيه قولان : أحدهما : إذا رجعتم إلى رحالكم ، ولهذا قال مجاهد : هي رخصة إذا شاء صامها في الطريق ، الثاني : إذا رجعتم إلى أوطانكم . عن سالم بن عمر قال : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ قال : إذا رجع إلى أهله . وحكى على ذلك أبو جعفر ابن جرير الإجماع . وعن ابن عمر قال : تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج . وأهدى ، فساق معه الهدي من ذي الحليفة فأهلّ بعمرة ، ثم أهلّ بالحج ، فتمتع الناس مع رسول الله ﷺ ، وبدأ رسول الله ﷺ بالعمرة إلى الحج ، فكان من الناس من أهدى فساق الهدي ، ومنهم من لم يهد ، فلما قدم النبيّ ﷺ مكة قال للناس : « مَنْ كَانَ مِنْكُمْ أَهْدَى ؛ فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لِشَيْءٍ حُرِمَ مِنْهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَجَّهُ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنكُمْ أَهْدَى ؛ فَلْيَطُفْ بِالْبَيْتِ ، وَبِالصَّفَا وَالمَرْوَةِ ، وَلْيُقَصِّرْ ، وَلْيُحْلِلْ ، ثُمَّ لِيُهِلَّ بِالحَجِّ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَدْيًا ؛ فَلْيَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الحَجِّ ، وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ » (٤) .

وقوله : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ قيل تأكيد ، كما تقول العرب : رأيت بعيني وسمعت بأذني ، وقيل : معنى ﴿ كَامِلَةٌ ﴾ الأمر بإكمالها وإتمامها . وقيل : معنى ﴿ كَامِلَةٌ ﴾ أي مجزئة عن الهدي . وعن

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٦٧/١) والبيهقي في السنن (٣٥٣/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥١٨) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٥) والبيهقي في السنن (٣١٢/٣) .

(٤) أخرجه البخاري في الحج (١٦٩١) والبيهقي في السنن (١٧٠/٥) وأحمد في مسنده (١٤٠/٢) والنسائي في السنن (٢٧٣٢) .

الحسن البصري في قوله : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ قال من الهدي .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ قال ابن جرير : واختلف أهل التأويل فيمن عنى بقوله : ﴿ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ بعد إجماع جميعهم على أن أهل الحرم معنيون به ، وأنه لا متعة لهم ، فقال بعضهم : عني بذلك أهل الحرم خاصة دون غيرهم . قال ابن عبّاس : هم أهل الحرم . وقال قتادة : ذكر لنا أن ابن عبّاس كان يقول : يا أهل مكة لا متعة لكم ، أحلت لأهل الآفاق وحرمت عليكم ، إنما يقطع أحدكم واديًا – أو قال : يجعل بينه وبين الحرم واديًا – ثم يهلّ بعمرة . وقال طاوس عن أبيه : المتعة للناس لا لأهل مكة ، من لم يكن أهله من الحرم . وكذا قول الله ﷻ : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ وقال آخرون : هم أهل الحرم ومن بينه وبين المواقيت . وعن عطاء قال : من كان أهله دون المواقيت فهو كأهل مكة لا يتمتع . وقال عطاء : عرفة ومزدلفة وعرنة والرجيع . وقال الزهري : من كان أهله على يوم أو نحوه تمتع . وفي رواية عنه : اليوم واليومين . واختار ابن جرير في ذلك مذهب الشافعي : أنهم أهل الحرم ومن كان منه على مسافة لا يقصر فيها الصلاة ؛ لأن من كان كذلك يعد حاضرًا لا مسافرًا ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي فيما أمركم ونهاكم ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أي لمن خالف أمره وارتكب ما عنه زجره .

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

اختلف أهل العربية في قوله : ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾ فقال بعضهم : تقديره الحج حج أشهر معلومات ، فعلى هذا التقدير يكون الإحرام بالحج فيها أكمل من الإحرام فيما عداها ، وإن كان ذاك صحيحًا ، والقول بصحة الإحرام بالحج في جميع السنة مذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية واحتج لهم بقوله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ وبأنه أحد النسكين ، فصح الإحرام به في جميع السنة كالعمرة . وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه لا يصح الإحرام بالحج إلّا في أشهره ، فلو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه به ، وهل ينعقد عمرة ؟ فيه قولان عنه . والقول بأنه لا يصح الإحرام بالحج إلّا في أشهره مروي عن ابن عبّاس وجابر ، وبه يقول عطاء وطاوس ومجاهد رحمهم الله ، والدليل عليه قوله : ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾ وظاهره التقدير الآخر الذي ذهب إليه النحاة ، وهو أن وقت الحج أشهر معلومات ، فخصصه بها من بين سائر شهور السنة ، فدل على أنه لا يصح قبلها كميقات الصلاة . وقال الشافعي رحمه الله : لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحجّ إلّا في شهور الحجّ من أجل قول الله تعالى : ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾ وعن ابن عبّاس أنه قال : من السنّة أن لا يحرم بالحجّ إلّا في أشهر الحجّ . وقول الصحابي من السنّة ، كذا في حكم المرفوع عند الأكثرين .

وقوله : ﴿ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾ عن ابن عمر قال : شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة . قلت : وهو مروي عن عمر وعلي وابن مسعود وعبد الله بن الزبير وابن عبّاس وعطاء وطاووس ومجاهد وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وأبي يوسف وأبي ثور رحمهم الله ، واختار هذا القول ابن جرير : قال : وصح إطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث للتغليب ، كما تقول العرب رأيته العام ورأيته اليوم ، وإنما وقع

ذلك في بعض العام واليوم ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ وإنما تعجل في يوم ونصف (١) . وقال الإمام مالك بن أنس والشافعي في القديم : هي شوَّال وذو القعدة وذو الحجَّة بكماله . وهو رواية عن ابن عمر أيضًا .

وفائدة مذهب مالك : أنه إلى آخر ذي الحجة بمعنى أنه مختص بالحجّ ؛ فيكره الاعتمار في بقية ذي الحجّة لا أنه يصح الحجّ بعد ليلة النحر . قال عبد اللّه : الحج أشهر معلومات ليس فيها عمرة . قال ابن جرير : وإنما أراد من ذهب إلى أن أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة أن هذه الأشهر ليست أشهر العمرة ، إنما هي للحج وإن كان عمل الحج قد انقضى بانقضاء أيام منى ، قال محمّد بن سيرين : ما أحد من أهل العلم يشك في أن عمرة في غير أشهر الحج أفضل من عمرة في أشهر الحج . وقال ابن عون : سألت القاسم بن محمّد عن العمرة في أشهر الحج فقال : كانوا لا يرونها تامة قلت : وقد ثبت عن عمر وعثمان ﵄ أنهما كانا يحبان الاعتمار في غير أشهر الحج وينهيان عن ذلك في أشهر الحجّ ، واللّه أعلم .

وقوله : ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ ﴾ أي أوجب بإحرامه حجًا ، فيه دلالة على لزوم الإحرام بالحج والمضي فيه . قال ابن جرير : أجمعوا على أن المراد من الفرض ههنا الإيجاب والإلزام . وقال ابن عبّاس ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ ﴾ يقول : من أحرم بحج أو عمرة . وقال عطاء : الفرض الإحرام وكذا قال إبراهيم والضحاك وغيرهم . وروي عن ابن عبّاس أنه قال : ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ ﴾ فلا ينبغي أن يلبي بالحج ، ثم يقيم بأرض . وقال طاووس والقاسم بن محمّد : هو التلبية .

وقوله : ﴿ فَلَا رَفَثَ ﴾ أي من أحرم بالحجّ أو العمرة فليجتنب الرفث ، وهو الجماع ، وكذلك يحرم تعاطي دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك ، وكذلك التكلُّم به بحضرة النساء . قال عبد اللّه بن عمر : الرفث إتيان النساء ، والتكلم بذلك للرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم . وعن ابن عبّاس أنه كان يحدو وهو محرم وهو يقول :

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسا إِنْ تَصْدُقِ الطَّيْرُ نَنِكْ لَمِيسا (٢)

قال أبو العالية : فقلت : تتكلم بالرفث وأنت محرم ؟ قال : إنما الرفث ما قيل عند النساء .

وقال عبد اللّه بن طاووس عن أبيه : سألت ابن عبّاس عن قول اللّه ﷿ : ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ ﴾ قال : الرفث التعريض بذكر الجماع ، وهي العرابة في كلام العرب وهو أدنى الرفث . وقال عطاء بن أبي رباح : الرفث الجماع وما دونه من قول الفحش . وقال طاووس : هو أن يقول للمرأة : إذا حللت أصبتك . وقال ابن عبّاس : الرفث غشيان النساء ، والقبلة ، والغمز ، وأن تعرض لها بالفحش من الكلام .

وقوله : ﴿ وَلَا فُسُوقَ ﴾ هي المعاصي ، وكذا قال عطاء ومجاهد وغيرهما ، وقال ابن عمر : الفسوق ما أصيب من معاصي اللّه ، صيدًا أو غيره . وعن نافع أن عبد اللّه بن عمر كان يقول : الفسوق إتيان معاصي اللّه في الحرم . وقال آخرون : الفسوق ههنا السباب ، ويتمسك لهؤلاء بما ثبت في الصحيح : « سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ » (٣)، وقال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم : الفسوق ههنا الذبح

---

(١) ذكره ابن جرير في تفسيره (٣٥٣/٢) .

(٢) الهميس : الصوت الخفي الذي لا غور له في الكلام والوطء والأكل ، ولميس : اسم ناقته .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٨) والنسائي في السنن (٤١٠٥) وأحمد في مسنده (٣٨٥/١) .

للأصنام ، قال الله تعالى : ﴿ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ . وقال الضحّاك : الفسوق التنابز بالألقاب . والذين قالوا الفسوق ههنا هو جميع المعاصي الصواب معهم ، كما نهى تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم وإن كان في جميع السنة منهيًا عنه ، إلّا أنه في الأشهر الحرم آكد ، ولهذا قال : ﴿ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ وقال في الحرم : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ واختار ابن جرير أن الفسوق ههنا هو ارتكاب ما نهي عنه في الإحرام ، من قتل الصيد ، وحلق الشعر ، وقلم الأظفار ونحو ذلك (١) ، وما ذكرناه أولى ، والله أعلم . وقد ثبت عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ حَجَّ هَذَا البَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ ، وَلَمْ يَفْسُقْ ؛ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » (٢) .

وقوله : ﴿ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ فيه قولان : أحدهما : ولا مجادلة في وقت الحجّ في مناسكه ، وقد بيّنه الله أتم بيان ، ووضحه أكمل إيضاح . فالجدال في الحج : المراء في الحج . قال مالك : قال الله تعالى : ﴿ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ فالجدال في الحج – والله أعلم – أن قريشًا كانت تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة ، وكانت العرب وغيرهم يقفون بعرفة ، وكانوا يتجادلون ، يقول هؤلاء : نحن أصوب ، ويقول هؤلاء : نحن أصوب . وقال القاسم بن محمد : الجدال في الحج أن يقول بعضهم الحج غدًا ، ويقول بعضهم : الحج اليوم ، وقد اختار ابن جرير مضمون هذه الأقوال وهو قطع التنازع في مناسك الحج والله أعلم .

والقول الثاني : أن المراد بالجدال ههنا المخاصمة . فعن عبد الله بن مسعود قال : أن تماري صاحبك حتى تغضبه . وعن ابن عبّاس : المراء والملاحاة حتى تغضب أخاك وصاحبك ، فنهى الله عن ذلك . وعن عكرمة : الجدال الغضب ، أن تغضب عليك مسلمًا ، إلا أن تستعتب مملوكًا فتغضبه من غير أن تضربه ، فلا بأس عليك إن شاء الله . قلت : ولو ضربه لكان جائزًا سائغًا . والدليل على ذلك ما روي عن أسماء بنت أبي بكر قالت : خرجنا مع رسول الله ﷺ حجاجًا حتى إذا كنا بالعرج نزل رسول الله ﷺ فجلست عائشة إلى جنب رسول الله ﷺ ، وجلست إلى جنب أبي ، وكانت زمالة أبي بكر وزمالة رسول الله ﷺ واحدة مع غلام أبي بكر ، فجلس أبو بكر ينتظره إلى أن يطلع عليه ، فاطلع وليس معه بعيره فقال : أين بعيرك ؟ فقال : أضللته البارحة ، فقال أبو بكر : بعير واحد تضله ! فطفق يضربه ورسول الله ﷺ يتبسم ويقول : « انْظُرُوا إِلَى هَذَا المُحْرِمِ مَا يَصْنَعُ » (٣) . ومن هذا الحديث حكى بعضهم عن بعض السلف أنه قال : من تمام الحج ضرب الجمال ، ولكن يستفاد من قول النبيّ ﷺ عن أبي بكر ﷺ : « انْظُروا إِلَى هَذَا المُحْرِمِ مَا يَصْنَعُ » كهيئة الإنكار اللطيف أن الأولى ترك ذلك ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ لما نهاهم عن إتيان القبيح قولًا وفعلًا ، حثّهم على فعل الجميل ، وأخبرهم أنه عالم به ، وسيجزيهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة .

قوله : ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ قال ابن عبّاس : كان أناس يخرجون من أهليهم ليست معهم أزودة ، يقولون : نحج بيت الله ولا يطعمنا ؟ فقال الله : تزودوا ما يكف وجوهكم عن الناس . وعن عكرمة عن ابن عبّاس قال : كان أهل اليمن يحجّون ولا يتزودون ، ويقولون : نحن المتوكلون ، فأنزل الله

(١) انظر تفسير الطبري (٢/٣٦٦) .
(٢) أخرجه البخاري في المحصر (١٨١٩) وأحمد في مسنده (٢/٤١٠) والبيهقي في السنن (٥/٢٦١) والنسائي في السنن (٢٦٢٧) .
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/٤٥٤) والنسائي في السنن (١٣٩٧) وأحمد في مسنده (٦/٣٤٤) .

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ [(١)]. وعن ابن عمر قال : كانوا إذا أحرموا ومعهم أزوادهم رموا بها واستأنفوا زادًا آخر ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ فنهوا عن ذلك وأمروا أن يتزودوا الدقيق والسويق والكعك . وعن سعيد بن جبير ﴿ وَتَزَوَّدُوا ﴾ قال الخشكنانج والسويق .

وقوله : ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا ، أرشدهم إلى زاد الآخرة وهو استصحاب التقوى إليها لما ذكر اللباس الحسي نبه مرشدًا إلى اللباس المعنوي ، وهو الخشوع والطاعة والتقوى ، وذكر أنه خير من هذا وأنفع . قال عطاء الخراساني في قوله : ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ يعني زاد الآخرة .

وقوله : ﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ يقول : واتقوا عقابي ونكالي وعذابي لمن خالفني ولم يأتمر بأمري ، يا ذوي العقول والأفهام .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾ .

عن ابن عبّاس قال : كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقًا في الجاهلية فتأثموا أن يتجروا في الموسم فنزلت : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ في مواسم الحجّ [(٢)]. ولبعضهم فلما جاء الإسلام تأثموا أن يتجروا ، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله هذه الآية . وعن ابن عبّاس أيضًا قال : كان متجر الناس في الجاهلية عكاظ ومجنة وذو المجاز ، فلما كان الإسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت هذه الآية . وروي عن مجاهد عن ابن عبّاس قال : كانوا يتقون البيوع والتجارة في الموسم والحجّ ، يقولون : أيام ذكر ، فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ وقال : لا حرج عليكم في الشراء والبيع ، قبل الإحرام وبعده . وعن عطاء عن ابن عبّاس أنه كان يقرأ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ في مواسم الحج . وعن أبي أمامة التيمي قال : قلت لابن عمر : إنا نكري فهل لنا من حج ؟ قال : أليس تطوفون بالبيت ، وتأتون المعرف ، وترمون الجمار ، وتحلقون رؤوسكم ؟ قال : قلنا : بلى ، فقال ابن عمر : جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فسأله عن الذي سألتني ، فلم يجبه حتى نزل عليه جبرائيل بهذه الآية ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فدعاه النبيّ ﷺ فقال : « أَنْتُمْ حُجَّاجٌ » [(٣)].

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ إنما صرف عرفات وإن كان علمًا على مؤنث ؛ لأنه في الأصل جمعٌ كمسلمات ومؤمنات ، سمي به بقعة معينة ، فروعي فيه الأصل فصرف . اختاره ابن جرير . وعرفة موضع الوقوف في الحجّ ، وهي عمدة أفعال الحجّ ، ولهذا روي عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الحَجُّ عَرَفَات - ثلاثًا - فَمَنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الفَجْرُ فَقَدْ أَدْرَكَ ، وَأَيَّامُ مِنًى ثَلَاثَةٌ ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ » [(٤)] ووقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٩٠٢٨) وهو ضعيف . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥١٩) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦٤٤٤) .
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٧٨/٢) وأحمد في مسنده (٣٠٩/٤) ، والبيهقي في السنن (١١٦/٥) .

طلوع الفجر الثاني من يوم النحر ؛ لأن النبيَّ ﷺ وقف في حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس وقال : « لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ »(١) وقال في هذا الحديث : « فَمَنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الفَجْرُ فَقَدْ أَدْرَكَ » وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي رحمهم الله ، وذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة ، واحتجوا بحديث الشعبي عن عروة بن مضرس بن حارثة بن لام الطائي قال : أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة ، فقلت : يا رسول الله ، إني جئت من جبل طيئ أكللت راحلتي ، وأتعبت نفسي ، والله ما تركت من جبل إلّا وقفت عليه ، فهل لي من حج ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ شَهِدَ صَلاتَنَا هَذِهِ فَوَقَفَ مَعَنَا حَتَّى نَدْفَعَ ، وَقَدْ وَقَفَ بِعَرَفَةَ قَبْلَ ذَلِكَ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَقَدْ تَمَّ حَجُّهُ ، وَقَضَى تَفَثَهُ »(٢) . قال علي بن أبي طالب : بعث الله جبريل عليه السلام إلى إبراهيم ﷺ فحج به حتى إذا أتى عرفة قال : عرفت ، وكان قد أتاها مرة قبل ذلك ، فلذلك سميت عرفة . وعن عطاء قال : إنما سميت عرفة أن جبريل كان يري إبراهيم المناسك فيقول : عرفت عرفت ، فسميت عرفات . وتسمى عرفات المشعر الحرام والمشعر الأقصى وإلال على وزن هلال ، ويقال للجبل في وسطها جبل الرحمة ، قال أبو طالب في قصيدته المشهورة :

وَبِالْمَشْعَرِ الأَقْصَى إِذَا قَصَدُوا لَهُ إِلَالٌ إِلَى تِلْكَ الشِّرَاجِ القَوَابِلِ

وعن ابن عبّاس قال : كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة ، حتى إذا كانت الشمس على رءوس الجبال كأنها العمائم على رءوس الرجال دفعوا ، فأخّر رسول الله ﷺ الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس . وعن المسور بن مخرمة قال : خطبنا رسول الله ﷺ وهو بعرفات ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أَمَّا بَعْدُ - وَكان إذا خطب خطبة قال : أما بعد - فَإِنَّ هَذَا اليَوْمَ الحَجُّ الأَكْبَرُ ، أَلاَ وَإِنَّ أَهْلَ الشِّرْكِ وَالأَوْثَانِ كَانُوا يَدْفَعُونَ فِي هَذَا اليَوْمِ قَبْلَ أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ ، إِذَا كَانَتِ الشَّمْسُ فِي رُءُوسِ الجِبَالِ كَأَنَّهَا عَمَائِمُ الرِّجَالِ فِي وُجُوهِهَا ، وَإِنَّا نَدْفَعُ بَعْدَ أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ ، وَكَانُوا يَدْفَعُونَ مِنَ المَشْعَرِ الحَرَامِ بَعْدَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ ، إِذَا كَانَتِ الشَّمْسُ فِي رُءُوسِ الجِبَالِ كَأَنَّهَا عَمَائِمُ الرِّجَالِ فِي وُجُوهِهَا ، وَإِنَّا نَدْفَعُ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مُخَالِفًا هَدْيُنَا هَدْيَ أَهْلِ الشِّرْكِ »(٣) . وعن المعرور بن سويد قال : رأيت عمر رضي الله عنه حين دفع من عرفة كأني أنظر إليه رجل أصلع على بعير له يوضع ، وهو يقول : إنا وجدنا الإفاضة هي الإيضاع . وفي حديث جابر بن عبد الله الذي قال فيه : فلم يزل واقفًا - يعني بعرفة - حتى غربت الشمس ، وبدت الصفرة قليلًا ، حتى غاب القرص ، وأردف أسامة خلفه ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام ، حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله ويقول بيده اليمنى : « أَيُّهَا النَّاسُ السَّكِينَةَ السَّكِينَةَ »(٤) كلما أتى جبلًا من الجبال أرخى لها قليلًا حتى تصعد ، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبّح بينهما شيئًا ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة ، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعا الله وكبّره وهلّله ووحّده ، فلم يزل واقفًا حتى أسفر جدًّا ، فدفع قبل أن تطلع الشمس . وعن أسامة بن زيد أنه سئل كيف كان يسير رسول الله ﷺ حين دفع ؟ قال : كان

---

(١) سبق تخريجه. (٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٥٢/١٧) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٢٢/١) .

(٤) أخرجه البخاري في الحج (١٦٧١) وأحمد في مسنده (٢٠١/٥) .

يسير العنق ، فإذا وجد فجوة نص (١) . والعنق هو انبساط السير ، والنص فوقه .

وعن عمرو بن ميمون سألت عبد الله بن عمرو عن المشعر الحرام ، فسكت حتى إذا هبطت أيدي رواحلنا بالمزدلفة قال : أين السائل عن المشعر الحرام ؟ هذا المشعر الحرام . وقال ابن عمر : المشعر الحرام المزدلفة كلها . وعن إبراهيم قال : رآهم ابن عمر يزدحمون على قزح ، فقال : على ما يزدحم هؤلاء ؟ كل ما ههنا مشعر . وروي عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وغيرهم أنهم قالوا : هو ما بين الجبلين .

قلت : والمشاعر هي المعالم الظاهرة ، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام لأنها داخل الحرم ، وهل الوقوف بها ركن في الحج لا يصح إلّا به كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض أصحاب الشافعي منهم القفال وابن خزيمة لحديث عروة بن مضرس ؛ أو واجب كما هو أحد قولي الشافعي يجبر بدم ، أو مستحب لا يجب بتركه شيء كما هو القول الآخر ؛ في ذلك ثلاثة أقوال للعلماء لبسطها موضع آخر غير هذا ، والله أعلم . وعن جبير بن مطعم عن النبيّ ﷺ قال : « كُلُّ عَرَفَاتٍ مَوْقِفٌ ، وَارْفَعُوا عَنْ عَرَفَاتٍ ، وَكُلُّ مُزْدَلِفَةٍ مَوْقِفٌ ، وَارْفَعُوا عَنْ مُحَسِّرٍ ، وَكُلُّ فِجَاجِ مَكَّةَ مَنْحَرٌ ، وَكُلُّ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ذَبْحٌ » (٢) .

وقوله : ﴿ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ ﴾ تنبيه لهم على ما أنعم الله به عليهم من الهداية والبيان ، والإرشاد إلى مشاعر الحجّ ، على ما كان عليه من الهداية إبراهيم الخليل عليه السلام ولهذا قال : ﴿ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قيل : من قبل هذا الهدى ، وقبل القرآن ، وقبل الرسول ، والكل متقارب ومتلازم وصحيح .

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ثم ههنا لعطف خبر على خبر ، وترتيبه عليه ، كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يدفع إلى المزدلفة ليذكر الله عند المشعر الحرام ، وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات ، كما كان جمهور الناس يصنعون يقفون بها إلّا قريشًا ، فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم ، فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحل ، ويقولون : نحن أهل الله في بلدته وقطان بيته . وعن عائشة قالت : كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون الحمس (٣) ، وسائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيّه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها ، ثم يفيض منها ، فذلك قوله : ﴿ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ (٤) ثم روى عن ابن عبّاس ما يقتضي أن المراد بالإفاضة ههنا هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمي الجمار (٥) ، فالله أعلم . قال : والمراد بالناس إبراهيم عليه السلام ، وفي رواية عند الإمام وقال ابن جرير : ولولا إجماع الحجة على خلافه لكان هو الأرجح (٦) .

وقوله : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ كثيرًا ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات ، ولهذا

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٥/١١٩) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٨٢) والحاكم في المستدرك (١/٤٦٠) والبيهقي في السنن (٩/٢٩٥) .
(٣) الحمس : هم قريش وخزاعة ، لنزولها مكة ومجاورتها قريش ، وهم كل من ولدت قريش من العرب وكنانة وجديلة ، قيل : وهم فهم وعدوان ، وكل من نزل لكل من قبائل العرب ، والأحمس المتشدد في دينه الصلب .
(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٢٠) .
(٥) انظر البخاري في تفسير القرآن (٤٥٢١) .
(٦) انظر تفسير الطبري (٢/٣٩٩) .

ثبت أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثًا (١) . وفي الحديث أنه ندب إلى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثًا وثلاثين (٢) . وقد روى ابن جرير ههنا حديث ابن عبّاس بن مرداس السلمي في استغفاره ﷺ لأمته عشية عرفة ، عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : « سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ العَبْدُ : اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَه إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي ، فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ . مَنْ قَالَهَا فِي لَيْلَةٍ فَمَاتَ فِي لَيْلَتِهِ دَخَلَ الجَنَّةَ ، وَمَنْ قَالَهَا فِي يَوْمِهِ فَمَاتَ دَخَلَ الجَنَّةَ » (٣) . وعن عبد الله بن عمر أن أبا بكر قال : يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي فقال : « قُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا ، وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ » (٤) والأحاديث في الاستغفار كثيرة .

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

يأمر تعالى بذكره ، والإكثار منه بعد قضاء المناسك وفراغها وقوله : ﴿ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ ﴾ اختلفوا في معناه فقال عطاء : هو كقول الصبي أبه أمه ، يعني كما يلهج الصبي بذكر أبيه وأمه ، فكذلك أنتم فالهجوا بذكر الله بعد قضاء النسك . وقال ابن عباس : كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم : كان أبي يطعم ويحمل الحمالات ويحمل الديات ، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم ، فأنزل الله على محمّد ﷺ ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ والمقصود منه الحث على كثرة الذكر لله ﷻ ، ولهذا كان انتصاب قوله : ﴿ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ على التمييز ، تقديره كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا ، وأو ههنا لتحقيق المماثلة في الخبر كقوله : ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ فليست ههنا للشك قطعًا ، وإنما هي لتحقيق المخبر عنه كذلك أو أزيد منه .

ثم إنه تعالى أرشد إلى دعائه بعد كثرة ذكره ، فإنه مظنة الإجابة ، وذم من لا يسأله إلّا في أمر دنياه وهو معرض عن أخراه فقال : ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ أي من نصيب ولاحظ وتضمن هذا الذم والتنفير عن التشبه بمن هو كذلك . قال سعيد بن جبير عن ابن عبّاس : كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون : اللّهمّ اجعله عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن ، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئًا ، فأنزل الله فيهم ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ وكان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ فأنزل الله ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ ولهذا مدح من يسأله الدنيا والأخرى فقال : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٧٣/١) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٥٣/١) والترمذي في السنن (٣٤/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٠٦) وأحمد في مسنده (١٢٢/٤) .
(٤) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٢٦) وأحمد في مسنده (٣/١ ، ٧) .

ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا ، وصرفت كل شر ، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية ، ودار رحبة ، وزوجة حسنة ، ورزق واسع ، وعلم نافع ، وعمل صالح ، ومركب هين ، وثناء جميل ، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين ، ولا منافاة بينها فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا . وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة ، وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات ، وتيسير الحساب ، وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة ، وأما النجاة من الناس فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام . وقال القاسم أبو عبد الرحمن : من أعطي قلبًا شاكرًا ولسانًا ذاكرًا وجسدًا صابرًا ، فقد أوتي في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، ووقي عذاب النار . ولهذا وردت السنة بالترغيب في هذا الدعاء ، فعن أنس ابن مالك : كان النبيّ ﷺ يقول : « اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » (١) وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها ، أو إذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه . وعن شداد يعني أبا طالوت قال : كنت عند أنس بن مالك فقال له ثابت : إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم ، فقال : « اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّار » وتحدثوا ساعة ، حتى إذا أرادوا القيام قال : يا أبا حمزة : إن إخوانك يريدون القيام فادع الله لهم فقال : أتريدون أن أشقق لكم الأمور ، إذا آتاكم الله في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، ووقاكم عذاب النار ، فقد آتاكم الخير كله .

وعن أنس أن رسول الله ﷺ عاد رجلًا من المسلمين قد صار مثل الفرخ ، فقال له رسول الله ﷺ : « هَلْ تَدْعُو اللَّه بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ ؟ » قَالَ : نَعَمْ . كنت أقول : اللَّهمّ ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا . فقال رسول الله ﷺ : « سُبْحَانَ اللَّه لا تُطِيقُهُ - أو لا تستطيعه - فَهَلاَّ قُلْتَ : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ » قال : « فَدَعَا اللَّه فَشَفَاهُ » (٢) . وعن سعيد بن جبير قال : جاء رجل إلى ابن عبّاس قال : إني أجرت نفسي من قوم على أن يحملوني ، ووضعت لهم من أجرتي على أن يدعوني أحج معهم ، أفيجزي ذلك ، فقال : أنت من الذين قال الله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ .

﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : الأيام المعدودات أيام التشريق ، والأيام المعلومات أيام العشر . وقال عكرمة ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ ﴾ يعني التكبير في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات ، اللَّه أكبر اللَّه أكبر . وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « يَوْمُ عَرَفَةَ ، وَيَوْمُ النَّحْرِ ، وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ ؛ عِيدُنَا أَهْلَ الإِسْلاَمِ ، وَهِيَ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ » (٣) . وعن مسعود بن الحكم الزرقي عن أمه قالت : لكأني أنظر إلى عليّ على بغلة رسول اللَّه ﷺ البيضاء ، حتى وقف على شعب الأنصار وهو يقول : يا أيها الناس إنها ليست بأيام صيام ، إنما هي أيام أكل وشرب وذكر اللَّه . وعن ابن عبّاس : الأيام

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٨٩) وأحمد في مسنده (١٠٧/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٣) والترمذي في السنن (٣٤٨٧) وأحمد في مسنده (١٠٧/٣) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٢٩٨/٤) والحاكم في المستدرك (٤٣٤/١) .

المعدودات أيام التشريق أربعة أيام ؛ يوم النحر ، وثلاثة بعده . وروي عن ابن عمر وابن الزبير وأبي موسى وغيرهم مثل ذلك . وقال علي بن أبي طالب : هي ثلاثة أيام ويومان بعده ، اذبح في أيهن شئت ، وأفضلها أولها . والقول الأول هو المشهور ، وعليه دل ظاهر الآية الكريمة حيث قال : ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ فدل على ثلاثة بعد النحر .

ويتعلق بقوله : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ ذكر الله على الأضاحي وقد تقدم أن الراجح في ذلك مذهب الشافعي رحمه الله ، وهو أن وقت الأضحية من يوم النحر إلى آخر أيام التشريق . ويتعلق به أيضًا الذكر المؤقت خلف الصلوات ، والمطلق في سائر الأحوال ، وفي وقته أقوال للعلماء أشهرها الذي عليه العمل أنه من صلاة الصبح يوم عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق ، وهو آخر النفر الآخر . وقد ثبت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يكبر في قبته فيكبر أهل السوق بتكبيره حتى ترتج منى تكبيرًا . ويتعلق بذلك أيضًا التكبير وذكر الله عند رمي الجمرات كل يوم من أيام التشريق ، وقد جاء في الحديث : « إنما جعل الطواف بالبيت ، والسعي بين الصفا والمروة ، ورمي الجمار لإقامة ذكر الله عز وجل »[1] .

ولما ذكر الله تعالى النفر الأول والثاني وهو تفرق الناس من موسم الحجّ إلى سائر الأقاليم والآفاق بعد اجتماعهم في المشاعر والمواقف قال : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ كما قال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ .

قال السدي : نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي جاء إلى رسول الله ﷺ وأظهر الإسلام ، وفي باطنه خلاف ذلك . وعن ابن عبّاس أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خبيب وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع وعابوهم ، فأنزل الله في ذم المنافقين ومدح خبيب وأصحابه ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ وقيل : بل ذلك عام في المنافقين كلهم ، وفي المؤمنين كلهم ، وعن سعيد المقبري ، كان يذاكر محمّد بن كعب القرظي فقال سعيد : إن في بعض الكتب : إن عبادًا ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمرّ من الصبر ، لبسوا للناس مسوك الضأن من اللين ، يجترون الدنيا بالدين ، قال الله تعالى : عليّ تجترئون وبي تغترون ! وعزتي لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران ، فقال محمّد بن كعب : هذا في كتاب الله ، فقال سعيد : وأين هو من كتاب الله ؟ قال : قول الله ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ الآية ، فقال سعيد : قد عرفت فيمن أنزلت هذه الآية ، فقال محمّد بن كعب : إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامة بعد[2] ، وهذا الذي قاله القرطبي حسن صحيح .

وأما قوله : ﴿ وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ ﴾ فقرأه ابن محيصن ﴿ وَيَشْهَدُ ٱللَّهُ ﴾ بفتح الياء وضم الجلالة ﴿ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ ﴾ ومعناها أن هذا وإن أظهر لكم الحيل ، لكن الله يعلم من قلبه القبيح

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٩/٦) والحاكم في المستدرك (٤٥٩/١) والبيهقي في السنن (١٤٥/٥) .
(٢) تفسير القرطبي (١٤/٣ ، ١٥) .

وقراءة الجمهور بضم الياء ونصب الجلالة ﴿ وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ ﴾ ومعناه أنه يظهر للناس الإسلام ، ويبارز اللَّه بما في قلبه من الكفر والنفاق كقوله تعالى : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ الآية . قال ابن عباس : معناه أنه إذا أظهر للناس الإسلام حلف وأشهد اللَّه لهم أن الذي في قلبه موافق للسانه ، وهذا المعنى صحيح .

وقوله : ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ الألد في اللغة الأعوج ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ أي عوجًا . وهكذا المنافق في حال خصومته يكذب ويزور عن الحق ولا يستقيم معه ، بل يفتري ويفجر ، فعن عائشة ترفعه قال : « إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّه الأَلَدُّ الخَصِمُ » (١) .

وقوله : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ أي هو أعوج المقال سيئ الفعال فذلك قوله وهذا فعله ، كلامه كذب ، واعتقاده فاسد ، وأفعاله قبيحة . والسعي ههنا هو القصد كما قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي اقصدوا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة ، فإن السعي الحسي إلى الصلاة منهي عنه بالسنة النبوية : « إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلاَةَ فلا تَأْتُوها وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ ، وَأْتُوهَا وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ وَالوَقَارُ » (٢) فهذا المنافق ليس له همة إلَّا الفساد في الأرض وإهلاك الحرث ، وهو محل نماء الزروع والثمار ، والنسل وهو نتاج الحيوانات الذين لا قوام للناس إلَّا بهما . وقال مجاهد : إذا سعى في الأرض إفسادًا منع اللَّه القطر ، فهلك الحرث والنسل ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ أي لا يحب من هذه صفته ولا من يصدر منه ذلك .

وقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ ﴾ أي إذا وعظ هذا الفاجر في مقاله وفعاله ، وقيل له : اتق اللَّه وانزع عن قولك وفعلك ، وارجع إلى الحق ، امتنع وأبى ، وأخذته الحمية والغضب بالإثم ، أي بسبب ما اشتمل عليه من الآثام ﴿ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ أي هي كافيته عقوبة في ذلك .

وقوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة ذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ قال ابن عبّاس وأنس وسعيد بن المسيب وجماعة : نزلت في صهيب بن سنان الرومي ، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله ، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل ، فتخلص منهم وأعطاهم ماله ، فأنزل اللَّه فيه هذه الآية فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة فقالوا له : ربح البيع ، فقال : وأنتم فلا أخسر اللَّه تجارتكم وما ذاك ، فأخبروه أن اللَّه أنزل فيه هذه الآية (٣) . ويروى أن رسول اللَّه ﷺ قال له : « رَبِحَ البَيْعُ صُهَيْبُ » (٤) ونزلت : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل اللَّه ، ولما حمل هشام بن عامر بين الصفين أنكر عليه بعض الناس ، فرد عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما وتلوا هذه الآية ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ .

(١) أخرجه البخاري في اللقطة (٢٤٥٧) وأحمد في مسنده (٦٣/٦) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٨/٢) والبيهقي في السنن (٢٩٧/٢) .
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٢٨٩) .
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٠٤/١) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

يقول اللّه تعالى آمرًا عباده المؤمنين به ، المصدقين برسوله ، أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه ، والعمل بجميع أوامره ، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك . قال ابن عبّاس في قوله : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ ﴾ : يعني الإسلام . وقال الربيع بن أنس : يعني الطاعة . وقال قتادة : الموادعة ، وقوله ﴿ كَآفَّةً ﴾ أي : جميعًا . وقال مجاهد : أي اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر .

ومن المفسرين من يجعل قوله : ﴿ كَآفَّةً ﴾ حالًا من الداخلين أي ادخلوا الإسلام كلكم ، والصحيح الأول ، وهو أنهم أمروا كلهم أن يعملوا بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام ، وهي كثيرة جدًّا ، ما استطاعوا منها . وعن ابن عبّاس ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ كذا قرأها بالنصب (١) ، يعني مؤمني أهل الكتاب ، فإنهم كانوا مع الإيمان باللّه مستمسكين ببعض أمور التوراة ، والشرائع التي أنزلت فيهم ، فقال اللّه : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ يقول : ادخلوا في شرائع دين محمّد ﷺ ، ولا تدعوا منها شيئًا ، وحسبكم الإيمان بالتوراة وما فيها .

وقوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ أي اعملوا بالطاعات ، واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان فـ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ و ﴿ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ . قال مطرف : أغش عباد اللّه لعبيد اللّه الشيطان ؟ وقوله : ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ أي عدلتم عن الحق بعد ما قامت عليكم الحجج ، فاعلموا أن اللّه عزيز أي في انتقامه ، لا يفوته هارب ، ولا يغلبه غالب ، حكيم في أحكامه ، ونقضه وإبرامه .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ .

يقول تعالى مهددًا للكافرين بمحمّد صلوات اللّه وسلامه عليه : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ يعني يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين فيجزي كل عامل بعمله ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ جاء في حديث الصور عن أبي هريرة عن رسول اللّه ﷺ : إن الناس إذا اهتموا لموقفهم في العرصات تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحدًا واحدًا من آدم فمن بعده ، فكلهم يحيد عنها ، حتى ينتهوا إلى محمّد ﷺ فإذا جاءوا إليه قال : « أَنَا لَهَا أَنَا لَهَا » فيذهب فيسجد للّه تحت العرش ، ويشفع عند اللّه في أن يأتي لفصل القضاء بين العباد فيشفعه اللّه ، ويأتي في ظلل من الغمام بعد ما تنشق السماء الدنيا ، وينزل من فيها من الملائكة ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ، إلى السابعة ، وينزل حملة العرش والكروبيون ، قال : وينزل الجبار ﷻ في ظلل من الغمام والملائكة ، ولهم زجل من تسبيحهم يقولون : سبحان ذي الملك والملكوت ، سبحان ذي العزة والجبروت ، سبحان الحي الذي لا يموت ، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت ، سبوح قدوس رب الملائكة والروح ، سبوح قدوس سبحان

---

(١) قرأ المدنيان وابن كثير والكسائي (في السَّلم) بفتح السين والباقون بكسرها (انظر : تقريب النشر ص : ٩٦) .

ربنا الأعلى ، سبحان ذي السلطان والعظمة سبحانه سبحانه أبدًا أبدًا (١) .

وعن مجاهد : ﴿ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ قال : هو غير السحاب ، ولم يكن قط إلا لبني إسرائيل في تيههم حين تاهوا . وعن أبي العالية يقول : والملائكة يجيؤون في ظلل من الغمام ، والله تعالى يجيء فيما يشاء .

﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن بني إسرائيل كم شاهدوا مع موسى من آية بيّنة ، أي حجة قاطعة بصدقه فيما جاءهم به ، كيَدِهِ ، وعصاه ، وفلقه البحر ، وضربه الحجر ، وما كان من تظليل الغمام عليهم في شدة الحر ، ومن إنزال المنّ والسلوى ، وغير ذلك من الآيات الدالات على وجود الفاعل المختار ، وصدق من جرت هذه الخوارق على يديه ، ومع هذا أعرض كثير منهم عنها ، وبدلوا نعمة الله كفرًا ، أي استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها والإعراض عنها ﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها ، واطمأنوا إليها ، وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التي أُمروا بها مما يرضي الله عنهم ، وسخروا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها ، وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم ، وبذلوه ابتغاء وجه الله ، فلهذا فازوا بالمقام الأسعد ، والحظ الأوفر يوم معادهم ، فكانوا فوق أولئك في محشرهم ومنشرهم ومسيرهم ومأواهم ، فاستقروا في الدرجات في أعلى عليين ، وخلد أولئك في الدركات في أسفل سافلين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي يرزق من يشاء من خلقه ، ويعطيه عطاء كثيرًا جزيلًا بلا حصر ولا تعداد في الدنيا والآخرة ، كما جاء في الحديث « ابْنَ آدَمَ أَنْفِقْ ، أُنْفِقْ عَلَيْكَ » (٢) . وقال النبيّ ﷺ : « أَنْفِقْ بِلالًا وَلاَ تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلالًا » (٣) . وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ وفي الصحيح . « أَنَّ مَلَكَيْنِ يَنْزِلاَنِ مِنَ السَّمَاءِ صَبِيحَةَ كُلِّ يَوْمٍ ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، وَيَقُولُ الآخَرُ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا » (٤) وفي الحديث : « يَقُولُ ابْنُ آدَمَ : مَالِي مَالِي ، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ ، وَمَا لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ ، وَمَا تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ » (٥) وقال النبي ﷺ : « الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لا دَارَ لَهُ ، وَمَالُ مَنْ لا مَالَ لَهُ ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لاَ عَقْلَ لَهُ » (٦) .

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وعن ابن عبّاس قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون ، كلهم على شريعة من الحق ، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، قال : وكذلك هي في قراءة عبد الله (كان الناس أمة واحدة

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٢/١) . (٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٩٦) .

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٦/٣) والطبراني في الكبير (١٩٢/١٠) .

(٤) أخرجه مسلم في الزكاة (٥٧) وأحمد في مسنده (١٩٧/٥) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/٤) والحاكم في المستدرك (٥٣٤/٢) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٧١/٦) .

فاختلفوا) . وعن أُبيّ بن كعب أنه كان يقرؤها (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) وقال قتادة في قوله : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ قال : كانوا على الهدى جميعًا فاختلفوا ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ فكان أول من بعث نوحًا . وعن ابن عبّاس ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ يقول : كانوا كفارًا ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ والقول الأول عن ابن عبّاس أصح سندًا ومعنى ؛ لأن الناس كانوا على ملّة آدم حتى عبدوا الأصنام ، فبعث الله إليهم نوحًا عليه السلام ، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ أي من بعد ما قامت الحجج عليهم ، وما حملهم على ذلك إلّا البغي من بعضهم على بعض ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ عن أبي هريرة في قوله : ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ﴾ الآية قال : قال النبيّ ﷺ : « نَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولًا الجَنَّةَ ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا ، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، فَهَدَانَا اللّٰهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ ، فَهَذَا اليَوْمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا اللّٰهُ لَهُ ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ ، فَغَدًا لِلْيَهُود وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى » (١) . وقال الربيع بن أنس في قوله : ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ﴾ أي عند الاختلاف أنهم كانوا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف ، أقاموا على الإخلاص للّٰه عز وجل وحده ، وعبادته لا شريك له ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، فأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف ، واعتزلوا الاختلاف ، وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة ، شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وآل فرعون أن رسلهم قد بلغوهم ، وأنهم قد كذبوا رسلهم .

وقوله : ﴿ بِإِذْنِهِۦ ﴾ أي بعلمه بهم وبما هداهم له ، قاله ابن جرير ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ أي من خلقه ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي وله الحكمة والحجة البالغة . وعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول : « اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ ، فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم » (٢) .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾ قبل أن تبتلوا وتختبروا وتمتحنوا ، كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم ، ولهذا قال : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ ﴾ وهي الأمراض والأسقام والآلام والمصائب والنوائب . قال ابن مسعود وابن عبّاس وغيرهم ﴿ ٱلْبَأْسَآءُ ﴾ الفقر ﴿ وَٱلضَّرَّآءُ ﴾ السقم ﴿ وَزُلْزِلُوا۟ ﴾ خوفوا من الأعداء زلزالًا شديدًا ، وامتحنوا امتحانًا عظيمًا .

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٨٦) وأحمد في مسنده (٢٨٢/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٦/٦) والحاكم في المستدرك (٦٢٢/٣) .

وعن خباب بن الأرت قال : قلنا : يا رسول الله ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو الله لنا ؟ فقال : « إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانَ أَحَدُهُمْ يُوضَعُ المِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَيَخْلُصُ إِلَى قَدَمَيْهِ ، لاَ يَصْرِفُهُ ذلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا بَيْنَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ لاَ يَصْرِفُهُ ذلِكَ عَنْ دِينِهِ » ثم قال : « وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ ، وَلَكِنَّكُمْ قَوْمٌ تَسْتَعْجِلُونَ »[1] وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة ﷺ في يوم الأحزاب كما قال الله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ . ولما سأل هرقل أبا سفيان هل قاتلتموه ؟ قال : نعم ، قال : فكيف كانت الحرب بينكم ؟ قال : سجالاً يدال علينا وندال عليه ، قال : كذلك الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة . وقوله : ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ﴾ أي سنتهم ، قال الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ كما قال : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ وكما تكون الشدة ، ينزل من النصر مثلها ولهذا قال : ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ .

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ .

قال مقاتل بن حيان : هذه الآية في نفقة التطوع . وقال السدي : نسختها الزكاة وفيه نظر . ومعنى الآية : يسألونك كيف ينفقون ؟ قاله ابن عبّاس ومجاهد فبيّن لهم تعالى ذلك فقال : ﴿ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ أي اصرفوها في هذه الوجوه . كما جاء في الحديث « أُمَّكَ وَأَبَاكَ ، وَأُخْتَكَ وَأَخَاكَ ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ »[2] . وتلا ميمون بن مهران هذه الآية ثم قال : هذه مواضع النفقة ، ما ذكر فيها طبلاً ولا مزمارًا ولا تصاوير الخشب ولا كسوة الحيطان . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ أي مهما صدر منكم من فعل معروف فإن الله يعلمه ، وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء ، فإنه لا يظلم أحدًا مثقال ذرة .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام . وقال الزهري : الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد ، فالقاعد عليه إذا استعين أن يعين ، وإذا استغيث أن يغيث ، وإذا استنفر أن ينفر ، وإن لم يحتج إليه قعد . قلت : ولهذا ثبت في الصحيح : « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالغَزْوِ ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً »[3] . وقال عليه الصلاة والسّلام يوم الفتح : « لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا »[4] . وقوله : ﴿ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ أي شديد عليكم ومشقة ، وهو كذلك فإنه إما أن يقتل أو يجرح ، مع مشقة السفر ومجالدة الأعداء . ثم قال تعالى :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٩/٥) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (١٧٩/٤) والحاكم في المستدرك (٦١١/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٤/٢) والحاكم في المستدرك (٧٩/٢) والبيهقي في السنن (٤٨/٩) .

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٢٥) وأحمد في مسنده (٢٢٦/١) .

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ﴾ أي لأن القتال يعقبه النصر والظفر على الأعداء ، والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذراريهم وأولادهم ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ ﴾ وهذا عام في الأمور كلها ، قد يحب المرء شيئًا وليس له فيه خيرة ولا مصلحة ، ومن ذلك القعود عن القتال قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم . ثم قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ أي هو أعلم بعواقب الأمور منكم ، وأخبر بما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم ، فاستجيبوا له وانقادوا لأمره لعلكم ترشدون .

﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ .

عن جندب بن عبد الله أن رسول الله ﷺ بعث رهطًا وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح ، فلما ذهب ينطلق بكى صبابة إلى رسول الله ﷺ فحبسه ، فبعث إليهم مكانه عبد الله بن جحش وكتب له كتابًا ، وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا وقال : « لا تُكْرِهَنَّ أَحَدًا عَلَى السَّيْرِ مَعَكَ مِنْ أَصْحَابِكَ » فلما قرأ الكتاب استرجع وقال : سمعًا وطاعة لله ولرسوله ، فخبرهم الخبر وقرأ عليهم الكتاب ، فرجع رجلان وبقي بقيتهم ، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه ، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى ، فقال المشركون للمسلمين : قتلتم في الشهر الحرام فأنزل الله ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ ﴾ (١) الآية .

وقال ابن هشام في كتاب السيرة : وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش بن رباب الأسدي في رجب مقفله من بدر الأولى ، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد ، وكتب له كتابًا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ، فيمضي كما أمره به ولا يستكره من أصحابه أحدًا ، وكان أصحاب عبد الله بن جحش من المهاجرين ثم من بني عبد شمس بن عبد مناف أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، ومن حلفائهم عبد الله بن جحش وهو أمير القوم ، وعكّاشة بن محصن أحد بني أسد بن خزيمة حليف لهم ، ومن بني نوفل بن عبد مناف عتبة بن غزوان بن جابر حليف لهم ، ومن بني زهرة بن كلاب سعد بن أبي وقاص ، ومن بني كعب عدي بن عامر بن ربيعة حليف لهم ، من غير ابن وائل وواقد بن عبد الله بن عبد مناف بن عرس بن ثعلبة بن يربوع أحد بني تميم حليف لهم ، وخالد بن البكير أحد بني سعد بن ليث حليف لهم ، ومن بني الحارث بن فهر سهيل بن بيضاء ، فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فإذا فيه : « إِذَا نَظَرْتَ فِي كِتَابِي فِي هَذَا فَامْضِ حَتَّى تَنْزِلَ نَخْلَةَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ تَرْصُدُ بِهَا قُرَيْشًا ، وَتَعْلَمُ لَنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ » ، فلما نظر عبد الله بن جحش الكتاب قال : سمعًا وطاعة ، ثم قال لأصحابه : قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة أرصد به قريشًا حتى آتيه منهم بخبر ، وقد نهاني أن أستكره أحدًا منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ فمضى ومضى معه أصحابه ، لم يتخلف عنه

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (١٢/٩) .

منهم أحد ، فسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوقع الفرع يقال له نجران أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما كانا يتعقبانه فتخلفا عليه في طلبه ، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل نخلة ، فمرت به عير لقريش تحمل زيتًا وأدمًا وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمي ، واسم الحضرمي عبد الله بن عباد أحد الصدف ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ، وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان ، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة ، فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريبًا منهم ، فأشرف لهم عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه ، فلما رأوه آمنوا وقالوا : عمار لا بأس عليكم منهم ، وتشاور القوم فيهم ، وذلك في آخر يوم من رجب ، فقال القوم : والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم ، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام ، فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم ، فرمى واقد ابن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، وأفلت القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم ، وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة ، قال ابن إسحاق : وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش أن عبد الله قال لأصحابه : إن لرسول الله ﷺ مما غنمنا الخمس ، وذلك قبل أن يفرض الله الخمس من المغانم ، فعزل لرسول الله ﷺ خمس العير ، وقسم سائرها بين أصحابه . قال ابن إسحاق : فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال : « مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالٍ فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ » فوقف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا ، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ : أسقط أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا ، وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال ، فقال : من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان ، وقالت اليهود : تفاءلوا بذلك على رسول الله ﷺ عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله ، عمرو عمرت الحرب ، والحضرمي حضرت الحرب ، وواقد بن عبد الله وقدت الحرب ، فجعل الله عليهم ذلك لا لهم ، فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسول الله ﷺ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به ، وعن المسجد الحرام وإخراجكم منه وأنتم أهله ﴿ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ من قتل من قتلتم منهم ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ أي قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه ، فذلك أكبر عند الله من القتل ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ أي ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين ، قال ابن إسحاق : فلما نزل القرآن بهذا من الأمر ، وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشدة ، قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين ، وبعثت إليه قريش في فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان فقال رسول الله ﷺ : « لاَ نَفْدِيكُمُوهُمَا حَتَّى يَقْدُمَ صَاحِبَانَا » يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان ، فإنا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما نقتل صاحبكم ، فقدم سعد وعتبة ففداهما رسول الله ﷺ منهم ، فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن

إسلامه ، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيدًا ، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافرًا . قال ابن إسحاق : فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كان حين نزل القرآن طمعوا في الأجر فقالوا : يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله ﷻ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فوضع الله من ذلك على أعظم الرجاء .

قال ابن هشام : وهي أول غنيمة غنمها المسلمون ، وعمرو بن الحضرمي أول من قتل المسلمون ، وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون ، قال ابن إسحاق : فقال أبو بكر الصدّيق ﷺ في غزوة عبد الله بن جحش ، ويقال : بل عبد الله بن جحش ، قالها حين قالت قريش : قد أحل محمّد وأصحابه الشهر الحرام فسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه المال ، وأسروا فيه الرجال قال ابن هشام : هي لعبد الله بن جحش :

تَعُدُّونَ قَتْلًا في الحَرَامِ عَظِيمَةً وَأَعْظَمَ مِنْهُ لَوْ يَرَى الرُّشْدَ رَاشِدُ
صُدُودُكُمْ عَمَّا يَقُولُ مُحَمَّدٌ وَكُفْرٌ بِهِ وَاللَّهُ رَاءٍ وَشَاهِدُ
وَإِخْرَاجُكُمْ مِنْ مَسْجِدِ اللَّهِ أَهْلَهُ لِئَلا يُرَى لِلَّهِ فِي البَيْتِ سَاجِدُ
فَإِنَّا وَإِنْ عَيَّرْتُمُونَا بِقَتْلِهِ وَأَرْجَفَ بِالإِسْلامِ بَاغٍ وَحَاسِدُ
سَقَيْنَا مِنَ ابْنِ الحَضْرَمِيِّ رِمَاحَنَا بِنَخْلَةَ لَمَّا أَوْقَدَ الحَرْبَ وَاقِدُ
دمًا وَابْنُ عَبْدِ اللَّهِ عُثْمَانُ بَيْنَنَا يُنَازِعُهُ غِلٌّ مِنَ القَدِّ عَانِدُ [(١)]

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

عن عمر أنه قال : لما نزل تحريم الخمر قال : اللهمّ بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا فنزلت هذه الآية التي في سورة البقرة ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ فدعي عمر فقرئت عليه فقال : اللهمّ بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا ، فنزلت الآية التي في النساء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى : أن لا يقربن الصلاة سكران فدعي عمر فقرئت عليه فقال : اللّهمّ بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا ، فنزلت الآية التي في المائدة ، فدعي عمر فقرئت عليه فلما بلغ ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ قال عمر : انتهينا انتهينا[(٢)] . فقوله : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾ أما الخمر فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ : إنه كل ما خامر العقل وكذا الميسر : وهو القمار .

وقوله : ﴿ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ أما إثمهما فهو في الدين ، وأما المنافع فدنيوية من حيث إن فيها نفع البدن وتهضيم الطعام ، وإخراج الفضلات ، وتشحيذ بعض الأذهان ، ولذة الشدة المطربة ، التي فيها ، كما قال حسّان بن ثابت في جاهليته :

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٢٥٢/٢ - ٢٥٦) والقد : شرك يقطع من الجلد ، وعاند : سائل بالدم لا ينقطع .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٣/١) .

وَنَشْرَبُهَا فَتَتْرُكُنَا مُلُوكًا وَأُسْدًا لاَ يُنَهْنِهُنَا اللِّقَاءُ (١)

وكذا بيعها والانتفاع بثمنها ، وما كان يقمشه بعضهم من الميسر فينفقه على نفسه أو عياله ، ولكن هذه المصالح لا توازي مضرته ومفسدته الراجحة ، لتعلقها بالعقل والدين ؛ ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ ولهذا كانت هذه الآية ممهدة لتحريم الخمر على البتات ، ولم تكن مصرحة بل معرضة ؛ ولهذا قال عمر ﷺ لما قرئت عليه ، اللهمّ بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا ، حتى نزل التصريح بتحريمها في سورة المائدة . وقال عبد الرحمن بن زيد : إن هذه أول آية نزلت في الخمر ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ ثم نزلت الآية التي في سورة النساء ثم نزلت الآية التي في المائدة فحرمت الخمر .

وقوله : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ قرئ بالنصب والرفع (٢) ، وكلاهما حسن متجه قريب ، عن ابن عبّاس ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ قال : ما يفضل عن أهلك ، وعن طاوس اليسير من كل شيء . وعن الحسن في الآية ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ قال : ذلك ألا يجهد مالك ثم تقعد تسأل الناس . ويدل على ذلك ما روي عن جابر أن رسول الله ﷺ قال لرجل : « ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا ، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلأَهْلِكَ ، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ عَنْ أَهْلِكَ فَلِذِي قَرَابَتِكَ ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِي قَرَابَتِكَ شَيْءٌ فَهَكَذَا وَهَكَذا » (٣) وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنىً ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى ، وَابْدأْ بِمَنْ تَعُولُ » (٤) ثم قد قيل إنها منسوخة بآية الزكاة ، وقيل مبينة بآية الزكاة ، وهو أوجه .

وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أي كما فصّل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها ، كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ووعده وعيده ، لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة . قال ابن عبّاس : يعني في زوال الدنيا وفنائها ، وإقبال الآخرة وبقائها . وعن قتادة : لتعلموا فضل الآخرة على الدنيا ، وفي رواية عن قتادة : فآثروا الآخرة على الأولى .

وقوله : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾ الآية . عن ابن عبّاس قال : لما نزلت ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ و ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل له الشيء من طعامه ، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم . قالت عائشة رضي الله عنها : إني لأكره أن يكون مال اليتيم عندي على حدة ، حتى أخلط طعامه بطعامي وشرابه بشرابي فقوله : ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ أي على حدة ﴿ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ أي وأن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم

---

(١) في ديوان حسان بن ثابت وتفسير القرطبي (٥٧/٣) : « وأسدًا ما ينهنهنا اللقاء » انظر : ديوان حسان بن ثابت ص : ١٩) والنهنهة : الكف والمنع .

(٢) قرأ الجمهور بالنصب ، وقرأ أبو عمرو بالرفع . انظر : تفسير القرطبي (٥٧/٣) ، (تقريب النشر ص ٩٦) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (١٧٨/٤) .

(٤) أخرجه البخاري في النفقات (٥٣٥٦) والبيهقي في السنن (٤٧٠/٧) وأحمد في مسنده (٢٧٨/٢) .

بشرابهم فلا بأس عليكم ؛ لأنهم إخوانكم في الدين ؛ ولهذا قال : ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ ﴾ أي يعلم من قصده ونيته الإفساد أو الإصلاح . وقوله : ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ أي ولو شاء الله لضيق عليكم وأحرجكم ، ولكنه وسّع عليكم وخفّف عنكم ، وأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ بل جوز الأكل منه للفقير بالمعروف ، إما بشرط ضمان البدل لمن أيسر أو مجانًا كما سيأتي بيانه في سورة النساء إن شاء الله وبه الثقة .

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

هذا تحريم من الله ﷻ على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان ، ثم إن كان عمومها مرادًا وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية ، فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله : ﴿ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ قال ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ ﴾ : استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب . وهكذا قال مجاهد وعكرمة وغيرهم . وقيل : بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأوثان ، ولم يرد أهل الكتاب بالكلية ، والمعنى قريب من الأول ، والله أعلم . فأما ما رواه ابن جرير عن عبد الله بن عباس يقول : نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء إلّا ما كان من المؤمنات المهاجرات ، وحرم كل ذات دين غير الإسلام . قال الله ﷻ : ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ ﴾ وقد نكح طلحة بن عبد الله يهودية ونكح حذيفة بن اليمان نصرانية ، فغضب عمر بن الخطاب غضبًا شديدًا حتى هم أن يسطو عليهما ، فقالا : نحن نطلق يا أمير المؤمنين ولا تغضب ، فقال : لئن حلَّ طلاقهن لقد حل نكاحهن ، ولكن أنتزعهن منكم صغرة قمأة(١) . فهو حديث غريب جدًّا ، وهذا الأثر غريب عن عمر أيضًا . قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات : وإنما كره عمر ذلك لئلا يزهد الناس في المسلمات ، أو لغير ذلك من المعاني . كما روي عن شقيق قال : تزوج حذيفة يهودية فكتب إليه عمر : خلِّ سبيلها ، فكتب إليه : أتزعم أنها حرام فأخلي سبيلها ؟ فقال : لا أزعم أنها حرام ، ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن .

وعن ابن عمر أنه كره نكاح أهل الكتاب وتأول ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ ﴾ وقال البخاري : وقال ابن عمر : لا أعلم شركًا أعظم من أن تقول : ربها عيسى . وسئل أبو عبد الله بن حنبل عن قول الله : ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ ﴾ قال : مشركات العرب الذين يعبدون الأصنام .

وقوله : ﴿ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ ﴾ قال السدي : نزلت في عبد الله بن رواحة ، كانت له أمة سوداء فغضب عليها فلطمها ، ثم فزع فأتى رسول الله ﷺ فأخبره خبرهما فقال له : « مَا هِيَ ؟ » قال : تصوم وتصلي وتحسن الوضوء وتشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقال : « يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ هَذِهِ مُؤْمِنَةٌ » فقال : والذي بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها ، ففعل ، فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا : نكح أمته ، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم رغبة في أحسابهم ، فأنزل الله ﴿ وَلَأَمَةٞ

(١) الصغرة جمع صاغر وهو الراضي بالذل . والقمأ : الذليل الصاغر . والخبر ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٢/٥١٣) .

﴿ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ . وعن عبد الله بن عمر عن النبيّ ﷺ قال : « لاَ تَنْكِحُوا النِّسَاءَ لِحُسْنِهِنَّ ، فَعَسَى حُسْنُهُنَّ أَنْ يُرْدِيَهُنَّ ، وَلاَ تَنْكِحُوهُنَّ عَلَى أَمْوَالِهِنَّ فَعَسَى أَمْوَالُهُنَّ أَنْ تُطْغِيَهُنَّ ، وَانْكِحُوهُنَّ عَلَى الدِّينِ فَلأَمَةٌ سَوْدَاءُ جَرْدَاءُ ذَاتُ دِينٍ أَفْضَلُ » (١) . وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال : « تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ : لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَلِجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا ، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ » (٢) وقوله : ﴿ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ﴾ أي لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات ، ثم قال تعالى : ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ أي ولرجل مؤمن ولو كان عبدًا حبشيًا خير من مشرك ، وإن كان رئيسًا سريًا ﴿ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ أي معاشرتهم ومخالطتهم تبعث على حب الدنيا ، واقتنائها ، وإيثارها على الدار الآخرة ، وعاقبة ذلك وخيمة ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ﴾ أي بشرعه وما أمر به ونهى عنه ﴿ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

عن أنس أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم لم يواكلوها ، ولم يجامعوها في البيوت ، فسأل أصحاب النبيّ النبيّ ﷺ ، فأنزل الله ﷻ ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ حتى فرغ من الآية فقال رسول الله ﷺ : « اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ » فبلغ ذلك اليهود فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلّا خالفنا فيه فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا : يا رسول الله إن اليهود قالت : كذا وكذا أفلا نجامعهن ؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أنه قد وجد عليهما ، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ ، فأرسل في آثارهما فسقاهما فعرفا أن لم يجد عليهما (٣) .

فقوله : ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ يعني الفرج لقوله : « اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ » ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم إلى أنه يجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج . وعن بعض أزواج النبيّ ﷺ كان إذا أراد من الحائض شيئًا ألقى على فرجها ثوبًا (٤) . وروي عن مسروق قال : قلت لعائشة : ما يحل للرجل من امرأته إذا كانت حائضًا ؟ قالت : كل شيء إلّا الجماع . وعن عائشة قالت : له ما فوق الإزار . قلت : ويحل مضاجعتها ومواكلتها بلا خلاف . قالت عائشة : كان رسول الله ﷺ يأمرني فأغسل رأسه وأنا حائض ، وكان يتكئ في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن (٥) . فأما ما روي عن عائشة أنها قالت : كنت إذا حضت نزلت عن المثال على الحصير ، فلم تقرب رسول الله ﷺ ولم تدن منه حتى تطهر (٦) . فهو محمول على التنزه والاحتياط .

وقال آخرون : إنما تحل له مباشرتها فيما عدا ما تحت الإزار ، كما ثبت في الصحيحين عن ميمونة بنت

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٨٠/٧) .
(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٠) وأحمد في مسنده (٤٢٨/٢) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٧٧) .
(٤) أخرجه البيهقي في السنن (٣١١/١) وأحمد في مسنده (١٤٣/٦) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١١٧/٦ ، ١٥٧) .
(٦) أخرجه أبو داود في السنن (٢٧١) .

الحارث الهلالية قالت : كان النبيّ ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فاتزرت وهي حائض (١) . وعن معاذ بن جبل قال : سألت رسول الله ﷺ عما يحل لي من امرأتي وهي حائض قال : « مَا فَوْقَ الإِزَارِ وَالتَّعَفُّفُ عَنْ ذَلِكَ أَفْضَلُ » (٢) . فهذه الأحاديث وما شابهها حجة من ذهب إلى أنه يحل ما فوق الإزار منها ، وهو أحد القولين في مذهب الشافعي رحمه الله الذي رجحه كثير من العراقيين وغيرهم ، ومأخذهم أنه حريم الفرج فهو حرام لئلا يتوصل إلى تعاطي ما حرم الله عز وجل الذي أجمع العلماء على تحريمه ، وهو المباشرة في الفرج ، ثم من فعل ذلك فقد أثم فيستغفر الله ويتوب إليه ، وهل يلزمه مع ذلك كفّارة أم لا ؟ فيه قولان أحدهما : نعم لما روي عن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ في الذي يأتي امرأته وهي حائض يتصدق بدينار أو نصف دينار (٣) . وللإمام أحمد أيضًا عنه أن رسول الله ﷺ جعل في الحائض تصاب دينارًا ، فإن أصابها وقد أدبر الدم عنها ولم تغتسل فنصف دينار (٤) . والقول الثاني وهو الصحيح الجديد من مذهب الشافعي وقول الجمهور : أنه لا شيء في ذلك بل يستغفر الله عز وجل ؛ لأنه لم يصح عندهم رفع هذا الحديث ، فإنه قد روي مرفوعًا وموقوفًا وهو الصحيح عند كثير من أئمة الحديث .

فقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ تفسير لقوله : ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ ونهى عن قربانهن بالجماع ما دام الحيض موجودًا ، ومفهومه حله إذا انقطع . قال أحمد بن حنبل فيما أملاه في الطاعة : وقوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ ﴾ الآية الطهر يدل على أن يقربها ، فلما قالت ميمونة وعائشة : كانت إحدانا إذا حاضت اتزرت ، ودخلت مع رسول الله ﷺ في شعاره (٥) . دلَّ ذلك على أنه إنما أراد الجماع .

وقوله : ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ فيه ندب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال ، وذهب ابن حزم إلى وجوب الجماع بعد كل حيضة لقوله : ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ وليس له في ذلك مستند ؛ لأن هذا أمر بعد الحظر ، وفيه أقوال لعلماء الأصول منهم من يقول : إنه على الوجوب كالمطلق ، وهؤلاء يحتاجون إلى جواب ابن حزم ، ومنهم من يقول : إنه للإباحة ، ويجعلون تقدم النهي عليه قرينة صارفة له عن الوجوب وفيه نظر ، والذي ينهض عليه الدليل أنه يرد عليه الحكم إلى ما كان عليه الأمر قبل النهي فإن كان واجبًا فواجب كقوله : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ أو مباحًا فمباح كقوله : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ وعلى هذا تجتمع الأدلة ، وقد حكاه الغزالي وغيره فاختاره بعض أئمة المتأخرين وهو الصحيح ، وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء أو تتيمم إن تعذر ذلك عليها بشرطه ، إلَّا أن أبا حنيفة رحمه الله يقول فيما إذا انقطع دمها لأكثر الحيض وهو عشرة أيام عنده ، إنها تحل بمجرد الانقطاع ، ولا تفتقر إلى غسل والله أعلم . وقال ابن عبّاس ﴿ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ أي من الدم ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾ أي بالماء .

وقوله : ﴿ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ يعني الفرج . قال ابن عبّاس : ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ يقول في الفرج ولا تعدّوه إلى غيره ، فمن فعل شيئًا من ذلك فقد اعتدى . وفيه دلالة حينئذٍ على

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٦/٦) .
(٢) أخرجه البيهقي في السنن (١٩١/٧) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٦/١) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٢/١) وأبو داود في السنن (٢١٦٩) .
(٥) أخرجه البيهقي في السنن (٣١٠/١) .

تحريم الوطء في الدبر ، وقال عكرمة والضحاك : طاهرات غير حيض ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾ أي من الذنب وإن تكرر غشيانه ﴿ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ أي المتنزهين عن الأقذار والأذى ، وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض أو في غير المأتى .

وقوله : ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ قال ابن عباس : الحرث موضع الولد ﴿ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ أي كيف شئتم مقبلة ومدبرة في صمام واحد ، وعن جابر قال : كانت اليهود تقول : إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول ، فنزلت : ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ (١) . وعن معاوية بن حيدة القشيري عن أبيه عن جده أنه قال : يا رسول الله نساؤنا ما نأتي منها وما نذر ؟ قال : « حَرْثُكَ ، ائتِ حَرْثَكَ أَنَّى شِئْتَ ، غَيْرَ أَنْ لاَ تَضْرِبَ الوَجْهَ ، وَلاَ تُقَبِّح ، وَلاَ تَهْجُر إِلَّا فِي البَيْتِ » (٢) .

عن عبد الله بن سابط قال : دخلت على حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر فقلت : إني لسائلك عن أمر وأنا أستحي أن أسألك ، قالت : فلا تستح يا ابن أخي ، قال : عن إتيان النساء في أدبارهن ، قالت : حدثتني أم سلمة أن الأنصار كانوا يُجَبُّون النساء ، وكانت اليهود تقول : إنه من أجبى امرأته كان ولده أحول ، فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا في نساء الأنصار ، فأَجَبُّوهن فأبت امرأة أن تطيع زوجها ، وقالت : لن تفعل ذلك حتى آتي رسول الله ﷺ فدخلت على أم سلمة فذكرت لها ذلك فقالت : اجلسي حتى يأتي رسول الله ﷺ فلما جاء رسول الله ﷺ استحت الأنصارية أن تسأل رسول الله ﷺ فخرجت ، فسألته أم سلمة فقال : « ادْعِي الأَنْصَارِيَّةَ » فدعتها فتلا عليها هذه الآية ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ « صَمَّامًا وَاحِدًا » (٣) قلت : روي عن حفصة أم المؤمنين أن امرأة أتتها فقالت : إن زوجي يأتيني محبية ومستقبلة فكرهته ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « لاَ بَأْسَ إِذَا كَانَ فِي صَمّام وَاحِدٍ » (٤) .

عن ابن عبّاس قال : جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله هلكت ، قال : « مَا الَّذِي أَهْلَكَكَ ؟ » قال : حولت رحلي البارحة ، قال : فلم يرد عليه شيئًا ، قال : فأوحى الله إلى رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ « أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ ، وَاتَّقِ الدُّبُرَ وَالحَيْضَةَ » (٥) وعن ابن عبّاس قال : إن ابن عمر قال - والله يغفر له - أوهم ، وإنما كان هذا الحي من الأنصار ، وهم أهل وثن مع هذا الحي من يهود ، وهم أهل كتاب ، وكانوا يرون لهم فضلًا عليهم في العلم ، فكانوا يقتدون كثيرًا من فعلهم ، وكان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلّا على حرف ، وذلك أستر ما تكون المرأة ، فكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم ، وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرحًا منكرًا ، ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات ، فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار ، فذهب يصنع بها ذلك ، فأنكرته عليه ، وقالت : إنما كنا نؤتى على حرفٍ فاصنع ذلك وإلّا فاجتنبني ، فسرى أمرهما

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٢٨) والبيهقي في السنن (١٩٤/٧) والترمذي في السنن (٢٩٧٨) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٥) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٧٩) بنحوه ، والصمام ما أدخل في فم القارورة تسد به ، فسمي الفرج به لأنه موضع صمام .
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٦٢/١) .
(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٨٠) وأحمد في مسنده (٢٩٧/١) والبيهقي في السنن (١٩٨/٧) .

فبلغ رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ أي مقبلات ومدبرات ومستلقيات ، يعني بذلك موضع الولد [(١)] .

عن أبي النضر أنه قال لنافع مولى ابن عمر : إنه قد أكثر عليك القول أنك تقول عن ابن عمر إنه أفتى أن تؤتى النساء في أدبارهن قال : كذبوا عليّ ، ولكن سأحدثك كيف كان الأمر ! إن ابن عمر عرض المصحف يومًا وأنا عنده حتى بلغ ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ فقال : يا نافع هل تعلم من أمر هذه الآية ؟ قلت : لا ، قال : إنا كنا معشر قريش نحبي النساء ، فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار أردنا منهن مثل ما كنا نريد فآذاهن ، فكرهن ذلك وأعظمنه ، وكانت نساء الأنصار قد أخذن بحال اليهود إنما يؤتين على جنوبهن فأنزل الله ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ . وقد روينا عن ابن عمر خلاف ذلك صريحًا ، وأنه لا يباح ولا يحل ، وإن كان قد نسب هذا القول إلى طائفة من فقهاء المدينة وغيرهم ، وعزاه بعضهم إلى الإمام مالك في كتاب السر ، وأكثر الناس ينكر أن يصح ذلك عن الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وقد وردت الأحاديث المروية من طرق متعددة بالزجر عن فعله وتعاطيه ، فعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « اسْتَحْيُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحِي مِنَ الحَقِّ ، لا يَحِلُّ أَنْ تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي حُشُوشِهِنَّ » [(٢)] .

وعن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ يَنْظُرُ اللَّهُ إِلى رَجُلٍ أَتَى رَجُلًا أَوِ امْرَأَةً فِي الدُّبُرِ » [(٣)] .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبيّ ﷺ قال : « هِيَ اللُّوطِيَّةُ الصُّغْرَى » [(٤)] .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَتَى حَائِضًا أَوْ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ » [(٥)] .

وعن إسرائيل بن روح : سألت مالك بن أنس : ما تقول في إتيان النساء في أدبارهن ، قال : ما أنتم إلا قوم عرب ، هل يكون الحرث إلَّا موضع الزرع ، لا تَعَدَّوا الفرج ، قلت : يا أبا عبد الله إنهم يقولون : إنك تقول ذلك ، قال : يكذبون عليَّ ، يكذبون عليَّ . فهذا هو الثابت عنه ، وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة ، وهو قول سعيد بن المسيّب وأبي سلمة وعكرمة وطاووس وعطاء وسعيد بن جبير وعروة بن الزبير ومجاهد بن جبر والحسن وغيرهم من السلف ، أنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار ، ومنهم من يطلق على فعله الكفر ، وهو مذهب جمهور العلماء . وقد حكي في هذا شيء عن بعض فقهاء المدينة ، حتى حكوه عن الإمام مالك ، وفي صحته نظر .

وعن عبد الرَّحمن بن القاسم قال : ما أدركت أحدًا أقتدي به في ديني يشك أنه حلال - يعني وطء المرأة في دبرها - ثم قرأ ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ ثم قال : فأي شيء أبين من هذا ؟ . وعن الإمام مالك من طرق ما يقتضي إباحة ذلك ، ولكن في الأسانيد ضعف شديد ، وقد استقصاها شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي في جزء جمعه في ذلك والله أعلم . وقال الطحاوي : حكى لنا محمّد

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢١٦٤) .
(٢) أخرجه البيهقي في السنن (١٩٧/٧) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٤/٢) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٢/٢) .
(٥) أخرجه أبو داود في السنن (٣٩٠٤) .

ابن عبد الله بن عبد الحكم أنه سمع الشافعي يقول : ما صح عن النبيّ ﷺ في تحليله ولا تحريمه شيء ، والقياس أنه حلال ، وكان الربيع يحلف بالله الذي لا إله إلّا هو لقد كذب - يعني ابن عبد الحكم - على الشافعي في ذلك ؛ لأن الشافعي نص على تحريمه في ستة كتب من كتبه والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ﴾ أي من فعل الطاعات من امتثال ما أنهاكم عنه من ترك المحرمات ، ولهذا قال : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ﴾ أي فيحاسبكم على أعمالكم جميعها ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي المطيعين لله فيما أمرهم ، التاركين ما عنه زجرهم . وعن ابن عبّاس ﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ﴾ قال : تقول باسم الله ، التسمية عند الجماع ، وقد ثبت في صحيح البخاري ، عن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ : بَاسْمِ الله ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا ؛ فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ ، لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا » (١) .

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر وصلة الرحم إذا حلفتم على تركها ، فالاستمرار على اليمين آثم لصاحبها من الخروج منها بالتكفير . عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال : « نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ » (٢) وقال رسول الله ﷺ : « وَالله لأَنْ يَلِجَ أَحَدُكُمْ بِيَمِينِهِ فِي أَهْلِهِ آثَمُ لَهُ عِنْدَ الله مِنْ أَنْ يُعْطِيَ كَفَّارَتَهُ الَّتِي افْتَرَضَ الله عَلَيْهِ » (٣) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ استَلَجَّ فِي أَهْلِهِ بِيَمِينٍ فَهُوَ أَعْظَمُ إِثْمًا ، لَيْسَ تُغْنِي الكَفَّارَةُ » (٤) . وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ ﴾ قال : لا تجعلن عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير ، ولكن كفِّر عن يمينك واصنع الخير . وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنِّي وَالله إِنْ شَاءَ الله ، لا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا ، إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، وَتَحَلَّلْتُهَا » (٥) . وثبت أيضًا أن رسول الله ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة : « يَا عَبْدَ الرَّحْمنِ بْنَ سَمُرَةَ لا تَسْأَلِ الإِمَارَةَ ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا ، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا ، وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، وَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ » (٦) وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ نَذْرَ وَلاَ يَمِينَ فِيمَا لاَ يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ ، وَلاَ فِي مَعْصِيَةِ الله وَلاَ فِي قَطِيعَةِ رَحِمٍ ، وَمَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَدَعْهَا ، وَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، فَإِنَّ تَرْكَهَا كَفَّارَتُهَا » (٧) .

ثم روى ابن جرير عن ابن عباس وسعيد بن المسيب ومسروق والشعبي أنهم قالوا : لا يمين في معصية ، ولا كفارة عليها .

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (١٤١) وأحمد في مسنده (٢١٧/١) .
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٩٥) وأحمد في مسنده (٢٤٩/٢) .
(٣) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٢٥) والبيهقي في السنن (٣٢/١) وأحمد في مسنده (٣١٧/٢) .
(٤) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٢٦) . (٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٨/٤) .
(٦) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٤٧) وأحمد في مسنده (٦٢/٥) .
(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٢/٢) .

وقوله : ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ ﴾ أي لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية ، وهي التي لا يقصدها الحالف ، بل تجري على لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ حَلَفَ فَقَالَ في حَلِفِهِ باللاَّتِ وَالعُزَّى فَلْيَقُلْ : لا إِلَهَ إِلَّا اللَّه »(١) فهذا قاله لقوم حديثي عهد بجاهلية ، قد أسلموا وألسنتهم قد ألفت ما كانت عليه من الحلف باللات من غير قصد ، فأمروا أن يتلفظوا بكلمة الإخلاص كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد ، لتكون هذه بهذه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ الآية . وفي الآية الأخرى ﴿ بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ﴾ . وعن عطاء : اللغو في اليمين قال : قالت عائشة إن رسول الله ﷺ قال : « اللَّغْوُ في اليَمِينِ هُوَ كَلامُ الرَّجُلِ في بَيْتِهِ كَلَّا وَاللَّه ، وَبَلَى وَاللَّه »(٢) وعن عائشة في قوله : ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ ﴾ قالت : هم القوم يتدارءون في الأمر فيقول هذا : لا والله ، وبلى والله ، وكلا والله ، يتدارءون في الأمر لا تعقد عليه قلوبهم . وكانت عائشة تقول : إنما اللغو في المزاحة والهزل ، وهو قول الرجل : لا والله ، وبلى والله ، فذاك لا كفارة فيه ، إنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله ثم لا يفعله .

وعن عائشة أنها كانت تتأول هذه الآية يعني قوله : ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ ﴾ وتقول : هو الشيء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلَّا الصدق ، فيكون على غير ما حلف عليه .

أقوال أخر : عن إبراهيم : هو الرجل يحلف على الشيء ثم ينساه . وقال زيد بن أسلم : هو قول الرجل : أعمى الله بصري إن لم أفعل كذا وكذا ، أخرجني الله من مالي إن لم آتك غدًا فهو هذا . وعن ابن عبّاس قال : لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان . وعن ابن عبّاس قال : لغو اليمين أن تحرم ما أحل الله لك ، فذلك ما ليس عليك فيه كفارة . وعن سعيد بن المسيّب أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث ، فسأل أحدهما صاحبه القسمة فقال : إن عدت تسألني عن القسمة فكل مالي في رتاج الكعبة ، فقال له عمر : إن الكعبة غنية عن مالك ، كفِّر عن يمينك وكلم أخاك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لاَ يَمِينَ عَلَيْكَ ، وَلاَ نَذْرَ في مَعْصِيَةِ الرَّبِّ ﷻ ، وَلاَ في قَطِيعَةِ الرَّحِمِ ، وَلاَ فِيمَا لا تَمْلِكُ »(٣)

وقوله : ﴿ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وغير واحد : هو أن يحلف على الشيء وهو يعلم أنه كاذب . ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ أي غفور لعباده حليم عليهم .

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

الإيلاء الحلف ، فإذا حلف الرجل أن لا يجامع زوجته مدة ، فلا يخلو إما أن يكون أقل من أربعة أشهر أو أكثر منها فإن كانت أقل فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته ، وعليها أن تصبر ، وليس لها مطالبته بالفيئة في هذه المدة ، وهذا كما ثبت عن عائشة أن رسول الله ﷺ آلى من نسائه شهرًا فنزل لتسع وعشرين وقال : « الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ »(٤) ، فأما إن زادت المدة على أربعة أشهر فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر ، إما أن يفيء أي يجامع ، وإما أن يطلق فيجبره الحاكم على هذا ، وهذا لئلا يضر

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٥٠) . (٢) أخرجه البيهقي في السنن (٤٨/١٠) .
(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٦٦/١٠) .
(٤) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٠٧) وأحمد في مسنده (٢٥٨/١) .

بها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ أي يحلفون على ترك الجماع من نسائهم ، فيه دلالة على أن الإيلاء يختص بالزوجات دون الإماء ، كما هو مذهب الجمهور ﴿ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ أي ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف ثم يوقف ، ويطالب بالفيئة أو الطلاق ولهذا قال : ﴿ فَإِن فَآءُو ﴾ أي رجعوا إلى ما كانوا عليه ، وهو كناية عن الجماع ، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين ، وقوله : ﴿ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فيه دلالة لأحد قولي العلماء وهو القديم عن الشافعي أن المولي إذا فاء بعد الأربعة الأشهر أنه لا كفارة عليه ، ويعتضد بما تقدم في الحديث عند الآية التي قبلها عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِين فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا ، فَتَرْكُهَا كَفَّارَتُها » (١) والذي عليه الجمهور وهو الجديد من مذهب الشافعي أن عليه التكفير لعموم وجوب التكفير على كل حالف كما تقدم أيضًا في الأحاديث الصحاح والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ ﴾ فيه دلالة على أن الطلاق لا يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر ، كقول الجمهور من المتأخرين ، وذهب آخرون إلى أنه يقع بمضي أربعة أشهر تطليقة ، ثم قيل : إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر طلقة رجعية ، وقيل : إنها تطلق طلقة بائنة ، فكل من قال : إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر أوجب عليها العدة ، إلا ما روي عن ابن عبّاس وأبي الشعثاء ، إنها إن كانت حاضت ثلاث حيض فلا عدة عليها ، وهو قول الشافعي ، والذي عليه الجمهور من المتأخرين أن يوقف ، فيطالب إما بهذا ، وإما بهذا ، ولا يقع عليها بمجرد مضيها طلاق . وروي عن عبد الله بن عمر أنه قال : إذا آلى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر حتى يوقف ، فإما أن يطلق ، وإما أن يفيء . وعن سليمان بن يسار قال : أدركت بضعة عشر من أصحاب النبيّ ﷺ كلهم يوقف المولي . قال الشافعي : وأقل ذلك ثلاثة عشر ، ورواه الشافعي عن علي ﷺ أنه يوقف المولي ، ثم قال : وهكذا نقول وهو موافق لما رويناه عن عمر وابن عمر وعائشة وعثمان وزيد بن ثابت وبضعة عشر من أصحاب النبيّ ﷺ ، وعن سهيل بن أبي صالح عن أبيه قال : سألت اثني عشر رجلًا من الصحابة عن الرجل يولي من امرأته ، فكلهم يقول ليس عليه شيء حتى تمضي الأربعة الأشهر فيوقف ، فإن فاء وإلّا طلق . قلت : وهو يروي عن عمر وعثمان وعلي وأبي الدرداء وعائشة أم المؤمنين وابن عمر وابن عبّاس ، وبه يقول سعيد بن المسيب وعمر بن عبد العزيز ، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم ، وهو اختيار ابن جرير أيضًا ، وهو قول الليث وإسحاق بن راهويه وأبي عبيد وأبي ثور وداود ، وكل هؤلاء قالوا : إن لم يفئ ألزم بالطلاق ، فإن لم يطلق طلق عليه الحاكم ، والطلقة تكون رجعية له رجعتها في العدة ، وانفرد مالك بأن قال : لا يجوز له رجعتها حتى يجامعها في العدة ، وهذا غريب جدًّا .

وقد ذكر الفقهاء وغيرهم في مناسبة تأجيل المولي بأربعة أشهر ، الأثر الذي رواه الإمام مالك بن أنس رحمه الله في الموطأ عن عبد الله بن دينار قال : خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول :

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ وَاسْوَدَّ جَانِبُهْ ... وَأَرَّقَنِي أَنْ لاَ خَلِيلَ أُلاَعِبُهْ
فَوَاللَّه لَوْلاَ اللَّه إِنِّي أُرَاقِبُهْ ... لَحُرِّكَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهْ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٢/٢) .

فسأل عمر ابنته حفصة رضي الله عنها : كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها ؟ فقالت : ستة أشهر أو أربعة أشهر ، فقال عمر : لا أحبس أحدًا من الجيوش أكثر من ذلك .

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

هذا أمر من الله ﷻ للمطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء ، بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، أي بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء ، ثم تتزوج إن شاءت ، وقد أخرج الأئمة الأربعة من هذا العموم الأمة إذا طلقت ، فإنها تعتد عندهم بقرأين ؛ لأنها على النصف من الحرة ، والقرء لا يتبعض فكمل لها قرآن . وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « طَلَاقُ الأَمَةِ تَطْلِيقَتَانِ ، وَعِدَّتُهَا حَيْضَتَانِ » [1] . وقال بعض السلف : بل عدتها كعدة الحرة لعموم الآية ؛ ولأن هذا أمر جلي فكان الحرائر والإماء في هذا سواء ، حكى هذا القول الشيخ أبو عمر بن عبد البر عن محمّد بن سيرين وبعض أهل الظاهر وضعفه . وعن أسماء ابنة يزيد بن السكن الأنصارية قالت : طلقت على عهد رسول الله ﷺ ولم يكن للمطلقة عدة ، فأنزل الله ﷻ حين طلقت أسماء العدة للطلاق ، فكانت أول من نزلت فيها العدة للطلاق يعني ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ .

وقد اختلف السلف والخلف والأئمة في المراد بالأقراء ما هو ؟ على قولين :

أحدهما : أن المراد بها الأطهار ، وعن عائشة أنها انتقلت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر حين دخلت في الدم من الحيضة الثالثة ، فذكرت ذلك لعمرة ابنة عبد الرحمن فقال : صدق عروة ، وقد جادلها في ذلك ناس فقالوا : إن الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ فقالت عائشة : صدقتم وتدرون ما الأقراء ؟ إنما الأقراء الأطهار . وقال مالك : عن ابن شهاب سمعت أبا بكر بن عبد الرّحمن يقول : ما أدركت أحدًا من فقهائنا إلّا وهو يقول ذلك ، يريد قول عائشة . وقال مالك : عن نافع بن عبد الله بن عمر أنه كان يقول : إذا طلق الرجل امرأته ، فدخلت في الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبرئ منها . وقال مالك : وهو الأمر عندنا وروي مثله عن ابن عبّاس وزيد بن ثابت وسالم والقاسم وعروة وسليمان بن يسار وأبي بكر بن عبد الرّحمن وأبان بن عثمان وعطاء بن أبي رباح وقتادة والزهري وبقية الفقهاء السبعة ، وهو مذهب مالك والشافعي وغير واحد وداود وأبي ثور ، وهو رواية عن أحمد ، واستدلوا عليه بقوله تعالى : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ أي في الأطهار ، ولما كان الطهر الذي يطلق فيه محتسبًا دل على أنه أحد الأقراء الثلاثة المأمور بها ، ولهذا قال هؤلاء : إن المعتدة تنقضي عدتها وتبين من زوجها بالطعن في الحيضة الثالثة ، وأقل مدة تصدق فيها المرأة في انقضاء عدتها اثنان وثلاثون يومًا ولحظتان ، واستشهد أبو عبيد وغيره على ذلك بقول الشاعر وهو الأعشى :

فَفِي كُلِّ عَامٍ أَنْتَ جَاشِمُ غَزْوَةٍ تَشُدُّ لِأَقْصَاهَا عَزِيمَ عَزَائِكَا

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٣٦٩/٩) .

مُوَرِّثَةٌ مَالًا وَفِي الأَصْلِ رِفْعَةً لِمَا ضَاعَ فِيهَا مِنْ قُرُوءِ نِسَائِكَا (١)

يمدح أميرًا من أمراء العرب آثر الغزو على المقام حتى ضاعت أيام الطهر من نسائه لم يواقعهن فيها .

والقول الثاني : أن المراد بالأقراء الحيض ، فلا تنقضي العدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة . زاد آخرون : وتغتسل منها ، وأقل وقت تصدق فيه المرأة في انقضاء عدتها ثلاثة وثلاثون يومًا ولحظة ، وعن علقمة قال : كنا عند عمر بن الخطاب ﷺ فجاءته امرأة فقالت : إن زوجي فارقني بواحدة أو اثنتين فجاءني وقد نزعت ثيابي ، وأغلقت بابي ، فقال عمر لعبد الله بن مسعود : أراها امرأته ما دون أن تحل لها الصلاة ، قال : وأنا أرى ذلك . وهكذا روي عن أبي بكر الصدِّيق وعمر وعثمان وعلي وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت وأنس بن مالك وابن مسعود ومعاذ وأُبيّ بن كعب وأبي موسى الأشعري وابن عباس وسعيد بن المسيب وعلقمة وغيرهم قالوا : الأقراء : الحيض ، وهذا مذهب أبي حنيفة وأصحابه ، وأصح الروايتين عن الإمام أحمد بن حنبل ، وحكى عنه الأثرم أنه قال : الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : الأقراء الحيض ، وهو مذهب الثوري والأوزاعي وابن أبي ليلى وابن شبرمة وغيرهم ويؤيد هذا ما جاء في الحديث عن فاطمة بنت أبي حبيش أن رسول الله ﷺ قال لها : « دَعِي الصَّلاةَ أَيَّامَ أَقْرَائِكِ » (٢) فهذا لو صح لكان صريحًا في أن القرء هو الحيض .

وقال ابن جرير : أصل القرء في كلام العرب الوقت لمجيء الشيء المعتاد مجيئه في وقت معلوم ، ولإدبار الشيء المعتاد إدباره لوقت معلوم ، وهذه العبارة تقتضي أن يكون مشتركًا بين هذا وهذا ، وقد ذهب إليه بعض الأصوليين والله أعلم . وهذا قول الأصمعي : إن القرء هو الوقت . وقال أبو عمرو بن العلاء : العرب تسمي الحيض قرءًا وتسمي الطهر قرءًا وتسمي الطهر والحيض جميعًا قرءًا . وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر : لا يختلف أهل العلم بلسان العرب والفقهاء أن القرء يراد به الحيض ويراد به الطهر ، وإنما اختلفوا في المراد من الآية ما هو على قولين .

وقوله : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ ﴾ أي من حبل أو حيض . وقوله : ﴿ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ تهديد لهن على خلاف الحق ، ودل هذا على أن المرجع في هذا إليهن ؛ لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن ، ويتعذر إقامة البينة غالبًا على ذلك ، فرد الأمر إليهن ، وتوعدن فيه لئلا يخبرن بغير الحق إما استعجالًا منها لانقضاء العدة ، أو رغبة منها في تطويلها لما لها في ذلك من المقاصد ، فأمرت أن تخبر بالحق في ذلك من غير زيادة ولا نقصان .

وقوله : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ﴾ أي وزوجها الذي طلقها أحق بردها ما دامت في عدتها ، إذا كان مراده بردها الإصلاح والخير ، وهذا في الرجعيات ، فأما المطلقات البوائن فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن ، وإنما كان ذلك لما حصروا في الطلاق الثلاث ، فأما حال نزول الآية ، فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة ، فلما قصروا في الآية التي بعدها على ثلاث تطليقات ، صار للناس مطلقة بائن وغير بائن ، وإذا تأملت هذا تبين لك ضعف ما سلكه بعض الأصوليين من استشهادهم على مسألة عود الضمير هل يكون مخصصًا لما تقدمه من لفظ العموم أم لا بهذه الآية الكريمة ، فإن التمثيل

(١) الجاشم : الذي يتكلف الجهد والمشقة ، والعزيم : الجد ، والعزاء : حسن الصبر عند فقد ما يفقد الإنسان (ديوان الأعشى ص : ١٢٩) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٤٢ ، ٢٦٢) .

بها غير مطلق لما ذكروه والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أي ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن ، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف ، فعن جابر أن رسول الله ﷺ قال في خطبته في حجة الوداع : « فَاتَّقُوا اللَّه في النِّسَاءِ ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّه ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّه ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ ، وَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ » (١) وعن معاوية بن حيدة القشيري عن أبيه عن جده أنه قال : يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا قال : « أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ ، وَتَكْسُوهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ ، وَلاَ تَضْرِبَ الوَجْهَ ، وَلاَ تُقَبِّحْ ، وَلاَ تَهْجُرْ إِلَّا فِي البَيْتِ » (٢) . وقال وكيع : عن بشير بن سليمان عن عكرمة عن ابن عبّاس قال : إني لأحب أن أتزين للمرأة ، كما أحب أن تتزين لي المرأة ؛ لأن الله يقول : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ أي في الفضيلة في الخُلُق والمنزلة ، وطاعة الأمر ، والإنفاق ، والقيام بالمصالح ، والفضل في الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره ، حكيم في أمره وشرعه وقدره .

﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام ، من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته وإن طلّقها مائة مرة ، ما دامت في العدة ، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات ، قصرهم الله إلى ثلاث طلقات ، وأباح الرجعة في المرة والثنتين ، وأبانها بالكلية في الثالثة ، فقال : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ ، قال ابن عباس : وذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعتها وإن طلقها ثلاثًا ، فنسخ ذلك فقال : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ﴾ الآية . وعن هشام عن أبيه قال : كان الرجل أحق برجعة امرأته ، وإن طلقها ما شاء ما دامت في العدة ، وإن رجلًا من الأنصار غضب على امرأته فقال : والله لا آويك ولا أفارقك ، قالت : وكيف ذلك ؟ قال : أطلقك ، فإذا دنا أجلك راجعتك ، ثم أطلقك فإذا دنا أجلك راجعتك ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﷻ ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ﴾ قال : فاستقبل الناس الطلاق من كان طلق ومن لم يكن طلق ، وعن عائشة قالت : لم يكن للطلاق وقت ، يطلق الرجل امرأته ثم يراجعها ما لم تنقض العدة ، وكان بين رجل من الأنصار وبين أهله بعض ما يكون بين الناس ، فقال : والله لأتركنك لا أيمًا ولا ذات زوج ، فجعل يطلّقها حتى إذا كادت العدة أن تنقضي راجعها ، ففعل ذلك مرارًا ، فأنزل الله ﷻ فيه : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ فوقف الطلاق ثلاثًا لا رجعة فيه بعد الثالثة ، حتى تنكح زوجًا غيره . وهكذا روي عن قتادة مرسلا ، وذكره السدي وابن زيد وابن جرير كذلك ، واختار أن هذا تفسير هذه الآية (٣) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٣/٥) والبيهقي في السنن (٣٠٤/٧) .
(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٣٠٥/٧) . (٣) تفسير الطبري (٦١٩/٢) .

وقوله : ﴿ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ أي إذا طلقها واحدة أو اثنتين ، فأنت مخير فيها ما دامت عدتها باقية ، بين أن تردها إليك ناويًا الإصلاح بها والإحسان إليها ، وبين أن تتركها حتى تنقضي عدتها فتبين منك ، وتطلق سراحها محسنًا إليها ، لا تظلمها من حقها شيئًا ولا تضارّ بها . وقال ابن عبّاس : إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين فليتق الله في ذلك ، أي في الثالثة ، فإما أن يمسكها بمعروف فيحسن صحابتها ، أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئًا . وعن أنس بن مالك قال : جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال : يا رسول الله ! ذكر الله الطلاق مرتين فأين الثالثة ؟ قال : « إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ » (١) .

وقوله : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا ﴾ أي لا يحل لكم أن تضاجروهن وتضيقوا عليهن ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الصداق أو ببعضه ، فأما إن وهبته المرأة شيئًا عن طيب نفس منها فقد قال تعالى : ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ وأما إذا تشاقق الزوجان ولم تقم المرأة بحقوق الرجل ، وأبغضته ، ولم تقدر على معاشرته ، فلها أن تفتدي منه بما أعطاها ولا حرج عليها في بذلها له ، ولا حرج عليه في قبول ذلك منها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ الآية . فأما إذا لم يكن لها عذر وسألت الافتداء منه ، فقد روي عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال : « أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلَاقَهَا فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ ؛ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الجَنَّةِ » (٢) .

وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ « المُخْتَلِعَاتُ وَالمُنْتَزِعَاتُ هُنَّ المُنَافِقَاتُ » (٣) .

وعن ابن عبّاس أن رسول الله ﷺ قال : « لَا تَسْأَلُ امْرَأَةٌ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ فَتَجِدُ رِيحَ الجَنَّةِ ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا » (٤) .

ثم قد قال طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف : إنه لا يجوز الخلع إلّا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب المرأة فيجوز للرجل حينئذٍ قبول الفدية واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ قالوا : فلم يشرع الخلع إلّا في هذه الحالة فلا يجوز في غيرها إلّا بدليل ، والأصل عدمه . وممن ذهب إلى هذا ابن عبّاس وطاووس وإبراهيم وعطاء والحسن والجمهور ، حتى قال مالك والأوزاعي : لو أخذ منها شيئًا وهو مضارّ لها وجب رده إليها ، وكان الطلاق رجعيًا ، قال مالك : وهو الأمر الذي أدركت الناس عليه ، وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجوز الخلع في حال الشقاق ، وعند الاتفاق بطريق الأولى والأحرى ، وهذا قول جميع أصحابه قاطبة . وقد ذكر ابن جرير رحمه الله أن هذه الآية نزلت في شأن ثابت بن قيس بن شماس وامرأته حبيبة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول .

وعن عائشة أن حبيبة بنت سهل كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس فضربها فانكسر بعضها ، فأتت رسول الله ﷺ بعد الصبح فاشتكته إليه ، فدعا رسول الله ﷺ ثابتًا فقال : « خُذْ بَعْضَ مَالِهَا وَفَارِقْهَا » قال : ويصلح ذلك يا رسول الله ؟ قال : « نَعَمْ » قال : إني أصدقتها حديقتين فهما بيدها ، فقال النبيّ ﷺ : « خُذْهُمَا وَفَارِقْهَا » ففعل (٥) .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢/٦٢١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٧٧) .
(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٧/٣١٦) .
(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٠٥٤) .
(٥) أخرجه أبو داود في السنن (٢٢٢٨) .

وعن ابن عبّاس أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبيّ ﷺ فقالت : يا رسول اللَّه : ما أعيب عليه في خلق ولا دين ، ولكن أكره الكفر في الإسلام ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ » قالت : نعم ، قال رسول اللَّه ﷺ : « اقْبَلِ الحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً » (١) . والمشهور أن اسمها حبيبة كما تقدم ، وذكر عن ابن عبّاس أن جميلة بنت سلول أتت النبيّ ﷺ فقالت : واللَّه ما أعتب على ثابت بن قيس في دين ولا خلق ، ولكنني أكره الكفر في الإسلام لا أطيقه بغضًا ، فقال لها النبيّ ﷺ : « تَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ ؟ » قالت : نعم ، فأمره النبيّ ﷺ أن يأخذ ما ساق ولا يزداد (٢) .

وقد اختلف الأئمة رحمهم اللَّه في أنه هل يجوز للرجل أن يفاديها بأكثر مما أعطاها ؟ فذهب الجمهور إلى جواز ذلك ؛ لعموم قوله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ فعن كثير مولى ابن سمرة أن عمر أتي بامرأة ناشز ، فأمر بها إلى بيت كثير الزبل ، ثم دعا بها فقال : كيف وجدت ، فقالت : ما وجدت راحة منذ كنت عنده إلّا هذه الليلة التي كنت حبستني ، فقال لزوجها : اخلعها ولو من قرطها . وعن عبد اللَّه ابن محمّد بن عقيل أن الربيع بنت معوّذ بن عفراء حدَّثته قالت : كان لي زوج يقلُّ عليَّ الخير إذا حضرني ، ويحرمني إذا غاب عني ، قالت : فكانت مني زلة يومًا فقلت له : أختلع منك بكل شيء أملكه ، قال : نعم ، قالت : ففعلت ، قالت : فخاصم عمي معاذ بن عفراء ، إلى عثمان بن عفان فأجاز الخلع ، وأمره أن يأخذ عقاص رأسي فما دونه ، أو قالت : ما دون عقاص الرأس ، ومعنى هذا أنه يجوز أن يأخذ منها كل ما بيدها من قليل وكثير ، ولا يترك لها سوى عقاص شعرها . وبه يقول ابن عمر وابن عبّاس ومجاهد وعكرمة وغيرهم ، وهذا مذهب مالك والليث والشافعي وأبي ثور واختاره ابن جرير ، وقال أصحاب أبي حنيفة : إن كان الإضرار من قبلها ، جاز أن يأخذ منها ما أعطاها ، ولا يجوز الزيادة عليه ، فإن ازداد جاز في القضاء . وإن كان الإضرار من جهته لم يجز أن يأخذ منها شيئًا ، فإن أخذ جاز في القضاء . وقال الإمام أحمد وأبو عبيد وإسحاق بن راهويه : لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطاها . وهذا قول سعيد بن المسيب وعطاء وعمرو بن شعيب ، وقال معمر والحكم : كان علي يقول : لا يأخذ من المختلعة فوق ما أعطاها . وقال الأوزاعي : القضاة لا يجيزون أن يأخذ منها أكثر مما ساق إليها . قلت : ويستدل لهذا القول بما تقدم من رواية ابن عبّاس في قصة ثابت بن قيس فأمره رسول اللَّه ﷺ أن يأخذ منها الحديقة ولا يزداد . وبما روي عن عطاء ، أن النبيّ ﷺ كره أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها ، يعني المختلعة ، وحملوا معنى الآية على معنى ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ أي من الذي أعطاها لتقدم قوله : ﴿ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ أي من ذلك .

فصل : قال الشافعي : اختلف أصحابنا في الخلع ، في رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه بعد ، يتزوجها إن شاء ؛ لأن اللَّه تعالى يقول : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ ﴾ قرأ إلى ﴿ أَن يَتَرَاجَعَآ ﴾ قال الشافعي : كل شيء أجازه المال فليس بطلاق ، وروى غير الشافعي عن ابن عبّاس أن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص سأله فقال : رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه أيتزوجها ؟ قال : نعم ليس الخلع

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤) ، وابن ماجه في السنن (٢٠٥٧) والدارقطني في السنن (٢٥٥/٣) .
(٢) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٧٤) .

بطلاق ، ذكر الله الطلاق في أول الآية وآخرها ، والخلع فيما بين ذلك ، فليس الخلع بشيء ثم قرأ : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ ﴾ وقرأ : ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ ﴾ وهذا الذي ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما من أن الخلع ليس بطلاق ، وإنما هو فسخ ، وهو رواية عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، وابن عمر ، وهو قول طاووس وعكرمة ، وبه يقول أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه ، وهو مذهب الشافعي في القديم ، وهو ظاهر الآية الكريمة . والقول الثاني في الخلع : إنه طلاق بائن إلَّا أن ينوي أكثر من ذلك . قال مالك : عن هشام بن عروة عن أبيه عن جهمان مولى الأسلميين عن أم بكر الأسلمية ، أنها اختلعت من زوجها عبد الله بن خالد بن أسيد فأتيا عثمان ابن عفان في ذلك فقال : تطليقة إلَّا أن تكون سميت شيئًا ، فهو ما سميت . وقد روي نحوه عن عمر وعلي وابن مسعود وابن عمر وبه يقول سعيد بن المسيب والحسن وعطاء ، وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي وأبو عثمان البتي والشافعي في الجديد ، غير أن الحنفية عندهم أنه متى نوى المخالع بخلعه تطليقة أو اثنتين أو أطلق فهو واحدة بائنة ، وإن نوى ثلاثًا فثلاث . وللشافعي قول آخر في الخلع ، وهو أنه متى لم يكن بلفظ الطلاق ، وعري عن البينة ، فليس هو بشيء بالكلية .

مسألة : وذهب مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه في رواية عنهما وهي المشهورة إلى أن المختلعة عدتها عدة المطلقة بثلاثة قروء إن كانت ممن تحيض . وروي ذلك عن عمر وعلي وابن عمر وبه يقول سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والليث بن سعد وغيرهم ، قال الترمذي : وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة وغيرهم ، ومأخذهم في هذا أن الخلع طلاق فتعتد كسائر المطلقات . والقول الثاني : أنها تعتد بحيضة واحدة تستبرئ بها رحمها . وعن ابن عمر أن الربيع اختلعت من زوجها ، فأتى عمها عثمان رضي الله عنه فقال : تعتد بحيضة ، قال : وكان ابن عمر يقول : تعتد ثلاث حيض ، حتى قال هذا عثمان فكان ابن عمر يفتي به ويقول : عثمان خيرنا وأعلمنا . واحتجوا لذلك بما رواه ابن عبّاس أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها على عهد النبيّ ﷺ فأمرها النبيّ ﷺ أن تعتد بحيضة .

عن عبادة بن الصامت عن الربيع بنت معوذ بن عفراء قال : قلت لها : حدثيني حديثك قالت : اختلعت من زوجي ثم جئت عثمان ، فسألت عثمان ماذا عليَّ من العدة ؟ قال : لا عدة عليك إلَّا أن يكون حديث عهد بك فتمكثين عنده حتى تحيضي حيضة ، قالت : وإنما أتبع في ذلك قضاء رسول الله ﷺ في مريم المغالية ، وكانت تحت ثابت بن قيس فاختلعت منه .

مسألة : وليس للمخالع أن يراجع المختلعة في العدة بغير رضاها عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء ؛ لأنها قد ملكت نفسها بما بذلت له من العطاء . وروي عن عبد الله بن أبي أوفى وماهان الحنفي وسعيد بن المسيب والزهري أنهم قالوا : إن ردَّ إليها الذي أعطاها جاز له رجعتها في العدة بغير رضاها ، وهو اختيار أبي ثور رحمه الله . وقال سفيان الثوري : إن كان الخلع بغير لفظ الطلاق ؛ فهو فرقة ولا سبيل له عليها . وإن كان يسمى طلاقًا ؛ فهو أملك لرجعتها ما دامت في العدة . وبه يقول داود بن علي الظاهري ، واتفق الجميع على أن للمختلع أن يتزوجها في العدة ، وحكى الشيخ أبو عمر بن عبد البر عن فرقة أنه لا يجوز له ذلك ، كما لا يجوز لغيره ، وهو قول شاذ مردود .

مسألة : وهل له أن يوقع عليها طلاقًا آخر في العدة ؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء :

أحدها : ليس له ذلك ؛ لأنها قد ملكت نفسها ، وبانت منه . وبه يقول ابن عبّاس وابن الزبير وعكرمة وجابر بن زيد والحسن البصري والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبو ثور .

والثاني : قال مالك : إن أتبع الخلع طلاقًا من غير سكوت بينهما وقع ، وإن سكت بينهما لم يقع . قال ابن عبد البر : وهذا يشبه ما روي عن عثمان ﷺ .

والثالث : أنه يقع عليها الطلاق بكل حال ما دامت في العدة . وهو قول أبي حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي ، وبه يقول سعيد بن المسيب وشريح وطاووس وإبراهيم والزهري ، وروي ذلك عن ابن مسعود ، وأبي الدرداء . قال ابن عبد البر : وليس ذلك بثابت عنهما .

وقوله : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي هذه الشرائع التي شرعها لكم هي حدوده فلا تتجاوزوها ، كما ثبت في الحديث الصحيح : « إِنَّ اللَّه حَدَّ حُدُودًا فَلاَ تَعْتَدُوهَا ، وَفَرَضَ فَرَائِضَ فَلاَ تُضَيِّعُوهَا ، وَحَرَّمَ مَحَارِمَ فَلا تَنْتَهِكُوهَا ، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلاَ تَسْأَلُوا عَنْهَا » [١] . وقد يستدل بهذه الآية من ذهب إلى أن جميع الطلقات الثلاث بكلمة واحدة حرام ، كما هو مذهب المالكية ومن وافقهم ، وإنما السنة عندهم أن يطلق واحدة لقوله : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ ﴾ ثم قال : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ويقوون ذلك بحديث محمود بن لبيد قال : أخبر رسول اللَّه ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعًا ، فقام غضبان ثم قال : « أَيُلْعَبُ بِكِتَابِ اللَّه وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ » حتى قام رجل فقال : يا رسول اللَّه ألا أقتله ؟ [٢] .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥۗ ﴾ أي أنه إذا طلق الرجل امرأته طلقة ثالثة ، بعدما أرسل عليها الطلاق مرتين ، فإنها تحرم عليه حتى تنكح زوجًا غيره ، أي حتى يطأها زوج آخر في نكاح صحيح ، فلو وطئها واطئ في غير نكاح ، ولو في ملك اليمين لم تحل للأول ؛ لأنه ليس بزوج ، وهكذا لو تزوجت ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول . واشتهر بين كثير من الفقهاء أن سعيد بن المسيب رحمه الله يقول : يحصل المقصود من تحليلها للأول بمجرد العقد على الثاني ، وفي صحته عنه نظر ، وعن ابن عمر عن النبيّ ﷺ في الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها البتة ، فيتزوجها زوج آخر فيطلقها قبل أن يدخل بها ، أترجع إلى الأول ؟ قال : « لاَ ؛ حَتَّى تَذُوقَ عُسَيْلَتَهُ ، وَيَذُوق عُسَيْلَتَها » [٣] .

وعن عائشة أن رسول اللَّه ﷺ سئل عن المرأة يتزوجها الرجل فيطلقها ، فتتزوج رجلًا آخر فيطلّقها قبل أن يدخل بها ، أتحل لزوجها الأول قال : « لا ، حَتَّى يَذُوقَ عُسَيْلَتَهَا » [٤] . وعن عائشة أيضًا قالت : دخلت امرأة رفاعة القرظي وأنا وأبو بكر عند النبيّ ﷺ فقالت : إن رفاعة طلّقني البتة ، وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني ، وإنما عنده مثل الهدبة ، وأخذت هدبة من جلبابها ، وخالد بن سعيد ابن العاص بالباب لم يؤذن له ، فقال : يا أبا بكر ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدي رسول اللَّه ﷺ ،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١١٥/٤) . (٢) أخرجه النسائي في السنن (٣٤٠١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤/٦) والنسائي في السنن (١٤٨/٦) .

(٤) أخرجه النسائي في السنن (١٤٦/٦) وأحمد في مسنده (٦٢/٢) .

فما زاد رسول الله ﷺ عن التبسم ، فقال رسول الله ﷺ : « كَأَنَّكِ تُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ ، لا حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ » (١) .

فصل : والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغبًا في المرأة قاصدًا لدوام عشرتها ، كما هو المشروع من التزويج ، واشترط الإمام مالك مع ذلك أن يطأها الثاني وطأ مباحًا ، فلو وطئها وهي محرمة أو صائمة أو معتكفة أو حائض أو نفساء ، أو الزوج صائم أو محرم أو معتكف ، لم تحل للأول بهذا الوطء ، وكذا لو كان الزوج الثاني ذميًا لم تحل للمسلم بنكاحه ؛ لأن أنكحة الكفار باطلة عنده . واشترط الحسن البصري فيما حكاه عنه الشيخ أبو عمر بن عبد البر ، أن ينزل الزوج الثاني ، وكأنه تمسك بما فهمه من قوله عليه الصلاة والسلام : « حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ » ويلزم على هذا أن تنزل المرأة أيضًا ، وليس المراد بالعسيلة المني ؛ لما روي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « أَلاَ إِنَّ العُسَيْلَةَ الجِمَاعُ » (٢) فأما إذا كان الثاني إنما قصده أن يحلها للأول ، فهذا هو المحلل الذي وردت الأحاديث بذمه ولعنه ، ومتى صرح بمقصوده في العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة .

ذِكْر الأَحَادِيث الوَارِدةِ فِي ذلِك

عن عبد الله قال : لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة ، والواصلة والمستوصلة ، والمحلِّل والمحلَّل له ، وآكل الربا وموكله (٣) .

عن علي قال : لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ، وموكله ، وشاهديه ، وكاتبه ، والواشمة والمستوشمة للحسن ، ومانع الصدقة ، والمحلِّل والمحلَّل له (٤) ، وكان ينهى عن النوح .

وعن ابن عبّاس قال : سئل رسول الله ﷺ عن نكاح المحلِّل قال : « لا ، إِلَّا نِكَاحَ رَغْبَةٍ ، لاَ نِكَاحَ دُلْسَةٍ وَلاَ اسْتِهْزَاءِ بِكِتَابِ اللَّه ، ثُمَّ يَذُوقُ عُسَيْلَتَهَا » (٥) .

وقوله : ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا ﴾ أي الزوج الثاني بعد الدخول بها ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ ﴾ أي المرأة والزوج الأول ﴿ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ أي يتعاشرا بالمعروف . قال مجاهد : إن ظنا أن نكاحهما على غير دلسة ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ أي شرائعه وأحكامه ﴿ يُبَيِّنُهَا ﴾ أي يوضحها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله فيما إذا طلق الرجل امرأته طلقة أو طلقتين ، وتركها حتى انقضت عدتها ، ثم تزوجت بآخر فدخل بها ، ثم طلّقها فانقضت عدتها ، ثم تزوجها الأول هل تعود إليه بما بقي من الثلاث كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وهو قول طائفة من الصحابة رضي الله عنهم ، أن يكون الزوج الثاني قد هدم ما قبله من الطلاق ، فإذا عادت إلى الأول تعود بمجموع الثلاث كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله ، وحجتهم أن الزوج الثاني إذا هدم الثلاث ، فلأنه يهدم ما

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤/٦) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٢/٦) والدارقطني في السنن (٢٥٢/٣) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٧٥٩ ، ٢٧٨٣) .
(٤) أخرجه مسلم في المساقاة (١٠٥) والنسائي في السنن (١٤٧/٨) وأحمد في مسنده (٨٣/١) .
(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (١٩٩/٢) .

دونها بطريق الأولى والأحرى والله أعلم .

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

هذا أمر من الله ﷻ للرجال إذا طلق أحدهم المرأة طلاقًا له عليها فيه رجعة ، أن يحسن في أمرها إذا انقضت عدتها ولم يبق منها إلّا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها ، فإما أن يمسكها أي يرتجعها إلى عصمة نكاحه بمعروف ، وهو أن يشهد على رجعتها وينوي عشرتها بالمعروف ، أو يسرحها أي يتركها حتى تنقضي عدتها ، ويخرجها من منزله بالتي هي أحسن من غير شقاق ولا مخاصمة ولا تقابح ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد ومسروق والحسن وغير واحد : كان الرجل يطلق المرأة ، فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضرارًا لئلا تذهب إلى غيره ، ثم يطلقها فتعتد ، فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق ، لتطول عليها العدة ، فنهاهم الله عن ذلك ، وتوعدهم عليه فقال : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ أي بمخالفته أمر الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾ عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ غضب على الأشعريين فأتاه أبو موسى ، فقال : يا رسول الله أغضبت على الأشعريين ؟ فقال : « يَقُولُ أَحَدُكُمْ : قَدْ طَلَّقْتُ قَدْ رَاجَعْتُ ، لَيْسَ هَذَا طَلَاقَ المُسْلِمِينَ ، طَلِّقُوا المَرْأَةَ في قُبُلِ عِدَّتِهَا » (١) . وقال مسروق : هو الذي يطلق في غير كنهه ، ويضارّ امرأته بطلاقها وارتجاعها ، لتطول عليها العدة . وقال مقاتل بن حيان : هو الرجل يطلق ويقول : كنت لاعبًا ، أو يعتق أو ينكح ويقول : كنت لاعبًا ، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾ فألزم الله بذلك . وعن ابن عبّاس قال : طلق رجل امرأته وهو يلعب لا يريد الطلاق ، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾ فألزمه رسول الله ﷺ الطلاق . وعن عبادة بن الصامت في قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾ قال : كان الرجل على عهد النبيّ ﷺ يقول للرجل : زوّجتك ابنتي ثم يقول : كنت لاعبًا ، ويقول : قد أعتقت ويقول : كنت لاعبًا ، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثٌ مَنْ قَالَهُنَّ لَاعِبًا أَوْ غَيْرَ لَاعِبٍ فَهُنَّ جَائِزَاتٌ عَلَيْهِ ؛ الطَّلَاقُ وَالعِتَاقُ وَالنِّكَاحُ » (٢) ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثٌ جدهُنَّ جدٌّ وَهَزْلُهُنَّ جدٌّ ، النِّكَاحُ وَالطَّلَاقُ وَالرَّجْعَةُ » (٣) .

وقوله : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي في إرساله الرسول بالهدى والبينات إليكم ﴿ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ أي السنة ﴿ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ أي يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي فيما تأتون وفيما تذرون ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي فلا يخفى عليه شيء من أموركم السرية والجهرية ، وسيجازيكم على ذلك .

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٠١٧) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٨٦/١) وابن حجر في المطالب العالية (١٦٥٩) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١١٨٤) وأبو داود في السنن (٢١٩٤) والحاكم في المستدرك (١٩٧/٢) .

كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طلقة أو طلقتين ، فتنقضي عدتها ، ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها ، وتريد المرأة ذلك ، فيمنعها أولياؤها من ذلك ، فنهى الله أن يمنعوها . وكذا قال مسروق وإبراهيم النخعي والزهري والضحاك أنها أنزلت في ذلك ، وهذا الذي قالوه ظاهر من الآية ، وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها ، وأنه لابد في النكاح من ولي كما قاله الترمذي وابن جرير عند هذه الآية كما جاء في الحديث : « لاَ تُزَوِّجُ المَرْأَةُ المَرْأَةَ ، وَلاَ تُزَوِّجُ المَرْأَةُ نَفْسَهَا ، فَإِنَّ الزَّانِيَةَ هِيَ الَّتِي تزَوِّجُ نَفْسَهَا » (١) وفي الأثر الآخر « لاَ نكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ مُرْشِدٍ وَشَاهِدَيْ عَدْلٍ » (٢) وفي هذه المسألة نزاع بين العلماء محرر في موضعه من كتب الفروع .

وقد روي أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار المزني وأُخته ، فعن معقل بن يسار أنه زوج أخته رجلًا من المسلمين على عهد رسول الله ﷺ فكانت عنده ما كانت ثم طلّقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت عدتها ، فهويها وهويته ، ثم خطبها مع الخطاب فقال له : يا لكعُ ابن لكع أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ، والله لا ترجع إليك أبدًا آخر ما عليك ، قال : فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فلما سمعها معقل قال : سمع لربي وطاعة ثم دعاه ، فقال : أزوجك وأكرمك ، زاد ابن مردويه : وكفرت عن يميني . قال ابن جريج : هي جميل بنت يسار كانت تحت أبي البداح . وقال أبو إسحاق السبيعي : هي فاطمة بنت يسار ذكر غير واحد من السلف أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار وأخته . وقال السدي : نزلت في جابر بن عبد الله وابنة عم له ، والصحيح الأول والله أعلم .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي هذا الذي نهيناكم عنه من منع الولايا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ، يأتمر به ويتعظ به وينفعل له ﴿ مَن كَانَ مِنكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي يؤمن بشرع الله ، ويخاف وعيد الله وعذابه في الدار الآخرة ، وما فيها من الجزاء ﴿ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ أي اتباعكم شرع الله في رد الموليات إلى أزواجهن ، وترك الحمية في ذلك أزكى لكم وأطهر لقلوبكم ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ أي من المصالح فيما يأمر به وينهى عنه ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي الخيرة فيما تأتون ولا فيما تذرون .

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة ، وهي سنتان ، فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك ، ولهذا قال : ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ وذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يحرم من الرضاعة إلّا ما كان دون الحولين ، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم . عن أم سلمة قالت :

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٨٨٢) والدارقطني في السنن (٢٢٧/٣) .
(٢) ذكره ابن حجر في فتح الباري (١٩١/٩) .

قال رسول الله ﷺ : « لا يُحَرِّمُ مِنَ الرَّضَاعِ إِلَّا مَا فتقَ الأَمْعَاءَ في الثَّدْيِ ، وَكَانَ قَبْلَ الفِطَامِ » (١) . والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم ، أن الرضاعة لا تحرم إلَّا ما كان دون الحولين ، وما كان بعد الحولين الكاملين فإنه لا يحرِّم شيئًا ، وفاطمة بنت المنذر بن الزبير ابن العوام وهي امرأة هشام بن عروة قلت : ومعنى قوله : « إِلَّا مَا كَانَ في الثَّدْيِ » أي في محالّ الرضاعة قبل الحولين ، كما جاء في الحديث الذي رواه البراء بن عازب قال : لما مات إبراهيم ابن النبيّ ﷺ قال : « إِنَّ ابْنِي مَاتَ في الثَّدْيِ ، إِنَّ لَهُ مُرْضِعًا في الجَنَّةِ » (٢) ، وإنما قال عليه الصلاة والسَّلام ذلك ؛ لأن ابنه إبراهيم عليه السلام مات وله سنة وعشرة أشهر ، فقال : « إِنَّ لَهُ مُرْضِعًا » يعني تكمل رضاعه . وعن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يُحَرِّمُ مِنَ الرَّضَاعِ إِلَّا مَا كَانَ في الحَوْلَيْنِ » (٣) قلت : وقد رواه الإمام مالك في الموطأ عن ابن عبّاس مرفوعًا ورواه الدراوردي عن ابن عبّاس وزاد « وَمَا كَانَ بَعْدَ الحَوْلَيْنِ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ » وهذا أصح .

وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا رَضَاعَ بَعْدَ فِصَالٍ وَلاَ يُتْمَ بَعْدَ احْتِلام » (٤) والقول بأن الرضاعة لا تحرم بعد الحولين يروى عن عليّ وابن عبّاس وابن مسعود وجابر وأبي هريرة وابن عمر وأم سلمة وسعيد بن المسيب وعطاء والجمهور ، وهو مذهب الشافعي وأحمد وإسحاق والثوري وأبي يوسف ومحمّد ومالك في رواية ، وعنه أن مدته سنتان وشهران ، وفي رواية وثلاثة أشهر . وقال أبو حنيفة : سنتان وستة أشهر ، وقال زفر بن الهذيل : ما دام يرضع فإلى ثلاث سنين ، وهذا رواية عن الأوزاعي . قال مالك : ولو فطم الصبي دون الحولين فأرضعته امرأة بعد فصاله لم يحرم ، لأنه قد صار بمنزلة الطعام . وهو رواية عن الأوزاعي . وقد روي عن عمر وعلي أنهما قالا : لا رضاع بعد فصال ، فيحتمل أنهما أرادا الحولين كقول الجمهور سواء فطم أو لم يفطم ، ويحتمل أنهما أرادا الفعل كقول مالك ، وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت ترى رضاع الكبير يؤثر في التحريم ، وهو قول عطاء بن أبي رباح والليث بن سعد ، وكانت عائشة تأمر بمن تختار أن يدخل عليها من الرجال لبعض نسائها فترضعه ، وتحتج في ذلك بحديث سالم مولى أبي حذيفة حيث أمر النبيّ ﷺ امرأة أبي حذيفة أن ترضعه وكان كبيرًا ، فكان يدخل عليها بتلك الرضاعة ، وأبى ذلك سائر أزواج النبيّ ﷺ ورأين ذلك من الخصائص ، وهو قول الجمهور ، وحجة الجمهور ، وهم الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة والأكابر من الصحابة وسائر أزواج رسول الله ﷺ سوى عائشة ما ثبت أن رسول الله ﷺ قال : « انْظُرْنَ مَنْ إِخْوَانُكُنَّ ، فَإِنَّمَا الرَّضَاعَةُ مِنَ المَجَاعَةِ » (٥) وسيأتي الكلام على مسائل الرضاع ، وفيما يتعلق برضاع الكبير عند قوله تعالى : ﴿ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ أي وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف ، أي بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف ولا إقتار ، بحسب قدرته في

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١١٥٢) والبغوي في شرح السنة (٨٤/٩) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٠/٤) والحاكم في مستدركه (٣٨/٤) والألباني في الضعيفة (٢٢٠) .
(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٤٦٢/٧) ومالك في الموطأ (الرضاع ٤ ، ١٠ ، ١٤) والدارقطني في السنن (١٧٤/٤) .
(٤) أخرجه البيهقي في السنن (٣١٩/٧) والطبراني في الصغير (٦٨/٢) .
(٥) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٠٢) ومسلم في الرضاع (٣٢) والنسائي في السنن (١٠٢/٦) والدارمي في السنن (١٥٨/٢) .

يساره وتوسطه وإقتاره ، قال الضحاك : إذا طلق زوجته وله منها ولد فأرضعت له ولده ، وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف .

وقوله : ﴿ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا ﴾ أي بأن تدفعه عنها لتضر أباه بتربيته ، ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللبن الذي لا يعيش بدون تناوله غالبًا ، ثم بعد هذا لها دفعه عنها إذا شاءت ، ولكن إن كانت مضارة لأبيه فلا يحل لها ذلك ، كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرار لها ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ﴾ أي بأن يريد أن ينتزع الولد منها إضرارًا بها .

وقوله : ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ قيل : في عدم الضرار لقريبه . وقيل : عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل ، والقيام بحقوقها ، وعدم الإضرار بها ، وهو قول الجمهور وقد استقصى ذلك ابن جرير في تفسيره ، وقد استدل بذلك من ذهب من الحنفية ، والحنبلية إلى وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض ، وهو مروي عن عمر بن الخطاب وجمهور السلف ، ويرشح ذلك بحديث سمرة مرفوعًا « مَنْ مَلَكَ ذَا رَحِمٍ مَحْرَمٍ عتقَ عَلَيهِ » (١) وقد ذكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت الولد إما في بدنه أو في عقله ، وعن علقمة أنه رأى امرأة ترضع بعد الحولين فقال : لا ترضعيه .

وقوله : ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ أي فإن اتفق والدا الطفل على فطامه قبل الحولين ، ورأيا في ذلك مصلحة له ، وتشاورا في ذلك وأجمعا عليه ، فلا جناح عليهما في ذلك ، فيؤخذ منه أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي ، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر . قاله : الثوري وغيره : وهذا فيه احتياط للطفل ، وإلزام للنظر في أمره ، وهو من رحمة الله بعباده ، حيث حجّر على الوالدين في تربية طفلهما ، وأرشدهما إلى ما يصلحهما ويصلحه .

وقوله : ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ أي إذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يستلم منها الولد إما لعذر منها أو لعذرله فلا جناح عليهما في بذله ، ولا عليه في قبوله منها إذا سلمها أجرتها الماضية بالتي هي أحسن ، واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف ، قاله غير واحد . وقوله : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي في جميع أحوالكم ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأقوالكم .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

هذا أمر من الله للنساء اللاتي يتوفى عنهن أزواجهن أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال ، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالإجماع ، ومستنده في غير المدخول بها عموم الآية الكريمة ، وأن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة ، فمات عنها ولم يدخل بها ، ولم يفرض لها ، فترددوا إليه مرارًا في ذلك فقال : أقول فيها برأيي فإن يك صوابًا فمن الله ، وإن يك خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه : لها الصداق كاملًا - وفي لفظ : لها صداق مثلها - لا وكس ولا شطط وعليها العدة ، ولها الميراث ، فقام معقل بن يسار الأشجعي فقال : سمعت رسول الله ﷺ قضى به في بروع بنت واشق ، ففرح عبد الله بذلك فرحًا شديدًا - وفي رواية : فقام رجال من أشجع فقالوا : نشهد أن رسول

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١٣٦٥) وأبو داود في السنن (٣٩٤٩) وأحمد في مسنده (٥/ ٢٠) والحاكم في المستدرك (٢/ ٢١٤).

الله ﷺ قضى به في بروع بنت واشق . ولا يخرج من ذلك إلّا المتوفى عنها زوجها وهي حامل ، فإن عدتها بوضع الحمل ، ولو لم تمكث بعده سوى لحظة لعموم قوله : ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ وكان ابن عبّاس يرى أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين من الوضع ، أو أربعة أشهر وعشر للجمع بين الآيتين ، وهذا مأخذ جيد ومسلك قوي لولا ما ثبتت به السنّة في حديث سبيعة الأسلمية المخرج في الصحيحين من غير وجه أنها توفي عنها زوجها سعد بن خولة وهي حامل ، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته - فلما تعلت من نفاسها ، تجملت للخطاب ، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك فقال لها : ما لي أراك متجملة لعلك ترجين النكاح ؟ والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر ، قالت سبيعة : فلما قال لي ذلك جمعت عليَّ ثيابي حين أمسيت ، فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي ، وأمرني بالتزويج إن بدا لي [١] . قال أبو عمر بن عبد البر : وقد روي أن ابن عبّاس رجع إلى حديث سبيعة يعني لما احتج عليه به ، قال : ويصحح ذلك عنه أن أصحابه أفتوا بحديث سبيعة كما هو قول أهل العلم قاطبة . وكذلك يستثنى من ذلك الزوجة إذا كانت أمة ، فإن عدتها على النصف من عدة الحرة ، شهران وخمس ليال على قول الجمهور ؛ لأنها لما كانت على النصف من الحرة في الحد ، فكذلك فلتكن على النصف منها في العدة . ومن العلماء كمحمّد بن سيرين وبعض الظاهرية من يسوي بين الزوجات الحرائر والإماء في هذا المقام لعموم الآية ؛ ولأن العدة من باب الأمور الجبلية التي تستوي فيها الخليقة ، وقد ذكر سعيد بن المسيب وأبو العالية وغيرهما أن الحكمة في جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرًا لاحتمال اشتمال الرحم على حمل ، فإذا انتظر به هذه المدة ظهر إن كان موجودًا كما جاء في حديث ابن مسعود : « إِنَّ خلقَ أَحدِكُمْ يُجْمَعُ في بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مضغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ الملَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ » [٢] فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر ، والاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور ، ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه والله أعلم . وقال الربيع بن أنس : قلت لأبي العالية : لم صارت هذه العشر مع الأشهر الأربعة ؟ قال : لأنه ينفخ فيه الروح . ومن ههنا ذهب الإمام أحمد في رواية عنه إلى أن عدة أم الولد عدة الحرة ههنا ؛ لأنها صارت فراشًا كالحرائر ، وعن عمرو بن العاص أنه قال : لا تلبسوا علينا سنة نبينا : عدة أم الولد إذا توفي عنها سيدها أربعة أشهر وعشر . وقال طاووس وقتادة : عدة أم الولد إذا توفي عنها سيدها نصف عدة الحرة ، شهران وخمس ليالٍ . وقال أبو حنيفة وأصحابه : تعتد بثلاث حيض ، وهو قول علي وابن مسعود . وقال مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه : عدتها حيضة . وبه يقول ابن عمر والشعبي والجمهور . وقال الليث : ولو مات وهي حائض أجزأتها . وقال مالك : فلو كانت ممن لا تحيض فثلاثة أشهر . وقال الشافعي والجمهور : شهر وثلاثة أحب إليّ ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها ؛ لما ثبت عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال : « لاَ يَحِلُّ لامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ تحدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ ، إِلَّا

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (١٨٥٢) ومسلم في الطلاق (٥٦) .
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٤) ومسلم في القدر (١) .

عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » (١) . وعن أم سلمة أن امرأة قالت : يا رسول الله إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحّلها ؟ فقال : « لاَ » كل ذلك يقول « لاَ » مرتين أو ثلاثًا ثم قال : « إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ ، وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ فِي الجَاهِلِيَّةِ تَمْكُثُ سَنَةً » (٢) ، قالت زينب بنت أم سلمة : كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حفشًا ، ولبست شر ثيابها ، ولم تمس طيبًا ولا شيئًا حتى تمر بها سنة ، ثم تخرج فتعطى بعرة فترمي بها ، ثم تؤتى بدابة ، حمار أو شاة أو طير فتفتض به ، فقلما تفتض بشيء إلّا مات . ومن ههنا ذهب كثيرون من العلماء إلى أن هذه الآية ناسخة للآية التي بعدها وهي قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ الآية ، كما قاله ابن عباس وغيره ، وفي هذا نظر . والغرض أن الإحداد هو عبارة عن ترك الزينة من الطيب ، ولبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلي وغير ذلك ، وهو واجب في عدة الوفاة قولًا واحدًا ، ولا يجب في عدة الرجعية قولًا واحدًا ، وهل يجب في عدة البائن ؟ فيه قولان . ويجب الإحداد على جميع الزوجات المتوفى عنهن أزواجهن ، سواءً في ذلك الصغيرة والآيسة والحرة والأمة والمسلمة والكافرة لعموم الآية . وقال الثوري وأبو حنيفة وأصحابه : لا إحداد على الكافرة ، وبه يقول أشهب وابن نافع من أصحاب مالك ، وحجة قائل هذه المقالة قوله ﷺ : « لا يَحِلُّ لامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ تحدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلاثٍ ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » قالوا : فجعله تعبدًا ، وألحق أبو حنيفة وأصحابه والثوري : الصغيرة بها لعدم التكليف ، وألحق أبو حنيفة وأصحابه الأمة المسلمة لنقصها ، ومحل تقرير ذلك في كتب الأحكام والفروع .

وقوله : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي انقضت عدتهن ، ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ : أي على أوليائها ﴿ فِيمَا فَعَلْنَ ﴾ يعني النساء اللاتي انقضت عدتهن . قال ابن عبّاس : إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها ، فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تتزين وتتصنع وتتعرض للتزويج ، فذلك المعروف . وقال مجاهد : النكاح الحلال الطيب .

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أن تعرضوا بخطبة النساء في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح . قال ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ التعريض أن يقول : إني أريد التزويج ، وإني أحب امرأة من أمرها ومن أمرها - يعرض لها بالقول بالمعروف . وعن ابن عبّاس : هو أن يقول : إني أريد التزويج ، وإن النساء لمن حاجتي ، ولوددت أن ييسر لي امرأة صالحة . هكذا قال غير واحد من السلف والأئمة في التعريض : إنه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة . وهكذا حكم المطلقة المبتوتة يجوز التعريض لها ، كما قال النبيّ ﷺ لفاطمة بنت قيس حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات فأمرها أن تعتد في بيت ابن أم

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٣٣٤) ومسلم في الطلاق (٥٨) وأبو داود (٢٢٩٩) والنسائي في السنن (١٩٨/٦) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١١٩٧) ومالك في الموطأ (٥٩٧) والبيهقي في السنن (٤٢٨/٧) .

مكتوم ، وقال لها : « فإذا حللت فآذنيني »(١) ، فلما حلت خطب عليها أسامة بن زيد مولاه فزوجها إياه ، فأما المطلقة فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها والله أعلم .

وقوله : ﴿ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ أي أضمرتم في أنفسكم من خطبتهن . ولهذا قال : ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ﴾ أي في أنفسكم ، فرفع الحرج عنكم في ذلك . ثم قال : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ يعني الزنى ، واختاره ابن جرير : وقال ابن عباس : لا تقل لها : إني عاشق ، وعاهديني أن لا تتزوجي غيري ونحو هذا . وهو أن يأخذ ميثاقها أن لا تتزوج غيره . وقال مجاهد : هو قول الرجل للمرأة : لا تفوتيني بنفسك ، فإني ناكحك . وقال قتادة : هو أن يأخذ عهد المرأة وهي في عدتها أن لا تنكح غيره ، فنهى الله عن ذلك وقدم فيه ، وأحل الخطبة ، والقول بالمعروف . وقال ابن زيد : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ : هو أن يتزوجها في العدة سرًّا ، فإذا حلت أظهر ذلك ، وقد يحتمل أن تكون الآية عامة في جميع ذلك ، ولهذا قال : ﴿ إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ : يعني به ما تقدم من إباحة التعريض كقوله : إني فيك لراغب ونحو ذلك وقال محمّد بن سيرين : قلت لعبيدة : ما معنى قوله : ﴿ إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ قال : يقول لوليها : لا تسبقني بها ، يعني لا تزوجها حتى تعلمني .

وقوله : ﴿ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ﴾ يعني ولا تعقدوا العقدة بالنكاح حتى تنقضي العدة . قال ابن عباس ومجاهد والشعبي وقتادة والثوري والضحاك وغيرهم : يعني ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضي العدة . وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد في مدة العدة . واختلفوا فيمن تزوج امرأة في عدتها فدخل بها ، فإنه يفرق بينهما ، وهل تحرم عليه أبدًا ؟ على قولين : الجمهور على أنها لا تحرم عليه ، بل له أن يخطبها إذا انقضت عدتها . وذهب الإمام مالك إلى أنها تحرم عليه على التأبيد ، واحتج في ذلك بما روي أن عمر ﷺ قال : أيما امرأة نكحت في عدتها ، فإن كان زوجها الذي تزوج بها لم يدخل بها ، فرق بينهما ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الأول ، وكان خاطبًا من الخطاب . وإن كان دخل بها فرق بينهما ، ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الأول ، ثم اعتدت من الآخر ، ثم لم ينكحها أبدًا . قالوا : ومأخذ هذا أن الزوج لما استعجل ما أجل الله عوقب بنقيض قصده ، فحرمت عليه على التأبيد ، كالقاتل يحرم الميراث . وقد روى الشافعي هذا الأثر عن مالك . قال البيهقي : وذهب إليه في القديم ورجع عنه في الجديد ؛ لقول علي أنها تحل له . قلت : قال : ثم هو منقطع عن عمر ، وقد روى الثوري عن أشعث عن الشعبي عن مسروق ، أن عمر رجع عن ذلك وجعل لها مهرها ، وجعلهما يجتمعان .

وقوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾ توعدهم على ما يقع في ضمائرهم من أمور النساء ، وأرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر ، ثم لم يؤيسهم من رحمته ولم يقنطهم من عائدته ، فقال : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها وقبل الدخول بها . قال الحسن البصري : المس

---

(١) أخرجه مسلم في الطلاق (٣٦) وأحمد في مسنده (٤١٢/٦) والبيهقي في السنن (١٧٧/٧) .

النكاح ، بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها ، والفرض لها إن كانت مفوضة ، وإن كان في هذا انكسار لقلبها ، ولهذا أمر تعالى بإمتاعها وهو تعويضها عما فاتها بشيء تعطاه من زوجها بحسب حاله ، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره . وقال ابن عبّاس : متعة الطلاق أعلاه الخادم ودون ذلك الورق ، ودون ذلك الكسوة . وقال : إن كان موسرًا متعها بخادم أو نحو ذلك ، وإن كان معسرًا أمتعها بثلاثة أثواب . وقال الشعبي : أوسط ذلك درع وخمار وملحفة وجلباب ، قال : وكان شريح يمتع بخمسمائة . ومتع الحسن بن علي بعشرة آلاف ، ويروى أن المرأة قالت : متاع قليل من حبيب مفارق . وذهب أبو حنيفة إلى أنه متى تنازع الزوجان في مقدار المتعة وجب لها عليه نصف مهر مثلها . وقال الشافعي في الجديد : لا يجبر الزوج على قدر معلوم إلّا على أقل ما يقع عليه اسم المتعة ، وأحب ذلك إليّ أن يكون أقله ما تجزئ فيه الصلاة ، وقال في القديم : لا أعرف في المتعة قدرًا إلّا أني أستحسن ثلاثين درهمًا .

وقد اختلف العلماء أيضًا هل تجب المتعة لكل مطلقة ، أو إنما تجب المتعة لغير المدخول بها التي لم يفرض لها ؟ على أقوال : أحدها : أنها تجب المتعة لكل مطلقة لعموم قوله تعالى : ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وقد كن مفروضًا لهن ، ومدخولًا بهن . وهو أحد قولي الشافعي ، ومنهم من جعله الجديد الصحيح .

والقول الثاني : إنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس ، وإن كانت مفروضًا لها ؛ لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ وعن سعيد بن المسيب قال : نسخت هذه الآية التي في الأحزاب ، الآية التي في البقرة ، وقد روي عن سهل بن سعد وأبي أسيد أنهما قالا : تزوج رسول اللّه ﷺ أميمة بنت شرحبيل ، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها ، فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين أزرقين .

والقول الثالث : إن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها ، ولم يفرض لها ، فإن كان قد دخل بها وجب لها مهر مثلها إذا كانت مفوضة ، وإن كان قد فرض لها وطلقها قبل الدخول وجب لها عليه شطره ، فإن دخل بها استقر الجميع ، وكان ذلك عوضًا لها عن المتعة . وإنما المصابة التي لم يفرض لها ، ولم يدخل بها فهذه التي دلت هذه الآية الكريمة على وجوب متعتها . ومن العلماء من استحبها لكل مطلقة ممن عدا المفوضة المفارقة قبل الدخول ، وهذا ليس بمنكور ، وعليه تحمل آية التخيير في الأحزاب ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ومن العلماء من يقول : إنها مستحبة مطلقًا .

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

وهذه الآية الكريمة مما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى ، حيث إنما أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض ، إذا طلّق الزوج قبل الدخول ، فإنه لو كان ثمّ واجب آخر من متعة لبينها ، لاسيما وقد قرنها بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الآية واللّه أعلم . وتشطير الصداق والحالة هذه أمر مُجمَعٌ عليه بين العلماء لا خلاف بينهم في ذلك ، فإنه متى كان قد سمى لها

صداقًا ، ثم فارقها قبل دخوله بها ، فإنه يجب لها نصف ما سمى من الصداق ، إلَّا أن عند الثلاثة أنه يجب جميع الصداق إذا خلا بها الزوج ، إن لم يدخل بها ، وهو مذهب الشافعي في القديم ، وبه حكم الخلفاء الراشدون ، لكن قال الشافعي : عن ابن عبّاس أنه قال في الرجل يتزوج المرأة فيخلو بها ولا يمسها ثم يطلقها : ليس لها إلَّا نصف الصداق لأن اللَّه يقول : ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ ، قال الشافعي : بهذا أقول وهو ظاهر الكتاب .

وقوله : ﴿ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ ﴾ أي النساء عما وجب لها على زوجها ، فلا يجب عليه شيء . وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ ﴾ قال : إلَّا أن تعفو الثيب فتدع حقها .

وقوله : ﴿ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾ عن النبيّ ﷺ قال : « وَلِيُّ عُقْدَةِ النِّكَاحِ الزَّوْجُ » (١) وعن عيسى - يعني ابن عاصم - قال : سمعت شريحًا يقول : سألني علي بن أبي طالب عن الذي بيده عقدة النكاح ؟ فقلت له : هو ولي المرأة ، فقال علي : لا ، بل هو الزوج (٢) . قلت : وهذا هو الجديد من قولي الشافعي ، ومذهب أبي حنيفة وأصحابه ، والثوري وابن شبرمة والأوزاعي ، واختاره ابن جرير ، ومأخذ هذا القول ، أن الذي بيده عقدة النكاح حقيقة الزوج ، فإن بيده عقدها ، وإبرامها ، ونقضها وانهدامها ، وكما أنه لا يجوز أن يهب شيئًا من مال المولية للغير ، فكذلك في الصداق .

قال : والوجه الثاني عن ابن عبّاس - في الذي ذكر اللَّه بيده عقدة النكاح - قال : ذلك أبوها أو أخوها أو من لا تنكح إلَّا بإذنه (٣) ، قال علقمة والزهري وغيرهما : أنه الولي ، وهذا مذهب مالك وقول الشافعي في القديم ، ومأخذه أن الولي هو الذي أكسبها إياه ، فله التصرف فيه بخلاف سائر مالها . وعن عكرمة : أذن اللَّه في العفو وأمر به ، فأي امرأة عفت جاز عفوها ، فإن شحت وضنت عفا وليها جاز عفوه ، وهذا يقتضي صحة عفو الولي وإن كانت شديدة ، وهو مروي عن شريح ، لكن أنكر عليه الشعبي فرجع عن ذلك ، وصار إلى أنه الزوج وكان يباهل عليه .

وقوله : ﴿ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ قال ابن جرير : قال بعضهم : خوطب به الرجال والنساء . وعن ابن عبّاس قال : أقربهما للتقوى الذي يعفو . وقال مقاتل بن حيان والربيع بن أنس والثوري : الفضل ههنا أن تعفو المرأة عن شطرها ، أو إتمام الرجل الصداق لها ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ أي الإحسان ، وقال الضحاك وقتادة والسدي : المعروف ، يعني لا تهملوه ، بل استعملوه بينكم .

﴿ حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ .

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها ، وحفظ حدودها ، وأدائها في أوقاتها ، فعن ابن مسعود قال : سألت رسول اللَّه ﷺ أي العمل أفضل ؟ قال : « الصَّلَاةُ في وَقْتِها » قلت : ثم أي ؟ قال : « الجِهَادُ في سَبِيلِ اللَّه » قلت ثم أي ؟ قال : « بِرُّ الوَالِدَيْنِ » قال : حدَّثني بهنّ رسول اللَّه ﷺ ، ولو استزدته لزادني (٤) .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢٥١/٧) والدارقطني في السنن (٢٧٩/٣) .
(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢٥١/٧) . (٣) أخرجه البيهقي في السنن (٢٥٢/٧) .
(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٤٢٦) والبيهقي في السنن (٢٣٢/١) وابن خزيمة في صحيحه (٣٢٧) .

وعن أم فروة - وكانت ممن بايع رسول الله ﷺ - أنها سمعت رسول الله ﷺ ذكر الأعمال فقال : « إِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلى اللهِ تَعْجِيلُ الصَّلاةِ لِأَوَّلِ وَقْتِهَا » (١) . وخص تعالى من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى . وقد اختلف السلف والخلف فيها ، أي صلاة هي ؟ .

فقيل : إنها الصبح حكاه مالك في الموطأ بلاغًا عن علي وابن عبّاس ، وعن أبي رجاء العطاردي قال : صليت خلف ابن عباس الفجر فقنت فيها ورفع يديه ثم قال : هذه الصلاة الوسطى التي أمرنا أن نقوم فيها قانتين . وعن ابن عبّاس أنه صلى الغداة في مسجد البصرة ، فقنت قبل الركوع ، وقال : هذه الصلاة الوسطى التي ذكرها الله في كتابه فقال : ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ وعن أبي العالية قال : صليت خلف عبد الله بن قيس بالبصرة صلاة الغداة ، فقلت لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ إلى جانبي : ما الصلاة الوسطى ؟ قال : هذه الصلاة . وعن جابر بن عبد الله قال : الصلاة الوسطى صلاة الصبح . وهو الذي نص عليه الشافعي رحمه الله محتجًا بقوله تعالى : ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ والقنوت عنده في صلاة الصبح ، ومنهم من قال : هي وسطى باعتبار أنها لا تقصر ، وهي بين صلاتين رباعيتين مقصورتين ، وترد المغرب ، وقيل : لأنها بين صلاتي ليل جهريتين ، وصلاتي نهار سريتين .

وقيل : إنها صلاة الظهر ، عن زهرة بن معبد قال : كنا جلوسًا عند زيد بن ثابت فأرسلوا إلى أسامة فسألوه عن الصلاة الوسطى فقال : هي الظهر ، كان رسول الله ﷺ يصليها بالهجير (٢) . وعن زيد بن ثابت قال : كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر بالهاجرة ، ولم يكن يصلي صلاة أشد على أصحاب رسول الله ﷺ منها ، فنزلت : ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ وقال : إن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين (٣) ، وعن الزبرقان أن رهطًا من قريش مر بهم زيد بن ثابت وهم مجتمعون ، فأرسلوا إليه غلامين لهم يسألانه عن الصلاة الوسطى ، فقال : هي العصر ، فقام إليه رجلان منهم فسألاه ، فقال : هي الظهر . ثم انصرفا إلى أسامة بن زيد فسألاه فقال : هي الظهر ، وإن النبيَّ ﷺ كان يصلي الظهر بالهجير ، فلا يكون وراءه إلَّا الصف والصفان ، والناس في قائلتهم وفي تجارتهم ، فأنزل الله ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ قال : فقال رسول الله ﷺ : « لَيَنْتَهِيَنَّ رِجَالٌ أَوْ لأُحَرِّقَنَّ بُيُوتَهُمْ » (٤) .

وقيل : إنها صلاة العصر قال الترمذي والبغوي رحمهما الله : وهو قول أكثر علماء الصحابة وغيرهم ، وهو قول جمهور التابعين ، وهو قول أكثر أهل الأثر ، وجمهور الناس . وحكاه عن عمر وعلي وابن مسعود وأبي أيوب وعبد الله بن عمرو وسمرة بن جندب وأبي هريرة وأبي سعيد وحفصة وأم حبيبة وأم سلمة وعن ابن عمر وابن عبّاس وعائشة على الصحيح عنهم . وهو مذهب أحمد بن حنبل ، وهو الصحيح عن أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمّد ، واختاره ابن حبيب المالكي رحمهم الله .

ذكر الدليل على ذلك ، عن علي قال : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب : « شَغَلُونا عَنِ الصَّلاَةِ الوُسْطَى صَلاةِ العَصْرِ ، مَلأَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ نَارًا » (٥) ثم صلاها بين العشاءين المغرب والعشاء .

(١) أخرجه الدارقطني في السنن(٢٤٨/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده(١٨٣/٥) ، والبيهقي في السنن(٤٣٤/١) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٤١١) والبغوي في شرح السنة(٢٣٦/٢) (٤) أخرجه ابن ماجه في السنن(٧٩٥)

(٥) أخرجه مسلم في المساجد(٥٠٢) والنسائي في السنن(٢٦٣/١) وأحمد في مسنده(١٢٢/١)

وعن سمرة أن رسول الله ﷺ قال : « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الوُسْطَى » (١) وسماها لنا أنها صلاة العصر .

فهذه نصوص في المسألة لا تحتمل شيئًا ، ويؤكد ذلك الأمر بالمحافظة عليها ، وقوله ﷺ : « مَنْ فَاتَتْهُ صَلاَةُ العَصْرِ فَكَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلُهُ وَمَالُهُ » (٢) وحديث عن بريدة بن الحصيب عن النبيّ ﷺ قال : « بَكِّرُوا بِالصَّلاَةِ فِي يَوْمِ الغَيْمِ ، فَإِنَّهُ مَنْ تَرَكَ صَلاَةَ العَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ » (٣) وعن أبي نضرة الغفاري قال : صلى بنا رسول الله ﷺ في وادٍ من أوديتهم يقال له : الحميص صلاةَ العصر فقال : « إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ عُرِضَتْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ فَضَيَّعُوهَا ، أَلا وَمَنْ صَلاَّهَا ضُعِّفَ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ ، أَلَّا وَلا صَلاَةَ بَعْدَهَا حَتَّى تَرَوا الشَّاهِدَ » (٤) . وعن أبي يونس مولى عائشة قال : أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفًا قالت : إذا بلغت هذه الآية ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ فآذني ، فلما بلغتها آذنتها فأملت عليَّ (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين) قالت : سمعتها من رسول الله ﷺ (٥) . وتقرير المعارضة أنه عطف صلاة العصر على الصلاة الوسطى بواو العطف التي تقتضي المغايرة ، فدل ذلك على أنها غيرها . وأجيب عن ذلك بوجوه أحدها : أن هذا إن روي على أنه خبر فحديث علي أصح وأصرح منه ، وهذا يحتمل أن تكون الواو زائدة كما في قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أو تكون لعطف الصفات ، لا لعطف الذوات كقوله : ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ .

وقد نص سيبويه شيخ النحاة على جواز قول القائل : مررت بأخيك وصاحبك ، ويكون الصاحب هو الأخ نفسه . وأما إن روي على أنه قرآن ، فإنه لم يتواتر فلا يثبت بمثل خبر الواحد قرآن ، ولهذا لم يثبته أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ في المصحف ، ولا قرأ بذلك أحد من القراء الذين تثبت الحجة بقراءتهم ، لا من السبعة ولا من غيرهم ، ثم قد روي ما يدل على نسخ هذه التلاوة المذكورة في هذا الحديث ، فعن البراء بن عازب قال : نزلت (حافظوا على الصلوات وصلاة العصر) فقرأناها على رسول الله ﷺ ما شاء الله ثم نسخها الله ﷻ فأنزل ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ فقال له زاهر - رجل كان مع شقيق - : أفهي العصر ؟ قال : قد حدثتك كيف نزلت وكيف نسخها الله ﷻ (٦) . فعلى هذا تكون هذه التلاوة وهي تلاوة الجادة ناسخة للفظ رواية عائشة وحفصة ولمعناها إن كانت الواو دالة على المغايرة ، وإلَّا فلفظها فقط والله أعلم .

وقيل : إن الصلاة الوسطى هي صلاة المغرب ، فعن ابن عبّاس قال : صلاة الوسطى المغرب ، وحكى هذا القول ابن جرير ، ووجَّه هذا القول بعضهم بأنها وسطى في العدد بين الرباعية والثنائية أو بأنها وتر المفروضات ، وبما جاء فيها من الفضيلة والله أعلم .

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤١٠) وأحمد في مسنده (٧٣/٦) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٤/٢) والنسائي في السنن (٢٣٨/١) والدارمي في السنن (٢٨٠/١) والبيهقي في السنن (٤٤٥/١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦١/٥) وابن ماجه في السنن (٦٩٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٧/٦) والبيهقي في السنن (٤٥٢/٢) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٨/٥) والطبراني في الكبير (١٣١/٥) .
(٦) أخرجه البيهقي في السنن (٤٥٩/١) .

وقيل : إنها العشاء الأخيرة ، اختاره علي بن أحمد الواحدي في تفسيره المشهور ، وقيل : هي واحدة من الخمس لا بعينها ، وأبهمت فيهن كما أبهمت ليلة القدر في الحول أو الشهر أو العشر .

وقيل : بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس ، والعجب أن هذا القول اختاره الشيخ أبو عمرو بن عبد البر النمري إمام ما وراء البحر ، وإنها لإحدى الكبر ؛ إذ اختاره مع اطلاعه وحفظه ما لم يقم عليه دليل من كتاب ولا سنة ولا أثر . وقيل : إنها صلاة العشاء وصلاة الفجر ، وقيل : بل هي صلاة الجماعة ، وقيل : صلاة الجمعة ، وقيل : صلاة الخوف ، وقيل : بل صلاة عيد الفطر ، وقيل : بل صلاة الأضحى ، وقيل : الوتر ، وقيل : الضحى ، وتوقف فيها آخرون لما تعارضت عندهم الأدلة ولم يظهر لهم وجه الترجيح ، ولم يقع الإجماع على قول واحد ، بل لم يزل النزاع فيها موجودًا من زمان الصحابة وإلى الآن . وعن سعيد بن المسيب قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين في الصلاة الوسطى هكذا ، وشبك بين أصابعه . وكل هذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التي قبلها ، وإنما المدار ومعترك النزاع في الصبح والعصر ، وقد ثبتت السنة بأنها العصر فتعين المصير إليها .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ أي خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه ، وهذا الأمر مستلزم ترك الكلام في الصلاة لمنافاته إياها ، ولهذا لما امتنع النبيّ ﷺ من الرد على ابن مسعود حين سلم عليه وهو في الصلاة ، اعتذر إليه بذلك وقال : « إنَّ في الصَّلاةِ لَشغلًا »(١) وقال لمعاوية بن الحكيم السلمي حين تكلم في الصلاة : « إنَّ هَذِهِ الصَّلاةَ لا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلامِ النَّاسِ ، إِنَّمَا هِيَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَذِكْرُ اللَّه »(٢) وعن زيد بن أرقم قال : كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبيّ ﷺ في الحاجة في الصلاة ، حتى نزلت هذه الآية ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ فأمرنا بالسكوت(٣) . وقد أشكل هذا الحديث على جماعة من العلماء حيث ثبت عندهم أن تحريم الكلام في الصلاة كان بمكة قبل الهجرة إلى المدينة ، وبعد الهجرة إلى أرض الحبشة ، كما دل على ذلك حديث ابن مسعود الذي في الصحيح قال : كنا نسلم على النبيّ ﷺ قبل أن نهاجر إلى الحبشة ، وهو في الصلاة ، فيرد علينا ، قال : فلما قدمنا سلمت عليه فلم يرد عليّ ، فأخذني ما قرب وما بعد فلما سلم قال : « إنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَيْكَ إلَّا أَنِّي كُنْتُ فِي الصَّلاةِ ، وَإِنَّ اللَّه يُحْدِثُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ ، وَإِنَّ مِمَّا أَحْدَثَ أَنْ لاَ تَكَلَّمُوا فِي الصَّلاةَ »(٤) وقد كان ابن مسعود ممن أسلم قديمًا وهاجر إلى الحبشة ثم قدم منها إلى مكة مع من قدم ، فهاجر إلى المدينة . وهذه الآية ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ مدنية بلا خلاف ، فقال قائلون : إنما أراد زيد بن أرقم بقوله : كان الرجل يكلم أخاه في حاجته في الصلاة : الإخبار عن جنس الكلام ، واستدل على تحريم ذلك بهذه الآية بحسب ما فهمه منها والله أعلم . وقال آخرون : إنما أراد أن ذلك قد وقع بالمدينة بعد الهجرة إليها ، ويكون ذلك قد أبيح مرتين وحرم مرتين ، كما اختار ذلك قوم من أصحابنا وغيرهم ، والأول أظهر والله أعلم .

وقوله : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ لما أمر

---

(١) أخرجه البخاري في العمل في الصلاة (١١٩٩) ومسلم في المساجد (٣٤) وأبو داود في السنن (٩٢٣) .
(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٣٣) وأحمد في مسنده (٤٤٨/٥) والبيهقي في السنن (٣٦٠/٢) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٩٤٩) والنسائي في السنن (١٨١/١) وأحمد في مسنده (٣٦٨/٤) .
(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٥/١٠) وأبو عوانة في مسنده (١٣٩/٢) .

تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات والقيام بحدودها وشدد الأمر بتأكيدها ، ذكر الحال الذي يشتغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل ، وهي حال القتال والتحام الحرب فقال : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ أي فصلوا على أي حال رجالًا أو ركبانًا ، يعني مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ، كما قال مالك عن نافع : أن ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها ، ثم قال : فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالًا على أقدامهم ، أو ركبانًا مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها . قال نافع : لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلّا عن النبيّ ﷺ [١] ، عن ابن عمر قال : فإن كان خوف أشد من ذلك فصل راكبًا أو قائمًا تومئ إيماء . وعن جابر بن عبد اللّه قال : إذا كانت المسايفة فليومئ برأسه إيماء حيث كان وجهه ، فذلك قوله : ﴿ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ . وقد ذهب الإمام أحمد فيما نص عليه إلى أن صلاة الخوف تفعل في بعض الأحيان ركعة واحدة إذا تلاحم الجيشان ، وعن ابن عبّاس قال : فرض اللّه الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعًا ، وفي السفر ركعتين ، وفي الخوف ركعة [٢] . واختار هذا القول ابن جرير . وقال البخاري : (باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو) وقال الأوزاعي : إن كان تهيأ الفتح ولم يقدروا على الصلاة صلوا إيماء ، كل امرئ لنفسه ، فإن لم يقدروا على الإيماء ؛ أخروا الصلاة حتى ينكشف القتال ، ويأمنوا فيصلوا ركعتين ، فإن لم يقدروا ؛ صلوا ركعة وسجدتين ، فإن لم يقدروا ؛ لا يجزيهم التكبير ، ويؤخرونها حتى يأمنوا . وبه قال مكحول . وقال أنس بن مالك : حضرت مناهضة (حصن تستر) عند إضاءة الفجر واشتد اشتعال القتال ، فلم يقدروا على الصلاة ، فلم نصل إلّا بعد ارتفاع النهار ، فصليناها ونحن مع أبي موسى ففتح لنا . قال أنس : وما يسرني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها [٣] . ثم استشهد على ذلك بحديث تأخيره ﷺ صلاة العصر يوم الخندق لعذر المحاربة إلى غيبوبة الشمس ، لقوله ﷺ بعد ذلك لأصحابه لما جهزهم إلى بني قريظة : « لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمُ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قريظَةَ » فمنهم من أدركته الصلاة في الطريق فصلوا ، وقالوا : لم يرد منا رسول اللّه ﷺ إلّا تعجيل السير ، ومنهم من أدركته فلم يصل إلى أن غربت الشمس في بني قريظة فلم يعنف واحدًا من الفريقين [٤] ، وهذا يدل على اختيار البخاري لهذا القول ، والجمهور على خلافه ، ويعولون على أن صلاة الخوف على الصفة التي ورد بها القرآن في سورة النساء ، ووردت بها الأحاديث لم تكن مشروعة في غزوة الخندق ، وإنما شرعت بعد ذلك ، وقد جاء مصرحًا بهذا في حديث أبي سعيدة وغيره . وأما مكحول والأوزاعي والبخاري فيجيبون بأن مشروعية صلاة الخوف بعد ذلك لا تنافي جواز ذلك ؛ لأن هذا حال نادر خاص فيجوز فيه مثل ما قلنا ، بدليل صنيع الصحابة زمن عمر في فتح تستر ، وقد اشتهر ولم ينكر واللّه أعلم .

وقوله : ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ أي أقيموا صلاتكم كما أمرتم ، فأتموا ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها وهجودها ﴿ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ أي مثل ما أنعم عليكم ، وهداكم للإيمان ، وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة ، فقابلوه بالشكر والذكر .

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٣٥) . (٢) أخرجه أبو داود في السنن (١٢٤٧) .

(٣) أخرجه البخاري في صلاة الخوف (باب الصلاة عند مناهضة الحصون) .

(٤) أخرجه البخاري في المغازي (٤١١٩) ومسلم في الجهاد (٦٩) والبيهقي في السنن (١١٩/١٠) .

عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ۝ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

قال الأكثرون : هذه الآية منسوخة بالتي قبلها وهي قوله : ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ قال ابن الزبير : قلت لعثمان بن عفّان : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا ﴾ قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها . قال : يا ابن أخي لا أغير شيئًا منه من مكانه (١) . ومعنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر ، فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها ، وبقاء رسمها بعد التي نسختها يوهم بقاء حكمها ؟ فأجابه أمير المؤمنين بأن هذا أمر توقيفي ، وأنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها ، فأثبتها حيث وجدتها . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ فكان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكناها في الدار سنة ، فنسختها آية المواريث فجعل لها الثمن ، أو الربع مما ترك الزوج . ثم قال : وروي عن أبي موسى الأشعري وابن الزبير ومجاهد وإبراهيم وعطاء والحسن وعكرمة وقتادة والضحاك وغيرهم أنها منسوخة .

وروي عن ابن عبّاس قال : كان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة في بيته ينفق عليها من ماله ، ثم أنزل اللّه بعده : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ فهذه عدة المتوفى عنها زوجها ، إلّا أن تكون حاملًا فعدتها أن تضع ما في بطنها . وقال : ﴿ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ ﴾ فبين ميراث المرأة وترك الوصية والنفقة . قلت : وروي عن مقاتل وقتادة أنها منسوخة بآية الميراث . وعن مجاهد ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا ﴾ قال : كانت هذه للمعتدة ، تعتد عند أهل زوجها واجب ، فأنزل اللّه ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ﴾ قال : جعل اللّه تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية ، إن شاءت سكنت في وصيتها ، وإن شاءت خرجت ، وهو قول اللّه : ﴿ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ فالعدة كما هي واجب عليها . قال ابن عبّاس : نسخت هذه الآية عدتها عند أهلها ، فتعتد حيث شاءت ، وهو قول اللّه تعالى : ﴿ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ قال عطاء : إن شاءت اعتدت عند أهلها وسكنت في وصيتها ، وإن شاءت خرجت لقول اللّه : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ ﴾ قال عطاء . ثم جاء الميراث فنسخ السكنى فتعتد حيث شاءت . ولا سكنى لها (٢) ثم أسند البخاري عن ابن عبّاس مثل ما تقدم عنه بهذا القول الذي عول عليه مجاهد ، وعطاء من أن هذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سنة كما زعمه الجمهور ، حتى يكون ذلك منسوخًا بالأربعة الأشهر وعشر ، وإنما دلت على أن ذلك كان من باب الوصاة بالزوجات أن يمكنَّ من السكنى في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولًا كاملًا إن اخترن ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم ﴾ أي يوصيكم اللّه بهن وصية ، وقيل : إنما انتصب على معنى فلتوصوا لهن وصية ، وقرأ آخرون بالرفع وصية على معنى كتب عليكم وصية ، واختارها ابن جرير ، ولا يمنعن من ذلك لقوله : ﴿ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ فأما إذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر ، أو بوضع الحمل ، واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل ، فإنهن لا يمنعن من ذلك لقوله : ﴿ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ﴾ وهذا القول له اتجاه ، وفي

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٣٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٣٤٤) .

اللفظ مساعدة له ، وقد اختاره جماعة منهم الإمام أبو العباس ابن تيمية ، ورده آخرون منهم الشيخ أبو عمر ابن عبد البر . وقول عطاء ومن تابعه : على أن ذلك منسوخ بآية الميراث إن أرادوا ما زاد على الأربعة أشهر والعشر فمسلَّم ، وإن أرادوا أن سكنى الأربعة أشهر وعشر لا تجب في تركة الميت ، فهذا محل خلاف بين الأئمة ، وهما قولان للشافعي رحمه الله . وقد استدلوا على وجوب السكنى في منزل الزوج بما روي أن الفريعة بنت مالك بن سنان ، وهي أخت أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة ، فإن زوجها خرج في طلب أعبد له أبقوا ، حتى إذا كان بطرف القدوم لحقهم فقتلوه ، قالت : فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي في بني خدرة ، فإن زوجي لم يتركني في مسكن يملكه ولا نفقة ، قالت : فقال رسول الله ﷺ : « نَعَمْ » قالت : فانصرفت حتى إذا كانت في الحجرة ناداني رسول الله ﷺ أو أمر بي فنوديت له ، فقال : « كَيفَ قُلْتِ ؟ » فرددت عليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي فقال : « امْكُثِي فِي بَيْتِكِ حَتَّى يَبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ » قالت : فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرًا ، قالت : فلما كان عثمان بن عفّان أرسل إلي فسألني عن ذلك فأخبرته فاتبعه وقضى به (١) .

وقوله : ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ قال عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم : لما نزل قوله تعالى : ﴿ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ قال رجل : إن شئت أحسنت ففعلت ، وإن شئت لم أفعل فأنزل الله هذه الآية : ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة ، سواء كانت مفوضة ، أو مفروضًا لها ، أو مطلقة قبل المسيس ، أو مدخولًا بها ، وهو قول عن الشافعي رحمه الله ، وإليه ذهب سعيد بن جبير ، وغيره من السلف ، واختاره ابن جرير ، ومن لم يوجبها مطلقًا يخصص من هذا العموم مفهوم قوله تعالى : ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وأجاب الأولون بأن هذا من باب ذكر بعض أفراد العموم ، فلا تخصيص على المشهور المنصور والله أعلم .

وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي في إحلاله وتحريمه ، وفروضه وحدوده ، فيما أمركم به ونهاكم عنه ، بينه ووضَّحه وفسره ، ولم يتركه مجملًا في وقت احتياجكم إليه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي تفهمون وتتدبرون .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

روي عن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف ، وعنه : كانوا ثمانية آلاف ، وقال أبو صالح : تسعة آلاف ، وقال عن ابن عباس : أربعون ألفًا ، وقال وهب بن منبه : كانوا بضعة وثلاثين ألفًا . وعن ابن عبّاس قال : كانوا أهل قرية يقال لها : ذاوردان . وقال سعيد بن عبد العزيز : كانوا من أهل أذرعات . وعن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام ، حتى إذا كان بسرغ ، لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ، فخبروه أن الوباء قد وقع بالشام ، فذكر الحديث ، فجاءه عبد الرَّحمن بن عوف وكان متغيبًا لبعض حاجته

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٤٣٤/٧) والدارمي في السنن (١٦٨/٢) وابن حبان في صحيحه (١٣٣٢) .

فقال : إن عندي من هذا علمًا ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِذَا كَانَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تُقْدِمُوا عَلَيْهِ » فحمد الله عمر ثم انصرف (١) . وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر وهو في الشام عن النبيّ ﷺ : « إِنَّ هَذَا السَّقَمَ عذب بِهِ الأُمَمُ قَبْلَكُمْ ، فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ فِي أَرْضٍ فَلاَ تَدْخُلُوهَا ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا » قال : فرجع عمر من الشام (٢) .

وقوله : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي كما أن الحذر لا يغني من القدر ، وكذلك الفرار من الجهاد وتجنبه لا يقرب أجلًا ولا يبعده ، بل الأجل المحتوم ، والرزق المقسوم ، مقدر مقنن ، لا يزاد فيه ولا ينقص منه . وروينا عن أمير الجيوش ، ومقدم العساكر ، وحامي حوزة الإسلام ، وسيف الله المسلول على أعدائه أبي سليمان خالد بن الوليد ﷺ أنه قال وهو في سياق الموت : لقد شهدت كذا وكذا موقفًا ، وما من عضو من أعضائي إلّا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة ، وها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء . يعني أنه يتألم لكونه ما مات قتيلًا في الحرب ، ويتأسف على ذلك ، ويتألم أن يموت على فراشه .

وقوله : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ يحث تعالى عباده على الإنفاق في سبيل الله ، وقد كرر تعالى هذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع ، وفي حديث النزول أنه يقول تعالى : « مَنْ يُقْرِضُ غَيرَ عَدِيمٍ وَلاَ ظَلُوم » (٣) وعن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله وإن الله ﷻ ليريد منا القرض ؟ قال : « نَعَمْ يا أبا الدَّحْدَاحِ » قال : أرني يدك يا رسول الله ، قال : فناوله يده قال : فإني قد أقرضت ربي ﷻ حائطي ، قال : وحائط له فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها ، قال : فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح ، قالت : لبيك ، قال : اخرجي فقد أقرضته ربي ﷻ (٤) . وقوله : ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ روى عمر وغيره من السلف هو النفقة في سبيل الله ، وقيل : هو النفقة على العيال ، وقيل : هو التسبيح والتقديس . وقوله : ﴿ فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ عن أبي عثمان النهدي قال : لم يكن أحد أكثر مجالسة لأبي هريرة مني ، فقدم قبلي حاجًا ، قال : وقدمت بعده ، فإذا أهل البصرة يأثرون عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّهَ يُضَاعِفُ الحَسَنَةَ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ » فقلت : ويحكم والله ما كان أحد أكثر مجالسة لأبي هريرة مني ، فما سمعت هذا الحديث ، قال : فتحملت أريد أن ألحقه ، فوجدته قد انطلق حاجًا ، فانطلقت إلى الحج أن ألقاه في هذا الحديث ، فلقيته لهذا فقلت : يا أبا هريرة ما حديث سمعت أهل البصرة يأثرون عنك ؟ قال : ما هو ؟ قلت : زعموا أنك تقول : إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة ، قال : يا أبا عثمان وما تعجب من ذا والله يقول : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ ويقول : ﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ والذي نفسي بيده لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّهَ يُضَاعِفُ الحَسَنَةَ أَلْفَي أَلْفِ حَسَنَةٍ » (٥) . وعن

(١) أخرجه مسلم في السلام (١٠٠) والبيهقي في السنن (٣٧٦/٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٣/١) . (٣) أخرجه البيهقي في السنن (٢/٣) .
(٤) أخرجه البزار في مسنده (٩٤٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٤/٣) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٦/٢) .

ابن عمر قال : لما نزلت ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ﴾ إلى آخرها فقال رسول الله ﷺ : « رَبِّ زِدْ أُمَّتِي » فنزلت : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ قال : « رَبِّ زِدْ أُمَّتِي » فنزلت ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١) .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

قال قتادة : هذا النبي هو يوشع بن نون . وقال ابن جرير : يعني ابن أفرايم بن يوسف بن يعقوب ، وهذا القول بعيد ؛ لأن هذا كان بعد موسى بدهر طويل ، وكان ذلك في زمان داود عليه السلام كما هو مصرح به في القصة ، وقد كان بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة والله أعلم . وقال السدي : هو شمعون . وقال مجاهد : هو شمويل عليه السلام . وهو شمويل بن بالي بن علقمة بن ترخام بن اليهد بن بهرض بن علقمة بن ماجب بن عمرصا بن عزريا بن صفية بن علقمة بن أبي ياشف بن قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام . وقال وهب بن منبه وغيره : كان بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على طريق الاستقامة مدة من الزمان ، ثم أحدثوا الأحداث وعبد بعضهم الأصنام ، ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويقيمهم على منهج التوراة ، إلى أن فعلوا ما فعلوا ، فسلط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأسروا خلقًا كثيرًا ، وأخذوا منهم بلادًا كثيرة ، ولم يكن أحد يقاتلهم إلّا غلبوه ، وذلك أنهم كان عندهم التوراة والتابوت الذي كان في قديم الزمان ، وكان ذلك موروثًا لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة والسلام ، فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب ، وأخذ التوراة من أيديهم ، ولم يبق من يحفظها فيهم إلّا القليل ، وانقطعت النبوة من أسباطهم ، ولم يبق من سبط لاوي الذي يكون فيه الأنبياء إلّا امرأة حامل من بعلها وقد قتل ، فأخذوها فحبسوها في بيت واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلامًا يكون نبيًّا لهم ، ولم تزل المرأة تدعو الله عز وجل أن يرزقها غلامًا ، فسمع الله لها ووهبها غلامًا فسمته شمويل ، أي سمع الله دعائي ، ومنهم من يقول : شمعون وهو بمعناه ، فشب ذلك الغلام ونشأ فيهم ، وأنبته الله نباتًا حسنًا ، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه ، وأمره بالدعوة إليه وتوحيده ، فدعا بني إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكًا يقاتلون معه أعداءهم ، وكان الملك أيضًا قد باد فيهم ، فقال لهم النبي : فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكًا ألا تقاتلوا وتفوا بما التزمتم من القتال معه ﴿ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ﴾ أي وقد أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي ما وفوا بما وعدوا ، بل نكل عن الجهاد أكثرهم ، والله عليم بهم (٢) .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤٦٢٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٢/٣) .
(٢) هذا الأثر لم يرد به الكتاب أو السنة وأغلب الظن أنه من آثار بني إسرائيل .

يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

أي لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكًا منهم ، فعين لهم طالوت ، وكان رجلًا من أجنادهم ، ولم يكن من بيت الملك فيهم ؛ لأن الملك كان في سبط يهوذا ، ولم يكن هذا من ذلك السبط ، فلهذا قالوا : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ أي كيف يكون ملكًا علينا ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ ﴾ أي هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك ، وقد ذكر بعضهم أنه كان سقاء ، وقيل دباغًا ، وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت ، وكان الأولى بهم طاعة ، وقول معروف ، ثم قد أجابهم النبي قائلًا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي اختاره لكم من نبيكم ، والله أعلم به منكم ، يقول : لست أنا الذي عينته من تلقاء نفسي ، بل الله أمرني به لما طلبتم مني ذلك ﴿ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ ﴾ أي وهو مع هذا أعلم منكم ، وأنبل وأشكل منكم ، وأشد قوة وصبرًا في الحرب ومعرفة بها ، أي أتم علمًا وقامة منكم ، ومن ههنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة في بدنه ونفسه ، ثم قال : ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ ﴾ أي هو الحاكم الذي ما شاء فعل ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون لعلمه وحكمته ورأفته بخلقه ، ولهذا قال : ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ ﴾ أي هو الحاكم الذي ما شاء فعل ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، لعلمه ، وحكمته ، ورأفته بخلقه ، ولهذا قال : ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي هو واسع الفضل ، يختص برحمته من يشاء ، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول لهم نبيهم : إن علامة بركة ملك طالوت عليكم ، أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ قيل : معناه فيه وقار وجلالة . وقال قتادة : ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ ﴾ أي وقار . وقال الربيع : رحمة . وقال ابن جريج : سألت عطاء عن قوله : ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ قال : ما تعرفون من آيات الله فتسكنون إليه .

وقوله : ﴿ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ ﴾ عن ابن عبّاس قال : عصاه ورضاض الألواح . وقال أبو صالح : يعني عصا موسى وعصا هارون ، ولوحين من التوراة والمن . وقال عطية ابن سعد : عصا موسى وعصا هارون وثياب موسى وثياب هارون ورضاض الألواح .

وقوله : ﴿ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ ﴾ قال ابن عبّاس : جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون ، وقال السدي : أصبح التابوت في دار طالوت فآمنوا بنبوة شمعون ، وأطاعوا طالوت . وقال الثوري عن بعض أشياخه : جاءت به الملائكة تسوقه على عجلة على بقرة ، وقيل : على بقرتين . وذكر غيره أن التابوت كان بأريحا ، وكان المشركون لما أخذوه وضعوه في بيت آلهتهم تحت صنمهم الكبير ، فأصبح التابوت على رأس الصنم ، فأنزلوه فوضعوه تحته فأصبح كذلك ، فسمروه تحته فأصبح الصنم مكسور القوائم ملقى بعيدًا ، فعلموا أن هذا أمر من الله لا قبل لهم به ، فأخرجوا التابوت من بلدهم ، فوضعوه في بعض القرى ، فأصاب أهلها داء في رقابهم ، فأمرتهم جارية

من سبي بني إسرائيل أن يردوه إلى بني إسرائيل حتى يخلصوا من هذا الداء ، فحملوه على بقرتين ، فسارتا به لا يقربه أحد إلَّا مات ، حتى اقتربتا من بلد بني إسرائيل فكسرتا النيرين ورجعتا ، وجاء بنو إسرائيل فأخذوه ، فقيل : إنه تسلمه داود ﷺ ، وإنه لما قام إليهما خجل من فرحه بذلك ، وقيل : شابان منهم ، فاللَّه أعلم ، وقيل : كان التابوت بقرية من قرى فلسطين يقال لها : أزوده .

وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ ﴾ أي على صدقي فيما جئتكم به من النبوة ، وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي باللَّه واليوم الآخر .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾ أي مختبركم بنهر . قال ابن عباس وغيره : وهو نهر بين الأردن وفلسطين ، يعني نهر الشريعة المشهور ﴿ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ أي فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه ، ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ أي فلا بأس عليه قال اللَّه تعالى : ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ قال ابن عبّاس : من اغترف منه بيده روي ومن شرب منه لم يرو . وقال السدي : كان الجيش ثمانين ألفًا ، فشرب منه ستة وسبعون ألفًا ، وتبقى معه أربعة آلاف ، وعن البراء بن عازب قال : كنا نتحدث أن أصحاب محمّد ﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة ، وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر ، وما جازه معه إلَّا مؤمن(١) . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ أي استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوّهم لكثرتهم ، فشجعهم علماؤهم العالمون بأن وعد اللَّه حق ، فإن النصر من عند اللَّه ليس عن كثرة عَدد ولا عُدد . ولهذا قالوا : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

أي لما واجه حزب الإيمان وهم قليل من أصحاب طالوت ، لعدوهم أصحاب جالوت وهم عدد كثير ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أي أنزل علينا صبرًا من عندك ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ أي في لقاء الأعداء ، وجنبنا الفرار والعجز ﴿ وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

قال اللَّه تعالى : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي غلبوهم وقهروهم بنصر اللَّه لهم ﴿ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ ﴾ ذكروا في الإسرائيليات أنه قتله بمقلاع كان في يده رماه به ، فأصابه فقتله ، وكان طالوت

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي(٣٩٥٩) .

قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ، ويشاطره نعمته ، ويشركه في أمره فوفى له ، ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ الذي كان بيد طالوت ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي النبوة بعد شمويل ﴿ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ أي مما يشاء الله من العلم الذي اختصه به ﷺ ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ أي لولا الله يدفع عن قوم بآخرين ، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت ، وشجعه داود ، لهلكوا .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ لَيُصْلِحُ بِصَلاَحِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ وَلَدَهُ وَوَلَدَ وَلَدِهِ وَأَهْلَ دُوَيْرَتِهِ وَدُوَيْرَاتٍ حَوْلَهُ ، وَلاَ يَزَالُونَ فِي حِفْظِ اللَّهِ ﷻ مَا دَامَ فِيهِمْ » (١) . وعن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « الأَبْدَالُ فِي أُمَّتِي ثَلاثُونَ ، بِهِمْ تُرْزَقُونَ ، وَبِهِمْ تُمْطَرُونَ ، وَبِهِمْ تُنْصَرُونَ » (٢) قال قتادة : إني لأرجو أن يكون الحسن منهم .

وقوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي ذو منٍّ عليهم ورحمة بهم ، يدفع عنهم بعضهم ببعضٍ ، وله الحكم والحكمة والحجة على خلقه في جميع أفعاله وأقواله .

ثم قال تعالى : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق ، أي بالواقع الذي كان عليه الأمر المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق الذي يعلمه علماء بني إسرائيل ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ يا محمد ﴿ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ وهذا توكيد وتوطئة للقسم .

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

يخبر تعالى أنه فضَّل بعض الرسل على بعض وقال : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ يعني موسى ومحمَّدًا ﷺ ، وكذلك آدم ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبيّ ﷺ الأنبياء في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله ﷻ .

فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت عن أبي هريرة قال : استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود ، فقال اليهودي في قسم يقسمه : لا والذي اصطفى موسى على العالمين ، فرفع المسلم يده فلطم بها وجه اليهودي فقال : أي خبيث ؟ وعلى محمّد ﷺ ؟ فجاء اليهودي إلى النبيّ ﷺ فاشتكى على المسلم ، فقال رسول الله ﷺ : « لاَ تُفَضِّلُونِي عَلَى الأَنْبِيَاءِ ، فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَأَكُونَ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ ، فَأَجِدُ مُوسَى بَاطِشًا بِقَائِمَةِ العَرْشِ ، فَلاَ أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطور ؟ فَلاَ تُفَضِّلُونِي عَلَى الأَنْبِيَاءِ » (٣) فالجواب من وجوه أحدها : أن هذا كان قبل أن يعلم بالتفضيل ، وفي هذا نظر ، الثاني : أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع ، الثالث : أن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر ، الرابع : لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية ، الخامس :

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٢٠/١) والجامع الصغير (ص : ١١٢) ونسبه للطبراني في الكبير .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٢/٥) والألباني في الضعيفة (٩٣٦) .

(٣) أخرجه البخاري في الخصومات (٢٤١١) ومسلم في الفضائل (١٥٩) .

ليس مقام التفضيل إليكم ، وإنما هو إلى الله ﷻ ، وعليكم الانقياد والتسليم له والإيمان به .

وقوله : ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بني إسرائيل به ، من أنه عبد الله ورسوله إليهم ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ يعني أن الله أيّده بجبريل عليه السلام ، ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ أي كل ذلك عن قضاء الله وقدره ، ولهذا قال : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

يأمر تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم في سبيله سبيل الخير ، ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم ومليكهم ، وليبادروا إلى ذلك في هذه الحياة الدنيا ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ أي لا يباع أحد من نفسه ، ولا يفادى بمال ولو بذله ، ولو جاء بملء الأرض ذهبًا ، ولا تنفعه خلة أحد يعني صداقته ، بل نسابته ﴿ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ أي ولا تنفعهم شفاعة الشافعين .

وقوله : ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ مبتدأ محصور في خبره ، أي ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذٍ كافرًا . وعن عطاء بن دينار قال : الحمد لله الذي قال : ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ولم يقل : والظالمون هم الكافرون .

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

هذه آية الكرسي ، ولها شأن عظيم ، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله . عن أبيّ بن كعب أن النبيّ ﷺ سأله : « أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ ؟ » قال : الله ورسوله أعلم ، فرددها مرارًا ، ثم قال : آية الكرسي ، قال : « لِيَهْنِكَ العِلْمُ أبا المُنْذِرِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ لها لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ تُقَدِّسُ المَلِكَ عِنْدَ سَاقِ العَرْشِ » (١) .

عن عمر بن عطاء أو مولى ابن الأسقع رجل صدق ، عن الأسقع البكري أنه سمعه يقول : إن النبيّ ﷺ جاءهم في صفّة المهاجرين فسأله إنسان : أي آية في القرآن أعظم ؟ فقال النبيّ ﷺ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ حتى انقضت الآية (٢) .

عن أبي ذر رضي الله عنه قال : أتيت النبيّ ﷺ وهو في المسجد فجلست ، فقال : « يا أبا ذَرّ هَلْ صَلَّيْتَ ؟ » قلت : لا ، قال : « قُمْ فَصَلِّ » قال : فقمت فصليت ثم جلست ، فقال : « يَا أَبَا ذَرّ تَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ » قال : قلت : يا رسول الله أو للإنس شياطين ؟ قال : « نَعَمْ » قال : قلت : يا رسول الله الصلاة ؟ قال : « خَيْرُ مَوْضُوعٍ ، مَنْ شَاءَ أَقَلَّ ، وَمَنْ شَاءَ أَكْثَرَ » قال : قلت : يا رسول الله فالصوم ؟ قال : « فَرْضٌ مجزي وَعِنْدَ اللَّهِ مَزِيدٌ » قلت : يا رسول الله فالصدقة ؟ قال : « أَضْعَافٌ مُضَاعَفَةٌ » قلت :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٥٨) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٠٠٣) والطبراني في الكبير (٩/١٤٣) والمنذري في الترغيب (١/٤١٩) .

يا رسول الله فأيها أفضل ؟ قال :« جُهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ ، أَوْسِرٌّ إلى فَقِير» قلت : يا رسول الله أي الأنبياء كان أول ؟ قال :« آدَمُ» قلت : يا رسول الله ونبي كان ؟ قال :« نَعَمْ نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ» قلت : يا رسول الله كم المرسلون ؟ قال :« ثَلاثُمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا» وقال مرة :« وَخَمْسَةَ عَشَرَ» قلت : يا رسول الله أي ما أنزل عليك أعظم ؟ قال :« آيَةُ الكُرْسِيِّ» ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾(١)

وعن أبي هريرة قال : وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان ، فأتاني آت ، فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته وقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : دعني فإني محتاج وعليَّ عيالي ولي حاجة شديدة ، قال : فخليت عنه فأصبحت ، فقال النبيّ ﷺ :« يَا أَبا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ ؟» قال : قلت : يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالًا فرحمته وخليت سبيله ، قال :« أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ» فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ :« إِنَّهُ سَيَعُودُ» فرصدته ، فجاء يحثو من الطعام فأخذته ، فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : دعني فإني محتاج وعلي عيال لا أعود ، فرحمته وخليت سبيله ، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ :« يَا أَبا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ ؟» قلت : يا رسول الله شكا حاجة وعيالًا فرحمته فخليت سبيله قال :« أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ» فرصدته الثالثة ، فجاء يحثو من الطعام ، فأخذته ، فقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود ، فقال : دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها ، قلت : وما هي ؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ حتى تختم الآية ، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فخليت سبيله ، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ :« مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ ؟» قلت : يا رسول الله زعم أنه يعلّمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله ، قال :« مَا هِيَ ؟» قال لي : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ وقال لي : لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح - وكانوا أحرص شيء على الخير - فقال النبيّ ﷺ :« أَمَا إِنَّهُ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مِنْ ثَلاثِ لَيَالٍ يا أبا هُرَيْرَةَ ؟» قلت : لا ، قال :« ذَاكَ شَيْطَانٌ »(٢) .

وعن عبد الله بن مسعود قال : خرج رجل من الإنس ، فلقيه رجل من الجن فقال : هل لك أن تصارعني ؟ فإن صرعتني علمتك آية إذا قرأتها حين تدخل بيتك لم يدخله شيطان ، فصارعه فصرعه ، فقال : إني أراك ضئيلًا شخيتًا كأن ذراعيك ذارعا كلب ، أفهكذا أنتم أيها الجن كلكم ، أم أنت من بينهم ؟ فقال : إني بينهم لضليع ، فعاودني ، فصارعه فصرعه الإنسي ، فقال : تقرأ آية الكرسي فإنه لا يقرؤها أحد إذا دخل بيته إلَّا خرج الشيطان وله خيخ كخيخ الحمار ، فقيل لابن مسعود : أهو عمر ؟ فقال : من عسى أن يكون إلَّا عمر . قال أبو عبيد : الضئيل النحيف الجسم ، والخيخ بالخاء المعجمة ، ويقال بالحاء المهملة الضراط .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :« لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامٌ وَسَنَامُ القُرْآنِ سُورَةُ البَقَرَةِ ، وَفِيهَا آيَةٌ هِيَ سَيِّدَةُ آيِ القُرْآنِ : آيَةُ الكُرْسِيِّ »(٣) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده(١٧٨/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد(١٥٩/١) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن(٢٨٨٠) وأحمد في مسنده(٤٢٣/٥) والبيهقي في السنن(١٩٣/٦) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن(٢٨٧٨) والهيثمي في مجمع الزوائد(١٩٥/٧) .

وعن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ ، و ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ : « إِنَّ فِيهِمَا اسْمَ اللَّه الأَعْظَمُ » (١) .

وعن أبي أمامة يرفعه قال : « اسْمُ اللَّه الأَعْظَم الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ فِي ثَلاثٍ : سُورَةِ البَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ وَطه » وقال هشام : وهو ابن عمار خطيب دمشق : أما البقرة ف ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ وفي آل عمران ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ وفي طه : ﴿ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ ﴾ (٢) .

وقد ورد في فضلها أحاديث أُخر تركناها اختصارًا لعدم صحتها وضعف أسانيدها .

وَهَذِهِ الآيَةُ مُشتَمِلَةٌ عَلى عَشر جُمَلٍ مُستَقِلة : فقوله : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق ﴿ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ أي الحي في نفسه ، الذي لا يموت أبدًا ، القيم لغيره . وكان عمر يقرأ القيام ، فجميع الموجودات مفتقرة إليه ، وهو غني عنها ، ولا قوام لها بدون أمره ، وقوله : ﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ ﴾ أي لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه ، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت ، شهيد على كل شيء ، لا يغيب عنه شيء ، ولا يخفى عليه خافية ، ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سِنة ولا نوم فقوله : ﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ ﴾ أي لا تغلبه سنة ، وهي الوسن والنعاس ، ولهذا قال ﴿ وَلَا نَوۡمٞۚ ﴾ لأنه أقوى من السنة ، وعن أبي موسى قال : قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال : « إِنَّ اللَّه لاَ يَنَامُ وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ، يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ ، حِجَابُهُ النُّورُ أَوِ النَّارُ ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبحاتُ وَجْهِهِ ما انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ » (٣) .

وقوله : ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ إخبار بأن الجميع عبيده ، وفي ملكه وتحت قهره وسلطانه .

وقوله : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾ وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه ﷻ ، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلَّا بإذنه له في الشفاعة ، كما في حديث الشفاعة « آتِي تَحْتَ العَرْشِ فَأَخِرُّ سَاجِدًا ، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّه أَنْ يَدَعَنِي ، ثُمَّ يُقَالُ : ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ تُسْمَعْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، قال : فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ » (٤) .

وقوله : ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ ﴾ دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها .

وقوله : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ ﴾ أي لا يطلع أحد من علم اللَّه على شيء ، إلَّا بما أعلمه اللَّه ﷻ وأطلعه عليه . ويحتمل أن يكون المراد ، لا يطَّلعون على شيء من علم ذاته وصفاته ، إلَّا بما أطلعهم اللَّه عليه كقوله : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ﴾ .

وقوله : ﴿ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ ﴾ عن ابن عبَّاس قال : علمه . وقال ابن جرير : الكرسي موضع

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦١/٦) والترمذي في السنن (٣٤٧٨) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٠٥/١) والطبراني في الكبير (٢١٥/٨) .
(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٤) وابن ماجه في السنن (١٩٥) وأحمد في مسنده (٣٩٥/٤) .
(٤) ذكره السيوطي في جمع الجوامع (١) .

القدمين . وعن ابن عبّاس : لو أن السموات السبع ، والأرضين السبع ، بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض ، ما كن في سعة الكرسي إلَّا بمنزلة الحلقة في المفازة . وعن أبي قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تِرْسٍ » (١) . قال : وقال أبو ذر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَا الكُرْسِيُّ فِي العَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَانَي فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ » (٢) .

وقد زعم بعض المتكلمين على علم الهيئة من الإسلاميين ، أن الكرسي عندهم هو الفلك الثامن ، وهو فلك الثوابت الذي فوقه الفلك التاسع ، وهو الفلك الأثير ، ويقال له الأطلس ، وقد ردَّ ذلك عليهم آخرون ، وروي عن الحسن البصري ، أنه كان يقول : الكرسي هو العرش ، والصحيح أن الكرسي غير العرش ، والعرش أكبر منه ، كما دلّت على ذلك الآثار والأخبار ، وقد اعتمد ابن جرير على حديث عبد الله بن خليفة عن عمر في ذلك ، وعندي في صحته نظر والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾ أي لا يثقله ولا يكترثه حفظ السموات والأرض ومن فيهما ، بل ذلك سهل عليه يسير لديه ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على جميع الأشياء ، فلا يعزب عنه شيء ، ولا يغيب عنه شيء ، والأشياء كلها حقيرة بين يديه ، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه ، محتاجة فقيرة ، وهو الغني الحميد ، الفعّال لما يريد ، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو القاهر لكل شيء ، الحسيب على كل شيء ، الرقيب العلي العظيم لا إله غيره ولا رب سواه ، فقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ كقوله : ﴿ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح أمروها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه .

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ أي لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام ، فإنه بين واضح ، جلي دلائله وبراهينه ، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه ، بل من هداه الله للإسلام ، وشرح صدره ، ونوّر بصيرته ، دخل فيه على بينة ، ومن أعمى الله قلبه ، وختم على سمعه وبصره ، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهًا مقسورًا ، وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار ، وإن كان حكمها عامًّا . وعن ابن عبّاس قال : كانت المرأة تكون مقلاة فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده ، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا : لا ندع أبناءنا ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ وعنه قال : نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له : الحصيني كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو رجلًا مسلمًا ، فقال للنبي ﷺ : ألا استكرههما فإنهما قد أبيا إلَّا النصرانية ، فأنزل الله فيه ذلك . وعن أسبق قال : كنت في دينهم مملوكًا نصرانيًّا لعمر بن الخطاب ، فكان يعرض عليّ الإسلام فآبي فيقول : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ ويقول : يا أسبق لو أسلمت لاستعنا بك على بعض أمور المسلمين ، وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء أن هذه محمولة على أهل الكتاب ، ومن دخل في دينهم قبل

(١ ، ٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٩٨/٣) .

النسخ والتبديل ، إذا بذلوا الجزية . وقال آخرون : بل هي منسوخة بآية القتال ، وأنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف دين الإسلام ، فإن أبى أحد منهم الدخول فيه ، ولم ينقد له أو يبذل الجزية ؛ قوتل حتى يقتل ، وهذا معنى الإكراه . وفي الصحيح : « عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ » (١) يعني الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام في الوثاق ، والأغلال والقيود والأكبال ، ثم بعد ذلك يسلمون وتصلح أعمالهم وسرائرهم ، فيكونون من أهل الجنّة ، فأما الحديث الذي رواه أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل : « أَسْلِمْ » قال : إني أجدني كارهًا قال : « وَإِنْ كُنْتَ كَارِهًا » (٢) فإنه ثلاثي صحيح ، ولكن ليس من هذا القبيل ، فإنه لم يكره النبي ﷺ على الإسلام بل دعاه إليه ، فأخبره أن نفسه ليست قابلة له ، بل هي كارهة ، فقال له : أسلم وإن كنت كارهًا ، فإن الله سيرزقك حسن النية والإخلاص .

وقوله : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله ، ووحد الله فعبده وحده ، وشهد أن لا إله إلَّا هو ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ أي فقد ثبت في أمره ، واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم ، قال عمر ﷺ : إن الجبت السحر ، والطاغوت الشيطان ، وإن الشجاعة والجبن غرائز تكون في الرجال ، يقاتل الشجاع عمن لا يعرف ، ويفر الجبان من أمه ، وإن كرم الرجل دينه ، وحسبه خلقه ، وإن كان فارسيًا أو نبطيًا . ومعنى قوله في الطاغوت : إنه الشيطان قوي جدًا ، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها .

وقوله : ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ﴾ أي فقد استمسك من الدين بأقوى سبب ، وشبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم ، هي في نفسها محكمة مبرمة قوية ، وربطها قوى شديد ولهذا قال : ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ﴾ قال مجاهد : العروة الوثقى يعني الإيمان ، وقال السدي : هو الإسلام ، وقال سعيد بن جبير والضحّاك : يعني لا إله إلا الله . وعن أنس بن مالك : القرآن . وعن سالم بن أبي الجعد قال : هو الحب في الله ، والبغض في الله ، وكل هذه الأقوال صحيحة ، ولا تنافي بينها . وقال معاذ بن جبل في قوله : ﴿ لَا انفِصَامَ لَهَا ﴾ دون دخول الجنة . وعن محمّد بن قيس بن عبادة قال : كنت في المسجد ، فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع ، فصلى ركعتين أوجز فيهما ، فقال القوم : هذا رجل من أهل الجنة ، فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله ، فدخلت معه ، فحدثته ، فلما استأنس قلت له : إن القوم لما دخلت المسجد قالوا : كذا وكذا ، قال : سبحان الله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم ، وسأحدثك لم : إني رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ فقصصتها عليه : رأيت كأني في روضة خضراء - قال ابن عون فذكر خضرتها وسعتها - وفي وسطها عمود حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء ، وفي أعلاه عروة ، فقيل لي : اصعد عليه ، فقلت : لا أستطيع ، فجاءني منصف - قال ابن عون : هو الوصيف - فرفع ثيابي من خلفي فقال : اصعد ، فصعدت حتى أخذت العروة ، فقال : استمسك بالعروة ، فاستيقظت وإنها لفي يدي ، فأتيت

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٦/٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٩/٣) .

رسول الله ﷺ فقصصتها عليه فقال : « أَمَّا الرَّوْضَةُ فَرَوْضَةُ الإِسْلاَمِ ، وَأَمَّا العَمُودُ فَعَمُودُ الإِسْلامِ ، وَأَمَّا العُرْوَةُ فَهِيَ العُرْوَةُ الوُثْقَى ، أَنْتَ عَلَى الإِسْلامِ حَتَّى تَمُوتَ » قال : وهو عبد الله بن سلام (١) .

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام ؛ فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب ، إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير . وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان ، يزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات ، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك ، ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ولهذا وحد تعالى لفظ النور ، وجمع الظلمات ؛ لأن الحق واحد ، والكفر أجناس كثيرة ، وكلها باطلة ، كما قال : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق ، وانتشار الباطل ، وتفرده وتشعبه .

عن أيوب بن خالد قال : يبعث أهل الأهواء - أو قال - أهل الفتن ، فمن كان هواه الإيمان كانت فتنته بيضاء مضيئة ، ومن كان هواه الكفر كانت فتنته سوداء مظلمة ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

هذا الذي حاجَّ إبراهيم في ربه هو ملك بابل نمروذ بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح ، ويقال : نمروذ بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، قال مجاهد : وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة : مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان سليمان بن داود ، وذو القرنين ، والكافران نمروذ وبختنصر . ومعنى قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أي بقلبك يا محمّد ﴿ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ أي وجود ربه ، وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره ، كما قال بعده فرعون لملئه ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ ، والمعاندة الشديدة ، إلَّا تجبّره وطول مدته في الملك ، وذلك أنه يقال : إنه مكث أربعمائة سنة في ملكه ، ولهذا قال : ﴿ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ وكان طلب من إبراهيم دليلًا على وجود الرب الذي يدعو إليه ، فقال إبراهيم : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أي إنما الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها ، وعدمها بعد وجودها ، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة ؛ لأنها لم تحدث بنفسها ، فلابد لها من موجد أوجدها ، وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له . فعند ذلك قال المحاجّ وهو النمروذ : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ وذلك أني أوتى بالرجلين قد استحقا القتل ، فآمر بقتل أحدهما فيقتل ، وآمر بالعفو عن الآخر ، فلا يقتل ، فذلك معنى

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٢/٥) والحاكم في المستدرك (٣٩٤/٤) .

الإحياء والإماتة . والظاهر ، والله أعلم أنه ما أراد هذا ؛ لأنه ليس جوابًا لما قال إبراهيم ، ولا في معناه ؛ لأنه غير مانع لوجود الصانع ، وإنما أراد أن يَدعي لنفسه هذا المقام عنادًا ومكابرة ، ويوهم أنه الفاعل لذلك ، وأنه هو الذي يحيي ويميت ، كما اقتدى به فرعون في قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ ولهذا قال له إبراهيم لما ادعى هذه المكابرة ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ أي إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي ، وتميت ، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته ، وتسخير كواكبه وحركاته ، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق ، فإن كنت إلهًا كما ادعيت ، فأت بها من المغرب ؟ فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام ، بهت أي أخرس فلا يتكلم ، وقامت عليه الحجة . قال الله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي لا يلهمهم حجة ولا برهانًا ، بل حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد . وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين ، أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني ، انتقل من دليل إلى أوضح منه ، ومنهم من قد يطلق عبارة ترديه وليس كما قالوا ، بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني ، ويبين بطلان ما ادعاه نمروذ في الأول والثاني ولله الحمد والمنة . وقد ذكر السدي ، أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم ونمروذ بعد خروج إبراهيم من النار ، ولم يكن اجتمع بالملك إلَّا في ذلك اليوم ، فجرت بينهما هذه المناظرة .

﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

اختلفوا في هذا المار من هو ؟ فروي عن علي بن أبي طالب أنه قال : هو عزير ، وهذا القول هو المشهور . وقال عبد الله بن عبيد : هو إرميا بن حلقيا ، وقال وهب بن منبه : هو اسم الخضر عليه السلام . وقال مجاهد بن جبر : هو رجل من بني إسرائيل [1] ، وأما القرية ، فالمشهور أنها بيت المقدس مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها ﴿ وَهِىَ خَاوِيَةٌ ﴾ أي ليس فيها أحدًا ، من قولهم : خوت الدار تخوي خويًا .

وقوله : ﴿ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ أي ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها ، فوقف متفكرًا فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة وقال : ﴿ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها ، وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾ قال : وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته ، وتكامل ساكنوها ، وتراجع بنو إسرائيل إليها ، فلما بعثه الله عز وجل بعد موته كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيي بدنه ، فلما استقل سويًا ﴿ قَالَ ﴾ الله له أي بواسطة الملك : ﴿ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ قال : وذلك أنه مات أول النهار ، ثم بعثه في آخر النهار ، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم ، فقال : ﴿ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ وذلك أنه كان معه

(١) كل ما قيل عن هذا الرجل لم يثبت والمرجح أنه من أخبار بني إسرائيل .

فيما ذكر عنب ، وتين ، وعصير ، فوجده كما تقدم لم يتغير منه شيء ، لا العصير استحال ، ولا التين حمض ولا أنتن ، ولا العنب نقص ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ أي كيف يحييه الله ﷻ وأنت تنظر ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي دليلًا على المعاد ﴿ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ أي نرفعها ، فيركب بعضها على بعض . وعن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ قرأ : ﴿ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ بالزاي ، ثم قال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقرئ ﴿ نُنشِرُهَا ﴾ أي نحييها (١) قاله مجاهد : ﴿ ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ وقال السدي وغيره : تفرقت عظام حماره حوله يمينًا ويسارًا ، فنظر إليها وهي تلوح من بياضها ، فبعث الله ريحًا ، فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة ، ثم ركب كل عظم في موضعه حتى صار حمارًا قائمًا من عظام لا لحم عليها ، ثم كساها الله لحمًا ، وعصبًا ، وعروقًا ، وجلدًا ، وبعث الله ملكًا ، فنفخ في منخري الحمار ، فنهق بإذن الله ﷻ ، وذلك كله بمرأى من العزير ، فعند ذلك لما تبيَّن له هذا كله ﴿ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي أنا عالم بهذا ، وقد رأيته عيانًا ، فأنا أعلم أهل زماني بذلك ، وقرأ آخرون : ﴿ قَالَ أَعْلَمْ ﴾ على أنه أمر له بالعلم .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام أسبابًا منها : أنه لما قال لنمرود : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين ، وأن يرى ذلك مشاهدة فقال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ فأما الحديث الذي رواه أبو سلمة قال : قال رسول الله ﷺ : « نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ ؛ إِذْ قَالَ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ، قَالَ : أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ : بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي » (٢) ، فليس المراد ههنا بالشك ما قد يفهمه من لا علم عنده بلا خلاف .

وقوله : ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ اختلف المفسرون في هذه الأربعة ما هي ، وإن كان لا طائل تحت تعيينها ؛ إذ لو كان في ذلك مهم لنص عليه القرآن . وقوله : ﴿ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ أي وقطعهن ، وقال ابن عباس : أوثقهن ، فلما أوثقهن ذبحهن ثم جعل على كل جبل منهن جزءًا ، ثم أمره الله ﷻ أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله ﷻ ، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش والدم إلى الدم ، واللحم إلى اللحم ، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض ، حتى قام كل طائر على حدته ، وأتينه يمشين سعيًا ، ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها ، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام ، فإذا قدم له غير رأسه يأباه ، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته . ولهذا قال : ﴿ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عزيز لا يغلبه شيء ، ولا يمتنع من شيء ، وما شاء كان بلا ممانع ؛ لأنه القاهر لكل شيء ، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره . وعن سعيد بن المسيب قال : اتفق عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص أن يجتمعا قال : ونحن شببة – فقال أحدهما لصاحبه : أي آية في كتاب الله أرجى عندك لهذه الأمة ؟

(١) قرأ ابن عامر والكوفيون (ننشزها) بالزاي المنقوطة والباقون بالراء (انظر : تقريب النشر ص ٩٧) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٣٧) وأحمد في مسنده (٣٤٦/٢) وابن ماجه في السنن (٤٠٢٦) .

فقال عبد الله بن عمرو : قول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾ الآية . فقال ابن عبّاس : أما إن كنت تقول هذا ، فأنا أقول أرجى منها لهذه الأمة قول إبراهيم : ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ ﴾ .

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته ، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، فقال : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ يعني في طاعة الله . وقال مكحول : يعني به الإنفاق في الجهاد ، من رباط الخيل ، وإعداد السلاح ، وغير ذلك ، وقال ابن عباس : الجهاد والحج يضعّف الدرهم فيهما إلى سبعمائة ضعف ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ﴾ وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة ، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله ﷻ لأصحابها ، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة ، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف . وعن عياض بن غطيف قال : دخلنا على أبي عبيدة نعوده من شكوى أصابه بجنبه ، وامرأته تُحَيْفَة قاعدة عند رأسه ، قلنا : كيف بات أبو عبيدة ؟ قالت : والله لقد بات بأجر ، قال أبو عبيدة : ما بت بأجر ، وكان مقبلًا بوجهه على الحائط فأقبل على القوم بوجهه ، وقال : لا تسألوني عما قلت ؟ قالوا : ما أعجبنا ما قلت فنسألك عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فَاضِلَةً فِي سَبِيلِ اللَّه فَسَبْعُمِائَةٍ ، وَمَنْ أَنْفَقَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ أَوْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ أَمَاطَ أَذىً فَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ ما لَمْ يَخْرِقْهَا ، وَمَنِ ابْتَلاهُ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ بِبَلاءٍ فِي جَسَدِهِ ؛ فَهُوَ لَهُ حِطَّةٌ » (١) .

وعن ابن مسعود أن رجلًا تصدّق بناقة مخطومة في سبيل الله ، فقال رسول الله ﷺ : « لَتَأْتِيَنَّ يَوْمَ القِيَامَةِ بِسَبْعِمَائَةِ مَخْطُومَةٍ » (٢) .

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّه جَعَلَ حَسَنَةَ ابْنِ آدَمَ إِلَى عَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، إِلَّا الصَّوْمَ ، وَالصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ ، فَرْحَةٌ عِنْدَ إِفْطَارِهِ ، وَفَرْحَةٌ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَلَخُلُوفِ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّه مِنْ رِيحِ المِسْكِ » (٣) .

وعن عمران بن حصين عن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَرْسَلَ بِنَفَقَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّه وَأَقَامَ فِي بَيْتِهِ ؛ فَلَهُ بِكُلِّ دِرْهَمٍ سَبْعُمِائَةِ دِرْهَمٍ يَوْمَ القِيَامَةِ . وَمَنْ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّه ، وَأَنْفَقَ فِي جِهَةِ ذَلِكَ ؛ فَلَهُ بِكُلِّ دِرْهَمٍ سَبْعُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ » ثم تلا هذه الآية ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ ﴾ (٤) .

وقوله ههنا : ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ ﴾ أي بحسب إخلاصه في عمله ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٦/١) والبيهقي في السنن (٣٧٤/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢١/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٦/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٩/٣) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٧٦١) والمنذري في الترغيب (٢٥٣/٢) .

فضله واسع كثير أكثر من خلقه ، عليم بمن يستحق ومن لم يستحق ، سبحانه وبحمده .

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

يمدح تبارك وتعالى الذين ينفقون في سبيله ، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات منًّا على من أعطوه ، فلا يمنون به على أحد ، ولا يمنون به لا بقول ولا فعل .

وقوله : ﴿ وَلَآ أَذًى ﴾ أي لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهًا يحبطون به ما سلف من الإحسان ، ثم وعدهم الله تعالى الجزاء الجزيل على ذلك فقال : ﴿ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي ثوابهم على الله لا على أحد سواه ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي على ما خلفوه من الأولاد ، ولا ما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها ، لا يأسفون عليها لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ أي من كلمة طيبة ، ودعاء لمسلم ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ أي عفو وغفر عن ظلم قولي أو فعلي ﴿ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾ قال ابن فضيل : قرأت على معقل بن عبد الله عن عمرو بن دينار قال : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْ صَدَقَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ قَوْلٍ مَعْرُوفٍ ، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ ﴾ عن خلقه ﴿ حَلِيمٌ ﴾ »(١) أي يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم ، وقد وردت الأحاديث بالنهي عن المنّ في الصدقة ، فعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلاثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : المَنَّانُ بِمَا أَعْطَى ، وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الكَاذِبِ »(٢) . عن أبي الدرداء عن النبيّ ﷺ قال : « لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَاقٌّ ، وَلاَ مَنَّانٌ ، وَلا مُدْمِنُ خَمْرٍ ، وَلاَ مُكَذِّبٌ بِقَدَرٍ »(٣) ولهذا قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ فأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المنّ والأذى ، فما يفي ثواب الصدقة بخطيئة المنّ والأذى ، ثم قال تعالى : ﴿ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كما تبطل صدقة من راءى بها الناس ، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله ، وإنما قصده مدح الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة ، ليشكر بين الناس ، أو يقال : إنه كريم ، ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية ، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى ، وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ .

ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائي بإنفاقه ، والذي يتبع نفقته منًّا أو أذىً فقال : ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ

---

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (١٦٣٢٥) والعجلوني في كشف الخفاء (١٤٩/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧٢١٢) ومسلم في الإيمان (١٧١) والترمذي في السنن (١٢١١) وأحمد في مسنده (٤٨٠/٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٣/٢) والألباني في الصحيحة (٦٧٣) .

صَفْوَانٍ ﴾ وهو جمع صفواتة فمنهم من يقول : الصفوان يستعمل مفردًا أيضًا وهو الصفا ، وهو الصخر الأملس ﴿ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ ﴾ وهو المطر الشديد ﴿ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾ أي فترك الوابل ذلك الصفوان صلدًا ، أي أملس يابسًا ، أي لا شيء عليه من ذلك التراب ، بل قد ذهب كله ، أي وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند اللَّه ، وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب ، ولهذا قال : ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

وهذا مثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضات اللَّه عنهم في ذلك ﴿ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي وهم متحققون ومتثبتون أن اللَّه سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء ، ونظير هذا في معنى الحديث : «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا » أي يؤمن أن اللَّه شرَّعه ويحتسب عند اللَّه ثوابه . قال الشعبي : ﴿ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي تصديقًا ويقينًا .

وقوله : ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ ﴾ أي كمثل بستان بربوة ، وهو عند الجمهور المكان المرتفع من الأرض ، وزاد ابن عباس والضحاك : وتجري فيه الأنهار . قال ابن جرير رحمه الله : وفي الربوة ثلاث لغات هن ثلاث قراءات ، بضم الراء وبها قرأ عامة أهل المدينة والحجاز والعراق ، وفتحها وهي قراءة بعض أهل الشام والكوفة ويقال : إنها لغة تميم ، وكسر الراء ويذكر أنها قراءة ابن عباس (١) .

وقوله : ﴿ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾ وهو المطر الشديد كما تقدم فآتت ﴿ أُكُلَهَا ﴾ أي ثمرتها ﴿ ضِعْفَيْنِ ﴾ أي بالنسبة إلى غيرها من الجنان ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ وهو الرذاذ ، وهو اللين من المطر ، أي هذه الجنة بهذه الربوة لا تمحل أبدًا ؛ لأنها إن لم يصبها وابل فطل ، وأيًا ما كان فهو كفايتها ، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبدًا ، بل يتقبله اللَّه ويكثره وينميه كل عامل بحسبه ، ولهذا قال : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء .

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

عن عبيد بن عمير قال : قال عمر بن الخطاب يومًا لأصحاب النبي ﷺ : فيمن ترون هذه الآية نزلت : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ ؟ قالوا : اللَّه أعلم ، فغضب عمر ، فقال : قولوا نعلم أو لا نعلم ، فقال ابن عبّاس : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : ضربت مثلًا بعمل ، قال عمر : أي عمل ؟ قال ابن عبّاس : لرجل غني يعمل بطاعة اللَّه ، ثم بعث اللَّه له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله (٢) . وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية ، وتبيين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولًا ، ثم بعد ذلك

---

(١) قرأ ابن عامر وعاصم (رَبْوَة) بفتح الراء هنا وفي سورة المؤمنون ، والباقون بضمها (انظر : تقريب النشر ص : ٩٨) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٣٨) .

انعكس سيره فبدل الحسنات بالسيئات عياذًا بالله من ذلك ، فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدم من الصالح ، واحتاج إلى شيء من الأول في أضيق الأحوال فلم يحصل منه شيء ، وخانه أحوج ما كان إليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ ﴾ وهو الريح الشديد ﴿ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ﴾ أي أحرق ثمارها وأباد أشجارها ، فأي حال يكون حاله ، وعن ابن عبّاس قال : ضرب الله مثلًا حسنًا وكل أمثاله حسن قال : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ يقول : صنعه في شيبته ﴿ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ ﴾ وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره ، فجاءه إعصار فيه نار فاحترق بستانه ، فلم يكن عنده قوة أن يغرس مثله ، ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه ، وكذلك الكافر يكون يوم القيامة إذا رُدَّ إلى الله ﷻ ليس له خير فيستعتب ، كما ليس لهذا قوة فيغرس مثل بستانه ، ولا يجده قدم لنفسه خيرًا يعود عليه ، كما لم يغن عن هذا ولده وحرم أجره عند أفقر ما كان إليه ، كما حرم هذا جنته عندما كان أفقر ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته . وهكذا روي أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه : « اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَوْسَعَ رِزْقِكَ عَلَيَّ عِنْدَ كِبَرِ سِنِّي وَانْقِضَاءِ عُمْرِي »[1] ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني ، وتنزلونها على المراد منها .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإنفاق ، والمراد به الصدقة ههنا ، من طيبات ما رزقهم من الأموال التي اكتسبوها . قال مجاهد : يعني التجارة بتيسيره إياها لهم . وقال علي والسدي : يعني الذهب والفضة ، ومن الثمار والزروع التي أنبتها لهم من الأرض . قال ابن عبّاس : أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه ، ونهاهم عن التصدّق برذالة المال ودنيئه وهو خبيثه ، فإن الله طيب لا يقبل إلّا طيبًا ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ ﴾ أي تقصدوا الخبيث ﴿ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ ﴾ أي لو أعطيتموه ما أخذتموه إلّا أن تتغاضوا فيه ، فالله أغنى عنه منكم ، فلا تجعلوا لله ما تكرهون . وقيل معناه ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ لا تعدلوا عن المال الحلال ، وتقصدوا إلى الحرام ، فتجعلوا نفقتكم منه . ويذكر ههنا الحديث عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلاَقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ ، وَإِنَّ اللهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لاَ يُحِبُّ ، وَلاَ يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يُسْلِمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ ، وَلاَ يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » قالوا : وما بوائقه يا نبيَّ الله ؟ قال : « غِشُّهُ وَظُلْمُهُ ، ولا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالاً مِنْ حَرَامٍ فَيُنْفِقُ مِنْهُ فَيُبَارِكُ لَهُ فِيهِ ، وَلاَ يَتَصَدَّقُ بِهِ فَيُقْبَلُ مِنْهُ ، وَلاَ يَتْرُكُهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ ، إِنَّ اللهَ لا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ ، وَلَكِنْ يَمْحُو

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٤٢/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٢/١٠) .

السَّيِّئَ بِالحَسَنِ ، إِنَّ الخَبِيثَ لاَ يَمْحُو الخَبِيثَ »(١) والصحيح القول الأول . وعن البراء بن عازب ﷺ في قول الله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ الآية قال : نزلت في الأنصار ، كان الأنصار إذا كان أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها البسر فعلقوه على حبل بين الأسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ ، فيأكل فقراء المهاجرين منه ، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله مع أفناء البسر يظن أن ذلك جائز ، فأنزل الله فيمن فعل ذلك ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ .

وعن سهل بن حنيف أن رسول الله ﷺ نهى عن لونين من التمر الجعرور ، والحبيق ، وكان الناس يتيممون شرار ثمارهم ثم يخرجونها في الصدقة ، فنزلت ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾(٢) . وعن عبد الله بن مغفل في هذه الآية ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ قال : كسب المسلم لا يكون خبيثًا ، ولكن لا يصَّدق بالحشف والدرهم الزيف وما لا خير فيه . وعن عائشة قالت : أتي رسول الله ﷺ بضب فلم يأكله ولم ينه عنه ، قلت : يا رسول الله نطعمه المساكين قال : « لاَ تُطْعِمُوهُم مِمَّا لاَ تَأْكُلُون » فقلت : يا رسول الله ألا أطعمه المساكين ؟ قال : « لاَ تُطْعِمُوهُمْ مِمَّا لاَ تَأْكُلُونَ »(٣) وعن البراء ﴿ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ ﴾ يقول : لو كان لرجل على رجل فأعطاه ذلك لم يأخذه إلَّا أن يرى أنه قد نقصه من حقه ؟ . وقال ابن عبّاس : لو كان لكم على أحد حق فجاءكم بحق دون حقكم لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه . قال : فذلك قوله : ﴿ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ ﴾ فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم ، وحقي عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه ؟

وقوله : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ أي وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها فهو غني عنها ، وما ذاك إلَّا أن يساوي الغني الفقير ، وهو غني عن جميع خلقه ، وجميع خلقه فقراء إليه ، وهو واسع الفضل لا ينفد ما لديه ، فمن تصدق بصدقة من كسب طيب ، فليعلم أن الله غني واسع العطاء كريم جواد ، وسيجزيه بها ويضاعفها له أضعافًا كثيرة ، من يقرض غير عديم ولا ظلوم ، وهو الحميد أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ، لا إله إلَّا هو ولا رب سواه .

وقوله : ﴿ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ ، وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً ، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ : فَإِيعادٌ بِالشَّرِّ ، وَتَكْذِيبٌ بِالحَقِّ ، وَأَمَّا لَمَّةُ المَلَكِ : فَإِيعادٌ بِالخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالحَقِّ ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ ؛ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّه ، فَلْيَحْمَدِ اللَّه ، وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ مِنَ الشَّيْطَانِ » ثم قرأ ﴿ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ ﴾ الآية(٤) . ومعنى قوله تعالى : ﴿ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ ﴾ أي يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله ﴿ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ ﴾ أي مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق ، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٧/١) والحاكم في المستدرك (٤٤٧/٢) .

(٢) أخرجه الدارقطني في السنن (١٣١/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٣/٦) والبيهقي في السنن (٣٢٥/٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٣/٣) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٨٨) .

الخلاق ، قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ ﴾ أي في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء ﴿ وَفَضْلًا ﴾ أي في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ عن ابن عبّاس : يعني المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله . وروي عن ابن عبّاس مرفوعًا : «الحِكْمَةُ القُرآنُ » يعني تفسيره ، قال ابن عبّاس : فإنه قد قرأه البر والفاجر . وعن مجاهد يعني بالحكمة الإصابة في القول . وعنه : ليست بالنبوة ولكنه العلم والفقه والقرآن . وقال أبو العالية : الحكمة خشية الله ، فإن خشية الله رأس كل حكمة . وعن ابن مسعود مرفوعًا : «رَأْسُ الحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللَّه » (١) . وقال إبراهيم النخعي : الحكمة الفهم . وقال أبو مالك : الحكمة السنّة . قال مالك : وإنه ليقع في قلبي أن الحكمة هو الفقه في دين الله ، وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله ، ومما يبيّن ذلك أنك تجد الرجل عاقلًا في أمر الدنيا إذا نظر فيها ، وتجد آخر ضعيفًا في أمر دنياه عالمًا بأمر دينه بصيرًا به ، يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا ، فالحكمة الفقه في دين الله . وقال السدي : الحكمة النبوة . والصحيح أن الحكمة كما قاله الجمهور لا تختص بالنبوة ، بل هي أعم منها وأعلاها النبوة ، والرسالة أخص ، ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع ، كما جاء في بعض الأحاديث . فعن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لاَ حَسَدَ إِلَّا في اثْنَتَيْنِ : رَجُل آتاهُ اللَّه مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ ، وَرَجُل آتاهُ اللَّه حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا » (٢) .

وقوله : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي وما ينتفع بالموعظة والتذكار إلّا من له لب وعقل ، يعي به الخطاب ومعنى الكلام .

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٢٧٠ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات ، من النفقات والمنذورات ، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده ، وتوعد من لا يعمل بطاعته بل خالف أمره وكذب خبره وعبد معه غيره فقال : ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ أي يوم القيامة ، ينقذونهم من عذاب الله ونقمته .

وقوله : ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ أي إن أظهرتموها فنعم شيء هي .

وقوله : ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ فيه دلالة على إن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها ؛ لأنه أبعد عن الرياء ، إلّا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة ، من اقتداء الناس به فيكون أفضل من هذه الحيثية . وقال رسول الله ﷺ : «الجَاهِرُ بِالقُرْآنِ كَالجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ ، وَالمُسِرُّ بِالقُرْآنِ كَالمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ » (٣) والأصل : أن الإسرار أفضل ؛ لهذه الآية لما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال

(١) هذا من الأحاديث المشتهرة على ألسنة الناس وهو حديث ضعيف ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٣٥٢/١) والهندي في كنز العمال (٥٨٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٩) ومسلم في صلاة المسافرين (٢٦٨) وابن ماجه في السنن (٤٢٠٨) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنة (١٣٣٣) والترمذي في السنن (٢٩١٩) وأحمد في مسنده (١٥١/٤) والحاكم في المستدرك (٥٥٥/١) .

رسول الله ﷺ : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّه : إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ في عِبَادَةِ اللهِ ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا في اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ ، فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ » (١) وعن أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ قال : « لَمَّا خَلَقَ اللهُ الأَرْضَ جَعَلَتْ تَمِيدُ ، فَخَلَقَ الجِبَالَ فَأَلْقَاهَا عَلَيْهَا فَاسْتَقَرَّتْ ، فَتَعَجَّبَتِ المَلاَئِكَةُ مِنْ خَلْقِ الجِبَالِ فَقَالَتْ : يَا رَبُّ هَلْ من خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الجِبَالِ ؟ قَالَ : نَعَمِ الحَدِيدُ ، قَالَتْ : يَا رَبُّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الحَدِيدِ ؟ قال : نعم النار قالت : يَا رَبُّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ النَّارِ ؟ قَالَ : نَعَمِ المَاءُ ، قَالَتْ : يَا رَبُّ فَهَل مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ المَاءِ ؟ قَالَ : نَعَمِ الرِّيحُ قَالَتْ : يَا رَبُّ ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الرِّيحِ ؟ قَالَ : نَعَم ابْنُ آدَمَ يَتَصَدَّقُ بِيَمِينِهِ فَيُخْفِيهَا مِنْ شِمَالِهِ » (٢) وعن عامر الشعبي في قوله : ﴿ إِن تُبْدُوا ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ ﴾ قال : أنزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، أما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبيّ ﷺ ، فقال له النبيّ ﷺ : « ما خَلَّفْتَ وَرَاءَكَ لِأَهْلِكَ يَا عُمَرُ ؟ » قال : خلفت لهم نصف مالي ، وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه ، حتى دفعه إلى النبيّ ﷺ فقال له النبيّ ﷺ : « مَا خَلَّفْتَ وَرَاءَكَ لِأَهْلِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ؟ » فقال : عدة الله وعدة رسوله ، فبكى عمر رضي الله عنه وقال : بأبي أنت وأمي يا أبا بكر والله ما استبقنا إلى باب خير قط إلّا كنت سابقًا . وعن ابن عبّاس في تفسير هذه الآية قال : جعل الله صدقة السر في التطوّع تفضل علانيتها ، يقال : بسبعين ضعفًا ، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها يقال : بخمسة وعشرين ضعفًا .

وقوله : ﴿ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ ﴾ أي بدل الصدقات ، ولا سيما إذا كانت سرًّا ، يحصل لكم الخير في رفع الدرجات ، ويكفّر عنكم السيئات . وقد قرئ ﴿ ويكفرْ ﴾ بالجزم عطفًا على محل جواب الشرط(٣) وهو قوله : ﴿ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ كقوله : ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن ﴾ ، وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي لا يخفى عليه من ذلك شيء وسيجزيكم عليه .

﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

عن ابن عبّاس قال : كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين ، فسألوا فرخص لهم ، فنزلت هذه الآية : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ وعن ابن عباس

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٣) ومسلم في الزكاة (٩١) والترمذي في السنن (٢٣٩١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٤/٣) والترمذي في السنن (٣٣٦٩) .
(٣) قرأ ابن عامر وحفص (يكفر) بالياء والباقون بالنون ، وقرأ المدنيان وحمزة والكسائي وخلف بالجزم والباقون بالرفع (انظر : تقريب النشر ص: ٩٨) .

عن النبيِّ ﷺ أنه كان يأمر بأن لا يتصدق إِلَّا على أهل الإسلام ، حتى نزلت هذه الآية ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ﴾ إلى آخرها ، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين .

وقوله : ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ﴾ كقوله : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ ونظائرها في القرآن كثيرة .

وقوله : ﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ قال الحسن البصري : نفقة المؤمن لنفسه ، ولا ينفق المؤمن إذا أنفق إِلَّا ابتغاء وجه الله . وقال عطاء الخراساني : يعني إذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله . وهذا معنى حسن ، وحاصله أن المتصدِّق إذا تصدَّق ابتغاء وجه الله ؛ فقد وقع أجره على الله ، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب لبرٍّ أو فاجر ، أو مستحق أو غيره ، وهو مثاب على قصده ، ومستند هذا تمام الآية ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قَالَ رَجُلٌ : لأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ زَانِيَةٍ ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ : تُصُدِّقَ عَلَى زَانِيَةٍ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ ، لأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِ غَنِيٍّ ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ : تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى غَنِيٍّ قَالَ : اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ عَلَى غَنِيٍّ ، لأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ ، فَخَرَجَ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ : تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى سَارِقٍ فَقَالَ : اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ وَعَلَى غَنِيٍّ وَعَلَى سَارِقٍ ، فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ : أَمَّا صَدَقَتُكَ فَقَدْ قُبِلَتْ ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ بِهَا عَنِ زِنَاهَا ، وَلَعَلَّ الغَنِيَّ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ ، وَلَعَلَّ السَّارِقَ أَنْ يَسْتَعِفَّ بِهَا عَنْ سَرِقَتِهِ » (١) .

وقوله : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ يعني المهاجرين الذين قد انقطعوا إلى الله وإلى رسوله ، وسكنوا المدينة وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم و ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يعني سفرًا للتسبب في طلب المعاش ، والضرب في الأرض هو السفر قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ .

وقوله : ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ أي الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم .

وقوله : ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ أي بما يظهر لذوي الألباب من صفاتهم ، وفي الحديث الذي في السنن : « اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّه » ثم قرأ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ أي لا يلحون في المسألة ، ويكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه ، فإن من سأل وله ما يغنيه عن المسألة فقد ألحف في المسألة . فعن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال : « لَيْسَ المِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ ، وَاللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ ، إِنَّمَا المِسْكِينُ المُتَعَفِّفُ اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ » (٣) . وعن رجل من مزينة أنه قالت له أمه : ألا تنطلق فتسأل رسول الله ﷺ كما يسأله الناس ، فانطلقت أسأله فوجدته قائمًا يخطب وهو يقول : « وَمَنِ اسْتَعَفَّ أَعَفَّهُ اللَّه ، وَمَنِ اسْتَغْنَى أَغْنَاهُ اللَّه ، وَمَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ وَلَهُ عِدْلُ خَمْسِ أَوَاقٍ فَقَدْ سَأَلَ النَّاسَ

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢١) ومسلم في الزكاة (٧٨) وأحمد في مسنده (٢/٣٢٢) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣١٢٧) والعجلوني في كشف الخفاء (١/٤٢) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٣٩) ومسلم في الزكاة (١٠٢) وأحمد في مسنده (٢/٢٦٠) .

إِلْحَافًا » فقلت بيني وبين نفسي لناقة : لهي خير من خمس أواق ، ولغلامه ناقة أخرى فهي خير من خمس أواق ، فرجعت ولم أسأل(١) . قال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ سَأَلَ وَلَهُ قِيمَةُ أُوقِيَّةٍ فَهُو مُلْحِفٌ » (٢) والأوقية أربعون درهمًا .

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَتْ مَسْأَلَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ خُدُوشًا أَوْ كُدُوحًا فِي وَجْهِهِ » قالوا : يا رسول الله وما غناه ؟ قال : « خَمْسُونَ دِرْهَمًا أَوْ حِسَابُهَا مِنَ الذَّهَبِ » (٣) . قوله : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ أي لا يخفى عليه شيء منه ، وسيجزى عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة أحوج ما يكون إليه .

وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله وابتغاء مرضاته ، في جميع الأوقات من ليل أو نهار ، والأحوال من سر وجهر ، حتى إن النفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضًا ، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص حين عاده مريضًا عام الفتح ، وفي رواية عام حجة الوداع « وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا ازْدَدْتَ بِهَا دَرَجَةً وَرِفْعَةً ، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ » (٤) ، وعن أبي مسعود رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال : « إِنَّ المُسْلِمَ إِذا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً يَحْتَسِبُهَا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً » (٥) وعن ابن عبّاس في هذه الآية قال : هم الذين يعلفون الخيل في سبيل الله ، وعن ابن جبير عن أبيه : كان لعلي أربعة دراهم فأنفق درهمًا ليلًا ، ودرهمًا نهارًا ، ودرهمًا سرًّا ، ودرهمًا علانية ، فنزلت ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ وعن ابن عبّاس أنها نزلت في علي بن أبي طالب . وقوله : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي يوم القيامة على ما فعلوه من الإنفاق في الطاعات ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات ، المخرجين الزكوات ، المتفضلين بالبر والصدقات ، لذوي الحاجات والقربات ، في جميع الأحوال والأوقات ، شرع في ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات ، وأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه ، وتخبط الشيطان له ، وذلك أنه يقوم قيامًا منكرًا . وقال ابن عبّاس : آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونًا يخنق . وقيل : لا يقومون يوم القيامة . وعن عبد الله بن مسعود أنه

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٨/٤) والنسائي في السنن (٩٨/٥) والدارقطني (١١٨/٢) .
(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢٤/٧) وابن حبان في صحيحه (٨٤٦) .
(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٨٤٠) وأحمد في مسنده (٤٤١/١) .
(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢١١٦) وأحمد في مسنده (١٧٩/١) .
(٥) أخرجه مسلم في الزكاة (٤٨) وأحمد في مسنده (١٢٢/٤) .

كان يقرأ ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ يوم القيامة . وعن ابن عبّاس قال : يقال يوم القيامة لآكل الربا : خذ سلاحك للحرب وقرأ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ وذلك حين يقوم من قبره ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أَتَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ بُطُونُهُمْ كَالبُيُوتِ فِيهَا الحَيَّاتُ تَجْرِي مِنْ خَارِجِ بُطُونِهِمْ ، فَقُلْتُ : مَنْ هَؤُلاءِ يا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هؤُلاءِ أَكَلَةُ الرِّبا » (١) .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ أي إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله في شرعه ، وليس هذا قياسًا منهم للربا على البيع ؛ لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذي شرعه الله في القرآن ، ولو كان هذا من باب القياس لقالوا : إنما الربا مثل البيع ، وإنما قالوا : ﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ أي هو نظيره ، فلم حرم هذا وأبيح هذا ؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع ، أي هذا مثل هذا ، وقد أحل هذا وحرم هذا .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ يحتمل أن يكون من تمام الكلام ردًّا عليهم ، أي ما قالوه من الاعتراض ، مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكمًا ، وهو العليم الحكيم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها ، وما ينفع عباده فيبيحه لهم ، وما يضرهم فينهاهم عنه ، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل . ولهذا قال : ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه فله ما سلف من المعاملة ؛ لقوله : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ وكما قال النبيّ ﷺ يوم فتح مكة : « وَكُلُّ رِبًا في الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَا العَبَّاسِ » (٢) ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة في حال الجاهلية ، بل عفا عما سلف ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ قال سعيد بن جبير والسدي : فله ما سلف ما كان أكل من الربا قبل التحريم . وعن أم يونس بنت أبقع أن عائشة زوج النبيّ ﷺ قالت لها أم بحنة أم ولد زيد بن أرقم : يا أم المؤمنين أتعرفين زيد بن أرقم ؟ قالت : نعم ، قالت : فإني بعته عبدًا إلى العطاء بثمانمائة ، فاحتاج إلى ثمنه فاشتريته قبل محل الأجل بستمائة ، فقالت : بئس ما شريت وبئس ما اشتريت ، أبلغي زيدًا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إن لم يتب ، قالت : فقلت : أرأيت إن تركت المائتين وأخذت الستمائة ؟ قالت : نعم ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ ﴾ وهذا الأثر مشهور ، وهو دليل لمن حرم مسألة العينة مع ما جاء فيها من الأحاديث المذكورة المقررة في كتاب الأحكام ولله الحمد والمنة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ أي إلى الربا ففعله بعد بلوغه نهي الله عنه فقد استوجب العقوبة ، وقامت عليه الحجة ولهذا قال : ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ . عن جابر قال : لما نزلت ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَمْ يَذَرِ المُخَابَرَةَ فَلْيُؤْذَنْ بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ » (٣) وإنما حرمت المخابرة وهي المزارعة

---

(١) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/٣٨٧) .

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٦/٣٠٦) والألباني في الصحيحة (٣٠) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٢٨٦) والبيهقي في السنن (٦/١٢٨) والألباني في الضعيفة (٩٩٠) .

بعض ما يخرج من الأرض ، والمزابنة وهي اشتراء الرطب في رؤوس النخل بالتمر على وجه الأرض ، والمحاقلة وهي اشتراء الحب في سنبله في الحقل بالحب على وجه الأرض ، إنما حرمت هذه الأشياء وما شاكلها حسمًا لمادة الربا ؛ لأنه لا يعلم التساوي بين الشيئين قبل الجفاف . ولهذا قال الفقهاء : الجهل بالمماثلة كحقيقة المفاضلة ، ومن هذا حرموا أشياء بما فهموا من تضييق المسالك المفضية إلى الربا ، والوسائل الموصلة إليه ، وتفاوت نظرهم بحسب ما وهب الله لكل منهم من العلم .

وباب الربا من أشكل الأبواب على كثير من أهل العلم ، وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ : ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ عهد إلينا فيهن عهدًا ننتهي إليه : الجد والكلالة وأبواب من أبواب الربا - يعني بذلك بعض المسائل التي فيها شائبة الربا - والشريعة شاهدة بأن كل حرام ، فالوسيلة إليه مثله ؛ لأن ما أفضى إلى الحرام حرام ، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وعن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إِنَّ الحَلاَلَ بَيِّنٌ ، وَالحَرَامَ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَ ذَلِكَ أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ ؛ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ ؛ وَقَعَ فِي الحَرَامِ ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ » (١) وعن الحسن بن علي ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يُرِيبُكَ » (٢) . وفي الحديث الآخر «الإِثْمُ مَا حَاكَ فِي القَلْبِ ، وَتَرَدَّدَتْ فِيهِ النَّفْسُ ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ » (٣) . وعن أبي سعيد الخدري قال : خطبنا عمر بن الخطاب ﷺ فقال : إني لعلي أنهاكم عن أشياء تصلح لكم ، وآمركم بأشياء لا تصلح لكم ، وإن من آخر القرآن نزولًا آية الربا ، وإنه قد مات رسول الله ﷺ ولم يبينه لنا ، فدعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم . وعن عبد الله بن مسعود عن النبيّ ﷺ قال : «الرِّبَا ثَلاَثَةٌ وَسَبْعُونَ بَابًا أيسرها أن ينكح الرجل أمه ، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم » (٤) . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَأْكُلُونَ فِيهِ الرِّبَا » قال : قيل له : الناس كلهم ؟ قال : «مَنْ لَمْ يَأْكُلْهُ مِنْهُمْ نَالَهُ مِنْ غُبَارِهِ » (٥) .

ومن هذا القبيل تحريم الوسائل المفضية إلى المحرمات . وعن عائشة قالت : لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فقرأهن فحرم التجارة في الخمر (٦) . قال بعض من تكلم على هذا الحديث من الأئمة : لما حرم الربا ووسائله حرم الخمر وما يفضي إليه من تجارة ونحو ذلك ، كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث المتفق عليه «لَعَنَ اللَّهُ اليَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَّلُوهَا فَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا » (٧) وقد تقدم في حديث علي وابن مسعود وغيرهما عند لعن المحلّل في تفسير قوله : ﴿ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾ قوله ﷺ : «لَعَنَ اللَّهُ آكِلَ الرِّبَا ، وَمُوكِلَهُ ، وَشَاهِدَيْهِ ، وَكَاتِبَهُ » (٨) قالوا : وما يشهد عليه ويكتب إلا إذا أظهر في صورة عقد شرعي ، ويكون داخله فاسدًا ، فالاعتبار بمعناه لا بصورته ؛ لأن

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٥١) ومسلم في المساقاة (١٠٧) وأحمد في مسنده (٤/٢٦٩).
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥١٨) وأحمد في مسنده (٣/١٥٣) والحاكم في المستدرك (٤/٩٩).
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٢٢٨).
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٣٧) وابن ماجه في السنن (٢٢٧٥).
(٥) أخرجه البيهقي في السنن (٥/٢٧٥).
(٦) أخرجه النسائي في السنن (٧/٣٠٨).
(٧) أخرجه مسلم في المساقاة (٧٢) وابن ماجه في السنن (٣٣٨٣).
(٨) أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٠٢) والطبراني في الكبير (٢/١٨٤).

الأعمال بالنيّات . وفي الصحيح : « إِنَّ اللّه لا يَنْظُرُ إِلى صُوَرِكُمْ وَلاَ إِلَى أَمْوَالِكُمْ ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » (١) وقد صنف الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية كتابًا في إبطال التحليل تضمن النهي عن تعاطي الوسائل المفضية إلى كل باطل ، وقد كفى في ذلك وسقى فرحمه اللّه ورضي عنه .

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۝ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يمحق الربا أي يذهبه ، إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه ، أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به ، بل يعدمه به في الدنيا ، ويعاقبه عليه يوم القيامة ، قال ابن جرير في قوله : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا ﴾ : وهذا نظير الخبر الذي روي عن عبد اللّه بن مسعود أنه قال : الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قلّ (٢) . عن فروخ مولى عثمان أن عمر - وهو يومئذٍ أمير المؤمنين - خرج من المسجد فرأى طعامًا منشورًا فقال : ما هذا الطعام ؟ فقالوا : طعام جلب إلينا ، قال : بارك اللّه فيه وفيمن جلبه ، قيل : يا أمير المؤمنين إنه قد احتكر ، قال : من احتكره ؟ قالوا : فروخ مولى عثمان وفلان مولى عمر ، فأرسل إليهما فقال : ما حملكما على احتكار طعام المسلمين ؟ قالا : يا أمير المؤمنين نشتري بأموالنا ونبيع ، فقال عمر : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « مَنِ احْتَكَرَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ طَعَامَهُمْ ضَرَبَهُ اللّه بِالإِفْلاَسِ أو الجُذَامِ » فقال فروخ عند ذلك : أعاهد اللّه وأعاهدك أن لا أعود في طعام أبدًا ، وأما مولى عمر فقال : إنما نشتري بأموالنا ونبيع . قال أبو يحيى : فلقد رأيت مولى عمر مجذومًا (٣) .

وقوله : ﴿ وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ ﴾ قرئ بضم الياء ، والتخفيف من ربا الشيء يربو وأرباه يربيه ، أي كثّره ونمّاه وينميه . وقرئ يربي بالضم والتشديد من التربية . عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مَنْ تَصَدَّقَ بِعِدْلِ تَمْرَةٍ مِن كَسْبٍ طَيِّب ، وَلاَ يَقْبَلُ اللّه إِلَّا الطَّيِّب ؛ فَإِنَّ اللّه يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلوَهُ حَتَّى يَكُون مِثْلَ الجَبَلِ » (٤)

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ أي لا يحب كفور القلب ، أثيم القول والفعل ، ولابد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة ، وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم اللّه له من الحلال ، ولا يكتفي بما شرع له من الكسب المباح ، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل بأنواع المكاسب الخبيثة ، فهو جحود لما عليه من النعمة ، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل .

ثم قال تعالى مادحًا للمؤمنين بربهم ، المطيعين أمره ، المؤدين شكره ، المحسنين إلى خلقه ، في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، مخبرًا عما أعد لهم من الكرامة ، وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۝ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٣) وابن ماجه في السنن (٤١٤٣) وأحمد في مسنده (٥٣٩/٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٩/١) . (٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢١٥٥) وأحمد في مسنده (٢١/١) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣١/٢) والبيهقي في السنن (١٧٧/٤) .

لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بتقواه ، ناهيًا لهم عما يقرِّبهم إلى سخطه ، ويبعدهم عن رضاه ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي خافوه وراقبوه فيما تفعلون ﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ أي اتركوا ما لكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال بعد هذا الإنذار ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي بما شرع الله لكم من تحليل البيع وتحريم الربا ، وغير ذلك . وقد ذكر زيد بن أسلم وابن جريج ومقاتل بن حيان والسدي أن هذا السياق نزل في بني عمرو بن عمير من ثقيف وبني المغيرة من بني مخزوم كان بينهم ربًا في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه طلبت ثقيف أن تأخذ منهم ، فتشاوروا وقالت بنو المغيرة : لا نؤدي الربا في الإسلام بكسب الإسلام ، فكتب في ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية . فكتب بها رسول الله ﷺ إليه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فقالوا : نتوب إلى الله ونذر ما بقي من الربا ، فتركوه كلهم وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد لمن استمر على تعاطي الربا بعد الإنذار . قال ابن عبّاس : ﴿ فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ ﴾ أي استيقنوا بحرب من الله ورسوله . وعن ابن عبّاس قال : يقال يوم القيامة لآكل الربا : خذ سلاحك للحرب ثم قرأ ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وقال : فمن كان مقيمًا على الربا لا ينزع عنه ، كان حقًّا على إمام المسلمين أن يستتيبه ، فإن نزع وإلَّا ضرب عنقه . وعن الحسن وابن سيرين أنهما قالا : والله إن هؤلاء الصيارفة لأكلة الربا ، وإنهم قد أذنوا بحرب من الله ورسوله ، ولو كان على الناس إمام عادل لاستتابهم . فإن تابوا وإلَّا وضع فيهم السلاح . وقال قتادة : أوعدهم الله بالقتل كما يسمعون ، وجعلهم بهرجًا أين ما أتوا ، فإياكم ومخالطة هذه البيوع من الربا ، فإن الله قد أوسع الحلال وأطابه ، فلا يلجئنكم إلى معصيته فاقة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ ﴾ أي بأخذ الزيادة ﴿ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ أي بوضع رءوس الأموال أيضًا ، بل لكم ما بذلتم من غير زيادة عليه ولا نقص منه . وعن عمرو بن الأحوص عن أبيه قال : خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال : « أَلاَ إِنَّ كُلَّ رِبًا كان في الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ عَنْكُمْ كُلُّهُ ، لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ ، وَأَوَّلُ رِبًا مَوْضُوعٌ رِبَا العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ » (١) .

وقوله : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء فقال : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حلَّ عليه الدين : إما أن تقضي ، وإما أن تربي . ثم يندب إلى الوضع عنه ، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل فقال : ﴿ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي وأن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين . وقد وردت الأحاديث من طرق متعددة عن النبيّ بذلك :

عن أبي أمامة أسعد بن زرارة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُظِلَّهُ الله يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ فَلْيُيَسِّرْ عَلَى مُعْسِرٍ أَوْ لِيَضَعْ عَنْهُ » (٢) .

وعن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : سمعت النبيّ ﷺ يقول : « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا ؛ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ

---

(١) أخرجه الدارمي في السنن (٢/٢٤٦) . (٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١/٢٨٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٤/١٣٤) .

مِثْلُهُ صَدَقَةٌ » قال : ثم سمعته يقول : « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثلاهُ صَدَقَةٌ » قلت : سمعتك يا رسول الله تقول : « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ » ثم سمعتك تقول : « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثلاهُ صَدَقَةٌ » قال : « لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ الدَّيْنُ ، فَإِذَا حَلَّ الدَّيْنُ فَأَنْظِرْهُ ، فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مثلاهُ صَدَقَةٌ » (١) .

وعن محمّد بن كعب القرظي أن أبا قتادة كان له دين على رجل ، وكان يأتيه يتقاضاه فيختبئ منه ، فجاء ذات يوم فخرج صبي فسأله فقال : نعم ، هو في البيت يأكل خزيرة ، فناداه فقال : يا فلان اخرج فقد أخبرت أنك ها هنا ، فخرج إليه ، فقال : ما يغيبك عني ؟ فقال : إني معسر وليس عندي شيء ، قال : آللّه إنك معسر ؟ قال : نعم ، فبكى أبو قتادة ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ نَفَّسَ عَنْ غَرِيمِهِ ، أَوْ مَحَا عَنْهُ ؛ كَانَ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٢) .

وعن سهل بن حنيف أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَعَانَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّه ، أَوْ غَازِيًا ، أَوْ غَارِمًا فِي عُسْرَتِهِ ، أَوْ مُكَاتَبًا فِي رَقَبَتِهِ ؛ أَظَلَّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ » (٣) .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَرَادَ أَنْ تُسْتَجَابَ دَعْوَتُهُ ، وَأَنْ تُكْشَفَ كُرْبَتُهُ ، فَلْيُفَرِّجْ عَنْ مُعْسِرٍ » (٤) .

وعن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى رَجُلٍ حَقٌّ فَأَخَّرَهُ كَانَ لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ » (٥) .

وعن عباد بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال : خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحي من الأنصار قبل أن يهلكوا ، فكان أول من لقينا أبا اليسر صاحب رسول الله ﷺ ومعه غلام له معه ضمامة من صحف ، وعلى أبي اليسر بردة ومعافري ، وعلى غلامه بردة ومعافري ، فقال له أبي : يا عم إني أرى في وجهك سفعة من غضب ؟ قال : أجل ، كان لي على فلان ابن فلان الرامي مال ، فأتيت أهله فسلمت فقلت : أثم هو ؟ قالوا : لا ، فخرج علي ابن له جفر ، فقلت : أين أبوك ؟ فقال : سمع صوتك فدخل أريكة أمي ، فقلت : اخرج إلي فقد علمت أين أنت ، فخرج ، فقلت : ما حملك على أن اختبأت مني ؟ قال : أنا والله أحدثك ثم لا أكذبك ، خشيت والله أن أحدثك فأكذبك أو أعدك فأخلفك ، وكنت صاحب رسول الله ﷺ وكنت والله معسرًا ، قال : قلت : آللّه ؟ قال : آللّه . ثم قال : فأتى بصحيفته فمحاها بيده ، ثم قال : فإن وجدت قضاء فاقضني وإلّا فأنت في حل ، فأشهد أبصر عيناي هاتان - ووضع إصبعيه على عينيه - وسمع أذناي هاتان ، ووعاه قلبي - وأشار إلى نياط قلبه - رسول الله ﷺ وهو يقول : « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ ؛ أَظَلَّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ » (٦) .

ثم قال تعالى يعظ عباده ويذكرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها ، وإتيان الآخرة

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٠/٥) والحاكم في المستدرك (٢٩/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٨/٥) والدارمي في السنن (٢٦٢/٢) والبغوي في شرح السنة (١٩٩/٨) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢١٧/٢) وأحمد في مسنده (٤٨٧/٣) والطبراني في الكبير (١٠٥/٦) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣/٢) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٣/٤) .

(٦) أخرجه مسلم في الزهد (٧٤) وأحمد في مسنده (٣٥٩/٢) والترمذي في السنن (١٣٠٦) .

والرجوع إليه تعالى ، ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا ، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر ، ويحذرهم عقوبته فقال : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ وقد روي أن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن العظيم . فعن سعيد بن جبير قال : آخر ما نزل من القرآن كله ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ وعاش النبيّ ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال ، ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول ، وعن ابن عبّاس قال : آخر آية نزلت ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ فكان بين نزولها وموت النبيّ ﷺ واحد وثلاثون يومًا . قال ابن جريج : يقولون إن النبيّ ﷺ عاش بعدها تسع ليال وبدئ يوم السبت ، ومات يوم الاثنين .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

هذه الآية الكريمة أطول آية في القرآن العظيم ، فعن ابن عبّاس أنه قال : لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَوَّلَ مَنْ جَحَدَ آدَمُ عليه السلام ؛ أَنَّ اللَّه لَمَّا خَلَقَ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ ، فَأَخْرَجَ مِنْهُ مَا هُوَ ذَارٍ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ يَعْرِضُ ذُرِّيَّتَهُ عَلَيْهِ ، فَرَأَى فِيهِمْ رَجُلًا يَزْهُو فَقَالَ : أَيْ رَبِّ مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : هُوَ ابْنُكَ دَاوُدَ ، قال : أَيْ رَبِّ كَمْ عُمْرُهُ ، قَالَ : سِتُّونَ عَامًا ، قَالَ : رَبِّ زِدْ فِي عُمْرِهِ ، قَالَ : لَا إِلَّا أَنْ أَزِيدَهُ مِنْ عُمُرِكَ ، وَكَانَ عُمْرُ آدَمَ أَلْفَ سَنَةٍ فَزَادَهُ أَرْبَعِينَ عَامًا ، فَكَتَبَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ كِتَابًا وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةَ ، فَلَمَّا احْتُضِرَ آدَمُ وَأَتَتْهُ الْمَلَائِكَةُ قَالَ : إِنَّهُ قَدْ بَقِيَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ عَامًا ، فَكَتَبَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ كِتَابًا وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةَ ، فَقِيلَ لَهُ : إِنَّكَ قَدْ وَهَبْتَهَا لِابْنِكَ دَاوُدَ ، قَالَ : مَا فَعَلْتُ ، فَأَبْرَزَ اللَّه عَلَيْهِ الكِتَابَ وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ المَلَائِكَةَ » (١) .

قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها ، ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها ، وأضبط للشاهد فيها ، وقد نبّه على هذا في آخر الآية حيث قال : ﴿ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا ﴾ وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ قال : أنزلت في السلم إلى أجل معلوم . وعنه قال : أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أحله وأذن فيه ، ثم قرأ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ وعنه أيضًا قال : قدم النبيّ ﷺ المدينة وهم يسلفون في الثمار السنة والسنتين والثلاث ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧١/١) والبيهقي في السنن (١٤٦/١٠) والطبراني في الكبير (٢١٤/١٨) .

أَسْلَفَ فَلْيُسْلِفْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ » (١) .

وقوله : ﴿ فَٱكۡتُبُوهُۚ ﴾ أمر منه تعالى بالكتابة للتوثقة والحفظ ، فإن قيل : فقد ثبت في الصحيحين عن عبد اللَّه بن عمر قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لاَ نَكْتُبُ وَلاَ نَحْسُبُ » (٢) فما الجمع بينه وبين الأمر بالكتابة ؟ فالجواب أن الدين من حيث هو غير مفتقر إلى كتابة أصلًا ؛ لأن كتاب اللَّه قد سهَّلَ اللَّه ويسَّر حفظه على الناس ، والسنن أيضًا محفوظة عن رسول اللَّه ﷺ والذي أمر اللَّه بكتابته إنما هو أشياء جزئية تقع بين الناس ، فأمروا أمر إرشاد لا أمر إيجاب ، كما ذهب إليه بعضهم . قال ابن جريج : من ادَّان فليكتب ، ومن ابتاع فليشهد . وقال قتادة : ذكر لنا أن أبا سليمان المرعشي كان رجلًا صحب كعبًا ، فقال ذات يوم لأصحابه : هل تعلمون مظلومًا دعا ربه فلم يستجب له ؟ فقالوا : وكيف يكون ذلك ؟ قال : رجل باع بيعًا إلى أجل فلم يُشْهد ولم يكتب ، فلما حل ماله جحده صاحبه ، فدعا ربه فلم يستجب له ؛ لأنه قد عصى ربه . وقال أبو سعيد والشعبي والربيع بن أنس والحسن وابن جريج وابن زيد وغيرهم : كان ذلك واجبًا ثم نسخ بقوله : ﴿ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾ والدليل على ذلك أيضًا الحديث الذي حكي عن شرع من قبلنا مقررًا في شرعنا ولم ينكر عدم الكتابة والإشهاد ، عن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ : أنه ذكر أن رجلًا من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار ، فقال : ائتني بشهداء أشهدهم ؟ قال : كفى باللَّهِ شهيدًا ، قال : ائتني بكفيل ، قال : كفى باللَّه كفيلًا ، قال : صدقت ، فدفعها إليه إلى أجل مسمًّى ، فخرج في البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبًا يقدم عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركبًا ، فأخذ خشبة فنقرها ، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها ، ثم زجج موضعها ، ثم أتى بها البحر ، ثم قال : اللهم إنك قد علمت أني استسلفت فلانًا ألف دينار فسألني كفيلًا فقلت : كفى باللَّه كفيلًا فرضي بذلك ، وسألني شهيدًا فقلت : كفى باللَّه شهيدًا فرضي بذلك ، وإني قد جهدت أن أجد مركبًا أبعث بها إليه بالذي أعطاني فلم أجد مركبًا ، وإني استودعتكها ، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه ، ثم انصرف وهو في ذلك يطلب مركبًا إلى بلده ، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركبًا تجيؤه بماله ، فإذا بالخشبة التي فيها المال ، فأخذها لأهله حطبًا ، فلما كسرها وجد المال والصحيفة ، ثم قَدِم الرجل الذي كان تسلف منه فأتاه بألف دينار ، وقال : واللَّه ما زلت جاهدًا في طلب مركب لآتيك بمالك ، فما وجدت مركبًا قبل الذي أتيت فيه ، قال : هل كنت بعثت إلي بشيء ؟ قال : ألم أخبرك أني لم أجد مركبًا قبل هذا الذي جئت فيه ؟ قال : فإن اللَّه قد أدَّى عنك الذي بعثت به في الخشبة ، فانصرف بألفك راشدًا (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾ أي بالقسط والحق ، ولا يجر في كتابته على أحد ، ولا يكتب إلَّا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان ، وقوله : ﴿ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ ﴾ أي ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس ، ولا ضرورة عليه في ذلك ، فكما علَّمه اللَّه ما لم يكن يعلم ، فليتصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة ، وليكتب . وفي

(١) أخرجه مسلم في المساقاة (١٢٧) والنسائي في السنن (٧/٢٩٠) والترمذي في السنن (١٣١١) .
(٢) أخرجه مسلم في الصيام (١٥) وأبو داود في السنن (٢٣١٩) والنسائي في السنن (٥/١٣٩) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٤٨) والبيهقي في السنن (٦/٧٦) .

الحديث : « مَنْ كَتَمَ عِلْمًا يَعْلَمُهُ أُلْجِمَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » (١) ، وقال مجاهد وعطاء : واجب على الكاتب أن يكتب . وقوله : ﴿ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ أي وليملل المدين على الكاتب ما في ذمته من الدين ، وليتق الله في ذلك ﴿ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ أي لا يكتم منه شيئًا ﴿ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا ﴾ محجورًا عليه بتبذيره ونحوه ﴿ أَوْ ضَعِيفًا ﴾ أي صغيرًا أو مجنونًا ﴿ أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ ﴾ إما لعي أو جهل بموضع صواب ذلك من خطئه ﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ أمر بالاستشهاد مع الكتابة لزيادة التوثقة ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ ﴾ وهذا إنما يكون في الأموال وما يقصد به المال ، وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة . وعن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ أنه قال : « يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الاِسْتِغْفَارَ ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ » فقالت امرأة منهن جزلة : وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار ؟ قال : « تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبٍّ مِنْكُنَّ » قالت : يا رسول الله ما نقصان العقل والدين ؟ قال : « أَمَّا نُقْصَانُ عَقْلِهَا : فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تَعْدِلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ فَهَذَا نُقْصَانُ العَقْلِ ، وَتَمْكُثُ اللَّيَالِيَ لا تُصَلِّي ، وَتُفْطِرُ فِي رَمَضَانَ ؛ فَهَذَا نُقْصَانُ الدِّينِ » (٢) .

وقوله : ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾ فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود ، وهذا مقيد ، حكم به الشافعي على كل مطلق في القرآن من الأمر بالإشهاد من غير اشتراط ، وقد استدل من رد المستور بهذه الآية الدالة على أن يكون الشاهد عدلًا مرضيًا . وقوله : ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا ﴾ يعني المرأتين إذا نسيت الشهادة ﴿ فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ أي يحصل لها ذكر بما وقع به من الإشهاد ، وبهذا قرأ آخرون ، ﴿ فَتُذَكِّرَ ﴾ بالتشديد من التذكار ، ومن قال : إن شهادتها معها تجعلها كشهادة ذكر فقد أبعد ، والصحيح الأول والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ﴾ قيل : معناه إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة . ومن ههنا استفيد أن تحمّل الشهادة فرض كفاية ، وهو مذهب الجمهور ، والمراد بقوله : ﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ﴾ للأداء لحقيقة . قوله : ﴿ ٱلشُّهَدَآءُ ﴾ والشاهد حقيقة فيمن تحمل فإذا دعي لأدائها فعليه الإجابة إذا تعينت ، وإلَّا فهو فرض كفاية . وقال مجاهد وأبو مجلز وغير واحد : إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار ، وإذا شهدت فدعيت فأجب . وعن زيد بن خالد أن رسول الله ﷺ قال : « أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ ؟ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا » (٣) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ﴾ هذا من تمام الإرشاد ، وهو الأمر بكتابة الحق صغيرًا كان أو كبيرًا ، فقال : ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ ﴾ أي لا تملوا أن تكتبوا الحق على أي حال كان ، من القلة والكثرة إلى أجله .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ﴾ أي هذا الذي أمرناكم به من الكتابة

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٩٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الحيض (٣٠٤) ومسلم في الإيمان (١٣٢) والترمذي في السنن (٢٦١٣) وأحمد في مسنده (٢/٦٦) .

(٣) أخرجه مسلم في الأقضية (١٩) والترمذي في السنن (٢٢٩٥) والبيهقي في (١٠/١٥٦) .

للحق إذا كان مؤجلًا ، هو أقسط عند الله ، أي أعدل ﴿ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ ﴾ أي أثبت للشاهد إذا وضع خطه ، ثم رآه تذكر به الشهادة ، لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه كما هو الواقع غالبًا ﴿ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ﴾ وأقرب إلى عدم الريبة ، بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه ، فيفصل بينكم بلا ريبة .

وقوله : ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ﴾ أي إذا كان البيع بالحاضر يدًا بيد ، فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور في تركها .

فأما الإشهاد على البيع فقد قال تعالى : ﴿ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ عن سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ يعني أشهدوا على حقكم إذا كان فيه أجل ، أو لم يكن فيه أجل ، فأشهدوا على حقكم على كل حال . وقال الشعبي والحسن : هذا الأمر منسوخ بقوله : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ ﴾ وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب ، لا على الوجوب ، والدليل على ذلك حديث خزيمة بن ثابت الأنصاري أن النبيَّ ﷺ ابتاع فرسًا من أعرابي ، فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه ، فأسرع النبيُّ ﷺ وأبطأ الأعرابي ، فطفق رجال يعترضون الأعرابي ، فيساومونه بالفرس ولا يشعرون أن النبيَّ ﷺ ابتاعه ، حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبيُّ ﷺ ، فنادى الأعرابي النبيَّ ﷺ فقال : إن كنت مبتاعًا هذا الفرس فابتعه ، وإلَّا بعته ، فقام النبيُّ ﷺ حين سمع نداء الأعرابي قال : « أَوَلَيْسَ قَدِ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ ؟ » قال الأعرابي : لا والله ما بعتك ، فقال النبيُّ ﷺ : « بَلْ قَدِ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ » فطفق الناس يلوذون بالنبيِّ ﷺ والأعرابي وهما يتراجعان ، فطفق الأعرابي يقول : هلم شهيدًا يشهد أني بايعتك ، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي : ويلك إن النبيَّ ﷺ لم يكن يقول إلَّا حقًّا ، حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبيِّ ﷺ ومراجعة الأعرابي يقول : هلم شهيدًا يشهد أني بايعتك ، قال خزيمة : أنا أشهد أنك قد بايعته ، فأقبل النبيُّ ﷺ على خزيمة فقال : « بِمَ تَشْهَدُ ؟ » فقال : بتصديقك يا رسول الله ، فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين (١) . وعن أبي موسى عن النبيِّ ﷺ قال : « ثَلَاثَةٌ يَدْعُونَ اللهَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ : رَجُلٌ لَهُ امْرَأَةٌ سَيِّئَةُ الخُلُقِ فَلَمْ يُطَلِّقْهَا ، وَرَجُلٌ دَفَعَ مَالَ يَتِيمٍ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ ، وَرَجُلٌ أَقْرَضَ رَجُلًا مالًا فَلَمْ يُشْهِدْ » (٢) .

وقوله : ﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ قيل : معناه لا يضارَّ الكاتب ولا الشاهد ، فيكتب هذا خلاف ما يملى ، ويشهد هذا بخلاف ما سمع ، أو يكتمها بالكلية . وقيل : معناه لا يضر بهما . وعن ابن عبّاس في هذه الآية : ﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ قال : يأتي الرجل فيدعوهما إلى الكتاب والشهادة فيقولان : إنا على حاجة ، فيقول : إنكما قد أمرتما أن تجيبا ، فليس له أن يضارَّهما . وقوله : ﴿ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ﴾ أي إن خالفتم ما أمرتم به ، أو فعلتم ما نهيتم عنه ، فإنه فسق كائن بكم ، أي لازم لكم ، لا تحيدون عنه ، ولا تنفكون عنه ، وقوله : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي خافوه وراقبوه واتبعوا أمره واتركوا زجره ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ كقوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها ، فلا يخفى

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (٣٠٢/٧) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٠٢/٢) والبيهقي في السنن (١٤٦/١٠) والألباني في الصحيحة (١٨٠٥) .

عليه شيء من الأشياء ، بل علمه محيط بجميع الكائنات .

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ أي مسافرين ، وتداينتم إلى أجل مسمى ﴿ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا ﴾ يكتب لكم . قال ابن عبّاس : أو وجدوه ولم يجدوا قرطاسًا أو دواة أو قلمًا ﴿ فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ أي فليكن بدل الكتاب رهان مقبوضة ، أي في يد صاحب الحق . وقد استدل بقوله : ﴿ فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ على أن الرهن لا يلزم إلّا بالقبض ، كما هو مذهب الشافعي والجمهور ، واستدل بها آخرون على أنه لابد أن يكون الرهن مقبوضًا في يد المرتهن ، وهو رواية عن الإمام أحمد ، وذهب إليه طائفة ، واستدل آخرون من السلف بهذه الآية على أنه لا يكون الرهن مشروعًا إلّا في السفر ، وقد ثبت عن أنس : أن رسول الله ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقًا من شعير ، رهنها قوتًا لأهله (١) .

وقوله : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُ ﴾ عن أبي سعيد الخدري أنه قال : هذه نسخت ما قبلها . وقال الشعبي : إذا ائتمن بعضكم بعضًا فلا بأس أن لا تكتبوا أو لا تشهدوا وقوله : ﴿ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ يعني المؤتمن ، كما جاء عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال : « عَلَى اليَدِ مَا أَخَذَتْ حَتَّى تُؤَدِّيَهُ » (٢) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَٰدَةَ ﴾ أي لا تخفوا وتغلوها ولا تظهروها . قال ابن عبّاس وغيره : شهادة الزور من أكبر الكبائر ، وكتمانها كذلك ، ولهذا قال : ﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ قال السدي : يعني فاجر قلبه ، وهكذا قال ههنا : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ لِّلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن ، وأنه المطلع على ما فيهن ، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر ، وإن دقت وخفيت ، وأخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم كما قال : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ والآيات في ذلك كثيرة جدًّا ، وقد أخبر في هذه بمزيد على العلم وهو المحاسبة على ذلك ، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة ﷺ وخافوا منها ، ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها ، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم . وعن أبي هريرة قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب وقالوا : يا رسول الله ! كلفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة ، والصيام ، والجهاد ، والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها ، فقال رسول الله ﷺ : « أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ : سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ؟ بَلْ قُولُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ » فلما أقرّ بها القوم ، وذلّت بها ألسنتهم ، أنزل الله في

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٦٧) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢/٥) ، وأبو داود في السنن (٣٥٦١) والترمذي في السنن (١٢٦٦) .

أثرها : ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل قوله : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (١) .

وعن رجل من أصحاب النبيّ ﷺ أحسبه ابن عمر ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ قال نسختها الآية التي بعدها . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ تجاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَكَلَّمْ أَوْ تَعْمَلْ » (٢) .

وعن أبي هريرة عن محمّد رسول الله ﷺ قال : « قَالَ اللَّه : إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدِي بِأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً مَا لَمْ يَعْمَلْ ، فَإِذَا عَمِلَهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، وَإِذَا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلْهَا ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ بِمِثْلِهَا » (٣) . وقال رسول الله ﷺ : « قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ : رَبِّ وَذَاكَ أَنَّ عَبْدَكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً – وَهوَ أَبْصَرُ بِهِ – فَقَالَ : ارْقُبُوهُ فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا ، وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً ، وَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ » . وقال رسول الله ﷺ : « إِذَا أَحْسَنَ أَحَدٌ إِسْلَامَهُ فَإِنَّ لَهُ بِكُلِّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، وَكُلّ سَيِّئَةٍ تُكْتَبُ بِمِثْلِهَا ، حَتَّى يَلْقَى اللَّه ﷻ » (٤) وعن ابن عبّاس عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه تعالى قال : « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا ؛ كَتَبَهَا اللَّه عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا ؛ كَتَبَهَا اللَّه عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ . وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا ؛ كَتَبَهَا اللَّه عِنْدَهُ حَسَنَةً ، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا ؛ كَتَبَهَا اللَّه عِنْدَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً » (٥) . وعن أبي هريرة قال : جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فسألوه فقالوا : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ، قال : « وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ ؟ » قالوا : نعم ، قال : « ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ » (٦) .

وعن ابن عبّاس ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ فإنها لم تنسخ ولكن الله إذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول : إني أخبركم بما أخفيتم في أنفسكم مما لم يطلع عليه ملائكتي ، فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم ، وهو قوله : ﴿ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ يقول : يخبركم ، وأما أهل الشك والريب : فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب ، وهو قوله : ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ وهو قوله : ﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ أي من الشك والنفاق . وعن الحسن البصري أنه قال : هي محكمة لم تنسخ ، واختار ابن جرير ذلك ، واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة ، وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر ، وقد يحاسب ويعاقب ، بالحديث الذي رواه عند هذه الآية عن صفوان ابن محرز قال : بينما نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر وهو يطوف إذ عرض له رجل فقال : يا ابن عمر ، ما سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يَدْنُو

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٩٩) وأحمد في مسنده (٤١٢/٢) .
(٢) أخرجه الدارقطني في السنن (١٧١/٤) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٥/٢) .
(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٠٥) وأحمد في مسنده (٣١٧/٢) .
(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٠٨) وأحمد في مسنده (٣٦٠/١) .
(٦) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٠٩) .

المُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ ﷻ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ ، فَيَقُولُ لَهُ : هَلْ تَعْرِفُ كَذَا ؟ فَيَقُولُ : رَبِّ أَعْرِفُ مَرَّتَيْنِ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بِهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَبْلُغَ ، قَالَ : فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ ، قَالَ : فَيُعْطَى صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ - أَوْ كِتَابِهِ - بِيَمِينِهِ . وَأَمَّا الكُفَّارُ وَالمُنَافِقُونَ : فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُءُوسِ الأَشْهَادِ ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ »(١) . وعن زيد قال : سألت عائشة عن هذه الآية ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ ﴾ فقالت : ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ عنها ، فقالت : هذه مبايعة الله العبد ، وما يصيبه من الحمى والنكبة والبضاعة يضعها في يد كمه فيفتقدها ، فيفزع لها ، ثم يجدها في ضبنه حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكير .

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

ذِكْر الأَحَادِيثِ الوَارِدَة فِي فَضْل هَاتَيْن الآيتين الكَرِيمَتين نَفَعَنَا اللَّه بِهِمَا

عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن قرأ بالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ في لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ »(٢) .

وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « أُعْطِيتُ خَوَاتِيمَ سُورَةِ البَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ العَرْشِ لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي »(٣) .

وعن عبد الله قال : لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السابعة ، إليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها قال : ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ قال : فراش من ذهب ، قال : وأعطي رسول الله ﷺ ثلاثًا : أعطي الصلوات الخمس ، وأعطي خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئًا المقحمات(٤) .

وعن عقبة بن عامر الجهني قال : قال رسول الله ﷺ : « اقرأ الآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ فَإِنِّي أُعْطِيتُهُمَا مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ العَرْشِ »(٥) .

وعن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلاثٍ : أُوتِيتُ هَذِهِ الآيَاتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ مِنْ بَيْتِ كَنْزٍ تَحْتَ العَرْشِ ، لَمْ يُعْطَهَا أَحَدٌ قَبْلِي ، وَلاَ يُعْطَاهَا أَحَدٌ بَعْدِي »(٦) .

وعن أنس بن مالك قال : لما نزلت هذه الآية على النبيّ ﷺ ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٥/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٠٩) والبيهقي في السنن (٢١/٣) وابن خزيمة في صحيحه (١١٤١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٠/٥) والطبراني في الكبير (١٨٨/٣) .
(٤) أخرجه النسائي في السنن (٢٢٣/١) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٧/٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣١٢/٦) .
(٦) أخرجه البيهقي في السنن (٢٣٣/١) .

رَبِّهِۦ ﴾ قال النبيّ ﷺ : « حقّ لَهُ أَنْ يُؤْمِنَ » (١) .

وقوله : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ عطف على الرسول ، ثم أخبر عن الجميع فقال : ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد ، فرد صمد ، لا إله غيره ، ولا رب سواه . ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء ، على عباد الله المرسلين والأنبياء ، لا يفرّقون بين أحد منهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديّون هادون إلى سبيل الخير ، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله ، حتى نسخ الجميع بشرع محمّد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذي تقوم الساعة على شريعته ، ولا تزال طائفة من أمّته على الحق ظاهرين ، وقوله : ﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ أي سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه ، وقمنا به وامتثلنا العمل بمقتضاه ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾ سؤال للمغفرة والرحمة واللطف . وعن ابن عبّاس في قول الله : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾ قال : قد غفرت لكم ﴿ وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي المرجع والمآب يوم الحساب . وعن جابر قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ قال جبريل : إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك ، فسل تعطه . فسأل ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ إلى آخر الآية .

وقوله : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أي لا يكلف أحدًا فوق طاقته ، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ، ورأفته بهم ، وإحسانه إليهم ، وهذه هي الناسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة في قوله : ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ أي هو وإن حاسب وسأل لكن لا يعذّب إلّا بما يملك الشخص دفعه ، فأما ما لا يملك دفعه من وسوسة النفس وحديثها فهذا لا يكلف به الإنسان . وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان . وقوله : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ أي من خير ﴿ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ أي من شر ، وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف .

ثم قال تعالى مرشدًا عباده إلى سؤاله وقد تكفل لهم بالإجابة ، كما أرشدهم وعلمهم أن يقولوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ أي إن تركنا فرضًا على جهة النسيان ، أو فعلنا حرامًا كذلك ، أو أخطأنا أي الصواب في العمل جهلًا منا بوجهه الشرعي . وعن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ ، وَالنِّسْيَانَ ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ » (٢) .

وقوله : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ أي لا تكلفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها ، كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم ، التي بعثت نبيك محمّدًا ﷺ نبي الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به ، من الدين الحنيفي السهل السمح ، وجاء في الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال : « بُعِثْتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ » (٣) .

وقوله : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ أي من التكليف والمصائب والبلاء ، لا تبتلنا بما لا

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٨٧/٢) .
(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٠٤٥) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٦/٥) .

قبل لنا به ، وقد قال مكحول في قوله : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ : العزبة والغلمة .

وقوله : ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا ﴾ أي فيما بيننا وبينك ، مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا ﴿ وَٱغْفِرْ لَنَا ﴾ أي فيما بيننا وبين عبادك ، فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة ﴿ وَٱرْحَمْنَآ ﴾ أي فيما يستقبل ، فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر . ولهذا قالوا : إن المذهب محتاج إلى ثلاثة أشياء : أن يعفو اللّٰه عنه فيما بينه وبينه ، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم ، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره .

وقوله : ﴿ أَنتَ مَوْلَىٰنَا ﴾ أي أنت ولينا وناصرنا ، وعليك توكلنا ، وأنت المستعان ، وعليك التكلان ، ولا حول لنا ولا قوة إلّا بك ﴿ فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي الذين جحدوا دينك ، وأنكروا وحدانيتك ورسالة نبيك ، وعبدوا غيرك ، وأشركوا معك من عبادك ، فانصرنا عليهم ، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة « قَالَ اللّٰه : نَعَمْ » . وعن أبي إسحاق أن معاذًا ﷺ كان إذا فرغ من هذه السورة ﴿ فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ قال : آمين [1] .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢١٨/٣) .

سورة آل عمران

وآياتها مائتا آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ .

تقدم الكلام على قوله : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ في تفسير آية الكرسي .

وقوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ يعني نزَّل عليك القرآن يا محمّد بالحق ، أي لا شك فيه ولا ريب ، بل هو منزل من عند الله ، أنزله بعلمه ، والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيدًا . وقوله : ﴿ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾ أي من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله والأنبياء ، فهي تصدقه بما أخبرت به وبشرت في قديم الزمان ، وهو يصدقها لأنه طابق ما أخبرت به وبشرت من الوعد من الله بإرسال محمّد ﷺ وإنزال القرآن العظيم عليه . وقوله : ﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ﴾ أي على موسى بن عمران ﴿ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴾ أي على عيسى ابن مريم عليه السلام ﴿ مِن قَبۡلُ ﴾ أي من قبل هذا القرآن ﴿ هُدٗى لِّلنَّاسِ ﴾ أي في زمانهما ﴿ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ ﴾ وهو الفارق بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، والغي والرشاد ، بما يذكره الله تعالى من الحجج والبينات والدلائل الواضحات ، والبراهين القاطعات ، ويبينه ويوضحه ويفسره ويقرره ويرشد إليه وينبه عليه من ذلك . وقال الربيع بن أنس : الفرقان ههنا القرآن .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي جحدوا بها وأنكروها وردوها بالباطل ﴿ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ﴾ أي منيع الجناب ، عظيم السلطان ﴿ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ أي ممن كذب بآياته ، وخالف رسله الكرام ، وأنبياءه العظام .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يعلم غيب السماء والأرض ، لا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ ﴾ أي يخلقكم في الأرحام كما يشاء ، من ذكر وأنثى ، وحسن وقبيح ، وشقي وسعيد ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ أي هو الذي خلق ، وهو المستحق للإلهية وحده لا شريك له ، وله العزّة التي لا ترام ، والحكمة والأحكام ، وهذه الآية فيها تعريض بل تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق كما خلق الله سائر البشر ، لأن الله صوَّره في الرحم ، وخلقه كما يشاء ، فكيف يكون إلهًا كما زعمته النصارى عليهم لعائن الله ! وقد تقلَّب في الأحشاء وتنقَّل من حال إلى حال .

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝ رَبَّنَآ إِنَّكَ

جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ .

يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب ، أي بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد . ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم ، فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه ، وحكّم محكمه على متشابهه عنده ، فقد اهتدى ، ومن عكس انعكس . ولهذا قال تعالى : ﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم ، وقد تحتمل شيئًا آخر من حيث اللفظ والتركيب ، لا من حيث المراد . وقد اختلفوا في المحكم والمتشابه ، فروي عن السلف عبارات كثيرة : فعن ابن عبّاس ﷺ المحكمات ناسخة ، وحلاله وحرامه ، وحدوده وأحكامه ، وما يؤثر به ويعمل به . وعن ابن عبّاس أيضًا أنه قال : المحكمات قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْـًٔا ﴾ والآيات بعدها . وقوله تعالى ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ إلى ثلاث آيات بعدها . روي أن يحيى بن يعمر وأبا فاختة تراجعا في هذه الآية ﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ فقال أبو فاختة : فواتح السور . وقال يحيى بن يعمر : الفرائض والأمر والنهي والحلال والحرام . وعن سعيد بن جبير : ﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ لأنهن مكتوبات في جميع الكتب . وقال مقاتل بن حيان : لأنه ليس من أهل دين إلّا يرضى بهن . وقيل في المتشابهات : المنسوخة ، والمقدم والمؤخر ، والأمثال فيه ، والأقسام ، وما يؤمن به ولا يعمل به . وقيل : هي الحروف المقطعة في أوائل السور . وعن مجاهد : المتشابهات يصدق بعضها بعضًا ، وهذا إنما هو في تفسير قوله : ﴿ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ ﴾ هناك ذكروا أن المتشابه هو الكلام الذي يكون في سياق واحد ، والمثاني هو الكلام في شيئين متقابلين كصفة الجنّة وصفة النار ، وذكر حال الأبرار وحال الفجّار ، ونحو ذلك . وأما ها هنا فالمتشابه هو الذي يقابل المحكم ، وأحسن ما قيل فيه هو الذي قدمنا ، وهو الذي نص عليه محمّد بن إسحاق بن يسار رحمه الله حيث قال : ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ ﴾ فهن حجة الرب ، وعصمة العباد ، ودفع الخصوم الباطل ، ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه . قال : والمتشابهات في الصدق ليس لهن تصريف وتحريف وتأويل ، ابتلى اللَّه فيهن العباد ، كما ابتلاهم في الحلال والحرام ، ألا يصرفن إلى الباطل ، ولا يحرفن عن الحق .

ولهذا قال اللَّه تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ﴾ أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة ، وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه . فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه ؛ لأنه دافع لهم ، وحجة عليهم . ولهذا قال اللَّه تعالى : ﴿ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ ﴾ أي الإضلال لأتباعهم ، إيهامًا لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن ، وهو حجة عليهم لا لهم ، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح اللَّه وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وتركوا الاحتجاج بقوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ وبقوله : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات اللَّه ، وعبد ورسول من رسل اللَّه .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ أي تحريفه على ما يريدون . وقال السدي : يبتغون أن يعلموا ما يكون ، وما عواقب الأشياء من القرآن . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قرأ رسول اللَّه ﷺ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ

عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ فقال : « إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيهِ ، فَهُمُ الَّذِينَ عَنَى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ » (١) وعن أبي أمامة يحدِّث عن النبيِّ ﷺ في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ﴾ قال : « هُمُ الْخَوَارِجُ » وفي قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ قال : « هُمُ الْخَوَارِجُ » (٢) . وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفًا من كلام الصحابي ، ومعناه صحيح ، فإن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج ، وكان مبدؤهم بسبب الدنيا ، حين قسم النبيُّ ﷺ غنائم حنين ، فكأنهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة ، ففاجأوه بهذه المقالة ، فقال قائلهم - وهو ذو الخويصرة بقر اللَّه خاصرته - اعدل فإنك لم تعدل ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « لَقَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ ، إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ ، أَيَأْمَنُنِي عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ وَلاَ تَأْمَنُونِي ؟ » فلما قفا الرجل ، استأذن عمر بن الخطاب ، في قتله فقال : « دَعْهُ فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِيءِ هَذَا أَيْ مِنْ جِنْسِهِ قَوْمٌ يحقرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِمْ ، وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، فَأَيْنَما لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ » (٣) . ثم كان ظهورهم أيام علي ابن أبي طالب ﷺ ، وقتلهم بالنهروان ، ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونحل كثيرة منتشرة ، ثم انبعثت القدرية ، ثم المعتزلة ، ثم الجهمية ، وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ في قوله : « وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً » قالوا : وما هم يا رسول اللَّه ؟ قال : « مَنْ كَانَ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي » (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ اختلف القرّاء في الوقف ههنا ، فقيل على الجلالة كما تقدم عن ابن عبّاس ﷺ أنه قال : التفسير على أربعة أنحاء : فتفسير لا يعذر أحد في فهمه ، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها ، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم ، وتفسير لا يعلمه إلَّا اللَّه . وعن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول : « لاَ أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي إِلَّا ثَلاَثَ خِلاَلٍ : أَنْ يكثرَ لَهُمُ المَال فَيَتَحَاسَدُوا فَيَقْتَتِلُوا ، وَأَنْ يُفْتَحَ لَهُمُ الكِتَابُ فَيَأْخُذَهُ المُؤْمِنُ يَبْتَغِي تَأْوِيلَهُ ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ الآية . وَأَنْ يَزْدَادَ عِلْمُهُمْ فَيُضَيِّعُوهُ وَلاَ يَسْأَلُونَ عَنْهُ » (٥) . عن ابن العاص عن رسول اللَّه ﷺ قال : « إِنَّ القُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ لِيُكَذِّبَ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ ، وَمَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَآمِنُوا بِهِ » (٦) . وعن طاوس قال : كان ابن عبّاس يقرأ وما يعلم تأويله إلَّا اللَّه ، ويقول الراسخون : آمنا به . وحكى ابن جرير أن في قراءة عبد اللَّه بن مسعود : إن تأويله إلَّا عند اللَّه والراسخون في العلم يقولون : آمنا به . وكذا عن أُبيِّ بن كعب واختار ابن جرير هذا القول .

ومنهم من يقف على قوله : ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ ﴾ وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول ، وقالوا :

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٧) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٢/٥) والطبراني في الكبير (٣٢٥/٨) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٣٣/٦) .

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة (١٤٢) وأحمد في مسنده (٣٥٥/٣) .

(٤) أخرجه الطبراني في الصغير (٢٥/١) والحاكم في المستدرك (٤٣٠/٤) .

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٣٢/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٨/١) .

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٢) .

الخطاب بما لا يفهم بعيد . وعن ابن عبّاس أنه قال : أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله . وعن مجاهد : والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به . وعن محمّد بن جعفر بن الزبير : وما يعلم تأويله الذي أراد ما أراد إلّا اللَّه والراسخون في العلم يقولون : آمنا به ، ثم ردوا تأويل المتشابهات على ما عرفوا من تأويل المحكمة التي لا تأويل لأحد فيها إلّا تأويل واحد ، فاتسق بقولهم الكتاب ، وصدَّق بعضه بعضًا ، فنفذت الحجة ، وظهر به العذر ، وزاح به الباطل ، ودفع به الكفر . وفي الحديث أن رسول اللَّه ﷺ دعا لابن عبّاس فقال : « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ في الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ » (١) . ومن العلماء من فصَّل في هذا المقام وقال : التأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان : أحدهما التأويل بمعنى حقيقة الشيء وما يؤول أمره إليه ومنه قوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ ﴾ أي حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد ، فإن أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة ؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجليّة إلّا اللَّه ﷻ ، ويكون قوله : ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ مبتدأ و ﴿ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ خبره . وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشيء كقوله : ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ﴾ أي بتفسيره ، فإن أريد به هذا المعنى فالوقف على ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار ، وإن لم يحيطوا علمًا بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه ، وعلى هذا فيكون قوله : ﴿ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ حالًا منهم ، وساغ هذا ، وأن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه .

وقوله إخبارًا عنهم أنهم يقولون : آمنا به أي المتشابه ، كل من عند ربنا أي الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق ، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له ؛ لأن الجميع من عند اللَّه ، وليس شيء من عند اللَّه بمختلف ولا متضاد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي إنما يفهم ويعقل ويتدبر على وجهها أولو العقول السليمة ، والفهوم المستقيمة . عن عمروٍ بن شعيب عن أبيه عن جده قال : سمع رسول اللَّه ﷺ قومًا يتدارأون فقال : « إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا ، ضَرَبُوا كِتَابَ اللَّهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ ، وَإِنَّمَا أُنْزِلَ كِتَابُ اللَّهِ لِيُصَدِّقَ بَعْضُهُ بَعْضًا فَلا تُكَذِّبُوا بَعْضَهُ بِبَعْضٍ . فَمَا عَلِمْتُمْ مِنْهُ فَقُولُوا بِهِ ، وَمَا جَهِلْتُمْ فَكِلُوهُ إِلى عَالِمِهِ » (٢) . وعن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال : « نَزَلَ القُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ ، وَالمِرَاءُ في القُرْآنِ كُفْرٌ - قالها ثلاثًا - مَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلى عَالِمِهِ ﷻ » (٣) ويقال : الراسخون في العلم المتواضعون للَّه ، المتذللون للَّه في مرضاته ، لا يتعاظمون على من فوقهم ، ولا يحقرون من دونهم . ثم قال تعالى عنهم مخبرًا أنهم دعوا ربهم قائلين : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ أي لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه ، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم ، ودينك القويم ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ تثبت بها قلوبنا ، وتجمع بها شملنا ، وتزيدنا بها إيمانًا وإيقانًا ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول اللَّه ﷺ كثيرًا ما يدعو : « يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي على دِينِكَ » قلت : يا رسول اللَّه ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء ، فقال : « لَيْسَ مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمنِ ، إِذَا

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٣٨) وأحمد في مسنده (٣٢٧/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٥/٢) والبغوي في شرح السنة (٢٦٠/١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٤/٤) والألباني في الصحيحة (١٥٢٢) .

شاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ ، وَإِذَا شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ ، أَمَا تَسْمَعِي قَوْلَهُ : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ »[١] . وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ من الليل قال : « لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ أَسْتَغْفِرُكَ لِذَنْبِي ، وَأَسْأَلُكَ رَحْمَتَكَ ، اللَّهُمَّ زِدْنِي عِلْمًا ، ولا تُزِغْ قَلْبِي بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنِي ، وَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ »[٢] . وعن أبي عبد الله الصنابحي أنه صلى وراء أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه المغرب ، فقرأ أبو بكر في الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورتين من قصار المفصل ، وقرأ في الركعة الثالثة ، قال : فدنوت منه حتى إن ثيابي لتكاد تمس ثيابه ، فسمعته يقرأ بأم القرآن وهذه الآية ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ الآية . وعن عبادة بن نسي أنه كان عند عمر بن عبد العزيز في خلافته فقال عمر لقيس : كيف أخبرتني عن أبي عبد الله ؟ فأخبره بما سمع أبا عبد الله ثانيًا ، قال عمر : فما تركناها منذ سمعناها منه ، وإن كنت قبل ذلك لعلى غير ذلك ، فقال له رجل : على أي شيء كان أمير المؤمنين قبل ذلك ؟ قال : كنت أقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي يقولون في دعائهم : إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم وتفصل بينهم ، وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه ، وتجزي كلًّا بعمله ، وما كان عليه في الدنيا من خير وشر .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۝ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

يخبر تعالى عن الكفار بأنهم وقود النار : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله ، ولا بمنجيهم من عذابه وأليم عقابه ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي بآيات الله ، وكذبوا رسله ، وخالفوا كتابه ، ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه ﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ أي حطبها الذي تسجر به ، وتوقد به ، فعن أم الفضل أم عبد الله بن عباس قالت : بينما نحن بمكة قام رسول الله ﷺ من الليل فنادى : « هَلْ بَلَّغْتُ ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ » ثلاثًا ، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : نعم ، ثم أصبح فقال رسول الله ﷺ : « لَيَظْهَرَنَّ الإِسْلاَمُ حَتَّى يَرُدَّ الكُفْرَ إِلَى مَوَاطِنِهِ ، وَلَيَخُوضَنَّ رِجَالٌ البِحَارَ بِالإِسْلاَمِ ، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَتَعَلَّمُونَ القُرْآنَ وَيَقْرَأُونَهُ ثُمَّ يَقُولُونَ : قَرَأْنَا وَعَلِمْنَا ، فَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنَّا ، فَهَلْ فِي أُولَئِكَ مِنْ خَيْرٍ ؟ » قالوا : يا رسول الله فمن أولئك ؟ قال : « أُولَئِكَ مِنْكُمْ وَهُمْ وَقُودُ النَّارِ »[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ قال ابن عباس : كصنيع آل فرعون ، وقيل : كسنَّة آل فرعون ، وكفعل آل فرعون ، وكشبه آل فرعون ، والألفاظ متقاربة به . والدأب بالتسكين والتحريك أيضًا ، كنهر ونهر ، هو الصنيع والحال والشأن والأمر والعادة ، كما يقال : لا يزال هذا دأبي ودأبك .

والمعنى في الآية : أن الكافرين لا تغني عنهم الأموال ولا الأولاد ، بل يهلكون ويعذبون كما

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٢٢) وأحمد في مسنده (١١٢/٣) والحاكم في المستدرك (٢٨٨/٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٥٠٦١) والحاكم في المستدرك (٥٤٠/١) .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٥١/١٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (١٣٠/١) .

جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسل فيما جاءوا به من آيات الله وحججه ﴿ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أي شديد الأخذ ، أليم العذاب ، لا يمتنع منه أحد ، ولا يفوته شيء بل هو الفعَّال لما يريد ، الذي قد غلب كل شيء ، لا إله غيره ولا رب سواه .

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُل ﴾ يا محمّد للكافرين ﴿ سَتُغْلَبُونَ ﴾ أي في الدنيا ﴿ وَتُحْشَرُونَ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ عن عاصم بن عمرو بن قتادة أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ، ورجع إلى المدينة ، جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال : « يَا مَعْشَرَ اليَهُودِ أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِمَا أَصَابَ قُرَيْشًا » فقالوا : يا محمّد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرًا من قريش ، كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا ، فأنزل الله في ذلك من قولهم : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ إلى قوله ﴿ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (١) . ولهذا قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ ﴾ أي قد كان لكم أيها اليهود القائلون ما قلتم آية أي دلالة على أن الله معز دينه ، وناصر رسوله ، ومظهر كلمته ، ومعل أمره ﴿ فِى فِئَتَيْنِ ﴾ أي طائفتين ﴿ ٱلْتَقَتَا ﴾ أي للقتال ﴿ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾ وهم مشركو قريش يوم بدر .

وقوله : ﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ﴾ قال بعض العلماء : يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثليهم في العدد رأي أعينهم ، أي جعل الله ذلك فيما رأوه سببًا لنصرة الإسلام عليهم ، وهذا لا إشكال عليه إلّا من جهة واحدة وهي أن المشركين بعثوا عمر بن سعد يومئذٍ قبل القتال يحزر لهم المسلمين فأخبرهم بأنهم ثلاثمائة يزيدون قليلًا أو ينقصون قليلًا ، وهكذا كان الأمر ، كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا ، ثم لما وقع القتال أمدهم الله بألف من خواص الملائكة وساداتهم . والقول الثاني : أن المعنى في قوله تعالى : ﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ﴾ أي يرى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثليهم ، أي ضعفيهم في العدد ، ومع هذا نصرهم الله عليهم . وهذا لا إشكال فيه على ما رواه العوفي عن ابن عبّاس : أن المؤمنين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا ، والمشركين كانوا ستمائة وستة وعشرين ، وكأن هذا القول مأخوذ من ظاهر هذه الآية ، ولكنه خلاف المشهور عند أهل التواريخ والسير وأيام الناس ، وخلاف المعروف عند الجمهور أن المشركين كانوا ما بين تسعمائة إلى الألف ، وعن عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لما سأل ذلك العبد الأسود لبني الحجاج عن عدة قريش قال : كثير ، قال : « كَمْ يَنْحَرُونَ كُلَّ يَوْمٍ ؟ » قال : يومًا تسعًا ويومًا عشرًا ، قال النبيّ ﷺ : « القَوْمُ مَا بَيْنَ تِسْعِمِائَةٍ إِلَى أَلْفٍ » (٢) . وروي عن علي ﵁ قال : كانوا ألفًا ، وكذا قال ابن مسعود . والمشهور أنهم كانوا ما بين التسعمائة إلى الألف . وعلى كل تقدير فقد كانوا ثلاثة أمثال المسلمين ، وعلى هذا فيشكل هذا القول والله أعلم ، لكن وجه ابن جرير هذا وجعله صحيحًا

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٣٠٠١) وأحمد في مسنده (٤٥١/٢) والبيهقي في السنن (١٨٣/٩) .
(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٤٣/٣) .

كما تقول : عندي ألف وأنا محتاج إلى مثليها ، وتكون محتاجًا إلى ثلاثة آلاف ، وعلى هذا فلا إشكال ، لكن بقي سؤال آخر وهو وارد على القولين ، وهو أن يقال ما الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى في قصة بدر : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ فالجواب أن هذا كان في حالة ، والآخر كان في حالة أخرى ، وعن عبد الله بن مسعود : لقد قُللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي تراهم سبعين ؟ قال : أراهم مائة ، قال : فأسرنا رجلًا منهم فقلنا : كم كنتم ؟ قال : ألفًا ، فعندما عاين كل من الفريقين الآخر رأى المسلمون المشركين مثليهم أي أكثر منهم بالضعف ، ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم ﷻ ، ورأى المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع ، ثم لما حصل التصاف والتقى الفريقان قلّل الله هؤلاء في أعين هؤلاء ، وهؤلاء في أعين هؤلاء ليقدم كل منهما على الآخر ﴿ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ أي ليفرق بين الحق والباطل ، فيظهر كلمة الإيمان على الكفر والطغيان ، ويعز المؤمنين ويذل الكافرين ﴿ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أي إن في ذلك لعبرة لمن له بصيرة وفهم ليهتدي به إلى حكم الله وأفعاله ، وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد .

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ⁽١٤⁾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ .

يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا ، من أنواع الملاذ من النساء والبنين ، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد ، كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال : « مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ على الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ » (١) فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه ، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه ، وأن خير هذه الأمة من كان أكثرها نساء ، وقوله ﷺ : « الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِهَا المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ ، إِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ ، وَإِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ فِي نَفْسِها وَمَالِهِ » (٢) وقوله في الحديث الآخر : « حُبِّبَ إِلَيَّ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ » (٣) . وقالت عائشة ﵂ : لم يكن شيء أحب إلى رسول الله ﷺ من النساء إلّا الخيل . وفي رواية : من الخيل إلّا النساء (٤) .

وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل في هذا ، وتارة يكون لتكثير النسل وتكثير أمة محمّد ﷺ ممن يعبد الله وحده لا شريك له ، فهذا محمود ممدوح ، كما ثبت في الحديث : « تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلُودَ ، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ » (٥) وحب المال كذلك تارة يكون للفخر

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٦) ومسلم في الذكر والدعاء (٩٧) والترمذي في السنن (٢٧٨٠) .

(٢) أخرجه مسلم في الرضاع (٦٤) والبغوي في شرح السنة (١١/٩) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤١/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٩/٣) والنسائي في السنن (٦٢/٧) والحاكم في المستدرك (١٦٠/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧/٥) .

(٥) أخرجه أبو داود في السنن (٢٠٥٠) وابن ماجه في السنن (١٨٤٦) والحاكم في المستدرك (١٦٢/٢) .

والخيلاء ، والتكبُّر على الضعفاء ، والتجبُّر على الفقراء ، فهذا مذموم ، وتارة يكون للنفقة في القربات ، وصلة الأرحام والقرابات ، ووجوه البر والطاعات ، فهذا ممدوح محمود شرعًا .

وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال ، وحاصلها أنه المال الجزيل . وقيل : ألف دينار ، وقيل : ألف ومائتا دينار ، وقيل : اثنا عشر ألفًا ، وقيل : أربعون ألفًا ، وقيل : ستون ألفًا ، وقيل : ثمانون ألفًا ، وقيل غير ذلك . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« القِنْطَارُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أُوقِيَّةٍ ، كُلُّ أُوقِيَّةٍ خَيْرٌ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ » (١) وعن أنس بن مالك قال : سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ ﴾ ؟ قال : « القِنْطَارُ أَلْفَا أُوقِيَّةٍ » (٢) .

وحب الخيل على ثلاثة أقسام : تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله متى احتاجوا إليها غزوا عليها ، فهؤلاء يثابون ، وتارة تربط فخرًا ونواء لأهل الإسلام ، فهذه على صاحبها وزر . وتارة للتعفف واقتناء نسلها ، ولم ينس حق الله في رقابها فهذه لصاحبها ستر . وأما المسوَّمة فعن ابن عبّاس رضي الله عنهما : المسومة الراعية ، والمطهمة الحسان . وقال مكحول : المسومة الغرة والتحجيل . وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيْسَ مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ إِلَّا يُؤْذَنُ لَهُ مَعَ كُلِّ فَجْرٍ يَدْعُو بِدَعْوَتَيْنِ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ خَوَّلْتَنِي مَنْ خَوَّلْتَنِي مِنْ بَنِي آدَمَ ، فَاجْعَلْنِي مِنْ أَحَبِّ مَالِهِ وَأَهْلِهِ إِلَيْهِ ، أَوْ أَحَبَّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ يعني الإبل والبقر والغنم ﴿ وَٱلْحَرْثِ ﴾ يعني الأرض المتخذة للغراس والزراعة . وعن سويد بن هبيرة عن النبيِّ ﷺ قال : « خَيْرُ مَالِ امْرِئٍ لَهُ مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ ، أَوْ سِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ » (٤) المأبورة الكثيرة النسل ، والسكة النخل المصطف ، والمأبورة الملقحة .

ثم قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ أي حسن المرجع والثواب .

قال عمر بن الخطاب : لما نزلت ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ قلت : الآن يا رب حين زينتها لنا فنزلت ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا ﴾ الآية . ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ ﴾ أي قل يا محمّد للناس : أأخبركم بخير مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها الذي هو زائل لا محالة ، ثم أخبر عن ذلك فقال : ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار ، من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكثين فيها أبد الآباد ، لا يبغون عنها حولًا ﴿ وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ أي من الدنس والخبث والأذى والحيض والنفاس وغير ذلك مما يعتري نساء الدنيا ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبدًا . ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى التي في براءة ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أي أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم ، ثم قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ أي يعطي كلًا بحسب ما يستحقه من العطاء .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٣/٢) والحاكم في المستدرك (١٧٨/٢) وابن ماجه في السنن (٣٣٦٠) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (١٧٨/٢) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٠/٥) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٨/٣) والبيهقي في السنن (٦٤/١٠) والطبراني في الكبير (١٠٧/٧) .

﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ .

يصف تبارك وتعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل فقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا ﴾ أي بك وبكتابك وبرسولك ﴿ فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ أي بإيماننا بك وبما شرعته لنا ، فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا من أمرنا بفضلك ورحمتك ﴿ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أي في قيامهم بالطاعات ، وتركهم المحرمات ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فيما أخبروا به من إيمانهم ، بما يلتزمونه من الأعمال الشاقة ﴿ وَٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ والقنوت الطاعة والخضوع ﴿ وَٱلْمُنفِقِينَ ﴾ أي من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات ، وصلة الأرحام والقرابات ، وسد الخلّات ، ومواساة ذوي الحاجات ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار . وقد قيل : إن يعقوب عليه السلام لما قال لبنيه : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ﴾ إنه أخرهم إلى وقت السحر . وثبت عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : « يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَخِيرِ فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيه ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ » (١) . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : من كل الليل قد أوتر رسول الله ﷺ ، من أوله وأوسطه وآخره ، فانتهى وتره إلى السحر (٢) . وكان عبد الله بن عمر يصلي من الليل ثم يقول : يا نافع هل جاء السحر ؟ فإذا قال : نعم ، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح . وعن حاطب قال : سمعت رجلًا في السحر في ناحية المسجد وهو يقول : يا رب أمرتني فأطعتك ، وهذا السحر فاغفر لي . فنظرت فإذا هو ابن مسعود رضي الله عنه . وعن أنس بن مالك قال : كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر في آخر السحر سبعين مرة .

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ .

شهد تعالى وكفى به شهيدًا ، وهو أصدق الشاهدين ، وأعدلهم ، وأصدق القائلين ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق ، وأن الجميع عبيده وخلقه ، وفقراء إليه ، وهو الغني عما سواه . ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته فقال : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام ﴿ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ منصوب على الحال ، وهو في جميع الأحوال كذلك ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ تأكيد لما سبق ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ العزيز الذي لا يرام جنابه عظمة وكبرياء ، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره . وعن الزبير بن العوام قال : سمعت النبيَّ ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وأنا على ذلك من الشاهدين يا رب . وعن غالب القطان

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٤٥) بلفظ « ينزل ربنا » ، وأحمد في مسنده (٨١/٤) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (١٤٣٥) .

قال : أتيت الكوفة في تجارة ، فنزلت قريبًا من الأعمش ، فلما كانت ليلة أردت أن أنحدر ، قام فتهجد من الليل ، فمر بهذه الآية ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ ثم قال الأعمش : وأنا أشهد بما شهد اللّه به ، وأستودع اللّه هذه الشهادة ، وهي لي عند اللّه وديعة ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ قالها مرارًا ، قلت : لقد سمع فيها شيئًا ، فغدوت إليها فودعته ثم قلت : يا أبا محمّد ، إني سمعتك تردد هذه الآية ، قال : أوما بلغك ما فيها ؟ قلت : أنا عندك منذ شهر لم تحدثني ، قال : واللّه لا أحدّثك بها إلى سنة ، فأقمت سنة فكنت على بابه ، فلما مضت السنة قلت : يا أبا محمّد قد مضت السنة ، قال : حدثني أبو وائل عن عبد اللّه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « يُجَاءُ بِصَاحِبِها يَوْمَ القِيامَةِ ، فَيَقُولُ اللّه ﷻ : عَبْدِي عَهِدَ إِليَّ ، وَأَنَا أَحَقُّ مَنْ وَفى بِالعَهْدِ ، أَدْخِلُوا عَبْدِي الجَنَّةَ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام ، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم اللّه به في كل حين ، حتى ختموا بمحمّد ﷺ ، الذي سد جميع الطرق إليه إلّا من جهة محمّد ﷺ فمن لقي اللّه بعد بعثة محمّد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبّل ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ الآية . وقال في هذه الآية مخبرًا بانحصار الدين المتقبل منه عنده في الإسلام : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ وذكر أن ابن عبّاس قرأ ﴿ شهد اللّه إنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم * أن الدين عند اللّه الإسلام ﴾ بكسر إنه وفتح أن الدين عند اللّه الإسلام ، أي شهد هو والملائكة وأولوا العلم من البشر ، بأن الدين عند اللّه الإسلام ، والجمهور قرأوها بالكسر على الخبر ، وكلا المعنيين صحيح ، ولكن هذا على قول الجمهور أظهر واللّه أعلم . ثم أخبر تعالى بأن الذين أوتوا الكتاب الأول إنما اختلفوا بعدما قامت عليهم الحجة ، بإرسال الرسل إليهم ، وإنزال الكتب عليهم ، فقال : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ أي بغي بعضهم على بعض ، فاختلفوا في الحق بتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم ، فحمل بعضهم بغض البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله وإن كانت حقًا . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي من جحد ما أنزل اللّه في كتابه ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي فإن اللّه سيجازيه على ذلك ، ويحاسبه على تكذيبه ، ويعاقبه على مخالفته كتابه .

ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ ﴾ أي جادلوك في التوحيد ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ أي فقل : أخلصت عبادتي للّه وحده لا شريك له ، ولا ند له ، ولا ولد له ، ولا صاحبة له ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ أي على ديني ، يقول كمقالتي ، قال تعالى آمرًا لعبده ورسوله محمّد ﷺ أن يدعو إلى طريقته ودينه ، والدخول في شرعه وما بعثه اللّه به ، الكتابيين من الملتين والأميين من المشركين فقال تعالى : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾ أي واللّه عليه حسابهم ، وإليه مرجعهم ومآبهم ، وهو الذي يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية ، ممن يستحق الضلالة ، وهو

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٣٣٠/١) والسيوطي في الدر المنثور (١٢/٢) وابن عدي في الكامل (١٦٩٤/٥) .

الذي ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ وما ذلك إلّا لحكمته ورحمته . وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات اللّه وسلامه عليه إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دل عليه الكتاب والسنّة في غير ما آية وحديث ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ . وفي الصحيحين وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى اللّه ملوك الآفاق وطوائف بني آدم من عربهم وعجمهم كتابيهم وأميهم امتثالاً لأمر اللّه له بذلك . فعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ ، يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ، وَمَاتَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ ؛ إِلَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ » (١) . وقال ﷺ : « بُعِثْتُ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ » (٢) . وقال : « كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً » (٣) .

وعن أنس ﷺ : أن غلامًا يهوديًا كان يضع للنبي ﷺ وضوءه ، ويناوله نعليه ، فمرض ، فأتاه النبيّ فدخل عليه وأبوه قاعدًا عند رأسه ، فقال له النبيّ ﷺ : « يَا فُلاَنُ ، قُلْ : لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّه » فنظر إلى أبيه فسكت أبوه ، فأعاد عليه النبيّ ﷺ فنظر إلى أبيه فقال أبوه : أطع أبا القاسم ، فقال الغلام : أشهد أن لا إله إلّا اللّه وأنك رسول اللّه ، فخرج النبيّ ﷺ وهو يقول : « الحَمْدُ للّه الَّذِي أَخْرَجَهُ بِي مِنَ النَّارِ » (٤) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ .

هذا ذم من اللّه تعالى لأهل الكتاب بما ارتكبوه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات اللّه قديمًا وحديثًا ، التي بلّغتهم إياها الرسل ، استكبارًا عليهم ، وعنادًا لهم ، وتعاظمًا على الحق ، واستنكافًا عن اتباعه ، ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلّغوهم عن اللّه شرعه ، بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم ، إلّا لكونهم دعوهم إلى الحق ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ وهذا هو غاية الكبر كما قال النبيّ ﷺ : « الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ » (٥) . وعن عبد اللّه بن مسعود ﷺ قال : قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبي من أول النهار ، وأقاموا سوق بقلهم من آخره . ولهذا لما أن تكبروا عن الحق ، واستكبروا على الخلق ، قابلهم اللّه على ذلك بالذلة والصغار في الدنيا ، والعذاب المهين في الآخرة فقال تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي موجع مهين ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم اللذين بأيديهم ، وهما التوراة والإنجيل ، وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة اللّه فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمّد ﷺ تولوا وهم معرضون عنهما وهذا في غاية ما يكون من ذمهم ، والتنويه به بذكرهم بالمخالفة والعناد . ثم قال تعالى :

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٤٠) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٥/٥) .
(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٤٣٣/٢) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٥/٣) .
(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧) والترمذي في السنن (١٩٩٩) .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ أي إنما حملهم وجرأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام عن كل ألف سنة في الدنيا يومًا ، ثم قال تعالى : ﴿ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ أي ثبتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلَّا أيامًا معدودات ، وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم واختلقوه ، ولم ينزل الله به سلطانًا . قال الله تعالى متهددًا لهم ومتوعدًا ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله ، وكذَّبوا رسله ، وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، والله تعالى سائلهم عن ذلك كله ، وحاكم عليهم ، ومجازيهم به . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي لا شك في وقوعه وكونه ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : ﴿ قُلِ ﴾ يا محمّد معظمًا لربك ، وشاكرًا له ، ومفوضًا إليه ، ومتوكلًا عليه ﴿ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ أي لك الملك كله ﴿ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ أي أنت المعطي ، وأنت المانع ، وأنت الذي ما شئت كان ، وما لم تشأ لم يكن . وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة ؛ لأن الله تعالى حوَّل النبوَّة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي الأمي المكي خاتم الأنبياء على الإطلاق ، ورسول الله إلى جميع الثقلين الإنس والجن ، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله ، وخصه بخصائص لم يعطها نبيًّا من الأنبياء ، ولا رسولًا من الرسل ، في العلم بالله وشريعته ، واطلاعه على الغيوب الماضية والآتية ، وكشفه له عن حقائق الآخرة ، ونشر أمته في الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها ، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع ، فصلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين ، ما تعاقب الليل والنهار . ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ الآية . أي أنت المتصرِّف في خلقك ، الفعَّال لما تريد ، كما ردَّ تعالى على من يحكم عليه في أمره حيث قال : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ قال الله ردًّا عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ الآية . أي نحن نتصرف فيما خلقنا كما نريد بلا ممانع ولا مدافع ، ولنا الحكمة البالغة والحجة التامة في ذلك ، وهكذا يعطي النبوة لمن يريد كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ وعن المأمون الخليفة أنه رأى في قصر ببلاد الروم مكتوبًا بالحميرية ، فعرب له ، فإذا هو : باسم الله ما اختلف الليل والنهار ، ولا دارت نجوم السماء في الفلك ، إلَّا بنقل الغيم عن ملك قد زال سلطانه إلى ملك ، وملك ذي العرش دائم أبدًا ليس بفان ولا بمشترك .

وقوله تعالى : ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ أي تأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا فيعتدلان ، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان ثم يعتدلان . وهكذا في فصول السنة ربيعًا وصيفًا وخريفًا وشتاء . وقوله تعالى : ﴿ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ أي تخرج الزرع من الحب ، والحب من الزرع ، والنخلة من النواة ، والنواة من النخلة ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من

المؤمن ، والدجاجة من البيضة ، والبيضة من الدجاجة ، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي تعطي من شئت من المال ما لا يعده ولا يقدر على إحصائه وتقتر على آخرين ، لما لك في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة . عن ابن عبّاس ﵄ عن النبيّ ﷺ قال : « اسمُ اللَّه الأعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ في هَذِهِ الآيَةِ مِنْ آلِ عِمْرَانَ ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ »(١) .

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

نهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين ، وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين ، ثم توعد على ذلك فقال تعالى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ أي ومن يرتكب نهي اللَّه في هذا فقد برئ من اللَّه . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ أي إلَّا من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم ، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته . قال ابن عباس : ليس التقية بالعمل ، إنما التقية باللسان . وكذا قال أبو العالية وأبو الشعثاء . ويؤيد ما قالوه قول اللَّه تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ الآية . قال الحسن : التقية إلى يوم القيامة . ثم قال تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ أي يحذركم نقمته في مخالفته وسطوته وعذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي إليه المرجع والمنقلب ، ليجازي كل عامل بعمله . عن ميمون بن مهران قال : قام فينا معاذ فقال : يا بني أود إني رسولُ رسولِ اللَّه إليكم ، تعلمون أن المعاد إلى اللَّه ، إلى الجنة أو إلى النار .

﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ .

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر ، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية ، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والأزمان والأيام واللحظات وجميع الأوقات ، وجميع ما في الأرض والسموات ، لا يغيب عنه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك ، في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي وقدرته نافذة في جميع ذلك . وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته ، لئلا يرتكبوا ما نهى عنه وما يبغضه منهم ، فإنه عالم بجميع أمورهم ، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة ، وإن أَنظر من أنظر منهم ، فإنه يمهل ، ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر . ولهذا قال بعد هذا : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ الآية يعني يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر فما رأى من أعماله حسنًا سرَّه ذلك وأفرحه ، وما رأى من قبيح ساءه وغصه ، ووَدَّ لو أنه تبرأ منه وأن يكون بينهما أمد بعيد ، كما يقول لشيطانه الذي كان مقرونًا به في الدنيا ، وهو الذي جرأه على فعل السوء ﴿ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ ثم قال تعالى مؤكدًا ومهددًا ومتوعدًا :

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٤٧٨) وأبو داود في السنن (١٤٩٦) وابن ماجه في السنن (٣٨٥٥) .

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ أي يخوفكم عقابه . ثم قال ﷻ مرجيًا لعباده لئلا ييئسوا من رحمته ، ويقنطوا من لطفه : ﴿ وَاللَّهُ رَءُوفٌۢ بِالْعِبَادِ ﴾ قال الحسن البصري : من رأفته بهم حذرهم نفسه . وقال غيره : أي رحيم بخلقه ، يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القويم ، وأن يتبعوا رسوله الكريم .

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ .

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة اللّه وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر ، حتى يتبع الشرع المحمدي ، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله . كما ثبت في الصحيح عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنا فَهُوَ رَدٌّ » (١) ولهذا قال : ﴿ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم ، وهو أعظم من الأول ، كما قال بعض العلماء الحكماء : ليس الشأن أن تُحِب ؛ إنما الشأن أن تُحَبَّ . وقال الحسن البصري وغيره من السلف : زعم قوم أنهم يحبون اللّه فابتلاهم اللّه بهذه الآية فقال : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي باتباعكم الرسول ﷺ يحصل لكم هذا من بركة سفارته . ثم قال تعالى آمرًا لكل أحد من خاص وعام ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أي تخالفوا عن أمره ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر ، واللّه لا يحب من اتصف بذلك ، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب للّه ويتقرب إليه ، حتى يتابع الرسول النبي الأمِّي خاتم الرسل ، ورسول اللّه إلى جميع الثقلين الجن والإنس ، الذي لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولو العزم منهم في زمانه ما وسعهم إلَّا اتباعه ، والدخول في طاعته ، واتباع شريعته .

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض ، فاصطفى آدم عليه السلام خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلَّمه أسماء كل شيء ، وأسكنه الجنَّة ثم أهبطه منها لما له في ذلك من الحكمة . واصطفى نوحًا عليه السلام وجعله أول رسول بعثه إلى أهل الأرض لما عبد الناس الأوثان ، وأشركوا باللّه ما لم ينزل به سلطانًا . وانتقم له لما طالت مدته بين ظهراني قومه يدعوهم إلى اللّه ليلًا ونهارًا ، سرًّا وجهارًا ، فلم يزدهم ذلك إلَّا فرارًا ، فدعا عليهم فأغرقهم اللّه عن آخرهم ، لم ينج منهم إلَّا من اتبعه على دينه الذي بعثه اللّه به . واصطفى آل إبراهيم ، ومنهم سيد البشر خاتم الأنبياء على الإطلاق محمّد ﷺ ، وآل عمران ، والمراد بعمران هذا هو والد مريم بنت عمران أم عيسى ابن مريم عليه السلام . وهو عمران بن ياشم بن ميشا بن حزقيا بن إبراهيم بن غرايا بن ناوش بن أجر بن بهوا بن نازم ابن مقاسط بن إيشا بن إياذ بن رخيعم بن سليمان بن داود عليهما السلام ، فعيسى عليه السلام من ذرية إبراهيم .

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .

---

(١) أخرجه مسلم في الأقضية (١٨) وأحمد في مسنده (٦/١٨٠) والدارقطني في السنن (٤/٢٢٧) .

امرأة عمران هي أم مريم عليها السلام ، وهي حنة بنت فاقوذ : قال محمّد بن إسحاق : وكانت امرأة لا تحمل ، فرأت يومًا طائرًا يزق فرخه فاشتهت الولد ، فدعت الله تعالى أن يهبها ولدًا فاستجاب الله دعاءها ، فواقعها زوجها فحملت منه ، فلما تحققت الحمل نذرت أن يكون محررًا أي خالصًا مفرغًا للعبادة لخدمة بيت المقدس ، فقالت : يا رب ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي السميع لدعائي ، العليم بنيتي ، ولم تكن تعلم ما في بطنها أذكرًا أم أنثى ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ قرئ برفع التاء على أنها تاء المتكلم ، وأن ذلك من تمام قولها ، وقرئ بتسكين التاء (١) على أنه من قول الله ﷻ : ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ أي في القوة والجلد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ فيه دليل على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق ؛ لأنه شرع من قبلنا ، وقد حكي مقررًا ، وبذلك ثبتت السنّة عن رسول الله ﷺ حيث قال : « وُلِدَ لي اللَّيْلَةَ وَلَدٌ سَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ » (٢) . وكذلك ثبت فيهما أن أنس بن مالك ذهب بأخيه حين ولدته أمه إلى رسول الله ﷺ فحنكه وسماه عبد الله . ويروى : أن رجلًا قال : يا رسول الله ولد لي الليلة ولد فما أسميه ؟ قال : « سَمِّ ابْنَكَ عَبْدَ الرَّحْمنِ » (٣) . وثبت في الصحيح أنه لما جاءه أبو أسيد بابنه ليحنكه فذهل عنه ، فأمر به أبوه فرد إلى منزلهم ، فلما ذكر رسول الله ﷺ في المجلس سماه المنذر . وعن سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال : « كُلُّ غُلامٍ مُرْتَهَنٌ بِعَقِيقَتِهِ يُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ السَّابعِ وَيُسَمَّى وَيُحْلَقُ رَأْسُهُ » (٤) ، وروى ويدمى وهو أثبت وأحفظ والله أعلم .

وقوله إخبارًا عن أم مريم أنها قالت : ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ أي عوذتها بالله ﷻ من شر الشيطان ، وعوذت ذريتها وهو ولدها عيسى عليه السلام ، فاستجاب الله لها ذلك . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا مَسَّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّهِ إِيَّاهُ ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَها » ثم يقول أبو هريرة اقرأوا إن شئتم ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ » (٥)

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة ، وأنه أنبتها نباتًا حسنًا ، أي جعلها شكلًا مليحًا ، ومنظرًا بهيجًا ، ويسر لها أسباب القبول ، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين ، فلهذا قال : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ بتشديد الفاء ونصب زكريا على المفعولية ، أي جعله كافلًا لها . قال ابن إسحاق : وما ذلك إلا أنها كانت يتيمة . وذكر غيره أن بني إسرائيل أصابتهم سنة جدب ، فكفل زكريا مريم لذلك ، ولا منافاة بين القولين والله أعلم . وإنما قدّر الله كون زكريا كفلها لسعادتها ، لتقتبس منه علمًا جمًّا نافعًا وعملًا صالحًا ، ولأنه كان زوج خالتها على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير وغيرهما . وقيل زوج أختها كما ورد في الصحيح : « فَإِذَا بِيَحْيَى وَعِيسَى وَهُمَا ابْنَا الخَالَةِ » (٦) وقد يطلق على ما ذكره ابن إسحاق ذلك أيضًا توسعًا ، فعلى هذا كانت في

(١) قرأ ابن عامر ويعقوب وأبو بكر ﴿ وضعتُ ﴾ بإسكان العين وضم التاء ، والباقون بفتح العين وإسكان التاء (انظر : تقريب النشر ص : ١٠٠) .
(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٩٨) ومسلم في الفضائل (٦٢) وأبو داود في السنن (٣١٢٦) وأحمد في مسنده (١٩٤/٣) .
(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٣٠٨/٩) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٧/٥) وابن ماجه في السنن (٣١٦٥) والطبراني في الكبير (٢٤٣/٧) .
(٥) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٤٨) ومسلم في الفضائل (١٤٦) وأحمد في مسنده (٢٣٣/٢) .
(٦) أخرجه مسلم في الفضائل (١٤٦) وأحمد في مسنده (٢٣٣/٢) .

حضانة خالتها . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قضى في عمارة بنت حمزة أن تكون في حضانة خالتها امرأة جعفر بن أبي طالب وقال : « الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ » (١) ثم أخبر تعالى عن سيادتها وجلادتها في محل عبادتها فقال : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف ، وعن مجاهد ﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ أي علمًا ، أو قال : صحفًا فيها علم . والأول أصح ، وفيه دلالة على كرامات الأولياء . وفي السنة لهذا نظائر كثيرة . فإذا رأى زكريا هذا عندها ﴿ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ أي يقول : من أين لك هذا ؟ ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

عن جابر أن رسول الله ﷺ أقام أيامًا لم يطعم طعامًا حتى شقَّ ذلك عليه ، فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئًا ، فأتى فاطمة فقال : « يَا بُنَيَّةُ هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ آكُلُهُ فَإِنِّي جَائِعٌ ؟ » قالت : لا والله بأبي أنت وأمي ، فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم ، فأخذته منها فوضعته في جفنة لها ، وقالت : والله لأوثرن بهذا رسول الله ﷺ على نفسي ومن عندي ، وكانوا جميعًا محتاجين إلى شبعة طعام ، فبعثت حسنًا أو حسينًا إلى رسول الله ﷺ فرجع إليها فقالت : بأبي أنت وأمي قد أتى الله بشيء فخبأته لك قال : « هَلُمِّي يا بُنَيَّةُ » قالت : فأتيته بالجفنة فكشفت عنها فإذا هي مملوءة خبزًا ولحمًا ، فلما نظرت إليها بهت ، وعرفت أنها بركة من الله ، فحمدت الله وصليت على نبيه ، وقدمته إلى رسول الله ﷺ ، فلما رآه حمد الله وقال : « مِنْ أَيْنَ لَكِ هَذَا يَا بُنَيَّةُ » ؟ قالت : يا أبت ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فحمد الله وقال : « الحَمْدُ لله الَّذِي جَعَلَكِ يَا بُنَيَّةُ شَبِيهَةً بِسَيِّدَةِ نِسَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَإِنَّها كَانَتْ إِذَا رَزَقَهَا اللهُ شَيْئًا وَسُئِلَتْ عَنْهُ قَالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » فبعث رسول الله ﷺ إلى علي ، ثم أكل رسول الله ﷺ وأكل علي وفاطمة وحسن وحسين ، وجميع أزواج النبيّ ﷺ وأهل بيته حتى شبعوا جميعًا قالت : وبقيت الجفنة كما هي ، قالت : فأوسعت ببقيتها على جميع الجيران وجعل الله فيها بركة وخيرًا كثيرًا (٢) .

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ .

لما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق مريم عليها السلام فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ، طمع حينئذٍ في الولد وإن كان شيخًا كبيرًا قد وهن منه العظم ، واشتعل الرأس شيبًا ، وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقرًا ، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداءً خفيًا وقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ﴾ أي من عندك ﴿ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ أي ولدًا صالحًا ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ قال تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ ﴾ أي خاطبته الملائكة شفاهًا خطابًا أسمعته وهو قائم يصلي في محراب عبادته ، ومحل خلوته ، ومجلس مناجاته وصلاته . ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة : ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ أي بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى . قال قتادة وغيره : إنما سمي يحيى لأن الله أحياه بالإيمان .

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢٢٨٠) والترمذي في السنن (١٩٠٤) والبيهقي في السنن (٦/٨) .
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٠/٢) .

وقوله : ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي بعيسى ابن مريم . وقال الربيع بن أنس : هو أول من صدق بعيسى ابن مريم . وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ قال : كان يحيى وعيسى ابني خالة ، وكانت أم يحيى تقول لمريم : إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك ، فذلك تصديقه له في بطن أمه ، وهو أول من صدّق عيسى وكلمة الله عيسى ، وهو أكبر من عيسى عليه السلام .

وقوله : ﴿ وَسَيِّدًا ﴾ قال قتادة : سيدًا في العلم والعبادة . وقال الضحاك : الحليم التقي . وقال سعيد بن المسيب : الفقيه العالم . وقال عكرمة : هو الذي لا يغلبه الغضب . وقال ابن زيد : الشريف . وقال مجاهد : هو الكريم على الله عز وجل .

وقوله : ﴿ وَحَصُورًا ﴾ قالوا : الذي لا يأتي النساء . وعن الربيع بن أنس قال : هو الذي لا يولد له ولا ماء له . وعن ابن عبّاس في الحصور : الذي لا ينزل الماء . وعن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال : « كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَلْقَى اللَّه بِذَنْبٍ يُعَذِّبُهُ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ أَوْ يَرْحَمُهُ ، إِلَّا يَحْيَى بْنَ زَكَرِيا فَإِنَّهُ كَانَ سَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ » ثم أهوى النبيّ ﷺ إلى قذاة من الأرض فأخذها وقال : « وكان ذكره مثل هذه القذاة ؟ » (1) .

وقد قال القاضي عياض في كتابه الشفاء : اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان ﴿ حَصُورًا ﴾ ليس كما قاله بعضهم إنه كان هيوبًا أو لا ذكر له ، بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ، ونقّاد العلماء ، وقالوا : هذه نقيصة وعيب ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام ، إنما معناه أنه معصوم من الذنوب ، أي لا يأتيها كأنه حصور عنها ، وقيل : مانعًا نفسه من الشهوات ، وقيل : ليست له شهوة في النساء ، وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى ، أو بكفاية من الله عز وجل كيحيى عليه السلام ، ثم هي في حق من قدر عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه درجة عليا ، وهي درجة نبينا ﷺ الذي لم يشغله كثرتهن عن عبادة ربه ، بل زاده ذلك عبادة بتحصينهن ، وقيامه عليهن ، وإكسابه لهن ، وهدايته إياهن ، بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو وإن كانت من حظوظ دنيا غيره فقال : « حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ » (2) هذا لفظه . والمقصود أنه مدح ليحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتي النساء ، بل معناه كما قاله هو وغيره : أنه معصوم من الفواحش والقاذورات ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال ، وغشيانهن وإيلادهن ، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال : ﴿ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ كأنه قال ولدًا له ذرية ونسل وعقب .

قوله : ﴿ وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته ، وهي أعلى من الأولى .

فلما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ ﴾ أي الملك ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ أي هكذا أمر الله عظيم ، لا يعجزه شيء ، ولا يتعاظمه أمر ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ﴾ أي علامة استدل بها على وجود الولد مني ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ أي إشارة لا تستطيع النطق مع أنك سوي صحيح ، ثم أمره بكثرة الذكر والتكبير والتسبيح في هذه الحال فقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ .

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٤٤/٤) .

(2) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٨/٣) والحاكم في المستدرك (١٦٠/٢) والبيهقي في السنن (٧٨/٧) .

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ .

هذا إخبار من اللَّه تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام عن أمر اللَّه لهم بذلك ، أن اللَّه قد اصطفاها أي اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهارتها من الأكدار والوساوس ، واصطفاها ثانيًا مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين . عن سعيد بن المسيب في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال : كان أبو هريرة يحدِّث عن رسول اللَّه ﷺ : « خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الإِبِلَ نِسَاءُ قُرَيْشٍ ، أَحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صِغَرِهِ ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ ، وَلَمْ تَرْكَبْ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ بَعِيرًا قَطُّ » (١) . وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ » (٢) . وعن معاوية بن قرة عن أبيه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا ثَلَاثٌ ، مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ، وَخَدِيجَةُ ابْنَةُ خُوَيْلِدَ ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ » (٣) .

ثم أخبر تعالى عن الملائكة أنهم أمروها بكثرة العبادة والخشوع والركوع والسجود والدأب في العمل لما يريد اللَّه بها من الأمر الذي قدره اللَّه وقضاه ، مما فيه محنة لها ، ورفعة في الدارين ، بما أظهر اللَّه فيها من قدرته العظيمة ، حيث خلق منها ولدًا من غير أب فقال تعالى : ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ أما القنوت فهو الطاعة في خشوع . عن أبي سعيد عن رسول اللَّه ﷺ قال : « كُلُّ حَرْفٍ فِي الْقُرْآنِ يُذْكَرُ فِيهِ الْقُنُوتُ فَهُوَ الطَّاعَةُ » (٤) . وقال مجاهد : كانت مريم عليها السلام تقوم حتى تتورم كعباها . والقنوت هو طول الركوع في الصلاة ، يعني امتثالًا لقول اللَّه تعالى : ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ ﴾ قال الحسن : يعني اعبدي لربك ﴿ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ أي كوني منهم .

ثم قال لرسوله بعدما أطلعه على جلية الأمر : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ أي نقصه عليك ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أي ما كنت عندهم يا محمَّد فتخبرهم عن معاينة عما جرى ، بل أطلعك اللَّه على ذلك كأنك حاضر وشاهد لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيهم يكفلها ، وذلك لرغبتهم في الأجر . عن عكرمة قال : ثم خرجت بها يعني مريم في خرقها إلى بني الكاهن بن هارون أخي موسى عليه السلام ، قال : وهم يومئذ يلون من بيت المقدس ما يلي الحجبة من الكعبة ، فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة فإني حررتها وهي أنثى ، ولا يدخل الكنيسة حائض ، وأنا لا أردها إلى بيتي فقالوا : هذه ابنة إمامنا - وكان عمران يؤمهم في الصلاة - وصاحب قرباننا ، فقال زكريا : ادفعوها لي فإن خالتها تحتي فقالوا : لا تطيب أنفسنا هي ابنة إمامنا ، فذلك حين اقترعوا عليها بأقلامهم التي يكتبون بها التوراة ، فقرعهم زكريا فكفلها .

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٨٢) وأحمد في مسنده (٣١٩/٢) والبيهقي في السنن (٢٩٣/٧) .
(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٣٢) ومسلم في فضائل الصحابة (٦٩) .
(٣) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٧٦٩) ومسلم في فضائل الصحابة (٧٠) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٣) .

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

هذه بشارة من الملائكة لمريم عليها السلام بأنه سيوجد منها ولد عظيم ، له شأن كبير قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي بولد يكون وجوده بكلمة من الله ، أي يقول له : كن فيكون . ﴿ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ أي يكون هذا مشهورًا في الدنيا يعرفه المؤمنون بذلك ، وسمي المسيح لكثرة سياحته . وقيل : لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما . وقيل : لأنه كان إذا مسح أحدًا من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ نسبة إلى أمه حيث لا أب له ﴿ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا ، بما يوحيه الله إليه من الشريعة ، وينزله عليه من الكتاب وغير ذلك مما منحه الله به . وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه ، فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولي العزم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

وقوله : ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أي يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حال صغره ، معجزة وآية ، وفي حال كهولته حين يوحي الله إليه ﴿ وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي في قوله وعمله له علم صحيح ، وعمل صالح . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا تَكَلَّمَ أَحَدٌ فِي صِغَرِهِ إِلَّا عِيسَى وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ » (١) .

فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك عن الله ﷻ ، قالت في مناجاتها : ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ تقول : كيف يوجد هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج ، ولا من عزمي أن أتزوج ، ولست بغيًا حاشا لله ؟ فقال لها الملك عن الله ﷻ في جواب ذلك السؤال : ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء وصرح ههنا بقوله : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ ولم يقل يفعل كما في قصة زكريا ، بل نص ههنا على أنه يخلق لئلا يبقى لمبطل شبهة ، وأكد ذلك بقوله : ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي فلا يتأخر شيئًا ، يوجد عقيب الأمر بلا مهلة .

﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى عليه السلام : إن الله يعلمه الكتاب والحكمة ، الظاهر أن المراد بالكتاب ههنا الكتابة ، والحكمة تقدم تفسيرها في سورة البقرة ﴿ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ فالتوراة هو الكتاب الذي أنزل على موسى بن عمران ، والإنجيل الذي أنزل على عيسى ابن مريم عليه السلام . وقد كان عيسى عليه السلام يحفظ هذا وهذا . قوله : ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ قائلًا لهم : ﴿ أَنِّى

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٨) والبخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٣٦) وأحمد في مسنده (٢/٣٠٨) .

﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وكذلك كان يفعل ، يصور من الطين شكل طير ، ثم ينفخ فيه فيطير عيانًا بإذن الله ﷻ ، الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله ﴿ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ ﴾ قيل : إنه الذي يبصر نهارًا ولا يبصر ليلًا ، وقيل : بالعكس ، وقيل : الأعشى ، وقيل : الأعمش . وقيل : هو الذي يولد أعمى ، وهو أشبه لأنه أبلغ في المعجزة ، وأقوى في التحدي ﴿ وَالْأَبْرَصَ ﴾ معروف ﴿ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ قال كثير من العلماء : بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة ، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيَّرت كل سحَّار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبَّار انقادوا للإسلام ، وصاروا من عباد الله الأبرار . وأما عيسى عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة ، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلَّا أن يكون مؤيدًا من الذي شرع الشريعة ، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ، أو على مداواة الأكمه والأبرص ، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد . وكذلك محمَّد ﷺ بعث في زمان الفصحاء والبلغاء وتجاريد الشعراء ، فأتاهم بكتاب من الله ﷻ فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبدًا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا ، وما ذاك إلَّا أن كلام الرب ﷻ لا يشبه كلام الخلق أبدًا . وقوله : ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ أي أخبركم بما أكل أحدكم الآن ، وما هو مدخر له في بيته لغد ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي في ذلك كله ﴿ لَآيَةً لَّكُمْ ﴾ أي على صدقي فيما جئتكم به ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ أي مقررًا لها ومثبتًا ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح من القولين ، ومن العلماء من قال : لم ينسخ منها شيئًا ، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأ ، وانكشف لهم عن الغطاء في ذلك . ثم قال : ﴿ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي بحجة ودلالة على صدقي فيما أقوله لكم ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ أي أنا وأنتم سواء في العبودية له والخضوع والاستكانة إليه ﴿ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ۝ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ ﴾ أي استشعر منهم التصميم على الكفر ، والاستمرار على الضلال قال : ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ قال مجاهد : أي من يتبعني إلى الله . وقال سفيان الثوري : أي من أنصاري مع الله . وقول مجاهد أقرب . والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله ، كما كان النبيُّ ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر : « مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِينِي حَتَّى أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي ؛ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي » (١) حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه ، وهاجر إليهم فواسوه ومنعوه من الأسود والأحمر رضي الله عنهم وأرضاهم . وهكذا عيسى ابن مريم عليه السلام انتدب له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به وآزروه ونصروه واتبعوا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣٩٠) والحاكم في المستدرك (٢/٦١٣) .

النور الذي أنزل معه ، ولهذا قال الله تعالى مخبرًا عنهم : ﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ الحواريون قيل : كانوا قصارين ، وقيل : سموا بذلك لبياض ثيابهم ، وقيل : صيادين . والصحيح أن الحواري الناصر ، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب فانتدب الزبير ، ثم ندبهم فانتدب الزبير ﷺ ، فقال النبيّ ﷺ : « لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ » (١) وعن ابن عبّاس ﷺ في قوله تعالى : ﴿ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ قال : مع أمة محمّد ﷺ . ثم قال تعالى مخبرًا عن ملأ بني إسرائيل فيما هموا به من الفتك بعيسى ﷺ ، وإرادته بالسوء والصلب حين تمالأوا عليه ، ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان - وكان كافرًا - أن هنا رجلًا يضل الناس ، ويصدهم عن طاعة الملك ، ويفسد الرعايا ، ويفرق بين الأب وابنه إلى غير ذلك ، مما تقلدوه في رقابهم ، ورموه به من الكذب ، وأنه ولد زنية ، حتى استثاروا غضب الملك فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه وينكل به ، فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به ، نجّاه الله تعالى من بينهم ، ورفعه من روزنة ذلك البيت إلى السماء ، وألقى الله شبهه على رجل ممن كان عنده في المنزل ، فلما دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة الليل عيسى ، فأخذوه وأهانوه وصلبوه ووضعوا على رأسه الشوك ، وكان هذا من مكر الله بهم ، فإنه نجّى نبيّه ورفعه من بين أظهرهم وتركهم في ضلالهم يعمهون ، يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبتهم ، وأسكن الله في قلوبهم قسوة وعنادًا للحق ملازمًا لهم ، وأورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ .

اختلف المفسرون في قوله تعالى : ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ فقال قتادة وغيره : هذا من المقدم والمؤخر ، تقديره إني رافعك إليَّ ومتوفيك ، يعني بعد ذلك . عن ابن عبّاس : إني متوفيك أي مميتك . قال ابن إسحاق : والنصارى يزعمون أن الله توفاه سبع ساعات ثم أحياه . وقال وهب : أماته الله ثلاثة أيام ثم بعثه ثم رفعه . وقال مطر الوراق : إني متوفيك من الدنيا ، وليس بوفاة موت . وقال الأكثرون : المراد بالوفاة ههنا النوم كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾ الآية . وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم : « الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا » (٢) . وعن الحسن قال في قوله تعالى : ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ﴾ : يعني وفاة المنام ، رفعه الله في منامه . وقوله تعالى : ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي برفعي إياك إلى السماء ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ وهكذا وقع ؛ فإن المسيح ﷺ لما رفعه الله إلى السماء ، تفرقت أصحابه شيعًا بعده ، فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته ، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله ، وآخرون قالوا : هو الله ، وآخرون قالوا : هو ثالث ثلاثة . وقد حكى الله مقالتهم في القرآن وردّ على كل فريق ، فاستمروا على ذلك قريبًا من ثلاثمائة سنة . ثم نبغ لهم ملك من

(١) أخرجه البخاري في أخبار الآحاد (٧٢٦١) ومسلم في فضائل الصحابة (٤٨) .
(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٢٥) وأحمد في مسنده (٣٨٧/٥) .

ملوك اليونان يقال له : قسطنطين فدخل في دين النصرانية - قيل : حيلة ؛ ليفسده ، فإنه كان فيلسوفًا ، وقيل : جهلًا منه - إلَّا أنه بدَّل لهم دين المسيح وحرَّفه ، وزاد فيه ونقص منه ، ووضعت له القوانين والأمانة الكبرى التي هي الخيانة الحقيرة ، وأحلَّ في زمانه لحم الخنزير ، وصلُّوا له إلى المشرق ، وصوروا له الكنائس والمعابد والصوامع ، وزاد في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه فيما يزعمون ، وصار دين المسيح دين قسطنطين ، إلَّا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثني عشر ألف معبد ، وبنى المدينة المنسوبة إليه ، واتبعه طائفة الملكية منهم ، وهم في هذا كله قاهرون لليهود ، أيَّده اللَّه عليهم ؛ لأنه أقرب إلى الحق منهم ، وإن كان الجميع كفارًا عليهم لعائن اللَّه ، فلما بعث اللَّه محمَّدًا ﷺ فكان من آمن به يؤمن باللَّه وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق ، فكانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض ، إذ قد صدَّقوا الرسول النبي الأمي العربي خاتم الرسل وسيد ولد آدم على الإطلاق ، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق ، فكانوا أولى بكل نبي من أمته الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته ، مما قد حرَّفوا وبدَّلوا ، ثم لو لم يكن شيء من ذلك ، لكان قد نسخ اللَّه شريعة جميع الرسل بما بعث اللَّه به محمَّدًا ﷺ من الدين الحق الذي لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة ، ولا يزال قائمًا منصورًا ظاهرًا على كل دين ، فلهذا فتح اللَّه لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها ، واحتازوا جميع الممالك ، ودانت لهم جميع الدول ، وكسروا كسرى ، وقصروا قيصر وسلبوهما كنوزهما ، وأنفقت في سبيل اللَّه كما أخبرهم بذلك نبيُّهم عن ربِّهم ﷻ في قوله : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ الآية . فلهذا لما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقًّا ، سلبوا النصارى بلاد الشام ، وألجأوهم إلى الروم ، فلجأوا إلى مدينتهم القسطنطينية ، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة . وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية ، ويستفيؤون ما فيها من الأموال ، ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جدًّا لم ير الناس مثلها ، ولا يرون بعدها نظيرها . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ وكذلك فعل بمن كفر بالمسيح من اليهود أو غلا فيه أو أطراه من النصارى ، عذَّبهم في الدنيا بالقتل والسبي وأخذ الأموال وإزالة الأيدي عن الممالك ، وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، في الدنيا بالنصر والظفر ، وفي الآخرة بالجنات العاليات ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أي هذا الذي قصصنا عليك يا محمَّد في أمر عيسى ومبدأ ميلاده وكيفية أمره ، هو مما قاله تعالى ، وأوحاه إليك ، ونزَّله عليك من اللوح المحفوظ ، فلا مرية فيه ولا شك .

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ

لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

يقول جلّ وعلا : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ في قدرة اللّه ، حيث خلقه من غير أب ﴿ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ حيث خلقه من غير أب ولا أم بل ﴿ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ فالذي خلق آدم من غير أب ، قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأحرى ، وإن جاز ادعاء البنوة في عيسى لكونه مخلوقًا من غير أب ، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى . ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل ، فدعواهم في عيسى أشد بطلانًا وأظهر فسادًا ، ولكن الرب ﷻ أراد أن يظهر قدرته لخلقه بقية البرية من ذكر وأنثى ، ولهذا بطلانًا وأظهر فسادًا ، لكن الرب ﷻ أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى ، ولهذا قال تعالى في سورة مريم : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ وقال ههنا : ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ أي هذا هو القول الحق في عيسى الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه ، وماذا بعد الحق إلّا الضلال ، ثم قال تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ﴾ أي نحضرهم في حال المباهلة ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾ أي نلتعن ﴿ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أي منا ومنكم .

وكان سبب نزول هذه المباهلة في وفد نجران : أن النصارى لما قدموا فجعلوا يحاجّون في عيسى ، ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوّة والإلهية ، فأنزل اللّه صدر هذه السورة ردًّا عليهم . كما ذكر ابن إسحاق في سيرته المشهورة وغيره . وقدم على رسول اللّه ﷺ وفد نصارى نجران ، ستون راكبًا فيهم أربعة عشر رجلًا من أشرافهم يؤول أمرهم إليهم وهم : العاقب واسمه عبد المسيح ، والسيد وهو الأيهم ، وأبو حارثة ابن علقمة أخو بكر بن وائل ، وأويس بن الحارث ، وزيد ، وقيس ، ويزيد ، وابناه وخويلد ، وعمرو ، وخالد ، وعبد اللّه ، ومحسن ، وأمر هؤلاء يؤول إلى ثلاثة منهم وهم العاقب وكان أمير القوم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم ، والذي لا يصدرون إلّا عن رأيه . والسيد وكان عالمهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم . وأبو حارثة بن علقمة وكان أسقفهم وصاحب مدارستهم ، وكان رجلًا من العرب من بني بكر بن وائل ولكنه تنصر فعظمته الروم وملوكها وشرفوه ، وبنوا له الكنائس وأخدموه لما يعلمونه من صلابته في دينهم ، وقد كان يعرف أمر رسول اللّه ﷺ وصفته وشأنه مما علمه من الكتب المتقدمة . ولكن حمله ذلك على الاستمرار في النصرانية لما يرى من تعظيمه فيها وجاهه عند أهلها . قال ابن إسحاق : وحدَّثني محمّد بن جعفر بن الزبير قال : قدموا على رسول اللّه ﷺ المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر ، عليهم ثياب الحبرات جبب وأردية ، في جمال رجال بني الحارث بن كعب قال : يقول من رآهم من أصحاب النبيّ ﷺ : ما رأينا بعدهم وفدًا مثلهم ، وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول اللّه ﷺ ، فقال رسول اللّه ﷺ : « دَعُوهُمْ » فصلوا إلى المشرق . قال : فكلّم رسول اللّه ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة ، والعاقب عبد المسيح ، والسيد الأيهم وهم من النصرانية على دين الملك ، مع اختلاف أمرهم ، يقولون : هو اللّه ، ويقولون : هو ولد اللّه ، ويقولون : هو ثالث ثلاثة ، تعالى اللّه عن قولهم علوًّا كبيرًا . وكذلك النصرانية فهم يحتجون في قولهم : هو اللّه ؛ بأنه كان يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص والأسقام

ويخبر بالغيوب . ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا ، وذلك كله بأمر اللَّه . وليجعله اللَّه آية للناس . ويحتجون في قولهم بأنه ابن اللَّه يقولون : لم يكن له أب يعلم ، وقد تكلم في المهد بشيء لم يصنعه أحد من بني آدم قبله . ويحتجون على قولهم بأنه ثالث ثلاثة بقول اللَّه تعالى : فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا ، فيقولون : لو كان واحدًا ما قال إلَّا فعلت وأمرت وقضيت وخلقت ، ولكنه هو وعيسى ومريم - تعالى اللَّه وتقدَّس وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا - وفي كل ذلك من قولهم : قد نزل القرآن ، فلما كلمه الحبران ، قال لهما رسول اللَّه ﷺ : « أَسْلِمَا » قالا : قد أسلمنا . قال : « إِنَّكُمَا لَمْ تُسْلِمَا ، فَأَسْلِمَا » قالا : بلى قد أسلمنا قبلك ، قال : « كَذَبْتُما ، يَمْنَعُكُمَا مِنَ الإِسْلَامِ ادِّعَاؤُكُمَا للَّه وَلَدًا ، وَعِبَادَتُكُمَا الصَّلِيبَ ، وَأَكْلُكُمَا الخَنْزِيرَ » قالا : فمن أبوه يا محمَّد ؟ فصمت رسول اللَّه ﷺ عنهما فلم يجبهما ؟ فأنزل اللَّه في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها .

ثم تكلم ابن إسحاق على تفسيرها إلى أن قال : فلما أتى رسول اللَّه ﷺ الخبر من اللَّه ، والفصل من القضاء بينه وبينهم ، وأمر بما أمر به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه ، دعاهم إلى ذلك فقالوا : يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، ثم انصرفوا عنه ، ثم خلوا بالعاقب - وكان ذا رأيهم - فقالوا : يا عبد المسيح ماذا ترى ؟ فقال : واللَّه يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمَّدًا لنبي مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبيًّا قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم أبيتم إلَّا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم ، فأتوا النبيَّ ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم ، قد رأينا أن لا نلاعنك ونتركك على دينك ونرجع على ديننا ، ولكن ابعث معنا رجلًا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا ، فإنكم عندنا رضا . قال محمَّد بن جعفر : فقال رسول اللَّه ﷺ : « ائْتُونِي العَشِيَّةَ أَبْعَثْ مَعَكُمُ القَوِيَّ الأَمِينَ » فكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول : ما أحببت الإمارة قط حبي إياها يومئذٍ رجاء أن أكون صاحبها ، فرحت إلى الظهر مهجرًا ، فلما صلى رسول اللَّه ﷺ الظهر سلم ثم نظر عن يمينه وشماله فجعلت أتطاول له ليراني فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه ، فقال : « اخْرُجْ مَعَهُمْ فَاقْضِ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ » قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة ﷺ .

وعن حذيفة ﷺ قال : جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول اللَّه ﷺ يريدان أن يلاعناه قال : فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل فواللَّه لئن كان نبيًّا فلاعنَّاه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا ، قالا : إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلًا أمينًا ، ولا تبعث معنا إلَّا أمينًا فقال : « لأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ » فاستشرف لها أصحاب رسول اللَّه ﷺ فقال : « قُمْ يا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ » فلما قام قال رسول اللَّه ﷺ : « هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ » (١) . وعن ابن عبَّاس قال : قال أبو جهل قبحه اللَّه : إن رأيت محمَّدًا يصلي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على رقبته قال : فقال : « لَوْ فَعَلَ لأَخَذَتْهُ المَلَائِكَةُ عِيَانًا ، وَلَوْ أَنَّ اليَهُودَ تَمَنَّوُا المَوْتَ لَمَاتُوا وَلَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ ، وَلَو خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَرَجَعُوا لاَ يَجِدُونَ مَالاً وَلاَ أَهْلاً » (٢) .

والغرض أن وفودهم كان في سنة تسع ؛ لأن الزهري قال : كان أهل نجران أول من أدى الجزية

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٨٠) ومسلم في فضائل الصحابة (٥٥) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٥٨) وأحمد في مسنده (٢٤٨/١) .

إلى رسول الله ﷺ ، وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح ، وهي في قوله تعالى : ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ الآية .

ثم قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمّد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ أي عن هذا إلى غيره ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد والله عليم به ، وسيجزيه على ذلك شر الجزاء ، وهو القادر الذي لا يفوته شيء سبحانه وبحمده ، ونعوذ به من حلول نقمته .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ ﴾ والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال ههنا ، ثم وصفها بقوله : ﴿ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي عدل ونصف ، نستوي نحن وأنتم فيها ، ثم فسرها بقوله : ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ لا وثنًا ولا صليبًا ولا صنمًا ولا طاغوتًا ولا نارًا ولا شيئًا ، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له ، وهذه دعوة جميع الرسل . قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ وقال ابن جريج : يعني يطيع بعضنا بعضًا في معصية الله . وقال عكرمة : يسجد بعضنا لبعض ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أي فإن تولوا عن هذا النصف ، وهذه الدعوة ، فاشهدوا أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم . وقد ذكرنا في شرح البخاري عند روايته عن ابن عبّاس عن أبي سفيان في قصته حين دخل على قيصر فسأله عن نسب رسول الله ﷺ وعن صفته ونعته وما يدعو إليه فأخبره بجميع ذلك على الجلية ، مع أن أبا سفيان إذ ذاك كان مشركًا لم يسلم بعد ، وكان ذلك بعد صلح الحديبية وقبل الفتح كما هو مصرح به في الحديث ، ولأنه لما سأله هل يغدر ؟ قال : فقلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها ، قال : ولم يمكني كلمة أزيد فيها شيئًا سوى هذه ، والغرض أنه قال : ثم جيء بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . مِنْ مُحَمّدٍ رَسُولِ اللَّه إِلى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الهُدَى . أَمَّا بَعْدُ فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّه أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ إِثْمُ الأَرِيسِيِّينَ ، وَ ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ »(١) .

وقد ذكر محمّد بن إسحاق وغير واحد أن صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران . وقال الزهري : هم أول من بذل الجزية ، ولا خلاف أن آية الجزية نزلت بعد الفتح ، فما الجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح إلى هرقل في جملة الكتاب ، وبين ما ذكره محمّد ابن إسحاق والزهري ؟ والجواب من وجوه :

أحدها : يحتمل أن هذه الآية نزلت مرتين ، مرة في الحديبية ومرة بعد الفتح .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٥٣) .

الثاني : يحتمل أن صدر سورة آل عمران نزل في وفد نجران إلى هذه الآية ، وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك ، ويكون قول ابن إسحاق إلى بضع وثمانين آية ليس بمحفوظ لدلالة حديث أبي سفيان .

الثالث : يحتمل أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية ، وأن الذي بذلوه مصالحة عن المباهلة لا على وجه الجزية ، بل يكون من باب المهادنة والمصالحة ، ووافق نزول آية الجزية بعد ذلك على وفق ذلك ، كما جاء فرض الخمس والأربعة أخماس وفق ما فعله عبد الله بن جحش في تلك السرية قبل بدر ، ثم نزلت فريضة القسم على وفق ذلك .

الرابع : يحتمل أن رسول الله ﷺ لما أمر بكتب هذا في كتابه إلى هرقل لم يكن أنزل بعد ، ثم أنزل القرآن موافقة له ﷺ كما نزل بموافقة عمر بن الخطاب في الحجاب وفي الأسارى ، وفي عدم الصلاة على المنافقين ، وفي قوله : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ وفي قوله : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ الآية .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ .

ينكر تبارك وتعالى على اليهود والنصارى في محاجتهم في إبراهيم الخليل عليه السلام ، ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم . عن ابن عباس رضي الله عنه : اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده ، فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلَّا يهوديًّا ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلَّا نصرانيًّا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ الآية . أي كيف تدَّعون أيها اليهود أنه كان يهوديًّا وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى ، وكيف تدَّعون أيها النصارى أنه كان نصرانيًّا وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ الآية . هذا إنكار على من يحاج فيما لا علم له به ، فإن اليهود والنصارى تحاجُّوا في إبراهيم بلا علم ، ولو تحاجُّوا فيما بأيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثة محمّد ﷺ لكان أولى بهم ، وإنما تكلموا فيما لا يعلمون ، فأنكر الله عليهم ذلك ، وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها . ولهذا قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ أي متحنفًا عن الشرك ، قاصدًا إلى الإيمان ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يقول تعالى : أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه ، وهذا النبي يعني محمّدًا ﷺ والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم . وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن لِكُلِّ نَبِيٍّ وَلايَةً مِنَ النَّبِيِّينَ ، وَإِنَّ وَلِيِّي مِنْهُمْ أَبِي وَخَلِيلُ رَبِّي عز وجل إبراهيم عليه السلام» ثم قرأ ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ

بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ (١) . وقوله ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي وليُّ جميع المؤمنين برسله .

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين وبغيهم إياهم الإضلال ، وأخبر أن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم وهم لا يشعرون أنهم ممكور بهم . ثم قال تعالى منكرًا عليهم : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أي تعلمون صدقها ، وتتحققون حقها : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي تكتمون ما في كتبكم من صفة محمّد ﷺ وأنتم تعرفون ذلك وتتحققونه ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ ﴾ الآية . هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم ، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح ، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ، ليقول الجهلة من الناس : إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين ولهذا قالوا : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عن ابن عبّاس : قالت طائفة من أهل الكتاب : إذا لقيتم أصحاب محمّد أول النهار فآمنوا ، وإذا كان آخره فصلوا صلاتكم لعلهم يقولون هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم منا .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ أي لا تطمئنوا أو تظهروا سركم وما عندكم إلّا لمن تبع دينكم ، ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم . قال اللَّه تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ أي هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان بما ينزله على عبده ورسوله محمّد ﷺ من الآيات البينات والدلائل القاطعات والحجج الواضحات ، وإن كتمتم أيها اليهود ما بأيديكم من صفة محمّد النبي الأمي في كتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين .

وقوله : ﴿ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ يقولون : لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلموه منكم ويساوونكم فيه ، ويمتازون به عليكم لشدة الإيمان به ، أو يحاجوكم به عند ربكم ، أي يتخذوه حجة عليكم بما في أيديكم فتقوم به عليكم الدلالة ، وترتكب الحجة في الدنيا والآخرة . قال اللَّه تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ أي الأمور كلها تحت تصرفه وهو المعطي المانع ، يمن على من يشاء بالإيمان والعلم والتصرف التام ، ويضل من يشاء فيعمي بصره وبصيرته ، ويختم على قلبه وسمعه ويجعل على بصره غشاوة ، وله الحجة التامة والحكمة البالغة : ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي اختصكم أيها المؤمنون من الفضل بما لا يُحدُّ ولا يوصف بما شرّف به نبيكم محمّدًا ﷺ وعلى سائر الأنبياء ، وهداكم به إلى أكمل الشرائع .

﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٣٠) .

عَلَيْهِ قَآئِمًاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن اليهود بأن منهم الخونة ، ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم ، فإن منهم ﴿ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ ﴾ أي من المال ﴿ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ ﴾ أي وما دونه بطريق الأولى أن يؤده إليك ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًاۗ ﴾ أي بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقك ، وإذا كان هذا صنيعه في الدينار فما فوقه أولى أن لا يؤديه إليك . عن مالك بن دينار قال : إنما سمي بالدينار لأنه دين ونار . وقيل : معناه من أخذه بحقه فهو دينه ، ومن أخذه بغير حقه فله النار . وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه ذكر رجلًا من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال : ائتني بالشهداء أشهدهم ، فقال : كفى بالله شهيدًا قال : ائتني بالكفيل قال : كفى بالله كفيلًا قال : صدقت ، فدفعها إليه إلى أجل مسمى . فخرج في البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبًا يركبها ليقدم عليه في الأجل الذي أجّله فلم يجد مركبًا ، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه ، ثم زجج موضعها ثم أتى بها إلى البحر فقال : اللهم إنك تعلم أني استسلفت فلانًا ألف دينار فسألني شهيدًا فقلت : كفى بالله شهيدًا ، وسألني كفيلًا فقلت : كفى بالله كفيلًا فرضي بك ، وإني جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه الذي له فلم أقدر ، وإني استودعتكها ، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه ، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركبًا يخرج إلى بلده ، فخرج الرجل الذي كان أسلفه لينظر لعل مركبًا يجيئه بماله ، فإذا بالخشبة التي فيها المال ، فأخذها لأهله حطبًا ، فلما كسرها وجد المال والصحيفة . ثم قدم الرجل الذي كان تسلف منه فأتاه بألف دينار وقال : والله ما زلت جاهدًا في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبًا قبل الذي أتيت فيه ، قال : هل كنت بعثت إليّ بشيء ؟ قال : ألم أخبرك أني لم أجد مركبًا قبل هذا ؟ قال : فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة ، فانصرف بألف دينار راشدًا(١) .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ أي إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون : ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأميين وهم العرب ، فإن الله قد أحلها لنا قال الله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي وقد اختلقوا هذه المقالة ، وائتفكوها بهذه الضلالة ، فإن الله حرّم عليهم أكل الأموال إلّا بحقها ، وإنما هم قوم بهت . عن أبي صعصعة بن يزيد أن رجلًا سأل ابن عباس ، فقال : إنا نصيب من الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة ، قال ابن عبّاس : فتقولون : ماذا ؟ قال : نقول : ليس علينا بذلك بأس ، قال : هذا كما قال أهل الكتاب : ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلّا بطيب أنفسهم . وعن سعيد بن جبير قال : لما قال أهل الكتاب : ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ قال نبي الله ﷺ : « كَذَبَ أَعْدَاءُ اللَّهِ ، مَا مِنْ شَيْءٍ كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ إِلَّا وَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ ، إِلَّا الأَمَانَةَ فَإِنَّهَا مُؤَدَّاةٌ إِلَى البِرِّ وَالفَاجِرِ »(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ ﴾ أي لكن من أوفى بعهده واتقى منكم يا أهل الكتاب ، الذي

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده(٢٤٨/٢) والبيهقي في السنن(٧٦/٦) .

(٢) هذا الحديث مرسل لأن سعيد بن جبير تابعي ، ورواه الطبري في تفسيره(٤٣٢/٣) .

عاهدكم الله عليه من الإيمان بمحمَّد ﷺ إذا بعث ، كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأممهم بذلك ، واتقى محارم الله واتبع طاعته وشريعته التي بعث بها خاتم رسله وسيدهم ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : إن الذين يعتاضون عما عاهدوا الله عليه من اتباع محمَّد ﷺ وذكر صفته للناس ، وبيان أمره ، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة بالأثمان القليلة الزهيدة ، وهي عروض هذه الحياة الدنيا الفانية الزائلة ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أي لا نصيب لهم فيها ، ولا حظ لهم منها ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ أي برحمة منه لهم يعني لا يكلمهم الله كلام لطف بهم ، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ أي من الذنوب والأدناس ، بل يأمر بهم إلى النار ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقد وردت أحاديث تتعلّق بهذه الآية الكريمة منها : عن عدي هو ابن عميرة الكندي قال : خاصم رجل من كندة يقال له : امرؤ القيس بن عامر رجلًا من حضرموت إلى رسول الله ﷺ في أرض ، فقضى على الحضرمي بالبيّنة ، فلم يكن له بينة ، فقضى على امرئ القيس باليمين ، فقال الحضرمي : أمكنته من اليمين يا رسول الله ؟ ذهبت ورب الكعبة أرضي ، فقال النبيّ ﷺ : « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ أَحَدٍ ؛ لَقِيَ اللَّهَ ﷻ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ » قال رجاء : وتلا رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ فقال امرئ القيس : ماذا لمن تركها يا رسول الله ؟ فقال : « الجَنَّةُ » قال : فاشهد أني قد تركتها له كلها (١) .

وعن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ ؛ لَقِيَ اللَّهَ ﷻ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ » فقال الأشعث : فيّ والله كان ذلك ، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني أرضي ، فقدمته إلى رسول الله ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ : « أَلَكَ بَيِّنَةٌ » قلت : لا ، فقال لليهودي : احلف . فقلت : يا رسول الله إذًا يحلف فيذهب مالي فأنزل الله ﷻ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ (٢) الآية .

وعن معاذ بن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ للَّه تَعَالَى عبادًا لا يُكَلِّمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ » قيل : ومن أولئك يا رسول الله ؟ قال : « مُتَبَرِّئٌ مِنْ وَالِدَيهِ رَاغِبٌ عَنْهُمَا ، وَمُتَبَرِّئٌ مِنْ وَلَدِهِ ، وَرَجُلٌ أَنْعَمَ عَلَيْهِ قَوْمٌ فَكَفَرَ نِعْمَتَهُمْ وَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ » (٣) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّه يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : رَجُلٌ مَنَعَ ابْنَ السَّبِيلِ فَضْلَ مَاءٍ عِنْدَهُ ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ بَعْدَ العَصْرِ يعني كاذِبًا ، وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا فَإِنْ أَعْطَاهُ وَفَّى لَهُ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ لَمْ يَفِ لَهُ » (٤) .

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٥٩) وأحمد في مسنده (١٩٢/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الخصومات (٢٤١٦) وأحمد في مسنده (٢١١/٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٠/٣) . (٤) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٤٦) .

مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله - أن منهم فريقًا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويبدلون كلام الله ويزيلونه عن المراد به ، ليوهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك ، وينسبونه إلى الله وهو كذب على الله ، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ، وقال مجاهد وغيره : ﴿ يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ ﴾ يحرفونه . وهكذا روى البخاري عن ابن عباس أنهم يحرفون ويزيلون ، وليس أحد من خلق الله يزيل لفظ كتاب من كتب الله ، لكنهم يحرفونه يتأولونه على غير تأويله . وقال وهب بن منبه : إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله تعالى لم يغير منهما حرف ، ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل ، وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ فأما كتب الله فإنها محفوظة لا تحول . فإن عنى وهب ما بأيديهم من ذلك ، فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص . وأما تعريب ذلك المشاهد بالعربية ففيه خطأ كبير ، وزيادات كثيرة ونقصان ، ووهم فاحش ، وهو من باب تفسير المعرب المعبر وفهم كثير منهم بل أكثرهم بل جميعهم فاسد . وأما إن عنى كتب الله التي هي كتبه من عنده فتلك كما قال محفوظة لم يدخلها شيء .

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ٧٩ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

عن ابن عبّاس قال : قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام : أتريد يا محمّد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم ؟ قال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس : أو ذاك تريد منا يا محمّد وإليه تدعونا ؟ أو كما قال ، فقال رسول الله ﷺ : «مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَعْبُدَ غَيْرَ اللَّه ، وَأَنْ نَأْمُرَ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّه ، مَا بِذَلِكَ بَعَثَنِي ، وَلا بِذَلِكَ أَمَرَنِي »أو كما قال ﷺ، فأنزل الله في ذلك من قولهما : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ إلى قوله ﴿ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (١). فقوله ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكمة والنبوة أن يقول للناس : اعبدوني من دون الله ، أي مع الله ، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل ، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى . ولهذا قال الحسن البصري : لا ينبغي هذا لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته ، قال : وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضًا يعني أهل الكتاب ، كانوا يعبدون أحبارهم ورهبانهم . فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين ؛ فإنهم إنما يأمرون بما يأمر الله به ، وبلغتهم إياه رسله الكرام ، وإنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه ، وبلغتهم إياه رسله الكرام . فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين هم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة ، فقاموا بذلك

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٤٤١/٣).

أتم القيام ، ونصحوا الخلق ، وبلغوهم الحق ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ أي ولكن يقول الرسول للناس كونوا ربانيين ، قال ابن عبَّاس وأبو رزين وغير واحد : أي حكماء علماء حلماء . وقال الحسن وغير واحد : فقهاء . وقال الضحاك في قوله : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيهًا ، ﴿ تُعَلِّمُونَ ﴾ أي تفهمون معناه ، وقرئ ﴿ تُعلِّمون ﴾ بالتشديد من التعليم (١) ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ تحفظون ألفاظه .

ثم قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ ﴾ أي ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله ، لا نبي مرسل ، ولا ملك مقرَّب ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي لا يفعل ذلك إلَّا من دعا إلى عبادة غير الله ، ومن دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر . والأنبياء يأمرون بالإيمان ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام ، لمهما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة ، وبلغ أي مبلغ ، ثم جاء رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه ، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته . ولهذا قال تعالى وتقدس : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ أي لمهما أعطيتكم من كتاب وحكمة ﴿ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ﴾ وقال محمد بن إسحاق : ميثاقي الشديد المؤكد ﴿ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي عن هذا العهد والميثاق ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ . قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما : ما بعث الله نبيًّا من الأنبياء إلَّا أخذ عليه الميثاق ، لئن بعث الله محمَّدًا وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ، لئن بعث محمَّد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه (٢) . وقال طاوس والحسن البصري وقتادة : أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضًا . وهذا لا يضاد ما قاله علي وابن عبَّاس ولا ينفيه ، بل يستلزمه ويقتضيه .

وعن عبد الله بن ثابت قال : جاء عمر إلى النبيِّ ﷺ فقال : يا رسول الله إني مررت بأخ لي يهودي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ، ألا أعرضها عليك ؟ قال : فتغير وجه رسول الله ﷺ ، قال عبد الله بن ثابت : قلت له : ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ فقال عمر : رضيت بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمَّد رسولًا ، قال : فسري عن النبيِّ ﷺ وقال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى عليه السلام ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ ؛ إِنَّكُمْ حَظِّي مِنَ الأُمَمِ ، وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ » (٣) .

فالرسول محمَّد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين ، هو الإمام الأعظم

---

(١) قرأ ابن عامر والكوفيون (تُعَلِّمون) بضم التاء وفتح العين وكسر اللام مشددة ، والباقون بفتح التاء واللام وسكون العين (انظر : تقريب النشر ص : ١٠١) .

(٢) أخرجه : أحمد في مسنده (٥٣٣/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٧/٣) .

الذي لو وجد في أي عصر وجد ، لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم ، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس ، وكذلك هو الشفيع في المحشر في إتيان الرب ﷻ لفصل القضاء بين عباده ، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلَّا له ، والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين ، حتى تنتهي النوبة إليه فيكون هو المخصوص به صلوات اللّٰه وسلامه عليه .

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على من أراد دينًا سوى دين اللّٰه الذي أنزل به كتبه ، وأرسل به رسله ، وهو عبادة اللّٰه وحده لا شريك له ، الذي له أسلم من في السموات والأرض ، أي استسلم له من فيهما طوعًا وكرهًا كما قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه للّٰه ، والكافر مستسلم للّٰه كرهًا ؛ فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم ، الذي لا يخالف ولا يمانع . وقد ورد في الصحيح « عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ » (١) ولكن المعنى الأول للآية أقوى . عن ابن عبَّاس ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ قال : حين أخذ الميثاق ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ أي يوم المعاد فيجازي كلًّا بعمله .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ يعني بالقرآن ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ أي من الصحف والوحي ﴿ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل - وهو يعقوب - الاثني عشر ﴿ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ يعني بذلك التوراة والإنجيل ﴿ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ وهذا يعم جميع الأنبياء جملة ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ يعني بل نؤمن بجميعهم ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل ، وبكل كتاب أنزل ، لا يكفرون بشيء من ذلك ، بل هم يصدقون بما أنزل من عند اللّٰه ، وبكل نبي بعثه اللّٰه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ الآية أي من سلك طريقًا سوى ما شرعه اللّٰه فلن يقبل منه ﴿ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ . عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « تَجِيءُ الأَعْمَالُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَتَجِيءُ الصَّلَاةُ فَتَقُولُ : يَا رَبِّ أَنَا الصَّلَاةُ ، فَيَقُولُ : إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ ، وَتَجِيءُ الصَّدَقَةُ فَتَقُولُ : يَا رَبِّ أَنَا الصَّدَقَةُ ، فَيَقُولُ : إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ ، ثُمَّ يَجِيءُ الصِّيَامُ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ أَنَا الصِّيَامُ ، فَيَقُولُ : إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ ، ثُمَّ تَجِيءُ الأَعْمَالُ ، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ اللّٰهُ تَعَالَى : إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ ، ثُمَّ يَجِيءُ الإِسْلَامُ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ أَنْتَ السَّلَامُ وَأَنَا الإِسْلَامُ ، فَيَقُولُ اللّٰهُ تَعَالَى : إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ ، بِكَ اليَوْمَ آخُذُ ، وَبِكَ أُعْطِي » (٢) . قَالَ اللّٰهُ فِي كِتَابِهِ : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١٠) وأحمد في مسنده (٣٠٢/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٢/٢) .

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

عن ابن عبّاس قال : كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم ندم ، فأرسل إلى قومه أن سلوا لي رسول الله ﷺ هل لي من توبة ؟ فنزلت : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾ إلى قوله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فأرسل إليه قومه فأسلم . عن مجاهد قال : جاء الحارث ابن سويد فأسلم مع النبيّ ﷺ ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه ، فأنزل الله فيه ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾ إلى قوله ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قال : فحملها إليه رجل من قومه فقرأ عليه ، فقال الحارث : إنك - والله ما علمت - لصدوق ، وإن رسول الله لأصدق منك ، وإن الله لأصدق الثلاثة قال : فرجع الحارث فأسلم فحسن إسلامه (١) . فقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ أي قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول ، ووضح لهم الأمر ، ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك ، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من العماية ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أي يلعنهم الله ويلعنهم خلقه ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي في اللعنة ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي لا يفتر عنهم العذاب ولا يخفف عنهم ساعة واحدة .

ثم قال تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وهذا من لطفه وبرّه ورأفته ورحمته وعائدته على خلقه أن من تاب إليه تاب عليه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى متوعدا ومهددًا لمن كفر بعد إيمانه ثم ازداد كفرًا ، أي استمر عليه إلى الممات ، ومخبرًا بأنهم لن تقبل لهم توبة عند الممات ﴿ لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴾ أي الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغي .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ﴾ أي من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبدًا ، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبًا فيما يراه قربة . كما سئل النبيّ ﷺ عن عبد الله بن جدعان وكان يقري الضيف ويفك العاني ويطعم الطعام : هل ينفعه ذلك ؟ فقال : « لا ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ : رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » (٢) . وكذلك لو افتدى بملء الأرض أيضًا ذهبًا ما قبل منه كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ ولهذا قال تعالى هنا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ﴾ فعطف ﴿ وَلَوِ

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٣/٤٦٠) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٤٠٥) وأحمد في مسنده (٦/١٢٠) .

﴿ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ على الأول فدل على أنه غيره ، وما ذكرناه أحسن من أن يقال إن الواو زائدة والله أعلم . ويقتضي ذلك أن لا ينقذه من عذاب الله شيء ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهبًا . ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهبًا بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها . عن أنس بن مالك ، أن النبيّ ﷺ قال : « يُقالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ القِيامَةِ : أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ ؟ قَالَ : فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ اللَّه : قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ أَبِيكَ آدَمَ أَنْ لا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ »(١) . ولهذا قال : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي وما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ، ولا يجيرهم من أليم عقابه .

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ .

عن عمرو بن ميمون ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ﴾ قال : الجنة . وعن أنس بن مالك قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالًا ، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان النبيّ ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، قال أنس : فلما نزلت ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ قال أبو طلحة : يا رسول الله إن الله يقول : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ وإن أحب أموالي إليّ بيرحاء ، وإنها صدقة أرجو بها برها وذخرها عند الله تعالى ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله ، فقال النبيّ ﷺ : « بخ بخ ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ ، وَقَدْ سَمِعْتُ ، وَأَنَا أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ » فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله ، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه(٢) . وفي الصحيحين أن عمر قال : يا رسول الله لم أصب مالًا قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر فما تأمرني به ؟ قال : « حَبِّسِ الأَصْلَ ، وَسَبِّلِ الثَّمَرَةَ »(٣) . وعن حمزة بن عبد الله بن عمر قال : قال عبد الله : حضرتني هذه الآية ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ فذكرت ما أعطاني الله ، فلم أجد شيئًا أحب إليّ من جارية لي رومية فقلت : هي حرة لوجه الله ، فلو أني أعود في شيء جعلته لله لنكحتها ، يعني تزوجتها .

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ .

قال ابن عبّاس : حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقالوا : حدثنا عن خلال نسألك عنهن ، لا يعلمهن إلّا نبي ، قال : « سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ وَلَكِنِ اجْعَلُوا لِي ذِمَّةَ اللَّهِ وَمَا أَخَذَ يَعْقُوبُ عَلَى بَنِيهِ ، لَئِنْ أَنَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا فَعَرَفْتُمُوهُ لَتُتَابِعُنِّي عَلَى الإِسْلامِ » قالوا : فذلك لك ، قالوا : أخبرنا عن أربع خلال ، أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه ؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل ؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى ؟ وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم ؟ ومن وليه من الملائكة ؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنه فقال : « أَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا وَطَالَ سَقَمُهُ ، فَنَذَرَ لِلَّهِ نَذْرًا لَئِنْ شَفَاهُ اللَّهُ مِنْ سَقَمِهِ لَيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الطَّعَامِ

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٥٢) وأحمد في مسنده (٣/١٢٧) .
(٢) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٥٨) ومسلم في الزكاة (٦٩٤٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/١١٤) والبيهقي في السنن (٦/١٦٢) .

وَالشَّرَابِ إِلَيْهِ ، وَكَانَ أَحَبُّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لَحْمَ الإِبِلِ ، وَأَحَبُّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانَهَا » فقالوا : اللَّهُمَّ نعم فقال : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ » وقال : « أَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ أَبْيَضُ غَلِيظٌ ، وَمَاءَ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ رَقِيقٌ ، فَأَيُّهُمَا عَلا كَانَ لَهُ الوَلَدُ وَالشَّبَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ ، إِنْ عَلاَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ كَانَ ذَكَرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَإِنْ عَلاَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ كَانَ أُنْثَى بِإِذْنِ اللَّهِ ؟» قالوا : نعم ، قال : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ » قال : « وَأَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الأُمِّيَّ تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلاَ يَنَامُ قَلْبُهُ ؟ » قالوا : اللهم نعم ، قال : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ » قال : « وَإِنَّ وَلِيِّي جِبْرِيلُ ، وَلَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا وَهُوَ وَلِيُّهُ » قالوا : فعند ذلك نفارقك ، ولو كان وليُّك غيره لتابعناك ، فعند ذلك قال اللَّه تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ [1] الآية .

وقوله : ﴿ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ﴾ أي حرَّم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة . قلت : ولهذا السياق بعدما تقدم مناسبتان :

أحدهما : أن إسرائيل ﷺ حرَّم أحب الأشياء إليه وتركها للّه ، وكان هذا سائغًا في شريعتهم فله مناسبة بعد قوله : ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ فهذا هو المشروع عندنا ، وهو الإنفاق في طاعة اللَّه مما يحبه العبد ويشتهيه .

المناسبة الثانية : لما تقدم بيان الرد على النصارى ، واعتقادهم الباطل في المسيح ، وتبيين زيف ما ذهبوا إليه ، وظهور الحق واليقين في عيسى وأمه ، كيف خلقه اللَّه بقدرته ومشيئته ، وبعثه إلى بني إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه تبارك وتعالى ، شرع في الرد على اليهود قبحهم اللَّه تعالى ، وبيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع ؛ فإن اللَّه تعالى قد نص في كتابهم التوراة أن نوحًا ﷺ لما خرج من السفينة أباح اللَّه له جميع دواب الأرض يأكل منها ، ثم بعد هذا حرَّم إسرائيل على نفسه لحوم الإبل وألبانها فاتبعه بنوه في ذلك ، وجاءت التوراة بتحريم ذلك ، وأشياء أخرى زيادة على ذلك ، وكان اللَّه ﷻ قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه ، وقد حرم ذلك بعد ذلك ، وكان التسري على الزوجة مباحًا في شريعة إبراهيم ﷺ ، وقد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة ، وقد حرَّم مثل هذا في التوراة عليهم ، وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغًا ، وقد فعله يعقوب ﷺ جمع بين الأختين ، ثم حرَّم عليهم ذلك في التوراة ، وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم ، وهذا هو النسخ بعينه ، فكذلك فليكن ما شرعه اللَّه للمسيح ﷺ في إحلاله بعض ما حرم في التوراة ، فما بالهم لم يتبعوه بل كذبوه وخالفوه ؟ وكذلك ما بعث اللَّه به محمدًا ﷺ من الدين القويم ، والصراط المستقيم ، وملة أبيه إبراهيم ، فما بالهم لا يؤمنون ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ﴾ أي كان حلًّا لهم جميع الأطعمة قبل نزول التوراة إلَّا ما حرمه إسرائيل .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فإنها ناطقة بما قلناه ﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي فمن كذب على اللَّه وادعى أنه شرع لهم السبت ، والتمسك بالتوراة دائمًا ، وأنه لم يبعث نبيًّا آخر يدعو إلى اللَّه تعالى بالبراهين والحجج بعد

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٨/١) .

هذا الذي بيناه من وقوع النسخ وظهور ما ذكرنا ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ﴾ أي قل يا محمّد : صدق الله فيما أخبر به ، وفيما شرعه في القرآن ﴿ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي اتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمّد ﷺ فإنه الحق الذي لا شك فيه ولا مرية ، وهي الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتم ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس أي لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم يطوفون به ويصلون إليه ويعتكفون عنده ﴿ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ يعني الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل عليه السلام ، الذي يزعم كل من طائفتي النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجه ، ولا يحجون إلى البيت الذي بناه عن أمر الله له في ذلك ، ونادى الناس إلى حجه ولهذا قال تعالى : ﴿ مُبَارَكًا ﴾ أي وضع مباركًا ﴿ وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال : « المَسْجِدُ الحَرَامُ » قلت : ثم أي ؟ قال : « المَسْجِدُ الأَقْصَى » قلت : كم بينهما ؟ قال : « أَرْبَعُونَ سَنَةً » قلت : ثم أي قال : « ثُمَّ حَيْثُ أَدْرَكَتْكَ الصَّلاةُ فَصَلِّ فَكُلُّهَا مَسْجِدٌ » (١) . وعن علي رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ قال : كانت البيوت قبله ، ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله . وزعم السدي أنه أول بيت وضع على وجه الأرض مطلقًا ، والصحيح قول علي رضي الله عنه .

وقوله تعالى : ﴿ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ بكة من أسماء مكة على المشهور ، قيل : سميت بذلك لأنها تبك أعناق الظلمة والجبابرة ، بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها . وقيل : لأن الناس يتباكون فيها أي يزدحمون . قال قتادة : إن الله بكّ به الناس جميعًا فيصلي النساء أمام الرجال ، ولا يفعل ذلك ببلد غيرها . وعن ابن عبّاس رضي الله عنه قال : مكة من الفج إلى التنعيم ، وبكة من البيت إلى البطحاء . وقال المغيرة : بكة البيت والمسجد . وقال ميمون بن مهران : البيت وما حوله بكة ، وما وراء ذلك مكة . وقال مقاتل بن حيان : بكة موضع البيت ، وما سوى ذلك مكة . وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة ، مكة ، وبكة ، والبيت العتيق . والبيت الحرام ، والبلد الأمين ، والمأمون ، وأم رحم ، وأم القرى ، وصلاح ، والعرش ، على وزن بدر ، والقادس لأنها تطهر من الذنوب ؟ والمقدسة ، والناسة بالنون ، وبالباء أيضًا والبلسة ، والحاطمة ، والرأس ، وكوثاء ، والبلدة ، والبنية ، والكعبة .

وقوله تعالى : ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ ﴾ أي دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم ، وأن الله عظمه وشرّفه ، ثم قال تعالى : ﴿ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ يعني الذي لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران ، حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل ، وقد كان ملتصقًا بجدار البيت حتى أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إماراته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطواف منه ولا يشوشون على المصلين عنده

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد (١) وأحمد في مسنده (١٥٠/٥) .

بعد الطواف ؛ لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ عن ابن عباس في قوله : ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي فمنهم مقام إبراهيم والمشاعر . وقال مجاهد : أثر قدميه في المقام آية بينة . وقال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة .

وَمَوْطِئُ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةٌ عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ نَاعِلِ

عن ابن عبَّاس في قوله تعالى : ﴿ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ قال : الحرم كله مقام إبراهيم .

وقوله تعالى : ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ يعني حرم مكة ، إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء ، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية كما قال الحسن البصري وغيره : كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم ، فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج . وعن ابن عبَّاس في قوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ قال : من عاذ بالبيت أعاذه البيت ، ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ، فإذا خرج أخذ بذنبه ، وحتى إنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره ، وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها ، كما ثبتت الأحاديث والآثار في ذلك . عن ابن عبَّاس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « لاَ هِجْرَةَ وَلٰكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا » (١) . وقال يوم فتح مكة : « إِنَّ هَذَا البَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ ؛ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، وَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ القِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا فِي سَاعَةٍ مِنْ نَهَارٍ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لا يُعْضَدُ شَوْكُهُ ، وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهُ ، وَلاَ يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا ، وَلاَ يُخْتَلَى خَلاَهَا » فقال العباس : يا رسول الله إلَّا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم ، فقال : « إِلَّا الإِذْخِرَ » (٢) . وعن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف بالحزورة بسوق مكة يقول : « وَاللَّهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ ، وَلَوْلا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ ما خَرَجْتُ » (٣) .

وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ هذه آية وجوب الحج عند الجمهور . وقيل : بل هي قوله : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ والأول أظهر . وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده ، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعًا ضروريًا ، وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع . عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمُ الحَجُّ فَحُجُّوا » فقال رجل : أكلَّ عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا ، فقال رسول الله ﷺ : « لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ » ثم قال : « ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ ، وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ » (٤) . وعن سراقة بن مالك قال : يا رسول الله متعتنا هذه لعامنا هذا أم للأبد ؟ قال : « لاَ . بَلِ لِلأَبَدِ » وفي رواية « بَلْ لِأَبَدِ الأَبَدِ » (٥) .

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٧٧) ومسلم في الحج (٤٤٥) .
(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٥٨٧) ومسلم في الحج (٤٤٥) وأحمد في مسنده (٣١٥/١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٥/٤) والحاكم في المستدرك (٧/٣) .
(٤) أخرجه مسلم في الحج (٤١٢) وأحمد في مسنده (٢٩١/١) .
(٥) أخرجه مسلم في الحج (١٤٧) والبيهقي في السنن (٣٢٦/٤) .

وأما الاستطاعة فأقسام : تارة يكون الشخص مستطيعًا بنفسه ، وتارة بغيره كما هو مقرر في كتب الأحكام . عن ابن عمر ﵄ قال : قام رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : من الحاج يا رسول الله ؟ قال : « الشعث التفل » فقام آخر قال : أي الحج أفضل يا رسول الله ؟ قال : « العَجُّ وَالثَّجُّ » فقام آخر فقال : ما السبيل يا رسول الله ؟ قال : « الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ » [(١)] . وعن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « تَعَجَّلُوا إِلَى الحَجِّ - يعني الفريضة - فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لاَ يَدْرِي مَا يَعْرِضُ لَهُ » [(٢)] . وعنه في قوله تعالى : ﴿ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ قال : من ملك ثلاثمائة درهم فقد استطاع إليه سبيلًا . وعن عكرمة قال : السبيل الصحة . وعن ابن عبّاس قال : « الزَّادُ والبَعِيرُ » .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وغير واحد : أي ومن جحد فريضة الحجِّ فقد كفر ، والله غني عنه . وعن عكرمة قال : لما نزلت ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ قال اليهود : فنحن مسلمون ، قال الله ﷻ : فأخصمهم فحجهم ، يعني فقال لهم النبيّ ﷺ : « إِنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَى المُسْلِمِينَ حَجَّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » فقالوا : لم يكتب علينا وأبوا أن يحجوا ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ » [(٣)] . وعن علي ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ مَلَكَ زَادًا وَرَاحِلَةً وَلَمْ يَحُجَّ بَيْتَ اللهِ ، فَلاَ يَضُرُّهُ مَاتَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا ؛ وَذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ قَالَ : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ » [(٤)] وعن الحسن البصري قال : قال عمر بن الخطاب ﵁ لقد هممت أن أبعث رجالًا إلى هذه الأمصار فينظروا إلى كل من كان عنده جِدَة فلم يحج فيضربوا عليه الجزية ، ما هم بمسلمين ، ما هم بمسلمين .

﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

هذا تعنيف من الله تعالى للكفرة أهل الكتاب على عنادهم للحق ، وكفرهم بآيات الله ، وصدهم عن سبيل الله من أراده من أهل الإيمان بجهدهم وطاقتهم مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله ، وبما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين والسادة المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وما بشروا به ونوَّهوا به من ذكر النبي الأمي الهاشمي العربي المكي سيد ولد آدم ، وخاتم الأنبياء ، ورسول رب الأرض والسماء ، قد توعدهم الله على ذلك ، وأخبر بأنه شهيد على صنيعهم ذلك ، بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء ، ومعاملتهم الرسول المبشر به بالتكذيب والجحود والعناد ، فأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون ، أي وسيجزيهم على ذلك ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

يحذِّر تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله ، وما منحهم من إرسال رسوله .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٣٣٠/٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٤/١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٤/٤) .
(٤) أخرجه الترمذي في الحج (٨١٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ﴾ يعني أن الكفر بعيد منكم ، وحاشاكم منه ، فإن آيات اللَّه تنزل على رسوله ليلًا ونهارًا ، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي ومع هذا فالاعتصام باللَّه والتوكل عليه هو العمدة في الهداية ، والعدة في مباعدة الغواية ، والوسيلة إلى الرشاد ، وطريق السداد وحصول المراد .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

عن عبد اللَّه بن مسعود ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ قال : أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر ، وروي عن أنس أنه قال : لا يتقي اللَّه العبد حق تقاته حتى يخزن لسانه . وقد ذهب سعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم والسدي وغيرهم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ . وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ قال : لم تنسخ ، ولكن حق تقاته أن يجاهدوا في سبيله حق جهاده ، ولا تأخذهم في اللَّه لومة لائم ، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه ، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه ، أنه من عاش على شيء مات عليه ، ومن مات علي شيء بعث عليه ، فعياذًا باللَّه من خلاف ذلك .

قال مجاهد : إن الناس كانوا يطوفون بالبيت ، وإن ابن عباس جالس معه محجن ، فقال : قال رسول اللَّه ﷺ : « ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قَطَرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ ، فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلَّا الزَّقُّومُ ؟! » [(١)] .

وعن عبد اللَّه بن عمرو قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الجَنَّةَ فَلْتُدْرِكْهُ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَيَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ » [(٢)] .

وعن جابر قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول قبل موته بثلاث : « لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ ﷻ » [(٣)] . وعن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ قَالَ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، فَإِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ ، وَإِنْ ظَنَّ بِي شَرًّا فَلَهُ » [(٤)] .

وعن أنس قال : كان رجل من الأنصار مريضًا فجاءه النبيُّ ﷺ يعوده فوافقه في السوق فسلم عليه فقال له : « كَيْفَ أَنْتَ يَا فُلاَنُ ؟ » قال : بخير يا رسول اللَّه أرجو اللَّه وأخاف ذنوبي ، فقال

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٩٤/٢) وأحمد في مسنده (٣٠١/١ ، ٣٠٨) .
(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (٤٦) وأحمد في مسنده (١٩٢/٢) والبيهقي في السنن (١٦٩/٨) .
(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٨١) وأحمد في مسنده (٣٢٥/١) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٦/٤) والمنذري في الترغيب (٤٧٧/٢) .

رسول الله ﷺ : « لاَ يَجْتَمِعَانِ في قَلْبِ عَبْدٍ فِي هَذا المَوْطِنِ إلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو ، وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ » (١) . وعن حكيم بن حزام قال : بايعت رسول الله ﷺ أن لا أخر إلَّا قائمًا (٢) ، قيل معناه : أن لا أموت إلَّا مسلمًا ، وقيل : معناه أن لا أقتل إلَّا مقبلًا غير مدبر ، وهو يرجع إلى الأول .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ قيل : ﴿ بِحَبْلِ ٱللَّهِ ﴾ أي بعهد الله كما قال في الآية بعدها ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي بعهد وذمة ، وقيل : ﴿ بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ يعني القرآن ، كما في حديث علي مرفوعًا في صفة القرآن : « هُوَ حَبْلُ اللَّه المَتِينُ ، وَصِرَاطُهُ المُسْتَقِيمُ » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة . وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق والأمر بالاجتماع والائتلاف ، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّه يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا ، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا : يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّه جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا ، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللَّه أَمْرَكُمْ . وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا : قِيلَ وَقَالَ ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ ، وَإِضَاعَةَ المَالِ » (٤) وقد ضمنت لهم العصمة عند اتفاقهم من الخطأ ، كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضًا . وخيف عليهم الافتراق والاختلاف فقد وقع في هذه الأمة فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة ، منها فرقة ناجية إلى الجنة ومسلمة من عذاب النار ، وهم الذين على ما كان عليه النبيّ ﷺ وأصحابه .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ إلى آخر الآية . وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج ؛ فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية ، وعداوة شديدة وضغائن وإحن وذحول ، طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم . فلما جاء اللَّه بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم صاروا إخوانًا متحابين بجلال اللَّه ، متواصلين في ذات اللَّه ، متعاونين على البر والتقوى وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم فأنقذهم اللَّه منها أن هداهم للإيمان . وقد امتن عليهم بذلك رسول اللَّه ﷺ يوم قسّم غنائم حنين فعتب من عتب منهم بما فضّل عليهم في القسمة بما أراه اللَّه ، فخطبهم فقال : « يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللَّه بِي ، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّه بِي ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّه بِي ؟ » فكلما قال شيئًا قالوا : اللَّه ورسوله أمن (٥) . وقد ذكر محمّد بن إسحاق بن يسار وغيره : أن هذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج ، وذلك أن رجلًا من اليهود مر بملأ من الأوس والخزرج فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة ، فبعث رجلًا معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم بعاث وتلك الحروب ، ففعل فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض وتثاوروا ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم وتواعدوا إلى الحرة ، فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فأتاهم فجعل يسكنهم ويقول : « أَبِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ؟ » وتلا عليهم هذه الآية ، فندموا على ما كان منهم واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح ﭬ .

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٢/٨) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٢/٣) .
(٣) أخرجه الدارمي في السنن (٤٣١/٢) .
(٤) أخرجه مسلم في الأقضية (٣) وأحمد في مسنده (٣٦٧/٢) والبيهقي في السنن (١٦٣/٨) ومالك في الموطأ (٩٩٠) .
(٥) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٣٠) ومسلم في الزكاة (١٣٩) والبيهقي في السنن (٣٣٩/٦) .

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ .

يقول تعالى : ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأولئك هم المفحلون . قال الضحاك : هم خاصة الصحابة ، وخاصة الرواة يعني المجاهدين والعلماء . والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن ، وإن كان ذلك واجبًا علي كل فرد من الأمة بحسبه ، كما ثبت عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ رَأَى مِنكُمْ مُنكرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ » (١) .

وعن حذيفة بن اليمان أن النبيّ ﷺ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنكَرِ ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُم عِقابًا مِنْ عِنْدِهِ ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ » (٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ الآية ينهى تبارك وتعالى هذه الأمة أن يكونوا كالأمم الماضين في افتراقهم واختلافهم ، وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مع قيام الحجة عليهم .

عن أبي عامر عبد الله بن يحيى قال : حججنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدمنا مكة قام حين صلى الظهر قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ أَهْلَ الكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، وَإِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً - يعني الأهواء - كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً - وهي الجماعة - وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَتَجَارَى بِهِمُ الأَهْوَاءُ ، كَمَا يَتَجَارَى الكَلْبُ بِصَاحِبِهِ ، لَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مِفْصَلٌ إِلَّا دَخَلَهُ » (٣) والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ ، لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ يعني يوم القيامة حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة قاله ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ قال الحسن البصري : وهم المنافقون ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ وهذا الوصف يعم كل كافر ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ يعني الجنة ماكثون فيها أبدًا ، لا يبغون عنها حولًا . وقد روى أبو عيسى الترمذي عند تفسير هذه الآية : عن أبي غالب قال : رأى أبو أمامة رؤوسًا منصوبة على درج مسجد دمشق ، فقال أبو أمامة : كلاب النار شر قتلى تحت أديم السماء ، خير قتلى من قتلوه ، ثم قرأ ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ إلى آخر الآية . قلت لأبي

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٧٣) والنسائي في السنن (١١١/٨) وأحمد في مسنده (٥٢/٣) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٦٩) وأحمد في مسنده (٣٨٩/٥) والطبراني في الكبير (١٨٠/١٠) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٢/٤) والحاكم في المستدرك (١٢٨/١) .

أمامة : أنت سمعته من رسول الله ﷺ ؟ قال : لو لم أسمعه إلَّا مرة أو مرتين أو ثلاثًا أو أربعًا - حتى عدَّ سبعًا - ما حدثتكموه (١) .

ثم قال تعالى : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ أي هذه آيات الله وحججه وبيناته نتلوها عليك يا محمّد ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي نكشف ما الأمر عليه في الدنيا والآخرة ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي ليس بظالم لهم ، بل هو الحاكم العدل الذي لا يجور ؛ لأنه القادر على كل شيء العالم بكل شيء ، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحدًا من خلقه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي الجميع ملك له وعبيد له ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أي هو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم فقال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ عن أبي هريرة ﷺ ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قال : خير الناس للناس ، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام . والمعنى : أنهم خير الأمم ، وأنفع الناس للناس ، ولهذا قال : ﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ . عن درة بنت أبي لهب قالت : قام رجل إلى النبيِّ ﷺ وهو على المنبر فقال : يا رسول الله : أي الناس خير ؟ قال : « خَيْرُ النَّاسِ أَقْرَأُهُمْ وَأَتْقَاهُمْ لله ، وَآمَرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَأَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ ، وَأَوْصَلُهُمْ لِلرَّحِمِ » (٢) . وعن ابن عبَّاس في قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قال : هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة . والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة كل قرن بحسبه ، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . وعن معاوية بن حيدة قال : قال رسول الله ﷺ : « أَنْتُمْ تُوَفُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً ، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ ﷻ » (٣) وهو حديث مشهور ، وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمّد صلوات الله وسلامه عليه ؛ فإنه أشرف خلق الله ، وأكرم الرسل على الله ، وبعثه الله بشرع كامل عظيم ، لم يعطه نبي قبله ولا رسول من الرسل . فالعمل على منهاجه وسبيله يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه . وعن علي بن أبي طالب ﷺ يقول : قال رسول الله ﷺ : « أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ » فقلنا : يا رسول الله ما هو ؟ قال : « نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ ، وَأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الأَرْضِ ، وَسُمِّيتُ أَحْمَدَ ، وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهُورًا ، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الأُمَمِ » (٤) .

وعن يزيد بن ميسرة قال : سمعت أبا الدرداء ﷺ يقول : سمعت أبا القاسم ﷺ وما سمعته يكنيه قبلها ولا بعدها يقول : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : يَا عِيسَى إِنِّي بَاعِثٌ بَعْدَكَ أُمَّةً إِنْ أَصَابَهُمْ مَا

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٠٠) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٢/٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٣/٧) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٥) والحاكم في المستدرك (٨٤/٤) والطبراني في الكبير (٤٢٢/١٩) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٩٨/١) والبيهقي في السنن (٢١٣/١) .

يُحِبُّونَ حَمِدُوا وَشَكَرُوا ، وَإِنْ أَصَابَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ احْتَسَبُوا وَصَبَرُوا ، وَلاَ حِلْمَ وَلاَ عِلْمَ قَالَ : يَا رَبِّ كَيْفَ هَذَا لَهُمْ وَلاَ حِلْمَ وَلاَ عِلْمَ ؟ قَالَ : أُعْطِيهِمْ مِنْ حِلْمِي وَعِلْمِي » (١) .

وعن عبد الرحمن بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ رَبِّي أَعْطَانِي سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » فقال عمر : يا رسول الله فهلا استزدته ؟ فقال : « اسْتَزَدْتُهُ فَأَعْطَانِي مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعِينَ أَلْفًا » قال عمر : فهلا استزدته قال : « قَدِ اسْتَزَدْتُهُ فَأَعْطَانِي مَعَ كُلِّ رَجُلٍ سَبْعِينَ أَلْفًا » قال عمر : فهلا استزدته قال : « قَدِ اسْتَزَدْتُهُ فَأَعْطَانِي هكذا » وفرج عبد الرحمن بن أبي بكر بين يديه (٢) . وقال عبد الله : وبسط باعيه وحثا عبد الله ، وقال هاشم : وهذا من الله لا يدرى ما عدده .

وعن ابن مسعود ﷺ قال : أكثرنا الحديث عند رسول الله ﷺ ذات ليلة ، ثم غدونا إليه فقال : « عُرِضَتْ عَلَيَّ الأَنْبِيَاءُ اللَّيْلَةَ بِأُمَمِهَا ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ يَمُرُّ ومَعَهُ الثَّلاَثَةُ ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ العِصَابَةُ ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ النَّفَرُ ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ ، حَتَّى مَرَّ عَلَيَّ مُوسَى ﷺ وَمَعَهُ كَبْكَبَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَعْجَبُونِي فَقُلْتُ : مَنْ هَؤُلاَءِ ؟ قِيلَ : هَذَا أَخُوكَ مُوسَى وَمَعَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَقُلْتُ : فَأَيْنَ أُمَّتِي ؟ فَقِيلَ : انْظُرْ عَنْ يَمِينِكَ فَنَظَرْتُ فَإِذَا الظِّرَابُ قَدْ سُدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ ، فَقِيلَ لِي : أَرَضِيتَ فَقُلْتُ : رَضِيتُ يَا رَبِّ - قال - فَقِيلَ لِي : إِنَّ مَعَ هَؤُلاَءِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » فقال النبيّ ﷺ : فِدَاكُمْ أَبِي وَأُمِّي إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا فَافْعَلُوا ، فَإِنْ قَصَّرْتُمْ فَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الظِّرَابِ ، فَإِنْ قَصَّرْتُمْ فَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الأُفُقِ ، فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ ثَمَّ أُنَاسًا يَتَهَاوَشُونَ » فقام عكاشة بن محصن فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم - أي من السبعين - فدعا له ، فقام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم فقال : « سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ » قال : ثم تحدثنا فقلنا : من ترون هؤلاء السبعين الألف ، قوم ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئًا حتى ماتوا ، فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فقال : « هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ ، وَلاَ يَكْتَوُونَ ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ ، وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » (٣) .

وعن بريدة بن الحصيب الأسلمي أنه قال : « لاَ رُقْيَةَ إِلا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ » (٤) قال : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ، ولكن حدَّثنا ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ أنه قال : « عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيطُ ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلاَنِ ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ . إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُم أُمَّتِي ، فَقِيلَ لِي : هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ . وَلَكِن انْظُرْ إِلَى الأُفق فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ ، فَقِيلَ لِي : انْظُرْ إِلى الأُفقِ الآخَرِ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ ، فَقِيلَ : لي هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ » ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ ، وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئًا ، وذكروا أشياء فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : « مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ ؟ » فأخبروه فقال : « هُمُ الَّذِينَ لاَ يَرْقُونَ وَلاَ يَسْتَرْقُونَ ، وَلاَ يَكْتَوُونَ ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٠/٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦٧/١٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٥٦٩/١٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٧/١) والحاكم في المستدرك (٥٧٧/٤) .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٣٨٨٤) والترمذي في السنن (٢٠٥٧) وابن ماجه في السنن (٣٥١٣) .

وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ »فقام عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم قال : «أَنْتَ مِنْهُمْ »ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم قال : «سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ » (١).

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ وَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي أَرْبَعَمِائَةَ أَلْفٍ » قال أبو بكر ﷺ: زدنا يا رسول الله قال : «وَاللَّهِ هَكَذَا »قال عمر : حسبك يا أبا بكر ، فقال أبو بكر : دعني وما عليك أن يدخلنا الله الجنة كلنا ؟ قال عمر : إن الله إن شاء أدخل خلقه الجنة بكف واحد ، فقال النبيّ ﷺ : «صَدَقَ عُمَرُ » (٢).

وعن أبي مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَيُبْعَثَنَّ مِنْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ مِثْلَ اللَّيْلِ الأَسْوَدِ ، زُمْرَةٌ جَمِيعُهَا يُحِيطُونَ الأَرْضَ ، تَقُولُ الْمَلائِكَةُ : لِمَ جَاءَ مَعَ مُحَمَّدٍ أَكْثَرُ مِمَّا جَاءَ مَعَ الأَنْبِيَاءِ ؟ » (٣).

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال لنا رسول الله ﷺ: «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ »فكبّرنا ، ثم قال : «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ »فكبّرنا ، ثم قال : «إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ » (٤).

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «كَيْفَ أَنْتُمْ وَرُبُعُ الْجَنَّةِ لَكُمْ وَلِسَائِرِ النَّاسِ ثَلاثَةُ أَرْبَاعِهَا ؟ »قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : «كَيْفَ أَنْتُمْ وَثُلُثُهَا ؟ »قالوا : ذاك أكثر ، قال : «كَيْفَ أَنْتُمْ وَالشَّطْرُ لَكُمْ »قالوا : ذاك أكثر ، فقال رسول الله ﷺ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ لَكُمْ مِنْهَا ثَمَانُونَ صَفًّا » (٥).

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبيّ ﷺ قال : «نَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولًا الْجَنَّةَ ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا ، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، فَهَدَانَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ ، فَهَذَا الْيَوْمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ، النَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ ، غَدًا لِلْيَهُودِ ، وَلِلنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ » (٦).

• فهذه الأحاديث في معنى قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا المدح . كما قال قتادة : بلغنا أن عمر بن الخطاب ﷺ في حجة حجها رأى من الناس دعة فقرأ هذه الآية ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ثم قال : من سرّه أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها . ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله تعالى : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ الآية . ولهذا لما مدح تعالى هذه الأمة على هذه الصفات شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ أي بما أنزل على محمّد ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان .

ثم قال تعالى مخبرًا عباده المؤمنين ومبشرًا لهم أن النصر والظفر لهم على أهل الكتاب الكفرة

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧١/١) والبغوي في شرح السنة (١٣٥/٥).
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٥/٣) والطبراني في الكبير (١٨٧/٨).
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٣٧/٣) والسيوطي في جمع الجوامع (٤٢٥١).
(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٧٦).
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٣/١) والطبراني في الكبير (٢٠٨/١٠).
(٦) أخرجه مسلم في الجمعة (٢٠).

الملحدين فقال تعالى : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ هكذا وقع ؛ فإنهم يوم خيبر أذلهم الله وأرغم أنوفهم ، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة وبني قينقاع وبني النضير وبني قريظة ، كلهم أذلّهم الله ، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن ، وسلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين ، ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم كذلك ، ويحكم بملة الإسلام وشرع محمّد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل إلّا الإسلام . ثم قال تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي ألزمهم الله الذلة والصغار أينما كانوا ، فلا يؤمنون ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي بذمة من الله ، وهو عقد الذمة لهم ، وضرب الجزية عليهم ، وإلزامهم أحكام الملة ﴿ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي أمان منهم لهم كما في المهادن والمعاهد والأسير إذا أمّنه واحد من المسلمين ولو امرأة ، وكذا عبد على أحد قولي العلماء ، قال ابن عبّاس ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ : أي بعهد من الله وعهد من الناس . وقوله : ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي ألزموا ، فالتزموا بغضب من الله وهم يستحقونه ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ أي ألزموها قدرًا وشرعًا . ولهذا قال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ أي إنما حملهم على ذلك الكبر والبغي والحسد ، فأعقبهم ذلك الذلّة والصغار والمسكنة أبدًا متصلًا بذل الآخرة . ثم قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ أي إنما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله - وقيضوا لذلك - أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله ، والغشيان لمعاصي الله ، والاعتداء في شرع الله ، فعياذًا بالله من ذلك ، والله ﷻ المستعان . عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم ثلاثمائة نبي ، ثم يقوم سوق بقلهم في آخر النهار .

﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

عن ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ﴾ قال : لا يستوي أهل الكتاب وأمة محمّد ﷺ . ويؤيد هذا القول ما روي عن ابن مسعود قال : أخّر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد ، فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال : « أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الأَدْيَانِ أَحَدٌ يَذْكُرُ اللهَ هَذِهِ السَّاعَةَ غَيْرُكُمْ » قال : فنزلت هذه الآيات ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) والمشهور عند كثير من المفسرين كما ذكره محمّد بن إسحاق وغيره ، وعن ابن عبّاس : أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن شعبة وغيرهم . أي لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب ، وهؤلاء الذين

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٦/١) .

أسلموا . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾ أي ليسوا كلهم على حد سواء ، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ أي قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه متبعة نبي الله ، فهي قائمة يعني مستقيمة ﴿ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ أي يقيمون الليل ، ويكثرون التهجد ، ويتلون القرآن في صلواتهم ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وهؤلاء هم المذكورون في آخر السورة ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ الآية . ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ﴾ أي لا يضيع عند الله بل يجزيهم به أوفر الجزاء ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ أي لا يخفى عليه عمل عامل ، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملاً .

ثم قال تعالى مخبرًا عن الكفرة المشركين بأنه ﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أي لا ترد عنهم بأس الله ولا عذابه إذا أراده بهم ﴿ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ثم ضرب مثلاً لما ينفقه الكفار في هذه الدار ، فقال تعالى : ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ أي برد شديد وقيل : برد وجليد ، وقيل : نار ، وهو يرجع إلى الأول فإن البرد الشديد ولا سيما الجليد يحرق الزروع والثمار كما يحرق الشيء بالنار ﴿ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾ أي فأحرقته ، يعني بذلك السعفة إذا نزلت على حرث قد آن جذاذه أو حصاده فدمرته وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع فذهبت به وأفسدته ، فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه فكذلك الكفار يمحق الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا وثمرها ، كما يذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب صاحبه . وكذلك هؤلاء بنوها على غير أصل ، وعلى غير أساس ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة ، أي يطلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم ، والمنافقون بجهدهم وطاقتهم لا يألون المؤمنين خبالاً ، أي يسعون في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن ، وبما يستطيعون من المكر والخديعة ، ويودون ما يعنت المؤمنين ويحرجهم ويشق عليهم . وقوله تعالى : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ ﴾ أي من غيركم أهل الأديان ، وبطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على داخل أمره . عن ابن أبي الدهقانة قال : قيل لعمر بن الخطاب ﷺ : إن ههنا غلامًا من أهل الحيرة حافظ كاتب ، فلو اتخذته كاتبًا ؟ فقال : قد اتخذت إذًا بطانة من دون المؤمنين . ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين ، واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ﴾ عن الأزهر بن راشد قال : كانوا يأتون أنسًا ، فإذا حدثهم

بحديث لا يدرون ما هو أتوا الحسن - يعني البصري - فيفسر لهم ، قال : فحدث ذات يوم عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تستضيئوا بنار المشركين ، ولا تنقشوا في خواتيمكم عربيًا » فلم يدروا ما هو ، فأتوا الحسن فقالوا له : إن أنسًا حدثنا أن رسول اللّه ﷺ قال : « لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا في خواتيكم عربيًا » فقال الحسن : أما قوله « لا تنقشوا في خواتيمكم عربيًا » : محمد ﷺ ، وأما قوله : « لا تستضيئوا بنار المشركين » يقول : لا تستشيروا المشركين في أموركم . ثم قال الحسن : تصديق ذلك في كتاب اللّه ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ [1] . هذا التفسير فيه نظر ومعناه ظاهر « لاَ تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًّا » أي بخط عربي لئلا يشابه نقش خاتم النبيّ ﷺ فإنه كان نقشه محمّد رسول اللّه ؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح أنه نهى أن ينقش أحد على نقشه . وأما الاستضاءة بنار المشركين فمعناه لا تقاربوهم في المنازل بحيث تكونون معهم في بلادهم ، بل تباعدوا منهم وهاجروا من بلادهم .

ثم قال تعالى : ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ أي قد لاح على صفحات وجوههم ، وفلتات ألسنتهم من العداوة مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ، ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ أي أنتم أيها المؤمنون تحبون المنافقين بما يظهرون لكم من الإيمان فتحبونهم على ذلك ، وهم لا يحبونكم لا باطنًا ولا ظاهرًا ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ ﴾ أي ليس عندكم في شيء منه شك ولا ريب ، وهم عندهم الشك والريب والحيرة . عن ابن عبّاس ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ ﴾ أي بكتابكم وكتابهم ، وبما مضى من الكتب قبل ذلك ، وهم يكفرون بكتابكم ، فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم . رواه ابن جرير ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ .

قال ابن مسعود والسدي والربيع بن أنس : الأنامل الأصابع . وهذا شأن المنافقين يظهرون للمؤمنين الإيمان والمودة ، وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه . قال اللّه تعالى : ﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ، ويغيظكم ذلك منهم ، فاعلموا أن اللّه متم نعمته على عباده المؤمنين ، ومكمل دينه ، ومعل كلمته ، ومظهر دينه ، فموتوا أنتم بغيظكم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي هو عليم بما تنطوي عليه ضمائركم وتكنه سرائركم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين ، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تأملون ، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها لا محيد لكم عنها ، ولا خروج لكم منها . ثم قال تعالى : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ﴾ وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين ، وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب ونصر وتأييد وكثروا وعز أنصارهم ساء ذلك المنافقين ، وإن أصاب المسلمين سنة أي جدب أو أديل عليهم الأعداء لما للّه تعالى في ذلك من الحكمة - كما جرى يوم أُحد - فرح المنافقون بذلك . قال اللّه تعالى مخاطبًا للمؤمنين : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ الآية . يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار ، وكيد الفجّار ، باستعمال الصبر والتقوى والتوكّل

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٩٩) والبيهقي في السنن (١٠/٢٧) .

على الله ، الذي هو محيط بأعدائهم ، فلا حول ولا قوة لهم إلّا به ، وهو الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا يقع في الوجود شيء إلّا بتقديره ومشيئته ، ومن توكل عليه كفاه .

ثم شرع تعالى في ذكر قصة أُحد وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين ، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين ، وبيان الصابرين ، فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

المراد بهذه الوقعة يوم أُحد عند الجمهور . وعن الحسن البصري المراد بذلك يوم الأحزاب . وهو غريب لا يعول عليه . وكانت وقعة أُحد يوم السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة . قال قتادة : لإحدى عشرة ليلة خلت من شوّال . وقال عكرمة : يوم السبت للنصف من شوال . وكان سببها أن المشركين حين قتل من قتل من أشرافهم يوم بدر ، وسلمت العير بما فيها من التجارة التي كانت مع أبي سفيان قال أبناء من قتل ، ورؤساء من بقي لأبي سفيان : ارصد هذه الأموال لقتال محمّد ، فأنفقوها في ذلك ، فجمعوا الجموع والأحابيش ، وأقبلوا في نحو من ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريبًا من أُحد ، تلقاء المدينة ، فصلى رسول الله ﷺ يوم الجمعة ، فلما فرغ منها صلى على رجل من بني النجار يقال له مالك ابن عمرو ، واستشار رسول الله ﷺ الناس : أَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ أَمْ يَمْكُثُ بِالْمَدِينَةِ ، فأشار عبد الله بن أُبي بالمقام بالمدينة ، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين . وأشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهد بدرًا بالخروج إليهم ، فدخل رسول الله ﷺ فلبس لأمته وخرج إليهم ، وقد ندم بعضهم ، وقالوا : لعلنا استكرهنا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله إن شئت أن نمكث ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لأُمَتَهُ أَنْ يَرْجِعَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ لَهُ » فسار ﷺ في ألف من أصحابه ، فلما كانوا بالشوط رجع عبد الله بن أُبي بثلث الجيش مغضبًا لكونه لم يرجع إلى قوله ، وقال هو وأصحابه : لو نعلم اليوم قتالًا لاتبعناكم ، ولكنا لا نراكم تقاتلون . واستمر رسول الله ﷺ سائرًا حتى نزل الشعب من أُحد في عدوة الوادي ، وجعل ظهره وعسكره إلى أُحد وقال : « لاَ يُقَاتِلَنَّ أَحَدٌ حَتَّى نَأْمُرَهُ بِالْقِتَالِ » .

وتهيأ رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمائة من أصحابه ، وأمّر على الرماة عبد الله بن جبير أخا بني عمرو بن عوف . والرماة يومئذ خمسون رجلًا فقال لهم : « انْضَحُوا الْخَيْلَ عَنَّا ، وَلاَ نُؤْتَيَنَّ مِنْ قِبَلِكُمْ ، وَالْزَمُوا مَكَانَكُمْ إِنْ كَانَتِ النَّوْبَةُ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونا تَخَطَّفُنَا الطَّيْرُ فَلا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ » وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين ، وأعطى اللواء مصعب بن عمير أخا بني عبد الدار . وأجاز رسول الله ﷺ بعض الغلمان يومئذ وأخّر آخرين حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم بقريب من سنتين ، وتهيأت قريش وهم ثلاثة آلاف ، ومعهم مائة فرس قد جنبوها ، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة ابن أبي جهل ، ودفعوا اللواء إلى بني عبد الدار ، ثم كان بين الفريقين ما سيأتي تفصيله في موضعه إن شاء الله تعالى [١] . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ أي تنزلهم منازلهم ،

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٢/٦٤ - ٧١) .

وتجعلهم ميمنة وميسرة وحيث أمرتهم ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي سميع لما تقولون ، عليم بضمائركم .

وقد أورد ابن جرير ههنا سؤالًا حاصله : كيف تقولون إن النبيَّ ﷺ خرج إلى أُحُد يوم الجمعة بعد الصلاة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ الآية . ثم كان جوابه عنه أن غدوه ليبوأهم مقاعد إنما كان يوم السبت أول النهار (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ﴾ قال عمر : سمعت جابر بن عبد الله يقول : فينا نزلت ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ﴾ الآية . قال : نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة ، وما نحب - وقال سفيان مرة : وما يسرني - أنها لم تنزل لقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ أي يوم بدر ، وكان يوم الجمعة وافق السابع عشر من شهر رمضان من سنة اثنتين من الهجرة ، وهو يوم الفرقان الذي أعزّ الله فيه الإسلام وأهله ، ودمغ فيه الشرك وخرب محله وحزبه . هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا ، فيهم فارسان وسبعون بعيرًا ، والباقون مشاة ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه . وكان العدوُّ يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد ، والبيض ، والعدة الكاملة ، والخيول المسوَّمة ، والحلي الزائد . فأعز الله رسوله ، وأظهر وحيه وتنزيله ، وبيّض وجه النبي وقبيله ، وأخزى الشيطان وجيله . ولهذا قال تعالى ممتنًّا على عباده المؤمنين وحزبه المتقين ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ أي قليل عددكم ، لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله ، لا بكثرة العدد والعُدد . عن سماك قال : سمعت عياضًا الأشعري قال : شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء ، أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وابن حسنة وخالد بن الوليد ، وعياض - وليس عياض هذا الذي حدث سماكًا - قال : وقال عمر : إذا كان قتالًا فعليكم أبو عبيدة ، قال : فكتبنا إليه أنه قد جاش إلينا الموت ، واستمددناه ، فكتب إلينا إنه قد جاءني كتابكم تستمدونني ، وإني أدلكم على من هو أعز نصرًا ، وأحصن جندًا ، لله ﷻ ، فاستنصروه ؛ فإن محمدًا ﷺ قد نصر في يوم بدر في أقل من عدتكم ، فإذا جاءكم كتابي هذا فقاتلوهم ولا تراجعوني . قال : فقاتلناهم فهزمناهم أربع فراسخ ، قال : وأصبنا أموالًا فتشاورنا ، فأشار علينا عياض أن نعطي عن كل ذي رأس عشرة . قال : وقال أبو عبيدة : من يراهنني ؟ فقال شاب : أنا إن لم تغضب ، قال : فسبقه فرأيت عقيصتي أبي عبيدة ، ينفران وهو خلفه على فرس أعرابي (٣) . وبدر محلة بين مكة والمدينة تعرف ببئرها منسوبة إلى رجل حفرها يقال له بدر بن النارين ، قال الشعبي : بدر بئر لرجل يسمى بدرًا . وقوله : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي تقومون بطاعته .

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

(١) تفسير الطبري (٤/٩٤) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٥٨) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٩) .

اختلف المفسرون في هذا الوعد : هل كان يوم بدر أو يوم أُحد ؟ على قولين :

أحدهما : أن قوله : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ متعلق بقوله : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ ، واختاره ابن جرير . عن عامر - يعني الشعبي - : أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر يمد المشركين ، فشق ذلك عليهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾ قال : فبلغت كرزًا الهزيمة فلم يمد المشركين ، ولم يمد الله المسلمين بالخمسة . وقال الربيع بن أنس : أمدَّ الله المسلمين بألف ، ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف . فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية على هذا القول وبين قوله في قصة بدر : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ؟ فالجواب أن التنصيص على الألف ههنا لا ينافي الثلاثة آلاف فما فوقها لقوله : ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ بمعنى يردفهم غيرهم ، ويتبعهم ألوف أخر مثلهم . وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران ؛ فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو معروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر .

القول الثاني : إن هذا الوعد متعلق بقوله : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ وذلك يوم أُحد ، وهو قول مجاهد وعكرمة والضحاك . لكن قالوا : لم يحصل الإمداد بالخمسة آلاف ؛ لأن المسلمين فروا يومئذ ، زاد عكرمة ولا بالثلاثة آلاف لقوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾ فلم يصبروا بل فروا فلم يمدوا بملك واحد .

وقوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾ يعني تصبروا على مصابرة عدوكم ، وتتقوني وتطيعوا أمري . وقوله تعالى : ﴿ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا ﴾ أي من وجههم هذا . وقال عكرمة : من غضبهم هذا . وقال ابن عباس : من سفرهم هذا . وقوله تعالى : ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ أي معلمين بالسيما . عن علي بن أبي طالب ﷺ قال : كان سيما الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض ، وكان سيماهم أيضًا في نواصي خيولهم ، وعن أبي هريرة ﷺ في هذه الآية ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾ قال : بالعهن الأحمر . وقال مجاهد : ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾ أي محذفة أعرافها ، معلمة نواصيها بالصوف الأبيض في أذناب الخيل . وقال قتادة وعكرمة : ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾ أي بسيما القتال . وقال مكحول : ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾ بالعمائم . وعن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ في قوله : ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾ قال : « مُعَلَّمِينَ ، وَكَانَ سِيمَا الْمَلَائِكَةِ يَوْمَ بَدْرٍ عَمَائِمَ سُودًا ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ عَمَائِمَ حُمْرًا » (١) ، وعن ابن عبّاس قال : لم تقاتل الملائكة إلَّا يوم بدر . وقال ابن عبّاس : كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض قد أرسلوها في ظهورهم ، ويوم حنين عمائم حمر ، ولم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر ، وكانوا يكونون عددًا ومددًا لا يضربون .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ﴾ أي وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلَّا بشارة لكم ، وتطييبًا لقلوبكم وتطمينًا ، وإلَّا فإنما النصر من عند الله ، الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم ، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ أي هو ذو العزة التي لا ترام ، والحكمة في قدره والأحكام .

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٤٦٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢٧/٦) .

ثم قال تعالى : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ أي أمركم بالجهاد والجلاد لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير ، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار المجاهدين فقال : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا ﴾ أي ليهلك أمة ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ ﴾ أي يرجعوا ﴿ خَآئِبِينَ ﴾ أي لم يحصلوا على ما أملوا . ثم اعترض بجملة دلت على أن الحكم في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له فقال تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ أي بل الأمر كله إليّ ، وقال محمد بن إسحاق في قوله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ أي ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم ، ثم ذكر بقية الأقسام فقال : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي مما هم فيه من الكفر فيهديهم بعد الضلالة ﴿ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ أي في الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم ، ولهذا قال : ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ أي يستحقون ذلك .

عن سالم عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلانًا وَفُلانًا ، اللَّهُمَّ الْعَنِ الحَارِثَ ابْنَ هِشَامٍ ، اللَّهُمَّ الْعَنْ سُهَيلَ بْنَ عَمْرٍو ، اللَّهُمَّ الْعَنْ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ » فنزلت هذه الآية ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ فتيب عليهم كلهم (١) . وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع وربما قال ، إذا قال : سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ، رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ : « اللَّهُمَّ أَنْجِ الوَلِيدَ بْنَ الوَلِيدِ ، وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ ، وَعَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ » (٢) يجهر بذلك .

عن أنس ﷺ أن النبيَّ ﷺ كسرت رباعيته يوم أُحد ، وشج في وجهه ، حتى سال الدم على وجهه فقال : « كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ ﷻ ؟ » فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ (٣) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية أي الجميع ملك له ، وأهلهما عبيد بين يديه ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ أي هو المتصرف فلا معقب لحكمه ، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ .

يقول تعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن تعاطي الربا ، وأكله أضعافًا مضاعفة ، كما كانوا يقولون : إذا حل أجل الدين إما أن تقضي ، وإما أن تربي ، فإن قضاه وإلا زاده في المدة وزاده الآخر في القدر ، وهكذا كل عام ، فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيرًا مضاعفًا (٤) . وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٦٩) وأحمد في مسنده (٩٣/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣٢) وأحمد في مسنده (٤٧٠/٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٩٩/٣) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥/٢)

وفي الآخرة ، ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها فقال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۝ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ثم ندبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمسارعة إلى نيل القربات فقال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي كما أعدت النار للكافرين ، وقد قيل : إن في معنى قوله : ﴿ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ تنبيهًا على اتساع طولها ، كما قال في صفة فرش الجنة : ﴿ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ أي فما ظنك بالظهائر . وقيل : بل عرضها كطولها ؛ لأنها قبة فيه تحت العرش ، والشيء المقبب والمستدير عرضه كطوله ، وقد دل على ذلك ما ثبت في الصحيح : « إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهِ الجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ ؛ فَإِنَّهُ أَعْلَى الجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الجَنَّةِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ ، وَسَقْفُهَا عَرْشُ الرَّحْمنِ » (١) . وقد روينا في مسند الإمام أحمد أن هرقل كتب إلى النبيّ ﷺ : إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار ؟ فقال النبيّ ﷺ : « سُبْحَانَ اللَّه ! فَأَيْنَ اللَّيْلَ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ » (٢) . وهذا يحتمل معنيين :

أحدهما : أن يكون المعنى في ذلك أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون في مكان ، وإن كنا لا نعلمه . وكذلك النار تكون حيث شاء اللَّه ﷻ ، وهذا أظهر كما تقدم في حديث أبي هريرة .

الثاني : أن يكون المعنى أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب ، فإن الليل يكون من الجانب الآخر ، فكذلك الجنّة في أعلى عليين فوق السموات تحت العرش ، وعرضها كما قال اللَّه ﷻ : ﴿ كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ والنار في أسفل سافلين ، فلا تنافي بين كونها كعرض السموات والأرض ، وبين وجود النار ، واللَّه أعلم .

ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ أي في الشدة والرخاء ، والمنشط والمكره ، والصحة والمرض ، وفي جميع الأحوال . والمعنى : أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة اللَّه تعالى ، والإنفاق في مراضيه ، والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر . وقوله تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ أي إذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه فلم يعملوه ، وعفوا مع ذلك عمن أساء إليهم . وعن أنس بن مالك قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ ؛ كَفَّ اللَّه عَنْهُ عَذَابَهُ ، وَمَنْ خَزَنَ لِسَانَهُ ؛ سَتَرَ اللَّه عَوْرَتَهُ ، وَمَنِ اعْتَذَرَ إِلَى اللَّه قَبِلَ اللَّه عُذْرَهُ » (٣) . وعن أبي هريرة ﷺ عن النبيّ ﷺ قال : « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ ؛ وَلَكِنَ الشَّدِيدَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ » (٤) . وعن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ ؟ » قالوا : يا رسول اللَّه ، ما منا أحد إلَّا ماله أحب إليه من مال وارثه ، قال : « واعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ ، مَا لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا قَدَّمْتَ ، وَمَا لِوَارِثِكَ إِلَّا مَا أَخَّرْتَ » قال : وقال رسول اللَّه ﷺ : « مَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ ؟ » قلنا : الذي لا تصرعه الرجال ، قال : « لاَ ، وَلَكِنِ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ » . قال : وقال رسول اللَّه ﷺ : « أَتَدْرُونَ مَا الرَّقُوبُ ؟ » قلنا : الذي لا ولد له ، قال : « لاَ ، وَلَكِنِ الرَّقُوبَ الَّذِي لا يُقَدِّمُ مِنْ وَلَدِهِ شَيْئًا » (٥) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٩/٢) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٢/٣) .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٥٣/١٢) والمنذري في الترغيب (٥٢٥/٣) والألباني في الصحيحة (٦٠٨/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٤) ومسلم في البر والصلة (١٠٧) .

(٥) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٢) وأحمد في مسنده (٣٨٢/١) والنسائي في السنن (٣٦١٢) .

وعن الأحنف بن قيس عن عم له : يقال له حارثة بن قدامة السعدي أنه سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله قل لي قولًا ينفعني ، وأقلل عليَّ لعلي أعيه . فقال رسول الله ﷺ : « لاَ تَغْضَبْ » فأعاد عليه حتى أعاد عليه مرارًا ، كل ذلك يقول : « لاَ تَغْضَبْ » (١) .

وعن أبي ذر ﷺ : قال : كان يسقي على حوض له فجاء قوم فقالوا : أيكم يورد على أبي ذر ويحسب شعرات من رأسه ؟ فقال رجل : أنا ، فجاء فأورد على الحوض فدقه ، وكان أبو ذر قائمًا فجلس ، ثم اضطجع ، فقيل له : يا أبا ذر لم جلست ثم اضطجعت ؟ فقال : إن رسول الله قال لنا : « إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الغَضَبُ ، وَإِلاَّ فَلْيَضْطَجِعْ » (٢) .

وعن وائل الصنعاني قال : كنا جلوسًا عند عروة بن محمَّد إذ دخل عليه رجل فكلمه بكلام أغضبه ، فلما أن أغضبه قام ثم عاد إلينا وقد توضأ فقال : حدَّثني أبي عن جدي عطية هو ابن السعدي - وقد كانت له صحبة - قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بالمَاءِ ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ » (٣) .

وعن ابن عبّاس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ ، وَقَاهُ اللَّه مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ ، أَلاَ إِنَّ عَمَلَ الجنَّةِ حَزْنٌ بَرَبْوَةٍ - ثلاثًا - أَلاَ إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُقِيَ الفِتَنَ ، وَمَا مِنْ جرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللَّه مِنْ جرْعَةِ غَيْظٍ يَكْظِمُهَا عَبْدٌ ، مَا كَظَمَهَا عَبْدٌ للَّه إِلَّا مَلأَ اللَّه جَوْفَهُ إِيمَانًا » (٤) .

عن معاذ بن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ ؛ دَعَاهُ اللَّه عَلَى رَءُوسِ الخَلاَئِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَيِّ الحُورِ شَاءَ » (٥) .

وعن ابن عمر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ مِنْ جرْعَةٍ أَفْضَلَ أَجْرًا مِنْ جرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّه » (٦) .

فقوله تعالى : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ أي لا يعلمون غضبهم في الناس ، بل يكفون عنهم شرهم ويحتسبون ذلك عند الله ﷻ . ثم قال تعالى : ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ أي مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم ، فلا يبقى في أنفسهم موجدة على أحد ، وهذا أكمل الأحوال ، ولهذا قال : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فهذا من مقامات الإحسان . وفي الحديث : « ثَلاَثٌ أُقسمُ عَلَيْهِنَّ : ما نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ ، وَمَا زَادَ اللَّه عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا ، وَمَنْ تَوَاضَعَ للَّه رَفَعَهُ اللَّه » (٧) . وعن أبيّ ابن كعب أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُشْرَفَ لَهُ البُنْيَانُ ، وَتُرْفَعَ لَهُ الدَّرَجَاتُ ، فَلْيَعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَهُ ، وَيُعْطِ مَنْ حَرَمَهُ ، وَيَصِلْ مَنْ قَطَعَهُ » (٨) .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي إذا

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٦١٥/٣) وأحمد في مسنده (٣٤/٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٢/٥) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٦/٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٧/٣) والحاكم في المستدرك (٢٩/٢) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٠/٣) وابن ماجه في السنن (٤١٨٦) والبيهقي في السنن (١٦١/٨) .
(٦) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤١٨٩) . (٧) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣١/٤) .
(٨) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٩٥/٢) .

صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار . عن أبي هريرة ﷺ ، عن النبيّ ﷺ قال : « إِنَّ رَجُلًا أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ لِي ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ : عَبْدِي عَمِلَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِهِ ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ لِي ، فَقَالَ ﷻ : عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِهِ ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ : عَبْدِي عَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِهِ ، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ » (١)

وعن أبا هريرة قلنا : يا رسول الله إذا رأيناك رقت قلوبنا ، وكنا من أهل الآخرة ، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد ، فقال : « لَوْ أَنَّكُمْ تَكُونُونَ عَلَى كُلِّ حَالٍ عَلَى الحَالِ الَّتِي كُنْتُمْ عَلَيْهَا عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ بِأَكُفِّهِمْ ، وَلَزَارَتْكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ . وَلَوْ لَمْ تُذْنِبُوا ؛ لَجَاءَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ كَيْ يَغْفِرَ لَهُمْ » قلنا : يا رسول الله ، حدِّثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال : « لَبِنَةُ ذَهَبٍ ، وَلَبِنَةُ فِضَّةٍ ، وَمِلَاطُهَا المِسْكُ الأَذْفَرُ ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَاليَاقُوتُ ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ ، مَنْ يَدْخُلْهَا يَنْعَمْ لاَ يَبْأَسْ ، وَيُخْلَدْ لاَ يَمُوتُ ، لا تَبْلَى ثِيَابُهُ ، وَلاَ يَفْنَى شَبَابُهُ ، ثَلاَثَةٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ : الإِمَامُ العَادِلُ ، والصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الغَمَامِ وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَيَقُولُ لَهُ الرَّبُّ : وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ » (٢)

ويتأكد الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة لما رواه علي ﷺ قال : كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا نفعني الله بما شاء منه ، وإذا حدثني عنه غيره استحلفته فإذا حلف لي صدقته ، وإن أبا بكر ﷺ حدَّثني وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيَتَوَضَّأُ وَيُحْسِنُ الوُضُوءَ - قَالَ مسعر : فيصلي ، وقال سفيان : ثُمَّ يُصَلِّي - رَكْعَتَيْنِ فيستغفرُ اللَّهَ ﷻ إِلَّا غُفِرَ لَهُ » (٣) .

وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ أنه توضأ لهم وضوء النبيِّ ﷺ ثم قال : سمعت النبيَّ ﷺ يقول : « مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لاَ يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » (٤) فقد ثبت هذا الحديث من رواية الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين ، عن سيد الأولين والآخرين ، ورسول رب العالمين ، كما دل عليه الكتاب المبين ، من أن الاستغفار من الذنب ينفع العاصين .

عن أنس بن مالك ﷺ قال : بلغني أن إبليس حين نزلت هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ الآية ، بكى . وعن أبي بكر ﷺ عن النبي ﷺ قال : « عَلَيْكُمْ بلاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالاسْتِغْفَارِ ، فَأَكْثِرُوا مِنْهُمَا ، فَإِنَّ إِبْلِيسَ قَالَ : أَهْلَكْتُ النَّاسَ بِالذُّنُوبِ ، وَأَهْلَكُونِي بِلاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالاسْتِغْفَارِ ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ أَهْلَكْتُهُمْ بِالأَهْوَاءِ ، فَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ » (٥) . وعن أبي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٦/٢) والبخاري في التوحيد (٧٥١٧) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٤/٢) والترمذي في السنن (٢٤٥٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/١) وابن ماجه في السنن (١٣٩٥) .
(٤) أخرجه البخاري في الوضوء (١٦٤) ومسلم في الطهارة (٤) .
(٥) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٣٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٠٧/١٠) والحديث إسناده ضعيف .

سعيد عن النبيّ ﷺ قال : « قَالَ إِبْلِيسُ : يَا رَبِّ وَعِزَّتِكَ لا أَزَالُ أَغْوِي بَنِي آدَمَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ في أَجْسَادِهِمْ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالى : وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي لاَ أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ ما اسْتَغْفَرُونِي » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ أي لا يغفرها أحد سواه ، عن الأسود بن سريع أن النبيّ ﷺ أتي بأسير فقال : اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمّد ، فقال النبيّ ﷺ : « عَرَفَ الحَقَّ لِأَهْلِهِ » (٢) . وقوله : ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عن قريب ، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها ، ولو تكرر منهم الذنب تابوا منه . عن أبي بكر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا أَصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِي اليَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً » (٣) .

وقوله : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ قال مجاهد وعبد الله بن عبيد بن عمير : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي من تاب تاب الله عليه . عن عبد الله بن عمرو عن النبيّ ﷺ أنه قال وهو على المنبر : « ارْحَمُوا تُرْحَمُوا ، وَاغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ ، وَيْلٌ لأَقْمَاعِ القَوْلِ ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » (٤) . ثم قال تعالى بعد وصفهم بما وصفهم به : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أي جزاؤهم على هذه الصفات مغفرة من ربهم ﴿ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي من أنواع المشروبات ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ﴾ أي ماكثين فيها ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ يمدح تعالى الجنّة .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا عباده المؤمنين لما أصيبوا يوم أُحد وقتل منهم سبعون : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ أي قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء ، ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾ يعني القرآن فيه بيان الأمور على جليتها ، وكيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ ﴾ يعني القرآن فيه خبر ما قبلكم وهدى لقلوبكم ﴿ وَمَوْعِظَةٌ ﴾ أي زاجر عن المحارم والمآثم . ثم قال تعالى مسليًا للمؤمنين : ﴿ وَلَا تَهِنُواْ ﴾ أي لا تضعفوا بسبب ما جرى ﴿ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي العاقبة والنصرة لكم أيها المؤمنون ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥۚ ﴾ إن كنتم قد أصابتكم جراح ، وقتل منكم طائفة ، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي نديل عليكم الأعداء تارة ، وإن كانت لكم العاقبة لما لنا في ذلك من الحكمة ، ولهذا قال تعالى :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٦/٣) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٥٥/٤) وأحمد في مسنده (٤٣٥/٣) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (١٥١٤) والبيهقي في السنن (١٨٨/١٠) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٥/٢) .

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ قال ابن عباس : في مثل هذا لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ يعني يقتلون في سبيله ويبذلون مهجهم في مرضاته ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي يكفر عنهم من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب . وإلَّا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به . وقوله : ﴿ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي فإنهم إذا ظفروا ، بغوا وبطروا ، فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم .

ثم قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أي أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد ، كما قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ الآية ، ولهذا قال ههنا : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أي لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله ، والصابرين على مقاومة الأعداء .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ أي قد كنتم أيها المؤمنون قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو ، وتحترقون عليه ، وتودون مناجزتهم ومصابرتهم ، فها قد حصل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه ، فدونكم فقاتلوا وصابروا . وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ ، وَسَلُوا اللَّهَ العَافِيَةَ ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ » (١) ولهذا قال تعالى : ﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ ﴾ يعني الموت شاهدتموه وقت حد الأسنة واشتباك الرماح وصفوف الرجال للقتال ، والمتكلمون يعبرون عن هذا بالتخييل ، وهو مشاهدة ما ليس بمحسوس كالمحسوس كما تتخيل الشاة صداقة الكبش ، وعداوة الذئب .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ۝ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

لما انهزم من انهزم المسلمين يوم أُحد ، وقتل من قتل منهم ، نادى الشيطان : ألا إن محمدًا قد قتل ، ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم : قتلت محمدًا ، وإنما كان قد ضرب رسول الله فشجه في رأسه ، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس ، واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قتل وجوزوا عليه ذلك . كما قص الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام ، فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال ، ففي ذلك أنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ أي له أسوة بهم في الرسالة ، وفي جواز القتل عليه . قال ابن أبي نجيح عن أبيه : إن رجلاً من المهاجرين مر على رجل من

---

(١) أخرجه البخاري في التمنى (٧٢٣٧) ومسلم في الجهاد (١٩) .

الأنصار وهو يتشحط في دمه فقال له : يا فلان أشعرت أن محمدًا ﷺ قد قتل ؟ فقال الأنصاري : إن كان محمدًا قد قتل فقد بلغ ، فقاتلوا عن دينكم فنزل ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ .

ثم قال تعالى منكرًا على من حصل له ضعف : ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ أي رجعتم القهقرى ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّـٰكِرِينَ ﴾ أي الذين قاموا بطاعته ، وقاتلوا عن دينه ، واتبعوا رسوله حيًّا وميتًا . عن أبي سلمة أن عائشة رضي الله عنها أخبرته أن أبا بكر رضي الله عنه أقبل على فرس من مسكنه بالسنح ، حتى نزل فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة ، فتيمَّم رسول الله ﷺ وهو مغطى بثوب حبرة : فكشف عن وجهه ، ثم أكب عليه وقبَّلة وبكى ثم قال : بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين : أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها . وعن ابن عبَّاس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس وقال : اجلس يا عمر ، قال أبو بكر : أما بعد من كان يعبد محمَّدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّـٰكِرِينَ ﴾ قال : فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر ، فتلاها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشرًا من الناس إلَّا يتلوها . وأخبرني سعيد بن المسيَّب أن عمر قال : والله ما هو إلَّا أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعرقت حتى ما تقلني رجلاي ، وحتى هويت إلى الأرض [1] .

عن ابن عبَّاس أن عليًا كان يقول في حياة رسول الله ﷺ ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ والله لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، والله لئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت ، والله إني لأخوه ووليه وابن عمه ووارثه فمن أحق به مني ؟ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ أي لا يموت أحد إلَّا بقدر الله ، وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له ، ولهذا قال : ﴿ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال ، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه . عن حبيب ابن ظبيان : قال : قال رجل من المسلمين وهو حجر بن عدي : ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو هذه النطفة ؟ - يعني دجلة - ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ ثم أقحم فرسه دجلة ، فلما أقحم أقحم الناس ، فلما رآهم العدوُّ قالوا : ديوان فهربوا .

وقوله : ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾ أي من كان عمله للدنيا فقط ناله منها ما قدَّره الله له ، ولم يكن له في الآخرة من نصيب ، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها وما قسم له في الدنيا كما قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى الْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ وَسَنَجْزِى الشَّـٰكِرِينَ ﴾ أي سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم .

ثم قال تعالى مسليًا للمؤمنين عما كان وقع في نفوسهم يوم أُحد : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ قيل : معناه كم من نبي قتل وقتل معه ربيون من أصحابه كثير . وهذا القول هو اختيار ابن

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٤١) .

جرير فإنه قال : وأما الذين قرأوا ﴿ قُتِلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ [١] فإنهم قالوا : إنما عنى بالقتل النبي وبعض من معه من الربيين دون جميعهم ، وإنما نفى الوهن والضعف عمن بقي من الربيين ممن لم يقتل . قال : ومن قرأ ﴿ قَٰتَلَ ﴾ فإنه اختار ذلك لأنه قال : لو قتلوا لم يكن لقول اللّٰه : ﴿ فَمَا وَهَنُواْ ﴾ وجه معروف ؛ لأنه يستحيل أن يوصفوا بأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا بعد ما قتلوا ، ثم اختار قراءة من قرأ ﴿ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ لأن اللّٰه عاتب بهذه الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أُحُد وتركوا القتال لما سمعوا الصائح يصيح بأن محمدًا قد قتل ، فعذلهم اللّٰه على فرارهم وتركهم القتال فقال لهم : ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ أيها المؤمنون ارتددتم عن دينكم ﴿ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ وقيل : وكم من نبي قتل بين يديه من أصحابه ربيون كثير . وكلام ابن إسحاق في السيرة يقتضي قولًا آخر فإنه قال : وكأين من نبي أصابه القتل ومعه ربيون أي جماعات ، فما وهنوا بعد نبيهم ، وما ضعفوا عن عدوهم ، وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن اللّٰه وعن دينهم ، وذلك الصبر ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ فجعل قوله : ﴿ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ حالًا . وقد نصر هذا القول السهيلي وبالغ فيه ، وله اتجاه لقوله : ﴿ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ ﴾ الآية [٢] . وقرأ بعضهم ﴿ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ أي ألوف . وقال ابن عبَّاس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم : الربيون الجموع الكثيرة . وقيل : أي علماء كثير . وحكى ابن جرير عن بعض نحاة البصرة أن الربيين هم الذين يعبدون الرب ﷻ . قال : ورد بعضهم عليه فقال : لو كان كذلك لقيل الرَّبيون بفتح الراء . وقال ابن زيد : الربيون الأتباع والرعية ، والربانيون الولاة ﴿ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ﴾ قال قتادة والربيع بن أنس : ﴿ وَمَا ضَعُفُواْ ﴾ بقتل نبيهم ﴿ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ﴾ يقول : فما ارتدوا عن نصرتهم ولا عن دينهم ، أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي اللّٰه حتى لحقوا باللّٰه . وقال ابن عبَّاس : ﴿ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ﴾ تخشعوا . وقال ابن زيد : وما ذلوا لعدوهم . وقال محمد بن إسحاق والسدِّي وقتادة : أي ما أصابهم ذلك حين قتل نبيهم ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي لم يكن لهم هجير إلَّا ذلك ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي النصر والظفر والعاقبة ﴿ وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي جمع لهم ذلك مع هذا ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ۝ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ۝ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

---

(١) قرأ نافع وابن كثير والبصريان (قُتِلَ معه) بضم القاف وكسر التاء من غير ألف ، وقرأ الباقون (قَاتَلَ) بفتح القاف والتاء وألف بينهما (انظر : تقريب النشر ص : ١٠٢) .

(٢) السيرة لابن هشام (١١٧/٣ ، ١١٨) .

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين ؛ فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾ ثم أمرهم بطاعته وموالاته والاستعانة به والتوكُّل عليه ، فقال تعالى : ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴾ ثم بشرهم بأنه سيلقي في قلوب أعدائهم الخوف منهم ، والذلة لهم ، بسبب كفرهم وشركهم ، مع ما ادخره لهم في الدار الآخرة من العذاب والنكال فقال : ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ . عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأُحِلَّتْ لِي الغَنَائِمُ ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً » (١) . وعن ابن عبَّاس في قوله تعالى : ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾ قال : قذف الله في قلب أبي سفيان الرعب فرجع إلى مكة ، فقال النبيّ ﷺ : « إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَدْ أَصَابَ مِنْكُمْ طَرَفًا ، وَقَدْ رَجَعَ وَقَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ الرُّعْبَ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾ قال ابن عبَّاس : وعدهم الله النصر . وقد يستدل بهذه الآية على أحد القولين المتقدمين في قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ أن ذلك كان يوم أُحد ؛ لأن عدوهم كان ثلاثة آلاف مقاتل ، فلما واجهوهم كان الظفر والنصر أول النهار للإسلام ، فلما حصل ما حصل من عصيان الرماة وفشل بعض المقاتلة ، تأخر الوعد الذي كان مشروطًا بالثبات والطاعة ولهذا قال : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ ﴾ أي أول النهار ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُم ﴾ أي تقتلونهم ﴿ بِإِذْنِهِۦ ﴾ أي بتسليطه إياكم عليهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ ﴾ قال ابن عبَّاس : الفشل الجبن ﴿ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم ﴾ كما وقع للرماة ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ وهو الظفر بهم ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا ﴾ وهم الذين رغبوا في المغنم حين رأوا الهزيمة ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ ثم أدالهم عليكم ليختبركم ويمتحنكم ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾ أي غفر لكم ذلك الصنيع ، وذلك والله أعلم لكثرة عدد العدو وعددهم ، وقلة عدد المسلمين وعددهم . ﴿ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ عن ابن مسعود قال : إن النساء كنَّ يوم أُحد خلف المسلمين يجهزن على جرحى المشركين ، فلو حلفت يومئذٍ رجوت أن أبر ، أنه ليس منا أحد يريد الدنيا حتى أنزل الله ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ فلما خالف أصحاب رسول الله ﷺ وعصوا ما أمروا به ، أفرد النبي ﷺ في تسعة ، سبعة من الأنصار ، ورجلين من قريش وهو عاشرهم ﷺ ، فلما أرهقوه قال : « رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَدَّهُمْ عَنَّا » قال : فقام رجل من الأنصار فقاتل ساعة حتى قتل ، فلما أرهقوه أيضًا قال : « رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَدَّهُمْ عَنَّا » فلم يزل يقول ذلك حتى قتل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه : « مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا » فجاء أبو سفيان فقال : أعل هبل ، فقال رسول الله ﷺ : « قُولُوا : اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ » فقالوا : الله أعلى وأجل ، فقال أبو سفيان :

(١) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥) وأحمد في مسنده (١٦١/٥) .
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٨٣/٢) .

لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله ﷺ : « قُولُوا : اللَّه مَوْلَانَا وَالكَافِرُونَ لَا مَوْلَى لَهُمْ » فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، فيوم علينا ويوم لنا ، ويوم نُسَاءُ ويوم نسر ، حنظلة بحنظلة وفلان بفلان ، فقال رسول الله ﷺ : « لا سَوَاءَ : أَمَّا قَتْلانَا فَأَحْيَاءٌ يُرْزَقُونَ ، وَأَمَّا قَتْلاكُمْ فَفِي النَّارِ يُعَذَّبُونَ » فقال أبو سفيان : لقد كان في القوم مثله وإن كانت لعن غير ملامنا ، ما أمرت ولا نهيت ، ولا أحببت ولا كرهت ، ولا ساءني ولا سرني ، قال : فنظروا فإذا حمزة قد بقر بطنه ، وأخذت هند كبده فلاكتها ، فلم تستطع أن تأكلها ، فقال رسول الله ﷺ : « أَكَلَتْ شَيْئًا ؟ » قالوا : لا ، قال : « مَا كَانَ اللَّه لِيُدْخِلَ شَيْئًا مِنْ حَمْزَةَ فِي النَّارِ » قال : فوضع رسول الله ﷺ حمزة فصلى عليه ، وجيء برجل من الأنصار فوضع إلى جنبه فصلى عليه ، فرفع الأنصاري وترك حمزة حتى جيء بآخر فوضع إلى جنب حمزة فصلى عليه ، ثم رفع وترك حمزة ، حتى صلى عليه يومئذٍ سبعين صلاة [١] .

وعن عائشة ﵂ قالت : لما كان يوم أُحد هزم المشركون ، فصرخ إبليس : أي عباد الله أخراكم ، فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم ، فبصر حذيفة فإذا هو بأبيه اليمان فقال : أي عباد الله أبي أبي قال : قالت : فوالله ما احتجزوا حتى قتلوه ، فقال حذيفة : يغفر الله لكم . قال عروة : فوالله ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله ﷻ [٢] .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ وعن أنس بن مالك أن عمه - يعني أنس بن النضر - غاب عن بدر فقال : غبت عن أول قتال النبي ﷺ ، لئن أشهدني الله مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أجد ، فلقي يوم أُحد ، فهزم الناس فقال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به المشركون ، فتقدم بسيفه فلقي سعد بن معاذ فقال : أين يا سعد إني أجد ريح الجنة دون أحد ، فمضى فقتل ، فما عرف حتى عرفته أخته بشامة أو بينانه ، وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم [٣] . وعن عثمان بن موهب قال : جاء رجل حج البيت ، فرأى قومًا جلوسًا فقال : من هؤلاء القعود ؟ قالوا : هؤلاء قريش ، قال : من الشيخ ؟ قالوا : ابن عمر ، فأتاه فقال : إني سائلك عن شيء فحدثني ، قال : سل ، قال : أنشدك بحرمة هذا البيت أتعلم أن عثمان بن عفان فرَّ يوم أُحد ؟ قال : نعم ، قال : فتعلمه تغيب عن بدر فلم يشهدها ؟ قال : نعم ، قال : فتعلم أنه تخلف عن بيعة الرضوان فلم يشهدها ؟ قال : نعم ، فكبَّر ، فقال ابن عمر : تعال لأخبرك ولأبين لك عما سألتني عنه ، أما فراره يوم أُحد : فأشهد أن الله عفا عنه ، وأما تغيبه عن بدر : فإنه كان تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة ، فقال له رسول الله ﷺ : « إِنَّ لَكَ أَجْرَ رَجُلٍ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا وَسَهْمَهُ » ، وأما تغيبه عن بيعه الرضوان : فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه ، فبعث عثمان ، فكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة ، فقال النبيُّ ﷺ بيده اليمنى : « هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ » فضرب بها على يده فقال : « هَذه يَدُ عُثْمَانَ ، اذْهَبْ بِهَا الآنَ مَعَكَ » [٤] .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ ﴾ أي صرفكم عنهم إذ تصعدون ، أي في

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٣/١) .
(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٦٥) .
(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٤٨) .
(٤) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٦٦) .

الجبل هاربين من أعدائكم . وقرأ الحسن وقتادة ﴿ إِذْ تَصْعَدُون ﴾ أي في الجبل ﴿ وَلَا تَلْوُنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ ﴾ أي وأنتم لا تلوون على أحد من الدهش والخوف والرغب ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ أي وهو قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء ، وإلى الرجعة والعودة والكرة . قال السدي : لما اشتد المشركون على المسلمين بأُحُد فهزموهم ، دخل بعضهم المدينة وانطلق بعضهم إلى الجبل فوق الصخرة فقاموا عليها ، فجعل الرسول ﷺ يدعو الناس « إِلَيَّ عِبَادَ اللَّه ، إِلَيَّ عِبَادَ اللَّه » [1] فذكر الله صعودهم إلى الجبل ، ثم ذكر دعاء النبيّ ﷺ إياهم فقال : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ . وقال عبد الله بن الزبعرى : يذكر هزيمة المسلمين يوم أُحد في قصيدته وهو مشرك بعد لم يسلم ، التي يقول في أولها :

يَا غُرَابَ البَيْنِ أَسْمَعْتَ فَقُلْ ... إِنَّمَا تَنْطِقُ شَيْئًا قَدْ فُعِلْ
إِنَّ لِلْخَيْرِ وَلِلشَّرِّ مَدًى ... وَكِلَا ذَلِكَ وَجْهٌ وَقَبَلْ

إلى أن قال :

ثُمَّ خَفُّوا عِنْدَ ذَاكُمْ رَقَصًا ... رَقَصَ الحَفَّانِ يَعْلُو فِي الجَبَلْ
فَقَتَلْنَا الضِّعْفَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ ... وَعَدَلْنَا مَيْلَ بَدْرٍ فَاعْتَدَلْ

الحفان : صغار النعم . وقد كان النبيّ ﷺ قد أفرِد في اثني عشر رجلًا من أصحابه . عن البراء بن عازب ﷺ قال : جعل رسول الله ﷺ على الرماة يوم أُحد - وكانوا خمسين رجلًا - عبد الله بن جبير قال : ووضعهم موضعًا وقال : « إِنْ رَأَيْتُمُونا تَخَطَّفُنَا الطَّيْرُ فَلا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ » قال : فهزموهم ، قال : فلقد والله رأيت النساء يشتددن على الجبل وقد بدت أسواقهن وخلاخلهن رافعات ثيابهن ، فقال أصحاب عبد الله : الغنيمة أي قوم الغنيمة ، ظهر أصحابكم فما تنظرون ؟ قال عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : إنا والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة ، فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين ، فذلك الذي يدعوهم الرسول في أخراهم ، فلم يبق مع رسول الله ﷺ إلّا اثنا عشر رجلًا أصابوا منا سبعين ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر مائة وأربعين ، سبعين أسيرًا وسبعين قتيلًا . قال أبو سفيان : أفي القوم محمّد ؟ أفي القوم محمّد ؟ - ثلاثًا - قال : فنهاهم رسول الله ﷺ أن يجيبوه ، ثم قال : أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ أفي القوم ابن الخطاب ؟ أفي القوم ابن الخطاب ؟ ثم أقبل على أصحابه فقال : أما هؤلاء فقد قتلوا وقد كفيتموهم ، فما ملك عمر نفسه أن قال : كذبت والله يا عدو الله إن الذين عددت لأحياء كلهم ، وقد أبقى الله لك ما يسوؤك ، فقال : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، إنكم ستجدون في القوم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني . ثم أخذ يرتجز يقول : اعلُ هبل أعلُ هبل فقال رسول الله ﷺ : « أَلا تُجِيبُوهُ ؟» قالوا : يا رسول الله ما نقول ؟ قال : « قُولُوا : اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلّ» قال : لنا العزى ولا عزى لكم . قال رسول الله ﷺ : « أَلاَ تُجِيبُوهُ ؟» قالوا : يا رسول الله وما نقول ؟ قال : « قُولُوا : اللَّهُ مَوْلانَا وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ» [2] .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره(١٧٨/١٤) .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي(٤٠٤٣) وأحمد في مسنده(٢٩٣/٤) .

وعن قيس بن أبي حازم قال : رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبيّ ﷺ - يعني يوم أُحُد (١)

وعن أبي عثمان النهدي قال : لم يبق مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل فيهن رسول الله ﷺ إلّا طلحة بن عبيد الله وسعد عن حديثهما (٢) . وقال سعد بن أبي وقاص : نثل لي رسول الله ﷺ كنانته يوم أُحُد وقال : « ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي » (٣) .

وعن سعد بن أبي وقاص قال : رأيت يوم أُحُد عن يمين النبيّ ﷺ وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه أشد القتال ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده - يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام (٤) .

وعن عروة بن الزبير قال : كان أُبيُّ بن خلف أخو بني جمح قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله ﷺ ، فلما بلغت رسول الله ﷺ حلفته قال : « بَلْ أَنَا أَقْتُلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّه » فلما كان يوم أُحُد أقبل أُبيٌّ في الحديد مقنعًا وهو يقول : لا نجوت إن نجا محمَّد ، فحمل على رسول الله يريد قتله فاستقبله مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار يقي رسول الله ﷺ بنفسه ، فقتل مصعب بن عمير ، وأبصر رسول الله ﷺ ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة ، وطعنه فيها بحربته فوقع إلى الأرض عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم ، فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار الثور ، فقالوا له : ما أجزعك ؟ إنما هو خدش . فذكر لهم قول رسول الله ﷺ : « بَلْ أَنَا أَقْتُلُ أُبيًا » ثم قال : والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون ، فمات إلى النار ﴿ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

وعن ابن عبَّاس قال : اشتد غضب الله على من قتله رسول الله ﷺ بيده في سبيل الله ، واشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسول الله ﷺ (٥) . وقال ابن إسحاق : أصيبت رباعية رسول الله ﷺ ، وشج في وجنته ، وكلمت شفته ، وكان الذي أصابة عتبة بن أبي وقاص . وعن سعد بن أبي وقاص قال : ما حرصت على قتل أحد قط ما حرصت على قتل عتبة بن أبي وقاص ، وإن كان ما علمته لسيئ الخلق مبغضًا في قومه ، ولقد كفاني فيه قول رسول الله ﷺ : « اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّه عَلَى مَنْ دَمَّى وَجْهَ رَسُولِ اللَّه ﷺ » (٦) .

عن أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : كان أبو بكر إذا ذكر يوم أُحُد قال : ذاك يوم كله لطلحة ، ثم أنشأ يحدِّث قال : كنت أول من فاء يوم أُحُد ، فرأيت رجلًا يقاتل مع رسول الله ﷺ دونه - وأراه قال : حمية - فقلت : كن طلحة حيث فاتني ما فاتني ، فقلت : يكون رجلًا من قومي أحب إلي ، وبيني وبين المشركين رجل لا أعرفه وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه ، وهو يخطف المشي خطفًا لا أعرفه ، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح ، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد كسرت رباعيته وشج في وجهه ، وقد دخل في وجنته حلقتان من حلق المغفر ، فقال رسول الله ﷺ : « عَلَيْكُمَا صَاحِبُكُما » يريد طلحة ، وقد نزف فلم نلتفت إلى قوله ، قال : وذهبت لأنزع ذلك من وجهه ، فقال أبو عبيدة : أقسمت عليك بحقي لما تركتني ، فتركته ، فكره أن يتناولها بيده فيؤذي رسول الله ﷺ فأزم عليها بفيه فاستخرج إحدى الحلقتين ، ووقعت ثنيته مع الحلقة ، وذهبت لأصنع ما صنع فقال : أقسمت عليك بحقي لما تركتني ، قال : ففعل مثل ما فعل في المرة الأولى ، ووقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة ، فكان أبو عبيدة من

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٦٣) .
(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٦٠) .
(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٥٩) .
(٤) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٥٤) .
(٥) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٧٦) .
(٦) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٧٣) .

أحسن الناس هتمًا ، فأصلحنا من شأن رسول اللَّه ﷺ ، ثم أتينا طلحة في بعض تلك الجفار ، فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر من طعنة ورمية وضربة ، وإذا قد قطعت إصبعه ، فأصلحنا من شأنه (١).

وعن عمر بن السائب أنه بلغه أن مالكًا أبا أبي سعيد الخدري لما جرح النبيّ ﷺ يوم أُحد مص الجرح حتى أنقاه ولاح أبيض ، فقيل له : مجه فقال : لا واللَّه لا أمجه أبدًا ، ثم أدبر يقاتل فقال النبيّ ﷺ : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا » فاستشهد (٢) . وقد ثبت عن سهل بن سعد أنه سئل عن جرح رسول اللَّه ﷺ فقال : جرح وجه رسول اللَّه ﷺ وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه ﷺ ، فكانت فاطمة تغسل الدم ، وكان علي يسكب عليه الماء بالمجن ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلَّا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها ، حتى إذا صارت رمادًا ألصقته بالجرح فاستمسك الدم (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ ﴾ أي فجزاكم غمًا على غم كما تقول العرب : نزلت ببني فلان ، ونزلت على بني فلان . قال ابن عبَّاس : الغم الأول بسبب الهزيمة وحين قيل : قتل محمَّد ﷺ ، والثاني : حين علاهم المشركين فوق الجبل ، وقال النبيُّ ﷺ : « اللَّهُمَّ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَعْلُونَا » (٤) . وعن عبد الرحمن بن عوف : الغم الأول بسبب الهزيمة ، والثاني حين قيل قُتل محمَّد ﷺ كان ذلك عندهم أشد وأعظم من الهزيمة ، وقال السدي : الغم الأول بسبب ما فاتهم من الغنيمة والفتح ، والثاني بإشراف العدو عليهم . وقال محمَّد بن إسحاق : أي كربًا بعد كرب ، قتل من قتل من إخوانكم ، وعلو عدوكم عليكم ، وما وقع في أنفسكم من قول: قتل نبيكم ، فكان ذلك متتابعًا عليكم غمًّا بغم . قال ابن جرير : وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال : ﴿ فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ ﴾ فأثابكم نعمكم أيها المؤمنون بحرمان اللَّه إياكم غنيمة المشركين والظفر بهم والنصر عليهم ، وما أصابكم من القتل والجراح يومئذٍ بعد الذي كان قد أراكم في كل ذلك ما تحبون بمعصيتكم أمر ربكم ، وخلافكم أمر نبيكم ﷺ ، وغم ظنكم أن نبيكم قد قتل ، وميل العدو عليكم بعدفلوكم منهم . وقوله تعالى : ﴿ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ أي على ما فاتكم من الغنيمة والظفر بعدوكم ﴿ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ﴾ من الجراح والقتل ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ سبحانه وبحمده لا إله إلَّا هو جل وعلا .

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًا على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنة ، وهو النعاس الذي غشيهم وهم مشتملون السلاح في حال همهم وغمهم ، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان ، كما قال في سورة الأنفال في قصة بدر : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ الآية . عن عبد اللَّه بن مسعود قال : النعاس

---

(١) أخرجه : البيهقي في دلائل النبوة ٣/٣٦٣ ، والهندي في كنز العمال (٣٠٠٢٥) .
(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٨٣/٤) . (٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٧٥) . (٤) أخرجه : أحمد في مسنده ١٧/٦ .

في القتال من الله ، وفي الصلاة من الشيطان . عن أبي طلحة قال : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أُحد حتى سقط سيفي من يدي مرارًا ، يسقط وآخذه ، ويسقط وآخذه . عن أبي طلحة قال : غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أُحُد ، قال : فجعل سيفي يسقط من يدي ، وآخذه ويسقط وآخذه [1] . قال : والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هم إلّا أنفسهم ، أجبن قوم وأرعبه وأخذله للحق ، ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ أي إنما هم أهل شك وريب في الله ﷻ . هكذا رواه بهذه الزيادة ، كأنها من كلام قتادة رحمه الله وهو كما قال ؛ فإن الله ﷻ يقول : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾ يعني أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكّل الصادق ، وهم الجازمون بأن الله ﷻ سينصر وينجز له مأموله ، ولهذا قال : ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ يعني لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة ، وأن الإسلام قد باد وأهله ، وهذا شأن أهل الريب والشك ؛ إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة . ثم أخبر تعالى عنهم أنهم ﴿ يَقُولُونَ ﴾ في تلك الحال ﴿ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله : ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾ أي يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ . عن عبد الله بن الزبير قال : قال الزبير : لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم ، فما منا من رجل إلّا ذقنه في صدره ، قال : فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه إلّا كالحلم يقول : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا . فحفظتها منه وفي ذلك أنزل الله : ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾ لقول معتب .

قال الله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ أي هذا قدر قدّره الله ﷻ وحكم حتم لا محيد عنه ، لا مناص منه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ أي يختبركم بما جرى عليكم ليميز الخبيث من الطيب ويظهر أمر المؤمن من المنافق للناس في الأقوال والأفعال ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ﴾ أي ببعض ذنوبهم السالفة ، كما قال بعض السلف : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ أي عما كان منهم من الفرار ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ أي يغفر الذنب ، ويحلم عن خلقه ، ويتجاوز عنهم .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد ، الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٦٢) .

ماتوا في الأسفار والحروب ، لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم ، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ ﴾ أي عن إخوانهم ﴿ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي سافروا للتجارة ونحوها ﴿ أَوْ كَانُواْ غُزًّى ﴾ أي كانوا في الغزو ﴿ لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا ﴾ أي في البلد ﴿ مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ ﴾ أي ما ماتوا في السفر ، وما قتلوا في الغزو . وقوله تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي خلق هذا الاعتقاد في نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتاهم وقتلاهم . ثم قال تعالى ردًّا عليهم : ﴿ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أي بيده الخلق ، وإليه يرجع الأمر ، ولا يحيا أحد ولا يموت أحد إلَّا بمشيئته وقدره ، ولا يزاد في عمر أحد ولا ينقص منه شيء إلَّا بقضائه وقدره ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي علمه وبصره نافذ في جميع خلقه ، لا يخفى عليه من أمورهم شيء . وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ تضمن هذا أن القتل في سبيل الله ، والموت أيضًا وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه ، وذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني . ثم أخبر تعالى بأن كل من مات أو قتل فمصيره ومرجعه إلى الله ﷻ فيجزيه بعمله إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر . فقال تعالى : ﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا رسوله ممتنًا عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته ، المتبعين لأمره التاركين لزجره ، وأطاب لهم لفظة ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ أي بأي شيء جعلك الله لهم لينًا لولا رحمة الله بك وبهم . عن أبي أمامة الباهلي قال : أخذ بيدي رسول الله ﷺ فقال : « يَا أَبَا أُمَامَةَ إِنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يَلِينُ لَهُ قَلْبِي » (١) . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ والفظ الغليظ ، المراد به ههنا غليظ الكلام ، لقوله بعد ذلك : ﴿ غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ ﴾ أي لو كنت سيء الكلام ، قاسي القلب عليهم ، لا نفضوا عنك وتركوك ، ولكن الله جمعهم عليك ، وألان جانبك لهم تأليفًا لقلوبهم . كما قال عبد الله بن عمرو : إني أرى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة أنه ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح (٢) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث تطييبًا لقلوبهم ، ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه ، كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير فقالوا : يا رسول الله لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك ، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك ، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى : اذهب أنت وربك

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٧/٥) والطبراني في الكبير (١٧٧/٨) والألباني في الصحيحة (١٠٩٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٤/٢) .

فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، ولكن نقول : اذهب فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون . وشاورهم أيضًا أين يكون المنزل حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم أمام القوم . وشاورهم في أُحُد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو ، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم ، فخرج إليهم . وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ فأبى ذلك عليه السعدان ، سعد ابن معاذ وسعد بن عبادة ، فترك ذلك . وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين : فقال له الصديق : إنا لم نجئ لقتال أحد وإنما جئنا معتمرين ، فأجابه إلى ما قال . وقال ﷺ في قصة الإفك : « أَشِيرُوا عَلَيَّ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ فِي قَوْمٍ أَبنوا أَهْلِي وَرَمُوهُمْ ، وَايْمُ اللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ ، وَأَبنوهُمْ بِمَنْ ؟ وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا » (١) واستشار عليًا وأسامة في فراق عائشة رضي الله عنها . فكان النبيُّ ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها ، وقد اختلف الفقهاء هل كان ذلك واجبًا عليه أو من باب الندب تطييبًا لقلوبهم ؟ على قولين .

عن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ قال : نزلت في أبي بكر وعمر ، وكانا حواريي رسول اللَّه ﷺ ووزيريه وأبوي المسلمين ، عن عبد الرحمن بن غنم أن رسول اللَّه ﷺ قال لأبي بكر وعمر : « لَوِ اجْتَمَعْتُمَا فِي مَشُورَةٍ مَا خَالَفْتُكُمَا » (٢) . وعن جابر قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِذَا اسْتَشَارَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُشِرْ عَلَيْهِ » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي إذا شاورتهم في الأمر ، وعزمت عليه ، فتوكل على اللَّه فيه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ وهذه الآية كما تقدم من قوله : ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ ثم أمرهم بالتوكل عليه فقال : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ قال ابن عبّاس وغير واحد : ما ينبغي لنبي أن يخون . عن ابن عبّاس قال : فقدوا قطيفة يوم بدر فقالوا : لعل رسول اللَّه ﷺ أخذها ، فأنزل اللَّه : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ أي يخون . وهذا تنزيه له صلوات اللَّه وسلامه عليه من جميع وجوه الخيانة في أداء الأمانة وقسم الغنيمة وغير ذلك . وقال ابن عبّاس : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ أي بأن يقسم لبعض السرايا ويترك بعضًا . وقال محمّد بن إسحاق : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ بأن يترك بعض ما أنزل إليه ، فلا يبلغ أمته . وقرأ الحسن البصري وطاوس ومجاهد والضحاك : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يُغَل ﴾ بضم الياء أي يخان (٤) . وقال قتادة والربيع بن أنس : نزلت هذه الآية يوم بدر ، وقد غلّ بعض أصحابه . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، وقد وردت السنة بالنهي عن ذلك أيضًا في أحاديث متعددة . عن أبي مالك الأشجعي عن النبيِّ ﷺ قال : « أَعْظَمُ الْغُلُولِ عِنْدَ اللَّهِ ذِرَاعٌ مِنَ الْأَرْضِ ، تَجِدُونَ الرَّجُلَيْنِ جَارَيْنِ فِي الْأَرْضِ - أَوْ فِي الدَّارِ - فَيَقْطَعُ أَحَدُهُمَا مِنْ حَظِّ صَاحِبِهِ ذِرَاعًا ، فَإِذَا قَطَعَهُ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٥) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٩/٦) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٧/٤) . (٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٦٤٧) .

(٤) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم (يَغُلَّ) بفتح الياء وضم الغين ، وقرأ الباقون (يُغَل) بضم الياء وفتح الغين (انظر : تقريب النشر ص : ١٠٢) . (٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٠/٤) .

وعن المستورد بن شداد يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ وَلِيَ لَنَا عَمَلًا وَلَيْسَ لَهُ مَنْزِلٌ فَلْيَتَّخِذْ مَنْزِلًا ، أَوْ لَيْسَتْ لَهُ زَوْجَةٌ فَلْيَتَزَوَّجْ ، أَوْ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَتَّخِذْ خَادِمًا ، أَوْ لَيْسَ لَهُ دَابَّةٌ فَلْيَتَّخِذْ دَابَّةً ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ غَالٌّ » (١) .

وعن أبي حميد الساعدي قال : استعمل رسول الله ﷺ رجلًا من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة ، فجاء فقال : هذا لكم وهذا أهدي لي . فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال : « مَا بَالُ العَامِلِ نَبْعَثُهُ عَلَى عَمَلٍ فَيَقُولُ : هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي ؟ أَفَلا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَنْظُرُ أَيُهْدَى إِلَيْهِ أَمْ لاَ ؟ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لا يَأْتِي أَحَدُكُمْ مِنْهَا بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ » ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه ، ثم قال : « اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ » ثلاثًا (٢) .

وعن معاذ بن جبل قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن ، فلما سرت أرسل في أثري فرددت فقال : « أَتَدْرِي لِمَ بَعَثْتُ إِلَيْكَ ؟ لاَ تُصِيبَنَّ شَيْئًا بِغَيْرِ إِذْنِي فَإِنَّه غُلُولٌ ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ لِهَذَا دَعَوْتُكَ فَامْضِ لِعَمَلِكَ » (٣) . وعن أبي هريرة قال : قام فينا رسول الله ﷺ يومًا ، فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال : « لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ ، فَيَقُولُ : يا رَسُولَ اللَّه أَغِثْنِي ، فَأَقُولُ : لا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّه شَيْئًا قَدْ بَلَّغْتُكَ ، لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهَا حَمْحَمَةٌ فَيَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّه أَغِثْنِي ، فَأَقُولُ : لاَ أَمْلِكُ لك مِنَ اللَّه شَيْئًا قَدْ بَلَّغْتُكَ ، لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ ، فَيَقُولُ : يا رَسُولَ اللَّه أَغِثْنِي ، فَأَقُولُ : لا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّه شَيْئًا قَدْ بَلَّغْتُكَ » (٤) .

وعن عدي بن عميرة الكندي قال : قال رسول الله ﷺ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ عَمِلَ لَنَا مِنْكُمْ عَمَلًا فَكَتَمَنَا مِنْهُ مَخِيطًا فَمَا فَوْقَهُ فَهُوَ غلٌّ يَأْتِي بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ » قال : فقام رجل من الأنصار أسود - قال مجاهد : هو سعد بن عبادة كأني أنظر إليه - فقال : يا رسول الله ، اقبل مني عملك ، قال : « وَمَا ذَاكَ ؟ » قال : سمعتك تقول كذا وكذا ، قال : « وَأَنَا أَقُولُ ذَاكَ الآنَ ، مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَهُ ، وَمَا نُهِيَ عَنْهُ انْتَهَى » (٥)

وعن أبي رافع قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر ربما ذهب إلى بني عبد الأشهل ، فيتحدث معهم حتى ينحدر إلى المغرب ، قال أبو رافع : فبينما رسول الله ﷺ مسرعًا إلى المغرب ، إذ مر بالبقيع فقال : « أُفٍّ لَكَ ، أُفٍّ لَكَ » فلزق في درعي وتأخرت ، وظننت أنه يريدني ، فقال : « مَا لَكَ ؟ » قلت : أحدثت حدثًا يا رسول الله ؟ قال : « وَمَا ذَاكَ ؟ » قال : أفَّفتَ بي ، قال : « لا ، وَلَكِنْ هَذَا قَبْرُ فُلاَنٍ بَعَثْتُهُ سَاعِيًا عَلَى آلِ فُلانٍ ، فَغَلَّ نَمِرَةً ، فَدُرِّعَ الآنَ مِثْلَه مِنْ نَارٍ » (٦)

وعن عبادة بن الصامت قال : كان رسول الله ﷺ يأخذ الوبرة من ظهر البعير من المغنم ثم يقول : « مَا لِي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٢٣٠) .
(٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٧٤) ومسلم في الإمارة (٢٦) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٣٣٥) .
(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٧٣)
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٩٢) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٧)

فِيهِ إِلَّا مِثْلُ مَا لِأَحَدِكُمْ ، إِيَّاكُمْ وَالغُلُولَ ؛ فَإِنَّ الغُلُولَ خِزْيٌ عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، أَدُّوا الخَيْطَ وَالمَخِيطَ ، وَمَا فوق ذَلِكَ ، وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ القَرِيبَ وَالبَعِيدَ ، فِي الحَضَرِ وَالسَّفَرِ ؛ فَإِنَّ الجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ ، إِنَّه لَيُنْجِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الهَمِّ وَالغَمِّ ، وَأَقِيمُوا حُدُودَ اللَّهِ فِي القَرِيبِ وَالبَعِيدِ ، وَلاَ تَأْخُذْكُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لائِمٍ » (١).

وعن سالم بن عبد اللَّه أنه كان مع مسلمة بن عبد الملك في أرض الروم فوجد في متاع رجل غلولًا ، قال : فسأل سالم بن عبد اللَّه فقال : حدَّثني أبي عبد اللَّه عن عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال : « مَنْ وَجَدْتُمْ فِي مَتَاعِهِ غُلُولًا فَأَحْرِقُوهُ - قال : وأحسبه قال : - وَاضْرِبُوهُ » قال : فأخرج متاعه في السوق ، فوجد فيه مصحفًا فسأل سالمًا ، فقال : بعه وتصدق بثمنه (٢). وعن علي قال : الغال يجمع رحله فيحرق ، ويجلد دون حد المملوك ، ويحرم نصيبه . وخالفه أبو حنيفة ومالك والشافعي والجمهور ، فقالوا : لا يحرق متاع الغال ، بل يعز تعتزير مثله . وقد قال البخاري : وقد امتنع رسول اللَّه ﷺ من الصلاة على الغال ، ولم يحرق متاعه ، واللَّه أعلم . وقد قال عبد اللَّه بن مسعود ﷺ : أيها الناس غلُّوا المصاحف ؛ فإنه من غلَّ يأت بما غلَّ يوم القيامة ، ونعم الغلُّ المصحف ، يأتي به أحدكم يوم القيامة . وعن سمرة بن جندب قال : كان رسول اللَّه ﷺ إذا غنم أمر بلالًا فينادي في الناس فيجيئون بغنائمهم ، يخمسه ويقسمه ، فجاء رجل يومًا بعد النداء بزمام من شعر فقال : يا رسول اللَّه هذا كان مما أصبناه من الغنيمة فقال : « أَسَمِعْتَ بِلالًا يُنَادِي ؟ » ثلاثًا ، قال : نعم ، قال : « فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَجِيءَ ؟ » فاعتذر إليه فقال : « كَلَّا أَنْتَ تَجِيءُ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ ؛ فَلَنْ أَقْبَلَهُ مِنْكَ » (٣).

وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي لا يستوي من اتبع رضوان اللَّه فيما شرعه فاستحق رضوان اللَّه وجزيل ثوابه ، وأجير من وبيل عقابه ، ومن استحق غضب اللَّه وألزم به فلا محيد له عنه ، ومأواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير . ثم قال تعالى : ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ قال الحسن البصري ومحمَّد بن إسحاق : يعني أهل الخير وأهل الشر درجات . وقال أبو عبيدة والكسائي : منازل ، يعني متفاوتون في منازلهم ، درجاتهم في الجنة ودركاتهم في النار . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أي وسيوفيهم إياها ، لا يظلمهم خيرًا ، ولا يزيدهم شرًّا ، بل يجازي كل عامل بعمله .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم ، بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته في فهم الكلام عنه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ يعني القرآن ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أي يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، لتزكوا نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم وجاهليتهم ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ يعني القرآن والسنَّة ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل هذا الرسول ﴿ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي لفي غي وجهل ظاهر جلي بيِّن لكل أحد .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٥٤٠) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٢٧١٣) وأحمد في مسنده (١/٢٢) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢٧١٢) .

﴿ أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ ﴾ وهي ما أصيب منهم يوم أُحد من قتلى السبعين منهم ﴿ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا ﴾ يعني يوم بدر ؛ فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلًا وأسروا سبعين أسيرًا ﴿ قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ ﴾ أي من أين جرى علينا هذا ﴿ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ ﴾ عن عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم أُحد من العام المقبل ، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون ، وفر أصحاب رسول الله ﷺ عنه وكسرت رباعيته ، وهشمت البيضة على رأسه ، وسال الدم على وجهه ، فأنزل الله : ﴿ أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ ﴾ بأخذكم الفداء . عن علي قال : جاء جبريل إلى النبيِّ ﷺ فقال : يا محمَّد إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الأسارى ، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين ، إما أن يقدموا فنضرب أعناقهم ، وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم ، قال : فدعا رسول الله ﷺ الناس فذكر لهم ذلك فقالوا : يا رسول الله ، عشائرنا وإخواننا ألا نأخذ فداءهم فنتقوى به على قتال عدونا ، ويستشهد منا عدتهم ، فليس في ذلك ما نكره ؟ قال : فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلًا ، عدة أسارى أهل بدر[1] . وقال محمَّد بن إسحاق وابن جرير والربيع بن أنس والسدي : ﴿ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ ﴾ أي بسبب عصيانكم لرسول الله ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم ، يعني بذلك الرماة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ أي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ أي فراركم بين يدي عدوكم ، وقتلهم لجماعة منكم ، وجراحتهم لآخرين ، كان بقضاء الله وقدره ، وله الحكمة في ذلك ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أي الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ ﴾ يعني بذلك أصحاب عبد الله بن أبي ابن سلول ، الذين رجعوا معه في أثناء الطريق ، فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرضونهم على الإتيان والقتال والمساعدة ، ولهذا قال : ﴿ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ ﴾ يعني كثروا سواد المسلمين . وقيل : رابطوا . فتعللوا قائلين : ﴿ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ ﴾ قال مجاهد : يعنون لو نعلم أنكم تلقون حربًا لجئناكم ، ولكن لا تلقون قتالًا ﴿ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ ﴾ استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال ، فيكون في حال أقرب إلى الكفر ، وفي حال أقرب إلى الإيمان لقوله : ﴿ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ ﴾ يعني أنهم يقولون القول ، ولا يعتقدون صحته ، ومنه قولهم هذا : ﴿ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ ﴾ فإنهم يتحققون أن جندًا من المشركين قد جاءوا من بلاد بعيدة ، يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من أشرافهم يوم بدر ، وهم أضعاف المسلمين ، وأنه كائن بينهم قتال لا محالة . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٠ ، ٣١) .

ثم قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ﴾ أي لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت فينبغي أنكم لا تموتون ، والموت لابد آت إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة ، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين . عن جابر بن عبد الله : نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم ، وإن قتلوا في هذه الدار ، فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار ، روي عن أنس بن مالك في أصحاب رسول الله ﷺ الذين أرسلهم نبي الله إلى أهل بئر معونة قال : لا أدري أربعين أو سبعين ، وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفري ، فخرج أولئك النفر من أصحاب رسول الله ﷺ حتى أتوا غارًا مشرفًا على الماء فقعدوا فيه ، ثم قال بعضهم لبعض : أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ أهل هذا الماء ؟ فقال - أراه أبو ملحان الأنصاري - : أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ ، فخرج حتى أتى حول بيتهم فاجتثى أمام البيوت ، ثم قال : يا أهل بئر معونة ، إني رسول رسول الله إليكم ، إني أشهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمَّدًا عبده ورسوله ، فآمنوا بالله ورسوله ، فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح فضربه في جنبه حتى خرج من الشق الآخر ، فقال : الله أكبر فزت ورب الكعبة ، فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه في الغار فقتلهم أجمعين عامر ابن الطفيل (١) . وعن مسروق قال : إنا سألنا عبد الله عن هذه الآية ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : « أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالعَرْشِ ، تَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ القَنَادِيلِ ، فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اطِّلَاعَةً فَقَالَ : هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا ؟ فَقَالُوا : أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا ؟ فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا : يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى ، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا » (٢) .

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ لَهَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ يَسُرُّهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا إِلَّا الشَّهِيدُ ؛ فَإِنَّهُ يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى مِمَّا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ » (٣) .

وعن جابر قال : لما قتل أبي جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه ، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٠١) .

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٢١) وأحمد في مسنده (٣٨٦/٦) .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (١٠٨) .

ينهوني والنبيُّ ﷺ لم ينه ، فقال النبيُّ ﷺ : « لاَ تَبْكِهِ - أو ما تبكيه - مَا زَالَتِ المَلاَئِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رُفِعَ » (١) .

وعن ابن عبّاس قال : نزلت هذه الآية في حمزة وأصحابه ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ .

وعن جابر بن عبد الله قال : نظر إليَّ رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : « يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُهْتَمًّا ؟» قلت : يا رسول الله ، استشهد أبي وترك دَيْنًا وعيالاً ، قال : فقال : « أَلاَ أُخْبِرُكَ ؟ مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطّ إِلّا مِنْ وَرَاءِ حِجَاب ، وَإِنَّهُ كَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا » قال علي : والكفاح المواجهة . « قَالَ : سَلْنِي أُعْطِكَ ، قَالَ : أَسْأَلُكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى الدُّنْيَا فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً ، فَقَالَ الرَّبُّ ﷻ : إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي القَوْلُ أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لاَ يَرْجِعُونَ ، قَالَ : أَيْ رَبِّ فَأَبْلِغْ مَنْ وَرَائِي ، فَأَنْزَلَ اللَّه ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ﴾ » الآية (٢) .

وعن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقِ نَهْرٍ بِبَابِ الجَنَّةِ ، فِيهِ قُبَّةٌ خَضْرَاءُ يَخْرُجُ إِلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً » (٣) . وكأن الشهداء أقسام : منهم من تسرح أرواحهم في الجنّة ، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة ، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر ، فيجتمعون هنالك ، ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح ، والله أعلم . وقد روينا في مسند الإمام أحمد حديثًا فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضًا فيها ، وتأكل من ثمارها ، وترى ما فيها من النضرة والسرور ، وتشاهد ما أعد الله لها من الكرامة ، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة ، فإن الإمام أحمد رحمه الله رواه عن محمّد بن إدريس الشافعي رحمه الله عن مالك بن أنس الأصبحي رحمه الله عن الزهري عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « نَسَمَةُ المُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلَقُ فِي شَجَرِ الجنة حَتَّى يُرْجِعَهُ اللَّه إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ » (٤) قوله : « يعلق » أي يأكل ، وفي هذا الحديث : « إِنَّ رُوحَ المُؤْمِنِ تَكُونُ عَلَى شَكْلِ طَائِرٍ فِي الجَنَّةِ » وأما أرواح الشهداء ، فكما تقدم ، في حواصل طير خضر ، فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين ؛ فإنها تطير بأنفسها ، فنسأل الله الكريم المنان أن يميتنا على الإيمان .

وقوله تعالى : ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ﴾ إلى آخر الآية ، أي الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله ، أحياء عند ربهم ، وهم فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ، ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدمون عليهم ، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ، ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم ، نسأل الله الجنّة . وقال محمّد بن إسحاق : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أي ويسرون بلحوق من لحقهم من إخوانهم على ما مضوا عليه من جهادهم ، ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذي أعطاهم . قال السدي : يؤتى الشهيد بكتاب فيه : يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا ، ويقدم عليك فلان يوم كذا وكذا ، فيسرُّ بذلك كما يسرُّ أهل الدنيا بغائبهم إذا قدم . قال سعيد بن جبير : لما دخلوا الجنة ، ورأوا ما فيها من الكرامة للشهداء قالوا : يا ليت إخواننا الذين في الدنيا يعلمون ما عرفناه من الكرامة ، فإذا شهدوا القتال ، باشروها بأنفسهم حتى

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢٩٨) والنسائي في السنن (١٨٤٢) .
(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٩٠) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٦٦) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤٦٠) .

يستشهدوا فيصيبوا ما أصبنا من الخير ، فأخبر رسول الله ﷺ بأمرهم وما هم فيه من الكرامة ، وأخبرهم أي ربهم : أني قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم ، وما أنتم فيه فاستبشروا بذلك ، فذلك قوله : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الآية . وقد ثبت عن أنس في قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار الذين قتلوا في غداة واحدة ، وقنت رسول الله ﷺ يدعو على الذين قتلوهم ويلعنهم ، قال أنس : ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع : أن بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا ، فرضي عنا وأرضانا [١] .

ثم قال تعالى : ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال محمَّد بن إسحاق : استبشروا ، أي سروا لما عاينوا من وفاء الموعود وجزيل الثواب . وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم : هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم ، سواء الشهداء وغيرهم ، وقلما ذكر الله فضلًا ذكر به الأنبياء ، وثوابًا أعطاهم الله إياه ، إلَّا ذكر الله ما أعطى المؤمنين من بعدهم .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ﴾ هذا كان يوم حمراء الأسد ، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين ، كروا راجعين إلى بلادهم ، فلما استمروا في سيرهم ندموا لم لا تمموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة ؟ فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلي الذهاب وراءهم ليرعبهم ويريهم أن بهم قوة وجلدًا ، ولم يأذن لأحد سوى من حضر الوقعة يوم أُحد ، سوى جابر بن عبد الله ، فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله ﷻ ولرسوله ﷺ . عن عكرمة قال : لما رجع المشركون عن أُحد قالوا : لا محمّدًا قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ، بئسما صنعتم ، ارجعوا ، فسمع رسول الله ﷺ بذلك فندب المسلمين ، فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد - أو بئر أبي عيينة الشك من سفيان - فقال المشركون : نرجع من قابل ، فرجع رسول الله ﷺ ، فكانت تعد غزوة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وقال محمَّد بن إسحاق : كان يوم أُحد يوم السبت النصف من شوال ، فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال ، أذَّن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو ، وأذن مؤذنه : أن لا يخرجنَّ معنا أحد إلَّا من حضر يومنا بالأمس ، فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام فقال : يا رسول الله ، إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع ، وقال : « يَا بُنَيَّ لا يَنْبَغِي لِي وَلاَ لَكَ أَنْ نَتْرُكَ هَؤُلاَءِ النِّسْوَةِ لاَ رَجُلَ فِيهِنَّ ، وَلَسْتُ بِالَّذِي أُوثِرُكَ بِالجِهَادِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى نَفْسِي فَتَخَلَّفْ عَلَى أَخَوَاتِكْ » فتخلفت عليهن ، فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه ، وإنما خرج رسول الله ﷺ مرهبًا للعدو ، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة ، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم [٢] . وعن أبي السائب ، مولى عائشة بنت عثمان ، أن رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ من بني عبد الأشهل ، كان قد شهد أُحدًا قال : شهدنا أُحدًا مع رسول الله ﷺ أنا وأخي رجعنا جريحين ، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو وقلت لأخي - أو قال لي - : أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ ؟ والله ما لنا من دابة نركبها ، وما منا إلَّا جريح ثقيل ، فخرجنا مع رسول الله ﷺ ، وكنت أيسر جراحًا

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٠١) .

(٢) السيرة لابن هشام (٣/١٠٦ ، ١٠٧) .

منه ، فكان إذا غلب حملته عقبة ، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون [١] . وعن عائشة رضي الله عنها ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ الآية قلت لعروة : يا ابن أختي كان أبوك منهم ، الزبير وأبو بكر رضي الله عنهما لما أصاب نبي الله ﷺ ما أصابه يوم أحد ، وانصرف عنه المشركون ، خاف أن يرجعوا فقال : « مَنْ يَرْجِعُ فِي أَثَرِهِمْ » فانتدب منهم سبعون رجلًا ، فيهم أبو بكر والزبير . وكانت وقعة أُحُد في شوّال ، وكان التجار يقدمون المدينة في ذي القعدة فينزلون ببدر الصغرى في كل سنة مرة ، وإنهم قدموا بعد وقعة أُحُد ، وكان أصاب المؤمنين القرح ، واشتكوا ذلك إلى النبيّ ﷺ ، واشتد عليهم الذي أصابهم ، وإن رسول اللّه ﷺ ندب الناس لينطلقوا معه ويتبعوا ما كانوا متبعين ، وقال : « إِنَّمَا يَرْتَحِلُونَ الآنَ فَيَأْتُونَ الحَجَّ وَلاَ يَقْدِرُونَ عَلَى مِثْلِهَا حَتَّى عَامٍ مُقْبِلٍ » فجاء الشيطان يخوف أولياءه فقال : إن الناس قد جمعوا لكم ، فأبى عليه الناس أن يتبعوه وقال : « إِنِّي ذَاهِبٌ وَإِنْ لَمْ يَتْبَعْنِي أَحَدٌ لأُحَضِّضُ النَّاسَ » فانتدب معه الصديق وعمر وعثمان وعلي الزبير وسعد وطلحة وعبد الرّحمن بن عوف وعبد اللّه بن مسعود وحذيفة ابن اليمان وأبو عبيدة بن الجراح في سبعين رجلًا ، فساروا في طلب أبي سفيان ، فطلبوه حتى بلغوا الصفراء فأنزل اللّه تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ﴾ فخرج رسول اللّه ﷺ حتى انتهى إلى حمراء الأسد ، وهي من المدينة على ثمانية أميال ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء ثم رجع إلى المدينة ، وقد مر به - كما حدثني عبد اللّه بن أبي بكر - معبد بن أبي معبد الخزاعي ، وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح لرسول اللّه ﷺ بتهامة صفقتهم معه ، لا يخفون عنه شيئًا كان بها ، ومعبد يومئذ كان مشركًا فقال : يا محمّد ، أما واللّه لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ، ولوددنا أن اللّه عافاك فيهم ، ثم خرج رسول اللّه ﷺ بحمراء الأسد حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء ، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول اللّه ﷺ وأصحابه وقالوا : أصبنا محمّدًا وأصحابه وقادتهم وأشرافهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ؟ لنكرّنّ على بقيتهم ، ثم لنفرغن منهم ، فلما رأى أبو سفيان معبدًا قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمّد وأصحابه يطلبكم في جمع لم أرَ مثله ، يتحرقون عليكم تحرقًا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم ، وندموا على ما صنعوا ، فهم من الحنق عليكم بشيء لم أر مثله قط ، قال : ويلك ما تقوله ؟ قال : واللّه ما أرى أن ترتحل حتى نواصي الخيل ، قال : فواللّه لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم ، قال : فإني أنهاك عن ذلك ، وواللّه لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتًا من شعر ، قال : وما قلت ؟ قال : قلت :

كَادَتْ تُهَدُّ مِنَ الأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي ... إِذْ سَالَتِ الأَرْضُ بِالجُرْدِ الأَبَابِيلِ
تَرْدِي بِأُسْدٍ كِرَامٍ لاَ تَنَابِلَةٍ ... عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلاَ مِيلٍ مَعَازِيلِ
فَظَلْتُ أَعْدُو أَظُنُّ الأَرْضَ مَائِلَةً ... لَمَّا سَمَوْا بِرَئِيسٍ غَيْرِ مَخْذُولِ
فَقُلْتُ وَيْلَ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقَائِكُمْ ... إِذَا تَغَطْمَطَتِ البِطْحَاءُ بِالخَيلِ
إِنِّي نَذِيرٌ لِأَهْلِ السَّيْلِ ضَاحِيَةً ... لِكُلِّ ذِي إِرْبَةٍ مِنْهُمْ وَمَعْقُولِ
مِنْ جَيْشِ أَحْمَدَ لاَ وَخْشٍ تَنَابِلَةٍ ... وَلَيْسَ يُوصَفُ مَا أَنْذَرْتُ بِالقِيلِ

---

(١) السيرة لابن هشام (٣/١٠٧) .

قال : فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه ، ومر به ركب من عبد القيس فقال : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة ، قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة ، قال : فهل أنتم مبلغون عني محمدًا رسالة أرسلكم بها إليه ، وأحمل لكم هذه غدًا زبيبًا بعكاظ إذ وافيتمونا ؟ قالوا : نعم ، قال : فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا المسير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم ، فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه فقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل [١] .

وهكذا قال عكرمة وقتادة وغير واحد أن هذا السياق نزل في شأن غزوة حمراء الأسد ، وقيل : نزلت في بدر الموعد ، والصحيح الأول .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾ الآية . أي الذين توعدهم الناس بالجموع ، وخوفوهم بكثرة الأعداء ، فما اكترثوا لذلك ، بل توكلوا على الله واستعانوا به ﴿ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ . عن ابن عبَّاس ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار ، وقالها محمَّد ﷺ حين قال له الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانًا ، قالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل [٢] . عن أبي رافع أن النبيَّ ﷺ وجَّه عليًا في نفر معه في طلب أبي سفيان ، فلقيهم أعرابي من خزاعة فقال : إن القوم قد جمعوا لكم ، فقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فنزلت فيهم هذه الآية [٣] .

وعن عوف بن مالك أنه حدَّثهم أن النبيَّ ﷺ قضى بين رجلين ، فقال المقضي عليه لما أدبر : حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال النبيُّ ﷺ : « رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ » فقال : « مَا قُلْتَ ؟ » قال : قلت : حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال النبيُّ ﷺ : « إِنَّ اللَّه يَلُومُ عَلى العَجْزِ وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالكَيْسِ ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : حَسْبِيَ اللَّه وَنِعْمَ الوَكِيلُ » [٤] . وعن عطية بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ القَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ يَسْتَمِعُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ » فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فما نقول ؟ قال : « قُولُوا : حَسْبُنَا اللَّه وَنِعْمَ الوَكِيلُ ، عَلَى اللَّه تَوَكَّلْنَا » [٥] . وعن أم المؤمنين زينب وعائشة رضي الله عنهما أنهما تفاخرتا فقالت زينب : زوجني الله وزوجكن أهاليكن ، وقالت عائشة : نزلت براءتي من السماء في القرآن ، فسلمت لها زينب ثم قالت : كيف قلت حين ركبت راحلة صفوان بن المعطل ؟ قالت : قلت : حسبي الله ونعم الوكيل ، قالت زينب : قلت كلمة المؤمنين . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ أي لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم ، ورد عنهم بأس من أراد كيدهم ، فرجعوا إلى بلدهم ﴿ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ مما أضمر لهم عدوهم ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ عن ابن عبَّاس في قوله الله ﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ ﴾ قال : النعمة أنهم سَلِمُوا ، والفضل أن عيرًا مرت في أيام الموسم فاشتراها رسول الله ﷺ فربح فيها مالًا ، فقسمه بين أصحابه .

عن أبي جريج قال : لما عمد رسول الله ﷺ لموعد أبي سفيان فجعلوا يلقون المشركين فيسألونهم

---

(١) ذكره الطبري في تفسير (٢٣٨/١٤ ، ٢٣٩) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٦٣) .

(٣) تفسير الطبري (٣٤٠/١٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥/٦) والطبراني في الكبير (٧٦/١٨) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٤/٤) والحاكم في المستدرك (٥٥٩/٤) .

عن قريش ، فيقولون : قد جمعوا لكم ، يكيدونهم بذلك يريدون أن يرعبوهم ، فيقول المؤمنون : حسبنا الله ونعم الوكيل ، حتى قدموا بدرًا فوجدوا أسواقها عافية لم ينازعهم فيها أحد ، قال : فقدم رجل من المشركين فأخبر أهل مكة بخيل محمَّد وقال :

قَدْ نَفَرَتْ مِنْ رِفْقَتِي مُحَمَّدِ وَعَجْوة مِنْ يَثْرِبٍ كَالعَنْجَدِ
فَهْيَ عَلَى دِينِ أَبِيهَا الأَتْلَدِ قَدْ جَعَلَتْ مَاءَ قَدِيدٍ مَوْعِدِ
وَمَاء ضجنان لها ضحى الغد (١)

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾ أي يخوفكم أولياءه ويوهمكم أنهم ذوو بأس ، وذوو شدة ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ إذ سوَّل لكم وأوهمكم ، فتوكلوا عليَّ ، والجأوا إليَّ ؛ فإني كافيكم وناصركم عليهم كما قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ إلى قوله : ﴿ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

يقول تعالى لنبيِّه ﷺ : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ ﴾ وذلك من شدة حرصه على الناس ، كان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق ، فقال تعالى : ولا يحزنك ذلك ﴿ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ ﴾ أي حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته أن لا يجعل لهم نصيبًا في الآخرة ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ثم قال تعالى مخبرًا عن ذلك إخبارًا مقررًا : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ أي استبدلوا هذا بهذا ﴿ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ أي ولكن يضرون أنفسهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ كقوله : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ ﴾ أي لابد أن يعقد شيئًا من المحنة ، يظهر فيه وليه ، ويفضح به عدوَّه ، ويعرف به المؤمن الصابر ، والمنافق الفاجر ، يعني بذلك يوم أُحد الذي امتحن الله به المؤمنين ، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ ، وهتك به ستار المنافقين ، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله ﷺ ولهذا قال تعالى : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ ﴾ قال مجاهد : ميز بينهم يوم أُحد . وقال قتادة : ميَّز بينهم بالجهاد والهجرة . وقال السدي : قالوا : إن كان محمَّد صادقًا فليخبرنا

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٤١/١٤) والعنجد : حب الزبيب ، وقديد : موضع قرب مكة . وضجنان : جبل بناحية تهامة .

عمن يؤمن به منا ومن يكفر به ، فأنزل الله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ أي حتى يخرج المؤمن من الكافر ، روى ذلك كله ابن جرير . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ أي أنتم لا تعلمون غيب الله في خلقه حتى يميز لكم المؤمن من المنافق ، لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ أي أطيعوا الله ورسوله ، واتبعوه فيما شرع لكم ﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ﴾ أي لا يحسبن البخيل أن جمعه المال ينفعه بل هو مضرة عليه في دينه ، وربما كان في دنياه . ثم أخبرنا بمآل أمر ماله يوم القيامة فقال : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ آتَاهُ اللَّه مَالاً فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ ؛ مُثِّلَ لَهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ - يعني بشدقيه - ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا مَالُكَ ، أَنَا كَنْزُكَ » ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ﴾ إلى آخر الآية (١) .

وعن عبد الله عن النبيّ ﷺ قال : مَا مِنْ عَبْدٍ لاَ يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ إِلَّا جُعِلَ لَهُ شُجَاعٌ أَقْرَعُ يَتْبَعُهُ ، يَفِرُّ مِنْهُ فَيَتْبَعُهُ ، فَيَقُولُ : أَنَا كَنْزُكَ » ثم قرأ عبد الله مصداقه من كتاب الله : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (٢) .

وعن ابن عبّاس : نزلت في أهل الكتاب الذين بخلوا بما في أيديهم من الكتب المنزلة أن يبينوها ، رواه ابن جرير ، والصحيح الأول وإن دخل هذا في معناه . وقد يقال : إن هذا أولى بالدخول .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي فأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فإن الأمور كلها مرجعها إلى الله ﷻ ، فقدموا من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي بنياتكم وضمائركم .

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ .

عن ابن عباس : لما نزل قوله تعالى : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ قالت اليهود : يا محمد : افتقر ربك فسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ الآية . وعن ابن عباس قال : دخل أبو بكر الصدّيق بيت المدراس فوجد من يهود ناسًا كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له : فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر يقال له : أشيع ، فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص اتقِ الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمدًا رسول من عند الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل ، فقال فنحاص :

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٣) وأحمد في مسنده (٣٥٥/٢) والنسائي في السنن (٢٤٨٢) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٩٨/٢) وابن ماجه في السنن (١٧٨٤) والنسائي في السنن (١١/٥) .

والله يا أبا بكر ، ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان عنا غنيًا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنيًا ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر ﷺ فضرب وجه فنحاص ضربًا شديدًا ، وقال : والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدوّ الله ، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين . فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أبصر ما صنع بي صاحبك ، فقال رسول الله ﷺ : « مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ ؟ » فقال : يا رسول الله ، إن عدو الله قال قولًا عظيمًا ، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك ، غضبت لله مما قال ، فضربت وجهه ، فجحد فنحاص ذلك وقال : ما قلت ذلك ، فأنزل الله فيما قال فنحاص ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ الآية [(١)] . وقوله ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ ﴾ تهديد ووعيد ، ولهذا قرنه تعالى بقوله : ﴿ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ أي هذا قولهم في الله ، وهذه معاملتهم رسل الله ، وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا وتحقيرًا وتصغيرًا .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ﴾ يقول تعالى تكذيبًا لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم في كتبهم ، أن لا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فتقبلت منه أن تنزل نار من السماء تأكلها . قال الله ﷻ : ﴿ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي بالحجج والبراهين ﴿ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ ﴾ أي وبنار تأكل القرابين المتقبلة ﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ ﴾ أي فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسل . ثم قال تعالى مسليًا لنبيّه محمد ﷺ ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ أي لا يوهنك تكذيب هؤلاء لك ، فلك أسوة بمن قبلك من الرسل ، الذين كذبوا مع ما جاءوا به من البينات ، وهي الحجج والبراهين القاطعة ﴿ وَٱلزُّبُرِ ﴾ وهي الكتب المتلقاة من السماء كالصحف المنزلة على المرسلين ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ أي الواضح الجلي .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ .

يخبر تعالى إخبارًا عامًّا يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت ، فهو تعالى وحده الحي الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون ، وكذلك الملائكة وحملة العرش ، وينفرد الواحد الأحد القهّار بالديمومة والبقاء ، فيكون آخرًا كما كان أولًا . وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس ؛ فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت ، فإذا انقضت المدة وفرغت النطفة التي قدر الله وجودها من صلب آدم ، وانتهت البرية ، أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها ، جليلها وحقيرها ، كثيرها وقليلها ، كبيرها وصغيرها ، فلا يظلم أحدًا مثقال ذرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٥٨/١٤) .

وقوله : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ أي من جُنِّب النار ونجا منها وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَوْضِعُ سَوْطٍ في الجنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ »(١) . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الجَنَّةَ ؛ فَلْتُدْرِكْهُ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ »(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ تصغير لشأن الدنيا ، وتحقير لأمرها ، وأنها دنيئة فانية قليلة زائلة كما قال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ وفي الحديث : « وَاللَّهِ مَا الدُّنْيَا في الآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَغْمِسُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ في اليَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ إِلَيْهِ »(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ أي لابد أن يبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله ، ويبتلى المؤمن على قدر دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ﴾ يقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر مسليًا لهم عما ينالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين ، وآمرًا لهم بالصفح والصبر والعفو حتى يفرج الله ، فقال تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ . عن أسامة بن زيد ، أن رسول الله ﷺ ركب على حمار عليه قطيفة فدكية ، وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة ببني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، حتى مر على مجلس فيه عبد الله بن أبي ابن سلول ، وذلك قبل أن يسلم ابن أبي وإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان وأهل الكتاب اليهود والمسلمين ، وفي المجلس عبد الله بن رواحة ، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمّر عبد الله بن أبي أنفه بردائه وقال : لا تغبروا علينا ، فسلم رسول الله ﷺ ، ثم وقف ، فنزل ودعاهم إلى الله ﷻ وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن أبي : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقًّا فلا تؤذنا به في مجالسنا ، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبد الله بن رواحة ﷺ : بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون ، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكتوا ، ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة فقال له النبي ﷺ : « يَا سَعْدُ أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ ؟» يريد عبد الله بن أبي ، « قال : كذا وكذا» ، فقال سعد : يا رسول الله ، اعف عنه واصفح ؛ فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذي نزل عليك ، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة ، فلما أبي الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك ، فذلك الذي فعل به ما رأيت ، فعفا عنه رسول الله ﷺ . وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى قال الله تعالى : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ﴾ الآية .

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق(٣٢٥٠) وأحمد في مسنده(٥/٣٣٩) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده(٢/١٩١) . (٣) أخرجه ابن ماجه في السنن(٤١٠٨) .

وقال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ الآية . وكان النبي ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به حتى أذن الله له فيهم ، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرًا فقتل الله به صناديد كفار قريش ، قال عبد الله بن أبي ابن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان : هذا أمر قد توجه ، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام ، فبايعوا وأسلموا (١) . فكل من قام بحق أو أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر فلابد يؤذى ، فما له دواء إلا الصبر في الله ، والاستعانة بالله ، والرجوع إلى الله .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

هذا توبيخ من الله ، وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ، وأن ينوهوا بذكره في الناس ، فيكونوا على أهبة من أمره ، فإذا أرسله الله تابعوه ، فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف ، والحظ الدنيوي السخيف ، فبئست الصفقة صفقتهم ، وبئست البيعة بيعتهم . وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم ، فيصيبهم ما أصابهم ، ويسلك بهم مسلكهم ، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع ، الدال على العمل الصالح ، ولا يكتموا منه شيئًا ، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبيِّ ﷺ أنه قال : « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ ؛ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ الآية ، يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا . وفي الصحيحين : « الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ » (٣) .

وعن أبي سعيد الخدري : أن رجالًا من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا ، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فنزلت : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ الآية (٤) . قال أبو سعيد ورافع بن خديج وزيد بن ثابت : كنا عند مروان فقال : يا أبا سعيد أرأيت قوله تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ ونحن نفرح بما أتينا ونحب أن نحمد بما لم نفعل ؟ فقال أبو سعيد : إن هذا ليس من ذاك ، إنما ذاك أن ناسًا من المنافقين يتخلفون إذا بعث رسول الله ﷺ بعثًا ، فإن كان فيهم نكبة فرحوا بتخلفهم ، وإن كان لهم نصر من الله وفتح حلفوا لهم ليرضوهم ويحمدوهم على سرورهم بالنصر والفتح ، فقال مروان : أين هذا من هذا ؟ فقال أبو سعيد : وهذا يعلم هذا ؟ فقال مروان : أكذلك يا زيد ؟ قال : نعم صدق أبو سعيد ، ثم قال أبو سعيد : وهذا يعلم ذاك - يعني

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٦٦) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٩٩) وابن ماجه في السنن (٢٦٦) .
(٣) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (١٢٦) وأحمد في مسنده (٦/٣٤٥) .
(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٦٧) .

رافع بن خديج – ولكنه يخشى إن أخبرك أن تنزع قلائصه في الصدقة ، فلما خرجوا قال زيد لأبي سعيد الخدري : ألا تحمدني على ما شهدت لك ؟ فقال له أبو سعيد : شهدت الحق ، فقال زيد : أولا تحمدني على ما شهدت الحق ؟ .

وعن ثابت بن قيس الأنصاري قال : يا رسول الله ، والله لقد خشيت أن أكون هلكت قال : «لِمَ ؟ »قال : نهى الله المرء أن يحب أن يحمد بما لم يفعل ، وأجدني أحب الحمد ، ونهى الله عن الخيلاء وأجدني أحب الجمال ، ونهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا امرؤ جهير الصوت ، فقال رسول الله ﷺ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيدًا ، وَتُقْتَلَ شَهِيدًا ، وَتَدْخُلَ الجَنَّةَ ؟ »فقال : بلى يا رسول الله ، فعاش حميدًا ، وقتل شهيدًا يوم مسيلمة الكذاب (١). وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ يقرأ بالتاء على مخاطبة المفرد ، وبالياء على الإخبار عنهم (٢)، أي لا تحسب أنهم ناجون من العذاب ، بل لابد لهم منه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي هو مالك كل شيء ، والقادر على كل شيء فلا يعجزه شيء ، فهابوه ولا تخالفوه ، واحذروا غضبه ونقمته ، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه ، القدير الذي لا أقدر منه .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ .

عن ابن عبَّاس قال : أتت قريش اليهود فقالوا : بمَ جاءكم موسى ؟ قالوا : عصاه ويده بيضاء للناظرين . وأتوا النصارى فقالوا : كيف كان عيسى ؟ قالوا : كان يبرئ الأكمة والأبرص ويحيي الموتي . فأتوا النبيَّ ﷺ فقالوا : ادع الله أن يجعل لنا الصفا ذهبًا ، فدعا ربه فنزلت هذه الآية ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ فليتفكروا فيها . وهذا مشكل ، فإن هذه الآية مدنية ! وسؤالهم أن يكون الصفا ذهبًا ، كان بمكة ومعنى الآية أن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي هذه في ارتفاعها واتساعها ، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها ، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة ، من كواكب سيارات ، وثوابت وبحار ، وجبال وقفار ، وأشجار ونبات ، وزروع وثمار ، وحيوان ومعادن ، ومنافع مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص ﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أي تعاقبهما وتقارضهما الطول والقصر ، فتارة يطول هذا ويقصر هذا ، ثم يعتدلان ، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيرًا ، ويقصر الذي

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣١٠) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢١/٩)

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمر ﴿ فلاَ يَحْسَبُنَّهم ﴾ بالغيب وضم الباء ، وقراء الباقون ﴿ فلا تَحْسَبَنَّهم ﴾ بالخطاب وفتح الباء (انظر : تقريب النشر ص : ١٠٣) .

كان طويلًا وكل ذلك تقدير العزيز العليم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي العقول التامة الزكية ، التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها ، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون ، الذين قال الله فيهم : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ ثم وصف تعالى أولي الألباب فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ . عن عمران بن حصين : أن رسول الله ﷺ قال : « صَلِّ قَائِمًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبِكَ »(١) أي لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه وحكمته واختياره ورحمته . وقال الشيخ أبو سليمان الداراني : إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلّا رأيت لله عليّ فيه نعمة ، ولي فيه عبرة . وعن الحسن البصري أنه قال : تفكّر ساعة خير من قيام ليلة . وقال الفضيل : قال الحسن : الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك . وقال سفيان بن عيينة : الفكرة نور يدخل قلبك .

وعن عيسى عليه السلام أنه قال : طوبى لمن كان قيله تذكرًا ، وصمته تفكّرًا ، ونظره عبرًا . قال لقمان الحكيم : إن طول الوحدة ألهم للفكرة ، وطول الفكرة دليل على طرق باب الجنة . وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلّا فهم ، ولا فهم امرؤ قط إلّا علم ، ولا علم امرؤ قط إلّا عمل . وقال عمر بن عبد العزيز : الكلام لذكر الله عز وجل حسن ، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة . وقال مغيث الأسود : زوروا القبور كل يوم تفكركم ، وشاهدوا الموقف بقلوبكم ، وانظر إلى المنصرف بالفريقين إلى الجنة أو النار ، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامعها وأطباقها ، وكان يبكى عند ذلك حتى يرفع صريعًا من بين أصحابه قد ذهب عقله . وقال عبد الله بن المبارك : مرَّ رجل براهب عند مقبرة ومزبلة فناداه فقال : يا راهب ، إن عندك كنزين من كنوز الدنيا ، لك فيهما معتبر ، كنز الرجال وكنز الأموال . وعن ابن عمر : أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخربة فيقف على بابها فينادي بصوت حزين فيقول : أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ . وعن ابن عبّاس أنه قال : ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه . وقال الحسن البصري : يا ابن آدم كل في ثلث بطنك ، واشرب في ثلثه ، ودع ثلثه الآخر تتنفث للفكرة . وقال بعض الحكماء : من نظر إلى الدنيا بغير العبرة ؛ انطمس من بصر قلبه بقدر تلك الغفلة . وقال بشر بن الحارث الحافي : لو تفكر الناس في عظمه الله تعالى لما عصوه . وعن عامر بن عبد قيس قال : سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبيّ ﷺ يقولون : إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكر . وعن عيسى عليه السلام أنه قال : يا ابن آدم الضعيف اتق الله حيث ما كنت ، وكن في الدنيا ضعيفًا ، واتخذ المساجد بيتًا ، وعلم عينيك البكاء ، وجسدك الصبر ، وقلبك الفكر ، ولا تهتم برزق غد . وعن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه بكى يومًا بين أصحابه فسئل عن ذلك ، فقال : فكرت في الدنيا

---

(١) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة (١١١٧) .

ولذاتها وشهواتها فاعتبرت منها بها ، ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتها ، ولئن لم يكن فيه عبرة لمن اعتبر ، إن فيها مواعظ لمن ادكر .

وقد ذم اللَّه تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته فقال : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ ومدح عباده المؤمنين : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قائلين : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ أي ما خلقت هذا الخلق عبثًا ، بل بالحق ؛ لتجزي الذين أساءوا بما عملوا ، وتجزي الذين أحسنوا بالحسنى . ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا : ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ أي عن أن تخلق شيئًا باطلًا ﴿ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ أي يا من خلق الخلق بالحق والعدل ، يا من هو منزَّه عن النقائص والعيب والعبث ، قنا من عذاب النار بحولك وقوّتك ، ووفقنا لأعمال ترضى بها عنا ، ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنَّات النعيم ، وتجيرنا به من عذابك الأليم . ثم قالوا : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾ أي أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ أي يوم القيامة لا مجير لهم منك ، ولا محيد لهم عما أردت بهم ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ ﴾ أي داعيًا يدعو إلى الإيمان ، وهو الرسول ﷺ ﴿ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ أي يقول : آمنوا بربكم فآمنا ، أي فاستجبنا له واتبعناه ، أي بإيماننا واتباعنا نبيك ﴿ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ أي استرها ﴿ وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا ﴾ فيما بيننا وبينك ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ أي ألحقنا بالصالحين ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ قيل : معناه على الإيمان برسلك . وقيل : معناه على ألسنة رسلك ، وهذا أظهر . ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي على رءوس الخلائق ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ أي لابد من الميعاد الذي أخبرت عنه رسلك ، وهو القيام يوم القيامة بين يديك . وعن جابر بن عبد اللَّه حدَّثه أن رسول اللَّه ﷺ قال : « العَارُ وَالتَّخْزِيَةُ تَبْلُغُ مِنِ ابْنِ آدَمَ فِي القِيَامَةِ فِي المَقَامِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﷻ ، مَا يَتَمَنَّى العَبْدُ أَنْ يُؤْمَرَ بِهِ إِلَى النَّارِ » (١) .

وقد ثبت أن رسول اللَّه ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران ، إذا قام من الليل لتهجده . عن كريب : أن ابن عبَّاس أخبره أنه بات عند ميمونة زوج النبيِّ ﷺ وهي خالته قال : فاضطجعت في عرض الوسادة ، واضطجع رسول اللَّه ﷺ وأهله في طولها ، فنام رسول اللَّه ﷺ حتى انتصف ذا الليل ، أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ رسول اللَّه ﷺ من منامه ، فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده ، ثم قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران ، ثم قام إلى شن معلقة فتوضأ منها ، فأحسن وضوءه ، ثم قام يصلي ، قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما : فقمت فصنعت مثل ما صنع ، ثم ذهبت فقمت إلى جنبه ، فوضع رسول اللَّه ﷺ يده اليمنى على رأسي ، وأخذ بأذني اليمنى يفتلها فصلى ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم أوتر ، ثم اضطجع حتى جاءه المؤذن ، فقام فصلى ركعتين خفيفتين ، ثم خرج فصلى الصبح (٢) .

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٧٧٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٥٠) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٧٠) .

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج ذات ليلة بعدما مضى ليل ، فنظر إلى السماء وتلا هذه الآية : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ إلى آخر السورة . ثم قال : « اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا ، وفِي سَمْعِي نُورًا ، وفِي بَصَرِي نُورًا ، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا ، وَعَنْ شِمالِي نُورًا ، وَمِنْ بَيْنِ يَدَيَّ نُورًا ، وَمِنْ خَلْفِي نُورًا ، وَمِنْ فَوْقِي نُورًا ، وَمِنْ تَحْتِي نُورًا يَوْمَ القِيَامَةِ » (١) وهذا الدعاء ثابت .

وعن عطاء قال : انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها ، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب ، فقالت : يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال : قول الشاعر : زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا ، فقال ابن عمر : ذرينا ، أخبرينا بأعجب ما رأيتيه من رسول الله ﷺ ، فبكت وقالت : كل أمره كان عجبًا ، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ، ثم قال : « ذَرِينِي أَتَعَبَّدْ لِرَبِّي عز وجل » فقالت : فقلت : والله إني لأحب قربك ؛ وإني أحب أن تعبد ربك ، فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلي فبكى حتى بلَّ لحيته ، ثم سجد فبكى حتى بلَّ الأرض ، ثم اضطجع على جنبه فبكى ، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قالت : فقال : يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : « وَيْحَكَ يَا بِلالُ ! وَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَبْكِي وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ » ثم قال : « وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا » (٢) .

وعن أبي هريرة قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ عشر آيات من سورة آل عمران كل ليلة (٣) .

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ .

يقول الله تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي فأجابهم ربهم كما قال الشاعر :

وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى النَّدَا ... فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ

قالت أم سلمة : يا رسول الله ، لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء . فأنزل الله تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ إلى آخر الآية (٤) . وقالت الأنصار : هي أول ظعينة قدمت علينا . عن أم سلمة قالت : آخر آية نزلت هذه الآية : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ إلى آخرها . ومعنى الآية : أن المؤمنين ذوي الألباب لما سألوا مما تقدم ذكره فاستجاب لهم ربهم ، عقب ذلك بفاء التعقيب ، وقوله تعالى : ﴿ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ هذا تفسير للإجابة ؛ أي قال لهم مخبرًا أنه لا يضيع عمل عامل منكم لديه ، بل يوفي كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى ، وقوله : ﴿ بَعْضُكُم

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (١٨١) وأحمد في مسنده (٣٥٢/١) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١١١/٢) .

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧٤/٢) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٠٠/٢) .

﴿ مِّنۢ بَعۡضٍۖ ﴾ أي جميعكم في ثوابي سواء ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ ﴾ أي تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان ، وفارقوا الأحباب والإخوان والخلان والجيران ﴿ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ ﴾ أي ضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجأوهم إلى الخروج من بين أظهرهم ولهذا قال : ﴿ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي ﴾ أي إنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده كما قال تعالى : ﴿ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ ﴾ وهذا أعلى المقامات أن يقاتل في سبيل الله ، فيعقر جواده ، ويعفر وجهه بدمه وترابه ، وقد ثبت في الصحيحين : أن رجلًا قال : يا رسول الله ، أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابرًا محتسبًا ، مقبلًا غير مدبر ، أيكفر الله عني خطاياي ؟ قال : « نَعَمْ » ثم قال : « كَيْفَ قُلْتَ ؟ » فأعاد عليه ما قال ، فقال : « نَعَمْ . إِلَّا الَّذِي قَالَهُ لِي جِبْرِيلُ آنِفًا » [(١)] . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ أي تجري في خلالها الأنهار ، من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن ، وغير ذلك مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وقوله : ﴿ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ ﴾ أضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم ؛ لأن العظيم الكريم لا يعطي إلَّا جزيلًا كثيرًا .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ أي عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحًا . روي أن شداد بن أوس كان يقول : أيها الناس ، لا تتهموا الله في قضائه ؛ فإنه لا يبغي على مؤمن ، فإذا أنزل بأحدكم شيئًا مما يحب فليحمد الله ، وإذا أنزل به شيئًا مما يكره فليصبر وليحتسب ؛ فإن الله عنده حسن الثواب .

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴾ .

يقول تعالى : لا تنظر إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه من النعمة والغبطة والسرور ، فعما قليل يزول هذا كله عنهم ، ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة ، فإنما نمد لهم فيما هم فيه استدراجًا ، وجميع ما هم فيه ﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ وهكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا ، وذكر أن مآلهم إلى النار قال بعده : ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴾ . عن الأسود قال : قال عبد الله - يعني ابن مسعود - : ما من نفس برة ولا فاجرة إلَّا الموت خيرا لها ، لئن كان برًّا لقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴾ . وعن أبي الدرداء أنه كان يقول : ما من مؤمن إلَّا والموت خير له ، وما من كافر إلَّا والموت خير له ، ومن لم يصدقني فإن الله يقول : ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (٦/٣٤) .

يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان ، ويؤمنون بما أنزل على محمَّد مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة ، وأنهم خاشعون لله أي مطيعون له ، خاضعون متذلّلون بين يديه ، لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا ؛ أي لا يكتمون ما بأيديهم من البشارة بمحمَّد ﷺ وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته ، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم ، سواء كانوا هودًا أو نصارى . وقد قال تعالى في سورة القصص : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ الآية . وقد قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ الآية . وهذه الصفات توجد في اليهود ولكن قليلًا ، كما وجد في عبد الله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود ولم يبلغوا عشرة أنفس ، وأما النصارى فكثير منهم يهتدون وينقادون للحق ، كما قال تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ الآية . وهكذا قال ههنا : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ الآية .

وقد ثبت في الحديث أن جعفر بن أبي طالب ﷺ لما قرأ سورة ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ بحضرة النجاشي ملك الحبشة ، وعنده البطاركة والقساوسة ، بكى وبكوا معه حتى أخضبوا لحاهم . وثبت في الصحيحين : أن النجاشي لما مات نعاه النبيّ ﷺ إلى أصحابه وقال : « إِنَّ أَخًا لَكُمْ بِالحَبَشَةِ قَدْ مَاتَ فَصَلُّوا عَلَيْهِ » فخرج إلى الصحراء فصفهم وصلى عليه (١) . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : لما مات النجاشي كنا نحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور . وعن عبد الله ابن الزبير عن أبيه قال : نزل بالنجاشي عدو من أرضهم ، فجاءه المهاجرون فقالوا : إنا نحب أن تخرج إليهم حتى نقاتل معك ، وترى جرأتنا ونجزيك بما صنعت بنا ، فقال : لداء بنصر الله ﷻ خير من دواء بنصرة الناس ، قال : وفيه نزلت ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ الآية .

وعن مجاهد : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يعني مسلمة أهل الكتاب . وقال عباد بن منصور : سألت الحسن البصري عن قول الله : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ الآية . قال : هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمَّد ﷺ فاتبعوه وعرفوا الإسلام فأعطاهم الله تعالى أجر اثنين للذي كانوا عليه من الإيمان قبل محمَّد ﷺ واتّباعهم محمَّدًا ﷺ . وعن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ » فذكر منهم « رجلًا من أهل الكتاب آمن بنبيّه وآمن بي » (٢) . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أي لا يكتمون ما بأيديهم من العلم ، كما فعلته الطائفة المرذولة منهم ، بل يبذلون ذلك مجانًا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ قال مجاهد : سريع الحساب ، يعني سريع الإحصاء .

---

(١) أخرجه مسلم في الجنائز (٦٦) وأحمد في مسنده (٤/٣٣٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١١) والترمذي في السنن (١١١٦) .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾ قال الحسن البصري : أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم ، وهو الإسلام ، فلا يدعوه لسراء ولا لضراء ولا لشدة ولا لرخاء ، حتى يموتوا مسلمين ، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم . وكذلك قال غير واحد من علماء السلف . وأما المرابطة فهي المداومة في مكان العبادة والثبات ، وقيل : انتظار الصلاة بعد الصلاة . عن أبي هريرة ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال : « أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ؟ إِسْبَاغُ الوُضُوءِ عَلَى المَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ الخُطَا إِلَى المَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ » (١) . وعن أبي سلمة بن عبد الرَّحمن قال : أقبل عليَّ أبو هريرة يومًا فقال : أتدري يا ابن أخي فيمَ نزلت هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾ ؟ قلت : لا ، قال : أما إنه لم يكن في زمان النبيِّ ﷺ غزو يرابطون فيه ، ولكنها نزلت في قوم يعمرون المساجد ويصلون الصلاة في مواقيتها ثم يذكرون الله فيها ، فعليهم أنزلت ﴿ اصْبِرُوا ﴾ أي على الصلوات الخمس ﴿ وَصَابِرُوا ﴾ أنفسكم وهواكم ﴿ وَرَابِطُوا ﴾ في مساجدكم ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فيما عليكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

وقيل : المراد بالمرابطة ههنا مرابطة الغزو في نحو العدو ، وحفظ ثغور الإسلام ، وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين ، وقد وردت الأخبار بالترغيب في ذلك ، وذكر كثرة الثواب فيه ، فعن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال : « رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّه خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا » (٣) .

وعن سلمان الفارسي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأَمِنَ الفَتَّانَ » (٤) .

وعن فضالة بن عبيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ ، إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّه ؛ فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، وَيَأْمَنُ فِتْنَةَ القَبْرِ » (٥) .

وقال عثمان وهو يخطب على منبره : إني محدثكم حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ لم يكن يمنعني أن أحدثكم به إلَّا الظن بكم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « حَرَسُ لَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّه أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ يُقَامُ لَيْلُهَا وَيُصَامُ نَهَارُهَا » (٦) .

وعن سهل بن الحنظلة أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين ، حتى كانت عشية ، فحضرت الصلاة مع رسول الله ﷺ فجاء رجل فارس فقال : يا رسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا ، فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم ، بظعنهم ونعمهم وشياههم ، فتبسم النبيُّ ﷺ وقال : « تِلْكَ غَنِيمَةُ المُسْلِمِينَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّه » ثم قال : « مَنْ يَحْرُسُنا اللَّيْلَةَ » قال أنس بن أبي

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٠٣) والبيهقي في السنن (١/٨٢) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٣٠١) .
(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٢) والترمذي في السنن (١٦٦٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٤٤١) والطبراني في الكبير (٦/٣٢٧) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٠) والحاكم في المستدرك (٢/١٤٤) والدارمي في السنن (٢/٢١١) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (١/٦٥) والحاكم في المستدرك (٢/٨١) وابن ماجه في السنن (٢٧٧٠) .

مرثد : أنا يا رسول اللَّه ، قال : « فَارْكَبْ » فركب فرسًا له ، فجاء إلى رسول اللَّه ﷺ فقال له رسول اللَّه ﷺ : « اسْتَقْبِلْ هَذَا الشِّعْبَ حَتَّى تَكُونَ فِي أَعْلاهُ ، وَلا نغز مِنْ قبلك اللَّيْلَةَ » فلما أصبحنا خرج رسول اللَّه ﷺ إلى مصلاه فركع ركعتين فقال : « هَلْ أَحْسَسْتُمْ فَارِسَكُمْ ؟ » فقال رجل : يا رسول اللَّه ، ما أحسسناه ، فثوِّب بالصلاة ، فجعل النبيُّ ﷺ وهو يصلي يلتفت إلى الشعب ، حتى إذا قضى صلاته قال : « أَبْشِرُوا ! فَقَدْ جَاءَكُمْ فَارِسُكُمْ » فجعلنا ننظر في خلال الشجر في الشعب فإذا هو قد جاء ، حتى وقف على النبيِّ ﷺ فقال : إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشعب حيث أمرتني ، فلما أصبحنا طلعت الشعبين كليهما ، فنظرت فلم أرَ أحدًا ، فقال له رسول اللَّه ﷺ : « هَلْ نَزَلْتَ اللَّيْلَةَ ؟ » قال : لا ، إلَّا مصليًا أو قاضي حاجة ، فقال له : « أَوْجَبْتَ ، فَلاَ عَلَيْكَ أَنْ لا تَعْمَلَ بَعْدَهَا » (١) .

وعن ابن عبَّاس قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهما النَّارُ ، عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّه ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّه » (٢) .

وعن معاذ بن أنس عن رسول اللَّه ﷺ قال : « مَنْ حَرَسَ مِنْ وَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ مُتَطَوِّعًا لاَ بِأُجْرَةِ سُلْطَانٍ ؛ لَمْ يَرَ النَّارَ بِعَيْنِهِ إِلَّا تَحِلَّةَ القَسَمِ ، فَإِنَّ اللَّه يَقُولُ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ » (٣) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَم وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخطَ ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ ؛ وَإِذَا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ ، طُوبَى لِعَبْدٍ أَخَذَ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّه أَشْعَثُ رَأْسُهُ ، مُغْبَرَّة قَدَمَاهُ ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كان فِي السَّاقَةِ ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ ، وَإِنْ شَفَعَ لَم يُشَفَّعْ » (٤) .

وعن مالك بن زيد بن أسلم قال : كتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعًا من الروم وما يتخوف منهم ، فكتب إليه عمر ، أما بعد : فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزلة شدة يجعل اللَّه له بعدها فرجًا ، وإنه لن يغلب عسر يسرين ، وإن اللَّه تعالى يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي في جميع أموركم وأحوالكم ، كما قال النبي ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : « اتَّقِ اللَّه حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسِ بِخُلُقٍ حَسَنٍ » (٥) . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي في الدنيا والآخرة . عن محمَّد بن كعب القرظي أنه كان يقول في قول اللَّه ﷻ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ يقول : اتقوني فيما بيني وبينكم لعلكم تفلحون غدًا إذا لقيتموني .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٨٤/٢) والبيهقي في السنن (١٤٩/٦) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٦٣٩) والمنذري في الترغيب (٢٤٨/٢) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٤٣٧/٣) والمنذري في الترغيب (٢٤٨/٢) .
(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤١٣٦) .
(٥) أخرجه الترمذي في السنن (١٩٨٧) والحاكم في المستدرك (٥٤/١) .

سورة النساء

وآياتها سِتٌ وَسَبْعُونَ وَمِائَة

عن ابن عبَّاس : نزلت سورة النساء بالمدينة . وعنه قال : لما نزلت سورة النساء قال رسول الله ﷺ : « لاَ حَبْسَ » [(١)] وعن ابن مسعود قال : خمس آيات من النساء ، لهن أحب إلي من الدنيا جميعًا ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ، ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ . وعنه قال : ثماني آيات نزلت في سورة النساء خير لهذا الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت ، أولهن ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ والثانية : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ والثالثة : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ ثم ذكر قول ابن مسعود سواء ، يعني في الخمسة الباقية .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا خلقه بتقواه ، وهي عبادته وحده لا شريك له ومنبهًا لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة ، وهي آدم عليه السلام ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ وهي حواء عليها السلام خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم ، فاستيقظ فرآها فأعجبته ، فأنس إليها وأنست إليه . وفي الحديث الصحيح : « إِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَع ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاَهُ ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهن كَسَرْتَهُ ، وَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عِوَجٌ » [(٢)] . وقوله : ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ أي وذرأ منهما أي من آدم وحواء رجالًا كثيرًا ونساءً ، ونشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم ، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر . ثم قال تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ أي واتقوا الله بطاعتكم إياه . وقيل : واتقوا الله الذي تعاقدون وتعاهدون به ، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ، ولكن برُّوها وصلوها . وقرأ بعضهم ﴿ والأرحامِ ﴾ بالخفض على العطف على الضمير في به أي تساءلون بالله وبالأرحام [(٣)] . وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ أي هو مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم كما قال : ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ . وفي الحديث : « اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » [(٤)] وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب . ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد ، وأم واحدة ، ليعطف بعضهم على بعض ، ويحثهم على ضعفائهم ، وعن جرير بن عبد الله البجلي أن

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٩/٣) .　　(٢) أخرجه مسلم في الرضاع (٦٠) والبيهقي في السنن (٩٥/٧) .

(٣) قرأ حمزة و ﴿ ٱلْأَرْحَامِ ﴾ بكسر الميم ، وقرأ الباقون بفتحها . (انظر : التقريب ص : ١٠٤) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٣٢/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٤٠/٢) .

رسول الله ﷺ حين قدم عليه أولئك النفر من مضر - وهم مجتابو الثِّمار أي من عريهم وفقرهم - قام فخطب الناس بعد صلاة الظهر فقال في خطبته : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ حتى ختم الآية . ثم قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ ثم حضهم على الصدقة فقال : « تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ ، مِنْ دِرْهَمِهِ ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ » (١) وذكر تمام الحديث .

﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ۝ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ .

يأمر تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحلم كاملة موفرة ، وينهى عن أكلها وضمها إلى أموالهم ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ﴾ عن أبي صالح : لا تعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الرزق الحلال الذي قدِّر لك . وقال سعيد بن جبير : لا تتبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم . يقول : لا تبدلوا أموالكم الحلال وتأكلوا أموالهم الحرام . وقال السدي : كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم ، ويجعل مكانها الشاة المهزولة ، ويقول : شاة بشاة . ويأخذ الدرهم الجيد ، ويطرح مكانه الزيف ، ويقول : درهم بدرهم . وقوله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾ أي لا تخلطوها فتأكلوها جميعًا . وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ أي إثمًا عظيمًا . عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ قال : إِثْمًا كَثِيرًا . وعن أنس بن مالك يقول : أراد أبو طلحة أن يطلق أم سليم امرأته فقال النبيُّ ﷺ : « إِنَّ طَلَاقَ أُمِّ سَلِيمٍ لَحُوبٌ » فكف (٢) . والمعنى : إن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم وخطأ كبير فاجتنبوه .

وقوله : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ ﴾ أي إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة ، وخاف أن لا يعطيها مهر مثلها ، فليعدل إلى ما سواها من النساء ؛ فإنهن كثير ، ولم يضيق الله عليه . عن عائشة : أن رجلًا كانت له يتيمة فنكحها ، وكان لها عذق ، وكان يمسكها عليه ، ولم يكن لها من نفسه شيء فنزلت فيه ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ ﴾ أحسبه قال : كانت شريكته في ذلك العذق وفي ماله (٣) . وعن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ قالت : يا ابن أختي ، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ، ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها ، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلَّا أن يقسطوا إليهن ، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن ، قال عروة : قالت عائشة : وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله : ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ﴾ قالت عائشة : وقول الله في الآية الأخرى : ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال والجمال ، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من النساء إلَّا بالقسط ، من أجل رغبتهم عنهن ، إذا كن قليلات المال والجمال (٤) .

وقوله : ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ أي انكحوا ما شئتم من النساء سواهن إن شاء أحدكم ثنتين ، وإن شاء

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٦٩) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٠٢/٢) والبيهقي في السنن (٣٠٧/٧) .
(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٧٣) . (٤) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٧٤) .

ثلاثًا ، وإن شاء أربعًا ، كما قال اللَّه تعالى : ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ أي منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ولا ينفي ما عدا ذلك في الملائكة لدلالة الدليل عليه . بخلاف قصر الرجال على أربع ، فمن هذه الآية كما قال ابن عبَّاس وجمهور العلماء ؛ لأن المقام مقام امتنان وإباحة ، فلو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لذكره . قال الشافعي : وقد دلت سنَّة رسول اللَّه ﷺ المبينة عن اللَّه أنه لا يجوز لأحد غير رسول اللَّه ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة . وهذا الذي قاله الشافعي مجمع عليه بين العلماء ، إلَّا ما حكي عن طائفة من الشيعة ، أنه يجوز الجمع بين أكثر من أربع إلى تسع ، وقال بعضهم : بلا حصر ، وقد يتمسك بعضهم بفعل رسول اللَّه ﷺ في جمعه بين أكثر من أربع إلى تسع كما ثبت في الصحيح ، وأما إحدى عشرة كما قد جاء في بعض ألفاظ البخاري . وقد علقه البخاري ، وقد روينا عن أنس أن رسول اللَّه ﷺ تزوج بخمس عشرة امرأة ، ودخل منهن بثلاث عشرة ، واجتمع عنده إحدى عشرة ، ومات عن تسع . وهذا عند العلماء من خصائصه دون غيره من الأمة ، لما سنذكره من الأحاديث الدالة على الحصر في أربع . ولنذكر الأحاديث في ذلك .

عن سالم عن أبيه أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحته عشر نسوة ، فقال له النبيُّ ﷺ : « اخْتَرْ مِنْهُنَّ أَرْبَعًا » فلما كان في عهد عمر طلَّق نساءه ، وقسم ماله بين بنيه ، فبلغ ذلك عمر فقال : إني لا أظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك فقذفه في نفسك ، ولعلك لا تلبث إلَّا قليلًا ، وايم اللَّه لتراجعن نساءك ولترجعن مالك أو لأورثهن منك ولآمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبي رغال [١] . فوجه الدلالة أنه لو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لسوغ له رسول اللَّه ﷺ سائرهن في بقاء العشرة وقد أسلمن ، فلما أمره بإمساك أربع وفراق سائرهن ، دلَّ على أنه لا يجوز الجمع بين أكثر من أربع بحال ، فإذا كان هذا في الدوام ، ففي الاستئناف بطريق الأولى والأحرى .

وعن عميرة الأسدي قال : أسلمت وعندي ثمان نسوة ، فذكرت للنبي ﷺ فقال : « اخْتَرْ مِنْهُنَّ أَرْبَعًا » [٢] .

وقوله : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ أي إن خفتم من تعداد النساء أن لا تعدلوا بينهن كما قال تعالى : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ فمن خاف من ذلك فليقتصر على واحدة ، أو على الجواري السراري فإنه لا يجب قسم بينهن ، ولكن يستحب ، فمن فعل فحسن ومن لا فلا حرج ، وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾ قال بعضهم : ذلك أدنى أن لا تكثر عيالكم . قاله زيد بن أسلم وسفيان بن عيينة والشافعي وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ أي فقرًا ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾ وقال الشاعر :

فَمَا يَدْرِي الفَقِيرُ مَتَى غَنَاهُ وَمَا يَدْرِي الغَنِيُّ مَتَى يُعِيلُ

وتقول العرب : عال الرجل يعيل عيلة إذا افتقر . ولكن في هذا التفسير ههنا نظر ؛ فإنه كما يخشى كثرة العائلة من تعداد الحرائر ، كذلك يخشى من تعداد السراري أيضًا ، والصحيح قول الجمهور : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾ أي لا تجوروا . عن عائشة عن النبيِّ ﷺ ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾ قال : « لا تَجُورُوا » [٣] وقيل : لا تميلوا .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤/٢) والدارقطني في السنن (٢٧١/٣) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٢٢٤١) والحاكم في المستدرك (١٩٢/٢) .
(٣) ذكره الطبري في تفسيره (٣٢٠/١٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةًۭ ﴾ عن ابن عبّاس النحلة : المهر . وعن عائشة نحلة : فريضة . وقال ابن زيد : النحلة في كلام العرب الواجب ، يقول : لا تنكحها إلّا بشيء واجب لها ، وليس ينبغي لأحد بعد النبيّ ﷺ أن ينكح امرأة إلّا بصداق واجب ، ولا ينبغي أن يكون تسمية الصداق كذبًا بغير حق ، ومضمون كلامهم أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتمًا ، وأن يكون طيب النفس بذلك ، كما يمنح المنيحة ويعطي النحلة طيبًا ، كذلك يجب أن يعطي المرأة صداقها طيبًا بذلك ، فإن طابت هي له به بعد تسميته أو عن شيء منه ، فيأكله حلالًا طيبًا ، ولهذا قال : ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍۢ مِّنْهُ نَفْسًۭا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًۭٔا مَّرِيٓـًۭٔا ﴾ . عن أبي صالح : كان الرجل إذا زوج بنته أخذ صداقها دونها ، فنهاهم اللّه عن ذلك ونزل ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةًۭ ﴾ عن عبد الرَّحمن بن مالك السلماني قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةًۭ ﴾ » قالوا : يا رسول اللّه ، فما العلائق بينهم ؟ قال : « مَا تَرَاضَى عَلَيْهِ أَهْلُوهُمْ » (١)

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًۭا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًۭا مَّعْرُوفًۭا ۝ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًۭا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًۭا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّۭا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًۭا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًۭا ﴾ .

ينهى سبحانه وتعالى عن تمكين السفهاء من التصرُّف في الأموال التي جعلها اللّه للناس قيامًا ، أي تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها . ومن ههنا يؤخذ الحجر على السفهاء ، وهم أقسام : فتارة يكون الحجر للصغر ، فإن الصغير مسلوب العبارة . وتارة يكون الحجر للجنون ، وتارة لسوء التصرُّف لنقص العقل أو الدين . وتارة للفلس ، وهو ما إذا أحاطت الديون برجل وضاق ماله عن وفائها ، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحجر عليه حجر عليه . عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ قال : هم بنوك والنساء . وقال سعيد بن جبير : هم اليتامى . وعن أبي هريرة قال : هم الخدم ، وهم شياطين الإنس . وقوله : ﴿ وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًۭا مَّعْرُوفًۭا ﴾ قال ابن عبّاس : لا تعمد إلى مالك وما خوّلك اللّه وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك أو بنتك ، ثم تنظر إلى ما في أيديهم ، ولكن أمسك مالك وأصلحه ، وكن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم . وعن أبي موسى قال : ثلاثة يدعون اللّه فلا يستجيب لهم : رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلّقها ، ورجل أعطى ماله سفيهًا وقد قال اللّه : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ ورجل كان له على رجل دين فلم يشهد عليه . وقال مجاهد : ﴿ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًۭا مَّعْرُوفًۭا ﴾ يعني في البر والصلة . وهذه الآية الكريمة تضمنت الإحسان إلى العائلة ، ومن تحت الحجر بالفعل ، من الإنفاق في الكساوي والأرزاق ، بالكلام الطيب ، وتحسين الأخلاق .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ أي اختبروهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ ﴾ يعني الحلم . قال الجمهور من العلماء : البلوغ في الغلام ، تارة يكون بالحلم ، وهو أن يرى في منامه ما ينزل به الماء الدافق الذي يكون منه الولد . وعن علي قال : حفظت من رسول اللّه ﷺ : « لَا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلَام ، وَلَا صِمَاتَ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ » (٢) . وعن عائشة وغيرها من الصحابة عن النبيّ ﷺ قال : « رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ : عَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ أَوْ يَسْتَكْمِلَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ » (٣) . وأخذوا ذلك من

(١) ذكره ابن أبي شيبة في مصنفه (١٨٤/١٤) . (٢) أخرجه أبو داود في السنن (٢٨٧٣) والبيهقي في السنن (٥٧/٧) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٠/٦) والنسائي في السنن (١٥٦/٦) والحاكم في المستدرك (٣٨٩/٤) .

الحديث عن ابن عمر قال : عُرضت على النبيّ ﷺ يوم أُحُد وأنا ابن أربع عشرة فلم يجزني ، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني . فقال عمر بن عبد العزيز لما بلغه هذا الحديث : إن هذا الفرقُ بين الصغير والكبير (١) . واختلفوا في نبات الشعر الخشن حول الفرج ، وهي الشعرة ، هل يدل على بلوغ أم لا ؟ على ثلاثة أقوال : يفرق في الثالث بين صبيان المسلمين فلا يدل على ذلك لاحتمال المعالجة ، وبين صبيان أهل الذمة ، فيكون بلوغًا في حقهم ؛ لأنه لا يتعجل بها إلى ضرب الجزية عليه فلا يعالجها ، والصحيح أنها بلوغ في الجميع ؛ لأن هذا أمر جبلي يستوي فيه الناس ، واحتمال المعالجة بعيد ، ثم قد دلت السنة على ذلك الحديث الذي روي عن عطية القرظي قال : عرضنا على النبيّ ﷺ يوم قريظة ، فأمر من ينظر من أنبت ، فكان من أنبت قتل ، ومن لم ينبت خليَ سبيلُه ، فكنت فيمن لم ينبت فخلي سبيلي (٢) . وإنما كان كذلك ؛ لأن سعد بن معاذ كان قد حكم فيهم بقتل المقاتلة وسبي الذرية . وعن عمر أن غلامًا ابتهر جارية في شعره ، فقال عمر : انظروا إليه ، فلم يوجد أنبت فدرأ عنه الحد . قال أبو عبيدة : ابتهرها أي قذفها ، والابتهار أن يقول : فعلت بها وهو كاذب ، فإن كان صادقًا هو الابتيار .

وقوله ﷻ : ﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ قال سعيد بن جبير : يعني صلاحًا في دينهم ، وحفظًا لأموالهم . وهكذا قال الفقهاء : إذا بلغ الغلام مصلحًا لدينه وماله انفك الحجر عنه ، فيسلم إليه ماله الذي تحت يد وليه . وقوله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ﴾ ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية ﴿ إِسْرَافًا وَبِدَارًا ﴾ أي مبادرة قبل بلوغهم . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ عنه ولا يأكل منه شيئًا . وقال الشعبي : هو عليه كالميتة والدم ﴿ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ عن عائشة : نزلت في والي اليتيم الذي يقوم عليه ويصلحه إذا كان محتاجًا أن يأكل منه . قال الفقهاء : له أن يأكل من أقل الأمرين أجرة مثله أو قدر حاجته . واختلفوا هل يرد إذا أيسر ؟ على قولين :

أحدهما : لا ، لأنه أكل بأجرة عمله ، وكان فقيرًا ، وهذا هو الصحيح عند أصحاب الشافعي ؛ لأن الآية أباحت الأكل من غير بدل . عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ فقال : ليس لي مال ولي يتيم ؟ فقال : « كُلْ مِنْ مَالِ يَتِيمِكَ غَيْرَ مُسْرِفٍ وَلاَ مُبَذِّرٍ وَلاَ مُتَأَثِّلٍ مَالًا ، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ تَقِيَ مَالَكَ - أو قال - تَفْدِي مَالَكَ بِمَالِهِ » شك حسين (٣) . عن جابر أن رجلًا قال : يا رسول الله مما أضرب يتيمي ؟ قال : « مِمَّا كُنْتَ ضَارِبًا مِنْهُ وَلَدَكَ ، غَيْرَ وَاقٍ مَالَكَ بِمَالِهِ ، وَلاَ مُتَأَثِّلٍ مِنْهُ مَالًا » (٤) . وعن القاسم بن محمّد قال : جاء أعرابي إلى ابن عباس فقال : إن في حجري أيتامًا ، وإن لهم إبلًا ولي إبل ، وأنا أمنح من إبلي فقراء ، فماذا يحل من ألبانها فقال : إن كنت تبغي ضالتها ، وتهنا جرباها ، وتلوط حوضها ، وتسعى عليها ، فاشرب غير مضر بنسل ، ولا ناهك في الحلب .

والثاني : نعم ، لأن مال اليتيم على الحظر ، وإنما أبيح للحاجة ، فيرد بدله كأكل مال الغير للمضطر عند الحاجة . عن حارثة بن مضرب قال : قال عمر ﷺ : إني أنزلت نفسي من هذا المال منزلة والي اليتيم ، إن استغنيت استعففت ، وإن احتجت استقرضت ، فإذا أيسرت قضيت .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٨/٢٦٤) . (٢) أخرجه البيهقي في السنن (٦/٥٨) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢٨٧٢) والنسائي في السنن (٦/٢٥٦) وابن ماجة في السنن (٢٧١٨) .
(٤) ذكره ابن حجر في فتح الباري (١٠/٤٣٧) والهيثمي في مجمع الزوائد (٨/١٦٣) .

عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ قال : يعني القرض ، وعن مقسم عن ابن عبّاس ﴿ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ قال : يأكل من ماله يقوت على نفسه حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم . وقال عامر الشعبي : لا يأكل منه إلَّا أن يضطر إليه كما يضطر إلى الميتة ، فإن أكل منه قضاه .

وقوله : ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ يعني بعد بلوغهم الحلم ، وإيناسكم الرشد منهم ، فحينئذ سلموا إليهم أموالهم ، فإذا دفعتم إليهم أموالهم ﴿ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ﴾ وهذا أمر من اللّٰه تعالى للأولياء أن يشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم وسلموا إليهم أموالهم ، لئلا يقع من بعضهم جحود وإنكار لما قبضه وتسلمه ، ثم قال : ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أي وكفي باللّٰه محاسبًا وشاهدًا ورقيبًا على الأولياء في حال نظرهم للأيتام ، وحال تسليمهم لأموالهم ، هل هي كاملة موفرة ، أو منقوصة مبخوسة مروج حسابها مدلس أمورها ؟ واللّٰه عالم بذلك كله . ولهذا ثبت أن رسول اللّٰه ﷺ قال : « يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا ، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي ، لاَ تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ وَلا تَلِيَنَّ مَالَ يَتِيم » [1] .

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ .

قال سعيد بن جبير وقتادة : كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار ، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئًا ، فأنزل اللّٰه : ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴾ الآية . أي الجميع فيه سواء في حكم اللّٰه تعالى ، يستوون في أصل الوراثة ، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض اللّٰه لكل منهم بما يدلي به إلى الميت من قرابة ، أو زوجية ، أو ولاء ؛ فإنه لحمة كلحمة النسب .

وقوله : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ ﴾ الآية قيل : المراد : وإذا حضر قسمة الميراث ذوو القربي ممن ليس بوارث ﴿ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ ﴾ فليرضخ لهم من التركة نصيب ، وإن ذلك كان واجبًا في ابتداء الإسلام ، وقيل : يستحب ، واختلفوا هل هو منسوخ أم لا على قولين . عن ابن عبّاس في الآية قال : هي محكمة وليست بمنسوخة . وعن مقسم عن ابن عبّاس قال : هي قائمة يعمل بها . وعن مجاهد قال : هي واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم . وقال ابن سيرين وسعيد بن جبير ومكحول وغيرهم : إنها واجبة . وعن ابن سيرين قال : ولي عبيدة وصية ، فأمر بشاة فذبحت فأطعم أصحاب هذه الآية ، فقال : لولا هذه الآية لكان هذا من مالي .

ذكر من ذهب إلى أن ذلك أمر بالوصية لهم : يروى أن عبد اللّٰه بن عبد الرّحمن بن أبي بكر قسم ميراث أبيه عبد الرّحمن وعائشة حية ، فلم يدع في الدار مسكينًا ولا ذا قرابة إلَّا أعطاه من ميراث أبيه ، قالا : وتلا ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ ﴾ قال القاسم : فذكرت ذلك لابن عبّاس فقال : ما أصاب ، ليس ذلك له ، إنما ذلك إلى الوصية ، وإنما هذه الآية في الوصية يريد الميت يوصي لهم .

ذكر من قال إن هذه الآية منسوخة بالكلية : عن ابن عبّاس رضي اللّٰه تعالى عنهما : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٧) وأبو داود في السنن (٢٨٦٨) والنسائي في السنن (٦/٢٥٥) .

﴿ ٱلْقِسْمَةَ ﴾ قال : منسوخة . وعنه قال : نسختها الآية التي بعدها ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾ . وعنه قال : نسختها آية الميراث ، فجعل لكل إنسان نصيبه مما ترك الوالدن والأقربون مما قلّ منه أو كثر . وعن سعيد بن المسيب أنه قال : إنها منسوخة ، قبل الفرائض كان ما ترك الرجل من مال أعطي منه اليتيم والفقير والمسكين وذوي القربى إذا حضروا القسمة ، ثم نسختها المواريث فألحق الله بكل ذي حق حقه ، وصارت الوصية من ماله يوصي بها لذوي قرابته حيث شاء . وعن سعيد بن المسيب : هي منسوخة ، نسختها المواريث والوصية . وهذا مذهب جمهور الفقهاء والأئمة الأربعة وأصحابهم ، وقد اختار ابن جرير ههنا قولا غريبًا جدًّا وحاصله أن معنى الآية عنده ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ ﴾ أي وإذا حضر قسمة مال الوصية أولو قرابة الميت ﴿ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ ﴾ لليتامى والمساكين إذا حضروا ﴿ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ هذا معنى ما حاوله بعد طول العبارة والتكرار وفيه نظر . وعن ابن عبّاس ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ ﴾ : هي قسمة الميراث . والمعنى على هذا لا على ما سلكه ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، بل المعنى : أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون واليتامى والمساكين قسمة مال جزيل ، فإن أنفسهم تتوق إلى شيء منه ، إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ ، وهم يائسون لا شيء يعطونه ، فأمر الله تعالى - وهو الرؤوف الرحيم - أن يرضخ لهم شيء من الوسط يكون برًّا بهم وصدقة عليهم ، وإحسانًا إليهم ، وجبرًا لكسرهم . وذمّ الذين ينقلون المال خفية خشية أن يطلع عليهم المحاويج وذوو الفاقة كما أخبر به عن أصحاب الجنّة ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أي بليل . وقال : ﴿ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ۝ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ فـ ﴿ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ فمن جحد حق الله عليه عاقبه في أعز ما يملكه ، ولهذا جاء في الحديث : « مَا خَالَطَتِ الصَّدَقَةُ مَالًا إِلَّا أَفْسَدَتْهُ » (١) أي منعها يكون سبب محق ذلك المال بالكلية .

وقوله تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ قال ابن عبّاس : هذا في الرجل يحضره الموت ، فيسمعه رجل يوصي بوصية تضر بورثته ، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتّقي الله ويوفقه ويسدّده للصواب ، فينظر لورثته كما كان يجب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيعة ، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعوده قال : يا رسول الله ، إني ذو مال ولا يرثني إلّا ابنة ، أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قال : « لا » قال : فالشطر ؟ قال : « لا » قال : فالثلث ؟ قال : « الثُّلُثُ ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ » ثم قال رسول الله ﷺ : « إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ » (٢) . وعن ابن عبّاس قال : لو أن الناس غضوا من الثُّلث إلى الربع ، فإن رسول الله ﷺ قال : « الثُّلُثُ ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ » . قال الفقهاء إن كان ورثة الميت أغنياء استحب للميت أن يستوفي في وصيته الثُّلث ، وإن كانوا فقراء استحب أن ينقص الثُّلث . وقيل : المراد بالآية : فليتقوا الله في مباشرة أموال اليتامى ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا ﴾ أي كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك ، فعامل الناس في ذراريهم إذا وليتهم .

ثم أعلمهم أن من أكل أموال اليتامى ظلمًا فإنما يأكل في بطنه نارًا ولهذا قال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ أي إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب ، فإنما يأكلون نارًا تتأجج في بطونهم يوم القيامة . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ » قيل : يا رسول الله وما هنّ ؟ قال : « الشِّرْكُ بِاللَّهِ ، وَالسِّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٥٤٣/١) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٦٤/٣) .
(٢) أخرجه البخاري في النفقات (٥٣٥٤) وأحمد في مسنده (٢٢٣/١) .

الرِّبَا ، وأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلاتِ المُؤْمِنَاتِ » [(١)] . وقال السدي : يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ، ومن مسامعه ، وأنفه ، وعينيه ، يعرفه كل من رآه بأكل مال اليتيم . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أُحَرِّجُ مَالَ الضَّعِيفَيْنِ : المَرْأَةِ ، وَاليَتِيمِ » [(٢)] أي أوصيكم باجتناب مالهما .

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

هذه الآية الكريمة والتي بعدها ، والآية التي هي خاتمة هذه السورة ، هن آيات علم الفرائض ، وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث ، ومن الأحاديث الواردة في ذلك مما هو كالتفسير لذلك ، ولنذكر منها ما هو متعلّق بتفسير ذلك ، وأما تقرير المسائل ونصب الخلاف والأدلة ، والحجاج بين الأئمة ، فموضعه كتب الأحكام والله المستعان . وقد ورد الترغيب في تعلم الفرائض وهذه الفرائض الخاصة من أهم ذلك ، عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا : « العِلْمُ ثَلاثَةٌ وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ : آيَةٌ مُحْكَمَةٌ ، أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ ، أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ » [(٣)] . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « تَعَلَّمُوا الفَرَائِضَ وَعَلِّمُوهُ النَّاسَ ؛ فَإِنَّهُ نِصْفُ العِلْمِ ، وَهُوَ يُنْسَى ، وَهُوَ أَوَّلُ شَيْءٍ يُنْتَزَعُ مِنْ أُمَّتِي » [(٤)] . قال ابن عيينة : إنما سمي الفرائض نصف العلم ؛ لأنه يبتلى به الناس كلهم ، وعن جابر بن عبد الله قال : عادني رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ماشيين ، فوجدني النبيُّ ﷺ لا أعقل شيئًا ، فدعا بماء فتوضأ منه ثم رش عليَّ فأفقت فقلت : ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله ؟ . فنزلت ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ [(٥)] .

وعن جابر قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، هاتان ابنتا سعد بن الربيع ، قتل أبوهما معك في يوم أُحد شهيدًا ، وإن عمَّهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالًا ، ولا ينكحان إلّا ولهما مال ، قال : فقال : « يَقْضِي اللَّهُ فِي ذَلِكَ » فنزلت آية الميراث ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال : « أَعْطِ ابْنَتَيْ سَعْدٍ الثُّلُثَيْنِ ، وَأُمَّهُمَا الثُّمُنَ ، وَمَا بَقِيَ فَهُوَ لَكَ » [(٦)] . والظاهر أن حديث جابر الأول إنما نزل بسببه الآية الأخيرة من هذه السورة كما سيأتي ؛ فإنه إنما كان له إذ ذاك أخوات ، ولم يكن له بنات ، وإنما كان يورث كلالة ، ولكن ذكرنا الحديث ههنا تبعًا للبخاري فإنه ذكره ههنا ، والحديث الثاني عن جابر أشبه بنزول هذه الآية ، والله أعلم .

فقوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ أي يأمركم بالعدل فيهم ، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكر دون الإناث ، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦) ومسلم في الإيمان (١٤٥)
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٩/٢) . (٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢٨٨٥) والبيهقي في السنن (٢٠٨/٦) .
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٣٢/٤) والبيهقي في السنن (٢٠٨/٦) والدارمي في السنن (٧٣/١) .
(٥) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (١٦٢/٦) .
(٦) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٩١) وأحمد في مسنده (٣٥٢/٣) والحاكم في المستدرك (٣٣٤/٤) .

الميراث ، وفاوت بين الصنفين ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة والكلفة ومعاناة التجارة والتكسّب وتحمّل المشاق ، فناسب أن يعطى ضعفي ما تأخذه الأنثى . وقد استنبط بعض الأذكياء من قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾ أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالدة بولدها ، حيث أوصى الوالدين بأولادهم ، فعلم أنه أرحم بهم منهم ، كما جاء في الحديث – وقد رأى امرأة من السبي ، فرق بينها وبين ولدها ، فجعلت تدور على ولدها ، فلما وجدته من السبي أخذته فألصقته بصدرها وأرضعته – فقال رسول اللّه ﷺ لأصحابه : « أَتَرُونَ هٰذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ » ؟ قالوا : لا يا رسول اللّه ، قال : « فواللّه للّه أَرْحَمُ بعبادِهِ مِنْ هذِهِ بِوَلَدِهَا » (١) . وعن ابن عبّاس : كان المال للولد ، وكانت الوصية للوالدين ، فنسخ اللّه من ذلك ما أحب ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث ، وجعل للزوجة الثمن والربع ، وللزوج الشطر والربع . وعن ابن عبّاس : قوله : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾ وذلك أنه لما نزلت الفرائض التي فرض اللّه فيها ما فرض للولد الذكر والأنثى والأبوين كرهها الناس أو بعضهم وقالوا : تعطى المرأة الربع أو الثمن ، وتعطى الابنة النصف ويعطى الغلام الصغير ، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ، ولا يجوز الغنيمة ؛ اسكتوا عن هذا الحديث لعل رسول اللّه ﷺ ينساه ، أو نقول له فيغير فقالوا : يا رسول اللّه تعطى الجارية نصف ما ترك أبوها ، وليست تركب الفرس ، ولا تقاتل القوم ؟ ويعطى الصبي الميراث وليس يغني شيئًا ، وكانوا يفعلون ذلك في الجاهلية ، لا يعطون الميراث إلّا لمن قاتل القوم ، ويعطونه الأكبر فالأكبر .

وقوله : ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ ﴾ قال بعض الناس : قوله : ﴿ فَوۡقَ ﴾ زائدة وتقديره : فإن كن نساء اثنتين كما في قوله : ﴿ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ ﴾ وهذا غير مسلّم لا هنا ولا هناك . فإنه ليس في القرآن شيء زائد لا فائدة فيه ، وهذا ممتنع ، ثم قوله : ﴿ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ ﴾ لو كان المراد ما قالوه ، لقال : فلهما ثلثا ما ترك ، وإنما استفيد كون الثلثين للبنتين من حكم الأختين في الآية الأخيرة ، فإنه تعالى حكم فيها للأختين بالثلثين . وإذا ورث الأختان الثلثين فلأن يرث البنتان الثلثين بالطريق الأولى . وقد تقدم في حديث جابر أن النبيّ ﷺ حكم لابنتي سعد بن الربيع بالثلثين ، فدل الكتاب والسنّة على ذلك ، وأيضًا فإنه قال : ﴿ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ ﴾ فلو كان للبنتين النصف لنص عليه أيضًا ، فلما حكم به للواحدة على انفرادها ، دلّ على أن البنتين في حكم الثلاث واللّه أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ ﴾ إلى آخره ، الأبوان لهما في الإرث أحوال :

أحدها : أن يجتمعا مع الأولاد ، فيفرض لكل واحد منهما السدس ، فإن لم يكن للميت إلّا بنت واحدة ، فرض لها النصف ، وللأبوين لكل واحد منهما السدس ، وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب ، فيجمع له – والحالة هذه – بين الفرض والتعصيب .

الحال الثاني : أن ينفرد الأبوان بالميراث ، فيفرض للأم – والحالة هذه – الثلث ، ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب المحض ، فيكون قد أخذ ضعفي ما حصل للأم وهو الثلثان ، فلو كان معهما زوج أو زوجة

(١) أخرجه مسلم في التوبة (٢٢) والطبراني في الصغير (١/ ٩٨) .

أخذ الزوج النصف والزوجة الربع ، ثم اختلف العلماء ماذا تأخذ الأم بعد ذلك على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها تأخذ ثلث الباقي في المسألتين ؛ لأن الباقي كأنه جميع الميراث بالنسبة إليهما . وقد جعل الله لها نصف ما جعل للأب ، فتأخذ ثلث الباقي ويأخذ الأب الباقي - ثلثيه - هذا قول عمر وعثمان ، وأصح الروايتين عن علي ، وبه يقول ابن مسعود وزيد بن ثابت وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور العلماء .

والثاني : أنها تأخذ ثلث جميع المال لعموم قوله : ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ﴾ فإن الآية أعم من أن يكون معها زوج أو زوجة أو لا وهو قول ابن عبّاس ، وروي عن علي ومعاذ بن جبل نحوه ، وبه يقول شريح وداود الظاهري ، واختاره أبو الحسين محمّد بن عبد الله بن اللبان البصري في كتابه الإيجاز في علم الفرائض ، وهذا فيه نظر ، بل هو ضعيف ؛ لأن ظاهر الآية إنما هو ما إذا استبدا بجميع التركة ، وأما هنا فيأخذ الزوج أو الزوجة الفرض ويبقى الباقي كأنه جميع التركة فتأخذ ثلثه .

والقول الثالث : أنها تأخذ ثلث جميع المال في مسألة الزوجة خاصة ؛ فإنها تأخذ الربع وهو ثلاثة من اثني عشر ، وتأخذ الأم الثلث وهو أربعة ، فيبقى خمسة للأب . وأما في مسألة الزوج ، فتأخذ ثلث الباقي لئلا تأخذ أكثر من الأب لو أخذت ثلث المال ، فتكون المسألة من ستة : للزوج النصف ثلاثة ، وللأم ثلث الباقي بعد ذلك وهو سهم ، وللأب الباقي بعد ذلك وهو سهمان . ويحكى هذا عن ابن سيرين ، وهو مركب من القولين الأولين ، وهو ضعيف أيضًا ، والصحيح الأول والله أعلم .

والحال الثالث من أحوال الأبوين : وهو اجتماعهما مع الإخوة ، سواء كانوا من الأبوين أو من الأب أو من الأم : فإنهم لا يرثون مع الأب شيئًا ، ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس ، فيفرض لها مع وجودهم السدس ، فإن لم يكن وارث سواها وسوى الأب ، أخذ الأب الباقي . وحكم الأخوين فيما ذكرناه كحكم الإخوة عند الجمهور . وعن ابن عبّاس أنه دخل على عثمان فقال : إن الأخوين لا يردّان الأم عن الثلث . قال الله تعالى : ﴿ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ ﴾ فالأخوان ليسا بلسان قومك إخوة ، فقال عثمان : لا أستطيع تغيير ما كان قبلي ، ومضى في الأمصار ، وتوارث به الناس . وفي صحة هذا الأثر نظر ، فإن شعبة هذا تكلم فيه مالك بن أنس ، ولو كان هذا صحيحًا عن ابن عبّاس لذهب إليه أصحابه الأخصاء به ، والمنقول عنهم خلافه ، وعن خارجة بن زيد عن أبيه أنه قال : الإخوان تسمى إخوة ، وقد أفردت لهذه المسألة جزءًا على حدة .

وقوله : ﴿ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ﴾ أضروا بالأم ولا يرثون ، ولا يحجبها الأخ الواحد عن الثلث ، ويحجبها ما فوق ذلك ، وكان أهل العلم يرون أنهم إنما حجبوا أمهم عن الثلث أن أباهم يلي إنكاحهم ، ونفقته عليهم دون أمهم ، وهذا كلام حسن . لكن روي عن ابن عبّاس بإسناد صحيح أنه كان يرى أن السدس الذي حجبوه عن أمهم يكون لهم ، وعن ابن عبّاس قال : السدس الذي حجبته الإخوة لأم لهم إنما حجبوا أمهم عنه ليكون لهم دون أبيهم ، ثم قال ابن جرير : وهذا قول مخالف لجميع الأمة [(١)] . وعن ابن عبّاس أنه قال : الكلالة من لا ولد له ولا والد .

وقوله : ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدين

---

(١) تفسيره الطبري (٣٧٢/١) .

مقدم على الوصية ، وذلك عند إمعان النظر يفهم من فحوى الآية الكريمة . وعن علي بن أبي طالب قال : إنكم تقرأون ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ﴾ وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية ، وإن أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العلات ، يرث الرجل أخاه لأبيه وأمه دون أخيه لأبيه .

وقوله : ﴿ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ ﴾ أي إنما فرضنا للآباء والأبناء وساوينا بين الكل في أصل الميراث على خلاف ما كان عليه الأمر في الجاهلية ، وعلى خلاف ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من كون المال للولد وللأبوين الوصية كما تقدم عن ابن عباس ، إنما نسخ الله ذلك إلى هذا ، ففرض لهؤلاء ولهؤلاء بحسبهم ، لأن الإنسان قد يأتيه النفع الدنيوي أو الأخروي ، أو هما من أبيه ما لا يأتيه من ابنه ، وقد يكون بالعكس ، ولذا قال : ﴿ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ ﴾ أي أن النفع متوقع ومرجو من هذا كما هو متوقع ومرجو من الآخر ، فلهذا فرضنا لهذا وهذا ، وساوينا بين القسمين في أصل الميراث والله أعلم .

وقوله : ﴿ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ ﴾ أي هذا الذي ذكرناه من تفصيل الميراث ، وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض ، هو فرض من الله حكم به وقضاه ، والله عليم حكيم ، الذي يضع الأشياء في محالها ويعطي كلًّا ما يستحقه بحسبه ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ .

﴿ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴾ .

يقول تعالى : ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم ، إذا متن عن غير ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد الوصية أو الدين . وقد تقدم أن الدين مقدّم على الوصية ، وبعده الوصية ثم الميراث ، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء ، وحكم أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب . ثم قال : ﴿ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ ﴾ إلى آخره وسواء في الربع أو الثمن الزوجة والزوجتان الاثنتان والثلاث والأربع يشتركن فيه . وقوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً ﴾ الكلالة مشتقة من الإكليل وهو الذي يحيط بالرأس من جوانبه ، والمراد هنا من يرثه من حواشيه لا أصوله ولا فروعه ، عن أبي بكر الصدِّيق أنه سئل عن الكلالة فقال : أقول فيها برأيي فإن يكن صوابًا فمن الله ، وإن يكن خطأ ، فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه : الكلالة من لا ولد له ولا والد ، فلما ولي عمر قال : إني لأستحي أن أخالف أبا بكر في رأي رآه (١) . وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور السلف والخلف بل جميعهم ، وقد حكى الإجماع عليه غير واحد ، وورد فيه حديث مرفوع ، وقد روي عن ابن عبّاس ما يخالف ذلك ، وهو أنه من لا ولد له ، والصحيح عنه الأول ، ولعل الراوي ما فهم عنه ما أراد .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ ﴾ أي من أم كما هو في قراءة بعض السلف منهم سعد بن أبي

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٣٧٦/١٤) .

وقاص ، وكذا فسّرها أبو بكر الصدّيق فيما رواه قتادة عنه ﴿ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِۚ ﴾ وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه :

أحدها : أنهم يرثون مع من أدلوا به وهي الأم .

والثاني : أن ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء .

والثالث : لا يرثون إلَّا إن كان ميتهم يورث كلالة ، فلا يرثون مع أب ولا جد ، ولا ولد ولا ولد ابن .

والرابع : أنهم لا يزادون على الثلث وإن كثر ذكورهم وإناثهم .

وعن الزهري قال : قضى عمر أن ميراث الإخوة من الأم بينهم ، للذكر مثل حظ الأنثى . قال الزهري : ولا أرى عمر قضى بذلك حتى علم ذلك من رسول الله ﷺ ، وهذه الآية هي التي قال الله تعالى فيها : ﴿ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِۚ ﴾ . واختلف العلماء في المسألة المشتركة ، وهي زوج وأم أو جدة واثنان من ولد الأم وواحد أو أكثر من ولد الأبوين ، فعلى قول الجمهور : للزوج النصف ، وللأم أو الجدة السدس ، ولولد الأم الثلث ويشاركهم فيه ولد الأب والأم بما بينهم من القدر المشترك وهو إخوة الأم . وقد وقعت هذه المسألة في زمان أمير المؤمنين عمر ؛ فأعطى الزوج النصف والأم السدس ، وجعل الثلث لأولاد الأم ، فقال له أولاد الأبوين : يا أمير المؤمنين هب أن أبانا كان حمارًا ألسنا من أم واحدة ؟ فشرك بينهم ، وصح التشريك عن عثمان وهو إحدى الروايتين عن ابن مسعود وزيد بن ثابت وبه يقول سعيد بن المسيب وشريح القاضي ومسروق وهو مذهب مالك والشافعي . وكان علي بن أبي طالب لا يشرك بينهم ، بل يجعل الثلث لأولاد الأم ، ولا شيء لأولاد الأبوين ، والحالة هذه لأنهم عصبة . وهذا قول أُبيّ بن كعب وأبي موسى الأشعري ، وهو المشهور عن ابن عبّاس ، وهو مذهب الشعبي وابن أبي ليلى وأبي حنيفة وأبي يوسف ومحمّد بن الحسن والإمام أحمد وداود بن علي الظاهري .

وقوله : ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّۚ ﴾ أي لتكن وصيته على العدل ، لا على الإضرار والجور والحيف ، بأن يحرم بعض الورثة أو ينقصه ، أو يزيده على ما فرض الله له من الفريضة ، فمن سعى في ذلك كان كمن ضاد الله في حكمه وشرعه . عن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ قال : « الإِضْرَارُ فِي الوَصِيَّةِ مِنَ الكَبَائِرِ » (١) . ولهذا اختلف الأئمة في الإقرار للوارث هل هو صحيح أم لا ؟ على قولين : أحدهما : لا يصح لأنه مظنة التهمة . وقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللّٰهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، فَلاَ وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ » (٢) . وهذا مذهب مالك وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة ، والقول القديم للشافعي رحمهم الله ، وذهب في الجديد إلى أنه يصح الإقرار . وهو مذهب طاووس وعطاء والحسن وعمر بن عبد العزيز ، وهو اختيار أبي عبد الله البخاري في صحيحه ، واحتج بأن رافع بن خديج أوصى أن لا تكشف الفزارية عما أغلق عليه بابها . قال : وقال بعض الناس : لا يجوز إقراره لسوء الظن بالورثة ، وقد قال النبي ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ » (٣) وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) أخرجه الدارقطني في السنن (١٥١/٤) ، والهندي في كنز العمال (٤٦٠٦٩) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (٢٤٧/٦) وأبو داود في السنن (٢٨٧٠) والترمذي في السنن (٢١٢٠) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٤) ومسلم في البر والصلة (٢٨) والترمذي في السنن (١٩٨٨) .

يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ فلم يخص وارثًا ولا غيره . فمتى كان الإقرار صحيحًا مطابقًا لما في نفس الأمر جرى فيه هذا الخلاف ، ومتى كان حيلة ووسيلة إلى زيادة بعض الورثة ، ونقصان بعضهم فهو حرام بالإجماع ، وبنص هذه الآية الكريمة :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

أي هذه الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة بحسب قربهم من الميت واحتياجهم إليه وفقدهم له عند عدمه ، هي حدود الله فلا تعتدوها ولا تجاوزوها . ولهذا قال : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي فيها فلم يزد بعض الورثة ولم ينقص بعضها بحيلة ووسيلة ، بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي لكونه غيّر ما حكم الله به ، وضاد الله في حكمه . وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به ، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً ، فَإِذَا أَوْصَى وَحَافَ فِي وَصِيَّتِهِ فَيُخْتَمُ لَهُ بِشَرِّ عَمَلِهِ فَيَدْخُلُ النَّارَ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةً فَيَعْدِلُ فِي وَصِيَّتِهِ فَيُخْتَمُ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ » قال : ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (١) .

﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ .

كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة ، حبست في بيت فلا تمكّن من الخروج منه إلى أن تموت ، ولهذا قال : ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ ﴾ يعني الزنى ﴿ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ فالسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك . قال ابن عبّاس ﵄ : كان الحكم كذلك ، حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم . وعن عبادة بن الصامت قال : كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي أثّر عليه وكرب لذلك وتغير وجهه ، فأنزل الله ﷻ عليه ذات يوم فلما سرّي عنه قال : « خُذُوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ، الثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ ، وَالبِكْرُ بِالبِكْرِ ، الثَّيِّبُ جَلْدُ مِائَةٍ وَرَجْمٌ بِالحِجَارَةِ ، وَالبِكْرُ جَلْدُ مِائَةٍ ثُمَّ نَفْيُ سَنَةٍ » (٢) .

وعن ابن عبّاس قال : لما نزلت سورة النساء قال رسول الله ﷺ : « لَا حَبْسَ بَعْدَ سُورَةِ النِّسَاءِ » (٣) . وقد ذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى القول بمقتضى هذا الحديث ، وهو الجمع بين

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢٠٧) وابن ماجه في السنن (٢٧٠٤) وأحمد في مسنده (٢٧٨/٢) .
(٢) أخرجه مسلم في الحدود (١٢) وأبو داود في السنن (٤٤١٥) وأحمد في مسنده (٣١٧/٥) .
(٣) أخرجه البيهقي في السنن (١٦٢/٦) والدارقطني في السنن (٦٦/٤) .

الجلد والرجم في حق الثيب الزاني ، وذهب الجمهور إلى أن الثيب الزاني إنما يرجم فقط من غير جلد ، قالوا : لأن النبيّ ﷺ رجم ماعزًا والغامدية واليهوديين ولم يجلدهم قبل ذلك ، فدلَّ على أن الجلد ليس بحتم ، بل هو منسوخ على قولهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾ أي واللذان يفعلان الفاحشة فآذوهما . أي بالشتم والتعيير والضرب بالنعال ، وكان الحكم كذلك حتى نسخه اللَّه بالجلد أو الرجم . وقال عكرمة وعطاء والحسن وعبد اللَّه بن كثير : نزلت في الرجل والمرأة إذا زنيا . وقال السدي : نزلت في الفتيان من قبل أن يتزوجوا . وقال مجاهد : نزلت في الرجلين إذا فعلا - لا يكني - وكأنه يريد اللواط . وقد روي عن ابن عبّاس مرفوعًا قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ رَأَيْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ » (١) . وقوله ﴿ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا ﴾ أي أقلعا ونزعا عما كانا عليه وصلحت أعمالهما وحسنت ﴿ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ﴾ أي لا تعنفوهما بكلام قبيح بعد ذلك ؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ وقد ثبت في الصحيحين « إِذَا زَنَتْ أَمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَجْلِدْهَا الحَدَّ وَلاَ يُثَرِّب عَلَيْهَا » (٢) أي لا يعيرها بما صنعت بعد الحد الذي هو كفارة لما صنعت .

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

يقول ﷻ : إنما يقبل اللَّه التوبة ممن عمل السوء بجهالة ، ثم يتوب ولو بعد معاينة الملك يقبض روحه قبل الغرغرة . قال مجاهد وغير واحد : كل من عصى اللَّه خطأً أو عمدًا فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب . وعن قتادة قال : اجتمع أصحاب رسول اللَّه ﷺ فرأوا أن كل شيء عصي اللَّه به فهو جهالة ، عمدًا كان أو غيره . وعن مجاهد قال : كل عامل بمعصية اللَّه فهو جاهل حين عملها . وعن ابن عبّاس : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ قال : ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت . وقال الضحاك : ما كان دون الموت فهو قريب ، وقال قتادة والسدي : ما دام في صحته ، وهو مروي عن ابن عبّاس . وقال الحسن البصري : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ ما لم يغرغر . وقال عكرمة : الدنيا كلها قريب .

وعن ابن عمر عن النبي ﷺ ، قال : « إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ » (٣) .

وعن عبد اللَّه بن عمر يقول : من تاب قبل موته بعام تِيبَ عليه ، ومن تاب قبل موته بشهر تيب عليه ، ومن تاب قبل موته بجمعة تيب عليه ، ومن تاب قبل موته بيوم تيب عليه ، ومن تاب قبل موته بساعة تيب عليه . فقلت : إنما قال اللَّه : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ فقال : إنما أحدثك ما سمعته من رسول اللَّه ﷺ (٤) .

وعن عبد الرَّحمن بن السلماني قال : اجتمع أربعة من أصحاب النبيّ ﷺ فقال أحدهم : سمعت رسول

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/٣٥٥) والزيلعي في نصب الراية (٣/٣٤٠) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٤٤٠) والدارقطني في السنن (٣/١٦٠) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/١٣٢) والترمذي في السنن (٣٥٣٧) والحاكم في المستدرك (٤/٢٥٧) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٠٦) .

الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِيَوْمٍ » فقال الآخر : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، قال : وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ العَبْدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِنِصْفِ يَوْمٍ » فقال الثالث : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، قال : وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِضَحْوَةٍ » قال الرابع : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، قال : وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَالَمْ يُغَرْغِرْ بِنَفسِهِ » (١) .

وعن أبي سعيد عن النبيّ ﷺ قال : « قَالَ إِبْلِيسُ : يَا رَبِّ وَعِزَّتِكَ لاَ أَزَالُ أُغْوِيهِمْ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ : وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي لاَ أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي » (٢) فقد دلت هذه الأحاديث على أن من تاب إلى الله ﷻ ، وهو يرجو الحياة فإنه توبته مقبولة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ وأما متى وقع الإياس من الحياة ، وعاين الملك ، وخرجت الروح في الحلق ، وضاق بها الصدر ، وبلغت الحلقوم ، وغرغرت النفس صاعدة في الغلاصم ، فلا توبة مقبولة حينئذٍ ، ولات حين مناص ، ولهذا قال : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ﴾ وهذا كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ الآيتين ، وكما حكم تعالى بعدم توبة أهل الأرض إذا عاينوا الشمس طالعة من مغربها في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ يعني أن الكافر إذا مات على كفره وشركه ، لا ينفعه ندمه ولا توبته ، ولا يقبل منه فدية ، ولو بملء الأرض . قال ابن عبّاس وأبو العالية والربيع بن أنس : نزلت في أهل الشرك . وعن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ عَبْدِهِ - أو يغفر لعبده - مَا لَمْ يَقَعِ الحِجَابُ » قيل : وما وقوع الحجاب ؟ قال : « تَخْرُجُ النَّفْسُ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ » (٣) ولهذا قال الله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي موجعًا شديدًا مقيمًا .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ .

عن ابن عبّاس : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ﴾ قال : كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته ، إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاءوا زوجوها ، وإن شاءوا لم يزوجوها ، فهم أحق بها من أهلها ، فنزلت هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ﴾ وعن عكرمة عن ابن عبّاس قال : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ وذلك أن الرجل كان يرث امرأة ذي قرابته فيعضلها حتى تموت

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤٢٥) .

(٢) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٢/٤٦٧) وذكره ابن حجر فتح الباري (١١/٩٩) والسيوطي في الدر المنثور (٢/٧٧) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١٧٤) .

أو ترد إليه صداقها ، فأحكم الله تعالى عن ذلك ، أي نهى عن ذلك (١) . وعنه قال : كان الرجل إذا مات وترك جارية ، ألقى عليها حميمه ثوبه فمنعها من الناس ، فإن كانت جميلة تزوجها ، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها . وقال زيد بن أسلم في الآية : كان أهل يثرب إذا مات الرجل منهم في الجاهلية ورث امرأته من يرث ماله ، وكان يعضلها حتى يرثها ، أو يزوجها من أراد ، وكان أهل تهامة يسيء الرجل صحبة المرأة حتى يطلقها ، ويشترط عليها أن لا تنكح إلا من أراد حتى تفتدي منه ببعض ما أعطاها ، فنهى الله المؤمنين عن ذلك .

وقال مجاهد : كان الرجل إذا توفي كان ابنه أحق بامرأته ينكحها إن شاء إذا لم يكن ابنها ، أو ينكحها من شاء ، أخاه أو ابن أخيه . وقال عكرمة : نزلت في كبيشة بنت معن بن عاصم بن الأوس ، توفي عنها أبو قيس بن الأسلت فجنح عليها ابنه ، فجاءت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله لا أنا ورثت زوجي ، ولا أنا تركت فأنكح ؟ فأنزل الله هذه الآية (٢) .

قلت : فالآية تعم ما كان يفعله أهل الجاهلية ، وما ذكره مجاهد ومن وافقه ، وكل ما كان فيه نوع من ذلك ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ ﴾ أي لا تضاروهن في العشرة لتترك لك ما أصدقتها أو بعضه أو حقًّا من حقوقها عليك ، أو شيئًا من ذلك على وجه القهر لها والإضرار . وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ ﴾ يقول : ولا تقهروهن ﴿ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ ﴾ يعني الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبتها ، ولها عليه مهر ، فيضرها لتفتدي به . وعن ابن السلماني قال : نزلت هاتان الآيتان إحداهما في أمر الجاهلية ، والأخرى في أمر الإسلام ، قال عبد الله بن المبارك : يعني قوله : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ ﴾ في الجاهلية ﴿ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ ﴾ في الإسلام .

وقوله : ﴿ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ ﴾ قال ابن مسعود ، وابن عبّاس ، وسعيد بن المسيب ، والشعبي ، والحسن البصري ، ومحمّد بن سيرين ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة : يعني بذلك الزنى . يعني إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصداق الذي أعطيتها ، وتضاجرها حتى تتركه لك وتخالعها . وقال ابن عبّاس وعكرمة والضحاك : الفاحشة المبينة : النشوز والعصيان . واختار ابن جرير أنه يعم ذلك كله الزنى والعصيان والنشوز وبذاء اللسان ، وغير ذلك . يعني أن هذا كله يبيح مضاجرتها حتى تبرئه من حقها ، أو بعضه ويفارقها ، وهذا جيد والله أعلم (٣) . وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ ﴾ قال : وذلك أن الرجل كان يرث امرأة ذي قرابته فيعضلها حتى تموت أو ترد إليه صداقها ، فأحكم الله عن ذلك ، أي نهى عن ذلك .

قال عكرمة والحسن البصري : وهذا يقتضي أن يكون النساق كله كان في أمر الجاهلية ، ولكن نهي المسلمون عن فعله في الإسلام . وقال عبد الرحمن بن زيد : كان العضل في قريش بمكة ، ينكح الرجل المرأة الشريفة فلعلها لا توافقه فيفارقها على أن لا تتزوج إلا بإذنه ، فيأتي بالشهود فيكتب ذلك عليها ويشهد ، فإذا

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٧٩) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٤/٤٠٥ ، ٤٠٦) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢٠٩٠) .

جاء الخاطب ، فإن أعطته وأرضته أذن لها ، وإلا عضلها . قال : فهذا قوله : ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ أي طيّبوا أقوالكم لهنّ ، وحسّنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم كما تحب ذلك منها ، فافعل أنت بها مثله ، كما قال رسول الله ﷺ : « خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي » [(١)] . وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة ، دائم البشر ، يداعب أهله ويتلطف بهم ، ويوسعهم نفقته ، ويضاحك نساءه ، حتى أنه يسابق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها يتودّد إليها بذلك ، قالت : سابقني رسول الله ﷺ فسبقته ، وذلك قبل أن أحمل اللحم ، ثم سابقته بعد ما حملت اللحم فسبقني ، فقال : « هَذِهِ بِتِلْكَ » [(٢)] . ويجمع نساءه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله ﷺ فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان ، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها [(٣)] . وكان ينام مع المرأة من نسائه في شعار واحد ، يضع عن كتفيه الرداء وينام بالإزار [(٤)] ، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلًا قبل أن ينام ، يؤانسهم بذلك ﷺ . وقد قال الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ وأحكام عشرة النساء وما يتعلق بتفصيل ذلك موضعه كتب الأحكام ولله الحمد .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ أي فعسى أن يكون صبركم في إمساكهن مع الكراهة فيه خير كثير لكم في الدنيا والآخرة . كما قال ابن عبّاس في هذه الآية : هو أن يعطف عليها فيرزق منها ولدًا ويكون في ذلك الولد خير كثير . وفي الحديث الصحيح : « لاَ يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ سَخِطَ مِنْهَا خلقًا ، رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ » [(٥)]

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ أي إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأة ويستبدل مكانها غيرها ، فلا يأخذ مما كان أصدق الأولى شيئًا ولو كان قنطارًا من المال . وفي هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل ، وقد كان عمر بن الخطاب نهى عن كثرة الإصداق ثم رجع عن ذلك ، وكان يقول : ألا لا تغالوا في صداق النساء ، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله كان أولاكم بها النبيّ ﷺ ما أصدق رسول الله ﷺ امرأة من نسائه ، ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية ، وإن كان الرجل ليبتلى بصدقة امرأته ، حتى يكون لها عداوة في نفسه ، وحتى يقول : كلفت إليك علق القربة [(٦)] . وعن مسروق قال : ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ ثم قال : أيها الناس ما إكثاركم في صداق النساء ، وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه والصدقات فيما بينهم أربعمائة درهم فما دون ذلك ؟ ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها ، فلأعرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمائة درهم ، قال : ثم نزل ، فاعترضته امرأة من قريش فقالت : يا أمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعمائة درهم ؟ قال : نعم ، فقالت : أما سمعت ما

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٨٩٥) وابن ماجه في السنن (١٩٧٧) والدارمي في السنن (٢/١٥٩) والألباني في الصحيحة (٤٦٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٣٩) وأبو داود في السنن (٢٥٧٨) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٥٩) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٣٣٢) .
(٥) أخرجه مسلم في الرضاع (٦١) وأحمد في مسنده (٢/٣٢٩) والبيهقي في السنن (٧/٢٩٥) .
(٦) أخرجه النسائي في السنن (٦/١١٧) .

أنزل الله في القرآن ؟ قال : وأي ذلك ؟ فقالت : أما سمعت الله يقول : ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا ﴾ الآية ، قال : فقال : اللهم غفرًا ، كل الناس أفقه من عمر ، ثم رجع فركب المنبر فقال : أيها الناس إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهم ، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب .

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال للمتلاعنين بعد فراغهما من تلاعنهما : « اللَّه يَعْلَمُ أَنْ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ ؟ » قالها ثلاثًا ، فقال الرجل : يا رسول الله مالي - يعني ما أصدقها - قال : « لاَ مَالَ لَكَ ، إِنْ كُنْتَ صَدَقْتَ فَهُوَ بِمَا اسْتَحْلَلْتَ مِنْ فَرْجِهَا ، وَإِنْ كُنْتَ كَذَبْتَ عَلَيْهَا فَهُوَ أَبْعَدُ لَكَ مِنْهَا »(١) . وعن نضرة بن أبي نضرة أنه تزوج امرأة بكرًا في خدرها فإذا هي حامل من الزنى ، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له ، فقضى لها بالصداق ، وفرق بينهما ، وأمر بجلدها وقال : « الوَلَدُ عَبْدٌ لَكَ ، وَالصَّدَاقُ فِي مُقَابَلَةَ البضْعِ »(٢) . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ روي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير . أن المراد بذلك العقد . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ قال : إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . وعن جابر في خطبة حجة الوداع أن النبيّ ﷺ قال فيها : « وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّه ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّه » .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ الآية ، يحرم الله تعالى زوجات الآباء تكرمة لهم ، وإعظامًا واحترامًا أن توطأ من بعده ، حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها ، وهذا أمر مجمع عليه . وعن رجل من الأنصار قال : لما توفي أبو قيس - يعني ابن الأسلت - وكان من صالحي الأنصار ، فخطب ابنه قيس امرأته فقالت : إنما أعدك ولدًا وأنت من صالحي قومك ، ولكني آتي رسول الله ﷺ فقالت : إن أبا قيس توفي فقال : « خَيْرًا » ثم قالت : إن ابنه قيسًا خطبني وهو من صالحي قومه ، وإنما كنت أعده ولدًا فما ترى ؟ فقال لها : « ارْجِعِي إِلَى بَيْتِكِ » قال : فنزلت : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ الآية(٣) . وقد زعم السهيلي أن نكاح نساء الآباء كان معمولاً به في الجاهلية ، ولهذا قال : ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ كما قال : ﴿ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ قال : وقد فعل ذلك كنانة بن خزيمة تزوج بامرأة أبيه فأولدها ابنه النضر بن كنانة قال : وقد قال ﷺ : « ولدت مِنْ نِكَاحٍ لاَ مِنْ سِفَاحٍ »(٤) . قال : فدل على أنه كان سائغًا لهم ذلك ، فأراد أنهم كانوا يعدونه نكاحًا . وعن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله إلّا امرأة الأب ، والجمع بين الأختين ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ ﴿ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ ﴾ ، والله أعلم . وعلى كل تقدير فهو حرام في هذه الأمة ، مبشع غاية التبشع . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ ﴿ وَمَقْتًا ﴾ أي بغضًا أي هو أمر كبير في نفسه ، ويؤدي إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته ، فإن الغالب أن من تزوج بامرأة يبغض من كان

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (٣٥١١) ومسلم في اللعان (٦) والنسائي في السنن (١٧٧/٦) وأبو داود في السنن (٢٢٥٨) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٢١٣١) والحاكم في المستدرك (١٨١/٢) .
(٣) أسباب النزول للنيسابوري (ص : ٨٢) . (٤) ذكره الألباني في إرواء الغليل (٣٢٩/٦) .

زوجها قبله ، ولهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة ؛ لأنهن أمهات لكونهن زوجات النبي ﷺ وهو كالأب ، بل حقه أعظم من حق الآباء بالإجماع ، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه . وقال عطاء بن أبي رباح في قوله : ﴿ وَمَقْتًا ﴾ أي يمقت الله عليه ﴿ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ أي وبئس طريقًا لمن سلكه من الناس ، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه ، فيقتل ويصير ماله فيئًا لبيت المال . كما روي عن البراء بن عازب قال : مرَّ بي عمي الحارث بن عمير ومعه لواء قد عقده له النبيّ ﷺ فقلت له : أي عم أين بعثك النبي ؟ قال : بعثني إلى رجل تزوج امرأة أبيه فأمرني أن أضرب عنقه (١) .

مسألة : وقد أجمع العلماء على تحريم من وطئها الأب بتزويج أو ملك أو شبهة ، واختلفوا فيمن باشرها بشهوة دون الجماع أو نظر إلى ما لا يحل له النظر إليه منها لو كانت أجنبية . فعن الإمام أحمد رحمه الله أنها تحرم أيضًا بذلك .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

هذه الآية الكريمة هي آية تحريم المحارم من النسب وما يتبعه من الرضاع والمحارم بالصهر . فعن ابن عباس قال : حرمت عليكم سبع نسبًا وسبع صهرًا ، وقرأ ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ ﴾ الآية . وقد استدل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزاني عليه بعموم قوله تعالى : ﴿ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ فإنها بنت فتدخل في العموم كما هو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل ، وقد حكي عن الشافعي شيء في إباحتها ؛ لأنها ليست بنتًا شرعية ، فكما لم تدخل في قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ فإنها لا ترث بالإجماع ، فكذلك لا تدخل في هذه الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ ﴾ أي كما يحرم عليك أمك التي ولدتك ، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك . وعن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ الرَّضَاعَةَ تُحَرِّمُ مَا تُحَرِّمُ الوِلَادَةُ » (٢) وقال بعض الفقهاء : كل ما يحرم من النسب يحرم من الرضاعة إلا أربع صور ، وقال بعضهم : ست صور هي مذكورة في كتب الفروع ، والتحقيق أنه لا يستثنى شيء من ذلك ؛ لأنه يوجد مثل بعضها في النسب ، وبعضها إنما يحرم من جهة الصهر ، فلا يرد على الحديث شيء أصلًا البتة ، ولله الحمد وبه الثقة .

ثم اختلف الأئمة في عدد الرضعات المحرمة ، فذهب ذاهبون إلى أنه يحرم مجرد الرضاع ، لعموم هذه الآية . وهذا قول مالك ، ويروى عن ابن عمر ، وقال آخرون : لا يحرم أقل من ثلاث رضعات ؛ لما ثبت عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تُحَرِّمُ المَصَّةُ وَلا المَصَّتَانِ » (٣) . وفي لفظ آخر : « لا

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٤٥٧) وأحمد في مسنده (٤/٢٩٢) .
(٢) أخرجه النسائي في السنن (٦/١٠٣) وأحمد في مسنده (٦/١٧٨) .
(٣) أخرجه مسلم في الرضاع (١٧) وأبو داود في السنة (٢٠٦٣) والترمذي في السنن (١١٥٠) .

تُحَرِّمُ الإِمْلَاجَةُ وَلَا الإِمْلَاجَتَانِ » [(١)] وممن ذهب إلى هذا القول الإمام أحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه وأبو عبيد وأبو ثور ، وهو مروي عن علي وعائشة وأم الفضل وابن الزبير . وقال آخرون : لا يحرم أقل من خمس رضعات لما ثبت عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان فيما أنزل من القرآن « عَشْر رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ » ثم نسخن بخمس معلومات ، فتوفى النبيّ ﷺ وهنَّ فيما يقرأ من القرآن [(٢)] . وفي حديث سهلة ابنة سهيل أن رسول الله ﷺ أمرها أن ترضع سالماً مولى أبي حذيفة خمس رضعات [(٣)] . وكانت عائشة تأمر من يريد أن يدخل عليها أن يرضع خمس رضعات ، وبهذا قال الشافعي وأصحابه . ثم ليعلم أنه لابد أن تكون الرضاعة في سن الصغر دون الحولين على قول الجمهور . وقد قدمنا الكلام على هذه المسألة في سورة البقرة عند قوله : ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ . ثم اختلفوا هل يحرم لبن الفحل كما هو قول جمهور الأئمة الأربعة وغيرهم ، أو إنما يختص الرضاع بالأم فقط ، ولا ينتشر إلى ناحية الأب كما هو قول لبعض السلف على قولين ، تحرير هذا كله في كتاب الأحكام الكبيرة .

وقوله : ﴿ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أما أم المرأة ، فإنها تحرم بمجرد العقد على بنتها ، سواء دخل بها أو لم يدخل بها . وأما الربيبة وهي بنت المرأة فلا تحرم حتى يدخل بأمها ، فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها ، ولهذا قال : ﴿ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ في تزويجهن ، فهذا خاص بالربائب وحدهن ، وقد فهم بعضهم عود الضمير إلى الأمهات والربائب فقال : لا تحرم واحدة من الأم ولا البنت بمجرد العقد على الأخرى حتى يدخل بها لقوله : ﴿ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ وعن علي رضي الله عنه في رجل تزوج امرأة فطلقها قبل أن يدخل بها أتزوج بأمها ؟ قال : هي بمنزلة الربيبة [(٤)] . وعن زيد بن ثابت قال : إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها ، فلا بأس أن يتزوج أمها . وعن بكر بن كنانة أن أباه أنكحه امرأة بالطائف قال : فلم أجامعها حتى توفي عمي عن أمها ، وأمها ذات مال كثير ، فقال أبي : هل لك في أمها ؟ قال : فسألت ابن عبّاس وأخبرته ؟ فقال : انكح أمها ، وسألت ابن عمر فقال : لا تنكحها . فأخبرت أبي بما قالا ، فكتب إلى معاوية فأخبره بما قالا ، فكتب معاوية ، إني لا أحل ما حرم الله ، ولا أحرم ما أحل الله ، وأنت وذاك ، والنساء سواها كثير . فلم ينه ولم يأذن لي ، فانصرف أبي عن أمها فلم ينكحها . وعن مجاهد قال : ﴿ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم ﴾ أراد بهما الدخول جميعًا . فهذا القول مروي عن علي وزيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير ومجاهد وسعيد بن جبير وابن عبّاس ، وقد توقف فيه معاوية . وذهب إليه من الشافعية أبو الحسن أحمد بن الصابوني فيما نقله الرافعي عن العبادي . وعن ابن مسعود : أن رجلًا من بني كمخ من فزارة تزوج أمها فتزوجها وولدت له أولادًا ، ثم أتى ابن مسعود المدينة فسئل عن ذلك فأخبر أنها لا تحل له ، فلما رجع إلى الكوفة قال للرجل : إنها عليك حرام ففارقها .

وجمهور العلماء على أن الربيبة لا تحرم بالعقد على الأم بخلاف الأم ، فإنها تحرم بمجرد العقد . وعن ابن عباس أنه كان يقول : إذا طلّق الرجل المرأة قبل أن يدخل بها أو ماتت لم تحل له أمها .

(١) أخرجه مسلم في الرضاع (١٨) والنسائي في السنن (٦/١٠٠) والدارمي في السنن (٢/١٥٧) .
(٢) أخرجه النسائي في السنن (٦/١٠٠) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٢٠١) . (٤) ذكره الطبري في تفسيره (٤/٤٢٥) .

وروي أنه قال : إنها مبهمة فكرهها . وروي عن ابن مسعود وعمران بن حصين ومسروق وطاوس وعكرمة وعطاء والحسن ومكحول وابن سيرين وقتادة والزهري نحو ذلك . وهذا مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة ، وجمهور الفقهاء قديمًا وحديثًا ، قال ابن جريج : والصواب قول من قال : الأم من المبهمات ؛ لأن الله لم يشترط معهن الدخول كما اشترطه مع أمهات الربائب . مع أن ذلك أيضًا إجماع الحجة التي لا يجوز خلافها فيما جاءت به متفقة عليه .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم ﴾ فالجمهور على أن الربيبة حرام سواء كانت في حجر الرجل أو لم تكن في حجره . قالوا : وهذا الخطاب خرج مخرج الغالب ، فلا مفهوم له . عن أم حبيبة قالت : يا رسول الله ، انكح أختي بنت أبي سفيان ، قال : « أَوَ تُحِبِّينَ ذَلِكَ ؟ » قالت : نعم لست بك بمخلية ، وأحب من شاركني في خير أختي . قال : « فَإِنَّ ذَلِكَ لا يَحِلُّ لِي » قالت : فإنا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة قال : « بِنْتُ أُمِّ سَلَمَةَ ؟ » قالت : نعم . قال : « إِنَّهَا لَوْ لَمْ تَكُنْ رَبِيبَتِي فِي حِجْرِي ما حَلَّتْ لِي ، إِنَّهَا لَبِنْتُ أَخِي مِنَ الرَّضَاعَةِ ، أَرْضَعَتْنِي وَأَبَا سَلَمَةَ ثُوَيْبَةُ ، فَلا تَعْرِضْنَ عَلَيَّ بَنَاتِكُنَّ وَلا أَخَوَاتِكُنَّ » (١) . فجعل المناط في التحريم مجرد تزوجه أم سلمة ، وحكم بالتحريم بذلك ، وهذا هو مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة وجمهور الخلف والسلف . وقد قيل بأنه لا تحرم الربيبة إلَّا إذا كانت في حجر الرجل ، فإذا لم تكن كذلك فلا تحرم . وعن مالك بن أوس بن الحدثان قال : كانت عندي امرأة فتوفيت ، وقد ولدت لي فوجدت عليها ، فلقيني علي بن أبي طالب فقال : ما لك ؟ فقلت : توفيت المرأة ، فقال علي : لها ابنة ؟ قلت : نعم وهي بالطائف ، قال : كانت في حجرك ؟ قلت : لا هي بالطائف ، قال : فانكحها ، قلت : فأين قول الله : ﴿ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم ﴾ ؟ قال : إنها لم تكن في حجرك ، إنما ذلك إذا كانت في حجرك . وإلى هذا ذهب داود بن علي الظاهري وأصحابه . وحكاه أبو القاسم الرافعي عن مالك رحمه الله . واختاره ابن حزم وحكى لي شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي ، أنه عرض هذا على الشيخ الإمام تقي الدين بن تيمية رحمه الله ، فاستشكله وتوقف في ذلك . وعن عمر بن الخطاب سئل عن المرأة وبنتها من ملك اليمين توطأ إحداهما بعد الأخرى فقال عمر : ما أحب أن أجيزهما جميعًا – يريد أن أطأهما جميعًا – بملك يميني ، وهذا منقطع . وعن قيس قال : قلت لابن عباس : أيقع الرجل على امرأة وابنتها مملوكين له ؟ فقال : أحلتهما آية وحرمتهما آية ، ولم أكن لأفعله . وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله : لا خلاف بين العلماء أنه لا يحل لأحد أن يطأ امرأة وبنتها من ملك اليمين ؛ لأن الله حرم ذلك في النكاح قال : ﴿ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ﴾ وملك اليمين عندهم تبع للنكاح . إلَّا ما روي عن عمر وابن عبَّاس ، وليس على ذلك أحد من أئمة الفتوى ولا من تبعهم . وروي عن قتادة : بنت الربيبة وبنت ابنتها لا تصلح وإن كانت أسفل بيطون كثيرة ، ومعنى قوله : ﴿ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ أي نكحتموهن . وقال عطاء : هو أن تهدى إليه فيكشف ويفتش ويجلس بين رجليها . قلت : أرأيت إن فعل ذلك في بيت أهلها ؟ قال : هو سواء ، وحسبه قد حرم ذلك عليه ابنتها . وقال ابن جرير : وفي إجماع الجميع على أن خلوة الرجل بامرأة لا تحرم ابنتها عليه إذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها ، وقبل النظر إلى فرجها بشهوة ، ما يدل على أن معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع .

وقوله تعالى : ﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ ﴾ أي وحرمت عليكم زوجات أبنائكم الذين

---

(١) أخرجه مسلم في الرضاعة (١٥) وأحمد في مسنده (٦/٤٢٨) .

ولدتموهم من أصلابكم ، يحترز بذلك عن الأدعياء الذين كانوا يتبنونهم في الجاهلية . وعن عطاء قال : كنا نحدِّث ، والله أعلم ، أن النبيَّ ﷺ لما نكح امرأة زيد قال المشركون بمكة في ذلك ، فأنزل الله ﷻ ﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ ﴾ ونزلت : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ﴾ ونزلت ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ ﴾ وقال الحسن بن محمّد : أن هؤلاء الآيات مبهمات ﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ﴾ ﴿ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ ﴾ ثم قال : وروي عن طاووس وإبراهيم والزهري ومكحول نحو ذلك . قلت : معنى مبهمات ؛ أي عامة في المدخول بها وغير المدخول ، فتحرم بمجرد العقد عليها ، وهذا متفق عليه ، فإن قيل : فمن أين تحرم امرأة ابنه من الرضاعة ، كما هو قول الجمهور ، ومن الناس من يحكيه إجماعًا ، وليس من صلبه ؟ فالجواب من قوله ﷺ : « يَحْرُم مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُم مِنَ النَّسَبِ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ ﴾ الآية . أي وحرم عليكم الجمع بين الأختين معًا في التزويج ، وكذا في ملك اليمين ، إلَّا ما كان منكم في جاهليتكم فقد عفونا عنه وغفرناه . فدل على أنه لا مثنوية فيما يستقبل ؛ لأنه استثنى مما سلف كما قال : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ ﴾ فدل على أنهم لا يذوقون فيها الموت أبدًا . وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة قديمًا وحديثًا على أنه يحرم الجمع بين الأختين في النكاح ، ومن أسلم وتحته أختان خير ، فيمسك إحداهما ويطلق الأخرى لا محالة . وعن أبي خراش الرعيني قال : قدمت على رسول الله ﷺ وعندي أختان تزوجتهما في الجاهلية فقال : « إِذَا رَجَعْتَ فَطَلِّقْ إِحْدَاهُمَا » (٢) .

وعن ابن مسعود أنه سئل عن الرجل يجمع بين الأختين فكرهه ، فقال له ، يعني السائل : يقول الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ ﴾ فقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه : وبعيرك مما ملكت يمينك . وهذا هو المشهور عن الجمهور والأئمة وغيرهم ، وإن كان بعض السلف قد توقف في ذلك . ويروى أن رجلًا سأل عثمان بن عفان عن الأختين في ملك اليمين هل يجمع بينهما ؟ فقال عثمان : أحلتهما آية وحرمتهما آية ، وما كنت لأمنع ذلك ، فخرج من عنده فلقي رجلًا من أصحاب النبيّ ﷺ فسأله ذلك فقال : لو كان لي من الأمر شيء ، ثم وجدت أحدًا فعل ذلك لجعلته نكالًا . وعن إياس بن عامر قال : سألت علي بن أبي طالب فقلت : لي أختين مما ملكت يميني واتخذت إحداهما سرية فولدت لي أولادًا ، ثم رغبت في الأخرى فما أصنع ؟ فقال علي ﷺ : تعتق التي كنت تطأ ثم تطأ الأخرى ، قلت : فإن ناسًا يقولون : بل تزوَّجها ثم تطأ الأخرى ، فقال علي : أرأيت إن طلقها زوجها أو مات عنها أليس ترجع إليك ؟ لأن تعتقها أسلم لك ، ثم أخذ عليٌّ بيدي فقال لي : إنه يحرم عليك مما ملكت يمينك ما يحرم عليك في كتاب الله ﷻ من الحرائر إلَّا العدد . أو قال : إلَّا الأربع ، ويحرم عليك من الرضاع ما يحرم عليك في كتاب الله من النسب . قلت : وقد روي عن علي عن عثمان . وعن ابن عبَّاس قال : قال لي علي بن أبي طالب : حرمتهما آية وأحلتهما آية - يعني الأختين - قال ابن عباس : يحرمن علي قرابتي منهن ، ولا يحرمن قرابة بعضهن من بعض - يعني الإماء - وكانت الجاهلية يحرمون ما تحرمون إلَّا امرأة الأب ، والجمع بين الأختين ، فلما جاء الإسلام أنزل الله ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٩/١) والبيهقي في السنن (٤٥٢/٧) .
(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٩٥٠) .

قَدْ سَلَفَ ﴾ ﴿ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ يعني في النكاح . وعن ابن مسعود قال : يحرم من الإماء ما يحرم من الحرائر إلا العدد ، وقال أبو عمر : وقد روي مثل قول عثمان عن طائفة من السلف منهم ابن عبَّاس ، ولكن اختلف عليهم ، ولم يلتفت إلى ذلك أحد من فقهاء الأمصار والحجاز ولا العراق ولا ما وراءهما من المشرق ولا بالشام والمغرب . إلا من شذ عن جماعتهم باتباع الظاهر ونفي القياس ، وقد ترك من يعمل ذلك ظاهرًا ما اجتمعنا عليه ، وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطء ، كما لا يحل ذلك في النكاح . وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ ﴾ إلى آخر الآية أن النكاح وملك اليمين في هؤلاء كلهن سواء ، وكذلك يجب أن يكون نظرًا وقياسًا الجمع بين الأختين وأمهات النساء والربائب ، وكذلك هو عند جمهورهم ، وهم الحجة المحجوج بها من خالفها وشذ عنها .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ أي وحرم عليكم من الأجنبيات المحصنات وهن الزوجات ، إلَّا ما ملكت أيمانكم يعني إلَّا ما ملكتموهن بالسبي فإنه يحل لكم وطؤهن ، إذا استبرأتموهن ، فإن الآية نزلت في ذلك .

عن أبي سعيد الخدري أن أصحاب رسول الله ﷺ أصابوا سبيًا يوم أوطاس لهن أزواج من أهل الشرك ، فكان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ كفُّوا وتأثموا من غشيانهن قال : فنزلت هذه الآية في ذلك ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ (١) .

وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن بيع الأمة يكون طلاقًا لها من زوجها أخذًا بعموم هذه الآية . وعن إبراهيم أنه سئل عن الأمة تباع ولها زوج ؟ قال : كان عبد الله يقول : بيعها طلاقها ويتلو هذه الآية ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ عن ابن عبَّاس قال : طلاق الأمة ست : بيعها طلاقها ، وعتقها طلاقها ، وهبتها طلاقها ، وبرأتها طلاقها ، وطلاق زوجها طلاقها . وعن ابن المسيب قوله : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ قال : هذه ذوات الأزواج حرم الله نكاحهن إلَّا ما ملكت يمينك ، فبيعها طلاقها . فهذا قول هؤلاء من السلف ، وقد خالفهم الجمهور قديمًا وحديثًا ، فرأوا أن بيع الأمة ليس طلاقًا لها ؛ لأن المشتري نائب عن البائع ، والبائع كان قد أخرج عن ملكه هذا المنفعة ، وباعها مسلوبة عنها ، واعتمدوا في ذلك على حديث بريرة المخرج في الصحيحين وغيرهما ، فإن عائشة أم المؤمنين اشترتها وأعتقتها ولم ينفسخ نكاحها من زوجها مغيث ، بل خيَّرها رسول الله ﷺ بين الفسخ والبقاء ، فاختارت الفسخ (٢) ، وقصتها مشهورة ، فلو كان بيع الأمة طلاقها كما قال هؤلاء ، ما خيَّرها النبيّ ﷺ ، فلما خيَّرها دل على بقاء النكاح ، وأن المراد من الآية المسبيات فقط ، والله أعلم . وقد قيل : المراد بقوله : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ يعني العفائف حرام عليكم حتى تملكوا عصمتهن بنكاح وشهود ومهور وولي ، واحدة أو اثنتين أو ثلاثًا أو أربعًا . وقال عمر وعبيدة : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ : ما عدا الأربع حرام عليكم إلَّا ما ملكت إيمانكم .

وقوله تعالى : ﴿ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي هذا التحريم كتاب الله عليكم ، يعني الأربع فالزموا كتابه ، ولا

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠١٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٥٨) والنسائي في السنن (١٦٣/٦) .

تخرجوا عن حدوده ، والزموا شرعه وما فرضه . وقوله تعالى : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ أي ما عدا من ذكرن من المحارم هنَّ لكم حلال . قاله عطاء . وقال عبيدة والسدي : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ : ما دون الأربع ، وهذا بعيد والصحيح قول عطاء كما تقدم . وقال قتادة : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ : يعني ما ملكت أيمانكم ، وهذه الآية التي احتج بها من احتج على تحليل الجمع بين الأختين ، وقول من قال : أحلتهما آية وحرمتهما آية . وقوله تعالى : ﴿ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾ أي تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع ، أو السراري ما شئتم بالطريق الشرعي . ولهذا قال : ﴿ مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ أي كما تستمعون بهن فآتوهن مهورهن في مقابلة ذلك ، وقد استدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة ، ولا شك أنه كان مشروعًا في ابتداء الإسلام ثم نسخ بعد ذلك . وقد ذهب الشافعي وطائفة من العلماء إلى أنه أبيح ثم نسخ ، ثم أبيح ثم نسخ مرتين . وقال آخرون أكثر من ذلك . وقال آخرون : إنما أبيح مرة ثم نسخ ولم يبح بعد ذلك . وقد روي عن ابن عبّاس وطائفة من الصحابة القول بإباحتها للضرورة ، وهو رواية عن الإمام أحمد ، وكان ابن عبّاس وأُبيّ بن كعب وسعيد بن جبير والسدي يقرأون (فما استمتعتم به منهن - إلى أجل مسمى - فآتوهن أجورهن فريضة) وقال مجاهد : نزلت في نكاح المتعة ، ولكن الجمهور على خلاف ذلك . والعمدة ما ثبت في الصحيحين عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال : نهى رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر (١) . ولهذا الحديث ألفاظ مقرّرة هي من كتاب الأحكام ، فعن سبرة بن معبد الجهني أنه غزا مع رسول الله ﷺ يوم فتح مكة فقال : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي كُنْتُ أَذِنْتُ لَكُمْ فِي الاسْتِمْتَاعِ مِنَ النِّسَاءِ ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَلْيُخْلِ سَبِيلَهُ ، وَلاَ تأخذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ﴾ من حمل هذه الآية على نكاح المتعة إلى أجل مسمى قال : لا جناح عليكم إذا انقضى الأجل أن تتراضوا على زيادة به وزيادة للجعل . قال السدي : إن شاء أرضاها من بعد الفريضة الأولى ، يعني الأجر الذي أعطاها على تمتعه بها قبل انقضاء الأجل بينهما ، فقال : أتمتع منك أيضًا بكذا وكذا ، فإن زاد قبل أن يستبرئ رحمها يوم تنقضي المدة ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ﴾ قال السدي : إذا انقضت المدة ، فليس له عليها سبيل ، وهي منة بريئة ، وعليها أن تستبرئ ما في رحمها ، وليس بينهما ميراث ، فلا يرث واحد منهما صاحبه . ومن قال بهذا القول الأول جعل معناه كقوله : ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ الآية ، أي إذا فرضت لها صداقًا فأبرأتك منه أو عن شيء منه فلا جناح عليك ولا عليها في ذلك . وعن المعتمر بن سليمان عن أبيه قال : زعم الحضرمي أن رجالًا كانوا يفرضون المهر ، ثم عسى أن يدرك أحدهم العسرة فقال : ولا جناح عليكم أيها الناس فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ، يعني إن وضعت لك منه شيئًا فهو لك سائغ . وعن ابن عبّاس : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ﴾ والتراضي أن يوفيها صداقها ثم يخيرها ، يعني في المقام أو الفراق . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٥/٣) والنسائي في السنن (٢٠٢/٧) والبيهقي في السنن (٢٠٤/٧) .
(٢) أخرجه الدارمي في السنن (١٤٠/٢) والبيهقي في السنن (٢٠٣/٧) والألباني في الصحيحة (٣٨١) .

مناسب ذكر هذين الوصفين بعد شرع هذه المحرمات .

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا ﴾ أي سعة وقدرة ﴿ أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أي الحرائر العفائف المؤمنات . وعن ربيعة ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ قال : الطول الهوى ، يعني ينكح الأمة إذا كان هواه فيها . ﴿ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أي فتزوجوا من الإماء المؤمنات اللاتي يملكهن المؤمنون ، ولهذا قال : ﴿ مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ قال ابن عبّاس وغيره : فلينكح من إماء المؤمنين ، ثم اعترض بقوله : ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ أي هو العالم بحقائق الأمور وسرائرها ، وإنما لكم أيها الناس الظاهر من الأمور . ثم قال : ﴿ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ فدل على أن السيد هو ولي أمته ، لا تزوج إلَّا بإذنه ، وكذلك هو ولي عبده ، ليس له أن يتزوج بغير إذنه . كما جاء في الحديث : « أَيُّمَا عَبْدٍ تَزَوَّجَ بِغَيْرِ إِذْنِ مَوَالِيهِ فَهُوَ عَاهِرٌ » [(١)] أي زان . فإن كان مالك الأمة امرأة زوجها من يزوج المرأة بإذنها ، لما جاء في الحديث : « لا تُزَوِّجُ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ ، وَلا الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا ، فَإِنَّ الزَّانِيَةَ هِيَ الَّتِي تُزَوِّجُ نَفْسَهَا » [(٢)] وقوله تعالى : ﴿ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ أي وادفعوا مهورهنَّ بالمعروف ، أي عن طيب نفس منكم ، ولا تبخسوا منه شيئًا استهانة بهنَّ ، لكونهن إماء مملوكات . وقوله تعالى : ﴿ مُحْصَنَٰتٍ ﴾ أي عفائف عن الزني لا يتعاطينه ، ولهذا قال : ﴿ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ ﴾ وهنَّ الزواني اللاتي لا يمنعن من أرادهن بالفاحشة . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾ قال ابن عبّاس : المسافحات هنَّ الزواني المعلنات ، يعني : الزواني اللاتي لا يمنعن أحدًا أرادهن بالفاحشة . وقال الحسن البصري : يعني الصديق . وقال الضحاك : ذات الخليل الواحد المقرة به ، نهى اللَّه عن ذلك ، يعني تزويجها ما دامت كذلك .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ اختلف القراء في ﴿ أُحْصِنَّ ﴾ فقرأه بعضهم بضم الهمزة وكسر الصاد مبني لما لم يسم فاعله . وقرئ بفتح الهمزة والصاد فعل لازم [(٣)] . ثم قيل : معنى القراءتين واحد ، واختلفوا على قولين :

أحدهما : أن المراد بالإحصان ههنا الإسلام . وروي ذلك عن عبد اللَّه بن مسعود وابن عمر وأنس وسعيد بن جبير وعطاء ، وهذا هو القول الذي نص عليه الشافعي في رواية الربيع قال : وإنما قلنا ذلك استدلالًا بالسنة وإجماع أكثر أهل العلم .

الثاني : وقيل : المراد به ههنا التزويج ، وهو قول ابن عبّاس ومجاهد وغيرهم . ونقله أبو علي الطبري في كتابه الإيضاح عن الشافعي فيما رواه أبو الحكم بن عبد الحكم عنه . وقد روي عن مجاهد

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢٠٧٨) وأحمد في مسنده (٣/٣٨٢) والدارمي في السنن (٢/١٥٢) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٨٨٢) والدارقطني في السنن (٣/٢٢٧) .

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر ﴿ أَحْصَنَّ ﴾ بفتح الهمزة والصاد ، والباقون ﴿ أُحْصِنَّ ﴾ بضم الهمزة وكسر الصاد . (انظر : تقريب النشر ص : ١٠٥) .

أنه قال : إحصان الأمة أن ينكحها الحر ، وإحصان العبد أن ينكح الحرة . وقيل : معنى القراءتين متباين . فمن قرأ ﴿ أُحْصِنَّ ﴾ بضم الهمزة فمراده التزويج ، ومن قرأ بفتحها فمراده الإسلام . اختاره أبو جعفر بن جرير في تفسيره وقرَّره ونصره . والأظهر والله أعلم أن المراد بالإحصان هنا التزويج ؛ لأن سياق الآية يدل عليه حيث يقول ﷻ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ والله أعلم . والآية الكريمة سياقها في الفتيات المؤمنات فتعين أن المراد بقوله : ﴿ فَإِذَا أُحْصِنَّ ﴾ أي تزوجن كما فسَّره ابن عبَّاس وغيره .

وعلى كل من القولين إشكال على مذهب الجمهور ، وذلك أنهم يقولون : إن الأمة إذا زنت فعليها خمسون جلدة ، سواء كانت مسلمة أو كافرة ، مزوجة أو بكرًا ، مع أن مفهوم الآية يقتضي أنه لا حد على غير المحصنة ممن زنى من الإماء . وقد اختلفت أجوبتهم عن ذلك :

الجواب الأول : فأما الجمهور فقالوا : لا شك أن المنطوق مقدم على المفهوم ، وقد وردت أحاديث عامة في إقامة الحد على الإماء ، فقدمناها على مفهوم الآية . فمن ذلك عن علي ﷺ أنه خطب فقال : يا أيها الناس أقيموا الحد على إمائكم من أحصن منهن ومن لم يحصن ، فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت فأمرني أن أجلدها ، فإذا هي حديثة عهد بنفاس ، فخشيت إن جلدتها أن أقتلها ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « أَحْسَنْتَ ، اتْرُكْهَا حَتَّى تَتَمَاثَلَ » (١) .

الجواب الثاني : جواب من ذهب إلى أن الأمة إذا زنت ولم تحصن ، فلا حد عليها ، وإنما تضرب تأديبًا . وهو المحكي عن ابن عبَّاس ﷺ ، وإليه ذهب طاووس وسعيد بن جبير وأبو عبيد القاسم بن سلام وداود بن علي الظاهري في رواية عنه . وعمدتهم مفهوم الآية ، وهو من مفاهيم الشرط ، وهو حجة عند أكثرهم ، فقدم على العموم عندهم . وحديث أبي هريرة وزيد بن خالد أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن ، قال : « إِنْ زَنَتْ فَحُدُّوهَا . ثُمَّ إِنْ زَنَتْ فَاجْلِدُوهَا . ثُمَّ بِيعُوهَا وَلَوْ بِضَفِيرٍ » (٢) قال ابن شهاب : لا أدري بعد الثالثة أو الرابعة . قالوا : فلم يؤقت فيه عدد كما أقت في المحصنة ، وكما وقت في القرآن بنصف ما على المحصنات ، فوجب الجمع بين الآية والحديث بذلك . وحديث أبي هريرة عنه أجوبة :

أحدها : أن ذلك محمول على الأمة المزوجة جمعًا بينه وبين هذا الحديث .

الثاني : أن لفظة الحد في قوله : « فَلْيُقِمْ عَلَيْهَا الحَدَّ » مقحمة من بعض الرواة بدليل الجواب الثالث ، وهو أن هذا من حديث صحابيين وذلك من رواية أبي هريرة فقط ، وما كان عن اثنين فهو أولى بالتقديم من رواية واحد . وأيضًا فقد رواه عباد بن تميم عن عمه ، وكان قد شهد بدرًا ، أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا زَنَتِ الأَمَةُ فَاجْلِدُوهَا ، ثُمَّ إِذَا زَنَتْ فَاجْلِدُوهَا ، ثُمَّ إِنْ زَنَتْ فَاجْلِدُوهَا ، ثُمَّ إِنْ زَنَتْ فَبِيعُوهَا وَلَوْ بِضَفِيرٍ » (٣) .

الثالث : أنه لا يبعد أن بعض الرواة أطلق لفظ الحد في الحديث على الجلد ؛ لأنه لما كان الجلد اعتقد أنه حد ، أو أنه أطلق لفظة الحد على التأديب . كما أطلق الحد على ضرب من زنى من المرضى بعثكال نخل

---

(١) ذكره البغوي في شرح السنة (١٠/٣٠٤) . (٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٤٧٠) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٤٤٠) والدارقطني في السنن (٣/١٦٠) .

فيه مائة شمراخ . وعلى جلد من زنى بأمة امرأته إذا أذنت له فيها مائة ، وإنما ذلك تعزير وتأديب عند من يراه كأحمد وغيره من السلف ، وإنما الحد الحقيقي هو جلد البكر مائة . ورجم الثيب أو اللائط والله أعلم .
وعن سعيد بن جبير قال : لا تضرب الأمة إذا زنت ما لم تتزوج . وهذا إسناد صحيح عنه ، ومذهب غريب إن أراد أنها لا تضرب الأمة أصلًا لا حدًا ، وكأنه أخذ بمفهوم الآية ولم يبلغه الحديث ، وإن أراد أنها لا تضرب حدًا ، ولا ينفي ضربها تأديبًا ، فهو كقول ابن عباس ﷺ ومن تبعه في ذلك ، والله أعلم .

والجواب الثالث : أن الآية دلت على أن الأمة المحصنة تحد نصف حد الحرة ، فأما قبل الإحصان فعمومات الكتاب والسنة شاملة لها في جلدها مائة كقوله تعالى : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ وكحديث عبادة بن الصامت : « خُذُوا عَنِّي ، خُذُوا عَنِّي ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ، البِكْرُ بِالبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ ، وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَرَجْمُهَا بِالحِجَارَةِ » (١) ، وغير ذلك من الأحاديث وهذا القول هو المشهور عن داود بن علي الظاهري وهو في غاية الضعف ؛ لأن الله تعالى إذا كان أمر بجلد المحصنة من الإماء بنصف ما على الحرة من العذاب ، وهو خمسون جلدة ، فكيف يكون حكمها قبل الإحصان أشد منه بعد الإحصان ؟ وقاعدة الشريعة في ذلك عكس ما قال ، وهذا الشارع عليه الصلاة والسلام سأله أصحابه عن الأمة إذا زنت ولم تحصن ، فقال : اجلدوها ولم يقل مائة ، فلو كان حكمها كما زعم داود لوجب بيان ذلك لهم ؛ لأنهم إنما سألوا عن ذلك لعدم بيان حكم جلد المائة بعد الإحصان في الإماء ، وإلَّا فما الفائدة في قولهم ولم تحصن لعدم الفرق بينهما لو لم تكن الآية نزلت ، لكن لما علموا أحد الحكمين سألوا عن الآخر فبيّنه لهم .

الجواب الرابع : عن مفهوم الآية جواب أبي ثور ، وهو أغرب من قول داود من وجوه ، وذلك أنه يقول : فإذا أحصنَّ فإن عليهنَّ نصف ما على المحصنات المزوجات الرجم وهو لا ينصف ، فيجب أن ترجم الأمة المحصنة إذا زنت ، وأما قبل الإحصان فيجب جلدها خمسين فأخطأ في فهم الآية وخالف الجمهور في الحكم ، بل قد قال أبو عبد الله الشافعي رحمه الله : ولم يختلف المسلمون في أن لا رجم على مملوك في الزنى ؛ وذلك لأن الآية دلت على أن عليهنَّ نصف ما على المحصنات من العذاب ، والألف واللام في المحصنات للعهد ، وهن المحصنات المذكورات في أول الآية ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ والمراد بهن الحرائر فقط من غير تعرض للتزويج بحرّة ، وقوله : ﴿ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ يدل على أن المراد من العذاب الذي يمكن تبعيضه ، وهو الجلد لا الرجم والله أعلم . وقد روي أن صفية كانت قد زنت برجل من الحمس فولدت غلامًا فادعاه الزاني ، فاختصما إلى عثمان ، فرفعهما إلى علي بن أبي طالب ، فقال علي : أقضي فيهما بقضاء رسول الله ﷺ : الولد للفراش ، وللعاهر الحجر ، وجلدهما خمسين خمسين (٢) . وقيل : بل المراد من المفهوم التنبيه بالأعلى على الأدنى ، أي أن الإماء على النصف من الحرائر في الحد ، وإن كن محصنات ، وليس عليهن رجم أصلًا ، لا قبل النكاح ولا بعده ، وإنما عليهن الجلد في الحالين بالسنة . وذكر هذا عن الشافعي ، وقد ذكر البيهقي في كتاب السنن والآثار عنه

(١) أخرجه مسلم في الحدود (١٢) وأبو داود في السنن (٤٤١٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٦/٤ ، ١٨٧) .

وهو بعيد من لفظ الآية لأنا إنما استفدنا تنصيف الحد من الآية ؛ لا من سواها ، فكيف يفهم منها التنصيف فيما عداها ؟ وقال : بل أريد بأنها في حال الإحصان لا يقيم الحد عليها إلا الإمام ، ولا يجوز لسيدها إقامة الحد عليها والحالة هذه ، وهو قول في مذهب أحمد رحمه الله ، فأما قبل الإحصان فله ذلك ، والحد في كلا الموضعين نصف حد الحرة ، وهذا أيضًا بعيد لأنه ليس في الآية ما يدل عليه ، ولولا هذه ، لم ندر ما حكم الإماء في التنصيف ، ولوجب دخولهن في عموم الآية في تكميل الحد مائة ، أو رجمهن كما ثبت في الدليل عليه ، وقد تقدم عن علي أنه قال : أيها الناس أقيموا الحد على أرقائكم من أحصن منهم ومن لم يحصن ، وعموم الأحاديث المتقدمة ليس فيها تفصيل بين المزوجة وغيرها لحديث أبي هريرة الذي احتج به الجمهور « إِذَا زَنَتْ أَمَةُ أَحَدِكُمْ فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا فَلْيَجْلِدْهَا الحَدَّ وَلاَ يُثَرِّبْ عَلَيْهَا » .

ملخص الآية أنها إذا زنت أقوال :

أحدها : تجلد خمسين قبل الإحصان وبعده ، وهل تنفى فيه ثلاثة أقوال : أحدها : أنها تنفى عنه ، والثاني : لا تنفى عنه مطلقًا ، والثالث : أنها تنفى نصف سنة وهو نصف نفي الحرة ، وهذا الخلاف في مذهب الشافعي . وأما أبو حنيفة فعنده أن النفي تعزير ليس من تمام الحد ، وإنما هو رأي الإمام إن شاء فعله وإن شاء تركه في حق الرجال والنساء . وعند مالك أن النفي إنما هو على الرجال وأما النساء فلا ؛ لأن ذلك مضاد لصيانتهن ، وما ورد شيء من النفي في الرجال ولا النساء . نعم حديث عبادة وحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قضى فيمن زنى ولم يحصن بنفي عام وبإقامة الحد عليه ، وذلك مخصوص بالمعنى ، وهو أن المقصود من النفي الصون ، وذلك مفقود في نفي النساء ، والله أعلم .

والثاني : أن الأمة إذا زنت تجلد خمسين بعد الإحصان ، وتضرب تأديبًا غير محدود بعدد محصور ، وقد تقدم ما رواه ابن جرير عن سعيد بن جبير أنها لا تضرب قبل الإحصان ، وإن أراد نفيه فيكون مذهبًا بالتأويل وإلا فهو كالقول الثاني .

القول الآخر : أنها تجلد قبل الإحصان مائة ، وبعده خمسين كما هو المشهور عن داود ، وهو أضعف الأقوال . أنها تجلد قبل الإحصان خمسين وترجم بعده ، وهو قول أبي ثور ، وهو ضعيف أيضًا .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ﴾ أي إنما يباح نكاح الإماء بالشروط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع في الزني ، وشق عليه الصبر عن الجماع ، وعنت بسبب ذلك كله ، فله حينئذٍ أن يتزوج بالأمة وإن ترك تزوجها وجاهد نفسه في الكف عن الزنى ، فهو خير له ؛ لأنه إذا تزوجها جاء أولاده أرقاء لسيدها ، إلا أن يكون الزوج غريبًا فلا تكون أولاده منها أرقاء في قول قديم للشافعي ، ولهذا قال : ﴿ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ومن هذه الآية الكريمة استدل جمهور العلماء في جواز النكاح الإماء ، على أنه لابد من عدم الطول لنكاح الحرائر ، ومن خوف العنت ، لما في نكاحهن من مفسدة رق الأولاد ، ولما فيهن من الدناءة في العدول عن الحرائر إليهن . وخالف الجمهور أبو حنيفة وأصحابه في اشتراط الأمرين فقالوا : متى لم يكن الرجل مزوجًا بحرة جاز له نكاح الأمة المؤمنة والكتابية أيضًا ، سواء كان واجدًا لطول حرة أم لا ، وسواء خاف العنت أم لا ، وعمدتهم فيما ذهبوا إليه قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أي العفائف

وهو يعم الحرائر والإماء ، وهذه الآية عامة ، وهذه أيضًا ظاهرة في الدلالة على ما قاله الجمهور .

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ۝ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ .

يخبر تعالى أنه يريد أن يبيِّنَ لكم أيها المؤمنون ما أحل لكم وحرم عليكم ، مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ يعني طرائقهم الحميدة ، واتباع شرائعه التي يحبها ويرضاها ﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي من الإثم والمحارم ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي في شرعه وقدره وأفعاله وأقواله . وقوله : ﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ أي يريد أتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة أن تميلوا عن الحق إلى الباطل ميلًا عظيمًا ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ أي في شرائعه وأوامره ونواهيه ، وما يقدره لكم ، ولهذا أباح الإماء بشروط كما قال مجاهد وغيره ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه ، وضعف عزمه وهمته .

﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ أي في أمر النساء . قال موسى الكليم ﷺ لنبينا محمد ﷺ ليلة الإسراء حين مرَّ عليه راجعًا من عند سدرة المنتهى فقال له : ماذا فرض عليكم ؟ فقال : « أَمَرَنِي بِخَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ » فقال له : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فإني قد بلوت الناس قبلك على ما هو أقل من ذلك فعجزوا ، وإن أمتك أضعف أسماعًا وأبصارًا وقلوبًا ، فرجع فوضع عشرًا ، ثم رجع إلى موسى ، فلم يزل كذلك حتى بقيت خمسًا [1] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ .

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضًا بالباطل ، أي بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية كأنواع الربا والقمار وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل ، وإن ظهرت في غالب الحكم الشرعي مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا ، عن ابن عبّاس في الرجل يشتري من الرجل الثوب فيقول : إن رضيته أخذته وإلّا رددت معه درهمًا ، قال : هو الذي قال الله ﷻ فيه : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ وعن عبد الله في الآية قال : إنها محكمة ما نسخت ولا تنسخ إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ قرئ تجارة بالرفع وبالنصب [2] ، وهو استثناء منقطع ، كأنه يقول : لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال ، لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها ، وتسببوا بها في تحصيل الأموال . ومن هذه الآية الكريمة احتج الشافعي على أنه لا يصح البيع إلّا بالقبول ؛ لأنه يدل على التراضي نصًّا ، بخلاف المعاطاة فإنها قد لا تدل على الرضا ولابد ، وخالف الجمهور في ذلك مالك وأبو ثور وأبو حنيفة

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٤٩) والترمذي في السنن بنحوه (٢١٣) .
(٢) قرأ الكوفيون ﴿ تِجَٰرَةً ﴾ بالنصب والباقون بالرفع (انظر : تقريب النشر ص : ١٠٥) .

وأحمد ، فرأوا أن الأقوال كما تدل على التراضي فكذلك الأفعال تدل في بعض المحال قطعًا ، فصححوا بيع المعاطاة مطلقًا ، ومنهم من قال : يصح في المحقرات وفيما يعده الناس بيعًا ، وهو احتياط نظر من محققي المذهب ، وقال مجاهد : ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ ﴾ بيعًا أو عطاء يعطيه أحد أحدًا . ومن تمام التراضي إثبات خيار المجلس كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « البيِّعَانِ بِالخيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقا »[١] وذهب إلى القول بمقتضى هذا الحديث أحمد والشافعي وأصحابهما وجمهور السلف والخلف ، ومن ذلك مشروعية خيار الشرط بعد العقد إلى ثلاثة أيام ، بحسب ما يتبين فيه مال البيع ولو إلى سنة في القرية ونحوها ، كما هو المشهور عن مالك رحمه الله ، وصححوا بيع المعاطاة مطلقًا وهو قول في مذهب الشافعي ، ومنهم من قال : يصح بيع المعاطاة في المحقرات ، فيما يعده الناس بيعًا ، وهو اختيار طائفة من الأصحاب ، كما هو متفق عليه .

وقوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ ﴾ أي بارتكاب محارم الله ، وتعاطي معاصيه ، وأكل أموالكم بالباطل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ أي فيما أمركم به ونهاكم عنه . عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال : لما بعثه النبيّ ﷺ عام ذات السلاسل ، قال : احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد ، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك ، فتيممت ، ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح ، قال : فلما قدمنا على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له فقال : « يَا عَمْرُو صَلَّيْتَ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ ؟ » قال : قلت : يا رسول الله ، إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد ، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك ، فذكرت قول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ فتيممت ثم صليت ، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئًا[٢] . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ ؛ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيها أَبَدًا ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِسُمٍّ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا »[٣] ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا ﴾ أي ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه معتديًا فيه ، ظالمًا في تعاطيه ، أي عالمًا بتحريمه متجاسرًا على انتهاكه ﴿ فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ ﴾ الآية . وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد فليحذر منه كل عاقل لبيب ممن ألقى السمع وهو شهيد .

وقوله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ الآية أي إذا اجتنبتم كبائر الآثام التي نهيتم عنها كفّرنا عنكم صغائر الذنوب ، وأدخلناكم الجنّة ، ولهذا قال : ﴿ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ عن أنس رفعه قال : لم نر مثل الذي بلغنا عن ربنا عز وجل ثم لم نخرج له عن كل أهل ومال ، أن تجاوز لنا عما دون الكبائر يقول الله : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ الآية . وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة ، منها : عن سلمان الفارسي : قال لي النبيّ ﷺ : « أَتَدْرِي مَا يَوْمُ الجُمُعَةِ ؟ » قلت : هو اليوم الذي جمع الله فيه أباكم ، قال : « لَكِنْ أَدْرِي مَا يَوْم الجُمُعَةِ ؛ لَا يَتَطَهَّرُ الرَّجُلُ فَيُحْسِنُ طُهُورَهُ ، ثُمَّ يَأْتِي الجُمُعَةَ فَيُنْصِتُ حَتَّى يَقْضِيَ الإِمَامُ صَلَاتَهُ ؛

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٨٢) ومسلم في البيوع (٤٧) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٣٣٤) والحاكم في المستدرك (١٧٧/١) وأحمد في مسنده (٢٠٣/٤) .
(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧٥) والترمذي في السنن (٢٠٤٤) .

إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لَهُ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الجُمُعَةِ المُقْبِلَةِ مَا اجْتُنِبَتِ المَقْتَلَةُ » (١) . وعن أبي هريرة وأبي سعيد يقولان : خطبنا رسول الله ﷺ يومًا فقال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ » ثلاث مرات ثم أكبَّ ، فأكبَّ كل رجل منا يبكي ، لا ندري ماذا حلف عليه ، ثم رفع رأسه وفي وجهه البشرى ، فكان أحب إلينا من حمر النعم فقال : « مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَلِّي الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ ، وَيَصُومُ رَمَضَانَ ، وَيُخْرِجُ الزَّكَاةَ ، وَيَجْتَنِبُ الكَبَائِرَ السَّبْعَ ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ : ادْخُلْ بِسَلَامٍ » (٢) .

تفسير هذه السبع : عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ » قيل : يا رسول الله ، وما هنَّ ؟ قال : « الشِّرْكُ بِاللَّه ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّه إِلَّا بِالحَقِّ ، وَالسِّحْرُ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلاتِ المُؤْمِنَاتِ » (٣) . فالنص على هذه السبع بأنهن كبائر لا ينفي ما عداهن ، إلَّا عند من يقول بمفهوم اللقب ، وهو ضعيف عند عدم القرينة ، ولا سيما عند قيام الدليل بالمنطوق على عدم المفهوم ، كما سنورده من الأحاديث المتضمنة من الكبائر غير هذه السبع ، فمن ذلك عن عمير بن قتادة ﷺ أنه حدثه - وكانت له صحبة - أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع : « أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّه المُصَلُّونَ ، مَنْ يُقِم الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ الَّتِي كَتَبَ اللَّه عَلَيْهِ ، وَيَصُومُ رَمَضَانَ وَيَحْتَسِبُ صَوْمَهُ يَرَى أَنَّهُ عَلَيْهِ حَقٌّ ، وَيُعْطِي زَكَاةَ مَالِهِ يَحْتَسِبُهَا ، وَيَجْتَنِبُ الكَبَائِرَ الَّتِي نَهَى اللَّه عَنْهَا » . ثم إن رجلًا سأله ، فقال : يا رسول الله ، ما الكبائر ؟ فقال : « تِسْعٌ : الشِّرْكُ بِاللَّه ، وَقَتْلُ نَفْسٍ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَفِرَارٌ يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيم ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَقَذْفُ المُحْصَنَةِ ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ المُسْلِمَيْنِ ، وَاسْتِحْلالُ البَيْتِ الحَرَام قِبْلَتِكُمْ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ، ثُمَّ لاَ يَمُوتُ رَجُلٌ لاَ يَعْمَلُ هَؤُلَاءِ الكَبَائِرَ ، وَيُقِيمُ الصَّلاةَ ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ ، إِلَّا كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي دَارٍ مَصَانِعُهَا مِنْ ذَهَبٍ » (٤) .

وعن أبي أيوب قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ عَبَدَ اللَّه لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَأَقَامَ الصَّلاَةَ ، وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَصَامَ رَمَضَانَ ، وَاجْتَنَبَ الكَبَائِرَ ؛ فَلَهُ الجَنَّةُ - أَوْ دَخَلَ الجَنَّةَ - » فسأله رجل : ما الكبائر ؟ فقال : « الشِّرْكُ بِاللَّه ، وَقَتْلُ نَفْسٍ مُسْلِمَةٍ ، وَالفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ » (٥) .

وعن أبي بكر قال : قال النبيّ ﷺ : « أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ ؟ » قلنا : بلى ، يا رسول الله . قال : « الإِشْرَاكُ باللَّه ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ » - وكان متكئًا فجلس - فقال : « أَلاَ وَشَهَادَةُ الزُّورِ ، أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ » فما زال يكررها ، حتى قلنا ليته سكت (٦) .

حديث فيه ذكر قتل الولد : عن عبد الله بن مسعود قال : قلت : يا رسول الله ، أي الذنب أعظم ؟ - وفي رواية أكبر ؟ - قال : « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ » قلت : ثم أي ؟ قال : « أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ » قلت : ثم أي ؟ قال : « أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ » ثم قرأ : ﴿ وَالَّذِينَ لَا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٩/٥) . (٢) أخرجه النسائي في السنن (٨/٥) .
(٣) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦) ومسلم في الإيمان (١٤٥) .
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٥٩/٤) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٣/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢١٦/٥) .
(٦) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٧٦) ومسلم في الإيمان (١٤٣) .

يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ (١) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلَ وَالِدَيْهِ » قالوا : وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : « يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ » وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ » (٢) .

حديث في الجمع بين الصلاتين من غير عذر : عن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ قال : « مَنْ جَمَعَ بَيْنَ صَلاتَيْنِ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ فَقَدْ أَتَى بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الكَبَائِرِ » (٣) . والغرض أنه إذا كان الوعيد فيمن جمع بين الصلاتين كالظهر والعصر ، تقديمًا أو تأخيرًا ، وكذا المغرب والعشاء كالجمع بسبب شرعي ، فمن تعاطاه بغير شيء من تلك الأسباب يكون مرتكبًا كبيرة ، فما ظنك بترك الصلاة بالكلية ؟! .

ذِكْرُ أَقْوَال السَّلَفِ فِي ذَلِك

عن الحسن أن ناسًا سألوا عبد الله بن عمرو بمصر ، فقالوا : نرى أشياء من كتاب الله ﷻ أمر أن يعمل بها لا يعمل بها ، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين في ذلك ، فقدم وقدموا معه فلقي عمر ﷺ ، فقال : متى قدمت ؟ فقال : منذ كذا وكذا ، قال : أبإذن قدمت ؟ قال : فلا أدري كيف رد عليه . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن ناسًا لقوني بمصر ، فقالوا : إنا نرى أشياء في كتاب الله أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها ، فأحبوا أن يلقوك في ذلك . قال : فاجمعهم لي ، قال : فجمعتهم له ، - قال ابن عون : أظنه قال : في بهو - فأخذ أدناهم رجلًا فقال : أنشدك بالله وبحق الإسلام عليك أقرأت القرآن كله ؟ قال : نعم ، قال : فهل أحصيته في نفسك ؟ فقال : اللهم لا ، قال : ولو قال : نعم لخصمه . قال : فهل أحصيته في بصرك ؟ فهل أحصيته في لفظك ؟ هل أحصيته في أثرك ؟ ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم ، فقال : ثكلت عمر أمه ، أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله ، قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات ؟ قال : وتلا ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ الآية . ثم قال : هل علم أهل المدينة - أو قال : هل علم أحد بما قدمتم - قالوا : لا ، قال : لو علموا لوعظت بكم . عن علي ﷺ قال : الكبائر : الإشراك بالله ، وقتل النفس ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، والفرار من الزحف ، والتعرب بعد الهجرة ، والسحر ، وعقوق الوالدين ، وأكل الربا ، وفراق الجماعة ، ونكث الصفقة . عن ابن مسعود قال : أكبر الكبائر من أول سورة النساء إلى ثلاثين آية منها ، ثم تلا : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ الآية . عن بريدة قال : أكبر الكبائر الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، ومنع فضول الماء بعد الري ، ومنع طروق الفحل إلَّا بجعل .

وفي الصحيحين عن النبيّ ﷺ أنه قال : « ثَلاثَةٌ لاَ يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِالفَلاَةِ يَمْنَعُهُ ابْنَ السَّبِيلِ » (٤) وعن معاوية بن قرة قال : أتيت أنس بن مالك . فكان فيما يحدثنا قال : لم أرَ مثل الذي أتانا عن ربنا ، ثم لم يخرج له عن

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠١) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠/٢١٦)
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٨٨) والحاكم في المستدرك (١/٢٧٥)
(٤) أخرجه البخاري في المساقاة (٢٣٥٨)

كل أهل ومال ، ثم سكت هنيهة ثم قال : والله لما كلفنا من ذلك أنه تجاوز لنا عما دون الكبائر وتلا: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ ﴾ الآية .

أَقْوَالُ ابن عبّاس في ذلك: عن طاوس قال : ذكروا عند ابن عباس الكبائر فقالوا : فهي سبع : فقال : هي أكثر من سبع وسبع ، قال : فلا أدري كم قالها من مرة . وعن طاوس ، قال : قلت لابن عباس : ما السبع الكبائر ؟ قال : هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع . وعن سعيد بن جبير : أن رجلًا قال لابن عباس : كم الكبائر سبع ؟ قال : هنَّ إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع ، غير أنه لا كبيرة مع استغفار ، ولا صغيرة مع إصرار . وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ قال : الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب . وعن أبي الوليد قال : سألت ابن عبّاس عن الكبائر قال : كل شيء عصي الله به ، فهو كبيرة .

أَقْوَالُ التَّابِعِين: عن ابن عون عن محمّد قال : سألت عبيدة عن الكبائر فقال : الإشراك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله بغير حقها ، والفرار يوم الزحف ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والبهتان ، قال : ويقولون : أعرابية بعد هجرة ، قال ابن عون : فقلت لمحمّد : فالسحر ؟ قال : إن البهتان يجمع شرًّا كثيرًا . وعن عبيد بن عمير ، قال : الكبائر سبع ليس منهن كبيرة إلّا وفيها آية من كتاب الله ، الإشراك بالله منهن ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ ﴾ الآية . ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ الآية ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ، والفرار من الزحف ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا ﴾ الآية . والتعرب بعد الهجرة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ﴾ وقتل المؤمن ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ الآية . عن عطاء بن أبي رباح قال : الكبائر سبع : قتل النفس ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، ورمي المحصنة ، وشهادة الزور ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف . وعن مغيرة قال : كان يقال : شَتْمُ أبي بكر وعمر ﷺ من الكبائر . قلت : وقد ذهب طائفة من العلماء إلى تكفير من سب الصحابة ، وهو رواية عن مالك بن أنس رحمه الله . وقال محمّد بن سيرين : ما أظن أحدًا يبغض أبا بكر وعمر وهو يحب رسول الله ﷺ ، وقال زيد بن أسلم في قول الله ﷻ : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ : من الكبائر : الشرك بالله ، والكفر بآيات الله ورسله ، والسحر ، وقتل الأولاد ، ومن دعى لله ولدًا أو صاحبة ، ومثل ذلك من الأعمال والقول الذي لا يصلح معه عمل ، وأما كل ذنب يصلح معه دين ، ويقبل معه عمل ؛ فإن الله يغفر السيئات بالحسنات . وعن قتادة ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ الآية : إنما وعد الله المغفرة لمن اجتنب الكبائر .

وقد اختلف علماء الأصول والفروع في حد الكبيرة ، فمن قائل : هي ما عليه حدّ في الشرع ، ومنهم من قال : هي ما عليه وعيد مخصوص من الكتاب والسنّة ، وقيل غير ذلك . ولبعض الأصحاب في تفسير الكبيرة وجوه : أحدها : أنها المعصية الموجبة للحد . والثاني : أنها المعصية التي يلحق صاحبها الوعيد الشديد بنص كتاب أو سنّة ، وهذا أكثر ما يوجد لهم ، وإلى الأول أميل ، لكن الثاني أوفق لما ذكروه عند تفسير الكبائر . والثالث : قال إمام الحرمين في الإرشاد وغيره : كل جريمة تنبئ بقلة اكتراث مرتكبها بالدين ورقة الديانة ؛ فهي مبطلة للعدالة . والرابع : ذكر القاضي أبو سعيد الهروي أن الكبيرة كل

فعل نص الكتاب على تحريمه ، وكل معصية توجب في جنسها حدًّا من قتل أو غيره . وترك كل فريضة مأمور بها على الفور ، والكذب في الشهادة والرواية واليمين ، هذا ما ذكروه على سبيل الضبط . ثم قال : وفصَّل القاضي الروياني فقال : الكبائر سبع : قتل النفس بغير الحق ، والزنى ، واللواطة ، وشرب الخمر ، والسرقة ، وأخذ المال غصبًا ، والقذف ، وزاد في الشامل على السبع المذكورة : شهادة الزور ، أضاف إليها صاحب العدة : أكل الربا ، والإفطار في رمضان بلا عذر ، واليمين الفاجرة ، وقطع الرحم ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف ، وأكل مال اليتيم ، والخيانة في الكيل والوزن ، وتقديم الصلاة على وقتها ، وتأخيرها عن وقتها بلا عذر ، وضرب المسلم بلا حق ، والكذب على رسول اللَّه ﷺ عمدًا ، وسب أصحابه ، وكتمان الشهادة بلا عذر ، وأخذ الرشوة ، والقيادة بين الرجال والنساء ، والسعاية عند السلطان ، ومنع الزكاة ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع القدرة ، ونسيان القرآن بعد تعلمه ، وإحراق الحيوان بالنار ، وامتناع المرأة من زوجها بلا سبب ، واليأس من رحمة اللَّه ، والأمن من مكر اللَّه ، ويقال : الوقيعة في أهل العلم ، وحملة القرآن ، ومما يعد من الكبائر : الظهار ، وأكل لحم الخنزير والميتة إلَّا عن ضرورة . ثم قال الرافعي : وللتوقف مجال في بعض هذه الخصال قلت : وقد صنَّف الناس في الكبائر مصنفات ؛ منها ما جمعه شيخنا الحافظ أبو عبد اللَّه الذهبي الذي بلغ نحوًا من سبعين كبيرة ، وإذا قيل : إن الكبيرة ما توعد عليها الشارع بالنار بخصوصها ، كما قال ابن عبّاس وغيره وما يتبع ذلك ، اجتمع منه شيء كثير ، وإذا قيل : كل ما نهى اللَّه عنه فكثير جدًّا واللَّه أعلم .

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ .

قالت أم سلمة : يا رسول اللَّه يغزو الرجال ولا نغزو ، ولنا نصف الميراث ، فأنزل اللَّه : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾(١) . وعن ابن عبّاس في الآية قال : أتت امرأة إلى النبيّ ﷺ فقالت : يا رسول اللَّه ، للذكر مثل حظ الأنثيين ، وشهادة امرأتين برجل ، ونحن في العمل هكذا ، إن فعلت امرأة حسنة كتب لها نصف حسنة ، فأنزل اللَّه هذه الآية ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟﴾ الآية . فإنه عدلي مني ، وأنا صنعته . وقال السدي في الآية : إن رجالًا قالوا : إنا نريد أن يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء ، كما لنا في السهام سهمان ، وقالت النساء : إنا نريد أن يكون لنا أجر مثل أجر الشهداء ، فإنا لا نستطيع أن نقاتل ، ولو كتب علينا القتال لقاتلنا . فأبى اللَّه ذلك ولكن قال لهم : سلوني من فضلي ، قال : ليس بعرض الدنيا(٢) .

وقال ابن عبّاس في الآية : ولا يتمنى الرجل فيقول : ليت لو أن لي مال فلان وأهله ، فنهى اللَّه عن ذلك ، ولكن يسأل اللَّه من فضله . يرد على هذا ما ثبت في الصحيح :« لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتاهُ اللَّه مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ ، فَيَقُولُ رَجُلٌ : لَوْ أَنَّ لِي مِثْلَ مَا لِفُلَانٍ لَعَمِلْتُ مِثْلَهُ ، فَهُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ»(٣) فإن هذا شيء غير ما نهت عنه الآية ، وذلك أن الحديث حض على تمني مثل نعمة هذا ، والآية نهت عن تمني عين نعمة هذا ، يقول : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ أي

(١) أخرجه الترمذي في السنن(٣٠٢٢) والحاكم في المستدرك(٢/٣٠٥) .
(٢) تفسير الطبري(٥/٦٦ ، ٦٧) (٣) أخرجه البخاري في الزكاة(١٤٠٩)

في الأمور الدنيوية ، وكذا الدينية لحديث أم سلمة وابن عباس ، ثم قال : ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ﴾ أي كل له جزاء على عمله بحسبه ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر . وقيل : المراد بذلك في الميراث ؛ أي كل يرث بحسبه . ثم أرشدهم إلى ما يصلحهم ، فقال : ﴿ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ لا تتمنوا ما فضلنا به بعضكم على بعض ، فإن هذا أمر محتوم ، أي أن التمني لا يجدي شيئًا ، ولكن سلوني من فضلي أعطكم ، فإني كريم وهّاب . وقد روي عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « سَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ ، وَإِنَّ أَحَبَّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ الَّذِي يُحِبُّ الفَرَجَ » (١) . ثم قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الدنيا ، فيعطيه منها ، وبمن يستحق الفقر فيفقره . وعليم بمن يستحق الآخرة فيقيّضه لأعمالها ، وبمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير وأسبابه . ولهذا قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ .

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾ .

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم في قوله : ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ ﴾ أي ورثة . وعن ابن عباس في رواية : عصبة . قال ابن جرير : والعرب تسمي ابن العم مولى .

قال : ويعني بقوله : ﴿ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ من تركة والديه وأقربيه من الميراث ، فتأويل الكلام : ولكلكم أيها الناس جعلنا عصبة يرثونه مما ترك والده وأقربوه من ميراثهم له . وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ أي والذين تحالفتم بالأيمان المؤكدة ، أنتم وهم فآتوهم نصيبهم من الميراث كما وعدتموهم في الأيمان المغلظة ، إن الله شاهد بينكم في تلك العهود والمعاقدات ، وقد كان هذا في ابتداء الإسلام ، ثم نسخ بعد ذلك ، وأمروا أن يوفوا من عاقدوا ، ولا ينسوا بعد نزول هذه الآية معاقدة . عن ابن عباس ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ ﴾ قال : ورثة . ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه ، للأخوة التي آخى النبيّ ﷺ بينهم فلما نزلت ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ ﴾ نسخت ، ثم قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة ، وقد ذهب الميراث ، ويوصي له .

وعن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال : « شَهِدْتُ حِلْفَ المُطَيَّبِينَ وَأَنَا غُلَامٌ مَعَ عُمُومَتِي ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ وَأَنَا أَنْكُثُهُ » (٢) . وعن قيس بن عاصم أنه سأل النبيّ ﷺ عن الحلف فقال : « مَا كَانَ مِنْ حِلْفٍ فِي الجَاهِلِيَّةِ فَتَمَسَّكُوا بِهِ ، وَلَا حِلْفَ فِي الإِسْلَامِ » (٣) . وعن داود بن الحصين قال : كنت أقرأ على أم سعد بنت الربيع مع ابن ابنها موسى بن سعد وكان يتيمًا في حجر أبي بكر فقرأت عليها ﴿ وَٱلَّذِينَ - عاقدت - أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ فقالت : لا ولكن ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ قالت : إنما نزلت في أبي بكر وابنه عبد الرحمن حين أبى أن يسلم فحلف أبو بكر أن لا يورثه ، فلما أسلم حين حمل على الإسلام بالسيف أمر الله أن يورثه نصيبه . وهذا قول غريب ، والصحيح الأول ،

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٧١) والطبراني في الكبير (١٢٥/١٠) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٠/١) والألباني في الصحيحة (١٩٠٠) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٩/١) والطبراني في الكبير (٣٣٧/١٨) .

وأن هذا كان في ابتداء الإسلام يتوارثون بالحلف ثم نسخ ، وبقي تأثير الحلف بعد ذلك وإن كانوا قد أمروا أن يوفوا بالعهود والعقود ، والحلف الذي كانوا قد تعاقدوه قبل ذلك . وفي حديث جبير بن مطعم وغيره من الصحابة : « لاَ حِلْفَ فِي الإِسْلاَمِ وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الإِسْلامُ إِلَّا شِدَّةً »(١) وهذا نص في الرد على من ذهب إلى التوارث بالحلف اليوم ، كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه ، ورواية عن أحمد بن حنبل ، والصحيح قول الجمهور ومالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ أي ورثة من قراباته من أبويه وأقربيه ، وهم يرثونه دون سائر الناس ، كما ثبت عن ابن عبّاس أن رسول الله ﷺ قال : « أَلْحِقُوا الفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا ، فَمَا بَقِيَ فَلأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ »(٢) أي اقسموا الميراث على أصحاب الفرائض الذين ذكرهم الله في آيتي الفرائض ، فما بقي بعد ذلك فأعطوه للعصبة .

وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ أي قبل نزول هذه الآية ﴿ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ أي من الميراث ، فأيما حلف عقد بعد ذلك فلا تأثير له . وقد قيل : إن هذه الآية نسخت الحلف في المستقبل وحكم الحلف الماضي أيضًا فلا توارث به . عن ابن عبّاس ﴿ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ قال : من النصرة والنصيحة والرفادة ، ويوصى له وقد ذهب الميراث . وقال ابن عبّاس : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ قال : كان الرجل يعاقد الرجل أيهما مات ورثه الآخر ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ﴾ يقول : إلا أن توصوا لهم بوصية فهي لهم جائزة من ثلث المال ، وهذا هو المعروف ، وهكذا نص غير واحد من السلف أنها منسوخة بقوله : ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ﴾ وقال سعيد بن جبير : فآتوهم نصيبهم أي من الميراث ، قال : وعاقد أبو بكر مولى فورثه . عن ابن المسيب : نزلت هذه الآية في الذين كانوا يتبنون رجالًا غير أبنائهم يورثونهم ، فأنزل الله فيهم ، فجعل لهم نصيبًا في الوصية ، ورد الميراث إلى الموالي في ذي الرحم والعصبة ، وأبى الله أن يكون للمدعين ميراث ممن ادعاهم وتبناهم ، ولكن جعل لهم نصيبًا من الوصية . وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله : ﴿ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ أي من النصرة والنصيحة والمعونة ، لا أن المراد فآتوهم نصيبهم من الميراث حتى تكون الآية منسوخة ، ولا أن ذلك كان حكمًا ثم نسخ ، بل إنما دلت الآية على الوفاء بالحلف المعقود على النصرة والنصيحة فقط ، فهي محكمة لا منسوخة وهذا الذي قاله فيه نظر ، فإن من الحلف ما كان على المناصرة والمعاونة ، ومنه ما كان على الإرث ، كما حكاه غير واحد من السلف ، وكما قال ابن عبّاس : كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه ، حتى نسخ ذلك ، فكيف يقولون : إن هذه الآية محكمة ، غير منسوخة ، والله أعلم .

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٨٣) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٠٤) .
(٢) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٦٣٧) ومسلم في الفرائض (٣٢٢) .

يقول تعالى : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ أي الرجل قيّم على المرأة ، أي هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدّبها إذا اعوجت ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي لأن الرجال أفضل من النساء ، والرجل خير من المرأة ، ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال ، وكذلك الملك الأعظم لقوله ﷺ : « لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً »[(١)] وكذا منصب القضاء وغير ذلك . ﴿ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ أي : من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهنّ في كتابه وسنّة نبيّه ﷺ ، فالرجل أفضل من المرأة في نفسه ، وله الفضل عليها والإفضال ، فناسب أن يكون قيمًا عليها كما قال الله تعالى : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ الآية .

وعن ابن عبّاس : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ يعني أمراء عليهن ، أي تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته ، وطاعته أن تكون محسنة لأهله ، حافظة لماله . عن علي قال : أتى رسول الله ﷺ رجل من الأنصار بامرأة له ، فقالت : يا رسول الله ، إن زوجها فلان ابن فلان الأنصاري ، وإنه ضربها فأثر في وجهها فقال رسول الله ﷺ : « لَيْسَ لَهُ ذَلِكَ » فأنزل الله تعالى : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ أي في الأدب فقال رسول الله ﷺ : « أَرَدْتُ أَمْرًا وَأَرَادَ اللهُ غَيْرَهُ »[(٢)] . وقال الشعبي في هذه الآية ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ قال : الصداق الذي أعطاها ، ألا ترى أنه لو قذفها لاعنها ، ولو قذفته جلدت .

وقوله تعالى : ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ أي من النساء ﴿ قَٰنِتَٰتٌ ﴾ قال ابن عبّاس وغير واحد : يعني مطيعات لأزواجهن ﴿ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ ﴾ وقال السدي وغيره : أي تحفظ زوجها في غيبته ، في نفسها وماله . وقوله : ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ أي المحفوظ من حفظه الله . وعن عبد الرحمن بن عوف قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذا صَلَّتِ المَرْأَةُ خَمْسَهَا ، وَصَامَتْ شَهْرَهَا ، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا ، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا ، قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الجَنَّةَ مِنْ أَيِّ الأَبْوَابِ شِئْتِ »[(٣)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾ أي : والنساء اللاتي تتخوفون أن ينشزن على أزواجهن ، والنشوز : هو الارتفاع ، فالمرأة الناشز هي المرتفعة على زوجها ، التاركة لأمره ، المعرضة عنه ، المبغضة له ، فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها وليخوفها عقاب الله في عصيانه ، فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته ، وحرم عليها معصيته ، لما له عليها من الفضل والإفضال ، وقد قال رسول الله ﷺ : « لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا »[(٤)] . وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ عَلَيْهِ لَعَنَتْهَا المَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ »[(٥)] ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ ﴾ وقوله : ﴿ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ قال ابن عبّاس : الهجر هو أن لا يجامعها ويضاجعها على فراشها ، ويوليها ظهره . وكذا قال غير واحد ، وزاد آخرون منهم السدي والضحاك وعكرمة وابن عبّاس في

(١) أخرجه البخاري في الفتن(٧٠٩٩) والترمذي في السنن(٢٢٦٢) .
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور(١٥١/٢) والهندي في كنز العمال(٤٣٢٧) .
(٣) هذا الحديث من الأحاديث المشتهرة على ألسنة الناس وهو ضعيف ، وقد ذكره العجلوني في كشف الخفاء(٩٦/١) والمنذري في الترغيب(٥٢/٣) .
(٤) أخرجه الترمذي في السنن(١١٥٩) والحاكم في المستدرك(١٨٧/٢) .
(٥) أخرجه مسلم في النكاح(١٢٢) وأبو داود في السنن(٢١٤١) .

رواية : ولا يكلمها مع ذلك ولا يحدثها ، وقال ابن عبّاس : يعظها فإن هي قبلت ، وإلّا هجرها في المضجع ، ولا يكلمها من غير أن يرد نكاحها ، وذلك عليها شديد . وقال مجاهد والشعبي وإبراهيم ومحمّد بن كعب ومقسم وقتادة : الهجر هو أن لا يضاجعها . وعن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال : يا رسول اللّه ، ما حق امرأة أحدنا عليه ؟ قال : « أَنْ تُطْعِمَها إذا طَعِمْتَ ، وَتَكْسُوَهَا إِذا اكْتَسَيْتَ ، وَلاَ تَضْرِبِ الوَجْهَ وَلا تُقَبِّح ، وَلاَ تَهْجُر إِلَّا في البَيْتِ » [١] .

وقوله : ﴿ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ أي إذا لم يرتدعن بالموعظة ولا بالهجران ، فلكم أن تضربوهن ضربًا غير مبرح . كما ثبت عن جابر ، عن النبيّ ﷺ أنه قال في حجة الوداع : « وَاتَّقُوا اللّهَ في النِّسَاءِ ، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّح ، وَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ » [٢] . وكذا قال ابن عبّاس وغير واحد : ضربًا غير مبرّح . قال الحسن البصري : يعني غير مؤثر ، قال الفقهاء : هو أن لا يكسر فيها عضوًا ، ولا يؤثر فيها شيئًا . وقال ابن عبّاس : يهجرها في المضجع ، فإن أقبلت وإلّا فقد أذن اللّه لك أن تضربها ضربًا غير مبرح ، ولا تكسر لها عظمًا ، فإن أقبلت ، وإلّا فقد أحل اللّه لك منها الفدية . وعن إياس بن عبد اللّه بن أبي ذئاب قال : قال النبيُّ ﷺ : « لا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللّه » فجاء عمر ﷺ إلى رسول اللّه ﷺ فقال : ذئرت النساء على أزواجهن ، فرخص رسول اللّه ﷺ في ضربهن ، فأطاف بآل رسول اللّه ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن ، فقال رسول اللّه ﷺ : « لَقَدْ أَطَافَ بِآلِ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْتَكِينَ مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ ، لَيْسَ أُولَئِكَ بِخِيَارِكُمْ » [٣] .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ ﴾ أي إذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريده منها ، مما أباحه اللّه له منها ، فلا سبيل له عليها بعد ذلك ، وليس له ضربها ولا هجرانها . وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب ، فإن العلي الكبير وليهن ، وهو منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن .

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ .

ذكر الحال الأول ، وهو إذا كان النفور والنشوز من الزوجة . ثم ذكر الحال الثاني ، وهو إذا كان النفور من الزوجين فقال تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ وقال الفقهاء : إذا وقع الشقاق بين الزوجين أسكنهما الحاكم إلى جنب ثقة ينظر في أمرهما ، ويمنع الظالم منهما من الظلم ، فإن تفاقم أمرهما وطالت خصومتهما ، بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة ، وثقة من قوم الرجل ليجتمعا ، فينظرا في أمرهما ، ويفعلا ما فيه المصلحة مما يريانه من التفريق أو التوفيق ، وتشوف الشارع إلى التوفيق . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ ﴾ عن ابن عبّاس : أمر اللّه ﷻ أن يبعثوا رجلًا صالحًا من أهل الرجل ، ورجلًا مثله من أهل المرأة ، فينظران أيهما المسيء ؟ فإن كان الرجل هو المسيء حجبوا عنه امرأته ، وقصروه على النفقة ، وإن كانت المرأة هي المسيئة قصروها على

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٧/٤) . (٢) أخرجه مسلم في الحج (١٤٧) والبيهقي في السنن (٨/٥) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢١٤٦) والحاكم في المستدرك (١٨٨/٢) .

زوجها ، ومنعوها النفقة . فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا ، فأمرهما جائز ، فإن رأيا أن يجمعا ، فرضي أحد الزوجين وكره الآخر ، ثم مات أحدهما ، فإن الذي رضي يرث الذي لم يرضَ ، ولا يرث الكاره الراضي . وعن ابن عبّاس قال : بعثت أنا ومعاوية حكمين - قال معمر : بلغني أن عثمان بعثهما - وقال لهما : إن رأيتما أن تجمعا جمعتما ، وإن رأيتما أن تفرّقا ففرّقا . وعن أبي مليكة أن عقيل بن أبي طالب تزوج فاطمة بنت عتبة بن ربيعة فقالت : تصير إليّ وأنفق عليك ، فكان إذا دخل عليها قالت : أين عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، فقال : على يسارك في النار إذا دخلت ، فشدت عليها ثيابها ، فجاءت عثمان فذكرت له ذلك فضحك ، فأرسل ابن عباس ومعاوية فقال ابن عبّاس : لأفرقن بينهما ، فقال معاوية : ما كنت لأفرق بين شخصين من بني عبد مناف ، فأتياهما فوجداهما قد أغلقا عليهما أبوابهما فرجعا . وقد أجمع العلماء على أن الحكمين لهما الجمع والتفرقة ، حتى قال إبراهيم النخعي : إن شاء الحكمان أن يفرّقا بينهما بطلقة أو بطلقتين أو ثلاث فعلا ، وهو رواية عن مالك . وقال الحسن البصري : الحكمان يحكمان في الجمع لا في التفرقة ، وكذا قال قتادة وزيد بن أسلم ، وبه قال أحمد بن حنبل وأبو ثور وداود ، ومأخذهم قوله تعالى : ﴿ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ ﴾ ولم يذكر التفريق ، وأما إذا كانا وكيلين من جهة الزوجين فإنه ينفذ حكمهما في الجمع والتفرقة بلا خلاف .

وقد اختلف الأئمة في الحكمين هل هما منصوبان من جهة الحاكم فيحكمان وإن لم يرضَ الزوجان ؟ أو هما وكيلان من جهة الزوجين ؟ على قولين والجمهور على الأول لقوله تعالى : ﴿ فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ ﴾ فسماهما حكمين ، ومن شأن الحكم أن يحكم بغير رضا المحكوم عليه ، وهذا ظاهر الآية . والجديد من مذهب الشافعي ، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه ، الثاني منهما ، لقول علي ﷺ للزوج حين قال : أما الفرقة فلا ، قال : كذبت حتى تقر بما أقرّت به ، قالوا : فلو كانا حكمين لما افتقر إلى إقرار الزوج والله أعلم . قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر : وأجمع العلماء على أن الحكمين إذا اختلف قولهما ، فلا عبرة بقول الآخر ، وأجمعوا على أن قولهما نافذ في الجمع وإن لم يوكلهما الزوجان ، واختلفوا هل ينفذ قولهما في التفرقة ، ثم حكي عن الجمهور أنه ينفذ قولهما فيها أيضًا من غير توكيل .

﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴾ .

يأمر تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له ، فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الآنات والحالات ، فهو المستحق منهم أن يوحدوه ، ولا يشركوا به شيئًا من مخلوقاته ، كما قال النبيّ ﷺ لمعاذ بن جبل : « أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ ؟ » قال : الله ورسوله أعلم ، قال : « أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » ، ثم قال : « أَتَدْرِي مَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ؟ أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ » (١) . ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين ، فإن الله سبحانه جعلهما سببًا لخروجك من العدم إلى الوجود ، وكثيرًا ما يقرن الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين ، ثم عطف على الإحسان إليهما بالإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء ، كما جاء في الحديث : « الصَّدَقَةُ عَلَى المِسْكِينِ صَدَقَةٌ ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ » (٢) ثم

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٣٠) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٦٥٨) وابن ماجه في السنن (١٨٤٤) وأحمد في مسنده (٤/٢١٤) .

قال تعالى : ﴿ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ وذلك لأنهم فقدوا من يقوم بمصالحهم ، ومن ينفق عليهم ، فأمر الله بالإحسان إليهم ، والحنو عليهم ، ثم قال : ﴿ وَٱلْمَسَـٰكِينِ ﴾ وهم المحاويج من ذوي الحاجات الذين لا يجدون من يقوم بكفايتهم ، فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم ، وتزول به ضرورتهم . وقوله : ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ قال ابن عبّاس : ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ : يعني الذي بينك وبينه قرابة ، ﴿ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ : الذي ليس بينك وبينه قرابة . وقال نوف البكالي : اليهودي والنصراني ، وعن علي وابن مسعود ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ : يعني المرأة ، وقال مجاهد : يعني الرفيق في السفر . وقد وردت الأحاديث بالوصايا بالجار ، منها :

عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّه سَيُوَرِّثُهُ » (١) .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبيّ ﷺ أنه قال : « خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجَارِهِ » (٢) .

وعن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ يَشْبَع الرَّجُلُ دُونَ جَارِهِ » (٣) .

وعن المقداد بن الأسود يقول : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « مَا تَقُولُونَ في الزِّنَى ؟ » قالوا : حرام حرمه الله ورسوله ، وهو حرام إلى يوم القيامة . فقال رسول الله ﷺ : « لأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بحَلِيلَةِ جَارِهِ » قال : « مَا تَقُولُونَ في السَّرِقَةِ ؟ » قالوا : حرّمها الله ورسوله ، فهي حرام إلى يوم القيامة . قال : « لأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشَرَةِ أَبْيَاتٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جَارِهِ » (٤) .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « الجِيرَانُ ثَلاَثَةٌ ، جَارٌ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ ، وَهُوَ أَدْنَى الجِيرَانِ حَقًّا . وَجَارٌ لَهُ حَقَّانِ ، وَجَارٌ لَهُ ثَلاَثَةُ حُقُوقٍ وَهُوَ أَفْضَلُ الجِيرَانِ حَقًّا . فَأَمَّا الجَارُ الَّذِي لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ : فَجَارٌ مُشْرِكٌ لاَ رَحِمَ لَهُ ، لَهُ حَقُّ الجِوَارِ . وَأَمَّا الجَارُ الَّذِي لَهُ حَقَّانِ : فَجَارٌ مُسْلِمٌ لَهُ حَقُّ الإِسْلاَمِ ، وَحَقُّ الجِوَارِ . وَأَمَّا الَّذِي لَهُ ثَلاَثَةُ حُقُوقٍ : فَجَارٌ مُسْلِمٌ ذو رَحِم لَهُ حَقُّ الجِوَارِ ، وَحَقُّ الإِسْلام ، وَحَقُّ الرَّحِم » (٥) .

وعن عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت : إن لي جارين ، فإلى أيهما أهدي ؟ قال : « إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكَ بَابًا » (٦) .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾ عن علي وابن مسعود قالا : هي المرأة . وقال ابن عبّاس ومجاهد وعكرمة وقتادة : هو الرفيق في السفر . وقال سعيد بن جبير : هو الرفيق الصالح . وقال زيد بن أسلم : هو جليسك في الحضر ، ورفيقك في السفر . وأما ﴿ ٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ فعن ابن عباس : هو الضيف ، وقال مجاهد : هو الذي يمر عليك مجتازًا في السفر ، وهذا أظهر وإن كان مراد القائل بالضيف المار في الطريق فهما سواء . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ وصية بالأرقاء ؛ لأن الرقيق ضعيف الحيلة ، أسير في

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٥) ومسلم في البر والصلة (١٤٠) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٩٤٤) والحاكم في المستدرك (٤٤٣/١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥٥/١) والحاكم في المستدرك (١٦٧/٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٨/٦) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢/٥) والألباني في إرواء الغليل (٤٠٣/٣) .
(٦) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٠) وأحمد في مسنده (٢٣٩/٦) والحاكم في المستدرك (١٦٧/٤) .

أيدي الناس ، فلهذا ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يوصي أمته في مرض الموت يقول : « الصَّلاةَ الصَّلاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » فجعل يرددها حتى ما يفيض بها لسانه (١) ، وعن المقدام بن معد يكرب قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أَطْعَمْتَ نَفْسَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَطْعَمْتَ وَلَدَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَطْعَمْتَ زَوْجَتَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَطْعَمْتَ خَادِمَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ » (٢) .

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال لقهرمان له : هل أعطيت الرقيق قوتهم ؟ قال : لا ، قال : فانطلق فأعطهم فإن رسول الله ﷺ قال : « كَفَى بِالمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُمْ » (٣) . وعنه أيضا عن النبيّ ﷺ قال : « إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ فَلْيُنَاوِلْهُ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ ، أَوْ أَكْلَةً أَوْ أَكْلَتَيْنِ ؛ فَإِنَّهُ وَلِيَ حرَّهُ وَعِلاَجَهُ » (٤) . وعن أبي ذر ﷺ عن النبيّ ﷺ قال : « هُمْ إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ ؛ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ » (٥) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ أي مختالًا في نفسه ، معجبًا متكبرًا فخورًا على الناس ، يرى أنه خير منهم فهو في نفسه كبير ، وهو عند الله حقير ، وعند الناس بغيض . قال مجاهد في قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا ﴾ يعني متكبرًا ﴿ فَخُورًا ﴾ يعني بعد ما أعطي وهو لا يشكر الله تعالى ، يعني يفخر على الناس بما أعطاه الله من نعمه ، وهو قليل الشكر لله على ذلك . وعن أبي رجاء الهروي قال : لا تجد سيئ الملكة إلَّا وجدته مختالًا فخورًا وتلا : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ الآية . ولا عاقًّا إلَّا وجدته جبارًا شقيًّا وتلا : ﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ . وقال مطرف : كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه فلقيته ، فقلت : يا أبا ذر : بلغني أنك تزعم أن رسول الله ﷺ ، قال : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ ثَلاثَةً ويُبْغِضُ ثَلاثَة » قال أجل : فلا أخا لك ، أكذب على خليلي ؟ ثلاثًا قلت : من الثلاثة الذين يبغض اللهُ ؟ قال : المختال الفخور ، أو ليس تجدونه عندكم في كتاب الله المنزل ؟ ثم قرأ الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ (٦) . وعن رجل من بني الهجيم قال : قلت : يا رسول الله أوصني ، قال : « إِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الإِزَارِ ، فَإِنَّ إسبال الإزار مِنَ المَخِيلَةِ ، وَإِنَّ اللَّه لاَ يُحِبُّ المَخِيلَةَ » (٧) .

﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ .

يقول تعالى ذامًّا الذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به من بر الوالدين والإحسان إلى الأقارب ، واليتامى ، والمساكين ، والجار ذي القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل وما

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١١/٦) والحاكم في المستدرك (٥٧/٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣١/٤) والبيهقي في السنن (١٧٩/٤) .
(٣) أخرجه مسلم في الزكاة (٤٠) .
(٤) أخرجه البخاري في العتق (٢٥٥٧) وأحمد في مسنده (٤٤٦/١) .
(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (٩٨) والبيهقي في السنن (٧/٨) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٣/٥) والحاكم في المستدرك (٨٩/٢) والبيهقي في السنن (١٦٠/٩) .
(٧) أخرجه البيهقي في السنن (٢٣٦/١٠) والألباني في الصحيحة (١١٠٩) .

ملكت أيمانكم من الأرقاء ، ولا يدفعون حق الله فيها ، ويأمرون الناس بالبخل أيضًا ، وقد قال رسول الله ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ ؛ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كان قَبْلَكُمْ ، أَمَرَهُمْ بِالقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا ، وَأَمَرَهُمْ بِالفُجُورِ فَفَجَرُوا » [(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فالبخيل جحودٌ لنعمة الله ولا تظهر عليه . ولا تبين لا في مأكله ولا في ملبسه ولا في إعطائه وبذله ولهذا توعدهم بقوله : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ والكفر هو الستر والتغطية ، فالبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجحدها ، فهو كافر لنعم الله عليه . وفي الحديث : « إِنَّ اللَّهَ إذا أَنْعَمَ نِعْمَةً عَلَى عَبْدٍ أَحَبَّ أَنْ يَظْهَرَ أَثَرُهَا عَلَيْهِ » [(٢)] . وقد حمل بعض السلف هذه الآية على بخل اليهود بإظهار العلم الذي عندهم من صفة محمّد ﷺ وكتمانهم ذلك ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ ولاشك أن الآية محتملة لذلك ، والظاهر أن السياق في البخل بالمال ، وإن كان البخل بالعلم داخلًا في ذلك بطريق الأولى ، فإن السياق في الإنفاق على الأقارب والضعفاء ، وكذلك الآية التي بعدها وهي قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ فإنه ذكر الممسكين المذمومين وهم البخلاء ، ثم ذكر الباذلين المرائين الذين يقصدون بإعطائهم السمعة وأن يمدحوا بالكرام ، ولا يريدون بذلك وجه الله ، في الحديث : أن رسول الله ﷺ سئل عن عبد الله بن جدعان ، هل ينفعه إنفاقه وإعتاقه ؟ فقال : « لاَ ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّين » [(٣)] ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ الآية ، أي إنما حملهم على صنيعهم هذا القبيح ، وعدولهم عن فعل الطاعة على وجهها الشيطان ، فإنه سوّل لهم وأملى لهم ، وقارنهم فحسن لهم القبائح ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴾ ولهذا قال الشاعر [(٤)] :

عَنِ المَرْءِ لاَ تَسْأَلْ وسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالمُقَارِنِ يَقْتَدِي

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ الآية ، أي : وأي شيء يضرهم لو آمنوا بالله وسلكوا الطريق الحميدة ، وعدلوا عن الرياء إلى الإخلاص والإيمان بالله ، رجاء موعوده في الدار الآخرة لمن يحسن عمله ، وأنفقوا مما رزقهم الله في الوجوه التي يحبها الله ويرضاها . وقوله : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ أي وهو عليم بنياتهم الصالحة والفاسدة ، وعليم بمن يستحق التوفيق منهم ، فيوفقه ويلهمه رشده ، ويقيضه لعمل صالح يرضى به عنه ، وبمن يستحق الخذلان والطرد عن جنابه الأعظم الإلهي ، الذي من طرد عن بابه ، فقد خاب وخسر في الدنيا والآخرة ، عياذًا بالله من ذلك .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ .

يقوله تعالى مخبرًا أنه لا يظلم أحدًا من خلقه يوم القيامة مثقال حبة خردل ، ولا مثقال ذرة ، بل

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٩٥/٢) والحاكم في المستدرك (١١/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٤/٣) والطبراني في الكبير (١٣٥/١٨) والألباني في الصحيحة (١٢٩٠) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٠/٦) والحاكم في المستدرك (٤٠٥/٢) .
(٤) هو عدي بن زيد والبيت في جمهرة أشعار العرب ص : ١٧٩ .

يوفيها له ويضاعفها له إن كانت حسنة ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ ﴾ الآية . وقال عبد الله ابن مسعود : يؤتى بالعبد أو الأمة يوم القيامة ، فينادي مناد على رؤوس الأولين والآخرين : هذا فلان ابن فلان من كان له حق فليأت إلى حقه ، فتفرح المرأة أن يكون لها الحق على أبيها أو أمها أو أخيها أو زوجها ، ثم قرأ : ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ فيغفر الله من حقه ما يشاء ، ولا يغفر من حقوق الناس شيئًا ، فينصب للناس فيقول : ائتوا إلى الناس حقوقهم ، فيقول : يا رب فنيت الدنيا من أين أوتيهم حقوقهم ؟ فيقول : خذوا من أعماله الصالحة ، فأعطوا كل ذي حق حقه بقدر مظلمته ، فإن كان وليًا لله ففضل له مثقال ذرة ضاعفها الله له حتى يدخله بها الجنة ثم قرأ علينا : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾ وإن كان عبدًا شقيًا قال الملك : رب فنيت حسناته وبقي طالبون كثير فيقول : خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيئاته ، ثم صكوا له صكًا إلى النار . وعبد الله بن عمر قال : نزلت هذه الآية في الأعراب ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ قال رجل : فما للمهاجرين يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : ما هو أفضل من ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وعن سعيد بن جبير في قوله : ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾ فأما المشرك فيخفف عنه العذاب يوم القيامة ، ولا يخرج من النار أبدًا . وقد يستدل له بالحديث الصحيح أن العباس قال : يا رسول الله ، إن عمك أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعته بشيء ؟ قال : « نَعَمْ هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » [١] وقد يكون هذا خاصًا بأبي طالب من دون الكفار ، بدليل ما رواه أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّه لا يَظْلِمُ المُؤْمِنَ حَسَنَةً ، يُثَابُ عَلَيْهَا الرِّزْقَ فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ ، وَأَمَّا الكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِهَا فِي الدُّنْيَا ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ » [٢] . وقال أبو هريرة وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والضحاك في قوله : ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ يعني الجنة[٣] ، نسأل الله رضاه والجنة .

وقوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ يقول تعالى مخبرًا عن هول يوم القيامة ، وشدة أمره وشأنه : فكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة حين يجيء من كل أمة بشهيد ، يعني الأنبياء عليهم السلام ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ الآية . وعن عبد الله بن مسعود قال : قال لي رسول الله ﷺ : « اقْرَأْ عَلَيَّ » فقلت : يا رسول الله ، آقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : « نَعَمْ ، إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي » فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ فقال : « حَسْبُكَ الآنَ » فإذا عيناه تذرفان[٤] . وعن عبد الله هو ابن مسعود في هذه الآية : قال : قال رسول الله ﷺ : « شَهِيدًا عَلَيهم مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَإِذَا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ » [٥] . وأما ما

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان(٣٥٧) وأحمد في مسنده(٢٠٦/١) .

(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين(٥٦) وأحمد في مسنده(١٢٥/٣)

(٣) أخرجه أحمد في مسنده(٢٩٦/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في فضائل القرآن(٥٠٥٦) ومسلم في صلاة المسافرين(٢٤٧)

(٥) ذكره الطبري في تفسيره(١٣٠/٥)

ذكره أبو عبد الله القرطبي في التذكرة حيث قال : باب ما جاء في شهادة النبيّ ﷺ على أمته : عن سعيد بن المسيب يقول : ليس من يوم إلّا يعرض فيه على النبيّ ﷺ أمته غدوة وعشية ، فيعرفهم بأسمائهم وأعمالهم ، فلذلك يشهد عليهم ، يقول الله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ فإنه أثر وفيه انقطاع ، فإن فيه رجلًا مبهمًا لم يسمَّ ، وهو من كلام سعيد ابن المسيب ولم يرفعه ، وقد قبله القرطبي فقال بعد إيراده : قد تقدم أن الأعمال تعرض على الله كل يوم اثنين وخميس ، وعلى الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة ، قال : ولا تعارض فإنه يحتمل أنه يخص نبينا بما يعرض عليه كل يوم ، ويوم الجمعة مع الأنبياء عليه وعليهم أفضل السلام .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ ﴾ أي : لو انشقت وبلعتهم ، مما يرون من أهوال الموقف ، وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ . وقوله ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه ، ولا يكتمون منه شيئًا . وعن سعيد بن جبير قال : جاء رجل إلى ابن عبّاس فقال : أشياء تختلف عليَّ في القرآن ، قال : ما هو ؟ أشَكٌّ في القرآن ؟ قال : ليس هو بالشك ولكن اختلاف ، قال : فهات ما اختلف عليك من ذلك ، قال : أسمع الله يقول : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ وقال : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ فقد كتموا ! فقال ابن عبّاس : أما قوله : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فإنهم لما رأوا يوم القيامة أن الله لا يغفر إلّا لأهل الإسلام ، ويغفر الذنوب ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره ، ولا يغفر شركًا جحد المشركون فقالوا : ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ رجاء أن يغفر لهم فختم الله على أفواههم ، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون فعند ذلك ﴿ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ .

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السكر الذي لا يدري معه المصلي ما يقول ، وعن قربان محالها التي هي المساجد للجنب إلّا أن يكون مجتازًا من باب إلى باب من غير مكث ، وقد كان هذا قبل تحريم الخمر كما دل عليه الحديث الذي ذكرناه في سورة البقرة عند قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ الآية . فإن رسول الله ﷺ تلاها على عمر فقال : اللهمَّ بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا ، فلما نزلت هذه الآية تلاها عليه ، فقال : اللّهمَّ بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا ، فكانوا لا يشربون الخمر في أوقات الصلوات حتى نزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ فقال عمر : انتهينا انتهينا [1] . وعن سعد قال : نزلت فيَّ أربع آيات : صنع رجل من الأنصار طعامًا ، فدعا أناسًا من المهاجرين وأناسًا من الأنصار ، فأكلنا وشربنا حتى سكرنا ثم افتخرنا ، فرفع رجل لحي بعير فغرز بها أنف سعد فكان سعد مغروز الأنف ، وذلك قبل تحريم الخمر فنزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ ﴾ الآية [2] .

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣٠١ ، ٣٢٥) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٩/١) .

وعن علي بن أبي طالب قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعامًا فدعانا وسقانا من الخمر ، فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة ، فقدموا فلانًا قال : فقرأ : قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون ، فأنزل الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾[١] وعن قتادة : كانوا يجتنبون السكر عند حضور الصلوات ، ثم نسخ بتحريم الخمر . وقال الضحاك في الآية : لم يعن بها سكر الخمر ، وإنما عنى بها سكر النوم . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، ثم قال ابن جرير : والصواب أن المراد سكر الشراب ، قال : ولم يتوجه النهي إلى السكران الذي لا يفهم الخطاب ؛ لأن ذاك في حكم المجنون ، وإنما خوطب بالنهي الثمل الذي يفهم التكليف ، وهذا حاصل ما قاله[٢] . وقد ذكره غير واحد من الأصوليين وهو أن الخطاب يتوجه إلى من يفهم الكلام دون السكران الذي لا يدري ما يقال له ، فإن الفهم شرط التكليف . وقد يحتمل أن يكون المراد التعريض بالنهي عن السكر بالكلية ، لكونهم مأمورين بالصلاة في الخمسة الأوقات من الليل والنهار ، فلا يتمكن شارب الخمر من أداء الصلاة في أوقاتها دائمًا والله أعلم . وعلى هذا فيكون كقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ وهو الأمر لهم بالتأهب للموت على الإسلام ، والمداومة على الطاعة لأجل ذلك وقوله : ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ هذا أحسن ما يقال في حد السكران إنه الذي لا يدري ما يقول ، فإن المخمور فيه تخليط في القراءة ، وعدم تدبره وخشوعه فيها . وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي فَلْيَنْصَرِفْ وَلْيَنَمْ حَتَّى يَعْلَمَ مَا يَقُولُ »[٣] .

وقوله : ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ﴾ عن ابن عباس في قوله : ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ﴾ قال : لا تدخلوا المسجد وأنتم جنب ، إلَّا عابري سبيل ، قال : تمر به مرًا ولا تجلس . ومن هذه الآية احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد ، ويجوز له المرور ، وكذا الحائض والنفساء أيضًا في معناه ، إلَّا أن بعضهم قال : يحرم مرورهما لاحتمال التلويث . ومنهم من قال : إن أمنت كل واحدة منهما التلويث في حال المرور جاز لها المرور ، وإلَّا فلا . وقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله ﷺ : « نَاوِلِينِي الخُمْرَةَ مِنَ المَسْجِدِ » فقلت : إني حائض ، فقال : « إِنَّ حَيْضَتَكِ لَيْسَتْ فِي يَدِكِ »[٤] ، وفيه دلالة على جواز مرور الحائض في المسجد ، والنفساء في معناها والله أعلم . وروي عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « إِنِّي لا أُحِلُّ المَسْجِدَ لِحَائِضٍ وَلاَ جُنُبٍ »[٥] .

وعن علي : ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ ﴾ قال : لا يقرب الصلاة إلَّا أن يكون مسافرًا تصيبه الجنابة ، فلا يجد الماء فيصلي حتى يجد الماء ، وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « الصَّعِيدُ الطَّيِّبُ طَهُورُ المُسْلِمِ ، وَإِنْ لَمْ تَجِدِ المَاءَ عَشْرَ حِجَجٍ ، فَإِذَا وَجَدْتَ المَاءَ فَأَمِسَّهُ بَشَرَتَكَ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكَ »[٦] ثم قال ابن جرير ، بعد حكايته القولين : والأولى قول من قال : ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ ﴾ أي : إلَّا مجتازي

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن(٣٠٢٦) .
(٢) تفسير الطبري(٣٤/٥) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده(١٤٢/٣) .
(٤) أخرجه مسلم في الحيض(١١) وأبو داود في السنن(٢٦١) .
(٥) أخرجه أبو داود في السنن(٢٣٢) والبيهقي في السنن(٤٤٢/٢) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده(١٨٠/٥) .

طريق فيه ، وذلك أنه قد بيَّن حكم المسافر إذا عدم الماء وهو جنب في قوله : ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ إلى آخره فكان معلومًا بذلك أن قوله : ﴿ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ﴾ لو كان معنيًّا به المسافر لم يكن لإعادة ذكره في قوله : ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ معنى مفهوم ، وقد مضى حكم ذكره قبل ذلك ، فإذا كان ذلك كذلك فتأويل الآية : يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد للصلاة مصلين فيها وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ، ولا تقربوها أيضًا جنبًا حتى تغتسلوا إلّا عابري سبيل . قال : والعابر السبيل المجتاز مرًّا وقطعًا ، يقال منه : عبرت بهذا الطريق فأنا أعبره عبرًا وعبورًا ، ومنه يقال : عبر فلان النهر إذا قطعه وجاوزه ، ومنه قيل للناقة القوية على الأسفار : هي عبر الأسفار لقوتها على قطع الأسفار (١)، وهذا الذي نصره هو قول الجمهور ، وهو الظاهر من الآية ، وكأنه تعالى نهى عن تعاطي الصلاة على هيئة ناقصة تناقض مقصودها ، وعند الدخول إلى محلها على هيئة ناقصة ، وهي الجنابة المباعدة للصلاة ولمحلها أيضًا واللَّه أعلم .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ﴾ دليل لما ذهب إليه الأئمة الثلاثة : أبو حنيفة ومالك والشافعي أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد حتى يغتسل أو يتيمم إن عدم الماء ، أو لم يقدر على استعماله بطريقة . وذهب الإمام أحمد إلى أنه متى توضأ الجنب جاز له المكث في المسجد لما روي بسند صحيح أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك . فعن عطاء بن يسار قال : رأيت رجالًا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ يجلسون في المسجد وهم مجنبون إذا توضأوا وضوء الصلاة .

وقوله : ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ أما المرض المبيح للتيمم فهو الذي يخاف معه من استعمال الماء فوات عضو أو شينه أو تطويل البرء ، ومن العلماء من جوّز التيمم بمجرد المرض لعموم الآية . والسفر معروف ولا فرق فيه بين الطويل والقصير . وقوله : ﴿ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ ﴾ الغائط هو المكان المطمئن من الأرض ، كنى بذلك عن التغوط وهو الحدث الأصغر . وأما قوله : ﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ فقرئ لمستم ولامستم (٢) ، واختلف المفسرون والأئمة في معنى ذلك على قولين :

أحدهما : أن ذلك كناية عن الجماع لقوله : ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ قال : الجماع . وعن سعيد بن جبير قال : ذكروا اللمس فقال ناس من الموالي : ليس بالجماع ، وقال ناس من العرب : اللمس الجماع ، قال : فلقيت ابن عبّاس فقلت له : إن ناسًا من الموالي والعرب اختلفوا في اللمس ، فقالت الموالي : ليس بالجماع ، وقالت العرب : الجماع ، قال : فمن أي الفريقين كنت ؟ قلت : كنت من الموالي ، قال : غُلب فريق الموالي . إن اللمس والمس والمباشرة : الجماع ، ولكن اللَّه يكني ما شاء بما شاء .

ثم قال ابن جرير : وقال آخرون : عنى اللَّه تعالى بذلك كل من لمس بيد أو بغيرها من أعضاء الإنسان ، وأوجب الوضوء على كل من مس بشيء من جسده شيئًا من جسدها مفضيًا إليه (٣) . وعن

---

(١) تفسير الطبري (١٣٩/٥) .

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿ لَمَسْتُمُ ﴾ بغير ألف ، والباقون بالألف (انظر : تقريب النشر ص : ١٠٥) .

(٣) تفسير الطبري (١٤٠/٥) .

عبد الله بن مسعود قال : اللمس ما دون الجماع . وعنه قال : القبلة من المس ، وفيها الوضوء . وعنه قال : يتوضأ الرجل من المباشرة ومن اللمس بيده ومن القبلة ، وكان يقول في هذه الآية ﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ هو الغمز . وعن نافع أن ابن عمر كان يتوضأ من قبلة المرأة ويرى فيها الوضوء ، ويقول : هي من اللماس . قلت : وروي عن عبد الله بن عمر أنه كان يقول : قبلة الرجل امرأته وجسه بيده من الملامسة ، فمن قبّل امرأته أو جسها بيده فعليه الوضوء . وروى الدارقطني في سننه عن عمر مثل ذلك . ولكن روينا عنه من وجه آخر أنه كان يقبل امرأته ثم يصلي ولا يتوضأ ، فالرواية عنه مختلفة ، فيحمل ما قاله في الوضوء إن صح عنه على الاستحباب ، والله أعلم . والقول بوجوب الوضوء من المس ، وهو قول الشافعي وأصحابه ومالك ، والمشهور عن أحمد بن حنبل ، قال : ناصروه . وقد قرئ في هذه الآية : لامستم ولمستم ، واللمس يطلق في الشرع على الجس باليد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ أي جسوه ، وقال ﷺ لماعز حين أقرّ بالزنى يعرض له بالرجوع عن الإقرار : « لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ ، أَوْ لَمَسْتَ » (١) وفي الحديث الصحيح « وَالْيَدُ زِنَاهَا اللَّمْسُ » (٢) .

واستأنسوا أيضًا بحديث معاذ قال : إن رسول الله ﷺ أتاه رجل فقال : يا رسول الله ما تقول في رجل لقي امرأة لا يعرفها وليس يأتي الرجل من امرأته شيئًا إلّا أتاه منها ، غير أنه لم يجامعها ؟ قال : فأنزل الله ﷻ هذه الآية ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ قال : فقال له رسول الله ﷺ : « تَوَضَّأْ ثُمَّ صَلِّ » قال معاذ : فقلت : يا رسول الله ، أله خاصة أم للمؤمنين عامة ؟ فقال : « بَلْ لِلْمُؤْمِنِينَ عَامَّةً » (٣) .

ثم قال ابن جرير : وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال : عنى الله بقوله : ﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ الجماع دون غيره من معاني اللمس ، لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قبّل بعض نسائه ثم صلى ولم يتوضأ . فعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يتوضأ ثم يقبل ثم يصلي ولا يتوضأ (٤) . وعن حبيب عن عروة عن عائشة أن رسول الله ﷺ قبّل بعض نسائه ثم خرج إلى الصلاة ، ولم يتوضأ ، قلت : من هي إلّا أنت ؟ فضحكت (٥) . وعن أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يقبّلها وهو صائم ، ثم لا يفطر ولا يحدث وضوءًا (٦) .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ استنبط كثير من الفقهاء من هذه الآية أنه لا يجوز التيمم لعادم الماء إلّا بعد طلب الماء ، فمتى طلبه فلم يجده جاز له حينئذٍ التيمم . وقد ذكروا كيفية الطلب في كتب الفروع ، كما هو مقرر في موضعه ، كما في حديث عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ رأى رجلًا معتزلًا لم يصل مع القوم فقال : « يَا فُلَانُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَ الْقَوْمِ ؟ أَلَسْتَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ ؟ » قال : بلى يا رسول الله ، ولكن أصابتني جنابة ولا ماء . قال : « عَلَيْكَ بِالصَّعِيدِ فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ » (٧) ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ فالتيمم في اللغة هو القصد . تقول العرب : تيممك الله بحفظه ، أي قصدك .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٠/١) والحاكم في المستدرك (٣٦١/٤)
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٩/٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٤/٥)
(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٥٠٣) وأحمد في مسنده (٦٢/٦) .
(٥) أخرجه أبو داود في السنن (١٧٩) .
(٦) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٦/٢)
(٧) أخرجه مسلم في المساجد (٣١٢) والطبراني في الكبير (١٣٨/١٨)

والصعيد قيل : هو كل ما صعد على وجه الأرض ، فيدخل فيه التراب والرمل والشجر والحجر والنبات ، وهو قول مالك . وقيل : ما كان من جنس التراب كالرمل والزرنيخ والنورة ، وهذا مذهب أبي حنيفة ، وقيل : هو التراب فقط ، وهو قول الشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهما واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ أي ترابًا أملس طيبًا ، وبما ثبت عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : « فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلاثٍ : جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ المَلائِكَةِ ، وَجُعِلَتْ لَنَا الأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا ، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا إذا لَمْ نَجِدِ المَاءَ » (١) قالوا : فخصص الطهورية بالتراب في مقام الامتنان ، فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره معه .

والطيب ههنا قيل الحلال . وقيل : الذي ليس بنجس . وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ: «الصَّعِيدُ الطَّيِّبُ طَهُورُ المُسْلِمِ إِنْ لَمْ يَجِدِ المَاءَ عَشْرَ حِجَجٍ ، فَإِذَا وَجَدَهُ فَلْيُمِسَّهُ بَشَرَتَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَهُ » (٢) .

وقوله : ﴿ فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ ﴾ التيمم بدل عن الوضوء في التطهير به ، لا أنه بدل منه في جميع أعضائه ، بل يكفي مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع . ولكن اختلف الأئمة في كيفية التيمم على أقوال :

أحدها : وهو مذهب الشافعي في الجديد أنه يجب أن يمسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين ؛ لأن لفظ اليدين يصدق إطلاقها على ما يبلغ المنكبين ، وعلى ما يبلغ المرفقين ، كما في آية الوضوء ، ويطلق ويراد به ما يبلغ الكفين كما في آية السرقة ﴿ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا ﴾ قالوا : وحمل ما أطلق ههنا على ما قيد في آية الوضوء أولى لجامع الطهورية ، وعن أبي جهيم قال : رأيت رسول الله ﷺ يبول فسلمت عليه فلم يرد علي السلام حتى فرغ ، ثم قام إلى الحائط فضرب بيديه عليه فمسح بهما وجهه ، ثم ضرب بيديه على الحائط فمسح بهما يديه إلى المرفقين ، ثم ردَّ عليه السلام (٣) .

القول الثاني : أنه يجب مسح الوجه واليدين إلى الكفين بضربتين ، وهو قول الشافعي في القديم .

والثالث : أنه يكفي مسح الوجه والكفين بضربة واحدة . عن عبد الرَّحمن بن أبزى عن أبيه أن رجلًا أتي عمر فقال : إني أجنبت فلم أجد ماء ؟ فقال عمر : لا تُصَلِّ ، قال عمار : أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت في سرية فأجنبنا فلم نجد ماء ، فأما أنت فلم تصل . وأما أنا فتمعكت في التراب فصليت ، فلما أتينا النبيّ ﷺ ذكرت ذلك له فقال : «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ »وضرب النبيّ ﷺ بيده الأرض ثم نفخ فيها ، ومسح بها وجهه وكفيه (٤) . وعن عمار أن رسول الله ﷺ قال : « ضَرْبَةٌ لِلْوَجْهِ وَالكَفَّيْنِ » (٥) .

وقال في المائدة : ﴿ فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ ﴾ فقد استدل بذلك الشافعي على أنه لابد في التيمم أن يكون بتراب طاهر ، له غبار يعلق بالوجه واليدين منه شيء ، كما روى الشافعي بإسناده المتقدم عن ابن الصمة أنه مر بالنبيّ ﷺ وهو يبول فسلم عليه فلم يرد عليه حتى قام إلى جدار فحته بعصًا كانت معه ، فضرب بيده عليه فمسح بها وجهه وذراعيه .

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٤) والبيهقي في السنن (١/٢٢٣).
(٢) أخرجه البيهقي في السنن (١/٢٢٠) والدارقطني في السنن (١/١٨٦).
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٣٣١).
(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٣٢٢) والنسائي في السنن (١/١٧٠).
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٢٦٣).

وقوله : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ أي في الدين الذي شرعه لكم ﴿ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ فلهذا أباح التيمم إذا لم تجدوا الماء أن تعدلوا إلى التيمم بالصعيد ، والتيمم نعمة عليكم لعلكم تشكرون ، ولهذا كانت هذه الأمة مخصوصة بمشروعية التيمم دون سائر الأمم ، كما ثبت عن جابر بن عبد الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي ، نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ » وفي لفظ : « فَعِنْدَهُ مَسْجِدُهُ وَطَهُورُهُ ، وأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي ، وأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ يُبْعَثُ النَّبِيُّ إِلَى قَوْمِهِ وَبُعِثْتُ إِلى النَّاسِ كَافَّةً »[1] وقال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ أي : ومن عفوه عنكم وغفرانه لكم أن شرع لكم التيمم ، وأباح لكم فعل الصلاة به إذا فقدتم الماء توسعة عليكم ورخصة لكم ، وذلك أن هذه الآية الكريمة فيها تنزيه الصلاة أن تفعل على هيئة ناقصة من سكر حتى يصحو المكلف ويعقل ما يقول ، أو جنابة حتى يغتسل ، أو حدث حتى يتوضأ إلَّا أن يكون مريضًا أو عادمًا للماء ، فإن الله ﷻ قد أرخص في التيمم والحالة هذه رحمة بعباده ، ورأفة بهم ، وتوسعة عليهم ولله الحمد والمنة .

ذِكْرُ سَبَبِ نُزُولِ مَشْرُوعِيَّةِ التَّيَمُّمِ

وإنما ذكرنا ذلك ههنا لأن هذه الآية التي في النساء متقدمة النزول على آية المائدة ، وبيانه أن هذه نزلت قبل تحريم الخمر ، والخمر إنما حرم بعد أُحُد بيسير في محاصرة النبيّ ﷺ لبني النضير ، وأما المائدة فإنها من آخر ما نزل ولا سيما صدرها ، فناسب أن يذكر السبب هنا وبالله الثقة .

عن عائشة قالت : خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لي ، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه ، وأقام الناس معه وليسوا على ماء ، وليس معهم ماء ، فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا : ألا ترى ما صنعت عائشة ؟ أقامت برسول الله ﷺ وبالناس ، وليسوا على ماء ، وليس معهم ماء ! فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام ، فقال : حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، قالت عائشة : فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول ، وجعل يطعن بيده في خاصرتي ، ولا يمنعني من التحرك إلَّا مكان رأس رسول الله ﷺ على فخذي ، فقام رسول الله ﷺ على غير ماء حين أصبح ، فأنزل الله آية التيمم فتيمموا ، فقال أسيد بن الحضير : ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر ، قالت : فبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العقد تحته[2] .

وعن الأسلع بن شريك قال : كنت أرحل ناقة رسول الله ﷺ فأصابتني جنابة في ليلة باردة ، وأراد رسول الله ﷺ الرحلة ، فكرهت أن أرحل ناقة رسول الله ﷺ وأنا جنب ، وخشيت أن أغتسل بالماء البارد فأموت أو أمرض ، فأمرت رجلًا من الأنصار فرحلها ، ثم رضفت أحجارًا فأسخنت بها ماء واغتسلت ، ثم لحقت رسول الله ﷺ وأصحابه فقال : « يَا أَسْلَعُ مَا لِي أَرَى رَحْلَتَكَ قَدْ تَغَيَّرَتْ ؟» قلت : يا رسول الله لم أرحلها ، رحلها رجل من الأنصار ، قال : « وَلِمَ ؟» قلت : إني أصابتني جنابة فخشيت القر على نفسي ، فأمرته أن يرحلها ورضفت أحجارًا فأسخنت بها ماء فاغتسلت به ، فأنزل الله تعالى : ﴿لَا تَقْرَبُوا۟

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٤) .

ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (١) .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۝ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ۝ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

يخبر تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - أنهم يشترون الضلالة بالهدى ، ويعرضون عما أنزل الله على رسوله ، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمّد ﷺ ليشتروا به ثمنًا قليلًا من حطام الدنيا ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ أي يودون لو تكفرون بما أنزل عليكم أيها المؤمنون ، وتتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم النافع ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ﴾ أي هو أعلم بهم ويحذركم منهم ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ أي كفى به وليًّا لمن لجأ إليه ، ونصيرًا لمن استنصره . ثم قال تعالى : ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ من في هذا لبيان الجنس ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ أي يتأولونه على غير تأويله ، ويفسرونه بغير مراد الله ﷻ قصدًا منهم وافتراء ﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ أي : سمعنا ما قلته يا محمّد ، ولا نطيعك فيه ، هكذا فسره مجاهد وابن زيد ، وهو المراد ، وهذا أبلغ في كفرهم وعنادهم ، وأنهم يتولون عن كتاب الله بعدما عقلوه وهم يعلمون ما عليهم في ذلك من الإثم والعقوبة ، وقولهم : ﴿ وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ أي : اسمع ما نقول لا سمعت . وقال مجاهد والحسن : واسمع غير مقبول منك . قال ابن جرير : والأول أصح ، وهو كما قال : وهذا استهزاء منهم واستهتار ، عليهم لعنة الله ﴿ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴾ أي : يوهمون أنهم يقولون : راعنا سمعك بقولهم : راعنا ، وإنما يريدون الرعونة بسبِّهم النبي ، وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا ﴾ ولهذا قال تعالى عن هؤلاء اليهود الذين يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه : ﴿ لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴾ يعني : بسبِّهم النبيّ ﷺ ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي قلوبهم مطرودة عن الخير ، مبعدة منه ، فلا يدخلها من الإيمان شيء نافع لهم . وقد تقدم الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ والمقصود أنهم لا يؤمنون إيمانًا نافعًا .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ۝ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على رسوله محمّد ﷺ من الكتاب العظيم ، الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات ، ومتهددًا لهم إن لم يفعلوا بقوله : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾ قال بعضهم : معناه : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا ﴾ فطمسها هو ردها إلى الأدبار ، وجعل أبصارهم من ورائهم ، ويحتمل أن يكون المراد ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا ﴾ فلا نبقي لها سمعًا ولا بصرًا ولا أنفًا ، ومع ذلك نردها إلى ناحية الأدبار . وقال العوفي عن ابن عبّاس : وطمسها أن تعمى ﴿ فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١/٢٧٧) والهيثمي في مجمع الزوائد (١/٢٦١) .

أَدۡبَارِهَآ ﴾ يقول : نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم ، فيمشون القهقرى ، ونجعل لأحدهم عينين من قفاه . وهذا أبلغ في العقوبة والنكال ، وهذا مثل ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل ، ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبيل الضلالة ، يهرعون ويمشون القهقرى على أدبارهم ، وهذا كما قاله بعضهم في قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا ﴾ الآية ، أي هذا مثل سوء ضربه الله لهم في ضلالهم ومنعهم عن الهدى . قال مجاهد : ﴿ مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا ﴾ يقول : عن صراط الحق ﴿ فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ ﴾ أي في الضلال . قال السدي : ﴿ فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ ﴾ فنمنعها عن الحق ، قال : نرجعها كفارًا ، ونردهم قردة . قال أبو زيد : فردهم إلى بلاد الشام من أرض الحجاز .

وقوله : ﴿ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ ﴾ يعني : الذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطياد ، وقد مسخوا قردة وخنازير ، وسيأتي بسط قصتهم في سورة الأعراف ، وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴾ أي : إذا أمر بأمر فإنه لا يخالف ولا يمانع . ثم أخبر تعالى أنه ﴿ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ أي لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به ﴿ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أي : من الذنوب ﴿ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ أي : من عباده ، وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة منها :

عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدَّوَاوِينُ عِنْدَ اللَّه ثَلاثَةٌ ، دِيوَانٌ لاَ يَعْبَأُ اللَّه بِهِ شَيْئًا ، وَدِيوَانٌ لاَ يَتْرُكُ اللَّه مِنْهُ شَيْئًا ، وَدِيوَانٌ لاَ يَغْفِرُهُ اللَّه . فَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لاَ يَغْفِرُهُ اللَّه : فَالشِّرْكُ بِاللَّه ، قَالَ اللَّه ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ الآية ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ وَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لاَ يَعْبَأُ اللَّه بِهِ شَيْئًا : فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّه ، مِنْ صَوْمِ يَوْمٍ تَرَكَهُ أَوْ صَلاَةٍ ؛ فَإِنَّ اللَّه يَغْفِرُ ذَلِكَ وَيَتَجَاوَزُ إِنْ شَاءَ ، وَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لاَ يَتْرُكُ اللَّه مِنْهُ شَيْئًا : فَظُلْمُ العِبَادِ بَعْضِهُمْ بَعْضًا الْقَصَاصُ لاَ مَحَالَةَ » (١) .

وعن أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ قال : « الظلم ثَلاثَةٌ : فَظُلْمٌ لاَ يَغْفِرُهُ اللَّه ، وَظُلْمٌ يَغْفِرُهُ اللَّه ، وَظُلْمٌ لا يَتْرُكُ اللَّه مِنْهُ شَيْئًا : فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لا يَغْفِرُهُ اللَّه : فَالشِّرْكُ ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يَغْفِرُهُ اللَّه : فَظُلْمُ العِبَادِ لأَنْفُسِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لا يَتْرُكُهُ : فَظُلْمُ العِبَادِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى يَدِينَ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ » (٢) .

وعن أبي إدريس قال : سمعت معاوية يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّه أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا الرَّجُلَ يَمُوتُ كَافِرًا ، أَوِ الرَّجُلَ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا » (٣) .

وعن أبي ذر قال : كنت أمشي مع النبيّ ﷺ في حرة المدينة عشاء ، ونحن ننظر إلى أُحد فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ » قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : « مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي أُحُدًا ذاكَ عِنْدِي ذَهَبًا أُمْسِي ثَالِثَةً وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ ، إِلَّا دِينَارًا أَرْصُدُهُ - يعني لدين - إِلَّا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ اللَّه هَكَذَا وَهَكَذَا » فحثا عن يمينه ، وعن يساره ، وبين يديه ، قال : ثم مشينا ، فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّ الأَكْثَرِينَ هُمُ الأَقَلُّونَ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَّا مَنْ قَالَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٢٤٠) والألباني في الصحيحة (١٩٢٧) .
(٢) ذكره الألباني في الصحيحة (١٩٢٧) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٤١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٩٩) .

هكذا وهكذا» فحثا عن يمينه ، ومن بين يديه ، وعن يساره ، قال : ثم مشينا ، فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ كَمَا أَنْتَ حَتَّى آتِيَكَ» قال : فانطلق حتى توارى عني ، قال : فسمعت لغطًا فقلت : لعل رسول الله ﷺ عرض له ، قال : فهممت أن أتبعه ، قال : فذكرت قوله : لا تبرح حتى آتيك ، فانتظرته حتى جاء فذكرت له الذي سمعت فقال : « ذَاكَ جِبْرِيلُ أَتَانِي ، فَقَالَ : مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّه شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ » قلت : وإن زني وإن سرق ؟ قال : « وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ » (١) .

وعن أبي رهم عن أبي أيوب الأنصاري قال : إن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم إليهم ، فقال لهم : « إِنَّ رَبَّكُمْ ﷻ خَيَّرَنِي بَيْنَ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ عَفْوًا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَبَيْنَ الخَبِيئَةِ عِنْدَهُ لِأُمَّتِي » فقال له بعض أصحابه : يا رسول الله ، أيخبأ ذلك ربك ؟ فدخل رسول الله ﷺ ثم خرج وهو يكبّر فقال : « إِنَّ رَبِّي زَادَنِي مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعِينَ أَلْفًا وَالخَبِيئَةَ عِنْدَهُ » قال أبو رهم : يا أبا أيوب وما تظن خبيئة رسول الله ﷺ ؟ فأكله الناس بأفواههم فقالوا : وما أنت وخبيئة رسول الله ﷺ ؟! فقال أبو أيوب : دعوا الرجل عنكم ، أخبركم عن خبيئة رسول الله ﷺ كما أظن ، بل كالمستيقن ، إن خبيئة رسول الله ﷺ أن يقول : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَه إِلَّا اللَّه وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ مُصَدِّقًا لِسَانُهُ قَلْبَهُ ؛ دَخَلَ الجَنَّةَ » (٢) .

وعن أنس قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ما تركت حاجة ولا ذا حاجة إلَّا قد أتيت ؟ قال : « أَلَيْسَ تَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَه إِلَّا اللَّه ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه » ثلاث مرات ، قال : نعم ، قال : « فَإِنَّ ذَلِكَ يَأْتِي عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ » (٣)

وعن ضمضم بن جوش اليمامي قال : قال لي أبو هريرة : يا يمامي ، لا تقولن لرجل : لا يغفر الله لك ، أو لا يدخلك الجنة أبدًا . فقلت : يا أبا هريرة إن هذه كلمة يقولها أحدنا لأخيه وصاحبه إذا غضب ، قال : لا تقلها ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلاَنِ أَحَدُهُمَا مُجْتَهِدٌ فِي العِبَادَةِ ، وَكَانَ الآخَرُ مُسْرِفًا عَلَى نَفْسِهِ ، وكَانَا مُتَآخِيَيْنِ ، وَكَانَ المجْتَهد لاَ يَزَالُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ : يَا هَذَا أَقْصِرْ ، فَيَقُولُ : خَلِّنِي وَرَبِّي ، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا ؟ إِلَى أَنْ رَآهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ اسْتَعْظَمَهُ فَقَالَ لَهُ : وَيْحَكَ أَقْصِرْ ، قَالَ : خَلِّنِي وَرَبِّي ، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا ؟ فَقَالَ : وَاللَّه لا يَغْفِرُ اللَّه لَكَ ، أَوْ لا يُدْخِلُكَ الجَنَّةَ أَبَدًا ، قَالَ : فَبَعَثَ اللَّه إِلَيْهِمَا مَلَكًا فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا وَاجْتَمَعَا عِنْدَهُ ، فَقَالَ لِلْمُذْنِبِ : اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي ، وَقَالَ لِلآخَرِ : أَكُنْتَ عَالِمًا ، أَكُنْتَ عَلَى ما فِي يَدِي قَادِرًا ؟ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ . قَالَ : وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي القَاسِمِ بِيَدِهِ إِنَّهُ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ » (٤) .

وعن ابن عمر قال : كنا أصحاب النبيّ ﷺ لا نشك في قاتل النفس ، وآكل مال اليتيم ، وقاذف المحصنات وشاهد الزور حتى نزلت هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ فأمسك أصحاب النبيّ ﷺ عن الشهادة . وعن عبد الله بن عمر أنه قال : لما نزلت ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ إلى آخر الآية . قام رجل فقال : والشرك بالله يا نبي الله ؟

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٣٢) وأحمد في مسنده (١٥٢/٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٣/٥) .

(٣) أخرجه الطبراني في الصغير (٩٣/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٨٣/١٠) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٣/٢) .

فكره ذلك رسول الله ﷺ فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ وهذه الآية التي في سورة تنزيل مشروطة بالتوبة ، فمن تاب من أي ذنب وإن تكرر منه تاب الله عليه ، ولهذا قال : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ أي بشرط التوبة ، ولو لم يكن كذلك لدخل الشرك فيه ، ولا يصح ذلك ؛ لأنه تعالى قد حكم ههنا بأنه لا يغفر الشرك ، وحكم بأنه يغفر ما عداه لمن يشاء ، أي وإن لم يتب صاحبه ، فهذه أرجى من تلك من هذا الوجه والله أعلم . وقوله : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ كقوله : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ وثبت عن ابن مسعود أنه قال : قلت : يا رسول الله ، أي الذنب أعظم ؟ قال : « أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ » (١)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ۝ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۝ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ .

قال الحسن وقتادة : نزلت هذه الآية وهي قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ﴾ في اليهود والنصارى حين قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وفي قولهم : ﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ ، وقال مجاهد : كانوا يقدمون الصبيان أمامهم في الدعاء والصلاة يؤمونهم ، ويزعمون أنهم لا ذنوب لهم ، وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ﴾ : وذلك أن اليهود قالوا : إن أبناءنا توفوا وهم لنا قربة ، ويشفعون لنا ويزكوننا ، فأنزل الله على محمّد ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ﴾ الآية ، وعن عكرمة عن ابن عبّاس قال : كان اليهود يقدمون صبيانهم يصلون بهم ، ويقربون قربانهم ، ويزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب ، وكذبوا ، قال الله : إني لا أطهر ذا ذنب بآخر لا ذنب له ، وأنزل الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ﴾ .

وقيل : نزلت في ذم التمادح والتزكية . وعن المقداد بن الأسود قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المداحين التراب (٢) . وعن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ سمع رجلًا يثني على رجل فقال : « وَيْحَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ » ثم قال : « إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا صَاحِبَهُ لا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ : أَحْسَبُهُ كَذَا ، وَلا يُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا » (٣) .

وعن معبد الجهني قال : كان معاوية قلما كان يحدّث عن النبيّ ﷺ ، قال : وكان قلما يكاد أن يدع يوم الجمعة هؤلاء الكلمات أن يحدّث بهن عن النبي ﷺ يقول : « مَنْ يُرِدِ اللَّه بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ، وَإِنَّ هذَا المَالَ حُلْوٌ خَضِرٌ ، فَمَنْ يَأْخُذْهُ بِحَقِّهِ يُبَارَكْ فِيهِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّمَادُحَ فَإِنَّهُ الذَّبْحُ » (٤) .

وعن طارق بن شهاب قال : قال عبدُ الله بن مسعود : إن الرجل ليغدو بدينه ثم يرجع وما معه منه شيء ، يلقى الرجل ليس يملك له ضرًا ولا نفعًا فيقول له : إنك والله كيت وكيت ، فلعله أن يرجع ولم يحظ من حاجته بشيء وقد أسخط الله ، ثم قرأ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ﴾ الآية .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٧٥٢٠) .
(٢) أخرجه مسلم في الزهد (٦٨) وأحمد في مسنده (٩٤/٢) .
(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦١) ومسلم في الزهد (٦٥) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٩٣/٤) .

ولهذا قال تعالى : ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ أي المرجع في ذلك إلى الله ﷻ ؛ لأنه أعلم بحقائق الأمور وغوامضها ، ثم قال تعالى : ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي ولا يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار الفتيل .

وعن ابن عبّاس أيضًا : هو ما فتلت بين أصابعك ، وكلا القولين متقارب .

وقوله : ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أي في تزكيتهم أنفسهم ، ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وقولهم : ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ وقولهم : ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ واتكالهم على أعمال آبائهم الصالحة ، وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزي عن الأبناء شيئًا في قوله : ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ الآية . ثم قال : ﴿وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي وكفى بصنيعهم هذا كذبًا وافتراء ظاهرًا . وقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ أما الجبت : فقال عمر بن الخطاب : الجبت السحر والطاغوت الشيطان . وقال ابن عباس وأبو العالية ومجاهد وغيرهم : الجبت الشيطان ، وفي رواية عن ابن عباس : الشرك . وعنه : الأصنام . وعن ابن عبّاس أيضًا : الجبت حيي بن أخطب . وعن مجاهد : الجبت كعب بن الأشرف . وقال الجوهري في كتابه الصحاح : الجبت كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك . قال : وليس هذا من محض العربية لاجتماع الجيم والتاء في كلمة واحدة ، من غير حرف ذو لقي ، وقال عوف : العيافة : زجر الطير ، والطرق : الخط يخط في الأرض ، والجبت قال الحسن : رنة الشيطان . وعن جابر بن عبد الله أنه سئل عن الطواغيت فقال : هم كهان تنزل عليهم الشياطين . وقال مجاهد : الطاغوت الشيطان في صورة إنسان يتحاكمون إليه ، وهو صاحب أمرهم . وقال الإمام مالك : هو كل ما يعبد من دون الله ﷻ .

وقوله : ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ أي : يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم ، وقلة دينهم ، وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم . وعن عكرمة قال : جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم ، فأخبرونا عنا وعن محمّد ؟ فقالوا : ما أنتم وما محمّد ؟ فقالوا : نحن نصل الأرحام ، وننحر الكوماء ، ونسقي الماء على اللبن ، ونفك العاني ، ونسقي الحجيج ، ومحمّد صنبور قطع أرحامنا ، واتبعه سراق الحجيج من غفار ، فنحن خير أم هو ؟ فقالوا : أنتم خير وأهدى سبيلًا ، فأنزل الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا﴾ الآية . وعن ابن عبّاس قال : كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وأبو رافع والربيع بن أبي الحقيق وأبو عامر ووحوح بن عامر وهودة بن قيس ، فأما وحوح وأبو عامر وهودة فمن بني وائل ، وكان سائرهم من بني النضير ، فلما قدموا على قريش قالوا : هؤلاء أحبار يهود وأهل العلم بالكتب الأول فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمّد ؟ فسألوهم فقالوا : دينكم خير من دينه ، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه ، فأنزل الله ﷻ : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ إلى قوله ﷻ : ﴿وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ وهذا لعن لهم ، وإخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة ؛ لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين ، وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم ، وقد أجابوهم ، وجاءوا معهم يوم الأحزاب ، حتى حفر النبيّ ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق فكفى الله شرهم ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ .

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ وهذا استفهام إنكاري ، أي ليس لهم نصيب من الملك ، ثم وصفهم بالبخل فقال : ﴿ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾ ، أي لأنهم لو كان لهم نصيب في الملك والتصرف لما أعطوا أحدًا من الناس ، ولا سيما محمدًا ﷺ شيئًا ، ولا ما يملأ النقير وهو النقطة التي في النواة في قول ابن عبّاس والأكثرين . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾ أي خوف أن يذهب ما بأيديكم ، مع أنه لا يتصور نفاده ، وإنما هو من بخلكم وشحكم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ أي بخيلًا ثم قال : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ يعني بذلك حسدهم النبيّ ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة ، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل . وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ الآية ، قال : نحن الناس دون الناس قال الله تعالى : ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ أي فقد جعلنا في أسباط بني إسرائيل الذين هم من ذرية إبراهيم النبوة ، وأنزلنا عليهم الكتب ، وحكموا فيهم بالسنن وهي الحكمة ، وجعلنا منهم الملوك ، ومع هذا ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ ﴾ أي بهذا الإيتاء وهذا الإنعام ، ﴿ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ﴾ أي كفر به ، وأعرض عنه وسعى في صد الناس عنه ، وهو منهم ومن جنسهم أي من بني إسرائيل ، فقد اختلفوا عليهم ، فكيف بك يا محمّد ولست من بني إسرائيل ؟ وقال مجاهد : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ ﴾ أي بمحمّد ﷺ ﴿ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ﴾ ، فالكفرة منهم أشد تكذيبًا لك ، وأبعد عما جئتهم به من الهدى ، والحق المبين ، ولهذا قال متوعدًا لهم : ﴿ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ أي وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتبَ الله ورسله .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ .

يخبر تعالى عما يعاقب به في نار جهنم من كفر بآياته وصد عن رسله ، فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ﴾ أي ندخلهم نارًا دخولًا يحيط بجميع أجرامهم وأجزائهم . ثم أخبر عن دوام عقوبتهم ونكالهم فقال : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ عن ابن عمر : إذا احترقت جلودهم بدلوا جلودًا غيرها بيضًا أمثال القراطيس ، وقال يحيى بن يزيد الحضرمي : يجعل للكافر مائة جلد ، بين كل جلدين لون من العذاب . عن الحسن قوله : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم ﴾ الآية قال : تنضجهم في اليوم سبعين ألف مرة ، وعن ابن عمر قال : تلا رجل عند عمر هذه الآية : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم ﴾ الآية ، قال فقال عمر : أعدها علي وثم كعب ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا عندي تفسير هذه الآية ، قرأتها قبل الإسلام ، قال : فقال : هاتها يا كعب ، فإن جئت بها كما سمعت من رسول الله ﷺ صدقناك ، وإلا لم ننظر إليها ، فقال : إني قرأتها قبل الإسلام كلمات نضجت جلودهم بدلناهم جلودًا غيرها في الساعة الواحدة : عشرين ومائة مرة . فقال عمر : هكذا سمعت من رسول الله ﷺ .

وقال الربيع بن أنس : مكتوب في الكتاب الأول أن جلد أحدهم أربعون ذراعًا ، وسنه سبعون ذراعًا ، وبطنه لو وضع فيه جبل لوسعه ، فإذا أكلت النار جلودهم بدلوا جلودًا غيرها . وقد وردت في الحديث ما هو أبلغ من هذا ، عن ابن عمر ، عن النبيّ ﷺ قال : « يَعْظُمُ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ حَتَّى إِنَّ بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِ أَحَدِهِمْ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةَ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ ، وَإِنَّ غِلَظَ جِلْدِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا ، وَإِنَّ ضِرْسَهُ مِثْلُ أُحُدٍ » (١) . وقوله ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ هذا إخبار عن مآل السعداء في جنات عدن التي تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها ومحالها وأرجائها حيث شاؤوا ، وأين أرادوا ، وهم خالدون فيها أبدًا لا يحولون ولا يزولون ولا يبغون عنها حولًا . وقوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ أي : من الحيض والنفاس والأذى ، والأخلاق الرذيلة ، والصفات الناقصة كما قال ابن عبّاس : مطهرة من الأقذار والأذى . وقال مجاهد : مطهرة من البول والحيض والنخام والبزاق والمني والولد . وقال قتادة : مطهرة من الأذى والمآثم ولا حيض ولا كلف . وقوله : ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ أي ظلًّا عميقًا كثيرًا طيبًا أنيقًا ، وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لا يَقْطَعُهَا : شَجَرَةُ الْخُلْدِ » (٢) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ .

يخبر اللّه تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها . وفي الحديث عن سمرة أن رسول اللّه ﷺ قال : « أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ ، وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ » (٣) ، وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق اللّه ﷻ على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفّارات والنذور وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه ، لا يطلع عليه العباد ، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض ، كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به من غير اطلاع بينة على ذلك ، فأمر اللّه ﷻ بأدائها ، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة ، كما ثبت في الحديث أن رسول اللّه ﷺ قال : « لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا حَتَّى يُقْتَصَّ لِلشَّاةِ الْجَمَّاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ » (٤) . وعن عبد اللّه بن مسعود قال : إن الشهادة تكفر كل ذنب إلّا الأمانة ، يؤتى بالرجل يوم القيامة وإن كان قد قُتل في سبيل اللّه فيقال : أدِّ أمانتك ، فيقول : فأنّى أؤديها وقد ذهبت الدنيا ؟ فتمثل له الأمانة في قعر جهنم فيهوي إليها فيحملها على عاتقه ، قال : فتنزل عن عاتقه فيهوي على أثرها أبد الآبدين . قال زاذان : فأتيت البراء ، فحدثته ، فقال : صدق أخي ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ . وعن ابن عبّاس في الآية قال : هي مبهمة للبر والفاجر . وقال محمّد ابن الحنفية : هي عامة للبر والفاجر . وقال أبو العالية : الأمانة ما أمروا به ونهوا عنه . قال أُبيّ بن كعب : من الأمانات أن المرأة ائتمنت على فرجها . وقال الربيع بن أنس : هي من الأمانات فيما بينك وبين الناس . وقال ابن عبّاس : يدخل فيه وعظ السلطان النساء ، يعني يوم العيد .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٦) والعجلوني في كشف الخفاء (٢/٤٤) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٨١) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٦ ، ٨) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٣٥٣٤) والترمذي في السنن (١٢٦٤) .

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٠) والترمذي في السنن (٢٤٢٠) .

وقد ذكر كثير من المفسّرين أن هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، واسم أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب القرشي العبدري حاجب الكعبة المعظمة ، وهو ابن عم شيبة بن عثمان بن أبي طلحة الذي صارت الحجابة في نسله إلى اليوم ، أسلم عثمان هذا في الهدنة بين صلح الحديبية وفتح مكة هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وأما عمه عثمان بن طلحة بن أبي طلحة فكان معه لواء المشركين يوم أُحد ، وقتل يومئذٍ كافرًا ، وإنما نبهنا على هذا النسب ؛ لأن كثيرًا من المفسرين قد يشتبه عليه هذا بهذا ، وسبب نزولها فيه لما أخذ منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة يوم الفتح ثم رده عليه ، عن صفية بنت شيبة أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس ، خرج حتى جاء إلى البيت فطاف به سبعًا على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده ، فلما قضى طوافه ، دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها ، فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ، ثم طرحها ، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكن له الناس في المسجد ، قال ابن إسحاق : فحدَّثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال : « لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، صَدَقَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ ، أَلاَ كُلُّ مَأْثُرَةٍ أَوْ دَمٍ أَوْ مَالٍ يُدْعَى فَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ ، إِلَّا سِدَانَةَ البَيْتِ ، وَسِقَايَةَ الحَاجِّ » وذكر بقية الحديث في خطبة النبيّ ﷺ يومئذ إلى أن قال : ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد فقام إليه علي بن أبي طاب ومفتاح الكعبة في يده فقال : يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك ، فقال رسول الله ﷺ : « أَيْنَ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ ؟ » فدعي له ، فقال له : « هَاكَ مِفْتَاحُكَ يا عُثْمَانُ ، اليَوْمُ يَوْمُ وَفَاءٍ وَبِرٍّ » (١) .

وهذا من المشهورات أن هذه الآية نزلت في ذلك ، وسواء كانت نزلت في ذلك أو لا ، فحكمها عام ، ولهذا قال ابن عبّاس ومحمد ابن الحنفية : هي للبر والفاجر ، أي هي أمر لكل أحد .

وقوله : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس ، ولهذا قال ابن أسلم وغيره : إن هذه الآية ، إنما نزلت في الأمراء - يعني الحكام بين الناس - وفي الحديث : « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الحَاكِمِ ما لَمْ يَجُرْ ، فَإِذَا جَارَ وَكَلَهُ إِلَى نَفْسِهِ » (٢) وفي الأثر : « عَدْلُ يَوْمٍ كَعِبَادَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً » وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ﴾ أي يأمركم به من أداء الأمانات ، والحكم بالعدل بين الناس وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ أي سميعًا لأقوالكم ، بصيرًا بأفعالكم .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ .

عن ابن عبّاس ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ قال : نزلت : في عبد الله بن حذافة بن قيس ابن عدي إذ بعثه رسول الله ﷺ في سرية (٣) . وعن علي قال : بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلًا من الأنصار ، فلما خرجوا وجد عليهم في شيء قال : فقال لهم : أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني ؟ قالوا : بلى ، قال : فاجمعوا لي حطبًا ، ثم دعا بنار فأضرمها فيه ، ثم قال : عزمت

(١) السيرة لابن هشام (٥٤/٤ ، ٥٥) . (٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٣١٢) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٨٤) .

عليكم لتدخلنها ، قال : فقال لهم شاب منهم : إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها ، قال : فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه ، فقال لهم : « لَوْ دَخَلتُمُوها ما خَرَجْتُمْ مِنْهَا أَبَدًا ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ » (١) . وعن عبد الله بن عمر ، عن رسول الله ﷺ قال : « السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى المَرْءِ المُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ ، ما لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ ، فَإِذا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ » (٢) . وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا . وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حبشيٌ كأن رأسَهُ زبيبة » (٣) .

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ ، وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي ، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ » قالوا : يا رسول الله فما تأمرنا ؟ قال : « أَوْفُوا بِبَيْعَةِ الأَوَّلِ فَالأَوَّلِ ، وَأَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ » (٤) وعن ابن عباس ﵄ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَكَرِهَهُ فَلْيَصْبِرْ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُفَارِقُ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَيَمُوتُ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً » (٥) . وعن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ ، لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ القِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً » (٦) . وعن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال : دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة ، والناس حوله مجتمعون عليه ، فأتيتهم فجلست إليه فقال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فنزلنا منزلًا ، فمنا من يصلح خباءه ، ومنا من ينتضل ، ومنا من هو في جشره ، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ : الصلاة جامعة ، فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال : « إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ مِنْ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ ، وَإِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ جُعِلَتْ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا ، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلاءٌ ، وَأُمُورٌ يُنْكِرُونَهَا ، وَتَجِيءُ فِتَنٌ يُرَفِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَتَجِيءُ الفِتْنَةُ فيقولُ المُؤْمِنُ : هَذِهِ مُهْلِكَتِي ، ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الفِتْنَةُ فَيَقُولُ المُؤْمِنُ : هَذِهِ هَذِهِ ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ فُؤَادِهِ فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ » قال : فدنوت منه فقلت : أنشدك بالله ، آنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه وقال : سمعته أذناي ، ووعاه قلبي ، فقلت له : هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، ويقتل بعضنا بعضًا والله تعالى يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ قال : فسكت ساعة ثم قال : أطعه في طاعة الله ، واعصه في معصية الله (٧) . والأحاديث في هذا كثيرة .

وعن السدي في قوله : ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ ﴾ قال : بعث رسول الله ﷺ سرية

(١) أخرجه البخاري أخبار الآحاد (٧٢٥٧) . (٢) أخرجه البخاري الأحكام (٧١٤٤) .
(٣) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٤٢) .
(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٥) ومسلم في الإمارة (٤٤) .
(٥) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٤٣) ومسلم في الإمارة (٥٥) .
(٦) أخرجه مسلم في الإمارة (٥٨) . (٧) أخرجه مسلم في الإمارة (٤٦) والنسائي في السنن (١٥٣/٧) .

عليها خالد بن الوليد وفيها عمار بن ياسر ، فساروا قبل القوم الذين يريدون ، فلما بلغوا قريبًا منهم عرّسوا وأتاهم ذو العيينتين فأخبرهم ، فأصبحوا وقد هربوا غير رجل أمر أهله فجمعوا متاعهم ، ثم أقبل يمشي في ظلمة الليل حتى أتى عسكر خالد فسأل عن عمار بن ياسر فأتاه فقال : يا أبا اليقظان إني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلّا اللّه ، وأن محمّدًا عبده ورسوله ، وإن قومي لما سمعوا بكم هربوا ، وإني بقيت ، فهل إسلامي نافعي غدًا وإلّا هربت ؟ قال عمار : بل هو ينفعك فأقم ، فأقام ، فلما أصبحوا أغار خالد فلم يجد أحدًا غير الرجل فأخذه وأخذ ماله ، فبلغ عمارًا الخبر فأتى خالدًا فقال : خل عن الرجل فإنه قد أسلم وإنه في أمان مني ، فقال خالد : وفيما أنت تجير ؟ فاستبا وارتفعا إلى النبيّ ﷺ فأجاز أمان عمار ونهاه أن يجير الثانية على أمير ، فاستبا عند رسول اللّه ﷺ فقال خالد : يا رسول اللّه أتترك هذا العبد الأجدع يسبّني ، فقال رسول اللّه ﷺ : « يَا خَالِدُ لاَ تَسُبَّ عَمَّارًا فَإِنَّهُ مَنْ سَبَّ عَمَّارًا يَسُبُّهُ اللّه ، وَمَنْ يَبْغُضْ عَمَّارًا يُبْغِضْهُ اللّه ، وَمَنْ يَلْعَنْ عَمَّارًا لَعَنَهُ اللّه » فغضب عمار فقام ، فتبعه خالد فأخذ بثوبه فاعتذر إليه ، فرضي عنه ، فأنزل اللّه ﷻ قوله : ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (١) .

وعن ابن عبّاس : ﴿ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ يعني أهل الفقه والدين ، والظاهر واللّه أعلم أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء كما تقدّم . وعن أبي هريرة ، عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللّه ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللّه ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فقد أطاعني ، ومن عصى أميري فقد عَصَانِي » (٢) فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي : اتبعوا كتابه ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ أي خذوا بسنته ﴿ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ أي : فيما أمروكم به من طاعة اللّه لا في معصية اللّه ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية اللّه ، وعن عمران بن حصين عن النبيّ ﷺ قال : « لا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللّه » (٣) . وقوله : ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد من السلف : أي إلى كتاب اللّه وسنّة رسوله . وهذا أمر من اللّه ﷻ بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنّة ، فما حكم به الكتاب والسنّة وشهدا له بالصحة فهو الحق ، وماذا بعد الحق إلّا الضلال ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ أي : ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب اللّه وسنّة رسوله ، فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنّة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمنًا باللّه ولا باليوم الآخر ، وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ أي : التحاكم إلى كتاب اللّه وسنّة رسوله ، والرجوع إليهما في فصل النزاع خير ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أي وأحسن عاقبة ومآلًا .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/٣٩٠) والطبراني في الكبير (٤/١٣٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٥٧) ومسلم في الإمارة (٣٣) وابن ماجه في السنن (٢٨٥٩) وأحمد في مسنده (٢/٩٣) .
(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (٣٩) وأحمد في مسنده (٤/٤٢٧) .

هذا إنكار من الله ﷻ على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين ، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنّة رسوله ، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية أنها في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما ، فجعل اليهودي يقول : بيني وبينك محمّد ، وذاك يقول : بيني وبينك كعب بن الأشرف . وقيل : في جماعة من المنافقين ممن أظهروا الإسلام ، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية . وقيل غير ذلك ، والآية أعم من ذلك كله ، فإنها ذامّة لمن عدلوا عن الكتاب والسنّة ، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل ، وهو المراد بالطاغوت هنا . ولهذا قال : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ إلى آخرها . وقوله : ﴿ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ أي : يعرضون عنك إعراضًا كالمستكبرين عن ذلك ، كما قال تعالى عن المشركين : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ . وهؤلاء بخلاف المؤمنين الذين قال الله فيهم : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ الآية .

ثم قال تعالى في ذم المنافقين : ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم ، واحتاجوا إليك في ذلك ﴿ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ أي : يعتذرون إليك ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك ، وتحاكمنا إلى أعدائك ، إلّا الإحسان والتوفيق أي المداراة والمصانعة ، لا اعتقادًا منا صحة تلك الحكومة ، وعن ابن عبّاس قال : كان أبو برزة الأسلمي كاهنًا يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه ، فتنافر إليه ناس من المشركين فأنزل الله ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ هذا الضرب من الناس هم المنافقون ، والله يعلم ما في قلوبهم وسيجزيهم على ذلك ، فإنه لا تخفى عليه خافية فاكتفِ به يا محمّد فيهم ، فإنه عالم بظواهرهم وبواطنهم . ولهذا قال له : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أي لا تعنّفهم على ما في قلوبهم ﴿ وَعِظْهُمْ ﴾ أي وانههم عما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ أي وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ ﴾ أي : فرضت طاعته على من أرسله إليهم ، وقوله : ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ قال مجاهد : أي لا يطيع أحد إلّا بإذني ، يعني لا يطيعه إلّا من وفقته لذلك ، وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ الآية ، يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان ، أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده ، ويسألوه أن يستغفر لهم ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم ، ولهذا قال : ﴿ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ وقد ذكر جماعة ، منهم الشيخ أبو منصور الصباغ في كتاب الشامل ، الحكاية المشهورة عن العتبي قال : كنت جالسًا عند قبر النبيّ ﷺ فجاء أعرابي فقال : السلام عليك يا رسول الله ، سمعت الله يقول : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ

﴿ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وقد جئتك مستغفرًا لذنبي مستشفعًا بك إلى ربي . ثم أنشأ يقول :

يَا خَيْرَ مَنْ دُفِنَتْ بِالقَاعِ أَعْظُمُهُ فَطَابَ مِنْ طِيبِهِنَّ القَاعُ وَالأَكَمُ
نَفْسِي الفِدَاءُ لِقَبْرٍ أَنْتَ سَاكِنُهُ فِيهِ العَفَافُ وَفِيهِ الجُودُ وَالكَرَمُ

ثم انصرف الأعرابي ، فغلبتني عيني فرأيت النبيّ ﷺ في النوم فقال : « يَا عتبي الْحَقِ الأَعْرَابِيَّ فَبَشِّرْهُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَهُ » .

وقوله : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدّسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور ، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا ، ولهذا قال : ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ أي إذا حكّموك يطيعونك في بواطنهم ، فلا يجدون في أنفسهم حرجًا مما حكمت به وينقادون له في الظاهر والباطن ، فيسلمون لذلك تسليمًا كليًا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة . وعن عروة قال : خاصم الزبير رجلًا في شراج الحرّة ، فقال النبيُّ ﷺ : « اسْقِ يا زُبَيْرُ ثُمَّ أَرْسِلِ الماءَ إلى جَارِكَ » فقال الأنصاري : يا رسول اللَّه أن كان ابن عمتك ؟ فتلوّن وجه رسول اللَّه ﷺ ثم قال : « اسْقِ يا زُبَيْرُ ثُمَّ احْبِسِ الماءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلى الجَدْرِ ثُمَّ أَرْسِلِ الماءَ إلى جَارِكَ » فاسترجع النبيُّ ﷺ للزبير حقَّه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري ، وكان أشار عليهما ﷺ بأمر لهما فيه سعة ، قال الزبير : فما أحسب هذه الآية إلّا نزلت في ذلك ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية (١) .

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ .

يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبونه من المناهي لما فعلوه ؛ لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر ، وهذا من علمه تبارك وتعالى بما لم يكن أو كان فكيف كان يكون ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية . وعن الأعمش قال : لمّا نزلت ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية ، قال أناس من أصحاب النبيِّ ﷺ : لو فعل ربُّنا لفعلنا ، فبلغ النبيّ ﷺ فقال : « لَلإِيمَانُ أَثْبَتُ فِي قُلُوبِ أَهْلِهِ مِنَ الجِبَالِ الرَّوَاسِي » (٢) . وقال السدّي : افتخر ثابت ابن قيس بن شماس ورجل من اليهود ، فقال اليهودي : واللَّه لقد كتب اللَّه علينا القتل فقتلنا أنفسنا ، فقال ثابت : واللَّه لو كتب علينا ﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ لفعلنا ، فأنزل اللَّه هذا الآية . وعن عامر بن عبد اللَّه ابن الزبير قال : لمّا نزلت ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ قال رسول اللَّه ﷺ : « لَوْ نَزَلَتْ لَكَانَ ابْنُ أُمِّ عَبْدٍ مِنْهُمْ » (٣) . ولهذا قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما ينهون عنه ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي

(١) أخرجه البخاري في المساقاة (٢٣٦٢) وأبو داود في السنن (٣٦٣٧) .
(٢ ، ٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٨١/٢) .

من مخالفة الأمر وارتكاب النهي ﴿ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ قال السدّي : أي وأشدّ تصديقًا ﴿ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا ﴾ أي من عندنا ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ يعني الجنة ﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ أي في الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ أي من عمل بما أمره الله به ورسوله ، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله ، فإن الله ﷻ يسكنه دار كرامته ، ويجعله مرافقًا للأنبياء ، ثم لمن بعدهم في الرتبة وهم الصِّدِّيقون ثم الشهداء ثم عموم المؤمنين ، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم . ثم أثنى عليهم تعالى فقال : ﴿ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ . وعن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَا مِن نَبِيٍّ يَمْرَضُ إِلَّا خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » وكان في شكواه التي قبض فيها أخذته بحّة شديدة فسمعته يقول : « مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ » فعلمت أنه خيّر [1] .

ذِكْرُ سَبَبِ نُزُولِ هذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ

عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون ، فقال له النبيّ ﷺ : « يَا فُلَانُ مَا لِي أَرَاكَ مَحْزُونًا ؟ » فقال : يا نبيّ الله ، شيء فكّرت فيه ، فقال : « مَا هُوَ ؟ » قال : نحن نغدو ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك ، وغدًا ترفع مع النبيّين فلا نصل إليك ، فلم يردّ عليه النبيّ ﷺ شيئًا ، فأتاه جبريل بهذه الآية ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ ﴾ الآية ، فبعث النبيّ ﷺ فبشّره [2] .

وعن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال : كنت أبيت عند النبيّ ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته ، فقال لي : « سَلْ » ، فقلت : يا رسول الله ، أسألك مرافقتك في الجنّة ، فقال : « أَوَ غَيْرِ ذَلِكَ » ؟ قلت : هو ذاك ، قال : « فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ » [3] . وعن معاذ بن أنس أن رسول الله قال : « مَنْ قَرَأَ أَلْفَ آيَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كُتِبَ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ » [4] . وعن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ » [5] .

وأعظم من هذا كله بشارة ما ثبت في الصحيح والمسانيد وغيرهما متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحبّ القوم ، ولمّا يلحق بهم . فقال : « المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » . قال أنس : فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث [6] . وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ » قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : « بَلَى ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، رِجَالٌ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٨٦) وأحمد في مسنده (٢٦٩/٦) وابن ماجه في السنن (١٦٢٠) .

(٢) ذكره الطبري في تفسير (٢٢٥/٥) .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٢٦) والبيهقي في السنن (١٦٩/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٧/٣) .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (١٢٠٩) والدارمي في السنن (٢٤٧/٢) .

(٦) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٦٥) .

آمَنُوا بِاللَّه وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ »[١] . ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ أي من عند الله برحمته هو الذي أهلهم لذلك لا بأعمالهم ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ أي هو عليم بمن يستحقُّ الهداية والتوفيق .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ۝ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ۝ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوِّهم ، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعُدد ، وتكثير العَدد بالنفير في سبيل الله ﴿ ثُبَاتٍ ﴾ أي جماعة بعد جماعة ، وفرقة بعد فرقة ، وسريَّة بعد سريَّة ، والثُّبات جمع ثبة وقد تجمع الثُّبة على ثبين ، وعن ابن عبّاس قوله : ﴿ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ ﴾ أي عصبًا يعني سرايا متفرِّقين ﴿ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴾ يعني كلُّكم . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ قال مجاهد وغير واحد : نزلت في المنافقين . وقال مقاتل بن حيان : ﴿ لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ أي ليتخلَّفن عن الجهاد ، ويحتمل أن يكون المراد أنه يتباطأ هو في نفسه ، ويبطِّئ غيره عن الجهاد ، كما كان عبد الله بن أبي ابن سلول - قبّحه الله - يفعل ، يتأخَّر عن الجهاد ويثبِّط الناس عن الخروج فيه . ولهذا قال تعالى إخبارًا عن المنافق أنه يقول إذا تأخر عن الجهاد ﴿ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ ﴾ أي قتل وشهادة وغلب العدو لكم ، لما لله في ذلك من الحكمة ﴿ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ أي إذ لم أحضر معهم وقعة القتال ، يعدُّ ذلك من نعم الله عليه ، ولم يدرِ ما فاته من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قتل . ﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي نصر وظفر وغنيمة ﴿ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ ﴾ أي كأنه ليس من أهل دينكم ﴿ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ أي بأن يضرب لي بسهم معهم فأحصِّل عليه ، وهو أكبر قصده وغاية مراده . ثم قال تعالى : ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ ﴾ أي : المؤمن النافر ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي يبيعون دينهم بعرض قليل من الدنيا ، وما ذلك إلّا لكفرهم وعدم إيمانهم . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي : كل من قاتل في سبيل الله سواء قتل أو غلب فله عند الله مثوبة عظيمة وأجر جزيل ، كما ثبت في الصحيحين ، وتكفَّل الله للمجاهد في سبيله إن توفَّاه أن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة[٢] .

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ .

يحرِّض تعالى عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله ، وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان المتبرِّمين من المقام بها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ يعني مكة ثم وصفها بقوله : ﴿ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٥٥) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (١١) .
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٦٣) والبيهقي في السنن (٩/١٥٧) .

أي سخر لنا من عندك وليًّا وناصرًا . عن ابن أبي مليكة أن ابن عباس تلا ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ قال : كنت أنا وأمي من المستضعفين [1] . ثم قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ ﴾ أي المؤمنون يقاتلون في طاعة الله ورضوانه ، والكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان ، ثم هيَّج تعالى المؤمنين على قتال أعدائه بقوله : ﴿ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة ، وإن لم تكن ذات النصب ، وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم ، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين ، والصبر إلى حين ، وكانوا يتحرَّقون ويودُّون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم ، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسبًا لأسباب كثيرة منها : قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوِّهم ، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام ، وأشرف بقاع الأرض ، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء كما يقال ، فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلَّا بالمدينة لمّا صارت لهم دارًا ومنعة وأنصارًا ، ومع هذا لمّا أمروا بما كانوا يودُّونه جزع بعضهم منه ، وخافوا من مواجهة الناس خوفًا شديدًا ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ أي لولا أخَّرت فرضه إلى مدَّة أخرى ، فإنَّ فيه سفك الدماء ، ويُتْم الأولاد ، وتأيُّم النساء . عن ابن عبَّاس ، أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابًا له أتوا النبيَّ ﷺ بمكة فقالوا : يا نبيَّ الله ، كنا في عزَّة ونحن مشركون ، فلمّا آمنَّا صرنا أذلَّة قال : « إِنِّي أُمِرْتُ بِالعَفْوِ فَلاَ تُقَاتِلُوا القَوْمَ » فلمّا حوَّله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفُّوا فأنزل الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ ﴾ الآية [2] . وعن السدِّي : لم يكن عليهم إلَّا الصلاة والزكاة ، فسألوا الله أن يفرض عليهم القتال ، فلمّا فرض عليهم القتال ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ وهو الموت . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ وقال مجاهد : إن هذه الآية نزلت في اليهود ، وقوله : ﴿ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ أي آخرة المتقي خير من دنياه ﴿ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ أي من أعمالكم بل توفونها أتمَّ الجزاء ، وهذه تسلية لهم عن الدنيا ، وترغيب لهم في الآخرة وتحريض لهم على الجهاد . وعن هشام قال : قرأ الحسن : ﴿ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ قال : رحم الله عبدًا صحبها على حسب ذلك ، وما الدُّنيا كلُّها أوَّلها وآخرها إلَّا كرجل نام نومة فرأى في منامه بعض ما يحبُّ ثم انتبه . وقال ابن معين كان أبو مصهر ينشد :

وَلاَ خَيْرَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ... مِنَ اللَّه فِي دَارِ المُقَامِ نَصِيبُ
فَإِنْ تُعْجِبِ الدُّنْيَا رِجَالًا فَإِنَّها ... مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَالزَّوَالُ قَرِيبُ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٨٧) .
(٢) أخرجه النسائي في السنن (٣/٦) والحاكم في المستدرك (٦٦/٢) .

وقوله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ أي : أنتم صائرون إلى الموت لا محالة ، ولا ينجو منه أحد منكم ، كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ الآية ، والمقصود أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة ، ولا ينجيه من ذلك شيء ، سواء جاهد أو لم يجاهد ، فإن له أجلًا محتومًا ، ومقامًا مقسومًا . كما قال خالد بن الوليد حين جاءه الموت على فراشه : لقد شهدت كذا وكذا موقفًا ، وما من عضو من أعضائي إلَّا وفيه جرح من طعنة أو رمية ، وها أنا أموت على فراشي ، فلا نامت أعين الجبناء . وقوله : ﴿ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ أي حصينة منيعة عالية رفيعة ، وقيل : هي بروج في السماء ، وهو ضعيف ، والصحيح أنها المنيعة أي : لا يغني حذر وتحصُّن من الموت . كما قال زهير بن أبي سلمى :

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ المَنَايَا يَنَلْنَهُ وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

ثم قيل : المشيَّدة : هي المَشِيدة كما قال : ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ ، وقيل : بل بينهما فرق ، وهو أن المشيَّدة بالتشديد هي المطوَّلة ، وبالتخفيف هي المزينة بالشيد ، وهو الجصُّ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ ﴾ أي خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك ﴿ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ : أي قحط وجدب ونقص في الثمار والزروع أو موت أولاد ، أو نتاج أو غير ذلك ﴿ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ﴾ : أي من قبلك ، وبسبب اتِّباعنا لك واقتدائنا بدينك ، كما قال تعالى عن قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ﴾ وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا في الإسلام ظاهرًا ، وهم كارهون له في نفس الأمر ، ولهذا إذا أصابهم شرٌّ إنما يسندونه إلى اتباعهم للنبي ﷺ . وقال السدِّي : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ ﴾ والحسنة الخصب تنتج مواشيهم وخيولهم ويحسن حالهم وتلد نساؤهم الغلمان ، قالوا : ﴿ هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ ، والسيئة الجدب والضرر في أموالهم تشاءموا بمحمّد ﷺ وقالوا : هذه من عندك ، يقولون : بتركنا ديننا واتباعنا محمّد أصابنا هذا البلاء ، فأنزل الله ﷿ : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ فقوله : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ أي الجميع بقضاء الله وقدره ، وهو نافذ في البرِّ والفاجر والمؤمن والكافر . وعن ابن عبَّاس : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ : أي الحسنة والسيئة . ثم قال تعالى منكرًا على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شكٍّ وريب ، وقلة فهم وعلم وكثرة جهل وظلم ﴿ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ .

ثم قال تعالى مخاطبًا لرسوله ﷺ والمراد جنس الإنسان ليحصل الجواب : ﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ أي من فضل الله ومنِّه ولطفه ورحمته ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ أي فمن قِبَلِك ، ومن عملك أنت أي بذنبك ، وقال قتادة : عقوبة لك يا ابن آدم بذنبك . قال : وذكر لنا أن النبيّ ﷺ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ هَمٌّ وَلاَ حُزْنٌ ، وَلا نَصَبٌ حَتَّى الشَّوْكَةَ يُشَاكُها إلَّا كَفَّرَ اللَّه عَنْهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ » (١) . وقال أبو صالح : ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ أي بذنبك ، وأنا الذي قدَّرتها عليك . وعن مطرف بن عبد الله قال : ما تريدون من القدر ؟ أما تكفيكم الآية التي في سورة النساء ؟ ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ﴾ أي من نفسك ، والله ما وكلوا إلى القدر ، وقد أمروا وإليه يصيرون ، وهذا كلام متين قوي في الردِّ على القدرية والجبرية أيضًا ،

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٠) والترمذي في السنن (٩٦٥) .

ولبسطه موضع آخر . وقوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾ أي تبلغهم شرائع الله وما يحبُّه الله ويرضاه ، وما يكرهه ويأباه . ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ أي على أنه أرسلك ، وهو شهيد أيضًا بينك وبينهم ، وعالم بما تبلغهم إياه ، وبما يردون عليك من الحق كفرًا وعنادًا .

﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ۖ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمّد ﷺ ، بأن من أطاعه فقد أطاع الله ، ومن عصاه فقد عصى الله ، وما ذاك إلَّا لأنه ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلَّا وحي يوحى . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّه ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّه ، وَمَنْ أَطَاعَ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي ، وَمَنْ عَصَى الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي »(١) . وقوله : ﴿ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أي ما عليك منه ، إن عليك إلَّا البلاغ ، فمن اتبعك سَعِدَ ونجا ، وكان لك من الأجر نظير ما حصل له ، ومن تولَّى عنك خاب وخسر وليس عليك من أمره شيء ، كما جاء في الحديث : « مَنْ يُطِعِ اللَّه وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّه وَرَسُولَهُ فَإِنَّهُ لا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ »(٢) . وقوله ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ﴾ يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرون الموافقة والطاعة ﴿ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ ﴾ أي خرجوا وتواروا عنك ، ﴿ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ﴾ أي استسرُّوا ليلًا فيما بينهم بغير ما أظهروه لك فقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ أي يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبين الذين هم موكلون بالعباد ، والمعنى في هذا التهديد أنه تعالى يخبر بأنه عالم بما يضمرونه ويسرُّونه فيما بينهم ، وما يتفقون عليه ليلًا من مخالفة الرسول ﷺ وعصيانه ، وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة ، وسيجزيهم على ذلك . وقوله : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أي اصفح عنهم واحلم عليهم ولا تؤاخذهم ، ولا تكشف أمورهم للناس ، ولا تخفْ منهم أيضًا ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أي كفى به وليًّا وناصرًا ومعينًا لمن توكل عليه وأناب إليه .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا لهم بتدبُّر القرآن ، وناهيًا لهم عن الإعراض عنه ، وعن تفهُّم معانيه المحكمة ، وألفاظه البليغة ، ومخبرًا لهم ، أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب ولا تعارض ؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد ، فهو حقٌّ من حقٌّ . ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ ثم قال : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ ﴾ أي لو كان مفتعلًا مختلقًا ، كما يقوله من يقول من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم ﴿ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا ﴾ أي اضطرابًا وتضادًّا كثيرًا ، أي وهذا سالم من الاختلاف فهو من عند الله ، كما قال تعالى - مخبرًا عن الراسخين في العلم حيث قالوا - : ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ أي محكمه ومتشابهه حقٌّ ، فلهذا ردُّوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا ، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٥٧) ومسلم في الإمارة (٣٣) .
(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٣/٢١٥) .

فغوَوا ، ولهذا مدح تعالى الراسخين وذمّ الزائغين . عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : لقد جلست أنا وأخي مجلسًا ما أحب أن لي به حمر النعم ، أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من أصحاب رسول الله ﷺ على باب من أبوابه ، فكرهنا أن نفرّق بينهم ، فجلسنا حجزة إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم ، فخرج رسول الله ﷺ مغضبًا حتى احمر وجهه يرميهم بالتراب ويقول : « مَهْلًا يَا قَوْمُ بِهَذَا أُهْلِكَتِ الأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ ؛ بِاخْتِلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ وَضَرْبِهِمُ الكُتُبَ بَعْضَهَا بِبَعْض ، إِنَّ القُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، إِنَّمَا نَزَلَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ » (١) . وعن عبد الله بن عمرو قال : هجرت إلى رسول الله ﷺ يومًا فإنا لجلوس إذ اختلف اثنان في آية فارتفعت أصواتهما فقال : « إِنَّمَا هَلَكَتِ الأُمَمُ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلافِهِمْ فِي الكِتَابِ » (٢)

وقوله : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ﴾ إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها فيخبر بها ويفشيها وينشرها ، وقد لا يكون لها صحة . فعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال : « كَفَى بِالمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ » (٣) . وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال : « بِئْسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ زَعَمُوا » (٤) وفي الصحيح : « مَنْ حَدَّثَ بِحَدِيثٍ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الكَاذِبِينَ » (٥) . ومعنى يستنبطونه : أي يستخرجونه من معادنه ، يقال : استنبط الرجل العين : إذا حفرها واستخرجها من قعورها .

وقوله : ﴿ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، عن ابن عبّاس : يعني المؤمنين ، وعن قتادة : يعني كلّكم .

﴿ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ .

يأمر تعالى عبده ورسوله محمّدًا ﷺ بأن يباشر القتال بنفسه ، ومن نكل عنه فلا عليه منه ، ولهذا قال : ﴿ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ عن أبي إسحاق قال : قلت للبراء : الرجل يحمل على المشركين ، أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة ؟ قال : لا ، إن الله بعث رسوله ﷺ وقال : ﴿ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ إنما ذلك في النفقة . وعن البراء قال : لمّا نزلت على النبيّ ﷺ : ﴿ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية ، قال لأصحابه : « قَدْ أَمَرَنِي رَبِّي بِالقِتَالِ فَقَاتِلُوا » (٦) . وقوله : ﴿ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي على القتال ورغّبهم فيه وشجّعهم عليه ، فقد وردت أحاديث كثيرة في الترغيب في ذلك : فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتى الزَّكَاةَ ، وَصَامَ رَمَضَانَ ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا » قالوا :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٨١/٢) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩١/٢) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٤٩٩٢) والحاكم في المستدرك (١١٢/١) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١١٩/٤) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٥/٤) والبغوي في شرح السنة (٢٦٦/١١) .
(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٨٧/٢) .

يا رسول الله أفلا نبشّر الناس بذلك ؟ فقال : « إِنَّ فِي الجَنَّةِ مَائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كما بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ ؛ فَإِنَّهُ وَسَطُ الجَنَّةِ ، وَأَعْلَى الجَنَّةِ ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحمنِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهارُ الجَنَّةِ » (١) . وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « يَا أَبَا سَعِيدٍ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا ، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا وَنَبِيًّا ؛ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ » قال : فعجب لها أبو سعيد فقال : أعدها عليَّ يا رسول الله ، ففعل . ثم قال رسول الله ﷺ : « وَأُخْرَى يَرْفَعُ اللهُ العَبْدَ بِهَا مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الجَنَّةِ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ » قال : وما هي يا رسول الله ؟ قال : « الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ » (٢) .

وقوله : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي بتحريضك إياهم على القتال تنبعث هممهم على مناجزة الأعداء ، ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وأهله ، ومقاومتهم ومصابرتهم . وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ أي هو قادر عليهم في الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ أي من يسعى في أمر فيترتّب عليه خير ، كان له نصيب من ذلك . ﴿ وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا ﴾ أي يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيّته ، كما ثبت في الصحيح عن النبيّ ﷺ أنه قال : « اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا ، وَيَقْضِي اللهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ » (٣) وقال مجاهد بن جبر : نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض . وقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴾ أي حفيظًا . وقال مجاهد : شهيدًا . وفي رواية عنه : حسيبًا . وقال سعيد بن جبير وابن زيد : قديرًا . وقال الضحاك : المقيت : الرزاق . وعن عبد الله بن رواحة وسأله رجل عن قول الله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴾ قال : مقيت : لكل إنسان بقدر عمله .

وقوله : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ أي إذا سلّم عليكم المسلم فردوا عليه أفضل مما سلّم ، أو ردوا عليه بمثل ما سلّم ؛ فالزيادة مندوبة ، والمماثلة مفروضة . وعن سلمان الفارسي قال : جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال : السلام عليك يا رسول الله ، فقال : « وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ » ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله ، فقال له رسول الله ﷺ : « وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ » ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فقال له : « وَعَلَيْكَ » فقال له الرجل : يا نبي الله ، بأبي أنت وأمي ، أتاك فلان وفلان فسلّما عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت عليَّ . فقال : « إِنَّكَ لَمْ تَدَعْ لَنَا شَيْئًا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ فَرَدَدْنَاها عَلَيْكَ » (٤) . وعن عمران بن حصين ، أن رجلًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : السلام عليكم يا رسول الله ، فردَّ عليه ثم جلس فقال : « عَشْرٌ » ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله يا رسول الله ، فرد عليه ثم جلس فقال : « عِشْرُونَ » ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ فردَّ عليه ، ثم جلس فقال : « ثَلَاثُونَ » (٥) .

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٣) . (٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١١٦) والنسائي في السنن (١٩/٦) .
(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٧) والنسائي في السنن (٧٨/٥) .
(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨١٤) والطبراني في الكبير (٦١١٤) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٩/٤) .

وعن ابن عبّاس قال : من سلّم عليك من خلق الله فاردد عليه ، وإن كان مجوسيًا ، ذلك بأن الله يقول : ﴿ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ وقال قتادة ﴿ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ ﴾ يعني للمسلمين ﴿ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ يعني لأهل الذمة . وهذا التنزيل فيه نظر . كما تقدم في الحديث من أن المراد بأن يرد بأحسن مما حيّاه به ، فإن بلغ المسلم غاية ما شرع في السلام ردَّ عليه مثل ما قال ، فأمّا أهل الذمة فلا يبدأون بالسلام ولا يزادون ، بل يرد عليهم بما ثبت عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمُ الْيَهُودُ فَإِنَّمَا يَقُولُ أَحَدُهُمْ : السَّامُ عَلَيْكُمْ ، فَقُلْ : وَعَلَيْكَ » (١) . وعن الحسن البصري قال : السلام تطوّع والردُّ فريضة . وهذا الذي قاله هو قول العلماء قاطبة أن الردَّ واجب على من سلّم عليه ، فيأثم إن لم يفعل لأنه خالف أمر الله في قوله : ﴿ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ وقد جاء عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَفَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَمْرٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ؟ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ » (٢) .

وقوله : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إخبار بتوحيده وتفرده بالإلهية لجميع المخلوقات ، وتضمّن قسمًا لقوله : ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وهذه اللام موطئة للقسم ، فقوله : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ خبر وقسم أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيجازي كل عامل بعمله . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ أي لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره ووعده ووعيده ، فلا إله إلّا هو ولا ربَّ سواه .

﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على المؤمنين في اختلافهم في المنافقين على قولين ، واختلف في سبب ذلك ، فقال عبد الله بن يزيد عن زيد بن ثابت : أن رسول الله ﷺ خرج إلى أُحد ، فرجع ناس خرجوا معه ، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين ، فرقة تقول : نقتلهم ، وفرقة تقول : لا ، هم المؤمنون ، فأنزل الله : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّها طَيِّبَةٌ ، وَإِنَّها تَنْفِي الخَبَثَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ » (٣) . وقد ذكر محمّد بن إسحاق بن يسار في وقعة أحد أن عبد الله بن أبي ابن سلول رجع يومئذ بثلث الجيش ، رجع بثلاثمائة ، وبقي النبيُّ ﷺ في سبعمائة . وعن ابن عبّاس : نزلت في قوم كانوا بمكة قد تكلموا بالإسلام ، وكانوا يظاهرون المشركين ، فخرجوا من مكة يطلبون حجة لهم فقالوا : إن لقينا أصحاب محمّد فليس علينا منهم بأس ، وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة قالت فئة من

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٥٧) . (٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٩٤) والترمذي في السنن (٢٦٨٨) .
(٣) أخرجه مسلم في الحج (٤٩٠) وأحمد في مسنده (١٨٧/٥) .

المؤمنين : اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم ، وقالت فئة أخرى من المؤمنين : سبحان الله - أو كما قالوا - أتقتلون قومًا قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به ، من أجل أنهم لم يهاجروا ، ولم يتركوا ديارهم نستحلّ دماءهم وأموالهم ؟ فكانوا كذلك فئتين والرسول عندهم لا ينهى واحدًا من الفريقين عن شيء ، فنزلت : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ . وقال زيد بن أسلم عن ابن لسعد بن معاذ : إنها نزلت في تقاول الأوس والخزرج في شأن عبد الله بن أبي حين استعذر منه رسول الله ﷺ على المنبر في قضية الإفك ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾ أي ردَّهم وأوقعهم في الخطأ . قال ابن عبّاس : ﴿ أَرْكَسَهُم ﴾ أي أوقعهم . وقال قتادة : أهلكهم . وقال السدي : أضلهم . وقوله : ﴿ بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾ أي بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول ، واتباعهم الباطل ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ أي لا طريق له إلى الهدى ولا مخلص له إليه .

وقوله : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ أي هم يودُّون لكم الضلالة لتستووا أنتم وإياهم فيها ، وما ذاك إلّا لشدة عداوتهم وبغضهم لكم ، ولهذا قال : ﴿ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي تركوا الهجرة ، وقال السدي : أظهروا كفرهم . ﴿ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أي لا توالوهم ولا تستنصروا بهم على أعداء الله ما داموا كذلك ، ثم استثنى الله من هؤلاء فقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ أي إلّا الذين لجأوا وتحيَّزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة أو عقد ذمة ، فاجعلوا حكمهم كحكمهم . عن سراقة بن مالك المدلجي ، قال : لمّا ظهر النبيُّ ﷺ على أهل بدر وأُحُد وأسلم من حولهم ، قال سراقة : بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي بني مدلج ، فأتيته فقلت : أنشدك النعمة ، فقالوا : صه ، فقال النبيُّ ﷺ : « دَعُوهُ ، مَا تُرِيدُ ؟ » قال : بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي ، وأنا أريد أن توادعهم ، فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام ، وإن لم يسلموا لم تخشن قلوب قومك عليهم ، فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد بن الوليد فقال : « اذْهَبْ مَعَهُ فَافْعَل ما يُرِيدُ » . فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله ﷺ ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم ، فأنزل الله : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ (١) فكان من وصل إليهم كان معهم على عهدهم ، وهذا أنسب لسياق الكلام . وفي صحيح البخاري في قصة صلح الحديبية ؛ فكان من أحب أن يدخل في صلح قريش وعهدهم ، ومن أحب أن يدخل في صلح محمّد ﷺ وأصحابه وعهدهم (٢) . وقد روي عن ابن عبّاس أنه قال : نسخها قوله : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ هؤلاء قوم آخرون من المستثنين من الأمر بقتالهم ، وهم الذين يجيئون إلى المصاف ، وهم حصرة صدورهم : أي ضيقة صدورهم ، مبغضين أن يقاتلوكم ، ولا يهون عليهم أيضًا أن يقاتلوا قومهم معكم ، بل هم لا لكم ولا عليكم ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ﴾ أي من لطفه بكم أن كفَّهم عنكم . ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ ﴾ أي المسالمة ﴿ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ أي فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك ، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين فحضروا القتال ، وهم كارهون كالعباس ونحوه ، ولهذا نهى النبيّ ﷺ يومئذ عن قتل العباس وأمر بأسره .

---

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٤٣٤١) .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٨٠) .

وقوله : ﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ ﴾ الآية ، هؤلاء في الصورة الظاهرة كمن تقدَّمهم ، ولكن نيّة هؤلاء غير نيّة أولئك ، فإن هؤلاء قوم منافقون يظهرون للنبي ﷺ ولأصحابه الإسلام ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ، ويصانعون الكفّار في الباطن ، فيعبدون معهم ما يعبدون ليأمنوا بذلك عندهم ، وهم في الباطن مع أولئك كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ الآية . وقال ههنا : ﴿ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ﴾ أي انهمكوا فيها . وقال السدي : الفتنة ههنا : الشرك . وحكى ابن جرير عن مجاهد ، أنها نزلت في قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبيّ ﷺ فيسلمون رياء ، ثم يرجعون إلى قريش ، فيرتكسون في الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا ، فأمر بقتلهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ ﴾ المهادنة والصلح ﴿ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أي عن القتال ﴿ فَخُذُوهُمْ ﴾ أسراء ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ أي أين لقيتموهم ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ أي بيّنًا واضحًا .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ .

يقول تعالى : ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه ، فعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّه ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّه إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاثٍ : النَّفْسُ بِالنَّفْسِ ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ المُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ » (١) ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله ، وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه . وقوله : ﴿ إِلَّا خَطَـًٔا ﴾ قالوا : هو استثناء منقطع ، واختلف في سبب نزول هذه الآية ، فقال مجاهد وغير واحد : نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل لأمه - وهي أسماء بنت مخرمة - وذلك أنه قتل رجلًا يعذبه مع أخيه على الإسلام ، وهو الحارث بن يزيد الغامدي ، فأضمر له عياش السوء ، فأسلم ذلك الرجل وهاجر وعياش لا يشعر ، فلما كان يوم الفتح رآه فظن أنه على دينه ، فحمل عليه فقتله ، فأنزل الله هذه الآية . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت في أبي الدرداء ؛ لأنه قتل رجلًا وقد قال كلمة الإيمان ، حين رفع عليه السيف فأهوى به إليه ، فقال كلمته ، فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ قال : إنما قالها متعوذًا ، فقال له : « هَل شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ ؟ » وهذه القصة في الصحيح لغير أبي الدرداء .

وقوله : ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ ﴾ هذان واجبان في قتل الخطأ ، أحدهما : الكفّارة لما ارتكبه من الذنب العظيم ، وإن كان خطأ ، ومن شروطها أن تكون عتق رقبة مؤمنة فلا تجزئ الكافرة . وحكى ابن جرير عن ابن عبّاس والشعبي وإبراهيم النخعي والحسن البصري أنهم قالوا : لا يجزئ الصغير حتى يكون قاصدًا للإيمان ، وروي عن قتادة قال في مصحف أبي : فتحرير رقبة مؤمنة لا يجزئ فيها صبي ، واختار ابن جرير أنه إن كان مولودًا بين أبوين مسلمين أجزأ وإلّا فلا ،

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٧٨) ومسلم في القسامة (٢٥) .

والذي عليه الجمهور أنه متى كان مسلمًا صحّ عتقه عن الكفارة سواء كان صغيرًا أو كبيرًا . وعن رجل من الأنصار أنه جاء بأمَة سوداء فقال : يا رسول الله إن عليَّ عتق رقبة مؤمنة ، فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقتها ؟ فقال لها رسول الله ﷺ : « أَتَشهَدينَ أَنَّ لاَ إِلَه إلَّا الله ؟ » قالت : نعم ، قال : « أَتَشهَدِينَ أَنِّي رَسُولُ الله ؟ » قالت : نعم ، قال : « أَتُؤْمِنِينَ بِالبعْثِ بَعْدَ المَوْتِ ؟ » قالت : نعم ، قال : « أَعْتِقْهَا »[1] وقوله : ﴿ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ ﴾ هو الواجب الثاني فيما بين القاتل وأهل القتيل عوضًا لهم عما فاتهم من قتيلهم ، وهذه الدية إنما تجب أخماسًا . وعن ابن مسعود قال : قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ عشرين بنت مخاض وعشرين بني مخاض ذكورًا ، وعشرين بنت لبون ، وعشرين جذعة ، وعشرين حقَّة . وقيل : تجب أرباعًا . وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل لا في ماله ، قال الشافعي رحمه الله : لم أعلم مخالفًا أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة ، وهو أكثر من حديث الخاصة . وهذا الذي أشار إليه رحمه الله قد ثبت في غير ما حديث ، فمن ذلك ما ثبت عن أبي هريرة قال : اقتتلت امرأتان من هذيل ، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها ، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فقضى أن دية جنينها غرَّة - عبد أو أمة - وقضى بدية المرأة على عاقلتها[2] ، وهذا يقتضي أن حكم عمد الخطأ حكم الخطأ المحض في وجوب الدية ، لكن هذا تجب فيه الدية أثلاثًا لشبهة العمد . وعن عبد الله بن عمر قال : بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة ، فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فجعلوا يقولون : صبأنا صبأنا ، فجعل خالد يقتلهم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فرفع يديه وقال : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ » . وبعث عليًا فودى قتلاهم وما أتلف من أموالهم حتى ميلغة الكلب[3] ، وهذا الحديث منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال . وقوله : ﴿ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ﴾ أي فتجب فيه الدية مسلمة إلى أهله إلّا أن يتصدقوا بها فلا تجب .

وقوله : ﴿ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ أي إذا كان القتيل مؤمنًا ولكن أولياؤه من الكفّار أهل حرب فلا دية لهم ، وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير . وقوله : ﴿ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ الآية ، أي فإن كان القتيل أولياؤه أهل ذمة ، أو هدنة ، فلهم دية قتيلهم ، فإن كان مؤمنًا فديَة كاملة وكذا إن كان كافرًا أيضًا عند طائفة من العلماء ، وقيل : يجب في الكافر نصف دية المسلم ، وقيل : ثلثها ، كما هو مفصل في كتاب الأحكام . ويجب أيضًا على القاتل تحرير رقبة مؤمنة . ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ أي لا إفطار بينهما بل يسرد صومهما إلى آخرهما ، فإن أفطر من غير عذر من مرض أو حيض أو نفاس استأنف ، واختلفوا في السفر هل يقطع أم لا على قولين . وقوله : ﴿ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أي هذه توبة القاتل خطأ إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين ، واختلفوا فيمن لا يستطيع الصيام هل يجب عليه إطعام ستّين مسكينًا كما في كفارة الظهار ؟ على قولين :

أحدهما : نعم ، كما هو منصوص عليه في كفارة الظهار ، وإنما لم يذكر ههنا لأن هذا مقام

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥١/٣) .
(٢) أخرجه النسائي في السنن (٤٣/٨) وأحمد في مسنده (٣٨٤/١) .
(٣) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٨٩) .

تهديد وتخويف وتحذير ، فلا يناسب أن يذكر فيه الإطعام لما فيه من التسهيل والترخيص .

والقول الثاني : لا يعدل إلى الطعام لأنه لو كان واجبًا لَمَا أُخِّر بيانه عن وقت الحاجة .

ثم لمَّا بيَّن تعالى حكم القتل الخطأ شرع في بيان حكم القتل العمد فقال : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ الآية ، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله ، حيث يقول في سورة الفرقان : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ الآية .

والآيات والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جدًّا ، فمن ذلك : عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « أَوَّلُ ما يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ في الدِّمَاءِ » (١) . وفي حديث آخر : « لَزَوَالُ الدُّنْيا أَهْوَنُ عِنْدَ اللَّه مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ » (٢) . وفي الحديث الآخر : « مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ المُسْلِمِ وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّه » (٣) . وقد كان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمدًا . وعن ابن جبير قال : اختلف فيها أهل الكوفة ، فرحلت إلى ابن عباس فسألته عنها فقال : نزلت هذه الآية ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ هي آخر ما نزل وما نسخها شيء . وقال في هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ إلى آخرها قال : نزلت في أهل الشرك . وعنه أن رجلًا أتى إليه فقال : أرأيت رجلًا قتل رجلًا عمدًا ؟ فقال : ﴿ فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ الآية ، قال : لقد نزلت من آخر ما نزل ، ما نسخها شيء حتى قبض رسول الله ﷺ وما نزل وحي بعد رسول الله ﷺ . قال : أرأيت إن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى ؟ قال : وأنى له بالتوبة وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ثَكِلَتْهُ أُمُّهُ ، رَجُلٌ قَتَلَ رَجُلًا مُتَعَمِّدًا يَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ آخِذًا قَاتِلَهُ بِيَمِينِهِ أَوْ بِيَسَارِهِ - أَوْ آخِذًا رَأْسَهُ بِيَمِينِهِ أَوْ بِشَمَالِهِ - تَشْخُبُ أَوْدَاجه دَمًا مِنْ قبل العَرْشِ ، يَقُولُ : يَا رَبِّ سَلْ عَبْدَكَ فِيمَ قَتَلَنِي » (٤) .

وفي الباب أحاديث كثيرة ، منها : عن عبد الله بن مسعود عن النبيِّ ﷺ قال : « يَجِيءُ المَقْتُولُ مُتَعَلِّقًا بِقَاتِلِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ آخِذًا رَأْسَهُ بِيَدِهِ الأُخْرَى فَيَقُولُ : يَا رَبِّ سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي ؟ قَالَ : فَيَقُولُ : قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ العِزَّةُ لَكَ ، فَيَقُولُ : فَإِنَّهَا لِي ، قَالَ : وَيَجِيءُ آخَرُ مُتَعَلِّقًا بِقَاتِلِهِ فَيَقُولُ : رَبِّ سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي ؟ قَالَ : فَيَقُولُ : قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ العِزَّةُ لِفُلَانٍ ؟ قَالَ : فَإِنَّهَا لَيْسَتْ لَهُ ، بُؤْ بِإِثْمِهِ ، قَالَ : فَيَهْوِي فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا » (٥) .

وعن أم الدرداء قالت : سمعت أبا الدرداء يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّه أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا ، أَوْ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا » (٦) وعن حميد قال : أتاني أبو العالية أنا وصاحب لي فقال لنا : هلمّا فأنتما أشب سنًّا مني ، وأوعى للحديث مني ، فانطلق بنا إلى بشر بن عاصم فقال له أبو العالية : حدث هؤلاء حديثك فقال : حدَّثنا عقبة بن مالك الليثي قال :

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٦٤) .
(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٦١٩) .
(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٦٢٠) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٤٠) .
(٥) أخرجه النسائي في السنن (٧/٨٤) وأحمد في مسنده (٥/٣٦٧) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٩٩) .

بعث رسول اللَّه ﷺ سرية فأغارت على قوم ، فشدَّ مع القوم رجل فأتبعه رجل من السريّة شاهرًا سيفه ، فقال الشادُّ من القوم : إني مسلم ، فلم ينظر فيما قال ، قال : فضربه فقتله ، فنمي الحديث إلى رسول اللَّه ﷺ فقال فيه قولًا شديدًا ، فبلغ القاتل ، فبينا رسول اللَّه ﷺ يخطب إذ قال القاتل : واللَّه ما قال الذي قال إلَّا تعوُّذًا من القتل ، قال : فأعرض رسول اللَّه ﷺ عنه وعمن قبله من الناس ، وأخذ في خطبته ، ثم قال أيضًا : يا رسول اللَّه ما قال الذي قال إلَّا تعوُّذًا من القتل ، فأعرض عنه وعمن قبله من الناس ، وأخذ في خطبته ، ثم لم يصبر حتى قال الثالثة ، واللَّه يا رسول اللَّه ما قال الذي قال إلَّا تعوذًا من القتل ، فأقبل عليه رسول اللَّه ﷺ تعرف المساءة في وجهه فقال : « إِنَّ اللَّهَ أَبَى عَلَى مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا ثَلَاثًا » (١) والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن القاتل له توبة فيما بينه وبين اللَّه ﷻ ، فإن تاب وأناب ، وخشع وخضع ، وعمل عملًا صالحًا ، بدل اللَّه سيئاته حسنات ، وعوَّض المقتول من ظلامته ؛ وأرضاه عن ظلامته قال اللَّه تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ الآية ، وهذا خبر لا يجوز نسخه ، وحمله على المشركين ، وحمل هذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر ، ويحتاج حمله إلى دليل ، واللَّه أعلم .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ الآية ، وهذا عام في جميع الذنوب من كفر وشرك وشكٍّ ونفاق وقتل وفسق وغير ذلك ، كل من تاب من أي ذلك ؛ تاب اللَّه عليه ، قال اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك ، وهي مذكورة في هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها لتقوية الرجاء واللَّه أعلم . وثبت في الصحيحين خبر الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس ، ثم سأل عالمًا : هل لي من توبة ؟ فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة ، ثم أرشده إلى بلد يعبد اللَّه فيه ، فهاجر إليه فمات في الطريق ، فقبضته ملائكة الرحمة ... كما ذكرناه غير مرة ، وإذا كان هذا في بني إسرائيل فلأن يكون في هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأحرى ؛ لأن اللَّه وضع عنا الآصار والأغلال التي كانت عليهم ، وبعث نبيَّنا بالحنيفية السمحة . فأما الآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ الآية . فقد قال أبو هريرة وجماعة من السلف : هذا جزاؤه إن جازاه ، ولكن لا يصح معنى هذه الصيغة أن هذا جزاؤه إن جوزي عليه ، وكذا كلُّ وعيد على ذنب ، لكن قد يكون كذلك معارض من أعمال صالحة تمنع وصول ذلك الجزاء إليه على قولَي أصحاب الموازنة والإحباط ، وهذا أحسن ما يسلك في باب الوعيد .

وبتقدير دخول القاتل في النار ، إمّا على قول ابن عبّاس ، ومن وافقه أنه لا توبة له ، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحًا ينجو به ، فليس بمخلّد فيها أبدًا ، بل الخلود ، هو المكث الطويل ، وقد تواترت الأحاديث عن رسول اللَّه ﷺ : « أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ » (٢) . وأمّا حديث معاوية : « كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا الرَّجُلَ يَمُوتُ كَافِرًا ، أَوِ الرَّجُلَ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا » (٣) فعسى للترجّي ، فإذا انتفى الترجّي في هاتين الصورتين لانتفى وقوع ذلك في أحدهما ، وهو القتل لما ذكرنا من

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٨٨) . (٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٩٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٩٩) والطبراني في الكبير (١٩/٣٦٥) .

الأدلة . وأما من مات كافرًا ؛ فالنص أن الله لا يغفر له البتة ، وأما مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة ، فإنه حق من حقوق الآدميين ، وهي لا تسقط بالتوبة ، ولكن لابد من ردها إليهم ، ولا فرق بين المقتول والمسروق منه ، والمغصوب منه ، والمقذوف ، وسائر حقوق الآدميين ، فإن الإجماع منعقد على أنها لا تسقط بالتوبة ، ولكنه لا بد من ردها إليهم في صحة التوبة ، فإن تعذر ذلك فلا بد من المطالبة يوم القيامة ، لكن لا يلزم من وقوع المطالبة وقوع المجازاة ، إذ قد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها ، ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة ، أو يعوض الله المقتول بما يشاء من فضله من قصور الجنة ونعيمها ، ورفع درجته فيها ونحو ذلك والله أعلم . ثم لقاتل العمد أحكام في الدنيا وأحكام في الآخرة ، فأما في الدنيا فتسلط أولياء المقتول عليه ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ الآية ، ثم هم مخيَّرون بين أن يقتلوا ، أو يعفوا ، أو يأخذوا دية مغلظة أثلاثًا . ثلاثون حقة ، وثلاثون جذعة ، وأربعون خلفة ، كما هو مقرر في كتاب الأحكام ، واختلف الأئمة هل تجب عليه كفّارة عتق رقبة ، أو صيام شهرين متتابعين ، أو إطعام ، على أحد القولين ، كما تقدم في كفارة الخطأ على قولين : فالشافعي وأصحابه وطائفة من العلماء يقولون : نعم يجب عليه لأنه إذا وجبت عليه الكفارة في الخطأ ، فلأن تجب عليه في العمد أولى ، فطردوا هذا في كفارة اليمين الغموس ، واعتذروا بقضاء الصلاة المتروكة عمدًا ، كما أجمعوا على ذلك في الخطأ . وقال أصحاب الإمام أحمد وآخرون : قتل العمد أعظم من أن يكفر ، فلا كفّارة فيه ، وكذا اليمين الغموس ، ولا سبيل إلى الفرق بين هاتين الصورتين ، وبين الصلاة المتروكة عمدًا ؛ فإنهم يقولون بوجوب قضائها إذا تُركت عمدًا ، وقد احتجَّ من ذهب إلى وجوب الكفارة في قتل العمد بما رواه واثلة بن الأسقع قال : أتي النبيَّ ﷺ نفر من بني سليم فقالوا : إن صاحبًا لنا قد أوجب ، قال : « فَلْيُعْتِقْ رَقَبَةً يَفْدِي اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْوًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ » (١) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ .

عن ابن عبّاس قال : مرَّ رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبيِّ ﷺ يرعى غنمًا له فسلم عليهم ، فقالوا : لا يسلم علينا إلّا ليتعوَّذ منا فعمدوا إليه فقتلوه ، وأتوا بغنمه النبيَّ ﷺ ، فنزلت هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ إلى آخرها (٢) .

وأما قصة محلم بن جثامة : فعن القعقاع بن عبد الله بن أبي حدرد ﷺ قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضم ، فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحارث بن ربعي ومحلم بن جثامة بن قيس ، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم مرَّ بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود له ، معه متيع له ووطب من لبن ، فلما مرَّ بنا سلَّم علينا ، فأمسكنا عنه وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله لشيء كان بينه وبينه ، وأخذ بعيره ومتيعه فلما قدمنا على رسول الله ﷺ وأخبرناه الخبر نزل فينا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ خَبِيرًا ﴾ (٣) .

وعن ابن عبّاس قال : بعث رسول الله ﷺ سرية فيها المقداد بن الأسود ، فلما أتوا القوم وجدوهم

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٧/٤) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤١/٢) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (١١/٦) .

قد تفرّقوا وبقي رجل له مال كثير لم يبرح ، فقال : أشهد أن لا إله إلّا اللّه ، وأهوى إليه المقداد فقتله ، فقال له رجل من أصحابه : أقتلت رجلًا شهد أن لا إله إلّا اللّه ؟ واللّه لأذكرن ذلك للنبي ﷺ ، فلما قدموا على رسول اللّه ﷺ قالوا : يا رسول اللّه : إن رجلًا شهد أن لا إله إلّا اللّه فقتله المقداد ، فقال : « ادْعُوا لِي المِقْدَادَ ، يَا مِقْدَادُ أَقَتَلْتَ رَجُلًا يَقُولُ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللّه ؟ فَكَيْفَ لَكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللّه غَدًا ؟! » قال : فأنزل اللّه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ ﴾ ، فقال رسول اللّه ﷺ للمقداد : « كَانَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ يُخْفِي إِيمَانَهُ مَعَ قَوْمٍ كُفَّارٍ فَأَظْهَرَ إِيمَانَهُ فَقَتَلْتَهُ ، وَكَذَلِكَ كُنْتَ تُخْفِي إِيمَانَكَ بِمَكَّةَ قَبْلُ » (١) .

وقوله : ﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ ﴾ أي خير مما رغبتم فيه من عرض الحياة الدنيا الذي حملكم على قتل مثل هذا الذي ألقى إليكم السلام ، وأظهر لكم الإيمان ، فتغافلتم عنه واتهمتموه بالمصانعة والتقيَّة ، لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، فما عند اللّه من الرزق الحلال خير لكم من مال هذا . وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ أي قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الذي يسِرُّ إيمانه ويخفيه من قومه . وهذا مذهب سعيد بن جبير قال في قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ ﴾ تخفون إيمانكم في المشركين . وفي رواية : تستخفون بإيمانكم كما استخفى هذا الراعي بإيمانه ، وهذا اختيار ابن جرير . وقال ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ أي تاب عليكم ، فحلف أسامة لا يقتل رجلًا يقول : لا إله إلّا اللّه بعد ذلك الرجل وما لقي من رسول اللّه ﷺ فيه . وقوله : ﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ ﴾ تأكيد لما تقدم . وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ قال سعيد بن جبير : هذا تهديد ووعيد .

﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٩٥ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴾ .

وعن البراء قال : لمّا نزلت ﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ قال النبيُّ ﷺ : « ادْعُ فُلانًا » ، فجاءه ومعه الدواة واللوح والكتف ، فقال : « اكْتُبْ لا يستوي القاعدون من المؤمنين المجاهدين في سبيل اللّه » وخلف النبيّ ﷺ ابن أم مكتوم ، فقال : يا رسول اللّه أنا ضرير ، فنزلت مكانها ﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (٢) .

وعن عبد اللّه بن الحارث أن ابن عبّاس أخبره : ﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ ﴾ عن بدر والخارجون إلى بدر (٣) . ولما نزلت غزوة بدر قال عبد اللّه بن جحش وابن أم مكتوم : إنا أعميان يا رسول اللّه ، فهل لنا رخصة ؟ فنزلت ﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ ﴾ وفضَّل اللّه المجاهدين على القاعدين درجة فهؤلاء القاعدون غير أولي الضرر ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٩٥ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ ﴾ على القاعدين من المؤمنين غير أولي الضرر (٤) . فقوله : ﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ كان مطلقًا ، فلما

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٣١/١٢) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٩٤) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٩٥) .
(٤) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٣٠٣٢) .

نزل بوحي سريع ﴿ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ ﴾ صار ذلك مخرجًا لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد من العمى والعرج والمرض عن مساواتهم للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين على القاعدين ، قال ابن عبّاس : غير أولي الضرر ، وكذا ينبغي أن يكون ، كما ثبت عن حميد بن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مِنْ مَسِيرٍ وَلاَ قَطَعْتُمْ مِنْ وَادٍ إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ فِيهِ » . قَالُوا : وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ يَا رَسُولَ اللَّه ؟ قال : « نَعَمْ ؛ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ » (١) . وفي هذا المعنى قال الشاعر :

يَا رَاحِلِينَ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ لَقَدْ ... سِرْتُمْ جُسُومًا وَسِرْنَا نَحْنُ أَرْوَاحَا

إِنَّا أَقَمْنَا عَلَى عُذْرٍ وَعَنْ قَدَرٍ ... وَمَنْ أَقَامَ عَلَى عُذْرٍ فَقَدْ رَاحَا

وقوله : ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي الجنة والجزاء الجزيل . وفيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين ، بل هو فرض على الكفاية . قال تعالى : ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . ثم أخبر سبحانه بما فضلهم به من الدرجات ، في غرف الجنات العاليات ، ومغفرة الذنوب والزلّات ، وأحوال الرحمة والبركات ، إحسانًا منه وتكريمًا ولهذا قال : ﴿ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّه لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » (٢) . وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فَلَهُ أَجْرُهُ دَرَجَةٌ » فقال رجل : يا رسول الله وما الدرجة ؟ فقال : « أَمَا إِنَّهَا لَيْسَتْ بِعَتَبَةِ أُمِّكَ ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ مِائَةُ عَامٍ » (٣) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

قال محمّد بن عبد الرّحمن أبو الأسود : قطع على أهل المدينة بعث فاكتتبت فيه ، فلقيت عكرمة مولى ابن عبّاس فأخبرته فنهاني عن ذلك أشدَّ النهي ، قال : أخبرني ابن عبّاس أن ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سوادهم على عهد رسول الله ﷺ يأتي السهم يرمى به فيصيب أحدهم فيقتله ، أو يضرب عنقه فيقتل ، فأنزل الله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ (٤) وعن ابن عبّاس قال : كان قوم من أهل مكة أسلموا ، وكانوا يستخفون بالإسلام ، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعضهم ، قال المسلمون : كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فاستغفروا لهم ، فنزلت ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ الآية . قال : فكتب إلى من بقي من المسلمين بهذه الآية لا عذر لهم ، قال : فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم التقية ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ الآية . قال عكرمة : نزلت

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٣٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠) والترمذي في السنن (٢٥٣٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٢٢٥) . (٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٩٦) .

هذه الآية في شباب من قريش كانوا تكلموا بالإسلام بمكة ، منهم علي بن أمية بن خلف وأبو قيس بن الوليد ابن المغيرة وأبو منصور بن الحجاج والحارث بن زمعة . قال الضحاك : نزلت في ناس من المنافقين تخلفوا عن رسول الله ﷺ بمكة ، وخرجوا مع المشركين يوم بدر فأصيبوا فيمن أصيب ، فنزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين ، وهو قادر على الهجرة ، وليس متمكنًا من إقامة الدين ، فهو ظالم لنفسه ، مرتكب حرامًا بالإجماع . وبنص هذه الآية حيث يقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي بترك الهجرة ﴿ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ﴾ أي لم مكثتم ها هنا وتركتم الهجرة ﴿ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي لا نقدر على الخروج من البلد ، ولا الذهاب في الأرض ﴿ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً ﴾ الآية .

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ » [1] . وقال السدي : لمَا أُسِر العباس وعقيل ونوفل قال رسول الله ﷺ للعباس : « افْدِ نَفْسَكَ وَابْنَ أَخِيكَ » فقال : يا رسول الله ألم نصل إلى قبلتك ، ونشهد شهادتك ؟ قال : « يَا عَبَّاسُ إِنَّكُم خَاصَمْتُمْ فَخُصِمْتُمْ » ثم تلا عليه هذه الآية ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً ﴾ الآية [2] ، وقوله : ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ ﴾ إلى آخر الآية ، هذا عذر من الله لهؤلاء في ترك الهجرة ، وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين ، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق ، ولهذا قال : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ يعني طريقًا .

وقوله تعالى : ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾ أي يتجاوز الله عنهم بترك الهجرة ، وعسى من الله موجبة ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ فعن أبي هريرة قال : بينا رسول الله ﷺ يصلي العشاء إذ قال : « سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَه » ، ثم قال قبل أن يسجد : « اللَّهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَام ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الوَلِيدَ بْنَ الوَلِيدَ ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْها سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ » [3] .

وقوله : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ وهذا تحريض على الهجرة وترغيب في مفارقة المشركين ، وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصَّن فيه . والمُراغم مصدر ، تقول العرب : راغم فلان قومه مراغمًا ومراغمة .

وقال ابن عبَّاس : المرَاغم : التحوُّل من أرض إلى أرض . وقال مجاهد : ﴿ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا ﴾ يعني مُتَزَحْزَحًا عمّا يكره ، وقال سفيان بن عيينة : يعني بروجًا . والظاهر والله أعلم أنه المانع الذي يتخلص به ويراغم به الأعداء . وقوله : ﴿ وَسَعَةً ﴾ يعني الرزق . وقوله : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي ومن يخرج من منزله بنيّة الهجرة ، فمات في أثناء الطريق ، فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر . وعن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّه وَرَسُولِهِ ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّه وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيا يُصِيبُها ، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُها فَهِجْرَتُهُ إِلى ما هَاجَرَ إِلَيْهِ » [4] . وهذا عامّ في

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢٧٨٧) والبغوي في شرح السنة (٣٧٤/١٠) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٣/١) .
(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣٢) .
(٤) أخرجه البخاري في بدء الوحي (١) .

الهجرة وفي جميع الأعمال . ومنه الحديث الثابت في الصحيحين في الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا ، ثم أكمل بذلك العابد المائة ، ثم سأل عالمًا هل له من توبة ؟ وقال له : ومَن يحُول بينك وبين التوبة ؟ ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده إلى بلد أخرى يعبد الله فيه . فلما ارتحل من بلده مهاجرًا إلى البلد الأخرى أدركه الموت في أثناء الطريق ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقال هؤلاء : إنه جاء تائبًا ، وقال هؤلاء : إنه لم يصل بعد ، فأمروا أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيِّهما كان أقرب فهو منها ، فأمر الله هذه أن تقترب من هذه ، وهذه أن تبعد ، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشبر ، فقبضته ملائكة الرحمة (١) . وعن عبد الله بن عتيك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ - ثُمَّ قَالَ : وَأَيْنَ المُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - فَخَرَّ عَنْ دَابَّتِهِ فَمَاتَ ؛ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، أَوْ لَدَغَتْهُ دَابَّةٌ فَمَاتَ ؛ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، أَوْ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ ؛ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ - يَعْنِي بِحَتْفِ أَنْفِهِ عَلَى فِرَاشِهِ وَاللَّهِ إِنَّهَا لَكَلِمَةٌ مَا سَمِعْتُهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ العَرَبِ قَبْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وَمَنْ قُتِلَ قَعْصًا ؛ فَقَدِ اسْتَوْجَبَ الجَنَّةَ » (٢) .

وعن ضمرة بن العيص الزرقي الذي كان مصاب البصر وكان بمكة فلما نزلت ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ﴾ فقلت : إني لغني ، وإني لذو حيلة ، فتجهَّز يريد النبيَّ ﷺ فأدركه الموت بالتنعيم ، فنزلت هذه الآية ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ ﴾ الآية . وعن أبي مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّهَ قَالَ : مَنِ انْتَدَبَ خَارِجًا فِي سَبِيلِي ، غَازِيًا ابْتِغَاءَ وَجْهِي ، وَتَصْدِيقِ وَعْدِي ، وَإِيمَانًا بِرُسُلِي فَهُوَ فِي ضَمَانٍ عَلَى اللَّهِ ، إِمَّا أَنْ يَتَوَفَّاهُ بِالجَيْشِ فَيُدْخِلَهُ الجَنَّةَ ، وَإِمَّا أَنْ يَرْجِعَ فِي ضَمَانِ اللَّهِ ، وَإِنْ طَالَبَ عَبْدًا فَنَغَصَهُ حَتَّى يَرُدَّهُ إِلَى أَهْلِهِ مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ ، وَنَالَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ فَمَاتَ ، أَوْ قُتِلَ ، أَوْ رَفَصَتْهُ فَرَسُهُ ، أَوْ بَعِيرُهُ ، أَوْ لَدَغَتْهُ هَامَّةٌ ، أَوْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ بِأَيِّ حَتْفٍ شَاءَ اللَّهُ ، فَهُوَ شَهِيدٌ » (٣) .

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي سافرتم في البلاد . وقوله : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي تخففوا فيها إما من كميتها بأن تجعل الرباعية ثنائية ، كما فهمه الجمهور من هذه الآية ، واستدلوا بها على قصر الصلاة في السفر على اختلافهم في ذلك ، فمن قائل : لابد أن يكون سفر طاعة من جهاد ، أو حجٍّ ، أو عمرة ، أو طلب علم ، أو زيارة ، أو غير ذلك ؛ لظاهر قوله : ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ . ومن قائل : لا يشترط سفر القربة . بل لابد أن يكون مباحًا لقوله : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ﴾ الآية . كما أباح له تناول الميتة مع الاضطرار بشرط أن لا يكون عاصيًا بسفره ، وهذا قول الشافعي وأحمد وغيرهما من الأئمة . ومن قائل : يكفي مطلق السفر سواء كان مباحًا أو محظورًا حتى لو خرج لقطع الطريق ، وإخافة السبيل ترخص لوجود مطلق السفر ، وهذا قول أبي حنيفة والثوري وداود لعموم الآية ، وخالفهم الجمهور .

(١) أخرجه أحمد في مسنده(٣/٧٢) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده(٤/٣٠٦) . (٣) أخرجه الطبراني في الكبير(٣/٣٢٠) .

وأما قوله تعالى : ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ فقد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية ، فإن في مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة ، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عامٍّ ، أو في سريَّة خاصة ، وسائر الأحيان حرب للإسلام وأهله ، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة ، فلا مفهوم له كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ .

عن يعلى بن أُمية قال : سألت عمر بن الخطاب قلت له : قوله : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ وقد أمن الناس ، فقال لي عمر ﷺ : عجبتُ مما عجبتَ منه ، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : « صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللَّه بِهَا عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ » (١) . وعن ابن عبّاس قال : صلَّينا مع رسول اللَّه ﷺ بين مكة والمدينة ونحن آمنون لا نخاف بينهما ركعتين ركعتين . وعن يحيى بن أبي إسحاق قال : سمعت أنسًا يقول : خرجنا مع رسول اللَّه ﷺ من المدينة إلى مكة ، فكان يصلِّي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة ، قلت : أقمتم بمكة شيئًا ؟ قال : أقمنا بها عشرًا (٢) . وعن عبد الرّحمن بن يزيد يقول : صلى بنا عثمان بن عفّان ﷺ بمنى أربع ركعات ، فقيل في ذلك لعبد اللَّه بن مسعود ﷺ فاسترجع ، ثم قال : صليت مع رسول اللَّه ﷺ بمنى ركعتين ، وصليت مع أبي بكر بمنى ركعتين ، وصليت مع عمر بن الخطاب بمنى ركعتين ، فليت حظِّي من أربع ركعات ركعتان متقبَّلتان (٣) .

فهذه الأحاديث دالة صريحًا على أن القصر ليس من شرطه وجود الخوف ، ولهذا قال مَن قال مِن العلماء : إن المراد من القصر ههنا إنما هو قصر الكيفية لا الكمية ، وهو قول مجاهد والضحاك والسّدي ، واعتضدوا أيضًا بما رواه الإمام مالك ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : فرضت الصلاة ركعتين ركعتين في السفر والحضر ، فأقرّت صلاة السفر ، وزيد في صلاة الحضر (٤) . فإذا كان أصل الصلاة في السفر هي الثنتين فكيف يكون المراد بالقصر ههنا قصر الكمية ؟ لأن ما هو الأصل لا يقال فيه : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ وأصرح من ذلك دلالة على هذا ما روي عن عمر ﷺ قال : صلاة السفر ركعتان ، وصلاة الأضحى ركعتان ، وصلاة الفطر ركعتان ، وصلاة الجمعة ركعتان ، تمام غير قصر على لسان محمّد ﷺ (٥) . وعن عبد اللَّه بن عباس قال : فرض اللَّه الصلاة على لسان نبيِّكم محمّد ﷺ في الحضر أربعًا وفي السفر ركعتين ، وفي الخوف ركعة ، فكما يصلي في الحضر قبلها وبعدها ، فكذلك يصلي في السفر (٦) . فهذا ثابت عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ، ولا ينافي ما تقدم عن عائشة رضي الله عنها لأنها أخبرت أن أصل الصلاة ركعتان ، ولكن زيد في صلاة الحضر ، فلما استقر ذلك صح أن يقال : إن فرض صلاة الحضر كما قاله ابن عبّاس واللَّه أعلم . لكن اتفق حديث ابن عبّاس وعائشة على أن صلاة السفر ركعتان ، وأنها تامة غير مقصورة ، كما هو مصرح به في حديث عمر ﷺ .

وإذا كان كذلك فيكون المراد بقوله تعالى : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ قصر الكيفية كما في صلاة الخوف ، ولهذا قال : ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ الآية . ولهذا قال بعدها : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الآية ، فبيَّن المقصود من القصر ههنا وذكر صفته وكيفيَّته ، ولهذا لما عقد

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٥) .
(٢) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة (١٠٨١) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (١٩٦٥) .
(٤) أخرجه النسائي في السنن (١/٢٢٥) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٧) .
(٦) أخرجه أبو داود في السنن (١٢٤٧) .

البخاري كتاب صلاة الخوف صدَّره بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (١) وعن الضحاك في قوله : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ قال : ذاك عند القتال ، يصلي الرجل الراكب تكبيرتين حيث كان وجهه . وقال : إن الصلاة إذا صليت ركعتين في السفر فهي تمام التقصير ، لا يحلّ إلَّا أن يخاف الذين كفروا أن يفتنوه عن الصلاة ، فالتقصير ركعة . وقال مجاهد : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ يوم كان النبيّ ﷺ وأصحابه بعسفان والمشركون بضجنان فتوافقوا ، فصلَّى النبيّ ﷺ بأصحابه صلاة الظهر أربع ركعات بركوعهم وسجودهم ، وقيامهم معًا جميعًا ، فهمَّ بهم المشركون أن يغيروا على أمتعتهم وأثقالهم .

وعن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد أنه قال لعبد الله بن عمر : إنا نجد في كتاب الله قصر صلاة الخوف ، ولا نجد قصر صلاة المسافر ؟ فقال عبد الله : إنا وجدنا نبيًا ﷺ يعمل عملًا عملنا به (٢) . فقد سمَّى صلاة الخوف مقصورة ، وحمل الآية عليها لا على قصر صلاة المسافر . وأقرّه ابن عمر على ذلك ، واحتجَّ على قصر الصلاة بفعل الشارع لا بنص القرآن . وأصرح من هذا ما رواه شعبة بن سماك الحنفي قال : سألت ابن عمر عن صلاة السفر : فقال : ركعتان تمام غير قصر ، إنما القصر في صلاة المخافة ، فقلت : وما صلاة المخافة ؟ فقال : يصلي الإمام بطائفة ركعة ، ثم يجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء ، ويجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء فيصلِّي بهم ركعة ، فيكون للإمام ركعتان ، ولكل طائفة ركعة ركعة .

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ .

صلاة الخوف أنواع كثيرة ، فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة ، وتارة يكون في غير صوبها . والصلاة تارة تكون رباعية ، وتارة تكون ثلاثية كالمغرب ، وتارة تكون ثنائية كالصبح وصلاة السفر ، ثم تارة يصلون جماعة ، وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرون على الجماعة ، بل يصلون فرادى مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ورجالًا وركبانًا ، ولهم أن يمشوا والحالة هذه ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة . ومن العلماء من قال : يصلون والحالة هذه ركعة واحدة لحديث ابن عبّاس المتقدم ، وبه قال أحمد بن حنبل قال المنذري في الحواشي : وبه قال عطاء وجابر والحسن ومجاهد والحكم وقتادة وحماد ، وإليه ذهب طاوس والضحاك . وقد حكي عن محمّد بن نصر المروزي ، أنه يرى ردَّ الصبح إلى ركعة في الخوف ، وإليه ذهب ابن حزم أيضًا . وقال إسحاق بن راهويه : أما عند المسايفة فيجزيك ركعة واحدة تومئ بها إيماء ، فإن لم تقدر فسجدة واحدة لأنها ذكر الله . وقال آخرون : يكفي تكبيرة واحدة فلعله أراد ركعة واحدة ، كما قاله الإمام أحمد بن حنبل وأصحابه . وبه قال جابر بن عبد الله وعبد الله بن عمر وكعب وغير واحد من الصحابة ، والسدي ، ورواه ابن جرير ، ولكن الذي حكوه إنما حكوه على ظاهره في الاجتزاء بتكبيرة واحدة كما هو مذهب إسحاق بن راهويه ، وإليه ذهب الأمير عبد الوهاب بن بخت

(١) صحيح البخاري (كتاب صلاة الخوف) . (٢) أخرجه البيهقي في السنن (١٣٦/٣) .

المكي حتى قال : فإن لم يقدر على التكبير ، فلا يتركها في نفسه يعني بالنية .

ومن العلماء من أباح تأخير الصلاة لعذر القتال والمناجزة كما أخّر النبيّ ﷺ يوم الأحزاب الظهر والعصر ، فصلاهما بعد الغروب ، ثم صلى بعدهما المغرب ثم العشاء ، وكما قال بعدها يوم بني قريظة حين جهز إليهم الجيش : « لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمُ العَصْرَ إِلاَّ في بَنِي قُرَيْظَةَ » فأدركتهم الصلاة في أثناء الطريق ، فقال منهم قائلون : لم يرد منا رسول الله ﷺ إلّا تعجيل المسير ، ولم يرد منا تأخير الصلاة عن وقتها فصلوا الصلاة لوقتها في الطريق . وأخّر آخرون منهم صلاة العصر فصلوها في بني قريظة بعد الغروب ، ولم يعنّف رسول الله ﷺ أحدًا من الفريقين (١) . وقد تكلمنا على هذا في كتاب السيرة ، وبيّنّا أن الذين صلُّوا العصر لوقتها أقرب إلى إصابة الحق في نفس الأمر ، وإن كان الآخرون معذورين أيضًا ، والحجة ههنا في عذرهم في تأخير الصلاة لأجل الجهاد والمبادرة إلى حصار الناكثين للعهد من الطائفة الملعونة اليهود ، وأما الجمهور فقالوا : هذا كله منسوخ بصلاة الخوف ، فإنها لم تكن نزلت بعد ، فلما نزلت نسخ تأخير الصلاة لذلك . قال الأوزاعي : إن كان تهيّأ الفتح ولم يقدروا على الصلاة صلُّوا إيماء كل امرئ لنفسه ، فإن لم يقدروا على الإيماء أخّروا الصلاة حتى ينكشف القتال أو يأمنوا فيصلوا ركعتين ، فإن لم يقدروا صلُّوا ركعة وسجدتين ، فإن لم يقدروا فلا يجزيهم التكبير ، ويؤخرونها حتى يأمنوا . وبه قال مكحول ، وقال أنس بن مالك : حضرت عند مناهضة حصن تستر عند إضاءة الفجر ، واشتد اشتعال القتال فلم يقدروا على الصلاة ، فلم نصل إلّا بعد ارتفاع النهار فصليناها ونحن مع أبي موسى ففتح لنا ، قال أنس : وما يسرني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها . انتهى ما ذكره ، ثم أتبعه بحديث تأخير الصلاة يوم الأحزاب ، ثم بحديث أمره إياهم أن لا يصلوا العصر إلّا في بني قريظة وكأنه كالمختار لذلك والله أعلم . ولمن جنح إلى ذلك له أن يحتج بصنيع أبي موسى وأصحابه يوم فتح تستر فإنه يشتهر غالبًا ، ولكن كان ذلك في إمارة عمر بن الخطاب ، ولم ينقل أنه أنكر عليهم ، ولا أحد من الصحابة والله أعلم . قال هؤلاء : وقد كانت صلاة الخوف مشروعة في الخندق ؛ لأن غزوة ذات الرقاع كانت قبل الخندق في قول جمهور علماء السِّيَر والمغازي ، وممّن نصَّ على ذلك محمّد بن إسحاق وموسى بن عقبة والواقدي ومحمّد بن سعد كاتبه وخليفة بن الخياط وغيرهم . وقال البخاري وغيره : كانت ذات الرقاع بعد الخندق لحديث أبي موسى وما قدم إلّا في خيبر (٢) والله أعلم . والعجب كل العجب أن المزني وأبا يوسف القاضي وإبراهيم بن إسماعيل بن علية ذهبوا إلى أن صلاة الخوف منسوخة بتأخيره عليه الصلاة والسلام الصلاة يوم الخندق ، وهذا غريب جدًّا ، وقد ثبتت الأحاديث بعد الخندق بصلاة الخوف ، وحمل تأخير الصلاة يومئذ على ما قاله مكحول والأوزاعي أقوى وأقرب ، والله أعلم .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي إذا صليت بهم إمامًا في صلاة الخوف ، وهذه حالة غير الأولى ، فإن تلك قصرها إلى ركعة - كما دل عليه الحديث - فرادى ورجالًا وركبانًا ، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ، ثم ذكر حال الاجتماع والائتمام بإمام واحد ، وما أحسن ما استدل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة ، فلولا أنها واجبة ما ساغ

(١) أخرجه البخاري في صلاة الخوف (٩٤٦) .

(٢) صحيح البخاري كتاب المغازي باب (٣٢) .

ذلك . وأما من استدل بهذه الآية على أن صلاة الخوف منسوخة بعد النبيِّ ﷺ لقوله : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ ﴾ فبعده تفوت هذه الصفة فإنه استدلال ضعيف ، ويرد عليه مثل قول مانعي الزكاة الذين احتجوا بقوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ قالوا : فنحن لا ندفع زكاتنا بعده ﷺ إلى أحد ، بل نخرجها نحن بأيدينا على من نراه ، ولا ندفعها إلَّا إلى من صلاته – أي دعاؤه سكن لنا – ومع هذا ردَّ عليهم الصحابة وأبوا عليهم هذا الاستدلال ، وأجبروهم على أداء الزكاة ، وقاتلوا من منعها منهم .

ولنذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة أولًا قبل ذكر صفتها : عن أبي عياش الزرقي قال : كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان ، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة ، فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر ، فقالوا : لقد كانوا على حال لو أصبنا غرَّتهم ، ثم قالوا : يأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم ، قال : فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ قال : فحضرت ، فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح قال : فصفَّنا خلفه صفَّين قال : ثم ركع فركعنا جميعًا ، ثم رفع فرفعنا جميعًا ، ثم سجد النبيّ ﷺ بالصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم ، فلما سجدوا وقاموا . جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم ، ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ، ثم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ، ثم ركع فركعوا جميعًا ثم رفع فرفعوا جميعًا ، ثم سجد النبيّ ﷺ والصفُّ الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم ، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا ، ثم سلم عليهم ، ثم انصرف . قال : فصلَّاها رسول الله ﷺ مرَّتين ؛ مرة بعسفان ، ومرة بأرض بني سليم (١) .

وعن جابر بن عبد الله قال : قاتل رسول الله ﷺ محارب خصفة ، فجاء رجل منهم يقال له : غورث بن الحارث حتى قام على رسول الله ﷺ بالسيف فقال : من يمنعك مني ؟ قال : « اللَّه » فسقط السيف من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ فقال : « وَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ » قال : كن خير آخذ ، قال : « أَتَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَأَنِّي رَسُولُ اللَّه ؟ » قال : لا ، ولكن أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، فخلَّى سبيله ، فقال : جئتكم من عند خير الناس ، فلما حضرت الصلاة صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف ، فكان الناس طائفتين ، طائفة بإزاء العدو ، وطائفة صلوا مع رسول الله ﷺ فصلى بالطائفة الذين معه ركعتين وانصرفوا ، فكانوا مكان الطائفة الذين كانوا بإزاء العدو ، ثم انصرف الذين كانوا بإزاء العدو فصلوا مع رسول الله ﷺ ركعتين ، فكان لرسول الله ﷺ أربع ركعات وللقوم ركعتين ركعتين (٢) . وأما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف ، فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية ، وهو أحد قولَي الشافعي ، ويدل عليه قول الله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ﴾ أي بحيث تكونوا على أهبة إذا احتجتم إليها لبستموها بلا كلفة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ .

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (١٢٣٦) .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٣٦) .

يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف ، وإن كان مشروعًا مرغبًا فيه أيضًا بعد غيرها ، ولكن ها هنا آكد ، لما وقع فيها من التخفيف في أركانها ، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب ، وغير ذلك مما ليس يوجد في غيرها ، كما قال تعالى في الأشهر الحرام : ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ وإن كان هذا منهيًا عنه في غيرها ، ولكن فيها آكد لشدَّة حرمتها وعظمها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ أي في سائر أحوالكم . ثم قال تعالى : ﴿ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ﴾ أي فإذا أمنتم ، وذهب الخوف ، وحصلت الطمأنينة ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ﴾ أي فأتموها وأقيموها ، كما أُمرتم بحدودها ، وخشوعها ، وركوعها ، وسجودها ، وجميع شؤونها . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ قال ابن عبَّاس : أي مفروضًا ، وقال أيضًا : إن للصلاة وقتًا كوقت الحج . وقال ابن مسعود : إن للصلاة وقتًا كوقت الحج . وقال زيد بن أسلم : ﴿ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ قال : منجَّمًا ؛ كلما مضى نجم جاء نجم ، يعني كلما مضى وقت جاء وقت . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ﴾ أي لا تضعفوا في طلب عدوكم ، بل جدُّوا فيهم ، وقاتلوهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾ أي كما يصيبكم الجراح والقتل ، كذلك يحصل لهم ، ثم قال تعالى : ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ أي أنتم وإياهم سواء فيما يصيبكم ، من الجراح والآلام ، ولكن أنتم ترجون من الله المثوبة والنصر والتأييد ، كما وعدكم إياه في كتابه ، وعلى لسان رسوله ﷺ ، وهو وعد حق ، وخبر صدق ، وهم لا يرجون شيئًا من ذلك ، فأنتم أولى بالجهاد منهم ، وأشدُّ رغبة فيه ، وفي إقامة كلمة الله وإعلائها ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أي هو أعلم وأحكم فيما يقدِّره ويقضيه وينفذه ويمضيه من أحكامه الكونية والشرعية ، وهو المحمود على كل حال .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا لرسول الله محمد ﷺ : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ أي هو حقٌّ من الله ، وهو يتضمن الحقَّ في خبره وطلبه . وقوله : ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ احتجَّ به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان ﷺ له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية ، وبما ثبت عن أم سلمة قالت : جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ في مواريث بينهما قد درست ليس عندهما بيِّنة ، فقال : رسول الله ﷺ : « إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ عَلَى نَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلاَ يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ يَأْتِي بها انْتِظَامًا في عُنُقِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ » : فبكى الرجلان وقال كلٌّ منهما : حقِّي لأخي ، فقال رسول الله ﷺ : « أَمَا إِذَا قُلْتُمَا فَاذْهَبَا فَاقْتَسِمَا ، ثُمَّ تَوَخَّيَا الحَقَّ بَيْنَكُمَا ، ثُمَّ اسْتَهِمَا ، ثُمَّ لِيُحْلِلْ كُلٌّ مِنْكُما صَاحِبَهُ » (١) .

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٨٠) ومسلم في الأقضية (٤) .

وعن قتادة بن النعمان ﷺ قال : كان أهل بيت منا يقال لهم : بنو أبيرق بشر وبشير ومبشر ، وكان بشير رجلًا منافقًا يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول اللّٰه ﷺ ، ثم ينحله لبعض العرب ، ثم يقول : قال فلان : كذا وكذا ، وقال فلان : كذا وكذا ، فإذا سمع أصحاب رسول اللّٰه ﷺ ذلك الشعر قالوا : واللّٰه ما يقول هذا الشعر إلَّا هذا الرجل الخبيث ، أو كما قال الرجل ، وقالوا : ابن الأبيرق قالها ، قالوا : وكانوا أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام ، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير ، وكان الرجل إذا كان له يسار ، فقدمت ضافطة من الشام من الدرمك ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه ، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير ، فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملًا من الدرمك فجعله في مشربة له ، وفي المشربة سلاح ودرع وسيف ، فعُدي عليه من تحت البيت ، فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح . فلما أصبح أتاني عمي رفاعة فقال : يا ابن أخي إنه قد عُدي علينا في ليلتنا هذه ، فنُقبت مشربتنا فذهب بطعامنا وسلاحنا ، قال : فتحسَّسنا في الدار وسألنا فقيل لنا : قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة ، ولا نرى فيما نرى إلَّا على بعض طعامكم . قال : وكان بنو أبيرق قالوا - ونحن نسأل في الدار - واللّٰه ما نرى صاحبكم إلَّا لبيد بن سهل ؛ رجلًا منا له صلاح وإسلام ، فلما سمع لبيد اخترط سيفه وقال : أنا أسرق ؟! واللّٰه ليخالطنَّكم هذا السيف ، أو لتبينن هذه السرقة !!! قالوا : إليك عنا أيها الرجل فما أنت بصاحبها ، فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها ، فقال لي عمي : يا ابن أخي لو أتيت رسول اللّٰه ﷺ فذكرت ذلك له ، قال قتادة : فأتيت رسول اللّٰه ﷺ فقلت : إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمِّي رفاعة بن زيد فنقبوا مشربة له ، وأخذوا سلاحه وطعامه ، فليردوا علينا سلاحنا ، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه ، فقال النبيّ ﷺ : « سَآمُرُ فِي ذَلِكَ » فلما سمع بذلك بنو أبيرق أتوا رجلًا منهم يقال له : أسيد بن عروة فكلَّموه في ذلك ، فاجتمع في ذلك أناس من أهل الدار فقالوا : يا رسول اللّٰه : إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت ، قال قتادة : فأتيت النبي ﷺ فكلمته فقال : « عَمَدْتَ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ ذُكِرَ مِنْهُمْ إِسْلامٌ وَصَلَاحٌ تَرْمِيهِمْ بِالسَّرِقَةِ عَلَى غَيْرِ ثَبْتٍ وَلا بَيِّنَةٍ » قال : فرجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول اللّٰه ﷺ في ذلك ، فأتاني عمي رفاعة فقال : يا ابن أخي ما صنعت ؟ فأخبرته بما قال لي رسول اللّٰه ﷺ فقال : اللّٰه المستعان ، فلم نلبث أن نزل القرآن ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ يعني بني أبيرق ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ﴾ أي مما قلت لقتادة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ رَّحِيمًا ﴾ أي لو استغفروا اللّٰه لغفر لهم ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ . قوله للبيد : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ فلما نزل القرآن أتي رسول اللّٰه ﷺ بالسلاح فرده إلى رفاعة ، فقال قتادة : لما أتيت عمي بالسلاح ، وكان شيخًا قد عمي أو عشي - الشك من أبي عيسى في الجاهلية - وكنت أرى إسلامه مدخولًا ، فلما أتيته بالسلاح قال : يا ابن أخي هي في سبيل اللّٰه ، فعرفت أن إسلامه كان صحيحًا ، فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين ، فنزل على سلافة

بنت سعد بن سمية ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ فلما نزل على سلافة بنت سعد هجاها حسان بن ثابت بأبيات من شعر ، فأخذت رحله فوضعته على رأسها ، ثم خرجت به فرمته في الأبطح ، ثم قالت : أهديت لي شعر حسان ؟! ما كنت تأتيني بخير [١] .

وقوله تعالى : ﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ الآية ، هذا إنكار على المنافقين في كونهم يستخفون بقبائحهم من الناس لئلا ينكروا عليهم ، ويجاهرون الله بها مع أنه مطلع على سرائرهم وعالم بما في ضمائرهم ، ولهذا قال : ﴿ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ تهديد لهم ووعيد ، ثم قال تعالى : ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ الآية ، أي هب أن هؤلاء انتصروا في الدنيا بما أبدوه أو أبدي لهم عند الحكام الذين يحكمون بالظاهر ، وهم متعبدون بذلك ، فماذا يكون صنيعهم يوم القيامة بين يدي الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى ؟ ومن ذا الذي يتوكل لهم يومئذ يوم القيامة في ترويج دعواهم ؟ أي لا أحد يومئذ يكون لهم وكيلًا ، ولهذا قال : ﴿ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلًا ﴾ .

﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمًا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمًا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنًا وَإِثۡمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٍۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمًا ﴾ .

يخبر تعالى عن كرمه وجوده أن كل من تاب إليه تاب عليه من أي ذنب كان . فقال تعالى : ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ عن ابن عبّاس : أنه قال في هذه الآية : أخبر الله عباده بعفوه وحلمه وكرمه ، وسعة رحمته ، ومغفرته ، فمن أذنب ذنبًا ، صغيرًا كان أو كبيرًا ﴿ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال . وقال عبد الله : كان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنبًا ، أصبح قد كتب كفارة ذلك الذنب على بابه ، وإذا أصاب البول منه شيئًا قرضه بالمقراض ، فقال رجل : لقد آتى الله بني إسرائيل خيرًا ، فقال عبد الله ﷺ : ما آتاكم الله خير مما آتاهم ، جعل الماء لكم طهورًا ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ ﴾ وقال : ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ . عن حبيب بن أبي ثابت قال : جاءت امرأة إلى عبد الله بن مغفل فسألته عن امرأة فجرت فحبلت ، فلما ولدت قتلت ولدها ، قال عبد الله بن مغفل : لها النار ، فانصرفت وهي تبكي ، فدعاها ، ثم قال : ما أرى أمرك إلّا أحد أمرين ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ قال : فمسحت عينها ثم مضت . قال علي ﷺ : كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئًا نفعني الله فيه بما شاء أن ينفعني منه . وحدّثني أبو بكر وصدق أبو بكر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا ثُمَّ يَتَوَضَّأُ ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ لِذَلِكَ الذَّنْبِ ؛ إِلَّا غُفِرَ لَهُ » وقرأ هاتين الآيتين ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٣٦) .

سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ﴾ الآية ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ﴾ الآية (١) .

وقوله : ﴿ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ ﴾ الآية ، يعني أنه لا يغني أحد عن أحد ، وإنما على كل نفس ما عملت لا يحمل عنها غيرها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ أي من علمه وحكمته ، وعدله ورحمته كان ذلك . ثم قال : ﴿ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا ﴾ الآية ، يعني كما اتهم بنو أبيرق بصنيعهم القبيح ذلك الرجل الصالح وهو لبيد بن سهل كما تقدم في الحديث ، أو زيد بن السمين اليهودي على ما قاله الآخرون ، وقد كان بريئًا وهم الظلمة الخونة ، كما أطلع الله على ذلك رسوله ﷺ ، ثم هذا التقريع ، وهذا التوبيخ عامٌّ فيهم وفي غيرهم ممن اتَّصف بصفتهم فارتكب مثل خطيئتهم ، فعليه مثل عقوبتهم . وقوله : ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ ﴾ وعن قتادة بن النعمان ، وذكر قصة بني أبيرق فأنزل الله ﴿ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ ﴾ يعني أسيد بن عروة وأصحابه ، يعني بذلك لما أثنوا على بني أبيرق ، ولاموا قتادة بن النعمان في كونه اتهمهم وهم صلحاء برآء ، ولم يكن الأمر كما أنهوه إلى رسول الله ﷺ ، ولهذا أنزل الله فصل القضية وجلاءها لرسول الله ﷺ ، ثم امتن عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال ، وعصمته له ، وما أنزل عليه من الكتاب وهو القرآن والحكمة ، وهي السنّة ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ ﴾ أي قبل نزول ذلك عليك ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴾ .

﴿ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ ﴾ يعني كلام الناس ﴿ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾ أي إلَّا نجوى من قال ذلك ، وعن محمّد بن يزيد بن حنيش قال : دخلنا على سفيان الثوري نعوده ، فدخل علينا سعد بن حسان ، فقال له الثوري : الحديث الذي كنت حدثتنيه عن أم صالح ردّده عليَّ فقال : حدَّثتني أم صالح عن صفية بنت شيبة عن أم حبيبة قالت : قال رسول الله ﷺ : « كَلامُ ابْنِ آدَمَ كُلُّهُ عَلَيْهِ لا لَهُ ، إِلَّا ذِكرَ اللَّه ﷻ ، أَوْ أمر بِمَعْرُوفٍ ، أَوْ نَهْي عَنْ مُنْكَرٍ » فقال سفيان : أو ما سمعت الله في كتابه يقول : ﴿ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾ فهو هذا بعينه ، أو ما سمعت الله يقول : ﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ﴾ فهو هذا بعينه ، أو ما سمعت الله يقول في كتابه : ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴾ إلخ فهو هذا بعينه (٢) .

وعن أمّ كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لَيْسَ الكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي خَيْرًا ، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا » وقالت : لم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلَّا في ثلاث : في الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها . قال : وكانت أم كلثوم بنت عقبة من المهاجرات اللاتي بايعن رسول الله ﷺ (٣) . وعن أم الدرداء قالت : قال رسول الله ﷺ : « أَلاَ أُخْبِرُكُمْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٨) . (٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤١٢) .
(٣) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٢) ومسلم في البر والصلة (١٠١) .

بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ ، وَالصَّلاةِ ، وَالصَّدَقَةِ ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « إِصْلاحُ ذَاتِ البَيْنِ » قال : « وَفَسَادُ ذَاتِ البَيْنِ هِيَ الحَالِقَةُ »(١) . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ أي مخلصًا في ذلك ، محتسبًا ثواب ذلك عند الله ﷻ ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي ثوابًا جزيلًا كثيرًا واسعًا .

وقوله : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ ﴾ أي ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ فصار في شقٍّ ، والشرع في شقٍّ ، وذلك عن عمد منه بعدما ظهر له الحقُّ وتبيَّن له واتضح له ، وقوله : ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى ، ولكن قد تكون المخالفة لنصِّ الشارع ، وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقًا ، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشريفًا لهم وتعظيمًا لنبيِّهم ، وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذلك قد ذكرنا منها طرفًا صالحًا في كتاب أحاديث الأصول ، ومن العلماء من ادَّعى تواتر معناها ، والذي عوَّل عليه الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرِّم مخالفته هذه الآية الكريمة بعد التروِّي والفكر الطويل ، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها ، وكان بعضهم قد استشكل ذلك ، فاستبعد الدلالة منها على ذلك ، ولهذا توعَّد تعالى على ذلك بقوله : ﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ أي إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسنها في صدره ، ونزيِّنها له استدراجًا له كما قال تعالى : ﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وجعل النار مصيره في الآخرة ، لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلَّا إلى النار يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ الآية .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ .

قد تقدم الكلام على هذه الآية الكريمة وهي قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ الآية . وذكرنا ما يتعلق بها من الأحاديث في صدر هذه السورة . عن علي رضي الله عنه أنه قال : ما في القرآن آية أحب إليّ من هذه الآية : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ أي فقد سلك غير الطريق الحق ، وضل عن الهدى ، وبعد عن الصواب ، وأهلك نفسه ، وخسرها في الدنيا والآخرة ، وفاتته سعادة الدنيا والآخرة . وقوله : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا ﴾ وعن عائشة ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا ﴾ قالت : أوثانًا . وعن الضحاك في الآية : قال المشركون للملائكة : بنات الله ، وإنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، قال : فاتخذوهن أربابًا وصوروهن جواري فحكموا وقلدوا ، وقالوا : هؤلاء يشبهن بنات الله الذي نعبده يعنون الملائكة ، وهذا التفسير شبيه بقول الله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ الآيات . وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ

(١) أخرجه الترمذي في السنن(٢٥٠٩) وأحمد في مسنده(٦/٤٤٤) .

ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ الآية . وقال : ﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ الآيتين . وعن ابن عبّاس ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا ﴾ قال : يعني موتى . وقال الحسن : الإناث كل شيء ميت ليس فيه روح ، إما خشبة يابسة ، وإما حجر يابس . وقوله : ﴿ وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ أي هو الذي أمرهم بذلك وحسَّنه وزيَّنه لهم ، وهم إنما يعبدون إبليس في نفس الأمر كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ الآية . وقال تعالى إخبارًا عن الملائكة أنهم يقولون يوم القيامة عن المشركين الذين ادَّعوا عبادتهم في الدنيا : ﴿ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ أي طرده وأبعده من رحمته ، وأخرجه من جواره ﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ أي معيَّنًا مقدَّرًا معلومًا . قال قتادة : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة . ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ ﴾ أي عن الحق ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾ أي أزين لهم ترك التوبة ، وأعدهم الأماني ، وآمرهم بالتسويف والتأخير ، وأغرهم من أنفسهم . قوله : ﴿ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ : يعني تشقيقها وجعلها سمة وعلامة للبحيرة والسائبة والوصيلة ﴿ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ . قال ابن عبّاس : يعني بذلك خصي الدواب . وقد ورد في حديث النهي عن ذلك ، وقال الحسن بن أبي الحسن البصري : يعني بذلك الوشم ، وفي صحيح مسلم : النهي عن الوشم في الوجه (١) ، وفي لفظ : لعن اللَّه من فعل ذلك (٢) ، وفي الصحيح عن ابن مسعود أنه قال : لعن اللَّه الواشمات والمستوشمات ، والنامصات والمتنمصات ، والمتفلِّجات للحسن المغيرات خلق اللَّه ﷻ . ثم قال : ألا ألعن من لعن رسول اللَّه ﷺ وهو في كتاب اللَّه ﷻ يعني قوله : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (٣) . وقال ابن عبّاس في رواية عنه ومجاهد وعكرمة وإبراهيم النخعي والحسن وغيرهم في قوله : ﴿ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ : يعني دين اللَّه ﷻ ، وهذا كقوله : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ على قول من جعل ذلك أمرًا ، أي لا تبدلوا فطرة اللَّه ودعوا الناس على فطرتهم ، كما ثبت عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ على الفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كما تَلِدُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تَجِدُونَ بِها مِنْ جَدْعَاءَ ؟! » (٤) . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ أي فقد خسر الدنيا والآخرة ، وتلك خسارة لا جبر لها ، ولا استدراك لفائتها .

وقوله تعالى : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ وهذا إخبار عن الواقع ، فإن الشيطان يعد أولياءه ويمنِّيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة ، وقد كذب وافترى في ذلك ، ولهذا قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ كما قال تعالى مخبرًا عن إبليس يوم المعاد : ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقوله : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ أي المستحسنون له فيما وعدهم ومنَّاهم ﴿ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي مصيرهم

---

(١) أخرجه مسلم في اللباس (١٠٧) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢٩٧) والحاكم في المستدرك (٤/٢٩٠) .

(٣) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٣١) ومسلم في اللباس (١٢٠) .

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٥) وأبو داود في السنن (٤٧١٤) .

ومآلهم يوم القيامة ﴿ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ أي ليس لهم عنها مندوحة ولا مصرف ، ولا خلاص ، ولا مناص . ثم ذكر تعالى حال السعداء والأتقياء وما لهم من الكرامة التامة فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي صدقت قلوبهم ، وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات ، وتركوا ما نهوا عنه من المنكرات ﴿ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي يصرفونها حيث شاؤوا وأين شاءوا ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أي بلا زوال ولا انتقال ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾ أي هذا وعد من الله ، ووعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة ، ولهذا أكّده بالمصدر الدال على تحقيق الخبر ، وهو قوله : ﴿ حَقًّا ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ أي لا أحد أصدق منه قولًا أي خبرًا ، لا إله إلّا هو ، ولا ربَّ سواه ، وكان رسول الله ﷺ يقول في خطبته : «إِنَّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كَلَامُ اللَّهِ ، وَخَيْرُ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ » (١) .

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ۝ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ۝ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾ .

قال قتادة : ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا ، فقال أهل الكتاب : نبيّنا قبل نبيّكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، فنحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : نحن أولى بالله منكم ، ونبيّنا خاتم النبيين ، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله ؛ فأنزل الله ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ الآية . ثم أفلج الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان . وقال مجاهد : قالت العرب : لن نبعث ولن نعذّب ، وقالت اليهود والنصارى : ﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ وقالوا : ﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ والمعنى في هذه الآية : أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني ، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال ، وليس كلُّ من ادَّعى شيئًا حصل له بمجرد دعواه ، ولا كلُّ من قال : إنه هو على الحقّ سُمع قوله بمجرد ذلك ، حتى يكون له من الله برهان . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ أي ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرَّد التمنّي ، بل العبرة بطاعة الله سبحانه ، واتباع ما شرعه على ألسنة الرسل الكرام ، ولهذا قال بعده : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ .

وقد روي أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على كثير من الصحابة ، فعن أبي بكر بن أبي زهير قال : أخبرت أن أبا بكر ﷺ قال : يا رسول الله كيف الفلاح بعد هذه الآية ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ فكلُّ سوء عملناه جزينا به ؟ فقال النبيّ ﷺ : « غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ، أَلَسْتَ تَمْرَضُ ، أَلَسْتَ تَنْصَبُ ، أَلَسْتَ تَحْزَنُ ، أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللَّأْوَاءُ ؟! » قال : بلى ، قال : « فَهُوَ مِمَّا تُجْزَوْنَ بِهِ » (٢) . قال عبد الله بن عمر : انظروا المكان الذي فيه عبد الله بن الزبير مصلوبًا ،

(١) أخرجه النسائي في السنن (١٨٨/٣) وأحمد في مسنده (٣١٠/٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١١/١) والحاكم في المستدرك (٧٤/٣) .

فلا تمرّن عليه ، قال : فسها الغلام فإذا عبد الله بن عمر ينظر إلى ابن الزبير ، فقال : يغفر الله لك ثلاثًا ، أما والله ما علمتك إلا صوّامًا قوّامًا وصّالًا للرحم ، أما والله إني لأرجو مع مساوئ ما أصبت أن لا يعذبك الله بعدها ، قال : ثم التفت إليّ فقال : سمعت أبا بكر الصديق يقول : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا في الدُّنْيَا يُجزَ بِهِ » (١) . وعن ابن عمر يحدث عن أبي بكر الصديق قال : كنت عند النبيّ ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « يا أَبَا بَكْرٍ أَلا أُقْرِئُكَ آيَةً أُنْزِلَتْ عَلَيَّ ؟ » قلت : بلى يا رسول الله ، قال : فأقرأنيها فلا أعلم أني قد وجدت انفصامًا في ظهري حتى تمطّيت لها ، فقال رسول الله ﷺ : « مَا لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ؟ » قلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله وأيّنا لم يعمل السوء ؟ وإنا لمجزيّون بكل سوء عملناه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أَمَّا أَنْتَ يا أَبَا بَكْرٍ وَأَصْحَابُكَ الْمُؤْمِنُونَ : فَإِنَّكُمْ تُجْزَوْنَ بِذَلِكَ فِي الدُّنْيا حَتَّى تَلْقَوا اللَّهَ لَيْسَ لَكُمْ ذُنُوبٌ ، وَأَمَّا الآخَرُونَ : فَيُجْمَعُ ذَلِكَ لَهُمْ حَتَّى يُجْزَوْا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٢) .

وعن علي بن زيد عن ابنته أنها سألت عائشة عن هذه الآية ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ فقالت : ما سألني أحد عن هذه الآية منذ سألت عنها رسول الله ﷺ ، سألت رسول الله ﷺ فقال : « يَا عَائِشَةُ هَذِهِ مُبَايَعَةُ اللَّهِ لِلْعَبْدِ مِمَّا يُصِيبُهُ مِنَ الحُمَّى وَالنَّكْبَةِ وَالشَّوْكَةِ ، حَتَّى البِضَاعَة ، فَيَضَعُها في كُمِّهِ فَيَفْزَعُ لَهَا فَيَجِدُها في جَيْبِهِ ، حَتَّى إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَخْرُجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَمَا أَنَّ الذَّهَبَ يَخْرُجُ مِنَ الكِيرِ » (٣) .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : لما نزلت ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ شقّ ذلك على المسلمين ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « سَدِّدُوا وَقَارِبُوا ، فَإِنَّ في كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ ، حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُها وَالنَّكْبَةُ يُنْكَبُها » (٤) . وعن أبي سعيد وأبي هريرة أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول : « مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلاَ سَقَمٍ وَلاَ حَزَنٍ حَتَّى الهمّ يُهِمُّهُ إِلَّا كَفَّرَ اللَّه بها مِنْ سَيِّئَاتِهِ » (٥) .

وعن الحسن ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ قال : الكافر ثم قرأ : ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ . وروي عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير أنهما فسرا السّوء ههنا بالشّرك أيضًا . وقوله : ﴿ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ قال ابن عبّاس : إلّا أن يتوب فيتوب الله عليه . والصحيح أن ذلك عامٌّ في جميع الأعمال لما تقدّم من الأحاديث ، وهذا اختيار ابن جرير والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ الآية ، لمّا ذكر الجزاء على السيّئات وأنه لابد أن يأخذ حقّها من العبد إما في الدنيا وهو الأجود له ، وإمّا في الآخرة والعياذ بالله من ذلك ، ونسأله العافية في الدنيا والآخرة ، والصفح والعفو والمسامحة ، شرع في بيان إحسانه وكرمه ورحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده ذكرانهم وإناثهم بشرط الإيمان ، وأنه سيدخلهم الجنة ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقير ، وهو النقرة التي تظهر في ظهر نواة التمرة . وقد تقدم الكلام على الفتيل وهو الخيط الذي في شق النواة ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦٦/١) والحاكم في المستدرك (٧٥٣/٣) . (٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٣٩) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٨/٦) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢٩٥/٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٨/٢) والترمذي في السنن (٢١٤١) ومسلم في صفات المنافقين (٧٨) .
(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٢) والبخاري في المرض (٥٦٤١) وأحمد في مسنده (١٨٠/٣) .

وهذا النقير ، وهما في نواة التمرة ، والقطمير وهو اللفافة التي على نواة التمرة ، والثلاثة في القرآن .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ أي أخلص العمل لربه ﷻ ، فعمل إيمانًا واحتسابًا ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي اتبع في عمله ما شرعه اللَّه له ، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحقّ . وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما ، أي يكون خالصًا صوابًا ، والخالص أن يكون للَّه ، والصواب أن يكون متابعًا للشريعة ، فيصحُّ ظاهره بالمتابعة ، وباطنه بالإخلاص ، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد ، فمن فقد الإخلاص كان منافقًا ، وهم الذين يراءون الناس ، ومن فقد المتابعة كان ضالًّا جاهلًا ، ومتى جمعهما كان عمل المؤمنين ﴿ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ الآية . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ وهم محمّد وأتباعه إلى يوم القيامة . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ الآية . والحنيف هو المائل عن الشِّرك قصدًا ، أي تاركٌ له عن بصيرة ، ومقبل على الحق بكليّته ، لا يصده عنه صادٌّ ، ولا يردُّه عنه راد .

وقوله : ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ وهذا من باب الترغيب في اتباعه ؛ لأنه إمام يقتدى به ، حيث وصل إلى غاية ما يتقرّب به العباد له ، فإنه انتهى إلى درجة الخلة التي هي أرفع مقامات المحبة ، وما ذاك إلّا لكثرة طاعته لربّه ، كما وصفه به في قوله : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ . قال كثير من علماء السلف : أي قام بجميع ما أمر به ، ووفّى كل مقام من مقامات العبادة ، فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير ، ولا كبير عن صغير ، وإنما سمّي خليل اللَّه لشدّة محبّته لربّه ﷻ ، لما قام له به من الطاعة التي يحبها ويرضاها . ولهذا روي عن أبي سعيد الخدري أن رسول اللَّه ﷺ لما خطبهم في آخر خطبة خطبها قال : « أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ : فَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلًا لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرِ بْنَ أَبِي قُحَافَةَ خَلِيلًا ، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّه » (١) . وعن ابن عبّاس قال : جلس ناس من أصحاب رسول اللَّه ﷺ ينتظرونه فخرج ، حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم ، وإذا بعضهم يقول : عجب إن اللَّه اتخذ من خلقه خليلًا فإبراهيم خليله ، وقال آخر : ماذا بأعجب من أن اللَّه كلّم موسى تكليمًا ، وقال آخر : فعيسى روح اللَّه وكلمته ، وقال آخر : آدم اصطفاه اللَّه ، فخرج عليهم فسلّم وقال : « قَدْ سَمِعْتُ كَلامَكُمْ وَتَعَجُّبَكُمْ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّه وَهُوَ كَذَلِكَ ، وَمُوسى كَلِيمُهُ ، وَعِيسى رُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ ، وَآدَمَ اصْطَفَاهُ اللَّه ، وَهُوَ كَذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ مُحَمَّدٌ ﷺ قَالَ : أَلَا وَإِنِّي حَبِيبُ اللَّه ولا فَخْر ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِع وَأَوَّلُ مُشَفَّع ولا فخر ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُحَرِّكُ حَلَقَةَ الجَنَّةِ فَيَفْتَحُ اللَّه وَيُدْخِلُنِيها وَمَعِي فُقَرَاءُ المُؤْمِنِينَ ولا فَخْر ، وَأَنا أَكرمُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ ولا فَخْر» (٢) .

وعن إسحاق بن يسار قال : لما اتخذ اللَّه إبراهيم خليلًا ألقى في قلبه الوجل ، حتى إن خفقان قلبه ليسمع من بعيد كما يسمع خفقان الطير في الهواء ، وهكذا جاء في صفة رسول اللَّه ﷺ ، أنه كان يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل إذا اشتد غليانها من البكاء (٣) .

وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي الجميع ملكه وعبيده وخلقه ، وهو المتصرّف في

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٥٦) ومسلم في فضائل الصحابة (٢ - ٧) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٦١٦) والدارمي في السنن (٢٦/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥/٤) ، والنسائي في السنن (١٣/٣) .

جميع ذلك ، لا رادَّ لما قضى ، ولا معقب لما حكم ، ولا يسأل عما يفعل ، لعظمته وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته . وقوله : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴾ أي علمه نافذ في جميع ذلك ، لا تخفى عليه خافية من عباده ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ، ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ، ولا أكبر ، ولا تخفى عليه ذرة لما تراءى للناظرين وما توارى .

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾ .

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ قالت عائشة : هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليُّها ووارثها فأشركته في ماله حتى في العذق ، فيرغب أن ينكحها ، ويكره أن يزوِّجها رجلًا فيشركه في ماله بما شركته فيعضلها ، فنزلت هذه الآية (١) . وعنها أيضًا قالت : وقول الله ﷻ : ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال ، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلَّا بالقسط من أجل رغبتهم عنهنَّ (٢) . والمقصود أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحلُّ له تزويجها ، فتارة يرغب في أن يتزوجها فأمره الله أن يمهرها أسوة بأمثالها من النساء ، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء فقد وسع الله ﷻ ، وهذا المعنى في الآية الأولى التي في أول السورة ، وتارة لا يكون له فيها رغبة لدمامتها عنده أو في نفس الأمر ، فنهاه الله ﷻ أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركوه في ماله الذي بينه وبينها . وقال في قوله : ﴿ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات ، وذلك قوله : ﴿ لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ ﴾ فنهى الله عن ذلك ، وبين لكل ذي سهم سهمه ، فقال : ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ صغيرًا أو كبيرًا ، وقال سعيد بن جبير في قوله : ﴿ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ ﴾ كما إذا كانت ذات جمال ومال نكحتها واستأثرت بها ، كذلك إذا لم تكن ذات مال ولا جمال فانكحها واستأثر بها . وقوله : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾ تهييجًا على فعل الخيرات ، وامتثالًا للأوامر ، وأن الله ﷻ عالم بجميع ذلك وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمَّه .

﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا ومشرعًا من حال الزوجين : تارة في حال نفور الرجل عن المرأة ، وتارة في حال اتفاقه معها ، وتارة في حال فراقه لها . فالحالة الأولى ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر عنها أو يعرض عنها ، فلها أن تسقط عنه حقَّها أو بعضه ، من نفقة أو كسوة أو مبيت أو غير ذلك من حقوقها عليه ، وله أن يقبل ذلك منها فلا حرج عليها في بذلها ذلك له ، ولا عليه في قبوله منها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَا

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٠٠) . (٢) أخرجه مسلم في التفسير (٦) .

جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ ﴾ ثم قال : ﴿ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ ﴾ أي من الفراق . وقوله : ﴿ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ ﴾ أي الصلح عند المشاحة خير من الفراق ، ولهذا لما كبرت سودة بنت زمعة عزم رسول الله ﷺ على فراقها ، فصالحته على أن يمسكها وتترك يومها لعائشة ، فقبل ذلك منها وأبقاها على ذلك .

عن ابن عبّاس قال : خشيت سودة أن يطلّقها رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله لا تطلّقني واجعل يومي لعائشة ، ففعل ، ونزلت هذه الآية ﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ ﴾ الآية . قال ابن عبّاس : فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز [(١)] . وعن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت له : يا ابن أختي : كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في مكثه عندنا ، وكان قلَّ يوم إلَّا وهو يطوف علينا ، فيدنو من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ إلى من هو يومها فيبيت عندها ، ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنَّت وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ : يا رسول الله يومي هذا لعائشة ، فقبل ذلك رسول الله ﷺ ، قالت عائشة : ففي ذلك أنزل الله : ﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا ﴾ [(٢)] .

وعن ابن سيرين قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فسأله عن آية فكرهه فضربه بالدرَّة ، فسأله آخر عن هذه الآية ﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا ﴾ ثم قال : مثل هذا فاسألوا ، ثم قال : هذه المرأة تكون عند الرجل قد خلا من سنِّها ، فيتزوج المرأة الشابة يلتمس ولدها ، فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز . وعن خالد بن عرعرة قال : جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فسأله عن قول الله ﷻ : ﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ ﴾ قال عليٌّ : يكون الرجل عنده المرأة فتنبو عيناه عنها من دمامتها ، أو كبرها ، أو سوء خلقها ، أو قذذها ؛ فتكره فراقه ، فإن وضعت له من مهرها شيئًا حل له ، وإن جعلت له من أيامها فلا حرج [(٣)] . وكذا فسرها ابن عبّاس وعبيدة السلماني ومجاهد ابن جبير والشعبي ، وسعيد بن جبير وعطاء ، وعطية العوفي ومكحول والحسن والحكم بن عتبة وقتادة وغير واحد من السلف والأئمة ، ولا أعلم في ذلك خلافًا أن المراد بهذه الآية هذا ، والله أعلم .

وقال سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار إن السنّة في هاتين الآيتين اللتين ذكر الله فيهما نشوز الرجل وإعراضه عن امرأته في قوله : ﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا ﴾ إلى تمام الآيتين ، أن المرء إذا نشز عن امرأته وآثر عليها ، فإن من الحق أن يعرض عليها أن يطلقها أو تستقر عنده على ما كانت من أثرة في القسم من ماله ونفسه ، صلح له ذلك ، وكان صلحها عليه ، كذلك ذكر سعيد بن المسيب وسليمان الصلح الذي قال الله ﷻ : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ ﴾ وقد ذكر لي أن رافع بن خديج الأنصاري - وكان من أصحاب النبيّ ﷺ - كانت عنده امرأة حتى إذا كبرت تزوج عليها فتاة شابة وآثر عليها الشابة ، فناشدته الطلاق ، فطلقها تطليقة ثم أمهلها ، حتى إذا كادت تحل راجعها ، ثم عاد فآثر عليها الشابة ، فناشدته الطلاق فقال لها : ما شئتِ إنما بقيت لك تطليقة واحدة ، فإن شئتِ استقررت على ما ترين من الأثرة ، وإن شئتِ فارقتك ؟ فقالت : لا بل أستقر على الأثرة فأمسكها على ذلك ، فكان ذلك صلحهما ، ولم ير رافع عليه إثمًا حين رضيت أن تستقر عنده على الأثرة فيما آثر به عليها .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٤٠) . (٢) أخرجه أبو داود في السنن (٢١٣٥) والحاكم في المستدرك (١٨٩/٢) .

(٣) تفسير الطبري (٤١٣/٥ ، ٤١٤) .

وقوله : ﴿ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌۗ ﴾ قال ابن عبّاس : يعني التخيير أن يخير الزوج لها بين الإقامة والفراق ، خير من تمادي الزوج على أثرة غيرها عليها ، والظاهر من الآية أن صلحهما على ترك بعض حقّها للزوج ، وقبول الزوج ذلك ، خير من المفارقة بالكلية ، كما أمسك النبيّ ﷺ سودة بنت زمعة على أن تركت يومها لعائشة رضي الله عنها ولم يفارقها ، بل تركها من جملة نسائه ، وفعله ذلك لتتأسّى به أمّته في مشروعية ذلك وجوازه ، فهو أفضل في حقه عليه الصلاة والسلام ، ولما كان الوفاق أحب إلى الله من الفراق قال : ﴿ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌۗ ﴾ بل الطلاق بغيض إليه ﷺ ، ولهذا جاء في الحديث عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « أَبْغَضُ الحَلاَلِ إِلَى اللَّهِ الطَّلاَقُ » (١) . وقوله : ﴿ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ وإن تتجشموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهن، وتقسموا لهن أسوة أمثالهن ، فإن اللَّه عالم بذلك ، وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ ﴾ أي لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه ، فإنه وإن وقع القسم الصوري ليلة وليلة ، فلابد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع ، وعن ابن أبي مليكة قال : نزلت هذه الآية ﴿ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ ﴾ في عائشة ، يعني أن النبيّ ﷺ كان يحبها أكثر من غيرها ، كما جاء في الحديث ؛ فعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : « اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ ، فَلاَ تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلاَ أَمْلِكُ » يعني القلب (٢) . وقوله : ﴿ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ ﴾ أي فإذا ملتم إلى واحدة منهنَّ فلا تبالغوا في الميل بالكلية ﴿ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ ﴾ أي فتبقى هذه الأخرى معلقة . قال ابن عبّاس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن والضحاك والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان وآخرون : معناه : لا ذات زوج ولا مطلقة . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فمال إِلَى إِحْدَاهُمَا ؛ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَحَدُ شِقَّيْهِ سَاقِطٌ » (٣) . وقوله : ﴿ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أي وإن أصلحتم في أموركم ، وقسمتم بالعدل فيما تملكون ، واتقيتم اللَّه في جميع الأحوال ؛ غفر اللَّه لكم ما كان في ميل إلى بعض النساء دون بعض . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ وهذه هي الحالة الثالثة ، وهي حالة الفراق ، وقد أخبر اللَّه تعالى أنهما إذا تفرّقا فإن اللَّه يغنيه عنها ويغنيها عنه ، بأن يعوّضه اللَّه من هو خير له منها ، ويعوضها عنه بما هو خير لها منه ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ أي واسع الفضل ، عظيم المنّ ، حكيمًا في جميع أفعاله وأقداره وشرعه .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأنه الحاكم فيهما ولهذا قال : ﴿ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢١٠٨) وأبو داود في السنن (٢١٧٨) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١١٤٠) وأبو داود في السنن (٢١٣٤) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢١٣٣) ، والدارمي في السنن (١٤٣/٢) .

مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ أي وصيناكم بما وصيناهم به من تقوى الله ﷻ بعبادته وحده لا شريك له ، ثم قال : ﴿ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ الآية .كما قال تعالى إخبارًا عن موسى أنه قال لقومه : ﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ وقال : ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أي غنيٌّ عن عباده ﴿ حَمِيدٌ ﴾ أي محمود في جميع ما يقدِّره ويشرعه . وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أي هو القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب الشهيد على كل شيء . وقوله : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾ أي هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه ، قال بعض السلف : ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره ، وقال تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أي وما هو عليه بممتنع .

وقوله : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أي يا من ليس له همة إلَّا الدنيا ، اعلم أن عند اللَّه ثواب الدنيا والآخرة ، وإذا سألته من هذه وهذه أعطاك وأغناك وأقناك ، وقد زعم ابن جرير أن المعنى في هذه الآية ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴾ أي من المنافقين الذين أظهروا الإيمان لأجل ذلك ﴿ فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ وهو ما حصل لهم من المغانم وغيرها مع المسلمين . وقوله : ﴿ وَالْآخِرَةِ ﴾ أي وعند الله ثواب الآخرة وهو ما ادَّخره لهم من العقوبة في نار جهنم ، ولا شك أن هذه الآية معناها ظاهر ، وأما تفسيره الآية الأولى بهذا ففيه نظر ، فإن قوله : ﴿ فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ ظاهر في حصول الخير في الدنيا والآخرة ، أي بيده هذا وهذا ، فلا يقتصرن قاصر الهمة على السعي للدنيا فقط ، بل لتكن همَّته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة ، فإن مرجع ذلك كله إلى الذي بيده الضرُّ والنفع ، وهو الله لا إله إلَّا هو ، الذي قد قسم السعادة والشقاوة بين الناس في الدنيا والآخرة ، وعدل بينهم فيما علمه فيهم ممَّن يستحقُّ هذا وممن يستحق هذا . ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ .

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط أي بالعدل ، فلا يعدلوا عنه يمينًا ولا شمالًا ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا يصرفهم عنه صارف ، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه . وقوله : ﴿ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ كما قال : ﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ أي أدُّوها ابتغاء وجه الله ، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقًّا ، خالية من التحريف والتبديل والكتمان ، ولهذا قال : ﴿ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي اشهد الحق ولو عاد ضررها عليك ، وإذا سئلت عن الأمر فقل الحقَّ فيه ولو عادت مضرَّته عليك ، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجًا ومخرجًا من كل أمر يضيق عليه . وقوله : ﴿ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ أي وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك فلا تراعهم فيها ، بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم ، فإن الحق حاكم على كل أحد وقوله : ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ أي لا ترعاه لغناه ، ولا تشفق عليه لفقره ، الله يتولاهما ، بل هو أولى بهما منك . وأعلم بما فيه صلاحهما . وقوله : ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ﴾ أي فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في أمركم وشؤونكم ، بل الزموا العدل على أي حال كان ، ومن هذا قول عبد الله بن رواحة لما بعثه النبيّ ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم

وزروعهم ، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال : والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليّ ، ولأنتم أبغض إلي من أعدادكم من القردة والخنازير ، وما يحملني حبي إياه ، وبغضي لكم ، على أن لا أعدل فيكم ، فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض . وقوله : ﴿ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ ﴾ قال مجاهد وغير واحد من السلف : ﴿ تَلْوُۥٓا۟ ﴾ أي تحرّفوا الشهادة وتغيّروها ، واللّي هو التحريف وتعمّد الكذب . والإعراض هو كتمان الشهادة وتركها ، وقال النبيّ ﷺ : « خَيْرُ الشُّهَدَاءِ الَّذِي يَأْتِي بِالشَّهَادَةِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا » [(1)] ولهذا توعّدهم الله بقوله : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ أي وسيجازيكم بذلك .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ .

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه ، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل ، بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه ، كما يقول المؤمن في كل صلاة : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي بصّرنا ، وزدنا هدى ، وثبّتنا عليه ، فأمرهم بالإيمان به وبرسوله ، كما قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ ﴾ وقوله : ﴿ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ يعني القرآن ﴿ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة ، وقال في القرآن : ﴿ نَزَّلَ ﴾ لأنه نزل مفرقًا منجمًا على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم ، وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة ؛ لهذا قال تعالى : ﴿ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ أي فقد خرج عن طريق الهدى ، وبعُد عن القصد كل البعد .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ۝ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۝١٣٩ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ .

يخبر تعالى عمّن دخل في الإيمان ، ثم رجع عنه ثم عاد فيه ، ثم رجع واستمرّ على ضلاله وازداد حتى مات ، فإنه لا توبة بعد موته ، ولا يغفر الله له ، ولا يجعل له مما هو فيه فرجًا ولا مخرجًا ولا طريقًا إلى الهدى ، ولهذا قال : ﴿ لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴾ عن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا ﴾ قال : تمادوا على كفرهم حتى ماتوا . وعن علي رضي الله عنه أنه قال : يُستتاب المرتدُّ ثلاثًا ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴾ ثم قال : ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ يعني أن المنافقين من هذه الصفة فإنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم ، ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة يوالونهم ويسرُّون إليهم بالمودة ، ويقولون لهم ، إذا خلوا بهم : إنا نحن معكم إنما نحن مستهزئون ، أي بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة . قال الله تعالى منكرًا عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين : ﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ ﴾ ثم أخبر الله تعالى بأن العزة كلها له وحده لا شريك له ، ولمن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٣/٥) .

جعلها له ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ والمقصود من هذا التهييج على طلب العزّة من جناب اللّٰه ، والإقبال على عبوديته ، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد . ويناسب هنا أن نذكر الحديث الذي روي عن أبي ريحانة أن النبيّ ﷺ قال : « مَنِ انْتَسَبَ إِلَى تِسْعَةِ آبَاءٍ كُفَّارٍ يُرِيدُ بِهِمْ عِزًّا وَفَخْرًا فَهُوَ عَاشِرُهُمْ فِي النَّارِ » (١) .

وقوله : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ، ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات اللّٰه ويستهزأ وينتقص بها ، وأقررتموهم على ذلك ، فقد شاركتموهم في الذي هم فيه . فلهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ في المأثم كما جاء في الحديث : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللّٰه وَالْيَوْم الآخِرِ فَلاَ يَجْلِسْ عَلَى مَائِدَةٍ يُدَارُ عَلَيْهَا الخَمْرُ » (٢) . والذي أحيل عليه في هذه الآية من النهي في ذلك هو قوله تعالى في سورة الأنعام وهي مكية : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ الآية . قال مقاتل بن حيان ، حين نسخت هذه الآية التي في سورة الأنعام يعني نسخ قوله : ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ لقوله : ﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ أي كما أشركوهم في الكفر ، كذلك يشارك اللّٰه بينهم في الخلود في نار جهنم أبدًا ، ويجمع بينهم في دار العقوبة والنكال والقيود والأغلال وشراب الحميم والغسلين لا الزلال .

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ .

يخبر تعالى عن المنافقين أنهم يتربَّصون بالمؤمنين دوائر السوء ، بمعنى ينتظرون زوال دولتهم ، وظهور الكفرة عليهم ، وذهاب ملّتهم ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي نصر وتأييد وظفر وغنيمة ﴿ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ أي يتودَّدون إلى المؤمنين بهذه المقالة ﴿ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ ﴾ أي إدالة على المؤمنين في بعض الأحيان كما وقع يوم أحد ، فإن الرسل تبتلى ثم يكون لها العاقبة ﴿ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي ساعدناكم في الباطن ، وما ألوناهم خبالًا وتخذيلًا حتى انتصرتم عليهم . وقال السدي : ﴿ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ ﴾ : نغلب عليكم ، وهذا أيضًا تودُّد منهم إليهم ؛ فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء ليحظوا عندهم ويأمنوا كيدهم ، وما ذاك إلَّا لضعف إيمانهم وقلة إيقانهم . قال تعالى : ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي بما يعلمه منكم أيها المنافقون من البواطن الرديئة ، فلا تغترّوا بجريان الأحكام الشرعية عليكم ظاهرًا في الحياة الدنيا لما له في ذلك من الحكمة ، فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم ، بل هو يوم تبلى فيه السرائر ويحصَّل ما في الصدور . وقوله : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ . عن سبيع الكندي قال : جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فقال : كيف هذه الآية ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ . فقال علي ﷺ : أُدْنُه أُدْنُه ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ . وعن ابن عبّاس ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ أي حجّة . ويحتمل أن يكون المعنى ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ أي في الدنيا بأن يسلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية ، وإن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٣٣) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٠١) .

حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس ، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ الآية ، وعلى هذا يكون ردًّا على المنافقين فيما أملوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين ، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين خوفًا على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم كما قال تعالى : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ نَادِمِينَ ﴾ وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية الكريمة على أصح قولي العلماء وهو المنع من بيع العبد المسلم للكافرين ، لما في صحة ابتياعه من التسليط له عليه والإذلال ، ومن قال منهم بالصحة يأمره بإزالة ملكه عنه في الحال ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ .

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَوٰةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ .

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ لا شك أن الله لا يخادع ، فإنه العالم بالسرائر والضمائر ، ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم يعتقدون أن أمرهم ، كما راج عند الناس وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهرًا ، فكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة ، وأن أمرهم يروج عنده ، كما أخبره تعالى عنهم أنهم يوم القيامة يحلفون له أنهم كانوا على الاستقامة والسداد ، ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ أي هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ، ويخذلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا ، وكذلك يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ وقد ورد في الحديث : « مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ ، وَمَنْ رَايَا رَايَا اللَّهُ بِهِ » (١) . وقوله : ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَوٰةِ قَامُوا كُسَالَىٰ ﴾ الآية ، هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها ، وهي الصلاة ؛ إذا قاموا وهم كسالى عنها ؛ لأنهم لا نيّة لهم فيها ، ولا إيمان لهم بها ولا خشية ، ولا يعقلون معناها . كما روي عن ابن عبّاس قال : يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان ، ولكن يقوم إليها طلق الوجه ، عظيم الرغبة ، شديد الفرح ؛ فإنه يناجي الله ، وإن الله تجاهه يغفر له ويجيبه إذا دعاه ، ثم يتلو هذه الآية : ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَوٰةِ قَامُوا كُسَالَىٰ ﴾ . فقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَوٰةِ قَامُوا كُسَالَىٰ ﴾ هذه صفة ظواهرهم .

ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة فقال : ﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ ﴾ أي لا إخلاص لهم ، ولا معاملة مع الله ، بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة . ولهذا يتخلفون كثيرًا عن الصلاة التي لا يُرون فيها غالبًا ، كصلاة العشاء في وقت العتمة ، وصلاة الصبح في وقت الغلس ، كما ثبت أن رسول الله ﷺ قال : « أَثْقَلُ الصَّلاةِ على المُنَافِقِينَ صَلاةُ العِشَاءِ وَصَلاةُ الفَجْرِ ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ ما فِيهِمَا لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا ، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلاةِ فَتُقَامَ ، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيُصَلِّي بِالنَّاسِ ، ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِي بِرِجَالٍ وَمَعَهُمْ حزَمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لا يَشْهَدُونَ الصَّلاةَ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ » (٢) . وعن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَحْسَنَ الصَّلاةَ حَيْثُ يَرَاهُ النَّاسُ ، وَأَسَاءَها حَيْثُ يَخْلُو ، فَتِلْكَ اسْتِهَانَةٌ اسْتَهانَ بِها رَبَّهُ ﷻ » (٣) .

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٤٧) والترمذي في السنن (١٠٩٧) وأحمد في مسنده (٤٥/٥) .

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٦٣) وأحمد في مسنده (٢٤٢/٢) . (٣) أخرجه البيهقي في السنن (٢٩٠/٢) .

وقوله : ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي في صلاتهم لا يخشعون ولا يدرون ما يقولون ، بل هم في صلاتهم ساهون لاهون ، وعمّا يراد بهم من الخير معرضون . وقد روي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « تِلْكَ صَلاةُ المُنَافِقِ ، تِلْكَ صَلاةُ المُنَافِقِ ، تِلْكَ صَلاةُ المُنَافِقِ ؛ يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَي الشَّيْطَانِ ، قَامَ فَنَقَرَ أَرْبَعًا لا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا » (١) .

وقوله : ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يعني المنافقين محيَّرين بين الإيمان والكفر ، فلا هم مع المؤمنين ظاهرًا وباطنًا ، ولا مع الكافرين ظاهرًا وباطنًا ، بل ظواهرهم مع المؤمنين ، وبواطنهم مع الكافرين ، ومنهم من يعتريه الشك فتارة يميل إلى هؤلاء وتارة يميل إلى أولئك ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ﴾ الآية . وقال مجاهد ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يعني أصحاب محمّد ﷺ ﴿ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يعني اليهود . عن ابن عمر عن النبيّ ﷺ قال : « مَثَلُ المُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ العَائِرَةِ بَيْنَ الغَنَمَيْنِ ، تُعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً ، وَلا تَدْرِي أَيُّهُمَا تَتْبَعُ » (٢) .

وعن قتادة ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يقول : ليسوا بمؤمنين مخلصين ، ولا مشركين مصرّحين بالشرك ، قال : وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يضرب مثلًا للمؤمن وللمنافق وللكافر ، كمثل رهط ثلاثة دفعوا إلى نهر ، فوقع المؤمن فقطع ، ثم وقع المنافق حتى إذا كاد يصل إلى المؤمن ناداه الكافر : أن هلم إليّ فإني أخشى عليك ، وناداه المؤمن أن هلم إلي فإن عندي وعندي يحظى له ما عنده ، فما زال المنافق يتردد بينهما حتى أتى أذى فغرّقه ، وإن المنافق لم يزل في شك وشبهة حتى أتى عليه الموت وهو كذلك . قال : وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول : « مَثَلُ المُنَافِقِ كَمَثَلِ ثَاغِيَةٍ بَيْنَ غَنَمَيْنِ رَأَتْ غَنَمًا عَلَى نَشَزٍ فَأَتَتْهَا وَشَامَتْهَا فَلَمْ تعرفْ ، ثُمَّ رَأَتْ غَنَمًا على نَشَزٍ فَأَتَتْهَا فَشَامَتْهَا فَلَمْ تعرفْ » (٣) ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ أي ومن صرفه عن طريق الهدى ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ فإنه ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ﴾ والمنافقون الذين أضلّهم عن سبيل النجاة فلا هادي لهم ، ولا منقذ لهم مما هم فيه ؛ فإنه تعالى لا معقب لحكمه ، ولا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ .

ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، يعني مصاحبتهم ، ومصادقتهم ، ومناصحتهم وإسرار المودّة إليهم ، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ أي يحذركم عقوبته في ارتكابكم نهيه ، ولهذا قال ها هنا : ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ أي حجّة عليكم في عقوبته إياكم . وعن ابن عبّاس قوله : ﴿ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ قال :

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد (١٩٥) والترمذي في السنن (١٦٠) .

(٢ ، ٣) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (١٧) بلفظ : « مثل المنافقين كمثل الشاة بين الغنمين .. » والنسائي في السنن (٢٢٤/٨) .

كلُّ سلطان في القرآن حجَّة . ثم أخبر تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ أي يوم القيامة جزاء على كفرهم الغليظ . قال ابن عبّاس : ﴿ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ : أي في أسفل النار ، وقال غيره : النار دركات ، كما أن الجنة درجات ، وعن أبي هريرة : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ قال : الدرك الأسفل : بيوت لها أبواب تطبق عليهم ، فتوقد من تحتهم ومن فوقهم . وعن عبد اللَّه بن مسعود ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ قال : في توابيت من نار تطبق عليهم ، أي مغلقة مقفلة .

ثم أخبر تعالى أن من تاب منهم في الدنيا تاب عليه ، وقبل ندمه إذا أخلص في توبته ، وأصلح عمله ، واعتصم بربِّه في جميع أمره ، فقال تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ أي بدلوا الرياء بالإخلاص ، فينفعهم العمل الصالح وإن قلَّ . وعن معاذ بن جبل : أن رسول اللَّه ﷺ قال : « أَخْلِصْ دِينَكَ يَكْفِكَ القَلِيلُ مِنَ العَمَلِ » (١) ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي في زمرتهم يوم القيامة ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ، ثم قال تعالى : مخبرًا عن غناه عمّا سواه ، وأنه إنما يعذب العباد بذنوبهم ، فقال تعالى : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ أي أصلحتم العمل وآمنتم باللَّه ورسوله ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ أي مَن شكر شكر له ، ومَن آمن قلبه به ، علمه وجازاه على ذلك أوفر الجزاء .

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ .

عن ابن عبّاس في الآية يقول : لا يحب اللَّه أن يدعو أحد على أحد إلَّا أن يكون مظلومًا ، فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه ، وذلك قوله : ﴿ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ وإن صبر فهو خير له . وعن عائشة قالت : سرق لها شيء فجعلت تدعو عليه ، فقال النبيّ ﷺ : « لاَ تُسَبِّخِي عَنْهُ » (٢) . وقال الحسن البصري : لا يدعو عليه ، وليقل : اللَّهمّ أعني عليه ، واستخرج حقِّي منه . وفي رواية عنه قال : قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدى عليه . وقال عبد الكريم بن مالك الجزري : في هذه الآية : هو الرجل يشتمك فتشتمه ، ولكن إن افترى عليك فلا تفتر عليه لقوله : ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ . وعن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال : « المُسْتَبَّانِ ما قَالا : فَعَلَى البَادِئِ مِنْهُما ما لَمْ يَعْتَدِ المَظْلُومُ » (٣) . وعن مجاهد في قوله : ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ قال : ضاف رجل رجلًا لم يؤدِّ إليه حقَّ ضيافته ، فلما خرج أخبر الناس فقال : ضفت فلانًا فلم يؤد إليّ حق ضيافتي ، قال : فذلك الجهر بالسوء من القول إلَّا من ظلم ، حتى يؤدي الآخر إليه حق ضيافته . وعن عقبة بن عامر قال : قلنا : يا رسول اللَّه إنك تبعثنا فننزل بقوم فلا يُقرونا ، فما ترى في ذلك ؟ فقال : « إِذَا نَزَلْتُمْ بِقَوْمٍ فَأَمَرُوا لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِي للضَّيْفِ فَاقْبَلُوا مِنْهُم ، وَإِنْ لم يَفْعَلُوا فَخُذُوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ الَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ » (٤) .

وعن أبي هريرة أن رجلًا أتى النبيّ ﷺ فقال : إن لي جارًا يؤذيني ، فقال له : « أَخْرِجْ مَتَاعَكَ فَضَعْهُ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٠٦/٤) والمنذري في الترغيب (٥٤/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥/٦) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٨١) وأبو داود في السنن (٤٨٩٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٩/٤) .

عَلَى الطَّرِيقِ » فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق ، فكلّ من مرَّ به قال : ما لك ؟ قال : جاري يؤذيني ، فيقول : اللَّهمّ العنه اللهمَّ اخزه ، قال : فقال الرجل : ارجع إلى منزلك والله لا أؤذيك أبدًا (١) .

وقوله : ﴿ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ أي إن أظهرتم أيها الناس خيرًا أو أخفيتموه أو عفوتم عمّن أساء إليكم ، فإن ذلك مما يقربكم عند الله ويجزل ثوابكم ، فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم ، ولهذا قال : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ ، ولهذا ورد في الأثر أن حملة العرش يسبّحون الله فيقول بعضهم : سبحانك على حلمك بعد علمك ، ويقول بعضهم : سبحانك على عفوك بعد قدرتك . وفي الحديث الصحيح : « مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ ، وَلاَ زَادَ اللّه عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا ، وَمَنْ تَوَاضَعَ للّه رَفَعَهُ » (٢) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

يتوعَّد تبارك وتعالى الكافرين به وبرسله من اليهود والنصارى حيث فرَّقوا بين الله ورسله في الإيمان ، فآمنوا ببعض الأنبياء ، وكفروا ببعض بمجرد التشهّي والعادة وما ألفوا عليه آباءهم ، لا عن دليل قادهم إلى ذلك ، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك ، بل بمجرد الهوى والعصبية . فاليهود - عليهم لعائن الله - آمنوا بالأنبياء إلّا عيسى ومحمّد عليهما الصلاة والسلام ، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمّد ﷺ ، والسامرة لا يؤمنون بنبيٍّ بعد يوشع خليفة موسى بن عمران ، والمجوس يقال : إنهم كانوا يؤمنون بنبي لهم يقال له زرادشت ، ثم كفروا بشرعه فرفع من بين أظهرهم والله أعلم . والمقصود أن من كفر بنبيٍّ من الأنبياء ، فقد كفر بسائر الأنبياء ، فإن الإيمان واجب بكل نبيٍّ بعثه الله إلى أهل الأرض ، فمن ردَّ نبوّته للحسد أو العصبية أو التشهي تبيَّنَ أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيمانًا شرعيًّا ، إنما هو عن غرض وهوى وعصبية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ فوسمهم بأنهم كفّار بالله ورسله ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ أي في الإيمان ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ أي طريقًا ومسلكًا .

ثم أخبر تعالى عنهم فقال : ﴿ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ ﴾ أي كفرهم محقَّق لا محالة بمن ادَّعوا الإيمان به ؛ لأنه ليس شرعيًّا ؛ إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره ، وبمن هو أوضح دليلًا وأقوى برهانًا منه ، أو نظروا حقَّ النظر في نبوّته . وقوله : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ أي كما استهانوا بمن كفروا به ، إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله وإعراضهم عنه ، وإقبالهم على جمع حطام الدنيا مما لا ضرورة بهم إليه ، وإما بكفرهم به بعد علمهم بنبوّته ، كما كان يفعله كثير من أحبار اليهود في زمان رسول الله ﷺ ، حيث حسدوه على ما آتاه الله من النبوة العظيمة وخالفوه وكذبوه وعادوه وقاتلوه ، فسلط الله عليهم الذل الدنيوي الموصول بالذل الأخروي ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ﴾ في الدنيا والآخرة .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/١٦٥) . (٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٠٢٩) والطبراني في الكبير (١١/٤٠٥) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ يعني بذلك أمة محمد ﷺ فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله ، وبكل نبيّ بعثه الله ، كما قال تعالى : ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ ﴾ الآية ، ثم أخبر تعالى بأنه قد أعد لهم الجزاء الجزيل ، والثواب الجليل ، والعطاء الجميل ، فقال : ﴿ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ على ما آمنوا بالله ورسله ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أي لذنوبهم أي إن كان لبعضهم ذنوب .

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ .

وقال محمّد بن كعب القرظي والسدي وقتادة : سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا من السماء ، كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة . قال ابن جريج : سألوه أن ينزل عليهم صحفًا من الله مكتوبة إلى فلان وفلان وفلان بتصديقه فيما جاءهم به ، وهذا إنما قالوه على سبيل التعنُّت والعناد والكفر والإلحاد ، كما سأل كفّار قريش قبلهم نظير ذلك ، كما هو مذكور في سورة سبحان : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴾ الآيات . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ أي بطغيانهم وبغيهم ، وعتوِّهم وعنادهم ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ أي من بعد ما رأوا من الآيات الباهرة والأدلة القاهرة على يد موسى عليه السلام في بلاد مصر ، وما كان من إهلاك عدوِّهم فرعون وجميع جنوده في اليمّ ، فما جاوزوه إلَّا يسيرًا حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا لموسى : ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ الآية . ثم ذكر تعالى قصة اتخاذهم العجل مبسوطة في سورة الأعراف وفي سورة طه بعد ذهاب موسى إلى مناجاة الله عز وجل ، ثم لما رجع وكان ما كان جعل الله توبتهم من الذي صنعوه وابتدعوه أن يقتل من لم يعبد العجل منهم مَن عبده ، فجعل يقتل بعضهم بعضًا ، ثم أحياهم الله عز وجل . وقال الله تعالى : ﴿ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ ﴾ وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة ، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى عليه السلام ، رفع الله على رؤوسهم جبلًا ، ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا ، وجعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خشية أن يسقط عليهم ، ﴿ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ أي فخالفوا ما أمروا به من القول والفعل ، فإنهم أمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس سجدًا ، وهم يقولون حطَّة ، أي اللهم حطّ عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد ونكولنا عنه ، حتى تهنا في التيه أربعين سنة ، فدخلوا يزحفون على أستاهم وهم يقولون : حنطة في شعرة ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ ﴾ أي وصيناهم بحفظ السبت والتزام ما حرم الله عليهم ما دام مشروعًا لهم ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ أي شديدًا فخالفوا وعصوا وتحيَّلوا على ارتكاب ما حرَّم الله عز وجل .

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ

ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ .

وهذا من الذنوب التي ارتكبوها مما أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى ، وهو نقضهم المواثيق والعهود التي أخذت عليهم ، وكفرهم بآيات اللَّه - أي حججه وبراهينه - والمعجزات التي شاهدوها على يد الأنبياء عليهم السلام . قوله : ﴿ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ وذلك لكثرة إجرامهم واجترائهم على أنبياء اللَّه ، فإنهم قتلوا جمًّا غفيرًا من الأنبياء عليهم السلام . وقولهم : ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وقتادة وغير واحد : أي في غطاء ، وهذا كقول المشركين ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ ﴾ الآية . وقيل : معناه أنهم ادعوا أن قلوبهم غلف للعلم ، أي أوعية للعلم قد حوته وحصلته . فعلى القول الأول كأنهم يعتذرون إليه بأن قلوبهم لا تعي ما يقول ؛ لأنها في غلف وفي أكنة ، قال اللَّه : بل هي مطبوع عليها بكفرهم . وعلى القول الثاني عكس عليهم ما ادعوه من كل وجه ، وقد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة البقرة : ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي تمرنت قلوبهم على الكفر والطغيان ، وقلة الإيمان ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ قال ابن عبّاس : يعني أنهم رموها بالزنا . وكذلك قال السدي وجويبر ومحمّد بن إسحاق وغير واحد وهو ظاهر من الآية أنهم رموها وابنها بالعظائم ، فجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك ، زاد بعضهم : وهي حائض ، فعليهم لعائن اللَّه المتتابعة إلى يوم القيامة .

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ أي هذا الذي يدَّعي لنفسه هذا المنصب قتلناه ، وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء . وكان من خبر اليهود عليهم لعائن اللَّه وسخطه وغضبه وعقابه ، أنه لما بعث اللَّه عيسى ابن مريم بالبيّنات والهدى حسدوه على ما آتاه اللَّه تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات التي كان يبرئ بها الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن اللَّه ، ويصوِّر من الطين طائرًا ، ثم ينفخ فيه فيكون طائرًا يشاهد طيرانه بإذن اللَّه عز وجل ، إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمه اللَّه بها وأجراها على يديه ، ومع هذا كذبوه وخالفوه ، وسعوا في أذاه بكل ما أمكنهم ، حتى جعل نبي اللَّه عيسى عليه السلام لا يساكنهم في بلدة ، بل يكثر السياحة هو وأمه عليهما السلام ، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان - وكان رجلًا مشركًا من عبدة الكواكب ، وكان يقال لأهل ملته اليونان - وأنهوا إليه أن في بيت المقدس رجلًا يفتن الناس ، ويضلُّهم ويفسد على الملك رعاياه ، فغضب الملك من هذا وكتب إلى نائبه بالمقدس أن يحتاط على هذا المذكور ، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه ، ويكف أذاه عن الناس ، فلما وصل الكتاب امتثل والي بيت المقدس ذلك ، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى عليه السلام ، وهو في جماعة من أصحابه اثني عشر أو ثلاثة عشر ، وقيل : سبعة عشر نفرًا ، وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت فحصروه هنالك ، فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه إليهم ، قال لأصحابه : أيُّكم يُلقى عليه شبهي وهو رفيقي في الجنّة ، فانتدب لذلك شاب منهم ، فكأنه استصغره عن ذلك ، فأعادها ثانية وثالثة ، وكلُّ ذلك لا ينتدب إلَّا ذلك الشاب ، فقال : أنت هو ، وألقى اللَّه عليه شبه عيسى حتى كأنه هو ، وفتحت روزنة من سقف البيت ، وأخذت عيسى عليه السلام سنة من النوم ، فرُفع إلى السماء وهو كذلك ، كما قال

الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ الآية ، فلما رُفع خرج أولئك النفر ، فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى ، فأخذوه في الليل وصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه ، وأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه وتبجّحوا بذلك ، وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك لجهلهم وقلة عقلهم ، ما عدا من كان في البيت مع المسيح فإنهم شاهدوا رفعه ، وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو المسيح ابن مريم ، حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت ، ويقال : إنه خاطبها ، والله أعلم . وهذا كله من امتحان الله عباده ، لما له في ذلك من الحكمة البالغة ، وقد أوضح الله الأمر وجلاه وبيّنه وأظهره في القرآن العظيم الذي أنزله على رسوله الكريم المؤيد بالمعجزات والبيّنات والدلائل الواضحات ، فقال تعالى وهو أصدق القائلين ، ورب العالمين المطّلع على السرائر والضمائر ، الذي يعلم السرَّ في السموات والأرض ، العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ أي رأوا شبهه فظنّوه إياه . ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ يعني بذلك من ادَّعى أنه قتله من اليهود ، ومن سلمه إليهم من جهّال النصارى ، كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال وسعر ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ أي وما قتلوه متيقّنين أنه هو ، بل شاكين متوهّمين ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا ﴾ أي منيع الجناب ، لا يرام جنابه ولا يضام من لاذ ببابه ﴿ حَكِيمًا ﴾ أي في جميع ما يقدّره ويقضيه من الأمور التي يخلقها ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة والسلطان العظيم والأمر القديم .

عن ابن عبّاس قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه ، وفي البيت اثنا عشر رجلًا من الحواريّين ، يعني فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء ، فقال : إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي ، قال : ثم قال : أيّكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي ؟ فقام شاب من أحدثهم سنًّا ، فقال له : اجلس ، ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب فقال : اجلس ، ثم أعاد عليهم فقام الشاب ، فقال : أنا ، فقال : هو أنت ذاك ، فألقي عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء ، قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه ، فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به ، وافترقوا ثلاث فرق ، فقالت فرقة : كان الله فينا ما شاء ، ثم صعد إلى السماء وهؤلاء اليعقوبية ، وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ، ثم رفعه الله إليه وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ، ثم رفعه الله إليه وهؤلاء المسلمون ، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله محمّدًا ﷺ .

وقوله : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ قال ابن جرير : اختلف أهل التأويل في معنى ذلك ، فقال بعضهم : معنى ذلك ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ يعني قبل موت عيسى ، يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال ، فتصير الملل كلها واحدة ، وهي ملة الإسلام الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام .

ذكر من قال ذلك : عن ابن عبّاس ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ قال : قبل موت عيسى ابن مريم عليه السلام . وقال أبو مالك : ذلك عند نزول عيسى ، وقبل موت عيسى ابن مريم عليه السلام ، لا يبقى أحد من

أهل الكتاب إلَّا آمن به . وعن ابن عبّاس ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ يعني اليهود خاصة . وقال الحسن البصري : يعني النجاشي وأصحابه . وعن الحسن قال : قبل موت عيسى ، والله إنه لحيٌّ الآن عند الله ، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون . وعن جويرية بن بشير ، قال : سمعت رجلًا قال للحسن : يا أبا سعيد قول الله ﷻ : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ قال : قبل موت عيسى ، إن الله رفع إليه عيسى وهو باعثه قبل يوم القيامة مقامًا يؤمن به البرُّ والفاجر . وهذا القول هو الحقُّ ، كما سنبينه بعد بالدليل القاطع .

قال ابن جرير ، وقال آخرون : يعني بذلك ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ ﴾ بعيسى قبل موت صاحب الكتاب .

ذكر من كان يوجه ذلك إلى أنه إذا عاين علم الحق من الباطل ؛ لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبيَّن له الحق من الباطل في دينه . وعن مجاهد : كل صاحب كتاب يؤمن بعيسى قبل موته ، قبل موت صاحب الكتاب . وعن ابن عبّاس قال : لا يموت اليهودي حتى يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله ولو عجل عليه بالسلاح . وقال : لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى عليه السلام ، وإن ضرب بالسيف تكلم به ، قال : وإن هوى تكلم به وهو يهوي . فهذه كلها أسانيد صحيحة إلى ابن عبّاس ، وكذا صح عن مجاهد وعكرمة ومحمّد بن سيرين . وعن الحسن قال : لا يموت أحد منهم حتى يؤمن بعيسى قبل أن يموت ، وهذا يحتمل أن يكون مراد الحسن ما تقدم عنه ، ويحتمل أن يكون مراده ما أراد هؤلاء .

وقال ابن جرير ، وقال آخرون : معنى ذلك : وإن من أهل الكتاب إلَّا ليؤمنن بمحمّد ﷺ قبل موت صاحب الكتاب .

قال عكرمة : لا يموت النصراني ولا اليهودي حتى يؤمن بمحمّد ﷺ ، وقوله : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ .

ثم قال ابن جرير : وأولى هذه الأقوال بالصحة القول الأول ، وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام إلَّا آمن به قبل موت عيسى عليه السلام . ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح ؛ لأنه المقصود من سياق الآية في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه ، وتسليم من سلَّم لهم من النصارى الجهلة ذلك ، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك ، وإنما شبه لهم فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك ، ثم إنه رفعه إليه وإنه باق حي ، وإنه سينزل قبل يوم القيامة كما دلت عليه الأحاديث المتواترة التي سنوردها إن شاء الله قريبًا فيقتل مسيح الضلالة ، ويكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان ، بل لا يقبل إلَّا الإسلام أو السيف . فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ ، ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم . ولهذا قال : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ أي قبل موت عيسى عليه السلام الذي زعم اليهود ومن وافقهم من النصارى أنه قتل وصلب ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ أي بأعمالهم التي شاهدها منهم قبل رفعه إلى السماء ، وبعد نزوله إلى الأرض . فأما من فسّر هذه الآية بأن المعنى أن كل كتابي لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمّد عليهما الصلاة والسلام فهذا هو الواقع ، وذلك أن كل أحد عند احتضاره ينجلي له ما كان جاهلًا به فيؤمن به ،

ولكن لا يكون ذلك إيمانًا نافعًا له إذا كان قد شاهد الملك ، كما قال تعالى في أول هذه السورة : ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ ، وهذا يدل على ضعف ما احتج به ابن جرير في ردِّ هذا القول حيث قال : ولو كان المراد بهذه الآية هذا لكان كل من آمن بمحمّد ﷺ أو بالمسيح ممن كفر بهما يكون على دينهما ، وحينئذ لا يرثه أقرباؤه من أهل دينه ، لأنه قد أخبر الصادق أنه يؤمن به قبل موته ، فهذا ليس بجيد ؛ إذ لا يلزم من إيمانه في حالة لا ينفعه إيمانه أنه يصير بذلك مسلمًا ، ألا ترى قول ابن عبّاس : ولو تردى من شاهق أو ضرب بالسيف أو افترسه سبع فإنه لابد أن يؤمن بعيسى ، فالإيمان به في هذه الحال ليس بنافع ، ولا ينقل صاحبه عن كفره لما قدمناه والله أعلم . ومن تأمل هذا جيدًا وأمعن النظر اتضح له أنه هو الواقع ، لكن لا يلزم منه أن يكون المراد بهذه الآية هذا ، بل المراد بها الذي ذكرناه من تقرير وجود عيسى عليه السلام وبقاء حياته في السماء ، وأنه سينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ليكذب هؤلاء وهؤلاء من اليهود والنصارى الذين تباينت أقوالهم فيه ، وتصادمت وتعاكست وتناقضت وخلت عن الحقّ ، ففرط هؤلاء اليهود ، وأفرط هؤلاء النصارى ، تنقصه اليهود بما رموه به وأمه من العظائم ، وأطراه النصارى بحيث ادَّعوا فيه ما ليس فيه ، فرفعوه في مقابلة أولئك عن مقام النبوة إلى مقام الربوبية تعالى الله عما يقول هؤلاء وهؤلاء علوًّا كبيرًا ، وتنزه وتقدس لا إله إلا هو .

ذِكْرُ الأَحَادِيثِ الوَارِدَةِ فِي نُزُوْلِ عِيْسَى ابن مَرْيَم

إِلى الأَرْضِ مِنَ السَّمَاءِ فِي آخرِ الزَّمَان قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَة وأَنَّهُ يَدْعُو إِلى عِبَادَة اللَّه وَحْدَه لا شريكَ له .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا ، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ ، وَيَضَعُ الجِزْيَةَ ، وَيُفِيضُ المَالَ حَتَّى لا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ ، وَحَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ خَيْرًا لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ (١) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كَيْفَ بِكُمْ إِذَا نَزَلَ فِيكُمْ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ ؟! » (٢) .

وعن أبي هريرة أن النبيَّ ﷺ قال : « الأَنْبِياءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنِّي أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، وَإِنَّه نَازِلٌ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ ، رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الحُمْرَةِ وَالبَيَاضِ ، عَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَصَّرَانِ كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لم يُصِبْهُ بَلَلٌ ، فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ ، وَيَضَعُ الجِزْيَةَ ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى الإِسْلامِ ، وَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ المِلَلَ كُلَّهَا إِلَّا الإِسْلامَ ، وَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ المَسِيحَ الدَّجَّالَ ، ثُمَّ تَقَعُ الأَمَنَةُ عَلَى الأَرْضِ حَتَّى تَرْتَعَ الأُسُودُ مَعَ الإِبِلِ ، وَالنِّمَارُ مَعَ البَقَرِ ، وَالذِّئَابُ مَعَ الغَنَمِ ، وَيَلْعَبُ الصِّبْيَانُ بِالحَيَّاتِ لا تَضُرُّهُمْ ، فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ يتوفى وَيُصَلِّي عَلَيْهِ المُسْلِمُونَ » (٣)

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٨) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٣٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٠٦) .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَنزِلَ الرُّومُ بِالأَعْمَاقِ أَوْ بِدابِق ، فَيَخْرُجَ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ المَدِينَةِ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ ، فَإِذَا تَصَافُّوا قَالَتِ الرُّومُ : خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نُقَاتِلْهُمْ ، فَيَقُولُ المُسْلِمُونَ : لا وَاللَّه لا نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا ، فَيُقَاتِلُوهُمْ فَيَنْهَزِمُ ثُلُثٌ لا يَتُوبُ اللَّه عَلَيْهِمْ أَبَدًا وَيُقْتَلُ ثُلُثٌ هُمْ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللَّه ، وَيُفْتَحُ الثُّلُثُ لا يُفْتَنُونَ أَبَدًا فَيَفْتَحُونَ قُسْطَنْطِينِيَّةَ ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْسِمُونَ الغَنَائِمَ قَدْ عَلَّقُوا سيوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ إِذْ صَاحَ فِيهِمُ الشَّيْطَانُ : إِنَّ المَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ فَيَخْرُجُونَ ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ ، فَإِذَا جَاءُوا الشَّامَ خَرَجَ ، فَبَيْنَمَا هُمْ يُعِدُّونَ لِلْقِتَالِ يُسَوُّون الصُّفُوفَ ، إِذْ أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ فينزل عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَيَؤُمُّهُمْ ، فَإِذَا رَآهُ عَدُوُّ اللَّه ذَابَ كَمَا يَذُوبُ المِلْحُ فِي المَاءِ ، فَلَوْ تَرَكَهُ لَذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ ، وَلكِنْ يَقْتُلُهُ اللَّه بِيَدِهِ فيُرِيهم دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ »(١) .

وعن ابن مسعود عن رسول اللَّه ﷺ قال : « لَقِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى عليهم السلام ، فَتَذَاكَرُوا أَمْرَ السَّاعَةِ فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَقَالَ : لاَ عِلْمَ لِي بِهَا ، فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى مُوسَى فَقَالَ : لاَ عِلْمَ لِي بِهَا ، فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى عِيسَى فَقَالَ : أَمَّا وَجْبَتُهَا فَلاَ يَعْلَمُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا اللَّه ، وَفِيمَا عَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي عز وجل أَنَّ الدَّجَّالَ خَارِجٌ وَمَعِي قَضِيبَانِ ، فَإِذَا رَآنِي ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الرَّصَاصُ ، قَالَ : فَيُهْلِكُهُ اللَّه إِذَا رَآنِي ، حَتَّى إِنَّ الحَجَرَ وَالشَّجَرَ يَقُولُ : يَا مُسْلِمُ إِنَّ تَحْتِي كَافِرًا فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ ، قَالَ : فَيُهْلِكُهُمُ اللَّه ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَى بِلادِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فَيَطَؤُونَ بِلاَدَهُمْ ، فَلاَ يَأْتُونَ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا أَهْلَكُوهُ ، وَلاَ يَمُرُّونَ عَلَى مَاءٍ إِلَّا شَرِبُوهُ ، قَالَ : ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ يَشْكُونَهُمْ فَأَدْعُو اللَّه عَلَيْهِمْ فَيُهْلِكُهُمْ وَيُمِيتُهُمْ ، حَتَّى تَجْوَى الأَرْضُ مِنْ نَتَنِ رِيحِهِمْ ، وَيُنْزِلُ اللَّه المَطَرَ فَيَجْتَرِفُ أَجْسَادَهُمْ حَتَّى يَقْذِفَهُمْ فِي البَحْرِ ، فَفِيمَا عَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي عز وجل أَنَّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ أَنَّ السَّاعَةَ كَالحَامِلِ المُتِمِّ لاَ يَدْرِي أَهْلُهَا مَتَى تُفَاجِئُهُمْ بِولاَدِهَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا »(٢) .

وعن أبي نضرة قال : أتينا عثمان بن أبي العاص في يوم جمعة لنعرض عليه مصحفًا لنا على مصحفه ، فلما حضرت الجمعة أمرنا فاغتسلنا ، ثم أتينا بطيب فتطيَّبنا ، ثم جئنا المسجد فجلسنا إلى رجل فحدَّثنا عن الدجال ، ثم جاء عثمان بن أبي العاص فقمنا إليه فجلسنا فقال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « يَكُونُ لِلْمُسْلِمِينَ ثَلاَثَةُ أَمْصَارٍ : مِصْرٌ بِمُلْتَقَى البَحْرَيْنِ ، وَمِصْرٌ بِالحِيرَةِ ، وَمِصْرٌ بِالشَّامِ ، فَفزِع النَّاسُ ثَلاَثَ فَزَعَاتٍ ، فَيَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أَعْرَاضِ النَّاسِ فَيَهْزِمُ مِنْ قِبَلِ المَشْرِقِ ، فَأَوَّلُ مِصْرٍ يرده المِصْرُ الَّذِي بِمُلْتَقَى البَحْرَيْنِ ، فَيَصِيرُ أَهْلُهَا ثَلاَثَ فِرَقٍ : فِرْقَةٌ تَقُولُ نُقِيمُ نشامه نَنْظُرُ مَا هُوَ ، وَفِرْقَةٌ تَلْحَقُ بِالأَعْرَابِ ، وَفِرْقَةٌ تَلْحَقُ بِالمِصْرِ الَّذِي يَلِيهِمْ . وَمَعَ الدَّجَالِ سَبْعُونَ أَلْفًا عَلَيْهِمُ التِّيجَانُ ، وَأَكْثَرُ مَنْ مَعَهُ اليَهُودُ وَالنِّسَاءُ ، وَيَنْحَازُ المُسْلِمُونَ إِلَى عَقَبَةِ أفيق فَيَبْعَثُونَ سَرْحًا لَهُمْ فَيُصَابُ سَرْحُهُمْ ، فَيَشْتَدُّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَيُصِيبُهُمْ مَجَاعَةٌ شَدِيدَةٌ وَجَهْدٌ شَدِيدٌ ، حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَحْرِقُ وَتَرَ قَوْسِهِ فَيَأْكُلُهُ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ نَادَى مُنَادٍ مِنَ الشَّجَرِ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَتَاكُمُ الغَوْثُ - ثلاثًا - فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : إِنَّ هَذَا

(١) أخرجه مسلم في الفتن(٣٤) والحاكم في المستدرك(٤/٤٨٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده(١/٣٧٥) وابن ماجه في السنن(٤٠٨١)

لَصوتُ رجلٍ شَبْعَان ، وَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ عِنْدَ صَلاَةِ الفِجْرِ ، فَيَقُولُ لَهُ أَمِيرُهُمْ ، يَا رُوحَ اللَّه تَقَدَّمْ صَلِّ ، فَيَقُولُ : هَذِهِ الأُمَّةُ أُمَرَاءُ ، بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، فَيَتَقَدَّمُ أَمِيرُهُمْ فَيُصَلِّي ، حَتَّى إِذَا قَضَى صَلاَتَهُ أَخَذَ عِيسَى حَرْبَتَهُ فَيَذْهَبُ نَحْوَ الدَّجَّالِ ، فَإِذَا رَآهُ الدَّجَّالُ ذَابَ كَمَا يُذَابُ الرَّصاصُ ، فَيَضَعُ حَرْبَتَهُ بَيْنَ ثَنْدُوَتِهِ فَيَقْتُلُهُ وَيَهْزِمُ أَصْحَابُهُ ، فَلَيْسَ يَوْمَئِذٍ شَيْءٌ يُوَارِي مِنْهُمْ أَحَدًا ، حَتَّى إِنَّ الشَّجَرَةَ تَقُولُ : يَا مُؤْمِنُ هَذَا كَافِرٌ ، وَيَقُولُ الحَجَرُ : يَا مُؤْمِنُ هَذَا كَافِرٌ » (١) .

وعن النواس بن سمعان قال : ذكر رسول اللَّه ﷺ الدجالَ ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظننّاه في طائفة النخل ، فلما رحنا إليه عرف ذلك في وجوهنا ، فقال : « مَا شَأْنُكُمْ ؟! » قلنا : يا رسول اللَّه ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظننّاه في طائفة النخل ، قال : « غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ ، وَاللَّه خَلِيفَتِي على كُلِّ مُسْلِم . إِنَّه شَابٌّ قَطَطٌ ، عَيْنُهُ طَافِيَةٌ ، كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ العُزَّى ابْنِ قَطَنٍ ، مَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الكَهْفِ ، إِنَّهُ خَارِجٌ مِنْ خَلَّةٍ بَيْنَ الشَّامِ وَالعِرَاقِ ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمالاً ، يا عِبَادَ اللَّه فَاثْبُتُوا » قلنا : يا رسول اللَّه فما لبثه في الأرض ؟ قال : « أَرْبَعُونَ يَوْمًا ، يَوْمٌ كَسَنَةٍ ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ » قلنا : يا رسول اللَّه وذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : « لاَ ، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ » قلنا : يا رسول اللَّه وما إسراعه في الأرض ؟ قال : « كَالغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ فَيَأْتِي عَلَى قَوْمٍ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ ، وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرى وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ . ثُمَّ يَأْتِي القَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ . وَيَمُرُّ بِالخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا : أَخْرِجِي كُنُوزَكِ فتتبعه كنوزها كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلاً مُمْتَلِئًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الغَرَضِ ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ وَيَضْحَكُ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّه المَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﷺ ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ المَنَارَةِ البَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ كَجُمانِ اللُّؤْلُؤِ ، وَلاَ يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ (بِبَابِ لُدٍّ) فَيَقْتُلُهُ ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ﷺ قَوْمًا قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّه مِنْهُ ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ في الجَنَّةِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّه ﷻ إِلَى عِيسَى أَنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لاَ يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ ، وَيَبْعَثُ اللَّه يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا ، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ : لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ ، وَيَحْضُرُ نَبِيُّ اللَّه عِيسَى وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمُ اليَوْمَ ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّه عِيسَى وَأَصْحَابُهُ ، فَيُرْسِلُ اللَّه عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ . ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّه عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الأَرْضِ فَلاَ يَجِدُونَ فِي الأَرْضِ مَوْضِعَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١٦/٤) .

شِبْرٍ إِلَّا مَلأَ زَهَمُهُمْ وَنَتَنُهُمْ ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّه عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّه ، فَيُرْسِلُ اللَّه طَيْرًا كَأَعْنَاقِ البُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّه ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّه مَطَرًا لاَ يَكُن مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ ، فَيَغْسِلُ الأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزُّلْفَةِ . ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ : أَخْرِجِي ثَمرَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ العِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقَحْفِهَا ، وَيُبَارِكُ اللَّه فِي الرسلِ حَتَّى إِنَّ اللَّقْحَةَ مِنَ الإِبِلِ لَتَكْفِي الفِئَامَ مِنَ النَّاسِ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّه رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ ، فَيَقْبِضُ اللَّه رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الحُمُرِ ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ » (١) .

وعن عبد اللَّه بن عمرو وجاءه رجل فقال : ما هذا الحديث الذي تحدّث به : تقول إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ فقال : سبحان اللَّه - أو لا إله إلَّا اللَّه أو كلمة نحوهما - لقد هممت أن لا أحدّث أحدًا شيئًا أبدًا ، إنما قلت إنكم سترون بعد قليل أمرًا عظيمًا : يحرق البيت ويكون ويكون ثم قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ - لا أَدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا ، أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا - فَيَبْعَثُ اللَّه تَعَالَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ ، فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّه رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ فَلا يَبْقَى عَلَى وَجه الأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ - أَوْ إِيمانٍ - إِلَّا قَبَضَتْهُ ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ » قال : سمعتها من رسول اللَّه ﷺ : « فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلاَمِ السّباع ، لا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا ولا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمْ الشَّيْطَانُ ، فَيَقُولُ : أَلاَ تَسْتَجِيبُونَ ؟ فَيَقُولُونَ : فَمَا تَأْمُرُنا ؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الأَوْثَانِ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دارٌ رِزْقُهُمْ ، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا ، قَالَ : وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ ، قَالَ : فَيَصْعَقُ وَيُصْعَقُ النَّاسُ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّه - أو قال : يُنْزِلُ اللَّه مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ ، أو قال : الظل - نعمان الشاك - فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى إِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ . ثُمَّ يُقَالُ : أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ ثُمَّ يُقَالُ : أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ ، فَيُقَالُ : مِنْ كَمْ ؟ فَيُقَالُ : مِنْ كُلِّ أَلفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ ، قَالَ : فَذلِكَ يَوْم يَجْعلُ الوِلْدَانَ شِيبًا ، وَذَلِكَ يَوْم يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ » (٢) .

وعن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : أشرف علينا رسول اللَّه ﷺ من عرفة ونحن نتذاكر الساعة فقال : « لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آياتٍ : طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِها ، وَالدُّخانُ ، وَالدَّابَّةُ ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَنُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَالدَّجَّالُ ، وَثَلاثَةُ خُسُوفٍ : خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ ، وَخَسْفٌ بِالمَغْرِبِ ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ العَرَبِ ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ تَسُوقُ - أَوْ تَحْشُرُ - النَّاسَ تَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا » (٣) .

فهذه أحاديث متواترة عن رسول اللَّه ﷺ وفيها دلالة على صفة نزوله ومكانه من أنه بالشام ، بل

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن (١١٠) وأحمد في مسنده (١٨٢/٤) والترمذي في السنن (٢٢٤٠) .
(٢) أخرجه مسلم في الفتن (١١٦) والحاكم في المستدرك (٥٥٠/٤) وأحمد في مسنده (١٦٦/٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٧/٤) .

بدمشق عند المنارة الشرقية ، وأن ذلك يكون عند إقامة صلاة الصبح ، وقد بنيت في هذه الأعصار في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة منارة للجامع الأموي بيضاء من حجارة منحوتة ، عوضًا عن المنارة التي هدمت بسبب الحريق المنسوب إلى صنيع النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ، وكان أكثر عمارتها من أموالهم ، وقويت الظنون أنها هي التي ينزل عليها المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، فيقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية ، فلا يقبل إلَّا الإسلام وهذا إخبار من النبيّ ﷺ بذلك ، وتقرير وتشريع وتسويغ له على ذلك في ذلك الزمان ، حيث تنزاح عللهم ، وترتفع شبههم من أنفسهم ، ولهذا كلهم يدخلون في دين الإسلام متابعين لعيسى عليه السلام وعلى يديه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ الآية ، وهذه الآية كقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ وقرئ ﴿ لَعَلَمٌ ﴾ بالتحريك أي أمارة ودليل على اقتراب الساعة ، وذلك لأنه ينزل بعد خروج المسيح الدجال فيقتله الله على يديه ، كما ثبت في الحديث : إن الله لم يخلق داء إلَّا أنزل له شفاء [(١)] . ويبعث الله في أيامه يأجوج ومأجوج فيهلكهم الله تعالى ببركة دعائه ، وقد قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ الآية .

صِفَة عِيسَى عليه السلام

روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي لَقِيتُ مُوسَى » قال : فنعته فإذا رجل أحسبه قال : « مُضْطَرِبٌ رَجِلُ الرَّأْسِ كَأَنَّه مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ » قال : « وَلَقِيتُ عِيسَى » فنعته النبيّ ﷺ فقال : « رَبْعَةٌ أَحْمَرُ كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ » يعني الحمام « وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِهِ بِهِ » [(٢)] . وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « رَأَيْتُ مُوسَى وَعِيسَى وَإِبْرَاهِيمَ ، فَأَمَّا عِيسَى فَأَحْمَرُ جَعْدٌ عَرِيضُ الصَّدْرِ . وَأَمَّا مُوسَى فَآدَمُ جَسِيمٌ سَبِطٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ الزُّطِّ » [(٣)] . وعن سالم عن أبيه قال : لا والله ما قال النبيّ ﷺ لعيسى أحمر ولكن قال : « بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ أَطُوفُ بِالكَعْبَةِ فَإِذَا رَجُلٌ آدَمُ سَبِطُ الشَّعَرِ ، يَتَهَادَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ يَنْطُفُ رَأْسُهُ مَاءً - أَوْ يُهْرَاقُ رَأْسُهُ مَاءً - فَقُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ فَقَالُوا : ابْنُ مَرْيَمَ فَذَهَبْتُ أَلْتَفِتُ فَإِذَا رَجُلٌ أَحْمَرُ جَسِيمٌ ، جَعْدُ الرَّأْسِ ، أَعْوَرُ عَيْنِهِ اليُمْنَى ، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ ، قُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا : الدَّجَّالُ وَأَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا - ابْنُ قَطَنٍ - » قال الزهري : رجل من خزاعة هلك في الجاهلية [(٤)] . هذه كلها ألفاظ البخاري رحمه الله ، وقد تقدم في حديث أبي هريرة أنّ عيسى عليه السلام يمكث في الأرض بعد نزوله أربعين سنة ، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون . وفي حديث عبد الله بن عمر أنه يمكث سبع سنين ، فيحتمل والله أعلم أن يكون المراد بلبثه في الأرض أربعين سنة مجموع إقامته فيها قبل رفعه وبعد نزوله ، فإنه رفع وله ثلاث وثلاثينَ سنة في الصحيح ، وقد ورد ذلك في حديث في صفة أهل الجنة أنهم على صورة آدم ، وميلاد عيسى ثلاث وثلاثين سنة . وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/٤٠١) والطبراني في الكبير (١١/١٥٣) .
(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٩٤) .
(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٣٨) وأحمد في مسنده (١/٢٩٦) .
(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤١) .

ترجمة عيسى ابن مريم من تاريخه عن بعض السلف أنه يدفن مع النبيّ ﷺ في حجرته فالله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ يشهد عليهم أنه قد بلغهم الرسالة من الله ، وأقرّ بعبودية الله ﷻ .

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ۚ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

يخبر تعالى أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبوه من الذنوب العظيمة ، حرّم عليهم طيّبات كان أحلّها لهم .
عن عمرو قال : قرأ ابن عباس : طيّبات كانت أحلّت لهم ، وهذا التحريم قد يكون قدريًّا ، بمعنى أنه تعالى قيّضهم لأن تأولوا في كتابهم وحرّفوا وبدّلوا أشياء كانت حلالًا لهم ، فحرموها على أنفسهم تشديدًا منهم على أنفسهم وتضييقًا وتنطعًا . ويحتمل أن يكون شرعيًّا بمعنى أنه تعالى حرم عليهم في التوارة أشياء كانت حلالًا لهم قبل ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ﴾ وقد قدمنا الكلام على هذه الآية وأن المراد أن الجميع من الأطعمة كانت حلالًا من قبل أن تنزل التوراة ما عدا ما كان حرم إسرائيل على نفسه من لحوم الإبل وألبانها ، ثم إنه تعالى حرّم أشياء كثيرة في التوراة كما قال في سورة الأنعام : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ أي إنما حرمنا عليهم ذلك لأنهم يستحقون ذلك بسبب بغيهم وطغيانهم ومخالفتهم رسولهم واختلافهم عليه ، ولهذا قال : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ أي صدُّوا الناس وصدُّوا أنفسهم عن اتّباع الحقّ ، وهذه سجية لهم متصفون بها من قديم الدهر وحديثه ، ولهذا كانوا أعداء الرسل ، وقتلوا خلقًا من الأنبياء ، وكذبوا عيسى ومحمّدًا صلوات الله وسلامه عليهما .

وقوله : ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ﴾ أي أن الله قد نهاهم عن الرِّبا فتناولوه وأخذوه ، واحتالوا عليه بأنواع من الحيل وصنوف من الشبه ، وأكلوا أموالَ الناس بالباطل . قال تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ ﴾ أي الثابتون في الدِّين لهم قدم راسخة في العلم النافع . ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ عطف على الراسخين وخبره ﴿ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ قال ابن عبّاس : أنزلت في عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية وأسد بن سعية وأسد بن عبيد الذين دخلوا في الإسلام وصدقوا بما أرسل الله به محمّدًا ﷺ .

وقوله : ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ﴾ هكذا هو في جميع مصاحف الأئمة ، وكذا هو في مصحف أُبيّ ابن كعب ، وذكر ابن جرير أنها في مصحف ابن مسعود - والمقيمون الصلاة - قال : والصحيح قراءة الجميع ، رد على من زعم أن ذلك من غلط الكتّاب ، ثم ذكر اختلاف الناس فقال بعضهم : هو منصوب على المدح كما جاء في قوله : ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ قال : وهذا سائغ في كلام العرب كما قال الشاعر :

لاَ يَبْعُدَنْ قَوْمِي الَّذِينَ هُمُو أُسْدُ الْعُدَاةِ وَآفَةُ الجَزْرِ

النَّـازِلِـينَ بِـكُـلِّ مُـعْـتَـرَكٍ وَالـطَّـيِّـبُـونَ مَـعَـاقِـدَ الأزُرِ

وقال آخرون : هو مخفوض عطفًا على قوله : ﴿ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ يعني وبالمقيمين الصلاة ، وكأنه يقول : وبإقامة الصلاة ، أي يعترفون بوجوبها وكتابتها عليهم . أو أن المراد بالمقيمين الصلاة : الملائكةُ ، وهذا اختيار ابن جرير يعني ، يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالملائكة ، وفي هذا نظر والله أعلم . وقوله : ﴿ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ ﴾ يحتمل أن يكون المراد زكاة الأموال ويحتمل زكاة النفوس ، ويحتمل الأمرين والله أعلم . ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي يصدقون بأنه لا إله إلّا الله ، ويؤمنون بالبعث بعد الموت ، والجزاء على الأعمال خيرها وشرِّها . وقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ هو الخبر عما تقدم ﴿ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ يعني الجنة .

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

عن ابن عبّاس قال : قال سكن وعدي بن زيد : يا محمّد ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى ، فأنزل الله في ذلك من قولهما : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ إلى آخر الآيات (١) . وهي رد عليهم لما سألوا النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا من السماء قال الله تعالى : ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ ﴾ ثم ذكر فضائحهم ومعايبهم وما كانوا عليه وما هم عليه الآن من الكذب والافتراء ، ثم ذكر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله محمّد ﷺ كما أوحى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين فقال : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ والزبور اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود عليه السلام .

وقوله : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ أي من قبل هذه الآية ، يعني في السور المكية وغيرها ، وهذه تسمية الأنبياء الذين نص الله على أسمائهم في القرآن وهم : آدم ، وإدريس ، ونوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وإسماعيل ، وإسحق ، ويعقوب ، ويوسف ، وأيوب ، وشعيب ، وموسى ، وهارون ، ويونس ، وداود ، وسليمان ، وإلياس ، واليسع ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين ، وسيدهم محمّد ﷺ . وقوله : ﴿ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ أي خلقًا آخرين لم يذكروا في القرآن وقد اختلف في عدة الأنبياء والمرسلين ، والمشهور في ذلك حديث أبي ذر الغفاري الطويل في عدد الأنبياء عليهم السلام قال : دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس وحده ، فجلست إليه فقلت : يا رسول الله إنك أمرتني بالصلاة قال : « الصَّلاةُ خَيْرُ مَوْضُوعٍ فَاسْتَكْثِرْ أَوِ اسْتَقِلَّ » قال : قلت : يا رسول الله فأيُّ الأعمال أفضل ؟ قال : « إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ » قلت : يا رسول الله فأيُّ المؤمنين أفضل ؟ قال : « أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا » ، قلت : يا رسول الله ، فأيُّ المسلمين أسلم ؟ قال :

(١) ذكره ابن هشام في السيرة (٥٦٢/٢) والطبري في التفسير (٣٨/٦) .

« مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » قلت : يا رسول الله فأيُّ الهجرة أفضل ؟ قال : « مَنْ هَجَرَ السَّيِّئاتِ » قلت : يا رسول الله أيُّ الصلاة أفضل ؟ قال : « طُولُ القُنُوتِ » فقلت : يا رسول الله فأيُّ الصيام أفضل ؟ قال : « فَرْضٌ مُجزِئٌ وَعِنْدَ اللهِ أَضْعَافٌ كَثِيرَةٌ » قلت : يا رسول الله فأيُّ الجهاد أفضل ؟ قال : « مَنْ عُقِرَ جَوَادُهُ وَأُهْرِيقَ دَمُهُ » قلت : يا رسول الله ، فأيُّ الرقاب أفضل ؟ قال : « أَغْلاَهَا ثَمَنًا وَأَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا » قلت : يا رسول الله ، فأيُّ الصدقة أفضل ؟ قال : « جُهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ ، وسرٌّ إِلَى فَقِيرٍ » قلت : يا رسول الله ، فأي آية ما أنزل عليك أعظم ؟ قال : « آيةُ الكُرْسِي » ثم قال : « يَا أَبَا ذَرٍّ وَمَا السَّموَاتُ السَّبْعُ مَعَ الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلاَةٍ ، وَفَضْلُ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلاَةِ عَلَى الحَلْقَةِ » قال : قلت : يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : « مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا » قال : قلت : يا رسول الله كم الرسل من ذلك ؟ قال : « ثَلاَثُمِائَةٍ وَثَلاَثَةَ عَشَرَ جَمٌّ غَفِيرٌ كَثِيرٌ طَيِّبٌ » قلت : فمن كان أولهم ؟ قال : « آدَمُ » قلت : أنبي مرسل ؟ قال : « نَعَمْ خَلَقَهُ اللهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَسَوَّاهُ قَبِيلًا » ثم قال : « يَا أَبَا ذَرٍّ أَرْبعة سِرْيَانِيُّونَ : آدَمُ وَشِيثٌ وَخَنُوخُ وَهُوَ إِدْرِيسُ - وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِقَلَمٍ - وَنُوحٌ ، وَأَرْبَعَةٌ مِنَ العَرَبِ : هُودٌ وَشُعَيْبٌ وَصَالِحٌ وَنَبِيُّكَ يَا أَبَا ذَرٍّ ، وَأَوَّلُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُوسَى ، وآخِرُهُمْ عِيسَى ، وَأَوَّلُ الرُّسُلِ آدَمُ ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ » قال : قلت : يا رسول الله كم كتاب أنزله الله ؟ قال : « مِائَةُ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةُ كُتُبٍ ، أَنْزَلَ اللهُ عَلَى شِيث خَمْسِينَ صَحِيفَةً ، وَعَلَى خَنُوخَ ثَلاثِينَ صَحِيفَةً ، وَعَلَى إِبْرَاهِيمَ عَشْرَ صَحَائِفَ ، وَأَنْزَلَ عَلَى مُوسَى مِنْ قَبْلِ التَّوْرَاةِ عَشْرَ صَحَائِفَ ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالفُرْقَانَ » قال : قلت : يا رسول الله ، ما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : « كَانَتْ كُلُّهَا يَا أَيُّهَا المَلِكُ المُسَلَّطُ المُبْتَلَى المَغْرُورُ إِنِّي لَمْ أَبْعَثْكَ لِتَجْمَعَ الدُّنْيَا بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ ، وَلكِنِّي بَعَثْتُكَ لِتَرُدَّ عَنِّي دعوة المَظْلُوم فَإِنِّي لاَ أَرُدُّهَا وَلَوْ كَانَتْ مِنْ كَافِرٍ ، وَكَانَ فِيهَا أَمْثَالٌ ، وَعَلَى العَاقِلِ أَنْ يَكُونَ لَهُ سَاعَاتٌ ، سَاعَةٌ يُنَاجِي فيها رَبَّهُ ، وَسَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ ، وَسَاعَةٌ يُفَكِّرُ فِي صُنْعِ اللهِ ، وَسَاعَة يَخْلُو فِيهَا لِحَاجَتِهِ مِنَ المَطْعَمِ وَالمَشْرَبِ . وَعَلَى العَاقِلِ أَنْ لاَ يَكُونَ ظَاعِنًا إِلَّا لِثَلاَثٍ : تَزَوُّد لِمَعَادٍ ، أَوْ مَرَمَّة لِمَعَاشٍ ، أَوْ لَذَّة فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ ، وَعَلَى العَاقِلِ أَنْ يَكُونَ بَصِيرًا بِزَمَانِهِ ، مُقْبِلًا عَلَى شَأْنِهِ ، حَافِظًا لِلِسَانِهِ ، وَمَنْ حَسَبَ كَلاَمَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلاَمُهُ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ » قال : قلت : يا رسول الله ، فما كانت صحف موسى ؟ قال : « كَانَتْ عِبَرًا كُلُّهَا ، عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالمَوْتِ ثُمَّ هُوَ يَفْرَحُ ، عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالقَدَرِ ثُمَّ هُوَ يَنْصَبُ ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ يَرَى الدُّنْيَا وَتَقَلُّبَهَا بِأَهْلِهَا ثُمَّ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالحِسَابِ غَدًا ثُمَّ هُوَ لاَ يَعْمَلُ » قال : قلت يا رسول الله ، فهل في أيدينا شيء مما كان في أيدي إبراهيم وموسى وما أنزل الله عليك ؟ قال : « نَعَمْ اقْرَأْ يَا أَبَا ذَرٍّ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ » قال : قلت : يا رسول الله فأوصني قال : « أوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ فَإِنَّهُ رَأْسُ أَمْرِكَ » ، قال : قلت : يا رسول الله زدني قال : « عَلَيْكَ بِتِلاَوَةِ القُرْآنِ وَذِكْرِ اللهِ ؛ فَإِنَّهُ ذِكْرٌ لَكَ فِي السَّمَاءِ وَنُورٌ لَكَ فِي الأَرْضِ » قال : قلت : يا رسول الله زدني ، قال : « إِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الضَّحِكِ ، فَإِنَّهُ يُمِيتُ القَلْبَ وَيَذْهَبُ بِنُورِ الوَجْهِ » قلت : يا رسول الله زدني قال : « عَلَيْكَ بِالجِهَادِ فَإِنَّه رَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي » قلت : زدني ، قال : « عَلَيْكَ بِالصَّمْتِ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ ، فَإِنَّهُ مَطْرَدَةٌ لِلشَّيْطَانِ وَعَوْنٌ لَكَ

عَلَى أَمْرِ دِينِكَ » قلت : زدني قال : « انْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ تَحْتَكَ وَلاَ تَنْظُرْ مَنْ هُوَ فَوْقَكَ ؛ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ لَكَ أَنْ لاَ تَزْدَرِيَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكَ » قلت : زدني ، قال : « أَحْبِبِ المَسَاكِينَ وَجَالِسْهُمْ ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لاَ تَزْدَرِي نِعْمَةَ اللَّه عَلَيْكَ » قلت : زدني ، قال : « صِلْ قَرَابَتَكَ وَإِنْ قَطَعُوكَ » قلت : زدني ، قال : « قُلِ الحَقَّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا » قلت : زدني ، قال : « لاَ تَخَفْ فِي اللَّه لَوْمَةَ لائِمٍ » قلت : زدني قال : « يَرُدُّكَ عَنِ النَّاسِ مَا تَعْرِفُ مِنْ نَفْسِكَ ، وَلاَ تَجِد عَلَيْهِمْ فِيمَا تُحِبُّ ، وَكَفَى بِكَ عَيْبًا أَنْ تعْرفَ مِنَ النَّاسِ مَا تَجْهَلُ مِنْ نَفْسِكَ ، أَوْ تَجِدَ عَلَيْهِمْ فِيمَا تُحِبُّ » ثم ضرب بيده صدري فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ لاَ عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ ، وَلاَ وَرَعَ كَالكَفِّ ، وَلاَ حَسَبَ كَحُسْنِ الخُلُقِ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ وهذا تشريف لموسى عليه السلام بهذه الصفة ، ولهذا يقال له : الكليم . وعن عبد الجبار بن عبد الله قال : جاء رجل إلى أبي بكر بن عياش فقال : سمعت رجلًا يقرأ (وَكَلم اللَّهَ مُوسَى تَكلِيمًا) فقال أبو بكر : ما قرأ هذه إلَّا كافر ، قرأت على الأعمش وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب وقرأ يحيى بن وثاب على أبي عبد الرحمن السلمي وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي على علي بن أبي طالب وقرأ علي بن أبي طالب على رسول اللَّه ﷺ ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ وإنَّما اشتدَّ غضب أبي بكر بن عياش رحمه الله على من قرأ كذلك لأنه حرَّف لفظ القرآن ومعناه . وكان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون اللَّه كلم موسى عليه السلام أو يكلم أحدًا من خلقه ، كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ (وَكَلم اللَّهَ مُوسَى تَكلِيمًا) - بنصب لفظ الجلالة - فقال له : يا ابن اللخناء كيف تصنع بقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ يعني أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل .

وقوله : ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أي يبشّرون من أطاع اللَّه واتبع رضوانه بالخيرات ، وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب . وقوله : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ أي أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة ، وبيَّن ما يحبّه ويرضاه مما يكرهه ويأباه ، لئلا يبقى لمعتذر عذر كما قال تعالى : ﴿ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ﴾ عن ابن مسعود قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّه ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ ما ظَهَرَ مِنها وَمَا بَطَنَ ، وَلا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ المَدْحُ مِنَ اللَّه عز وجل ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ ، وَلا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ العُذْرُ مِنَ اللَّه ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ » (٢) .

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ .

لما تضمن قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ إلى آخر السياق إثبات نبوَّته ﷺ والردَّ على من أنكر نبوَّته من المشركين وأهل الكتاب قال اللَّه تعالى : ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ ﴾ أي وإن كفر به من كفر به ممن كذبك وخالفك ، فاللَّه يشهد لك بأنك رسوله الذي أنزل عليه الكتاب وهو القرآن العظيم الذي

(١) ذكره أحمد بنحو من هذا السياق (٥/٢٦٥) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٣٤) ومسلم في التوبة (٣٣ ، ٣٤) .

﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ ولهذا قال : ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ ، أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البيّنات والهدى والفرقان ، وما يحبّه اللّه ويرضاه ، وما يكرهه ويأباه ، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل ، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التي لا يعلمها نبيٌّ مرسل ولا ملك مقرَّب ، إلَّا أن يعلمه اللّه به ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ وعن عطاء بن السائب قال : أقرأني أبو عبد الرَّحمن السلمي القرآن ، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال : قد أخذت علم اللّه فليس أحد اليوم أفضل منك إلَّا بعمل - ثم يقرأ قوله : ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ . قوله : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ أي بصدق ما جاءك وأوحى إليك وأنزل عليك ، مع شهادة اللّه تعالى بذلك ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ أي كفروا في أنفسهم فلم يتبعوا الحقّ ، وسعوا في صدِّ الناس عن اتباعه والاقتداء به ، قد خرجوا عن الحق وضلُّوا عنه وبعدوا منه بعدًا عظيمًا شاسعًا . ثم أخبر تعالى عن حكمه في الكافرين بآياته وكتابه ورسوله ، الظالمين لأنفسهم بذلك وبالصدِّ عن سبيله وارتكاب مآثمه وانتهاك محارمه ، بأنه لا يغفر لهم ﴿ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾ أي سبيلًا إلى الخير ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾ وهذا استثناء منقطع ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ الآية .

ثم قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾ أي قد جاءكم محمّد صلوات اللّه وسلامه عليه بالهدى ودين الحق والبيان الشافي من اللّه ﷻ ، فآمنوا بما جاءكم به واتبعوه يكن خيرًا لكم . ثم قال : ﴿ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي فهو غنيٌّ عنكم وعن إيمانكم ، ولا يتضرَّر بكفرانكم ، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ أي بمن يستحق منكم الهداية فيهديه ، وبمن يستحق الغواية فيغويه ﴿ حَكِيمًا ﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلوّ والإطراء ، وهذا كثير في النصارى فإنهم تجاوزوا الحدَّ في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه اللّه إياها ، فنقلوه من حيِّز النبوة إلى أن اتخذوه إلهًا من دون اللّه يعبدونه كما يعبدونه . بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه ، فادَّعوا فيهم العصمة ، واتبعوهم في كل ما قالوه : سواء كان حقًّا أو باطلًا ، أو ضلالًا أو رشادًا ، أو صحيحًا أو كذبًا ، ولهذا قال اللّه تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ الآية . عن عمر أن رسول اللّه ﷺ قال : « لا تُطْرُوني كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ ، فَإِنَّما أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا : عَبْدُ اللّه وَرَسُولُهُ » (١) . وعن أنس بن مالك أن رجلًا قال : يا محمّد يا سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا ، فقال رسول اللّه ﷺ : « أَيُّها النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِقَوْلِكُمْ ، وَلا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ : أَنَا مُحَمَّد بْنُ عَبْدِ اللّه ، عَبْدُ اللّه وَرَسُولِهِ ، وَاللّه ما أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُوني فَوْقَ مَنْزِلَتي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللّه ﷻ » (٢) .

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٥) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٣/٣) والألباني في الصحيحة (١٠٩٧) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ أي لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولدًا تعالى الله ﷻ عن ذلك علوًّا كبيرًا وتنزَّه وتقدَّس وتوحَّد في سؤدده وكبريائه وعظمته ، فلا إله إلَّا هو ولا ربَّ سواه ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ أي إنما هو عبد من عباد اللَّه ، وخلق من خلقه ، قال له : كن ، فكان ، ورسول من رسله ، وكلمته ألقاها إلى مريم أي خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه ﷻ ، فكان عيسى بإذنه ﷻ ، وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها ، فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم ، والجميع مخلوق للَّه ﷻ ، ولهذا قيل لعيسى : إنه كلمة اللَّه وروح منه ؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه ، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها : كن ، فكان ، والروح التي أرسل بها جبريل . قال اللَّه تعالى : ﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ ، وقال تعالى إخبارًا عن المسيح : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ الآية . وقال قتادة : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ هو كقوله : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ وقال شاذ بن يحيى في قول اللَّه : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ قال : ليس الكلمة صارت عيسى ، ولكن بالكلمة صار عيسى ، وهذا أحسن مما ادعاه ابن جرير في قوله : ﴿ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾ أي أعلمها بها ، كما زعمه في قوله : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي يعلمك بكلمة منه ، ويجعل ذلك كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ بل الصحيح أنها الكلمة التي جاء بها جبريل إلى مريم فنفخ فيها بإذن اللَّه فكان عيسى عليه السلام .

وعن عبادة بن الصامت عن النبيّ ﷺ قال : « مَنْ يَشْهَدَ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا اللَّه وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّه وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاها إِلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَأَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ ، أَدْخَلَهُ اللَّه الجنَّةَ عَلَى ما كَانَ مِنَ العَمَلِ » (١) . فقوله في الآية والحديث : ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ كقوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ أي من خلقه ومن عنده ، وليست « من » للتبعيض كما تقوله النصارى عليهم لعائن اللَّه المتتابعة ، بل هي لابتداء الغاية كما في الآية الأخرى ، وقد قال مجاهد في قوله : ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ أي ورسول منه ، وقال غيره : ومحبَّة منه ، والأظهر الأول ، وهو أنه مخلوق من روح مخلوقة ، وأضيفت الروح إلى اللَّه على وجه التشريف ، كما أضيفت الناقة والبيت إلى اللَّه في قوله : ﴿ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ وفي قوله : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ ﴾ وكما روي في الحديث : « فَأَدْخُلُ عَلَى رَبِّي في دَارِهِ » (٢) أضافها إليه إضافة تشريف ، وهذا كله من قبيل واحد ونمط واحد .

وقوله : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ أي فصدقوا بأن اللَّه واحد أحد ، لا ولد له ولا صاحبة ، واعلموا وتيقَّنوا بأن عيسى عبد اللَّه ورسوله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ﴾ أي لا تجعلوا عيسى وأمَّه مع اللَّه شريكين ، تعالى اللَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا . والنصارى عليهم لعائن اللَّه من جهلهم ليس لهم ضابط ، ولا لكفرهم حد ، بل أقوالهم وضلالهم منتشر ، فمنهم من يعتقده إلهًا ، ومنهم من يعتقده شريكًا ، ومنهم من يعتقده ولدًا ، وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة ، وأقوال غير مؤتلفة .

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٣٥) . (٢) أخرجه البخاري في الكفالة (٢٢٩٧) .

ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال : لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشر قولًا .

ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير عندهم وهو سعيد بن بطريق - بترَكُ الإسكندرية - في حدود سنة أربعمائة من الهجرة النبوية أنهم اجتمعوا المجمع الكبير الذي عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم - وإنما هي الخيانة الحقيرة الصغيرة - وذلك في أيام قسطنطين باني المدينة المشهورة ، وأنهم اختلفوا عليه اختلافًا لا ينضبط ولا ينحصر ، فكانوا أزيد من ألفين أسقفًا ، فكانوا أحزابًا كثيرة ، كل خمسين منهم على مقالة ، وعشرون على مقالة ، ومائة على مقالة ، وسبعون على مقالة ، وأزيد من ذلك وأنقص . فلما رأى منهم عصابة قد زادوا على الثلثمائة بثمانية عشر نفر ، وقد توافقوا على مقالة ، فأخذها الملك ونصرها وأيّدها ، وكان فيلسوفًا داهية ، ومحق ما عداها من الأقوال ، وانتظم دست أولئك الثلثمائة والثمانية عشر وبنيت لهم الكنائس ، ووضعوا لهم كتبًا وقوانين ، وأحدثوا فيها الأمانة التي يلقنونها الولدان من الصغار ليعتقدوها ويعمّدونهم عليها ، وأتباع هؤلاء هم الملكانية . ثم إنهم اجتمعوا مجمعًا ثانيًا فحدث فيهم اليعقوبية ، ثم مجمعًا ثالثًا فحدث فيهم النسطورية ، وكل هذه الفرق تثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح ، ويختلفون في كيفية ذلك وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم هل اتحدا أو ما اتحدا ، أو امتزجا أو حلَّ فيه ، على ثلاث مقالات ، وكلٌّ منهم يكفِّر الفرقة الأخرى ، ونحن نكفِّر الثلاثة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ أي يكن خيرًا لكم ، ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ أي تعالى وتقدَّس عن ذلك علوًّا كبيرًا ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أي الجميع ملكه وخلقه ، وجميع ما فيهما عبيده وهم تحت تدبيره وتصريفه ، وهو وكيل على كل شيء ، فكيف يكون له منهم صاحبة وولد ؟.

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ .

عن ابن عبّاس قوله : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ﴾ لن يستكبر . ﴿ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ وقد استدل بعض من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية حيث قال : ﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ وليس له في ذلك دلالة ؛ لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح ، لأن الاستنكاف هو الامتناع ، والملائكة أقدر على ذلك من المسيح ؛ فلهذا قال : ﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل . وقيل : إنما ذكروا لأنهم اتُّخِذوا آلهةً مع اللّه ، كما اتُّخذ المسيح ، فأخبر تعالى أنهم عبيد من عباده وخلق من خلقه ، ولهذا قال : ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ أي فيجمعهم إليه يوم القيامة ، ويفصل بينهم بحكمه العدل الذي لا يجور فيه ولا يحيف . ولهذا قال : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ أي فيعطيهم من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة ، ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه وسعة رحمته وامتنانه . ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ أي امتنعوا عن طاعة اللّه وعبادته ، واستكبروا عن ذلك ﴿ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

كقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أي صاغرين حقيرين ذليلين كما كانوا ممتنعين مستكبرين .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ۝ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا جميع الناس ، ومخبرًا بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم ، وهو الدليل القاطع للعذر ، والحجّة المزيلة للشُّبه ، ولهذا قال : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ أي ضياء واضحًا على الحقّ وهو القرآن ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي جمعوا بين مقامي العبادة والتوكّل على الله في جميع أمورهم ، وقال ابن جريج : آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن ﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ ﴾ أي يرحمهم فيدخلهم الجنة ، ويزيدهم ثوابًا ومضاعفة ورفعًا في درجاتهم من فضله عليهم ، وإحسانه إليهم ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ أي طريقًا واضحًا قصدًا قوامًا لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة ، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات ، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات . فعن عليّ ابن أبي طالب ﷺ عن النبيّ ﷺ أنه قال : « الْقُرْآنُ صِراطُ اللهِ الْمُسْتَقِيم ، وَحَبْلُ اللهِ الْمَتِين »[(١)] .

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ .

عن أبي إسحاق قال : سمعت البراء ، قال : آخر سورة نزلت : براءة ، وآخر آية نزلت : يستفتونك[(٢)] . وعن جابر بن عبد الله قال : دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل ، قال : فتوضأ ثم صبَّ عليّ - أو قال : صبوا عليه - فعقلت ، فقلت : إنه لا يرثني إلّا كلالة فكيف الميراث ؟ فأنزل الله آية الفرائض[(٣)] . والكلالة مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه ، ولهذا فسرها أكثر العلماء بمن يموت وليس له ولد ولا والد ، ومن الناس من يقول : الكلالة : من لا ولد له كما دلّت عليه هذه الآية ﴿ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ وقد أشكل حكم الكلالة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ كما ثبت عنه في الصحيحين أنه قال : ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهدًا ننتهي إليه : الجد ، والكلالة ، وباب من أبواب الربا[(٤)] . وعن معدان بن أبي طلحة قال : قال عمر بن الخطاب : ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بإصبعه في صدري وقال : « يَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتي في آخرِ سُورَةِ النِّسَاءِ »[(٥)] .

وكأن المراد بآية الصيف أنها نزلت في فصل الصيف والله أعلم ، ولما أرشده النبيّ ﷺ إلى تفهّمها فإن فيها كفاية نسي أن يسأل النبيّ ﷺ عن معناها ، ولهذا قال : فلأن أكون سألت رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٠٦) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٠٥) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٨/٣) .
(٤) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٥٨٨) ومسلم في التفسير (٣٢) .
(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٤٢) .

عنها أحبُّ إليَّ من أن يكون لي حمر النعم . قال قتادة : وذكر لنا أن أبا بكر الصدِّيق قال في خطبته : ألا إن الآية التي نزلت في أول سورة النساء في شأن الفرائض أنزلها الله في الولد والوالد ، والآية الثانية أنزلها في الزوج والزوجة والإخوة من الأم ، والآية التي ختم بها سورة النساء أنزلها في الإخوة والأخوات من الأب والأم ، والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله مما جرت الرحم من العصبة (١) .

ذكر الكلام على معناها : وبالله المستعان وعليه التكلان : قوله تعالى : ﴿ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ ﴾ أي مات . وقوله : ﴿ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ تمسك به مَن ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلالة انتفاء الوالد ، بل يكفي في وجود الكلالة انتفاء الولد ، وهو رواية عن عمر بن الخطاب رواها ابن جرير عنه بإسناد صحيح إليه (٢) ، ولكن الذي يرجع إليه هو قول الجمهور وقضاء الصِّدِّيق أنه الذي لا ولد له ولا والد ، ويدل على ذلك قوله : ﴿ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾ ولو كان معها أب لم ترث شيئًا لأنه يحجبها بالإجماع ، فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن ، ولا والد بالنص عند التأمّل أيضًا ، لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد ، بل ليس لها ميراث بالكلِّيَّة . فعن زيد بن ثابت أنه سئل عن زوج وأخت لأب وأم ، فأعطى الزوج النِّصف ، والأخت النِّصف ، فكلِّم في ذلك فقال : حضرت رسول الله ﷺ قضى بذلك (٣) . وعن ابن عبّاس وابن الزبير أنهما كانا يقولان في الميت ترك بنتًا وأختًا : إنه لا شيء للأخت لقوله : ﴿ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾ قال : فإذا ترك بنتًا فقد ترك ولدًا فلا شيء للأخت . وخالفهما الجمهور ، فقالوا في هذه المسألة : للبنت النصف بالفرض ، وللأخت النصف الآخر بالتعصيب بدليل غير هذه الآية ، وهذه الآية نصَّت أن يفرض لها في هذه الصورة ، وأما وراثتها بالتعصيب فلما رواه الأسود قال : قضى فينا معاذ ابن جبل على عهد رسول الله ﷺ النصف للبنت ، والنصف للأخت . ثم قال سليمان : قضى فينا ولم يذكر على عهد رسول الله ﷺ (٤) . وعن هزيل بن شرحبيل قال : سئل أبو موسى الأشعري عن ابنة وابنة ابن وأخت ؟ فقال : للابنة النصف ، وللأخت النصف ، وأتوا ابن مسعود فسيتابعني ، فسأل ابن مسعود فأخبره بقول أبي موسى فقال : لقد ضللت إذًا وما أنت من المهتدين ، أقضي فيها بما قضى النبيّ ﷺ النصف للبنت ، ولبنت الابن السدس تكملة الثلثين ، وما بقي فللأخت ، فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال : لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم (٥) .

وقوله : ﴿ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ﴾ أي والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلالة وليس لها ولد ، أي ولا والد ؛ لأنها لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئًا ، فإن فرض أن معه من له فرض صرف إليه فرضه كزوج أو أخ من أم ، وصرف الباقي إلى الأخ لما ثبت عن ابن عبّاس أن رسول الله ﷺ قال : « أَلْحِقُوا الفَرَائِضَ بِأَهْلِها ، فَمَا أَبْقَتِ الفَرَائِضُ فَلأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ » (٦) .

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٣١/٦) .
(٢) تفسير الطبري (٥٤/٦) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٨/٥) .
(٤) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٤١) .
(٥) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٣٦) .
(٦) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٣٥) ومسلم في الفرائض (٢) .

وقوله : ﴿ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾ أي فإن كان لمن يموت كلالة أختان فرض لهما الثلثان ، وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما ، ومن ههنا أخذ الجماعة حكم البنتين ، كما استفيد حكم الأخوات من البنات في قوله : ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ هذا حكم العصبات من البنين وبني البنين والإخوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم ، أعطي الذكر مثل حظ الأنثيين وقوله : ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ أي يفرض لكم فراضه ، ويحدُّ لكم حدوده ، ويوضح لكم شرائعه . وقوله : ﴿ أَن تَضِلُّواْ ﴾ أي لئلا تضلوا عن الحق بعد البيان ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها ، وما فيها من الخير لعباده وما يستحقه كل واحد من القرابات بحسب قربه من المتوفى .

عن حذيفة قال : نزلت آية الكلالة على النبيّ ﷺ وهو في مسير له ، فوقف النبيّ ﷺ وإذا هو بحذيفة وإذا رأس ناقة حذيفة عند ردف راحلة النبيّ ﷺ ، فلقّاها إيّاه ، فنظر حذيفة فإذا عمر ﷺ فلقّاها إيّاه ، فلما كان في خلافة عمر نظر عمر في الكلالة ، فدعا حذيفة فسأله عنها فقال حذيفة : لقد لقّانيها رسول الله ﷺ فلقّيتكها كما لقاني رسول الله ﷺ ، والله إني لصادق ووالله لا أزيدك على ذلك شيئًا أبدًا [(١)] .

وعن سعيد بن المسيب أن عمر سأل رسول الله ﷺ كيف تورث الكلالة ؟ قال : فأنزل الله ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ ﴾ الآية ، قال : فكأن عمر لم يفهم ، فقال لحفصة : إذا رأيت من رسول الله ﷺ طيب نفس فسليه عنها ، فرأت منه طيب نفس ، فسألته عنها ، فقال : « أَبُوكِ ذَكَرَ لَكِ هَذَا ؟ مَا أَرَى أَبَاكِ يَعْلَمُهَا » قال : فكان عمر يقول : ما أراني أعلمها ، وقد قال رسول الله ﷺ ما قال [(٢)] .

وعن عمر بن الخطاب قال : لأن أكون سألت رسول الله ﷺ عن ثلاث أحبُّ إليّ من حمر النعم : من الخليفة بعده ؟ وعن قوم قالوا : نُقرّ بالزكاة في أموالنا ولا نؤدِّيها إليك أيحلُّ قتالهم ؟ وعن الكلالة [(٣)] . وعن ابن عبّاس قال : كنت آخر الناس عهدًا بعمر بن الخطاب قال : اختلفت أنا وأبو بكر في الكلالة ، والقول ما قلت ، قال : وذكر أن عمر شرك بين الإخوة للأم والأب ، وبين الإخوة للأم في الثلث إذا اجتمعوا ، وخالفه أبو بكر ﷺ . وعن سعيد بن المسيب أن عمر كتب في الجدّ والكلالة كتابًا ، فمكث يستخير الله يقول : اللهم إن علمت فيه خيرًا فأمضه ، حتى إذا طُعن دعا بكتاب فمحي ولم يدرِ أحدٌ ما كتب فيه ، فقال : إني كنت كتبت كتابًا في الجد والكلالة ، وكنت أستخير الله فيه ، فرأيت أن أترككم على ما كنتم عليه [(٤)] . وقد روي عن عمر ﷺ أنه قال : إني لأستحي أن أخالف فيه أبا بكر ، وكان أبو بكر ﷺ يقول : هو ما عدا الولد والوالد . وهذا الذي قاله الصدِّيق عليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة في قديم الزمان وحديثه ، وهو مذهب الأئمة الأربعة ، والفقهاء السبعة ، وقول علماء الأمصار قاطبة ، وهو الذي يدلّ عليه القرآن كما أرشد الله أنه قد بينّ ذلك ووضّحه في قوله : ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ والله أعلم .

---

(١) تفسير الطبري (٦/٥٥ - ٥٦) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/٢٤٩) والهندي في كنز العمال (٣٠٦٨٨) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٣٠٣) .

(٤) تفسير الطبري (٦/٥٧) .

سورة المائدة

عن أسماء بنت يزيد قالت : إني لآخذة بزمام العضباء – ناقة رسول الله ﷺ – إذ نزلت عليه المائدة كلها ، وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة (١) . وعن عبد الله بن عمرو قال : أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته ، فلم تستطع أن تحمله ، فنزل عنها (٢) . وعن جبير بن نفير قال : حججت فدخلت على عائشة فقالت لي : يا جبير تقرأ المائدة ؟ فقلت : نعم ، فقالت : أما إنها آخر سورة نزلت ، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه ، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه (٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ .

عن معن وعوف أو أحدهما أن رجلًا أتى عبد الله بن مسعود فقال : اعهد إلي ، فقال : إذا سمعت الله يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فأرعها سمعك ، فإنه خير يأمر به ، أو شر ينهى عنه .

وكتب رسول الله ﷺ كتابًا لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن يفقه أهلها ويعلمهم السنة ، ويأخذ صدقاتهم ، فكتب له كتابًا وعهدًا وأمره فيه بأمره فكتب « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ، هَذَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ عَهْدٌ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِعَمْرِو بْنِ حَزْمٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي أَمْرِهِ كُلِّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » (٤) .

قوله تعالى : ﴿ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ قال ابن عبّاس : يعني بالعقود العهود . والعهود ما كانوا يتعاقدون عليه من الحلف وغيره . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ : يعني العهود ، يعني ما أحل الله وما حرّم وما فرض ، وما حدّ في القرآن كله ، ولا تغدروا ، ولا تنكثوا ، ثم شدد في ذلك فقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ إلى قوله : ﴿ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ وقال الضحاك : ﴿ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ قال : ما أحل الله وحرّم ، وما أخذ الله من الميثاق على من أقر بالإيمان بالنبي والكتاب ، أن يوفوا بما أخذ الله عليهم من الفرائض ، من الحلال والحرام . وقال زيد بن أسلم : ﴿ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ قال : هي ستة : عهد الله ، وعقد الحلف ، وعقد الشركة ، وعقد البيع ، وعقد النكاح ، وعقد اليمين . وقد استدل بعض من ذهب إلى أنه لا خيار في مجلس البيع بهذه الآية ﴿ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ قال : فهذا يدل على لزوم العقد وثبوته ، ويقتضي نفي خيار المجلس ، وهذا مذهب أبي حنيفة ومالك ، وخالفهما في ذلك الشافعي وأحمد والجمهور ، والحجة في ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٥٥/٦) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧٦/٢) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٨٨/٦) .
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٥٣/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٤٥/٨) .

عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا » (١) وفي لفظ آخر للبخاري : « إِذَا تَبَايَعَ الرَّجُلاَنِ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالخِيَارِ ، مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا » (٢) وهذا صريح في إثبات خيار المجلس المتعقب لعقد البيع ، وليس هذا منافيًا للزوم العقد ، بل هو من مقتضياته شرعًا ، فالتزامه من تمام الوفاء بالعقود .

وقوله تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ هي الإبل والبقر والغنم ، قاله قتادة وغير واحد . قال ابن جرير : وكذلك هو عند العرب . وقد استدل ابن عمر وابن عبّاس وغير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وجد ميتًا في بطن أمه إذا ذبحت ، وقد ورد في ذلك حديث في السنن عن أبي سعيد قال : قلنا : يا رسول الله ننحر الناقة ونذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين ، أنلقيه أم نأكله ؟ فقال : « كُلُوهُ إِنْ شِئْتُمْ فَإِنَّ ذَكَاتَهُ ذَكَاةُ أُمِّهِ » (٣) . وعن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال : « ذَكَاةُ الجَنِينِ ذَكَاةُ أُمِّهِ » (٤) .

وقوله : ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ قال ابن عبّاس : يعني بذلك الميتة والدم ولحم الخنزير . وقال قتادة : يعني بذلك الميتة ، وما لم يذكر اسم الله عليه ، والظاهر - والله أعلم - أن المراد بذلك قوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ ﴾ فإن هذه وإن كانت من الأنعام إلّا أنها تحرم بهذه العوارض ، ولهذا قال : ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ يعني منها ، فإنه حرام لا يمكن استدراكه وتلاحقه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أي إلّا ما سيتلى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال .

وقوله تعالى : ﴿ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ قال بعضهم : هذا منصوب على الحال ، والمراد بالأنعام ما يعم الإنسي من الإبل والبقر والغنم ، وما يعم الوحشي كالظباء والبقر والحمر ، فاستثنى من الإنسي ما تقدم ، واستثنى من الوحشي الصيد في حال الإحرام . وقيل : المراد أحللنا لكم الأنعام إلّا ما استثني منها لمن التزم تحريم الصيد ، وهو حرام لقوله : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي أبحنا تناول الميتة للمضطر ، بشرط أن يكون غير باغ ولا متعد ، وهكذا هنا ، أي كما أحللنا الأنعام في جميع الأحوال ، فحرموا الصيد في حال الإحرام ، فإن الله قد حكم بهذا ، وهو الحكيم في جميع ما يأمر به وينهى عنه ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ قال ابن عبّاس : يعني بذلك مناسك الحج . وقال مجاهد : الصفا والمروة ، والهدي والبدن من شعائر الله . وقيل : شعائر الله محارمه ، أي لا تحلوا محارم الله التي حرمها الله تعالى ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾ يعني بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمه ، وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه من الابتداء بالقتال ، وتأكيد اجتناب المحارم ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ الآية . وعن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع : « إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرَامٌ ، ثَلاَثٌ مُتَوَالِيَاتٌ ذُو القَعْدَةِ وَذُو

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢١١٤) ومسلم في البيوع (٤٧) .
(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢١١٢) ومسلم في البيوع (٤٥) والإمام أحمد في مسنده (١١٩/٢) .
(٣) أخرجه أحمد مسنده (٣١/٣) وابن ماجه في السنن (٣١٩٩) وأبو داود في السنن (٢٨٢٧) .
(٤) أخرجه أحمد مسنده (٣٩/٣) .

الحِجَّةِ وَالمُحَرَّمِ ، وَرَجَبُ مُضَر الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ »[1] وهذا يدل على استمرار تحريمها إلى آخر وقت كما هو مذهب طائفة من السلف . وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾ : يعني لا تستحلوا القتال فيه . وذهب الجمهور إلى أن ذلك منسوخ ، وأنه يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ قالوا : فلم يستثن شهرًا حرامًا من غيره . وقد حكى الإمام أبو جعفر الإجماع على أن الله قد أحل قتال أهل الشرك في الأشهر الحرم وغيرها من شهور السنة . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ يعني لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام ، فإن فيه تعظيم شعائر الله ، ولا تتركوا تقليدها في أعناقها لتتميز به عما عداها من الأنعام ، وليعلم أنها هدي إلى الكعبة فيجتنبها من يريدها بسوء ، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها ، فإن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء . ولهذا لما حجَّ رسول الله ﷺ بات بذي الحليفة وهو وادي العقيق ، فلما أصبح طاف على نسائه وكن تسعًا ، ثم اغتسل وتطيّب وصلى ركعتين ، ثم أشعر هديه وقلّده وأهلَّ للحج والعمرة ، وكان هديه إبلًا كثيرة تنيف على الستين من أحسن الأشكال والألوان ، كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ وقال بعض السلف : إعظامها استحسانها واستسمانها . قال علي بن أبي طالب : أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن[2] . وقال مقاتل بن حيان : قوله : ﴿ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ فلا تستحلوها ، وكان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم في غير الأشهر الحرم قلدوا أنفسهم بالشعر والوبر ، وتقلد مشركو الحرم من لحاء شجره فيأمنون به . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نسخ من هذه السورة آيتان ، آية القلائد ، وقوله : ﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ﴾ أي : ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام الذي من دخله كان آمنًا ، وكذا من قصده طالبًا فضل الله ، وراغبًا في رضوانه ، فلا تصدوه ولا تمنعوه ولا تهيجوه . قال مجاهد وعطاء في قوله : ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ يعني بذلك التجارة ، وهذا كما تقدم في قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَرِضْوَٰنًا ﴾ قال ابن عباس : يترضون الله بحجهم . وقد ذكر عكرمة والسدي وابن جرير أن هذه الآية نزلت في الحطم بن هند البكري كان قد أغار على سرح المدينة ، فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا في طريقه إلى البيت ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ﴾ .

وقد حكى ابن جرير الإجماع على أن المشرك يجوز قتله إذا لم يكن له أمان ، وإن أمَّ البيت الحرام أو بيت المقدس ، وأن هذا الحكم منسوخ في حقهم والله أعلم . فأما من قصده بالإلحاد فيه والشرك عنده والكفر به فهذا يمنع ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ ولهذا بعث رسول الله ﷺ عام تسع لما أمَّر الصدِّيق على الحجيج عليًا ، وأمره أن ينادي على سبيل النيابة عن رسول الله ﷺ ببراءة ، وأن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان[3]

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٦٢) ومسلم في القسامة (٢٩) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٩٥/١) وأبو داود في السنن (٢٨٠٤) وابن ماجه في السنن (٣١٤٣) .
(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٦٩) ومسلم في الحج (٤٣٥) .

وقال ابن عباس : قوله ﴿ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ يعني من توجه قبل البيت الحرام ، فكان المؤمنون والمشركون يحجون ، فنهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحدًا من مؤمن أو كافر ، ثم أنزل الله بعدها ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ فنفى المشركين من المسجد الحرام . وقال قتادة في قوله : ﴿ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ قال : منسوخ ، كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج تقلّد من الشجر فلم يعرض له أحد ، فإذا رجع تقلد قلادة من شعر فلم يعرض له أحد ، وكان المشرك يومئذ لا يصد عن البيت ، فأمروا أن لا يقاتلوا في الشهر الحرام ولا عند البيت ، فنسخها قوله : ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ ﴾ أي إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتم منه فقد أبحنا لكم ما كان محرمًا عليكم في حال الإحرام من الصيد ، وهذا أمر بعد الحظر ، وقوله : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ ﴾ أي لا يحملنّكم بغض قوم قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام - وذلك عام الحديبية - على أن تعتدوا حكم الله فيهم ، فتقتصوا منهم ظلمًا وعدوانًا ، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في حق كل أحد . وهذه الآية كما سيأتي من قوله : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ . وعن زيد بن أسلم قال : كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صدّهم المشركون عن البيت ، وقد اشتد ذلك عليهم ، فمرّ بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة ، فقال أصحاب النبيّ ﷺ : نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم ، فأنزل الله هذه الآية . والشنآن هو البغض قاله ابن عباس وغيره ، وهو مصدر من شنأته أشنؤه شنآنًا بالتحريك .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر ، وترك المنكرات وهو التقوى ، وينهاهم عن التناصر على الباطل ، والتعاون على المآثم والمحارم . قال ابن جرير : الإثم : ترك ما أمر الله بفعله ، والعدوان مجاوزة ما حدّ الله في دينكم ومجاوزة ما فرض الله عليكم في أنفسكم وفي غيركم . وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا » قيل : يا رسول الله هذا نصرته مظلومًا ، فكيف أنصره إذا كان ظالمًا ؟ قال : « تَحْجزُهُ وَتَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ ، فَذَاكَ نَصْرُهُ » (١) . وعن يحيى بن وثاب عن شيخ من أصحاب النبي ﷺ أنه قال : « الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الَّذِي لاَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَلاَ يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ » (٢) وفي الحديث : « الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ » (٣) وفي الصحيح : « مَنْ دَعَا إِلَى هُدىً كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا . وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنِ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لا يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا » (٤) .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ

---

(١) أخرجه البخاري في الإكراه(٦٩٥٢) وأحمد في مسنده(٩٩/٣ ، ٢٠١) والترمذي في السنن(٢٢٥٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده(٣٦٥/٥) وابن ماجه في السنن(٤٠٣٢) والبيهقي في السنن(٨٩/١٠) .
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير(٢٣٠/٦) والهيثمي في مجمع الزوائد(١٦٦/١) .
(٤) أخرجه مسلم في العلم(١٦) وأحمد في مسنده(٣٩٧/٢) والترمذي في السنن(٢٦٧٤) .

ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يخبر تعالى عباده خبرًا متضمنًا النهي عن تعاطي هذه المحرمات من الميتة ، وهي ما مات من الحيوانات حتف أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد ، وما ذاك إلَّا لما فيها من المضرة لما فيها من الدم المحتقن ، فهي ضارة للدين وللبدن ، فلهذا حرمها الله ﷻ ، ويستثنى من الميتة السمك فإنه حلال سواء مات بتذكية أو غيرها ، لما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر فقال : « هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ ، الحلّ مَيْتَتُهُ » [(١)] . وقوله : ﴿ وَٱلدَّمُ ﴾ يعني به المسفوح كقوله ﴿ أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾ قال عكرمة عن ابن عبّاس أنه سئل عن الطحال فقال: كلوه ، فقالوا : إنه دم ، فقال : إنما حرم عليكم الدم المسفوح . وعن عائشة قالت : إنما نهي عن الدم السافح . وقد قال رسول الله ﷺ : « أُحِلَّ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمانِ فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالسَّمَكُ وَالْجَرَادُ ، وَأَمَّا الدَّمانِ فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ » [(٢)] وعن أبي أمامة – وهو صدي بن عجلان – قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى قومي أدعوهم إلى الله ورسوله ، وأعرض عليهم شرائع الإسلام ، فأتيتهم فبينما نحن كذلك إذا جاؤوا بقصعة من دم ، فاجتمعوا عليها يأكلونها ، فقالوا : هلم يا صدي فكل ، قال : ويحكم إنما أتيتكم من عند من يحرم هذا عليكم ، فأقبلوا عليه قالوا : وما ذاك فتلوت عليهم هذه الآية ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ ﴾ الآية . وما أحسن ما أنشد الأعشى في قصيدته التي ذكرها ابن إسحاق :

وَإِيَّـاكَ وَالْمَيْـتَـاتِ لا تَـقْـرَبَـنَّـهَـا ... وَلاَ تَأْخُذَنَّ عَظْمًا حَدِيدًا فَتَفْصِدَا

أي لا تفعل فعل الجاهلية ، وذلك أن أحدهم كان إذا جاع يأخذ شيئًا محددًا من عظم ونحوه فيفصد به بعيره أو حيوانًا من أي صنف كان ، فيجمع ما يخرج منه من الدم فيشربه ، ولهذا حرم الله الدم على هذه الأمة .

وقوله : ﴿ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ يعني إنسيه ووحشيه ، واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم ، ولا يحتاج إلى تحذلق الظاهرية في جمودهم ههنا ، وتعسفهم في الاحتجاج بقوله : ﴿ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا ﴾ يعنون قوله تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ ﴾ أعادوا الضمير فيما فهموه على الخنزير حتى يعم جميع أجزائه ، وهذا بعيد من حيث اللغة ، فإنه لا يعود الضمير إلَّا إلى المضاف دون المضاف إليه ، والأظهر أن اللحم يعم جميع الأجزاء كما هو المفهوم من لغة العرب ، ومن العرف المطرد . وفي الصحيح عنه ﷺ قال : « مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَه في لَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَدَمِهِ » [(٣)] فإذا كان هذا التنفير لمجرد اللمس ، فكيف يكون التهديد والوعيد الأكيد على أكله والتغذي به ، وفيه دلالة على شمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالأَصْنَامِ » فقيل : يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنها تطلى بها

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٣٧ ، ٣٦٧) ومالك في الموطأ (١/٢٢) ، وأبو داود في السنن (١/٢٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٩٧) وابن ماجه في السنن (٤/٣٣١) . (٣) أخرجه مسلم في الشعر (١٠) .

السفن ، وتدهن بها الجلود ، ويستصبح بها الناس فقال : « لا ، هُوَ حَرَامٌ »[١] .

وقوله : ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ أي ما ذبح فذكر عليه اسم غير اللَّه ، فهو حرام ؛ لأن اللَّه تعالى أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم ، فمتى عدل بها عن ذلك ، وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك من سائر المخلوقات ، فإنها حرام بالإجماع .

وقوله : ﴿ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ ﴾ وهي التي تموت بالخنق ، إما قصدًا ، وإما اتفاقًا ، بأن تتخبل في وثاقتها فتموت به ، فهي حرام . وأما ﴿ ٱلْمَوْقُوذَةُ ﴾ : فهي التي تضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت ، كما قال ابن عبّاس وغير واحد : هي التي تضرب بالخشبة حتى يوقذها فتموت . قال قتادة : أهل الجاهلية يضربونها بالعصي ، حتى إذا ماتت أكلوها . وفي الصحيح أن عدي بن حاتم قال : قلت يا رسول اللَّه : إني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب ، قال : « إِذَا رَمَيْتَ بِالْمِعْرَاضِ فَخَرَقَ فَكُلْهُ ، وَإِنْ أَصَابَ بَعَرْضِهِ فَإِنَّما هُوَ وَقِيذٌ فلا تَأْكُلْهُ »[٢] ففرق بين ما أصابه بالسهم أو بالمزراق ونحوه بحده فأحلّه ، وما أصاب بعرضه فجعله وقيذًا لم يحله ، وهذا مجمع عليه عند الفقهاء ، واختلفوا فيما إذا صدم الجارحة الصيد فقتله بثقله ولم يجرحه على قولين ، هما قولان للشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ : أحدهما لا يحل كما في السهم والجامع أن كلًّا منهما ميت بغير جرح فهو وقيذ والثاني : أنه يحل ، لأنه حكم بإباحة ما صاده الكلب ولم يستفصل ، فدل على إباحة ما ذكرناه ؛ لأنه قد دخل في العموم .

وقد اختلف العلماء رحمهم اللَّه تعالى ، فيما إذا أرسل كلبًا على صيد فقتله بثقله ولم يجرحه أو صدمه هل يحل أم لا ؟ على قولين :

أحدهما : أن ذلك حلال لعموم قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ وهذا قول حكاه الأصحاب عن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ ، وصححه بعض المتأخرين منهم كالنووي والرافعي قلت : وليس ذلك بظاهر من كلام الشافعي في الأم والمختصر ، فإنه قال في كلا الموضعين : يحتمل معنيين ، ثم وجه كلًّا منهما فحمل ذلك الأصحاب منه ، فأطلقوا في المسألة قولين عنه ، اللهم إلا أنه في بحثه للقول بالحل رشحه قليلًا ولم يصرح بواحد منهما ولا جزم به .

والقول الثاني : أن ذلك لا يحل ، وهو أحد القولين عن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ ؛ وذلك لحديث رافع بن خديج قلت : يا رسول اللَّه ، إنا لاقو العدو غدًا ، وليس معنا مدى أفنذبح بالقصب ؟ قال : « مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسْمُ اللَّه عَلَيْهِ فَكُلُوهُ » الحديث بتمامه[٣]

وهكذا يجب أن يكون حكم هذا سواء إن كان قد جرحه الكلب فهو داخل في حكم آية التحليل ، وإن لم يجرحه ، بل صدمه أو قتله فهو نطيح أو في حكمه فلا يكون حلالًا .

فإن قيل : فلم لا فصل في حكم الكلب ، فقال : ما ذكرتم إن جرحه فهو حلال ، وإن لم يجرحه فهو حرام ؟ فالجواب أن ذلك نادر ، لأن من شأن الكلب أن يقتل بظفره أو نابه أو بهما معًا ، وأما اصطدامه هو

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٣٦) ومسلم في المساقاة (٧١) .
(٢) أخرجه مسلم في الصيد (١) والبيهقي في السنن (٩/٢٣٥) .
(٣) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٥٠٣) ومسلم في الأضاحي (٢٠) .

والصيد فنادر ، وكذا قتله إياه بثقله فلم يحتج إلى الاحتراز من ذلك لندوره ، أو لظهور حكمه عند من علم تحريم الميتة والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة . وأما السهم والمعراض فتارة يخطئ لسوء رمي راميه أو للهو أو لنحو ذلك ، بل خطؤه أكثر من إصابته ، فلهذا ذكر كلًّا من حكميه مفصلًا والله أعلم .

ولهذا لما كان الكلب من شأنه أنه قد يأكل من الصيد ذكر حكم ما إذا أكل من الصيد ، فقال : « إِنْ أَكَلَ فَلاَ تَأْكُلْ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ »[(١)] ، وهو أيضًا مخصوص من عموم آية التحليل عند كثيرين ، فقالوا : لا يحل ما أكل عنه الكلب ، حكي ذلك عن أبي هريرة وابن عباس وإليه ذهب أبو حنيفة وصاحباه وأحمد بن حنبل والشافعي في المشهور عنه ، وروى ابن جرير في تفسيره عن علي وسعيد وسلمان وأبي هريرة وابن عمر وابن عبّاس أن الصيد يؤكل وإن أكل منه الكلب ، حتى قال سعيد وسلمان وأبو هريرة وغيرهم : يؤكل ولو لم يبق منه إلَّا بضعة ، وإلى ذلك ذهب الشافعي في قوله بإسناد جيد قوي ، عن أبي ثعلبة الخشني عن رسول الله ﷺ أنه قال في صيد الكلب : « إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ ، فَكُلْ وَإِنْ أَكَلَ مِنْهُ ، وَكُلْ ما رَدَّتْ عَلَيْكَ يَدُكَ »[(٢)] .

فأما الجوارح من الطيور ، فنص الشافعي على أنها كالكلب ، فيحرم ما أكلت منه عند الجمهور ، ولا يحرم عند الآخرين ، واختار المزني من أصحابنا أنه لا يحرم أكل ما أكلت منه الطيور والجوارح ، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد ، قالوا : لأنه لا يمكن تعليمها كما يعلم الكلب بالضرب ونحوه ، وأيضًا فإنها لا تعلم إلَّا بأكلها من الصيد فيعفى عن ذلك ، وأيضًا فالنص إنما ورد في الكلب لا في الطير .

وأما ﴿ ٱلْمُتَرَدِّيَةُ ﴾ فهي التي تقع من شاهق أو موضع عالٍ فتموت بذلك ، فلا تحل قال ابن عبّاس : المتردية التي تسقط من جبل ، وقال قتادة : هي التي تتردى في بئر .

وأما ﴿ ٱلنَّطِيحَةُ ﴾ فهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها ، فهي حرام وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحها ، والنطيحة فعيلة بمعنى مفعولة أي منطوحة ، وأكثر ما ترد هذه البنية في كلام العرب بدون تاء التأنيث ، فيقولون : عين كحيل وكف خضيب ، ولا يقولون : كف خضيبة ولا عين كحيلة ، وأما هذه فقال بعض النحاة : إنما استعمل فيها تاء التأنيث ؛ لأنها أجريت مجرى الأسماء ، كما في قولهم طريقة طويلة ، وقال بعضهم : إنما أتي بتاء التأنيث فيها لتدل على التأنيث من أول وهلة بخلاف عين كحيل وكف خضيب ؛ لأن التأنيث مستفاد من أول الكلام .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ ﴾ أي ما عدا عليها أسد أو فهد أو نمر أو ذئب أو كلب ، فأكل بعضها فماتت بذلك فهي حرام ، وإن كان قد سال منها الدم ولو من مذبحها فلا تحل بالإجماع ، وقد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقرة أو نحو ذلك ، فحرم الله ذلك على المؤمنين .

وقوله : ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ عائد على ما يمكن عوده عليه مما انعقد سبب موته فأمكن تداركه بذكاة وفيه حياة مستقرة ، وذلك إنما يعود على قوله : ﴿ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ ﴾ قال ابن عبّاس في قوله : ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ : إلَّا ما ذبحتم من هؤلاء وفيه روح فكلوه فهو ذكي ، وعن

---

(١) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٤٧٦) ومسلم في الصيد (٢ ، ٣) وأحمد في مسنده (٤/٢٥٨) .

(٢) أخرجه مسلم في الصيد (٣) وأحمد في مسنده (٤/٢٥٦) والطبراني في الكبير (١٧/١٧) .

علي في الآية قال : إن مصعت بذنبها أو ركضت برجلها أو طرفت بعينها فكل . وعن علي أيضًا قال : إذا أدركت ذكاة الموقوذة والمتردية والنطيحة وهي تحرك يدًا أو رجلًا فكلها ، وهكذا روي عن طاوس والحسن وقتادة أن المذكاة متى تحركت بحركة تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح فهي حلال ، وهذا مذهب جمهور الفقهاء وبه قال أبو حنيفة والشافعي وأحمد ابن حنبل . قال ابن وهب : سئل مالك عن الشاة التي يخرق جوفها السبع حتى تخرج أمعاؤها ، فقال مالك : لا أرى أن تذكى ، أي شيء يذكى منها ؟ وسئل مالك عن الضبع يعدو على الكبش فيدق ظهره ، أترى أن يذكى قبل أن يموت فيؤكل ؟ فقال : إن كان قد بلغ السحر فلا أرى أن يؤكل ، وإن كان أصاب أطرافه فلا أرى بذلك بأسًا ، هذا مذهب مالك رَحِمَهُ اللَّهُ ، وظاهر الآية عام فيما استثناه مالك رَحِمَهُ اللَّهُ من الصور التي بلغ الحيوان فيها إلى حالة لا يعيش بعدها فيحتاج إلى دليل مخصص للآية والله أعلم .

وفي الصحيحين عن رافع بن خديج أنه قال : قلت : يا رسول الله إنا لاقو العدو غدًا وليس معنا مدى أفنذبح بالقصب ؟ فقال : « مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلُوهُ لَيْسَ السِّنَّ وَالظُّفْرَ . وَسَأُحَدِّثُكُمْ عَنْ ذَلِكَ أَمَّا السِّنُّ فَعَظْمٌ وَأَمَّا الظُّفْرُ فَمدَى الْحَبَشَةِ » (١) ، وروي عن عمر موقوفًا وهو أصح : « أَلا إِنَّ الذَّكَاةَ في الحلق وَاللَّبَّةِ ولا تَعْجَلُوا الأَنْفُسَ أَنْ تُزْهَقَ » (٢) وفي الحديث عن أبي العشراء الدارمي عن أبيه قال : قلت يا رسول الله : أما تكون الذكاة إلَّا من اللبة والحلق ؟ فقال : « لَوْ طَعَنْتَ في فَخْذِهَا لأَجْزَأَ عَنْكَ » (٣) . وهو حديث صحيح ولكنه محمول على ما لا يقدر على ذبحه في الحلق واللبة .

وقوله : ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ قال مجاهد وابن جريج : كانت النصب حجارة حول الكعبة ، قال ابن جريج : وهي ثلاثمائة وستون نصبًا ، كانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح ، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب ، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب ، حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله في الذبح عند النصب من الشرك الذي حرمه الله ورسوله ، وينبغي أن يحمل هذا على هذا ؛ لأنه قد تقدم تحريم ما أهل به لغير الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ﴾ أي حرم عليكم أيها المؤمنون الاستقسام بالأزلام ، واحدها زلم ، وقد تفتح الزاي فيقال : زَلم ، وقد كانت العرب في جاهليتها يتعاطون ذلك ، وهي عبارة عن قداح ثلاثة على أحدها مكتوب : افعل ، وعلى الآخر : لا تفعل ، والثالث : غفل ليس عليه شيء . ومن الناس من قال : مكتوب على الواحد أمرني ربي ، وعلى الآخر نهاني ربي ، والثالث غفل ليس عليه شيء ، فإذا أجالها فطلع سهم الأمر فعله أو النهي تركه وإن طلع الفارغ أعاد . والاستقسام مأخوذ من طلب القسم من هذه الأزلام . وعن ابن عباس . ﴿ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ﴾ قال : والأزلام قداح كانوا يستقسمون بها في الأمور ، وذكر محمّد بن إسحاق وغيره أن أعظم أصنام قريش صنم

(١) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٥٠٣) ومسلم في الأضاحي (٢٠) .
(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢٧٨/٩) والألباني في إرواء الغليل (١٧٦/٨) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢٨٢٥) والترمذي في السنن (١٤٨١) .

كان يقال له : هبل منصوب على بئر داخل الكعبة فيها توضع الهدايا وأموال الكعبة فيه ، وكان عنده سبعة أزلام مكتوب فيها ما يتحاكمون فيه مما أشكل عليهم ، فما خرج لهم منها رجعوا إليه ولم يعدلوا عنه ، وقد ورد أن النبيّ ﷺ لما دخل الكعبة وجد إبراهيم وإسماعيل مصورين فيها وفي أيديهما الأزلام فقال : « قَاتَلَهُمُ اللَّهُ لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمَا لَمْ يَسْتَقْسِمَا بِهَا أَبَدًا » (١) . وروي أن سراقة بن مالك بن جعشم لما خرج في طلب النبيّ ﷺ وأبي بكر وهما ذاهبان إلى المدينة مهاجرين ، قال : فاستقسمت بالأزلام هل أضرهم أم لا ؟ فخرج الذي أكره لا تضرهم ، قال : فعصيت الأزلام واتبعتهم ، ثم إنه استقسم بها ثانية وثالثة كل ذلك يخرج الذي يكره لا تضرهم ، وكان كذلك وكان سراقة لم يسلم إذ ذاك ثم أسلم بعد ذلك (٢) . ﴿ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ أي تعاطيه فسق وغي وضلالة وجهالة وشرك ، وقد أمر اللَّه المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم أن يستخيروه بأن يعبدوه ثم يسألوه في الأمر الذي يريدونه ، كما روي عن جابر بن عبد اللَّه قال : كان رسول اللَّه ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن ويقول : « إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ ، ثُمَّ لِيَقُلِ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ - وَيُسَمِّيهِ بِاسْمِهِ - خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ : عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِله - فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ، فَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاقْدُرْ لِيَ الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ » (٣) .

وقوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ ﴾ قال ابن عبّاس : يعني يئسوا أن يراجعوا دينهم . وكذا روي عن عطاء بن أبي رباح والسدي ومقاتل بن حيان ، وعلى هذا المعنى قد ورد أن رسول اللَّه ﷺ قال : « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ ، وَلَكِنْ بِالتَّحْرِيشِ بَيْنَهُم » (٤) ويحتمل أن يكون المراد أنهم يئسوا من مشابهة المسلمين لما تميز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله ، ولهذا قال تعالى آمرًا لعباده المؤمنين أن يصبروا ويثبتوا في مخالفة الكفار ، ولا يخافوا أحدًا إلَّا اللَّه فقال : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ﴾ أي : لا تخافوهم في مخالفتكم إياهم ، واخشوني أنصركم عليهم وأؤيدكم وأظفركم بهم وأشف صدوركم منهم وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ هذه أكبر نعم اللَّه تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم ، فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات اللَّه وسلامه عليه ، ولهذا جعله اللَّه تعالى خاتم الأنبياء ، وبعثه إلى الإنس والجن ، فلا حلال إلَّا ما أحله ، ولا حرام إلَّا ما حرّمه ، ولا دين إلَّا ما شرعه ، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ أي صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأوامر

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٤/١) والبيهقي في السنن (١٥٨/٥) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٥/٤ ، ١٧٦) .
(٣) أخرجه البخاري في التهجد (١١٦٢) وأحمد في مسنده (٣٤٤/٣) وأبو داود في السنن (١٥٣٨) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٤/٣) والهندي في كنز العمال (١٢٤٦) والسيوطي في الدر المنثور (٢٥٧/٢) .

والنواهي ، فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة ولهذا قال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًاۚ ﴾ أي فارضوه أنتم لأنفسكم ، فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام ، وأنزل به أشرف كتبه . وقال ابن عبّاس : قوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ وهو الإسلام أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان ، فلا يحتاجون إلى زيادة أبدًا ، وقد أتمّه الله فلا ينقصه أبدًا ، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدًا . وقال السدي : نزلت هذه الآية يوم عرفة ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام .

وقال ابن جرير : مات رسول الله ﷺ بعد يوم عرفة بأحد وثمانين يومًا . وعن هارون بن عنترة عن أبيه قال : لما نزلت ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ وذلك يوم الحج الأكبر بكى عمر ، فقال له النبيّ ﷺ : « مَا يُبْكِيكَ ؟ » قال : أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا ، فأما إذا أكمل فإنه لم يكمل شيء إلّا نقص ، فقال : « صَدَقْتَ » ويشهد لهذا المعنى الحديث الثابت : « إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ » (١) وعن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا . قال : وأي آية ؟ قال : قوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ فقال عمر : والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ ، عشية عرفة في يوم جمعة (٢) . ولفظ البخاري عند تفسير هذه الآية قال : قالت اليهود لعمر : إنكم تقرؤون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيدًا ، فقال عمر : إني لأعلم حين أنزلت وأين أنزلت وأين رسول الله ﷺ حيث أنزلت : يوم عرفة وأنا والله بعرفة . قال سفيان : وأشك كان يوم الجمعة أم لا ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ الآية (٣) . قال كعب : لو أن غير هذه الأمة نزلت عليهم هذه الآية لنظروا اليوم الذي أنزلت فيه عليهم فاتخذوه عيدًا يجتمعون فيه ، فقال عمر : أي آية يا كعب ؟ فقال : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ فقال عمر : قد علمت اليوم الذي أنزلت فيه ، والمكان الذي أنزلت فيه ، نزلت في يوم الجمعة ويوم عرفة وكلاهما بحمد الله لنا عيد .

وقال عمار - وهو مولى بني هاشم - أن ابن عبّاس قرأ ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًاۚ ﴾ فقال يهودي : لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذنا يومها عيدًا ، فقال ابن عبّاس : فإنها نزلت في يوم عيدين اثنين ، يوم عيد ويوم جمعة .

وقوله : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التي ذكرها الله تعالى لضرورة ألجأته إلى ذلك ، فله تناوله والله غفور رحيم له ؛ لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر وافتقاره إلى ذلك ، فيتجاوز عنه ويغفر له ، وعن ابن عمر مرفوعًا قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخْصَتُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ » (٤) ولهذا قال الفقهاء : قد يكون تناول الميتة واجبًا في بعض الأحيان ، وهو ما إذا خاف على نفسه ولم يجد غيرها ،

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٦) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/١) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٠٦) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٨/٢) والبيهقي في السنن (١٤٠/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٢/٣) .

وقد يكون مندوبًا ، وقد يكون مباحًا بحسب الأحوال ، واختلفوا هل يتناول منها قدر ما يسد به الرمق ، أو له أن يشبع ، أو يشبع ويتزود ؟ على أقوال ؛ كما هو مقرر في كتاب الأحكام ، وفيما إذا وجد ميتة وطعام الغير أو صيدًا وهو محرم ، هل يتناول الميتة أو ذلك الصيد ويلزمه الجزاء ، أو ذلك الطعام ويضمن بدله ، على قولين هما قولان للشافعي رحمه الله . وليس من شرط جواز تناول الميتة أن يمضي عليه ثلاثة أيام لا يجد طعامًا ، كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم ، بل متى اضطر إلى ذلك جاز له ، وقد قال حسان بن عطية : عن أبي واقد الليثي أنهم قالوا يا رسول الله : إنا بأرض تصيبنا بها المخمصة فمتى تحل لنا بها الميتة ؟ فقال : « إِذَا لَمْ تَصْطَبِحُوا ، وَلَمْ تَغْتَبِقُوا ، وَلَمْ تَحْتَفِئُوا بِهَا بَقلًا فَشَأْنُكُمْ بِهَا »(١) . وقال ابن جرير : يروى هذا الحرف يعني قوله « أَوْ تَحْتَفِئُوا » على أربعة أوجه : تحفؤا بالهمزة ، وتحتفيوا بتخفيف الياء والحاء ، وتحتفُّوا بتشديد ، وتحتفوا بالحاء وبالتخفيف ، ويحتمل الهمز كذا رواه في التفسير .

قال النجيع العامري أنه أتى رسول الله ﷺ فقال : ما يحل لنا من الميتة ، قال : « مَا طَعَامُكُمْ ؟ » قلنا : نصطبح ونغتبق (٢) . وقال أبو نعيم : فسره لي عقبة : قدح غدوة وقدح عشية قال : ذاك وأبي الجوع ، وأحل لهم الميتة على هذه الحال . وكأنهم كانوا يصطبحون ويغتبقون شيئًا لا يكفيهم فأحل لهم الميتة لتمام كفايتهم ، وقد يحتج به من يرى جواز الأكل منها حتى يبلغ حد الشبع ، ولا يتقيد ذلك بسد الرمق ، والله أعلم .

وعن جابر عن سمرة أن رجلًا نزل الحرة ومعه أهله وولده ، فقال له رجل : إن ناقتي ضلت فإن وجدتها فأمسكها ، فوجدها ولم يجد صاحبها . فمرضت فقالت له امرأته : انحرها فأبى فنفقت ، فقالت له امرأته : اسلخها حتى تقدد شحمها ولحمها فنأكله ، قال : لا ، حتى أسأل رسول الله ﷺ ، فأتاه فسأله فقال : « هَلْ عِنْدَكَ غِنىً يُغْنِيكَ » ؟ قال : لا ، قال : « فَكُلُوهَا » قال : فجاء صاحبها فأخبره الخبر فقال : هلا كنت نحرتها ؟ قال : استحييت منك (٣) . وقد يحتج به من يجوز الأكل والشبع والتزود منها مدة يغلب على ظنه الاحتياج إليها والله أعلم .

وقوله : ﴿ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ ﴾ أي متعاط لمعصية الله فإن الله قد أباح ذلك له ، وسكت عن الآخر كما قال في سورة البقرة : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وقد استدل بهذه الآية من يقول : بأن العاصي بسفره لا يترخص بشيء من رخص السفر لأن الرخص لا تنال بالمعاصي والله أعلم .

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

لما ذكر تعالى ما حرمه في الآية المتقدمة من الخبائث الضارة لمتناولها إما في بدنه أو في دينه أو فيهما ، واستثنى ما استثناه في حالة الضرورة كما قال تعالى : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ قال بعدها : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾ كما في سورة الأعراف في صفة محمد ﷺ أنه يحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث . فعن سعيد بن جبير أن عدي بن حاتم وزيد بن مهلهل الطائيين ، سألا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢١٨) والبيهقي في السنن (٩/٣٥٦) والحاكم في المستدرك (٤/١٢٥) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٣٨١٧) . (٣) أخرجه أبو داود في السنن (٣٨١٦) .

رسول الله ﷺ ، فقالا : يا رسول الله قد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا منها ؟ فنزلت ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ قال سعيد : يعني الذبائح الحلال الطيبة لهم . وقال مقاتل : الطيبات ما أحلّ لهم من كل شيء أن يصيبوه وهو الحلال من الرزق ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ أي أحل لكم الذبائح التي ذكر اسم الله عليها ، والطيبات من الرزق ، وأحل لكم ما صدتموه بالجوارح ، وهي الكلاب والفهود والصقور وأشباهها ، كما هو مذهب الجمهور من الصحابة والتابعين والأئمة . وعن ابن عمر قال : أما ما صاد من الطير البازات وغيرها من الطير فما أدركت فهو لك ، وإلّا فلا تطعمه ، قلت : والمحكي عن الجمهور أن الصيد بالطيور كالصيد بالكلاب ؛ لأنها تكلب الصيد بمخالبها كما تكلبه الكلاب فلا فرق ، وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم ، واختاره ابن جرير واحتج في ذلك بما رواه عدي بن حاتم قال : سألت رسول الله ﷺ عن صيد البازي فقال : « مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ فَكُلْ »[(١)] .

واستثنى الإمام أحمد صيد الكلب الأسود لأنه عنده مما يجب قتله ، ولا يحل اقتناؤه لما روي عن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال : « يَقْطَعُ الصَّلاَةَ الحِمَارُ وَالْمَرْأَةُ وَالْكَلْبُ الأَسْوَدُ » فقلت : ما بال الكلب الأسود من الأحمر ؟ فقال : « الْكَلْبُ الأَسْوَدُ شَيْطَانٌ »[(٢)] . وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب ، ثم قال : « مَا بَالُهُمْ وَبَالُ الْكِلاَبِ اقْتُلُوا مِنْهَا كُلَّ أَسْوَدَ بَهِيمٍ »[(٣)] وعن سلمى أم رافع عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب فقتلت ، فجاء الناس فقالوا : يا رسول الله ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها ؟ فسكت ، فأنزل الله ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ الآية ، فقال النبيّ ﷺ : « إِذَا أَرْسَلَ الرَّجُلُ كَلْبَهُ وَسَمَّى فَأَمْسَكَ عَلَيْهِ فَلْيَأْكُلْ مَا لَمْ يَأْكُل »[(٤)] .

وقوله : ﴿ مُكَلِّبِينَ ﴾ يحتمل أن يكون حالًا من الضمير في ﴿ عَلَّمۡتُم ﴾ فيكون حالًا من الفاعل ، ويحتمل أن يكون حالًا من المفعول وهو الجوارح ، أي وما علّمتم من الجوارح في حال كونهن مكلبات للصيد وذلك أن تقتنصه بمخالبها أو أظفارها ، فيستدل بذلك والحالة هذه على أن الجارح إذا قتل الصيد بصدمته وبمخلابه وظفره أنه لا يحل له كما هو أحد قولي الشافعي وطائفة من العلماء ، ولهذا قال : ﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ وهو أنه إذا أرسله استرسل ، وإذا أشلاه استشلى ، وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه ولا يمسكه لنفسه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ ﴾ فمتى كان الجارح معلمًا وأمسك على صاحبه ، وكان قد ذكر اسم الله عليه وقت إرساله ، حل الصيد وإن قتله بالإجماع . وقد وردت السنّة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة كما ثبت في الصحيحين : عن عدي بن حاتم قال : قلت : يا رسول الله إني أرسل الكلاب المعلمة وأذكر اسم الله ، فقال : « إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّم وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ فَكُلْ ما أَمْسَكَ عَلَيْكَ » قلت :

(١) أخرجه الدارمي في السنن (٨٩/٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٧/٦) والهندي في كنز العمال (٤٠٠١١) .
(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (٩٣) والنسائي في السنن (٣٣٧) .
(٤) أخرجه مسلم في الصيد (٣) وأحمد في مسنده (٣٧٩/٤) والسيوطي في الدر المنثور (٥٩/٢) .

وإن قتلن ؟ قال : « وَإِنْ قَتَلْنَ ، مَا لَمْ يَشْرَكْهَا كَلْبٌ لَيسَ مِنْهَا فَإِنَّكَ إِنَّما سَمَّيْتَ عَلَى كَلْبِكَ وَلَمْ تُسَمِّ عَلَى غَيْرِهِ » قلت له : فإني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب ؟ فقال : « إِذَا رَمَيْتَ بِالْمِعْرَاضِ فَخَزَقَ فَكُلْهُ ، وَإِنْ أَصَابَهُ بِعَرْضٍ فَإِنَّهُ وَقِيذٌ فَلا تَأْكُلْهُ »(١) وفي لفظ لهما « إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ فَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ فَإِنْ أَمْسَكَ عَلَيْكَ فَأَدْرَكْتَهُ حَيًّا فَاذْبَحْهُ وَإِنْ أَدْرَكْتَهُ قَدْ قَتَلَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ فَكُلْهُ فَإِنَّ أَخْذَ الْكَلْبِ ذَكَاتُهُ »(٢) وفي رواية لهما : « فَإِنْ أَكَلَ فَلاَ تَأْكُلْ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ »(٣) .

ذكر الآثار بذلك

عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يأكل الطعام في ستة نفر من أصحابه ، فجاء أعرابي فأكله بلقمتين ، فقال النبيّ ﷺ : « أما إِنَّهُ لَوْ كَانَ ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ لَكَفَاكُمْ فَإِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلْيَذْكُر اسْمَ اللَّهِ ، فَإِنْ نَسِيَ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ فِي أَوَّلِهِ فَلْيَقُلْ بِاسْمِ اللَّهِ أَوَّلَه وَآخِره »(٤) .

وعن أبي حذيفة قال : كنا إذا حضرنا مع النبي على طعام لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله فيضع يده ، وإنا حضرنا معه طعامًا فجاءت جارية كأنما تدفع ، فذهبت تضع يدها في الطعام ، فأخذ رسول الله ﷺ بيدها ، وجاء أعرابي كأنما يدفع فذهب يضع يده في الطعام فأخذ رسول الله بيده فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ إِذَا لَمْ يُذْكَر اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهَذِهِ الجَارِيَةِ لِيَسْتَحلَّ بِهَا فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا ، وَجَاءَ بِهَذَا الأَعْرَابِيّ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ يَدَهُ فِي يَدِي مَعْ يَدِهِمَا »(٥) .

وعن جابر بن عبد الله عن النبيّ ﷺ قال : « إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ : لا مَبِيتَ لَكُمْ وَلاَ عَشَاءَ ، وَإِذَا دَخَلَ وَلَمْ يَذْكُر اسْمَ اللَّهِ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ : أَدْرَكْتُمُ المَبِيتَ ، فَإِذَا لَمْ يَذْكُر اسْمَ اللَّهِ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ أَدْرَكْتُم الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ »(٦) .

وعن وحشي بن حرب عن أبيه عن جده أن رجلًا قال للنبي ﷺ : إنا نأكل وما نشبع ، قال : « فَلَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُتَفَرِّقِينَ . اجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ يُبَارِكْ لَكُمْ فِيهِ »(٧) .

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

لما ذكر تعالى ما حرمه على عباده المؤمنين من الخبائث وما أحله لهم من الطيبات ، قال بعده : ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين من اليهود والنصارى ، فقال : ﴿ وَطَعَامُ

(١) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٤٨٧) ومسلم في الصيد (١) والبيهقي في السنن (٢٣٥/٩) .
(٢) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٤٨٤) ومسلم في الصيد (٦) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٨/٤) والطبراني في الكبير (٧٤/١٧) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٣/٦) وابن ماجه في السنن (٣٢٦٤) والبيهقي في السنن (٢٧٦/٧) .
(٥) أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٢) وأحمد في مسنده (٣٨٢/٥) وأبو داود في السنن (٣٧٦٦) .
(٦) أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٣) وأحمد في مسنده (٣٨٣/٣) وأبو داود في السنن (٣٧٦٥) .
(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠١/٣) وأبو داود في السنن (٣٧٦٤) وابن ماجه في السنن (٣٢٨٦) .

﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾ قال ابن عبّاس : يعني ذبائحهم . وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء : إن ذبائحهم حلال للمسلمين ؛ لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير اللَّه ولا يذكرون على ذبائحهم إلَّا اسم اللَّه ، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزه عنه تعالى وتقدس . وقد روي عن عبد اللَّه بن مغفل قال : أدلي بجراب من شحم يوم خيبر فحضنته وقلت : لا أعطي اليوم من هذا أحدًا ، والتفت فإذا النبيّ ﷺ يتبسم . فاستدل به الفقهاء على أنه يجوز تناول ما يحتاج إليه من الأطعمة ونحوها من الغنيمة قبل القسمة وهذا ظاهر . واستدل به الفقهاء الحنفية والشافعية والحنابلة على أصحاب مالك في منعهم أكل ما يعتقد اليهود تحريمه من ذبائحهم كالشحوم ونحوها مما حرم عليهم ، فالمالكية لا يجوزون للمسلمين أكله لقوله تعالى : ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾ قالوا : وهذا ليس من طعامهم واستدل عليهم الجمهور بهذا الحديث ، وفي ذلك نظر لأنه قضية عين ويحتمل أن يكون شحمًا يعتقدون حله كشحم الظهر والحوايا ونحوهما واللَّه أعلم .

وقد ورد أن أهل خيبر أهدوا لرسول اللَّه ﷺ شاة مصلية ، وقد سموا ذراعها ، وكان يعجبه الذراع فتناوله فنهش منه نهشة فأخبره الذراع أنه مسموم فلفظه ، وأثر ذلك في ثنايا رسول اللَّه ﷺ وفي أبهره وأكل معه منها بشر بن البراء بن معرور فمات ، فقتل اليهودية التي سمتها (١) وكان اسمها زينب ، ووجه الدلالة منه أنه عزم على أكلها ومن معه ولم يسألها هل نزعوا منها ما يعتقدون تحريمه من شحمها أم لا ، وفي الحديث الآخر أن رسول اللَّه ﷺ أضافه يهودي على خبز شعير وأهالة سنخة يعني ودكًا زنخًا (٢) ، وعن مكحول قال : أنزل اللَّه ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ثم نسخه الرب ﷻ ورحم المسلمين فقال : ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾ فنسخها بذلك وأحل طعام أهل الكتاب .

وقوله تعالى : ﴿ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ أي : ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم ، وليس هذا إخبارًا عن الحكم عندهم اللهم إلَّا أن يكون خبرًا عما أمروا به من الأكل من كل طعام ذكر اسم اللَّه عليه ، سواء كان من أهل ملتهم أو غيرها ، والأول أظهر في المعنى أي : ولكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم ، وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة ، كما ألبس النبيّ ﷺ ثوبه لعبد اللَّه بن أبي ابن سلول حين مات ودفنه فيه ، قالوا : لأنه كان قد كسا العباس حين قدم المدينة ثوبه فجازاه النبيّ ﷺ ذلك بذلك ، فأما الحديث الذي فيه : « لاَ تَصْحَبْ إِلَّا مُؤْمِنًا وَلاَ يَأْكُل طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ » (٣) فمحمول على الندب والاستحباب واللَّه أعلم .

وقوله : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أي وأحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات ، وذكر هذا توطئة لما بعده وهو قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ فقيل : أراد بالمحصنات الحرائر دون الإماء ، حكاه ابن جرير عن مجاهد وإنما قال مجاهد : المحصنات الحرائر ، فيحتمل أن يكون أراد ما حكاه عنه ، ويحتمل أن يكون أراد بالحرة العفيفة كما قال في الرواية الأخرى عنه ، وهو قول الجمهور ههنا والأشبه لئلا يجتمع فيها أن تكون ذمية وهي مع ذلك غير عفيفة ، فيفسد حالها

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٥٠٨) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٣/٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨/٣) والدارمي في السنن (١٠٣/٢) والهندي في كنز العمال (٢٤٧٨٥) .

بالكلية ويتحصل زوجها على ما قيل في المثل « حشفًا وسوء كيلة »، والظاهر من الآية أن المراد من المحصنات العفيفات عن الزنى ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾ ، ثم اختلف المفسرون والعلماء في قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ هل يعم كل كتابية عفيفة سواء كانت حرة أو أمة ، حكاه ابن جرير ، وقيل : المراد بأهل الكتاب ههنا الإسرائيليات ، وهو مذهب الشافعي ، وقيل : المراد بذلك الذميات دون الحربيات ؛ لقوله : ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ الآية . وقد كان عبد الله بن عمر لا يرى التزويج بالنصرانية ، ويقول : لا أعلم شركًا أعظم من أن تقول : إن ربها عيسى ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ الآية . وعن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ قال : فحجز الناس عنهن حتى نزلت الآية التي بعدها ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ فنكح الناس نساء أهل الكتاب ، وقد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصارى ، ولم يروا بذلك بأسًا أخذًا بهذه الآية الكريمة ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ فجعلوا هذه مخصصة للتي في سورة البقرة ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ إن قيل بدخول الكتابيات في عمومها ، وإلا فلا معارضة بينها وبينها ؛ لأن أهل الكتاب قد انفصلوا في ذكرهم عن المشركين في غير موضع كقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي مهورهن ، أي كما هن محصنات عفائف ، فابذلوا لهن المهور عن طيب نفس .

وقوله : ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾ فكما شرط الإحصان في النساء وهي العفة عن الزنى ، كذلك شرطها في الرجال وهو أن يكون الرجل أيضًا محصنًا عفيفًا ، ولهذا قال : غير مسافحين وهم الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية ولا يردون أنفسهم عمن جاءهم ، ولا متخذي أخدان أي ذوي العشيقات الذين لا يفعلون إلا معهن كما تقدم في سورة النساء سواء ، ولهذا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنه لا يصح نكاح المرأة البغي حتى تتوب ، وما دامت كذلك لا يصح تزويجها من رجل عفيف ، وكذلك لا يصح عنده عقد الرجل الفاجر على عفيفة حتى يتوب ويقلع عما هو فيه من الزنى لهذه الآية ، وللحديث : « لا يَنْكح الزَّاني المَجْلودُ إلَّا مِثْلَهُ » (١) . قال عمر بن الخطاب : لقد هممت أن لا أدع أحدًا أصاب فاحشة في الإسلام أن يتزوج محصنة ، فقال له أبي بن كعب : يا أمير المؤمنين الشرك أعظم من ذلك ، وقد يقبل منه إذا تاب .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

قال كثيرون من السلف في قوله : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ يعني وأنتم محدثون ، وقال آخرون : إذا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٤/٢) وأبو داود في السنن (٢٠٥٢) والهندي في كنز العمال (٤٤٦٩٧) .

قمتم من النوم إلى الصلاة وكلاهما قريب . وقال آخرون : بل المعنى أعم من ذلك فالآية آمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة ، ولكن هو في حق المحدث واجب ، وفي حق المتطهر ندب ، وقد قيل إن الأمر بالوضوء لكل صلاة كان واجبًا في ابتداء الإسلام ، ثم نسخ . وعن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان النبيّ ﷺ يتوضأ عند كل صلاة ، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه وصلى الصلوات بوضوء واحد ، فقال له عمر : يا رسول الله إنك فعلت شيئًا لم تكن تفعله قال : « إِنّي عَمْدًا فَعَلْتُهُ يا عُمَرُ » (١) .

وعن الفضل بن المبشر قال : رأيت جابر بن عبد الله يصلي الصلوات بوضوء واحد ، فإذا بال أو أحدث توضأ ومسح بفضل طهوره الخفين ، فقلت : أبا عبد الله أشيءٌ تصنعه برأيك ؟ قال : بل رأيت النبيّ ﷺ يصنعه ، فأنا أصنعه كما رأيت رسول الله يصنعه .

وعن ابن سيرين أن الخلفاء كانوا يتوضؤون لكل صلاة ، وقال عكرمة : كان علي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة ويقرأ هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ الآية .

وقال أنس : توضأ عمر بن الخطاب وضوءًا فيه تجوز خفيفًا ، فقال : هذا وضوء من لم يحدث . وعن عمرو بن عامر الأنصاري ، سمعت أنس بن مالك يقول : كان النبيّ ﷺ يتوضأ عند كل صلاة ، قال : قلت : فأنتم كيف كنتم تصنعون ؟ قال : كنا نصلي الصلوات كلها بوضوء واحد ما لم نحدث (٢) ، وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تَوَضَّأَ عَلَى طُهْرٍ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ » (٣) .

وقد قال قوم : إن هذه الآية نزلت إعلامًا من الله أن الوضوء لا يجب إلّا عند القيام إلى الصلاة دون غيرها من الأعمال ؛ وذلك لأنه ﷺ كان إذا أحدث امتنع من الأعمال كلها حتى يتوضأ . وعن عبد الله بن علقمة بن وقاص عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أراق البول نكلمه فلا يكلمنا ، ونسلم عليه فلا يرد علينا ، حتى نزلت آية الرخصة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ قد استدل طائفة من العلماء بقوله تعالى : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ على وجوب النية في الوضوء ؛ لأن تقدير الكلام ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ لها كما تقول العرب : إذا رأيت الأمير فقم أي له . وقد ثبت في الصحيحين حديث : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى » (٤) ويستحب قبل غسل الوجه أن يذكر اسم الله تعالى على وضوئه ، لما ورد في الحديث من طرق جيدة عن جماعة من الصحابة عن النبيّ ﷺ أنه قال : « لا وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُر اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ » (٥) . ويستحب أن يغسل كفيه قبل إدخالهما في الإناء ، ويتأكد ذلك عند القيام من النوم لما ثبت عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ فَلاَ يُدْخِلْ يده فِي الإِنَاءِ قَبْلَ أَنْ يَغْسِلَهَا ثَلاثًا فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لاَ يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ » (٦) . وحدّ الوجه

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٨/٥) والسيوطي في الدر المنثور (٢٦١/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الوضوء (٢١٤) وأحمد في مسنده (١٣٢/٣) وأبو داود في السنن (١٧١) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٦٢) والترمذي في السنن (٥٩ ، ٦١) وابن ماجه في السنن (٥١٢) .
(٤) أخرجه البخاري في بدء الوحي (١) ومسلم في الإمارة (١٥٥) وأحمد في مسنده (٢٥/١) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨١/٥) وأبو داود في السنن (١٠٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٨/١) .
(٦) أخرجه مسلم في الطهارة (٨٧) وأحمد في مسنده (٢٤١/٢ ، ٤٥٥) وأبو داود في السنن (١٠٥) .

عند الفقهاء ما بين منابت شعر الرأس - ولا اعتبار بالصلع ولا بالغمم - إلى منتهى اللحيين والذقن طولًا ، ومن الأذن إلى الأذن عرضًا . وفي المسترسل من اللحية يستحب إفاضة الماء عليها وتخليلها .

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان إذا توضأ أخذ كفًا من ماء فأدخله تحت حنكه ، يخلل به لحيته وقال : « هَكَذَا أَمَرَنِي بِهِ رَبِّي ﷻ »[(١)] وقد ثبت عن النبيّ ﷺ من غير وجه في الصحاح وغيرها أنه كان إذا توضأ تمضمض واستنشق ، فاختلف الأئمة في ذلك : هل هما واجبان في الوضوء والغسل كما هو مذهب أحمد بن حنبل رحمه الله ، أو مستحبّان فيهما كما هو مذهب الشافعي ومالك لما ثبت في الحديث عن رفاعة بن رافع الزرقي أن النبيّ ﷺ قال للمسيء صلاته : « تَوَضَّأْ كَمَا أَمَرَكَ اللَّه »[(٢)] ، أو يجبان في الغسل دون الوضوء كما هو مذهب أبي حنيفة ، أو يجب الاستنشاق دون المضمضة ، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ تَوَضَّأَ فَلْيَسْتَنْشِقْ »[(٣)] وفي رواية : « إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْعَلْ فِي مِنْخَرَيْهِ مِنَ الْمَاءِ ثُمَّ لِيَنْتَثِرْ »[(٤)] والانتثار هو المبالغة في الاستنشاق .

وعن ابن عبّاس أنه توضأ فغسل وجهه ، ثم أخذ غرفة من ماء فتمضمض بها واستنثر ، ثم أخذ غرفة فجعل بها هكذا - يعني أضافها إلى يده الأخرى فغسل بها وجهه - ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليمنى ، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى ، ثم مسح رأسه ، ثم أخذ غرفة من ماء ، ثم رش على رجله اليمنى حتى غسلها ، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها رجله اليسرى ، ثم قال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ يعني يتوضأ . وقوله : ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ أي مع المرافق ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ .

ويستحب للمتوضئ أن يشرع في العضد فيغسله مع ذراعيه ، لما روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثارِ الوُضُوءِ ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ »[(٥)] وعن أبي هريرة أيضًا قال : سمعت خليلي ﷺ يقول : « تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ »[(٦)] . وقوله : ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ اختلفوا في هذه الباء هل هي للإلصاق وهو الأظهر ، أو للتبعيض وفيه نظر على قولين ، ومن الأصوليين من قال : هذا مجمل فليرجع في بيانه إلى السنّة ، وقد ورد عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه أن رجلًا قال لعبد الله بن زيد بن عاصم كان من أصحاب النبيّ ﷺ : هل تستطع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ ؟ فقال عبد الله بن زيد : نعم ، فدعا بوضوء فأفرغ على يديه ، فغسل يديه مرتين ثم مضمض واستنشق ثلاثًا وغسل وجهه ثلاثًا ، ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين ثم مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر ، بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه ثم غسل رجليه . وهذا دلالة لمن ذهب إلى

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن(١٤٥) والبيهقي في السنن(٥٤/١) والهندي في كنز العمال(١٧٨٣٤) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن(٨٦١) وذكره الزيلعي في نصب الراية(٣٦٧/١) .
(٣) أخرجه البخاري في الوضوء(١٦٢) وأحمد في مسنده(٣١٦/٢) .
(٤) أخرجه البخاري في الوضوء(١٦١) ومسلم في الطهارة(٢٢) ومالك في الموطأ(١٩) .
(٥) أخرجه البخاري في الوضوء(١٣٦) ومسلم في الطهارة(٣٥) .
(٦) أخرجه مسلم في الطهارة(٤٠) وأحمد في مسنده(٣٧١/٢) والبيهقي في السنن(٥٧/١) .

وجوب تكميل مسح جميع الرأس كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل لا سيما على قول من زعم أنها خرجت مخرج البيان لما أجمل في القرآن . وقد ذهب الحنفية إلى وجوب مسح ربع الرأس وهو مقدار الناصية وذهب أصحابنا إلى أنه إنما يجب ما يطلق عليه اسم مسح ولا يتقدر ذلك بحد ، بل لو مسح بعض شعره من رأسه أجزأه ، واحتج الفريقان بحديث المغيرة بن شعبة قال : تخلف النبيّ ﷺ فتخلفت معه ، فلما قضى حاجته قال : هل معك ماء فأتيته بمطهرة فغسل كفيه ووجهه ، ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضاق كم الجبة ، فأخرج يديه من تحت الجبة وألقى الجبة على منكبيه ، فغسل ذراعيه ومسح بناصيته ، وعلى العمامة وعلى خفيه . فقال لهم أصحاب الإمام أحمد : إنما اقتصر على مسح الناصية لأنه كمل مسح بقية الرأس على العمامة ، ونحن نقول بذلك ، وأنه يقع عن الموقع ، كما وردت بذلك أحاديث كثيرة ، وأنه كان يمسح على العمامة وعلى الخفين فهذا أولى وليس لكم فيه دلالة على جواز الاقتصار على مسح الناصية أو بعض الرأس من غير تكميل على العمامة والله أعلم .

ثم اختلفوا في أنه هل يستحب تكرار مسح الرأس ثلاثًا كما هو المشهور من مذهب الشافعي ، وإنما يستحب مسحة واحدة كما هو مذهب أحمد بن حنبل ومن تابعه على قولين ، فعن حمران بن أبان قال : رأيت عثمان بن عفان توضأ فأفرغ على يديه ثلاثًا فغسلهما ثم تمضمض واستنشق ثم غسل وجهه ثلاثًا ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثًا ثم غسل اليسرى مثل ذلك ، ثم مسح برأسه ثم غسل قدمه اليمنى ثلاثًا ثم اليسرى ثلاثًا مثل ذلك ، ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا ، ثم قال : « مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لاَ يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » (١) . وعن عثمان في صفة الوضوء : ومسح برأسه مرة واحدة .

وقوله : ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ قرئ ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ بالنصب عطفًا على ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ . وعن ابن عبّاس أنه قرأها ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ يقول : رجعت إلى الغسل ، وهذه قراءة ظاهرة في وجوب الغسل كما قاله السلف (٢) ، ومن ههنا ذهب من ذهب إلى وجوب الترتيب في الوضوء كما هو مذهب الجمهور ، خلافًا لأبي حنيفة حيث لم يشترط الترتيب بل لو غسل قدميه ثم مسح رأسه وغسل يديه ثم وجهه أجزأه ذلك ؛ لأن الآية أمرت بغسل هذه الأعضاء ، والواو لا تدل على الترتيب .

ومنهم من قال : لما ذكر الله تعالى هذه الصفة في هذه الآية على هذا الترتيب فقطع النظير عن النظير وأدخل الممسوح بين المغسولين دل ذلك على إرادة الترتيب ، وأما القراءة الأخرى وهي قراءة من قرأ ﴿ وأرجلِكم ﴾ بالخفض ، فقد احتج بها الشيعة في قولهم بوجوب مسح الرجلين ؛ لأنها عندهم معطوفة على مسح الرأس . وقد روي عن طائفة من السلف ما يوهم القول بالمسح .

وإنما جاءت هذه القراءة بالخفض إما على المجاورة وتناسب الكلام ، كما في قول العرب : (جحر ضب خرب) وكقوله تعالى : ﴿ عَلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ وهذا ذائع شائع في لغة العرب سائغ ، ومنهم من قال : هي محمولة على مسح القدمين إذا كان عليهم الخفان ، قاله أبو عبد الله

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (١٥٩) ومسلم في الطهارة (١٢) وأحمد في مسنده (٥٩/١) .

(٢) قرأ نافع وابن عامر ويعقوب وحفص والكسائي بالنصب والباقون بالجر (انظر تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٠٧) .

الشافعي رحمه الله ، ومنهم من قال : هي دالة على مسح الرجلين ، ولكن المراد بذلك الغسل الخفيف كما وردت به السنّة ، وعلى كل تقدير فالواجب غسل الرجلين فرضًا لابد منه للآية والأحاديث التي سنوردها ، فعن علي بن أبي طالب أنه صلى الظهر ثم قعد في حوائج الناس في رحبة الكوفة حتى حضرت صلاة العصر ، ثم أتي بكوز من ماء فأخذ منه حفنة واحدة فمسح بها وجهه ويديه ورأسه ورجليه ، ثم قام فشرب فضلته وهو قائم ، ثم قال : إن ناسًا يكرهون الشرب قائمًا وإن رسول الله ﷺ صنع كما صنعت ، وقال : « هَذَا وُضُوءُ مَنْ لَمْ يُحدِثْ » (١) .

ومن أوجب من الشيعة مسحهما كما يمسح الخف فقد ضل وأضل ، وكذا من جوز مسحهما وجوز غسلهما فقد أخطأ أيضًا ، ومن نقل عن أبي جعفر بن جرير أنه أوجب غسلهما للأحاديث وأوجب مسحهما للآية فلم يحقق مذهبه في ذلك فإن كلامه في تفسيره إنما يدل على أنه أراد أنه يجب دلك الرجلين من دون سائر أعضاء الوضوء ؛ لأنهما يليان الأرض والطين وغير ذلك فأوجب دلكهما ليذهب ما عليهما ، ولكنه عبر عن الدلك بالمسح فاعتقد من لم يتأمل كلامه أنه أراد وجوب الجمع بين غسل الرجلين ومسحهما ، فحكاه من حكاه كذلك ولهذا يستشكله كثير من الفقهاء وهو معذور ، فإنه لا معنى للجمع بين المسح والغسل ، سواء تقدمه أو تأخر عليه ؛ لاندراجه فيه ، وإنما أراد الرجل ما ذكرته والله أعلم . ثم تأملت كلامه أيضًا فإذا هو يحاول الجمع بين القراءتين في قوله : ﴿ وأرجلِكم ﴾ خفضًا على المسح وهو الدلك ونصبًا على الغسل فأوجبهما أخذًا بالجمع بين هذه وهذه .

ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين وأنه لابد منه

قد تقدم في حديث أمير المؤمنين عثمان أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين في وضوئه ، إما مرة وإما مرتين أو ثلاثًا على اختلاف رواياتهم ، وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ توضأ فغسل قدميه ثم قال : « هَذَا وُضُوءٌ لاَ يَقْبَلُ اللّه الصَّلاةَ إِلَّا بِهِ » (٢) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : تخلف عنا رسول الله ﷺ في سفرة سافرناها ، فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة صلاة العصر ونحن نتوضأ ، فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادى بأعلى صوته : « أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ ، وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ » (٣) ، وعن عبد الله بن الحارث بن حرز أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ وَبُطُونِ الْأَقْدَامِ مِنَ النَّارِ » (٤) وعن أبي إسحاق أنه سمع سعيد بن أبي كرب أو شعيب بن أبي كرب قال : سمعت جابر بن عبد الله وهو على جبل يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « وَيْلٌ لِلْعَرَاقِيبِ مِنَ النَّارِ » (٥) .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٧٥/١) وابن خزيمة في صحيحه (١٦) .

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٣٩/١) وذكره ابن حجر في فتح الباري (٢٣٣/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء (١٦٥) ومسلم في الطهارة (٢٥) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٩١/٤) والترمذي في سننه (٤١) .

(٥) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٩) وأحمد في مسنده (٣٦٩/٣) .

ورُوي عن عاصم بن لقيط بن صبرة عن أبيه قال : قلت : يا رسول الله أخبرني عن الوضوء فقال : « أَسْبِغِ الْوُضُوءَ وَخَلِّلْ بَيْنَ الأَصَابِعِ ، وَبَالِغْ فِي الاسْتِنْشَاقِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ صَائِمًا »[(١)] .

وعن عمرو بن عبسة قال : قلت : يا رسول الله أخبرني عن الوضوء ؟ قال : « ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُقَرِّبُ وُضُوءَهُ ثُمَّ يَتَمَضْمَضُ وَيَسْتَنْشِقُ وَيَنْتَثِرُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَاهُ مِنْ فَمِهِ وَخَيَاشِيمِهِ مَعَ الْمَاءِ حِينَ يَنْتَثِرُ ، ثُمَّ يَغْسِلُ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ ، ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَطْرَافِ أَنَامِلِهِ ، ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ ، ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا قَدَمَيْهِ مِنْ أَطْرَافِ أَصَابِعِهِ مَعَ الْمَاءِ ، ثُمَّ يَقُومُ فَيَحْمَدُ اللهَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ ، ثُمَّ يَرْكَعُ رَكْعَتَيْنِ ، إِلَّا خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » قال أبو أمامة : يا عمرو انظر ما تقول سمعت هذا من رسول الله ﷺ ، أيعطى هذا الرجل كله في مقامه ؟ فقال عمرو بن عبسة : يا أبا أمامة لقد كبرت سني ورق عظمي واقترب أجلي وما بي حاجة أن أكذب على الله وعلى رسول الله ﷺ ، لو لم أسمعه من رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثًا ، لقد سمعته سبع مراتٍ أو أكثر من ذلك[(٢)] . ومن ههنا يتضح لك المراد من حديث عبد خير عن علي أن رسول الله ﷺ رش على قدميه الماء وهما في النعلين ، فدلكهما ، إنما أراد غسلًا خفيفًا وهما في النعلين ، ولا مانع من إيجاد الغسل والرجل في نعلها ، ولكن في هذا رد على المتعمقين والمتنطعين من الموسوسين .

وقد صح عنه ﷺ الأمر بعموم غسل القدمين في الوضوء بالماء بالنقل المستفيض القاطع عذر من انتهى إليه وبلغه ، ولما كان القرآن آمرًا بغسل الرجلين كما في قراءة النصب وكما هو الواجب في حمل قراءة الخفض عليها ، توهم بعض السلف أن هذه الآية ناسخة لرخصة المسح على الخفين . وقد روي ذلك عن علي بن أبي طالب ولكن لم يصح إسناده ، ثم الثابت عنه خلافه وليس كما زعموه ، فإنه قد ثبت أن النبيّ ﷺ مسح على الخفين بعد نزول هذه الآية الكريمة . عن جرير بن عبد الله البجلي قال : أنا أسلمت بعد نزول المائدة ، وأنا رأيت رسول الله ﷺ يمسح بعدما أسلمت[(٣)] . وعن همام قال : بال جرير ثم توضأ ومسح على خفيه فقيل : تفعل هذا ؟ فقال : نعم رأيت رسول الله ﷺ بال ثم توضأ ومسح على خفيه . قال الأعمش : قال إبراهيم : فكان يعجبهم هذا الحديث ؛ لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة[(٤)] .

وقد ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ مشروعية المسح على الخفين قولًا منه وفعلًا كما هو مقرر في كتاب الأحكام الكبير ، مع ما يحتاج إلى ذكره هناك من تأقيت المسح أو عدمه أو التفصيل فيه كما هو مبسوط في موضعه ، وقد خالفت الروافض في ذلك بلا مستند ، بل بجهل وضلال مع أنه ثابت في صحيح مسلم من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ[(٥)] كما ثبت في الصحيحين

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٥٥) والترمذي في سننه (٧٨٨) وابن ماجه في سننه (٤٤٨) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٩٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٤٥٥/٢) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٩٣/٤) . (٤) أخرجه مسلم في الطهارة (٧٢) .

(٥) انظر صحيح مسلم في الطهارة (٨٥) وفيه أن رسول الله ﷺ جعل مدة المسح ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر ، ويومًا وليلة للمقيم .

عنه عن النبيّ ﷺ النهي عن نكاح المتعة وهم يستبيحونها(١) ، وكذلك هذه الآية الكريمة دالة على وجوب غسل الرجلين مع ما ثبت بالتواتر من فعل رسول الله ﷺ على وفق ما دلت عليه الآية الكريمة ، وهم مخالفون لذلك كله وليس لهم دليل صحيح في نفس الأمر ولله الحمد ، وهكذا خالفوا الأئمة والسلف في الكعبين اللذين في القدمين ، فعندهم أنهما في ظهر القدم فعندهم في كل رجل كعب ؛ وعند الجمهور أن الكعبين هما العظمان الناتئان عند مفصل الساق والقدم .

وقوله تعالى : ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ كل ذلك قد تقدم الكلام عليه في تفسير آية النساء .

وقوله تعالى : ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ أي فلهذا سهل عليكم ويسر ولم يعسر ، بل أباح التيمم عند المرض وعند فقد الماء توسعة عليكم ورحمة بكم ، وجعله في حق من شرع له يقوم مقام الماء إلّا من بعض الوجوه كما تقدم بيانه وكما هو مقرر في كتاب الأحكام الكبير .

وقوله تعالى : ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لعلكم تشكرون نعمه عليكم فيما شرعه لكم من التوسعة والرأفة والرحمة والتسهيل والسماحة ، وقد وردت السنّة بالحث على الدعاء عقب الوضوء بأن يجعل فاعله من المتطهرين الداخلين في امتثال هذه الآية الكريمة ، كما روي عن عقبة بن عامر قال : كانت علينا رعاية الإبل فجاءت نوبتي فروحتها بعشي ، فأدركت رسول الله ﷺ قائمًا يحدث الناس فأدركت من قوله : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ مُقْبِلًا عَلَيْهِما بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ » قال : قلت : ما أجود هذه فإذا قائل بين يدي يقول : التي قبلها أجود منها ، فنظرت فإذا عمر ﷺ ، فقال : إني قد رأيتك جئت آنفًا ، قال : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ - أَوْ فَيُسْبِغُ - الوُضُوءَ يَقُولُ : أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّه ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ »(٢)

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ .

يقول تعالى مذكرًا عباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم ، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم ، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته على متابعته ومناصرته ومؤازرته ، والقيام بدينه وإبلاغه عنه وقبوله منه فقال تعالى : ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وهذه هي البيعة التي كانوا يبايعون عليها رسول الله ﷺ عند إسلامهم كما قالوا : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله ،

(١) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٥٢٣) وأحمد في مسنده (٧٩/١) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٤/٧) .
(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (١٧) .

وقيل : هذا تذكار لليهود بما أخذ عليهم من المواثيق والعهود في متابعة محمّد ﷺ والانقياد لشرعه ، رواه ابن عبّاس . وقيل : هو تذكار بما أخذ تعالى من العهد على ذرية آدم حين استخرجهم من صلبه وأشهدهم على أنفسهم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾ والقول الأول أظهر ، وهو المحكي عن ابن عبّاس ، قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ تأكيد وتحريض على مواظبة التقوى في كل حال ، ثم أعلمهم أنه يعلم ما يختلج في الضمائر من الأسرار والخواطر فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ ﴾ أي كونوا قوامين بالحق لله ﷻ لا لأجل الناس والسمعة ، وكونوا ﴿ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ أي بالعدل لا بالجور ، وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان ابن بشير أنه قال : نحلني أبي نحلًا ، فقالت أمي عمرة بنت رواحة : لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ ، فجاءه ليشهده على صدقتي ، فقال : « أَكُلَّ وَلَدِكَ نَحلتَ مِثْلَهُ ؟ » قال : لا ، فقال : « اتَّقُوا اللّه وَاعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ » ، وقال : « إِنِّي لاَ أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ » قال : فرجع أبي فرد تلك الصدقة (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم ، بل استعملوا العدل في كل أحد صديقًا كان أو عدوًّا ، ولهذا قال : ﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أي عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه ودل الفعل على المصدر الذي عاد الضمير عليه كما في نظائره من القرآن وغيره ، وقوله : ﴿ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ وكقول بعض الصحابيات لعمر : أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ (٢) ، ثم قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي وسيجزيكم على ما علم من أفعالكم التي عملتموها إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ أي لذنوبهم ﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ وهو الجنة التي هي من رحمته على عباده ، لا ينالونها بأعمالهم بل برحمة منه وفضل ، وإن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم ، وهو تعالى الذي جعلها أسبابًا إلى نيل رحمته وفضله وعفوه ورضوانه ، فالكل منه وله ، فله الحمد والمنة . ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ وهذا من عدله تعالى وحكمته وحكمه الذي لا يجور فيه ، بل هو الحكم العدل الحكيم القدير .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ عن جابر أن النبيّ ﷺ نزل منزلًا وتفرق الناس في العضاه يستظلون تحتها ، وعلق النبيّ ﷺ سلاحه بشجرة فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله ﷺ فأخذه فسله ، ثم أقبل على النبيّ ﷺ فقال : من يمنعك مني ؟ قال : « اللّه ﷻ» قال الأعرابي مرتين أو ثلاثًا : من يمنعك مني ؟ والنبيّ ﷺ يقول : « اللّه » ، قال فشام الأعرابي السيف ، فدعا النبيّ ﷺ أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابي وهو جالس إلى جنبه ولم يعاقبه (٣) . وقال معمر : كان قتادة يذكر نحو هذا ويذكر أن قومًا

(١) أخرجه البخاري في الهبة (٢٥٨٦) ومسلم في الهبات (١٣) .
(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٩٤) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٢) والإمام أحمد في مسنده (١٧١/١) .
(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٣٥) والإمام أحمد في مسنده (٣٦٥/٣ ، ٣٩٠) .

من العرب أرادوا أن يفتكوا برسول الله ﷺ ، فأرسلوا هذا الأعرابي وتأول ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ الآية . وقصة هذا الأعرابي وهو غورث بن الحارث ثابتة في الصحيح (١) ، وقال العوفي : عن ابن عباس في هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ وذلك أن قومًا من اليهود صنعوا لرسول الله ﷺ ولأصحابه طعامًا ليقتلوهم ، فأوحى الله إليه بشأنهم فلم يأت الطعام ، وأمر أصحابه فأتوه (٢) . وقال مجاهد وعكرمة وغير واحد أنها نزلت في شأن بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين ، ووكلوا عمرو بن جحاش بن كعب بذلك ، وأمروه إن جلس النبيّ ﷺ تحت الجدار واجتمعوا عنده ، أن يلقي تلك الرحى من فوقه ، فأطلع الله النبيّ ﷺ على ما تمالؤوا عليه ، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه ، فأنزل الله في ذلك هذه الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ يعني من توكل على الله كفاه الله ما أهمه وحفظه من شر الناس وعصمه ، ثم أمر رسول الله ﷺ أن يغدو إليهم فحاصرهم حتى أنزلهم فأجلاهم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ .

لما أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمّد ﷺ ، وأمرهم بالقيام بالحق والشهادة بالعدل ، وذكرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة فيما هداهم له من الحق والهدى ، شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين اليهود والنصارى ، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنًا منه لهم ، وطردًا عن بابه وجنابه ، وحجابًا لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق وهو العلم النافع والعمل الصالح ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ يعني عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه ، وقد ذكر ابن عباس أن هذا كان لما توجه موسى عليه السلام لقتال الجبابرة ، فأمر بأن يقيم نقباء من كل سبط نقيب .

وهكذا لما بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة كان فيهم اثنا عشر نقيبًا ، ثلاثة من الأوس وهم : أسيد بن الحضير وسعد بن خيثمة ورفاعة بن عبد المنذر ، ويقال بدله : وأبو الهيثم بن التيهان رضي الله عنه ، وتسعة من الخزرج وهم : أبو أمامة أسعد بن زرارة وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة ورافع بن مالك بن العجلان والبراء بن معرور وعبادة بن الصامت وسعد بن عبادة وعبد الله بن عمرو بن حرام والمنذر بن عمر بن

(١) سبق تخريجه في الصفحة السابقة . (٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/٢٦٦) .

خنيس ﷺ ، والمقصود أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتئذ عن أمر النبيّ ﷺ لهم بذلك ، وهم الذين ولوا المعاقدة والمبايعة عن قومهم للنبي ﷺ على السمع والطاعة . وعن مسروق قال : كنا جلوسًا عند عبد الله بن مسعود وهو يقرئنا القرآن ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن هل سألتم رسول الله ﷺ كم يملك هذه الأمة من خليفة ؟ فقال عبد الله : ما سألني منها أحد منذ قدمت العراق قبلك ، ثم قال : نعم ولقد سألنا رسول الله ﷺ فقال : « اثْنَا عَشَرَ كَعِدَّةِ نُقَبَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ » (١) . وأصل هذا الحديث ثابت في الصحيحين من حديث جابر بن سمرة قال : سمعت النبيّ ﷺ يقول : « لاَ يَزَالُ أَمْرُ النَّاسِ مَاضِيًا مَا وَلِيَهُمْ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا » ثم تكلم النبيّ ﷺ بكلمة خفيت علي ، فسألت أي ماذا قال النبيّ ﷺ ؟ قال : « كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ » (٢) ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحًا يقيم الحق ويعدل فيهم ، ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم ، بل قد وجد أربعة على نسق وهم الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ ، ومنهم عمر بن عبد العزيز بلا شك عند الأئمة ، وبعض بني العباس ، ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة ، والظاهر أن منهم المهدي المبشر به في الأحاديث الواردة بذكره ، فذكر أنه يواطئ اسمه اسم النبيّ ﷺ واسم أبيه ، فيملأ الأرض عدلًا وقسطًا كما ملئت جورًا وظلمًا ، وليس هذا بالمنتظر الذي تتوهم الرافضة وجوده ثم ظهوره من سرداب سامرا ؛ فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية ، بل هو من هوس العقول السخيفة ، وتوهم الخيالات الضعيفة ، وليس المراد بهؤلاء الخلفاء الاثني عشر الأئمة الاثني عشر الذين يعتقد فيهم الاثنا عشرية من الروافض لجهلهم وقلة عقلهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ أي : بحفظي وكلاءتي ونصري ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي ﴾ أي : صدقتموهم فيما يجيئونكم به من الوحي ﴿ وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾ أي : نصرتموهم وآزرتموهم على الحق ﴿ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ وهو الإنفاق في سبيله وابتغاء مرضاته ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ أي ذنوبكم أمحوها وأسترها ولا أؤاخذكم بها ﴿ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي : أدفع عنكم المحذور وأحصل لكم المقصود . وقوله : ﴿ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أي : فمن خالف هذا الميثاق بعد عقده وتوكيده ، وشذه وجحده وعامله معاملة من لا يعرفه فقد أخطأ الطريق الواضح ، وعدل عن الهدى إلى الضلال . ثم أخبر تعالى عما حل بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ونقضهم عهده فقال : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ ﴾ أي : فبسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم لعناهم ، أي أبعدناهم عن الحق وطردناهم عن الهدى ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ أي : فلا يتعظون بموعظة لغلظها وقساوتها ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ أي : فسدت فهومهم وساء تصرفهم في آيات الله وتأولوا كتابه على غير ما أنزله ، وحملوه على غير مراده ، وقالوا عليه ما لم يقل عياذًا بالله من ذلك ﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ أي : وتركوا العمل به رغبة عنه ، ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ ﴾ يعني مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك ، وقال مجاهد وغيره : يعني بذلك تمالؤهم على الفتك برسول الله ﷺ ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ﴾ وهذا هو عين النصر والظفر ، كما قال بعض السلف : ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه ، وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق ، ولعل الله

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٨/١) . (٢) أخرجه مسلم في الإمارة (٦) وأحمد في مسنده (٩٩/٥ ، ١٠٠) .

أن يهديهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ يعني به الصفح عمن أساء إليك ، وقال قتادة : هذه الآية ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ﴾ منسوخة بقوله : ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ ﴾ أي : ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى متابعون المسيح ابن مريم ﷺ وليسوا كذلك ، أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ ومناصرته وموازرته واقتفاء آثاره ، وعلى الإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض ، ففعلوا كما فعل اليهود خالفوا المواثيق ونقضوا العهود ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي : فألقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضًا ، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة ، وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفر بعضهم بعضًا ويلعن بعضهم بعضًا ، فكل فرقة تحرم الأخرى ولا تدعها تلج معبدها ، ثم قال تعالى : ﴿ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ وهذا تهديد ووعيد أكيد للنصارى على ما ارتكبوه من الكذب على الله وعلى رسوله ، وما نسبوه إلى الرب ﷻ وتعالى وتقدّس عن قولهم علوًّا كبيرًا من جعلهم له صاحبة وولدًا ، تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد .

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن نفسه الكريمة : أنه قد أرسل رسوله محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض ، عربهم وعجمهم ، أميهم وكتابيهم ، وأنه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ أي : يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه وافتروا على الله فيه ، ويسكت عن كثير مما غيّروه ولا فائدة في بيانه ، وعن ابن عبّاس ﷺ قال : من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب . قوله : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ فكان الرجم مما أخفوه (١) ، ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيّه الكريم فقال : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ أي : طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة ﴿ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي : ينجيهم من المهالك ، ويوضح لهم أبين المسالك فيصرف عنهم المحذور ، ويحصل لهم أحب الأمور ، وينفي عنهم الضلالة ويرشدهم إلى أقوم حالة .

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٩٥/٤) .

يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا وحاكيًا بكفر النصارى في ادعائهم في المسيح ابن مريم وهو عبد من عباد الله وخلق من خلقه أنه هو الله ، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا ، ثم قال مخبرًا عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه : ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ أي : لو أراد ذلك فمن ذا الذي كان يمنعه منه ، أو من ذا الذي يقدر على صرفه عن ذلك ، ثم قال : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ أي : جميع الموجودات ملكه وخلقه وهو القادر على ما يشاء ، لا يُسأل عما يفعل بقدرته وسلطانه وعدله وعظمته ، وهذا رد على النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة . ثم قال تعالى رادًّا على اليهود والنصارى في كذبهم وافترائهم : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ أي : نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية وهو يحبنا ، ونقل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم : إني ذاهب إلى أبي وأبيكم - يعني ربي وربكم - ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من البنوة ما ادعوها في عيسى عليه السلام ، وإنما أرادوا من ذلك معزتهم لديه وحظوتهم عنده ، ولهذا قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه .

قال الله تعالى رادًّا عليهم : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ أي : لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباءه ، فلم أعدَّ لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافترائكم ؟ وقد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء : أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه ؟ فلم يرد عليه ، فتلا عليه الصوفي هذه الآية ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ وهذا الذي قاله حسن ، وله شاهد عن أنس قال : مر النبيُّ ﷺ في نفر من أصحابه وصبي في الطريق ، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ ، فأقبلت تسعى وتقول : ابني ، ابني ، وسعت فأخذته ، فقال القوم : يا رسول الله ما كانت هذه لتُلقي ولدها في النار ، قال : فحفظهم النبيّ ﷺ فقال : « لاَ وَاللَّهِ مَا يُلْقِي حَبِيبَهُ فِي النَّارِ »(١) . ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ أي : لكم أسوة أمثالكم من بني آدم وهو سبحانه الحاكم في جميع عباده ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ أي : هو فعّال لما يريد لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي : الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي : المرجع والمآب إليه ؛ فيحكم في عباده بما يشاء وهو العادل الذي لا يجور . وعن ابن عبّاس قال : وأتى رسولَ الله ﷺ نعمان بن آصا وبحر بن عمرو وشاس بن عدي ، فكلموه وكلمهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته ، فقالوا : ما تخوفنا يا محمّد نحن والله أبناء الله وأحباؤه ، كقول النصارى ، فأنزل الله فيهم ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ إلى آخر الآية (٢) . أما قولهم : نحن أبناء الله ، فإنهم قالوا : إن الله أوحى إلى إسرائيل أن ولدك بكري من الولد فيدخلهم النار فيكونون فيها أربعين ليلة ، حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم ، ثم ينادي منادٍ أن أخرجوا كل مختون من ولد إسرائيل ، فأخرجوهم فذلك قولهم : لن تمسنا النار إلّا أيامًا معدودات .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٤/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٨٣/١٠) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٢٤/٦) .

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا أهل الكتاب من اليهود والنصارى : بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمّدًا ﷺ خاتم النبيين الذي لا نبي بعده ولا رسول ، بل هو المعقب لجميعهم ، ولهذا قال : ﴿ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ أي : بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم ، وقد اختلفوا في مقدار هذه الفترة كم هي فقال أبو عثمان النهدي وقتادة في رواية عنه : كانت ستمائة سنة ، ورواه البخاري عن سلمان الفارسي وعن قتادة خمسمائة وستون سنة ، وقال الضحاك : أربعمائة وبضع وثلاثون سنة ، والمشهور هو القول الأول وهو أنها ستمائة سنة ، ومنهم من يقول : ستمائة وعشرون سنة ، ولا منافاة بينهما ، فإن القائل الأول أراد ستمائة سنة شمسية والآخر أراد قمرية ، وبين كل مائة سنة شمسية وبين القمرية نحو من ثلاث سنين ، ولهذا قال تعالى في قصة أهل الكهف : ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴾ أي : قمرية لتكميل ثلاثمائة الشمسية التي كانت معلومة لأهل الكتاب .

وكانت الفترة بين عيسى ابن مريم ، آخر أنبياء بني إسرائيل ، وبين محمّد خاتم النبيين من بني آدم على الإطلاق ، كما ثبت عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ لأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ » (١) . وهذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبي يقال له : خالد بن سنان كما حكاه القضاعي وغيره .

وعن عياض بن حماد المجاشعي ﷺ أن النبيّ ﷺ خطب ذات يوم ، فقال في خطبته : « وَإِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي فِي يَوْمِي هَذَا ، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عِبَادِي حَلَالٌ ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ أَتَتْهُمْ فَأَضَلَّتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ ﷻ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَالَ : إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانًا ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا فَقُلْتُ يَا رَبِّ : إِذَنْ يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً ، فَقَالَ : اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ ، وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ ، وَأَنْفِقْ عَلَيْهِمْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةَ أَمْثَالِهِ ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ : ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُوَفَّقٌ مُتَصَدِّقٌ ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ بِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ ، وَرَجُلٌ عَفِيفٌ فَقِيرٌ ذُو عِيَالٍ ، وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ : الضَّعِيفُ الَّذِي لَا دِينَ لَهُ ، وَالَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعٌ أَوْ تَبَعًا - شَكَّ يَحْيَى - لَا يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا ، وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ ، وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ » . وذكر البخيل أو الكذاب والشنظير الفاحش (٢) . والمقصود من إيراد هذا الحديث قوله : « وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَجَمَهُمْ وَعَرَبَهُمْ إِلَّا بقايا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ » ، وفي لفظ مسلم « من أهل الكتاب » وكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم حتى بعث الله محمّدًا ﷺ ،

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٢/٤) ومسلم بنحوه في الجنة (٦٣) .

فهدى الخلائق وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور ، وتركهم على المحجة البيضاء والشريعة الغراء ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ أي : لئلا تحتجوا وتقولوا : يا أيها الذين بدلوا دينهم وغيروه ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر فقد جاءكم بشير ونذير ، يعني محمدًا ﷺ ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال ابن جرير : معناه إني قادر على عقاب من عصاني وثواب من أطاعني .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۝ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ۝ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ۝ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران ﷺ فيما ذكّر به قومه من نعم الله عليهم وآلائه لديهم في جمعه لهم خير الدنيا والآخرة لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة ، فقال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ﴾ أي : كلما هلك نبي قام فيكم نبي من لدن أبيكم إبراهيم إلى من بعده ، وكذلك كانوا لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله ويحذرون نقمته حتى ختموا بعيسى ابن مريم ﷺ ، ثم أوحى الله إلى خاتم الأنبياء والرسل على الإطلاق محمّد بن عبد الله المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم ﷺ وهو أشرف من كل من تقدمه منهم ﷺ . وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ قال : الخادم والمرأة والبيت ، ﴿وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال : الذين هم بين ظهرانيهم يومئذ ، وعن ابن عبّاس قال : كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار سمي ملكا ، وقال السدي في قوله : ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ يملك الرجل منكم نفسه وماله وأهله .

وقد ورد في الحديث « مَنْ أَصْبَحَ مِنكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، آمِنًا فِي سِرْبِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا » (١) وقوله تعالى : ﴿وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ يعني عالمي زمانكم ، فإنهم كانوا أشرف الناس في زمانهم من اليونان والقبط وسائر أصناف بني آدم كما قال : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ والمقصود أنهم كانوا أفضل زمانهم وإلّا فهذه الأمة أشرف منهم وأفضل عند الله وأكمل شريعةً وأقوم منهاجًا وأكرم نبيًّا وأعظم ملوكًا وأغزر أرزاقًا وأكثر أموالًا وأولادًا وأوسع مملكة وأدوم عزًّا . قال الله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ . ﴿وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ يعني أمة محمّد ﷺ والجمهور على أنه خطاب من موسى لقومه ، وهو محمول على عالمي زمانهم .

ثم قال تعالى مخبرًا عن تحريض موسى ﷺ لبني إسرائيل على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس

---

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٨٩/١٠) .

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ﴾ أي المطهرة ، وعن ابن عبّاس قال : هي الطور وما حوله ، وكذا قال مجاهد وغير واحد ، وروى سفيان الثوري عن ابن عبّاس قال : هي أريحاء ، وفي هذا نظر لأن أريحاء ليست هي المقصودة بالفتح ولا كانت في طريقهم إلى بيت المقدس .

وقد قدموا من بلاد مصر حين أهلك اللّه عدوهم فرعون إلا أن يكون المراد بأريحاء أرض بيت المقدس .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ أي : التي وعدكموها اللّه على لسان أبيكم إسرائيل أنه وراثة من آمن منكم ﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ ﴾ أي : ولا تنكلوا عن الجهاد ﴿ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ أي : اعتذروا بأن في هذه البلدة التي أمرتنا بدخولها وقتال أهلها قومًا جبارين ذوي خلق هائلة وقوى شديدة ، وإنا لا نقدر على مقاومتهم ولا مصاولتهم ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها ، فإن يخرجوا منها دخلناها وإلّا فلا طاقة لنا بهم .

وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا أخبارًا من وضع بني إسرائيل في عظمة خلق هؤلاء الجبارين ، وأن منهم عوج بن عنق بنت آدم عليه السلام وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثون ذراعًا وثلث ذراع تحرير الحساب ، وهذا شيء يستحى من ذكره ، ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيحين أن رسول اللّه ﷺ قال : « إِنَّ اللَّه خَلَقَ آدَمَ وَطُولُهُ ستُّونَ ذِرَاعًا ، ثُمَّ لَمْ يَزَل الخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ أي : فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة اللّه ومتابعة رسول اللّه موسى ﷺ حرضهم رجلان للّه عليهما نعمة عظيمة ، وهما ممن يخاف أمر اللّه ويخشى عقابه . وقرأ بعضهم ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يُخافون ﴾(٢) أي : ممن لهم مهابة وموضع من الناس ، ويقال : إنهما يوشع بن نون وكالب بن يوفنا ، قاله ابن عبّاس ومجاهد وعكرمة . ﴿ ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي : إن توكلتم على اللّه واتبعتم أمره ووافقتم رسوله نصركم اللّه على أعدائكم وأيّدكم وظفركم بهم ، ودخلتم البلد التي كتبها اللّه لكم فلم ينفع ذاك فيهم شيئًا ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ وهذا نكول منهم عن الجهاد ومخالفة لرسولهم وتخلّف عن مقاتلة الأعداء . وما أحسن ما أجاب به الصحابة رضي الله عنهم يوم بدر رسول اللّه ﷺ حين استشارهم في قتال النفير الذين جاؤوا لمنع العير الذي كان مع أبي سفيان ، فلما فات اقتناص العير واقترب منهم النفير وهم في جمع ما بين التسعمائة إلى الألف في العدة والبيض واليلب ، فتكلم أبو بكر رضي الله عنه فأحسن ، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين ، ورسول اللّه ﷺ يقول : « أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا المُسْلِمُونَ » وما يقول ذلك إلّا ليستعلم ما عند الأنصار ؛ لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ ، فقال سعد بن معاذ : كأنك تعرض بنا يا رسول اللّه ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء(٣٣٢٦) وأحمد في مسنده(٢٥١/١) .
(٢) نُسِبت هذه القراءة إلى ابن عباس ، كذا في البحر المحيط(٤٥٥/٤) .

غدًا ، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء ، لعل اللّٰه أن يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة اللّٰه . فسر رسول اللّٰه ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك (١) .

وعن أنس أن رسول اللّٰه ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين فأشار عليه عمر ، ثم استشارهم فقالت الأنصار : يا معشر الأنصار إياكم يريد رسول اللّٰه ﷺ ، قالوا : إذًا لا نقول له كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك .

وقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ يعني لما نكل بنو إسرائيل عن القتال غضب عليهم موسى عليه السلام . وقال داعيًا عليهم : ﴿ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ﴾ أي : ليس أحد يطيعني منهم فيمتثل أمر اللّٰه ويجيب إلى ما دعوت إليه إلّا أنا وأخي هارون ﴿ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ قال العوفي عن ابن عبّاس : يعني اقض بيني وبينهم . وكذا قال الضحاك : اقض بيننا وبينهم وافتح بيننا وبينهم ، وقال غيره : افرق افصل بيننا وبينهم كما قال الشاعر :

يَـا رَبِّ فَـافْـرُقْ بَـيْنَهُ وَبَـيْنِي أَشَـدَّ مَـا فَـرَّقْـتَ بَـيْـنَ اثْـنَـيْـنِ

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية ، قال : لما دعا عليهم موسى عليه السلام حين نكلوا عن الجهاد حكم اللّٰه بتحريم دخولها عليهم قدر مدة أربعين سنة ، فوقعوا في التيه يسرون دائمًا لا يهتدون للخروج منه ، وفيه كانت أمور عجيبة وخوارق كثيرة من تظليلهم بالغمام وإنزال المنّ والسلوى عليهم ، ومن إخراج الماء الجاري من صخرة صماء تحمل معهم على دابة ، فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عينًا تجري لكل شعب عين ، وغير ذلك من المعجزات التي أيّد اللّٰه بها موسى بن عمران . وهناك نزلت التوراة وشرعت لهم الأحكام ، وعملت قبة العهد ، ويقال لها : قبة الزمان . وعن سعيد بن جبير ، سألت ابن عبّاس عن قوله : ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية ، قال : فتاهوا في الأرض أربعين سنة يصبحون كل يوم يسيرون ليس لهم قرار ، ثم ظلل عليهم الغمام في التيه وأنزل عليهم المنّ والسلوى وهذا قطعة من حديث الفتون ، ثم كانت وفاة هارون عليه السلام ، ثم بعده بمدة ثلاث سنين وفاة موسى الكليم عليه السلام ، وأقام اللّٰه فيهم يوشع بن نون عليه السلام نبيًّا خليفة عن موسى بن عمران ، ومات أكثر بني إسرائيل هناك في تلك المدة ، ويقال : إنه لم يبق منهم أحد سوى يوشع وكالب ، ومن هنا قال بعض المفسرين في قوله : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ﴾ هذا وقف تام ، وقوله : ﴿ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ منصوب بقوله : ﴿ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فلما انقضت المدة خرج بهم يوشع بن نون عليه السلام أو بمن بقي منهم وبسائر بني إسرائيل من الجيل الثاني ، فقصد بهم بيت المقدس فحاصرها ، فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر ، فلما تضيفت الشمس للغروب وخشي دخول السبت عليهم قال : إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علي . فحبسها اللّٰه تعالى حتى فتحها ، وأمر اللّٰه يوشع ابن نون أن يأمر بني إسرائيل حين يدخلون بيت المقدس أن يدخلوا بابها سجدًا وهم يقولون : حطة ، أي :

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (٨٣) .

حط عنا ذنوبنا فبدلوا ما أمروا به ودخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون : حبة في شعرة .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ تسلية لموسى عليه السلام عنهم أي : لا تأسف ولا تحزن عليهم فيما حكمت عليهم به فإنهم مستحقون ذلك . وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود وبيان فضائحهم ومخالفتهم لله ولرسوله ونكولهم عن طاعتهما فيما أمراهم به من الجهاد ، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ وكليمه وصفيه من خلقه في ذلك الزمان ، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم ، هذا مع ما شاهدوا من فعل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال والغرق له ولجنوده في اليم وهم ينظرون لتقرّ به أعينهم وما بالعهد من قدم ، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر ، لا توازي عشر المعشار في عدة أهلها وعددهم ، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام ، وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل ، ولا يسترها الذيل ، هذا وهم في جهلهم يعمهون ، وفي غيهم يترددون ، وهم البغضاء إلى الله وأعداؤه ، ويقولون مع ذلك : نحن أبناء الله وأحباؤه ، فقبح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير والقرود وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود ، ويقضي لهم فيها بتأبيد الخلود ، وقد فعل وله الحمد من جميع الوجوه .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى مبيّنًا وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه في قول الجمهور ، وهما قابيل وهابيل كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله بغيًا عليه وحسدًا له فيما وهبه الله من النعمة ، وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله عز وجل ، ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة ، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين ، فقال تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي : اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر ابني آدم وهما هابيل وقابيل فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف ، وقوله : ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي : على الجلية والأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب ، ولا وهم ولا تبديل ، ولا زيادة ولا نقصان ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ وكان من خبرهما فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف ، أن الله تعالى شرع لآدم عليه السلام أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال ، ولكن قالوا : كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى ، فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر ، وكانت أخت هابيل دميمة وأخت قابيل وضيئة ، فأراد أن يستأثر بها على أخيه فأبى آدم ذلك إلا أن يقربا قربانًا فمن تقبل منه فهي له فتقبّل من هابيل ولم يتقبّل من قابيل فكان من أمرهما ما قصّه الله في كتابه .

ذكر أقوال المفسرين ههنا

عن ابن عبّاس وابن مسعود وناس من أصحاب النبيّ ﷺ أنه كان لا يولد لآدم مولود إلَّا ولد معه جارية . فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر ، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر ، حتى ولد له ابنان يقال لهما : هابيل وقابيل ، وكان قابيل صاحب زرع وكان هابيل صاحب ضرع ، وكان قابيل أكبرهما وكان له أخت أحسن من أخت هابيل ، وأن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل فأبى عليه ، وقال : هي أختي ولدت معي وهي أحسن من أختك وأنا أحق أن أتزوج بها ، فأمره أبوه أن يزوجها هابيل فأبى ، وأنهما قربا قربانًا إلى الله ﷻ أيهما أحق بالجارية ، وكان آدم ﵇ قد غاب عنهما ، أتى مكة ينظر إليها . قال الله ﷻ : هل تعلم أن لي بيتًا في الأرض ؟ قال : اللهم لا ، قال : إن لي بيتًا في مكة فأته ، فقال آدم للسماء : احفظي ولدي بالأمانة فأبت ، وقال للأرض فأبت ، وقال للجبال فأبت ، فقال لقابيل : فقال : نعم ، تذهب وترجع وتجد أهلك كما يسرك ، فلما انطلق آدم قربا قربانًا ، وكان قابيل يفخر عليه فقال : أنا أحق بها منك ، هي أختي وأنا أكبر منك ، وأنا وصي والدي ، فلما قربا قرّب هابيل جذعة سمينة وقرّب قابيل حزمة سنبل ، فوجد فيها سنبلة عظيمة ففركها وأكلها ، فنزلت النار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل ، فغضب وقال : لأقتلنك حتى لا تنكح أختي ، فقال هابيل : إنما يتقبل الله من المتقين .

وروى العوفي عن ابن عبّاس قال : من شأنهما أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه ، وإنما كان القربان يقربه الرجل ، فبينا ابنا آدم قاعدان إذ قالا لو قربنا قربانًا ، وكان الرجل إذا قرب قربانًا فرضيه الله أرسل إليه نارًا فتأكله ، وإن لم يكن رضيه الله خبت النار ، فقربا قربانًا وكان أحدهما راعيًا وكان الآخر حراثًا ، وإن صاحب الغنم قرب خير غنمه وأسمنها ، وقرب الآخر بعض زرعه ، فجاءت النار فنزلت بينهما ، فأكلت الشاة وتركت الزرع ، وإن ابن آدم قال لأخيه : أتمشي في الناس وقد علموا أنك قربت قربانًا فتقبل منك ورد علي ، فلا والله لا ينظر الناس إلي وأنت خير مني ، فقال : لأقتلنك فقال له أخوه : ما ذنبي إنما يتقبل الله من المتقين . فهذا الأثر يقتضي أن تقريب القربان كان لا عن سبب ولا عن تدارؤ في امرأة كما تقدم عن جماعة ممن تقدم ذكرهم ، وهو ظاهر القرآن ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فالسياق يقتضي أنه إنما غضب عليه وحسده بقبول قربانه دونه ، ثم المشهور عند الجمهور أن الذي قرب الشاة هو هابيل ، وأن الذي قرب الطعام هو قابيل ، وأنه تقبّل من هابيل شاته حتى قال ابن عبّاس وغيره : إنها الكبش الذي فدي به الذبيح وهو مناسب والله أعلم ، ولم يتقبّل من قابيل . كذلك نص عليه غير واحد من السلف والخلف .

ومعنى قوله : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي : ممن اتقى الله في فعله ذلك ، وقال أبو الدرداء : لأن أستيقن أن الله قد تقبل لي صلاة واحدة أحب إليّ من الدنيا وما فيها .

وقوله : ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يقول له أخوه الرجل الصالح الذي تقبل الله قربانه لتقواه حين توعده أخوه بالقتل عن غير ما ذنب منه إليه : ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ أي : لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله فأكون أنا

وأنت سواء في الخطيئة ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أي : من أن أصنع كما تريد أن تصنع بل أصبر وأحتسب ، قال عبد الله بن عمرو : وايم الله إن كان لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج ، يعني الورع . ولهذا ثبت في الصحيحين عن النبيّ ﷺ أنه قال : « إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالْمَقْتُول فِي النَّارِ » قالوا : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : « إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ »(١) .

وعن بشر بن سعيد أن سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان : أشهد أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ ، وَالْقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي ، وَالْمَاشِي خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي » قال : أفرأيت إن دخل على بيتي فبسط يده إليّ ليقتلني فقال : « كُنْ كَابْنِ آدَمَ »(٢) .

وعن أبي ذر قال : ركب النبيّ ﷺ حمارًا وأردفني خلفه وقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ أَرَأَيْتَ إِنْ أَصَابَ النَّاسَ جُوعٌ شَدِيدٌ لاَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُومَ مِنْ فِرَاشِكَ إِلَى مَسْجِدِكَ كَيْفَ تَصْنَعُ ؟ » قال : قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « تَعَفَّفْ » قال : « يَا أَبَا ذَرٍّ أَرَأَيْتَ إِنْ أَصَابَ النَّاسَ مَوْتٌ شَدِيدٌ يَكُونُ الْبَيْتُ فِيهِ بِالْعَبْدِ يَعْنِي الْقَبْرَ كَيْفَ تَصْنَعُ ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم قال : « اِصْبِرْ » قَالَ : « يَا أَبَا ذَرٍّ أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا يَعْنِي حَتَّى تَغْرَقَ حِجَارَةُ الزَّيْتِ مِنَ الدِّمَاءِ كَيْفَ تَصْنَعُ ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم قال : « اقْعُدْ فِي بَيْتِكَ وَأَغْلِقْ عَلَيْكَ بَابَكَ » قال : فإن لم أنزل قال : « فَأْتِ مَنْ أَنْتَ مِنْهُمْ فَكُنْ مِنْهُمْ » قال : فآخذ سلاحي قال : « فَإِذًا تُشَارِكُهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ وَلَكِنْ إِذَا خَشِيتَ أَنْ يَرُوعَكَ شُعَاعُ السَّيْفِ فَأَلْقِ طَرَفَ رِدَائِكَ عَلَى وَجْهِكَ كَيْ يَبُوءَ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِكَ »(٣) . وقوله : ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ قال ابن عباس والسدي في قوله : ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ ﴾ أي : بإثم قتلي وإثمك الذي عليك قبل ذلك . قاله ابن جرير . وقال آخرون : يعني بذلك : إني أريد أن تبوء بخطيئتي فتتحمل وزرها وإثمك في قتلك إياي ، وهذا قول وجدته عن مجاهد وأخشى أن يكون غلطًا ، لأن الصحيح من الرواية عنه خلافه ، يعني ما رواه سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي ﴾ قال بقتلك إياي ﴿ وَإِثۡمِكَ ﴾ قال : بما كان منك قبل ذلك ، وروى عن مجاهد ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ ﴾ يقول : إني أريد أن يكون عليك خطيئتي ودمي .

قلت : وقد يتوهم كثيرٌ من الناس هذا القول ، ويذكرون في ذلك حديثًا لا أصل له « مَا تَرَكَ الْقَاتِلُ عَلَى الْمَقْتُولِ مِنْ ذَنْبٍ » . قد روى الحافظ أبو بكر البزّار حديثًا يشبه هذا ولكن ليس به : عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « قَتْلُ الصَّبْرِ لاَ يَمُرُّ بِذَنْبٍ إِلَّا مَحَاهُ »(٤) وهذا بهذا لا يصح ولو صح فمعناه أن الله يكفّر عن المقتول بألم القتل ذنوبه ، فأما أن تحمل على القاتل فلا ، ولكن قد يتفق هذا في بعض الأشخاص وهو الغالب ، فإن المقتول يطالب القاتل في العرصات فيؤخذ له من حسناته بقدر مظلمته ، فإن نفدت ولم يستوف حقه أخذ من سيئات المقتول فطرحت على القاتل فربما لا يبقى على المقتول خطيئة إلّا وضعت على القاتل ، وقد صح الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ في المظالم

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٨٣) ومسلم في الفتن (١٤) وأبو داود (٤٢٦٨) .
(٢) أخرجه مسلم في الفتن (١٣) وأحمد في مسنده (١٨٥/١) والسيوطي في الدر المنثور (٢٧٤/٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٩/٥) .
(٤) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٦/٦) .

كلها ، والقتل من أعظمها وأشدّها والله أعلم . وأما ابن جرير فقال : والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن تأويله إني أريد أن تنصرف بخطيئتك في قتلك إياي وذلك هو معنى قوله : ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ وأما معنى ﴿وَإِثۡمِكَ﴾ فهو إثمه يعني قتله ، وذلك كمعصية الله ﷻ في أعمال سواه ، وإنما قلنا : ذلك هو الصواب لإجماع أهل التأويل عليه ، وأن الله ﷻ أخبرنا أن كل عامل فجزاء عمله له أو عليه ، وإذا كان هذا حكمه في خلقه فغير جائز أن تكون آثام المقتول مأخوذًا بها القاتل ، وإنما يؤخذ القاتل بإثمه بالقتل المحرم وسائر آثام معاصيه التي ارتكبها بنفسه دون ما ركبه قتيله .

هذا لفظه ، ثم أورد على هذا سؤالًا حاصله كيف أراد هابيل أن يكون على أخيه قابيل إثم قتله وإثم نفسه مع أن قتله له محرم ، وأجاب بما حاصله أن هابيل أخبر عن نفسه بأن لا يقاتل أخاه إن قاتله ، بل يكف عنه يده طالبًا إن وقع قتل أن يكون من أخيه لا منه ، قلت : وهذا الكلام متضمن موعظةً له لو اتعظ ، وزجرًا له لو انزجر ، ولهذا قال : ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ أي : تتحمل إثمي وإثمك ﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقال ابن عبّاس : خوَّفه بالنار فلم ينته ولم ينزجر .

وقوله تعالى : ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي : فحسنت وسوّلت له نفسه وشجعته على قتل أخيه فقتله أي بعد هذه الموعظة وهذا الزجر ، أنه قتله بحديدة في يده . وقال السدي : عن ابن عبّاس وعن ناس من أصحاب النبيّ ﷺ ، فطوعت له نفسه قتل أخيه فطلبه ليقتله فراغ الغلام منه في رؤوس الجبال ، فأتاه يومًا من الأيام وهو يرعى غنمًا له وهو نائم ، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات فتركه بالعراء .

وقوله : ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي : في الدنيا والآخرة وأي خسارة أعظم من هذه . وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ قال السدي : لما مات الغلام تركه بالعراء ولا يعلم كيف يدفن ، فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه فحفر له ثم حثى عليه ، فلما رآه قال : ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾ وقال ابن عبّاس : جاء غراب إلى غراب ميت فحثى عليه من التراب حتى واراه ، فقال الذي قتل أخاه : ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾ وقال الضحاك عن ابن عبّاس : مكث يحمل أخاه في جراب على عاتقه سنة حتى بعث الله الغرابين فرآهما يبحثان فقال : ﴿أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ﴾ فدفن أخاه .

وقوله : ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ قال الحسن البصري : علاه الله بندامة بعد خسران فهذه أقوال المفسّرين في هذه القصة وكلهم متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه كما هو ظاهر القرآن ، وكما نطق به الحديث في قوله : « إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ » وهذا ظاهر جلي ولكن قال ابن جرير : عن الحسن - هو البصري - قال : كان الرجلان اللذان في القرآن

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٥) ومسلم في القسامة (٢٧) .

اللذان قال الله : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾ من بني إسرائيل ولم يكونا ابني آدم لصلبه وإنما كان القربان من بني إسرائيل ، وكان آدم أول من مات . وهذا غريب جدًّا وفي إسناده نظر . وعن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ ابْنَيْ آدَمَ عليه السلام ضَرَبَا لِهَذِهِ الأُمَّةِ مَثَلًا فَخُذُوا بِالْخَيْرِ مِنْهُمَا » (١) .

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ۝ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلمًا وعدوانًا ﴿ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي : شرعنا لهم وأعلمناهم ﴿ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ أي : من قتل نفسًا بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض ، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية فكأنما قتل الناس جميعًا ؛ لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس ، ومن أحياها أي حرم قتلها واعتقد ذلك فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار ، ولهذا قال : ﴿ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ عن أبي هريرة قال : دخلت على عثمان يوم الدار فقلت : جئت لأنصرك وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين ، فقال : يا أبا هريرة أيسرّك أن تقتل الناس جميعًا وإياي معهم ؟ قلت : لا ، قال : فإنك إن قتلت رجلًا واحدًا فكأنما قتلت الناس جميعًا ، فانصرف مأذونًا لك مأجورًا غير مأزور . قال : فانصرفت ولم أقاتل . وقال ابن عبّاس : هو كما قال الله تعالى : ﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ وإحياؤها ألا يقتل نفسًا حرمها الله ، فذلك الذي أحيا الناس جميعًا ، يعني أنه من حرم قتلها إلّا بحقٍّ حيي الناس منه ومن أحياها أي : كف عن قتلها . وقال العوفي : عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ : من قتل نفسًا واحدة حرمها الله فهو مثل من قتل الناس جميعًا ، وقال عكرمة والعوفي عن ابن عبّاس : من قتل نبيًّا أو إمام عدلٍ فكأنما قتل الناس جميعًا ، ومن شد على عضد نبي أو إمام عدل فكأنما أحيا الناس جميعًا . وعن عبد الله بن عمرو قال : جاء حمزة بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله اجعلني على شيء أعيش به ، فقال رسول الله ﷺ : « يَا حَمْزَةُ نَفْسٌ تُحْيِيهَا أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ نَفْسٌ تُمِيتُهَا » قال : بل نفس أحييها ، قال : « عَلَيْكَ بِنَفْسِكَ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة ﴿ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ وهذا تقريع لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم ، بعد علمهم بها كما كانت بنو قريظة والنضير وغيرهم من بني قينقاع ممن حول المدينة من اليهود ، الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج إذ وقعت بينهم الحروب في الجاهلية ، ثم إذا وضعت الحروب أوزارها فدوا من أسروه وودوا من قتلوه ، قوله : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/٢٧٥) والهندي في كنز العمال (٤٣٠٢٧) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/١٧٥) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣/١٥٩) وذكره الهندي في كنز العمال (٤٣١٤٨) .

ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية . المحاربة هي المضادة والمخالفة وهي صادقة على الكفر وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل ، وكذا الإفساد في الأرض يطلق على أنواع من الشر ، حتى قال كثير من السلف : منهم سعيد بن المسيب : إن قبض الدراهم والدنانير من الإفساد في الأرض ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ ثم قال بعضهم : نزلت هذه الآية الكريمة في المشركين ، كما ورد عن عكرمة والحسن البصري قالا : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ - إلى - أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ نزلت هذه الآية في المشركين ، فمن تاب منهم من قبل أن تقدروا عليه لم يكن عليه سبيل ، وليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد إن قتل أو أفسد في الأرض ، أو حارب الله ورسوله ثم لحق بالكفار قبل أن يقدر عليه ، لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذي أصاب . وعن ابن عبّاس ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ نزلت في المشركين ، فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذي أصابه(١) ، وقال علي بن أبي طلحة : عن ابن عبّاس في الآية قال : كان قوم من أهل الكتاب بينهم وبين النبيّ ﷺ عهد وميثاق فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض ، فخيّر الله رسوله إن شاء أن يقتل وإن شاء أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف(٢) .

والصحيح أن هذه الآية عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات ، كما روي من حديث أبي قلابة - عن أنس بن مالك أن نفرًا من عكل ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام فاستوخموا المدينة ، وسقمت أجسامهم فشكوا إلى رسول الله ﷺ ذلك ، فقال : « أَلَا تَخْرُجُونَ مَع رَاعِينَا فِي إِبِلِهِ فَتُصِيبُوا مِنْ أَبْوَالِها وَأَلْبَانِهَا » فقالوا : بلى ، فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها ، فصحوا فقتلوا الراعي وطردوا الإبل ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث في آثارهم ، فأدركوا فجيء بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم ، ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا(٣) .

وعن أنس بن مالك أن ناسًا من عرينة قدموا المدينة فاجتووها ، فبعثهم رسول الله ﷺ في إبل الصدقة وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها ، ففعلوا ، فصحوا ، فارتدوا عن الإسلام ، وقتلوا الراعي وساقوا الإبل ، فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم ، فجيء بهم فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وسمر أعينهم وألقاهم في الحرة ، قال أنس : فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه عطشًا حتى ماتوا ، ونزلت : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ الآية .

عن جرير ، قال : قدم على رسول الله ﷺ قوم من عرينة حفاة مضرورين ، فأمر بهم رسول الله ﷺ ، فلما صحوا واشتدوا قتلوا رعاء اللقاح ، ثم خرجوا باللقاح عامدين بها إلى أرض قومهم ، قال جرير : فبعثني رسول الله ﷺ في نفر من المسلمين حتى أدركناهم بعدما أشرفوا على بلاد قومهم ، فقدمنا بهم على رسول الله ﷺ ، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وسمل أعينهم ، فجعلوا

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه(٤٣٧٢) . (٢) ذكره الطبري في تفسيره(٢٧٩/٦)
(٣) أخرجه مسلم في القسامة(١٠) وأحمد في مسنده(١٨٦/٣) والنسائي في سننه(٤٠٢٤)

يقولون : الماء ، ورسول الله ﷺ يقول : النار ، حتى هلكوا ، قال : وكره الله ﷻ سمل الأعين ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ إلى آخر الآية (١) . هذا حديث غريب ، وفي إسناده الربذي وهو ضعيف ، وفي إسناده فائدة وهو ذكر أمير هذه السرية وهو جرير بن عبد الله البجلي . وأما قوله : فكره الله سمل الأعين فأنزل الله هذه الآية ، فإنه منكر ، وقد تقدم في صحيح مسلم أنهم سملوا أعين الرعاء ، فكان ما فعل بهم قصاصًا والله أعلم . وعن أبي هريرة قال : قدم على رسول الله ﷺ رجال من بني فزارة قد ماتوا هزلًا ، فأمرهم النبيّ ﷺ إلى لقاحه ، فشربوا منها حتى صحوا ثم عمدوا إلى لقاحه فسرقوها ، فطلبوا ، فأتي بهم النبيّ ﷺ ، فقطع أيديهم وأرجلهم وسمر أعينهم . قال أبو هريرة : ففيهم نزلت هذه الآية ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ فترك النبيّ ﷺ سمر الأعين بعد .

وقد اختلف الأئمة في حكم هؤلاء العرنيين هل هو منسوخ أو محكم ، فقال بعضهم : هو منسوخ بهذه الآية وزعموا أن فيها عتابًا للنبي ﷺ كما في قوله ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ ومنهم من قال : هو منسوخ بنهي النبيّ ﷺ عن المثلة ، وهذا القول فيه نظر ثم قائله مطالب ببيان تأخر الناسخ الذي ادعاه عن المنسوخ ، وقال بعضهم : كان هذا قبل أن تنزل الحدود ، قال محمّد بن سيرين ؛ وفيه نظر فإن قصته متأخرة . وفي رواية جرير بن عبد الله لقصتهم ما يدل على تأخرها فإنه أسلم بعد نزول المائدة ، ومنهم من قال : لم يسمل النبيّ ﷺ أعينهم وإنما عزم على ذلك حتى نزل القرآن فبين حكم المحاربين ، وهذ القول أيضًا فيه نظر فإنه قد تقدم في الحديث المتفق عليه أنه سمل ، وفي رواية سمر أعينهم . وقال الوليد بن مسلم : ذاكرت الليث بن سعد ما كان من سمل النبيّ ﷺ أعينهم وتركه حسمهم حتى ماتوا ، فقال : سمعت محمّد بن عجلان يقول : أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ معاتبة في ذلك ، وعلمه عقوبة مثلهم من القتل والقطع والنفي ولم يسمل بعدهم غيرهم ، قال : وكان هذا القول ذكر لأبي عمرو - يعني الأوزاعي - فأنكر أن يكون نزلت معاتبة ، وقال : بل كانت عقوبة أولئك النفر بأعيانهم ، ثم نزلت هذه الآية في عقوبة غيرهم ممن حارب بعدهم . ورفع عنهم السمل ، ثم قد احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء في ذهابهم إلى أن حكم المحاربة في الأمصار وفي السبلان على السواء لقوله : ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ وهذا مذهب مالك والأوزاعي والليث بن سعد والشافعي وأحمد بن حنبل ، حتى قال مالك في الذي يغتال الرجل فيخدعه حتى يدخله بيتًا فيقتله ويأخذ ما معه : إن هذه محاربة ودمه إلى السلطان لا إلى ولي المقتول ولا اعتبار بعفوه عنه في إسقاط القتل . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا تكون المحاربة إلّا في الطرقات فأما في الأمصار فلا ؛ لأنه يلحقه الغوث إذا استغاث ، بخلاف الطريق لبعده ممن يغيثه ويعينه .

وقوله تعالى : ﴿ أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس في الآية : من شَهَرَ السلاح في فئة الإسلام ، وأخاف السبيل ، ثم ظفر به وقدر عليه فإمام المسلمين فيه بالخيار : إن شاء قتله ، وإن شاء صلبه ، وإن شاء قطع يده ورجله ، وكذا قال سعيد بن المسيّب ومجاهد وعطاء والحسن البصري ، ومستند هذا القول أن ظاهر ﴿ أَوْ ﴾ للتخيير كما في نظائر ذلك من القرآن كقوله في كفارة الفدية : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٦/٢٨٢) .

رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ وهذه كلها على التخيير ، فكذلك فلتكن هذه الآية ، وقال الجمهور : هذه الآية منزلة على أحوال كما قال ابن عبّاس في قطاع الطريق : إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا ، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا ، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض . وهكذا قال غير واحد من السلف والأئمة ، واختلفوا هل يصلب حيًّا ويترك حتى يموت بمنعه من الطعام والشراب ، أو بقتله برمح أو نحوه ، أو يقتل أولًا ثم يصلب تنكيلًا وتشديدًا لغيره من المفسدين ، وهل يصلب ثلاثة أيام ثم ينزل أو يترك حتى يسيل صديده ، في ذلك كله خلاف محرر في موضعه وبالله الثقة وعليه التكلان ، ويشهد لهذا التفصيل الحديث الذي رواه ابن جرير في تفسيره إن صح سنده عن يزيد بن أبي حبيب أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس بن مالك يسأله عن هذه الآية ، فكتب إليه يخبره أنها نزلت في أولئك النفر العرنيين وهم من بجيلة ، قال أنس : فارتدوا عن الإسلام وقتلوا الراعي واستاقوا الإبل ، وأخافوا السبيل وأصابوا الفرج الحرام ، قال أنس : فسأل رسول الله ﷺ جبرائيل عليه السلام عن القضاء فيمن حارب ، فقال : من سرق مالًا وأخاف السبيل فاقطع يده بسرقته ورجله بإخافته ، ومن قتل فاقتله ، ومن قتل وأخاف السبيل واستحل الفرج الحرام فاصلبه (١) .

وأما قوله تعالى : ﴿ أَوْ يُنفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ قال بعضهم : هو أن يطلب حتى يقدر عليه فيقام عليه الحد أو يهرب من دار الإسلام (٢) . وقال آخرون : هو أن ينفى من بلده إلى بلد آخر أو يخرجه السلطان أو نائبه من معاملته بالكلية ، وقال الشعبي : ينفيه - كما قال ابن هبيرة - من عمله كله ، وقال عطاء الخراساني : ينفى من جند إلى جند سنين ولا يخرج من دار الإسلام . وكذا قال سعيد بن جبير : أنه ينفى ولا يخرج من أرض الإسلام . وقال آخرون : المراد بالنفي ههنا السجن ، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : هذا الذي ذكرته من قتلهم ومن صلبهم وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ونفيهم ، خزي لهم بين الناس في هذه الحياة الدنيا ، مع ما ادخر الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة ، وهذا يؤيد قول من قال : إنها نزلت في المشركين ، فأما أهل الإسلام ، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء ألا نشرك بالله شيئًا ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا يعضه بعضنا بعضًا ، فمن وفى منكم فأجره على الله تعالى ، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب ، فهو كفارة له ، ومن ستره الله فأمره إلى الله إن شاء عذّبه وإن شاء عفا عنه (٣) . وعن علي قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فِي الدُّنْيَا فَعُوقِبَ بِهِ فاللَّهُ أَعْدَلُ مِنْ أَنْ يُثَنِّيَ عُقُوبَتَهُ عَلَى عَبْدِهِ ، وَمَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فِي الدُّنْيَا فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَفَا عَنْهُ فَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ قَدْ عَفَا عَنْهُ » (٤) . وقال ابن جرير في قوله : ﴿ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ﴾ يعني شر وعار ونكال وذلة وعقوبة في عاجل الدنيا قبل الآخرة ﴿ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا ، ففي الآخرة مع الجزاء الذي

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٦/٢٨٣) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٦/٢٩٥) .
(٣) أخرجه مسلم في الحدود (٤٣) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٥٩) .

جازيتهم به في الدنيا والعقوبة التي عاقبتهم بها في الدنيا عذاب عظيم ، يعني عذاب جهنم ، وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أما على قول من قال : إنها في أهل الشرك فظاهر ، وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم انحتام القتل والصلب وقطع الرجل ، وهل يسقط قطع اليد أم لا ؟ فيه قولان للعلماء وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع وعليه عمل الصحابة ، كما قال الشعبي : كان حارثة بن بدر التميمي من أهل البصرة ، وكان قد أفسد في الأرض وحارب فكلم رجالًا من قريش ، منهم الحسن بن علي وابن عبّاس وعبد الله بن جعفر ، فكلموا عليًا فيه فلم يؤمنه ، فأتى سعيد بن قيس الهمداني فخلفه في داره ، ثم أتى عليًا فقال : يا أمير المؤمنين أرأيت من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فسادًا فقرأ حتى بلغ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ ﴾ قال : فكتب له أمانًا .

قال الليث : حدَّثني موسى بن إسحاق المدني وهو الأمير عندنا ، أن عليًا الأسدي حارب وأخاف السبيل وأصاب الدم والمال ، فطلبه الأئمة والعامة ، فامتنع ، ولم يقدروا عليه حتى جاء تائبًا ، وذلك أنه سمع رجلًا يقرأ هذه الآية : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فوقف عليه فقال : يا عبد الله أعد قراءتها فأعادها عليه ، فغمد سيفه ثم جاء تائبًا حتى قدم المدينة من السحر ، فاغتسل ثم أتى مسجد رسول الله ﷺ ، فصلى الصبح ثم قعد إلى أبي هريرة في أغمار أصحابه ، فلما أسفروا عرفه الناس فقاموا إليه ، فقال : لا سبيل لكم علي ، جئت تائبًا من قبل أن تقدروا عليّ ، فقال أبو هريرة : صدق ، وأخذ بيده حتى أتى مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة في زمن معاوية ، فقال : هذا علي جاء تائبًا ولا سبيل لكم عليه ولا قتل فترك من ذلك كله ، قال : وخرج عليّ تائبًا مجاهدًا في سبيل الله في البحر ، فلقوا الروم ، فقربوا سفينته إلى سفينة من سفنهم فاقتحم على الروم في سفينتهم فهربوا منه إلى شقها الآخر ، فمالت به وبهم فغرقوا جميعًا .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بتقواه ، وهي إذا قرنت بطاعته كان المراد بها الانكفاف من المحارم وترك المنهيات ، وقد قال بعدها : ﴿ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ قال سفيان الثوري : عن ابن عبّاس أي القربة . وقال قتادة : أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه .

والوسيلة هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود ، والوسيلة أيضًا علم على أعلى منزلة في الجنة وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة ، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش . وقد ثبت في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ : اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ ، وَالصَّلاةِ القَائِمَةِ ، آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ وَالفَضِيلَةَ ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ ، إِلَّا حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ يَوْمَ القِيَامَةِ » (١) .

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦١٤) وأحمد في مسنده (٣/٣٥٤) والنسائي في سننه (٦٨٠) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبيّ ﷺ يقول : « إِذَا سَمِعْتُمُ المُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا ، ثُمَّ سَلُوا لِيَ الوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الجَنَّةِ لاَ تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ » (١) .

وقوله : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات أمرهم بقتال الأعداء ، من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم ، والتاركين للدين القويم ، ورغبهم في ذلك بالذي أعدّه للمجاهدين في سبيله يوم القيامة من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التي لا تبيد ، ولا تحول ، ولا تزول في الغرف العالية الرفيعة ، الآمنة الحسنة مناظرها الطيبة مساكنها التي من سكنها ينعم ، لا ييأس ، ويحيى لا يموت ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه . ثم أخبر تعالى بما أعد لأعدائه الكفّار من العذاب والنكال يوم القيامة فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ أي : لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهبًا وبمثله ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به ، وتيقن وصوله إليه ، ما تقبل ذلك منه ، بل لا مندوحة عنه ولا محيص له ولا مناص ، ولهذا قال : ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ أي : موجع ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴾ فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسه ولا سبيل لهم إلى ذلك ، كلما رفعهم اللهب فصاروا في أعلى جهنم ، ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد ، فيردوهم إلى أسفلها ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴾ أي : دائم مستمر لا خروج لهم منها ، ولا محيد لهم عنها ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيُقَالُ لَهُ : يا ابْنَ آدَمَ كَيْفَ وَجَدْتَ مَضْجَعَكَ ؟ فَيَقُولُ : شَرَّ مَضْجَع ، فَيُقَالُ : هَلْ تَفْتَدِي بِقُرَابِ الأَرْضِ ذَهَبًا ؟ قالَ : فَيَقُولُ : نَعَمْ يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : كَذَبْتَ ، قَدْ سَأَلْتُكَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ فَلَمْ تَفْعَلْ ، فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ » (٢)

قال يزيد الفقير : جلست إلى جابر بن عبد الله وهو يحدث ، فحدث أن ناسًا يخرجون من النار قال : وأنا يومئذٍ أنكر ذلك ، فغضبت وقلت : ما أعجب من الناس ولكن أعجب منكم يا أصحاب محمّد ، تزعمون أن الله يخرج ناسًا من النار والله يقول : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ ﴾ الآية ، فانتهرني أصحابه وكان أحلمهم ، فقال : دعوا الرجل إنما ذلك للكفار ، فقرأ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ حتى بلغ ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴾ أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى قد جمعته ، قال : أليس الله يقول : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ فهو ذلك المقام ، فإن الله تعالى يحتبس أقوامًا بخطاياهم في النار ما شاء لا يكلمهم فإذا أراد أن يخرجهم أخرجهم ، قال : فلم أعد بعد ذلك إلى أن أكذب به .

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة(١٠) وأبو داود في السنن(٥٢٣) والترمذي في السنن(٣٦١٤)
(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين(٥٢)

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

يقول تعالى حاكمًا وآمرًا بقطع يد السارق والسارقة وقد كان القطع معمولًا به في الجاهلية فقرر في الإسلام وزيدت شروط أخر ، كما كانت القسامة والدية والقراض وغير ذلك من الأشياء التي ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه وزيادات هي من تمام المصالح . وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئًا قطعت يده به سواء كان قليلًا أو كثيرًا ، لعموم هذه الآية ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ فلم يعتبروا نصابًا ولا حرزًا ، بل أخذوا بمجرد السرقة ، وقد سئل ابن عباس في قوله : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ أخاص أم عام ؟ فقال : بل عام . وهذا يحتمل أن يكون موافقة من ابن عبّاس لما ذهب إليه هؤلاء ، ويحتمل غير ذلك فالله أعلم . وتمسكوا بما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لَعَنَ اللَّه السَّارِقَ يَسْرِقُ البَيْضَةَ فَتُقْطَعَ يَدُهُ ، وَيَسْرِقُ الحَبْلَ فَتُقْطَعَ يَدُهُ » (١) وأما الجمهور فاعتبروا النصاب في السرقة وإن كان قد وقع بينهم الخلاف في قدره ، فذهب كل من الأئمة الأربعة إلى قول على حدة ، فعند الإمام مالك بن أنس رحمه الله النصاب ثلاثة دراهم مضروبة خالصة ، فمتى سرقها أو ما يبلغ ثمنها فما فوقه وجب القطع ، واحتج في ذلك بما روي عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قطع في مجن (٢) ثمنه ثلاثة دراهم . وقطع عثمان رضي الله عنه في أترجة قومت بثلاثة دراهم (٣) ، وهو أحب ما سمعت في ذلك قال أصحاب مالك : ومثل هذا الصنيع يشتهر ولم ينكر ، فمن مثله يحكى الإجماع السكوتي وفيه دلالة على القطع في الثمار خلافًا للحنفية ، وعلى اعتبار ثلاثة دراهم خلافًا لهم في أنه لابد من عشرة دراهم ، وللشافعية في اعتبار ربع دينار ، والله أعلم . وذهب الشافعي رحمه الله إلى أن الاعتبار في قطع يد السارق بربع دينار أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعدًا ، والحجة في ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « تُقْطَعُ يَدُ السَّارِقِ فِي رُبعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا » (٤) قال أصحابنا : فهذا الحديث فاصل في المسألة ونص في اعتبار ربع الدينار لا ما ساواه . قالوا : وحديث ثمن المجن ، وأنه كان ثلاثة دراهم لا ينافي هذا ؛ لأنه إذ ذاك كان الدينار باثني عشر درهمًا فهي ثمن ربع دينار ، فأمكن الجمع بهذا الطريق ، ويروى هذا المذهب عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم وبه يقول عمر بن عبد العزيز والليث بن سعد والأوزاعي والشافعي وأصحابه ، وإسحاق بن راهويه في رواية عنه وأبو ثور وداود بن علي الظاهري رحمهم الله .

وذهب الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه في رواية عنه إلى أن كل واحد من ربع الدينار والثلاثة دراهم مرد شرعي ، فمن سرق واحدًا منهما أو ما يساويه قطع عملًا بحديث ابن عمر وبحديث عائشة رضي الله عنها ، ووقع في لفظ عند الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « اقْطَعُوا

---

(١) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٣) ومسلم في الحدود (٧) .
(٢) المِجَنّ : هو اسم لما يستجن به أي يستتر .
(٣) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٩٧) ومسلم في الحدود (٦) .
(٤) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٩) ومسلم في الحدود (٤) .

فِي رُبعِ دِينَارٍ وَلا تَقْطَعُوا فِيمَا هُوَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ » [١] وكان ربع الدينار يومئذٍ ثلاثة دراهم والدينار اثني عشر درهمًا ، فهذه كلها نصوص دالة على عدم اشتراط عشرة دراهم ، والله أعلم .

وأما الإمام أبو حنيفة وأصحابه أبو يوسف ومحمّد وزفر وكذا سفيان الثوري رحمهم الله فإنهم ذهبوا إلى أن النصاب عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة ، واحتجوا بأن ثمن المجن الذي قطع فيه السارق على عهد رسول الله ﷺ كان ثمنه عشرة دراهم . وقد روي عن ابن عبّاس قال : كان ثمن المجن على عهد النبيّ ﷺ عشرة دراهم ، فهذا ابن عبّاس وعبد الله بن عمرو قد خالفا ابن عمر في ثمن المجن ، فالاحتياط الأخذ بالأكثر لأن الحدود تدرأ بالشبهات . وقد أجاب الجمهور عما تمسك به الظاهرية من حديث أبي هريرة : « يَسْرِقُ البَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ ، وَيَسْرِقُ الحَبْلَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ » [٢] بأجوبة أحدها : أنه منسوخ بحديث عائشة وفي هذا نظر ؛ لأنه لابد من بيان التاريخ . والثاني : أنه مؤول ببيضة الحديد ، وحبل السفن . والثالث : أن هذه وسيلة إلى التدرّج في السرقة من القليل إلى الكثير الذي تقطع فيه يده ، ويحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الإخبار عما كان الأمر عليه في الجاهلية ، حيث كانوا يقطعون في القليل والكثير ، فلعن السارق الذي يبذل يده الثمينة في الأشياء المهينة . وقد ذكروا أن أبا العلاء المعري لما قدم بغداد اشتهر عنه أنه أورد إشكالًا على الفقهاء في جعلهم نصابَ السرقة ربع دينار ، ونظم في ذلك شعرًا دل على جهله وقلة عقله فقال :

يد بخمسِ مئينَ عسجد ودِيت ما بالُها قطعت في ربع دينار

تناقضٌ ما لنا إلا السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النار

ولما قال ذلك واشتهر عنه تطلبه الفقهاء فهرب منهم ، وقد أجابه الناس في ذلك فكان جواب القاضي عبد الوهاب المالكي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال : لما كانت أمينة كانت ثمينة ، فلما خانت هانت ، ومنهم من قال : هذا من تمام الحكمة والمصلحة وأسرار الشريعة العظيمة ؛ فإنه في باب الجنايات ناسب أن تعظم قيمةاليد بخمسمائة دينار ؛ لئلا يجنى عليها ، وفي باب السرقة ناسب أن يكون القدر الذي تقطع فيه ربع دينار ؛ لئلا يتسارع الناس في سرقة الأموال ، فهذا هو عين الحكمة عند ذوي الألباب ؛ ولهذا قال : ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي : مجازاة على صنيعهما السيء في أخذهما أموال الناس بأيديهم ، فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك ﴿ نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي : تنكيلًا من الله بهما على ارتكاب ذلك ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أي : في انتقامه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أي : في أمره ونهيه وشرعه وقدره .

ثم قال تعالى : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : من تاب بعد سرقته وأناب إلى الله فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه ، فأما أموال الناس فلابد من ردّها إليهم أو بدلها عند الجمهور ، وقال أبو حنيفة : متى قطع وقد تلفت في يده فإنه لا يرد بدلها ، وقد روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أتي بسارق قد سرق شملة فقال : « ما إخاله سرق » ، فقال السارق : بلى يا رسول الله ، قال : « اذْهَبُوا بِهِ فَاقْطَعُوهُ ثُمَّ احْسِمُوهُ ثُمَّ ائْتُونِي بِهِ » فقطع فأتي به ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٨٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٣) ومسلم في الحدود (٧) .

فقال : « تُبْ إِلَى اللَّه » فقال : تبت إلى اللَّه ، فقال : « تَابَ اللَّه عَلَيْكَ » (١) . وعن عائشة ، أن قريشًا أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبيّ ﷺ في غزوة الفتح ، فقالوا : من يكلم فيها رسول اللَّه ﷺ ، فقالوا : ومن يجترئ عليه إلَّا أسامة بن زيد حب رسول اللَّه ﷺ ؟ فأتي بها رسول اللَّه ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد ، فتلون وجه رسول اللَّه ﷺ فقال : « أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّه ﷻ » فقال له أسامة : استغفر لي يا رسول اللَّه ، فلما كان العشي قام رسول اللَّه ﷺ فاختطب فأثنى على اللَّه بما هو أهله ، ثم قال : « أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ ، وَإِنِّي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا » ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها ، قالت عائشة : فحسنت توبتها بعد وتزوجت ، وكانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول اللَّه ﷺ (٢) ، ثم قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : هو المالك لجميع ذلك الحاكم فيه الذي لا معقب لحكمه وهو الفعّال لما يريد ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ۚ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى الْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُولَٰٓئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا التَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّٰنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَٰبِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْكَٰفِرُونَ ﴾ .

نزلت هذه الآيات الكريمات في المسارعين في الكفر الخارجين عن طاعة اللَّه ورسوله المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع اللَّه ﷻ ﴿ مِنَ الَّذِينَ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ أي : أظهروا الإيمان بألسنتهم ، وقلوبهم خراب خاوية منه ، وهؤلاء هم المنافقون ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ أعداء الإسلام وأهله وهؤلاء كلهم ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ أي : مستجيبون له منفعلون عنه ﴿ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ أي : يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمّد ، وقيل : المراد أنهم يتسمعون الكلام ، وينهونه إلى قوم آخرين ممن لا يحضر عندك من أعدائك ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾ أي : يتأولونه على غير تأويله ويبدلونه من بعدما عقلوه ، وهم يعلمون ﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾ قيل : نزلت في قوم من اليهود قتلوا قتيلًا ، وقالوا : تعالوا حتى نتحاكم إلى محمّد ، فإن حكم بالدية فاقبلوه ، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه ، والصحيح أنها

(١) أخرجه الدارقطني في سننه (١٠٢/٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٧١/٨) .
(٢) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٨) ومسلم في الحدود (٩) .

نزلت في اليهوديين اللذين زنيا ، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم من الأمر برجم من أحصن منهم ، فحرفوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة ، والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين ، فلما وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة قالوا فيما بينهم : تعالوا حتى نتحاكم إليه ، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه واجعلوه حجة بينكم وبين الله ، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك ، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك ، وقد وردت الأحاديث بذلك . عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ ، فذكروا له أن رجلًا منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله ﷺ : «مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ ؟ » فقالوا : نفضحهم ويجلدون ، قال عبد الله بن سلام : كذبتم إن فيها الرجم ، فأتوا بالتوراة فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك فرفع يده ، فإذا آية الرجم ، فقالوا : صدق يا محمّد فيها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما ، فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة [1] . وعند مسلم أن رسول الله ﷺ أتي بيهودي ويهودية قد زنيا فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود فقال : « مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ عَلَى مَنْ زَنَى ؟ » قالوا : نسوِّد وجوههما ونحممهما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما ، قال : ﴿ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قال : فجاءوا بها فقرؤوها ، حتى إذا مر بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم ، وقرأ ما بين يديها وما وراءها ، فقال له عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله ﷺ : مره فليرفع يده ، فرفع يده فإذا تحتها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما . قال عبد الله بن عمر : كنت فيمن رجمهما ، فلقد رأيته يقيها من الحجارة بنفسه [2] .

وعن جابر بن عبد الله ، قال : زنى رجل من أهل فدك ، فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود بالمدينة أن سلوا محمّدًا عن ذلك ، فإن أمركم بالجلد فخذوه عنه ، وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه عنه ، فسألوه عن ذلك فقال : « أَرْسِلُوا إِلَيَّ أَعْلَمَ رَجُلَيْنِ فِيكُمْ » فجاءوا برجلٍ أعور يقال له : ابن صوريا ، وآخر فقال لهما النبيّ ﷺ : « أَنْتُمَا أَعْلَمُ من قبلكما » فقالا : قد دعانا قومنا لذلك ، فقال النبيّ ﷺ لهما : « أَلَيْسَ عِنْدَكُمَا التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّه » قالا : بلى ، فقال النبيّ ﷺ : « فَأُنْشِدُكُمْ بِالَّذِي فَلَقَ الْبَحْرَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَظَلَّلَ عَلَيْكُمُ الغَمَامَ وَأَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ وَأَنْزَلَ المَنَّ وَالسَّلْوَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ » فقال أحدهما للآخر : ما نشدت بمثله قط ، ثم قالا : نجد ترداد النظر زنية والاعتناق زنية والتقبيل زنية ، فإذا شهد أربعة أنهم رأوه يبدئ ويعيد ، كما يدخل الميل في المكحلة ، فقد وجب الرجم ، فقال النبيّ ﷺ : « هُوَ ذَاكَ » فأمر به فرجم فنزلت ﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـًٔاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾ [3] ، ولهذا قالوا : ﴿ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا ﴾ أي : الجلد والتحميم ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ أي : اقبلوه ﴿ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْ ﴾ أي : من قبوله واتباعه .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٌۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ ﴾ أي : الباطل

(١) أخرجه البخاري في المحاربين من أهل الكفر (٦٨١٩) ومسلم في الحدود (٢٦) ومالك في الموطأ (٨١٩) .
(٢) أخرجه مسلم في الحدود (٢٦) .
(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٤٤٥٢) .

﴿ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ أي : الحرام وهو الرشوة كما قاله ابن مسعود وغير واحد ، أي : ومن كانت هذه صفته كيف يطهر اللَّه قلبه ، وأنى يستجيب له ، ثم قال لنبيه : ﴿ فَإِن جَآءُوكَ ﴾ أي : يتحاكمون إليك ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ﴾ أي : فلا عليك أن لا تحكم بينهم ؛ لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق بل ما يوافق أهواءهم . قال ابن عبّاس ومجاهد وعكرمة وغير واحد : هي منسوخة بقوله : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ أي : بالحق والعدل ، وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ . ثم قال تعالى منكرًا عليهم في آرائهم الفاسدة ومقاصدهم الزائغة في تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم ، الذي يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبدًا ، ثم خرجوا عن حكمه وعدلوا إلى غيره مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم ، فقال : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ثم مدح التوراة التي أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران فقال : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ أي لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلونها ولا يحرفونها ﴿ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ ﴾ أي : وكذلك الربانيون منهم – وهم العلماء العبّاد – والأحبار ، وهم العلماء ﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾ أي : بما استودعوا من كتاب اللَّه الذي أمروا أن يظهروه ويعملوا به ﴿ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ أي : لا تخافوا منهم وخافوا مني ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ فيه قولان سيأتي بيانهما .

سبب آخر في نزول هذه الآيات الكريمات :

عن ابن عبّاس قال : إن اللَّه أنزل ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ و ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ و ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ قال ابن عبّاس : أنزلها اللَّه في الطائفتين من اليهود ، وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقًا ، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق ، فكانوا على ذلك حتى قدم النبيّ ﷺ فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلًا ، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا لنا بمائة وسق ، فقالت الذليلة : وهل كان في حيين دينهما واحد ونسبهما واحد وبلدهما واحد دية بعضهم نصف دية بعض ؟ إنما أعطيناكم هذا ضيمًا منكم لنا وفرقًا منكم ، فأما إذ قدم محمّد فلا نعطيكم ، فكادت الحرب تهيج بينهما ، ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول اللَّه ﷺ بينهم ، ثم ذكرت العزيزة فقالت : واللَّه ما محمّد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم ، ولقد صدقوا ، ما أعطونا هذا إلّا ضيمًا منا وقهرًا لهم ، فدسوا إلى محمّد من يخبر لكم رأيه إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكموه ، فدسوا إلى رسول اللَّه ﷺ ناسًا من المنافقين ليخبروا لهم رأي رسول اللَّه ﷺ ، فلما جاءوا رسول اللَّه ﷺ أخبر اللَّه رسوله ﷺ بأمرهم كله وما أرادوا ، فأنزل اللَّه تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ إلى قوله : ﴿ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ ففيهم واللَّه أنزل وإياهم عنى [١] .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٤٦).

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ قال البراء بن عازب اليمان وابن عبّاس وغيرهم . نزلت في أهل الكتاب زاد الحسن البصري : وهي علينا واجبة ، وعن إبراهيم قال : نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل ورضي الله لهذه الأمة بها .

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

وهذا أيضًا مما وبخت به اليهود وقرعوا عليه ، فإن عندهم في نص التوراة أن النفس بالنفس ، وهم يخالفون حكم ذلك عمدًا وعنادًا ، ويقيدون النضري من القرظي ، ولا يقيدون القرظي من النضري ، بل يعدلون إلى الدية ، كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن ، وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار ، ولهذا قال هناك : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ لأنهم جحدوا حكم الله قصدًا منهم وعنادًا وعمدًا ، وقال ههنا : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه ، فخالفوا وظلموا وتعدوا على بعضهم بعضًا . وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قرأها : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ والعينُ بِٱلْعَيْنِ ﴾ نصب النفس ورفع العين [1] ، وقد استدل كثير ممن ذهب في الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكي مقررًا ولم ينسخ ، كما هو المشهور عن الجمهور .

وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة ، وكذا ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ كتب في كتاب عمرو بن حزم « أَنَّ الرَّجُلَ يُقْتَلُ بِالْمَرْأَةِ » [2] وفي الحديث الآخر : « الْمُسْلِمُونَ تَتَكافَأُ دِمَاؤُهُمْ » [3] وهذا قول جمهور العلماء ، وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها إلّا أن يدفع وليها إلى أوليائه نصف الدية ؛ لأن ديتها على النصف من دية الرجل ، ورواية عن أحمد : أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها ، بل تجب ديتها ، وهكذا احتج أبو حنيفة رحمه الله تعالى بعموم هذه الآية على أنه يقتل المسلم بالكافر الذمي ، وعلى قتل الحر بالعبد ، وقد خالفه الجمهور فيهما ، فعن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ » [4] أما العبد ففيه عن السلف آثار متعددة أنهم لم يكونوا يقيدون العبد من الحر ولا يقتلون حرًّا بعبد ، وجاء في ذلك أحاديث لا تصح ، وحكى الشافعي الإجماع على خلاف قول الحنفية في ذلك ، ولكن لا يلزم من ذلك بطلان قولهم إلّا بدليل مخصص للآية الكريمة .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ قال ابن عبّاس : تقتل النفس بالنفس ، وتفقأ العين بالعين ، ويقطع الأنف بالأنف ، وتنزع السن بالسن ، وتقتص الجراح بالجراح ، فهذا يستوي فيه أحرار المسلمين فيما بينهم - رجالهم ونساؤهم - إذا كان عمدًا في النفس وما دون النفس ، ويستوي فيه

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ونافع وعاصم وحمزة ﴿ والعينَ ﴾ بالنصب ، وقرأ الكسائي ﴿ والعينُ ﴾ بالرفع (انظر : حجة القراءات ص ٢٢٥) والحديث أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢١٥) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (٤٨٥٣) .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٢٧٥١) وابن ماجه في السنن (١٦٨٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٨/٢٩) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١/٧٩) وأبو داود في السنن (١٥٦) والترمذي في السنن (١٤١٢ ، ١٤١٣) .

العبيد - رجالهم ونساؤهم - فيما بينهم إذا كان عمدًا في النفس وما دون النفس .

قاعدة مهمة : الجراح تارة تكون في مفصل ، فيجب فيه القصاص بالإجماع كقطع اليد والرجل والكف والقدم ونحو ذلك ، وأما إذا لم تكن الجراح في مفصل ، بل في عظم ، فقال مالك رحمه الله : فيه القصاص إلَّا في الفخذ وشبهها ؛ لأنه مخوف خطر ، وقال أبو حنيفة وصاحباه : لا يجب القصاص في شيء من العظام إلَّا في السن ، وقال الشافعي : لا يجب القصاص في شيء من العظام مطلقًا ، وهو مروي عن عمر بن الخطاب وابن عبّاس ، وبه يقول عطاء والشعبي والحسن البصري والزهري وإبراهيم النخعي ، وإليه ذهب سفيان الثوري والليث بن سعد وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد ، وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله بحديث الربيع ابنة النضر على مذهبه أنه لا قصاص في عظم إلَّا في السن ، وحديث الربيع لا حجة فيه ؛ لأنه ورد بلفظ كسرت ثنية جارية ، وجائز أن تكون سقطت من غير كسر ، فيجب القصاص والحالة هذه بالإجماع ، وتمموا الدلالة مما رواه جارية بن ظفر الحنفي أن رجلًا ضرب رجلًا على ساعده بالسيف من غير المفصل فقطعها ، فاستعدى النبيّ ﷺ فأمر له بالدية ، فقال : يا رسول الله أريد القصاص ، فقال : « خذ الدية بارك الله لك فيها » ولم يقض له بالقصاص [(١)] ، ثم قالوا : لا يجوز أن يقتص من الجراحة حتى تندمل جراحة المجنيّ عليه ، فإن اقتص منه قبل الاندمال ثم زاد جرحه فلا شيء له ، والدليل على ذلك ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : أن رجلًا طعن رجلًا بقرن في ركبته ، فجاء إلى النبيّ ﷺ فقال : أقدني فقال : « حَتَّى تَبْرَأَ » ثم جاء إليه فقال : أقدني ، فأقاده ، فقال : يا رسول الله عرجت ، فقال : « قَدْ نَهَيْتُكَ فَعَصَيْتَنِي ، فَأَبْعَدَكَ اللَّه وَبَطَلَ عَرَجُكَ » ثم نهى رسول الله ﷺ أن يقتص من جرح حتى يبرأ صاحبه [(٢)] .

مسألة : فلو اقتص المجني عليه من الجاني فمات من القصاص فلا شيء عليه عند مالك والشافعي وأحمد بن حنبل ، وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين وغيرهم ، وقال أبو حنيفة : تجب الدية في مال المقتص ، وقال عامر والشعبي وعطاء وطاووس والزهري والثوري : تجب الدية على عاقلة المقتص له ، وقال ابن مسعود وإبراهيم النخعي والحكم بن عتيبة وعثمان البيتي : يسقط عن المقتص له قدر تلك الجراحة ويجب الباقي في ماله .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ﴾ قال ابن عبّاس : فمن عفا عنه وتصدّق عليه فهو كفارة للمطلوب وأجر للطالب ، وعن ابن عبّاس : فمن تصدّق به فهو كفارة للجارح وأجر المجروح على الله ﷻ ثم قال : وروي عن خيثمة بن عبد الرّحمن ومجاهد وإبراهيم في أحد قوليه وعامر الشعبي وجابر بن زيد نحو ذلك .

وعن أبي السفر قال : دفع رجل من قريش رجلًا من الأنصار فاندقت ثنيته ، فرفعه الأنصاري إلى معاوية ، فلما ألح عليه الرجل قال : شأنك وصاحبك قال : وأبو الدرداء عند معاوية ، فقال أبو الدرداء : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصَابُ بِشَيْءٍ مِنْ جَسَدِهِ فَيَهَبُهُ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّه دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهِ خَطِيئَةً» فقال الأنصاري : أنت سمعته من رسول الله ﷺ ؟ فقال : سمعته أذناي

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه(٢٦٣٦) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده(٢/٢١٧) .

ووعاه قلبي ، فخلى سبيل القرشي . فقال معاوية : مروا له بمال[1] . وعن المحرر بن أبي هريرة عن رجل من أصحاب النبيّ ﷺ قال : « مَنْ أُصِيبَ بِشَيْءٍ مِنْ جَسَدِهِ فَتَرَكَهُ لِلَّهِ كَانَ كَفَّارَةً لَهُ »[2] .

وقوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ عن طاوس وعطاء أنهما قالا : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق .

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾ أي : أتبعنا على آثارهم يعني أنبياء بني إسرائيل ﴿ بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ أي : مؤمنًا بها حاكمًا بما فيها ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ أي : هدى إلى الحق ونور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ أي : متبعًا لها غير مخالف لما فيها إلّا في القليل مما بيّن لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه ، كما قال تعالى إخبارًا عن المسيح : أنه قال لبني إسرائيل : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ ولهذا كان المشهور من قولي العلماء : أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة . وقوله تعالى : ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي : وجعلنا الإنجيل هدى يهتدى به ﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ أي : زاجرًا عن ارتكاب المحارم والمآثم ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي : لمن اتقى اللّه وخاف وعيده وعقابه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ قرئ ﴿ وليحكمَ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ ﴾ بالنصب على أن اللام لام كي ، أي : وآتيناه الإنجيل ليحكم أهل ملته به في زمانهم وقرئ ﴿ وَلْيَحْكُمْ ﴾ بالجزم على أن اللام لام الأمر[3] أي : ليؤمنوا بجميع ما فيه ، وليقيموا ما أمروا به فيه ومما فيه البشارة ببعثة محمّد ، والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد ، ولهذا قال ههنا : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ أي : الخارجون عن طاعة ربهم المائلون إلى الباطل التاركون للحق وهذه الآية نزلت في النصارى وهو ظاهر من السياق .

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى التوراة التي أنزلها على موسى كليمه ، ومدحها ، وأثنى عليها ، وأمر باتباعها ، حيث كانت سائغة الاتباع ، وذكر الإنجيل ، ومدحه ، وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه ، شرع في ذكر القرآن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده(٤٤٨/٦) والهندي في كنز العمال(٦٨٤٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده(٤١٢/٥) والمنذري في الترغيب والترهيب(٣٠٦/٣) .

(٣) قرأ حمزة ﴿وليحكم ﴾ بكسر اللام ونصب الميم والباقون بإسكانها(تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٠٧)

العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم فقال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي : بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي : من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه ، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمّد ﷺ ، فكان نزوله كما أخبرت به مما زادها صدقًا عند حامليها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله ، واتبعوا شرائع الله ، وصدقوا رسل الله كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ أي : إن كان ما وعدنا الله على ألسنة رسله المتقدمة من مجيء محمّد عليه الصلاة والسّلام لمفعولًا ، أي : لكائنا لا محالة ولابد .

وقوله تعالى : ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ عن ابن عبّاس : أي : مؤتمنًا عليه . قال : القرآن أمين على كل كتاب قبله . وقال ابن جريج : القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله ، فما وافقه منها فهو حق ، وما خالفه منها فهو باطل ، وعن ابن عبّاس ﴿ وَمُهَيْمِنًا ﴾ أي : شهيدًا . وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى ، فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله ، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله ، حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ، فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها ، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة فقال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ فأما ما حكاه مجاهد أنهم قالوا في قوله : ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ يعني : محمّدًا ﷺ أمين على القرآن ؛ فإنه صحيح في المعنى ، ولكن في تفسير هذا بهذا نظر ، وفي تنزيله عليه من حيث العربية أيضًا نظر ، وبالجملة فالصحيح الأول . وقوله تعالى : ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أي : فاحكم يا محمّد بين الناس ، عربهم وعجمهم ، أميهم وكتابيهم ، بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم ، وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه في شرعك .

وقوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ أي : آراءهم التي اصطلحوا عليها وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ أي : لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء . وقوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ قال ابن عبّاس : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً ﴾ سبيلًا ﴿ وَمِنْهَاجًا ﴾ قال : وسنة ، وكذا روي عن ابن عباس ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ سبيلًا وسنة . فتفسير قوله : ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ بالسبيل والسنة أظهر في المناسبة من العكس ، والله أعلم . ثم هذا إخبارٌ عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام ، المتفقة في التوحيد .

كما ثبت عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ إِخْوَةٌ لِعلَّاتٍ دِينُنَا وَاحِدٌ »(١) يعني بذلك التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله وضمنه كل كتاب أنزله ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ الآية ، وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي ، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حرامًا ، ثم يحل في الشريعة الأخرى وبالعكس ، وخفيفًا فيزاد في الشدة في هذه دون هذه ، وذلك لما له تعالى في ذلك من

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء(٣٤٤٣) ومسلم في الفضائل(١٤٥) وأحمد في مسنده(٢/٤٠٦)

الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، وقيل : المخاطب بهذه الآية هذه الأمة ، ومعناه : لكل جعلنا القرآن منكم أيتها الأمة شرعةً ومنهاجًا ، أي : هو لكم كلكم تقتدون به ، وحذف الضمير المنصوب في قوله : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ ﴾ أي جعلناه - يعني القرآن - شرعةً ومنهاجًا ، أي : سبيلًا إلى المقاصد الصحيحة ، وسنةً ، أي : طريقًا ومسلكًا واضحًا بينًا ، هذا مضمون ما حكاه ابن جرير عن مجاهد رحمه الله ، والصحيح القول الأول ، ويدل على ذلك قوله تعالى بعده : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ فلو كان هذا خطابًا لهذه الأمة لما صح أن يقول : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ وهم أمة واحدة ولكن هذا خطابٌ لجميع الأمم ، وإخبارٌ عن قدرته تعالى العظيمة ، التي لو شاء لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة لا ينسخ شيء منها ، ولكنه تعالى شرّع لكل رسول شريعةً على حدة ، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده ، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمّدًا ﷺ ، الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبةً وجعله خاتم الأنبياء كلهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ أي : أنه تعالى شرع الشرائع مختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم ، ويثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله ، وقال عبد الله بن كثير : ﴿ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ يعني من الكتاب .

ثم إنه تعالى ندبهم إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها فقال : ﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ وهي طاعة الله واتباع شرعه الذي جعله ناسخًا لما قبله والتصديق بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزله ، ثم قال تعالى : ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي : معادكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ أي : فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق فيجزي الصادقين بصدقهم ، ويعذّب الكافرين الجاحدين المكذّبين بالحق العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان ، بل هم معاندون للبراهين القاطعة ، والحجج البالغة والأدلة الدامغة ، وقال الضحاك : ﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ يعني أمة محمّد ﷺ ، والأول أظهر .

وقوله : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك والنهي عن خلافه ، ثم قال : ﴿ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أي : واحذر أعداءك اليهود أن يدلسوا عليك الحق فيما ينهونه إليك من الأمور ، فلا تغتر بهم فإنهم كذبة كفرة خونة ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ أي : عما تحكم به بينهم من الحق وخالفوا شرع الله ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ أي : فاعلم أن ذلك كائن عن قدرة الله وحكمته فيهم ، أن يصرفهم عن الهدى لما لهم من الذنوب السالفة التي اقتضت إضلالهم ونكالهم ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ أي : إن أكثر الناس لخارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق ناكبون عنه .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير ، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء ، والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم به التتار عن ملكهم جنكيز خان الذي وضع لهم الياسق ، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى ؛ من اليهودية

والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت في بنيه شرعًا متبعًا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله ، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير .

قال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ أي : يبتغون ويريدون ، وعن حكم الله يعدلون ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي : ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به ، وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين ، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها ، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء ، القادر على كل شيء ، العادل في كل شيء . عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ﷻ مَنْ يَبْتَغِي فِي الإِسْلَامِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ ، وَطَالِبَ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُرِيقَ دَمَهُ » (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ .

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى ، الذين هم أعداء الإسلام وأهله قاتلهم الله ، ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض ، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك فقال : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ الآية . وعن ابن عباس أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب ، قال : كل ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أي : شك وريب ونفاق ، ﴿ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ﴾ أي : يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر ﴿ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾ أي : يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين ، فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى فينفعهم ذلك . عند ذلك قال الله تعالى : ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ ﴾ يعني القضاء والفصل ﴿ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ يعني ضرب الجزية على اليهود والنصارى ﴿ فَيُصْبِحُوا ﴾ يعني الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين ﴿ عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ من الموالاة نادمين ، أي : على ما كان منهم مما لم يجد عنهم شيئًا ولا دفع عنهم محذورًا ، بل كان عين المفسدة ، فإنهم فضحوا وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين ، بعد أن كانوا مستورين لا يدرى كيف حالهم ، فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين ، فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين ، ويحلفون على ذلك ويتأولون ، فبان كذبهم وافتراؤهم ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ وقد اختلف القراء في هذا الحرف ، فقرأه الجمهور بإثبات الواو في قوله : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ﴾ ثم منهم من رفع ويقول على الابتداء ، ومنهم من نصب عطفًا على قوله : ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ (٢) فتقديره أن يأتي وأن يقول ، وقرأ أهل المدينة : ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بغير واو ، وكذلك هو في مصاحفهم على ما ذكره

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٨٢) .

(٢) قرأ المدنيان وابن كثير وابن عامر ﴿ يقول ﴾ بغير واو ، والباقون ﴿ ويقول ﴾ بالواو ، وقرأ البصريان بنصب اللام ﴿ ويقولَ ﴾ والباقون بالرفع (تقريب النشر ص : ١٠٧)

ابن جرير ، قال ابن جريج عن مجاهد : ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ تقديره حينئذٍ ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ .

واختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمات ، فذكر السدي أنها نزلت في رجلين قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أحد : أما أنا فإني ذاهب إلى فلان النصراني بالشام فآوي إليه وأتنصر معه ، فأنزل الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ . وقال عكرمة : نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة ، فسألوه ماذا هو صانع بنا ؟ فأشار بيده إلى حلقه ، أي أنه الذبح . وقيل : نزلت في عبد الله بن أبي ابن سلول ، كما قال عطية بن سعد : جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن لي موالي من يهود كثير عددهم ، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ، وأتولى الله ورسوله ، فقال عبد الله بن أبي : إني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالي ، فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبي : « يَا أَبَا الحُبَابِ مَا بَخِلْتُ بِهِ مِنْ وِلَايَةِ يَهُود عَلَى عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ فَهُوَ لَكَ دُونَهُ » قال : قد قبلت ، فأنزل الله ﷻ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ الآيتين (١) .

وعن عبادة بن الصامت ، قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ ، تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي وقام دونهم ، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ ، وكان أحد بني عوف بن الخزرج له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أبي ، فجعلهم إلى رسول الله ﷺ ، وتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم ، وقال : يا رسول الله أبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم وأتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم ، ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات في المائدة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ (٢) .
وعن أسامة بن زيد قال : دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي نعوده ، فقال له النبيّ ﷺ : «قَدْ كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ حبِّ يَهُودَ » فقال عبد الله : فقد أبغضهم أسعد بن زرارة فمات (٣) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قدرته العظيمة : أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته ، فإن الله سيستبدل به من هو خير لها منه وأشد منعة وأقوم سبيلًا ، كما قال تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أي : بممتنع ولا صعب . وقال تعالى ههنا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ ﴾ أي : يرجع عن الحق إلى الباطل . وقال الحسن البصري : نزلت في أهل الردة أيام أبي بكر ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ قال الحسن : هو والله أبو بكر وأصحابه . وقال ابن عبّاس : ناس من أهل اليمن ثم من كندة ثم من السكون . وعن جابر بن عبد الله قال : سئل رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ

(١ ، ٢) ذكره الطبري في تفسيره (٦/٣٧٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٠١) وأبو داود في السنن (٣٠٩٤) والحاكم في المستدرك (١/٣٤١) .

﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ قال :« هَؤُلاَءِ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ اليَمَنِ ثُمَّ مِنْ كِنْدَةَ ثُمَّ مِن السَّكُونِ ثُمَّ مِنْ تُجِيب»[(١)]

وقوله تعالى ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ هذه صفات المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه ووليه ، متعززًا على خصمه وعدوه كما قال تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ ﴾ وفي صفة رسول اللهﷺ أنه الضحوك القتال ، فهو ضحوك لأوليائه قتّال لأعدائه . وقولهﷻ : ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ﴾ أي : لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله وإقامة الحدود وقتال أعدائه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا يردهم عن ذلك راد ، ولا يصدهم عنه صاد ، ولا يحيك فيهم لوم لائم ، ولا عذل عاذل . وعن أبي ذر قال : أمرني خليليﷺ بسبع ؛ أمرني بحب المساكين والدنو منهم ، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ، ولا أنظر إلى من هو فوقي ، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت ، وأمرني أن لا أسأل أحدًا شيئًا ، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرًا ، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم ، وأمرني أن أكثر من قول : لا حول ولا قوة إلّا بالله ، فإنهن من كنز تحت العرش[(٢)] . وعن أبي ذرﷺ قال : بايعني رسول اللهﷺ خمسًا وواثقني سبعًا ، وأشهد الله على أني لا أخاف في الله لومة لائم . قال أبو ذر : فدعاني رسول اللهﷺ ، فقال :« هَلْ لَكَ إِلَى بَيْعَةٍ وَلَكَ الجَنَّةُ ؟» قلت : نعم وبسطت يدي ، فقال النبيﷺ وهو يشترط علي :« أَنْ لاَ تَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا» قلت : نعم قال :« وَلاَ سَوْطَكَ وَإِنْ سَقَطَ مِنْكَ» يعني تنزل إليه فتأخذه[(٣)] .

وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول اللهﷺ :« لاَ يَحْقِرَن أَحَدُكُم نَفْسَهُ أَنْ يَرَى أَمْرًا للهِ فِيهِ مَقَالٌ فَلاَ يَقُول فِيهِ ، فَيُقَالُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ : مَا مَنَعَكَ أَنْ تَكُونَ قُلْتَ فِي كَذَا كَذَا وَكَذَا ؟ فَيَقُول : مَخَافَةَ النَّاسِ ، فَيَقُولُ : إِيَّايَ أَحَقُّ أَنْ تَخَافَ»[(٤)] . وثبت في الصحيح« مَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ» قالوا : وكيف يذل نفسه يا رسول الله ؟ قال :« يَتَحَمَّلُ مِنَ البَلاَءِ مَا لاَ يُطِيقُ»[(٥)] ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ ﴾ أي : من اتصف بهذه الصفات فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي : واسع الفضل بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي : ليس اليهود بأوليائكم بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين . وقوله : ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أي : المؤمنون المتصفون بهذه الصفات ، من إقام الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام ، وهي له وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين . وأما قوله : ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ فقد توهم بعض الناس أن هذه الجملة في موضع الحال من قوله : ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أي : في حال ركوعهم ، ولو كان هذا كذلك لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره ؛ لأنه ممدوح ، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى ، وحتى إن بعضهم ذكر في هذا أثرًا عن علي بن أبي طالب أن هذه الآية نزلت فيه ، وذلك أنه مر به سائل في حال ركوعه فأعطاه خاتمه .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور(٢/٢٩٢) (٢) أخرجه أحمد في مسند(٥/١٥٩) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده(٥/١٧٢) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده(٣/٣٠ ، ٤٧) وابن ماجه في السنن(٤٠٠٨) والبيهقي في السنن الكبرى(١٠/٩٠)
(٥) أخرجه أحمد في مسنده(٥/٤٠٥) وابن ماجه في السنن(٤٠١٦)

وعن عقبة بن حكيم في قوله : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ قال : هم المؤمنون . وقال مجاهد : نزلت في علي بن أبي طالب تصدق وهو راكع ، وقال ابن عبّاس : نزلت في علي بن أبي طالب .

ثم روي عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ نزلت في المؤمنين وعلي بن أبي طالب أولهم . وقد تقدم : أن الآية نزلت في عبادة بن الصامت ﷺ حين تبرأ من حلف اليهود ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين ولهذا قال بعدا هذا ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ فكل من رضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين ، فهو مفلح في الدنيا والآخرة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ .

هذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله من الكتابيين والمشركين ، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوي وآخروي ، يتخذونها هزوًا يستهزئون بها ، ولعبًا يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد ، وفكرهم البارد .

وقوله تعالى : ﴿ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ ﴾ من ههنا لبيان الجنس كقوله : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ وقرأ بعضهم والكفار بالخفض عطفًا ، وقرأ آخرون بالنصب على أنه معمول ﴿ لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [١] تقديره : ولا الكفار أولياء أي : لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء ، والمراد بالكفار ههنا المشركون ، وكذلك وقع في قراءة ابن مسعود فيما رواه ابن جرير (لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوًا ولعبًا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا) وقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي : اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء إن كنتم مؤمنين بشرع الله الذي اتخذه هؤلاء هزوًا ولعبًا ، وقوله : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ أي : وكذلك إذا أذنتم داعين إلى الصلاة التي هي أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم من ذوي الألباب ﴿ اتَّخَذُوهَا ﴾ أيضًا ﴿ هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ معاني عبادة الله وشرائعه ، وهذه صفات أتباع الشيطان الذي إذا سمع الأذان أدبر وله حصاص أي ضراط ، حتى لا يسمع التأذين ، فإذا قضي التأذين أقبل ، فإذا ثوّب للصلاة أدبر ، فإذا قضي التثويب أقبل - حتى يخطر بين المرء وقلبه ، فيقول : اذكر كذا ، اذكر كذا ، لما لم يكن يذكر ، حتى يظل الرجل لا يدري كم صلّى ، فإذا وجد أحدكم ذلك فليسجد سجدتين قبل السلام [٢] ، وقال الزهري : قد ذكر الله التأذين في كتابه فقال : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن

---

(١) قرأ البصريان والكسائي ﴿والكفار أولياء﴾ بخفض الراء وهم على أصلها في الإمالة والباقون بالنصب (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٠٧) .
(٢) أخرجه البخاري في السهو (١٢٣١) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٨٣) وأحمد في مسنده (٤١٣/٢) .

قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمّد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزوًا ولعبًا من أهل الكتاب : ﴿ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ ﴾ أي : هل لكم علينا مطعن أو عيب إلّا هذا ؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمة ، فيكون الاستثناء منقطعًا كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ وفي الحديث : « مَا يَنْقُمُ ابنُ جَمِيلٍ إِلَّا أَنْ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللَّه » (١) .

وقوله : ﴿ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ معطوف على ﴿ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ ﴾ أي : وآمنا بأن أكثركم فاسقون ، أي خارجون عن الطريق المستقيم .

ثم قال : ﴿ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ ﴾ أي : هل أخبركم بشر جزاء عند اللَّه يوم القيامة مما تظنونه بنا ؟ وهم أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله : ﴿ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ أي : أبعده من رحمته ﴿ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ ﴾ أي : غضبًا لا يرضى بعده أبدًا ﴿ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ ﴾ كما تقدم بيانه في سورة البقرة ، وعن ابن مسعود قال : سئل رسول اللَّه ﷺ عن القردة والخنازير أهي مما مسخ اللَّه ، فقال : « إِنَّ اللَّه لَمْ يُهْلِكْ قَوْمًا - أَوْ قَالَ لَمْ يَمْسَخْ قَوْمًا - فَيَجْعَلَ لَهُمْ نَسْلًا وَلاَ عَقِبًا وَإِنَّ القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ » (٢) . وعن أبي الأحوص عن ابن مسعود قال : سألنا رسول اللَّه ﷺ عن القردة والخنازير أهي من نسل اليهود ، فقال : « لاَ ، إِنَّ اللَّه لَمْ يَلْعَنْ قَوْمًا قَطّ فَيَمْسَخهُمْ فَكَانَ لَهُمْ نَسْلٌ ، وَلكِنَّ هَذَا خَلْقٌ كَانَ ، فَلَمَّا غَضِبَ اللَّه عَلَى اليَهُودِ فَمَسَخَهُمْ ، جَعَلَهُمْ مِثْلَهُمْ » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ ﴾ قرئ ﴿ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ ﴾ على أنه فعل ماض ، والطاغوت منصوب به ، أي : وجعل منهم من عبد الطاغوت ، وقرئ ﴿ عَبْدَ الطاغوتِ ﴾ بالإضافة على أن المعنى وجعل منهم خدم الطاغوت أي خدامه وعبيده ، وقرئ ﴿ عُبُدَ ٱلطَّٰغُوتِۚ ﴾ على أنه جمع لجمع عبد وعبيد وعبد مثل ثمار وثمر . وحكي عن أبي جعفر أنه كان يقرؤها و ﴿ عُبِدَ الطاغوتُ ﴾ على أنه مفعول ما لم يسم فاعله ، ثم استبعد معناها (٤) ، والظاهر أنه لا بعد في ذلك لأن هذا من باب التعريض بهم ، أي : وقد عبدت الطاغوت فيكم وأنتم الذين فعلتموه ، وكل هذه القراءات يرجع معناها إلى أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا الذي هو توحيد اللَّه وإفراده بالعبادات دون ما سواه ، كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر ، ولهذا قال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا ﴾ أي : مما تظنون بنا ﴿ وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة ، كقوله ﷻ : ﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴾ ، ولهذا قال : ﴿ وَقَد دَّخَلُواْ ﴾ أي : عندك يا محمّد ﴿ بِٱلۡكُفۡرِ ﴾ أي : مستصحبين الكفر في قلوبهم ، ثم خرجوا وهو كامن فيها ، لم ينتفعوا بما قد سمعوا منك من العلم ، ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر ، ولهذا قال : ﴿ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ ﴾ فخصصهم به دون غيرهم . وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ﴾ أي : عالم بسرائرهم وما تنطوي عليه ضمائرهم ، وإن

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٨) ومسلم في الزكاة (١١) وأحمد في مسنده (٣٢٢/٢) .
(٢) أخرجه مسلم في القدر (٣٣) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٥/١ ، ٣٩٦) .
(٤) قرأ حمزة ﴿ وعبد ﴾ بضم الباء ، والطاغوت بالخفض ، والباقون بالفتح والنصب (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٠٧) .

أظهروا لخلقه خلاف ذلك ، وتزينوا بما ليس فيهم ، فإن الله عالم الغيب والشهادة أعلم بهم منهم ، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء . وقوله : ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾ أي : يبادرون إلى ذلك من تعاطي المآثم والمحارم والاعتداء على الناس وأكلهم أموالهم بالباطل ، ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي : لبئس العمل كان عملهم وبئس الاعتداء اعتداؤهم .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ يعني هلا كان ينهاهم الربانيون والأحبار منهم عن تعاطي ذلك ؟ والربانيون هم العلماء العمال أرباب الولايات عليهم ، والأحبار هم العلماء فقط ، وعن ابن عبّاس قال : ما في القرآن آية أشد توبيخًا من هذه الآية ﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ قال : كذا قرأ [1] . وعن المنذر بن جرير عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ قَوْمٍ يَكُونُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ مَنْ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَعَزُّ مِنْهُ وَأَمْنَعُ وَلَمْ يُغَيِّرُوا ؛ إِلَّا أَصَابَهُم اللَّه مِنْهُ بِعَذَابٍ » [2] .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - بأنهم وصفوه تعالى عن قولهم علوًّا كبيرًا ، بأنه بخيل ، كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء ، وعبروا عن البخل بأن قالوا : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ قال ابن عبّاس ﴿ مَغْلُولَةٌ ﴾ أي : بخيلة ، وقال ابن عبّاس : لا يعنون بذلك أن يد الله موثقة ، ولكن يقولون بخيل ، يعني أمسك ما عنده بخلًا ، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا . وقرأ ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ : يعني أنه ينهى عن البخل وعن التبذير وهو زيادة الإنفاق في غير محله ، وعبر عن البخل بقوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ وهذا هو الذي أراد هؤلاء اليهود عليهم لعائن الله ، وقال عكرمة : إنها نزلت في فنحاص اليهودي عليه لعنة الله ، وقد تقدم أنه الذي قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ فضربه أبو بكر الصدّيق ﷺ ، فأنزل الله : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ وقد رد الله ﷻ عليهم ما قالوه وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وائتفكوه ، فقال : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ وهكذا وقع لهم ، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم ، ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ﴾ الآية . ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ أي : بل هو الواسع الفضل الجزيل العطاء الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه ، وهو الذي ما بخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له ، الذي خلق لنا كل شيء مما نحتاج إليه ، في ليلنا ونهارنا ، وحضرنا وسفرنا ، وفي جميع

(١) ذكره الطبري في تفسيره ٤٠٣/٦ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٣/٤) .

أحوالنا ، كما قال : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ والآيات في هذا كثيرة . وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّ يَمِينَ اللَّه مَلأَى لاَ يُغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَار ، أَرَأَيْتُم مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ » قَالَ : « وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ وَفِي يَدِهِ الأُخْرَى الفَيْضُ - أَوِ القَبْضُ - يَرْفَعُ وَيُخْفِضُ » . وَقَالَ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ أي : يكون ما آتاك اللَّه يا محمّد من النعمة نقمة في حق أعدائك من اليهود وأشباههم ، فكما يزداد به المؤمنون تصديقًا وعملاً صالحًا وعلمًا نافعًا ، يزداد به الكافرون الحاسدون لك ولأمتك طغيانًا ، وهو المبالغة والمجاوزة للحد في الأشياء ، وكفرًا أي : تكذيبًا . وقوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ يعني أنه لا تجتمع قلوبهم ، بل العداوة واقعة بين فرقهم بعضهم في بعض دائمًا ؛ لأنهم لا يجتمعون على حق ، وقد خالفوك وكذبوك ، وقال إبراهيم النخعي : وألقينا بينهم العداوة والبغضاء ، قال : الخصومات والجدال في الدين .

وقوله : ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾ أي : كلما عقدوا أسبابًا يكيدونك بها ، وكلما أبرموا أمورًا يحاربونك بها ، أبطلها اللَّه ورد كيدهم عليهم وحاق مكرهم السيئ بهم ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي : من سجيتهم أنهم دائمًا يسعون في الإفساد في الأرض ، واللَّه لا يحب من هذه صفته . ثم قال جلَّ وعلا : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ ﴾ أي : لو أنهم آمنوا باللَّه ورسوله ، واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم ﴿ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي : لأزلنا عنهم المحذور وأنلناهم المقصود ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ قال ابن عبّاس وغيره : هو القرآن ﴿ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ أي : لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء على ما هي عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير ، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث اللَّه به محمّدًا ﷺ ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتمًا لا محالة . وقوله تعالى : ﴿ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض ، وعن ابن عبّاس ﴿ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ يعني لأرسل السماء عليهم مدرارًا ﴿ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ يعني يخرج من الأرض بركاتها ، وقال بعضهم : معناه ﴿ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ يعني من غير كد ولا تعب ولا شقاء ولا عناء .

عن جبير بن نفير أن رسول اللَّه ﷺ قال : « يُوشِكُ أَنْ يُرْفَعَ العِلْمُ » فقال زياد بن لبيد : يا رسول اللَّه وكيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبناءنا ؟ فقال : « ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا ابنَ لَبِيدٍ ! إِنْ كُنْتُ لأَرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ أَهْلِ المَدِينَةِ ، أَوَلَيْسَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ بِأَيْدِي اليَهُودِ وَالنَّصَارَى ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ حِينَ تَرَكُوا أَمْرَ اللَّه ؟ » ثم قرأ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٩) ومسلم في الزكاة (٣٦) وأحمد في مسنده (٢/٢١٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٦٠) والسيوطي في الدر المنثور (٢/٢٩٧) .

يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ وكقوله عن أتباع عيسى : ﴿ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ الآية فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد وهو أوسط مقامات هذه الأمة ، وفوق ذلك رتبة السابقين كما في قوله ﷻ : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ الآية ، والصحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة ، كلهم يدخلون الجنّة .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا عبده ورسوله محمّدًا ﷺ باسم الرسالة وآمرًا له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به ، وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك ، وقام به أتم القيام ، قال البخاري عند تفسير هذه الآية : عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت : من حدَّثك أن محمّدًا كتم شيئًا مما أنزل الله عليه فقد كذب ، وهو يقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ الآية [١] . وفي الصحيحين عنها أيضًا أنها قالت : لو كان محمّد ﷺ كاتمًا شيئًا من القرآن لكتم هذه الآية ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [٢] . وعن هارون بن عنترة عن أبيه قال : كنت عند ابن عبّاس فجاء رجل فقال له : إن ناسًا يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئًا لم يبده رسول الله ﷺ للناس ، فقال ابن عبّاس : ألم تعلم أن الله تعالى قال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ ، والله ما ورَّثنا رسول الله ﷺ سوداء في بيضاء .

وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ : « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟ » قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأدّيت ونصحت ، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها إليهم ويقول : « اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ » [٣] . وعن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟ » قالوا : يوم حرام قال : « أَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ » قالوا : بلد حرام قال : « فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا ؟ » قالوا : شهر حرام قال : « فَإِنَّ أَمْوَالَكُمْ وَدِمَاءَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا » ثم أعادها مرارًا ثم رفع إصبعه إلى السماء فقال : « اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ » مرارًا ، فقال : يقول ابن عبّاس : والله لوصية إلى ربه ﷻ ، ثم قال : « أَلاَ فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ ، لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ » [٤] وقوله تعالى : ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ يعني وإن لم تؤد إلى الناس ما أرسلتك به ، فما بلغت رسالته أي : وقد علم ما يترتب على ذلك لو وقع . عن ابن عبّاس : ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ يعني إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته ، قال مجاهد : لما نزلت ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ قال : « يا رب كيف أصنع وأنا وحدي يجتمعون عليّ » فنزلت ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [٥] .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦١٢) .
(٢) أخرجه البخاري التوحيد (٧٤٢٠) ومسلم في الإيمان (٢٨٨) .
(٣) أخرجه مسلم في الحج (١٩) .
(٤) أخرجه مسلم في الحج (١٩) وأحمد في مسنده (٢٣٠/١) .
(٥) ذكره الطبري في تفسيره ٤١٥/٦ .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ أي : بلغ أنت رسالتي ، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ، ومظفرك بهم ، فلا تخف ، ولا تحزن ، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك ، وقد كان النبيّ ﷺ قبل نزول هذه الآية يُحْرَسُ ، كما روي أن عائشة رضي الله عنها كانت تحدث أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهي إلى جنبه ، قالت : فقلت : ما شأنك يا رسول الله ، قال : « لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ » قالت : فبينا أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح ، فقال : « مَنْ هَذَا ؟ » فقال : أنا سعد بن مالك فقال : « مَا جَاءَ بِكَ ؟ » قال : جئت لأحرسك يا رسول الله ، قالت : فسمعت غطيط رسول الله ﷺ في نومه (١) . وعن عائشة قالت : كان النبيّ ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ قالت : فأخرج النبيّ ﷺ رأسه من القبة وقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنَا اللَّهُ عز وجل » (٢) .

والصحيح أن هذه الآية مدنية ، بل هي من أواخر ما نزل بها ، والله أعلم ، ومن عصمة الله لرسوله ، حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومعانديها ومترفيها ، مع شدة العداوة والبغضة ونصب المحاربة له ليلًا ونهارًا بما يخلقه الله من الأسباب العظيمة بقدرته وحكمته العظيمة ، فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب إذ كان رئيسًا مطاعًا كبيرًا في قريش ، وخلق الله في قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ لا شرعية ، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها ، ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه ، فلما مات عمه أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيرًا ، ثم قيض الله له الأنصار ، فبايعوه على الإسلام ، وعلى أن يتحول إلى دارهم وهي المدينة ، فلما صار إليها منعوه من الأحمر والأسود ، وكلما همّ أحد المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله ورد كيده عليه ، كما كاده اليهود بالسحر فحماه الله منهم ، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء ، ولما سمّه اليهود في ذراع تلك الشاة بخيبر أعلمه الله به وحماه منه .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي : بلغ أنت والله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء كما قال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝٦٨ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمّد : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أي : من الدين ﴿ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ ، أي : حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء ، وتعملوا بما فيها ، ومما فيها الإيمان بمحمّد والأمر باتباعه ﷺ والإيمان بمبعثه والاقتداء بشريعته ، وقوله : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يعني القرآن العظيم ، وقوله : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ تقدم تفسيره ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أي : فلا تحزن عليهم ، ولا يهيبنك ذلك منهم ، ثم قال :

---

(١) أخرجه البخاري في التمني (٧٢٣١) ومسلم في فضائل الصحابة (٤٠) وأحمد في مسنده (٦/١٤١) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٤٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/٨) .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهم مسلمون ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ وهم حملة التوراة ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ لما طال الفصل حسن العطف بالرفع ، والصابئون طائفة من النصارى والمجوس ليس لهم دين . وقال سعيد بن جبير : من اليهود والنصارى . وقال قتادة : هم قوم يعبدون الملائكة ، ويصلون إلى غير القبلة ، ويقرأون الزبور ، وأما النصارى فمعروفون وهم حملة الإنجيل ، والمقصود أن كل فرقة آمنت بالله وباليوم الآخر ، وهو الميعاد والجزاء يوم الدين ، وعملت عملًا صالحًا ، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقًا للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين ، فمن اتصف بذلك ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه ولا على ما تركوا وراء ظهورهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ، وقد تقدم الكلام على نظيرتها في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ها هنا .

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ .

يذكر تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل على السمع والطاعة لله ولرسوله ، فنقضوا تلك العهود والمواثيق واتبعوا آراءهم وأهواءهم وقدموها على الشرائع ، فما وافقهم منها قبلوه وما خالفهم ردوه ، ولهذا قال تعالى : ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي : وحسبوا أن لا يترتب لهم شر على ما صنعوا فترتب ، وهو أنهم عموا عن الحق وصموا ، فلا يسمعون حقًّا ولا يهتدون إليه ، ثم تاب الله عليهم أي : مما كانوا فيه ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ أي : بعد ذلك ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي : مطلع عليهم وعليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية منهم .

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ .

قال تعالى حاكمًا بتكفير فرق النصارى من الملكية واليعقوبية والنسطورية ، ممن قال منهم : بأن المسيح هو الله ، تعالى الله عن قولهم وتنزّه وتقدس علوًّا كبيرًا ، هذا وقد تقدم لهم أن المسيح عبد الله ورسوله ، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال : إني عبد الله ، ولم يقل : إني أنا الله ، ولا ابن الله ، بل قال : ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ إلى أن قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته آمرًا لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أي : فيعبد معه غيره ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ أي : فقد أوجب له النار وحرم عليه الجنة ، وفي الصحيح أن النبيّ ﷺ بعث مناديًا ينادي في الناس : إن الجنة لا يدخلها إلّا نفس

مسلمة ، وفي لفظ مؤمنة (١) .

وقوله : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ قال أبو صخر : هو قول اليهود : عزير ابن الله ؛ وقول النصارى : المسيح ابن الله ، فجعلوا الله ثالث ثلاثة ، وهذا قول غريب في تفسير الآية أن المراد بذلك طائفتا اليهود والنصارى والصحيح أنها نزلت في النصارى خاصة ، قاله مجاهد وغير واحد : ثم اختلفوا في ذلك ، فقيل : المراد بذلك كفارهم في قولهم بالأقانيم الثلاثة ، وهو أقنوم الأب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا . قال ابن جرير وغيره : والطوائف الثلاثة من الملكية واليعقوبية والنسطورية تقول بهذه الأقانيم ، وهم مختلفون فيها اختلافًا متباينًا ليس هذا موضع بسطه ، وكل فرقة منهم تكفر الأخرى ، والحق أن الثلاثة كافرة . وقال السدي وغيره : نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله ، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار ، قال السدي : هي كقوله تعالى في آخر السورة : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ الآية وهذا القول هو الأظهر والله أعلم . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ أي : ليس متعددًا بل هو وحده لا شريك له ، إله جميع الكائنات وسائر الموجودات ، ثم قال تعالى متوعدًا لهم ومتهددًا : ﴿ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ أي : من هذا الافتراء والكذب ﴿ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : في الآخرة من الأغلال والنكال ، ثم قال : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وهذا من كرمه تعالى ، وجوده ، ولطفه ، ورحمته بخلقه مع هذا الذنب العظيم ، وهذا الافتراء والكذب والإفك يدعوهم إلى التوبة والمغفرة ، فكل من تاب إليه تاب عليه .

وقوله تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ أي : له أسوة أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه ، وأنه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام ، كما قال : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وقوله : ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ أي : مؤمنة به مصدقة له وهذا أعلى مقاماتها ، فدل على أنها ليست بنبية كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم موسى ونبوة أم عيسى ، استدلالًا منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم وبقوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ وهذا معنى النبوة ، والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبيًا إلّا من الرجال قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ أي : يحتاجان إلى التغذية به وإلى خروجه منهما ، فهما عبدان كسائر الناس وليسا بإلهين كما زعمت فرق النصارى الجهلة عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ، ثم قال تعالى : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ﴾ أي : نوضحها ونظهرها ﴿ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي : ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون ؟ وبأي قول يتمسكون ؟ وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون ؟ .

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا قَدْ

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧٨) وأحمد في مسنده (٣/١) وابن ماجه في السنن (١٧٢٠) .

وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ، ومبينًا له أنها لا تستحق شيئًا من الإلهية فقال تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ أي : يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم ، ودخل في ذلك النصارى وغيرهم ﴿ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ أي : لا يقدر على دفع ضر عنكم ، ولا إيصال نفع إليكم ﴿ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أي : السميع لأقوال عباده العليم بكل شيء ، فلم عدلتم عنه إلى عبادة جماد ، لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يعلم شيئًا ، ولا يملك ضرًا ، ولا نفعًا لغيره ، ولا لنفسه ، ثم قال : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ أي : لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق ، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه ، فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية ، كما صنعتم في المسيح ، وهو نبي من الأنبياء ، فجعلتموه إلهًا من دون الله ، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم ، شيوخ الضلال الذين هم سلفكم ممن ضل قديمًا ﴿ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ أي : وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال .

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل ، فيما أنزله على داود نبيه عليه السلام وعلى لسان عيسى ابن مريم بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه ، فقال تعالى : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أي : كان لا ينهى أحدٌ منهم أحدًا عن ارتكاب المآثم والمحارم ، ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يُرْكب مثل الذي ارتكبوه ، فقال : ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ في المَعَاصِي نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا ، فَجَالَسُوهُمْ في مَجَالِسِهِمْ » - قال يزيد : وأحسبه قال - « في أَسْوَاقِهِمْ ، وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ ، فَضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ » وكان رسول الله ﷺ متكئًا ، فجلس فقال : « لاَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَأْطِرُوهُمْ عَلَى الحَقِّ أَطْرًا » (١) . وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَوَّلَ ما دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ ، فَيَقُولُ : يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ ما تَصْنَعُ ؛ فَإِنَّهُ لا يَحِلُّ لَكَ ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الغَدِ فَلاَ يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ؛ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ » ثم قال : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَاسِقُونَ ﴾ ثم قال : « كَلاَّ وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الحَقِّ أَطْرًا ، أَوْ تَقْصُرُنَّهُ عَلَى الحَقِّ قَصْرًا » (٢) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩١/١) والترمذي في السنن (٣٠٤٧) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٣٣٦) .

والأحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جدًا ، ولنذكر منها ما يناسب هذا المقام : عن حذيفة بن اليمان أن النبيّ ﷺ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ ، أَوْ لَيُوشِكُنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلاَ يَسْتَجِيبَ لَكُمْ »(١) . وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ »(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ قال مجاهد : يعني بذلك المنافقين وقوله : ﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ يعني بذلك موالاتهم للكافرين وتركهم موالاة المؤمنين التي أعقبتهم نفاقًا في قلوبهم وأسخطت الله عليهم سخطًا مستمرًا إلى يوم معادهم ، ولهذا قال : ﴿ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ وفسر بذلك ما ذمهم به ، ثم أخبر عنهم أنهم ﴿ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴾ يعني يوم القيامة ، عن الأعمش بإسناده ذكره قال : « يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ إِيَّاكُمْ وَالزِّنَى فَإِنَّ فِيهِ سِتَّ خِصَالٍ ، ثَلاثًا فِي الدُّنْيَا وَثَلاثًا فِي الآخِرَةِ ، فَأَمَّا الَّتِي فِي الدُّنْيَا : فَإِنَّهُ يُذْهِبُ البَهَاءَ ، وَيُورِثُ الفَقْرَ ، وَيُنْقِصُ العُمْرَ ، وَأَمَّا الَّتِي فِي الآخِرَةِ : فَإِنَّهُ يُوجِبُ سَخَطَ الرَّبِّ ، وَسُوءَ الحِسَابِ ، وَالخُلُودَ فِي النَّارِ » ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴾(٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي : لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والقرآن ، لما ارتكبوا ما ارتكبوه من موالاة الكافرين في الباطن ومعاداة المؤمنين بالله والنبي وما أنزل إليه ﴿ وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ أي : خارجون عن طاعة الله ورسوله مخالفون لآيات وحيه وتنزيله .

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَـٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ .

قال سعيد بن جبير والسدي وغيرهما : نزلت في وفد بعثهم النجاشي إلى النبيّ ﷺ ليسمعوا كلامه ويروا صفاته ، فلما رأوه وقرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا ، ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه(٤) . قال السدي : فهاجر النجاشي فمات بالطريق ، وهذا من أفراد السدي ، فإن النجاشي مات وهو ملك الحبشة ، وصلى عليه النبيّ ﷺ يوم مات وأخبر به أصحابه ، وأخبر أنه مات بأرض الحبشة . ثم اختلف في عدة هذا الوفد ، فقيل : اثنا عشرة : سبعة قساوسة وخمسة رهابين ، وقيل بالعكس ، وقيل : خمسون ، وقيل : بضع وستون ، وقيل : سبعون رجلًا ، فالله أعلم . وقال عطاء بن أبي رباح : هم قوم من أهل الحبشة أسلموا حين قدم عليهم مهاجرة الحبشة من المسلمين ، وقال قتادة :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٩/٥) والترمذي في السنن (٢١٦٩) والطبراني في المعجم الكبير (١٨٠/١٠) .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٧٨) وأحمد في مسنده (٢٠/٣) والترمذي في السنن (٢١٧٣) .
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٠٢/٢) . (٤) ذكره الطبري في تفسيره ٤/٧ .

هم قوم كانوا على دين عيسى ابن مريم ، فلما رأوا المسلمين وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلعثموا ، واختار ابن جرير أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة سواء كانوا من الحبشة أو غيرها .

فقوله تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ ما ذاك إلَّا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ومباهتة للحق وغمط للناس وتنقص بحملة العلم ، ولهذا قتلوا كثيرًا من الأنبياء حتى هموا بقتل رسول اللَّه ﷺ غير مرة ، وسموه وسحروه وألّبوا عليه أشباههم من المشركين ، عليهم لعائن اللَّه المتتابعة إلى يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ أي : الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله ، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة ، وما ذاك إلَّا لما في قلوبهم ، إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ وفي كتابهم : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر . وليس القتال مشروعًا في ملتهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي : يوجد فيهم القسيسون ، وهم خطباؤهم وعلماؤهم واحدهم قسيس وقس أيضًا ، وقد يجمع على قسوس ، والرهبان جمع راهب وهو العابد ، مشتق من الرهبة وهي الخوف ، كراكب وركبان وفارس وفرسان ، قال ابن جرير : وقد يكون الرهبان واحدًا وجمعه رهابين ، مثل قربان وقرابين وجرذان وجراذين ، وقد يجمع على رهابنة .

وعن سلمان في قول اللَّه تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ فقال : دع القسيس في البيع والخرب ، أقرأني رسول اللَّه ﷺ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ . عن جاثمة بن رئاب قال : سمعت سلمان وسئل عن قوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ فقال : هم الرهبان الذين هم في الصوامع والخرب ، فدعوهم فيها ، قال سلمان : وقرأت على النبيّ ﷺ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ فأقرأني : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ فقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع ، ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف ، فقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ أي : مما عندهم من البشارة ببعثة محمّد ﷺ ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ أي : مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به ، وقد روي عن عبد اللَّه بن الزبير قال : نزلت هذه الآية في النجاشي وفي أصحابه ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ . وروي عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ أي : مع محمّد ﷺ وأمته ، هم الشاهدون يشهدون لنبيهم ﷺ أنه قد بلغ ، وللرسل أنهم قد بلغوا (١) . وعنه أيضا في قول اللَّه تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ ﴾ قال : إنهم كرايين - يعني فلاحين - قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة ، فلما قرأ رسول اللَّه ﷺ عليهم القرآن آمنوا وفاضت أعينهم ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « لَعَلَّكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَى أَرْضِكُمْ انْتَقَلْتُمْ إِلَى دِينِكُمْ » فقالوا : لن ننتقل عن ديننا ، فأنزل اللَّه ذلك من

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣١٣/٢ .

قولهم(١) : ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ الآية . وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾ إلى قوله ﴿ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي : فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي : ماكثين فيها أبدًا لا يحولون ولا يزولون ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : في اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان ، وأين كان ، ومع من كان ، ثم أخبر عن حال الأشقياء ، فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ أي : جحدوا بها وخالفوا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي : هم أهلها والداخلون فيها .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : نزلت هذه الآية في رهط من أصحاب النبيّ ﷺ قالوا : نقطع مذاكيرنا ، ونترك شهوات الدنيا ، ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان ، فبلغ ذلك النبيّ ﷺ ، فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك ، فقالوا نعم ، فقال النبيّ ﷺ : « لكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَنَامُ وَأَنْكِحُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ أَخَذَ بِسُنَّتِي فَهُوَ مِنِّي ، وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْ بِسُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي »(٢) . وعن ابن عبّاس أن رجلًا أتى النبيّ ﷺ فقال : يا رسول الله إني إذا أكلت من هذا اللحم انتشرت للنساء ، وإني حرمت عليّ اللحم ، فنزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾(٣) .

وفي صحيح البخاري في قصة الصدّيق مع أضيافه شبيه بهذا ، وفيه وفي هذه القصة دلالة لمن ذهب من العلماء كالشافعي وغيره إلى أن من حرم مأكلًا أو ملبسًا أو شيئًا ما عدا النساء أنه لا يحرم عليه ، ولا كفارة عليه أيضًا ، ولقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ ولأن الذي حرم اللحم على نفسه كما في الحديث المتقدم لم يأمره النبيّ ﷺ بكفارة ، وذهب آخرون منهم الإمام أحمد بن حنبل إلى أن من حرم مأكلًا أو مشربًا أو ملبسا أو شيئًا من الأشياء ، فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين كما إذا التزم تركه باليمين ، فكذلك يؤاخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزامًا له بما التزمه ، كما أفتى بذلك ابن عبّاس ، وكما في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ثم قال : ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ الآية ، وكذلك ها هنا لما ذكر هذا الحكم عقبه بالآية المبينة لتكفير اليمين ، فدل على أن هذا منزل منزلة اليمين في اقتضاء التكفير والله أعلم وعن مجاهد قال : أراد رجال منهم عثمان بن مظعون وعبد الله

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٥٥/١٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٨/٧) .
(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٣) ومسلم في النكاح (٥) وأحمد في مسنده (١٥٨/٢) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٥٤) .

ابن عمرو أن يتبتلوا ويخصوا أنفسهم ويلبسوا المسوح ، فنزلت هذه الآية إلى قوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ . وقال ابن جريج : عن عكرمة أن عثمان بن مظعون وعلي بن أبي طالب وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالمًا مولى أبي حذيفة في أصحابه تبتلوا ، فجلسوا في البيوت ، واعتزلوا النساء ، ولبسوا المسوح ، وحرموا طيبات الطعام واللباس إلَّا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل ، وهموا بالاختصاء ، وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار ، فنزلت هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ يقول : لا تسيروا بغير سنّة المسلمين ، يريد ما حرموا من النساء والطعام واللباس ، وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار، وما هموا به من الاختصاء ، فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال : « إِنَّ لأَنْفُسِكُمْ حَقًّا ، وَإِنَّ لأَعْيُنِكُمْ حَقًّا ، صُومُوا وَأَفْطِرُوا وَصَلُّوا وَنَامُوا ، فَلَيْسَ مِنَّا مَنْ تَرَكَ سُنَّتَنَا » فقالوا : اللَّهمّ سلمنا واتبعنا ما أنزلت (١) .

﴿ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه : لا تبالغوا في التضييق على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم ، ويحتمل أن يكون المراد : كما لا تحرموا الحلال فلا تعتدوا في تناول الحلال ، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم ، ولا تجاوزوا الحد فيه ، كما قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ الآية فشرع الله عدل بين الغالي فيه والجافي عنه ، لا إفراط ولا تفريط ، ولهذا قال : ﴿ لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ثم قال : ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ أي : في حال كونه حلالًا طيبًا ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي : في جميع أموركم واتبعوا طاعته ورضوانه ، واتركوا مخالفته وعصيانه ﴿ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

قد تقدم الكلام على اللغو في اليمين في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا ولله الحمد والمنة ، وإنه قول الرجل في الكلام من غير قصد : لا والله وبلى والله . وهذا مذهب الشافعي ، وقيل : هو في الهزل ، وقيل : في المعصية ، وقيل : على غلبة الظن ، وهو قول أبي حنيفة وأحمد ، وقيل : في اليمين في الغضب ، وقيل : في النسيان ، وقيل : هو الحلف على ترك المأكل والمشرب والملبس ونحو ذلك ، واستدلوا بقوله : ﴿ لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ والصحيح أنه اليمين من غير قصد بدليل قوله : ﴿ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ﴾ أي : بما صممتم عليه منها وقصدتموها ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ ﴾ يعني محاويج من الفقراء ، ومن لا يجد ما يكفيه . وقوله : ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ قال ابن عبّاس وسعيد بن جبير وعكرمة : أي من أعدل ما تطعمون أهليكم ، وقال عطاء الخراساني : من أمثل ما تطعمون أهليكم ، وعن ابن عبّاس قال : كان الرجل يقوت بعض أهله قوت دون ، وبعضهم قوتًا فيه سعة ، فقال الله تعالى : ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ أي : من الخبز

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٩/٧) والسيوطي في الدر المنثور (٣٠٨/٢) . والمسوح : جمع مِسْح ، وهو كساء شعر يلبسه الرهبان .

والزيت ، وعن ابن عمر قال : الخبز والسمن والخبز واللبن ، والخبز والزيت والخبز والتمر ، ومن أفضل ما تطعمون أهليكم الخبز واللحم .

واختار ابن جرير أن المراد بقوله : ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ أي : في القلة والكثرة ، ثم اختلف العلماء في مقدار ما يطعمهم ، فعن علي رضي الله عنه قال : يغديهم ويعيشهم . وقال الحسن ومحمّد ابن سيرين : يكفيه أن يطعم عشرة مساكين أكلة واحدة خبزًا ولحمًا ، زاد الحسن : فإن لم يجد ، فخبزًا وسمنًا ولبنًا ، فإن لم يجد ، فخبزًا وزيتًا وخلًّا حتى يشبعوا . وقال آخرون : يطعم كل واحد من العشرة نصف صاع من بر أو تمر ونحوهما ، فهذا قول عمر وعلي وعائشة ومجاهد والشعبي وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وميمون بن مهران وأبي مالك والضحاك والحكم ومكحول وأبي قلابة ومقاتل بن حيان ، وقال أبو حنيفة : نصف صاع بر ، وصاع مما عداه ، وعن ابن عبّاس قال : كفّر رسول الله ﷺ بصاع من تمر وأمر الناس به ، ومن لم يجد فنصف صاع من بر .

وقال الشافعي : الواجب في كفارة اليمين مد بمد النبيّ ﷺ لكل مسكين ولم يتعرض للأدم ، واحتج بأمر النبيّ ﷺ للذي جامع في رمضان ، بأن يطعم ستين مسكينًا من مكتل يسع خمسة عشر صاعًا ، لكل واحد منهم مد .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ كِسْوَتُهُمْ ﴾ قال الشافعي رحمه الله : لو دفع إلى كل واحد من العشرة ما يصدق عليه اسم الكسوة من قميص أو سراويل أو إزار أو عمامة أو مقنعة أجزأه ذلك ، واختلف أصحابه في القلنسوة هل تجزئ أم لا ؟ على وجهين : فمنهم من ذهب إلى الجواز احتجاجًا بما روي عن محمّد بن الزبير عن أبيه قال : سألت عمران بن الحصين عن قوله : ﴿ أَوْ كِسْوَتُهُمْ ﴾ قال : لو أن وفدًا قدموا على أميركم ، فكساهم قلنسوة قلنسوة ، قلتم قد كسوا ، والصحيح عدم الإجزاء ، وقال مالك وأحمد بن حنبل : لابد أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلي فيه إن كان رجلًا أو امرأة كل بحسبه والله أعلم ، وعن ابن عباس : عباءة لكل مسكين أو شملة ، وقال مجاهد : أدناه ثوب وأعلاه ما شئت ، وقال مجاهد : يجزئ في كفارة اليمين كل شيء إلّا التبان ، وقال الحسن وأبو جعفر الباقر وعطاء وطاوس وإبراهيم النخعي وحماد بن أبي سليمان وأبو مالك : ثوب ثوب ، وعن إبراهيم النخعي أيضًا : ثوب جامع كالملحفة والرداء ، ولا يرى الدرع والقميص والخمار ونحوه جامعًا . وعن عائشة عن رسول الله ﷺ في قوله : ﴿ أَوْ كِسْوَتُهُمْ ﴾ قال : « عَبَاءَةٌ لِكُلِّ مِسْكِينٍ »[1] .

وقوله : ﴿ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أخذ أبو حنيفة بإطلاقها فقال : تجزئ الكافرة كما تجزئ المؤمنة ، وقال الشافعي وآخرون : لابد أن تكون مؤمنة ، وأخذ تقييدها بالإيمان من كفّارة القتل لاتحاد الموجب وإن اختلف السبب ، ومن حديث معاوية بن الحكم السلمي الذي ذكر أن عليه عتق رقبة ، وجاء معه بجارية سوداء فقال لها رسول الله ﷺ : « أَيْنَ اللَّهُ » قالت : في السماء قال : « مَنْ أَنَا » قالت : رسول الله قال : « أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ »[2] فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين أيها فعل

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٣٣/٧)

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٣٣) وأحمد في مسنده (٢٩١/٢) ومالك في الموطأ (٧٧٧) .

الحانث أجزأ عنه بالإجماع ، وقد بدأ بالأسهل فالأسهل فالإطعام أسهل وأيسر من الكسوة ، كما أن الكسوة أيسر من العتق ، فترقى فيها من الأدنى إلى الأعلى ، فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاثة كفّر بصيام ثلاثة أيام ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ﴾ . وروي عن سعيد بن جبير والحسن البصري أنهما قالا : من وجد ثلاثة دراهم لزمه الإطعام وإلّا صام ، وقال ابن جرير حاكيًا عن بعض متأخري متفقهة زمانه : أنه جائز لمن لم يكن له فضل عن رأس مال يتصرف فيه لمعاشه ، ومن الفضل عن ذلك ما يكفر به عن يمينه ، ثم اختار ابن جرير أنه الذي لا يفضل عن قوته وقت عياله في يومه ذلك ما يخرج به كفارة اليمين . واختلف العلماء هل يجب فيها التتابع ، أو يستحب ولا يجب ويجزئ التفريق ؟ قولان : أحدهما : لا يجب ، وهذا منصوص الشافعي في كتاب الإيمان ، وهو قول مالك لإطلاق قوله : ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ﴾ وهو صادق على المجموعة والمفرقة كما في قضاء رمضان ؛ لقوله : ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ ونص الشافعي في موضع آخر في الأم على وجوب التتابع ، كما هو قول الحنفية والحنابلة ؛ لأنه قد روي عن أبيّ بن كعب وغيره أنهم كانوا يقرؤونها(فصيام ثلاثة أيام متتابعات) . وقال إبراهيم في قراءة عبد الله بن مسعود :(فصيام ثلاثة أيام متتابعات) متتابعات ، وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾ أي : هذه كفارة اليمين الشرعية ﴿ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ ﴾ قال ابن جرير : معناه لا تتركوها بغير تكفير ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي : يوضحها ويفسرها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر وهو القمار ، وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال : الشطرنج من الميسر . وعن عطاء ومجاهد وطاوس قال سفيان : أو اثنين منهم قالوا : كل شيء من القمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز . وعن ابن عمر قال : الميسر هو القمار ، وعن ابن عبّاس قال : الميسر هو القمار ، كانوا يتقامرون في الجاهلية إلى مجيء الإسلام ، فنهاهم الله عن هذه الأخلاق القبيحة ، وقال سعيد بن المسيب : كان ميسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين .

وعن بريدة بن الحصيب الأسلمي قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ في لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ » (١) وعن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدِ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ » (٢) وعن محمّد بن كعب وهو يسأل عبد الرّحمن يقول : أخبرني ما سمعت أباك يقول عن رسول الله ﷺ ؟ فقال عبد الرّحمن سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله

---

(١) أخرجه مسلم في الشعر(١٠) وأحمد في مسنده(٣٥٢/٥) وأبو داود في السنن(٤٩٣٩) وابن ماجه في السنن(٣٧٦٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده(٣٩٤/٤) وأبو داود في السنن(٤٩٣٨) وابن ماجه في السنن(٣٧٨٢)

ﷺ يقول : « مَثَلُ الَّذِي يَلْعَبُ بِالنَّرْدِ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي مَثَلُ الَّذِي يَتَوَضَّأُ بِالقَيْحِ وَدَمِ الخِنْزِيرِ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي » (١) .

وأما الشطرنج فقد قال عبد الله بن عمر : إنه شرٌ من النرد ، وتقدم عن علي أنه قال : هو من الميسر ، ونص على تحريمه مالك وأبو حنيفة وأحمد ، وكرهه الشافعي رحمهم الله تعالى ، وأما الأنصاب ، فقال ابن عبّاس ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والحسن وغير واحد : هي حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها ، وأما الأزلام فقالوا أيضًا : هي قداح كانوا يستقسمون بها . وقوله تعالى : ﴿ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ : قال ابن عبّاس : أي سخط من عمل الشيطان ، وقال سعيد بن جبير : إثم . وقال زيد بن أسلم : أي شر من عمل الشيطان ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ الضمير عائد على الرجس أي : اتركوه ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وهذا ترغيب ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ وهذا تهديد وترهيب .

ذكر الأحاديث الواردة في تحريم الخمر : عن أبي هريرة قال : حرمت الخمر ثلاث مرات ، قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما ، فأنزل الله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ إلى آخر الآية ، فقال الناس : ما حرمه علينا إنما قال : ﴿ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ وكانوا يشربون الخمر ، حتى كان يومًا من الأيام صلى رجل من المهاجرين أم أصحابه في المغرب ، فخلط في قراءته ، فأنزل الله آية أغلظ منها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ فكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مغبق ، ثم أنزلت آية أغلظ منها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ قالوا : انتهينا ربنا ، وقال الناس : يا رسول الله ناس قتلوا في سبيل الله وماتوا على سرفهم ، كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، وقد جعله الله رجسًا من عمل الشيطان ، فأنزل الله تعالى ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾ إلى آخر الآية ، فقال النبيّ ﷺ : « لَوْ حُرِّمَ عَلَيْهِمْ لَتَرَكُوهُ كَمَا تَرَكْتُمْ » (٢) .

وعن عمر بن الخطاب أنه قال لما نزل تحريم الخمر قال : اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا ، فنزلت الآية التي في البقرة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ فدعي عمر فقرئت عليه ، فقال : اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا ، فنزلت الآية التي في سورة النساء ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ ﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا قال : حي على الصلاة نادى : لا يقربن الصلاة سكران . فدعي عمر فقرئت عليه . فقال : اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا . فنزلت الآية التي في المائدة ، فدعي عمر فقرئت عليه ، فلما بلغ قول الله تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ قال عمر : انتهينا انتهينا (٣) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٠/٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٢١٥/١٠) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٢/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٥١/٥) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٣٦٧٠) والنسائي في السنن ٢٨٦/٨ .

وعن عبد الرحمن بن وعلة قال : سألت ابن عبّاس عن بيع الخمر ، فقال : كان لرسول الله ﷺ صديقٍ من ثقيف أو من دوس ، فلقيه يوم الفتح براوية خمر يهديها إليه ، فقال رسول الله ﷺ : « يَا فُلَانُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا ؟ » فأقبل الرجل على غلامه فقال : اذهب فبعها ، فقال رسول الله ﷺ : « يَا فُلَانُ بِمَاذَا أَمَرْتَهُ ؟ » فقال : أمرته أن يبيعها ، قال : « إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ شُرْبَهَا حَرَّمَ بَيْعَهَا » فأمر بها ، فأفرغت في البطحاء (١) .

وعن أنس قال : كنت أسقي أبا عبيدة بن الجراح وأُبيّ بن كعب وسهيل بن بيضاء ونفرًا من أصحابه عند أبي طلحة حتى كاد الشراب يأخذ منهم ، فأتى آتٍ من المسلمين فقال : أما شعرتم أن الخمر قد حرمت؟ فقالوا : حتى ننظر ونسأل ، فقالوا : يا أنس اسكب ما بقي في إنائك ، فوالله ما عادوا فيها وما هي إلَّا التمر والبسر وهي خمرهم يومئذ (٢) .

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قَالَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ جَهَنَّمَ » قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الخَمْرَ وَالمَيْسِرَ وَالكوبَةَ وَالغُبَيْرَاءَ وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ » (٣) .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « لُعِنَتِ الخَمْرُ عَلَى عَشَرَةِ أَوْجُهٍ ، لُعِنَتِ الخَمْرُ بِعَيْنِهَا ، وَشَارِبِهَا ، وَسَاقِيهَا ، وَبَائِعُهَا ، ومبتاعُها ، وَعَاصِرُهَا ، وَمُعْتَصِرُهَا ، وَحَامِلُهَا ، وَالمحْمُولة إِلَيْهِ ، وَآكِلُ ثَمَنِهَا » (٤)

وعن ثابت أن يزيد الخولاني أنه كان له عم يبيع الخمر وكان يتصدق ، قال : فنهيته عنها فلم ينته ، فقدمت المدينة ، فلقيت ابن عبّاس ، فسألته عن الخمر وثمنها ، فقال : هي حرام وثمنها حرام ، ثم قال ابن عبّاس رضي الله عنه : يا معشر أمة محمّد إنه لو كان كتاب بعد كتابكم ونبي بعد نبيكم لأنزل فيكم كما أنزل فيمن قبلكم ، ولكن أخر ذلك من أمركم إلى يوم القيامة ، ولعمري لهو أشد عليكم . قال ثابت : فلقيت عبد الله بن عمر فسألته عن ثمن الخمر ، فقال : سأخبرك عن الخمر : إني كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد ، فبينما هو محتب على حبوته ، ثم قال : « مَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْ هَذِهِ الخَمْرِ شَيْءٌ فَلْيَأْتِنَا بِهَا » فجعلوا يأتونه ، فيقول أحدهم : عندي راوية ، ويقول الآخر : عندي زق أو ما شاء الله أن يكون عنده ، فقال رسول الله ﷺ : « اجْمَعُوهُ بِبَقِيعِ كَذَا وَكَذَا ثُمَّ آذِنُونِي » ففعلوا ، ثم آذنوه ، فقام وقمت معه ومشيت عن يمينه وهو متكئ علي ، فلحقنا أبو بكر رضي الله عنه ، فأخرني رسول الله ﷺ فجعلني عن شماله وجعل أبا بكر في مكاني ، ثم لحقنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأخرني وجعله عن يساره ، فمشى بينهما حتى إذا وقف على الخمر قال للناس : « أَتَعْرِفُونَ هَذِهِ ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله هذه الخمر قال : « صَدَقْتُمْ » ثم قال : « فَإِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الخَمْرَ ، وَعَاصِرَهَا ، وَمُعْتَصِرَهَا ، وَشَارِبَهَا ، وَسَاقِيَهَا ، وَحَامِلَهَا ، وَالمحْمُولَةَ إِلَيْهِ ، وَبَائِعَهَا ، وَمُشْتَرِيَهَا ، وَآكِلَ ثَمَنِهَا » ثم

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٠/١) والدارمي في السنن (١١٤/٢ ، ١١٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٧/٣) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧١/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥/٢) .

دعا بسكين فقال : « اشْحَذُوهَا » ففعلوا ، ثم أخذها رسول الله ﷺ يخرق بها الزقاق ، قال : فقال الناس : في هذه الزقاق منفعة ، فقال : « أَجَلْ وَلَكِنِّي إِنَّمَا أَفْعَلُ ذَلِكَ غَضَبًا للَّهِ ﷻ لِمَا فِيهَا مِنْ سَخَطِهِ » فقال عمر : أنا أكفيك يا رسول الله ، قال : « لا » . قال ابن وهب : وبعضهم يزيد على بعض في قصة الحديث (١) .

وعن عمرو بن جابر قال : صبّح أناس غداة أُحد الخمر فقتلوا من يومهم جميعًا شهداء ، وذلك قبل تحريمها (٢) .

وعن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ قال : « كُلُّ مُخَمّرٍ خَمْر ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ ، وَمَنْ شَرِبَ مُسْكِرًا ؛ بخسَتْ صَلاَتُهُ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا ، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّه عَلَيْهِ ، فَإِنْ عَادَ الرَّابِعَةَ ؛ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّه أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الخَبَالِ » قيل : وما طينة الخبال يا رسول الله ؟ قال : « صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ ، وَمَنْ سَقَاهُ صَغِيرًا لاَ يَعْرِفُ حَلاَلَهُ مِنْ حَرَامه ؛ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّه أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الخَبَالِ » (٣) .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ ، وَمَنْ شَرِبَ الخَمْرَ فَمَاتَ وَهُوَ يُدْمِنُهَا وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا ؛ لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الآخِرَةِ » (٤)

وقال عبد الله بن عمر : قال رسول الله ﷺ : « ثَلاَثَةٌ لاَ يَنْظُرُ اللَّه إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ : العَاقُّ لِوَالِدَيْهِ ، وَالمُدْمِنُ الخَمْرَ ، وَالمنَّانُ بِمَا أَعْطَى » (٥) .

وعن عثمان بن عفان يقول : اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث ، إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس ، فعلقته امرأة غوية ، فأرسلت إليه جاريتها أن تدعوه لشهادة ، فدخل معها ، فطفقت كلما دخل بابًا أغلقته دونه ، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر ، فقالت : إني والله ما دعوتك لشهادة ، ولكن دعوتك لتقع عليّ أو تقتل هذا الغلام أو تشرب هذا الخمر ، فسقته كأسًا ، فقال : زيدوني فلم يرم حتى وقع عليها وقتل النفس ، فاجتنبوا الخمر ، فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبدًا إلّا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه (٦) . وعن عبد الله بن مسعود أن النبيّ ﷺ قال : لما نزلت ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ﴾ فقال النبيّ ﷺ : « قِيلَ لِي : أَنْتَ مِنْهُمْ » (٧) . وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَهَاتَانِ الكَعْبَتَانِ المَوْسُومَتَانِ اللَّتَانِ تَزْجُرَانِ زَجْرًا ؛ فَإِنَّهُمَا مَيْسِرُ العَجَمِ » (٨) .

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبري (٢٨٦/٨ ، ٢٨٧) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦١٨) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٣٦٨٠) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٦/٢) والترمذي في السنن (١٨٦١) .
(٥) أخرجه البيهقي في الكبري (٢٨٨/٨) . (٦) أخرجه البيهقي في الكبري (٢٨٧/٨ ، ٢٨٨) .
(٧) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٠٩) والحاكم في المستدرك (١٤٣/٤) .
(٨) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٦/١) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ .

عن ابن عبّاس قوله : ﴿ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ قال : هو الضعيف من الصيد وصغيره ، يبتلي اللَّه به عباده في إحرامهم حتى لو شاءوا لتناولوه بأيديهم ، فنهاهم اللَّه عن أن يقربوه ، وقال مجاهد : ﴿ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ ﴾ يعني صغار الصيد وفراخه ﴿ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ يعني كباره ، وقال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية ، فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم في رحالهم لم يروا مثله قط فيما خلا ، فنهاهم اللَّه عن قتله وهم محرمون ﴿ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ يعني أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم ، يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سرًا وجهرًا لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره جهره ، وقوله ها هنا : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ قال السدي وغيره : يعني بعد هذا الإعلام والإنذار والتقدم ﴿ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : لمخالفته أمر اللَّه وشرعه ، ثم قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ وهذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد في حال الإحرام ، ونهي عن تعاطيه فيه ، وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول ، ولو ما تولد منه ومن غيره ، فأما غير المأكول من حيوانات البر ، فعند الشافعي يجوز للمحرم قتلها ، والجمهور على تحريم قتلها أيضًا ، ولا يستثنى من ذلك إلَّا ما ثبت عن عائشة أم المؤمنين أن رسول اللَّه ﷺ قال : « خَمسٌ فَوَاسِق يُقْتَلْنَ في الحِلِّ وَالحرم : الغُرَابُ وَالحِدَأَةُ وَالعَقْرَبُ وَالفَأْرَةُ وَالكَلْبُ العَقُورُ » (١) وعن ابن عمر أن رسول اللَّه ﷺ قال : « خَمسٌ مِنَ الدَّوَابِ لَيْسَ عَلَى المُحْرِمِ في قَتْلِهِنَّ جُنَاحٌ : الغُرَابُ وَالحِدَأَةُ وَالعَقْرَبُ وَالفَأْرَةُ وَالكَلْبُ العَقُورُ » (٢) . ومن العلماء كمالك ، وأحمد من ألحق بالكلب العقور الذئب والسبع والنمر والفهد ؛ لأنها أشد ضررًا منه ، فاللَّه أعلم . وقال : زيد بن أسلم وسفيان بن عيينة : الكلب العقور يشمل هذه السباع العادية كلها ، واستأنس من قال بهذا بما روي أن رسول اللَّه ﷺ لما دعا على عتبة بن أبي لهب قال : « اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبَكَ بِالشَّامِ » (٣) فأكله السبع بالزرقاء ، قالوا : فإن قتل ما عداهن فداه كالضبع والثعلب والوبر ونحو ذلك ، قال مالك : وكذا يستثنى من ذلك صغار هذه الخمس المنصوص عليها ، وصغار الملحق بها من السباع العوادي ، وقال الشافعي : يجوز للمحرم قتل كل ما لا يؤكل لحمه ، ولا فرق بين صغاره وكباره ، وجعل العلة الجامعة كونها لا تؤكل ، وقال أبو حنيفة : يقتل المحرم الكلب العقور والذئب ؛ لأنه كلب بري ، فإن قتل غيرهما فداه ، إلَّا أن يصول عليه سبع غيرهما فيقتله فلا فداء عليه ، وهذا قول الأوزاعي والحسن بن صالح بن حيي ، وقال زفر بن الهذيل : يفدي ما سوى ذلك وإن صال عليه ، وقال بعض الناس : المراد بالغراب ها هنا الأبقع ، وهو الذي في بطنه وظهره بياض ، دون الأدرع وهو الأسود ، والأعصم وهو الأبيض ، لما روي عن عائشة عن النبيّ ﷺ قال : « خَمسٌ يَقْتُلُهُنَّ المحْرِمُ :

---

(١) أخرجه مسلم في الحج (٦٨) وأحمد في مسنده (٩٧/٦) والنسائي في سننه (٢٨٨١) .

(٢) أخرجه مسلم في الحج (٧٦) ومالك في الموطأ (٣٥٦) . (٣) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٣٩/٤) .

الحَيَّةُ وَالفَأْرَةُ والحِدَأَةُ وَالغُرَابُ الأَبْقَعُ وَالكَلْبُ العَقُورُ »[١] والجمهور على أن المراد به أعم من ذلك ؛ لما ثبت في الصحيحين من إطلاق لفظه ، وقال مالك رحمه الله : لا يقتل المحرم الغراب إلّا إذا صال عليه وآذاه ، وقال مجاهد بن جبر وطائفة : لا يقتله بل يرميه ، ويروى مثله عن علي .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴾ المراد بالمتعمد هنا القاصد إلى قتل الصيد الناسي لإحرامه ، فأما المتعمد لقتل الصيد مع ذكره لإحرامه فذلك أمره أعظم من أن يكفّر ، وقد بطل إحرامه ، والذي عليه الجمهور أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه ، وقال الزهري : دل الكتاب على العامد وجرت السنّة على الناسي ، ومعنى هذا أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد وعلى تأثيمه بقوله : ﴿ لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ ﴾ وجاءت السنّة من أحكام النبيّ ﷺ وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ ، كما دّل الكتاب عليه في العمد ، وأيضًا فإن قتل الصيد إتلاف ، والإتلاف مضمون في العمد وفي النسيان ، لكن المتعمد مأثوم والمخطئ غير ملوم . وقوله تعالى : ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴾ قرأ بعضهم بالإضافة ، وقرأ آخرون بعطفها ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴾[٢] وحكى ابن جرير أن ابن مسعود قرأ ﴿فجزاؤه مثل ما قتل من النعم﴾ وفي قوله : ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴾ على كل من القراءتين دليل لما ذهب إليه مالك والشافعي وأحمد والجمهور من وجوب الجزاء من مثل ما قتله المحرم إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي خلافًا لأبي حنيفة رحمه الله ، حيث أوجب القيمة سواء كان الصيد المقتول مثليًا أو غير مثلي ، قال : وهو مخير ، إن شاء تصدق بثمنه وإن شاء اشترى به هديًا ، والذي حكم به الصحابة في المثل الأولى بالاتباع ، فإنهم حكموا في النعامة ببدنة ، وفي بقرة الوحش ببقرة ، وفي الغزال بعنز ، وذكر قضايا الصحابة وأسانيدها مقرر في كتاب الأحكام ، وأما إذا لم يكن الصيد مثليًا ؛ فقد حكم ابن عبّاس فيه بثمنه يحمل إلى مكة .

وقوله تعالى : ﴿ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ يعني أنه يحكم بالجزاء في المثل أو بالقيمة في غير المثل عدلان من المسلمين ، واختلف العلماء في القاتل ، هل يجوز أن يكون أحد الحكمين على قولين : أحدهما : لا ، لأنه قد يتهم في حكمه على نفسه وهذا مذهب مالك ، والثاني : نعم لعموم الآية وهو مذهب الشافعي وأحمد ، واحتج الأولون بأن الحاكم لا يكون محكومًا عليه في صورة واحدة ، وعن ميمون بن مهران أن أعرابيًا أتى أبا بكر ، فقال : قتلت صيدًا وأنا محرم فما ترى عليّ من الجزاء ؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه لأبيّ بن كعب وهو جالس عنده : ما ترى فيها ؟ قال : فقال الأعرابي : أتيتك وأنت خليفة رسول الله ﷺ أسألك فإذا أنت تسأل غيرك ؟ فقال أبو بكر : وما تنكر ؟ يقول الله تعالى : ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ فشاورت صاحبي حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به ، فبيّن له الصدّيق الحكم برفق وتؤدة لما رآه أعرابيًا جاهلًا ، وإنما دواء الجهل التعليم ، فأما إذا كان المعترض منسوبًا إلى العلم ، فقد روي عن قبيصة بن جابر قال : خرجنا حجاجًا فكنا إذا صلينا الغداة اقتدنا رواحلنا فنتماشى نتحدث ، قال : فبينما نحن ذات غداة إذ سنح لنا ظبيٌ أو برح ، فرماه رجل كان معنا بحجر فما أخطأ حشاه فركب وودعه ميتًا ، قال : فعظمنا عليه ، فلمّا قدمنا مكة خرجت معه

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣) وأبو داود في سننه (١٨٤٨) .

(٢) قرأ الكوفيون ﴿ فجزاء ﴾ بالتنوين (مثل ما) برفع اللام والباقون بغير تنوين والخفض (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٠٨) .

حتى أتينا عمر بن الخطاب ﷺ ، فقص عليه القصة ، فقال : وإذا إلى جنبه رجل كأن وجهه قلب فضة يعني عبد الرحمن بن عوف ، فالتفت عمر إلى صاحبه فكلمه ، قال : ثم أقبل على الرجل ، فقال : أعمدًا قتلته أم خطأ ؟ فقال الرجل : لقد تعمدت رميه وما أردت قتله ، فقال عمر : ما أراك إلَّا قد أشركت بين العمد والخطأ ، اعمد إلى شاة فاذبحهما وتصدّق بلحمها واستبق إهابها ، قال : فقمنا من عنده فقلت لصاحبي : أيها الرجل عظم شعائر اللَّه فما دري أمير المؤمنين ما يفتيك حتى سأل صاحبه ، اعمد إلى ناقتك فانحرها فلعل ذلك يعني أن يجزئ عنك ، قال قبيصة : ولا أذكر الآية من سورة المائدة ﴿ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ فبلغ عمر مقالتي ، فلم يفجأنا منه إلَّا ومعه الدرة ، قال : فعلا صاحبي ضربًا بالدرة . أقتلت في الحرم وسفهت في الحكم ، قال : ثم أقبل عليّ فقلت : يا أمير المؤمنين لا أحل لك اليوم شيئًا يحرم عليك مني ، فقال : يا قبيصة بن جابر إني أراك شاب السن فسيح الصدر بيّن اللسان ، وإن الشاب يكون فيه تسعة أخلاق حسنة وخلق سيئ ، فيفسد الخلق السيئ الأخلاق الحسنة ، فإياك وعثرات الشباب ﴿ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ وفي هذا دلالة على جواز كون القاتل أحد الحكمين ، كما قاله الشافعي وأحمد رحمهما اللَّه ، واختلفوا هل تستأنف الحكومة في كل ما يصيبه المحرم ، فيجب أن يحكم فيه ذوا عدل وإن كان قد حكم في مثله الصحابة أو يكتفي بأحكام الصحابة المتقدمة ؟ على قولين : فقال الشافعي وأحمد : يتبع في ذلك ما حكمت به الصحابة وجعلاه شرعًا مقررًا لا يعدل عنه ، وما لم يحكم فيه الصحابة يرجع فيه إلى عدلين ، وقال مالك وأبو حنيفة : بل يجب الحكم في كل فرد فرد سواء وجد للصحابة في مثله حكم أم لا ؛ لقوله تعالى : ﴿ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ﴾ أي : واصلًا إلى الكعبة ، والمراد وصوله إلى الحرم بأن يذبح هناك ويفرق لحمه على مساكين الحرم ، وهذا أمر متفق عليه في هذه الصورة .

وقوله : ﴿ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ﴾ أي : إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم ، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال ، أو قلنا بالتخيير في هذا المقام بين الجزاء والإطعام والصيام كما هو قول مالك وأبي حنيفة وأبي يوسف ومحمّد بن الحسن وأحد قولي الشافعي ، والمشهور عن أحمد رحمهم اللَّه لظاهر « أو » بأنها للتخيير ، والقول الآخر أنها على الترتيب ، فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة فيُقَوَّمُ الصيد المقتول عند مالك وأبي حنيفة وأصحابه وحماد وإبراهيم ، وقال الشافعي : يقوّم مثله من النعم لو كان موجودًا ، ثم يُشْتَرى بِهِ طعامٌ فيتصدق به ، فيصرف لكل مسكين مد منه عند الشافعي ومالك وفقهاء الحجاز ، واختاره ابن جرير وقال أبو حنيفة وأصحابه : يطعم كل مسكين مدين وهو قول مجاهد ، وقال أحمد : مد من حنطة أو مدان من غيره ، فإن لم يجد أو قلنا بالتخيير ؛ صام عن إطعام كل مسكين يومًا ، وقال ابن جرير : وقال آخرون : يصوم مكان كل صاع يومًا كما في جزاء المترفه بالحلق ونحوه ، فإن الشارع أمر كعب بن عجرة أن يقسم فرقًا بين ستة أو يصوم ثلاثة أيام والفرق ثلاثة آصع ، واختلفوا في مكان هذا الإطعام ، فقال الشافعي : مكانه الحرم ، وهو قول عطاء ، وقال مالك : يطعم في المكان الذي أصاب فيه الصيد أو أقرب الأماكن إليه ، وقال أبو حنيفة : إن شاء أطعم في الحرم وإن شاء أطعم في غيره .

ذكر أقوال السلف في هذا المقام : عن ابن عبّاس في قول الله تعالى : ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ﴾ قال : إذا أصاب المحرم الصيد حكم عليه جزاؤه من النعم ، فإن لم يجد نظركم ثمنه ثم قوم ثمنه طعامًا ، فصام مكان كل نصف صاع يومًا ، قال الله تعالى : ﴿ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ﴾ قال : إنما أريد بالطعام والصيام ، فإنه إذا وجد الطعام وجد جزاؤه ، عن ابن عبّاس ﴿ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ﴾ إذا قتل المحرم شيئًا من الصيد حكم عليه فيه ، فإن قتل ظبيًا أو نحوه فعليه شاة تذبح بمكة ، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين ، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، فإن قتل إيلًا أو نحوه فعليه بقرة ، فإن لم يجد أطعم عشرين مسكينًا فإن لم يجد صام عشرين يومًا ، وإن قتل نعامةً أو حمار وحشٍ أو نحوه فعليه بدنة من الإبل ، فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكينًا ، فإن لم يجد صام ثلاثين يومًا ، ﴿ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ﴾ قالوا : إنما الطعام لمن لا يبلغ الهدي . رواه ابن جرير وكذا روي ابن جريج عن مجاهد وأسباط عن السدي أنها على الترتيب . وفي رواية الضحاك وإبراهيم النخعي : هي على الخيار . وهي رواية الليث عن مجاهد عن ابن عبّاس ، وقوله : ﴿ لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ﴾ أي : أوجبنا عليه الكفارة ليذوق عقوبة فعله الذي ارتكب فيه المخالفة ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ أي : في زمان الجاهلية لمن أحسن في الإسلام واتبع شرع الله ولم يرتكب المعصية ، ثم قال : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ﴾ أي : ومن فعل ذلك بعد تحريمه في الإسلام وبلوغ الحكم الشرعي إليه ﴿ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ قال ابن جريج : قلت لعطاء : ما ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ ؟ قال : عما كان في الجاهلية قال : قلت : وما ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ﴾ قال : ومن عاد في الإسلام فينتقم الله منه وعليه مع ذلك الكفارة ، قال : قلت : فهل في العود من حد تعلمه؟ قال : لا ، قال : قلت : فترى حقًّا على الإمام أن يعاقبه ؟ قال : لا هو ذنب أذنبه فيما بينه وبين الله ﷻ ، ولكن يفتدى ، رواه ابن جرير . وقيل : معناه فينتقم الله منه بالكفارة ، قاله سعيد بن جبير وعطاء : ثم الجمهور من السلف والخلف على أنه متى قتل المحرم الصيد وجب الجزاء ، ولا فرق بين الأولى والثانية والثالثة وإن تكرر ما تكرر سواء الخطأ في ذلك والعمد ، وقال ابن عبّاس : من قتل شيئًا من الصيد خطأ وهو محرم يحكم عليه فيه كما قتله ، فإن قتله عمدًا يحكم عليه فيه مرة واحدة ، فإن عاد يقال له : ينتقم الله منك ، كما قال الله ﷻ . ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ يقول عز ذكره : والله منيع في سلطانه لا يقهره قاهر ، ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه ، ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع ؛ لأن الخلق خلقه ، والأمر أمره له العزة والمنعة . وقوله : ﴿ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ يعني أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه .

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ ﴾ : يعني ما يصطاد منه طريًّا ﴿ وَطَعَامُهُۥ ﴾

ما يتزود منه مليحًا يابسًا ، وقال ابن عبّاس في الرواية المشهورة عنه : صيده ما أخذ منه حيًّا ﴿ وَطَعَامُهُۥ ﴾ ما لفظه ميتًا ، وهكذا روي عن أبي بكر الصدِّيق وزيد بن ثابت وعبد اللَّه بن عمرو وأبي أيوب الأنصاري ﷺ وعكرمة وأبي سلمة بن عبد الرَّحمن وإبراهيم النخعي والحسن البصري . وعن ابن عبّاس قال : خطب أبو بكر الناس فقال : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ ﴾ وطعامه ما قذف . وقال سعيد بن المسيب : طعامه ما لفظه حيًّا أو حسر عنه فمات ، وعن نافع أن عبد الرحمن بن أبي هريرة سأل ابن عمر فقال : إن البحر قد قذف حيتانًا كثيرة ميتة أفنأكلها ؟ فقال : لا تأكلوها ، فلما رجع عبد اللَّه إلى أهله أخذ المصحف فقرأ سورة المائدة فأتى هذه الآية ﴿ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ فقال : اذهب فقل له : فليأكله فإنه طعامه . وهكذا اختار ابن جرير أن المراد بطعامه ما مات فيه . وقوله : ﴿ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ أي : منفعة وقوتًا لكم أيها المخاطبون ﴿ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ وهم جمع سيار قال عكرمة : لمن كان بحضرة البحر والسفر ، وقال غيره : الطري منه لمن يصطاده من حاضرة البحر ، وطعامه ما مات فيه ، أو اصطيد منه وملح ، وقد يكون زادًا للمسافرين والنائين عن البحر .

وقد استدل الجمهور على حل ميتته بهذه الآية الكريمة وبما روي عن جابر بن عبد اللَّه ، قال : بعث رسول اللَّه ﷺ بعثًا قبل الساحل فأمَّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلاثمائة وأنا فيهم ، قال : فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق ، فني الزاد ، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش ، فجمع ذلك كله ، فكان مزودي تمر ، قال : فكان يقوتنا كل يوم قليلًا قليلًا حتى فني ، فلم يكن يصيبنا إلَّا تمرة تمرة ، فقال : فقد وجدنا فقدها حين فنيت ، قال : ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت مثل الظرب ، فأكل منه ذلك الجيش ثماني عشرة ليلة ، ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا ، ثم أمر براحلة فرحلت ومرت تحتهما فلم تصبهما (١) .

وقد روي عن أبي هريرة قال : كنا مع رسول اللَّه ﷺ في حج أو عمرة ، فاستقبلنا رجل جراد فجعلنا نضربهن بعصينا وسياطنا فنقتلهن ، فسقط في أيدينا فقلنا : ما نصنع ونحن محرمون ، فسألنا رسول اللَّه ﷺ فقال : « لَا بَأْسَ بِصَيْدِ البَحْرِ » (٢) . وقد روى الشافعي عن سعيد عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عبّاس أنه أنكر على من يصيد الجراد في الحرم ، وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من الفقهاء إلى أنه تؤكل دواب البحر ، ولم يستثن من ذلك شيئًا وقد تقدم عن الصدِّيق أنه قال : طعامه كل ما فيه . وقد استثنى بعضهم الضفادع وأباح ما سواها لما روي عن أبي عبد الرحمن بن عثمان التيمي ، أن رسول اللَّه ﷺ نهى عن قتل الضفدع (٣) . وعن عبد اللَّه بن عمرو ، قال : نهى رسول اللَّه ﷺ عن قتل الضفدع ، وقال : نقيقها تسبيح (٤) . وقال آخرون : يؤكل من صيد البحر السمك ولا يؤكل الضفدع ، واختلفوا فيما سواهما فقيل : يؤكل سائر ذلك ، وقيل : لا يؤكل ،

---

(١) أخرجه البخاري في الشركة (٢٤٨٣) وأحمد في مسنده (٣٠٦/٣) ومالك في الموطأ (٩٣٠/٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٦/٢) وابن ماجه في سننه (٣٢٢٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٣/٣) وأبو داود في سننه (٥٢٦٩) .
(٤) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٤١/٤ .

وقيل : ما أكل شبهه من البر أكل مثله في البحر ، وما لا يؤكل شبهه لا يؤكل ، وهذه كلها وجوه في مذهب الشافعي رحمه الله تعالى ، وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى : لا يؤكل ما ملت في البحر ، كما لا يؤكل ما مات في البر ، لعموم قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ وقد احتج الجمهور من أصحاب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل بحديث : « هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الحلُّ ميتتُهُ »[1] . وروي عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ ؛ فَأَمَّا المَيْتَتَانِ : فَالحُوتُ وَالجَرَادُ ؛ وَأَمَّا الدَّمَانِ : فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ »[2] .

وقوله : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ أي : في حال إحرامكم يحرم عليكم الاصطياد ، ففيه دلالة على تحريم ذلك ، فإذا اصطاد المحرم الصيد متعمدًا أثم وغرم ، أو مخطئًا غرم وحرم عليه أكله ؛ لأنه في حقه كالميتة ، وكذا في حق غيره من المحرمين والمحلين عند مالك والشافعي في أحد قوليه ، وبه يقول عطاء والقاسم وسالم وأبو يوسف ومحمّد بن الحسن وغيرهم ، فإن أكله أو شيئًا منه فهل يلزمه جزاء ثان ؟ فيه قولان للعلماء أحدهما : نعم ، عن عطاء قال : إن ذبحه ثم أكله فكفارتان ، وإليه ذهب طائفة . والثاني : لا جزاء عليه في أكله ، نص عليه مالك بن أنس وعلى هذا مذاهب فقهاء الأمصار وجمهور العلماء ، ثم وجهه أبو عمر بما لو وطئ ثم وطئ ثم وطئ قبل أن يحد ، فإنما عليه حد واحد ، وقال أبو حنيفة : عليه قيمة ما أكل ، وقال أبو ثور : إذا قتل المحرم الصيد فعليه جزاؤه ، وحلال أكل ذلك الصيد ، إلا أنني أكرهه للذي قتله للخبر عن رسول الله ﷺ : « صَيْدُ البَرِّ لَكُمْ حَلالٌ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ مَا لَمْ تَصِيدُوهُ أَوْ يُصَدْ لَكُمْ »[3] وهذا الحديث سيأتي بيانه ، وقوله بإباحته للقاتل غريب ، وأما لغيره ففيه خلاف قد ذكرنا المنع عمن تقدم ، وقال آخرون بإباحته لغير القاتل سواء المحرمون والمحلون ؛ لهذا الحديث ، والله أعلم .

وأما إذا صاد حلال صيدًا ، فأهداه إلى محرم ، فقد ذهب ذاهبون إلى إباحته مطلقًا ، ولم يستفصلوا بين أن يكون قد صاده من أجله أم لا ، حكى هذا القول أبو عمر بن عبد البر عن عمر بن الخطاب وأبي هريرة والزبير بن العوام . وعن أبي هريرة ، أنه سئل عن لحم صيد صاده حلال ، أيأكله المحرم ؟ قال : فأفتاهم بأكله ، ثم لقي عمر بن الخطاب ، فأخبره بما كان من أمره ، فقال : لو أفتيتهم بغير هذا لأوجعت لك رأسك ، وقال آخرون : لا يجوز أكل الصيد للمحرم بالكلية ، ومنعوا من ذلك مطلقًا لعموم هذه الآية الكريمة ، وعن ابن عبّاس أنه كره أكل الصيد للمحرم وقال : هي مبهمة ، يعني قوله : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ وعن ابن عمر أنه كان يكره للمحرم أن يأكل من لحم الصيد على كل حال ، وبه قال طاوس وجابر بن زيد ، وإليه ذهب الثوري وإسحاق بن راهويه . وقد روي نحوه عن علي بن أبي طالب ، عن سعيد بن المسيب : أن عليًا كره أكل لحم الصيد للمحرم على كل حال ، وقال مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه في رواية والجمهور : إن كان الحلال قد قصد المحرم بذلك الصيد لم يجز للمحرم أكله ، لحديث الصعب بن جثامة أنه أهدى للنبي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦١/٢) والحاكم في المستدرك (١٠٠/٤) والبيهقي في السنن الكبرى (١ ، ٣ ، ٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٩٧/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٥٤/١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٢/٣) وأبو داود في سننه (١٨٥١) .

ﷺ حمارًا وحشيًا وهو بالأبواء أو بودان ، فرده عليه ، فلما رأى ما في وجهه قال : « إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلَّا أَنَّا حُرُمٌ » ، قالوا : فوجهه أن النبيّ ﷺ ظن أن هذا إنما صاده من أجله فرده لذلك[(١)] . فأما إذا لم يقصده بالاصطياد ؛ فإنه يجوز له الأكل منه ، لحديث أبي قتادة حين صاد حمار وحش وكان حلالًا لم يحرم ، وكان أصحابه محرمين ، فتوقفوا في أكله ، ثم سألوا رسول الله ﷺ فقال : « هَلْ كَانَ مِنْكُمْ أَحَدٌ أَشَارَ إِلَيْهَا أَوْ أَعَانَ فِي قَتْلِهَا ؟ » قالوا : لا ، قال : « فَكُلُوا » وأكل منها رسول الله ﷺ[(٢)] .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : وقال قتيبة في حديثه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « صَيْدُ البَرِّ لَكُمْ حَلَالٌ - قَالَ سَعِيدٌ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ - مَا لَمْ تَصِيدُوهُ أَوْ يُصَدْ لَكُمْ »[(٣)] .

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾ .

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُل ﴾ يا محمّد ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ ﴾ أي : يا أيها الإنسان ﴿ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ يعني أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار ، كما جاء في الحديث « مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى »[(٤)] . وعن أبي أمامة أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالًا ، فقال النبيّ ﷺ : « قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لا تُطِيقُهُ »[(٥)] ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي : يا ذوي العقول الصحيحة المستقيمة ، وتجنبوا الحرام ودعوه واقنعوا بالحلال واكتفوا به ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي : في الدنيا والآخرة ، ثم قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين ، ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها ، لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور بما ساءتهم وشق عليهم سماعها ، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « لَا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا ، إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ »[(٦)] . وعن أنس بن مالك ، قال : خطب رسول الله خطبة ما سمعت مثلها قط ، وقال فيها : « لَوْ تَعْلَمُوا مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا » قال : فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم حنين ، فقال رجل : من أبي ؟ قال : « فُلانٌ » . فنزلت هذه الآية ﴿ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ ﴾[(٧)] . وعن قتادة في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ قال : إن أنس بن مالك حدثه أن رسول الله ﷺ سألوه حتى أحفوه بالمسألة ، فخرج عليهم ذات يوم ، فصعد المنبر فقال : « لا تَسْأَلُونِي اليَوْمَ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيَّنْتُهُ لَكُمْ » فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدي أمر

---

(١) أخرجه مسلم في الحج(٥٠) ومالك في الموطأ(٣٥٣) . (٢) أخرجه أبو داود في سننه(١٨٥١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده(٣٦٢/٣) والترمذي في سننه(٨٤٦) والنسائي في سننه(٢٨٢٧) .
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور(٢٢٥/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد(٢٥٥/١٠) .
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور(٢٦١/٣) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده(٣٩٦/١) وأبو داود في سننه(٤٨٦٠) .
(٧) أخرجه البخاري في الرقاق(٦٤٨٦) وأحمد في مسنده(٣١٢/٢) والحاكم في المستدرك(٥٧٩/٤) .

قد حضر ، فجعلت لا ألتفت يمينًا ولا شمالًا إلَّا وجدت كلًّا لافًّا رأسه في ثوبه يبكي ، فأنشأ رجل كان يلاحي فيدعى إلى غير أبيه ، فقال : يا نبي اللَّه من أبي ؟ قال : « أَبُوكَ حُذَافَةُ » قال : ثم قام عمر أو قال : فأنشأ عمر فقال : رضينا باللَّه ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمّد رسولًا عائذًا باللَّه ، أو قال : أعوذ باللَّه من شر الفتن ، قال : وقال رسول اللَّه ﷺ : « لَمْ أَرَ فِي الخَيْرِ وَالشَّرِّ كَالْيَوْمِ قَطُّ ، صُوِّرَتْ لِيَ الجَنَّةُ وَالنَّارُ حَتَّى رَأَيْتُهُمَا دُونَ الحَائِطِ » [١] .

وعن علي قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ قالوا : يا رسول اللَّه أفي كل عام ؟ فسكت ، فقالوا : أفي كل عام ؟ فسكت ، قال : ثم قالوا : أفي كل عام ؟ فقال : « لاَ ، وَلَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ ، وَلَوْ وَجَبَتْ لَمَا اسْتَطَعْتُمْ » فأنزل اللَّه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْـَٔلُوا عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ الآية [٢] ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الحَجَّ » فقال رجل : أفي كل عام يا رسول اللَّه ؟ فأعرض عنه حتى عاد مرتين أو ثلاثًا فقال : « مَنِ السَّائِلُ ؟ » فقال : فلان ، فقال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ ، وَلَوَ وَجَبَتْ عَلَيْكُمْ مَا أَطَقْتُمُوهُ ، وَلَوْ تَرَكْتُمُوهُ لَكَفَرْتُمْ » فأنزل اللَّه ﷻ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْـَٔلُوا عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ حتى ختم الآية [٣] وظاهر الآية النهي عن السؤال عن الأشياء التي إذا علم بها الشخص ساءته ، فالأولى الإعراض عنها وتركها ، وما أحسن الحديث الذي روي عن عبد اللَّه بن مسعود قال : قال رسول اللَّه ﷺ لأصحابه : « لاَ يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ » [٤] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَسْـَٔلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ أي وإن تسألوا عن هذه الأشياء التي نهيتم عن السؤال عنها حين ينزل الوحي على رسول اللَّه ﷺ تبين لكم ﴿ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ثم قال : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ﴾ أي : عما كان منكم قبل ذلك ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ وقيل : المراد بقوله : ﴿ وَإِن تَسْـَٔلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ أي : لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها ، فلعله قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق ، وقد ورد في الحديث : « أَعْظَمُ المُسْلِمِينَ جرمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ » [٥] ولكن إذا نزل القرآن بها مجملة ، فسألتم عن بيانها بينت لكم حينئذٍ لاحتياجكم إليها ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ﴾ أي : ما لم يذكره في كتابه فهو مما عفا عنه ، فاسكتوا أنتم كما سكت عنها ، وفي الصحيح عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ » [٦] وفي الحديث أيضًا : « إِنَّ اللَّه تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا ، وَحَدَّ حُدُودًا فَلاَ تَعْتَدُوهَا ، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلاَ تَنْتَهِكُوهَا ، وَسَكَتَ

---

(١) أخرجه : البخاري في الدعوات (٦٣٦٢) ومسلم في الفضائل (١٣٧) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١١٣/١) وابن ماجه في سننه (٢٨٨٤) وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢٩٤/٢) .
(٣) أخرجه الدارقطني في سننه (٢٨٢/٢) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٦/١) والترمذي في سننه (٣٨٩٦) وأبو داود في سننه (٤٨٦٠) .
(٥) أخرجه مسلم في الفضائل (١٣٢ ، ١٣٣) وأحمد في مسنده (١٧٩/١) وأبو داود في سننه (٤٦١٠) .
(٦) أخرجه مسلم في الحج (٤١٢) وأحمد في مسنده (٢٤٧/٢) وابن ماجه في سننه (٢) .

عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلاَ تَسْأَلُوا عَنْهَا » (١) ثم قال تعالى : ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾ أي : قد سأل هذه المسائل المنهي عنها قوم من قبلكم فأجيبوا عنها ، ثم لم يؤمنوا بها ، فأصبحوا بها كافرين أي بسببها ، أي : بينت لهم فلم ينتفعوا بها ؛ لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد بل على وجه الاستهزاء والعناد .

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

عن سعيد بن المسيب قال : البحيرة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس ، والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء . قال : وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « رَأَيْتُ عَمْرَو بنُ عَامِرِ الخُزَاعِيِّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبِ » (٢) والوصيلة : الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل ، ثم تثنى بعد بأنثى ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر ، والحام فحل الإبل يضرب الضراب المعدود ، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه عن الحمل فلم يحمل عليه شيء ، وسموه الحامي .

عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ ﷺ قال : « إِنَّ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ وَعَبَدَ الأَصْنَامَ أَبُو خُزَاعَةَ عَمْرُو بنُ عَامِرِ ، وَإِنِّي رَأَيْتُهُ يَجُرُّ أَمْعَاءَهُ فِي النَّارِ » (٣) . فعمرو هذا هو ابن لحي بن قمعة أحد رؤساء خزاعة الذين ولوا البيت بعد جرهم ، وكان أول من غيَّر دين إبراهيم الخليل ، فأدخل الأصنام إلى الحجاز ، ودعا الرعاع من الناس إلى عبادتها والتقرّب بها ، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها ، كما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام عند قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ﴾ إلى آخر الآيات في ذلك . فأما البحيرة فقال ابن عبّاس رضي الله عنهما : هي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس ، فإن كان ذكرًا ذبحوه فأكله الرجال دون النساء ، وإن كان أنثى جدعوا آذانها ، فقالوا : هذه بحيرة . وأما السائبة : فقال مجاهد : هي من الغنم نحو ما فسر من البحيرة إلَّا أنها ما ولدت من ولد كان بينها وبينه ستة أولاد كانت على هيئتها ، فإذا ولدت السابع ذكرًا أو ذكرين ذبحوه فأكله رجالهم دون نسائهم ، وقال محمّد بن إسحاق : السائبة هي الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد ليس بينهن ذكر ، سيبت ، فلم تركب ، ولم يجزّ وبرها ، ولم يحلب لبنها إلَّا لضيف . وقال أبو روق : السائبة : كان الرجل إذا خرج فقضيت حاجته سيب من ماله ناقة أو غيرها ، فجعلها للطواغيت ، فما ولدت من شيء كان لها ، وقال السدي : كان الرجل منهم إذا قضيت حاجته أو عوفي من مرض أو كثر ماله سيب شيئًا من ماله للأوثان ، فمن عرض له من الناس عوقب بعقوبة في الدنيا .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١٢٢/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (١٣/١٠) .
(٢) أخرجه مسلم في الجنة (٥١) وأحمد في مسنده (٢٧٥/٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٦/١) .

وأما الوصيلة : فقال ابن عبّاس : هي الشاة إذا نتجت سبعة أبطن نظروا إلى السابع ، فإن كان ذكرًا وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء ، وإن كان أنثى استحيوها ، وإن كان ذكرًا وأنثى في بطن واحد استحيوهما ، وقالوا : وصلته أخته فحرمته علينا . عن سعيد بن المسيب ﴿ وَلَا وَصِيلَةٍ ﴾ قال : فالوصيلة من الإبل كانت الناقة تبتكر بالأنثى ، ثم ثنت بأنثى فسموها الوصيلة ، ويقولون : وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر فكانوا يجدعونها لطواغيتهم ، وكذا روي عن الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى ، وقال محمّد بن إسحاق : الوصيلة من الغنم إذا ولدت عشر إناث في خمسة أبطن توأمين توأمين في كل بطن سميت الوصيلة ، وتركت فما ولدت بعد ذلك من ذكر أو أنثى جعلت للذكور دون الإناث ، وإن كانت ميتة اشتركوا فيها ، وأما الحامي : فقال ابن عبّاس : كان الرجل إذا لقح فحله عشرًا قيل : حام فاتركوه ، وعنه أيضا : وأما الحام فالفحل من الإبل إذا ولد لولده ، قالوا : حمى هذا ظهره ، فلا يحملون عليه شيئًا ، ولا يجزون له وبرًا ، ولا يمنعونه من حمى رعي ، ومن حوض يشرب منه ، وإن كان الحوض لغير صاحبه ، وقال ابن وهب : سمعت مالكا يقول : أما الحام : فمن الإبل ، كان يضرب في الإبل ، فإذا انقضى ضرابه جعلوا عليه ريش الطواويس وسيبوه ، وقد قيل غير ذلك في تفسير هذه الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي : ما شرع الله هذه الأشياء ولا هي عنده قربة ، ولكن المشركون افتروا ذلك ، وجعلوه شرعًا لهم وقربة يتقربون بها إليه ، وليس ذلك بحاصل لهم ، بل هو وبال عليهم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ أي : إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه ، وترك ما حرمه ، قالوا : يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك ، قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ أي : لا يفهمون حقًّا ولا يعرفونه ولا يهتدون إليه ، فكيف يتبعونهم والحالة هذه ؟ لا يتبعهم إلّا من هو أجهل منهم وأضل سبيلًا .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم ، ومخبرًا لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس سواء كان قريبًا منه أو بعيدًا . قال ابن عبّاس في تفسير هذه الآية : يقول تعالى : إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته به من الحلال ونهيته عنه من الحرام ، فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به . فقول تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ نصب على الإغراء ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : فيجازي كل عامل بعمله إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر ، وليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان فعل ذلك ممكنًا . عن قيس قال : قام أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ ﴾ وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوا المُنْكَرَ وَلَا يُغَيِّرُونَهُ يُوشِكُ اللَّهُ عز وجل أَنْ يَعُمَّهُمْ بِعِقَابِهِ » قال : وسمعت أبا بكر يقول : يا أيها الناس إياكم والكذب ، فإن الكذب مجانب

الإيمان (١) . وعن أبي أمية الشعباني ، قال : أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له : كيف تصنع في هذه الآية ؟ قال : أية آية ؟ قلت : قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ قال : أما والله لقد سألت عنها خبيرًا ، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : « بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ؛ حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطاعًا ، وَهَوًى مُتَّبَعًا ، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً ، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ ؛ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ ، وَدَعِ الْعَوَامَّ ؛ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّابِرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ كَعَمَلِكُمْ » قال عبد الله بن المبارك : وزاد غير عتبة قيل : يا رسول الله أجر خمسين رجلًا منا أو منهم ؟ قال : « بَلْ أَجْر خَمْسِينَ مِنْكُمْ » (٢) .

وعن أبي العالية عن ابن مسعود في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ ﴾ الآية قال : كانوا عند عبد الله بن مسعود جلوسًا ، فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس ، حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه ، فقال رجل من جلساء عبد الله : ألا أقوم فآمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر ، فقال آخر إلى جنبه : عليك بنفسك فإن الله يقول : ﴿ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ ﴾ الآية قال : فسمعها ابن مسعود فقال : مه لم يجئ تأويل هذه بعد ، إن القرآن أنزل حيث أنزل ، ومنه آي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ، ومنه آي قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ ، ومنه أي قد وقع تأويلهن بعد النبيّ ﷺ بيسير ، ومنه آي يقع تأويلهن بعد اليوم ، ومنه آي تأويلهن عند الساعة ما ذكر من الساعة ، ومنه آي يقع تأويلهن يوم الحساب ما ذكر من الحساب والجنة والنار ، فما دامت قلوبكم واحدة وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعًا ولم يذق بعضكم بأس بعض ، فأمروا وانهوا ، وإذا اختلفت القلوب والأهواء وألبستم شيعًا وذاق بعضكم بأس بعض ، فامرؤ ونفسه ، وعند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ .

اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز قيل : إنه منسوخ ، رواه العوفي عن ابن عبّاس وقال حماد بن أبي سليمان عن إبراهيم : إنها منسوخة ، وقال آخرون وهم الأكثرون : فيما قاله ابن جرير ، بل هو محكم ومن ادعى نسخه فعليه البيان ، فقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ﴾ هذا هو الخبر لقوله : شهادة بينكم ، فقيل : تقديره شهادة اثنين ، حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وقيل : دل الكلام على تقدير أن يشهد اثنان ، وقوله تعالى : ﴿ ذَوَا عَدۡلٖ ﴾ وصف الاثنين بأن يكون عدلين ، وقوله : ﴿ مِّنكُمۡ ﴾ أي : من المسلمين ، قاله الجمهور ، وعن ابن عبّاس ﷺ قال : من المسلمين ﴿ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾ أي : من أهل الموصي ، وقوله : ﴿ أَوۡ ءَاخَرَانِ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/١) وابن ماجه في سننه (٤٠٠٥) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣٠٥٨) وأبو داود في سننه (٤٣٤١) وابن ماجه في سننه (٤٠١٤) .

مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ قال ابن عبّاس : من غير المسلمين ، يعني أهل الكتاب ، ﴿ مِنكُمْ ﴾ أن المراد من قبيلة الموصي يكون المراد ههنا ﴿ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ أي : من غير قبيلة الموصي ، وقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي : سافرتم ﴿ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ وهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين أن يكون ذلك في سفر ، وأن يكون في وصية ، كما صرح بذلك شريح القاضي ، قال ابن جرير : لا تجوز شهادة اليهود والنصارى إلّا في سفر ، ولا تجوز في سفر إلّا في الوصية ، وروي نحوه عن الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى ، وهذه المسألة من أفراده ، وخالفه الثلاثة فقالوا : لا تجوز شهادة أهل الذمة على المسلمين ، وأجازها أبو حنيفة فيما بين بعضهم بعضًا .

وقال ابن جرير : اختلف في قوله : ﴿ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ هل المراد به أن يوصي إليهما أو يشهدهما ؟ على قولين :

أحدهما : أن يوصي إليهما . سئل ابن مسعود ﷺ عن هذه الآية ، قال : هذا رجل سافر ومعه مال فأدركه قدره ، فإن وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته ، وأشهد عليهما عدلين من المسلمين .

والقول الثاني : إنهما يكونان شاهدين وهو ظاهر سياق الآية الكريمة ، فإن لم يكن وصي ثالث معهما اجتمع فيهما الوصفان الوصاية والشهادة ، كما في قصة تميم الداري وعدي بن بداء .

وقد استشكل ابن جرير كونهما شاهدين ، قال : لأنا لا نعلم حكمًا يحلف فيه الشاهد ، وهذا لا يمنع الحكم الذي تضمنته هذه الآية الكريمة ، وهو حكم مستقل بنفسه ، لا يلزم أن يكون جاريًا على قياس جميع الأحكام ، على أن هذا حكم خاص بشهادة خاصة في محل خاص ، وقد اغتفر فيه من الأمور ما لم يغتفر في غيره ، فإذا قامت قرينة الريبة حلف هذا الشاهد بمقتضى ما دلت عليه هذه الآية الكريمة .

وقوله تعالى : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ قال ابن عبّاس : يعني صلاة العصر ، وقال الزهري : يعني صلاة المسلمين ، وقال السدي عن ابن عبّاس : يعني صلاة أهل دينهما ، والمقصود أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ ﴾ أي : فيحلفان بالله ﴿ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ ﴾ أي : إن ظهرت لكم منهما ريبة أنهما خانا أو غلّا ، فيحلفان حينئذٍ بالله ﴿ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ﴾ أي : بأيماننا ﴿ ثَمَنًا ﴾ أي : لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ أي : ولو كان المشهود عليه قريبًا لنا لا نحابيه ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ ﴾ وأضافها إلى الله تشريفًا لها وتعظيمًا لأمرها وقال بعضهم : ﴿ ولا نكتم شهادةِ اللّٰه ﴾ مجرورًا على القسم رواها ابن جرير عن عامر الشعبي ، وحكي عن بعضهم أنه قرأها ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ ﴾ والقراءة الأولى هي المشهورة[1] ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴾ أي : إن فعلنا شيئًا من ذلك من تحريف الشهادة أو تبديلها أو تغييرها أو كتمها بالكلية ، ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا ﴾ أي : فإن اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين ، أنهما خانا أو غلا شيئًا من المال الموصى به إليهما وظهر عليهما بذلك ﴿ فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ ﴾ هذه قراءة الجمهور ﴿ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ ﴾ وروي عن علي وأبيّ والحسن البصري أنهم قرؤوها ﴿ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأولان ﴾ وعن علي

(١) قرأ عامة قراء الأمصار بإضافة الشهادة إلى الله وخفض اسم الله وقرأ بعضهم ﴿ شهادةً اللّٰه ﴾ الطبري في تفسيره الآية ١٠٧) .

ابن أبي طالب ﵁ أن النبيّ ﷺ قرأ ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوَّلَيْنِ ﴾ وقرأ بعضهم ومنهم ابن عباس ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأولين ﴾ [١] فعلى قراءة الجمهور يكون المعنى بذلك : أي : متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح خيانتهما فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة ، وليكونا من أولى من يرث ذلك المال ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا ﴾ أي : لقولنا : إنهما خانا ، أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة ﴿ وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ ﴾ أي : فيما قلنا فيهما من الخيانة ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي : إن كنا قد كذبنا عليهما وهذا التحليف للورثة والرجوع إلى قولهما ، والحالة هذه كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهر لوث في جانب القاتل ، فيقسم المستحقون على القاتل ، فيدفع برمته إليهم كما هو مقرر في باب القسامة من الأحكام .

وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة ، عن ابن عبّاس عن تميم الداري في هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ قال : برئ الناس منها غيري وغير عدي ابن بداء ، كانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام ، فأتيا الشام لتجارتهما وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له : بديل بن أبي مريم بتجارة ، معه جام من فضة يريد به الملك وهو أعظم تجارته ، فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله ، قال تميم : فلما مات أخذنا ذلك الجام ، فبعناه بألف درهم واقتسمناه أنا وعدي ، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا ، وفقدوا الجام فسألونا عنه ، فقلنا : ما ترك غير هذا وما دفع إلينا غيره ، قال تميم : فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة تأثمت من ذلك ، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر ، ودفعت إليهم خمسمائة درهم ، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها ، فوثبوا عليه ، فأمرهم النبيّ ﷺ أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه ، فحلف ، فنزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا ﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم فحلفا ، فنزعت الخمسمائة من عدي بن بداء [٢] .

ومن الشواهد لصحة هذه القصة ما روي عن الشعبي أن رجلًا من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقا هذه ، قال : فحضرته الوفاة ولم يجد أحدًا من المسلمين يشهده على وصيته ، فأشهد رجلين من أهل الكتاب ، قال : فقدما الكوفة ، فأتيا الأشعري - يعني أبا موسى الأشعري ﵁ - فأخبراه ، وقدما الكوفة بتركته ووصيته ، فقال الأشعري : هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ ، قال : فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدلا ولا كتما ولا غيّرا وأنها لوصية الرجل وتركته ، قال : فأمضى شهادتهما . فقوله هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ ، الظاهر والله أعلم أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعدي بن بداء ، وقد ذكروا أن إسلام تميم بن أوس الداري ﵁ كان سنة تسع من الهجرة ، فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخرًا يحتاج مدعي نسخه إلى دليل فاصل في هذا المقام ، والله أعلم .

وقال أسباط : عن السدي في الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ قال : هذا في الوصية عند الموت ، يوصي ويشهد رجلين من المسلمين على ماله وما

---

(١) قرأ حمزة ويعقوب وخلف وأبو بكر (الأولين) بالجمع والباقون (الأوليان) على التثنية (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٠٨) .
(٢) أخرجه : الترمذي في السنن (٣٠٥٩) .

عليه ، قال : هذا في الحضر ﴿ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ في السفر ﴿ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ هذا الرجل يدركه الموت في سفره وليس بحضرته أحد من المسلمين ، فيدعو رجلين من اليهود والنصارى والمجوس فيوصي إليهما ، ويدفع إليهما ميراثه ، فيقبلان به ، فإن رضي أهل الميت الوصية وعرفوا ما لصاحبهم تركوهما ، وإن ارتابوا رفعوهما إلى السلطان ، فذلك قوله تعالى : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ ﴾ قال عبد الله بن عبّاس ﷺ : كأني أنظر إلى العلجين حين انتهى بهما إلى أبي موسى الأشعري في داره ، ففتح الصحيفة فأنكر أهل الميت وخوفوهما ، فأراد أبو موسى أن يستحلفهما بعد العصر ، فقلت : إنهما لا يباليان صلاة العصر ، ولكن استحلفهما بعد صلاتهما في دينهما ، فيوقف الرجلان بعد صلاتهما في دينهما ، فيحلفان بالله لا نشتري به ثمنًا قليلًا ولو كان ذا قربى ، ولا نكتم شهادة الله إنا إذًا لمن الآثمين ، أن صاحبهم لبهذا أوصى وأن هذه لتركته ، فيقول لهما الإمام قبل أن يحلفا : إنكما إن كتمتما أو خنتما فضحكتما في قومكما ولم تجز لكما شهادة وعاقبتكما ، فإذا قال لهما ذلك : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ ﴾ .

وقال ابن عبّاس في تفسير هذه الآية : فإن ارتيب في شهادتهما استحلفا بعد العصر بالله ما اشترينا بشهادتنا ثمنًا قليلًا ، فإن اطلع الأولياء على أن الكافرين كذبا في شهادتهما ، قام رجلان من الأولياء فحلفا بالله أن شهادة الكافرين باطلة ، وإنا لم نعتد ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا ﴾ يقول : إن اطلع على أن الكافرين كذبًا ﴿ فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا ﴾ يقول : من الأولياء فحلفا بالله أن شهادة الكافرين باطلة ، وأنا لم نعتد ، فترد شهادة الكافرين وتجوز شهادة الأولياء ، ثم قال ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي : في جمع أموركم ﴿ وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ أي : وأطيعوا ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ أي : الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته .

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ .

هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أممهم الذين أرسلهم إليهم كما قال تعالى : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ وقول الرسل : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ قال مجاهد والحسن البصري والسدي : إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم .

وقال السدي : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ ذلك أنهم نزلوا منزلًا ذهلت فيه العقول ، فلما سئلوا قالوا : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ ثم نزلوا منزلًا آخر فشهدوا على قومهم . عن ابن جريج في قوله : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ أي : ماذا عملوا بعدكم وما أحدثوا بعدكم ؟ قالوا : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ . وعن ابن عبّاس ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ يقولون للرب ﷻ : لا علم لنا إلّا علم أنت أعلم به منا . رواه ابن جرير ، ثم اختاره على هذه الأقوال الثلاثة ، ولاشك أنه قول حسن ، وهو من باب التأدب مع الرب ﷻ ، أي : لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء ، فنحن وإن كنا أجبنا وعرفنا من أجابنا ، ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره لا علم لنا بباطنه ، وأنت العليم بكل

شيء المطلع على كل شيء ، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلا علم فإنك ﴿ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ .

﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١١٠ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴾ .

يذكر تعالى ما منَّ به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام مما أجراه على يديه من المعجزات الباهرات وخوارق العادات ، فقال : ﴿ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ ﴾ أي : في خلقي إياك من أم بلا ذكر ، وجعلي إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتي على الأشياء ﴿ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ حيث جعلتك لها برهانًا على براءتها مما نسبه الظالمون الجاهلون إليها من الفاحشة ﴿ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ ﴾ وهو جبريل عليه السلام ، وجعلتك نبيًا داعيًا إلى الله في صغرك وكبرك فأنطقتك في المهد صغيرًا ، فشهدت ببراءة أمك من كل عيب ، واعترفت لي بالعبودية ، وأخبرت عن رسالتي إياك ، ودعوت إلى عبادتي ، ولهذا قال تعالى : ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ ﴾ أي : تدعو إلى الله الناس في صغرك وكبرك ، وضمّن ﴿ تُكَلِّمُ ﴾ تدعو لأن كلامه الناس في كهولته ليس بأمر عجيب ، وقوله : ﴿ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ أي : الخط والفهم ﴿ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ ﴾ وهي المنزلة على موسى بن عمران الكليم ، وقد يرد لفظ التوراة في الحديث ويراد به ما هو أعم من ذلك ، وقوله : ﴿ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي ﴾ أي: تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك ، ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ ﴾ أي : فتنفخ في تلك الصورة التي شكلتها بإذني لك في ذلك ، فتكون طيرًا ذا روح تطير بإذن الله وخلقه .

وقوله تعالى : ﴿ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ ﴾ قد تقدم الكلام عليه في سورة آل عمران بما أغنى عن إعادته . وقوله : ﴿ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ ﴾ أي : تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته وإرادته ومشيئته ، وقد قال أبو الهذيل : كان عيسى ابن مريم عليه السلام إذا أراد أن يحيي الموتى صلى ركعتين يقرأ في الأولى ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ ﴾ وفي الثانية ﴿ الٓمٓ ١ تَنزِيلُ ﴾ السجدة ، فإذا فرغ منهما مدح الله وأثنى عليه ، ثم دعا بسبعة أسماء : يا قديم ، يا خفي ، يا دائم ، يا فرد ، يا وتر ، يا أحد ، يا صمد ، وكان إذا أصابته شديدة دعا بسبعة أخر : يا حي ، يا قيوم ، يا ألله ، يا رحمن ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا نور السموات والأرض وما بينهما ، ورب العرش العظيم يا رب ، وهذا أثر عظيم جدًا . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ أي : واذكر نعمتي عليك في كفي إياهم عنك حين جئتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من الله إليهم ، فكذبوك واتهموك بأنك ساحر ، وسعوا في قتلك وصلبك ، فنجيتك منهم ورفعتك إليّ وطهرتك من دنسهم وكفيتك شرّهم ، وهذا يدل على أن هذا الامتنان كان من الله إليه بعد رفعه إلى السماء ، أو يكون هذا الامتنان واقعًا يوم القيامة وعبر عنه بصيغة الماضي دلالة على وقوعه لا محالة ، وهذا من أسرار الغيوب التي أطلع الله عليها نبيه محمّدًا ﷺ .

وقوله : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ﴾ وهذا أيضًا من الامتنان عليه ، عليه الصلاة والسَّلام بأن جعل له أصحابًا وأنصارًا . ثم قيل : إن المراد بهذا الوحي وحي إلهام كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ الآية وهو وحي إلهام بلا خلاف ، وكما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ الآية وهكذا قال بعض السلف في هذه الآية : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ أي : أُلهموا ذلك فامتثلوا ما أُلهموا ، قال الحسن البصري : أَلهمهم الله ﷻ ذلك ، وقال السدي : قذف في قلوبهم ذلك ، ويحتمل أن يكون المراد وإذ أوحيت إليهم بواسطتك فدعوتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله ، واستجابوا لك وانقادوا وتابعوك ، فقالوا : ﴿ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ .

هذه قصة المائدة وإليها تنسب السورة ، فيقال : سورة المائدة ، وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى لما أجاب دعاءه بنزولها ، فأنزل الله آية باهرةً وحجة قاطعةً، وقد ذكر بعض الأئمة أن قصتها ليست مذكورة في الإنجيل ، ولا يعرفها النصارى إلّا من المسلمين ، فالله أعلم . فقوله : ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ ﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام ﴿ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ هذه قراءة كثيرين وقرأ آخرون ﴿ هَلْ تستطيع رَبَّكَ ﴾ [1] أي : هل تستطيع أن تسأل ربك ﴿ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ والمائدة هي الخوان عليه طعام ، وذكر بعضهم أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقرهم ، فسألوه أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون بها ويتقوون بها على العبادة ﴿ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي : فأجابهم المسيح عليه السلام قائلًا لهم : اتقوا الله ولا تسألوا هذا ، فعساه أن يكون فتنةً لكم ، وتوكلوا على الله في طلب الرزق إن كنتم مؤمنين ﴿ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ أي : نحن محتاجون إلى الأكل منها ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ إذا شاهدنا نزولها رزقًا لنا من السماء ﴿ وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ أي : ونزداد إيمانًا بك وعلمًا برسالتك ﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ أي : ونشهد أنها آية من عند الله ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا ﴾ قال السدي : أي نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيدًا نعظمه نحن ومن بعدنا ، وقال سفيان الثوري : يعني يومًا نصلي فيه ، وقال قتادة : أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم ، وعن سلمان الفارسي : عظة لنا ولمن بعدنا ، وقيل : كافية لأولنا وآخرنا ﴿ وَءَايَةً مِّنكَ ﴾ أي : دليلًا تنصبه على قدرتك على الأشياء ، وعلى إجابتك لدعوتي فيصدقوني فيما أبلغه عنك ﴿ وَٱرْزُقْنَا ﴾ أي : من عندك رزقًا هنيئًا بلا كلفة ولا تعب ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ ﴾ أي : فمن كذب بها من أمتك يا عيسى وعاندها ﴿ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أي : من

(١) قرأ الكسائي (تستطيع) بالخطاب (ربك) بالنصب والباقون بالرفع والغيب (انظر تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٠٨) .

عالمي زمانكم كقوله : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ وقد روي عن عبد الله بن عمرو قال : إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة ثلاثة : المنافقون ، ومن كفر من أصحاب المائدة ، وآل فرعون (١) .

ذكر أخبار رويت عن السلف في نزول المائدة على الحواريين

عن ابن عبّاس ، أنه كان يحدث عن عيسى أنه قال لبني إسرائيل : هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يومًا ، ثم تسألوه فيعطيكم ما سألتم ؟ فإن أجر العامل على من عمل له ، ففعلوا ، ثم قالوا : يا معلم الخير ، قلت لنا : إن أجر العامل على من عمل له ، وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يومًا ففعلنا ، ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يومًا إلّا أطعمنا حين نفرغ طعامًا ، فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال عيسى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ قال : فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم ، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم . وعن عمار بن ياسر عن النبيّ ﷺ قال : « نزلت المائدة من السماء عليها خبز ولحم ، وأمروا أن لا يخونوا ولا يرفعوا لغد ، فخانوا وادخروا ورفعوا ، فمسخوا قردة وخنازير » (٢) .

وهذه الآثار دالة على أن المائدة نزلت على بني إسرائيل أيام عيسى ابن مريم ، إجابة من الله لدعوته كما دلّ على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ الآية .

وقال قائلون : إنها لم تنزل ، فروي عن مجاهد في قوله : ﴿ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ قال : هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء . وعن مجاهد ، قال : مائدة عليها طعام أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا ، فأبوا أن تنزل عليهم وعن الحسن أنه قال في المائدة : إنها لم تنزل . وعن قتادة قال : كان الحسن يقول : لما قيل لهم : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ قالوا : لا حاجة لنا فيها فلم تنزل ، وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن ، وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى وليس هو في كتابهم ، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما توفر الدواعي على نقله وكان يكون موجودًا في كتابهم متواترًا ولا أقل من الآحاد ، والله أعلم ، ولكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت وهو الذي اختاره ابن جرير ، قال : لأن الله تعالى أخبر بنزولها في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ قال : ووعد الله ووعيده حق وصدق ، وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب كما دلّت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم ، وقد ذكر أهل التاريخ أن موسى بن نصير نائب بني أمية في فتوح بلاد المغرب وجد المائدة هنالك مرصعة باللآلئ وأنواع الجواهر ، فبعث بها إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق ، فمات وهي في الطريق ، وحملت إلى أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعده ، فرآها الناس فتعجبوا منها كثيرًا لما فيها من اليواقيت النفيسة والجواهر اليتيمة ، ويقال : إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود عليه السلام فالله أعلم .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٨٢/٧) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٦١) .

وعن ابن عبَّاس قال : قالت قريش للنبي ﷺ : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا ونؤمن بك قال : « وَتَفْعَلُونَ ؟ » قالوا : نعم ، قال : فدعا ، فأتاه جبريل فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة . قال : « بَلْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ » (١) .

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

هذا أيضًا مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام قائلًا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله : ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد ، وقال السدي : هذا الخطاب والجواب في الدنيا ، وصوبه ابن جرير قال : وكان ذلك حين رفعه إلى السماء ، واحتج ابن جرير على ذلك بمعنيين أحدهما : أن الكلام بلفظ الماضي . والثاني : قوله : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ ﴾ ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ وهذا الدليلان فيهما نظر ؛ لأن كثيرًا من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ الماضي ليدل على الوقوع والثبوت ، ومعنى قوله : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ الآية ، التبري منهم ورد المشيئة فيهم إلى الله ، وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضي وقوعه كما في نظائر ذلك من الآيات ، والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر والله أعلم ، أن ذلك كائن يوم القيامة ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة .

وقوله : ﴿ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل كما روي عن أبي هريرة قال : يلقي عيسى حجته ولقاه الله تعالى في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال أبو هريرة عن النبيّ ﷺ ﴿ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ إلى آخر الآية (٢) . وقوله : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ أي : إن كان صدر مني هذا فقد علمته يا رب ، فإنه لا يخفى عليك شيء ، فما قلته ولا أردته في نفسي ولا أضمرته ولهذا قال : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦ ﴾ بإبلاغه ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ أي : ما دعوتهم إلّا إلى الذي أرسلتني به وأمرتني بإبلاغه ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ أي : هذا هو الذي قلت لهم . وقوله : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ أي : كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ . عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ وَإِنَّ أَوَّلَ الخَلْقِ يُكْسَى يَوْمَ القِيَامَةِ إِبْرَاهِيم ، أَلاَ وَإِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي ، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ، فَأَقُولُ : أَصْحَابِي ،

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٣/١) والطبراني في الكبير (١٥٢/١٢) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٦٢) .

فيُقال : إنَّكَ لا تَدرِي مَا أَحدثُوا بَعدَكَ ، فأقولُ : كَمَا قالَ العَبدُ الصَّالِحُ : ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فيُقالُ : إنَّ هَؤُلاءِ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ »(١)

وقوله : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله ﷻ ، فإنه الفعّال لما يشاء الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون ، ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله ، وجعلوا لله ندًا ، وصاحبة ، وولدًا ، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا ، وهذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب .

عن أبي ذر ﵁ قال : صلى النبيّ ﷺ ذات ليلة ، فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فلما أصبح قلت : يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها ؟ قال : « إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ الشَّفَاعَةَ لِأُمَّتِي فَأَعْطَانِيهَا وَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّه لِمَنْ لا يُشْرِكُ بِاللَّه شَيْئًا » (٢) .

وعن جسرة بنت دجاجة أنها انطلقت معتمرة فانتهت إلى الربذة ، فسمعت أبا ذر يقول : قام رسول الله ﷺ ليلة من الليالي في صلاة العشاء فصلى بالقوم ، ثم تخلف أصحاب له يصلون ، فلما رأى قيامهم وتخلفهم انصرف إلى رحله ، فلما رأى القوم قد أخلوا المكان رجع إلى مكانه يصلي ، فجئت فقمت خلفه ، فأومأ إليّ بيمينه ، فقمت عن يمينه ، ثم جاء ابن مسعود فقام خلفي وخلفه ، فأومأ إليه بشماله فقام عن شماله ، فقمنا ثلاثتنا يصلي كل واحد منا بنفسه ونتلو من القرآن ما شاء الله أن نتلو ، وقام بآية من القرآن يرددها حتى وصل الغداة ، فلما أصبحنا أومأت إلى عبد الله بن مسعود أن سله ما أراد إلى ما صنع البارحة ، فقال ابن مسعود بيده : لا أسأله عن شيء حتى يحدث إليّ ، فقلت : بأبي وأمي قمت بآية من القرآن ومعك القرآن ، لو فعل هذا بعضنا لوجدنا عليه قال : « دَعَوْتُ لِأُمَّتِي » قلت : فماذا أجبت أو ماذا رد عليك ؟ قال : « أُجِبْتُ بِالَّذِي لَوْ اطَّلَعَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْهُم طَلْعَة تَرَكُوا الصَّلاَةَ » قلت : أفلا أبشر الناس ؟ قال : « بَلَى » فانطلقت معنقًا قريبًا من قذفة بحجر ، فقال عمر : يا رسول الله إنك إن تبعث إلى الناس بهذا نكلوا عن العبادات ، فناداه أن : « ارجع » فرجع ، وتلك الآية : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبيّ ﷺ تلا قول عيسى : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فرفع يديه فقال : « اللَّهُمَّ أُمَّتِي » وبكى ، فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمّد - وربك أعلم - فاسأله ما يبكيه فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم ، فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمّد فقل : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك (٤) .

﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٢٥) ومسلم في الجنة (٥٨) والترمذي في السنن (٣١٦٧) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/١٤٩) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٥/١٧٠ .

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٤٦) والبيهقي في السنن (٧/٢٠٥) .

عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرُۢ﴾ .

يقول تعالى مجيبًا لعبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام فيما أنهاه إليه من التبري من النصارى الملحدين الكاذبين على الله وعلى رسوله ، ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه عز وجل، فعند ذلك يقول تعالى : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ ﴾ قال الضحاك : عن ابن عبّاس يقول : يوم ينفع الموحدين توحيدهم ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتٞ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ ﴾ أي : ماكثين فيها لا يحولون ولا يزولون رضي الله عنهم ورضوا عنه ، كما قال تعالى : ﴿ وَرِضْوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ﴾ عن أنس مرفوعًا قال : قال رسول الله ﷺ فيه : «ثُمَّ يَتَجَلَّى لَهُمُ الرَّبُّ جل جلاله فَيَقُولُ سَلُونِي أُعْطِكُمْ - قَالَ - فَيَسْأَلُونَهُ الرِّضَا فَيَقُولُ : رِضَايَ أَحلَّكُمْ دَارِي وَأَنَالَكُمْ كَرَامَتِي فَسَلُونِي أُعْطِكُمْ ، فَيَسْأَلُونَهُ الرِّضَا ، قَالَ : فَيُشْهِدُهُمْ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنْهُمْ سبحانه وتعالى » (١).

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ أي : هذا الفوز الكبير الذي لا أعظم منه كما قال تعالى : ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ وكما قال : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرُۢ ﴾ أي : هو الخالق للأشياء ، المالك لها ، المتصرف فيها ، القادر عليها ، فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته وفي مشيئته ، فلا نظير له ، ولا وزير ، ولا عديل ، ولا والد ، ولا ولد ، ولا صاحبة ، ولا إله غيره ولا رب سواه . وعن عبد الله ابن عمر قال : آخر سورة أنزلت سورة المائدة (٢) .

---

(١) ذكره ابن أبي شيبة في مصنفه (١٥١/٢) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٦٣) والحاكم في المستدرك (٣١١/٢) .

سورة الأنعام

عن ابن عبّاس قال : نزلت سورة الأنعام بمكة ليلًا جملة واحدة حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح (١) . وعن أسماء بنت يزيد قالت : نزلت سورة الأنعام على النبيّ ﷺ جملة وأنا آخذة بزمام ناقة النبيّ ﷺ ، إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة . وعن أسماء ، قالت : نزلت سورة الأنعام على رسول اللَّه ﷺ وهو في مسير في زجل من الملائكة ، وقد طبقوا ما بين السماء والأرض (٢) . وعن جابر قال : لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول اللَّه ﷺ ثم قال : « لَقَدْ شَيَّعَ هَذِهِ السُّورَةَ مِنَ المَلائِكَةِ مَا سَدَّ الأُفُقَ » (٣) . وعن أنس بن مالك قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « نَزَلَتْ سُورَةُ الأَنْعَامِ مَعَهَا مَوْكِبٌ مِنَ المَلائِكَةِ سَدَّ مَا بَيْنَ الخَافِقَيْنِ لَهُمْ زَجَلٌ بِالتَّسْبِيحِ وَالأَرْضُ بِهِمْ تَرْتَجُّ » ورسول اللَّه يقول : « سُبْحَانَ اللَّه العَظِيمِ سُبْحَانُ اللَّه العَظِيم » (٤) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ .

يقول اللَّه تعالى مادحًا نفسه الكريمة وحامدًا لها على خلقه السموات والأرض قرارًا لعباده . وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم ، فجمع لفظ الظلمات ووحد لفظ النور لكونه أشرف كقوله تعالى : ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ ﴾ وكما قال في آخر هذه السورة : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أي : ومع هذا كله كفر به بعض عباده ، وجعلوا له شريكًا وعدلًا ، واتخذوا له صاحبة وولدًا تعالى اللَّه ﷻ عن ذلك علوًّا كبيرًا . وقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ يعني أباهم آدم الذي هو أصلهم ومنه خرجوا فانتشروا في المشارق والمغارب وقوله : ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ قال ابن عبّاس : يعني الموت ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ يعني الآخرة ، وقول الحسن في رواية عنه ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾ وهو ما بين أن يخلق إلى أن يموت ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ وهو ما بين أن يموت إلى أن يبعث وهو يرجع إلى ما تقدم ، وهو تقدير الأجل الخاص ، وهو عمر كل إنسان ، وتقدير الأجل العام وهو عمر الدنيا بكمالها ، ثم انتهائها وانقضائها وزوالها وانتقالها والمصير إلى الدار الآخرة . وعن ابن عبّاس ومجاهد ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾ يعني مدة الدنيا ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ يعني عمر الإنسان إلى حين موته ، وكأنه مأخوذ من قوله تعالى بعد هذا ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ الآية ، ومعنى قوله : ﴿ عِندَهُۥ ﴾ أي : لا يعلمه إلّا هو كقوله : ﴿ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ قال السدي وغيره : يعني تشكون في أمر الساعة . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٣١٥/١٢ . (٢) أخرجه الطبراني في الكبير ١٧٨/٢٤ .
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣١٥/٢) والبيهقي في الشعب ٤٧٠/٢ .
(٤) أخرجه : الطبراني في الأوسط ٢٩٢/٦ ، والبيهقي في الشعب ٤٧٠/٢ .

ٱلْأَرْضِۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال بعد اتفاقهم على إنكار قول الجهمية الأول القائلين : - تعالى عن قولهم علوًّا كبيرًا - بأنه في كل مكان ، حيث حملوا الآية على ذلك ، فالأصح من الأقوال : أنه المدعو الله في السموات وفي الأرض أي : يعبده ويوحده ويقر له بالإلهية من في السموات ومن في الأرض ، ويسمونه الله ، ويدعونه رغبًا ورهبًا ، إلَّا من كفر من الجن والإنس ، وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ أي : هو إله من في السماء وإله من في الأرض ، وعلى هذا فيكون قوله : ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ خبرًا أو حالًا .

والقول الثاني : أن المراد أنه الله الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض من سر وجهر ، فيكون قوله : ﴿يَعْلَمُ﴾ متعلقًا بقوله : ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ تقديره وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض ، ويعلم ما تكسبون .

والقول الثالث : أن قوله : ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وقف تام ، ثم استأنف الخبر فقال : ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ وهذا اختيار ابن جرير . وقوله : ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي : جميع أعمالكم خيرها وشرّها .

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين المكذبين المعاندين : أنهم كلما أتتهم من آية أي - دلالة ومعجزة وحجة من الدلالات على وحدانية الله وصدق رسله الكرام - فإنهم يعرضون عنها فلا ينظرون إليها ولا يبالون بها ، قال الله تعالى : ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهذا تهديد لهم ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق ، بأنه لابد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب ، وليجدن غبه وليذوقن وباله ، ثم قال تعالى واعظًا لهم ومحذرًا لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حل بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالًا وأولادًا واستعلاءً في الأرض وعمارة لها فقال : ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ أي : من الأموال والأولاد والأعمار والجاه العريض والسعة والجنود ، ولهذا قال : ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ أي : شيئًا بعد شيء ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي : أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض ، أي : استدراجًا وإملاءً لهم ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي : بخطاياهم وسيئاتهم التي اجترموها ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ أي : فذهب الأولون كأمس الذاهب ، وجعلناهم أحاديث ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ أي : جيلًا آخر لنختبرهم ، فعملوا مثل أعمالهم فأهلكوا كإهلاكهم ، فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فما أنتم بأعز على الله منهم ، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم ، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم لولا لطفه وإحسانه .

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟

فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباهاتهم ومنازعتهم فيه : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ أي : عاينوه ورأوا نزوله وباشروا ذلك ﴿ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وهذا كما قال تعالى مخبرًا عن مكابرتهم للمحسوسات ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ أي : ليكون معه نذيرًا قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ أي : لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاءهم من الله العذاب كما قال الله تعالى : ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ أي : ولو أنزلنا مع الرسول البشريّ ملكا ، أي لو بعثنا إلى البشر رسولًا ملكيًا ، لكان على هيئة الرجل ليمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه ، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري كقوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ فمن رحمته تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلًا منهم ليدعو بعضهم بعضًا وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ عن ابن عبّاس في الآية يقول : لو أتاهم ملك ما أتاهم إلّا في صورة رجل ؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ أي : ولخلطنا عليهم ما يخلطون ، وقال الوالبي عنه ، ولشبهنا عليهم .

وقوله : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ في تكذيب من كذّبه من قومه ، ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي : فكروا في أنفسكم ، وانظروا ما أحل الله بالقرون الماضية الذين كذبوا رسله وعاندوهم ، من العذاب والنكال والعقوبة في الدنيا مع ما ادخر لهم من العذاب الأليم في الآخرة وكيف نجى رسله وعباده المؤمنين .

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ .

يخبر تعالى : أنه مالك السموات والأرض ومن فيهما ، وأنه قد كتب على نفسه المقدّسة الرحمة ، كما ثبت عن أبي هريرة ﷺ قال : قال النبيّ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ : إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي » (١) . وقوله : ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ ﴾ هذه اللام هي الموطئة للقسم ، فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده ﴿ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ وهو يوم القيامة الذي لا ريب فيه ، أي : لا شك عند عباده المؤمنين ، فأما الجاحدون المكذبون ، فهم في ريبهم يترددون . وفي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٣٠) وابن ماجه في سننه (٤٢٩٥) .

رواية «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً» (١). وقوله : ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : لا يصدقون بالمعاد ولا يخافون شر ذلك اليوم ، ثم قال تعالى : ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أي : كل دابة في السموات والأرض ، الجميع عباده وخلقه وتحت قهره وتصرفه وتدبيره ، لا إله إلّا هو ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أي : السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم ، ثم قال تعالى لعبده ورسوله محمّد ﷺ الذي بعثه بالتوحيد العظيم وبالشرع القويم ، وأمره أن يدعو الناس إلى صراط اللّه المستقيم : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ والمعنى لا أتخذ وليًا إلّا اللّه وحده لا شريك له ، فإنه فاطر السموات والأرض ، أي : خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ أي : وهو الرزّاق لخلقه من غير احتياج إليهم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الآية وقرأ بعضهم هاهنا ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ ﴾ أي : لا يأكل ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبيّ ﷺ على طعام فانطلقنا معه ، فلما طعم النبيّ ﷺ وغسل يديه قال : «الحَمْدُ للّه الذي يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ، وَمَنَّ عَلَيْنَا فَهَدَانَا وَأَطْعَمَنَا وَسَقَانَا مِنَ الشَّرَابِ ، وَكَسَانَا مِن العُرْيِ ، وَكُلَّ بَلاَءٍ حَسَنٍ أَبْلاَنَا . الحَمْدُ للّه غَيْرَ مُوَدَّعٍ رَبِّي وَلاَ مَكْفِيٍّ وَلاَ مَكْفُورٍ وَلا مُسْتَغْنىً عَنْهُ . الحَمْدُ للّه الَّذِي أَطْعَمَنَا مِنَ الطَّعَام ، وَسَقَانَا مِنَ الشَّرَابِ ، وَكَسَانَا مِنَ العُرْيِ ، وَهَدَانَا مِنَ الضَّلاَلِ ، وَبَصَّرَنَا مِنَ العَمَى ، وَفَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّن خَلَقَ تَفْضِيلاً ، الحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ العَالَمِينَ» (٢) . ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ أي : من هذه الأمة ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ مَن يُصْرَفْ عَنْهُ ﴾ أي العذاب ﴿ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ﴾ يعني فقد رحمه اللّه ﴿ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ كقوله : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ والفوز حصول الربح ونفي الخسارة .

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۝ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا أنه مالك الضر والنفع ، وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ الآية . وفي الصحيح : أن رسول اللّه ﷺ كان يقول : «اللَّهُمَّ لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ ، وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ ، وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ» (٣) ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ أي : هو الذي خضعت له الرقاب ، وذلت له الجبابرة ، وعنت له الوجوه ، وقهر كل شيء ، ودانت له الخلائق ، وتواضعت

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٤٤٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٦/٤) والحاكم في المستدرك (٥٤٦/١) .
(٣) أخرجه مسلم في المساجد (١٣٧ ، ١٣٨) وأحمد في مسنده (٩٣/٤ ، ٩٥) والترمذي في سننه (٢٢٩) .

عظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته على الأشياء ، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي : في جميع أفعاله ﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ بمواضع الأشياء ومحالها ، فلا يعطي إلّا من يستحق ولا يمنع إلّا من يستحق ، ثم قال : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ﴾ أي : من أعظم الأشياء شهادة ﴿ قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي : هو العالم بما جئتكم به وما أنتم قائلون لي ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ أي : وهو نذير لكل من بلغه ، قال محمد بن كعب في قوله : ﴿ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ من بلغه القرآن فكأنما رأى النبيّ ﷺ ، وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ .

قال الربيع بن أنس : حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ وأن ينذر بالذي أنذر .

وقوله : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ ﴾ أيها المشركون ﴿ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ ﴾ كقوله : ﴿ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ثم قال تعالى مخبرًا عن أهل الكتاب أنهم يعرفون هذا الذي جئتهم به كما يعرفون أبناءهم بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء ، فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمّد ﷺ ونعته وصفته وبلده ومهاجره وصفة أمته ، ولهذا قال بعده : ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي : خسروا كل الخسارة ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بهذا الأمر الجلي الظاهر الذي بشرت به الأنبياء ، ونوهت به في قديم الزمان وحديثه ، ثم قال : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾ أي : لا أظلم ممن تقوّل على الله ، فادعى أن الله أرسله ، ولم يكن أرسله ، ثم لا أظلم ممن كذب بآيات الله وحججه وبراهينه ودلالاته ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي : لا يفلح هذا ولا هذا ، لا المفتري ولا المكذب .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ يوم القيامة فيسألهم عن الأصنام والأنداد التي كانوا يعبدونها من دونه قائلًا لهم : ﴿ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ كقوله تعالى في سورة القصص : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ ﴾ أي : حجتهم ﴿ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ عن ابن عبّاس ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ ﴾ أي : حجتهم . وعن ابن جريج عن ابن عبّاس : أي قيلهم ، ﴿ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ وقال ابن جرير : والصواب ، ثم لم يكن قيلهم عند فتنتنا إياهم اعتذارًا عما سلف منهم من الشرك بالله ﴿ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ . وعن ابن عبّاس قال : أتاه رجل فقال : يا ابن عبّاس سمعت الله يقول : ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ . قال : أما قوله : ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلّا أهل الصلاة ، فقالوا : تعالوا فلنجحد فيجحدون ، فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثًا . فهل في قلبك الآن شيء ؟ إنه ليس من القرآن

شيء إلَّا ونزل فيه شيء ولكن لا تعلمون وجهه . ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ كقوله : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۚ ﴾ أي : يجيؤون ليستمعوا قراءتك ولا تجزي عنهم شيئًا لأن اللّه جعل ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أي : أغطية لئلا يفقهوا القرآن ﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ ﴾ أي : صممًا عن السماع النافع لهم . وقوله : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۚ ﴾ أي : مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات والبراهين لا يؤمنوا بها ، فلا فهم عندهم ولا إنصاف كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْۖ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ ﴾ أي : يحاجونك ويناظرونك في الحق بالباطل ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي : ما هذا الذي جئت به إلَّا مأخوذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم ، وقوله : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ ﴾ في معنى ينهون عنه قولان ؛ **أحدها** : أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق وتصديق الرسول والانقياد للقرآن ﴿ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ ﴾ أي : ويبعدون هم عنه فيجمعون بين الفعلين القبيحين ، لا ينتفعون ولا يدعون أحدًا ينتفع . قال ابن عبّاس : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ يردون الناس عن محمّد ﷺ أن يؤمنوا به . وقال محمّد ابن الحنفية : كان كفار قريش لا يأتون النبيّ ﷺ وينهون عنه . **والقول الثاني** : قال : نزلت في أبي طالب كان ينهى الناس عن النبيّ ﷺ أن يؤذى ، وقال محمد بن كعب القرظي : أي ينهون الناس عن قتله . وقوله : ﴿ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ ﴾ أي : يتباعدون منه ﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي : وما يهلكون بهذا الصنيع ولا يعود وباله إلَّا عليهم وهم لا يشعرون .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار ، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال ، فعند ذلك قالوا : ﴿ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا ليعملوا عملًا صالحًا ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين . قال اللّه تعالى : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ ﴾ أي : بل ظهر لهم حينئذٍ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة وإن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة كما قال قبله بيسير ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ ﴾ ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه كقوله مخبرًا عن فرعون وقومه ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ ﴾ ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان للناس ويبطنون الكفر ، ويكون هذا إخبارًا عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار ، ولا ينافي هذا كون هذه السور مكية ، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب ، فقد ذكر اللّه وقوع النفاق في سورة

مكية وهي العنكبوت ، فقال : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ وعلى هذا فيكون إخبارًا عن قول المنافقين في الدار الآخرة حين يعاينون العذاب ، فظهر لهم حينئذٍ غِبُّ ما كانوا يبطنون من الكفر والنفاق والشقاق ، والله أعلم . وأما معنى الإضراب في قوله : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ فإنهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان بل خوفًا من العذاب الذي عاينوه جزاء على ما كانوا عليه من الكفر ، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار ، ولهذا قال : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أي : في طلبهم الرجعة رغبة ومحبة في الإيمان ، ثم قال مخبرًا عنهم : إنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والمخالفة ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أي : في قولهم : ﴿ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ ، أي : لعادوا لما نهوا عنه ، ولقالوا : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا ﴾ أي : ما هي إلَّا هذه الحياة الدنيا ، ثم لا معاد بعدها ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ أي : أوقفوا بين يديه ﴿ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ﴾ ؟ أي : أليس هذا المعاد بحق وليس بباطل كما كنتم تظنون ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي : بما كنتم تكذبون به ، فذوقوا اليوم مسه ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ .

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن خسارة من كذب بلقائه ، وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتةً ، وعن ندامته على ما فرط من العمل وما أسلف من قبيح الفعل ؛ ولهذا قال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ وهذا الضمير يحتمل عوده على الحياة وعلى الأعمال وعلى الدار الآخرة ، أي : في أمرها ، وقوله : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ أي : يحملون ، وقال قتادة : يعملون ، وعن أبي مرزوق قال : يستقبل الكافر أو الفاجر عند خروجه من قبره كأقبح صورة رأيتها وأنتنه ريحًا ، فيقول : من أنت ، فيقول : أو ما تعرفني ؟ فيقول : لا والله إلَّا أنَّ الله قبح وجهك ، وأنتن ريحك ، فيقول : أنا عملك الخبيث ، هكذا كنت في الدنيا خبيث العمل منتنه ، فطالما ركبتني في الدنيا ، هلم أركبك ، فهو قوله : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ﴾ الآية ، وقال السدي : ليس من رجل ظالم يدخل قبره إلَّا جاءه رجل قبيح الوجه أسود اللون منتن الريح وعليه ثياب دنسة حتى يدخل معه قبره ، فإذا رآه قال : ما أقبح وجهك ، قال : كذلك كان عملك قبيحًا ، قال : ما أنتن ريحك ، قال : كذلك كان عملك منتنًا ، قال : ما أدنس ثيابك ، قال : فيقول : إن عملك كان دنسًا ، قال له : من أنت ؟ قال : عملك ، قال : فيكون معه في قبره ، فإذا بعث يوم القيامة قال له : إني كنت أحملك في الدنيا باللذات والشهوات وأنت اليوم تحملني ، قال : فيركب على ظهره ، فيسوقه حتى يدخله النار ، فذلك قوله : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ أي : إنما غالبها كذلك ﴿ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ

مِن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى مسليًا لنبيه ﷺ في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾ أي : قد أحطنا علمًا بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم ، كقوله : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ وقوله : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أي : لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر ﴿ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أي : ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم ، كما قال سفيان الثوري : قال أبو جهل للنبي ﷺ : إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به فأنزل الله ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [1] وقال أبو صالح وقتادة : يعلمون أنك رسول الله ويجحدون ، وذكر محمّد بن إسحاق عن الزهري في قصة أبي جهل حين جاء يستمع قراءة النبيّ ﷺ من الليل هو وأبو سفيان صخر بن حرب ، والأخنس بن شريق ولا يشعر أحد منهم بالآخر ، فاستمعوها إلى الصباح ، فلما هجم الصبح تفرقوا فجمعتهم الطريق ، فقال كل منهم للآخر : ما جاء بك ؟ فذكر له ما جاء به ، ثم تعاهدوا أن لا يعودوا لما يخافون من علم شباب قريش بهم ، لئلا يفتتنوا بمجيئهم ، فلما كانت الليلة الثانية ، جاء كل منهم ظنًّا أنه صاحبيه لا يجيئان لما سبق من العهود ، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق فتلاوموا ثم تعاهدوا أن لا يعودوا ، فلما كانت الليلة الثالثة جاءوا أيضًا ، فلما أصبحوا تعاهدوا أن لا يعودوا لمثلها ، ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمّد ، قال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها وما يراد بها ، قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به ، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمّد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدّقه ، قال : فقام عنه الأخنس وتركه .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ وتعزية له فيمن كذَّبه من قومه ، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ووعد له بالنصر كما نصروا ، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ ، ثم جاءهم النصر في الدنيا كما لهم النصر في الآخرة ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ أي : التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين ، كما قال : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي : من خبرهم كيف نصروا وأيدوا على من كذبهم من قومهم ، فلك فيهم أسوة وبهم قدوة . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٦٤) .

عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ أي : إن كان شق عليك إعراضهم عنك ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ قال ابن عبّاس : النفق السرب ، فتذهب فيه ، فتأتيهم بآية ، أو تجعل لك سلمًا في السماء ، فتصعد فيه ، فتأتيهم بآية أفضل مما أتيتهم به فافعل ، وقوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ قال ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ قال : إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى ، فأخبره الله أنه لا يؤمن إلّا من قد سبق له من الله السعادة في الذكر الأول ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ أي : إنما يستجيب لدعائك يا محمّد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه .

قوله : ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ يعني بذلك الكفار ؛ لأنهم موتى القلوب ، فشبههم الله بأموات الأجساد ، فقال : ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ وهذا من باب التهكم بهم والازدراء عليهم .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين أنهم كانوا يقولون : لولا نزل عليه آية من ربه ، أي : خارق على مقتضى ما كانوا يريدون ومما يتعنتون كقولهم : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾ الآيات ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : هو تعالى قادر على ذلك ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك ؛ لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة ، كما فعل بالأمم السالفة كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ وقوله : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ قال مجاهد : أي أصناف مصنفة تعرف بأسمائها . وقال قتادة : الطير أمة والإنس أمة ، والجن أمة ، وقال السدي : ﴿ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ أي : خلق أمثالكم .

وقوله : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي : الجميع علمهم عند الله ،ولا ينسى واحدًا من جميعها من رزقه وتدبيره سواء كان بريًا أو بحريًا ، كقوله : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : مفصح بأسمائها وأعدادها ومظانها ، وحاصر لحركاتها وسكناتها ، وقوله : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ قال ابن عبّاس : حشرها الموت ، وقال عكرمة عن ابن عبّاس : موت البهائم حشرها .

والقول الثاني : إن حشرها هو بعثها يوم القيامة ؛ لقوله : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ وعن أبي ذر قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ انتطحت عنزان فقال رسول الله ﷺ : « أَتَدْرُونَ فِيمَ انْتَطَحَتَا ؟ » قالوا : لا ندري قال : « لَكِنَّ اللَّهَ يَدْرِي وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا » (١) . وعن عثمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ الجَمَّاءَ لَتَقْتَصُّ مِنَ القَرْنَاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ » (٢) وعن أبي هريرة في قوله : ﴿ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٢/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٥٢/١٠) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٧٢/١ والهندي في كنز العمال (٣٨٩٨٦) .

فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ قال : يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شيء ، فيبلغ من عدل الله يومئذٍ أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول : كوني ترابًا ، فلذلك يقول الكافر : ﴿ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴾ .

وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ ﴾ أي : مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم ، وهو الذي لا يسمع ، أبكم وهو الذي لا يتكلم ، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر ، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق ، أو يخرج مما هو فيه كقوله : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ ولهذا قال : ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي : هو المتصرف في خلقه بما يشاء .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد ، المتصرف في خلقه بما يشاء ، وأنه لا معقب لحكمه ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه ، بل هو وحده لا شريك له الذي إذا سئل يجيب لمن يشاء ، ولهذا قال : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ أي أتاكم هذا أو هذا ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي : لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على رفع ذلك سواه ، ولهذا قال : ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي : في اتخاذكم آلهة معه ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ أي : في وقت الضرورة لا تدعون أحدًا سواه ، وستذهب عنكم أصنامكم وأندادكم كقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ ﴾ يعني الفقر والضيق في العيش ﴿ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ وهي الأمراض والأسقام والآلام ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أي : يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾ أي : فهلا إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكوا لدينا ﴿ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي : ما رقت ولا خشعت ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي : من الشرك والمعاندة والمعاصي ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ أي : أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي : فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون ، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم ، عياذًا بالله من مكره ، ولهذا قال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ ﴾ أي : من الأموال والأولاد والأرزاق ﴿ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ أي : على غفلة ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ أي : آيسون من كل خير . وعن ابن عباس : المبلس : الآيس ، وقال الحسن البصري : من وسّع الله عليه ، فلم يرَ أنه يمكر به ، فلا رأي له ، ومن قتر عليه ، فلم يرَ أنه ينظر له ، فلا رأي له ، ثم قرأ ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ قال : مكر بالقوم ورب الكعبة أعطوا حاجتهم ثم أخذوا ، وقال قتادة : بغت القوم أمر الله ، وما أخذ الله قومًا قط إلّا عند

سكرتهم وغرتهم ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله فإنه لا يغتر بالله إلَّا القوم الفاسقون .

وقال مالك : ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ رخاء الدنيا ويسرها ، وعن عقبة بن عامر عن النبيّ ﷺ ، قال : « إذا رَأَيْتَ اللَّه يُعْطِي العَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ » ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ »(١) وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ كان يقول : إذا أراد الله بقوم بقاء أو نماء رزقهم القصد والعفاف ، وإذا أراد بقوم اقتطاعًا فتح لهم - أو فتح عليهم - باب خيانة (٢) ﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ كما قال : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ۝ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ .

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ : قل لهؤلاء المكذبين المعاندين ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ ﴾ أي : سلبكم إياها كما أعطاكموها . كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ الآية ، ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما الانتفاع الشرعي ، ولهذا قال : ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم ﴾ كما قال : ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ وقوله : ﴿ مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ أي : هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم ، لا يقدر على ذلك أحد سواه ، ولهذا قال : ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ أي : نبينها ونوضحها ونفسرها دالة على أنه لا إله إلَّا الله ، وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ أي : ثم هم مع البيان يصدفون أي : يعرضون عن الحق ويصدون الناس عن اتباعه ، وعن ابن عبّاس : يصدفون أي : يعدلون ، وقال مجاهد وقتادة : يعرضون ، وقال السدي : يصدون .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً ﴾ أي : وأنتم لا تشعرون به حتى بغتكم وفجأكم ﴿ أَوْ جَهْرَةً ﴾ أي : ظاهرًا عيانًا ﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي : إنما كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله ، وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وقوله : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أي : مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات ، ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات ، ولهذا قال : ﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ ﴾ أي : فمن آمن قلبه بما جاءوا به وأصلح عمله باتباعه إياهم ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : بالنسبة لما يستقبلونه ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي : بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعها ، الله وليهم فيما خلفوه وحافظهم فيما تركوه ، ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أي : ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل وخرجوا عن أوامر الله وطاعته وارتكبوا من مناهيه ومحارمه وانتهاك حرماته .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٤٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٢٠) .
(٢) ذكره الهندي في كنز العمال (١٥٩٦٠) .

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٥١ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ أي : لست أملكها ولا أتصرف فيها ﴿ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ أي : ولا أقول لكم إني أعلم الغيب ، إنما ذاك من علم الله ﷻ ، ولا أطلع منه إلَّا على ما أطلعني عليه ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ أي : ولا أدعي أني ملك ، إنما أنا بشر من البشر ، يوحى إلي من الله ﷻ ، شرَّفني بذلك وأنعم عليّ به ، ولهذا قال : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ أي : لست أخرج عنه قيد شبر ولا أدنى منه ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ أي هل يستوي من اتبع الحق وهدي إليه ، ومن ضل عنه فلم ينقد له ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ وهذه كقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ وقوله : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أي : وأنذر بهذا القرآن يا محمّد ﴿ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لَيْسَ لَهُم ﴾ أي : يومئذ ﴿ مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أي : لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أراده بهم ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي : أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلَّا الله ﷻ ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ فيعملون في هذه الدار عملًا ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه ، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ أي : لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك ، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك ، وقوله : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ أي : يعبدونه ويسألونه ﴿ بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ ﴾ المراد به الصلاة المكتوبة ، وهذا كقوله : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أي : أتقبل منكم وقوله : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ أي : يريدون بذلك العمل وجه الله الكريم ، وهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات .

وقوله : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ كقول نوح عليه السلام في جواب الذين قالوا : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ قال : ﴿ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١١٢ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ أي : إنما حسابهم على الله ﷻ وليس عليّ من حسابهم من شيء ، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء ، وقوله : ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي : إن فعلت هذا والحالة هذه . وعن ابن مسعود قال : مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وخباب وصهيب وبلال وعمار ، فقالوا : يا محمّد أرضيت بهؤلاء ؟ فنزل فيهم القرآن ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ - إلى قوله - أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (١) . وعن المقدام بن شريح عن أبيه قال : قال سعد : نزلت هذه الآية في ستة من أصحاب النبيّ ﷺ منهم ابن مسعود ، قال : كنا نستبق إلى رسول الله ﷺ وندنو منه ونسمع

---

(١) أخرجه : الطبراني في الكبير (١٠٥٢٠) والبزار في مسنده (٢٢٠٩) . وبنحوه .

منه ، فقالت قريش تدني هؤلاء دوننا ، فنزلت ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ [(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ أي : ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض ﴿ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ كان غالب من اتبعه في أول بعثته ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء ، ولم يتبعه من الأشراف إلّا قليل ، كما قال قوم نوح لنوح : ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ ﴾ الآية وكما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان حين سأله عن تلك المسائل ، فقال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقال : بل ضعفاؤهم ، فقال : هم أتباع الرسل ، والغرض أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم ، ويعذبون من يقدرون عليه منهم ، وكانوا يقولون أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ أي : ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير لو كان ما صاروا إليه خيرًا ويدعنا ، وقوله : ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أي : أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم ، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وفي الحديث الصحيح : « إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلى صُوَرِكُمْ وَلاَ إِلَى أَلْوَانِكُمْ ، وَلكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » [(٢)] . وعن عكرمة في قوله : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ الآية . قال : جاء عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم بن عدي والحارث بن نوفل وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل في أشراف من بني عبد مناف من أهل الكفر إلى أبي طالب ، فقالوا : يا أبا طالب لو أن ابن أخيك محمّدًا يطرد عنه موالينا وحلفاءنا ، فإنما هم عبيدنا وعسفاؤنا ، كان أعظم في صدورنا ، وأطوع له عندنا ، وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقنا له ، قال : فأتى أبو طالب النبيّ ﷺ فحدَّثه بذلك ، فقال عمر بن الخطاب ﷺ : لو فعلت ذلك حتى تنظر ما الذي يريدون وإلى ما يصيرون من قولهم ، فأنزل الله ﷻ هذه الآية ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ قال : وكانوا بلالًا وعمار بن ياسر وسالمًا مولى أبي حذيفة وصبيحًا مولى أسيد ومن الحلفاء ابن مسعود والمقداد بن عمرو ومسعود وابن القاري وواقد بن عبد الله الحنظلي وعمرو بن عبد عمرو وذو الشمالين ومرثد بن أبي مرثد ، وأبو مرثد الغنوي حليف حمزة بن عبد المطلب وأشباههم من الحلفاء ، ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالي والحلفاء ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ الآية ، فلما نزلت أقبل عمر ﷺ فأتى النبيّ ﷺ فاعتذر من مقالته ، فأنزل الله ﷻ ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ الآية [(٣)] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : فأكرمهم برد السلام عليهم وبشرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم ، ولهذا قال : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ أي : أوجبها على نفسه الكريمة تفضلًا منه وإحسانًا وامتنانًا ﴿ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ﴾ قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل ، وعن أبان بن عكرمة قال : الدنيا كلها جهالة ﴿ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ ﴾

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٤٥ ، ٤٦) .
(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٤) وأحمد في مسنده (٢/٢٨٥) وابن ماجه في سننه (٤١٤٢) .
(٣) ذكره الطبري في تفسيره ٧/٢٦٥ .

أي : رجع عما كان عليه من المعاصي وأقلع وعزم على أن لا يعود ، وأصلح العمل في المستقبل ﴿ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لَمَّا قَضَى اللَّهُ عَلَى الخَلْقِ كَتَبَ فِي كِتَابٍ ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ : إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي » (١) وعن ابن عباس قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنَ القَضَاءِ بَيْنَ الخَلْقِ أَخْرَجَ كِتَابًا مِنْ تَحْتِ العَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي وَأَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً أَوْ قَبْضَتَيْنِ فَيُخْرِجُ مِنَ النَّارِ خَلْقًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا مَكْتُوبٌ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ عُتَقَاءُ اللَّهِ » (٢) وعن سلمان في قوله : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ قال : إنا نجد في التوراة عطفتين أن اللَّه خلق السموات والأرض وخلق مائة رحمة أو جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق ، ثم خلق الخلق فوضع بينهم رحمة واحدة وأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة ، قال : فبها يتراحمون وبها يتعاطفون وبها يتباذلون وبها يتزاورون وبها تحن الناقة وبها تبخ البقرة وبها تثغو الشاة وبها تتتابع الحيتان في البحر ، فإذا كان يوم القيامة جمع اللَّه تلك الرحمة إلى ما عنده ورحمته أفضل وأوسع ، ومما يناسب هذه الآية من الأحاديث أيضًا قوله ﷺ لمعاذ بن جبل : « أتدري ما حق اللَّه على العباد ؟! أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا » ، ثم قال : « أتدري ما حق العباد على اللَّه إذا هم فعلوا ذلك ؟! أن لا يعذبهم » (٣) .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ۝ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .

يقول تعالى : وكما بينا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد وذم المجادلة والعناد ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي : التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسل وقرئ ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (٤) أي : ولتستبين يا محمّد أو يا مخاطب سبيل المجرمين . وقوله : ﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ أي : على بصيرة من شريعة اللَّه التي أوحاها اللَّه إليّ ﴿ وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ﴾ أي : بالحق الذي جاءني من اللَّه ﴿ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ﴾ أي : من العذاب ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ أي : إنما يرجع أمر ذلك إلى اللَّه ، إن شاء عجل لكم ما سألتموه من ذلك ، وإن شاء أنظركم وأجلكم لما له في ذلك من الحكمة العظيمة ، ولهذا قال : ﴿ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ أي : وهو خير من فصل القضايا وخير الفاتحين في الحكم بين عباده .

وقوله : ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي : لو كان مرجع ذلك إليّ لأوقعت لكم ما تستحقونه من ذلك ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣١٩٤) ومسلم في التوبة (١٦) وأحمد في مسنده (٢/٢٦٠ ، ٤٣٣) .
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٦) .
(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٥٠) والترمذي في السنن (٢٦٤٣) وأحمد في مسنده ٥/٢٣٠ .
(٤) قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر (ولتستبين) بالتذكير والباقون بالتأنيث و (سبيل) قرأ المدنيان بنصب اللام والباقون بالرفع (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١١٠) .

وبين ما ثبت عن عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحُد ؟ فقال : «لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد ظللتني ، فنظرت ، فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال : فناداني ملك الجبال وسلم علي ثم قال : يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك ، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت ، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين » ، فقال رسول الله ﷺ : « بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا »(١) فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم فاستأنى بهم ، وسأل لهم التأخير ، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئًا ، فما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ فالجواب والله أعلم أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم ، وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم ، بل عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين ، وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوبًا وشمالًا ، فلهذا استأنى بهم وسأل الرفق بهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « مَفَاتِحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّه »(٢) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ . وقوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ أي : محيط علمه الكريم بجميع الموجودات بريها وبحريها لا يخفى عليه من ذلك شيء ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

وقوله : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ أي : ويعلم الحركات حتى من الجمادات ، فما ظنك بالحيوانات ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم ، وعن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ قال : ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وملك موكل بها يكتب ما يسقط منها . وقوله : ﴿ وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ قال عبد الله بن الحارث : ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة إلا وعليها ملك موكل يأتي الله بعلمها ، رطوبتها إذا رطبت ويبوستها إذا يبست .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴾ .

يقول تعالى : إنه يتوفى عباده في منامهم بالليل ، وهذا هو التوفي الأصغر كما قال تعالى :

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣١) ومسلم في الجهاد والسيرة (١١١) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٢٧) وأحمد في مسنده (٢٤/٢) .

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ فذكر في هذه الآية الوفاتين الكبرى والصغرى ، وهكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفاتين الصغرى ثم الكبرى فقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ أي : ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه في ليلهم ونهارهم ، في حال سكونهم وحال حركتهم كما قال : ﴿ سَوَاءٌ مِنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ وقوله ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ أي : ما كسبتم من الأعمال فيه ﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ أي : في النهار ، قال عبد الله بن كثير : أي : في المنام ، والأول أظهر ، عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال : « مَعَ كُلِّ إِنسَانٍ مَلَكٌ إِذَا نَامَ أَخَذَ نَفْسَهُ وَيُرَدُّ إِلَيْهِ ، فَإِنْ أَذِنَ اللَّهُ فِي قَبْضِ رُوحِهِ قَبَضَهُ وَإِلَّا رُدَّ إِلَيْهِ »(١) . فذلك قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ﴾ .

وقوله : ﴿ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ يعني به أجل كل واحد من الناس ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم ﴾ أي : يخبركم ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : ويجزيكم على ذلك إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ، وقوله : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ أي : وهو الذي قهر كل شيء وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ أي : من الملائكة يحفظون بدن الإنسان كقوله : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ وحفظه يحفظون عمله ويحصونه ، كقوله : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ أي : احتضر وحان أجله ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ أي : ملائكة موكلون بذلك ، قال ابن عبّاس : لملك الموت أعوان من الملائكة يخرجون الروح من الجسد ، فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم ، وقوله : ﴿ وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ أي : في حفظ روح المتوفى ، بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله ﷻ ، إن كان من الإبرار ففي عليين ، وإن كان من الفجار ففي سجين ، عياذًا بالله من ذلك .

وقوله : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ قال ابن جرير : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا ﴾ يعني الملائكة ﴿ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ عن أبي هريرة ﷺ عن النبيّ ﷺ أنه قال : « إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ قَالُوا : اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ ، اخْرُجِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ ، فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا ، فَيُقَالُ : من هذا ؟ فيقال فلان ، فيقال : مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ ، ادْخُلِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ ، فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ قَالُوا : اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ ، اخْرُجِي ذَمِيمَةً ، وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ، فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا فَيُقَالُ : مَنْ هَذَا ؟ فَيُقَالُ : فُلَانٌ ، فيقال : لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ ارْجِعِي ذَمِيمَةً ؛ فَإِنَّهُ لَا يُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ،

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٥/٣) .

فتُرْسَلُ مِنَ السَّمَاءِ ، ثُمَّ تَصِيرُ إِلى القَبْرِ ، فيَجلسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فيُقَالُ لَهُ مِثْل ما قِيلَ في الحَدِيثِ الأَوَّلِ ، وَيُجلَسُ الرَّجُلُ السَّوءُ فيقالُ لَهُ مِثْلَ مَا قِيلَ في الحَدِيثِ الثَّاني »(١) ويحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ ﴾ يعني الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة فيحكم فيهم بعدله ولهذا قال : ﴿ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ .

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًا على عباده في إنجائه المضطرين منهم من ظلمات البر والبحر ، أي الحائرين الواقعين في المهامه البرية وفي اللجج البحرية إذا هاجت العاصفة ، فحينئذٍ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له ، كقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ الآية ، وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ أي : جهرًا وسرًا ﴿ لَّئِنْ أَنجَىٰنَا ﴾ أي : من هذه الضائقة ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أي : بعدها ، قال الله : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ ﴾ أي : بعد ذلك ﴿ تُشْرِكُونَ ﴾ أي : تدعون معه في حال الرفاهية آلهة أخرى . وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ لما قال : ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ عقبه بقوله : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا ﴾ أي : بعد إنجائه إياكم . قال الحسن : في قوله : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال : هذه للمشركين . وقيل : لأمة محمد ﷺ وعفا عنهم ، ونذكر هنا الأحاديث الواردة في ذلك والآثار وبالله المستعان وعليه التكلان وبه الثقة .

قال البخاري رحمه الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ يلبسكم : يخلطكم من الالتباس ، يلبسوا : يخلطوا ، شيعًا : فرقًا(٢) وعن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « أَعُوذُ بِوَجْهِكَ » ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال : « أَعُوذُ بِوَجْهِكَ » ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « هَذِهِ أَهْوَنُ - أَوْ - أَيْسَرُ »(٣) .

عن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال : أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية ، فدخل فصلى ركعتين فصلينا معه ، فناجى ربه ﷻ طويلًا ثم قال : « سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا ، سَأَلْتُهُ أَنْ لا يَهْلِكَ أُمَّتِي بِالغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا ، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِي بالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا ، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا »(٤) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٤/٢ ، ٣٦٥) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن باب قوله ﴿ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ ﴾ وأحمد في مسنده (٣٠٩/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٢٨) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٥/١) والهندي في كنز العمال (٦٠/٣) وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٧/٣ ، ١٨) .

وعن خباب بن الأرت مولى بني زهرة وكان قد شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ أنه قال : وافيت رسول الله ﷺ في ليلة صلاها كلها حتى كان مع الفجر ، فسلم رسول الله ﷺ من صلاته ، فقلت : يا رسول الله لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت مثلها ، فقال رسول الله ﷺ : « أَجَل إِنَّهَا صَلاةُ رَغَبٍ وَرَهَبٍ ، سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ فِيهَا ثَلاثَ خِصَالٍ ، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً ، سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ أَنْ لا يُهْلِكَنَا بِمَا أَهْلَكَ بِهِ الأُمَمَ قَبْلَنَا فَأَعْطَانِيهَا ، وَسَأَلْتُ رَبِّي ﷻ أَنْ لا يُظْهِرَ عَلَيْنَا عَدُوًّا مِنْ غَيْرِنَا فَأَعْطَانِيهَا ، وَسَأَلْتُ رَبِّي ﷻ أَنْ لا يَلْبِسَنَا شِيَعًا فَمَنَعَنِيهَا » (١) .

وعن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال : فقام النبيّ ﷺ ، فتوضأ ثم قال : « اللَّهُمَّ لا تُرْسِلْ عَلَى أُمَّتِي عَذَابًا مِنْ فَوْقِهِمْ وَلاَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَلاَ تُلْبِسْهُمْ شِيَعًا وَلا تُذِقْ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ » قال : فأتاه جبريل فقال : يا محمّد إن الله قد أجار أمتك أن يرسل عليهم عذابًا من فوقهم أو من تحت أرجلهم (٢) .

وعن أُبيّ بن كعب ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال : فهي أربع خلال منها اثنتان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة ، ألبسوا شيعًا وذاق بعضهم بأس بعض ، وبقيت اثنتان لابد منهما واقعتان الرجم والخسف ، وعن الحسن في قوله : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ ﴾ الآية ، قال : حسبت عقوبتها حتى عمل ذنبها فلما عمل ذنبها أرسلت عقوبتها . وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو مالك والسدي وابن زيد وغير واحد : في قوله : ﴿ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ يعني الرجم ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ يعني الخسف ، وهذا هو اختيار ابن جرير ، وعن عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال : كان عبد الله بن مسعود يصيح وهو في المسجد أو على المنبر ، يقول : ألا أيها الناس إنه قد نزل بكم ، إن الله يقول : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ لو جاءكم عذاب من السماء لم يبق منكم أحدًا ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ لو خسف بكم الأرض أهلككم ولم يبق منكم أحد ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ ألا إنه نزل بكم أسوأ الثلاث .

وقوله : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾ يعني يجعلكم متلبسين شيعًا فرقًا متخالفين . وعن ابن عبّاس يعني الأهواء ، وقد ورد في الحديث المروي من طرق عنه ﷺ أنه قال : « وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال ابن عبّاس : يعني يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل . وقوله تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ أي : نبيّنها ونوضحها مرة ونفسرها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ أي : يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه . قال زيد بن أسلم : لما نزلت ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ الآية ، قال رسول الله ﷺ : « لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ بِالسَّيْفِ » قالوا : ونحن نشهد أن لا إله إلّا الله وأنك رسول الله ؟ قال : « نَعَمْ » فقال بعضهم : لا يكون هذا أبدًا أن يقتل بعضنا بعضًا ونحن مسلمون ، فنزلت : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١٠٨) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده ٥/١٣٤ ، ١٣٥ . (٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/٤٣٠) .

قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ ﴾ أي : بالقرآن الذي جئتهم به والهدى والبيان ﴿ قَوْمُكَ ﴾ يعني قريشًا ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ أي : الذي ليس وراءه حق ﴿ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ أي : لست عليكم بحفيظ ولست بموكل بكم ، كقوله : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ أي : إنما عليَّ البلاغ وعليكم السمع والطاعة ، فمن اتبعني سعد في الدنيا والآخرة ، ومن خالفني فقد شقي في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال : ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ قال ابن عبّاس وغير واحد : أي لكل نبأ حقيقة ، أي لكل خبر وقوع ولو بعد حين ، كما قال : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴾ وقال : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ وهذا تهديد ووعيد أكيد ، ولهذا قال بعده : ﴿ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ أي : بالتكذيب والاستهزاء ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ أي : حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ ، والمراد بذلك كل فرد من آحاد الأمة أن لا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها ، فإن جلس أحد معهم ناسيًا ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ بعد التذكر ﴿ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ولهذا ورد في الحديث : « رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأُ ، وَالنِّسْيَانُ ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ » (٢) .

وقوله : ﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ أي : إذا تجنبوهم ، فلم يجلسوا معهم في ذلك فقد برئوا من عهدتهم وتخلصوا من إثمهم ، وعن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ قال : ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك ، أي : إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم ، وقال آخرون : بل معناه : وإن جلسوا معهم فليس عليهم من حسابهم من شيء ، وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية وهي قوله : ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ وعلى قولهم يكون قوله : ﴿ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي : ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذٍ تذكيرًا لهم عما هم فيه لعلهم يتقون ذلك ولا يعودون إليه .

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي : دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلًا فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم ، ولهذا قال : ﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ ﴾ أي : ذكر الناس بهذا القرآن وحذرهم نقمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة ، وقوله تعالى : ﴿ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (١٢١) ومسلم في الإيمان (١١٩ ، ١٢٠) وأحمد في مسنده (١/٢٣٠) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٠٤٣) .

كَسَبَتْ ﴾ أي : لئلا تبسل ، وعن مجاهد وعكرمة والحسن والسدي : تبسل : تسلم ، وعن ابن عبّاس : تفتضح . وقال قتادة : تحبس . وقال مرة بن زيد : تؤاخذ . وقال الكلبي : تجزى . وكل هذه الأقوال والعبارات متقاربة في المعنى ، وحاصلها الإسلام للهلكة والحبس عن الخير والارتهان عن درك المطلوب ، كقوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾ وقوله : ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أي : لا قريب ولا أحد يشفع فيها : ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾ أي : ولو بذلك كل مبذول ما قبل منها كقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا ﴾ الآية ، وكذا قال ههنا : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ .

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ .

قال السدي : قال المشركون للمسلمين : اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمّد ، فأنزل اللّه ﷻ : ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا ﴾ أي : في الكفر ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ فيكون مثلنا مثل الذي استهوته الشياطين في الأرض ، يقول : مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق فضلَّ الطريق ، فحيرته الشياطين واستهوته في الأرض وأصحابه على الطريق فجعلوا يدعونه إليهم يقولون : ائتنا فإنا على الطريق ، فأبى أن يأتيهم ، فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمّد ﷺ ، ومحمّد هو الذي يدعو إلى الطريق ، والطريق هو الإسلام . وقال قتادة : ﴿ ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أضلته في الأرض يعني استهوته سيرته ، كقوله : ﴿ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ الآية ، هذا مثل ضربه اللّه للآلهة ومن يدعو إليها ، والدعاة الذين يدعون إلى هدى اللّه ﷻ ، كمثل رجل ضل عن طريق تائهًا ، إذ ناداه منادٍ يا فلان ابن فلان هلم إلى الطريق ، وله أصحاب يدعونه يا فلان هلم إلى الطريق ، فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة ، وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق ، وهذه الداعية التي تدعو في البرية من الغيلان ، يقول : مثل من يعبد هذه الآلهة من دون اللّه ، فإنه يرى أنه في شيء حتى يأتيه الموت ، فيستقبل الندامة والهلكة .

وقوله : ﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ هم الغيلان يدعونه باسمه واسم أبيه وجده فيتبعها ، وهو يرى أنه في شيء فيصبح وقد رمته في هلكة ، وربما أكلته ، أو تلقيه في مضلة من الأرض يهلك فيها عطشًا ، فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تعبد من دون اللّه ﷻ . وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ ﴾ هو الذي لا يستجيب لهدى اللّه ، وهو رجل أطاع الشيطان ، وعمل في الأرض بالمعصية وحاد عن الحق وضل عنه ، وله أصحاب يدعونه إلى الهدى ويزعمون أن الذي يأمرونه به هدى ، يقول اللّه : ذلك لأوليائهم من الإنس ﴿ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى

اللَّهِ ﴾ والضلال ما يدعو إليه الجن . قال : ﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ ﴾ كما قال : ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ﴾ وقال : ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ وقوله : ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : نخلص له العبادة وحده لا شريك له ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ ﴾ أي : وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه في جميع الأحوال ﴿ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أي : يوم القيامة .

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أي : بالعدل ، فهو خالقهما ومالكهما والمدبر لهما ولمن فيهما . وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ﴾ يعني يوم القيامة الذي يقول الله كن فيكون عن أمره كلمح البصر أو هو أقرب ، ويوم منصوب إما على العطف على قوله : واتقوه ، وتقديره : واتقوا يوم يقول : كن فيكون ، وإما على قوله : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أي : وخلق يوم يقول : كن فيكون ، فذكر بدء الخلق وإعادته وهذا مناسب . وإما على إضمار فعل تقديره : واذكر يوم يقول كن فيكون ، وقوله : ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ ﴾ جملتان محلهما الجر على أنهما صفتان لرب العالمين ، وقوله : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من قوله : ويوم يقول كن فيكون يوم ينفخ في الصور ، ويحتمل أن يكون ظرفًا لقوله : ﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ كقوله : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ واختلف المفسرون في قوله : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ فقال بعضهم : المراد بالصور هنا جمع صورة ، أي يوم ينفخ فيها فتحيا . قال ابن جرير : كما يقال سور : لسور البلد وهو جمع سورة والصحيح أن المراد بالصور ، القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام . قال ابن جرير : والصواب عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِنَّ إِسْرَافِيلَ قَدِ الْتَقَمَ الصُّورَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ » (١) وعن عبد الله بن عمرو قال : قال أعرابي : يا رسول الله ما الصور ؟ قال : « قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ » (٢) .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر ، وإنما كان اسمه تارخ . وعن عكرمة عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾ يعني بآزر الصنم ، وأبو إبراهيم اسمه تارخ وأمه اسمها شاني وامرأته اسمها سارة وأم إسماعيل اسمها هاجر وهي سرية إبراهيم ، وهكذا قال غير واحد من علماء النسب : أن اسمه تارخ ، وقال مجاهد والسدي : آزر اسم صنم ، قلت : كأنه غلب عليه آزر لخدمته ذلك الصنم فالله أعلم ، وقال ابن جرير وقال آخرون : هو سب وعيب بكلامهم ومعناه معوج ولم يسنده ولا حكاه عن أحد . وقد ذكر عن معتمر بن سليمان سمعت أبي يقرأ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾ قال : بلغني أنها أعوج ، وأنها أشد كلمة قالها إبراهيم عليه السلام ، ثم قال ابن جرير : والصواب

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٦/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٢/٢) والترمذي في سننه (٣٢٤٤) والدارمي في سننه (٣٢٥/٢) .

أن اسم أبيه آزر ، ثم أورد على نفسه قول النسابين : أن اسمه تارخ ، ثم أجاب بأنه قد يكون له اسمان كما لكثير من الناس ، أو يكون أحدهما لقبًا ، وهذا الذي قاله جيد قوي ، والله أعلم .

واختلف القراء في أداء قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ ﴾ فحكى ابن جرير عن الحسن البصري وأبي يزيد المدني أنهما كانا يقرآن ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾ معناه يا آزر أتتخذ أصنامًا آلهة ، وقرأ الجمهور بالفتح إما على أنه علم أعجمي لا ينصرف ، وهو بدل من قوله : لأبيه ، أو عطف بيان وهو أشبه ، وعلى قول من جعله نعتًا لا ينصرف أيضًا كأحمر وأسود ، فأما من زعم أنه منصوب لكونه معمولًا لقوله : ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ﴾ تقديره يا أبت أتتخذ آزر أصنامًا آلهة ، فإنه قول بعيد في اللغة ، فإن ما بعد حرف الاستفهام لا يعمل فيما قبله لأن له صدر الكلام (١) . وهو مشهور في قواعد العربية ، والمقصود أن إبراهيم وعظ أباه في عبادة الأصنام وزجره عنها ونهاه فلم ينته كما قال : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ؟ ﴾ أي : أتتأله لصنم تعبده من دون الله ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ ﴾ أي : السالكين مسلكك ﴿ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : تائهين لا يهتدون أين يسلكون ، بل في حيرة وجهل وأمركم في الجهالة والضلال بين واضح لكل ذي عقل سليم . وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۝ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ۝ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ۝ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ۝ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ۝ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ فكان إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه مدة حياته ، فلما مات على الشرك وتبينَّ إبراهيم ذلك رجع عن الاستغفار له وتبرأ منه ، وثبت في الصحيح : أن إبراهيم يلقى أباه آزر يوم القيامة ، فيقول له آزر : يا بني اليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : أي رب ألم تعدني أنك لا تخزني يوم يبعثون ، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقال : يا إبراهيم انظر ما وراءك ، فإذا هو بذبح متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار (٢) .

وقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي نبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله ﷻ في ملكه وخلقه ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، كقوله : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ وعن ابن عباس في قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ فإنه تعالى جلا له الأمر سره وعلانيته ، فلم يخف عليه شيء من أعمال الخلائق ، فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله : إنك لا تستطيع هذا ، فرده كما كان قبل ذلك ، فيحتمل أن يكون كشف له عن بصره حتى رأى ذلك عيانًا ، ويحتمل أن يكون عن بصيرته حتى شاهده بفؤاده ، وتحققه وعرفه وعلم ما في ذلك من الحكم الباهرة والدلالات القاطعة ، كما في حديث المنام : « أَتَانِي رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلأُ الأَعْلَى ؟ فَقُلْتُ : لا أَدْرِي يا رَبِّ ، فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ ، فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ

(١) قرأ يعقوب(آزر) بالرفع والباقون بالنصب .(تقريب النشر ص ١١١) . (٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء(٣٣٥٠) .

وَعَرَفْتُ ذَلِكَ »[1] . وقوله : ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ قيل : الواو زائدة تقديره : وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين ، كقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ وقيل : بل هي على بابها ، أي : نريه ذلك ليكون عالمًا وموقنًا .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ﴾ أي : تغشاه وستره ﴿ رَءَا كَوْكَبًا ﴾ أي : نجمًا ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ ﴾ أي : غاب . قال محمّد بن إسحاق بن يسار : الأفول : الذهاب ، وقال ابن جرير : يقال : أفل النجم يأفل ويأفل أفولًا وأفلًا إذا غاب .

ويقال : أين أفلت عنا ؟ بمعنى أين غبت عنا ﴿ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴾ قال قتادة : علم أن ربه دائم لا يزول ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا ﴾ أي : طالعًا ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾ أي : هذا المنير الطالع ربي ﴿ هَٰذَآ أَكْبَرُ ﴾ أي : جرمًا من النجم ومن القمر وأكثر إضاءة ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَتْ ﴾ أي : غابت ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي : أخلصت ديني وأفردت عبادتي ﴿ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أي : خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ﴿ حَنِيفًا ﴾ أي : في حال كوني حنيفًا أي : مائلًا عن الشرك إلى التوحيد ولهذا قال : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وقد اختلف المفسرون في هذا المقام ، هل هو مقام نظر أو مناظرة ، فروي عن ابن عبّاس ما يقتضي أنه مقام نظر ، واختاره ابن جرير مستدلًا بقوله : ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى ﴾ الآية ، وقال محمّد بن إسحاق : قال ذلك حين خرج من السرب الذي ولدته فيه أمه حين تخوفت عليه من نمورذ بن كنعان ، لما كان قد أخبر بوجود مولود يكون ذهاب ملكه على يديه ، فأمر بقتل الغلمان عامئذ ، فلما حملت أم إبراهيم به وحان وضعها ، ذهبت به إلى سرب ظاهر البلد ، فولدت فيه إبراهيم وتركته هناك ، وذكر أشياء من خوارق العادات ، كما ذكرها غيره من المفسرين من السلف والخلف .

والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظرًا لقومه ، مبينًا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام ، فبيَّن في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية . ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم ، الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه ، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر وغير ذلك مما يحتاجون إليه . وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل ، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة ، وهي القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشترى وزحل وأشدهن إضاءة وأشرفهن عندهم الشمس ثم القمر ثم الزهرة ، فبين أولًا صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية ، فإنها مسخرة مقدرة بسير معين لا تزيغ عنه يمينًا ولا شمالًا ، ولا تملك لنفسها تصرفًا ، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة لما له في ذلك من الحكم العظيمة ، وهي تطلع من الشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه ، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال ، ومثل هذه لا تصلح للإلهية ، ثم انتقل إلى القمر ، فبيَّن فيه مثل ما بيَّن في النجم ، ثم انتقل

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٨/١) .

إلى الشمس كذلك ، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار ، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أي : أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن ، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعًا ثم لا تنظرون ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي : إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها الذي بيده ملكوت كل شيء وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه .

وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظرًا في هذا المقام ، وهو الذي قال الله في حقه : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ وقد ثبت عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ » (١) وعن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال : « قَالَ اللهُ إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ » (٢) وقال الله في كتابه العزيز : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ كما سيأتي بيانه . فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله أمة قانتًا لله حنيفًا ولم يك من المشركين ناظرًا في هذا المقام ، بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلاشك ولا ريب ، ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظرًا لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظرًا قوله تعالى :

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۞ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۞ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن خليله إبراهيم حين جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد وناظروه بشبه من القول أنه قال : ﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾ أي : تجادلونني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو ، وقد بصرني وهداني إلى الحق وأنا على بينة منه ، فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة ، وشبهكم الباطلة ، وقوله : ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ﴾ أي : ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه : أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئًا وأنا لا أخافها ولا أباليها ، فإن كان لها كيد فكيدوني بها ولا تنظرون ، بل عاجلوني بذلك . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ﴾ استثناء منقطع أي لا يضر ولا ينفع إلا الله ﷻ ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ أي : أحاط علمه بجميع الأشياء فلا تخفى عليه خافية ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي : فيما بينته لكم ، أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة ، فتنزجروا عن عبادتها ، وقوله : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ ﴾ أي : كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله ﴿ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ﴾ قال ابن عباس : أي حجة وقوله : ﴿ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : فأي طائفتين أصوب ، الذي عبد من بيده الضر والنفع أو الذي عبد من لا يضر ولا ينفع بلا

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٥) وأحمد في مسنده (٢/٢٣٣) وأبو داود في سننه (٤١٧٤) .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٧/٢٦٣) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/٢٦) .

دليل ، أيهما أحق بالأمن من عذاب اللَّه يوم القيامة لا شريك له . قال اللَّه تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ أي : هؤلاء الذين أخلصوا العبادة للَّه وحده لا شريك له ولم يشركوا به شيئًا ، هم الآمنون يوم القيامة المهتدون في الدنيا والآخرة .

وعن عبد اللَّه بن مسعود قال : لما نزلت ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ قال أصحابه : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فنزلت ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ وعنه أيضا قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ شق ذلك على الناس ، فقالوا : يا رسول اللَّه أينا لا يظلم نفسه ؟ قال : « إِنَّهُ لَيْسَ الَّذِي تَعْنُونَ أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ إِنَّما هُوَ الشِّرْكُ » (١) .

وعن جرير بن عبد اللَّه قال : خرجنا مع رسول اللَّه ﷺ فلما برزنا من المدينة إذا راكب يوضع نحونا فقال رسول اللَّه ﷺ : « كَأَنَّ هَذَا الرَّاكِبَ إِيَّاكُمْ يُرِيدُ » فانتهى إلينا الرجل ، فسلم فرددنا عليه ، فقال له النبيّ ﷺ : « مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ » قال : من أهلي وولدي وعشيرتي قال : « فَأَيْنَ تُرِيدُ ؟ » قال : أريد رسول اللَّه ﷺ قال : « فَقَدْ أَصَبْتَهُ » قال : يا رسول اللَّه علمني ما الإيمان ؟ قال : « أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ البَيْتَ » قال : قد أقررت ، قال : ثم إن بعيره دخلت يده في جحر جرذان ، فهوى بعيره ، وهوى الرجل ، فوقع على هامته فمات ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « عَلَيَّ بِالرَّجُلِ » فوثب إليه عمّار بن ياسر وحذيفة بن اليمان فأقعداه ، فقالا : يا رسول اللَّه قبض الرجل ، قال : فأعرض عنهما رسول اللَّه ﷺ ، ثم قال لهما رسول اللَّه ﷺ : « أَمَا رَأَيْتُما إِعْرَاضِي عَنِ الرَّجُلِ ، فَإِنِّي رَأَيْتُ مَلَكَيْنِ يَدُسَّانِ فِي فِيهِ مِنْ ثِمَارِ الجَنَّةِ ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ مَاتَ جَائِعًا » ثم قال رسول اللَّه ﷺ : « هَذَا مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّه ﷻ فِيهِمْ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ الآية ، ثم قال : « دُونَكُمْ أَخَاكُمْ » فاحتملناه إلى الماء فغسلناه وحنطاه وكفناه وحملناه إلى القبر ، فجاء رسول اللَّه ﷺ حتى جلس على شفير القبر فقال : « أَلْحِدُوا وَلا تَشُقُّوا فَإِنَّ اللَّحْدَ لَنَا وَالشَّقُّ لِغَيْرِنَا » (٢) .

وعن ابن عبّاس قال : كنا مع رسول اللَّه ﷺ في مسير ساره ، إذ عرض له أعرابي ، فقال : يا رسول اللَّه ، والذي بعثك بالحق لقد خرجت من بلادي وتلادي ومالي لأهتدي بهداك وآخذ من قولك ، وما بلغتك حتى ما لي طعام إلَّا من خضر الأرض فاعرض علي ، فعرض عليه رسول اللَّه ﷺ فقبل ، فازدحمنا حوله ، فدخل خف بكره في بيت جرذان ، فتردى الأعرابي فانكسرت عنقه ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « صَدَقَ وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالحَقِّ لَقَدْ خَرَجَ مِنْ بِلاَدِهِ وَتِلاَدِهِ وَمَالِهِ لِيَهْتَدِيَ بِهُدَايَ ، وَيَأْخُذَ مِنْ قَوْلِي وَمَا بَلَغَنِي حَتَّى مَا لَهُ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ خُضَرِ الأَرْضِ ، أَسَمِعْتُمْ بِالَّذِي عَمِلَ قَلِيلًا وَأُجِرَ كَثِيرًا ؟ هَذَا مِنْهُمْ . أَسَمِعْتُمْ بِالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يلبسوا إِيمَانهمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُون ؟

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٧٣٦٠) ومسلم في الإيمان (١٩٧) وأحمد في مسنده (٤٤٤/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٩/٤) والهندي في كنز العمال (٤٢٣٧٧) .

فَإِنَّ هَذَا مِنْهُمْ » (١) . وعن عبد الله بن سخبرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أُعْطِيَ فَشَكَرَ وَمُنِعَ فَصَبَرَ وَظَلَمَ فَاسْتَغْفَرَ وَظُلِمَ فَغَفَرَ » وسكت قال : فقالوا : يا رسول الله ما له ؟ قال : ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ أي : وجهنا حجته عليهم ، قال مجاهد وغيره : يعني بذلك قوله : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ﴾ الآية ، وقد صدقه الله وحكى له بالأمن والهداية فقال : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ ثم قال بعد ذلك كله : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ قرئ بالإضافة وبلا إضافة (٣) ، كما في سورة يوسف ، وكلاهما قريب في المعنى . وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ أي : حكيم في أقواله وأفعاله ، عليم أي : بمن يهديه ومن يضله ، وإن قامت عليه الحجج والبراهين كما قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق بعد أن طعن في السن وأيس هو وامرأته سارة من الولد ، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط ، فبشروهما بإسحاق ، فتعجبت المرأة من ذلك ، وقالت : ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ فبشروهما مع وجوده بنبوته ، وبأن له نسلًا وعقبًا ، كما قال تعالى : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة وقال : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ أي : ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما ، فتقر أعينكما به كما قرت بوالده ، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب ، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه وقعت البشارة به وبولده باسم يعقوب ، الذي فيه اشتقاق العقب والذرية ، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام ، حين اعتزل قومه وتركهم ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبًا إلى عبادة الله في الأرض ، فعوضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه لتقر بهم عينه ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩١/٤) والبيهقي في السنن الكبري (١٦٧/٩) .

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٨٤/١٠) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢٧٨/٤) .

(٣) قرأ الكوفيون (نرفع درجات من) هنا وفي يوسف بالتنوين ووافقهم يعقوب هنا والباقون بغير تنوين (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١١١) .

﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ وقال ههنا : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ ﴾ وقوله : ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي : من قبله هديناه كما هديناه ووهبنا له ذرية صالحة ، وكل منهما له خصوصية عظيمة ، أما نوح عليه السلام ، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به وهم الذين صحبوه في السفينة ، جعل الله ذريته هم الباقين ، فالناس كلهم من ذريته ، وأما الخليل إبراهيم عليه السلام ، فلم يبعث الله عز وجل بعده نبيًّا إلا من ذريته ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ ﴾ .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ ﴾ أي : وهدينا من ذريته ﴿ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾ الآية ، وعود الضمير إلى نوح لأنه أقرب المذكورين ظاهر لا إشكال فيه ، فإنه ليس من ذرية إبراهيم بل هو ابن أخيه هاران بن آزر ، اللهم إلا أن يقال : إنه دخل في الذرية تغليبًا كما في قوله : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ فإسماعيل عمه دخل في آبائه تغليبًا ، وفي ذكر عيسى عليه السلام في ذرية إبراهيم أو نوح على القول الآخر دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجل ؛ لأن عيسى عليه السلام إنما ينسب إلى إبراهيم عليه السلام بأمه مريم عليها السلام ، فإنه لا أب له . فعن أبي حرب بن أبي الأسود قال : أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر ، فقال : بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبيّ ﷺ تجده في كتاب الله ، وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده ؟ قال : أليس تقرأ سورة الأنعام ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾ حتى بلغ ﴿ وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ قال : بلى ، قال : أليس عيسى من ذرية إبراهيم وليس له أب ؟ قال : صدقت . فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته ، أو وقف على ذريته ، أو وهبهم ، دخل أولاد البنات فيهم ، فأما إذا أعطى الرجل بنيه ، أو وقف عليهم ، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه وبنو بنيه واحتجوا بقول الشاعر العربي :

بَنُونَا بَنُو أَبْنَائِنَا وَبَنَاتُنَا بَنُوهُنَّ أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الأَجَانِبِ

وقال آخرون : ويدخل بنو البنات فيهم أيضًا لما ثبت أن رسول الله ﷺ قال للحسن بن علي : « إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » (١) فسماه ابنًا ، فدل على دخوله في الأبناء . وقال آخرون : هذا تجوز . وقوله : ﴿ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ ﴾ ذكر أصولهم وفروعهم ، وذوي طبقتهم وأن الهداية أو الاجتباء شملهم كلهم ، ولهذا قال : ﴿ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ ﴾ أي : إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ تشديد لأمر الشرك وتغليظ لشأنه وتعظيم لملابسته ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ الآية ، وهذا شرط والشرط لا يقتضي جواز الوقوع . وقوله تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ ﴾ أي : أنعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم ولطفًا منا بالخليقة ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا ﴾ أي : بالنبوة ، ويحتمل أن يكون الضمير عائدًا على هذه الأشياء الثلاثة ، الكتاب

(١) أخرجه البخاري في الصلح (٢٧٠٤) وأحمد في مسنده (٥/٣٨) .

والحكم والنبوة . وقوله : ﴿ هَٰؤُلَآءِ ﴾ يعني أهل مكة ، قاله ابن عبّاس وغير واحد ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ أي : إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ومليين وكتابيين، فقد وكلنا بها قومًا آخرين ، أي : المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة ﴿ لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ أي : لا يجحدون منها شيئًا ولا يردون منها حرفًا واحدًا ، بل يؤمنون بجميعها محكمها ومتشابهها جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه وإحسانه .

ثم قال تعالى مخاطبًا عبده ورسوله محمّدًا ﷺ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ يعني الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباه ﴿ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ أي : هم أهل الهدى لا غيرهم ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ أي : اقتد واتبع ، وإذا كان هذا أمر للرسول ﷺ فأمته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به ، وسئل ابن عبّاس أفي (ص) سجدة ؟ فقال : نعم ثم تلا ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ ثم قال : هو منهم [١] . وقوله تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أي : لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم هذا القرآن أجرًا ، أي : أجرة ولا أريد منكم شيئًا ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي : يتذكرون به فيرشدوا من العمى إلى الهدى ، ومن الغي إلى الرشاد ومن الكفر إلى الإيمان .

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ .

يقول الله تعالى : وما عظموا الله حق تعظيمه إذ كذبوا رسله إليهم ، قال ابن عبّاس : نزلت في قريش ، وقيل : نزلت في طائفة من اليهود . وقيل : في فنحاص ، رجل منهم ، وقيل : في مالك ابن الصيف ﴿ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ والأول أصح ؛ لأن الآية مكية ، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء ، وقريش والعرب قاطبة كانوا ينكرون إرسال محمّد ﷺ لأنه من البشر ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ أي : قل يا محمّد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله في جواب سلبهم العام بإثبات قضية جزئية موجبة ﴿ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ ﴾ وهو التوراة التي قد علمتم وكل أحد أن الله قد أنزلها على موسى ابن عمران ﴿ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ ، أي : ليستضاء بها في كشف المشكلات ويهتدى بها من ظلم الشبهات . وقوله : ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ أي : تجعلون جملتها قراطيس ، أي : قطعًا تكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديكم ، وتحرفون منها ما تحرفون ، وتبدلون وتتأولون وتقولون هذا من عند الله ، أي : في كتابه المنزل ، وما هو من عند الله ، ولهذا قال : ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ أي : ومن أنزل القرآن الذي علمكم الله فيه من خبر ما سبق ونبأ ما يأتي ما لم تكونوا تعلمون ذلك لا أنتم ولا

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٣٢) .

آباؤكم ، وقد قال قتادة : هؤلاء مشركو العرب .

وقال مجاهد : هذه للمسلمين ، وقوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ قال ابن عبّاس : أي : قل : الله أنزله ، وهذا الذي قاله ابن عبّاس هو المتعين في تفسير هذه الكلمة ، لا ما قاله بعض المتأخرين من أن معنى ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ أي : لا يكون خطابك لهم إلَّا هذه الكلمة كلمة (الله) وهذا الذي قاله هذا القائل يكون أمرًا بكلمة مفردة من غير تركيب ، والإتيان بكلمة مفردة لا يفيد في لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها .

وقوله ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي : ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون حتى يأتيهم من الله اليقين ، فسوف يعلمون ألهم العاقبة أم لعباد الله المتقين ؟ .

وقوله : ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ ﴾ يعني القرآن ﴿ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ ﴾ يعني مكة ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من أحياء العرب ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ وقال : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ وثبت أن رسول الله ﷺ قال : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي » وذكر منهن : « وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً » (١) ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أي : كل من آمن بالله واليوم الآخر يؤمن بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمّد وهو القرآن ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أي : يقيمون بما فرض عليهم من أداء الصلوات في أوقاتها .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ۝ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي : لا أحد أظلم ممن كذب على الله ، فجعل له شركاء ، أو ولدًا ، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يرسله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ قال عكرمة وقتادة : نزلت في مسيلمة الكذاب ﴿ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ أي : ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي مما يفتريه من القول : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ أي : في سكراته وغمراته وكرباته ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : بالضرب ، وقال الضحاك وأبو صالح : باسطو أيديهم أي بالعذاب كقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ ولهذا قال : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم ، ولهذا يقولون لهم : ﴿ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ﴾ وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن الرحيم ، فتتفرق روحه في جسده وتعصى وتأبى الخروج ، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم : ﴿ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٣٨) ومسلم في المساجد (٣) وأحمد في مسنده (٣٠٤/٣) .

﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ الآية ، أي : اليوم تهانون غاية الإهانة كما كنتم تكذبون على الله وتستكبرون عن اتباع آياته والانقياد لرسله ، وقد وردت الأحاديث المتواترة في كيفية احتضار المؤمن والكافر ، وهي مقررة عند قوله تعالى : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي : يقال لهم يوم معادهم هذا ، كما قال : ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي : كما بدأناكم أعدناكم وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه فهذا يوم البعث ، وقوله : ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي : من النعم والأموال التي اقتنيتموها في الدار الدنيا وراء ظهوركم ، وثبت أن رسول الله ﷺ قال : « يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي ، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَبْقَيْتَ ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَذَاهِبٌ ، وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ » [١] . ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان ، ظانين أنها تنفعهم في معاشهم ومعادهم إن كان ثم معاد ، فإذا كان يوم القيامة تقطعت بهم الأسباب ، وانزاح الضلال ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ، ويناديهم الرب جل جلاله على رؤوس الخلائق . ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ؟ ويقال لهم : ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي : في العبادة لهم فيكم قسط في استحقاق العبادة لهم ، ثم قال تعالى : ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قرئ بالرفع أي شملكم وبالنصب [٢] أي لقد تقطع ما بينكم من الأسباب والوصلات والوسائل ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ أي : ذهب عنكم ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من رجاء الأصنام والأنداد .

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ .

يخبر تعالى أنه فالق الحب والنوى ، أي : يشقه في الثرى ، فتنبت منه الزروع على اختلاف أصنافها من الحبوب ، والثمار على اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها من النوى ، ولهذا فسر قوله : ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ بقوله : ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي : يخرج النبات الحي من الحب والنوى الذي هو كالجماد الميت كقوله : ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ إلى قوله : ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقوله : ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ معطوف على ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ ثم فسره ثم عطف عليه قوله : ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ وقد عبروا عن هذا وهذا بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى ، فمن قائل : يخرج الدجاجة من البيضة وعكسه ، ومن قائل : يخرج الولد الصالح من الفاجر وعكسه ، وغير ذلك من العبارات التي تنتظمها الآية وتشملها .

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٣) وأحمد في مسنده (٢٤/٤) والحاكم في المستدرك (٥٣٤/٢) .

(٢) قرأ المدنيان والكسائي وحفص بنصب النون والباقون بالرفع (تقريب النشر ص : ١١١) .

ثم قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي : فاعل هذا هو الله وحده لا شريك له ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أي : كيف تصرفون عن الحق وتعدلون عنه إلى الباطل ، فتعبدون معه غيره . وقوله : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾ أي : خالق الضياء والظلام كما قال في أول السورة : ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ أي : فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح فيضيء الوجود ، ويستنير الأفق ، ويضمحل الظلام ، ويذهب الليل بسواده وظلام رواقه ، ويجيء النهار بضيائه وإشراقه ، كقوله : ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ فبين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة الدالة على كمال عظمته وعظيم سلطانه ، فذكر أنه ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ وقابل ذلك بقوله : ﴿ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾ أي : ساجيًا مظلمًا لتسكن فيه الأشياء كما قال : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ وقال : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ وقال صهيب الرومي ﷺ لامرأته وقد عاتبته في كثرة سهره : إن الله جعل الليل سكنًا إلا لصهيب ، إن صهيبًا إذا ذكر الجنة طال شوقه ، وإذا ذكر النار طار نومه . وقوله : ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ أي : يجريان بحساب مقنن مقدر لا يتغير ولا يضطرب ، بل لكل منهما منازل يسلكها في الصيف والشتاء ، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولًا وقصرًا ، كما قال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ أي : الجميع جار بتقدير العزيز الذي لا يمانع ولا يخالف ، العليم بكل شيء فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وكثيرًا ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر يختم الكلام بالعزة والعلم ، كما ذكر في هذه الآية وكما في قوله : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ ولما ذكر خلق السموات والأرض وما فيهن في أول سورة حم السجدة قال : ﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ قال بعض السلف : من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه : أن الله جعلها زينة للسماء ، ورجومًا للشياطين ، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر . وقوله : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي : قد بيناها ووضحناها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : يعقلون ويعرفون الحق ويتجنبون الباطل .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ يعني آدم ﷺ ، كما قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ وقوله : ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ اختلفوا في معنى ذلك ، فعن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وغيرهم ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ ﴾ أي : في الأرحام قالوا ، أو أكثرهم ﴿ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ أي : في الأصلاب ، وعن ابن مسعود وطائفة عكسه ، وعن ابن مسعود أيضًا وطائفة : فمستقر في الدنيا ومستودع حيث يموت . وعن ابن مسعود : ومستودع في

الدار الآخرة والقول الأول أظهر ، والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ أي : يفهمون ويعون كلام الله ومعناه ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ أي : بقدر مباركًا ورزقًا للعباد وإحياء وغياثًا للخلائق رحمة من الله بخلقه ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ كقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ أي : زرعًا وشجرًا أخضر ، ثم بعد ذلك نخلق فيه الحب والثمر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾ أي : يركب بعضه بعضًا كالسنابل ونحوها ﴿ وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ ﴾ أي : جمع قنو وهي عذوق الرطب ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ أي : قريبة من المتناول ، كما قال ابن عبّاس ﴿ قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ يعني بالقنوان الدانية قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ ﴾ أي : ونخرج منه جنات من أعناب ، وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز ، وربما كانا خيار الثمار في الدنيا ، كما امتن الله بهما على عباده في قوله تعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ وكان ذلك قبل تحريم الخمر ، وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ﴾ قال قتادة : وغير متشابه في الورق والشكل ، قريب بعضه من بعض ، ومتخالف في الثمار شكلًا وطعمًا وطبعًا ، وقوله تعالى : ﴿ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾ أي : نضجه ، قال البراء بن عازب وابن عبّاس وغيرهم ، أي : فكروا في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود بعد أن كان حطبًا صار عنبًا ورطبًا ، وغير ذلك مما خلقﷻ من الألوان والأشكال والطعوم والروائح ، كقوله تعالى : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾ الآية . ولهذا قال ها هنا : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ لَـَٔايَـٰتٍ ﴾ أي : دلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : يصدقون به ويتبعون رسله .

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ .

هذا رد على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره وأشركوا به في عبادته أن عبدوا الجن ، فجعلوهم شركاء له في العبادة ، تعالى الله عن شركهم وكفرهم . فإن قيل : فكيف عبدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام ؟ فالجواب أنهم ما عبدوها إلّا عن طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك كقوله : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَـَٔامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ وَلَـَٔامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ الآية وقال إبراهيم لأبيه : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴾ . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾ أي : وقد خلقهم فهو الخالق وحده لا شريك له ، فكيف يعبد معه غيره كقول إبراهيم : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ومعنى الآية أنه ﷻ هو المستقل بالخلق وحده ، فلهذا يجب أن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له وقوله تعالى : ﴿ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ ﴾ ينبه به تعالى على ضلال من ضل في وصفه تعالى

بأن له ولدًا ، كما يزعم من قال من اليهود في عزير ، ومن قال من النصارى في عيسى ، ومن قال من مشركي العرب في الملائكة : إنها بنات الله ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ ومعنى ﴿ وَخَرَقُوا۟ ﴾ أي : اختلقوا وائتفكوا وتخرصوا وكذبوا كما قال علماء السلف ، قال ابن عبّاس ﴿ وَخَرَقُوا۟ ﴾ يعني تخرصوا . وقال : جعلوا له بنين وبنات ، وقال مجاهد : ﴿ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ ﴾ قال : كذبوا ، ولهذا قال : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي : تقدس وتنزه وتعاظم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون من الأولاد والأنداد والنظراء والشركاء .

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي : مبدعهما وخالقهما ومنشئهما ومحدثهما على غير مثال سبق كما قال مجاهد والسدي ، ومنه سميت البدعة بدعة ؛ لأنه لا نظير لها فيما سلف ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ أي : كيف يكون له ولد ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ أي : والولد إنما يكون متولدًا بين شيئين متناسبين ، والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه ؛ لأنه خالق كل شيء ، فلا صاحبة له ، ولا ولد ، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فبيَّن تعالى أنه الذي خلق كل شيء ، وأنه بكل شيء عليم ، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه ، وهو الذي لا نظير له ، فأنى يكون له ولد ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا .

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أي : الذي خلق كل شيء ولا ولد له ولا صاحبة ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ أي : فاعبدوه وحده لا شريك له ، وأقروا له بالواحدانية ، وأنه لا إله إلّا هو ، وأنه لا ولد له ولا والد ولا صاحبة له ولا نظير ولا عديل ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أي : حفيظ ورقيب يدبر كل ما سواه ويرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار . وقوله : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ فيه أقوال للأئمة من السلف أحدها : لا تدركه في الدنيا وإن كانت تراه في الآخرة ، كما تواترت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من غير ما طريق ثابت في الصحاح والمسانيد والسنن ، كما قال مسروق : عن عائشة أنها قالت : من زعم أن محمّدًا أبصر ربه فقد كذب ، وفي رواية : على الله ، فإن الله تعالى قال : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ (١) . وثبت عن عائشة من غير وجه ، وخالفها ابن عبّاس ، فعنه إطلاق الرؤية ، وعنه أنه رآه بفؤاده مرتين ، ويحيى ابن معين قال : سمعت إسماعيل ابن عُليّة يقول في قول الله تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ قال : هذا في الدنيا ، وذكر أبي عن هشام بن عبيد الله أنه قال نحو ذلك . وقال آخرون : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أي : جميعها ، وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له في الدار الآخرة .

وقال آخرون من المعتزلة بمقتضي ما فهموه من هذه الآية : أنه لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة ، فخالفوا أهل السنّة والجماعة في ذلك مع ما ارتكبوه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنّة رسوله .

(١) أخرجه : الترمذي في السنن (٣٠٦٨) .

أما الكتاب فقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ وقال تعالى عن الكافرين : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ قال الإمام الشافعي : فدل هذا على أن المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك وتعالى . أما السنّة فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد وأبي هريرة وأنس وجريج وصهيب وبلال وغير واحد من الصحابة عن النبيّ ﷺ أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات وفي روضات الجنات ، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه آمين .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ أي : العقول ، وقيل : إن الإدراك في معنى الرؤية .

وقال آخرون : لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفي الإدراك فإن الإدراك أخص من الرؤية ، ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم ، ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفي ما هو ؟ فقيل : معرفة الحقيقة ؛ فإن هذا لا يعلمه إلا هو وإن رآه المؤمنون ، كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته ؛ فالعظيم أولى بذلك وله المثل الأعلى . وقال آخرون : المراد بالإدراك الإحاطة .

قالوا : ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ وفي صحيح مسلم : « لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » ولا يلزم منه عدم الثناء فكذلك هذا . قال ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ قال : لا يحيط بصر أحد بالملك ، وقال عكرمة أنه قيل له : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ قال : ألست ترى السماء ؟ قال : بلى ، قال : فكلها ترى ؟ وقال قتادة في الآية ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ : هو أعظم من أن تدركه الأبصار .

وعن عطية العوفي في قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ قال : هم ينظرون إلى الله لا تحيط أبصارهم به من عظمته ، وبصره محيط بهم ، فذلك قوله : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ .

وقال أبو العالية في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ قال : اللطيف لاستخراجها ، الخبير بمكانها ، والله أعلم ، وهذا كما قال تعالى إخبارًا عن لقمان فيما وعظ به ابنه : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ .

﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ۝ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

البصائر : هي البيّنات والحجج التي اشتمل عليها القرآن وما جاء به الرسول ﷺ ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ﴾ كقوله : ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ ولهذا قال : ﴿ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ لما ذكر البصائر قال : ﴿ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ أي : إنما يعود وباله عليه ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ أي : بحافظ ولا رقيب ، بل إنما أنا مبلغ والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ أي : وكما فصلنا الآيات في هذه السورة من بيان التوحيد ، وأنه لا إله إلّا هو ، هكذا نوضح الآيات ونفسرها ونبيّنها في كل موطن لجهالة الجاهلين ، وليقول المشركون والكافرون المكذبون : دارست يا محمّد من قبلك من أهل الكتاب ، وقارأتهم وتعلمت منهم ، هكذا قاله ابن عبّاس[1] ،

---

(١) تفسير الطبري ٣٩٨/٧ .

وقال ابن عباس : دارست : تلوت ، خاصمت ، جادلت وهذا كقوله تعالى إخبارًا عن كذبهم وعنادهم : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۞ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا ﴾ الآية وقال تعالى إخبارًا عن زعيمهم وكاذبهم : ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۞ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۞ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۞ ثُمَّ نَظَرَ ۞ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۞ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۞ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۞ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه والباطل فيجتنبونه ، فلله تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك وبيان الحق لهؤلاء ، كقوله تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ الآية . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين ، وأنه يضل به من يشاء ويهدي به من يشاء ، ولهذا قال ها هنا : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقرأ بعضهم ﴿ دَرَسَتَ ﴾ قال التميمي : عن ابن عبّاس درست أي : قرأت وتعلمت ، وقال الحسن ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسَتْ ﴾ : تقادمت وانمحت ، وعن عمرو بن دينار قال : سمعت ابن الزبير يقول : إن صبيانًا يقرؤون ها هنا دارست وإنما هي دَرَسَتْ [١] ، قال ابن جرير : ومعناه انمحت وتقادمت ، أي : أن هذا الذي تتلوه علينا قد مر بنا قديمًا وتطاولت مدته .

﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا لرسوله ﷺ ولمن اتبع طريقته : ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي : اقتد به واقتف أثره واعمل به ، فإن ما أوحي إليك من ربك هو الحق الذي لا مرية فيه ؛ لأنه لا إله إلّا هو ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي : اعف عنهم واصفح واحتمل أذاهم حتى يفتح اللَّه لك وينصرك ويظفرك عليهم ، واعلم أن للَّه حكمة في إضلالهم ، فإنه لو شاء لهدى الناس جميعًا ، ولو شاء لجمعهم على الهدى ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ ﴾ أي : بل له المشيئة والحكمة فيما يشاءه ويختاره ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أي : حافظًا تحفظ أقوالهم وأعمالهم ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أي : موكل على أرزاقهم وأمورهم ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ .

﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول اللَّه تعالى ناهيًا لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين : وإن كان فيه مصلحة إلّا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها ؛ وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين وهو ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ كما قال ابن عبّاس في هذه الآية قالوا : يا محمّد لتنتهينَّ عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك ، فنهاهم اللَّه أن يسبوا أوثانهم ﴿ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [٢] . وعن قتادة : كان المسلمون يسبون أصنام

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (دارست) بألف بعد دال وإسكان السين وبفتح التاء وابن عامر ويعقوب بغير ألف وفتح السين وإسكان التاء والباقون بغير ألف وبإسكان السين وفتح التاء (تقريب النشر ص ١١١) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره ٧/٤٠٣ .

الكفار فيسب الكفار الله عدوًا بغير علم فأنزل الله : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ .

عن السدي أنه قال في تفسير هذه الآية : لما حضر أبا طالب الموت قالت قريش : انطلقوا فلندخل على هذا الرجل ، فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه ، فإنا نستحيي أن نقتله بعد موته ، فتقول العرب : كان يمنعهم فلما مات قتلوه ، فانطلق أبو سفيان ، وأبو جهل ، والنضر بن الحارث ، وأمية وأُبي ابنا خلف وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص والأسود بن البختري ، وبعثوا رجلًا منهم يقال له : المطلب قالوا : استأذن لنا على أبي طالب ، فأتى أبا طالب فقال : هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدخول عليك ، فأذن لهم عليه فدخلوا عليه ، فقالوا : يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا ، وإن محمّدًا قد آذانا وآذى آلهتنا فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه وإلهه ، فدعاه فجاء النبيّ ﷺ فقال له أبو طالب : هؤلاء قومك وبنو عمك ، قال رسول الله ﷺ : « مَا تُرِيدُونَ ؟ » قالوا : نريد أن تدعنا وآلهتنا ولندعك وإلهك ، فقال النبيّ ﷺ : « أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَعْطَيْتُكُمْ هَذَا هَلْ أَنْتُمْ مُعْطِيَّ كَلِمَةً إِنْ تَكَلَّمْتُمْ بِهَا مَلَكْتُمْ بِهَا العَرَبَ وَدَانَتْ لَكُمْ بِهَا العَجَم وَأَدَّتْ لَكُمْ الخَرَاجَ » قال أبو جهل : وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها ، قالوا : فما هي ؟ قال : « قُولُوا لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّه » فأبوا واشمأزوا ، قال أبو طالب : يا ابن أخي قل غيرها فإن قومك قد فزعوا منها ، قال : « يَا عَمّ مَا أَنا بِالَّذِي يَقُولُ غَيْرَهَا حَتَّى يَأْتُوا بِالشَّمْسِ فَيَضَعُوهَا فِي يَدِي ، وَلَوْ أَتَوْا بِالشَّمْسِ فَوَضَعُوهَا فِي يَدِي ما قُلْتُ غَيْرَهَا » إرادة أن يؤيسهم ، فغضبوا وقالوا : لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنشتمنك ونشتمن من يأمرك ، فذلك قوله : ﴿ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (١) ومن هذا القبيل ، وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها ، ما جاء رسول الله ﷺ قال : « مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ وَالِدَيْهِ » قالوا : يا رسول الله وكيف يسب الرجل والديه ؟ قال : « يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ ، وَيَسُبُّ أُمّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ » (٢) أو كما قال ﷺ . وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ أي : وكما زينا لهؤلاء القوم حب أصنامهم والمحاماة لها والانتصار ، كذلك زينا لكل أمة أي من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه ، ولله الحجة البالغة والحكمة التامة فيما يشاؤوه ويختاره ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ ﴾ أي : معادهم ومصيرهم ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي : يجازيهم بأعمالهم إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر .

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

يقول تعالى إخبارًا عن المشركين : أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم أي : حلفوا أيمانًا مؤكدة ﴿ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ ﴾ أي : معجزة وخارق ﴿ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ ﴾ أي : ليصدقنها ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي : قل يا محمّد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعنتًا وكفرًا وعنادًا لا على سبيل الهدى والاسترشاد : إنما مرجع هذه الآيات إلى الله ، إن شاء جاءكم بها وإن شاء ترككم ، فعن محمّد بن كعب القرظي ، قال : كلم رسول الله ﷺ قريش فقالوا : يا محمّد تخبرنا أن موسى كان معه عصا

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٣٨) والطبري في تفسيره ٧/٤٠٥ .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٦) أحمد في مسنده (٢/١٦٤) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/٢٣٥) .

يضرب بها الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا ، وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى ، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة ، فأتنا من الآيات حتى نصدقك ، فقال رسول الله ﷺ : « أَيّ شَيْءٍ تُحِبُّونَ أَنْ آتِيَكُمْ بِهِ » ، قالوا : تجعل لنا الصفا ذهبًا فقال لهم : « فَإِنْ فَعَلْتُ تُصَدِّقُونِي » قالوا : نعم والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعون ، فقام رسول الله ﷺ يدعو ، فجاءه جبريل عليه السلام فقال له : ما شئت إن شئت أصبح الصفا ذهبًا ، ولئن أرسل آية فلم يصدقوا ذلك ليعذبنهم ، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم . فقال رسول الله ﷺ : « بَلْ يَتُوبُ تَائِبُهُمْ » فأنزل الله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قيل : المخاطب بما يشعركم المشركون ، وإليه ذهب مجاهد كأنه يقول : وما يدريكم بصدقكم في هذه الأيمان التي تقسمون بها ، وعلى هذا فالقراءة ﴿ إنها إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بكسر إنها على استئناف الخبر عنهم بنفي الإيمان عند مجيء الآيات التي طلبوها ، وقرأ بعضهم ﴿ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا تُؤْمِنُونَ ﴾ بالتاء المثناة من فوق (٢) ، وقيل : المخاطب بقوله : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ المؤمنون يقول : وما يدريكم أيها المؤمنون ، وعلى هذا فيجوز في قوله : ﴿ إِنَّهَا ﴾ الكسر كالأول والفتح على أنه معمول يشعركم ، وعلى هذا فتكون لا في قوله : ﴿ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ صلة كقوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ . وقوله ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي ؛ ما منعك أن تسجد ؛ إذ أمرتك ، وحرام أنهم لا يرجعون ، وتقديره في هذه الآية وما يدريكم أيها المؤمنون الذين تودون لهم ذلك حرصًا على إيمانهم أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون ، قال بعضهم : إنها بمعنى لعلها ، قال ابن جرير : وذكروا أن ذلك كذلك في قراءة أُبيّ بن كعب ، قال : وقد ذكر عن العرب سماعًا اذهب إلى السوق إنك تشتري لنا شيئًا ، بمعنى لعلك تشتري .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ قال ابن عبّاس في هذه الآية : لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء وردّت عن كل أمر ، وقال مجاهد في قوله : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ ﴾ ونحول بينهم وبين الإيمان ، ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون ، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة ، وقال ابن عبّاس رضي الله عنه : أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوه وعملهم قبل أن يعملوه وقال : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ جل وعلا ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ إلى قوله ﴿ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فأخبر الله سبحانه أنهم لو ردوا لم يكونوا على الهدى ، وقال : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ وقال : ولو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا ، وقوله : ﴿ وَنَذَرُهُمْ ﴾ أي : نتركهم ﴿ فِى طُغْيَٰنِهِمْ ﴾ ، قال ابن عبّاس والسدي : في كفرهم . وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة : في ضلالهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ قال الأعمش : يلعبون ، وقال ابن عبّاس ومجاهد وأبو العالية والربيع وأبو مالك وغيره : في كفرهم يترددون .

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٣٩) وابن الجوزي في زاد المسير (٣/١٠٣) .

(٢) قرأ ابن كثير والبصريان وخلف وأبو بكر بخلاف عنه (إنها إذا) بكسر الهمزة من أنها والباقون بالفتح ، وقرأ ابن عامر وحمزة (لا يؤمنون) بالخطاب والباقون بالغيب (تقريب النشر ص ١١١) .

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها فنزلنا عليهم الملائكة تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل كما سألوا فقالوا : ﴿ أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ و ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ ﴿ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي : فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ﴾ قرأ بعضهم قبلًا بكسر القاف وفتح الباء من المقابلة والمعاينة ، وقرأ آخرون بضمهما [1] قيل : معناه من المقابلة والمعاينة أيضًا ، كما روي عن ابن عبّاس وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد ، وقال مجاهد : ﴿ قُبُلًا ﴾ أي : أفواجًا قبيلًا قبيلًا أي : تعرض عليهم كل أمة بعد أمة فيخبرونهم بصدق الرسل فيما جاءوهم به ﴿ مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي : إن الهداية إليه لا إليهم بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الفعّال لما يريد ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ لعلمه وحكمته وسلطانه وقهره وغلبته وهذه الآية كقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ .

يقول تعالى : وكما جعلنا لك يا محمّد أعداء يخالفونك ويعادونك ويعاندونك ، جعلنا لكل نبي من قبلك أيضًا أعداء ، فلا يحزنك ذلك كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ الآية ، وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ : إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلّا عودي ، وقوله : ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ بدل من ﴿ عَدُوًّا ﴾ أي : لهم أعداء من شياطين الإنس والجن ، والشيطان كل من خرج عن نظيره بالشر ، ولا يعادي الرسل إلّا الشياطين من هؤلاء وهؤلاء قبحهم الله ولعنهم ، وعن قتادة في قوله : ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ قال : من الجن شياطين ومن الإنس شياطين يوحي بعضهم إلى بعض ، قال قتادة : وبلغني أن أبا ذر كان يومًا يصلي فقال النبيّ ﷺ : « تَعَوَّذْ يا أبا ذَرٍّ مِنْ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ » فقال : أو إن من الإنس شياطين !؟ فقال رسول الله ﷺ : « نَعَمْ » [2] ، وروي عن أبي ذر قال : أتيت النبيّ ﷺ وهو في المسجد فجلست فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ صَلَّيْتَ ؟ » قلت : لا قال : « قُمْ فَصَلِّ » قال : فقمت فصليت ثم جلست فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ تَعَوَّذْ بالله مِنْ شَرِّ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ » قال : قلت : يا رسول الله وللإنس شياطين ؟ قال : « نَعَمْ » وذكر تمام الحديث بطوله [3] .

وقوله تعالى : ﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ أي : يلقي بعضهم إلى بعض القول

(١) قرأ المدنيان وابن عامر (قبلا) بكسر القاف وفتح الباء والباقون بضمهما (تقريب النشر ص ١١١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٨/٥) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٩/٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٨/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٩/١) .

المزين المزخرف ، وهو المزوق الذي يغتر سامعه من الجهلة بأمره ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أي : وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ أي : فدعهم ﴿ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ أي : يكذبون . أي : دع أذاهم وتوكل على الله في عداوتهم ، فإن الله كافيك وناصرك عليهم . وقوله تعالى : ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ ﴾ أي : ولتميل إليه . قاله ابن عبّاس ﴿ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ ﴾ أي : قلوبهم وعقولهم وأسماعهم ، وقال السدي : قلوب الكافرين ﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ أي : يحبوه ويريدوه ، وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ وقوله : ﴿ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ قال ابن عبّاس : وليكتسبوا ما هم مكتسبون ، وقال السدي وابن زيد : وليعملوا ما هم عاملون .

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝١١٤ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : قل لهؤلاء المشركين بالله الذين يعبدون غيره ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾ أي بيني وبينكم ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ أي : مبينًا ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي : من اليهود والنصارى يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، أي : بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ كقوله : ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ وهذا شرط ، والشرط لا يقتضي وقوعه ، ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا أَشُكُّ وَلاَ أَسْأَلُ »(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ قال : صدقًا فيما قال وعدلًا فيما حكم ، يقول : صدقًا في الأخبار وعدلًا في الطلب ، فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه ولا شك ، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه ، وكل ما نهى عنه فباطل فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة ، كما قال تعالى : ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ إلى آخر الآية ﴿ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ أي : ليس أحد يعقب حكمه تعالى لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ لأقوال عباده ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بحركاتهم وسكناتهم الذي يجازي كل عامل بعمله .

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝١١٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم أنه الضلال كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم وإنما هم في ظنون كاذبة وحسبان باطل ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ فإن الخرص هو الحزر ومنه خرص النخل وهو حزر ما عليها من التمر ، وذلك كله عن قدر الله ومشيئته ﴿ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ فييسره لذلك ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ فييسرهم لذلك

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٣١٧) وعبد الرزاق في مصنفه (١٠٢١١) .

وكل ميسر لما خلق له .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ .

هذا إباحة من اللَّه لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه ، ومفهومه أنه لا يباح ما لم يذكر اسم اللَّه عليه كما كان يستبيحه كفار قريش من أكل الميتات وأكل ما ذبح على النصب وغيرها ، ثم ندب إلى الأكل مما ذكر اسم اللَّه عليه فقال : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : قد بين لكم ما حرم عليكم ووضحه ، وقرأ بعضهم فصل بالتشديد ، وقرأ آخرون بالتخفيف (١) ، والكل بمعنى البيان والوضوح ﴿ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ أي : إلّا في حال الاضطرار فإنه يباح لكم ما وجدتم ، ثم بيَّن تعالى جهالة المشركين في آرائهم الفاسدة من استحلالهم الميتات وما ذكر عليه غير اسم اللَّه تعالى فقال : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ أي : هو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافترائهم .

﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ .

قال مجاهد : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ المعصية في السر والعلانية ، وفي رواية عنه : هو ما ينوى مما هو عامل ، وقال قتادة : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ أي : سره وعلانيته قليله وكثيره ، وقال السدي : ظاهره الزنى مع البغايا ذوات الرايات ، وباطنه الزنى مع الخليلة والصدائق والأخدان ، وقال عكرمة : ظاهره نكاح ذوات المحارم ، والصحيح أن الآية عامة في ذلك كله وهي كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ الآية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ أي : سواء كان ظاهرًا أو خفيًا فإن اللَّه سيجزيهم عليه ، وعن النواس بن سمعان قال : سألت رسول اللَّه ﷺ عن الإثم فقال : « الإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ النَّاسُ عَلَيْهِ » (٢) .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ .

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم اللَّه عليها وإن كان الذابح مسلمًا ، وقد اختلف الأئمة رحمهم اللَّه في هذه المسألة على ثلاثة أقوال : فمنهم من قال : لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة وسواء ترك التسمية عمدًا أو سهوًا ، وهو مروي عن ابن عمر ونافع مولاه ، وهو رواية عن الإمام مالك ورواية عن أحمد بن حنبل نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين ، واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية وبقوله في آية الصيد : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ثم قد أكد في هذه الآية بقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ ، والضمير قيل : عائد على الأكل ، وقيل : عائد على الذبح لغير اللَّه ، وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد كحديثي عدي

(١) قرأ عامة الكوفيين بفتح الفاء وتشديد الصاد في (فصل) وقرأ عطية العوفي بتخفيف الصاد (الطبري في تفسير سورة الأنعام آية ١١٩) .
(٢) أخرجه مسلم في البر (١٤ ، ١٥) وأحمد في مسنده (١٨٢/٤) والترمذي في سننه (٢٣٨٩) .

ابن حاتم وأبي ثعلبة : « إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ المُعَلَّمَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ »(١) ، وحديث رافع بن خديج : « مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلُوهُ »(٢) أيضًا ، وحديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال للجن : « لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ »(٣) ، وحديث جندب بن سفيان البجلي قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ فَلْيَذْبَحْ مَكَانَهَا أُخْرَى وَمَنْ لَمْ يَكُنْ ذَبَحَ حَتَّى صَلَّيْنَا فَلْيَذْبَحْ باسْم اللَّه »(٤) وعن عائشة رضي الله عنها أن ناسًا قالوا : يا رسول الله إن قومًا يأتوننا باللحم لا ندري أذكر اسم الله عليه أم لا ؟ قال : « سَمُّوا عَلَيْهِ أَنْتُمْ وَكُلُوا » قالت : وكانوا حديثي عهد بالكفر(٥) . ووجه الدلالة أنهم فهموا أن التسمية لابد منها ، وخشوا أن لا يكون وجدت من أولئك لحداثة إسلامهم ، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح إن لم تكن وجدت ، وأمرهم بإجراء أحكام المسلمين على السداد والله أعلم .

والمذهب الثاني في المسألة : أنه لا يشترط التسمية بل هي مستحبة ، فإن تركت عمدًا أو نسيانًا لا يضر ، وهذا مذهب الإمام الشافعي رحمه الله وجميع أصحابه ، ورواية عن الإمام أحمد نقلها عنه حنبل . وهو رواية عن الإمام مالك ونص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه ، وحكي عن ابن عباس وأبي هريرة وعطاء بن أبي رباح ، والله أعلم . وحمل الشافعي الآية الكريمة ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ على ما ذبح لغير الله كقوله تعالى : ﴿ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ وقال عطاء ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ قال : ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش للأوثان ، وينهى عن ذبائح المجوس ، وهذا المسلك الذي طرقه الإمام الشافعي قوي ، وقد حاول بعض المتأخرين أن يقويه بأن جعل الواو في قوله ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ حالية ، أي : لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه في حال كونه فسقًا ولا يكون فسقًا حتى يكون قد أهل به لغير الله . ثم ادعى أن هذا متعين ولا يجوز أن تكون الواو عاطفة لأنه يلزم منه عطف جملة اسمية خبرية على جملة فعلية طلبية ، وهذا ينتقض عليه بقوله : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ فإنها عاطفة لا محالة ، فإن كانت الواو التي ادعى أنها حالية صحيحة على ما قال امتنع عطف هذه عليها ، فإن عطفت على الطلبية ورد عليها ما أورد على غيره ، وإن لم تكن الواو حالية بطل ما قال من أصله ، والله أعلم ، وعن ابن عبّاس في الآية ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ قال : هي الميتة . وقد استدل لهذا المذهب بما روي عن الصمت السدوسي مولى سويد بن ميمون أحد التابعين الذين ذكرهم أبو حاتم ابن حبان في كتاب الثقات قال : قال رسول الله ﷺ : « ذَبِيحَةُ المُسْلِمِ حَلَالٌ ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ أَوْ لَمْ يَذْكُرْ ، إِنَّهُ إِنْ ذَكَرَ ، لَمْ يَذْكُرْ إِلَّا اسْمَ اللَّه »(٦) . وما روي عن ابن عبّاس أنه قال : « إِذَا ذَبَحَ المُسْلِمُ

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (١٧٥) ومسلم في الصيد (١) .
(٢) أخرجه مسلم في الأضاحي (٢٠) وأحمد في مسنده (١٤٢/٤) والترمذي في سننه (١٤٩١) .
(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (١٥٠) .
(٤) أخرجه البخاري في الأضاحي (٥٥٦٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٦٢/٩) .
(٥) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٥٠٧) والدارمي في سننه (٨٣/٢) .
(٦) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢٤٠/٩) .

وَلَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ فَلْيَأْكُلْ فَإِنَّ الْمُسْلِمَ فِيهِ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ » (١) واحتج البيهقي أيضًا . بحديث عائشة رضي الله عنها المتقدم أن ناسًا قالوا : يا رسول الله : إن قومًا حديثي عهد بجاهلية يأتوننا بلحم لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقالوا : « سَمُّوا أَنْتُمْ وَكُلُوا » (٢) قال : فلو كان وجود التسمية شرطًا لم يرخص لهم إلَّا مع تحققها والله أعلم .

المذهب الثالث في المسألة : إن ترك البسملة على الذبيحة نسيانًا لم يضر ، وإن تركها عمدًا لم تحل ، هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل ، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه وإسحاق بن راهويه ، وهو محكي عن علي وابن عبّاس وسعيد بن المسيب وعطاء وطاوس والحسن البصري وأبي مالك وعبد الرّحمن بن أبي ليلى وجعفر بن محمّد وربيعة بن أبي عبد الرّحمن . ونقل الإمام أبو الحسن المرغيناني في كتابه الهداية الإجماع قبل الشافعي على تحريم متروك التسمية عمدًا ، فلهذا قال أبو يوسف والمشايخ : لو حكم حاكم بجواز بيعه لم ينفذ لمخالفة الإجماع ، وهذا الذي قاله غريب جدًّا ، وقد تقدم نقل الخلاف عمن قبل الشافعي والله أعلم . وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : من حرم ذبيحة الناسي فقد خرج من قول جميع الحجة وخالف الخبر الثابت عن رسول الله ﷺ في ذلك ، يعني ما روي عن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ قال : « الْمُسْلِمُ يَكْفِيهِ اسْمُهُ إِنْ نَسِيَ أَنْ يُسَمِّيَ حِينَ يَذْبَحُ فَلْيَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ وَلْيَأْكُلْهُ » (٣) وهذا الحديث رفعه خطأ ، أخطأ فيه معقل بن عبيد الله الجزري ، فإنه وإن كان من رجال مسلم إلَّا أن سعيد بن منصور وعبد الله بن الزبير الحميدي روياه عن سفيان بن عيينة عن عمرو عن أبي الشعثاء عن عكرمة عن ابن عبّاس من قوله : فزادا في إسناده أبا الشعثاء ووثقاه وهذا أصح ، نص عليه البيهقي وغيره من الحفاظ، ثم نقل ابن جرير وغيره عن الشعبي ومحمّد بن سيرين أنهما كرها متروك التسمية نسيانًا ، والسلف يطلقون الكراهة على التحريم كثيرًا والله أعلم . إلَّا أن من قاعدة ابن جرير أنه لا يعتبر قول الواحد ولا الاثنين مخالفًا لقول الجمهور فيعده إجماعًا فليعلم هذا والله الموفق . وعن جهير بن يزيد قال : سئل الحسن ، سأله رجل أتيت بطير كذا ، فمنه ما قد ذبح فذكر اسم الله عليه ومنه ما نسي أن يذكر اسم الله عليه واختلط الطير ، فقال الحسن : كله كلّه ، قال : وسألت محمّد بن سيرين فقال : قال الله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ واحتج لهذا المذهب بالحديث المروي عن عبد الله بن عمرو عن النبيّ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ (٤) » وفيه نظر والله أعلم ، وقد روي عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال : يا رسول الله أرأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمي ، فقال النبيّ ﷺ : « اسْمُ اللَّهِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » (٥) .

قال ابن جرير : وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية هل نسخ من حكمها شيء أم لا ؟ فقال

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه (٢٩٦/٤) .

(٢) أخرجه الدارمي في سننه (٨٣/٢) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢٣٩/٩) والدارقطني في سننه (٢٩٦/٤) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٠٤٥) .

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢٤٠/٩) .

بعضهم : لم ينسخ منها شيء وهي محكمة فيما عنيت به ، وعلى هذا قول مجاهد وعامة أهل العلم ، وروي عن عكرمة والحسن البصري قالا : قال الله : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ وقال : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ فنسخ واستثنى من ذلك فقال : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ فعن مكحول قال : أنزل الله في القرآن ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ثم نسخها الرب ورحم المسلمين فقال : ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾ فنسخها بذلك وأحل طعام أهل الكتاب . ثم قال ابن جرير : والصواب أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه ، وهذا الذي قاله صحيح ، ومن أطلق من السلف النسخ ها هنا فإنما أراد التخصيص ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ قال أبو إسحاق : قال رجل لابن عمر : إن المختار يزعم أنه يوحى إليه قال : صدق وتلا هذه الآية ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ قوله ﴿ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ وعن ابن عبّاس قال : جاءت اليهود إلى النبيّ ﷺ فقالوا : نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله ؟ فأنزل الله ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ الآية وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة :

أحدهما : أن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا .

الثاني : أن الآية من الأنعام وهي مكية .

الثالث : أن هذا الحديث رواه الترمذي عن ابن عبّاس بلفظ أتى ناس النبي ﷺ ، فذكره وقال : حسن غريب وروي عن سعيد بن جبير مرسلًا .

وعن ابن عبّاس قال : لما نزلت ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمّدًا وقولوا له : فما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال ، وما ذبح الله ﷻ بشمشير من ذهب يعني الميتة فهو حراما ، فنزلت هذه الآية ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (١) أي : وإن الشياطين من فارس ليوحون إلى أوليائهم من قريش ، وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ يقولون : ما ذبح الله فلا تأكلوه وما ذبحتم أنتم فكلوه ، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ أي : حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك كقوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ الآية وقد روي عن عدي بن حاتم أنه قال : يا رسول الله ما عبدوهم ، فقال : « بَلَى إِنَّهُمْ أَحَلُّوا لَهُمُ الحَرَامَ وَحَرَّمُوا عَلَيْهِم الحَلالَ فَاتَّبَعُوهُمْ فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ » (٢) .

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتًا أي : في الضلالة هالكًا حائرًا فأحياه الله ، أي :

(١) تفسير الطبري (٢٢/٨) والشمشير هو السكين .

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٣٠٩٥) .

أحيا قلبه بالإيمان وهداه ووفقه لاتباع رسله ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ أي : يهتدي كيف يسلك وكيف يتصرف به والنور هو القرآن كما روي عن ابن عبّاس ، وقال السدي : الإسلام ، والكل صحيح ﴿ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ أي : الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ أي : لا يهتدي إلى منفذ ولا مخلص مما هو فيه ، وعن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَه فِي ظُلْمَةٍ ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ ، فَمَنْ أَصَابَهُ ذَلِكَ النُّورُ اهْتَدَى ، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ » (١) كما قال تعالى : ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي : حسَّن لهم ما كانوا فيه من الجهالة والضلالة قدرًا من الله وحكمة بالغة لا إله إلا هو وحده لا شريك له .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : وكما جعلنا في قريتك يا محمّد أكابر من المجرمين ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله وإلى مخالفتك وعداوتك ، كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون بذلك ، ثم لهم العاقبة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا ﴾ الآية قيل : معناه أمرناهم بالطاعة فخالفوا فدمرناهم ، وقيل : أمرناهم أمرًا قدريًا ، كما قال ههنا : ﴿ لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ﴾ عن ابن عبّاس ﴿ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ﴾ قال : سلطنا شرارهم فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب . وقال مجاهد وقتادة : ﴿ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ عظماؤها . قلت : وهكذا قوله تعالى : ﴿ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ والمراد بالمكر ههنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال ، كقوله تعالى إخبارًا عن قوم نوح : ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي : وما يعود وبال مكرهم وإضلالهم من أضلوه إلّا على أنفسهم كما قال تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ أي : إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة قالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ أي : حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة كما تأتي إلى الرسل .

وقوله : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ أي : هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ الآية ، يعنون لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير جليل مبجل في أعينهم ﴿ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ ﴾ أي : من مكة والطائف ، وذلك أنهم قبحهم الله كانوا يزدرون بالرسول صلوات الله وسلامه عليه بغيًا وحسدًا ، وعنادًا واستكبارًا كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/١٩٧) والحاكم في المستدرك (١/٣٠) .

رَسُولًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ هذا وهم معترفون بفضله وشرفه ونسبه ، وطهارة بيته ومرباه ، ومنشئه - صلى الله وملائكته والمؤمنون عليه - ، حتى إنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه « الأمين » ، وقد اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان حين سأله هرقل ملك الروم وكيف نسبه فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسب ، قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا .

وعن واثلة بن الأسقع ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّه اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ » [١] وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا حَتَّى بُعِثْتُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ » [٢] وعن المطلب بن أبي وداعة قال : قال العباس : بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس ، فصعد المنبر فقال : « مَنْ أَنَا ؟ » قالوا ؟ أنت رسول الله ، فقال : « أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِب ، إِنَّ اللَّه خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ ، وَخَلَقَ الْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ ، وَجَعَلَهُمْ بُيُوتًا فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا ، فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا ، وَخَيْرُكُمْ نَفْسًا » [٣] صدق صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله تعالى : ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ ﴾ الآية ، هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤوا به ، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله صغار وهو الذلة الدائمة ، كما أنهم استكبروا فأعقبهم ذلك ذلًا يوم القيامة لما استكبروا في الدنيا كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أي : صاغرين ذليلين حقيرين .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴾ لما كان المكر غالبًا إنما يكون خفيًا وهو التلطف في التحيل والخديعة قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاءً وفاقًا ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ أي : تظهر المستترات والمكنونات والضمائر ، وجاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ عِنْدَ استه يَوْمَ الْقِيَامَةِ [٤] فَيُقَالُ : هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ ابْنِ فُلَانٍ » والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفيًا لا يطلع عليه الناس فيوم القيامة يصير علمًا منشورًا على صاحبه بما فعل .

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ أي : ييسره له وينشطه ويسهله لذلك ، فهذا علامات على الخير كقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ الآية وقال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٧/٤) .
(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٧) وأحمد في مسنده (٣٧٣/٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٠/١) والترمذي في جامعه (٣٥٣٢) .
(٤) أخرجه البخاري في الفتن (٧١١١) وأحمد في مسنده (٧٠/٢) والترمذي في سننه (٢١٩١) .

هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ وقال ابن عبّاس ﵄ في قوله : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ يقول تعالى : يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به وعن أبي جعفر قال : سئل رسول الله ﷺ أي المؤمنين أكيس ؟ قال : « أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ وَأَكْثَرُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا » [١] قال : وسئل النبيّ ﷺ عن هذه الآية ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ قالوا : كيف يشرح صدره يا رسول الله ؟ قال : « نُورٌ يَقْذِفُ فِيهِ فَيَنْشَرِحُ لَهُ وَيَنْفَسِحُ » قالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ قال : « الإِنَابَةُ إِلى دَارِ الخُلُودِ وَالتَّجَافي عَنْ دَارِ الغُرُورِ وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ لِقَاءِ المَوْتِ » [٢] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ قرئ بفتح الضاد وتسكين الياء والأكثرون ﴿ ضَيِّقًا ﴾ بتشديد الياء وكسرها وهما لغتان كهين وهيِّن ، وقرأ بعضهم ﴿ حَرِجًا ﴾ بفتح الحاء وكسر الراء [٣] قيل : بمعنى آثم ، قاله السدي ، وقيل : بمعنى القراءة الأخرى ﴿ حَرَجًا ﴾ بفتح الحاء والراء وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى ولا يخلص إليه شيء مما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه . وقد سأل عمر بن الخطاب ﵁ رجلًا من الأعراب من أهل البادية من مدلج عن الحرجة ؟ فقال : هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء ، فقال عمر ﵁ : كذلك قلب المنافقين لا يصل إليه شيء من الخير . وقال ابن عبّاس : يجعل الله عليه الإسلام ضيقًا والإسلام واسع وذلك حين يقول : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ يقول : ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق ، وقال مجاهد والسدي : ﴿ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ شاكا ، وقال عطاء الخراساني : ﴿ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ أي : ليس للخير فيه منفذ ، وقال ابن جريج ﴿ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ بلا إله إلَّا اللَّه حتى لا يستطيع أن تدخل قلبه كأنما يصعد في السماء من شدة ذلك عليه ، وقال سعيد بن جبير : ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ قال : لا يجد فيه مسلكًا إلَّا صعدًا ، وقال السدي : ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ من ضيق صدره .

وقال عطاء الخراساني : ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ يقول : مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد إلى السماء ، وعن ابن عبّاس ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ يقول : فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه حتى يدخله اللَّه في قلبه ، وقال الأوزاعي : ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ كيف يستطيع من جعل اللَّه صدره ضيقًا أن يكون مسلمًا . وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : وهذا مثل ضربه اللَّه لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه ، يقول : فمثله في امتناعه عن قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه ؛ لأنه ليس في وسعه وطاقته ، وقال في قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يقول : كما يجعل اللَّه صدر من أراد إضلاله ضيقًا حرجًا كذلك يسلط اللَّه الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان باللَّه ورسوله ، فيغويه ويصده عن سبيل اللَّه ، وعن ابن عبّاس : الرجس الشيطان ، وقال

(١) أخرجه : ابن ماجه في السنن (٤٢٥٩) والحاكم في المستدرك ٥٤٠/٤ ، والطبراني في الكبير ٤١٧/١٢ .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣١١/٤ .
(٣) عامة القراء كانوا يقرأونها (ضيقا) بالتشديد وبعض المكيين بالتسكين (الطبري الأثر ١٠٧٩٧) .

مجاهد : الرجس كل ما لا خير فيه ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الرجس : العذاب .

﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى طريق الضالين عن سبيله الصادين عنها نبّه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق فقال تعالى : ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ﴾ منصوب على الحال أي : هذا الدين الذي شرعناه لك يا محمّد بما أوحينا إليك هذا القرآن وهو صراط الله المستقيم ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ ﴾ أي : وضحناها وبيناها وفسرناها ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي : لمن له فهم ووعي يعقل عن الله ورسوله ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ وهي الجنة ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي يوم القيامة ، وإنما وصف الله الجنة ههنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم المقتفي أثر الأنبياء وطرائقهم ، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾ أي : حافظهم وناصرهم ومؤيدهم ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي جزاء على أعمالهم الصالحة تولاهم وأثابهم الجنة بمنه وكرمه .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : واذكر يا محمّد فيما تقصه عليهم وتنذرهم به ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ يعني الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ، ويعوذون بهم ويطيعونهم ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ أي : يقول : يا معشر الجن ، وسياق الكلام يدل على المحذوف ومعنى قوله : ﴿ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ أي : من إغوائهم وإضلالهم كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴾ عن ابن عبّاس : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ يعني أضللتم منهم كثيرًا . وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة . ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ يعني أن أولياء الجن من الإنس قالوا مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا . عن الحسن في هذه الآية قال : استكثرتم من أهل النار يوم القيامة فقال أولياؤهم من الإنس : ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ ، قال الحسن : وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلّا أن الجن أمرت وعملت الإنس . ﴿ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ قال السدي : يعني الموت ﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ ﴾ أي : مأواكم ومنزلكم أنتم وإياهم وأولياؤكم ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾ أي : ماكثين فيها مكثًا مخلدًا إلّا ما شاء الله . قال بعضهم : يرجع معنى الاستثناء إلى البرزخ ، وقال بعضهم : هذا رد إلى مدة الدنيا ، ﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ قال : إن هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه ولا ينزلهم جنة ولا نارًا .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ .

قال قتادة في تفسيرها : إنما يولي الله الناس بأعمالهم ، فالمؤمن ولي المؤمن أين كان وحيث كان ، والكافر ولي الكافر أينما كان وحيثما كان ، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي . وعن قتادة في تفسير

الآية يولي الله بعض الظالمين بعضًا في النار يتبع بعضهم بعضًا . وقال مالك بن دينار : قرأت في الزبور أني أنتقم من المنافقين بالمنافقين ، ثم أنتقم من المنافقين جميعًا وذلك في كتاب الله . قول الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا ﴾ . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا ﴾ قال : ظالمي الجن وظالمي الإنس . وقرأ ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ قال : ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس .

ومعنى الآية الكريمة : كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن ، كذلك نفعل بالظالمين نسلط بعضهم على بعض ونهلك بعضهم ببعض وننتقم من بعضهم ببعض جزاء على ظلمهم وبغيهم .

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾ .

وهذا أيضًا مما يقرع الله به كافري الجن والإنس يوم القيامة حيث يسألهم - وهو أعلم - هل بلغتهم الرسل رسالاته وهذا استفهام تقرير ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ أي : من جملتكم والرسل من الإنس فقط ، وليس من الجن رسل . وقال ابن عبّاس : الرسل من بني آدم ومن الجن نزر . وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم أنه زعم أنه في الجن رسلًا ، واحتج بهذه الآية الكريمة ، وفيه نظر لأنها محتملة وليست بصريحة والله أعلم ، والدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ إلى قوله ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ وقوله تعالى عن إبراهيم : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته ، ولم يقل أحد من الناس إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل ثم انقطعت عنهم ببعثته ، وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ وقال : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ ومعلوم أن الجن تبع للإنس في هذا الباب ، وقال تعالى في هذا الآية الكريمة : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ ﴾ أي : أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك وأنذرونا لقاءك ، وأن هذا اليوم كائن لا محالة ، وقال تعالى : ﴿ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي : وقد فرطوا في حياتهم الدنيا وهلكوا بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم للمعجزات لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها ﴿ وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾ أي : في الدنيا بما جاءتهم به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ أي : إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب لئلا يؤاخذ أحد بظلمه وهو لم تبلغه دعوة ، ولكن أعذرنا إلى الأمم وما عذبنا أحدًا إلّا بعد إرسال الرسل إليهم كما قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ وقوله :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير : ويحتمل قوله تعالى : ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ وجهين :

أحدهما : ذلك من أجل أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه وهم غافلون ، يقول : لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم رسولاً ينبههم على حجج اللّه عليهم وينذرهم عذاب اللّه يوم معادهم ، ولم يكن بالذي يؤاخذهم غفلة فيقولوا : ما جاءنا من بشير ولا نذير .

والوجه الثاني : ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ ﴾ يقول : لم يكن ربك ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعبر ، فيظلمهم بذلك واللّه غير ظلام لعبيده ، ثم شرع يرجح الوجه الأول ولا شك أنه أقوى ، واللّه أعلم .

قال : وقوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ أي : ولكل عامل من طاعة اللّه أو معصيته مراتب ومنازل من عمله يبلغه اللّه إياها ويثيبه بها إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر . قلت : ويحتمل أن يعود قوله : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ أي : من كافرين الجن والإنس أي : لكل درجة في النار بحسبه كقوله : ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ وقوله : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ قال ابن جرير : أي وكل ذلك من عملهم يا محمّد بعلم من ربك يحصيها ويثبتها لهم عنده ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومعادهم إليه .

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ ﴾ يا محمّد ﴿ الْغَنِيُّ ﴾ أي : عن جميع خلقه من جميع الوجوه وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم ﴿ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ أي : وهو مع ذلك رحيم بهم كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ أي : إذا خالفتم أمره ﴿ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ ﴾ أي : قومًا آخرين ، أي : يعملون بطاعته ﴿ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ أي : هو قادر على ذلك سهل عليه يسير لديه كما أذهب القرون الأولى وأتى بالذي بعدها ، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين ، كما قال تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي : أخبرهم يا محمّد أن الذي يوعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي : ولا تعجزون اللّه بل هو قادر على إعادتكم وإن صرتم ترابًا ورفاتًا وعظامًا ، هو قادر لا يعجزه شيء ، عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبيّ ﷺ أنه قال : « يَا بَنِي آدَمَ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ فَعُدُّوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الْمَوْتَى ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » (١) .

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٧/٣) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ هذا تهديد شديد ووعيد أكيد أي : استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى ، فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي كقوله : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ۝ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ : عن ابن عبّاس ﴿ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ ناحيتكم ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي : أتكون لي أو لكم ، وقد أنجز اللَّه موعده لرسوله صلوات اللَّه عليه ، أي : فإنه تعالى مكنه في البلاد وحكّمه في نواصي مخالفيه من العباد وفتح له مكة وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناوأه واستقر أمره على سائر جزيرة العرب ، وكذلك اليمن والبحرين وكل ذلك في حياته ، ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته في أيام خلفائه ﷺ أجمعين ، كما قال اللَّه تعالى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ ، وقد فعل اللَّه ذلك بهذه الأمة المحمدية وله الحمد والمنة أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا .

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ .

هذا ذم وتوبيخ من اللَّه للمشركين الذين ابتدعوا بدعًا وكفرًا وشركًا وجعلوا للَّه شركاء وجزءًا من خلقه وهو خالق كل شيء ﷻ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ﴾ أي : مما خلق وبرأ ﴿ مِنَ ٱلْحَرْثِ ﴾ أي : من الزرع والثمار ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ﴾ أي : جزءًا وقسمًا ﴿ فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ وقوله : ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ ﴾ قال ابن عبّاس في تفسير هذه الآية : إن أعداء اللَّه كانوا إذا حرثوا حرثًا أو كانت لهم ثمرة جعلوا للَّه منه جزءًا وللوثن جزءًا ، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه ، وإن سقط منه شيء فيما سمي للصمد ردوه إلى ما جعلوه للوثن ، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقى شيئًا جعلوه للَّه ؛ جعلوا ذلك للوثن ، وإن سقط شيء من الحرث والثمرة الذي جعلوه للَّه فاختلط بالذي جعلوه للوثن قالوا : هذا فقير ، ولم يردوه إلى ما جعلوه للَّه ، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للَّه فسقى ما سمي للوثن تركوه للوثن ، وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، فيجعلونه للأوثان ويزعمون أنهم يحرمونه قربة للَّه ، فقال اللَّه تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ﴾ الآية . وقال عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم في الآية : كل شيء يجعلونه للَّه من ذبح يذبحونه لا يأكلونه أبدًا حتى يذكروا معه أسماء الآلهة ، وما كان للآلهة لم يذكروا اسم اللَّه معه ، وقرأ الآية حتى بلغ ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي : ساء ما يقسمون فإنهم أخطأوا أولًا في القسم ؛ لأن اللَّه تعالى هو رب كل شيء ومليكه وخالقه ، وله الملك ، وكل شيء له وفي تصرفه ، وتحت قدرته ومشيئته لا إله غيره ولا رب سواه ، ثم لما قسموا فيما زعموا القسمة الفاسدة لم يحفظوها بل جاروا فيها كقوله جلَّ وعلا : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ

دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : كما زينت الشياطين لهؤلاء أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا ، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق ووأد البنات خشية العار ، قال ابن عبّاس ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ زينوا لهم قتل أولادهم . وقال مجاهد : شركاؤهم شياطينهم يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خشية العيلة ، وقال السدي : أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات إما ليردوهم فيهلكوهم ، وإما ليلبسوا عليهم دينهم أي : فيخلطوا عليهم دينهم . وهذا كقوله : ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ وقد كانوا أيضًا يقتلون الأولاد من الإملاق وهو الفقر ، أو خشية الإملاق أن يحصل لهم في تلف المال ، وقد نهاهم عن قتل أولادهم لذلك ، وإنما كان هذا كله من تزيين الشياطين وشرعهم ذلك ، قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أي : كل هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كونًا وله الحكمة التامة في ذلك ، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ أي : فدعهم واجتنبهم وما هم فيه فسيحكم الله بينك وبينهم .

﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : الحِجْر الحرام مما حرموا من الوصيلة وتحريم ما حرموا ، وقال قتادة : ﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ ﴾ تحريم كان عليهم من الشياطين في أموالهم وتغليظ وتشديد ولم يكن من الله تعالى ، وقال ابن زيد بن أسلم : ﴿ حِجْرٌ ﴾ إنما احتجزوها لآلهتهم ، وقال السدي : ﴿ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾ يقولون : حرام أن يطعم إلا من شئنا ، وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ وقال السدي : أما الأنعام التي حرمت ظهورها ، فهي البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وأما الأنعام التي لا يذكرون اسم الله عليها قال : لا إذا ولدوها ولا إن نحروها . وعن عاصم بن أبي النجود قال لي أبو وائل : أتدري ما في قوله : ﴿ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ قلت : لا ، قال : هي البحيرة كانوا لا يحجون عليها ، وقال مجاهد : من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا في شيء من شأنها لا إن ركبوا ، ولا إن حلبوا ولا إن حملوا ولا إن نتجوا ولا إن عملت شيئًا . ﴿ ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ﴾ أي : على الله وكذبًا منهم في إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه ، فإنه لم يأذن لهم في ذلك ولا رضيه منهم ﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي : عليه ويسندون إليه .

﴿ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

قال ابن عبّاس : ﴿ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴾ الآية ، قال : اللبن . كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربه ذكرانهم ، وكانت الشاة إذا ولدت ذكرًا ذبحوه وكان للرجال

دون النساء ، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح ، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء ، فنهى الله عن ذلك ، وقال الشعبي : البحيرة لا يأكل من لبنها إلا الرجال وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء ، وقال مجاهد في قوله : ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ﴾ قال : هي السائبة والبحيرة ، وقال أبو العالية ومجاهد وقتادة في قول الله : ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ أي : قولهم الكذب في ذلك يعني كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ ﴾ الآية . ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ ﴾ أي : في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأعمال عباده من خير وشر وسيجزيهم عليها أتم الجزاء .

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ .

يقول تعالى : قد خسر الذين فعلوا هذه الأفاعيل في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم وضيقوا عليهم في أموالهم ، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم ، وأما في الآخرة فيصيرون إلى أسوأ المنازل بكذبهم على الله وافترائهم ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (١) .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

يقول تعالى مبينًا أنه الخالق لكل شيء من الزروع والثمار والأنعام التي تصرف فيها هؤلاء المشركون بآرائهم الفاسدة وقسموها وجزّأوها فجعلوا منها حرامًا وحلالًا ، فقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ قال ابن عباس : معروشات مسموكات ، وفي رواية : فالمعروشات ما عرش الناس ، وغير معروشات ما خرج في البر والجبال من الثمرات ، وقال : معروشات ما عرش من الكرم ، وغير معروشات ما لم يعرش من الكرم ، وقال ابن جريج ﴿ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ ، قال : متشابهًا في المنظر وغير متشابه في المطعم ، وقال محمّد بن كعب : ﴿ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ قال : من رطبه وعنبه ، وقوله تعالى : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ قال ابن جرير : قال بعضهم : هي الزكاة المفروضة . وعن يزيد بن درهم قال : سمعت أنس بن مالك يقول : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ قال : الزكاة المفروضة ، وقال ابن عبّاس : يعني الزكاة المفروضة يوم يكال ويعلم كيله ، وقال العوفي عن ابن عبّاس : وذلك أن الرجل كان إذا زرع فكان يوم حصاده لم

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٢٤) .

يخرج مما حصد شيئًا ، فقال اللّه تعالى : ﴿ وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ وذلك أن يعلم ما كيله وحقه من كل عشرة واحد وما يلقط الناس من سنبله ، وقد روي عن جابر بن عبد اللّه : أن النبيّ ﷺ أمر من كل جاذٍ عشرة أوسق من التمر بقنو يعلق في المسجد للمساكين [1] ، وقال الحسن البصري : هي الصدقة من الحب والثمار . وكذا قال زيد بن أسلم ، وقال آخرون : هو حق آخر سوى الزكاة ، وروي عن ابن عمر في قوله : ﴿ وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ قال : كانوا يعطون شيئًا سوى الزكاة .

وقال مجاهد : إذا حضرك المساكين طرحت لهم منه ، وقال : عند الزرع يعطي القبضة وعند الصرام يعطي القبضة ويتركهم فيتبعون آثار الصرام ، وقال سعيد بن جبير : كان هذا قبل الزكاة للمساكين القبضة والضغث لعلف دابته ، وقال آخرون : هذا شيء كان واجبًا ثم نسخه اللّه بالعشر أو نصف العشر قلت : وفي تسمية هذا ناسخًا نظر ؛ لأنه قد كان شيئًا واجبًا في الأصل ، ثم إنه فصل بيانه وبَيَّنَ مقدار المخرج وكميته . قالوا : وكان هذا في السنة الثانية من الهجرة ، فاللّه أعلم . وقد ذم اللّه سبحانه الذين يصرمون ولا يتصدقون ، كما ذكر عن أصحاب الجنّة في سورة « ن » ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ أي : كالليل المدلهم سوداء محترقة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ قيل : معناه لا تسرفوا في الإعطاء فتعطوا فوق المعروف ، وقال أبو العالية : كانوا يعطون يوم الحصاد شيئًا ثم تباروا فيه وأسرفوا ، فأنزل اللّه ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ وقال ابن جريج : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس جذ نخلًا له فقال : لا يأتيني اليوم أحد إلّا أطعمته ، فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة ، فأنزل اللّه تعالى : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ . وقال سعيد بن المسيب في قوله : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ لا تمنعوا الصدقة فتعصوا ربكم ، ثم اختار ابن جرير قول عطاء : إنه نهى عن الإسراف في كل شيء ، ولا شك أنه صحيح لكن الظاهر - واللّه أعلم - من سياق الآية حيث قال تعالى : ﴿ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ أن يكون عائدًا على الأكل أي : لا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن كقوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ الآية ، وفي الحديث : « كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلاَ مَخِيلَة » [2] ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾ أي : وأنشأ لكم من الأنعام ما هو حمولة وما هو فرش ، قيل : المراد بالحمولة ما يحمل عليه من الإبل والفرش الصغار منها . قوله : ﴿ حَمُولَةً ﴾ ما حمل عليه من الإبل ، والفرش الصغار من الإبل ، وقال ابن عبّاس : الحمولة هي الكبار ، والفرش الصغار من الإبل . وقال : أما الحمولة : فالإبل والخيل والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه ، أما الفرش : فالغنم ، واختاره ابن جرير ، قال : أحسبه إنما سمي فرشًا لدنوه من الأرض . وقال الربيع بن أنس وغيره : الحمولة الإبل والبقر ، والفرش الغنم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الحمولة ما تركبون ، والفرش ما تأكلون وتحلبون ؛ شاة لا تحمل تأكلون لحمها وتتخذون من صوفها لحافًا وفرشًا ، وهذا الذي قاله عبد الرّحمن في تفسير هذه الآية

(١) أخرجه أحمد في مسنده(٣/٣٥٩) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه(٣٦٠٥) .

الكريمة حسن يشهد له قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أي : من الثمار والزروع والأنعام فكلها خلقها الله وجعلها رزقًا لكم .

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ أي : طريقه وأوامره كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم الله من الثمار والزروع افتراء على الله ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ ﴾ أي : إن الشيطان أيها الناس لكم ﴿ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي : بيِّن ظاهر العداوة .

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

هذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا حرموا من الأنعام وجعلوها أجزاء وأنواعًا بحيرة وسائبة ووصيلة وحامًا وغير ذلك من الأنواع التي ابتدعوها في الأنعام والزروع والثمار ، فبيَّن أصناف الأنعام إلى غنم وهو بياض الضأن وسواد وهو المعز ذكره وأنثاه ، إلى إبل ذكورها وإناثها ، وبقر كذلك ، وأنه تعالى لم يحرم شيئًا من ذلك ولا شيئًا من أولادها ، بل كلها مخلوقة لبني آدم أكلًا وركوبًا وحمولة وحلبًا وغير ذلك من وجوه المنافع كما قال : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ رد عليهم في قولهم : ﴿ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي : أخبروني عن يقين كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك ، وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ﴾ فهذه أربعة أزواج ﴿ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ يقول : لم أحرم شيئًا من ذلك ﴿ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ فهذه أربعة أزواج ﴿ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ يعني : هل يشتمل الرحم إلَّا على ذكر أو أنثى ، فلم تحرمون بعضًا وتحلون بعضًا ؟ ﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يقول تعالى : كله حلال . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا ﴾ تهكم بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله من تحريم ما حرموه من ذلك ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي : لا أحد أظلم منه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ وأول من دخل في هذه الآية عمرو بن لحي بن قمعة ؛ لأنه أول من غيّر دين الأنبياء وأول من سيّب السوائب ووصل الوصيلة وحمى الحامي .

﴿ قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عبده ورسوله محمّدًا ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمّد لهؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ﴿ لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ أي : آكل يأكله ، قيل : معناه لا

أجد شيئًا مما حرمتم حرامًا سوى هذه ، وقيل : معناه لا أجد من الحيوانات شيئًا حرامًا سوى هذه ، فعلى هذا يكون ما ورد من التحريمات بعد هذا في سورة المائدة وفي الأحاديث الواردة رافعًا لمفهوم هذه الآية ، ومن الناس من يسمي هذا نسخًا والأكثرون من المتأخرين لا يسمونه نسخًا ؛ لأنه من باب رفع مباح الأصل والله أعلم ، وقال ابن عباس : ﴿ أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾ يعني المهراق ، وقال عكرمة في قوله : ﴿ أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾ لولا هذه الآية لتتبع الناس ما في العروق كما تتبعه اليهود (١) . وعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت لا ترى بلحوم السباع بأسًا والحمرة والدم يكونان على القدر بأسًا ، وقرأت هذه الآية (٢) .

وعن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرًا ، فبعث الله نبيه وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه ، فما أحل فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، وقرأ هذه الآية : ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ ﴾ الآية (٣) .

وعنه أيضا قال : ماتت شاة لسودة بنت زمعة ، فقالت : يا رسول الله ماتت فلانة تعني الشاة ، قال : « فَلِمَ لاَ أَخَذْتُمْ مِسْكَهَا ؟ » قالت : نأخذ مسك شاة قد ماتت ؟ فقال لها رسول الله ﷺ : «إِنَّمَا قَالَ اللَّه ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ ﴾ وَإِنَّكُمْ لاَ تُطْعِمُونَه أَنْ تَدْبِغُوهُ فَتَنْتَفِعُوا بِهِ » فأرسلت فسلخت مسكها فدبغته ، فاتخذت منه قربة حتى تخرقت عندها (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ أي : فمن اضطر إلى أكل شيء مما حرم الله في هذه الآية الكريمة وهو غير متلبس ببغي ولا عدوان ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : غفور له رحيم به ، والغرض من سياق هذه الآية الكريمة ، الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسهم بآرائهم الفاسدة من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك ، فأمر رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرم ، وإنما حرم ما ذكر في هذه الآية من الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، وما عدا ذلك فلم يحرم ، وإنما هو عفو مسكوت عنه ، فكيف تزعمون أنتم أنه حرام ومن أين حرمتموه ولم يحرمه الله ؟ وعلى هذا فلا يبقى تحريم أشياء أخر فيما بعد هذا ، كما جاء النهي عن لحوم الحمر الأهلية ولحوم السباع وكل ذي مخلب من الطير على المشهور من مذاهب العلماء .

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ .

قال ابن جرير : يقول تعالى : وحرمنا على اليهود كل ذي ظفر ، وهو البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع كالإبل والنعام والأوز والبط (٥) . قال ابن عباس : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا

(١) ذكره الطبري في تفسيره ٩٣/٨ .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره ٩٤/٨ .
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ١١٥/٤ .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٧/١) .
(٥) تفسير الطبري ٩٦/٨ .

﴿ كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ وهو البعير والنعامة ، وقال سعيد بن جبير : هو الذي ليس منفرج الأصابع ، وفي رواية عنه : كل متفرق الأصابع ومنه الديك ، وقال مجاهد : كل ذي ظفر قال : النعامة والبعير شقًّا شقًّا ، قلت للقاسم بن أبي بزة وحدثته : ما شقًّا شقًّا ؟ قال : كل ما لا ينفرج من قوائم البهائم ، قال : وما انفرج أكلته ، قال : انفرجت قوائم البهائم والعصافير ، قال : فيهود تأكله ، قال : ولم تنفرج قائمة البعير - خفه - ولا خف النعامة ولا قائمة الوز فلا تأكل اليهود الإبل ولا النعامة ولا الوز ولا كل شيء لم تنفرج قائمته ولا تأكل حمار الوحش ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ ﴾ قال السدي : يعني الثرب وشحم الكليتين ، وكانت اليهود تقول : إنه حرمه إسرائيل فنحن نحرمه ، وقال ابن عبّاس : ﴿ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ ﴾ يعني ما علق بالظهر من الشحوم ، وقال السدي وأبو صالح : الألية مما حملت ظهورهما وقوله تعالى : ﴿ أَوِ ٱلْحَوَايَآ ﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير : الحوايا جمع ، واحدها حاوياء وحاوية وحوية : وهو ما تحوّى من البطن فاجتمع واستدار ، وهي بنات اللبن ، وهي المباعر ، وتسمى المرابض ، وفيها الأمعاء . قال : ومعنى الكلام : ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما . وما حملت الحوايا . وعنه : ﴿ أَوِ ٱلْحَوَايَآ ﴾ وهي المبعر ، وقال عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد : الحوايا المرابض التي تكون فيها الأمعاء تكون وسطها ، وهي بنات اللبن ، وهي في كلام العرب تدعى المرابض ، وقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ يعني : إلا ما اختلط من الشحوم بعظم فقد أحللناه لهم ، وقال ابن جريج : شحم الألية ما اختلط بالعصعص فهو حلال وكل شيء في القوائم والجنب والرأس والعين وما اختلط بعظم فهو حلال .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ﴾ أي : هذا التضييق إنما فعلناه بهم وألزمناهم به مجازاة على بغيهم ومخالفتهم أوامرنا ، كما قال تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ وقوله : ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ وإنا لعادلون فيما جازيناهم به ، وقال عبد اللَّه بن عباس : بلغ عمر بن الخطاب ﷺ أن سمرة باع خمرًا ، فقال : قاتل اللَّه سمرة ألم يعلم أن رسول اللَّه ﷺ قال : « لَعَنَ اللَّه اليَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ الشُّحُومُ فَجَمَّلُوهَا فَبَاعُوهَا » [(١)] .

قال عطاء بن أبي رباح : سمعت جابر بن عبد اللَّه يقول : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول عام الفتح : « إِنَّ اللَّه وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الخَمْرِ وَالمَيْتَة وَالخِنْزِير وَالأَصْنَام » فقيل : يا رسول اللَّه أرأيت شحوم الميتة فإنها يدهن بها الجلود وتطلى بها السفن ويستصبح بها الناس ، فقال : « لاَ هُوَ حَرَامٌ » ثم قال رسول اللَّه ﷺ عند ذلك : « قَاتَلَ اللَّه اليَهُودَ إِنَّ اللَّه لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِم شُحُومَهَا جملُوهُ ثُمَّ بَاعُوهُ وَأَكَلُوا ثَمَنَهُ » [(٢)] .

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٢٣) ومسلم في المساقاة (٧٢) وأحمد في مسنده (٢٥/١) .
(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٢٣) ومسلم في المساقاة (٧١) وأحمد في مسنده (٢١٣/٣) .

يقول تعالى : فإن كذبك يا محمّد مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم فقل : ﴿ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ ﴾ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة اللّه الواسعة واتباع رسوله ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين وكثيرًا ما يقرن اللّه تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن ، كما قال تعالى في آخر هذه السورة : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ وقال : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ .

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ .

هذه مناظرة ذكرها اللّه تعالى ، وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا ، فإن اللّه مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه ، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان ويحول بيننا وبين الكفر فلم يغيره ، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا بذلك ، ولهذا قالوا : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾ كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ﴾ الآية ، وقال اللّه تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء ، وهي حجة داحضة باطلة ؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم اللّه بأسه ودمر عليهم وأدال عليهم رسله الكرام وأذاق المشركين من أليم الانتقام ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ ﴾ أي : بأن اللّه راض عنكم فيما أنتم فيه ﴿ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ﴾ أي : فتظهروه لنا وتبينوه وتبرزوه ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ أي : الوهم والخيال والمراد بالظن ها هنا الاعتقاد الفاسد ﴿ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ تكذبون على اللّه فيما ادعيتموه ، قال ابن عبّاس : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ وقال : ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ثم قال : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ﴾ فإنهم قالوا : عبادتنا الآلهة تقربنا إلى اللّه زلفى ، فأخبرهم اللّه أنها لا تقربهم فقوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ﴾ يقول تعالى : لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمّد ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ أي : له الحكمة التامة والحجة البالغة في هداية من هدى وإضلال من ضل ﴿ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره . وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ﴾ أي : أحضروا شهداءكم ﴿ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ﴾ أي : هذا الذي حرمتموه وكذبتم وافتريتم على اللّه فيه ﴿ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ أي : لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذبًا وزورًا ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أي : يشركون به ويجعلون له عديلًا .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم

﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

قال ابن مسعود ﷺ ، من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ إلى قوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وقال ابن عباس : في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب ثم قرأ : ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآيات (١) . وعن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « أَيُّكُمْ يُبَايِعُني عَلَى ثَلاثٍ ؟ » ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حتى فرغ من الآيات « فَمَنْ وَفَّى فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَمَنْ انْتَقَصَ مِنْهُنَّ شَيْئًا فَأَدْرَكَهُ اللهُ بِهِ فِي الدُّنْيَا كَانَتْ عُقُوبَتَهُ ، وَمَنْ أَخَّرَ إِلَى الآخِرَةِ فَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَه ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ » (٢) ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿تَعَالَوْا۟﴾ أي : هلموا وأقبلوا ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي : أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقًّا لا تخرصًا ولا ظنًّا بل وحيًا منه وأمرًا من عنده ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وكأن في الكلام محذوفًا دل عليه السياق وتقديره وأوصاكم ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ ولهذا قال في آخر الآية : ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

وعن أبي ذر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَتَاني جِبْرِيلُ فَبَشَّرَني أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا مِنْ أُمَّتِكَ دَخَلَ الجَنَّةَ ، قُلْتُ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ؟ قَالَ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَق . قُلْتُ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَق ؟ قَالَ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ، قُلْتُ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ؟ قَالَ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَق ، وَإِنْ شَرِبَ الخَمْرَ » وفي بعض الروايات أن قائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله ﷺ وأنه عليه الصلاة والسلام قال في الثالثة : « وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ » (٣) فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث : « وَإِنْ رَغِمَ أَنْف أَبِي ذرٍّ » . وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ « يقولُ تعالى : يا ابنَ آدمَ إنكَ ما دعوتَني ورجوتَني فإنِّي أغفرُ لكَ على ما كان منكَ ولا أبالي ، ولو أتيتني بقرابِ الأرضِ خطيئةً أتيتكَ بقرابها مغفرةً ما لم تشرك بي شيئًا ، وإن أخطأتَ حتى تبلغَ خطاياك عنانَ السماء ثم استغفرتني غفرتُ لك » (٤) ولهذا شاهد في القرآن قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ . وعن ابن مسعود « مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ » (٥) .

وقوله تعالى : ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ﴾ أي : وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحسانًا أي : أن تحسنوا إليهم كما قال تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾ وعن ابن مسعود ﷺ أنه قال : سألت رسول الله ﷺ أي العمل أفضل ؟ قال : « الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا » قلت : ثم أي ؟ قال : « بِرُّ الوَالِدَيْنِ » قلت : ثم أي ؟ قال : « الجِهَادُ في سَبِيلِ اللهِ » قال ابن مسعود : حدَّثني بهن رسول

(١) أخرجه : الحاكم في المستدرك ٣١٧/٢ .
(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (١٨) ومسلم في الحدود (٤١ ، ٤٣) .
(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٨٧) ومسلم في الإيمان (١٥٣) والترمذي في السنن (٢٦٤٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٥/٥) . (٥) أخرجه مسلم في الإيمان (١٥١) وأحمد في مسنده (٥٩/٥) .

الله ﷺ ولو استزدته لزادني (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۢ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴾ لما أوصى تعالى بالوالدين والأجداد عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۢ ۖ ﴾ وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك ، فكانوا يئدون البنات خشية العار ، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار ، ولهذا ورد عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه سأل رسول الله ﷺ : أي الذنب أعظم ؟ قال : « أَنْ تجْعَلَ للّه نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ » قلت : ثم أي ؟ قال : « أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خِشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ » قلت : ثم أي ؟ قال : « أَنْ تُزَانِي حَلِيلَةَ جَارِكَ » ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ ﴾ (٢) الآية ، وقوله تعالى : ﴿ مِّنْ إِمْلَٰقٍۢ ۖ ﴾ قال ابن عبادة وقتادة والسدي وغيره : هو الفقر ، أي : ولا تقتلوهم من فقركم الحاصل ، وقال في سورة الإسراء : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۢ ۖ ﴾ أي : لا تقتلوهم خوفًا من الفقر في الآجل ، ولهذا قال هناك : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ ﴾ فبدأ برزقهم للاهتمام بهم أي : لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم فهو على الله ، وأما هنا فلما كان الفقر حاصلًا قال : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴾ لأنه الأهم ههنا ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ عن ابن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللّه ، مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾ وهذا مما نص تبارك وتعالى على النهي عنه تأكيدًا ، وإلَّا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فقد جاء عن ابن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ يَحِلُّ دَمَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللّه وَأَنِّي رَسُولُ اللّه إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاَثٍ : الثَّيِّبُ الزَّانِي ، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ المُفَارِقُ لِلجَمَاعَةِ » وفي لفظ لمسلم : « وَالَّذِي لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ لاَ يَحِلُّ دمُ رَجُلٍ مُسْلِمٍ » (٤) وذكره . وروي عن عائشة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « لاَ يَحِلُّ دمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاَثٍ خِصَالٍ : زَانٍ مُحْصَنٌ يُرْجَمُ ، وَرَجُلٌ قَتَلَ مُتَعَمِّدًا فَيُقْتَلُ ، وَرَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ الإِسْلاَمِ وَحَارَبَ اللّه وَرَسُولَهُ فَيُقْتَلُ أَوْ يُصْلَبُ أَوْ يُنْفَى مِنَ الأَرْضِ » (٥) . وروي عن عبد الله بن عمرو ﷺ عن النبيّ ﷺ مرفوعًا : « مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا » (٦) وقوله : ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٨٢) وأحمد في مسنده (٤٤٨/١) .

(٢) أخرجه البخاري في المحاربين (٦٨١١) ومسلم في الإيمان (١٤١) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٣٤) ومسلم في التوبة (٣٣ ، ٣٤) وأحمد في مسنده (٤٣٦/١) .

(٤) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٧٨) ومسلم في القسامة (٢٤) وأحمد في مسنده (٦١/١) .

(٥) أخرجه النسائي في السنن ٩٢/٧ ، وأبو داود في السنن (٤٥٠٢) والحاكم في المستدرك ٣٥٠/٤ .

(٦) أخرجه البخاري في الجزية والموادعة (٣١٦٦) وأحمد في مسنده (٣٦/٥) وابن ماجه في سننه (٢٦٨٦) .

أي : هذا مما وصاكم به لعلكم تعقلون من اللّٰه أمره ونهيه .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

قال ابن عباس : لما أنزل اللّٰه ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ و ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا ﴾ الآية ، فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول اللّٰه فأنزل اللّٰه ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ ﴾ قال : فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم (١) ، وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ ﴾ قال الشعبي ومالك : يعني حتى يحتلم ، وقال السدي : حتى يبلغ ثلاثين سنة ، وقيل : أربعون سنة ، وقيل : ستون سنة ، وقال : وهذا كله بعيد ها هنا ، واللّٰه أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ ﴾ يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء ، كما توعد على تركه في قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول اللّٰه ﷺ لأصحاب الكيل والميزان : « إِنَّكُمْ وَلِّيتُمْ أَمْرًا هَلَكَتْ فِيهِ الأُمَمُ السَّالِفَةُ قَبْلَكُمْ » (٢) .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ ﴾ أي : من اجتهد في أداء الحق وأخذه ، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه .

وقوله : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ ﴾ اللّٰه تعالى يأمر بالعدل لكل أحد في كل وقت وفي كل حال .

وقوله : ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ﴾ قال ابن جرير : يقول : وبوصية اللّٰه التي أوصاكم بها فأوفوا وإيفاء ذلك أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم وتعملوا بكتابه وسنّة رسوله ، وذلك هو الوفاء بعهد اللّٰه ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ يقول تعالى : هذا أوصاكم به وأمركم به وأكد عليكم فيه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه قبل هذا ، وقرأ بعضهم بتشديد الذال وآخرون بتخفيفها (٣) .

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ﴾ : أمر اللّٰه المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة ، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين اللّٰه ، وعن عبد اللّٰه بن مسعود رضي الله عنه قال : خط رسول اللّٰه ﷺ خطًّا بيده ثم قال : « هَذَا سَبِيلُ اللهِ مُسْتَقِيمًا » وخط عن يمينه وشماله ثم قال : « هَذِهِ السُّبُلُ لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ »

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٢٨٧١) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (١٢١٧) بلفظ : « إنكم قد وليتم أمرين » .

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص (تَذَكَّرون) بتخفيف الذال ، حيث وقع إذا كان بالخطاب وحسن ما تائه تاء أخرى ، والباقون (تَذَّكرون) بالتشديد (انظر : تقريب النشر ص : ١١٢ ، ١١٣) .

ثم قرأ : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (١) .

وعن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال : « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، وَعَنْ جَنْبَتَيِ الصِرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ ، وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ ، وَعَلَى بَابِ الصِرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسِ هَلُمَّ ادْخُلُوا الصِرَاطَ المُسْتَقِيمَ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا ، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِرَاطِ ، فَإِذَا أَرَادَ الإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ : قَالَ وَيْحَكَ لاَ تَفْتَحْهُ ، فَإِنَّكَ إِنْ فَتَحْتَهُ تَلِجْهُ ، فَالصِّرَاطُ الإِسْلاَمُ ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ ، وَالأَبْوَابُ المُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾ إنما وحد سبيله ، لأن الحق واحد ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ . وعن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « أَيُّكُمْ يُبَايِعُنِي عَلَى هَؤُلاَءِ الآيَاتِ الثَّلاَثِ » ثم تلا : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ ﴾ حتى فرغ من ثلاث آيات ثم قال : « وَمَنْ وَفَى بِهِنَّ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَمَنْ انْتَقَصَ مِنْهُنَّ شَيْئًا فَأَدْرَكَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا كَانَتْ عُقُوبَتَهُ ، وَمَنْ أَخَّرَهُ إِلَى الآخِرَةِ كَانَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ : إِنْ شَاءَ أَخَذَهُ ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ » (٣) .

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

قال ابن جرير : ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ تقديره ثم قل يا محمّد مخبرًا عنا : أنا آتينا موسى الكتاب بدلالة قوله : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ ﴾ (٤) . قلت : وفي هذا نظر ، وثم ههنا إنما هي لعطف الخبر بعد الخبر ، لا للترتيب ههنا .

وههنا لما أخبر اللَّه سبحانه عن القرآن بقوله : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ ﴾ عطف بمدح التوراة ورسولها فقال : ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وكثيرًا ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة كقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ ﴾ وبعدها ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ الآية ، وقال تعالى مخبرًا عن المشركين : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا ﴾ أي : آتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه تمامًا كاملًا جامعًا لما يحتاج إليه في شريعته كقوله : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ ﴾ أي : جزاء على إحسانه في العمل وقيامه بأوامرنا وطاعتنا كقوله : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ ﴾ أحسن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٥/١) وابن ماجه في سننه (١١) والدارمي في السنن (٦٧/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٢/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (١٨) ومسلم في الحدود (٤١ ، ٤٣) .

(٤) ذكره الطبري في تفسيره (١١٨/٨) .

فيما أعطاه الله ، وقال قتادة : من أحسن في الدنيا تمم له ذلك في الآخرة ، واختار ابن جرير أن تقديره ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا ﴾ على إحسانه ، فكأنه جعل الذي مصدرية كما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ﴾ أي : كخوضهم .

وقال آخرون : الذي ههنا بمعنى الذين ، قال عبد الله بن مسعود أنه كان يقرؤها ﴿ تمامًا على الذين أحسنوا ﴾[1] وقال مجاهد : تمامًا على الذي أحسن ، قال : على المؤمنين والمحسنين ، وكذا قال أبو عبيدة ، وقال البغوي : المحسنون الأنبياء والمؤمنون ، يعني أظهرنا فضله عليهم ، قلت : كقوله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾ ولا يلزم اصطفاؤه على محمد ﷺ خاتم الأنبياء والخليل عليه السلام لأدلة أخرى ، وروي أبو عمرو بن العلاء عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرؤها ﴿ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أحسنُ وَتَفْصِيلًا ﴾ رفعًا بتأويل على الذي هو أحسن ، ثم قال : وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها وإن كان لها في العربية وجه صحيح ، وقيل : معناه تمامًا على إحسان الله إليه زيادة على ما أحسن إليه ، حكاه ابن جرير والبغوي ولا منافاة بينه وبين القول الأول ، وبه جمع ابن جرير كما بيناه ولله الحمد .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ فيه مدح لكتابه الذي أنزله الله عليهم ﴿ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ فيه الدعوة إلى اتباع القرآن يرغب سبحانه عباده في كتابه ، ويأمرهم بتدبره والعمل به والدعوة إليه ، ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به في الدنيا والآخرة لأنه حبل الله المتين .

﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴾ .

قال ابن جرير : معناه وهذا كتاب أنزلناه لئلا تقولوا : ﴿ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ يعني لينقطع عذركم ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ قال ابن عباس : هم اليهود والنصارى ، وكذا قال مجاهد والسدي وقتادة وغير واحد ، وقوله : ﴿ وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾ أي : وما كنا نفهم ما يقولون ؛ لأنهم ليسوا بلساننا ونحن في غفلة وشغل مع ذلك عما هم فيه . وقوله : ﴿ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾ أي : وقطعنا تعللكم أن تقولوا : لو أنا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكنا أهدى منهم فيما أوتوه ، كقوله : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ﴾ الآية ، ﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ يقول : فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ النبي العربي قرآن عظيم فيه بيان للحلال والحرام وهدى لما في القلوب ورحمة من الله لعباده الذين يتبعونه ويقتفون ما فيه .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ أي : لم ينتفع بما جاء به الرسول

(١) تفسير الطبري ١١٨/٨ .

ولا اتبع ما أرسل به ولا ترك غيره ، بل صدف عن اتباع آيات الله أي : صرف الناس وصدهم عن ذلك ، قاله السدي ، وعن ابن عبّاس ومجاهد وقتادة : ﴿ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ أعرض عنها ، وقول السدي ههنا فيه قوة لأنه قال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ كما تقدم في أول السورة ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ ﴿ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴾ وقد يكون المراد فيما قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ أي : لا آمن بها ولا عمل بها كقوله تعالى : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَـٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ وغير ذلك من الآيات الدالة على اشتمال الكافر على التكذيب بقلبه وترك العمل بجوارحه ، ولكن كلام السدي أقوى وأظهر والله أعلم ؛ لأن الله قال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾ .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى متوعدًا للكافرين به والمخالفين لرسله والمكذبين بآياته والصادين عن سبيله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾ وذلك كائن يوم القيامة ﴿ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا ﴾ وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراطها حين يرون شيئًا من أشراط الساعة ، كما قال البخاري في تفسير هذه الآية : عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا رَآهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا » فذلك حين ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ (١) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلاَثٌ إِذَا خَرَجْنَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا : طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالدَّجَّالُ ، وَدَابَّةُ الأَرْضِ » (٢) .

وعن أبي ذر جندب بن جنادة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ الشَّمْسُ إِذَا غَرَبَتْ ؟ » قلت : لا أدري ، قال : « إِنَّهَا تَنْتَهِي دُونَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً ، ثُمَّ تَقُومُ حَتَّى يُقَالَ لَهَا : ارْجِعِي ، فَيُوشِكُ يَا أَبَا ذَرٍّ أَنْ يُقَالَ لَهَا : ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ وَذَلِكَ حِينَ ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ (٣) .

وعن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من عرفة ونحن نتذاكر الساعة فقال رسول الله ﷺ : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ : طُلُوع الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالدُّخَانُ ، وَالدَّابَّةُ ، وَخُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَخُرُوجُ عِيسَى ابنِ مَرْيَمَ ، وَخُرُوجُ الدَّجَّالِ ، وَثَلاثَة خُسُوفٍ : خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٦) ومسلم في الإيمان (٧٢) وأبو داود في السنن (٤٣١٢) .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٤٩) وأحمد في مسنده (٤٤٥/٢) والترمذي في السنن (٣٠٧٣) .
(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٥٠) وأحمد في مسنده (١٦٥/٥) .

تَسُوقُ - أَوْ تَحْشُرُ - النَّاسَ ؛ تَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا ، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا » (١) .

وعن ابن السعدي أن رسول الله ﷺ قال : « لاَ تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ مَا دَامَ العَدُوُّ يُقَاتِلَ » فقال معاوية وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص : إن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ الهِجْرَةَ خَصْلَتَانِ إِحْدَاهُمَا تَهْجُرُ السَّيِّئَاتِ وَالأُخْرَى تُهَاجِرُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَلاَ تَنْقَطِعُ مَا تُقُبِّلَتِ التَّوْبَةُ ، وَلَا تَزَالُ التَّوْبَةُ تُقْبَلُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ، فَإِذَا طَلَعَتْ ؛ طُبِعَ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ بِمَا فِيهِ ، وَكُفِيَ النَّاسُ العَمَلَ » (٢) .

فقوله تعالى : ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ أي : إذا أنشأ الكافر إيمانًا يومئذٍ لا يقبل منه ، فأما من كان مؤمنًا قبل ذلك فإن كان مصلحًا في عمله فهو بخير عظيم ، وإن لم يكن مصلحًا فأحدث توبة حينئذٍ لم تقبل منه توبته .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ أي : ولا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملًا به قبل ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ تهديد شديد للكافرين ووعيد أكيد لمن سوَّف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك . وإنما كان هذا الحكم عند طلوع الشمس من مغربها لاقتراب الساعة وظهور أشراطها كما قال : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ .

قال مجاهد وقتادة والضحاك والسدي : نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى ، وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث محمّد ﷺ فتفرقوا فلما بعث محمّد ﷺ أنزل الله عليه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ الآية . والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفًا له ؛ فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق . فمن اختلف فيه ﴿ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ أي فرقًا كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات ؛ فإن الله تعالى قد برأ رسول الله ﷺ مما هم فيه ، وهذه الآية كقوله : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ الآية ، وفي الحديث : « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» (٣) فهذا هو الصراط المستقيم وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لا شريك له ، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر ، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء ، والرسل براء منها .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ الآية ، ثم بيّن لطفه سبحانه في حكمه وعدله يوم القيامة فقال تعالى :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧/٤) والترمذي في السنن (٢١٨٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٢/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٤٢) ومسلم في فضائل (١٤٣) وأحمد في مسنده ٤٦٣/٢ .

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل في الآية الأخرى وهي قوله : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ وقد وردت الأحاديث مطابقة لهذه الآية ، فروي عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى : « إِنَّ رَبَّكُمْ عز وجل رَحِيمٌ ، مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ . وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ وَاحِدَةً أَوْ يَمْحُوهَا اللَّهُ عز وجل ، وَلاَ يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ » (١) . وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ عز وجل : مَنْ عَمِلَ حَسَنَةً فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ ، وَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَجَزَاؤُهُ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ ، وَمَنْ عَمِلَ قِرَابَ الأَرْضِ خَطِيئَةً ثُمَّ لَقِيَنِي لاَ يُشْرِكُ بِي شَيْئًا جَعَلْتُ لَهُ مِثْلَهَا مَغْفِرَةً ، وَمَنِ اقْتَرَبَ إِلَيَّ شِبْرًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَمَنِ اقْتَرَبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً » (٢) . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَة ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَلَيْهِ سَيِّئَةً وَاحِدَةً » (٣) .

واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام : تارة يتركها لله فهذا تكتب له حسنة على كفِّه عنها لله تعالى ، وهذا عمل ونيَّة ، ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح « فَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي » (٤) أي من أجلي . وتارة يتركها نسيانًا وذهولًا عنها فهذا لا له ولا عليه ؛ لأنه لم ينو خيرًا ولا فعل شرًا . وتارة يتركها عجزًا وكسلًا عنها بعد السعي في أسبابها والتلبس بما يقرب منها فهذا بمنزلة فاعلها ، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال : « إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ » قالوا : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال : « إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ » (٥) .

وعن خريم بن فاتك الأسدي أن النبيّ ﷺ قال : « إِنَّ النَّاسَ أَرْبَعَةٌ وَالأَعْمَال سِتَّةٌ ، فَالنَّاسُ مُوسَّعٌ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَمُوَسَّعٌ لَهُ فِي الدُّنْيَا مَقْتُورٌ عَلَيْهِ فِي الآخِرَةِ ، وَمَقْتُورٌ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مُوَسَّعٌ لَهُ فِي الآخِرَةِ ، وَشَقِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَالأَعْمَالُ مُوجِبَتَانِ ، وَمثلٌ بِمثلٍ ، وَعَشَرَةُ أَضْعَافٍ ، وَسَبْعمِائَة ضِعْفٍ ، فَالْمُوجِبَتَانِ : مَنْ مَاتَ مُسْلِمًا مُؤْمِنًا لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ ، وَمَنْ مَاتَ كَافِرًا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ ، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَعَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ قَدْ أَشْعَرَهَا قَلْبَهُ وَحَرِصَ عَلَيْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ ، وَمَنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ وَاحِدَةً وَلَمْ تُضَاعَفْ عَلَيْهِ ، وَمَنْ عَمِلَ حَسَنَةً كَانَتْ عَلَيْهِ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، وَمَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ عز وجل كَانَتْ بِسَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ » (٦)

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٩/١) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٣/٥٠) .
(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٠٦) وأحمد في مسنده (٢٧٩/١) .
(٤) أخرجه : مسلم في الإيمان (٢٠٥) وأحمد في مسنده ٣١٧/٢ .
(٥) أخرجه البخاري في الإيمان (٣١) ومسلم في الفتن (١٥) وابن ماجه في السنن (٣٩٦٤) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٥/٤) .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبيّ ﷺ قال : « يَحْضُرُ الجُمُعَةَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ : رَجُلٌ حَضَرَهَا بِلَغْوٍ فَهُوَ حَظُّهُ مِنْهَا ، وَرَجُلٌ حَضَرَهَا بِدُعَاءٍ ؛ فَهُوَ رَجُلٌ دَعَا اللَّهَ فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُ ، وَرَجُلٌ حَضَرَهَا بِإِنْصَاتٍ وَسُكُوتٍ ، وَلَمْ يَتَخَطَّ رَقَبَةَ مُسْلِمٍ ، وَلَمْ يُؤْذِ أَحَدًا ؛ فَهِيَ كَفَّارَةٌ لَهُ إِلَى الجُمُعَةِ الَّتِي تَلِيهَا وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ » وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ (١) . وعن أبي ذر ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ صَامَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ فَقَدْ صَامَ الدَّهْرَ كُلَّهُ » وزاد الترمذي : « فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ اليَوْمُ بِعَشْرَةِ أَيَّامٍ » (٢) ، وقال ابن مسعود : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ من جاء بلا إله إلّا اللَّه ومن جاء بالسيئة يقول بالشرك .

﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا نبيه ﷺ سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ أي : قائمًا ثابتًا ﴿ مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ ﴾ وليس يلزمه من كونه ﷺ أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية ، أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام قام بها قيامًا عظيمًا وأكملت له إكمالًا تامًّا لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال ، ولهذا كان خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم على الإطلاق ، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق حتى الخليل ﷺ . وعن ابن أبزى عن أبيه قال : كان رسول اللَّه ﷺ إذا أصبح قال : « أَصْبَحْنَا عَلَى مِلَّةِ الإِسْلَامِ ، وَكَلِمَةِ الإِخْلَاصِ ، وَدِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ، وَمِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ » (٣) وعن ابن عبّاس ﷺ أنه قال : قيل لرسول اللَّه ﷺ : أي الأديان أحب إلى اللَّه تعالى ؟ قال : « الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ » (٤) . وعن عائشة ﷺ قالت : وضع رسول اللَّه ذقني على منكبه لأنظر إلى زفن الحبشة حتى كنت التي مللت فانصرفت عنه (٥) . وعن عائشة قالت : قال رسول اللَّه ﷺ يومئذ : « لِتَعْلَمَ يَهُودُ أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً ؛ إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ » (٦) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير اللَّه ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم في ذلك ، فإن صلاته للَّه ونسكه على اسمه وحده لا شريك له ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ أي : أخلص له صلاتك وذبحك ، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها فأمره اللَّه تعالى بمخالفتهم والانحراف

(١) أخرجه أبو داود في سننه (١١١٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٢١٩/٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٥/٥) والترمذي في السنن (٣٠٧٣) وابن ماجه في السنن (١٧٠٨) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٦/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٦/١٠) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٦/١) والطبراني في المعجم الكبير (٢٢٧/١١) .
(٥ ، ٦) أخرجه أحمد في مسنده (١١٦/٦) .

عما هم فيه ، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى . قال مجاهد في قوله : ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ النسك الذبح في الحج والعمرة . وقال سعيد بن جبير ﴿ وَنُسُكِي ﴾ قال : ذبحي ، وعن جابر بن عبد الله قال : ضحّى رسول الله ﷺ في يوم عيد النحر بكبشين ، وقال حين ذبحهما : «وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » (١) .

وقوله ﷺ : ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ قال قتادة : أي من هذه الأمة وهو كما قال ؛ فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام ، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ وقد أخبرنا تعالى عن نوح أنه قال لقومه : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ فأخبر تعالى أنه بعث رسله بالإسلام ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضًا ، إلى أن نسخت بشريعة محمّد ﷺ التي لا تنسخ أبد الآبدين ، ولا تزال قائمة منصورة وأعلامها منشورة إلى قيام الساعة ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : «نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أَوْلاَدُ عَلاَّتٍ ديننا وَاحِدٌ » (٢) فإن أولاد العلات هم الإخوة من أب واحد وأمهات شتى ؛ فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات ، كما أن إخوة الأخياف عكس هذا : بنو الأم الواحدة من آباء شتى ، والإخوة الأعيان الأشقاء من أب واحد وأم واحدة ، والله أعلم .

وعن علي ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا كبّر استفتح ثم قال : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ إلى آخر الآية « اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ، ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الأَخْلاَقِ لاَ يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لاَ يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ » (٣) .

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمّد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا ﴾ أي : أطلب ربًّا سواه ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ يربيني ويحفظني ويكلؤني ويدبر أمري ، أي : لا أتوكل إلا عليه ولا أنيب إلا إليه ؛ لأنه رب كل شيء ومليكه وله الخلق والأمر . ففي هذه الآية الأمر بإخلاص التوكل كما تضمنت التي قبلها إخلاص العبادة لله وحده لا شريك

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠١ ، ٢٠٢) والترمذي في السنن (٣٤٢١) والدارمي في السنن (٢٨٢/١) .
(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٤٢) ومسلم في الفضائل (١٤٣) وأحمد في مسنده ٤٦٣/٢ جميعهم بنحوه .
(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠١) والدارقطني في السنن (٢٦٧/١) .

له ، وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيرًا في القرآن ، كقوله تعالى مرشدًا لعباده أن يقولوا له : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وقوله : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ إخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر ، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد ، وهذا من عدله تعالى كما قال : ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ قال علماء التفسير : أي فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره ولا يهضم بأن ينقص من حسناته . وقوله : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ أي : اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه ، فستعرضون ونعرض عليه وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا كقوله : ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ الْأَرْضِ ﴾ أي : جعلكم تعمرونها جيلًا بعد جيل ، وقرنًا بعد قرن وخلفًا بعد سلف . وقوله : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ أي : فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوئ والمناظر والأشكال والألوان وله الحكمة في ذلك كقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ أي : ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحنكم به ، ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره والفقير في فقره ويسأله عن صبره . عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ مَاذَا تَعْمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا ، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ ترهيب وترغيب أن حسابه وعقابه سريع فيمن عصاه وخالف رسله ﴿ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ لمن والاه واتبع رسله فيما جاءوا به من خير وطلب . وكثيرًا ما يقرن الله تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين كقوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

وعن أبي هريرة مرفوعًا أن رسول الله ﷺ قال : « لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ ، وَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنِطَ أَحَدٌ مِنَ الجَنَّةِ ، خَلَقَ اللهُ مِائَةَ رَحْمَةٍ ، فَوَضَعَ وَاحِدَةً بَيْنَ خَلْقِهِ يَتَرَاحَمُونَ بِهَا ، وَعِنْدَ اللهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ » (٢) .

وعن العلاء قال : قال رسول الله ﷺ : « لَمَّا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٩٩) وأحمد في مسنده (٣٦٤/٦) والترمذي في السنن (٢٩١٩) .
(٢) أخرجه مسلم في التوبة (٢٣) وأحمد في مسنده (٣٣٤/٢) والترمذي في السنن (٣٥٤٢) .

العَرْشِ : إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي » [١] .

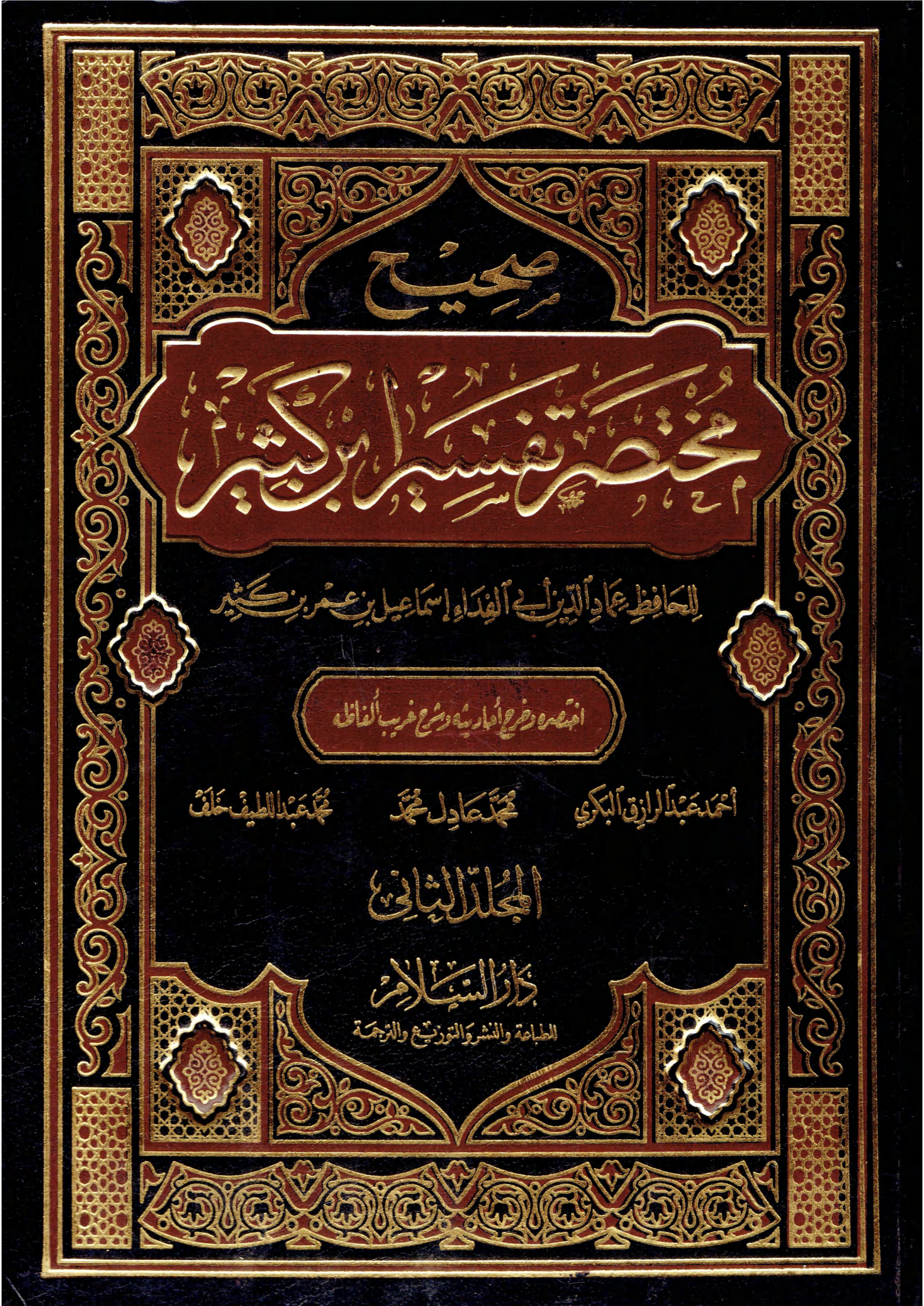
وعنه أيضًا قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « جَعَلَ اللّه الرَّحْمَةَ مائَةَ جُزْءٍ ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعينَ جُزْءًا ، وَأَنْزَلَ في الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا ، فَمِنْ ذَلِكَ الجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الخَلَائِقُ حَتَّى تَرْفَعُ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ » [٢] .

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة (١٤) وأحمد في مسنده (٢/٢٦٠) .

(٢) مسلم في التوبة (١٧) والدارمي في السنن (٢/٣٢١) .

فهرس المجلد الأول


صحيح
مختصر تفسير ابن كثير
للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير
اختصره وخرج أحاديثه وشرح غريب ألفاظه
أحمد عبد الرازق البكري
محمد عادل محمد
محمد عبد اللطيف خلف
المجلد الثاني
دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

صحيح

مختصر تفسير ابن كثير

للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير

اختصره وخرج أحاديثه وشرح غريب ألفاظه

أحمد عبد الرازق البكري

محمد عادل محمد

محمد عبد اللطيف خلف

المجلد الثاني

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م
الطبعة الثانية
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م
الطبعة الثالثة
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

القاهرة - جمهورية مصر العربية
الإدارة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
بريديًا : ص.ب ١٦١ الغورية الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

سورة الأعراف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

قد تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف وبسطه واختلاف الناس فيه ، قال ابن عبّاس : ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ أنا اللَّه أفصل ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أي : هذا كتاب أنزل إليك أي من ربك ﴿ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ قال مجاهد : شك منه ، وقيل : لا تتحرج به في إبلاغه والإنذار به ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ ولهذا قال : ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ ﴾ أي : أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ثم قال تعالى مخاطبًا للعالم : ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي : اقتفوا آثار النبيّ الأميّ الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي : لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره فتكونوا قد عدلتم عن حكم اللَّه إلى حكم غيره ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ .

يقول اللَّه تعالى : ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا ﴾ أي بمخالفة رسلنا وتكذيبهم ، فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولًا بذل الآخرة كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وقوله : ﴿ فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ أي : فكان منهم من جاءه أمر اللَّه وبأسه ونقمته ﴿ بَيَٰتًا ﴾ أي : ليلًا ﴿ أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ من القيلولة : وهي الاستراحة وسط النهار ، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو كما قال : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ وقوله : ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ أي : فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ إلى قوله ﴿ خَٰمِدِينَ ﴾ قال ابن جرير : في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول اللَّه ﷺ قال : « مَا هلكَ قَوْمٌ حتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » (١) .

وقوله : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ الآية كقوله : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ فيسأل اللَّه الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به ، ويسأل الرسل أيضًا عن إبلاغ رسالاته ، ولهذا قال ابن عبّاس في تفسير هذه الآية ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ قال : عما بلغوا . وعن ابن عمر قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « كُلُّكُم رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَالإمَامُ يُسْأَلُ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ يُسْأَلُ عَنْ أَهْلِهِ ، وَالمرْأَةُ تُسْأَلُ عَنْ بَيْتِ زَوْجِهَا ،

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٥٨/٨) .

وَالعَبْدُ يُسْأَلُ عَنْ مَالِ سَيِّدِهِ »[١] وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون ﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير ؛ لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يغفل عن شيء ، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور .

﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَٱلْوَزْنُ ﴾ أي : للأعمال يوم القيامة ﴿ ٱلْحَقُّ ﴾ أي : لا يظلم تعالى أحدًا كقوله : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ .

فصل : والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل : الأعمال وإن كانت أعراضًا إلّا أن اللَّه تعالى يقلبها يوم القيامة أجسامًا . وعن ابن عبّاس كما جاء في الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف[٢] . ومن ذلك في الصحيح قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظمأت نهارك[٣] . وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر : « فَيَأْتِي المُؤْمِنَ شَابٌّ حَسَنُ اللَّوْنِ طَيِّبُ الرِّيحِ ، فَيَقُولُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِح » وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق[٤] .

وقيل : يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة في الرجل الذي يؤتى به ، ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلًا كل سجل مد البصر ، ثم يؤتي بتلك البطاقة فيها لا إله إلّا اللَّه ، فيقول : يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول اللَّه تعالى : إنك لا تظلم . فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان ، قال رسول اللَّه ﷺ : « فَطَاشَت السِّجلاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ »[٥] .

وقيل : يوزن صاحب العمل كما في الحديث : « يُؤْتَى يَوْمَ القِيَامَةِ بِالرَّجُلِ السَّمِينِ فَلاَ يَزِنُ عِنْدَ اللَّه جَنَاحَ بَعُوضَةٍ »[٦] ثم قرأ : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ . وفي مناقب عبد اللَّه بن مسعود أن النبيّ ﷺ قال : « أَتَعْجَبُونَ مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أُحُدٍ »[٧] .

وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحًا ، تارة توزن الأعمال ، وتارة توزن محالها ، وتارة يوزن فاعلها ، واللَّه أعلم .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًا على عبيده فيما مكن لهم من أنه جعل الأرض قرارًا ، وجعل فيها رواسي

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٨٨) وأحمد في مسنده (٢/٥ ، ٥٤) والترمذي في السنن (١٧٠٥) .
(٢) أخرجه مسلم في فضائل القرآن (١٥) وأحمد في مسنده (٢٤٩/٥) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٨/٥) وابن ماجه في سننه (١٢٤٢/٢) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٨٧/٥) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٣/٢) .
(٦) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٢٩) ومسلم في صفات المنافقين (١٨) .
(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٠/١ ، ٤٢١) .

وأنهارًا ، وجعل لهم فيها منازل وبيوتًا ، وأباح لهم منافعها ، وسخّر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها ، وجعل لهم فيها معايش أي : مكاسب وأسبابًا يكسبون بها ويتجرون فيها ، ويتسببون أنواع الأسباب ، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك وقد قرأ الجميع معايش بلا همز إلا عبد الرحمن ابن هرمز الأعرج فإنه همزها ، والصواب الذي عليه الأكثرون بلا همز .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ .

ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم ، ويبيِّنُ لهم عداوة عدوهم إبليس وما هو منطو عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ ﴾ وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب ، وصوره بشرًا سويًا ، ونفخ فيه من روحه ، أمر الملائكة بالسجود له تعظيمًا لشأن الله تعالى وجلاله ، فسمعوا كلهم وأطاعوا إلَّا إبليس لم يكن من الساجدين ، وقال ابن عبّاس ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾ خلقوا في أصلاب الرجال وصوروا في أرحام النساء . وقال الربيع بن أنس والضحاك في هذه الآية : أي خلقنا آدم ثم صورنا الذرية ، وهذا فيه نظر لأنه قال بعده : ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ فدل على أن المراد بذلك آدم ، وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر ، كما يقول الله تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن النبي ﷺ : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ والمراد آباؤهم الذين كانوا في زمن موسى ، ولكن لما كان ذلك منة على الآباء الذين هم أصل ؛ صار كأنه واقع على الأبناء وهذا بخلاف قوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ الآية ، فإن المراد منه آدم المخلوق من السلالة ، وذريته مخلوقون من نطفة ، وصح هذا لأن المراد من خلقنا الإنسان الجنس لا معينًا ، والله أعلم .

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ .

قال بعض النحاة في توجيه قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ لا : هنا زائدة ، وقال بعضهم : زيدت لتأكيد الجحد .

وقول إبليس لعنه الله : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب ، كأنه امتنع من الطاعة ؛ لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول ، يعني - لعنه الله - وأنا خير منه ، فكيف تأمرني بالسجود له ، ثم بيَّن أنه خير منه بأنه خلق من نار ، والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين ، فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم ، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه ، وقاس قياسًا فاسدًا في مقابلة نص قوله تعالى : ﴿ فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ فشذ من بين الملائكة لترك السجود ، فلهذا أبلس من الرحمة أي : أويس من الرحمة ، فأخطأ قبّحه الله . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « خُلِقَتِ المَلائِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وصفَ لكُمْ »(١) .

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ .

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٦٠) وأحمد في مسنده (١٥٣/٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/٩) .

يقول تعالى مخاطبًا لإبليس بأمرٍ قدري كوني : ﴿ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴾ أي : بسبب عصيانك لأمري وخروجك عن طاعتي ، فما يكون لك أن تتكبّر فيها . قال كثير من المفسرين : الضمير عائد إلى الجنة ، ويحتمل أن يكون عائدًا إلى المنزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلى ﴿ فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ أي : الذليلين الحقيرين ، معاملة له بنقيض قصده ، ومكافأة لمراده بضده ، فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين ، قال : ﴿ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ أجاب تعالى إلى ما سأل لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب .

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه لما أُنظر إبليس ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ واستوثق إبليس بذلك ، أخذ في المعاندة والتمرد فقال : ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي : كما أغويتني ، قال ابن عبّاس : كما أضللتني ، وقال غيره : كما أهلكتني لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه على ﴿ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي : طريق الحق وسبيل النجاة ، ولأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي . وقال بعض النحاة : الباء هنا قسمية كأنه يقول : فبإغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، قال مجاهد : ﴿ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ يعني الحق ، وقال عبد اللّٰه : يعني طريق مكة ، قال ابن جرير : الصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك . وعن سبرة بن أبي الفاكه قال : سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول : « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لابْنِ آدَمَ بِطُرُقِهِ ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلَامِ فَقَالَ : أَتُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ ؟ » قَالَ : فَعَصَاهُ وَأَسْلَمَ قال : « وَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الهِجْرَةِ فَقَالَ أَتُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ وَإِنَّمَا مَثَلُ المُهَاجِرِ كَالفَرَسِ فِي الطِّوَلِ ، فَعَصَاهُ وَهَاجَرَ . ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الجِهَادِ وَهُوَ جِهَادُ النَّفْسِ وَالمَالِ ، فَقَالَ : تُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ المَرْأَةُ وَيُقْسَمُ المَالُ ، قَالَ فَعَصَاهُ وَجَاهَدَ » قَالَ رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ : « فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَمَاتَ ؛ كَانَ حَقًّا عَلَى اللّٰهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ ، وَإِنْ قُتِلَ ؛ كَانَ حَقًّا عَلَى اللّٰهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ ، وَإِنْ غَرِقَ ؛ كَانَ حَقًّا عَلَى اللّٰهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّةٌ ؛ كَانَ حَقًّا عَلَى اللّٰهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ » (١)

وقوله : ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الآية قال ابن عباس : ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ أشككهم في آخرتهم ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أرغبهم في دنياهم ﴿ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ أشبه عليهم أمر دينهم ﴿ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ أشهي لهم المعاصي ، وفي رواية ابن عبّاس : أما من بين أيديهم فمن قبل دنياهم ، وأما من خلفهم فأمر آخرتهم ، وأما عن أيمانهم فمن قبلِ حسناتهم ، وأما عن شمائلهم فمن قبلِ سيئاتهم ، واختار ابن جرير أن المراد جمع طرق الخير والشر ، فالخير يصدّهم عنه والشر يحسنه لهم ، وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ ولم يقل : من

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٨٣/٣) .

فوقهم ؛ لأن الرحمة تنزل من فوقهم، وقال : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ قال : موحدين ، وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم ، وقد وافق في هذا الواقع كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ .

ولهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها كما روي عن ابن عبّاس قال : كان رسول اللّه ﷺ يدعو : « اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ في دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي ، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي ، وَآمِنْ رَوْعَاتِي ، وَاحْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ ، وَمِنْ خَلْفِي ، وَعَنْ يَمِينِي ، وَعَنْ شِمَالِي ، وَمِنْ فَوْقِي ، وَأَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي » (١) .

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

أكد تعالى لإبليس عليه اللعنة والطرد والإبعاد والنفي عن محل الملأ الأعلى بقوله : ﴿ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ قال ابن جرير : أما المذءوم : فهو المعيب ، والذأم غير مشدد : العيب ، يقال : ذأمه فهو مذءوم ، ويتركون الهمز فيقول : ذمته أذيمه ذيمًا وذامًا ، والذام والذيم أبلغ في العيب من الذم . قال : والمدحور : المقصي ، وهو المبعد المطرود . وقال ابن زيد بن أسلم : ما نعرف المذموم والمذءوم إلا واحدًا ، وقال ابن عبّاس : ﴿ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ قال : مقيتًا ، وقال ابن عبّاس : صغيرًا مقيتًا وقال قتادة : لعينًا مقيتًا . وقال مجاهد : منفيًّا مطرودًا . وقال الربيع من أنس : ﴿ مَذْءُومًا ﴾ منفيًّا والمدحور المصغر . وقوله تعالى : ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ كقوله : ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ .

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ .

يذكر تعالى أنه أباح لآدم عليه السلام ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلّا شجرة واحدة ، فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في المكر والوسوسة والخديعة ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن ﴿ وَقَالَ ﴾ كذبًا وافتراء : ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ أي : لئلا تكونا ملكين أو خالدين ها هنا ، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما . وكان ابن عبّاس ويحيى بن أبي كثير يقرآن ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلِكَيْنِ ﴾ بكسر اللام وقرأه الجمهور بفتحها (٢) ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ ﴾ أي : حلف لهما باللّه ﴿ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ فإني من قبلكما ها هنا وأعلم بهذا المكان ، وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين ، أي : حلف لهما باللّه على ذلك حتى خدعهما ، قال قتادة في الآية : حلف باللّه إني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فأتبعاني أرشدكما

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٩/٢) . (٢) انظر الطبري في تفسيره (١٨٥/٨) .

وكان بعض أهل العلم يقول : من خدعنا بالله أنخدعنا له .

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ .

قال أُبيّ بن كعب ﷺ : كان آدم رجلًا طوالًا كأنه نخلة سحوق كثير شعر الرأس فلما وقع فيما وقع فيه من الخطيئة بدت له عورته عند ذلك وكان لا يراها ، فانطلق هاربًا في الجنة ، فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة ، فقال لها : أرسليني ، فقال : إني غير مرسلتك ، فناداه ربه ﷻ يا آدم أمني تفر ؟ قال : يا رب إني استحييتك . وعن ابن عبّاس ﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ قال : ورق التين صحيح إليه ، وقال مجاهد : جعلا بخصفان عليهما من ورق الجنّة قال : كهيئة الثوب ، وقال وهب بن منبه في قوله : ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ قال : كان لباس آدم وحواء نورًا على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه ولا هذه عورة هذا ، فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوءاتهما . وقال الضحاك بن مزاحم في قوله : ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ : هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه .

﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٢٤ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾ .

قيل : المراد بالخطاب في ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾ آدم وحواء وإبليس والحية ، ومنهم من لم يذكر الحية والله أعلم . والعمدة في العداوة آدم وإبليس ، ولهذا قال تعالى في سورة طه : ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ﴾ الآية . وحواء تبع لآدم ، والحية إن كان ذكرها صحيحًا فهي تبع لإبليس ، وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كل منهم ، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات ، والله أعلم بصحتها ، ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم أو دنياهم لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله ﷺ .

وقوله : ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي : قرار وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة قد جرى بها القلم وأحصاها القدر وسطرت في الكتاب الأول ، وقال ابن عبّاس : ﴿مُسۡتَقَرّٞ﴾ القبور . وعنه قال : ﴿مُسۡتَقَرّٞ﴾ فوق الأرض وتحتها . وقوله : ﴿قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾ يخبر تعالى أنه جعل الأرض دارًا لبني آدم مدة الحياة الدنيا ، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم ، ومنها نشورهم ليوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويجازي كلًّا بعمله .

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ .

يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش ، فاللباس ستر العورات وهي السوءات ، والرياش والريش ما يتجمل به ظاهرًا ، فالأول من الضروريات والريش من التكملات والزيادات . قال ابن جرير : الرياش في كلام العرب الأثاث وما ظهر من الثياب ، وقال ابن عبّاس وحكاه

البخاري عنه : الرياش : المال ، وقال ابن عبّاس : الريش اللباس والعيش والنعيم ، وقال عبد الرَّحمن ابن زيد بن أسلم : الرياش : الجمال . وعن عمر بن الخطاب قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مَنِ اسْتَجَدَّ ثَوْبًا فَلَبِسَهُ فَقَالَ حِينَ يَبْلُغُ تَرْقُوَتَهُ : الحَمْدُ للّه الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي حَيَاتِي ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى الثَّوْبِ الخَلَقِ فَتَصَدَّقَ ؛ بِهِ كَانَ فِي ذِمَّةِ اللّه ، وَفِي جِوَارِ اللّه ، وَفِي كَنَفِ اللّه ، حَيًّا وَمَيِّتًا » (١) . وعن أبي مطر أنه رأى عليًا ﷺ أتى غلامًا حدثًا فاشترى منه قميصًا بثلاثة دراهم ولبسه ما بين الرسغين إلى الكعبين يقول حين لبسه : الحمد للّه الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس وأواري به عورتي ، فقيل : هذا شيء ترويه عن نفسك أو عن النبي ﷺ ؟ قال : هذا شيء سمعته من رسول اللّه ﷺ يقول عند الكسوة : « الحَمْدُ للّه الَّذِي رَزَقَنِي مِنَ الرِّيَاشِ مَا أَتَجَمَّلُ بِهِ فِي النَّاسِ وَأُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ قرأ بعضهم ﴿ ولباسَ التقوى ﴾ بالنصب وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء ، و ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ خبره (٣) ، واختلف المفسرون في معناه ، فقال عكرمة : يقال : هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة . وقال زيد بن علي والسدي : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ : الإيمان ، وقال ابن عبّاس : العمل الصالح . وقال ابن عبّاس : هو السمت الحسن في الوجه . وعن عروة بن الزبير : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ خشية اللّه . وقال عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ يتقي اللّه فيواري عورته فذاك لباس التقوى . وكلها متقاربة ويؤيد ذلك الحديث الذي روي عن الحسن قال : رأيت عثمان بن عفان ﷺ على منبر رسول اللّه ﷺ عليه قميص فوهي محلول الزر ، وسمعته يأمر بقتل الكلاب وينهى عن اللعب بالحمام ، ثم قال : يا أيها الناس اتقوا اللّه في هذه السرائر فإني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَسَرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَلْبَسَهُ اللّه رِدَاءَهَا عَلَانِيَةً ؛ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ » ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ (٤) قال : السمت الحسن . وقد روى الأئمة الشافعي وأحمد والبخاري في كتاب الأدب من طرق صحيحة عن الحسن البصري : أنه سمع أمير المؤمنين عثمان بن عفان يأمر بقتل الكلاب وذبح الحمام يوم الجمعة على المنبر .

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يحذِّر تعالى بني آدم من إبليس وقبيله مبينًا لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم عليه السلام في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم إلى دار التعب والعناء والتسبب في هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه ، وما هذا إلّا عن عداوة أكيدة وهذا كقوله تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤/١) وابن ماجه في سننه (٣٥٥٧) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٧/١) .
(٣) قرأ نافع وابن عامر والكسائي ﴿ ولباسَ ﴾ بالنصب ، وقرأ الباقون بالرفع (انظر : حجة القراءات ص ٢٨٠) .
(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٢٥) ومسلم في الجنة (٥٨) والدارمي في سننه (٣٢٦/٢) .

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾
فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ .

قال مجاهد : كان المشركون يطوفون بالبيت عراة ، يقولون : نطوف كما ولدتنا أمهاتنا ، فتضع المرأة على قبلها النسعة أو الشيء وتقول :

اليَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّه وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلاَ أُحِلُّه (١)

فأنزل اللَّه ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ الآية . قلت : كانت العرب ما عدا قريشًا لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها ، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا اللَّه فيها ، وكانت قريش وهم الحمس يطوفون في ثيابهم ، ومن أعاره أحمسي ثوبًا طاف فيه ، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ، ثم يلقيه فلا يتملكه أحد ، ومن لم يجد ثوبًا جديدًا ولا أعاره أحمسي ثوبًا طاف عريانًا ، وربما كانت امرأة فتطوف عريانة فتجعل على فرجها شيئًا ليستره بعض الستر فتقول :

اليَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّه وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلاَ أُحِلُّه

وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل ، وكان هذا شيئًا قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم ، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من اللَّه وشرع ، فأنكر اللَّه تعالى عليهم ذلك فقال : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ فقال تعالى ردًّا عليهم : ﴿ قُلْ ﴾ أي : يا محمّد لمن ادعى ذلك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ أي : هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة ، واللَّه لا يأمر بمثل ذلك ، ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي أتسندون إلى اللَّه من الأقوال ما لا تعلمون صحته . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ﴾ أي : بالعدل والاستقامة ﴿ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ أي : أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن اللَّه وما جاءوا به من الشرائع وبالإخلاص له في عبادته ؛ فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين أن يكون صوابًا موافقًا للشريعة ، وأن يكون خالصًا من الشرك ، وقوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ اختلف في معنى قوله : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ فقال مجاهد : يحييكم بعد موتكم ، وقال الحسن البصري : كما بدأكم في الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء . وقال قتادة : بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئًا ثم ذهبوا ثم يعيدهم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كما بدأكم أولًا يعيدكم آخرًا .

وعن ابن عبّاس قال : قام فينا رسول اللَّه ﷺ بموعظة فقال : « يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللَّه حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ » (٢) . قال مجاهد : يبعث المسلم مسلمًا والكافر كافرًا . وقال سعيد بن جبير : كما كتب عليكم تكونون . وقال محمّد بن كعب القرظي من ابتدأ اللَّه خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه وإن

(١) البيت ينسب لضباعة بنت عامر بن صعصعة ، من بني سلمة بن قشير كما في الروض الأنف للسهيلي في شرح سيرة ابن هشام (١٣٤/١) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٢٥) ومسلم في الجنة (٥٨) والدارمي في سننه (٣٢٦/٢) .

عمل بأعمال أهل السعادة ، ومن ابتدأ خلقه على السعادة صار إلى ما ابتدئ خلقه عليه وإن عمل بأعمال أهل الشقاء ، كما أن السحرة عملوا بأعمال أهل الشقاء ثم صاروا إلى ما ابتدأوا عليه . وقال السدي : كما خلقناكم فريق مهتدون وفريق ضلّال كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم ، وقال ابن عبّاس قوله : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ قال : إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمنًا وكافرًا كما قال : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمنًا وكافرًا . قلت : ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود «فَوَالَّذِي لاَ إِلَه غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ » (١) .

وعن جابر عن النبيّ ﷺ أنه قال : « تُبْعَثُ كُلُّ نَفْسٍ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْه » (٢) .

قلت : ويتأيد بحديث ابن مسعود . قلت : ولابد من الجمع بين هذا القول إن كان هو المراد من الآية وبين قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ وما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ » (٣) . وفي الصحيح عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُم الشَّيَاطِينُ فَاجتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ » (٤) الحديث ، ووجه الجمع على هذا : أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثاني الحال ، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده ، والعلم بأنه لا إله غيره ، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك وجعله في غرائزهم وفطرهم ، ومع هذا قدر أن منهم شقيًا ومنهم سعيدًا ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ وفي الحديث « كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أو موبقها » (٥) وقدر الله نافذ في بريته فإنه هو ﴿ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ وفي الصحيحين : « فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ » (٦) ولهذا قال تعالى : ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ ثم علل ذلك فقال : ﴿ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ الآية . قال ابن جرير : وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحدًا على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها فيركبها عنادًا منه لربه فيها لأنه لو كان كذلك لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل وهو يحسب أنه مهتد وفريق الهدى فرق ، وقد فرق الله تعالى بين اسمائهما وأحكامهما في هذه الآية (٧) .

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ .

---

(١) أخرجه مسلم في القدر (١) وأحمد في مسنده (٣٨٢/١) . (٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٠٦/٥) .
(٣) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٥) وأحمد في مسنده (٢٣٣/٢) وأبو داود في سننه (٤٧١٤) .
(٤) أخرجه مسلم في الجنة (٦٣) وأحمد في مسنده (١٦٢/٤) .
(٥) أخرجه مسلم في الطهارة (١) وأحمد في مسنده (٢٣١/٣١) .
(٦) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٦٢) ومسلم في القدر (٦) . (٧) ذكره ابن جرير في تفسيره (٢٠٩/٨) .

هذه الآية الكريمة رد على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراة كما رواه ابن عبّاس قال : كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء ، الرجال بالنهار والنساء بالليل ، وكانت المرأة تقول :

اليَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّه وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلاَ أُحِلُّه

فقال الله تعالى : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (١) وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ الآية ، قال : كان رجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة ، والزينة اللباس وهو ما يواري السوأة وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع ، فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد ، وهكذا قال مجاهد وعطاء وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير وقتادة والسدي والضحاك ومالك عن الزهري وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها ، وعن أنس مرفوعًا : أنها نزلت في الصلاة في النعال ولكن في صحته نظر والله أعلم ، ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنّة يستحب التجمل عند الصلاة ، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد ، والطيب لأنه من الزينة والسواك لأنه من تمام ذلك ، ومن أفضل اللباس البياض ، كما قال ابن عباس مرفوعًا : قال رسول الله ﷺ : « الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ البَيَاضَ فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ ، وَإِنَّ خَيْرَ أَكْحَالِكُم الإِثْمِدُ ؛ فَإِنَّهُ يَجْلُو البَصَرَ ، وَيُنْبِتُ الشَّعْرَ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ ﴾ الآية ، قال بعض السلف : جمع الله الطب كله في نصف آية ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ قال ابن عبّاس : كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : « كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا مِنْ غَيْرِ مَخِيلَةٍ وَلاَ سَرَفٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى نِعْمَتَهُ عَلَى عَبْدِهِ » (٣) وعن المقدام بن معد يكرب الكندي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَا مَلأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ ، حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أُكلاَتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ فَاعِلًا لاَ مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ » (٤) وقال السدي : كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرمون عليهم الودك ما أقاموا في الموسم فقال الله تعالى لهم : ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ ﴾ الآية ، يقول : لا تسرفوا في التحريم ، وقال مجاهد : أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ يقول : ولا تأكلوا حرامًا ذلك الإسراف ، وقال ابن عبّاس قوله : ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ في الطعام والشراب ، وقال ابن جرير : وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ يقول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ حده في حلال أو حرام الغالين فيما أحل بإحلال الحرام أو بتحريم الحلال ، ولكنه يحب أن يحلل ما أحل ويحرم ما حرم وذلك العدل الذي أمر به .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى ردًّا على من حرم شيئًا من المآكل أو المشارب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع

(١) ذكره ابن جرير في تفسيره (٨/٢١٠) .
(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤٠٦١) وابن ماجه في سننه (١٤٧٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٢/٢) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٢/٤) .

من الله ﴿ قُلْ ﴾ يا محمّد لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ الآية ، أي : هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا ، وإن شركهم فيها الكفار حسًّا في الدنيا ، فهي لهم خاصة يوم القيامة لا يشركهم فيها أحد من الكفار ، فإن الجنة محرمة على الكافرين ، قال ابن عبّاس : كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون فأنزل الله : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ فأمروا بالثياب .

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّه ، فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ وَمَا بَطَنَ ، وَلاَ أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ المَدْح مِن اللَّه » (١) . وقوله : ﴿ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ قال السدي : أما الإثم فالمعصية ، والبغي أن تبغي على الناس بغير حق ، وقال مجاهد : الإثم المعاصي كلها ، وأخبر أن الباغي بغيه على نفسه ، وحاصل ما فسر به الإثم أنه الخطايا المتعلّقة بالفاعل نفسه ، والبغي هو التعدي إلى الناس ، فحرم الله هذا وهذا . وقوله تعالى : ﴿ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ أي : تجعلوا له شركاء في عبادته ﴿ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولدًا ونحو ذلك مما لا علم لكم به .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ أي : قرن وجيل ﴿ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ﴾ أي : ميقاتهم المقدر لهم ﴿ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ثم أنذر تعالى بني آدم أنه سيبعث إليهم رسلًا يقصون عليهم آياته وبشّر وحذر فقال : ﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ ﴾ أي : ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ ﴾ أي : كذبت بها قلوبهم واستكبروا عن العمل بها ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أي : ماكثون فيها مكثًا مخلدًا .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾ .

يقول : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾ أي : لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله أو كذب بآياته المنزلة ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ اختلف المفسرون في معناه ، فقال ابن عبّاس : ينالهم ما كتب عليهم ، وكتب لمن كذب على الله أن وجهه مسود ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس : يقول نصيبهم من الأعمال من عمل خيرًا جزي به ، ومن عمل شرًّا جزي به . وقال مجاهد : ما وعدوا به من خير وشر ، وقال محمّد بن كعب القرظي : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ قال : عمله ورزقه وعمره ، وكذا قال الربيع بن أنس وعبد الرّحمن بن زيد بن أسلم ، وهذا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨١/١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٤٨/٢) .

القول قوي في المعنى والسياق يدل عليه وهو قوله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ . وقوله : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ الآية ، يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفزعهم عند الموت وقبض أرواحهم إلى النار ، يقولون لهم : أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون اللَّه ، ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه ، قالوا : ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي : ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي : أقرّوا واعترفوا على أنفسهم ﴿أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ .

﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما يقوله لهؤلاء المشركين به المفترين عليه المكذبين بآياته : ﴿ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾ أي : من أمثالكم وعلى صفاتكم ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم﴾ أي : من الأمم السالفة الكافرة ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾ يحتمل أن يكون بدلًا من قوله : ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾ ، ويحتمل أن يكون ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾ : أي : مع أمم . وقوله : ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾ كما قال الخليل عليه السلام : ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ﴾ الآية . وقوله : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا﴾ أي : اجتمعوا فيها كلهم ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ﴾ أي : أخراهم دخولًا وهم الأتباع لأولاهم وهم المتبوعون لأنهم أشد جرمًا من أتباعهم ، فدخلوا قبلهم ، فيشكوهم الأتباع إلى اللَّه يوم القيامة ؛ لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل فيقولون : ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي : أضعف عليهم العقوبة كما قال تعالى : ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ الآية ، وقوله : ﴿قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ﴾ أي : قد فعلنا ذلك وجازينا كلًّا بحسبه ، كقوله : ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا﴾ الآية ، ﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ﴾ أي : قال المتبوعون للأتباع : ﴿فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ ، قال السدي : لقد ضللتم كما ضللنا ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ وهذه الحال كما أخبر اللَّه تعالى عنهم في حال محشرهم في قوله تعالى : ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

قوله : ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ قيل : المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء ، وقيل : المراد لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء ويؤيده ما قال البراء : أن رسول اللَّه ﷺ ذكر قبض روح الفاجر وأنه يصعد بها إلى السماء ، فيصعدون بها فلا تمر على ملأ من الملائكة إلَّا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : فلان بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى

السماء ، فيستفتحون بابها فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآية [1].

وعن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وفي يده عود ينكت به في الأرض ، فرفع رأسه فقال : « اسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ » - مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا - ثُمَّ قَالَ : «إِنَّ العَبْدَ المُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ إِلَى الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ » - قَالَ - : «فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كما يَسِيلُ القَطْرُ مِنْ فِي السِّقَاءِ ، فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الحَنُوطِ ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَإٍ مِنَ المَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا : مَا هَذِهِ الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ ، فَيَقُولُونَ : فُلَانٌ ابْنُ فُلَانٍ - بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا - حَتَّى يَنْتَهُوا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا ، حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ : اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ ؛ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ، قَالَ : فَتُعَادُ رُوحُهُ ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : رَبِّيَ اللَّهُ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ : دِينِي الإِسْلَامُ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : وَمَا عَمَلُكَ ؟ فَيَقُولُ : قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : أَنْ صَدَقَ عَبْدِي ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّةِ ، فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا وَيُفْسَحُ لَهُ قَبْرُهُ مَدَّ البَصَرِ » - قَالَ - : « وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ ، فَيَقُولُ : أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ ، فَيَقُولُ لَهُ : مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بِالخَيْرِ ؟ فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ ، فَيَقُولُ : رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ ، رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي .

قال : « وَإِنَّ العَبْدَ الكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ إِلَى الآخِرَةِ ؛ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الوُجُوهِ مَعَهُمُ المُسُوحُ ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَيَقُولُ : أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ » قَالَ : « فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يَنْتَزِعُ السَّفُّودَ مِنَ الصُّوفِ المَبْلُولِ ، فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ المُسُوحِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَإٍ مِنَ المَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا : مَا هَذِهِ الرُّوحُ الخَبِيثَةُ ؟ فَيَقُولُونَ : فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيَسْتَفْتِحُ

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٣٢/٨).

فلا يُفْتَحُ لَهُ » ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ فيقُولُ اللَّه ﷻ : اكتُبُوا كِتَابَهُ في سِجِّين في الأَرْضِ السُّفْلَى ، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا » ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ فَتُعَادُ رُوحُهُ في جَسَدِهِ ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ ، فيقُولاَنِ له : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِي ، فَيَقُولاَن : مَا دِينُكَ ؟ فيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِي ، فَيَقُولاَنِ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِي ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : أَنْ كَذَبَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا وَيضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاَعُهُ ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ ، فَيَقُولُ : أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ ، فَيَقُولُ : مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ ؟ فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الخَبِيثُ ، فَيَقُولُ : رَبِّ لاَ تُقِمِ السَّاعَةَ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ هكذا قرأه الجمهور وفسروه بأنه البعير ، قال ابن مسعود : هو الجمل ابن الناقة ، وفي رواية زوج الناقة ، وقال الحسن البصري : حتى يدخل البعير في خرق الإبرة ، وكذا قال أبو العالية والضحاك ، وكذا روي عن ابن عبّاس : أنه كان يقرؤها ﴿ يلج الجُمَّل في سم الخياط ﴾ ، بضم الجيم وتشديد الميم ، يعني الحبل الغليظ في خرق الإبرة ، وهذا اختيار سعيد بن جبير ، وفي رواية أنه قرأ ﴿ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجُمَّلُ ﴾ يعني قلوس السفن وهي الحبال الغلاظ ، وقوله : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾ قال محمّد بن كعب القرظي : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾ قال : الفرش ﴿ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ قال : اللحف ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ضد ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا ﴾ نبّه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل لأنه تعالى قال : ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ أي : من حسد وبغض كما جاء عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا خَلَصَ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَاقْتُصَّ لَهُمْ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا ؛ أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ أَحَدَهُمْ بِمَنْزِلِهِ فِي الجَنَّةِ أَدَلُّ مِنْهُ بِمَسْكَنِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا » (٢) . وقال السدي في قوله : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ الآية : إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنّة وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان ، فشربوا من إحداهما فينزع ما في صدورهم من غل فهو الشراب الطهور ، واغتسلوا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٧/٤) وأبو داود في سننه (٤٧٥٣) والترمذي في سننه (٣٦٠٤) .
(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٧) والحاكم في المستدرك (٢٥٤/٢) .

من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم ، فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبدًا . قال علي : فينا والله أهل بدر نزلت ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ أَهْلِ الجَنَّةِ يُرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ فَيَقُولُ : لَوْلاَ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي فَيَكُونُ لَهُ شُكْرًا ، وَكُلُّ أَهْلِ النَّارِ يُرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ فَيَقُولُ : لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي فَيَكُونُ لَهُ حَسْرَةً » (١) ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا أن تلكم أورثتموها بما كنتم تعملون ، أي بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم . وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ : « وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يُدْخِلَهُ عَمَلُهُ الجَنَّةَ » قالوا : ولا أنت يا رسول الله قال : « وَلاَ أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ » (٢) .

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى بما يخاطب به أهل النار على التقريع والتوبيخ إذا استقروا في منازلهم ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ﴾ أن ههنا مفسرة للقول المحذوف ، وقد للتحقيق ، أي قالوا لهم : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا ؟ قالوا : نعم . وكذلك قرّع رسول الله ﷺ قتلى القليب يوم بدر فنادى : « يَا أَبَا جَهْلِ بنَ هِشَامٍ وَيَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ وَيَا شَيْبَةَ بنَ رَبِيعَةَ - وَسَمَّى رُؤُوسَهُمْ - هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا » وقال عمر : يا رسول الله تخاطب قومًا قد جيفوا فقال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : أعلم ونادى مناد ﴿ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي : مستقرة عليهم ، ثم وصفهم بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي : يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء ، ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد ﴿ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾ أي : وهم بلقاء الله في الدار الآخرة كافرون ، أي : جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به ، فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل لأنهم لا يخافون حسابًا عليه ولا عقابًا فهم شر الناس أقوالًا وأعمالًا .

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ۝ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبّه أن بين الجنة والنار حجابًا ، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنّة ، قال ابن جرير : وهو السور الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ وهو الأعراف الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ ثم روي عن السدي أنه قال في قوله تعالى : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ هو السور وهو الأعراف ، وقال مجاهد :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥١٢/٢) والحاكم في المستدرك (٤٣٥/٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٣/٦) .
(٣) أخرجه مسلم في الجنة (٧٧) وأحمد في مسنده (٢٧/١) .

الأعراف حجاب بين الجنّة والنار سور له باب ، قال ابن جرير : والأعراف جمع عرف وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفًا . وإنما قيل لعرف الديك عرفًا لارتفاعه . وعن عبد اللَّه بن أبي يزيد سمع ابن عبّاس يقول : الأعراف هو الشيء المشرف . وقال : الأعراف سور كعرف الديك ، وفي رواية عنه : الأعراف جمع : تل بين الجنّة والنار حبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار ، واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم ؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد . وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، نص عليه حذيفة وابن عبّاس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم اللَّه ، وقد جاء في حديث عن جابر بن عبد اللَّه قال : سئل رسول اللَّه ﷺ عمن استوت حسناته وسيئاته فقال : « أُولَئِكَ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ » [١] وله وجه آخر عن رجل من مزينة قال : سئل رسول اللَّه ﷺ عمن استوت حسناته وسيئاته وعن أصحاب الأعراف فقال : « إِنَّهُمْ قَوْمٌ خَرَجُوا عُصَاةً بِغَيْرِ إِذْنِ آبَائِهِمْ فَقُتِلوا في سَبِيلِ اللَّه » [٢] .

قال الشعبي : أرسل إليّ عبد الحميد بن عبد الرّحمن وعنده أبو الزناد عبد اللَّه بن ذكوان مولى قريش ، فإذا هما قد ذكرا من أصحاب الأعراف ذكرًا ليس كما ذكرا ، فقلت لهما : إن شئتما أنبأتكما بما ذكر حذيفة ، فقالا : هات ، فقلت : إن حذيفة ذكر أصحاب الأعراف فقال : هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربك فقال لهم : اذهبوا فادخلوا الجنّة فإني قد غفرت لكم [٣] . وقال سعيد بن جبير وهو يحدث ذلك عن ابن مسعود قال : يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ، ثم قرأ قول اللَّه : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ الآيتين ، ثم قال : الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح ، قال : ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف ، فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار ، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا سلام عليكم ، وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم ونظروا أهل النار ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ تعوذوا باللَّه من منازلهم ، قال : فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نورًا يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم ، ويعطى كل عبد يومئذ نورًا وكل أمة نورًا ، فإذا أتوا على الصراط سلب اللَّه نور كل منافق ومنافقة ، فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا : ﴿ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان بأيديهم فلم ينزع فهنالك يقول اللَّه تعالى : ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ فكان الطمع دخولًا قال : فقال ابن مسعود : إن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشرًا ، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلّا واحدة ، ثم يقول : هلك من غلبت آحاده عشراته [٤] .

وقوله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ﴾ قال ابن عبّاس : يعرفون أهل الجنّة ببياض الوجوه وأهل النار بسواد الوجوه ، وقال : أنزلهم اللَّه بتلك المنزلة ليعرفوا من في الجنة والنار ، وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه ، ويتعوذوا باللَّه أن يجعلهم مع القوم الظالمين ، وهم في ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام ،

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٤٩/٨) والسيوطي في الدر المنثور (٨٧/٣) .
(٢) ذكره الطبري في تفسير (٢٥٢/٨) . (٣) ذكره الطبري في تفسيره (٢٤٩/٨) .
(٤) ذكره الطبري في تفسيره (٢٥٠/٨) .

﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ أن يدخلوها ، وهم داخلوها إن شاء اللَّه . وقوله : ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ قال ابن عبّاس : إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . وقال السدي : وإذا مروا بهم يعني أصحاب الأعراف بزمرة يذهب بها إلى النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . وقال عكرمة : تجدد وجوههم للنار ، فإذا رأوا أصحاب الجنّة ذهب ذلك عنهم . وقال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ فرأوا وجوههم مسودة وأعينهم مزرقة ﴿ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [١] .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ۞ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ .

يقول اللَّه تعالى إخبارًا عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم يعرفونهم في النار بسيماهم ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ ﴾ أي : كثرتكم ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي : لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب اللَّه ، بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال ﴿ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ قال ابن عبّاس : يعني أصحاب الأعراف ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ وعن ابن عبّاس ﴿ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ ﴾ الآية ، قال : فلما قالوا لهم الذي قضى اللَّه أن يقولوا ، يعني أصحاب الأعراف لأهل الجنّة وأهل النار ، قال اللَّه لأهل التكبر والأموال : ﴿ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ وقال حذيفة : إن أصحاب الأعراف قوم تكاثفت أعمالهم فقصرت بهم حسناتهم عن الجنّة ، وقصرت بهم سيئاتهم عن النار ، فجعلوا على الأعراف يعرفون الناس بسيماهم ، فلما قضى اللَّه بين العباد أذن لهم في طلب الشفاعة ، فأتوا آدم فقالوا : يا آدم أنت أبونا فاشفع لنا عند ربك ، فقال : هل تعلمون أن أحدًا خلقه اللَّه بيده ونفخ فيه من روحه وسبقت رحمته إليه غضبه وسجدت له الملائكة غيري ؟ فيقولون : لا ، فيقول : ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن ائتوا ابني إبراهيم ، فيأتون إبراهيم ﷺ فيسألونه أن يشفع لهم عند ربهم فيقول : تعلمون من أحد اتخذه اللَّه خليلًا ؟ هل تعلمون أن أحدًا أحرقه قومه بالنار في اللَّه غيري ؟ فيقولون : لا ، فيقول : ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن ائتوا ابني موسى ، فيأتون موسى عليه السلام ، فيقول : هل تعلمون من أحد كلمه اللَّه تكليمًا وقربه نجيًّا غيري ؟ فيقولون : لا ، فيقول : ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن ائتوا عيسى ، فيأتونه عليه السلام ، فيقولون له : اشفع لنا عند ربك ، فيقول : هل تعلمون أحدًا خلقه اللَّه من غير أب ؟ فيقولون : لا ، فيقول : هل تعلمون من أحد كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن اللَّه غيري ؟ قال : فيقولون : لا ، فيقول : أنا حجيج نفسي ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن ائتوا محمّدًا ﷺ فيأتوني ، فأضرب بيدي على صدري ، ثم أقول : أنا لها ، ثم أمشي حتى أقف بين يدي العرش ، فآتي ربي ﷻ ، فيفتح لي من الثناء ما لم يسمع السامعون بمثله قط ، ثم أسجد ، فيقال لي : يا محمّد ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع ، فأرفع رأسي ثم أثني على ربي ﷻ ثم أخرّ ساجدًا ، فيقال لي : ارفع رأسك وسل تعطه

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٥٩/٨) .

واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول : ربي أمتي ، فيقول : هم لك ، فلا يبقى نبي مرسل ولا ملك مقرّب إلَّا غبطني بذلك المقام وهو المقام المحمود ، فآتي بهم الجنّة فأستفتح فيفتح لي ولهم ، فيذهب بهم إلى نهر يقال له : نهر الحيوان ، حافتاه قصب مكلل باللؤلؤ ترابه المسك وحصباؤه الياقوت ، فيغتسلون منه ، فتعود إليهم ألوان أهل الجنة وريح أهل الجنة ، فيصيرون كأنهم الكواكب الدرية ويبقى في صدورهم شامات بيض يعرفون بها ، يقال : مساكين أهل الجنّة » (١) .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۞ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم ، وأنهم لا يجابون إلى ذلك ، قال السدي : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ يعني الطعام ، وقال عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم : يستطعمونهم ويستسقونهم ، فيقولون : ﴿ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ وروي من وجه آخر عن ابن عبّاس مثله سواء ، وقال عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم : يعني طعام الجنة وشرابها ، قال ابن عبّاس ، أو سئل : أي الصدقة أفضل ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ : « أَفْضَلُ الصَّدَقةِ الماءُ ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى أَهْلِ النَّارِ لَمَّا اسْتَغَاثُوا بِأَهْلِ الجَنَّةِ قَالُوا : ﴿ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ . وعن أبي صالح قال : لما مرض أبو طالب قالوا له : لو أرسلت إلى ابن أخيك هذا فيرسل إليك بعنقود من الجنّة لعله أن يشفيك به ، فجاءه الرسول وأبو بكر عند النبيّ ﷺ فقال أبو بكر : إن الله حرمهما على الكافرين ، ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا باتخاذهم الدين لهوًا ولعبًا ، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للآخرة ، وقوله : ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ أي : يعاملهم معاملة من نسيهم ، لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ، ولا ينساه كما قال تعالى : ﴿ فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ وإنما قال تعالى : هذا من باب المقابلة كقوله : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ قال : نسيهم الله من الخير ولم ينسهم من الشر ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس : قال : نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا ، وقال مجاهد : نتركهم في النار ، وقال السدي : نتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا ، وفي الصحيح : أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخّر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى ، فيقول : أظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا ، فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتني (٢) .

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره(٨/٢٦٠) هذا الحديث مرسل عن السدي ولم أجده بهذا اللفظ في مكان آخر .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد(١٦) .

يقول تعالى مخبرًا عن إعذاره إلى المشركين بإرسال الرسل إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول ، وأنه كتاب مفصل مبين كقوله : ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ ﴾ للعالمين أي : على علم منا بما فصلناه به كقوله : ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ ﴾ قال ابن جرير : وهذا الآية مردودة على قوله : ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ ﴾ الآية ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٍ ﴾ الآية وهذا الذي قاله فيه نظر ، فإنه قد طال الفصل ولا دليل عليه ، وإنما الأمر أنه لما أخبر بما صاروا إليه من الخسارة في الآخرة ذكر أنه قد أزاح عللهم في الدنيا بإرسال الرسل وإنزال الكتب كقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾ ولهذا قال : ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ ﴾ أي : ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار . وقال مالك : ثوابه ، وقال الربيع : لا يزال يجيء من تأويله أمر حتى يتم يوم الحساب حتى يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، فيتم تأويله يومئذ . قوله : ﴿ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ ﴾ أي : يوم القيامة ، قاله ابن عبّاس ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ ﴾ أي : تركوا العمل به وتناسوه في الدار الدنيا ﴿ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ ﴾ أي : في خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيه ﴿ أَوۡ نُرَدُّ ﴾ إلى دار الدنيا ﴿ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ ﴾ كقوله : ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ كما قال ههنا : ﴿ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ أي : خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها ﴿ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ أي : ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون اللّه فلا يشفعون فيهم ولا ينصرونهم ولا ينقذونهم مما هم فيه .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه خالق العالم سماواته وأرضه وما بين ذلك في ستة أيام ، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن ، والستة الأيام هي الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ، وفيه اجتمع الخلق كله وفيه خلق آدم عليه السلام ، واختلفوا في هذه الأيام هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان ، أو كل يوم كألف سنة كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل فقد روي عن أبي هريرة قال : أخذ رسول اللّه ﷺ بيدي فقال : « خَلَقَ اللّه التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ ، وَخَلَقَ الجِبَالَ فِيهَا يَوْمَ الأَحَدِ ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ فِيهَا يَوْمَ الاثْنَيْنِ ، وَخَلَقَ المَكْرُوهَ يَوْمَ الثّلاثَاءِ ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبَعَاءِ ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الخَمِيس ، وَخَلَقَ آدَمَ بعد العَصْر يَوْمَ الجُمُعَةِ آخِر الخَلْقِ في آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ العَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ » (١) .

وأما قوله تعالى ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدًا ليس هذا موضع بسطها ، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح : مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديمًا وحديثًا ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن اللّه ، فإن

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين(٢٧) وأحمد في مسنده(٣٢٧/٢) والبيهقي في السنن الكبرى(٣/٩) .

الله لا يشبهه شيء من خلقه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ بل الأمر كما قال الأئمة : منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري ، قال : من شبّه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسول تشبيه ، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله ونفى عن الله تعالى النقائص ، فقد سلك سبيل الهدى ، وقوله تعالى : ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ أي : يذهب ظلام هذا بضياء هذا وضياء هذا بظلام هذا ، وكل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا أي : سريعًا لا يتأخر عنه ، بل إذا ذهب هذا جاء هذا وعكسه كقوله : ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ أي لا يفوته بوقت يتأخر عنه ، بل هو في أثره بلا واسطة بينهما ولهذا قال : ﴿ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ منهم من نصب ومنهم من رفع وكلاهما قريب المعنى (١) ، أي : الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته ، ولهذا قال منبهًا : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ أي : له الملك والتصرف ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ كقوله : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ الآية ، وعن عبد العزيز الشامي عن أبيه وكانت له صحبة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَمْ يَحْمَدِ اللَّهَ عَلَى مَا عَمِلَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ وَحَمِدَ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ وَحَبِطَ عَمَلُهُ ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِلْعِبَادِ مِنَ الأَمْرِ شَيْئًا فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ » لقوله : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٢) وفي الدعاء المأثور عن أبي الدرداء وروي مرفوعًا : « اللَّهُمَّ لَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ ، وَلَكَ الحَمْدُ كُلُّهُ ، وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الأَمْرُ كُلُّهُ ، أَسْأَلُكَ مِنَ الخَيْرِ كُلِّه ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّه » (٣) .

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

أرشد تبارك وتعالى عباده إلى دعائه الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم فقال : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ قيل : معناه تذللًا واستكانة وخيفة ، كقوله : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ ﴾ الآية . عن أبي موسى الأشعري قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء ، فقال رسول الله ﷺ : « أَيُّهَا النَّاسُ أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا ، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ » (٤) . وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ قال : السر ، وقال ابن جرير : ﴿ تَضَرُّعًا ﴾ تذللًا واستكانة لطاعته ﴿ وَخُفْيَةً ﴾ يقول : بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه لا جهارًا مراءاة ، وقال الحسن : إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزوار وما يشعرون به ، ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر فيكون علانية أبدًا ، ولقد كان

---

(١) قرأ ابن عامر (والشمس والقمر والنجوم مسخرات) برفع الأسماء الأربعة والباقون بنصبها وكسر التاء في (مسخرات) (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١١٥) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٦٨/٨) والسيوطي في الدر المنثور (٩٢/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٤/٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤٤١/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في القدر (٦٦١٠) ومسلم في الذكر والدعاء (٤٤) وأحمد مسنده (٣٩٤/٤) .

المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ وذلك أن الله ذكر عبدًا صالحًا رضي فعله فقال : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ وقال ابن جريج : يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء ويؤمر بالتضرع والاستكانة ، ثم روي عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ في الدعاء ولا في غيره : وقال أبو مجلز : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ لا يسأل منازل الأنبياء ، وعن زياد بن مخراق سمعت أبا نعامة عن مولى لسعد أن سعدًا سمع ابنًا له يدعو وهو يقول : اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحوًا من هذا . وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها . فقال : لقد سألت الله خيرًا كثيرًا وتعوذت به من شر كثير ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إِنَّهُ سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ »- وفي لفظ : «يَعْتَدُونَ فِي الطُّهورِ وَالدُّعَاءِ »وقرأ هذه الآية ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا ﴾ الآية - «وإنَّ بحسبك أن تقول : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ » [١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ﴾ ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض وما أضره بعد الإصلاح ، فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد ثم وقع الإفساد بعد ذلك كان أضر ما يكون على العباد ، فنهى تعالى عن ذلك وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه فقال : ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أي : خوفًا مما عنده من وبيل العقاب ، وطمعًا فيما عنده من جزيل الثواب ، ثم قال : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره كما قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ الآية ، وقال : قريب ولم يقل : قريبة لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب أو لأنها مضافة إلى الله ، فلهذا قال : قريب من المحسنين ، وقال مطر الورّاق : استنجزوا موعود الله بطاعته ، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض ، وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخِّر ، وأرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قادر ، نبه تعالى على أنه الرزّاق ، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًا ﴾ [٢] أي : مبشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر ، ومنهم من قرأ ﴿ بشرًا ﴾ كقوله : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ وقوله : ﴿ بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ أي : بين يدي المطر وقوله ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾ أي : حملت الرياح سحابًا ثقالًا ، أي : من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة .

وقوله : ﴿ سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ أي : إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها كقوله : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢/١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٩٢/٣) .

(٢) قرأ عاصم ﴿ بشرًا ﴾ هنا والفرقان والنمل بالباء وضمها وإسكان الشين وابن عامر بالنون وضمها وضم الشين (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١١٥) .

﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ الآية ، ولهذا قال : ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي : كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رميمًا يوم القيامة ، ينزل الله ﷻ ماء من السماء فتمطر الأرض أربعين يومًا فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض ، وهذا المعنى كثير في القرآن يضرب الله مثلًا ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها ولهذا قال : ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ .

وقوله : ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي : والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعًا حسنًا ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾ قال مجاهد وغيره : كالسباخ ونحوها ، وقال ابن عبّاس في الآية : هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، وعن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّه بِهِ مِنَ العِلْم وَالْهُدَى كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَانَتْ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ المَاءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ فَنَفَعَ اللَّه بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى ، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللَّه وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّه بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّه الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ » (١) .

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة وما يتعلق بذلك وما يتصل به وفرغ منه ، شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام الأول فالأول ، فابتدأ بذكر نوح عليه السلام ، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام ، وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ - وهو إدريس النبي عليه السلام فيما يزعمون ، وهو أول من خط بالقلم - ابن برد بن مهليل بن قنين بن يانش بن شيث بن آدم عليهم السلام ، هكذا نسبه محمّد بن إسحاق وغير واحد من أئمة النسب ، قال محمّد بن إسحاق : ولم يلق نبي من قومه من الأذى مثل نوح إلَّا نبي قتل ، قال يزيد الرقاشي : إنما سمي نوحًا لكثرة ما ناح على نفسه ، وقد كان بين آدم إلى زمن نوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الإسلام ، قال عبد الله بن عبّاس وغير واحد من علماء التفسير : وكان أول ما عبدت الأصنام أن قومًا صالحين ماتوا ، فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صور أولئك فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم ، فيتشبهوا بهم ، فلما طال الزمان جعلوا أجسادًا على تلك الصور ، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين ودًّا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا ، فلما تفاقم الأمر بعث الله ﷻ وله الحمد والمنة رسوله نوحًا ، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له فقال : ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي : من عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ أي : الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم : ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي :

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (٧٩) .

في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا ، وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة كقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي : ما أنا ضال ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغًا فصيحًا ناصحًا عالمًا بالله لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات ، كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعًا : « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟ » قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأدّيت ونصحت ، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ » [1] .

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ .

يقول تعالى إخبارًا عن نوح أنه قال لقومه : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ ﴾ الآية ، أي : لا تعجبوا من هذا فإن هذا ليس بعجب أن يوحي الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفًا وإحسانًا إليكم لينذركم ، ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي : تمادوا على تكذيبه ومخالفته وما آمن منهم إلَّا قليل كما نص عليه في موضع آخر ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ أي : السفينة كما قال ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ ﴾ ﴿ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ كما قال : ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ أي : عن الحق لا يبصرونه ولا يهتدون له فبيّن تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه وأنجى رسوله والمؤمنين وأهلك أعداءهم من الكافرين كقوله : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ الآية ، وهذه سنّة الله في عباده في الدنيا والآخرة أن العاقبة فيها للمتقين والظفر والغلب لهم ، كما أهلك قوم نوح بالغرق ونجى نوحًا وأصحابه المؤمنين .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

يقول تعالى : وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحًا كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا ، وقال محمّد ابن إسحاق : هم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح . قلت : هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله ، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمد في البر كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف ، وهي جبال الرمل ، وعن أبي الطفيل عامر بن واثلة : سمعت عليًا يقول لرجل من حضرموت : هل رأيت كثيبًا أحمر يخالطه مدرة حمراء ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت ، هل

(١) أخرجه مسلم في الحج (١٤٧) وأبو داود في سننه (١٩٠٥) وابن ماجه في سننه (٣٠٥٥) .

رأيته ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين والله إنك لتنعته نعت رجل قد رآه ، قال : لا ، ولكني قد حدثت عنه ، فقال الحضرمي : وما شأنه يا أمير المؤمنين ؟ قال : فيه قبر هود ﷺ . وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن ، فإن هودًا ﷺ دفن هناك ، وقد كان من أشرف قومه نسبًا ، لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم ، ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم ، وكانوا من أشد الأمم تكذيبًا للحق ، ولهذا دعاهم هود ﷺ إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإلى طاعته وتقواه ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ ﴾ والملأ هم الجمهور والسادة والقادة منهم ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أي : في ضلالة حيث تدعونا إلى ترك عبادة الأصنام والإقبال على عبادة الله وحده ، كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد فقالوا : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ الآية ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي : لست كما تزعمون ، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء ، فهو رب كل شيء ومليكه ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغ والنصح والأمانة ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ أي : لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولًا من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه ، بل احمدوا الله على ذاكم ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ أي واذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه ﴿ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ أي : زاد طولكم على الناس بسطة ، أي جعلكم أطول من أبناء جنسكم ، كقوله في قصة طالوت : ﴿ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ ﴿ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ ﴾ أي : نعمه ومننه عليكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ والآلاء جمع إلى ، وقيل : ألى .

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود ﷺ ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ ﴾ الآية . وقد ذكر محمّد بن إسحاق وغيره أنهم كانوا يعبدون أصنامًا ، ولهذا قال هود ﷺ : ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ أي قد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجس ، قيل : هو مقلوب من رجز ، وعن ابن عبّاس : معناه سخط وغضب ﴿ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ أي : أتحاجوني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة وهي لا تضر ولا تنفع ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلًا ، ولهذا قال : ﴿ مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه ، ولهذا عقّبه بقوله : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ .

وقد ورد عن الحارث البكري قال : خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ فمررت بالربذة ، فإذا بعجوز من بني تميم منقطع بها ، فقالت لي : يا عبد الله إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة هل أنت مبلغي إليه ؟ قال : فحملتها فأتيت المدينة فإذا المسجد غاص بأهله ، وإذا راية سوداء تخفق ، وإذا بلال متقلد سيفًا بين يدي رسول الله ﷺ ، فقلت : ما شأن الناس ؟ قالوا : يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهًا ، قال : فجلست ، فدخل منزله - أو قال : رحله - فاستأذنت عليه ، فأذن لي ، فدخلت وسلمت ، فقال : « هل بينكم وبين تميم شيء ؟ » قلت : نعم ، وكانت لنا الدائرة عليهم ، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها فسألتنى أن أحملها إليك ، وها هي بالباب ، فأذن لها فدخلت ، فقالت : يا رسول الله إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزًا فاجعل الدهناء ، فحميت العجوز واستوفزت وقالت : يا رسول الله فإلى أين يضطر مضطرك ؟ قال : قلت : إن مثلي مثل ما قال الأول : معزى حملت حتفها ، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصمًا ، أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد ، قال لي : « وَمَا وَافِدُ عَادٍ ؟ » وهو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه ، قلت : إن عادًا قحطوا فبعثوا وافدًا لهم يقال له : قيل ، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهرًا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما : الجرادتان ، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة ، فقال : اللهم إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه ، اللهم اسق عادًا ما كنت تسقيه ، فمرت به سحابات سود ، فنودي منها اختر ، فأومأ إلى سحابة منها سوداء ، فنودي منها خذها رمادًا رمددًا ، لا تبقى من عاد أحدًا ، قال : فما بلغني أنه بعث الله عليهم من الريح إلَّا قدر ما يجري في خاتمي هذا حتى هلكوا ، قال أبو وائل : وصدق . قال : وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدًا لهم قالوا : لا تكن كوافد عاد[1] .

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ .

قال علماء التفسير والنسب : ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جديس بن عاثر ، وكذلك قبيلة طسم ، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله ، وقد مر رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك في سنة تسع ، وعن ابن عمر قال : لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ونصبوا لها القدور ، فأمرهم النبي ﷺ فأهرقوا القدور وعلفوا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٨٢/٣) .

العجين الإبل ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا ، وقال : « إِنِّي أَخْشَى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ فَلاَ تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ » (١) وعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر : « لاَ تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلاَءِ المُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلاَ تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ » (٢) وعن جابر قال : لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال : « لاَ تَسْأَلُوا الآيَاتِ فَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ صَالِحٍ فَكَانَتْ - يَعْنِي النَّاقَةَ - تَرِدُ مِنْ هَذَا الفَجِّ وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الفَجِّ ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَعَقَرُوهَا وَكَانَتْ تَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمًا وَيَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمًا ، فَعَقَرُوهَا ؛ فَأَخَذَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَهْمَدَ اللَّهُ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْهُمْ ، إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ » فقالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال : « أَبُو رِغَالٍ ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الحَرَمِ ؛ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ » (٣) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ ﴾ أي : ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحًا ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ ، فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ وقوله : ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ أي : قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به وكانوا هم الذين سألوا صالحًا أن يأتيهم بآية ، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عيّنوها بأنفسهم ، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها : الكاتبة ، فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه ، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عز وجل ، فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوا ، فعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره ، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صعر ابن جلهس ، وكان لجندع بن عمرو ابن عم يقال له : شهاب بن خليفة بن محلاة بن لبيد بن حراس وكان من أشراف ثمود وأفاضلها ، فأراد أن يسلم أيضًا فنهاه أولئك الرهط فأطاعهم ، فقال في ذلك رجل من مؤمني ثمود يقال له : مهوش بن عثمة بن الدميل رحمه الله :

وَكَانَتْ عُصْبَةٌ مِنْ آلِ عَمْرٍو ... إِلَى دِينِ النَّبِيِّ دَعَوا شِهَابَا
عَزِيزَ ثَمُودَ كُلَّهُم جَمِيعًا ... فَهَمَّ بِأَنْ يُجِيبَ فَلَو أَجَابَا
لَأَصْبَحَ صَالِحٌ فِينَا عَزِيزًا ... وَمَا عَدَلُوا بِصَاحِبِهِمْ ذُؤَابَا
وَلَكِنَّ الغُوَاةَ مِنْ آلِ حُجْرٍ ... تَوَلَّوْا بَعْدَ رُشْدِهِمُ ذِيَابَا

وأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم مدة ، تشرب من بئرها يومًا وتدعه لهم يومًا ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١٧/٢) وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٠٤/٤) .
(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٢٠) ومسلم في الزهد والرقائق (٣٨) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٦/٣) .

وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلبونها فيملؤون ما شاءوا من أوعيتهم وأوانيهم كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ترد من فج وتصدر من غيره ليسعها ؛ لأنها كانت تتضلع من الماء وكانت على ما ذكر خلقًا هائلًا ومنظرًا رائعًا ، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها ، فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبي ﷺ عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم ، فيقال : إنهم اتفقوا كلهم على قتلها ، قال قتادة : بلغني أن الذي قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها حتى على النساء في خدورهن وعلى الصبيان .

قلت : وهذا هو الظاهر لقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴾ وقال : ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ ﴾ فأسند ذلك على مجموع القبيلة فدل على رضى جميعهم بذلك والله أعلم .

قال علماء التفسير : ولم يبق من ذرية ثمود أحد سوى صالح ﷺ ومن تبعه ﷺ ، إلَّا أن رجلًا يقال له : أبو رغال كان لما وقعت النقمة بقومه مقيمًا إذ ذاك في الحرم ، فلم يصبه شيء ، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحل جاءه حجر من السماء فقتله .

وذكروا أن أبا رغال هذا هو والد ثقيف الذين كانوا يسكنون الطائف ، قال : إسماعيل بن أمية أن النبيّ ﷺ مر بقبر أبي رغال فقال : « أَتَدْرُونَ مَنْ هَذَا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال : « هَذَا قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ رَجُلٍ مِنْ ثَمُود كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ فمنعه حرم الله عَذَابَ الله ، فَلَمَّا خَرَجَ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمِهِ فَدُفِنَ هَاهُنَا مَعَهُ غُصْنٌ مِنْ ذَهَبٍ ، فَنَزَلَ الْقَوْمُ فَابْتَدَرُوهُ بِأَسْيَافِهِمْ فَبَحَثُوا عَنْهُ فَاسْتَخْرَجُوا الغُصْنَ » (١) .

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ .

هذا تقريع من صالح ﷺ لقومه لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه وتمردهم على الله وإبائهم عن قبول الحق وإعراضهم عن الهدى إلى العمى ، قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريعًا وتوبيخًا وهم يسمعون ذلك ، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر أقام هناك ثلاثًا ، ثم أمر براحلته فشدت بعد ثلاث من آخر الليل ، فركبها ثم سار حتى وقف على القليب قليب بدر فجعل يقول : « يَا أَبَا جَهْلِ بنَ هِشَام يَا عُتْبَةُ بن رَبِيعَةَ وَيَا شيبة بن ربيعة ويا فُلَانُ ابْن فُلَانٍ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ، فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا ؟ » فقال له عمر : يا رسول الله ما تكلم من أقوام قد جيفوا ؟ فقال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَا يُجِيبونَ » (٢) وفي السيرة أنه عليه الصلاة والسلام قال لهم : « بِئْسَ عَشِيرَةُ النَّبِي كُنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ ، كذبتموني وَصَدَّقَنِي النَّاسُ ، وَأَخْرَجْتُمُونِي وَآوَانِي النَّاسُ ، وَقَاتَلْتُمُونِي وَنَصَرَنِي النَّاسُ ، فَبِئْسَ عَشِيرَةُ النَّبِيِّ كُنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ » (٣) وهكذا صالح ﷺ قال لقومه : ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ أي : فلم تنتفعوا بذلك لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحًا ، ولهذا قال : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ وقد ذكر بعض المفسرين أن كل نبي هلكت أمته كان يذهب فيقيم في الحرم حرم مكة والله أعلم .

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣٠٨٨) والبيهقي في السنن الكبرى (١٥٦/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الجنة (٧٧) وأحمد في مسنده (١٠٤/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١١٨/٦) .

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَ﴾ لقد أرسلنا ﴿لُوطًا﴾ أو تقديره ﴿وَ﴾ اذكر ﴿لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ ولوط هو ابن هاران بن آزر ، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام ، وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله عز وجل ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم ، وهو إتيان الذكور دون الإناث . قوله : ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال : ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط . وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي باني جامع دمشق ، لولا أن الله عز وجل قصّ علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكرًا يعلو ذكرًا ، ولهذا قال لهم لوط عليه السلام : ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي : عدلتم عن النساء وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال وهذا إسراف منكم وجهل ؛ لأنه وضع الشيء في غير محله ، ولهذا قال لهم في الآية الأخرى : ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ فأرشدهم إلى نسائهم فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي : لقد علمت أنه لا أرب لنا في النساء ولا إرادة ، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك . وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض ، وكذلك نساؤهم كن قد استغنين بعضهن ببعض أيضًا .

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ .

أي : ما أجابوا لوطًا إلا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم ، فأخرجه الله تعالى سالمًا وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قال قتادة : عابوهم بغير عيب . وقال مجاهد : إنهم أناس يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء .

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٨٣ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ .

يقول تعالى : فأنجينا لوطًا وأهله ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط كما قال تعالى : ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ إلا امرأته فإنها لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها تمالئهم عليه وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم ، ولهذا لما أمر لوط عليه السلام ليسري بأهله أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد ، ومنهم من يقول : بل اتبعتهم فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم ، والأظهر أنها لم تخرج من البلد ولا أعلمها لوط بل بقيت معهم ، ولهذا قال ههنا : ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي : الباقين ، وقيل : من الهالكين ، وهو تفسير باللازم . وقوله : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ مفسر بقوله : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ ولهذا قال : ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي : انظر يا محمّد كيف كان عاقبة من يجترئ على معاصي الله عز وجل ويكذب رسله ، وقد ذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله إلى أن اللائط يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط ، وذهب

آخرون من العلماء إلى أنه يرجم سواء كان محصنًا أو غير محصن وهو أحد قولي الشافعي رحمه الله ، والحجة ما روي عن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ » (١) وقال آخرون : هو كالزاني فإن كان محصنًا رجم ، وإن لم يكن محصنًا جلد مائة جلدة ، وهو القول الآخر للشافعي ، وأما إتيان النساء في الأدبار فهو اللوطية الصغرى ، وهو حرام بإجماع العلماء إلّا قولًا شاذًا لبعض السلف ، وقد ورد في النهي عنه أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

قال محمّد بن إسحاق : هم من سلالة مدين بن إبراهيم ، وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر ، قال : واسمه بالسريانية يثرون . قلت : مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة ، وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز . وقال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره إن شاء الله وبه الثقة ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ هذه دعوة الرسل كلهم ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ، أي : قد أقام الله الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به ، ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءهم ، أي : لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليسًا .

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾ .

ينهاهم شعيب عليه السلام عن قطع الطريق الحسي والمعنوي بقوله : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾ أي : تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم ، قال السدي وغيره : كانوا عشارين ، وعن ابن عبّاس ومجاهد وغير واحد ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾ : أي تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه ، والأول أظهر ؛ لأنه قال : ﴿ بِكُلِّ صِرَٰطٍ ﴾ وهو الطريق ، وهذا الثاني هو قوله ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي : وتودون أن تكون سبيل الله عوجًا مائلة ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴾ أي : كنتم مستضعفين لقلتكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم ، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك ﴿ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي : من الأمم الخالية والقرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله . وقوله : ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ ﴾ أي : قد اختلفتم علي ﴿ فَٱصْبِرُوا۟ ﴾ أي : انتظروا ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ﴾ وبينكم أي : يفصل ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين ، والدمار على الكافرين .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٠٠) والترمذي في سننه (١٤٥٦) وأبو داود في سننه (٤٤٦٢) .

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴾ .

هذا خبر من اللَّه تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيبًا ومن معه من المؤمنين في توعدهم إياه ومن معه بالنفي عن القرية أو الإكراه على الرجوع في ملتهم ، وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة . وقوله : ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴾ ؟ يقول : أو أنتم فاعلون ذلك ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه فقد أعظمنا الفرية على اللَّه في جعل الشركاء معه أندادًا ، وهذا تنفير منه على اتباعهم ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ ﴾ وهذا رد إلى اللَّه مستقيم فإنه يعلم كل شيء وقد أحاط بكل شيء علمًا ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ ﴾ أي : في أمورنا ما نأتي منها وما نذر ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي احكم بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴾ أي : خير الحاكمين ، فإنك العادل الذي لا يجور أبدًا .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن شدة كفرهم وتمردهم وعتوهم وما هم فيه من الضلال وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق ، ولهذا أقسموا وقالوا : ﴿ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴾ فلهذا عقبه بقوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾ أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة وذلك كما أرجفوا شعيبًا وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء ، كما أخبر عنهم في سورة هود فقال : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۚ ﴾ أي : كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها ثم قال تعالى مقابلًا لقيلهم : ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ .

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴾ .

أي : فتولى عنهم شعيب عليه السلام بعدما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال ، وقال مقرعًا لهم وموبخًا : ﴿ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ ﴾ أي : قد أديت إليكم ما أرسلت به فلا آسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به فلهذا قال : ﴿ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴾ .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما اختبر به الأمم الماضية الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء ، يعني بالبأساء ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام ، والضراء ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك لعلهم يضرعون ، أي : يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى اللَّه تعالى في كشف ما نزل بهم . وتقدير الكلام أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا فما فعلوا شيئًا من الذي أراد منهم ، فقلب عليهم الحال إلى

الرخاء ليختبرهم فيه ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ ﴾ أي : حولنا الحال من شدة إلى رخاء ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية ، ومن فقر إلى غنى ليشكروا على ذلك فما فعلوا . وقوله : ﴿ حَتَّىٰ عَفَوا ﴾ أي : كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم ، يقال : عفا الشيء إذا كثر ﴿ وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يقول تعالى : ابتليناهم بهذا وهذا ليتضرعوا وينيبوا إلى الله ، فما نجع فيهم لا هذا ولا هذا ، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا ، وقالوا : قد مسنا من البأساء والضراء ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الزمان والدهر ، وإنما هو الدهر تارات وتارات ، بل لم يتفطنوا لأمر الله فيهم ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين ، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ويصبرون على الضراء كما ثبت في الصحيحين : « عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لاَ يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » (١) وجاء في الحديث : « لاَ يَزَالُ البَلاَءُ بِالمُؤْمِنِ حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنْ ذُنُوبِهِ ، وَالمُنَافِقُ مَثَلُهُ كَمَثَلِ الحِمَارِ لاَ يَدْرِي فِيمَ رَبَطَهُ أَهْلُهُ وَلاَ فِيمَ أَرْسَلُوهُ » (٢) ﴿ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي : أخذناهم بالعقوبة بغتة ، أي : على بغتة وعدم شعور منهم ، أي أخذناهم فجأة ، كما في الحديث : « مَوْتُ الفَجْأَةِ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ ، وَأَخْذَةُ أَسَفٍ لِلْكَافِرِ » (٣) .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل كقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي : أمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس فإنهم آمنوا وذلك بعدما عاينوا العذاب ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا ﴾ أي : آمنت قلوبهم بما جاء به الرسل وصدقت به واتبعوه واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي : قطر السماء ونبات الأرض ، قال تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي : ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم ، ثم قال تعالى مخوفًا ومحذرًا من مخالفة أوامره والتجرؤ على زواجره : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ أي : الكافرة ﴿ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ﴾ أي : عذابنا ونكالنا ﴿ بَيَـٰتًا ﴾ أي : ليلًا ﴿ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي : في حال شغلهم وغفلتهم ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ أي : بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن .

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٦٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢٧٨/٤) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٤٦/١) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٧٤/٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٩/٤) وأبو داود في سننه (٣١١٠) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٧٨/٣) .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا ﴾ أولم يتبين لهم ﴿ أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ قال مجاهد وغيره في تفسيرها : أولم يتبين للذين يستخلفون في الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها فساروا سيرتهم وعملوا أعمالهم وعتوا على ربهم ﴿ أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ يقول : أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ يقول : ونختم على قلوبهم ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ موعظة ولا تذكيرًا . قلت : وهكذا قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾ .

﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ .

لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين ، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بيَّن لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ أي : يا محمّد ﴿ مِنْ أَنبَائِهَا ﴾ أي : من أخبارها ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي : الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ﴾ الباء سببية ، أي : فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم ولهذا قال هنا ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم ﴾ أي : لأكثر الأمم الماضية ﴿ مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ أي : ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال ، والعهد الذي أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه ، وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلّا هو ، وأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم ، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة لا من عقل ولا شرع وفي الفطر السليمة خلاف ذلك ، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك ، كما جاء في صحيح مسلم يقول الله تعالى : « إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ ، فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ » (١) وفي الصحيحين « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِه ، وَينصِّرانه ، ويمجسّانه » (٢) الحديث ، وقد قيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ﴾ ما روي عن أُبيّ بن كعب قال : كان في علمه تعالى يوم أقروا له بالميثاق أي : فما كانوا ليؤمنوا لعلم الله منهم ذلك ، وقال السدي : ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فآمنوا كرهًا ، وقال مجاهد هذا كقوله : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا ﴾ الآية .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم ﴾ أي : الرسل المتقدم ذكرهم كنوح وهود وصالح ولوط

(١) أخرجه مسلم في الجنة (٦٣) وأحمد في مسنده (١٦٢/٤) .
(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٥) ومسلم في القدر (٢٢ ، ٢٥) وأحمد في مسنده (٢٣٣/٢) .

وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين ﴿ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ أي : بحجتنا ودلائلنا البينة إلى فرعون وهو ملك مصر في زمن موسى ﴿ وَمَلَإِيهِ ﴾ أي : قومه ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أي : جحدوا وكفروا بها ظلمًا منهم وعنادًا .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون وإلجامه إياه بالحجة وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر فقال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : أرسلني الذي هو خالق كل شيء وربه ومليكه ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ فقال بعضهم : معناه حقيق بأن لا أقول على الله إلَّا الحق ، أي : جدير بذلك وحري به ، قالوا : والباء وعلى يتعاقبان ، وقال بعض المفسرين : معناه حريص على أن لا أقول على الله إلَّا الحق ، وقرأ آخرون من أهل المدينة ﴿ حَقِيقٌ عليَّ ﴾ (١) بمعنى واجب وحق عليَّ ذلك أن لا أخبر عنه إلَّا بما هو حق وصدق لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي : بحجة قاطعة من الله أعطانيها دليلًا على صدقي فيما جئتكم به ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي : أطلقهم من أسرك وقهرك ودعهم وعبادة ربك وربهم فإنهم من سلالة نبي كريم إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي قال فرعون : لست بمصدقك فيما قلت ، ولا بمعطيك فيما طلبت ، فإن كانت معك حجة فأظهرها لنراها إن كنت صادقًا فيما ادعيت .

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ .

قال ابن عبّاس في قوله : ﴿ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ الحية الذكر ، وفي حديث الفتون (٢) عن ابن عبّاس قال : ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ ﴾ فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون ، فلما رآها فرعون أنها قاصدة إليه اقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل ، وقال قتادة : تحولت حية عظيمة مثل المدينة ، وقال السدي في قوله : ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ الثعبان الذكر من الحيات فاتحة فاها واضعة لحيها الأسفل في الأرض والأعلى على سور القصر ، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه ، فلما رآها ذعر منها ووثب وأحدث ولم يكن يحدث قبل ذلك وصاح : يا موسى خذها وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل ، فأخذها موسى عليه السلام فعادت عصا ، وقال وهب بن منبه : لما دخل موسى على فرعون قال له فرعون : أعرفك ، قال نعم ، قال : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ قال : فرد إليه موسى الذي رد ، فقال فرعون : خذوه فبادر موسى ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ فحملت على الناس فانهزموا منها فمات منهم خمسة وعشرون ألفًا ، قتل بعضهم بعضًا ، وقام فرعون منهزمًا حتى دخل البيت (٣) . وقوله ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ أي : أخرج يده من درعه بعدما أدخلها فيه فإذا هي بيضاء تتلألأ من غير برص ولا

---

(١) قرأ نافع ﴿ عليَّ ﴾ بتشديد الياء ، وقرأ الباقون ﴿ على ﴾ بالتخفيف (انظر : حجة القراءات ص ٢٨٩) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٠٦/١٦) .
(٣) ذكره الطبري في تفسيره ٢٠/٩ وهذا القصة هي من مرويات بني إسرائيل المشهورة في الكتب .

مرض كما قال تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ الآية ، وقال ابن عبّاس في حديث الفتون : ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ يعني من غير برص ، ثم أعادها إلى كمه فعادت إلى لونها الأول .

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ .

أي قال الملأ وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون موافقين لقول فرعون فيه بعدما رجع إليه روعه واستقر على سرير مملكته بعد ذلك قال للملأ حوله : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ فوافقوه وقالوا كمقالته وتشاوروا في أمره كيف يصنعون في أمره ، وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته وظهور كذبه وافترائه ، وتخوفوا أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون ، فيكون ذلك سببًا لظهوره عليهم وإخراجه إياهم من أرضهم ، والذي خافوا منه وقعوا فيه كما قال تعالى : ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ فلما تشاوروا في شأنه وائتمروا بما فيه اتفق رأيهم على ما حكاه اللَّه تعالى عنهم في قوله تعالى :

﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ .

قال ابن عبّاس ﴿ أَرْجِهْ ﴾ أخره ، وقال قتادة : احبسه ﴿ وَأَرْسِلْ ﴾ أي : ابعث ﴿ فِي ٱلْمَدَآئِنِ ﴾ أي : في الأقاليم ومدائن ملكك ﴿ حَٰشِرِينَ ﴾ أي : من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم ، وقد كان السحر في زمانهم غالبًا كثيرًا ظاهرًا واعتقد من اعتقد منهم وأوهم من أوهم منهم أن ما جاء موسى به عليه السلام من قبيل ما تشعبذه سحرتهم ، فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات .

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى عليه السلام إن غلبوا موسى ليثيبنهم وليعطينهم عطاء جزيلًا ، فوعدهم ومنّاهم أن يعطيهم ما أرادوا ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده ، فلما توثقوا من فرعون لعنه اللَّه :

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ .

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام في قولهم : ﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾ أي : قبلك ، فقال لهم موسى عليه السلام : ﴿ أَلْقُوا۟ ﴾ أي : أنتم أولًا ، قيل : الحكمة في هذا - واللَّه أعلم - ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه ، فإذا فرغوا من بهرجهم ومحالهم جاءهم الحق الواضح الجلي بعد التطلب له والانتظار منهم لمجيئه ، فيكون أوقع في النفوس ، وكذا كان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ أي : خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج ، ولم يكن إلّا مجرد صنعة وخيال . قال ابن عبّاس : ألقوا حبالًا غلاظًا وخشبًا طوالًا ، قال : فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، وقال محمّد بن إسحاق : صف خمسة عشر ألف ساحر مع كل ساحر حباله وعصيه ، وخرج موسى عليه السلام معه أخوه يتكئ على عصاه حتى أتى الجمع وفرعون في مجلسه مع أشراف مملكته ، ثم قال السحرة : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ

أَلْقَوْا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ ﴾ فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون ثم أبصار الناس بعد ، ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من الحبال والعصي فإذا حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضًا ، وقال السدي : كانوا بضعة وثلاثين ألف رجل ليس رجل منهم إلّا ومعه حبل وعصا ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا سَحَرُوٓا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ يقول : فرقوهم أي : من الفرق ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ .

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام في ذلك الموقف العظيم الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل ، يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه ﴿ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ ﴾ أي : تأكل ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي : ما يلقونه ويوهمون أنه حق وهو باطل ، قال ابن عبّاس : فجعلت لا تمر بشيء من حبالهم ولا من خشبهم إلّا التقمته ، فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء ، ليس هذا بسحر ، فخرّوا سجدًا وقالوا : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ قال محمّد بن إسحاق : جعلت تتبع تلك الحبال والعصي واحدة واحدة حتى ما يرى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا ، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت ، ووقع السحرة سجدًا ، و ﴿ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ ، لو كان هذا ساحرًا ما غلبنا ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ فاغر فاه يبتلع حبالهم وعصيهم فألقي السحرة عند ذلك سجدًا ، فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلهما .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عما توعد به فرعون - لعنه الله - السحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام ، وما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَآ أَهْلَهَا ﴾ أي : إن غلبته لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك كقوله في الآية الأخرى : ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل ، فإن موسى عليه السلام بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به ، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملة سلطنته ، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر ممن اختار هو والملأ من قومه ، وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل ، ولهذا قد كانوا من أحرص الناس على ذلك وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون ، وموسى عليه السلام لا يعرف أحدًا منهم ولا رآه ولا اجتمع به ، وفرعون يعلم ذلك وإنما قال هذا تسترًا وتدليسًا على رعاع دولته وجهلتهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ فإن قومًا صدقوه في قوله : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ من أجهل خلق الله وأضلهم ، وقال السدي في تفسيره بإسناده المشهور عن ابن مسعود وابن عبّاس وغيرهما من الصحابة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾

قال : التقى موسى عليه السلام وأمير السحرة ، فقال له موسى : أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بي وتشهد أن ما جئت به حق ، قال الساحر : لآتين غدًا بسحر لا يغلبه سحر ، فوالله لئن غلبتني لأومنن بك ولأشهدن أنك حق ، وفرعون ينظر إليهما ، قالوا : فلهذا قال ما قال ، وقوله : ﴿ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ﴾ أي : تجتمعوا أنتم وهو وتكون لكم دولة وصولة وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء وتكون الدولة والتصرّف لكم ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : ما أصنع بكم ، ثم فسر هذا الوعيد بقوله : ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ يعني يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وقال في الآية الأخرى : ﴿ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ أي : على الجذوع ، قال ابن عبّاس : وكان أول من صلب وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف فرعون .

وقول السحرة : ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ أي : قد تحققنا أنا إليه راجعون وعذابه أشد من عذابك ونكاله على ما تدعونا إليه اليوم ، وما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك ، فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله ، ولهذا قالوا : ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أي : عمّنا بالصبر على دينك والثبات عليه ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ أي : متابعين لنبيك موسى عليه السلام ، وقالوا لفرعون : ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ فكانوا في أول النهار سحرة ، فصاروا في آخره شهداء بررة ، قاله ابن عبّاس وعبيد بن عمير وقتادة وابن جريج .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه وما أضمروه لموسى عليه السلام وقومه من الأذى والبغضة ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ أي : لفرعون ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ ﴾ أي : أتدعهم ليفسدوا في الأرض ، أي : يفسدوا أهل رعيتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك ، ياللّه العجب صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه ! إلا إن فرعون وقومه هم المفسدون ولكن لا يشعرون ، ولهذا قالوا : ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ قال بعضهم : الواو هنا حالية ، أي : أتذره وقومه يفسدون في الأرض وقد ترك عبادتك ؟ وقرأ ذلك أُبيّ بن كعب ، وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك ، وقال آخرون : هي عاطفة ، أي : أتدعهم يصنعون من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى ترك آلهتك ؟ وقرأ بعضهم : (إلاهتك) أي : عبادتك (١) ، وعلى القراءة الأولى قال بعضهم : كان لفرعون إله يعبده ، قال الحسن البصري : كان لفرعون إله يعبده في السر ، وقال في رواية أخرى : كان له حنانة في عنقه معلقة يسجد لها ، ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ ، وهذا أمر ثان بهذا الصنيع وقد كان نكّل بهم قبل ولادة موسى عليه السلام حذرًا من وجوده ، فكان خلاف ما رامه وضد ما قصده فرعون ، وهكذا عومل في صنيعه أيضًا لما أراد إذلال بني إسرائيل وقهرهم ، فجاء الأمر على خلاف ما أراد : أعزّهم الله وأذلّه وأرغم

(١) قرأ أبي بن كعب (قد تركوك أن يعبدوك وآلهتك) وقرأ ابن عباس (وإلاهتك) (الطبري في تفسيره ٩/٣٣) .

أنفه وأغرقه وجنوده . ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا ﴾ ووعدهم بالعاقبة وأن الدار ستصير لهم في قوله : ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ أي : فعلوا بنا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى ومن بعد ذلك ، فقال منبهًا لهم على حالهم الحاضر وما يصيرون إليه في ثاني الحال : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ الآية ، وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي : اختبرناهم وامتحناهم وابتليناهم ﴿ بِٱلسِّنِينَ ﴾ وهي سنين الجوع بسبب قلة الزروع ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ قال مجاهد : وهو دون ذلك ، وقيل : كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ ﴾ أي : من الخصب والرزق ﴿ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِۦ ﴾ أي : هذا لنا بما نستحقه ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أي : جدب وقحط ﴿ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ أي : هذا بسببهم وما جاؤوا به ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ قال ابن عبّاس : مصائبهم عند الله ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وقال : ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي : من قبل الله .

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ .

هذا إخبار من الله ﷻ عن تمرد قوم فرعون وعتوهم وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل في قولهم : ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ يقولون : أي آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها رددناها ، فلا نقبلها منك ولا نؤمن بك ولا بما جئت به ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾ اختلفوا في معناه ، فعن ابن عبّاس في رواية : كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار ، وعنه في رواية أخرى : هو كثرة الموت ، وكذا قال عطاء ، وقال مجاهد : الطوفان : الماء والطاعون على كل حال ، وعن عائشة ﵂ قالت : قال رسول الله ﷺ : « الطُّوفَانُ : المَوْتُ »[١] ، وقال ابن عبّاس في رواية أخرى : هو أمر من الله طاف بهم ثم قرأ ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ ، وأما الجراد فمعروف مشهور ، وهو مأكول كما ورد عن أبي يعفور قال : سألت عبد الله بن أبي أوفى عن الجراد فقال : غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد[٢] . وروي عن ابن عمر عن النبيّ ﷺ قال : « أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ : الحُوتُ وَالجَرَادُ ، وَالكَبِدُ وَالطِّحَالُ »[٣] وعن سلمان قال : سئل

---

(١) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٨/٣٠٠) والهندي في كنز العمال (٢٨٩٦) .
(٢) أخرجه النسائي في سننه (٤٣٥٦) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٤/٧) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٩٧/٢) وذكره البيهقي في السنن الكبرى (٢٥٤/١) والسيوطي في الدر المنثور (١٦٨/١) .

رسول الله ﷺ عن الجراد فقال : « أَكْثَرُ جُنُودِ اللَّهِ لاَ آكُلُهُ وَلاَ أُحَرِّمُهُ » (١) وإنما تركه عليه الصلاة والسلام لأنه كان يعافه كما عافت نفسه الشريفة أكل الضب وأذن فيه .

وأما القمل فعن ابن عبّاس : هو السوس الذي يخرج من الحنطة ، وعنه أنا الدبا وهو الجراد الصغار الذي لا أجنحة له ، وقال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم : القمل البراغيث ، وقال ابن جرير : القمل جمع واحدتها قملة وهي دابة تشبه القمل تأكل الإبل فيما بلغني .

قال : وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يزعم أن القمل عند العرب الحمنان ، واحدتها حمنانة ، وهي صغار القردان فوق القمامة . وعن سعيد بن جبير قال : لما أتى موسى عليه السلام فرعون قال له : أرسل معي بني إسرائيل فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر ، فصب عليهم منه شيئًا خافوا أن يكون عذابًا ، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل ، فأنبت لهم في تلك السنة شيئًا لم ينبته قبل ذلك من الزروع والثمار والكلأ ، فقالوا : هذا ما كنا نتمنى ، فأرسل الله عليهم الجراد فسلّطه على الكلأ ، فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يبقي الزرع ، فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه فكشف عنهم الجراد فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل ، فداسوا وأحرزوا في البيوت ، فقالوا : قد أحرزنا ، فأرسل الله عليهم القمل وهو السوس الذي يخرج منه ، فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها إلّا ثلاثة أقفزة ، فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا القمل فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه فكشف عنهم ، فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل ، فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع ، فقال لفرعون : ما تلقى أنت وقومك من هذا ؟ فقال : وما عسى أن يكون كيد هذا ؟ فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه ، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ، فلم يؤمنوا ، وأرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار وما كان في أوعيتهم وجدوه دمًا عبيطًا فشكوا إلى فرعون ، فقالوا : إنا قد ابتلينا بالدم وليس لنا شراب ، فقال : إنه قد سحركم ، فقالوا : من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئًا من الماء إلّا وجدناه دمًا عبيطًا ، فأتوه وقالوا : يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه فكشف عنهم ، فلم يؤمنوا ، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل (٢) .

وقد روي نحو هذا عن ابن عبّاس والسدي وقتادة وغير واحد من علماء السلف أنه أخبر بذلك ، وقال محمّد بن إسحاق بن يسار رحمه الله : فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوبًا مغلولًا ، ثم أبى إلّا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر ، فتابع الله عليه الآيات فأخذه بالسنين ، وأرسل عليه الطوفان ، ثم الجراد ، ثم القمل ، ثم الضفادع ، ثم الدم ، آيات مفصلات ، فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض ، ثم ركد لا يقدرون على أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئًا حتى جهدوا

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣٨١٣) وابن ماجه في سننه (٣٢١٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/٢٥٧) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٩/٤٦) .

جوعًا ، فلما بلغهم ذلك ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ فدعا موسى ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغني ، حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم ، فقالوا ما قالوا ، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم القمل ، فذكر لي أن موسى عليه السلام أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه ، فمشى إلى كثيب أهيل عظيم فضربه بها ، فانثال عليهم قملًا حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار ، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له ، فدعا ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية ، فلا يكشف أحد ثوبًا ولا طعامًا إلّا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه ، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا ، فسأل ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دمًا لا يستقون من بئر ولا نهر ، ولا يغترفون من إناء إلّا عاد دمًا عبيطًا .

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة ، انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم ، وهو البحر الذي فرقه لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه ، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم ، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم ، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون وهم بنو إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها ، وعن الحسن البصري وقتادة في قوله : ﴿ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ ﴾ يعني الشام ، وقوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ ﴾ قال مجاهد وابن جرير : وهي قوله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ ﴾ أي : وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : ﴿ يَعْرِشُونَ ﴾ يبنون .

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر ، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ﴿ فَأَتَوْاْ ﴾ أي : فمروا ﴿ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ ﴾ . قال بعض المفسرين : كانوا من الكنعانيين ، وقيل : كانوا من لخم ، قال ابن جرير : وكانوا يعبدون أصنامًا على صور البقر ، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك ، فقالوا : ﴿ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ أي : تجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن ينزّه عنه من

الشريك والمثيل ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ ﴾ أي : هالك ﴿ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فعن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين ، فمررنا بسدرة فقلت : يا نبيّ الله : اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط ، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها ، فقال النبيّ ﷺ : « الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ إنكم تركبون سنن من قبلكم » (١) .

﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ .

يذكّرهم موسى عليه السلام نعم الله عليهم من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره ، وما كانوا فيه من الهوان والذلة وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره .

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًا على بني إسرائيل بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى عليه السلام وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم ، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة ، قال المفسرون : فصامها موسى عليه السلام وطواها ، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة ، فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر أربعين ، وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي ، فالأكثرون على أن الثلاثين هي : ذو القعدة والعشر : عشر ذي الحجة ، وروي عن ابن عباس وغيره ، فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام وفيه أكمل الله الدين لمحمّد ﷺ كما قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ فلما تم الميقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور ، فحينئذ استخلف على بني إسرائيل أخاه هارون ووصاه بالإصلاح وعدم الفساد ، وهذا تنبيه وتذكير وإلّا فهارون عليه السلام نبي شريف كريم على الله له وجاهة وجلالة صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام أنه لما جاء لميقات الله تعالى وحصل له التكليم من الله سأل الله تعالى أن ينظر إليه ، فقال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي ﴾ وقد أشكل حرف لن ههنا على كثير من العلماء لأنها موضوعة لنفي التأبيد ، فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة ، وهذا أضعف الأقوال ؛ لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة كما سنوردها عند قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ .

عن أنس عن النبيّ ﷺ قال : لما تجلى ربه للجبل أشار بإصبعه فجعله دكًّا ، وأرانا أبو إسماعيل بإصبعه

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٨/٥) والطبراني في الكبير (٢٧٥/٣ ، ٢٧٦) .

السبابة ، وعن أنس أيضًا أن النبيّ ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ قال : هكذا بإصبعه ، ووضع النبيّ ﷺ إصبعه الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر « فَسَاخَ الجَبَلُ » (١) .

وقال ابن عبّاس في قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ ﴾ قال : ما تجلى منه إلّا قدر الخنصر ﴿ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ قال : ترابًا ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ قال : مغشيًا عليه ، وقال قتادة : ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ قال : ميتًا ، وقال سفيان الثوري : ساخ الجبل في الأرض حتى وقع في البحر فهو يذهب معه .

وعن أنس بن مالك أن النبيّ ﷺ قال : « لَمَّا تَجَلَّى اللَّهُ لِلجِبَالِ طَارَتْ لِعَظَمَتِهِ سِتَّةُ أَجْبُلٍ ، فَوَقَعَتْ ثَلاثَةٌ بِالمَدِينَةِ وَثَلاثَةٌ بِمَكَّةَ ، بِالمَدِينَةِ : أُحُدٌ وَوَرْقَانُ وَرَضْوَى ، وَوَقَعَ بِمَكَّةَ : حِرَاء وَثَبِيرٌ وَثَوْرٌ » (٢) وقيل : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ ﴾ فنظر إلى الجبل لا يتمالك وأقبل الجبل فدك على أوله ، ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقًا ، وقال عكرمة : ﴿ جَعَلَهُۥ دكاء ﴾ قال : نظر الله إلى الجبل فصار صحراء ترابًا ، وقد قرأ بهذه القراءة بعض القراء واختارها ابن جرير (٣) ، والمعروف أن الصعق هو الغشي ها هنا كما فسره ابن عبّاس وغيره ، لا كما فسره قتادة بالموت وإن كان ذلك صحيحًا في اللغة ، كقوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ فإن هناك قرينة تدل على الموت كما أن هنا قرينة تدل على الغشي وهو قوله : ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ ﴾ والإفاقة لا تكون إلّا عن غشي ﴿ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ تنزيهًا وتعظيمًا وإجلالًا أن يراه أحد في الدنيا إلّا مات وقوله : ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ قال مجاهد : أن أسألك الرؤية ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال ابن عبّاس : أنه لا يراك أحد ، وكذا قال أبو العالية : قد كان قبله مؤمنون ولكن يقول : أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة ، وهذا قول حسن له اتجاه .

وقوله : ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ فيه أبو سعيد وأبو هريرة عن النبيّ ﷺ فأما حديث أبي سعيد الخدري ﷺ فقال : جاء رجل من اليهود إلى النبيّ ﷺ قد لطم وجهه ، وقال : يا محمّد إن رجلًا من أصحابك من الأنصار لطم وجهي قال : « ادْعُوهُ » فدعوه قال : « لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ ؟ » قال : يا رسول الله إني مررت باليهودي فسمعته يقول : والذي اصطفى موسى على البشر ، قال : وعلى محمّد ؟ قال : فقلت : وعلى محمّد وأخذتني غضبة فلطمته ، فقال : « لاَ تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الأَنْبِيَاءِ فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَفِيقُ ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ ، فَلاَ أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ » (٤) . وأما حديث أبي هريرة فقال : استب رجلان رجل من المسلمين ورجل من اليهود ، فقال المسلم : والذي اصطفى محمّدًا على العالمين ، فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على العالمين ، فغضب المسلم على اليهودي فلطمه ، فأتى اليهودي رسول الله ﷺ فسأله فأخبره ، فدعاه رسول الله ﷺ فاعترف بذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « لاَ

---

(١) أخرجه : الترمذي في السنن (٣٠٧٤) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١١٩/٣) والهندي في كنز العمال (٤٣٧٧) .

(٣) قرأ حمزة والكسائي ﴿ دكاء ﴾ بالمد والهمز ، وقرأ الباقون ﴿ دكا ﴾ منونًا (انظر حجة القراءات ص : ٢٩٥) .

(٤) أخرجه البخاري في الخصومات (٢٤١٢) ومسلم في الفضائل (١٥٩) .

تخيِّرُوني عَلَى مُوسَى فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ ، فَإِذَا بِمُوسَى مُمْسِكٌ بِجَانِبِ العَرْشِ ، فَلاَ أَدْرِي أَكَانَ مِمَّنْ صُعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي أَمْ كَانَ مِمَّا اسْتَثْنَى اللَّه ﷻ » (١) .

والكلام في قوله ﷺ : « لاَ تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى » كالكلام على قوله : « لاَ تُفَضِّلُونِي عَلَى الأَنْبِيَاءِ وَلاَ عَلَى يُونُسَ بنِ مَتَّى » قيل : من باب التواضع ، وقيل : قبل أن يعلم بذلك ، وقيل : نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضب والتعصب ، وقيل : على وجه القول بمجرد الرأي والتشهي ، والله أعلم . وقوله : « فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ » الظاهر أن هذا الصعق يكون في عرصات القيامة يحصل أمر يصعقون منه - والله أعلم به - وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء ، وتجلى للخلائق الملك الديان ، كما صعق موسى من تجلي الرب تبارك وتعالى ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « فَلاَ أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ » .

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ .

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالاته تعالى وبكلامه ، ولا شك أن محمّدًا ﷺ سيّد ولد آدم من الأولين والآخرين ، ولهذا اختصه الله تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة ، وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم ، وبعده في الشرف والفضل إبراهيم الخليل ﵇ ، ثم موسى بن عمران كليم الرحمن ﵇ ، ولهذا قال الله تعالى له : ﴿ فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ ﴾ أي : من الكلام والمناجاة ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أي : على ذلك ولا تطلب ما لا طاقة لك به ، ثم أخبر تعالى أنه كتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلًا لكل شيء ، قيل : كانت الألواح من جوهر وأن الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكامًا مفصلة مبينة للحلال والحرام ، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التي قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ ﴾ وقيل : الألواح أعطيها موسى قبل التوراة ، فالله أعلم ، وعلى كل تقدير فكانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومنع منه ، والله أعلم .

وقوله ﴿ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ ﴾ أي : بعزم على الطاعة ﴿ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ ﴾ قال ابن عبّاس : أمر موسى ﵇ أن يأخذ بأشد ما أمر قومه .

وقوله : ﴿ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ أي : سترون عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدماء والتباب ، قال ابن جرير : وإنما قال : ﴿ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه : سأريك غدًا إلى ما يصير إليه حال من خالف أمري على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره ، ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد والحسن البصري وقيل : معناه ﴿ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ أي : من أهل الشام وأعطيكم إياها ، وقيل : منازل قوم فرعون والأول أولى ، والله أعلم ؛ لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر ، وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه ، والله أعلم .

---

(١) أخرجه البخاري في الخصومات (٢٤١١) ومسلم في الفضائل (١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢) وأحمد في مسنده (٢/٢٦٤) .

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ أي : سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي قلوب المتكبرين عن طاعتي ويتكبرون على الناس بغير حق ، أي : كما استكبروا بغير حق أذلهم بالجهل . وقال بعض السلف : لا ينال العلم حيي ولا مستكبر ، وقال آخر : من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبدًا ، وقال سفيان بن عيينة في قوله : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ قال : أنزع عنهم فهم القرآن وأصرفهم عن آياتي . قال ابن جرير : وهذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة . قلت : ليس هذا بلازم لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد في حق كل أمة ولا فرق بين أحد وأحد في هذا ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ أي : وإن ظهر لهم سبيل الرشد أي : طريق النجاة لا يسلكوها ، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلًا ، ثم علّل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي : كذبت بها قلوبهم ﴿ وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ أي : لا يعملون بما فيها . وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ أي من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات حبط عمله وقوله : ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي : إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر وكما تُدين تُدان .

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري من حليّ القبط الذي كانوا استعاروه منهم فشكل لهم منه عجلًا ، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام فصار عجلًا جسدًا له خوار ، والخوار صوت البقر ، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى ، فأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور حيث يقول تعالى إخبارًا عن نفسه الكريمة : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ وقد اختلف المفسّرون في هذا العجل هل صار لحمًا ودمًا له خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوّت كالبقر على قولين ، والله أعلم . ويقال : إنهم لما صوّت لهم العجل رقصوا حوله وافتتنوا به وقالوا : هذا إلهكم وإله موسى فنسي ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ ينكر تعالى عليهم ضلالهم بالعجل وذهولهم عن خالق السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه أن عبدوا معه عجلًا جسدًا له خوار لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير ، ولكن غطّى على أعين بصائرهم

عمى الجهل والضلال كما تقدم عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ » [(١)] .

وقوله : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : ندموا على ما فعلوا ﴿ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ وقرأ بعضهم ﴿ لَئِن لَّمْ ترحمنا ﴾ بالتاء المثناة من فوق ﴿ ربَّنا ﴾ منادى و ﴿ تغفر لنا ﴾ [(٢)] ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي من الهالكين ، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله ﷻ .

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أن موسى ؑ لما رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف ، قال أبو الدرداء : والأسف : أشد الغضب ﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ﴾ يقول : بئس ما صنعتم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم . وقوله : ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ يقول : استعجلتم مجيئي إليكم وهو مقدر من الله تعالى . وقوله : ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ قيل : كانت الألواح من زمرد ، وقيل : من ياقوت ، وقيل : من برد ، وقيل : من سدر ، وفي هذه دلالة على ما جاء في الحديث : « لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ» [(٣)] ثم ظاهر السياق أنه إما ألقى الألواح غضبًا على قومه وهذا قول جمهور العلماء سلفًا وخلفًا ، وروى ابن جرير عن قتادة في هذا قولًا غريبًا لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة ، وقد رده ابن عطية وغير واحد من العلماء وهو جدير بالرد ، وكأنه تلقاه قتادة عن بعض أهل الكتاب وفيهم كذابون ووضاعون وأفاكون وزنادقة . وقوله : ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ خوفًا أن يكون قد قصر في نهيهم ﴿ يا ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي لا تسقني مساقهم ولا تخلطني معهم ، وإنما قال : ﴿ ابْنَ أُمَّ ﴾ ليكون أرق وأنجع عنده وإلَّا فهو شقيقه لأبيه وأمه فلما تحقق موسى ؑ براءة ساحة هارون ؑ فعند ذلك ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَيْسَ الْمُعَايِنُ كَالْمُخْبَرِ ، أَخْبَرَهُ رَبُّهُ ﷻ أَنَّ قَوْمَهُ فُتِنُوا بَعْدَهُ فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ ، فَلَمَّا رَآهُمْ وَعَايَنَهُمْ أَلْقَى الْأَلْوَاحَ » [(٤)] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضًا وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلًا وصغارًا في الحياة الدنيا وقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾

(١) أخرجه أحمد في مسنده(١٩٤/٥) وأبو داود في سننه(٥١٣٠) .

(٢) قرأ حمزه والكسائي وخلف(تغفر لنا وترحمنا) بالخطاب فيهما ونصب باء(ربنا) والباقون بالغيب والرفع(تقريب النشر في القراءات العشر ص ١١٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده(٢٧١/١) والهيثمي في مجمع الزوائد(١٥٣/١)

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك(٣٨٠/٢) .

نائلة لكل من افترى بدعة فإن ذل البدعة ومخالفة الرشاد متصلة من قلبه على كتفيه وقال سفيان بن عيينة : كل صاحب بدعة ذليل ، ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق ؛ ولهذا عقب هذه القصة بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ أي يا محمّد يا رسول التوبة ونبيّ الرحمة ﴿ مِنۢ بَعۡدِهَا ﴾ أي من بعد تلك الفعلة ﴿ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ . عن عبد اللّٰه بن مسعود أنه سئل عن ذلك ، يعني الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها ، فتلا هذه الآية ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ فتلاها عبد اللّٰه عشر مرات فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها .

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ ﴾ أي سكن ﴿ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ ﴾ أي غضبه على قومه ﴿ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ ﴾ أي التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل غيرة للّٰه وغضبًا له ﴿ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴾ يقول كثير من المفسرين : إنها لما ألقاها تكسرت ثم جمعها بعد ذلك ؛ ولهذا قال بعض السلف : فوجد فيها هدى ورحمة ، وأما التفصيل فذهب ، وزعموا أن رضاضها لم يزل موجودًا في خزائن الملوك من بني إسرائيل إلى الدولة الإسلامية ، وأما الدليل الواضح على أنها تكسرت حين ألقاها وهي من جوهر الجنة ، فقد أخبر تعالى أنه لما أخذها بعد ما ألقاها وجد فيها ﴿ هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴾ ضمن الرهبة معنى الخضوع ولهذا عداها باللام .

وقال قتادة : في قوله تعالى : ﴿ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ ﴾ قال . رب إني أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون السابقون ، أي آخرون في الخلق سابقون في دخول الجنة رب اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرأونها وكان من قبلهم يقرأون كتابهم نظرًا حتى إذا رفعوها لم يحفظوا منها شيئًا ولم يعرفوه - قال قتادة : وإن اللّٰه أعطاكم أيتها الأمة من الحفظ شيئًا لم يعطه أحدًا من الأمم - قال : رب فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ، ويقاتلون فصول الضلالة حتى يقاتلون الأعور الكذاب فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم ويؤجرون عليها وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه بعث اللّٰه عليها نارًا فأكلتها وإن ردت عليه فتأكلها السباع والطير ، وإن اللّٰه أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقيركم قال : رب اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة إذا همّ أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، رب اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة إذا هَمّ أحدهم بسيئة لم تكتب عليه حتى يعملها ، فإذا عملها كتبت عليه سيئة واحدة ، فاجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد قال : رب إني أجد في الألواح أمة هم المستجيبون والمستجاب لهم ، فاجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني

أجد في الألواح أمة هم المشفعون والمشفوع لهم فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال قتادة : فذكر لنا أن نبي الله موسى ﷺ نبذ الألواح وقال : اللهم اجعلني من أمة أحمد .

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ .

قال ابن عبّاس في تفسير هذه الآية : كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلًا فاختار سبعين رجلًا ، فبرز بهم ليدعوا ربهم ، وكان فيما دعوا الله أن قالوا : اللهم أعطنا ما لم تعطه أحدًا قبلنا ولا تعطه أحدًا بعدنا ، فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة ﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ﴾ الآية ، وقال السدي : إن الله أمر موسى أن يأتيه في ثلاثين من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعدًا ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا ﴾ على عينيه ثم ذهب بهم ليعتذروا ، فلما أتوا ذلك المكان قالوا ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ يا موسى ﴿ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ فإنك قد كلمته فأرناه ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾ فماتوا فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول : رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ؟ ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ﴾ .

وقال ابن عبّاس : إنهم أخذتهم الرجفة ؛ لأنهم لم يزايلوا قومهم في عبادتهم العجل ولا نهوهم ، ويتوجه هذا القول بقول موسى : ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ وقوله : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ أي ابتلاؤك واختبارك وامتحانك . قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وأبو العالية ، والربيع بن أنس ، وغير واحد من علماء السلف والخلف ، ولا معنى له غير ذلك ، يقول : إن الأمر إلّا أمرك وإن الحكم إلّا لك فما شئت كان ، تضل من تشاء وتهدي من تشاء ولا هادي لمن أضللت ولا مضل لمن هديت ولا معطي لمن منعت ولا مانع لما أعطيت ، فالملك كله لك والحكم كله لك ، لك الخلق والأمر .

وقوله : ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ الغفر هو الستر وترك المؤاخذة بالذنب ، والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها أن لا يوقعه في مثله في المستقبل ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ أي لا يغفر الذنب إلّا أنت ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ الفصل الأول من الدعاء لدفع المحذور وهذا لتحصيل المقصود ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أي تبنا ورجعنا وأنبنا إليك . وعن علي قال : إنما سميت اليهود لأنهم قالوا ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ .

﴿ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى مجيبًا لنفسه في قوله : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ الآية ، قال : ﴿ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أي أفعل ما أشاء وأحكم ما أريد ، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك سبحانه لا إله إلّا هو ، وقوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ آية عظيمة الشمول والعموم كقوله تعالى إخبارًا عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ

رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ وعن جندب هو - ابن عبد الله البجلي ﷺ - قال : جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عقلها ، ثم صلى خلف رسول الله ﷺ فلما وصل رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقالها ثم ركبها ، ثم نادى : اللهم ارحمني ومحمّدًا ولا تشرك في رحمتنا أحدًا ، فقال رسول الله ﷺ : « أَتَقُولُونَ هَذَا أَضَلُّ أَمْ بَعِيرُهُ ؟ أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ ؟ » قالوا : بلى قال : « لَقَدْ حظرت رَحْمَةً وَاسِعَةً ، إِنَّ اللَّهَ ﷻ خَلَقَ مِائَةَ رَحْمَةٍ ، فَأَنْزَلَ رَحْمَةً يَتَعَاطَفُ بِهَا الْخَلْقُ ، جِنُّهَا وَإِنْسُهَا وَبَهَائِمُهَا ، وَأَخَّرَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً ، أَتَقُولُونَ هُوَ أَضَلُّ أَمْ بَعِيرِه ؟ » [(١)] وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال : « إِنَّ للَّه مِائَةَ رَحْمَةٍ ، جَعَلَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ ، وَجَعَلَ عِنْدَكُمْ وَاحِدَةً تَتَرَاحَمُونَ بِهَا بَيْنَ الْجِنِ وَالإِنْسِ وَبَيْنَ الْخَلْقِ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ضَمَّهَا إِلَيْهِ » [(٢)] .

وقوله : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ الآية ، يعني فسأوجب حصول رحمتي منه مني وإحسانًا إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ وقوله : ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ أي سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات ، وهم أمة محمّد ﷺ ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ أي الشرك والعظائم من الذنوب . قوله : ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ ﴾ قيل : زكاة النفوس ، وقيل : الأموال ، ويحتمل أن تكون عامة لهما ، فإن الآية مكية . ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي يصدقون .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَٰلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾ وهذه صفة محمّد ﷺ في كتب الأنبياء ، بشروا أممهم ببعثه وأمروهم بمتابعته ، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم ، كما روي عن رجل من الأعراب قال : جلبت حلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ ، فلما فرغت من بيعي قلت : لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه ، قال : فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون ، فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ، ناشر التوراة يقرؤها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها ، فقال رسول الله ﷺ : « أَنْشُدُكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ هَلْ تَجِدُ فِي كِتَابِكَ هَذَا صِفَتِي وَمَخرَجِي » فقال برأسه هكذا ، أي : لا ، فقال ابنه : أي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك ، وإني أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنك رسول الله ، فقال : « أَقِيمُوا الْيَهُودِيَّ عَنْ أَخِيكُمْ » ثم تولى كفنه والصلاة عليه [(٣)] .

وعن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة ؟ قال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا ، وحرزًا للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، اسمك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٢/٤) وأبو داود في سننه (٤٨٨٥) والحاكم في المستدرك (٢٤٨/٤) .
(٢) أخرجه مسلم في التوبة (١٩ ، ٢٠) وأحمد في مسنده (٥٢٦/٢) وابن ماجه في سننه (٤٢٩٣) .
(٣) أخرجه مسلم في الحدود (٦) وأحمد في مسنده (٤١١/٥) وابن ماجه في سننه (٢٥٥٨) .

يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلَّا الله ويفتح به قلوبًا غلفًا وآذانا صمًّا وأعينًا عميًا . قال عطاء : ثم لقيت كعبًا فسألته عن ذلك ، فما اختلف حرفًا ، إلَّا أن كعبًا قال بلغته قال : قلوبًا غلوفيًا وآذانًا صموميًا وأعينًا عموميًا (١) . وعن محمّد بن جبير بن معطم قال : خرجت تاجرًا إلى الشام ، فلما كنت بأدنى الشام لقيني رجل من أهل الكتاب ، فقال : هل عندكم رجل نبيًا ؟ قلت : نعم ، قال : هل تعرف صورته إذا رأيتها ؟ قلت : نعم ، فأدخلني بيتًا فيه صور ، فلم أر صورة النبيّ ﷺ فبينا أنا كذلك إذ دخل رجل منهم علينا ، فقال : فيم أنتم ؟ فأخبرناه ، فذهب بنا إلى منزله ، فساعة ما دخلت نظرت إلى صورة النبيّ ﷺ وإذا رجل آخذ بعقب النبيّ ﷺ ، قلت : من هذا الرجل القابض على عقبه ؟ قال : إنه لم يكن نبي إلَّا كان بعده نبي إلَّا هذا النبي فإنه لا نبي بعده ، وهذا الخليفة بعده وإذا صفة أبي بكر ﷺ .

وعن الأقرع مؤذن عمر بن الخطاب ﷺ قال : بعثني عمر إلى الأسقف فدعوته ، فقال له عمر : هل تجدني في الكتاب ؟ قال : نعم ، قال : فكيف تجدني ؟ قال : أجدك قرنًا ، فرفع عمر الدرة وقال : قرن مه ، قال : قرن حديد أمير شديد ، قال : فكيف تجد الذي بعدي ؟ قال : أجد خليفة صالحًا غير أنه يؤثر قرابته ، قال عمر : يرحم الله عثمان ثلاثًا ، قال : كيف تجد الذي بعده ؟ قال : أجده صدأ حديد ، فوضع عمر يده على رأسه وقال : يا دفراه يا دفراه ، قال : يا أمير المؤمنين إنه خليفة صالح ولكنه يستخلف حين يستخلف والسيف مسلول والدم مهراق (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة ، وهكذا كانت حاله عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلَّا بخير ولا ينهى إلَّا عن شر ، كما قال عبد الله بن مسعود : إذا سمعت الله يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فأرعها سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه ، ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له ، والنهي عن عبادة من سواه كما أرسل به جميع الرسل قبله كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ . عن أبي حميد وأبي أسيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا سَمِعْتُمُ الحَدِيثَ عَنِّي مِمَّا تَعْرِفُهُ قُلُوبُكُمْ وَتَلِينُ لَهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيبٌ فَأَنَا أَوْلاكُمْ بِهِ ، وَإِذَا سَمِعْتُمُ الحَدِيثَ عَنِّي تُنْكِرُهُ قُلُوبُكُمْ ، وَتَنْفِرُ مِنْهُ أَشْعَارُكُمْ وأبشاركم ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيدٌ ؛ فَأَنَا أَبْعَدُكُمْ مِنْهُ » (٣) .

وقوله ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ أي يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم ﴿ ويحرمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ قال ابن عبّاس : كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى . قال بعض العلماء : فكل ما أحل الله تعالى من المآكل فهو طيب نافع في البدن والدين ، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين ، وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من

(١) أخرجه : البخاري في التفسير (٤٨٣٨) وأحمد في مسنده ١٧٤/٢ .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤٦٥٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٥/٥) .

يرى التحسين والتقبيح العقليين، وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضع له، وكذا احتج بها من ذهب من العلماء، إلى أن المرجع في حل المآكل التي لم ينص على تحليلها ولا تحريمها إلى ما استطابته العرب في حل رفاهيتها، وكذا في جانب التحريم إلى ما استخبثته، وفيه كلام طويل أيضًا.

وقوله: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي أنه جاء بالتيسير والسماحة، كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: « بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ » (١) وقال ﷺ لأميريه معاذ وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن: « بَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا وَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا » (٢) قال صاحبه أبو برزة الأسلمي: إني صحبت رسول الله ﷺ وشهدت تيسيره، وقد كانت الأمم الذين قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم، ولهذا قال رسول الله ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ » (٣) وقال: « رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ » (٤).

وقوله: ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ ﴾ أي عظموه ووقروه. وقوله: ﴿ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ﴾ أي القرآن والوحي الذي جاء به مبلغًا إلى الناس ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي في الدنيا والآخرة.

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمّد ﷺ: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمّد ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والعجمي ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ أي جميعكم، وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس كافة كما قال الله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ وعن أبي إدريس الخولاني قال: سمعت أبا الدرداء رضي الله عنه يقول: كانت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضبًا، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء ونحن عنده، فقال رسول الله ﷺ: « أَمَّا صَاحِبُكُمْ هَذَا فَقَدْ غَامَرَ » أي غاضب وحاقد، قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبيّ ﷺ وقصّ على رسول الله ﷺ الخبر، قال أبو الدرداء: فغضب رسول الله ﷺ، وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم، فقال رسول الله ﷺ: « هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي؟ إِنِّي قُلْتُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ » (٥).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٦٦) والهندي في كنز العمال (٩٠٠).
(٢) أخرجه البخاري في الجهاد (٣٠٣٨) ومسلم في الجهاد (٧) وأحمد في مسنده (٤/٤١٧).
(٣) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٦٩) ومسلم في الإيمان (٢٠١، ٢٠٢) وأحمد في مسنده (٢/٢٩٣).
(٤) أخرجه: أحمد في مسنده ٤/٤٢٠.
(٥) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٤٠) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/٢٣٦).

وعن ابن عبّاس أن رسول اللّه ﷺ قال : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي ، وَلاَ أَقُولُهُ فَخْرًا ، بُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً ، الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَأُحِلَّتْ لِي الغَنَائِمُ وَلاَ تَحِلُّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأُعْطِيت الشَّفَاعَةَ فَأَخَّرْتُهَا لِأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَهِيَ لِمَنْ لاَ يُشْرِكُ باللّه شَيْئًا » (١) ، وعن أبي موسى قال : قال رسول اللّه ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي رَجُلٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيّ وَلاَ نَصْرَانِيّ ثُمَّ يَمُوتُ لاَ يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ » (٢) .

وفي الصحيحين أيضًا من حديث جابر بن عبد اللّه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ ، وَأُحِلَّت لِي الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً » (٣) .

وقوله : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ صفة اللّه تعالى في قول رسول اللّه ﷺ أي الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربه ومليكه الذي بيده الملك والإحياء والإماتة وله الحكم . وقوله : ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ﴾ أخبرهم أنه رسول اللّه إليهم ، ثم أمرهم باتباعه والإيمان به ﴿ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ﴾ أي الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة ، فإنه منعوت بذلك في كتبهم ، ولهذا قال ﴿ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ﴾ وقوله : ﴿ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ أي يصدق قوله عمله وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ ﴾ أي اسلكوا طريقه واقتفوا أثره ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي إلى الصراط المستقيم .

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن بني إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلونه به كما قال تعالى : ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ .

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ .

تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة وهي مدنية وهذا السياق مكي ، ونبهنا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته هنا ، وللّه الحمد والمنة .

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٣٨) ومسلم في المساجد (٣) وأحمد في مسنده (٣/٣٠٤) والدارمي في سننه (٢/٢٢٤) .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٤٠) وأحمد في مسنده (٢/٢٢٢) .
(٣) أخرجه مسلم في المساجد (٣) وأحمد في مسنده (٣/٣٠٤) والدارمي في سننه (٢/٢٢٤) والبيهقي في السنن الكبرى (١/٢١٢) .

﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ .

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ الآية ، يقول تعالى لنبيّه صلوات اللّه وسلامه عليه ، ﴿ وَسْئَلْهُمْ ﴾ أي واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر اللّه ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة ، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم ، لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم ، وهذه القرية هي أيلة ، وهي على شاطئ بحر القلزم . قال ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ هي قرية يقال لها : أيلة بين مدين والطور .

وقوله : ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ أي يعتدون فيه ويخالفون أمر اللّه فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ﴾ قال ابن عبّاس : أي ظاهرة على الماء ، وقال ابن عبّاس : ظاهرة من كل مكان ، قال ابن جرير : وقوله : ﴿ وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم ﴾ أي نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده ، وإخفائها عنهم في اليوم الحلال لهم صيده ﴿ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم ﴾ نختبرهم ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ يقول بفسقهم عن طاعة اللّه وخروجهم عنها ، وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم اللّه بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام .

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق ، فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت ، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم ، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أي لم تنهون هؤلاء ، وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من اللّه ، فلا فائدة في نهيكم إياهم ، قالت لهم المنكرة : ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ قرأ بعضهم بالرفع كأنه على تقديره هذه معذرة ، وقرأ آخرون بالنصب أي نفعل ذلك ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ (١) أي فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ يقولون : ولعل لهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه ويرجعون إلى اللّه تائبين ، فإذا تابوا تاب اللّه عليهم ورحمهم . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ ﴾ أي فلما أبي الفاعلون قبول النصحية ﴿ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي ارتكبوا المعصية ﴿ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ ﴾ فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين ، وسكت عن الساكتين ؛ لأن الجزاء من جنس العمل فهم لا يستحقون مدحًا فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيمًا فيذموا ، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم هل كانوا من الهالكين أو من الناجين ، على قولين ، وقال ابن عبّاس : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ

(١) قرأ حفص (معذرة) بالنصب والباقون بالرفع (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١١٦) .

مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ ﴾ : هي قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة يقال لها : أيلة ، فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعًا في ساحل البحر ، فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها ، فمضى على ذلك ما شاء الله ، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم ، فنهتهم طائفة وقالوا : تأخذونها ، وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم ، فلم يزدادوا إلّا غيًّا وعتوًّا ، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم ، فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النهاة : تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ ﴾ وكانوا أشد غضبًا لله من الطائفة الأخرى ، فقالوا : ﴿ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ وكل قد كانوا ينهون ، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ ﴾ والذين قالوا : ﴿ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ ﴾ ، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة .

وعن عكرمة قال : جئت ابن عباس يومًا وهو يبكي ، وإذا المصحف في حجره ، فأعظمت أن أدنو منه ، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست ، فقلت : ما يبكيك يا ابن عبّاس جعلني الله فداك ؟ قال : فقال : هؤلاء الورقات ، قال : وإذا هو في سورة الأعراف ، قال : تعرف أيلة ؟ قلت : نعم ، قال : فإنه كان بها حي من اليهود سيقت الحيتان إليهم يوم السبت ، ثم غاصت لا يقدرون عليها حتى يغوصوا بعد كد ومؤنة شديدة ، كانت تأتيهم يوم سبتهم شرعًا بيضًا سمانًا كأنها الماخض تنتطح ظهورها لبطونها بأفنيتهم ، فكانوا كذلك برهة من الدهر ، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال : إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت ، فخذوها فيه وكلوها في غيره من الأيام ، فقالت ذلك طائفة منهم ، وقالت طائفة : بل نهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت ، فكانوا كذلك حتى جاءت الجمعة المقبلة فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها ، واعتزلت طائفة ذات اليمين وتنحت ، واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت ، وقال الأيمنون : ويلكم الله ، ننهاكم أن تتعرضوا لعقوبة الله ، وقال الأيسرون : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ ﴾ قال الأيمنون : ﴿ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ أي ينتهون ، إن ينتهوا فهو أحب إلينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا ، وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم ، فمضوا على الخطيئة ، وقال الأيمنون : فقد فعلتم يا أعداء الله ، والله لنأتينكم الليلة في مدينتكم ، والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب ، فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا فلم يجابوا ، فوضعوا سلمًا وأعلوا سور المدينة رجلًا ، فالتفت إليهم فقال : أي عباد الله قردة ، والله تعادي تعاوي لها أذناب ، قال : ففتحوا فدخلوا عليهم فعرفت القرود أنسابها من الإنس ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة ، فجعلت القرود يأتيها نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي ، فيقول : ألم ننهكم عن كذا ، فتقول برأسها : أي نعم ، ثم قرأ ابن عباس : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾ قال : فأرى الذين نهوا قد نجوا ولا أرى الآخرين ذكروا ، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها ، قال : قلت : جعلني الله فداك ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ ﴾ قال : فأمر لي فكسيت ثوبين غليظين ، وكذا روى مجاهد عنه .

وعن مالك قال : زعم ابن رومان أن قوله تعالى ﴿ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ قال : كانت تأتيهم يوم السبت فإذا كان المساء ذهبت فلا يرى منها شيء إلى يوم السبت الآخر ، فاتخذ لذلك رجل خيطًا ووتدًا ، فربط حوتًا منها في الماء يوم السبت حتى إذا أمسوا ليلة الأحد فاشتواه ، فوجد الناس ريحه فأتوه فسألوه عن ذلك فجحدهم ، فلم يزالوا به حتى قال لهم : فإنه جلد حوت وجدناه ، فلما كان السبت الآخر فعل مثل ذلك ، ولا أدري لعله قال : ربط حوتين ، فلما أمسى من ليلة الأحد أخذه فاشتواه ، فوجدوا رائحة ، فجاءوا فسألوه ، فقال لهم : لو شئتم صنعتم كما أصنع ، فقالوا له : وما صنعت ؟ فأخبرهم ، ففعلوا مثل ما فعل حتى كثر ذلك ، وكانت لهم مدينة لها ربض يغلقونها عليهم ، فأصابهم من المسخ ما أصابهم ، فغدوا عليهم جيرانهم ممن كانوا حولهم يطلبون منهم ما يطلب الناس ، فوجدوا المدينة مغلقة عليهم فنادوا فلم يجيبوهم ، فتسوروا عليهم فإذا هم قردة ، فجعل القرد يدنو يتمسح بمن كان يعرف قبل ذلك ويدنو منه ويتمسح به (١) .

القول الثاني : أن الساكتين كانوا من الهالكين ، فعن ابن عبّاس أنه قال : ابتدعوا السبت ، فابتلوا فيه فحرمت عليهم فيه الحيتان ، فكانوا إذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر ، فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تر حتى السبت المقبل ، فإذا جاء السبت جاءت شرعًا فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا كذلك ، ثم إن رجلًا منهم أخذ حوتًا فخرم أنفه ، ثم ضرب له وتدًا في الساحل وربطه وتركه في الماء ، فلما كان الغد أخذه فشواه فأكله ، ففعل ذلك وهم ينظرون ولا ينكرون ولا ينهاه منهم أحد إلّا عصبة منهم نهوه حتى ظهر ذلك في الأسواق ، ففعل علانية ، قال : فقالت طائفة للذين ينهونهم ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ فقالوا : نسخط أعمالهم ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ - إلى قوله - ﴿ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ قال ابن عبّاس : كانوا أثلاثًا ؛ ثلث نهوا ، وثلث قالوا : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ وثلث أصحاب الخطيئة ، فما نجا إلّا الذين نهوا وهلك سائرهم (٢) . وهذا إسناد جيد عن ابن عبّاس ، ولكن رجوعه إلى قول عكرمة في نجاة الساكتين أولى من القول بهذا ؛ لأنه تبين حالهم بعد ذلك ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا ، وبئيس فيه قراءات كثيرة ، ومعناه الشديد ، وفي رواية : أليم ، وأخرى : موجع ، والكل متقارب والله أعلم ، وقوله : ﴿ خَاسِئِينَ ﴾ أي ذليلين حقيرين مهانين .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

﴿ تَأَذَّنَ ﴾ تفعل من الأذان أي أعلم ، وقال غيره : وأمره ، وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة ، ولهذا أتبعت باللام في قوله : ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على اليهود ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ أي بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه ، واحتيالهم على

(١ ، ٢) ذكره الطبري في تفسيره ٩/١٢٩ ، ١٣٠ .

المحارم ، ويقال : إن موسى عليه السلام ضرب عليهم الخراج سبع سنين ، وقيل : ثلاث عشرة سنة ، وكان أول من ضرب الخراج ، ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشدانيين والكلدانيين ، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم وأخذهم منهم الجزية والخراج ، ثم جاء الإسلام ومحمّد ﷺ فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية . قال ابن عبّاس في تفسير هذه الآية : هي المسكنة وأخذ الجزية منهم ، وقال علي بن أبي طلحة عنه : هي الجزية ، والذي يسومهم سوء العذاب محمّد رسول الله ﷺ وأمته إلى يوم القيامة ، وعن سعيد بن المسيب ، قال : يستحب أن تبعث الأنباط في الجزية . قلت : ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصارًا للدجال ، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم عليه السلام ، وذلك آخر الزمان .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أي لمن عصاه وخالف شرعه ﴿ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي لمن تاب إليه وأناب ، وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة لئلا يحصل اليأس ، فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيرًا لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف .

﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ .

يذكر تعالى أنه فرقهم في الأرض أممًا أي طوائف ﴿ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أي فيهم الصالح وغير ذلك ، ﴿ وَبَلَوْنَـٰهُم ﴾ أي اختبرناهم ﴿ بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أي بالرخاء والشدة والرغبة والرهبة والعافية والبلاء ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ ﴾ الآية ، يقول تعالى : فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح خلف آخر لا خير فيهم ، وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة ، وقال مجاهد : هم النصارى وقد يكون أعم من ذلك ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ ﴾ أي يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا ، ويسوفون أنفسهم ويعدونها بالتوبة ، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه ، ولهذا قال : ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ﴾ وكما قال سعيد بن جبير : يعملون الذنب ثم يستغفرون الله منه ويعترفون لله ، فإن عرض ذلك الذنب أخذوه . وقال مجاهد في قوله تعالى ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ ﴾ قال : لا يشرف لهم شيء من الدنيا إلّا أخذوه حلالًا كان أو حرامًا ويتمنون المغفرة ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ﴾ وقال قتادة في الآية : إي والله لخلف سوء ﴿ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ بعد أنبيائهم ورسلهم أورثهم الله وعهد إليهم ، وقال تعالى في آية أخرى : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الآية . قال : ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ تمنوا على الله أماني وغرة يغترون بها ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ﴾ لا يشغلهم شيء عن شيء ولا ينهاهم شيء عن ذلك ، كلما هفا لهم شيء من الدنيا أكلوه لا يبالون حلالًا كان أو حرمًا .

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ الآية . يقول تعالى

منكرًا عليهم في صنيعهم هذا مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبينن الحق للناس ولا يكتمونه ، قال ابن عبّاس : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ قال : فيما يتمنون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يرغبهم في جزيل ثوابه ويحذرهم من وبيل عقابه ، أي وثوابي وما عندي خير لمن اتقى المحارم وترك هوى نفسه وأقبل على طاعة ربه ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يقول : أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندي عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير ؟ ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمّد ﷺ كما هو مكتوب فيه فقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي اعتصموا به واقتدوا بأوامره ، وتركوا زواجره ﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ .

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : قوله : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ ﴾ يقول : رفعناه وهو قوله : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ ﴾ . وقال ابن عباس : ثم سار بهم موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب ، وأمرهم بالذي أمر الله أن يبلغهم من الوظائف ، فثقلت عليهم وأبوا أن يقروا بها حتى نتق الله الجبل فوقهم ﴿ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ قال : رفعته الملائكة فوق رؤوسهم . وعن أبي بكر بن عبد الله قال : هذا كتاب أتقبلونه بما فيه فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم وما أمركم وما نهاكم ؟ قالوا : انشر علينا ما فيها ، فإن كانت فرائضها وحدودها يسيرة قبلناها ، قال : اقبلوها بما فيها ، قالوا : لا ، حتى نعلم ما فيها كيف حدودها وفرائضها ؟ فراجعوه مرارًا ، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع فارتفع في السماء ، حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء ، قال لهم موسى : ألا ترون ما يقول ربي عز وجل ؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلّا هو ، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ » - وفي رواية : « عَلَى هذِهِ المِلَّةِ - فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُولَدُ بَهِيمَةٌ جَمْعَاءَ ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ؟ » [١] وعن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ﷺ : « يَقُولُ اللهُ إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ » [٢] . وعن الأسود بن سريع من بني سعد قال : غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات ، قال : فتناول القوم الذرية بعدما قتلوا المقاتلة ، فبلغ ذلك رسول

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٥) ومسلم في القدر (٢٢ ، ٢٥) وأحمد في مسنده (٢/٢٣٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الجنة (٦٣) .

اللَّه ﷺ فاشتد عليه ، ثم قال : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَاوَلُونَ الذُّرِّيَّةَ ؟ » فقال رجل : يا رسول اللَّه أليسوا أبناء المشركين ؟ فقال : « إِنَّ خِيَارَكُمْ أَبْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ ، أَلا إِنَّهَا لَيْسَتْ نَسَمَةٌ تُولَدُ إِلَّا وُلِدَتْ عَلَى الفِطْرَةِ ، فَمَا تَزَالُ عَلَيْهَا حَتَّى يُبِينَ عَنْهَا لِسَانُهَا فَأَبَوَاهَا يُهَوِّدَانِهَا وَيُنَصِّرَانِهَا » قال الحسن : واللَّه لقد قال اللَّه في كتابه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ الآية [(١)] .

وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن اللَّه ربهم . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال : « يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ ؟ قَالَ : فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ : قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي » [(٢)] .

وعن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ أَخَذَ المِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ عليه السلام بِنُعْمَانَ يَوْمَ عَرَفَةَ ، فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا ، فَنَثَرَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قبلًا قَالَ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوٓا۟ ﴾ - إلى قوله - ﴿ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [(٣)] .

وعن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ الآية ، فقال عمر بن الخطاب : سمعت رسول اللَّه ﷺ سئل عنها فقال : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عليه السلام ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً ، قَالَ : خَلَقْتُ هَؤُلاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ يَعْمَلُونَ ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً ، قَالَ : خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ » فقال رجل : يا رسول اللَّه ففيم العمل ؟ قال رسول اللَّه ﷺ : « إِذَا خَلَقَ اللَّهُ العَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِأَعْمَالِ أَهْلِ الجَنَّةِ ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيُدْخِلَهُ بِهِ الجَنَّةَ ، وَإِذَا خَلَقَ العَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِأَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلَهُ النَّارَ » [(٤)] .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ : أَيْ رَبِّ مَنْ هَؤُلاءِ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، قَالَ : أَيْ رَبِّ مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ دَاوُدُ ، قَالَ : رَبِّ وَكَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ ؟ قَالَ : سِتِّينَ سَنَةً ، قَالَ : أَيْ رَبِّ قَدْ وَهَبْتُ لَهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَلَمَّا انْقَضَى عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ المَوْتِ ، قَالَ : أَوَ لَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً ؟ قَالَ : أَوَ لَمْ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٣/٤٣٥ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١٢٧) والهندي في كنز العمال (٢٨٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٧٢) والهندي في كنز العمال (١٥١٢٤) والسيوطي في الدر المنثور (٣/١٤٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٤) والترمذي في سننه (٣٠٧٥) وأبو داود في سننه (٤٦٩٣) .

تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ ؟ قَالَ : فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، وَنَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ » (١) .

فهذه الأحاديث دالة على أن الله ﷻ استخرج ذرية آدم من صلبه ، وميَّز بين أهل الجنّة وأهل النار ، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم ، فما هو إلّا في حديث ابن عباس ، وفي حديث عبد الله بن عمرو ، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد ، كما تقدم ، وقد فسر الحسن الآية بذلك . قالوا : ولهذا قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ ولم يقل من آدم ﴿ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ ولم يقل : من ظهره ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أي جعل نسلهم جيلًا بعد جيل ، وقرنًا بعد قرن ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ أي أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالًا وقالًا ، والشهادة تارة تكون بالقول كقوله : ﴿ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ﴾ الآية ، وتارة تكون حالًا كقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ أي حالهم شاهد عليهم بذلك ، لا أنهم قائلون ذلك ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ كما أن السؤال تارة يكون بالقال وتارة يكون بالحال ، كقوله : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ قالوا : ومما يدل على أن المراد بهذا هذا : أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك ، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال ، لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه ، فإن قيل : إخبار الرسول ﷺ به كاف في وجوده ، فالجواب ، إن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره ، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد ، ولهذا قال : ﴿ أَن تَقُولُوا۟ ﴾ أي لئلا تقولوا يوم القيامة : ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا ﴾ أي التوحيد ﴿ غَٰفِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا ﴾ الآية .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ .

قال عبد الله بن مسعود ؓ في قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ الآية ، هو رجل من بني إسرائيل يقال له : بلعم بن باعوراء ، وعن ابن عبّاس هو صيفي بن الراهب . قال قتادة ، وقال كعب : كان رجلًا من أهل البلقاء ، وكان يعلم الاسم الأكبر ، وكان مقيمًا ببيت المقدس مع الجبارين ، وقال ابن عبّاس ؓ : هو رجل من أهل اليمن يقال له بلعم آتاه آياته فتركها .

وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل ، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف ، قال ابن عبّاس : هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعام ، وكان يعلم اسم الله الأكبر ، وقال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم وغيره من علماء السلف : كان مجاب الدعوة ، ولا يسأل الله شيئًا إلّا أعطاه إيّاه ، وقال السدي : لما انقضت الأربعون سنة التي قال

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣٠٧٦) والحاكم في المستدرك (٣٢٥/٢) .

الله : ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ بعث يوشع بن نون نبيًا ، فدعا بني إسرائيل فأخبرهم أنه نبي ، وأن الله أمره أن يقاتل الجبارين ، فبايعوه وصدقوه وانطلق رجل من بني إسرائيل يقال له بلعام ، فكان عالمًا يعلم الاسم الأعظم المكتوم ، فكفر - لعنه الله - وأتى الجبارين ، وقال لهم : لا ترهبوا بني إسرائيل فإني إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون ، وكان عندهم فيما شاء من الدنيا غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النساء لعظمهم ، فكان ينكح أتانًا له ، وهو الذي قال الله تعالى : ﴿ فَانسَلَخَ مِنْهَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ أي استحوذ عليه وعلى أمره فمهما أمره امتثل وأطاعه ، ولهذا قال : ﴿ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ أي من الهالكين الحائرين البائرين .

عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : « إن مما أتخوف عليكم رجلًا قرأ القرآنَ حتى إذا رُئِيَتْ بهجتُهُ عليه وكان رِدَاءهُ الإسلامُ اعتراه إلى ما شاءَ الله ، انسلخَ منهُ ونبذهُ وراء ظهرِهِ وسعى على جارِهِ بالسيفِ ورماه بالشركِ »(١)

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾ أي لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها ﴿ وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ أي مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها ، وأقبل على لذاتها ونعيمها وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهى .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ اختلف المفسرون في معناه فعلى سياق ابن إسحاق عن سالم عن أبي النضر أن بلعامًا اندلع لسانه على صدره ، فتشبيهه بالكلب في لهيثه في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك ظاهر ، وقيل : معناه فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء ، كالكلب في لهيثه في حالتيه إن حملت عليه وإن تركته هو يلهث في الحالين ، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه ، كما قال تعالى : ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، وقيل : معناه أن قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف فارغ من الهدى ، فهو كثير الوجيب ، فعبر عن هذا بهذا ، نقل نحوه عن الحسن البصري وغيره .

وقوله تعالى : ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يقول تعالى لنبيه محمّد ﷺ : ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ ﴾ أي لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام وما جرى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه في تعليمه الاسم الأعظم ، الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب في غير طاعة ربه ، بل دعا به على حزب الرحمن وشعب الإيمان ، أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان ، كليم الله موسى بن عمران عليه السلام ، ولهذا قال : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي فيحذروا أن يكونوا مثله ، فإن الله قد أعطاهم علمًا وميزهم على من عداهم من الأعراب وجعل بأيديهم صفة محمّد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم ، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به ، ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد

(١) ذكره الطحاوي في مشكل الآثار (٣٧٤) .

أحل الله به ذلًّا في الدنيا موصولًا بذل الآخرة .

وقوله : ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ يقول تعالى : ساء مثلًا مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، أي ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التي لا همة لها إلَّا في تحصيل أكلة أو شهوة ، فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه واتبع هواه صار شبيهًا بالكلب ، وبئس المثل مثله ، ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « لَيْسَ مِنَّا مَثَلُ السَّوءِ ، العَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالكَلْبِ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ » (١) . وقوله : ﴿ وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ أي ما ظلمهم الله ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى ، وطاعة المولى ، إلى الركون إلى دار البلى ، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى .

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : من هداه الله فإنه لا مضل له ، ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة ، فإنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولهذا جاء في حديث ابن مسعود : « إِنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَهْدِيهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شرور أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ » (٢) .

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ ﴾ أي خلقنا وجعلنا لجهنم ﴿ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ أي هيأناهم لها وبعمل أهلها يعملون ، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق ، علم ما هم عاملون قبل كونهم ، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، كما ورد عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ » (٣) .

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : دعي النبيّ ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار ، فقلت : يا رسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه ، فقال رسول الله ﷺ : « أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ ؟ إِنَّ اللهَ خَلَقَ الجَنَّةَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا وَهُمْ فِي أَصْلاَبِ آبَائِهِمْ ، وَخَلَقَ النَّارَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا وَهُمْ فِي أَصْلاَبِ آبَائِهِمْ » (٤) وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود : « ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ المَلَكَ فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ ، وَأَجَلَهُ ، وَعَمَلَهُ ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ » (٥) .

---

(١) أخرجه البخاري في الهبة (٢١٢٦) ومسلم في الهبات (٨) والترمذي في سننه (١٢٩٨) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٢/١) والترمذي في سننه (١١٠٥) والنسائي في سننه (٣٢٧٧) .
(٣) أخرجه مسلم في القدر (١٦) وأحمد في مسنده (١٦٩/٢) .
(٤) أخرجه مسلم في القدر (٣١) .
(٥) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٤) ومسلم في القدر (١) وأحمد في مسنده (١٩٧/٥) .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ يعني ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سببًا للهداية كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ أي هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلَّا في الذي يعيشها من ظاهر الحياة الدنيا كقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ أي ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلَّا صوته ، ولا تفقه ما يقول . ولهذا قال في هؤلاء : ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ أي من الدواب ؛ لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أنس بها وإن لم يفقه كلامه ، بخلاف هؤلاء ، ولأنها تفعل ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها ، بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده فكفر بالله وأشرك به ؛ ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده ، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ .

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ للَّه تِسْعًا وَتِسْعِينَ اسْمًا ، مِائَةً إلَّا وَاحِدًا ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ ، وَهُوَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ » (١) وزاد الترمذي بعد قوله : « يُحِبُّ الوِتْرَ : هُوَ اللَّه الَّذِي لاَ إِلَه إِلَّا هُوَ ، الرَّحْمَنُ ، الرَّحِيمُ ، المَلِكُ ، القُدُّوسُ ، السَّلاَمُ ، المُؤْمِنُ ، المُهَيْمِنُ ، العَزِيزُ ، الجَبَّارُ ، المُتَكَبِّرُ ، الخَالِقُ ، البَارِئُ ، المُصَوِّرُ ، الغَفَّارُ ، القَهَّارُ ، الوَهَّابُ ، الرَّزَّاقُ ، الفَتَّاحُ ، العَلِيمُ ، القَابِضُ ، البَاسِطُ ، الرَّافِعُ ، المُعِزُّ ، المُذِلُّ ، السَّمِيعُ ، البَصِيرُ ، الحكَمُ ، العَدْلُ ، اللَّطِيفُ ، الخَبِيرُ ، الحَلِيمُ ، العَظِيمُ ، الغَفُورُ ، الشَّكُورُ ، الكَبِيرُ ، الحَفِيظُ ، المُقِيتُ ، الحَسِيبُ ، الجَلِيلُ ، الرَّقِيبُ ، المُجِيبُ ، الوَاسِعُ ، الحَكِيمُ ، الوَدُودُ ، المَجِيدُ ، البَاعِثُ ، الشَّهِيدُ ، الحَقُّ ، الوَكِيلُ ، القَوِيُّ ، المَتِينُ ، الوَلِيُّ ، الحَمِيدُ ، المُحْصِي ، المُبْدِئُ ، المُعِيدُ ، المُحْيِي ، المُمِيتُ ، الحَيُّ ، القَيُّومُ ، الوَاجِدُ ، المَاجِدُ ، الوَاحِدُ ، الأَحَدُ ، الفَرْدُ ، الصَّمَدُ ، القَادِرُ ، المُقْتَدِرُ ، المُقَدِّمُ ، المُؤَخِّرُ ، الأَوَّلُ ، الآخِرُ ، الظَّاهِرُ ، البَاطِنُ ، الوَالِي ، المُتَعَالِي ، البَرُّ ، التَّوَّابُ ، المُنْتَقِمُ ، العَفُوُّ ، الرَّؤُوفُ ، مَالِكُ المُلْكِ ، ذُو الجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ ، المُقْسِطُ ، الجَامِعُ ، الغَنِيُّ ، المُغْنِي ، المَانِعُ ، الضَّارُّ ، النَّافِعُ ، النُّورُ ، الهَادِي ، البَدِيعُ ، البَاقِي ، الوَارِثُ ، الرَّشِيدُ ، الصَّبُورُ » (٢) .

ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين ، بدليل ما روي عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلاَ حُزْنٌ فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمَتِكَ ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٤١٠) ومسلم في الذكر والدعاء (٦) والترمذي في سننه (٣٥٠٦) وأحمد في مسنده (٢/٢٥٨) .
(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٠٧) .

الغَيْبِ عِنْدِكَ ، أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ العظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي ، وَنُورَ صَدْرِي ، وَجَلاءَ حُزْنِي ، وَذَهَابَ هَمِّي ، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ حُزْنَهُ وَهَمَّهُ ، وَأَبْدَلَ مَكَانَهُ فَرَحًا » فقيل : يا رسول اللّه أفلا نتعلمها ؟ فقال : « بَلْ يَنْبَغِي لِكُلِّ مَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا » (١) .

وقال ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ قال : إلحاد الملحدين أن دعوا اللات في أسماء اللّه ، وقال مجاهد : اشتقوا اللات من اللّه ، والعزى من العزيز . وقال قتادة : يلحدون : يشركون في أسمائه . وقال ابن عبّاس : الإلحاد : التكذيب ، وأصل الإلحاد في كلام العرب ، العدول عن القصد ، والميل والجور والانحراف ، ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر .

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا ﴾ أي بعض الأمم ﴿ أُمَّةٌ ﴾ قائمة بالحق قولًا وعملًا ﴿ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾ يقولونه ويدعون إليه ﴿ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ يعملون ويقضون ، وقد جاء في الآثار أن المراد بهذه الأمة المذكورة في الآية هي هذه الأمة المحمدية . قال قتادة في تفسير هذه الآية : بلغني أن النبيّ ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية : « هَذِهِ لَكُمْ قَدْ أُعْطِيَ القَوْمُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ مِثْلَهَا ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ » (٢) وقال الربيع بن أنس ، في قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إِنَّ مِنْ أُمَّتِي قَوْمًا عَلَى الحَقِّ حَتَّى يَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَتَى مَا نَزَلَ » (٣) .

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ومعناه : أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه ، ويعتقدوا أنهم على شيء . قال تعالى : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ أي وسأملي لهم أي أطول لهم ما هم فيه ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أي قوي سديد .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿ مَا بِصَاحِبِهِم ﴾ يعني محمّدًا ﷺ ﴿ مِّن جِنَّةٍ ﴾ أي ليس به جنون ، بل هو رسول اللّه حقًّا دعا إلى حق ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر لمن كان له لب قلب يعقل به ويعي به كما قال تعالى : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ وقال قتادة بن دعامة : ذكر لنا أن نبي اللّه ﷺ كان على الصفا فدعا قريشًا فجعل يفخذهم فخذًا فخذًا يا بني فلان يا بني فلان ، فحذرهم بأس اللّه ووقائع اللّه ، فقال قائلهم : إن صاحبكم هذا لمجنون بات يصوت إلى الصباح أو حتى أصبح فأنزل اللّه تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩١/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٦/٧) .
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٤٩/٣) وابن الجوزي في زاد المسير (٢٩٤/٣) .
(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (١٧٠) وأحمد في مسنده (٢٨٨/٧) .

حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا في ملك الله وسلطانه في السموات والأرض وفيما خلق من شيء فيهما ، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه ، ومن فعل من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له ، فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله ، وينيبوا إلى طاعته ، ويخلعوا الأنداد والأوثان ، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم ، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه . وقوله : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ يقول : فبأي تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمّد ﷺ وترهيبه ، الذي أتاهم به من عند الله في آي كتابه يصدقون إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمّد من عند الله ﷻ ؟ وقد روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي كَذَا ، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَنَظَرْتُ فَوْقِي فَإِذَا أَنَا بِرَعْدٍ وَبَرْقٍ وَصَوَاعِقَ ، وَأَتَيْتُ عَلَى قَوْمٍ بُطُونُهُمْ كَالبُيُوتِ ، فِيهَا الحَيَّاتُ تُرَى مِنْ خَارِجِ بُطُونِهِم ، قُلْتُ : مَنْ هَؤُلاَءِ يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَؤُلاَءِ أَكَلَةُ الرِّبَا ، فَلَمَّا نَزَلْتُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَنَظَرْتُ إِلَى أَسْفَلَ مِنِّي فَإِذَا أَنَا بِرَهج وَدُخَانٍ وَأَصْوَاتٍ ، فَقُلْتُ : مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَؤُلاَءِ الشَّيَاطِينُ يَحُومُونَ عَلَى أَعْيُنِ بَنِي آدَمَ أَنْ لاَ يُفَكِّرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَلَوْلاَ ذَلِكَ لَرَأَوا العَجَائِبَ » [1] .

﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

يقول تعالى : من كتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد ، ولو نظر لنفسه فيما نظر فإنه لا يجزي عنه شيئًا ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾ قيل : نزلت في قريش ، وقيل : في نفر من اليهود ، والأول أشبه ؛ لأن الآية مكية ، وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعادًا لوقوعها ، وتكذيبًا بوجودها ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ وقوله : ﴿ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ قال ابن عبّاس : منتهاها أي متى محطها وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ أمر تعالى رسوله ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة أن يرد علمها إلى الله تعالى ، فإنه هو الذي يجليها لوقتها ، أي يعلم جلية أمرها ، ومتى يكون على التحديد ، لا يعلم ذلك إلّا هو تعالى ، ولهذا قال : ﴿ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قال قتادة : ثقل علمها على أهل السموات والأرض أنهم لا يعلمون ، قال الحسن : إذا جاءت ثقلت على أهل السموات والأرض ، يقول : كبرت عليهم ، وقال الضحاك عن ابن عبّاس : ليس شيء من الخلق إلّا يصيبه من ضرر يوم القيامة ، وقال ابن جريج : إذا جاء انشقت السماء وانتثرت النجوم ، وكورت الشمس ، وسيرت الجبال ، وكان ما

---

(١) أخرجه : أحمد في مسنده ٣٥٣/٢ ، والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٧/٤) .

قال الله ﷻ فذلك ثقلها ، واختار ابن جرير رحمه الله أن المراد ثقل علم وقتها على أهل السموات والأرض ، وقال قتادة ، في قوله تعالى : ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ : قضى الله أنها ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ قال : وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول : « إِنَّ السَّاعَةَ تَهِيجُ بِالنَّاسِ وَالرَّجُلُ يُصْلِحُ حَوْضَهُ ، وَالرَّجُلَ يَسْقِي مَاشِيَتَهُ ، وَالرَّجُلُ يُقِيمُ سِلْعَتَهُ فِي السُّوقِ وَيَخْفِضُ مِيزَانَهُ وَيَرْفَعُهُ » (١) وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ ، فَذَلِكَ حِينَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلاَنِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُما فَلاَ يَتَبَايَعَانِهِ وَلاَ يَطْوِيَانِهِ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لَقْحَتِهِ فَلاَ يَطْعَمُهُ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ فَلاَ يَسْقِي فِيهِ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَالرَّجُلُ قَدْ رَفَعَ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلاَ يَطْعَمُهَا » (٢) .

وقوله : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ اختلف المفسرون في معناه فقيل : معناه كما قال ابن عبّاس : كأن بينك وبينهم مودة ، كأنك صديق لهم ، قال ابن عبّاس : لما سأل الناس النبيّ ﷺ عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمّدًا حفي بهم ، فأوحى الله إليه إنما علمها عنده استأثر به فلم يطلع الله عليها ملكًا مقربًا ولا رسولًا ، وقال قتادة : قالت قريش لمحمّد ﷺ : إن بيننا وبينك قرابة فأسرّ إلينا متى الساعة فقال الله ﷻ : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ وقد روي من رواية ابن أبي نجيح وغيره ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ قال : استحفيت عنها السؤال حتى علمت وقتها ، كذا قال الضحاك عن ابن عبّاس : كأنك عالم بها لست تعلمها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ . وقال معمر عن بعضهم ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ كأنك عالم بها ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كأنك بها عالم ، وقد أخفى الله علمها على خلقه وقرأ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية ، ولهذا قال : ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولهذا لما جاء جبريل عليه السلام في صورة أعرابي ليعلم الناس أمر دينهم فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد وسأله ﷺ عن الإسلام ، ثم عن الإيمان ، ثم عن الإحسان ، ثم قال : فمتى الساعة ؟ قال له رسول الله ﷺ : « مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ » أي لست أعلم بها منك ، ولا أحد أعلم بها من أحد ، ثم قرأ النبيّ ﷺ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية ، وفي رواية فسأله عن أشراط الساعة فبيّن له أشراط الساعة ، ثم قال : « فِي خَمْسٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّه » وقرأ هذه الآية ، وفي هذا كله يقول له بعد كل جواب : صدقت ، ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدقه ، ثم لما انصرف قال رسول الله ﷺ : « هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ » وفي رواية قال : « وَمَا أَتَانِي فِي صُورَةٍ إِلَّا عَرَفْتُهُ فِيهَا إِلَّا صُورَتَهُ هَذِهِ » (٣) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة متى الساعة ، فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول : « إِنْ يَعِشْ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ حَتَّى قَامَتْ عَلَيْكُمْ

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٩/١٨٥) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٣٥) ومسلم في الإيمان (٢٤٨) وأبو داود سننه (٤٣١٢) وابن ماجه في سننه (٤٠٦٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠) ومسلم في الإيمان (٥) وأحمد في مسنده (٢/٤٢٦) .

سَاعَتُكُمْ » (١) يعني بذلك موتهم الذي يفضي بهم إلى الحصول في برزخ الدار الآخرة . وهذا الإطلاق في هذه الروايات محمول على التقييد بساعتكم في حديث عائشة رضي الله عنها ، وعن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر : « تَسْأَلُونِي عَنِ السَّاعَةِ وَإِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّه ، وَأُقْسِمُ باللَّه مَا عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ الْيَوْمَ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ تَأْتِي عَلَيْهَا مِائَةُ سَنَةٍ » (٢) .

وعن حذيفة قال : سئل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال : « عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي عز وجل لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، وَلَكِنْ سَأُخْبِرُكُمْ بِمَشَارِيطِهَا وَمَا يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهَا ، إِنَّ بَيْنَ يَدَيْهَا فِتْنَةً وَهَرجًا » قالوا : يا رسول الله الفتنة قد عرفناها فما الهرج ؟ قال : « بِلِسَانِ الحَبَشَةِ القَتْلُ » قال : « وَيُلْقَى بَيْنَ النَّاسِ التَّنَاكُرُ ، فَلاَ يَكَادُ أَحَدٌ يَعْرِفُ أَحَدًا » (٣) وفي الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد رضي الله عنهما : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ » وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها (٤) ، ومع هذا كله قد أمره الله أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه ، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلَّا بما أطلعه الله عليه ، كما قال تعالى : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ ﴾ قال مجاهد : لو كنت أعلم متى أموت لعملت عملًا صالحًا ، وقال مثله ابن جريج وفيه نظر ؛ لأن عمل رسول الله ﷺ كان ديمة ، وفي رواية : كان إذا عمل عملًا أثبته (٥) . فجميع عمله كان على منوال واحد كأنه ينظر إلى الله عز وجل في جميع أحواله ، اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك ، والله أعلم . والأحسن في هذا ما رواه ابن عبّاس ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ ﴾ أي من المال ، وفي رواية : لعلمت إذا اشتريت شيئًا ما أربح فيه ، فلا أبيع شيئًا إلَّا ربحت فيه ولا يصيبني الفقر ، وقال ابن جرير ، وقال آخرون : معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة ، ولوقت الغلاء من الرخص ، فاستعددت له من الرخص . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ قال : لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون واتقيته ، ثم أخبر أنه هو نذير وبشير ، أي نذير من العذاب ، وبشير للمؤمنين بالجنات .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن(١٣٦) وأحمد في مسنده(٣/٢١٣) والهندي في كنز العمال(٣٩٥٧٠) .

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة(٢١٨) وأحمد في مسنده(٣/٣٢٦) وذكره السيوطي في الدر المنثور(٣/١٥٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده(٥/٣٨٩) والهندي في كنز العمال(٣٨٥٤٤) والهيثمي في مجمع الزوائد(٧/٣٢٩) .

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق(٦٥٠٣) ومسلم في الفتن(١٣٥) وأحمد في مسنده(٣/١٢٤) والترمذي في سننه(٢٢١٤) .

(٥) أخرجه : مسلم في صلاة المسافرين(١٤١) .

فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام، وأنه خلق منه زوجته حواء ، ثم انتشر الناس منهما ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ ، وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ أي ليألفها ويسكن بها ، كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين ، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا ﴾ أي وطئها ﴿ حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا ﴾ وذلك أول الحمل لا تجد المرأة له ألمًا ، إنما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة وقوله : ﴿ فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾ قال مجاهد : استمرت بحمله ، وقال ميمون بن مهران عن أبيه : استخفته ، وقال أيوب : سألت الحسن عن قوله : ﴿ فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾ قال : لو كنت رجلًا عربيًا لعرفت ما هي ، إنما هي فاستمرت به ، وقال قتادة : استبان حملها ، وقال ابن جرير : معناه استمرت بالماء قامت به وقعدت ، وقال ابن عبّاس : استمرت به فشكت أحملت أم لا ﴿ فَلَمَّآ أَثْقَلَت ﴾ أي صارت ذات ثقل بحملها ، وقال السدي : كبر الولد في بطنها ﴿ دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا ﴾ أي بشرًا سويًا كما قال ابن عبّاس : أشفقا أن يكون بهيمة ، وكذلك قال أبو البختري وأبو مالك : أشفقا أن لا يكون إنسانًا ، وقال الحسن البصري : لئن آتيتنا غلامًا ﴿ لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ذكر المفسرون ههنا آثارًا وأحاديث منها :

عن سمرة عن النبيّ ﷺ قال : « لَمَّا وُلِدَتْ حَوَّاءُ طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ ، وَكَانَ لاَ يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ ، فَقَالَ : سَمِّيهِ عَبْدَ الحَارِثِ فَإِنَّهُ يَعِيشُ . فَسَمَّتْهُ عَبْدَ الحَارِثِ فَعَاشَ ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَأَمْرِهِ » (١) .

فأما الآثار : فعن ابن عبّاس قال : كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولادًا فيعبّدهم لله ، ويسميهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيبهم الموت ، فأتاهما إبليس فقال : إنكما لو سميتماه بغير الذي تسميانه به لعاش ، قال : فولدت له رجلًا فسماه عبد الحارث ، ففيه أنزل الله يقول : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ إلى قوله ﴿ جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾ إلى آخر الآية ، وقال ابن عبّاس : قوله في آدم ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ إلى قوله ﴿ فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾ شكت أحملت أم لا ؟ ﴿ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ فأتاهما الشيطان فقال : هل تدريان ما يولد لكما ؟ أم هل تدريان ما يكون أبهيمة أم لا ؟ وزين لهما الباطل إنه غوي مبين ، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا فقال لهما الشيطان : إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سويًّا ، ومات كما مات الأول ، فسميا ولدهما عبد الحارث ، فذلك قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾ الآية .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١/٥) والحكم في المستدرك ٥٤٥/٢ .

وهذا الأثر يظهر عليه والله أعلم أنه من آثار أهل الكتاب ، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الكِتَابِ فَلاَ تُصَدِّقُوهُم وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ » [١] ثم إخبارهم على ثلاثة أقسام : فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ، ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضًا ، ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون في روايته بقوله عليه الصلاة والسلام : «حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ » [٢] وهو الذي لا يصدق ولا يكذب لقوله «فَلاَ تُصَدِّقُوهُمْ وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ » وهذا الأثر هو من القسم الثاني أو الثالث فيه نظر ، فأما من به من صحابي أو تابعي فإنه يراه من القسم الثالث ، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ولهذا قال الله : ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ثم قال : فذكر آدم وحواء أولًا كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين ، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس كقوله : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ الآية ، ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء ليست هي التي يرمى بها ، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها ، ولهذا نظائر في القرآن والله أعلم .

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ .

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان وهي مخلوقة لله ، مربوبة مصنوعة لا تملك شيئًا من الأمر ، ولا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها ، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر ، وعابدوها أكمل منهم بسمعهم وبصرهم وبطشهم ، ولهذا قال : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أي أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئًا ولا يستطيع ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أي بل هم مخلوقون مصنوعون ، كما قال الخليل : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ الآية ، ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ أي لعابديهم ﴿ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ يعني ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء ، كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة كما أخبر تعالى عنه في قوله : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطبًا للأرامل ليعتبر قومهما بذلك ، ويرتئوا لأنفسهم ، فكان لعمرو بن الجموح

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٦/٤) والحاكم في المستدرك (٣٥٨/٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٩/٢) وأبو داود في سننه (٣٦٦٢) والترمذي في سننه (٢٦٦٩) .

وكان سيدًا في قومه صنم يعبده ويطيبه ، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعذرة ، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفًا ويقول له انتصر ، ثم يعودان لمثل ذلك ، ويعود إلى صنيعه أيضًا ، حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت ، ودلياه في حبل في بئر هناك ، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل وقال :

تَاللَّهِ لَوْ كُنْتَ إِلَهًا مُسْتَدن لَمْ تَكُ وَالكَلْبِ جَمِيعًا فِي قَرن

ثم أسلم فحسن إسلامه ، وقتل يوم أُحُد شهيدًا رضي الله وأرضاه .

وقوله : ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾ الآية ، يعني أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها ، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها ، كما قال إبراهيم : ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها ، أي مخلوقات مثلهم ، بل الإناس أكمل منها لأنها تسمع وتبصر وتبطش ، وتلك لا تفعل شيئًا من ذلك . وقوله : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ﴾ الآية ، أي استنصروا بها عليّ ، فلا تؤخروني طرفة عين ، واجهدوا جهدكم ﴿ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي الله حسبي وكافيني ، وهو نصيري وعليه متكلي ، وإليه ألجأ وهو وليي في الدنيا والآخرة ، وهو ولي كل صالح بعدي .

وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ إلى آخر الآية مؤكدًا لما تقدم إلّا أنه بصيغة الخطاب وذاك بصيغة الغيبة ، ولهذا قال : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ إنما قال : ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ أي يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهي جماد ، ولهذا عاملهم معاملة من يعقل ؛ لأنها على صور مصورة كالإنسان ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ فعبر عنها بضمير من يعقل ، وقال السدي : المراد بهذا المشركون ، وروي عن مجاهد نحوه ، والأول أولى وهو اختيار ابن جرير وقاله قتادة .

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

قال ابن عبّاس : قوله : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ يعني خذ ما عفا لك من أموالهم ، وما أتوك به من شيء فخذه ، وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها وما انتهت إليه الصدقات ، قاله السدي . وقال ابن عبّاس : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ أنفق الفضل ، وقال : الفضل ، وقال الفضل بن زيد بن أسلم : أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين ، ثم أمره بالغلظة عليهم ، واختار هذا القول ابن جرير ، وقال غير واحد عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ قال : من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس ، وقال عروة : أمر الله رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس ، وفي رواية قال : خذ ما عفا لك من أخلاقهم ، وعن عبد الله بن الزبير قال : إنما أنزل ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ من أخلاق الناس ، وعن أبي الزبير قال : من أخلاق الناس والله لآخذنه منهم ما صحبتهم ، وهذا أشهر الأقوال ويشهد له ما روي أبي قال : لما أنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ » ؟ قَالَ : إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك ،

وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك . وعن عقبة بن عامر ﷺ قال : لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته فأخذت بيده فقلت : يا رسول الله ، أخبرني بفواضل الأعمال فقال : «يَا عُقْبَةُ ، صِلْ مَنْ قَطَعَكَ ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ ، وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ »(١) .

قوله ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ العرف : المعروف . وعن ابن عبّاس ﷺ قال : قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر ، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولًا كانوا أو شبانًا ، فقال عيينة لابن أخيه : يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه ، قال : سأستأذن لك عليه . قال ابن عبّاس : استأذن الحر لعيينة فأذن له عمر فلما دخل عليه قال : هي يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل ! فغضب عمر حتى همّ أن يوقع به ، فقال له الحرّ : يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى قال لنبيه : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ وإن هذا من الجاهلين والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقافًا عند كتاب الله ﷻ(٢) .

وقال بعض العلماء : الناس رجلان ، فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه ، وإما مسيء فمره بالمعروف ، فإن تمادى على ضلاله واستعصى عليك واستمر في جهله فأعرض عنه ، فلعل ذلك أن يرد كيده كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أي هذه الوصية ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ وقال في هذه السورة الكريمة أيضًا : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فهذه الآيات الثلاث في الأعراف والمؤمنون وحم السجدة لا رابع لهن ، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف بالتي هي أحسن ، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى ؛ ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان ؛ فإنه لا يكفه عنك الإحسان ، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية ؛ فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك ، قال ابن جرير في تفسير قوله : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ ﴾ وإما يغضبنك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهل ويحملك على مجازاته ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ يقول فاستجر بالله من نزغه ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ سميع لجهل الجاهل عليك ، والاستعاذة به من نزغه ولغير ذلك من كلام خلقه ، لا يخفى عليه منه شيء ، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمر خلقه .

وقال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم : لما نزلت ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ قال : يا رب كيف بالغضب ؟ ، فأنزل الله ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ قلت : وقد تقدم في أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابّا بحضرة النبيّ ﷺ فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزع(٣) غضبًا ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٨/٤) .
(٢) يتمزع : أي ينقطع ويتشقق .
(٣) أخرجه : البخاري في تفسير القرآن (٤٦٤٢) .

يَجِدُ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » فقيل له ؟ فقال : ما بي من جنون (١) . وأصل النزغ الفساد إما بالغضب أو غيره ، قال الله تعالى : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ والعياذ الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر ، وأما الملاذ ففي طلب الخير .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر ، وتركوا ما عنه زجر أنهم ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ ﴾ أي أصابهم طيف ، وقرأ الآخرون ﴿ طائف ﴾ وقد جاء فيه حديث وهما قراءتان مشهورتان (٢) ، فقيل : بمعنى واحد ، وقيل : بينهما فرق ، ومنهم من فسر ذلك بالغضب ، ومنهم من فسّر مس الشيطان بالصرع ونحوه ، ومنهم من فسّره بالهمّ بالذنب ، ومنهم من فسّره بإصابة الذنب . وقوله : ﴿ تَذَكَّرُوا۟ ﴾ أي عقاب الله وجزيل ثوابه ووعده ووعيده ، فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ أي قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه . عن أبي هريرة ﷺ قال : جاءت امرأة إلى النبيّ ﷺ وبها طيف ، فقالت : يا رسول الله ادع الله أن يشفيني فقال : « إِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّه فَشَفَاكِ ، وَإِنْ شِئْتِ فَاصْبِرِي وَلاَ حِسَابَ عَلَيْكِ » فقالت : بل أصبر ولا حساب عليّ . ورواه غير واحد من أهل السنن وعندهم قالت : يا رسول الله إني أصرع وأتكشف فادع الله أن يشفيني ، فقال : « إِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّه أَنْ يَشْفِيَكِ ، وَإِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ » فقالت : بل أصبر ولي الجنة ، ولكن ادع الله أن لا أتكشف ، فدعا لها ، فكانت لا تتكشف (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ ﴾ أي وإخوان الشياطين من الإنس كقوله : ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴾ وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم ﴿ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ﴾ أي تساعدهم الشياطين على المعاصي وتسهلها عليهم وتحسنها لهم ، وقال ابن كثير : المدّ الزيادة ، يعني يزيدونهم في الغي ، يعني الجهل والسفه ﴿ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ قيل : معناه إن الشياطين تمد الإنس لا تقصر في أعمالهم بذلك ، كما قال ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ الآية ، قال : لا الإنس يقصرون عما يعملون ، ولا الشياطين تمسك عنهم . وقال : هم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس ثم لا يقصرون ، يقول : لا يسأمون ، وكذا قال السدي وغيره : إنّ الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس ولا تسأم من إمدادهم في الشر ؛ لأن ذلك طبيعة لهم وسجية ﴿ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ لا تفتر فيه ولا تبطل عنه كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ قال ابن عبّاس وغيره : تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا .

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٧٨٠) والحاكم في المستدرك (٤٤١/٢) والطبراني في الكبير (١١٦/٧) .

(٢) قرأ البصريان وابن كثير والكسائي (طيف) بياء ساكنة من غير ألف والباقون بألف : (النشر في القراءات العشر ص ١١٧) .

(٣) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٥٢) ومسلم في البر والصلة (٥٤) وأحمد في مسنده (٣٤٧/١) .

قال ابن عبّاس : في قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ ﴾ يقول : لولا تلقيتها ، وقال مرة أخرى : لولا أحدثتها فأنشأتها ، وقال مجاهد : لولا اقتضيتها ، قالوا : تخرجها عن نفسك ، وكذا قال قتادة والسدي ، واختاره ابن جرير وقال ابن عبّاس : ﴿ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ ﴾ يقول : تلقيتها من اللّه تعالى ، وقال الضحاك : لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ ﴾ أي معجزة وخارق : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ ﴾ أي أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء وإنما أتبع ما أمرني به فأمتثل ما يوحيه إليّ ، فإن بعث آية قبلتها ، وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها إلّا أن يأذن لي في ذلك ، فإنه حكيم عليم ، ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبينات فقال : ﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة ، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظامًا له واحترامًا ، لا كما كان يعتمده كفار قريش المشركون في قولهم : ﴿ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ ﴾ الآية ، ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة ، كما روي من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ ، فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا ، وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا »[(١)] ، وعن أبي هريرة قال : كانوا يتكلمون في الصلاة فلما نزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ ﴾ والآية الأخرى أمروا بالإنصات ، وعن المسيب بن رافع قال ابن مسعود : كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة فجاء القرآن : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ وعن بشير بن جابر قال : صلى ابن مسعود فسمع ناسًا يقرأون مع الإمام ، فلما انصرف قال : أما آن لكم أن تفهموا أما آن لكم أن تعقلوا ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ ﴾ كما أمركم اللّه ؟[(٢)] وقد روي عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال : « هَلْ قَرَأَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مَعِي آنِفًا ؟ » قال رجل : نعم يا رسول اللّه ، قال : « إِنِّي أَقُولُ مَا لِي أُنَازَعُ القُرْآنَ » قال : فانتهى الناس عن القراءة مع رسول اللّه ﷺ فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول اللّه ﷺ[(٣)] . وقال الزهري : لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام ، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يسمعهم صوته ، ولكنهم يقرأون فيما لا يجهر به سرًا في أنفسهم ، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سرًا ولا علانية ، فإن اللّه تعالى قال : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

قلت : هذا مذهب طائفة من العلماء أن المأموم لا يجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام لا الفاتحة ولا غيرها ، وهو أحد قولي الشافعية وهو القديم كمذهب مالك ورواية عن أحمد بن حنبل لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة . وقال في الجديد : يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام ، وهو قول

(١) أخرجه البخاري في الصلاة(٣٧٨) ومسلم في الصلاة(٨٢) وأحمد في مسنده(٥١/٦) وأبو داود في سننه(٦٠٥) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره ٢١٦/٩ ، والسيوطي في الدر المنثور ٦٣٥/٣ .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده(٤٨٧/٢) وأبو داود في سننه(٨٢٦) والترمذي في سننه(٣١٢) .

طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل : لا يجب على المأموم قراءة أصلًا في السرية ولا الجهرية بما ورد في الحديث : « مَنْ كَانَ لَهُ إِمَامٌ فَقِرَاءَتُهُ قِرَاءَةٌ لَهُ » (١) . وقال ابن عبّاس قوله : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾ يعني في الصلاة المفروضة ، وعن طلحة ابن عبيد اللَّه بن كريز قال : رأيت عبيد بن عمير وعطاء بن أبي رباح يتحدثان والقاصّ يقصّ ، فقلت : ألا تستمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعود ؟ قال : فنظرا إليّ ثم أقبلا على حديثهما ، قال : فأعدت فنظرا إليّ وأقبلا على حديثهما ، قال : فأعدت الثالثة قال : فنظرا إليّ فقالا : إنما ذلك في الصلاة ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾ . وعن مجاهد قال : في الصلاة ، وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال : « مَنِ اسْتَمَعَ إِلَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّه ؛ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ مُضَاعَفَةٌ ، وَمَنْ تَلاَهَا ؛ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٢) .

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ .

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيرًا ، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء وهذه الآية مكية ، وقال : ههنا بالغدو وهو أول النهار ، والآصال جمع أصيل كما أن الأيمان جمع يمين ، وأما قوله : ﴿ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ أي اذكر ربك في نفسك رغبة ورهبة وبالقول لا جهرًا ولهذا قال : ﴿ وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداء وجهرًا بليغًا ، ولهذا لما سألوا رسول اللَّه ﷺ فقالوا : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل اللَّه ﷻ ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ .

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار فقال لهم النبيّ ﷺ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا ، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ » (٣) وقد يكون المراد من هذه الآية كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبّوه وسبّوا من أنزله وسبّوا من جاء به ، فأمره اللَّه تعالى أن لا يجهر به لئلا ينال منه المشركون ، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعهم ، وليتخذ سبيلًا بين الجهر والإسرار ، وكذا قال في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ وقد زعم ابن جرير وقبله عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بها ، أمر السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة وهذا بعيد منافٍ للإنصات المأمور به ، ثم إن المراد بذلك في الصلاة كما تقدم ، أو في الصلاة والخطبة ، ومعلوم أن للإنصات إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان ، سواء كان سرًّا أو جهرًا ، فهذا الذي قالاه لم يتابعا عليه ، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال ؛ لئلا يكونوا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣٣٩) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٤١) .
(٣) أخرجه البخاري في القدر (٦٦١٠) ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة (٤٤) وأبو داود في سننه (١٥٢٨) .

من الغافلين ، ولهذا مدح الملائكة الذين يسبّحون الليل والنهار لا يفترون فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ الآية ، وإنما ذكرهم بهذا ليقتدى بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم ، ولهذا شرع لنا السجود ههنا لما ذكر سجودهم لله ﷻ كما جاء في الحديث : «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ المَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ ، الأَوَّلَ فَالأَوَّلَ ، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ » [1] وهذا أول سجدة في القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع .

(١)أخرجه مسلم في الصلاة (١١٩)وأحمد في مسنده (١٠١/٥)وابن ماجه في سننه (٩٩٢).

سورة الأنفال

وهي مدنية ، آياتها سبعون وست آيات ، كلماتها ألف كلمة وستمائة كلمة وإحدى وثلاثون كلمة ، حروفها خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفًا ، والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

قال البخاري : قال ابن عبّاس : الأنفال المغانم [١] . وعن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عبّاس رضي الله عنهما : سورة الأنفال ، قال : نزلت في بدر [٢] . وعن ابن عبّاس أيضًا أنه قال : الأنفال الغنائم ، كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء .

وقال ابن عبّاس : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا سئل عن شيء قال : لا آمرك ولا أنهاك ، ثم قال ابن عبّاس : والله ما بعث الله نبيه ﷺ إلّا زاجرًا آمرًا ، محللًا محرمًا . قال القاسم : فسلط على ابن عبّاس رجل فسأله عن الأنفال فقال ابن عبّاس : كان الرجل ينفل فرس الرجل وسلاحه ، فأعاد عليه الرجل فقال له مثل ذلك ، ثم عاد عليه حتى أغضبه ، فقال ابن عبّاس : أتدرون ما مثل هذا ؟ مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب حتى سالت الدماء على عقبيه أو على رجليه ، فقال الرجل : أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك .

وقال مجاهد : إنهم سألوا رسول الله ﷺ عن الخمس بعد الأربعة من الأخماس فنزلت : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ وقال ابن مسعود ومسروق : لا نفل يوم الزحف ، إنما النفل قبل التقاء الصفوف ، وقال ابن المبارك وغير واحد : يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال من دابة أو عبد أو أمة أو متاع ، فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء ، وهذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالفيء ، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال . قال ابن جرير : وقال آخرون : هي أنفال السرايا ، وعن علي بن صالح بن حي قال : بلغني في قوله تعالى : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ قال : السرايا ، ومعنى هذا ما ينفله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش . وهو ما روي عن سعد بن أبي وقاص قال : لما كان يوم بدر وقتل أخي عمير ، قتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه ، وكان يسمى ذا الكتيفة ، فأتيت به النبيّ ﷺ فقال : « اذْهَبْ فَاطْرَحْهُ فِي الْقَبْضِ » قال : فرجعت وبي ما لا يعلمه إلّا الله من قتل أخي وأخذ سلبي ، قال : فما جاوزت إلّا يسيرًا حتى نزلت سورة الأنفال فقال لي رسول الله ﷺ : « اذْهَبْ فَخُذْ سَلَبَكَ » [٣] .

وعن سعد بن مالك قال : قلت : يا رسول الله قد شفاني الله اليوم من المشركين فهب لي هذا السيف ، فقال : « إِنَّ هَذَا السَّيْفَ لاَ لَكَ وَلاَ لِي ، ضَعْهُ » قال : فوضعته ثم رجعت فقلت : عسى أن يعطي هذا السيف من لا يبلي بلائي ، قال : فإذا رجل يدعوني من ورائي ، قال : قلت : قد أنزل الله

---

(١) أخرجه : البخاري في التفسير (سورة الأنفال باب ١) .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٤٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٠/١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٥٨/٣) .

فيّ شيئًا ؟ قال : كنت سألتني السيف وليس هو لي ، وإنه قد وهب لي فهو لك ، قال : وأنزل الله هذه الآية ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ (١) . وعن سعد قال : نزلت فيّ أربع آيات ، أصبت سيفًا يوم بدر فأتيت النبيّ ﷺ فقلت : نفلنيه ، فقال : « ضَعْهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ » مرتين ، ثم عاودته فقال النبيّ ﷺ : « ضَعْهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ » فنزلت هذه الآية (٢) ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ الآية ، وتمام الحديث في نزول ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ ﴾ وآية الوصية .

سبب آخر في نزول الآية : عن أبي أمامة قال : سألت عبادة عن الأنفال فقال : فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا ، فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء ، يقول : عن سواء (٣) . وعن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرًا فالتقى الناس ، فهزم الله تعالى العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون ، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم بأحق منه منا ، نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم ، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به فنزلت : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين ، وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدو نفل الربع ، فإذا أقبل راجعًا نفل الثلث ، وكان يكره الأنفال (٤) . وعن ابن عبّاس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ : « مَنْ صَنَعَ كَذَا وَكَذَا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا » فسارع في ذلك شبان القوم وبقي الشيوخ تحت الرايات ، فلما كانت المغانم جاءوا يطلبون الذي جعل لهم ، فقال الشيوخ : لا تستأثروا علينا فإنا كنا ردءًا لكم لو انكشفتم لفئتم إلينا ، فتنازعوا فأنزل الله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٥) .

وقال الإمام أبو عبيد الله القاسم بن سلام رحمه الله : في كتاب الأموال الشرعية وبيان جهاتها ومصارفها . أما الأنفال : فهي المغانم وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب ، فكانت الأنفال الأولى لرسول الله ﷺ ، يقول الله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ فقسمها يوم بدر على ما أراه الله من غير أن يخمسها على ما ذكرناه في حديث سعد ، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس فنسخت الأولى ، قلت : هكذا روى علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس سواء ، وبه قال مجاهد وعكرمه والسدي . وقال ابن زيد : ليست منسوخة بل هي محكمة ، قال أبو عبيد : وفي ذلك آثار ، وأنفال أصلها جماع الغنائم إلّا أن الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب وجرت به السنّة ، ومعنى الأنفال في كلام العرب : كل إحسان فعله فاعل تفضلًا من غير أن يجب

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٨/١) وأبو داود في سننه (٢٧٤٠) والحاكم في المستدرك (١٣٢/٢) .
(٢) أخرجه مسلم في الجهاد (٣٤) وأحمد في مسنده (١٨٦/١) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٩١/٦) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٢/٥) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٤/٥) .
(٥) أخرجه أبو داود في سننه (٢٧٣٧) .

ذلك عليه ، فذلك النفل الذي أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم ، وإنما هو شيء خصهم الله به تطوّلًا منه عليهم ، بعد أن كانت الغنائم محرمة على الأمم قبلهم فنفلها الله تعالى هذه الأمة ، فهذا أصل النفل . قلت : شاهد هذا ما روي عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي » فذكر الحديث إلى أن قال : « وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي » (١) ، ثم قال أبو عبيد : ولهذا سمي ما جعل الإمام للمقاتلة نفلًا ، وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم ، يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الإسلام والنكاية في العدو ، وفي النفل الذي ينفله الإمام سنن أربع لكل واحدة منهن موضع غير موضع الأخرى :

فإحداهن : في النفل لا خمس فيه وذلك السلب .

والثانية : النفل الذي يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس ، وهو أن يوجه الإمام السرايا في أرض الحرب فتأتي الغنائم فيكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث بعد الخمس .

والثالثة : في النفل من الخمس نفسه ، وهو أن تحاز الغنيمة كلها ثم تخمس ، فإذا صار الخمس في يدي الإمام نفل منه على قدر ما يرى .

والرابعة : في النفل في جملة الغنيمة قبل أن يخمس منها شيء ، وهو أن يعطى الأدلاء ورعاة الماشية والسواق لها . وفي كل ذلك اختلاف .

قال الربيع : قال الشافعي : الأنفال أن لا يخرج من رأس الغنيمة قبل الخمس شيء غير السلب . قال أبو عبيد : والوجه الثاني من النفل هو شيء زيدوه غير الذي كان لهم ، وذلك من خمس النبيّ ﷺ ، فإن له خمس الخمس من كل غنيمة ، فينبغي للإمام أن يجتهد ، فإذا كثر العدو واشتدت شوكتهم وقل من بإزائه من المسلمين ، نفل منه اتباعًا لسنة رسول الله ﷺ ، وإذا لم يكن ذلك لم ينفل ، والوجه الثالث من النفل إذا بعث الإمام سرية أو جيشًا فقال لهم قبل اللقاء : من غنم شيئًا فهو له بعد الخمس ، فهو لهم على ما شرط الإمام ؛ لأنهم على ذلك غزوا وبه رضوا ، انتهى كلامه (٢) . وفيما تقدم من كلامه وهو قوله : إن غنائم بدر لم تخمس نظر ، ويرد عليه حديث علي بن أبي طالب في شارفيه اللذين حصلا له من الخمس يوم بدر .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أي ، اتقوا الله في أموركم وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا ، فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي في قسمه بينكم على ما أراده الله ، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف . ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أي لا تستبو ؛ ولنذكر ههنا حديثًا عن أنس ﷺ قال : بينا رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه ، فقال عمر : ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي ؟ فقال : « رَجُلَانِ مِنْ أُمَّتِي جَثَيَا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ العِزَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَقَالَ أَحَدُهُمَا : يَا رَبِّ خُذْ لِي مَظْلَمَتِي مِنْ أَخِي ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : أَعْطِ أَخَاكَ مَظْلَمَتَهُ ،

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٣٨) ومسلم في المساجد (٣) وأحمد في مسنده (٣٠٤/٣) .
(٢) الأموال ص ٣١٩ - ٣٣٩ .

قَالَ : يَا رَبِّ لَمْ يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِي شَيْءٌ ، قَالَ : رَبِّ فَلْيَحْمِلْ عَنِّي مِنْ أَوْزَارِي » قال : ففاضت عينا رسول اللّه ﷺ بالبكاء ثم قال : « إِنَّ ذَلِكَ لَيَوْمٌ عَظِيمٌ يَوْمَ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى مَنْ يَتَحَمَّلُ عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ ، فَقَالَ اللّهُ تَعَالَى لِلطَّالِبِ : ارْفَعْ بَصَرَكَ وَانْظُرْ فِي الجِنَانِ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ : يَا رَبِّ أَرَى مَدَائِنَ مِنْ فِضَّةٍ وَقُصُورًا مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةً بِاللُّؤْلُؤِ ، لِأَيِّ نَبِيٍّ هَذَا ؟ لِأَيِّ صِدِّيقٍ هَذَا ؟ لِأَيِّ شَهِيدٍ هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا لِمَنْ أَعْطَى ثَمَنَهُ ، قَالَ : رَبِّ وَمَنْ يَمْلِكُ ثَمَنَهُ ؟ قَالَ : أَنْتَ تَمْلِكُهُ ، قَالَ : مَاذَا يَا رَبِّ ؟ قَالَ : تَعْفُو عَنْ أَخِيكَ ، قَالَ : يَا رَبِّ فَإِنِّي قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ ، قَالَ اللّهُ تَعَالَى : خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَادْخُلَا الجَنَّةَ » ثم قال رسول اللّه ﷺ : « فَاتَّقُوا اللّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، فَإِنَّ اللّهَ تَعَالَى يُصْلِحُ بَيْنَ المُؤْمِنِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ » (١) .

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ .

قال ابن عبّاس في قوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قال : المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر اللّه عن أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشيء من آيات اللّه ، ولا يتوكلون ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر اللّه تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف اللّه المؤمنين فقال : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فأدوا فرائضه ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ يقول : زادتهم تصديقًا ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ يقول : لا يرجون غيره . وقال مجاهد : ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فرقت أي فزعت وخافت .

وقوله : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ كقوله : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب ، كما هو مذهب جمهور الأمة ، بل قد حكى الإجماع عليه غير واحد من الأئمة كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد ، كما بيّنّا ذلك مستقصى في أول شرح البخاري وللّه الحمد والمنة . ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي لا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلّا إياه ، ولا يلوذون إلّا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلّا منه ، ولا يرغبون إلّا إليه ، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك ، وحده لا شريك له ، ولا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب . ولهذا قال سعيد بن جبير : التوكل على اللّه جماع الإيمان .

وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ينبّه تعالى بذلك على أعمالهم بعدما ذكر اعتقادهم ، وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها ، وهو إقامة الصلاة وهو حق اللّه تعالى ، وقال قتادة : إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها ، وقال مقاتل بن حيان : إقامتها المحافظة على مواقيتها ، وإسباغ الطهور فيها ، وتمام ركوعها وسجودها ، وتلاوة القرآن فيها ،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٧٦/٤) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٠٩/٣) .

والتشهد والصلاة على النبي ﷺ، هذا إقامتها . والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب . والخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه . قال قتادة في قوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ : فأنفقوا مما رزقكم الله فإنما هذه الأموال عواري وودائع عندك يا ابن آدم أوشكت أن تفارقها .

وقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أي المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان ، وعن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر برسول الله ﷺ فقال له : « كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثُ ؟ » قال : أصبحت مؤمنًا حقًّا ، قال : « انْظُرْ مَا تَقُولُ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ ؟ » فقال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها ، فقال : « يَا حَارِثُ عَرَفْتَ فَالْزَمْ » ثلاثًا [(١)] . وقال عمرو بن مروة : في قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ إنما أنزل القرآن بلسان العرب ، كقولك : فلان سيد حقًّا وفي القوم سادة ، وفلان تاجر حقًّا .

وقوله : ﴿ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي منازل ومقامات ودرجات في الجنّات كما قال تعالى : ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ أي يغفر لهم السيئات ويشكر لهم الحسنات . وقال الضحاك في قوله : ﴿ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ : أهل الجنة بعضهم فوق بعض فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه ، ولا يرى الذي هو أسفل منه أنه فضل عليه أحد ، ولهذا جاء أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ أَهْلَ عِلِّيِّينَ لَيَرَاهُمْ مَنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَابِرَ فِي أُفُقٍ مِنْ آفَاقِ السَّمَاءِ » قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم ؟ . فقال : « بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ » [(٢)] وفي الحديث الآخر عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَابِرَ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنْهُمْ وَأَنْعَمَا » [(٣)] .

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ﴾ .

قال الإمام أبو جعفر الطبري : اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه الكاف في قوله : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ فقال بعضهم : شبه به في الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم ربهم وإصلاحهم ذات بينهم وطاعتهم لله ورسوله ، ثم روي عن عكرمه نحو هذا ، ومعنى هذا أن الله تعالى يقول : كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها ، فانتزعها الله منكم ، وجعلها إلى قسمه وقسم رسوله ﷺ ، فقسمها على العدل والتسوية ، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم ، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة ، وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم وإحراز غيرهم ، فكان عاقبة

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣٠٢/٣) وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦٣/٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٦) ومسلم في الجنة (١١) .

كراهتكم للقتال بأن قدره لكم وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد رشدًا وهدى ، ونصرًا وفتحًا . قال ابن جرير ، وقال آخرون : معنى ذلك ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ على كره من فريق من المؤمنين ، كذلك هم كارهون للقتال ، فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم . ثم روي عن مجاهد نحوه أنه قال : ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ قال : كذلك يجادلونك في الحق ، وقال السدي : أنزل الله في خروجه إلى بدر ومجادلتهم إياه فقال : ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾ لطلب المشركين ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ ﴾ وقال بعضهم : يسألونك عن الأنفال مجادلة كما جادلوك يوم بدر فقالوا : أخرجتنا للعير ولم تعلمنا قتالًا فنستعد له .

قلت : رسول الله ﷺ إنما خرج من المدينة طالبًا لعير أبي سفيان التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام فيها أموال جزيلة لقريش ، فاستنهض رسول الله ﷺ المسلمين من خف منهم ، فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا ، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر ، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في طلبه فبعث ضمضم بن عمرو نذيرًا إلى أهل مكة فنهضوا في قريب من ألف مقنع ، ما بين التسعمائة إلى الألف ، وتيامن أبو سفيان بالعير إلى سيف البحر فنجا ، وجاء النفير فوردوا ماء بدر ، وجمع الله بين المسلمين والكافرين على غير ميعاد لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم ، والتفرقة بين الحق والباطل كما سيأتي بيانه ، والغرض أن رسول الله ﷺ لما بلغه خروج النفير أوحى الله إليه يعده إحدى الطائفتين إما العير وإما النفير ، ورغب كثير من المسلمين إلى العير ؛ لأنه كسب بلا قتال كما قال تعالى : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ وعن أسلم أبي عمران أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول : قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة : « إِنِّي أُخْبِرْتُ عَنْ عِيرِ أَبِي سُفْيَانَ أَنَّهَا مُقْبِلَةٌ ، فَهَلْ لَكُمْ أَنْ نَخْرُجَ قِبَلَ هَذِهِ العِيرِ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُغْنِمَنَاهَا ؟ » فقلنا : نعم ، فخرج وخرجنا ، فلما سرنا يومًا أو يومين قال لنا : « مَا تَرَوْنَ فِي قِتَالِ القَوْمِ فَإِنَّهُم قَدْ أُخْبِرُوا بِخُرُوجِكُمْ ؟ » فقلنا : لا والله ما لنا طاقة بقتال العدو ، ولكنا أردنا العير ، ثم قال : « مَا تَرَوْنَ فِي قِتَالِ القَوْمِ ؟ » فقلنا : مثل ذلك ، فقال المقداد بن عمرو : إذًا لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى ﴿ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ قال : فتمنينا معشر الأنصار أن لو قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم ، قال : فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾ [1] وذكر تمام الحديث .

وقال ابن عبّاس : لما شاور النبيّ ﷺ في لقاء العدو ، وقال له سعد بن عبادة ما قال وذلك يوم بدر ، أمر الناس أن يتهيأوا للقتال ، وأمرهم بالشوكة ، فكره ذلك أهل الإيمان فأنزل الله ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾ وقال مجاهد : ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ ﴾ في القتال ، وقال محمّد بن إسحاق : ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ ﴾ أي كراهية للقاء المشركين ، وإنكارًا لمسير قريش حين ذكروا لهم ، وقال

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٩/١)

السدي : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ ﴾ أي بعدما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك اللَّه به . قال ابن جرير : وقال آخرون : عني بذلك المشركين ، قال ابن زيد : في قوله تعالى : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ قال : هؤلاء المشركون جادلوه في الحق كأنما يساقون إلى الموت حين يدعون إلى الإسلام وهم ينظرون . قال : وليس هذا من صفة الآخرين ، هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر . ثم قال ابن جرير : ولا معنى لما قاله ؛ لأن الذي قبل قوله : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ ﴾ خبر عن أهل الإيمان ، والذي يتلوه خبر عنهم . والصواب قول ابن عبّاس وابن إسحاق أنه خبر عن المؤمنين وهذا الذي نصره ابن جرير هو الحق ، وهو الذي يدل عليه سياق الكلام ؛ واللَّه أعلم . عن ابن عبّاس قال : قيل لرسول اللَّه ﷺ حين فرغ من بدر : عليك بالعير ليس دونها شيء ، فناداه العباس بن عبد المطلب وهو أسير في وثاقه : إنه لا يصلح لك ، قال : « ولم ؟ » قال : لأن اللَّه ﷻ إنما وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك اللَّه ما وعدك (١) .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ أي يحبون أن الطائفة التي لا حد لها ولا منعة ولا قتال تكون لهم وهي العير ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ أي هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ليظفركم بهم وينصركم عليهم ، ويظهر دينه ويرفع كلمة الإسلام ويجعله غالبًا على الأديان ، وهو أعلم بعواقب الأمور ، وهو الذي يدبركم بحسن تدبيره ، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم .

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال : لما كان يوم بدر نظر النبيّ ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف ، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل النبيّ ﷺ القبلة وعليه رداؤه وإزاره ، ثم قال : « اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ فَلاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ أَبَدًا » قال : فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه ثم التزمه من ورائه ثم قال : يا نبي اللَّه كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل اللَّه ﷻ : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ فلما كان يومئذ التقوا ، فهزم اللَّه المشركين فقتل منهم سبعون رجلًا وأسر منهم سبعون رجلًا ، واستشار رسول اللَّه ﷺ أبا بكر وعمر وعليًا فقال أبو بكر : يا رسول اللَّه ، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم اللَّه فيكونوا لنا عضدًا . فقال رسول اللَّه ﷺ : « مَا تَرَى يَا ابْنَ الخَطَّابِ ؟ » قال : قلت : واللَّه ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكني أرى أن تمكنني من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه ، وتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم اللَّه أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين ، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم . فهوي رسول اللَّه ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت وأخذ

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٨٠) والطبراني في المعجم الكبير (٢٠٩/٤) .

منهم الفداء ، فلما كان من الغد قال عمر : فغدوت إلى النبيّ ﷺ وأبي بكر وهما يبكيان فقلت : يا رسول اللَّه ما يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ، قال النبيّ ﷺ : « لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الفِدَاءَ ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابكُمْ أَدْنَى مِنْ هِذِهِ الشَّجَرَةِ » - لشجرة قريبة من النبيّ ﷺ . وأنزل اللَّه ﷻ ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ فأحل لهم الغنائم . فلما كان يوم أُحُد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون ، وفر أصحاب النبيّ ﷺ عن النبيّ ﷺ ، وكسرت رباعيته ، وهشمت البيضة على رأسه ، وسال الدم من وجهه ، فأنزل اللَّه ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ بأخذكم الفداء (١) .

قال البخاري في كتاب المغازي : باب قول اللَّه تعالى ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ عن طارق بن شهاب قال : سمعت ابن مسعود يقول : شهدت من المقداد بن الأسود مشهدًا لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به ، أتى النبيّ ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : لا نقول كما قال قوم موسى : ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ ﴾ ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك ، فرأيت النبيّ ﷺ أشرق وجهه وسره - يعني قوله (٢) . وعن ابن عبّاس قال : قال النبيّ ﷺ يوم بدر : « اللَّهُمَّ أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ » فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك فخرج وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ أي يردف بعضهم بعضًا كما قال ابن عبّاس : ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ متتابعين ويحتمل أن المراد ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ لكم أي نجدة لكم كما قال ابن عبّاس : المدد ، كما تقول أنت للرجل : زده كذا وكذا ، وهكذا قال مجاهد وابن كثير القارئ وابن زيد ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ ممدين ، وقال ابن عبّاس : ﴿ مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ قال : وراء كل ملك ملك . وفي رواية بهذا الإسناد ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ قال : بعضهم على أثر بعض . عن علي ﷺ قال : نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبيّ ﷺ وفيها أبو بكر ، ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة النبيّ ﷺ وأنا في الميسرة (٤) . وهذا يقتضي إن صح إسناده أن الألف مردفة بمثلها ؛ ولهذا قرأ بعضهم ﴿ مردفين ﴾ بفتح الدال (٥) واللَّه أعلم .

والمشهور ما رواه ابن عبّاس قال : وأمد اللَّه نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة ، فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مجنبة ، وميكائيل في خمسمائة مجنبة ، وروي ابن عبّاس قال : بينا رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه ، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم ، إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيًا ، قال : فنظر إليه فإذا هو قد حطم وشق

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (٥٨) وأحمد في مسنده (١/٣٠ ، ٣٢) .
(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٣٩٥٢) . (٣) أخرجه البخاري في المغازي (٣٩٥٣) .
(٤) ذكره ابن جرير في تفسير ٩/٢٥٥ .
(٥) قرأ المدنيان ويعقوب (مردفين) بفتح الدال والباقون بكسرها (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١١٨) .

وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع ، فجاء الأنصاري فحدَّث ذلك رسول الله ﷺ ، فقال : « صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة » ، فقتلوا يومئذٍ سبعين وأسروا سبعين (١) . عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه - وكان أبوه من أهل بدر - قال : جاء جبريل إلى النبيّ ﷺ فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : « مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ » أو كلمة نحوها قال : وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة (٢) . وفي الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره في قتل حاطب بن أبي بلتعة : « إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ قَدْ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ ﴾ الآية . أي وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بشرى ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾ وإلّا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أي بدون ذلك ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۛ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ فهذه حكم شرع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها ، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمم المكذبة ، كما أهلك قوم نوح بالطوفان ، وعاد الأولى بالدبور ، وثمود بالصيحة ، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل ، ولهذا كان قتل صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان ، فقتل أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى أشد إهانة له من موته على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك كما مات أبو لهب لعنه الله بالعدسة بحيث لم يقربه أحد من أقاربه ، وإنما غسلوه بالماء قذفًا من بعيد ، ورجموه حتى دفنوه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته ﷻ .

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ .

يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم ، أمانًا أمّنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أُحد كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ الآية ، قال أبو طلحة :

(١) أخرجه : مسلم في الجهاد (٥٨) والبغوي في شرح السنة ١٣/٣٨١ .
(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٣٩٩٢) وابن ماجه في سننه (١٦٠) .
(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٣٩٨٣) ومسلم في فضائل الصحابة (١٦١) .

كنت ممن أصابه النعاس يوم أُحد ، ولقد سقط السيف من يدي مرارًا يسقط وآخذه ، ويسقط وآخذه ، ولقد نظرت إليهم يميدون وهم تحت الحجف . وعن علي ﷺ قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلّا نائم ، إلّا رسول اللَّه ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح . وعن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ أنه قال : النعاس في القتال أمنة من اللَّه ، وفي الصلاة من الشيطان . وقال قتادة : النعاس في الرأس ، والنوم في القلب ، قلت : أما النعاس فقد أصابهم يوم أُحُد وأمر ذلك مشهور جدًّا ، وأما الآية الشريفة إنما هي في سياق قصة بدر ، وهي دالة على وقوع ذلك أيضًا وكأن ذلك كائن للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر اللَّه ، وهذا من فضل اللَّه ورحمته بهم ونعمته علهم وكما قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ولهذا جاء في الصحيح أن رسول اللَّه ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصدِّيق ﷺ وهما يدعوان ، أخذت رسول اللَّه ﷺ سنة من النوم ثم استيقظ متبسمًا فقال : « أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ هَذَا جِبْرِيلُ عَلَى ثَنَايَاهُ النَّقْعُ » ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ قال ابن عبّاس : نزل النبيّ ﷺ حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملة دعصة ، وأصاب المسلمين ضعف شديد وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ ، يوسوس بينهم تزعمون أنكم أولياء اللَّه تعالى وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون مجنبين ، فأمطر اللَّه عليهم مطرًا شديدًا فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب اللَّه عنهم رجس الشيطان ، وثبت الرمل حين أصابه المطر ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم ، وأمد اللَّه نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة ، فكان جبريل في خمسمائة مجنبة ، وميكائيل في خمسمائة مجنبة (٢) .

والمعروف أن رسول اللَّه ﷺ لما سار إلى بدر نزل على أدنى ماء هناك ، أي أول ماء وجده ، فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال : يا رسول اللَّه هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزلك اللَّه إياه فليس لنا أن نجاوزه ، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة ؟ فقال : « بَلْ مَنْزِلٌ نَزَلْتُهُ لِلْحَرْبِ وَالْمَكِيدَةِ » فقال يا رسول اللَّه إن هذا ليس بمنزل ، ولكن سر بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلي القوم ، ونغور ما وراءه من القلب ، ونستقي الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء ، فسار رسول اللَّه ﷺ ففعل كذلك ، وفي مغازي الأموي أن الحباب لما قال ذلك نزل ملك من السماء وجبريل جالس عند رسول اللَّه ﷺ فقال ذلك الملك : يا محمّد إن ربك يقرئك السلام ويقول لك : إن الرأي ما أشار به الحباب بن المنذر ، فالتفت رسول اللَّه ﷺ إلى جبريل عليه السلام فقال : « هَلْ تَعْرِفُ هَذَا ؟ » فنظر إليه فقال : ما كل الملائكة أعرفهم وإنه ملك وليس بشيطان . وأحسن ما في هذا ما رواه يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال : بعث اللَّه السماء وكان الوادي دهسًا ، فأصاب رسول اللَّه ﷺ وأصحابه ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم من السير ، وأصاب قريشًا ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه ، وقال مجاهد : أنزل

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٣٩٥٣) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٩/٢٥٨) .

الله عليهم المطر قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار ، وتلبدت به الأرض ، وطابت نفوسهم ، وثبتت به أقدامهم ، وقال علي ﷺ : أصابنا من الليل طش من المطر - يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر - فانطلقنا تحت الشجرة والحجف نستظل تحتها من المطر ، وبات رسول الله ﷺ وحرض على القتال (١) .

وقوله : ﴿ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾ أي من حدث أصغر أو أكبر ، وهو تطهير الظاهر ﴿ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ أي من وسوسة أو خاطر سيئ ، وهو تطهير الباطن ، كما قال تعالى في حق أهل الجنة : ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ فهذا زينة الظاهر ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ أي مطهرًا لما كان من غل أو حسد أو تباغض ، وهو زينة الباطن وطهارته ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ أي بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء وهو شجاعة الباطن ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ وهو شجاعة الظاهر ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها ، وهو أنه تعالى وتقدّس وتبارك وتمجد أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين ، يوحي إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا . قال ابن إسحاق : وازروهم ، وقال غيره : قاتلوا معهم ، وقيل : كثروا سوادهم ، وقيل : كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبيّ ﷺ فيقول : سمعت هؤلاء القوم يعني المشركين يقولون : والله لئن حملوا علينا لنكشفن ، فيحدث المسلمون بعضهم بعضًا بذلك فتقوى أنفسهم (٢) . وقوله : ﴿ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾ أي ثبتوا أنتم المؤمنين ، وقووا أنفسهم على أعدائهم عن أمري لكم بذلك ، سألقى الرعب والذلة والصغار على من خالف أمري وكذب رسولي ﴿ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ أي اضربوا الهام ففلقوها ، واحتزوا الرقاب فقطعوها ، وقطعوا الأطراف منهم وهي أيديهم وأرجلهم ، وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ ﴾ فقيل : معناه اضربوا الرؤوس ، قاله عكرمة ، وقيل : معناه أي على الأعناق وهي الرقاب ، قاله الضحاك وعطية العوفي ، ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ ﴾ واختار ابن جرير أنها قد تدل على ضرب الرقاب وفلق الهام (٣) ، قلت : وفي مغازي الأموي أن رسول الله ﷺ جعل يمر بين القتلى يوم بدر فيقول : « يُفَلِّقُ هَامًا » فيقول أبو بكر :

مِنْ رِجَالٍ أَعِزَّةٍ عَلَيْنَا ... وَهُمْ كَانُوا أَعَقَّ وَأَظْلَمَا

فيبتدئ رسول الله ﷺ بأول البيت ويستطعم أبا بكر ﷺ إنشاد آخره ؛ لأنه كان لا يحسن إنشاد الشعر كما قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ وقال الربيع بن أنس : كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٩/٢٥٨) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٩/٢٦١) .
(٣) ذكره الطبري في تفسيره (٩/٢٦٢) .

وقوله : ﴿ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ قال ابن جرير : معناه : واضربوا عدوكم أيها المؤمنون كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم ، والبنان جمع بنانة .

وقال ابن عبّاس : ﴿ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ يعني بالبنان الأطراف ، وكذا قال الضحاك وابن جرير . وقال السدي : البنان الأطراف ، ويقال : كل مفصل . وقال الأوزاعي : اضرب منه الوجه والعين وارمه بشهاب من نار ، فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك . وقال ابن عبّاس فذكر قصة بدر إلى أن قال : فقال أبو جهل : لا تقتلوهم قتلًا ولكن خذوهم أخذًا حتى تعرفوهم الذي صنعوا من طعنهم في دينكم ورغبتهم عن اللات والعزى ، فأوحى اللَّه إلى الملائكة ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ الآية . فقتل أبو جهل لعنه اللَّه في تسعة وستين رجلًا ، وأسر عقبة بن أبي معيط فقتل صبرًا فوفى ذلك سبعين يعني قتيلًا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي خالفوهما فساروا في شق وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شق ، ومأخوذ أيضًا من شق العصا وهو جعلها فرقتين ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أي هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه ، لا يفوته شيء ولا يقوم لغضبه شيء ، تبارك وتعالى لا إله غيره ولا رب سواه ﴿ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾ هذا خطاب للكفار أي ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا ، واعلموا أيضًا أن للكافرين عذاب النار في الآخرة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ۝ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

يقول تعالى متوعدًا على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا ﴾ أي تقاربتم منهم ودنوتم إليهم ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ أي تفروا وتتركوا أصحابكم ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ﴾ أي يفر بين يدي قرنه مكيدة ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه ، ثم يكر عليه فيقتله فلا بأس عليه في ذلك ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ ﴾ أي فر من ها هنا إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونوه فيجوز له ذلك ، حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم دخل في هذه الرخصة . وعن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما قال : كنت في سرية من سرايا رسول اللَّه ﷺ فحاص الناس حيصة فكنت فيمن حاص ، فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا : لو دخلنا المدينة ثم بتنا ، ثم قلنا : وعرضنا أنفسنا على رسول اللَّه ﷺ فإن كانت لنا توبة وإلَّا ذهبنا ، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال : « مَنْ الْقَوْمُ ؟» فقلنا : نحن الفرارون ، فقال : « لاَ بَلْ أَنْتُمُ العَكَّارُونَ أَنَا فِئَتُكُمْ وَأَنَا فِئَةُ الْمُسْلِمِينَ » قال : فأتيناه حتى قبَّلنا يده (١)

قال أهل العلم : معنى قوله : « العَكَّارُونَ » أي : العرافون ، وكذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أبي عبيدة لما قتل على الجسر بأرض فارس لكثرة الجيش من المجوس فقال عمر : لو تحيز إلي لكنت له فئة ، وعن نافع أنه سال ابن عمر قلت : إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا ، ولا ندري من الفئة

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٧٠) وأبو داود في سننه (٢٦٤٧) .

أمامنا أو عسكرنا ، فقال : إن الفئة رسول الله ﷺ فقلت : إن الله يقول : ﴿ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا ﴾ الآية ، فقال : إنما أنزلت هذه الآية في يوم بدر لا قبلها ولا بعدها ، وقال الضحاك في قوله : ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ المتحيز الفار إلى النبي وأصحابه ، وكذلك من فر اليوم إلى أميره وأصحابه ، فأما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب فإنه حرام وكبيرة من الكبائر .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ » قيل : يا رسول الله وما هن ؟ قال : « الشِّرْكُ باللَّه ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّه إِلَّا بِالحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيم ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ المُحصَنَاتِ الغَافِلاَتِ المُؤْمِنَاتِ » (١) وله شواهد من وجوه أخر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَقَدْ بَآءَ ﴾ أي رجع ﴿ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ ﴾ أي مصيره ومنقلبه يوم ميعاده ﴿ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حرامًا على الصحابة ؛ لأنه كان فرض عين عليهم ، وقيل : على الأنصار خاصة ؛ لأنهم بايعوا على السمع والطاعة في المنشط والمكره . وقيل : المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة ، ويروى هذا عن عمر وابن عمر وابن عبّاس وأبي هريرة وأبي سعيد وأبي نضرة ونافع والحسن البصري وغيرهم ، وحجتهم في هذا أنه لم تكن عصابة لها شوكة يفيؤون إليها إلّا عصابتهم تلك ، كما قال النبيّ ﷺ : « اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةُ لاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ » (٢) ولهذا قال عبد الله بن المبارك بن فضالة عن الحسن في قوله : ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ ﴾ قال : ذلك يوم بدر ، فأما اليوم فإن انحاز إلى فئة أو مصر أحسبه فلا بأس عليه ، وقال ابن المبارك أيضًا عن ابن لهيعة : حدَّثني يزيد بن أبي حبيب قال : أوجب الله تعالى لمن فر يوم بدر النار ، قال : ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين قال : ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ... ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ﴾ .

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

يبيّن تعالى أنه خالق أفعال العباد وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير ؛ لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ أي ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم ، بل هو الذي أظفركم عليهم كما قال : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ الآية ، ثم قال تعالى لنبيه ﷺ أيضًا في شأن القبضة من التراب التي حصب بها وجوه الكافرين يوم بدر حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته فرماهم بها وقال : « شَاهَتِ الوُجُوهُ » (٣) ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ففعلوا ، فأوصل

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦) ومسلم في الإيمان (١٤٥) وأبو داود في سننه (٢٨٧٤) .

(٢) أخرجه : الترمذي في السنن (٣٠٨١) .

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد (٨١) وأحمد في مسنده ٣٦٨/١٥ .

اللَّه تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلَّا ناله منها ما شغله عن حاله ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ أي هو الذي بلغ ذلك إليهم وكبتهم بها لا أنت . قال ابن عبّاس : رفع رسول اللَّه ﷺ يديه - يعني يوم بدر - فقال : « يَا رَبِّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةُ فَلَنْ تُعْبَدَ في الأَرْضِ أَبَدًا » فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم ، فما من المشركين أحد إلَّا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين [(١)] وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هذا يوم بدر أخذ رسول اللَّه ﷺ ثلاث حصبات فرمى بحصبات ميمنة القوم ، وحصبات في ميسرة القوم ، وحصبات بين أظهرهم وقال : « شَاهَتِ الوجُوهُ » فانهزموا ، وقد روي في هذه القصة عن عروة ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد من الأئمة أنها نزلت في رمية النبيّ ﷺ يوم بدر ، وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضًا .

وعن عروة بن الزبير في قوله : ﴿ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ﴾ أي ليعرف المؤمنين نعمته عليهم من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ، ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا بذلك نعمته . وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي سميع الدعاء عليم بمن يستحق النصر والغلب . وقوله : ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل ، مصغر أمرهم ، وأنهم كل مالهم في تبار ودمار ولله الحمد والمنة .

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى للكفار : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ ﴾ أي تستنصروا وتستقضوا اللَّه وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين فقد جاءكم ما سألتم . عن عبد اللَّه بن ثعلبة بن صعير : إن أبا جهل قال يوم بدر : اللهم أينا كان أقطع للرحم وآتانا بما لا يعرف فاحنه الغداة . وكان ذلك استفتاحًا منه فنزلت ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ إلى آخر الآية ، وقال السدي : كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا اللَّه وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين ، فقال اللَّه ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ يقول : قد نصرت ما قلتم وهو محمّد ﷺ . وقال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم : هو قوله تعالى إخبارًا عنهم ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَإِن تَنتَهُواْ ﴾ أي عما أنتم فيه من الكفر باللَّه والتكذيب لرسوله ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي في الدنيا والآخرة . وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ ﴾ كقوله : ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ معناه وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة نعد لكم بمثل هذه الواقعة . وقال السدي : ﴿ وَإِن تَعُودُواْ ﴾ أي إلى الاستفتاح ﴿ نَعُدْ ﴾ أي إلى الفتح لمحمّد ﷺ والنصر له وتظفيره على أعدائه ، والأول أقوى

(١) أخرجه : البيهقي في دلائل النبوة ٣/٧٩ .

﴿ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ أي ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا فإن من كان الله معه فلا غالب له ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وهم الحزب النبوي والجناب المصطفوي .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ .

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ ﴾ أي تتركوا طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره ﴿ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ أي بعد ما علمتم ما دعاكم إليه ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ قيل : المراد المشركون ، واختاره ابن جرير ، وقال ابن إسحاق : هم المنافقون ؛ فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا وليسوا كذلك ، ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة ، فقال : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ﴾ أي عن سماع الحق ﴿ ٱلْبُكْمُ ﴾ عن فهمه ؛ ولهذا قال : ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فهؤلاء شر البرية ؛ لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له ، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا ، ولهذا شبههم بالأنعام في قوله : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ الآية ، وقيل : المراد بهؤلاء المذكورين نفر من بني عبد الدار من قريش [(١)] روي عن ابن عبّاس ومجاهد واختاره ابن جرير . وقال محمّد بن إسحاق : هم المنافقون ، قلت : ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا ؛ لأن كلًّا منهم مسلوب الفهم الصحيح والقصد إلى العمل الصالح ، ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح ولا قصد لهم صحيح لو فرض أن لهم فهمًا فقال : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ أي لأفهمهم وتقدير الكلام ﴿ و ﴾ لكن لا خير فيهم فلم يفهمهم لأنه يعلم أنه ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ أي أفهمهم ﴿ لَتَوَلَّوا۟ ﴾ عن ذلك قصدًا وعنادًا بعد فهمهم ذلك ﴿ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ عنه .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

قال البخاري : ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ ﴾ أجيبوا ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ لما يصلحكم [(٢)] . وعن خبيب بن عبد الرّحمن قال : سمعت حفص بن عاصم يحدث عن أبي سعد بن المعلى ﷺ قال : كنت أصلي فمر بي النبيّ ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت ، ثم أتيته فقال : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي ؟ أَلَمْ يَقُلِ اللَّه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ - ثم قال - لأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ » فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له . وقال معاذ : عن خبيب بن عبد الرّحمن سمع حفص بن عاصم سمع أبا سعيد رجلًا من أصحاب النبيّ ﷺ بهذا وقال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ هي السبع المثاني [(٣)] . وقال مجاهد : في قوله : ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ قال : للحق ، وقال قتادة : هو هذا القرآن فيه النجاة والبقاء والحياة ، وقال السدي : ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ففي

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٤٧) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٤٦) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (باب ٣) .

الإسلام إحياؤهم بعد موتهم بالكفر ، وقال عروة بن الزبير : أي للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل ، وقواكم بها بعد الضعف ، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم .

قوله تعالى : ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ ﴾ وقال ابن عبّاس : يحول بين المؤمن وبين الكفر . وبين الكافر وبين الإيمان ، وفي رواية عن مجاهد في قوله : ﴿ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ ﴾ أي حتى يتركه لا يعقل ، وقال السدي : يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلّا بإذنه . وقال قتادة هو كقوله : ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية . فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان النبيّ ﷺ يكثر أن يقول : « يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ » قال : فقلنا : يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال : « نَعَمْ إِنَّ القُلُوبَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّه تَعَالَى يُقَلِّبُهَا » (١) .

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ .

يحذّر تعالى عباده المؤمنين فتنة ، أي اختبارًا ومحنة ، يعم بها المسيء وغيره لا يخص بها أهل المعاصي ، ولا من باشر الذنب بل يعمهما حيث لم تدفع وترفع عن مطرف قال : قلنا للزبير : يا أبا عبد الله ما جاء بكم ؟ ضيعتم الخليفة الذي قتل ثم جئتم تطلبون بدمه ؟ فقال الزبير رضي الله عنه : إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾ ، لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت (٢) ، وقال ابن عبّاس : في قوله : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾ يعني أصحاب النبيّ ﷺ خاصة . وقال أيضًا : أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب ، وهذا تفسير حسن جدًّا ، ولهذا قال مجاهد : في قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾ هي أيضًا لكم ، وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد إلّا وهو مشتمل على فتنة ؛ إن الله تعالى يقول : ﴿ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ فأيكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن (٣) .

والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم وإن كان الخطاب معهم ، هو الصحيح ، ويدل عليه الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن ، ومن أخص ما يذكر ههنا ما روي عن عدي بن عميرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّه عز وجل لاَ يُعَذِّبُ العَامَّةَ بِعَمَلِ الخَاصَّةِ حَتَّى يَرَو المُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانيهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلاَ يُنْكِرُوهُ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ اللَّه الخَاصَّةَ والعَامَّةَ » (٤) .

وعن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّه أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُم عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلاَ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ » وروري عن إسماعيل بن جعفر وقال : « أَوْ لَيَبْعَثَنَّ اللَّه عَلَيْكُم قَوْمًا ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلاَ يَسْتَجِيبُ لَكُم » (٥) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١٢/٣) والترمذي في سننه (٢١٤) والحاكم في المستدرك (٢٨٨/٢) .
(٢) أخرجه : أحمد في مسنده ١٦٥/١ . (٣) ذكره الطبري في تفسيره (٢٨٩/٩) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٢/٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٧/٧) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٩/٥) والترمذي في سننه (٢١٦٩) والطبراني في المعجم الكبير (١٨٠/١٠) .

وعن أم سلمة زوج النبيّ ﷺ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِذَا ظَهَرَتِ المَعَاصِي في أُمَّتِي عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالعَذَابِ مِنْ عِنْدِهِ » فقلت : يا رسول الله أما فيهم أناس صالحون ؟ قَالَ : « بَلَى » قالت : فكيف يصنع أولئك ؟ قال : « يُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ » (١)

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

ينبّه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم ، وإحسانه إليهم ، حيث كانوا قليلين فكثرهم ، ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم ، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات ، واستشكرهم فأطاعوه وامتثلوا جميع ما أمرهم . وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة ، قليلين مستخفين مضطهدين يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد اللَّه من مشرك ومجوسي ورومي ، كلهم أعداء لهم لقلتهم وعدم قوتهم ، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن اللَّه لهم في الهجرة إلى المدينة فآواهم إليها وقيّض لهم أهلها آووا ونصروا يوم بدر وغيره ، وواسوا بأموالهم وبذلوا مهجهم في طاعة اللَّه وطاعة رسوله ﷺ . قال قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله : في قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال : كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلًا ، وأشقاه عيشًا ، وأجوعه بطونًا ، وأعراه جلودًا وأبينه ضلالًا ، من عاش منهم عاش شقيًا ، ومن مات منهم ردي في النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، واللَّه ما نعلم قبيلًا من حاضر أهل الأرض يومئذٍ كانوا أشر منزلًا منهم حتى جاء اللَّه بالإسلام ، فمكن به في البلاد ، ووسع به في الرزق ، وجعلهم به ملوكًا على رقاب الناس ، وبالإسلام أعطى اللَّه ما رأيتم ، فاشكروا اللَّه على نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر ، وأهل الشكر في مزيد من اللَّه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

قال أبو قتادة والزهري : أنزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول اللَّه ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول اللَّه ﷺ فاستشاروه في ذلك فأشار عليهم بذلك ، وأشار بيده إلى حلقه أي إنه الذبح ، ثم فطن أبو لبابة ورأى أنه قد خان اللَّه ورسوله فحلف لا يذوق ذواقًا حتى يموت أو يتوب اللَّه عليه ، وانطلق إلى مسجد المدينة فربط نفسه في سارية منه ، فمكث كذلك تسعة أيام حتى كان يخر مغشيًا عليه من الجهد حتى أنزل اللَّه توبته على رسوله ، فجاء الناس يبشرونه بتوبة اللَّه عليه ، وأرادوا أن يحلوه من السارية فحلف لا يحله منها إلّا رسول اللَّه ﷺ بيده فحله ، فقال : يا رسول اللَّه ، إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة فقال : « يُجْزِيكَ الثُّلُثُ أَنْ تَصَدَّقَ بِهِ » (٢) . وعن المغيرة بن شعبة قال : نزلت هذه الآية في قتل عثمان رضي الله عنه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ الآية (٣) .

وفي قصة حاطب بن أبي بلتعة أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول اللَّه ﷺ إياهم عام

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٣٠٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٢٦٨) .
(٢) أخرجه : عبد الرازق في مصنفه (٩٧٤٥) وأبو داود في السنن (٣٣١٩)
(٣) ذكره الطبري في تفسيره (٩/٢٩٢) والسيوطي في الدر المنثور (٤/٥٠) .

الفتح ، فأطلع الله رسوله على ذلك ، فبعث في إثر الكتاب فاسترجعه واستحضر حاطبًا فأقر بما صنع ، وفيها فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله : ألا أضرب عنقه فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ؟ فقال : « دَعْهُ فَإِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّه اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ » (١) قلت : والصحيح أن الآية عامة وإن صح أنها وردت على سبب خاص ، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء ، والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية . وقال ابن عبّاس : ﴿ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ ﴾ الأمانة الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد يعني الفريضة ، يقول : ﴿ لَا تَخُونُواْ ﴾ لا تنقضوها ، وقال في رواية : ﴿ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ يقول بترك سنته وارتكاب معصيته .

وقوله : ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ أي اختبار وامتحان منه لكم إذ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها ، أو تشتغلون بها عنه وتعتاضون بها منه ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ أي ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد ، فإنه قد يوجد منهم عدو ، وأكثرهم لا يغني عنك شيئًا ، والله سبحانه هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة ، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة . وفي الأثر يقول الله تعالى : يا ابن آدم اطلبني تجدني ، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء ، وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ : مَنْ كَانَ اللَّه وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا للَّه ، وَمَنْ كَانَ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّه مِنْهُ » (٢) بل حب رسول الله ﷺ مقدم على الأولاد والأموال والنفوس ، كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » (٣)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ .

قال ابن عبّاس : ﴿ فُرۡقَانٗا ﴾ مخرجًا ، زاد مجاهد : في الدنيا والآخرة ، وفي رواية عن ابن عباس ﴿ فُرۡقَانٗا ﴾ نجاة ، وفي رواية عنه : نصرًا . وقال محمّد بن إسحاق : ﴿ فُرۡقَانٗا ﴾ أي فصلًا بين الحق والباطل ، وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم وهو يستلزم ذلك كله ، فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره وفق لمعرفة الحق من الباطل ، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا وسعادته يوم القيامة وتكفير ذنوبه وهو محوها ، وغفرها سترها عن الناس .

﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ .

قال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة : ﴿ لِيُثۡبِتُوكَ ﴾ ليقيدوك ، وقال عطاء وابن زيد : ليحبسوك ، وقال السدي : الإثبات هو الحبس والوثاق ، وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء ، وهو مجمع الأقوال

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢٧٤) ومسلم في فضائل الصحابة (١٦١) وأحمد في مسنده ١٠٩/٢ .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٦٧) وأحمد في مسنده (١٠٣/٣) والنسائي في سننه (٤٩٨٧) .
(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٢١) ومسلم في الإيمان (٧٢) والنسائي في سننه (٥٠١٤) .

وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء . وعن المطلب بن أبي وداعة أن أبا طالب قال لرسول الله ﷺ : ما يأتمر بك قومك ؟ قال : « يُرِيدُونَ أَنْ يَسْجُنُونِي أَوْ يَقْتُلُونِي أَوْ يُخْرِجُونِي » فقال : من أخبرك بهذا ؟ قال : « رَبِّي » قال : نعم الرب ربك فاستوص به خيرًا ، قال : « أَنَا أَسْتَوْصِي بِهِ ! بَلْ هُوَ يَسْتَوْصِي بِي » قال : فنزلت : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ الآية [1] ، وذكر أبي طالب في هذا غريب جدًا بل منكر لأن هذه الآية مدنية ، ثم إن هذه القصة واجتماع قريش على هذا الائتمار والمشاورة على الإثبات أو النفي أو القتل إنما كان ليلة الهجرة سواء ، وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين لما تمكنوا منه واجترؤوا عليه بسبب موت عمه أبي طالب الذي كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه .

والدليل على صحة ما قلنا ما روي عن ابن عبّاس قال : أن نفرًا من قريش من أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة ، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل ، فلما رأوه قالوا : من أنت ؟ قال شيخ من أهل نجد : سمعت أنكم اجتمعتم فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم رأيي ونصحي ، قالوا : أجل ادخل فدخل معهم ، فقال : انظروا في شأن هذا الرجل والله ليوشكن أن يواثبكم في أمركم بأمره ، فقال قائل منهم : احبسوه في وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير والنابغة إنما هو كأحدهم ، قال : فصرخ عدو الله الشيخ النجدي فقال : والله ما هذا لكم برأي ، والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم ، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم . قالوا : صدق الشيخ فانظروا في غير هذا ، قال قائل منهم : أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم وكان أمره في غيركم ، فقال الشيخ النجدي : والله ما هذا لكم برأي ، ألم تروا حلاوة قوله ، وطلاقة لسانه ، وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه ؟ والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم . قالوا : صدق والله فانظروا رأيًا غير هذا ، قال : فقال أبو جهل لعنه الله : والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد ، لا أرى غيره ، قالوا : وما هو ؟ قال : تأخذون من كل قبيلة غلامًا شابًا وسيطًا نهدًا ، ثم يعطى كل غلام منهم سيفًا صارمًا ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها ، فما أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها ، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا وقطعنا عنا أذاه . قال : فقال الشيخ النجدي : هذا والله الرأي ، والقول ما قال الفتى ولا أرى غيره . قال : فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له ، فأتى جبريل النبيّ ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه وأخبره بمكر القوم ، فلم يبت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة ، وأذن الله له عند ذلك بالخروج وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة الأنفال يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ .

وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ﴾ الآية ، تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم : إذا

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٩٩/٩) والسيوطي في الدر المنثور ١٧٩/٣ .

أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبيّ ﷺ ، وقال بعضهم : بل اقتلوه ، وقال بعضهم : بل أخرجوه ، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فبات علي ﷺ على فراش رسول الله ﷺ ، وخرج النبيّ ﷺ حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون عليًا يحسبونه النبيّ ﷺ ، فلما أصبحوا ثاروا إليه ، فلما رأوا عليًا رد الله تعالى مكرهم ، فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدري فاقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا في الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا : لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاث ليال[1] .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن كفر قريش وعتوهم وتمردهم وعنادهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته إذا تتلى عليهم أنهم يقولون : ﴿ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾ وهذا منهم قول بلا فعل ، وإلّا فقد تحدوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلًا ، وإنما هذا القول منهم يغرون به أنفسهم ومن تبعهم على باطلهم . وقد قيل : إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث لعنه الله كما قد نص على ذلك سعيد بن جبير والسدي وابن جريج وغيرهم ، فإنه لعنه الله كان قد ذهب إلى بلاد فارس وتعلم من أخبار ملوكهم رستم وإسفنديار ، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله وهو يتلو على الناس القرآن ، فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس جلس فيه النضر فحدَّثهم من أخبار أولئك ثم يقول : بالله أينا أحسن قصصًا أنا أو محمد ؟ ولهذا ما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع في الأسارى أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبرًا بين يديه ففعل ذلك ولله الحمد ، وكان الذي أسره المقداد بن الأسود ﷺ ، كما روي عن سعيد بن جبير قال : قتل النبيّ ﷺ يوم بدر صبرًا عقبة بن أبي معيط وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث ، وكان المقداد أسر النضر فلما أمر بقتله قال المقداد : يا رسول الله أسيري ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنه كان يقول في كتاب الله ﷻ ما يقول » فأمر رسول الله ﷺ بقتله ، فقال المقداد : يا رسول الله أسيري ؟ فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ أَغْنِ المِقْدَادَ مِنْ فَضْلِكَ » فقال المقداد : هذا الذي أردت ، قال : وفيه أنزلت هذه الآية ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[2] وعن سعيد بن جبير أنه قال : المطعم بن عدي بدل طعيمة وهو غلط ؛ لأن المطعم بن عدي لم يكن حيًا يوم بدر ، ولهذا قال رسول الله ﷺ يومئذٍ : « لو كان المطعم بن عدي حيًا ثم سألني في هؤلاء النتنى لوهبتهم له - يعني الأسارى - لأنه كان قد أجار رسول الله ﷺ يوم رجع من الطائف »[3] .

ومعنى ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وهو جمع أسطورة أي كتبهم اقتبسها فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس ، وهذا هو الكذب البحت .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٣٤٨/١ .

(٢) أخرجه أبو داود في مراسيله (٣٧) والطبري في تفسيره (٣٠٥/٩) .

(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٢٣) وأحمد في مسنده ٨٠/٤ .

وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ هذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم وعتوهم ، وهذا مما عيبوا به وكان الأولى لهم أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه ، ولكن استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا العذاب وتقديم العقوبة كقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ عن أنس بن مالك قال : هو أبو جهل بن هشام قال : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فنزلت : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (١) وعن ابن عبّاس : في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قال : هو النضر بن الحارث بن كلدة قال : فأنزل الله ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ قال ابن عبّاس : كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، فيقول النبيّ ﷺ : « قَدْ قَدْ » ويقولون : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلّا شريك هو لك ، تملكه وما ملك . ويقولون : غفرانك غفرانك فأنزل الله : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ الآية . قال ابن عبّاس : كان فيهم أمانان : النبيّ ﷺ والاستغفار ، فذهب النبيّ ﷺ وبقي الاستغفار . وعن يزيد ابن رومان ومحمّد بن قيس قالا : قالت قريش بعضها لبعض : محمّد أكرمه الله من بيننا ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ﴾ الآية ، فلما أمسوا ندموا على ما قالوا غفرانك اللهم - فأنزل الله ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) . وقال ابن عبّاس : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ يقول : ما كان الله ليعذب قومًا وأنبياؤهم بين أظهرهم حتى يخرجهم ، ثم قال : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ يقول : وفيهم من قد سبق له من الله الدخول في الإيمان وهو الاستغفار ، يستغفرون يعني يصلون ، يعني بهذا أهل مكة . وقال الضحاك وأبو مالك : يعني المؤمنين الذين كانوا بمكة ، وعن النضر بن عدي عن ابن عبّاس قال : إن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم ، فأمان قبضه الله إليه وأمان بقي فيكم قوله ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، وعن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ أَمَانَيْنِ لِأُمَّتِي ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ فَإِذَا مَضَيْتُ تَرَكْتُ فِيهِمُ الاسْتِغْفَارَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » (٣) ويشهد لهذا ما روي عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ : وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ لاَ أَبْرَحُ أَغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ ، فَقَالَ الرَّبُّ : وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي لاَ أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي » (٤) .

---

(١) أخرجه : البخاري في تفسير القرآن (٤٦٤٨) . (٢) ذكره الطبري في تفسيره (٩/٣١٠) .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٣٠٨٢) والهندي في كنز العمال (٢٠٨١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢٩) والحاكم في المستدرك (٤/٢٦١) .

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم ، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام الرسول ﷺ بين أظهرهم ، ولهذا لما خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر فقتل صناديدهم وأسر سراتهم ، وأرشدهم تعالى إلى الاستغفار من الذنوب التي هم متلبسون بها من الشرك والفساد . وقال قتادة والسدي وغيرهما : لم يكن القوم يستغفرون ، ولو كانوا يستغفرون ما عذبوا . واختاره ابن جرير ، فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين لوقع بهم البأس الذي لا يرد ، ولكن دفع عنهم بسبب أولئك : عن ابن أبزى قال : كان النبيّ ﷺ بمكة فأنزل الله ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ ﴾ قال : فخرج النبيّ ﷺ إلى المدينة فأنزل الله ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ قال : وكان أولئك البقية من المسلمين الذين بقوا فيها مستضعفين ، يعني بمكة ﴿ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ فلما خرجوا أنزل الله ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ ﴾ قال : فأذن الله في فتح مكة ، فهو العذاب الذي وعدهم (١) .

وقد قيل : إن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم ، فعن عن عكرمة والحسن البصري قالا : قال في الأنفال : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ فنسختها الآية التي تليها ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ إلى قوله ﴿ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ فقاتلوا بمكة فأصابهم فيها الجوع والضر ، وقوله : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام أي الذي بمكة ، يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة فيه والطواف به ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ أي هم ليسوا أهل المسجد الحرام ، وإنما أهله النبيّ ﷺ وأصحابه . عن أنس بن مالك ؓ قال : سئل رسول الله ﷺ من أولياؤك ؟ قال : « كُلُّ تَقِيٍّ » وتلا رسول الله ﷺ ﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (٢) . وقال عروة والسدي ومحمّد بن إسحاق في قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ هم محمّد ﷺ وأصحابه ؓ . وقال مجاهد : هم المجاهدون من كانوا وحيث كانوا .

ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام وما كانوا يعاملونه به فقال : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ ﴾ قال عبد الله بن عمرو وابن عبّاس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير : هو الصفير . وزاد مجاهد وكانوا يدخلون أصابعهم في أفواههم ، وقال السدي : المكاء الصفير على نحو طير أبيض يقال له المكاء ويكون بأرض الحجاز . عن ابن عبّاس في قوله :

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٣٠٩/٩) والسيوطي في الدر (٥٦/٤) .
(٢) أخرجه الطبراني في الصغير (١١٥/١) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٩/٧) .

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ قال : كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق ، والمكاء الصفير والتصدية التصفيق ، وعن سعيد بن جبير وعبد الرّحمن بن زيد ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ قال : صدهم الناس عن سبيل الله ﷻ . وقوله : ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قال الضحّاك وابن جريج ومحمّد بن إسحاق : هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي ، واختاره ابن جرير ولم يحك غيره ، وعن مجاهد قال : عذاب أهل الإقرار بالسيف ، وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ .

عن الحصين بن عبد الرّحمن بن عمرو بن سعيد بن معاذ قال : لما أصيب قريش يوم بدر ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره ، مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان ابن أمية في رجال من قريش أصيب آباؤهم وإخوانهم ببدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش : إن محمّدًا قد وتركم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأرًا بمن أصيب منا ففعلوا ، قال : ففيهم كما ذكر عن ابن عبّاس أنزل الله ﷻ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ إلى قوله : ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ . وقال الضحاك : نزلت في أهل بدر . وعلى كل تقدير فهي عامة ، وإن كان سبب نزولها خاصًا ، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع الحق فسيفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم ثم تكون عليهم حسرة أي ندامة حيث لم تجد شيئًا ؛ لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق والله متم نوره ولو كره الكافرون ، وناصر دينه ومعلن كلمته ومظهر دينه على كل دين ، فهذا الخزي لهم في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب النار ، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوؤه ، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي ، ولهذا قال : ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ قال ابن عبّاس : فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء ، وقال السدي : يميز المؤمن من الكافر ، وهذا يحتمل أن يكون هذا التميز في الآخرة كقوله : ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ وقال تعالى : ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين ، وتكون اللام معللة لما جعل الله للكافرين من مال ينفقونه في الصد عن سبيل الله ، أي إنما أقدرناهم على ذلك ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين ، أو يعصيه بالنكول عن ذلك ، كقوله : ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ الآية ، ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ﴾ أي يجمعه كله وهو جمع الشيء بعضه على بعض ، كما قال تعالى في السحاب ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ أي متراكمًا متراكبًا ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة .

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ .

يقول تعالى لنبيه محمّد ﷺ : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ ﴾ أي عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد ، ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة ﴿ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ أي من كفرهم وذنوبهم وخطاياهم ، كما جاء عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَحْسَنَ فِي الإِسْلاَمِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الجَاهِلِيَّةِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الإِسْلاَمِ أُخِذَ بِالأَوَّلِ وَالآخِرِ » [١] وفي الحديث أيضًا أن رسول الله ﷺ قال : « الإِسْلاَمُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ ، وَالتَّوْبَةُ تَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهَا » [٢] وقوله : ﴿ وَإِن يَعُودُواْ ﴾ أي يستمروا على ما هم فيه ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي فقد مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم إنا نعاجلهم بالعذاب والعقوبة . قال مجاهد : في قوله : ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي ، في قريش يوم بدر وغيرها من الأمم ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ عن نافع عن ابن عمر أن رجلًا جاء فقال : يا أبا عبد الرحمن ، ألا تصنع ما ذكر الله في كتابه ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ ﴾ الآية ، فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه ؟ فقال : يا ابن أخي ، أعير بهذه الآية ولا أقاتل ، أحب إليّ من أن أعير بالآية التي يقول الله ﷻ : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ إلى آخر الآية ، قال : فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ قال ابن عمر : قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلًا وكان الرجل يفتن في دينه إما إن يقتلوه وإما أن يوثقوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة ، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد قال : فما قولكم في علي وعثمان ؟ قال ابن عمر : أما قولي في علي وعثمان ، أما عثمان : فكان الله قد عفا عنه وكرهتم أن يعفو الله عنه ، وأما علي : فابن عم رسول الله ﷺ وختنه ، وأشار بيده ، وهذه ابنته أو بنته حيث ترون [٣] . ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ حتى لا يفتن مسلم عن دينه . وقوله : ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ قال الضحاك عن ابن عبّاس في هذه الآية : قال : يخلص التوحيد لله ، وقال الحسن وقتادة وابن جريج : أن يقال لا إله إلّا الله ، وقال محمّد بن إسحاق : ويكون التوحد خالصًا لله ليس فيه شرك ، ويخلع ما دونه من الأنداد . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ لا يكون مع دينكم كفر ، ويشهد لهذا ما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّه فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّه ﷻ » [٤] . وعن أبي موسى الأشعري قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ﷻ ؟ فقال : « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّه هِيَ العُلْيَا ؛ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّه ﷻ » [٥]

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان(١٩٠) وأحمد في مسنده(٤٠٩/١) وابن ماجه في سننه(٤٢٤٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده(١٩٩/٤) . (٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن(٤٦٥٠) .
(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام(٧٢٨٤ ، ٧٢٨٥) ومسلم في الإيمان(٣٢) .
(٥) أخرجه مسلم في الإمارة(١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١) وأحمد في مسنده(٣٩٢/٤) .

وقوله : ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ ﴾ أي بقتالكم عما هم فيه من الكفر فكفوا عنه وإن لم تعلموا بواطنهم ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ كقوله : ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ ﴾ الآية ، وفي الآية الأخرى ﴿ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ ﴾ وقال : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لأسامة ، لما علا ذلك الرجل بالسيف فقال : لا إله إلّا الله فضربه فقتله ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال لأسامة : « أَقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ : لاَ إِلَهَ إِلّاَ اللَّه ؟ وَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلاَ إِلَهَ إِلّاَ اللَّه يَوْم القِيَامَةِ » ؟ فقال : يا رسول الله إنما قالها تعوذًا قال : « هَلّاَ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ ؟ » وجعل يقول ويكرر عليه : « مَنْ لَكَ بِلاَ إِلَهَ إِلّاَ اللَّه يَوْمَ القِيَامَةِ ؟ » قال أسامة : حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلّا يومئذٍ (١) .

وقوله : ﴿ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ أي وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم ﴿ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ ﴾ سيدكم وناصركم على أعدائكم ، فنعم المولى ونعم النصير .

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ .

يبيِّنُ تعالى تفصيل ما شرعه مخصصًا لهذه الأمة الشريفة من بين سائر الأمم المتقدمة بإحلال الغنائم . والغنيمة هي المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب ، والفيء ما أخذ منهم بغير ذلك ، كالأموال التي يصالحون عليها أو يتوفون عنها ولا وارث لهم والجزية والخراج ونحو ذلك ، هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف ، ومن العلماء من يطلق الفيء على ما تطلق عليه الغنيمة وبالعكس أيضًا ، ولهذا ذهب قتادة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية الحشر : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ الآية ، قال : فنسخت آية الأنفال تلك وجعلت الغنائم أربعة أخماس للمجاهدين وخمسًا منها لهؤلاء المذكورين ، وهذا الذي قاله بعيد ؛ لأن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر وتلك نزلت في بني النضير ، ولا خلاف بين علماء السير والمغازي قاطبة أن بني النضير بعد بدر ، وهذا أمر لا يشك فيه ولا يرتاب ، فمن يفرق بين معنى الفيء والغنيمة يقول : تلك نزلت في أموال الفيء وهذه في الغنائم ، ومن يجعل أمر الغنائم والفيء راجعًا إلى رأي الإمام يقول : لا منافاة بين آية الحشر وبين التخميس إذا رآه الإمام والله أعلم.

فقوله تعالى : ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ﴾ توكيد لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيط وقوله : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾ اختلف المفسرون ههنا فقال بعضهم لله : نصيب من الخمس يجعل في الكعبة . عن أبي العالية الرياحي قال : كان رسول الله ﷺ يؤتى بالغنيمة فيخمسها على خمسة ، تكون أربعة أخماس لمن شهدها ، ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه ، فيأخذ منه الذي قبض كفه فيجعله للكعبة ، وهو سهم الله ، ثم يقسم ما بقي على خمسة ، فيكون سهم للرسول وسهم لذوي القربى وسهم لليتامى وسهم للمساكين وسهم لابن السبيل . وقال آخرون : ذكر الله ههنا استفتاح كلام للتبرك وسهم لرسوله عليه الصلاة والسلام . قال ابن عبّاس :

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٥٩ ، ١٦٠) وأحمد في مسنده (٥/٢٠٠) .

كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خمَّس الغنيمة ، فضرب ذلك الخمس في خمسة ثم قرأ ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ فأن لله خمسه مفتاح كلام ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ فجعل سهم الله وسهم الرسول ﷺ واحدًا . وهكذا قال إبراهيم النخعي والحسن بن محمّد ابن الحنفية والحسن البصري وقتادة ومغيرة وغير واحد : إن سهم الله ورسوله واحد . ويؤيد هذا ما روي عن عبد الله بن شقيق عن رجل قال : أتيت النبيّ ﷺ وهو بوادي القرى ، وهو يعرض فرسًا فقلت : يا رسول الله ما تقول في الغنيمة ؟ فقال : « لِلَّهِ خُمْسُهَا وَأَرْبَعَةُ أَخْمَاسِهَا لِلْجَيْشِ » قلت : فما أحد أولى به من أحد ؟ قال : « لاَ وَلاَ السَّهْمُ تَسْتَخْرِجُهُ مِنْ جَنْبِكَ لَيْسَ أَنْتَ أَحَقَّ بِهِ مِنْ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ » [1] .

وعن الحسن قال : أوصى أبو بكر بالخمس من ماله وقال : ألا أرضى من مالي بما رضي الله لنفسه [2] . ثم اختلف قائلو هذا القول ، فعن ابن عبّاس قال : كانت الغنيمة تخمَّس على خمسة أخماس فأربعة منها بين من قاتل عليها ، وخمس واحد يقسم على أربعة أخماس فربع لله وللرسول ﷺ فما كان لله وللرسول فهو لقرابة النبيّ ﷺ ولم يأخذ النبيّ ﷺ من الخمس شيئًا . وعن عبد الله ابن بريدة في قوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ قال : الذي لله فلنبيه ، والذي للرسول لأزواجه . وعن عطاء بن أبي رباح قال : خمس الله والرسول واحد يحمل منه ويصنع فيه ما شاء ، يعني النبيّ ﷺ وهذا أعم وأشمل ، وهو أنه ﷺ يتصرف في الخمس الذي جعله الله له بما شاء ، ويرده في أمته كيف شاء ، ويشهد لهذا ما روي عن المقدام بن معد يكرب الكندي أنه جلس مع عبادة بن الصامت وأبي الدرداء والحارث بن معاوية الكندي ﷺ فتذاكروا حديث رسول الله ﷺ فقال أبو الدرداء لعبادة : يا عبادة ، كلمات رسول الله ﷺ في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس ، فقال عبادة : إن رسول الله ﷺ صلى بهم في غزوة إلى بعير من المغنم ، فلما سلم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أنملتيه فقال : « إِنَّ هذِهِ مِنْ غَنَائِمِكُمْ وَإِنَّهُ لَيْسَ لِي فِيهَا إِلَّا نَصِيبِي مَعَكُمُ الخُمْسُ ، وَالخُمسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ ، فَأَدُّوا الخَيْطَ وَالمخيطَ ، وَأَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ وَأَصْغَرَ ، وَلاَ تَغِلُّوا ، فَإِنَّ الغُلُولَ عَارٌ وَنَارٌ عَلَى أَصْحَابِهِ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَجَاهِدُوا النَّاسَ في اللَّهِ القَرِيبَ وَالبَعِيدَ ، وَلاَ تُبَالُوا في اللَّهِ لَوْمَةَ لائِمٍ ، وَأَقِيمُوا حُدُودَ اللَّهِ في السَّفَرِ وَالحَضَرِ ، وَجَاهِدُوا في اللَّهِ ؛ فَإِنَّ الجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ عَظِيمٌ ، يُنْجِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الهَمِّ وَالغَمِّ » [3] . وعن عمرو بن عنبسة أن رسول الله ﷺ صلى بهم إلى بعير من المغنم فلما سلم أخذ وبرة من هذا البعير ثم قال : « وَلاَ يَحِلُّ لِي مِنْ غَنَائِمِكُمْ مِثْلُ هَذِهِ إِلَّا الخُمُس ، وَالخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ » [4] وقد كان للنبي ﷺ من الغنائم شيء يصطفيه لنفسه عبد أو أمة أو فرس أو سيف أو نحو ذلك ، وروى عن ابن عبّاس : أن رسول الله ﷺ تنفل سيفه

(١) ذكره البيهقي في السنن الكبرى (٣٢٤/٦) والهندي في كنز العمال (١٠٩٨٦) .
(٢) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٦/١٠) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٦/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٣٨/٥) .
(٤) أخرجه أبو داود في سننه (٢٧٥٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٣٩/٦) .

ذا الفقار يوم بدر ، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أُحد [(١)] وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كانت صفية من الصفى [(٢)] . وروي عن يزيد بن عبد الله قال : كنا بالمربد إذ دخل رجل معه قطعة أديم فقرأناها فإذا فيها « مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى بَنِي زُهَيْرِ بْنِ أُقَيْشٍ إِنَّكُمْ إِنْ شَهِدْتُمْ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه ، وَأَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ ، وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ ، وَأَدَّيْتُمُ الخُمُسَ مِنَ المَغْنَمِ ، وَسَهْمَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَسَهْمَ الصَّفِيِّ ؛ أَنْتُمْ آمِنُونَ بِأَمَانِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » فقلنا : من كتب لك هذا ؟ فقال : رسول الله ﷺ [(٣)] فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرير هذا وثبوته ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه . وقال آخرون : إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين ، كما يتصرف في مال الفيء . وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية رحمه الله : وهذا قول مالك وأكثر السلف وهو أصح الأقوال .

فإذا ثبت هذا وعلم فقد اختلف أيضًا في الذي كان يناله عليه الصلاة والسلام من الخمس ماذا يصنع به من بعده ؟ فقال قائلون : يكون لمن يلي الأمر من بعده ، روي هذا عن أبي بكر وعلي وقتادة وجماعة ، وقال آخرون : يصرف في مصالح المسلمين . وقال آخرون : بل هو مردود على بقية الأصناف ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، اختاره ابن جرير ، وقال آخرون : بل سهم النبيّ ﷺ وسهم ذوي القربى مردودان على اليتامي والمساكين وابن السبيل . عن قيس ابن مسلم : سألت الحسن بن محمّد ابن الحنفية رحمه الله تعالى عن قول الله تعالى ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾ فقال : هذا مفتاح كلام الله الدنيا والآخرة . ثم اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة رسول الله ﷺ فقال قائلون : سهم النبيّ ﷺ تسليمًا للخليفة من بعده . وقال آخرون : لقرابة النبيّ ﷺ وقال آخرون : سهم القرابة لقرابة الخليفة ، واجتمع رأيهم أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله ، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . قال الأعمش عن إبراهيم : كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبيّ ﷺ في الكراع والسلاح ، فقلت لإبراهيم : ما كان عليّ يقول فيه ؟ قال : كان أشدهم فيه . وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء ، رحمهم الله ، وأما سهم ذوي القربى فإنه يصرف إلى بني هاشم وبني المطلب ؛ لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام ودخلوا معهم في الشعب غضبًا لرسول الله ﷺ وحماية له : مسلمهم طاعة لله ولرسوله ، وكافرهم حمية للعشيرة وأنفة وطاعة لأبي طالب عم رسول الله ﷺ . وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل ، وإن كانوا بني عمهم فلم يوافقوهم على ذلك بل حاربوهم ونابذوهم ومالأوا بطون قريش على حرب الرسول ، ولهذا كان ذم أبي طالب لهم في قصيدته اللامية أشد من غيرهم لشدة قربهم ، ولهذا يقول في أثناء قصيدته :

جَزَى اللَّه عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلا ... عُقُوبَةَ شَرٍّ عَاجِلٍ غَيْرِ آجِلِ
بِمِيزَانِ قِسْطٍ لاَ يَخِيسُ شَعِيرَةً ... لَهُ شَاهِدٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرُ عَائِلِ

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٧٥٣). (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧١/١).
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٧٧/٥) وأبو داود في سننه (٢٩٩٩) والنسائي في سننه (٤١٤٦).

لَقَدْ سَفُهَتْ أَحْلامُ قَوْمٍ تَبَدَّلُوا بَنِي خَلَفٍ قَيْضًا بِنَا وَالعَيَاطِلِ
وَنَحْنُ الصَّمِيمُ مِنْ ذُؤَابَةِ هَاشِمٍ وَآلِ قُصَيٍّ فِي الخُطُوبِ الأَوَائِلِ

وقال جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل : مشيت أنا وعثمان بن عفان ، يعني ابن أبي العاص ابن أمية بن عبد شمس ، إلى رسول الله ﷺ فقلنا : يا رسول الله أعطيت بني المطلب من خمس خيبر وتركتنا ونحن وهم منك بمنزلة واحدة ؟ فقال : « إِنَّمَا بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو المُطَّلِبِ شَيْءٌ وَاحِدٌ » (١) . وفي بعض روايات هذا الحديث « إِنَّهُمْ لَمْ يُفَارِقُونَا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلاَ إِسْلاَمٍ » (٢) وهذا قول جمهور العلماء أنهم بنو هاشم وبنو المطلب . وقال آخرون : هم بنو هاشم ، ثم روي عن مجاهد قال : علم الله أن في بني هاشم فقراء فجعل لهم الخمس مكان الصدقة ، وفي رواية عنه قال : هم قرابة رسول الله ﷺ الذين لا تحل لهم الصدقة ، قال ابن جرير : بل هم قريش كلها . وعن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « رَغِبْتُ لَكُمْ عَنْ غُسَالَةِ الأَيْدِي ؛ لِأَنَّ لَكُمْ مِنْ خُمْسِ الخُمُسِ مَا يُغْنِيكُمْ أَوْ يَكْفِيكُمْ » (٣) . وقوله : ﴿ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ أي أيتام المسلمين ، واختلف العلماء هل يختص بالأيتام الفقراء أو يعم الأغنياء والفقراء ؟ على قولين ، والمساكين هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكنتهم ﴿ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ هو المسافر أو المريد للسفر إلى مسافة تقصر فيها الصلاة وليس له ما ينفقه في سفره ذلك .

وقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ أي امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل على رسوله . ولهذا جاء في حديث عبد الله بن عباس في حديث وفد عبد القيس أن رسول الله ﷺ قال لهم : « وَآمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ ، آمُرُكُمْ بِالإِيمَانِ بِاللَّه » - ثم قال : « تَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللَّه ؟ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وَأَنْ تُؤَدُّوا الخُمُسَ مِنَ المَغْنَمِ » (٤) فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان . وقال مقاتل بن حيان ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ﴾ أي في القسمة . وقوله : ﴿ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ينبه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه بما فرق به بين الحق والباطل ببدر ، ويسمى الفرقان ؛ لأن الله أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل ، وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه ، قال ابن عبّاس : ﴿ يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ﴾ يوم بدر ، فرق الله فيه بين الحق والباطل . وقال مجاهد : إنه يوم بدر ، وقال عروة بن الزبير : يوم فرق الله بين الحق والباطل ، وهو يوم بدر ، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ ، وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو سبع عشرة مضت من رمضان ، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذٍ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا ، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة ، فهزم الله المشركين وقتل منهم زيادة على السبعين ، وأسر منهم مثل ذلك ، وقد روي عن ابن مسعود قال في ليلة القدر : تحروها لإحدى

(١) أخرجه : أبو داود في السنن (٢٩٧٨) والبيهقي في السنن ١٤٩/٢ .
(٢) أخرجه النسائي في سننه (٤١٣٦) وأحمد في مسنده ٨١/٤ ، والطبراني في الكبير ١٤٧/٢ .
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٨٦/٣) .
(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٣ ، ٢٦) وأحمد في مسنده (٢٣/٣) .

عشرة يقين فإنَّ في صبيحتها يوم بدر [١] . وعن أبي عبد الرَّحمن السلمي قال : قال الحسن بن علي : كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان لسبع عشرة من رمضان [٢] .

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن يوم الفرقان ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾ أي إذ أنتم نزول بعدوة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة ﴿ وَهُم ﴾ أي المشركون نزول ﴿ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ ﴾ أي البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة ﴿ وَالرَّكْبُ ﴾ أي العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة ﴿ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ أي مما يلي سيف البحر ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ ﴾ أي أنتم والمشركون إلى مكان ﴿ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴾ عن عبد الله بن الزبير في هذه الآية قال : ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم ما لقيتموهم ﴿ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ أي ليقضي الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله من غير ملأ منكم ، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه . وفي حديث كعب بن مالك قال : إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد [٣] . وعن عمير بن إسحاق قال : أقبل أبو سفيان في الركب من الشام وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه فالتقوا ببدر ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء ، ولا هؤلاء بهؤلاء ، حتى التقى السقاة ونهد الناس بعضهم لبعض [٤] .

قال محمد بن إسحاق : ومضى رسول الله ﷺ على وجهه ذلك حتى إذا كان قريبًا من الصفراء بعث بَسْبَسَ بن عمرو وعديَّ بن أبي الزغباء الجهنيين يلتمسان الخبر عن أبي سفيان ، فانطلقا حتى إذا وردا بدرًا فأناخا بعيريهما إلى تل من البطحاء فاستقيا في شن لهما من الماء . فسمعا جاريتين تختصمان تقول إحداهما لصاحبتها : اقضيني حقي ، وتقول الأخرى : إنما تأتي العير غدًا أو بعد غد فأقضيك حقك ، فخلص بينهما مجدي بن عمرو وقال : صدقت ، فسمع بذلك بَسْبَس وعدي فجلسا على بعيريهما حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه الخبر ، وأقبل أبو سفيان حين وليا وقد حذر فتقدم أمام عيره وقال لمجدي بن عمرو : هل أحسست على هذا الماء من أحد تنكره ؟ فقال : لا والله ، إلَّا أني قد رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل فاستقيا من شن لهما ثم انطلقا ، فجاء أبو سفيان إلى مناخ بعيريهما فأخذ من أبعارهما ففته فإذا فيه النوى ، فقال : هذه والله علائف يثرب ، ثم رجع سريعًا فضرب وجه عيره فانطلق بها فساحل حتى إذا رأى أنه قد أحرز عيره بعث إلى قريش فقال : إن الله قد نجى عيركم وأموالكم ورجالكم فارجعوا ، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نأتي بدرًا – وكانت بدر سوقًا من أسواق العرب – فنقيم بها ثلاثًا فنطعم بها الطعام ، وننحر بها الجزر ،

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢٠/٣ .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٣/١٠) والسيوطي في الدر المنثور (٧٢/٤) .
(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤١٨) .
(٤) ذكره الطبري في تفسيره (١٦/١٠) .

ونسقي بها الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا ، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبدًا . فقال الأخنس بن شريق : يا معشر بني زهرة ، إن الله قد أنجى أموالكم ونجى صاحبكم فارجعوا ، فأطاعوه فرجعت بنو زهرة فلم يشهدوها ولا بنو عدي .

وبعث رسول الله ﷺ حين دنا من بدر علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام في نفر من أصحابه يتجسسون له الخبر ، فأصابوا سقاة لقريش غلامًا لبني سعيد بن العاص وغلامًا لبني الحجاج ، فأتوا بهما رسول الله ﷺ فوجدوه يصلي ، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يسألونهما لمن أنتما ؟ فيقولان : نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم من الماء ، فكره القوم خبرهما ، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما ، فلما أزلقوهما قالا : نحن لأبي سفيان فتركوهما ، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتين ثم سلم وقال : « إِذَا صَدَقَاكُمْ ضَرَبْتُمُوهُما ، وَإِذَا كَذَبَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا ! صَدَقَا وَاللهِ إِنَّهُما لِقُرَيْشٍ أَخْبَرَانِي عَنْ قُرَيْشٍ » قالا : هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى - والكثيب : العقنقل - فقال لهما رسول الله ﷺ : « كَمِ القَوْمُ » ؟ قالا : كثير . قال : « مَا عِدَّتُهُمْ ؟ » قالا : ما ندري ، قال : « كَمْ يَنْحَرُونَ كُلَّ يَوْمٍ ؟ » قالا : يومًا تسعًا ويومًا عشرًا . قال رسول الله ﷺ : « القَوْمُ مَا بَيْنَ التِّسْعِمائَةِ إِلَى الأَلْفِ » ثم قال لهما : « فَمَنْ فِيهِمْ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ ؟ » قالا : عتبة ابن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البختري بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدي بن نوفل ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وسهيل بن عمرو ، وعمرو بن عبد ود ، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال : « هَذِهِ مَكَّةُ قَدْ أَلْقَتْ إِلَيْكُمْ أَفْلاذَ كَبِدِهَا » (١) .

وقوله : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ قال محمّد بن إسحاق : أي ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة ، ويؤمن من آمن على مثل ذلك ، وهذا تفسير جيد . وبسط ذلك أنه تعالى يقول : إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد لينصركم عليهم ويرفع كلمة الحق على الباطل ، ليصير الأمر ظاهر والحجة قاطعة والبراهين ساطعة ، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة ، فحينئذٍ يهلك من هلك أي يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره إنه مبطل لقيام الحجة عليه ﴿ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ ﴾ أي يؤمن من آمن ﴿ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ أي حجة وبصيرة ، والإيمان هو حياة القلوب قال الله تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ وقالت عائشة ، في قصة الإفك : فهلك فيّ من هلك (٢) . أي قال فيها ما قال من البهتان والإفك . وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ ﴾ أي لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أي بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين .

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٤٣ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١٧/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٧٥/٦) والهندي في كنز العمال (٢٩٩٤١) .
(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٤١) .

﴿ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ .

قال مجاهد : أراهم الله إياه في منامه قليلًا وأخبر النبيّ ﷺ أصحابه بذلك فكان تثبيتًا لهم ، وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه رآهم بعينه التي ينام بها (١) ، وقوله : ﴿ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ ﴾ أي لجبنتم عنهم واختلفتم فيما بينكم ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾ أي من ذلك بأن أراكهم قليلًا ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي بما تكنه الضمائر وتنطوي عليه الأحشاء ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ : وقوله : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾ وهذا أيضًا من لطفه تعالى بهم إذ أراهم إياهم قليلًا في رأي العين فيجرؤهم عليهم ويطمعهم فيهم . عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي : تراهم سبعين ؟ قال : لا ، بل هم مائة ، حتى أخذنا رجلًا منهم فسألناه فقال : كنا ألفًا (٢) . وقوله : ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ عن عكرمة ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ ﴾ الآية ، قال : حضض بعضهم على بعض . وعن عبد الله بن الزبير في قوله تعالى ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ أي ليلقي بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه ، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته ، ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلًّا من الفريقين بالآخر ، وقلّله في عينه ليطمع فيه ، وذلك عند المواجهة ، فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه كما قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين فإن كلًّا منها حق وصدق ولله الحمد والمنة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

هذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾ عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللَّهَ العَافِيَةَ ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ » ثم قام النبي ﷺ وقال : اللَّهُمَّ مُنَزِّلَ الكِتَابِ ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ ، وَهَازِمَ الأَحْزَابِ ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ » (٣) .

وعن عطاء قال : وجب الإنصات وذكر الله عند الزحف ، ثم تلا هذه الآية ، قلت : يجهرون بالذكر ؟ قال : نعم . وعن عبد الله بن عباس قال : ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر ، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال ، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال فقال :

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٨/١٠) . (٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٩/١٠) .
(٣) أخرجه مسلم في الجهاد (٢٠) وأبو داود في سننه (٢٦٣١) والحاكم في المستدرك (٧٨/٢) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم فلا يفرّوا ولا ينكلوا ولا يجبنوا ، وأن يذكروا اللَّه في تلك الحال ولا ينسوه ، بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه ويسألوه النصر على أعدائهم ، وأن يطيعوا اللَّه ورسوله في حالهم ذلك ، فما أمرهم اللَّه تعالى به ائتمروا ، وما نهاهم عنه انزجروا ، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضًا فيختلفوا فيكون سببًا لتخاذلهم وفشلهم ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ أي قوتكم وحدتكم وما كنتم فيه من الإقبال ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ وقد كان للصحابة ﷺ في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم اللَّه ورسوله به ، وامتثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم ، ولا يكون لأحد ممن بعدهم ، فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب والأقاليم شرقًا وغربًا في المدة اليسيرة ، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الرّوم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم . قهروا الجميع حتى علت كلمة اللَّه وظهر دينه على سائر الأديان ، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة ، فرضي اللَّه عنهم وأرضاهم أجمعين وحشرنا في زمرتهم إنه كريم وهاب .

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره ، ناهيًا لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم : ﴿ بَطَرًا ﴾ أي : دفعًا للحق ﴿ وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ وهو المفاخرة والتكبرّ عليهم ، كما قال أبو جهل ، لما قيل له إن العير قد نجا فارجعوا ، فقال : لا واللَّه لا نرجع حتى نرد ماء بدر ، وننحر الجزر ، ونشرب الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبدًا ، فانعكس ذلك عليه أجمع ؛ لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحِمَام ، وركموا في أطواء بدر مهانين أذلاء ، صغرة أشقياء في عذاب سرمدي أبدي ؛ ولذا قال : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ أي عالم بما جاءوا به وله ، ولهذا جازاهم عليه شر الجزاء لهم . قال ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ قالوا : هم المشركون الذين قاتلوا رسول اللَّه ﷺ يوم بدر . وقال محمّد بن كعب : لما خرجت قريش من مكة إلى بدر ، خرجوا بالقيان والدفوف فأنزل اللَّه ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ﴾ الآية ، حسن لهم - لعنه اللَّه - ما جاءوا له وما همّوا به ، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس ، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر فقال : إني جار لكم ، وذلك أنه تبدى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم سيد بني مدلج كبير تلك الناحية

وكل ذلك منه ، كما قال تعالى عنه : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ قال ابن عبّاس في هذه الآية : لما كان يوم بدر سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين ، وألقى في قلوب المشركين أن أحدًا لن يغلبكم ، وإني جار لكم ، فلما التقوا ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة ﴿ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ قال : رجع مدبرًا ، وقال : ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ الآية ، وقال ابن عبّاس : جاء إبليس يوم بدر في جندٍ من الشياطين معه رايته في صورة رجل من بني مدلج في صورة سراقة بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين فولوا مدبرين ، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس ، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع يده ثم ولى مدبرًا وشيعته ، فقال الرجل : يا سراقة ، أتزعم أنك لنا جار فقال : ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ وذلك حين رأى الملائكة .

وعن طلحة بن عبيد الله بن كريز : أن رسول الله ﷺ قال : « مَا رُؤِيَ إِبْلِيسُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ وَلاَ أَحْقَرُ وَلاَ أَدْحَرُ وَلاَ أَغْيَظُ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَذَلِكَ مِمَّا يَرَى مِنْ نُزُولِ الرَّحْمَةِ وَالعَفْوِ عَنِ الذُّنُوبِ إِلَّا ما رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ » قالوا : يا رسول الله وما رأى يوم بدر ؟ قال : « أَمَّا إِنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ عليه السلام يَزَعُ المَلاَئِكَةَ » (١) .

وقوله : ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ قال ابن عبّاس في هذه الآية : لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين ، وقلّل المشركين في أعين المسلمين ، فقال المشركون : غرَّ هؤلاء دينهم وإنما قالوا ذلك من قلّتهم في أعينهم ، فظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك فقال الله : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ وقال قتادة : رأوا عصابة من المؤمنين تشددت لأمر الله ، وذكر لنا أن أبا جهل عدو الله لما أشرف على محمّد ﷺ وأصحابه قال : والله لا يعبد الله بعد اليوم قسوة وعتوًّا . وقال ابن جريج في قوله : ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ : هم قوم كانوا من المنافقين بمكة قالوه يوم بدر ، وقال مجاهد : في قوله ﷻ : ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ قال : فئة من قريش : قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب وعلي بن أمية بن خلف والعاص بن منبه بن الحجاج خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم ، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : غرَّ هؤلاء دينهم ، حتى قدموا على ما قدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم . وقوله : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي يعتمد على جنابه ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أي لا يضام من التجأ إليه ، فإن الله عزيز منيع الجناب عظيم السلطان ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في أفعاله لا يضعها إلّا في مواضعها ، فينصر من يستحق النصر ، ويخذل من هو أهل لذلك .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠ ذَٰلِكَ

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٤٢٢/١) ويزع الملائكة أي يعبّيهم ويصفهم للقتال .

قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ .

يقول تعالى : ولو عاينت يا محمّد ، حال توفي الملائكة أرواح الكفار لرأيت أمرًا عظيمًا هائلًا فظيعًا منكرًا ، إذ يضربون وجوههم وأدبارهم ويقولون لهم : ذوقوا عذاب الحريق . قال ابن عبّاس : إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف ، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة يضربون أدبارهم . وقال مجاهد في قوله : ﴿ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ يوم بدر ، وعن سعيد بن جبير ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ قال : وأستاههم ، ولكنَّ اللّه يكني . وعن الحسن البصري قال : قال رجل : يا رسول اللّه : إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشوك ، قال : « ذَاكَ ضَرْبُ المَلَائِكَةِ » وهذا السياق وإن كان سببه وقعة بدر ولكنه عام في حق كل كافر ؛ ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر ، بل قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ وفي سورة الأنعام قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ أي باسطوا أيديهم بالضرب فيهم بأمر ربهم إذا استصعبت أنفسهم وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهرًا ، وذلك إذا بشروهم بالعذاب والغضب من اللّه ، كما في حديث البراء : أن ملك الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة يقول : اخرجي أيتها النفس الخبيثة إلى سموم وحميم وظل من يحموم ، فتتفرق في بدنه فيستخرجونها من جسده كما يخرج السفود من الصوف المبلول (١) ، فتخرج معها العروق والعصب ، ولهذا أخبر تعالى أن الملائكة تقول لهم : ذوقوا عذاب الحريق .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي : هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا ، جازاكم اللّه بها هذا الجزاء ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أي لا يظلم أحدًا من خلقه ، بل هو الحكم العدل الذي لا يجور تبارك وتعالى وتقدّس وتنزه الغني الحميد ، ولهذا جاء في الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول اللّه ﷺ « إن اللّه تعالى يقول : يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا ، فَلاَ تَظَالَمُوا ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لكم ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللّه ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ » (٢) ولهذا قال تعالى :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ .

يقول تعالى : فعل هؤلاء من المشركين المكذبين بما أرسلت به يا محمّد كما فعل الأمم المكذبة قبلهم ، ففعلنا بهم ما هو دأبنا أي عادتنا وسنتنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل ، الكافرين بآيات اللّه ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي بسبب ذنوبهم أهلكهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أي : لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٢٨٨) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٥) وأحمد في مسنده (٢/٤٥) .

ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ وقوله : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ أي : كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته أهلكهم بسبب ذنوبهم ، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون وزروع وكنوز ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، وما ظلمهم الله في ذلك بل كانوا هم الظالمين .

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

أخبر تعالى أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون ، الذين كلما عاهدوا عهدًا نقضوه ، وكلما أكدوه بالأيمان نكثوه ﴿ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ أي لا يخافون من الله في شيء ارتكبوه من الآثام ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ ﴾ أي تغلبهم وتظفر بهم في حرب ﴿ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ أي نكل بهم ، قاله ابن عباس والحسن البصري ومعناه : غلظ عقوبتهم وأثخنهم قتلًا ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم ، ويصيروا لهم عبرة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ وقال السدي : لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك .

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ ﴾ قد عاهدتهم ﴿ خِيَانَةً ﴾ أي نقضًا لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود ﴿ فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي عهدهم ﴿ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ أي أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم ، وهم حرب لك ، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء ، أي تستوي أنت وهم في ذلك .

وعن الوليد بن مسلم أنه قال في قوله تعالى : ﴿ فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ : أي : على مهل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ أي : حتى ولو في حق الكفار لا يحبها أيضًا . عن سليم بن عامر قال : كان معاوية يسير في أرض الروم ، وكان بينه وبينهم أمد ، فأراد أن يدنو منهم فإذا انقضى الأمد غزاهم ، فإذا شيخ على دابة يقول : الله أكبر ، الله أكبر وفاء لا غدرًا ، إن رسول الله ﷺ قال : « وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلاَ يَحُلَّنَّ عُقْدَةً وَلاَ يَشُدَّهَا حَتَّى يَنْقَضِيَ أَمَدُهَا ، أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ » قال فبلغ ذلك معاوية فرجع ، فإذا بالشيخ عمرو بن عنبسة [(١)] وعن سلمان الفارسي ﷺ أنه انتهى إلى حصن أو مدينة فقال لأصحابه : دعوني أدعوهم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعوهم فقال : إنما كنت رجلًا منكم فهداني الله ﷻ للإسلام ، فإن أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم فأدوا الجزية وأنتم صاغرون ، وإن أبيتم نابذناكم على سواء ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله » [(٢)] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١١/٤) وأبو داود في السنن (٢٧٥٩) والترمذي في السنن (١٥٨٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٠/٥) .

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ﴾ يا محمّد ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ﴾ أي فاتونا فلا نقدر عليهم ، بل هم تحت قهر قدرتنا وفي قبضة مشيئتنا فلا يعجزوننا ، كقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي يظنون ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة فقال : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم ﴾ أي مهما أمكنكم ﴿ مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ . عن أبي علي ثمامة بن شفي أخي عقبة بن عامر أنه سمع عقبة بن عامر يقول : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول وهو على المنبر : « ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ أَلاَ إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ ، إِلَّا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ » [١] وروي عن رسول اللَّه ﷺ قال : « ارْمُوا وَارْكَبُوا ، وَأَنْ تَرْمُوا خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا » [٢] وعن أبي هريرة ﷺ : أن رسول اللَّه ﷺ قال : « الخَيْلُ لِثَلاثَةٍ ، لِرَجُلٍ أَجْرٌ ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ ، وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ ؛ فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا في سَبِيلِ اللَّه ، فَأَطَالَ لَهَا في مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ ، فَمَا أَصَابَتْ في طِيَلِهَا ذَلِكَ مِنَ المَرْجِ أَوِ الرَّوْضَةِ ؛ كَانَتْ لَهُ حَسَنَات ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيَلَهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ ؛ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يُسْقَى بِهِ ؛ كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ ، فَهِيَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ أَجْرٌ ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغَنِّيًا وَتَعَفُّفًا وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّه في رِقَابِهَا وَلاَ ظُهُورِهَا ؛ فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَنِوَاءً ؛ فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وِزْرٌ » [٣] وسئل رسول اللَّه ﷺ عن الحمر فقال : « مَا أَنْزَلَ اللَّه عَلَيَّ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا هَذِهِ الآيَةَ الجَامِعَةَ الفَاذَّةَ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [٤] .

وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل ، وذهب الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل من الرمي ، وقول الجمهور أقوى للحديث ، واللَّه أعلم . وعن ابن شماسة أن معاوية ابن خديج مر على أبي ذر هو قائم عند فرس له فسأله ما تعاني من فرسك هذا ؟ فقال : إني أظن أن هذا الفرس قد استجيب له دعوته . قال : وما دعاء بهيمة من البهائم ؟ قال : والذي نفسي بيده ما من فرس إلّا وهو يدعو كل سحر فيقول : اللهم أنت خولتني عبدًا من عبادك ، وجعلت رزقي بيده ، فاجعلني أحب إليه من أهله وماله وولده [٥] . وعن عروة بن أبي الجعد البارقي أن رسول اللَّه ﷺ قال : « الخَيْلُ مَعْقُودٌ في نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ الأَجْرُ وَالمَغْنَمُ » [٦]

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٦٧) وأحمد في مسنده (١٥٧/٤) والترمذي في جامعه (٣٠٨٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٨/٤) والبيهقي في السنن الكبرى (١٣/١٠ ، ١٤) .
(٣) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٦٠) وأحمد في مسنده (٢٦٢/٢) ومالك في الموطأ (٤١٤/٢) .
(٤) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٦٠) ومسلم في الزكاة (٢٤ ، ٢٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٨٢/٤) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٢/٥) .
(٦) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣١١٩) ومسلم في الزكاة (٢٦) وأحمد في مسنده (٤٩/٢) .

وقوله : ﴿ تُرۡهِبُونَ ﴾ أي تخوفون ﴿ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ ﴾ أي من الكفار ﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ ﴾ قال مجاهد : يعني بني قريظة ، وقال السدي : فارس ، وقال سفيان الثوري : قال ابن يمان : هم الشياطين التي في الدور . وقال مقاتل بن حيان ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المنافقون ، وهذا أشبه الأقوال ويشهد له قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ ﴾ . وقوله : ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴾ أي مهما أنفقتم في الجهاد فإنه يُوَفَّى إليكم على التمام والكمال .

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦١ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ .

يقول تعالى : إذا خفت من قوم خيانة فانبذ إليهم عهدهم على سواء ، فإن استمروا على حربك ومنابذتك فقاتلهم ﴿ وَإِن جَنَحُواْ ﴾ أي : مالوا ﴿ لِلسَّلۡمِ ﴾ أي المسالمة والمصالحة والمهادنة ﴿ فَٱجۡنَحۡ لَهَا ﴾ أي فمل إليها واقبل منهم ذلك ، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر . وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّهُ سَيَكُونُ اخْتِلَافٌ أَوْ أَمْرٌ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَكُونَ السِّلْمُ فَافْعَلْ » (١) وقال مجاهد : نزلت في بني قريظة ، وهذا فيه نظر ؛ لأن السياق كله في وقعة بدر ، وذكرها مكتنف لهذا كله ، وقال ابن عبّاس ومجاهد وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني وعكرمة والحسن وقتادة : إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ الآية ، وفيه نظر أيضًا لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك ، فأما إن كان العدو كثيفًا فإنه يجوز مهادنتهم كما دلّت عليه هذه الآية الكريمة ، وكما فعل النبيّ ﷺ يوم الحديبية فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ أي صالحهم وتوكل على الله فإن الله كافيك وناصرك ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقووا ويستعدوا ﴿ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ ﴾ أي كافيك وحده ، ثم ذكر نعمته عليه بما أيّده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار فقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ ﴾ أي جمعها على الإيمان بك وعلى طاعتك ومناصرتك وموازرتك ﴿ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ ﴾ أي لما كان بينهم من العداوة والبغضاء ، فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية بين الأوس والخزرج ، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان كما قال تعالى : ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ وفي الحديث : أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين قال لهم : « يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضلالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِي ، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي » كلما

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٩٠) .

قال شيئًا قالوا : الله ورسوله أمنّ [١] ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عزيز الجناب فلا يخيب رجاء من توكل عليه ، حكيم في أفعاله وأحكامه .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول : ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ الآية ، قال : هم المتحابون في الله ، وفي رواية : نزلت في المتحابين في الله [٢] ، وعن ابن عبّاس قال : إن الرحم لتقطع ، وإن النعمة لتكفر ، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء ثم قرأ ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [٣] .

وعن سلمان الفارسي أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ المُسْلِمَ إِذَا لَقِيَ أَخَاهُ المُسْلِمَ فَأَخَذَ بِيَدِهِ تَحَاتَّتْ عَنْهُمَا ذُنُوبُهُمَا كَمَا تَحَاتُّ الوَرَقُ عَنِ الشَّجَرَةِ اليَابِسَةِ فِي يَوْمِ رِيحٍ عَاصِفٍ ، وَإِلَّا غَفَرَ لَهُمَا ذُنُوبَهُمَا وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البِحَارِ » [٤] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ .

يحرض تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران ، ويخبرهم أنه حسبهم أي كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم ، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم ، ولو قل عدد المؤمنين . قال الشعبي في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ حسبك الله وحسب من شهد معك . ولهذا قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ ﴾ أي حثّهم وذمر عليهم ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرض على القتال عند صفهم ومواجهة العدو كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في عَدَدِهم وعُدَدِهم : « قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ » فقال عمير بن الحمام : عرضها السموات والأرض ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نَعَمْ » فقال : بخ بخ فقال : « مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ ؟ » قال : رجاء أن أكون من أهلها قال : « فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا » فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن ثم ألقى بقيتهن من يده وقال : لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة ، ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه [٥] . وقد روي عن سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير أن هذه الآية نزلت حين أسلم عمر بن الخطاب وكمل به الأربعون ، وفي هذا نظر لأن هذه الآية مدنية وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى أرض الحبشة وقبل الهجرة إلى المدينة ، والله أعلم .

ثم قال تعالى مبشرًا للمؤمنين وآمرًا : ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٣٩) وأحمد في مسنده (٣/٥٧) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٣٢٩) . (٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٣٢٨) .
(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٦/٣١٥) والهندي في كنز العمال (٥٣٦٢) .
(٥) أخرجه مسلم في الإمارة (١٤٥) وأحمد في مسنده (٣/١٣٦) والحاكم في المستدرك (٣/٤٢٦) .

﴿ مِائَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ كل واحد بعشرة ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة . قال عبد الله ابن المبارك : عن ابن عبّاس قال : لما نزلت ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ﴾ شق ذلك على المسلمين حتى فرض الله عليهم أن لا يفر واحد من عشرة ثم جاء التخفيف فقال : ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ﴾ قال : خفف الله عنهم من العدة ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم [1]. وعن ابن عبّاس في هذه الآية قال : كتب عليهم أن لا يفر عشرون من مائتين ثم خفف الله عنهم فقال : ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ فلا ينبغي لمائة أن يفروا من مائتين [2] وعن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله : ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ﴾ قال : نزلت فينا أصحاب محمد ﷺ .

﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وعن أنس رضي الله عنه قال : استشار النبيّ ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر فقال : « إِنَّ اللَّه قَدْ أَمْكَنَكُمْ مِنْهُمْ » فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبيّ ﷺ ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّه قَدْ أَمْكَنَكُم مِنْهُمْ وَإِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ بِالأَمْسِ » فقام عمر فقال : يا رسول الله اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبيّ ﷺ ، ثم عاد النبيّ ﷺ فقال للناس مثل ذلك فقام أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه ، فقال : يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء ، قال : فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم فعفا عنهم وقبل منهم الفداء ، قال : وأنزل الله عز وجل : ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [3] . وعن أبي عبيدة عن عبد الله قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ : « مَا تَقُولُونَ فِي هَؤُلَاءِ الأَسَارَى ؟ » فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر : يا رسول الله كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم ، وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، أنت في واد كثير الحطب فاضرم الوادي عليهم نارًا ثم ألقهم فيه ، قال : فسكت رسول الله ﷺ فلم يرد عليهم شيئًا ، ثم قام فدخل ، فقال ناس يأخذ بقول أبي بكر ، وقال ناس : يأخذ بقول عمر ، وقال ناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة ، ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : « إِنَّ اللَّه لَيُلَيِّنُ قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّى تَكُونَ أَلْيَنَ مِنَ اللَّبَنِ ، وَإِنَّ اللَّه لَيُشَدِّدُ قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ حَتَّى تَكُونَ أَشَدَّ مِنَ الحِجَارَةِ ، وَإِنَّ مَثَلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ كَمَثَلِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام قَالَ : ﴿ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وَإِنَّ مَثَلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ كَمَثَلِ عيسى عليه السلام قَالَ : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وَإِنَّ مَثَلَكَ يَا عُمَرَ كَمَثَلِ مُوسَى عليه السلام قَالَ : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٥٣) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٥٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٣/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٨٧/٦) .

فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وَإِنَّ مَثَلَكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ نُوحٍ عليه السلام قَالَ : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ أَنْتُمْ عَالَةٌ فَلَا يَنْفَكَنَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا بِفِدَاءٍ أَوْ ضَرْبَةِ عُنُقٍ » قال ابن مسعود : قلت : يا رسول الله إلّا سهيل بن بيضاء فإنه يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله ﷺ فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع عليّ حجارة من السماء مني في ذلك اليوم ، حتى قال رسول الله ﷺ : « إِلَّا سُهَيْلَ بْنَ بَيْضَاءَ » فأنزل الله ﷻ ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ ﴾ إلى آخر الآية (١) .

وعن ابن عبّاس ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ . قال : غنائم بدر قبل أن يحلها لهم ، يقول : لولا أني لا أعذب من عصاني حتى أتقدم إليه لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ، وقال الأعمش : سبق منه أن لا يعذب أحدًا شهد بدرًا ، وقال مجاهد : ﴿ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ ﴾ أي لهم بالمغفرة ، وقال ابن عبّاس : يعني في أم الكتاب الأول أن المغانم والأسارى حلال لكم ﴿ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ ﴾ من الأساري ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ الآية . وكذا روي عن ابن عبّاس ، وعن أبي هريرة وابن مسعود أن المراد ﴿ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ ﴾ لهذه الأمة بإحلال الغنائم وهو اختيار ابن جرير رحمه الله ، ويستشهد لهذا القول بما روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأُحِلَّتْ لِي الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً » (٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَمْ تَحِلَّ الغَنَائِمُ لِسُودِ الرُّؤُوسِ غَيْرِنَا » (٣) ولهذا قال تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ الآية ، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء ، وعن ابن عبّاس : أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة (٤) ، وقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء أن الإمام مخيّر فيهم إن شاء قتل كما فعل ببني قريظة ، وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر ، أو بمن أسر من المسلمين كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع حيث ردهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين ، وإن شاء استرقّ من أسر . هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٠ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

عن عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر : « إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ أُنَاسًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَغَيْرِهِمْ قَدْ أُخْرِجُوا كَرْهًا لَا حَاجَةَ لَهُمْ بِقِتَالِنَا ، فَمَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدًا مِنْهُمْ - أَيْ مِنْ بَنِي

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٨٣) والهندي في كنز العمال (٢٩٨٧٨) .
(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٣٨) ومسلم في المساجد (٣) وأحمد في مسنده (٣/٣٠٤) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٥٢) والترمذي في جامعه (٣٠٨٥) .
(٤) أخرجه أبو داود في سننه (٢٦٩١) .

هَاشِمٍ - فَلاَ يَقْتُلْهُ ، وَمَنْ لَقِيَ البُخْتُرِيَّ بْنِ هِشَامٍ فَلاَ يَقْتُلْهُ ، وَمَنْ لَقِيَ العَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ فَلاَ يَقْتُلْهُ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا أَخرِجَ مُسْتَكْرَهًا » فقال أبو حذيفة بن عتبة : أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرنا ونترك العباس ؟! ، والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف ! ، فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب : « يَا أَبَا حَفْصٍ » قال عمر : والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ أبا حفص «أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف ؟ » فقال عمر : يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه ، فوالله لقد نافق ، فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك : والله ما آمن من تلك الكلمة التي قلت ولا أزال منها خائفًا إلَّا أن يكفرها الله تعالى عني بشهادة ، فقتل يوم اليمامة شهيدًا ﷺ(١) . وبه عن ابن عبّاس قال لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر والأسارى محبوسون بالوثاق بات رسول الله ﷺ ساهرًا أول الليل فقال له أصحابه : يا رسول الله ما لك لا تنام ؟ - وقد أسر العباسَ رجلٌ من الأنصار - فقال رسول الله ﷺ : « سَمِعْتُ أَنِينَ عَمِّي العَبَّاسِ فِي وَثَاقِهِ فَأَطْلِقُوهُ » فسكت ، فنام رسول الله ﷺ (٢) . قال محمّد بن إسحاق : وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب وذلك أنه كان رجلًا موسرًا فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهبًا .

وفي الحديث عن أنس بن مالك أن رجالًا من الأنصار قالوا : يا رسول الله ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه ، قال : « لاَ وَاللَّهِ لاَ تَذَرُونَ مِنْهُ دِرْهَمًا » (٣) .

وعن ابن عباس قال : قال العباس : فيَّ نزلت ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فأخبرت النبيّ ﷺ بإسلامي وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي أخذت مني فأبى ، فأبدلني الله بها عشرين عبدًا ، كلهم تاجر ، مالي في يده (٤) . ﴿ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ ﴾ إيمانًا وتصديقًا يخلف لكم خيرًا مما أخذ منكم ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ الشرك الذي كنتم عليه ، قال : فكان العباس يقول : ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا وإن لي الدنيا لقد قال : ﴿ يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ ﴾ ، فقد أعطاني خيرًا مما أخذ مني مائة ضعف ، وقال : ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ وأرجو أن يكون قد غفر لي .

فقال قتادة في تفسير هذه الآية : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ لما قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفًا وقد توضأ لصلاة الظهر ، فما أعطى يومئذٍ شاكيًا ولا حرم سائلًا ، وما صلى يومئذٍ حتى فرّقه ، فأمر العباس أن يأخذ منه ويحتثي فكان العباس يقول : هذا خير مما أخذ منا وأرجو المغفرة . وعن حميد بن هلال قال : بعث ابن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ من البحرين ثمانين ألفًا ما أتاه مال أكثر منه لا قبل ولا بعد . قال فنثرت على حصير ونودي بالصلاة ، قال : وجاء رسول الله ﷺ فمثل قائمًا على المال ، وجاء أهل المسجد ، فما كان يومئذٍ عدد ولا وزن ما كان إلَّا فيضًا ، وجاء العباس بن

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٢٣/٣) . (٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٨٩/٩) .
(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠١٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٥/٦) .
(٤) ذكره الطبري في تفسيره ٦٤/١٠ .

عبد المطلب فحثا في خميصة عليه وذهب يقوم فلم يستطع ، قال : فرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : ارفع علي ، قال : فتبسم رسول الله ﷺ حتى خرج ضاحكه أو نابه ، وقال له : « أَعِدْ مِنَ المَالِ طَائِفَةً وَقُمْ بِمَا تُطِيقُ » قال : ففعل وجعل العباس يقول : وهو منطلق أما إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا ، وما ندري ما يصنع في الأخرى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ ﴾ الآية ، ثم قال : هذا خير مما أخذ منا ، وما أدري ما يصنع الله في الأخرى ، فما زال رسول الله ﷺ ماثلًا على ذلك المال حتى ما بقي منه درهم ، وما بعث إلى أهله بدرهم ، ثم أتى الصلاة فصلى .

وقوله : ﴿ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ ﴾ أي ﴿ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ ﴾ فيما أظهروا لك من الأقوال ﴿ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل بدر بالكفر به ﴿ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ أي بالأسارى يوم بدر ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عليم بفعله حكيم فيه . قال قتادة : نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح الكاتب حين ارتد ولحق بالمشركين ، وقال ابن جريج عن ابن عبّاس : نزلت في عباس وأصحابه حين قالوا : لننصحن لك على قومنا ، وفسرها السدي على العموم ، وهو أشمل وأظهر ، والله أعلم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

ذكر تعالى أصناف المؤمنين وقسمهم إلى مهاجرين خرجوا من ديارهم وأموالهم وجاءوا لنصر الله ورسوله وإقامة دينه ، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك ، وإلى أنصار وهم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم ، وواسوهم في أموالهم ، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم فهؤلاء ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ أي كل منهم أحق بالآخر من كل أحد ، ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار كل اثنين أخوان ، فكانوا يتوارثون بذلك إرثًا مقدمًا على القرابة ، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث . عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَالطُّلَقَاءُ مِنْ قُرَيْشٍ وَالعُتَقَاءُ مِنْ ثَقِيفٍ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ » (١) . وعن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ ، وَالطُّلَقَاءُ مِنْ قُرَيْشٍ وَالعُتَقَاءُ مِنْ ثَقِيفٍ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » (٢) . وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه فقال : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ الآية ، وأحسن ما قيل في قوله : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾ أي لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم ، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار ، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء لا يختلفون في ذلك ، عن حذيفة قال : خيّرني

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٣/٤) والطبراني في المعجم الكبير (٣٥٠/٢) والهندي في كنز العمال (٣٤١٠٦) .
(٢) أخرجه الطبراني في المعحم الكبير (٢٣١/١٠) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٥/١٠) .

رسول الله ﷺ بين الهجرة والنصرة فاخترت الهجرة (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم ﴾ قرأ حمزة ﴿ وِلايتهم ﴾ بالكسر والباقون بالفتح وهما واحد كالدَّلالة والدِّلالة (٢) ﴿ مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾ هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا بل أقاموا في بواديهم فهؤلاء ليس لهم في المغانم نصيب ، ولا في خمسها إلَّا ما حضروا فيه القتال ، كما روي عن يزيد بن الخصيب الأسلمي ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميرًا على سرية أو جيش أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرًا ، وقال : « اغزُوا بِاسْم اللَّه في سَبِيلِ اللَّه ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّه ، إِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ المُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلاَثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلاَلٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ ، وَكُفَّ عَنْهُمْ : ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ . ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ المُهَاجِرِينِ ، وأَعْلِمْهم إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ أَنْ لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وأَنَّ عَلَيْهم مَا عَلَى المُهَاجِرين ، فَإِن أَبَوا واخْتَارُوا دَارَهم ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ المُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّه الَّذِي يَجْرِي عَلَى المُؤْمِنِينَ ، وَلاَ يَكُونُ لَهُمْ فِي الفَيْءِ وَالغَنِيمَةِ نَصِيبٌ ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ المُسْلِمِينَ . فَإِنْ هُمْ أَبَوْا ، فَادْعُهُمْ إِلَى إِعْطَاءِ الجِزْيَةِ ، فَإِنْ أَجَابُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ، فَإِنْ أَبَوْا ، فَاسْتَعِنْ بِاللَّه وَقَاتِلْهُمْ » (٣) . وقوله : ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ ﴾ الآية ، يقول تعالى : وإن استنصركم هؤلاء الأعراب الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدو لهم فانصروهم ، فإنه واجب عليكم نصرهم لأنهم إخوانكم في الدين ، إلَّا أن يستنصروكم على قوم من الكفار بينكم وبينهم ميثاق أي مهادنة إلى مدة ، فلا تخفروا ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم . وهذا مروي عن ابن عباس ﷺ .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ .

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض قطع الموالاة بينهم وبين الكفار ، كما ورد عن أسامة عن النبيّ ﷺ قال : « لاَ يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ ، وَلاَ يَرِثُ مُسْلِمٌ كَافِرًا وَلاَ كَافِرٌ مُسْلِمًا » ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (٤) . قلت : والحديث من رواية أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ يَرِثُ المُسْلِمُ الكَافِرَ ، وَلاَ الكَافِرُ المُسْلِمَ » (٥) . وعن الزهري أن رسول الله ﷺ أخذ على رجل دخل في الإسلام فقال : « تُقِيمُ الصَّلاَةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَحُجُّ البَيْتَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ ، وَإِنَّكَ لاَ تَرَى نَارَ مُشْرِكٍ إِلَّا وَأَنْتَ لَهُ

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير(٣/١٦٤) والبزار في مسنده(٢٧١٨) والهيثمي في مجمع الزوائد(٦/٦٥) .

(٢) قرأ حمزة(ولايتهم) هنا وفي الكهف(هنالك الولاية) بكسر الواو فيها ،(وافقه الكسائي وخلف في الكهف) والباقون بفتح الواو فيهما(تقريب النشر ص ١١٩) .

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد(٣) وأحمد في مسنده(٤/٢٤٠) وأبو داود في سننه(٢٦١٣) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده(٢/١٧٨) والترمذي في السنن(٢١٠٨) والحاكم في المستدرك(٢/٢٤٠) .

(٥) أخرجه البخاري في الفرائض(٦٧٦٤) ومسلم في الفرائض(١) وأحمد في مسنده(٥/٢٠٠) .

حَرْبٌ »(١) وعن سمرة بن جندب : أما بعد قال رسول الله ﷺ : « مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ »(٢) ثم روي عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَزَوِّجُوهُ ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ »(٣) ومعنى قوله : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ أي : إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين ، وإلَّا وقعت فتنة في الناس وهو التباس الأمر واختلاط المؤمنين بالكافرين ، فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا عطف بذكر ما لهم في الآخرة فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان وأنه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب إن كانت ، وبالرزق الكريم وهو الحسن الكثير الطيب الشريف دائم مستمر أبدًا لا ينقطع ولا ينقضي ولا يسأم ولا يمل لحسنه وتنوعه . ثم ذكر أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة كما قال : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ الآية ، وفي الحديث المتفق عليه بل المتواتر من طرق صحيحة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ »(٤) وفي الحديث الآخر « وَمَنْ أَحَبَّ قَوْمًا فَهُوَ مِنْهُمْ » وفي رواية : « حُشِرَ مَعَهُمْ »(٥) . وأما قوله : ﴿ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ أي في حكم الله وليس المراد بقوله : ﴿ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة الذين لا فرض لهم ولا هم عصبة ، بل يدلون بوارث كالخالة والخال والعمة وأولاد البنات وأولاد الأخوات ونحوهم كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية ، ويعتقد ذلك صريحًا في المسألة ، بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات ، كما نص عليه ابن عبَّاس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولًا ، وعلى هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص ، ومن لم يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديث « إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلاَ وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ »(٦) قالوا : فلو كان ذا حق لكان ذا فرض في كتاب الله مسمى ، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثًا ، والله أعلم .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٢/١) .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٢٧٨٧) والهندي في كنز العمال (١١٠٢٩) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه (١٩٦٧) والحاكم في المستدرك (١٦٩/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٦٨) ومسلم في البر والصلة (١٦٥) وأحمد في مسنده (٣٩٢/١) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٣/٤) والطبراني في المعجم الكبير (٣٥٠/٢) والهندي في كنز العمال (٣٤١٠٦) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٨/٤) وأبو داود في سننه (٢٨٧٠) وابن ماجه في سننه (٢٧١٣) والترمذي في سننه (٢١٢٠) .

سورة التوبة

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ عن البراء بن عازب يقول : آخر آية نزلت ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾ وآخر سورة نزلت براءة [١] وإنما لم يبسمل في أولها ؛ لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام ، بل اقتدوا في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه ، وعن ابن عبّاس قال : قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين وقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطول ما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان : كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وخشيت أنها منها ، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطول [٢] .

وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهمّ بالحج ، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك ، وأنهم يطوفون بالبيت عراة ، فكره مخالطتهم ، وبعث أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه أميرًا على الحجّ تلك السنة ليقيم للناس مناسكهم ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا ، وأن ينادي في الناس ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغًا عن رسول الله ﷺ لكونه عصبة له كما سيأتي بيانه . فقوله تعالى : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ أي هذه براءة أي تبرؤ من الله ورسوله : ﴿ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ اختلف المفسّرون ههنا اختلافًا كثيرًا فقال قائلون : هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة ، أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر ، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان لقوله تعالى : ﴿ فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ الآية ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته ، وهذا أحسن الأقوال وأقواها ، وقال ابن عباس في قوله ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ الآية ، قال : حدَّ الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحون في الأرض حيث شاءوا ، وأجّل أجل من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى سلخ المحرم فذلك خمسون ليلة ، فأمر الله نبيه إذا انسلخ المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد بقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام ، وأمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر أن يضع فيهم السيف أيضًا حتى يدخلوا في الإسلام .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٥٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٥٧/١ ، والحاكم في المستدرك ٣٣٠/٢ ، والترمذي في السنن (٣٠٨٦) .

وقال مجاهد : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ إلى أهل العهد خزاعة ومدلج ومن كان له عهد أو غيرهم ، فقفل رسول اللَّه ﷺ من تبوك حين فرغ ، فأراد رسول اللَّه ﷺ الحج ثم قال : « إِنَّمَا يَحْضُرُ المُشْرِكُونَ فَيَطُوفُونَ عُرَاةً ، فَلاَ أُحِبُّ أَنْ أَحُجَّ حَتَّى لاَ يَكُونَ ذَلِكَ » فأرسل أبا بكر وعليًا رضي الله عنهما فطافا بالناس في ذي المجاز وبأمكنتهم التي كانوا يتبايعون بها وبالمواسم كلها ، فآذنوا أصحاب العهد بأن يأمنوا أربعة أشهر فهي الأشهر المتواليات ، عشرون من ذي الحجة إلى عشر يخلون من ربيع الآخر ، ثم لا عهد لهم ، وآذن الناس كلهم بالقتال إلَّا أن يؤمنوا .

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

يقول تعالى وإعلام ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ وتقدم وإنذار إلى الناس ﴿ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكبرها جميعًا ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ﴾ أي بريء منهم أيضًا ، ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال : ﴿ فَإِن تُبْتُمْ ﴾ أي مما أنتم فيه من الشرك والضلال ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي استمررتم على ما أنتم عليه ﴿ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ﴾ بل هو قادر عليكم وأنتم في قبضته وتحت قهره ومشيئته ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي في الدنيا بالخزي والنكال ، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال . عن أبي هريرة قال : بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوفنّ بالبيت عريان . قال حميد : ثم أردف النبيّ ﷺ بعلي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن ببراءة ، قال أبو هريرة فأذّن معنا علي في أهل منى يوم النحر ببراءة ، وأن لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . وعن حميد بن عبد الرّحمن أن أبا هريرة قال : بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى ألا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان (١) ، ويوم الحج الأكبر يوم النحر وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس الحج الأصغر ، فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول اللَّه ﷺ مشرك (٢) .

وعن أبي هريرة قال : كنت مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول اللَّه ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فقال : ما كنتم تنادون ؟ قال : كنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلَّا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول اللَّه ﷺ عهد فإن أجله أو مدته إلى أربعة أشهر ، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن اللَّه بريء من المشركين ورسوله ، ولا يحجّ هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك ، قال : فكنت أنادي حتى صحل صوتي (٣) .

وعن علي رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ حين بعثه ببراءة قال : يا نبي اللَّه إني لست باللسن ولا بالخطيب قال : « لاَ بُدَّ لِي أَنْ أَذْهَبَ بِهَا أَنَا ، أَوْ تَذْهَبَ بِهَا أَنْتَ » قال : فإن كان لابد فسأذهب أنا ، قال : « انْطَلِقْ فَإِنَّ اللَّهَ يُثَبِّتُ لِسَانَكَ وَيَهْدِي قَلْبَكَ » قال : ثم وضع يده على فيه (٤) .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٥٥) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٥٦) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٩٩) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١/١٥٠) والهندي في كنز العمال (٤٤٠١) .

وعن عطاء قال : يوم الحج الأكبر يوم عرفة . وعن شهاب بن عباد البصري عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : هذا يوم عرفة ، هذا يوم الحج الأكبر فلا يصومنه أحد . وروي عن ابن عبّاس وعبد الله بن الزبير ومجاهد وعكرمة وطاوس أنهم قالوا : يوم عرفة يوم الحج الأكبر ، وقد ورد فيه حديث عن ابن مخرمة أن رسول الله ﷺ خطب يوم عرفة فقال : « هَذَا يَوْمُ الحَجِّ الأَكْبَرَ » (١) .

والقول الثاني : أنه يوم النحر ، روي عن علي ﷺ قال : يوم الحج الأكبر يوم النحر . وقال عبد الله بن أبي أوفى : يوم الحج الأكبر يوم النحر ، وعن ابن عبّاس أنه قال : الحج الأكبر يوم النحر . وعن ابن عمر قال : وقف رسول الله ﷺ يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال : « هَذَا يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ » (٢) .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت ، فأجله أربعة أشهر يسيح في الأرض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء ، إلّا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها ، وقد تقدمت الأحاديث ، ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته ، وذلك بشرط أن لا ينقض المعاهد عهده ولم يظاهر على المسلمين أحدًا ، أي يمالئ عليهم من سواهم ، فهذا الذي يوفي له بذمته وعهده إلى مدته ، ولهذا حرض تعالى على الوفاء بذلك فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي الموفين بعهدهم .

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم ههنا ما هي ؟ فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة في قوله تعالى : ﴿ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ الآية ، وقال ابن جرير : آخر الأشهر الحرم في حقهم المحرم ، وهذا الذي ذهب إليه حكاه علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس ، وإليه ذهب الضحاك أيضًا وفيه نظر ، والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عبّاس في رواية العوفي عنه ، أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها بقوله : ﴿ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ ثم قال : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾ أي إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمنا عليكم فيها قتالهم وأجلناهم فيها ، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم ؛ لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر .

وقوله : ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ أي من الأرض وهذا عام والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله : ﴿ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ﴾ . وقوله : ﴿ وَخُذُوهُمْ ﴾ أي وأسروهم إن شئتم قتلًا وإن شئتم أسرًا . وقوله : ﴿ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ أي لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم ، بل اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم ، والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع وتضطروهم إلى القتل أو

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٧٤٢) وابن ماجه في سننه (٣٠٥٨) والبيهقي في السنن الكبرى (١٢٥/٥) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٣١/٢ وأبو داود في (١٩٤٥) .

الإسلام ؛ ولهذا قال : ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ولهذا اعتمد الصدِّيق ﷺ في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها ، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال ، وهي الدخول في الإسلام والقيام بأداء واجباته ، ونبه بأعلاها على أدناها ، فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلاة التي هي حق الله ﷻ، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج ، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين ، ولهذا كثيرًا ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة . وقد جاء عن ابن عمر ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ » (١) وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومن لم يزك فلا صلاة له . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة ، وقال : يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه ! .

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه ، فَإِذَا شَهِدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه ، وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا ، وَأَكَلُوا ذَبِيحَتَنَا ، وَصَلَّوْا صَلاَتَنَا فَقَدْ حُرِمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا ، لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ » (٢) . وعن الربيع بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَى الإِخْلاَصِ لِلَّه وَحْدَهُ وَعِبَادَتِهِ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا فَارَقَهَا وَاللَّه عَنْهُ رَاضٍ » (٣) قال : وقال أنس : هو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء ، وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما أنزل ، قال الله تعالى : ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ قال : توبتهم خلع الأوثان وعبادة ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ثم قال في آية أخرى : ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ ، وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم إنها نسخت كل عهد بين النبيّ ﷺ وبين أحد من المشركين ، وكل عقد ، وكل مدة ، وقال ابن عبّاس في هذه الآية : لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة منذ نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم ، ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل براءة أربعة أشهر من يوم أذّن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر . وقال : أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام ، ونقض ما كان سمى لهم من العهد والميثاق ، وأذهب الشرط الأول . وعن علي بن أبي طالب بعث النبيّ ﷺ بأربعة أسياف : سيف في المشركين من العرب ، قال الله تعالى : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ ، وأظن أن السيف الثاني هو قتال أهل الكتاب لقوله تعالى : ﴿ قَٰتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ والسيف الثالث : قتال المنافقين في قوله : ﴿ يَٰأَيُّهَا النَّبِيُّ جَٰهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَٰفِقِينَ ﴾ الآية . والرابع : قتال الباغين في قوله : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٥) ومسلم في الإيمان (٣٤) وأحمد في مسنده (٣/١٩٩) .
(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٥) ومسلم في الإيمان (٣٤) وأحمد في مسنده (٣/١٩٩) .
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٣٣٢) والهندي في كنز العمال (٢٧٨) .

﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ ثم اختلف المفسرون في آية السيف هذه فقال الضحاك والسدي : هي منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ وقال قتادة بالعكس .

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الذين أمرتك بقتالهم ، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿ ٱسْتَجَارَكَ ﴾ : أي استأمنك فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله ، أي القرآن تقرؤه عليه وتذكر له شيئًا من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله ﴿ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾ ، أي وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ ، أي إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عباده . ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشدًا أو في رسالة ، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش منهم عروة ابن مسعود ومكرز بن حفص وسهيل بن عمرو وغيرهم ، واحدًا بعد واحد يترددون في القضية بينه وبين المشركين ، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر ، فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك ، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم . ولهذا أيضًا قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له : أتشهد أن مسيلمة رسول الله ؟ قال : نعم ، فقال رسول الله ﷺ : « لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ » (١) وقد قيض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة ، وكان يقال له : ابن النواحة ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة ، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له : إنك الآن لست في رسالة وأمر به فضربت عنقه لا رحمه الله ولعنه . والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب ، وطلب من الإمام أو نائبه أمانًا ، أعطي أمانًا ما دام مترددًا في دار الإسلام ، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه ، لكن قال العلماء : لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة ، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر ، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء رحمهم الله .

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

يبيّن تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر ، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا فقال تعالى : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ ﴾ أي أمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله ، كافرون به وبرسوله ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ يعني يوم الحديبية كما قال تعالى : ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾ الآية . ﴿ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ﴾ أي مهما تمكسوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون ، استمر

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٢٧٦١) والحاكم في المستدرك (١٤٢/٢) .

العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست ، إلى أن نقضت قريش العهد ومالأوا حلفاءهم وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ فقتلوهم معهم في الحرم أيضًا ، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان ففتح الله عليه البلد الحرام ومكّنه من نواصيهم ولله الحمد والمنة ، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسمُّوا الطلقاء ، وكانوا قريبًا من ألفين ، ومن استمر على كفره وفرَّ من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر يذهب حيث شاء ، ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما ، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام ، والله المحمود على جميع ما يقدِّره ويفعله .

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .

يقول تعالى محرضًا للمؤمنين على معاداتهم والتبري منهم ، ومبيِّنًا أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله ﷺ ، ولأنهم لو ظهروا على المسلمين وأديلوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا ، ولا راقبوا فيهم إلًّا ولا ذمة . قال ابن عبّاس : الإلّ القرابة ، والذمة العهد .

وقال مجاهد : الإل : الله ، وفي رواية : لا يرقبون الله ولا غيره . عن أبي مجلز في قوله تعالى ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ مثل قوله : جبريل ميكائيل إسرافيل ، كأنه يقول : لا يرقبون الله ، والقول الأول أظهر وأشهر وعليه الأكثر . وعن مجاهد أيضًا : الإلّ : العهد . وقال قتادة : الإلّ : الحلف .

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ۝ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى ذمًّا للمشركين وحثًّا للمؤمنين على قتالهم ﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ يعني أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة ﴿ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي منعوا المؤمنين من اتباع الحق ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ تقدم تفسيره ، وكذا الآية التي بعدها ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ إلى آخرها تقدمت . وعن الربيع بن أنس قال : سمعت أنس بن مالك يقول : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَى الإِخْلاصِ للهِ وَعِبَادَتِهِ لاَ يُشْرِكُ بِهِ ، وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وآتَى الزَّكَاةَ ، فَارَقَهَا واللهُ عَنْهُ رَاضٍ » (١) وهو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء ، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ فَإِن تَابُوا ﴾ يقول فإن خلعوا الأوثان وعبادتها ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ وقال في آية أخرى ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ .

﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ .

يقول تعالى وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم ، أي عهودهم

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٣٢/٢) والهندي في كنز العمال (٢٧٨) .

ومواثيقهم ﴿ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ أي عابوه وانتقصوه ، ومن ههنا أخذ قتل من سبَّ الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، أو من طعن في دين الإسلام أو ذكره بنقص ، ولهذا قال : ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ أي يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال . وقد قال قتادة وغيره : أئمة الكفر كأبي جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف وعدَّد رجالًا ، والصحيح أن الآية عامة وإن كان سبب نزولها مشركي قريش فهي عامة لهم ولغيرهم ، والله أعلم .

﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وهذا أيضًا تهييج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم الذين هموا بإخراج الرسول من مكة كما قال تعالى : ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ قيل : المراد بذلك يوم بدر حين خرجوا لنصر عيرهم ، فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجههم طلبًا للقتال بغيًا وتكبرًا كما تقدم بسط ذلك ، وقيل : المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ ، حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح وكان ما كان ولله الحمد والمنة . وقوله : ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ يقول تعالى لا تخشوهم واخشون ، فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوبتي ، فبيدي الأمر ، وما شئت كان وما لم أشأ لم يكن ، ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين وبيانًا لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد ، مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ وهذا عام في المؤمنين كلهم ، وقال مجاهد وعكرمة والسدي في هذه الآية : ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ يعني خزاعة ، وأعاد الضمير في قوله : ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ عليهم أيضًا . وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا غضبت أخذ بأنفها وقال : « يَا عُوَيْشُ قُولِي : اللَّهُمَّ رَبَّ النَّبِيِّ مُحَمَّد اغفِرْ ذَنْبِي ، وَأَذْهِبْ غَيْظَ قَلْبِي ، وَأَجِرْنِي مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ » (١) . ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي من عباده ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أي بما يصلح عباده ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية ، فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وهو العادل الحاكم الذي لا يجور أبدًا ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر ، بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ أيها المؤمنون أن نترككم مهملين لا نختبركم بأمور يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب ؟ ولهذا قال : ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ أي بطانة ودخيلة ، بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله ، فاكتفى بأحد القسمين عن الآخر .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٢/٦) والهندي في كنز العمال (١٨٤٠٩) .

وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾ الآية ، والحاصل : أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد بيَّن أن له فيه حكمة ، وهو اختبار عبيده من يطيعه ممن يعصيه ، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، فيعلم الشيء قبل كونه ، ومع كونه على ما هو عليه ، لا إله إلَّا هو ولا رب سواه ، ولا راد لما قدَّره وأمضاه .

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ .

يقول تعالى ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له ، ومن قرأ ﴿ مسْجِدَ ٱللَّهِ ﴾ (١) فأراد به المسجد الحرام أشرف المساجد في الأرض ، الذي بني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له ، وأسَّسه خليل الرحمن ، هذا وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر أي بحالهم ومقالهم ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ أي بشركهم ﴿ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ فشهد تعالى بالإيمان لعمَّار المساجد كما روي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالإِيمَانِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ » (٢) . وعن معاذ بن جبل أن النبيّ ﷺ قال : « إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الإِنْسَانِ كَذِئْبِ الْغَنَمِ يَأْخُذُ الشَّاةَ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ ، فَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَابِ وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالْعَامَّةِ وَالْمَسْجِدِ » (٣) .

وقوله : ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي التي هي أكبر عبادات البدن ﴿ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أي التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق . وقوله : ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أي ولم يخفف إلَّا من الله تعالى ولم يخش سواه ﴿ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ قال ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ يقول : من وحّد الله وآمن باليوم الآخر يقول من آمن بما أنزل الله ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ يعني الصلوات الخمس ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ يقول لم يعبد إلَّا الله ، ثم قال : ﴿ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ يقول تعالى إن أولئك هم المفلحون كقوله لنبيه ﷺ : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ وهي الشفاعة ، وكل عسى في القرآن فهي واجبة ، وقال محمّد ابن إسحاق بن يسار رحمه الله : وعسى من الله حق .

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ مسجد الله ﴾ وقرأ الباقون ﴿ مساجد ﴾ (انظر تقريب النشر ص : ٣١٦) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٨/٣) وابن ماجه في سننه (٨٠٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٦٦/٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٣/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٣/٢) والهندي في كنز العمال (١٠٢٦) .

وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

قال ابن عبّاس في تفسير هذه الآية : إن المشركين قالوا : عمارة بيت الله وقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد ، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره ، فذكر الله استكبارهم وإعراضهم فقال لأهل الحرم من المشركين : ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ يعني أنهم كانوا يستكبرون بالحرم قال : ﴿ بِهِ سَامِرًا ﴾ كانوا يسمرون به ويهجرون القرآن والنبي ﷺ ، فخيَّر الله الإيمان والجهاد مع النبيّ ﷺ على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية ، ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به ، وإن كانوا يعمرون بيته ويحرمون به . قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ يعني الذين زعموا أنهم أهل العمارة فسماهم الله ظالمين بشركهم فلن تغن عنهم العمارة شيئًا .

وقال ابن عبّاس في تفسير هذه الآية : قد نزلت في العباس بن عبد المطلب حين أسر ببدر قال : لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي ونفك العاني ، قال الله ﷻ : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ يعني أن ذلك كله كان في الشرك ، ولا أقبل ما كان في الشرك . وقال الضحاك بن مزاحم : أقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أسروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك ، فقال العباس : أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونفك العاني ونحجب البيت ونسقي الحاج ، فأنزل الله ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ﴾ الآية . وعن الشعبي قال : نزلت في علي والعباس ﵄ بما تكلما في ذلك . وعن الحسن قال : نزلت في علي وعباس وشيبة تكلموا في ذلك فقال العباس : ما أراني إلا أني تارك سقايتنا ، فقال رسول الله ﷺ : « أَقِيمُوا عَلَى سِقَايَتِكُمْ فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا خَيْرًا » (١) .

وعن النعمان بن بشير الأنصاري قال : كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه ، فقال رجل منهم : ما أبالي أن لا أعمل لله عملًا بعد الإسلام إلَّا أن أسقي الحاج ، وقال آخر : بل عمارة المسجد الحرام ، وقال آخر : بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم ، فزجرهم عمر بن الخطاب ﵁ ، وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه ، قال : ففعل ، فأنزل الله ﷻ ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

أمر تعالى بمباينة الكفار به وإن كانوا آباء أو أبناء ، ونهى عن موالاتهم إن استحبوا أي اختاروا

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٠/١٢٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٢٦٩) .

الكفر على الإيمان ، وتوعد على ذلك . وروي الحافظ البيهقي من حديث عبد الله بن شوذب قال : جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله ، فأنزل الله فيه هذه الآية ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (١) الآية . ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله فقال ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ أي اكتسبتموها وحصلتموها ﴿ وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا ﴾ أي تحبونها لطيبها وحسنها أي إن كانت هذه الأشياء ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾ أي فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم ولهذا قال : ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

وعن زهرة بن معبد عن جده قال : كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال : والله يا رسول الله لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيء إلَّا من نفسي ، فقال رسول الله ﷺ : « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ » . فقال عمر : فأنت الآن والله أحب إليّ من نفسي ، فقال رسول الله ﷺ : « الآنَ يَا عُمَرُ » (٢) . وفي الحديث أنه قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » (٣) وعن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِذا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ ، وَأَخَذْتُمْ بِأَذْنَابِ البَقَرِ ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ ، وَتَرَكْتُمُ الجِهَادَ ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لاَ يَنْزَعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ » (٤) .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

قال ابن جريج عن مجاهد : هذه أول آية نزلت من براءة يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله ، وأن ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره ، لا بعددهم ولا بُعددهم ، ونبههم على أن النصر من عنده سواء قل الجمع أو كثر ، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئًا ، فولوا مدبرين إلَّا القليل منهم مع رسول الله ﷺ ، ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه كما سنبينه إن شاء الله تعالى مفصلًا ، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قل الجمع فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين وعن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ ، وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعَةٌ ، وَخَيْرُ الجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلاَفٍ ، وَلَنْ تُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ » (٥) .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن ٢٧/٩ .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٦/٤) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٢٣/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (١٤) والنسائي في سننه (٥٠١٥) .
(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٣٤٦٢) وأحمد في مسنده ٤٢/٢ .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٤/١) وأبو داود في سننه (٢٦١١) والترمذي في سننه (١٥٥٥) والحاكم في المستدرك (٤٤٣/١) .

وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة ، وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة وتمهدت أمورها وأسلم عامة أهلها وأطلقهم رسول الله ﷺ ، فبلغه أن هوزان جمعوا له ليقاتلوه ، وأن أميرهم مالك بن عوف النضري ، ومعه ثقيف بكمالها ، وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بني هلال وهم قليل ، وناس من بني عمرو بن عامر وعون بن عامر ، وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم ، وجاءوا بقضهم وقضيضهم ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء في ألفين ، فسار بهم إلى العدو فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له : حنين ، فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح ، انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن ، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم ، ورشقوا بالنبال وأصلتوا السيوف وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم ، فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين كما قال الله ﷻ ، وثبت رسول الله ﷺ وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو ، والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر يثقلانها لئلا تسرع السير ، وهو ينوه باسمه - عليه الصلاة والسلام - ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول : « إِلَيَّ عِبَادَ اللَّه ، إِلَيَّ أَنَا رَسُولُ اللَّه » . ويقول في تلك الحال : « أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ » (١) . وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ومنهم من قال ثمانون ، فمنهم أبو بكر وعمر ﵄ والعباس وعلي والفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد وغيرهم ﷺ ، ثم أمر ﷺ عمّه العباس - وكان جهير الصوت - أن ينادي بأعلى صوته : يا أصحاب الشجرة - يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على أن لا يفروا عنه - فجعل ينادي بهم : يا أصحاب السمرة ، ويقول تارة : يا أصحاب سورة البقرة ، فجعلوا يقولون : يا لبيك يا لبيك ، وانعطف الناس فتراجعوا إلى رسول الله ﷺ ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ ، فلما اجتمعت شرذمة منهم عند رسول الله ﷺ أمرهم - عليه الصلاة والسّلام - أن يصدقوا الحملة ، وأخذ قبضة من تراب بعدما دعا ربه واستنصره ، وقال : « اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لي مَا وَعَدْتَني » (٢) ثم رمى القوم بها فما بقي إنسان منهم إلَّا أصابه منها في عينيه وفمه ما شغله عن القتال ، ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون ، وما تراجع بقية الناس إلَّا والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله ﷺ .

وعن أبي عبد الرّحمن الفهري واسمه يزيد بن أسيد ويقال يزيد بن أنيس ويقال كرز قال : كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة حنين ، فسرنا في يوم قائظ شديد الحر ، فنزلنا تحت ظلال الشجر ، فلما زالت الشمس لبست لأمتي وركبت فرسي ، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ وهو في فسطاطه ، فقلت : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته حان الرواح ؟ فقال : « أَجَلْ »

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٩٣٠) ومسلم في الجهاد (٧٨ ، ٧٩) وأحمد في مسنده (٢٦٤/١) .
(٢) أخرجه مسلم في الجهاد (٥٨) .

فقال « يَا بِلَالُ » فثار من تحت سمرة كأن ظلها ظل طائر ، فقال : لبيك وسعديك وأنا فداؤك ، فقال : «أَسْرِجْ لِي فَرَسِي » فأخرج سرجًا دفتاه من ليف ليس فيهما أشر ولا بطر ، قال : فأسرج فركب وركبنا فصافقناهم عشيتنا وليلتنا ، فتشامت الخيلان ، فولى المسلمون مدبرين ، كما قال الله تعالى ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « يَا عِبَادَ اللَّهِ أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ » ثم قال : «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ » قال : ثم اقتحم عن فرسه فأخذ كفًّا من تراب ، فأخبرني الذي كان أدنى إليه مني أنه ضرب به وجوههم وقال : « شَاهَتِ الْوُجُوهُ » فهزمهم الله تعالى . قال يعلى بن عطاء : فحدثني أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا : لم يبق منا أحد إلَّا امتلأت عيناه وفمه ترابًا ، وسمعنا صلصلة بين السماء والأرض كإمرار الحديد على الطست الجديد [1] .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما أن رجلًا قال له : يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين ؟ فقال : لكن رسول الله ﷺ لم يفر ، إن هوازن كانوا قومًا رماة ، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا ، فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهام فانهزم الناس ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلته البيضاء ، وهو يقول : «أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِب ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِب » [2] قلت : وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة ، أنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه وهو مع هذا على بغلة وليست سريعة الجري ولا تصلح لفر ولا لكر ولا لهرب ، وهو مع هذا أيضًا يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين ، وما هذا كله إلَّا ثقة بالله وتوكلًا عليه ، وعلمًا منه بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الأديان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ أي طمأنينته وثباته على رسوله ﴿ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي الذين معه ﴿ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ وهم الملائكة .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين رجلًا من المهاجرين والأنصار قدمنا ولم نولهم الدبر ، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة ، قال : ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضي قدمًا ، فحادت بغلته فمال عن السرج ، فقلت : ارتفع رفعك الله ، قال : « نَاوِلْنِي كَفًّا مِنَ التُّرَابِ » . فناولته ، قال : فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم ترابًا ، قال : « أَيْنَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ ؟ » قلت : هم هناك ، قال : « اهْتِفْ بِهِمْ » فهتفت بهن فجاءوا وسيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب ، وولى المشركون أدبارهم [3] .

وعن شيبة بن عثمان قال : لما رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين قد عرى ، ذكرت أبي وعمي وقتل علي وحمزة إياهما ، فقلت : اليوم أدرك ثأري منه ، قال : فذهبت لأجيئه عن يمينه ، فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائمًا عليه درع بيضاء كأنها فضة يكشف عنها العجاج فقلت : عمه ولن يخذله ، قال : فجئته عن يساره ، فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فقلت : ابن عمه ولن يخذله ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٠/٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٠٦/٦) .
(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣٠) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٤/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٠/٦) .

قال : فجئته من خلفه فلم يبق إلّا أن أسوره سورة بالسيف إذ رفع لي شواظ من نار بيني وبينه كأنه برق فخفت أن يخمشني ، فوضعت يدي على بصري ومشيت القهقرى فالتفت رسول الله ﷺ وقال : « يَا شَيْبَةُ يَا شَيْبَةُ ادْنُ مِنِّي اللَّهُمَّ أَذْهِبْ عَنْهُ الشَّيْطَانَ » . قال : فرفعت إليه بصري ولهو أحب إليّ من سمعي وبصري فقال : « يَا شَيْبَةُ قَاتِلِ الكُفَّارَ » (١) .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ ، وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ » (٢) ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ وقوله : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قد تاب الله على بقية هوازن فأسلموا وقدموا عليه مسلمين ، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة ، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يومًا ، فعند ذلك خيّرهم بين سبيهم وبين أموالهم فاختاروا سبيهم وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة فردّه عليهم ، وقسم الأموال بين الغانمين ، ونفل أناسًا من الطلقاء لكي يتألف قلوبهم على الإسلام فأعطاهم مائة مائةً من الإبل ، وكان من جملة من أعطى مائة مالك بن عوف النضري واستعمله على قومه كما كان فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها :

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلاَ سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ ... فِي النَّاسِ كُلِّهِمُ بِمِثْلِ مُحَمَّدِ
أَوْفَى وَأَعْطَى لِلْجَزِيلِ إِذَا اجْتَدَى ... وَمَتَى يَشَأْ يُخْبِرْكَ عَمَّا فِي غَدِ
وَإِذَا الكَتِيبَةُ عَرَّدَتْ أَنْيَابَهَا ... بِالسَّمْهَرِيِّ وَضَرْبِ كُلِّ مُهَنَّدِ
فَكَأَنَّهُ لَيْثٌ عَلَى أَشْبَالِهِ ... وَسْطَ المَبَاءَةِ خَادِرٌ فِي مَرْصَدِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٨ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ .

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين دينًا وذاتًا بنفي المشركين الذين هم نجس دينًا عن المسجد الحرام ، وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية ، وكان نزولها في سنة تسع ، ولهذا بعث رسول الله ﷺ عليًّا صحبة أبي بكر رضي الله عنهما عامئذٍ ، وأمره أن ينادي في المشركين أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، فأتم الله ذلك وحكم به شرعًا وقدرًا . وقد روي عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ يَدْخُلُ مَسْجِدَنَا بَعْدَ عَامِنَا هَذَا مُشْرِكٌ إِلَّا أَهْلُ العَهْدِ وَخَدَمُهُمْ » (٣) .

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي : كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين وأتبع نهيه قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ .

وقال عطاء : الحرم كله مسجد لقوله تعالى : ﴿ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ ﴾

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٢٦/٣) . (٢) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٨) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٢/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٤) .

ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك ، كما ورد في الصحيح : « المؤمن لا ينجس »(١) وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات ؛ لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب ، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم ، وقال أشعث عن الحسن : من صافحهم فليتوضأ .

وقوله : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ قال محمّد بن إسحاق : وذلك أن الناس قالوا : لتقطعن عنا الأسواق ولتهلكن التجارة وليذهبن عنا ما كنا نصيب فيها من المرافق ، فأنزل الله ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ من وجه غير ذلك ﴿ إِن شَآءَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ أي هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق ، فعوضهم الله مما قطع أمر الشرك ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ أي بما يصلحكم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أي فيما يأمر به وينهى عنه ، لأنه الكامل في أفعاله وأقواله ، العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى ، وهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة .

وقوله تعالى : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمّد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ، ولا بما جاءوا به ، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه لا لأنه شرع الله ودينه ؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيمانًا صحيحًا لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمّد ﷺ ؛ لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمروا باتباعه ، فلما جاء وكفروا به وهو أشرف الرسل ، علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين ؛ لأنه من عند الله ، بل لحظوظهم وأهوائهم ، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم ، ولهذا قال : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجًا ، واستقامت جزيرة العرب ، أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى ، وكان ذلك في سنة تسع ، ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم ، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم فأوعبوا معه ، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفًا ، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم وكان ذلك في عام جدب ووقت قيظ وحر ، وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم ، فبلغ تبوك ، فنزل بها وأقام بها قريبًا من عشرين يومًا ، ثم استخار الله في الرجوع فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس ، كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله تعالى . وقد استدل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب أو من أشبههم كالمجوس ، كما صح فيهم الحديث : أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر (٢) . وهذا مذهب الشافعي وأحمد في المشهور عنه . وقال أبو حنيفة رحمه الله : بل تؤخذ من جميع الأعاجم سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ، ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب . وقال الإمام مالك : بل

(١) أخرجه : أبو داود في السنن (٢٣٠) وابن ماجه في السنن (٥٣٤) والنسائي في السنن ١/٥١ .
(٢) أخرجه البخاري في الجزية والموادعة (٣١٥٧) .

يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي ومجوسي ووثني وغير ذلك .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ ﴾ أي إن لم يسلموا ﴿ عَن يَدٍ ﴾ أي عن قهر لهم وغلبة ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أي ذليلون حقيرون مهانون ، فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين ، بل هم أذلاء صغرة أشقياء ، كما جاء عن أبي هريرة ﷺ أن النبيّ ﷺ قال : « لاَ تَبْدَأُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالسَّلاَمِ ، وَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُمْ إِلَى أَضْيَقِهِ » (١) ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم ، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال : كتبت لعمر بن الخطاب ﷺ حين صالح نصارى من أهل الشام : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين ، من نصارى مدينة كذا وكذا ، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا ، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديرًا ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ، ولا نجدد ما خرب منها ، ولا نحيي منها ما كان خططًا للمسلمين ، وأن لا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار ، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل ، وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم ، ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوسًا ، ولا نكتم غشًّا للمسلمين ، ولا نعلم أولادنا القرآن ، ولا نظهر شركًا ولا ندعوا إليه أحدًا ، ولا نمنع أحدًا من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام وإن أرادوه ، وأن نوقر المسلمين وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ، ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتني بكناهم ، ولا نركب السروج ولا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئًا من السلاح ولا نحمله معنا ، ولا ننقش خواتيمنا بالعربية ، ولا نبيع الخمور ، وأن نجز مقاديم رؤوسنا ، وأن نلزم زينا حيثما كنا ، وأن نشد الزنانير على أوساطنا ، وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا ، وأن لا نظهر صلبنا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلَّا ضربًا خفيفًا ، وأن لا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ، ولا نخرج شعانين ولا بعوثًا ، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ، وأن نرشد المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم . قال : فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه ولا نضرب أحدًا من المسلمين ، شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان ، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم ووظفنا على أنفسنا ، فلا ذمة لنا ، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقالتهم هذه المقالة الشنيعة ،

(١) أخرجه مسلم في السلام (١٣) وأحمد في مسنده (٢/٢٦٦) والترمذي في سننه (١٦٠٢) .

والفرية على الله تعالى ، فأما اليهود فقالوا في العزير إنه ابن الله ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا .

وأما ضلال النصارى في المسيح فظاهر ، ولهذا كذَّب الله سبحانه الطائفتين فقال : ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ أي لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلاقهم ﴿ يُضَٰهِـُٔونَ ﴾ أي يشابهون ﴿ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء ﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ قال ابن عبّاس : لعنهم الله ﴿ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أي كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل ؟

وقوله : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ . روي عن عدي بن حاتم ﷺ أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرّ إلى الشام وكان قد تنصّر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ، ثم منَّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ ، فقدم عدي إلى المدينة وكان رئيسًا في قومه طيئ ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم ، فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال فقلت : إنهم لم يعبدوهم فقال : « بلى إِنَّهُمْ حَرَّمُوا عَلَيْهِم الحَلالَ وَأَحَلوا لَهُم الحَرَامَ فَاتَّبَعُوهُمْ فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ » وقال رسول الله ﷺ : « يَا عَدِيُّ مَا تَقُولُ ؟ أَيَضُرُّكَ أَنْ يُقَالَ : اللَّهُ أَكْبَرُ ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ شَيْئًا أَكْبَرَ مِنَ اللَّه ، مَا يَضُرُّكَ ، أَيَضُرُّكَ أَنْ يُقَالَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه ، فَهَلْ تَعْلَمُ إِلهًا غَيْرَ اللَّه ؟ » (١) ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق ، قال : فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال : « إن اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون » (٢) وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام ، وما حلله فهو الحلال ، وما شرعه اتبع ، وما حكم به نفذ ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تعالى وتقدّس وتنزّه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد ، لا إله إلّا هو ولا رب سواه .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ .

يقول تعالى يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ ﴾ أي ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق بمجرد جدالهم وافترائهم ، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس أو نور القمر بنفخة ، وهذا لا سبيل إليه ، فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لابد أن يتم ويظهر ؛ ولهذا قال تعالى مقابلًا لهم فيما راموه وأرادوه : ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ والكافر هو الذي يستر الشيء ويغطيه ، ومنه سمي الليل كافرًا ؛ لأنه يستر الأشياء ، والزارع كافرًا ؛ لأنه يغطي الحب في الأرض كما قال : ﴿ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ فالهدى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع ، ودين الحق هو الأعمال الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ أي على سائر الأديان ، كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِنَّ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٨/٤) .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٩٩/١٧) .

اللَّهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا » (١) وعن مسعود بن قبيصة أو قبيصة بن مسعود يقول : صلى هذا الحي من محارب الصبح ، فلما صلوا قال شاب منهم : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّهُ سَتُفْتَحُ لَكُمْ مَشَارِقُ الأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا ، وَإِنَّ عُمَّالَهَا فِي النَّارِ إِلَّا مَنِ اتَّقَى اللَّهَ وَأَدَّى الأَمَانَةَ » (٢) . عن تميم الداري ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَلاَ يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ هَذَا الدِّين ، يُعِزُّ عَزِيزًا وَيُذِلُّ ذَلِيلاً ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الإِسْلاَمَ ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الكُفْرَ » (٣) .

وعن عدي بن حاتم : دخلت على رسول الله ﷺ فقال : « يَا عَدِيُّ أَسْلِمْ تَسْلَمْ » . فقلت : إني من أهل دين قال : « أَنَا أَعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ » فقلت : أنت أعلم بديني مني ؟ قال : « نَعَمْ أَلَسْتَ مِنَ الرَّكُوسِيَّةِ وَأَنْتَ تَأْكُلُ مِرْبَاعَ قَوْمِكَ ؟ » قلت : بلى ! قال : « فَإِنَّ هَذَا لاَ يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ » قال : فلم يعد أن قالها فتواضعت لها ، قال : « أَمَا إِنِّي أَعْلَمُ مَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الإِسْلاَمِ ، تَقُولُ إِنَّمَا اتَّبَعَهُ ضَعَفَةُ النَّاسِ وَمَنْ لاَ قُوَّةَ لَهُ ، وَقَدْ رَمَتْهُمُ العَرَبُ ، أَتَعْرِفُ الحِيرَةَ ؟ » قلت : لم أرها وقد سمعت بها ، قال : « فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الأَمْرَ ، حَتَّى تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ مِنَ الحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالبَيْتِ مِنْ غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ ، وَلَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ » قلت : كسرى ابن هرمز ؟ قال : « نَعَمْ كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ ، وَلَيُبْذَلَنَّ المَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ » (٤) قال عدي بن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها . وعن عائشة ﷺ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لاَ يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللاَّتُ وَالعُزَّى » فقلت : يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله ﷻ ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ الآية ، أن ذلك تام ، قال : « إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ ﷻ ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَيَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ ، فَيَبْقَى مَنْ لاَ خَيْرَ فِيهِ فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ » (٥) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴾ .

قال السدي : الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى ، وهو كما قال ، فإن الأحبار هم علماء اليهود كما قال تعالى : ﴿ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ ﴾ والرهبان عباد

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن (١٩) وأحمد في مسنده (١٢٣/٤) وأبو داود في السنن (٤٢٥٢) والترمذي في السنن (٢١٧٦) .
(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٥/٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٦٠/١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٣/٤) والحاكم في المستدرك (٤٣٠/٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٨/٤) والهندي في كنز العمال (٢٤ ، ٣٦ ، ٣٧) .
(٥) أخرجه مسلم في الفتن (٥٢) والحاكم في المستدرك (٤٤٦/٤) والبيهقي في السنن الكبرى (١٨١/٩) .

النصارى والقسيسون علماؤهم ، كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ والمقصود التحذير من علماء السوء وعباد الضلال كما قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبّادنا كان فيه شبه من النصارى . وفي الحديث : « لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ القِذَّةِ بِالقِذَّةِ » قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : « فَمَنْ ؟ » وفي رواية : فارس والروم ؟ قال : « فمن الناس إلّا هؤلاء ؟ » (١) والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ، ومناصبهم ورياستهم في الناس يأكلون أموالهم بذلك ، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف ، ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجيء إليهم ، فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعًا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات ، فأطفأها الله بنور النبوة وسلبهم إياها وعوضهم الذل والصغار وباءوا بغضب من الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق ، ويلبسون الحق بالباطل ، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير وليسوا كما يزعمون ، بل هم دعاة إلى النار ويومَ القيامة لا ينصرون . وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الآية . هؤلاء هم القسم الثالث من رءوس الناس ، فإن الناس عالة على العلماء وعلى العباد وعلى أرباب الأموال ، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس .

وأما الكنز : فقال مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر : هو المال الذي لا تؤدى زكاته (٢) . وقد روي هذا عن ابن عبّاس وجابر وأبي هريرة موقوفًا ومرفوعًا . وقال عمر ابن الخطاب نحوه : أيما مال أديت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفونًا في الأرض ، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكوى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض (٣) . وعن خالد بن أسلم قال : خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال : هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما نزلت جعلها الله طهرة للأموال (٤) . وكذا قال عمر بن عبد العزيز وعراك بن مالك نسخها قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ الآية . وقد جاء في مدح التقلل من الذهب والفضة وذم التكثر منهما أحاديث كثيرة ، ولنورد منها هنا طرفًا يدل على الباقي .

عن علي ﷺ في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ﴾ الآية . قال النبيّ ﷺ : « تَبًّا لِلذَّهَبِ ، تَبًّا لِلْفِضَّةِ » . يقولها ثلاثًا ، قال فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : فأي مال نتخذ؟ فقال عمر ﷺ : أنا أعلم لكم ذلك ، فقال : يا رسول الله إن أصحابك قد شق عليهم ، وقالوا : فأي المال نتخذ ؟ قال : « لِسَانًا ذَاكِرًا وَقَلْبًا شَاكِرًا وَزَوْجَةً تُعِينُ أَحَدَكُمْ عَلَى دِينِهِ » (٥) .

وعن حسان بن عطية قال : كان شداد بن أوس ﷺ في سفر فنزل منزلًا فقال لغلامه ائتنا بالشفرة نعبث بها ، فأنكرت عليه فقال : ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلّا وأنا أخطمها وأزمها غير كلمتي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٨/٥) والحاكم في المستدرك (١٢٩/١) .
(٢) أخرجه مالك في الموطأ ٢٥٦/١ . (٣) ذكره الطبري في تفسيره (١٥٢/١٠) عن ابن عمر .
(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٦١) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٦/٥) والهندي في كنز العمال (٦١١٢) .

هذه فلا تحفظوها علي ، واحفظوا ما أقول لكم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِذَا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ فَاكْنِزُوا هَؤُلاءِ الْكَلِمَاتِ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ حُسْنَ عِبَادَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا ، وَأَسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ ، وَأَسْتَغْفِرُ لِمَا تَعْلَمُ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ »(1) .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ أي يقال لهم هذا الكلام تبكيتًا وتقريعًا وتهكمًا كما في قوله : ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۝ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ أي هذا بذاك ، وهذا الذي كنتم تكنزون لأنفسكم ، ولهذا يقال : من أحب شيئًا وقدمه على طاعة الله عُذّب به ، وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم عذبوا بها ، كما كان أبو لهب لعنه الله جاهدًا في عداوة رسول الله ﷺ وامرأته تعينه في ذلك ، كانت يوم القيامة عونًا على عذابه أيضًا في جيدها أي عنقها حبل من مسد ، أي تجمع من الحطب في النار وتلقي عليه ليكون ذلك أبلغ في عذابه ممن هو أشفق عليه في الدنيا كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها ، كانت أضر الأشياء عليهم في الدار الآخرة ، فيحمى عليها في نار جهنم وناهيك بحرها ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم .

عن ثوبان أن رسول الله ﷺ كان يقول : « مَنْ تَرَكَ بَعْدَهُ كَنْزًا مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يَتْبَعُهُ وَيَقُولُ : وَيْلَكَ مَا أَنْت ؟ فَيَقُولُ : أَنَا كَنْزُكَ الَّذِي تَرَكْتَهُ بَعْدَكَ ، وَلاَ يَزَالُ يَتْبَعُهُ حَتَّى يُلْقِمَهُ يَدَهُ فَيَقْضَمَهَا ، ثُمَّ يُتْبِعَهَا سَائِرَ جَسَدِهِ »(2) . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْ رَجُلٍ لاَ يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ إِلَّا جُعِلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبْهَتُهُ وَظَهْرُهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ : إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ »(3) .

وقال البخاري في تفسير هذه الآية عن زيد بن وهب قال : مررت على أبي ذر بالربذة فقلت : ما أنزلك بهذه الأرض ؟ قال : كنا بالشام فقرأت ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فقال معاوية ما هذه فينا ، ما هذه إلا في أهل الكتاب ، قال : قلت : إنها لفينا وفيهم(4) . وعن أبي ذر ﷺ فذكره ، وزاد : فارتفع في ذلك بيني وبينه القول فكتب إلى عثمان يشكوني ، فكتب إلي عثمان أن أقبل إليه ، قال : فأقبلت إليه فلما قدمت المدينة ركبني الناس كأنهم لم يروني قبل يومئذٍ ، فشكوت ذلك إلى عثمان فقال لي : تنح قريبًا ، قلت : والله لن أدع ما كنت أقول ، قلت : كان من مذهب أبي ذر ﷺ تحريم إدخار ما زاد على نفقة العيال ، وكان يفتي بذلك ويحثهم عليه ويأمرهم به ويغلظ في خلافه ، فنهاه معاوية فلم ينته ، فخشي

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٣/٤) .

(2) أخرجه أحمد في مسنده (٤٨٩/٢) والطبراني في المعجم الكبير (٨٦/٢) .

(3) أخرجه أحمد في مسنده (٨١/٤) والترمذي في السنن (٣٠١٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٨١/٤) .

(4) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٦٠) .

أن يضر بالناس في هذه ، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان وأن يأخذه إليه ، فاستقدمه عثمان إلى المدينة وأنزله بالربذة وحده ، وبها مات ﷺ في خلافة عثمان . وقد اختبره معاوية ﷺ وهو عنده هل يوافق عمله قوله : فبعث إليه بألف دينار ففرقها من يومه ، ثم بعث إليه الذي أتاه بها : فقال : إن معاوية إنما بعثني إلى غيرك فأخطأت فهات الذهب ، فقال : ويحك إنها خرجت ولكن إذا جاء مالي حاسبناك به . وهكذا روي عن ابن عبّاس أنها عامة ، وقال السدي : هي في أهل القبلة ، وقال الأحنف بن قيس : قدمت المدينة فبينا أنا في حلقة فيها ملأ من قريش ؛ إذ جاء رجل أخشن الثياب ، أخشن الجسد ، أخشن الوجه ، فقام عليهم فقال : بشر الكنازين برضف يحمى عليه في نار جهنم ، فيوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفه ، ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل ، قال : فوضع القوم رءوسهم فما رأيت أحدًا منهم رجع إليه شيئًا ، قال : فأدبر فاتبعته حتى جلس إلى سارية ، فقلت : ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم ، فقال : إن هؤلاء لا يعلمون شيئًا (١) . وفي الصحيح أن رسول اللَّه ﷺ قال لأبي ذر : « مَا يَسُرُّنِي أَنَّ عِنْدِي مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا يَمُرُّ عَلَيَّ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ وَعِنْدِي مِنْهُ شَيْءٌ ، إِلَّا دِينَارٌ أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ » (٢) فهذا واللَّه أعلم هو الذي حدا أبا ذر على القول بهذا .

وعن عبد اللَّه بن الصامت ﷺ أنه كان مع أبي ذر فخرج عطاؤه ومعه جارية ، فجعلت تقضي حوائجه ففضلت معها سبعة ، فأمرها أن تشتري به فلوسًا ، قال : قلت : لو ادخرته لحاجة بيوتك وللضيف ينزل بك ، قال : إن خليلي عهد إلي أن أيما ذهب أو فضة أوكئ عليه فهو جمر على صاحبه ، حتى يفرغه في سبيل اللَّه ﷻ (٣) .

وعن يزيد بن الصرم قال : سمعت عليًا ﷺ يقول : مات رجل من أهل الصفة وترك دينارين أو درهمين فقال رسول اللَّه ﷺ : « كَيَّتَانِ صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ » (٤) .

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

عن أبي بكرة أن النبيّ ﷺ خطب في حجته فقال : « أَلَا إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ : ذُو القِعْدَةِ وَذُو الحِجَّةِ وَالمُحَرَّمُ ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ » ثم قال : « أَلا أَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟ » قلنا : اللَّه ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال : « أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ ؟ » قلنا : بلى ، ثم قال : « أَيُّ شَهْرٍ هَذَا ؟ » . قلنا : اللَّه ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال : « أَلَيْسَ ذَا الحِجَّةِ ؟ » قلنا : بلى ، ثم قال : « أَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ » قلنا : اللَّه ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال : « أَلَيْسَت البَلْدَةَ ؟ » قلنا : بلى ، قال : « فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ – وأحسبه قال : وأعراضكم – عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا . وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ ، أَلَا لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَّالًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ ، أَلَا

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١٦٩/٥ ، والبيهقي في السنن ٣٥٩/٦ بنحوه .
(٢) أخرجه مسلم في الزكاة(٣) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده ١٧٥/٥ . (٤) أخرجه أحمد في مسنده(١٠١/١) .

هَلْ بَلَّغْتُ ، أَلا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الْغَائِبَ ، فَلَعَلَّ مَنْ يُبَلَّغُهُ يَكُونُ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ » (١)

وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ قال : محرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة . وقوله ﷺ في الحديث : « إِنَّ الزَّمَانَ قَد اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ » تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه ، وتثبيت للأمر على ما جعله الله في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير ، ولا زيادة ولا نقص ، ولا نسيء ولا تبديل ، كما قال في تحريم مكة : « إِنَّ هَذَا البَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ » (٢) وهكذا قال ههنا : « إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ » أي الأمر اليوم شرعًا كما ابتدع الله ذلك في كتابه يوم خلق السموات والأرض . وقد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث : إن المراد بقوله : « قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ » أنه اتفق أنه حج رسول الله ﷺ في تلك السنة في ذي الحجة ، وأن العرب قد كانت نسأت النسيء يحجون في كثير من السنين بل أكثرها في غير ذي الحجة ، وزعموا أن حجة الصدِّيق في سنة تسع كانت في ذي القعدة ، وفي هذا نظر كما سنبينه إذا تكلمنا على النسيء . وأغرب منه ما رواه الطبراني عن بعض السلف في جملة حديث أنه اتفق حج المسلمين واليهود والنصارى في يوم واحد وهو يوم النحر عام حجة الوداع ، والله أعلم .

فصل : ذكر الشيخ علم الدين السخاوي في جزء جمعه سماه (المشهور في أسماء الأيام والشهور) أن المحرم سمي بذلك لكونه شهرًا محرمًا ، وعندي أنه سمي بذلك تأكيدًا لتحريمه ؛ لأن العرب كانت تتقلب به فتحله عامًا وتحرمه عامًا ، ويجمع على محرمات ومحارم ومحاريم . وصفر سمي بذلك لخلو بيوتهم منهم حين يخرجون للقتال والأسفار ، يقال : صفر المكان إذ خلا ، ويجمع على أصفار كجمل وأجمال . وشهر ربيع الأول سمي بذلك لارتباعهم فيه ، والارتباع الإقامة في عمارة الربع ، ويجمع على أربعاء كنصيب وأنصباء ، وعلى أربعة كرغيف وأرغفة . وربيع الآخر كالأول . جمادى سمي بذلك لجمود الماء فيه ، قال : وكانت الشهور في حسابهم لا تدور ، وفي هذا نظر ؛ إذ كانت شهورهم منوطة بالأهلة فلابد من دورانها ، فلعلهم سموه بذلك أول ما سمي عند جمود الماء في البرد كما قال الشاعر :

وَلَيْلَةٍ مِنْ جُمَادى ذَاتِ أَنْدِيَةٍ ... لاَ يُبْصِرُ العَبْدُ فِي ظَلْمَائِهَا الطُّنُبَا
وَلاَ يَنْبَحُ الكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ ... حَتَّى يَلُفَّ عَلَى خُرْطُومِهِ الذَّنَبَا

ويجمع على جماديات كحبارى وحباريات ، وقد يذكر ويؤنث فيقال : جمادى الأولى والأول ، وجمادى الآخر والآخرة . رجب من الترجيب وهو التعظيم ، ويجمع على أرجاب ورجاب ورجبات . شعبان من تشعب القبائل وتفرقها للغارة ، ويجمع على شعابين وشعبانات . رمضان من شدة الرمضاء وهو الحر ، يقال : رمضت الفصال إذا عطشت ، ويجمع على رمضانات ورماضين وأرمضة ، قال : وقول من قال : إنه اسم من أسماء الله خطأ لا يعرج عليه ولا يلتفت إليه ، قلت : قد ورد فيه حديث ولكنه ضعيف وبينته في أول كتاب الصيام . شوال من شالت الإبل أذنابها

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧/٥) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٣٤/٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٢٥٩/١ ، والبيهقي في السنن ١٩٥/٥ .

للطراق ، قال : ويجمع على شواول وشواويل وشوالات . القعدة بفتح القاف ، قلت : وكسرها ، لقعودهم فيه عن القتال والترحال ، ويجمع على ذوات القعدة ، الحجة بكسر الحاء ، قلت : وفتحها ، سمي بذلك لإيقاعهم الحج فيه ، ويجمع على ذوات الحجة .

أسماء الأيام أولها الأحد ويجمع على آحاد وأوحاد ووحود ، ثم يوم الاثنين ويجمع على أثانين . الثلاثاء يمد ويذكر ويؤنث ، ويجمع على ثلاثاوات وأثالث . ثم الأربعاء بالمد ويجمع على أربعات وأرابيع . والخميس يجمع على أخمسة وأخامس . ثم الجمعة بضم الميم وإسكانها وفتحها أيضًا ويجمع على جمع وجماعات ، السبت مأخوذة من السبت وهو القطع لانتهاء العدد عنده ، وكانت العرب تسمي الأيام أول ثم أهون ثم جبار ثم دبار ثم مؤنس ثم العروبة ثم شيار ، قال الشاعر من العرب العرباء العاربة المتقدمين :

أُرَجِّي أَنْ أَعِيشَ وَإِنَّ يَوْمِي بِأَوَّلَ أَوْ بِأَهْوَنَ أَوْ جُبَارُ
أَوِ التَّالِي دُبَارَ فَإِنْ أَفُتْهُ فَمُؤْنِسُ أَوْ عَرُوبَةُ أَوْ شِيَارُ

وقوله تعالى : ﴿ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ﴾ فهذا مما كانت العرب أيضًا في الجاهلية تحرمه ، وهو الذي كان عليه جمهورهم ، إلا طائفة منهم يقال لهم : البسل ، كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر تعمقًا وتشديدًا . وأما قوله : « ثلاثة متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » فإنما أضافة إلى مضر ليبين صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان ، لا كما تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال وهو رمضان اليوم ، فبين ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة ، وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة ، ثلاثة سرد ، وواحد فرد ، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة فحرم قبل أشهر الحج شهرًا وهو ذو القعدة ؛ لأنهم يقعدون فيه عن القتال ، وحرم شهر ذي الحجة ؛ لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون فيه بأداء المناسك ، وحرم بعده شهرًا آخر وهو المحرم ؛ ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين ، وحرم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمنا .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ ﴾ أي هذا هو الشرع المستقيم من امتثال أمر اللّٰه فيما جعل من الأشهر الحرم والحذو بها على ما سبق في كتاب اللّٰه الأول ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ ﴾ أي في هذه الأشهر المحرمة ؛ لأنها آكد وأبلغ في الإثم من غيرها ، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام ، ولهذا تغلظ فيه الدية في مذهب الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء ، وكذا في حق من قتل في الحرم أو قتل ذا محرم . وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ ﴾ قال : في الشهور كلها ، وقال ابن عبّاس : فلا تظلموا فيهن أنفسكم في كلهن ، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حرامًا وعظم حرماتهن ، وجعل الذنب فيهن أعظم ، والعمل الصالح والأجر أعظم . وقال قتادة في قوله : ﴿ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ ﴾ إن الظلم في الأشهر الحرام أعظم خطيئة ووزرًا من الظلم فيما سواها ، وإن كان الظلم على كل حال عظيمًا ، ولكن اللّٰه

يعظم من أمره ما يشاء . وقال محمّد بن إسحاق : ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي لا تجعلوا حرامها حلالًا ولا حلالها حرامًا كما فعل أهل الشرك ، فإنما النسيء الذي كانوا يصنعون من ذلك زيادة في الكفر ﴿ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ الآية .

وقوله ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً ﴾ أي جميعكم ﴿ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ أي جميعًا ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام هل هو منسوخ أو محكم على قولين :

أحدهما : وهو الأشهر أنه منسوخ ؛ لأنه تعالى قال ههنا :﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ وأمر بقتال المشركين ، وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمرًا عامًا ، ولو كان محرمًا في الشهر الحرام لأوشك أن يقيده بانسلاخها ، ولأن رسول اللّه ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت في الصحيحين أنه خرج إلى هوازن في شوال ، فلما كسرهم واستفاء أموالهم ورجع فلّهم لجأوا إلى الطائف ، فعمد إلى الطائف فحاصرهم أربعين يومًا وانصرف ولم يفتتحها ، فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام .

والقول الآخر : أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام ، وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾ وقال ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية . وقد تقدم أنها الأربعة المقررة في كل سنة لا أشهر التسيير على أحد القولين .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله وأنه حكم مستأنف ، ويكون من باب التهييج والتحضيض ، أي كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم ، فاجتمعوا أنتم أيضًا لهم إذا حاربتموهم ، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون ، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ﴾ الآية ، وهكذا الجواب عن حصار رسول اللّه ﷺ أهل الطائف واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام ، فإنه من تتمة قتال هوزان وأحلافها من ثقيف ، فإنهم هم الذين ابتدأوا القتال وجمعوا الرجال ودعوا إلى الحرب والنزال ، فعندها قصدهم رسول اللّه ﷺ كما تقدم ، فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم ، فنالوا من المسلمين وقتلوا جماعة ، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريبًا من أربعين يومًا ، وكان ابتداؤه في شهر حلال ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أيامًا ، ثم قفل عنهم لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء ، وهذا أمر مقرر وله نظائر كثيرة ، واللّه أعلم .

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

هذا مما ذم اللّه تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع اللّه بآرائهم الفاسدة ، وتغييرهم أحكام اللّه بأهوائهم الباردة ، وتحليلهم ما حرم اللّه وتحريمهم ما أحل اللّه ؛ فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم ، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم فأخروه إلى صفر ، فيحلون الشهر الحرام

ويحرمون الشهر الحلال ليواطئوا عدة ما حرم الله الأشهر الأربعة .

عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ قال : النسيء أن جنادة بن عوف بن أمية الكناني كان يوافي الموسم في كل عام ، وكان يكنى أبا ثمامة ، فينادي ألا إن أبا ثمامة لا يجاب ولا يعاب ، ألا وإن صفر العام الأول العام حلال ، فيحله للناس ، فيحرم صفرًا عامًا ، ويحرم المحرم عامًا ، فذلك قول الله : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ يقول : يتركون المحرم عامًا وعامًا يحرمونه ، وقال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ الآية ، قال : هذا رجل من بني كنانة يقال له : القلمس ، وكان في الجاهلية ، وكانوا في الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض في الشهر الحرام ، يلقى الرجل قاتل أبيه ولا يمد إليه يده ، فلما كان هو قال : اخرجوا بنا ، قالوا له : هذا المحرم ، قال : ننسئه العام ، هما صفران ، فإذا كان العام القابل قضينا جعلناهما محرمين ، قال : ففعل ذلك ، فلما كان عام قابل قال : لا تغزوا في صفر حرموه مع المحرم هما محرمان ، فهذه صفة غريبة في النسيء وفيها نظر ؛ لأنهم في عام إنما يحرمون على هذا ثلاثة أشهر فقط ، وفي العام الذي يليه يحرمون خمسة أشهر ، فأين هذا من قوله تعالى : ﴿ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ ؟ .

وعن ابن عمر أنه قال : وقف رسول الله ﷺ بالعقبة فاجتمع إليه من شاء الله من المسلمين فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا ﴾ فكانوا يحرمون المحرم عامًا ويستحلون صفر ، ويستحلون المحرم وهو النسيء . وقد تكلم الإمام محمّد بن إسحاق على هذا في كتاب السيرة فقال : كان أول من نسأ الشهور على العرب فأحل منها ما حرم الله وحرم منها ما أحل الله ﷻ القلمس ، وهو حذيفة بن عبد فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد ، ثم من بعد عباد ابنه قلع ، ثم ابنه أمية ، ثم ابنه عوف ، ثم ابنه أبو ثمامة جناده بن عوف ؛ وكان آخرهم ، وعليه قام الإسلام ، فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه فقام فيهم خطيبًا فحرم رجبًا وذا القعدة وذا الحجة ويحل المحرم عامًا ويجعل مكانه صفر ، ويحرمه عامًا ليواطئ عدة ما حرم الله .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر وحمارة القيظ ، فقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار ﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أي ما لكم فعلتم هكذا رضًا منكم بالدنيا بدلًا من الآخرة ؟ ثم زهّد تبارك وتعالى في الدنيا ، ورغّب في الآخرة فقال : ﴿ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ كما روي عن المستورد أخي بني فهر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي اليَمِّ ، فَلْيَنْظُرْ بِمَا

تَرْجعُ » . وأشار بالسبابة [١] . وعن أبي عثمان قال : قلت : يا أبا هريرة سمعت من إخواني بالبصرة أنك تقول : سمعت نبي الله يقول : « إِنَّ اللَّه يُجْزِي بِالحَسَنَةِ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ » قال أبو هريرة : بل سمعت رسول الله يقول « إِنَّ اللَّه يُجْزِي بِالحَسَنَةِ أَلْفَيْ أَلْفِ حَسَنَةٍ » [٢] ثم تلا هذه الآية ﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ فالدنيا ما مضى منها وما بقي منها عند الله قليل .

وعن الأعمش في الآية ﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ قال : كزاد الراكب . ثم توعد تعالى من ترك الجهاد فقال : ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ قال ابن عبّاس : استنفر رسول الله ﷺ حيًّا من العرب فتثاقلوا عنه فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم ﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ أي لنصرة نبيه وإقامة دينه ﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ﴾ أي ولا تضروا الله شيئًا بتوليكم عن الجهاد ، ونكولكم وتثاقلكم عنه ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم ، وقد قيل : إن هذه الآية وقوله : ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ وقوله : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ أنهن منسوخات بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾ روي هذا عن ابن عبّاس وعكرمة والحسن وزيد بن أسلم ، ورده ابن جرير وقال : إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الجهاد فتعين عليهم ذلك ، فلو تركوه لعوقبوا عليه ، وهذا له اتجاه ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ ﴾ أي تنصروا رسوله فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه كما تولى نصره ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ ﴾ أي عام الهجرة ، لما همَّ المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه فخرج منهم هاربًا ، بصحبة صدِّيقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم ثم يسيروا نحو المدينة ، فجعل أبو بكر ﷺ يجزع أن يطلع عليهم أحد فيخلص إلى الرسول – عليه الصلاة والسلام – منهم أذى . عن أنس أن أبا بكر حدَّثه قال : قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه ، قال : فقال : « يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّه ثَالِثُهُمَا » [٣] . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ ﴾ أي تأييده ونصره عليه ، أي على الرسول ﷺ في أشهر القولين ، وقيل : على أبي بكر ، وروي عن ابن عبّاس وغيره قالوا : لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينة ، وهذا لا ينافي تجدد سكينة خاصة بتلك الحال ، ولهذا قال : ﴿ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ أي الملائكة ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾ قال ابن عبّاس : يعني كلمة الذين كفروا : الشرك ، وكلمة الله هي لا إله إلَّا الله . وفي الحديث عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٢٢٩) والترمذي في السنن (٢٣٢٣) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٢٣٩) .

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١) وأحمد في مسنده (١/٤) والترمذي في السنن (٣٠٩٦) .

يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله فقال : «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » (١) وقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أي في انتقامه وانتصاره ، منيع الجناب لا يضام من لاذ ببابه ، واحتمى بالتمسك بخطابه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في أقواله وأفعاله .

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

قال أبو الضحى مسلم بن صبيح : هذه الآية ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ أول ما نزل من سورة براءة ، وقال معتمر بن سليمان عن أبيه قال : زعم حضرمي أنه ذكر له أن ناسًا كانوا عسى أن يكون أحدهم عليلًا وكبيرًا فيقول : إني لا آثم ، فأنزل الله ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ الآية ، أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب ، وحتم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المنشط والمكره والعسر واليسر فقال : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ وعن أبي طلحة : كهولًا وشبانًا ما سمع الله عذر أحد ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قتل ، وفي رواية : قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فقال : أرى ربنا استنفرنا شيوخًا وشبانًا جهزوني يا بني ، فقال بنوه : يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع أبي بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك فأبى ، فركب البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلّا بعد تسعة أيام فلم يتغير فدفنوه فيها . وقال مجاهد : شبانًا وشيوخًا وأغنياء ومساكين ، وقال ابن عبّاس : انفروا نشاطًا وغير نشاط .

وقال السدي : غنيًّا وفقيرًا وقويًّا وضعيفًا ، فجاءه رجل يومئذٍ زعموا أنه المقداد - وكان عظيمًا سمينًا - فشكا إليه وسأله أن يأذن له ، فأبى ، فنزلت يومئذٍ : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس فنسخها الله فقال : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وعن محمّد قال : شهد أبو أيوب مع رسول الله ﷺ بدرًا ثم لم يتخلف عن غزاة للمسلمين إلّا عامًا واحدًا ، وكان أبو أيوب يقول : قال الله تعالى ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ فلا أجدني إلّا خفيفًا أو ثقيلًا (٢) .

ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله ، وبذل المهج في مرضاته ومرضاة رسوله فقال : ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي هذا خير لكم في الدنيا والآخرة ؛ لأنكم تغرمون في النفقة قليلًا فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا ، مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة ، كما قال النبيّ ﷺ : «تَكَفَّلَ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ إِنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، أَوْ يَرُدَّهُ إِلَى مَنْزِلِهِ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ » (٣) ولهذا قال الله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨١٠) ومسلم في الإمارة (١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٠/١٨٠) .

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٧) ومسلم في الإمارة (٢٨) ومالك في الموطأ (٤٤٣) .

تَعْلَمُونَ ﴾ ومن هذا القبيل ما روي عن أنس عن رسول الله ﷺ قال لرجل : « أَسْلِمْ » قال أجدني كارهًا ، قال : « أَسْلِمْ وَإِنْ كُنْتَ كَارِهًا » (١) .

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

يقول تعالى موبخًا للذين تخلفوا عن النبيّ ﷺ في غزوة تبوك وقعدوا بعدما استأذنوه في ذلك مظهرين أنهم ذوو أعذار ولم يكونوا كذلك فقال : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا ﴾ قال ابن عبّاس : غنيمة قريبة ﴿ وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴾ أي قريبًا أيضًا ﴿ لَّاتَّبَعُوكَ ﴾ : أي لكانوا جاءوا معك لذلك ﴿ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ أي المسافة إلى الشام ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾ أي لكم إذا رجعتم إليهم ﴿ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ أي لو لم يكن لنا أعذار لخرجنا معكم. قال الله تعالى : ﴿ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ۝ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ۝ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ .

عن عون قال : هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ؟ نداء بالعفو قبل المعاينة ، فقال : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ . وقال قتادة : عاتبه كما تسمعون ثم أنزل التي في سورة النور فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء فقال : ﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ الآية . وقال مجاهد : نزلت هذه الآية في أناس قالوا : استأذنوا رسول الله ﷺ ، فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ أي في إبداء الأعذار ﴿ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ يقول تعالى : هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم في القعود لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب ، فإنهم قد كانوا مصرّين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه . ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله ، فقال : ﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ ﴾ أي في القعود عن الغزو ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ لأنهم يرون الجهاد قربة ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ۝ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ﴾ أي في القعود ممن لا عذر له ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي شكت في صحة ما جئتهم به ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أي يتحيرون يقدمون رجلًا ويؤخرون أخرى ، وليست لهم قدم ثابتة في شيء ، فهم قوم حيارى هلكى لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلًا .

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ۝ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ ﴾ أي معك إلى الغزو ﴿ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾ أي لكانوا تأهبوا له

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٩/٣) والهندي في كنز العمال (٤١٠) .

﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ ﴾ أي أبغض أن يخرجوا معك قدرًا ﴿ فَثَبَّطَهُمۡ ﴾ أي أخرهم ﴿ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ أي قدرًا . ثم بيَّن تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين فقال : ﴿ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا ﴾ أي لأنهم جبناء مخذولون ﴿ وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ ﴾ أي ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة ﴿ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ ﴾ أي مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم ، فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير . وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير : ﴿ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ ﴾ أي عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم ، وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم ، بل هذا عام في جميع الأحوال ، والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق ، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين . ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ولهذا قال تعالى : ﴿ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا ﴾ فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ .

﴿ لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴾ .

يقول تعالى محرضًا لنبيه عليه الصلاة والسّلام على المنافقين ﴿ لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ ﴾ أي لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماده مدة طويلة ، وذلك أول مقدم النبيّ ﷺ بالمدينة ، رمته العرب عن قوس واحدة ، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره اللّه يوم بدر وأعلى كلمته ، قال عبد اللّه بن أُبيّ وأصحابه : هذا أمر قد توجه ، فدخلوا في الإسلام ظاهرًا ، ثم كلما أعزّ اللّه الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى ومن المنافقين من يقول لك : يا محمّد ﴿ ٱئۡذَن لِّي ﴾ في القعود ﴿ وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ ﴾ بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم . قال اللّه تعالى : ﴿ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ ﴾ أي قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا ، كما قال محمّد بن إسحاق عن عاصم بن قتادة وغيرهم قالوا : قال رسول اللّه ﷺ ذات يوم وهو في جهازه للجد بن قيس أخي بني سلمة : « هَلْ لَكَ يَا جَدُّ العَامَ في جِلَادِ بَنِي الأَصْفَرِ ؟ » فقال : يا رسول اللّه أو تأذن لي ولا تفتني ، فواللّه لقد عرف قومي ما رجل أشد عجبًا بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول اللّه ﷺ وقال : « قَدْ أَذِنْتُ لَكَ » [(١)] ففي الجد بن قيس نزلت هذه ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ ﴾ الآية ، أي : إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به ، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول اللّه ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم . وهكذا روي عن ابن عبّاس أنها نزلت في الجد بن قيس ، وقد كان الجد ابن قيس هذا من أشراف بني سلمة . وفي الحديث أن رسول اللّه ﷺ قال لهم : « مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلَمَةَ ؟ » قالوا : الجد بن قيس على أنا نبخله . فقال رسول اللّه ﷺ : « وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوأُ مِنَ البُخْلِ ، وَلَكِنْ

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٠/١٩١) .

سَيِّدُكُمُ الفَتَى الجَعْدُ الأَبْيَضُ بِشْرُ بْنُ البَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ »[(١)] وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي لا محيد لهم عنها ولا محيص ولا مهرب .

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

يعلم تبارك وتعالى نبيّه ﷺ بعداوة هؤلاء له ؛ لأنه مهما أصابه من حسنة ، أي فتح ونصر وظفر على الأعداء مما يسره ويسر أصحابه ساءهم ذلك ﴿ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي قد احترزنا من متابعته من قبل هذا ﴿ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة فقال : ﴿ قُل ﴾ أي لهم ﴿ لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ أي نحن تحت مشيئته وقدره ﴿ هُوَ مَوْلَىٰنَا ﴾ أي سيدنا وملجؤنا ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي ونحن متوكلون عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل .

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمّد ﴿ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ ﴾ أي تنتظرون بنا ﴿ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ شهادة أو ظفر بكم قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ ﴾ أي ننتظر بكم ﴿ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ أي ننتظر بكم هذا أو هذا إما ﴿ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ بسبي أو بقتل ﴿ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ أي مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿ لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك وهو أنهم لا يتقبل منهم ﴿ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ أي والأعمال إنما تصح بالإيمان ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾ أي ليس لهم قدم صحيح ولا همة في العمل ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ ﴾ نفقة ﴿ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ : أن الله لا يمل حتى تملوا[(٢)] . وأن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا[(٣)] . فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملًا ؛ لأنه إنما يتقبل من المتقين .

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ قال الحسن البصري : بزكاتها والنفقة منها في سبيل الله ، وقال قتادة : هذا من المقدم

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨١/١٩) والحاكم في المستدرك (٢١٩/٣) .
(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٣) ومسلم في المسافرين (٢١٥) وأحمد في مسنده (٤٠/٦) .
(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٣٤٦/٣) وأحمد في مسنده (٣٢٨/٢) .

والمؤخر تقديره : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة . وقوله : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ أي ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر ، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم ، عياذًا بالله من ذلك ، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه .

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ .

يخبر تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفزعهم وفرقهم وهلعهم أنهم ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ﴾ يمينًا مؤكدة ﴿ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ أي في نفس الأمر ﴿ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ أي فهو الذي حملهم على الحلف ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا ﴾ أي حصنًا يتحصنون به ، وحرزًا يتحرزون به ﴿ أَوْ مَغَٰرَٰتٍ ﴾ وهي التي في الجبال ﴿ أَوْ مُدَّخَلًا ﴾ وهو السرب في الأرض والنفق قال ذلك في الثلاثة ابن عبّاس ومجاهد وقتادة ﴿ لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أي يسرعون في ذهابهم عنكم ؛ لأنهم إنما يخالطونكم كرهًا لا محبة ، وودوا أنهم لا يخالطونكم ولكن للضرورة أحكام ، ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغم ؛ لأن الإسلام وأهله لا يزال في عز ونصر ورفعة ، فلهذا كلما سر المسلمون ساءهم ذلك ، فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين ، ولهذا قال ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْهُم ﴾ أي من المنافقين ﴿ مَّن يَلْمِزُكَ ﴾ أي يعيب عليك ﴿ فِى ﴾ قسم ﴿ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ إذا فرقتها ويتهمك في ذلك ، وهم المتهمون المأبونون ، وهم مع هذا لا ينكرون للدين وإنما ينكرون لحظ أنفسهم ؛ ولهذا إن أعطوا من الزكاة ﴿ رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ أي يغضبون لأنفسهم . عن أبي سعيد في قصة ذي الخويصرة واسمه حرقوص لما اعترض على النبيّ ﷺ حين قسم غنائم حنين فقال له : اعدل فإنك لم تعدل ، فقال : « لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ » ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مقفيًا : « إِنَّه يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِي هَذَا قَوْمٌ يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاتَهُ مَعَ صَلاتِهِمْ ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، فَإِنَّهُمْ شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ » (١) . ثم قال تعالى منبهًا لهم على ما هو خير لهم من ذلك فقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ فتضمنت هذه الآية الكريمة أدبًا عظيمًا وسرًّا شريفًا ، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده وهو قوله : ﴿ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ ، وامتثال أوامره ، وترك زواجره ، وتصديق أخباره ، والاقتفاء بآثاره .

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبيّ ﷺ ، ولمزهم إياه في قسم الصدقات . بيَّن تعالى

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٤٢) وأحمد في مسنده (٣/٣٥٣) .

أنه هو الذي قسمها وبيّن حكمها وتولى أمرها بنفسه ، ولم يكل قسمها إلى أحد غيره ، فجزأها لهؤلاء المذكورين كما روي عن زياد بن الحارث الصدائي ﷺ قال : أتيت النبيّ ﷺ فبايعته ، فأتى رجل فقال : أعطني من الصدقة ، فقال له : « إِنَّ اللّٰهَ لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ نَبِيٍّ وَلاَ غَيْرِهِ فِي الصَّدَقَاتِ حَتَّى حَكَمَ فِيهَا هُوَ فَجَزَّأَهَا ثَمَانِيَةَ أَصْنَافٍ ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْ تِلْكَ الأَجْزَاءِ أَعْطَيْتُكَ » (١) . وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية هل يجب استيعاب الدفع لها أو إلى ما أمكن منها ؟ على قولين :

أحدهما : أنه يجب ذلك ، وهو قول الشافعي وجماعة .

والثاني : أنه لا يجب استيعابها ، بل يجوز الدفع إلى واحد منها ويعطى جميع الصدقة مع وجود الباقين ، وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف منهم عمر وحذيفة وابن عبّاس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران ، وقال ابن جرير : وهو قول عامة أهل العلم ، وعلى هذا فإنما ذكرت الأصناف ههنا لبيان المصرف لا لوجوب استيعابها .

وإنما قدم الفقراء ههنا على البقية ؛ لأنهم أحوج من غيرهم على المشهور ، ولشدة فاقتهم وحاجتهم ، وعند أبي حنيفة أن المسكين أسوأ حالًا من الفقير وهو كما قال أحمد . وعن محمّد قال : قال عمر ﷺ : الفقير ليس بالذي لا مال له ، ولكن الفقير الأخلق الكسب . وروي عن ابن عبّاس ومجاهد والحسن البصري وابن زيد . واختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئًا ، والمسكين هو الذي يسأل ويطوف ويتبع الناس (٢) . ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية .

فأما الفقراء : فعن ابن عمر قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « لاَ تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ ، وَلاَ لِذِي مرة سَوِيٍّ » (٣) وعن عبيد اللّٰه بن عدي بن الخيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة فقلّب فيهما البصر فرآهما جلدين فقال : « إِنْ شِئْتُمَا أَعْطَيْتُكُمَا وَلاَ حَظَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ وَلاَ لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ » (٤) .

وأما المساكين : فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللّٰه ﷺ : « لَيسَ المِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ فَتَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ » قَالُوا : فَمَا المِسْكِينُ يَا رَسُولَ اللّٰه ؟ قَالَ : « الَّذِي لاَ يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ ، وَلاَ يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ ، وَلاَ يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا » (٥) .

وأما العاملون عليها : فهم الجباة والسعاة يستحقون منها قسطًا على ذلك ، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول اللّٰه ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة ، لما ورد عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث أنه انطلق هو والفضل بن العباس يسألان رسول اللّٰه ﷺ ليستعملهما على الصدقة ، فقال : « إِنَّ الصَّدَقَةَ لاَ تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ وَلاَ لِآلِ مُحَمَّدٍ ؛ إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ » (٦) .

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (١٦٣٠) والدارقطني في السنن (١٣٧/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (١٧٤/٤) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٠٣/١٠) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٢/٢) وأبو داود في السنن (١٦٣٤) والترمذي في السنن (٦٥٢) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٤/٤) والنسائي في السنن (٢٥٩٨) والدارقطني في السنن (١١٩/٢) .
(٥) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٧٦) ومسلم في الزكاة (١٠٢) وأحمد في مسنده (٢٦٠/٢) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٩/٢) والطبراني في الكبير (٧٧/٣) .

وأما المؤلفة قلوبهم فأقسام : منهم من يعطى ليسلم ، كما أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين وقد كان شهدها مشركًا ، عن صفوان بن أمية قال : أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إليّ ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ ، ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ، ويثبت قلبه ، كما أعطى يوم حنين أيضًا جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم مائة من الإبل ، وقال : « إِنِّي لأعطي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ »(١) . وعن أبي سعيد : أن عليًا بعث إلى النبيّ ﷺ بذهيبة في تربتها من اليمن ، فقسمها بين أربعة نفر : الأقرع بن حابس ، وعيينة بن بدر ، وعلقمة بن علاثة ، وزيد الخير ، وقال : « أَتَأَلَّفُهُمْ »(٢) . ومنهم من يعطي لما يرجى من إسلام نظرائه . ومنهم من يعطى ليجبي الصدقات ممن يليه ، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد . ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع ، والله أعلم .

وهل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبيّ ﷺ ؟ فيه خلاف : فروي عن عمر وعامر والشعبي وجماعة أنهم لا يعطون بعده ؛ لأن الله قد أعزّ الإسلام وأهله ، ومكن لهم في البلاد ، وأذل لهم رقاب العباد . وقال آخرون : بل يعطون ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن ، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم .

وأما الرقاب : فروي عن الحسن البصري وسعيد بن جبير أنهم المكاتبون ، وهو قول الشافعي والليث ﷺ . وقال ابن عبّاس والحسن : لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة ، وهو مذهب أحمد ومالك وإسحاق ، أي أن الرقاب أعم من أن يعطى المكاتب أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالًا ، وقد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة ، وأن الله يعتق بكل عضو منها عضوًا من معتقها ، حتى الفرج بالفرج ، وما ذاك إلّا لأن الجزاء من جنس العمل ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ . عن أبي هريرة ﷺ أن النبيّ ﷺ قال : « ثَلاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ : الغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الأَدَاءَ ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ العَفَافَ »(٣) . وعن البراء بن عازب قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله دلني على عمل يقرّبني من الجنّة ويباعدني من النار فقال : « أَعْتِقِ النَّسَمَةَ وَفُكَّ الرَّقَبَةَ » فقال : يا رسول الله أو ليسا واحدًا ؟ قال : « لاَ ، عِتْقُ النَّسَمَةِ أَنْ تفرد بِعِتْقِهَا ، وَفَكُّ الرَّقَبَةِ أَنْ تعينَ فِي ثَمَنِهَا »(٤) .

وأما الغارمون : فهم أقسام ؛ فمنهم من تحمل حمالة أو ضمن دينًا فلزمه ، فأجحف بماله أو غرم في أداء دينه ، أو في معصية ثم تاب فهؤلاء يدفع إليهم ، والأصل في هذا الباب حديث قبيصة بن مخارق الهلالي قال : تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها فقال : « أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا » قال : ثم قال : « يَا قُبَيصَةُ إِنَّ المَسْأَلَةَ لاَ تَحِلُّ إِلَّا لِأَحدِ ثَلاثَةٍ : رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمالَةً فَحَلَّتْ لَهُ المَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمسكَ ، وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٣٦) .
(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٤) ومسلم في الزكاة (١٤٣) وأحمد في مسنده (٦٨/٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥١/٢) والنسائي في السنن (٣٢١٨) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٩/٤) والدارقطني في السنن (١٣٥/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٧٣/١٠) .

الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ : سَدَادًا مِنْ عَيْشٍ - وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَرَابَةِ قَوْمِهِ ، فَيَقُولُونَ : لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ : سَدَادًا مِنْ عَيْشٍ - فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ سُحْتٌ يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا » (١) . وعن أبي سعيد قال : أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها فكثر دينه ، فقال النبيّ ﷺ : « تَصَدَّقُوا عَلَيْهِ » فتصدّق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه ، فقال النبيّ ﷺ لغرمائه : « خُذُوا مَا وَجَدْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ » (٢) . وعن عبد الرّحمن بن أبي بكر قال : قال رسول الله ﷺ : « يَدْعُو اللَّهُ لِصَاحِبِ الدَّيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُوقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَقُولُ : يَا ابْنَ آدَمَ فِيمَ أَخَذْتَ هَذَا الدَّيْنَ وَفِيمَ ضَيَّعْتَ حُقُوقَ النَّاسِ ؟ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي أَخَذْتُهُ فَلَمْ آكُلْ وَلَمْ أَشْرَبْ وَلَمْ أُضَيِّعْ ، وَلَكِنْ أَتَى عَلَى يَدَيَّ إِمَّا حَرَقٌ ، وَإِمَّا سَرَقٌ ، وَإِمَّا وَضِيعَةٌ ، فَيَقُولُ اللَّهُ : صَدَقَ عَبْدِي أَنَا أَحَقُّ مَنْ قَضَى عَنْكَ الْيَوْمَ ، فَيَدْعُو اللَّهُ بِشَيْءٍ فَيَضَعُهُ فِي كِفَّةِ مِيزَانِهِ فَتَرْجَحُ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ » (٣) .

وأما في سبيل الله : فمنهم الغزاة الذين لاحق لهم في الديوان . وعند الإمام أحمد والحسن بن إسحاق : والحج من سبيل الله للحديث ، وكذلك ابن السبيل وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال ، وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء ، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه . والدليل على ذلك الآية ، وعن أبي سعيد ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إِلَّا لِخَمْسَةٍ : الْعَامِلِ عَلَيْهَا ، أَوْ رَجُلٍ اشْتَرَاهَا بِمَالِهِ ، أَوْ غَارِمٍ ، أَوْ غَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ مِسْكِينٍ تُصُدِّقَ عَلَيْهِ مِنْهَا فَأَهْدَى لِغَنِيٍّ » (٤) . وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إِلَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ ، أَوْ جَارٍ فَقِيرٍ ، فَيُهْدِي لَكَ أَوْ يَدْعُوكَ » (٥) .

وقوله : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي حكمًا مقدرًا بتقدير اللهِ وفرضه وقسمه ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يقوله ويفعله ويشرعه ويحكم به لا إله إلّا هو ولا رب سواه .

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه ويقولون ﴿ هُوَ أُذُنٌۚ ﴾ أي من قال له شيئًا صدّقه فينا ، ومن حدّثه صدقه ، فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا . روي معناه عن ابن عبّاس ومجاهد وقتادة . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ أي هو أذن خير يعرف الصادق من

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٩) وأبو داود في السنن (١٦٤٠) والنسائي في السنن (٢٥٨٠) .
(٢) أخرجه مسلم في المساقاة (١٨) وأحمد في مسنده (٣٦/٣) وأبو داود في السنن (٣٤٦٩) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٨/١) والهندي في كنز العمال (١٥٥١٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٤/٢) وابن ماجه في السنن (١٨٤١) .
(٥) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٨٤١) وأبو داود في السنن (١٦٣٤) .

الكاذب ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي ويصدق المؤمنين ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ﴾ أي وهو حجة على الكافرين ولهذا قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

قال قتادة في قوله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ الآية : ذكر لنا أن رجلًا من المنافقين قال : والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا ، وإن كان ما يقول محمّد حقًّا لهم شر من الحمير ، قال : فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن ما يقول محمّد لحق ولأنت أشر من الحمار ، قال : فسعى بها الرجل إلى النبيّ ﷺ فأخبروه فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال : « مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي قُلْتَ ؟ » فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك ، وجعل الرجل المسلم يقول : اللَّهمّ صدِّق الصادق وكذِّب الكاذب ، فأنزل الله الآية (١) . وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ الآية : أي ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حادَّ اللَّه ﷻ أي شاقه وحاربه وخالفه ، وكان في حد ، والله ورسوله في حد ﴿ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ أي مهانًا معذبًا ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ أي وهذا هو الذل العظيم والشقاء الكبير .

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ .

قال مجاهد : يقولون القول بينهم ثم يقولون : عسى الله أن لا يفشي علينا سرَّنا هذا ، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ وقال في هذه الآية : ﴿ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ أي إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به ويبيِّن له أمركم ، كقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ الآية ، لهذا قال قتادة : كانت تسمى هذه السورة الفاضحة ، فاضحة المنافقين .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ .

عن محمّد بن كعب القرظي وغيره قالوا : قال رجل من المنافقين : ما أرى قراءنا هؤلاء إلَّا أرغبنا بطونًا وأكذبنا ألسنة ، وأجبننا عند اللقاء ، فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فجاء إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فقال : ﴿ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ وإن رجليه لتسفعان الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بسيف رسول الله ﷺ (٢) .

وقال قتادة : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ قال : فبينما النبيّ ﷺ في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه ، فقالوا : يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها

---

(١) أخرجه : البيهقي في دلائل النبوة (١٣٤) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٢١/١٠) .

هيهات هيهات ، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا فقال : « عَلَيَّ بِهَؤُلَاءِ النَّفَرِ » فدعاهم فقال : « قُلْتُمْ : كَذَا وَكَذَا ؟ » فحلفوا ما كنا إلّا نخوض ونلعب (١) . قال عكرمة في تفسير هذه الآية : كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول : اللهم إني أسمع آية أنا أعني بها تقشعر منها الجلود ، وتجل منها القلوب ، اللّهم فاجعل وفاتي قتلًا في سبيلك ، لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت . قال : فأصيب يوم اليمامة ، فما من أحد من المسلمين إلّا وقد وجد غيره .

وقوله : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ أي بهذا المقال الذي استهزأتم به ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً ﴾ أي لا يعفى عن جمعكم ولابد من عذاب بعضكم ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ أي مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة .

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين ، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كان هؤلاء ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أي عن الإنفاق في سبيل الله ﴿ نَسُوا اللَّهَ ﴾ أي نسوا ذكر الله ﴿ فَنَسِيَهُمْ ﴾ أي عاملهم معاملة من نسيهم ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي الخارجون عن طريق الحق ، الداخلون في طريق الضلالة . وقوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ أي على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكثين فيها مخلدين هم والكفار ﴿ هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ أي كفايتهم في العذاب ﴿ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ أي طردهم وأبعدهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ .

﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : أصاب هؤلاء من عذاب الله في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم . وقوله : ﴿ بِخَلَاقِهِمْ ﴾ قال الحسن : بدينهم . وقوله : ﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ أي في الكذب والباطل ﴿ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ أي بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ الآية ، قال : ما أشبه الليلة بالبارحة ﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم لا أعلم إلا أنه قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَتَّبِعُنَّهُمْ حَتَّى لَو دَخَلَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ » (٢) وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ وَبَاعًا بِبَاعٍ ، حَتَّى لَو دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٢٠/١٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٧/٢) .

لَدَخَلْتُمُوهُ » قالوا : ومن هم يا رسول الله ؟ أهل الكتاب : قال : « فَمَنْ ؟ » (١)

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى واعظًا لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام ﴿ وَعَادٍ ﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم لما كذبوا هودًا عليه السلام ﴿ وَثَمُودَ ﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحًا عليه السلام وعقروا الناقة ﴿ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم ، وأهلك ملكهم نمروذ بن كنعان بن كوش الكنعاني لعنه الله ﴿ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام وكيف أصابتهم الرجفة وعذاب يوم الظلة ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾ قوم لوط وقد كانوا يسكنون في مدائن ، وقال في الآية الأخرى ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ أي الأمة المؤتفكة وقيل : أم قراهم ، وهي سدوم ، والغرض أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطًا عليه السلام ، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالحجج والدلائل القاطعات ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أي بإهلاكه إياهم ؛ لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل ﴿ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق ، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار .

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة فقال : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أي يتناصرون ويتعاضدون ، كما جاء في الحديث : « الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا » (٢) وشبك بين أصابعه . وفي الحديث أيضًا : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ » (٣) وقوله : ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ أي يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه ﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي فيما أمر ، وترك ما عنه زجر ﴿ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ أي سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أي يعز من أطاعه ، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة ، فإنه له الحكمة في جميع ما يفعله تبارك وتعالى .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٥٦) ومسلم في العلم (٦) .
(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٦) ومسلم في البر والصلة (٦٥) وأحمد في مسنده (٤٠٤/٤) والترمذي في السنن (١٩٢٨) .
(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٦) وأحمد في مسنده (٢٧٠/٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٥٣/٣) .

وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى بما أعده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكثين فيها أبدًا ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً ﴾ أي حسنة البناء طيبة القرار ، كما جاء عن عبد الله بن قيس الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَمَا بَيْنَ القوم وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدنَ » (١) . وبه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الجَنَّةِ لَخَيمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ ، طُولَهَا سِتُّونَ مِيلًا ، فِي السَّمَاءِ ، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيهِمْ لاَ يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا » (٢) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَصَامَ رَمَضَانَ فَإِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَو حُبِسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا » . قالوا : يا رسول الله أفلا نخبر الناس ؟ قال : « إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ ، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوسَ فَإِنَّهُ أَعْلَى الجَنَّةِ وَأَوسَطُ الجَنَّةِ ، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ ، وَفَوقَهُ عَرْشُ الرَّحْمٰنِ » (٣) . وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءُونَ الغُرَفَ فِي الجَنَّةِ كَمَا تَرَونَ الكَوكَبَ فِي السَّمَاءِ » (٤) وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَيَّ فَسَلُوا اللَّهَ لِيَ الوَسِيلَةَ » قيل : يا رسول الله وما الوسيلة ؟ قال : « أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الجَنَّةِ لاَ يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ » (٥) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول : « إِذَا سَمِعْتُمُ المُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ بِهَا عَشْرًا ، ثُمَّ سَلُوا لِيَ الوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الجَنَّةِ لاَ تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ هُوَ ، فَمَنْ سَأَلَ اللَّهَ لِيَ الوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيهِ الشَّفَاعَةُ يَومَ القِيَامَةِ » (٦) . وعن أبي هريرة ﷺ قال : قلنا : يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال : « لَبِنَةُ ذَهَبٍ وَلَبِنَةُ فِضَّةٍ ، وَمِلاَطُهَا المِسْكُ ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَاليَاقُوتُ ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمْ لاَ يَبْأَسْ ، وَيَخْلُدُ لاَ يَمُوتُ ، لاَ تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلاَ يَفْنَى شَبَابُهُ » (٧) . وعن علي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَغُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا ، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا » فقام أعرابي فقال : يا رسول الله لمن هي ؟ فقال : « لِمَنْ طَيَّبَ الكَلاَمَ ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ ، وَصَلَّى بِاللَّيلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ » (٨) . وعن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلاَ

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٤٤) ومسلم في الإيمان (٢٩٦) وابن ماجه في السنن (١٨٦) .
(٢) أخرجه مسلم في الجنة (٢٣) .
(٣) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٧٩٠) وأحمد في مسنده (٣٣٥/٢) .
(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٥٥) ومسلم في الجنة (١١) والطبراني في المعجم الكبير (١٧٣/٦) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٥/٢) .
(٦) أخرجه مسلم في الصلاة (١١) وأبو داود في السنن (٥٢٣) والترمذي في السنن (٣١٦٤) .
(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٥/٢) والترمذي في السنن (٢٥٢٦) .
(٨) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٢٧) والهندي في كنز العمال (٤٤٣٠٦) .

هَلْ مِنْ مُشَمِّرٍ إِلَى الجَنَّةِ ؟ فَإِنَّ الجَنَّةَ لاَ خَطَرَ لَهَا ، هِيَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلأْلأُ ، وَرَيحَانَةٌ تَهْتَزُّ ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ ، وَنَهْرٌ مُطَّرِدٌ ، وَثَمَرَةٌ نَضِيجَةٌ ، وَزَوجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ ، وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ ، وَمُقَامٌ فِي أَبَدٍ فِي دَارٍ سَلِيمَةٍ ، وَفَاكِهَةٌ وَخُضْرَةٌ وَحُبْرَةٌ ، وَنِعْمَةٌ فِي مَحَلَّةٍ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ » قالوا : نعم يا رسول اللَّه نحن المشمرون لها ، قال : « قُولُوا : إِنْ شَاءَ اللَّه » . فقال القوم : إن شاء اللَّه (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أي رضا اللَّه عنهم أكبر وأجلّ وأعظم ممَّا هم فيه من النعيم ، كما روي عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال : « إِنَّ اللَّه ﷻ يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ ، فَيَقُولُونَ : لَبَّيكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيكَ وَالخَيرُ فِي يَدَيْكَ ، فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى يَا رَبُّ وَقَدْ أَعْطَيتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، فَيَقُولُ : أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُونَ : يَا رَبُّ وَأَيُّ شَيءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ : أُحِلُّ عَلَيكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا » (٢) . وعن جابر بن عبد اللَّه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ قَالَ اللَّه ﷻ : هَلْ تَشْتَهُونَ شَيئًا فَأَزِيدَكُم ؟ قَالُوا : يَا رَبَّنَا مَا خَيرٌ مِمَّا أَعْطَيتَنَا ؟ قَالَ : رِضْوَانِي أَكْبَرُ » (٣) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم ، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين ، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة ، وقد تقدم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال : بعث رسول اللَّه ﷺ بأربعة أسياف : سيف للمشركين ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وسيف للكفار أهل الكتاب ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ وسيف للمنافقين ﴿ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ وسيف للبغاة ﴿ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ . وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق ، وهو اختيار ابن جرير . وقال ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ قال : بيده ، فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه . وقال ابن عبّاس : أمره اللَّه تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان ، وأذهب الرفق عنهم ، وقال الضحاك : جاهد الكفار بالسيف وأغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم . وقال الحسن وقتادة ومجاهد : مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم .

وقوله : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ قال قتادة : نزلت في عبد اللَّه بن أُبي وذلك أنه اقتتل رجلان جهني وأنصاري ، فعلا الجهني على الأنصاري ، فقال عبد اللَّه للأنصار : ألا تنصرون أخاكم ؟ واللَّه ما مثلنا ومثل محمّد إِلَّا كما قال القائل : سمّن كلبك يأكلك ،

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٣٣٢) والهندي في كنز العمال (١٣٣٦) .
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٥٧١٨) ومسلم في الجنة (٩) وأحمد في مسنده (٣/٨٨) .
(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٤٤) ومسلم في الإيمان (٢٩٧) والحاكم في المستدرك (١/٨٢) .

وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ ، فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قاله ، فأنزل الله فيه هذه الآية . وعن عبد الله بن الفضل أنه سمع أنس بن مالك ﷺ يقول : حزنت على من أصيب بالحرة من قومي ، فكتب إليّ زيد بن أرقم وبلغه شدة حزني يذكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَلأَبْنَاءِ الأَنْصَارِ »(١) . وشك ابن الفضل في أبناء الأنصار ، قال ابن الفضل : فسأل أنس بعض من كان عنده عن زيد بن أرقم فقال : هو الذي يقول له رسول الله ﷺ : «أَوْفَى اللَّهُ لَهُ بِإِذْنِهِ » . قال : وذلك حين سمع رجلًا من المنافقين يقول : ورسول الله ﷺ يخطب لئن كان صادقًا فنحن شر من الحمير ، فقال زيد بن أرقم : فهو والله صادق ولأنت شر من الحمار ، ثم رفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجحده القائل ، فأنزل الله هذه الآية تصديقًا لزيد ، يعني قوله ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ﴾ الآية .

وقال محمّد بن إسحاق : كان الذي قال تلك المقالة فيما بلغني الجلاس بن سويد بن الصامت فرفعها عليه رجل كان في حجره يقال له : عمير بن سعد فأنكرها ، فحلف بالله ما قالها ، فلما نزل فيه القرآن تاب ونزع وحسنت توبته فيما بلغني . وعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ جالسًا تحت ظل شجرة فقال : «إِنَّهُ سَيَأْتِيكُمْ إِنْسَانٌ فَيَنْظُرُ إِلَيْكُمْ بِعَيْنَيِ الشَّيْطَانِ ، فَإِذَا جَاءَ فَلَا تُكَلِّمُوهُ »فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق ، فدعاه رسول الله ﷺ فقال : «علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ »فانطلق الرجل فجاءه بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم فأنزل الله ﷻ ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ﴾ الآية (٢) .

وقوله : ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ قيل : أنزلت في الجلاس بن سويد وذلك أنه همّ بقتل ابن امرأته حين قال : لأخبرن رسول الله ﷺ ، وقيل : في عبد الله بن أُبيّ : همّ بقتل رسول الله ﷺ ، وقال السدي : نزلت في أناس أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أُبي وإن لم يرض رسول الله ﷺ ، وقد ورد أن نفرًا من المنافقين همّوا بالفتك بالنبيّ ﷺ وهو في غزوة تبوك في بعض تلك الليالي في حال السير ، وكانوا بضعة عشر رجلًا . وعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال : كنت آخذًا بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به وعمار يسوق الناقة أو أنا أسوقه وعمار يقوده ، حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكبًا قد اعترضوه فيها ، قال : فأنبهت رسول الله ﷺ بهم ، وصرخ بهم ، فولوا مدبرين ، فقال لنا رسول الله ﷺ : « هَلْ عَرَفْتُمُ الْقَوْمَ ؟ »قلنا : لا يا رسول الله قد كانوا متلثمين ، ولكنا قد عرفنا الركاب قال : « هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَهَلْ تَدْرُونَ مَا أَرَادُوا ؟ »قلنا : لا ، قال : «أَرَادُوا أَنْ يُزَاحِمُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْعَقَبَةِ فَيُلْقُوهُ مِنْهَا »قلنا : يا رسول الله أفلا نبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم ؟ قال : « لَا ، أَكْرَهُ أَنْ تَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ بَيْنَهَا أَنَّ مُحَمَّدًا قَاتَلَ بِقَوْمٍ ، حَتَّى إِذَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ بِهِمْ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ يَقْتُلُهُمْ »ثُمَّ قَالَ : « اللَّهُمَّ ارْمِهِمْ بِالدُّبَيْلَةِ » . قلنا : يا رسول الله وما الدبيلة ؟ قال : « شِهَابٌ مِنْ نَارٍ يَقَعُ عَلَى نِيَاطِ قَلْبِ أَحَدِهِمْ فَيَهْلِكُ »(٣) .

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٨٧/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٤٠/١٠ ، ٤١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٧/١) والحاكم في المستدرك (٤٨٢/٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٣/٥) .

ويشهد لهذه القصة ما روي عن أبي الطفيل قال : كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس ، فقال : أنشدك بالله كم كان أصحاب العقبة ؟ قال : فقال له القوم : أخبره إذ سألك ، فقال : كنا نخبر أنهم أربعة عشر ، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر ، وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وعذر ثلاثة قالوا : ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ ولا علمنا بما أراد القوم ، وقد كان في حرة يمشي فقال : « إن الماء قليل فلا يسبقني إليه أحد ، فوجد قومًا قد سبقوه فلعنهم يومئذ » (١) . وروي عن عمار بن ياسر قال : أخبرني حذيفة عن النبيّ ﷺ أنه قال : « فِي أَصْحَابِي اثْنَا عَشَرَ مُنَافِقًا لاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدُونَ رِيحَهَا حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ : ثَمَانِيَةٌ مِنْهُمْ تكفيكهم الدُّبَيْلَةُ ، سِرَاجٌ مِنْ نَارٍ يَظْهَرُ بَيْنَ أَكْتَافِهِمْ حَتَّى يَنْجُمَ فِي صُدُورِهِمْ » (٢) ولهذا كان حذيفة يقال له : صاحب السر الذي لا يعلمه غيره ، أي من تعيين جماعة من المنافقين وهم هؤلاء قد أطلعه عليهم رسول الله ﷺ دون غيره ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أي وما للرسول عندهم ذنب إلّا أن الله أغناهم ببركته ويمن سعادته ، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به كما قال ﷺ للأنصار : « أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي ؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِي ؟ » (٣) . كلما قال شيئًا قالوا : الله ورسوله أمنّ (٤) وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كقوله : ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ الآية ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « مَا يَنْقِمُ ابْنُ جَمِيلٍ إِلَّا أَنْ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللَّهُ » (٥) . ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال : ﴿ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أي وإن يستمروا على طريقهم يعذبهم الله عذابًا أليمًا في الدنيا أي بالقتل والهم والغم ، والآخرة أي بالعذاب والنكال والهوان والصغار ﴿ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أي وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم لا يحصل لهم خيرًا ولا يدفع عنهم شرًّا .

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ .

يقول تعالى : ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين ، فما وفى بما قال ، ولا صدق فيما ادعى ، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقًا سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله عز وجل يوم القيامة عياذًا بالله من ذلك . وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عبّاس والحسن البصري أن سبب نزول هذه الآية الكريمة في ثعلبة بن حاطب الأنصاري (٦) ،

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (١١) وأحمد في مسنده (٣٩١/٥) .
(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٩) وأحمد في مسنده (٣٩٠/٥) والبيهقي في السنن الكبرى (١٩٨/٨) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٤/٣) . (٤) أخرجه مسلم في الزكاة (١٣٩) وأحمد في مسنده ٧/٣ .
(٥) أخرجه مسلم في الزكاة (١١) وأبو داود في سننه (١٦٢٣) والنسائي في سننه (٢٤٦٤) .
(٦) قال ابن حجر في الإصابة بعد إيراد الرواية الواردة عن ابن عبّاس بأنه ثعلبة بن حاطب الأنصارى البدري : (وقد ثبت أنه ﷺ قال : « لا يدخل النار أحدٌ شهد بدرًا والحديبية » وحكى عن ربه أنه قال لأهل بدر : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » فمن يكون بهذه المثابة كيف يعقبه الله نفاقًا في قلبه وينزل فيه ما نزل ؛ الظاهر أنه غيره والله أعلم . الإصابة (٢٠٦/١) .

وقد ورد فيه حديث عن ثعلبة أنه قال لرسول الله ﷺ : ادع الله أن يرزقني مالًا ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لاَ تُطِيقُهُ » قال : ثم قال مرة أخرى فقال : « أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِثْلَ نَبِيِّ اللَّهِ ؟ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ تَسِيرَ الجِبَالُ مَعِي ذَهَبًا وَفِضَّةً لَسَارَتْ » قال : والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالًا لأعطين كل ذي حق حقه ، فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ ارْزُقْ ثَعْلَبَةَ مَالًا » قال : فاتخذ غنمًا فنمت كما ينمى الدود ، فضاقت عليه المدينة ، فتنحى عنها فنزل واديًا من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما ، ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، وهي تنمى كما ينمي الدود حتى ترك الجمعة ، فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار ، فقال رسول الله ﷺ : « مَا فَعَلَ ثَعْلَبَةُ ؟ » . فقالوا : يا رسول الله اتخذ غنمًا فضاقت عليه المدينة فأخبروه بأمره ، فقال : « يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ ، يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ ، يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ » . وأنزل الله ﷻ ثناؤه : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً ﴾ الآية ، ونزلت فرائض الصدقة ، فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة من المسلمين رجلًا من جهينة ورجلًا من سليم وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين وقال لهما : « مُرَّا بِثَعْلَبَةَ وَبِفُلاَنٍ - رَجُلٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ - فَخُذَا صَدَقَاتِهِمَا » فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية ، ما أدري ما هذا ؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إليّ ، فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها ، فلما رأوها قالوا : ما يجب عليك هذا ، وما نريد أن نأخذ هذا منك ، فقال : بلى فخذوها فإن نفسي بذلك طيبة ، وإنما هي له ، فأخذاها منه ومرا على الناس فأخذا الصدقات ثم رجعا إلى ثعلبة فقال : أروني كتابكما فقرأه فقال : ما هذا إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية ، انطلقا حتى أرى رأيي فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ فلما رآهما قال : « يَا وَيْحُ ثَعْلَبَة » قبل أن يكلمهما ودعا للسلمي بالبركة ، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي . فأنزل الله ﷻ ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ الآية ، قال : وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال : ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا ، فخرج ثعلبة حتى أتى النبيّ ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته فقال : « إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك » فجعل يحثو على رأسه التراب ، فقال له رسول الله ﷺ : « هَذَا عَمَلُكَ قَدْ أَمَرْتُكَ فَلَمْ تُطِعْنِي » فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع إلى منزله ، فقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئًا ، ثم أتى أبا بكر ﵁ حين استخلف فقال : قد علمت منزلتي من رسول الله وموضعي من الأنصار فاقبل صدقتي ، فقال أبو بكر : لم يقبلها منك رسول الله ﷺ : وأبى أن يقبلها ، فقبض أبو بكر ولم يقبلها ، فلما ولي عمر ﵁ أتاه فقال : يا أمير المؤمنين اقبل صدقتي ، فقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وأنا أقبلها منك ؟! فقبض ولم يقبلها ، فلما ولي عثمان ﵁ أتاه فقال : اقبل صدقتي ، فقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك ؟! فلم يقبلها منه ، فهلك ثعلبة في خلافة عثمان [1] .

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٦٠/٨ ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٣١/٧) .

وقوله تعالى : ﴿ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ الآية ، أي أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم ، كما في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاَثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ » [1] .

قوله : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ ﴾ الآية ، يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى ، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها ، فإن الله أعلم بهم من أنفسهم ؛ لأنه تعالى علام الغيوب أي يعلم كل غيب وشهادة ، وكل سر ونجوى ، ويعلم ما ظهر وما بطن .

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وهذا أيضًا من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال ، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم ، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا : هذا مراء ، وإن جاء بشيء يسير قالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا . كما روي عن أبي مسعود ﷺ قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا ، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا : مرائي ، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا . فنزلت ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ ﴾ الآية [2] . وعن أبي السليل قال : وقف علينا رجل في مجلسنا بالبقيع فقال : حدَّثني أبي - أو عمي - أنه رأى رسول الله ﷺ بالبقيع وهو يقول : « مَنْ يَتَصَدَّق بِصَدَقَةٍ أَشْهَد لَهُ بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ ؟ » . قال : فحللت من عمامتي لوثًا أو لوثين وأنا أريد أن أتصدق بهما ، فأدركني ما يدرك ابن آدم فعقدت على عمامتي ، فجاء رجل لم أر بالبقيع رجلًا أشد سوادًا ولا أصغر منه ولا أذم ، ببعير ساقه لم أر بالبقيع ناقة أحسن منها فقال : يا رسول الله أصدقة ؟ قال : « نعم » قال : دونك هذه الناقة ، قال : فلمزه رجل فقال : هذا يتصدق بهذه ؟! فوالله لهي خير منه ، قال : فسمعها رسول الله ﷺ فقال : « كذبت بل هو خير منك ومنها » ثلاث مرات ، ثم قال : « وَيْلٌ لِأَصْحَابِ المِئِينَ مِنَ الإِبِلِ » ثلاثًا ، قالوا : إلا من يا رسول الله ؟ قال : « إِلَّا مَنْ قَالَ بِالْمَالِ هَكَذَا وَهَكَذَا » . وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله ثم قال : « قَدْ أَفْلَحَ المُزْهِدُ المُجْهِدُ » ثلاثًا . المزهد في العيش المجهد في العبادة [3] .

وقال ابن عبّاس أن رسول الله خرج إلى الناس يومًا فنادى فيهم أن اجمعوا صدقاتكم ، فجمع الناس صدقاتهم ، ثم جاء رجل من آخرهم بصاع من تمر ، فقال : يا رسول الله هذا صاع من تمر ، بت ليلتي أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر ، فأمسكت أحدهما وأتيتك بالآخر ، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات فسخر منه رجال وقالوا : إن الله ورسوله لغنيان عن هذا وما يصنعون بصاعك من شيء ؟ ثم إن عبد الرّحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ : هل بقي أحد من أهل الصدقات ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ غَيْرُكَ » فقال له عبد الرّحمن بن عوف : فإن عندي مائة أوقية من ذهب في الصدقات ، فقال له عمر بن الخطاب ﷺ : أمجنون أنت ؟ قال : ليس

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٣) ومسلم في الإيمان (١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠) وأحمد في مسنده (٣٥٧/٢) .
(٢) أخرجه : البخاري في تفسير القرآن (٤٦٦٨) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٢١/٣) والهندي في كنز العمال (٦٢٨٠) .

بي جنون ، قال : أفعلت ما فعلت ؟ قال : نعم مالي ثمانية آلاف ، أما أربعة آلاف فأقرضها ربي ، وأما أربعة آلاف فلي ، فقال له رسول الله ﷺ : « بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت »(١) ولمزه المنافقون فقالوا : والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رياء وهم كاذبون ، إنما كان به متطوعًا ، فأنزل الله ﷻ عذره وعذر صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر فقال تعالى في كتابه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ .

وقوله ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصارًا للمؤمنين في الدنيا ، وأعد للمنافقين في الآخرة عذابًا أليمًا ؛ لأن الجزاء من جنس العمل .

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ .

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلًا للاستغفار ، وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، وقد قيل : إن السبعين إنما ذكرت حسمًا لمادة الاستغفار لهم ؛ لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها ولا تريد التحديد بها ، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها . وقيل : بل لها مفهوم . عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية : « أَسْمَعُ رَبِّي قَدْ رَخَّصَ لِي فِيهِمْ ، فَوَاللهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً لَعَلَّ اللهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ »(٢) . فقال الله من شدة غضبه عليهم : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ الآية . وقال الشعبي : لما ثقل عبد الله بن أبيّ انطلق ابنه إلى النبيّ ﷺ فقال : إن أبي يحتضر فأحب أن تشهده وتصلي عليه ، فقال له النبيّ ﷺ : « ما اسمك » قال الحباب بن عبد الله قال : « بل أنت عبد الله بن عبد الله ، إن الحباب اسم شيطان » . فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عرق وصلى عليه فقيل له : أتصلي عليه ؟ فقال : « إِنَّ اللهَ قَالَ : ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ وَلأَسْتَغْفِرَنَّ لَهُمْ سَبْعِينَ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِينَ »(٣) .

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ .

يقول تعالى ذامًّا للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، وفرحوا بقعودهم بعد خروجه ﴿ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ ﴾ معه ﴿ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ ﴾ أي بعضهم لبعض ﴿ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ﴾ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر عند طيب الظلال والثمار ، فلهذا قالوا : ﴿ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ﴾ قال الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ مما فررتم منه من الحر ، بل أشد حرًّا من النار ، كما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نَارُ بَنِي آدَمَ الَّتِي تُوقِدُونَهَا جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ »

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٣٢) والهندي في كنز العمال (٣٦٣٣) .
(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٥) .
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢/١٠) والهندي في كنز العمال (٤٥٩٩١) .

فقالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية ، فقال : « فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا »(١) . وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَوْقَدَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَلْف سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّت ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ ، فَهِيَ سَوْدَاءُ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ »(٢) وعن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمَنْ لَهُ نَعْلاَنِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ ، كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ ، لاَ يَرَى أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَشَدُّ عَذَابًا مِنْهُ ، وَإِنَّهُ أَهْوَنُهُمْ عَذَابًا »(٣) .

وقال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ ثم قال تعالى متوعدًا هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا ﴾ الآية ، قال ابن عباس : الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاءوا ، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله ﷻ استأنفوا بكاء لا ينقطع أبدًا . وعن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ابْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا ، فَإِنَّ أهل النَّارِ يَبْكُونَ حَتَّى تَسِيلَ دُمُوعهمْ فِي وُجُوهِهِمْ كَأَنَّهَا جَدَاوِلُ ، حَتَّى تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ فَتَسِيلَ الدِّمَاءُ فَتَقَرَّحَ الْعُيُونُ ، فَلَوْ أَنَّ سُفُنًا أُزْجِيَتْ فِيهَا لَجَرَتْ »(٤) .

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَٰلِفِينَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا لرسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ ﴾ أي ردك الله من غزوتك هذه ﴿ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ قال قتادة : ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلًا ﴿ فَاسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ﴾ أي معك إلى غزوة أخرى ﴿ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ أي تعزيرًا لهم وعقوبة ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فإن جزاء السيئة السيئة بعدها ، كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، وقوله تعالى : ﴿ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَٰلِفِينَ ﴾ قال ابن عبّاس : أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة ، وقال قتادة : أي مع النساء ، قال ابن جرير : وهذا لا يستقيم ؛ لأن جمع النساء لا يكون بالياء والنون ، ولو أريد النساء لقال : فاقعدوا مع الخوالف أو الخالفات ، ورجح قول ابن عبّاس رضي الله عنهما .

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ .

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين وأن لا يصلي على أحد منهم إذا مات ، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له ؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه ، وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه ، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أُبيّ ابن سلول رأس المنافقين ، كما روي : عن ابن عمر قال : لما توفي عبد الله بن أُبيّ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه ، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٧/٢) ومالك في الموطأ (٩٩٤) .
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٣٢٠) والهندي في كنز العمال (٣٩٤٩٨) .
(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٦٢) ومسلم في الإيمان (٣٦٣) وأحمد في مسنده (٢٧١/٤) .
(٤) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٤٩٣/٤) .

تصلي عليه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللَّهُ فَقَالَ : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ وَسَأَزِيدُهُ عَلَى سَبْعِينَ » قال : إنه منافق ! قال : فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله ﷻ آية ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ﴾ [1] وعن ابن عبّاس قال : سمعت عمر بن الخطاب ﷺ يقول : لما توفي عبد الله أُبيّ دعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه فقام إليه ، فلما وقف عليه يريد الصلاة عليه تحولت حتى قمت في صدره ، فقلت : يا رسول الله أعلى عدو الله عبد الله بن أُبيّ القائل يوم كذا وكذا وكذا - يعدّد أيامه - قال : ورسول الله ﷺ يتبسم ، حتى إذا أكثرت عليه قال : « أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ ، إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ ، قَدْ قِيلَ لِي : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ الآية . لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي لَوْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ غُفِرَ لَهُ لَزِدْتُ » قال : ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ منه ، قال : فعجبت من جرأتي على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم . قال : فوالله ما كان إلّا يسيرًا حتى نزلت هاتان الآيتان : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ الآية . فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله ﷻ [2] .

وعن أبي قتادة قال : كان رسول الله ﷺ إذا دعي إلى جنازة سأل عنها ، فإن أثني عليها خيرًا قام فصلى عليها ، وإن كان غير ذلك قال لأهلها : « شَأْنَكُمْ بِهَا » ولم يصل عليها [3] ، وكان عمر بن الخطاب لا يصلي على جنازة من جهل حاله حتى يصلي عليها حذيفة بن اليمان ؛ لأنه كان يعلم أعيان المنافقين ، قد أخبره بهم رسول الله ﷺ ، ولهذا كان يقال له : صاحب السر الذي لا يعلمه غيره ، أي من الصحابة . وقال أبو عبيد في كتاب الغريب في حديث عمر أنه أراد أن يصلي على جنازة رجل فمرزه حذيفة ، كأنه أراد أن يصده عن الصلاة عليها . ثم حكي عن بعضهم أن المرز بلغة أهل اليمامة هو القرص بأطراف الأصابع .

ولما نهى الله ﷻ عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم كان هذا الصنيع من أكبر القربات في حق المؤمنين فشرع ذلك ، وفي فعله الأجر الجزيل ، كما ثبت عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ شَهِدَ الْجَنَازَةَ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ ، وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانِ » . قيل : وما القيراطان ؟ قال : « أَصْغَرُهُمَا مِثْلُ أُحُدَ » [4] وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات فروي عن عثمان ﷺ قال : كان رسول الله إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال : « اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ وَاسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ » [5] .

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ .

تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة ولله الحمد والمنة .

﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٤٠٢/٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٦/١) والترمذي في السنن (٣٠٩٧) والنسائي في السنن (١٩٦٦) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٠/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٤/٣) .
(٤) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٢٥) ومسلم في الجنائز (٥٢) وأحمد في مسنده (٤٠١/٢) .
(٥) أخرجه أبو داود في سننه (٣٢٢١) وانفرد بإخراجه .

ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا وذامًّا للمتخلفين عن الجهاد الناكلين عنه مع القدرة عليه ووجود السعة والطول ، واستأذنوا الرسول في القعود وقالوا : ﴿ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء وهن الخوالف بعد خروج الجيش ، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس ، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلامًا كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ أي علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن ، وفي الحرب أجبن شيء .

وقوله : ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أي لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه ، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه .

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

لما ذكر تعالى ذنب المنافقين وبيّن ثناءه على المؤمنين وما لهم في آخرتهم فقال : ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ ﴾ إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومآلهم ، وقوله : ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ﴾ أي في الدار الآخرة في جنات الفردوس والدرجات العلى .

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

ثم بيّن تعالى حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد الذين جاءوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج ، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة . قال الضحاك عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعْذِرون ﴾ بالتخفيف ويقول : هم أهل العذر . وقال ابن جريج عن مجاهد : ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ (١) قال : نفر من بني غفار جاءوا فاعتذروا فلم يعذرهم الله ، والقول الأول أظهر والله أعلم ؛ لما قدمنا من قوله بعده ﴿ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أي وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار ثم أوعدهم بالعذاب الأليم فقال : ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم بيّن تعالى الأعذار التي لا حرج على من قعد معها عن القتال ، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلاد في الجهاد ، ومنه

---

(١) قرأ يعقوب (المُعْذِرون) بتخفيف الذال والباقون بالتشديد (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٢١) .

العمى والعرج ونحوهما ، ولهذا بدأ به . ومنها ما هو عارض بسبب مرض عنَّ له في بدنه شغله عن الخروج في سبيل الله ، أو بسبب فقره لا يقدر على التجهيز للحرب ، فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم ولم يرجفوا بالناس ولم يثبطوهم وهم محسنون في حالهم هذا ، ولهذا قال : ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . وعن أبي ثمامة ﷺ قال : قال الحواريون : يا روح الله أخبرنا عن الناصح لله ؟ قال : الذي يؤثر حق الله على حق الناس ، وإذا حدث له أمران أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة بدأ بالذي للآخرة ثم تفرغ للذي للدنيا . وقال الأوزاعي : خرج الناس إلى الاستسقاء فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا معشر من حضر ألستم مقرين بالإساءة ؟ قالوا : اللهم نعم ، فقال : اللهم إنا نسمعك تقول ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ ﴾ اللهم وقد أقررنا بالإساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقنا ، ورفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا . وقال قتادة : نزلت هذه الآية في عائذ بن عمرو المزني عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب لرسول الله ﷺ فكنت أكتب براءة ، فإني لواضع القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال ، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه إذ جاء أعمى فقال : كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى ؟ فنزلت ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ ﴾ الآية .

وقال ابن عبّاس في هذه الآية : وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل بن مقرن المزني فقالوا : يا رسول الله احملنا ، فقال لهم : « وَاللهِ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ » فتولوا وهم يبكون ، وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً ، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه فقال : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقال مجاهد في قوله : ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ : نزلت في بني مقرن من مزينة .

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا وَلاَ سِرْتُمْ سَيْرًا إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ » قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : « نَعَمْ حَبَسَهُمُ الْعُذْرِ »(١) ، ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء وأنبهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرجال ﴿ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْۖ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ .

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم ﴿ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ أي لن نصدقكم ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْۚ ﴾ أي قد أعلمنا الله أحوالكم ﴿ وَسَيَرَى ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٣٩) ومسلم في الإمارة (١٥٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٤/٩) .

عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ أي سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي فيخبركم بأعمالكم خيرها وشرها ويجزيكم عليها . ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم معتذرين لتعرضوا عنهم ، فلا تؤنبوهم ، فأعرضوا عنهم احتقارًا لهم ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ أي خبث نجس بواطنهم واعتقاداتهم ، ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ ﴾ في آخرتهم ﴿ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ أي من الآثام والخطايا وأخبر أنهم إن رضوا عنهم لحلفهم لهم ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ أي الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسوله ، فإن الفسق هو الخروج ، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها للإفساد ، ويقال : فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها .

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٩٧ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٩٨ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

أخبر تعالى أن في الأعراب كفارًا ومنافقين ومؤمنين ، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر ، أي أحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، وعن ابن عبّاس عن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ سَكَنَ البَادِيَةَ جَفَا ، وَمَن اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفِلَ ، وَمَنْ أَتَى السلطان افْتُتِنَ » (١) . ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولًا ، وإنما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ فرد عليه أضعافها حتى رضي ، قال : « لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَقْبَلَ هَدِيَّةً إِلَّا مِنْ قُرَشِيٍّ أو ثقفيٍّ أَوْ أَنْصَارِيٍّ أَوْ دَوْسِيٍّ » (٢) لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن مكة والطائف والمدينة واليمن ، فهم ألطف أخلاقًا من الأعراب ، لما في طباع الأعراب من الجفاء .

وعن عائشة قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتقبلون صبيانكم ؟ قالوا : نعم ، قالوا : لكنا والله ما نقبّل ، فقال رسول الله ﷺ : « وَأَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللَّه نَزَعَ مِنْكُمُ الرَّحْمَةَ ؟ » وقال ابن نمير : « من قلبك الرحمة » (٣) .

وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم حكيم فيما قسم بين عباده من العلم والجهل ، والإيمان والكفر والنفاق ، لا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته . وأخبر تعالى أن منهم ﴿ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ ﴾ أي : في سبيل الله ﴿ مَغْرَمًا ﴾ أي : غرامة وخسارة ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ﴾ أي : ينتظر بكم الحوادث والآفات ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ أي : هي منعكسة عليهم ، والسوء دائر عليهم ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٧/١) وأبو داود في السنن (٢٨٥٩) والترمذي في السنن (٢٢٥٦) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٢/٢) والنسائي في السنن (٣٧٦٠) والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٣) .
(٣) أخرجه مسلم في الفضائل (٦٤) وابن ماجه في السنن (٣٦٦٥) .

سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان. وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله، ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم ﴿ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ﴾ أي ألا إن ذلك حاصل لهم ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم بما أعد لهم من جنات النعيم والنعيم المقيم، قال الشعبي: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية، وقال أبو موسى الأشعري: هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ، وقال محمّد بن كعب القرظي: مر عمر بن الخطاب برجل يقرأ هذه الآية: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ فأخذ عمر بيده فقال: من أقرأك هذا؟ فقال: أُبيّ بن كعب، فقال: لا تفارقني حتى أذهب بك إليه، فلما جاءه قال عمر: أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم. قال: وسمعتها من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، فقال أُبيّ: تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وفي سورة الحشر ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ الآية، وفي الأنفال ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ ﴾ الآية (١)، رواه ابن جرير، قال: وذكر عن الحسن البصري أنه كان يقرؤها برفع الأنصار (٢) عطفًا على ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم أو سبّهم أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم أعني الصدّيق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة ﷺ، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبّونهم! عياذًا بالله من ذلك، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبّون من رضي الله عنهم وأما أهل السنّة فإنهم يترضون عمن ﷺ، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متّبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون.

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾.

يخبر تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون، وفي أهل المدينة أيضًا منافقون ﴿ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾ أي مرنوا واستمروا عليه، ومنه يقال: شيطان مريد ومارد، ويقال: تمرد فلان على الله أي عتا وتجبّر. وقوله: ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ لا ينافي قوله

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٢/١١).

(٢) قرأ يعقوب ﴿ والأنصارُ ﴾ برفع الراء والباقون بالخفض (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٢١).

تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ ﴾ لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها ، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين ، وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقًا وإن كان يراه صباحًا ومساء ، وشاهد هذا بالصحة ما روي عن جبير بن مطعم ﷺ قال : قلت : يا رسول الله إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة فقال : « لِتَأْتِيَنَّكُمْ أُجُورُكُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ في جُحْرِ ثَعْلَبٍ » . وأصغى إلى رسول الله ﷺ برأسه فقال : « إِنَّ في أَصْحَابِي مُنَافِقِينَ » (١) . ومعناه أنه قد يبوح بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لا صحة له ، ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذي سمعه جبير بن مطعم ، وتقدم في تفسير قوله ﴿ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ﴾ أنه ﷺ أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقًا ، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم ، والله أعلم . وعن أبي الدرداء أن رجلًا يقال له : حرملة أتى النبي ﷺ فقال : الإيمان ههنا وأشار بيده إلى لسانه ، والنفاق ههنا وأشار بيده إلى قلبه ، ولم يذكر الله إلّا قليلًا ، فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ اجْعَلْ لَهُ لِسَانًا ذَاكِرًا ، وَقَلْبًا شَاكِرًا ، وَارْزُقْهُ حُبِّي وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّنِي ، وَصَيِّرْ أَمْرَهُ إِلَى خَيْرٍ » فقال : يا رسول الله إنه كان لي أصحاب من المنافقين وكنت رأسًا فيهم أفلا آتيك بهم ؟ قال : « مَن أَتَانَا اسْتَغْفَرْنَا لَهُ ، وَمَنْ أَصَرَّ فَاللَّهُ أولى بِهِ ، وَلَا تَخْرِقَنَّ عَلَى أَحَدٍ سِتْرًا » (٢) .

وقال ابن عبّاس في هذه الآية قال : قام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خطيبًا يوم الجمعة فقال : « اخرج يا فلان فإنك منافق ، واخرج يا فلان فإنك منافق » فأخرج من المسجد ناسًا منهم فضحهم ، فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم حياء أنه لم يشهد الجمعة وظن أن الناس قد انصرفوا ، واختبأوا هم من عمر ظنوا أنه قد علم بأمرهم ، فجاء عمر فدخل المسجد فإذا الناس لم يصلوا ، فقال له رجل من المسلمين : أبشر يا عمر قد فضح الله المنافقين اليوم . قال ابن عبّاس : فهذا العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد ، والعذاب الثاني : عذاب القبر ، وقال مجاهد في قوله : ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ : يعني القتل والسبي ، وقال في رواية : بالجوع وعذاب القبر ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ . قال ابن جريج : عذاب الدنيا وعذاب القبر ، ثم يردون إلى عذاب عظيم النار ، وقال الحسن البصري : عذاب في الدنيا وعذاب في القبر ، وقال عبد الرَّحمن بن زيد : أما العذاب في الدنيا فالأموال والأولاد ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ فهذه المصائب لهم عذاب وهي للمؤمنين أجر ، وعذاب في الآخرة في النار ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ قال : النار .

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

لما بيّن تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكذيبًا وشكًا ، شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلًا وميلًا إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقهم بالحق فقال : ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم ، ولهم أعمال أخر صالحة خلطوا هذه بتلك ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٨٣/٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٢/٥) .
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٦/٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٤٠٢) .

فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه ، وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين إلَّا أنها عامة في كل المذنبين الخطائين المخلطين المتلوثين ، وقد قال مجاهد : إنها نزلت في أبي لبابة لما قال لبني قريظة : إنه الذبح وأشار بيده إلى حلقه ، وقال ابن عبّاس ﴿ وَءَاخَرُونَ ﴾ نزلت في أبي لبابة وجماعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقال بعضهم : أبو لبابة وخمسة معه ، وقيل : وسبعة معه ، وقيل : وتسعة معه ، فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوته ربطوا أنفسهم بسواري المسجد وحلفوا لا يحلهم إلَّا رسولُ الله ﷺ ، فلما أنزل الله هذه الآية ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم . وعن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ لنا : « أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ فَابْتَعَثَانِي فَانْتَهَيَا بِي إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ ، فَتَلَقَّانَا رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ ، وَشَطْرٌ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ ، قَالَا لَهُمْ : اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ فَوَقَعُوا فِيهِ ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ ، فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ . قَالَا لِي : هَذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ وَهَذَا مَنْزِلُكَ ، قَالَا : وَأَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنٌ وَشَطْرٌ مِنْهُمْ قَبِيحٌ ؛ فَإِنَّهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ » [(١)] .

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٠٣ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكيهم بها ، وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في أموالهم إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا ، ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون ، وإنما كان خاصًا بالرسول ﷺ ولهذا احتجوا بقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً ﴾ الآية ، وقد رد عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد أبو بكر الصدِّيق وسائر الصحابة وقاتلهم حتى أدُّوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ حتى قال الصدِّيق : والله لو منعوني عناقًا - وفي رواية : عقالًا - كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه . وقوله : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أي ادع لهم واستغفر لهم ، كما رواه عبد الله بن أبي أوفى قال : كان النبيّ ﷺ إذا أُتي بصدقة قوم صلى عليهم ، فأتاه أبي بصدقته فقال : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى أَبِي أَوْفَى » [(٢)] . وفي الحديث الآخر : أن امرأة قالت يا رسول الله صلِّ عليّ وعلى زوجي فقال : « صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكِ وَعَلَى زَوْجِكِ » [(٣)] وقوله : ﴿ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ قرأ بعضهم صلواتك على الجمع ، وآخرون قرأوا إن صلاتك على الإفراد [(٤)] ﴿ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ قال ابن عبّاس رحمة لهم ، وقال قتادة : وقار . وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ أي لدعائك ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أي : بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له . وعن ابن حذيفة عن أبيه أن النبيّ ﷺ كان إذا دعا لرجل أصابته وأصابت ولده وولد ولده [(٥)] .

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٥٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٣٢) ومسلم في الزكاة (١٧٦) وأحمد في مسنده (٣٥٣/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٨/٣) وأبو داود في السنن (١٥٣١) والبيهقي في السنن الكبرى (١٥٣/٢) .

(٤) قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص ﴿ إن صلاتك ﴾ بالتوحيد وفتح التاء والباقون ﴿ صلواتك ﴾ بالجمع والكسر (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٢١) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٥/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٨/٨) .

وقوله ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها يحط الذنوب ويمحصها ويمحقها ، وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه . ومن تصدّق بصدقة من كسب حلال ؛ فإن اللَّه تعالى يتقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل أُحد ، كما جاء بذلك الحديث عن رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ وَيَأْخُذُهَا بِيَمِينِهِ فَيُرَبِّيهَا لِأَحَدِكُمْ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ مُهْرَهُ ، حَتَّى إِنَّ اللُّقْمَةَ لَتَكُونُ مِثْلَ أُحُدٍ » (١) . وتصديق ذلك في كتاب اللَّه ﷻ ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ وقوله : ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ قال : عبد اللَّه بن مسعود ﷺ : إن الصدقة تقع في يد اللَّه ﷻ قبل أن تقع في يد السائل ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ .

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

قال مجاهد : هذا وعيد من اللَّه تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول ﷺ وعلى المؤمنين . وهذا كائن لا محالة يوم القيامة كما قال : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ وقد يظهر اللَّه تعالى ذلك للناس في الدنيا كما روي عن أبي سعيد مرفوعًا عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَّاءَ لَيْسَ لَهَا بَابٌ وَلَا كُوَّةٌ لَأَخْرَجَ اللَّهُ عَمَلَهُ لِلنَّاسِ كَائِنًا مَا كَانَ » (٢) وقد ورد : أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ كما روي عن جابر بن عبد اللَّه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَى أَقَارِبِكُمْ وَعَشَائِرِكُمْ فِي قُبُورِهِمْ ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا اسْتَبْشَرُوْا بِهِ وإن كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ قَالُوا : اللَّهُمَّ أَلْهِمْهُمْ أَنْ يَعْمَلُوا بِطَاعَتِكَ » (٣) . وعن عائشة ﷺ قالت : إذا أعجبك حسن عمل امرئ مسلم فقل ﴿ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ . وعن أنس أن رسول اللَّه ﷺ قال : « لَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْجَبُوا بِأَحَدٍ حَتَّى تَنْظُرُوا بِمَ يُخْتَمُ لَهُ ، فَإِنَّ العَامِلَ يَعْمَلُ زَمَانًا مِنْ عُمُرِهِ أَوْ بُرْهَةً مِنْ دهره بِعَمَلٍ صَالِحٍ لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ الجَنَّةَ ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا سَيِّئًا ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَعْمَلُ الْبُرْهَةَ مِنْ دَهْرِهِ بِعَمَلٍ سَيِّئٍ لَوْ مات عَلَيْهِ دَخَلَ النَّارَ ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا صَالِحًا ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّه بِعَبْدِهِ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ » . قالوا : يا رسول اللَّه وكيف يستعمله ؟ قال : « يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ » (٤) .

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

قال ابن عبّاس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغير واحد : هم الثلاثة الذين خلفوا ، أي عن التوبة وهم : مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية ، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلًا وميلًا إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال ، لا شكًا ونفاقًا ، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري كما فعل أبو لبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورن ،

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٦٦٢) والهندي في كنز العمال (١٥٩٩٠) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٥/١٠) .
(٣) أخرجه أحمد مسنده (١٦٤/٣) والطبراني في معجم الكبير (١٥٤/٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢٨/٢) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٠/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢١١/٧) والهندي في كنز العمال (٥٨٩) .

فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء وأرجأ هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية وهي قوله : ﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ الآية : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ وقوله : ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : هم تحت عفو الله إن شاء فعل بهم هذا ، وإن شاء فعل بهم ذاك ، ولكن رحمته تغلب غضبه ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي : عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو ، حكيم في أفعاله وأقواله ، لا إله إلّا هو ولا رب سواه .

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ .

سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له : أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصّر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير ، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجرًا إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر ، شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها ، وخرج فارًّا إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالؤهم على حرب رسول الله ﷺ ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أُحُد فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله ﷻ ، وكانت العاقبة للمتقين ، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله عليه ، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته ، فلما عرفوا كلامه قالوا : لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق يا عدو الله ، ونالوا منه وسبُّوه فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومي بعدي شر ، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرد ، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيدًا طريدًا فنالته هذه الدعوة ، وذلك أنه لما فرغ الناس من أُحُد ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور ، وذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبيّ ﷺ فوعده ومنّاه وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلًا يَقْدُم عليهم فيه من يَقْدَمُ من عنده لأداء كتبه ، ويكون مرصدًا له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية ، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال : « إِنَّا عَلَى سَفَرٍ وَلَكِنْ إِذَا رَجَعْنَا إِنْ شَاءَ اللَّه » . فلما قفل عليه الصلاة والسّلام راجعًا إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلّا يوم أو بعض يوم ، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أُسس من أول يوم على التقوى ،

فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة .

كما قال ابن عبّاس في الآية : هم أناس من الأنصار بنوا مسجدًا فقال لهم أبو عامر : ابنوا مسجدًا واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتي بجنود من الروم وأخرج محمّدًا وأصحابه ، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبيّ ﷺ فقالوا : قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة ، فأنزل الله ﷻ ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ إلى قوله ﴿ الظالمين ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ ﴾ أي الذين بنوه ﴿ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي : ما أردنا ببنيانه إلّا خيرًا ورفقًا بالناس ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ أي : فيما قصدوا وفيما نووا ، وإنما بنوه ضرارًا لمسجد قباء ، وكفرًا بالله ، وتفريقًا بين المؤمنين ، وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وهو أبو عامر الفاسق الذي يقال له الراهب لعنه الله . وقوله : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ نهي له ﷺ والأمة تبع له في ذلك عن أن يقوم فيه أي يصلي أبدًا . ثم حثه على الصلاة بمسجد قباء الذي أسس من أول يوم بنيانه على التقوى ، وهي طاعة الله وطاعة رسوله ، وجمعًا لكلمة المؤمنين ، ومعقلًا وموئلًا للإسلام وأهله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء ، ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ كَعُمْرَةٍ » (٢) .

وفي الحديث : أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكبًا وماشيًا (٣) .

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ لما بناه وأسّسه أول قدومه ونزوله على بني عمرو بن عوف كان جبريل هو الذي عيَّن جهة القبلة ، فالله أعلم .

وعن أبي هريرة ؓ عن النبيّ ﷺ قال : « نَزَلَتْ هَذَهِ الآيَةُ فِي أَهْلِ قُبَاءٍ ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ » قَالَ : « كَانُوا يَسْتَنْجُون بِالْمَاءِ فَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الآيَةُ » (٤) .

وعن ابن عبّاس قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة فقال : « مَا هَذَا الطُّهُورُ الَّذِي أَثْنَى اللَّهُ عَلَيْكُمْ ؟ » ، فقال : يا رسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلّا غسل فرجه - أو قال : مقعدته - فقال النبيّ ﷺ : « هُوَ هَذَا » (٥) .

وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف ، ورواه علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس ، ورواه الزهري عن عروة بن الزبير . وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي في

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره ١١/٣٣ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (١٤١١) .

(٣) أخرجه مسلم في الحج (٥١٥) .

(٤) أخرجه أبو داود في سننه (٤٤) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٤٢٢) والحاكم في المستدرك (١/ ١٥٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٢١٢) .

جوف المدينة هو المسجد الذي أُسّس على التقوى ، وهذا صحيح ، ولا منافاة بين الآية وبين هذا ، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أُسّس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى ، ولهذا روي عن سهل بن سعد الساعدى قال : اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذي أُسس على التقوى فقال أحدهما : هو مسجد رسول الله ﷺ ، وقال الآخر : هو مسجد قباء ، فأتيا النبيّ ﷺ فسألاه فقال : « هُوَ مَسْجِدِي هَذَا » (١) .

وقد قال بأنه مسجد النبي ﷺ جماعة من السلف والخلف ، وهو مروي عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله .

وقوله : ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له ، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء والتنزه عن ملابسة القاذورات .

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ إن الطهور بالماء لحسن ، ولكنهم المطهرون من الذنوب . وقال الأعمش : التوبة والتطهر من الشرك ، وقد ورد في الحديث المروي من طرق أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء : « قَدْ أَثْنَى اللَّهُ عَلَيْكُمْ فِي الطُّهُورِ فَمَاذَا تَصْنَعُونَ ؟ » . فقالوا نستنجي بالماء (٢) .

وعن ابن عبّاس قال : نزلت هذه الآية في أهل قباء : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ فسألهم رسول الله ﷺ فقالوا : إنا نتبع الحجارة بالماء .

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠٩ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ، ومن بنى مسجدًا ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، فإنما يبني هؤلاء بنيانهم على شفا جرف هار أي طرف حفيرة مثاله ﴿ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي لا يصلح عمل المفسدين . قال جابر بن عبد الله : رأيت المسجد الذي بني ضرارًا يخرج منه الدخان على عهد رسول الله ﷺ . وقال ابن جريج : ذكر لنا أن رجالًا حفروا فوجدوا الدخان الذي يخرج منه . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي شكًا ونفاقًا بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع ، أورثهم نفاقًا في قلوبهم كما أشرب عابدوا العجل حبه . وقوله : ﴿ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي بموتهم ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وزيد بن أسلم ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أي بأعمال

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٦،٩) والحاكم في المستدرك (١/١٥٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (١/٢١٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٨) والترمذي في سننه (٣٠٩٩) والنسائي في السنن (٦٩٧) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤٢٢) والحاكم في المستدرك (١/١٥٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (١/٢١٢) .

خلقه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في مجازاتهم عنها من خير وشر .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها في سبيله بالجنة ، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه ، ولهذا قال الحسن البصري وقتادة بايعهم والله فأغلى ثمنهم . وقال عبد الله بن رواحة ﷺ لرسول الله ﷺ - يعني ليلة العقبة - : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال : «أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَشْتَرِطُ لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مما تمنعون مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وأموالكم » قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : « الجَنَّة » قالوا : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل ، فنزلت : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ﴾ الآية [(١)] . وقوله : ﴿ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ أي سواء قُتلوا أو قَتلوا ، أو اجتمع لهم هذا وهذا فقد وجبت لهم الجنة . ولهذا جاء في الحديث : «وَتَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادٌ فِي سَبِيلِي وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي بِأَنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ ، أَوْ يُرْجِعَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ » [(٢)] . وقوله : ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ تأكيد لهذا الوعد ، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة وأنزله على رسله في كتبه الكبار وهي التوراة المنزلة على موسى ، والإنجيل المنزل على عيسى ، والقرآن المنزل على محمّد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وقوله : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ فإنه لا يخلف الميعاد . هذا كقوله : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ ولهذا قال : ﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ أي فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ، ووفى بهذا العهد بالفوز العظيم والنعيم المقيم .

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ﴾ من الذنوب كلها التاركون للفواحش ﴿ ٱلْعَٰبِدُونَ ﴾ أي القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها وهي الأقوال والأفعال فمن أخص الأقوال الحمد ولهذا قال ﴿ ٱلْحَٰمِدُونَ ﴾ ومن أفضل الأعمال الصيام وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع وهو المراد بالسياحة ههنا قال ﴿ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ﴾ كما وصف أزواج النبيّ ﷺ بذلك في قوله تعالى : ﴿ سَٰٓئِحَٰتٍ ﴾ أي صائمات ، وكذا الركوع والسجود وهما عبارة عن الصلاة ولهذا قال : ﴿ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ﴾ وهم مع ذلك ينفعون خلق الله ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه علمًا وعملًا ، فقاموا بعبادة الحق ونصح

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٨٠/٣) والهندي في كنز العمال (١٥٢٥) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٧) ومسلم في الإمارة (٢٨) ومالك في الموطأ (٤٤٣) .

الخلق ولهذا قال : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله والسعادة كل السعادة لمن اتصف به .

بيان أن المراد بالسياحة الصيام : عن عبد الله بن مسعود قال ﴿ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ﴾ : الصائمون . وقال ابن عبّاس : كل ما ذكر الله في القرآن السياحة هم الصائمون ، وكذا قال الضحاك رَحِمَهُ ٱللَّهُ . وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت : سياحة هذه الأمة الصيام ، وقال الحسن البصري ﴿ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ﴾ : الصائمون شهر رمضان . وقال أبو عمرو العبدي ﴿ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ﴾ الذين يديمون الصيام من المؤمنين ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « السَّائِحُونَ هُمُ الصَّائِمُونَ » (١) .

وعن أبي أمامة أن رجلًا قال : يا رسول الله ائذن لي في السياحة ، فقال النبيّ ﷺ : « سِيَاحَةُ أُمَّتِي الجِهَادُ في سَبِيلِ اللَّه » (٢) . وعن عكرمة أنه قال : هم طلبة العلم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المهاجرين ، وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « يُوشِكُ أَنْ يَكونَ خَيْرُ مَالِ الرَّجُلِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ وَمَوَاقِعَ القَطْرِ ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ » (٣) وقال ابن عبّاس في قوله ﴿ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ﴾ : القائمون بطاعة الله ، وكذا قال الحسن البصري : لفرائض الله ، وعنه رواية القائمون على أمر الله .

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ .

عن ابن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبيّ ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال : « أَي عَمِّ ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه كَلِمَةٌ أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ » . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فقال : أنا على ملة عبد المطلب ، فقال النبيّ ﷺ : « لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ » . فنزلت : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ قال : ونزلت فيه : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (٤) وعن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال : سمعت رجلًا يستغفر لأبويه وهما مشركان ؟ فقلت : أيستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان ؟ فقال : أو لم يستغفروا إبراهيم لأبيه ؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية (٥) . وعن ابن بريدة عن أبيه قال : كنا مع النبيّ ﷺ ونحن في سفر ، فنزل بنا ونحن قريب من ألف راكب ، فصلى ركعتين ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان ، فقام إليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم وقال : يا رسول الله ما لك ؟ قال : « إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ في الاسْتِغْفَارِ

---

(١) أخرجه الهندي في كنز العمال (٢٩٠٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٤/٧) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٢٤٨٦) .

(٣) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٨٨) وأحمد في السنن (٦/٣) .

(٤) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٨٤) والنسائي في السنن (٢٠٣٥) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٩٩/١) .

لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي ، فَدَمَعَتْ عَيْنَايَ رَحْمَةً لَهَا مِنَ النَّارِ ، وَإِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عن ثلاث : نهيتكم عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ ؛ فَزُورُوهَا لِتُذَكِّرَكُمْ زِيَارَتُهَا خَيْرًا ، وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ لُحُومِ الأَضَاحِي بَعْدَ ثَلَاثٍ ، فَكُلُوا وَأَمْسِكُوا مَا شِئْتُمْ ، وَنَهَيْتُكُمْ عَنِ الأَشْرِبَةِ فِي الأَوْعِيَةِ ، فَاشْرَبُوا فِي أَيِّ وعاءٍ شِئْتُمْ ، وَلَا تَشْرَبُوا مُسْكِرًا » (١) .

وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية ، أن النبيّ ﷺ أراد أن يستغفر لأمه فنهاه الله ﷻ عن ذلك فقال : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ اللَّهِ ﷺ قَدْ اسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ » فأنزل الله ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾ (٢) . الآية ، وقال ابن عبّاس في هذه الآية : كانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية ، فأمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ، ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا ، ثم أنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ الآية .

وعن ابن عباس : مات رجل يهودي وله ابن مسلم فلم يخرج معه ، فذكر ذلك لابن عباس فقال : فكان ينبغي له أن يمشي معه ويدفنه ويدعو له بالصلاح ما دام حيًّا ، فإذا مات وكله إلى شأنه ثم قال : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ لم يدع ، ويشهد له بالصحة ما روي عن علي ﷺ ، لما مات أبو طالب قلت : يا رسول الله : إن عمك الشيخ الضال قد مات قال : « اذْهَبْ فَوَارِهِ وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِينِي » فذكر تمام الحديث (٣) .

وقوله ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ قال ابن عبّاس : ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات ، فلما تبينَّ له أنه عدو للّه تبرأ منه ، وفي رواية : لما مات تبينَّ له أنه عدو الله ، وقال عبيد بن عمير وسعيد ابن جبير : إنه يتبرأ منه يوم القيامة حين يلقى أباه وعلى وجه أبيه القترة والغبرة ، فيقول يا إبراهيم : إني كنت أعصيك ، فيقول : أي ربي ألم تعدني أن لا تخزني يوم يبعثون ، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد ، فيقال : انظر إلى ما وراءك فإذا هو بذبح متلطخ أي قد مسخ ضبعًا ، ثم يسحب بقوائمه ويلقى في النار . وقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ عن عبد الله بن مسعود أنه قال : الأوّاه الدعّاء ، وعن عبد الله بن شداد بن الهاد قال : بينما النبيّ ﷺ جالس قال رجل : يا رسول الله ما الأواه ؟ قال : « الْمُتَضَرِّعُ » (٤) قال : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ . وعن ابن عبّاس الأواه المؤمن ، زاد علي بن أبي طلحة عنه : هو المؤمن التواب ، وقال العوفي عنه : هو المؤمن بلسان الحبشة .

وعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له ذو النجادين : « إِنَّهُ أَوَّاهٌ » وذلك أنه رجل كان إذا ذكر الله في القرآن رفع صوته بالدعاء (٥) ، وقال ابن عبّاس ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ ﴾ قال : فقيه . قال الإمام أبو جعفر بن جرير : وأولى الأقوال قول من قال إنه الدعّاء ، وهو المناسب للسياق ، وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها إياه ، وقد كان إبراهيم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٥/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٦/١) .
(٢) ذكره السيوطي في الدر النثور (٢٨٣/٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٠/١) والنسائي في السنن (١٩٠) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٠٤/١) .
(٤) ذكره الطبري في تفسيره (٧٠/١١) .
(٥) أخرجه أحمد مسنده (١٥٩/٤) والحاكم في المستدرك (٣٦٨/١) والطبراني في المعجم الكبير (٢٩٥/١٧) .

كثير الدعاء حليمًا عمن ظلمه وأناله مكروهًا ، ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه له في قوله : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ۝ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ فحلم عنه مع أذاه له ، ودعا له واستغفر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ .

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن نفسه الكريمة وحكمه العادل إنه لا يضل قومًا إلّا بعد إبلاغ الرسالة إليهم ، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ الآية . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ ﴾ الآية ، قال : بيان الله ﷻ للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة ، وفي بيانه لهم معصيته وطاعته عامة ، فافعلوا أو ذروا . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ قال ابن جرير : هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر ، وأنهم يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض ولا يرهبوا من أعدائه ؛ فإنه لا ولي لهم من دون الله ، ولا نصير لهم سواه . وعن حكيم بن حزام قال : بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم : « هَلْ تَسْمَعُونَ مَا أَسْمَعُ ؟ » قالوا : ما نسمع من شيء ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنِّي لَأَسْمَعُ أَطِيطَ السَّمَاءِ ، وَمَا تُلَامُ أَنْ تَئِطَّ وَمَا فِيهَا مِنْ مَوْضِعِ شِبْرٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ قَائِمٌ » (١) .

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

قال مجاهد وغير واحد : نزلت هذه الآية في غزوة تبوك ، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مجدبة وحر شديد وعسر من الزاد والماء ، وقال قتادة : خرجوا إلى الشام عام تبوك في لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد ، أصابهم فيها جهد شديد حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما ، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها ، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها ، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم . وعن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة ، فقال عمر بن الخطاب : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد ، فنزلنا منزلًا فأصابنا فيه عطش ، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، وحتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع ، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده ، فقال أبو بكر الصدّيق : يا رسول الله إن الله ﷻ قد عوّدك في الدعاء خيرًا فادع لنا فقال : « تُحِبُّ ذَلِكَ ؟ » قال : نعم فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سالت السماء فأهطلت ثم سكنت ، فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر (٢) . وقال ابن جرير في قوله : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ أي من النفقة والظهر والزاد والماء ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ أي عن الحق ، ويشك في دين الرسول ﷺ

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢٥/٣) .
(٢) أخرجه : الحاكم في المستدرك ١٥٩/١ .

ويرتاب للذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ يقول : ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١١٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ .

عن عبد اللَّه بن كعب بن مالك أن عبيد بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمي قال : سمعت كعب بن مالك يحدِّث حديثه حين تخلف عن رسول اللَّه ﷺ في غزوة تبوك ، فقال كعب بن مالك : لم أتخلف عن رسول اللَّه ﷺ في غزاة غزاها قط ، إلَّا في غزاة تبوك ، غير أني كنت تخلفت في غزاة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها ، وإنما خرج رسول اللَّه ﷺ يريد عير قريش حتى جمع اللَّه بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول اللَّه ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر . وكان من خبري حين تخلفت عن رسول اللَّه ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة ، واللَّه ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة ، وكان رسول اللَّه ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلَّا ورى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول اللَّه ﷺ في حر شديد واستقبل سفرًا بعيدًا ومفاوز ، واستقبل عدوًّا كثيرًا ، فخلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم وجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول اللَّه ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب : فقلَّ رجل يريد أن يتغيَّب إلَّا ظن أن ذلك سيخفى عليه ما لم ينزل فيه وحي من اللَّه ﷻ ، وغزا رسول اللَّه ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال وأنا إليها أصعر ، فتجهز إليها رسول اللَّه ﷺ والمؤمنون معه ، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازي شيئًا ، فأقول لنفسي : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد ، فأصبح رسول اللَّه ﷺ غاديًا والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئًا ، وقلت : أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه ، فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئًا ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئًا ، فلم يزل ذلك يتمادي بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فألحقهم وليت أني فعلت ، ثم لم يقدر ذلك لي ، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد رسول اللَّه ﷺ يحزنني أني لا أرى إلَّا رجلًا مغموصًا عليه في النفاق أو رجلًا ممن عذره اللَّه ﷻ ، ولم يذكرني رسول اللَّه ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : « ما فعل كعب بن مالك » فقال رجل من بني سلمة حبسه يا رسول اللَّه برداه والنظر في عطفيه ، فقال معاذ بن جبل : بئسما قلت ، واللَّه يا رسول اللَّه ما علمنا عليه إلَّا خيرًا . فسكت رسول اللَّه ﷺ . قال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول اللَّه ﷺ قد توجه قافلًا من تبوك ، حضرني بثي وطفقت أتذكر الكذب . وأقول : بماذا أخرج من سخطه غدًا وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي ، فلما قيل : إن رسول اللَّه ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل ، وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبدًا فأجمعت صدقه ، فأصبح رسول اللَّه ﷺ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه

المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى حتى جئت ، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال لي : « تعال » فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي : « مَا خَلَّفَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدِ اشْتَرَيْتَ ظَهْرًا ؟ » فقلت : يا رسول الله إني لو جلست عند غيرك من الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلًا ، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليّ ، ولئن حدثتك بصدق تجد عليَّ فيه إني لأرجو عقبى ذلك من الله ﷻ ، والله ما كان لي عذر ، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ » . فقمت وقام إلي رجال من بني سلمة واتبعوني فقالوا : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا ، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك ، قال : فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي ، قال : ثم قلت لهم : هل لقي معي هذا أحد ؟ قالوا : نعم معك رجلان قالا مثل ما قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت : فمن هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أُمية الواقفي ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا لي فيهما أسوة ، قال : فمضيت حين ذكروهما لي ، قال : ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدوا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول في نفسي : أحرك شفتيه برد السلام عليّ أم لا ؟ ثم أصلي قريبًا منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي فإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ ، فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام ، فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلم أني أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت ، قال : فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم . قال : ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار ، فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا أنا بنبطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل علي كعب بن مالك ؟ قال : فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاء فدفع إلي كتابًا من ملك غسان وكنت كاتبًا فإذا فيه : أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، وإن الله لم يجعلك في دار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك . قال : فقلت حين قرأته : وهذا أيضًا من البلاء ، قال : فتيممت به التنور فسجرته به ، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني يقول : يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزل امرأتك ، قال : فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : بل اعتزلها ولا تقربها ، قال : وأرسل إلي صاحبيّ بمثل ذلك . فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما يشاء ، قال : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله

ﷺ فقالت : يا رسول الله إن هلالًا شيخ ضعيف ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : «لا ، ولكن لا يقربك » قالت : وإنه والله ما به من حركة إلى شيء ، وإنه والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، قال : فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ، قال : فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب ، قال : فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا ، قال : ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت ، سمعت صارخًا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته : أبشر يا كعب بن مالك ، قال : فخررت ساجدًا وعرفت أن قد جاء الفرج من الله ﷻ بالتوبة علينا فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبيّ مبشرون ، وركض إلي رجل فرسًا وسعى ساع من أسلم وأوفى على جبل فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ فكسوتهما إياه ببشارته ، والله ما أملك يومئذ غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أؤم رسول الله ﷺ ، وتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنؤني بتوبة الله ، يقولون : ليهنك توبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد والناس حوله ، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره ، قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة ، قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال : وهو يبرق وجهه من السرور : « أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ » قال : قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : « لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّه » . قال : - وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر حتى يعرف ذلك منه - فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ، قال : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » . قال : فقلت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر ، وقلت : يا رسول الله إنما نجاني الله بالصدق ، وإن من توبتي أن لا أحدث إلَّا صدقًا ما بقيت ، قال : فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى ، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا ، وإني لأرجو أن يحفظني الله ﷻ فيما بقي (١) . قال : وأنزل الله تعالى : ﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ إلى آخر الآيات . قال كعب : فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه ، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه

(١) أخرجه مسلم في التوبة (٥٣) وأحمد في مسنده (٤٥٧/٣ ، ٤٥٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٥/٩) .

حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال الله تعالى : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ قال : وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه ، فلذلك قال الله ﷻ : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ ﴾ وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خلفنا بتخليفنا عن الغزو ، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه (١) .

ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم نحوًا من خمسين ليلة بأيامها ، وضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت أي مع سعتها ، فسددت عليهم المسالك والمذاهب فلا يهتدون ما يصنعون ، فصبروا لأمر الله واستكانوا لأمر الله وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم ، وإنه كان عن غير عذر فعوقبوا على ذلك هذه المدة ، ثم تاب الله عليهم فكان عاقبة صدقهم خيرًا لهم وتوبة عليهم ولهذا قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي : اصدقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجًا من أموركم ومخرجًا . وقد روي عن عبد الله بن مسعود ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ ؛ فإِن الصِّدقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا . وَإِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ ؛ فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا » (٢) .

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

يعاتب تبارك وتعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب ،ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من المشقة ؛ فإنهم نقصوا أنفسهم من الأجر لأنهم ﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ وهو العطش ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ وهو التعب ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ وهي المجاعة ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ أي ينزلوا منزلًا يرهب عدوهم ﴿ وَلَا يَنَالُونَ ﴾ منه ظفرًا وغلبة عليه ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم ﴾ بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قدرهم ، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم أعمالًا صالحة وثوابًا جزيلًا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ كقوله : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ .

﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ أي قليلًا ولا كثيرًا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٤٠٦) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣ ، ٥) وابن ماجه في السنن (٣٨٤٩) .

﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا ﴾ أي في السير إلى الأعداء ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ ولم يقل ههنا به ؛ بل لأن هذه أفعال صادرة عنهم ولهذا قال : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفّان ﷺ من هذه الآية الكريمة حظ وافر ونصيب عظيم ، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة والأموال الجزيلة ، كما ورد عن عبد الرحمن بن حباب السلمي قال : خطب رسول الله ﷺ فحثَّ على جيش العسرة ، فقال عثمان بن عفان ﷺ : عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، قال : ثم حث ، فقال عثمان : عليَّ مائة بعير أخرى بأحلاسها وأقتابها ، قال : ثم نزل مرقاة من المنبر ثم حثَّ ، فقال عثمان بن عفان : عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها ، قال : فرأيت رسول الله ﷺ قال بيده هكذا يحركها – وأخرج عبد الصَّمد يده كالمتعجب – : « مَا عَلَى عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذَا » (١) .

وعن عبد الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان ﷺ إلى النبيّ ﷺ بألف دينار في ثوبه ، حين جهز النبيّ جيش العسرة ، قال : فصبها في حجر النبيّ ﷺ فرأيت النبيّ ﷺ يقلبها بيده « ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم » يرددها مرارًا (٢) ، وقال قتادة في قوله تعالى ﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ الآية ، ما ازداد قوم في سبيل الله بعدًا من أهليهم إلا ازدادوا قربًا من الله .

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ .

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفير الأحياء مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك ، فإنه قد ذهبت طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ . ولهذا قال تعالى ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ وقال ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ ﴾ الآية ، قال : فنسخ ذلك بهذه الآية . وقد يقال : إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلها وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه ، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو ، فيجتمع لهم الأمران في هذا النفير المعين وبعده ﷺ تكون الطائفة النافرة من الحي إما للتفقه وإما للجهاد فإنه فرض كفاية على الأحياء . وقال ابن عبّاس في الآية ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾ يقول : ما كان المؤمنون لينفروا جميعًا ويتركوا النبيّ ﷺ وحده ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ يعني عصبة ، يعني السرايا ولا يسيروا إلا بإذنه ، فإذا رجعت السرايا وقد أنزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون عن النبيّ ﷺ ، وقالوا : إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنًا وقد تعلمناه ، فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم ويبعث سرايا أخرى ، فذلك قوله : ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ يقول : ليعلموا ما أنزل الله نبيهم وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ وقال مجاهد : نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب النبيّ ﷺ خرجوا في البوادي فأصابوا من الناس معروفًا ، ومن الخصب ما ينتفعون به ، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى ، فقال الناس لهم : ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا ، فوجدوا أنفسهم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٤) والترمذي في السنن (٣٧٠٠) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٧٠١) والحاكم في المستدرك (١٠٢/٣) .

من ذلك تحرجًا ، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبيّ ﷺ فقال اللّٰه ﷻ : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ يبغون الخير ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ وليستمعوا ما في الناس وما أنزل اللّٰه فعذرهم ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ الناس كلهم إذا رجعوا إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ . وقال قتادة في الآية : هذا إذا بعث رسول اللّٰه ﷺ الجيوش أمرهم اللّٰه أن يغزوا بنبيه ﷺ وتقيم طائفة مع رسول اللّٰه تتفقه في الدين ، وتنطلق طائفة تدعو قومها وتحذرها وقائع اللّٰه فيمن خلا قبلهم .

وقال ابن عبّاس ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً﴾ : إنها ليست في الجهاد ولكن لما دعا رسول اللّٰه على مضر بالسنين أجدبت بلادهم ، وكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد ويعتلوا بالإسلام وهم كاذبون ، فضيقوا على أصحاب رسول اللّٰه ﷺ وأجهدوهم ، فأنزل اللّٰه تعالى يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين ، فردهم رسول اللّٰه ﷺ إلى عشائرهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم ، فذلك قوله ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ الآية . وقال ابن عباس في هذه الآية : كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة فيأتون النبيّ ﷺ فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ويتفقهون في دينهم ، ويقولون للنبي ﷺ : ما تأمرنا أن نفعله ؟ وأخبرنا بما نأمر به عشائرنا إذا قدمنا عليهم ، قال : فيأمرهم نبي اللّٰه ﷺ بطاعة اللّٰه وطاعة رسوله ، ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة وكانوا إذا أتوا قومهم قالوا : إن من أسلم فهو منا وينذرونهم ، حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه ، وكان النبيّ ﷺ يخبرهم وينذرهم قومهم ، فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة . وقال عكرمة : لما نزلت هذه الآية ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ الآية ، قال المنافقون : هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه ، وقد كان ناس من أصحاب النبيّ ﷺ خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم ، فأنزل اللّٰه ﷻ ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً﴾ الآية ، ونزلت ﴿وَالَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وقال الحسن البصري في الآية : ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم اللّٰه من الظهور على المشركين والنصرة ، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ .

أمر اللّٰه تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولًا فأولًا ، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ، ولهذا بدأ رسول اللّٰه ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب ، فلما فرغ منهم وفتح اللّٰه عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضرموت وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب ، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين اللّٰه أفواجًا ، شرع في قتال أهل الكتاب فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيزة العرب ، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل الكتاب فبلغ تبوك ، ثم رجع لأجل جهد الناس وجدب البلاد وضيق الحال وذلك سنة تسع من هجرته عليه الصلاة والسلام ، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع ، ثم عاجلته المنية صلوات اللّٰه وسلامه عليه بعد حجته بأحد وثمانين يومًا فاختاره اللّٰه لما عنده ، وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر الصدّيق ﷺ وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل فثبته اللّٰه تعالى به ، فوطد القواعد وثبت الدعائم ،

ورد بشارد الدين وهو راغم ، ورد أهل الردة إلى الإسلام ، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطعام ، وبيَّن الحق لمن جهله ، وأدَّى عن الرسول ما حمله ، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان ، وإلى الفرس عبدة النيران ، ففتح اللَّه ببركة سفارته البلاد ، وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد ، وأنفق كنوزهما في سبيل اللَّه كما أخبر بذلك رسول اللَّه ، وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده ، وولي عهده الفاروق الأوَّاب ، شهيد المحراب ، أبي حفص عمر بن الخطاب ﷺ ، فأرغم اللَّه به أنوف الكفرة الملحدين ، وقمع الطغاة والمنافقين ، واستولى على الممالك شرقًا وغربًا ، وحملت إليه خزائن الأموال سائر الأقاليم بعدًا وقربًا ، ففرقها على الوجه الشرعي ، والسبيل المرضي ، ثم لما مات شهيدًا وقد عاش حميدًا ، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ شهيد الدار فكسى الإسلام رياسة حلة سابغة ، وأمدت في سائر الأقاليم على رقب العباد حجة اللَّه البالغة ، فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، وعلت كلمة اللَّه وظهر دينه ، وبلغت الملة الحنيفة من أعداء اللَّه غاية مآربها ، وكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم ، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار امتثالًا لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ ﴾ أي وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم ، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقًا لأخيه المؤمن ، غليظًا على عدوه الكافر كقوله تعالى : ﴿ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ وقوله : ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ أي : قاتلوا الكفار وتوكلوا على اللَّه واعلموا أن اللَّه معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه ، وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة اللَّه تعالى ، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم ، ولم تزل الفتوحات كثيرة ، ولم تزل الأعداء في سفال وخسار ، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك ، طمع الأعداء في أطراف البلاد ، وتقدموا إليها فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض ، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام فأخذوا من الأطراف بلدانًا كثيرة ، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام ، وللَّه الأمر من قبل ومن بعد ، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام وأطاع أوامر اللَّه وتوكل على اللَّه فتح اللَّه عليه من البلاد واسترجع من الأعداء بحسبه وبقدر ما فيه من ولاية اللَّه ، واللَّه المسؤول المأمول أن يمكن المسلمين نواصي أعدائه الكافرين ، وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم إنه جواد كريم .

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ ﴾ فمن المنافقين ﴿ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ ﴾ أي : يقول بعضهم لبعض : أيكم زادته هذه السورة إيمانًا ؟ قال اللَّه تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء ، بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك ، وقد بسط الكلام على هذه المسألة في أول شرح البخاري رحمه الله . ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ ﴾ أي

زادتهم شكًا إلى شكهم ، وريبًا إلى ريبهم كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سببًا لضلالهم ودمارهم ، كما أن سيئ المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلَّا خبالًا ونقصًا .

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ .

يقول تعالى : أو لا يرى هؤلاء المنافقون ﴿ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ ﴾ أي يختبرون ﴿ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي لا يتوبون عن ذنوبهم السالفة ، ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم . قال مجاهد : يختبرون بالسنة والجوع ، وقال قتادة : بالغزو في السنة مرة أو مرتين ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ هذا أيضًا إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ ﴿ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي تلفتوا ﴿ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا۟ ﴾ أي تولوا عن الحق وانصرفوا عنه ، وهذا حالهم في الدنيا لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه كقوله تعالى : ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ أي ما لهؤلاء القوم يتفللون عنك يمينًا وشمالًا هروبًا من الحق وذهابًا إلى الباطل . وقوله : ﴿ ثُمَّ انصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ أي لا يفهمون عن الله خطابه ، ولا يتصدون لفهمه ولا يريدونه ، بل هم في شغل عنه ونفور منه فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه .

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولًا من أنفسهم أي من جنسهم وعلى لغتهم كما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي منكم وبلغتكم ، كما قال جعفر بن أبي طالب ﷺ للنجاشي والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى : إن الله بعث فينا رسولًا منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته [1] ... وذكر الحديث . وقال جعفر بن محمد عن أبيه في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ قال : لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية . وقال ﷺ : « خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْ سِفَاحٍ » [2] . وقوله تعالى : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أي يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها ، ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه قال : « بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ » [3] . وفي الحديث : « إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ ، وَشَرِيعَتَهُ كُلُّهَا سَهْلَةٌ سَمْحَةٌ كَامِلَةٌ يَسِيرَةٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ » [4] .

﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم . وعن أبي ذر

---

(١) أخرجه : البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٧٢) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (١٩٠/٧) والهندي في كنز العمال (٣١٨٦٨) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢١٤/٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٦/٥) والهندي في كنز العمال (٩٠٠) .

(٤) أخرجه النسائي في سننه (٥٠٣٤) والبيهقي في السنن (١٨/٣) .

قال : تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلّا وهو يذكر لنا منه علمًا قال : وقال رسول الله ﷺ : «مَا بَقِيَ شَيْءٌ يُقَرِّبُ مِنَ الجنة وَيُبَاعِدُ مِنَ النَّارِ إِلَّا وَقَدْ بُيِّنَ لَكُمْ » [(١)]. وعن عبد الله ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللّٰه لَمْ يُحَرِّمْ حُرْمَةً إِلَّا وقد عَلِمَ أَنَّهُ سَيُطْلِعُهَا مِنْكُمْ مطلع ، أَلَا وَإِنِّي آخِذٌ بِحُجزِكُمْ أَنْ تَهَافَتُوا فِي النَّارِ كَتَهَافُتِ الفَرَاشِ أَوْ الذُّبَابِ » [(٢)]. وعن ابن عبّاس : أن رسول الله ﷺ أتاه ملكان فيما يرى النائم فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه ، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه : اضرب مثل هذا ومثل أمته ، فقال : إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة ولم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به ، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة فقال : أرأيتم إن وردت بكم رياضًا معشبة وحياضًا رواء تتبعوني ؟ فقالوا : نعم ، قال : فانطلق بهم فأوردهم رياضًا رواء ، فأكلوا وشربوا وسمنوا ، فقال لهم : ألم ألفكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضًا معشبة وحياضًا رواء أن تتبعوني ؟ فقالوا : بلى ، فقال : فإن بين أيديكم رياضًا هي أعشب ممن هذه وحياضًا هي أروى من هذه فاتبعوني ، فقالت طائفة : صدق والله لنتبعنه ، وقالت طائفة : قد رضينا بهذا نقيم عليه [(٣)].

وقوله : ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ كقوله : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ أي تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة ﴿ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي الله كافي ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي هو مالك كل شيء وخالقه ؛ لأنه رب العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات ، وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى ، وعلمه محيط بكل شيء ، وقدره نافذ في كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل . وعن أُبيّ بن كعب قال : آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ إلى آخر السورة [(٤)]. وعن عباد بن عبد الله بن الزبير ﷺ قال : أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ إلى عمر بن الخطاب فقال : من معك على هذا ؟ قال : لا أدري ، والله إني لأشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ ووعيتها وحفظتها ، فقال عمر : وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ قال : لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة ، فانظروا سورة من القرآن فضعوها فيها ، فوضعوها في آخر براءة [(٥)].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٦٦/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٣/٨).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٠/١) والطبراني في المعجم الكبير (٢٦٥/١٠).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٧/١).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١١٧/٥)

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٩/١).

سورة يونس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

أما الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم الكلام عليها ، عن ابن عبّاس في قوله تعالى ﴿ الٓر ﴾ : أي أنا الله أرى . ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أي هذه آيات القرآن المحكم المبين وقوله : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ الآية . يقول تعالى منكرًا على من تعجب من الكفار ومن إرسال المرسلين من البشر كما أخبر تعالى عن القرون الماضين من قولهم : ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ وقال هود وصالح لقومهما : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾ وقال ابن عبّاس : لما بعث الله تعالى محمّدًا ﷺ رسولًا أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم ، فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا مثل محمّد ، قال : فأنزل الله ﷻ ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ الآية . وقوله : ﴿ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ اختلفوا فيه فقال ابن عبّاس في قوله ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ يقول : سبقت لهم السعادة في الذكر الأول ، وقال ابن عبّاس ﴿ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ يقول : أجرًا حسنًا بما قدموا ، وقال مجاهد : الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم ، قال : ومحمّد ﷺ يشفع لهم ، وكذا قال زيد بن أسلم ومقاتل بن حيان ، وقال قتادة : سلف صدق عند ربهم ، واختار ابن جرير قول مجاهد أنها الأعمال الصالحة التي قدموها كما يقال له قدم في الإسلام .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي مع أنا بعثنا إليهم رسولًا منهم ، رجلًا من جنسهم بشيرًا ونذيرًا ﴿ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر ، وهم الكاذبون في ذلك .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه ، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ، قيل : كهذه الأيام ؛ وقيل : كل يوم كألف سنة مما تعدّون كما سيأتي بيانه . ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ والعرش أعظم المخلوقات وسقفها . وعن إسماعيل بن أبي خالد قال : سمعت سعدًا الطائي يقول : العرش ياقوتة حمراء ، وقوله : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ أي يدبر الخلائق ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ولا يشغله شأن عن شأن ، ولا تغلطه المسائل ولا يتبرم بإلحاح الملحّين ، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير ، في الجبال والبحار والعمران والقفار ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ الآية ، وعن سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة أنه قال حين نزلت هذه الآية ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ الآية ، لقيهم ركب عظيم لا يرون إلّا أنهم من العرب فقالوا لهم : من أنتم ؟ قالوا : من الجن خرجنا من المدينة أخرجتنا هذه الآية . وقوله : ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ وقوله : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي أفردوه

بالعبادة وحده لا شريك له ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي أيها المشركون في أمركم تعبدون مع الله إلهًا غيره وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق .

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة لا يترك منهم أحدًا حتى يعيده كما بدأه ، ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ بِالْقِسْطِ ﴾ أي بالعدل والجزاء الأوفى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ أي بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب من سموم وحميم وظل من يحموم ﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ .

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَتِ وَالْأَرْضِ لَآيَتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه ، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء ، وجعل شعاع القمر نورًا ، وهذا فن وهذا فن آخر ، ففاوت بينهما لئلا يشتبها ، وجعل سلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل ، وقدّر القمر منازل ، فأول ما يبدو صغيرًا ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره ، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر ، كقوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ وَقَدَّرَهُ ﴾ أي القمر ﴿ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ فبالشمس تعرف الأيام ، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي لم يخلقه عبثًا بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة وقوله : ﴿ يُفَصِّلُ الْآيَتِ ﴾ أي نبين الحجج والأدلة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أي تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب هذا جاء هذا ، لا يتأخر عنه شيئًا ، كقوله تعالى : ﴿ يُغْشِي الَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ . وقوله : ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي من الآيات الدالة على عظمته تعالى كما قال : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَتٍ لِأُولِي الْأَلْبَبِ ﴾ أي العقول ، وقال ههنا : ﴿ لَآيَتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ أي عقاب الله وسخطه وعذابه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَتِنَا غَفِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَأْوَىٰهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ، ولا يرجون في لقائه شيئًا ، ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنت إليها نفوسهم . قال الحسن : والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها ، والشرعية فلا يأتمرون بها ، بأن مأواهم يوم معادهم النار جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والأجرام ، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وامتثلوا ما أمروا به فعملوا الصالحات ؛ بأنهم سيهديهم بإيمانهم ، يحتمل أن تكون الباء هھنا سببية فتقديره بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم ، حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة ، ويحتمل أن تكون للاستعانة كما قال مجاهد في قوله : ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ﴾ قال : يكون لهم نورًا يمشون به ، وقال ابن جريح في الآية : يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره يعارض صاحبه ويبشره بكل خير فيقول له : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك ، فيجعل له نوره من بين يديه حتى يدخله الجنّة فذلك قوله تعالى : ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ﴾ والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة ، فيلزم صاحبه ويلادّه حتى يقذفه في النار ، وقوله : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي هذا حال أهل الجنة . قال ابن جريج : أخبرت أن قوله : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ قال : إذا مر بهم الطير يشتهونه قالوا سبحانك اللهم وذلك دعواهم ، فيأتيهم الملك بما يشتهونه فيسلم عليهم فيردون عليه فذلك قوله : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ قال : فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم ، فذلك قوله : ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وقال مقاتل بن حيان : إذا أراد أهل الجنة أن يدعو بالطعام قال أحدهم ﴿ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ قال : فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم مع كل خادم صحفة من ذهب فيها طعام ليس في الأخرى ، قال : فيأكل منهن كلهن ، وقال سفيان الثوري : إذا أراد أحدهم أن يدعو بشيء قال ﴿ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ وهذه الآية فيها شبه من قوله : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ هذا فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبدًا ، المعبود على طول المدى ، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره ، وفي ابتداء كتابه وعند ابتداء تنزيله ، حيث يقول تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ وأنه المحمود في الأولى والآخرة في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، في جميع الأحوال ، ولهذا جاء في الحديث : « إن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس »(١) .

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشر في حال ضجرهم وغضبهم ، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك فلهذا لا يَستجيب لهم والحالة هذه لطفًا ورحمة ، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أو لأولادهم بالخير والبركة والنماء ولهذا قال : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ الآية ، أي لو استجاب لهم كلما دعوه به في ذلك لأهلكهم ، ولكن لا ينبغي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٩/٣) .

الإكثار من ذلك كما ورد عن جابر قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، لَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ ، لَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ ، لَا تُوَافِقُوا مِنَ اللَّه سَاعَةً فِيهَا إِجَابَةٌ فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ » (١) .

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر كقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ أي كثير ، وهما في معنى واحد ، وذلك لأنه إذا أصابته شدة قَلِقَ لها وجزع منها وأكثر الدعاء عند ذلك ، فدعا اللَّه في كشفها ورفعها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه ، وفي جميع أحواله ، فإذا فرّج اللَّه شدته وكشف كربته أعرض ونأى بجانبه ، وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء ﴿ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ . ثم ذم تعالى من هذه صفته وطريقته فقال : ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فأما من رزقه اللَّه الهداية والسداد والتوفيق والرشاد فإنه مستثنى من ذلك كقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ . وكقول رسول اللَّه ﷺ : « عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّه لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا له ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ » (٢) .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ .

أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاءوهم به من البينات والحجج الواضحات ، ثم استخلف اللَّه هؤلاء القوم من بعدهم وأرسل إليهم رسولًا لينظر طاعتهم له ، واتباعهم رسوله ، وفي الحديث عن أبي سعيد قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وَإِنَّ اللَّه مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدنيا واتقوا النِّسَاءَ ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ مِنَ النِّسَاءِ » (٣) . وعن عبد الرّحمن بن أبي ليلى أن عوف بن مالك قال لأبي بكر : رأيت فيما يرى النائم كأن سببًا دلي من السماء فانتشط رسول اللَّه ﷺ ، ثم أعيد فانتشط أبو بكر ، ثم ذرع الناس حول المنبر ففضل عمر بثلاث أذرع حول المنبر ، فقال عمر : دعنا من رؤياك لا أرب لنا فيها ، فلما استخلف عمر قال : يا عوف رؤياك ؟ قال : وهل لك في رؤياي من حاجة أو لم تنتهرني ؟ قال : ويحك إني كرهت أن تنعى لخليفة رسول اللَّه ﷺ نفسه ، فقص عليه الرؤيا حتى إذا بلغ ذرع الناس إلى المنبر بهذه الثلاث الأذرع قال : أما إحداهن فإنه كان خليفة ، وأما الثانية فإنه لا يخاف في اللَّه لومة لائم ، وأما الثالثة فإنه شهيد ، قال : فقال : يقول اللَّه تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ . فقد استخلفت يا ابن أم عمر فانظر كيف تعمل ؟ وأما قوله : فإني لا أخاف في اللَّه لومة لائم فيما شاء ، وأما قوله : شهيد فأنى لعمر الشهادة والمسلمون مطيفون به ؟ (٤)

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٧٤) وأبو داود في السنن (١٥٣٢) . (٢) أخرجه مسلم في الزهد (٦٤) وأحمد في مسنده (٢٤/٥) .
(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٩٩) وأحمد في مسنده (٣٦٤/٦) والترمذي في السنن (٢١٩١) .
(٤) ذكره الطبري في تفسيره (١٢٤/١١) .

لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين المعرضين عنه ، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحججه الواضحة قالوا له : ﴿ ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ ﴾ ، أي رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر أو بدله إلى وضع آخر ، قال الله تعالى لنبيّه ﷺ : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ﴾ أي ليس هذا إليّ ، إنما أنا عبد مأمور ورسول مبلّغ عن الله : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ثم قال محتجًا عليهم في صحة ما جاءهم به : ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ أي هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته ، والدليل على أني لست أتقوله من عندي ولا افتريته ؛ أنكم عاجزون عن معارضته ، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله ﷺ لا تنتقدون عليَّ شيئًا تغمصوني به ، ولهذا قال : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل ؟ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه فيما سأله من صفة النبيّ ﷺ قال هرقل لأبي سفيان : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان : فقلت : لا ، وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين ، ومع هذا اعترف بالحق والفضل ما شهدت به الأعداء ، فقال له هرقل : فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله . وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة : بعث الله فينا رسولًا نعرف صدقه ونسبه وأمانته ، وقد كانت مدة مقامه عليه الصلاة والسّلام بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة [(١)] ، وعن سعيد بن المسيب ثلاثًا وأربعين سنة ، والصحيح المشهور الأول .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجرامًا ﴿ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ وتقوّل على الله وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك ، فليس أحد أكبر جرمًا ولا أعظم ظلمًا من هذا ، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء ، فإن من قال هذه المقالة صادقًا أو كاذبًا فلا بدّ أن الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس ، فإن الفرق بين محمّد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى وبين نصف الليل في حندس الظلماء ، فمن شيم كل منهما وأفعاله وكلامه يستدل من له بصيرة على صدق محمّد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب وسجاح والأسود العنسي . قال عبد الله بن سلام : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس فكنت فيمن انجفل ، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب ، قال : فكان أول ما سمعته يقول : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصِلُوا الأَرْحَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ والناس نِيَامٌ ؛ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلَامٍ » [(٢)] . ولما وفد ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٧٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥١/٥) والترمذي في سننه (٢٤٨٥) وابن ماجه في سننه (١٣٣٤) .

بني سعد بن بكر قال لرسول الله فيما قال له : من رفع هذه السماء ؟ قال : « الله » قال : ومن نصب هذه الجبال ؟ قال : « الله » قال : ومن سطح هذه الأرض ؟ قال : « الله » قال : فبالذي رفع هذه السماء ونصب هذه الجبال وسطح هذه الأرض آلله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ قال : «اللَّهُمَّ نَعَمْ » ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين ، ويحلف له رسول الله ﷺ، فقال له : صدقت ، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص [(١)] . فاكتفى هذا الرجل بمجرد هذا ، وقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه .

وأما مسيلمة فمن شاهده من ذوي البصائر علم أمره لا محالة ، بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحة ، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة ، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة ، وكم من فرق بين قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ ﴾ إلى آخرها . وبين قول مسيلمة قبحه الله ولعنه : يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقي كم تنقين لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين . وقوله قبحه الله : لقد أنعم الله على الحبلى ، إذا أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشى . إلى غير ذلك من الخرافات والهذيانات التي يأنف الصبيان أن يتلفظوا بها إلَّا على وجه السخرية والاستهزاء ، ولهذا أرغم الله أنفه ، وشرب يوم الحديقة حتفه ، ومزق شمله ، ولعنه صحبه وأهله وقدموا على الصديق تائبين ، وجاءوا في دين الله راغبين ، فسألهم الصدِّيق خليفة الرسول صلوات الله عليه ورضي عنه أن يقرأوا عليه شيئًا من قرآن مسيلمة لعنه الله فسألوه أن يعفيهم من ذلك ، فأبى عليهم إلَّا أن يقرأوا شيئًا منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم فقرأوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه ، فلما فرغوا قال لهم الصدِّيق ﷺ : ويحكم أين كان يذهب بعقولكم ؟ والله إن هذا لم يخرج من إل . وذكروا أن عمرو ابن العاص وفد على مسيلمة وكان صديقًا له في الجاهلية وكان عمرو لم يسلم بعد ، فقال له مسيلمة : ويحك يا عمرو ماذا أنزل على صاحبكم - يعني رسول الله ﷺ - في هذه المدة ؟ فقال : لقد سمعت أصحابه يقرأون سورة عظيمة قصيرة ، فقال : وما هي ؟ فقال : ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴾ إلى آخر السورة ، ففكر مسيلمة ساعة ثم قال : وأنا قد أنزل عليَّ مثله ، فقال : وما هو ؟ فقال : يا وبر ، يا وبر ، إنما أنت أذنان وصدر ، وسائرك حفر نقر ، كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب ، فإذا كان هذا من مشرك في حال شركه لم يشتبه عليه حال محمّد ﷺ وصدقه ، وحال مسيلمة لعنه الله وكذبه ،فكيف بأولي البصائر والنهى ، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجى ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ ﴾ وقال في هذه الآية الكريمة ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ وكذلك من كذب بالحق الذي جاءت به الرسل ، وقامت عليه الحجج ، لا أحد أظلم منه كما في الحديث : «أَعْتَى النَّاسِ عَلَى اللَّهِ رَجُلٌ قَتَلَ نَبِيًّا أَوْ قَتَلَهُ نَبِيٌّ » [(٢)] .

---

(١) أخرجه : أحمد في مسنده ٢٦٤/١ . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٧/١) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٦/٨).

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع اللَّه غيره ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند اللَّه ، فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئًا ، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها ، ولا يكون هذا أبدًا ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ وقال ابن جرير : معناه : أتخبرون اللَّه بما لا يكون في السموات ولا في الأرض ؟ ثم نزَّه نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم فقال : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس ، كائن بعد أن لم يكن وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام . قال ابن عبّاس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، ثم وقع الاختلاف بين الناس وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان فبعث اللَّه الرسل بآياته وبيّناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ الآية ، أي لولا ما تقدم من اللَّه تعالى أنه لا يعذّب أحدًا بعد قيام الحجة عليه ، وأنه قد أجّل الخلق إلى أجل معدود ، لقضي بينهم فيما اختلفوا فيه ، فأسعد المؤمنين وأعنت الكافرين .

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ .

أي ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون : لولا أنزل على محمّد آية من ربه ، يعنون كما أعطى اللَّه ثمود الناقة ، أو أن يحول لهم الصفا ذهبًا ، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهارًا ، أو نحو ذلك مما اللَّه عليه قادر ، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ ﴾ الآية ، يقول تعالى : إن سنتي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا ، فإن آمنوا وإلّا عاجلتهم بالعقوبة . ولهذا لما خير رسول ﷺ بين إعطائهم ما سألوا فإن آمنوا وإلّا عذبوا ، وبين إنظارهم اختار إنظارهم كما حلم عنهم غير مرة رسول اللَّه ﷺ ، ولهذا قال تعالى إرشادًا لنبيّه ﷺ إلى الجواب عما سألوه : ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ أي الأمر كله للَّه ، وهو يعلم العواقب في الأمور ﴿ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ أي إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم اللَّه فيَّ وفيكم ، هذا مع أنهم قد شاهدوا من آياته ﷺ أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره فانشق اثنين ، فرقة من وراء الجبل وفرقة من دونه ، وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا وما لم يسألوا ، ولو علم منهم أنهم سألوا ذلك استرشادًا وتثبتًا لأجابهم ، ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادًا وتعنتًا فتركهم فيما رابهم ، وعلم أنهم لايؤمن منهم أحد كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا إلى ما سألوا ؛ لأنه لا فائدة من جوابهم ، لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم لكثرة فجورهم وفسادهم ولهذا قال : ﴿ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ .

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا

تَمْكُرُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة ، والخصب بعد الجدب ، والمطر بعد القحط ، ونحو ذلك ﴿ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ﴾ قال مجاهد : استهزاء وتكذيب كقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾ الآية ، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء كانت من الليل - أي مطر - ثم قال : « هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمُ اللَّيْلَةَ ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال : « قَالَ : أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا ؛ وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ »(1) . وقوله : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾ أي أشد استدراجًا وإمهالًا ، حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب وإنما هو في مهلة ، ثم يؤخذ على غرة منه والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ويحصونه عليه ، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة فيجازيه على الجليل والحقير والنقير والقطمير ، ثم أخبر تعالى أنه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ أي يحفظكم ويكلؤكم بحراسته ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا ﴾ أي بسرعة سيرهم رافقين ، فبينما هم كذلك إذ ﴿ جَآءَتْهَا ﴾ أي تلك السفن ﴿ رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ أي شديدة ﴿ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أي اغتلم البحر عليهم ﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ أي هلكوا ﴿ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ أي لا يدعون معه صنمًا ولا وثنًا يفردونه بالدعاء والابتهال ﴿ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ ﴾ أي هذه الحال ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أي لا نشرك بك أحدًا ولنفردنك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء ههنا ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ ﴾ أي من تلك الورطة ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ . أي كأن لم يكن من ذلك شيء ، ثم قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ أي إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحدًا غيركم ، كما جاء في الحديث : « مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَر أَنْ يُعجِّلَ اللهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ اللهُ لِصَاحِبِهِ فِي الآخِرَةِ مِنَ البَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ »(2) . وقوله : ﴿ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي مصيركم ومآلكم ﴿ فَنُنَبِّئُكُم ﴾ أي فنخبركم بجميع أعمالكم ونوفيكم إياها ، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ

(1) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٥) وأحمد في مسنده (١١٧/٤) وأبو داود في السنن (٣٩٠٦) .
(2) أخرجه أبو داود في السنن (٤٩٠٢) والترمذي في السنن (٢٥١١) والدارمي في السنن (٢٥٢) .

بِٱلْأَمْسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

ضرب تبارك وتعالى مثلًا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها ، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بماء أنزل من السماء مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها ، وما تأكل الأنعام من أبٍّ وقضب وغير ذلك ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ أي زينتها الفانية ﴿ وَٱزَّيَّنَتْ ﴾ أي حسنت بما خرج في رباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَآ ﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ ﴾ أي على جذاذها وحصادها ، فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا ﴾ أي يابسًا بعد الخضرة والنضارة ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِۚ ﴾ أي كأنها ما كانت حينًا قبل ذلك . وقال قتادة : ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ ﴾ كأن لم تنعم ، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن . ولهذا جاء في الحديث : « يُؤْتَى بِأَنْعَم أَهْلِ الدُّنْيَا فَيُغْمَسُ فِي النَّارِ غَمْسَةً ، فَيُقَالُ لَهُ : هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّ بك نَعِيمٌ قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا . وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا فِي الدُّنْيَا فَيُغْمَسُ فِي النَّعِيمِ غَمْسَةً ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا »(١) ثم قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي نبين الحجج والأدلة ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها سريعًا مع اغترارها بها وتمكنهم وثقتهم بمواعيدها وتفلتها عنهم ، وقد ضرب الله تعالى مثل الدنيا بنبات الأرض في غير ما آية من كتابه العزيز فقال في سورة الكهف : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ .

وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ الآية . لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها ، رغَّب في الجنة ودعا إليها وسمّاها دار السلام ، أي من الآفات والنقائص والنكبات فقال : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ عن جابر بن عبد الله ﷺ قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا فقال : « إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ جِبْرِيلَ عِنْدَ رَأْسِي وَمِيكَائِيلَ عِنْدَ رِجْلِي يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : اضْرِبْ لَهُ مَثَلًا ، فَقَالَ : اسْمَعْ سَمِعَتْ أُذُنُكَ ، وَاعْقِلْ عَقَلَ قَلْبُكَ ، إِنَّمَا مَثَلُكَ وَمَثَلُ أُمَّتِكَ كَمَثَلِ مَلِكٍ اتَّخَذَ دَارًا ، ثُمَّ بَنَى فِيهَا بَيْتًا ، ثُمَّ جَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً ، ثُمَّ بَعَثَ رَسُولًا يَدْعُو النَّاسَ إِلَى طَعَامِهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَجَابَ الرَّسُولَ وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَهُ ، فَاللَّهُ الْمَلِكُ ، وَالدَّارُ الإِسْلَامُ ، والبيتُ الجنةُ ، وأَنْتَ يا محمد الرسولُ ، فمن أجابَكَ دخل الإسلامَ ، ومن دخل الإسلامَ دَخَلَ الجَنَّةَ ، ومن دخل الجنة أَكَلَ مِنْهَا »(٢) . وعن أبي الدرداء مرفوعًا قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ إِلَّا وَبِجَنْبَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ يَسْمَعُهُ خَلْقُ اللَّهِ كُلُّهُمْ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ ، إِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى » قال : وأنزل في قوله : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ الآية(٣) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٣/٣) وابن ماجه في سننه (٤٣٢١) .
(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٢٨٦٠) والحاكم في المستدرك (٣٩٣/٤) .
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٤٥/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٦/١٠) .

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح : الحسنى في الدار الآخرة ، كقوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ وقوله : ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضًا ، ويشمل ما يعطيهم اللَّه في الجنان من القصور والحور والرضا عنهم وما أخفاه لهم من قرة أعين ، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم ، وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر الصدِّيق وحذيفة بن اليمان وعبد اللَّه بن عباس وسعيد بن المسيب وعبد الرَّحمن بن أبي ليلى والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومحمّد بن إسحاق وغيرهم من السلف والخلف ، وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبيّ ﷺ فمن ذلك ما روي عن صهيب ﷺ عن رسول اللَّه ﷺ أنه تلا هذه الآية : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ وقال : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ ، نَادَى مُنَادٍ يَا أَهْلَ الجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ ، فَيَقُولُونَ : وَمَا هُوَ أَلَمْ يُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا ؟ أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَيُدْخِلْنَا الجَنَّةَ ويجرنا من النار » - قَالَ : « فَيَكْشِفُ لَهُمُ الحِجَابَ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ وَلَا أَقَرَّ لِأَعْيُنِهِمْ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ ﴾ أي قتام وسواد في عرصات المحشر ، كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القترة والغبرة ﴿ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ أي هوان وصغار ، أي لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر ، بل هم كما قال تعالى في حقهم : ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ أي نضرة في وجوههم ، وسرورًا في قلوبهم ، جعلنا اللَّه منهم بفضله ورحمته آمين .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات ويزدادون على ذلك ، عطف بذكر حال الأشقياء ، فذكر تعالى عدله فيهم وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها لا يزيدهم على ذلك ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ﴾ أي تعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها كما قال : ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ : أي مانع ولا واق يقيهم العذاب ، وقوله : ﴿ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ الآية ، إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ أي أهل الأرض كلهم من جن وإنس وبر وفاجر كقوله : ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ الآية . أي الزموا أنتم وهم مكانًا معينًا امتازوا فيه عن مقام المؤمنين ، لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ أي يصيرون صدعين ، وهذا يكون إذا جاء

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٣/٤) وابن ماجه في سننه (١٨٧) .

الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء ولهذا قيل ذلك يستشفع المؤمنين إلى الله تعالى أن يأتي لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا ، وفي الحديث الآخر : « نَحْنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى كَوْمٍ فَوْقَ النَّاسِ » (١) وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة إخبارًا عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة ﴿ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ الآية ، أنهم أنكروا عبادتهم وتبرأوا منهم كقوله : ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ الآية ، وقوله في هذه الآية إخبارًا عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم : ﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ الآية ، أي ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها ،وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم ، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا ، ولا أمرناكم بها ، ولا رضينا منكم بذلك ، وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئًا ، ولم يأمرهم بذلك ولا رضي به ولا أراده ، بل تبرأ منهم وقت أحوج ما يكونون إليه ، وقد تركوا عبادة الحي القيوم السميع البصير القادر على كل شيء العليم بكل شيء ، وقد أرسل رسله وأنزل كتبه آمرًا بعبادته وحده لا شريك له ، ناهيًا عن عبادة ما سواه .

وقوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾ أي في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما سلف من عملها من خير وشر ، كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ وقد قرأ بعضهم ﴿ هُنَالِكَ تتلوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾ (٢) وفسرها بعضهم بالقراءة ، وفسرها بعضهم بمعنى تتبع ما قدمت من خير وشر ، وفسرها بعضهم بحديث « لِتَتْبَعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشمس ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ ، وَيَتْبَعُ مَنْ كان يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ » (٣) الحديث ، وقوله : ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ . أي ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل ، ففصلها وأدخل أهل الجنّة الجنة ، وأهل النار النار ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ أي ذهب عن المشركين ﴿ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية إلاهيته فقال تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر فيشق الأرض شقًّا بقدرته ومشيئته ، فيخرج منها حبًّا وعنبًا وقضبًا وزيتونًا ونخلًا وحدائق غلبًا وفاكهة وأبًّا ، أإله مع الله ؟ فسيقولون : الله . وقوله : ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ أي الذي وهبكم هذه القوة السامعة ، والقوة الباصرة ، ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها .

وقوله : ﴿ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ أي بقدرته العظيمة ومنته العميمة ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣٤٥) .
(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف (هنالك تتلوا) بتاءين والباقون بالتاء والباء (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٢٢) .
(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٣٧) ومسلم في الإيمان (٢٩٩) وأحمد في مسنده (٢/٢٧٥) .

وقوله : ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ ﴾ أي من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يُسألون : ﴿ يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴾ فالملك كله العلوي والسفلي وما فيهما من ملائكة وإنس وجان فقيرون إليه عبيد له خاضعون لديه ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ ﴾ أي وهم يعلمون ذلك ويعترفون به ﴿ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم . وقوله : ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ ﴾ الآية ، أي فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق ، الذي يستحق أن يفرد بالعبادة ﴿ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ ﴾ أي فكل معبود سواه باطل ، لا إله إلَّا هو واحد لا شريك له ﴿ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء ، والمتصرف في كل شيء . وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ ﴾ الآية ، أي كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع اللَّه غيره مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده ، الذي بعث رسله بتوحيده ، فلهذا حقت عليهم كلمة اللَّه أنهم أشقياء من ساكني النار .

﴿ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴾ .

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا باللَّه غيره ، وعبدوا من الأصنام والأنداد ﴿ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ ﴾ أي من بدأ خلق هذه السموات والأرض ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق ، ويفرّق أجرام السموات والأرض ويبدلهما بفناء ما فيهما ، ثم يعيد الخلق خلقًا جديدًا ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ هو الذي يفعل هذا ويستقل به وحده لا شريك له ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ أي فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل ﴿ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ ﴾ أي أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال ، وإنما يهدي الحيارى والضلال ويقلّب القلوب من الغيّ إلى الرشد اللَّه الذي لا إله إلَّا هو ﴿ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ ﴾ أي أفيتبع العبد الذي يهدي إلى الحق ويبصر بعد العمى ، أم الذي لا يهدي إلى شيء إلَّا أن يهدى لعماه وبكمه . وقوله تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴾ أي فما بالكم أن يذهب بعقولكم ، كيف سويتم بين اللَّه وبين خلقه ، وعدلتم هذا بهذا وعبدتم هذا وهذا ، وهلا أفردتم الرب جلّ جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده ، ثم بيّن تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلًا ولا برهانًا ، وإنما هو ظن منهم أي توهم وتخيل ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴾ تهديد لهم ووعيد شديد ؛ لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء .

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ .

هذا بيان لإعجاز القرآن ، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله ؛ لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعاني العزيزة الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة لا يكون إلَّا من عند اللَّه الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله ، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي مثل هذا القرآن لا يكون إلَّا من عند اللَّه ، ولا يشبه هذا كلام البشر ﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي من الكتب المتقدمة ومهيمنًا عليه ومبينًا لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل . وقوله : ﴿ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي وبيان الأحكام والحلال والحرام بيانًا شافيًا كافيًا لا مرية فيه من اللَّه رب العالمين . وقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي إن ادعيتم وافتريتم وشككتم في أن هذا من عند اللَّه ، وقلتم كذبًا : إن هذا من عند محمّد ، فمحمد بشر مثلكم ، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن فأتوا أنتم بسورة مثله ، أي من جنس هذا القرآن ، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان ، وهذا هو المقام الثالث في التحدي ؛ فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمّد فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده . وليستعينوا بمن شاءوا ، فقال تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال في أول سورة هود : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ثم تنازل إلى سورة فقال في هذه السورة : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ وهذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم ، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب ،ولكن جاءهم من اللَّه ما لا قبل لأحد به ، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته وجزالته وطلاوته وإفادته وبراعته ، فكانوا أعلم الناس به ، وأفهمهم له ، وأتبعهم له وأشدهم له انقيادًا ، كما عرف السحرة بعلمهم بفنون السحر أن هذا الذي فعله موسى عليه السلام لا يصدر إلَّا عن مؤيد مسدد مرسل من اللَّه ، وأن هذا لا يستطاع لبشر إلا بإذن اللَّه . وكذلك عيسى عليه السلام بعث في زمان علماء الطب ومعالجة المرضى ، فكان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن اللَّه ، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه ، فعرف من عرف منهم أنه عبد اللَّه ورسوله . ولهذا جاء في الحديث عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُتِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ البَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا » [(١)] .

وقوله : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ يقول : بل كذب هؤلاء بالقرآن ولم يفهموه ولا عرفوه ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ أي ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلًا وسفهًا ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي من الأمم السالفة ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلمًا وعلوًا وكفرًا وعنادًا وجهلًا ، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم . وقوله : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾ الآية ، أي ومن

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٧٤) ومسلم في الإيمان (٢٣٩) .

هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمّد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وينتفع بما أرسلت به ﴿ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾ بل يموت على ذلك ويبعث عليه ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ؟ ومن يستحق الضلالة فيضله ، وهو العادل الذي لا يجور ، بل يعطي كلًّا ما يستحقه تبارك وتعالى وتقدّس وتنزه لا إله إلَّا هو .

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى لنبيّه محمّد ﷺ : وإن كذبك هؤلاء المشركون فتبرأ منهم ومن عملهم ﴿ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ كقوله تعالى ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ أي يسمعون كلامك الحسن والقرآن العظيم والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأديان والأبدان ، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم ، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم وهو الأطرش ، فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلَّا أن يشاء اللَّه ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾ أي ينظرون إليك وإلى ما أعطاك اللَّه من التؤدة والسمت الحسن والخلق العظيم ، والدلالة الظاهرة على نبوتك لأولي البصائر والنهى ، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم ، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار ، وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار ، ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحدًا شيئًا ، وإن كان قد هدى به من هدى ، وبصر به من العمى ، وفتح به أعينًا عميًا ، وآذانًا صماء ، وقلوبًا غلفًا ،وأضل به عن الإيمان آخرين ، فهو الحاكم المتصرّف في ملكه بما يشاء ، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون لعلمه وحكمته وعدله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ وعن أبي ذر عن النبيّ ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ : « يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا » إلى أن قال في آخره : « يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ » (١) .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ .

يقول تعالى مذكرًا للناس قيام الساعة ، وحشرهم من أجداثهم إلى عرصات القيامة : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ الآية . كقوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ وهذا دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة ، كقوله : ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي يعرف الأبناء الآباء ، والقرابات بعضهم لبعض كما كانوا في الدنيا ، ولكن كل مشغول بنفسه ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ كقوله تعالى ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٥) وأحمد في مسنده (١٦٠/٥) .

الخسران المبين ولا خسارة أعظم من خسارة من فرق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة .

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا لرسوله ﷺ : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ أي ننتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أي مصيرهم ومنقلبهم ، والله شهيد على أفعالهم بعدك . وعن حذيفة بن أسيد عن النبيّ ﷺ قال : « عُرِضَتْ عَلَيَّ أُمَّتِي البَارِحَةَ لَدَى هَذِهِ الحُجْرَةِ أَوَّلُهَا وَآخِرُهَا » . فقال رجل : يا رسول الله عرض عليك من خلق فكيف من لم يخلق ؟ فقال : « صُوِّرُوا لِي فِي الطِّينِ حَتَّى إِنِّي لأَعْرِفُ بِالإِنْسَانِ مِنْهُمْ ، مِنْ أَحَدِكُمْ بِصَاحِبِهِ » (١) . وقوله : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ ﴾ قال مجاهد : يعني يوم القيامة ﴿ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ الآية ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ الآية ، فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها ، وكتاب أعمالها من خير وشر موضوع شاهد عليهم ، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضًا ، أمة بعد أمة ، وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق ، إلّا أنها أول الأمم يوم القيامة ، يفصل بينهم ويقضى لهم ، كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، المَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الخَلَائِقِ » (٢) فأمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب ، وسؤالهم عن وقته قبل التعيين ، مما لا فائدة لهم فيه كقوله : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾ أي كائنة لا محالة وواقعة وإن لم يعلموا وقتها عينًا ، ولهذا أرشد تعالى رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ الآية ، أي لا أقول إلّا ما علمني ولا أقدر على شيء مما استأثر به إلّا أن يطلعني الله عليه ، فأنا عبده ورسوله إليكم ، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة ، ولم يطلعني على وقتها ولكن ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أي لكل قرن مدة من العمر مقدرة ، فإذا انقضى أجلهم : ﴿ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ كقوله : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ الآية ، ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتة فقال ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا ﴾ أي ليلًا أو نهارًا ﴿ مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ يعني أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا : ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ الآية ، ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ ﴾ أي يوم القيامة يقال لهم هذا تبكيتًا وتقريعًا .

﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ

(١) أخرجه : الطبراني في الكبير ١٨١/٣ ، والهيثمي في مجمع الزوائد ٦٩/١٠ .
(٢) أخرجه مسلم في الجمعة (١٩) والبيهقي في السنن الكبرى (١٧١/٣) .

لَافْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ويستخبرونك ﴿ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ أي المعاد والقيامة من الأجداث بعد صيرورة الأجسام ترابًا ﴿ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي ليس صيرورتكم ترابًا بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلَّا آيتان أخريان يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ وفي التغابن : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهبًا ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ أي بالحق ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأن وعده حق كائن لا محالة ، وأنه يحيي ويميت وإليه مرجعهم ، وأنه القادر على ذلك ، العليم بما تفرق من الأجسام وتمزق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًا على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي زاجر عن الفواحش ﴿ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ أي من الشبه والشكوك وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ أي يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى ، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ أي بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا ؛ فإنه أولى ما يفرحون به ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ أي من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم : نزلت إنكارًا على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصائل كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ﴾ الآيات . وعن عوف بن مالك بن نضلة يحدث عن أبيه قال : أتيت رسول الله ﷺ وأنا رث الهيئة فقال : « هَلْ لَكَ مَالٌ ؟ » قُلْتُ نَعَمْ . قَالَ : « مِنْ أَيِّ المَالِ ؟ » قَالَ : قُلْتُ : مِنْ كُلِّ المَالِ ، مِنَ الإِبِلِ وَالرَّقِيقِ وَالخَيْلِ وَالغَنَم فَقال : « إِذَا آتاكَ اللَّه مَالًا فَلْيُرَ عَلَيْكَ » وقال : « هَلْ تُنْتِجُ إِبِلُكَ صِحَاحًا آذَانُهَا فَتَعْمَدُ إِلى مُوسَى فَتَقْطَعُ آذانَهَا فَتَقُولُ : هَذِهِ بَحْرٌ ، وَتَشُقُّ جُلُوهَا وَتَقُولُ : هَذِهِ صُرُمٌ ، وَتُحَرِّمُهَا عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِكَ » . قال : نعم ، قال : « فَإِنْ مَا آتاكَ اللَّه لَكَ حِلٌّ ، سَاعِدُ اللَّه أَشَدُّ مِنْ سَاعِدِكَ ، وَمُوسَى اللَّه أَحَدُّ مِنْ مُوسَاكَ » .

وذكر تمام الحديث (١) ، وقد أنكر الله تعالى على من حرم ما أحل الله أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء التي لا مستند لها ولا دليل عليها ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة فقال : ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ : أي ما ظنهم أن يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة ، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ قال ابن جرير : في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا .

قلت : ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا ، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضارٌّ لهم في دنياهم أو دينهم ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم ، ويضيقون على أنفسهم فيجعلون بعضًا حلالًا وبعضًا حرامًا . وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم ، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم .

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .

يخبر تعالى نبيّه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة ، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك أكبر إلا في كتاب مبين كقوله : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات ، وكذلك الدواب السارحة في قوله : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ الآية ، وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء ، فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة كما قال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ ﴾ أي إذ تأخذون في ذلك الشيء ، نحن مشاهدون لكم راءون سامعون ، ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان : « أَنْ تَعْبُدَ اللَّه كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » (٢) .

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما فسرهم بهم ، فكل من كان تقيًا كان لله وليًا فـ ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما وراءهم في الدنيا . وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس وغير واحد من السلف : أولياء الله الذين إذا رؤوا ذُكِرَ الله ، وقد ورد هذا في حديث مرفوع عن ابن عباس قال : قال رجل : يا رسول الله من أولياء الله ؟ قال : « الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّه » (٣) وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّه

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٧٣/٣) والطبراني في المعجم الكبير (٢٧٧/١٩) .
(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠) ومسلم في الإيمان (١ ، ٥) وأحمد في مسنده (٤٢٦/٢) .
(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢١٨) والألباني في الصحيحة (١٧٣٣) والهيثمي في مجمع الزوائد ٧٨/١٠ .

عِبَادًا يَغْبِطُهُم الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ » . قيل : من هم يا رسول اللَّه لعلنا نحبهم ؟ قال : « هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا في اللَّه مِنْ غَيْرِ أَمْوَال وَلَا أَنْسَابٍ ، وُجُوهُهُمْ نُورٌ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ » ثم قرأ : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) .

عن أبي الدرداء في قوله : ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ قال : سأل رجل أبا الدرداء عن هذه الآية فقال : لقد سألت عن شيء ما سمعت أحدًا سأل عنه بعد رجل سأل عنه رسول اللَّه ﷺ فقال : « هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ ، بُشْرَاهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَبُشْرَاهُ فِي الآخِرَةِ الجَنَّةُ » (٢) .

وعن أبي ذر أنه قال : يا رسول اللَّه : الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ، ويثنون عليه به ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ » (٣) . وعن عبد اللَّه بن عمرو عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ فقال : « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يُبَشَّرُهَا الْمُؤْمِنُ جُزْءٌ مِنْ تِسْعَةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا من النبوة ، فَمَنْ رَأَى ذَلِكَ فَلْيُخْبِرْ بِهَا ، وَمَنْ رَأَى سِوَى ذَلِكَ فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيُحْزِنَهُ ، فَلْيَنْفُثْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا وَلْيُكَبِّرْ ، وَلَا يُخْبِرْ بِهَا أَحَدًا » (٤) .

وقيل : المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ وفي حديث البراء ﷺ : أن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب فقالوا : اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ورب غير غضبان ، فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء (٥) . وأما بشراهم في الآخرة فكما قال تعالى : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ﴾ قول هؤلاء المشركين واستعن باللَّه عليهم وتوكل عليه ، فإن العزة للَّه جميعًا أي جميعها له ولرسوله وللمؤمنين ﴿ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي السميع لأقوال عباده ، العليم بأحوالهم ، ثم أخبر تعالى أن له ملك السماوات والأرض ، وأن المشركين يعبدون الأصنام وهي لا تملك شيئًا لا ضرًا ولا نفعًا ، ولا دليل لهم على عبادتها ، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرصهم وكذبهم وإفكهم ، ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه ، أي يستريحون فيه من نصبهم وكلالهم وحركاتهم ﴿ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أي مضيئًا لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣٩٠) وأحمد في مسنده (٢٢٩/٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٢/٦) والحاكم في المستدرك (٣٤٠/٢) .
(٣) أخرجه بمسلم في البر والصلة (١٦٦) وأحمد في مسنده (١٥٦/٥) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٩/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٥/٧) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٧/٤) .

ومصالحهم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي يسمعون هذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها ، ويستدلون على عظمة خالقها ومقدرها ومسيرها .

﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على من ادعى أن له ﴿ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ أي تقدس عن ذلك هو الغني عن كل ما سواه ، وكل شيء فقير إليه ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي فكيف يكون له ولد مما خلق وكل شيء مملوك له ، عبد له ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ﴾ أي ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ إنكار ووعيد أكيد ، وتهديد شديد . ثم توعد تعالى الكاذبين عليه المفترين ممن زعم أن له ولدًا بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة ، فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلًا ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ كما قال تعالى ههنا ﴿ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ أي مدة قريبة ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ ﴾ أي الموجع المؤلم ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ أي بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله فيما ادعوه من الإفك والزور .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ .

يقول تعالى لنبيّه صلوات الله وسلامه عليه ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي أخبرهم واقصص عليهم ، أي على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك ﴿ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ أي خبره مع قومه الذين كذبوه ، كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم ، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم ﴾ أي عظم عليكم ﴿ مَّقَامِى ﴾ أي فيكم بين أظهركم ﴿ وَتَذْكِيرِى ﴾ إياكم ﴿ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي بحججه وبراهينه ﴿ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي فإني لا أبالي ولا أكف عنكم سواء عظم عليكم أو لا ﴿ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ أي فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ أي ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبسًا ، بل افصلوا حالكم معي ، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إليّ ﴿ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ أي ولا تؤخروني ساعة واحدة ، أي مهما قدرتم فافعلوا فإني لا أباليكم ولا أخاف منكم ؛ لأنكم لستم على شيء .

وقوله ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي كذبتم وأدبرتم عن الطاعة ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴾ أي لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئًا ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ أي وأنا ممتثل ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل ، والإسلام هو دين الأنبياء جميعًا من أولهم إلى آخرهم ، وإن تنوعت شرائعهم

وتعددت مناهلهم كما قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ قال ابن عباس : سبيلًا وسنة ، فهذا نوح يقول ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ وقال تعالى عن إبراهيم الخليل : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ ﴾ وقال خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ : ﴿ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ أي من هذه الأمة ، ولهذا قال في الحديث الثابت عنه : « نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أَوْلَادَ عِلَّاتٍ وَدِينُنَا وَاحِدٌ » [1] أي وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإن تنوعت شرائعنا ، وذلك معنى قوله علات وهم الإخوة من أمهات شتى والأب واحد . وقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ ﴾ أي على دينه ﴿ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ وهي السفينة ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ ﴾ أي في الأرض ﴿ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ أي يا محمّد كيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا المكذبين .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا ﴾ من بعد نوح ﴿ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءوهم به ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾ أي فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم كقوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم ، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم ، ويختم على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، والمراد أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل ، وأنجى من آمن بهم ، وذلك من بعد نوح عليه السلام ، فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم عليه السلام في الإسلام ، إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام ، فبعث الله إليهم نوحًا عليه السلام ، ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة : أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض . وقال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، وقال الله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ . الآية ، وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا سيّد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين ، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العذاب والنكال ، فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك ؟

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ۝ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا ﴾ من بعد تلك الرسل ﴿ مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ ﴾ أي قومه ﴿ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي حججنا وبراهيننا ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ أي استكبروا عن اتباع الحق

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٤٣) وأبو داود في السنن (٤٦٧٥) بنحوه .

والانقياد له وكانوا قومًا مجرمين ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ كأنهم قبّحهم الله أقسموا على ذلك وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ مُوسَىٰٓ ﴾ منكرًا عليهم ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ۝ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا ﴾ أي تثنينا ﴿ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ﴾ أي الدين الذي كانوا عليه ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا ﴾ أي لك ولهارون ﴿ ٱلْكِبْرِيَآءُ ﴾ أي العظمة والرياسة ﴿ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وكثيرًا ما يذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كتابه العزيز ؛ لأنها من أعجب القصص ، فإن فرعون حذر من موسى كل الحذر ، فسخره القدر أن ربّى هذا الذي يحذر منه على فراشه ومائدته بمنزلة الولد ، ثم ترعرع وعقد الله له سببًا أخرجه من بين أظهرهم ، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم ، وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده ويرجع إليه ، هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان ، فجاءه برسالة الله تعالى وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه السلام ، فتمرد فرعون واستكبر وأخذته الحمية ، والنفس الخبيثة الأبية ، وقوي رأسه وتولى بركنه ، وادعى ما ليس له وتجهرم على الله وعتا وبغى وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل ، والله تعالى يحفظ رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون ، ويحوطهما بعنايته ويحرسهما بعينه التي لا تنام ، ولم تزل المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئًا بعد شيء ، ومرة بعد مرة ، مما يبهر العقول ، ويدهش الألباب ، مما لا يقوم له شيء ، ولا يأتي به إلا من هو مؤيد من الله ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ وصمم فرعون وملؤه قبّحهم الله على التكذيب بذلك كله ، والجحد والعناد والمكابرة ، حتى أحل بهم بأسه الذي لا يرد ، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ .

ذكر الله سبحانه قصة السحرة مع موسى عليه السلام في سورة الأعراف وقد تقدم الكلام عليها هنالك وفي هذه السورة وفي سورة طه وفي الشعراء ، وذلك أن فرعون لعنه الله أراد أن يبهرج على الناس ويعارض ما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين ، بزخارف السحرة والمشعبذين ، فانعكس عليه النظام ، ولم يحصل له ذلك المرام ، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام : ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ فظن فرعون أنه يستنصر بالسحار ، على رسول عالم الأسرار ، فخاب وخسر الجنة واستوجب النار ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ وإنما قال لهم ذلك لأنهم لما اصطفوا وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ﴾ فأراد موسى أن تكون البداءة منهم ليرى الناس ما صنعوا ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم ، ولهذا لما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ؛ فعند ذلك قال موسى لما ألقوا : ﴿ مَا جِئْتُم

بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ وعن ليث وهو ابن أبي سليم قال : بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى تقرأ في إناء فيه ماء ثم يصب على رأس المسحور ،الآية التي من سورة يونس : ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ .

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات إلا قليل من قوم فرعون من الذرية وهم الشباب ، على وجل وخوف منه ومن ملئه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر ؛ لأن فرعون لعنه الله كان جبارًا عنيدًا مسرفًا في التمرد والعتو ، وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيته منه خوفًا شديدًا . قال ابن عبّاس : ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ قال : فإن الذرية التي آمنت لموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير ، منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه . وروى عن ابن عباس في قوله ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ يقول : من بني إسرائيل ، وعن ابن عباس والضحاك وقتادة الذرية القليل ، وقال مجاهد قال : هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم ، واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية أنها من بني إسرائيل لا من قوم فرعون لعود الضمير على أقرب المذكرين ، وفي هذا نظر لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب ، وأنهم من بني إسرائيل ، فالمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام واستبشروا به ، وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة ، وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه ، ولهذا لما بلغ هذا فرعون حذر كل الحذر فلم يجد عنه شيئًا ، ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى و ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى وهم بنو إسرائيل ﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ ﴾ أي وأشراف قومهم أن يفتنهم ، ولم يكن في بني إسرائيل من يخاف منه أن يفتن عن الإيمان سوى قارون ، فإنه كان من قوم موسى فبغى عليهم ، لكنه كان طاويًا إلى فرعون متصلًا به متعلقًا بحباله ، ومن قال : إن الضمير في قوله : ﴿ وَمَلَإِي۟هِمْ ﴾ عائد إلى فرعون وعظم الملك من أجل اتباعه ، أو بحذف آل فرعون وإقامة المضاف إليه مقامه فقد أبعد ، وإن كان ابن جرير قد حكاهما عن بعض النحاة . ومما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن موس أنه قال لبني إسرائيل : ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ أي فإن الله كاف من توكل عليه ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ وكثيرًا ما يقرن الله

تعالى بين العبادة والتوكل كقوله تعالى : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك فقالوا : ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي لا تظفرهم بنا وتسلطهم علينا فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على باطل فيفتنوا بذلك ، وعن مجاهد ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ لا تسلطهم علينا فيفتنونا . وقوله : ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ ﴾ أي خلصنا برحمة منك وإحسان ﴿ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي الذين كفروا الحق وستروه ، ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك .

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يذكر تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه وكيفية خلاصهم منهم ، وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوآ أي يتخذا لقومهما بمصر بيوتًا ، واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى : ﴿ وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ فقال ابن عبّاس : أمروا أن يتخذوها مساجد ، وعن إبراهيم قال : كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا في بيوتهم ، وكأن هذا - والله أعلم - لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه وضيقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة ، ولهذا قال تعالى في هذه الآية : ﴿ وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي بالثواب والنصر القريب ، وقال ابن عبّاس في تفسير هذه الآية : قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة ، فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا في بيوتهم ، أمروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة ، وقال مجاهد ﴿ وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ : لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا في الكنائس الجامعة ، أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة يصلون فيها سرًا ، وكذا قال قتادة والضحاك ، وقال سعيد بن جبير ﴿ وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ أي يقابل بعضها بعضًا .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملئه لما أبوا قبول الحق ، واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين ظلمًا وعلوًا وتكبرًا وعتوًا ، قال موسى : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً ﴾ أي من أثاث الدنيا ومتاعها ﴿ وَأَمْوَٰلًا ﴾ أي جزيلة كثيرة ﴿ فِى ﴾ هذه ﴿ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيَضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ﴾ بفتح الياء أي أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم ، استدراجًا منك لهم كقوله تعالى : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ وقرأ آخرون : ﴿ لِيُضِلُّوا۟ ﴾ بضم الياء (١) أي ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك ، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد : أي أهلكها ، وقال الضحاك وأبو العالية والربيع بن أنس : جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت ، وقوله : ﴿ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ قال ابن عبّاس : أي اطبع عليها ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضبًا لله ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ، ولا يجيء منهم شيء ، ولهذا

---

(١) قرأ الكوفيون ﴿ لِيُضِلُّوا ﴾ بضم الياء ، والباقون بفتحها (حجة القراءات ص ٣٣٧) .

استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة التي أمَّن عليها أخوه هارون فقال تعالى : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ ، قال أبو العالية وأبو صالح وعكرمة ومحمّد بن كعب القرظي والربيع بن أنس : دعا موسى وأمَّن هارون أي قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون ، وقد يحتج بهذه الآية من يقول : إن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة ينزل منزلة قراءتها ؛ لأن موسى دعا وهارون أمّن ، وقال تعالى : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا ﴾ الآية ، أي كما أجيبت دعوتكما فاستقيما على أمري ، قال ابن عبّاس : ﴿ فَاسْتَقِيمَا ﴾ فامضيا لأمري وهي الاستقامة ، قال ابن جريج : يقولون : إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة ، وقال محمّد بن كعب وعلي بن الحسين : أربعين يومًا .

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ .

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده ، فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة موسى عليه السلام ، وهم فيما قيل : ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية ، وقد كانوا استعاروا من القبط حليًا كثيرًا فخرجوا به معهم ، فاشتد حنق فرعون عليهم ، فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه ، فركب وراءهم في أبهة عظيمة وجيوش هائلة لما يريده الله تعالى بهم ، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته ، فلحقوهم وقت شروق الشمس ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر وفرعون وراءهم ولم يبق إلّا أن يتقاتل الجمعان ، وألحّ أصحاب موسى عليه السلام عليه في السؤال كيف المخلص مما نحن فيه ؟ فيقول : إني أمرت أن أسلك ههنا ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ فعندما ضاق الأمر اتسع ، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه ، فضربه فانفلق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم ، أي كالجبل العظيم ، وصار اثني عشر طريقًا ، لكل سبط واحد ، وأمر الله الريح فنشفت أرضه ﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبابيك ليرى كل قوم الآخرين لئلا يظنوا أنهم هلكوا . وجاوزت بنو إسرائيل البحر ، فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى ، وهو في مائة ألف أدهم سوى بقية الألوان ، فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب وهمَّ بالرجوع ، وهيهات ولات حين مناص ، نفذ القدر . واستجيبت الدعوة ، وجاء جبريل عليه الصلاة والسلام على فرس وديق حائل ، فمر إلى جانب حصان فرعون فحمحم إليها ، واقتحم جبريل البحر فاقتحم الحصان وراءه ، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئًا ، فتجلد لأمرائه وقال لهم : ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا ، فاقتحموا كلهم عن آخرهم ، وميكائيل في ساقتهم لا يترك منهم أحدًا إلّا ألحقه بهم ، فلما استوسقوا فيه وتكاملوا وهمَّ أولهم بالخروج منه ، أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم فارتطم عليهم فلم ينج منهم أحد ، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم ، وتراكمت الأمواج فوق فرعون وغشيته سكرات الموت فقال وهو كذلك : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ فآمن حيث لا ينفعه الإيمان ؛ ولهذا قال الله تعالى في

جواب فرعون حين قال ما قال : ﴿ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ أي أهذا الوقت تقول ، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه ﴿ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي في الأرض الذين أضلوا الناس .

وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذلك من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسوله ﷺ ولهذا قد روي عن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « لَمَّا قَالَ فِرْعَونُ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ - قَالَ - قال لي جِبْرِيلُ : لَوْ رَأَيْتَنِي وَقَدْ أَخَذْتُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ فَدَسَسْتُهُ فِي فِيهِ مَخَافَةَ أَنْ تَنَالَهُ الرَّحْمَةُ »(١) .

وقوله : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ قال ابن عبّاس وغيره من السلف : إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون ، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سويًّا بلا روح وعليه درعه المعروفة على نجوة من الأرض ، وهو المكان المرتفع ليتحققوا موته وهلاكه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ﴾ أي نرفعك على نشز من الأرض ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾ قال مجاهد : بجسدك ، وقال الحسن : بجسم لا روح فيه ، وقال عبد الله بن شداد : سويًّا صحيحًا ، أي لم يتمزق ليحققوه ، ويعرفوه ، وكل هذه الأقوال لا منافاة بينها وقوله : ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ أي لتكون لبني إسرائيل دليلًا على موتك وهلاكك ، وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده ، وأنه لا يقوم لغضبه شيء ولهذا قرأ بعضهم : ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ أي لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها ، وقد كان إهلاكهم يوم عاشوراء كما روي عن ابن عبّاس قال : قدم النبيّ ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء ، فقال : « مَا هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَهُ ؟ » فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . فقال النبيّ ﷺ لأصحابه : « أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْهُمْ فَصُومُوهُ »(٢) .

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية ، وقوله : ﴿ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ قيل : هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه ، فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ ولكن استمروا مع موسى عليه السلام طالبين إلى بلاد بيت المقدس وهي بلاد الخليل عليه السلام ، فاستمر موسى بمن معه طالبًا بيت المقدس وكان فيه قوم من العمالقة ، فنكل بنو إسرائيل عن قتالهم فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة ، ومات فيه هارون ثم موسى عليهما السلام ، وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون ففتح الله عليهم بيت المقدس ، واستقرت أيديهم عليها ، إلى أن أخذها منهم بختنصر حينًا من الدهر ثم عادت إليهم ، ثم أخذها ملوك اليونان فكانت أحكامهم مدة طويلة ، وبعث الله عيسى ابن مريم عليه السلام في تلك المدة فاستعانت

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٠٩) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٠٤) ومسلم في الصيام (١٢٨) وأحمد في مسنده (١/٢٩١) .

اليهود قبحهم اللَّه على معاداة عيسى عليه السلام بملوك اليونان وكانت تحت أحكامهم ، ووشوا عندهم وأوحوا إليهم أن هذا يفسد عليكم الرعايا ، فبعثوا من يقبض عليه فرفعه اللَّه إليه وشبه لهم بعض الحواريين بمشيئة اللَّه وقدره ، فأخذوه فصلبوه واعتقدوا أنه هو: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ثم بعد المسيح عليه السلام بنحو ثلاثمائة سنة دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان في دين النصرانية ، وكان فيلسوفًا قبل ذلك فدخل في دين النصارى قيل : تقية وقيل : حيلة ، ليفسده ، فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة بدعوها وأحدثوها ، فبنى لهم الكنائس والبيع الكبار والصغار والصوامع والهياكل والمعابد والقلايات ، وانتشر دين النصرانية في ذلك الزمان واشتهر على ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف ووضع وكذب ومخالفة لدين المسيح ، ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم إلَّا القليل من الرهبان ، واستحوذت يد النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم ، وبنى هذا الملك المذكور مدينة قسطنطينية والقمامة وبيت لحم وكنائس ببلاد بيت المقدس ومدن حوران كبصرى وغيرها من البلدان بناءات هائلة محكمة ، وعبدوا الصليب من حينئذ ، وصلُّوا إلى الشرق وصوروا الكنائس ، وأحلوا لحم الخنزير وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع في دينهم والأصول ، ووضعوا له الأمانة الحقيرة التي يسمونها الكبيرة ، وصنفوا له القوانين وبسط هذا يطول . والغرض أن يدهم لم تزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها منهم الصحابة رضي الله عنهم ، وكان فتح بيت المقدس على يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولله الحمد والمنة .

وقوله : ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعًا وشرعًا . وقوله : ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي ما اختلفوا في شيء من المسائل إلَّا من بعد ما جاءهم العلم ، أي ولم يكن لهم أن يختلفوا وقد بيَّن اللَّه لهم وأزال عنهم اللبس ، وقد ورد في الحديث : «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة ، وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، منها واحدة في الجنة وثنتان وسبعون في النار . قيل من هم يا رسول اللَّه ؟ قال : « مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي »(١) . ولهذا قال اللَّه تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أي يفصل بينهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ .

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۝ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ .

قال قتادة بن دعامة : بلغنا أن رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم قال : «لَا أَشُكُّ وَلَا أَسْأَلُ »(٢) . وكذلك قال ابن عبَّاس وسعيد بن جبير والحسن البصري ، وهذا فيه تثبيت للأمة وإعلام لهم أن صفة نبيهم صلى الله عليه وسلم موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب كما قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ الآية ، مع هذا العلم الذي يعرفونه من

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٥/٣) والحاكم في المستدرك (١٢٨/١) .
(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٠٢١١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣١٧/٣) .

كتبهم كما يعرفون أبناءهم يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ أي لا يؤمنون إيمانًا ينفعهم بل حين لا ينفع نفسًا إيمانها .

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ .

يقول تعالى : فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل ، بل ما أرسلنا من قبلك يا محمّد من رسول إلَّا كذبه قومه أو أكثرهم ، كقوله تعالى : ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وفي الحديث : « عُرِضَ عَلَيَّ الأنبياءُ ، فَجَعَلَ النَّبيُّ يَمُرُّ وَمَعَهُ الفِئَامُ مِنَ النَّاسِ ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الرَّجُلُ ، والنبيُّ معَهُ الرَّجُلَانِ ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ »[1] ثم ذكر كثرة أتباع موسى عليه السلام ، ثم ذكر كثرة أمته صلوات اللّه وسلامه عليه ، كثرة سدّت الخافقين الشرقي والغربي . والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم مما سلف من القرى ، إلَّا قوم يونس وهم أهل نينوى وما كان إيمانهم إلَّا تخوفًا من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعد ما عاينوا أسبابه .

وخرج رسولهم من بين أظهرهم ، فعندما جأرُوا إلى اللّه واستغاثوا به وتضرعوا له واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم ، وسألوا اللّه تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم فعندها رحمهم اللّه وكشف عنهم العذاب وأخروا ، كما قال تعالى : ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ واختلف المفسرون هل كشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي ، أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط ؟ على قولين :

أحدهما : إنما كان ذلك في الحياة كما هو مقيد في هذه الآية .

والثاني : فيهما كقوله تعالى ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ فأطلق عليهم الإيمان ، والإيمان منقذ من العذاب الأخروي ، وهذا هو الظاهر ، واللّه أعلم .

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ ﴾ يا محمّد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به فآمنوا كلهم ، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ ﴾ أي تلزمهم وتلجئهم ﴿ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي ليس ذلك عليك ولا إليك بل اللّه ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ ﴾ وهو الخبال والضلال ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي حجج اللّه وأدلته ، وهو العادل في كل ذلك في هداية من هدى ، وإضلال من ضل .

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٤١/١٨) .

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يرشد تعالى عباده إلى التفكّر في آلائه وما خلق اللّٰه في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب ، مما في السموات من كواكب نيرات ، ثوابت وسيارات ، والشمس والقمر والليل والنهار واختلافهما ، وارتفاع السماء واتساعها وحسنها وزينتها ، وما أنزل اللّٰه منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها ، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير وصنوف النبات ، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع ، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب ، وما في البحر من العجائب والأمواج ، يحمل سفنهم ويجري بها برفق بتسخير القدير لا إله إلّا هو ولا رب سواه . وقوله : ﴿ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : وأي شيء تغني الآيات السماوية والأرضية ، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها عن قوم لا يؤمنون . وقوله : ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمّد من النقمة والعذاب إلّا مثل أيام اللّٰه في الذين خلوا من قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسلهم ﴿ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي ونهلك المكذبين بالرسل ﴿ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ حقًّا أوجبه اللّٰه تعالى على نفسه الكريمة كقوله : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ وكما جاء في الحديث عن رسول اللّٰه ﷺ أي أنه قال : « إِنَّ اللّٰهَ كَتَبَ كِتَابًا فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي » (١) .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

يقول تعالى لرسوله محمّد ﷺ : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ ﴾ من صحة ماجئتكم به من الدين الحنيف الذي أوحاه اللّٰه إليَّ ، فأنا لا ﴿ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ، ولكن أعبد اللّٰه وحده لا شريك له ، وهو ﴿ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ كما أحياكم ، ثم إليه مرجعكم ، فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون اللّٰه حقًّا فأنا لا أعبدها ، فادعوها فلتضرني فإنها لا تضر ولا تنفع ، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو اللّٰه وحده لا شريك له ، ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ الآية ، أي أخلص العبادة للّٰه وحده حنيفًا ، أي منحرفًا عن الشرك ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وهو معطوف على قوله : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ الآية ، فيه بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى اللّٰه تعالى وحده ، لا يشاركه في ذلك أحد ، فهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له .

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٥٤) وأحمد في مسنده (٢٧٤/٤) .

وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي لمن تاب إليه ولو من أي ذنب كان ، حتى من الشرك به فإنه يتوب عليه .

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا لرسوله ﷺ أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه ، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه ، ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ أي وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين ، وإنما أنا نذير لكم ، والهداية على الله تعالى .

وقوله : ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ ﴾ أي تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك ، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ﴾ أي يفتح بينك وبينهم ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ أي خير الفاتحين بعدله وحكمته .

سورة هود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا وبالله التوفيق ، وأما قوله : ﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ أي هي محكمة في لفظها مفصلة في معناها ، فهو كامل صورة ومعنى . وقوله : ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ أي من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه ، خبير بعواقب الأمور : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أي نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له ، وقوله : ﴿ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ أي إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه ، وبشير بالثواب إن أطعتموه ، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب فاجتمعوا فقال : « يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَرَأَيْتُم لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تُصَبِّحُكُمْ ، أَلَسْتُمْ مُصَدِّقِيَّ ؟ » فقالوا : ما جربنا عليك كذبًا قال : « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ »[1] وقوله : ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ أي وآمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله ﷻ فيما تستقبلونه ، وأن تستمروا على ذلك : ﴿ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا ﴾ أي في الدنيا : ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ . أي في الدار الآخرة ، قاله قتادة . وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال لسعد : « وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجه اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي امْرَأَتِكَ »[2] وعن ابن مسعود ﷺ في قوله : ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ قال : من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ، ومن عمل حسنة كتبت عليه عشر حسنات ، فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات ، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ، ثم يقول : هلك من غلب آحاده على أعشاره . وقوله : ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى وكذب رسله ، فإن العذاب يناله يوم القيامة لا محالة ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي معادكم يوم القيامة ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه وانتقامه من أعدائه ، وإعادة الخلائق يوم القيامة ، وهذا مقام الترهيب كما أن الأول مقام ترغيب .

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ .

قال ابن عبّاس : كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقاعهم ، فأنزل الله هذه

---

(١) أخرجه البخاري بنحوه في تفسير القرآن (٤٩٧١) والترمذي في سننه (٣٣٦٣) .
(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/٢٦٨) .

الآية ، وعن عباد بن جعفر : أن ابن عباس قرأ : (أَلَآ إِنَّهُمْ تثنوني صُدُورَهُمْ) الآية فقلت : يا أبا العباس ما تثنوني صدورهم ؟ قال : الرجل كان يجامع امرأته فيستحي ، أو يتخلى فيستحي فنزلت : (أَلَآ إِنَّهُمْ تثنوني صُدُورَهُمْ) (١) وفي لفظ آخر له قال ابن عبّاس : أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء ، فنزل ذلك فيهم ، وعن عمرو قال : قرأ ابن عباس : (أَلَآ إِنَّهُمْ تثنوني لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ) قال ابن عبّاس ﴿ يَسْتَغْشُونَ ﴾ : يغطون رءوسهم ، وقال ابن عبّاس في رواية أخرى في تفسير هذه الآية : يعني به الشك في الله وعمل السيئات ، أي أنهم يثنون صدورهم إذا قالوا شيئًا أو عملوه ، فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك ، فأخبرهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ ﴾ من القول ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي يعلم ما تكن صدورهم من النيات والضمائر والسرائر .

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض صغيرها وكبيرها ، بحريها وبريها ، وأنه يعلم مستقرها ومستودعها ، أي يعلم أين منتهى سيرها في الأرض وأين تأوي إليه من وكرها وهو مستودعها . وقال ابن عباس ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ أي حيث تأوي ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ حيث تموت . وعن مجاهد : ﴿ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ في الرحم ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ في الصلب ، وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك ، كقوله : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء ، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك ، كما روي عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « قَالَ اللَّهُ ﷻ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ » وقال : « يَدُ اللَّه مَلأَى لَا يُغِيضُهَا نَفَقَةٌ ، سَحّاء اللَّيْل وَالنَّهار » . وقال : « أَفَرأَيْتُم مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، فَإِنَّهُ لَمْ يُغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ » (٢) .

وعن لقيط بن عامر بن المنفق العقيلي قال : قلت : يا رسول الله : أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : « كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ ، ثُمَّ خَلَقَ الْعَرْشَ بَعْدَ ذَلِكَ » (٣) . وقال مجاهد : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ قبل أن يخلق شيئًا ، وقال قتادة ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض ، وقال الربيع بن أنس : فلما خلق السموات والأرض قسم ذلك الماء

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٢) .
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١١) والهندي في كنز العمال (١٤٣١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١١/٤) والترمذي في سننه (٣١٠٩) وابن ماجه في سننه (٨٨٢) .

قسمين ، فجعل نصفًا تحت العرش وهو البحر المسجور . وقال ابن عبّاس : إنما سمي العرش عرشًا لارتفاعه ، وقال إسماعيل بن أبي خالد : سمعت سعدًا الطائي يقول : العرش ياقوتة حمراء .

وقوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أي خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، ولم يخلق ذلك عبثًا كقوله : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ .

وقوله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ أي ليختبركم ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ولم يقل أكثر عملًا ، بل أحسن عملًا ، ولا يكون العمل حسنًا حتى يكون خالصًا لله ﷻ على شريعة رسول الله ﷺ ، فمتى فقد العمل واحدًا من هذين الشرطين حبط وبطل . وقوله : ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ ﴾ الآية ، يقول تعالى : ولئن أخبرت يا محمّد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة ، الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ وقولهم : ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي يقولون كفرًا وعنادًا : ما نصدقك على وقوع البعث ، وما يذكر ذلك إلّا من سحرته فهو يتبعك على ما تقول .

وقوله : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ الآية ، يقول تعالى : ولئن أخرنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور وأوعدناهم إلى مدة مضروبة ليقولن تكذيبًا واستعجالًا ما يحبسه أي يؤخر هذا العذاب عنا ، فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك ، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد ، والأمة تستعمل في القرآن والسنة في معان متعددة ، فيراد بها الأمد كقوله في هذه الآية : ﴿ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ وقوله في يوسف ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ وتستعمل في الإمام المقتدى به كقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . وتستعمل في الملة والدين كقوله إخبارًا عن المشركين إنهم قالوا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ . وتستعمل في الجماعة كقوله : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ . والمراد من الأمة ههنا : الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم كما في صحيح مسلم : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ، ثم لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ » (١) . وأما أمة الأتباع فهم المصدقون للرسل كما قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ .

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ .

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة إلّا من رحم الله من عباده المؤمنين أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل ، وكفر وجحود لماضي الحال ، كأنه لم ير خيرًا ولم يرج بعد ذلك فرجًا ، وهكذا إن أصابته نعمة بعد نعمة ﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٤٠) .

﴿ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾ أي يقول : ما ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي فرح بما في يده ، بطر فخور على غيره ، قال اللَّه تعالى ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي على الشدائد والمكاره ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي في الرخاء والعافية ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي بما يصيبهم من الضراء ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بما أسلفوه في زمن الرخاء ، كما جاء في الحديث : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ هَمٌّ وَلَا غَمٌّ وَلَا نَصَبٌ ولا وصبٌ وَلَا حُزْنٌ حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا ؛ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ »(١) وفي الحديث : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَقْضِي اللَّه للمؤمن قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ غَيْرِ الْمُؤْمِنِ »(٢) . ولهذا قال اللَّه تعالى : ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ .

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ .

يقول تعالى مسليًا لرسوله ﷺ عما كان يتعنت به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول . أن لا يضيق بذلك سنهم صدره ، ولا يصدنه ذلك ولا يثنينه عن دعائهم إلى اللَّه ﷻ آناء الليل وأطراف النهار ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ الآية ، وقال ههنا : ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟﴾ أي لقولهم ذلك ، فإنما أنت نذير ، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك ، فإنهم كُذِّبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر اللَّه ﷻ ، ثم بيَّن تعالى إعجاز القرآن وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ولا بعشر سور مثله ، ولا بسورة من مثله ؛ لأن كلام الرب تعالى لا يشبه كلام المخلوقين ، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات ، وذاته لا يشبهها شيء تعالى وتقدّس وتنزه لا إله إلَّا هو ولا رب سواه . ثم قال تعالى : ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ أي فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتموهم إليه ، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك ، وأن هذا الكلام منزل من عند اللَّه متضمن علمه وأمره ونهيه ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ .

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ .

قال ابن عبّاس في الآية : إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا ، وذلك أنهم لا يظلمون نقيرًا ، يقول : من عمل صالحًا التماس الدنيا صومًا أو صلاة أو تهجدًا بالليل ، لا يعمله إلَّا التماس الدنيا يقول اللَّه تعالى : أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة وحبط عمله الذي كان يعمله لالتماس الدنيا ، وهو في الآخرة من الخاسرين . وقال أنس بن مالك والحسن : نزلت في اليهود والنصارى ، وقال مجاهد وغيره : نزلت في أهل الرياء ، وقال قتادة : من كانت الدنيا همه ونيته وطلبته جازاه

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣) .
(٢) أخرجه مسلم في الزهد (٦٤) وأحمد في مسنده (٣٣٢/٤) .

الله بحسناته في الدنيا ، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء ، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ، ويثاب عليها في الآخرة .

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده من الاعتراف له بأنه لا إله إلّا هو عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُولَدُ الْبَهِيمَةُ جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ؟ » (١) الحديث . وعن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ قال : « يَقُولُ اللَّهُ إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لهم ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا » (٢) . فالمؤمن باق على هذه الفطرة . وقوله : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ أي وجاءه شاهد من الله ، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة المختتمة بشريعة محمّد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . ولهذا قال ابن عبّاس ومجاهد وعكرمة وغير واحد في قوله تعالى : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ أنه جبريل ﷺ ، وعن علي ﷺ والحسن وقتادة : هو محمد ﷺ وكلاهما قريب في المعنى ؛ لأن كلًا من جبريل ومحمّد صلوات الله عليهما بلّغ رسالة الله تعالى ، فجبريل إلى محمّد ، ومحمّد إلى الأمة ، ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ وهو القرآن بلّغه جبريل إلى النبيّ ﷺ ، وبلّغه النبي محمّد ﷺ إلى أمته .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ أي ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ أي أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إمامًا لهم وقدوة يقتدون بها ، ورحمة من الله بهم ، فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ . ثم قال تعالى متوعدًا لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ أي ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ، ممن بلغه القرآن كما قال تعالى : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ . عن سعيد بن جبير قال : كنت لا أسمع بحديث عن النبي ﷺ إلا وجدت مصداقة - أو قال : تصديقه - في القرآن ، فبلغني أن النبي ﷺ قال : « لا يسمَعُ بي أحدٌ من هذهِ الأمةِ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ، فلا يؤمِنَ بي إلّا دخلَ النارَ » (٣) فجعلت أقول : أين مصداقة في كتاب الله ؟ وقلما سمعت عن رسول الله إلا وجدت له تصديقًا في القرآن حتى وجدت هذه الآية : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ قال : من الملل كلها وقوله : ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ الآية ، أي القرآن حق من الله لا مرية ولا شك فيه ، كما قال تعالى : ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٥) وأحمد في مسنده (٢/٢٣٣) وأبو داود في السنن (٤٧١٤) .
(٢) أخرجه مسلم في الجنة (٦٣) وأحمد في مسنده (٤/١٦٢) . (٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٤٠) .

رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ⑱ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ⑲ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ⑳ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ㉑ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ .

يبيّن تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رءوس الخلائق من الملائكة والرسل والأنبياء وسائر البشر والجان ، كما روي عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذًا بيد ابن عمر إذ عرض له رجل ، قال : كيف سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة ، قال سمعته يقول : « إِنَّ اللَّه ﷻ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ وَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ ، وَيَقُولُ لَهُ : أَتَعْرِفُ ذَنْب كَذَا ؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبِ كَذَا ؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ ، قَالَ : فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَإِنِّي أَغْفِرهَا لَكَ الْيَوْمَ ، ثُمَّ يُعطى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الأشهاد ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ »(١) . وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي يردون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى اللَّه ﷻ ويجنبونهم الجنة ، ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي ويريدون أن يكون طريقهم عوجًا غير معتدلة ﴿ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ أي جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي بل كانوا تحت قهره وغلبته وفي قبضته وسلطانه ، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ وفي الصحيحين : « إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِم حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ »(٢) . ولهذا قال تعالى : ﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ ﴾ الآية ، أي يضاعف عليهم العذاب ، وذلك أن اللَّه تعالى جعل لهم سمعًا وأبصارًا وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم ، بل كانوا صمًّا عن سماع الحق ، عميًا عن اتباعه ، كما أخبر تعالى عنهم حين دخلوهم النار كقوله : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ ولهذا كان أصح الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة .

وقوله : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ أي خسروا أنفسهم بأنهم أدخلوا نارًا حامية ، فهم معذبون فيها لا يفتر عنهم من عذابها طرفة عين ، كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ أي ذهب عنهم ﴿ مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ من دون اللَّه من الأنداد والأصنام فلم تجد عنهم شيئًا ، بل ضرتهم كل الضرر ، ولهذا قال : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ يخبر تعالى عن مآلهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة ؛ لأنهم استبدلوا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٤/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٩٤/٦) .

الدركات عن الدرجات ، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن ، وعن شرب الرحيق المختوم بسموم وحميم وظل من يحموم ، وعن الحور العين بطعام من غسلين ، وعن القصور العالية بالهاوية ، وعن قرب الرحمن ورؤيته ، بغضب الديان وعقوبته ، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ، ثنّى بذكر السعداء ، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فآمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولًا وفعلًا من الإتيان بالطاعات وترك المنكرات وبهذا ورثوا الجنات ، المشتملة على الغرف العاليات ، والسرر المصفوفات ، والقطوف الدانيات ، والفرش المرتفعات ، والحسان الخيرات ، والفواكه المتنوعات ، والمآكل المشتهيات ، والمشارب المستلذات ، والنظر إلى خالق الأرض والسموات ، وهم في ذلك خالدون لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون ، وينامون ولا يتغوطون ، ولا يبصقون ولا يتمخطون ، إن هو إلَّا رشح مسك يعرقون . ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال : ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ ﴾ أي الذين وصفهم أولًا بالشقاء ، والمؤمنين بالسعادة ، فأولئك كالأعمى والأصم ، وهؤلاء كالبصير والسميع ، فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا والآخرة لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه ، أصم عن سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به ، وأما المؤمن ففطن ذكي لبيب بصير بالحق يميز بينه وبين الباطل فيتبع الخير ويترك الشر ، سميع للحجة يفرق بينها وبين الشبهة فلا يروج عليه باطل ، فهل يستوي هذا وهذا ؟ ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أفلا تعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام ، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام ، أنه قال لقومه : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر النذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله ، ولهذا قال : ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ وقوله : ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ أي إن استمررتم على ما أنتم عليه عذّبكم الله عذابًا أليمًا موجعًا شاقًّا في الدار الآخرة ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ والملأ هم السادة والكبراء من الكافرين منهم ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ أي لست بملك ولكنك بشر ، فكيف أوحي إليك من دوننا ، ثم ما نراك اتبعك إلَّا الذين هم أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم ، ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا ، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن ترو منهم ولا فكر ولا نظر ، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك ، ولهذا قالوا : ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ ﴾ أي في أول بادئ ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ يقولون : ما رأينا لكم علينا فضيلة في خُلقٍ ولا خَلق ولا رزق ولا حال لما دخلتم في دينكم هذا ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ أي فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة في الدار الآخرة إذ صرتم إليها ،

هذا اعتراض الكافرين على نوح ﷺ وأتباعه ، وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم ؛ فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه ، فإن الحق في نفسه صحيح سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل ، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء ، والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء ، ثم الواقع غالبًا أن من يتبع الحق ضعفاء الناس ، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ قال له فيما قال : أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم ، فقال هرقل : هم أتباع الرسل . وقولهم : بادي الرأي ليس بمذمة ولا عيب ؛ لأن الحق إذا وضح لا يبقى للرأي ولا للفكر مجال ، بل لابد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء ، بل لا يفكر ههنا إلّا غبي أو عيي ، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إنما جاءوا بأمر جلي واضح .

وقوله : ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ هم لا يرون ذلك لأنهم عمي عن الحق ، لا يسمعون ولا يبصرون ، بل هم في ريبهم يترددون في ظلمات الجهل يعمهون ، وهم الأفاكون الكاذبون الأقلون الأرذلون ، وفي الآخرة هم الأخسرون .

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما رد به نوح على قومه في ذلك ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ أي على يقين وأمر جلي ونبوة صادقة وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها ولا عرفتم قدرها ، بل بادرتم إلى تكذيبها وردها ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ أي نغصبكم بقبولها وأنتم لها كارهون .

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

يقول لقومه لا أسألكم على نصحي لكم مالًا ، أجرة آخذها منكم ، إنما أبتغي الأجر من الله ﷻ ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه احتشامًا ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم ، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنه جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلسًا خاصًا فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ ﴾ الآية .

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

يخبرهم أنه رسول من الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له بإذن الله له في ذلك ، ولا يسألهم على ذلك أجرًا ، بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضيع ، فمن استجاب له فقد نجا . ويخبرهم أنه لا قدرة له على التصرّف في خزائن الله ولا يعلم من الغيب إلّا ما أطلعه الله عليه ، وليس هو بملك من الملائكة بل هو بشر مرسل مؤيد بالمعجزات . ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم أنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ فإن

كانوا مؤمنين باطنًا كما هو الظاهر من حالهم فلهم جزاء الحسنى ، ولو قطع لهم أحدٌ بشر بعدما آمنوا لكان ظالمًا قائلًا ما لا علم له به .

﴿قَالُوا يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه ، والبلاء موكل بالمنطق . ﴿قَالُوا يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ أي حاججتنا فأكثرت من ذلك ونحن لا نتبعك ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي من النقمة والعذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي إنما الذين يعاقبكم ويعجلها لكم الله لا يعجزه شيء ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أي : أي شيء يجدي عليكم إبلاغي لكم وإنذاري إياكم ونصحي ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أي إغواءكم ودماركم ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي هو مالك أزمة الأمور المتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور ، له الخلق وله الأمر ، وهو المبدئ المعيد مالك الدنيا والآخرة .

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ .

هذا كلام معترض في وسط هذه القصة مؤكد لها مقرر لها ، يقول تعالى لمحمّد ﷺ : أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون افترى هذا وافتعله من عنده ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ أي فإثم ذلك علي ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي ليس ذلك مفتعلًا ولا مفترى ؛ لأني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه .

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ .

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نقمة الله بهم وعذابه لهم ، فدعا عليهم نوح دعوته التي قال الله تعالى مخبرًا عنه أنه قال : ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ فعند ذلك أوحى الله إليه ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ فلا تحزن عليهم ولا يهمنك أمرهم ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ يعني السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بمرأى منا ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي تعليمنا لك ما تصنعه ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ فقال بعض السلف : أمره الله تعالى أن يغرز الخشب ويقطعه وييبسه فكان ذلك في مائة سنة ، ونجرها في مائة سنة أخرى ، وقيل : في أربعين سنة ، والله أعلم . وعن ابن عباس : طولها ألف ومائتا ذراع في عرض ستمائة ، وقيل : طولها ألفا ذراع وعرضها مائة ذراع ، فالله أعلم . قالوا كلهم : وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعًا ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع ، فالسفلى للدواب والوحوش ، والوسطى للإنس ، والعليا للطيور ، وكان بابها في عرضها ،

ولها غطاء من فوقها مطبق عليها .

وقوله : ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ﴾ أي يهزأون به ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق : ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ الآية ، وعيد شديد وتهديد أكيد ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أي يهينه في الدنيا ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي دائم مستمر أبدًا .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .

هذه موعدة من الله تعالى لنوح عليه السلام إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة والهتان الذي لا يقلع ولا يفتر ، وقوله : ﴿ وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ فعن ابن عبّاس : التنور وجه الأرض ، أي صارت الأرض عيونًا تفور ، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار ، صارت تفور ماء وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف ، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿ ٱلتَّنُّورُ ﴾ فلق الصبح ، وتنوير الفجر وهو ضياؤه وإشراقه ، والأول أظهر . فحينئذٍ أمر الله نوحًا عليه السلام أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح ، قيل : وغيرها من النباتات اثنين : ذكرًا وأنثى ، فقيل كان أول من أدخل من الطيور الدرة ، وآخر من أدخل من الحيوانات الحمار ، فتعلق إبليس بذنبه وجعل يريد أن ينهض فيثقله إبليس وهو متعلق بذنبه ، فجعل يقول له نوح عليه السلام : ما لك ويحك ادخل ، فينهض ولا يقدر فقال : ادخل وإن كان إبليس معك فدخلا في السفينة ، وذكر بعض السلف أنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد حتى ألقيت عليه الحمى .

وعن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « لَمَّا حَمَلَ نُوحٌ فِي السَّفِينَةِ مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، قَالَ أَصْحَابُهُ : وَكَيْفَ تَطْمَئِنُّ الْمَوَاشِي وَمَعَهَا الأَسَدُ ؟ فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِ الحُمَّى فَكَانَتْ أَوَّلَ حُمَّى نَزَلَتْ فِي الأَرْضِ ، ثُمَّ شَكَوُا الفَأْرَةَ فَقَالُوا : الْفُوَيْسِقَةُ تُفْسِدُ عَلَيْنَا طعامنا وَمَتَاعَنَا فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى الأَسَدِ فَعَطَسَ فَخَرَجَت الْهِرَّةُ مِنْهُ فَتَخَبَّأَتِ الفَأْرَةُ مِنْهَا » (١) .

وقوله : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ أي واحمل فيها أهلك وهم أهل بيته وقرابته إلَّا من سبق عليه القول منهم ممن لم يؤمن بالله ، فكان منهم ابنه يام الذي انعزل وحده ، وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله . وقوله : ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ أي من قومك : ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أي نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلَّا خمسين عامًا .

﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ .

يقول تعالى إخبارًا عن نوح عليه السلام أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة ﴿ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٣١/١) وهذا من الأحاديث المشتهرة على ألسنة الناس ولم نعثر عليه في أي من كتب الحديث التي تحت أيدينا غير هذين الكتابين ، ويبدو أنه من أخبار بني إسرائيل .

﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ أي بنسم الله يكون جريها على وجه الماء ، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها . وقرأ أبو رجاء العطاردي ﴿بِسْمِ اللَّهِ مجريها ومرسيها﴾ (١) ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور عند الركوب على السفينة وعلى الدابة كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ الآية ، وجاءت السنة بالحث على ذلك والندب إليه فعن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ قال : « أَمَانُ أُمَّتِي مِنَ الغَرَقِ إِذَا رَكِبُوا فِي السُّفُنِ أَنْ يَقُولُوا بِسْمِ اللَّهِ المَلِكِ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ الآية ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾» (٢) .

وقوله : ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ، فذكر أنه غفور رحيم كقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ . وقوله : ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أي السفينة سائرة بهم على وجه الماء الذي قد طبق جميع الأرض ، حتى طفت على رءوس الجبال وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعًا وقيل : بثمانين ميلًا ، وهذه السفينة جارية على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كنفه وعنايته وحراسته وامتنانه . وقوله : ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُۥ﴾ الآية ، هذا هو الابن الرابع واسمه يام وكان كافرًا ، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون . قال : ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَآءِ﴾ اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رءوس الجبال ، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجّاه ذلك من الغرق ، فقال له أبوه نوح عليه السلام : ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ أي ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله ، وقيل : إن عاصمًا بمعنى معصوم كما يقال : طاعم وكاس بمعنى مطعوم ومكسو ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ .

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ابْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ الْمَآءُ وَقُضِىَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ﴾ .

يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم إلَّا أصحاب السفينة ، أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها ، وأمر السماء أن تقلع عن المطر ﴿وَغِيضَ الْمَآءُ﴾ أي شرع في النقص ﴿وَقُضِىَ الْأَمْرُ﴾ أي فرغ من أهل الأرض قاطبة ممن كفر بالله لم يبق منهم ديار ﴿وَاسْتَوَتْ﴾ السفينة بمن فيها ﴿عَلَى الْجُودِىِّ﴾ قال مجاهد : وهو جبل بالجزيرة ، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت وتواضع هو لله عز وجل فلم يغرق ، وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام . وقال قتادة : استوت عليه شهرًا حتى نزلوا منها ، قال قتادة : قد أبقى الله سفينة نوح عليه السلام على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة ، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رمادًا .

وقال الضحاك : الجودي جبل بالموصل وقال بعضهم : هو الطور ، وعن أبي هريرة قال : مر النبيّ ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء فقال : « مَا هَذَا الصَّوْمُ ؟ » قالوا : هذا اليوم

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص (مجريها) بفتح الميم وكسر الراء والباقون بضمها (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٢٤) .
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢٥/١٢) والهندي في كنز العمال (١٧٥٣٧) .

الذي نجّى اللَّه به موسى وبني إسرائيل من الغرق ، وغرق فيه فرعون ، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي ، فصام نوح وموسى عليهما السلام شكرًا للَّه عز وجل ، فقال النبي ﷺ : «أَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى وَأَحَقُّ بِصَوْمِ هَذَا الْيَوْمِ » . فصام وقال لأصحابه : «مَنْ كَانَ أَصْبَحَ مِنْكُمْ صَائِمًا فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ ، وَمَنْ كَانَ أَصَابَ مِنْ غِذَاءِ أَهْلِهِ فَلْيُتِمَّ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ » [1] . وقوله : ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي هلاكًا وخسارًا لهم وبعدًا من رحمة اللَّه ، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية . وعن عائشة زوج النبيّ ﷺ أخبرته أن النبيّ ﷺ قال : «لَوْ رَحِمَ اللَّه مِنْ قَوْمِ نُوحٍ أَحَدًا لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ » . قال رسول اللَّه ﷺ : «كَانَ نُوحٌ عليه السلام مَكَثَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا يَغْنِي وَغَرَسَ مِائَةَ سَنَةِ الشَّجَرَ فَعَظُمَتْ وَذَهَبَتْ كُلَّ مَذْهَبٍ ، ثُمَّ قَطَعَهَا ثُمَّ جَعَلَهَا سَفِينَةً ، وَيَمُرُّونَ عَلَيْهِ وَيَسْخَرُونَ مِنْهُ وَيَقُولُونَ : تَعْمَلُ سَفِينَةً فِي الْبَرِّ فَكَيْفَ تَجْرِي ؟ قَالَ : سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، فَلَمَّا فَرَغَ وَنَبَعَ الْمَاءُ وَصَارَ فِي السِّكَكِ خَشِيَتْ أُمُّ الصَّبِيِّ عَلَيْهِ وَكَانَتْ تُحِبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا ، فَخَرَجَتْ إِلَى الْجَبَلِ حَتَّى بَلَغَتْ ثُلُثَهُ ، فَلَمَّا بَلَغَهَا الْمَاءُ ارْتَفَعَتْ حَتَّى بَلَغَتْ ثُلُثه ، فَلَمَّا بَلَغَهَا الْمَاءُ خَرَجَتْ بِهِ حَتَّى اسْتَوَتْ عَلَى الْجَبَلِ ، فَلَمَّا بَلَغَ الْمَاءُ رَقَبَتَهَا رَفَعَتْهُ بِيَدَيْهَا فَغَرِقَا ، فَلَوْ رَحِمَ اللَّه مِنْهُمْ أَحَدًا لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ » [2] .

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ أي وقد وعدتني بنجاة أهلي ، ووعدك الحق الذي لا يخلف ، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أي الذين وعدت إنجاءهم ، لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك ، ولهذا قال : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبي اللَّه نوحًا عليه السلام ، وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه وإنما كان ابن زنية ، واحتج بعضهم بقوله ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ وبقوله : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ فممن قاله : الحسن البصري احتج بهاتين الآيتين ، وبعضهم يقول ابن امرأته ، وهذا يحتمل أن يكون أراد ما أراد الحسن أو أراد أنه نسب إليه مجازًا لكونه كان ربيبًا عنده ، فاللَّه أعلم ، وقال ابن عبّاس وغير واحد من السلف : ما زنت امرأة نبي قط ، قال : وقوله ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أي الذين وعدتك نجاتهم . وقول ابن عبّاس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه ، فإن اللَّه سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة ، ولهذا غضب اللَّه على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصدّيق زوج النبيّ ﷺ ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه ؛ فعن ابن عبّاس قال : هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية ، وعن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقرأ : ﴿ إِنَّهُۥ عَمِلَ غَيْرَ صَٰلِحٍ ﴾ وسمعته يقول : ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا

(١) أخرجه مسلم في الصيام (١٣٦) وأحمد في مسنده (٣٥٩/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٨٨/٤).
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٤٢/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٠٠/٨).

نَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ ﴾ ولا يبالي ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (١) وعن أم سلمة : أن رسول الله ﷺ قرأها ﴿ إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ ﴾ (٢) ، وعن سليمان بن قبة قال : سمعت ابن عباس سئل وهو إلى جنب الكعبة عن قول الله ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ قال : أما إنه لم يكن بالزنى ولكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنون ، وكانت هذه تدل على الأضياف ثم قرأ ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ ﴾ . وقال بعض العلماء : ما فجرت امرأة نبي قط .

﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ يخبر تعالى عما قيل لنوح ﷺ حين أرست السفينة على الجودي من السلام عليه وعلى من معه من المؤمنين قال محمد بن إسحاق : لما أراد الله أن يكف الطوفان أرسل ريحًا على وجه الأرض فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض الغمر الأكبر وأبواب السماء ، وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة ، يقول الله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ ﴾ الآية ، فجعل الماء ينقص ويغيض ويدير ، وكان استواء الفلك على الجودي فيما يزعم أهل التوراة في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه ، وفي أول يوم من الشهر العاشر رأى رءوس الجبال ، فلما مضى بعد ذلك أربعون يومًا فتح نوح كوة الفلك التي ركب فيها ، ثم أرسل الغراب لينظر له ما صنع الماء فلم يرجع إليه ، فأرسل الحمامة فرجعت إليه لم تجد لرجليها موضعًا ، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها ، ثم مضى سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له فرجعت حين أمست وفي فيها ورق زيتون ، فعلم نوح أن الماء قد قلَّ عن وجه الأرض ، ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع ، فعلم نوح أن الأرض قد برزت ، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنتين برز وجه الأرض وظهر البر ، وكشف نوح غطاء الفلك ، وفي الشهر الثاني من سنة اثنتين في ست وعشرين ليلة منه : ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا ﴾ الآية (٣) .

﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ .

يقول تعالى لنبيه ﷺ هذه القصة وأشباهها ﴿ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ ﴾ يعني من أخبار الغيوب السالفة نوحيها إليك على وجهها كأنك شاهدها ، ﴿ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ ﴾ أي نعلمك بها وحيًا منا إليك ﴿ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ ﴾ أي لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها ، حتى يقول من يكذبك إنك تعلمتها منه ، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك ، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك وأذاهم لك ، فإنا سننصرك ونحوطك بعنايتنا ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخر ، كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٤٥٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٢٩٤) وقرأ الكسائي ﴿ إنه عَمِلَ غير صالح ﴾ بنصب اللام والراء ، والباقون ﴿ عَمَلٌ غير صالح ﴾ بفتح الميم وضم اللام والراء (حجة القراءات ص ٣٤١) .

(٣) يدل سياق هذا الأثر على أنه من أخبار بني إسرائيل .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ و ﴾ لقد أرسلنا ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ آمرًا لهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، ناهيًا لهم عن الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة ، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجرة على هذا النصح والبلاغ من الله إنما يبغي ثوابه من الله الذي فطره ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجرة ، ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة ، وبالتوبة عما يستقبلون ، ومن اتصف بهذه الصفة يسّر الله عليه رزقه ، وسهل عليه أمره وحفظ شأنه ولهذا قال : ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ ، وفي الحديث : « مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا ، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ »(١) .

﴿ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيهم : ﴿ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ أي بحجة وبرهان على ما تدعيه ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ أي بمجرد قولك اتركوهم نتركهم ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ بمصدقين ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ يقولون : ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابتك بجنون وخبل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ﴾ يقول : إني بريء من جميع الأنداد والأصنام ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ﴾ أي أنتم وآلهتكم إن كانت حقًّا ﴿ ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ أي طرفة عين . وقوله : ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ أي تحت قهره وسلطانه ، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه ، فإنه على صراط مستقيم .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ .

يقول لهم هود : فإن تولوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ يعبدونه وحده لا يشركون به ، ولا يبالي بكم ، فإنكم لا تضرونه بكفركم بل يعود وبال ذلك عليكم ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أي شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم عليها إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ وهو الريح العقيم فأهلكهم الله عن آخرهم ونجى هودًا وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ كفروا بها وعصوا رسل الله ، وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء ؛ لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به ، فعاد كفروا بهود فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل ﴿ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ تركوا اتباع

(١) أخرجه أبو داود في السنن(١٥١٨) وابن ماجه في السنن(٣٨١٩) والبيهقي(٣/٣٥١) .

رسولهم الرشيد ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، فلهذا أتبعوا في هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا ، وينادى عليهم يوم القيامة على رءوس الأشهاد ﴿ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ الآية ، قال السدي : ما بعث نبي بعد عاد إلَّا لعنوا على لسانه (١) .

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَ ﴾ لقد أرسلنا ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ ﴾ وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة وكانوا بعد عاد ، فبعث الله منهم ﴿ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده ، ولهذا قال : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي ابتدأ خلقكم منها خلق منها أباكم آدم ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أي جعلكم عمارًا تعمرونها وتستغلونها ﴿ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ لسالف ذنوبكم ﴿ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ فيما تستقبلونه ﴿ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ .

﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام وبين قومه ، وما كان عليه قومه من الجهل والعناد في قولهم ﴿ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾ أي كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت ﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ وما كان عليه أسلافنا ﴿ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ أي شك كثير ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان ﴿ وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده ، فلو تركته لما نفعتموني ولما زدتموني ﴿ غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ أي خسارة .

﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ۝ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۝ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۝ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ .

تقدم الكلام على هذه القصة مستوفى في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته ها هنا وبالله التوفيق .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ ﴾ وهم الملائكة ﴿ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ قيل : تبشره بإسحاق ، وقيل : بهلاك قوم لوط ، ويشهد للأول قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ ﴿ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ ﴾ أي عليكم ، قال علماء البيان : هذا أحسن مما حيوه به ؛ لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ أي ذهب سريعًا فأتاهم بالضيافة وهو عجل فتى البقر ﴿ حَنِيذٍ ﴾ مشوي على الرضف وهي الحجارة المحماة . وقوله : ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٣٧ .

نكرهم ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ وذلك أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه ، فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به فارغين عنه بالكلية فعند ذلك ﴿ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ قال السدي : لما بعث الله الملائكة لقوم لوط أقبلت تمشي في صور رجال شبان حتى نزلوا على إبراهيم فتضيفوه ، فلما رآهم أجلهم ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ فذبحه ثم شواه في الرضف وأتاهم به ، فقعد معهم وقامت سارة تخدمهم ، فذلك حين يقول (وامرأته قائمة وهو جالس) في قراءة ابن مسعود ﴿ فلما قربه إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ قالوا : يا إبراهيم إنا لا نأكل طعامًا إلّا بثمن ، قال : فإن لهذا ثمنًا ، قالوا : وما ثمنه ؟ قال : تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره ، فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال : حق لهذا أن يتخذه ربه خليلًا ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ يقول : فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم وأوجس منهم خيفة ، فلما نظرت سارة أنه قد أكرمهم وقامت هي تخدمهم ضحكت وقالت : عجبًا لأضيافنا هؤلاء نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم وهم لا يأكلون طعامنا ! وقوله تعالى إخبارًا عن الملائكة ﴿ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ﴾ أي قالوا : لا تخف منا إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم ، فضحكت سارة استبشارًا بهلاكهم لكثرة فسادهم وغلظ كفرهم وعنادهم ، فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس . وقال قتادة : ضحكت وعجبت أن قومًا يأتيهم العذاب وهم في غفلة . وقوله ﴿ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ عن ابن عبّاس : ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ أي حاضت ، وقول محمّد بن قيس : إنها إنما ضحكت من أنها ظنت أنهم يريدون أن يعملوا كما يعمل قوم لوط . وقول وهب بن منبه : إنما ضحكت لما بشرت بإسحاق وهذا مخالف لهذا السياق فإن البشارة صريحة مرتبة على ضحكها ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ أي بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل ، فإن يعقوب ولد إسحاق كما قال في آية البقرة ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ ومن ههنا استدل من استدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق لأنه وقعت البشارة به وأنه سيولد له يعقوب ، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ، ووعد الله حق لا خلف فيه ، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه ، فتعين أن يكون هو إسماعيل ، وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه ولله الحمد ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ﴾ الآية ، حكى قولها في هذه الآية كما حكى فعلها في الآية الأخرى فإنها ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ ﴾ ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي قالت الملائكة لها : لا تعجبي من أمر الله ، فإنه ﴿ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ فلا تعجبي من هذا وإن كنت عجوزًا عقيمًا وبعلك شيخًا كبيرًا ، فإن الله على ما يشاء قدير ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ أي هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله محمود ممجد في صفاته وذاته ، ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا : قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك يا رسول الله ؟ قال : « قُولُوا : اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » (١) .

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٧٠) ومسلم في الصلاة (٦٥) وأحمد في مسنده (١١٨/٤) .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ۝ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ .

يخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما ذهب عنه الروع وهو ما أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا وبشروه بعد ذلك بالولد وأخبروه بهلاك قوم لوط ، أخذ يقول لهم : أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن ؟ قالوا : لا ، قال : أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن ؟ قالوا : لا ، قال : أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمنًا ؟ قالوا : لا ، قال : ثلاثون ؟ قالوا : لا ، حتى بلغ خمسة قالوا : لا ، قال : أرأيتكم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها ؟ قالوا : لا ، فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾ الآية ، فسكت عنهم واطمأنت نفسه . وقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ مدح لإبراهيم بهذه الصفات الجميلة ، وقد تقدم تفسيرها . وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ الآية ، أي أنه قد نفذ فيهم القضاء وحقت عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذي لا يرد عن القوم المجرمين .

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ .

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعدما أعلموا إبراهيم بهلاكهم وفارقوه وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة ، فانطلقوا من عنده فأتوا لوطًا عليه السلام ، وهو على ما قيل في أرض له ، وقيل في منزله ، ووردوا عليه وهم في أجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه ابتلاءً من الله ، وله الحكمة والحجة البالغة ، فساءه شأنهم وضاقت نفسه بسببهم ، وخشي إن لم يضيفهم أن يضيفهم أحد من قومه فينالهم بسوء ﴿ وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ قال ابن عبّاس وغير واحد : شديد بلاؤه ، وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ويشق عليه ذلك . وذكر قتادة أنهم أتوه وهو في أرض له فتضيفوه فاستحيا منهم ، فانطلق أمامهم وقال لهم في أثناء الطريق كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه : إنه والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء ، ثم مشى قليلًا ثم أعاد ذلك عليهم ، حتى كرره أربع مرات ، قال قتادة : وقد كانوا أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك ، وقال السدي : خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فبلغوا نهر سدوم نصف النهار ، ولقوا بنت لوط تستقي ، فقالوا : يا جارية هل من منزل ؟ فقالت : مكانكم حتى آتيكم ، وفرقت عليهم من قومها فأتت أباها ، فقالت : يا أبتاه أدرك فتيانًا على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم أحسن منهم لا يأخذهم قومك ، وكان قومه نهوه أن يضيف رجلًا ، فقالوا : خل عنا فلنضيف الرجال ، فجاء بهم فلم يعلم بهم أحد إلّا أهل بيته ، فخرجت امرأته فأخبرت قومها فجاءوا يهرعون إليه . وقوله : ﴿ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك . وقوله : ﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أي لم يزل هذا من سجيتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال .

وقوله : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ يرشدهم إلى نسائهم فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد ، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة ، قال مجاهد : لم يكنَّ بناته ، ولكن كن من أمته ، وكل نبي أبو أمته ، وكذا روي عن قتادة وغير واحد . وقال ابن جريج : أمرهم أن يتزوجوا النساء لم يعرض

عليهم سفاحًا . وقال سعيد بن جبير : يعني نساءهم هن بناته وهو أب لهم ، وقوله : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي اقبلوا ما آمركم به من الاقتصار على نسائكم ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أي فيه خير يقبل ما آمره به ويترك ما أنهاه عنه ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهيهن ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي ليس لنا غرض إلَّا في الذكور وأنت تعلم ذلك ، فأي حاجة في تكرار القول علينا في ذلك ؟ قال السدي ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ إنما نريد الرجال .

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن نبيّه لوط عليه السلام أن لوطًا توعدهم بقوله : ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ الآية ، أي لكنت نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل بنفسي وعشيرتي ، ولهذا ورد في الحديث عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال : « رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى لُوطٍ لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ - يعني اللَّه عز وجل - فَمَا بَعَثَ اللَّهُ بَعْدَهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا فِي ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ »(١) . فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل اللَّه إليه وأنهم لا وصول لهم إليه ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ وأمروه أن يسري بأهله من آخر الليل وأن يتبع أدبارهم ، أي يكون ساقة لأهله ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي إذا سمعت ما نزل بهم ، ولا تهولنكم تلك الأصوات المزعجة ولكن استمروا ذاهبين ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ قال الأكثرون : هو استثناء من المثبت وهو قوله : ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ تقديره ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ وكذلك قرأها ابن مسعود ، ونصب هؤلاء امرأتك لأنه من مثبت فوجب نصبه عندهم ، وقال آخرون من القرّاء والنحاة . هو استثناء من قوله : ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ فجوزوا الرفع والنصب(٢) . وذكر هؤلاء أنها خرجت معهم وأنها لما سمعت الوجبة التفتت وقالت : وا قوماه ، فجاءها حجر من السماء فقتلها ، ثم قربوا له هلاك قومه تبشيرًا له لأنه قال لهم أهلكوهم الساعة فقالوا : ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ هذا وقوم لوط وقوف على الباب وعكوف قد جاءوا يهرعون إليه من كل جانب ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه ، وهم لا يقبلون منه بل يتوعدونه ويتهددونه ، فعند ذلك خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه فطمس أعينهم فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق .

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ .

يقول تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا﴾ وهي سدوم ﴿سَافِلَهَا﴾ أي أمطرنا عليها حجارة من سجيل وهي بالفارسية حجارة من طين ، قاله ابن عبّاس وغيره . وقال بعضهم : أي من سنك وهو الحجر وكل هو الطين ، وقال البخاري : ﴿سِجِّيلٍ﴾ : الشديد الكبير ، سجيل اللام والنون أختان(٣) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٣٢) والترمذي في سننه (٣١١٦) .

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿إلا امرأتُك﴾ بالرفع ، وقرأ الباقون ﴿إلا امرأتَك﴾ بالنصب (حجة القراءات ص : ٣٤٧ - ٣٤٨) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٤) .

وقوله : ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ قال بعضهم : منضودة في السماء أي معدة لذلك . وقال آخرون : أي يتبع بعضهم بعضًا في نزولها عليهم . وقوله : ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ أي معلمة مختومة عليها أسماء أصحابها كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه . وقال قتادة وعكرمة : مطوقة بها نضح من حمرة ، وذكروا أنها نزلت على أهل البلد وعلى المتفرقين في القرى مما حولها ، فبينا أحدهم يكون عند الناس يتحدث إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس فدمره ، فتتبعهم الحجارة من سائر البلاد حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد . وقال مجاهد : أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم ، حملهم بمواشيهم وأمتعهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم كفأها ، وكان حملهم على خوافي جناحه الأيمن ، قال : ولما قلبها كان أول ما سقط منها شرفاتها . وقال قتادة : بلغنا أن جبريل أخذ بعروة القرية الوسطى ثم ألوى بها إلى جو السماء حتى سمع أهل السماء ضواغي كلابهم ، ثم دمر بعضها على بعض ، ثم اتبع شذاذ القوم صخرًا . قال : وذكر لنا أنهم كانوا أربع قرى ، في كل قرية مائة ألف ، وفي رواية : ثلاث قرى الكبرى منها سدوم ، قال : وبلغنا أن إبراهيم عليه السلام كان يشرف على سدوم ويقول : سدوم يوم هالك . يقول الله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ فأهلكها الله وما حولها من المؤتكفات . وقال السدي : لما أصبح قوم لوط نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أراضين فحملها حتى بلغ بها السماء ، حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وأصوات ديوكهم ، ثم قلبها فقتلهم ، فذلك قوله : ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ ومن لم يمت حتى سقط للأرض أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة ، ومن كان منهم شاذًا في الأرض يتبعهم في القرى فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ أي في القرى الحجارة من سجيل ، هكذا قال السدي . وقوله : ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ أي وما هذه النقمة ممن تشبه بهم في ظلمهم ببعيد عنه ، وقد ورد في الحديث المروي عن ابن عبّاس مرفوعًا « مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ » (١) وذهب الإمام الشافعي في قول عنه وجماعة من العلماء إلى أن اللائط يقتل سواء كان محصنًا أو غير محصن عملًا بهذا الحديث ، وذهب الإمام أبو حنيفة أنه يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ .

يقول تعالى : ولقد أرسلنا إلى مدين وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريبًا من معان ، بلادًا تعرف بهم يقال لها مدين ، فأرسل الله إليهم شعيبًا وكان من أشرفهم نسبًا ، ولهذا قال : ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴾ أي في معيشتكم ورزقكم وإني أخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله ﴿ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ أي في الدار الآخرة .

﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٠٠) وأبو داود في سننه (٤٤٦٢) والترمذي في سننه (١٤٥٦) وابن ماجه في سننه (٢٥٦١).

ينهاهم أولًا عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس ، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين ، ونهاهم عن العثو في الأرض بالفساد ، وقد كانوا يقطعون الطريق . وقوله : ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ قال ابن عبّاس : رزق الله خير لكم ، وقال الحسن : رزق الله خير لكم من بخسكم الناس ، وقال مجاهد : طاعة الله ، وقال قتادة : حظكم من الله خير لكم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الهلاك في العذاب والبقية في الرحمة ، وقال أبو جعفر بن جرير : ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس ، قال : وقد روي هذا عن ابن عبّاس . قلت : ويشبه قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ أي برقيب ولا حفيظ ، أي افعلوا ذلك لله عز وجل ، لا تفعلوا ليراكم الناس بل لله عز وجل .

﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ .

يقولون له على سبيل التهكم قبحهم الله ﴿ أَصَلَوٰتُكَ ﴾ قال الأعمش : أي قراءتك ﴿ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ أي الأوثان والأصنام ﴿ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ﴾ فنترك التطفيف عن قولك وهي أموالنا نفعل فيها ما نريد ، قال الحسن في قوله : ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ أي والله إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم ، وقال الثوري في قوله : ﴿ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ﴾ يعنون الزكاة ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ قال ابن عبّاس وابن جرير : يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء قبحهم الله ولعنهم عن رحمته وقد فعل .

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

يقول لهم : هل رأيتم يا قوم إن كنت ﴿ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ أي على بصيرة فيما أدعو إليه ﴿ وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ قيل : أراد النبوة ، وقيل : أراد الرزق الحلال ، ويحتمل الأمرين . وقال الثوري : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ أي لا أنهاكم عن الشيء وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ أي فيما آمركم وأنهاكم إنما أريد إصلاحكم جهدي وطاقتي ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ ﴾ أي في إصابة الحق فيما أريده ﴿ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في جميع أموري ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي أرجع ، عن حكيم بن معاوية عن أبيه أن أخاه مالكًا قال : يا معاوية إن محمدًا أخذ جيراني فانطلق إليه فإنه قد كلمك وعرفك ، فانطلقت معه فقال : دع لي جيراني فقد كانوا أسلموا . فأعرض عنه ، فقام مغضبًا فقال : أما والله لئن فعلت إن الناس يزعمون أنك لتأمرنا بالأمر وتخالف إلى غيره ، وجعلت أجرّه وهو يتكلم فقال رسول الله ﷺ : « مَا تَقُولُ ؟ » فقال : إنك والله لئن فعلت ذلك إن الناس ليزعمون أنك لتأمر بالأمر وتخالف إلى غيره ، قال فقال : « أَوَ قَدْ قَالُوهَا - أي قائلهم - وَلَئِنْ فَعَلْتُ مَا ذَاكَ إِلَّا عَلَيَّ وَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ ذلك من شَيْءٍ أَرسِلُوا لَهُ جِيرَانَهُ » [1]

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢) والطبراني في الكبير (١٩/٤١٤) .

ومن هذا القبيل الحديث الذي روي عن عبد الملك بن سعيد بن سويد الأنصاري قال : سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولون عنه ﷺ أنه قال : « إِذَا سَمِعْتُمُ الحَدِيثَ عَنِّي تَعْرِفُهُ قُلُوبُكُمْ ، وَتَلِينُ لَهُ أَشْعَارُكُمْ وأبشاركم ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنكُمْ قَرِيبٌ ؛ فَأَنَا أَوْلَاكُمْ بِهِ ، وَإِذَا سَمِعْتُمُ الحَدِيثَ عَنِّي تُنْكِرُهُ قُلُوبُكُمْ وَتَنْفِرُ مِنْهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنكُمْ بَعِيدٌ ؛ فَأَنَا أَبْعَدُكُمْ مِنْهُ » (١) . وقد أخرج مسلم بهذا السند حديث : « إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُم المَسْجِدَ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ افْتَحْ لِيَ أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ » (٢) ومعناه والله أعلم : مهما بلغكم عني من خير فأنا أولاكم به ، ومهما يكن من مكروه فأنا أبعدكم منه ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ عن مسروق قال : جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت : تنهى عن الواصلة ؟ قال : نعم ، قالت : فعله بعض نسائك ، فقال : ما حفظت وصية العبد الصالح إذًا ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ . وعن أبي سليمان الضبي قال : كانت تجيئنا كتب عمر بن عبد العزيز فيها الأمر والنهي ، فيكتب في آخرها وما كانت من ذلك إلّا كما قال العبد الصالح : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ۝٨٩ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ .

يقول لهم : ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ ﴾ أي لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط من النقمة والعذاب . وقال قتادة : يقول : لا يحملنكم فراقي ، وقال السدي : عداوتي ، على أن تمادوا في الضلال والكفر فيصيبكم من العذاب ما أصابهم . وقوله : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ قيل : المراد في الزمان ، قال قتادة : يعني إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس ، وقيل : في المكان ، ويحتمل الأمران ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ من سالف الذنوب ﴿ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة . وقوله ﴿ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ لمن تاب .

﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ .

يقولون : ﴿ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ ﴾ ما نفهم ﴿ كَثِيرًا ﴾ من قولك ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ قال سعيد ابن جبير : وكان ضرير البصر ، وقال الثوري : كان يقال له خطيب الأنبياء ، قال السدي : ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ قال : أنت واحد ، ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ﴾ أي قومك لولا معزتهم علينا لرجمناك ، قيل : بالحجارة ، وقيل : لسببناك ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ أي ليس عندنا لك معزة ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ يقول : أتتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعظامًا لجناب الرب تبارك وتعالى أن تنالوا نبيّه بمساءة ، وقد اتخذتم جانب الله ﴿ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ أي نبذتموه خلفكم لا تطيعونه ولا تعظمونه ﴿ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ أي هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيكم .

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده(٤٢٥/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد(١٤٩/١) .
(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين(٦٨) وأحمد في مسنده(٥/ ٤٢٥) .

وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ .

لما يئس نبي الله شعيب من استجابتهم له قال : يا قوم ﴿ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي طريقتكم ، وهذا تهديد شديد ﴿ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ على طريقتي ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ أي مني ومنكم ﴿ وَارْتَقِبُوا ﴾ أي انتظروا ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ وقوله : ﴿ جَاثِمِينَ ﴾ أي هامدين لا حراك بهم . وذكر ههنا أنه أتتهم صيحة وفي الأعراف رجفة ، وفي الشعراء عذاب يوم الظلة ، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه ؛ ففي الأعراف : لما قالوا : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا ﴾ ناسب أن يذكر هناك الرجفة ، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها وأرادوا إخراج نبيهم منها ، وههنا لما أساءوا الأدب في مقالتهم عى نبيهم ذكر الصيحة التي استلبتهم وأخمدتهم ، وفي الشعراء لما قالوا : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ قال : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهذا من الأسرار الدقيقة ولله الحمد والمنة . وقوله : ﴿ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ أي يعيشوا في دارهم قبل ذلك ﴿ أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ وكانوا جيرانهم قريبًا منهم في الدار ، وشبيهًا بهم في الكفر وقطع الطريق ، وكانوا عربًا مثلهم .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن إرسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون ملك القبط وملئه ﴿ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي منهجه ومسلكه وطريقته في الغي ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ أي ليس فيه رشد ولا هدى ، وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد ، وكما أنهم اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم ، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها وشربوا من حياض رداها ، وله في ذلك الحظ الأوفر من العذاب الأكبر ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفرين في العذاب يوم القيامة وقوله : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ الآية ، أي أتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة في الدنيا ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ قال مجاهد : زيدوا لعنة يوم القيامة فتلك لعنتان ، وقال ابن عبّاس : لعنة الدنيا والآخرة وكذا قال الضحاك وقتادة .

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ .

لما ذكر تعالى خبر الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم ، وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين قال : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى ﴾ أي أخبارهم ﴿ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ ﴾ أي عامر ﴿ وَحَصِيدٌ ﴾ أي هالك ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أي إذ أهلكناهم ﴿ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ ﴾ أوثانهم التي يعبدونها ويدعونها ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ما نفعوهم ولا أنقذوهم بإهلاكم ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ قال مجاهد وقتادة وغيرهما : أي غير تخسير ، وذلك

أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة ، فلهذا خسروا في الدنيا والآخرة .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ .

يقول تعالى : وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا كذلك نفعل بأشباههم ﴿ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ عن أبي موسى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللّٰهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ﴾ الآية (١) .

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ .

يقول تعالى : إن في إهلاكنا الكافرين وإنجائنا المؤمنين ﴿ لَءَايَةً ﴾ أي عظة واعتبارًا على صدق موعودنا في الآخرة ﴿ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ أي عظيم تحضره الملائكة ويجتمع فيه الرسل وتحشر الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب ، ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها . وقوله : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ أي ما نؤخر إقامة القيامة إلَّا لأنه قد سبقت كلمة الله في وجود أناس معدودين من ذرية آدم ، وضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ أي لمدة مؤقتة لا يزاد عليها ولا ينتقص منها ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ أي يوم يأتي يوم القيامة لا يتكلم أحد إلَّا بإذن الله ، كقوله : ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ . وفي الصحيحين في حديث الشفاعة : « وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ » (٢) . وقوله : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ . أي فمن أهل الجمع شقي ومنهم سعيد . عن عمر قال : لما نزلت : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ سألت النبيّ ﷺ فقلت : يا رسول الله : علام نعمل ؟ على شيء قد فرغ منه أم على شيء لم يفرغ منه ؟ فقال : « عَلَى شَيْءٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ يَا عُمَرُ وَجَرَتْ بِهِ الأَقْلَامُ ، وَلَكِنْ كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ » (٣) . ثم بيّن تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ قال ابن عبّاس : الزفير في الحلق والشهيق في الصدر ، أي تنفسهم زفير وأخذهم النفس شهيق ، لما هم فيه من العذاب عياذًا بالله من ذلك ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير : من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبدًا قالت : هذا دائم دوام السموات والأرض ، وكذلك يقولون : هو باق ما اختلف الليل والنهار ، وما سمر أبناء سمير ، وما لألأت العير بأذنابهم يعنون بذلك كله أبدًا ، فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم فقال : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ قلت : ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٩٤/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٨٠٦) ومسلم في الإيمان (٢٩٩) وأحمد في مسنده (٢٧٥/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في القدر (٩) والترمذي في السنن (٣١١١) وأبو داود في السنن (٤٧٠٩) .

الجنس ؛ لأنه لا بد في عالم الآخرة من سموات وأرض كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ ولهذا قال الحسن البصري في قوله : ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ قال : يقول سماء غير هذه السماء ، وأرض غير هذه ، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض ، وعن ابن عبّاس قال : لكل جنة سماء وأرض ، وقال عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم : ما دامت الأرض أرضًا والسماء سماء .

وقوله : ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ كقوله : ﴿ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ . وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة ، فعن ابن عبّاس والحسن أيضًا أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم اللَّه من النار بشفاعة الشافعين ، من الملائكة والنبيين والمؤمنين ، حتى يشفعون في أصحاب الكبائر ، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتخرج من لم يعمل خيرًا قط ، وقال يومًا من الدهر : لا إله إلَّا اللَّه . ولا يبقى بعد ذلك في النار إلَّا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها ، وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديمًا وحديثًا في تفسير هذه الآية الكريمة . وقد روي في تفسيرها عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وابن مسعود وابن عبّاس وأبي هريرة وعبد اللَّه بن عمرو وجابر وأبي سعيد من الصحابة ، وعن أبي مجلز والشعبي وغيرهما من التابعين ، وعن عبد الرَّحمن بن زيد ين أسلم وإسحاق بن راهويه وغيرهما من الأئمة في أقوال غريبة ، وقال السدي : هي منسوخة بقوله : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ .

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ ﴾ وهم أتباع الرسل ﴿ فَفِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي فمأواهم الجنة ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكثين فيها أبدًا ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمرًا واجبًا بذاته ، بل هو موكول إلى مشيئة اللَّه تعالى ، فله المنة عليهم دائمًا ، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس ، وقال الضحاك والحسن البصري : هي في حق عصاة الموحدين الذين كانوا في النار ثم أخرجوا منها ، وعقّب ذلك بقوله : ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أي غير مقطوع ، قاله مجاهد وابن عبّاس وأبو العالية وغير واحد : لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاع أو لبس أو شيء ، بل ختم له بالدوام وعدم الانقطاع ، كما بين هناك أن عذاب أهل النار في النار دائمًا مردود إلى مشيئته ، وأنه بعدله وحكمته عذبهم ولهذا قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ وهنا طيب القلوب وثبت المقصود بقوله : ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ وقد جاء في الحديث : «يُؤْتَى بِالمَوْتِ في صورة كَبْش أَمْلَحَ ، فَيُذْبَحُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ ، ثُمَّ يُقَالُ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتٌ ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلودٌ فَلَا مَوْت » (١) . وفي الصحيح أيضًا : «فَيُقَالُ : يا أَهْلَ الجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فلا تَهْرَمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا » (٢) .

﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٣٠) وأحمد في مسنده (٢٦١/٢).
(٢) أخرجه مسلم في الجنة (٢٢) وأحمد في مسنده (٣١٩/٢).

مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ ﴾ المشركون أنه باطل وجهل وضلال ، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل ، أي ليس لهم مستند فيما هم فيه إلّا اتباع الآباء في الجهالات ، وسيجزيهم اللّه على ذلك أتم الجزاء فيعذبهم عذابًا لا يعذبه أحدًا ، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم اللّه إياها في الدنيا قبل الآخرة . قال ابن عبّاس : ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ قال : ما وعدوا من خير أو شر . وقال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم : لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص ، ثم ذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه ، فمن مؤمن به ومن كافر به ، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة ، فلا يغيظنك تكذيبهم لك ولا يهيدنك ذلك ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ ﴾ . قال ابن جرير : لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضى اللّه بينهم ، ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحدًا إلّا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه كما قال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ . ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ويجزيهم بأعمالهم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر فقال : ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي عليم بأعمالهم جميعها جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها ، وفي هذه الآية قراءات كثيرة يرجع معناها إلى هذا الذي ذكرناها كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ .

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ .

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة ، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد ، ونهى عن الطغيان وهو البغي فإنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك ، وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد لا يغفل عن شيء ولا يخفى عليه شيء . وقوله : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ ابن عبّاس : لا تداهنوا ، وقال ابن عبّاس : هو الركون إلى الشرك ، وقال أبو العالية : لا ترضوا بأعمالهم ، وقال ابن جرير عن ابن عبّاس : ولا تميلوا إلى الذين ظلموا ، وهذا القول حسن ؛ أي لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم : ﴿ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ أي ليس لكم من دونه من ولي ينقذكم ولا ناصر يخلصكم من عذابه .

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ ﴾ يعني الصبح والمغرب ، وقال الحسن في رواية قتادة والضحاك وغيرهم : هي الصبح والعصر ، وقال مجاهد : هي الصبح في أول النهار والظهر والعصر مرة أخرى : ﴿ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم : يعني صلاة العشاء ، وقال الحسن ﴿ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ ﴾ يعني المغرب والعشاء ، وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء ، فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان : صلاة قبل طلوع

الشمس وصلاة قبل غروبها ، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة ثم نسخ في حق الأمة وثبت وجوبه عليه ثم نسخ عنه أيضًا في قول ، والله أعلم .

وقوله ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ يقول : إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة كما جاء في الحديث عن علي بن أبي طالب قال : كنت إذا سمعت من رسول الله حديثًا نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه ، وإذا حدثني عنه أحد استحلفته فإذا حلف لي صدقته ، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم يذنب ذنبًا فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له » [(١)] وفي الحديث عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ ثم قال : هكذا رأيت رسول الله يتوضأ وقال : « من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه » [(٢)] وفي الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهرًا غمرًا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقي من درنه شيئًا ؟ » قالوا : لا يا رسول الله قال : « كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا » [(٣)] .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » [(٤)] .

وعن ابن مسعود قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني وجدت امرأة في بستان ففعلت بها كل شيء غير أني لم أجامعها ، قبلتها ولزمتها ولم أفعل غير ذلك ، فافعل بي ماشئت ، فلم يقل رسول الله ﷺ شيئًا فذهب الرجل ، فقال عمر : لقد ستر الله عليه لو ستر على نفسه ، فأتبعه رسول الله ﷺ بصره ثم قال : « رُدُّوهُ عَلَيَّ » فردوه عليه فقرأ عليه ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ فقال معاذ : وفي رواية عمر : يا رسول الله أله وحده أم للناس كافة ؟ فقال : « بَلْ لِلنَّاسِ كَافَّة » [(٥)] . وعن عبد الله بن مسعود أيضًا قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّه قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ ، وَإِنَّ اللَّه يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يحب ومن لَا يُحِبُّ ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا مَنْ أَحَبَّ ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّه الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُسْلِمُ عبدٌ حتى يسلم قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ ، وَلَا يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » قال : قلنا : وما بوائقه يا نبي الله ؟ قال : « غِشُّهُ وَظُلْمُهُ ، وَلَا يَكْسَبُ عَبْدٌ مَالًا حَرَامًا فَيُنْفِقُ مِنْهُ فَيُبَارَكُ لَهُ فِيهِ ، وَلَا يَتَصَدَّقُ فَيُقْبَلُ مِنْهُ ، وَلَا يَتْرُكُهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ ، إِنَّ اللَّه لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالحَسَنِ ، إِنَّ الخَبِيثَ لَا يَمْحُو الخَبِيثَ » [(٦)]

وعن أبي عثمان قال : كنت مع سلمان الفارسي تحت شجرة فأخذ منها غصنًا يابسًا فهزه حتى تحات ورقه ، ثم قال : أبا عثمان ألا تسألني لم أفعل هذا ؟ قلت : ولم تفعله ؟ قال : هكذا فعل

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٩/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٠١/١) . (٢) أخرجه البخاري في الوضوء (١٥٩) .
(٣) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٨) ومسلم في المساجد (٢٨٣) وأحمد في مسنده (٣٧٩/٢) .
(٤) أخرجه مسلم في الطهارة (١٤ ، ١٥ ، ١٦) وأحمد في مسنده (٣٥٩/٢) والترمذي في السنن (٢١٤) .
(٥) أخرجه مسلم في التوبة (٤٢) وأحمد في مسنده (٤٤٥/١) والبيهقي في السنن (٢٤١/٨) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٧/١) والحاكم في المستدرك (٣٣/١) .

رسول الله ﷺ فقال : «إِنَّ المُسْلِمَ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ ثُمَّ صَلَّى الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ كَمَا يَتَحَاتُّ هَذَا الوَرَقُ »، قال : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ (١) .

﴿ فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴾ .

يقول تعالى : فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض . وقوله : ﴿ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ أي قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيرًا ، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته ، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما قال تعالى : ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ وفي الحديث : «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوا المُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ » (٢) ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ ﴾ وقوله : ﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ ﴾ أي استمروا على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات ، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجأهم العذاب ﴿ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾ ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلّا وهي ظالمة لنفسها ، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ .

﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ ﴾ أي ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم ، قال عكرمة : مختلفين في الهدى ، وقال الحسن البصري : مختلفين في الرزق يسخر بعضهم بعضًا ، والمشهور الصحيح الأول . وقوله : ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ ﴾ أي إلّا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين ، أخبرتهم به رسل الله إليهم ، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة ؛ لأنهم الفرقة الناجية ، كما جاء في الحديث : « إِنَّ اليَهُودَ افْتَرَقَتْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وَإِنَّ النَّصَارَى افْتَرَقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، كُلُّهَا في النار إلا فِرْقَةً وَاحِدَةً » قالوا : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : « مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي » (٣) . وقال عطاء : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴾ يعني اليهود والنصارى والمجوس ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ ﴾ يعني الحنيفية . وقال قتادة : أهل رحمة الله أهل الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم ، وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٧/٥) والدارمي في السنن (١٨٣/١) والطبراني في الكبير (٣١٦/٦) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١) ، وابن ماجه في السنن (٤٠٠٥) .
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٦/١ ، ١٢٨) .

وقوله : ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ قال الحسن البصري في رواية عنه : وللاختلاف خلقهم ، وقال ابن عباس : خلقهم فريقين كقوله : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ وقيل : للرحمة خلقهم ، وعن ابن عبّاس قال : للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب ، كذا قال مجاهد والضحاك وقتادة .

وقوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره لعلمه التام وحكمته النافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنة ومنهم من يستحق النار ، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس ، وله الحجة البالغة والحكمة التامة . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « اخْتَصَمَتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ الجَنَّةُ : مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ ؟ وَقَالَتِ النَّارُ : أُوثِرْتُ بِالمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ لِلْجَنَّةِ : أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ ، وَقَالَ لِلنَّارِ : أَنْتِ عَذَابِي أَنْتَقِمُ بِكِ مِمَّنْ أَشَاءُ ، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا ، فَأَمَّا الجَنَّةُ : فَلَا يَزَالُ فيها فَضْلٌ حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا يسْكُنُ فَضْلَ الجَنَّةِ ، وَأَمَّا النَّارُ : فَلَا تَزَالُ تَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ، حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهَا رَبُّ العِزَّةِ قَدَمَهُ فَتَقُولُ : قَطْ قَطْ وَعِزَّتِكَ » (١) .

﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى : وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات ، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى ، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين ، كل هذا مما نثبت به فؤادك أي قلبك يا محمّد ، ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة . وقوله : ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ ﴾ أي في هذه السورة ، عن الحسن في رواية عنه وقتادة : في هذه الدنيا ، والصحيح في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم ، وأهلك الكافرين ، جاءك فيها قصص حق ، ونبأ صدق ، وموعظة يرتدع بها الكافرون ، وذكرى يتذكر بها المؤمنون .

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ۝ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : آمرًا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد ﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي على طريقتكم ومنهجكم ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ أي على طريقتنا ومنهجنا ﴿ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ أي ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيّده وجعل كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم .

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض وأنه إليه المرجع والمآب ، وسيؤتي كل عامل عمله يوم الحساب ، فله الخلق والأمر ، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه ، فإنه كاف من توكل عليه وأناب إليه . وقوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمّد ، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم ، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة ، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين .

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٥) وأحمد في مسنده (٢/٥٠٧) .

سورة يوسف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة . وقوله ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي هذه آيات الكتاب وهو القرآن المبين أي الواضح الجلي ، الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرها ويبينها ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس ، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض ، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة وهو رمضان ، فكمل من كل الوجوه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن ، وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما روي عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : أنزل على النبي ﷺ القرآن ، قال : فتلاه عليهم زمانًا ، فقالوا : يا رسول الله لو قصصت علينا ، فأنزل ﷻ : ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ثم تلا عليهم زمانًا ، فقالوا : يا رسول الله لو حدثتنا ، فأنزل ﷻ ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ (١) .

وبما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة المشتملة على مدح القرآن ، وأنه كاف عن كل ماسواه من الكتب ما روي عن عبد الله بن ثابت قال : جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : إني مررت بأخ لي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك ؟ قال : فتغيّر وجه رسول الله ﷺ ، قال عبد الله بن ثابت : فقلت له : ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمّد رسولًا ، قال : فسري عن النبيّ ﷺ وقال : « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لضللتم ، إِنَّكُمْ حَظِّي مِنَ الأُمَمِ وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ » (٢) .

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾ .

يقول تعالى : اذكر لقومك يا محمّد في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه ، وأبوه هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام كما قال ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « الكَرِيمُ ابْنُ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ » (٣) وعن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم ؟ قال : « أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ » قالوا : ليس عن هذا نسألك قال : « فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ » قالوا : ليس عن هذا

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٣٤٥ . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣٦٦) .

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٩٠) وأحمد في مسنده (٢/٩٦) .

نسألك ، قال : « فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْأَلُونِي ؟ » قالوا : نعم ، قال : « فَخِيَارُكُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا » (١) .

وقال ابن عبّاس : رؤيا الأنبياء وحي ، وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكبًا عبارة عن إخوته وكانوا أحد عشر رجلًا سواه ، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه .

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا التي تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيمًا زائدًا بحيث يخرّون له ساجدين إجلالًا واحترامًا وإكرامًا ، فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحدًا من إخوته فيحسدونه على ذلك فيبغون له الغوائل حسدًا منهم له ، ولهذا قال له : ﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ ﴾ أي يحتالوا لك حيلة يردونك فيها ، ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ فَلْيُحَدِّثْ بِهِ ، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ ؛ فَلْيَتَحَوَّلْ إِلَى جَنْبِهِ الآخَرِ ، وَلْيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا ، وَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّه مِنْ شَرِّهَا ، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَدًا فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ » (٢) .

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قول يعقوب لولده يوسف إنه كما اختارك ربك وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ أي يختارك ويصطفيك لنبوته ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد : يعني تعبير الرؤيا ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ أي بإرسالك والإيحاء إليك ، ولهذا قال : ﴿ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ وهو الخليل ﴿ وَإِسْحَٰقَۚ ﴾ ولده وهو الذبيح في قول وليس بالرجيح ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي هو أعلم حيث يجعل رسالته .

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ .

يقول تعالى : لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات أي عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك المستخبرين عنه ، فإنه خبر عجيب يستحق أن يخبر عنه ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾ أي حلفوا فيما يظنون والله ليوسف وأخوه ، يعنون بنيامين وكان شقيقه لأمه ﴿ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أي جماعة ، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ يعنون في تقديمهما علينا ، ومحبته إياهما أكثر منا .

واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف ، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك ، ومن

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٨) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٥٠٢٢) وابن ماجه في السنن (٣٩٠٨) وأحمد في مسنده (٢٩٦/٥) .

الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك ، وفي هذا نظر ، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل ، ولم يذكروا سوى قوله تعالى : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ ﴾ وهذا فيه احتمال ؛ لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط ، كما يقال للعرب قبائل ، وللعجم شعوب ، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون ، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف ، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم ، والله أعلم . ﴿ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ ﴾ يقولون : هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم ، أعدموه من وجه أبيكم إما بأن تقتلوه ، أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه ، وتخلوا أنتم بأبيكم ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴾ فأضمروا التوبة قبل الذنب ﴿ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ ﴾ قال قتادة ومحمّد بن إسحاق : وكان أكبرهم واسمه روبيل ، وقال السدي : الذي قال ذلك يهوذا ، وقال مجاهد : هو شمعون الصفا ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ ﴾ أي لا تصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله ، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله ؛ لأن الله تعالى كان يريد منه أمرًا لابد من إمضائه وإتمامه من الإيحاء إليه بالنبوة ، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها ، فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الجب وهو أسفله . قال قتادة : وهي بئر بيت المقدس ﴿ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾ أي المارة من المسافرين ، فتستريحوا منه بهذا ولا حاجة إلى قتله ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ أي إن كنتم عازمين على ما تقولون .

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ .

لما تواطأوا على أخذه وطرحه في البئر كما أشار به عليهم أخوهم الكبير روبيل ، جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام فقالوا : ما بالك ﴿لَا تَأۡمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾ وهذه توطئة ودعوى وهم يريدون خلاف ذلك ، لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا ﴾ أي ابعثه معنا ﴿غَدٗا نرتع ونلعب ﴾ وقرأ بعضهم بالياء ﴿يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ ﴾[1] قال ابن عبّاس : يسعى وينشط ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ يقولون : ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك .

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ۝ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء : ﴿ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ ﴾ أي يشق عليّ مفارقته مدة ذهابكم به إلى أن يرجع ، وذلك لفرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم وشمائل النبوة والكمال في الخُلق والخَلق صلوات الله وسلامه عليه . وقوله : ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴾ يقول : وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون ، فأخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عذرهم فيما فعلوه وقالوا مجيبين له عنها في الساعة الراهنة : ﴿ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ يقولون : لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة إنا إذًا لهالكون عاجزون .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ .

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿نرتع ونلعب ﴾ بالنون وقرأ أهل المدينة ﴿يرتع ويلعب ﴾(انظر حجة القراءات ص ٣٥٥ ، ٣٥٦) .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ هذا فيه تعظيم لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب ، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه له إكرامًا له وبسطًا وشرحًا لصدره وإدخالًا للسرور عليه ، ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه ، والفعل من ضرب ونحوه ، ثم جاءوا به إلى ذلك الجب الذي اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلوه فيه ، فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه ، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه ، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فسقط في الماء فغمره ، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه يقال لها الراغوفة فقام فوقها .

وقوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يقول تعالى ذاكرًا لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر ، إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطييبًا لقلبه وتثبيتًا له إنك لا تحزن مما أنت فيه ، فإن لك من ذلك فرجًا ومخرجًا حسنًا ، وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك ، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع . وقوله : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ قال ابن عبّاس : ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك .

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعد ما ألقوه في غيابة الجب أنهم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل يبكون ، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ أي نترامى ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا ﴾ أي ثيابنا وأمتعتنا ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ وهو الذي كان قد جزع منه وحذر عليه . وقوله : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه ، يقولون ونحن نعلم أنك لا تصدّقنا والحالة هذه لو كنا عندك صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك ؛ لأنك خشيت أن يأكله الذئب فأكله الذئب ، فأنت معذور في تكذيبك لنا لغرابة ما وقع وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أي مكذوب مفترى ، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالأوا عليه من المكيدة ، وهو أنهم عمدوا إلى سخلة فيما ذكره مجاهد والسدي وغير واحد فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب ، وقد أصابه من دمه ، ولكنهم نسوا أن يخرقوه ، فلهذا لم يَرُج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب ، بل قال لهم معرضًا عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من لبسهم عليه : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أي فسأصبر صبرًا جميلًا على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ أي على ما تذكرون من الكذب والمحال . وقال ابن عبّاس ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ : لو أكله السبع لخرق القميص ، وقال مجاهد : الصبر الجميل الذي لا جزع فيه .

﴿ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ .

يقول تعالى : مخبرًا عما جرى ليوسف عليه السلام في الجب حين ألقاه إخوته وتركوه في ذلك الجب وحيدًا فريدًا ، فمكث عليه السلام في البئر ثلاثة أيام فيما قاله أبو بكر بن عياش ، وقال محمّد بن إسحاق : لما ألقاه إخوته في البئر جلسوا حول البئر يومهم ذلك ينظرون ماذا يصنع وما يُصنع به ، فساق اللَّه له سيارة فنزلوا قريبًا من تلك البئر ، وأرسلوا واردهم وهو الذي يتطلب لهم الماء فلما جاء ذلك البئر وأدلى دلوه فيها تشبث يوسف عليه السلام فيها فأخرجه واستبشر به وقال : ﴿ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ ﴾ وقرأ بعض القراء ﴿ يا بشراي ﴾ [1] فزعم السدي أنه اسم رجل ناداه ذلك الرجل الذي أدلى دلوه معلمًا له أنه أصاب غلامًا ، وهذا القول من السدي غريب ؛ لأنه لم يسبق إلى تفسير هذه القراءة بهذا إلَّا في رواية عن ابن عبّاس ، واللَّه أعلم ، وإنما معنى القراءة على هذا النحو يرجع إلى القراءة الأخرى ، ويكون قد أضاف البشرى إلى نفسه وحذف ياء الإضافة وهو يريدها ، كما تقول العرب : يا نفس اصبري ، ويا غلام أقبل ، بحذف حرف الإضافة ، ويجوز الكسر حينئذٍ والرفع وهذا منه ، وتفسرها القراءة الأخرى ﴿ يا بشراي ﴾ واللَّه أعلم . وقوله : ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ ﴾ أي وأسره الواردون من بقية السيارة وقالوا : اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره ، وقال ابن عبّاس قوله ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ ﴾ يعني إخوة يوسف ، أسروا شأنه وكتموا أن يكون أخاهم وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته ، واختار البيع فذكره إخوته لوارد القوم فنادى أصحابه ﴿ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ ﴾ يباع فباعه إخوته . وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴾ أي عليم بما يفعله إخوة يوسف ومشتروه ، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه ولكن له حكمة وقدر سابق ، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ وفي هذا تعريض لرسوله محمّد ﷺ وإعلام له بأني عالم بأذى قومك لك ، وأنا قادر على الإنكار عليهم ولكني سأملي لهم ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم ، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته .

وقوله : ﴿ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ ﴾ يقول تعالى : وباعه إخوته بثمن قليل . وقاله مجاهد وعكرمة ، والبخس : هو النقص كما قال تعالى : ﴿ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ﴾ أي اعتاض عنه إخوته بثمن دون قليل ، ومع ذلك كانوا فيه من الزاهدين أي ليس لهم رغبة فيه ، بل لو سألوه بلا شيء لأجابوا . وقال ابن عبّاس ومجاهد والضحاك : إن الضمير في قوله ﴿ وَشَرَوۡهُ ﴾ عائد على إخوة يوسف ، وقال قتادة : بل هو عائد على السيارة ، والأول أقوى ؛ لأن قوله : ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ إنما أراد إخوته لا أولئك السيارة ، لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة ، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه ، فترجح من هذا أن الضمير في ﴿ وَشَرَوۡهُ ﴾ إنما هو لإخوته ، وقيل : المراد بقوله ﴿ بَخۡسٖ ﴾ الحرام ، وقيل : الظلم ، وهذا وإن كان كذلك ليس المراد هنا لأن هذا معلوم يعرفه كل أحد لأن ثمنه حرام على كل حال وعلى كل أحد ، لأنه نبي ابن نبي ابن نبي ابن خليل الرحمن ،

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ يا بُشۡرَىٰ ﴾ بترك الإضافة ، وقرأ الباقون ﴿ يا بشراي ﴾ بإثبات ياء الإضافة وفتحها . حجة القراءات ص ٣٥٧ .

فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، وإنما المراد هنا بالبخس الناقص أو الزيوف أو كلاهما ، ولهذا قال : ﴿ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ ﴾ فعن ابن مسعود ﷺ باعوه بعشرين درهمًا ، وقال مجاهد : اثنان وعشرون درهمًا ، وقال محمّد بن إسحاق وعكرمة : أربعون درهمًا . وقال الضحاك في قوله : ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ وذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند الله ﷻ ، وقال مجاهد : لما باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم : استوثقوا منه لا يبقى حتى وقوفه بمصر ، فقال : من يبتاعني وليبشر؟ فاشتراه الملك وكان مسلمًا .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ .

يخبر تعالى بألطافه بيوسف عليه السلام أنه قيض له الذي اشتراه من مصر حتى اعتنى به وأكرمه وأوصى أهله به وتوسم فيه الخير والصلاح ، فقال لامرأته : ﴿ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ ﴾ وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير بها . وعن ابن عبّاس : وكان اسمه قطفير ، وقال محمّد بن إسحاق : اسمه أطفير بن روحيب وهو العزيز ، وكان على خزائن مصر ، وكان الملك يومئذٍ الريان بن الوليد رجل من العماليق ، قال : واسم امرأته راعيل بنت رعاييل ، وقال غيره : اسمها زليخا ، وقال ابن عبّاس : كان الذي باعه بمصر مالك بن ذعر بن قريب بن عنقا بن مديان بن إبراهيم فالله أعلم . وعن عبد الله بن مسعود أنه قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لأمرأته ﴿ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ ﴾ والمرأة التي قالت لأبيها ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ ﴾ وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ يعني بلاد مصر ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ ﴾ قال مجاهد والسدي : هو تعبير الرؤيا ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ ﴾ أي إذا أراد شيئًا فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف بل هو الغالب لما سواه ، قال سعيد بن جبير : أي فعال لما يشاء . وقوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ يقول : لا يدرون حكمته في خلقه وتلطفه وفعله لما يريد . وقوله : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ ﴾ أي يوسف عليه السلام ﴿ أَشُدَّهُۥٓ ﴾ أي : استكمل عقله وتم خلقه ﴿ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ ﴾ يعني : النبوة أنه حباه بها بين أولئك الأقوام ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ أي أنه كان محسنًا في عمله ، عاملًا بطاعة الله تعالى ، وقد اختلف في مقدار المدة التي بلغ فيها أشده فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ثلاث وثلاثون سنة ، وعن ابن عبّاس بضع وثلاثون ، وقال الضحاك : عشرون ، وقال الحسن : أربعون سنة ، وقيل غير ذلك ، والله أعلم .

﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر ، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه ، فراودته عن نفسه أي حاولته على نفسه ودعته إليها ، وذلك أنها أحبته حبًا شديدًا لجماله وحسنه وبهائه ، فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها ﴿ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ ﴾ فامتنع من ذلك أشد الامتناع و ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ ﴾ وكان يطلقون الرب على

السيد والكبير ، أي : إن بعلك ربي أحسن مثواي أي : منزلي ، وأحسن إليّ فلا أقابله بالفاحشة في أهله ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ وقد اختلف القراء في قوله : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ فقرأه كثيرون بفتح الهاء وإسكان الياء وفتح التاء . وقال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : معناه أنها تدعوه إلى نفسها ، وقال ابن عبّاس ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ تقول هلم لك ، وعن الحسن : وهي كلمة بالسريانية أي عليك ، وقال السدي : أي هلم وهي بالقبطية ، وقال مجاهد : هي لغة عربية تدعوه بها ، وقال البخاري : وقال عكرمة : أي هلم لك بالحورانية : هكذا ذكره معلقًا وعن عكرمة مولى ابن عبّاس قال : هلم لك ، قال : هي بالحورانية[(١)] ، وكان الكسائي يحكي هذه القراءة يعني ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ ويقول : هي لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز ومعناها تعال .

وقرأ ذلك آخرون ﴿ هِئْتُ لَكَ ﴾ بكسر الهاء والهمزة وضم التاء ، بمعنى تهيأت لك من قول القائل : هئت بالأمر أهيء هئة ، وممن روي عنه هذا القراءة ابن عبّاس ، وأبو عبد الرّحمن السلمي ، وأبو وائل ، وعكرمة ، وقتادة ، وكلهم يفسرها بمعنى تهيأت لك . قال ابن جرير : وكان أبو عمرو والكسائي ينكران هذه القراءة ، وقرأ عبد اللّه بن إسحاق ﴿ هَيْتِ ﴾ بفتح الهاء وكسر التاء وهي غريبة ، وقرأ آخرون منهم عامة أهل المدينة ﴿ هَيْتُ ﴾ بفتح الهاء وضم التاء وعن ابن مسعود قال : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ بنصب الهاء والتاء ولا تهمز ، وقال آخرون : ﴿ هِيتُ لَكَ ﴾ بكسر الهاء وإسكان الياء وضم التاء[(٢)] ، قال أبو عبيد معمر بن المثنى : لا تثنى ولا تجمع ولا تؤنث ، بل يخاطب الجميع بلفظ واحد ، فيقال : هيتَ لكَ ، وهيتَ لكم ، وهيتَ لكما ، وهيتَ لكن ، وهيتَ لهن .

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ .

اختلفت أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام ، وقد روي عن ابن عبّاس ومجاهد وسعيد بن جبير وطائفة من السلف المراد بهمه بها خطرات حديث النفس ، فعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « يَقُولُ اللّه تَعَالَى : إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، وإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَم يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا حَسَنَةً ، فَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا »[(٣)] وقيل : همَّ بضربهَا ، وقيل : تمناها زوجة ، وقيل : ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ أي فلم يهم بها ، وأما البرهان الذي رآه ففيه أقوال أيضًا ؛ فعن ابن عبّاس وسعيد ومجاهد وسعيد بن جبير ومحمّد بن سيرين والحسن وقتادة وأبي صالح والضحاك ومحمّد بن إسحاق وغيرهم : رأى صورة أبيه يعقوب عاضًا على إصبعه بفمه ، وقيل عنه في رواية : فضرب في صدر يوسف . وقال ابن عبّاس : رأى خيال الملك يعني سيده .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن(باب قوله : ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا ﴾) .

(٢) قرأ أهل العراق ﴿ هَيْتَ لك ﴾ بفتح الهاء والتاء ، وقرأ أهل المدينة والشام ﴿ هِيتَ ﴾ وقرأ ابن كثير ﴿ هَيْتُ ﴾ بفتح الهاء ، وضم التاء وقرأ هشام ﴿ هِئْتُ ﴾ .(انظر حجة القراءات ص ٣٥٧ ، ٣٥٨) .

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد(٧٥٠١) .

قال ابن جرير : والصواب أنه يقال : إنه رأى آية من آيات الله نزجره عما كان همَّ به ، وجائز أن يكون صورة يعقوب وجائز أن يكون صورة الملك وجائز أن يكون ما رآه مكتوبًا من الزجر عن ذلك ، ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك ، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى [(١)] . وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ ﴾ أي كما أريناه برهانًا صرفه عما كان فيه ، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أي من المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب ، يوسف هارب والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت ، فلحقته في أثناء ذلك فأمسكت بقميصه من ورائه فقدته قدًّا فظيعًا ، فألفيا سيدها وهو زوجها عند الباب ، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها وقالت لزوجها متنصلة وقاذفة يوسف بدائها ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ﴾ أي فاحشة ﴿ إِلَّآ أَن يُسْجَنَ ﴾ أي يحبس ﴿ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي يضرب ضربًا شديدًا موجعًا ، فعند ذلك انتصر يوسف عليه السلام بالحق وتبرأ مما رمته به من الخيانة ، و ﴿ قَالَ ﴾ بارًّا صادقًا ﴿ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ ﴾ وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قدت قميصه ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾ أي من قدامه ﴿ فَصَدَقَتْ ﴾ أي في قولها إنه راودها على نفسها ؛ لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته في صدره فقدت قميصه فيصح ما قالت ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ وذلك يكون كما وقع لما هرب منها وتطلبته أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها فقدت قميصه من ورائه .

وقد اختلف في هذا الشاهد هل هو صغير أو كبير ؟ على قولين لعلماء السلف : فعن عكرمة عن ابن عبّاس ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ قال : ذو لحية ، وعن ابن أبي مليكة عن ابن عبّاس : كان من خاصة الملك . وقال ابن عبّاس : في قوله ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ قال : كان صبيًّا في المهد .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ ﴾ أي لما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ ﴾ أي : إن هذا البهت واللطخ الذي لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ ثم قال آمرًا ليوسف عليه السلام بكتمان ما وقع ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ ﴾ أي اضرب عن هذا صفحًا أي فلا تذكره لأحد ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ ﴾ يقول لامرأته وقد كان لين العريكة سهلًا أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه ، فقال لها : استغفري لذنبك أي

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٢/٢٥٠) .

الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ، ثم قذفه بما هو بريء منه ﴿ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة وهي مصر حتى تحدث به الناس ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴾ مثل نساء الكبراء والأمراء ينكرن على امرأة العزيز وهو الوزير ويعبن ذلك عليها ﴿ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ أي تحاول غلامها عن نفسه وتدعوه إلى نفسها ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ أي قد وصل حبه إلى شغاف قلبها وهو غلافه ، ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي في صنيعها هذا من حبها فتاها ومراودتها إياه عن نفسه ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ قال بعضهم بقولهن : ذهب الحب بها ، وقال محمّد بن إسحاق : بل بلغهن حُسْن يوسف فأحببن أن يرينه فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته ، فعند ذلك ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ أي دعتهن إلى منزلها لتضيفهن ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا ﴾ قال ابن عبّاس وسعيد بن جبير ومجاهد والحسن والسدي وغيرهم : هو المجلس المعد فيه مفارش ومخاد وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه ، ولهذا قال تعالى ﴿ وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ وكان هذا مكيدة منها ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته ﴿ وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر ﴿ فَلَمَّا ﴾ خرج و ﴿ رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ ﴾ أي أعظمن شأنه وأجللن قدره وجعلن يقطعن أيديهن دهشًا برؤيته وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين ، والمراد أنهن حززن أيديهن بها ، ﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ ثم قلن لها : وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا ، لأنهن لم يرين في البشر شبيهه ولا قريبًا منه ، فإنه عليه السلام كان قد أعطي شطر الحسن ، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح من حديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة قال : « فَإِذَا هُوَ قد أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ » (١) .

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « أُعْطِيَ يُوسُفُ وَأُمُّهُ شَطْرَ الحُسْنِ » (٢) فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته : ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد : معاذ الله ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾ وقرأ بعضهم (مَا هَٰذَا بشري) أي بمشترى بشراء ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ تقول هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق أن يحب لجماله وكماله ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ أي فامتنع ، قال بعضهم : لما رأين جماله الظاهر أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن وهي العفة مع هذا الجمال ، ثم قالت تتوعده : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ فعند ذلك استعاذ يوسف عليه السلام من شرهن وكيدهن ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ أي من الفاحشة

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢٨٦) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٥٧٠) .

﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي إن وكلتني إلى نفسي فليس لي منها قدرة ، ولا أملك لها ضرًا ولا نفعًا إلَّا بحولك وقوتك ، أنت المستعان وعليك التكلان ، فلا تكلني إلى نفسي ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ۝ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ الآية ، وذلك أن يوسف عليه السلام عصمه اللّه عصمة عظيمة وحماه ، فامتنع منها أشد الامتناع ، واختار السجن على ذلك ، وهذا في غاية مقامات الكمال أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته وهي امرأة عزيز مصر وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك خوفًا من اللّه ورجاء ثوابه .

ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول اللّه ﷺ قال : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللّه فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ ، إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللّه ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِليه ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللّه اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وتفرقا عليه ، وَرَجُلٌ تَصَدَّق بصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا أَنْفَقَتْ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللّه ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللّه خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ »[(١)] .

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ .

يقول تعالى : ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين ، أي إلى مدة ، وذلك بعد ما عرفوا براءته وظهرت الآيات وهي الأدلة على صدقه في عفته ونزاهته ، وكأنهم واللّه أعلم إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهامًا أنه راودها عن نفسه وأنهم سجنوه على ذلك . ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة ، فلما تقرر ذلك خرج وهو نقي العرض صلوات اللّه عليه وسلامه . وذكر السدي أنهم إنما سجنوه لئلا يشيع ما كان منها في حقه ويبرأ عرضه فيفضحها .

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

قال قتادة : كان أحدهما ساقي الملك والآخر خبازه . قال محمّد بن إسحاق : كان اسم الذي على شراب نبوا والآخر مجلث . قال السدي : كان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سمه في طعامه وشرابه ، وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة وصدق الحديث وحسن السمت وكثرة العبادة صلوات اللّه عليه وسلامه ، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعيادة مرضاهم والقيام بحقوقهم ، ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تآلفا به وأحباه حبًا شديدًا وقالا له : واللّه لقد أحببناك حبًا زائدًا ، قال بارك اللّه فيكما إنه ما أحبني أحد إلَّا دخل عليَّ من محبته ضرر ، أحبتني عمتي فدخل عليَّ الضرر بسببها ، وأحبني أبي فأوذيت بسببه ، وأحبتني امرأة العزيز فكذلك ، فقالا : واللّه ما نستطيع إلَّا ذلك ثم إنهما رأيا منامًا فرأى الساقي أنه يعصر خمرًا يعني عنبًا ، وكذلك هي في قراءة عبد اللّه بن مسعود (إني أراني أعصر عنبًا) وعن ابن مسعود أنه قرأها أعصر عنبًا . وقال الضحاك في قوله : ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ يعني عنبًا قال :

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٦٠) ومسلم في الزكاة (٩١) .

وأهل عمان يسمون العنب خمرًا : وقال عكرمة : قال له : إني رأيت فيما يرى النائم أني غرست حبة من عنب فنبتت فخرج فيها عناقيد فعصرتهن ثم سقيتهن الملك ، فقال : تمكث في السجن ثلاثة أيام ثم تخرج فتسقيه خمرًا . وقال الآخر وهو الخباز ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ ﴾ الآية ، والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه أنهما رأيا منامًا وطلبا تعبيره .

﴿ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ .

يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا في منامهما من حلم فإنه عارف بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه ، ولهذا قال : ﴿ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ ﴾ قال مجاهد : يقول ﴿ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ ﴾ في يومكما ﴿ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ﴾ وقال ابن عباس : إنما هو من تعليم الله إياي لأني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر ، فلا يرجون ثوابًا ولا عقابًا في المعاد ﴿ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ ﴾ الآية ، يقول هجرت طريق الكفر والشرك وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى واتبع طريق المرسلين وأعرض عن طريق الضالين ، فإن الله يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلم ، ويجعله إمامًا يقتدى به في الخير ، وداعيًا إلى سبيل الرشاد ﴿ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا ﴾ أي أوحاه إلينا وأمرنا به ﴿ وَعَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ أي لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم بل ﴿ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴾ عن ابن عباس أنه كان يجعل الجد أبًا ويقول : والله لمن شاء لأعنته عند الحجر ما ذكر الله جدًا ولا جدة قال الله تعالى : يعني إخبارًا عن يوسف ﴿ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ ﴾ .

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ .

ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين بالمخاطبة والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما فقال : ﴿ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ أي الذي ذلّ كل شيء لعز جلاله وعظمة سلطانه ، ثم بيَّن لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هو جعل منهم وتسمية من تلقاء أنفسهم ، تلقاها خلفهم عن سلفهم ، وليس لذلك مستند من عند الله . ولهذا قال : ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ ﴾ أي حجة ولا برهان ، ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله ، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلّا إياه ، ثم قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ﴾ أي هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له هو الدين المستقيم

الذي أمر الله به ، وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي فلهذا كان أكثرهم مشركين .

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ .

يقول لهما ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ ﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا ، ولكنه لم يعينه لئلا يحزن ذاك ، ولهذا أبهمه في قوله ﴿ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ ﴾ وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا ، ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه ، وهو واقع لا محالة ؛ لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبَّر فإذا عُبِّرَتْ وقعت . وعن إبراهيم بن عبد الله قال : لما قالا ما قالا وأخبرهما ، قالا : ما رأينا شيئًا فقال ﴿ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ وحاصله أن من تحلم بباطل وفسره فإنه يلزم بتأويله والله تعالى أعلم . وقد ورد عن أنس مرفوعًا : « الرُّؤْيَا لأَوَّلِ عَابِرٍ » (١) .

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ .

ولما ظن يوسف عليه السلام أن الساقي ناج ، قال له يوسف خفية عن الآخر والله أعلم - لئلا يشعره أنه المصلوب - قال له : ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ يقول : اذكر قصتي عند ربك وهو الملك ، فنسي ذلك الموصى أن يذكر مولاه الملك بذلك ، وكان من جملة مكايد الشيطان لئلا يطلع نبي الله من السجن ، هذا هو الصواب أن الضمير في قوله : ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ عائد على الناجي ويقال : إن الضمير عائد على يوسف عليه السلام وأما البضع فقال مجاهد وقتادة : هو ما بين الثلاث إلى التسع ، وقال وهب بن منبه : مكث أيوب في البلاء سبعًا ، ويوسف في السجن سبعًا ، وعذب بختنصر سبعًا ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ قال : ثنتا عشرة سنة ، وقال الضحاك : أربع عشرة سنة .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ۝ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ۝ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۝ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۝ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ .

هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سببًا لخروج يوسف عليه السلام من السجن معززًا مكرمًا ، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا فهالته وتعجب من أمرها وما يكون تفسيرها ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن(٣٩١٥) والألباني في الصحيحة(١٢٠) .

فجمع الكهنة والحادة وكبار دولته وأمراءه فقص عليهم ما رأى وسألهم عن تأويلها فلم يعرفوا ذلك ، واعتذروا إليه بأنها ﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ أي أخلاط أحلام اقتضته رؤياك هذه ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ أي لو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط لما كان لنا أن معرفة بتأويلها وهو تعبيرها ، فعند ذلك تذكر الذي نجا من ذينك الفتيين اللذين كانا في السجن مع يوسف ، وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف من ذكر أمره للملك ، فعند ذلك تذكر بعد أمة أي مدة ، وقرأ بعضهم ﴿ بعد أمه ﴾ أي بعد نسيان ، فقال لهم أي للملك والذين جمعهم لذلك ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ ﴾ أي بتأويل هذا المنام ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ أي فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن، ومعنى الكلام فبعثوه فجاء فقال : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾ وذكر المنام الذي رآه الملك ، فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام تعبيرها من غير تعنيف للفتى في نسيانه ما وصاه به ، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك بل قال : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ أي يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات ، ففسر البقر بالسنين لأنها تثير الأرض التي تشتغل منها الثمرات والزروع وهن السنبلات الخضر ، ثم أرشدهم إلى ما يعتدونه في تلك السنين فقال : ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ أي مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب فادخروه في سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه ، إلّا المقدار الذي تأكلونه وليكن قليلًا قليلًا لا تسرفوا فيه لتنتفعوا في السبع الشداد ، وهن السبع السنين المحل التي تعقب هذه السبع المتواليات وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السمان ؛ لأن سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب وهن السنبلات اليابسات ، وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئًا وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء ولهذا قال : ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ ثم بشّرهم بعد الجدب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك عام فيه يغاث الناس أي يأتيهم الغيث وهو المطر ، وتغل البلاد ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت ونحوه ، وسكر ونحوه ، حتى قال بعضهم : يدخل فيه حلب اللبن أيضًا ، قال ابن عبّاس ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ يحلبون .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى إخبارًا عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه التي كان رآها بما أعجبه ، فعرف فضل يوسف عليه السلام وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه فقال : ﴿ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾ أي أخرجوه من السجن وأحضروه ، فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ونزاهة عرضه مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز ، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه ، بل كان ظلمًا وعدوانًا فقال : ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ الآية . وقد وردت السنة بمدحه على ذلك والتنبيه على فضله وشرفه وعلو قدره وصبره صلوات الله وسلامه عليه . وعن

أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى ﴾ - الآية - وَيَرْحَمُ اللهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لأَجَبْتُ الدَّاعِي » (١) وعن عكرمة قال : قال رسول الله ﷺ : « لَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ يُوسُفَ وَصَبْرِهِ وَكَرَمِهِ وَاللهُ يَغْفِرُ لَهُ حِينَ سُئِلَ عَنِ البَقَرَاتِ العِجَافِ وَالسِّمَانِ ، وَلَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ مَا أَجَبْتُهُمْ حَتَّى أَشْتَرِطَ أَنْ يُخْرِجُونِي ، وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ يُوسُفَ وَصَبْرِهِ وَكَرَمِهِ وَاللهُ يَغْفِرُ لَهُ ، حِينَ أَتَاهُ الرَّسُولُ وَلَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ لَبَادَرْتُهُمُ البَابَ ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ لَهُ العُذْرُ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز ، فقال مخاطبًا لهن كلهن وهو يريد امرأة وزيره وهو العزيز ، قال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ أي شأنكن وخبركن ﴿ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ يعني يوم الضيافة ﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ أي قالت النسوة جوابًا للملك حاش لله أن يكون يوسف متهمًا ، والله ما علمنا عليه من سوء ، فعند ذلك ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ قال عبّاس ومجاهد وغير واحد : تقول الآن تبين الحق وظهر وبرز ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي في قوله ﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ تقول إنما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة ، فامتنع ، فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ﴾ تقول المرأة ولست أبرئ نفسي ، فإن النفس تتحدث وتتمنى ، ولهذا راودته لأن ﴿ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾ أي إلا من عصمه الله تعالى ﴿ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام ، وقد حكاه الماوردي في تفسيره ، وقد قيل : إن ذلك من كلام يوسف ﷺ يقول ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ ﴾ في زوجته ﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ الآيتين ، أي إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتي ، وليعلم العزيز ﴿ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ ﴾ في زوجته ﴿ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ الآية ، وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم سواه .

وعن ابن عبّاس قال : لما جمع الملك النسوة فسألهن هل راودتن يوسف عن نفسه ؟ ﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ الآية ، فقال يوسف ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ فقال له جبريل ﷺ : ولا يوم هممت بما هممت به ؟ فقال : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ﴾ الآية (٣) ، والقول الأول أقوى وأظهر ؛ لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف ﷺ عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٣٧) ومسلم في الفضائل (١٥٢) .

(٢) أخرجه : الطبراني في الكبير ٢٤٩/١١ ، والألباني في الصحيحة (١٩٤٥) .

(٣) ذكره الطبري في تفسيره (٣/١٣) .

ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى إخبارًا عن الملك حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عرضه مما نسب إليه قال ﴿ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيۖ ﴾ أي أجعله من خاصتي وأهل مشورتي ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ ﴾ أي خاطبه الملك وعرفه ورأى فضله وبراعته ، وعلم ما هو عليه من خُلق وخَلق وكمال ، قال له الملك ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أي إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة ، فقال يوسف عليه السلام ﴿ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ مدح نفسه ، ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره للحاجة ، وذكر أنه ﴿ حَفِيظٌ ﴾ أي خازن أمين ﴿ عَلِيمٌ ﴾ ذو علم وبصيرة بما يتولاه . وإنما سأله أن يجعله على خزائن الأرض وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلات لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها ، فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد ، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه وتكرمة له ، ولهذا قال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي أرض مصر ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يتصرف فيها كيف يشاء ، وقال ابن جرير : يتخذ منها منزلًا حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار[1] ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز ، فلهذا أعقبه الله عز وجل النصر والتأييد ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا ، والغرض أن يوسف عليه السلام ولاه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة في بلاد مصر ، مكان الذي اشتراه من مصر زوج التي راودته ، وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام قاله مجاهد .

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

جاء إخوة يوسف - عن أمر أبيهم لهم - ليوسف للميرة ، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه ، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعامًا ، وركبوا عشرة نفر ، واحتبس يعقوب عليه السلام عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف عليه السلام ، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف ، فلما دخلوا على يوسف وهو جالس في أبهته ورياسته وسيادته ، عرفهم حين نظر إليهم وهم له منكرون أي لا يعرفونه ؛ لأنهم فارقوه وهو صغير حدث ، وباعوه للسيارة ولم يدروا أين يذهبون به ، ولا كانوا يستشعرون في

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٣/٥٦) .

أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه ، فلهذا لم يعرفوه ، وأما هو فعرفهم .

فذكر السدي : غيره أنه شرع يخاطبهم فقال لهم كالمنكر عليهم : ما أقدمكم بلادي ؟ فقالوا : أيها العزيز إنا قدمنا للميرة ، قال : فلعلكم عيون ؟ قالوا : معاذ الله ، قال : فمن أين أنتم ؟ قالوا : من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبي الله ، قال : وله أولاد غيركم ؟ قالوا : نعم كنا اثني عشر فذهب أصغرنا هلك في البرية وكان أحبنا إلى أبيه ، وبقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه ، فأمر بإنزالهم وإكرامهم ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أي أوفى لهم كيلهم وحمل لهم أحمالهم ، قال : ائتوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم لأعلم صدقكم فيما ذكرتم ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ ؟ يرغبهم في الرجوع إليه ، ثم رهّبهم فقال : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي ﴾ الآية . أي إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية فليس لكم عندي ميرة ﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ ۝ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أي سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولا نبقي مجهودًا لتعلم صدقنا فيما قلناه ، وذكر السدي أنه أخذ منهم رهائن حتى يقدموا به معهم ، وفي هذا نظر ؛ لأنه أحسن إليهم ورغبهم كثيرًا وهذا لحرصه على رجوعهم ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ﴾ أي غلمانه ﴿ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ ﴾ أي التي قدموا بها ليمتاروا عوضًا عنها ﴿ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ أي في أمتعتهم من حيث لا يشعرون ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ بها ، قيل : خشي يوسف عليه السلام أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها ، وقيل : تذمم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضًا عن طعام ، وقيل أراد أن يردهم إذا وجدوها في متاعهم تحرجًا وتورعًا ، لأنه يعلم ذلك منهم والله أعلم .

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى عنهم إنهم رجعوا إلى أبيهم ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ يعنون بعد هذه المرة إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين لا نكتل ، فأرسله معنا نكتل وإنا له لحافظون ، قرأ بعضهم بالياء أي يكتل هو (١) ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ أي لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك ، قال لهم : ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ أي هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل ، تغيبونه عني وتحولون بيني وبينه ؟ ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ﴾ وقرأ بعضهم - حفظًا - (٢) ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ أي هو أرحم الراحمين بي ، وسيرحم كبري وضعفي ووجدي بولدي ، وأرجو من الله أن يرده عليَّ ويجمع شملي به ، إنه أرحم الراحمين .

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ۖ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ۝ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

يقول تعالى : ولما فتح إخوة يوسف متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، وهي التي كان أمر

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف (يكتل) بالياء والباقون بالنون (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٢٧) .

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص (حافظا) بألف بعد الحاء والباقون من غير ألف (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٢٧) .

يوسف فتيانه بوضعها في رحالهم ، فلما وجدوها في متاعهم ﴿ قَالُوا يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾ أي ماذا نريد ﴿ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ كما قال قتادة : ما نبغي وراء هذا إن بضاعتنا ردت إلينا ، وقد أوفى لنا الكيل ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أي إذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة إلى أهلنا ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ وذلك أن يوسف عليه السلام كان يعطي كل رجل حمل بعير ، وقال مجاهد : حمل حمار ، وقد يسمى في بعض اللغات بعيرًا ، كذا قال ﴿ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ هذا من تمام الكلام وتحسينه ، أي إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي تحلفون بالعهود والمواثيق ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرون على تخليصه ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ أكده عليهم فقال : ﴿ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ قال ابن إسحاق : وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بدًا من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها فبعثه معهم .

﴿ وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى إخبارًا عن يعقوب عليه السلام أنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد ، وليدخلوا من أبواب متفرقة فإنه كما قال ابن عباس وقتادة والسدي وغير واحد : أنه خشي عليهم العين ، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء ، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم ، فإن العين حق ، تستنزل الفارس عن فرسه ، وروي عن إبراهيم النخعي في قوله : ﴿ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ قال : علم أنه سيلقى إخوته في بعض تلك الأبواب وقوله : ﴿ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ أي هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه ، فإن الله إذا أراد شيئًا لا يخالف ولا يمانع ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ﴾ قالوا : هي دفع إصابة العين لهم ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ ﴾ . قال قتادة والثوري : لذو علم بعلمه ، وقال ابن جرير : لذو علم لتعليمنا إياه ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين ، وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته ، وأفاض عليهم الصلة والإلطاف والإحسان ، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه وما جرى له وعرّفه أنه أخوه ، وقال له : لا تبتئس أي لا تأسف على ماصنعوا بي ، وأمره بكتمان ذلك عنهم ، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه ، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززًا مكرمًا معظمًا .

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟

عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾ .

لما جهزهم وحمل لهم أبعرتهم طعامًا أمر بعض فتيانه أن يضع السقاية وهي إناء من فضة في قول الأكثرين، وقيل : من ذهب ، قاله ابن زيد ، كان يشرب فيه ويكيل للناس به من عزة الطعام إذ ذاك ، وعن ابن عبّاس ﴿ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ﴾ الملك قال : كان من فضة يشربون فيه ، وكان مثل المكوك ، وكان للعباس مثله في الجاهلية . فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد ، ثم نادى مناد بينهم ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾ فالتفتوا إلى المنادي وقالوا ﴿ مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ﴾ أي صاعه الذي يكيل به ﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ وهذا من باب الجعالة ﴿ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾ وهذا من باب الضمان والكفالة .

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ۝ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ۝ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ .

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة قال لهم إخوة يوسف : ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ أي لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا ؛ لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة ، إنّا ﴿ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ أي ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة ، فقال لهم الفتيان : ﴿ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ ﴾ أي السارق إن كان فيكم ﴿ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ أي : أيُّ شيء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه ؟ ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام أن السارق يدفع إلى المسروق منه ، وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، أي فتّشها قبله تورية ﴿ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم ، وإلزامًا لهم بما يعتقدونه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه اللّه ويرضاه ، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة . وقوله : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ أي لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر ، وإنما قيض اللّه له أن التزم له إخوته بما التزموه وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم ، ولهذا مدحه اللّه تعالى فقال : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ قال الحسن البصري : ليس عالم إلّا فوقه عالم حتى ينتهي إلى اللّه عز وجل ، وعن سعيد بن جبير قال : كنا عند ابن عبّاس فحدّث بحديث عجيب فتعجب رجل فقال : الحمد للّه فوق كل ذي علم عليم ، فقال ابن عبّاس : بئس ما قلت ، اللّه العليم فوق كل عالم ، وكذا روي عن ابن عبّاس قال : يكون هذا أعلم من هذا وهذا أعلم من هذا واللّه فوق كل عالم ، وقال قتادة : حتى ينتهي العلم إلى اللّه ، منه بُدئ وتعلمت العلماء ، وإليه يعود . وفي قراءة عبد اللّه : وفوق كل عالم عليم .

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ .

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع بنيامين ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ يتنصلون إلى العزيز من التشبه به ، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل ، يعنون به يوسف عليه السلام . وعن قتادة : كان يوسف عليه السلام قد سرق صنمًا لجده أبي أمه فكسره ، وقوله : ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ ﴾ يعني الكلمة التي بعدها وهي قوله : ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ أي تذكرون ، قال هذا في نفسه ولم يبده لهم ، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر ، قال العوفي عن ابن عبّاس : ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ ﴾ قال : أسر في نفسه ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ .

﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ .

لما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم ، شرعوا يترققون له ويعطّفونه عليهم ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ يعنون : وهو يحبه حبًّا شديدًا ويتسلى به عن ولده الذي فقده ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ﴾ أي بدله يكون عندك عوضًا عنه ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي العادلين المنصفين القابلين للخير ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ أي كما قلتم واعترفتم ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ أي إن أخذنا بريئًا بسقيم .

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ٨٠ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ٨١ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه وعاهدوه على ذلك فامتنع عليهم ذلك ﴿ خَلَصُوا۟ ﴾ أي انفردوا عن الناس ﴿ نَجِيًّا ﴾ يتناجون فيما بينهم ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ وهو روبيل : وقيل : يهوذا ، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما هموا بقتله قال لهم : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ لتردنه إليه ، فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي لن أفارق البلدة ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ ﴾ في الرجوع إليه راضيًا عني ﴿ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ﴾ قيل : بالسيف ، وقيل : بأن يمكنني من أخذ أخي ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع حتى يكون عذرًا لهم عنده ، ويتنصلوا إليه ويبرؤوا مما وقع بقولهم . وقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴾ قال قتادة وعكرمة : ما علمنا أن ابنك سرق ، وقال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم : ما علمنا في الغيب أنه سرق له شيئًا ، إنما سألنا ماجزاء السارق ؟ ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾ قيل : المراد مصر قاله قتادة ، وقيل غيرها ﴿ وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أي التي رافقناها عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذوه بسرقته .

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ

ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

قال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ قال محمّد بن إسحاق : لمّا جاءوا يعقوب وأخبروه بما جرى اتهمهم فظن أنها كفعلتهم بيوسف قال : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ وقال بعض الناس : لما كان صنيعهم هذا مرتبًا على فعلهم الأول سحب حكم الأول عليه وصح قوله : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة يوسف وأخاه بنيامين وروبيل الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه ، إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه ، وإما أن يأخذ أخاه خفية ؛ ولهذا قال : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي العليم بحالي ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في أفعاله وقضائه وقدره ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ أي أعرض عن بنيه وقال متذكرًا حزن يوسف القديم الأول ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ جدّد له حزن الابنين الحزن الدفين ، وعن سعيد بن جبير أنه قال : لم يعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع ، ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق . وقال الضحاك : فهو كظيم كئيب حزين .

فعند ذلك رق له بنوه وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه ﴿ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ أي لا تفارق تذكر يوسف ﴿ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا ﴾ أي ضعيف القوة ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ يقولون : إن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي أجابهم عما قالوا بقوله : ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ ﴾ أي همي وما أنا فيه ﴿ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ وحده ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي أرجو من الله كل خير .

وعن ابن عباس ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يعني رؤيا يوسف أنها صدق ، وأن الله لا بد أن يظهرها . وقال العوفي عنه في الآية : أعلم أن رؤيا يوسف صادقة ، وأني سوف أسجد له (١) .

﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن يعقوب عليه السلام أنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين ، والتحسس يكون في الخير ، والتجسس يكون في الشر ، ونهضهم وبشرهم وأمرهم أن لا ييأسوا من روح الله ، أي لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه ، فإنه لا يقطع الرجاء ولا ييأس من روح الله إلّا القوم الكافرون . وقوله : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ ﴾ تقدير الكلام : فذهبوا فدخلوا مصر ودخلوا على يوسف ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ يعنون من

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٣/٦٠) .

الجدب والقحط وقلة الطعام ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ أي ومعنا ثمن الطعام الذي نمتاره وهو ثمن قليل ، وقال ابن عبّاس : الرديء لا ينفق مثل خلق الغرارة والحبل والشيء ، وفي رواية عنه الدراهم الرديئة التي لا تجوز إلّا بنقصان . وقال سعيد بن جبير : هي الدراهم الفسول . وقال الضحاك : كاسدة لا تنفق .

وقوله إخبارًا عنهم ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ أي : أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك ، وقرأ ابن مسعود - فأوقر ركابنا وتصدق علينا - وقال ابن جريج : وتصدق علينا برد أخينا إلينا ، وقال سعيد بن جبير والسدي : ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ يقولون : تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة وتجوز فيها ، وسُئل سفيان بن عيينة : هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبيّ ﷺ ؟ فقال : ألم تسمع ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن يوسف عليه السلام أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب ، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة ، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته ، وبدره البكاء فتعرف إليهم ، فيقال : إنه رفع التاج عن جبهته وكان فيها شامة وقال ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ يعني كيف فرقوا بينه وبين أخيه ﴿ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ أي إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه ، كما قال بعض السلف : كل من عصى اللّٰه فهو جاهل وقرأ ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ الآية ، والظاهر واللّٰه أعلم أن يوسف عليه السلام إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن اللّٰه تعالى له في ذلك ، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر اللّٰه تعالى له في ذلك واللّٰه أعلم ، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر فرج اللّٰه تعالى من ذلك الضيق فعند ذلك قالوا : ﴿ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ وقرأ أُبيّ بن كعب ﴿ إنك لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ وقرأ ابن محيصن (أنت يُوسُفُ) والقراءة المشهورة هي الأولى ؛ لأن الاستفهام يدل على الاستعظام أي أنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر وهم لا يعرفونه وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه ، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام : ﴿ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ﴾ .

وقوله : ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أي بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ الآية ، يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخَلق والخُلق والسعة والملك والتصرف والنبوة أيضًا على قول من لم يجعلهم أنبياء ، وأقروا له بأنهم أساؤوا إليه وأخطأوا في حقه ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ يقول أي لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم ، ولا أعيد عليكم ذنبكم في حقي بعد اليوم ، ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال : ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أي يستر اللّٰه عليكم فيما فعلتم ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۝ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ۝ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ .

يقول اذهبوا بهذا القميص ﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ وكان قد عمي من كثرة البكاء ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي بجميع بني يعقوب ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ أي خرجت من مصر ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ يعني يعقوب عليه السلام لمن بقي عنده من بنيه ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ تنسبوني إلى الفند والكبر . وعن ابن عبّاس يقول : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ قال : لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ قال : فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام[1] ، وقال الحسن وابن جريج : كان بينهما ثمانون فرسخًا ، وكان بينه وبينه منذ افترقا ثمانون سنة . وقوله : ﴿ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وعطاء وقتادة وسعيد بن جبير : تسفهون ، وقال مجاهد أيضًا والحسن : تهرمون . وقولهم : ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ قال ابن عبّاس : لفي خطئك القديم ، وقال قتادة : أي من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه ، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله ﷺ .

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ۝ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

قال ابن عبّاس والضحاك : ﴿ الْبَشِيرُ ﴾ البريد ، وقال مجاهد والسدي : كان يهوذا بن يعقوب، قال السدي : إنما جاء به لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب ، فأحب أن يغسل ذلك بهذا ، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيرًا ، وقال لبنيه عند ذلك : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي أعلم أن الله سيرده إليّ ، وقلت لكم ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له ﴿ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ۝ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أي من تاب إليه تاب عليه ، قال ابن مسعود وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم : أرجأهم إلى وقت السحر ، وعن محارب بن دثار قال : كان عمر رضي الله عنه يأتي المسجد فيسمع إنسانًا يقول : اللّهمّ دعوتني فأجبت وأمرتني فأطعت وهذا السحر فاغفر لي ، قال : فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود ، فسأله عبد الله عن ذلك فقال: إن يعقوب أخّر بنيه إلى السحر بقوله : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ۝ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام ، وقدومه بلاد مصر لما كان يوسف قد تقدم لإخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين ، فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر ، فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم خرج لتلقيهم وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٧٧/١٣ ، ٧٨) .

يوسف لتلقي نبي الله يعقوب عليه السلام ، ويقال : إن الملك خرج أيضًا لتلقيه وهو الأشبه ، وقد أشكل قوله : ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ ﴾ على كثير من المفسرين فقال بعضهم : هذا من المقدم والمؤخر ومعنى الكلام ﴿ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ وآوى إليه أبويه ورفعهما على العرش ، ورد ابن جرير هذا وأجاد في ذلك ، ثم اختار ما حكاه السدي أن يوسف آوى إليه أبويه لما تلقاهما ، ثم لما وصلوا إلى باب البلد قال : ﴿ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ وفي هذا نظر أيضًا ؛ لأن الإيواء إنما يكون في المنزلة ، كقوله : ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ ﴾ وفي الحديث : « مَنْ آوَى مُحْدِثًا » [1] وما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وآواهم إليه ادخلوا مصر ، وضمنه اسكنوا مصر إن شاء الله آمنين أي مما كنتم فيه من الجهد والقحط . ويقال والله أعلم : إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجدبة ببركة قدوم يعقوب عليهم ، كما رفع بقية السنين التي دعا بها رسول الله ﷺ على أهل مكة حين قال : « اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ » ثم لما تضرعوا إليه واستشفعوا لديه وأرسلوا أبا سفيان في ذلك فدعا لهم فرفع عنهم بقية ذلك ببركة دعائه عليه الصلاة والسلام [2] .

وقوله ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ ﴾ قال السدي : إنما كان أباه وخالته ، وكانت أمه قد ماتت قديمًا ، وقال ابن إسحاق وابن جرير : كان أبوه وأمه يعيشان ، قال ابن جرير : ولم يقم دليل على موت أمه ، وظاهر القرآن يدل على حياتها وهذا الذي نصره هو المنصور الذي عليه السياق . وقوله : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وغير واحد : يعني السرير ، أي أجلسهما معه على سريره ﴿ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ ﴾ أي سجد له أبواه وإخوته الباقون وكانوا أحد عشر رجلًا ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ ﴾ أي التي كان قصها على أبيه من قبل ﴿ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا ﴾ الآية ، وقد كان هذا سائغًا في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له ، ولم يزل هذا جائزًا من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام ، فحرم هذا في الملة وجعل السجود مختصًا بجناب الرب سبحانه وتعالى ، وفي الحديث : أن معاذًا قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم ، فلما سجد لرسول الله ﷺ فقال : « مَا هَذَا يَا مُعَاذُ ؟ » فقال إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله ، فقال : « لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا لِعظَم حَقِّهِ عَلَيْهَا » [3] .

وقوله : ﴿ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ ﴾ أي صحيحة صدقًا ، يذكر نعم الله عليه ﴿ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ ﴾ أي البادية ، قال ابن جريج وغيره : كانوا أهل بادية وماشية ، وقال : كانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين من غور الشام ، قال : وبعض يقول كانوا بالأولاج من ناحية شعب أسفل من حسمي ، وكانوا أصحاب بادية وشاء وإبل ، ﴿ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ ﴾ أي إذا أراد أمرًا قيض له أسبابًا وقدّره ويسّره ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ بمصالح عباده ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ في أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما يختاره ويريده ، عن سليمان : كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة ، قال عبد الله بن شداد : وإليها ينتهي أقصى

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٠٦) ومسلم في الحج (٤٦٣) وأحمد في مسنده (٨٨/١) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٧٤) .
(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٨٥٣) والطبراني في الكبير (٣٦/٨) .

الرؤيا ، وعن الحسن قال : كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة [١] ، وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة أو نحوها ، وأن يعقوب عليه السلام بقي مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة ثم قبضه الله إليه . وعن عبد الله بن مسعود قال : دخل بنو إسرائيل مصر وهم ثلاثة وستون إنسانًا وخرجوا منها وهم ستمائة ألف وسبعون ألفًا . وعن عبد الله بن شداد : اجتمع آل يعقوب إلى يوسف بمصر وهم ستة وثمانون إنسانًا صغيرهم وكبيرهم ، وذكرهم وأنثاهم ، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف ونيف .

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

هذا دعاء من يوسف الصدِّيق دعا به ربه عز وجل لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته ، وما منَّ الله به عليه من النبوة والملك ، سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة ، وأن يتوفاه مسلمًا حين يتوفاه ، وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف عليه السلام قاله عند احتضاره كما ثبت عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول : « اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى » ثلاثًا [٢] . ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا جاء أجله وانقضى عمره ، لا أنه سأله ذلك منجزًا كما يقول الداعي لغيره أماتك الله على الإسلام ، ويقول الداعي : اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين ، ويحتمل أنه سأل ذلك منجزًا وكان ذلك سائغًا في ملتهم ، وكان ابن عبّاس يقول : ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف عليه السلام ، وكذا ذكر ابن جرير والسدي عن ابن عبّاس أنه أول نبي دعا بذلك ، وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الإسلام ، كما أن نوحًا أول من قال : ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا ﴾ .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ ، فَإِنْ كَانَ وَلَابُدَّ مُتَمَنِّيًا المَوْتَ فَلْيَقُلِ : اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي » وأخرجاه في الصحيحين وعندهما : « لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ إِمَّا مُحسِنًا فَيَزْدَادُ ، وَإِمَّا سَيِّئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ ، وَلَكِنْ لِيَقُلِ اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي » [٣] . وعن أبي أمامة قال : جلسنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ورققنا فبكى سعد بن أبي وقاص فأكثر البكاء وقال : يا ليتني مت ، فقال النبيّ ﷺ : « يَا سَعْدُ أَعِنْدِي تَتَمَنَّي المَوْتَ ؟ » فردد ذلك ثلاث مرات ، ثم قال : « يَا سَعْدُ إِنْ كُنْتَ خُلِقْتَ للجنة فَمَا طَالَ مِنْ عُمْرِكَ وَحَسُنَ مِنْ عَمَلِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » [٤] . وهذا فيما إذا كان الضرر خاصًا به ، وأما إذا كان فتنة في الدين فيجوز سؤال الموت كما قال الله تعالى إخبارًا عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهددهم بالقتل قالوا : ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٩٢/١٣) .
(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٧٤) وأحمد في مسنده (٢٠٠/٦) .
(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (١٠) والترمذي في السنن (٩٧٠) والنسائي في السنن (٣/٤) وأحمد في مسنده (١٠٣/٣) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٧/٥) والطبراني في الكبير (٢٥٨/٨) .

قال أبو جعفر بن جرير : وذكر أن بني يعقوب الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا استغفر لهم أبوهم فتاب عليهم وعفا عنهم وغفر لهم ذنوبهم [(١)] .

وذكر السدي أن يعقوب عليه السلام لما حضره الموت أوصى إلى يوسف بأن يدفن عند إبراهيم وإسحاق ، فلما مات صبره وأرسله إلى الشام فدفن عندهما عليهما السلام .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ۝ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

يقول تعالى لمحمد ﷺ لما قص عليه نبأ إخوة يوسف وكيف رفعه الله عليهم وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم ، وما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام ، هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ ونعلمك به يا محمد لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ حاضرًا عندهم ، ولا مشاهدًا لهم ﴿ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ أي على إلقائه في الجب ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ به ، ولكنا أعلمناك به وحيًا إليك ، وإنزالًا عليك ، كقوله : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ ﴾ الآية ، يقول تعالى إنه رسوله ، وإنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة ونجاة لهم في دينهم ودنياهم ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ كقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي ما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر ، أي من جعالة ولا أجرة ، بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحًا لخلقه ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أي يتذكرون به ويهتدون وينجون به في الدنيا والآخرة .

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض ، فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات ، المتفرد بالدوام والبقاء ، والصمدية للأسماء والصفات ، وغير ذلك .

وقوله : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ قال ابن عبّاس : من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم : من خلق السموات ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال ؟ قالوا : الله وهم مشركون به . وفي الحديث : أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلّا شريك وهو لك ، تملكه وما ملك . وفي صحيح مسلم : أنهم كانوا إذا قالوا : لبيك لا شريك لك ، قال رسول الله ﷺ : « قَدْ قَدْ » أي حسب حسب لا تزيدوا على هذا [(٢)] ، وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ وهذا هو الشرك الأعظم يعبد مع الله غيره ، كما في الصحيحين عن ابن مسعود قلت : يا رسول الله : أي الذنب أعظم ؟ قال : « أَنْ تَجْعَل للَّه نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ » [(٣)] وفي الحديث : « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّه فَقَدْ

---

(١) تفسير الطبري (٩٧/١٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الحج (٢٢) والبيهقي في السنن (٤٥/٥) وأحمد في مسنده (٤٥٣/٥) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٦١) ومسلم في الإيمان (١٤١) .

أَشْرَكَ » (١) ، وعن ابن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الرُّقى وَالتَّمائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ » وفي لفظ لهما : « الطِّيَرَةُ شِرْكٌ وَمَا مِنَّا إِلَّا ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ » (٢) وعن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه ، قالت : وإنه إذا جاء ذات يوم فتنحنح وعندي عجوز ترقيني من الحمرة فأدخلتها تحت السرير ، قالت : فدخل فجلس إلى جانبي فرأى في عنقي خيطًا فقال : ما هذا الخيط ؟ قالت : قلت : خيط رقي لي فيه ، فأخذه فقطعه ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ » قالت : قلت له : لم تقل هذا وقد كانت عيني تقذف ، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها فكان إذا رقاها سكنت ، فقال : إنما ذاك من الشيطان كان ينخسها بيده فإذا رقاها كف عنها ، إنما كان يكفيك أن تقولي كما قال النبيّ ﷺ : « أَذْهِبِ البَاسَ ، رَبَّ النَّاسِ ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي ، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا » (٣) .

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ يُنَادِي مُنَادٍ : مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ لِلَّهِ فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ » (٤) . وعن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ » قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : « الرِّيَاءُ ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ إِذَا جَازَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً ؟ » (٥) .

وعن أبي موسى الأشعري قال : يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل ، فقام عبد الله بن حرب وقيس بن المضارب فقالا : والله لتخرجن مما قلت أو لنأتين عمر مأذونا لنا أو غير مأذون ، قال : بل أخرج مما قلت ؛ خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ » فقال له من شاء الله أن يقول : فكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟ قال : « قُولُوا : اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لا نَعْلَمُهُ » (٦) .

وقوله : ﴿ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ الآية ، أي أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون .

﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين الإنس والجن ، آمرًا له أن يخبر الناس أن هذه سبيله أي طريقته ومسلكه وسنته ، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يدعو إلى الله

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٨٧/٢) والألباني في الصحيحة (١٥٥/٣) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٣٨٨٣) وابن ماجه في السنن (٣٥٣٠) والحاكم في المستدرك (٤١٨/٤) .
(٣) أخرجه : أحمد في مسنده (٣٨١/١) .
(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٢٠٢) والمنذري في الترغيب (٦٩/١) والعجلوني في كشف الخفاء (١٥٠/٢) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٩/٥) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٣/٤) والمنذري في الترغيب (٧٦/١) .

بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان ، هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي ، وقوله : ﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ أي وأنزّه الله وأجلّه وأعظمه وأقدّسه عن أن يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير ، تبارك وتقدّس وتنزّه وتعالى عن ذلك كله علوًّا كبيرًا ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء ، وهذا قول جمهور العلماء كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة ، أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع ، وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل وأم موسى ومريم بنت عمران أم عيسى نبيات ، واحتجوا بأن الملائكة بشّرت سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، وبقوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ الآية ، وبأن الملك جاء إلى مريم فبشّرها بعيسى عليه السلام ، وهذا القدر حاصل لهن ، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك ، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف فهذا لا شك فيه ، ويبقى الكلام معه في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرده أم لا ؟ الذي عليه أهل السنة والجماعة وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم أنه ليس في النساء نبية ، وإنما فيهن صدّيقات كما قال تعالى مخبرًا عن أشرفهنّ مريم بنت عمران حيث قال تعالى : ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ فوصفها في أشرف مقاماتها بالصديقية ، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام ، فهي صدّيقة بنص القرآن . وقال الضحاك عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ الآية ، أي ليسوا من أهل السماء كما قلتم ، وهذا القول من ابن عبّاس يعتضد بقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ المراد بالقرى المدن لا أنهم من أهل البوادي الذين هم من أجفى الناس طباعًا وأخلاقًا ، وهذا هو المعروف أن أهل المدن أرق طباعًا وألطف من أهل بواديهم ، وأهل الريف والسواد أقرب حالًا من الذين يسكنون في البوادي ، ولهذا قال تعالى ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ الآية ، وقال قتادة في قوله : ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمود ، وفي الحديث الآخر أن رجلًا من الأعراب أهدى لرسول الله ﷺ ناقة فلم يزل يعطيه ويزيده حتى رضي ، فقال رسول الله ﷺ : « لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَتَّهِبَ هبة إِلَّا مِنْ قُرَشِيٍّ أَوْ أَنْصَارِيٍّ أَوْ ثَقَفِيٍّ أَوْ دَوْسِيٍّ » (١) .

وعن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ - قال الأعمش هو عمر - عن النبيّ ﷺ أنه قال : « الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُمْ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ » (٢)

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٩٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٣٦٥) والبيهقي في السنن (١٠/٨٩) .

وقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ يعني هؤلاء المكذبين لك يا محمّد في الأرض ﴿ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي من الأمم المكذبة للرسل كيف دمر اللَّه عليهم وللكافرين أمثالها ، وقال تعالى : ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ أي وكما نجينا المؤمنين في الدنيا كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة ، وهي خير لهم من الدنيا بكثير ، وأضاف الدار إلى الآخرة فقال : ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ ﴾ كما يقال صلاة الأولى ، ومسجد الجامع ، وعام أول ، وبارحة الأولى ، ويوم الخميس .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

يذكر تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين عند ضيق الحال وانتظار الفرج من اللَّه في أحوج الأوقات إليه ، كقوله تعالى : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ الآية ، وفي قوله : ﴿ كُذِبُوا ﴾ قراءتان إحداهما بالتشديد ﴿ قَدْ كُذِّبوا ﴾ وكذلك كانت عائشة رضي الله عنها تقرؤها ، وعن ابن شهاب قال : أخبرني عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت له وهو يسألها عن قول اللَّه تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾ قال : قلت : أكذِبوا أم كذِّبوا ؟ قالت عائشة : كذِّبوا ، قلت : فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم ، فما هو بالظن ؟ قالت : أجل لعمري لقد استيقنوا بذلك ، فقلت لها : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ ؟ قالت : معاذ اللَّه لم تكن الرسل تظن ذلك بربها ، قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾ ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر اللَّه عند ذلك (١) ، وعن الزهري قال : أخبرنا عروة فقلت لها : لعلها قد كذبوا مخففة ؟ قالت : معاذ اللَّه (٢) . وعن ابن أبي مليكة أن ابن عبّاس قرأها ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ خفيفة ، قال عبد اللَّه هو ابن أبي مليكة : ثم قال لي ابن عبّاس : كانوا بشرًا ثم تلا ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ وعن عائشة أنها خالفت ذلك وأبته وقالت : ما وعد اللَّه محمّدًا ﷺ من شيء إلّا قد علم أنه سيكون حتى مات ، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبوهم . قال ابن أبي ملكية في حديث عروة كانت عائشة تقرؤها ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ﴾ مثقلة من التكذيب (٣) .

والقراءة الثانية بالتخفيف ، واختلفوا في تفسيرها ، فقال ابن عباس ما تقدم ، وعن مسروق عن عبد اللَّه أنه قرأ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ مخففة قال ابن مسعود : هو الذي تكره ، وهذا عن ابن عبّاس وابن مسعود رضي الله عنهما مخالف لما رواه آخرون عنهما . أما ابن عباس قال : لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم ، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم ، جاءهم النصر على ذلك ﴿ فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ﴾ وعن إبراهيم بن أبي حمزة الجزري قال : سأل فتى من قريش سعيد بن جبير قال : أخبرنا أبا عبد اللَّه كيف هذا الحرف ؟ فإني إذا أتيت عليه تمنيت أن لا أقرأ هذه السورة ﴿ حَتَّىٰ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٩٥) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٩٦) .

(٣) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر ﴿ كُذِّبُوا ﴾ وقرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ كُذِبُوا ﴾ (انظر : زاد المسير ٤/٢٩٦) .

﴿ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ قال : نعم حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدقوهم ، وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا ، فقال الضحاك بن مزاحم : ما رأيت كاليوم قط رجلًا يدعى إلى علم فيتلكأ ، لو رحلت إلى اليمن في هذه كان قليلًا ، وعن تميم بن حزم قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقول في هذه الآية ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾ من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم ، وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا بالتخفيف (١) .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ وهي العقول ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ أي وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله ، أي يكذب ويختلق ﴿ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي من الكتب المنزلة من السماء هو يصدق ما فيها من الصحيح ، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من تحليل وتحريم ومحبوب ومكروه وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات ، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات ، والإخبار عن الأمور الجليلة ، وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية ، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات وتنزهه عن مماثلة المخلوقات ، فلهذا كان ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد ، ومن الضلال إلى السداد ويبتغون به الرحمة من رب العباد ، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١١١/١٣) .

سورة الرعد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم في أول سورة البقرة ، وقدمنا أن كل سورة ابتدئت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن وتبيان أن نزوله من عند اللَّه حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب ، ولهذا قال : ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ ﴾ أي هذه آيات الكتاب وهو القرآن ، وقيل : التوراة والإنجيل . قاله مجاهد وقتادة [1] وفيه نظر ، بل هو بعيد ، ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال : ﴿ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾ أي يا محمد ﴿ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ ﴾ خبر تقدم مبتدؤه وهو قوله : ﴿ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة ، واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة أو عاطفة صفة على صفة كما قدمنا .

وقوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ أي مع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذي بإذنه وأمره رفع السموات بغير عمد ، بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعدًا لا تنال ولا يدرك مداها ، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء ، من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها ، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء ، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام ، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام ، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت ، وبينهما من بعد المسير خمسمائة عام وسمكها خمسمائة عام ، وهكذا الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة ، كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ ﴾ الآية . وفي الحديث : « مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ فِي الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ ، وَالكُرْسِيُّ فِي العَرْشِ المَجِيدِ كَتِلْكَ الحَلْقَةِ فِي تِلْكَ الفَلَاةِ » وفي رواية : « وَالعَرْشُ لَا يَقْدِرُ قَدْرَهُ إِلَّا اللَّه ﷻ » [2] وقوله : ﴿ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ﴾ روي عن ابن عباس وغير واحد أنهم قالوا : لها عمد ولكن لا ترى ، وقال إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل القبة يعني بلا عمد ، والظاهر من قوله تعالى : ﴿ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ ﴾ فعلى هذا يكون قوله : ﴿ تَرَوۡنَهَاۖ ﴾ تأكيدًا لنفي ذلك ، أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها ، وهذا هو الأكمل في القدرة .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ تقدم تفسيره في سورة الأعراف ، وأنه يمر كما جاء من غير تكييف ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل ، ولا تمثيل ، تعالى اللَّه علوًّا كبيرًا . وقوله : ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ

(١) تفسير الطبري (١٢٠/١٣) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٩٨/٣) .

﴿ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قيل : المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة ، كقوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ وقيل : المراد إلى مستقرهما وهو تحت العرش مما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر ، فإنها وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك يكونون أبعد ما يكون عن العرش ، لأنه على الصحيح الذي تقوم عليه الأدلة قبة مما يلي العالم من هذا الوجه وليس بمحيط كسائر الأفلاك ؛ لأن له قوائم وحملة يحملونه ، ولا يتصور هذا في الفلك المستدير ، وهذا واضح لمن تدبر ما وردت به الآيات والأحاديث الصحيحة ولله الحمد والمنة . وذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة التي هي أشرف وأعظم من الثوابت ، فإذا كان قد سخَّر هذه فلأن يدخل في التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأحرى وقوله : ﴿ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ أي يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو ، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه .

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى العالم العلوي شرع في ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلي فقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ أي جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض ، وأرساها بجبال راسيات شامخات ، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون ليسقي ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح من كل ﴿ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ أي من كل شكل صنفان ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ أي جعل كلًّا منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا ، فإذا ذهب هذا غشيه هذا ، وإذا انقضى هذا جاء الآخر ، فيتصرف أيضًا في الزمان كما يتصرف في المكان والسكان ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي في آلاء الله وحكمه ودلائله . وقوله : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ ﴾ أي أراض يجاور بعضها بعضًا ، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينفع الناس ، وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئًا . ويدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض ، فهذه تربة حمراء وهذه بيضاء ، وهذه صفراء ، وهذه سوداء ، وهذه محجرة ، وهذه سهلة ، وهذه مرملة ، وهذه سميكة ، وهذه رقيقة ، والكل متجاورات ، فهذه بصفتها وهذه بصفتها الأخرى ، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار لا إله إلَّا هو ولا رب سواه . وقوله : ﴿ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ يحتمل أن تكون عاطفة على جنات فيكون ﴿ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ مرفوعين ، ويحتمل أن يكون معطوفًا على أعناب فيكون مجرورًا ، ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة . وقوله : ﴿ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ الصنوان هو الأصول المجتمعة في منبت واحد كالرمان والتين وبعض النخيل ونحو ذلك ، وغير الصنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار ، ومنه سمي عم الرجال صنو أبيه ، كما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لعمر : « أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ »(١) وعن البراء رضي الله عنه : الصنوان هي النخلات في أصل واحد ، وغير الصنوان المتفرقات .

وقوله : ﴿ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ :

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١١) والبيهقي في السنن (٦/ ١٦٤) .

﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ﴾ قال : « الدقل وَالفَارِسِيُّ وَالحُلْوُ وَالحَامِضُ » (١) أي هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع في أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها وأوراقها وأزهارها ، فهذا في غاية الحلاوة ، وهذا في غاية الحموضة ، وهذا في غاية المرارة ، وهذا عفص ، وهذا عذب ، وهذا جمع وهذا وهذا ، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى ، وهذا أصفر وهذا أحمر وهذا أبيض وهذا أسود وهذا أزرق ، وكذلك الزهورات مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضبط ، ففي ذلك آيات لمن كان واعيًا ، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذي بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

يقول تعالى لرسوله محمّد ﷺ ﴿ وَإِن تَعْجَبْ ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلائله في خلقه ، على أنه القادر على ما يشاء ومع ما يعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء فكوّنها بعد أن لم تكن شيئًا مذكورًا ، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره في أنه سيعيد العالم خلقًا جديدًا ، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به فالعجب من قولهم : ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، وأن من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل ثم نعت المكذبين بهذا فقال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ﴾ أي يسحبون بها في النار ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أي ماكثون فيها أبدًا لا يحولون عنها ولا يزولون .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ ﴾ أي هؤلاء المكذبون ﴿ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ أي بالعقوبة كما قال تعالى ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ فكانوا من شدة تكذيبهم وعنادهم وكفرهم يطلبون أن يأتيهم بعذاب الله ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ﴾ أي قد أوقعنا نقمنا بالأمم الخالية ، وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم . ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ أي إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس ، مع أنهم يظلمون ويخطؤون بالليل والنهار ، ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ وعن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ الآية ، قال رسول الله ﷺ : « لَوْلَا عَفْوُ اللَّهِ وَتَجَاوُزُهُ مَا هَنَأَ أَحَدًا العَيْشُ ، وَلَوْلَا وَعِيدُهُ وَعِقَابُهُ لَاتَّكَلَ كُلُّ أَحَدٍ » (٢) .

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣١١٨) .

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٩/٢٨٥) .

يقول تعالى إخبارًا عن المشركين أنهم يقولون كفرًا وعنادًا : لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون ، كما تعنتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهبًا ، وأن يزيح عنهم الجبال ويجعل مكانها مروجًا وأنهارًا ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ أي إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها ، وقوله : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ قال ابن عبّاس : أي ولكل قوم داع ، وقال العوفي عن ابن عبّاس في الآية : يقول الله تعالى : أنت يا محمد منذر ، وأنا هادي كل قوم ، وعن مجاهد : أي نبي كقوله : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ وعن عكرمة وأبي الضحى قالا : هو محمّد ﷺ . وقال مالك : يدعوهم إلى الله ﷻ .

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ .

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء ، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ أي ما حملت من ذكر أو أنثي ، أو حسن أو قبيح ، أو شقي أو سعيد ، أو طويل العمر أو قصيره ، كقوله تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ﴾ أي خلقكم طورًا من بعد طور ، وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ في بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفة ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقة مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغة مِثْلَ ذلك ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ ، بِكَتْبِ رِزْقِهِ ، وَعُمْرِهِ ، وَعَمَلِهِ ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ » وفي الحديث الآخر « فَيَقُولُ المَلَكُ أَيْ رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى ؟ أَيْ رَبِّ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ؟ فَمَا الرِّزْقُ ؟ فَمَا الأَجَلُ ؟ فَيَقُولُ اللهُ وَيَكْتُبُ المَلَكُ » (١) .

وقال العوفي عن ابن عبّاس : ﴿ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ ﴾ يعني السقط ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ يقول ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تمامًا ، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ، ومن تحمل تسعة أشهر ، ومنهن من تزيد في الحمل ومنهن من تنقص ، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى ، وكل ذلك بعلمه تعالى . وقال الضحاك عن ابن عبّاس قال : ما نقصت من تسعة وما زاد عليها ، وقال الضحاك : وضعتني أمي وقد حملتني في بطنها سنتين ، وولدتني وقد نبتت ثنيتي . وعن عائشة قالت : لا يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما يتحرك ظل مغزل ، وقال مجاهد : ما ترى من الدم في حملها وما تزداد على تسعة أشهر .

وقال قتادة : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ أي بأجل ، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم وجعل لذلك أجلًا معلومًا . وفي الحديث الصحيح : أن إحدى بنات النبيّ ﷺ بعثت إليه أن ابنًا لها في الموت وأنها تحب أن يحضره ، فبعث إليها يقول : « إِنَّ للهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى ، فَمُرُوهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ » (٢) . وقوله : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ أي يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم ، ولا يخفى عليه منه شيء ﴿ ٱلْكَبِيرُ ﴾ الذي هو أكبر من كل شيء ﴿ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ أي على كل شيء ﴿ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ وقهر كل شيء فخضعت له

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٤) ومسلم في القدر (١) .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٨٤) ومسلم في الجنائز (١١) أحمد في مسنده (٥/٢٠٤) والبيهقي في السنن (٤/٦٥) .

الرقاب ودان له العباد طوعًا وكرهًا .

﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ .

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه وأنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به فإنه يسمعه ، لا يخفى عليه شيء كقوله : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ وقالت عائشة رضي الله عنها : سبحان الذي وسع سمعه الأصوات ، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وأنا في جنب البيت وإنه ليخفى عليّ بعض كلامها ، فأنزل الله ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ وقوله : ﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ ﴾ أي مختف في قعر بيته في ظلام الليل ﴿ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ أي ظاهر ماش في بياض النهار وضيائه ، فإن كلاهما في علم الله على السواء كقوله تعالى : ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه حرس بالليل وحرس بالنهار يحفظونه من الأسواء والحادثات ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات ، وصاحب الشمال يكتب السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه ، واحد من ورائه وآخر من قدامه ، فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلًا ، حافظان وكاتبان كما جاء في الصحيح : « يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ العَصْرِ ، فَيَصْعَدُ إِلَيْهِ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ - كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي ؟ فَيَقُولُونَ أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ » (١) وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ والمعقبات من الله هي الملائكة ، وقال عكرمة عن ابن عبّاس ﴿ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ قال : ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه ، وقال مجاهد : ما من عبد إلّا له ملك موكل يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما منها شيء يأتيه يريده إلّا قال له الملك : وراءك ، إلّا شيء أذن الله فيه فيصيبه .

وقال العوفي عن ابن عبّاس ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ يعني ولي السلطان يكون عليه الحرس ، وقال عكرمة في تفسيرها : هؤلاء الأمراء المواكب من بين يديه ومن خلفه ، وقال الضحاك في الآية : هو السلطان المحروس من أمر الله وهم أهل الشرك ، والظاهر والله أعلم أن مراد ابن عبّاس وعكرمة والضحاك بهذا أن حرس الملائكة للعبد يشبه حرس هؤلاء لملوكهم وأمرائهم .

وعن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنَ المَلَائِكَةِ » قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : « وَإِيَّايَ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ » (٢) .

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٩) ومسلم في المساجد (٢١٠) وأحمد في مسنده (٢/٤٨٦) .
(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٦٩) وأحمد في مسنده (١/٣٩٧) .

وقوله : ﴿ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ قيل المراد حفظهم له من أمر اللّه ، وقال قتادة : قال وفي بعض القراءات - يحفظونه بأمر اللّه - وقال أبو أمامة : ما من آدمي إلَّا ومعه ملك يذود عنه حتى يسلمه للذي قدّر له ، وقال أبو مجلز : جاء رجل من مراد إلى علي ﷺ وهو يصلي فقال : احترس فإن ناسًا من مراد يريدون قتلك ، فقال : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدّر ، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه ، إن الأجل جنة حصينة . وقال بعضهم : ﴿ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ بأمر اللّه كما جاء في الحديث أنهم قالوا : يا رسول اللّه أرأيت رقيًا نسترقي بها هل ترد من قدر اللّه شيئًا ؟ فقال : « هِيَ مِنْ قَدَرِ اللّه » (١) . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ قد ورد في حديث مرفوع ، عن علي بن أبي طالب على منبر الكوفة قال : كنت إذا أمسكت عن رسول اللّه ﷺ ابتدأني ، وإذا سألته عن الخبر أنبأني ، وإنه حدَّثني عن ربه ﷻ قال : « قَالَ الرَّبُّ : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَارْتِفَاعِي فَوْقَ عَرْشِي ، مَا مِنْ قَرْيَةٍ وَلَا أَهْلِ بَيْتٍ كَانُوا عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ مَعْصِيَتِي ثُمَّ تَحَوَّلُوا عَنْهَا إِلَى مَا أَحْبَبْتُ مِنْ طَاعَتِي إِلَّا تَحَوَّلْتُ لَهُمْ عَمَّا يَكْرَهُونَ مِنْ عَذَابِي إِلَى مَا يُحِبُّونَ مِنْ رَحْمَتِي » (٢) .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ .

يخبر تعالى أنه هو الذي يسخّر البرق وهو ما يرى من الشرر اللامع ساطعًا من خلال السحاب ، وعن ابن عبّاس كتب إلى أبي الجلد يسأله عن البرق فقال : البرق : الماء (٣) . وقوله ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ قال قتادة : خوفًا للمسافر يخاف أذاه ومشقته ، وطمعًا للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق اللّه ﴿ وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾ أي ويخلقها منشأة جديدة ، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض ، قال مجاهد : السحاب الثقال الذي فيه الماء . قال : ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ كقوله : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ وعن إبراهيم بن سعد أخبرني أبي قال : كنت جالسًا إلى جنب حميد ابن عبد الرّحمن في المسجد ، فمر شيخ من بني غفار فأرسل إليه حميد ، فلما أقبل قال : يا ابن أخي وسع فيما بيني وبينك ، فإنه قد صحب رسول اللّه ﷺ فجاء حتى جلس فيما بيني وبينه فقال له حميد : ما الحديث الذي حدثتني عن رسول اللّه ﷺ ؟ فقال له الشيخ : سمعت عن شيخ من بني غفار أنه سمع النبيّ ﷺ يقول : « إِنَّ اللّه يُنْشِيءُ السَّحَابَ فَيَنْطِقُ أَحْسَنَ النُّطْقِ وَيَضْحَكُ أَحْسَنَ الضحْكِ » (٤) وعن سالم عن أبيه قال : كان رسول اللّه ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال : « اللَّهُمَّ لَا تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَٰلِكَ » (٥) وعن أبي هريرة رفعه أنه كان إذا سمع الرعد قال : « سُبْحَانَ مَنْ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ » (٦) وعن أبي هريرة أيضًا أن رسول اللّه ﷺ قال : « قَالَ رَبُّكُمْ ﷻ : لَوْ أَنَّ عَبِيدِي أَطَاعُونِي لَأَسْقَيْتُهُمُ المَطَرَ بِاللَّيْلِ ، وَأَطْلَعْتُ

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٤٨) وابن ماجه في السنن (٣٤٢٧) والحاكم في المستدرك (٤٠٢/٤) .
(٢) ذكره المنذري في الترغيب (٢٣٤/٤) . (٣) ذكره الطبري في تفسيره (١٦٢/١٣) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٥/٥) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٠/٢) والبيهقي في السنن (٣٦٢/٣) والحاكم في المستدرك (٢٨٦/٤) .
(٦) ذكره القرطبي في تفسيره (٢٩/٩) والطبري في تفسيره (١٦٢/١٣) .

عَلَيْهِمُ الشَّمْسَ بِالنَّهَارِ ، وَلَمَا أَسْمَعْتُهُمْ صَوْتَ الرَّعْدِ » (١) وعن ابن عبّاس قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِذَا سَمِعْتُمُ الرَّعْدَ فَاذْكُرُوا اللَّه فَإِنَّهُ لَا يُصِيبُ ذَاكِرًا » (٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾ أي يرسلها نقمة ينتقم بها ممن يشاء ، ولهذا تكثر في آخر الزمان ، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال : « تَكْثُرُ الصَّوَاعِقُ عِنْدَ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ ، حَتَّى يَأْتِيَ الرَّجُلُ الْقَوْمَ فَيَقُولُ مَنْ صُعِقَ قَبْلَكُمُ الغَدَاةَ ؟ فَيَقُولُونَ : صُعِقَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ » (٣) . وقد روي في سبب نزولها عن أنس أن رسول اللَّه ﷺ بعث رجلًا مرة إلى رجل من فراعنة العرب فقال : « اذْهَبْ فَادْعُهُ لِي » قال : فذهب إليه فقال : يدعوك رسول اللَّه ﷺ ، فقال له : من رسول اللَّه ؟ وما اللَّه ؟ أمن ذهب هو أم من فضة هو أم من نحاس هو ؟ قال : فرجع إلى رسول اللَّه ﷺ فأخبره ، فقال : قد خبرتك أنه أعتى من ذلك ، قال لي كذا وكذا ، فقال له : « ارْجِعْ إِلَيْهِ الثَّانِيَةَ » فذهب فقال له مثلها ، فرجع إلى رسول اللَّه ﷺ فقال : يا رسول اللَّه قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك ، فقال : « ارْجِعْ إِلَيْهِ فَادْعُهُ» فرجع إليه الثالثة قال : فأعاد عليه ذلك الكلام فبينما هو يكلمه إذ بعث اللَّه ﷻ سحابةً حيال رأسه فرعدت ، فوقعت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه ، فأنزل اللَّه ﷻ ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ ﴾ الآية (٤) .

وقال قتادة : ذكر لنا أن رجلًا أنكر القرآن وكذّب النبيّ ﷺ ، فأرسل اللَّه صاعقة فأهلكته ، وأنزل اللَّه ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ ﴾ الآية ، وذكروا في سبب نزولها قصة عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة لما قدما على رسول اللَّه ﷺ المدينة فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر ، فأبى عليهما رسول اللَّه ﷺ فقال له عامر بن الطفيل لعنه اللَّه : أما واللَّه لأملأنها عليك خيلًا جردًا ورجالًا مردًا ، فقال له رسول اللَّه ﷺ : « يَأْبَى اللَّه عَلَيْكَ ذَلِكَ وَأَبْنَاءُ قَيْلَةَ » يعني الأنصار ، ثم إنهما همّا بالفتك برسول اللَّه ﷺ فجعل أحدهما يخاطبه والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه ، فحماه اللَّه تعالى منهما وعصمه ، فخرجا من المدينة فانطلقا في أحياء العرب يجمعان الناس لحربه عليه الصلاة والسلام ، فأرسل اللَّه على أربد سحابة فيها صاعقة فأحرقته ، وأما عامر بن الطفيل فأرسل اللَّه عليه الطاعون فخرجت فيه غدة عظيمة فجعل يقول : يا آل عامر غدة كغدة البكر وموت في بيت سلولية ، حتى ماتا لعنهما اللَّه ، وأنزل اللَّه في مثل ذلك : ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ ﴾ (٥) وفي ذلك يقول لبيد بن ربيعة أخو أربد يرثيه :

أَخْشَى عَلَى أَرْبد الحُتُوفَ وَلَا ... أَرْهَبُ نَوْءَ السِّمَاكِ وَالأَسدِ
فَجَعَنِي الرَّعْدُ وَالصَّوَاعِقُ بِالْـ ... ـفَارِسِ يَوْمَ الكَرِيهَةِ النَّجدِ (٦)

وقوله : ﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ ﴾ أي يشكون في عظمته وأنه لا إله إلّا هو ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ قال ابن جرير : مما حلته في عقوبة من طغى عليه وعتا وتمادى في كفره (٧) ، وعن علي رضي الله عنه ﴿ وَهُوَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٩/٢) والحاكم في المستدرك (٢٥٦/٤) .
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥١/٤) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦٤/٣) .
(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٣٤٦٨) والهيثمي في مجمع الزوائد (٤٢/٧) .
(٥) أسباب النزول للواحدي (ص : ٢٠٤) ، وتفسير الطبري (١٥٨/١٣) .
(٦) الحتوف : الآجال . والنجد : الشديد ، (انظر : ديوان لبيد ص : ١٥٨) مطبعة حكومة الكويت ١٩٨٤ .
(٧) تفسير الطبري (١٦٦/١٣) .

شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي شديد الأخذ ، وقال مجاهد : شديد القوة .

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ .

قال علي بن أبي طالب ﷺ : ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾ قال : التوحيد ، وقال محمّد بن المنكدر ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾ لا إله إلّا الله ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ الآية ، أي ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله ﴿ كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ ﴾ قال علي بن أبي طالب : كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده ، فهو لا يناله أبدًا بيده ، فكيف يبلغ فاه ؟ وقال مجاهد : ﴿ كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ ﴾ يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبدًا . وقيل : المراد كقابض يده على الماء فإنه لا يحكم منه على شيء كما قال الشاعر :

فَأَصْبحتُ مِمّا كَانَ بَيْني وبَيْنَهَا مِنَ الوُدِّ مِثْلَ القَابِضِ الماءَ بِاليَدِ (١)

ومعنى هذا الكلام أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلًّا للشرب ، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهًا غيره لا ينتفعون بهم أبدًا في الدنيا ولا في الآخرة ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ .

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾ .

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء ، ولهذا يسجد له كل شيء طوعًا من المؤمنين ، وكرهًا من الكافرين ﴿ وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ ﴾ أي البكر ﴿ وَٱلْءَاصَالِ ﴾ وهو جمع أصيل وهو آخر النهار .

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ .

يقرر تعالى أنه لا إله إلّا هو لأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السموات والأرض ، وهو ربها ومدبرها ، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم ، وأولئك الآلهة لا تملك لأنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفعًا ولا ضرًّا ، فهل يستوي مَن عبَد هذه الآلهة مع الله ، ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه ؟ ولهذا قال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ أي أجعل هؤلاء المشركين مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره ، أي ليس الأمر كذلك ، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله ، ولا ندّ له ولا عدل له ، ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة ﴿ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم معترفون أنها مخلوقة له عبيد له ، كما كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلّا شريكًا هو لك تملكه وما ملك (٢) وكما أخبر تعالى عنهم في قوله : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ فأنكر تعالى عليهم ذلك حيث

(١) البيت للأحوص بن محمد الأنصاري . انظر : مجاز القرآن لأبي عبيدة (٣٢٧/١) .
(٢) أخرجه مسلم في الحج (٢٢) .

اعتقدوا ذلك وهو تعالى لا يشفع أحد عنده إلّا بإذنه ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ .

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾ .

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه ، والباطل في اضمحلاله وفنائه ، فقال تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ ﴾ أي مطرًا ﴿ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾ أي أخذ كل واد بحسبه ، فهذا كبير وسع كثيرًا من الماء ، وهذا صغير وسع بقدره ، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها ، فمنها ما يسع علمًا كثيرًا ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها ، ﴿ فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ ﴾ أي فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبد عال عليه ، هذا مثلٌ . وقوله : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ ﴾ الآية ، هذا هو المثل الثاني ، وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ابتغاء حلية أي ليجعل حلية أو نحاسًا أو حديدًا فيجعل متاعًا ، فإنه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه ﴿ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ ﴾ أي إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام له ، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولامع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك في النار ، بل يذهب ويضمحل ، ولهذا قال : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ ﴾ أي لا ينتفع به ، بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي ، ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح ، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شيء ولا يبقى إلّا الماء ، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به ، ولهذا قال : ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾ .

وقال بعض السلف : كنت إذا قرأت مثلًا من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لأن اللَّه تعالى يقول : ﴿ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴾ قال ابن عباس : هذا مثل ضربه اللَّه احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها ، فأما الشك فلا ينفع معه العمل ، وأما اليقين فينفع اللَّه به أهله ، وهو قوله : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ ﴾ وهو الشك ﴿ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ وهو اليقين ، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار ، فكذلك يقبل اللَّه اليقين ويترك الشك . وقال العوفي عن ابن عبّاس قوله : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ ﴾ يقول : احتمل السيل ما في الوادي من عود ودمنة ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ﴾ فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد ، فللنحاس والحديد خبث ، فجعل اللَّه مثل خبثه كزبد الماء ، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة ، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت ، فجعل ذاك مثل العمل الصالح يبقى لأهله ، والعمل السّيئ يضمحل عن أهله كما يذهب هذا الزبد ، وكذلك الهدى والحق جاءا من عند اللَّه ، فمن عمل بالحق كان له وبقي كما بقي ما ينفع الناس في الأرض ، وكذلك الحديد لا يستطاع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار فتأكل خبثه ويخرج جيده فينتفع به فكذلك يضمحل الباطل ، فإذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال فيزيغ الباطل ويهلك ، وينتفع أهل الحق بالحق . وقد ضرب سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة للمنافقين

مثلين ناريًا ومائيًا وهما قوله ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ﴾ الآية ، ثم قال : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ الآية .

وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مثلين ، أحدهما : قوله ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ ﴾ الآية ، والسراب إنما يكون في شدة الحر ، ولهذا جاء في الصحيحين فيقال لليهود يوم القيامة : فما تريدون ؟ فيقولون : أي ربنا عطشنا فاسقنا ، فيقال : ألا تردون ؟ فيردون النار فإذا هي كسراب يحطم بعضها بعضًا (١)، ثم قال تعالى في المثل الآخر ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ ﴾ الآية ، وعن أبي موسى الأشعري ﷺأن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّه بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ قَبِلَتِ المَاءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَزَرَعُوا وَسَقَوْا وَزرعُوا ، وَأَصَابَتْ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ اللَّهُ بِمَا بَعَثَنِي وَنَفَعَ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ » (٢) فهذا مثل مائيٌّ ، وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي يَقَعْنَ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا ، وَجَعَلَ يَحْجزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا - قَالَ - فَذَلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ ، أَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ فَتَغْلِبُونني فَتَقْتَحِمُون فِيهَا » (٣) ، فهذا مثلٌ ناريٌّ .

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ .

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال : ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ﴾ أي أطاعوا الله ورسوله وانقادوا لأوامره وصدّقوا أخباره الماضية والآتية فلهم ﴿ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ وهو الجزاء الحسن ، كقوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ ﴾ أي لم يطيعوا الله ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ أي في الدار الآخرة لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهبًا ومثله معه لافتدوا به ، ولكن لا يتقبل منهم لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفًا ولا عدلًا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي في الدار الآخرة ، أي يناقشون على النقير والقطمير والجليل والحقير ، ومن نوقش الحساب عذب ، ولهذا قال : ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ .

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

يقول تعالى : لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يا محمّد ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه ، بل هو كله حق يصدق بعضه

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٧٣) ومسلم في الإيمان (٣٠٢) وأحمد في مسنده (٣٦٨/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في العلم (٧٩) ومسلم في الفضائل (١٥) وأحمد في مسنده (٣٩٩/٤) .
(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٢٦) ومسلم في الفضائل (٢١) وأحمد في مسنده (٣١٢/٢) .

بعضًا ، فأخباره كلها حق ، وأوامره ونواهيه عدل ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمّد ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يفهمه ، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدّقه ولا اتبعه : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ أي أفهذا كهذا ؟ لا استواء . وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة ، جعلنا الله منهم .

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبى الدار ، وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾ وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب ، وإذا ائتمن خان . ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ من صلة الأرحام والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ أي فيما يأتون وما يذرون من الأعمال ، يراقبون في ذلك ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة ، فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية . ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ أي عن المحارم والمآثم ففطموا أنفسهم عنها لله ﷻ ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي ﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ أي على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم زوجات وقرابات وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ أي في السر والجهر ، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال ، آناء الليل وأطراف النهار ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ أي يدفعون القبيح بالحسن ، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبرًا واحتمالاً وصفحًا وعفوًا ولهذا قال مخبرًا عن هؤلاء السعداء المتصفين بهؤلاء الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار ، ثم فسّر ذلك بقوله : ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ والعدن الإقامة أي جنات إقامة يخلدون فيها .

وقوله : ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾ أي يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ممن هو صالح لدخول الجنّة من المؤمنين ، لتقر أعينهم بهم ، حتى أنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتنانًا من الله وإحسانًا من غير تنقيص للأعلى عن درجته ، وقوله : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ أي وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا للتهنئة بدخول الجنّة دار السلام في جوار الصدّيقين والأنبياء والرسل الكرام .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « هَلْ تَدْرُونَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللَّه ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ الفُقَرَاءُ المُهَاجِرُونَ الَّذِينَ تُسَدُّ بِهِم الثُّغُورُ ، وَتُتَّقَى بِهِم المَكَارِهُ ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ في صَدْرِهِ لَا يَسْتَطِيعُ

لَهَا قَضَاءً ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ : ائْتُوهُمْ فَحَيُّوهُمْ فَتَقُولُ الملَائِكَةُ : نَحْنُ سُكَّانُ سَمَائِكَ وَخِيرَتُكَ مِنْ خَلْقِكَ أَفَتَأْمُرُنَا أَنْ نَأْتِيَ هؤلاء وَنُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ ؟ فَيَقُولُ : إِنَّهُمْ كَانُوا عِبَادًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ، وتُسَدُّ بِهِمِ الثُّغُورُ ، وَتُتَّقَى بِهِمِ المَكَارِهُ ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً - قال - فَتَأْتِيهِمِ الملَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ فَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ »[١] .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ .

هذا حال الأشقياء وصفاتهم وذكر مآلهم في الآخرة ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون ، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا ، فأولئك كانوا يوفون بعهد اللَّه ويصلون ما أمر اللَّه به أن يوصل ، وهؤلاء ﴿ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ كما ثبت في الحديث : « آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ » وفي رواية « وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خاصَمَ فَجَرَ »[٢] ولهذا قال : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ ﴾ وهي الإبعاد عن الرحمة ﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ وهي سوء العاقبة والمآل ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ .

﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ .

يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء ويقتر على من يشاء ، لما له في ذلك من الحكمة والعدل ، وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استدراجًا لهم وإمهالًا كما قال : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ وعن المستورد أخي بني فهر قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي اليَمِّ ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ » وأشار بالسبابة[٣] ، وفي الحديث الآخر أن رسول اللَّه ﷺ مر بجدي أسك ميت والأسك الصغير الأذنين فقال : « وَاللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَى أَهْلِهِ حِينَ أَلْقَوهُ »[٤] .

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ .

يخبر تعالى عن قيل المشركين : ﴿ لَوْلَآ ﴾ أي هلا ﴿ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ كقوله : ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ وفي الحديث أن اللَّه أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٨/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٨٢) وأحمد في مسنده (٣٥٧/٢) والبيهقي في السنن (٢٨٨/٦) .
(٣) أخرجه مسلم في الجنة (٥٥) وأحمد في مسنده (٢٢٨/٤) .
(٤) أخرجه مسلم في الزهد (٢) وأحمد في مسنده (٣٦٥/٣) .

ذهبًا ، وأن يجري لهم ينبوعًا ، وأن يزيح الجبال من حول مكة فيصير مكانها مروج وبساتين : إن شئت يا محمّد أعطيتهم ذلك ، فإن كفروا أعذبهم عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين ، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة فقال : « بَلْ تَفْتَحُ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ » (١) ولهذا قال لرسوله : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أي هو المضل والهادي ، سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا أو لم يجبهم إلى سؤالهم ، فإن الهداية والإضلال ليس منوطًا بذلك ولا عدمه ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أي ويهدي إليه من أناب إلى الله ورجع إليه واستعان به وتضرع لديه ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي تطيب وتركن إلى جانب الله ، وتسكن عند ذكره ، وترضى به مولى ونصيرًا ، ولهذا قال : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ أي هو حقيق بذلك . وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ عن ابن عباس : فرح وقرة عين ، وقال عكرمة : نعم ما لهم ، وقال الضحاك : غبطة لهم ، وقال إبراهيم النخعي : خير لهم ، وقال قتادة : هي كلمة عربية يقول الرجل : طوبى لك ، أي أصبت خيرًا ، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ ﴾ قال : هي أرض الجنة بالحبشية ، وقال العوفي عن ابن عبّاس : لما خلق الله الجنة وفرغ منها قال ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ وذلك حين أعجبته .

وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أن رجلًا قال : يا رسول الله ، طوبى لمن رآك وآمن بك . قال : « طُوبَى لمن رَآني وَآمَنَ بِي ، وَطُوبَى ثُمَّ طُوبَى ثُمَّ طُوبَى لِمَنْ آمَنَ بِي ولم يَرَنِي » قال له رجل : وما طوبى ، قال : « شَجَرَةٌ فِي الجَنَّةِ مَسِيرَتُهَا مِائَةِ عَامٍ ، ثِيَابُ أَهْلِ الجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا » (٢) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « فِي الجَنَّةِ شَجَرَة يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ ، اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ » (٣) .

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ .

يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمّد في هذه الأمة ﴿ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أي تبلغهم رسالة الله إليهم ، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله ، وقد كُذّب الرسل من قبلك فلك بهم أسوة ، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك ، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم ، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي كيف نصرناهم وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة ، وقوله : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ أي هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرّحمن لا يقرّون به ؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرّحمن الرّحيم، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرّحمن الرّحيم وقالوا : ما ندري ما الرّحمن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٢/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٨/٥) والحاكم في المستدرك (٨٦/٤) .
(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٢) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٨) .

الرّحيم [(١)] ، وقد قال اللَّه تعالى ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ وعن عبد اللَّه بن عمر قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّ أَحَبَّ الأَسْمَاءِ إِلَى اللَّه عَبْدُ اللَّه وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ » [(٢)] ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي هذا الذي تكفرون به أنا مؤمن به معترف ، مقر له بالربوبية والإلهية هو ربي لا إله إلَّا هو ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي في جميع أموري ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ أي إليه أرجع وأنيب ، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه .

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ .

يقول تعالى مادحًا للقرآن الذي أنزله على محمّد ﷺ ومفضلًا له على سائر الكتب المنزلة قبله ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ ﴾ أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها ، أو تقطع به الأرض وتنشق ، أو تكلم به الموتى في قبورها ، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره ، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنسان والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ولا بسورة من مثله ، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به جاحدون له ﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ أي مرجع الأمور كلها إلى اللَّه ﷻ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ومن يضلل اللَّه فلا هادي له ، ومن يهد اللَّه فما له من مضل ، وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة ؛ لأنه مشتق من الجمع . فعن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ القُرْآنُ ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَابَّتِهِ أَنْ تُسْرَجَ ، فَكَانَ يَقْرَأُ القُرْآنَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُسْرَجَ دَابَّتُهُ ، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ » [(٣)] والمراد بالقرآن هو الزبور .

وقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ أي من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا ﴿ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ فإنه ليس ثمّ حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في القول والنفوس ، من هذا القرآن الذي لو أنزله اللَّه ﷻ على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية اللَّه ، وثبت في الصحيح أن رسول اللَّه ﷺ قال : « مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ البَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أوحاه اللَّه إِلَيَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ » [(٤)] معناه أن معجزة كل نبي انقرضت بموته ، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد ، لا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا يشبع منه العلماء ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه اللَّه ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله اللَّه . وعن عطية العوفي قال : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ ﴾ الآية ، قالوا لمحمّد ﷺ : لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها ، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح ، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه ، فأنزل اللَّه هذه الآية ، قال : قلت : هل

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢٥١) .

(٢) أخرجه مسلم في الآداب (٢) بلفظ « إن أحب أسمائكم .. » والبيهقي في السنن (٩/٣٠٦) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٣) وأحمد في مسنده (٢/٣١٤) .

(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٧٤) ومسلم في الإيمان (٢٣٩) .

تروون هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبيّ ﷺ ؟ قال : نعم ، عن أبي سعيد عن النبيّ ﷺ ، وكذا روي عن ابن عبّاس والشعبي وقتادة والثوري وغير واحد في سبب نزول هذه الآية والله أعلم . وقال قتادة : لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم لفعل بقرآنكم . وقوله : ﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ قال ابن عبّاس : أي لا يصنع من ذلك إلّا ما شاء ولم يكن ليفعل . ﴿ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ أفلم يعلم الذين آمنوا ، وقرأ آخرون : أفلم يتبين الذين آمنوا ﴿ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ، وقال أبو العالية : قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا ، ولو يشاء الله لهدى الناس جميعًا .

وقوله : ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ أي بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا . قال الحسن ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ أي القارعة ، وهذا هو الظاهر من السياق ، وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ ﴾ قال : سرية ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ قال محمّد ﷺ ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ﴾ قال : فتح مكة ، وقال العوفي عن ابن عبّاس ﴿ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ ﴾ قال : عذاب من السماء ينزل عليهم ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ يعني نزول رسول الله ﷺ بهم ، وقال عكرمة في رواية عن ابن عبّاس ﴿ قَارِعَةٌ ﴾ أي نكبة ، وكلهم قال : ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ﴾ يعني فتح مكة ، وقال الحسن البصرى : يوم القيامة ، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ أي لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة .

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ .

يقول تعالى مسليًا لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ أي فلك فيهم أسوة ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي أنظرتهم وأجلتهم ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ أخذة رابية ، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم وأمليت لهم كما قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ وفي الحديث « إِنَّ اللَّه لَيُمْلِي لِلظَّالِم حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١) .

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة ، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر ولا يخفى عليه خافية ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ أفمن هو كذلك كالأصنام التي يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ولا تملك نفعًا لأنفسها ولا لعابديها ولا كشف ضر عنها ولا عن عابديها ؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه ، وهو قوله : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ أي عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أي أعلمونا بهم واكشفوا عنهم حتى يعرفوا ، فإنهم لا حقيقة لهم ، ولهذا قال : ﴿ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي لا وجود له ؛ لأنه لو كان لها وجود في الأرض لعلمها لأنه لا تخفى عليه خافية ﴿ أَم بِظَٰهِرٍ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٦) ومسلم في البر والصلة (٦١) والبيهقي في السنن (٦/٩٤) .

﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ قال مجاهد بظن من القول ، وقال الضحاك وقتادة : بباطل من القول ، أي إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر وسميتموها آلهة ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ قال مجاهد : قولهم أي ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار كقوله تعالى : ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم﴾ الآية ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ من قرأها بفتح الصاد معناه أنه لما زين لهم ما فيه وأنه حق ، دعوا إليه وصدوا الناس عن اتباع طريق الرسل ، ومن قرأها بالضم أي بما زين لهم من صحة ما هم عليه صدوا به عن سبيل الله ، ولهذا قال : ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [1] .

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ .

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار ، فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي بأيدي المؤمنين قتلًا وأسرًا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي المدخر مع هذا الخزي في الدنيا ﴿أَشَقُّ﴾ أي من هذا بكثير كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين : «إِنَّ عَذَابَ الدُّنيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الآخِرَةِ» [2] وهو كما قال صلوات الله وسلامه عليه ، فإن عذاب الدنيا له انقضاء ، وذاك دائم أبدًا في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفًا ، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته ، كما قال تعالى : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ ولهذا قرن هذا بقوله : ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي صفتها ونعتها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي سارحة في أرجائها وجوانبها ، وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيرًا ، أي يصرفونها كيف شاءوا وأين شاؤوا كقوله : ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ﴾ الآية .

وقوله : ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أي فيها الفواكه والمطاعم والمشارب لا انقطاع ولا فناء ، وما روي عن ابن عباس في صلاة الكسوف وفيه قالوا : يا رسول الله رأيناك تناولت شيئًا في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت فقال : «إِنِّي رَأَيْتُ الجَنَّةَ - أَوْ أُرِيتُ الجَنَّةَ - فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا وَلَوْ أَخَذْتُهُ لأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا» [3] وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «يَأْكُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ وَيَشْرَبُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَبُولُونَ ، طَعَامُهُمْ جُشَاءٌ كَرِيحِ المِسْكِ ، وَيُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّقْدِيسَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ» [4] .

وعن تمام بن عقبة سمعت زيد بن أرقم قال : جاء رجل من أهل الكتاب فقال : يا أبا القاسم : تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ؟ قال : «نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالجِمَاعِ وَالشَّهْوَةِ» قال : إن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس في

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿وصُدوا﴾ بضم الصاد على ما لم يسم فاعله ، وقرأ الباقون ﴿وصَدوا﴾ بفتح الصاد (انظر حجة القراءات ص ٣٧٣ ، ٣٧٤) .
(٢) أخرجه مسلم في اللعان (٤) .
(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٧٤٨) ومسلم في الكسوف (١٧) .
(٤) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (١٩) وأحمد في مسنده (٣٤٩/٣) .

الجنة أذى؟ قال : « تَكُونُ حَاجَةُ أَحَدِهِمْ رَشْحًا يَفِيضُ مِنْ جُلُودِهِمْ كَرِيحِ المِسْكِ فَيَضْمُرُ بَطْنُهُ » (١) .

وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ .

وكثيرًا ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار ليرغب في الجنة ويحذّر من النار ، ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر قال بعده ﴿ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وهم قائمون بمقتضاه ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أي من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به كما قال تعالى ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ أي إن كان ما وعدنا الله به في كتبنا من إرسال محمّد ﷺ حقًّا وصدقًا مفعولًا لا محالة وكائنًا ، فسبحانه ما أصدق وعده فله الحمد وحده . وقوله : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ﴾ أي ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك وقال مجاهد ﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ﴾ أي بعض ما جاءك من الحق ، وهذا كما قال تعالى ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ الآية ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ﴾ أي إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له ، كما أرسل الأنبياء من قبلي ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ ﴾ أي إلى سبيله أدعو الناس ﴿ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾ أي مرجعي ومصيري . وقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ أي وكما أرسلنا قبلك المرسلين وأنزلنا عليهم الكتب من السماء كذلك أنزلنا عليك القرآن محكمًا معربًا شرفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي وقوله : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾ أي آراءهم ﴿ بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ أي من الله سبحانه ﴿ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة ، بعدما صاروا إليه من سلوك السنّة النبوية والمحجة المحمديّة على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ .

يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمّد رسولًا بشريًا ، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشرًا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ويأتون الزوجات ويولد لهم ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأَقُومُ وَأَنَامُ ، وَآكُلُ اللَّحْمَ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » (٢)

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٧/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٣) ومسلم في النكاح (٥) وأحمد في مسنده (٤٠٩/٥) .

وقال أبو أيوب : قال رسول الله ﷺ : «أَرْبَعٌ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ : التَّعَطُّرُ وَالنِّكَاحُ وَالسِّوَاكُ وَالْحِنَّاءُ »[١].

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي لم يكن يأتي قومه بخارق إلَّا إذا أذن له فيه ليس ذلك إليه ، بل إلى الله ﷻ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أي لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها ، وكل شيء عنده بمقدار ، وكان الضحاك بن مزاحم يقول في قوله : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أي لكل كتاب أجل ، يعني لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضروبة عند الله ومقدار معين فلهذا ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ منها ﴿ وَيُثْبِتُ ﴾ يعني حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، وقوله : ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ اختلف المفسرون في ذلك ، فعن ابن عبّاس : يدبر أمر السنّة فيمحو الله ما يشاء إلَّا الشقاء والسعادة والحياة والموت ، وفي رواية ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ قال : كل شيء إلَّا الموت والحياة والشقاء والسعادة ، فإنه قد فرغ منهما . وقال مجاهد : إلَّا الحياة والموت والشقاء والسعادة فإنهما لا يتغيران . وقال منصور : سألت مجاهدًا فقلت : أرأيت دعاء أحدنا يقول : اللهم إن كان اسمي في السعداء فأثبته فيهم ، وإن كان في الأشقياء فامحه عنهم واجعله في السعداء ، فقال : حسن ، ثم لقيته بعد ذلك بحول وأكثر فسألته عن ذلك . فقال : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ الآيتين ، قال يقضي في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو مصيبة ، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء ، فأما كتاب السعادة والشقاوة فهو ثابت لا يغير .

ومعنى هذه الأقوال أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها ويثبت منها ما يشاء ، وقد يستأنس لهذا القول بما روي عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ ، وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ »[٢] وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : «يُفْتَحُ الذِّكْرُ فِي ثَلَاثِ سَاعَاتٍ يَبْقَيْنَ مِنَ اللَّيْلِ ، فِي السَّاعَةِ الْأُولَى مِنْهَا يَنْظُرُ فِي الذِّكْرِ الَّذِي لَا يَنْظُرُ فِيهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ ، فَيَمْحُو مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ »[٣] .

وقال عكرمة عن ابن عبّاس : الكتاب كتابان فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . وقال العوفي عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يقول : هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو ، والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية الله وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله ، وهو الذي يثبت . وروي عن سعيد بن جبير أنها بمعنى ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ يقول يبدل ما يشاء فينسخه ، ويثبت ما يشاء فلا يبدله ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ وجملة ذلك عنده في أم الكتاب الناسخ وما يبدل وما يثبت كل ذلك في كتاب .

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ۝٤٠ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢١/٥) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٧/٥) .
(٣) ذكره الطبري في تفسيره (٢٢٣/١٣) .

نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

يقول تعالى لرسوله : ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ يا محمّد بعض الذي نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ أي قبل ذلك ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ أي إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله ، وقد فعلت ما أمرت به ﴿ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ أي حسابهم وجزاؤهم ، وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ قال ابن عبّاس : أو لم يروا أنا نفتح لمحمّد ﷺ الأرض بعد الأرض ، وقال في رواية : أو لم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العمران في ناحية ، وقال مجاهد وعكرمة ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ قال : خرابها ، وقال الحسن والضحاك : هو ظهور المسلمين على المشركين ، وقال العوفي عن ابن عبّاس : نقصان أهلها وبركتها ، وقال ابن عباس في رواية : خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها . والقول الأول أولى وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية .

﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ برسلهم وأرادوا إخراجهم من بلادهم فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين كقوله : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ ، وقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ أي أنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر ، وسيجزي كل عامل بعمله ﴿ وَسَيَعْلَمُ الكافر ﴾ والقراءة الأخرى ﴿ الْكُفَّارُ ﴾ (١) ﴿ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ أي لمن تكون الدائرة والعاقبة لهم أو لأتباع الرسل ، كلا بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة ولله الحمد والمنة .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ .

يقول تعالى يكذبك هؤلاء الكفار ويقولون : ﴿ لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ أي ما أرسلك الله ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي حسبي الله هو الشاهد عليّ وعليكم ، شاهد عليّ فيما بلّغت عنه من الرسالة ، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان . وقوله : ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ قيل : نزلت في عبد الله بن سلام ، قاله مجاهد وهذا القول غريب لأن هذه الآية مكية ، وعبد الله ابن سلام إنما أسلم في أول مقدم النبيّ ﷺ المدينة ، والأظهر في هذا ما قاله العوفي عن ابن عباس قال : هم من اليهود والنصارى ، وقال قتادة : منهم ابن سلام وسلمان وتميم الداري ، وقال مجاهد في رواية عنه : هو الله تعالى ، وكان سعيد بن جبير ينكر أن يكون المراد بها عبد الله بن سلام ، ويقول : هي مكية وكان يقرؤها ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عُلِمَ الْكِتَابِ ﴾ ويقول : من عند الله .

والصحيح في هذا أن ﴿ وَمَنْ عِندَهُ ﴾ اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمّد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به ، كما قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾ الآية وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة . وقد ورد في حديث الأحبار عن عبد الله بن سلام بأنه أسلم بمكة قبل الهجرة .

(١) قرأ المدنيان وابن كثير وأبو عمرو ﴿ الكافر ﴾ على التوحيد والباقون ﴿ الكفار ﴾ على الجمع - (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٢٩) .

سورة إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ ﴾ أي هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمّد وهو القرآن العظيم الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء ، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض ، إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم ﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ أي إنما بعثناك يا محمّد بهذا الكتاب لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي ، إلى الهدى والرشد وقوله : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أي هو الهادي لمن قدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ﴾ أي العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب ، بل هو القاهر لكل ما سواه ﴿ ٱلْحَمِيدِ ﴾ أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وأمره ونهيه ، الصادق في خبره . وقوله : ﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ قرأ بعضهم مستأنفًا مرفوعًا ، وقرأ آخرون على الإتباع صفة للجلالة [(١)] ، وقوله : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ أي ويل لهم يوم القيامة ؛ إذ خالفوك يا محمّد وكذبوك ، ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويعملون للدنيا ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وهي اتباع الرسل ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ ﴾ أي ويحبون أن تكون سبيل الله عوجًا مائلة عائلة ، وهي مستقيمة في نفسها لا يضرها من خالفها ولا من خذلها فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق لا يرجى لهم والحالة هذه صلاح .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

هذا من لطفه تعالى بخلقه أنه يرسل إليهم رسلًا منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم ، كما روي عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « لَمْ يَبْعَثِ اللَّه ﷻ نَبِيًّا إِلَّا بِلُغَةِ قَوْمِهِ » [(٢)] .

وقوله : ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ ﴾ أي بعد البيان وإقامة الحجة عليهم ، يضل الله من يشاء عن وجه الهدى ، ويهدي من يشاء إلى الحق ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في أفعاله ، فيضل من يستحق الإضلال ، ويهدي من هو أهل لذلك ، وقد كانت هذه سنته في خلقه أنه ما بعث نبيًّا في أمة إلَّا أن يكون بلغتهم ، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم ، واختص محمّد بن عبد الله رسول الله ﷺ بعموم الرسالة إلى سائر

---

(١) قرأ المدنيان وابن عامر ﴿ الله الذي ﴾ برفع الهاء في الحالين ووافقهم رويس في الابتداء والباقون بالخفض في الحالين . تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٢٩ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٨/٥) .

الناس ، كما ثبت عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً »[(١)] وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمّد وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور ، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا ، قال مجاهد : وهي التسع الآيات ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ ﴾ أي أمرناه قائلين له ﴿ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ أي ادعهم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال ، إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ أي بأياديه ونعمه عليهم في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه ، وإنجائه إياهم من عدوهم ، وفلقه لهم البحر ، وتظليله إياهم الغمام ، وإنزاله عليهم المنّ والسلوى إلى غير ذلك من النعم ، وعن أُبيّ بن كعب عن النبيّ ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ قال : « بِنِعَمِ اللَّه »[(٢)] وقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين لعبرة لكل صبار أي في الضراء ، شكور أي في السراء ، كما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِنَّ أَمْرَ المُؤْمِنِ كله عجب ، لا يقضي اللّه له قضاء إلا كان خيرًا له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له ، وإن أصابته سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ »[(٣)] .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن موسى حين ذكّر قومه بأيام اللّه عندهم ونعمه عليهم ؛ إذ أنجاهم من آل فرعون وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال ، حيث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم ويتركون إناثهم ، فأنقذهم اللّه من ذلك ، وهذه نعمة عظيمة ولهذا قال : ﴿ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ أي نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك أنتم عاجزون عن القيام بشكرها . وقيل وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿ بَلَآءٌ ﴾ أي اختبار عظيم . ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا واللّه أعلم ، كقوله تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ أي آذنكم وأعلمكم

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٨) ومسلم في المساجد (٣) وأحمد في مسنده (١٦١/٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٢/٥) .
(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٦٤) وأحمد في صحيحه (٣٣٣/٤) .

بوعده لكم ، ويحتمل أن يكون المعنى وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ وقوله : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ أي لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ ﴾ أي كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها ﴿ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ وذلك بسلبها عنهم وعقابه إياهم على كفرها ، وقد جاء الحديث : « إِنَّ العَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ » (١) .

وعن أنس قال : أتى النبيَّ ﷺ سائلٌ فأمر له بتمرة فلم يأخذها أو وحَّش بها - قال - وأتاه آخر فأمر له بتمرة ، فقال سبحان الله تمرة من رسول الله ﷺ فقال للجارية : « اذْهَبِي إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ ، فأعطيه الأَرْبَعِينَ دِرْهَمًا الَّتِي عِنْدَهَا » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ أي هو غني عن شكر عباده ، وهو الحميد المحمود وإن كفره من كفر ، كقوله : ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ﴾ الآية ، وعن أبي ذر عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال : « يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخركم وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا دَخَلَ الْبَحْرَ » (٣) فسبحانه وتعالى الغني الحميد .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ .

قال ابن جرير : هذا من تمام قول موسى لقومه ، يعني وتذكيره إياهم بأيام الله بانتقامه من الأمم المكذبة بالرسل ، وفيما قال ابن جرير نظر ، والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة ، فإنه قد قيل : إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة ، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقصصه عليهم لا شك أن تكون هاتان القصتان في التوراة والله أعلم . وبالجملة فالله تعالى قد قصّ علينا خبر قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل مما لا يحصي عددهم إلا الله ﷻ ﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ أي بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات . فعن عبد الله أنه قال في قوله : ﴿ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ كذب النسابون . وقوله : ﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ اختلف المفسرون في معناه ، قيل : معناه أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم بالسكوت عنهم لمّا دعوهم إلى الله ﷻ ، وقيل : بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيبًا لهم ، وقيل : بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل ، ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ فكأن هذا والله

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٢/٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٤/٣) .
(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٥) .

أعلم تفسير لمعنى ﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ وعن عبد الله في قوله : ﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ قال : عضوا عليها غيظًا ، وقد اختاره عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم ووجهه ابن جرير مختارًا له بقوله تعالى عن المنافقين : ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ وقال ابن عباس : لما سمعوا كلام الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ ﴾ الآية ، يقولون : لا نصدقكم فيما جئتم به ، فإن عندنا فيه شكا قويًا .

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة ، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاؤوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له قالت الرسل : ﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ وهذا يحتمل شيئين :

أحدهما : أفي وجوده شكٌّ ، فإن الفطر شاهدة بوجوده ، ومجبولة على الإقرار به ، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطرار فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده ، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما فلا بد لهما من صانع وهو الله لا إله إلّا هو خالق كل شيء وإلهه ومليكه .

والمعنى الثاني في قولهم : ﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ أي أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك وهو الخالق لجميع الموجودات ، ولا يستحق العبادة إلّا هو وحده لا شريك له ، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى .

وقالت لهم رسلهم : ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي في الدنيا ، فقالت لهم الأمم محاجين في مقام الرسالة بعد تقدير تسليمهم المقام الأول وحاصل ما قالوه : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أي كيف نتبعكم بمجرد قولكم ولما نر منكم معجزة ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ أي خارق نقترحه عليكم ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ أي صحيح إنا بشر مثلكم في البشرية ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ أي بالرسالة والنبوة ﴿ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ ﴾ على وفق ما سألتم ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي بعد سؤالنا إياه ، وإذنه في ذلك ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي في جميع أمورهم . ثم قالت الرسل : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي وما يمنعنا من التوكل عليه وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ﴾ أي من الكلام السيئ والأفعال السخيفة ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ

جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ .

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم ، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ ﴾ الآية . وكما قال قوم لوط : ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ ﴾ الآية ، وكان من صنعه تعالى أنه أظهر رسوله ونصره وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصارًا وأعوانًا وجندًا يقاتلون في سبيل الله تعالى ، ولم يزل يرقيه تعالى من شيء إلى شيء حتى فتح له مكة التي أخرجته ، ومكن له فيها وأرغم أنوف أعدائهم ، حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا ، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أي وعيدي هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة وخشي من وعيدي وهو تخويفي وعذابي .

وقوله : ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ ﴾ أي استنصرت الرسل ربها على قومها ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : استفتحت الأمم على أنفسها كما قالوا : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ويحتمل أن يكون هذا مرادًا وهذا مرادًا ، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر ، وقال الله تعالى للمشركين : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ ﴾ الآية ، والله أعلم ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أي متجبر في نفسه ﴿ عَنِيدٍ ﴾ معاند للحق كقوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾ وفي الحديث : « إِنَّهُ يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَتُنَادِي الخَلَائِقَ فَتَقُولُ : إِنِّي وُكِّلْتُ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » (١) . وقوله : ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ ﴾ وراء هنا بمعنى أمام كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ وكان ابن عباس يقرؤها (وكان أمامهم ملك) (٢) أي من وراء الجبار العنيد جهنم ، أي هي له بالمرصاد يسكنها مخلدًا يوم المعاد ، ويعرض عليها غدوًا وعشيًا إلى يوم التناد ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾ أي في النار ليس له شراب إلا من حميم وغساق ، فهذا حار في غاية الحرارة ، وهذا بارد في غاية البرد والنتن ، وقال مجاهد وعكرمة : الصديد من القيح والدم ، وقال قتادة : هو ما يسيل من لحمه وجلده ، وعن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت : قلت : يا رسول الله ما طينة الخبال ؟ قال : « صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ » وفي رواية « عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ » (٣) وعن أبي أمامة ﷺ عن النبيّ ﷺ في قوله : ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ ﴾ قال : « يُقَرَّبُ إِلَيْهِ فَيَتَكَرَّهُهُ ، فَإِذَا أُدْنِيَ مِنْهُ شَوَى وَجْهَهُ وَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رَأْسِهِ ، فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَعَ أَمْعَاءَهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ » (٤) يقول الله تعالى : ﴿ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ ﴾ أي يتغصصه ويتكرهه ، أي يشربه قهرًا وقسرًا لا يضعه في فمه حتى

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٣٦/٢) والترمذي بنحوه في جامعه (٢٥٧٤) .
(٢) وهي قراءة أبي بن كعب وابن مسعود . انظر زاد المسير (١٧٨/٥) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥/٢) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٥/٥) .

يضربه الملك بمطراق من حديد ، ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ أي يزدرده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته أو برده الذي لا يستطاع ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أي يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه ، قال عمرو بن ميمون بن مهران : من كل عظم وعصب وعرق ، وقال عكرمة : حتى من أطراف شعره ، وقال ابن جرير : أي من أمامه وخلفه ، وفي رواية وعن يمينه وشماله ومن فوقه ومن تحت أرجله ومن سائر أعضاء جسده . وقال الضحاك عن ابن عبّاس : أنواع العذاب الذي يعذبه اللَّه بها يوم القيامة في نار جهنم ، ليس منها نوع إلَّا يأتيه الموت منه لو كان الموت ، ولكن لا يموت لأن اللَّه تعالى قال : ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ ومعنى كلام ابن عبّاس ﷺ أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلَّا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت ، ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ أي وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ ، أي مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر .

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ .

هذا مثل ضربه تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره وكذبوه رسله ، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها ، فقال تعالى : ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ أي مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من اللَّه تعالى ؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء فلم يجدوا شيئًا ، ولا ألفوا حاصلًا إلَّا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ أي ذي ريح شديدة عاصفة قوية ، فلم يقدروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا ، إلَّا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم كقوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ وقوله في هذه الآية : ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ أي سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة ، حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة ، بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس ، أفليس الذي قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات والحركات المختلفات والآيات الباهرات ، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد وبراري وصحاري وقفار وبحار وأشجار ونبات وحيوان على اختلاف أصنافها وأشكالها وألوانها ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وقوله : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أي بعظيم ولا ممتنع ، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره أن يذهبكم ويأت بآخرين على غير صفتكم كما قال : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ .

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَبَرَزُوا ﴾ أي برزت الخلائق كلها برها وفاجرها لله الواحد القهار ، أي اجتمعوا له في براز من الأرض ، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحدًا ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ ﴾ وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ عن عبادة الله وحده لا شريك له ، وعن موافقة الرسل قالوا لهم : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أي مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي فهل تدفعون عنا شيئًا من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا ! فقالت القادة لهم : ﴿ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ ولكن حق علينا قول ربنا وسبق فينا وفيكم قدر الله ، وحقت كلمة العذاب على الكافرين ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أي ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إن أهل النار قال بعضهم لبعض : تعالوا فإنما أدرك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم إلى الله ﷻ ، تعالوا نبك ونتضرع إلى الله ، فبكوا وتضرعوا ، فلما رأوا أنه لا ينفعهم قالوا : إنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر ، تعالوا حتى نصبر فصبروا صبرًا لم ير مثله ، فلم ينفعهم ذلك ، فعند ذلك قالوا : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا ﴾ (١) الآية .

قلت : والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ۝ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ .

وأما تخاصمهم في المحشر فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ .

يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعد ما قضى الله بين عباده فأدخل المؤمنين الجنات ، وأسكن الكافرين الدركات ، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذ خطيبًا ليزيدهم حزنًا إلى حزنهم ، وغبنًا إلى غبنهم ، وحسرة إلى حسرتهم فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾ أي على ألسنة رسله ، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة ، وكان وعدًا حقًّا وخبرًا صدقًا ، وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٣/٢٦٠) .

كما قال الله تعالى : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ ثم قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ أي ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه دليل ولا حجة فيما وعدتكم به ﴿ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ بمجرد ذلك هذا ، وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿ فَلَا تَلُومُونِي ﴾ اليوم ﴿ وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾ فإن الذنب لكم لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ أي بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾ أي بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ قال قتادة أي بسبب ما أشركتمون من قبل . وقال ابن جرير يقول : إني جحدت أن أكون شريكا لله ﷻ (١) .

وهذا الذي قاله هو الراجح كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ . وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

والظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا ، ولكن قد ورد في حديث عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَقَضَى بَيْنَهُمْ فَفَرَغَ مِنَ الْقَضَاءِ ، قَالَ الْمُؤْمِنُونَ : قَدْ قَضَى بَيْنَنَا رَبُّنَا فَمَنْ يَشْفَعُ لَنَا ؟ فَيَقُولُونَ : انْطَلِقُوا بِنَا إِلَى آدَمَ ، وَذَكَر نوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ، فَيَقُولُ عِيسَى : أَدُلُّكُمْ عَلَى النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ، فَيَأْتُونِي فَيَأْذَنُ اللَّهُ لِي أَنْ أَقُومَ إِلَيْهِ ، فَيَثُورُ مِنْ مَجْلِسِي مِنْ أَطْيَبِ رِيحٍ شَمَّهَا أَحَدٌ قَطُّ ، حَتَّى آتِي رَبِّي فَيُشَفِّعَنِي ، وَيَجْعَلُ لِيْ نُورًا مِنْ شَعْرِ رَأْسِي إِلَى ظُفْرِ قَدَمِي ، ثُمَّ يَقُولُ الْكَافِرُون : هَذَا قَدْ وَجَدَ الْمُؤْمِنُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ فَمَنْ يَشْفَعُ لَنَا ؟ مَا هُوَ إِلَّا إِبْلِيسُ هُوَ الَّذِي أَضَلَّنَا ، فَيَأْتُونَ إِبْلِيسَ فَيَقُولُونَ : قَدْ وَجَدَ الْمُؤْمِنُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ ، فَقُمْ فَاشْفَعْ لَنَا فَإِنَّكَ أَنْتَ أَضْلَلْتَنَا ، فَيَقُومُ فَيَثُورُ مِنْ مَجْلِسِهِ مِنْ أَنْتَنِ رِيحٍ شَمَّهَا أَحَدٌ قَطُّ ثُمَّ يَعْظُمُ نَحِيبُهُمْ ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾ » (٢) وقال محمّد بن كعب القرظي رحمه الله لما قال أهل النار : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ قال لهم إبليس ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ ﴾ الآية ، فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم فنودوا ﴿ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ .

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال ، وأن خطيبهم إبليس عطف بمآل السعداء فقال : ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ ماكثين أبدًا لا يحولون ولا يزولون ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٣/٢٦٥) .

(٢) أخرجه الدارمي في السنن (٢/٣٢٧) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٧٦) .

أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ .

قال ابن عبّاس : قوله : ﴿ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ شهادة أن لا إله إلّا اللّه ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ وهو المؤمن ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ يقول لا إله إلّا اللّه في قلب المؤمن ﴿ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ يقول يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء ، وهكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وغير واحد إن ذلك عبارة عن عمل المؤمن قوله الطيب وعمله الصالح ، وإن المؤمن كشجرة من النخل لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت وصباح ومساء ، وهكذا عن ابن مسعود قال : هي النخلة ، وعن أنس أن رسول اللّه ﷺ أتي بقناع بسر فقرأ ﴿ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ قال : هي النخلة ، وعن ابن عمر قال : كنا عند رسول اللّه ﷺ فقال : « أَخْبِرُونِي عَنْ شَجَرَةٍ تُشْبِهُ - أَوْ - كَالرَّجُلِ الْمُسْلِمِ لَا يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا صَيْفًا وَلَا شِتَاءً ، وَتُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا » قال ابن عمر : فوقع في نفسي أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم ، فلما لم يقولوا شيئًا قال رسول اللّه ﷺ : « هِيَ النَّخْلَةُ » فلما قمنا قلت لعمر : يا أبتاه واللّه لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة ، قال : ما ما منعك أن تتكلم ؟ قلت : لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئًا ، قال عمر : لأن تكون قلتها أحب إليَّ من كذا وكذا(١) .

وعن ابن عبّاس : ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ قال : هي شجرة في الجنة ، وقوله : ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ قيل غدوة وعشيًّا ، وقيل : كل شهر ، وقيل : كل شهرين ، وقيل : كل ستة أشهر ، وقيل : كل سبعة أشهر ، وقيل : كل سنة . والظاهر من السياق أن المؤمن مثله كمثل شجرة لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء أو ليل أو نهار ، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار ، في كل وقت وحين ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ أي كاملًا حسنًا كثيرًا طيبًا مباركًا ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ هذا مثل كفر الكافر لا أصل له ولا ثبات ، مشبه بشجرة الحنظل ويقال لها الشريان . فعن أنس بن مالك : أنها شجرة الحنظل ، قوله : ﴿ ٱجْتُثَّتْ ﴾ أي استؤصلت ﴿ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ أي لا أصل لها ولا ثبات ، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع ولا يصعد للكافر عمل ولا يتقبل منه شيء .

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ .

وعن علقمة بن مرثد قال : سمعت سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّه وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللّه ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ » .

وعن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول اللّه ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد ، فجلس رسول اللّه ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وفي يده عود ينكت به الأرض ،

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٩٨) .

فرفع رأسه فقال : «اسْتَعِيذُوا بِاللَّه مِنْ عَذَابِ القَبْرِ» مرتين أو ثلاثًا ثم قال : «إِنَّ العَبْدَ المُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الجَنَّةِ ، وَحُنُوطٌ مِنْ حُنُوطِ الجَنَّةِ ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَيَقُولُ : أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّه وَرِضْوَانٍ - قَالَ - فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كما تسيل القَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الحَنُوط ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا - يَعْنِي عَلَى مَلَأٍ مِنَ المَلَائِكَةِ - إِلَّا قَالُوا : مَا هَذِهِ الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ ؟ فَيَقُولُونَ : فُلَانُ ابن فلان بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فيفتح له ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا ، حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيَقُولُ اللَّه : اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خلقتهم وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ، قَالَ فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : رَبِّيَ اللَّه ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ : دِينِي الإِسْلَامُ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هُوَ رَسُولُ اللَّه ، فَيَقُولَانِ لَهُ وَمَا عِلْمُكَ ؟ فَيَقُولُ : قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّه فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّةِ - قَالَ - فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا ، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ فَيَقُولُ : أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسرك ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ ، فَيَقُولُ لَهُ : مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ الَّذِي يَأْتِي بِالخَيْرِ ؟ فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ ، فَيَقُولُ : رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ ، رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي - قَالَ - وَإِنَّ العَبْدَ الكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ سُودُ الوُجُوه ، مَعَهُمُ المُسُوحُ ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ فَيَجْلِسُ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ : أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ : اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّه وَغَضَبٍ - قَالَ - فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهُ كما ينتزع السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ المَبْلُولِ فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ المُسُوحِ ، فَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ ريح جِيفَةٍ وجدت على وَجْهِ الأَرْضِ ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ المَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَا هَذِهِ الرُّوحُ الخَبِيثَةُ ؟ فَيَقُولُون : فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ بِأَقْبح أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى ينتهي بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّه ﷺ ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ فَيَقُولُ اللَّه : اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينَ فِي الأَرْضِ السُّفْلَى ، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ وَيَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاه هَاه لَا أَدْرِي فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاه هَاه لَا أَدْرِي ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِث فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هَاه هَاه لَا أَدْرِي ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : كَذَبَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ ، فَيَأْتِيهِ مِنْ

حَرِّهَا وَسَمُومِهَا وَيَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ ، ويأتيه رَجُلٌ قَبِيحُ الوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ : أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ ، فَيَقُولُ : وَمَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ ؟ فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الخَبِيثُ ، فَيَقُولُ : رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ »(1) .

وعنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة فذكر نحوه وفيه « فَإِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ ، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ ﷻ أَنْ يُعْرَجَ بِرُوحِهِ مِنْ قِبَلِهِمْ » وفي آخره « ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَصَمُّ أَبْكَمُ ، وَفِي يَدِهِ مِرْزَبَّةٌ لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ لَكَانَ تُرَابًا فيضربه ضربة فَيَصِيرَ تُرَابًا ، ثُمَّ يُعِيدُهُ اللَّهُ ﷻ كَمَا كَانَ فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ » ثم يفتح له باب إلى النار ويمهد له من فرش النار (2) .

وعنه أيضًا قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ قال : عذاب القبر . وقال المسعودي عن عبد الله بن مخارق عن أبيه عن عبد الله قال : إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره فيقال له : ما ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ فيثبته الله فيقول : ربي الله ، وديني الإسلام ، ونبي محمّد ﷺ ، وقرأ عبد الله ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ عن أبي الزبير أنه سأل جابر بن عبد الله عن فتاني القبر ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا ، فَإِذَا أُدخِلَ المُؤْمِنُ قَبْرَهُ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ جَاءَهُ مَلَكٌ شَدِيدُ الانْتِهَارِ ، فَيَقُولُ لَهُ : مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ ؟ فَأَمَّا المُؤْمِنُ فَيَقُولُ إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَبْدُهُ ، فَيَقُولُ لَهُ المَلَكُ : انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ الذي كَانَ لَكَ فِي النَّارِ قَدْ أَنْجَاكَ اللَّهُ مِنْهُ وَأَبْدَلَكَ بِمَقْعَدِكَ الَّذِي تَرَى مِنَ النَّارِ بِمَقْعَدِكَ الَّذِي تَرَى مِنَ الجَنَّةِ ، فَيَرَاهُمَا كِلَيْهِمَا ، فَيَقُولُ المُؤْمِنَ : دَعُونِي أُبَشِّر أَهْلِي، فَيُقَالُ لَهُ : اسْكُنْ ، وَأَمَّا المُنَافِقُ فَيُقْعَدُ إِذَا تَوَلَّى عَنْهُ أَهْلُهُ فَيُقَالُ لَهُ : مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ ؟ فَيَقُولُ : لا أَدْرِي ، أَقُولُ كَمَا يَقُولُ النَّاسُ ، فَيُقَالُ لَهُ : لَا دَرَيْتَ ، هَذَا مَقْعَدُكَ الَّذِي كَانَ لَكَ فِي الجَنَّةِ قَدْ أُبْدِلْتَ مَكَانَهُ مَقْعَدَكَ مِنَ النَّارِ » قال جابر : فسمعت النبيّ ﷺ يقول : « يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ فِي القَبْرِ عَلَى مَا مَاتَ ، المُؤْمِنُ عَلَى إِيمَانِهِ ، وَالمُنَافِقُ عَلَى نِفَاقِهِ »(3) .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ المَيِّتَ تَحْضُرُهُ المَلَائِكَةُ ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ قَالُوا : اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كانت فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ ، اخْرُجِي حَمِيدة وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ - قَالَ - فلا يَزَالُ يقالُ لها ذلكَ حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السَّماء فيستفتح لها فيقال من هذا ؟ فيقال : فلان ، فيقولون : مرحبًا بالرُّوح الطيبة كانت في الجسد الطيِّبِ ، ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان وربٌّ غير غضبان - قال - فلا يزال يقالُ لها ذلك حتى يُنْتَهى بها إلى السَّماءِ التي فيها اللَّه ﷻ . وإذا كان الرجلُ السَّوْءُ قالوا اخرجي أيتها النفسُ الخبيثةُ كانت في الجسدِ الخبيثِ ، اخرجي ذميمَة وأبشري بحميم وَغَسَّاقٍ وآخر من شكله أزواج ، فلا يزالُ يقال لها

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٧/٤) والنسائي في السنن (٥٠٤٩) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٥/٤) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٣/٣) .

ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان ، فيقال لا مرحبًا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيثِ ، ارجعي ذميمة فإنه لا تفتح لكِ أبواب السماء ، فيرسل من السماء ثم يصير إلى القبر ، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول ، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل له في الحديث الأول » (١) .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : إذا خرجتْ روحُ العبدِ المؤمنِ تَلَقَّاها مَلَكَانِ يَصْعَدَانِ بها ، قال حماد : فذكر من طيب ريحها وذكر المسك - قال - ويقول أهل السماء روح طيبة جاءت من قبل الأرض ، صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه ، فينطلق به إلى ربه ﷻ ، فيقول انطلقوا به إلى آخر الأجل . وإن الكافر إذا خرجت روحه - قال حماد - وذكر من نتنها وذكر مقتًا ، ويقول أهل السماء روح خبيثة جاءت من قبل الأرض ، فيقال : انطلقوا به إلى آخر الأجل - قال أبو هريرة فرد رسول الله ﷺ ريطة كانت على أنفه هكذا (٢) .

وعنه عن النبيّ ﷺ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الْمَيِّتَ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعالِكُم حِينَ تُوَلُّونَ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَانَتِ الصَّلاةُ عِنْدَ رَأْسِهِ ، وَالزَّكَاةُ عَنْ يَمِينِهِ ، وَالصَّوْمُ عَنْ يَسَارِهِ ، وَكَانَ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصِّلَةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالإِحْسَانِ إِلى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ ، فَيُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ فَتَقُولُ الصَّلاةُ ما قبلي مَدْخَلٌ ، فَيُؤْتَى عَنْ يَمِينِهِ فتقولُ الزَّكاةُ : ما قبلي مَدْخَلٌ ، فَيُؤْتَى عَنْ يَسَارِهِ فَيَقُولُ الصِّيامُ : ما قبلي مَدْخَلٌ ، فَيُؤْتَى مِنْ عِنْدِ رِجْلَيْهِ فيقولُ : فعلُ الخَيْرَاتِ ما قبلي مَدْخَلٌ ، فيقالُ لَهُ : اجْلِسْ فيجلس قَدْ مثلت له الشمسُ قد دنت للغروب ، فيقالُ له : أَخْبِرْنَا عَمَّا نَسْأَلُكَ فيقولُ : دَعْني حتى أصَلِّي ، فيقالُ له : إنكَ سَتَفْعَلُ فَأَخْبِرْنَا عَمَّا نسألكَ ، فيقولُ : وَعَمَّ تسألوني ؟ فيقالُ : أرأيتَ هذا الرَّجُل الذي كانَ فيكم ماذا تَقُولُ فيهِ ، وماذا تشهدُ بِهِ عليه ؟ فيقولُ أَمُحَمَّدٌ ؟ فيقالُ له : نعم ، فيقول أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّه ، وَأَنَّهُ جاءنا بالبينات مِنْ عِنَدِ اللَّه فَصَدَّقْنَاهُ ، فيقالُ له : على ذلكَ حَيِيتَ وَعَلَى ذلكَ مِتَّ وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إن شاءَ اللَّه ، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ في قَبْرِهِ سبعونَ ذراعًا ، وَيُنَوَّرُ له فِيهِ ، وَيُفْتَحُ له بابٌ إلى الجَنَّةِ ، فيقالُ له : انظرْ إلى ما أَعَدَّ اللَّه لكَ فيها فيزدادُ غِبْطَة وَسُرُورًا ، ثم تُجْعَلُ نَسَمَتُهُ في النَّسَم الطَّيبِ ، وَهِيَ طَيْرٌ يعلقُ بشجرِ الجَنَّةِ وَيُعَادُ الجَسَدُ إلى ما بُدِئَ مِنَ التُّرابِ » وذلك قول اللَّه : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ (٣) .

وعن محمّد بن المنكدر قال : كانت أسماء - يعني بنت الصدّيق رضي الله عنها - تحدث عن النبيّ ﷺ قالت : قال : « إذا دخلَ الإنسانُ قبره ، فَإِنْ كانَ مؤمنًا خفَّ به عَمَلُهُ الصَّلاةُ وَالصِّيامُ ، قال فيأتيهِ المَلَكُ مِنْ نَحْوِ الصَّلاة فَتَرُدُّهُ وَمِنْ نَحْوِ الصِّيَامِ فَيَرُدُّهُ ، قال فيناديه اِجْلِسْ فَيَجْلِسُ ، فيقولُ له : ماذا تقولُ في هذا الرَّجُلِ - يعني النَّبِيَّ ﷺ ؟ قال : مَنْ ؟ قال : مُحَمَّدٌ ، قالَ أشهدُ أنهُ رسولُ اللَّه ، قالَ وما يُدْرِيكَ ، أَدْرَكْتَهُ ؟ قال أَشْهَدُ أنه رسول اللَّه ، قالَ : يقول : على ذلكَ عِشْتَ ، وَعَلَيْهِ متَّ ،

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٧٥) ، وأحمد في مسنده ٢٨٧/٤ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٢/٢) . (٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٧٩/١) .

وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ . وإن كان فاجرًا أو كافرًا جاءَهُ المَلَكُ لَيْسَ بَيْنَهُ وبينهُ شيءٌ يَرُدُّهُ ، فأَجْلَسَهُ فيقولُ له : ماذا تقولُ في هذا الرَّجُلِ ؟ قال : أيُّ رَجُلٍ ؟ قال : محمدٌ ؟ قال : يقولُ : والله ما أدري سمعت الناسَ يقولون شيئًا فَقُلْتُهُ ، قال له الملكُ : على ذلكَ عِشْتَ ، وَعَلَيْهِ مِتَّ ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ ، قال ويسلطُ عليه دابةٌ في قبره معها سَوْطٌ ثمرتهُ جَمْرَةٌ مِثْلُ عرفِ البَعِيرِ ، تضربهُ ما شاء الله صَمّاء لا تسمعُ صَوتَهُ فَتَرْحَمُهُ »[(١)] .

وعن ابن طاوس عن أبيه ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ قال : لا إله إلَّا الله ﴿ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ المسألة في القبر . وقال قتادة : أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح ﴿ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ في القبر ، وعن عثمان ﷺ قال : كان النبيُّ ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال : « اسْتَغْفِرُوا لأخِيكُمْ واسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ فإنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ »[(٢)] .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ .

قال البخاري قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾ ألم تعلم كقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ﴾ ﴿ ٱلْبَوَارِ ﴾ الهلاك بار يبور بورًا ﴿ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ هالكين . عن عطاء سمع ابن عبّاس ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾ قال : هم كفار أهل مكة[(٣)] ، وقال العوفي عن ابن عبّاس في هذه الآية : هو جبلة بن الأيهم والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم ، والمشهور الصحيح عن ابن عبّاس هو القول الأول ، وإن كان المعنى يعم جميع الكفار ، فإن الله تعالى بعث محمّدًا ﷺ رحمة للعالمين ونعمة للناس ، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة ، ومن ردها وكفرها دخل النار ، وقد روي عن علي نحو قول ابن عباس الأول . وعن أبي الطفيل أن ابن الكواء سأل عليًا عن ﴿ ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ قال : هم كفار قريش يوم بدر . وقال ابن أبي حسين : قام عليّ بن أبي طالب ﷺ فقال : ألا أحد يسألني عن القرآن ؟ فو الله لو أعلم اليوم أحدًا أعلم به مني وإن كان من وراء البحار لأتيته ، فقام عبد الله بن الكواء فقال : من الذين بدلوا نعمة الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار ؟ قال : مشركو قريش ، أتتهم نعمة الله الإيمان فبدلوا نعمة الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار .

وقال السدي في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾ الآية ، ذكر مسلم المستوفي عن علي أنه قال : هم الأفجران من قريش بنو أمية وبنو المغيرة ، فأما بنو المغيرة فأحلوا قومهم دار البوار يوم بدر ، وأما بنو أمية فأحلوا قومهم دار البوار يوم أُحد ، وكان أبو جهل يوم بدر وأبو سفيان يوم أُحد ، وأما دار البوار فهي جهنم .

وعن عمرو بن مرة قال : سمعت عليًا قرأ هذه الآية ﴿ وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ قال : هم الأفجران من قريش بنو أمية وبنو المغيرة ، فأما بنو المغيرة فأهلكوا يوم بدر ، وأما بنو أمية فمتعوا إلى

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٢/٦) .
(٢) أخرجه مسلم في الجنائز (٦٣) والنسائي في السنن (٢٧/٤) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٠٠) .

حين. وقال ابن عبّاس لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين هذه الآية ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ قال : هم الأفجران من قريش أخوالي وأعمامك ، فأما أخوالي فاستأصلهم اللّه يوم بدر، وأما أعمامك فأملى اللّه لهم إلى حين . وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن زيد : هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر .

وقوله : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ أي جعلوا له شركاء عبدوهم معه ، ودعوا الناس إلى ذلك ، ثم قال تعالى مهددًا لهم ومتوعدًا لهم على لسان نبيّه ﷺ : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ أي مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا ، فمهما يكن من شيء ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ أي مرجعكم وموئلكم إليها .

﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده بطاعته والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه ، بأن يقيموا الصلاة وهي عبادة اللّه وحده لا شريك له ، وأن ينفقوا مما رزقهم بأداء الزكوات والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب ، والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها ، وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق في السر أي في الخفية ، والعلانية وهي الجهر ، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ أي ولا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه كما قال تعالى : ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ قال ابن جرير : يقول ليس هناك مخالفة خليل فيصفح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالفته ، بل هنالك العدل والقسط ، والخلال مصدر من قول القائل خاللت فلانًا فأنا أخاله مخالة وخلالاً .

وقال قتادة : إن اللّه قد علم أن في الدنيا بيوعًا وخلالاً يتخالّون بها في الدنيا ، فينظر الرجل من يخالل وعلام يصاحب ، فإن كان للّه فليداوم ، وإن كان لغير اللّه فسيقطع عنه ، قلت : والمراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحدًا بيع ولا فدية ، ولو افتدى بملء الأرض ذهبًا لو وجده ، ولا تنفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقي اللّه كافرًا قال اللّه تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ .

يعدد تعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السموات سقفًا محفوظًا والأرض فراشًا ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع ، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر ، تجري عليه بأمر اللّه تعالى ، وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر لجلب ما هنا إلى هناك ، وما هناك إلى هنا ، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر رزقًا للعباد من شرب وسقي وغير ذلك من

أنواع المنافع ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾ أي يسيران لا يفتران ليلًا ولا نهارًا ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ فالشمس والقمر يتعاقبان ، والليل والنهار يتعارضان ، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول ، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر .

وقوله : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ يقول : هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم وقالكم . وقال بعض السلف : من كل ما سألتموه وما لم تسألوه ، وقرأ بعضهم - وآتاكم من كل ما سألتموه وما لم تسألوه - وقوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلًا عن القيام بشكرها ، كما قال طلق بن حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يذكر تعالى في هذا المقام محتجًا على مشركي العرب بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه آهلة تبرأ ممن عبد غير الله ، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ وقد استجاب الله له فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ الآية ، وقال في هذه القصة : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ فعرفه لأنه دعا به بعد بنائها ، ولهذا قال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة ، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة فإنه دعا أيضًا فقال : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ كما ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصًى مطولًا . وقوله : ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته . ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس ، وأنه تبرأ ممن عبدها ، ورد أمرهم إلى الله ، إن شاء عذّبهم وإن شاء غفر لهم ، كقول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى ، لا تجويز وقوع ذلك . وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ الآية ، وقول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ الآية ، ثم رفع يديه ثم قال : « اللَّهُمَّ أُمَّتي اللَّهُمَّ أُمَّتي ، اللَّهُمَّ أُمَّتي » وبكى ، فقال الله : اذهب يا جبريل إلى محمّد - وربك أعلم - وسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فسأله ، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال ، فقال الله : اذهب إلى محمّد فقل له : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك (١) .

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ .

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها ،

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٤٦) .

وذلك قبل بناء البيت ، وهذا كان بعد بنائه تأكيدًا ورغبة إلى الله ﷻ ولهذا قال : ﴿ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ وقوله : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ قال ابن جرير وهو متعلق بقوله : ﴿ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ أي إنما جعلته محرمًا ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيره : لو قال أفئدة الناس لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم ، ولكن قال : ﴿ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فاختص به المسلمون . وقوله : ﴿ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ أي ليكون ذلك عونًا لهم على طاعتك ، وكما أنه واد غير ذي زرع فاجعل لهم ثمارًا يأكلونها ، وقد استجاب الله ذلك كما قال : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته ، أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة ، وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل ﵇ .

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ .

قال ابن جرير : يقول تعالى مخبرًا عن إبراهيم خليله أنه قال : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ ﴾ أي أنت تعلم قصدي في دعائي وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد ، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك ، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء ، ثم حمد ربه ﷻ على ما رزقه من الولد بعد الكبر فقال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ أي إنه يستجيب لمن دعاه ، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد ثم قال : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي محافظًا عليها ، مقيمًا لحدودها ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ ﴾ أي واجعلهم كذلك مقيمين لها ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ أي فيما سألتك فيه كله ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ ﴾ قرأ بعضهم ﴿ ولوالدي ﴾ بالإفراد وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله ﷻ ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي كلهم ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ أي يوم الحساب عبادك فتجازيهم بأعمالهم إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ ﴾ يا محمّد ﴿ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ ﴾ ، أي لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعهم ، بل هو يحصي ذلك عليهم ويعده عليهم عدًا ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أي من شدة الأهوال يوم القيامة ، ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر فقال : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي مسرعين كما قال تعالى ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وغير واحد : رافعي رؤوسهم ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ ﴾ أي أبصارهم ظاهرة شاخصة ، مديمون النظر لا يطوفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم عياذًا بالله العظيم من ذلك ،

ولهذا قال : ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ أي وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجل والخوف ، ولهذا قال قتادة وجماعة : إن أمكنة أفئدتهم خالية ؛ لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف ، وقال بعضهم : هي خراب لا تعي شيئًا لشدة ما أخبر به تعالى عنهم ، ثم قال تعالى لرسوله ﷺ :

﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قيل الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾ وقال تعالى مخبرًا عنهم في حال محشرهم : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ ﴾ الآية ، قال تعالى رادًا عليهم في قولهم هذا ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ أي أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه ، وأنه لا معاد ولا جزاء ، فذوقوا بذلك . وقال مجاهد وغيره : ﴿ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ أي ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة ، كقوله : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ الآية ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ أي قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر ، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ .

وعن عبد الرحمن بن رباب أن عليًا ﷺ قال في هذه الآية ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ قال : أخذ ذلك الذي حاجَّ إبراهيم في ربه نسرين صغيرين فرباهما حتى استغلظا واستفحلا وشبا ، قال : فأوثق رِجْلَ كل واحد منهما بوتد إلى تابوت ، وجوعهما وقعد هو ورجل آخر في التابوت ، قال : ورفع في التابوت عصًا على رأسه اللحم فطارا ، وجعل يقول لصاحبه : انظر ما ترى ؟ قال : أرى كذا وكذا ، حتى قال : أرى الدنيا كلها كأنها ذباب ، قال : فصوب العصا فصوبها فهبطا جميعًا ، قال : فهو قوله ﷻ ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ قال أبو إسحاق : وكذلك هي في قراءة عبد الله ﴿ وإن كاد مكرهم ﴾ قلت وكذا روي عن أُبيّ بن كعب وعمر بن الخطاب ﷺ أنهما قرآ ﴿ وإن كاد ﴾ كما قرأ علي ، وروي عن عكرمة أن سياق هذه القصة لنمروذ ملك كنعان أنه رام أسباب السماء بهذه الحيلة والمكر ، كما رام ذلك بعده فرعون ملك القبط ببناء الصرح فعجزا وضعفا وهما أقل وأحقر وأصغر وأدحر ، وذكر مجاهد هذه القصة عن بختنصر وأنه لما انقطع بصره عن الأرض وأهلها نودي أيها الطاغية أين تريد ؟ ففرق ، ثم سمع الصوت فوقه فصوب الرماح فصوبت النسور ، ففزعت الجبال من هدتها وكادت الجبال أن تزول من حس ذلك فذلك قوله : ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ ونقل ابن جريج عن مجاهد أنه قرأها ﴿ لَتَزُولُ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ بفتح اللام الأولى وضم الثانية[1] ، وروى العوفي عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ يقول ما كان لتزول منه

(١) قرأ الكسائي لَتزولُ بفتح اللام الأولى وضم الثانية والباقون بكسر الأولى وفتح الثانية حجة القراءات ٣٧٩ .

الجبال ، وكذا قال الحسن البصري : ووجهه ابن جرير بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم به ما ضر ذلك شيئًا من الجبال ولا غيرها ، وإنما عاد وبال ذلك عليهم قلت : ويشبه هذا قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ والقول الثاني في تفسيرها : ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ يقول شركهم كقوله : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ الآية ، وهكذا قال الضحاك وقتادة .

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ .

يقول تعالى مقررًا لوعده ومؤكدًا : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ أي من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أراده ولا يغالب ، ذو انتقام ممن كفر به وجحده ولهذا قال : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ أي وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض ، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة ، كما جاء عن سهل بن سعد قال : قال رسولِ اللَّه ﷺ : « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ ، لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لأَحَدٍ »(١) وعن عائشة أنها قالت : أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ قالت : قلت : أين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال : « عَلَى الصِّرَاطِ »(٢) .

وعن معاوية بن سلام عن زيد يعني أخاه أنه سمع أبا سلام حدَّثني أبو أسماء الرحبي أن ثوبان مولى رسول اللَّه ﷺ حدَّثه قال : كنت قائمًا عند رسول اللَّه فجاءه حبر من أحبار يهود فقال : السلام عليك يا محمّد ، فدفعته دفعة كاد يصرع منها ، فقال : لم تدفعني ؟ فقلت : ألا تقول يا رسول الله ، فقال اليهودي : إنما ندعوه باسمه الذي سمّاه به أهله ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اسْمِي مُحَمَّدٌ سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي » فقال اليهودي : جئت أسألك ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « أَيَنْفَعُكَ شَيْئًا إِنْ حَدَّثْتُكَ » قال : أسمع بأذني ، فنكتَ(٣) رسول اللَّه ﷺ بعود معه فقال : « سَلْ » فقال اليهودي : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ؟ فقال رسول اللَّه ﷺ : « هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الجِسْرِ » قال : فمن أول الناس إجازة ؟ فقال : « فُقَرَاءُ المُهَاجِرِينَ » فقال اليهودي : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة قال : زِيَادَةُ كَبِدِ النُّونِ » قال : فما غذاؤه في أثرها ؟ قال : « يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : فما شرابهم عليه ؟ قال : « مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا » قال : صدقت ، قال : وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلّا نبي أو رجل أو رجلان قال : « أَيَنْفَعُكَ إِنْ حَدَّثْتُكَ » ؟ قال : أسمع بأذني ، قال جئت أسألك عن الولد ، قال : « مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ وَمَاءُ المَرْأَةِ أَصْفَرُ فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلَا مَنِيُّ الرَّجُلِ مَنِيَّ المَرْأَةِ كَانَ ذَكَرًا بِإِذْنِ اللَّه تَعَالَى ، وَإِذَا عَلَا مَنِيُّ المَرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُلِ كَانَ أُنْثَى بِإِذْنِ اللَّه » قال اليهودي : لقد صدقت ، وإنك لنبي ثم انصرف ، فقال رسول اللَّه ﷺ :

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٢١) ومسلم في صفات المنافقين (٢٨) .
(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٢٩) وابن ماجه في السنن (٤٢٧٩) .
(٣) نَكَتَ أي خط بالعود في الأرض خطًا يؤثر فيها ، وهو فعل من ينكر .

« لَقَدْ سَأَلَنِي هَذَا عَنِ الذي سَأَلَنِي عَنْهُ وَمَا لي عِلْمٌ بِشَيْءٍ مِنْهُ حَتَّى أَتَانِي اللَّهُ بِهِ » [١].

وعن أبي أيوب الأنصاري أن حبرًا من اليهود سأل النبيّ ﷺ فقال : أرأيت إذ يقول الله تعالى في كتابه ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ فأين الخلق عند ذلك ؟ فقال : « أَضْيَافُ اللَّه فَلَنْ يُعْجِزَهُمْ مَا لَدَيْهِ » [٢] وعن عمرو بن ميمون يقول ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ قال : أرض كالفضة البيضاء نقية لم يسفك فيها دم ، ولم يعمل عليها خطيئة ، ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي ، حفاة عراة كما خلقوا - قال : أراه قال : قيامًا - حتى يلجمهم العرق . وعن زيد قال : أرسل رسول الله ﷺ إلى اليهود فقال : « هل تدرون لم أرسلت إليهم ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : « فَإِنِّي أَرْسَلْتُ إِلَيْهِمْ أَسْأَلُهُمْ عَنْ قَوْلِ اللَّه : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ إِنَّهَا تَكُونُ يَوْمَئِذٍ بَيْضَاءَ مِثْلَ الفِضَّةِ » فلما جاءوا سألهم ، فقالوا : تكون بيضاء مثل النقي [٣] . وهكذا روي عن علي وابن عبّاس وأنس بن مالك ومجاهد بن جبير أنها تبدل يوم القيامة بأرض من فضة ، وعن علي ﷺ أنه قال : تصير الأرض فضة والسموات ذهبًا ، وقال الربيع : عن أبي العالية عن أُبيّ بن كعب قال : تصير السموات جنانًا ، وقال أبو معشر : عن محمّد بن كعب القرظي عن محمّد بن قيس في قوله : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ قال : خبزة يأكل منها المؤمنون من تحت أقدامهم ، وكذا روي سعيد بن جبير في قوله : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ قال : تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه .

وعن كعب في قوله : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ قال : تصير السموات جنانًا ، ويصير مكان البحر نارًا ، وتبدل الأرض غيرها . وفي الحديث الذي رواه أبو داود : « لَا يَرْكَبُ البَحْرَ إِلَّا غَازٍ أَوْ حَاجٌّ أَوْ مُعْتَمِرٍ ، فَإِنَّ تَحْتَ البَحْرِ نَارًا - أَوْ تَحْتَ النَّارِ بَحْرًا » [٤] وفي حديث الصور المشهور المروي عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال : « يُبَدِّلُ اللَّه الأَرْضَ غَيْرَ الأَرْض وَالسَّموَات فَيَبْسُطُهَا وَيَمُدُّها مَدَّ الأَدِيمِ العُكَاظِيِّ لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ، ثُمَّ يَزْجُرُ اللَّه الخَلْقَ زَجْرَة فَإِذَا هُمْ فِي هذِهِ المبدلة » [٥] .

وقوله : ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ﴾ أي خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ أي الذي قهر كل شيء وغلبه ، ودانت له الرقاب وخضعت له الألباب .

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ وتبرز الخلائق لديانها ترى يا محمّد يومئذ المجرمين ، وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم ﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ أي بعضهم إلى بعض ، قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم ، كل صنف إلى صنف ، كما قال تعالى : ﴿ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ أي ثيابهم التي يلبسونها من قطران وهو الذي تهنأ به الإبل أي تطلى ، قال قتادة : وهو ألصق شيء بالنار . ويقال فيه : قطران بفتح القاف وكسر الطاء وتسكينها ،

(١) أخرجه مسلم في الحيض (٣٤) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٣/٣٣٣) .
(٣) ذكره الطبري في تفسيره (١٣/٣٢٩) .
(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٢٤٨٩) .
(٥) ذكره الطبري في تفسيره (١٣/٣٣١) .

وبكسر القاف وتسكين الطاء .

وكان ابن عبّاس يقول : القطران هو النحاس المذاب وربما قرأها ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ أي من نحاس حار قد انتهى حره ، وقوله : ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ كقوله : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ وعن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « أَرْبَعٌ في أُمَّتي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ : الفَخْرُ بِالأَحْسَابِ ، والطَّعْنُ في الأَنْسَابِ ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ ، والنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ ، وَالنَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ » (١) . وعن أبي أمامة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ رفعه « النَّائِحَةُ إِذا لَمْ تَتُبْ تُوقَفُ في طَرِيقٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَسَرَابِيلُهَا مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغشى وَجْهَهَا النَّارُ » (٢) .

وقوله : ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ يحتمل أن تكون كقوله تعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع النجاز ، لأنه يعلم كل شيء ولا يخفى عليه خافية ، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم .

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

يقول تعالى هذا القرآن بلاغ للناس كقوله : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ أي هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن كما قال في أول السورة : ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ الآية ﴿ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ ﴾ أي ليتعظوا به ﴿ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ أي يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلّا هو ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي ذوو العقول .

---

(١) أخرجه مسلم في الجنائز (٢٩) وأحمد في مسنده (٣٤٢/٥) والبيهقي في السنن (٦٣/٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٤/٥) .

سورة الحجر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور . وقوله تعالى : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ الآية ، إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر ، ويتمنون لو كانوا في الدنيا مسلمين ، وعن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة أن كفار قريش لما عرضوا على النار تمنوا أن لو كانوا مسلمين ، وقيل : المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمنًا ، وقيل هذا إخبار عن يوم القيامة ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وعن عبد الله في قوله ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ قال : هذا في الجهنميين إذ رأوهم يخرجون من النار [1] . وعن ابن عبّاس وأنس بن مالك كانا يتأولان هذه الآية يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار ، قال فيقول لهم المشركون ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون في الدنيا ، قال : فيغضب الله لهم بفضل رحمته فيخرجهم ، فذلك حين يقول : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ وعن مجاهد قال : يقول أهل النار للموحدين : ما أغنى عنكم إيمانكم ؟ فإذا قالوا ذلك ، قال الله : أخرجوا من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، فعند ذلك قوله : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ وهكذا روي عن الضحاك وقتادة وأبي العالية وغيرهم .

وعن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه يَدْخُلونَ النَّارِ بِذُنُوبِهِمْ ، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُ اللَّاتِ وَالْعُزَّى مَا أَغْنَى عَنْكُمْ قَوْلُكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَأَنْتُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ ؟ فَيَغْضَبُ اللَّه لَهُمْ فَيُخْرِجُهُمْ فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ فَيَبْرَؤُونَ مِنْ حَرْقِهِمْ ، كَمَا يَبْرَأُ الْقَمَرُ مِنْ خُسُوفِهِ ، وَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَيُسَمَّوْنَ فِيهَا الْجَهَنَّمِيِّينَ » ، فقال رجل : يا أنس أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ فقال أنس : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » نعم أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا [2] .

وعن محمّد بن علي عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « منهمْ مَنْ تأخذه النارُ إلى رُكبَتِهِ ، ومنهمْ مَنْ تأخذه إلى حُجْزَتِهِ ، ومنهم من تأخذهُ النّارُ إلى عُنُقِهِ على قَدْرِ ذنوبهم وأعمالهم ، ومنهمْ مَن يمكثُ فيها شهرًا ثم يخرجُ منها ، ومنهم من يمكثُ فيها سنةً ثم يخرج منها ، وأطولُهُمْ فيها مُكثًا بقدر الدنيا منذ يوم خلقت إلى أن تفنى ، فإذا أراد الله أن يخرجهم منها قالت اليهود والنصارى وَمَنْ في النار من أهل الأديان والأوثان لمن في النار ومن أهل التوحيد : آمنتم بالله وكتبه

(١) ذكره الطبري في تفسيره ٦/١٤ .

(٢) ذكره الهيثمي مجمع الزوائد(٣٧٩/١٠) وعزاه للطبراني في الأوسط .

ورسله فنحنُ وأنتمُ اليومَ في النار سواءٌ ، فيغضبُ اللَّه لهم غضبًا لم يَغْضَبْهُ لشيء فيما مَضَى ، فيخرجهم إلى عَيْنٍ في الجنَّةِ وهو قوله : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ »(١) .

وقوله : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾ تهديد شديد لهم ووعيد أكيد كقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ ولهذا قال : ﴿ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾ أي عن التوبة والإنابة ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي عاقبة أمرهم .

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه ما أهلك قرية إلَّا بعد قيام الحجّة عليها وانتهاء أجلها ، وأنه لا يؤخر أمة حان هلاكهم عن ميقاتهم ، ولا يتقدمون عن مدتهم ، وهذا تنبيه لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من الشرك والعناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك .

﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾ أي الذي تدعي ذلك ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ أي في دعائك إيانا إلى اتباعك ، وترك ما وجدنا عليه آباءنا ﴿ لَّوْ مَا ﴾ أي هلا ﴿ تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ أي يشهدون لك بصحة ما جئت به ، كما قال فرعون ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ ، وكذا قال في هذه الآية ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ وقال مجاهد : بالرسالة والعذاب ، ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر وهو القرآن وهو الحافظ له من التغيير والتبديل ، ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى ﴿ لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ على النبيّ ﷺ كقوله : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ والمعنى الأول أولى وهو ظاهر السياق .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ .

يقول تعالى مسليًا لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من كفار قريش إنه أرسل من قبله من الأمم الماضية ، وإنه ما أتى أمة من رسول إلَّا كذبوه واستهزؤوا به ، ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى ، قال أنس والحسن البصري ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ يعني الشرك ، وقوله : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار ، وكيف أنجى اللَّه الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة .

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق أنه لو فتح لهم بابًا من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا بذلك بل قالوا ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا ﴾ قال مجاهد وابن كثير والضحاك : سدت أبصارنا ، وقال ابن عبّاس : أخذت أبصارنا ، وقال العوفي عن ابن عبّاس : شبّه علينا وإنما سحرنا .

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٣) وأحمد في مسنده (١٠/٥) والطبراني في الكبير (٢٨٢/٧) .

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۝ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾ .

يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها وما زينها به من الكواكب الثوابت والسيارات ، لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من العجائب والآيات الباهرات ، ما يحار نظره فيه ، ولهذا قال مجاهد وقتادة : البروج ههنا هي الكواكب ، ومنهم من قال : هي منازل الشمس والقمر ، وقال عطية العوفي : البروج ههنا هي قصور فيها الحرس ، وجعل الشهب حرسًا لها من مردة الشياطين ، لئلا يسمعوا إلى الملأ الأعلى ، فمن تمرد وتقدم منهم لاستراق السمع جاءه شهاب مبين فأتلفه ، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه ، فيأخذها الآخر ويأتي بها إلى وليه كما جاء مصرحًا به في الصحيح ، كما روي عن أبي هريرة يبلغ النبيّ ﷺ قال : «إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خَضَعَانًا لِقَوْلِهِ ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ »[1]. وقال علي : وقال غيره صفوان ينفذهم ذلك ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : للذي قال الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر - ووصف سفيان بيده وفرّج بين أصابع يده اليمنى نصبها بضعها فوق بعض - فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه ، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه ، حتى يلقوها إلى الأرض ، وربما قال سفيان : حتى تنتهي إلى الأرض فتلقى على فم الساحر أو الكاهن فيكذب معها مائة كذبة فيصدق ، فيقولون : ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقًّا للكلمة التي سمعت من السماء .

ثم ذكر تعالى خلقه الأرض ومده إياها وتوسيعها وبسطها ، وما جعل فيها من الجبال الرواسي والأودية والأراضي والرمال ، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة ، وقال ابن عباس : ﴿ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ أي معلوم ، وقال ابن زيد : من كل شيء يوزن ويقدر بقدر ، وقال ابن زيد : ما يزنه أهل الأسواق . وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾ يذكر تعالى أنه صرفهم في الأرض في صنوف الأسباب والمعايش ، وهي جمع معيشة وقوله : ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾ قال مجاهد : هي الدواب والأنعام ، وقال ابن جرير : هم العبيد والإماء والدواب والأنعام ، والقصد أنه تعالى يمتن عليهم بما يسّر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعايش ، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها ، والأنعام التي يأكلونها ، والعبيد والإماء التي يستخدمونها ، ورزقهم على خالقهم لا عليهم ، فلهم هم المنفعة ، والرزق على الله تعالى .

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك كل شيء ، وأن كل شيء سهل عليه يسير لديه ، وأن عنده خزائن الأشياء

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٠١) .

من جميع الصنوف ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ كما يشاء وكما يريد ، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده ، لا على جهة الوجوب بل هو كتب على نفسه الرحمة . وعن عبد اللَّه : ما من عام أمطر من عام ، ولكن اللَّه يقسمه حيث شاء عامًا ههنا وعامًا ههنا ، ثم قرأ ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ الآية . وعن الحكم بن عيينة في قوله : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ قال : ما عام بأكثر مطرًا من عام ولا أقل ، ولكنه يمطر قوم ويحرم آخرون بما كان في البحر ، قال : وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم ، يحصون كل قطرة حيث تقع وما تنبت . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « خَزَائِنُ اللَّهِ الكَلَامُ ، فإِذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ كُنْ فَكَانَ »(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ أي تلقح السحاب فتدر ماء ، وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها ، وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج ، بخلاف الريح العقيم فإنه أفردها ووصفها بالعقيم وهو عدم الإنتاج ، لأنه لا يكون إلَّا بين شيئين فصاعدًا ، وعن عبد اللَّه بن مسعود في قوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ قال : ترسل الريح فتحمل الماء من السماء ، ثم تمر مر السحاب حتى تدر كما تدر اللقحة ، وقال الضحاك يبعثها اللَّه على السحاب فتلقحه فيمتلئ ماء ، وقال عبيد ابن عمير الليثي يبعث اللَّه المبشرة فتقم الأرض قمًّا ، ثم يبعث اللَّه المثيرة فتثير السحاب ، ثم يبعث اللَّه المؤلفة فتؤلف السحاب ، ثم يبعث اللَّه اللواقح فتلقح الشجر ثم تلا ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال : « الرِّيحُ الجَنُوبُ مِنَ الجَنَّةِ ، وَهِيَ الَّتي ذَكَرَ اللَّهُ في كِتَابِهِ وَفِيهَا مَنَافِعُ لِلنَّاسِ »(٢) وقوله : ﴿ فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ ﴾ أي أنزلناه لكم عذبًا يمكنكم أن تشربوا منه ، ولو نشاء جعلناه أجاجًا . وقوله ﴿ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ قال سفيان الثوري : بمانعين ، ويحتمل أن المراد وما أنتم له بحافظين . بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ، ونجعله معينًا وينابيع في الأرض ، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به ، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذبًا ، وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك ليبقى لهم في طول السنة ، يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم .

وقوله : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ ﴾ إخبار عن قدرته تعالى عن بدء الخلق وإعادته ، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم ثم يميتهم ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع ، وأخبر أنه تعالى يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون ، ثم أخبر تعالى عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم فقال : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ ﴾ الآية ، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما : المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام ، والمستأخرون من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة ، وعن مروان بن الحكم أنه قال : كان أناس يستأخرون في الصفوف من أجل النساء فأنزل اللَّه : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴾ وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : كانت تصلي خلف النبيّ ﷺ امرأة حسناء ، قال ابن عباس : لا واللَّه ما رأيت مثلها قط ، وكان بعض المسلمين إذا صلوا استقدموا يعني لئلا يروها ، وبعض يستأخرون ، فإذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم فأنزل اللَّه ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴾(٣) .

---

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٢٩٨٢٨) وعزاه لأبي الشيخ في العظمة .
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧٢/٥) وعزاه لأبي الشيخ في العظمة وابن مردويه والديلمي في مسند الفردوس .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٥/١) والترمذي في السنن (٣١٢٢) وابن ماجه في السنن (١٠٤٦

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ .

قال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة : المراد بالصلصال ههنا التراب اليابس ، كقوله تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ وعن مجاهد أيضًا الصلصال : المنتن ، وتفسير الآية بالآية أولى ، وقوله : ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ أي الصلصال من حمأ وهو الطين . والمسنون الأملس ؛ ولهذا روي عن ابن عبّاس أنه قال : هو التراب الرطب ، وعن ابن عبّاس ومجاهد أيضًا والضحاك أن الحمأ المسنون هو المنتن ، وقيل المراد بالمسنون ههنا المصبوب . وقوله : ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل الإنسان ﴿ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ قال ابن عبّاس : هي السموم التي تقتل ، وقال بعضهم : السموم بالليل والنهار ، ومنهم من يقول السموم بالليل والحرور بالنهار ، وعن عبد الله بن مسعود يقول : هذه السموم جزء من سبعين جزءًا من السموم التي خلق منها الجان ، ثم قرأ ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ وعن ابن عبّاس أن الجان خلق من لهب النار وفي رواية من أحسن النار ، وعن عمرو بن دينار من نار الشمس ، وقد ورد في الصحيح : « خُلِقَتِ الملائكةُ من نُورٍ ، وَخُلِقَتِ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وصف لكم » (١) والمقصود من الآية التنبيه على شرف آدم عليه السلام وطيب عنصره وطهارة محتده .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ۝ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ۝ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ .

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له ، وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له ، ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة حسدًا وكفرًا وعنادًا واستكبارًا وافتخارًا بالباطل ، ولهذا قال : ﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ .

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ .

يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمرًا كونيًا لا يخالف ولا يمانع ، بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملأ الأعلى ، وأنه رجيم أي مرجوم ، وأنه قد أتبعه لعنة لا تزال متصلة به لاحقة له متواترة عليه إلى يوم القيامة . وعن سعيد بن جبير أنه قال : لما لعن الله إبليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة ، ورن رنة فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة منها ، وأنه لما تحقق الغضب الذي لا مرد له سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة وهو يوم البعث ، وأنه أجيب إلى ذلك استدراجًا له وإمهالًا ، فلما تحقق النظرة قبحه الله :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ۝ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ .

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٦٠) وأحمد في مسنده (١٥٣/٦) والبيهقي في السنن (٣/٩) .

يقول تعالى مخبرًا عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب ﴿ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ قال بعضهم أقسم بإغواء الله له قلت : ويحتمل أنه بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ ﴾ أي لذرية آدم ﷺ ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي أحبب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها ، وأأزهم إليها وأزعجهم إليها إزعاجًا ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي كما أغويتني وقدّرت عليّ ذلك ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى له متهددًا ومتوعدًا ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي مرجعكم كلكم إليّ ، فأجازيكم بأعمالكم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ وقيل طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى وإليه تنتهي ، قاله مجاهد والحسن وقتادة كقوله : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وقرأ قيس بن عبادة ومحمّد بن سيرين وقتادة ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلِىٌّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ كقوله : ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ أي رفيع ، والمشهور القراءة الأولى . وقوله : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ أي الذين قدرت لهم الهداية فلا سبيل لك عليهم ولا وصول لك إليهم ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ استثناء منقطع .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي جهنم موعد جميع من اتبع إبليس ، كما قال عن القرآن ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ أي قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه لا محيد لهم عنه ، أجارنا الله منها ، وكل يدخل من باب بحسب عمله ، ويستقر في درك بقدر عمله . وعن علي بن أبي طالب وهو يخطب قال : إن أبواب جهنم هكذا - قال أبو هارون - أطباقًا بعضها فوق بعض . وعن علي ﷺ قال : أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض ، فيمتلئ الأول ، ثم الثاني ، ثم الثالث ، حتى تمتلئ كلها ، وقال عكرمة : سبعة أطباق ، وقال ابن جريج سبعة أبواب أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية . وقال قتادة ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ هي والله منازل بأعمالهم [1] ، وقال الضحاك ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ قال : باب لليهود ، وباب للنصارى ، وباب للصابئين ، وباب للمجوس ، وباب للذين أشركوا وهم كفار العرب ، وباب للمنافقين ، وباب لأهل التوحيد ، فأهل التوحيد يرجى لهم ولا يرجى لأولئك أبدًا .

وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « لِجَهَنَّمَ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ بَابٌ مِنْهَا لِمَنْ سَلَّ السَّيْفَ عَلَى أُمَّتِي - أَوْ قَالَ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ » [2] . وعن سمرة بن جندب عن النبيّ ﷺ في قوله : ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ قال : « إِنَّ مِنْ أَهْلِ النَّارِ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبَيْهِ ، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارِ إِلَى حُجْزَتِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى تَرَاقِيهِ ، مَنَازِلُهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ » [3] .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال أهل النار عطف على ذكر أهل الجنة وأنهم في جنات وعيون . وقوله :

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٤٨/١٤) . (٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣١٢٣) .
(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٣) وأحمد في مسنده (١٠/٥) .

﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾ أي سالمين من الآفات مسلم عليكم ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ أي من كل خوف وفزع ، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء . وقوله : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ عن أبي أمامة قال : يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء والضغائن ، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غل ، ثم قرأ ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ هكذا في هذه الرواية ، وعن أبي أمامة أيضًا قال : لا يدخل الجنة مؤمن حتى ينزع الله ما في صدره من غل ، حتى ينزع منه مثل السبع الضاري . وهذا موافق لما في الصحيح عن أبي سعيد الخدري حدَّثهم أن رسول الله ﷺ قال : « يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بين الجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بعضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ »(١) وعن محمّد هو ابن سيرين قال : استأذن الأشتر على عليّ ﷺ وعنده ابن لطلحة فحبسه ثم أذن له ، فلما دخل قال : إني لأراك إنما احتبستني لهذا ؟ قال : أجل ، قال : إني لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستني ، قال : أجل ، إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ .

وعن أبي موسى سمع الحسن يقول : قال عليّ : فينا والله أهل بدر نزلت هذه الآية : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ وقال كثير النوا : دخلت على أبي جعفر محمّد بن علي فقلت وليي وليكم ، وسلمي سلمكم ، وعدوي عدوكم ، وحربي حربكم ، أنا أسألك بالله أتبرأ من أبي بكر وعمر ؟ فقال : ﴿ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ تولهما يا كثير ، فما أدركك فهو في رقبتي هذه ، ثم تلا هذه الآية ﴿ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ قال أبو بكر وعمر وعلي ﷺ أجمعين وعن أبي صالح في قوله : ﴿ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ قال : هم عشرة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبد الله بن مسعود ﷺ . وقوله : ﴿ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ قال مجاهد لا ينظر بعضهم في قفا بعض .

وعن زيد بن أبي أوفى قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية ﴿ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ في الله ينظر بعضهم إلى بعض ، وقوله : ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ يعني المشقة والأذى ، كما جاء في الحديث : « إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُبَشِّرَ خَدِيجَةَ بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ ، لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ »(٢) وقوله : ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ كما جاء في الحديث : « يقالُ يا أَهْلَ الجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فلا تَمْرَضُوا أبدًا ، وَإِنَّ لكم أن تعيشُوا فلا تَمُوتُوا أبدًا ، وإنَّ لكم أن تَشُبُّوا فلا تَهْرَمُوا أبدًا ، وإن لكم أن تُقِيمُوا فلا تَظْعَنُوا أبدًا »(٣) وقال الله تعالى ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ .

وقوله : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ أي أخبر يا محمّد عبادي أني ذو رحمة وذو عذاب أليم ، وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة ، وهي دالة على مقامي الرجاء والخوف ، وذكر في سبب نزولها ما روي عن مصعب بن ثابت قال : مر رسول الله

(١) أخرجه البخاري في الرقائق (٦٥٣٥) وأحمد في مسنده (٥٧/٣) .
(٢) أخرجه البخاري في كتاب العمرة (١٧٩٢) ومسلم في فضائل الصحابة (٧١) .
(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٢) والترمذي في السنن (٣٣٤٦) وأحمد في مسنده (٣١٩/٢) .

ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون فقال : «اذْكُرُوا الجَنَّةَ وَاذْكُرُوا النَّارَ» فنزلت ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ (١) وعن ابن أبي رباح عن رجل من أصحاب النبيّ ﷺ قال : طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة فقال : «لَا أَرَاكُمْ تَضْحَكُونَ» ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع علينا القهقرى فقال : «إِنِّي لَمَّا خَرَجْتُ جَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِمَ تُقَنِّطْ عِبَادِي ؟ ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ (٢) » . وعن قتادة في قوله : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ قال : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : «لَوْ يَعْلَمُ العَبْدُ قَدْرَ عَفْوِ اللَّهِ لَمَا تَوَرَّعَ مِنْ حَرَامٍ ، وَلَوْ يَعْلَمُ العبدُ قدر عَذَابِ اللَّهِ لَبَخَعَ نَفْسَهُ » (٣) .

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ .

يقول تعالى : وخبرهم يا محمّد عن قصة ﴿ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ والضيف يطلق على الواحد والجمع كالزور والسفر ، وكيف ﴿ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ أي خائفون ، وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قرّبه إليهم من الضيافة وهو العجل السمين الحنيذ ﴿ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ ﴾ أي لا تخف ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ أي إسحاق عليه السلام كما تقدم في سورة هود ثم ﴿ قَالَ ﴾ متعجبًا من كبره وكبر زوجته ومتحققًا للوعد ﴿ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقًا وبشارة بعد بشارة ﴿ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴾ وقرأ بعضهم - القنطين - فأجابهم بأنه ليس يقنط ولكن يرجو من الله الولد ، وإن كان قد كبر وأسنت امرأته ، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى إخبارًا عن إبراهيم عليه السلام لما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى أنه شرع يسألهم عما جاؤوا له ، فقالوا : ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ يعنون قوم لوط ، وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلّا امرأته فإنها من الهالكين ، ولهذا قالوا : ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أي الباقين المهلكين .

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه فدخلوا عليه داره قال : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ يعنون بعذابهم وهلاكهم ودمارهم

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٠٢/٤) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٥٢/١٤) والسيوطي في الدر المنثور (٨٦/٥) .
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٠٢/٤) .

الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم ، وحلوله بساحتهم ، ﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به ومن نجاته وإهلاك قومه .

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ .

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل ، وأن يكون لوط عليه السلام يمشي وراءهم ليكون أحفظ لهم ، وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزو ، إنما يكون ساقة يزجي الضعيف ويحمل المنقطع . وقوله : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أي إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال ﴿ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ كأنه كان معهم من يهديهم السبيل ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾ أي تقدمنا إليه في هذا ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ أي وقت الصباح .

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم ، وأنهم جاؤوا مستبشرين بهم فرحين ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم أنهم رسل الله ، فقالوا له مجيبين : ﴿ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي أو ما نهيناك أن تضيف أحدًا ، فأرشدهم إلى نسائهم وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة . وقد تقدم إيضاح القول في ذلك بما أغنى عن إعادته ، هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم وما قد أحاط بهم من البلاء وماذا يصبحهم من العذاب المستقر . ولهذا قال تعالى لمحمّد ﷺ : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أقسم تعالى بحياة نبيّه صلوات الله وسلامه عليه ، وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض . وعن ابن عبّاس : ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسًا أكرم عليه من محمّد ﷺ ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره ، قال الله تعالى : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يقول وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا ﴿ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ رواه ابن جرير وقال قتادة : ﴿ لَفِى سَكْرَتِهِمْ ﴾ أي في ضلالهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أي يلعبون ، وقال ابن عبّاس : ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ لعيشك ﴿ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ قال : يترددون .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس وهو طلوعها ، وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء ثم قلبها وجعل عاليها سافلها ، وإرسال حجارة السجيل عليهم ، وقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ أي إن آثار هذه النقم الظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته ، كما قال مجاهد في قوله : ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ قال : المتفرسين ، وعن ابن عبّاس والضحّاك : للناظرين ، وقال قتادة : للمعتبرين ، وقال مالك عن بعض أهل المدينة ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ للمتأملين . وعن أبي سعيد مرفوعًا قال : قال رسول الله ﷺ : « اتّقوا

فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّه » ثم قرأ النبيّ ﷺ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ أي وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب الصوري والمعنوي ، والقذف للحجارة حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة بطريق مهيع ، مسالكه مستمرة إلى اليوم ، وقال مجاهد والضحّاك : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ قال : معلم ، وقال قتادة : بطريق واضح ، وقال قتادة أيضًا : بصقع من الأرض واحد ، وقال السدي : بكتاب مبين ، يعني كقوله ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ ولكن ليس المعنى على ما قال ههنا والله أعلم . وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار ، وإنجائنا لوطًا وأهله لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله .

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ .

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب ، قال الضحاك وقتادة وغيرهما : الأيكة الشجر الملتف وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان ، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة ، وقد كانوا قريبًا من قوم لوط بعدهم في الزمان ومسامتين لهم في المكان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أي طريق مبين ، قال ابن عبّاس وغيره : طريق ظاهر ، ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في إنذاره إياهم : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ .

أصحاب الحجر هم ثمود الذين كذبوا صالحًا نبيّهم ﷺ ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين ، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين ، وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح ، كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء ، وكانت تسرح في بلادهم لها شرب ولهم شرب يوم معلوم ، فلما عتوا وعقروها قال لهم : ﴿ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ وذكر تعالى أنهم ﴿ كَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾ أي من غير خوف ولا احتياج إليها بل أشرًا وبطرًا وعبثًا ، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مرّ به رسول الله ﷺ ، وهو ذاهب إلى تبوك ، فقنع رأسه وأسرع دابته وقال لأصحابه : « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ الْقَوْمِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا خَشْيَةَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ » (٢) وقوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ أي وقت الصباح من اليوم الرابع ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ أي ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة حتى عقروها لئلا تضيق عليهم في المياه ، فما دفعت عنهم تلك الأموال ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣١٢٧) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٦٨) .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٨٠) ومسلم في الزهد والرقائق (٣٩) وأحمد في مسنده (٢/٦٦) .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ ﴾ أي بالعدل ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾ الآية ، ثم أخبر نبيّه بقيام الساعة وأنها كائنة لا محالة ، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين في أذاهم له وتكذيبهم لما جاءهم به ، كقوله : ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ وقال مجاهد وقتادة وغيرهما : كان هذا قبل القتال ، وهو كما قالا فإن هذه مكية والقتال إنما شرع بعد الهجرة . وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ تقرير للمعاد وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة ، فإنه الخلّاق الذي لا يعجزه خلق شيء ، العليم بما تمزق من الأجساد وتفرق في سائر أقطار الأرض .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى لنبيّه ﷺ : كما آتيناك القرآن العظيم فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه ، فلا تغبطهم بما هم فيه ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزنًا عليهم في تكذيبهم لك ومخالفتهم دينك ، ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي ألن لهم جانبك وقد اختلف في السبع المثاني ما هي ؟ .

فقال ابن مسعود وابن عمر وابن عبّاس وغيرهم : هي السبع الطوال يعنون : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس . نص عليه ابن عبّاس وسعيد بن جبير ، وقال سعيد : بين فيهن الفرائض والحدود والقصص والأحكام ، وقال ابن عبّاس : بيَّن الأمثال والخبر والعبر ، وعن ابن أبي عمر قال : قال سفيان : المثاني البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ، والأنفال وبراءة سورة واحدة ، قال ابن عباس : ولم يعطهن أحد إلّا النبيّ ﷺ ، وأعطي موسى منهن ثنتين (١) .

وقال مجاهد : هي السبع الطوال ، ويقال : هي القرآن العظيم ، وعن زياد بن أبي مريم في قوله : ﴿ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي ﴾ قال : أعطيتك سبعة أجزاء : مر ، وانه ، وبشر ، وأنذر ، واضرب الأمثال ، واعدد النعم ، وانبئك بنبأ القرآن (٢) .

والقول الثاني : أنها الفاتحة ، وهي سبع آيات . وروي ذلك عن علي وعمر وابن مسعود وابن عبّاس ، قال ابن عبّاس : والبسملة هي الآية السابعة ، وقد خصكم الله بها . وقال قتادة : ذكر لنا أنهن فاتحة الكتاب ، وأنهن يثنين في كل ركعة مكتوبة أو تطوع . وقد أورد البخاري رحمه الله ههنا حديثين :

أحدهما : عن أبي سعيد بن المعلى قال : مرّ بي النبيّ ﷺ وأنا أصلي ، فدعاني فلم آته حتى صليت ، فأتيته فقال : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي ؟ » فقلت : كنت أصلي ، فقال : « أَلَمْ يَقُلِ اللَّه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ أَلَا أُعَلِّمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ » فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرت فقال : « ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ » (٣) .

---

(١) أخرجه النسائي في السنن باب الافتتاح (٢٦) . (٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٤/٧٦) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤٥٠) والنسائي في السنن (٩١٣) .

الثاني : عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ » [١] . فهذا نص في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم ، ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطوال بذلك لما فيها من هذه الصفة ، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضًا كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ ﴾ فهو مثاني من وجه ومتشابه من وجه ، وهو القرآن العظيم أيضًا ، كما أنه عليه الصلاة والسلام لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى فأشار إلى مسجده ، والآية نزلت في مسجد قباء ، فلا تنافي فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة والله أعلم .

وقوله : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ أي استعن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية ، ومن ههنا ذهب ابن عيينة إلى تفسير الحديث الصحيح : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بالقُرْآنِ » [٢] إلى أنه يستغنى به عما عداه ، وهو تفسير صحيح ولكن ليس هو المقصود من الحديث كما تقدم في أول التفسير .

وعن أبي رافع صاحب النبيّ ﷺ قال : ضاف النبيّ ﷺ ضيف ولم يكن عند النبيّ ﷺ شيء يصلحه فأرسل إلى رجل من اليهود « يَقُولُ لَكَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ أَسْلِفْنِي دَقِيقًا إِلَى هِلَالِ رَجَبٍ » قال : لا ، إلّا برهن ، فأتيت النبيّ ﷺ فأخبرته فقال : « أَمَا وَاللهِ إِنِّي لأَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ ، وَأَمِينُ مَنْ فِي الأَرْضِ ، وَلَئِنْ أَسْلَفَنِي أَوْ بَاعَنِي لأُؤَدِّيَنَّ إِلَيْهِ » فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ إلى آخر الآية ، كأنه يعزيه عن الدنيا [٣] ، قال العوفي عن ابن عباس ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ قال نهى الرجل أن يتمنى ما لصاحبه . وقال مجاهد : ﴿ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ هم الأغنياء .

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

يأمر تعالى نبيّه ﷺ أن يقول للناس ﴿ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ البين النذارة ، نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه ، كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها ، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام . وقوله : ﴿ الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ أي المتحالفين ، أي تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم ، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : المقتسمون أصحاب صالح الذين تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ، وعن أبي موسى عن النبيّ ﷺ قال : « إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ ، فَقَالَ يَا قَوْمُ إِنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنِي ، وَإِنِّي أنا النَّذِيرُ العُرْيَانُ ، فَالنَّجَاء النَّجَاء ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا وَانْطَلَقُوا عَلَى مَهَلِهِمْ فَنَجَوْا ، وَكَذَّبَهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ ما

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٠٤) .
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٢٧) وأحمد في مسنده (١٧٢/١) وأبو داود في السنن (١٤٦٩) .
(٣) أخرجه مسلم في الزكاة (١٤٤) وأحمد في مسنده (٤/٣) .

جئت بِهِ مِنَ الحقّ » (١) وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ أي جزؤوا كتبه المنزلة عليهم ، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض . عن ابن عبّاس ﴿ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ قال هم أهل الكتاب جزؤوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه (٢) . وعن ابن عبّاس أيضًا ﴿ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ قال : هم أهل الكتاب جزؤوها أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه (٣) .

وعن ابن عبّاس ﴿ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ قال : السحر ، وقال عكرمة : العضه السحر بلسان قريش ، تقول للساحرة : إنها العاضهة ، وقال مجاهد : عضوه أعضاء ، قالوا : سحر وقالوا : كهانة وقالوا : أساطير الأولين ، وقال عطاء قال : بعضهم ساحر ، وقالوا مجنون ، وقال كاهن ، فذلك العضين . وكذا روي عن الضحاك وغيره . وعن ابن عبّاس إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا شرف فيهم وقد حضر الموسم ، فقال لهم يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا ، ويرد قولكم بعضه بعضًا ، فقالوا وأنت يا أبا عبد شمس فقل : وأقم لنا رأيًا نقول به ، قال : بل أنتم قولوا لأسمع ، قالوا : نقول كاهن ، قال : ما هو بكاهن ، قالوا : فنقول مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، قالوا : فنقول ساحر ، قال : ما هو بساحر ، قالوا : فماذا نقول ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة فما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلّا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول أن تقولوا هو ساحر ، فتفرقوا عنه بذلك ، وأنزل الله فيهم : ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ أصنافًا ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أولئك النفر الذين قالوا لرسول الله . وعن ابن عمر في قوله ﴿ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ قال : عن لا إله إلا الله ، وعن مجاهد قال : عن لا إله إلّا الله . وعن أنس عن النبيّ ﷺ ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ قال : عن لا إله إلّا الله ، وقال عبد الله - هو ابن مسعود - والذي لا إله غيره ما منكم من أحد إلّا سيخلو الله به يوم القيامة كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر فيقول : ابن آدم ماذا غرّك مني بي ؟ ابن آدم ماذا عملت فيما علمت ؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟ وعن أبي العالية في قوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ قال : يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة ، عما كانوا يعبدون ، عماذا أجابوا المرسلين . وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ثم قال : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ قال : لا يسألهم هل عملتم كذا ؟ لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكن يقول لم عملتم كذا وكذا .

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ بإبلاغ ما بعثه به وبإنفاذه والصدع به وهو مواجهة المشركين به ،

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٣) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٠٥) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٠٦) .

كما قال ابن عبّاس في قوله : ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ أي أمضه ، وفي رواية : افعل ما تؤمر . وقال مجاهد : هو الجهر بالقرآن في الصلاة ، وعن عبد الله بن مسعود : ما زال النبيّ ﷺ مستخفيًا حتى نزلت ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ فخرج هو وأصحابه . وقوله : ﴿ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾ أي بلغ ما أنزل إليك من ربك ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ﴾ ولا تخفهم فإن الله كافيك إياهم وحافظك منهم ، وعن أنس قال في هذه الآية ﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ قال مرَّ رسول الله ﷺ فغمزه بعضهم ، فجاء جبريل - أحسبه قال فغمزهم - فوقع في أجسادهم كهيئة الطعنة فماتوا .

وقال محمّد بن إسحاق : كان عظماء المستهزئين كما حدَّثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير خمسة نفر ، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم : من بني أسد بن عبد العزى بن قصي ، الأسود ابن المطلب أبو زمعة ، ومن بني زهرة : الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة ، ومن بني مخزوم : الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، ومن بني سهم : ابن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي : العاص بن وائل بن هشام بن سُعَيد بن سعد ، ومن خزاعة : الحارث بن الطلاطلة بن عمرو بن الحارث بن عبد بن عمرو بن ملكان . فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى : ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ . وعن عروة بن الزبير أو غيره من العلماء أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت فقام ، وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه ، فمر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه ، ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى جرح بأسفل كعب رجله ، وكان أصابه قبل ذلك بسنين وهو يجر إزاره ، وذلك أنه مر برجل من خزاعة يريش نبلًا له فتعلق سهم من نبله بإزاره فخدش رجله ذلك الخدش وليس بشيء ، فانتقض به فقتله ، ومر به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص قدمه فخرج على حمار له يريد الطائف فربض على شبرقة فدخلت في أخمص قدمه فقتلته، ومر به الحارث بن الطلاطلة فأشار إلى رأسه فامتخط قيحًا فقتله . وعن ابن عبّاس قال : كان رأسهم الوليد بن المغيرة وهو الذي جمعهم .

وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد لمن جعل مع الله معبودًا آخر . وقوله : ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أي وإنا لنعلم يا محمّد أنك يحصل لك من أذاهم لك ضيق صدر وانقباض ، فلا يهيدنك ذلك ولا يثنينّك عن إبلاغك رسالة الله ، وتوكل عليه فإنه كافيك وناصرك عليهم ، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة ، ولهذا قال : ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ كما روي عن نعيم بن عمار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ لَا تَعْجَزْ عَنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَكْفِكَ آخِرَهُ » (١) ، ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٧/٥) .

وقوله : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ قال البخاري : قال سالم الموت [١] وسالم هذا هو سالم بن عبد الله بن عمر ، والدليل على ذلك قوله تعالى إخبارًا عن أهل النار أنهم قالوا : ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾ وعن أم العلاء امرأة من الأنصار أن رسول الله ﷺ ما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات قالت أم العلاء : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله ، فقال رسول الله ﷺ : « وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّه أَكْرَمَهُ ؟ » فقلت بأبي وأمي يا رسول الله فمن ؟ قال : « أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ اليَقِينُ ، وَإِنِّي لأَرْجُو لَهُ الخَيْرَ » [٢] .

ويستدل بهذه الآية الكريمة وهي قوله : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتًا ، فيصلي بحسب حاله كما ثبت عن عمران ابن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « صَلِّ قَائِمًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ » [٣] ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة ، فمتى وصل أحدهما إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم ، وهذا كفر وضلال وجهل ، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته وما يستحق من التعظيم ، وكانوا مع هذا أعبد وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة ، وإنما المراد باليقين ههنا الموت كما قدمناه ولله الحمد والمنة .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (باب قوله : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾) .
(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٤٣) وأحمد في مسنده (٤٣٦/٦) والبيهقي في السنن (٤٠٦/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة (١١١٧) وأحمد في مسنده (٤٢٦/٤) .

سورة النحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبرًا بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة ، كقوله : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ وقوله : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ أي قرب ما تباعد فلا تستعجلوه ، يحتمل أن يعود الضمير على الله ، ويحتمل أن يعود على العذاب ، وكلاهما متلازم ، وقد ذهب الضحاك في تفسير هذه الآية إلى قول عجيب فقال في قوله ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ أي فرائضه وحدوده ، وقد رده ابن جرير فقال : لا نعلم أحدًا استعجل بالفرائض وبالشرائع قبل وجودها ، بخلاف العذاب فإنهم استعجلوا قبل كونه استبعادًا وتكذيبًا ، قلت كما قال تعالى ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ .

وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « تطلعُ عليكم عندَ السَّاعَةِ سحابةٌ سوداءُ مِنَ المغربِ مثل التُّرْسِ ، فما تزالُ ترتفعُ في السَّماءِ ، ثم ينادي منادٍ فيها : يا أيها النّاسُ فيقبل النّاسُ بعضهم على بعض : هل سمعتم ؟! فمنهم من يقول نعم ، ومنهم من يشكُّ ، ثم ينادي الثانيةَ : يا أيها الناسُ ، فيقول الناسُ بعضهم لبعض : هل سمعتم ! فيقولون نعم ، ثم ينادي الثالثةَ : يا أيها الناسُ أتى أمر الله فلا تستعجلوه » قال رسول الله ﷺ : « فوالذي نَفْسِي بِيدِه إنَّ الرجلين لَيَنْشُرَانِ الثوبَ فما يَطْوِيانِهِ أبدًا ، وإنَّ الرجلَ لَيَمُدَّنَّ حَوْضَهُ فما يسقي فيه شيئًا أبدًا ، وإنَّ الرجلَ ليحلبُ ناقته فما يشربه أبدًا – قال – ويشتغلُ الناسُ » (١) ثم إنه تعالى نزّه نفسه عن شركهم به غيره ، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد ، تعالى وتقدّس علوًّا كبيرًا ، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ ﴾ أي الوحي وقوله : ﴿ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ وهم الأنبياء كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ وقوله : ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ ﴾ أي لينذروا ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ أي : فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري .

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ .

يخبر تعالى عن خلقه العالمَ العلوي وهو السموات ، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت ، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث ، بل ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾ ثم نزّه نفسه عن شرك من عبد معه غيره ، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له ، فلهذا يستحق أن يُعبد وحده لا شريك له ، ثم نبّه على خلق جنس الإنسان من نطفة أي مهينة ضعيفة ، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ويحارب رسله ، وهو إنما خُلق ليكون عبدًا لا ضدًّا ، كقوله

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٣٩/٤) والمنذري في الترغيب (٣٨٢/٤) .

تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ وعن بشر بن جحاش قال : بصق رسول الله ﷺ في كفه ثم قال : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ابْنُ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ فَعَدَّلْتُكَ مَشَيْتُ بَيْنَ بُرْدَيْكَ وَلِلأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ قُلْتَ أَتَصَدَّقُ ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ ؟ » (١) .

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم ، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج ، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون ، ومن ألبانها يشربون ، ويأكلون من أولادها ، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة ولهذا قال : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ ﴾ وهو وقت رجوعها عشيًّا من المرعى فإنها تكون أمده خواصر وأعظمه ضروعًا وأعلاه أسنمة ﴿ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ أي غدوة حين تبعثونها المرعى ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ وهي الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها ﴿ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ ﴾ وذلك في الحجّ والعمرة والغزو والتجارة وما جرى مجرى ذلك ، تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي ربكم الذي قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم كقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ قال ابن عبّاس : ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ أي ثياب ﴿ وَمَنَٰفِعُ ﴾ ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة ، وعنه : ﴿ دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ ﴾ نسل كل دابة ، وقال مجاهد : ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ أي لباس ينسج ومنافع مركب ولحم ولبن ، وقال قتادة : ﴿ دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ ﴾ يقول لكم فيها لباس ومنفعة وبلغة .

﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده يمتن به عليهم ، وهو الخيل والبغال والحمير التي جعلها للركوب والزينة بها ، وذلك أكبر المقاصد منها ، ولما فصلها من الأنعام وأفردها بالذكر استدل من استدل من العلماء ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل بذلك على ما ذهب إليه فيها كالإمام أبي حنيفة رحمه الله ومن وافقه من الفقهاء بأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير ، وهي حرام كما ثبتت به السنّة النبوية وذهب إليه أكثر العلماء ، وعن مولى نافع بن علقمة عن ابن عبّاس أنه كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير وكان يقول : قال الله تعالى : ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ فهذه للأكل ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ فهذه للركوب (٢) ، واستأنسوا بحديث عن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال : نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير (٣) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٠/٤) وابن ماجه في السنن (٢٧٠٧) .

(٢) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١١٠/١٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٨٩/٤) والنسائي في السنن (٢٠٢/٧) وأبو داود في السنن (٣٧٩٠) .

وعن المقدام بن معد يكرب قال : غزونا مع خالد بن الوليد الصائفة فقدم أصحابنا إليّ اللحم فسألوني رمكة فدفعتها إليهم فحلبوها ، وقلت مكانكم حتى آتي خالدًا فأسأله ، فأتيته فسألته فقال غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة خيبر فأسرع الناس في حظائر يهود ، فأمرني أن أنادي : الصلاة جامعة ولا يدخل الجنة إلَّا مسلم ، ثم قال : « أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّكُمْ قَدْ أَسْرَعْتُمْ فِي حَظَائِرِ يَهُود ، أَلاَ لاَ يَحِلُّ أَمْوَالُ المُعَاهِدِينَ إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَحَرَامٌ عَلَيْكُم لُحُومُ الحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ وَخَيْلِهَا وَبِغَالِهَا ، وَكُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ ، وَكُلُّ ذِي مِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ » (١) والرمكة هي الحجرة ، وقوله حبلوها أي أوثقوها في الحبل ليذبحوها ، والحظائر البساتين القريبة من العمران ، وكأن هذا الصنيع وقع بعد إعطائهم العهدَ ومعاملتهم على الشطر والله أعلم . فلو صح هذا الحديث لكان نصًا في تحريم لحوم الخيل ، ولكن لا يقاوم ما ثبت عن جابر بن عبد الله قال : نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في لحوم الخيل (٢) .

وعن أسماء ابنة أبي بكر ﵄ قالت : نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسًا فأكلناه ونحن بالمدينة (٣) . فهذه أدل وأقوى وأثبت ، وإلى ذلك صار جمهور العلماء مالك والشافعي وأحمد وأصحابهم وأكثر السلف والخلف والله أعلم .

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية ، نبه على الطرق المعنوية الدينية ، وكثيرًا ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية ، كقوله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ ولما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم ، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة ، شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه ، فبيّن أن الحق منها ما هي موصلة إليه فقال : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ كقوله : ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ قال مجاهد في قوله : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ قال طريق الحق على الله ، وقال السدي : الإسلام ، وقال ابن عبّاس : وعلى الله البيان أي يبين الهدى والضلالة ، وكذا قال قتادة والضحاك ، وقول مجاهد ههنا أقوى من حيث السياق ؛ لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقًا تسلك إليه فليس يصل إليه منها إلَّا طريق الحق ، وهي الطريق التي شرعها ورضيها ، وما عداها مسدودة والأعمال فيها مردودة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي حائد مائل زائل عن الحق . قال ابن عبّاس وغيره : هي الطرق المختلفة والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية ، وقرأ ابن مسعود : ﴿ومنكم جَآئِرٌ ﴾ ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته فقال : ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٨٩) .
(٢) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٥٢١) ومسلم في الصيد والذبائح (٢٤) وأحمد في مسنده (٢/٢١٩) .
(٣) أخرجه مسلم في الصيد والذبائح (٣٨) .

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب ، شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء ، وهو العلو مما لهم فيه بلغة ومتاع لهم ولأنعامهم فقال : ﴿ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ أي جعله عذبًا زلالًا يسوغ لكم شرابه ، ولم يجعله ملحًا أجاجًا ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ أي وأخرج لكم منه شجرًا ترعون فيه أنعامكم . كما قال ابن عبّاس وعكرمة والضحاك وقتادة وابن زيد في قوله : ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ أي ترعون ومنه الإبل السائمة ، والسوم : الرعي ، وروي أن رسول الله ﷺ نهى عن السوم قبل طلوع الشمس [1] ، وقوله : ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي دلالة وحجة على أنه لا إله إلّا اللّه .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

ينبه تعالى عباده على آياته العظام ومننه الجسام في تسخيره الليلَ والنهارَ يتعاقبان ، والشمسَ والقمرَ يدوران ، والنجومَ الثوابت والسيارات في أرجاء السموات نورًا وضياء ليهتدي بها في الظلمات ، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله اللّه تعالى فيه ، يسير بحركة مقدرة لا يزيد عليها ولا ينقص عنها ، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسهيله ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي لدلالات على قدرته تعالى الباهرة ، وسلطانه العظيم لقوم يعقلون عن اللّه ويفهمون حججه . وقوله : ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ﴾ لما نبه تعالى على معالم السماء نبّه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وما فيها من المنافع والخواص ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي آلاء اللّه ونعمه فيشكرونها .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يخبر تعالى عن تسخيره البحرَ المتلاطم الأمواج ، ويمتن على عباده بتذليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه ، وجَعْلِه السمكَ والحيتان فيه ، وإحلالِه لعباده لحمَها حيَّها وميتَها في الحل والإحرام ، وما يخلقه فيه من اللآلىء والجواهر النفيسة وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حليةً يلبسونها ، وتسخيره البحرَ لحمل السفن التي تمخره أي تشقه ، وقيل تمخر الرياح ، وكلاهما صحيح ، وقيل : تمخره بجؤجئها - وهو صدرها المسنم - الذي أرشد العباد إلى صنعتها وهداهم إلى ذلك إرثًا عن أبيهم

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٢٠٦) .

نوح عليه السلام ، فإنه أول من ركب السفن ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي نعمه وإحسانه .

ثم ذكر تعالى الأرض وما ألقى فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات لتقر الأرض ولا تميد ، أي لا تضطرب بما عليها من الحيوانات فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك ، ولهذا قال ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ وقوله : ﴿ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا ﴾ أي جعل فيها أنهارًا تجري من مكان إلى مكان آخر رزقًا للعباد ، ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر ، فيقطع البقاع والبراري والقفار ويخترق الجبال والآكام فيصل إلى البلد الذي سخر لأهله ، وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة وجنوبًا وشمالًا وشرقًا وغربًا ما بين صغار وكبار ، وأودية تجري حينًا وتنقطع في وقت ، وما بين نبع وجمع ، وقويّ السير وبطيئه بحسب ما أراد وقدّر وسخّر ويسّر ، فلا إله إلّا هو ولا رب سواه ، وكذلك جعل فيها سبلًا أي طرقًا يسلك فيها من بلاد إلى بلاد ، حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممرًا ومسلكًا ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ وَعَلَامَاتٍ ﴾ أي دلائل من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك يستدل بها المسافرون برًا وبحرًا إذا ضلوا الطرق . وقوله : ﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أي في ظلام الليل ، قاله ابن عبّاس ، وعن مالك في قوله ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ يقول : النجوم وهي الجبال ، ثم نبّه تعالى على عظمته وأنه لا تنبغي العبادة إلّا له دون ما سواه من الأوثان التي لا تَخْلُقُ شيئًا بل هم يُخلقون ، ولهذا قال : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم فقال : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي يتجاوز عنكم ، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك ، ولو أمركم لضعفتم وتركتم ، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم ، ولكنه غفور رحيم يغفر الكثير ويجازي على اليسير ، وقال ابن جرير : يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ ﴾ لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بكم لا يعذبكم بعد الإنابة والتوبة .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر ، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر . ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يَخلُقون شيئًا وهم يُخلَقون ، وقوله : ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ أي هي جمادات لا أرواح فيها فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي لا يدرون متى تكون الساعة فكيف يُرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء ؟ إنما يُرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء وهو خالق كل شيء .

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه لا إله إلّا هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك

كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ وقوله : ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده ولهذا قال : ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أي حقًّا ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى وإذا قيل لهؤلاء المكذبين ﴿ مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ ﴾ معرضين عن الجواب ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي لم ينزل شيئًا ، إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين ، أي مأخوذة من كتب المتقدمين كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي يفترون على الرسول ويقولون أقوالًا متضادة مختلفة كلها باطلة . قال الله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ليتحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم ، أي يصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم ، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم كما جاء في الحديث : « مَنْ دَعَا إِلىَ هُدَى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنِ اتَّبَعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا » (١) وروى عن ابن عبّاس في الآية : ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ : إنها كقوله : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ وقال مجاهد : يحملون أثقالهم ذنوبهم وذنوب من أطاعهم ، ولا يخفف عمن أطاعهم من العذاب شيئًا .

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

قال ابن عبّاس في قوله : ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ هو النمروذ الذي بنى الصرح ، وعن زيد بن أسلم : أول جبار كان في الأرض النمروذ ، وهو الذي بني الصرح إلى السماء الذي قال الله تعالى : ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾ وقال آخرون : بل هو بختنصر ، وذكروا من المكر الذي حكاه الله ههنا ، وقال آخرون : هذا من المثل لإبطال ما صنعه هؤلاء الذي كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره ، كما قال نوح عليه السلام ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ أي احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة ، وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة ، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾ أي اجتثه من أصله وأبطل عملهم . ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ ﴾ أي يظهر فضائحهم ، وما كانت تجنه ضمائرهم فيجعله علانية كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ أي تظهر وتشتهر ، كما ورد عن ابن عمر

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٧/٢) وأبو داود في السنن (٤٦٠٩) .

قال : قال رسول الله ﷺ : « يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ اسْتِهِ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ ، فَيُقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ ابْنِ فُلَانٍ »[1] وهكذا هؤلاء يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر ويخزيهم الله على رءوس الخلائق ، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقرعًا لهم وموبخًا : ﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ ﴾ تحاربون وتعادون في سبيلهم ، أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا ؟ ﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ فإذا توجهت عليهم الحجة وقامت عليهم الدلالة ، وحقت عليهم الكلمة وسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة ، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة ، فيقولون حينئذ ﴿ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله وأشرك به ما لا يضرّه وما لا ينفعه .

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمي أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة ﴿ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ ﴾ أي أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭۚ ﴾ كما يقولون يوم المعاد ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ قال الله مكذبًا لهم في قيلهم ذلك ﴿ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي بئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان لمن كان مكتبرًا عن آيات الله واتباع رسله ، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم ، وينال أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها ، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم وخلدت في نار جهنم ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ ﴾ .

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء فإن أولئك قيل لهم ﴿ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ ﴾ قالوا معرضين عن الجواب : لم ينزل شيئًا إنما هذا أساطير الأولين ، وهؤلاء قالوا خيرًا ، أي أنزل خيرًا ، أي رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به ، ثم أخبر عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسله فقال : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ ﴾ الآية ، كقوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه عمله في الدنيا والآخرة ، ثم أخبر بأن دار الآخرة خير ، أي من الحياة الدنيا والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا ، كقوله : ﴿ وَٱلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ وقال رسول الله ﷺ ﴿ وَلَلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ ثم وصف الدار الآخرة فقال : ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ بدل من دار المتقين ، أي لهم في الآخرة جنات عدن أي مقام يدخلونها ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ ﴾ أي بين أشجارها وقصورها ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧١١١) ومسلم في الجهاد والسير (١٠) وأحمد في مسنده (٢/٧٠) .

أي كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله . ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون ، أي مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء ، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

يقول تعالى مهددًا للمشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا هل ينتظر هؤلاء إلّا الملائكة أن تأتيهم لقبض أرواحهم ، قاله قتادة ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أي يوم القيامة وما يعاينونه من الأهوال . وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله ، وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ لأنه تعالى أعذر إليهم ، وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاؤوا به ، فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله فلهذا يقال لهم يوم القيامة ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ﴾ أي من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل به سلطانًا ، ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهًا لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكننا منه ، قال تعالى رادًا عليهم شبهتهم ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم ، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار ونهاكم عنه آكد النهي ، وبعث في كل أمة أي في كل قرن وطائفة من الناس رسولًا ، وكلهم يدعون إلى عبادة الله وينهون عن عبادة ما سواه ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح ، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب ، وكلهم كما قال في هذه الآية الكريمة ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ﴾ فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية ؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله ، وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدرًا فلا

حجة لهم فيها ؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة ، وهو لا يرضى لعباده الكفر ، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة ، ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل ؛ فلهذا قال : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف ﴿ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ ثم أخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم إذا كان الله قد أراد إضلالهم كقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ وقوله : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ ﴾ أي شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فلهذا قال : ﴿ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ أي من أضله ، فمن ذا الذي يهديه من بعد الله ؟ أي لا أحد ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ أي ينقذونهم من عذابه ووثاقه .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين أنهم حلفوا فأقسموا بالله جهد أيمانهم أي اجتهدوا في الحلف وغلظوا الأيمان على أنه لا يبعث الله من يموت ، أي استبعدوا ذلك وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك وحلفوا على نقيضه ، فقال تعالى مكذبًا لهم ورادًّا عليهم : ﴿ بَلَىٰ ﴾ أي بلى سيكون ذلك ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ أي لابد منه ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر . ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد فقال : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾ أي للناس ﴿ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ أي من كل شيء ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا بِٱلْحُسْنَى ﴾ ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰذِبِينَ ﴾ أي في أيمانهم وأقسامهم لا يبعث الله من يموت ، ولهذا يُدعُّون يوم القيامة إلى نار جهنم دعًّا ، وتقول لهم الزبانية ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء ، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة فيكون كما يشاء . ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي أن نأمر به مرة واحدة فإذا هو كائن ، كما قال الشاعر :

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّه أَمْرًا فَإِنَّمَا ... يَقُولُ لَهُ كُنْ قَوْلَةً فَيَكُونُ

أي أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به ، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف ؛ لأنه الواحد القهار العظيم الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء ، فلا إله إلّا هو ولا رب سواه . وعن عطاء أنه سمع أبا هريرة يقول : قال الله تعالى : شتمني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك ، وكذبني ابن آدم

ولم يكن ينبغي له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقال ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ قال : وقلت : ﴿ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أما شتمه إياي فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ وقلت : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (١) .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۞ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته ، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلّان رجاء ثواب اللّه وجزائه ، ويحتمل أن يكون سبب نزولها في مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم ، ومن أشرافهم عثمان ابن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول اللّه ﷺ ، وجعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول ، وأبو سلمة ابن عبد الأسود في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة صديق وصدِّيقة ﷺ وأرضاهم وقد فعل ، فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال : ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ قال ابن عباس والشعبي وقتادة : المدينة ، وقيل : الرزق الطيب ، قاله مجاهد ، ولا منافاة بين القولين ؛ فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم اللّه خيرًا منها في الدنيا ، فإن من ترك شيئًا للّه عوضه اللّه بما هو خير له منه وكذلك وقع ، فإن اللّه مكن لهم في البلاد وحكّمهم على رقاب العباد وصاروا أمراء حكامًا وكل منهم للمتقين إمامًا ، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا فقال : ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ أي مما أعطيناهم في الدنيا ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر اللّه لمن أطاعه واتبع رسوله ؛ ولهذا قال هشيم عن العوام عمن حدَّثه أن عمر بن الخطاب ﷺ كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول : خذ بارك اللّه لك فيه ، هذا ما وعدك اللّه في الدنيا وما ادخر لك في الآخرة أفضل ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ثم وصفهم تعالى فقال : ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي صبروا على الأذى من قومهم متوكلين على اللّه الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۞ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : لما بعث اللّه محمّدًا رسولًا أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم ، وقالوا : اللّه أعظم من أن يكون رسوله بشرًا فأنزل اللّه : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ﴾ الآية . وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يعني أهل الكتب الماضية أبشرًا كانت الرسل إليهم أم ملائكة ؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم ، وإن كانوا بشرًا فلا تنكروا أن يكون محمّد ﷺ رسولًا قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ ليسوا من أهل السماء ، كما قلتم ، وكذا روي عن ابن عبّاس أن المراد بأهل الذكر أهل

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٧٥) .

الكتاب ، وقول عبد الرّحمن بن زيد : الذكر القرآن واستشهد بقوله ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ صحيح ، لكن ليس هو المراد ههنا ؛ لأن المخالف لا يرجع في إثباته بعد إنكاره إليه ، وكذا قول أبي جعفر الباقر : نحن أهل الذكر ومراده أن هذه الأمة أهل الذكر صحيح ، فإن هذه الأمة أعلم من جميع الأمم السالفة . وعلماء أهل بيت رسول الله عليه السلام والرحمة من خير العلماء إذا كانوا على السنّة المستقيمة كعلي وابن عبّاس وابني علي الحسن والحسين ومحمّد ابن الحنيفة وعلي بن الحسين زين العابدين وعلي بن عبد الله بن عباس وأبي جعفر الباقر وهو محمّد بن علي بن الحسين وجعفر ابنه وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم ممن هو متمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم ، وعرف لكل ذي حق حقه ونزّل كل المنزل الذي أعطاه الله ورسوله ، واجتمعت عليه قلوب عباده المؤمنين ، والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمّد ﷺ كانوا بشرًا كما هو بشر كما قال تعالى : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشرًا إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا هل كان أنبياؤهم بشرًا أو ملائكة .

ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي بالحجج والدلائل ﴿ وَٱلزُّبُرِ ﴾ وهي الكتب ، قاله ابن عبّاس ومجاهد والضحاك وغيرهم ، والزبر جمع زبور تقول العرب : زبرت الكتاب إذا كتبته . وقال تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ ﴾ يعني القرآن ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي من ربّهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك ، وحرصك عليه واتباعك له ، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم فتفصل لهم ما أجمل وتبين لهم ما أشكل ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين .

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاةَ الذين يعملون السيئات ويدعون إليها ، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها ، مع قدرته على أن يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أي من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم . وقوله : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾ أي في تقلبهم في المعايش واشتغالهم بها في أسفار ونحوها من الأشغال الملهية ، قال قتادة والسدي تقلبهم أي أسفارهم ، وقال مجاهد والضحّاك وقتادة ﴿ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾ في الليل والنهار ، قوله : ﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي لا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه . وقوله : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ أي أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم ، فإنه يكون أبلغ وأشد ، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد ، ولهذا قال العوفي عن ابن عبّاس ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ يقول إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة كما ثبت في الحديث « لا أحَدَ أصبرُ على أذًى سَمِعَهُ من الله ، إنهم يجعلونَ له ولدًا وَهُوَ يرزقهم ويعافيهم » (١) وفيهما « إنَّ اللّه لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلِتْهُ » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ

---

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٤٩) وأحمد في مسنده (٣٩٥/٤) .

أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١) .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ۝ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء ، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها جماداتها وحيواناتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة ، فأخبر أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال ، أي بكرة وعشيًا فإنه ساجد بظله للّه تعالى . قال مجاهد : إذا زالت الشمس سجد كل شيء للّه ﷻ ، وقوله : ﴿ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ أي صاغرون ، وقال مجاهد أيضًا : سجود كل شيء فيؤه ، وذكر الجبال قال : سجودها فيؤها . وقال أبو غالب الشيباني : أمواج البحر صلاته ، ونزَّلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم فقال : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي تسجد للّه أي غير مستكبرين عن عبادته ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ أي يسجدون خائفين وجلين من الرب ﷻ ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أي مثابرين على طاعته تعالى وامتثال أوامره ، وترك زواجره .

﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه لا إله إلَّا هو وأنه لا ينبغي العبادة إلَّا له وحده لا شريك له ، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه ﴿ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وعكرمة وميمون بن مهران والسدي وقتادة وغير واحد : أي دائمًا ، وعن ابن عبّاس أيضًا : أي واجبًا ، وقال مجاهد : أي خالصًا له ، أي له العبادة وحده ممن في السموات والأرض كقوله : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ هذا على قول ابن عبّاس وعكرمة فيكون من باب الخبر . وأما على قول مجاهد فإنه يكون من باب الطلب أي ارهبوا أن تشركوا بي شيئًا ، وأخلصوا لي الطاعة كقوله تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ ثم أخبر أنه مالك النفع والضر وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليهم ، وإحسانه إليهم ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ أي لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلَّا هو ، فإنكم عند الضرورات تلجؤون إليه وتسألونه وتلحّون في الرغبة إليه مستغيثين به ، وقال : ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ قيل : اللام ههنا لام العاقبة ، وقيل : لام التعليل بمعنى قيضنا لهم ذلك ليكفروا ، أي يستروا ويجحدوا نعم اللّه عليهم ، مع أنه المسدي إليهم النعمَ ، الكاشف عنهم النقمَ ، ثم توعدهم قائلًا : ﴿ فَتَمَتَّعُوا۟ ﴾ أي اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلًا ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي عاقبة ذلك .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ۝ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٦) ومسلم في البر والصلة (٦١) .

عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم ، وجعلوا للأوثان نصيبًا مما رزقهم الله فقالوا : ﴿ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي جعلوا لآلهتهم نصيبًا مع الله ، وفضلوها على جانبه ، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه وائتفكوه ، وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم فقال ﴿ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا ، وجعلوها بنات لله فعبدوها معه فأخطؤوا خطأ كبيرًا في كل مقام من هذه المقامات الثلاث ، فنسبوا إليه تعالى أن له ولدًا ولا ولد له ، ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات وهم لا يرضونها لأنفسهم ، كما قال : ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ وقوله ههنا ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ أي عن قولهم وإفكهم وقوله : ﴿ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله ، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا . فإنه ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ أي كئيبًا من الهمّ ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ ﴾ أي يكره أن يراه الناس ﴿ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ ﴾ أي إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها ولا يعتني بها ويفضل أولاده الذكور عليها ﴿ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ ﴾ أي يئدها وهو أن يدفنها فيه حية كما كانوا يصنعون في الجاهلية ، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله ؟ ! ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي بئس ما قالوا وبئس ما قسموا وبئس ما نسبوه إليه ، وقوله : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِۖ ﴾ أي النقص إنما ينسب إليهم ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ ﴾ أي الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم ، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة ، أي لأهلك دواب الأرض تبعًا لإهلاك جميع بني آدم ، ولكن الرب ﷻ يحلم ويستر ، وينظر إلى أجل مسمى ، أي لا يعاجلهم بالعقوبة ، إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحدًا . فعن أبي الأحوص أنه قال : كاد الجعل أن يعذب بذنب بني آدم وقرأ الآية ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ : وعن أبي سلمة قال : سمع أبو هريرة رجلًا وهو يقول : إن الظالم لا يضر إلَّا نفسه ، قال : فالتفت إليه فقال بلى والله ، حتى إن الحُبَارَى لتموت في وكرها بظلم الظالم (١)

(١) الأثر ذكره الطبري في تفسيره (١٤/١٦٦) والسيوطي في الدر المنثور (٥/١٤٠) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب ، والحُبَارَى : طائر طويل العنق رمادي اللون على شكل الإوَزَّة في منقاره طول ، الذكر والأنثى والجمع فيه سواء والمعنى أن الله يحبس عنها القطر بشؤم ذنوب الظالمين . لسان العرب (٢/٧٥١) ، المعجم الوسيط (١/١٥٨) .

وعن أبي الدرداء ﷺ قال : ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال : « إِنَّ اللّه لا يُؤَخِّر شَيْئًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهُ ، وَإِنَّمَا زِيَادَةُ العُمْرِ بِالذُّرِّيَّةِ الصَّالِحَةِ يَرْزُقُهَا اللّه العَبْدَ فَيَدْعُونَ لَهُ من بَعْدِهِ فَيَلْحَقُهُ دُعَاؤُهُمْ فِي قَبْرِهِ فذلك زِيَادَةُ العُمْرِ » (١) .

وقوله : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ أي من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيده ، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله . وقوله : ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا ، وإن كان ثم معاد ففيه أيضًا لهم الحسنى ، وإخبار عن قيل من قال منهم كقوله : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ . قال مجاهد وقتادة ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي الغلمان ، وقال ابن جرير ﴿ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي يوم القيامة وهو الصواب ولله الحمد ، ولهذا قال تعالى رادًّا عليهم في تمنيهم ذلك ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أي حقًّا لابد منه ﴿ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم : منسيون فيها مضيعون ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ وعن قتادة أيضًا ﴿ مُّفْرَطُونَ ﴾ أي معجلون إلى النار من الفرط وهو السابق إلى الورد ، ولا منافاة لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار وينسون فيها أي يخلدون .

﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلًا فكذّبت الرسل ، فلك يا محمّد في إخوتك من المرسلين أسوة فلا يهيدنك تكذيب قومك لك ، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه . ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ أي هم تحت العقوبة والنكال والشيطان وليهم ولا يملك لهم خلاصًا ، ولا صريخ لهم ، ولهم عذاب أليم . ثم قال تعالى لرسوله : إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ﴿ وَهُدًى ﴾ أي للقلوب ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أي لمن تمسك به ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها ، كذلك يحيي الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء من ماء ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي يفهمون الكلام ومعناه .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ۝ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أي لآية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ ﴾ أفرده ههنا عودًا على معنى النعم ، أو الضمير عائد على الحيوان ، فإن الأنعام حيوانات ، أي نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان ،

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٤٣٦٦١) وابن حجر في فتح الباري (١٠/٤١٦)

وفي الآية الأخرى ﴿ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ ويجوز هذا وهذا ، وقوله : ﴿ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا ﴾ أي يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم في باطن الحيوان ، فيسري كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته ، فيصرف منه دم إلى العروق ، ولبن إلى الضرع ، وبول إلى المثانة ، وروث إلى المخرج ، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به . وقوله : ﴿ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ أي لا يغص به أحد ، ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شرابًا للناس سائغًا ، ثنى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب ، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه ، ولهذا امتن به عليهم فقال : ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا ﴾ دل على إباحته شرعًا قبل تحريمه ، ودل على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء ، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل كما جاءت السنة بتفصيل ذلك وليس هذا موضع بسط ذلك ، كما قال ابن عباس في قوله ﴿ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ ﴾ السكر ما حرم من ثمرتيهما ، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما . وفي رواية : السكر حرامه ، والرزق الحسن حلاله ، يعني ما يبس منهما من تمر وزبيب وما عمل منهما من طلاء وهو الدبس وخل ونبيذ حلال يشرب قبل أن يشتد كما وردت السنة بذلك ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ ناسب ذكر العقل ههنا فإنه أشرف ما في الإنسان ، ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها .

﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ۝ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

المراد بالوحي هنا الإلهام والهداية والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتًا تأوي إليها ، ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها ورصها بحيث لا يكون في بيتها خلل ، ثم أذن لها تعالى إذنًا قدريًا تسخيريًا أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذللة لها ، أي مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة ، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة ، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل ، فتبني الشمع من أجنحتها ، وتقيء العسل من فيها ، وتبيض الفراخ من دبرها ، ثم تصبح إلى مراعيها . وقال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ ﴾ أي مطيعة ، فجعلاه حالًا من السالكة . قال ابن زيد : وهو كقول الله تعالى ﴿ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ﴾ قال : ألا ترى أنهم ينقلون النحل ببيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم ، والقول الأول هو الأظهر ، وهو أنه حال من الطريق ، أي فاسلكيها مذللة لك ، نص عليه مجاهد . وقال ابن جرير : كلا القولين صحيح ، وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « عُمْرُ الذُّبَابِ أَرْبَعُونَ يَوْمًا ، وَالذُّبَابُ كُلُّهُ فِي النَّارِ إِلَّا النَّحْلَ » (١) وقوله تعالى : ﴿ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ ﴾ ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكلها منها .

وقوله : ﴿ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ ﴾ أي في العسل شفاء للناس أي من أدواء تعرض لهم ، قال بعض من

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٤٢٣١ ، ٤٢٩٠) والهيثمي في مجمع الزوائد (٤١/٤) .

تكلم على الطب النبوي : لو قال فيه شفاء للناس لكان دواء لكل داء ، ولكن قال : ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ : أي يصلح لكل أحد من أدواء باردة ، فإنه حار والشيء يداوى بضده . وقال مجاهد وابن جرير في قوله : ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ : يعني القرآن ، وهذا قول صحيح في نفسه ولكن ليس هو الظاهر ههنا من سياق الآية ، إنما ذكر فيها العسل ، ولم يتابع مجاهد على قوله ههنا ، وإنما الذي قاله ذكروه في قوله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

والدليل على أن المراد بقوله تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ هو العسل . الحديث الذي روي عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رجلًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : إن أخي استطلق بطنه فقال : « اسْقِهِ عَسَلًا » فذهب فسقاه عسلًا ثم جاء فقال : يا رسول الله سقيته عسلًا فما زاده إلا استطلاقًا قال : « اذْهَبْ فَاسْقِهِ عَسَلًا » فذهب فسقاه عسلًا ثم جاء فقال : يا رسول الله ما زاده إلَّا استطلاقًا ، فقال رسول الله ﷺ : « صَدَقَ اللَّه وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ ، اذْهَبْ فَاسْقِهِ عَسَلًا » فذهب فسقاه عسلًا فبرئ [1] .

قال بعض العلماء بالطب : كان هذا الرجل عنده فضلات ، فلما سقاه عسلًا وهو حار تحللت فأسرعت في الاندفاع فزاده إسهالًا ، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه ، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع ، ثم سقاه فكذلك ، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه وصلح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ، ببركة إشارته عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام . وعن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل [2] ، وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ : فِي شَرْطَةِ مِحجَم ، أَوْ شُرْبَةِ عَسَلٍ ، أَوْ كَيَّةٍ بِنَارٍ وَأَنْهى أُمَّتِي عَنِ الكَيِّ » [3] .

وعن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : قال رسول الله ﷺ : « عَلَيْكُمْ بِالشِّفَاءَيْنِ : العَسَلِ وَالْقُرْآنِ » [4] وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَعِقَ العَسَلَ ثَلَاثَ غَدَوَاتٍ فِي كُلِّ شَهْرٍ لَمْ يُصِبْهُ عَظِيمٌ مِنَ البَلَاءِ » [5] .

وقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة ، إلى السلوك في هذه المهامه ، والاجتناء من سائر الثمار ، ثم جمعها للشمع والعسل وهو أطيب الأشياء لآية لقوم يتفكرون في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها ، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر الحكيم العليم الكريم الرحيم .

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ .

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده ، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم ، ثم بعد ذلك يتوفاهم ، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم وهو الضعف في الخلقة كما قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ الآية ، وقد روي عن علي ﵁ أرذل العمر خمس وسبعون سنة ، وفي هذا

(١) أخرجه مسلم في السلام (٩١) والترمذي في السنن (٢٨٢) وأحمد في مسنده (٩٢/٣) .
(٢) أخرجه البخاري في الطب (٥٦٨٢) .
(٣) أخرجه البخاري في الطب (٥٦٨١) والبيهقي في السنن (٣٤١/٩) .
(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٤٥٢) والبيهقي في السنن (٣٤٤/٩) .
(٥) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٤٥٠) .

السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم ، ولهذا قال : ﴿ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ ﴾ أي بعد ما كان عالمًا أصبح لا يدري شيئًا من الفند والخرف ؛ ولهذا روي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو : « أَعُوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ ، وَالْكَسَلِ ، وَالْهَرَمِ ، وَأَرْذَلِ الْعُمرِ ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ ، وَفِتْنَةِ الدَّجَّالِ ، وَفِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ » (١) .

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ .

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء ، وهم يعترفون أنها عبيد له ، كما كانوا يقولون في تلبيتهم في حجهم : لبيك لا شريك لك إلّا شريكًا هو لك تملكه وما ملك ، فقال تعالى منكرًا عليهم أنتم لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم ، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له في الإلهية والتعظيم ، قال العوفي عن ابن عبّاس في هذه الآية يقول : لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم ، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني فذلك قوله : ﴿ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ وقال في الرواية الأخرى : عنه فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم ، وقال مجاهد في هذه الآية هذا مثل الآلهة الباطلة ، وقال قتادة : هذا مثل ضربه الله فهل منكم من أحد يشاركه مملوكه في زوجته وفي فراشه ، فتعدلون بالله خلقه وعباده ؟ فإن لم ترض لنفسك هذا فالله أحق أن ينزه منك . وقوله : ﴿ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ أي أنهم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا ، فجحدوا نعمته وأشركوا معه غيره ، وعن الحسن البصري قال : كتب عمر بن الخطاب ﷺ هذه الرسالة إلى أبي موسى الأشعري : واقنع برزقك من الدنيا ، فإن الرحمن فضل بعض عباده على بعض في الرزق بلاء يبتلي به كلًّا ، فيبتلي من بسط له كيف شكره لله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوله .

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴾ .

يذكر تعالى نعمه على عبيده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجًا من جنسهم وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكورًا وإناثًا ، وجعل الإناث أزواجًا للذكور ، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة وهم أولاد البنين ، وعن ابن عبّاس ﴿ بَنِينَ وَحَفَدَةٗ ﴾ : هم الولد وولد الولد . وعن عكرمة عن ابن عبّاس قال : بنوك حيث يحفدونك ويرفدونك ويعينونك ويخدمونك .

وقال مجاهد : ﴿ بَنِينَ وَحَفَدَةٗ ﴾ : ابنه وخادمه . وقال في رواية : الحفدة الأنصار والأعوان والخدام ، وقال طاوس وغير واحد : الحفدة الخدم . وعن عكرمة أنه قال : الحفدة من خدمك من ولدك وولد ولدك ، قال الضحّاك :إنما كانت العرب تخدمها بنوها ، وقال العوفي عن ابن عبّاس قوله ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ ﴾ يقول بنو امرأة الرجل ليسوا منه ، ويقال : الحفدة الرجل

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٠٧) .

يعمل بين يدي الرجل ، يقال : فلان يحفد لنا أي يعمل لنا ، قال : وزعم رجال أن الحفدة أختان الرجل ، وقال ابن جرير : وهذه الأقوال كلها داخلة في معنى الحفدة وهو الخدمة الذي منه قوله في القنوت : وإليك نسعى ونحفد ، ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والخدم والأصهار فالنعمة حاصلة بهذا كله ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ قلت : فمن جعل ﴿ وَحَفَدَةً ﴾ متعلقًا بأزواجكم فلا بد أن يكون المراد الأولاد وأولاد الأولاد أو الأصهار ؛ لأنهم أزواج البنات أو أولاد الزوجة ، وكذا قال الشعبي والضحاك فإنهم يكونون غالبًا تحت كنف الرجل وفي حجره وفي خدمته ، وقد يكون هذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام في حديث نضرة بن أكثم « وَالوَلَدُ عَبْدٌ لَكَ » (١) . وأما من جعل الحفدة الخدم ، فعنده أنه معطوف على قوله ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أي جعل لكم الأزواج والأولاد خدمًا .

وقوله : ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ أي من المطاعم والمشارب ، ثم قال تعالى منكرًا على من أشرك في عبادة المنعم غيره ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهم الأنداد والأصنام ﴿ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ أي يسترون نعم اللَّه عليهم ويضيفونها إلى غيره . وفي الحديث الصحيح « إِنَّ اللَّه يَقُولُ لِلعَبْدِ يوم القِيَامَةِ مُمْتَنًّا عَلَيْهِ : أَلَمْ أُزَوِّجْكَ ؟ أَلَمْ أُكْرِمْكَ ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ وَالإِبْلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ ؟ » (٢) .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى إخبارًا عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له ، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ما لا يملك لهم رزقًا من السموات والأرض شيئًا ، أي لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر ، ولا يملكون ذلك لأنفسهم أي ليس لهم ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ أي لا تجعلوا له أندادًا وأشباهًا وأمثالًا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلّا هو وأنتم بجهلكم تشركون به غيره .

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : هذا مثل ضربه اللَّه للكافر والمؤمن ، وكذا قال قتادة ، واختاره ابن جرير ، فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر ، والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سرًّا وجهرًا هو المؤمن ، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى ، فهل يستوي هذا وهذا ؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهرًا واضحًا بيّنًا لا يجهله إلّا كل غبي قال اللَّه تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢١٣١) والبيهقي في السنن (١٥٧/٧) .
(٢) أخرجه مسلم في الزهد (١٦) .

يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

قال مجاهد : وهذا أيضًا المراد به الوثن والحق تعالى ، يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ولا يقدر على شيء بالكلية ، فلا مقال ولا فعال ، وهو مع هذا كَلٌّ ، أي عيال وكلفة على مولاه ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ ﴾ أي يبعثه ﴿ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ ولا ينجح مسعاه ﴿ هَلْ يَسْتَوِي ﴾ مَن هذه صفاته ﴿ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ أي بالقسط فمقاله حق وفعاله مستقيمة ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وقيل : الأبكم مولى لعثمان ، وبهذا قال السدي وقتادة وعطاء الخرساني ، واختار هذا القول ابن جرير (١) .

وعن ابن عبّاس : هو مثل للكافر والمؤمن أيضًا كما تقدم ، عن ابن عبّاس في قوله ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ قال : نزلت في رجل من قريش وعبده قوله ﴿ عَبْدًا مَّمْلُوكًا ﴾ الآية . وفي قوله : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ ﴾ إلى قوله ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ قال : هو عثمان بن عفان ، قال : والأبكم الذي أينما يوجهه لا يأت بخير قال : هو مولى لعثمان بن عفان كان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤونة ، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما (٢) .

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن كمال علمه وقدرته على الأشياء في علمه غيب السموات والأرض ، واختصاصه بعلم الغيب فلا اطلاع لأحد على ذلك إلَّا أن يطلعه تعالى على ما يشاء ، وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمانع ، وأنه إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون ، كما قال : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ أي فيكون ما يريد كطرف العين ، وهكذا قال ههنا : ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ثم ذكر تعالى منته على عباده في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا ، ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي به يدركون الأصوات ، والأبصار التي بها يحسون المرئيات ، والأفئدة وهي العقول التي مركزها القلب على الصحيح ، وقيل : الدماغ والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها ، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلًا قليلًا كلما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده . وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه ، كما ورد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يَقُولُ تَعَالَى : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أفضل مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وبصره الذي يبصر به ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنْ

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٤/١٩٨) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٤/١٩٨) والسيوطي في الدر المنثور (٥/١٥٢) وعزاه لابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر وابن أبي حاتم .

دَعَانِي لَأُجِيبَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَ بِي لأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الموت وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ » (١) فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله ﷻ ، فلا يسمع إلَّا لله ، ولا يبصر إلَّا لله ، أي ما شرعه الله له ولا يبطش ولا يمشي إلَّا في طاعة الله ﷻ ، مستعينًا بالله في ذلك كله . ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح بعد قوله : ورجله التي يمشي بها « فَبِي يَسْمَعُ ، وَبِي يَمْشِي » ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ كقوله تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

ثم نبّه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض كيف جعله يطير بجناحين بين السماء والأرض في جو السماء ، ما يمسكه هناك إلَّا الله بقدرته تعالى التي جعل فيها قوى تفعل ذلك ، وسخّر الهواء يحملها ويسير الطير كذلك ، كما قال تعالى في سورة الملك : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾ وقال ههنا : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ .

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم يأوون إليها ، ويستترون بها ، وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع ، وجعل لهم أيضًا من جلود الأنعام بيوتًا أي من الأدم يستخفون حملها في أسفارهم ، ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر . ولهذا قال : ﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا ﴾ أي الغنم ﴿ وَأَوْبَارِهَا ﴾ أي الإبل ﴿ وَأَشْعَارِهَآ ﴾ أي المعز ، والضمير عائد على الأنعام ﴿ أَثَـٰثًا ﴾ أي تتخذون منه أثاثًا وهو المال ، وقيل المتاع ، وقيل الثياب ، والصحيح أعم من هذا كله ، فإنه يتخذ من الأساس البسط والثياب وغير ذلك ، ويتخذ مالًا وتجارة ، وقال ابن عبّاس : الأثاث المتاع ، وقوله : ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي إلى أجل مسمى ووقت معلوم .

وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلًا ﴾ قال قتادة : يعني الشجر ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا ﴾ أي حصونًا ومعاقل كما ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ وهي الثياب من القطن والكتان والصوف ﴿ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ كالدروع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ أي هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وما تحتاجون إليه ليكون عونًا لكم على طاعته وعبادته ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ هكذا فسره الجمهور وقرؤوه بكسر اللام من تسلِمون أي من الإسلام ، وقال قتادة في قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ : هذه السورة تسمى سورة النعم ، وعن ابن عبّاس أنه كان يقرؤوها ﴿ تسلَمون ﴾ بفتح اللام يعني من الجراح (٢) ،

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢) .
(٢) هكذا قرأها ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وأبو رجاء بفتح التاء واللام على معني لعلكم إذا لبستم الدروع تسلمون في الحرب . زاد المسير (٤/٤٧٨) .

وأخرجه ابن جرير من الوجهين ورد هذه القراءة (١) .

قال عطاء الخرساني : إنما نزل القرآن على قدر معرفة العرب . ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ﴾ وما جعل من السهل أعظم وأكثر ، ولكنهم كانوا أصحاب جبال ؟ ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ وما جعل من غير ذلك أعظم وأكثر ، ولكنهم كانوا أصحاب وبر وشعر ؟ ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾ لعجبهم من ذلك ، وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر ولكنهم كانوا لا يعرفونه ؟ ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ وما تقي من البرد أعظم وأكثر ، ولكنهم كانوا أصحاب حر .

وقوله : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ أي بعد هذا البيان وهذا الامتنان فلا عليك منهم ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ وقد أديته إليهم ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ أي يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك ، وهو المتفضل به عليهم ، ومع هذا ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره ، ويسندون النصر والرزق إلى غيره ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ، عن مجاهد أن أعرابيًا أتى النبي ﷺ فسأله فقرأ عليه رسول الله ﷺ ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾ فقال الأعرابي : نعم ، قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا ﴾ الآية ، قال الأعرابي : نعم ، ثم قرأ عليه كل ذلك يقول الأعرابي : نعم ، حتى بلغ ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ فولّى الأعرابي فأنزل الله : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ الآية .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة ؟ وأنه يبعث من كل أمة شهيدًا ، وهو نبيها يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي في الاعتذار ؛ لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه كقوله : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ فلهذا قال : ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ أي الذين أشركوا ﴿ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ﴾ أي لا يفتر عنهم ساعة واحدة ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي لا يؤخر عنهم بل يأخذهم سريعًا من الموقف بلا حساب ، فإنه إذا جيء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك فيشرف عنق منها على الخلائق ، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلَّا جثا لركبتيه ، فتقول : إني وكلت بكل جبار عنيد ، الذي جعل مع الله إلها آخر ، وبكذا وبكذا وتذكر أصنافًا من الناس كما جاء في الحديث (٢) ، ثم تنطوي عليهم وتلتقطهم من الموقف كما يلتقط الطائر الحب ، قال الله تعالى ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ

(١) انظر تفسير الطبري (١٤/٢٠٤) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٣٣٦) والترمذي في السنن (٢٥٧٤) .

فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا ﴾ ثم أخبر تعالى عن تبري آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال : ﴿ وإذا رءا الذين أشركوا شركاءهم ﴾ أي الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ﴿ قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون ﴾ أي قالت لهم الآلهة كذبتم ما نحن أمرناكم بعبادتنا ، كما قال تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله ءالهة ليكونوا لهم عزا ۝ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾ .

وقوله : ﴿ وألقوا إلى الله يومئذ السلم ﴾ قال قتادة وعكرمة : ذلوا واستسلموا يومئذ ، أي استسلموا لله جميعهم فلا أحد إلا سامع مطيع . وكقوله : ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴾ أي ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ وقوله : ﴿ وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله ، فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير . ثم قال تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا ﴾ الآية ، أي عذابًا على كفرهم ، وعذابًا على صدّهم الناس عن اتباع الحق ، كقوله تعالى ﴿ وهم ينهون عنه وينئون عنه ﴾ أي ينهون الناس عن اتباعه ويبتعدون هم منه أيضًا ، وعن عبد الله في قول الله : ﴿ زدناهم عذابا فوق العذاب ﴾ قال : زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال . وعن ابن عبّاس في الآية أنه قال : هي خمسة أنهار تحت العرش يعذبون ببعضها في الليل وببعضها في النهار .

﴿ ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا عبده ورسوله محمّدًا ﷺ ﴿ ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ﴾ يعني أمتك ، أي اذكر ذلك اليوم وهوله وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع ، وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة النساء فلما وصل إلى قوله : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ فقال له رسول الله ﷺ : « حسبك » فقال ابن مسعود رضي الله عنه : فالتفت فإذا عيناه تذرفان (١) . وقوله : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ﴾ قال ابن مسعود : قد بيَّنَ لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء ، وقال مجاهد : كل حلال وكل حرام ، وقول ابن مسعود أعم وأشمل ، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي ، وكل حلال وحرام ، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم ﴿ وهدى ﴾ أي للقلوب ﴿ ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ وقال الأوزاعي ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ﴾ أي بالسنة ، ووجه اقتران قوله ﴿ ونزلنا عليك الكتاب ﴾ مع قوله ﴿ وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ﴾ أن المراد والله أعلم أن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك سائلك عن ذلك اليوم وقال تعالى : ﴿ إن الذي فرض عليك القرءان لرادك إلى معاد ﴾ أي إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه ومعيدك يوم القيامة ، وسائلك عن أداء ما فرض عليك . هذا أحد الأقوال وهو متجه

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٨٢) .

حسن .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل وهو القسط والموازنة ، ويندب إلى الإحسان كقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ وقال ابن عباس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ : شهادة أن لا إله إلّا اللّه ، وقال سفيان بن عيينة : العدل في هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل للّه عملًا ، والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته ، والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته . وقوله : ﴿ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ أي يأمر بصلة الأرحام وقوله : ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ فالفواحش المحرمات ، والمنكرات ما ظهر منها من فاعلها ، ولهذا قال في الموضع الآخر : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ وأما البغي فهو العدوان على الناس ، وقد جاء في الحديث : « مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللّه عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا ، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لِصَاحِبِهِ فِي الآخِرَةِ مِنَ البَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ »[(1)] وقوله : ﴿ يَعِظُكُمْ ﴾ أي بما يأمركم به من الخير ، وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ وعن ابن مسعود يقول : إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ الآية ، وقال سعيد بن قتادة : قوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ الآية ، ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلّا أمر اللّه به ، وليس من خلق سيئ كانوا يتعايرونه بينهم إلّا نهى اللّه عنه وقدم فيه ، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها قلت ولهذا جاء في الحديث : « إِنَّ اللّه يُحِبُّ مَعَالِيَ الأَخْلَاقِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا »[(2)] .

وعن عبد اللّه بن عباس قال : بينما رسول اللّه ﷺ بفناء بيته جالس إذ مر به عثمان بن مظعون ، فكشر إلى رسول اللّه ﷺ فقال له رسول اللّه ﷺ : « أَلَا تَجْلِسُ » فقال : بلى ، قال : فجلس رسول اللّه ﷺ مستقبله ، فبينما هو يحدِّثه إذ شخص رسول اللّه ﷺ ببصره إلى السماء ، فنظر ساعة إلى السماء فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه في الأرض ، فتحرف رسول اللّه ﷺ عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره ، فأخذ ينغض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له وابن مظعون ينظر ، فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له شخص بصر رسول اللّه ﷺ إلى السماء كما شخص أول مرة ، فأتبعه بصره حتى توارى إلى السماء ، فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى ، فقال : يا محمّد فيما كنت أجالسك ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة فقال : « وَمَا رَأَيْتَنِي فَعَلْتُ ؟ » قال رأيتك شخص بصرك إلى السماء ثم وضعته حيث وضعته على يمينك فتحرفت إليه وتركتني ، فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيئًا يقال لك ، قال : « وَفَطِنْتَ لِذَلِكَ ؟ » فقال عثمان : نعم ، قال : رسول اللّه ﷺ : « أَتَانِي رَسُولُ اللّه آنِفًا وَأَنْتَ جَالِسٌ » قال : رسول اللّه ؟ قال : « نَعَم » قال : فما قال لك ؟ قال :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦/٥) وابن ماجه في السنن (٤٢١١) .
(٢) ذكره الألباني في الصحيحة (١٦٢٧) .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ الآية ، قال عثمان : فذلك حين استقر الإيمان في قلبي أحببت محمّدًا ﷺ(١) .

﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ۝٩١ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ .

هذا مما يأمر الله تعالى به ، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدات ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا ﴾ ولا تعارض بين هذا وبين قوله : ﴿ وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ ﴾ الآية ، وبين قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ ﴾ أي لا تتركوها بلا كفارة ، وبين قوله ﷺ فيما ثبت عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال : « إِني وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّه لاَ أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا – وفي رواية – وَكَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي »(٢) لا تعارض بين هذا كله ولا بين الآية المذكورة هاهنا ، وهي قوله : ﴿ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا ﴾ لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق ، لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع ، ولهذا قال مجاهد في قوله : ﴿ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا ﴾ يعني الحلف ، أي حلف الجاهلية . ويؤيده ما رواه جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ حِلْفَ فِي الإِسْلاَمِ ، وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الجَاهِلِيَةِ فَإِنَّهُ لاَ يَزِيدُهُ الإِسْلاَمُ إِلَّا شِدَّةً »(٣) . ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه ، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه . وأما ما ورد عن أنس رضي الله عنه أنه قال : حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دورنا(٤) فمعناه أنه آخى بينهم ، فكانوا يتوارثون به حتى نسخ الله ذلك والله أعلم .

وعن بريدة في قوله : ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ ﴾ قال : نزلت في بيعة النبيّ ﷺ ، كان من أسلم بايع النبيّ ﷺ على الإسلام ، فقال : ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ ﴾ هذه البيعة التي بايعتم على الإسلام ﴿ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا ﴾ لا يحملنكم قلة محمّد وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام . وعن نافع قال : لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه وأهله ثم تشهد ثم قال : أما بعد : فإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ الغَادِرَ يُنْصَبُ لَهُ لِوَاءٌ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنٍ ، وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الغَدْرِ – إلا أن يكون الإشراك بالله – أَنْ يُبَايِعَ رَجُلٌ رَجُلًا عَلَى بَيْعَةِ اللَّه وَرَسُولِهِ ثُمَّ يَنْكُثُ بَيْعَتَهُ ، فَلاَ يَخْلَعَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَدًا ، وَلاَ يَسْرِفَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ فِي هَذَا الأَمْرِ فَيَكُونُ فَصْلٌ بَيْنِي وَبَيْنَهُ »(٥) وعن حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ شَرَطَ لِأَخِيهِ شَرْطًا لاَ يُرِيدُ أَنْ يَفِيَ لَهُ بِهِ ، فَهُوَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٨/١) .
(٢) أخرجه مسلم في الأيمان (٩) وأحمد في مسنده (٣٩٨/٤) .
(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٠٦) والإمام أحمد في مسنده (٨٣/٤) .
(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٤٠) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٠٥) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤٨/٢) والبيهقي في السنن (٢٣٠/٩) .

كَالْمُدْلِي جَارَهُ إِلَى غَيْرِ مَنْعَةٍ »(١) . وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها .

وقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴾ قال السدي : هذه امرأة خرقاء كانت بمكة ، كلما غزلت شيئًا نقضته بعد إبرامه ، وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده ، وهذا القول أرجح وأظهر سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا . وقوله : ﴿ أَنكَـٰثًا ﴾ يحتمل أن يكون اسم مصدر ، نقضت غزلها أنكاثًا أي أنقاضًا ، ويحتمل أن يكون بدلًا عن خبر كان ، أي لا تكونوا أنكاثًا جمع نكث من ناكث ، ولهذا قال بعده ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾ أي خديعة ومكرًا ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أي تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم ، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم ، فنهى اللَّه عن ذلك لينبه بالأدنى على الأعلى ، إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه ، فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى .

وقد قدمنا ولله الحمد في سورة الأنفال قصة معاوية لما كان بينه وبين ملك الروم أمد ، فسار معاوية إليهم في آخر الأجل ، حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم وهم غارون لا يشعرون ، فقال له عمرو بن عنبسة : اللَّه أكبر يا معاوية وفاء لا غدر ، سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ أَجَلٌ فَلاَ يَحُلَّنَّ عُقْدَةً حَتَّى يَنْقَضِيَ أَمَدُهَا » فرجع معاوية رضي الله عنه بالجيش(٢) . قال ابن عبّاس : ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أي أكثر ، وقال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعزّ ، فنهوا عن ذلك . وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ﴾ قال سعيد بن جبير : يعني بالكثرة ، وقال ابن جرير : أي بأمره إياكم بالوفاء بالعهد ﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ فيجازي كل عامل بعمله من خير وشر .

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾
وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا
عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول اللَّه تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ كقوله تعالى ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ أي لوفق بينكم ولما جعل اختلافًا ولا تباغض ولا شحناء ، وقال ههنا ﴿ وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها ، على الفتيل والنقير والقطمير . ثم حذّر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلًا أي خديعة ومكرًا ، لئلا تزل قدم بعد ثبوتها ، مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصد عن سبيل اللَّه ؛ لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به ، لم يبق له وثوق بالدين فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام ، ولهذا قال

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٤/٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١١١/٤ ، ١١٣) والبيهقي في السنن (٢٣١/٩) .

﴿ وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ ﴾ أي لا تعتاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها ، فإنها قليلة ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له ، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه وحفظ عهده رجاء موعوده ، ولهذا قال : ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ ﴾ أي يفرغ وينقضي ، فإنه إلى أجل محصور مقدر متناه ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ ﴾ أي وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاذ له ، فإنه دائم لا يحول ولا يزول ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ قسم من الرب تعالى مؤكد باللام أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم ، أي ويتجاوز عن سيئها .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحًا ، وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنّة نبيّه ﷺ ، من ذكر أو أنثى من بني آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله ، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله ، بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا ، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة ، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت ، وقد روي عن ابن عبّاس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب ، وعن علي بن أبي طالب ﷺ أنه فسرها بالقناعة ، وكذا قال ابن عباس وعكرمة ووهب بن منبه ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس : إنها هي السعادة ، والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله ، كما جاء عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ ، وَرُزِقَ كَفَافًا ، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ » (١) وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ المُؤْمِنَ حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُثَابُ عَلَيْهَا فِي الآخِرَةِ ، وَأَمَّا الكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُعْطَى بِهَا خَيْرًا » (٢) .

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ .

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيّه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم ، وهذا أمر ندب ليس بواجب ، حكى الإجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة ، وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الاستعاذة ، مبسوطة في أول التفسير ولله الحمد والمنة . والمعني في الاستعاذة عند ابتداء القراءة لئلا يلبس على القارئ قراءته ، ويخلط عليه ويمنعه من التدبّر والتفكر ، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة ، وحكي عن حمزة وأبي حاتم السجستاني أنها تكون بعد التلاوة ، واحتجا بهذه الآية ، ونقل النووي في شرح المهذب مثل ذلك عن أبي هريرة أيضًا ، ومحمّد بن سيرين وإبراهيم النخعي ، والصحيح الأول لما تقدم من الأحاديث الدالة على تقدمها على التلاوة والله أعلم .

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٢٥) وأحمد في مسنده (١٦٨/٢) والبيهقي في السنن (١٩٦/٤) .
(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٥٦) وأحمد في مسنده (١٢٣/٣) .

وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ قال الثوري : ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه ، وقال آخرون معناه : لا حجة له عليهم ، وقال آخرون : كقوله ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ ﴾ قال مجاهد : يطيعونه ، وقال آخرون : اتخذوه وليًا من دون الله ﴿ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ أي أشركوه في عبادة الله ، ويحتمل أن تكون الباء سببية ، أي صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى ، وقال آخرون : معناه أنه شركهم في الأموال والأولاد .

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين ، وقلة ثباتهم وإيقانهم ، وأنه لا يتصور منهم الإيمان ، وقد كتب عليهم الشقاوة ، وذلك أنهم إذا رأوا تغير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا لرسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ﴾ أي كذاب ، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، وقال مجاهد : ﴿ بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ أي ورفعناها وأثبتنا غيرها ، وقال قتادة هو كقوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ الآية ، فقال تعالى مجيبًا لهم : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ ﴾ أي جبريل ﴿ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بالصدق والعدل ﴿ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فيصدقوا بما أنزل أولًا ، وثانيًا وتخبت له قلوبهم ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ أي وجعله هاديًا وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت أن محمّدًا إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر ، ويشيرون إلى رجل أعجمي ، كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش ، وكان بياعًا يبيع عند الصفا ، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء ، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية ، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لابد منه ، فلهذا قال الله تعالى رادًّا عليهم في افترائهم ذلك ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي القرآن ، أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني إسرائيل ، كيف يتعلم من رجل أعجمي ؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل . قال محمّد بن إسحاق بن يسار في السيرة : كان رسول الله ﷺ فيما بلغني كثيرًا ما يجلس عند المروة إلى سبيعة غلام نصراني يقال له جبر عبد لبعض بني الحضرمي فأنزل الله : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١) . وعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعلم قينًا بمكة وكان اسمه بلعام ، وكان أعجمي اللسان ، وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا : إنما يعلمه بلعام ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ

(١) سيرة ابن هشام (٣٩٣/٢) .

عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [١] . وقال الضحاك بن مزاحم : هو سلمان الفارسي ، وهذا القول ضعيف لأن هذه الآية مكية وسلمان إنما أسلم بالمدينة [٢] ، وقال عبيد الله بن مسلم : كان لنا غلامان روميان يقرآن كتابًا لهما بلسانهما ، فكان النبيّ ﷺ يمر بهما فيقوم فيسمع منهما ، فقال المشركون : يتعلم منهما ، فأنزل الله هذه الآية ، وعن سعيد بن المسيب : الذي قال ذلك من المشركين رجل كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فارتد بعد ذلك عن الإسلام وافترى هذه المقالة قبّحة الله .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره ، وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله ، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله في الدنيا ، ولهم عذاب أليم موجع في الآخرة ، ثم أخبر تعالى أن رسول الله ﷺ ليس بمفتر ولا كذاب ، لأنه إنما يفتري الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ شرار الخلق ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس ، والرسول محمّد ﷺ كان أصدق الناس وأبرّهم وأكملهم علمًا وعملًا وإيمانًا وإيقانًا ، معروفًا بالصدق في قومه ، لا يشك في ذلك أحد منهم ، بحيث لا يدعى بينهم إلّا بالأمين محمّد ، ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل : فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله ﷻ .

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ۝ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر ، وشرح صدره بالكفر واطمأن به أنه قد غضب عليه لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه ، وأن لهم عذابًا عظيمًا في الدار الآخرة لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وختم على سمعهم وأبصارهم ، فلا ينتفعون بها ولا أغنت عنهم شيئًا ، فهم غافلون عما يراد بهم ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أي لابد ولا عجب أن من هذه صفته ﴿ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ أي الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . وأما قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ، ووافق المشركين بلفظه : مكرهًا لما ناله من ضرب وأذى ، وقلبه يأبى ما يقول ، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله . وقد روى العوفي عن ابن عبّاس أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر حين عذّبه المشركون حتى يكفر بمحمّد ﷺ ، فوافقهم على ذلك مكرهًا ، وجاء معتذرًا إلى النبيّ ﷺ فأنزل الله هذه الآية . وعن أبي عبيدة محمّد بن عمار بن ياسر

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٣٢/١٤) والسيوطي في الدر المنثور (١٦٧/٥) وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٣٤/١٤) .

قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا ، فشكا ذلك إلى النبيّ ﷺ ، فقال النبيّ ﷺ : « كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ ؟ » قال : مطمئنًا بالإيمان ، قال النبيّ ﷺ : « إِنْ عَادُوا فَعُدْ » ، وفيه أنه سبّ النبيّ ﷺ وذكر آلهتهم بخير ، فشكا ذلك إلى النبيّ ﷺ فقال : يا رسول الله ما تُرِكتُ حتى سببتك وذكرت آلهتهم بخير قال : « كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ ؟ » قال : مطمئنًا بالإيمان ، فقال : « إِنْ عَادُوا فَعُد »(١) وفي ذلك أنزل الله ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاءً لمهجته ، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال ﷺ يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ، ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول : أحد ، أحد ، ويقول : والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها ، ﷺ وأرضاه . وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمّدًا رسول الله ؟ فيقول : نعم ، فيقول : أتشهد أني رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع . فلم يزل يقطعه إربًا إربًا وهو ثابت على ذلك . وعن عكرمة أن عليًّا ﷺ حرق ناسًا ارتدوا عن الإسلام ، فبلغ ذلك ابن عبّاس فقال : لم أكن لأحرقهم بالنار ، إن رسول الله ﷺ قال : « لا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ الله » وكنت قاتلهم بقول رسول الله ﷺ : « مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ » فبلغ ذلك عليًّا فقال : ويح أم ابن عبّاس(٢)

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله ، كما ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن حذافة السهمي أحد الصحابة أنه أسرته الروم فجاءوا به إلى ملكهم ، فقال له تنصر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي ، فقال له : لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمّد ﷺ طرفة عين ما فعلت ، فقال : إذًا أقتلك ، فقال : أنت وذاك ، فأمر به فصلب ، وأمر الرماة فرموا قريبًا من يديه ورجليه ، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى ، ثم أمر به فأنزل ، ثم أمر بقدر - وفي رواية ببقرة من نحاس - فأحميت ، وجاء بأسير من المسلمين ، فألقاه وهو ينظر فإذا هو عظام تلوح وعرض عليه فأبى ، فأمر به أن يلقى فيها فرُفِعَ في البكرة ليلقى فيها فبكى ، فطمع فيه ودعاه ، فقال : إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر الساعة في الله ، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله ، وفي بعض الروايات أنه سجنه ومنع منه الطعام والشراب أيامًا ، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه ، ثم استدعاه فقال : ما منعك أن تأكل ؟ فقال : أما إنه قد حل لي ولكن لم أكن لأشمتك بي ، فقال له الملك : فقبل رأسي ، وأنا أطلقك ، فقال : وتطلق معي جميع أسارى المسلمين ؟ قال : نعم ، فقبّل رأسه فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده ، فلما رجع قال عمر بن الخطاب ﷺ : حق على كل مسلم أن يقبّل رأس عبد الله بن حذافة وأنا أبدأ ، فقام فقبّل رأسه ﷺ .

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢٠٨/٨) والحاكم في المستدرك (٣٥٧/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١٧) وأحمد في مسنده (٢١٧/١) والبيهقي في السنن (٧١/٩) .

لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم ، فوافقوهم على الفتنة ، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان اللّه وغفرانه ، وانتظموا في سلك المؤمنين وجاهدوا معهم الكافرين وصبروا ، فأخبر تعالى أنه من بعدها - أي تلك الفعلة ، وهي الإجابة إلى الفتنة - لغفور بهم رحيم بهم يوم معادهم ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ ﴾ أي تحاج ﴿ عَن نَّفْسِهَا ﴾ ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة ﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أي من خير وشر ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أي لا ينقص من ثواب الخير ، ولا يزاد على ثواب الشر ، ولا يظلمون نقيرًا .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ .

هذا مثل أريد به أهل مكة ، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها ، ومن دخلها كان آمنًا لا يخاف كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ وهكذا قال ههنا : ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ﴾ أي هنيئًا سهلًا ﴿ مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ أي جحدت آلاء اللّه عليها وأعظمها بعثة محمّد ﷺ إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ ولهذا بدلهم اللّه بحاليهم الأولين خلافهما فقال : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليها ثمرات كل شيء ، ويأتيها رزقها رغدًا من كل مكان ، وذلك أنهم استعصوا على رسول اللّه ﷺ وأبو خلافه ، فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف ، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم (١) ، فأكلوا العلهز وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه . وقوله : ﴿ وَالْخَوْفِ ﴾ وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفًا من رسول اللّه ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه ، وجعل كل ما لهم في دمار وسفال حتى فتحها اللّه على رسوله ﷺ ، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه اللّه فيهم منهم ، وامتن به عليهم في قوله ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ الآية ، وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن ، وجاعوا بعد الرغد ، فبدل اللّه المؤمنين من بعد خوفهم أمنًا ، ورزقهم بعد العيلة ، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم ، وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل ضرب لأهل مكة قاله العوفي عن ابن عبّاس .

وعن سليم بن نمير يقول : صدرنا من الحج مع حفصة زوج النبيّ ﷺ وعثمان ﷺ محصور بالمدينة ، فكانت تسأل عنه ما فعل ؟ حتى رأت راكبين فأرسلت إليهما تسألهما ، فقالا : قتل ، فقالت حفصة : والذي نفسي بيده إنها القرية - تعني المدينة - التي قال اللّه تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ (٢) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٧٠/٢) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٤٣/١٤) .

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب ، وبشكره على ذلك ، فإنه المنعم المتفضل به ابتداء الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له ، ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم من الميتة والدم ولحم الخنزير ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ أي ذبح على غير اسم الله ، ومع هذا ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ ﴾ أي احتاج من غير بغي ولا عدوان ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية عن إعادته ولله الحمد ، ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وغير ذلك مما كان شرعًا لهم ابتدعوه في جاهليتهم فقال : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس فيها مستند شرعي ، أو حلل شيئًا مما حرم الله ، أو حرم شيئًا مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه ، وما في قوله ﴿ لِمَا تَصِفُ ﴾ مصدرية ، أي ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم ، ثم توعد على ذلك فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ أي في الدنيا ولا في الآخرة ، أما في الدنيا فمتاع قليل ، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم .

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به ، وإنما أرخص فيه عند الضرورة - وفي ذلك توسعة لهذه الأمة التي يريد الله بها اليسرى ولا يريد بها العسرى - ذكر ﷺ ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها ، وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والحرج فقال ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ أي في سورة الأنعام في قوله ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ ﴾ أي فيما ضيقنا عليهم ﴿ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي فاستحقوا ذلك ؛ ثم أخبر تعالى تكرمًا وامتنانًا في حق العصاة المؤمنين أن من تاب منهم إليه تاب عليه فقال : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ﴾ قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل ﴿ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ ﴾ أي أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي ، وأقبلوا على فعل الطاعات ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ أي تلك الفعلة والزلة ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا

كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء ، ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية فقال : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ فأما الأمة : فهو الإمام الذي يقتدى به والقانت : هو الخاشع المطيع ، والحنيف : المنحرف قصدًا عن الشرك إلى التوحيد ، ولهذا قال : ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وعن أبي العبيدين أنه سأل عبد اللّه بن مسعود عن الأمة القانت فقال : الأمة معلم الخير ، والقانت المطيع للّه ورسوله ، وعن مالك قال : قال ابن عمر : الأمة الذي يعلّم الناس دينهم ، وعن أبي العبيدين أنه جاء إلى عبد اللّه فقال : من نسأل إذا لم نسألك ؟ فكأن ابن مسعود رق له فقال : أخبرني عن الأمة ؟ فقال : الذي يعلّم الناس الخير ، وعن فروة بن نوفل الأشجعي قال : قال ابن مسعود إن معاذًا كان أمة قانتًا للّه حنيفًا ، فقلت في نفسي غلط أبو عبد الرَّحمن وقال : إنما قال اللّه ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ فقال : تدري ما الأمة وما القانت ؟ قلت : اللّه أعلم ، فقال : الأمة الذي يعلّم الخير ،والقانت المطيع للّه ورسوله ، وكذلك كان معاذ ، وقال مجاهد : أمة أي أمة وحده ، والقانت : المطيع ، وقال مجاهد أيضًا كان إبراهيم أمة أي مؤمنًا وحده والناس كلهم إذ ذاك كفار ، وقال قتادة : كان إمام هدى والقانت : المطيع للّه . وقوله : ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ أي قائمًا بشكر نعم اللّه عليه . وقوله : ﴿ ٱجْتَبَىٰهُ ﴾ أي اختاره واصطفاه ثم قال : ﴿ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو عبادة اللّه وحده لا شريك له على شرع مرضي . وقوله : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أي جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وقال مجاهد في قوله : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أي لسان صدق . وقوله : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أي ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء ﴿ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ثم قال تعالى منكرًا على اليهود :

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

لا شك أن اللّه تعالى شرع في كل ملة يومًا من الأسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة ، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة لأنه اليوم السادس الذي أكمل اللّه فيه الخليقة ، واجتمعت فيه وتمت النعمة على عباده ، ويقال : إن اللّه تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى ، فعدلوا عنه واختاروا السبت لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئًا من المخلوقات الذي كمل خلقها يوم الجمعة ، فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه مع أمره إياهم بمتابعة محمّد ﷺ إذا بعثه ، وأخذ مواثيقهم وعهودهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ قال مجاهد : اتبعوه وتركوا الجمعة ، ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به حتى بعث اللّه عيسى ابن مريم ، فيقال : إنه حولهم إلى يوم الأحد ، ويقال : إنه لم يترك شريعة التوراة إلّا ما نسخ من بعض أحكامها ، وإنه لم يزل محافظًا على السبت حتى رفع ، وإن النصارى بعده في زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد مخالفة لليهود ، وتحولوا إلى الصلاة شرقًا عن الصخرة واللّه أعلم .

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللّه ﷺ قال : « نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، بيْدَ أَنَّهُمْ

أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثُمّ هذا يومُهمُ الّذي فرضَ الله عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له ، فالنّاسُ لنا فيهِ تبعٌ ، اليهودُ غدًا والنّصارى بعدَ غدٍ »[١] ، وعن أبي هريرة وحذيفة ﷺ قالا : قال رسول الله : « أضلَّ الله عن الجمُعةِ منْ كانَ قبلنَا ، فكانَ لليهودِ يوْمُ السّبتِ ، وكانَ للنّصارَى يوْمُ الأحدِ ، فجاءَ الله بنا فهدَانا الله ليوْم الجُمُعةِ ، فجعَلَ الجُمُعةَ والسّبتَ والأحدَ ، وكذلكَ هُمْ تبعٌ لنَا يوْمَ القيامةِ ، نحْنُ الآخِرُونَ منْ أهْلِ الدُّنيا والأوّلُونَ يوْمَ القِيامَةِ ، والمَقضِيُّ بيْنهُمْ قبْلَ الخلائِقِ »[٢] .

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله محمّدًا ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة . قال ابن جرير : وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنّة والموعظة الحسنة ، أي بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ، ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى ، وقوله : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ الآية ، أي قد علم الشقي منهم والسعيد .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ .

يأمر تعالى بالعدل في القصاص ، والمماثلة في استيفاء الحق ، فعن ابن سيرين أنه قال في قوله تعالى ﴿ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ إن أخذ منكم رجل شيئًا فخذوا مثله ، وقال ابن زيد : كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين ، فأسلم رجال ذوو منعة فقالوا : يا رسول الله لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب ، فنزلت هذه الآية ثم نسخ ذلك الجهاد .

وقال الشعبي وابن جريج : نزلت في قول المسلمين يوم أُحد فيمن مثّل بهم لنمثّلن بهم ، فأنزل الله فيهم ذلك ، وعن أُبيّ بن كعب قال : لما كان يوم أُحُد قتل من الأنصار ستون رجلًا ومن المهاجرين ستة ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنمثلن بهم ، فلما كان يوم الفتح قال رجل : لا تعرف قريش بعد اليوم ، فنادى مناد : إن رسول الله ﷺ قد أمَّن الأسود والأبيض إلّا فلانًا وفلانًا - ناسًا سماهم - فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ إلى آخر السورة ، فقال رسول الله ﷺ : « نَصْبِرُ وَلَا نُعَاقِبُ »[٣] وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن ، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل ، كما في قوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ . وقال في هذه الآية : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ تأكيد للأمر بالصبر ، وإخبار بأن ذلك لا ينال إلّا

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٩٦) ومسلم في الجمعة (١٩) وأحمد في مسنده (٢/٢٤٩) .

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة (٢٢) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١٣٥) .

بمشيئة الله وإعانته وحوله وقوّته ، ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على من خالفك فإن الله قدر ذلك ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ ﴾ أي غم ﴿ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أي مما يجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك ، فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك ومظفرك بهم وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ أي معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه ، وهذه معية خاصة كقوله لموسى وهارون : ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ وقول النبيّ ﷺ للصدِّيق وهما في الغار : « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّه مَعَنَا » [1] وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ومعنى ﴿ الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ أي تركوا المحرمات ﴿ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ أي فعلوا الطاعات ، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلؤهم وينصرهم ويؤيدهم ويظفرهم على أعدائهم ومخالفيهم .

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦١٥) ومسلم في الزهد (٧٥) .

سورة الإسراء

عن ابن مسعود ﷺ قال في بني إسرائيل والكهف ومريم : إنهن من العتاق الأول ، وهن من تلادي[١] . وعن عائشة قالت : كان رسول اللَّه ﷺ يصوم حتى نقول : ما يريد أن يفطر ، ويفطر حتى نقول : ما يريد أن يصوم ، وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر[٢] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

يمجد تعالى نفسه ، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه ، فلا إله غيره ﴿ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ يعني محمدًا ﷺ ﴿ لَيْلًا ﴾ أي في جنح الليل ﴿ مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ وهو بيت المقدس الذي بإيلياء معدن الأنبياء من لدن إبراهيم ؛ ولهذا جمعوا له هناك كلهم فأمهم في دارهم فدل على أنه هو الإمام الأعظم ، وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ أي في الزروع والثمار ﴿ لِنُرِيَهُ ﴾ أي محمدًا ﴿ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ أي العظام ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ أي السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم ، البصير بهم فيعطي كلًّا منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة .

ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء

عن أنس بن مالك يقول : ليلة أسري برسول اللَّه ﷺ من مسجد الكعبة : إنه جاء ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام ، فقال أولهم : أيهم هو ؟ فقال أوسطهم : هو خيرهم ، فقال آخرهم : خذوا خيرهم ، فكانت تلك الليلة ، فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه . وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ، فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم ، فتولاه منهم جبريل ، فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ، ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشو إيمانًا وحكمة فحشا به صدره ولغاديده - يعني عروق حلقه - ثم أطبقه ثم عرج به إلى السماء الدنيا . فضرب بابًا من أبوابها فناداه أهل السماء : من هذا ؟ فقال : جبريل ، قالوا : ومن معك ؟ قال : معي محمد ، قالوا : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم ، قالوا : فمرحبًا به وأهلًا ، يستبشر به أهل السماء لا يعلم أهل السماء بما يريد اللَّه في الأرض حتى يعلمهم ، فوجد في السماء آدم فقال له جبريل : هذا أبوك آدم فسلم عليه ، وردّ عليه آدم فقال : مرحبًا وأهلًا بابني ، نعم الابن أنت ، فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال : « مَا هَذَانِ النَّهْرَانِ يَا جِبْرِيلُ ؟ » قال : هذان النيل والفرات عنصرهما ، ثم مضى به في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر فقال : « مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ » قال : هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك . ثم

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٠٨) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٨/٦) .

عرج به إلى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الملائكة الأولى : من هذا ؟ قال : جبريل ، قالوا : ومن معك ؟ قال : محمد ﷺ قالوا : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم ، قالوا : مرحبًا به وأهلًا . ثم عرج به إلى السماء الثالثة ، فقالوا له ما قالت الأولى والثانية ، ثم عرج به إلى السماء الرابعة فقالوا له مثل ذلك ، ثم عرج به إلى السماء الخامسة فقالوا له مثل ذلك ، ثم عرج به إلى السماء السادسة فقالوا له مثل ذلك ، ثم عرج به إلى السماء السابعة فقالوا له مثل ذلك ، كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فوعيت منهم إدريس في الثانية ، وهارون في الرابعة ، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه ، وإبراهيم في السادسة ، وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله تعالى ، فقال موسى : رب لم أظن أن ترفع علي أحدًا ، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله ﷻ حتى جاء سدرة المنتهى ، ودنا الجبار رب العزة فتدلى ، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله إليه فيما يوحي خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة ، ثم هبط به حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى فقال : يا محمد ماذا عهد إليك ربك ؟ قال : « عَهِدَ إِلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاة كُلَّ يَوْم وَلَيْلَةٍ » قال : إن أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم ، فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل كأنه يستشيره في ذلك ، فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت ، فعلا به إلى الجبار تعالى وتقدس فقال وهو في مكانه : « يَا رَبِّ خَفِّفْ عَنَّا فَإِنَّ أُمَّتِي لاَ تَسْتَطِيعُ هَذَا » فَوَضَعَ عَنْهُ عَشْرَ صَلَوَاتٍ ، ثُمَّ رَجِعَ إِلَى مُوسَى فَاحْتَبَسَهُ ، فَلَمْ يَزَلْ يَرُدُدْهُ مُوسَى إِلَى رَبِّه حَتَّى صَارَتْ إِلَى خَمْسِ صَلَوَات ، ثُمَّ احْتَبَسَهُ مُوسى عِنْدَ الخَمْسِ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه ، فأمتك أضعف أجسادًا وقلوبًا وأبدانًا وأبصارًا وأسماعًا فارجع فليخفف عنك ربك ، كل ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه ، ولا يكره ذلك جبريل فرفعه عند الخامسة فقال : « يَا رَبِّ إِنَّ أُمَّتِي ضُعَفَاءُ أَجْسَادُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ ؛ فَخَفِّفْ عَنَّا » فقال الجبار تبارك وتعالى : يا محمد ، قال : « لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ » قال : إنه لا يبدل القول لدي كما فرضت عليك في أم الكتاب ، فكل حسنة بعشر أمثالها ، فهي خمسون في أم الكتاب وهي خمس عليك . فرجع إلى موسى فقال : كيف فعلت ؟ فقال : « خَفَّفَ عَنَّا ، أَعْطَانَا بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا » قال موسى : قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه ، فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضًا ، قال رسول الله ﷺ : « يَا مُوسَى ! قَدْ والله اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي ﷻ مِمَّا أَخْتَلِفُ إِلَيْهِ » قال : فاهبط باسم الله . قال : واستيقظ وهو في المسجد الحرام [1] .

وعن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال : « فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ، ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا فأفرغه في صدري ثم أطبقه ، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا ، فلما جئت إلى السماء قال جبريل لخازن السماء : افتح ، قال : من هذا ؟ قال : جبريل ، قال : هل معك أحد ؟ قال : نعم ، معي محمد ﷺ فقال :

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥١٧) .

أرسل إليه ؟ قال : نعم ، فلما فتح علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة ، إذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى ، فقال : مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح – قال : قلت لجبريل : من هذا ؟ قال : « هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار ، فإذا نظر عن يمينه ضحك ، وإذا نظر عن شماله بكى . ثم عرج بي إلى السماء الثانية فقال لخازنها : افتح ، فقال له خازنها مثل ما قال له الأول ففتح » قال أنس : فذكر أنه وجد في السماوات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم ، ولم يثبت كيف منازلهم ، غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا ، وإبراهيم في السماء السادسة ، قال أنس : فلما مر جبريل والنبي ﷺ بإدريس قال : مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح ، فقلت : من هذا ؟ قال : إدريس . ثم مر بموسى فقال : مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح ، فقلت : من هذا ؟ قال : هذا موسى . ثم مررت بعيسى فقال : مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح ، قلت : من هذا ؟ قال : هذا عيسى . ثم مررت بإبراهيم فقال : مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح ، قلت : من هذا ؟ قال : هذا إبراهيم – قال الزهري : فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان قال النبي ﷺ : « ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام » قال أنس بن مالك : قال رسول الله ﷺ : « ففرض الله على أمتي خمسين صلاة ، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى عليه السلام » فقال : ما فرض الله على أمتك ؟ قلت : فرض خمسين صلاة ؛ قال : موسى فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فرجعت فوضع شطرها ، فرجعت إلى موسى قلت : وضع شطرها ، فقال : ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فرجعت فوضع شطرها ، فرجعت إليه فقال : ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فراجعته فقال : هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي ، فرجعت إلى موسى فقال : ارجع إلى ربك ، قلت : قد استحييت من ربي ، ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي ، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبائل اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك »[1] .

وعن أم هانئ ، قالت : بات رسول الله ﷺ ليلة أسري به في بيتي ففقدته من الليل فامتنع مني النوم ؛ مخافة أن يكون عرض له بعض قريش ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام أَتَانِي فَأَخَذَ بِيَدِي فَأَخْرَجَنِي ، فَإِذَا عَلَى البَابِ دَابَّةٌ دُونَ البَغْلِ وَفَوْقَ الحِمَارِ ، فَحَمَلَنِي عَلَيْهَا ، ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ ، فَأَرَانِي إِبْرَاهِيمَ عليه السلام يُشْبِهُ خَلْقُهُ خَلْقِي وَيُشْبِهُ خُلُقِي خُلُقَهُ ، وَأَرَانِي مُوسَى آدَمَ طَوِيلًا سَبْطَ الشَّعْرِ شَبَّهْتُهُ بِرِجَالِ أَزْدِ شَنُوءَةَ ، وَأَرَانِي عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ رَبْعَةً أَبْيَضَ يُضْرَبُ إِلَى الحُمْرَةِ بِعُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ ، وَأَرَانِي الدَّجَّالَ مَمْسُوحَ العَيْنِ اليُمْنَى شَبَّهْتُهُ بِقطن بنِ عَبْدِ العُزَّى » قَالَ : « وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَخْرُجَ إِلَى قُرَيْشٍ فَأُخْبِرَهُمْ بِمَا رَأَيْتُ » . فأخذت بثوبه فقلت : إني أذكرك الله إنك تأتي قومك يكذبونك ، وينكرون مقالتك فأخاف أن يسطوا بك ، قالت : فضرب

---

(١) أخرجه البخاري في (الصلاة) (٣٤٩) ورواه من طريق آخر في (أحاديث الأنبياء) (٣٣٤٢) وأخرجه مسلم في الإيمان (٢٦٣) .

ثوبه من يدي ، ثم خرج إليهم فأتاهم وهم جلوس ، فأخبرهم ما أخبرني ، فقام جبير بن مطعم فقال : يا محمد ، أن لو كنت لك شأن كما كنت ما تكلمت بما تكلمت به وأنت بين ظهرانينا . فقال رجل من القوم : يا محمد هل مررت بإبل لنا في مكان كذا وكذا ؟ قال : « نَعَمْ واللَّهِ ؛ قَدْ وَجَدْتُهُمْ قَدْ أَضَلُّوا بَعِيرًا لَهُمْ فَهُمْ فِي طَلَبِهِ » . قال : هل مررت بإبل لبني فلان ؟ قال : « نَعَمْ وَجَدْتُهُمْ فِي مَكَانِ كَذَا وكذا وَقَدْ انْكَسَرَتْ لَهُمْ نَاقَةٌ حَمْرَاءُ ، وَعِنْدَهُمْ قَصْعَةُ مَاءٍ فَشَرِبْتُ مَا فِيهَا » . قالوا : فأخبرنا عدتها وما فيها من الرعاة قال : « قَدْ كُنْتُ عَنْ عِدَّتِها مَشْغُولًا » . فقام فأوتي بالإبل فعدها وعلم ما فيها من الرعاة ثم أتى قريشًا فقال لهم : « سَأَلْتُمونِي عَنْ إِبِلِ بَنِي فُلَانٍ فَهِيَ كَذَا وَكَذَا ، وَفِيهَا مِنَ الرُّعَاةِ فُلانٌ وَفُلانٌ ، وسَأَلْتُمونِي عَنْ إِبِلِ بَنِي فُلانٍ فَهِيَ كَذَا وكذا ، وَفِيهَا مِنَ الرُّعَاةِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَفُلانٌ وفُلانٌ ، وَهِيَ تُصبحُكُمْ بِالغَدَاةِ عَلَى الثَّنِيَّةِ » . قال : فقعدوا على الثنية ينظرون أَصَدَقَهُم ما قال ، فاستقبلوا الإبل فسألوهم هل ضل لكم بعير ؟ فقالوا : نعم ، فسألوا الآخر هل انكسرت لكم ناقة حمراء ؟ قالوا : نعم قالوا : فهل كانت عندكم قصعة ؟ قال أبو بكر : أنا واللَّه وضعتها فما شربها أحد ولا أهراقوه في الأرض فصدقه أبو بكر وآمن به فسمي يومئذ الصديق [1] .

فصل : وإذا حصل الوقوف على مجموع الأحاديث الواردة في الإسراء والمعراج صحيحها وحسنها وضعيفها يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول اللَّه ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ، وأنه مرة واحدة .

قال الزهري : كان الإسراء قبل الهجرة بسنة . وقد أسري به يقظة لا منامًا من مكة إلى بيت المقدس راكبًا البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ، ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين ، ثم أتي بالمعراج - وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها - فصعد فيه إلى السماء الدنيا ، ثم إلى بقية السماوات السبع ، فتلقاه من كل سماء مقربوها ، وسلم على الأنبياء الذين في السماوات بحسب منازلهم ودرجاتهم ، حتى مر بموسى في السادسة وإبراهيم في السابعة ، ثم جاوز منزلتيهما حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام ، أي أقلام القدر بما هو كائن ، ورأى سدرة المنتهى ، وغشيها من أمر اللَّه تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة ، وغشيتها الملائكة ، ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح ، ورأى رفرفًا أخضر قد سد الأفق ، ورأى البيت المعمور ، وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسندًا ظهره إليه ؛ لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة يتعبدون فيه ، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة ورأى الجنة والنار ، وفرض اللَّه عليه هنالك الصلوات خمسين ، ثم خففها إلى خمس ؛ رحمةً منه ولطفًا بعباده . ثم هبط إلى بيت المقدس ، وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة . ويحتمل أنها الصبح من يومئذ ، ثم اختلف الناس هل كان الإسراء ببدنه وروحه ؟ أو بروحه فقط ؟

---

(١) أورده السيوطي في الدر (١٤٨/٤) والهندي في كنز العمال (٣٨٥١) .

على قولين : فالأكثرون على أنه أسري ببدنه وروحه يقظة لا منامًا ، ولا ينكرون أن يكون رأى قبل ذلك منامًا ثم رآه بعده يقظة ؛ لأنه كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، والدليل على هذا قوله تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام ، فلو كان منامًا لم يكن فيه كبير شيء ، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه ، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم ، وأيضًا فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد وقد قال : ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ قال ابن عباس : هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به ، والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم (١) . وقال تعالى : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ والبصر من آلات الذات لا الروح ؛ وأيضًا فإنه حمل على البراق وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان ، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح ؛ لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه ، والله أعلم .

فائدة حسنة : روى الأصبهاني في دلائل النبوة عن محمد بن كعب القرظي قال : بعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة إلى قيصر ، فذكر وروده عليه وقدومه إليه ، وفي السياق دلالة عظيمة على وفور عقل هرقل ، ثم استدعى من بالشام من التجار ، فجيء بأبي سفيان صخر بن حرب وأصحابه ، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم (٢) - كما سيأتي بيانه - وجعل أبو سفيان يجهد أن يحقر أمره ويصغره عنده . قال في هذا السياق عن أبي سفيان : والله ما منعني من أن أقول عليه قولًا أسقطه من عينه إلا أني أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها عليّ ولا يصدقني في شيء - قال - : حتى ذكرت قوله ليلة أسري به - قال : فقلت : أيها الملك ألا أخبرك خبرًا تعرف أنه قد كذب ؟ قال : وما هو ؟ - قال : قلت : إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء ، ورجع إلينا في تلك الليلة قبل الصباح - قال : - وبطريق إيلياء عند رأس قيصر فقال بطريق إيلياء : قد علمت تلك الليلة - قال : - فنظر إليه قيصر وقال : وما علمك بهذا ؟ قال : إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد ، فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبني فاستعنت عليه بعمالي ، ومن يحضرني كلهم معالجة فغلبنا ، فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول به جبلًا ، فدعوت إليه النجاجرة فنظروا إليه فقالوا : إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح ، فننظر من أين أتى . قال : فرجعت وتركت البابين مفتوحين . فلما أصبحت غدوت عليهما ، فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب ، وإذا فيه أثر مربط الدابة ، قال : فقلت لأصحابي : ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي ، وقد صلى الليلة في مسجدنا وذكر تمام الحديث .

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ .

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد ﷺ ، عطف بذكر موسى عبده ورسوله ، وكليمه أيضًا

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٦) . (٢) انظر البخاري في بدء الوحي (٧) ومسلم في الجهاد (٧٤) .

فإنه تعالى كثيرًا ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما من الله الصلاة والسلام ، وبين ذكر التوراة والقرآن ، ولهذا قال : بعد ذكر الإسراء ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يعني التوراة ، ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ ﴾ أي الكتاب ، ﴿ هُدًى ﴾ أي هاديًا ﴿ لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ ﴾ أي لئلا تتخذوا ﴿ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾ أي وليًا ولا نصيرًا ولا معبودًا دوني ؛ لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبده وحده لا شريك له ، ثم قال : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ تقديره : يا ذرية من حملنا مع نوح ، فيه تهييج وتنبيه على المنة ، أي يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح ، في السفينة تشبهوا بأبيكم ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالي إليكم محمدًا ﷺ ، وقد ورد في الحديث وفي الأثر عن السلف أن نوحًا عليه السلام ، كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله ؛ فلهذا سمي عبدًا شكورًا .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها » (١) .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ » - بطوله ، وفيه - « فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ : يَا نُوحُ ، إِنَّكَ أَنتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ » (٢) . وذكر الحديث بكماله .

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ .

يخبر تعالى : أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب ، أي أخبرهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ، يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا ﴾ أي أولى الإفسادتين ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أي سلطنا عليكم جندًا من خلقنا أولي قوة وعدة وسلطنة شديدة ﴿ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ﴾ أي تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم ، أي بينها ووسطها ، وانصرفوا ذاهبين وجائين ، لا يخافون أحدًا ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم من هم ؟ فعن ابن عباس وقتادة أنه جالوت الجزري وجنوده سلط عليه أولًا ، ثم أديلوا عليه بعد ذلك . وقتل داود جالوت ؛ ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ ﴾ .

وعن سعيد بن جبير : أنه ملك الموصل سنجاريب وجنوده ، وعنه أيضًا وعن غيره أنه بختنصر ملك بابل ، وقد روي عن سعيد بن المسيب قال : ظهر بختنصر على الشام فخرب بيت المقدس وقتلهم ، ثم أتى دمشق فوجد بها دمًا غلى على كبا فسألهم ما هذا الدم ؟ فقالوا : أدركنا آباءنا على هذا ، وكلما

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٨٩) والإمام أحمد في مسنده (٣/١٠٠ ، ١١٧) والترمذي في السنن (١٨١٦) .
(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٠) .

ظهر عليه الكبا ظهر ، قال : فقتل على ذلك الدم سبعين ألفًا من المسلمين وغيرهم فسكن [١] .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ أي فعليها . وقوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أي إذا أفسدتم الكرّة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ أي يقهروكم . ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ ﴾ أي بيت المقدس ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي في التي جاسوا فيها خلال الديار ﴿ وَلِيُتَبِّرُوا ﴾ أي يخربوا ﴿ مَا عَلَوْا ﴾ أي ما ظهروا عليه ﴿ تَتْبِيرًا ۝ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ أي فيصرفهم عنكم ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ ﴾ أي متى عدتم إلى الإفساد ﴿ عُدْنَا ﴾ إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال ، ﴿ حَصِيرًا ﴾ أي مستقرًا ومحصرًا وسجنًا لا محيد لهم عنه .

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

يمدح تعالى كتابه العزيز - وهو القرآن - بأنه يهدي لأقوم الطرق ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ به ﴿ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ على مقتضاه ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ أي يوم القيامة ، ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ ، أي ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي يوم القيامة .

﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴾ .

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالشر ؛ أي بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك ، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه ، وفي الحديث : « لا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلَا عَلَى أَمْوَالِكُمْ أَنْ تُوَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةَ إِجَابَةٍ يَسْتَجِيبُ فِيهَا » [٢] .

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ .

يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام ، فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا في الليل ، وينتشروا في النهار للمعايش والصنائع والأعمال والأسفار ، وليعلموا عدد الأيام ، والجمع والشهور والأعوام ، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات ، والمعاملات ، والإجارات وغير ذلك ، ولهذا قال : ﴿ لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي في معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك ﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ ، فإنه لو كان الزمان كله نسقًا واحدًا ، وأسلوبًا متساويًا لما عرف شيء من ذلك . قال ابن جريج : عن عبد الله بن كثير في قوله : ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ قال : ظلمة الليل وسدف النهار . وقال مجاهد : الشمس آية النهار والقمر آية الليل ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ﴾ السواد الذي في القمر وكذلك خلقه الله تعالى ، وقال ابن عباس : كان القمر يضيء كما تضيء الشمس ،

---

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٥/٣٩) .
(٢) أخرجه مسلم في الزهد (٧٤) .

والقمر آية الليل والشمس آية النهار ﴿ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ ﴾ السواد الذي في القمر ، وقد روى ابن جرير أن ابن الكواء سأل علي بن أبي طالب فقال : يا أمير المؤمنين ما هذه اللطخة التي في القمر ؟ فقال : ويحك أما تقرأ القرآن ؟ ﴿ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ ﴾ فهذه محوه (١) .

﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ .

يقول تعالى : بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه أعمال بني آدم ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ وطائره هو ما طار عنه من عمله ، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : من خير وشر ويلزم به ويجازى عليه ، والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه قليله وكثيره ، ويكتب عليه ليلًا ونهارًا صباحًا ومساءً .

وقوله : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ أي نجمع له عمله كله في كتاب يعطاه يوم القيامة ، إما بيمينه إن كان سعيدًا أو بشماله إن كان شقيًّا ﴿ مَنشُورًا ﴾ أي مفتوحًا يقرؤه هو وغيره فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ أي إنك تعلم لم تظلم ، ولم يكتب عليك إلا ما عملت لأنك ذكرت جميع ما كان منك ، ولا ينسى أحدٌ شيئًا مما كان منه ، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمي . وقوله : ﴿ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ إنما ذكر العنق ؛ لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له في الجسد ، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه ، وعن عقبة بن عامر ﷺ عن النبي ﷺ قال : « ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه ، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة : يا ربنا عبدك فلان قد حبسته ، فيقول الرب ﷻ : اختموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت » (٢) وقال قتادة : ﴿ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ قال : عمله ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ قال : نخرج ذلك العمل ﴿ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ قال معمر : وتلا الحسن البصري ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة كتابًا تلقاه منشورًا ﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ ﴾ الآية . فقد عدل والله من جعلك حسيب نفسك . هذا من أحسن الكلام الحسن رحمه الله .

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ .

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى أثر النبوة فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ أي عن الحق وزاغ عن سبيل الرشاد ، فإنما يجني على نفسه ، وإنما يعود وبال ذلك عليه ، ثم قال : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أي لا يحمل أحدٌ ذنب أحد ، ولا يجني جان إلا على نفسه .

---

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٥/٦٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٤٦) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ إخبار عن عدله تعالى ، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه ، كقوله تعالى ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « اخْتَصَمَتِ الجَنَّةُ والنَّارُ » فذكر الحديث إلى أن قال : « وَأَمَّا الجَنَّةُ فَلاَ يَظْلِمُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا ، وَإِنَّهُ يُنْشِئُ لِلنَّارِ خَلْقًا فَيُلْقَوْنَ فِيهَا فَتَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؟ » ثَلاثًا (١) فهذا إنما جاء في الجنة ؛ لأنها دار فضل ، وأما النار فإنها دار عدل لا يدخلها أحد إلا بعد الإعذار إليه وقيام الحجة عليه .

بقي هاهنا مسألة قد اختلف الأئمة فيها قديمًا وحديثًا ، وهي الولدان الذين ماتوا وهم صغار ، وآباؤهم كفار ، ماذا حكمهم ، وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف ، ومن مات في الفترة ولم تبلغه دعوته ، وقد ورد في شأنهم أحاديث أنا أذكرها لك بعون الله وتوفيقه ، ثم نذكر فصلًا ملخصًا من كلام الأئمة في ذلك والله المستعان .

عن الأسود بن سريع أن رسول الله ﷺ قال : « أَرْبَعَةٌ يَحْتَجُّونَ يَومَ القِيَامَةِ : رَجُلٌ أَصَمٌّ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا ، وَرَجُلٌ أَحْمَقُ ، وَرَجُلٌ هَرِمٌ ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فَتْرَةٍ ، فَأَمَّا الأَصَمُّ فَيَقُولُ : رَبِّ قَدْ جَاءَ الإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا ، وَأَمَّا الأَحْمَقُ فَيَقُولُ : رَبِّ قَدْ جَاءَ الإِسْلَامُ والصِّبْيَانُ يَحْذِفُونِي بالبَعَرِ ، وَأَمَّا الهَرِمُ فَيَقُولُ : رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الإِسْلَامُ وَمَا أَعْقَلُ شَيْئًا ، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الفَتْرَةِ فَيَقُولُ : رَبِّ مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ . فَيَأْخُذُ مَوَاثِيقَهُمْ لَيُطِيعُنَّهُ فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنْ ادْخُلُوا النَّارَ ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وسَلامًا » (٢)

وعن البراء بن عازب ﷺ قال : سئل رسول الله ﷺ عن أطفال المسلمين قال : « هُمْ مَعَ آبَائِهِمْ » وسئل عن أولاد المشركين ، فقال : « هُمْ مَعَ آبَائِهِمْ » فقيل : يا رسول الله ما يعملون ، قال : « اللَّهُ أَعْلَمُ بِهِمْ » (٣) .

وعن أبي هريرة ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بهيمةً جَمْعَاءَ ، هَلْ تُحِسُّونَ فيها مِنْ جَدْعَاءَ » (٤) . وفي رواية قالوا : يا رسول الله أفرأيت من يموت صغيرًا ، قال : « اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ » (٥) .

وعن خنساء بنت معاوية ، عن بني صريم ، قالت : حدثني عمي قال : قلت : يا رسول الله من في الجنة ؟ قال : « النَّبِيُّ فِي الجَنَّةِ ، وَالشَّهِيدُ فِي الجَنَّةِ ، وَالمَوْلُودُ فِي الجَنَّةِ ، وَالوَئِيدُ فِي الجَنَّةِ » (٦) .

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٤٩) والإمام أحمد في مسنده (٢/٥٠٧) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/٢٤) وأورده السيوطي في الدر (٤/١٦٨) والهندي في كنز العمال (٣٨٩٨٠) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦/٨٤) والطبراني في الكبير (٨/١٠٣) .
(٤) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٥) ومسلم في القدر (٢٢-٢٥) وأبو داود في سننه (٤٧١٤ ، ٤٧١٦) .
(٥) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٤) ومسلم في القدر (٢٣) والترمذي في السنن (٢١٣٨) وأبو داود في السنن (٤٧١١) .
(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٥٨ ، ٤٠٩) وأبو داود في سننه (٢٥٢١) .

فمن العلماء من ذهب إلى الوقوف فيهم لهذا الحديث ، ومنهم من جزم لهم بالجنة لحديث سمرة بن جندب في صحيح البخاري أنه عليه الصلاة والسلام ، قال في جملة ذلك المنام حين مر على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولداه فقال له جبريل : هذا إبراهيم ﷺ ، وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين ، قالوا : يا رسول اللَّه وأولاد المشركين ؟ قال : « نَعَمْ وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ » . ومنهم من جزم لهم بالنار لقوله ﷺ : « هُمْ مَعَ آبَائِهِمْ » . ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة في العرصات ، فمن أطاع دخل الجنة ، وانكشف علم اللَّه فيهم بسابق السعادة ، ومن عصى دخل النار داخرًا ، وانكشف علم اللَّه فيه بسابق الشقاوة . وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها . وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض . وقد ذكر الشيخ أبو عمر بن البر النمري بعدما تقدم من أحاديث الامتحان ثم قال : وأحاديث هذا الباب ليست قوية ، ولا تقوم بها حجة ، وأهل العلم ينكرونها ؛ لأن الآخرة دار جزاء وليست بدار عمل ولا ابتلاء ، فكيف يكلفون دخول النار ، وليس ذلك في وسع المخلوقين واللَّه لا يكلف نفسًا إلا وسعها .

والجواب عما قال : أن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما قد نص على ذلك كثير من أئمة العلماء ، ومنها ما هو حسن ، ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح ، والحسن ، وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها . وأما قوله : إن الدار الآخرة دار جزاء ، فلا شك أنها دار جزاء ، ولا ينافي التكليف في عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار ، كما حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري ، عن مذهب أهل السنة والجماعة من امتحان الأطفال وقد قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ ﴾ الآية ، وقد ثبت في الصحاح وغيرها أن المؤمنين يسجدون للَّه يوم القيامة . وأن المنافق لا يستطيع ذلك ، ويعود ظهره كالصفيحة الواحدة طبقًا واحدًا كلما أراد السجود خر لقفاه ، وفي الصحيحين في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجًا منها ، أن اللَّه يأخذ عهوده ومواثيقه أن لا يسأل غير ما هو فيه ، ويتكرر ذلك مرارًا ويقول اللَّه تعالى : يا ابن آدم ما أغدرك ، ثم يأذن له في دخول الجنة [1] . وأما قوله : فكيف يكلفهم اللَّه دخول النار ، وليس ذلك في وسعهم ، فليس هذا بمانع من صحة الحديث ، فإن اللَّه يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط ، وهو جسر على جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة ، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم ، كالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل ، والركاب ومنهم الساعي ، ومنهم الماشي ، ومنهم من يحبو حبوًا ، ومنهم المكدوش على وجهه في النار . وليس ما ورد في أولئك بأعظم من هذا بل هذا أطم وأعظم . وأيضًا فقد ثبتت السنة بأن الدجال يكون معه جنة ونار ، وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يدركونه ، أن يشرب أحدهم من الذي يرى أنه نار ؛ فإنه يكون عليه بردًا وسلامًا ، فهذا نظير ذاك ، وأيضًا فإن اللَّه تعالى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم ، فقتل بعضهم بعضًا حتى قتلوا ، فيما قيل في غداة واحدة سبعين ألفًا يقتل الرجل أباه وأخاه ، وهم في عماية غمامة أرسلها اللَّه عليهم ، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل . وهذا أيضًا شاق على

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٧٣) ومسلم في الإيمان (٢٩٩) .

النفوس جدًّا لا يتقاصر عما ورد في الحديث المذكور ، والله أعلم .

فصل : إذا تقرر هذا فقد اختلف الناس في ولدان المشركين على أقوال :

أحدها : أنهم في الجنة ، واحتجوا بحديث سمرة أنه ﷺ رأى مع إبراهيم عليه السلام أولاد المسلمين وأولاد المشركين . وأيضًا بما تقدم عن خنساء عن عمها . وهذا استدلال صحيح ولكن أحاديث الامتحان أخص منه ، فمن علم الله منه أن يطيع جعل روحه في البرزخ مع إبراهيم ، وأولاد المسلمين الذين ماتوا على الفطرة ، ومن علم منه أنه لا يجيب فأمره إلى الله تعالى ، ويوم القيامة يكون في النار كما دلت عليه أحاديث الامتحان ، ونقله الأشعري عن أهل السنة ، ثم إن هؤلاء القائلين بأنهم في الجنة منهم من يجعلهم مستقلين فيها ، ومنهم من يجعلهم خدمًا لهم .

والقول الثاني : أنهم مع آبائهم في النار ، واستدل عليه بحديث عبد الله بن أبي قيس مولى غطيف : أنه أتى عائشة فسألها عن ذراري الكفار فقالت : قال رسول الله ﷺ : « هُمْ تَبَعٌ لآبَائِهِمْ » فقلت : يا رسول الله بلا أعمال ؟ فقال : « اللَّه أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ » (١) .

القول الثالث : التوقف فيهم ، واعتمدوا على قوله ﷺ : « اللَّه أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ » ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف ، وهذا القول يرجع إلى قول من ذهب إلى أنهم من أهل الجنة ؛ لأن الأعراف ليس دار قرار ومآل أهلها إلى الجنة . كما تقدم تقرير ذلك في سورة الأعراف ، والله أعلم .

فصل : وليعلم أن هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين ، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء ؛ فعن الإمام أحمد أنه قال : لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة ، وهذا هو المشهور بين الناس ، وهو الذي نقطع به إن شاء الله ﷻ فأما ما ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر عن بعض العلماء أنهم توقفوا في ذلك ، وأن الولدان كلهم تحت المشيئة ، قال أبو عمر : ذهب إلى هذا القول جماعة من أهل الفقه والحديث ، منهم : حماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وابن المبارك ، وإسحاق بن راهويه وغيرهم . وقالوا : وهو يشبه ما رسم مالك في موطئه في أبواب القدر ، وما أورده من الأحاديث في ذلك ، وعلى ذلك أكثر أصحابه ، وليس عن مالك فيه شيء منصوص إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلى أن أطفال المسلمين في الجنة ، وأطفال المشركين خاصة في المشيئة انتهى كلامه ، وهو غريب جدًّا ، وقد ذكر أبو عبد الله القرطبي في كتاب التذكرة نحو ذلك ، وقد ذكروا في ذلك حديث عائشة قالت : دعي النبي ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار ، فقلت : يا رسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل السوء ولم يدركه ، فقال : « أو غير ذلكَ يا عائشَةَ ؟ إن اللَّه خلقَ الجنةَ وخلقَ لهَا أهلًا وهم في أصلابِ آبائِهم ، وخلقَ النارَ وخلقَ لها أهلًا وهمْ في أصلابِ آبائِهم » (٢) .

ولما كان الكلام في هذه المسألة يحتاج إلى دلائل صحيحة ، وقد يتكلم فيها من لا علم عنده عن

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٧١٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١/٦) وأبو داود في السنن (٢٢٩/٤) .

الشارع ، كره جماعة من العلماء الكلام فيها ، روي ذلك عن ابن عبّاس والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ومحمد ابن الحنفية وغيرهم .

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ .

اختلف القراء في قراءة قوله : ﴿ أَمَرۡنَا ﴾ فالمشهور قراءة التخفيف ، واختلف المفسرون في معناها ، فقيل : معناه أمرنا مترفيها أمرًا قدريًا ، كقوله تعالى : ﴿ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا ﴾ . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ ﴾ ، قالوا : معناه أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب ، وقيل معناه أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش ، وقال ابن جرير : يحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء .

قلت : إنما يجيء هذا على قراءة من قرأ (أمَّرنا مترفيها) (١) قال ابن عباس في قوله : ﴿ أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ : يقول : سلطنا أشرارها فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب . وهو قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا ﴾ الآية . وقال ابن عباس : ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ يقول : أكثرنا عددهم . وعن الزهري ﴿ أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا ﴾ أكثرنا ، وقد استشهد بعضهم بحديث : « خَيْرُ مَالِ امْرِئٍ لَهُ مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ أَوْ سِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ » (٢) قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله في كتابه الغريب : المأمورة كثيرة النسل ، والسكة الطريقة المصطفة من النخل ، والمأبورة من التأبير .

﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾ .

يقول تعالى منذرًا كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمدًا ﷺ : بأنه قد أهلك أممًا من المكذبين للرسل من بعد نوح ، ودل هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام ، كما قاله ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام . ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم ، وقد كذبتم أشرف الرسل ، وأكرم الخلائق ، فعقوبتكم أولى وأحرى . وقوله : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾ أي هو عالم بجميع أعمالهم خيرها وشرها ، لا يخفى عليه منها خافية سبحانه وتعالى .

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ۝١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴾ .

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعم يحصل له ، بل إنما يحصل لمن أراد الله ، وما يشاء ، وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات ، فإنه قال : ﴿ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ ﴾ . أي في الدار الآخرة ﴿ يَصۡلَىٰهَا ﴾ أي يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه . ﴿ مَذۡمُومٗا ﴾ أي في حال كونه مذمومًا على سوء تصرفه وصنيعه ؛ إذ اختار الفاني على الباقي . ﴿ مَّدۡحُورٗا ﴾ مبعدًا مقصيًا حقيرًا ذليلًا مهانًا ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لاَ دَارَ لَهُ ، وَمَالُ مَنْ لاَ مَالَ لَهُ ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لاَ عَقْلَ لَهُ » (٣) . وقوله : ﴿ وَمَنۡ أَرَادَ

---

(١) قرأ يعقوب ﴿ أمرنا ﴾ بمد الهمزة ، والباقون بقصرها (تقريب النشر في القراءات العشر ص : ١٣٣) .

(٢) أخرجه بنحوه الإمام أحمد في مسنده (٤٦٨/٣) والبيهقي في السنن (٦٤/١٠) والطبراني في الكبير (١٠٧/٧) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٧١/٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٨٨/١٠) والهندي في كنز العمال (٦٠٨٦) .

ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ أي أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور ﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أي طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول ﷺ ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أي قلبه مؤمن أي مصدق بالثواب والجزاء ﴿ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ .

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ كُلًّا ﴾ أي كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا ، والذين أرادوا الآخرة نمدهم فيما فيه ﴿ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ أي هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور ، فيعطي كلامًا يستحقه من السعادة والشقاوة ، فلا راد لحكمه ، ولا مانع لما أعطى ، ولا مغيّر لما أراد ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ أي لا يمنعه أحد ولا يرده راد .

ثم قال تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي في الدنيا ، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك ، والحسن ، والقبيح وبين ذلك ، ومن يموت صغيرًا ، ومن يعمر حتى يبقى شيخًا كبيرًا ، وبين ذلك ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ أي ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا ، فإن منهم من يكون في الدركات في جهنم ، ومنهم من يكون في الدرجات العلى ، ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه ، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون ، فإن الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين ، كما بين السماء والأرض ، وفي الحديث « إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ العُلَى لَيَرَونَ أَهْلَ عِلِّيِّينَ ، كَمَا تَرَوْنَ الكَوْكَبَ الغَابِرَ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ » (١) . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ . عن سلمان مرفوعًا « ما مِنْ عَبْدٍ يُرِيدُ أَنْ يَرْتَفِعَ فِي الدُّنْيَا دَرَجَةً فَارْتَفَعَ إِلَّا وَضَعَهُ اللَّهُ فِي الآخِرَةِ مِنْهَا » . ثم قرأ : ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ (٢) .

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ .

يقول تعالى : والمراد المكلفون من الأمة لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكًا . ﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا ﴾ أي على إشراكك به ﴿ مَّخْذُولًا ﴾ لأن الرب تعالى لا ينصرك ، بل يكلك إلى الذي عبدت معه ، وهو لا يملك لك ضرًّا ولا نفعًا ؛ لأن مالك الضر والنفع هو اللَّه وحده لا شريك له .

عن عبد اللَّه بن مسعود قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا باللَّه أَرْسَلَ اللَّه لَهُ بِالغِنَى إِمَّا آجِلًا وَإِمَّا غِنًى عَاجِلًا » (٣) .

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا بعبادته وحده لا شريك له ، فإن القضاء هاهنا بمعنى الأمر ، قال مجاهد : ﴿ وَقَضَىٰ ﴾ يعني وصى ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦/٣ ، ٢٧ ، ٩٣ ، ٩٨) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٩٤/٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (٤٩/٧) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٧/١) وأبو داود في السنن (١٦٤٥) والبيهقي في السنن (١٩٦/٤) .

﴿ إِحْسَٰنًا ﴾ أي وأمر بالوالدين إحسانًا . وقوله : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ أي لا تسمعهما قولًا سيئًا حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ أي ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ أي لينًا طيبًا حسنًا بتأدب وتوقير وتعظيم ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ أي تواضع لهما بفعلك ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ أي في كبرهما ، وعند وفاتهما ، قال ابن عباس : ثم أنزل اللَّه ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية . وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة منها : عن أنس ، وغيره أن النبي ﷺ صعد المنبر ثم قال : « آمين آمين آمين » قيل : يا رسول اللَّه علام ما أمنت ؟ قال : « أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فلمْ يصلِّ عليْكَ ، قُلْ : آمين ، فقلتُ : آمين ، ثم قالَ : رَغِمَ أنفُ رجلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ شَهْرُ رَمَضَانَ ، ثُمَّ خَرَجَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ ، قُلْ : آمين ، فَقُلْتُ : آمين ، ثُمَّ قَالَ : رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يُدْخِلاهُ الجَنَّةَ ، قُلْ : آمين ، فَقُلْتُ : آمين » (١) .

وعن مالك بن الحارث ، عن رجل منهم أنه سمع النبي ﷺ يقول : « مَنْ ضَمَّ يَتِيمًا مِنْ أَبَوَيْنِ مُسْلِمين إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ حَتَّى يَسْتَغْنِيَ عَنْهُ ، وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ البَتَّة ، وَمَنْ أَعْتَقَ امرأً مُسْلِمًا ، كَانَ فَكَاكُه مِنَ النَّارِ يُجزَى بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنْهُ » (٢) .

وعن مالك بن عمرو القشيري ، سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً فَهِيَ فِدَاؤُهُ مِنَ النَّارِ ، فَإِنَّ كُلَّ عَظْم مِنْ عِظَامِهِ مُحَرَّرَةٌ بِعَظْمٍ مِنْ عِظَامِهِ ، وَمَنْ أَدْرَكَ أَحَدَ وَالِدَيْهِ ، ثُمَّ لَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَأَبْعَدَهُ اللَّه عز وجل ، وَمَنْ ضَمَّ يَتِيمًا مِنْ أَبَوَيْنِ مُسْلِمَيْنِ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ حَتَّى يُغْنِيه اللَّه وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةَ » (٣) .

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ .

قال سعيد بن جبير : هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه ، وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به ، وفي رواية : لا يريد إلا الخير بذلك فقال : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ ﴾ وقوله : ﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ قال قتادة : للمطيعين أهل الصلاة ، وعن ابن عباس : المسبحين . وفي رواية عنه : المطيعين المحسنين ، وقال بعضهم : هم الذين يصلون بين العشاءين ، وقال بعضهم : هم الذين يصلون الضحى .

وقال سعيد بن المسيب ، في قوله ﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ الذين يصيبون الذنب ثم يتوبون ، ويصيبون الذنب ثم يتوبون . وقال سعيد بن جبير وغيره : هم الراجعون إلى الخير ، وقال عبيد بن عمير : هو الذي إذا ذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر اللَّه منها . وعنه قال : كنا نعد الأواب الحفيظ ، أن يقول : اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا . وقال ابن جرير : والأولى في ذلك قول من قال : هو التائب من الذنب ، الرجاع من المعصية إلى الطاعة ، مما يكره اللَّه إلى ما يحبه ويرضاه (٤) ، وهذا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٥٤/٢) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٤٤/٤) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣١/٣ ، ٣٤٧) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥٠/٤ ، ٣٤٤) والطبراني في الكبير (٢٩٩/١٩) .
(٤) انظر تفسير الطبرى (٨٩/١٥ - ٩٢) .

الذي قاله هو الصواب ؛ لأن الأواب مشتق من الأوب ، وهو الرجوع ، يقال : آب فلان إذا رجع .

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ۝ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ .

لما ذكر تعالى بر الوالدين عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام ، وفي الحديث : « أُمَّكَ وأَبَاكَ ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ » (١) .

وقوله : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه بل يكون وسطًا ، ثم قال منفرًا عن التبذير والسرف : ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ أي أشباههم في ذلك .

وعن أنس بن مالك ﷺ قال : أتى رجل من بني تميم إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول إني ذو مال كثير ، وذو أهل وولد وحاضرة فأخبرني كيف أنفق وكيف أصنع؟ فقال رسول الله ﷺ : « تُخرِجُ الزَّكَاةُ مِنْ مَالِكَ إِنْ كَانَ فَإِنَّهَا طهرةٌ تُطَهِّرُكَ ، وَتَصِلُ أَقْرِبَاءَكَ ، وَتَعْرِفُ حَقَّ السَّائِلِ ، والجَارِ وَالمِسْكِينِ » فقال : يا رسول الله أقلل لي ؟ قال : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ فقال : حسبي يا رسول الله إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله وإلى رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « نَعَمْ إِذَا أَدَّيْتَهَا إِلَى رَسُولِي فَقَدْ بَرِئْتَ مِنْهَا ، وَلَكَ أَجْرُهَا ، وَإِثْمُهَا عَلَى مَنْ بَدَّلَها » (٢) . وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ أي في التبذير والسفه ، وترك طاعة الله ، وارتكاب معصيته ، ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ أي جحودًا ؛ لأنه أنكر نعمة الله عليه ، ولم يعمل بطاعته بل أقبل على معصيته ومخالفته . وقوله : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ الآية . أي إذا سألك أقاربك ، ومن أمرناك بإعطائهم ، وليس عندك شيء ، وأعرضت عنهم لفقد النفقة ، ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ أي عدهم وعدًا بسهولة ولين إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله .

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا بالاقتصاد في العيش ذامًّا للبخل ناهيًا عن السرف ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ أي لا تكن بخيلًا منوعًا لا تعطي أحدًا شيئًا ، كما قالت اليهود عليهم لعائن الله : يد الله مغلولة ، أي نسبوه إلى البخل تعالى ، وتقدس الكريم الوهاب . وقوله : ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ أي ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك وتخرج أكثر من دخلك ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ وهذا من باب اللف والنشر أي فتقعد إن بخلت ملومًا يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك .

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه . فتكون كالحسير ، وهو الدابة التي قد عجزت عن السير فوقفت ضعفًا وعجزًا ، فإنها تسمى الحسير ، وهو مأخوذ من الكلال ، وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « مَثَلُ البَخِيلِ وَالمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ ثَدْيِهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا ، فَأَمَّا المُنْفِقُ : فَلَا يُنْفِقُ إلاَّ سَبَغَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُخفِي بَنَانه وَتَعْفُو

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢) وأحمد في مسنده ٦٥/٤ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٣٦/٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥١٦/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦٣/٣) .

أَثَرَهُ . وَأَمَّا البَخِيلُ : فَلا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلاَّ لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا فَهُوَ يُوسِعُهَا فَلاَ تَتَّسِعُ »[١] .

وعن أسماء بنت أبي بكر ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « أَنْفِقِي هكذا وهكذا ، ولا توعِي فَيوعِي اللَّهُ عليكِ ، وَلاَ تُوكِي فيوكي اللَّه عَلَيْكِ » . وفي لفظ : « وَلاَ تُحْصِي فَيُحْصِي اللَّه عَلَيْكِ »[٢] وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ « إِنَّ اللَّه قَالَ لِي : أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ »[٣] وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ إِلَّا وَمَلَكَانِ يَنْزِلَانِ مِنَ السَّمَاءِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، وَيَقُولُ الآخَرُ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا »[٤] .

وعنه مرفوعًا : « مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ ، وَمَا زَادَ اللَّه عَبْدًا أَنْفَقَ إِلَّا عِزًّا ، وَمَنْ تَوَاضَعَ للَّه رَفَعَهُ اللَّه »[٥] .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ إخبار أنه تعالى هو الرزاق القابض الباسط المتصرف في خلقه بما يشاء ، فيغني من يشاء ، ويفقر من يشاء ؛ لما له في ذلك من الحكمة ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ أي خبيرًا بصيرًا بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر قد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجًا ، والفقر عقوبة عياذًا بالله من هذا وهذا .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ .

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الولد بولده ؛ لأنه نهى عن قتل الأولاد كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث ، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات ، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عيلته . فنهى الله تعالى عن ذلك وقال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ . أي خوف أن تفتقروا في ثاني الحال ، ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ وفي الأنعام : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ﴾ أي من فقر ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ . وقوله : ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ أي ذنبًا عظيمًا ، وعن عبد الله بن مسعود ، قلت : يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : « أَنْ تَجْعَلَ للَّه نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ ، قُلْتُ : ثم أيٌّ ؟ قَالَ : أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ » ، قلت : ثم أي ؟ قال : « أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ »[٦] .

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ .

يقول تعالى ناهيًا عباده عن الزنى وعن مقاربته ومخالطة أسبابه ودواعيه ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ أي ذنبًا عظيمًا ﴿ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ أي وبئس طريقًا ومسلكًا .

وعن أبي أمامة ، أن فتىً شابًا أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لي بالزنى ، فأقبل القوم عليه فزجروه ، وقالوا : مه مه فقال : « ادنه » فدنا منه قريبًا ، فقال : « اجلس » فجلس فقال : « أَتُحِبُّهُ لأُمِّكَ ؟ » قال : لا والله جعلني الله فداك ، قال : « ولا الناس يحبونه لأمهاتهم » قال : « أَفَتُحِبُّهُ

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٤٣) ومسلم في الزكاة (٧٦ ، ٧٧) والإمام أحمد في مسنده (٢/٢٥٦) .
(٢) أخرجه البخاري في الهبة (٢٥٩١) ومسلم في الزكاة (٨٨) والإمام أحمد في مسنده (٦/٣٤٥ ، ٣٤٦) .
(٣) أخرجه الإمام مسلم في الزكاة (٣٧) والإمام أحمد في مسنده (٢/٣١٤) والبيهقي في السنن (٤/١٨٧) .
(٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٤٢) ومسلم في الزكاة (٥٧) والبيهقي في السنن (٤/١٨٧) .
(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٩) والإمام أحمد في مسنده (٢/٢٣٥) .
(٦) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠١) ومسلم في الإيمان (١٤١) والإمام أحمد في مسنده (١/٤٣٤) .

لابْنتِكَ ؟ »قال : لا واللّه يا رسول اللّه جعلني اللّه فداك ، قال : «ولاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ »قال : «أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ ؟ »قال : لا واللّه جعلني اللّه فداك ، قال : «وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ »قال : «أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ ؟ »قال : لا واللّه جعلني اللّه فداك ، قال : «وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ »قال : «أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ ؟ »قال : لا واللّه جعلني اللّه فداك ، قال : «وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالاتِهِمْ »قال : فوضع يده عليه وقال : «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ ، وَأَحْصِنْ فَرْجَهُ ». قال : فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء [١]. وفي الحديث أن النبي ﷺ قال : «مَا مِنْ ذَنْبٍ بَعْدَ الشِّرْكِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللّهِ مِنْ نُطْفَةٍ وَضَعَهَا رَجُلٌ فِي رَحِمٍ لاَ يَحِلُّ لَهُ » [٢].

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ .

يقول تعالى ناهيًا عن قتل النفس بغير حق شرعي . كما ثبت في الصحيحين أن رسول اللّه ﷺ قال : «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنَّ لاَ إِلَهَ إلا اللّه ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللّهِ إلَّا بِإِحْدَى ثَلاثٍ : النَّفْسُ بالنفس ، وَالزَّانِي المُحصنُ ، والتَّارِكُ لِدِينِه المُفَارِقُ للجماعَةِ » [٣]. وقوله : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا ﴾ أي سلطنة على القاتل ، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قودًا ، وإن شاء عفا عنه على الدية ، وإن شاء عفا عنه مجانًا . كما ثبتت السنة بذلك . وقد أخذ ابن عباس من عموم هذه الآية ولاية معاوية السلطنة أنه سيملك ؛ لأنه كان ولي عثمان ، وقد قتل عثمان مظلومًا . وكان معاوية يطالب عليًا ﷺ أن يسلمه قتلته حتى يقتص منهم ؛ لأنه أموى ، وكان علي يستمهله في الأمر حتى يتمكن ويفعل ذلك ، ويطلب علي من معاوية أن يسلمه الشام فيأبى معاوية ذلك حتى يسلمه القتلة وأبى أن يبايع عليًا هو وأهل الشام ثم مع المطاولة تمكن معاوية وصار الأمر إليه . كما قاله ابن عباس واستنبطه من هذه الآية . وهذا الأمر من العجب .

وقوله : ﴿ فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ﴾ قالوا : معناه فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل . وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ أي إن الولي منصور على القاتل شرعًا وغالبًا قدرًا .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ۝٣٤ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ أي لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالغبطة . وقد جاء أن رسول اللّه ﷺ قال لأبي ذر : « يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا ، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ ، وَلاَ تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ » [٤]. وقوله : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ﴾ أي الذي تعاهدون عليه الناس ، والعقود التي تعاملونهم بها ﴿ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ أي عنه . وقوله :

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٣٥٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٢٩) .

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٧٣) والإمام أحمد في مسنده (٥/٢٥٧) والبيهقي في السنن (٣/١١٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٧٨) ومسلم في (القسامة) (٢٥) وأبو داود في السنن (٤٣٥٣) .

(٤) أخرجه مسلم في الإمارة (١٧) وأبو داود في السنن (٢٨٦٨) والبيهقي في السنن (٣/١٢٩) .

﴿ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ أي من غير تطفيف ﴿ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ﴾ قرئ بضم القاف ، وكسرها كالقرطاس (١) ، وهو الميزان قال مجاهد : هو العدل بالرومية . وقوله : ﴿ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ أي الذي لا اعوجاج فيه ، ولا انحراف ، ولا اضطراب ، ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ أي لكم في معاشكم ومعادكم ، ولهذا قال : ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أي مآلًا ومنقلبًا في آخرتكم .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ .

قال ابن عباس : لا تقل ، وقال العوفي : لا ترم أحدًا بما ليس لك به علم ، وقال قتادة : لا تقل رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم ، وفي الحديث : « إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَب الحَدِيثِ » (٢) وفي الصحيح « مَنْ تَحَلَّمَ حِلْمًا كُلِّفَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَيْسَ بِفَاعِلٍ » (٣) . وقوله : ﴿ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ ﴾ أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ أي سيسأل عنها يوم القيامة ، وتسأل عنه وعما عمل فيها .

﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ .

يقول تعالى ناهيًا عباده عن التجبر والتبختر في المشية ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أي متبخترًا متمايلًا مشي الجبارين ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي لن تقطع الأرض بمشيك .

وقوله : ﴿ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ ، أي بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك ، بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده ، كما ثبت في الصحيح « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَعَلَيْهِ بُرْدَانِ يَتَبَخْتَرُ فِيهِمَا إِذْ خسفَ بِهِ الأَرْض ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ » (٤) . وكذلك أخبر تعالى عن قارون أنه خرج على قومه في زينته ، وأن اللَّه تعالى خسف به وبداره الأرض . وفي الحديث « مَنْ تَوَاضَعَ للَّه رَفَعَهُ اللَّه ، فَهُوَ فِي نَفْسِهِ حَقِيرٌ وَعِنْدَ النَّاسِ كَبِيرٌ ، وَمَن اسْتَكْبَرَ وَضَعَهُ اللَّه فَهُوَ فِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ ، وَعِنْدَ النَّاسِ حَقِيرٌ ، حَتَّى لَهُوَ أَبْغَضُ إِلَيْهِمْ مِنَ الكَلْبِ والخِنْزِيرِ » (٥) .

ورأى البختري العابد رجلًا من آل علي يمشي وهو يخطر في مشيته ، فقال له : يا هذا ، إن الذي أكرمك به لم تكن هذه مشيته ، قال : فتركها الرجل بعد . ورأى ابن عمر رجلًا يخطر في مشيته ، فقال : إن للشياطين إخوانًا . وقوله : ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ وأما من قرأ - سيئه (٦) - أي فاحشة ، فمعناه عنده كل هذا الذي نهيناه عنه من قوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ إلى هنا فهو سيئةٌ مؤاخذ عليها مكروهًا عند اللَّه لا يحبه ولا يرضاه ، وأما من قرأ - سيئه - على الإضافة ، فمعناه عنه كل هذا الذي ذكرناه من قوله : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ إلى هنا فسيئه أي فقبيحه

---

(١) قرأها حمزة والكسائي وخلف وحفص بكسر القاف والباقون بضمها (تقريب النشر ص ١٣٤) .
(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٤) ومسلم في البر والصلة (٢٨) والترمذي في سننه (١٩٨٨) .
(٣) أخرجه البخاري في التعبير (٧٠٤٢) والإمام أحمد في مسنده (٢١٦/١) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤٣٨/٣) .
(٤) أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٨٩) والإمام أحمد في مسنده (٣٩٠/٢) .
(٥) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢٥/١٠) والمنذري بنحوه في الترغيب والترهيب (٥٦٠/٣) .
(٦) قرأها الكوفيون وابن عامر بضم الهمزة والهاء وصلتها بواو لفظًا على التذكير ، والباقون بفتح الهمزة وتأنيث منصوبه . تقريب النشر ١٣٤ .

مكروه عند الله .

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴾ .

يقول تعالى : هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة ، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة ، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا ﴾ أي تلومك نفسك ويلومك الله والخلق ﴿ مَّدۡحُورًا ﴾ أي مبعدًا من كل خير ، قال ابن عباس وقتادة : مطرودًا ، والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ ؛ فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم .

﴿ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴾ .

يقول تعالى رادًّا على المشركين الكاذبين الزاعمين عليهم لعائن الله أن الملائكة بنات الله فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا ، ثم ادعوا أنهم بنات الله ، ثم عبدوهم فأخطأوا في كل من المقامات الثلاث خطأ عظيمًا ، فقال تعالى منكرًا عليهم : ﴿ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ ﴾ . أي خصصكم بالذكور ﴿ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ ﴾ أي واختار لنفسه على زعمكم البنات ، ثم شدد الإنكار عليهم ، فقال : ﴿ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴾ أي في زعمكم أن لله ولدًا ، ثم جعلكم ولده الإناث التي تأنفون أن يكنَّ لكم ، وربما قتلتموهن بالوأد ، فتلك إذًا قسمة ضيزى .

﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴾ .

أي صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبينات والمواعظ ، فينزجروا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمۡ ﴾ أي الظالمين منهم ، ﴿ إِلَّا نُفُورٗا ﴾ أي عن الحق وبعدًا منه .

﴿ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ۝ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكًا من خلقه العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفًا ، لو كان الأمر كما تقولون لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ، ويبتغون إليه الوسيلة والقربة ، فاعبدوه أنتم وحده ، كما يعبده من تدعونه من دونه ، فقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه ثم نزه نفسه الكريمة وقدّسها فقال : ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ أي هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون في زعمهم ﴿ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴾ أي تعاليًا كبيرًا ، بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد .

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ .

يقول تعالى : تقدسه السماوات السبع والأرض ، ﴿ وَمَن فِيهِنَّۚ ﴾ أي من المخلوقات ، وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره ، عما يقول هؤلاء المشركون ، وتشهد له بالوحدانية في في ربوبيته وإلهيته .

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وقوله : ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ ﴾ أي وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ ﴾ أي لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس ؛ لأنها بخلاف لغاتكم ، وهذا عام

في الحيوانات والجمادات والنباتات . وهذا أشهر القولين كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال : كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل (١) .

وقال آخرون : إنما يسبح من كان فيه روح ، يعنون من - حيوان ونبات - قال قتادة في قوله : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ قال : كل شيء فيه روح يسبح من شجر أو شيء فيه .

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بقبرين قال : « إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَنْزِهُ مِنَ البَوْلِ ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ » ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين ، ثم غرز في كل قبر واحدة ، ثم قال : « لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسا » (٢) . قال بعض من تكلم على هذا الحديث من العلماء : إنما قال : ما لم ييبسا لأنهما يسبحان ما دام فيهما خضرة ، فإذا يبسا انقطع تسبيحهما ، والله أعلم ، وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ أي أنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة ، بل يؤجله وينظره فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر . كما جاء في الصحيحين « إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ﴾ الآية (٣) .

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ .

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ﴾ يا محمد على هؤلاء المشركين القرآن ، جعلنا بينك وبينهم حجابًا مستورًا ، وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ، قالت : لما نزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ جاءت العوراء أم جميل ، ولها ولولة ، وفي يدها فهر وهي تقول : مذممًا أتينا - أو أبينا - قال أبو موسى : الشك مني - ودينه قلينا ، وأمره عصينا ، ورسول الله ﷺ جالس وأبو بكر إلى جنبه ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك ، فقال : « إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي » . وقرأ قرآنًا اعتصم به منها ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ قال : فجاءت حتى قامت على أبي بكر فلم تر النبي ﷺ ، فقالت : يا أبا بكر بلغني أن صاحبك هجاني ، فقال أبو بكر : لا ورب هذا البيت ما هجاك ، قال : فانصرفت وهي تقول : لقد علمت قريش أني بنت سيدها (٤) . وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ وهي جمع كنان الذي يغشى القلب ، ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ أي لئلا يفهموا القرآن ﴿ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعًا ينفعهم ويهتدون به . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ ﴾ أي إذا وحدت الله في تلاوتك . وقلت : لا إله إلا الله ﴿ وَلَّوْا۟ ﴾ أي أدبروا راجعين ﴿ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ ونفور جمع نافر كقعود جمع قاعد ، ويجوز أن يكون مصدرًا من غير الفعل والله أعلم . قال قتادة في قوله : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ ﴾ الآية . أن المسلمين لما قالوا : لا إله إلا الله أنكر ذلك المشركون وكبرت عليهم ، فضاقها إبليس وجنوده ، فأبى الله إلا أن

---

(١) أخرجه الدارمي في المقدمة (٥) والبخاري في المناقب (٣٥٧٩) وأحمد في مسنده ١/٤٦٠ .
(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٧٨) ومسلم في الطهارة (١١١) والترمذي في السنن (٧٠) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٦) ومسلم في البر (٦٢) والبيهقي في السنن (٦/٩٤) .
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٣٦١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١٤٤) .

يمضيها ويعليها وينصرها ويظهرها على من ناوأها ، إنها كلمة من خاصم بها فلج ، ومن قاتل بها نصر ، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين التي يقطعها الراكب في ليال قلائل ، ويسير الدهر في فئام من الناس لا يعرفونها ولا يقرون بها .

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ .

يخبر تعالى نبيه محمدًا ﷺ بما يتناجى به رؤساء كفار قريش ، حين جاءوا يستمعون قراءته ﷺ سرًا من قومهم ، بما قالوا : من أنه رجل مسحور له رئي يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه ، ومنهم من قال : شاعر ، ومنهم من قال : كاهن ، ومنهم من قال : مجنون ، ومنهم من قال : ساحر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ . أي فلا يهتدون إلى الحق ، ولا يجدون إليه مخلصًا ، وحدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بن زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ ، وهو يصلي بالليل في بيته ، فأخذ كل واحد منهم مجلسًا ، يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا . وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا ، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة ، ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا . فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به . قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه ، والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه . قال : فقام عنه الأخنس وتركه(١) .

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد ، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا ﴾ أي ترابًا . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : غبارًا ﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ أي يوم القيامة قد بلينا ، وصرنا عدمًا لا نذكر . فأمر الله سبحانه رسول الله ﷺ أن يجيبهم ، فقال : ﴿ قُلْ كُونُوا۟

(١) سيرة ابن هشام (١/٣٣٧) .

حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ إذ هما أشد امتناعًا من العظام والرفات ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ قال ابن عباس : هو الموت . وقال ابن عمر : لو كنتم موتى لأحييتكم ، ومعنى ذلك أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم إلى الموت الذي هو ضد الحياة لأحياكم الله إذا شاء ؛ فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أراده .

وقال مجاهد : ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ يعني السماء والأرض والجبال - وفي رواية : ما شئتم فكونوا فسيعيدكم الله بعد موتكم . وقوله تعالى : ﴿ فَسَيَقُولُونَ من يُعِيدُنَا ﴾ أي من يعيدنا إذا كنا حجارة ، أو حديدًا ، أو خلقًا آخر شديدًا ﴿ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي الذي خلقكم ، ولم تكونوا شيئًا مذكورًا ، ثم صرتم بشرًا تنتشرون ، فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال ، وقوله تعالى : ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ قال ابن عباس وقتادة : يحركونها استهزاء .

وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ﴾ إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك . وقوله : ﴿ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ أي احذروا ذلك ، فإنه قريب إليكم سيأتيكم لا محالة . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾ أي الرب تبارك وتعالى ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ أي تقولون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته . قال ابن عباس : ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ أي بأمره . وقال قتادة : بمعرفته وطاعته . وقال بعضهم : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ أي وله الحمد في كل حال . وقد جاء في الحديث : « لَيْسَ عَلَى أَهْلِ لاَ إله إِلَّا اللَّه وَحْشَةٌ في قُبُورِهِمْ ، كَأَنِّي بِأَهْلِ لاَ إِلَه إلاَّ الله يَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ يَنْفُضُونَ التُّرَابَ عَنْ رُؤُسِهِمْ يَقُولُونَ لاَ إِلَه إِلَّا اللَّه » (١) . وفي رواية يقولون : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾ وسيأتي في سورة فاطر . وقوله تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ ﴾ أي يوم تقومون من قبوركم ، ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ ﴾ أي في الدار الدنيا ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ .

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ .

يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين ، أن يقولوا في محاوراتهم الكلام الأحسن ، والكلمة الطيبة ؛ فإنهم إن لم يفعلوا ذلك ، نزغ الشيطان بينهم ، وأخرج الكلام إلى الفعال ، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة ، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم ، ولهذا نهي أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة فإن الشيطان ينزع في يده أي فربما أصابه بها .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح ؛ فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزع في يده فيقع في حفرة من النار » (٢) .

عن الحسن قال : حدثني رجل من بني سليط ، قال : أتيت النبي ﷺ وهو في رفلة من الناس فسمعته يقول : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذلُهُ ، التَّقْوَى هَهُنَا » (٣) .

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ .

---

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٤١٦/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٨٢/١٠) .
(٢) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٧٢) ومسلم في (البر والصلة) (١٢٦) .
(٣) أخرجه البخاري في الإكراه (٦٩٥١) ومسلم في (البر) (٣٢) .

يقول تعالى : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ أيها الناس أي أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ﴿ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه ﴿ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ ﴾ يا محمد ﴿ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ أي إنما أرسلناك نذيرًا فمن أطاعك دخل الجنة ، ومن عصاك دخل النار . وقوله : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي بمراتبهم في الطاعة والمعصية ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ ﴾ وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ » (1) . فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية ، لا بمقتضى الدليل فإذا دل على شيء وجب اتباعه ، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء ، وأن أولي العزم منهم أفضلهم ، وهم الخمسة المذكورون نصًّا في آيتين من القرآن في سورة الأحزاب ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ وفي الشورى في قوله ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ ولا خلاف أن محمدًا ﷺ أفضلهم ، ثم بعده إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى عليه السلام على المشهور ، وقوله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ تنبيه على فضله وشرفه . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ القُرْآنُ فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ فَتُسْرَجَ ، فَكَانَ يَقْرَؤُهُ قَبْلَ أَن يَفْرَغَ » (2) يعني القرآن .

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلِ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ من الأصنام والأنداد فارغبوا إليهم فإنهم لا ﴿ يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ ﴾ أي بالكلية ، ﴿ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ أي بأن يحولوه إلى غيركم ، والمعنى : أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له ، قال ابن عباس في قوله : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم ﴾ الآية : كان أهل الشرك يقولون : نعبد الملائكة والمسيح وعزيرًا ، وهم الذين يدعون يعني في الملائكة والمسيح وعزير .

وعن عبد الله في قوله : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ قال : ناس من الجن كانوا يُعْبَدُون فأسلموا (3) ، وفي رواية قال : كان ناس من الإنس يعبدون ناسًا من الجن ، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء يدينهم (4) . وفي رواية عن ابن مسعود : كانوا يعبدون صنفًا من الملائكة يقال لهم الجن فذكره . وقال ابن عباس : هم عيسى وعزير والشمس والقمر ، وقال مجاهد : عيسى والعزير والملائكة ، واختار ابن جرير قول ابن مسعود لقوله : ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ وهذا لا يعبر به عن الماضي فلا يدخل فيه عيسى والعزير والملائكة ، وقال : والوسيلة هي القربة . كما قال قتادة . ولهذا قال : ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء ، فبالخوف يكف عن المناهي ، وبالرجاء يكثر من الطاعات ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ

(1) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤١٤) ومسلم في الفضائل (١٥٩) .
(2) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٣) والإمام أحمد في مسنده ٢/٣١٤ والبيهقي في السنن (٦/١٢٧) .
(3) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٥) . (4) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٤)

عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ أي ينبغي أن يحذر منه ، ويخاف من وقوعه وحصوله عياذًا بالله منه .

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ .

هذا إخبار من الله ﷻ بأنه قد حتم وقضى ، بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ أنه ما من قرية إلا سيهلكها بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء ، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم .

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ .

عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا ، وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا ، فقيل له : إن شئت أن نستأني بهم وإن شئت أن يأتيهم الذي سألوا ، فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من كان قبلهم من الأمم قال : « لا بل استأن بهم » وأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ (١) ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ ﴾ أي نبعث الآيات ، ونأتي بها على ما سأل قومك منك ، فإنه سهل علينا يسير لدينا إلا أنه قد كذب بها الأولون بعدما سألوها ، وجرت سنتنا فيهم ، وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إن كذبوا بها بعد نزولها . كما قال الله تعالى في المائدة : ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ وقال تعالى عن ثمود حين سألوا آية ، ناقة تخرج من صخرة عينوها فدعا صالح عليه السلام ربه ، فأخرج لهم منها ناقة على ما سألوا ، فلما ظلموا بها أي كفروا بمن خلقها ، وكذبوا رسوله وعقروها ، فقال : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أي دالة على وحدانية من خلقها ، وصدق رسوله الذي أجيب دعاؤه فيها . ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أي كفروا بها ومنعوها شربها ، وقتلوها فأبادهم الله عن آخرهم ، وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ . قال قتادة : إن الله تعالى ، يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون ، ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضي الله عنه ، فقال : يا أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه . وهكذا روي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرات ، فقال عمر : أحدثتم . والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن . وكذا قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه : « إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ ، وَإِنَّهُمَا لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ ، وَلكِنَّ اللهَ ﷻ يُخوف بِهِمَا عِبَادَهُ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ » - ثم قال - : « يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ واللهِ مَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أو تزني أَمَتُهُ ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ واللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا » (٢) .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ .

---

(١) أخرجه : أحمد في مسنده ٢٥٨/١ .

(٢) أخرجه البخاري في الكسوف (١٠٤٠) ومسلم في الكسوف (١ ، ٣ ، ١٧ ، ٢١) .

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرضًا له على إبلاغ رسالته ، ومخبرًا له بأنه قد عصمه من الناس ، قال مجاهد في قوله ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ : أي عصمك منهم . وقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ قال ابن عباس : هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به . ﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ ، شجرة الزقوم (١) . وهكذا فسر ذلك بليلة الإسراء مجاهد وغيره ، وتقدم أن ناسًا رجعوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق ، لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك ، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه . وجعل اللّه ذلك ثباتًا ويقينًا لآخرين ، ولهذا قال : ﴿ إِلَّا فِتْنَةً ﴾ أي اختبارًا وامتحانًا . أما الشجرة الملعونة فهي شجرة الزقوم لما أخبرهم رسول اللّه ﷺ أنه رأى الجنة والنار ورأى شجرة الزقوم ، فكذبوا بذلك ، حتى قال أبو جهل عليه لعائن اللّه : هاتوا لنا تمرًا وزبدًا وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول : تزقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا (٢) . وكل من قال : إنها ليلة الإسراء فسره كذلك بشجرة الزقوم . واختار ابن جرير أن المراد بذلك ليلة الإسراء ، وأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم ، قال : لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك (٣) - أي في الرؤيا والشجرة - وقوله : ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ ﴾ أي الكفار بالوعيد والعذاب والنكال ﴿ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ أي تماديًا فيما هم فيه من الكفر والضلال وذلك من خذلان اللّه لهم .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

يذكر تبارك وتعالى عداوة إبليس لعنه اللّه لآدم وذريته ، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم ، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له افتخارًا عليه واحتقارًا له ﴿ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ كما قال في الآية الأخرى : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ وقال أيضًا : ﴿ أَرَأَيْتَكَ ﴾ يقول للرب جراءة وكفرًا والرب يحلم وينظر ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ قال ابن عباس : يقول : لأستولين على ذريته إلا قليلًا . وقال مجاهد : لأحتوين ، وقال ابن زيد : لأضلنهم ، وكلها متقاربة ، والمعنى : أرأيتك هذا الذي شرفته وعظمته علي لئن أنظرتني لأضلن ذريته إلا قليلًا منهم .

﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ .

لما سأل إبليس النظرة قال اللّه تعالى له : ﴿ اذْهَبْ ﴾ فقد أنظرتك ، ثم أوعده ومن اتبعه من ذرية آدم جهنم ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ ﴾ أي على أعمالكم ﴿ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ . قال مجاهد : وافرًا ، وقال قتادة : موفورًا عليكم لا ينقص لكم منه . وقوله تعالى : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ قيل : هو الغناء ، وقال ابن عباس : كل داع دعا إلى معصية اللّه ﷻ ، وقوله

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٦) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٧٤/١) .
(٣) انظر تفسير الطبري (١٤١/١٥) .

تعالى : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ يقول : واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم ، فإن الرجل جمع راجل كما أن الركب جمع راكب وصحب جمع صاحب ، ومعناه : تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه ، وهذا أمر قدري . وقال ابن عباس: كل راكب وماش في معصية الله ، وقال قتادة : إن له خيلًا ورجالًا من الجن والإنس ، وهم الذين يطيعونه ، تقول العرب : أجلب فلان على فلان ، إذا صاح عليه ومنه نهي في المسابقة عن الجلب والجنب ، ومنه اشتقاق الجلبة ، وهي ارتفاع الأصوات ، وقوله تعالى : ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ قال ابن عباس : هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله تعالى . وقال عطاء : هو الربا ، وقال الحسن : هو جمعها من خبيث وإنفاقها في حرام ، أما مشاركته إياهم في أموالهم فهو ما حرموه من أنعامهم ، يعني من البحائر والسوائب ونحوها ، وقال ابن جرير ، والأولى أن يقال: إن الآية تعم ذلك كله . وقوله : ﴿ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ قال ابن عباس : أولاد الزنى ، وقال ابن عباس : هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهًا بغير علم . وقال قتادة عن الحسن البصري : قد والله شاركهم في الأموال والأولاد مجسوا وهوّدوا ونصّروا وصبّغوا غير صبغة الإسلام ، وجزأوا من أموالهم جزءًا للشيطان . وقال ابن عباس : هو تسميتهم أولادهم عبد الحارث وعبد شمس وعبد فلان . قال ابن جرير : وأولى الأقوال بالصواب ، أن يقال : كل مولود ولدته أنثى عصي الله فيه بتسميته بما يكرهه الله ، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله ، أو بالزنى بأمه أو بقتله أو وأده ، أو غير ذلك من الأمور التي يعصي الله بفعله به أو فيه فقد دخل في مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك الولد له أو منه ؛ لأن الله لم يخصص ، بقوله : ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ معنى الشركة فيه ، بمعنى دون معنى ، فكل ما عصي الله فيه أو به أو أطيع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة (١) ، وهذا الذي قاله متجه وكل من السلف رحمهم الله ، فسر بعض المشاركة . فعن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال : «يَقُولُ اللّهُ ﷻ : إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ » (٢) . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إذا أرادَ أَنْ يأْتِيَ أَهلَهُ ، قال : باسم الله اللّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطانَ مَا رَزَقْتَنَا ، فإنه إنْ يقدرْ بينهما ولدٌ في ذلكَ لم يضره الشيطانُ أبدًا » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس ، أنه يقول إذا حصحص الحق يوم يقضي بالحق : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين ، وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ أي حافظًا ومؤيدًا ونصيرًا ، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ المُؤْمِنَ لَيُنْضِي شَيَاطِينَهُ كَمَا يُنْضِي أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِي السَّفَرِ » (٤) ينضي أي يأخذ بناصيته ويقهره .

---

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٥/١٥٢) . (٢) أخرجه مسلم في الجنة (٦٣) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٢٨٦ ، ٢١٧) وأورده ابن حجر في الفتح (١١/١٩١) .
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٣٨٠) والهيثمي في مجمع الزوائد (١/١١٦) .

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ .

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلكَ في البحر ، وتسهيله لمصالح عباده لابتغائهم من فضله في التجارة ، من إقليم إلى إقليم ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ أي إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم .

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ .

يخبر تبارك وتعالى ، أن الناس إذا مسهم ضر دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ ، أي ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى ، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارًا من رسول الله ﷺ حين فتح مكة ، فذهب هاربًا فركب في البحر ليدخل الحبشة ، فجاءتهم ريح عاصف ، فقال القوم بعضهم لبعض : إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده ، فقال عكرمة في نفسه : والله إن كان لا ينفع في البحر غيره فإنه لا ينفع في البر غيره ، اللهم لك عليَّ عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد فلأجدنه رءوفًا رحيمًا ، فخرجوا من البحر ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه ﷺ وأرضاه . وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ ، أي نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر ، ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ أي سجيته هذا ، ينسى النعم ، ويجحدها إلا من عصم الله .

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ .

يقول تعالى : أفحسبتم بخروجكم إلى البر ، أمنتم من انتقامه وعذابه ، أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبًا ، وهو المطر الذي فيه حجارة . وقوله : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ أي ناصرًا يرد ذلك عنكم وينقذكم منه .

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : أم أمنتم أيها المعرضون عنا ، بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر ، وخرجوا إلى البر أن يعيدكم في البحر مرة ثانية ، فيرسل عليكم قاصفًا من الريح ، أي يقصف الصواري ويغرق المراكب . قال ابن عباس وغيره : القاصف ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها . وقوله : ﴿ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ ، أي بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى . وقوله : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ ، قال ابن عباس : نصيرًا وقال مجاهد : نصيرًا ثائرًا ، أي يأخذ بثأركم بعدكم .. وقال قتادة : ولا نخاف أحدًا يتبعنا بشيء من ذلك .

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ .

يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها ، ﴿ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ ﴾ أي على الدواب من الأنعام ، والخيل ، والبغال ، وفي البحر أيضًا على السفن الكبار والصغار ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ ، أي من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم

والألوان المشتهاة اللذيذة ، والمناظر الحسنة والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها ، مما يصنعونه لأنفسهم ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي . ﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ ، أي من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات ، وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة .

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .

يخبر تبارك وتعالى : عن يوم القيامة أنه يحاسب كل أمة بإمامهم . وقد اختلفوا في ذلك فقال مجاهد وقتادة : أي بنبيهم . وقال بعض السلف : هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث ؛ لأن إمامهم النبي ﷺ . وقال ابن زيد : بكتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع ، واختاره ابن جرير وروي عن مجاهد أنه قال : بكتبهم [1] فيحتمل أن يكون أراد هذا ، وأن يكون أراد ما رواه ابن عباس في قولهم : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ أي بكتاب أعمالهم : وهذا القول هو الأرجح لقوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ الآية . ويحتمل أن المراد ﴿ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ أي ، كل قوم بمن يأتمون به ، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام ، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم . كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ . وفي الصحيحين : « لِتَتَّبِع كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ » [2] . الحديث ، وهذا لا ينافي أن يجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته فإنه لابد أن يكون شاهدًا على أمته بأعمالها كقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ ولكن المراد هاهنا بالإمام هو كتاب الأعمال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ ﴾ أي من فرحته وسروره ، بما فيه من العمل الصالح يقرؤه ويحب قراءته . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ قد تقدم أن الفتيل هو الخيط المستطيل في شق النواة . وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ قال : « يُدْعَى أَحَدُهُمْ فَيُعْطَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ، وَيُمَدُّ لَهُ فِي جِسْمِهِ وَيُبَيَّضُ وَجْهُهُ ، وَيُجْعَلُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ يَتَلأْلأُ ، فَيَنْطَلِقُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَيَرَوْنَهُ مِنْ بَعِيدٍ فَيَقُولُونَ : اللَّهُمَّ ائْتِنَا بِهَذَا ، وَبَارِكْ لَنَا فِي هَذَا فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ لَهُمْ : أَبْشِرُوا ، فَإِنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِثْلَ هَذَا ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُسَوَّدُ وَجْهُهُ وَيُمَدُّ لَهُ فِي جِسْمِهِ وَيَرَاهُ أَصْحَابُهُ ، فَيَقُولُونَ : نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ هَذَا - أَوْ مِنْ شَرِّ هَذَا - اللَّهُمَّ لاَ تَأْتِنَا بِهِ فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُونَ : اللَّهُمَّ أَخْزِهِ ، فَيَقُولُ : أَبْعَدَكُمُ اللَّهُ ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِثْلَ هَذَا » [3] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ ﴾ الآية ، قال ابن عباس : أي في الحياة الدنيا ﴿ أَعْمَىٰ ﴾ أي عن حجة الله وآياته وبيناته ﴿ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ ﴾ أي كذلك يكون ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ أي وأضل

(١) انظر تفسير الطبري (١٥/١٥٩) .
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٣٧) ومسلم في الإيمان (٢٩٩) .
(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٣١٣٦) وذكره بنحوه الحاكم في المستدرك (٢/٢٤٣) .

منه كما كان في الدنيا عياذًا بالله من ذلك .

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ .

يخبر تعالى عن تأييده رسولَه ﷺ وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه ، بل هو وليه وحافظه ، وناصره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه في مشارق الأرض ومغاربها .

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ .

قيل : نزلت في اليهود عن عبد الرحمن بن غنم : أن اليهود أتوا رسول الله ﷺ يومًا ، فقالوا : يا أبا القاسم ، إن كنت صادقًا أنك نبي فالحق بالشام فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء ، فصدق ما قالوا ، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام ، فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعد ما ختمت السورة : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ ﴾ إلى قوله ﴿ تَحْوِيلًا ﴾ فأمره الله بالرجوع إلى المدينة ، وقال : فيها محياك ومماتك ومنها تبعث . وفي هذا الإسناد نظر . والأظهر أن هذا ليس بصحيح ؛ فإن النبي ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود وإنما غزاها امتثالًا لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ ﴾ وغزاها ليقتص وينتقم ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه .

وقيل : نزلت في كفار قريش هموا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم فتوعدهم الله بهذه الآية . وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيرًا وكذلك وقع فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعد ما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد ، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم ، فقتل أشرافهم وسبى ذراريهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ الآية ، أي هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا ، وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم ، يأتيهم العذاب ولولا أنه ﷺ رسول الرحمة لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ ﴾ الآية .

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ .

يقول تبارك وتعالى لرسوله ﷺ : آمرًا له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾ قيل : لغروبها . قال ابن عباس : دلوكها زوالها ، واختاره ابن جرير ، ومما استشهد عليه حديث جابر بن عبد الله : دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه فطعموا عندي ، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج النبي ﷺ فقال : « اخْرُجْ يَا أَبَا بَكْرٍ فَهَذَا حِينَ دَلَكَتِ الشَّمْسُ » (١)

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٣٩٨/٣ بنحوه ، والطبري في تفسيره ١٧٠/١٥ ، ١٧١ بلفظه .

فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمس . فمن قوله : ﴿ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ ﴾ ، وهو ظلامه . وقيل : غروب الشمس أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء . وقوله : ﴿ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ ﴾ يعني صلاة الفجر ، وقد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ تواترًا من أفعاله وأقواله ، بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم ، مما تلقوه خلفًا عن سلف وقرنًا بعد قرن كما هو مقرر في مواضعه ولله الحمد ﴿ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾ عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ في هذه الآية قال : « تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار » (١) .

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « فَضْلُ صَلاَةِ الجَمِيعِ عَلَى صَلاَةِ الوَاحِدِ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر » (٢) .

وفي الحديث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ الصُّبْحِ ، وَفِي صَلاَةِ العَصْرِ ، فَيَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي ؟ فَيَقُولُونَ : أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ ، وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ » (٣) وقال ابن مسعود : يجتمع الحرسان في صلاة الفجر فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ ﴾ أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة كما ورد عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه سئل : أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال : « صَلاةُ اللَّيْلِ » ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل ، فإن التهجد ما كان بعد نوم ، وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه كان يتهجد بعد نومه (٤) . وقال الحسن البصري : هو ما كان بعد العشاء ، ويحمل على ما كان بعد النوم ، واختلف في معنى قوله تعالى : ﴿ نَافِلَةٗ لَّكَ ﴾ فقيل : معناه : أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك ، فجعلوا قيام الليل واجبًا في حقه دون الأمة ، عن ابن عباس ، وهو أحد قولي العلماء ، وأحد قولي الشافعي رحمه الله ، واختاره ابن جرير ، وقيل : إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص ؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وغيره من أمته إنما تكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التي عليه .

وقوله : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ أي افعل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقامًا محمودًا يحمدك فيه الخلائق كلهم ، وخالقهم تبارك وتعالى . قال ابن جرير : قال أكثر أهل التأويل : ذلك هو المقام الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم (٥) .

ذكر من قال ذلك : عن حذيفة قال : يجمع الناس في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر حفاة عراة ، كما خلقوا قيامًا لا تكلم نفس إلا بإذنه ، ينادي يا محمد : فيقول : « لَبَّيْكَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٧٤/٢) والترمذي في السنن (٣١٣٥) وابن ماجه في السنن (٦٧٠) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٧) .
(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٩) ومسلم في المساجد (٢١٠) وأحمد في مسنده (٤٨٦/٢) .
(٤) انظر صحيح البخاري كتاب التهجد (١١٤٦) . (٥) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧٩/١٥) .

وَسَعْدَيْكَ ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ ، وَالمَهْدِيُّ مَنْ هَدَيْتَ ، وَعَبْدُكَ بِيْنَ يَدَيْكَ ، وَمِنْكَ وَإِلَيْكَ ، لاَ مَنْجَى وَلاَ مَلْجَأَ مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ سُبْحَانَكَ رَبُّ البَيْتِ » (١) .

وقال ابن عباس : هذا المقام المحمود مقام الشفاعة ، وقال قتادة : هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة وأول شافع . وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود الذي قال اللّه تعالى : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ . قلت : لرسول اللّه ﷺ تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد ، وتشريفات لا يساويه فيها أحد ، فهو أول من تنشق عنه الأرض ، ويبعث راكبًا إلى المحشر ، وله اللواء الذي آدم فمن دونه تحت لوائه ، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثر واردًا منه ، وله الشفاعة العظمى عند اللّه ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق ، وذلك بعد ما تسأل الناس آدم ، ثم نوحًا ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، فكل يقول : لست لها ، حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول : « أَنَا لَهَا ، أَنَا لَهَا » (٢) .

وفي حديث الصور أن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته ، وهو أول داخل إليها وأمته قبل الأمم كلهم ، ويشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغهم أعمالهم ، وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة لا تليق إلا له ، وإذا أذن اللّه تعالى في الشفاعة للعصاة شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم إلا اللّه تعالى ، ولا يشفع أحد مثله ، ولا يساويه في ذلك . ولنذكر الآن الأحاديث الواردة في المقام المحمود وباللّه المستعان .

عن ابن عمر قال : إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاء ، كل أمة تتبع نبيها يقولون : يا فلان اشفع ، يا فلان اشفع . حتى تنتهي الشفاعة إلى محمد ﷺ ، فذلك يوم يبعثه اللّه مقامًا محمودًا (٣) .

وعنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إِنَّ الشَّمْسَ لَتَدْنُو حَتَّى يَبْلُغَ العَرَقُ نِصْفَ الأُذُنِ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ اسْتَغَاثُوا بِآدَمَ فَيَقُولُ : لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ ، ثُمَّ بِمُوسَى فَيَقُولُ : كَذَلِكَ ، ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَيَشْفَعُ بَيْنَ الخَلْقِ . فَيَمْشِي حَتَّى يَأْخُذَ بِحَلْقَةِ بَابِ الجَنَّةِ ، فَيَوْمَئِذٍ يَبْعَثُهُ اللّهُ مَقَامًا مَحْمُودًا » . وزادفي رواية : « فيومئذ يبعثه اللّه مقامًا محمودًا يحمده أهل الجمع كلهم » (٤) . وعن جابر بن عبد اللّه أن رسول اللّه ﷺ قال : « مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ : اللَّهُمَّ رَبَّ هذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلاةِ القَائِمَةِ ، آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ وَالفَضِيلَةَ ، وابْعَثْهُ مَقامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ ؛ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ » (٥) .

وعن أبي بن كعب ، عن النبي ﷺ قال : « إِذَا كَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ كُنْتُ إِمَامَ الأَنْبِيَاءِ وَخَطِيبَهُمْ ، وَصَاحِبَ شَفَاعَتِهِمْ غَيْرَ فَخْرٍ » (٦) . وفي حديث أبي بن كعب في قراءة القرآن على سبعة أحرف ، قال ﷺ في آخره : « فَقُلْتُ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأُمَّتِي ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي ، وَأَخَّرْتُ

---

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٥/١٧٩) .
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥١٠) ومسلم في الإيمان (٣٢٦) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٨) . (٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٧٥) .
(٥) أخرجه البخاري في الدعوات (٦١٤) والإمام أحمد في مسنده (٣/٣٥٤) والبيهقي في السنن (١/٤١٠) .
(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/١٣٧) والترمذي في السنن (٣٦١٣) وابن ماجه في السنن (٤٣١٤) .

الثَّالِثَةَ لِيَوْم يَرْغَبُ إِلَيَّ فِيهِ الخَلْقُ حَتَّى إِبْرَاهِيمُ عليه السلام »[١] .

وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : « يَجْتَمِعُ المُؤْمِنُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْهَمُونَ ذَلِكَ ، فَيَقُولُونَ : لو اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَأَرَاحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ : يَا آدَمُ : أَنْتَ أَبُو البَشَرِ خَلَقَكَ اللَّه بِيَدِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلائِكَتَهُ ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا . فَيَقُولُ لَهُمْ آدَمُ : لَسْتُ هُناكم ، وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ الَّذِي أَصَابَ فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ عز وجل مِنْ ذَلِكَ ، وَيَقُولُ : وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّه إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَيَأْتُونَ نُوحًا ، فَيَقُولُ : لَسْتُ هناكم ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَةَ سُؤَالِهِ رَبَّهُ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَيَقُولُ : وَلكِنِ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمنِ . فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ : لَسْتُ هناكم ، وَلكِن ائْتُوا مُوسَى عَبْدًا كَلَّمَهُ اللَّه ، وَأَعْطَاهُ التَّوْرَاةَ فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ : لَسْتُ هناكم ، وَيَذْكُرُ لَهُمُ النَّفْسَ الَّتِي قَتَلَ بِغَيْرِ نَفْسٍ فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْ ذَلِكَ . وَيَقُولُ : وَلكِنِ ائْتُوا عيسَى عَبْدَ اللَّهِ وَرسُولَهُ وَكَلِمَتَهُ وَرُوحَهُ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ : لَسْتُ هناكم ، وَلكِنِ ائْتُوا مُحَمَّدًا غَفَرَ اللَّه لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ فَيَأْتُونِي - قال الحسن هذا الحرف - : فَأَقُومُ فَأَمْشِي بَيْنَ سِمَاطَيْنِ من المُؤْمِنِينَ - قَالَ أنس : حَتَّى أَسْتَأْذِن عَلَى رَبِّي - فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ لَهُ - أو خررت - سَاجِدًا لِرَبِّي ، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّه أَنْ يَدَعَنِي - قال : - ثُمَّ يُقَالُ : ارْفَعْ مُحَمَّدُ قُل يُسْمَع وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، وَسَلْ تُعْطَهُ ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيه ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ - قال : - ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهِ الثَّانِيَةَ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ لَهُ - أو خررت - سَاجِدًا لِرَبِّي فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّه أَنْ يَدَعَنِي ، ثُمَّ يُقَالُ : ارْفَعْ مُحَمَّدُ ، قُلْ يُسْمَعْ ، وَسَلْ تُعطه ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيه ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الجنَّة - قال : - ثُمَّ أَعُودُ الثَّالِثَةَ ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ - أو خررت - سَاجِدًا لِرَبِّي فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّه أَنْ يدَعَني ، ثُمَّ يُقَالُ : ارْفَعْ مُحَمَّدُ ، قُلْ يُسْمَعْ ، وَسَلْ تُعْطَه ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيه ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الجنَّة ، ثُمَّ أَعودُ الرَّابِعَةَ فأقولُ : يَا رَبِّ مَا بَقِيَ إِلاَّ مَنْ حَبَسَهُ القُرْآنُ » .

فحدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : « فَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لاَ إِله إِلاَّ اللَّه ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ ، مَنْ قَالَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً »[٢] . وعن كعب بن مالك أن رسول اللَّه ﷺ قال : « يُبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي عَلَى تَلٍّ وَيَكْسُونِي رَبِّي عز وجل حُلَّةً خَضْرَاءَ ، ثُمَّ يُؤْذَنُ لِي فَأَقُولُ مَا شَاءَ اللَّه أَنْ أَقُولَ فَذَلِكَ المَقَامُ المَحْمُودُ »[٣] .

وعن أبي الدرداء قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « أَنَا أَوَّلُ مَنْ يُؤْذَنُ لَهُ بالسُّجُودِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُؤْذَنُ لَهُ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ ، فَأَنْظُرُ إِلَى مَا بَيْنَ يَدَيَّ فَأَعْرِفُ أُمَّتِي مِنْ بَيْنِ الأُمَمِ ، وَمِنْ خَلْفِي مِثْلَ

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٧٣) والإمام أحمد في مسنده (١٢٧/٥ ، ١٢٩) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٧٦) ومسلم في الإيمان (٣٢٢) والإمام أحمد في المسند (١١٦/٣) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٥٦/٣) .

ذَلِكَ ، وَعَنْ يَمِينِي مِثْلُ ذَلِكَ ، وَعَنْ شِمَالِي مِثْلُ ذَلِكَ » . فقال رجل : يا رسول الله كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك ؟ قال : « هم غرٌّ محجَّلون من أثرِ الوضوءِ ليسَ أحدٌ كذلك غيرهم ، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانِهم ، وأعرفُهم تسعَى من بينِ أيديهم ذريتُهم »[(1)] .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : أتي رسول الله ﷺ بلحم ، فرفع إليه الذراع ، وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال : « أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَاكَ ؟ يَجْمَعُ اللَّه الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يَسْمَعُهُم الدَّاعِي ، وَيَنْفُذُهُمُ البَصَرُ ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسُ مِن الغَمِّ وَالكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْض : أَلاَ تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِمَّا قَدْ بَلَغَكُمْ ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْض : عَلَيْكُمْ بِآدَمَ فَيَأْتُونَ آدَمَ ﷺ فَيَقُولُونَ : يَا آدَمُ أَنتَ أَبُو البَشَرِ خَلَقَكَ اللَّه بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ ، وَأَمَرَ المَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ؟ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغنا ؟ فَيَقُولُ آدَمُ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُ ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى نُوح ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ : يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْض ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّه عَبْدًا شَكُورًا اشْفَعْ لَنا إِلَى رَبِّكَ ، أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغنا ؟ فَيَقُولُ نُوحٌ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَب قبلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مثلَهُ قَطُّ . وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُها عَلَى قَوْمِي . نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ . فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ : يَا إِبْرَاهِيمُ أَنتَ نَبِيُّ اللَّه وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغنا ؟ فَيَقُولُ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، فَذَكَرَ كِذْبَاتِهِ ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي . اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى ، فَيَأْتُونَ مُوسَى ، ﷺ فَيَقُولُونَ : يَامُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّه اصْطَفَاكَ اللَّه بِرِسَالاَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى النَّاسِ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغنا ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَه مِثْلَه ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا ، لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى فيأتونَ عيسَى فيقولونَ : يا عيسَى أنتَ رَسُولُ اللَّهِ وكلمَتُهُ ألقاهَا إلى مَرْيَمَ وروحٌ منه ، وكلَّمتَ الناس في المَهْدِ صبيًّا فاشفعْ لنا إلى رَبِّكَ . ألا ترَى ما نحنُ فيهِ ؟ ألا ترَى ما قد بلغنَا ؟ فيقولُ لهُم عيسى : إن ربِّي قد غَضِبَ اليومَ غضبًا لم يَغْضَبْ قبلَهُ مِثلَهُ ولَنْ يغْضَبْ بعدَهُ مِثْلَه ، ولم يذْكُرْ ذنبًا . نَفْسِي نَفْسِي نَفسِي . اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذْهَبُوا إِلَى محمّدٍ ﷺ ، فيأتُونَ مُحمّدًا ﷺ فَيَقُولُونَ : يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّه ، وَخاتمَ الأَنبياءِ ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّه لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغنا ؟ فَأَقُومُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ﷻ ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّه عَلَيَّ ، وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي ، فَيُقَالُ : يَا مُحمدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَسَلْ تُعْطَهْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٩٩/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٥/١) .

فَأَرْفَعَ رَأْسِي فَأَقُولُ : أُمَّتِي يَا رَبِّ أُمَّتِي ، يا رب أُمَّتِي يَا رَب ؟ فَيُقَالُ : يَا محمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيما سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ . ثُمَّ قَالَ : وَالَّذِي نَفْسُ مُحمدٍ بِيَدِهِ ، إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ ، كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى » (١) وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ القَبْرُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ » (٢) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ سئل عنها فقال : « هِيَ الشَّفَاعَةُ » (٣) .

وعنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ قال : « هُوَ المَقَامُ الذِي أَشْفَعُ لأُمَّتِي فِيهِ » (٤) .

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ .

عن ابن عباس ، قال : كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة فأنزل الله ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ ، وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية : إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه ، فأراد الله قتال أهل مكة فأمره أن يخرج إلى المدينة فهو الذي قال الله ﷻ : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ الآية . وقال قتادة : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ يعني المدينة ، ﴿ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ يعني مكة ، وهذا القول هو أشهر الأقوال . وقال ابن عباس : ﴿ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ يعني الموت ، ﴿ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ يعني الحياة بعد الموت وقوله : ﴿ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ قال الحسن البصري في تفسيرها : وعده ربه لينزعن ملك فارس وعز فارس وليجعلنه له ، وملك الروم وعز الروم وليجعلنه له . وقال قتادة فيها : إن نبي الله ﷺ علم أن لا طاقة له بهذا الأمر ، إلا بسلطان فسأل سلطانًا نصيرًا لكتاب الله ، ولحدود الله ، ولفرائض الله ، ولإقامة دين الله ، فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده ، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض ، فأكل شديدهم ضعيفهم ، قال مجاهد : ﴿ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ حجة بينة ، واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة (٥) ، وهو الأرجح ؛ لأنه لابد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه ، ولهذا يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾ الآية . وفي الحديث : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » ، وقوله : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ الآية ، تهديد ووعيد لكفار قريش فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه ولا قبل لهم به ، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع ،

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٢٧) والإمام أحمد في مسنده (٣/١٤٤) .
(٢) أخرجه مسلم في الفضائل (٣) والإمام أحمد في مسنده (١/٢٨١) والترمذي في سننه (٣١٤٨ ، ٣٦١٥) .
(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٣١٣٧) . وذكره الطبري في تفسيره (١٥/١٨١)
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٤٤١ ، ٥٢٨) .
(٥) انظر تفسير الطبري (١٥/١٨٦ ، ١٨٧) .

وزهق باطلهم أي اضمحل وهلك ، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ، عن ابن مسعود قال : دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب ، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول : « ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ . جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد »(1) .

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ ، وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، إنه شفاء ورحمة للمؤمنين أي يذهب ما في القلوب من أمراض من شك ونفاق ، وشرك وزيغ وميل ، فالقرآن يشفي من ذلك كله . وهو أيضًا رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه ، وليس هذا إلا لمن آمن به ، وصدقه واتبعه فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة ، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعدًا وكفرًا والآفة من الكافر لا من القرآن . قال قتادة : إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ أي لا ينتفع به ، ولا يحفظه ، ولا يعيه فإن اللّه جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين .

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ .

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو إلا من عصمه اللّه تعالى في حالتي السراء والضراء ، فإنه إذا أنعم اللّه عليه بمال وعافية ، وفتح ورزق ونصر ونال ما يريد ، أعرض عن طاعة اللّه وعبادته ، ونأى بجانبه . قال مجاهد : بعد عنا ، قلت : وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ وبأنه إذا مسه الشر وهو المصائب ، والحوادث والنوائب ﴿ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾ أي قنط أن يعود ، ويحصل له بعد ذلك خير . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ . قال ابن عباس : على ناحيته . وقال مجاهد : على حدته وطبيعته . وقال قتادة : على نيته . وقال ابن زيد : دينه . وهذه الآية - واللّه أعلم - تهديد للمشركين ووعيد لهم . ولهذا قال : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ أي منا ومنكم ، وسيجزي كل عامل بعمله فإنه لا تخفى عليه خافية .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

عن عبد اللّه بن مسعود ﷺ قال : بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في حرث وهو متوكئ على عسيب إذ مر اليهود . فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ؟ فقال : ما رابكم إليه ، وقال بعضهم : لا يستقبلنكم بشيء تكرهونه ، فقالوا : سلوه فسألوه عن الروح فأمسك النبي ﷺ فلم يرد عليهم شيئًا فعلمت أنه يوحى إليه فقمت مقامي فلما نزل الوحي قال : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ الآية(2) . وهذا السياق يقتضي فيما يظهر بادي الرأي أن هذه الآية مدنية ، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة مع أن السورة كلها مكية ، وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٢٠) ومسلم في الجهاد (٨٤ ، ٨٧) .

(٢) أخرجه البخاري تفسير القرآن (٤٧٢١) والإمام أحمد في مسنده (٣٨٩/١) .

بالمدينة مرة ثانية ، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك ، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه .. وهي هذه الآية ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة ، ما رواه ابن عباس قال : قالت قريش ليهود : أعطونا شيئًا نسأل عنه هذا الرجل . فقالوا : سلوه عن الروح . فسألوه فنزلت : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . قالوا : أوتينا علمًا كثيرًا أوتينا التوراة ، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرًا كثيرًا . قال وأنزل الله : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ ﴾ الآية [1] . وعن عكرمة : قال : سأل أهل الكتاب رسول الله ﷺ عن الروح ، فأنزل الله : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ الآية ، فقالوا : تزعم أنا لم نؤت من العلم إلا قليلًا ، وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ قال : فنزلت : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ الآية . قال : ما أوتيتم من علم فنجاكم الله به من النار فهو كثير طيب ، وهو في علم الله قليل [2] .

وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح هاهنا على أقوال :

أحدها : أن المراد أرواح بني آدم . وقال ابن عباس : ذلك أن اليهود . قالوا للنبي ﷺ : أخبرنا عن الروح ، وكيف تعذب الروح التي في الجسد ، وإنما الروح من الله ، ولم يكن نزل عليه فيه شيء فلم يحر إليهم شيئًا . فأتاه جبريل فقال له : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . فأخبرهم النبي ﷺ بذلك . فقالوا : من جاءك بهذا ؟ قال : « جاءني به جبريل من عند الله » فقالوا له : والله ما قاله لك إلا عدونا فأنزل الله ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ .

وقيل : المراد بالروح هاهنا جبريل . قاله قتادة . قال : وكان ابن عباس يكتمه .

وقيل : المراد به هاهنا ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها ، قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : الروح ملك .

وقوله : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ أي من شأنه ، ومما استأثر بعلمه دونكم . ولهذا قال : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي وما أطلعكم من علمه إلا على القليل ، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى ، والمعنى : أن علمكم في علم الله قليل ، وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى ، ولم يطلعكم عليه كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى ، وقال السهيلي : قال بعض الناس لم يجبهم عما سألوا ؛ لأنهم سألوا على وجه التعنت ، وقيل : أجابهم . وعول السهيلي على أن المراد بقوله : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ أي من شرعه أي فادخلوا فيه ، وقد علمتم ذلك ؛ لأنه لا سبيل إلى معرفة هذا من طبع ولا فلسفة ، وإنما ينال من جهة الشرع ، وفي هذا المسلك الذي طرقه ، وسلكه نظر ، والله أعلم . ثم ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس ، أو غيرها وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء سارية في الجسد ، كسريان الماء في عروق الشجر . وقرر أن الروح التي ينفخها الملك في الجنين هي النفس بشرط اتصالها بالبدن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٢٥٥) . (٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٥/١٩٣) .

واكتسابها بسببه ، صفات مدح أو ذم فهي إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء ، قال : كما أن الماء هو حياة الشجر ، ثم يكسب بسبب اختلاطه معها اسمًا خاصًا فإذا اتصل بالعنبة ، وعصر منها صار ماء مصطارًا أو خمرًا ، ولا يقال له : ماء حينئذ إلا على سبيل المجاز ، وكذا لا يقال للنفس : روح إلا على هذا النحو وكذا لا يقال للروح : نفس إلا باعتبار ما تؤول إليه ، فحاصل ما نقول : إن الروح هي أصل النفس ومادتها ، والنفس مركبة منها ، ومن اتصالها بالبدن فهي هي من وجه لا من كل وجه ، وهو معنى حسن ، والله أعلم .

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ .

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم ﷺ ، فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . قال ابن مسعود رضي الله عنه : يطرق الناسَ ريحٌ حمراء - يعني في آخر الزمان - من قبل الشام فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية ، ثم قرأ ابن مسعود : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ الآية . ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم ، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله ، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه ، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا ، فإن هذا أمر لا يستطاع ، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له ، ولا مثال له ولا عديل له . وعن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في نفر من اليهود جاءوا رسول الله ﷺ فقالوا : إنا نأتيك بمثل ما جئتنا به فأنزل الله هذه الآية . وفي هذا نظر لأن السورة مكية وسياقها كله مع قريش ، واليهود إنما اجتمعوا به في المدينة ، فالله أعلم . وقوله : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ ﴾ الآية . أي بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة ، ووضحنا لهم الحق ، وشرحناه وبسطناه ومع هذا ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أي جحودًا للحق وردًا لصواب .

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ .

عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب ورجلًا من بني عبد الدار وأبا البختري أخا بني الأسد والأسود بن المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبي أمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، ونبيهًا ومنبهًا ابني الحجاج السهميين اجتمعوا - أو من اجتمع منهم - بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه ، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعًا وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء ، وكان عليهم حريصًا يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم حتى جلس إليهم ، فقالوا : يا محمد ! إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك ، وإنّا

والله ما نعلم رجلًا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين وسفهت الأحلام ، وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة ، فما بقي من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا ، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا ، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئيًا تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي - فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك . فقال رسول الله ﷺ : « مَا بِي مَا تَقُولُونَ ، مَا جِئْتُكُمْ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ أَطْلُبُ أَمْوَالَكُمْ ، وَلَا الشَّرَفَ فِيكُمْ ، وَلَا الْمُلْكَ عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنَّ اللَّه بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ رَسُولًا ، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَابًا ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ لَكُمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، فَبَلَّغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، فَإِنْ تَقْبَلُوا مِنِّي مَا جِئْتُكُمْ بِهِ ؛ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ ؛ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللَّه حَتَّى يَحْكُمَ اللَّه بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » . أو كما قال رسول الله ﷺ تسليمًا . فقالوا : يا محمد ، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك ، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلادًا ولا أقل مالًا ، ولا أشد عيشًا منا ، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به ، فليسيِّر عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فإنه كان شيخًا صدوقًا فنسألهم عما تقول حق هو أم باطل ؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك صدقناك ، وعرفنا به منزلتك عند الله ، وأنه بعثك رسولًا كما تقول : فقال لهم رسول الله ﷺ : « مَا بِهَذَا بُعِثْتُ ؛ إِنَّمَا جِئْتُكُم مِنْ عِنْدِ اللَّه بِمَا بَعَثَنِي بِه فَقَدْ بَلَّغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ، فَإِنْ تَقْبَلُوهُ ؛ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ ؛ أَصْبِرْ لأَمْرِ اللَّه حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » . قالوا : فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك فسل ربك أن يبعث ملكًا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وتسأله فيجعل لك جنات وكنوزًا وقصورًا من ذهب وفضة ، ويغنيك بها عما نراك تبتغي ؛ فإنك تقوم بالأسواق ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولًا كما تزعم . فقال لهم رسول الله ﷺ : « مَا أَنَا بِفَاعِلٍ ، مَا أَنَا بِالَّذِي يَسْأَلُ رَبَّهُ هَذَا ، وَمَا بُعِثْتُ إِلَيْكُم بِهَذا ، وَلَكِنَّ اللَّه بَعَثَنِي بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، فَإِنْ تَقْبَلُوا مَا جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللَّه حَتَّى يَحْكُم اللَّه بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » . قالوا : فأسقط السماء كما زعمت ، أن ربك إن شاء فعل ذلك ، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل . فقال لهم رسول الله ﷺ : « ذَلِكَ إِلَى اللَّه إِنْ شَاءَ فَعَلَ بِكُمْ ذَلِكَ » . فقالوا : يا محمد ؟ أما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ، ونطلب منك ما نطلب ، فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به ، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له : الرحمن ، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدًا فقد أعذرنا إليك يا محمد . أما والله لا نتركك ، وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا . وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله . وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلًا . فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال : يا محمد

عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك ، ثم سألوك أن تجعل لهم ما تخوفهم به من العذاب ، فوالله لا أؤمن بك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سلمًا ، ثم ترقى فيه ، وأنا أنظر حتى تأتيها ، وتأتي معك بصحيفة منشورة ، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك . ثم انصرف عن رسول الله ﷺ ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينًا أسفًا لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مباعدتهم إياه[1] .

وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشادًا لأجيبوا إليه ، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفرًا وعنادًا ، فقيل لرسول الله ﷺ : إن شئت أعطيناهم ما سألوا فإن كفروا عذبتهم عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين ، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة فقال : « بَلْ تَفْتَحُ عَلَيْهِمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ »[2] .

وقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ الينبوع : العين الجارية سألوه أن يجري لهم عينًا معينًا في أرض الحجاز هاهنا وهاهنا . وذلك سهل على الله تعالى يسير لو شاء لفعله ، ولأجابهم إلى جميع ما سألوا وطلبوا ، ولكن علم أنهم لا يهتدون . وقوله تعالى : ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾ أي أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء ، وتهي وتدلي أطرافها فعجل ذلك في الدنيا ، وأسقطها كسفًا أي قطعًا . كقولهم : ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ . الآية وكذلك سأل قوم شعيب منه . فقالوا : ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ، وأما نبي الرحمة ، ونبي التوبة المبعوث رحمة للعالمين ، فسأل إنظارهم وتأجيلهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئًا . وكذلك وقع فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه حتى عبد الله بن أبي أمية الذي تبع النبي ﷺ وقال له ما قال ، أسلم إسلامًا تامًّا ، وأناب إلى الله ﷻ .

وقوله تعالى : ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ قال ابن عباس وغيره : هو الذهب ، وكذلك هو في قراءة ابن مسعود - أو يكون لك بيت من ذهب - ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي تصعد في سلم ونحن ننظر إليك ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ قال مجاهد : أي مكتوب فيه إلى كل واحد صحيفة هذا كتاب من الله لفلان بن فلان تصبح موضوعة عند رأسه ، وقوله تعالى : ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي ﷻ وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه ، وملكوته بل هو الفعال لما يشاء إن شاء أجابكم إلى ما سألتم ، وإن شاء لم يجبكم ، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي ، وأنصح لكم ، وقد فعلت ذلك وأمركم فيما سألتم إلى الله ﷻ .

وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : « عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي ﷻ لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا فَقُلْتُ : لَا يَا رَبِّ وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا - أو نحو ذلك - فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ ، وَإِذَا

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٥/٢٠٤) .
(٢) أخرجه : البيهقي في السنن ٩/٨ .

شَبِعْتُ حَمِدْتُكَ وَشَكَرْتُكَ » (١) .

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ ﴾ أي أكثرهم ﴿ أَن يُؤْمِنُوٓاْ ﴾ ويتابعوا الرسل إلا استعجابهم من بعثه البشر رسلًا . وقالت الأمم لرسلهم : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ والآيات في هذا كثيرة ، ثم قال تعالى منبهًا على لطفه ورحمته بعباده : أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا عنه ويفهموا منه لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته ، ولو بعث إلى البشر رسولًا من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ ولهذا قال هاهنا : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ أي كما أنتم فيها ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ أي من جنسهم . ولما كنتم أنتم بشرًا بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفًا ورحمة .

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ .

يقول تعالى مرشدًا نبيه ﷺ إلى الحجة على قومه في صدق ما جاءهم به إنه شاهد عليّ وعليكم ، عالم بما جئتكم به فلو كنت كاذبًا عليه لانتقم مني أشد الانتقام . وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ أي عليمًا بهم بمن يستحق الإنعام والإحسان ، والهداية ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاغة ولهذا قال :

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ .

يقول تعالى : مخبرًا عن تصرفه في خلقه ونفوذ حكمه ، وأنه لا معقب له بأنه من يهده فلا مضل له ، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه أي يهدونهم . وقوله : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ عن أنس بن مالك . قال : قيل : يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ قال : « الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ » (٢) . وعن حذيفة بن أسد قال : قام أبو ذر فقال : يا بني غفار . قولوا ولا تحلفوا فإن الصادق المصدوق حدثني ، أن الناس يحشرون على ثلاثة أفواج ، فوج راكبين طاعمين كاسين ، وفوج يمشون ويسعون ، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم إلى النار ، فقال قائل منهم : هذان قد عرفناهما فما بال الذين يمشون ويسعون ؟ قال : « يُلْقِي اللَّهُ ﷻ الآفَةَ عَلَى الظَّهْرِ حَتَّى لاَ يَبْقَى ظَهْرٌ ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَتَكُونُ لَهُ الحَدِيقَةُ المُعْجِبَةُ فَيُعْطِيهَا بِالشَّارِفِ ذَاتِ القَتَبِ فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا » (٣) . وقوله : ﴿ عُمْيًا ﴾ أي لا يبصرون ، ﴿ وَبُكْمًا ﴾ يعني لا ينطقون ، ﴿ وَصُمًّا ﴾ لا يسمعون ، وهذا يكون في حال دون حال جزاء لهم كما كانوا في

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٢٥٤) والترمذي في السنن (٢٣٤٧) والطبراني في الكبير (٨/٢٤٥) .
(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٦٠) ومسلم في المنافقين (٥٤) الإمام أحمد في مسنده (٢/٣٥٤ ، ٣٦٣) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/١٦٥) .

الدنيا بكمًا وعميًا وصمًا عن الحق فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه . ﴿ مَّأْوَىٰهُمْ ﴾ أي منقلبهم ومصيرهم ﴿ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ . قال ابن عباس : سكنت ، وقال مجاهد : طفئت . ﴿ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ أي لهبًا ووهجًا وجمرًا .

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ .

يقول تعالى هذا الذي جازيناهم به من البعث على العمي والبكم والصمم ، جزاؤهم الذي يستحقونه ؛ لأنهم كذبوا ﴿ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي بأدلتنا وحجتنا ، واستبعدوا وقوع البعث . ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا ﴾ أي بالية نخرة ﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ أي بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك والتفرق والذهاب في الأرض نعاد مرة ثانية ؟ فاحتج تعالى عليهم ونبههم على قدرته على ذلك ، بأنه خلق السماوات والأرض فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك كما قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ الآية . وقال هاهنا : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ أي يوم القيامة يعيد أبدانهم ، وينشئهم نشأة أخرى كما بدأهم ، وقوله : ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلًا مضروبًا ، ومدة مقدرة لابد من انقضائها وقوله : ﴿ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي بعد قيام الحجة عليهم ﴿ إِلَّا كُفُورًا ﴾ إلا تماديًا في باطلهم وضلالهم .

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ .

يقول تعالى لرسوله صلوات اللّه وسلامه عليه : قل لهم يا محمد ، لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن اللّه لأمسكتم خشية الإنفاق . قال ابن عباس وقتادة : أي الفقر أي خشية أن تذهبوها مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبدًا ؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ . قال ابن عباس وقتادة : أي بخيلًا منوعًا ، وقال اللّه تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾ أي لو أن لهم نصيبًا في ملك اللّه لما أعطوا أحدًا شيئًا ، ولا مقدار نقير ، واللّه تعالى يصف الإنسان من حيث هو إلا من وفقه اللّه وهداه ، فإن البخل والجزع والهلع صفة له . وقد جاء في الحديث « يَدُ اللّه مَلأَى لا يُغِيضُهَا نَفَقَة سحاء اللَّيْل والنَّهار أَرأَيْتُم مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يغضْ مَا فِي يَمِينِهِ » (١) .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ .

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات ، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون ، وهي العصا واليد ، والسنين والبحر ، والطوفان والجراد ،

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٨٤) ومسلم في الزكاة (٣٦) والإمام أحمد في مسنده (٢/٣١٣ ، ٥٠٠) .

والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات . قاله ابن عباس . وقال محمد بن كعب : هي اليد والعصا والخمس في الأعراف والطَّمْسَة والحجر ، وقال ابن عباس أيضًا ومجاهد وعكرمة وغيرهم : هي يده وعصاه والسنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد ، والقمل والضفادع والدم . وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي ، وجعل الحسن البصري السنين ونقص الثمرات واحدة ، وعنده أن التاسعة هي تلقف العصا ما يأفكون ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ . أي ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها كفروا بها وجحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًّا وما نجعت فيهم ، فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا ، وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعًا إلى آخرها ، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله . كما قال فرعون لموسى : وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات : ﴿ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ . قيل : بمعنى ساحر والله تعالى أعلم . فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المرادة هاهنا ، وهي المعنية في قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ ﴾ إلى قوله ﴿ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ . فذكر هاتين الآيتين العصا واليد ، وبين الآيات الباقيات في سورة الأعراف وفصَّلها . وقد أوتي موسى عليه السلام آيات أخرى كثيرة منها : ضربه الحجر والعصا وخروج الماء منه ، ومنها تظليلهم بالغمام ، وإنزال المن والسلوى ، وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر ، ولكن ذكر هاهنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر ، فكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفرًا وجحودًا ولهذا قال موسى لفرعون : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ ، أي حججًا وأدلة على صدق ما جئتك به . ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ . أي هالكًا ، قاله مجاهد وقتادة . وقال ابن عباس : ملعونًا . وقال أيضًا هو والضحاك : ﴿ مَثْبُورًا ﴾ أي مغلوبًا والهالك - كما قال مجاهد - يشمل هذا كله .

وقرأ بعضهم برفع التاء من قوله : ﴿ عَلِمتُ ﴾ [1] وروي ذلك عن علي بن أبي طالب ، ولكن قراءة الجمهور بفتح التاء على الخطاب لفرعون . والمراد بالتسع الآيات إنما هي ما تقدم ذكره من العصا ، واليد ، والسنين ، ونقص من الثمرات ، والطوفان والجراد ، والقمل والضفادع ، والدم التي فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه ، وخوارق ودلائل على صدق موسى ، ووجود الفاعل المختار الذي أرسله . وقوله : ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي يخليهم منها ويزيلهم عنها . ﴿ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾ . وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة ، مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة وكذلك وقع . فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها كما قال تعالى : ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ الآيتين . ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها عنوة على أشهر القولين ، وقهر أهلها ، ثم أطلقهم حلمًا وكرمًا . كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها ، وأورثهم بلاد فرعون ، وأموالهم وثمارهم وكنوزهم ، كما قال : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ وقال هاهنا : ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ . أي

(١) قرأها الكسائي بضم التاء والباقون بفتحها .(تقريب النشر ١٣٥) .

جميعكم أنتم وعدوكم . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك : لفيفًا أي جميعًا .

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن كتابه العزيز وهو القرآن المجيد : إنه بالحق نزل أي متضمنًا للحق كما قال تعالى : ﴿ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ ، أي متضمنًا علم الله الذي أراد أن يطلعكم عليه من أحكامه ، وأمره ونهيه وقوله : ﴿ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ ، أي ونزل إليك يا محمد محفوظًا محروسًا لم يشب بغيره ، ولا زيد فيه ولا نقص منه ، بل وصل إليك بالحق ، فإنه نزل به شديد القوى الأمين المكين المطاع في الملأ الأعلى . وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ ﴾ أي يا محمد ﴿ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ، مبشرًا لمن أطاعك من المؤمنين ، ونذيرًا لمن عصاك من الكافرين . وقوله : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ ﴾ أما قراءة من قرأ بالتخفيف ، فمعناه فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا . ثم نزل مفرقًا منجمًا على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة . قاله عكرمة عن ابن عباس : وعن ابن عباس أيضًا أنه قرأ ﴿ فرّقناه ﴾ [١] بالتشديد أي أنزلناه آية آية مبينًا مفسرًا ، ولهذا قال : ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ ﴾ أي لتبلغه الناس وتتلوه عليهم أي ﴿ عَلَى مُكْثٍ ﴾ أي مهل ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴾ أي شيئًا من بعد شيء .

﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ .

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم ، ﴿ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ﴾ أي سواء آمنتم به أم لا فهو حق في نفسه أنزله الله ، ونوه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله . ولهذا قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ ﴾ أي من صالحي أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم ، ويقيمونه ولم يبدلوه ولا حرفوه . ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ هذا القرآن ، ﴿ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ ﴾ جمع ذقن ، وهو أسفل الوجه ﴿ سُجَّدًا ﴾ أي لله ﷻ شكرًا على ما أنعم به عليهم من جعله إياهم أهلًا إن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب . ولهذا يقولون : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا ﴾ أي تعظيمًا وتوقيرًا على قدرته التامة ، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين عن بعثه محمد ﷺ . ولهذا قال : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ أي خضوعًا لله ﷻ وإيمانًا وتصديقًا بكتابه ورسوله ، ﴿ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ أي إيمانًا وتسليمًا .

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ .

يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله ﷻ ، المانعين من تسميته بالرحمن ﴿ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ أي لا فرق بين دعائكم له باسم الله

---

(١) قرأها الجمهور بالتخفيف وقرأها بالتشديد علي وسعد بن أبي وقاص وأبي بن كعب وابن مسعود وابن عباس وأبو رزين ومجاهد والشعبي وقتادة والأعرج وأبو محيصن . زاد المسير ٩٦/٥ .

أو باسم الرحمن فإنه ذو الأسماء الحسنى ، وقد روى مكحول وابن عباس أن رجلًا من المشركين سمع النبي ﷺ يقول وهو يقول في سجوده : « يَا رَحْمَنُ يَا رَحِيمُ » فقال : إنه يزعم أنه يدعو واحدًا ، وهو يدعو اثنين فأنزل الله هذه الآية [١] ، وقوله : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ الآية . وعن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية ورسوله الله ﷺ متوار بمكة . ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ . قال : كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ، وسبوا من أنزله ، ومن جاء به قال : فقال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبو القرآن ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ، ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ [٢] . وعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا جهر بالقرآن وهو يصلي تفرقوا عنه وأبوا أن يسمعوا منه ، وكان الرجل إذا أراد أن يسمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو وهو يصلي استرق السمع دونهم فرقًا منهم ، فإذا رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم فلم يسمع . فإن خفض صوته ﷺ لم يسمع الذين يستمعون من قراءته شيئًا فأنزل الله : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ فيتفرقوا عنك ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ ، فلا يسمع من أراد أن يسمع ممن يسترق ذلك منهم فلعله يرعوي إلى بعض ما يسمع فينتفع به ، ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ وعن هلال عن ابن مسعود قال : ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ من أسمع أذنيه ، قال محمد بن سيرين : نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته ، وأن عمر كان يرفع صوته فقيل لأبي بكر : لم تصنع هذا؟ قال : أناجي ربي ﷻ وقد علم حاجتي ، فقيل : أحسنت . وقيل لعمر : لم تصنع هذا ؟ قال : أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان ، قيل : أحسنت . فلما نزلت : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ قيل لأبي بكر : ارفع شيئًا ، وقيل لعمر اخفض شيئًا [٣] .

وعن ابن عباس ، عن عائشة رضي الله عنها أنها نزلت في الدعاء .

وعنها رضي الله عنها : نزلت هذه الآية في التشهد [٤] .

وعن ابن عباس فيها قال : لا تصل مراءاة للناس ، ولا تدعها مخافة الناس .

وعن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ قال : أهل الكتاب يخافتون ، ثم يجهر أحدهم بالحرف فيصيح به ، ويصيحون هم به وراءه . فنهاه أن يصيح كما يصيح هؤلاء ، وأن يخافت كما يخافت القوم ، ثم كان السبيل الذي بين ذلك الذي سن له جبريل من الصلاة .

وقوله : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى نزه نفسه عن النقائص فقال : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ ، بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد . ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ﴾ أي ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له ولي أو وزير أو مشير ، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٢٧/١٥) .
(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٢٢) ومسلم في الصلاة (١٤٥ ، ١٤٦) والإمام أحمد في مسنده (٢٣/١) .
(٣) ذكره الطبري في تفسيره (٢٣٢/١٥) . (٤) ذكره الطبري في تفسيره (٢٣٢/١٥) .

له ، ومدبرها ومقدرها بمشيئته وحده لا شريك له ، قال مجاهد في قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ : لم يحالف أحدًا ولم يبتغ نصر أحد ، ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ أي عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علوًّا كبيرًا . وقال قتادة : ذكر لنا أن النبي ﷺ كان يعلم أهله هذه الآية ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ الآية ، الصغير من أهله والكبير [1] . قلت : وقد جاء في حديث أن رسول الله ﷺ سمى هذه الآية آية العز ، وفي بعض الآثار أنها ما قرئت في بيت في ليلة فيصيبه سرق أو آفة والله أعلم .

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٥/٢٣٥) .

سورة الكهف

ذكر ما ورد في فضلها والعشر الآيات من أولها وآخرها وأنها عصمة من الدجال

روي عن البراء قال : قرأ رجل الكهف وفي الدار دابة ، فجعلت تنفر فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيته فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « اقْرَأْ فُلَانُ فَإِنَّهَا السَّكِينَةُ تَنْزِلُ عِنْدَ القُرْآنِ أَوْ تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآنِ » (١) . وهذا الرجل الذي كان يتلوها هو أسيد بن الحضير ، كما تقدم في تفسير سورة البقرة . وروي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ » (٢) .

وعنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَنْ قَرَأَ العَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ سُورَةِ الكَهْفِ ، عُصِمَ مِنْ فتنةِ الدجال » (٣) .

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الكَهْفِ فِي يَوْمِ الجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجُمُعَتَيْنِ » (٤) ، وورد عنه ﷺ قال : « مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الكَهْفِ كَمَا نَزَلَتْ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ القِيَامَةِ » (٥) .

وورد عن علي مرفوعًا : من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة ، وإن خرج الدجال عصم منه .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ① قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ② مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ③ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ④ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ .

قد تقدم في أول التفسير أنه تعالى يحمد نفسه المقدسة عند فواتح الأمور وخواتمها ، فإنه المحمود على كل حال ، وله الحمد في الأولى والآخرة ، ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض ، إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور ، حيث جعله كتابًا مستقيمًا لا اعوجاج فيه ولا زيغ ، بل يهدي إلى صراط مستقيم ، واضحًا بينًا جليًا نذيرًا للكافرين بشيرًا للمؤمنين . ولهذا قال : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾ أي لم يجعل فيه اعوجاجًا ولا زيغًا ولا ميلًا ، بل جعله معتدلًا مستقيمًا ؛ ولهذا قال : ﴿ قَيِّمًا ﴾ أي مستقيمًا ، ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴾ أي لمن خالفه وكذبه ، ولم يؤمن به وينذره بأسًا شديدًا عقوبة عاجلة في الدنيا وآجلة في الآخرى ﴿ مِّن لَّدُنْهُ ﴾ أي من عند الله الذي لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد ، ﴿ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي بهذا القرآن الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿ أَنَّ

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠١١) ومسلم في صلاة المسافرين (٢٤١) والإمام أحمد في مسنده (٢٨٤/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٥٧) والإمام أحمد في مسنده (٤٤٩/٦) وأبو داود في سننه (٤٣٢٣) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٤٦/٦) .

(٤) أخرجه البيهقي في سننه (٢٤٩/٣) .

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٦٤/١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٠٩/٤) .

﴿ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ أي مثوبة عند الله جميلة ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ ﴾ في ثوابهم عند الله ، وهو الجنة خالدين فيه ﴿ أَبَدًا ﴾ ، دائمًا لا زوال له ولا انقضاء . وقوله : ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ قال ابن إسحاق : وهم مشركو العرب في قولهم نحن نعبد الملائكة وهم بنات الله . ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي بهذا القول الذي افتروه وائتفكوه ، ﴿ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ﴾ أي لأسلافهم ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ نصب على التمييز تقديره كبرت كلمتهم هذه . وقيل : على التعجب تقديره أعظم بكلمتهم كلمة . وقرأ ذلك بعض قراء مكة - كبرت كلمةٌ [1] - كما يقال : عظم قولك وكبر شأنك ، والمعنى على قراءة الجمهور أظهر ، فإن هذا تبشيع لمقالتهم ، واستعظام لإفكهم ولهذا قال : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ أي ليس لها مستند سوى قولهم ، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم . ولهذا قال : ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ . وفي سبب نزول هذه السورة الكريمة قال ابن عباس : بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة ، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء . فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ، ووصفوا لهم أمره ، وبعض قوله ، وقالا : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، قال : فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإلا فرجل متقول فتروا فيه رأيكم ، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم ، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح ما هو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه ، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول ، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم . فأقبل النضر وعقبة حتى قدما قريش فقالا : يا معشر قريش جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد أخبرنا فسألوه عما أمروهم به ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « أُخْبِرُكُمْ غَدًا عَمَّا سَأَلْتُمْ عَنْهُ » . ولم يستثن فانصرفوا عنه ، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحيًا ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام ، حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غدًا واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه ، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطواف وقول الله عز وجل : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ ﴾ الآية [2] .

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ .

يقول تعالى مسليًا لرسوله في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان ، وبعدهم عنه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ ، يعني القرآن ﴿ أَسَفًا ﴾ يقول : لا تهلك نفسك أسفًا ، قال قتادة : قاتل نفسك غضبًا وحزنًا عليهم ، وقال مجاهد : جزعًا والمعنى متقارب ، أي لا

(١) قرأها الجمهور على النصب وقرأ ابن مسعود والحسن ومجاهد وأبو زين وغيرهم على الرفع . زاد المسير (٥/١٠٤) .
(٢) انظر سيرة ابن هشام ١/٣٢١ - ٣٣٠

تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا دارًا فانية مزينة بزينة زائلة ، وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار فقال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ . عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ مَاذَا تَعْمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا ، واتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ »(١) . ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها ، وفراغها وانقضائها ، وذهابها وخرابها . فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ أي وإنا لمصيّروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار ، فنجعل كل شيء عليها هالكًا ﴿ صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ لا ينبت ولا يتنفع به . كما قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ : يهلك كل شيء عليها ويبيد . وقال مجاهد : ﴿ صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ بلقعًا ، وقال قتادة : الصعيد الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات . وقال محمد بن إسحاق : ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ يعني الأرض ، وإن ما عليها لفان وبائد . وإن المرجع لإلى الله ، فلا تأس ولا يحزنك ما تسمع وترى .

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾ .

يقول الله ﷻ : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ يعني يا محمد ، ﴿ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ أي ليس أمرهم عجيبًا في قدرتنا وسلطاننا ، فإن خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار وغير ذلك من الآيات العظيمة ، الدالة على قدرة الله تعالى ، وأنه على ما يشاء قادر ، ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف . كما قال مجاهد : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ يقول : قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك ، وقال ابن عباس : الذي آتيتك من العلم والسنة ، والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم ، وقال محمد بن إسحاق : ما أظهرت من حججي على العباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم ، وأما الكهف فهو الغار في الجبل وهو الذي لجأ إليه الفتية المذكورون . وأما الرقيم فقال ابن عباس : هو واد قريب من أيلة . وقال الضحاك : أما الكهف فهو غار الوادي والرقيم اسم الوادي . وقال مجاهد : الرقيم كتاب بنيانهم . ويقول بعضهم : هو الوادي الذي فيه كهفهم . وقال ابن عباس : الرقيم : الجبل الذي فيه الكهف وقال سعيد بن جبير : الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ، ثم وضعوه على باب الكهف ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الرقيم الكتاب ، ثم قرأ : ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴾ وهذا هو الظاهر من الآية ، وهو اختيار ابن جرير(٢) . قال : الرقيم : فعيل بمعنى مرقوم ، كما يقال للمقتول : قتيل ، وللمجروح جريح والله أعلم .

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٩٩) والإمام أحمد في مسنده (٣٤٦/٦) والترمذي في سننه (٢١٩١) .
(٢) تفسير الطبري (٢٤٩/١٥) .

وقوله : ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ يخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم ، لئلا يفتنوهم عنه ، فهربوا منهم فلجؤوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم ، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ أي هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها ، وتسترنا عن قومنا ، ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ أي وقدر لنا من أمرنا هذا رشدًا ، أي اجعل عاقبتنا رشدًا . وقوله : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ ، أي ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف ، فناموا سنين كثيرة ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾ أي من رقدتهم تلك ، وخرج أحدهم بدراهم معه ليشتري لهم بها طعامًا يأكلونه ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ ﴾ أي المختلفين فيهم ، ﴿ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾ قيل : عددًا . وقيل : غاية فإن الأمد الغاية كقوله : سبق الجواد إذا استولى على الأمد .

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ .

من هنا شرع في بسط القصة وشرحها ، فذكر تعالى أنهم فتية وهم الشباب ، وهم أقبل للحق ، وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل ، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شبابًا ، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ، ولم يسلم منهم إلا القليل . وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شبابًا . وقال مجاهد : بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطة . يعني الحلق فألهمهم الله رشدهم ، وآتاهم تقواهم فآمنوا بربهم أي اعترفوا له بالوحدانية ، وشهدوا أنه لا إله إلا هو ﴿ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ استدل بهذه الآية وأمثالها على زيادة الإيمان وتفاضله ، وأنه يزيد وينقص ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ كما قال : ﴿ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك . وقد ذكر أنهم كانوا على دين المسيح ابن مريم فالله أعلم . والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية ؛ فإنهم لو كانوا على دين النصرانية ، لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم لمباينتهم لهم وقد تقدم عن ابن عباس أن قريشًا بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء ، وعن خبر ذي القرنين ، وعن الروح ؛ فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب ، وأنه متقدم على دين النصرانية ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يقول تعالى : وصبَّرناهم على مخالفة قومهم ، ومدينتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد ، والسعادة والنعمة ، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف ، أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم ، وسادتهم وأنهم خرجوا يومًا في بعض أعياد قومهم ، وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد ، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت ويذبحون لها ، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له دقيانوس ،

وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ، ويدعوهم إليه ، فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك ، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم ، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم ، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا للّه الذي خلق السماوات والأرض ، فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه ، وينحاز منهم ويتبرز عنهم ناحية ، فكان أول من جلس منهم وحده أحدهم جلس تحت ظل الشجرة ، فجاء الآخر فجلس إليها عنده ، وجاءالآخر فجلس إليهما ، وجاء الآخر فجلس إليهم ، وجاء الآخر وجاء الآخر ، ولا يعرف واحد منهم الآخر ، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان ، كما جاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول اللّه ﷺ : « الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ » (١).

والناس يقولون : الجنسية علة الضم . والغرض أنه جعل كل أحد منهم يكتم ما هو عليه عن أصحابه خوفًا منهم ، ولا يدري أنهم مثله حتى قال أحدهم : تعلمون واللّه يا قوم إنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيء فليظهر كل واحد منكم بأمره . فقال آخر : أما أنا فإني واللّه رأيت ما قومي عليه ، فعرفت أنه باطل ، وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيء هو اللّه ، الذي خلق السموات والأرض وما بينهما . وقال الآخر : وأنا واللّه وقع لي كذلك . وقال الآخر كذلك . حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة فصاروا يدًا واحدة ، وإخوان صدق . فاتخذوا لهم معبدًا يعبدون اللّه فيه فعرف بهم قومهم ، فوشوا بأمرهم إلى ملكهم فاستحضرهم بين يديه ، فسألهم عن أمرهم وما هم عليه ، فأجابوه بالحق ودعوه إلى اللّه عز وجل . ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ﴾ ولن لنفي التأبيد . أي لا يقع منا هذا أبدًا ؛ لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلًا . ولهذا قال عنهم : ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ أي باطلًا وكذبًا وبهتانًا ، ﴿ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ أي هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلًا واضحًا صحيحًا ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ يقولون : بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك .

فيقال : إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان باللّه أبى عليهم ، وتهددهم وتوعدهم ، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم ، وأجلهم لينظروا في أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم الذي كانوا عليه ، وكان هذا من لطف اللّه بهم ، فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة . وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس أن يفر العبد منهم خوفًا على دينه ، كما جاء في الحديث : « يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ أَحَدِكُمْ غَنَمًا يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ ، وَمَوَاقِعَ القَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ » (٢) . ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس ، ولا تشرع فيما عداها ؛ لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع . فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم ، واختار اللّه تعالى لهم ذلك ، وأخبر عنهم بذلك في قوله : ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ أي وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير اللّه ، ففارقوهم أيضًا بأبدانكم . ﴿ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٣٦) ومسلم في البر والصلة (١٥٩ ، ١٦٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (١٩) والإمام أحمد في مسنده (٦/٣) وأبو داود في سننه (٤٢٦٧) .

﴿ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ أي يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم ﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم ﴾ الذي أنتم فيه ﴿ مِّرْفَقًا ﴾ أي أمرًا ترتفقون به فعند ذلك خرجوا هربًا إلى الكهف فأووا إليه ، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم وتطلبهم الملك . فيقال : إنه لم يظفر بهم ، وعمَّى اللّه عليه خبرهم كما فعل بنبيه محمد ﷺ وصاحبه الصديق ، حين لجأ إلى غار ثور .

﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ .

فهذا فيه دليل على أن باب هذا الكهف كان من نحو الشمال ؛ لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي يتقلص الفيء يمنة . كما قال ابن عباس ﴿ تَّزَٰوَرُ ﴾ أي تميل[1] ، وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها ، حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ أي تدخل إلى غارهم من شمال بابه ، وهو من ناحية المشرق . فدل على صحة ما قلناه ، وهذا بين لمن تأمله ، وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب ، وبيانه أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب ، ولو كان من ناحية القبلة لما دخل منها شيء عند الطلوع ، ولا عند الغروب ، ولا تزاور الفيء يمينًا ولا شمالًا ، ولو كان من جهة الغرب ، لما دخلته وقت الطلوع ، بل بعد الزوال ، ولم تزل فيه إلى الغروب فتعين ما ذكرناه وللّه الحمد . وقال ابن عباس وغيره : ﴿ تَّقْرِضُهُمْ ﴾ : تتركهم . وقد أخبر اللّه تعالى بذلك ، وأراد منا فهمه وتدبره . ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض ؛ إذ لا فائدة لنا فيه ، ولا قصد شرعي .

وقال : ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ﴾ قال ابن زيد بن أسلم : تميل ، ﴿ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ﴾ أي في متسع منه داخلًا بحيث لا تصيبهم ؛ إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم ، قاله ابن عباس : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء ، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ثم قال : ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾ الآية أي هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم ، فإنه من هداه اللّه اهتدى ، ومن أضله فلا هادي له .

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ .

ذكر بعض أهل العلم ، أنهم لما ضرب اللّه على آذانهم بالنوم لم تنطبق أعينهم ، لئلا يسرع إليها البلى .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ قال بعض السلف : يقلبون في العام مرتين . قال ابن عباس : لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض . وقوله : ﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ ﴾ قال ابن عباس وغيره : الوصيد الفناء ، وعنه أيضًا : بالباب . وقيل : بالصعيد - وهو التراب - والصحيح أنه بالفناء ، وهو الباب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ قال ابن جريج : يحرس عليهم الباب ،

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٦٣/١٥) .

وهذا من سجيته وطبيعته ، حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم ، وكان جلوسه خارج الباب ؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب - كما ورد في الصحيح - ولا صورة ولا جنب ولا كافر [(١)] .

وشملت كلبهم بركتهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال ، وهذا فائدة صحبة الأخيار ؛ فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن . وقوله تعالى : ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ . أي أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم لما ألبسوا من المهابة والذعر ، لئلا يدنو منهم أحد ، ولا تمسهم يد لامس حتى يبلغ الكتاب أجله ، وتنقضي رقدتهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم لما في ذلك من الحكمة والحجة البالغة ، والرحمة الواسعة .

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ .

يقول تعالى : كما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم ، لم يفقدوا من أحوالهم وهيئاتهم شيئًا ، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين ؛ ولهذا تساءلوا بينهم : ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ أي كم رقدتم ، ﴿ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ ؛ لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار واستيقاظهم في آخر نهار ، ولهذا استدركوا فقالوا : ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ أي الله أعلم بأمركم ، وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم فالله أعلم . ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك ، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب فقالوا : ﴿ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ ﴾ .

أي فضتكم هذه وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها فتصدقوا منها وبقي منها ، فلهذا قالوا : ﴿ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ أي مدينتكم التي خرجتم منها ، والألف واللام للعهد ، ﴿ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾ أي أطيب . ومنه الزكاة التي تطيب المال وتطهره ، وقيل : أكثر طعامًا .

والصحيح الأول ؛ لأن مقصودهم إنما هو الطيب الحلال سواء كان كثيرًا أو قليلًا وقوله : ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أي في خروجه وذهابه وشرائه وإيابه ، يقولون : وليختف كل ما يقدر عليه ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ ﴾ أي : ولا يعلمن ﴿ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ ﴾ أي إن علموا بمكانكم ﴿ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ ﴾ يعنون أصحاب دقيانوس يخافون منهم أن يطلعوا على مكانكم ، فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها أو يموتوا ، وإن وافقتموهم على العود في الدين ، فلا فلاح لكم في الدنيا ، ولا في الآخرة ، ولهذا قال : ﴿ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي أطلعنا عليهم الناس ، ﴿ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ

(١) أخرجه البخاري في (بدء الخلق) (٣٣٢٢) ومسلم بنحوه في (اللباس) (٨١ - ٨٤) ومسند الإمام أحمد (٨٠/١) .

ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾ ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث ، وفي أمر القيامة فبعث اللّه أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك .

وذكروا أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة في شراء شيء لهم ليأكلوه تنكر وخرج يمشي في غير الجادة حتى انتهى إلى المدينة ، وهو يظن أنه قريب العهد بها ، وكان الناس قد تبدلوا قرنًا بعد قرن ، وجيلًا بعد جيل وتغيرت البلاد ومن عليها .

فجعل لا يرى شيئًا من معالم البلد التي يعرفها ، ولا يعرف أحدًا من أهلها فجعل يتحير في نفسه ويقول : لعل بي جنونًا ، وإن عهدي بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة ، ثم قال : إن تعجيل الخروج من هاهنا لأولى لي ، ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام فدفع إليه ما معه من النفقة ، وسأله أن يبيعه بها طعامًا ، فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضربها ، فدفعها إلى جاره وجعلوا يتداولونها بينهم ، ويقولون : لعل هذا وجد كنزًا ، فسألوه عن أمره ومن أين له هذه النفقة لعله وجدها من كنز وممن أنت ؟ فجعل يقول : أنا من أهل هذه البلدة ، وعهدي بها عشية أمس ، وفيها دقيانوس ، فنسبوه إلى الجنون ، فحملوه إلى ولي أمرهم فسأله عن شأنه ، وخبره حتى أخبرهم بأمره ، وهو متحير في حاله وما هو فيه ، فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف - ملك البلد وأهلها - حتى انتهى بهم إلى الكهف ، فقال لهم : دعوني حتى أتقدمكم في الدخول لأعلم أصحابي فدخل، فيقال : إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه ، وأخفى اللّه عليهم خبرهم ، ويقال : بل دخلوا عليهم ورأوهم ، وسلم عليهم الملك واعتنقهم ، وكان مسلمًا فيما قيل واسمه يندوسيس ، ففرحوا به وآنسوه بالكلام ، ثم ودعوه وسلموا عليه وعادوا إلى مضاجعهم ، وتوفاهم اللّه ﷻ واللّه أعلم .

قوله : ﴿ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ أي في أمر القيامة ، فمن مثبت لها ومن منكر ، فجعل اللّه ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم ، ﴿ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ أي سدوا عليهم باب كهفهم وذروهم على حالهم ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين : أحدهما : أنهم المسلمون منهم ، والثاني : أهل الشرك منهم ، فاللّه أعلم [١] . والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ ، ولكن هل هم محمودون أم لا ؟ فيه نظر ؛ لأن النبي ﷺ قال : « لعن اللّه اليهود والنصارى ؛ اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد » [٢] يحذر ما فعلوا ، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أنه لما وجد قبر دانيال في زمانه بالعراق أمر أن يخفى عن الناس ، وأن تدفن تلك الرقعة التي وجدوها عنده فيها شيء من الملاحم وغيرها .

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف فحكى ثلاثة أقوال ، فدل على

---

(١) تفسير الطبري (١٥/٢٨١) .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٣٠ ، ١٣٩٠) ومسلم في المساجد (١٩ ، ٢١) .

أنه لا قائل برابع ، ولما ضعف القولين الأولين بقوله : ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ أي قولًا بلا علم كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه ، فإنه لا يكاد يصيب ، وإن أصاب فبلا قصد . ثم حكى الثالث ، وسكت عليه أو قرره بقوله : ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ فدل على صحته ، ولأنه هو الواقع في نفس الأمر ، وقوله : ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى اللّه تعالى ، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم ، لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا به وإلا وقفنا . وقوله : ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أي من الناس . قال ابن عباس : أنا من القليل الذي استثنى اللّه ﷿ كانوا سبعة .

وقد قال تعالى : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ أي سهلًا هينًا ، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة ، ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أي فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجمًا بالغيب . أي من غير استناد إلى كلام معصوم . وقد جاءك اللّه يا محمد بالحق الذي لا شك فيه ، ولا مرية فيه فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال .

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ .

هذا إرشاد من اللّه تعالى لرسول اللّه ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة اللّه ﷿ علام الغيوب الذي يعلم ما كان ، وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وعن أبي هريرة عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ ﵉ : لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً - وفي رواية تسعين امرأة ، وفي رواية مائة امرأة - تَلِدُ كُلُّ امرأةٍ مِنْهُنَّ غُلَامًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّه فَقِيلَ لَهُ : - وفي رواية قال له الملك - قُلْ : إِنْ شَاءَ اللَّه فَلَمْ يَقُلْ ، فَطَافَ بِهِنَّ فَلَمْ يَلِدْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ نِصْفَ إِنْسَانٍ ، فَقَالَ رسولُ اللّه ﷺ : « والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ قَالَ : إِنْ شَاءَ اللَّه لَمْ يَحْنَثْ وَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ » وفي رواية « وَلَقَاتَلُوا فِي سَبِيلَ اللَّه فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ » (١) وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول النبي ﷺ ، لما سئل عن قصة أصحاب الكهف « غَدًا أُجِيبُكُمْ » فتأخر الوحي خمسة عشر يومًا ، وقوله : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ قيل : معناه إذا نسيت الاستثناء ، فاستثن عند ذكرك له ، وعن ابن عباس في الرجل يحلف قال : له أن يستثني ولو إلى سنة ، ومعنى قوله أنه يستثني ، ولو بعد سنة أي إذا نسي أن يقول في حلفه أو في كلامه إن شاء اللّه ، وذكر ولو بعد سنة ، فالسنة له أن يقول ذلك ليكون آتيًا بسنة الاستثناء ، حتى ولو كان بعد الحنث ، قاله ابن جرير ﵀ . ونص على ذلك لا أن يكون رافعًا لحنث اليمين ، ومسقطًا للكفارة ، وهذا الذي قاله ابن جرير ﵀ هو الصحيح ، وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه واللّه أعلم . وقال عكرمة : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ إذا غضبت .

وروي أيضًا عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ الاستثناء فاستثن إذا ذكرت ، وقال : هي خاصة برسول اللّه ﷺ وليس لأحد منا أن يستثني إلا في صلة من يمينه ، ثم قال : انفرد به الوليد عن عبد العزيز بن الحصين ، ويحتمل في الآية وجه آخر ، وهو أن يكون اللّه تعالى قد أرشد

(١) أخرجه البخاري في كفارات الأيمان (٦٧٢٠) ومسلم في (الأيمان) (٢٣) بلفظ « تسعين امرأة » .

من نسي الشيء في كلامه إلى ذكر الله تعالى ؛ لأن النسيان منشؤه من الشيطان ، كما قال فتى موسى : ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ وذكر الله تعالى يطرد الشيطان ، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان ، فذكر الله تعالى سبب للذكر ولهذا قال : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ وقوله : ﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ أي إذا سئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه ، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك .

﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ .

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله ، وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان ، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة تزيد بالهلالية ، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية ، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين ، فلهذا قال بعد الثلاثمائة : ﴿ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ ، وقوله : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ﴾ أي إذا سئلت عن لبثهم ، وليس عندك علم في ذلك ، وتوقيف من الله تعالى ، فلا تتقدم فيه بشيء بل قل في مثل هذا : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ . أي لا يعلم ذلك إلا هو ، ومن أطلعه عليه من خلقه .

وقوله : ﴿ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ﴾ أي إنه لبصير بهم سميع لهم . قال ابن جرير : وذلك في معنى المبالغة في المدح ، كأنه قيل ما أبصره وأسمعه ، وتأويل الكلام ما أبصر الله لكل موجود ، وأسمعه لكل مسموع لا يخفى عليه من ذلك شيء . ثم روي عن قتادة في قوله : ﴿ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ﴾ فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع . وقوله : ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ أي أنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر الذي لا معقب لحكمه ، وليس له وزير ولا نصير ، ولا شريك ولا مشير تعالى وتقدس .

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس : ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ أي لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل . وقوله : ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ عن مجاهد ﴿ مُلْتَحَدًا ﴾ قال : ملجأ وعن قتادة : وليًا ولا مولى ، قال ابن جرير : يقول : إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحي إليك من كتاب ربك ، فإنه لا ملجأ لك من الله كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أي سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة . وقوله : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ أي اجلس مع الذين يذكرون الله ، ويهللونه ويحمدونه ، ويسبحونه ويكبرونه ، ويسألونه بكرة وعشيًا من عباد الله سواء كانوا فقراء أو أغنياء ، أو أقوياء أو ضعفاء ، يقال : إنها نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده ، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار ، وصهيب ، وخباب ، وابن مسعود ، وليفرد أولئك

بمجلس على حدة ، فنهاه الله عن ذلك فقال : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ الآية ، وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء .

وعن سعد ابن أبي وقاص قال : كنا مع النبي ﷺ ستة نفر ، فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا ، قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء أن يقع ، فحدث نفسه فأنزل الله ﷻ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ قال ابن عباس : ولا تجاوزهم إلى غيرهم يعني تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة ، ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾ أي شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ، ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ أي أعماله وأفعاله سفه ، وتفريط وضياع ، ولا تكن مطيعًا له ، ولا محبًّا لطريقته ، ولا تغبطه بما هو فيه .

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ .

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : وقل يا محمد للناس : هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا ﴾ أي أرصدنا ، ﴿ لِلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ، ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ أي سورها وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لِسُرَادِقِ النَّارِ أَرْبَعَةُ جُدُرٍ ، كَثَافَةُ كُلِّ جِدَارٍ مَسَافَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً » (٢) .

وقال ابن عباس : ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ قال : حائط من نار ، وقوله : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾ الآية ، قال ابن عباس : المهل الماء الغليظ مثل دردي الزيت ، وقال مجاهد : هو كالدم والقيح ، وقال عكرمة : هو الشيء الذي انتهى حره ، وقال آخرون : هو كل شيء أذيب . وقال قتادة : أذاب ابن مسعود شيئًا من الذهب في أخدود فلما انماع وأزبد قال : هذا أشبه شيء بالمهل . وقال الضحاك : ماء جهنم أسود وهي سوداء وأهلها سود ، وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر ، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها فهو أسود منتن غليظ حار ، ولهذا قال : ﴿ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾ أي من حره إذا أراد الكافر أن يشربه ، وقربه من وجهه شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه ، كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَاءٌ كَالْمُهْلِ - قال - : كَعَكَرِ الزَّيْتِ فَإِذَا قَرَّبَهُ إِلَيْهِ سَقَطَتْ فَرْوَةُ وَجْهِهِ فِيهِ » (٣) .

وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ ﴾ قال : « يُقَرَّبُ إِلَيْهِ فَيَتَكَرَّهُهُ ، فَإِذَا قُرِّبَ مِنْهُ شَوَى وَجْهَهُ ، وَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رَأْسِهِ ، فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَّعَ أَمْعَاءَهُ ، يقول الله تعالى :

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٤٦) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٢٩) والترمذي في سننه (٢٥٨٤) والحاكم في المستدرك (٤/٦٠١) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٧١) والترمذي في سننه (٢٥٨١) .

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ ﴾ (١) » وقال سعيد بن جبير : إذا جاع أهل النار استغاثوا فأغيثوا بشجرة الزقوم ، فيأكلون منها فاختلبت جلود وجوههم ، فلو أن مارًّا بهم يعرفهم لعرف جلود وجوههم فيها ، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل ، وهو الذي قد انتهى حره ، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود ، ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة : ﴿ بِئْسَ الشَّرَابُ ﴾ أي بئس هذا الشراب ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ ﴿ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أي وساءت النار منزلًا ، وموضعًا للارتفاق .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ .

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به ، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة فلهم جنات عدن ، والعدن الإقامة ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ أي من تحت غرفهم ومنازلهم . ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ أي من الحلية ، ﴿ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ وقال في المكان الآخر : ﴿ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ وفصله هاهنا فقال : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ فالسندس لباس رفاع رقاق كالقمصان ، وما جرى مجراها ، وأما الإستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق ، وقوله : ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ الاتكاء قيل : الاضطجاع ، وقيل : التربع في الجلوس ، وهو أشبه بالمراد هاهنا ، ومنه الحديث الصحيح « أما أنا فلا آكل متكئًا » (٢) فيه القولان . والأرائك جمع أريكة ، وهي السرير تحت الحجلة ، والحجلة كما يعرفه الناس في زماننا هذا بالبشخانة والله أعلم .

وقوله : ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أي نعمت الجنة ثوابًا على أعمالهم ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أي حسنت منزلًا ، ومقيلًا ومقامًا كما قال في النار : ﴿ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ۝٣٣ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ .

يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين ، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم ، فضرب لهم ولهم مثلًا برجلين جعل الله لأحدهما جنتين - أي بستانين - من أعناب محفوفتين بالنخيل المحدقة في جنباتهما وفي خلالهما الزروع ، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجودة ؛ ولهذا قال : ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا ﴾ أي أخرجت

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦٥/٥) والحاكم في المستدرك (٣٥١/٢ ، ٤٥٧) .
(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٣٩٨ ، ٥٣٩٩) والإمام أحمد في مسنده (٨٦/٥) .

ثمرها ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾ أي ولم تنقص منه شيئًا ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾ أي والأنهار متفرقة فيهما هاهنا وهاهنا ، ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ﴾ قيل : المراد به المال ، وقيل : الثمار ، وهو أظهر هاهنا ، ﴿ فَقَالَ ﴾ أي صاحب هاتين الجنتين ، ﴿ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾ أي يجادله ويخاصمه يفتخر عليه ويترأس ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ أي أكثر خدمًا وحشمًا وولدًا . قال قتادة : تلك والله أمنية الفاجر كثرة المال ، وعزة النفر . وقوله : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ أي بكفره وتمرده وتكبره ، وتجبره وإنكاره المعاد ، ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ وذلك اغترار منه لما رأى فيها من الزروع والثمار ، والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف ؛ وذلك لقلة عقله وضعف يقينه بالله وإعجابه بالحياة الدنيا ، وزينتها وكفره بالآخرة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ أي كائنة ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ أي ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي ، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ .

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما أجابه به صاحبه المؤمن واعظًا له وزاجرًا عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار : ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ الآية ، وهذا إنكار وتعظيم ، لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه ، وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ولهذا قال المؤمن : ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ أي لكن أنا لا أقول بمقالتك ، بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية ، ﴿ وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ أي بل هو الله المعبود وحده لا شريك له ، ثم قال : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ هذا تحضيض وحث على ذلك ، أي هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك ، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك ، وقلت : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ؛ ولهذا قال بعض السلف : من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل : ما شاء الله لاقوة إلا بالله ، وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة .

وعن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له : « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله »⁽¹⁾ وقوله : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ أي في الدار الآخرة ، ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ أي على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى ، ﴿ حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ قال ابن عباس : أي عذابًا من السماء والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زرعها وأشجارها ؛ ولهذا قال : ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ أي بلقعًا ترابًا أملس لا يثبت فيه قدم . وقال ابن عباس : كالجرز الذي لا ينبت شيئًا ، وقوله : ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا ﴾ أي غائرًا في الأرض ، وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض ، فالغائر يطلب

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٦٩/٢) وابن ماجه في السنن (٣٨٢٤ ، ٣٨٢٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٩٨/١٠) .

أسفلها كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ أي جار وسائح .

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾ بأمواله أو بثماره على القول الآخر ، والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن من إرسال الحسبان على جنته التي اغترَّ بها ، وألهته عن الله ﷻ . ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾ وقال قتادة : يصفق كفيه متأسفًا متلهفًا على الأموال التي أذهبها عليها ﴿ وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ ﴾ أي عشيرة أو ولد كما افتخر بهم واستعز ، ﴿ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ اختلف القراء هاهنا فمنهم من يقف على قوله : ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ﴾ أي في ذلك الموطن الذي حل به عذاب الله فلا منفذ له منه ، ويبتدئ بقوله : ﴿ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ ، ومنهم من يقف على : ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ ويبتدئ بقوله : ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ ، ثم اختلفوا في قراءة ﴿ ٱلْوَلَٰيَةُ ﴾ [(١)] فمنهم من فتح الواو من الولاية ، فيكون المعنى هناك الموالاة لله أي هنالك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله ، وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب كقوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴾ ومنهم من كسر الواو ، من الولاية أي هنالك الحكم لله الحق ، ثم منهم من رفع الحق على أنه نعت للولاية ، كقوله تعالى : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ ومنهم من خفض القاف على أنه نعت لله ﷻ ، كقوله : ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ ﴾ الآية . ولهذا قال تعالى : ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ﴾ أي جزاء ، ﴿ وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ أي الأعمال التي تكون لله ﷻ ثوابها خير ، وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير .

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ ﴾ يا محمد للناس ، ﴿ مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها ، ﴿ كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي ما فيها من الحب ، فشب وحسن وعلاه الزهر والنور والنضرة . ثم بعد هذا كله ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا ﴾ يابسًا ، ﴿ تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ أي تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال ، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ أي هو قادر على هذه الحال ، وهذه الحال ، وكثيرًا ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل ، كما قال تعالى في سورة يونس : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ الآية . وفي الحديث الصحيح : « الدُّنْيا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ » [(٢)] ، وقوله : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ كقوله : ﴿ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أي الإقبال عليه ، والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم

---

(١) قرأها ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم بفتح الواو ﴿ الوَلاية ﴾ خفضًا . وقرأها حمزة بكسر الواو ﴿ الوِلاية ﴾ بكسر القاف أيضًا وقرأها أبو عمرو بفتح الواو رفع الحق ووافقه الكسائي في رفع القاف لكنه كسر الوِلاية . زاد المسير (١٤٧/٥) .

(٢) السلسلة الصحيحة للألباني (١٥٩٢) .

بهم ، والجمع لهم والشفقة المفرطة عليهم ، ولهذا قال : ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ . قال ابن عباس وغيره : الباقيات الصالحات الصلوات الخمس . وقال : الباقيات الصالحات سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان عن الباقيات الصالحات ما هي ؟ فقال : هي لا إله إلا الله ، وسبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وروي عن سعيد بن المسيب ، قال : الباقيات الصالحات : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « سُبْحَانَ اللَّه ، والحَمْدُ للَّه ، وَلاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّه ، واللَّه أَكْبَرُ هُنَّ البَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ » (١) . وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « اسْتَكْثِرُوا مِنَ البَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ » قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : « الملة » . قيل : وما هي يا رسول الله ؟ قال : « التَّكْبِيرُ والتَّهْلِيلُ ، والتَّسْبِيحُ ، والحَمْدُ للَّه ، وَلَا حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ باللَّه » (٢) .

وفي الحديث : « أَمَا إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ يَكْذِبُونَ وَيَظْلِمُونَ فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ ، وَمَالأَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ ، وَلَمْ يُمَالِئْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ . أَلاَ وَإِنَّ سُبْحَانَ اللَّه ، والحَمْدُ للَّه ، وَلاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّه ، واللَّه أَكْبَرُ هُنَّ البَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ » (٣) .

وقال ابن عباس في قوله : ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ هي ذكر الله ، قول : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، وتبارك الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وأستغفر الله ، وصلى الله على رسول الله ، والصيام والصلاة والحج والصدقة ، والعتق والجهاد ، والصلة وجميع أعمال الحسنات ، وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السماوات والأرض . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هي الأعمال الصالحة كلها ، واختاره ابن جرير رحمه الله .

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ۝ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ .

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظام . كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ أي تذهب من أماكنها ، وتزول كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ ، وقال : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ يذكر تعالى أنه تذهب الجبال وتتساوى المهاد ، وتبقى الأرض قاعًا صفصفًا ، أي سطحًا مستويًا لا عوج فيه ، ولا أمتًا أي لا وادي ولا جبل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ أي بادية ظاهرة ليس فيها معلم لأحد ، ولا مكان يواري أحدًا ، بل الخلق

---

(١) أخرجه مسلم في (الذكر والدعاء) (٣٢) وأحمد في مسنده (٣٥٦/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٣) والحاكم في المستدرك (٥١٣/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٨٧/١٠) .

(٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٢/٧) .

كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية . قال مجاهد وقتادة : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ لا حجر فيها ولا غيابة . قال قتادة : لا بناء ولا شجر . وقوله : ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أي وجمعناهم الأولين منهم والآخرين ، فلم نترك منهم أحدًا لا صغيرًا ولا كبيرًا . كما قال : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ . وقوله : ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ يحتمل أن يكون المراد أن جمع الخلائق يقومون بين يدي الله صفًا واحدًا ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ ويحتمل أنهم يقومون صفوفًا صفوفًا . كما قال : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ وقوله : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ هذا تقريع للمنكرين للمعاد ، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد ، ولهذا قال تعالى مخاطبًا لهم : ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ أي ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ، ولا أن هذا كائن .

وقوله : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ أي كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير ، والفتيل والقطمير ، والصغير والكبير . ﴿ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ أي من أعمالهم السيئة ، وأفعالهم القبيحة ، ﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا ﴾ أي يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا . ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ أي لا يترك ذنبًا صغيرًا ولا كبيرًا ، ولا عملًا وإن صغر ﴿ إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ ، أي ضبطها وحفظها . وروي عن سعد بن جنادة قال : لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين ، نزلنا قفرًا من الأرض ليس فيه شيء . فقال النبي ﷺ : « اجْمَعُوا مَنْ وَجَدَ عُودًا فَلْيَأْتِ بِهِ ، وَمَنْ وَجَدَ حَطَبًا أَوْ شَيْئًا فَلْيَأْتِ بِهِ » قال : فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركامًا ، فقال النبي ﷺ : « أترون هذا ؟ فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جَمَعْتُمْ هذَا ، فَلْيَتَّقِ اللهَ رَجُلٌ وَلاَ يُذْنِبْ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً ، فَإِنَّهَا مُحْصَاةٌ عَلَيْهِ »(١) . وقوله : ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ﴾ أي من خير وشر . كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ أي تظهر المخبآت والضمائر . فقد روي عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال : « لِكُل غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ القِيَامَةِ يُعْرَفُ بِهِ »(٢) .

وقوله : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ أي فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعًا ، ولا يظلم أحدًا من خلقه بل يعفو ويصفح ، ويغفر ويرحم ، ويعذب من يشاء بقدرته ، وحكمته وعدله ، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي ، ثم ينجي أصحاب المعاصي ، ويخلد فيها الكافرين ، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم . قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾ الآية . عن جابر بن عبد الله قال : بلغني حديث عن رجل سمعه من النبي ﷺ فاشتريت بعيرًا ، ثم شددت عليه رحلًا فسرت عليه شهرًا ، حتى قدمت عليه الشام ، فإذا عبد الله ابن أنيس ، فقلت للبواب : قل له : جابر على الباب ، فقال : ابن عبد الله ، قلت : نعم فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته ، فقلت : حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص ، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يَحْشُرُ اللهُ ﷻ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ -

---

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/١٩٠) والطبراني في الكبير (٦/٦٤) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/٢٢٦) .

(٢) أخرجه البخاري في (الجزية والموادعة) (٣١٨٦ ، ٣١٨٧) ومسلم في (الجهاد) (١١ ، ١٢) وأحمد في مسنده (١/٤١١) .

أو قال العباد - عُرَاةً غُرْلًا بَهْمًا » . قلت : وما بهما ؟ قال : « لَيسَ مَعَهُمْ شَيءٌ ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ بُعْدَ ، كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ : أَنَا المَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ ، وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أَقْضِيَهُ مِنْهُ ، وَلَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ وَلَهُ عِنْدَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ حَقٌّ حَتَّى أَقْضِيَه مِنْهُ ، حَتَّى اللَّطْمَةُ » قَالَ : قُلْنَا كيف وإنما نأتي الله ﷿ حفاة عراة غرلًا بهما ؟ قال : « بِالحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ » [1] .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ .

يقول تعالى منبهًا بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم ، ومقرعًا لمن اتبعه منهم ، وخالف خالقه ومولاه ، وهو الذي أنشأه وابتدأه ، وبألطافه رزقه وغذاه ، ثم بعد هذا كله والى إبليس ، وعادى الله ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ أي لجميع الملائكة كما تقدم تقديره في أول سورة البقرة ﴿ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ أي سجود تشريف وتكريم وتعظيم . كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ ، وقوله : ﴿ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ أي خانه أصله ، فإنه خلق من مارج من نار ، وأصل خلق الملائكة من نور . فقد روي عن عائشة ﵂ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « خُلِقَتِ المَلَائِكَةُ مِنْ نُور ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ » [2] . ونبه تعالى هاهنا على أنه من الجن - أي على أنه خلق من نار - كما قال : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ . قال الحسن البصري : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصل الجن كما أن آدم ﵇ أصل البشر . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ أي من خزان الجنان ، كما يقال للرجل مكي ومدني وبصري وكوفي . وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها والله أعلم بحال كثير منها .

ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بين أيدينا ، وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة ؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان وقد وضع فيها أشياء كثيرة وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء والحفاظ الجياد الذين دونوا الحديث وحرروه ، وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيفه من منكره وموضوعه ومتروكه ومكذوبه ، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين وغير ذلك من أصناف الرجال كل ذلك صيانة للجناب النبوي والمقام المحمدي خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ أن ينسب إليه كذب ، أو يحدث عنه بما ليس منه ، فرضي الله عنهم وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مأواهم .

وقوله : ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ أي فخرج عن طاعة الله فإن الفسق هو الخروج ، يقال : فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها ، وفسقت الفأرة من جحرها إذا خرجت منه للعبث والفساد . ثم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١٤٢) .

(٢) أخرجه مسلم في (الزهد) (٦٠) وأحمد في مسنده (٦/١٥٣ ، ١٦٨) .

قال تعالى مقرعًا وموبخًا لمن اتبعه وأطاعه : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى ﴾ الآية . أي بدلًا عني ، ولهذا قال : ﴿ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ . وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة ، وأهوالها ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء في سورة يس ﴿ وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ .

يقول تعالى : هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم لا يملكون شيئًا ، ولا أشهدتهم خلق السماوات والأرض ، ولا كانوا إذ ذاك موجودين ، يقول تعالى : أنا المستقل بخلق الأشياء كلها ومدبرها ومقدرها ، وحدي ليس معي في ذلك شريك ، ولا وزير ولا مشير ولا نظير كما قال : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ الآية ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ قال مالك : أعوانًا .

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۝ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريعًا لهم وتوبيخًا : ﴿ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أي في دار الدنيا ، ادعوهم اليوم ينقذونكم مما أنتم فيه . كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ ﴾ كما قال : ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ ﴾ الآية وقال تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ . وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ قال ابن عباس : مهلكا . وقال قتادة : واديًا في جهنم .

وقال أنس بن مالك : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ واد في جهنم من قيح ودم . وقال الحسن البصري : موبقًا عداوة ، والظاهر من السياق هاهنا أنه المهلك ، ويجوز أن يكون واديًا في جهنم أو غيره . والمعنى أن اللّه تعالى بين أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا ، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة ، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر ، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير . وأما إن جعل الضمير في قوله : ﴿ بَيْنَهُم ﴾ عائدًا إلى المؤمنين والكافرين ، كما قال عبد اللّه بن عمرو : إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به . فهو كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ وقال : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أي أنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك . فإذا رأى المجرمون النار تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها ، ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم ، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز . وقوله : ﴿ وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أي ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ، ولابد لهم منها . فعن أبي سعيد عن

رسول الله أنه قال : « إِنَّ الكَافِرَ لَيَرَى جَهَنَّمَ فَيَظُنُّ أَنَّهَا مُوَاقِعَتُهُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ » (١) .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ .

يقول تعالى : ولقد بينا للناس في هذا القرآن ، ووضحنا الأمور وفصلناها كي لا يضلوا عن الحق ، ويخرجوا عن طريق الهدى ، ومع هذا البيان وهذا الفرقان الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة ، والمعارضة للحق بالباطل ، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة . فعن حسين بن علي أن علي بن أبي طالب أخبره أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة فقال : « ألا تصليان » ؟ فقلت : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ، ولم يرجع إليّ شيئًا ، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه ويقول : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ (٢) .

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴾ .

يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديثه ، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات ، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عيانًا ، كما قال أولئك لنبيهم : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ وقالت قريش : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك ، ثم قال : ﴿ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ أي يرونه عيانًا مواجهة ومقابلة ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أي قبل العذاب مبشرين من صدَّقهم وآمن بهم ، ومنذرين لمن كذَّبهم وخالفهم ، ثم أخبر عن الكفار بأنهم يجادلون بالباطل ﴿ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ﴾ أي ليضعفوا به ﴿ ٱلْحَقَّ ﴾ الذي جاءتهم به الرسل ، وليس ذلك بحاصل لهم ﴿ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴾ أي اتخذوا الحجج والبراهين ، وخوارق العادات التي بعث بها الرسل ، وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿ هُزُوًا ﴾ أي سخروا منهم في ذلك ، وهو أشد التكذيب .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ۝٥٧ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۝٥٨ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ .

يقول تعالى وأي عباد الله أظلم : ﴿ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أي تناساها وأعرض عنها ، ولم يصغ لها ولا ألقى إليها بالًا . ﴿ وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أي من الأعمال السيئة ، والأفعال القبيحة ، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي قلوب هؤلاء ﴿ أَكِنَّةً ﴾ أي أغطية وغشاوة . ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ أي لئلا

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/٣٣٠) (١٧٤٥٠) .
(٢) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٢٤) ومسلم في (صلاة المسافرين) (٢٠٦) .

يفهموا هذا القرآن والبيان ﴿ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ ﴾ أي صممًا معنويًا عن الرشاد . ﴿ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴾ . وقوله : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ ﴾ أي ربك يا محمد غفور ذو رحمة واسعة . ﴿ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ ﴾ . كما قال : ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ ﴾ . ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر ، وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشاد ، ومن استمر منهم فله يومٌ يشيب فيه الوليد ، وتضع كل ذات حمل حملها . ولهذا قال : ﴿ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ﴾ أي ليس لهم عنه محيص ولا محيد ولا معدل . وقوله : ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ أي الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم ، ﴿ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴾ أي جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معين لا يزيد ولا ينقص ، أي وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم ، فقد كذبتم أشرف رسول وأعظم نبي ، ولستم بأعز علينا منهم فخافوا عذابي ونذر .

﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ٦٠ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ٦١ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ٦٢ قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ٦٣ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴾ .

سبب قول موسى لفتاه - وهو يوشع بن نون - هذا الكلام ، أنه ذكر له أن عبدًا من عباد اللّه بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى ، فأحب الرحيل إليه ، وقال لفتاه ذلك : ﴿ لَآ أَبۡرَحُ ﴾ أي لا أزال سائرًا ﴿ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ ﴾ أي هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين .

قال قتادة وغير واحد : هما بحر فارس مما يلي المشرق وبحر الروم مما يلي المغرب ، وقال محمد ابن كعب القرظي : مجمع البحرين عند طنجة يعني في أقصى بلاد المغرب فاللّه أعلم . وقوله : ﴿ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴾ أي ولو أني أسير حقبًا من الزمان . عن عبد اللّه بن عمرو أنه قال : الحقب ثمانون سنة . وقال مجاهد : سبعون خريفًا . وقال ابن عباس : دهرًا [1] . وقوله : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه ، وقيل له : متى فقدت الحوت فهو ثمة . فسارا حتى بلغا مجمع البحرين ، وكان في مكتل مع يوشع عليه السلام ، وطفر من المكتل إلى البحر ، فاستيقظ يوشع عليه السلام ، وسقط الحوت في البحر فجعل يسير في الماء ، والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ﴾ أي مثل السرب في الأرض ، قال ابن عباس : صار أثره كأنه حجر . وقال قتادة : سرب من البحر حتى أفضى إلى البحر ، ثم سلك فيه فجعل لا يسلك فيه طريقًا إلا صار ماء جامدًا .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ أي المكان الذي نسيا الحوت فيه ، ونسب النسيان إليهما وإن كان يوشع هو الذي نسيه . كقوله تعالى : ﴿ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴾ . وإنما يخرج من المالح على أحد القولين ، فلما ذهبا عن المكان الذي نسياه فيه بمرحلة ﴿ قَالَ ﴾ موسى لفتاه : ﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٥/٣٣٧) .

مِن سَفَرِنَا هَٰذَا ﴾ أي الذي جاوزا فيه المكان ﴿ نَصَبًا ﴾ يعني تعبًا ، ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ قال قتادة : وقرأ ابن مسعود : (وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان) ولهذا قال : ﴿ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ ﴾ أي طريقه ، ﴿ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ۝ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ أي هذا هو الذي نطلب ﴿ فَٱرْتَدَّا ﴾ أي رجعا . ﴿ عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا ﴾ أي طريقهما ﴿ قَصَصًا ﴾ أي يقصان آثار مشيهما ويقفوان أثرهما ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ . وهذا هو الخضر ﷺ ، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ .

عن أبي بن كعب ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ ؟ قَالَ : أَنَا ، فَعَتِبَ اللّه عَلَيْهِ ؛ إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ ، فَأَوْحَى اللّه إِلَيْهِ أَنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ ، قَالَ مُوسَى : يَا رَبِّ وَكَيْفَ لِي بِهِ ؟ قَالَ : تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتًا فَتَجْعَلُهُ بِمِكْتَلٍ فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ . فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ بِمِكْتَلٍ ، ثُمَّ انْطَلَقَ وانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ ﷺ ، حَتَّى إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُؤُوسَهُمَا فَنَامَا ، وَاضْطَرَبَ الحُوتُ فِي المِكْتَلِ فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ فِي البَحْرِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ سَرَبًا ، وَأَمْسَكَ اللّه عَنِ الحُوتِ جِرْيَةَ المَاءِ فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلُ الطَّاقِ ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صَاحِبُهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالحُوتِ فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتِهِمَا ، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الغَدِ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ : ﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ المَكَانَ الَّذِي أَمَرَهُ اللّه بِهِ ، قَالَ لَهُ فَتَاهُ : ﴿ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ ، قال : فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا ، وَلِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا ، فقال : ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ قال : فَرَجَعَا يَقُصَّانِ أَثَرَهُمَا حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى فَقَالَ الخَضِرُ : وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ ، فَقَالَ : أَنَا مُوسَى ، فَقَالَ : مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ قَالَ : نَعَم . قَالَ : أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ يا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللّه عَلَّمَنِيهِ لا تَعْلَمُهُ أَنْتَ ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللّه عَلَّمَكَهُ اللّه لاَ أَعْلَمُهُ ، فَقَالَ مُوسَى : ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ قَالَ لَهُ الخَضِرُ : ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ . فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ ، فَمَرَّتْ سَفِينَةٌ فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ ، فَعَرَفُوا الخَضِرَ فَحَمَلُوهُمْ بِغَيْرِ نَوْلٍ ، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ لَمْ يُفْجأْ إِلَّا والخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحًا مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ بِالقَدُوم ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى : قَدْ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَولٍ ، فَعَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا . ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾ قال : وَقَالَ رسول اللّه ﷺ : فَكَانَتِ الأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا ، قَالَ : وَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ على حَرْفِ السَّفِينَةِ ، فَنقر فِي البَحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ ، فَقَالَ لَهُ الخَضِرُ : مَا عِلْمِي فِي عِلْمِ اللّه إِلاَّ مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ مِنْ هَذَا البَحْرِ . ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ على السَّاحِلِ ، إِذْ أَبْصَرَ الخَضِرُ غُلَامًا يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ ، فَأَخَذَ الخَضِرُ رَأْسَهُ فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ ، فَقَتَلَهُ ، فقال لَهُ مُوسى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ۝ ﴾

قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ قال : وهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الأُولَى ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ۝ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ ، أي مَائِلًا ، فَقَالَ الخَضِرُ بِيَدِهِ : ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ . فَقَالَ مُوسَى : قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا ، وَلَمْ يُضيفُونَا ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۝ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبرَ حَتَّى يَقُصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا » [(١)] . قال سعيد بن جبير : كان ابن عباس يقرأ (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبًا) وكان يقرأ : (وأما الغلام فكان كافرًا وكان أبواه مؤمنين) .

وعن ابن عباس أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى ، فقال ابن عباس : هو خضر ، فمر بهما أبي بن كعب ، فدعاه ابن عباس فقال : إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سئل السبيل إلى لقيه ، فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه ؟ قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بَيْنَا مُوسَى فِي مَلأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فقال : تَعْلَمُ مَكَانَ رَجُلٍ أَعْلَمَ مِنْكَ ؟ قَالَ : لاَ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى : بَلَى عَبْدنا خَضِر ، فَسَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَى لقيه ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ الحُوتَ آيَةً ، وَقِيلَ لَهُ : إِذَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَارْجِعْ فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ ، فَكَانَ مُوسَى يَتْبعُ أَثَرَ الحُوتِ في البَحْرِ ، فَقَالَ فَتَى مُوسَى لِمُوسَى : أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ ، فَإِنِّي نَسِيتُ الحُوتَ . قَالَ مُوسَى : ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ فَوَجَدا عَبْدَنَا خَضِرًا فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا مَا قَصَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ » [(٢)] .

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۝ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ .

يخبر تعالى عن قول موسى عليه السلام لذلك الرجل العالم - وهو الخضر الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى ، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ ؟ سؤال تلطف لا على وجه الإلزام والإجبار ، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم . وقوله : ﴿ أَتَّبِعُكَ ﴾ أي أصحبك وأرافقك ، ﴿ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ أي مما علمك الله شيئًا أسترشد به في أمري من علم نافع ، وعمل صالح . فعندها قال الخضر لموسى : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ أي إنك لا تقدر على مصاحبتي ، لما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك ؛ لأني على علم من علم الله ما علمكه الله ، وأنت على علم من علم الله ما علمنيه الله . فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه ، وأنت لا تقدر على صحبتي ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ فأنا أعرف أنك ستنكر عليّ ما أنت معذور فيه ، ولكن ما اطلعت على حكمته ، ومصلحته الباطنة التي اطلعت أنا عليها دونك . ﴿ قَالَ ﴾ : أي موسى ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا ﴾ أي على ما أرى من أمورك

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٢٥) ومسلم في الفضائل (٧٠) وأحمد في مسنده (١١٨/٥) .
(٢) أخرجه البخاري في (التوحيد) (٧٤٧٨) وأحمد في مسنده (١١٦/٥) .

﴿ وَلَآ أَعۡصِى لَكَ أَمۡرًا ﴾ أي ولا أخالفك في شيء فعند ذلك شارطه الخضر ﷺ ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِى فَلَا تَسۡـَٔلۡنِى عَن شَىۡءٍ ﴾ أي ابتداء ﴿ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرًا ﴾ أي حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني .

عن ابن عباس ، قال : سأل موسى ﷺ ربه ﷻ فقال : أي رب أي عبادك أحب إليك ؟ قال : الذي يذكرني ، ولا ينساني . قال : فأي عبادك أقضى ؟ قال : الذي يقضي بالحق ، ولا يتبع الهوى . قال : أي رب أي عبادك أعلم ؟ قال : الذي يبتغي علم الناس إلى علمه ، عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى . قال : أي رب ، هل في أرضك أحد أعلم مني ؟ قال : نعم . قال : فمن هو ؟ قال : الخضر . قال : وأين أطلبه ؟ قال : على الساحل عند الصخرة التي ينفلت عندها الحوت . قال : فخرج موسى يطلبه حتى كان ما ذكر الله ، وانتهى موسى إليه عند الصخرة ، فسلم كل واحد منهما على صاحبه . فقال له موسى : إني أحب أن أصحبك . قال :إنك لن تطيق صحبتي قال : بلى قال : فإن صحبتني ﴿ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِى عَن شَىۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرًا ﴾ قال : فسار به في البحر حتى انتهى إلى مجمع البحرين ، وليس في الأرض مكان أكثر ماء منه . قال : وبعث الله الخطاف فجعل يستقي منه بمنقاره . فقال لموسى : كم ترى هذا الخطاف رزأ من هذا الماء؟ قال : ما أقل ما رزأ ؟ قال : يا موسى فإن علمي وعلمك في علم الله ، كقدر ما استقى هذا الخطاف من هذا الماء ، وكان موسى قد حدث نفسه أنه ليس أحد أعلم منه ، أو تكلم به فمن ثم أمر أن يأتي الخضر ، وذكر تمام الحديث في خرق السفينة ، وقتل الغلام وإصلاح الجدار ، وتفسيره له ذلك (١) .

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِىَ صَبۡرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِى مِنۡ أَمۡرِى عُسۡرًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن موسى وصاحبه وهو الخضر ، أنهما لما توافقا واصطحبا ، واشترط عليه أن لا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه . فركبا في السفينة ، وقد تقدم في الحديث كيف ركبا في السفينة ، وأنهم عرفوا الخضر فحملوهما بغير نول . يعني بغير أجرة تكرمة للخضر ، فلما استقلت بهم السفينة في البحر ، ولجحت أي دخلت اللجة ، قام الخضر فخرقها ، واستخرج لوحًا من ألواحها ثم رقعها . فلم يملك موسى ﷺ نفسه أن قال منكرًا عليه : ﴿ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا ﴾ وهذه اللام لام العاقبة لا لام التعليل .

﴿ لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرًا ﴾ قال مجاهد : منكرًا . وقال قتادة : عجبًا ، فعندها قال له الخضر مذكرًا بما تقدم من الشرط : ﴿ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِىَ صَبۡرًا ﴾ يعني وهذا الصنيع فعلته قصدًا ، وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر عليَّ فيها ، لأنك لم تحط بها خبرًا ، ولها دخل هو مصلحة ، ولم تعلمه أنت . ﴿ قَالَ ﴾ أي موسى ﴿ لَا تُؤَاخِذۡنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِى مِنۡ أَمۡرِى عُسۡرًا ﴾ أي لا تضيق علي ، ولا تشدد عليَّ . ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « كَانَتِ الأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيانًا » (٢) .

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسًا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٍ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا نُّكۡرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِىَ صَبۡرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَىۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبۡنِى ۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّى عُذۡرًا ﴾ .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٥/٣٤٣) . (٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٢٥) ومسلم في الفضائل (١٧٠) .

يقول تعالى : ﴿ فَانطَلَقَا ﴾ أي بعد ذلك ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ ﴾ . وقد تقدم أنه كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرى ، وأنه عمد إليه من بينهم ، وكان أحسنهم وأجملهم ، وأضوأهم فقتله . وروي أنه قد احتز رأسه ، وقيل : رضخه بحجر ، وفي رواية : اقتلعه بيده والله أعلم . فلما شاهد موسى عليه السلام هذا أنكره أشد من الأول ، وبادر فقال : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ أي صغيرة لم تعمل الحنث ، ولا عملت إثمًا بعد فقتلته ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أي بغير مستند لقتله ، ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ أي ظاهر النكارة ، ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ فأكد أيضًا في التذكار بالشرط الأول . فلهذا قال موسى : ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا ﴾ أي أن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة ، ﴿ فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴾ أي قد أعذرت إلي مرة بعد مرة . قال أبي بن كعب : كان النبي ﷺ إذا ذكر أحدًا فدعا له بدأ بنفسه ، فقال ذات يوم : « رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنَا ، وَعَلَى مُوسَى ، لَوْ لَبِثَ مَعَ صَاحِبِهِ لأَبْصَرَ العَجَبَ ، وَلَكِنَّهُ قَالَ : إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبني قَدْ بَلَغْت مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا » مثقلة [١] .

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عنهما إنهما : ﴿ فَانطَلَقَا ﴾ بعد المرتين الأوليين ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ وروي عن ابن سيرين ، أنها الأبلة . وفي الحديث : « حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ لِئَامًا » [٢] أي بخلاء ﴿ فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ إسناد الإرادة هاهنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة ، فإن الإرادة في المحدثات بمعنى الميل ، والانقضاض هو السقوط ، وقوله : ﴿ فَأَقَامَهُۥ ﴾ أي فرده إلى حالة الاستقامة ، وقد تقدم في الحديث أنه رده بيديه ، ودعمه حتى رد ميله ، وهذا خارق . فعند ذلك قال موسى له : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أي لأجل أنهم لم يضيفونا ، كان ينبغي أن لا تعمل لهم مجانًا ، ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ أي لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها ، فلا تصاحبني فهو فراق بيني وبينك ، ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ﴾ أي بتفسير ، ﴿ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ .

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام ، وما كان أنكر ظاهره ، وقد أظهر الله الخضر عليه السلام على حكمة باطنه فقال : إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها ، لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ ﴾ صالحة أي جيدة ، ﴿ غَصْبًا ﴾ فأردت أن أعيبها لأرده عنها لعيبها ، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها ، وقد قيل : إنهم أيتام .

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ .

عن أبي بن كعب ، عن النبي ﷺ قال : « الغُلاَمُ الَّذِي قَتَلَهُ الخَضِرُ طُبِعَ يَوْمَ طُبِعَ كَافِرًا » [٣]

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٣٥٦/١٥) وقد روى مسلم نحوه في (الفضائل) (١٧٢) والحاكم في المستدرك (٥٧٤/٢) وأبو داود في سننه (٣٩٨٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١١٩/٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٢١/٥) .

ولهذا قال: ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴾ أي يحملهما حبه على متابعته على الكفر، قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمنين فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب. وصح في الحديث: «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له»[1] وقال تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ وقوله: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ أي ولدًا أزكى من هذا، وهما أرحم به منه، وقال قتادة: أبر بوالديه، وقد تقدم أنهما بدلا جارية. وقيل: لما قتله الخضر كانت أمه حاملًا بغلام مسلم، قاله ابن جريج.

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة؛ لأنه قال أولا: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ وقال هاهنا: ﴿ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ يعني مكة والطائف، ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحته؛ لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما. قال عكرمة: كان تحته مال مدفون لهما، وهو ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله. وقال ابن عباس: كان تحته كنز علم، وقال الحسن البصري: لوح من ذهب مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يعرف الدنيا، وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله. وذكر أنهما حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر منهما صلاح، وكان بينهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة آباء، وكان نساجًا، وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة وورد به الحديث المتقدم، وإن صح لا ينافي قول عكرمة إنه كان مالًا؛ لأنهم ذكروا أنه كان لوحًا من ذهب وفيه مال جزيل، أكثر ما زادوا أنه كان مودعًا فيه علم، وهو حكم ومواعظ والله أعلم.

وقوله: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا ﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم. كما جاء في القرآن ووردت به السنة. قال ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهم صلاحًا. وتقدم أنه كان الأب السابع فالله أعلم. وقوله: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ هاهنا أسند الإرادة إلى الله تعالى؛ لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله. وقال في الغلام: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً ﴾. وقال في السفينة: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ فالله أعلم. وقوله تعالى: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ﴾ أي هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدي الغلام، وولدي الرجل الصالح، وما فعلته عن أمري، أي لكني أمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر عليه السلام مع ما تقدم من قوله: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ وقال آخرون: كان

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١١٧).

رسولًا . وقيل : بل كان ملكًا ، وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبيًا ، بل كان وليًا فالله أعلم .

وحكي في كونه باقيًا إلى الآن ، ثم إلى يوم القيامة قولان ، ومال ابن الصلاح والنووي إلى بقائه ، ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ وبقول النبي ﷺ يوم بدر : « اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةُ لَا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ » (١) وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حضر عنده ، ولا قاتل معه ، ولو كان حيًا لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه ؛ لأنه عليه السلام كان مبعوثًا إلى جميع الثقلين الجن والإنس . وقد قال : « لَوْ كَانَ مُوسَى وَعِيسَى حَيَّيْنِ لَمَا وَسِعَهُمَا إِلاَّ اتِّبَاعِي » (٢) . وأخبر قبل موته بقليل ، أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف إلى غير ذلك من الدلائل . وروي عنه ﷺ أنه قال : « إِنَّمَا سُمِّيَ الخَضِرَ لأَنَّهُ جلَسَ عَلَى فَرْوَةٍ ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ مِنْ تَحْتِهِ خَضْرَاءَ » (٣) والمراد بالفروة هنا الحشيش اليابس ، وهو الهشيم من النبات : وقيل المراد بذلك وجه الأرض .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ أي هذا تفسير ما ضقت به ذرعًا ، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء ، ولما أن فسره له وبينه ووضحه ، وأزال المشكل قال : ﴿ تَسْطِع ﴾ ، وقبل ذلك كان الإشكال قويًا ثقيلًا فقال : ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ ، فقابل الأثقل بالأثقل ، والأخف بالأخف . كما قال : ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه ، ﴿ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ وهو أشق من ذلك فقابل كلًا بما يناسبه لفظًا ومعنى والله أعلم . فإن قيل : فما بال فتى موسى ذكر في أول القصة ، ثم لم يذكر بعد ذلك ؟ فالجواب أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر ، وذكر ما كان بينهما ، وفتى موسى معه تبع . وقد صرح في الأحاديث المتقدمة في الصحاح ، وغيرها أنه يوشع بن نون ، وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ .

يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ ﴾ يا محمد ، ﴿ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ أي عن خبره . وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحنون به النبي ﷺ فقالوا : سلوه عن رجل طواف في الأرض ، وعن فتية ما يدري ما صنعوا ، وعن الروح ، فنزلت سورة الكهف .

وقال وهب بن منبه : كان ملكًا وإنما سمي ذا القرنين ؛ لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس . قال : وقال بعض أهل الكتاب : لأنه ملك الروم وفارس . وقال بعضهم : كان في رأسه شبه القرنين. وقال علي رضي الله عنه : كان عبدًا ناصحًا لله فناصحه ، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات ، فأحياه الله فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات ، فسمي ذا القرنين . ويقال : إنما سمي ذا القرنين ؛ لأنه بلغ المشارق والمغارب من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب .

وقوله : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي أعطيناه ملكًا عظيمًا ممكنًا فيه من جميع ما يؤتى الملوك من

---

(١) أخرجه مسلم في (الجهاد) (٥٨) وأحمد في مسنده (١/ ٣٠ ، ٣٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٣٨٧) والبيهقي في دلائل النبوة (١/ ٨) .

(٣) أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء) (٣٤٠٢) والترمذي في سننه (٣١٥١) .

التمكين والجنود ، وآلات الحرب والحصارات ؛ ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ، ودانت له البلاد ، وخضعت له ملوك البلاد ، وخدمته الأمم من العرب والعجم ، وقوله : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ قال ابن عباس : يعني علمًا ، وقال قتادة : منازل الأرض وأعلامها . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : تعليم الألسنة . قال : كان لا يغزو قومًا إلا كلمهم بلسانهم .

وعن حبيب بن حماد قال : كنت عند علي ﷺ ، وسأله رجل عن ذي القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب ؟ فقال : سبحان الله سخر له السحاب ، وقدَّر له الأسباب ، وبسط له اليد .

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ يعني بالسبب المنزل . وقال مجاهد : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ ، منزلًا وطريقًا ما بين المشرق والمغرب . وفي رواية عن مجاهد : طرفي الأرض . وقال قتادة : أي أتبع منازل الأرض ومعالمها . وقال الضحاك : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي المنازل . وقال سعيد بن جبير في قوله : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ قال : علمًا ، وقال مطر : معالم وآثار كانت قبل ذلك .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ ﴾ أي فسلك طريقًا حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب ، وهو مغرب الأرض . وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء ، فمتعذر وما يذكره أصحاب القصص ، والأخبار من أنه سار في الأرض مدة ، والشمس تغرب من ورائه فشيء لا حقيقة له . وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب ، واختلاف زنادقتهم ، وكذبهم وقوله : ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أي رأى الشمس في منظره ، تغرب في البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه ، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه . والحمئة مشتقة على إحدى القراءتين من الحمأة ، وهو الطين . كما قال تعالى : ﴿ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ أي طين أملس ، وقال ابن جرير : كان ابن عباس يقول : في عين حمئة ثم فسرها ذات حمأة . قال نافع : وسئل عنها كعب الأحبار فقال : أنتم أعلم بالقرآن مني ، ولكني أجدها في الكتاب تغيب في طينة سوداء .

وعن أبي بن كعب ، أن النبي ﷺ أقرأه حمئة ، وقال ابن عباس : وجدها تغرب في عين حامية . يعني حارة . وقال ابن جرير : والصواب أنهما قراءتان مشهورتان ، وأيهما قرأ القارئ فهو مصيب .

قلت : ولا منافاة بين معنييهما ؛ إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها ، وملاقاتها الشعاع بلا حائل ، وحمئة في ماء وطين أسود .

وقوله : ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ ﴾ أي أمة من الأمم ، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم ، وقوله : ﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ معنى هذا ، أن الله تعالى مكنه منهم وحكمه فيهم ، وأظفره بهم ، وخيره إن شاء قتل وسبى ، وإن شاء منَّ أو فدى ، فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه ، في قوله : ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ ﴾ أي استمر على كفره وشركه بربه . ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ﴾

قال قتادة : بالقتل . وقال السدي : كان يحمي لهم بقر النحاس ، ويضعهم فيها حتى يذوبوا ، وقال وهب بن منبه : كان يسلط الظلمة فتدخل بيوتهم وتغشاهم من جميع جهاتهم والله أعلم . وقوله : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أي شديدًا بليغًا ، وجيعًا أليمًا . وفي هذا إثبات المعاد والجزاء . وقوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ ﴾ أي تابعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ، ﴿ فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي في الدار الآخرة عند الله ﷻ ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ قال مجاهد : معروفًا .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ .

يقول تعالى ، ثم سلك طريقًا فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها ، وكان كلما مر بأمة قهرهم ، وغلبهم ودعاهم إلى الله ﷻ ، فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آنافهم ، واستباح أموالهم وأمتعتهم ، واستخدم من كل أمة ما تستعين به جيوشه على قتال الإقليم المتاخم لهم . وذكر في أخبار بني إسرائيل أنه عاش ألفًا وستمائة سنة يجوب الأرض طولها والعرض ، حتى بلغ المشارق والمغارب ، ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال الله تعالى : ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ أي أمة ، ﴿ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ أي ليس لهم بناء يكنهم ولا أشجار تظلهم ، وتسترهم من حر الشمس . قال سعيد بن جبير : كانوا حمرًا قصارًا مساكنهم الغيران أكثر معيشتهم من السمك .

وقال الحسن - وسئل عن قول الله تعالى : ﴿ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ - : إن أرضهم لا تحمل البناء فإذا طلعت الشمس تغوروا في المياه ، فإذا غربت خرجوا يتراعون كما ترعى البهائم . قال الحسن : هذا حديث سمرة . وقال قتادة : ذكر لنا أنهم بأرض لا تنبت لهم شيئًا ، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم .

وقيل : لم يبنوا فيها بناء قط ، ولم يبن عليهم فيها بناء قط . كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسرابًا لهم حتى تزول الشمس أو دخلوا البحر . وذلك أن أرضهم ليس فيها جبل . جاءهم جيش مرة فقال لهم أهلها : لا تطلعن عليكم الشمس ، وأنتم بها . قالوا : لا نبرح حتى تطلع الشمس ما هذه العظام ؟ قالوا : هذه جيف جيش طلعت عليهم الشمس هاهنا فماتوا . قال : فذهبوا هاربين في الأرض ، وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ قال مجاهد والسدي : علمًا أي نحن مطلعون على جميع أحواله ، وأحوال جيشه لا يخفى علينا منها شيء ، وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض فإنه تعالى : ﴿ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن ذي القرنين : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي ثم سلك طريقًا من مشارق الأرض ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ ﴾ وهما جبلان متناوحان بينهما ثغرة ، يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد

الترك ، فيعيثون فيها فسادًا ، ويهلكون الحرث والنسل . ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام ، كما ثبت في الصحيحين : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : يَا آدَمُ فَيَقُولُ : لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ ، فَيَقُولُ : ابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ . فَيَقُولُ : وَمَا بَعْثُ النَّارِ ، فَيَقُولُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَى الجَنَّةِ ، فَحِينَئِذٍ يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، فَقَالَ : إِنَّ فِيكُمْ أُمَّتَيْنِ مَا كَانَتَا فِي شَيْءٍ إِلاَّ كَثَّرَتَاهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ » (١).

قال بعض العلماء : هؤلاء من نسل يافث أبي الترك ، وقال : إنما سمي هؤلاء تركًا ؛ لأنهم تركوا ما وراء السد من هذه الجهة ، وإلا فهم أقرباء أولئك ولكن كان في أولئك بغي وفساد وجراءة .

وقوله : ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ أي لاستعجام كلامهم ، وبعدهم عن الناس ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ . قال ابن عباس : أجرًا عظيمًا ، يعني أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالًا يعطونه إياه ، حتى يجعل بينه وبينهم سدًّا ، فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير : ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ أي إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه . كما قال سليمان عليه السلام : ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم ﴾ الآية . وهكذا قال ذو القرنين : الذي أنا فيه خير من الذي تبذلونه ، ولكن ساعدوني بقوة أي بعملكم وآلات البناء ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ والزبر : جمع زبرة وهي القطعة منه . قاله ابن عباس : وهي كاللبنة ، يقال : كل لبنة زنة قنطار بالدمشقي ، أو تزيد عليه ﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ ، أي وضع بعضه على بعض من الأساس ، حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولًا وعرضًا ، واختلفوا في مساحة عرضه وطوله على أقوال . ﴿ قَالَ انفُخُوا ﴾ أي أجج عليه النار ، حتى صار كله نارًا . ﴿ قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ قال ابن عباس : هو النحاس زاد بعضهم المذاب ، ويستشهد بقوله تعالى : ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ ولهذا يشبه بالبرد المحبر . وعن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلًا قال : يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج قال : « انْعَتْهُ لِي » قال : كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء . قال : « قد رأيته » (٢) . وقد بعث الخليفة الواثق في دولته بعض أمرائه ، وجهز معه جيشًا (سرية) لينظروا إلى السد ، ويعاينوه وينعتوه له إذا رجعوا ، فتوصلوا من بلاد إلى بلاد ، ومن ملك إلى ملك ، حتى وصلوا إليه ورأوا بناءه من الحديد ، ومن النحاس . وذكروا أنهم رأوا فيه بابًا عظيمًا ، وعليه أقفال عظيمة ، ورأوا بقية اللبن والعمل في برج هناك ، وأن عنده حرسًا من الملوك المتاخمة له ، وأنه عال منيف شاهق ، لا يستطاع ولا ما حوله من الجبال . ثم رجعوا إلى بلادهم ، وكانت غيبتهم أكثر من سنتين ، وشاهدوا أهوالًا وعجائب . ثم قال الله تعالى :

﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ۝ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۝ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن يأجوج ومأجوج : إنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد ، ولا

---

(١) أخرجه البخاري بنحوه في (الأنبياء) (٣٣٤٨) ومسلم في (الإيمان) (٣٧٩) ، (الفتن) (١١٦) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٣١/١٦) .

قدروا على نقبه من أسفله ، ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلًّا بما يناسبه فقال : ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه ، ولا على شيء منه . فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَيَحْفِرُونَ السَّدَّ كُلَّ يَوْمٍ ، حَتَّى إِذَا كانوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ ، قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ : ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا ، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَأَشَدِّ مَا كَانَ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ ، وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ ، حَفَرُوا ، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ ، قَالَ الَّذي عَلَيْهِمْ : ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّه ، فَيَسْتَثْنِي ، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ ، وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ ، فَيَحْفِرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاس ، فَيُنَشِّفُونَ المِيَاهَ وَيَتَحَصَّنُ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ ، فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ ، فَتَرْجِعُ وَعَلَيْهَا كَهَيْئَةِ الدَّمِ فَيَقُولُونَ : قَهَرْنَا الأَرْضَ وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَغَفًا فِي رِقَابِهِمْ فيقتلهم بِهَا . قال رسول الله ﷺ : « والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنْ دَوَابَّ الأَرْضِ لَتَسمَنُ ، وتَشْكَرُ شكْرًا مِنْ لحُومِهِمْ وَدِمَائِهِم » (١) .

قال الترمذي : إسناده جيد قوي ، ولكن متن في رفعه نكارة ويؤيد ما قلناه من أنهم لم يتمكنوا من نقبه ولا نقب شيء منه ، ومن نكارة هذا المرفوع حديث الإمام أحمد : عن زينب بنت جحش ، زوج النبي ﷺ قالت : استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محمر وجهه ، وهو يقول : « لاَ إِلَه إِلاَّ اللَّه وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذَا » ، وحلَّق . قلت : يا رسول اللّه : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخبث » (٢) .

﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾ أي بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلًا يمنعهم من العيث في الأرض والفساد ، ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى ﴾ أي إذا اقترب الوعد الحق ، ﴿ جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾ أي ساواه بالأرض . تقول العرب : ناقة دكاء إذا كان ظهرها مستويًا لا سنام لها . وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ أي مساويًا للأرض . وقال عكرمة في قوله : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾ ، قال : طريقًا كما كان ، ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ أي كائنًا لا محالة . وقوله : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ ﴾ أي الناس ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم يدك هذا السد ، ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ، ويفسدون على الناس أموالهم ، ويتلفون أشياءهم . وقال السدي : في قوله : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ : ذاك حين يخرجون على الناس ، وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال ، وهكذا قال هاهنا : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ قال : هذا أول يوم القيامة . ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ﴾ على أثر ذلك ﴿ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾ . وقال آخرون : بل المراد بقوله : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ قال : إذا ماج الجن والإنس يوم القيامة يختلط الإنس والجن .

وقوله : ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ﴾ الصور كما جاء في الحديث قرن ينفخ فيه ، والذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام ، وفي الحديث عنه ﷺ « كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ القَرْنَ ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ وَاسْتَمَعَ مَتَى يُؤْمَرُ » قالوا : كيف نقول . قال : « قُولُوا حَسْبُنَا اللَّه وَنِعْمَ الوَكِيلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا » (٣) .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٥١٠) وابن ماجه في سننه (٢/١٣٦٤) .

(٢) أخرجه البخاري في (الفتن) (٧٠٥٩) ومسلم في الفتن (١ ، ٢) والإمام أحمد في مسنده (٦/٤٢٨) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٣٢٦) والترمذي في سننه (٢٤٣١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١٣١) .

وقوله : ﴿ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ أي أحضرنا الجميع للحساب ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ .

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما يفعله بالكفار يوم القيامة : أنه يعرض عليهم جهنم أي يبرزها لهم ، ويظهرها ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها ؛ ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم . وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك » . ثم قال مخبرًا عنهم : ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي ﴾ أي تغافلوا وتعاموا وتصامموا عن قبول الهدى ، واتباع الحق . كما قال : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ . وقال هاهنا : ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ أي لا يعقلون عن الله أمره ونهيه . ثم قال : ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾ أي اعتقدوا أنهم يصح لهم ذلك ، وينتفعون به . ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلًا .

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾ .

عن مصعب قال : سألت أبي - يعني سعد بن أبي وقاص - عن قول الله : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ أهم الحرورية ؟ قال : لا ، هم اليهود والنصارى ، أما اليهود فكذبوا محمدًا ﷺ ، وأما النصارى فكفروا بالجنة ، وقالوا : لا طعام فيها ولا شراب . والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، فكان سعد رضي الله عنه يسميهم الفاسقين (١) . وقال علي بن أبي طالب ، وغير واحد : هم الحرورية ، ومعنى هذا عن علي رضي الله عنه أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية ، كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم ، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ، ولا هؤلاء بل هي أعم من هذا ، فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى ، وقبل وجود الخوارج بالكلية ، وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها ، وأن عمله مقبول وهو مخطىء وعمله مردود . كما قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ . وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم ﴾ أي نخبركم ﴿ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ ثم فسرهم فقال : ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي أعمالًا باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة ، ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ أي يعتقدون أنهم على شيء ، وأنهم مقبولون محبوبون . وقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ ﴾ أي جحدوا آيات الله في الدنيا ، وبراهينه التي أقام على وحدانيته وصدق رسله ، وكذبوا بالدار الآخرة ، ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ أي لا نثقل موازينهم ؛ لأنها خالية عن الخير . وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ

---

(١) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٢٨) .

الله جناح بعوضة - قال - : اقرأوا إن شئتم ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ »[١] .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا ﴾ أي إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم ، واتخاذهم آيات الله ورسله هزوًا استهزأوا بهم ، وكذبوهم أشد التكذيب .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ .

يخبر تعالى عن عباده السعداء ، وهم الذين آمنوا بالله ورسوله ، وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به ، أن لهم جنات الفردوس . قال مجاهد : الفردوس هو البستان بالرومية . وقال السدي والضحاك : هو البستان الذي فيه شجر الأعناب . وقال أبوأمامة : الفردوس سرة الجنة ، وقال قتادة : الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها . وفي الحديث : « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة »[٢] . وقوله تعالى : ﴿ نُزُلًا ﴾ أي ضيافة فإن النزل الضيافة . وقوله : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي مقيمين ساكنين فيها لا يظعنون عنها أبدًا ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ أي لا يختارون عنها غيرها ، ولا يحبون سواها .

وفي قوله : ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ تنبيه على رغبتهم فيها وحبهم لها ، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائمًا أنه قد يسأمه أو يمله ، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولًا ولا انتقالًا ، ولا ظعنًا ولا رحلة ، ولا بدلًا .

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد ، لو كان ماء البحر مدادًا للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه لنفد البحر قبل أن يفرغ كتابة ذلك . ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ ﴾ أي بمثل البحر آخر ، ثم آخر ، وهلم جرًا بحور تمده ، ويكتب بها لما نفدت كلمات الله كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ . وقال الربيع بن أنس : إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها . وقد أنزل الله ذلك : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ يقول : لو كانت تلك البحور مدادًا لكلمات الله ، والشجر كله أقلام لانكسرت الأقلام وفني ماء البحر ، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء ، لأن أحدًا لا يستطيع أن يقدر قدره ، ولا يثني عليه كما ينبغي ، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه إن ربنا كما يقول ، وفوق ما نقول ، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة كحبة من خردل في خلال الأرض كلها .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ .

روي عن معاوية بن أبي سفيان أنه قال : هذه آخر آية أنزلت يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿ قُلْ ﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم ، ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ فمن

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٦/١٨) ومسلم في المنافقين (١٨) .

(٢) أخرجه البخاري في (التوحيد) (٧٤٢٣) والبيهقي في سننه (١٥/٩ ، ١٥٩) .

زعم أني كاذب فليأت بمثل ما جئت به ، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي عما سألتم من قصة أصحاب الكهف ، وخبر ذي القرنين ، مما هو مطابق في نفس الأمر ، لولا ما أطلعني الله عليه وإنما أخبركم ، ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ﴾ الذي أدعوكم إلى عبادته ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريك له ، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي ثوابه وجزاءه الصالح ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ ما كان موافقًا لشرع الله ، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له ، وهذان ركنا العمل المتقبل ، لابد أن يكون خالصًا لله صوابًا على شريعة رسول الله ﷺ . وقد روي عن طاووس قال : قال رجل : يا رسول الله إني أقف المواقف أريد وجه الله ، وأحب أن يرى موطني ، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئًا حتى نزلت هذه الآية ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ . جاء رجل إلى عبادة بن الصامت ، فقال : أنبئني عما أسألك عنه ؟ أرأيت رجلًا يصلي يبتغي وجه الله ، ويحب أن يحمد ، ويصوم يبتغي وجه الله ، ويحب أن يحمد ، ويتصدق يبتغي وجه الله ، ويحب أن يحمد ، ويحج يبتغي وجه الله ، ويحب أن يحمد ، فقال عبادة : ليس له شيء . إن الله تعالى يقول : أنا خير شريك ، فمن كان له معي شريك فهو له كله لا حاجة لي فيه .

وعن شداد بن أوس ﷺ أنه بكى . فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : شيء سمعته من رسول الله ﷺ فأبكاني ، سمعت رسول الله يقول : « أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الشِّرْكَ وَالشَّهْوَةَ الخَفِيَّةَ » . قلت : يا رسول الله أتشرك أمتك من بعدك ؟ قال : « نعم أما إنهم لا يعبدون شمسًا ولا قمرًا ولا حجرًا ولا وثنًا ، ولكن يراؤون بأعمالهم ، والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائمًا فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه » (١) .

وقال ﷺ يرويه عن الله ﷻ أنه قال : « أَنَا خَيْرُ الشُّرَكَاءِ فَمَن عَمِلَ عملًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا بَرِيءٌ مِنْهُ ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ » (٢) .

وعنه ﷺ قال : « إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ » . قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : « الرِّيَاءُ ، يَقُولُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِذَا جَزَى النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ : اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ فِي الدُّنْيَا ، فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً » (٣) .

وفي الحديث أيضًا : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله أحدًا فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » (٤) ..

وقال ﷺ : « مَنْ أَحْسَنَ الصَّلاةَ حَيْثُ يَرَاهُ النَّاسُ ، وَأَسَاءَهَا حَيْثُ يَخْلُو فَتِلْكَ اسْتِهَانَةٌ اسْتَهَانَ بِهَا رَبَّهُ ﷻ » (٥) .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٢٤/٤) وابن ماجه في سننه (١٤٠٦/٢) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٠١/٢ ، ٤٣٥) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٢٨/٥ ، ٢٢٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٢/١٠) والمنذري في الترغيب والترهيب (٦٨/١) .
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢١٥/٤) .
(٥) أخرجه البيهقي في سننه (٢٩٠/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢١/١٠) والمنذري في الترغيب والترهيب (٦٧/١) .

سورة مريم

روى محمد بن إسحاق في السيرة من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل ، عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة أن جعفر بن أبي طالب ﷺ قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كهيعص ۞ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۞ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۞ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۞ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة . وقوله : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾ أي هذا ذكر رحمة الله عبده زكريا ، وقرأ يحيى بن يعمر ، ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ وزكريا يمد ويقصر قراءتان مشهورتان . وكان نبيًّا عظيمًا من أنبياء بني إسرائيل . وورد في الصحيح أنه كان نجارًا يأكل من عمل يده في النجارة (٢) . وقوله : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ قيل : إنما أخفى دعاءه لئلا ينسب في طلب الولد إلى الرعونة لكبره ، وقال آخرون : إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله ، كما قال قتادة في هذه الآية : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ إن الله يعلم القلب التقي ، ويسمع الصوت الخفي . وقال بعض السلف : قام من الليل عليه السلام ، وقد نام أصحابه فجعل يهتف بربه يقول خفية : يا رب ، يا رب ، فقال الله له : لبيك لبيك لبيك ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ أي ضعفت وخارت القوى ، ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ أي اضطرم المشيب في السواد .

والمراد من هذا الإخبارُ عن الضعف والكبر ، ودلائله الظاهرة والباطنة . وقوله : ﴿ وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ أي ولم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء ، ولم تردني قط فيما سألتك . وقوله : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي ﴾ قال مجاهد وغيره : أراد بالموالي العصبة . وقال أبو صالح : الكلالة وسبب خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفًا سيئًا ، فسأل الله ولدًا يكون نبيًّا من بعده ليسوسهم بنبوته ما يوحى إليه ، فأجيب في ذلك ، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله ، فإن النبي أعظم منزلة ، وأجل قدرًا من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده ، وأن يأنف من وراثة عصباته له ، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم . هذا وجه .

الثاني : أنه لم يذكر أنه كان ذا مال ، بل كان نجارًا يأكل من كسب يديه ، ومثل هذا لا يجمع مالًا ولا سيما الأنبياء ، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا .

الثالث : أنه قد ثبت أن رسول الله ﷺ قال : « لاَ نُورَثُ ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ » (٣) . وعلى هذا فتعين حمل قوله : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۞ يَرِثُنِي ﴾ على ميراث النبوة . ولهذا قال : ﴿ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ كقوله : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ أي في النبوة ، إذ لو كان في المال لما خصه من بين

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٠١/١) . (٢) أخرجه مسلم في الفضائل (١٦٩) .
(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٣٦) ومسلم في الجهاد (٤٩) .

إخوته بذلك ، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه ، فلولا أنها وراثة خاصة ، لما أخبر بها ، وكل هذا يقرره ، ويثبته ما صح في الحديث : « نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لاَ نُورثُ مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ »(١) قال مجاهد في قوله : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ : كان وراثته علمًا ، وكان زكريا من ذرية يعقوب . وعن أبي صالح في قوله : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ قال : ويكون نبيًّا كما كانت آباؤه أنبياء ، وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره . وقوله : ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ أي مرضيًّا عندك وعند خلقك تحبه ، وتحببه إلى خلقك في دينه وخلقه .

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ .

هذا الكلام يتضمن محذوفًا ، وهو أنه أجيب إلى ما سأل في دعائه فقيل له : ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ قال قتادة وغيره : أي لم يسم أحد قبله بهذا الاسم ، وقال مجاهد : ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ أي شبيهًا أخذه من معنى قوله : ﴿ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ أي شبيهًا . وقال ابن عباس : أي لم تلد العواقر قبله مثله ، وهذا دليل على أن زكريا عليه السلام كان لا يولد له ، وكذلك امرأته كانت عاقرًا من أول عمرها بخلاف إبراهيم وسارة عليهما السلام ، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق لكبرهما لا لعقرهما ، ولهذا قال : ﴿ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ مع أنه كان قد ولد له قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة ، وقالت امرأته : ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ .

هذا تعجب من زكريا عليه السلام حين أجيب إلى ما سأل وبشر بالولد ففرح فرحًا شديدًا ، وسأل عن كيفية ما يولد له ، والوجه الذي يأتيه منه الولد مع أن امرأته كانت عاقرًا لم تلد من أول عمرها مع كبرها ، ومع أنه قد كبر وعتا أي عسا عظمه ، ونحل ولم يبق فيه لقاح ولا جماع ، والعرب تقول للعود إذا يبس : عتا يعتو عتيًّا وعتوًّا ، وعسا يعسو عسوًّا وعسيًّا . وقال مجاهد : ﴿ عِتِيًّا ﴾ يعني قحول العظم . وقال ابن عباس وغيره : ﴿ عِتِيًّا ﴾ يعني الكبر ، والظاهر أنه أخص من الكبر .

﴿ قَالَ ﴾ أي الملك مجيبًا لزكريا عما استعجب منه : ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾ أي إيجاد الولد منك ، ومن زوجتك هذه لا من غيرها ﴿ هَيِّنٌ ﴾ أي يسير سهل على الله . ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه ، فقال : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في (المغازي) (٤٠٣٦) ومسلم في الجهاد (٤٩) وأبو داود في سننه (٢٩٧٦ ، ٢٩٧٧) .

يقول تعالى مخبرًا عن زكريا عليه السلام أنه ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ﴾ أي علامة ودليلًا على وجود ما وعدتني ، لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني ، ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ ﴾ أي علامتك ﴿ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ أي أن تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال ، وأنت صحيح سوي من غير مرض ، ولا علة . قال ابن عباس : اعتقل لسانه من غير مرض ولا علة . قال ابن زيد بن أسلم : كان يقرأ ويسبح ، ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة . وقال العوفي عن ابن عباس : ﴿ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ أي متتابعات . وقال مالك عن زيد بن أسلم : ﴿ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ من غير خرس ، وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها ، ﴿ إِلَّا رَمْزًا ﴾ أي إشارة ، ولهذا قال في هذه الآية الكريمة ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ ﴾ أي الذي بشر فيه بالولد ، ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ ﴾ أي أشار إشارة خفية سريعة ﴿ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ أي موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله شكرًا لله على ما أولاه . قال مجاهد : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ ﴾ أي أشار ، وقال مجاهد في رواية عنه : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ ﴾ أي كتب لهم في الأرض .

﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ .

وهذا أيضًا تضمن محذوفًا تقديره أنه وجد هذا الغلام المبشر به ، وهو يحيى عليه السلام ، وأن الله علمه الكتاب ، وهو التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم ، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، والربانيون والأحبار ، وقد كان سنه إذ ذاك صغيرًا ، فلهذا نوه بذكره ، وبما أنعم به عليه ، وعلى والديه فقال : ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ أي تعلم الكتاب بقوة أي بجد وحرص واجتهاد ، ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ أي الفهم والعلم ، والجد والعزم ، والإقبال على الخير والإكباب عليه ، والاجتهاد وهو صغير حدث .

وقوله : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ قال ابن عباس : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ يقول ورحمة من عندنا ، وكذا قال قتادة والضحاك ، وزاد : لا يقدر عليها غيرنا ، وزاد قتادة : رحم الله بها زكريا . وقال مجاهد : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ وتعطفًا من ربه عليه ، وقال عكرمة : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ قال : محبة عليه . وقال ابن زيد : أما الحنان فالمحبة . وقال عطاء بن أبي رباح : تعظيمًا من لدنا . والظاهر من السياق أن قوله : وحنانًا معطوف على قوله : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ أي وآتيناه الحكم وحنانًا وزكاة ، أي وجعلناه ذا حنان وزكاة ، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل كما تقول العرب : حنت الناقة على ولدها ، وحنت المرأة على زوجها ، ومنه سميت المرأة حنة من الحنية وحن الرجل إلى وطنه ، ومنه التعطف والرحمة .

وعنه ﷺ قال : « يَبْقَى رَجُلٌ فِي النَّارِ يُنَادِي أَلْفَ سَنَةٍ : يَا حَنَّانُ يَا مَنَّانُ » (١) .

وقوله : ﴿ وَزَكَوٰةً ﴾ معطوف على ﴿ وَحَنَانًا ﴾ ، فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب . وقال قتادة : الزكاة العمل الصالح ، وقال الضحاك : العمل الصالح الزكي . وقال ابن عباس :

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٢٢٠) .

﴿ وَزَكَوٰةً ﴾ قال : بركة . ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ طاهرًا فلم يعمل بذنب . وقوله : ﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ لما ذكر تعالى طاعته لربه ، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقى . عطف بذكر طاعته لوالديه ، وبره بهما ومجانبته عقوقهما ، قولًا وفعلًا ، أمرًا ونهيًا ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ . ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيًّا ﴾ أي له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال .

قال الحسن : إن يحيى وعيسى عليهما السلام التقيا ، فقال له عيسى : استغفر لي أنت خير مني . فقال له الآخر : أنت خير مني . فقال له عيسى : أنت خير مني سلمت على نفسي ، وسلم الله عليك فعرف والله فضلهما .

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانًا شَرۡقِيًّا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٌ وَلَمۡ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمۡرًا مَّقۡضِيًّا ﴾ .

لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام ، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولدًا زكيًا طاهرًا مباركًا ، عطف بذكر قصة مريم في إيجاده ولدها عيسى عليه السلام منها من غير أب . فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة ، ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ ﴾ وهي مريم بنت عمران ، من سلالة داود عليه السلام ، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل . وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها في سورة آل عمران ، وأنها نذرتها محررة أي تخدم مسجد بيت المقدس وكانوا يتقربون بذلك . ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة . فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة ، وكانت في كفالة زوج أختها زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذاك ، ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره ، ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ . فذكر أنه كان يجد عندها ثمر الشتاء في الصيف ، وثمر الصيف في الشتاء .

فلما أراد الله تعالى - وله الحكمة والحجة البالغة - أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام . ﴿ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانًا شَرۡقِيًّا ﴾ أي اعتزلتهم وتنحت عنهم ، وذهبت إلى شرقي المسجد المقدَّس . عن ابن عباس قال : إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت ، والحج إليه وما صرفهم عنه إلا قيل ربك : ﴿ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانًا شَرۡقِيًّا ﴾ قال : خرجت مريم مكانًا شرقيًا ، فصلوا قبل مطلع الشمس . وعن ابن عباس قال : إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة ؛ لقول الله تعالى : ﴿ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانًا شَرۡقِيًّا ﴾ ، واتخذوا ميلاد عيسى قبلة [١] . وقال قتادة : ﴿ مَكَانًا شَرۡقِيًّا ﴾ شاسعًا متنحيًا . وقوله : ﴿ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا ﴾ أي استترت منهم وتوارت ، فأرسل الله تعالى إليها جبريل عليه السلام ، ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ أي على

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٦/٧٥) .

صورة إنسان تام كامل . قال مجاهد والضحاك وغيرهما في قوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ : يعني جبرائيل عليه السلام . وهذا الذي قالوه هو ظاهر القرآن ، فإنه تعالى قد قال : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ .

﴿ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ أي لما تبدى لها الملك في صورة بشر ، وهي في مكان منفرد ، وبينها وبين قومها حجاب ، خافته وظنت أنه يريدها على نفسها . فقالت : ﴿ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ أي إن كنت تخاف الله تذكيرًا له بالله . وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل فخوفته أولًا بالله عز وجل ، قال أبو وائل : قد علمت أن التقي ذو نهية ، حين قالت : ﴿ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أي فقال لها الملك مجيبًا لها ، ومزيلًا لما حصل عندها من الخوف على نفسها : لست مما تظنين ولكني رسول ربك ، أي بعثني الله إليك ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ ﴾ أي فتعجبت مريم من هذا . وقالت : كيف يكون لي غلام ، أي على أي صفة يوجد هذا الغلام مني ، ولست بذات زوج ، ولا يتصور مني الفجور . ولهذا قالت : ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ والبغي هي الزانية . ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾ أي فقال لها الملك مجيبًا لها عما سألت : إن الله قد قال : إنه سيوجد منك غلامًا ، وإن لم يكن لك بعل ، ولا يوجد منك فاحشة ، فإنه على ما يشاء قادر . ولهذا قال : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم ، وخالقهم ، ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أي ونجعل هذا الغلام رحمة من الله نبيًّا من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده .

وعن مجاهد قال : قالت مريم عليها السلام : كنت إذا خلوت حدثني عيسى ، وكلمني وهو في بطني ، وإذا كنت مع الناس سبح في بطني وكبر . وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى ، وقدره ومشيئته ، ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأنه كنى بهذا عن النفخ في فرجها . كما قال تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ . قال محمد بن إسحاق : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ أي إن الله قد عزم على هذا فليس منه بد .

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله ما قال ، أنها استسلمت لقضاء الله تعالى . فذكر غير واحد من علماء السلف : أن الملك هو جبرائيل عليه السلام ، عند ذلك نفخ في جيب درعها ، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج فحملت بالولد بإذن الله تعالى . فلما حملت به ضاقت ذرعًا ، ولم تدر ماذا تقول للناس ، فإنها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم به ، غير أنها أفشت سرها ، وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا . وذلك أن زكريا عليه السلام ، كان قد سأل الله الولد فأجيب إلى ذلك . فحملت امرأته فدخلت عليها مريم فقامت إليها ، فاعتنقتها وقالت : أشعرتِ يا مريم أني حبلى ؟ فقالت لها مريم : وهل علمت أيضًا أني حبلى . وذكرت لها شأنها ، وما

كان من خبرها ، وكانوا بيتَ إيمان وتصديق .

قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ : بلغني أن عيسى ابن مريم ، ويحيى بن زكريا عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ ابنا خالة ، وكان حملهما جميعًا معًا ، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم : إني أرى أن ما في بطني يسجد لما في بطنك . قال مالك : أرى ذلك لتفضيل عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ؛ لأن اللّٰه جعله يحيي الموتى ، ويبرئ الأكمه والأبرص . ثم اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، فالمشهور عن الجمهور : أنها حملت به تسعة أشهر . وقال عكرمة : ثمانية أشهر . قال : ولهذا لا يعيش ولد الثمانية أشهر ، وقال ابن جريج : أخبرني المغيرة بن عتبة بن عبد اللّٰه الثقفي ، سمع ابن عباس وسئل عن حمل مريم قال : لم يكن إلا أن حملت فوضعت . وهذا غريب ، والمشهور الظاهر أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن ؛ ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل بها ، وكان معها في المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها في البيت المقدَّس يقال له : يوسف النجار ، فلما رأى ثقل بطنها وكبره أنكر ذلك من أمرها ، ثم صرفه ما يعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها ، ثم تأمل ما هي فيه فجعل أمرها يجوس في فكره لا يستطيع صرفه عن نفسه . فحمل نفسه على أن عرض لها القول فقال : يا مريم إني سائلك عن أمر فلا تعجلي علي . قالت : وما هو ؟ قال : هل يكون قط شجر من غير حب ؟ وهل يكون زرع من غير بذر ؟ وهل يكون ولد من غير أب ؟ فقالت : نعم ، وفهمت ما أشار إليه . أما قولك : هل يكون شجر من غير حب ، وزرع من غير بذر ؟ فإن اللّٰه خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر . وهل يكون ولد من غير أب ؟ فإن اللّٰه تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم فصدقها وسلم لها حالها . ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريبة انتبذت منهم مكانًا قصيًّا ، أي قاصيًا منهم بعيدًا عنهم لئلا تراهم ولا يروها .

قال محمد بن إسحاق : فلما حملت به وملأت قلتها ، ورجعت استمسك عنها الدم ، وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والتوحم وتغير اللون ، حتى فطر لسانها فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا . وشاع الحديث في بني إسرائيل ، فقالوا : إنما صاحبها يوسف ، ولم يكن معها في الكنيسة غيره ، وتوارت من الناس ، واتخذت من دونهم حجابًا فلا يراها أحد ، ولا تراه . وقوله : ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ أي فاضطرها وألجأها الطلق إلى جذع النخلة في المكان الذي تنحت إليه . وقوله تعالى إخبارًا عنها : ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة ، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ، ولا يصدقونها في خبرها . وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية . فقالت : ﴿ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا ﴾ أي قبل هذا الحال ، ﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أي لم أخلق ، ولم أك شيئًا ، قاله ابن عباس ، وقال قتادة : ﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أي شيئًا لا يعرف ولا يذكر ، ولا يدرى من أنا ، وقال الربيع بن أنس : ﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ هو السقط . وقال ابن زيد : لم أكن شيئًا قط ، وقد قدمنا الأحاديث الدالة على النهي عن تمني الموت إلا عند الفتنة عند قوله : ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٢٤ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝٢٥ فَكُلِى

وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ .

قرأ بعضهم ﴿ مَنْ تَحْتَهَا ﴾ [1] بمعنى الذي تحتها ، وقرأ الآخرون ﴿ مِن تَحْتِهَآ ﴾ على أنه حرف جر .

واختلف المفسرون في المراد بذلك من هو ؟ فقال ابن عباس : ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ ﴾ : جبريل ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها ، وقال الضحاك : ناداها من أسفل الوادي . وقال مجاهد : ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ ﴾ قال : عيسى ابن مريم ، وعن سعيد بن جبير أنه ابنها قال : أو لم تسمع الله يقول : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ وقوله : ﴿ أَلَّا تَحْزَنِى ﴾ أي ناداها قائلًا : لا تحزني ، ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ عن ابن عباس : السري النهر ، وقال مجاهد : هو النهر بالسريانية . وقال قتادة : هو الجدول بلغة أهل الحجاز . وقال السدي : هو النهر واختار هذا القول ابن جرير . وقال آخرون : المراد بالسري عيسى عليه السلام ، والقول الأول أظهر ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ أي وخذي إليكِ بجذع النخلة ، قيل : كانت يابسة ، قاله ابن عباس ، وقيل : مثمرة ، والظاهر أنها لم تكن في إبان ثمرها ، قاله وهب بن منبه . ولهذا امتن عليها بذلك بأن جعل عندها طعامًا وشرابًا . فقال : ﴿ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ﴾ أي طيبي نفسًا ؛ ولهذا قال عمرو بن ميمون : ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب ، ثم تلا هذه الآية الكريمة .

وقوله : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا ﴾ أي مهما رأيت من أحد ، ﴿ فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ المراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك ، لا أن المراد به القول اللفظي ؛ لئلا ينافي ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ ، قال أنس بن مالك في قوله : ﴿ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾ : صمتًا ، وفي رواية عن أنس صومًا وصمتًا ، والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام . قال ابن إسحاق عن حارثة : كنت عند ابن مسعود ، فجاء رجلان فسلم أحدهما ، ولم يسلم الآخر . فقال : ما شأنك ؟ قال : أصحابه : حلف أن لا يكلم الناس اليوم . فقال عبد الله بن مسعود : كلم الناس وسلم عليهم ، فإن تلك امرأة علمت أن أحدًا لا يصدقها أنها حملت من غير زوج - يعني بذلك مريم عليها السلام - ليكون عذرًا لها إذا سئلت .

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۝ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ۝ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۝ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك ، وأن لا تكلم أحدًا من البشر ، فإنها ستكفى أمرها ويقام بحجتها ، فسلمت لأمر الله عز وجل ، واستسلمت لقضائه . فأخذت ولدها فأتت به قومها تحمله ، فلما رأوها كذلك أعظموا أمرها ، واستنكروه جدًا ، وقالوا : ﴿ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ أي أمرًا عظيمًا .

---

(١) قرأ المدنيان وحمزة والكسائي وخلف وحفص وروح (مِن تحتِها) بكسر الميم وخفض التاء ، والباقون بفتح الميم ونصب التاء . انظر تقريب النشر ص ١٤٠ .

﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ أي يا شبيهة هارون في العبادة ، ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴾ أي أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة . فكيف صدر هذا منك ؟ قال علي بن أبي طلحة والسدي : قيل لها : ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ ، أي أخي موسى ، وكانت من نسله . كما يقال للتميمي : يا أخا تميم ، وقيل : نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون ، فكانت تقاس به في الزهادة والعبادة .

وعن المغيرة بن شعبة قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا : أرأيت ما تقرأون ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ ، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ؟ قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : «أَلاَ أَخبَرْتَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُو يُسَمُّوْنَ بِالأنبِيَاءِ والصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ » (١) .

قوله : ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ الآية . قال قتادة : كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح ، ولا يعرفون بالفساد ، ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به ، وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدون به . وكان هارون مصلحًا محببًا في عشيرته ، وليس بهارون أخي موسى ، ولكنه هارون آخر . وقوله : ﴿ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴾ أي أنهم لما استرابوا في أمرها ، واستنكروا قضيتها ، وقالوا لها ما قالوا معرِّضين بقذفها ورميها بالفرية ، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامتة ، فأحالت الكلام عليه ، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه فقالوا متهكمين بها ظانين أنها تزدري بهم وتلعب بهم : ﴿ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴾ ؟ قال ميمون بن مهران : ﴿ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ ﴾ قالت : كلموه . فقالوا : على ما جاءت به من الداهية تأمرنا أن نكلم من كان في المهد صبيًّا . وقال السدي : لما ﴿ أشارت إليه ﴾ ، غضبوا وقالوا : لَسخريتها بنا حتى تأمرنا أن نكلم هذا الصبي أشد علينا من زناها . ﴿ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴾ ؟ أي من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره كيف يتكلم ؟ ﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ﴾ ، أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى ، وبرأه عن الولد ، وأثبت لنفسه العبودية لربه . وقوله : ﴿ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴾ ، تبرئة لأمه مما نُسبت إليه من الفاحشة .

وقوله : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ ﴾ . قال مجاهد والثوري : وجعلني معلمًا للخير . وفي رواية عن مجاهد : نفاعًا . وقال وهيب بن الورد مولى بني مخزوم : لقي عالم عالمًا هو فوقه في العلم فقال له : يرحمك الله ما الذي أعلن من عملي ؟ قال : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فإنه دين الله الذي بعث به أنبياءه إلى عباده ، وقد أجمع الفقهاء على قول الله : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ ﴾ وقيل : ما بركته؟ قال : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر أينما كان . وقوله : ﴿ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴾ كقوله تعالى لمحمد ﷺ : ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ وقال مالك بن أنس في قوله : ﴿ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴾ : أخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت . ما أبينها لأهل القدر . وقوله : ﴿ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي ﴾ أي وأمرني ببر والدتي ذكره بعد طاعة ربه ؛ لأن الله تعالى كثيرًا ما يقرن بين الأمر بعبادته ، وطاعة الوالدين . كما قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ ﴾ . وقوله : ﴿ وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴾ أي ولم يجعلني جبارًا مستكبرًا عن عبادته وطاعته ، وبرِّ والدتي فأشقى بذلك . وقال بعض السلف : لا تجد

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/٢٥٢) والترمذي في سننه (٣١٥٥) .

أحدًا عاقًّا لوالديه إلا وجدته جبارًا شقيًّا ، ثم قرأ : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ قال : ولا تجد سيّىء الملكة إلا وجدته مختالًا فخورًا ، ثم قرأ : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ . وقوله : ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ إثبات منه لعبوديته لله ﷻ ، وأنه مخلوق من خلق الله يحيا ويموت ، ويُبعث كسائر الخلائق . ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه : ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى ﷺ ﴿ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به ، ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبدًا نبيًّا نزه نفسه المقدسة فقال : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ ﴾ أي عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علوًّا كبيرًا . ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي إذا أراد شيئًا ، فإنما يأمر به فيصير كما يشاء . كما قال : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ . وقوله : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي ومما أمر به عيسى قومه ، وهو في مهده أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم ، وأمرهم بعبادته فقال : ﴿ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي ومما أمر به عيسى قومه ، وهو في مهده أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم ، وأمرهم بعبادته فقال : ﴿ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم ، أي قويم من اتبعه رشد ، وهدي ، ومن خالفه ضل وغوى . وقوله : ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ أي اختلف قول أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ، ووضوح حاله ، وأنه عبده ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فصممت اليهود - عليهم لعائن الله - على أنه ولد زنية ، وقالوا : كلامه هذا سحر . وقالت طائفة أخرى : إنما تكلم الله . وقال آخرون : بل هو ابن الله . وقال آخرون : ثالث ثلاثة . وقال آخرون : بل هو عبد الله ورسوله ، وهذا هو قول الحق الذي أرشد إليه المؤمنين .

وقوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ، تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله ، وافترى وزعم أن له ولدًا . ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة ، وأجلهم حلمًا وثقة بقدرته عليهم ، فإنه الذي لا يعجل على من عصاه ، كما جاء في الصحيحين : « إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١) . وفي الصحيحين أيضًا عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولدًا ، وهو يرزقهم ويعافيهم » (٢) . وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ . ولهذا قال هاهنا : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟

---

(١) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٦٨٦) والبيهقي في سننه (٩٤/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في (التوحيد) (٧٣٧٨) (ومسلم في صفات المنافقين) (٤٩ ، ٥٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٩٥/٤ ، ٤٠١) .

مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي يوم القيامة . وقد جاء في الحديث الصحيح عن عبادة بن الصامت عنه ﷺ : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِله إِلاَّ اللّه ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللّه وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَأَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ ، وَالنَّارَ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللّه الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ » (١) .

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٩ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار يوم القيامة ، ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ أي ما أسمعهم وأبصرهم ، ﴿ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ يعني يوم القيامة ، ﴿ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ ﴾ أي في الدنيا ، ﴿ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي لا يسمعون ولا يبصرون ، ولا يعقلون ، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون ، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ﴾ أي أنذر الخلائق يوم الحسرة ﴿ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أي فصل بين أهل الجنة ، وأهل النار ، وصار كل إلى ما صار إليه مخلدًا فيه . ﴿ وَهُمْ ﴾ أي اليوم ﴿ فِى غَفْلَةٍ ﴾ عما أنذروا به يوم الحسرة والندامة . ﴿ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لا يصدقون به .

عن أبي سعيد قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ وَأَهْلُ النارِ النَّارَ يُجَاءُ بِالمَوْتِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ ، فَيُوقَف بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّار فَيُقَالُ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ قَالَ : فَيَشْرَئِبُّونَ ، وَيَنْظُرُونَ ، وَيَقُولُونَ : نَعَمْ هَذَا المَوْتُ - قال - : فَيُقَالُ : يَا أَهْلَ النَّارِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ قَالَ : فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَقُولُونَ : نَعَم هَذَا المَوْتُ - قال - : فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ - قال : وَيُقَالُ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ وَلاَ مَوْت ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ وَلاَ مَوْت » . ثم قرأ رسول اللّه ﷺ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وأشار بيده ، ثم قال : « أَهْلُ الدُّنْيَا في غفلة الدنيا » (٢) وعن عبد اللّه ابن مسعود في قصة ذكرها قال : فليس نفس إلا وهي تنظر إلى بيت في الجنة ، وبيت في النار وهو يوم الحسرة فيرى أهل النار البيت الذي كان قد أعده اللّه لهم لو آمنوا ، فيقال لهم : لو آمنتم وعملتم صالحًا كان لكم هذا الذي ترونه في الجنة ، فتأخذهم الحسرة . قال : ويرى أهل الجنة البيت الذي في النار ، فيقال : لولا أن اللّه منَّ عليكم .

وعن ابن عباس في قوله : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ﴾ قال : من أسماء يوم القيامة عظمه اللّه وحذره عباده . وقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف ، وأن الخلق كلهم يهلكون ، ويبقى هو تعالى وتقدس ، ولا أحد يدعي ملكًا ولا تصرفًا . بل هو الوارث لجميع خلقه الباقي بعدهم ، الحاكم فيهم فلا تظلم نفس شيئًا ولا جناح بعوضة ، ولا مثقال ذرة .

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٤١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۝٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ

---

(١) أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء) (٣٤٣٥) ومسلم في (الإيمان) (٤٦) والإمام أحمد في مسنده (٣١٣/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٧١/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في (التفسير) (٤٧٣٠) ومسلم في الجنة (٤٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٧٧/٢) .

ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ .

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : واذكر في الكتاب إبراهيم ، واتل على قومك هؤلاء الذين يعبدون الأصنام . واذكر لهم ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن ، الذين هم من ذريته ، ويدعون أنهم على ملته ، وقد كان صديقًا نبيًا مع أبيه ، كيف نهاه عن عبادة الأصنام فقال : ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ أي لا ينفعك ، ولا يدفع عنك ضررًا ، ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ يقول : وإن كنت من صلبك ، وتراني أصغر منك لأني ولدك ، فاعلم أني قد اطلعت من العلم من الله ما لم تعلمه أنت ، ولا اطلعت عليه ، ولا جاءك . ﴿ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ أي طريقًا مستقيمًا موصلًا إلى نيل المطلوب ، والنجاة من المرهوب ، ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ أي لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام ، فإنه هو الداعي إلى ذلك والراضي به كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ . وقوله ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ أي مخالفًا مستكبرًا عن طاعة ربه ، فطرده وأبعده فلا تتبعه تصر مثله . ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ أي على شركك وعصيانك لما آمرك به . ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ يعني فلا يكون لك مولى ولا ناصرًا ، ولا مغيثًا إلا إبليس ، واتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك . كما قال تعالى : ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ۝ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ۝ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن جواب أبي إبراهيم لولده إبراهيم فيما دعاه إليه أنه قال : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ يعني إن كنت لا تريد عبادتها ، ولا ترضاها ، فانته عن سبها وشتمها وعيبها ، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك ، وشتمتك وسببتك . وهو قوله : ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ ، قاله ابن عباس والسدي وغيرهما وقوله : ﴿ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ قال مجاهد : يعني دهرًا . وقال الحسن البصري : زمانًا طويلًا . وقال السدي : ﴿ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ قال : أبدًا . وعن ابن عباس : ﴿ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ قال : سويًّا سالمًا قبل أن تصيبك مني عقوبة . فعندها قال إبراهيم لأبيه : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ﴾ يعني أما أنا فلا ينالك مني مكروه ، ولا أذى ؛ وذلك لحرمة الأبوة ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ﴾ ولكن سأسأل الله فيك أن يهديك ويغفر ذنبك ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ . قال ابن عباس وغيره : لطيفًا أي في أن هداني لعبادته ، والإخلاص له . وقال قتادة : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ قال : عوده الإجابة . وقال السدي : الحفي الذي يهتم بأمره .

وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مدة طويلة ، وبعد أن هاجر إلى الشام ، وبنى المسجد الحرام ، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام . في قوله : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ . وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين في ابتداء الإسلام ، وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل في ذلك حتى أنزل الله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ إلى قوله ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ الآية . يعني إلا في هذا القول فلا تتأسوا به . ثم بيّن تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك ،

ورجع عنه . فقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ إلى قوله ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ . وقوله : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى ﴾ أي : أجتنبكم وأتبرأ منكم ، ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله . ﴿ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى ﴾ أي : وأعبد ربي وحده لا شريك له ، ﴿ عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ . وعسى هذه موجبة لا محالة ، فإنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ .

﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ .

يقول تعالى : فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله ، أبدله الله من هو خير منهم ، ووهب له إسحاق ويعقوب يعني : ابنه وابن إسحاق ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ وقال : ﴿ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ . ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب ، وهو نص القرآن في سورة البقرة ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ . ولهذا إنما ذكر هاهنا إسحاق ويعقوب أي : جعلنا له نسلًا ، وعقبًا أنبياء أقر الله بهم عينه في حياته ولهذا قال : ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ ، فلو لم يكن يعقوب عليه السلام ، قد نبئ في حياة إبراهيم لما اقتصر عليه . ولذكر ولده يوسف ، فإنه نبي أيضًا . كما قال رسول الله ﷺ حين سئل عن خير الناس ؟ فقال : « يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّه ابْنُ يَعْقُوبَ نَبيِّ اللَّه ابن إِسْحَاقَ نَبِيِّ اللَّه ابْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّه » (١) . وقوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ قال ابن عباس : يعني : الثناء الحسن . وقال ابن جرير : إنما قال : ﴿ عَلِيًّا ﴾ لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم ، ويمدحونهم .

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ .

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه عطف بذكر الكليم فقال : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا ﴾ قرأ بعضهم بكسر اللام من الإخلاص في العبادة . وقال أبو لبابة : قال الحواريون : يا روح الله أخبرنا عن المخلص لله ؟ قال : الذي يعمل لله لا يحب أن يحمده الناس . وقرأ الآخرون بفتحها بمعنى أنه كان مصطفى (٢) ، كما قال تعالى : ﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى ﴾ . ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ جمع الله له بين الوصفين ، فإنه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة وهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم ، وعلى سائر الأنبياء أجمعين . وقوله : ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ﴾ أي : الجانب ﴿ ٱلْأَيْمَنِ ﴾ من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة ، فرآها تلوح فقصدها ، فوجدها في جانب الطور الأيمن منه غربيه عند شاطئ الوادي ، فكلمه الله تعالى ، وناداه وقربه فناجاه . قال ابن عباس : ﴿ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾ أدني حتى سمع صريف القلم (٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في (المناقب) (٣٤٩٠) ومسلم في (الفضائل) (١٦٨) والإمام أحمد في مسنده (٤٣١/٢) .
(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ مخلَصًا ﴾ وقرأ الباقون ﴿ مُخلِصًا ﴾ بكسر اللام . انظر حجة القراءات ص ٤٤٥ .
(٣) ذكره الطبري في تفسيره (١١٩/١٦) .

يعني : صريف القلم بكتابة التوراة . وقال السدي : أدخل في السماء فكلّم . وقال قتادة : نجا بصدقه . وقوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ أي : وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه ، فجعلناه نبيًّا ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ .

قال ابن عباس : قوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ قال : هارون أكبر من موسى ، ولكن أراد وهب نبوته له .

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ .

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام - وهو والد عرب الحجاز كلهم - بأنه كان صادق الوعد . قال ابن جريج : لم يعد ربه عدة إلا أنجزها ، يعني : ما التزم عبادة قط بنذر إلا قام بها ووفاها حقها . وقال سهل بن عقيل أن إسماعيل النبي عليه السلام وعد رجلًا مكانًا أن يأتيه فيه ، فجاء ونسي الرجل ، فظل به إسماعيل وبات حتى جاء الرجل من الغد فقال : ما برحت من هاهنا ؟ قال : لا . قال : إني نسيت . قال : لم أكن لأبرح حتى تأتيني . فذلك ﴿ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾ (١) .

وقال سفيان الثوري : بلغني أنه أقام في ذلك المكان ينتظره حولًا حتى جاءه . وقال عبد الله بن أبي الحمساء : بايعت رسول الله ﷺ قبل أن يبعث ، فبقيت له عليَّ بقية ، فوعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك . قال : فنسيت يومي والغد ، فأتيته في اليوم الثالث ، وهو في مكانه ذلك فقال لي : « يَا فَتَى لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ أَنَا هَاهُنَا مُنْذُ ثلاث أَنْتَظِرُكَ » (٢) وقال بعضهم : إنما قيل له ﴿ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾ ؛ لأنه قال لأبيه ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ ، فصدق في ذلك . وقال رسول الله ﷺ : « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ ، إِذَا حدَّث كَذَبَ ، وإذا وعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ » (٣) . ولما كانت هذه صفات المنافقين ، كان التلبس بضدها من صفات المؤمنين . ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد . وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضًا ، لا يعد أحدًا شيئًا إلا وفى له به . ولما توفي النبي ﷺ قال الخليفة أبو بكر الصديق : من كان له عند رسول الله ﷺ عدة أو دين فليأتني أنجز له ، فجاء جابر بن عبد الله فقال : إن رسول الله ﷺ قال : « لَوْ قَدْ جَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ أَعْطَيْتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا » (٤) . يعني : ملء كفيه ، فلما جاء مال البحرين أمر الصديق جابرًا ، فغرف بيديه من المال ، ثم أمره بعده فإذا هو خمسمائة درهم ، فأعطاه مثليها معها .

وقوله : ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق ؛ لأنه إنما وصف بالنبوة فقط ، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة ، وفي الصحيح أنه ﷺ قال : « إِنَّ اللَّه اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ » ، فدل على صحة ما قلناه . وقوله : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ هذا أيضًا من الثناء الجميل ، والصفة الحميدة ، والخلة السديدة حيث كان

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٦/١١٩) .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤٩٩٦) والبيهقي في السنن (١٠/١٩٨) وذكره الهندي في كنز العمال (٦٨٧٩) .

(٣) أخرجه البخاري في (الشهادات) (٢٦٨٢) ومسلم في (الإيمان) (١٠٧ ، ١٠٩) والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٥٧) .

(٤) أخرجه البخاري في (الكفالة) (٢٢٩٦) ومسلم في (الفضائل) (٦٠) والإمام أحمد في مسنده (٣/٣٠٧) .

صابرًا على طاعة ربه ﷻ آمرًا بها لأهله . كما قال تعالى لرسوله : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ الآية . وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « إِذَا اسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ مِنَ اللَّيْلِ ، وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ ، كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ » (١) .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ .

ذكر إدريس ﷺ بالثناء عليه بأنه كان صديقًا نبيًا ، وأن الله رفعه مكانًا عليًا ، وقد تقدم في الصحيح أن رسول الله ﷺ مر به في ليلة الإسراء ، وهو في السماء الرابعة .

قوله : ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ ، قال مجاهد : إدريس رفع ، ولم يمت كما رفع عيسى وقال منصور عنه : ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ السماء الرابعة . وقال ابن عباس : ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ : رفع إلى السماء السادسة فمات بها . وقال الحسن وغيره في قوله : ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ : الجنة .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ .

يقول تعالى : هؤلاء النبيون وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط ، بل جنس الأنبياء ﷺ . استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ﴾ الآية . قال السدي وابن جرير : فالذي عنى به من ذرية آدم إدريس ، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح إبراهيم ، والذي عنى به من ذرية إبراهيم إسحاق ويعقوب وإسماعيل ، والذي عنى به من ذرية إسرائيل موسى ، وهارون وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم . قال ابن جرير : ولذلك فرق أنسابهم ، وإن كان يجمع جميعهم آدم ؛ لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة ، وهو إدريس فإنه جد نوح ، قلت : هذا هو الأظهر أن إدريس في عمود نسب نوح ﷺ . وقد قيل : إنه من أنبياء بني إسرائيل أخذًا من حديث الإسراء حيث قال في سلامه على النبي ﷺ : مرحبًا بالنبي الصالح ، والأخ الصالح (٢) ، ولم يقل والولد الصالح ، كما قال آدم وإبراهيم ﷺ .

وعن مجاهد أنه سأل ابن عباس : أفي ﴿ صٓ ﴾ سجدة ؟ فقال : نعم . ثم تلا هذه الآية : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ فنبيكم ممن أمر أن يقتدي بهم . قال : وهو منهم يعني داود (٣) . وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ أي : إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه ، سجدوا لربهم خضوعًا واستكانة حمدًا وشكرًا على ما هم فيه من النعم العظيمة ، والبكي جمع باك ، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود هاهنا اقتداء بهم .

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ .

لما ذكر تعالى حزب السعداء وهم الأنبياء ﷺ ، ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله وأوامره

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٢٥٠) وأبو داود في سننه (٢/٧٠) وابن ماجه في سننه (١٣٣٥) .
(٢) أخرجه البخاري في (مناقب الأنصار) (٣٨٨٧) ومسلم في الإيمان (٢٦٣) والإمام أحمد في مسنده (٤/٢٠٩) .
(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٠٦ ، ٤٨٠٧) .

المؤدين فرائض الله التاركين لزواجره ، ذكر أنه خلف ﴿ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ ﴾ أي : قرون أخر ﴿ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، فهؤلاء سيلقون غيًّا أي : خسارًا يوم القيامة . وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة هاهنا . فقال قائلون : المراد بإضاعتها تركها بالكلية ، وقول عن الشافعي إلى تكفير تارك الصلاة للحديث : « بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ تَرْكُ الصَّلاةِ » (١) . والحديث الآخر : « العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلاةُ ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ » (٢) . وليس هذا محل بسط هذه المسألة . وقال ابن مخيمرة : إنما أضاعوا المواقيت ، ولو كان تركًا كان كفرًا ، وعن ابن مسعود أنه قيل له : إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴾ و ﴿ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴾ و ﴿ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ . فقال ابن مسعود : على مواقيتها . قالوا : ما كنا نرى ذلك إلا على الترك ، قال : ذلك الكفر . قال مسروق : لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس ، فيكتب من الغافلين . وفي إفراطهن الهلكة ، وإفراطهن إضاعتهن عن وقتهن ، وعن يزيد أن عمر بن العزيز قرأ ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ ثم قال : لم تكن إضاعتهم تركها ولكن أضاعوا الوقت . وقال مجاهد : ذلك عند قيام الساعة ، وذهاب صالحي أمة محمد ﷺ ينزو بعضهم على بعض في الأزقة .

وقال ابن جرير عن مجاهد قال : هم في هذه الأمة يتراكبون تراكب الأنعام ، والحمر في الطرق لا يخافون الله في السماء ، ولا يستحيون من الناس في الأرض . عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يَكُونُ خَلْفٌ بَعْدَ سِتِّينَ سَنَةً أَضَاعُوا الصَّلاةَ ، واتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ، ثُمَّ يَكُونُ خَلْفٌ يَقْرَأُونَ القُرْآنَ لاَ يَعْدُو تَرَاقِيَهُمْ ، وَيَقْرَأُ القُرْآنَ ثَلاثَةٌ : مُؤْمِن وَمُنَافِقٌ وَفَاجِرٌ » . وقال بشير : قلت للوليد : ما هؤلاء الثلاثة ؟ قال : المؤمن مؤمن به والمنافق كافر به ، والفاجر يأكل به (٣) ، وقال كعب الأحبار : والله إني لأجد صفة المنافقين في كتاب الله ﷻ ، شرَّابين للقهوات ، ترَّاكين للصلوات ، لعَّابين بالكعبات ، رقَّادين عن العتمات ، مفرِّطين في الغدوات ، ترَّاكين للجماعات . قال ثم تلا هذه الآية : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ . وقال الحسن البصري : عطلوا المساجد ، ولزموا الضيعات ، وقال أبو الأشهب العطاري : أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات ، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة ، وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدي إذا آثر شهوة من شهواته أن أحرمه طاعتي .

وقوله : ﴿ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ ، قال ابن عباس : أي خسرانًا . وقال قتادة : شرًّا . وقال عبد الله بن مسعود : واد في جهنم بعيد القعر خبيث الطعم ، وقال زياد عن أبي عياض : واد في جهنم من قيح ودم . وقوله : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ ، أي : إلا من رجع عن ترك الصلوات ، واتباع الشهوات ، فإن الله يقبل توبته ، ويحسن عاقبته ، ويجعله من ورثة جنة النعيم ، ولهذا قال : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٦٧٨) والترمذي في سننه (٢٦١٩ ، ٢٦٢٠) والبيهقي في سننه (٣/٣٦٦) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٣٤٦) والحاكم في المستدرك (١/٦ ، ٧) والترمذي في سننه (٢٦٢١) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٣٨) والحاكم في المستدرك (٢/٣٧٤) وذكره السيوطي في الدر (٤/٢٧٣ ، ٢٧٧) .

﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ ؛ وذلك لأن التوبة تجبُّ ما قبلها . وفي الحديث الآخر : « التَّائِب مِنَ الذَّنبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ » (١) ، ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئًا ؛ ولا قوبلوا بما عملوه قبلها ، فينقص لهم مما عملوه بعدها ؛ لأن ذلك ذهب هدرًا ، وترك نسيًا ، وذهب مجانًا من كرم الكريم ، وحلم الحليم .

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ۝ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ .

يقول تعالى : الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم هي جنات عدن - أي : إقامة - التي وعد الرحمن عباده بظهر الغيب - أي : هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه - وقوله : ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ تأكيد لحصول ذلك وثبوته ، واستقراره فإن الله لا يخلف الميعاد ، ولا يبدله . كقوله : ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ أي : كائنًا لا محالة . وقوله هاهنا : ﴿مَأْتِيًّا﴾ أي : العباد صائرون إليه وسيأتونه . ومنهم من قال : ﴿مَأْتِيًّا﴾ بمعنى : آتيًا ؛ لأن كل ما أتاك فقد أتيته ، كما تقول العرب : أتت علي خمسون سنة وأتيت على خمسين سنة كلاهما بمعنى واحد ؛ وقوله : ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي : هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له ، كما قد يوجد في الدنيا . وقوله : ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ استثناء منقطع كقوله : ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ ، وقوله : ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي : في مثل وقت البكرات ، ووقت العشيات ، لا أن هناك ليلًا ونهارًا ، ولكنهم في أوقات تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنوار . كما قال رسول الله ﷺ : « أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الجنَّةَ صُوَرُهُمْ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ ، لاَ يَبْصُقُونَ فِيهَا ، وَلَا يَتَمَخَّطُونَ فِيهَا ، وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ ، آنِيَتهُمْ وَأَمْشَاطُهُم الذَّهَبُ وَالفِضَّةُ ، وَمَجَامِرهُمْ الأَلُوَّة ، وَرَشْحُهُم المِسْكُ ، وَلِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَان يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْم مِنَ الحُسْنِ ، لاَ اخْتِلاَفَ بَيْنَهُمْ ، ولاَ تَبَاغُضَ ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ يُسَبِّحُونَ اللَّه بُكْرَةً وَعَشِيًّا » (٢) وقال أيضًا ﷺ : « الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقِ نَهْرٍ بِبَابِ الجَنَّةِ فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الجنَّة بُكْرَةً وَعَشِيًّا » (٣)

قال ابن عباس في قوله : ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ : مقادير الليل والنهار . وسئل زهير بن محمد عن قول الله تعالى : ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال : ليس في الجنة ليل هم في نور أبدًا ، ولهم مقدار الليل والنهار يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب ، وإغلاق الأبواب ، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب ، وبفتح الأبواب (٤) . وقال قتادة : فيها ساعتان بكرة وعشي ليس ثم ليل ولا نهار ، وإنما هو ضوء ونور . وقال مجاهد : ليس بكرة ولا عشي ، ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا ، وقوله : ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ أي : هذه الجنة التي وصفنا

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٢٥٠) والبيهقي في الكبرى (١٥٤/١٠) .
(٢) أخرجه البخاري في (بدء الخلق) (٣٢٤٥) ومسلم في الجنة (١٧) والإمام أحمد في مسنده (٢٥٣/٢ ، ٣١٦) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦٦/١) والحاكم في المستدرك (٧٤/٢) .
(٤) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٢٨/١٦) .

بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين .

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ .

عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لجبرائيل : « مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا ؟ » قال : فنزلت : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ إلى آخر الآية (١) .

وقوله : ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾ قيل : المراد ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ أمر الدنيا ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ أمر الآخرة ، ﴿ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ ما بين النفختين . وقيل : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ ما يستقبل من أمر الآخرة ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ أي : ما مضى من الدنيا ، ﴿ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ أي : ما بين الدنيا والآخرة وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ قال مجاهد : معناه : ما نسيك ربك . وعن أبي الدرداء يرفعه قال : « مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلَالٌ ، وَمَا حَرَّمَهُ فَهُوَ حَرَامٌ ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَةٌ ، فَاقْبَلُوا مِنَ اللَّهِ عَافِيَتَهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ لِيَنْسَى شَيْئًا » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ . وقوله : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي : خالق ذلك ومدبره ، والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه . ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ قال ابن عباس : هل تعلم للرب مثلًا أو شبيهًا . وقال عكرمة عن ابن عباس : ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى وتقدس اسمه .

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۝ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ۝ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا ﴾ .

يخبر تعالى عن الإنسان أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته . كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ .

وقال هاهنا : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ يستدل تعالى بالبداءة على الإعادة يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان ، ولم يك شيئًا أفلا يعيده ، وقد صار شيئًا . كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ وفي الصحيح : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي ، وَآذَانِي ابْنُ آدَمَ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُؤْذِيَنِي ، أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ : لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ آخِرِهِ ، وَأَمَّا أَذَاهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ أَنَّ لِي وَلَدًا ، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » (٢) . وقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة أنه لابد أن يحشرهم جميعًا وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله ، ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ . قال ابن عباس : يعني : قعودًا . كقوله : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ وقال السدي : يعني قيامًا ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٢٣١ ، ٣٥٧) .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٧٤) والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٥٠) .

وقوله : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ يعني من كل أمة ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ ، قال ابن مسعود : يحبس الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أتاهم جميعًا ، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرمًا وهو قوله : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ وقال قتادة : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ قال : ثم لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم في الشر ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ﴾ - إلى قوله - ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ المراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها ، وبمن يستحق تضعيف العذاب . كما قال في الآية المتقدمة : ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ .

عن أبي سمية قال : اختلفنا في الورود فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن . وقال بعضهم : يدخلوها جميعًا ، ثم ينجي الله الذين اتقوا . فلقيت جابر بن عبد الله فقلت له : إنا اختلفنا في الورود . فقال : يردونها جميعًا ، وقال سليمان بن مرة : يدخلونها جميعًا ، وأهوى بإصبعيه إلى أذنيه وقال : صمتًا ، إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لاَ يَبْقَى بَرٌّ وَلاَ فَاجِرٌ إِلاَّ دَخَلَهَا فَتَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِ بَرْدًا وَسَلاَمًا ، كَمَا كَانَتْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ حَتَّى إِنَّ لِلنَّارِ ضَجِيجًا مِنْ بَرْدِهِمْ ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ » (١) . عن قيس بن أبي حازم قال : كان عبد الله بن رواحة واضعًا رأسه في حجر امرأته فبكى فبكت امرأته قال : ما يبكيك ؟ قالت : رأيتك تبكي فبكيت قال : إني ذكرت قول الله ﷻ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ فلا أدري أنجو منها أم لا - وفي رواية - وكان مريضًا . وعن أبي إسحاق كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال : يا ليت أمي لم تلدني ، ثم يبكي فقيل له : ما يبكيك يا أبا ميسرة ؟ فقال : أخبرنا أنا واردوها ، ولم نخبر أنا صادرون عنها (٢) . وقال ابن عيينة عن عمرو : أخبرني من سمع ابن عباس يخاصم نافع بن الأزرق فقال ابن عباس : الورود الدخول ، فقال نافع : لا ، فقرأ ابن عباس ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ وردوا أم لا ؟ وقال : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ أوردها أم لا ؟ أما أنا وأنت فسندخلها فانظر هل نخرج منها أم لا ؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك فضحك نافع .

وعن مجاهد قال : كنت عند ابن عباس فأتاه رجل يقال : له أبو راشد . وهو نافع ابن الأزرق . فقال له : يا ابن عباس أرأيت قول الله : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ قال : أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها فانظر هل نصدر عنها أم لا ؟

وعن عبد الله بن مسعود ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ : « يَرِدُ النَّاسُ كُلُّهُمْ ، ثُمَّ يَصْدُرُونَ عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ » (٣) ، وعن مرة عن عبد الله بن مسعود قال : يرد الناس جميعًا

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٢٨/٣) والحاكم في المستدرك (٥٨٧/٤) وأورده السيوطي في الدر (٢٨٠/٤) وقال ابن كثير : غريب ولم يخرجوه .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٣٧/١٦) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٣٥/١) .

الصراط وورودهم قيامهم حول النار ، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم ، فمنهم من يمر مثل البرق ، ومنهم من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الطير ، ومنهم من يمر كأجود الخيل ، ومنهم من يمر كأجود الإبل ، ومنهم من يمر كعدو الرجل ، حتى إن آخرهم مرًا رجل نوره على موضع إبهامي قدميه يمر فيتكفأ به الصراط ، والصراط دحض مزلة عليه حسك كحسك القتاد ، حافتاه ملائكة معهم كلاليب من نار يختطفون بها الناس . وعن أبي الأحوص ، عن عبد الله قال : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قال : الصراط على جهنم مثل حد السيف ، فتمر الطبقة الأولى كالبرق ، والثانية كالريح ، والثالثة كأجود الخيل ، والرابعة كأجود البهائم ، ثم يمرون والملائكة يقولون : اللهم سلم سلم (١) .

وعن حفصة قالت : قال رسول الله ﷺ : « إِنِّي لأَرْجُو أَنْ لا يَدْخُلَ النَّارَ إِنْ شَاءَ الله أَحَدٌ شَهِدَ بَدْرًا والحُدَيْبِيَةَ » . قالت : فقلت : أليس الله يقول : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ ؟ قالت : فسمعته يقول : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ (٢) .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ ثَلاثَةٌ مِنَ الوَلَدِ تمسه النَّارُ إِلاَّ تَحِلَّةَ القَسَمِ » (٣) .

قال قتادة في قوله : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ : هو الممر عليها ، وقال ابن زيد ابن أسلم : ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها وورود المشركين أن يدخلوها .

وقال ابن مسعود في قوله : ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ : قسمًا واجبًا : وقال مجاهد : ﴿ حَتْمًا ﴾ قال : قضاء ، وقوله : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ أي إذا مر الخلائق كلهم على النار ، وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوي المعاصي بحسبهم ، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم ، فجوازهم على الصراط ، وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا ، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون ، فيخرجون خلقًا كثيرًا قد أكلتهم النار إلا دارات وجوههم ، وهي مواضع السجود ، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود . ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴾ .

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان ، أنهم يصدون ويعرضون عن ذلك ، ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ، ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم ﴿ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ أي : أحسن منازل وأرفع دورًا ، وأحسن نديًا ، وهو مجتمع الرجال للحديث ، أي : ناديهم أعمر وأكثر واردًا وطارقًا ، يعنون فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل وأولئك الذين هم مختفون مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٣٨/١٦) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨٥/٦) وابن ماجه في سننه (٤٢٨١) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٧/٦) .
(٣) أخرجه البخاري في (الأيمان والنذور) (٦٦٥٦) ومسلم في (البر والصلة) (١٥٠) والترمذي في سننه (١٠٦٠) .

ونحوها من الدور على الحق ؟!! كما قال تعالى مخبرًا عنهم : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ . وقال قوم نوح : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ ولهذا قال تعالى رادًّا عليهم شبهتهم : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ أي : وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم ، ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴾ أي : كانوا أحسن من هؤلاء أموالًا وأمتعة ومناظر وأشكالًا ، قال ابن عباس : المقام المنزل ، والندي المجلس والأثاث المتاع ، والرئي المنظر . وهو كما قال الله لقوم فرعون حين أهلكهم وقص شأنهم في القرآن : ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ فالمقام المسكن والنعيم ، والندي المجلس ، والمجمع الذي كانوا يجتمعون فيه . وقال تعالى فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ والعرب تسمي المجلس : النادي : وقال قتادة : لما رأوا أصحاب محمد ﷺ في عيشهم خشونة ، وفيهم قشافة فعرض أهل الشرك ما تسمعون ﴿ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ ومنهم من قال في الأثاث : هو المال ، ومنهم من قال : الثياب . ومنهم من قال : المتاع والرئي المنظر ، وقال الحسن البصري : يعني الصور ، وكذا قال مالك ﴿ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴾ أكثر أموالًا ، وأحسن صورًا ، والكل متقارب صحيح .

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم المدعين أنهم على الحق ، وأنكم على الباطل ﴿ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ ﴾ أي : منا ومنكم ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾ أي : فأمهله الرحمن فيما هو فيه حتى يلقى ربه ، وينقضي أجله ﴿ إِمَّا ٱلْعَذَابَ ﴾ ، يصيبه ﴿ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ ، بغتة تأتيه ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ ، حينئذ ﴿ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام ، وحسن الندى . قال مجاهد في قوله : ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾ أي فليدعه الله في طغيانه ، وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه . كما ذكر تعالى مباهلة اليهود في قوله : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ : أي : ادعوا بالموت على المبطل منا أو منكم إن كنتم تدّعون أنكم على الحق ، فإنه لا يضركم الدعاء ، فنكلوا عن ذلك .

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ .

لما ذكر تعالى إمداد من هو في الضلالة فيما هو فيه ، وزيادته على ما هو عليه أخبر بزيادة المهتدين هدى كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ﴾ الآيتين . وقوله : ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ قد تقدم تفسيرها ، ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ أي : جزاء ﴿ وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ أي : عاقبة ومردًا على صاحبها . وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : جلس رسول الله ﷺ ذات يوم فأخذ عودًا يابسًا فحط ورقه ثم قال : « إِنَّ قول : لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، والله أَكْبَر ، وَسُبْحَانَ الله ، والحَمْدُ للهِ تَحُطُّ الخَطَايَا كَمَا تَحُطُّ وَرَقَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الرِّيحُ ، خُذْهُنَّ يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ قَبْلَ أَنْ يُحَالَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُنَّ ، هُنَّ البَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ، وَهُنَّ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ » قال أبو سلمة : فكان أبو الدرداء إذا ذكر

هذا الحديث قال : لأهللن الله ، ولأكبرن الله ولأسبحن الله ، حتى إذا رآني الجاهل حسب أني مجنون (١) .

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ .

عن خباب بن الأرت قال : كنت رجلًا قينًا وكان لي على العاص بن وائل دين ، فأتيته أتقاضاه منه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث قال : فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيتك . فأنزل الله ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا - إلى قوله - وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ (٢) .

وقال ابن عباس : إن رجالًا من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون العاص بن وائل السهمي بدين ، فأتوه يتقاضونه فقال : ألستم تزعمون أن في الجنة ذهبًا وفضة وحريرًا ومن كل الثمرات ؟ قالوا : بلى ، قال : فإن موعدكم الآخرة فوالله لأوتين مالًا وولدًا ولأوتين مثل كتابكم الذي جئتم به . فضرب الله مثله في القرآن فقال : ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا - إلى قوله - وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ .

وقوله : ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ ﴾ إنكار على هذا القائل ﴿ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ يعني : يوم القيامة أي أعلم ماله في الآخرة ، حتى تألى وحلف على ذلك ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾ ، أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك ؟ وقد تقدم أنه الموثق ، وقال ابن عباس ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾ قال : لا إله إلا الله ، فيرجو بها . وقال ابن كعب القرظي : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، ثم قرأ : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾ وقوله : ﴿ كَلَّا ﴾ هي : حرف ردع لما قبلها ، وتأكيد لما بعدها ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ أي : من طلبه ذلك ، وحكمه لنفسه بما يتمناه ، وكفره بالله العظيم ، ﴿ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴾ أي : في الدار الآخرة على قوله ذلك ، وكفره بالله في الدنيا ، ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ ﴾ أي من مال وولد نسلبه منه عكس ما قال إنه يؤتى في الدار الآخرة مالًا وولدًا زيادة على الذي له في الدنيا ، بل في الآخرة يسلب من الذي كان له في الدنيا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ أي من المال والولد وقال مجاهد : ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ ﴾ ماله وولده ، وعن قتادة : ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ ﴾ قال : ما عنده وهو قوله : ﴿ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ وقال قتادة : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ لا مال له ولا ولد . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ ﴾ قال : ما جمع من الدنيا ، وما عمل فيها قال : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ قال : فردًا من ذلك لا يتبعه قليل ولا كثير .

﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ .

يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم أنهم اتخذوا من دونه آلهة لتكون لهم تلك الآلهة ﴿ عِزًّا ﴾ يعتزون بها ويستنصرونها ، ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا ، ولا يكون ما طمعوا فقال : ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أي : بخلاف ما ظنوا فيهم كما قال

---

(١) ذكره الهندي في (كنز العمال) (٤٤٣٢٤) . (٢) أخرجه البخاري في (التفسير) (٤٧٣٢) .

تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ . وقال السدي : ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ أي : بعبادة الأوثان . وقوله : ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أي : بخلاف ما رجوا منهم . وقال ابن عباس ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ قال : أعوانًا . قال مجاهد : عونًا عليهم تخاصمهم ، وتكذبهم ، وقال العوفي عن ابن عباس : ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ قال : قرناء . وقال قتادة : قرناء في النار يلعن بعضهم بعضًا ، ويكفر بعضهم ببعض . وقال السدي : ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ قال : الخصماء الأشداء في الخصومة ، وقال الضحاك : ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ قال : أعداء ، قال ابن زيد : الضد البلاء ، وقال عكرمة : الضد الحسرة . وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ قال ابن عباس : تغويهم إغواء . وقال العوفي عنه : تحرضهم على محمد وأصحابه . وقال مجاهد : تشليهم إشلاء . وقال قتادة : تزعجهم إزعاجًا إلى معاصي الله . وقال سفيان الثوري : تغريهم إغراء ، وتستعجلهم استعجالًا . وقال السدي : تطغيهم طغيانًا . وقال عبد الرحمن بن زيد : هذا كقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ وقوله : ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ أي : لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ أي : إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط ، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله . وقال : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ ﴾ الآية ، ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ . وقال السدي : إنما نعد لهم عدًّا : السنين والشهور ، والأيام والساعات ، وقال ابن عباس ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ قال : نعد أنفاسهم في الدنيا .

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ۝٨٦ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ .

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا ، واتبعوا رسله ، وصدقوهم فيما أخبروهم ، وأطاعوهم فيما أمروهم به ، وانتهوا عما عنه زجروهم ، أنه يحشرهم يوم القيامة وفدًا إليه ، والوفد هم القادمون ركبانًا ، ومنه الوفود ، وركوبهم على نجائب من نور في مراكب الدار الآخرة ، وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه ، وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم ، فإنهم يساقون عنفًا إلى النار ﴿ وِرْدًا ﴾ عطاشًا .

وعن ابن مرزوق قال : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ : يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها ، وأطيبها ريحًا ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أما تعرفني ؟ فيقول : لا ، إلا أن الله قد طيب ريحك ، وحسن وجهك . فيقول : أنا عملك الصالح ، وهكذا كنت في الدنيا حسن العمل طيبه فطالما ركبتك في الدنيا ، فهلم اركبني فيركبه . فذلك قوله : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ . وقال ابن عباس : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ . قال : ركبانًا . وعن أبي هريرة ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ قال : على الإبل . وقال قتادة : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ قال : إلى الجنة [١] .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٥٨/١٦ ، ١٥٩) .

وعن النعمان بن سعيد قال : كنا جلوسًا عند علي ﷺ فقرأ هذه الآية : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ قال : لا والله ما على أرجلهم يحشرون ، ولا يحشر الوفد على أرجلهم ، ولكن بنوق لم ير الخلائق مثلها عليها رحائل من ذهب ، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة (١) .

وقوله : ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ أي : عطاشًا ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾ أي : ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض كما قال تعالى مخبرًا عنهم : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ . وقوله : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ هذا استثناء منقطع بمعنى لكن من اتخذ عند الرحمن عهدًا ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، والقيام بحقها ، قال ابن عباس : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ قال : العهد شهادة أن لا إله إلا الله ، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة ، ولا يرجو إلا الله ﷻ . وعن الأسود بن يزيد قال : قرأ عبد الله - يعني ابن مسعود - هذه الآية ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ ثم قال اتخذوا عند الله عهدًا ، فإن الله يقول يوم القيامة : من كان له عند الله عهد فليقم ، قالوا : يا أبا عبد الرحمن فعلمنا . قال : قولوا : اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أنك إن تكلني إلى عملي يقربني من الشر ، ويباعدني من الخير ، وإني لا أثق إلا برحمتك ، فاجعل لي عندك عهدًا تؤديه إليَّ يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد . قال المسعودي : فحدثني زكريا عن القاسم بن عبد الرحمن ، أخبرنا ابن مسعود وكان يلحق بهن خائفًا مستجيرًا مستغفرًا راهبًا راغبًا إليك .

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ .

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى ﵇ ، وذكر خلقه من مريم بلا أب شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولدًا تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوًّا كبيرًا فقال : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝ لَّقَدْ جِئْتُمْ ﴾ أي : في قولكم هذا ، ﴿ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ قال ابن عباس : أي عظيمًا . وقوله : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ أي : يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم إعظامًا للرب وإجلالًا ؛ لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده ، وأنه لا إله إلا هو ، وأنه لا شريك له ولا نظير له ، ولا ولد له ولا صاحبة له ، ولا كفء له ، بل هو الأحد الصمد .

وفي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ   تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الوَاحِدُ

قال ابن عباس في قوله : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ قال : إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض ، والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين ، وكادت أن تزول منه لعظمة الله ، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك ، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين . وقال رسول الله ﷺ : « لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، فَمَنْ قَالَهَا عِنْدَ مَوْتِهِ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/١٥٥) .

وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ» . فقالوا : يا رسول الله فمن قالها في صحته ؟ قال : « تِلْكَ أَوْجَبُ وَأَوْجَبُ» . ثم قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ جِيءَ بِالسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِينَ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ وَمَا تَحْتَهُنَّ فَوُضِعْنَ فِي كِفَّةِ المِيزَانِ ، وَوُضِعَتْ شَهَادَةُ أَنْ لا إله إِلَّا اللَّه فِي الكِفَّةِ الأُخْرَى لَرَجَحَتْ بِهِن» (١) .

وقال الضحاك : ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ : أي : يتشققن فرقًا من عظمة الله . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ أي : غضبًا له ﷻ ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ قال ابن عباس : هدمًا . وقال سعيد بن جبير : هدًا ينكسر بعضها على بعض متتابعات .

وعن عون بن عبد الله قال : إن الجبل لينادي الجبل باسمه يا فلان هل مر بك اليوم ذكر الله ﷻ ؟ فيقول : نعم ، ويستبشر . قال عون : لهي للخير أسمع أفيسمعن الزور والباطل إذا قيل ، ولا يسمعن غيره ؟ ثم قرأ : ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾

وعن أبي موسى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ أَحَد أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعه مِنَ اللهِ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيُجْعَلَ لَهُ وَلَدٌ وَهُو يُعَافِيهِمْ وَيدْفعُ عَنْهُمْ وَيَرزُقُهُمْ» (٢) . وقوله : ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي : لا يصلح له ، ولا يليق به لجلاله وعظمته ؛ لأنه لا كفء له من خلقه ؛ لأن جميع الخلائق عبيد له ؛ ولهذا قال : ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أي : قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة ذكرهم وأنثاهم ، وصغيرهم وكبيرهم ، ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ أي : لا ناصر له ، ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له ، فيحكم في خلقه بما يشاء ، وهو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة ، ولا يظلم أحدًا .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ۝ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾ .

يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات . وهي الأعمال التي ترضي الله ﷻ لمتابعتها الشريعة المحمدية - يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة ، وهذا أمر لابد منه ولا محيد عنه . وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ : يَا جِبْرِيلُ إِنِّي أُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ - قال : فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ، قال : ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ ، قال : فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ . وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ : يَا جِبْرِيلُ إِنِّي أُبْغِضُ فُلانًا فَأَبْغِضْهُ قَالَ : فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ : إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلانًا فَأَبْغِضُوهُ . قال : فَيُبْغِضُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ البَغْضَاءُ فِي الأَرْضِ» (٣)

وعن ابن عباس في قوله : ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ قال : حبًا . وقال مجاهد عنه : سيجعل

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٦٣/١٦) ورواه مسلم مختصرًا من حديث أبي سعيد الخدري في (الجنائز) (١ ، ٢) والإمام أحمد في مسنده (٣/٣)

(٢) أخرجه البخاري في (الأدب) (٦٠٩٩) ومسلم في (صفات المنافقين) (٤٩) والإمام أحمد في مسنده (٣٩٥/٤ ، ٤٠٥) .

(٣) أخرجه البخاري في (التوحيد) (٧٤٨٥) ومسلم في (البر والصلة) (١٥٧) والإمام أحمد في مسنده (٤١٣/٢)

لهم الرحمن ودًّا قال : محبة في الناس في الدنيا . وقال سعيد بن جبير عنه : يحبهم ويحببهم يعني إلى خلقه المؤمنين ، وقال العوفي عن ابن عباس أيضًا : الود من المسلمين في الدنيا والرزق الحسن ، واللسان الصادق ، وقال قتادة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ أي : والله في قلوب أهل الإيمان ، وذكر لنا أن هرم بن حيان كان يقول : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم . وقال قتادة : وكان عثمان بن عفان ﷺ يقول : ما من عبد يعمل خيرًا أو شرًّا إلا كساه الله ﷻ رداء عمله .

وقوله : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ ﴾ يعني : القرآن ﴿ بِلِسَانِكَ ﴾ أي : يا محمد ، وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل ، ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي : المستجيبين لله المصدقين لرسوله ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ أي : عوجًا عن الحق مائلين إلى الباطل . وقال مجاهد : ﴿ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ لا يستقيمون . وقال أبو صالح : ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ عوجًا عن الحق . وقال الضحاك : الألد الخصم . وقال القرظي : الألد الكذاب . وقال الحسن البصري : ﴿ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ صمًّا ، وقال غيره : صم آذان القلوب ، وقال قتادة : يعني : قريشًا ، وقال ابن عباس : ﴿ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ فجارًا ، وقال ابن زيد : الألد الظلوم ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ . وقوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ أي : من أمة كفروا بآيات الله ، وكذبوا رسله ، ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴾ أي : هل ترى منهم أحدًا ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴾ . قال ابن عباس : يعني صوتًا ، وقال الحسن وقتادة : هل ترى عينًا أو تسمع صوتًا ؟ والركز في أصل اللغة هو الصوت الخفي .

سورة طه

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ طه ۞ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۞ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۞ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۞ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۞ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۞ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۞ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة . وعن ابن عباس قال ﴿ طه ﴾ يا رجل . وعنه ، وعن سعيد ابن جبير : أنها كلمة بالنبطية معناها : يا رجل . وقال أبو صالح : وهي معربة ، وأسند القاضي عياض في كتابه الشفاء عن الربيع بن أنس قال : كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ، ورفع الأخرى ، فأنزل الله تعالى : ﴿ طه ﴾ يعني : طأ الأرض يا محمد ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ ثم قال : ولا يخفى ما في هذا من الإكرام وحسن المعاملة . وقوله : ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ قال الضحاك : لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ قام به هو وأصحابه ، فقال المشركون من قريش : ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى . فأنزل الله تعالى : ﴿ طه ۞ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۞ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴾ فليس الأمر كما زعمه المبطلون ، بل من أتاه الله العلم فقد أراد به خيرًا كثيرًا . كما ثبت عن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ يُرِدِ اللَّه بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ »[(١)] . وعن ثعلبة بن الحكم قال : قال رسول الله ﷺ : « يَقُولُ اللَّه تَعَالَى لِلْعُلَمَاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ إِذَا قَعَدَ عَلَى كُرْسِيِّهِ لِقَضَاءِ عِبَادِهِ : إِنِّي لَمْ أَجْعَلْ عِلْمِي وَحِكْمَتِي فِيكُمْ إِلاَّ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَغْفِرَ لَكُمْ عَلَى مَا كَانَ مِنْكُمْ وَلاَ أُبَالِي »[(٢)] .

وقال مجاهد في قوله : ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ هي كقوله : ﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ ﴾ وكانوا يعلقون الحبال بصدورهم في الصلاة . وقال قتادة : ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ لا والله ما جعله شقاء ، ولكن جعله رحمة ونورًا ، ودليلاً إلى الجنة ﴿ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴾ إن الله أنزل كتابه وبعث رسوله رحمة رحم بها عباده ليتذكر ذاكر ، وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله ، وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه . وقوله : ﴿ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴾ أي هذا القرآن الذي جاءك يا محمد هو تنزيل من ربك رب كل شيء ، ومليكه القادر على ما يشاء ، الذي خلق الأرض وخلق السماوات .

وقد جاء في الحديث : أن سمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام ، وبعد ما بينها والتي تليها مسيرة خمسمائة عام ، وقوله : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف ، ولا تشبيه ولا تعطيل ، ولا تمثيل . وقوله : ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ أي : الجميع ملكه وفي قبضته وتحت تصرفه ، ومشيئته وإرادته ، وحكمه ، هو خالق ذلك ومالكه وإلهه لا إله سواه ، ولا رب غيره . وقوله : ﴿ وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ قال محمد بن كعب : أي ما تحت الأرض السابعة .

---

(١) أخرجه البخاري في (العلم) (٧١) ومسلم في (الزكاة) (٩٨) والترمذي في سننه (٢٦٤٥) .
(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (١/٣٥٠) والألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٨٦٧) .

وقوله : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ أي : أنزل هذا القرآن الذي خلق الأرض والسماوات العلى الذي يعلم السر وأخفى . كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ قال ابن عباس : ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ ، قال : السر ما أسره ابن آدم في نفسه ﴿ وَأَخْفَى ﴾ ما أخفي على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه ، فالله يعلم ذلك كله فعلمه فيما مضى من ذلك ، وما بقي علم واحد وجميع الخلائق في ذلك عنده كنفس واحدة ، وهو قوله : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ وقال الضحاك : ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ قال : السر ما تحدث به نفسك ، وأخفى ما لم تحدث به نفسك بعد . وقال سعيد بن جبير : أنت تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غدًا ، والله يعلم ما تسر اليوم وما تسر غدًا . وقال مجاهد : ﴿ وَأَخْفَى ﴾ يعني : الوسوسة . وقال أيضًا هو وسعيد بن جبير : ﴿ وَأَخْفَى ﴾ أي : ما هو عامله مما لم يحدث به نفسه .

وقوله : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي : الذي أنزل عليك القرآن هو الله الذي لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى .

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۞ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ .

من هاهنا شرع تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى ، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه ، وذلك بعدما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم . وسار بأهله قيل : قاصدًا بلاد مصر بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ومعه زوجته ، فأضل الطريق وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلًا بين شعاب وجبال في برد وشتاء ، وسحاب وظلام وضباب ، وجعل يقدح بزند معه ليوري نارًا كما جرت له العادة به فجعل لا يقدح شيئًا ، ولا يخرج منه شرر ولا شيء . فبينما هو كذلك ؛ إذ آنس من جانب الطور نارًا ؛ أي : ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه فقال لأهله يبشرهم : ﴿ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ أي : شهاب من نار . وقوله : ﴿ بِقَبَسٍ ﴾ دل على وجود الظلام . وقوله : ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ قال : من يهديني إلى الطريق وكانوا شاتين وضلوا الطريق ، فلما رأى النار قال : إن لم أجد أحدًا يهديني إلى الطريق أتيتكم بنار توقدون بها .

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۞ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۞ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۞ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۞ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۞ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا ﴾ أي : النار ، واقترب منها ﴿ نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ أي : الذي يكلمك ويخاطبك ، ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ قال علي بن أبي طالب وغير واحد من السلف : كانتا من جلد حمار غير ذكي ، وقيل : إنما أمره بخلع نعليه تعظيمًا للبقعة . وقال سعيد بن جبير : كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل الكعبة . وقيل : ليطأ الأرض المقدسة بقدميه حافيًا غير منتعل ، وقيل غير ذلك والله أعلم . وقوله : ﴿ طُوًى ﴾ قال ابن عباس : هو اسم للوادي ، وكذا قال غير واحد . فعلى هذا يكون عطف بيان ، وقيل : عبارة عن الأمر بالوطء بقدميه ، وقيل : لأنه قدس

مرتين ، وطوى له البركة وكررت والأول أصح كقوله : ﴿ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ وقوله : ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ ﴾ كقوله : ﴿ ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾ أي : على جميع الناس من الموجودين في زمانه ، وقد قيل : إن الله تعالى قال : يا موسى أتدري لم خصصتك بالتكليم من بين الناس ؟ قال : لا ، قال : لأني لم يتواضع إلي أحد تواضعك ، وقوله : ﴿ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ أي : استمع الآن ما أقول لك ، وأوحيه إليك ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وقوله : ﴿ فَٱعْبُدْنِى ﴾ أي : وحدني وقم بعبادتي من غير شريك ، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ قيل : معناه صل لتذكرني ، وقيل : معناه وأقم الصلاة عند ذكرك لي ، ويشهد لهذا الثاني ، قول رسول الله ﷺ : « إِذَا رَقَدَ أَحَدُكُم عَنِ الصَّلاَةِ أَوْ غَفِلَ عَنْهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا ؛ فَإِنَّ اللَّه تَعَالَى قَالَ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ »(١) .

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ نَامَ عَنْ صَلاَةٍ أَو نَسِيَهَا فَكَفَّارَتُهَا أَنْ يُصَلِّيَهَا إِذَا ذَكَرَهَا ، لَا كَفَّارَةَ لَهَا إِلاَّ ذٰلِكَ »(٢) . وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ أي : قائمة لا محالة ، وكائنة لابد منها وقوله : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ عن ابن عباس ، ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ يقول : لا أطلع عليها أحدًا غيري وقال السدي : ليس أحد من أهل السماوات والأرض إلا قد أخفى الله تعالى عنه علم الساعة ، وهي في قراءة ابن مسعود (أكاد أخفيها من نفسي) يقول : كتمتها من الخلائق حتى لو استطعت أن أكتمها من نفسي لفعلت ، وقال قتادة : ولعمري لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين ، ومن الأنبياء والمرسلين، قلت : وهذا كقوله تعالى : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ . وقوله ﷻ : ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ أي : أقيمها لا محالة لأجزي كل عامل بعمله : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ ، وقوله : ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ الآية . المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين ، أي لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة وأقبل على ملاذه في دنياه ، وعصى مولاه واتبع هواه ، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر . ﴿فَتَرْدَىٰ ﴾ أي : تهلك وتعطب ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ .

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ .

هذا برهان من الله تعالى لموسى عليه السلام ومعجزة عظيمة ، وخرق للعادة باهر دالٌّ على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله ﷻ ، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل . وقوله : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ قال بعض المفسرين : إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له ، وقيل : إنما قال له ذلك على وجه التقرير ، أي : أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها فسترى ما نصنع بها الآن ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ استفهام تقرير ، ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا ﴾ أي : أعتمد عليها في حال المشي ، ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾ أي أهز بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمي . قال الإمام

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٨٤/٣) والبيهقي في الكبرى (٤٥٦/٢) ومسلم في (المساجد ومواضع الصلاة) (١٦) .
(٢) أخرجه البخاري في (مواقيت الصلاة) (٥٩٧) ومسلم في (المساجد ومواضع الصلاة) (٣١٥) .

مالك : الهش : أن يضع الرجل المحجن في الغصن ، ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره ، ولا يكسر العود فهذا الهش ولا يخبط .

وقوله : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ أي مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ أي : هذه العصا التي في يدك يا موسى ألقها ، ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ أي : صارت في الحال حية عظيمة ثعبانًا طويلًا يتحرك حركة سريعة ، فإذا هي تهتز كأنها جان ، وهو أسرع الحيات حركة ، ولكنه صغير ، فهذه في غاية الكبر ، وفي غاية سرعة الحركة ﴿ تَسْعَىٰ ﴾ أي : تمشي وتضطرب ، عن ابن عباس ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ ولم تكن قبل ذلك حية فمرت بشجرة فأكلتها ، ومرت بصخرة فابتلعتها ، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة في جوفها فولى مدبرًا ، ونودي أن يا موسى خذها فلم يأخذها ، ثم نودي الثانية ، أن خذها ولا تخف . فقيل له في الثالثة : إنك من الآمنين فأخذها .

﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ .

وهذا برهان ثان لموسى ﷺ ، وهو أن الله أمره أن يدخل يده في جيبه كما صرح به في الآية الأخرى ، وهاهنا عبر عن ذلك بقوله : ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾ . وقال مجاهد : ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾ كفك تحت عضدك ، وذلك أن موسى ﷺ كان إذا أدخل يده في جيبه ، ثم أخرجها تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر . وقوله : ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ أي : من غير برص ولا أذى ومن غير شين . وقال الحسن البصري : أخرجها والله كأنها مصباح فعلم موسى أنه قد لقي ربه ﷻ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾ ، وقوله : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ أي : اذهب إلى فرعون ملك مصر الذي خرجت فارًا منه وهاربًا ، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ومره فليحسن إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم ، فإنه قد طغى وبغى وآثر الحياة الدنيا ، ونسي الرب الأعلى .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴾ هذا سؤال من موسى ﷺ لربه ﷻ أن يشرح له صدره فيما بعثه به ، فإنه قد أمره بأمر عظيم ، وخطب جسيم ، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك ، وأجبرهم وأشدهم كفرًا ، وأكثرهم جنودًا وأعمرهم ملكًا ، وأطغاهم وأبلغهم تمردًا ، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله ، ولا يعلم لرعاياه إلهًا غيره ، هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليدًا عندهم في حجر فرعون على فراشه ، ثم قتل منهم نفسًا فخافهم أن يقتلوه فهرب منهم هذه المدة بكمالها ، ثم بعد هذا بعثه ربه ﷻ إليهم نذيرًا يدعوهم إلى الله ﷻ أن يعبدوه وحده لا شريك له لهذا قال : ﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴾ أي : إن لم تكن أنت عوني ونصيري ، وإلا فلا طاقة لي بذلك ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴾ وذلك لما كان أصابه من اللثغ حين عرض عليه التمرة والجمرة ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه ، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية بل بحيث يزول العي ، ويحصل لهم فهم ما يريد منه ، وهو قدر الحاجة ، ولو سأل الجميع لزال ، ولكن

الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة ، ولهذا بقيت بقية ، قال الله تعالى إخبارًا عن فرعون أنه قال : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ أي : يفصح بالكلام ، وقال الحسن البصري : ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴾ قال : حل عقدة واحدة ولو سأل أكثر من ذلك أعطي .

وقال ابن عباس : شكا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه ، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام ، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءًا ، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه فآتاه سؤله فحل عقدة من لسانه .

وقوله : ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝ هَارُونَ أَخِي ﴾ ، وهذا أيضًا سؤال من موسى عليه السلام في أمر خارجي عنه ، وهو مساعدة أخيه هارون له . قال ابن عباس أنه قال : نبئ هارون ساعتئذ حين نبئ موسى عليهما السلام . وعن عائشة أنها خرجت فيما كانت تعتمر فنزلت ببعض الأعراب فسمعت رجلًا يقول : أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه ؟ قالوا : لا ندري . قال : أنا والله أدري ، قال : فقلت في نفسي : في حلفه لا يستثني إنه ليعلم أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه . قال : موسى حين سأل لأخيه النبوة ، فقلت : صدق والله ، قلت : ومن هذا ؟ قال : الله تعالى في الثناء على موسى عليه السلام ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ . وقوله : ﴿ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾ قال مجاهد : ظهري . ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ أي في مشاورتي ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾ قال مجاهد : لا يكون العبد من الذاكرين لله كثيرًا حتى يذكر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا ، وقوله : ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ أي في اصطفائك لنا ، وبعثتك لنا إلى عدوك فرعون ، فلك الحمد على ذلك .

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ۝ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ۝ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۝ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ۝ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ .

هذه إجابة من الله لرسوله موسى عليه السلام فيما سأل من ربه عز وجل ، وتذكير له بنعمه السالفة عليه فيما كان من أمر أمه حين كانت ترضعه وتحذر عليه من فرعون ، وملئه أن يقتلوه ، فحكم الله وله السلطان العظيم ، والقدرة التامة ، أن لا يربى إلا على فراش فرعون ، ويغذى بطعامه وشرابه مع محبته وزوجته له ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ أي : عند عدوك جعلته يحبك . قال سلمة بن كهيل : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ قال : حببتك إلى عبادي ، ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ قال قتادة : تغذى على عيني ، وقال معمر بن المثنى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ بحيث أرى ، وقال عبد الرحمن بن زيد : يعني أجعله في بيت الملك ينعم ويترف ، وغذاؤه عندهم غذاء الملك فتلك الصنعة . وقوله : ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ ، وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون عرضوا عليه المراضع فأباها قال الله تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ فجاءت أخته وقالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ تعني : هل أدلكم على من يرضعه لكم بالأجرة ، فذهبت به وهم معها إلى أمه ،

فعرضت عليه ثديها فقبله ، واستأجروها على إرضاعه ، فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا وفي الآخرة أعظم وأجزل . وفي الحديث : « مَثَلُ الصَّانِعِ الَّذِي يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الخَيْرَ كَمَثَلِ أُمِّ مُوسَى تُرْضِعُ وَلَدَهَا ، وَتَأْخُذُ أَجْرَهَا »(١) وقال تعالى هاهنا : ﴿ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ أي : عليك ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾ يعني : القبطي ﴿ فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾ وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله ففر منهم هاربًا حتى ورد ماء مدين ، وقال له ذلك الرجل الصالح ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ .

حديث الفتون

سأل سعيد بن جبير عبد اللَّه بن عباس عن قول اللَّه ﷻ لموسى عليه السلام : ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ : الفتون ما هو ؟ فقال : استأنف النهار يا ابن جبير ، فإن لها حديثًا طويلًا فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدني من حديث الفتون . فقال : تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان اللَّه وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أبناء وملوكًا فقال بعضهم : إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك لا يشكون فيه ، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب فلما هلك قالوا : ليس هكذا كان وعد إبراهيم عليه السلام . فقال فرعون : كيف ترون ؟ فائتمروا ، وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالًا معهم الشفار ، يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولودًا ذكرًا إلا ذبحوه ففعلوا ذلك ؟ فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم والصغار يذبحون قالوا : ليوشكن أن تفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي يكفونكم ، فاقتلوا عامًا كل مولود ذكر ، واتركوا بناتهم ودعوا عامًا فلا تقتلوا منهم أحدًا فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار ؛ فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم فتخافوا مكاثرتهم إياكم ، ولم يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم ، فأجمعوا أمرهم على ذلك ، فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان فولدته علانية آمنة . فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام فوقع في قلبها الهم والحزن - وذلك من الفتون يا ابن جبير - ما دخل عليه ، وهو في بطن أمه مما يراد به فأوحى اللَّه إليها فقال : ﴿ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت ، ثم تلقيه في اليم فلما ولدت فعلت ذلك لما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان . فقالت في نفسها : ما فعلت يا بني لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إلي من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه . فانتهى الماء به حتى أوفى به عند فرضة مستقي جواري امرأة فرعون ، فلما رأينه أخذنه ، فأردن أن يفتحن التابوت فقال بعضهن : إن في هذا مالًا وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه ، فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئًا حتى دفعنه إليها ، فلما فتحته رأت فيه غلامًا ، فألقى اللَّه عليه منها محبة لم يلق منها على أحد قط ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ﴾ من ذكر كل شيء ، إلا من ذكر موسى ، فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه - وذلك من الفتون يا ابن جبير - فقالت لهم : أقروه فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل ، حتى آتي فرعون ، فأستوهبه منه فإن وهبه لي كنتم قد أحسنتم

(١) أخرجه الطبراني في الصغير (٨١٤٣) .

وأجملتم ، وإن أمر بذبحه لم أملكم فأتت فرعون فقالت : قرة عين لي ولك . فقال فرعون : يكون لك فأما لي فلا حاجة لي فيه . فقال رسول الله ﷺ : «وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ لَوْ أَقَرَّ فِرْعَوْنُ أَنْ يَكُونَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَهُ كَمَا أَقَرَّتِ امْرَأَتُهُ لَهَدَاهُ اللَّه كَمَا هَدَاهَا ، وَلَكِنْ حَرَمَهُ ذَلِكَ » .

فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها أن تختار له ظئرًا ، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت ، فأحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئرًا تأخذه منها ، فلم يقبل ، وأصبحت أم موسى والهًا ، فقالت لأخته : قصي أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكرًا أحي ابني أم قد أكلته الدواب ؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه . فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون ، والجنب : أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد ، وهو إلى جنبه وهو لا يشعر به فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤرات : أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون فأخذوها فقالوا : ما يدريك ما نصحهم له هل تعرفينه ؟ حتى شكوا في ذلك - وذلك من الفتون يا ابن جبير - فقالت : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في صهر الملك ورجاء منفعة الملك فتركوها . فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر فجاءت أمه فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه ريًّا ، وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئرًا فأرسلت إليها فأتت بها وبه ، فلما رأت ما يصنع بها قالت : امكثي ترضعي ابني هذا فإني لم أحب شيئًا حبه قط ، قالت أم موسى : لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آلوه خيرًا فإني غير تاركة بيتي وولدي .

وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها فيه فتعاسرت على امرأة فرعون ، وأيقنت أن الله منجز وعده فرجعت به إلى بيتها من يومها ، وأنبته الله نباتًا حسنًا ، وحفظه لما قد قضى فيه فلم يزل بنو إسرائيل ، وهم في ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم ، فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى : أزيريني ابني فوعدتها يومًا تزيرها إياه فيه . وقالت امرأة فرعون لخزانها وظؤرها وقهارمتها : لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك ، وأنا باعثة أمينًا يحصي ما يصنع كل إنسان منكم فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون فلما دخل عليها بجلته وأكرمته وفرحت به ، ونحلت أمه لحسن أثرها عليه ثم قالت : لآتين به فرعون فلينحلنه وليكرمنه ، فلما دخلت به عليه جعله في حجره فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض . فقال الغواة من أعداء الله لفرعون : ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه إنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه - وذلك من الفتون يا ابن جبير - بعد كل بلاء ابتلي به . وأريد به فتونًا - فجاءت امرأة فرعون فقالت : ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي ؟ فقال : ألا ترينه يزعم أنه يصرعني ويعلوني فقالت : اجعل بيني وبينك أمرًا يعرف الحق به ، ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقدمهن إليه فإن بطش باللؤلؤتين ، واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل ، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحدًا لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل ، فقرب إليه الجمرتين واللؤلؤتين فتناول الجمرتين ، فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا

يده . فقالت المرأة : ألا ترى ؟ فصرفه الله عنه بعدما كان قد هم به ، وكان الله بالغًا فيه أمره ، فلما بلغ أشده وكان من الرجال لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة ، حتى امتنعوا كل الامتناع فبينما موسى عليه السلام يمشي في ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فغضب موسى غضبًا شديدًا ؛ لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل ، وحفظه لهم لا يعلم الناس إلا إنما ذلك من الرضاع ، إلا أم موسى إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره ، فوكز موسى الفرعوني فقتله وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلي . فقال موسى حين قتل الرجل : ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ ثم قال : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

فأصبح في المدينة خائفًا يترقب الأخبار ، فأتى فرعون فقيل له : إن بني إسرائيل قتلوا رجلًا من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم فقال : ابغوني قاتله ومن يشهد عليه ؛ فإن الملك وإن كان صفوة مع قومه لا يستقيم له أن يقيد بغير بينة ، ولا ثبت فاطلبوا لي علم ذلك آخذ لكم بحقكم فبينما هم يطوفون لا يجدون ثبتًا إذا بموسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلًا من آل فرعون آخر فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فصادف موسى قد ندم على ما كان منه ، وكره الذي رأى فغضب الإسرائيلي ، وهو يريد أن يبطش بالفرعوني فقال للإسرائيلي : لما فعل بالأمس واليوم إنك لغوي مبين ، فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال ، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني ، فخاف أن يكون بعدما قال له : إنك لغوي مبين أن يكون إياه أراد ولم يكن أراده إنما أراد الفرعوني . فخاف الإسرائيلي وقال : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾ وإنما قاله مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله فتتاركا . وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾ فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هينتهم يطلبون موسى ، وهم لا يخافون أن يفوتهم . فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة ، فاختصر طريقًا حتى سبقهم إلى موسى فأخبره - وذلك من الفتون يا ابن جبير - فخرج موسى متوجهًا نحو مدين لم يلق بلاء قبل ذلك ، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل فإنه قال : ﴿ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ يعني بذلك : حابستين غنمهما فقال لهما : ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس ؟ قالتا : ليس لنا قوة نزاحم القوم ، وإنما نسقي من فضول حياضهم فسقى لهما ، فجعل يغترف في الدلو ماء كثيرًا حتى كان أول الرعاء ، فانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما ، وانصرف موسى عليه السلام فاستظل بشجرة وقال : ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلًا بطانًا فقال : إن لكما اليوم لشأنًا . فأخبرتاه بما صنع موسى ، فأمر إحداهما أن تدعوه فأتت موسى فدعته ، فلما كلمه قال : ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ولسنا في مملكته فقالت إحداهما : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾

فاحتمتله الغيرة على أن قال لها : ما يدريك ما قوته وما أمانته ؟ فقالت : أما قوته ، فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا لم أر رجلًا قط أقوى في ذلك السقي منه ، وأما الأمانة : فإنه نظر إليَّ حين أقبلت إليه وشخصت له ، فلما علم أني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك ، ثم قال لي : امشي خلفي وانعتي لي الطريق ، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين . فسري عن أبيها وصدقها وظن به الذي قالت . فقال له : هل لك أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرًا فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء اللَّه من الصالحين ؟ ففعل فكانت على نبي اللَّه موسى ثمان سنين واجبة ، وكانت سنتان عدة منه فقضى اللَّه عنه عدته فأتمها عشرًا .

قال سعيد بن جبير : فلقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم ، قال : هل تدري أي الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا -وأنا يومئذ لا أدري ، فلقيت ابن عباس فذكرت له ذلك ، فقال : أما علمت أن ثمانيًا كانت على نبي اللَّه واجبة لم يكن نبي اللَّه لينقص منها شيئًا ، ويعلم أن اللَّه كان قاضيًا عن موسى عدته التي كان وعده ، فإنه قضى عشر سنين فلقيت النصراني فأخبرته ذلك . فقال : الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك ، قلت : أجل وأولى ، فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قص اللَّه عليك في القرآن فشكا إلى اللَّه تعالى ما يحذر من آل فرعون في القتيل ، وعقدة لسانه ؛ فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام ، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءًا ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه . فآتاه اللَّه سؤله ، وحل عقدة من لسانه ، وأوحى اللَّه إلى هارون ، وأمره أن يلقاه ، فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون عليه السلام فانطلقا جميعًا إلى فرعون ، فأقاما على بابه حينًا لا يؤذن لهما ، ثم أذن بعد حجاب شديد فقالا : ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ قال : فمن ربكما ؟ فأخبراه بالذي قص اللَّه عليك في القرآن ؟ قال : فما تريدان ؟ وذكره القتيل فاعتذر بما قد سمعت ، قال : أريد أن تؤمن باللَّه وترسل معنا بني إسرائيل . فأبى عليه . وقال : ائت بآية إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هي حية تسعى عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون ، فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها ، فاقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ، ففعل ، ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء يعني : من غير برص ، ثم ردها فعادت إلى لونها الأول ، فاستشار الملأ حوله فيما رأى ، فقالوا له : ﴿ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ يعني : ملكهم الذي هم فيه والعيش ، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئًا مما طلب . وقالوا له : اجمع لهما السحرة فإنهم بأرضك كثير ، حتى تغلب بسحرك سحرهما . فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم ، فلما أتوا فرعون قالوا : بما يعمل هذا الساحر ؟ قالوا : يعمل بالحيات ، قالوا : فلا واللَّه ما أحد في الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصي الذي نعمل فما أجرنا إن نحن غلبنا ؟ قال لهم : أنتم أقاربي وخاصتي ، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم ، فتواعدوا يوم الزينة ، وأن يحشر الناس ضحى .

وقال سعيد بن جبير : فحدثني ابن عباس أن يوم الزينة اليوم الذي أظهر اللَّه فيه موسى على فرعون والسحرة هو يوم عاشوراء ، فلما اجتمعوا في صعيد واحد قال الناس بعضهم لبعض : انطلقوا

فلنحضر هذا الأمر ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ يعنون : موسى وهارون استهزاءً بهما ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾ ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ﴾ ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة ، فأوحى الله إليه أن ألق عصاك ، فلما ألقاها صارت ثعبانًا عظيمة فاغرة فاها ، فجعلت العصي تلتبس بالحبال حتى صارت جَرَزًا إلى الثعبان تدخل فيه ، حتى ما أبقت عصًا ولا حبلًا إلا ابتلعته فلما عرف السحرة قالوا : لو كان هذا سحرًا لم يبلغ من سحرنا كل هذا ، ولكن هذا أمر من الله ﷻ آمنا بالله وبما جاء به موسى من عند الله ، ونتوب إلى الله مما كنا عليه . فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه ، وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴾ وامرأة فرعون بارزة متبذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه ، فمن رآها من آل فرعون ظن إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه ، وإنما كان حزنها وهمها لموسى . فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل فإذا مضت أخلف موعده ، وقال : هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا ؟ فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد ، والقمل والضفادع ، والدم آيات مفصلات كل ذلك يشكو إلى موسى ، ويطلب إليه أن يكفها عنه ، ويواثقه على أن يرسل معه بني إسرائيل فإذا كف ذلك عنه ، أخلف موعده ، ونكث عهده حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلًا ، فلما أصبح فرعون ، ورأى أنهم قد مضوا أرسل في المدائن حاشرين فتبعه بجنود عظيمة كثيرة ، وأوحى الله إلى البحر : إذا ضربك عبدي موسى بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة حتى يجوز موسى ومن معه ، ثم التق على من بقي بعد من فرعون وأشياعه . فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصا ، وانتهى إلى البحر وله قصيف مخافة أن يضربه موسى بعصاه ، وهو غافل فيصير عاصيًا لله . فلما تراءى الجمعان وتقاربا قال أصحاب موسى : إنا لمدركون افعل ما أمرك به ربك ، فإنه لم يكذب ولم تكذب . قال : وعدني ربي إذا أتيت البحر انفرق اثنتي عشرة فرقة حتى أجاوزه ، ثم ذكر بعد ذلك العصا فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى ، فانفرق البحر كما أمره ربه ، وكما وعد موسى فلما أن جاز موسى وأصحابه كلهم البحر ، ودخل فرعون وأصحابه ، التقى عليهم البحر كما أمر . فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه : إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه ، فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه ، ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ ﴾ الآية . قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم ، ومضى فأنزلهم موسى منزلًا وقال : أطيعوا هارون فإني قد استخلفته عليكم ، فإني ذاهب إلى ربي وأجّلهم ثلاثين يومًا أن يرجع إليهم فيها .

فلما أتى ربه وأراد أن يكلمه ثلاثين يومًا وقد صامهن ليلهن ونهارهن ، وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم ، فتناول موسى من نبات الأرض شيئًا فمضغه فقال له ربه حين أتاه : لم أفطرت ؟ وهو أعلم بالذي كان ، قال : يا رب إني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح قال : أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ارجع فصم عشرًا ثم ائتني

ففعل موسى عليه السلام ما أمر به . فلما رأى قومه أنه لم يرجع إليهم في الأجل ساءهم ذلك ، وكان هارون قد خطبهم وقال : إنكم قد خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عواري وودائع ، ولكم فيهم مثل ذلك ، فإني أرى أنكم تحتسبون ما لكم عندهم ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ، ولا عارية ، ولسنا برادين إليهم شيئًا من ذلك ، ولا ممسكيه لأنفسنا فحفر حفيرًا وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقذفوه في ذلك الحفير ، ثم أوقد عليه النار فأحرقته ، فقال : لا يكون لنا ولا لهم ، وكان السامري من قوم يعبدون البقر جيران لبني إسرائيل ، ولم يكن من بني إسرائيل فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا ، فقضي له أن رأى أثرًا فقبض منه قبضة فمر بهارون عليه السلام : يا سامري ألا تلقي ما في يدك وهو قابض عليه لا يراه أحد طول ذلك فقال : هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر ، ولا ألقيها لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يجعلها ما أريد ، فألقاها ودعا له هارون ، فقال : أريد أن يكون عجلًا ، فاجتمع ما كان في الحفيرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد ، فصار عجلًا أجوف ليس فيه روح وله خوار . قال ابن عباس : لا والله ما كان له صوت قط ، إنما كانت الريح تدخل في دبره وتخرج من فيه ، وكان ذلك الصوت من ذلك . فتفرق بنو إسرائيل فرقًا فقالت فرقة : يا سامري ما هذا وأنت أعلم به ؟ قال : هذا ربكم ، ولكن موسى أضل الطريق فقالت فرقة : لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى ، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأينا ، وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى .

وقالت فرقة : هذا من عمل الشيطان وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق ، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل ، وأعلنوا التكذيب به . فقال لهم هارون : ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴾ قالوا : فما بال موسى وعدنا ثلاثين يومًا ثم أخلفنا ، هذه أربعون يومًا قد مضت ، وقال سفهاؤهم : أخطأ ربه فهو يطلبه يتبعه ، فلما كلم الله موسى وقال له ما قال أخبره بما لقي قومه من بعده ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ ﴾ فقال لهم : ما سمعتم في القرآن ؟ وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، وألقى الألواح من الغضب ، ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له ، وانصرف إلى السامري فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : قبضت قبضة من أثر الرسول ، وفطنت لها وعميت عليكم ﴿ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ۝ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴾ ، ولو كان إلهًا لم يخلص إلى ذلك منه فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة ، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون ، فقالوا لجماعتهم : يا موسى سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فيكفِّر عنا ما عملنا ، فاختار موسى قومه سبعين رجلًا لذلك لا يألو الخير ، خيار بني إسرائيل ومن لم يشرك في العجل فانطلق بهم يسأل لهم التوبة ، فرجفت بهم الأرض ، فاستحيا نبي الله من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل فقال : ﴿ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ ﴾ وفيهم من كان الله اطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به ، فلذلك رجفت بهم الأرض فقال : ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ

يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ . فقال : يا رب سألتك التوبة لقومي فقلت : إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي هلا أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحومة ، فقال له : إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقي من والد وولد فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن ، وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون ، واطلع الله على ذنوبهم ، فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا ، وغفر الله للقاتل والمقتول . ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجهًا نحو الأرض المقدسة ، وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب ، فأمرهم بالذي أمرهم به أن يبلغهم من الوظائف ، فثقل ذلك عليهم ، وأبوا أن يقروا بها ، فنتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة ، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم ، فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل والكتاب بأيديهم ، وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة ، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون خلقهم خلق منكر ، وذكروا من ثمارهم أمرًا عجيبًا من عظمها فقالوا : يا موسى إن فيها قومًا جبارين لا طاقة لنا بهم ، ولا ندخلها ما داموا فيها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يُخافون - قيل ليزيد هكذا قرأت قال : نعم من الجبارين - آمنا بموسى وخرجا إليه قالوا : نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم ، فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم ، فادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، ويقول أناس : إنهم من قوم موسى ، فقال الذين يخافون - بنو إسرائيل : ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ فأغضبوا موسى فدعا عليهم ، وسماهم فاسقين ، ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ ، فاستجاب الله له وسماهم كما سماهم موسى فاسقين ، وحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ، يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار ، وظلل عليهم الغمام في التيه ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وجعل لهم ثيابًا لا تبلى ولا تتسخ ، وجعل بين ظهرانيهم حجرًا مربعًا ، وأمر موسى فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا في كل ناحية ثلاثة أعين وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها فلا يرتحلون من مكان إلا وجدوا ذلك بالحجر بينهم بالمكان الذي كان فيه بالأمس [1] .

﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ۝ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ۝ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ۝ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا لموسى عليه السلام : إنه لبث مقيمًا في أهل مدين فارًا من فرعون وملئه يرعى على صهره ، حتى انتهت المدة وانقضى الأجل ، ثم جاء موافقًا لقدر الله وإرادته من غير ميعاد ، والأمر كله لله تبارك وتعالى ، وهو المسيِّر عباده وخلقه فيما يشاء . ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ قال مجاهد : أي على موعد ، وقال عبد الرزاق : على قدر الرسالة والنبوة . وقوله : ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ أي : اصطفيتك واجتبيتك رسولًا لنفسي أي : كما أريد وأشاء . ذكر البخاري عند تفسيرها حديثًا عن رسول الله ﷺ قال : « الْتَقَى آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ مُوسَى : أَنْتَ الَّذِي أَشْقَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الجَنَّةِ ؟ فَقَالَ آدَمُ : وَأَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ واصْطَفَاكَ لِنَفْسِهِ وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٦/٢٠٦) .

التَّوْرَاةَ ؟ قَالَ : نَعَم : قَالَ فَوَجَدْتَهُ مَكْتُوبًا عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى »[١] وقوله : ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي ﴾ أي : بحججي وبراهيني ومعجزاتي ﴿ وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ قال ابن عباس : لا تبطئا ، وقال مجاهد عن ابن عباس : لا تضعفا . والمراد أنهما لا يفتران في ذكر الله بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون ؛ ليكون ذكر الله عونًا لهما عليه وسلطانًا كاسرًا . وقوله : ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ أي تمرد وعتا وتجبر على الله وعصاه ، ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ . هذه الآية فيها عبرة عظيمة ، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار ، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك ، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين . وعن الحسن البصري قال في : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ أعذرا إليه ، قولا له : إن لك ربًّا ولك معادًا ، وإن بين يديك جنة ونارًا . وقال النزال بن سبرة عن علي في قوله : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ :كنّه . كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ . وقوله : ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ أي لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة أو يخشى . أي : يوجد طاعة من خشية ربه كما قال تعالى : ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ أو يخشى فالتذكر الرجوع عن المحذور ، والخشية تحصيل الطاعة . وقال الحسن البصري : ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ يقول : لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون أهلكه قبل أن أعذر إليه .

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝ قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ۝ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ .

يقول تعالى إخبارًا عن موسى وهارون عليهما السلام : أنهما قالا مستجيرين بالله تعالى شاكيين إليه ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ يعنيان : أن يبدر إليهما بعقوبة ، أو يعتدي عليهما فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أن يفرط يعجل . وقال مجاهد : يسلط علينا . وقال ابن عباس : ﴿ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ : يعتدي ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ أي : لا تخافا منه فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه ، وأرى مكانكما ومكانه لا يخفى عليّ من أمركم شيء . وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي . ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ قد تقدم في حديث الفتون عن ابن عباس أنه قال : مكثا على بابه حينًا لا يؤذن لهما حتى أذن لهما بعد حجاب شديد . وقوله : ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي : بدلالة ومعجزة من ربك ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ أي : والسلام عليك إن اتبعت الهدى ، ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتابًا كان أوله « بسم الله الرحمن الرحيم مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّه إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّوم ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى . أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ ، فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللَّه أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ »[٢] . ولهذا قال موسى وهارون عليهما السلام لفرعون : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ۝ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أي : قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم أن

---

(١) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٣٦) ومسلم في القدر (١٤) .
(٢) أخرجه مسلم في (الجهاد) (٧٤) .

العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته .

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون : أنه قال لموسى منكرًا وجود الصانع الخالق إله كلّ شيء وربه ومليكه ، قال : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ ؟ أي : الذي بعثك وأرسلك من هو ، فإني لا أعرفه وما علمت لكم من إله غيري . ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ قال ابن عباس : خلق لكل شيء زوجه . وقال الضحاك عن ابن عباس : جعل الإنسان إنسانًا والحمار حمارًا والشاة شاة . وقال مجاهد : أعطى كل شيء صورته . وقال ابن نجيح عنه : سوّى خلق كل دابة ، وقال سعيد بن جبير : أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه ، ولم يجعل للإنسان من خلق الدابة ، ولا للدابة من خلق الكلب ، ولا للكلب من خلق الشاة ، وأعطى كل شيء ما ينبغي له من النكاح ؛ وهيأ كل شيء على ذلك ، ليس شيء منها يشبه شيئًا من أفعاله في الخلق والرزق والنكاح . وقال بعض المفسرين : أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . كقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ أي : قدر قدرًا وهدى الخلائق إليه أي : كتب الأعمال والآجال والأرزاق ، ثم الخلائق ماشون على ذلك لا يحيدون عنه ، ولا يقدر أحد على الخروج منه . يقول : ربنا الذي خلق الخلق وقدر القدر ، وجبل الخليقة على ما أراد . ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ أصح الأقوال في معنى ذلك : أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدر فهدى ، شرع يحتج بالقرون الأولى أي : الذين لم يعبدوا الله أي : فما بالهم إذ كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره ؟ فقال له موسى في جواب ذلك : هم وإن لم يعبدوه ، فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم ، وسيجزيهم بعملهم في كتاب الله وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمار . ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ أي : لا يشذ عنه شيء ، ولا يفوته صغير ولا كبير ، ولا ينسى شيئًا يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط ، وأنه لا ينسى شيئًا تبارك وتعالى وتقدس وتنزه ، فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان ؛ أحدهما عدم الإحاطة بالشيء ، والآخر نسيانه بعد علمه فنزه نفسه عن ذلك .

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ .

هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه ﷻ حين سأله فرعون عنه ، فقال : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ ثم اعترض الكلام بين ذلك . ثم قال : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ وفي قراءة ﴿ مِهَادًا ﴾ (١) أي : قرارًا تستقرون عليها ، وتقومون وتنامون عليها وتسافرون على ظهرها . ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أي : جعل لكم طرقًا تمشون في مناكبها ، ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ أي : من أنواع النباتات من زروع وثمار ، ومن حامض وحلو ومر وسائر الأنواع . ﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ﴾ أي : شيء لطعامكم وفاكهتكم ، وشيء لأنعامكم لأقواتها خضرًا

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (مِهَادًا) وقرأ أهل الكوفة (مَهْدًا) . انظر حجة القراءات ص ٤٥٣ .

ويبسًا . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ ﴾ أي : لدلالات وحججًا وبراهين ﴿ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ أي لذوي العقول السليمة المستقيمة ، على أنه لا إله إلا الله ولا رب سواه . ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ أي : من الأرض مبدؤكم ، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ أي : وإليها تصيرون إذا متم وبليتم ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ وفي الحديث أن رسول الله ﷺ حضر جنازة ، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر ، وقال : منها خلقناكم ، ثم أخذ أخرى ، وقال : وفيها نعيدكم ، ثم أخرى وقال : ومنها نخرجكم تارة أخرى . وقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ يعني : فرعون أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات وعاين ذلك وأبصره ، فكذب بها وأباها كفرًا وبغيًا .

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى ، وهي إلقاء عصاه فصارت ثعبانًا عظيمًا ، ونزع يده من تحت جناحه ، فخرجت بيضاء من غير سوء فقال : هذا سحر جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس فيتبعونك وتكاثرنا بهم ، ولا يتم هذا معك ، فإن عندنا سحرًا مثل سحرك ، فلا يغرنك ما أنت فيه ﴿ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ أي : يومًا نجتمع نحن وأنت فيه ، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان معين ووقت معين فعند ذلك ، ﴿ قَالَ ﴾ لهم موسى ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ وهو يوم عيدهم وتفرغهم من أعمالهم ، واجتماع جميعهم ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء ، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية ، ولهذا قال : ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ﴾ أي : جميعهم ﴿ ضُحًى ﴾ أي : ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح ، قال وهب بن منبه : قال فرعون : يا موسى اجعل بيننا وبينك أجلًا ننظر فيه . قال موسى : لم أومر بهذا ، إنما أمرت بمناجزتك إن أنت لم تخرج دخلت إليك ، فأوحى الله إلى موسى أن اجعل بينك وبينه أجلًا ، وقل له أن يجعل هو . قال فرعون : اجعله إلى أربعين يومًا ففعل . وقال مجاهد وقتادة : ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ منصفًا وقال السدي : عدلًا وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ مستو بين الناس وما فيه ، لا يكون صوت ، ولا شيء يتغيب بعض ذلك عن مستو حين يرى .

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون : أنه لما تواعد هو وموسى عليه السلام إلى وقت ومكان معلومين ، تولى أي : شرع في جمع السحرة من مدائن مملكته ، كل من ينسب إلى السحر في ذلك الزمان ، وقد كان السحر فيهم كثيرًا نافقًا جدًا ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ ثم أتى أي : اجتمع الناس لميقات يوم معلوم ، وهو يوم الزينة ، وأقبل موسى عليه الصلاة والسلام متوكئًا على عصاه ، ومعه أخوه هارون ووقفت السحرة بين يدي فرعون صفوفًا ، وهو يعدهم ويمنيهم يقولون :

﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي : لا تخيّلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها ، وإنها مخلوقة وليست مخلوقة فتكونون قد كذبتم على الله . ﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ أي : يهلككم بعقوبة هلاكًا لا بقية له ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝ فَتَنَٰزَعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ قيل : معناه أنهم تشاجروا فيما بينهم . فقائل يقول : ليس هذا بكلام ساحر إنما هو كلام نبي ، وقائل يقول : بل هو ساحر ، وقيل غير ذلك والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَىٰ ﴾ أي : تناجوا فيما بينهم ، ﴿ قَالُوٓا إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ قال السحرة فيما بينهم : تعلمون أن هذا الرجل وأخاه - يعنون موسى وهارون - ساحران يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس ، وتتبعهما العامة ويخرجاكم من أرضكم . وقوله : ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ أي : ويستبدا بهذه الطريقة ، وهي السحر فإنهم كانوا معظمين بسببها ، لهم أموال وأرزاق عليها ، يقولون : إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض وتفردا بذلك وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم . وقد تقدم في حديث الفتون أن ابن عباس قال في قوله : ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ يعني : ملكهم الذي هم فيه والعيش . وعن علي قال : يصرفا وجوه الناس إليهما . وقال مجاهد : أولو الشرف والعقل والأسنان . وقال أبو صالح : ﴿ بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ أشرافكم وسرواتكم . وقوله : ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا صَفًّا ﴾ أي : اجتمعوا كلكم صفًا واحدًا ، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة لتبهروا الأبصار ، وتغلبوا هذا وأخاه ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ أي منا ومنه ، أما نحن فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل ، وأما هو فينال الرياسة العظيمة .

﴿ قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن السحرة حين توافقوا هم وموسى عليه السلام أنهم قالوا لموسى : ﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ ﴾ أي : أنت أولًا ، ﴿ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴾ أي : أنتم أولًا لنرى ماذا تصنعون من السحر وليظهر للناس جلية أمرهم . ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ . وفي الآية الأخرى ﴿ سَحَرُوٓا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه ، وتضطرب وتميد بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها وإنما كانت حيلة ، وكانوا جمًا غفيرًا ، وجمعًا كثيرًا ، فألقى كل منهم عصًا وحبلًا ، حتى صار الوادي ملآن حيات يركب بعضها بعضًا ، وقوله : ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ أي : خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم ويغتروا بهم ، قبل أن يلقي ما في يمينه فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة أن ألق ما في يمينك - يعني : عصاك - فإذا هي تلقف ماصنعوا ، وذلك أنها صارت تنينًا عظيمًا هائلًا ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس ، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي حتى لم تبق منها شيئًا إلا تلقفته وابتلعته ، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانًا جهرة نهارًا ضحوة ، فقامت المعجزة ، واتضح البرهان ، ووقع الحق وبطل السحر . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ فعلم

السحرة علم اليقين أن هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل ، وأنه حق لا مرية فيه ، ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء : كن ، فيكون فعند ذلك وقعوا سجدًا لله ، وقالوا : آمنا برب العالمين رب موسى وهارون .

وعن سعيد بن جبير قال : ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾ : رأوا منازلهم تبين لهم في سجودهم ، وكذا قال عكرمة والقاسم بن أبي بزة .

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن كفر فرعون وعناده وبغيه ، ومكابرته الحقَّ بالباطل حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة ، والآية العظيمة ، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم ، وغلب كل الغلب ، شرع في المكابرة والبهت ، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة فتهددهم وتوعدهم وقال : ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ ﴾ أي : صدقتموه ﴿ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ أي : وما أمرتكم بذلك ، وافتتم عليّ في ذلك : ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ أي : أنتم أخذتم السحر عن موسى ، واتفقتم أنتم وإياه عليّ ، وعلى رعيتي لتظهروه ، ثم أخذ يتهددهم فقال : ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ أي : لأجعلنكم مثله ولأقتلنكم ولأشهرنكم . قال ابن عباس : فكان أول من فعل ذلك .

وقوله : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ أي : أنتم تقولون إني وقومي على ضلالة ، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى ، فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه ، فهانت عليهم أنفسهم في الله ﷻ و ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ أي : لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين ﴿ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ﴾ يحتمل أن يكون قسمًا ، ويحتمل أن يكون معطوفًا على البينات ، يعنون لا نختارك على فاطرنا ، وخالقنا الذي أنشأنا من العدم المبتدئُ خلقنا من الطين فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ أي : فافعل ماشئت ، ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ أي : إنما لك تسلط في هذه الدار ، وهي دار الزوال ونحن قد رغبنا في دار القرار ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا ﴾ أي : ما كان منا من الآثام خصوصًا ما أكرهتنا عليه من السحر لتعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه ، وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ﴾ قال : أخذ فرعون أربعين غلامًا من بني إسرائيل ، فأمر أن يعلموا السحر بالفرماء ، وقال : علموهم تعليمًا لا يعلمه أحد في الأرض ، قال ابن عباس : فهم من الذين آمنوا بموسى وهم من الذين قالوا : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أي : خير لنا منك ﴿ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أي : أدوم ثوابًا مما كنت وعدتنا ومنيتنا ، ﴿ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أي : منك عذابًا إن عصي ، والظاهر أن فرعون لعنه الله صمم على ذلك ، وفعله بهم رحمة لهم من الله ؛ ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف ، أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء .

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ .

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون يحذرونه من نقمة الله ، وعذابه الدائم السرمدي ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد ، فقالوا : ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا ﴾ أي : يلقى الله يوم القيامة وهو مجرم ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ كقوله : ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ وفي الحديث : « أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا ، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ ، وَلَكِنْ أُنَاسٌ تُصِيبُهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ ، فَتُمِيتُهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا صَارُوا فَحْمًا أُذِنَ فِي الشَّفَاعَةِ جِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الجَنَّةِ فَيُقَالُ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ » فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ ﴾ أي : ومن لقي ربه يوم المعاد مؤمن القلب قد صدق ضميره بقوله وعمله ، ﴿ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴾ أي : الجنة ذات الدرجات العاليات ، والغرف الآمنات والمساكن الطيبات . وعن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال : « الجَنَّةُ مِائَةُ دَرَجَةٍ ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، وَالفِرْدَوْسُ أَعْلَاها دَرَجَةً ، وَمِنْهَا تَخْرُجُ الأَنْهَارُ الأَرْبَعَةُ ، وَالعَرْشُ فَوْقَهَا ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ » (٢) . وفي الحديث : « إِنَّ أَهْلَ عِلِّيِّينَ لَيَرَوْنَ مَنْ فَوْقَهمْ كَمَا تَرَوْنَ الكَوْكَبَ الغَابِرَ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ - قَالُوا : يا رسول الله تلك منازعة الأنبياء قال : « بَلْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ » (٣) .

وقوله : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ أي إقامة وهي بدل من الدرجات العلى ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي : ماكثين أبدًا ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ أي : طهر نفسه من الدنس والخبث والشرك ، وعبد الله وحده لا شريك له ، واتبع المرسلين فيما جاؤوا به من خير وطلب .

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا : أنه أمر موسى عليه السلام حين أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل ، أن يسري بهم في الليل ، ويذهب بهم من قبضة فرعون ، وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم لا بمصر لا داع ولا مجيب ، فغضب فرعون فأرسل في المدائن حاشرين أي : من يجمعون له الجند من بلدانه ورساتيقه يقول : ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ . ثم جمع جنده ، واستوسق له جيشه ساق في طلبهم ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ أي : عند طلوع الشمس ، ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾ أي : نظر كل من الفرقين إلى الآخر ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ . ووقف موسى ببني إسرائيل البحر أمامهم ، وفرعون وراءهم فعند ذلك أوحى الله إليه ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ فضرب البحر بعصاه وقال : انفلق علي بإذن الله ﴿ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ ﴾ . أي : الجبل العظيم فأرسل الله الريح على أرض البحر ، فلفحته حتى صار يابسًا

(١) أخرجه مسلم في (الإيمان) (٣٠٨) والإمام أحمد في مسنده (١١/٣) والحاكم في المستدرك (٦١٩/٣) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٩٢/٢) ، (٣١٦/٥ ، ٣٢١) .
(٣) أخرجه البخاري في (بدء الخلق) ومسلم في الجنة (١١) .

كوجه الأرض فلهذا قال : ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا ﴾ أي : من فرعون ﴿ وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ يعني : من البحر أن يغرق قومك ، ثم قال تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ ﴾ أي : البحر ﴿ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ أي : الذي هو معروف ومشهور وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور .

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ .

يذكر تعالى نعمه على بني إسرائيل العظام ، ومننه الجسام حيث أنجاهم من عدوهم فرعون ، وأقر أعينهم منه وهم ينظرون إليه ، وإلى جنده قد غرقوا في صبيحة واحدة لم ينج منهم أحد . كما قال : ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ وعن ابن عباس قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وجد اليهود تصوم عاشوراء فسألهم ؟ فقالوا : هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى على فرعون فقال : « نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى فَصُومُوهُ » [(١)] ، ثم إنه تعالى واعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن - وهو الذي كلمه الله تعالى عليه وسأل فيه الرؤيا ، وأعطاه التوراة هنالك - وفي غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العجل كما يقصه الله تعالى قريبًا ، وأما المن والسلوى ، فقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة وغيرها ، فالمن : حلوى كانت تنزل عليهم من السماء ، والسلوى : طائر يسقط عليهم فيأخذون من كل قدر الحاجة إلى الغد لطفًا من الله ورحمة بهم ، وإحسانًا إليهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ أي : كلوا من هذا الرزق الذي رزقتكم ، ولا تطغوا في رزقي فتأخذوه من غير حاجة ، وتخالفوا ما أمرتكم به ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ أي : أغضب عليكم ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ قال ابن عباس : فقد شقي . وقوله : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أي : كل من تاب إلي تبت عليه من أي ذنب كان ، حتى إنه تاب تعالى على من عبد العجل من بني إسرائيل .

وقوله تعالى : ﴿ تَابَ ﴾ أي : رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق ، وقوله : ﴿ وَآمَنَ ﴾ أي : بقلبه ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أي : بجوارحه ، وقوله : ﴿ ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ قال ابن عباس : أي : ثم لم يشك ، وقال سعيد بن جبير : أي : استقام على السنة والجماعة ، وقال قتادة : أي لزم الإسلام حتى يموت ، وقال سفيان الثوري : أي : علم أن لهذا ثوابًا . وثم هاهنا لترتيب الخبر على الخبر كقوله : ثم كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٨٠) والإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٤٠) .

لما سار موسى عليه السلام ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون ، ﴿ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها عشرًا ، فتمت أربعين ليلة أي يصومها ليلًا ونهارًا ، وقد تقدم في حديث الفتون بيان ذلك فسارع موسى عليه السلام مبادرًا إلى طور ، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي ﴾ أي : قادمون ينزلون قريبًا من الطور ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ أي : لتزداد عني رضًا ، ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل ، وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك السامري . ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ ﴾ أي : بعد ما أخبره تعالى بذلك في غاية الغضب والحنق عليهم ، هو فيما هو من الاعتناء بأمرهم ، وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم ، وفيها شرف لهم ، وهم قوم قد عبدوا غير الله ، ما يعلم كل عاقل له لب ، وحزم بطلان ما هم فيه وسخافة عقولهم وأذهانهم ولهذا قال : رجع إليهم غضبان أسفًا ، والأسف : شدة الغضب . وقال مجاهد : ﴿ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ ﴾ أي : جزعًا ، وقال قتادة : أسفًا حزينًا على ما صنع قومه من بعده ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ ﴾ أي أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة ، وحسن العاقبة ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ ﴾ أي : في انتظار ما وعدكم الله ، ونسيان ما سلف من نعمه ، وما بالعهد من قدم . ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أم هاهنا بمعنى : بل ، وهي للإضراب عن الكلام الأول ، وعدول إلى الثاني كأنه يقول : بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي ؟ قالوا : أي بنو إسرائيل في جواب ما أنبهم موسى وقرعهم : ﴿ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ أي : عن قدرتنا واختيارنا ، ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد يخبرونه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر ، فقذفناها أي ألقيناها عنا . وقد تقدم في حديث الفتون أن هارون عليه السلام هو الذي كان أمرهم بإلقاء الحلي في حفرة فيها نار . وهي في رواية السدي عن أبي مالك عن ابن عباس إنما أراد هارون أن يجتمع الحلي كله في تلك الحفيرة ، ويجعل حجرًا واحدًا ، حتى إذا رجع موسى عليه السلام رأى فيه ما يشاء ، ثم جاء ذلك السامري فألقى عليهما تلك القبضة التي أخذها من أثر الرسول ، وسأل من هارون أن يدعو الله أن يستجيب له في دعوة ؟ فدعا له هارون وهو لا يعلم ما يريد فأجيب له . فقال السامري عند ذلك : أسأل الله أن يكون عجلًا ؟ فكان عجلًا له خوار أي : صوت استدراجًا وإمهالًا ومحنة واختبارًا ولهذا قال : ﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ وقال السدي : كان يخور ويمشي فقالوا : أي الضلال منهم الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه : ﴿ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ أي نسيه هاهنا وذهب يتطلبه . وقال ابن عباس ﴿ فَنَسِيَ ﴾ أي : نسي أن يذكركم أن هذا إلهكم . وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس فقالوا : ﴿ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ ﴾ قال : فعكفوا عليه وأحبوه حبًّا لم يحبوا شيئًا قط يعني : مثله يقول الله ﴿ فَنَسِيَ ﴾ أي : ترك ما كان عليه من الإسلام - يعني السامري - قال الله تعالى ردًّا عليهم وتقريعًا لهم وبيانًا

لفضيحتهم ، وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ أي : العجل أفلا يرون أنه لا يجيبهم إذا سألوه ، ولا إذا خاطبوه ، ولا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا أي : في دنياهم ، ولا في أخراهم . قال ابن عباس رضي الله عنهما : لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح في دبره فيخرج من فمه فيسمع له صوت .

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ .

يخبر تعالى عما كان من نهي هارون عليه السلام لهم عن عبادتهم العجل وإخباره إياهم إنما هذا فتنة لكم ، وإن ربكم الرحمن الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا ، ذو العرش المجيد الفعال لما يريد ﴿ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾ أي : فيما آمركم به واتركوا ما أنهاكم عنه ﴿ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ أي : لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه ، وخالفوا هارون وحاربوه وكادوا أن يقتلوه .

﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ .

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام حين رجع إلى قومه فرأى ما حدث فيهم من الأمر العظيم ، فامتلأ عند ذلك غضبًا ، وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه . وقال : ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ أي : فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾ أي : فيما كنت قدمت إليك وهو قوله : ﴿ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ . قال : ﴿ يَبْنَؤُمَّ ﴾ ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه ؛ لأن ذكر الأم هاهنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف ، ولهذا قال : ﴿ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ﴾ الآية . هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه ، قال : ﴿ إِنِّى خَشِيتُ ﴾ أن أتبعك فأخبرك بهذا فتقول لي : لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ، ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ أي : وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم ، قال ابن عباس : وكان هارون هائبًا مطيعًا له .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ .

يقول موسى عليه السلام للسامري ، ما حملك على ما صنعت ، وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت ؟ قال ابن عباس : كان السامري رجلًا من أهل باجرما ، وكان من قوم يعبدون البقر ، وكان حب عبادة البقر في نفسه ، وكان قد أظهر الإسلام مع بني إسرائيل ، وكان اسمه موسى بن ظفر . وفي رواية عن ابن عباس أنه كان من كرمان . وقال قتادة : كان من قرية سامرا ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي : رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ أي : من أثر فرسه هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم . وقال مجاهد : من تحت حافر فرس

جبريل ، وقال : نبذ السامري أي : ألقى ما كان في يده على حلية بني إسرائيل ، فانسبك عجلًا جسدًا له خوار حفيف الريح فيه فهو خواره . ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ أي : ألقيتها مع من ألقى ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾ أي : حسَّنته وأعجبها إذ ذاك ، ﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ أي : كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ، ومسه من أثر الرسول فعقوبتك في الدنيا أن تقول : لا مساس أي لا تماس الناس ، ولا يمسونك ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ لَّن تُخْلَفَهُۥ ﴾ أي : لا محيد لك عنه . وقال قتادة : ﴿ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ قال : عقوبة لهم وبقاياهم اليوم يقولون لا مساس .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ﴾ قال الحسن وقتادة : لن تغيب عنه . وقوله : ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ﴾ أي : معبودك . ﴿ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ أي : أقمت على عبادته يعني العجل . ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ﴾ قال ابن عباس والسدي : سحله بالمبارد وألقاه على النار ، وقال قتادة : استحال العجل من الذهب لحمًا ودمًا ، فحرقه بالنار ثم ألقى رماده في البحر ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ . وعن عمارة بن عبد اللّه وأبي علي ﷺ أن موسى لما تعجل إلى ربه عمد السامري فجمع ما قدر عليه من حلي نساء بني إسرائيل ثم صوره عجلًا قال : فعمد موسى إلى العجل ، فوضع عليه المبارد فبرده بها - وهو على شط نهر - فلم يشرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل ، إلا اصفر وجهه مثل الذهب فقالوا لموسى : ما توبتنا ؟ قال : يقتل بعضكم بعضًا . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ يقول لهم موسى عليه السلام : ليس هذا إلهكم ، إنما إلهكم اللّه الذي لا إله إلا هو أي : لا يستحق ذلك على العباد إلا هو ، ولا تنبغي العبادة إلا له ، فإن كل شيء فقير إليه عبد له وقوله : ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ نصب على التميز أي : هو عالم بكل شيء ، أحاط بكل شيء علمًا ، وأحصى كل شيء عددًا ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة .

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴾ .

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : كما قصصنا عليك خبر موسى ، وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية ، والأمر الواقع كذلك نقص عليك الأخبار الماضية ، كما وقعت من غير زيادة ولا نقص ، هذا ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ﴾ أي : من عندنا ﴿ ذِكْرًا ﴾ وهو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، الذي لم يعط نبي من الأنبياء منذ بعثوا إلى أن ختموا بمحمد ﷺ كتابًا مثله ، ولا أكمل منه ولا أجمع لخبر ما سبق ، وخبر ما هو كائن ، وحكم الفصل بين الناس منه ، وقوله تعالى : ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ أي : كذب به وأعرض عن اتباعه أمرًا وطلبًا ، ولهذا قال : ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴾ أي : إثمًا كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم أهل الكتاب وغيرهم ، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهِ ﴾ أي : لا محيد لهم عنه ولا انفكاك ﴿ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴾ أي : بئس الحمل حملهم .

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا

يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ .

ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور فقال : « قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ »(١) ، وجاء في الحديث : « كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ وَانْتَظَرَ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ » ؟ فقالوا : يا رسول الله كيف نقول ؟ قال : « قُولُوا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا »(٢) . وقوله : ﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ قيل : معناه زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال ﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ قال ابن عباس : يتسارون بينهم أي : يقول بعضهم لبعض ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾ أي : في الدار الدنيا لقد كان لبثكم فيها قليلًا عشرة أيام أو نحوها . قال الله تعالى : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أي في حال تناجيهم بينهم ﴿ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾ أي : العاقل الكامل فيهم ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ أي : لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد ؛ لأن الدنيا كلها وإن تكررت أوقاتها ، وتعاقبت لياليها وأيامها وساعاتها كأنها يوم واحد . ولهذا يستقصر الكافرون مدة الحياة الدنيا يوم القيامة ، وكان غرضهم في ذلك درء قيام الحجة عليهم ؛ لقصر المدة . ولهذا قال تعالى : ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : إنما كان لبثكم فيها قليلًا لو كنتم تعلمون لآثرتم الباقي على الفاني ، ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف قدمتم الحاضر الفاني على الدائم الباقي .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ﴾ أي هل تبقى يوم القيامة أو تزول ؟ ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ أي : يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييرًا ﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ أي : الأرض ﴿ قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ أي : بساطًا واحدًا والقاع : هو المستوي من الأرض والصفصف تأكيدًا لمعنى ذلك . وقيل : الذي لا نبات فيه ، والأول أولى وإن كان الآخر مرادًا أيضًا باللازم ولهذا قال : ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ أي : لا ترى في الأرض يومئذ واديًا ولا رابية ولا مكانًا منخفضًا ولا مرتفعًا . ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ أي : يوم يرون هذه الأحوال والأهوال يستجيبون مسارعين إلى الداعي حيثما أمروا بادروا إليه ، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم ، ولكن حيث لا ينفعهم . كما قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ . وقال : ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ وقال محمد بن كعب القرظي : يحشر الله الناس يوم القيامة في ظلمة ، ويطوي السماء ، وتتناثر النجوم وتذهب الشمس والقمر ، وينادي منادٍ فيتبع الناس الصوت يؤمونه ، فذلك قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ ، وقال قتادة : ﴿ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ لا يميلون عنه وقال أبو صالح : لا عوج عنه وقوله : ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ قال ابن عباس : سكنت . وقاله السدي ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ قال ابن عباس : يعني وطء الأقدام ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ الصوت الخفي . وقال سعيد بن جبير :

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٦٢/٢) والترمذي في سننه (٣٢٤٤) والحاكم في المستدرك (٥٠٦/٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٢٦/١) ، (٣٧٤/٤) والترمذي في سننه (٢٤٣١) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٣١/٧) .

الحديث وسره ووطء الأقدام فقد جمع سعيد كلا القولين وهو محتمل ، أما وطء الأقدام ، فالمراد سعي الناس إلى المحشر ، وهو مشيهم في سكون وخضوع ، وأما الكلام الخفي فقد يكون في حال دون حال فقد قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ .

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ ﴾ أي : عنده ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ . كقوله : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ .

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد أدم ، وأكرم الخلائق على الله ﷻ أنه قال : « آتي تَحْتَ العَرْش وَأَخِرُّ للَّه سَاجِدًا ، وَيُفْتَحُ عَلَيَّ بِمَحَامِدَ لَا أُحْصِيهَا الآنَ فَيَدَعُني مَا شَاءَ أَنْ يَدَعَني ثُمَّ يَقُولُ : يَا مُحَمَّدُ ، ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ - قال : فَيحدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ ثُمَّ أَعُودُ » . فذكر أربع مرات صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى سائر الأنبياء . وفي الحديث أيضًا « يَقُولُ تَعَالَى أَخرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُ : أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ نِصْفُ مِثْقَالٍ مِنْ إِيمَانٍ ، أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ » (١) الحديث ، وقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي يحيط علمًا بالخلائق كلهم . ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ كقوله : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ قوله : ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ قال ابن عباس : خضعت وذلت ، واستسلمت لجبارها الحي الذي لا يموت ، القيوم الذي لا ينام ، وهو قيم على كل شيء يدبره ، ويحفظه ، فهو الكامل في نفسه الذي كل شيء فقير إليه لا قوام له إلا به ، وقوله : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ أي : يوم القيامة فإن الله سيؤدي كل حق إلى صاحبه ، حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء ، وفي الصحيح : « إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ ، والخَيْبَةُ كُلُّ الخَيْبَةِ مَنْ لَقِيَ اللَّه وَهُوَ بِهِ مُشْرِكٌ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ » (٢) وقوله : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ لما ذكر الظالمين ووعيدهم ثنى بالمتقين وحكمهم ، وهو أنهم لا يظلمون ولا يهضمون أي : لا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ .

يقول تعالى : ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعًا لا محالة أنزلنا القرآن بشيرًا ونذيرًا بلسان عربي مبين فصيح لا لبس فيه ولا عي ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي : يتركون المآثم

(١) أخرجه البخاري في (التفسير) (٤٧١٢) ومسلم في (الإيمان) (٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧) والإمام أحمد في مسنده (٩٤/٣) .
(٢) أخرجه مسلم في (البر والصلة) (٥٦ ، ٥٧) والإمام أحمد في مسنده (١٠٦/٢) والحاكم في المستدرك (١١/١) .

والمحارم والفواحش . ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ وهو : إيجاد الطاعة وفعل القربات ، ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ أي تنزه وتقدس الملك الحق الذي هو حق ووعده ووعيده حق ورسله حق ، والجنة حق والنار حق ، وكل شيء منه حق ، وعدله تعالى أن لا يعذب أحدًا قبل الإنذار وبعثة الرسل والإعذار إلى خلقه لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة . وقوله : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ كقوله تعالى : في سورة لا أقسم بيوم القيامة ، ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ .

عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدة ، فكان مما يحرك به لسانه ، فأنزل الله هذه الآية [1] يعني : أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا جاءه جبريل بالوحي ، كلما قال جبريل آية قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن ، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه لئلا يشق عليه ، فقال : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ أي : أن نجمعه في صدرك ، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئًا ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ وقال في هذه الآية : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ أي : بل أنصت ، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقرأه بعده ، ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ أي : زدني منك علمًا ، قال ابن عيينة رحمه الله : ولم يزل ﷺ في زيادة حتى توفاه الله عز وجل .

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ۝ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ۝ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ .

قال ابن عباس : إنما سمي الإنسان ؛ لأنه عهد إليه فنسي ، وقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه ، وما فضله به على كثير ممن خلق تفضيلًا ، ويبين عداوة إبليس لبني آدم ولأبيهم قديمًا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾ أي : امتنع واستكبر ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ يعني : حواء عليها السلام ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾ أي : إياك أن تسعى في إخراجك منها فتتعب ، وتعنى وتشقى في طلب رزقك ، فإنك هاهنا في عيش رغيد هنيء ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾ إنما قرن بين الجوع والعري ؛ لأن الجوع ذل الباطن والعري ذل الظاهر ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ وهذان أيضًا متقابلان فالظمأ : حر الباطن ، وهو العطش والضحى : حر الظاهر . وقوله : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ قد تقدم أنه دلاهما بغرور ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ وقد تقدم أن الله تعالى عهد إلى آدم وزوجه أن يأكلا من كل الثمار ، ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة ، فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها .

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١٤٨) .

وقوله : ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ اللَّه خَلَقَ آدَمَ رَجُلًا طوَالًا كَثِيرَ شَعْرِ الرَّأس كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ ، فَلَمَّا ذَاقَ الشَّجَرَةَ سقطَ عنهُ لباسُهُ فأوَّلُ ما بدَا منهُ عَوْرتهُ ، فلمَّا نظر إلى عَورتِه جعلَ يشْتدُّ في الجنّة فأخذت شعْرهُ شجرةٌ فنَازَعهَا فنَادَاهُ الرَّحمنُ : يَا آدَمُ مِنِّي تَفِرُّ ؟ فَلَمَّاسَمِعَ كَلَامَ الرَّحمن قَالَ : يَا رَبِّ ، لَا وَلَكِنِ اسْتِحْيَاءً أَرَأَيْتَ إنْ تُبتُ وَرَجَعْتُ أَعَائِدِي إِلَى الجنَّةِ ؟ قَالَ : نَعَم فَذَلِكَ قَوْلُه : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ (١) وقوله : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ قال مجاهد : يرقعان كهيئة الثوب ، وقال ابن عباس : ينزعان ورق التين ، فيجعلانه على سوآتهما وقوله : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « حاجَّ موسى آدم فقال له : أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم ؟ قال آدم : يا موسى أنت الذي اصطفاك اللّه برسالاته وبكلامه أتلومني على أمر كتبه اللّه علي قبل أن يخلقني ؟ - أو قدره عليّ قبل أن يخلقني - قال رسول اللّه ﷺ : « فحجَّ آدم موسى » (٢) .

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ .

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس : اهبطوا منها جميعًا أي : من الجنة كلكم . ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ قال : آدم وذريته ، وإبليس وذريته ، وقوله : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ قال أبو العالية : الأنبياء والرسل والبيان . ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ قال ابن عباس : لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة . ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾ أي : خالف أمري ، وما أنزلته على رسولي أعرض عنه ، وتناساه وأخذ من غيره هداه ، ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ أي : ضنكًا في الدنيا فلا طمأنينة له ، ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيق حرج لضلاله ، وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء وسكن حيث شاء ، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى ، فهو في قلق وحيرة وشك ، فلا يزال في ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة . قال ابن عباس : ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ قال : الشقاء . وقال أيضًا : إن قومًا ضلالًا أعرضوا عن الحق ، وكانوا في سعة من الدنيا متكبرين ، فكانت معيشتهم ضنكًا ، وذلك أنهم كانوا يرون أن اللّه ليس مخلفًا لهم معايشهم من سوء ظنهم باللّه والتكذيب ، فإذا كان العبد يكذب باللّه ، ويسيء الظن به والثقة به اشتدت عليه معيشته ، فذلك الضنك . وقال الضحاك هو : العمل السيِّىء والرزق الخبيث ، وعن أبي سعيد في قوله : ﴿ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ قال : يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فيه ، وعن أبي سعيد قال : قال رسول اللّه ﷺ في قول اللّه ﷿ : ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ : « ضمة القبر له » والموقوف أصح وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ قال : « عَذابُ القبْرِ » . وقوله : ﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ قال مجاهد لا حجة له ، وقال عكرمة : عُمِّي عليه كل شيء إلا جهنم ، ويحتمل

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٨٧/١) .
(٢) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٣٨) .

أن يكون المراد أنه يبعث أو يحشر إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضًا . كما قال تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ الآية ، ولهذا يقول : ﴿ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ أي : في الدنيا ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ أي : لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها ، وأغفلتها ، كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك ﴿ فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل . فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه ، والقيام بمقتضاه فليس داخلًا في هذا الوعيد الخاص وإن كان متواعدًا عليه من جهة أخرى ، فإنه قد وردت السنة بالنهي الأكيد ، والوعيد الشديد في ذلك ، وفي الحديث « مَا مِنْ رَجُلٍ قَرَأَ القُرْآنَ فَنَسِيَهُ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَهُوَ أَجْذَمُ » (١) .

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ .

يقول تعالى : وهكذا نجازي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ ولهذا قال : ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ أي : أشد ألمًا من عذاب الدنيا ، وأدوم عليهم فهم مخلدون فيه ، ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين : « إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الآخِرَةِ » (٢) .

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ ﴾ لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به يا محمد كم أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسل قبلهم ، فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر ، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلفوهم فيه يمشون فيها . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ أي : العقول الصحيحة ، والألباب المستقيمة ، كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ الآية . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ أي : لولا الكلمة السابقة من الله ، وهو أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه ، والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة ، لجاءهم العذاب بغتة ، ولهذا قال لنبيه مسليًا له : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ أي : من تكذيبهم لك ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ يعني : صلاة الفجر . ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ يعني : صلاة العصر ، كما جاء في الحديث : « إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُم كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تغلبوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا » ثم قرأ هذه الآية (٣) . وعنه ﷺ قال : « لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا » (٤)

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٢٨٥) .

(٢) أخرجه مسلم في اللعان (٤) والإمام أحمد في مسنده (١/٣١٠) ، (٢/١٩) .

(٣) أخرجه البخاري في (التوحيد) (٧٤٣٤) ومسلم في (المساجد) (٢١١) والإمام أحمد في مسنده (٤/٣٦٠) .

(٤) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢١٣) والإمام أحمد في مسنده (٤/٢٦١) .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلًا مَنْ يَنْظُرُ فِي مُلْكِهِ مَسِيرَةَ أَلْفَيْ سَنَةٍ يَنْظُر إِلَى أَقْصَاهُ كَمَا يَنْظُرُ إِلَى أَدْنَاهُ ، وإِنَّ أَعْلاهُمْ مَنْزِلَةً لَمَنْ يَنْظُرُ إِلَى اللَّه تَعَالَى فِي اليَوْمِ مَرَّتَيْنِ »(١).

وقوله : ﴿ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ أي من ساعاته فتهجد به ، وحمله بعضهم على المغرب والعشاء ﴿ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ في مقابلة آناء الليل ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ وفي الصحيح : «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ ، فَيَقُولُونَ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : رَبَّنَا وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى ، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، فَيَقُولُ : إِنِّي أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ، فَيَقُولُونَ : وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلكَ ؟ فَيَقُولُ : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا »(٢).

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَاۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ .

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ لا تنظر إلى ما هؤلاء المترفون وأشباههم ونظراؤهم فيه من النعيم ، فإنما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة لنختبرهم بذلك ، وقليل من عبادي الشكور . وقال مجاهد : ﴿ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ يعني : الأغنياء فقد آتاك خيرًا مما آتاهم كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ الآية . وكذلك ما ادخره الله تعالى لرسوله ﷺ في الآخرة أمر عظيم لا يحد ولا يوصف ولهذا قال : ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ ، وفي الصحيح أن عمر ابن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن فرآه متوسدًا مضطجعًا على رمال حصير ، وليس في البيت إلا صبرة من قرظ واهية معلقة ، فابتدرت عينا عمر بالبكاء ، فقال له رسول الله ﷺ : «مَا يُبْكِيكَ يَا عُمَرُ ؟ » فقال : يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وأنت صفوة الله من خلقه فقال : «أَوَ فِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ ، أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا »(٣).

فكان ﷺ أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها إذا حصلت لها ينفقها هكذا وهكذا في عباد الله ولم يدخر لنفسه شيئًا لغد .

وقال قتادة والسدي : ﴿ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني زينة الحياة الدنيا ، وقال قتادة : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ ﴾ لنبتليهم وقوله : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَاۖ ﴾ أي : استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة ، واصبر أنت على فعلها كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ وروي أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده أنا ويرفأ ، وكان له ساعة من الليل يصلي فيها فربما لم يقم فنقول : لا يقوم الليلة ، كما كان يقوم وكان إذا استيقظ أقام يعني : أهله وقال : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَاۖ ﴾ . وقوله : ﴿ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَۗ ﴾ يعني : إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ ولهذا قال : ﴿ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَۗ ﴾ ، وقال الثوري : ﴿ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ ﴾ أي : لا نكلفك

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٣/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٤٩) ومسلم في الجنة (٩) .
(٣) أخرجه البحاري في (المظالم) (٢٤٦٨) .

الطلب . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلأْ صَدْرَكَ غِنًى وَأَسُدَّ فَقْرَكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَلأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ » (١) .

وقوله : ﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أي : وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة ، وهي الجنة لمن اتقى الله . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ كَأَنَّا فِي دَارِ عُقْبَةَ بْنِ رَافِعٍ ، وَأَنَّا أُتِينا بِرُطَبٍ مِنْ رُطَبِ ابْنِ طَابٍ ، فَأَوَّلْتُ ذَلِكَ أَنَّ العَاقِبَةَ لَنَا فِي الدُّنْيَا وَالرِّفْعَةَ ، وَأَنَّ دِينَنَا قَدْ طَابَ » (٢) .

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار في قولهم : ﴿ لَوْلَا ﴾ أي : هلا يأتينا محمد بآية من ربه أي : بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله ؟ قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ يعني : القرآن العظيم الذي أنزله عليه الله وهو أمي لا يحسن الكتابة ، ولم يدارس أهل الكتاب . وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدهور بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها ، فإن القرآن مهيمن عليها يصدق الصحيح ويبين خطأ المكذوب فيها وعليها . وهذه الآية كقوله تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وعن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ البَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ » (٣) . وإنما ذكر هاهنا أعظم الآيات التي أعطيها عليه الصلاة والسلام ، وهو القرآن وإلا فله من المعجزات ما لا يحد ولا يحصر كما هو مودع في كتبه ، ومقرر في مواضعه ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ أي : لو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم ، وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم لكانوا قالوا : ﴿ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ قبل أن تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه كما قال : ﴿ فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ يبين تعالى أن هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون لا يؤمنون ﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ أي يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وعناده : ﴿ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ أي : منا ومنكم ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾ أي فانتظروا ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ ﴾ أي : الطريق المستقيم . ﴿ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ إلى الحق وسبيل الرشاد ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤١٠٧) .
(٢) أخرجه مسلم في (الرؤيا) (١١٨) والإمام أحمد في مسنده (٣/٢١٣ ، ٢٨٦) .
(٣) أخرجه البخاري في (الاعتصام) (٧٢٧٤) ومسلم في الإيمان (٢٣٩) .

سورة الأنبياء

عن عبد اللَّه قال : بنو إسرائيل ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء ، هن من العتاق الأول ، وهن من تلادي (١) .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ۝ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ۝ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴾ .

هذا تنبيه من اللَّه ﷻ على اقتراب الساعة ودنوها ، وأن الناس في غفلة عنها أي : لا يعملون لها ولا يستعدون من أجلها . عن أبي سعيد عن النبي ﷺ ، ﴿ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾ قال : « في الدنيا » (٢) وقال تعالى : ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ ﴾ الآية ، وروي عن عامر بن ربيعة : أنه نزل به رجل من العرب ، فأكرم عامر مثواه ، وكلم فيه رسول اللَّه ﷺ ، فجاءه الرجل ، فقال : إني استقطعت من رسول اللَّه ﷺ واديًا في العرب ، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك فقال عامر : لا حاجة لي في قطيعتك نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾ ثم أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزل اللَّه على رسوله ، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار فقال : ﴿ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ ﴾ أي : جديد إنزاله ﴿ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾ كما قال ابن عباس : ما لكم تسألون أهل الكتب عما بأيديهم ، وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه ؟ وكتابكم أحدث الكتب باللَّه تقرؤونه محضًا لم يشب (٣) ، وقوله : ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أي : قائلين فيما بينهم خفية ﴿ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ ﴾ يعنون رسول اللَّه ﷺ يستبعدون كونه نبيًا لأنه بشر مثلهم ، فكيف اختص بالوحي دونهم ولهذا قال : ﴿ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴾ أي : أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر ، وهو يعلم أنه سحر فقال تعالى مجيبًا لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب : ﴿ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ أي : الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية ، وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين ، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا الذي يعلم السر في السماوات والأرض .

وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ أي : السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم ، وفي هذا تهديد لهم ووعيد ، وقوله : ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ ﴾ هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم ، واختلافهم فيما يصغون به القرآن ، فتارة يجعلونه سحرًا ، وتارة يجعلونه شعرًا ، وتارة يجعلونه أضغاث

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٠٨) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٤٠٧/٦) ، وذكره الطبري في تفسيره (٣/١٧) .

(٣) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٣٩) .

أحلام ، وتارة يجعلونه مفترى . وقوله : ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ يعنون : كناقة صالح وآيات موسى وعيسى وقد قال الله ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ الآية . ولهذا قال تعالى : ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : ما آتينا قرية من القرى الذين بعث فيهم الرسل آية على يدي نبيها ، فآمنوا بها بل كذبوا فأهلكناهم بذلك ، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك ؟ كلا ، بل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ هذا كله وقد شاهدوا من الآيات الباهرات على يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى وأبهر ، وأقطع وأقهر مما شوهد مع غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ .

يقول تعالى ردًا على من أنكر بعثة الرسل من البشر ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ أي : جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالًا من البشر لم يكن فيهم أحد من الملائكة ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ وقال تعالى : حكاية عمن تقدم من الأمم لأنهم أنكروا ذلك فقالوا : ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي : اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى ، وسائر الطوائف هل كان الرسل الذين أتوهم بشرًا أو ملائكة ؟ وإنما كانوا بشرًا ، وذلك من تمام نعمة الله على خلقه ؛ إذ بعث فيهم رسلًا منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم ، والأخذ عنهم . وقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ أي : بل قد كانوا أجسادًا يأكلون الطعام كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ وقوله : ﴿ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ أي : في الدنيا بل كانوا يعيشون ثم يموتون ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله ﷻ تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكمه في خلقه مما يأمر به وينهى عنه ، وقوله : ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ ﴾ أي : الذي وعدهم ربهم ليهلكن الظالمين ، صدقهم الله وعده وفعل ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ ﴾ أي : أتباعهم من المؤمنين ﴿ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ أي : المكذبين بما جاءت الرسل .

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا على شرف القرآن ومحرضًا لهم على معرفة قدره : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ قال ابن عباس : شرفكم ، وقال مجاهد : حديثكم وقال الحسن : دينكم ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي هذه النعمة ، وتتلقونها بالقبول كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ هذه صيغة تكثير كما قال : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ أي : أمة أخرى بعدهم ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا ﴾ أي : تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم

نبيهم ﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ أي : يفرون هاربين ﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ ﴾ هذا تهكم بهم نزرًا أي : قيل لهم نزرًا لا تركضوا هاربين من نزول العذاب ، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور ، والمعيشة والمساكن الطيبة ، قال قتادة : استهزاء بهم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ أي عما كنتم فيه من أداء شكر النعم ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ اعترفوا بذنوبهم حتى لا ينفعهم ذلك ، ﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ أي : ما زالت تلك المقالة وهي الاعتراف بالظلم هِجِّيرَاهم ، حتى حصدناهم حصدًا ، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خمودًا .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ۝ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه خلق السماوات والأرض بالحق أي : بالعدل والقسط ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ وأنه لم يخلق ذلك عبثًا ، ولا لعبًا كما قال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ قال مجاهد : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا ﴾ يعني : من عندنا ، يقول : وما خلقنا جنة ولا نارًا ، ولا موتًا ولا بعثًا ، ولا حسابًا . وقال الحسن قتادة وغيرهما : اللهو المرأة بلسان أهل اليمن ، وقال النخعي : ﴿ لَّاتَّخَذْنَاهُ ﴾ من الحور العين ، وقال السدي : والمراد باللهو هاهنا : الولد . وهذا والذي قبله متلازمان ، وهو كقوله تعالى : ﴿ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ فنزه نفسه عن اتخاذ الولد مطلقًا ولا سيما عما يقولون من الإفك والباطل من اتخاذ عيسى أو العزير أو الملائكة ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ وقوله : ﴿ إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ قال قتادة : أي : ما كنا فاعلين . وقال مجاهد : كل شيء في القرآن إن : فهو إنكار .

وقوله : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ﴾ أي : نبين الحق فيدحض الباطل ، ولهذا قال : ﴿ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ أي : ذاهب مضمحل ﴿ وَلَكُمُ الْوَيْلُ ﴾ أي أيها القائلون لله ولد ﴿ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ أي : تقولون وتفترون . ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ، ودأبهم في طاعته ليلًا ونهارًا فقال : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُ ﴾ يعني : الملائكة ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ أي : لا يستنكفون عنها وقوله : ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أي : لا يتعبون ولا يملون ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ فهم دائبون في العمل ليلًا ونهارًا ، مطيعون قصدًا وعملًا قادرون عليه ، كما قال تعالى : ﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ .

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ أي : أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض ؟ أي لا يقدرون على شيء من ذلك ، فكيف جعلوها لله ندًا وعبدوها معه ؟ ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السماوات والأرض

فقال : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ ﴾ أي : في السماوات والأرض ﴿ لَفَسَدَتَا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ وقال هاهنا : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ، أي : تقدس وتنزه عن الذي يفترون ويأفكون علوًا كبيرًا . وقوله : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ أي : هو : الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله وكبريائه ، وعلمه وحكمته ، وعدله ولطفه . ﴿ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ أي : وهو سائل خلقه عما يعملون كقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ ﴾ يا محمد ، ﴿ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ ؟ أي : دليلكم على ما تقولون ﴿ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ ﴾ يعني : القرآن ﴿ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ﴾ يعني : الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولون ، وتزعمون فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلا اللَّه ، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق فأنتم معرضون عنه ، ولهذا قال : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ كما قال : ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ وقال : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ فكل نبي بعثه اللَّه يدعو إلى عباة اللَّه وحده لا شريك له ، والفطرة شاهدة بذلك أيضًا ، والمشركون لا برهان لهم وحجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد .

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى رادًا على من زعم أنه له تعالى وتقدس ولدًا من الملائكة : كمن قال ذلك من العرب إن الملائكة بنات اللَّه فقال : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ أي : الملائكة عباد اللَّه مكرمون عنده في منازل عالية ، ومقامات سامية ، وهم له في غاية الطاعة قولًا وفعلًا ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ أي : لا يتقدمون بين يديه بأمر ، ولا يخالفونه فيما أمرهم به ، بل يبادرون إلى فعله ، وهو تعالى علمه محيط بهم فلا يخفى عليه منهم خافية ، ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ كقوله : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ وآيات كثيرة في معنى ذلك ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ ﴾ أي : من خوفه ورهبته ، ﴿ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ ﴾ أي : ادعى منهم أنه إله من دون اللَّه أي : مع اللَّه ﴿ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي : كل من قال ذلك وهذا شرط ، والشرط لا يلزم وقوعه كقوله : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا على قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء وقهره لجميع المخلوقات فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق المستبد بالتدبير ، فكيف يليق أن يعبد معه غيره أو يشرك به ما سواه ؟ ألم يروا أن السماوات والأرض كانتا رتقًا أي : كان الجميع متصلًا بعضه ببعض متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر ، ففتق هذه من هذه ، فجعل السماوات سبعًا ، والأرض سبعًا ، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء ، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض . ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئًا فشيئًا عيانًا ، وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء .

وعن عكرمة قال : سئل ابن عباس : الليل كان قبل أو النهار ؟ فقال : أرأيتم السماوات والأرض حين كانتا رتقًا هل بينهما إلا ظلمة ؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار . وعن ابن عمر أن رجلًا أتاه يسأله عن السماوات والأرض كانتا رتقًا ففتقناهما . قال : اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله ، ثم تعال فأخبرني بما قال لك : قال : فذهب إلى ابن عباس فسأله فقال ابن عباس : نعم كانت السماوات رتقًا لا تمطر ، وكانت الأرض رتقًا لا تنبت ، فلما خلق للأرض أهلًا فتق هذه بالمطر وفتق هذه بالنبات . فرجع إلى ابن عمر فأخبره . فقال ابن عمر : الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتي في القرآن علمًا ، صدق هكذا كانت ، قال ابن عمر : قد كنت أقول : ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسيره القرآن ؛ فالآن علمت أنه قد أوتي في القرآن علمًا .

وقال عطية العوفي : كانت هذه رتقًا لا تمطر فأمطرت ، وكانت هذه رتقًا لا تنبت فأنبتت . وقال سعيد بن جبير : بل كانت السماء والأرض ملتزقتين ، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض كان ذلك فتقهما الذي ذكر الله في كتابه . وقال الحسن وقتادة : كانتا جميعًا ففصل بينهما بهذا الهواء وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ أي : أصل كل الأحياء . وعن أبي هريرة أنه قال : يا رسول الله إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني ، فأخبرنا عن كل شيء قال : « كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ » . قال : قلت : أنبئني عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة . قال : « أَفْشِ السَّلَامَ ، وَأَطْعِمِ الطَّعَامَ ، وَصِلِ الأَرْحَامَ ، وَقُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، ثُمَّ ادْخُلِ الجَنَّةَ بِسَلَامٍ » (١) .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ أي : جبالًا أرسى الأرض بها وقررها وثقلها لئلا تميد بالناس أي : تضطرب وتتحرك فلا يحصل لهم قرار عليها ؛ لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع ، فإنه باد للهواء والشمس ليشاهد أهلها السماء ، وما فيها من الآيات الباهرات ، والحكم والدلالات ، ولهذا قال : ﴿ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ أي : لئلا تميد بهم ، وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا ﴾ أي : ثغرًا في الجبال يسلكون فيها طرقًا من قطر إلى قطر ، ولهذا قال : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ أي : على الأرض ، وهي كالقبة عليها كما قال : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ فقال : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ ، والبناء هو نصب القبة كما قال رسول الله ﷺ : « بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ » (٢) أي خمس دعائم ، وهذا لا يكون إلا في الخيام كما تعهده العرب

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٢٩٥) والحاكم في المستدرك (٤/١٢٩) .
(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٨) ومسلم في الإيمان (١٩) .

﴿ مَحْفُوظًا ﴾ أي : عاليًا محروسًا أن ينال . وقال مجاهد : مرفوعًا . وقوله : ﴿ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ كقوله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ أي : لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر ، وما زينت به من الكواكب الثوابت ، والسيارات في ليلها ونهارها من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكماله في يوم وليلة ، فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذي قدرها وسخرها وسيَّرها . ثم قال منبهًا على بعض آياته : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ أي : هذا في ظلامه وسكونه ، وهذا بضيائه وأنسه ، يطول هذا تارة ، ثم يقصر أخرى وعكسه الآخر ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ هذه لها نور يخصها وفلك بذاته وزمان على حدة وحركة وسير خاص ، وهذا بنور آخر وفلك آخر ، وسير آخر وتقدير آخر . و ﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أي : يدورون ، قال ابن عباس : يدورون كما يدور المغزل في الفلكة ، قال مجاهد : فلا يدور المغزل إلا بالفلكة ، ولا الفلكة إلا بالمغزل ، كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلا به ، ولا يدور إلا بهن . كما قال تعالى : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ أي يا محمد ﴿ ٱلْخُلْدَ ﴾ أي : في الدنيا بل ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ وقوله : ﴿ أَفَإِيْن مِّتَّ ﴾ أي : يا محمد ﴿ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ أي : يؤمِّلون أن يعيشوا بعدك لا يكون هذا بل كل إلى الفناء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ وقوله : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ أي : نختبركم بالمصائب تارة ، وبالنعم أخرى ، فننظر من يشكر ومن يكفر ، ومن يصبر ومن يقنط . كما قال ابن عباس : ﴿ وَنَبْلُوكُم ﴾ يقول نبتليكم . ﴿ بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ . بالشدة والرخاء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، والحلال والحرام ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلالة . وقوله : ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أي : فنجازيكم بأعمالكم .

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٣٦ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ يعني : كفار قريش كأبي جهل وأشباهه ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ أي : يستهزئون بك وينتقصونك ويقولون : ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ ؟ يعنون أهذا الذي يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم ؟ قال تعالى : ﴿ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ أي : وهم كافرون بالله ، ومع هذا يستهزئون برسول الله كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ وقوله : ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ أي : في الأمور ، والحكمة في ذكر عجلة الإنسان هاهنا ، أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم ، واستعجلت ذلك فقال الله تعالى : ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ،

يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر؛ ولهذا قال: ﴿سَأُورِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ أي نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

يخبر تعالى عن المشركين أنهم: يستعجلون أيضًا بوقوع العذاب بهم تكذيبًا وجحودًا، وكفرًا وعنادًا واستبعادًا. فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ قال الله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ أي: لو تيقنوا أنهم واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا. ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم، ومن تحت أرجلهم ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾. وقال في هذه الآية: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ وقال: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ناصر لهم كما قال: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ وقوله: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ أي تأتيهم النار بغتة أي: فجأة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي: تذعرهم فيستسلمون لها حائرين لا يدرون ما يصنعون. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي ليس لهم حيلة في ذلك ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾.

يقول تعالى مسليًا لرسوله عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب، ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يعني: من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه، ثم ذكر تعالى نعمته على عبيده في حفظه لهم بالليل والنهار، وكلاءته وحراسته لهم بعينه التي لا تنام فقال: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: بدل الرحمن يعني غيره. وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: لا يعترفون بنعمة الله عليهم، وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه ثم قال: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾؟ استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أي ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا لا، ولا كما زعموا؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم. وقوله: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ قال ابن عباس: ولا هم منا يصحبون أي: لا يجارون. وقال قتادة: لا يصحبون من الله بخير. وقال غيره: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾: يمنعون.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين : إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال أنهم متعوا في الحياة الدنيا ، وطال عليهم العمر فيما هم فيه ، فاعتقدوا أنهم على شيء . ثم قال واعظًا لهم : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ اختلف المفسرون في معناه ، وقد أسلفناه في سورة الرعد ، وأحسن ما فسر بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ وقال الحسن البصري : يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر ، والمعنى أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه ، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة ، وإنجائه لعباده المؤمنين ، ولهذا قال : ﴿ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ يعني بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأرذلون ، وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ﴾ أي : إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال ليس ذلك إلا عمّا أوحاه الله إلي ، ولكن لا يجدي هذا عمن أعمى الله بصيرته ، وختم على سمعه وقلبه . ولهذا قال : ﴿ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ أي : ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله ، ليعترفن بذنوبهم ، وأنهم كانوا ظالمين أنفسهم في الدنيا . وقوله : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ أي : ونضع الموازين العدل ليوم القيامة ، الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه . وقوله : ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ، ثَقِيلَتَانِ في الميزَانِ ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمنِ ، سُبْحَانَ اللَّه وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّه العَظِيم »(١) . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ﷻ يستخلص رجلًا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعون سجلًا كل سجل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئًا ؟ أظلمتك كتبتي الحافظون ؟ قال : لا يا رب . قال : أفلك عذر أو حسنة ؟ قال : فبهت الرجل . فيقول : لا يا رب ، فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا رسول الله ، فيقول : أحضروه ، فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : إنك لا تظلم . قال : فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة . قال فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة قال : ولا يثقل شيء مع بسم الله الرحمن الرحيم »(٢) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « تُوضَعُ المَوَازِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ فَيُوضَعُ فِي كِفَّةٍ ، وَيُوضَعُ مَا أُحْصِيَ عَلَيْهِ فَيُمَايلُ بِهِ الميزان قَالَ : فَيُبْعَثُ بِهِ إِلَى النَّارِ . قَالَ : فَإِذَا أُدْبِرَ بِهِ إِذَا صَائِحٌ مِنْ عِنْدِ الرَّحْمنِ ﷻ يَقُولُ : لَا تَعْجَلُوا فَإِنَّهُ قَدْ بَقِيَ لَهُ ، فَيُؤْتَى بِبِطَاقَةٍ فِيهَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه فَتُوضَعُ مَعَ الرَّجُلِ فِي كِفَّةٍ حَتَّى يَمِيلَ بِهِ المِيزَانُ »(٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٦٨٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢١٣/٢) والترمذي في سننه (٢٦٣٩) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٢١/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٨٢/١٠) .

وعن عائشة أن رجلًا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ جلس بين يديه فقال : يا رسول اللَّه إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني ، وأضربهم وأشتمهم فكيف أنا منهم ؟ فقال له رسول اللَّه ﷺ : « يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ ، وَكَذَبُوكَ وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ ، فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلًا لَكَ عليهم ، وإن كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ اقْتُصَّ لَهُمْ مِنْكَ الفَضْلُ الَّذِي يبقى قِبَلَكَ » فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول اللَّه ﷺ ويهتف فقال رسول اللَّه : « مَا لَهُ أما يَقْرَأُ كِتَابَ اللَّه ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ فقال الرجل : يا رسول اللَّه ما أجد شيئًا خيرًا من فراق هؤلاء - يعني عبيده - إني أشهدك أنهم أحرار كلهم (١) .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ .

قد تقدم التنبيه على أن اللَّه تعالى كثيرًا ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات اللَّه وسلامه عليهما وبين كتابيهما . ولهذا قال : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ قال مجاهد : يعني : الكتاب . وقال أبو صالح : التوراة وقال قتادة : التوراة حلالها وحرامها ، وما فرق اللَّه بين الحق والباطل . وقال ابن زيد : يعني : النصر . وجامع القول في ذلك أن الكتب السماوية مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغي والرشاد والحلال والحرام ، وعلى ما يحصل نورًا في القلوب وهداية وخوفًا ، وإنابة وخشية ولهذا قال : ﴿ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي : تذكيرًا لهم وعظة ، ثم وصفهم فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ كقوله : ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ ، ﴿ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ أي : خائفون وجلون ، ثم قال تعالى : ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ يعني : القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ أي أفتنكرونه وهو في غاية الجلاء والظهور ؟

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشده ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي : من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه ، كما قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ وما يذكر من الأخبار عنه في إدخال أبيه له في السرب وهو رضيع ، وأنه خرج به بعد أيام فنظر إلى الكوكب والمخلوقات فتبصر فيها ، وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم ، فعامتها أحاديث بني إسرائيل ، فما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم قبلناه لموافقته الصحيح ، وما خالف شيئًا من ذلك رددناه ، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدقه ولا نكذبه ، بل نجعله وقفًا ، وما كان من هذا الضرب منها فقد رخص كثير من السلف في روايته ، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين ، ولو

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦/٢٨٠) .

كانت فيه فائدة تعود على المكلفين في دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة ، والذي نسلكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية ، لما فيها من تضييع الزمان ، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم ، فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها ، كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة . والمقصود هاهنا أن الله تعالى أخبر أنه قد آتى إبراهيم رشده من قبل أي : من قبل ذلك . وقوله : ﴿ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ أي : وكان أهلًا لذلك ، ثم قال : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ هذا هو الرشد الذي أوتيه من صغره الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله ﷿ فقال : ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ ؟ أي : معتكفون على عبادتها .

وعن الأصبغ بن نباتة قال : مر علي ﷺ على قوم يلعبون بالشطرنج ، فقال : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ لأن يمس أحدكم جمرًا حتى يطفأ خير له من أن يمسها ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال . ولهذا قال : ﴿ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم ، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم ، فلما سفه أحلامهم وضلل آباءهم واحتقر آلهتهم ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ ؟ يقولون : هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعبًا أو محقًّا فيه ، لم نسمع به قبلك . ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ ﴾ أي : ربكم الذي لا إله غيره وهو الذي خلق السماوات والأرض ، وما حوت من المخلوقات الذي ابتدأ خلقهن ، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ أي : وأنا أشهد أنه لا إله غيره ولا رب سواه .

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ .

ثم أقسم الخليل قسمًا أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم أي ليحرصن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مدبرين أي : إلى عيدهم ، وكان لهم عيد يخرجون إليه ، قال السدي : لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه : يا بني لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا فخرج معهم ، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال : إني سقيم فجعلوا يمرون عليه وهو صريع فيقولون : مه ! فيقول : إني سقيم ، فلما جاز عامتهم وبقي ضعفاؤهم قال : ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم ﴾ فسمعه أولئك . وقال أبو الأحوص عن عبد الله قال : لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مروا عليه فقالوا : يا إبراهيم ألا تخرج معنا ؟ قال : إني سقيم ، وقد كان بالأمس قال : ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾ فسمعه ناس منهم . وقوله : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا ﴾ أي : حطامًا كسرها كلها ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ ﴾ كما قال : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ وقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ ذكروا أنه وضع القدوم في يد كبيرهم لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار

فكسرها ، ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي : في صنيعه هذا . ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ أي : قال من سمعه يحلف إنه ليكيدنهم ﴿ سَمِعْنَا فَتًى ﴾ أي : شابًا يذكرهم ﴿ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ ، قال ابن عباس : ما بعث اللَّه نبيًا إلا شابًا ، ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب وتلا هذه الآية : ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ .

وقوله : ﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ ﴾ أي : على رؤوس الأشهاد في الملأ الأكبر بحضرة الناس كلهم . وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم ﷺ أن يبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضرًا ، ولا تملك لها نصرًا فكيف يطلب منها شيء من ذلك ؟ ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ يعني : الذي تركه لم يكسره ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم ، فيعترفوا أنهم لا ينطقون ، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جماد . وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال : « إن إبراهيم ﷺ لم يكذب غير ثلاث : ثنتين في ذات اللَّه قوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ وقوله : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ قال وبينا هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة إذ نزل منزلًا ، فأتى الجبار رجل فقال : إنه قد نزل هاهنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس ، فأرسل إليه فجاء فقال : ما هذه المرأة منك ؟ قال : أختي . قال : فاذهب فأرسل بها إلي ، فانطلق إلى سارة فقال : إن هذا الجبار قد سألني عنك ، فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده ، فإنك أختي في كتاب اللَّه ، وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك ، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي ، فلما أن دخلت عليه فرآها : أهوى إليها فتناولها ، فأخذ أخذًا شديدًا فقال ادعي اللَّه لي ولا أضرك ، فدعت له فأرسل ، فأهوى إليها فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد ، ففعل ذلك الثالثة فأخذ فذكر مثل المرتين الأوليين فقال : ادعي اللَّه فلا أضرك فدعت له فأرسل ، ثم دعا أدنى حجابه فقال : إنك لم تأتني بإنسان ، وإنما أتيتني بشيطان أخرجها وأعطها هاجر . فأخرجت وأعطيت هاجر فأقبلت ، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته . وقال : مهيم ؟ قالت : كفى اللَّه كيد الكافر الفاجر وأخدمني هاجر » قال محمد بن سيرين فكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال : تلك أمكم يا بني ماء السماء .

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال : ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم فقالوا : ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي : في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ أي : أطرقوا في الأرض فقالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ قال قتادة : أدركت القوم حيرة سوء فقالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ وقال السدي : ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ أي : في الفتنة ، وقال ابن زيد : في الرأي . وقول قتادة أظهر في المعنى ؛ لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزًا ، ولهذا قالوا له : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾

فكيف تقول لنا سلوهم إن كانوا ينطقون ، وأنت تعلم أنها لا تنطق ؟ فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك : ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ أي : إذا كانت لا تنطق ولا تضر ، فلم تعبدونها من دون الله ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي : أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر . فأقام عليهم الحجة ، وألزمهم بها ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ الآية .

﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ .

لما دحضت حجتهم وبان عجزهم ، وظهر الحق ، واندفع الباطل عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم فقالوا : ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ فجمعوا حطبًا كثيرًا جدًّا ، قال السدي : حتى إن كانت المرأة تمرض فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطبًا لحريق إبراهيم ، ثم جعلوا في جوبة من الأرض ، وأضرموها نارًا فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع لم توقد نار قط مثلها ، وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب من فارس الأكراد ، فلما ألقوه قال : حسبي الله ونعم الوكيل . كما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال : « حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ عليه السلام حِينَ قَالُوا : ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ »(١) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لَمَّا أُلْقِيَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام فِي النَّارِ قَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ فِي السَّمَاءِ وَاحِدٌ ، وَأَنَا فِي الأَرْضِ وَاحِدٌ أَعْبُدُكَ »(٢) ويروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال : لا إله إلا أنت سبحانك ، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك . وقال شعيب الجبائي : كان عمره إذ ذاك ست عشرة سنة فالله أعلم . وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو في الهواء ، فقال : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا وأما من الله فبلى ، ويروى عن ابن عباس أيضًا قال : لما ألقي إبراهيم جعل خازن المطر يقول : متى أومر بالمطر فأرسله ، قال : فكان أمر الله أسرع من أمره قال الله : ﴿ يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ قال : لم يبق نار في الأرض إلا طفئت ، وقال كعب الأحبار : لم ينتفع أحد يومئذ بنار ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه . وعن علي بن أبي طالب : ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ قال : لا تضر به ، وقال ابن عباس : لولا أن الله عز وجل قال : ﴿ وَسَلَٰمًا ﴾ لآذى إبراهيم بردها ، وقال قتادة : ولم يأت يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار ، إلا الوزغ . وقال الزهري : أمر النبي ﷺ بقتله وسماه فويسقًا . وقوله : ﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ أي المغلوبين الأسفلين لأنهم أرادوا بنبي الله كيدًا فكادهم الله ، ونجاه من النار فغلبوا هنالك ، وقال عطية العوفي : لما ألقي إبراهيم في النار جاء ملكهم لينظر إليه فطارت شرارة فوقعت على إبهامه فأحرقته مثل الصوفة .

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا

(١) أخرجه البخاري في (التفسير) (٤٥٦٣) .
(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٠١/٨) والسيوطي في الدر المنثور (٣٢٢/٤) .

صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن إبراهيم : أنه سلمه الله من نار قومه ، وأخرجه من بين أظهرهم مهاجرًا إلى بلاد الشام إلى الأرض المقدسة منها . وعن أبي بن كعب في قوله : ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال : الشام وما من ماء عذب إلا يخرج من تحت الصخرة ، وقال قتادة : كان بأرض العراق فأنجاه الله إلى الشام ، وكان يقال للشام : أعقار دار الهجرة وما نقص من الأرض زيد في الشام ، وما نقص من الشام زيد في فلسطين ، وكان يقال : هي أرض المحشر والمنشر ، وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام وبها يُهلك المسيح الدجال ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ قال عطاء ومجاهد : عطيةً ، وقال ابن عباس وقتادة : النافلة ولد الولد ، يعني أن يعقوب ولد إسحاق ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد : سأل واحدًا فقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة . ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾ أي : الجميع أهل خير وصلاح ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً ﴾ أي : يقتدى بهم ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ أي : يدعون إلى الله بإذنه ، ولهذا قال : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ من باب عطف الخاص على العام . ﴿ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ أي : فاعلين لما يأمرون الناس به ، ثم عطف بذكر لوط ، كان قد آمن بإبراهيم عليه السلام ، واتبعه وهاجر معه كما قال تعالى : ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ﴾ فآتاه الله حكمًا وعلمًا ، وأوحى إليه وجعله نبيًا ، وبعثه إلى سدوم وأعمالها ، فخالفوه وكذبوه ، فأهلكم الله ودمر عليهم ، ولهذا قال : ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين دعا على قومه لما كذبوه ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ وقال نوح : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ ولهذا قال هاهنا : ﴿ إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ ﴾ أي الذين آمنوا به كما قال : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ وقوله : ﴿ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي : من الشدة والتكذيب والأذى ، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله عز وجل ، فلم يؤمن به منهم إلا القليل ، وكانوا يتصدون لأذاه ، ويتواصون قرنًا بعد قرن وجيلًا بعد جيل على خلافه ، وقوله : ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ﴾ أي : ونجيناه وخلصنا منتصرًا من القوم ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : أهلكهم الله بعامة ، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحد ، كما دعا عليهم نبيهم .

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا

سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾ .

قال ابن عباس : النفش الرعي ، وقال شريح والزهري وقتادة : النفش لا يكون إلا بالليل زاد قتادة : والهمل بالنهار ، وعن ابن مسعود في قوله : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ﴾ قال : كرم قد أنبتت عناقيده ، فأفسدته قال : فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم فقال سليمان : غير هذا يا نبي الله ، قال : وما ذاك ؟ قال : تدفع الكرم إلى صاحب الغنم ، فيقوم عليه حتى يعود كما كان ، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها ، حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ، ودفعت الغنم إلى صاحبها فذلك قوله : ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ ﴾ وعن مسروق قال : الحرث الذي نفشت فيه الغنم ، إنما كان كرمًا فلم تدع فيه ورقة ولا عنقودًا من عنب إلا أكلته ، فأتوا داود فأعطاهم رقابها فقال سليمان : لا بل تؤخذ الغنم فيعطاها أهل الكرم فيكون لهم لبنها ونفعها ، ويعطى أهل الغنم الكرم فيعمروه ويصلحوه ، حتى يعود كالذي كان ليلة نفشت فيه الغنم ، ثم يعطى أهل الغنم غنمهم وأهل الكرم كرمهم . وقوله : ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ ﴾ عن حميد أن إياس بن معاوية لما استقضى أتاه الحسن فبكى قال : ما يبكيك ؟ قال : يا أبا سعيد بلغني أن القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار ، ورجل مال به الهوى فهوى في النار ، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة ، فقال الحسن البصري : إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكمًا يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم قال تعالى : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴾ فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود ثم قال - يعني الحسن - : إن الله اتخذ على الحكام ثلاثًا : لا يشتروا به ثمنًا قليلًا ، ولا يتبعوا فيه الهوى ، ولا يخشوا فيه أحدًا ثم تلا : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ وقال : ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ وقال : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ .

قلت : أما الأنبياء عليهم السلام فكلهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل ، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف ، وأما من سواهم ؛ فقد ثبت عمرو بن العاص أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » (١) . وفي السنن : القضاة ثلاثة : قاض في الجنة وقاضيان في النار ، رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة ، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار . وقريب من هذه القصة المذكورة في القرآن ما رواه أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « بينما امرأتان معهما ابنان لهما إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين ، فتحاكمتا إلى داود ، فقضى به للكبرى فخرجتا ، فدعاهما سليمان ، فقال : هاتوا السكين أشقه بينكما ، فقالت الصغرى : يرحمك الله هو ابنها لا تشقه فقضى به للصغرى » (٢) .

---

(١) أخرجه البخاري في (الاعتصام) (٧٣٥٢) ومسلم في الأقضية (١٥) .
(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٢٧) ومسلم في المساجد (٣٣) وأحمد في مسنده (٣٢٢/٢) .

وقوله : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾ الآية ، وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور ، وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء ، فتجاوبه وترد عليه الجبال تأويبًا ، ولهذا لما مرَّ النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل ، وكان له صوت طيب جدًّا ، فوقف واستمع لقراءته وقال : « لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِزْمَارًا مِنْ مزامير آلِ دَاوُدَ » قال : يا رسول الله لو علمت أنك تستمع لحبّرته لك تحبيرًا (١) . وقوله : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ يعني : صنعة الدروع . قال قتادة : إنما كانت الدروع قبله صفائح ، وهو أول من سردها حلقًا كما قال تعالى : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ أي : لا توسع الحلقة فتقلق المسمار ، ولا تغلظ المسمار فتقد الحلقة ولهذا قال : ﴿ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ يعني : في القتال ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ ؟ أي : نعم الله عليكم لما ألهم به عبده داود ، فعلمه ذلك من أجلكم . وقوله : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ أي : وسخرنا لسليمان الريح العاصفة . ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ يعني أرض الشام . ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ وذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل ، والجمال والخيام والجند ، ثم يأمر الريح أن تحمله ، فتدخل تحته ثم تحمله وترفعه وتسير به ، وتظله الطير تقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض ، فينزل وتوضع آلاته وحشمه ، قال الله تعالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ . قال سعيد بن جبير : كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي ، فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس ، ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن ، ثم يأمر الطير فتظلهم ، ثم يأمر الريح فتحملهم . وقوله : ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ أي : في الماء يستخرجون اللآلئ والجواهر وغير ذلك : ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي غير ذلك كما قال تعالى : ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ۝ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ . وقوله : ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ أي يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء بل كل في قبضته ، وتحت قهره لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه ، والقرب منه بل هو يحكم فيهم إن شاء أطلق ، وإن شاء حبس منهم من يشاء .

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ .

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده ، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير ، وأولاد كثيرة ، ومنازل مرضية ، فابتلي في ذلك كله ، وذهب عن آخره ثم ابتلي في جسده يقال بالجذام في سائر بدنه ، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه يذكر بهما الله ﷻ ، حتى عافه الجليس ، وأفرد في ناحية من البلد ، ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته كانت تقوم بأمره ، ويقال : إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله ، وقد قال النبي ﷺ : « أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ » (٢) وفي الحديث الآخر : « يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى قَدْرِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ فِي بَلَائِهِ » (٣) وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٩/٥) . (٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٤٣/٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢/١) والترمذي في سننه (٢٣٩٨) .

قال : « إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ أَيُّوبَ لَبِثَ بِهِ بَلَاؤُهُ ثماني عَشْرَةَ سَنَةً ، فَرَفَضَهُ القَرِيبُ وَالبَعِيدُ إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ كَانَا مِنْ أَخصِّ إِخْوانِهِ لَهُ كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : تَعْلَم واللَّهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ العَالَمِينَ . فَقَالَ لَهُ صَاحِبه : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : مُنْذُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَة لَمْ يَرْحَمْهُ اللَّهُ فَيَكْشِف مَا بِهِ فَلَمَّا رَاحَا إِلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ أَيُّوبُ عليه السلام : مَا أَدْرِي مَا تَقُولُ غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ عز وجل يَعْلَمُ أَنِّي كُنتُ أَمُرُّ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللَّه ، فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَأُكَفِّرُ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةَ أَنْ يَذْكُرَا اللَّهَ إِلَّا فِي حَقٍّ » قال : وكانَ يخرجُ في حاجتِهِ ، فإذا قضَاهَا أَمْسَكتِ امْرَأَتُهُ بيدِهِ حَتَّى يبْلُغَ ، فلما كانَ ذاتَ يومٍ أبطأتْ عليْهِ ، فأوْحَى اللَّهُ إلى أَيُّوبَ في مكانِهِ أَنْ ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ »(١) وعن ابن عباس قال : وألبسه الله حلة من الجنة ، فتنحى أيوب فجلس في ناحية ، وجاءت امرأته فلم تعرفه فقالت : يا عبد الله أين ذهب هذا المبتلى الذي كان هاهنا ؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب فجعلت تكلمه ساعة . فقال : ويحك أنا أيوب قالت : أتسخر مني يا عبد الله فقال : ويحك أنا أيوب قد رد الله جسدي ، وبه قال ابن عباس ، ورد عليه ماله وولده عيانًا ومثلهم معهم ، وقال وهب بن منبه : أوحى الله إلى أيوب قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم ، فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك ، وقرب عن صحابتك قربانًا ، واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لَمَّا عَافَى اللَّهُ أَيُّوبَ أمطر عَلَيْهِ جَرَادًا مِنْ ذَهَبٍ ، فَجَعَلَ يَأْخُذُ مِنْهُ بِيَدِهِ وَيَجْعَلُهُ فِي ثَوْبِهِ قَالَ : فَقِيلَ لَهُ : يَا أَيُّوبُ أَمَا تَشْبَعُ ؟ قَالَ : يَا رَبِّ وَمَنْ يَشْبَعُ مِنْ رَحْمَتِكَ ؟ »(٢) .

وقوله : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ قد تقدم عن ابن عباس أنه قال : ردوا عليه بأعيانهم ، وقال مجاهد : قيل له : يا أيوب إن أهلك لك في الجنة أتيناك بهم ، وإن شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم . قال : لا بل أتركهم في الجنة، فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيا ، وقوله : ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ أي فعلنا به ذلك رحمة من الله به . ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ أي : وجعلناه في ذلك قدوة لئلا يظن أهل البلاء أنما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا ، وليتأسوا به في الصبر على مقدورات الله ، وابتلائه لعباده بما يشاء ، وله الحكمة البالغة في ذلك .

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

وأما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام وقد تقدم ذكره في سورة مريم ، وكذا إدريس عليه السلام ، وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي ، وقال آخرون : إنما كان رجلًا صالحًا ، وكان ملكًا عادلًا ، وحكمًا مقسطًا . وتوقف ابن جرير في ذلك فالله أعلم .

قال مجاهد : رجل صالح غير نبي تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه ، ويقيمهم له ويقضي بينهم بالعدل ، ففعل ذلك فسمي ذا الكفل .

وعن كنانة بن الأخنس قال : سمعت الأشعري وهو يقول على هذا المنبر : ما كان ذو الكفل بنبي ولكن كان - ويعني في بني إسرائيل - رجل صالح يصلي كل يوم مائة صلاة ، فتكفل له ذو

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٣٣٢٠) والهيثمي بنحوه في مجمع الزوائد (٢٠٨/٨) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٨٢/٢) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٣١/٤) .

الكفل من بعده فكان يصلي كل يوم مائة صلاة فسمي ذا الكفل .

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ .

هذه القصة مذكورة هاهنا وفي سورة الصافات وفي سورة ن ، وذلك أن يونس بن متي عليه السلام بعثه الله إلى أهل قرية نينوى ، وهي قرية من أرض الموصل ، فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا عليه ، وتمادوا على كفرهم ، فخرج من بين أظهرهم مغاضبًا لهم ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث ، فلما تحققوا ذلك وعلموا أن النبي لا يكذب خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل ، فرفع الله عنهم العذاب ، قال الله تعالى ﴿ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ .

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة ، فلجّجت بهم وخافوا أن يغرقوا ، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه ، فوقعت القرعة على يونس فأبوا أن يلقوه ، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضًا ، فأبوا ثم أعادوها فوقعت عليه أيضًا قال الله تعالى ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ﴾ أي : وقعت عليه القرعة فقام يونس عليه السلام ، وتجرد من ثيابه ، ثم ألقى نفسه في البحر ، وقد أرسل الله سبحانه حوتًا يشق البحار ، حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة ، فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحمًا ولا تهشم له عظمًا ، فإن يونس ليس لك رزقًا وإنما بطنك تكون له سجنًا ، وقوله : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ ﴾ يعني : الحوت صحت الإضافة إليه بهذه النسبة . وقوله : ﴿ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾ قال الضحاك لقومه . ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾ أي نضيق عليه في بطن الحوت . وقال عطية العوفي : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾ أي : نقضي عليه كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير ، فإن العرب تقول قدر وقدّر بمعنى واحد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴾ أي : قدر وقوله : ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ قال ابن مسعود : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل ، وذلك أنه ذهب به في البحار يشقها حتى انتهى به إلى قرار البحر ، فسمع يونس تسبيح الحصى في قراره فعند ذلك وهنالك قال : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ ﴾ أي أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أي إذا كانوا في الشدائد ودعونا منيبين إلينا ، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء فقد جاء الترغيب في الدعاء به عن سيد الأنبياء . وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : مررت بعثمان بن عفان رضي الله عنه في المسجد فسلمت عليه ، فملأ عينه مني ثم لم يردَّ عليَّ السلام ، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت : يا أمير المؤمنين هل حدث في الإسلام شيء؟ مرتين قال : لا وما ذاك ؟ قلت : لا إلا أني مررت بعثمان آنفًا في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني ثم لم يردَّ علي السلام ، قال : فأرسل عمر إلي عثمان فدعاه فقال : ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام ؟ قال : ما فعلت . قال سعد : قلت : بلى حتى حلف وحلفت قال : ثم إن عثمان ذكر فقال : بلى ، وأستغفر الله وأتوب إليه إنك مررت بي آنفًا ، وأنا أحدث نفسي بكلمة

سمعتها من رسول الله ﷺ لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة ، قال سعد : فأنا أنبئك بها إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ثم جاء أعرابي فشغله ، حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته ، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض ، فالتفت إلي رسول الله ﷺ فقال : «مَنْ هَذَا أَبُو إِسْحَاقَ ؟ » قال : قلت : نعم يا رسول الله ، قال : « فَمَه ؟ » قلت : لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة ، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك قال : « نَعَمْ دَعْوَةَ ذِي النُّونِ إِذْ هُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ رَبَّهُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ لَهُ » (١) . وعنه ﷺ : « مَنْ دَعَا بِدُعَاءِ يُونسَ اسْتُجِيبَ لَهُ » (٢) قال أبو سعيد : يريد به ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وعن سعد بن أبي وقاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اسمُ اللهِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى ، دَعْوَةُ يُونسَ بْنِ مَتَّى » قال : قلت : يا رسول الله هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال : « هِيَ لِيُونسَ بْنِ مَتَّى خاصَّة وَلِجَمَاعَةِ المُؤْمِنِينَ عَامَّة ، إِذَا دَعَوْا بِهَا أَلَمْ تَسْمَعْ قَولَ اللهِ ﷻ : ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، فَهُوَ شَرْطٌ مِنَ اللهِ لِمَنْ دَعَاهُ بِهِ » (٣) .

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده زكريا حين طلب أن يهبه الله ولدًا يكون من بعده نبيًّا ، ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾ أي : خفية عن قومه ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ أي : لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في الناس ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ دعاء وثناء مناسب للمسألة قال الله تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ أي : امرأته قال ابن عباس : كانت عاقرًا لا تلد ، فولدت ، وقال عطاء : كان في لسانها طول فأصلحها الله ، وفي رواية : كان في خلقها شيء فأصلحها الله ، والأظهر من السياق الأول . وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ أي : في عمل القربات ، وفعل الطاعات . ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ قال الثوري : رغبًا فيما عندنا ورهبًا مما عندنا ، ﴿ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ قال ابن عباس أي : مصدقين بما أنزل الله وقال . مجاهد : مؤمنين حقًّا . وقال أبو العالية : خائفين . وقال أبو سنان : الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبدًا ، وعن مجاهد أيضًا : أي متواضعين ، وقال الحسن وقتادة والضحاك : أي : متذللين لله ﷻ وكل هذه الأقوال متقاربة ، وقال عبد الله بن حكيم : خطبنا أبو بكر ﷺ قال : أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله ، وتثنوا عليه بما هو له أهل ، وتخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة فإن الله ﷻ أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ .

﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليه السلام مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليه السلام فيذكر

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٠/١). (٢) ذكره الحاكم في المستدرك (٥٨٤/٢).

(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٠٧/١٩) (١٨٧٢٤).

أولًا : قصة زكريا ، ثم يتبعها بقصة مريم ؛ لأن تلك مربوطة بهذه ، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن ، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد في حال شبابها ، ثم يذكر قصة مريم وهي أعجب ، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر ، هكذا وقع في سورة آل عمران وفي سورة مريم ، وهاهنا ذكر قصة زكريا ، ثم أتبعها بقصة مريم بقوله : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ يعني : مريم عليها السلام ، كما قال في سورة التحريم : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أي : دلالة على أن الله على كل شيء قدير ، وأنه يخلق ما يشاء ، وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ، وهذا كقوله : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ قال ابن عباس في قوله : ﴿ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ : الجن والإنس .

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾ .

قال ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ يقول : دينكم دين واحد ، وقال رسول الله ﷺ : « نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَّات دِينُنَا وَاحِدٌ » يعني : أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله . وقوله : ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ أي : اختلف الأمم على رسلها ، فمن بين مصدق لهم ومكذب ؛ ولهذا قال : ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ أي : يوم القيامة ، فيجازي كل بحسب عمله إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر ؛ ولهذا قال : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أي قلبه مصدق وعمل عملًا صالحًا ﴿ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ كقوله : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ أي لا يكفر سعيه ، وهو عمله ، بل يشكر فلا يظلم مثقال ذرة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾ أي يكتب جميع عمله فلا يضيع عليه منه شيء .

﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾ قال ابن عباس : وجب يعني قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة . وعن ابن عباس أيضًا أنهم لا يرجعون أي لا يتوبون ، والقول الأول أظهر والله أعلم . وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ قد قدمنا أنهم من سلالة آدم عليه السلام بل من نسل نوح أيضًا من أولاد يافث ، أي أبي الترك والترك شرذمة منهم : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ أي يسرعون في المشي إلى الفساد والحدب : هو المرتفع من الأرض قاله ابن عباس ، وهذه صفتهم في حال خروجهم كأن السامع مشاهد لذلك ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ هذا إخبار عالم ما كان وما يكون ، الذي يعلم غيب السماوات والأرض لا إله إلا هو . وعن عبد الله بن أبي يزيد قال : رأى ابن عباس صبيانًا ينزو بعضهم على بعض يلعبون ، فقال ابن عباس : هكذا يخرج يأجوج ومأجوج [1] ، وقد ورد ذكر

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١١٦/١٩) (١٨٧٤٤) .

خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية . فعن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس كما قال الله ﷻ : ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ فيغشون الناس ، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ، ويضمون إليهم مواشيهم ، ويشربون مياه الأرض حتى أن بعضهم ليمر بالنهر ، فيشربون ما فيه حتى يتركوه يابسًا ، حتى أن من بعدهم ليمر بذلك النهر ، فيقول : قد كان ها هنا ماء مرة ، حتى إذا لم يبق من الناس أحد ، إلا أحد في حصن أو مدينة قال قائلهم : هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم بقي أهل السماء ، قال : ثم يهز أحدهم حربته ، ثم يرمي بها إلى السماء ، فترجع إليه مخضبة دمًا للبلاء والفتنة . فبينما هم على ذلك بعث الله ﷻ دودًا في أعناقهم كنغف الجراد الذي يخرج في أعناقه ، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس ، فيقول المسلمون : ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو ؟ قال : فينحدر رجل منهم محتسبًا نفسه قد أوطنها على أنه مقتول ، فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض ، فينادى : يا معشر المسلمين : ألا أبشروا إن الله ﷻ قد كفاكم عدوكم ، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ، ويسرحون مواشيهم فما يكون لهم رعي إلا لحومهم ، فتشكر عنهم كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط » (١) .

وقد ثبت في الحديث أن عيسى ابن مريم يحج البيت العتيق ، فعن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيُحجَّنَّ هَذَا البَيْتَ ، وَلَيُعْتَمِرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأجُوجَ وَمَأْجُوجَ » (٢) . وقوله : ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ ﴾ يعني يوم القيامة إذا حصلت هذه الأهوال والزلازل ، والبلابل أزفت الساعة ، واقترب فإذا كانت ووقعت قال الكافرون : هذا يوم عسر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِذَا هِىَ شَاخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي : من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام ﴿ يَـٰوَيْلَنَا ﴾ أي : يقولون : يا ويلنا ﴿ قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا ﴾ أي : في الدنيا ﴿ بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴾ يعترفون بظلمهم لأنفسهم حيث لا ينفعهم ذلك .

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ يقول تعالى مخاطبًا لأهل مكة من مشركي قريش ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام والأوثان . ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ قال ابن عباس : أي : وقودها يعني كقوله : ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ وقال ابن عباس أيضًا : ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ يعني شجر جهنم ، وفي رواية : يعني حطب جهنم بالزنجية ، وقال مجاهد : حطبها . وقال الضحاك : أي ما يرمى به فيها .

وكذا قال غيره ، والجميع قريب وقوله : ﴿ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ أي : داخلون ﴿ لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾ يعني : لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آلهة

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٧/٣) وابن ماجه في سننه (٤٠٧٩) والحاكم في المستدرك (٢٤٥/٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧/٣) .

صحيحة ، لما وردوا النار وما دخلوها . ﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أي : العابدين ومعبوداتهم كلهم فيها خالدين ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ والزفير خروج أنفاسهم والشهيق ولوج أنفاسهم ﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ .

قال ابن مسعود : إذا بقي من يخلد في النار جعلوا في توابيت من نار فيها مسامير من نار ، فلا يرى أحد منهم أنه يعذب في النار غيره ثم تلا عبد الله ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾ قال عكرمة : الرحمة . وقال غيره : السعادة ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسوله ، وهم الذين أسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ وقال : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ فكما أحسنوا العمل في الدنيا أحسن الله مآبهم وثوابهم ونجاهم من العذاب ، وحصل لهم جزيل الثواب فقال : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ أي : حريقها في الأجساد ، وعن أبي عثمان ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ قال : حيات على الصراط تلسعهم فإذا لسعتهم قال : حس حس .

وقوله : ﴿ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ فسلمهم من المحذور والمرهوب ، وحصل لهم المطلوب والمحبوب . وعن ابن عباس قال في قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ : فأولئك أولياء الله يمرون على الصراط مرًّا هو أسرع من البرق ويبقى الكفار فيها جثيًّا فهذا مطابق لما ذكرناه ، وقال آخرون : بل نزلت استثناء من المعبودين ، وخرج منهم عزير والمسيح . كما قال ابن عباس ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ ثم استثنى فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾ فيقال : هم الملائكة وعيسى ، ونحو ذلك مما يعبد من دون الله ﷻ . وقال ابن عباس : نزلت في عيسى ابن مريم وعزير عليهما السلام .

وقال مجاهد ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ . قال : عيسى وعزير والملائكة . وقال الضحاك : عيسى ومريم والملائكة والشمس والقمر . وقوله : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ قيل : المراد بذلك الموت وقيل : المراد بالفزع الأكبر النفخة في الصور . وقيل : حين يؤمر بالعبد إلى النار . وقيل : حين تطبق النار على أهلها . وقيل : حين يذبح الموت بين الجنة والنار ، وقوله : ﴿ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ يعني ، تقول لهم الملائكة تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم : ﴿ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أي فأملوا ما يسركم .

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ .

يقول تعالى هذا كائن يوم القيامة ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . وعن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّه يَقْبِضُ يَوْمَ القِيَامَةِ الأَرْضِينَ وَتَكُونُ السَّمَاوَاتُ بِيَمِينِه » [1] . وعن ابن عباس قال : يطوي الله السماوات السبع بما فيها من

(١) أخرجه البخاري في (التوحيد) (١٩) .

الخليقة والأرضين السبع بما فيها من الخليقة ، يطوي ذلك كله بيمينه يكون ذلك كله في يده بمنزلة خردلة ، وقوله : ﴿ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ قيل : المراد بالسجل الكتاب ، وقيل : المراد بالسجل ها هنا ملك من الملائكة ، وعن ابن عمر في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ ، قال : السجل ملك فإذا صعد بالاستغفار قال : اكتبها نورًا . والصحيح عن ابن عباس : أن السجل هي الصحيفة . قاله علي بن أبي طلحة والعوفي عنه ، ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد ، فعلى هذا يكون معنى الكلام يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب أي على الكتاب بمعنى المكتوب كقوله : ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ أي على الجبين ، وقوله : ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ يعني : هذا كائن لا محالة يوم يعيد الله الخلائق خلقًا جديدًا كما بدأهم هو القادر على إعادتهم ، وذلك واجب الوقوع ؛ لأنه من جملة وعد الله الذي لا يخلف ولا يبدل ، وهو القادر على ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ وعن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : « إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ ﷻ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » وذكر تمام الحديث [1] . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ قال : يهلك كل شيء كما كان أول مرة .

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ، ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وقال : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية ، وهو كائن لا محالة ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ ﴾ قال الأعمش : سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ ﴾ فقال الزبور : التوراة والإنجيل والقرآن . وقال مجاهد : الزبور : الكتاب ، وقال ابن عباس وغير واحد : الزبور الذي أنزل على داود ، والذكر التوراة ، وعن ابن عباس الذكر : القرآن . وقال سعيد بن جبير : الذكر الذي في السماء . وقال مجاهد : الزبور الكتب بعد الذكر ، والذكر أم الكتاب عند الله ، وكذا قال زيد بن أسلم : وهو الكتاب الأول . وقال الثوري : هو اللوح المحفوظ ، وقال عبد الرحمن ابن زيد : الزبور الكتب التي أنزلت على الأنبياء ، والذكر أم الكتاب الذي يكتب فيه الأشياء قبل ذلك ، وقال ابن عباس : أخبر الله ﷻ في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السماوات والأرض أن يورّث أمة محمد ﷺ الأرض ، ويدخلهم الجنة وهم الصالحون .

وقال ابن عباس ﴿ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ قال : أرض الجنة وقال أبو الدرداء : نحن الصالحون ، وقال السدي : هم المؤمنين ، وقوله : ﴿ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ أي : إن في

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٤٠) ومسلم في الجنة (٥٦) وأحمد في مسنده (١/٢٣٥) .

هذا القرآن الذي أنزلناه على محمد ﷺ . ﴿ لَبَلَٰغًا ﴾ لمنفعة وكفاية ﴿ لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ ، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه ، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان ، وشهوات أنفسهم وقوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ يخبر تعالى أن الله جعل محمدًا ﷺ رحمة للعالمين - أي أرسله رحمة لهم - كلهم ، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة ، ومن ردها وجحدها خسر الدنيا والآخرة كما قال تعالى في صفة القرآن : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ .

وعن أبي هريرة قال : قيل : يا رسول الله ادع على المشركين ؟ قال : « إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً » (١) وعن جبير بن مطعم عن أبيه قال : قال أبو جهل حين قدم مكة منصرفه عن حمزة : يا معشر قريش إن محمدًا نزل يثرب ، وأرسل طلائعه ، وإنما يريد أن يصيب منكم شيئًا ، فاحذروا أن تمروا طريقه أو تقاربوه ، فإنه كالأسد الضاري ، إنه حنق عليكم لأنكم نفيتموه نفي القردان عن المناسم ، والله إن له لسحرة ما رأيته قط ولا أحدًا من أصحابه إلا رأيت معهم الشياطين ، وإنكم قد عرفتم عداوة بني قيلة - يعني الأوس والخزرج - فهو عدو استعان بعدو ، فقال له مطعم بن عدي : يا أبا الحكم والله ما رأيت أحدًا أصدق لسانًا ولا أصدق موعدًا من أخيكم الذي طردتم وإذ فعلتم الذي فعلتم ، فكونوا أكف الناس عنه ، قال أبو سفيان بن الحارث : كونوا أشد ما كنتم عليه إن ابني قيلة إن ظفروا بكم لم يرقبوا فيكم إلًّا ولا ذمة ، وإن أطعتموني ألجأتموهم خير كنانة أو تخرجوا محمدًا من بين ظهرانيهم فيكون وحيدًا مطرودًا ، وأما ابنا قيلة فوالله ما هما وأهل دهلك في المذلة إلا سواء وسأكفيكم حدهم وقال :

سَأَمْنَحُ جَانِبًا مِنِّي غَلِيظًا عَلَى مَا كَانَ مِنْ قُرْبٍ وَبُعْدِ
رِجَالُ الخَزْرَجِيَّةِ أَهْلُ ذُلٍّ إِذَا مَا كَانَ هَزْلٌ بَعْدَ جِدٍّ

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ قال « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَقْتُلَنَّهُمْ ولأُصلِّبَنَّهُم وَلَأَهْدِيَنَّهُمْ وَهُمْ كَارِهُونَ ، إِنِّي رَحْمَةٌ بَعَثَنِي اللهُ وَلَا يَتَوَفَّانِي حَتَّى يُظْهِرَ اللهُ دِينَهُ ، لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ ؛ أَنَا محمدٌ ، وَأَحْمَدُ ، وَأَنا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِي الكُفْرَ ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ ، وَأَنَا العَاقِبُ » (٢) .

وعن عمرو بن أبي قرة الكندي قال : كان حذيفة بالمدائن فكان يذكر أشياء قالها رسول الله ﷺ فجاء حذيفة إلى سلمان فقال سلمان : يا حذيفة إن رسول الله ﷺ خطب فقال : « أَيُّما رَجُل سَبَبْتُهُ فِي غَضَبِي أَوْ لَعَنْتُه ، فَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ آدَمَ أَغْضَبُ كَمَا تَغْضَبُونَ ، وَإِنَّمَا بَعَثَنِي اللهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ فَأَجْعَلُهَا صَلَاةً عَلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ » (٣) . فإن قيل فأي رحمة حصلت لمن كفر به ؟ فالجواب ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس : في قوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال : من آمن بالله

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٠) والطبراني في الكبير (١٨٩/١٩) .
(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٣٢) والتفسير (٤٨٩٦) ومسلم في الفضائل (١٢٤ ، ١٢٥) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٧/٥) أبو داود في سننه (٤٦٥٩) .

واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن بالله عوفي مما أصاب الأمَمَ من الخسف والقذف .

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن يقول للمشركين ﴿ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي : متبعون على ذلك مستسلمون منقادون له . ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي : تركوا ما دعوتهم إليه . ﴿ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ أي : أعلمتكم أني حرب لكم كما أنكم حرب لي ، بريء منكم كما أنتم برآء مني ، كقوله : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وقال : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ أي : ليكن علمك وعلمهم بنبذ العهود على السواء وهكذا ها هنا . ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ أي : أعلمتكم ببراءتي منكم وبراءتكم مني لعلمي بذلك .

وقوله : ﴿ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ أي : هو واقع لا محالة ، ولكن لا علم لي بقربه ، ولا ببعده ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ أي : إن الله يعلم الغيب جميعه ، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون ، يعلم الظواهر والضمائر ، ويعلم السر وأخفى ، ويعلم ما العباد عاملون في أجهارهم وأسرارهم ، وسيجزيهم على ذلك ، على القليل والجليل . وقوله : ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي وما أدري لعل هذا فتنة لكم ومتاع إلى حين ؟ قال ابن جرير : لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ومتاع إلى أجل مسمى ، ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أي : افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق . قال قتادة : كانت الأنبياء عليهم السلام يقولون : ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك . كان ﷺ إذا شهد غزاة قال : ﴿ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ . وقوله : ﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ أي : على ما يقولون ويفترون من الكذب ، ويتنوعون في مقامات التكذيب والإفك ، والله المستعان عليكم في ذلك .

سورة الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴾

يقول تعالى آمرًا عباده بتقواه ، ومخبرًا لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وقد اختلف المفسرون في زلزلة الساعة ، هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة ؟ أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجداثهم كما قال تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجّٗا ۝ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسّٗا ﴾ الآية . فقال قائلون : هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا ، وأول أحوال الساعة ، وقال علقمة في قوله : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ﴾ : قبل الساعة [1] ، وعن عامر الشعبي قال : هذا في الدنيا قبل القيامة ، وفي حديث الصور عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّه لَمَّا فَرَغَ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ خَلَقَ الصُّورَ ، فَأَعْطَاهُ إِسْرَافِيلَ فَهُوَ وَاضِعُه عَلَى فِيهِ شَاخِصٌ بِبَصَرِهِ إِلَى العَرْشِ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ » ، قال أبو هريرة : يا رسول الله وما الصور ؟ قال : قرن . قال : فكيف هو ؟ قال : « قَرْنٌ عَظِيمٌ يُنْفَخُ فِيهِ ثَلَاثُ نَفَخَاتٍ : الأولى : نَفْخَةُ الفَزَعِ . والثانيةُ : نَفْخَةُ الصَّعْقِ . والثالثةُ : نفخةُ القِيَامِ لِرَبِّ العَالَمِينَ ، يَأْمُرُ اللَّه إِسْرَافِيلَ بِالنَّفْخَةِ الأُولَى فَيَقُولُ : انْفُخْ نَفْخَةَ الفَزَعِ ، فَيَفْزَعُ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلُ الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّه ، وَيَأْمُرُهُ فَيَمُدُّهَا وَيُطَوِّلُهَا وَلَا يَفْتُرُ وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّه تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴾ فَتَسِيرُ الجِبَالُ فَتَكُونُ تُرَابًا ، وَتَرُجُّ الأَرْضُ بِأَهْلِهَا رَجًّا ، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّه تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝ قُلُوبٞ يَوْمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ﴾ . فتكونُ الأرضُ كالسَّفِينَةِ المُوبقَةِ فِي البَحْرِ تَضْرِبُهَا الأَمْوَاجُ تَكْفَؤُها بِأَهْلِهَا ، وكالقِنْدِيلِ المُعَلَّقِ بِالعَرْشِ تُرَجِّحُهُ الأَرْوَاحُ فَيَمْتَدُّ النَّاسُ عَلَى ظَهْرِهَا ، فَتَذْهَلُ المَرَاضِعُ ، وَتَضَعُ الحَوَامِلُ ، وَيَشِيبُ الوِلْدَانُ ، وَتَطِيرُ الشَّيَاطِينُ هَارِبَةً حَتَّى تَأْتِيَ الأَقْطَارَ ، فَتَلَقَّاهَا المَلَائِكَةُ فَتَضْرِبُ وُجُوهَهَا فَتَرْجِعُ ، وَيُوَلِّي النَّاسُ مُدْبِرِينَ يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّه تعالى : ﴿ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٖ ﴾ . فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذِ انْصَدَعَتِ الأَرْضُ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ ، وَرَأَوْا أَمْرًا عَظِيمًا ، فَأَخَذَهُمْ لِذَلِكَ مِنَ الكَرْبِ مَا اللَّه أَعْلَمُ بِهِ ، ثُمَّ نَظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا هِيَ كَالمُهْلِ ، ثُمَّ خُسِفَ شَمْسُهَا وَقَمَرُهَا ، وانْتَثَرَتْ نُجُومُهَا ، ثُمَّ كُشِطَتْ عَنْهُمْ – قال رسول الله ﷺ : وَالأَمْوَاتُ لَا يَعْلَمُونَ بِشَيءٍ مِنْ ذَلِكَ » . قال أبو هريرة : فمن استثنى الله حين يقول : ﴿ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ قال : « أولئك الشهداء ، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء ، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون ، ووقاهم الله شر ذلك اليوم ، وآمنهم وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه ، وهو الذي يقول الله :

---

(١) أورده ابن جرير الطبري في تفسيره (١٤٥/١٩) (١٨٨٢٧) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴾ (١) وهذا الحديث الغرض منه أنه دل على أن هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة ، أضيفت إلى الساعة لقربها منها ، كما يقال : أشراط الساعة ، ونحو ذلك والله أعلم . وقال آخرون : بل ذلك هول وفزع وزلزال ، وبلبال كائن يوم القيامة في العرصات بعد القيام من القبور ، واختار ذلك ابن جرير واحتجوا بأحاديث منها :

عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال - وهو في بعض أسفاره - وقد تقارب من أصحاب السير ، رفع بهاتين الآيتين صوته - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴾ ، فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطي ، وعرفوا أنه عند قول يقوله : فلما دنوا حوله قال : « أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ ذَاكَ ، ذَاكَ يَوْمٌ يُنَادِي آدَمُ عليه السلام ، فَيُنَادِيهِ رَبُّهُ عز وجل فَيَقُولُ : يا آدَمُ ابْعَثْ بَعْثَكَ إِلَى النَّارِ . فَيَقُولُ : يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ ؟ فَيَقُولُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وتِسْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدٌ فِي الجَنَّةِ » ، قال : فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا أيضًا حكمه ، فلما رأى ذلك قال : « أَبْشِرُوا وَاعْمَلُوا ، فَوَالَّذِي نَفْسُ محمدٍ بِيَدِهِ إِنَّكُم لمَعَ خَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتَا مَعَ شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا كَثَّرَتَاهُ يَأْجُوج وَمأْجُوجُ ، وَمَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَبَنِي إِبْلِيسَ » - قال : فسرّي عنهم - ثم قال : « اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهْ مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كالشَّامَةِ فِي جَنْبِ البَعِيرِ أَوْ الرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ » (٢) .

وعن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال : لما نزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴾ قال : نزلت عليه هذه الآية وهو في سفر فقال : « أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ ذَلِكَ ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : ذَلِكَ يَوْمَ يَقُولُ الله لآدَمَ : ابْعَثْ بَعْثَ النارِ . قَالَ : يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ ؟ قَالَ : تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ فِي الجَنَّةِ » . فأنشأ المسلمون يبكون فقال رسول الله ﷺ : « قَارِبُوا وَسَدِّدُوا فَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ نُبُوَّةٌ قَطُّ إِلَّا كَانَ بَيْنَ يَدَيْهَا جَاهِلِيَّةٌ قَالَ : فَيُؤْخَذُ العَدَدُ مِنَ الجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنْ تَمَّتْ وَإِلَّا كَمُلَتْ مِنَ المُنَافِقِينَ ، وَمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَل الأمم إِلَّا كمثلِ الرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ ، أَوِ كالشَّامَةِ فِي جَنْبِ البَعِيرِ - ثم قال : إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ - فَكَبَّرُوا ثم قال : إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُول ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ - فكبّروا ثم قال : إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ » ، فكبروا . ثم قال : ولا أدري أقال : الثلثين أم لا (٣) .

وعن أبي سعيد قال : قال النبي ﷺ : « يَقُولُ اللَّه تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ : يَا آدَمُ فَيَقُولُ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ ، فَيُنَادِي بِصَوْتٍ : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ . قَالَ : يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النارِ ؟ قَالَ : مِنْ كُلِّ أَلفٍ - أراه قال : تِسْعُمِائَةٌ وَتِسعةٌ وَتِسْعُونَ ، فَحِينئذٍ تَضَعُ الحَامِلُ حَمْلَهَا ،

---

(١) أورده ابن جرير الطبري في تفسيره (١٤٦/١٩) (١٨٨٣٠) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣١٦٩) .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٣١٦٨) والإمام أحمد في مسنده (٤٣٢/٤) .

وَيَشِيبُ الوَلِيدُ . ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ » . فشق ذلك على الناس ، حتى تغيرت وجوههم . قال النبي ﷺ : « مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعُمِائَةٌ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ ، أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَبْيَضِ ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ ، إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الجَنَّةِ - فَكَبَّرْنَا ، ثم قال : ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ - فَكَبَّرْنَا ، ثم قال : شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ » . فكبرنا [1] .

وعن عائشة عن النبي ﷺ قال : « إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا » ، قالت عائشة : يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : « يَا عَائِشَةُ إِنَّ الأَمْرَ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكَ » [2] .

والأحاديث في أهوال يوم القيامة ، والآثار كثيرة جدًا لها موضع آخر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : أمر عظيم ، وخطب جليل ، وطارق مفظع ، وحادث هائل ، وكائن عجيب ، والزلزال هو ما يحصل للنفوس من الرعب والفزع كما قال تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ هذا من باب ضمير الشأن ، ولهذا قال مفسرًا له ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ أي : فتشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها ، والتي هي أشفق الناس عليه ، تدهش عنه في حال إرضاعها له ، ولهذا قال : ﴿ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ﴾ ولم يقل مرضع ، وقال : ﴿ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ أي عن رضيعها قبل فطامه ، وقوله : ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ أي : قبل تمامه لشدة الهول ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ ﴾ وقرئ ﴿ سكرى ﴾ [3] أي : من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه قد دهشت عقولهم ، وغابت أذهانهم ، فمن رآهم حسب أنهم سكارى ﴿ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

يقول تعالى ذامًا لمن كذب بالبعث وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى معرضًا عما أنزل الله على أنبيائه متبعًا في قوله وإنكاره وكفره كلَّ شيطان مريد من الإنس والجن وهذا حال أهل البدع والضلال المعرضين عن الحق المتبعين للباطل ، يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين ، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء ولهذا قال في شأنهم وأشباههم . ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي : علم صحيح ﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ ﴾ قال مجاهد : يعني الشيطان يعني : كتب عليه كتابة قدرية . ﴿ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ ﴾ أي اتبعه وقلده . ﴿ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ أي : يضله في الدنيا ، ويقوده في الآخرة إلى عذاب

---

(١) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٤١) ومسلم (٢٠١) .

(٢) أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء) (٣٣٤٩) ومسلم في (الجنة) (٥٨) والإمام أحمد في مسنده (٥٣/٦) .

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف (سكرى) بفتح السين وكسر الكاف من غير ألف والباقون بضم السين وفتح الكاف وألف (انظر : تقريب النشر ص : ١٤٥) .

السعير ، وهو الحار المؤلم المقلق ، المزعج . وعن أبي مالك قال : نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث . وعن أبي كعب المكي قال : قال خبيث من خبثاء قريش : أخبرنا عن ربكم من ذهب هو أو من فضة أو من نحاس هو ؟ فتقعقعت السماء قعقعة - والقعقعة في كلام العرب الرعد - فإذا قحف رأسه ساقط بين يديه ، وقال مجاهد : جاء يهودي فقال : يا محمد أخبرني عن ربك من أي شيء هو من در أم من ياقوت ؟ قال : فجاءت صاعقة فأخذته .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ .

لما ذكر تعالى المخالف للبعث المنكر للمعاد ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد بما يشاهد من بدئه للخلق فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ أي : في شك ﴿ مِّنَ ٱلْبَعْثِ ﴾ وهو المعاد ، وقيام الأرواح والأجساد ، يوم القيامة ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ أي : أصل برئه لكم من تراب وهو الذي خلق منه آدم عليه السلام . ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أي : ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة مكثت أربعين يومًا كذلك يضاف إليه ما يجتمع إليها ، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله ، فتمكث كذلك أربعين يومًا ، ثم تستحيل فتصير مضغة - قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط - ثم يشرع في التشكيل والتخطيط فيصور منها رأس ويدان وصدر وبطن وفخذان ، ورجلان وسائر الأعضاء ، فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط ، وتارة تلقيها ، وقد صارت ذات شكل وتخطيط ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ أي كما تشاهدونها ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي : وتارة تستقر في الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها ، كما قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ قال : هو السقط مخلوق وغير مخلوق ، فإذا مضى عليها أربعون يومًا وهي مضغة أرسل الله تعالى ملكًا إليها فنفخ فيها الروح وسواها كما يشاء الله عز وجل من حسن وقبح ، وذكر وأنثى ، وكتب رزقها وأجلها ، وشقي أو سعيد ، كما ثبت عن رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق :

« إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، ثُمَّ يكون عَلَقَةً مثل ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلُ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّه إِلَيْهِ المَلَكَ فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ وَعَمَلَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الروحُ » (١) .

وعن الشعبي ، عن علقمة عن عبد الله قال : النطفة إذا استقرت في الرحم ، جاءها ملك بكفه فقال : يا رب مخلقة أو غير مخلقة ؟ فإن قيل : غير مخلقة لم تكن نسمة وقذفتها الأرحام دمًا ، وإنْ قيلَ : مخلَّقَةٌ . قال : أي رب ذكر أو أنثى ، شقي أو سعيد ما الأجل وما الأثر ، وبأي أرض

(١) أخرجه البخاري في (التوحيد) (٧٤٥٤) ومسلم في القدر (١) .

يموت ؟ قال : فيقال للنطْفَةِ : من ربك ؟ فتقول : اللَّه . فيقال : من رازقك ؟ فتقول : اللَّه . فيقال له : اذهب إلى الكتاب فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة قال : فتخلق فتعيش في أجلها ، وتأكل رزقها ، وتطأ أثرها حتى إذا جاء أجلها ماتت فدفنت في الأرض ، ثم تلا عامر الشعبي ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ فإذا بلغت مضغة نكست في الخلق الرابع فكانت نسمة ، وإن كانت غير مخلقة قذفتها الأرحام دمًا ، وإن كانت مخلقة نكست نسمة . وعن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي ﷺ قال : «يَدْخُلُ المَلَكُ عَلَى النطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ في الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ ، فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ؟ فَيَقُولُ اللَّه : وَيَكْتُبَانِ . فَيَقُولُ : أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى ؟ فيقول اللَّه ويكتبان ، ويكتب عمله وأثره ورزقه ، وأجله ، ثم تطوى الصحف فلا يزاد على ما فيها ولا ينتقص » (١) . وقوله : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ أي : ضعيفًا في بدنه وسمعه وبصره وحواسه وبطشه وعقله ، ثم يعطيه اللَّه القوة شيئًا فشيئًا ، ويلطف به ويحنن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار ؛ ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ﴾ أي يتكامل القوي ويتزايد ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر ، ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ ﴾ أي : في حال شبابه وقواه ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ وهو : الشيخوخة والهرم ، وضعف القوة والعقل والفهم ، وتناقص الأحوال من الخرف ، وضعف الفكر ؛ ولهذا قال : ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحيي الأرض الميتة الهامدة ، وهي المقحلة التي لا ينبت فيها شيء . وقال قتادة : غبراء متهشمة . وقال السدي : ميتة ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ أي : فإذا أنزل اللَّه عليها المطر اهتزت أي تحركت بالنبات ، وحييت بعد موتها ، وربت أي ارتفعت لما سكن فيها الثرى ، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات النبات في اختلاف ألوانها وطعومها ، وروائحها وأشكالها ومنافعها . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ أي : حسن المنظر طيب الريح . وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ أي : الخالق المدبر الفعال لما يشاء ﴿ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي : كما أحيا الأرض الميتة ، وأنبت منها هذه الأنواع ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ ، ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي : كائنة لا شك فيها ولا مرية ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ أي : يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم رممًا ويوجدهم بعد العدم . كما قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ . والآيات في هذا كثيرة .

وعن أبي رزين العقيلي واسمه لقيط بن عامر أنه قال : يا رسول اللَّه أكلنا يرى ربه ﷻ يوم القيامة

---

(١) أخرجه مسلم في (القدر) (٢) والإمام أحمد في مسنده (٧/٤) .

وما آية ذلك في خلقه ؟ فقال رسول الله ﷺ : «أَلَيسَ كُلُّكُمْ يَنْظُرُ إِلَى القَمَرِ مخْلِيًا بِهِ ؟ »قلنا : بلى ، قال : «فاللَّهُ أَعْظَمُ »قال : قلت : يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه ؟ قال : «أَمَا مَرَرْتَ بِوَادِي أَهْلِكَ مُمْحِلًا ؟ »، قال : بلى . قال : «ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَزُّ خَضِرًا ؟ »قال : بلى قال : «فَكَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ المَوْتَى ، وَذَلِكَ آيَتُهُ فِي خَلْقِهِ »وعن معاذ بن جبل قال : من علم أن الله هو الحق المبين ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور دخل الجنة (١) .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال الضلَّال الجهَّال المقلِّدين في قوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع فقال : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ أي : بلا عقل صحيح ، ولا نقل صريح ، بل بمجرد الرأي والهوى ، وقوله : ﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ ﴾ . قال ابن عباس وغيره : مستكبر عن الحق إذا دعي إليه ، وقال زيد ابن أسلم أي : لاوي عطفه وهي رقبته ، يعني يعرض عما يدعى إليه من الحق ، ويثني رقبته استكبارًا كقوله تعالى : ﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ وقال لقمان لابنه : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ أي : تميله عنهم استكبارًا عليهم ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ﴾ الآية . وقوله : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ قال بعضهم : هذه لام العاقبة ؛ لأنه قد لا يقصد ذلك ، ويحتمل أن تكون لام التعليل . ثم إما أن يكون المراد بها المعاندون ، أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جبلناه على هذا الخلق الدنيء لنجعله ممن يضل عن سبيل الله . ثم قال تعالى : ﴿ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ﴾ وهو الإهانة والذل ، ﴿ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ . ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ أي : يقال له هذا تقريعًا وتوبيخًا ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾ . وقال الحسن : بلغني أن أحدهم يحرق في اليوم سبعين ألف مرة .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾ .

قال مجاهد وقتادة وغيرهما ﴿ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ على شك . وقال غيرهم : على طرف ، ومنه حرف الجبل أي طرفه أي دخل في الدين على طرف ، فإن وجد ما يحبه استقر وإلا انشمر . قال ابن عباس : كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلامًا ونتجت خيله قال : هذا دين صالح . وإن لم تلد امرأته ، ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء . وقال ابن أبي حاتم : عن ابن عباس قال : كان

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/١١) والحاكم في المستدرك (٤/٥٦٠) .

ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسلمون فإذا رجعوا إلى بلادهم وجدوا عام غيث ، وعام خصب ، وعام ولاد حسن قالوا : إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به . وإن وجدوا عام جدوبة ، وعام ولاد سوء ، وعام قحط قالوا : ما في ديننا هذا خير . فأنزل الله على نبيه : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ﴾ الآية .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو المنافق إن صلحت له دنياه أقام على العبادة ، وإن فسدت عليه دنياه ، وتغيرت انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه ، فإن أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق ترك دينه ورجع إلى الكفر ، وقال مجاهد في قوله : ﴿ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾ أي : ارتد كافرًا . وقوله : ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ﴾ أي : فلا هو حصل من الدنيا على شيء ، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي : هذه الخسارة العظيمة ، والصفقة الخاسرة . وقوله : ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ﴾ أي : من الأصنام والأنداد يستغيث بها ويستنصرها ، ويسترزقها وهي لا تنفعه ولا تضره ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ ، وقوله : ﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ﴾ أي : ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها ، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن . وقوله : ﴿ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾ قال مجاهد : يعني الوثن ، يعني بئس هذا الذي دعاه من دون الله مولى ، يعني : وليًا وناصرًا . ﴿ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾ وهو المخالط والمعاشر . واختار ابن جرير أن المراد لبئس ابن العم والصاحب [1] ﴿ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾ وقول مجاهد : إن المراد به الوثن أولى وأقرب إلى سياق الكلام والله أعلم .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء ، عطف بذكر الأبرار السعداء من الذين آمنوا بقلوبهم وصدقوا إيمانهم بأفعالهم ، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات ، وتركوا المنكرات ، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات في روضات الجنات ، ولما ذكر تعالى أنه أضل أولئك وهدى هؤلاء ، قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ۝ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴾ .

قال ابن عباس من كان يظن أنه لن ينصر الله محمدًا ﷺ في الدنيا والآخرة ، ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ ﴾ أي بحبل ﴿ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي سماء بيته ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ يقول : ثم ليختنق به . وكذا قال مجاهد . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي : ليتوصل إلى بلوغ السماء ، فإن النصر إنما يأتي محمدًا من السماء ، ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ ذلك عنه إن قدر على ذلك ، وقول ابن عباس وأصحابه أظهر في المعني ، وأبلغ في التهكم ، فإن المعنى : من كان يظن أن الله ليس بناصر محمدًا وكتابه ودينه ، فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه ، فإن الله ناصره لا محالة ، قال الله تعالى :

---

(١) تفسير الطبري (١٦٤/١٧) .

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴾ الآية . ولهذا قال : ﴿ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ قال السدي : يعني من شأن محمد ﷺ ، وقال عطاء الخراساني : فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ . وقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ ﴾ أي القرآن . ﴿ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ﴾ أي : واضحات في لفظها ومعناها حجة من اللّه على الناس ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴾ أي : يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، وله الحكمة التامة في ذلك ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّـٰبِـِٔينَ وَالنَّصَـٰرَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين ، ومن سواهم من اليهود والصابئين ، والنصارى والمجوس ، والذين أشركوا فعبدوا مع اللّه غيره ، فإنه تعالى : ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ ﴾ ويحكم بينهم بالعدل ، فيدخل من آمن به الجنة ومن كفر به النار ، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم ، حفيظ لأقوالهم ، عليم بسرائرهم ، وما تكن ضمائرهم .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ .

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعًا وكرهًا ، وسجود كل شيء مما يختص به . ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : من الملائكة في أقطار السماوات والحيوانات في جميع الجهات من الإنس والجن ، والدواب والطير ، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ . وقوله : ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ ﴾ إنما ذكر هذه على التنصيص ؛ لأنها قد عبدت من دون اللّه ، فبين أنها تسجد لخالقها ، وأنها مربوبة مسخرة ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ الآية . وعن أبي ذر عن رسول اللّه ﷺ قال : « أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ ؟ » قلت : اللّه ورسوله أعلم . قال : « فَإِنَّهَا تَذْهَبُ فَتَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ ، ثُمَّ تُسْتَأْمَرُ فَيُوشِكُ أَنْ يُقَالَ لَهَا : ارجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ »(١) . وعنه ﷺ قال : « إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ خَلْقَانِ مِنْ خَلْقِ اللّه ، وَإِنَّهُمَا لَا يَنْكَسِفانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ ، وَلكِنَّ اللّه ﷻ إذا تَجَلَّى لِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ خَشَعَ لَهُ »(٢) . وقال أبو العالية : ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع للّه ساجدًا حين يغيب ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له ، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه . وأما الجبال والشجر فسجودهما بفيء ظلالهما عن اليمين والشمائل ، وعن ابن عباس قال : جاء رجل فقال : يا رسول اللّه إني رأيتني الليلة - وأنا نائم - كأني أصلي خلف شجرة فسجدت ، فسجدت الشجرة لسجودي فسمعتها وهي تقول : اللهم اكتب لي بها عندك أجرًا ، وضع عني بها وزرًا ، واجعلها لي عندك ذخرًا ، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود . قال ابن عباس : فقرأ رسول اللّه ﷺ سجدة ، ثم سجد فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة ، وقوله : ﴿ وَالدَّوَابُّ ﴾ أي : الحيوانات كلها وقد جاء في الحديث أن رسول اللّه ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في (بدء الخلق) (٣١٩٩) ومسلم في الإيمان (٢٥٠) .
(٢) أخرجه أبو داود في سننه (١١٧٧) وابن ماجه في سننه (١٢٦٢) .

نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر ، فرب مركوبة خيرًا أو أكثر ذكرًا لله تعالى من راكبها (١) .

وقوله : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ أي : يسجد لله طوعًا مختارًا متعبدًا بذلك ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ أي ممن امتنع وأبى واستكبر . ﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ . وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي قال : قيل لعلي إن ها هنا رجلًا يتكلم في المشيئة . فقال له علي : يا عبد الله ، خلقك الله كما يشاء أو كما شئت ؟ قال : بل كما شاء ، قال : فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء ، قال : فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء ، قال : فيدخلك حيث شئت أو حيث شاء ؟ قال : بل حيث يشاء ، قال : والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عيناك بالسيف . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا قَرَأَ ابن آدمَ السَّجْدَةَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ : يَا وَيْلَهُ أُمِرَ ابنُ آدمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الجَنَّة ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّار » (٢) .

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ .

ثبت عن أبي ذر أنه كان يقسم قسمًا أن هذه الآية ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه ، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في بدر (٣) . وعن علي بن أبي طالب أنه قال : أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة ، قال قيس : وفيهم نزلت ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ قال : هم الذين بارزوا يوم بدر علي وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد ابن عتبة (٤) . وقال قتادة في قوله : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ اختصم المسلمون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، فنحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : كتابنا يقضي على الكتب كلها ، ونبينا خاتم الأنبياء ، فنحن أولى بالله منكم ، فأفلج الله الإسلام على من ناوأه وأنزل : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ . وقال قتادة في قوله : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ مصدق ومكذب . وقال مجاهد في هذه الآية : مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث ، وقال في رواية هو وعطاء في هذه الآية : هم المؤمنون والكافرون . وقال عكرمة : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ هي الجنة والنار . قالت النار : اجعلني للعقوبة . وقالت الجنة : اجعلني للرحمة ، وقول مجاهد وعطاء : إن المراد بهذه الكافرون والمؤمنون يشمل الأقوال كلها ، وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها ، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله ﷻ ، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق ، وظهور الباطل . ولهذا قال : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ أي : فصلت لهم مقطعات من النار ، قال سعيد بن جبير : من نحاس وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمي ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴾ أي : إذا صب على رؤوسهم الحميم وهو الماء الحار في غاية الحرارة . وقال سعيد بن جبير : هو النحاس المذاب ، أذاب ما

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٢٥٦٧) .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٣٣) والإمام أحمد في مسنده (٢/٤٤٠) وابن ماجه في سننه (١٠٥٢) .
(٣) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٤٣) . (٤) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٤٤) .

في بطونهم من الشحم والأمعاء . وكذلك تذوب جلودهم . وقال ابن عباس : تساقط .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ الحَمِيمَ لَيُصَبُّ على رُؤُوسِهِمْ فَيَنْفُذُ إلى الجُمْجُمَةِ حَتَّى يَخْلُصَ إلى جَوْفِهِ ، فَيَسْلُتُ مَا فِي جَوْفِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَدَمَيهِ ، وَهُوَ الصَّهْرُ ثُمَّ يُعَادُ كَمَا كَانَ » (١) . قال عبد الله بن السري : يأتيه الملك يحمل الإناء بكلبتين من حرارته ، فإذا أدناه من وجهه تكرهه قال : فيرفع مقمعة معه فيضرب بها رأسه فيفرغ دماغه ثم يفرغ الإناء من دماغه فيصل إلى جوفه من دماغه . فذلك قوله : ﴿ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ وفي الحديث عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ : « لَوْ أَنَّ مَقْمَعًا مِنْ حَدِيدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ فَاجْتَمَعَ لَهُ الثَّقَلانَ مَا أَقَلُّوهُ مِنَ الأَرْضِ » (٢) . وعن أبي سعيد الخدري أيضًا قال : قال رسول الله ﷺ : « لَوْ ضُرِبَ الجَبَلُ بِمَقْمَعٍ مِنْ حَدِيد لَتَفَتَّتَ ، ثُمَّ عَادَ كَمَا كَانَ ، وَلَوْ أَنَّ دَلْوًا مِنْ غَسَّاقٍ يُهْرَاقُ فِي الدُّنْيَا لأَنْتَنَ أَهْلُ الدُّنْيَا » (٣) . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ يضربون بها فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالثبور . وقوله : ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ عن سلمان قال : النار سوداء مظلمة لا يضيء لهبها ولا جمرها ، ثم قرأ ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ . وقال زيد بن أسلم في هذه الآية : بلغني أن أهل النار في النار لا يتنفسون ، وقال الفضيل بن عياض : والله ما طمعوا في الخروج ، إن الأرجل لمقيدة ، وإن الأيدي لموثقة ، ولكن يرفعهم لهبها وتردهم مقامعها . وقوله ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ كقوله : ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قولًا وفعلًا .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ .

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار عياذًا بالله من حالهم وما هم فيه من العذاب والنكال ، والحريق والأغلال ، ذكر حال أهل الجنة نسأل الله من فضله وكرمه فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي : تتخرق في أكنافها وأرجائها وجوانبها ، وتحت أشجارها وقصورها ، يصرفونها حيث شاءوا وأين أرادوا ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا ﴾ من الحلية ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ أي في أيديهم كما في الحديث : « تَبْلُغُ الحِلْيَةُ مِنَ المُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الوُضُوءُ » (٤) . وقوله : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم ، لباس هؤلاء من الحرير إستبرقه وسندسه كما قال : ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ وفي الصحيح : « لا تَلْبَسُوا الحَرِيرَ وَلَا الدِّيبَاجَ فِي الدُّنْيَا ، فَإِنَّهُ مَنْ لَبِسَهُ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الآخِرَةِ » (٥) . قال عبد الله بن الزبير : من لم يلبس

---

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧/١٧٥) (١٨٨٩٧) وأخرجه الترمذي في سننه (٣٥٨٢) والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٧٤) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٢٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٨٨) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٨٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٨٨) .

(٤) أخرجه مسلم في الطهارة (٤٠) والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٧١) .

(٥) أخرجه البخاري في (الأطعمة) (٥٤٢٦) ومسلم في اللباس (٤ ، ٥) .

الحرير في الآخرة لم يدخل الجنة ، قال الله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ وقوله : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب . وقوله : ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾ لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يوبخون به ويقرعون به يقال لهم : ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ وقوله : ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ أي : إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم على ما أحسن إليهم وأنعم به ، وأسداه إليهم . كما جاء في الحديث الصحيح : « إِنَّهُمْ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ » (١) . وقد قال بعض المفسرين في قوله : ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ أي : القرآن وقيل : لا إله إلا الله ، وقيل : الأذكار المشروعة ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ أي : الطريق المستقيم في الدنيا ، وكل هذا لا ينافي ما ذكرناه ، والله أعلم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على الكفار في صدهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام ، وقضاء مناسكهم فيه ، أي : ومن صفتهم أنهم مع كفرهم يصدون عن سبيل الله . ﴿ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ أي : ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر . وقوله : ﴿ ٱلَّذِي جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾ أي يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام ، وقد جعله الله شرعًا سواء لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه . ﴿ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾ ومن ذلك استواء الناس في رباع مكة وسكناها . قال ابن عباس : ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام . وقال مجاهد : ﴿ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾ أهل مكة وغيرهم فيه سواء في المنازل ، وقال قتادة : سواء فيه أهله وغير أهله ، وهذه المسألة هي التي اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهويه بمسجد الخيف ، فذهب الشافعي رحمه الله إلى أن رباع مكة تملك وتورث وتؤجر ، واحتج بحديث عن أسامة بن زيد قال : قلت : يا رسول الله أتنزل غدًا في دارك بمكة ؟ فقال : « وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ ؟ » ثم قال : « لَا يَرِثُ الكَافِرُ المُسْلِمَ وَلَا المُسْلِمُ الكَافِرَ » (٢) وبما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية دارًا بمكة ، فجعلها سجنًا بأربعة آلاف درهم ، وبه قال طاوس وعمرو بن دينار ، وذهب إسحاق بن راهويه إلى أنها لا تورث ولا تؤجر ، واحتج إسحاق بن راهويه بما رواه ابن ماجه عن علقمة بن نضلة قال : توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وما تدعى رباع مكة إلا السوائب ، من احتاج سكن ، ومن استغنى أسكن (٣) . وعن عبد الله بن عمرو ، أنه قال : لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها . وكان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم ، وكان عمر بن الخطاب ينهى عن تبويب دور مكة لأن ينزل الحاج في عرصاتها ، فكان أول من بوب داره سهيل بن عمرو ،

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤) والإمام أحمد في مسنده (٣/٣٤٩) .

(٢) أخرجه البخاري في (الحج) (٤٤) ومسلم في (الحج) (٤٣٩) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه (٣١٠٧) .

فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك فقال : أنظرني يا أمير المؤمنين إني كنت امرأ تاجرًا ، فأردت أن أتخذ بابين يحبسان لي ظهري . قال : فلك ذلك إذًا .

وعن عبد اللّه بن عمرو موقوفًا : من أكل كراء بيوت في مكة أكل نارًا وتوسط الإمام أحمد فقال : تملك وتورث ولا تؤجر جمعًا بين الأدلة ، واللّه أعلم .

وقوله : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قال بعض المفسرين من أهل العربية : الباء هاهنا زائدة . كقوله : ﴿ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ ﴾ أي : تنبت الدهن ، وكذا قوله : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ ﴾ تقديره إلحادًا والأجود أنه ضمّن الفعل هاهنا معنى يهم ، ولهذا عداه بالباء فقال : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ ﴾ أي : يهم فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار وقوله : ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أي : عامدًا قاصدًا أنه ظلم ليس بمتأول . وعن ابن عباس : هو التعمد . وقال ابن عباس : بظلم : بشرك ، وقال مجاهد : أن يعبد فيه غير اللّه ، وقال العوفي عن ابن عباس : بظلم هو أن تستحل من الحرم ما حرم اللّه عليك من إساءة أو قتل فتظلم من لا يظلمك ، وتقتل من لا يقتلك ، فإذا فعل ذلك وجب له العذاب الأليم ، وقال مجاهد : ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ يعمل فيه عملًا سيئًا ، وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب البادي فيه الشر إذا كان عازمًا عليه وإن لم يوقعه . وعن عبد اللّه قال : ما من رجل يهم بسيئة فتكتب عليه ، ولو أن رجلًا بعدن أبين همَّ أن يقتل رجلًا بهذا البيت لأذاقه اللّه من العذاب الأليم . قال مجاهد : إلحاد فيه : لا واللّه وبلى واللّه . وقال سعيد بن جبير : شتم الخادم ظلم فما فوقه . وقال ابن عباس : تجارة الأمير فيه . وعن ابن عمر : بيع الطعام بمكة إلحاد . وقال سعيد بن جبير : قال ابن عباس في قول اللّه : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ قال : نزلت في عبد اللّه بن أنيس أن رسول اللّه ﷺ بعثه مع رجلين أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار ، فافتخروا في الأنساب فغضب عبد اللّه بن أنيس فقتل الأنصاري ، ثم ارتد عن الإسلام ، ثم هرب إلى مكة ، فنزلت فيه ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ يعني : من لجأ إلى الحرام بإلحاد يعني : بميل : عن الإسلام ، وهذه الآثار وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد ولكن هو أعم من ذلك بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها ولهذا لما همَّ أصحاب الفيل على تخريب البيت ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ أي : دمرهم وجعلهم عبرة ونكالًا لكل من أراد بسوء ، ولذلك ثبت في الحديث أن رسول اللّه ﷺ قال : «يَغْزُو هَذَا الْبَيْتَ جَيْشٌ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ خُسِفَ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ» [(١)] الحديث .

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ .

هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير اللّه وأشرك به من قريش في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد اللّه وعبادته وحده لا شريك له ، فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت أي : أرشده إليه ، وسلمه له وأذن له في بنائه ، واستدل به كثير ممن قال : إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق ، وأنه لم يبن قبله كما ثبت في الحديث عن أبي ذر قلت : يا رسول اللّه أي مسجد وضع

(١) أخرجه البخاري في (الحج) (٤٩).

أول ؟ قال : « المَسْجِدُ الحَرَامُ » قلت : ثم أي ؟ قال : « بَيْتُ المَقْدِسِ » قلت : كم بينهما ؟ قال : « أَرْبَعُونَ سَنَةً » . وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ الآيتين . وقال تعالى هاهنا : ﴿ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْئًا ﴾ أي : ابنه على اسمي وحدي ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِىَ ﴾ قال قتادة : من الشرك . ﴿ لِلطَّآئِفِينَ وَالْقَآئِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ أي : اجعله خالصًا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له ، فالطائف به معروف ، وهو أخص العبادات عند البيت ، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها . ﴿ وَالْقَآئِمِينَ ﴾ أي : في الصلاة ولهذا قال : ﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ فقرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت ، وقوله : ﴿ وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ أي ناد في الناس بالحج داعيًا لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه فذكر أنه قال : يا رب كيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم ؟ فقال : ناد وعلينا البلاغ ، فقام على مقامه : وقيل : على الحجرة ، وقيل : على الصفا ، وقيل : على أبي قبيس ، وقال : يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتًا فحجوه فيقال : إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض وأسمع من في الأرحام والأصلاب ، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر ، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة : لبيك اللهم لبيك ، وهذا مضمون ما روي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقوله : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ الآية . قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشيًا لمن قدر عليه أفضل من الحج راكبًا ؛ لأنه قدمهم في الذكر فدل على الاهتمام بهم ، وقوة هممهم ، وشدة عزمهم ، وعن ابن عباس قال : ما أساء على شيء إلا أني وددت أني كنت حججت ماشيًا لأن الله يقول : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ والذي عليه الأكثرون أن الحج راكبًا أفضل اقتداء برسول الله ﷺ ، فإنه حج راكبًا مع كمال قوته عليه الصلاة والسلام . وقوله : ﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ ﴾ يعني : طريق كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا ﴾ وقوله : ﴿ عَمِيقٍ ﴾ أي : بعيد .

﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَآئِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ قال : منافع الدنيا والآخرة : أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى . وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والذبائح والتجارات . وكذا قال مجاهد : وغير واحد إنها منافع الدنيا والآخرة كقوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ . وقوله : ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ . عن ابن عباس رضي الله عنهما : الأيام المعلومات : أيام العشر . وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « مَا العَمَلُ فِي أَيَّامٍ أَفْضَلُ منها في هَذِهِ ؟ » قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « وَ لَا الجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله ؛ إِلَّا رَجُلٌ يَخْرُجُ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِشيءٍ » (١) . وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ أَيَّامٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ وَلَا أَحَبُّ إِلَيْهِ العَمَلُ فِيهِنَ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ العَشْرِ ، فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ » (٢) . وقال البخاري : وكان ابن عمر وأبو هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر ،

---

(١) أخرجه البخاري في العيدين (٩٦٩) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٧٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٤/١٦) .

فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما . وقد روى أحمد عن جابر مرفوعًا : أن هذا هو العشر الذي أقسم الله به في قوله : ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ وقال بعض السلف : إنه المراد بقوله : ﴿ وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ ﴾ وفي سنن أبي داود : أن رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر ؟ . وعن أبي قتادة قال : سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة ؟ قال : « أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ وَالآتِيَةَ » (١) ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر ، وقد ورد في حديث أنه أفضل الأيام عند الله (٢) ، وبالجملة فهذا العشر قد قيل : إنه أفضل أيام السنة كما نطق به الحديث ، وفضله كثير على عشر رمضان الأخير ؛ لأن هذا يشرع في ما ذلك من صلاة وصيام وصدقة وغيره ، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه ، وقيل : ذاك أفضل ؛ لاشتماله على ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر ، وتوسط آخرون فقالوا : أيام هذا أفضل وليالي ذاك أفضل . وبهذا يجتمع شمل الأدلة ، والله أعلم .

قول ثان في الأيام المعلومات : قال ابن عباس : الأيام المعلومات يوم النحر وثلاثة أيام بعده .

قول ثالث : روي أن ابن عمر كان يقول : الأيام المعلومات والمعدودات هن جميعهن أربعة أيام : فالأيام المعلومات يوم النحر ، ويومان بعده ، والأيام المعدودات : ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، ويعضد هذا القول والذي قبله قوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ يعني به ذكر الله عند ذبحها .

قول رابع : إنها يوم عرفة ، ويوم النحر ويوم آخر بعده . وعن زيد بن أسلم قال : المعلومات : يوم عرفة ، ويوم النحر ، وأيام التشريق . وقوله : ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ يعني الإبل والبقر والغنم ، كما فصلها تعالى في سورة الأنعام ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ استدل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأضاحي ، وهو قول غريب . والذي عليه الأكثرون أنه من باب الرخصة أو الاستحباب ، كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه : أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ فأكل من لحمها وحسا من مرقها (٣) . قال مالك : أحب أن يأكل من أضحيته لأن الله يقول ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا ﴾ وقال سفيان الثوري عن منصور عن إبراهيم : ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا ﴾ . قال : كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين ، فمن شاء أكل ومن لم يشأ لم يأكل . قال مجاهد في قوله : ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا ﴾ : هي كقوله : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ﴾ ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (٤) وقوله : ﴿ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ قال عكرمة : هو المضطر الذي يظهر عليه البؤس ، وهو الفقير المتعفف : وقال مجاهد : هو الذي لا يبسط يده ، وقال قتادة : هو الزمن . وقال مقاتل بن حيان : هو الضرير وقوله : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ ﴾ قال ابن عباس : هو وضع الإحرام من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظافر ، ونحو ذلك ، وقال عكرمة عن ابن عباس ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ ﴾ قال : التفث المناسك . وقوله : ﴿ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ ﴾ قال ابن عباس :

---

(١) أخرجه مسلم في (الصيام) (١٩٧) والإمام أحمد في مسنده (٣٠٨/٥) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٥٠/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في (الحج) (١٤٧) والإمام أحمد في مسنده (٣٢١/٣ ، ٣٣١) .

(٤) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٩٤/١٧ ، ١٩٥) .

يعني نحر ما نذر من أمر البدن . وقال مجاهد : ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ نذر الحج والهدي وما نذر الإنسان من شيء يكون في الحج . وقال مجاهد ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ . قال : الذبائح . وقال عكرمة : ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ قال : حجهم . وقوله : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ قال مجاهد : يعني الطواف الواجب يوم النحر . وعن أبي حمزة قال : قال لي ابن عباس : أتقرأ سورة الحج ؟ يقول الله تعالى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ فإن آخر المناسك الطواف بالبيت العتيق .

قلت : وهكذا صنع رسول الله ﷺ ، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر ، بدأ برمي الجمرة فرماها بسبع حصيات ، ثم نحر هديه وحلق رأسه ، ثم أفاض فطاف بالبيت . وفي الحديث عن ابن عباس أنه قال : أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف إلا أنه خفف عن المرأة الحائض [1] . وقوله : ﴿ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ فيه مستدل لمن ذهب إلى أنه يجب الطواف من وراء الحجر ؛ لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيم وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت حين قصرت بهم النفقة ، ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحجر وأخبر أن الحجر من البيت ، ولم يستلم الركنين الشاميين ؛ لأنهما لم يتما على قواعد إبراهيم العتيقة . عن الحسن البصري في قوله : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ قال : لأنه أول بيت وضع للناس ، وعن عكرمة أنه قال : إنما سمي البيت العتيق لأنه أعتق يوم الغرق زمان نوح . وقال خصيف : إنما سمي البيت العتيق ؛ لأنه لم يظهر عليه جبار قط . وعن مجاهد : أعتق من الجبابرة أن يسلطوا عليه . وعن مجاهد : لأنه لم يرده أحد بسوء إلا هلك وعن عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا سُمِّيَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِ جَبَّارٌ » [2] .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَٰنِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ .

يقول تعالى هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك وما يلقى عليها من الثواب الجزيل . ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ اللَّهِ ﴾ أي : ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ، ويكون ارتكابها عظيمًا في نفسه . ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ أي : فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل ، قال مجاهد في قوله : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ اللَّهِ ﴾ قال : الحرمة مكة والحج والعمرة ، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها . وقوله : ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : أحللنا لكم الأنعام وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام . وقوله : ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به والمنخنقة الآية [3] ، وقوله : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَٰنِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ ومن هاهنا لبيان الجنس أي اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان ، وقرن الشرك بالله بقول الزور . كقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ومنه شهادة الزور . وفي

(١) أخرجه البخاري في (الحج) (١٧٥٥) والإمام أحمد في مسنده (٤١٦/٣) .
(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣١٧٠) . (٣) قال ذلك الطبري في تفسيره وحكاه عن قتادة (٢٠٢/١٧) .

الحديث أنَّ رسول الله ﷺ قال : « أَلَّا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ ؟ » قلنا : بلى يا رسول الله . قال : « الإِشْرَاكُ بِاللَّه وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ » - وَكَانَ متكئًا فجلس فقال : « أَلَا وَقَوْلُ الزورِ ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ » . فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت [(١)] .

وعن خريم بن فاتك الأسدي قال : صلى رسول الله ﷺ الصبح فلما انصرف قام قائمًا فقال : « عدلت شهادة الزور الإشراك بالله ﷻ» ثم تلا هذه الآية : ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ [(٢)] وعن ابن مسعود أنه قال : تعدل شهادة الزور الإشراك بالله ثم قرأ هذه الآية ، وقوله : ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ ﴾ أي : مخلصين له الدين منحرفين عن الباطل قصدًا إلى الحق ولهذا قال : ﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ ثم ضرب للمشرك مثلًا في ضلاله وهلاكه ، وبعده عن الهدى فقال : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي : سقط منها . ﴿ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ ﴾ أي : تقطعه الطيور في الهواء . ﴿ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ أي بعيد مهلك لمن هوى فيه ، ولهذا جاء في حديث البراء : إِنَّ الكَافِرَ إِذَا تَوَفَّتْهُ مَلَائِكَةُ المَوْتِ وَصَعِدُوا بِرُوحِهِ إِلَى السَّمَاءِ ، فَلَا تُفْتَحُ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ بَلْ تُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا مِنْ هُنَاكَ ، ثُمَّ ، قرأ هذه الآية [(٣)] .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝ لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ .

يقول تعالى هذا ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ أي : أوامره ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن . كما قال ابن عباس : تعظيمها استسمانها واستحسانها . وقال أبو أمامة عن سهل : كنا نسمن الأضحية بالمدينة ، وكان المسلمون يسمنون [(٤)] .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « دَمُ عَفْرَاءَ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ دَمِ سَوْدَاوَيْنِ » [(٥)] قالوا : والعفراء هي البيضاء بياضًا ليس بناصع ، فالبيضاء أفضل من غيرها ، وغيرها يجزئ أيضًا لما ثبت عن أنس أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين [(٦)] . وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن كحيل يأكل في سواد ، ويمشي في سواد - أي فيه نكتة سوداء في هذه الأماكن [(٧)] ، وعن أبي رافع أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوئين [(٨)] ، وعن علي ﷺ قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن ، وأن لا نضحي مقابلة ولا مدابرة ولا شرقاء ولا خرقاء [(٩)] قال مالك : إن كان الدم يسيل من القرن لم يجزئ وإلا أجزأ .

---

(١) أخرجه البخاري في (الأدب) (٥٩٧٦) ومسلم في (الإيمان) (١٤٣) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٢١/٤) وأبو داود في سننه (٣٥٩٩) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨٨/٤) .
(٤) أخرجه البخاري في (الأضاحي) باب (٧) في أضحية النبي ﷺ بكبشين أقرنين .
(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤١٧/٢) والبيهقي في الكبرى (٢٧٣/٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٨/٤) .
(٦) أخرجه البخاري في (الأضاحي) (٥٥٥٤) .
(٧) أخرجه مسلم في (الأضاحي) (١٩) والترمذي في سننه (١٤٩٦) والإمام أحمد في مسنده (٧٨/٦) .
(٨) أخرجه أبو داود في سننه (٢٧٩٥) وابن ماجه في سننه (٣١٢٢) .
(٩) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥٢/١) وأبو داود في سننه (١٤٩٨) وأبو داود في سننه (٢٨٠٤) .

وأما المقابلة : فهي التي قطع مقدم أذنها . والمدابرة : من مؤخر أذنها . والشرقاء : هي التي قطعت أذنها طولًا . قاله الشافعي والأصمعي ، وأما الخرقاء : فهي التي خرقت السمة أذنها خرقًا مدورًا ، والله أعلم .

وعن البراء قال : قال رسول الله ﷺ : « أَرْبَعٌ لَا تَجُوزُ فِي الأَضَاحِي : العَوْرَاءُ البَيِّنُ عَوَرُهَا ، وَالمَرِيضَةُ البَيِّنُ مَرَضُهَا ، والعَرْجَاءُ البَيِّنُ ضَلْعُهَا ، وَالكَسِيرَةُ الَّتِي لَا تَنْقَى »(١) . وهذه العيوب تنقص اللحم لضعفها وعجزها عن استكمال الرعي ؛ لأن الشاء يسبقونها إلى المرعى ؛ فلهذا لا تجزئ التضحية بها عند الشافعي وغيره من الأئمة كما هو ظاهر الحديث ، واختلف قول الشافعي في المريضة مرضًا يسيرًا على قولين : وعن عتبة بن عبد السلمي أن رسول الله ﷺ : نهى عن المصفرة ، والمستأصلة ، والبخقاء ، والمشيعة ، والكسيرة ، فالمصفرة : قيل : الهزيلة ، وقيل : المستأصلة الأذن ، والمستأصلة مكسورة القرن . والبخقاء هي : العوراء . والمشيعة : هي التي لا تزال تشيع خلف الغنم ولا تتبع لضعفها ؛ والكسيرة العرجاء . فهذه العيوب كلها مانعة من الإجزاء فإن طرأ العيب بعد تعيين الأضحية فإنه لا يضر عند الشافعي خلافًا لأبي حنيفة . وقد روي عن أبي سعيد قال : اشتريت كبشًا أضحي به فعدا الذئب فأخذ الألية ، فسألت النبي ﷺ فقال : « ضح به » ولهذا جاء في الحديث أمرنا النبي ﷺ أن نستشرف العين والأذن ، أي : أن تكون الهدية أو الأضحية سمينة حسنة . وعن عبد الله بن عمر قال : أهدي عمر نجيبًا فأعطي بها ثلاثمائة دينار فأتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني أهديت نجيبًا فأعطيت بها ثلاثمائة دينار أفأبيعها وأشتري بثمنها بدنًا ، قال : « لا ، انْحَرْهَا إِيَّاهَا »(٢) . وقال ابن عباس : البدن من شعائر الله ، وقال محمد بن أبي موسى الوقوف ومزدلفة ، والجمار والرمي ، والحلق والبدن من شعائر الله ، وقال ابن عمر : أعظم الشعائر البيت .

وقوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾ أي : لكم في البدن منافع من لبنها وصوفها ، وأوبارها وأشعارها ، وركوبها إلى أجل مسمى . قال ابن عباس في قوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ : ما لم تسم بدنًا . وقال مجاهد في قوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ : الركوب واللبن والولد ، فإذا سميت بدنة أو هديًا ذهب ذلك كله ، وقال آخرون : بل له أن ينتفع بها وإن كانت هديًا إذا احتاج إلى ذلك .

وعن أنس أن رسول الله ﷺ رأى رجلًا يسوق بدنة قال : « اركبها » قال : إنها بدنة قال : « ارْكَبْهَا وَيْحَكَ » في الثانية أو الثالثة(٣) ، وفي رواية : « ارْكَبْهَا بِالمَعْرُوفِ إِذَا أُلْجِئْتَ إِلَيْهَا »(٤) . وعن علي : أنه رأى رجلًا يسوق بدنة ومعها ولدها فقال : لا تشرب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها ، فإذا كان يوم النحر فاذبحها وولدها . وقوله : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ أي : محل الهدي وانتهاؤه إلى البيت العتيق - وهو الكعبة - كما قال تعالى : ﴿ هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ﴾ . وقال : ﴿ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾ . وعن عطاء قال : كان ابن عباس يقول : كل من طاف بالبيت فقد

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٠/٤) وأبو داود في سننه (٢٨٠٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٤٥/٢) وأبو داود في سننه (١٧٥٦) .

(٣) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٥٤) ومسلم في الحج (٣٧١) .

(٤) أخرجه مسلم في (الحج) (٣٧٥) .

حل . قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك ، وإراقة الدماء على اسم الله مشروعًا في جميع الملل . وقال ابن عباس : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ قال : عيدًا . وقال عكرمة : ذبحًا ، وقال زيد بن أسلم في قوله : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ : إنها مكة لم يجعل الله لأمة قط منسكًا غيرها . وقوله : ﴿ لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ كما ثبت عن أنس قال : أتي رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ، فسمى وكبر ، ووضع رجله على صفاحهما [1] . وعن زيد بن أرقم قال : قلت أو قالوا : يا رسول الله ما هذه الأضاحي ؟ قال : « سُنَّةُ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ » قالوا : ما لنا منها ؟ قال : « بكل شعرة حسنة » قال : فالصوف ؟ قال : « بكل شعرة من الصوف حسنة » [2] .

وقوله : ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ﴾ أي : معبودكم واحد ، وإن تنوعت شرائع الأنبياء ، ونسخ بعضها بعضًا ، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له . ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ ولهذا قال : ﴿ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ﴾ أي أخلصوا ، واستسلموا لحكمه وطاعته ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ قال مجاهد : المطمئنين . وقال الضحاك : المتواضعين . وقال السدي : الوجلين . وقال عمرو بن أوس : المخبتين الذي لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا . وقال الثوري : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ قال : المطمئنين الراضين بقضاء الله المستسلمين له ، وأحسن بما يفسر بما بعده وهو قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي : خافت منه قلوبهم ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ أي : من المصائب ، قال الحسن البصري : والله لنصبرن أو لنهلكن ﴿ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ قرأ الجمهور بالإضافة السبعة وبقية العشرة أيضًا ، وقرأ ابن السميفع ﴿ وَٱلْمُقِيمِى الصلاةَ ﴾ بالنصب ، وعن الحسن البصري ﴿ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ وإنما حذفت النون هنا تخفيفًا ، ولو حذفت للإضافة لوجب خفض الصلاة ، ولكن على سبيل التخفيف ، فنصبت أي المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه . ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أي : وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأقاربهم ، وفقرائهم ومحاويجهم ، ويحسنون إلى الخلق مع محافظتهم على حدود الله ، وهذه بخلاف صفات المنافقين ، فإنهم بالعكس من هذا كله .

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًا على عبيده فيما خلق لهم من البدن وجعلها من شعائره ، وهو أنه جعلها تهدى إلى بيته الحرام ، بل هي أفضل ما يهدى إليه كما قال تعالى : ﴿ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ الآية ، قال عطاء في قوله : ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ :

---

(١) أخرجه البخاري في (الأضاحى) (٥٥٦٥) ومسلم في الأضاحي (١٧ ، ١٨) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦٨/٤) وابن ماجه في سننه (٣١٢٧) .

البقرة والبعير ، وقال مجاهد : إنما البدن من الإبل .

قلت : أما إطلاق البدنة على البعير فمتفق عليه ، واختلفوا في صحة إطلاق البدنة على البقرة على قولين : أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعًا كما صح الحديث ، ثم جمهور العلماء على أنه تجزئ البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة ، كما ثبت في الحديث عن جابر قال أمرنا رسول ﷺ : أن نشترك في الأضاحي البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة [(١)] . وقال إسحاق بن راهويه وغيره : بل تجزئ البقرة والبعير عن عشرة ، ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ أي ثواب في الدار الآخرة ، وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « مَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ يَوْمَ النَّحْرِ عَمَلًا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ إِهْرَاقِ دَمٍ ، وَإِنَّهَا لتأتي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقُرُونِهَا ، وَأَظْلَافِهَا وَأَشْعارِهَا ، وَإِنَّ الدَّمَ ليقع مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ مِنَ الْأَرْضِ فَطِيبوا بِهَا نَفْسًا » [(٢)] . وقال سفيان الثوري : كان أبو حازم يستدين ويسوق البدن فقيل له : تستدين وتسوق البدن ؟ فقال : إني سمعت الله يقول : ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا أُنفِقَتِ الوَرِقُ فِي شَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ نَحِيرَةٍ يَوْمِ عِيدٍ » [(٣)] ، وقال مجاهد : ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ قال : أجر ومنافع ، وقال إبراهيم النخعي : يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها ، وقوله : ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾ عن جابر بن عبد الله قال : صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى ، فلما انصرف أتي بكبش فذبحه ، فقال : «باسم اللَّه واللَّه أكبر ، اللهم هذا عَنِّي وَعَمَّنْ لَمْ يُضَحِّ مِنْ أُمَّتِي » [(٤)] .

وعن جابر قال : ضحى رسول الله ﷺ بكبشين في يوم عيد فقال حين وجههما : « وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ، وَمَحْيَايَ ، وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ، اللهُمَّ مِنْكَ وَلَكَ عَنْ مُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ » . ثم سمى الله وكبر وذبح [(٥)] . وعن أبي رافع أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين ، فإذا صلى وخطب الناس أتي بأحدهما وهو قائم في مصلاه فذبحه بنفسه بالمدية ، ثم يقول : « اللهم هذا عن أمتي جميعها من شهد لك بالتوحيد وشهد لي بالبلاغ » . ثم يؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه ثم يقول : « هذا عن محمد وآل محمد » فيطعمها جميعًا للمساكين ، ويأكل هو وأهله منهما [(٦)] . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾ قال : قيامًا على ثلاث قوائم معقولة يدها اليسرى يقول : باسم الله ، والله أكبر ، لا إله إلا الله ، اللهم منك ولك . وقال ليث عن مجاهد : إذا عقلت رجلها اليسرى قامت على ثلاث ، وفي الحديث عن ابن عمر : أنه أتى على رجل قد أناخ بدنة وهو ينحرها ، فقال : ابعثها قيامًا مقيدة سنة أبي القاسم ﷺ [(٧)] ، وعن جابر : أن رسول الله

---

(١) أخرجه مسلم في (الحج) (١٣٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥١) والإمام أحمد في مسنده (٢٩٣/٣ ، ٢٩٤) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٣١٢٦) والترمذي في سننه (١٤٩٣) .

(٣) أخرجه الدارقطني في سننه (٢٨٢/٤) والبيهقي في الكبرى (٢٦١/٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٧/٤) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٥٦/٣) وأبو داود في سننه (٢٨١٠) .

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٦٧/١) وابن ماجه في سننه (٣١٢١) .

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦ ، ٨) (٣٩١) .

(٧) أخرجه البخاري في (الحج) (١٧١٣) ومسلم في الحج (٣٥٨) وأبو داود في سننه (١٧٦٨) .

ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البدن معقولة اليسرى قائمة على ما بقي من قوائمها(١) .

وقوله : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ قال مجاهد يعني : سقطت إلى الأرض ، وهو رواية عن ابن عباس . وقال ابن عباس : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ يعني : نحرت . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ يعني ماتت وهذا القول هو مراد ابن عباس ومجاهد ؛ فإنه لا يجوز الأكل من البدنة إذا نحرت حتى تموت وتبرد حركها . ويؤيده حديث شداد بن أوس : « إِنَّ اللَّه كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ » (٢) . وعن أبي واقد الليثي قال : قال رسول اللَّه : « ما قُطِعَ مِنَ البَهِيمَةِ وَهِيَ حَيَّةٌ فَهُوَ مَيِّتَةٌ » (٣) . وقوله : ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ قال بعض السلف قوله : ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا ﴾ أمر إباحة . وقال مالك : يستحب ذلك ، وقال غيره : يجب ، وهو وجه لبعض الشافعية . واختلفوا في المراد بالقانع والمعتر . فعن ابن عباس : القانع المستغني بما أعطيته وهو في بيته ، والمعتر الذي يتعرض لك ويلم بك أن تعطيه من اللحم ولا يسأل . وقال ابن عباس : القانع المتعفف ، والمعتر السائل ، وقال الحسن البصري ومقاتل بن حيان ومالك بن أنس : القانع هو الذي يقنع إليك ويسألك ، والمعتر الذي يعتريك يتضرع ولا يسألك ، وقال سعيد بن جبير : القانع هو السائل ، قال : وقال زيد بن أسلم : القانع المسكين الذي يطوف ، والمعتر : الصديق والضعيف الذي يزور ، وعن مجاهد أيضًا : القانع جارك الغني الذي يبصر ما يدخل بيتك ، والمعتر : الذي يعتزل من الناس ، وعنه أن القانع هو الطامع ، والمعتر هو الذي يعتر بالبدن من غني أو فقير . وعن عكرمة : القانع أهل مكة ، واختار ابن جرير أن القانع : هو السائل لأنه من أقنع بيده إذا رفعها للسؤال والمعتر من الاعتراء : وهو الذي يتعرض لأكل اللحم ، وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تجزأ ثلاثة أجزاء فثلث لصاحبها يأكله ، وثلث يهديه لأصحابه ، وثلث يتصدق به على الفقراء ، لأنه تعالى قال : ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ وفي الحديث : « إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنِ ادِّخَارِ لُحُوم الأَضَاحِي فَوْقَ ثَلَاثٍ فَكُلُوا ، وادَّخِرُوا مَا بَدَا لَكُمْ » (٤) وفي رواية : « فَكُلُوا وادَّخِروا وَتَصَدَّقُوا » وفي رواية « فكلوا وأطعموا وتصدقوا » . والقول الثاني : أن المضحي يأكل النصف ويتصدق بالنصف لقوله في الآية المتقدمة ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ .

ولقوله في الحديث : « فكُلُوا وادَّخِرُوا وتَصَدَّقُوا » فإن أكل الكل فقيل لا يضمن شيئًا وبه قال ابن شريح من الشافعية ، وقال بعضهم : يضمنها كلها بمثلها أو قيمتها ، وقيل : يضمن نصفها ، وقيل : ثلثها ، وقيل : أدنى جزء منها . وهو المشهور من مذهب الشافعي . وأما الجلود : فعن قتادة بن النعمان في حديث الأضاحي : « فكلوا وتصدقوا ، واستمتعوا بجلودها ولا تبيعوها » ومن العلماء من رخص في بيعها ، ومنهم من قال يقاسم الفقراء فيها .

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (١٧٦٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الذبائح (٥٧) والإمام أحمد في مسنده (٢٣/٤) وأبو داود في سننه (٢٨١٥) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢١٨/٥) والترمذي في سننه (١٤٨٠) .

(٤) أخرجه مسلم في الجنائز (١٠٦) والإمام أحمد في مسنده (٢٨٥/٢) وأبو داود في سننه (٢٨١٢) .

مسألة : عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّي ثُمَّ نَرْجِعَ فَنَنْحَرَ فَمَنْ فَعَلَ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا ، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ ، فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ قَدَّمَهُ لِأَهْلِهِ لَيْسَ مِنَ النُّسُكِ فِي شَيْءٍ » (١) فلهذا قال الشافعي وجماعة من العلماء : إن أول وقت ذبح الأضاحي إذا طلعت الشمس يوم النحر ، ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين ، زاد أحمد : وأن يذبح الإمام بعد ذلك لما جاء في الحديث : وأن لا تذبحوا حتى يذبح الإمام ، وقال أبو حنيفة : أما أهل السواد من القرى ونحوها فلهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر ؛ إذ لا صلاة عيد تشرع عنده لهم . وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتى يصلي الإمام ، والله أعلم . ثم قيل : لا يشرع الذبح إلا يوم النحر وحده . وقيل : يوم النحر لأهل الأمصار لتيسر الأضاحي عندهم ، وأما أهل القرى فيوم النحر وأيام التشريق بعده . وقيل : يوم النحر ويوم بعده للجميع . وقيل : ويومان بعده وبه قال الإمام أحمد ، وقيل : يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده . وبه قال الشافعي لحديث جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال : « أَيَّامُ التَّشْرِيقِ كُلُّهَا ذَبْحٌ » (٢) وقيل : إن وقت الذبح يمتد إلى آخر ذي الحجة ، وهو قول غريب وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ يقول تعالى من أجل هذا : ﴿ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ ﴾ أي : ذللناها لكم وجعلناها منقادة لكم خاضعة إن شئتم ركبتم ، وإن شئتم حلبتم ، وإن شئتم ذبحتم . كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى : إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا لتذكروه عند ذبحها ، فإنه الخالق الرازق لا يناله شيء من لحومها ولا دمائها ، فإنه تعالى هو الغني عما سواه ، وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم ، وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ، ونضحوا عليها من دمائها فقال تعالى : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا ﴾ وعن ابن جريج قال : كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها . فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فنحن أحق أن ننضح فأنزل الله : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ أي : يتقبل ذلك ويجزي عليه كما جاء في الصحيح : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » (٣) وجاء في الحديث « إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتَقَعُ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فِي يَدِ السَّائِلِ ، وَإِنَّ الدَّمَ لَيَقَعُ مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ إِلَى الْأَرْضِ » (٤) . معناه أنه سيق لتحقيق القبول من الله لمن أخلص في عمله ، وليس له معنى يتبادر عند العلماء المحققين سوى هذا والله أعلم ، وقال الضحاك : سألت عامرًا الشعبي عن جلود الأضاحي

---

(١) أخرجه البخاري في العيدين (٩٦٨) مسلم في (الأضاحي) (٧) والإمام أحمد في مسنده (٢٨٢/٤ ، ٣٠٣) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٨٢/٤) .
(٣) أخرجه مسلم في (البر والصلة) (٣٤) والإمام أحمد في مسنده (٢٨٥/٢ ، ٥٣٩) وابن ماجه في سننه (٤١٤٣) .
(٤) أخرجه الترمذي في سننه (١٤٩٣) وابن ماجه في سننه (٣١٢٦) من قوله : « وإن الدم ... » إلخ .

فقال : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا ﴾ إن شئت فبع ، وإن شئت فأمسك ، وإن شئت فتصدق . وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ أي : من أجل ذلك سخر لكم البدن ﴿ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ أي لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه ، وما يحبه ويرضاه ، ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه . وقوله : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي وبشر يا محمد المحسنين في عملهم القائمين بحدود الله ، المتبعين ما شرع لهم .

مسألة : وقد ذهب أبو حنيفة ومالك والثوري إلى القول بوجوب الأضحية على من ملك نصابًا ، وزاد أبو حنيفة اشتراط الإقامة أيضًا واحتج لهم بما رواه أبو هريرة مرفوعًا : « مَنْ وَجَدَ سَعَةً فَلَمْ يُضَحِّ فَلاَ يَقْرَبَنَّ مُصَلاَّنَا » (١) على أن فيه غرابة ، واستنكره أحمد بن حنبل وقال ابن عمر : أقام رسول الله ﷺ عشر سنين يضحي . وقال الشافعي وأحمد : لا تجب الأضحية بل هي مستحبة : لما جاء في الحديث « لَيْسَ فِي المَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ » (٢) وقد تقدم أنه عليه الصلاة والسلام ضحى عن أمته ، فأسقط ذلك وجوبها عنهم ، وقال أبو سريحة : كنت جارًا لأبي بكر وعمر فكانا لا يضحيان خشية أن يقتدي الناس بهما ، وقال بعض الناس : الأضحية سنة كفاية إذا قام بها واحد من أهل دار أو محلة أو بيت سقطت عن الباقين لأن المقصود إظهار الشعار . وقد روي عن محنف بن سليم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول بعرفات : « عَلَى كُلِّ أَهْلِ بَيْتٍ فِي كُلِّ عَامٍ أُضْحَاةٌ وَعَتِيرَةٌ ، هَلْ تَدْرُونَ مَا العَتِيرَةُ ؟ هِيَ الَّتِي تَدْعُونَهَا الرَّجَبِيَّةَ » (٣) وقال أبو أيوب : كان الرجل في عهد رسول الله ﷺ يضحي بالشاة الواحدة عنه وعن أهل بيته ، فيأكلون ويطعمون حتى تباهى الناس فصار كما ترى(٤) ، وكان عبد الله بن هشام يضحي بالشاة الواحدة عن جميع أهله(٥) . وأما مقدار سن الأضحية : فقد روي عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : « لا تَذْبَحُوا إِلَّا مُسِنَّةً إِلَّا أَنْ تَعْسُرَ عَلَيْكُمْ فَتَذْبَحُوا جَذَعَةً مِنَ الضَّأْنِ » (٦) ومن هاهنا ذهب الزهري إلى أن الجذع لا يجزئ . وقابله الأوزاعي ، فذهب إلى أن الجذع يجزئ من كل جنس وهما غريبان ، والذي عليه الجمهور إنما يجزئ الثني من الإبل والبقر والمعز ، أو الجذع من الضأن ، فأما الثني من الإبل فهو الذي له خمس سنين ودخل في السادسة ، ومن البقر ما له سنتان ، ودخل في الثالثة ، وقيل : ما له ثلاث ، ودخل في الرابعة ، ومن المعز : ما له سنتان ، وأما الجذع من الضأن : فقيل : ما له سنة . وقيل : عشرة أشهر . وقيل : ثمانية ، وقيل : ستة أشهر ، وهو أقل ما قيل في سنه وما دونه فهو حمل ، والفرق بينهما أن الحمل شعر ظهره قائم ، والجذع شعر ظهره نائم ، قد انفرق صدعين ، والله أعلم .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه ، وأنابوا إليه شر الأشرار ، وكيد الفجار ، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم كما قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ وقال : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده(٣٢١/٢) والحاكم في المستدرك(٣٨٩/٢) ،(٢٣٢/٤) .
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه(١٧٨٩) والهندي في كنز العمال(١٥٨٥٦) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده(١٨٣/٢) والترمذي في سننه(١٥١٨) وابن ماجه في سننه(٣١٢٥) .
(٤) أخرجه الترمذي في سننه(١٥٠٥) وابن ماجه في سننه(٣١٤٧) . (٥) أخرجه البخاري في(الأحكام) (٧٢١٠) .
(٦) أخرجه مسلم في الأضاحي(١٣) والإمام أحمد في مسنده(٣١٢/٣ ، ٣٢٧) وأبو داود في سننه(٢٧٩٧) .

اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ أي : لا يحب من عباده من اتصف بهذا وهو : الخيانة في العهود والمواثيق لا يفي بما قال ، والكفر : الجحد للنعم فلا يعترف بها .

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

قال ابن عباس : نزلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة ، وقال مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف : هذه أول آية نزلت في الجهاد . واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية . وعن ابن عباس قال : لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن . قال ابن عباس : فأنزل الله ﷻ : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (١) قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : فعرفت أنه سيكون قتال . ورواه الإمام أحمد وزاد : قال ابن عباس : وهي أول آية نزلت في القتال . وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ أي هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال ، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته كما قال : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ وقال : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّٰبِرِينَ ﴾ . والآيات في هذا كثيرة ، ولهذا قال ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ وقد فعل .

وإنما شرع تعالى الجهاد في الوقت الأليق به ؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عددًا ، فلو أمر المسلمون وهم أقل من العشر بقتال الباقين لشق عليهم . ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ ، وكانوا نيفًا وثمانين قالوا : يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادي - يعنون أهل منى - ليالي منى فنقتلهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إِنِّي لَمْ أُومَرْ بِهَذَا » (٢) . فلما بغى المشركون ، وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم وهموا بقتله ، وشردوا أصحابه شذر مذر ، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة وآخرون إلى المدينة ، فلما استقروا بالمدينة ، ووافاهم رسول الله ﷺ واجتمعوا عليه ، وقاموا بنصره وصارت لهم دار إسلام ومعقلًا يلجأون إليه شرع الله جهاد الأعداء ، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك فقال تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ قال ابن عباس : أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق يعني محمدًا وأصحابه . ﴿ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ أي : ما كان لهم إلى قومهم إساءة ، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له . وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما في نفس الأمر ، وأما عند

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦١/١) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٦٢/٣) .

المشركين فإنه أكبر الذنوب كما قال تعالى : ﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ وقال تعالى في قصة أصحاب الأخدود : ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ أي : لولا أنه يدفع بقوم عن قوم ، ويكف شرور أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب لفسدت الأرض ، ولأهلك القوي الضعيف . ﴿ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ ﴾ وهي : المعابد الصغار للرهبان . وقال قتادة : هي معابد الصابئين . وفي رواية عنه : صوامع المجوس . وقال مقاتل بن حيان : هي البيوت التي على الطريق ﴿ وَبِيَعٌ ﴾ وهي أوسع منها ، وأكثر عابدين فيها وهي للنصارى أيضًا . وعن مجاهد وغيره : أنها كنائس اليهود ، وحكى السدي : عمن حدثه عن ابن عباس أنها كنائس اليهود . ومجاهد إنما قال : هي الكنائس ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَصَلَوَٰتٌ ﴾ قال ابن عباس : الصلوات : الكنائس . وكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة : إنها كنائس اليهود ، وهم يسمونها صلوات . وحكى السدي عمن حدثه عن ابن عباس أنها كنائس النصارى . وقال أبو العالية وغيره : الصلوات معابد الصابئين . وقال مجاهد : الصلوات : مساجد لأهل الكتاب ، ولأهل الإسلام بالطرق وأما المساجد فهي للمسلمين ، وقوله : ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ فقد قيل الضمير في قوله : ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا ﴾ ، عائد إلى المساجد ؛ لأنها أقرب المذكورات ، وقال الضحاك : الجميع يذكر فيها اسم الله كثيرًا ، وقال ابن جرير : الصواب لهدمت صوامع الرهبان ، وبيع النصارى ، وصلوات اليهود ، وهي كنائسهم ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيرًا لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب (١) .

وقال بعض العلماء : هذا ترق من الأقل إلى الأكثر إلى أن انتهى إلى المساجد وهي أكثر عمارًا وأكثر عبادًا وهم ذوو القصد الصحيح . وقوله : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ وصف نفسه بالقوة والعزة فبقوته خلق كل شيء فقدَّره تقديرًا ، وبعزته لا يقهره قاهر ، ولا يغلبه غالب ؛ بل كل شيء ذليل لديه فقير إليه ، ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور وعدوه هو المقهور . قال الله تعالى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ .

قال عثمان بن عفان : فينا نزلت : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ فأخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا : ربنا الله ثم مكنا في الأرض ، فأقمنا الصلاة وآتينا الزكاة ، وأمرنا بالمعروف ، ونهينا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور ، فهي لي ولأصحابي . وقال أبو العالية : هم أصحاب محمد ﷺ . وقال عطية العوفي : هذه الآية كقوله : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وقال زيد بن أسلم : ﴿ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ وعند الله ثواب ما صنعوا .

---

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٣٤/١٧) .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ .

يقول تعالى مسليًا لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ - إلى أن قال - ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ﴾ أي : مع ما جاء به من الآيات البينات ، والدلائل الواضحات ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي : أنظرتهم وأخرتهم . ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي : فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم ؟! وذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه أنا ربكم الأعلى ، وبين إهلاك الله له أربعون سنة . وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال : « إِنَّ اللَّه لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » . ثم قرأ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١) . ثم قال تعالى : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا ﴾ أي : كم من قرية أهلكتها . ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ أي مكذبة لرسلها ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ قال الضحاك : سقوفها أي : قد خربت منازلها ، وتعطلت حواضرها . ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ أي : لا يستقى منها ، ولا يردها أحد بعد كثرة وارديها والازدحام عليها . ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ قال عكرمة : يعني : المبيض بالجص . وقال آخرون : هو : المنيف المرتفع . وقال آخرون : المشيد المنيع الحصين ، وكل هذه الأقوال متقاربة ، ولا منافاة بينها ، فإنه لم يحم أهله شدة بنائه ولا ارتفاعه ، ولا إحكامه ولا حصانته عن حلول بأس الله بهم . كما قال تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ وقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : بأبدانهم وبفكرهم أيضًا .

﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ أي : فيعتبرون بها ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ أي : ليس العمى عمى البصر وإنما العمى عمى البصيرة ، وإن كانت القوة الباصرة سليمة ، فإنها لا تنفذ إلى العبر ولا تدري ما الخبر .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ .

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ أي : هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله ، واليوم الآخر كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ أي : الذي قد وعد من إقامة الساعة ، والانتقام من أعدائه ، والإكرام لأوليائه . وقوله : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أي : هو تعالى لا يعجل ، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه لعلمه بأنه على الانتقام قادر ، وأنه لا يفوته شيء ، وإن أجّل وأنظر وأملى . ولهذا قال بعد هذا : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ

(١) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٦٨٦) ومسلم في (البر والصلة) (٦٢)

ٱلْمَصِيرُ ﴾ . عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الجَنَّةَ قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ »[1] ، وعن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال : « إِنِّي لأَرْجُو أَنْ لَا تَعْجَزَ أُمَّتِي عِنْدَ رَبِّهَا أَنْ يُؤَخِّرَهُمْ نِصْفَ يَوْمٍ » قيل لسعد : وما نصف يوم ؟ قال : خمسمائة سنة[2] . وعن ابن عباس : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ قال : من الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض . وقال مجاهد : هذه الآية كقوله : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ .

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وقوع العذاب واستعجلوه به ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : إنما أرسلني الله إليكم نذيرًا لكم بين يدي عذاب شديد ، وليس إلي من حسابكم من شيء ، أمركم إلى الله : إن شاء عجل لكم العذاب ، وإن شاء أخره عنكم ، وإن شاء تاب على من يتوب إليه ، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة ، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار . ﴿ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي : آمنت قلوبهم ، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أي : مغفرة لما سلف من سيئاتهم ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم ، قال محمد بن كعب القرظي : إذا سمعت الله تعالى يقول : ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ فهو الجنة . وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ قال مجاهد : يثبطون الناس عن متابعة النبي ﷺ ، وكذا قال عبد الله بن الزبير : مثبطين ، وقال ابن عباس : معاجزين . مراغمين ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ وهي النار الحارة الموجعة الشديد عذابها ونكالها أجارنا الله منها . قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾ .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظنًّا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ، ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ هذا فيه تسلية من الله لرسوله صلاة الله وسلامه عليه ، أي لا يهيدنك فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء ، قال ابن عباس : ﴿ إِذَا

(١) اخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٩٦/٢) والترمذي في سننه (٢٣٥٣) وابن ماجه في سننه (٤١٢٢) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧٠/١) .

تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ يقول : إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه ، وقال مجاهد : ﴿ إِذَا تَمَنَّىٰٓ ﴾ يعني : إذا قال . ويقال : أمنيته قراءته .

﴿ إِلَّآ أَمَانِىَّ ﴾ يقرأون ولا يكتبون قال البغوي : وأكثر المفسرين قالوا : معنى قوله : ﴿ تَمَنَّىٰٓ ﴾ أي تلا وقرأ كتاب الله ، ﴿ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ أي في تلاوته . وقال الضحاك : ﴿ إِذَا تَمَنَّىٰٓ ﴾ إذا تلا . قال ابن جرير ، هذا القول أشبه بتأويل الكلام ، وقوله : ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ حقيقة النسخ لغة الإزالة والرفع ، قال ابن عباس : أي : فيبطل الله ﷻ ما ألقى الشيطان . وقال الضحاك : نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته ، وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أي : بما يكون من الأمور والحوادث لا تخفى عليه خافية ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أي في تقديره وخلقه وأمره ، له الحكمة التامة ، والحجة البالغة ؛ ولهذا قال : ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي : شك وشرك وكفر ونفاق كالمشركين حين فرحوا بذلك ، واعتقدوا أنه صحيح من عند الله وإنما كان من الشيطان . قال ابن جريج : ﴿ لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ هم المنافقون . ﴿ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ هم المشركون . وقال مقاتل بن حيان هم : اليهود . ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أي : في ضلال ومخالفة وعناد ﴿ بَعِيدٍ ﴾ أي : من الحق والصواب . ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي : وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل ، والمؤمنون بالله ورسوله أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك الذي أنزله بعلمه وحفظه وحرسه أن يختلط به غيره ، بل هو كتاب عزيز ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ وقوله : ﴿ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي يصدقوه وينقادوا له . ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي : تخضع وتذل له قلوبهم ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي : في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا : فيرشدهم إلى الحق واتباعه ، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه ، وفي الآخرة : يهديهم الصراط المستقيم الموصل إلى درجات الجنات ، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات .

﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار أنهم لا يزالون في مرية أي : في شك وريب من هذا القرآن . وقال سعيد بن جبير : منه أي : مما ألقى الشيطان ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ قال مجاهد : فجأة ، وقال قتادة : ﴿ بَغْتَةً ﴾ بغت القوم أمر الله ، وما أخذ الله قومًا قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله إنه لا يغتر بالله إلاالقوم الفاسقون . وقوله : ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ قال أبي بن كعب : هو يوم بدر ، قال عكرمة ومجاهد في رواية عنهما : هو يوم القيامة لا ليل له . وهذا القول هو الصحيح ، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به لكن هذا هو المراد ولهذا قال : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ كقوله : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ . وقوله : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي : آمنت قلوبهم

وصدقوا بالله ورسوله ، وعملوا بمقتضى ما علموا ، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم . ﴿ فِي جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي : لهم النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول ولا يبيد . ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ أي : كفرت قلوبهم بالحق وجحدته ، وكذبوا به وخالفوا الرسل ، واستكبروا عن اتباعهم ، ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي : مقابلة استكبارهم وإبائهم عن الحق كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أي : صاغرين .

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ .

يخبر تعالى عمن خرج مهاجرًا في سبيل الله ابتغاء مرضاته وطلبًا لما عنده ، وترك الأوطان والأهلين والخلان ، وفارق بلاده في الله ورسوله لدين الله ، ﴿ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ ﴾ أي : في الجهاد ﴿ أَوْ مَاتُوا۟ ﴾ أي : حتف أنفهم من غير قتال على فرشهم ، فقد حصلوا على الأجر الجزيل والثناء الجميل ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ وقوله : ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أي : ليجرين عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ . ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ﴾ أي : الجنة كما قال تعالى : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق ، وجنة كما قال ها هنا : ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ ثم قال : ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ أي : بمن يهاجر ويجاهد في سبيله ، وبمن يستحق ذلك ﴿ حَلِيمٌ ﴾ أي : يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ، ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه وتوكلهم عليه . فأما من قتل في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر ، فإنه حي عند ربه يرزق . كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ وأما من توفي في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر ، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحية إجراء الرزق عليه ، وعظيم إحسان الله إليه ، قال شرحبيل بن السمط : طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم فمر بي سلمان - يعني الفارسي - ﷺ فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا أَجْرَى اللهُ عَلَيْهِ مِثْلَ ذَلِكَ الأَجْرِ ، وَأَجْرَى عَلَيْهِ الرِّزْقَ ، وَأَمِنَ مِنَ الفَتَّانِينَ وَاقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ »(1) . وعن همام أنه سمع أبا قبيل وربيعة بن سيف المعافري يقولان : كنا برودس ومعنا فضالة بن عبيد الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ فمر بجنازتين إحداهما : قتيل والأخرى متوفى ، فمال الناس على القتيل ، فقال فضالة : ما لي أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا ؟ فقالوا : هذا القتيل في سبيل الله ، فقال : والله ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت ، اسمعوا كتاب الله ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ ﴾ حتى بلغ آخر الآية .

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٦٨/٤) .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ﴾ الآية . ذكر مقاتل بن حيان وابن جرير : أنها نزلت في سرية من الصحابة لقوا جمعًا من المشركين في شهر محرم فناشدهم المسلمون لئلا يقاتلوهم في الشهر الحرام ، فأبى المشركون إلا قتالهم ، وبغوا عليهم فقاتلهم المسلمون ، فنصرهم الله عليهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [1] .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا على أنه الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء ، كما قال : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ . ومعنى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل إدخاله من هذا في هذا ، ومن هذا في هذا ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار كما في الشتاء ، وتارة يطول النهار ويقصر الليل كما في الصيف ، وقوله : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ أي : سميع بأقوال عباده بصير بهم ، لا يخفى عليه منهم خافية في أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم . ولما تبين أنه المتصرف في الوجود ، الحاكم الذي لا معقب لحكمه قال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ أي : الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له ؛ لأنه ذو السلطان العظيم الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وكل شيء فقير إليه ، ذليل لديه ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ أي : من الأصنام والأنداد ، والأوثان وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل ؛ لأنه لا يملك ضرًا ولا نفعًا . وقوله : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ كما قال : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ وقال هو : ﴿ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته لا إله إلا هو ، ولا رب سواه ؛ لأنه العظيم الذي لا أعظم منه العلي الذي لا أعلى منه ، الكبير الذي لا أكبر منه ، تعالى وتقدس وتنزه ﷻ عما يقول الظالمون المعتدون علوًا كبيرًا .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴾ .

وهذا أيضًا من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه وأنه يرسل الرياح فتثير سحابًا ، فيمطر على الأرض الجرز التي لا نبات فيها ، وهي هامدة يابسة سوداء ممحلة ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ وقوله : ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ أي خضراء بعد يباسها ومحولها ، وقد ذكر عن بعض أهل الحجاز أنها تصبح عقب المطر خضراء ، فالله أعلم .

لا يخفى عليه خافية ، فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به . وقال : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وقال : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ

(١) ذكره ابن جرير في تفسيره (١٧/ ٢٥٦) .

﴿ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴾ .

ولهذا قال أمية بن أبي الصلت ، أو زيد بن عمرو بن نفيل :

وقولا له من ينبت الحب في الثرى فيصبح منه البقل يهتز رابيا

ويخرج منه حبه في رؤوسه ففي ذاك آيات لمن كان واعيا

وقوله : ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ أي : ملكه جميع الأشياء ، وهو غني عما سواه وكل شيء فقير إليه عبد لديه . وقوله : ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي : من حيوان وجماد ، وزروع وثمار ، كما قال : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ ﴾ أي من إحسانه وفضله وامتنانه ﴿ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ ﴾ أي : بتسخيره وتسييره أي في البحر العجاج ، وتلاطم الأمواج تجري الفلك بأهلها بريح طيبة ورفق وتؤدة ، فيحملون فيها ما شاءوا من تجائر وبضائع ، ومنافع من بلد إلى بلد ، وقطر إلى قطر ، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك مما يحتاجون إليه ويطلبونه ويريدونه ﴿ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ ﴾ أي : لو شاء لأذن للسماء ، فسقطت على الأرض ، فهلك من فيها ، ولكن من لطفه ورحمته ، وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ولهذا قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ أي مع ظلمهم كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴾ كقوله : ﴿ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ ومعنى الكلام : كيف تجعلون لله أندادًا ، وتعبدون معه غيره وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف . ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ﴾ أي خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئًا يذكر فأوجدكم . ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴾ أي جحود .

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكًا ، قال ابن جرير : يعني لكل أمة نبي منسكًا . قال : وأصل المنسك في كلام العرب هو الموضع الذي يعتاده الإنسان ، ويتردد إليه إما لخير أو شر . قال: ولهذا سميت مناسك الحج بذلك لترداد الناس إليها وعكوفهم عليها ، فإن كان كما قال من أن المراد لكل أمة نبي جعلنا منسكا . فيكون المراد بقوله : ﴿ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ ﴾ أي : هؤلاء المشركون ، وإن كان المراد لكل أمة جعلنا منسكًا جعلًا قدريًا كما قال : ﴿ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ ﴾ ولهذا قال ها هنا : ﴿ هُمۡ نَاسِكُوهُۖ ﴾ أي : فاعلوه ، فالضمير هاهنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق أي : هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته ، فلا تتأثر بمنازعتهم لك ، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق ؛ ولهذا قال : ﴿ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ أي : طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود . وهذه كقوله : ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ كقوله : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ

أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد كقوله : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ ولهذا قال : ﴿ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ﴾ الآية .

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه ، وأنه محيط بما في السموات ، وما في الأرض ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وأنه تعالى يعلم الكائنات كلها قبل وجودها ، وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ . كما ثبت ، عن رسول اللّٰه ﷺ قال : « إِنَّ اللّٰه قَدَّرَ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْف سَنَةٍ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ »(١) . قال ﷺ : « أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللّٰه خلق القَلَم قَالَ لَهُ : اكْتُبْ قَالَ : وَمَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ ، فَجَرَى القَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ »(٢) . وقال ابن عباس : خلق اللّٰه اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام ، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش تبارك وتعالى : اكتب ، فقال القلم : ما أكتب ؟ قال : علمي في خلقي إلى يوم تقوم الساعة ، فجرى القلم بما هو كائن في علم اللّٰه إلى يوم القيامة . فذلك قوله للنبي ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها وقدرها وكتبها أيضًا ، فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك على الوجه الذي يفعلونه ، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره ، وهذا يعصي باختياره ، وكتب ذلك عنده وأحاط بكل شيء علمًا ، وهو سهل عليه ، يسير لديه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝٧١ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين فيما جهلوا وكفروا وعبدوا من دون اللّٰه ما لم ينزل به سلطانًا ، يعني : حجة وبرهانًا كقوله : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ ولهذا قال هاهنا : ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أي : ولا علم لهم فيما اختلقوه وائتفكوه ، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا حجة ، وأصله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم ، ولهذا توعدهم تعالى بقوله : ﴿ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ أي : من ناصر ينصرهم من اللّٰه فيما يحل بهم من العذاب والنكال ، ثم قال : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ ﴾ أي : وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج ، والدلائل الواضحات على توحيد اللّٰه ، وأنه لا إله إلا هو ، ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ﴾ أي : يكادون يبادرون الذين يحتجون

---

(١) أخرجه مسلم في القدر (١٦) والإمام أحمد في مسنده (١٦٩/٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣١٧/٥) والترمذي في السنن (٣٣١٩) وأبو داود في السنن (٤٧٠٠) .

عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن ، ويسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴿ قُلْ ﴾ أي يا محمد لهؤلاء ﴿ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ ﴾ أي : النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم ، وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا ، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم إن نلتم بزعمكم وإرادتكم . وقوله : ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أي : وبئس النار مقيلًا ومنزلًا ، ومرجعًا وموئلًا ومقامًا .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾ أي : لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ ﴾ أي : أنصتوا وتفهموا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ ﴾ أي : لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد ، على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك . كما قال أبو هريرة مرفوعًا : «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي ، فَلْيَخْلُقوا مِثْلَ خَلقِي ذرَّةً أو ذُبَابَةً أَوْ حَبَّةً » [(١)] . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قال الله ﷻ : وَمَنْ أظلمُ ممن ذهبَ يخلقُ كخلقي ؛ فليخلقوا ذرة ، فليخلقوا شعيرة » [(٢)] . ثم قال تعالى أيضًا : ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ﴾ أي : هم عاجزون عن خلق ذباب واحد ، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبها شيئًا من الذي عليها من الطيب ، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك ، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ولهذا قال : ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ قال ابن عباس : الطالب : الصنم ، والمطلوب : الذباب ، واختاره ابن جرير [(٣)] وهو ظاهر السياق . وقال السدي : الطالب : العابد ، والمطلوب : الصنم ، ثم قال : ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ ﴾ أي : ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه من التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أي : هو القوي الذي بقدرته خلق كل شيء ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ ﴾ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ وقوله : ﴿ عَزِيزٌ ﴾ أي قد عز كل شيء فقهره وغلبه فلا يمانع ولا يغالب لعظمته وسلطانه وهو الواحد القهار .

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلًا فيما يشاء من شرعه وقدره ومن الناس لإبلاغ رسالته : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ أي : سميع لأقوال عباده ، بصير بهم ، عليم بمن يستحق ذلك منهم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٩١/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في (التوحيد) (٧٥٥٩) والإمام أحمد في مسنده (٢٣٢/٢) .

(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٦٥/١٧) .

كما قال : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ وقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أي : يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به ، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم كما قال : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ فهو سبحانه رقيب عليهم ، شهيد على ما يقال لهم ، حافظ لهم ، ناصر لجنابهم .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ .

اختلف الأئمة – رحمهم الله – في هذه السجدة الثانية من سورة الحج ، هل هي مشروع السجود فيها أم لا ؟ على قولين : وقد قدمنا عند الأولى : حديث عن النبي ﷺ قال : « فُضِّلَتْ سُورَةُ الحَجِّ بِسَجْدَتَيْنِ فَمَنْ لَمْ يَسْجُدهُمَا فَلَا يَقْرَأْهُمَا » (١) . وقوله : ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ أي : بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم كما قال تعالى : ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ وقوله : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾ أي : يا هذه الأمة الله اصطفاكم ، واختاركم على سائر الأمم ، وفضلكم وشرفكم ، وخصكم بأكرم رسول وأكمل رسول وأكمل شرع . ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أي : ما كلفكم ما لا تطيقون ، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجًا ومخرجًا . فالصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين ، تجب في الحضر أربعًا ، وفي السفر تقصر إلى ثنتين ، وفي الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة كما ورد به الحديث . وتصلى رجالًا وركبانًا مستقبلي القبلة ، وغير مستقبليها ، وكذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها . والقيام فيها يسقط لعذر المرض ، فيصليها المريض جالسا ، فإن لم يستطع ؛ فعلى جنبه ، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات . ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « بُعِثْتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ » (٢) . وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن : « بَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا ، وَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا » (٣) ولهذا قال ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ يعني : من ضيق . وقوله : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ قال ابن جرير : نصب على تقدير . ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أي : من ضيق بل وسعه عليكم كملة أبيكم إبراهيم . قال : ويحتمل أنه منصوب على تقدير الزموا ملة أبيكم إبراهيم .

قلت : وهذا المعنى في هذه الآية كقوله : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ وعن ابن عباس في قوله : ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ قال : الله ﷻ . وقال عبد الرحمن ابن زيد ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ يعني : إبراهيم وذلك لقوله : ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ قال ابن جرير : وهذا لا وجه له لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يسم هذه الأئمة

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/٢٢١) . (٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٢٦٦) .
(٣) أخرجه البخاري في الجهاد (٣٠٣٨) ومسلم في الأشربة (٧١) .

في القرآن مسلمين . وقد قال الله تعالى : ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا ﴾ قال مجاهد : الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة ، وفي الذكر ﴿ وَفِي هَٰذَا ﴾ يعني : القرآن وكذا قال غيره .

قلت : وهذا هو الصواب ؛ لأنه تعالى قال : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ، ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه بأنه ملة أبيهم الخليل ، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة ، بما نوه به من ذكرها ، والثناء عليها في سالف الدهر وقديم الزمان في كتب الأنبياء يتلى على الأحبار والرهبان فقال : ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ أي : من قبل هذا القرآن ﴿ وَفِي هَٰذَا ﴾ روي عنه ﷺ قال : « مَنْ دَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جِثِيِّ جَهَنَّمَ » قال رجل : يا رسول الله وإن صام وصلى ؟ قال : « نَعَمْ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى ، فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله » [1] . ولهذا قال : ﴿ لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أي : إنما جعلناكم هكذا أمة وسطًا عدولًا خيارًا مشهودًا بعدالتكم عند جميع الأمم ، لتكونوا يوم القيامة ﴿ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها . فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم ، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك . وقوله : ﴿ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أي : قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها ، فأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض ، وطاعة ما أوجب ، وترك ما حرم ، ومن أهم ذلك إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة .

وقوله : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ أي اعتضدوا بالله واستعينوا به وتوكلوا عليه وتأيدوا به ﴿ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ أي : حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم ﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ يعني : نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/١٣٠) .

سورة المؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

عن عبد الرحمن بن عبد القاري قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل ، فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ، ورفع يديه وقال : « اللهُمَّ زِدْنَا وَلَا تَنْقُصْنَا ، وَأَكْرِمْنَا وَلَا تُهِنَّا ، وَأَعْطِنَا وَلَا تَحْرِمْنَا ، وَآثِرْنَا وَلا تُؤْثِرْ عَلَيْنَا ، وَارْضَ عَنَّا وَأَرْضِنَا » ثم قال : « لَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ عَشْرُ آيَاتٍ مَنْ أَقَامَهُنَّ دَخلَ الجَنَّةَ » . ثم قرأ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ حتى ختم العشر [1] .

وعن يزيد بن بابنوس قال : قلنا لعائشة أم المؤمنين : كيف كان خُلُق رسول الله ﷺ ؟ قالت : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن فقرأت : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ حتى انتهت إلى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ قالت : هكذا كان خلق رسول الله ﷺ .

وعن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « خَلَقَ اللَّهُ جَنَّةَ عَدْنٍ بِيَدِهِ لَبِنَةً مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ ، وَلَبِنَةً مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ ، وَلَبِنَةً مِنْ زَبَرْجَدَةٍ خَضْرَاءَ ، مِلَاطُهَا المِسْكُ ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ ، وَحَشِيشُهَا الزَّعْفَرَانُ ثُمَّ قَالَ لَهَا : انْطِقِي . قَالَتْ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فَقَالَ اللَّه : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لا يُجَاوِرُنِي فِيكِ بَخِيلٌ » . ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [2] وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي : قد فازوا وسعدوا ، وحصلوا على الفلاح وهم المؤمنون المتصفون بهذا الأوصاف ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ خَاشِعُونَ ﴾ خائفون ساكنون . وعن علي بن أبي طالب ﷺ : الخشوع : خشوع القلب ، وقال الحسن البصري : كان خشوعهم في قلوبهم ، فغضوا بذلك أبصارهم ، وخفضوا الجناح . وقال محمد بن سيرين : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة ، فلما نزلت هذه الآية : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم . والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها ، واشتغل بها عما عداها ، وآثرها على غيرها ، وحينئذٍ تكون راحة له وقرة عين كما قال النبي ﷺ : « حُبِّبَ إِلَيَّ الطِّيبُ ، والنِّسَاءُ ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » [3] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٤/١) والترمذي في سننه (٣١٧٣) والحاكم في المستدرك (٥٣٥/١) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٩٢/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٩٧/١٠) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٢٨/٣) .

وعن سالم بن أبي الجعد ، عن رجل من أسلم أن رسول الله ﷺ قال : « يا بلال أَرِحْنا بِالصَّلَاةِ » [١] .

وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ أي : عن الباطل وهو يشمل الشرك كما قاله بعضهم ، والمعاصي كما قاله آخرون ، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ قال قتادة : أتاهم والله من أمر الله ما وقفهم عن ذلك . وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ الأكثرون على أن المراد بالزكاة ها هنا زكاة الأموال مع أن هذه الآية مكية ، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة ، والظاهر أن التي فرضت بالمدينة ، إنما هي ذات النصب والمقادير الخاصة ، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبًا بمكة قال تعالى في سورة الأنعام وهي مكية : ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا زكاة النفس من الشرك والدنس . كقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ وكقوله : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۞ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادًا وهو زكاة النفوس ، وزكاة الأموال ؛ فإنه من جملة زكاة النفوس ، والمؤمن الكامل هو الذي يفعل هذا وهذا ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ أي : والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنى ولواط ، لا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم أو ما ملكت أيمانهم من السراري ، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ، ولا حرج ، ولهذا قال : ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ ﴾ أي غير الأزواج والإماء ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ أي المعتدين . وقد استدل الإمام الشافعي رحمه الله ، ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ قال : فهذا : الصنيع خارج عن هذين القسمين ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ أي : إذا اؤتمنوا لم يخونوا ، بل يؤدونها إلى أهلها . وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ : « آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ » [٢] .

وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أي : يواظبون عليها في مواقيتها كما قال ابن مسعود : سألت رسول الله ﷺ : فقلت : يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله ؟ قال : « الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا » قلت : ثم أي ؟ قال : « بِرُّ الوَالِدَيْنِ » قلت : ثم أي ؟ قال : « الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ » [٣] . وقال ابن مسعود في قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ : يعني مواقيت الصلاة . وقال قتادة : على مواقيتها وركوعها وسجودها ، وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة ، واختتمها بالصلاة فدل على أفضليتها كما قال رسول الله ﷺ : « استَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٣٦٤) .
(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٣) ومسلم في الإيمان (١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠) والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٥٧) .
(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٣٤) ومسلم في الإيمان بـ (٣٦) رقم ١٣٩ .

أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ » (١) . ولما وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وفي الصحيح عنه ﷺ قال : « إذا سَأَلْتُم اللَّه الجَنَّةَ فاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الجَنَّةِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ . وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمنِ » (٢) . وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا وَلَهُ مَنْزِلَانِ : مَنْزِلٌ فِي الجَنَّةِ ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ ، فَإِنْ مَاتَ وَدَخَلَ النَّارَ ، وَرِثَ أَهْلُ الجَنَّةِ مَنْزِلَهُ ، فَذَلِكَ قوله : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ » (٣) . وقال مجاهد : ما من عبد إلا وله منزلان ؛ منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، فأما المؤمن فيبني بيته الذي في الجنة ، ويهدم بيته الذي في النار ، وأما الكافر فيهدم بيته الذي في الجنة ، ويبني بيته الذي في النار . فالمؤمنون يرثون منازل الكفار ؛ لأنهم خلقوا لعبادة اللَّه تعالى وحده لا شريك له ، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له أحرز هؤلاء نصيب أولئك ، لو كانوا أطاعوا ربهم ﷻ . بل أبلغ من هذا أيضًا . وعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ دَفَعَ اللَّهُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا فَيُقَالُ : هَذَا فَكَاكُكَ مِنَ النَّارِ » (٤) . قلت : وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين ، وهو آدم ﵇ خلقه اللَّه من صلصال من حمأ مسنون . وقال ابن عباس : ﴿ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ قال : من صفوة الماء وقال مجاهد : ﴿ مِن سُلَالَةٍ ﴾ أي : من مني بني آدم ، وقال ابن جرير : إنما سمي آدم طينًا لأنه مخلوق منه . وقال قتادة : استل آدم من الطين ، وهذا أظهر في المعنى ، وأقرب إلى السياق ؛ فإن آدم ﵇ خلق من طين لازب وهو الصلصال من الحمأ المسنون ، وذلك مخلوق من التراب كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ وعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ اللَّه خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ ، جَاءَ مِنْهُمُ الأَحْمَرُ والأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذِلِكَ ، والخَبِيثُ والطَّيِّبُ وَبَيْنَ ذَلِكَ » (٥) . ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً ﴾ هذا الضمير عائد على جنس الإنسان كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ أي ضعيف كما قال : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ يعني : الرحم معد لذلك مهيأ له ﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ أي مدة معلومة ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٧٧/٥ ، ٢٨٢) وابن ماجه في سننه (٢٧٧ ، ٢٧٨) .
(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٥٥/٢) .
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٥) والهندي في كنز العمال (٢٩١٣) .
(٤) أخرجه : مسلم في التوبة (٤٩) وأحمد في مسنده ٤١٠/٤ .
(٥) الترمذي في السنن (٢٩٥٥) وأبو داود في السنن (٤٦٩٣) والحاكم في المستدرك ٦١/٢ .

وأجل معين حتى استحكم ونقل من حال إلى حال ، وصفة إلى صفة ولهذا قال ها هنا : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ أي ثم صيرنا النطفة ، وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل وهو ظهره ، وترائب المرأة وهي عظام صدرها ما بين الترقوة إلى السرة ، فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة . قال عكرمة وهي دم ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ وهي : قطعة كالبضعة من اللحم لا شكل فيها ولا تخطيط . ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ﴾ يعني : شكلناها ذات رأس ويدين ، ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها . وفي الصحيح عنه ﷺ : « كُلُّ جَسَدِ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجب الذنب مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ » (١) . ﴿ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾ أي : جعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ أي : ثم نفخنا فيه الروح فتحرك ، وصار خلقًا آخر ، ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب . ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ . وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال : إذا أتت على النطفة أربعة أشهر بعث اللَّه إليها ملكًا فنفخ فيها الروح في ظلمات ثلاث . فذلك قوله : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ يعني : نفخنا فيه الروح . وقال ابن عباس : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ يعني : ننقله من حال إلى حال إلى أن خرج طفلًا ، ثم نشأ صغيرًا ، ثم احتلم ، ثم صار شابًا ، ثم كهلًا ، ثم شيخًا هرمًا ، ونحو ذلك ولا منافاة ، فإنه من ابتداء نفخ الروح فيه شرع في هذه التنقلات ، والأحوال واللَّه أعلم .

وعن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال : حدثنا رسول اللَّه ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيُجْمَعُ خَلْقُه فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَع كَلِمَاتٍ : رِزْقُهُ ، وَأَجَلُهُ ، وَعَمَلُهُ ، وَهَلْ هُوَ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ؟ فَوَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بينه بَيْنَها إِلَّا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيُخْتَم لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا » (٢) .

وعن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَمَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِم بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ مَاذَا ؟ شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى ؟ فَيَقُولُ اللَّه ، فَيُكْتَبَانِ وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ ، وَأَثَرُهُ وَمَصِيبَتُهُ وَرِزْقُهُ ، ثُمَّ تُطْوَى الصَّحِيفَةُ فَلَا يُزَادُ عَلَى مَا فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ » (٣) .

وقوله : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ يعني : حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النطفة من حال إلى حال ، وشكل إلى شكل حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوي الكامل الخلق . قال : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ وقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ يعني بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ يعني : النشأة الآخرة ﴿ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ يعني : يوم المعاد . وقيام الأرواح إلى الأجساد ، فيحاسب الخلائق ، ويوفي كل عامل عمله إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر .

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٣٥) ومسلم في الفتن (١٤١ ، ١٤٣) .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٨) ومسلم في القدر (١) والإمام أحمد في مسنده (٣١٥/٢) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦/٤) .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ .

لما ذكر تعالى خلق الإنسان عطف بذكر خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان . كما قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ وهكذا في أول الم السجدة التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها صبيحة يوم الجمعة في أولها خلق السموات والأرض ، ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين ، وفيها أمر المعاد وغير ذلك من المقاصد .

وقوله : ﴿ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾ قال مجاهد : يعني : السموات السبع ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ أي : ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير . وهو سبحانه لا يحجب عنه سماء سماء ، ولا أرض أرضًا ، ولا جبل إلا يعلم ما في وعره ، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره ، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والأشجار . ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ⑱ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑲ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ⑳ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ㉑ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ .

يذكر تعالى نعمه على عبيده التي لا تعدُّ ولا تحصى في إنزاله القطر من السماء بقدر ، أي بحسب الحاجة لا كثيرًا فيفسد الأرض والعمران ، ولا قليلًا فلا يكفي الزروع والثمار ، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به حتى أن الأراضي التي تحتاج ماء كثيرًا لزرعها ، ولا تحتمل دمنتها إنزال المطر عليها يسوق إليها الماء من بلاد أخرى ، كما في أرض مصر ويقال لها : الأرض الجرز ، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها ، فيأتي الماء يحمل طينًا أحمر فيسقي أرض مصر ، ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه ؛ لأن أرضهم سباخ يغلب عليها الرمال ، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور ، وقوله : ﴿ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي : جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض ، وجعلنا في الأرض قابلية له تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى . وقوله : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ أي : لو شئنا أن لا تمطر لفعلنا ، ولو شئنا أذى لصرفناه عنكم إلى السباخ والبراري ، والقفار لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه أجاجًا لا ينتفع به لشرب ، ولا لسقي لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض ، بل ينجر على وجهها لفعلنا . ولوشئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا ، ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذبًا فراتًا زلالًا ، فيسكنه في الأرض ، ويسلكه ينابيع في الأرض ، فيفتح العيون والأنهار ، ويسقي به الزروع والثمار تشربون منه ودوابكم وأنعامكم ، وتغتسلون منه وتتطهرون منه وتتنظفون فله الحمد والمنة .

وقوله : ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ ﴾ يعني : فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء جنات أي بساتين وحدائق . ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ أي : ذات منظر حسن وقوله : ﴿ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ ﴾ أي :

فيها نخيل وأعناب ، وهذا ما كان يألف أهل الحجاز ، ولا فرق بين الشيء وبين نظيره ، وكذلك في حق كل أهل إقليم عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره ، وقوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ ﴾ أي : من جميع الثمار . وقوله : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ كأنه معطوف على شيء مقدر تقديره تنظرون إلى حسنه ونضجه ، ومنه تأكلون . وقوله : ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ ﴾ يعني الزيتونة ، والطور ، هو الجبل . وقال بعضهم : إنما يسمى طورًا ، إذا كان فيه شجر ، فإن عري عنها سمي جبلًا لا طورًا والله أعلم . و ﴿ طُورِ سَيْنَآءَ ﴾ هو طور سينين ، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام ، وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون ، وقوله : ﴿ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ ﴾ قال بعضهم : الباء زائدة ، وتقديره تنبت الدهن .

كما في قول العرب ألقى فلان بيده أي : يده ، وأما على قول من يضمّن الفعل ، فتقديره تخرج بالدهن أو تأتي بالدهن ؛ ولهذا قال : ﴿ وَصِبْغٍ ﴾ أي : أدم ﴿ لِّلْأَكِلِينَ ﴾ أي : فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ . عن أبي أسيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُوا الزَّيْتَ وادَّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ »[1] . وعن الصعب بن حكيم بن شريك بن نملة قال : ضفت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة عاشوراء فأطعمني من رأس بعير بارد وأطعمنا زيتًا ، وقال : هذا الزيت المبارك الذي قال الله لنبيه ﷺ .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ يذكر تعالى ما جعل لخلقه في الأنعام من المنافع ، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم ، ويأكلون من حملانها ، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، ويركبون ظهورها ، ويحملونها الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم . كما قال تعالى : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ .

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام : حين بعثه إلى قومه لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله ، ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي ألا تخافون من الله في إشراككم به ؟ فقال : الملأ وهم السادة والأكابر منهم ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ يعنون : يترفع عليكم ويتعاظم بدعوى النبوة ، وهو بشر مثلكم فكيف أوحي إليه دونكم ؟ ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ أي : لو أراد أن يبعث نبيًّا لبعث ملكًا من عنده ، ولم يكن بشرًا ، ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا ﴾ أي : ببعثة البشر في آبائنا الأولين يعنون بهذا أسلافهم ، وأجدادهم في الدهور الماضية . وقوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾ أي : مجنون فيما يزعمه من أن الله أرسله إليكم ، واختصه من بينكم بالوحي ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي : انتظروا به ريب المنون واصبروا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٩٧/٣) والترمذي في السنن (١٨٥١ ، ١٨٥٢) وابن ماجه في السنن (٣٣٢٠) .

عليه مدة حتى تستريحوا منه .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام أنه دعا ربه ليستنصره على قومه : ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعة السفينة وإحكامها وإتقانها ، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، أي : ذكر وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك ، وأن يحمل فيها أهله ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ أي : من سبق عليه القول من الله بالهلاك ، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته ، والله أعلم . وقوله : ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ أي : عند معاينة إنزال المطر العظيم لا تأخذك رأفة بقومك وشفقة عليهم ، وطمع في تأخيرهم لعلهم يؤمنون ، فإني قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان . وقوله : ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ كما قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ وقد امتثل نوح عليه السلام هذا كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه . وقال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ﴾ أي : إن في هذا الصنيع ، وهو إنجاء المؤمنين ، وإهلاك الكافرين لآيات : أي لحججًا ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاءوا به عن الله تعالى فاعل لما يشاء ، قادر على كل شيء عليم بكل شيء . وقوله : ﴿ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ أي : لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ۝ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرنًا آخرين قيل : المراد بهم عاد ، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم ، وقيل المراد : بهؤلاء ثمود لقوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ ﴾ وأنه تعالى أرسل فيهم رسولًا منهم ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فكذبوه وخالفوه لكونه بشرًا مثلهم ، وكذبوا بلقاء الله في القيامة وأنكروا المعاد الجثماني وقالوا : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ أي : بعد ذلك . ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي :

فيما جاءكم به من الرسالة والنذارة والإخبار بالمعاد ﴿ وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ۝ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ أي : استفتح عليهم الرسول ، واستنصر ربه عليهم ، فأجاب دعاءه ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴾ أي بمخالفتك وعنادك فيما جئتهم به ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي : وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم . والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي الباردة ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ . وقوله : ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ﴾ أي : صرعى هلكى كغثاء السيل ، وهو الشيء الحقير التافه الهالك الذي لا ينتفع بشيء منه ﴿ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي : بكفرهم وعنادهم ، ومخالفة رسول الله فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ۝ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴾ أي : أممًا وخلائق ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ يعني : بل يؤخذون على حسب ما قدر لهم تعالى في كتابه المحفوظ وعلمه ، قبل كونهم أمة بعد أمة وقرنًا بعد قرن ، وجيلًا بعد جيل ، وخلفًا بعد سلف ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ قال ابن عباس : يعني يتبع بعضهم بعضًا . وقوله : ﴿ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ يعني : جمهورهم وأكثرهم كقوله تعالى : ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وقوله : ﴿ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا ﴾ أي : أهلكناهم . وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ أي : أخبارًا وأحاديث للناس كقوله : ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ .

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ۝ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ۝ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ۝ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى عليه السلام وأخاه إلى فرعون وملأه ، بالآيات والحجج الدامغات ، وأن فرعون وقومه استكبروا عن الانقياد لأمرهما لكونهما بشرين . كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر تشابهت قلوبهم ، فأهلك الله فرعون وملأه وأغرقهم في يوم واحد أجمعين . وأنزل على موسى الكتاب وهو التوراة فيها أحكامه وأوامره ونواهيه ، وذلك بعد أن قصم الله فرعون والقبط ، وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليهما السلام أنه جعلهما آية للناس ، أي : حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء ، وقوله : ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ قال ابن عباس : الربوة المكان المرتفع من الأرض ، وهو أحسن ما يكون فيه النبات ، وقال : ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ أي : ذات خصب ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ يعني : ماء ظاهرًا . وقال مجاهد : ربوة مستوية ، وقال سعيد بن جبير ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ استوى الماء فيها . وقال قتادة : ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ الماء الجاري . ثم اختلف المفسرون في

مكان هذه الربوة من أي أرض هي ؟ فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ليس الربى إلا بمصر ، والماء حين يسيل يكون الربى عليها القرى ، ولولا الربى غرقت القرى . وهو بعيد جدًّا ، وعن سعيد بن المسيب قال : هي دمشق قال : وروي عن عبد الله بن سلام والحسن وزيد بن أسلم وخالد بن معدان نحو ذلك . وعن ابن عباس ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ قال : إنها دمشق . عن مجاهد : ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ﴾ قال : عيسى ابن مريم وأمه حين أويا إلى غوطة دمشق وما حولها . وعن أبي هريرة يقول في قول الله تعالى : ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ . قال : هي الرملة من فلسطين ، وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه ابن عباس في قوله : ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ قال : المعين الماء الجاري ، وهو النهر الذي قال الله تعالى : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ وكذا قال الضحاك وقتادة : ﴿ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ هو بيت المقدس فهذا والله أعلم هو الأظهر ، لأنه المذكور في الآية الأخرى والقرآن يفسر بعضه بعضًا ، وهذا أولى ما يفسر به الأحاديث الصحيحة ثم الآثار .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ .

يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال ، والقيام بالصالح من الأعمال ، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح فقام الأنبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام ، وجمعوا بين كل خيرًا قولًا وعملًا ، ودلالة ونصحًا ، فجزاهم الله عن العباد خيرًا . قال الحسن البصري في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ قال : أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم ، ولا حلوكم ولا حامضكم ، ولكن قال : انتهوا إلى الحلال منه . وقال سعيد بن جبير يعني : الحلال ، وفي الصحيح : « وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إلا رَعَى الغَنَمَ » قالوا : وأنت يا رسول الله ؟ قال : « نعمْ وَأَنَا ؛ كُنتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ » (١) وفي الصحيح : « إِنَّ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ كَسْبِ يَدِهِ » (٢) وفي الصحيحين « إِنَّ أَحَبَّ الصِّيَامِ إلى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ ، وَأَحَبَّ القِيَامِ إلى الله قيام دَاوُدَ ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ الليْلِ ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا ، ولا يَفِرُّ إذا لَاقَى » (٣) . وقوله : ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي : دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد ، وملة واحدة وهو : الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ . وقوله : ﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ﴾ أي : الأمم الذين بعثت إليهم الأنبياء ﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أي يفرحون بما هم فيه من الضلال ؛ لأنهم يحسبون أنهم مهتدين . ولهذا قال : متهددًا لهم ومتوعدًا : ﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ ﴾ أي : في غيهم وضلالهم ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي : إلى حين حينهم وهلاكهم كما قال تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في (الإمارة) (٢٢٦٢) .

(٢) أخرجه البخاري في (البيوع) (٢٠٧٢) .

(٣) أخرجه البخاري في (التهجد) (١١٣١) ومسلم في الصيام (١٨٩) .

وقوله : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ يعني : أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ، ومعزتهم عندنا ! ؟ كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم : ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجاؤهم ، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجًا وإنظارًا وإملاء . ولهذا قال : ﴿ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ ﴾ . وقال : ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ إلى قوله : ﴿ عَنِيدًا ﴾ والآيات في هذا كثيرة ، قال قتادة في قوله : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ . قال : مكر والله بالقوم في أموالهم وأولادهم ، يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم ، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح . وفي الحديث : « إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنيا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يُسْلِمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ ، وَلَا يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » قالوا : وما بوائقه يا رسول الله ؟ قال : « غُشْمُهُ وَظُلْمُهُ ، وَلَا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا مِنْ حَرَامٍ فَيُنْفِقَ مِنْهُ ، فَيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ وَلَا يَتَصَدَّقُ بِهِ فَيُقْبَلَ مِنْهُ ، وَلَا يَتْرُكُهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ ؛ إلا كان زَادَهُ إلى النَّارِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ ، وَلَكِنْ يمحو السَّيِّئَ بِالحَسَنِ ، إِنَّ الخَبِيثَ لَا يَمْحُو الخَبِيثَ » (١) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ أي هم مع إحسانهم وإيمانهم ، وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه وجلون من مكره بهم ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : يؤمنون بآياته الكونية ، والشرعية ، كقوله تعالى إخبارًا عن مريم عليها السلام : ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾ أي : أيقنت أن ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه ، وما شرعه الله فهو إن كان أمرًا فمما يحبه ويرضاه ، وإن كان نهيًا فهو مما يكرهه ويأباه ، وإن كان خيرًا فهو حق . ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : لا يعبدون معه غيره بل يوحدونه ، ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحدًا صمدًا لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ، وأنه لا نظير له ولا كفء له ، وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون ، أن لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الإعطاء ، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط . عن عائشة أنها قالت : يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال : « لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ ، وَهُوَ يَخَافُ اللَّهَ عز وجل » (٢) . وقد قرأ آخرون هذه الآية : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ أي : يفعلون ما يفعلون وهم خائفون . وروي هذا مرفوعًا إلى النبي ﷺ أنه قرأها كذلك .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٨٧/١) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٤٩/٢) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٠٥/٦) والترمذي في السنن (٣١٧٥) .

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا أنه : لا يكلف نفسًا إلا وسعها أي إلا ما تطيق جمله والقيام به ، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء . ولهذا قال : ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ﴾ يعني كتاب الأعمال ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أي : لا يبخسون من الخير شيئًا ، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين . ثم قال منكرًا على الكفار والمشركين من قريش : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ ﴾ أي : في غفلة وضلالة ﴿ مِّنْ هَٰذَا ﴾ أي : القرآن الذي أنزل على رسوله ﷺ . وقوله : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾ قال ابن عباس : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ ﴾ أي : سيئة من دون ذلك ، يعني : الشرك ﴿ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾ . قال : لابد أن يعملوها ، وقال آخرون : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾ أي : قد كتبت عليهم أعمال سيئة لا بد أن يعملوها ، قبل موتهم لا محالة لتحق عليهم كلمة العذاب . وقد قدمنا في حديث ابن مسعود : « فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُون بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقَ عَلَيْهِ الكِتَاب ، فَيَعْمَلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلَهَا »(١) .

قوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴾ يعني : حتي إذا جاء مترفيهم وهم المنعمون في الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم ﴿ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴾ أي : يصرخون ويستغيثون كما قال تعالى : ﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴾ الآية . وقوله : ﴿ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾ أي : لا يجيركم أحد مما حل بكم سواء جأرتم أو سكتم لا محيد ولا مناص ولا وزر ، لزم الأمر ووجب العذاب . ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال : ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾ أي : إذا دعيتم أبيتم وإن طلبتم امتنعتم ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ . وقوله : ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ في تفسيره قولان : أحدهما : أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق ، وإبائهم إياه استكبارًا عليه ، واحتقارًا له ولأهله ، فعلى هذا الضمير في به فيه ثلاثة أقوال : أحدها : أنه الحرم أي مكة ذموا ؛ لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام . والثاني : أنه ضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام : إنه سحر إنه شعر إنه كهانة إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة والثالث : أنه محمد ﷺ كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة ، ويضربون له الأمثال الباطلة من أنه شاعر أو كاهن أو ساحر ، فكل ذلك باطل بل هو عبد الله ورسوله الذي أظهره الله عليهم ، وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء . وقيل : المراد بقوله : ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ ﴾ أي : بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به ، كما قال ابن عباس : إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية : ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ فقال : مستكبرين بالبيت يقولون نحن أهله سامرًا . قال : كانوا

---

(١) أخرجه البخاري في (القدر) (٦٥٩٤) والإمام أحمد في مسنده (١/٣٨٢) والترمذي في (السنن) (٤) .

يتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ، ويهجرونه وقد أطنب ابن أبي حاتم ها هنا بما هذا حاصله .

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على المشركين في عدم تفهمهم للقرآن العظيم وتدبرهم له وإعراضهم عنه مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف ، لا سيما آباؤهم الذين ماتوا في الجاهلية حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهم نذير ، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله عليهم بقبولها ، والقيام بشكرها وتفهمها ، والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار . كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول ﷺ ورضي عنه ، وقال قتادة : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ إذن والله يجدون في القرآن زاجرًا عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه ، ولكنهم أخذوا بما تشابه فهلكوا عند ذلك . ثم قال منكرًا على الكافرين من قريش : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ أي أنهم لا يعرفون محمدًا وصدقه وأمانته ، وصيانته التي نشأ بها فيهم ؟ أي أفيقدرون على إنكار ذلك والمباهتة فيه ؟ ولهذا قال جعفر بن أبي طالب ﷺ للنجاشي ملك الحبشة : أيها الملك إن الله بعث فينا رسولًا نعرف نسبه وصدقه وأمانته . وهكذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم . وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل حين سأله وأصحابه عن صفات النبي ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته ، وكانوا بعد كفارًا لم يسلموا ، ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك . وقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾ يحكي قول المشركين عن النبي ﷺ أنه : تقول القرآن أي : افتراه من عنده أو أن به جنونًا لا يدري ما يقول ، وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به ، وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن ، وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله إن استطاعوا ، ولا يستطيعون أبد الآبدين . ولهذا قال : ﴿ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ يحتمل أن تكون هذه جملة حالية أي في حالة كراهة أكثرهم للحق ، ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفة ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ قال مجاهد : الحق هو الله ﷻ ، والمراد : لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى ، وشرع الأمور على وفق ذلك ﴿ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ أي : لفساد أهوائهم واختلافها ، كما أخبر عنهم في قولهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ ثم قال : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾ الآية . ففي هذا كله تبين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم ، وأنه تعالى : هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله ، وشرعه وقدره وتدبيره لخلقه تعالى ، وتقدس فلا إله غيره ولا رب سواه ، ولهذا قال : ﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم

بِذِكْرِهِمْ ﴾ أي : القرآن ﴿ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ وقوله : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا ﴾ قال الحسن : أجرًا ، وقال قتادة : جعلًا ﴿ فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ﴾ أي : أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلًا ، ولا شيئًا على دعوتك إياهم إلى الهدى ، بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه كما قال : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ وقال : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴾ عن عمر ابن الخطاب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنِّي مُمْسِكٌ بِحُجَزِكُمْ هَلُمَّ عَنِ النَّارِ ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ ، وَتَغْلِبُونَنِي تَتَقَاحَمُونَ فِيهَا تَقَاحُمَ الفَرَاشِ والجَنَادِبِ ، فأوشِكُ أَنْ أُرْسِلَ حُجَزَكُمْ وَأَنا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ ، فَتَرِدُونَ عَلَيَّ معًا وَأَشْتَاتًا أَعْرِفُكُمْ بِسِيمَاكُمْ وَأَسْمَائِكُمْ ، كَمَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ الغَرِيبَ مِنَ الإِبِلِ فِي إِبِلِهِ ، فَيُذْهَبُ بِكُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ، فَأُنَاشِدُ فِيكُمْ رَبَّ العَالَمِينَ ، أَيْ رَبِّ قَوْمِي ، أَيْ رَبِّ أُمَّتِي ، فَيُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يَمْشُونَ بَعْدَكَ القَهْقَرَى عَلَى أَعْقَابِهِمْ ، فَأَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ يَحْمِلُ شَاةً لَهَا ثُغَاءٌ يُنَادِي : يا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ ، فَأَقُولُ : لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا قَدْ بَلَّغْتُ ، وَلأَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ يُنَادِي : يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ ! فَأَقُولُ : لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ بَلَّغْتُ ، وَلأَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ يَحْمِلُ فَرَسًا لَهَا حَمْحَمَةٌ فَيُنَادِي : يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ ! فَأَقُولُ : لَا أَمْلِكَ لَكَ شَيْئًا قَدْ بَلَّغْتُ ، ولأعرفنَّ أحدكُمْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ يَحْمِلُ سِقَاءً مِنْ أَدَمٍ يُنَادِي : يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ ! فَأَقُولُ : لا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قد بَلَّغْتُ »(١) .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴾ أي : لعادون جائرون منحرفون ، تقول العرب : نكب فلان عن الطريق إذا زاغ عنها . وقوله : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم بأنه لو أزاح عنهم الضر وأفهمهم القرآن ، لما انقادوا له ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم . كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ . فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون لو كان كيف يكون . قال ابن عباس : كل ما فيه ﴿ وَلَوْ ﴾ فهو مما لا يكون أبدًا .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ۝ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ ﴾ أي : ابتليناهم بالمصائب والشدائد ﴿ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أي : لما ردهم عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة ، بل استمروا على غيهم وضلالهم ﴿ فَمَا

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٥٥٦/١) .

ٱسْتَكَانُوا۟ ﴾ أي : ما خشعوا ﴿ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أي : ما دعوا كما قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الآية . وعن ابن عباس أنه قال : جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز - يعني الوبر والدم - فأنزل الله : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أي : حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون ، فعند ذلك أبلسوا من كل خير وأيسوا من كل راحة ، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم . ثم ذكر تعالى نعمه على عباده بأن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة وهي : العقول والفهوم التي يذكرون بها الأشياء ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله ، وقوله : ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أي : ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم . ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر في برئه الخليقة ، وذرئه لهم في سائر أقطار الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم ، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم فلا يترك صغيرًا ولا كبيرًا ، ولا ذكرًا ولا أنثى ، ولا جليلًا ولا حقيرًا ؛ إلا أعاده كما بدأه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أي : يحيي الرمم ويميت الأمم ﴿ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أي : وعن أمره تسخير الليل والنهار كل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا يتعاقبان لا يفتران ، ولا يفترقان بزمان غيرهما كقوله : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي : أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذي قد قهر كل شيء وعز كل شيء ، وخضع له كل شيء ؟ .

ثم قال مخبرًا عن منكري البعث : الذي أشبهوا من قبلهم من المكذبين : ﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ يعني : يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يعنون الإعادة محال إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلافهم ، وهذا الإنكار والتكذيب منهم ، كقوله إخبارًا عنهم : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ .

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ۝ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ .

يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ليرشد إلى أنه الله الذي لا إله إلا هو ، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ، ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غير المعترفين له بالربوبية ، وأنه لا شريك له فيها ، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية فعبدوا غيره معه مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئًا ، ولا يملكون شيئًا ولا يستبدون بشيء ، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ فقال : ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ﴾ أي : من مالكها الذي خلقها ، وسائر صنوف المخلوقات . ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ أي : فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له ، فإذا كان ذلك

﴿ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرزاق لا لغيره ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي : من هو خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات ، والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات ؟ ومن هو رب العرش العظيم ؟ يعني الذي هو سقف المخلوقات كما جاء في الحديث : « شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ، إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ هَكَذَا » . وأشار بيده مثل القبة (١) . وقال الضحاك عن ابن عباس : إنما سمي عرشًا لارتفاعه . وقال مجاهد : ما السماوات والأرض في العرش إلا كحلقة في أرض فلاة . وعن ابن عباس قال : العرش لا يقدر قدره أحد . وفي رواية : إلا الله ﷻ .

ولهذا قال ها هنا : ﴿ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي : الكبير ، وقال في آخر السورة : ﴿ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ أي : الحسن البهي فقد جمع العرش بين العظمة في الاتساع والعلو والحسن الباهر . وقال ابن مسعود : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه .

وقوله : ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ؟ أي : إذا كنتم تعترفون بأنه رب السماوات ورب العرش العظيم أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم به ؟

﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أي : بيده الملك ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ أي : متصرف فيها ، وكان رسول الله ﷺ يقول : « لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ » . وكان إذا اجتهد في اليمين قال : « لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ » (٢) . فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحدًا لا يخفر في جواره ، وليس لمن دونه أن يجير عليه لئلا يفتات عليه . ولهذا قال الله ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ أي : وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه ، الذي له الخلق والأمر ، ولا معقب لحكمه الذي لا يمانع ولا يخالف ، وما يشاء كان وما لم يشأ لم يكن . وقوله : ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ ﴾ أي : سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له ﴿ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ ؟ أي : فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره ، مع اعترافكم وعملكم بذلك ؟ ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله . وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أي في عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك . كما قال في آخر السورة ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال ، وإنما يفعلون ذلك اتباعًا لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال . كما قال الله عنهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ .

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك ، والتصرف والعبادة . فقال تعالى :

---

(١) رواه أبو داود في السنن (٤٧٢٦) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦٦/٤ ، ٢٤٣/٥) .

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي : لو قدِّر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق فما كان ينتظم الوجود ، والمشاهد أن الوجود منتظم منسق ، كل من العالم العلوي والسفلي ، مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر ، وخلافه فيعلو بعضهم على بعض والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع وهو : أنه لو فرض صانعان فصاعدًا ، فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه ، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين ، والواجب لا يكون عاجزًا ، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد ، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد ؛ فيكون محالًا . فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر ؛ كان الغالب هو الواجب والآخر المغلوب ؛ لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهورًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي : عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علوًّا كبيرًا . ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أي : يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه ﴿ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون .

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا نبيه محمدًا ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴾ أي : إن عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك فلا تجعلني فيهم . كما جاء في الحديث « وَإِذَا أَرَدْتَ بِقَوْمٍ فِتْنَةً فَتَوَفَّنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴾ أي : لو شئنا لأريناك ما نحل بهم من النقم ، والبلاء والمحن . ثم قال تعالى مرشدًا له إلى الترياق النافع في مخالطة الناس ، وهو الإحسان إلى من يسيء إليه ليستجلب خاطره ، فتعود عداوته صداقة ، وبغضه محبة . فقال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ الآية . أي : وما يلهم هذه الوصية أو هذه الخصلة أو الصفة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أي على أذى الناس فعاملوهم بالجميل مع إسدائهم إليهم القبيح . ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أي : في الدنيا والآخرة ، وقوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ أمره الله أن يستعيذ من الشيطان ؛ لأنهم لا تنفع معهم الحيل ، ولا ينقادون بالمعروف . وقوله تعالى : ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ أي : في شيء من أمري ، ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور ، وذلك لطرد الشيطان عند الأكل ، والجماع والذبح ، وغير ذلك من الأمور . ولهذا كان ﷺ يقول : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَرَمِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَدمِ ، وَمِنَ الغَرَقِ ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ المَوْتِ » (٢) .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا

(١) أخرجه : الترمذي في السنن (٣٢٣٣) ومالك في الموطأ (القرآن ٩٠) وأحمد في مسنده ٥٢/٤ .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨١/٢) .

﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى ، وقيلهم عند ذلك ، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته ، ولهذا قال : ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ فذكر تعالى في آيات كثيرة أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار ، ويوم النشور ، ووقت العرض على الجبار ، وحين يعرضون على النار وهم في غمرات عذاب الجحيم . وقوله ها هنا : ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ كلا : حرف ردع وزجر أي : لا نجيبه إلى ما طلب ، ولا نقبل منه . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد : أي : لابد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم ، ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله : كلا أي لأنها كلمة أي سؤاله الرجوع ليعمل صالحاً ، هو كلام منه ، وقول لا عمل معه ، ولو ردَّ لما عمل صالحاً ، ولكان يكذب في مقالته هذه . وفي قوله تعالى : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ ﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ كما قال تعالى : ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي : يستمر به العذاب إلى يوم البعث كما جاء في الحديث « فَلَا يَزَالُ مُعَذَّبًا فِيهَا » (١) أي : في الأرض .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه إذا نفخ في الصور نفخة النشور ، وقام الناس من القبور ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أي : لا تنفع الأنساب يومئذ ، ولا يرثي والد لولده ، ولا يلوي عليه ، قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾ الآية . وقال ابن مسعود : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ، ثم نادى منادٍ : ألا من كان له مظلمة فليجئ ، فليأخذ حقه ، قال : فيفرح المرء أن يكون له الحق . عن المسور بن مخرمة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « فَاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِنِّي يَغِيظُنِي مَا يَغِيظُهَا ، وَيُنَشِّطُنِي مَا يُنَشِّطُهَا ، وَإِنَ الأَنْسَابَ تَنْقَطِعُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَّا نَسَبِي وَسَبَبِي وَصِهْرِي » (٢) . وهذا الحديث له أصل في الصحيحين عنه ﷺ قال « فَاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِنِّي يُرِيبُنِي مَا يُرِيبُهَا وَيُؤْذِينِي مَا آذَاهَا » (٣) وقوله تعالى : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي : من رجحت حسناته على سيئاته ، ولو بواحدة . قاله ابن عباس ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي : الذين فازوا فنجوا من النار ، وأدخلوا الجنة . وقال ابن عباس : أولئك الذين فازوا بما طلبوا ، ونجوا من شر ما منه هربوا ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أي ثقلت سيئاته على حسناته ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي : خابوا وهلكوا ، وباءوا بالصفقة الخاسرة . ولهذا قال تعالى : ﴿ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ أي :

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١٠٧١) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٢٣/٤) والبيهقي في السنن (٦٤/٧ ، ٢٠١/١٠) .
(٣) أخرجه البخاري في (النكاح) (٥٢٣٠) ومسلم في فضائل الصحابة (٩٣ ، ٩٤) .

ماكثون فيها دائمون مقيمون فلا يظعنون . ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَّا سِيقَ لَهَا أَهْلُهَا تَلَقَّاهُمْ لَهَبُهَا ، ثُمَّ تَلْفَحهُمْ لَفْحَةٌ فَلَم يَبْقَ لَهُمْ لَحْمٌ إِلَّا سَقَطَ عَلَى العُرْقُوب »[1] . وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴾ قال ابن عباس : يعني : عابسون ، وقال عبد الله بن مسعود : ألم تر الرأس المشيط الذي بدا أسنانه ، وقلصت شفتاه .

﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴾

هذا تقريع من الله وتوبيخ لأهل النار على ما ارتكبوه من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التي أوبقتهم في ذلك . فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ : أي : قد أرسلت إليكم الرسل ، وأنزلت إليكم الكتب ، وأزلت شبهكم ، ولم يبق لكم حجة . كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ ولهذا قالوا : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴾ أي : قد قامت علينا الحجة ، ولكن كنا أشقى من أن نناقد لها ونتبعها فضللنا عنها ولم نرزقها . ثم قالوا : ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴾ أي : اردنا إلى الدنيا ، فإن عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة . كما قال : ﴿ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ أي : لا سبل إلى الخروج لأنكم كنتم تشركون بالله إذ وحده المؤمنون .

﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ .

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار ، والرجعة إلى هذه الدار . يقول : ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا ﴾ أي امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء ﴿ وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ أي : لا تعودوا إلى سؤالكم هذا ، فإنه لا جواب لكم عندي . قال ابن عباس : ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ قال : هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه . وعن عبد الله بن عمرو قال : إن أهل جهنم يدعون مالكًا ، فلا يجيبهم أربعين عامًا ، ثم يرد عليهم إنكم ماكثون قال : هانت دعوتهم والله على مالك ورب مالك ، ثم يدعون ربهم فيقولون : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴾ قال : فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ قال : فو الله ما نبس القوم بعدها بكلمة واحدة . وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم قال : فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أولها زفير وآخرها شهيق .

ثم قال تعالى مذكرًا لهم بذنوبهم في الدنيا ، وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين ، وأوليائه فقال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ

---

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٤/٤٨٨) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/٩٣) .

سِخْرِيًّا ﴾ أي : فسخرتم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إلي ﴿ حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى ﴾ أي : حملكم بغضهم على أن أنسيتم معاملتي ﴿ وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ أي : من صنيعهم وعبادتهم كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ ثم أخبر تعالى عما جازى به عباده الصالحين فقال : ﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ ﴾ أي : على أذاكم لهم واستهزائكم بهم ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ أي : جعلتهم هم الفائزين بالسعادة والسلامة ، والجنة والنجاة من النار .

﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ۝ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة اللَّه تعالى وعبادته وحده ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ أي : كم كانت إقامتكم في الدنيا ؟ ﴿ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴾ أي : الحاسبين . ﴿ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي : مدة يسيرة على كل تقدير ﴿ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : لما آثرتم الفاني على الباقي ، ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيئ ، ولا استحققتم من اللَّه سخطه في تلك المدة اليسيرة ، فلو أنكم صبرتم على طاعة اللَّه وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا .

قال رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّ اللَّه إِذَا أَدْخَلَ أَهْلَ الجَنَّةِ الجَنَّةَ ، وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ ، قَالَ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟ قَالُوا : لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ » - قَالَ : « لَنِعْمَ مَا اتجَرْتُمْ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضِ يَوْمٍ رَحْمَتِي وَرِضْوانِي وَجَنَّتِي ؛ امْكُثُوا فِيهَا خَالِدِينَ مُخَلَّدِينَ ؟ » ثُمَّ قَالَ : « يَا أَهْلَ النَّارِ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟ قَالُوا : لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . فَيَقُولُ : بِئْسَ مَا اتجَرْتُمْ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضِ يَوْمٍ نَارِي وَسَخَطِي امْكُثُوا فِيهَا مُخَلَّدِينَ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا ﴾ أي : أفظننتم أنكم مخلوقون عبثًا بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا ، وقيل للعبث أي : لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب ، وإنما خلقناكم للعبادة ، وإقامة أوامر اللَّه ﷻ ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ أي : لا تعودون في الدار الآخرة . كما قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ : يعني هملًا ، وقوله : ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي : تقدس أن يخلق شيئًا عبثًا فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك . ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات ووصفه بأنه كريم أي : حسن المنظر بهي الشكل . عن رجل من آل سعيد بن العاص قال : كان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز : أن حمد اللَّه وأثنى عليه : أما بعد : أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثًا ، ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معادًا ينزل اللَّه فيه للحكم بينكم والفصل بينكم ، فخاب وخسر ، وشقي عبد أخرجه اللَّه من رحمته وحرم جنة عرضها السماوات والأرض ، ألم تعلموا أنه لا يأمن عذاب اللَّه غدًا إلا من حذر هذا اليوم ، وخافه ، وباع نافذًا بباق وقليلًا بكثير وخوفًا بأمان ، ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين ، وسيكون من بعدكم الباقين حتى تردون إلى خير الوارثين ؟ ثم

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٧/٥) .

إنكم في كل يوم تشيعون غاديًا ورائحًا إلى الله ﷻ قد قضى نحبه ، وانقضى أجله حتى تغيبوه في صدع من الأرض في بطن صدع غير ممهد ولا موسد ، وقد فارق الأحباب ، وباشر التراب ، وواجه الحساب ، مرتهن بعمله غني عما ترك فقير إلى ما قدم . فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء مواثيقه ، ونزول الموت بكم ، ثم جعل طرف ردائه على وجهه فبكى وأبكى من حوله . عن حسن بن عبد الله أن رجلًا مصابًا مر به عبد الله بن مسعود فقرأ في أذنه هذه الآية : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ . حتى ختم السورة فبرأ . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « بِمَاذَا قَرَأْتَ فِي أُذُنِهِ ؟ » فأخبره . فقال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ رَجُلًا موقنًا قَرَأَهَا عَلَى جَبَلٍ لَزَالَ » (١) .

وروي عن إبراهيم بن الحارث عن أبيه قال : بعثنا رسول الله ﷺ في سرية وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ قال : فقرأناها فغنمنا وسلمنا . وعن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « أَمَانُ أُمَّتِي مِنَ الغَرَقِ إِذَا رَكِبُوا السَّفِينَةَ ، بِاسْمِ اللَّهِ الملكِ الحقِّ ، وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ، بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » (٢) .

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى متوعدًا من أشرك به غيره وعبد معه سواه ومخبرًا أن من أشرك بالله لا برهان له أي : لا دليل له على قوله فقال تعالى : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ وهذه جملة معترضة ، وجواب الشرط في قوله : ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ أي : الله يحاسبه على ذلك ، ثم أخبر : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ أي : لديه يوم القيامة لا فلاح لهم ولا نجاة . وقال قتادة : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال لرجل : « مَا تَعْبُدُ ؟ » قال : أعبد الله وكذا وكذا ، حتى عدَّ أصنامًا . فقال رسول الله ﷺ : « فَأَيُّهُمْ إِذَا أَصَابَكَ ضَرٌّ فَدَعَوْتَهُ كَشَفَهُ عَنْكَ ؟ » قال : الله ﷻ . قال : « فَأَيُّهُمْ إِذَا كَانَتْ لَكَ حَاجَةٌ فَدَعَوْتَهُ أَعْطَاكَهَا ؟ » قال : الله ﷻ . قال : « فَمَا يَحْمِلُكَ عَلَى أَنْ تَعْبُدَ هَؤُلَاءِ مَعَهُ أَمْ حَسِبْتَ أَنْ تغلبَ عَلَيْهِ ؟ » . قال : أردت شكره بعبادة هؤلاء معه . فقال رسول الله ﷺ : « تَعْلَمُونَ وَلَا يَعْلَمُونَ » فقال الرجل بعدما أسلم : لقيت رجلًا خصمني (٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ هذا إرشاد من الله الدعاء ، فالغفر إذا أطلق معناه محو الذنب وستره عن الناس ، والرحمة معناها أن يسدده ويوفقه في الأقوال والأفعال .

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره ٤٦/٥ .
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٥/١١) .
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ١٧٤/١٨ ، والهندي في كنز العمال ٥٠٨٤ .

سورة النور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى هذه ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا ﴾ فيه تنبيه على الاعتناء بها ، ولا ينفي مع ما عداها . ﴿ وَفَرَضْنَاهَا ﴾ قال مجاهد : أي بيّنا الحلال والحرام ، والأمر والنهي والحدود . وقال البخاري : ومن قرأ - فرضناها - يقول : فرضناها عليكم وعلى من بعدكم [1] ﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أي : مفسرات واضحات ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ . يعني هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد ، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع ، فإن الزاني لا يخلو أن يكون بكرًا ، وهو الذي لم يتزوج ، أو محصنًا وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح ، وهو حرٌّ بالغ عاقل ، فأما إذا كان بكرًا لم يتزوج فإن حده مائة جلدة كما في الآية . ويزاد على ذلك أن يغرب عامًا عن بلده . عند جمهور العلماء خلافًا لأبي حنيفة رحمه الله ،فإن عنده أن التغريب إلى رأي الإمام إن شاء غرب وإن شاء لم يغرب . وحجة الجمهور في ذلك ما ثبت في الصحيحين من رواية الزهري في الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله ﷺ فقال أحدهما : يا رسول الله إن ابني هذا كان عسيفًا » - يعني أجيرًا - « على هذا فزنى بامرأته ، فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم ، فأخبروني أن على ابني جلد مائة جلدة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم » . فقال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّه تَعَالَى : الوَلِيدَةُ والغَنَمُ رَدٌّ عَلَيْكَ ، وَعَلَى ابْنِكَ مِائَةُ جَلْدَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ ، وَاغْدُ يَا أُنَيْسُ » - لِرَجُلٍ مِنْ أَسْلَمَ - « إِلَى امْرَأَةِ هَذَا فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا » فغدا عليها فاعترفت فرجمها [2] . وفي هذا دلالة على تغريب الزاني مع جلد مائة إذا كان بكرًا لم يتزوج ، فأما إذا كان محصنًا ، وهو قد وطئ في نكاح صحيح ، وهو حر بالغ عاقل فإنه يرجم .

كما قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن ابن عباس أخبره أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال : أما بعد أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّ اللَّه تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بالحَقِّ وَأَنزَلَ عَلَيْهِ الكِتَابَ ، فَكَانَ فِيمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةُ الرَّجْم فَقَرأْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا ، وَرَجَمَ رسول الله ﷺ ورَجَمْنَا بَعْدَهُ ، فأخشي أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل لا نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله . فالرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال ومن النساء ، إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف [3] .

وروي عن عمر بن الخطاب : « إِيَّاكُمْ أَنْ تَهْلكُوا عَنْ آيَةِ الرَّجْمِ » [4] وعن زيد بن ثابت : كنا نقرأ :

---

(١) صحيح البخاري في التفسير (تفسير سورة النور) .
(٢) أخرجه مسلم في الحدود (٢٥) والإمام أحمد في مسنده (٤/١٥٥) .
(٣) أخرجه مسلم في (الحدود) (١٥) وابن ماجه في (الحدود) (٩) .
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٣٦ ، ٤٣) .

(الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) قال مروان : ألا كتبتها في المصحف ؟ قال : ذكرنا ذلك وفينا عمر بن الخطاب فقال : أنا أشفيكم من ذلك ، قال : قلنا : فكيف ؟ قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ قال : فذكر كذا وكذا ، وذكر الرجم فقال : يا رسول الله اكتب لي آية الرجم قال : « لَا أَسْتَطِيعُ الآنَ » هذا أو نحو ذلك [١] .

وقد أمر رسول الله ﷺ برجم هذه المرأة وهي زوجة الرجل الذي استأجر الأجير لما زنت مع الأجير [٢] . ورجم رسول الله ﷺ ماعزًا والغامدية [٣] . وكل هؤلاء لم ينقل عن رسول الله ﷺ أنه جلدهم قبل الرجم ، وإنما وردت الأحاديث الصحيحة المتعاضدة المتعددة والألفاظ بالاقتصار على رجمهم . وليس فيها ذكر الجلد ، ولهذا كان مذهب جمهور العلماء وإليه ذهب أبو حنيفة ومالك والشافعي رحمهم الله . وذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى أنه يجب أن يجمع على الزاني المحصن بين الجلد للآية ، والرجم للسنة ، كما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه لما أتي بسراجة وكانت قد زنت ، وهي محصنة فجلدها يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة فقال : جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ [٤] . وفي الحديث : « خُذُوا عَنِّي ، خُذُوا عَنِّي ، قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ، البِكْرُ بِالبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ ، وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ » [٥] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ أي : في حكم الله ، أي لا ترأفوا بهما في شرع الله وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية على ترك الحد ، وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد فلا يجوز ذلك . قال مجاهد : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ قال : إقامة الحدود إذا رفعت إلى السلطان فتقام ولا تعطل . عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « تَعَافُوا الحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ ، فَمَا بَلَغَنِي مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ » [٦] وفي الحديث الآخر : « لَحَدٌّ يُقَامُ فِي الأَرْضِ خَيْرٌ لأَهْلِهَا مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا » [٧] وقيل المراد : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ فلا تقيموا الحد كما ينبغي من شدة الضرب الزاجر عن المآثم ، وليس المراد الضرب المبرح . قال الشعبي : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ قال : رحمة في شدة الضرب .

وقوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ أي : فافعلوا ذلك ، وأقيموا الحدود على من زنى ، وشددوا عليه بالضرب ، ولكن ليس مبرحًا ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك . وقد جاء عن بعض الصحابة أنه قال : يا رسول الله إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها . فقال : « وَلَكَ فِي ذَلِكَ أَجْرٌ » .

وقوله تعالى : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جلدا بحضرة الناس ، فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما وأنجع في ردعهما ، قال الحسن البصري : في قوله : ﴿ وَلْيَشْهَدْ

---

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٤٧٩٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الحدود (٢٥) والإمام أحمد في مسنده (١١٥/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في (الحدود) (١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣) والإمام أحمد في مسنده (٨/١ ، ٢٣٨) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٩٣/١ ، ١١٦ .

(٥) أخرجه مسلم في (الحدود) (١٢) وأبو داود في السنن (٤٤١٥) والإمام أحمد في مسنده (٣١٣/٥ ، ٣١٧) .

(٦) أخرجه أبو داود في السنن (٤٣٧٦) .

(٧) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤٦٢/٢) وابن ماجه في السنن (٨٤٨/٢) والنسائي في السنن (٧٥/٨) .

عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ : يعني : علانية وعن ابن عباس : الطائفة : الرجل فما فوقه . وقال مجاهد : الطائفة : الرجل الواحد إلى الألف . قال سعيد بن جبير ﴿ طائفة من المؤمنين ﴾ قال : يعني رجلين فصاعدًا ، وقال الزهري : ثلاثة نفر فصاعدًا ، وقال مالك : الطائفة أربعة نفر فصاعدًا لأنه لا يكفي شهادة في الزنى إلا أربعة شهداء فصاعدًا . وقال ربيعة : خمسة . وقال الحسن البصري : عشرة . وقال قتادة : أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين أي : نفر من المسلمين ؛ ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالًا . وقال نصر بن علقمة : في قوله تعالى : ﴿ وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ : ليس ذلك للفضيحة إنما ذلك ليدعوا الله تعالى لهما بالتوبة والرحمة .

﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ .

هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة ، أي لا يطاوعه على مراده من الزنى إلا زانية عاصية أو مشركة لا ترى حرمة ذلك ، وكذلك ﴿ والزانية لا ينكحها إلا زان ﴾ أي عاص بزناه ﴿ أو مشرك ﴾ لا يعتقد تحريمه . قال ابن عباس ﷺ في قوله : ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ﴾ : ليس هذا بالنكاح إنما هو الجماع ، لا يزني بها إلا زان أو مشرك . وقوله تعالى : ﴿ وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ أي تعاطيه والتزويج بالبغايا ، أو تزويج العفائف بالرجال الفجار . وقال ابن عباس : ﴿ وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ قال : حرم الله الزنى على المؤمنين . وقال قتادة : حرم الله على المؤمنين نكاح البغايا ذلك . فقال : ﴿ وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان ﴾ . وعن عبد الله بن عمر ﷺ : أن رجلًا من المؤمنين استأذن رسول الله ﷺ في امرأة يقال لها : أم مهزول كانت تسافح وتشترط له أن تنفق عليه ، قال : فاستأذن رسول الله ﷺ أو ذكر له أمرها قال : فقرأ عليه رسول الله ﷺ ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ (١) .

قال عبد الله : قال رسول الله ﷺ « ثَلاثَةٌ لا يَدْخُلُونَ الجنَّةَ وَلا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيامَةِ : العاقُّ لِوَالِدَيْهِ ، وَالمرْأَةُ المتَرَجِّلَةُ المتَشَبِّهَةُ بِالرِّجَالِ ، وَالديُّوثُ . وَثَلاثَةٌ لا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيامَةِ : العاقُّ لِوَالِدَيْهِ ، وَمُدْمِنُ الخمْرِ ، وَالمنَّانُ بِمَا أَعْطَى » (٢) . وعن شعبة مولى ابن عباس ﷺ قال : سمعت ابن عباس سأله رجل فقال : إني كنت ألم بامرأة آتي منها ما حرم الله ﷻ علي فرزق الله ﷻ من ذلك توبة ، فأردت أن أتزوجها فقال أناس : إن الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة . فقال ابن عباس : ليس هذا في هذا ، انكحها فما كان من إثم فعلي .

وقد ادعى طائفة آخرون من العلماء أن هذه الآية منسوخة . قال ابن أبي حاتم : عن سعيد بن المسيب قال : ذكر عنده ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ﴾ قال : كان يقال نسختها التي بعدها ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم ﴾ قال : كان يقال الأيامى من المسلمين .

﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون ۝ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾ .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/١٥٩) . (٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/١٣٤) .

هذه الآية الكريمة فيها بين حكم جلد القاذف للمحصنة هي : الحرة البالغة العفيفة ، فإذا كان المقذوف رجلًا ، فكذلك يجلد قاذفه أيضًا ، وليس فيه نزاع بين العلماء ، فإن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله درأ عنه الحد . ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ فأوجب على القاذف إذا لم يقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام :

أحدها : أن يجلد ثمانين جلدة . **الثاني** : أنه ترد شهادته أبدًا . **الثالث** : أن يكون فاسقًا ليس بعدل لا عند الله ولا عند الناس ، ثم قال تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ الآية . واختلف العلماء في هذا الاستثناء هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط ، فترفع التوبة الفسق فقط ويبقى مردود الشهادة دائمًا - وإن تاب - أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة ؟ وأما الجلد فقد ذهب وانفض سواء تاب أو أصر ولا حكم له بعد ذلك بلا ؛ فذهب الإمام مالك وأحمد والشافعي : إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته وارتفع عنه حكم الفسق ، وقال الإمام أبو حنيفة : إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط ؛ فيرتفع الفسق بالتوبة ويبقى مردود الشهادة أبدًا . وقال الضحاك : لا تقبل شهادته - وإن تاب - إلا أن يعترف على نفسه أنه قد قال البهتان ، فحينئذٍ تقبل شهادته ، والله أعلم .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ .

هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج ، وزيادة مخرج إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة أن يلاعنها كما أمر ﷻ ، وهو أن يحضرها إلى الإمام ، فيدعي عليها بما رماها به ، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربع شهداء إنه لمن الصادقين أي : فيما رماها به من الزنى ﴿ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فإذا قال ذلك بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعي ، وحرمت عليه أبدًا ويعطيها مهرها ، ويتوجب عليها حد الزنى ، ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . أي فيما رماها به ﴿ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ولهذا قال : ﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ ﴾ يعني : الحد ﴿ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فخصها بالغضب كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ، ورميها بالزنى إلا وهو صادق معذور . وهي تعلم صدقه فيما رماها به ، ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها والمغضوب عليه هو يعلم الحق ثم يحيد عنه . ثم ذكر تعالى رأفته بخلقه ، ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرج والمخرج من شدة ما يكون بهم من الضيق ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ أي : لحرجتم ولشق عليكم كثير من أموركم ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ ﴾ أي : على عباده ، وإن كان ذلك بعد الحلف والأيمان المغلظة ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يشرعه ويأمر به وفيما ينهى عنه . وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية وذكر سبب نزولها وفيمن نزلت فيه من الصحابة .

قال ابن عباس : لما نزلت ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ﴾ قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار ﷺ : أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَلَا تَسْمَعُونَ مَا يَقُولُ سَيِّدُكُمْ ؟ » فقالوا : يا رسول الله لا تلمه فإنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرًا ، وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيرته . فقال سعد : والله يا رسول الله إني لأعلم إنها لحق وأنها من الله ، ولكني قد تعجبت أني لو وجدت لكاعًا قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتي آتي بأربعة شهداء ، فو الله إني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته - قال : فما لبثوا إلا يسيرًا - حتى جاء هلال بن أمية ، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم ، فجاء من أرضه عشاء فوجد عند أهله رجلًا فرأى بعينيه ، وسمع بأذنيه ، فلم يهيجه حتى أصبح فغدا على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني جئت أهلي عشاء فوجدت عندها رجلًا ، فرأيت بعيني ، وسمعت بأذني ، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه ، واجتمعت عليه الأنصار وقالوا : قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة ، الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويبطل شهادته في الناس ، فقال هلال : والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجًا . وقال هلال : يا رسول الله فإني قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به ، والله يعلم إني لصادق . فو الله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه إذ أنزل الله على رسوله الوحي ، وكان إذا أنزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تربد وجهه ؛ يعني : فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي فنزلت ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ﴾ الآية . فسري عن رسول الله ﷺ فقال : « أَبْشِرْ يَا هِلَالُ فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا » ، فقال هلال : قدكنت أرجو ذلك من ربي ﷻ . فقال رسول الله ﷺ : « أَرْسِلُوا إِلَيْهَا » فأرسلوا إليها ، فجاءت فتلاها رسول الله ﷺ عليهما ، فذكرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا ، فقال هلال : والله يا رسول الله لقد صدقت عليها . فقالت : كذب . فقال رسول الله ﷺ : « لَاعِنُوا بَيْنَهُمَا » فقيل لهلال : اشهد ، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، فلما كانت الخامسة قيل له : يا هلال اتق الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن الموجبة التي توجب عليك العذاب . فقال : والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها . فشهد في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ثم قيل للمرأة : اشهدي أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، وقيل لها عند الخامسة : اتقي الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب ، فتلكأت ساعة وهمّت بالاعتراف ثم قالت : والله لا أفضح قومي . فشهدت في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، ففرّق رسول الله ﷺ بينهما ، وقضى أن لا يدعى ولدها لأب ولا يرمى ولدها ، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد . وقضى أن لا بيت لها عليه ، ولا قوت لها من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ولا متوفى عنها ، وقال : « إِنْ جَاءَتْ بِهِ أُصَيْهِبَ أُرَيْسِحَ خَمِشَ السَّاقَيْنِ فَهُوَ لِهِلَالٍ ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَوْرَقَ جَعْدًا جَمَالِيًّا خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ سَابِغَ الأَلْيَتَيْنِ فَهُوَ الَّذِي رُمِيَتْ بِهِ » . فجاءت به أورق جعدًا جماليًّا خدلج الساقين سابغ الأليتين . فقال رسول الله ﷺ :

« لَوْلَا الْأَيْمَانُ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ » قال عكرمة : فكان بعد ذلك أميرًا على مصر ، وكان يدعى لأمه ولا يدعى لأب (١) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

هذه العشر الآيات نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية ، التي غار الله عز وجل لها ولنبيه صلوات الله وسلامه عليه ، فأنزل الله تعالى براءتها صيانة لعرض الرسول ﷺ . فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ أي : جماعة منكم يعني ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة ، فكان المقدم في هذه اللعنة عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين ، فإنه كان يجمعه ويستوشيه حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين فتكلموا به . وجوزه آخرون منهم ، وبقي الأمر كذلك قريبًا من شهر حتي نزل القرآن ، وبيان ذلك في الأحاديث الصحيحة .

ذكر الإمام أحمد : أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه ، قالت عائشة رضي الله عنها : فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي وخرجت مع رسول الله ﷺ ، وذلك بعدما أنزل الحجاب ، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك ، وقفل ودنونا من المدينة . آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين آذن بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه .

قالت : وكانت النساء إذ ذاك خفافًا لم يثقلن ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه ، وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ، ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلي الذي كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون إلي ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناني فنمت . وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رآني ، وقد كان رآني قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني ، فخمرت وجهي بجلبابي . والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة ، غير استرجاعه حين أناخ راحته فوطئ على يدها فركبتها ، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة ، فهلك من هلك في شأني ، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن سلول . فقدمنا المدينة ، فاشتكيت حين قدمناها شهرًا والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك . وهو يريبني في وجعي أني لا أرى من رسول الله ﷺ اللطف الذي أرى منه حين أشتكي ، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول : « كيف

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٣٨/١) ولهذا الحديث شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة .

تيكم ؟ » فذلك الذي يريبني ، ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقهت ، وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ، ولا نخرج إلا ليلًا إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبًا من بيوتنا . وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه في البرية ، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها في بيوتنا ، فانطلقت أنا وأم مسطح - وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق ، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب ، فأقبلت أنا وابنة أبي رهم أم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح في مرطها ، فقالت : تعس مسطح ، فقلت لها : بئسما قلت ، تسبين رجلًا شهد بدرًا ؟ فقالت : أي هنتاه ألم تسمعي ما قال ؟ قلت : وماذا قال ؟ قلت : فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضًا إلى مرضي ، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله ﷺ فسلم ثم قال : « كيف تيكم ؟ » فقلت له : أتأذن لي أن آتي أبوي ، قالت : وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لي رسول الله ﷺ ، فجئت أبوي فقلت لأمي : يا أمتاه ماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت : أي بنية هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . قالت : فقلت : سبحان الله وقد تحدث الناس بها ! . فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكي . قالت : فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله ، قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود ، فقال أسامة : يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيرًا . وأما علي بن أبي طالب فقال : يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير . وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر . قالت : فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : « أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة ؟ » فقالت له بريرة : والذي بعثك بالحق إن رأيت منها أمرًا قط أغمصه عليها ، أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله .

فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول ، قالت : فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : « يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا ، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا ، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي » .

فقام سعد بن معاذ الأنصاري ﷺ فقال : أنا أعذرك منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه . وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . قالت : فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج ، وكان رجلًا صالحًا ، ولكن احتملته الحمية ، فقال لسعد بن معاذ : كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتلَ ، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافق ، فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر ، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله ﷺ ، قالت : وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي ، قالت : فبينما هما جالسان عندي ، وأنا أبكي إذا

استأذنت علي امرأة من الأنصار ، فأذنت لها فجلست تبكي معي . فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس . قالت : ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل ، وقد لبث شهرًا لا يوحى إليه في شأني شيء ، قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال : « أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وكذا ، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّه ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ ، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ وَتَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ » . قالت فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة . فقلت لأبي : أجب عني رسول الله . فقال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ . فقلت لأمي : أجيبي رسول الله ﷺ : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ . قالت : فقلت - وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن - : والله لقد علمت ، لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلت لكم : إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقونني ، ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني ، فو الله ما أجد لي ولكم مثلًا إلا كما قال أبو يوسف : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشي قالت : وأنا والله أعلم حينئذ أني بريئة ، وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي ، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى ، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها . قال : فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي ، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق ، وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه : قالت فسري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : « أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ أَمَّا اللَّهُ ﷻ فقد بَرَّأَكِ » قالت : فقالت لي أمي قومي إليه ، فقلت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله ﷻ هو الذي أنزل براءتي وأنزل الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ العشر الآيات كلها . فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر ﷺ - وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره - : والله لا أنفق عليه شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فقال أبو بكر : بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه . وقال : والله لا أنزعها منه أبدًا .

قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري فقال : « يَا زَيْنَبُ مَاذَا عَلِمْتِ أَوْ رَأَيْتِ ؟ » فقالت : يا رسول الله أحمي سمعي وبصري ، والله ما علمت إلا خيرًا . قالت عائشة : وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ ، فعصمها الله تعالى بالورع . وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها فهلكت فيمن هلك .

قال ابن شهاب : فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط [1] . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : لما ذكر من شأني الذي ذكر ، وما علمت به ، قام رسول الله ﷺ في الناس خطيبًا ، فتشهد فحمد الله وأثنى

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٥/٦) .

عليه بما هو أهله . ثم قال : « أَمَّا بَعْدُ أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أُنَاسٍ أَبَنُوا أَهْلِي ، وايمُ اللَّه مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إلَّا خَيْرًا وَمَا عَلِمْتُ عَلى أَهْلِي مِنْ سُوء ، وَأبنوهُمْ بِمَنْ ؟! والله مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ مِنْ سُوْءٍ قَطُّ ، وَلَا يَدْخُلُ بَيْتِي قَطُّ إلَّا وَأَنَا حَاضِرٌ ، وَلا غِبْتُ فِي سَفَرٍ إلَّا غَابَ مَعِي » فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال : يا رسول الله ائذن لنا أن نضرب أعناقهم فقام رجل من الخزرج - وكانت أم حسان بن ثابت من رهط ذلك الرجل - فقال : كذبت أما والله لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شر في المسجد وما علمت . فلما كان مساء ذلك اليوم خرجت لبعض حاجتي ومعي أم مسطح فعثرت ، فقالت : تعس مسطح . فقلت لها : أي أم تسبين ابنك ؟ فسكتت ، ثم عثرت الثانية فقالت : تعس مسطح . فقلت لها : أي أم تسبين ابنك ؟ ثم عثرت الثالثة فقالت : تعس مسطح فانتهرتها فقالت : والله ما أسبه إلا فيك . فقلت : في أي شأني ؟ قالت : فبقرت لي الحديث فقلت : وقد كان هذا ؟ قالت : نعم والله ، فرجعت إلى بيتي كأن الذي خرجت له لا أجد منه قليلًا ولا كثيرًا ، ووعكت وقلت لرسول الله ﷺ : أرسلني إلى بيت أبي ، فأرسل معي الغلام ، فدخلت الدار ، فوجدت أم رومان في السفل وأبا بكر فوق البيت يقرأ . فقالت أم رومان : ما جاء بك يا بنية فأخبرتها ، وذكرت لها الحديث . وإذا هو لم يبلغ منها مثل الذي بلغ مني ، فقالت يا بنية : خففي عليك الشأن ، فإنه والله لقل ما كانت امرأة قط حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا حسدنها ، وقيل فيها ، فقلت : وقد علم به أبي ؟ قالت : نعم قلت : ورسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم ورسول الله ﷺ فاستعبرت وبكيت ، فسمع أبو بكر صوتي وهو فوق البيت يقرأ فنزل ، فقال لأمي ما شأنها : قالت : بلغها الذي ذكر من شأنها ففاضت عيناه ﷺ فقال : أقسمت عليك يا بنية إلا رجعت إلى بيتك فرجعت ، ولقد جاء رسول الله ﷺ بيتي فسأل عني خادمتي فقالت : يا رسول الله لا والله ما علمت عليها عيبًا إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها أو عجينها . وانتهرها بعض أصحابه فقال : اصدقي رسول الله ﷺ حتى أسقطوا لها به فقالت : سبحان الله والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر ، وبلغ الأمر ذلك الرجل الذي قيل له ، فقال : سبحان الله ، والله ما كشفت كنف أنثى قط .

قالت عائشة رضي الله عنها : فقتل شهيدًا في سبيل الله قالت : وأصبح أبواي عندي فلم يزالا حتى دخل عليَّ رسول الله ﷺ وقد صلى العصر ، ثم دخل . وقد اكتنفني أبواي عن يميني وعن شمالي ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد يا عائشة إن كنت قارفت سوءًا أو ظلمت فتوبي إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده » . قالت : وقد جاءت امرأة من الأنصار فهي جالسة بالباب فقلت : ألا تستحي من هذه المرأة أن تذكر شيئًا فوعظ رسول الله ﷺ ، فالتفت إلى أبي فقلت له : أجب رسول الله ﷺ قال : فماذا أقول ؟ فالتفت إلى أمي فقلت : أجيبي رسول الله ﷺ قالت : ماذا أقول ؟ فلما لم يجيباه تشهدت ، فحمدت الله وأثنيت عليه بما هو أهله ثم قلت : أما بعد فوالله إن قلت لكم إني لم أفعل والله ﷻ يشهد إني لصادقة ما ذاك بنافعي عندكم لقد تكلمتم به ، وأشربته قلوبكم ، وإن قلت لكم إني قد فعلت والله يعلم أني لم أفعل لتقولن قد باءت على نفسها . وإني والله ما أجد لي ولكم

مثلًا - والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه - إلا أبا يوسف حين قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ . وأنزل اللّه على رسوله ﷺ من ساعته ، فسكتنا فرفع عنه وإني لأتبين السرور في وجهه وهو يمسح جبينه ويقول : « أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ فَقَدْ أَنْزَلَ اللّه بَرَاءَتَكِ » . قالت : وكنت أشد ما كنت غضبًا فقال لي أبواي : قومي إليه فقلت : لا واللّه لا أقوم إليه ، ولا أحمده ولا أحمدكما ، ولكن أحمد اللّه الذي أنزل براءتي لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه .

وكانت عائشة تقول : أما زينب بنت جحش فعصمها اللّه بدينها فلم تقل إلا خيرًا ، وأما أختها حمنة بنت جحش فهلكت فيمن هلك . وكان الذي يتكلم به مسطح وحسان بن ثابت والمنافق عبد اللّه بن أبي ابن سلول ، وهو الذي كان يستوشيه ويجمعه وهو الذي تولى كبره منهم هو وحمنة ، قالت : فحلف أبو بكر أن لا ينفع مسطحًا بنافعة أبدًا فأنزل اللّه تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ ﴾ يعني : أبا بكر ﴿ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ ﴾ يعني : مسطحًا إلى قوله : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . فقال أبو بكر : بلى واللّه يا ربنا إنا لنحب أن تغفر لنا . وعاد له بما كان يصنع (١) . فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ﴾ أي : الكذب والبهت والافتراء ﴿ عُصْبَةٌ ﴾ أي : جماعة منكم ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ﴾ أي يا آل أبي بكر . ﴿ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي : في الدنيا والآخرة لسان صدق في الدنيا ، ورفعة منازل في الآخرة ، وإظهار شرف لهم باعتناء اللّه تعالى بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حيث أنزل اللّه براءتها في القرآن العظيم : ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ الآية . ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضي الله عنه وعنها ، وهي في سياق الموت قال لها أبشري : فإنك زوجة رسول اللّه ﷺ ، وكان يحبك ، ولم يتزوج بكرًا غيرك ، ونزلت براءتك من السماء (٢) .

وعن محمد بن عبد اللّه بن جحش قال : تفاخرت عائشة وزينب رضي الله عنهما فقالت زينب : أنا التي نزل تزويجي من السماء . وقالت عائشة : أنا التي نزل عذري في كتاب اللّه حين حملني صفوان بن المعطل على الراحلة . فقالت لها زينب : يا عائشة ما قلت حين ركبتيها ؟ قالت : قلت : حسبي اللّه ونعم الوكيل . قالت : قلت كلمة المؤمنين . وقوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ﴾ أي : لكل من تكلم في هذه القضية ، ورمى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بشيء من الفاحشة نصيب عظيم من العذاب .

﴿ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ ﴾ قيل : ابتدأ به ، وقيل الذي كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه . ﴿ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي على ذلك . ثم الأكثرون على أن المراد بذلك : إنما هو عبد اللّه بن أبي ابن سلول قبحه اللّه تعالى ولعنه ، وهو الذي تقدم النص عليه في الحديث . وقيل : بل المراد به حسان بن ثابت ، وهو قول غريب ، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يدل على إيراد ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة ، فإنه من الصحابة الذين لهم فضائل ومناقب ، ومآثر وأحسن مآثره أنه كان يذب عن رسول اللّه ﷺ بشعره ، وهو الذي قال له رسول اللّه ﷺ : « هَاجِهِمْ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ » (٣) . وقال مسروق : كنت عند عائشة رضي الله عنها ، فدخل حسان بن ثابت ، فأمرت فألقي له وسادة ، فلما

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٦١) ومسلم في التوبة (٥٦) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٥٠) .
(٣) أخرجه البخاري في (بدء الخلق) (٣٢١٣) ومسلم في (فضائل الصحابة) (١٥٣) وأحمد في مسنده (٢٨٦/٤ ، ٣٠١) .

خرج قلت لعائشة : ما تصنعين بهذا ؟ يعني يدخل عليك - وفي رواية قيل لها : أتأذنين لهذا يدخل عليك - وقد قال الله ﴿ وَالَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ؟ قالت : وأي عذاب أشد من العمى . وكان قد ذهب بصره لعلّ الله أن يجعل ذلك هو العذاب العظيم . ثم قالت : إنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ - وفي رواية أنه أنشدها عندما دخل عليها شعرًا يمتدحها به فقال :

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الغَوَافِلِ

فقالت : أما أنت فلست كذلك [1] .

﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ⑫ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ .

هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة رضي الله عنها حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء ، وما ذكر من شأن الإفك . فقال تعالى : ﴿ لَّوْلَآ ﴾ يعني : هلا ﴿ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ أي : ذلك الكلام الذي رميت به أم المؤمنين رضي الله عنها ﴿ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ أي : قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم ، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى . وقد قيل : إنها نزلت في أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته . رضي الله عنهما كما روي أن أبا أيوب خالد بن زيد الأنصاري قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها ؟ قال : نعم ، وذلك الكذب أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا والله ما كنت لأفعله ، قال : فعائشة والله خير منك . قال : فلما نزل القرآن ذكر الله عز وجل من قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ وذلك حسان وأصحابه الذين قالوا ما قالوا ، ثم قال تعالى : ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ الآية أي كما قال أبو أيوب وصاحبته ، وقوله تعالى : ﴿ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ إلخ أي : هلا ظنوا الخير ، فإن أم المؤمنين أهله وأولى به . هذا ما يتعلق بالباطن . وقوله : ﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ أي : بألسنتهم ﴿ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : كذب ظاهر على أم المؤمنين رضي الله عنها ، فإن الذي وقع لم يكن ريبة ، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة ، والجيش بكماله يشاهدون ذلك ورسول الله ﷺ بين أظهرهم ، ولو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة ، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد ، بل كان هذا يكون لو قدر خفية مستورًا ، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو : الكذب البحت ، والرعونة الفاحشة الفاجرة ، والصفقة الخاسرة . قال الله تعالى : ﴿ لَّوْلَا ﴾ أي هلا ﴿ جَآءُو عَلَيْهِ ﴾ أي على ما قالوه ﴿ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ يشهدون على صحة ما جاؤوا به . ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ أي : في حكم الله كاذبون فاجرون .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑭ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أيها الخائضون في شأن عائشة بأن قبل

---

(١) أخرجه البخاري في (المغازي) (٤١٤٦) ومسلم في (فضائل الصحابة) (١٥٥) .

توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا ، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة . ﴿ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾ من قضية الإفك ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وهذا فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة ، كمسطح وحسان وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش ، فأما من خاض فيه من المنافقين ، كعبد الله بن أبي ابن سلول ، وأضرابه فليس أولئك مرادين في هذه الآية لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ، ولا ما يعارضه . وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين يكون مطلقًا مشروطًا بعدم التوبة ، أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجع عليه . قال تعالى : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ قال مجاهد : أي يرويه بعضكم عن بعض يقول : هذا سمعته من فلان وقال فلان كذا ، وذكر بعضهم كذا ، وقرأ آخرون ﴿ إِذْ تَلِقُونه بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ فعن عائشة أنها كانت تقرؤها كذلك [١] وقوله تعالى : ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أي : تقولون ما لا تعلمون ، ثم قال تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ أي : تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين ، وتحسبون ذلك يسيرًا سهلًا ، ولو لم تكن زوجة النبي ﷺ لما كان هينًا ، فكيف وهي زوجة النبي الأمي خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ؟ فعظيم عند الله أن يقال في زوجة نبيه ورسوله ما قيل ، فإن الله ﷻ يغار لهذا ، وهو ﷻ لا يقدِّر على زوجة نبي من الأنبياء ذلك حاشا وكلا ، ولما لم يكن ذلك ، فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء ، وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ وفي الحديث : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ لَا يَدْرِي مَا تَبْلُغُ ، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ » . وفي رواية « لا يُلْقِي لَهَا بَالًا » [٢] .

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

هذا تأديب آخر بعد الأول الآمر بظن الخير أي : إذا ذكر ما لا يليق من القول في شأن الخيرة ، فأولى أن ينبغي الظن بهم خيرًا ، وأن لا يشعر نفسه سوى ذلك ، ثم إن علق بنفسه شيء من ذلك وسوسة أو خيالًا ، فلا ينبغي أن يتكلم به فإن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ » [٣] ، وقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾ أي : ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ، ولا نذكره لأحد . ﴿ سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله ، وحليلة خليله . ثم قال تعالى : ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ أي : ينهاكم الله متوعدًا أن يقع منكم ما يشبه هذا أبدًا أي فيما يستقبل ؛ ولهذا قال : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي : إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه ، وتعظمون رسوله ﷺ ، فأما من كان متصفًا بالكفر فله حكم آخر . ثم قال تعالى : ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي : يوضح لكم الأحكام الشرعية والحكم القدرية . ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي : عليم بما يصلح عباده ، حكيم في شرعه وقدره .

---

(١) أخرجه : البخاري في تفسير القرآن (٤٧٥٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٧) والإمام أحمد في مسنده (٤٦٩/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في (الأيمان والنذور) (٦٦٦٤) ومسلم في (الأيمان) (٢٠١ ، ٢٠٢) وأحمد في مسنده (٢٩٣/٢) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

هذا تأديب ثالث لمن سمع شيئًا من الكلام السيئ فقام بذهنه شيء منه ، وتكلم به فلا يكثر منه ، ولا يشيعه ويذيعه . فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح . ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ أي : بالحد وفي الآخرة بالعذاب . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي : فردوا الأمور إليه ترشدوا . فعن ثوبان عن النبي ﷺ قال : « لَا تُؤْذُوا عِبَادَ اللَّه وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ ، وَلَا تَطْلُبُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ طَلَبَ عَوْرَةَ أَخِيهِ المُسْلِمِ طَلَبَ اللَّه عَوْرَتَهُ حَتَّى يَفْضَحَهُ فِي بَيْتِهِ »(1) .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : هذا لكان أمر آخر ، ولكنه تعالى رؤوف بعباده رحيم بهم ، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية ، وطهّر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليه ، ثم قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ يعني : طرائقه ومسالكه وما يأمر به ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ . هذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة ، وأبلغها وأوجزها وأحسنها . قال ابن عباس : ﴿ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ عمله ، وقال عكرمة : نزغاته . وقال قتادة : كل معصية فهي من خطوات الشيطان . وقال أبو مجلز : النذور في المعاصي من خطوات الشيطان . وقال مسروق : سأل رجل ابن مسعود فقال : إني حرمت أن آكل طعامًا وسماه ، فقال : هذا من نزغات الشيطان ، كفّر عن يمينك وكل ، وقال الشعبي في رجل نذر ذبح ولده : هذا من نزغات الشيطان ، وأفتاه أن يذبح كبشًا . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ أي : ولولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ويزكي النفوس من شركها وفجورها ودنسها ، وما فيها من أخلاق رديئة كل بحسبه لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيرًا . ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ أي : من خلقه ، ويضل من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغي . وقوله : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ أي : سميع لأقوال عباده ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن يستحق منهم الهدى والضلال .

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ ﴾ من الألية وهي الحلف أي لا يحلف ﴿ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ ﴾ أي : الطول والصدقة والإحسان ﴿ وَالسَّعَةِ ﴾ أي : الجدة ﴿ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي : لا تحلفوا أن لا تصلوا قراباتكم . المساكين والمهاجرين . وهذا في غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام . قال تعالى : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ﴾ أي : عما تقدم منهم من الإساءة والأذى ؟ وهذا من حلمه - تعالى - وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم . وهذه الآية نزلت في الصديق رضي الله عنه حين

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٩/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٨٧/٨) .

حلف أن لا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة أبدًا ، بعد ما قال في عائشة ما قال ، كما تقدم في الحديث ، فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة ، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت ، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك ، وأقيم الحد على من أقيم عليه ، شرع تبارك وتعالى - وله الفضل والمنة - يعطف الصديق على قريبه ونسيبه ، وهو مسطح بن أثاثة ، فإنه كان ابن خالة الصديق ، وكان مسكينًا لا مال له ، إلا ما ينفق عليه أبو بكر ﷺ ، وكان من المهاجرين في سبيل الله ، وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها ، وضرب الحد عليها وكان الصديق ﷺ معروفًا بالمعروف ، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب . فلما نزلت هذه الآية إلى قوله : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ الآية . فإن الجزاء من جنس العمل ، فكما تغفر ذنب من أذنب إليك يغفر الله لك ، وكما تصفح يصفح عنك ، فعند ذلك قال الصديق : بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا ، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال : والله لا أنزعها منه أبدًا في مقابلة ما كان قال : والله لا أنفعه بنافعة أبدًا .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ .

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات . خرج مخرج الغالب المؤمنات ، فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة ، ولا سيما التي كانت سبب النزول ، وهي عائشة بنت الصديق ﵄ . وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبَّها بعد هذا ، ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية ، فإنه كافر ؛ لأنه معاند للقرآن . وفي بقية أمهات المؤمنين قولان : أصحهما أنهن كهي ، والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ الآية : كقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ الآية . وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة ﵂ . فقال ابن عباس في الآية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ قال : نزلت في عائشة خاصة . وعن عائشة ﵂ قالت : رميتُ بما رميت به ، وأنا غافلة فبلغني بعد ذلك ، فبينا رسول الله ﷺ جالس عندي إذ أوحي إليه ، قالت : وكان إذا أوحي إليه أخذه كهيئة السبات ، وإنه أوحي إليه وهو جالس عندي ، ثم استوى جالسًا يمسح على وجهه وقال : « يَا عَائِشَةُ أَبْشِري » قالت : فقلت : بحمد الله لا بحمدك فقرأ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ حتى بلغ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (١) . ليس فيه أن الحكم خاص بها ، وإنما فيه أنها سبب النزول دون غيرها ، وإن كان الحكم يعمها كغيرها . ولعله مراد ابن عباس ، ومن قال كقوله والله أعلم .

وقال الضحاك : المراد بها أزواج النبي خاصة دون غيرهن من النساء . وقال ابن عباس في الآية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ الآية ، يعني أزواج النبي ﷺ رماهن أهل النفاق ، فأوجب الله لهم اللعنة والغضب ، وباؤوا بسخط من الله . فكان ذلك في أزواج النبي ﷺ ، ثم نزل بعد ذلك ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فأنزل الله الجلد والتوبة ، فالتوبة تقبل والشهادة ترد . وقد اختار ابن جرير عمومها وهو الصحيح ويعضد العموم

---

(١) أورده ابن جرير في تفسيره (١٣٨/١٨) .

ما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ » قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : « الشِّرْكُ بِاللهِ ، وَالسِّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلَاتِ المُؤْمِنَاتِ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . قال ابن عباس : إنهم – يعني : المشركين – إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة . قالوا : تعالوا حتى نجحد فيجحدون ، فيختم على أفواههم ، وتشهد أيديهم وأرجلهم ، ولا يكتمون الله حديثًا . وعن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ عُرِفَ الكَافِرُ بِعَمَلِهِ فَيَجْحَدُ وَيُخَاصِمُ ، فَيُقَالُ لَهُ : هَؤُلاءِ جِيرَانُكَ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ . فَيَقُولُ : كَذَبُوا . فَيُقَالُ : أَهْلُكَ وَعَشِيرَتُكَ . فَيَقُولُ : كَذَبُوا ، فَيُقَالُ : احْلِفُوا فَيَحْلِفُونَ ، ثُمَّ يُصِمُّهُمُ اللهُ فَتَشْهَد عَلَيْهِمْ أَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ ، ثُمَّ يُدْخِلُهُمُ النَّارَ » (٢) . وقال قتادة : ابن آدم والله إن عليك لشهودًا غير متهمة من بدنك ، فراقبهم واتق الله في سرك وعلانيتك ، فإنه لا يخفى عليه خافية ، الظلمة عنده ضوء ، والسر عنده علانية ، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن ، فليفعل ولا قوة إلا بالله . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾ قال ابن عباس : ﴿ دِينَهُمْ ﴾ أي : حسابهم . وكل ما في القرآن دينهم أي : حسابهم ، ثم إن قراءة الجمهور بنصب الحق على أنه صفة لدينهم ، وقرأ مجاهد بالرفع على أنه نعت الجلالة ، وقرأها بعض السلف في مصحف أبي بن كعب : يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ، وقوله : ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ أي : وعده ووعيده وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه .

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ .

قال ابن عباس : الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول . والطيبات من القول للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من القول – قال : ونزلت في عائشة وأهل الإفك . واختاره ابن جرير ، ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس ، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس ، فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة من كلام هم أولى به . وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ . وقال عبد الرحمن بن زيد : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء ، وهذا أيضًا يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم . أي : ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة ؛ لأنه أطيب من كل طيب من البشر ، ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعًا ولا قدرًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ أي : هم بعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان . ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ أي : بسبب ما قيل فيهم من الكذب . ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أي : عند الله في جنات

---

(١) أخرجه البخاري في (الوصايا) (٢٧٦٦) ومسلم في الإيمان (١٤٥) وأبو داود في السنن (٢٨٧٤) .
(٢) ذكره السيوطي في الدر (٣٥/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٥١/١٠) والهندي في الكنز (٣٨٩٧٩) .

النعيم . وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة . وروي أنه جاء أسير بن جابر إلى عبد الله فقال : لقد سمعت الوليد بن عقبة تكلم اليوم بكلام أعجبني . فقال عبد الله : إن الرجل المؤمن يكون في قلبه الكلمة الطيبة تتجلجل في صدره ما يستقر حتى يلفظها ، فيسمعها الرجل عنده يتلها فيضمها إليه ، وإن الرجل الفاجر يكون في قلبه الكلمة الخبيثة تتجلجل في صدره ما تستقر حتى يلفظها ، فيسمعها الرجل الذي عنده يتلها فيضمها إليه ، ثم قرأ عبد الله ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ الآية . ويشبه هذا ما روي مرفوعًا : « مثل هذا الذي يسمع الحكمة ، لا يحدث إلا بشرّ ما سمع كمثل رجل جاء إلى صاحب غنم فقال : اجزر لي شاة . فقال : اذهب فخذ بأذن أيها شئت ، فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم »(١) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٢٧ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٢٨ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ .

هذه آداب شرعية أدب الله بها عباده المؤمنين ، وذلك في استئذان أمرهم أن لا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم حتى يستأنسوا أي يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده . وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات ، فإن أذن له وإلا انصرف . كما ثبت في الصحيح أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثًا ، فلم يؤذن له انصرف . ثم قال عمر : ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن ؟ ائذنوا له ، فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال : ما أرجعك ؟ قال : إني استأذنت ثلاثًا فلم يؤذن لي ، وإني سمعت النبي ﷺ يقول : « إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَلْيَنْصَرِفْ » . فقال عمر : لتأتيني على هذا ببينة وإلا أوجعتك ضربًا ، فذهب إلى ملأ من الأنصار فذكر لهم ما قال عمر ، فقالوا : لا يشهد لك إلا أصغرنا فقام معه أبو سعيد الخدري ، فأخبر عمر بذلك ، فقال : ألهاني عنه الصفق بالأسواق(٢) .

وعن أنس أو غيره أن النبي ﷺ استأذن على سعد بن عبادة فقال : « السَّلامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّه » فقال سعد : وعليك السلام ورحمة الله ، ولم يسمع النبي ﷺ حتى سلم ثلاثًا ورد عليه سعد ثلاثًا ولم يسمعه . فرجع النبي ﷺ فأتبعه سعد . فقال : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما سلمت تسليمة إلا وهي بأذني ، ولقد رددت عليك ولم أسمعك ، وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة ، ثم أدخله البيت فقرب إليه زبيبًا فأكل نبي الله فلما فرغ قال : « أَكَلَ طَعَامَكُمُ الأَبْرَارُ ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمُ المَلائِكَةُ ، وَأَفْطَرَ عِنْدَكُمُ الصَّائِمُونَ »(٣) . وقد روي عن قيس بن سعد - هو ابن عبادة - قال : زارنا رسول الله ﷺ في منزلنا فقال : « السَّلام عَلَيْكُمْ وَرَحْمَة اللَّه » فرد سعد ردًّا خفيًّا . قال قيس : فقلت : ألا تأذن لرسول الله ﷺ ؟ فقال : دعه يكثر علينا من السلام ، فقال رسول الله ﷺ : « السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّه » فرد سعد ردًّا خفيًّا ، ثم قال رسول الله ﷺ : « السلام عليك ورحمة الله » ثم رجع رسول الله ﷺ وأتبعه سعد . فقال : يا رسول الله إني كنت أسمع تسليمك وأرد

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٣/٢) وابن ماجه في السنن (١٣٩٦/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في (الاستئذان) (٦٤٥) ومسلم في الآدب (٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧) وأحمد في مسنده (٤٠٣/٤) وأبو داود في السنن (٥١٨٠) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٨/٣) .

عليكم ردًّا خفيًّا لتكثر علينا من السلام . قال : فانصرف معه رسول الله ﷺ وأمر له سعد بغسل فاغتسل ، ثم ناوله خميصة مصبوغة بزعفران أو ورس فاشتمل بها ، ثم رفع رسول الله ﷺ يديه وهو يقول : « اللَّهُمَّ اجْعَل صَلَاتَكَ وَرَحْمَتَكَ عَلَى آلِ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ » قال : ثم أصاب رسول الله ﷺ من الطعام ، فلما أراد الانصراف قرب إليه سعد حمارًا قد وطئ عليه بقطيفة فركب رسول الله ﷺ فقال سعد : يا قيس اصحب رسول الله ﷺ ، قال قيس : فقال رسول الله ﷺ : « ارْكَبْ » . فأبيت . فقال : « إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ وَإِمَّا أَنْ تَنْصَرِفَ » قال : فانصرفت (١) .

ثم ليعلم أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل أن لا يقف تلقاء الباب بوجهه ، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره . فعن عبد الله بن بشر قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ويقول : « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ » وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذٍ ستور (٢) . وعن هذيل قال : جاء رجل - قال عثمان : سعد - فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن فقام على الباب - قال عثمان مستقبل الباب - فقال له النبي ﷺ : « هَكَذَا عَنْكَ - أو هكذا - فَإِنَّمَا الاسْتِئْذَانُ مِنَ النَّظَرِ » (٣) . وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لَوْ أَنَّ امْرَأً اطَّلَعَ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ ، فَحَذَفْتَهُ بِحَصَاةٍ فَفَقَأْتَ عَيْنَهُ مَا كَانَ عَلَيْكَ مِنْ جُنَاحٍ » (٤) . وعن جابر قال : أتيت النبي ﷺ في دين كان على أبي فدققت الباب فقال : « من هذا » فقلت أنا . قال : « أنا أنا » كأنه كرهه (٥) . وإنما كره ذلك ؛ لأن هذه اللفظة لا يعرف صاحبها حتى يفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها ، وإلا فكل أحد يعبر عن نفسه بأنا فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان الذي هو الاستئناس المأمور به في الآية . وقال ابن عباس : الاستئناس الاستئذان ، وعن كلدة بن الحنبل أن صفوان بن أمية بعثه في الفتح بلبًا وجداية وضغابيس ، والنبي ﷺ بأعلى الوادي قال : فدخلت على النبي ﷺ ولم أسلم ولم أستأذن . فقال ﷺ : « ارْجِعْ فَقُلِ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ » . وذلك بعدما أسلم صفوان (٦) . وعن أم إياس قالت : كنت في أربع نسوة نستأذن على عائشة : فقلن : ندخل ؟ فقالت : لا ، قلن لصاحبتكن تستأذن فقالت : السلام عليكم أندخل ؟ قالت : ادخلوا . ثم قالت : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ﴾ الآية . وعن عدي بن ثابت أن امرأة من الأنصار قالت : يا رسول الله إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني أحد عليها لا والد ولا ولد ، وإنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي وأنا على تلك الحال . قال : فنزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا ﴾ الآية .

وقال ابن جرير : عن يحيى بن الجزار ، عن ابن أخي زينب امرأة عبد الله بن مسعود ، عن زينب رضي الله عنها قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥٢/٢ ، ١٣٨/٣ ، ٤٢١) وأبو داود في السنن (٥١٨٥) والطبراني في الكبير (٣٥٠/١٢) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٥١٨٦) .
(٣) أخرجه أبو داود (٣٤٤/٤) وذكره ابن حجر في الفتح (٢٤٤/١٢) والسيوطي في الدر المنثور (٢٩/٥ ، ٣٩) .
(٤) أخرجه البخاري في (الديات) (٦٩٠٢) .
(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦٣/٣) وأبو داود في سننه (٣٤٨/٤) .
(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤١٤/٣) وأبو داود في السنن (٥٧/٦) والترمذي في السنن (٢٧١٠) .

على أمر يكرهه . ﴿ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا ﴾ قال مجاهد : تنحنحوا أو تنخموا .

وقال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ : إذا دخل الرجل بيته استحب له أن يتنحنح أو يحرك نعليه . ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقًا - وفي رواية - ليلًا يتخونهم (١) . وفي الحديث الآخر : أن رسول الله ﷺ قدم المدينة نهارًا ، فأناخ بظاهرها وقال : « انْتَظِرُوا حَتَّى نَدْخُلَ عِشاءً - يعني آخر النهار - حتَّى تَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ ، وَتَسْتَحِدَّ المغيبَةُ » (٢) . وقال قتادة في قوله : ﴿ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا ﴾ هو : الاستئذان ثلاثًا ، فمن لم يؤذن له منهم فليرجع ، أما الأولى : فليسمع الحي . وأما الثانية : فليأخذوا حذرهم . وأما الثالثة : فإن شاءوا أذنوا وإن شاءوا ردوا . ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم ، فإن للناس حاجات ، ولهم أشغال والله أولى بالعذر . وقال مقاتل بن حيان : في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ . كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه لا يسلم عليه ويقول : حييت صباحًا وحييت مساء ، وكان ذلك تحية القوم بينهم ، وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه ، فلا يستأذن حتى يقتحم ويقول : قد دخلت ونحو ذلك ، فيشق ذلك على الرجل ، ولعله يكون مع أهله فغير الله ذلك كله في ستر وعفة ، وجعله نقيًا نزهًا من الدنس والقذر والدرن . فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ الآية . وهذا الذي قاله مقاتل حسن ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ يعني : الاستئذان خير لكم بمعنى : هو خير من الطرفين للمستأذن ولأهل البيت . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ ، وذلك لما فيه من التصرف في ملك الغير بغير إذنه ، فإن شاء أذن ، وإن شاء لم يأذن . ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَٱرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ أي : إذا ردوكم من الباب قبل الإذن أو بعده ﴿ فَٱرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ أي : رجوعكم أزكى لكم وأطهر . ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ وقال قتادة : قال بعض المهاجرين : لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها . أن أستأذن على بعض إخواني ، فيقول لي : ارجع فأرجع وأنا مغتبط ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَٱرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ . وقال سعيد بن جبير في الآية : أي : لا تقفوا على أبواب الناس ، وقوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ﴾ الآية . هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها ، وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد إذا كان له متاع فيها لغير إذن كالبيت المعد للضيف إذا أذن له فيه أول مرة كفى . قال ابن عباس : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ ثم نسخ واستثنى فقال تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ﴾ وقال آخرون : هي بيوت التجار كالخانات ومنازل الأسفار ، وبيوت مكة وغير ذلك ، والأول أظهر والله أعلم .

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في (النكاح) (١٢٠) .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (١٠) ومسلم في الرضاع (٥٨) والإمارة (١٨١) والإمام أحمد في مسنده (٣/٢٩٨ ، ٣٠٣) .

هذا أمر من اللَّه تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عمَّا حرَّم عليهم ، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه ، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم ، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد ، فليصرف بصره عنه سريعًا . كما روي عن جرير بن عبد اللَّه البجلي ﷺ قال : سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصرف بصري (١) . وفي رواية : « أَطْرِقْ بَصَرَكَ » يعني انظر إلى الأرض ، والصرف أعم فإنه قد يكون إلى الأرض ، وإلى جهة أخرى ، واللَّه أعلم .

وفي الصحيح عن رسول اللَّه ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ » قالوا : يا رسول اللَّه لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها فقال رسول اللَّه ﷺ : « إِنْ أَبَيْتُمْ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ » . قالوا : وما حق الطريق يا رسول اللَّه ؟ قال : « غَضُّ البَصَرِ ، وَكَفُّ الأَذَى ، وَرَدُّ السَّلَامِ ، وَالأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ » (٢) . وعنه ﷺ : « اكْفُلُوا لِي بِستٍّ أَكْفلْ لكُم بِالجَنَّةِ ، إِذَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَكْذِبْ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ فَلَا يَخُنْ ، وَإِذَا وَعَدَ فَلَا يُخْلِفْ ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ ، وَكُفُّوا أَيدِيَكُمْ ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ » (٣) وفي الحديث : « مَنْ يَكْفُلْ لي مَا بَيْنَ لَحيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَكْفُلْ لَهُ الجَنَّةَ ؟» (٤) .

وعن عبيدة قال : كل ما عصي اللَّه به فهو كبيرة . وقد ذكر الطرفين . فقال : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب - كما قال بعض السلف : النظر سهم سم إلى القلب ؛ ولذلك أمر اللَّه بحفظ الفروج ، كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك فقال تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ﴾ وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنى . كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴾ الآية . وتارة يكون بحفظه من النظر إليه . كما جاء في الحديث : « احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ» (٥) . ﴿ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ أي : أطهر لقلوبهم ، وأنقى لدينهم كما قيل : من حفظ بصره أورثه اللَّه نورًا في بصيرته . ويروى في قلبه . عن أبي أمامة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « مَا مِنْ مُسْلِم يَنْظُرُ إِلى مَحَاسِنِ امْرَأةٍ ، ثُمَّ يَغُضُّ بَصَرَهُ إِلَّا أَخْلَفَ اللَّه لَهُ عِبَادَةً يَجِدُ حَلَاوَتَهَا » (٦) .

وفي الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظُّهُ مِنَ الزِّنَى أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ ، فَزِنَى العَيْنَيْنِ النَّظَرُ ، وَزِنَى اللِّسَانِ النُّطقُ ، وَزِنَي الأُذُنَيْنِ الاسْتِمَاعُ ، وَزِنَى اليَدَينِ البَطْشُ ، وَزِنَي الرِّجْلَيْنِ الخُطَى ، والنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي ، والفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ» (٧) . وقد قال كثير من السلف : إنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل نظره إلى الأمرد ، وقد شدد كثير من أئمة الصوفية في ذلك ، وحرمه طائفة من أهل العلم لما فيه من الافتتان ، وشدد آخرون في ذلك كثيرًا جدًا .

---

(١) أخرجه مسلم في (الآداب) (٩١) .

(٢) أخرجه البخاري في (المظالم) (٢٤٦٥) ومسلم في (السلام) (٣) .

(٣) ذكره الهيثمي في محمع الزوائد (٢٩٣/١) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣/٤) .

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٤) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/٥) وأبو داود في السنن (٤٠١٧) والترمذي في السنن (٢٧٩٤) .

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٧٦/٢) .

(٧) أخرجه البخاري في (الاستئذان والقدر) (٦٢٤٣ ، ٦٦١٢) والإمام أحمد في مسنده (٣١٧/٢) .

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

هذا أمر من اللَّه تعالى للنساء المؤمنات وغيرة منه لأزواجهن عباده المؤمنين ، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية ، وفعال المشركات . وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان قال : بلغنا - واللَّه أعلم - ، أن جابر بن عبد اللَّه الأنصاري حدث أن أسماء بنت مرثد كانت في محل لها في بني حارثة ، فجعل النساء يدخلن عليها غير متزرات ، فيبدوا ما في أرجلهن من الخلاخل ، وتبدو صدورهن وذوائبهن فقالت أسماء : ما أقبح هذا . فأنزل اللَّه تعالى : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ ﴾ الآية . أي : عما حرم اللَّه عليهن من النظر إلى غير أزواجهن ، ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب بشهوة أصلًا ولا بغير شهوة أصلًا . واحتج كثير منهم بحديث أم سلمة أنها كانت عند رسول اللَّه ﷺ وميمونة قالت : فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم ، فدخل عليه - وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب - فقال رسول اللَّه ﷺ : « احتَجِبَا مِنْهُ » فقلت : يا رسول اللَّه أليس هو أعمى لا يبصرنا ، ولا يعرفنا ؟ فقال رسول اللَّه ﷺ : « أَوَ عَمْيَاوَانِ أَنْتُمَا ؟ أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ ؟ » [١] . وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة .

كما ثبت في الصحيح أن رسول اللَّه ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد ، وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه وهو يسترها منهم ، حتى ملت ورجعت [٢] .

وقوله : ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ قال سعيد بن جبير : عن الفواحش . وقال قتادة : عما لا يحل لهن . وقال مقاتل : عن الزنى . وقال أبو العالية : كل آية نزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج فهو من الزنى إلا هذه الآية : ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ أن لا يراها أحد ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ أي لا يظهرن شيئًا من الزينة للأجانب ، إلا ما لا يمكن إخفاؤه . قال ابن مسعود : كالرداء والثياب . يعني : على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المقنعة التي تجلل ثيابها ، وما يبدو من أسافل الثياب ، فلا حرج عليها فيه ؛ لأن هذا لا يمكنها إخفاؤه ، ونظيره في زي النساء ما يظهر من إزارها ، وما لا يمكن إخفاؤه . وقال ابن عباس : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ قال : وجهها وكفيها والخاتم . وهذا يحتمل أن يكون تفسيرًا للزينة التي نهين عن إبدائها ، كما قال أبو الأحوص ، عن عبد اللَّه قال في قوله : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ : الزينة القرط والدملوج ، والخلخال والقلادة ، وفي رواية عنه قال : الزينة زينتان ؛ فزينة لا يراها إلا الزوج : الخاتم والسوار وزينة يراها الأجانب ، وهي الظاهر من الثياب . وقال الزهري : لا يبدو لهؤلاء الذين سمى اللَّه ممن

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤١١٢) والترمذي في السنن (٢٧٧٨) والإمام أحمد في مسنده (٦/٢٩٦) .

(٢) أخرجه البخاري في (الصلاة) (٤٥٤) ومسلم في العيدين (١٧) والإمام أحمد في مسنده (٦/٥٦ ، ٨٣) .

لا تحل له إلا الأسورة والأخمرة والأقرطة من غير حسر . وأما عامة الناس فلا يبدو منها إلا الخواتم ، وقال مالك عن الزهري : ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ : الخاتم والخلخال . ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين ، وهذا هو المشهور عند الجمهور .

وقوله تعالى : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ يعني : المقانع يعمل لها صفات ضاربات على صدورهن لتواري ما تحتها من صدرها وترائبها ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية ، فإنهن لم يكن يفعلن ذلك . بل كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء ، وربما أظهرت عنقها ، وذوائب شعرها وأقرطة آذانها ، فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن . والخمر جمع خمار ، وهو ما يخمر به . أي يغطى به الرأس ، وهي التي تسميها الناس المقانع . قال سعيد بن جبير : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ ﴾ وليشددن ﴿ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ يعني : على النحر والصدر فلا يرى منه شيء . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها(١) ، وعنها أيضًا : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ أخذن أزرهن فشققنها من قبل الحواشي فاختمرن بها . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ أي : أزواجهن ﴿ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ ﴾ . كل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها ، ولكن من غير تبرج . وقد روي عن الشعبي وعكرمة في هذه الآية : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ ﴾ حتى فرغ منها وقال : لم يذكر العم ولا الخال ؛ لأنهما ينعتان لأبنائهما . ولا تضع خمارها عند العم والخال ، فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله ، فتتصنع له بما لا يكون بحضرة غيره .

وقوله : ﴿ أَوْ نِسَآئِهِنَّ ﴾ يعني تظهر بزينتها أيضًا للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة لئلا تصفهن لرجالهن ، وذلك وإن كان محذورًا في جميع النساء إلا في نساء أهل الذمة أشد فإنهن لا يمنعهن من ذلك مانع . فأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتنزجر عنه . وقد قال رسول الله ﷺ : « لا تُبَاشِرِ المَرْأَةُ المرأةَ تَنْعَتُهَا لِزَوْجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا »(٢) . وعن الحارث بن قيس أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة : أما بعد : فإنه بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك ، فإنه من قبلك فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ﴾ قال ابن جرير : يعني من نساء المشركين ، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها ، وإن كانت مشركة لأنها أمتها . وقال الأكثرون : بل يجوز أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء . واستدلوا بالحديث أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها قال - وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها ، وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال : « إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكِ بَأْسٌ إِنَّمَا هُوَ أَبُوكِ وَغُلَامُكِ »(٣) . وقوله تعالى : ﴿ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ ﴾ يعني : كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء ، وهم مع

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٥٨) .
(٢) أخرجه البخاري في (النكاح) (٥٢٤٠ ، ٥٢٤١) والترمذي في السنن (٢٧٩٢) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٤١٠٦) وذكر الهندي في كنز العمال (٢٥٢٣١) .

ذلك في عقولهم وله وخوث ، ولا همة لهم إلى النساء ولا يشتهونهن . قال ابن عباس : هو المغفل الذي لا شهوة له . وقال مجاهد : هو الأبله ، وقال عكرمة : هو المخنث الذي لا يقوم ذكره .

وفي الصحيح : أن مخنثًا كان يدخل على أهل رسول الله ﷺ وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة . فدخل النبي ﷺ وهو ينعت امرأة يقول : إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان فقال رسول الله ﷺ : « أَلَا أَرَى هَذَا يَعْلَمُ مَا هَا هُنَا ؟ لَا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُمْ » . فأخرجه فكان بالبيداء يدخل يوم كل جمعة ليستطعم [١] . وعن أم سلمة أنها قالت : دخل عليها رسول الله ﷺ وعندها مخنث وعندها عبد الله بن أبي أمية يعني أخاها والمخنث يقول : يا عبد الله إن فتح الله عليكم الطائف غدًا فعليك بابنة غيلان ، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان . قال فسمعه رسول الله ﷺ فقال لأم سلمة : « لَا يَدْخُلَنَّ هذَا عَلَيْكِ » [٢] . وقوله تعالى : ﴿ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ يعني : لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم ، وتعطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن ، فإذا كان الطفل صغيرًا لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء ، فأما إن كان مراهقًا أو قريبًا منه بحيث يعرف ذلك ، ويدريه ويفرق بين الشوهاء والحسناء ، فلا يمكّن من الدخول على النساء .

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِيَّاكُمْ والدُّخول عَلَى النِّسَاءِ » قيل : يا رسول الله أفرأيت الحمو ؟ قال : « الحمو الموت » [٣] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ ﴾ الآية كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت لا يعلم صوتها ، ضربت برجلها الأرض فيسمع الرجال طنينه .فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك . وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستورًا ، فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي دخل في هذا النهي لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ ﴾ إلى آخره ، ومن ذلك أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ، فيشم الرجال طيبها . عن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : « كُلُّ عَيْنٍ زَانِيَة ، وَالمَرْأَةُ إِذَا اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ بِالمجْلِسِ فَهِيَ كَذَا وَكَذَا » يعني زانية [٤] . وعن أبي هريرة ﷺ قال : لقيته امرأة شم منها ريح الطيب ولذيلها إعصار . فقال : يا أمية الجبار جئت من المسجد ؟ قالت : نعم . قال لها : تطيبت ؟ قالت : نعم . قال : إني سمعت حبي أبا القاسم ﷺ يقول : « لَا يَقْبَلُ اللَّه صَلاةَ امْرَأَةٍ تطيّبتْ لهذَا المَسْجِدِ حَتَّي تَرْجِعَ فَتَغتسِلَ غسلَهَا مِنَ الجَنَابَةِ » [٥] . وعن ميمونة بنت سعد أن رسول الله ﷺ قال : « الرَّافِلَةُ فِي الزِّينَةِ فِي غَيْرِ أَهْلِهَا كَمِثْلِ ظُلْمَةِ يَوْمِ القِيَامَةِ لَا نُورَ لَهَا » [٦] ، ومن ذلك أيضًا أنهن ينهين عن المشي في وسط الطريق لما فيه من التبرج . وقوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي : افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة ، والأخلاق الجليلة ، واتركوا ما

---

(١) أخرجه مسلم في (السلام) (٣٣) والبيهقي في السنن (٩٦/٧) .
(٢) أخرجه مسلم في (السلام) (٣٢) والإمام أحمد في مسنده (٢٩٠/٦) .
(٣) أخرجه مسلم في (السلام) (٢٠) والترمذي في السنن (١١٧١) والإمام أحمد في مسنده (١٤٩/٤) .
(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٧٨٦) والإمام أحمد في المسند (٣٩٤/٤ ، ٤٠٧ ، ٤١٨) .
(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٤٦/٢) وأبو داود في السنن (٤١٧٤) .
(٦) أخرجه الترمذي في السنن (١٣٤) .

كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة ، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله ، وترك ما نهيا عنه .

﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

اشتملت هذه الآيات الكريمات المبينة على جمل من الأحكام المحكمة ، والأوامر المبرمة ، فقوله تعالى : ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ ﴾ إلى آخره هذا أمر بالتزويج . وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه على كل من قدر عليه ، واحتجوا بظاهر قوله عليه الصلاة والسلام : « يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلبَصَرِ ، وَأَحْصَنُ لِلفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ » (١) . وعنه ﷺ قال : « تَزَوَّجُوا الوَلُودَ تَنَاسَلُوا ، فَإِنِّي مُبَاهٍ بِكُمُ الأُمَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ » (٢) . والأيامى جمع : أيم . ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها ، وللرجل الذي لا زوجة له ، وسواء كان قد تزوج ثم فارق ، أو لم يتزوج واحد منهما . وقوله تعالى : ﴿ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ الآية . قال ابن عباس : رغبهم الله في التزويج . وأمر به الأحرار والعبيد ، ووعدهم عليه الغنى . فقال : ﴿ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى . قال تعالى : ﴿ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ .

وعن ابن مسعود قال : التمسوا الغنى في النكاح . وعنه ﷺ قال : « ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ ، النَّاكِحُ يُرِيدُ العَفَافَ ، وَالمُكَاتَبُ يُرِيدُ الأَدَاءَ ، والغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ » (٣) . وقد زوج النبي ﷺ ذلك الرجل الذي لم يجد عليه إلا إزاره ، ولم يقدر على خاتم من حديد ، ومع هذا فزوجه بتلك المرأة ، وجعل صداقها عليه أن يعلمها ما معه من القرآن . والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه ما فيه كفاية لها وله ، وأما ما يورده كثير من الناس على أنه حديث « تزوجوا فقراء يغنكم الله » فلا أصل له . وقوله تعالى : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجًا بالتعفف عن الحرام كما قال ﷺ : « يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلبَصَرِ ، وَأَحْصَنُ لِلفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ » (٤) . الحديث . قال عكرمة : في قوله : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾ . قال : هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتهي ، فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقض حاجته منها ، وإن لم يكن له امرأة فلينظر في ملكوت السماوات والأرض حتى يغنيه الله . وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ

(١) أخرجه مسلم في (النكاح) (١ ، ٢) والإمام أحمد في مسنده (٣٨٧/١ ، ٤٢٤ ، ٤٣٢) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٢٠٥٠) وابن ماجه في السنن (١٨٤٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٢/٤ ، ٢٥٨) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٥١/٢) والترمذي في السنن (١٦٥٥) والحاكم في المستدرك ٢١٧/٢ .
(٤) من البخاري في النكاح (٥٠٦٥) .

أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب عبيدهم منهم الكتابة أن يكاتبوهم بشرط أن يكون للعبد حيلة ، وكسب يؤدي إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه . وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمر إرشاد واستحباب لا أمر تحتم ، وإيجاب بل السيد مخير . إذا طلب منه عبده الكتابة إن شاء كاتبه ، وإن شاء لم يكاتبه . وذهب آخرون : إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبده ذلك أن يجيبه إلى ما طلب أخذًا بظاهر هذا الأمر . وقال البخاري ، وقال روح عن ابن جريج : قلت لعطاء : أواجب علي إذا علمت له مالًا أن أكاتبه ؟ قال : ما أراه إلا واجبًا . وقال عمرو بن دينار . قلت لعطاء : أتأثره عن أحد ؟ قال : لا . ثم أخبرني أن موسى بن أنس أخبره أن سيرين سأل أنسًا المكاتبة ، وكان كثير المال فأبى فانطلق إلى عمر ﷺ فقال : كاتبه فأبى فضربه بالدرة ، ويتلو عمر ﷺ ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ فكاتبه (١). وقوله تعالى : ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ . قال بعضهم : أمانة ، وقال بعضهم : صدقًا ، وقال بعضهم : مالًا ، وقال بعضهم : حيلة وكسبًا . وروي عنه ﷺ قال : « إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ حِرْفَةً وَلَا تُرْسِلُوهُمْ كَلًّا عَلَى النَّاسِ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ . اختلف المفسرون فيه فقال بعضهم : معناه اطرحوا لهم من الكتابة بعضها . ثم قال بعضهم : مقدار الربع ، وقيل : الثلث ، وقيل النصف ، وقيل : جزء من الكتابة من غير حد . وقال آخرون : هو النصيب الذي فرض الله لهم من أموال الزكاة . وقال إبراهيم النخعي في قوله : ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ قال : حث الناس عليه مولاه وغيره ، وقال ابن عباس : أمر الله المؤمنين أن يعينوا في الرقاب . وقد تقدم في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : «ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللهِ عَوْنُهُمْ » (٣) . فذكر منهم المكاتب يريد الأداء . والقول الأول أشهر .

وقال سعيد بن جبير : كان ابن عمر إذا كاتب مكاتبًا لم يضع عنه شيئًا من أول نجومه مخافة أن يعجز فترجع إليه صدقته ، ولكنه إذا كان في آخر مكاتبته وضع عنه ما أحب . وقال ابن عباس في الآية : ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ . قال : ضعوا عنهم من مكاتبتهم . وقال محمد بن سيرين في الآية : كان يعجبهم أن يدع الرجل لمكاتبه طائفة من مكاتبته .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ ﴾ الآية كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني ، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت : فلما جاء الإسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك . وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة فيما ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف في شأن عبد الله بن أبي ابن سلول ، فإنه كان له إماء فكان يكرههن على البغاء طلبًا لخراجهن ، ورغبة في أولادهن ورياسة منه فيما يزعم .

ذكر الآثار الواردة في ذلك

روي عن الزهري قال : كانت جارية لعبد الله بن أبي ابن سلول يقال لها : معاذة يكرهها على الزنى فلما جاء الإسلام نزلت : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ ﴾ الآية (٤) . وقال السدي : أنزلت هذه

---

(١) أخرجه البخاري في (المكاتب) باب (١) . (٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٤٥/٥) .
(٣) أخرجه : أحمد في مسنده (٢٥/٢) والترمذي في السنن (١٦٦٥) والحاكم في المستدرك (٢١٧/٢) .
(٤) أخرجه مسلم في التفسير (٢٦ ، ٢٧) والحاكم في المستدرك ٣٩٧/٢ .

الآية الكريمة في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين ، وكانت له جارية تدعى معاذة ، وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليواقعها إرادة الثواب منه والكرامة له . فأقبلت الجارية إلى أبي بكر ﷺ ، فشكت إليه ذلك فذكره أبو بكر للنبي ﷺ فأمره بقبضها . فصاح عبد الله بن أبي : من يعذرنا من محمد ؟ يغلبنا على مملوكتنا فأنزل الله فيهم هذا . وقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له .

وقوله تعالى : ﴿ لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي : من خراجهن ومهورهن وأولادهن . وقد نهى رسول الله ﷺ عن كسب الحجام ، ومهر البغي ، وحلوان الكاهن [(١)] . وفي رواية : « مَهْرُ البَغِي خَبِيثٌ ، وَكسبُ الحِجَام خَبِيثٌ ، وَثَمنُ الكَلْبِ خَبِيثٌ » [(٢)] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . أي : لهن . وقال ابن عباس : فإن فعلتم فإن الله لهن غفور رحيم ، وإثمهن على من أكرههن . وقال الحسن في هذه الآية ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قال لهن : والله لهن والله . وفي الحديث المرفوع عن رسول الله ﷺ أنه قال : « رُفِعَ عَنْ أُمَّتي الخَطَأُ والنسيَانُ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ » [(٣)] .

ولما فصل تبارك وتعالى هذه الأحكام وبينها قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾ يعني : القرآن فيه آيات واضحات مفسرات . ﴿ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أي : خبرًا عن الأمم الماضية وما حل بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ أي : زاجرًا عن ارتكاب المآثم والمحارم . ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي لمن اتقى الله وخافه . قال علي بن أبي طالب ﷺ في صفة القرآن : فيه حكم ما بينكم ، وخبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله .

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يقول : هادي أهل السموات والأرض . قال مجاهد : يدبر الأمر فيهما نجومهما وشمسهما وقمرهما . وقال أنس بن مالك : إن الله يقول : نوري هدى . وعن أبي بن كعب في قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ . قال : هو المؤمن الذي جعل الله الإيمان والقرآن في صدره ، فضرب الله مثله فقال : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فبدأ بنور نفسه ، ثم ذكر نور المؤمن فقال : مثل نور من آمن به ، فكان أبي بن كعب يقرؤها ﴿ مثل نور من آمن به ﴾ فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره . وقال السدي في قوله : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فبنوره أضاءت السموات والأرض . وفي الصحيحين : كان رسول الله ﷺ إذا قام من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٩٩/٢) ، (٣٤١/٤) وابن ماجه في السنن (٢١٦٥) .
(٢) أخرجه مسلم في المساقاة (٤١ ، ٤٢) أحمد في مسنده (٤٦٤/٣) وأبو داود في السنن (٣٩) والترمذي في السنن (١٢٧٥) .
(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (٦٥٩/١) .

الليل يقول : «اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ ، أَنْتَ نُورُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيُّومُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ » (١) الحديث . وعن ابن مسعود قال : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه . وقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ في هذا الضمير قولان : أحدهما : أنه عائد إلى الله ﷻ أي : مثل هداه في القلب المؤمن ، قاله ابن عباس ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ والثاني : أن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دل عليه سياق الكلام تقديره : مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة ، فشبه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى ، وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ فشبه قلب المؤمن في صفائه في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري ، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل ، الذي لا كدر فيه ولا انحراف . فقوله : ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : هو موضع الفتيلة من القنديل ، هذا هو المشهور . ولهذا قال بعده : ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ وهو الزبالة التي تضيء . وقال العوفي عن ابن عباس : قوله : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ وذلك : أن اليهود قالوا لمحمد ﷺ : كيف يخلص نور الله من دون السماء ؟ فضرب الله مثل ذلك لنوره فقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ والمشكاة كوة في البيت ، قال : وهو مثل ضربه الله لطاعته ، فسمى الله طاعته نورًا ، ثم سماها أنواعًا شتى . وقال مجاهد : هي الكوة بلغة الحبشة . وزاد بعضهم فقال : المشكاة الكوة التي لا منفذ لها . وعن مجاهد : المشكاة الحدائد التي يعلق بها القنديل . والقول الأول أولى ، وهو : أن المشكاة هو موضع الفتيلة من القنديل . ولهذا قال : ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ وهو النور الذي في الزبالة . قال أبي بن كعب : المصباح النور وهو القرآن والإيمان الذي في صدره . وقال السدي : هو السراج . ﴿ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ﴾ أي : هذا الضوء مشرق في زجاجة صافية . وقال أبي بن كعب وغير واحد : وهي نظير قلب المؤمن . ﴿ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ قرأ بعضهم بضم الدال من غير همزة من الدر أي : كأنها كوكب من در . وقرأ آخرون دريء ودُريء بكسر الدال وضمها مع الهمزة من الدرء وهو الدفع (٢) . وذلك أن النجم إذا رمي به يكون أشد استنارة من سائر الأحوال ، والعرب تسمي ما لا يعرف من الكواكب دراري . قال أبي ابن كعب : كوكب مضيء . وقال قتادة : مضيء مبين ضخم . ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ أي : يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة . ﴿ زَيْتُونَةٍ ﴾ بدل أو عطف بيان . ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أي : ليست في شرقي بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار ولا في غربها ، فيقلص عنها الفيء قبل الغروب ، بل هي في مكان وسط تعصرها الشمس من أول النهار إلى آخره ، فيجيء زيتها صافيًا معتدلًا مشرقًا . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : هي شجرة بالصحراء لا يظلها شجر ، ولا جبل ولا كهف ، ولا يواريها شيء وهو أجود لزيتها . وقال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ : هي بصحراء ، وذلك أصفى لزيتها . وقال ابن أبي حاتم : عن عكرمة - وسأله رجل عن قوله تعالى : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ - قال :

(١) أخرجه البخاري في (التوحيد) (٧٤٩٩) ومسلم في (صلاة المسافرين) (١٩٩) والإمام أحمد في مسنده (٣٥٨/١) .
(٢) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص (دُرِّيٌّ) وقرأ حمزة وأبو بكر (دُرِّيءٌ) وقرأ أبو عمرو والكسائي (دِرِّيءٌ) .

تلك زيتونة بأرض فلاة إذا أشرقت الشمس أشرقت عليها ، فإذا غربت غربت عليها ، فذلك أصفى ما يكون من الزيت .

وقيل : المراد بقوله تعالى : ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أنها في وسط الشجر ليست بادية للمشرق ولا للمغرب . وقال أبي بن كعب : هي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أي حال كانت لا إذا طلعت ، ولا إذا غربت قال : فكذلك هذا المؤمن قد أجير من أن يصيبه شيء من الفتن ، وقد يبتلى بها فيثبته الله فيها فهو بين أربع خلال : إن قال صدق ، وإن حكم عدل ، وإن ابتلي صبر ، وإن أعطي شكر ، فهو في سائر الناس كالرجل الحي يمشي في قبور الأموات . قال سعيد بن جبير في قوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ : هي وسط الشجر لا تصيبها الشمس شرقًا ولا غربًا ، وقال عطية العوفي : هي شجرة في موضع من الشجر يرى ظل ثمرها في ورقها ، وهذه من الشجر لا تطلع عليها الشمس ولا تغرب . وقال ابن أبي حاتم : عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ : ليست شرقية ليس فيها غرب ، ولا غربية ليس فيها شرق ، ولكنها شرقية غربية ، وأولى هذه الأقوال القول الأول : وهو أنها في مستوى من الأرض في مكان فسيح باد ظاهر ضاح للشمس تقرعه من أول النهار إلى آخره ليكون ذلك أصفى لزيتها وألطف ، قال تعالى : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد : يعني : لضوء إشراق الزيت .

وقوله تعالى : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ قال ابن عباس : يعني بذلك إيمان العبد وعمله . وقال مجاهد والسدي : يعني نور النار ، ونور الزيت ، وقال أبي بن كعب : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ فهو يتقلب في خمسة من النور ؛ فكلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نور ومخرجه نور ، ومصيره إلى نور يوم القيامة إلى الجنة . وقال السدي : نور النار ، ونور الزيت حين اجتمعا أضاءا ولا يضيء واحد بغير صاحبه . كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا ، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه . وقوله تعالى : ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ أي : يرشد الله إلى هدايته من يختاره ، كما جاء في الحديث : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ يَوْمَئِذٍ فمن أصاب من نوره يومئذٍ اهْتَدَى ، وَمَنْ أَخطأَ ضَلَّ ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ جَفَّ القَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللهِ عز وجل »(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لما ذكر تعالى هذا مثلًا لنور هداه في قلب المؤمن ختم الآية بقوله : ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي : هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال . عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « القُلُوبُ أَرْبَعَةٌ : قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يُزْهِرُ ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ ، وَقَلْبٌ مُصَفَّحٌ . فَأَمَّا القَلْبُ الأَجْرَدُ فَقَلْبُ المُؤْمِنِ سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ ، وَأَمَّا القَلْبُ الأَغْلَفُ فَقَلْبُ الكَافِرِ ، وَأَمَّا القَلْبُ المَنْكُوسُ فَقَلْبُ المُنَافِقِ ، عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ ، وَأَمَّا القَلْبُ المصفح فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ ، وَمَثَلُ الإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ البَقْلَةِ يُمِدُّهَا المَاءُ الطَّيِّبُ ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ القَرْحَةِ يمدُّهَا الدَّمُ والقَيْحُ ، فَأَيُّ المدَّتَيْنِ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/١٧٦ ، ١٩٧) والهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١٩٣) وذكره الهندي في الكنز (٥٨٢ ، ١٣١٤) .

غَلَبَتْ عَلَى الأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ »[(١)] .

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

لما ضرب اللَّه تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقد من زيت طيب ، وذلك كالقنديل مثلًا ، ذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى اللَّه تعالى من الأرض ، وهي بيوته التي يعبد فيها ويوحَّد . فقال تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ أي : أمر اللَّه تعالى بتعاهدها وتطهيرها من الدنس واللغو ، والأقوال والأفعال التي لا تليق فيها . كما قال ابن عباس في : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ نهى اللَّه سبحانه عن اللغو فيها . وقال قتادة : هي هذه المساجد أمر اللَّه ﷺ ببنائها وعمارتها ، ورفعها وتطهيرها . وفي الحديث : « مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّه بنى اللَّه لَهُ مِثْلَهُ فِي الجَنَّةِ »[(٢)] . والأحاديث في هذا كثيرة جدًّا . وروى أبو داود عن ابن عباس قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَا أُمِرْتُ بِتَشْيِيدِ المَسَاجِدِ » قال ابن عباس : أزخرفها كما زخرفت اليهود والنصارى . وعن بريدة أن رجلًا أنشد في المسجد فقال : من دعا إلى الجمل الأحمر؟ فقال النبي ﷺ : « لَا وَجَدْتَ إِنَّمَا بُنِيَتِ المَسَاجِدُ لما بُنِيَتْ لَهُ »[(٣)] .

ومن حديث ابن عمر مرفوعًا قال : خصال لا تنبغي في المسجد : لا يتخذ طريقًا ، ولا يشهر فيه سلاح ، ولا ينبض فيه بقوس ، ولا ينثر فيه نبل ، ولا يمر فيه بلحم نيء ، ولا يضرب فيه حد ، ولا يقتص فيه أحد ، ولا يتخذ سوقًا[(٤)] . وعن واثلة بن الأسقع عن رسول اللَّه ﷺ قال : « جَنِّبُوا المَسَاجِدَ صِبْيَانَكُمْ وَمَجَانِينَكُمْ ، وَشِرَاءَكُمْ وَبَيْعَكُمْ ، وَخُصُومَاتِكُمْ ، ورفع أصواتكم ، وَإِقَامَةَ حُدُودِكُمْ ، وَسَلَّ سُيُوفِكُمْ ، واتَّخِذُوا عَلَى أَبْوَابِهَا المَطَاهِرَ ، وَجَمِّرُوهَا فِي الجُمَعِ »[(٥)] . أما أنه لا يتخذ طريقًا فقد كره بعض العلماء المرور فيه إلا لحاجة إذا وجد مندوحة عنه . وفي الأثر : إن الملائكة لتعجب من الرجل يمر بالمسجد لا يصلي فيه ، وأما أنه لا يشهر فيه السلاح ، ولا ينبض فيه بقوس ، ولا ينثر فيه نبل ، فلما يخشى من إصابة بعض الناس به لكثرة المصلين فيه . ولهذا أمر رسول اللَّه ﷺ إذا مر رجل بسهام أن يقبض على نصالها لئلا يؤذي أحدًا . وأما النهي عن المرور باللحم النيء فيه ، فلما يخشى من تقاطر الدم منه . كما نهيت الحائض عن المرور فيه إذا خافت التلويث ، وأما أنه لا يضرب فيه حد ، ولا يقتص منه فلما يخشى من إيجاد النجاسة فيه من المضروب أو المقطوع ، وأما أنه لا يتخذ سوقًا ، فلما تقدم من النهي عن البيع والشراء فيه . فإنه إنما بني لذكر اللَّه والصلاة فيه كما قال النبي ﷺ لذلك الأعرابي الذي بال في طائفة المسجد : « إِنَّ المَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧/٣) والهيثمي في المجمع الزوائد (٦٣/١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٨٧/١) .
(٢) أخرجه البخاري في (الصلاة) (٤٥٠) ومسلم في (الزهد) (٤٣ ، ٤٤) والمنذري في الترغيب والترهيب (١٩٣/١) .
(٣) أخرجه مسلم في (المساجد) (٨٠ ، ٨١) وابن خزيمة في صحيحه (١٣٠١) .
(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٤٧/١) وفي إسناده ضعف .
(٥) أخرجه ابن ماجه في السنن (٧٥٠) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥/٢ ، ٢٦) وفي إسناده ضعف .

لِهَذَا ، إِنَّمَا بُنِيَتْ لِذِكْرِ اللَّه والصَّلَاة فِيهَا » (١). ثم أمر بسجل من ماء فأهريق على بوله ، وفي الحديث الثاني : « جَنِّبُوا مَسَاجِدَكُمْ صِبْيَانَكُمْ » (٢) وذلك لأنهم يلعبون فيه ولا يناسبهم . «وَمَجَانِينَكُمْ »يعني : لأجل ضعف عقولهم ، وسخر الناس بهم فيؤدي إلى اللعب فيها ، ولما يخشى من تقذيرهم المسجد ونحو ذلك . «وَبَيْعَكُمْ وَشِرَاءَكُمْ » كما تقدم «وخصوماتكم »يعني التحاكم والحكم فيه ولهذا نص كثير من العلماء على أن الحاكم لا ينتصب لفصل الأقضية في المسجد ؛ بل يكون في موضع غيره ؛ لما فيه من كثرة الحكومات والتشاجر ، والألفاظ التي لا تناسبه ، ولهذا قال بعده : « ورفع أصواتكم ».

وعن السائب بن يزيد الكندي قال : كنت قائمًا في المسجد فحصبني رجل فنظرت ، فإذا عمر بن الخطاب فقال : اذهب فائتني بهذين فجئته بهما فقال : من أنتما ؟ أو من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف . قال : لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما ؛ ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ (٣). وقوله : « وإِقَامَةَ حُدُودِكُمْ وَسَلَّ سُيُوفِكُمْ » تقدما . وقوله : « واتَّخِذُوا عَلَى أَبْوَابِهَا المَطَاهِرَ »يعني : المراحيض التي يستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة . وقد كانت قريبًا من مسجد رسول الله ﷺ آبار يستقون منها ، فيشربون ويتطهرون ، ويتوضؤون وغير ذلك . وقوله : «وَجَمِّرُوهَا فِي الجمعِ » يعني بخروها في أيام الجمع ؛ لكثرة اجتماع الناس يومئذ .

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال : «صَلَاةُ الرَّجُلِ في الجَمَاعَةِ تضعفُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَفِي سُوقِهِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ ضِعْفًا » . وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاةُ لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة . فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه . ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة » (٤) . وعند الدارقطني مرفوعًا : «لَا صَلَاةَ لِجَارِ المَسْجِدِ إِلَّا فِي المَسْجِدِ » (٥) وفي السنن «بَشِّرِ المَشَّائِينَ إِلَى المَسَاجِدِ فِي الظلمِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ القِيَامَةِ » (٦) . ويستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى وأن يقول كما ثبت عن عبد الله بن عمر ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد يقول : « أَعُوذُ بِاللَّه العَظِيمِ ، وَبِوَجْهِهِ الكَرِيمِ ، وَسُلْطَانِهِ القَدِيمِ ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » . قال : فإذا قال ذلك ، قال الشيطان : حفظ مني سائر اليوم (٧) . وروى عن أبي أسيد قال : قال رسول الله ﷺ : «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ افْتَحْ لي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ . وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ » (٨) وعنه ﷺ : «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٧٦/١) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٧٥٠) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥/٢ ، ٢٦) .

(٣) أخرجه البخاري في (الصلاة) (٤٧٠) .

(٤) أخرجه البخاري في (الأذان) (٦٤٧) .

(٥) أخرجه البيهقي في سننه (٧٥/٣) والدارقطني في سننه (٤٢٠/١) .

(٦) أخرجه الترمذي في سننه (٢٢٣) وأبو داود (٥٦١) وابن ماجه (٧٨١) .

(٧) أخرجه أبو داود في سننه (٤٦٦) وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤٥٩/٢) .

(٨) أخرجه مسلم في (صلاة المسافرين) (٦٨) والإمام أحمد في مسنده (٤٢٥/٥) .

وَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ اعْصِمْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » (١) . فهذا الذي ذكرناه مع ما تركناه من الأحاديث الواردة في ذلك كله محاذرة الطول داخل في قوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ وقوله : ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ أي : اسم الله وقوله تعالى : ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ قال ابن عباس يعني : يتلى كتابه ، وقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ أي : في البكرات والعشيات . والآصال جمع أصيل وهو آخر النهار . وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : كل تسبيح في القرآن هو الصلاة . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني بالغدو صلاة الغداة ويعني : بالآصال صلاة العصر ، وهما أول ما افترض الله من الصلاة ، فأحب أن يذكرهما ، وإن يذكر بهما عباده . ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ يعني : الصلاة ومن قرأ من القراء ﴿ يسبَّح لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ بفتح الباء (٢) من ﴿ يسبَّح ﴾ على أنه مبني لما لم يسم فاعله وقف على قوله : ﴿ وَالْآصَالِ ﴾ وقفًا تامًا وابتدأ بقوله : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ . وكأنه مفسر للفاعل المحذوف .

وأما على قراءة من قرأ : ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ بكسر الباء فجعله فعلًا ، وفاعله ﴿ رِجَالٌ ﴾ فلا يحسن الوقف إلا على الفاعل لأنه تمام الكلام فقوله تعالى : ﴿ رِجَالٌ ﴾ فيه إشعار بهممهم السامية ونياتهم ، وعزائمهم العالية التي بها صاروا عمارًا للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه ، ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتنزيهه . وأما النساء فصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن لما رواه ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال : « صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا ، وَصَلَاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا » (٣) .

وعنه ﷺ قال : « خير مساجد النساء قعر بيوتهن » (٤) هذا ويجوز لها شهود جماعة الرجال بشرط أن لا تؤذي أحدًا من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب . كما ثبت في الصحيح عن عبد الله ابن عمر أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ » (٥) . وفي رواية : « وَبُيُوتُهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ » (٦) . وفي رواية « وَلْيَخْرُجْنَ وَهُنَّ تَفِلَاتٌ » (٧) . وعن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت : قال لنا رسول الله ﷺ : « إِذَا شَهِدَتْ إِحْدَاكُنَّ الْمَسْجِدَ فَلَا تَمَسَّ طِيبًا » (٨) . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ ، ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ما يعرفن من الغلس (٩) ، وعنها أيضًا أنها قالت : لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن من

(١) أخرجه مسلم في (صلاة المسافرين) (٦٨) والإمام أحمد في مسنده (٤٢٥/٥) .
(٢) قرأ ابن عامر وأبو بكر (يُسبح) بفتح الباء والباقون بكسرها (انظر : تقريب النشر ص : ١٤٩) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٧/٦) .
(٤) أخرجه البخاري في (الجمعة) (٩٠٠) ومسلم في (الصلاة) (١٣٦) وأبو داود في سننه (٥٦٥ ، ٥٦٦) .
(٥) أخرجه أبو داود في سننه (٥٧٠) .
(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٧٦/٢) وأبو داود في سننه (٥٦٦) .
(٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٣٨/٢) وأبو داود في سننه (٥٦٥) .
(٨) أخرجه مسلم في (الصلاة) (١٤٢) وابن خزيمة في صحيحه (١٦٨٠) .
(٩) أخرجه البخاري في (مواقيت الصلاة) (٢٧) ومسلم في (المساجد) (٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢) .

المساجد كما منعت نساء بني إسرائيل (١) .

وقوله تعالى : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ . يقول تعالى : لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذ بيعها ، وربحها عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم ، والذين يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم ؛ لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ أي : يقدمون طاعته ومراده ومحبته . وعن ابن مسعود أنه رأى قومًا من أهل السوق حيث نودي للصلاة المكتوبة تركوا بياعاتهم ونهضوا إلى الصلاة . فقال عبد الله بن مسعود : هؤلاء من الذين ذكر في كتابه : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ الآية . وقال الضحاك : لا تلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة في وقتها . وقال مطر الوراق : كانوا يبيعون ويشترون ، ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده خفضه وأقبل إلى الصلاة . وقال ابن عباس : ﴿ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ : عن الصلاة المكتوبة . وقال السدي : عن الصلاة في جماعة . وقال مقاتل بن حيان : لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة ، وأن يقيموها كما أمرهم الله ، وأن يحافظوا على مواقيتها وما استحفظهم الله فيها ، وقوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أي : يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار أي : من شدة الفزع وعظمة الأهوال. كقوله : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ وقوله تعالى هاهنا : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ ﴾ أي : هؤلاء من الذين يتقبل حسناتهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم وقوله : ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ أي : يتقبل منهم الحسن ، ويضاعفه لهم كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ الآية ، وقال ها هنا : ﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ . وعن ابن مسعود أنه جيء بلبن فعرضه على جلسائه واحدًا واحدًا فكلهم لم يشربه لأنه كان صائمًا ، فتناوله ابن مسعود فشربه لأنه كان مفطرًا ثم تلا قوله : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ . عن ابن مسعود عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ قال : أجورهم يدخلهم الجنة ويزيدهم من فضله الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة لمن صنع لهم المعروف في الدنيا (٢) .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ .

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار ، فأما الأول من هذين المثلين : فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات ، وليسوا في نفس الأمر على شيء ، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى في القيعان من الأرض من بعد كأنه : بحر طام ،

(١) أخرجه البخاري في (الأذان) (٨٦٩) ومسلم في (الصلاة) (١٤٤) وأبو داود في سننه (٥٦٩) .
(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣/٦) وأبو نعيم في حلية الأولياء (١٠٨/٤) .

والقيعة جمع قاع كجار وجيرة ، والقاع أيضًا واحد القيعان ، كما يقال : جار وجيران ، وهي : الأرض المستوية المتسعة ، وفيه يكون السراب . وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار . وأما الآل : فإنما يكون أول النهار يرى كأنه ماء بين السماء والأرض . فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء ، يحسبه ماء قصده ليشرب منه ، فلما انتهى إليه ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملًا وأنه قد حصَّل شيئًا ، فإذا وافى اللَّه يوم القيامة وحاسبه عليها ، ونوقش على أفعاله لم يجد له شيئًا بالكلية قد قبل ، إما لعدم الإخلاص أو لعدم سلوك الشرع . كما قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ . وقال هاهنا : ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ . وفي الحديث أنه يقال يوم القيامة لليهود : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد عزير ابن اللَّه . فيقال : كذبتم ما اتخذ اللَّه من ولد ماذا تبغون ؟ فيقولون : يا رب عطشنا فاسقنا . فيقال : ألا ترون ؟ فتمثل لهم النار كأنها سرب يحطم بعضها بعضًا ، فينطلقون فيتهافتون فيها (١) . وهذا المثال لذوي الجهل المركب . فأما أصحاب الجهل البسيط وهم : الطماطم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم الذين لا يعقلون فمثلهم كما قال تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ ﴾ قال قتادة : ﴿ لُّجِّىٍّ ﴾ هو : العميق . ﴿ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ﴾ أي : لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام مثل القلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده ، ولا يدري أين يذهب . بل كما يقال في المثل للجاهل أين تذهب ؟ قال : معهم ، قيل : فإلى أين يذهبون ؟ قال : لا أدري . وقال ابن عباس ﵄ ﴿ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ ﴾ الآية . يعني : بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر ، كقوله : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ الآية . وقال أبي ابن كعب في قوله تعالى : ﴿ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ فهو يتقلب في خمسة من الظلم ، فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ أي : من لم يهده اللَّه فهو هالك جاهل حائل بائر كافر . كقوله : ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ﴾ وهذا في مقابلة ما قال في مثل المؤمنين : ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يسبح له من في السماوات والأرض أي : من الملائكة والأناسي ، والجان والحيوان ، حتى الجماد . كما قال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ﴾ أي : في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها ، وأرشدها إليه وهو يعلم ما هي فاعلة . ولهذا قال تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ أي : كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة اللَّه ﷻ . ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء .

---

(١) أخرجه البخاري في (التفسير) (٤٥٨١) ومسلم في الإيمان (٣٠٢) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ . ثم أخبر تعالى أن له ملك السماوات والأرض ، فهو الحاكم المتصرف الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له ، ولا معقب لحكمه . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أي : يوم القيامة فيحكم فيه بما يشاء . ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ الآية . هو الخالق المالك ألا له الحكم في الدنيا والأخرى ، وله الحمد في الأولى والآخرة .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ .

يذكر تعالى أنه يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهي ضعيفة وهو : الإزجاء ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ أي : يجمعه بعد تفرقه . ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾ أي : متراكمًا أي : يركب بعضه بعضًا . ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ ﴾ أي : المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ أي من خلله . قال عبيد بن عمير بن الليثي : يبعث اللَّه المثيرة فتقم الأرض قمًّا ، ثم يبعث اللَّه الناشئة فتنشئ السحاب ، ثم يبعث اللَّه المؤلفة فتؤلف بينه ، ثم يبعث اللَّه اللواقح فتلقح السحاب . وقوله : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ قال بعض النحاة ﴿ مِنَ ﴾ الأولى لابتداء الغاية ، والثانية للتبعيض ، والثالثة لبيان الجنس ، وهذا إنما يجيء على قول من ذهب من المفسرين إلى أن قوله : ﴿ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ معناه أن في السماء جبال برد ينزل اللَّه منها البرد ، وأما من جعل الجبال هاهنا كناية عن السحاب ، فإن من الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضًا ، لكنها بدل من الأولى ، واللَّه أعلم . وقوله تعالى : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ ﴾ يحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ أي : بما ينزل من السماء من نوعي المطر والبرد فيكون قوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ رحمة لهم ﴿ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي : يؤخر عنهم الغيث ، ويحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ أي : بالبرد نقمة على من يشاء لما فيه من نثر ثمارهم ، وإتلاف زروعهم وأشجارهم ، ويصرفه عمن يشاء رحمة بهم . وقوله : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ أي يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته . وقوله تعالى : ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أي : يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا في قصر هذا حتى يعتدلا ، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول الذي كان قصيرًا ، ويقصر الذي كان طويلًا ، واللَّه هو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ أي : لدليلًا على عظمته تعالى . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ . وما بعدها من الآيات الكريمات .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها ، وحركاتها وسكناتها من ماء واحد . ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ﴾ كالحية وما شاكلها ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ﴾ كالإنسان والطير . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾ كالإنعام وسائر الحيوانات .

ولهذا قال : ﴿ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ أي : بقدرته لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ولهذا قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحكم والحِكَمْ والأمثال البينة المحكمة كثيرًا جدًّا ، وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولي الألباب والبصائر والنهى . ولهذا قال : ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون يقولون قولًا بألسنتهم ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي : يخالفون أقوالهم بأعمالهم ، فيقولون ما لا يفعلون . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ الآية . أي : إذا طلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل اللَّه على رسوله أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه . وعن سمرة مرفوعًا : « مَنْ دُعِيَ إِلَى سُلْطَانٍ فَلَمْ يُجِبْ فَهُوَ ظَالِمٌ لَا حَقَّ لَهُ » . وقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أي : وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاؤوا سامعين مطيعين . وهو معنى قوله : ﴿ مُذْعِنِينَ ﴾ وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ، ودعا إلى غير الحق ، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي ﷺ ليروج باطله . ثم فإذعانه أولًا لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق ، بل لأنه موافق لهواه ، ولهذا لما خالف الحق قصده عدل عنه إلى غيره . ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ الآية . يعني لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها ، أو قد عرض لها شك في الدين ، أو يخافون أن يجور اللَّه ورسوله عليهم في الحكم . وأيًّا ما كان فهو كفر محض واللَّه عليم بكل منهم ، وما هو منطو عليه من هذه الصفات . وقوله تعالى : ﴿ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ أي : بل هم الظالمون الفاجرون . واللَّه ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور ، تعالى اللَّه ورسوله عن ذلك .

ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين للَّه ولرسوله الذين لا يبغون دينًا سوى كتاب اللَّه وسنة رسوله ، فقال : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ أي : سمعًا وطاعةً . ولهذا وصفهم تعالى بالفلاح وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب فقال تعالى : ﴿ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ . وقال قتادة في هذه الآية : ﴿ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ . ذكر لنا أن عبادة بن الصامت وكان عقبيًّا بدريًّا أحد نقباء الأنصار ، أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبي أمية : ألا أنبئك بماذا عليك وبماذا لك ؟ قال : بلى . قال : فإن عليك السمع والطاعة في

عسرك ويسرك ، ومنشطك ومكرهك ، وأثرة عليك ، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل ، وأن لا تنازع الأمر أهله إلا أن يأمروك بمعصية الله بواحًا فما أمرت به من شيء يخالف كتاب الله فاتبع كتاب الله . وقال قتادة : ذكر لنا أن أبا الدرداء قال : لا إسلام إلا بطاعة الله ، ولا خير إلا في جماعة والنصيحة لله ولرسوله ، وللخليفة وللمؤمنين عامة . قال : وقد ذكر لنا أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يقول : عروة الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين .

وقوله : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ قال قتادة : يطع الله ورسوله فيما أمراه به وترك ما نهياه عنه ، ويخش الله فيما مضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل . وقوله : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ يعني الذين فازوا بكل خير ، وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٥٣ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن أهل النفاق الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ لئن أمرتهم بالخروج في الغزو ليخرجن . قال الله تعالى : ﴿ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ ﴾ أي لا تحلفوا ، وقوله : ﴿ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ ﴾ قيل : معناه طاعتكم طاعة معروفة أي : قد علم طاعتكم إنما هي قول لا فعل معه ، وكلما حلفتم كذبتم . فهم من سجيتهم الكذب حتى فيما يختارونه . كما قال تعالى : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝١١ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ .

وقيل : المعنى في قوله : ﴿ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ ﴾ أي : ليكن أمركم طاعة معروفة أي : بالمعروف من غير حلف ، ولا أقسام كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلف فكونوا أنتم مثلهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ أي : هو خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصي ، فالحلف وإظهار الطاعة ، والباطن بخلافه وإن راج على المخلوق ، فالخالق تعالى يعلم السر وأخفى لا يروج عليه شيء من التدليس بل هو بضمائر عباده ، وإن أظهروا خلافها . ثم قال تعالى : ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ ﴾ أي : اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله . وقوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ ﴾ أي : تتولوا عنه وتتركوا ما جاءكم به . ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ ﴾ أي إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة ﴿ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ ﴾ أي : بقبول ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ ﴾ وذلك : لأنه يدعو إلى صراط مستقيم ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ . كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴾ .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ

بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ .

هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه ، بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض أي : أئمة الناس والولاة عليهم ، وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد . وليبدلنهم من خوفهم من الناس أمنًا وحكمًا فيهم ، وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد والمنة : فإنه ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين ، وسائر جزيرة العرب ، وأرض اليمن بكمالها . وأخذ الجزية من مجوس هجر ، ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر ، وإسكندرية وهو المقوقس . وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد أصحمة رحمه الله وأكرمه . ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة ، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق فلمَّ شعث ما وهي بعد موته ﷺ وأخذ جزيرة العرب ومهدها ، وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد رضي الله عنه ففتحوا طرفًا منها وقتلوا خلقًا من أهلها . وجيشًا آخر صحبة أبي عبيدة رضي الله عنه ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام ، وثالثًا صحبة عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى بلاد مصر ، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ، ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها ، وتوفاه الله عز وجل ، واختار له ما عنده من الكرامة . ومنَّ على أهل الإسلام بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق ، وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها ، وديار مصر إلى آخرها ، وأكثر إقليم فارس . وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان ، وتقهقر إلى أقصى مملكته ، وقصر قيصر وانتزع يده عن بلاد الشام ، وانحدر إلى القسطنطينية ، وأنفق أموالهما في سبيل الله ، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة . ثم لما كانت الدولة العثمانية امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك الأندلس وقبرص . وبلاد القيروان ، وبلاد سبتة مما يلي البحر المحيط ، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين ، وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية ، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز ، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدًا ، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان ، وجبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن . ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا » (١)

فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، فنسأل الله الإيمان به وبرسوله ، والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا .

روي عن جابر بن سمرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لَا يَزَالُ أَمْرُ النَّاسِ مَاضِيًا مَا وَلِيَهُمْ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا » . ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عني ، فسألت أبي ماذا قال رسول الله ﷺ ؟ فقال : قال : « كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ » (٢) . وفي رواية : أنه قال ذلك عشية رجم ماعز بن مالك .

---

(١) أخرجه مسلم في (الفتن) (١٩) وأبو داود في السنن (٤٢٥٢) والترمذي في سننه (٢١٧٦) .
(٢) أخرجه مسلم في (الإمارة) (٦) .

وذكر معه أحاديث أخر ، وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا بد من وجود اثني عشر خليفة عادلًا ، وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثنى عشر ، فإن كثيرًا من أولئك لم يكن لهم من الأمر شيء . فأما هؤلاء : فإنهم يكونون من قريش يلون فيعدلون ، وقد وقعت البشارة بهم في الكتب المتقدمة ، ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين بل يكون وجودهم في الأمة متتابعًا ومتفرقًا ، وقد وجد منهم أربعة على الولاء ، وهم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي ﷺ ، ثم كانت بعدهم فترة ، ثم وجد منهم من شاء الله ، ثم قد يوجد منهم من بقي في الوقت الذي يعلمه الله تعالى ، ومنهم المهدي الذي اسمه يطابق اسم رسول الله ﷺ وكنيته كنيته ، يملأ الأرض عدلًا وقسطًا كما ملئت جورًا وظلمًا .

وعن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال : « الخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَضُوضًا »(1) .

وقال أبو العالية في قوله : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ الآية . قال : كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحوًا من عشر سنين يدعون إلى الله وحده وإلى عبادته وحده لا شريك له سرًا ، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة فقدموها ، فأمرهم الله بالقتال ، فكانوا بها خائفين يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح . فصبروا على ذلك ما شاء الله . ثم إن رجلًا من الصحابة قال : يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لَنْ تَصْبِرُوا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي المَلَإِ العَظِيمِ مُحْتَبِيًا لَيْسَتْ فِيهِ حَدِيدَةٌ » . وأنزل الله هذه الآية ، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فأمنوا ووضعوا السلاح . ثم إن الله تعالى قبض نبيه ﷺ ، فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا فيه ، فأدخل عليهم الخوف ، فاتخذوا الحجزة والشرط وغيروا فغير بهم(2) . وقال بعض السلف : خلافة أبي بكر وعمر ﷺ حق في كتاب الله ، ثم تلا هذه الآية ، وقال البراء بن عازب : نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد . وقوله تعالى : ﴿ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ . كما قال تعالى عن موسى ﵇ أنه قال لقومه : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ الآية . كما قال رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم حين وفد عليه : « أَتَعْرِفُ الحِيرَةَ ؟ » قال : لم أعرفها ، ولكن قد سمعت بها قال : « فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ مِنَ الحِيرَةِ ، حَتَّى تَطُوفَ بِالبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ ، وَلَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ » . قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « نَعَمْ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ وَلَيُبْذَلَنَّ المَالُ لَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ » قال عدي بن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها(3) . وعن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « بَشِّرْ هَذِهِ الأُمَّةَ بِالسَّنَا وَالرِّفْعَةِ ، وَالدِّينِ وَالنَّصْرِ ، وَالتَّمْكِينِ فِي

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٢٠) . (2) أورده النيسابوري بنحوه في أسباب النزول ص ١٨٣ .
(3) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٢٥٧ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨) وأورده الهندي في كنز العمال (٤/٧٩) .

الأرض ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الآخِرَةِ للدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الآخِرَةِ نَصِيبٌ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ . وعن معاذ بن جبل قال : بينا أنا رديف النبي ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل قال : « يَا مُعَاذُ » قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال : ثم سار ساعة ، ثم قال : « يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ » قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك ، ثم سار ساعة ثم قال : « يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ » قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال : « هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ ؟ » . قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » . قال : ثم سار ساعة ، ثم قال : « يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ » قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال : « فَهَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ؟ » قال : قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « فَإِنَّ حَقَّ العِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ » (٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي : فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك فقد خرج عن أمر ربه ، وكفى بذلك ذنبًا عظيمًا . فالصحابة ﷺ لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله ﷻ وأطوعهم لله كان نصرهم بحسبهم . أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب ، وأيدهم تأييدًا عظيمًا ، وحكموا في سائر العباد والبلاد . ولما قصَّر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم . ولكن قد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ - وفي رواية - حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ - وفي رواية - حتَّى يقاتلوا الدَّجَّال - وفي رواية - حتى يَنْزِلَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ وَهُمْ ظَاهِرُونَ » (٣) . وكل هذه الروايات صحيحة ولا تعارض بينها .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بإقامة الصلاة وهي : عبادة الله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة وهي : الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم ، وأن يكونوا في ذلك مطيعين لرسول الله ﷺ أي : سالكين وراءه فيما به أمرهم ، وترك ما عنه زجرهم ، لعل الله يرحمهم بذلك ، ولا شك أن من فعل هذا أن الله سيرحمهم . وقوله تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ﴾ أي : لا تظن يا محمد أن ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : خالفوك وكذبوك ﴿ مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : لا يعجزون الله بل الله قادر عليهم ، وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ النَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أي : بئس المآل مآل الكافرين ، وبئس القرار وبئس المهاد .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٤/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٠/١٠) وأورده الهندي في كنز العمال (٢٢٠/١٠) .
(٢) أخرجه البخاري في (اللباس) (٥٩٦٧) ومسلم في (الإيمان) (٥٠) وأحمد في مسنده (٢٢٨/٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤) .
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (المناقب) (٣٦٤١) ومسلم في (الإيمان) (٢٤٧) وأحمد في مسنده (٩٣/٤) .

ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾
وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن
يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض . وما تقدم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض ، فأمر اللّٰه تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيمانهم ، وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال : الأول : من قبل صلاة الغداة لأن الناس إذ ذاك يكونون نيامًا في فرشهم . ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ ﴾ أي : في وقت القيلولة لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله . ﴿ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ﴾ لأنه وقت النوم ، فيؤمر الخدم والأطفال أن لا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال ، لما يخشى من أن يكون الرجل على أهله أو نحو ذلك من الأعمال . ولهذا قال : ﴿ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ﴾ أي : إذا دخلوا في غير حال غير هذه الأحوال ، فلا جناح عليكم في تمكينكم إياهم ، ولا عليهم إن رأوا شيئًا في غير تلك الأحوال ، لأنه قد أذن لهم في الهجوم ولأنهم طوّافون عليكم أي : في الخدمة وغير ذلك . ويغتفر في الطوافين ما لا يغتفر في غيرهم . ولهذا روي أن النبي ﷺ قال في الهرة : « إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجِسَةٍ إِنَّهَا مِنَ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ - أو الطَّوَّافَاتِ - » [(١)] ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشيء ، وكان عمل الناس بها قليلًا جدًا أنكر عبد اللّٰه بن عباس ذلك على الناس . كما قال ابن عباس : ترك الناس ثلاث آيات ، فلم يعملوا بهن : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ إلى آخر الآية . والآية التي في سورة النساء : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ الآية . والآية التي في الحجرات : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ . وعن ابن عباس أيضًا قال : لم يؤمن بها أكثر الناس آية الإذن ، وإني لآمر جارتي هذه تستأذن علي [(٢)] . وعن موسى بن أبي عائشة سألت الشعبي . ﴿ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ قال : لم تنسخ قلت : فإن الناس لا يعملون بها فقال : اللّٰه المستعان .

وقال السدي : كان أناس من الصحابة ﷺ يحبون أن يواقعوا نساءهم في هذه الساعات ، ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة . فأمرهم اللّٰه أن يأمروا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن . وقال مقاتل بن حيان : بلغنا واللّٰه أعلم أن رجلًا من الأنصار وامرأته أسماء بنت مرثد صنعا للنبي ﷺ طعامًا ، فجعل الناس يدخلون بغير إذن . فقالت أسماء : يا رسول اللّٰه ما أقبح هذا إنه ليدخل على المرأة وزوجها - وهما في ثوب واحد - غلامهما بغير إذن فأنزل اللّٰه في ذلك : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ إلى آخرها . ومما يدل على أنها محكمة لم تنسخ قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني : إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٦/٥) وأبو داود في سننه (٧٥ ، ٧٦) والترمذي في سننه (٦٩) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٥١٩١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٦/٥) .

في العورات الثلاث إذا بلغوا الحلم وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال ، يعني بالنسبة إلى أجانبهم ، وإلى الأحوال التي يكون الرجل على امرأته ، وإن لم يكن في الأحوال الثلاث . قال ابن أبي كثير : إذا كان الغلام رباعيًا ، فإنه يستأذن في العورات الثلاث على أبويه ، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال . وقال في قوله : ﴿ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني : كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه . وقوله : ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ قال سعيد بن جبير : هن : اللواتي انقطع عنهن الحيض ، ويئسن من الولد ﴿ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ أي : لم يبق لهن تشوق إلى التزوج ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ﴾ أي ليس عليها من الحجر في التستر كما على غيرها من النساء . قال ابن عباس : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ ﴾ الآية . فنسخ واستثني من ذلك القواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحًا الآية [1] . قال ابن مسعود في قوله : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ : الجلباب أو الرداء . وقال أبو صالح : تضع الجلباب ، وتقوم بين يدي الرجل في الدرع والخمار . وقال سعيد بن جبير وغيره في قراءة عبد الله بن مسعود (أن يضعن من ثيابهن) وهو الجلباب من فوق الخمار ، فلا بأس أن يضعن عند غريب أو غيره بعد أن يكون عليها خمار صفيق . وقال سعيد بن جبير في الآية : ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ﴾ يقول : لا يتبرجن بوضع الجلباب ليرى ما عليهن من الزينة . وقوله : ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ أي وترك وضعهن لثيابهن ، وإن كان جائزًا خير وأفضل لهن والله سميع عليم .

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

اختلف المفسرون رحمهم الله في المعنى الذي رفع لأجله الحرج عن الأعمى ، والأعرج والمريض . ها هنا ، فقال عطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يقال : إنها نزلت في الجهاد ، وجعلوا هذه الآية ها هنا كالتي في سورة الفتح ، وتلك في الجهاد لا محالة أي : أنهم لا إثم عليهم في ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم . وكما قال تعالى في سورة براءة : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ﴾ وقيل : المراد ها هنا أنهم كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى ؛ لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات ، فربما سبقه غيره إلى ذلك ، ولا مع الأعرج ، لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جليسه ، والمريض لا يستوفي من الطعام كغيره ، فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم ، فأنزل الله هذه الآية رخصة في ذلك ، وقال الضحاك : كانوا قبل البعثة يتحرجون من الأكل مع هؤلاء تقذرًا وتعززًا ، ولئلا يتفضلوا

(١) أخرجه أبو داود في السنن(٤١١١)

عليهم ، فأنزل الله هذه الآية . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ الآية . كان الرجل يذهب بالأعمى أو بالأعرج أو بالمريض إلى بيت أبيه أو أخيه أو بيت أخته أو بيت عمته أو بيت خالته ، فكان الزمنى يتحرجون من ذلك . يقولون : إنما يذهبون بنا إلى بيوت عشيرتهم ، فنزلت هذه الآية رخصة لهم . وقال السدي : كان الرجل يدخل بيت أبيه أو أخيه أو ابنه فتتحفه المرأة بشيء من الطعام ، فلا يأكل من أجل أن رب البيت ليس ثم ، فقال الله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ ﴾ إنما ذكر هذا وهو معلوم ليعطف عليه غيره في اللفظ ، وليساوي به ما بعده في الحكم ، وتضمن هذا بيوت الأبناء لأنه لم ينص عليهم ، ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه ، وقد جاء في الحديث : « أَنْتَ وَمَالُكَ لأَبِيكَ » (١) .

وقوله : ﴿ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾ هذا ظاهر ، وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض . وأما قوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾ فقال السدي : هو خادم الرجل من عبد وقهرمان ، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان المسلمون يذهبون في النفير مع رسول الله ﷺ ، فيدفعون مفاتحهم إلى ضمنائهم . ويقولون : قد أحللنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه ، فكانوا يقولون : إنه لا يحل لنا أن نأكل إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم ، وإنما نحن أمناء فأنزل الله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾ وقوله : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ أي : بيوت أصدقائكم وأصحابكم ، فلا جناح عليكم في الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ، ولا يكرهون ذلك . وقال قتادة : إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه . وقوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ قال ابن عباس في هذه الآية : وذلك لما أنزل الله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ ﴾ . قال المسلمون : إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، والطعام هو أفضل من الأموال ، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد ، فكف الناس عن ذلك فأنزل الله : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ . وكانوا أيضًا يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره ، فرخص الله لهم في ذلك فقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ . وقال قتادة : كان هذا الحي من بني كنانة يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده في الجاهلية ، حتى إن الرجل ليسوق الذود الحفل وهو جائع ، حتى يجد من يؤاكله ويشاربه ، فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ومع الجماعة ، وإن كان الأكل مع الجماعة أبرك وأفضل . وعن وحشي بن حرب أن رجلًا قال للنبي ﷺ : إنا نأكل ولا نشبع . قال : « لَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُتَفَرِّقِينَ ، اجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ يُبَارِكْ لَكُمْ فِيهِ » (٢) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٩/٢) وأبو داود في السنن (٣٥٣٠) وابن ماجه في السنن (٢٢٩١ ، ٢٢٩٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠١/٣) وابن ماجه في السنن (٣٢٨٦) .

وقوله : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ . قال سعيد بن جبير وغيره : يعني : فليسلم بعضكم على بعض . وقال جابر بن عبد الله : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة . قال ابن جريج : قلت لعطاء : أواجب إذا خرجت ثم دخلت أن أسلم عليهم ؟ قال : لا ، ولا أوثر وجوبه عن أحد ولكن هو أحب إلي وما أدعه إلا ناسيًا . وقال مجاهد : إذا دخلت المسجد فقل : السلام على رسول الله ، وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتًا ليس فيه أحد ، فقل : السلام علينا ، وعلى عباد الله الصالحين . وقال قتادة : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتًا ليس فيه أحد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فإنه كان يؤمر بذلك . وحدثنا أن الملائكة ترد عليه . وعن أنس قال : أوصاني النبي ﷺ بخمس خصال قال : « يَا أَنسُ أَسبغ الوُضوءَ يزدْ في عُمْرِكَ ، وَسَلِّمْ عَلَى مَنْ لَقِيَكَ من أُمَّتِي تَكْثُرْ حَسَنَاتُكَ ، وَإِذَا دَخَلْتَ – يَعْنِي بَيْتَكَ – فَسَلِّمْ عَلَى أَهْلِكَ يَكْثُرْ خَيْرُ بَيْتِكَ ، وَصَلِّ صَلَاةَ الضُّحَى فَإِنَّهَا صَلَاةُ الأَوَّابِينَ قَبْلَكَ ، يَا أَنَسُ ارْحَم الصَّغيرَ ، وَوَقِّرِ الكَبِيرَ تَكُنْ مِنْ رُفَقَائِي يَوْمَ القِيَامَةِ »(١) . وقوله : ﴿ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾ . قال ابن عباس : ما أخذت التشهد إلا من كتاب الله ، سمعت الله يقول : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾ فالتشهد في الصلاة : التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله . أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، ثم يدعوا لنفسه ويسلم(٢) . والذي ورد عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ يخالف هذا والله أعلم . وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ لما ذكر تعالى ما في هذه السور الكريمة من الأحكام المحكمة ، والشرائع المتقنة المبرمة نبه تعالى عباده على أنه يبين لعباده الآيات بيانًا شافيًا ليتدبروها ويتعقلوها لعلهم يعقلون .

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وهذا أيضًا أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه ، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول ، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف ، لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة ، أو اجتماع في مشورة ونحو ذلك . أمرهم الله تعالى أن لا يتفرقوا عنه – والحالة هذه – إلا بعد استئذانه ومشاورته ، وإن من يفعل ذلك ، فإنه من المؤمنين الكاملين ، ثم أمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء . ولهذا قال : ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ﴾ الآية . وقد قال رسول الله ﷺ : « إِذَا انْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى المجْلِسِ فَلْيُسَلِّمْ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ فَلَيْسَتِ الأُولَى بِأَحَقَّ مِنَ الآخِرَةِ »(٣)

---

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٤٣٥٧١) . (٢) مسلم في (الصلاة) (٦٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٣٠) وأبو داود في السنن (٥٢٠٨) والترمذي في السنن (٢٧٠٦) .

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

قال ابن عباس : كانوا يقولون : يا محمد يا أبا القاسم . فنهاهم الله ﷻ عن ذلك إعظامًا لنبيه ﷺ قال : فقولوا : يا نبي الله ، يا رسول الله . وقال قتادة : أمر الله أن يهاب نبيه ﷺ وأن يبجل ، وأن يعظم وأن يسود ، وقال مقاتل في قوله : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ . يقول : لا تسموه إذا دعوتموه يا محمد ، ولا تقولوا : يا ابن عبد الله ، ولكن شرفوه فقولوا : يا نبي الله يا رسول الله ، وقال ابن أسلم : أمرهم الله أن يشرفوه ، هذا قول ، وهو الظاهر من السياق . والقول الثاني في ذلك : أن المعنى : لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره ، فإن دعاءه مستجاب ، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا .

وقوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ قال مقاتل بن حيان : هم المنافقون كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة - ويعني بالحديث الخطبة - فيلوذون ببعض أصحاب محمد ﷺ ، حتى يخرجوا من المسجد ، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبي ﷺ في يوم الجمعة بعد ما يأخذ في الخطبة ، وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بإصبعه إلى النبي ﷺ فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل ؛ لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبي ﷺ يخطب بطلت جمعته . وقال السدي : كانوا إذا كانوا معه في جماعة لاذ بعضهم ببعض حتى يتغيبوا عنه فلا يراهم . وقال قتادة في قوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ يعني : لواذًا عن نبي الله وعن كتابه . وقال سفيان : من الصف ، وقال مجاهد : ﴿ لِوَاذًا ﴾ : خلافًا وقوله : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ أي : عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه ، وطريقته وسنته وشريعته ، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله فما وافق ذلك قبل ، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنًا من كان . كما ثبت في الصحيحين : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ »[1] أي : فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطنًا وظاهرًا . ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أي : في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَاشُ ، وَهَذِهِ الدَّوَابُّ اللائي يَقَعْنَ فِي النَّارِ يقعن فيها ، وَجَعَلَ يَحْجِزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا - قال - فَذَلِكَ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ ، هَلُمَّ عن النَّارِ ، فَتَغْلِبُونِي وَتقتحمون فِيهَا »[2] .

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم . فقال : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ ، وقد للتحقيق كما قال قبلها :

---

(١) أخرجه البخاري في (البيوع) (٢١٤٤) والإمام مسلم في الأقضية (١٨) وأحمد في مسنده (١٤٦/٦ ، ١٨٠ ، ٢٥٦) .
(٢) أخرجه مسلم في الفضائل (١٩) وأحمد في مسنده (٣٩٢/٣) .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ . وقال : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآية . فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بقد كقول المؤذن تحقيقًا وثبوتًا : قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة . فقوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي هو : عالم به مشاهد له لا يعزب عنه مثقال ذرة . كما قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي : هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر . وقال تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جدًّا .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي : ويوم يرجع الخلائق إلى الله وهو يوم القيامة ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾ أي : يخبرهم بما فعلوا في الدنيا من جليل وحقير ، وصغير وكبير ، كما قال تعالى : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ ولهذا قال ها هنا : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ . والحمد لله رب العالمين ونسأله التمام .

سورة الفرقان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ .

يقول تعالى حامدًا لنفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم . ﴿ تَبَارَكَ ﴾ وهو تفاعل من البركة المستقرة الثابتة الدائمة . ﴿ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ نزّل فعل من التكرر والتكثر وسماه هاهنا الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغي والرشاد ، والحلال والحرام . وقوله : ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ هذه صفة مدح وثناء لأنه أضافه إلى عبوديته ، كما وصفه بها في أشرف أحواله وهي ليلة الإسراء . فقال : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه فقال : ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ . وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه فقال : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ وقوله : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ أي : إنما خصه بهذا الكتاب المفصل العظيم المبين المحكم الذي : ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ الذي : جعله فرقانًا عظيمًا ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء ، ويستقل على الغبراء ، كما قال ﷺ : « بُعِثْتُ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ »[1] . وقال : « إني أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي » فذكر منهن كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ الآية . أي : الذي أرسلني هو مالك السموات والأرض ، الذي يقول للشيء كن فيكون ، وهو الذي يحيي ويميت . وهكذا قال ها هنا : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ . ونزه نفسه عن الولد وعن الشريك . ثم أخبر أنه : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ أي : كل شيء مما سواه مخلوق مربوب وهو خالق كل شيء ، وربه ومليكه وإلهه ، وكل شيء تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره .

﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ .

يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله الخالق لكل شيء المالك لأزمة الأمور ، الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ومع هذا عبدوا معه من الأصنام ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة ، بل هم مخلوقون لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا ، فكيف يملكون لعابديهم ؟ ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ أي : ليس لهم من ذلك شيء ، بل ذلك كله مرجعه إلى الله ﷻ الذي هو يحيي ويميت ، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم . ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ وقوله : ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ . فهو الله الذي لا إله غيره ، ولا رب سواه ولا تنبغي العبادة إلا له ؛ لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو الذي لا والد ، ولا عديل ولا

---

(١) أخرجه مسلم في (المساجد) (٣) والإمام أحمد في مسنده (١١٦/٤) .

بديل ، ولا وزير ولا نظير ، بل هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ﴾ أي : كذب ﴿ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ يعنون النبي ﷺ ﴿ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾ أي : واستعان على جمعه بقوم آخرين . فقال الله تعالى : ﴿ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ أي : فقد افتروا هم قولًا باطلًا ، وهم يعلمون أنه باطل ، ويعرفون كذب أنفسهم فيما زعموه . ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا ﴾ يعنون كتب الأوائل أي استنسخها . ﴿ فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أي : تقرأ عليه ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي : في أول النهار وآخره ، وهذا الكلام لسخافته وكذبه ، وبهته منهم كل أحد يعلم بطلانه . فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمدًا رسول الله ﷺ لم يكن يعاني شيئًا من الكتابة لا في أول عمره ولا في آخره ، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحوًا من أربعين سنة ، وهم يعرفون مدخله ومخرجه ، وصدقه ونزاهته ، وبره وأمانته ، وبعده عن سائر الأخلاق الرذيلة ، حتى أنهم كانوا يسمونه في صغره ، وإلى أن بعث الأمين . لما يعلمون من صدقه وبره فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبوا له العداوة ، ورموه بهذه الأقوال ، فتارة : من إفكهم يقولون : ساحر ، وتارة يقولون : شاعر ، وتارة يقولون : مجنون ، وتارة يقولون : كذاب ، وقال الله تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ وقال تعالى : في جواب ما عاندوا ها هنا وافتروا ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ الآية . أي أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين ، إخبارًا حقًّا صدقًا مطابقًا للواقع في الخارج ماضيًا ومستقبلًا . ﴿ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ ﴾ أي : الله الذي يعلم غيب السموات والأرض ، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ دعاء لهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار لهم بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم مع أن من تاب إليه تاب عليه ؛ فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتانهم ، وكفرهم وعنادهم ، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه ، إلى الإسلام والهدى كما قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قال الحسن البصري : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم . إلى التوبة والرحمة .

﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ۝ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم ، وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم ، وإنما تعللوا بقولهم : ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ﴾ يعنون : كما تأكله ، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه . ﴿ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ أي : يتردد فيها ، وإليها طلبًا للتكسب والتجارة . ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ يقولون : هلا أنزل إليه ملك من عند اللّه فيكون له شاهدًا على صدق ما يدعيه . وهذا كما قال فرعون : ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ . وكذلك قال هؤلاء على السواء ، تشابهت قلوبهم . ولهذا قالوا : ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾ أي : علم كنز ينفق منه . ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ أي : تسير معه حيث سار . وهذا كله سهل يسير على اللّه ، ولكن له الحكمة في ترك ذلك ، وله الحجة البالغة . ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ قال اللّه تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ ﴾ أي : جاؤوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك من قولهم ساحر مسحور مجنون كذاب شاعر ، وكلها أقوال باطلة . كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك . ولهذا قال : ﴿ فَضَلُّوا۟ ﴾ عن طريق الهدى ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ وذلك أن كل من خرج عن الحق وطريق الهدى ، فإنه ضال حيثما توجه ، لأن الحق واحد ، ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضًا .

ثم قال تعالى مخبرًا نبيه : أنه إن شاء لآتاه خيرًا مما يقولون في الدنيا ، وأفضل وأحسن . فقال : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾ الآية . قال مجاهد يعني : في الدنيا . قال : وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصرًا ، كبيرًا كان أو صغيرًا . قال خيثمة : قيل للنبي ﷺ : إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لا نعطه نبيًا قبلك ، ولا نعطي أحدًا من بعدك ، ولا ينقص ذلك مما لك عند اللّه فقال : « اجْمَعُوها لي في الآخِرَةِ » . فأنزل اللّه ﷻ في ذلك : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ﴾ أي : إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيبًا وعنادًا لا أنهم يطلبون ذلك تبصرًا واسترشادًا بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال . ﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ أي أرصدنا : ﴿ لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ عذابًا أليمًا حارًا لا يطاق في نار جهنم . قال سعيد بن جبير ﴿ سَعِيرًا ﴾ واد من قيح جهنم . وقوله : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم ﴾ أي جهنم . ﴿ مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ يعني : في مقام المحشر . قال السدي : من مسيرة مائة عام ﴿ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ أي : حنقًا عليهم كما قال تعالى : ﴿ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ أي : يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على من كفر باللّه . وفي الحديث « مَنْ يَقُلْ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ أَوِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ وَالِدَيْهِ ، أَوِ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ - وفي رواية - فَلْيَتَبَوَّأْ بَيْنَ عَيْنَيْ جَهَنَّمَ مَقْعَدًا » . قيل : يا رسول اللّه وهل لها من عينين ؟ قال : « أَمَا سَمِعْتُمُ اللّهَ يَقُولُ : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ الآية (١) . وعن أبي وائل قال : خرجنا مع عبد اللّه - يعني ابن مسعود - ومعنا الربيع بن خيثم فمروا على حداد فقام عبد اللّه ينظر إلى حديدة في النار ، وينظر الربيع بن خيثم إليها فتمايل الربيع ليسقط ، فمر عبد اللّه على أتون على شاطئ الفرات ، فلما رآه عبد اللّه والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/٦٤) .

سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ فصعق - يعني الربيع - وحملوه إلى أهل بيته ، فرابطه عبد الله إلى الظهر ، فلم يفق ﷺ . قال ابن عباس : إن الرجل ليجر إلى النار ، فتنزوي وتنقبض بعضها إلى بعض ، فيقول : لها الرحمن مالك ؟ قالت : إنه يستجير مني فيقول : أرسلوا عبدي . وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول : يا رب ما كان هذا الظن بك ، فيقول : فما كان ظنك ؟ فيقول : أن تسعني رحمتك ، فيقول : أرسلوا عبدي . وإن الرجل ليجر إلى النار ، فتشهق إليه النار شهقة البغلة إلى الشعير ، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف . وقوله : ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ ﴾ قال عبد الله بن عمرو قال : مثل الزج في الرمح أي : من ضيقه . روي عن يحيى بن أبي أسيد يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ أنه سئل عن قول الله : ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ ﴾ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ! إِنَّهُمْ لَيُسْتَكْرَهُونَ فِي النَّارِ كَمَا يُسْتَكْرَهُ الوَتِدُ فِي الحَائِطِ » (١) . وقوله : ﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ قال أبو صالح : يعني مكتفين . ﴿ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ أي : بالويل والحسرة والخيبة . ﴿ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا ﴾ الآية . عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « أَوَّلُ مَنْ يُكْسَى حُلَّةً مِنَ النَّارِ إِبْلِيسُ ، فَيَضَعُهَا عَلَى حَاجِبَيْهِ وَيَسْحَبُهَا مِنْ خَلْفِهِ ، وَذُرِّيَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ يُنَادِي : يَا ثُبُورَاهُ ، وَيُنَادُونَ : يَا ثُبُورَهُمْ ، حَتَّى يَقِفُوا عَلَى النَّارِ فَيَقُولُ : يَا ثُبُورَاهُ . وَيَقُولُونَ : يَا ثُبُورَهُمْ . فَيُقَالُ لَهُمْ : لَا تَدْعُوا اليَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا . وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا » (٢) . وقال العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا ﴾ الآية : أي : لا تدعوا اليوم ويلًا واحدًا وادعوا ويلًا كثيرًا . وقال الضحاك : الثبور : الهلاك ، والأظهر : أن الثبور يجمع الهلاك ، والويل والخسار والدمار . كما قال موسى لفرعون : ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ أي : هالكًا .

﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ۝ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ .

يقول تعالى : يا محمد هذا الذي وصفناه لك من حال الأشقياء ، أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده ؟ التي أعدها لهم ، وجعلها لهم جزاء ومصيرًا على ما أطاعوه في الدنيا ، وجعل مآلهم إليها . ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ من الملاذ ، من مآكل ومشارب وملابس ، ومساكن ومراكب ، ومناظر وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب أحد . وهم في ذلك خالدون أبدًا دائمًا سرمدًا بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ، ولا يبغون عنها حولًا . وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم ، ولهذا قال : ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ أي : لا بد أن يقع وأن يكون . كما حكاه علماء العربية أن معنى قوله : ﴿ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ أي : وعدًا واجبًا . وقال ابن عباس : ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ يقول : فسألوا الذي وعدهم وتنجزوه . وقال محمد بن كعب القرظي : إن الملائكة تسأل لهم ذلك ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ ﴾ .

وقال أبو حازم : إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون : ربنا عملنا لك بالذي أمرتنا فأنجز لنا ما وعدتنا ، فذلك قوله : ﴿ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ .

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٦٤/٥) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥٢/٣) .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم من عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم فقال : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ . قال مجاهد : هو عيسى ، والعزير والملائكة ﴿ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ الآية . أي فيقول تبارك وتعالى للمعبودين : أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني ، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم ؟ ولهذا قال تعالى : مخبرًا عما يجيب به المعبودون يوم القيامة ﴿ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ قرأ الأكثرون بفتح النون من قوله : ﴿ نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي : ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدًا سواك ، لا نحن ولا هم ، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم ، من غير أمرنا ولا رضانا ، ونحن براء منهم ، ومن عبادتهم . وقرأ آخرون ﴿ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نُّتَّخَذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [1] أي : ما ينبغي لأحد أن يعبدنا ، فإنا عبيد لك فقراء إليك . وهي قريبة المعنى من الأولى ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ ﴾ أي : طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر أي : نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك ﴿ وَكَانُوا قَوْمًۢا بُورًا ﴾ . قال ابن عباس أي : هلكى ، وقال الحسن البصري ومالك عن الزهري أي : لا خير فيهم .

قال الله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أي : فقد كذبكم الذين عبدتم من دون الله فيما زعمتم أنهم لكم أولياء ، وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى . وقوله : ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾ أي : لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ، ولا الانتصار لأنفسهم . ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ ﴾ أي : يشرك بالله ﴿ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين ، إنهم يأكلون الطعام ، ويحتاجون إلى التغذي له ، ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة ، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم ؛ فإن الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة ، والصفات الجميلة ، والأقوال الفاضلة ، والأعمال الكاملة ، والخوارق الباهرة ، والأدلة الظاهرة ، ما يستدل به كل ذي لب سليم ، وبصيرة مستقيمة على صدق ما جاءوا به من الله ، ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ أي : اختبرنا بعضكم ببعض ، وبلونا بعضكم ببعض لنعلم من يطيع ممن يعصي ولهذا قال : ﴿ أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ أي : بمن يستحق أن يوحى إليه . ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به ، ومن لا يستحق ذلك . وقال محمد بن إسحاق في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ قال :

(١) قرأ أبو جعفر (أن نُتَّخَذَ) بضم النون وفتح الخاء والباقون بفتح النون وكسر الخاء (انظر : تقريب النشر ص ١٥١).

يقول الله : لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يخالفون لفعلت . ولكني قد أردت أن أبتلي العباد بهم وأبتليكم بهم . وفي صحيح مسلم عن رسول الله : « يَقُولُ اللَّهُ إِنِّي مُبْتَلِيكَ وَمُبْتَلٍ بِكَ » (١) . وفي المسند عن رسول الله ﷺ : « لَوْ شِئْتُ لأَجْرَى اللَّهُ مَعِي جِبَالَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ » (٢) . وفي الصحيح أنه عليه أفضل الصلاة والسلام خير بين أن يكون نبيًّا ملكًا ، أو عبدًا رسولًا ، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا (٣) .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن تعنت الكفار في كفرهم ، وعنادهم في قولهم : ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أي : بالرسالة ، كما تنزل على الأنبياء . كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى : ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ ويحتمل أن يكون مرادهم ها هنا ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ فنراهم عيانًا ، فيخبرونا أن محمدًا رسول الله كقولهم : ﴿ أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ . ولهذا قالوا : ﴿ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ ﴾ ولهذا قال الله تعالى : ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أي : هم لا يرون الملائكة في يوم خير لهم بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم ، وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار ، والغضب من الجبار ، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه : اخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث ، اخرجي إلى سموم وحميم ، وظل من يحموم ، فتأبى الخروج ، وتتفرق في البدن فيضربونه ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ الآية . ولهذا قال في هذه الآية الكريمة : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ . وهذا بخلاف حال المؤمنين حال احتضارهم ، فإنهم يبشرون بالخيرات ، وحصول المسرات . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ .

وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازب : أن الملائكة تقول لروح المؤمن : اخرجي أيتها النفس الطيبة في الجسد الطيب ، إن كنت تعمرينه ، اخرجي إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان (٤) . وقال آخرون : بل المراد بقوله : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ ﴾ يعني يوم القيامة . ولا منافاة بين هذا وما تقدم ، فإن الملائكة في هذين اليومين يوم الممات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين ، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران ، فلا بشرى يومئذ للمجرمين .

---

(١) أخرجه مسلم بنحوه في (الجنة وصفة نعيمها) (٦٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٦٣/١ بنحوه . (٣) أخرجه أحمد في مسنده ٣٢١/٢ .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده ١٤٠/٦ ، والنسائي في السنن (جنائز ٩) .

﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أي : وتقول الملائكة للكافرين حرام محرم عليكم الفلاح اليوم . وأصل الحجر المنع ، ومنه يقال : حجر القاضي على فلان ، إذا منعه التصرف إما لفلس أو سفه ، أو صغر أو نحو ذلك . ومنه سمي الحجر عند البيت الحرام ؛ لأنه يمنع الطواف أن يطوفوا فيه ، وإنما يطاف من ورائه ، ومنه يقال : للعقل حجر ؛ لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي ما لا يليق . والغرض أن الضمير في قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ عائد على الملائكة .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ ﴾ الآية ، هذا يوم القيامة حين يحاسب اللَّه العباد على ما عملوه من الخير والشر ، فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء ، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي ، إما الإخلاص فيها ، وإما المتابعة لشرع اللَّه . فكل عمل لا يكون خالصًا ، وعلى الشريعة المرضية فهو باطل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ . قال مجاهد والثوري : ﴿ وَقَدِمْنَآ ﴾ أي عمدنا ، وعن علي رضي الله عنه في قوله : ﴿ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ قال : شعاع الشمس إذا دخل الكوة ، وعن ابن عباس : قال : هو الماء المهراق ، وفي رواية عن علي ﴿ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ . قال : الهباء وهج الدواب ، وقال قتادة : أما رأيت يبس الشجر إذا ذرته الريح ؟ فهو ذلك الورق . وعن عبيد بن يعلى قال : وإن الهباء الرماد إذا ذرته الريح ، وحاصل هذه الأقوال التنبيه على مضمون الآية . وذلك أنهم عملوا أعمالًا اعتقدوا أنها على شيء ، فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذي لا يجور ولا يظلم أحدًا ؛ إذ إنها لا شيء بالكلية ، وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية . كما قال تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ أي : بما عملوه من الأعمال المتقبلة نالوا ما نالوا ، وصاروا إلى ما صاروا إليه بخلاف أهل النار ؛ فإنهم ليس لهم عمل واحد يقتضي دخول الجنة لهم والنجاة من النار . فنبه تعالى بحال السعداء على حال الأشقياء ، وأنه لا خير عندهم بالكلية . فقال تعالى : ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ قال ابن عباس : إنما هي ساعة ، فيقيل أولياء اللَّه على الأسرة مع الحور العين ، ويقيل أعداء اللَّه مع الشياطين مقرنين . وقال سعيد بن جبير : يفرغ اللَّه من الحساب نصف النهار ، فيقيل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار . وقال عكرمة : إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار . وهي الساعة التي تكون في الدنيا عند ارتفاع الضحى الأكبر ، إذا انقلب الناس إلى أهليهم للقيولة ، فينصرف أهل النار إلى النار ، وأما أهل الجنة فينطلق بهم إلى الجنة ، فكانت قيلولتهم في الجنة ، وأطعموا كبد حوت فأشبعهم كلهم . وذلك قوله : ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ . وقال عبد اللَّه بن مسعود قال : لا ينتصف النهار حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء . ثم قرأ : ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ وقرأ : ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾ وقال ابن عباس في قوله : ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ . قال : قالوا في الغرف من الجنة ،

وكان حسابهم إذ عرضوا على ربهم عرضة واحدة ، وذلك الحساب اليسير ، وقال قتادة : ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ مأوى ومنزلًا .

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ .

يخبر تعالى عن هول يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، فمنها انشقاق السماء وتفطرها ، وانفراجها بالغمام ، وهو ظلل النور العظيم الذي يبهر الأبصار . ونزول ملائكة السماوات يومئذٍ فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر ، ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء .

وقوله تعالى : ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ الآية . كما قال تعالى : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ . وفي الصحيح : أن اللَّه تعالى يطوي السماوات بيمينه ، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ، ثم يقول : أنا الملك أنا الديان أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ (١)

وقوله : ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي : شديدًا صعبًا لأنه يوم عدل وقضاء فصل . كما قال تعالى : ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ فهذا حال الكافرين في هذا اليوم ، وأما المؤمنون فكما قال تعالى : ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ الآية . وعن أبي سعيد الخدري قال : قيل : يا رسول اللَّه ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ما أطول هذا اليوم ؟ فقال رسول اللَّه ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا » (٢)

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ الآية . يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ ، وما جاء به عند اللَّه من الحق المبين الذي لا مرية فيه ، وسلك طريقًا أخرى غير سبيل الرسول ، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ حسرة وأسفًا . وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الأشقياء ؛ فإنها عامة في كل ظالم . فكل ظالم يندم يوم غاية الندم . ويعض على يديه قائلًا : ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ يعني : من صرفه عن الهدى ، وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة . وسواء في ذلك أمية بن خلف أو أخوه أبي بن خلف أو غيرهما ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ وهو : القرآن ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ أي : بعد بلوغه إليّ قال اللَّه تعالى : ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ أي : يخذله عن الحق ، ويصرفه عنه ، ويستعمله في الباطل ويدعوه إليه .

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال : ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ، ولا يستمعونه . كما قال تعالى : ﴿وَقَالَ

(١) أخرجه مسلم في (المنافقين) (٢٤) وأحمد في مسنده (٧٢/٣) وأبو داود في السنن (٤٧٣٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٣) .

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ ﴾ الآية . فكانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره حتى لا يسمعونه . فهذا من هجرانه وترك الإيمان به ، وترك تصديقه من هجرانه . وترك تدبره وتفهمه من هجرانه ، وترك العمل به وامتثال أوامره ، واجتناب زواجره من هجرانه ، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو او كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : كما حصل لك يا محمد في قومك من الذين هجروا القرآن ، كذلك كان في الأمم الماضين ؛ لأن الله جعل لكل نبي عدوًا من المجرمين يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم . ولهذا قال تعالى ها هنا : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ أي : لمن اتبع رسوله وآمن بكتابه ، وصدقه واتبعه ، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة . وإنما قال : ﴿ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن لئلا يهتدي أحد به ، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن فلهذا قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ الآية .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .

يقول تعالى عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم ، وكلامهم فيما لا يعنيهم ، حيث قالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ أي : هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحي إليه جملة واحدة . كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة ، كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية ، فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما نزل منجمًا في ثلاث وعشرين سنة ، بحسب الوقائع والحوادث ، وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبت قلوب المؤمنين به . كقوله : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ ﴾ الآية . ولهذا قال : ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ . قال قتادة : بيناه تبيينًا . وقال ابن زيد : وفسرناه تفسيرًا ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أي : بحجة وشبهة ﴿ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ أي : ولا يقولون قولًا يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر ، وأبين وأوضح ، وأفصح من مقالتهم . قال ابن عباس : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أي : يلتمسون به عيب القرآن والرسول ﴿ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الآية . أي إلا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم ، وما هذا إلا اعتناء وكبير شرف للرسول ﷺ حيث كان يأتيه الوحي من الله ﷻ بالقرآن صباحًا ومساء ، وليلًا ونهارًا ، سفرًا وحضرًا ، وكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن لا كإنزال الكتاب مما قبله من الكتب المتقدمة ، فهذا المقام أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر إخوانه الأنبياء ، فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله ، ومحمد ﷺ أعظم نبي أرسله تعالى ، وقد جمع الله القرآن الصفتين معًا ، ففي الملأ الأعلى أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، ثم أنزل بعد ذلك الأرض منجمًا بحسب الوقائع والحوادث . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ .

ثم قال تعالى مخبرًا عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة ، وحشرهم إلى جهنم في أسوأ الحالات وأقبح الصفات : ﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ . وفي الصحيح أن رجلًا قال : يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال : « إنَّ

الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ قَادِرٌ أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[(١)] .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ .

يقول تعالى متوعدًا من كذب رسوله محمدًا ﷺ من مشركي قومه ومن خالفه ، ومحذرهم من عقابه ، وأليم عذابه مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله ، فبدأ بذكر موسى ، وأنه بعثه وجعل معه أخاه هارون وزيرًا أي نبيًّا مؤازرًا ، ومؤيدًا وناصرًا ، فكذبهما فرعون وجنوده . فـ ﴿ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ . وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحًا عليه السلام ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل ؛ إذ لا فرق بين رسول ورسول ، ولو فرض أن الله تعالى بعث إليهم كل رسول ، فإنهم كانوا يكذبون . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ ﴾ ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط ، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله عز وجل ، ويحذرهم نقمه ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ ولهذا أغرقهم الله جميعًا ، ولم يترك من بني آدم على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة فقط ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ﴾ أي : عبرة يعتبرون بها .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ ﴾ قد تقدم على قصتيهما في غير ما سورة ، كسورة الأعراف بما أغنى عن الإعادة . وأما أصحاب الرس فقال ابن عباس : هم أهل قرية من قرى ثمود . وقال عكرمة : أصحاب الرس بفلج ، وهم أصحاب يس . وقال قتادة : فلج من قرى اليمامة . وقال عكرمة : الرس بئر رسوا فيها نبيهم أي دفنوه فيها . واختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخدود .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ أي : وأممًا أضعاف من ذكر أهلكناهم كثيرة . ولهذا قال : ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ﴾ أي : بينا لهم الحجج ، ووضحنا لهم الأدلة ، كما قال قتادة : وأزحنا الأعذار عنهم ﴿ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ أي : أهلكنا إهلاكًا . كقوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ والقرن هو الأئمة من الناس كقوله : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴾ وحده بعضهم بمائة وعشرين سنة ، وقيل : بمائة ، وقيل : بثمانين ، وقيل : أربعين ، وقيل غير ذلك ، والأظهر أن القرن : هو الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد ، وإذا ذهبوا وخلفهم جيل فهو قرن آخر . كما ثبت في الصحيحين : « خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ »[(٢)] . ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ﴾ يعني قرية قوم لوط وهي : سدوم التي أهلكها الله بالقلب وبالمطر من الحجارة التي من سجيل . وقوله ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ﴾ أي : فيعتبروا بما حل بأهلها من العذاب ، والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول ، وبمخالفتهم أوامر الله . ﴿ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ يعني : المارين بها من الكفار لا يعتبرون لأنهم لا يرجون نشورًا ؛ أي معادًا يوم القيامة .

---

(١) أخرجه البخاري في (الرقاق) (٦٥٢٣) ومسلم في (المنافقين) (٥٤) وأحمد في مسنده (٣/٢٩٩) .
(٢) أخرجه البخاري في (فضائل أصحاب النبي) (٣٦٥٠) ومسلم في (فضائل الصحابة) (٢١٠ - ٢١٤) .

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رأوه . كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ الآية . يعنونه بالعيب والنقص . وقال ها هنا : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ أي : على سبيل التنقص والازدراء فقبحهم الله . وقوله تعالى : ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ يعنون أنه كاد يثنيهم عن عبادة الأصنام ، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها . قال الله تعالى متوعدًا لهم ومتهددًا : ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ ﴾ الآية . ثم قال تعالى لنبيه منبهًا أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال ؛ فإنه لا يهديه أحد إلا الله ﷻ ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ أي : مهما استحسن من شيء ورآه حسنًا في هوى نفسه كان دينه ومذهبه . ولهذا قال هاهنا : ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ قال ابن عباس : كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانًا ، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول . ثم قال تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ الآية . أي : هم أسوأ حالًا من الأنعام السارحة ، فإن تلك تفعل ما خلقت له ، وهؤلاء خلقوا لعباده الله وحده لا شريك له فلم يفعلوا ، وهم يعبدون غيره ، ويشركون به مع قيام الحجة عليهم ، وإرسال الرسل إليهم .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ .

من ها هنا شرع ﷻ في بيان الأدلة الدالة على وجوده وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة . فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ . قال ابن عباس وابن عمر : هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ أي : دائمًا لا يزول . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ أي : لولا أن الشمس تطلع عليه لما عرف ؛ فإن الضد لا يعرف إلا بضده . وقال قتادة : دليلًا تتلوه وتتبعه حتى تأتي عليه كله . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أي : الظل . وقيل : الشمس . ﴿ يَسِيرًا ﴾ أي : سهلًا . قال ابن عباس : سريعًا . وقال مجاهد : خفيًا . وقال السدي : قبضًا خفيًا حتى لا يبقي في الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة ، وقد أظلت الشمس ما فوقه . وقال أيوب بن موسى في الآية : ﴿ قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ قليلًا . وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أي : يلبس الوجود ويغشاه . كما قال تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ ﴿ وَالنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾ أي : قاطعًا للحركة لراحة الأبدان ، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة في الانتشار بالنهار في المعاش ، فإذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات ، فاستراحت فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معًا . ﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ أي : ينتشر الناس فيه لمعايشهم ، ومكاسبهم وأسبابهم .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ .

وهذا أيضًا من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات أي : بمجيء السحاب بعدها ، والرياح أنواع فمنها : ما يثير السحاب ، ومنها : ما يحمله ، ومنها : ما يسوقه ، ومنها : ما يكون بين يدي السحاب مبشرًا ، ومنها : ما يكون قبل ذلك تقم الأرض ، ومنها : ما يلقح السحاب ليمطر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ أي : آلة يتطهر بها كالسحور والوجور وما جرى مجراهما . فهذا أصح ما يقال في ذلك . وعن خالد بن يزيد قال : كنا عند عبد الملك بن مروان ، فذكروا الماء فقال خالد بن يزيد : منه من السماء ، ومنه ما يسقيه الغيم من البحر ، فيذبه الرعد والبرق . فأما ما كان من البحر فلا يكون منه نبات ، فأما النبات فمما كان من السماء . وروي عن عكرمة قال : ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عشبة أو في البحر لؤلؤة .

وقوله تعالى : ﴿ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أي : أرضًا قد طال انتظارها للغيث ، فهي هامدة لا نبات فيها ولا شيء ، فلما جاءها الحياة عاشت واكتست رباها أنواع الأزاهير والألوان ﴿ وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ أي : وليشرب منه الحيوان من أنعام ، وأناسي محتاجين إليه غاية الحاجة لشربهم ، وزرعهم وثمارهم . كما قال تعالى : ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ أي : أمطرنا هذه الأرض دون هذه ، وسقنا السحاب يمر على الأرض ، ويتعداها ويتجاوزها إلى الأخرى ، فيمطرها ويكفيها ، ويجعله غدقًا ، والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة من ماء ، وله في ذلك الحجة البالغة ، والحكمة القاطعة . قال ابن عباس : ليس عام بأكثر مطرًا من عام ، ولكن الله يصرفه كيف يشاء . ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أي : ليذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات . أو ليذكر من منع المطر ، إنما أصابه ذلك بذنب أصابه ، فيقلع عما هو فيه . وقوله تعالى : ﴿ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ قال عكرمة : يعني الذين يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا ، وفي الحديث أنه ﷺ قال لأصحابه يومًا على أثر سماء أصابتهم من الليل : « أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ » ، قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « قَالَ : أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ ؛ فَذَاكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا ؛ فَذَاكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ » (١) .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ۝ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾ يدعوهم إلى الله ﷻ ، ولكنا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الأرض ، وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن . ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ . وفي الصحيحين : « بُعِثْتُ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ » (٢) . وفيهما : « وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى

---

(١) أخرجه مسلم في (الإيمان) (١٢٥) .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٣) وأحمد في مسنده (٢٥٠/١) .

قَوْمِهِ خَاصَّةً وبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عامَّةً »[١] ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ ﴾ يعني بالقرآن ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ : أي : خلق الماءين الحلو والملح ، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار ، وهذا هو البحر العذب الفرات الزلال . فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس فرقه الله تعالى بين خلقه ، لاحتياجهم إليه أنهارًا وعيونًا في كل أرض بحسب حاجتهم ، وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم . وقوله تعالى : ﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أي : مالح مر زعاق لا يستساغ ، وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغارب : البحر المحيط ، وبحرِ القلزم ، وبحر فارس ، وما شاكلها وشابهها من البحار الساكنة التي لا تجري ، ولكن تموج وتضطرب ، وتلتطم في زمن الشتاء وشدة الرياح . ومنها ما فيه مد وجزر ، ففي أول كل شهر يحصل منها مدٌّ وفيض ، فإذا شرع الشهر في النقصان جزرت حتى ترجع إلى غايتها الأولى ، فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله ﷻ مالحة ، لئلا يحصل بسببها نتن الهواء ، فيفسد الوجود بذلك ، ولئلا تجوي الأرض بما يموت فيها من الحيوان ، ولما كان ماؤها ملحًا كان هواؤها صحيحًا وميتتها طيبة . ولهذا قال رسول الله ﷺ وقد سئل عن ماء البحر أنتوضأ به ؟ فقال : « هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ ، الحلُّ مِيتَتُهُ »[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أي : بين العذب والمالح ﴿ بَرْزَخًا ﴾ أي : حاجزًا وهو اليبس من الأرض ﴿ وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أي : مانعًا من أن يصل أحدهما إلى الآخر . كقوله تعالى : ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا ﴾ الآية . أي خلق الإنسان من نطفة ضعيفة فسواه وعدله ، وجعله كامل الخلقة ذكرًا وأنثى كما يشاء . ﴿ فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ ﴾ فهو في ابتداء أمره ولد نسيب ، ثم يتزوج فيصير صهرًا ، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات ، وكل ذلك من ماء مهين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ .

يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام التي لا تملك لهم ضرًا ولا نفعًا ، بلا دليل قادهم إلى ذلك ، ولا حجة أدتهم إليه بل بمجرد الآراء ، والتشهي والأهواء ، فهم يوالونهم ويقاتلون في سبيلهم ويعادون الله ورسوله والمؤمنين فيم . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ أي : عونًا في سبيل الشيطان على حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون . قال مجاهد : ﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ قال : يظاهر الشيطان على معصية الله ويعنيه ، وقال سعيد بن جبير : عونًا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك . وقال زيد بن أسلم : مواليًا ، ثم قال تعالى لرسوله صلوات

---

(١) أخرجه البخاري في (التيمم) (١) ومسلم في المساجد (٣) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٣٧) .

الله وسلامه عليه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي : بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين ، مبشرًا بالجنة لمن أطاع الله ، ونذيرًا بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي : على هذا البلاغ ، وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ أي : طريقًا ومسلكًا ، ومنهجًا يقتدي فيها بما جئت به ، ثم قال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ أي : في أمورك كلها كن متوكلًا على الله الحي الذي لا يموت أبدًا الذي هو : ﴿ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ ﴾ أي : اقرن بين حمده وتسبيحه ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ » . أي : أخلص له العبادة والتوكل . كما قال تعالى : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ أي : بعلمه التام الذي لا يخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة . وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ الآية . أي هو خالق كل شيء ، الذي خلق بقدرته وسلطانه السماوات السبع في ارتفاعها واتساعها والأرضين السبع في سفولها وكثافتها ﴿ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ﴾ أي : يدبر الأمر ، ويقضي الحق وهو خير الفاصلين . وقوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ أي : استعلم عنه من هو خبير به عالم به ، فاتبعه واقتد به . وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة الذي لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ . قال مجاهد : ما أخبرتك من شيء فهو كما أخبرتك . وقال شمر بن عطية : هذا القرآن خبير به .

ثم قال تعالى منكرًا على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ أي لا نعرف الرحمن ، وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمن . كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي ﷺ للكاتب : « اكْتُبْ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم ، ولكن اكتب كما كنت تكتب : باسمك اللهم (١) . ولهذا أنزل الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾ أي : هو الله ، وهو الرحمن . ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ أي : لمجرد قولك ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ فأما المؤمنين فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم ، ويفردونه بالإلهية ويسجدون له .

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ .

يقول تعالى ممجدًا نفسه على جميل ما خلق في السماوات من البروج وهي الكواكب العظام ، وقيل : هي قصور في السماء للحرس . والقول الأول أظهر . اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هي قصور للحرس فيجتمع القولان كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ الآية . ولهذا قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا ﴾ وهي : الشمس المنيرة التي هي كالسراج في

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/٣٣١) .

الوجود ﴿ وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ أي : مشرقًا مضيئًا بنور آخر من غير نور الشمس . ثم قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ أي : يخلف كل واحد منهما صاحبه يتعاقبان لا يفتران إذا ذهب هذا جاء هذا ، وإذا جاء هذا ذهب ذاك كما قال تعالى : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أي : جعلهما يتعاقبان توقيتًا لعبادة عباده له ﷻ، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار ، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل . وقد جاء في الحديث الصحيح : « إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيلِ »[(١)] . وقال ابن عباس في الآية : من فاته شيء من الليل أن يعمله أدركه بالنهار ، أو من النهار أدركه بالليل . وقال مجاهد : ﴿ خِلْفَةً ﴾ أي : مختلفين ، أي هذا بسواده وهذا بضيائه .

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ .

هذه صفات عباد اللَّه المؤمنين ﴿ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أي : بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار . كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ الآية . وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعًا ورياء ، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صبب ، وكأنما الأرض تطوى له ، وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع ، حتى روي عن عمر أنه رأى شابًا يمشي رويدًا فقال : ما بالك أأنت مريض ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين ، فعلاه بالدرة وأمره أن يمشي بقوة . وإنما المراد بالهون هنا السكينة والوقار ، كما قال رسول اللَّه : « إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ ، وَأْتُوهَا وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ مِنْهَا فَصَلُّوا ، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا »[(٢)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ أي : إذا سفه عليهم الجهال بالقول السيئ لم يقابلوهم عليه بمثله بل يعفون ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيرًا . كما كان رسول اللَّه ﷺ لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلمًا . وكما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ الآية . عن النعمان بن مقرن المزني قال : قال رسول اللَّه ﷺ وسب رجل رجلًا عنده فجعل المسبوب يقول : عليك السلام ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « أما إن ملكًا بينكما يذب عنك كلما شتمك هذا . قال له : بل أنت ، وأنت أحق به . وإذا قلت له وعليك السلام : قال : لا بل عليك وأنت أحق به »[(٣)] . وقال مجاهد : ﴿ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ يعني قالوا : سدادًا ، وقال سعيد بن جبير : ردوا معروفًا من القول . وقال الحسن البصري : قالوا سلام عليكم إن جهل عليهم حلموا ، يصاحبون عباد اللَّه نهارهم بما يسمعون ، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل . فقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ أي : في طاعته وعبادته . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ . أي : ملازمًا دائمًا .

ولهذا قال الحسن في قوله : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه

---

(١) أخرجه مسلم في (التوبة) (٣١) وأحمد في مسنده (٣٩٥/٤) .
(٢) أخرجه مسلم في (المساجد) (١٥١ - ١٥٣) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٥/٥) .

فليس بغرام ، وإنما الغرام اللازم ما دامت الأرض والسماوات . وقال محمد بن كعب : يعني ما نعموا في الدنيا . إن الله تعالى سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه ، فأغرمهم فأدخلهم النار ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أي : بئس المنزل منظرًا ، وبئس المقيل مقامًا . عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال : « إن عبدًا في جهنم لينادي ألف سنة يا حنان يا منان ، فيقول الله ﷻ لجبريل : اذهب فأتني بعبدي هذا ، فينطلق جبريل ، فيجد أهل النار مكبين يبكون ، فيرجع إلى ربه ﷻ فيخبره ، فيقول الله ﷻ : ائتني به في مكان كذا ، فيجيء به فيوقفه على ربه ﷻ فيقول له : يا عبدي ، كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟ فيقول : يا رب شر مكان ، وشر مقيل . فيقول الله ﷻ : ردوا عبدي . فيقول : يا رب ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تردني فيها . فيقول الله ﷻ : دعوا عبدي »[1] وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾ الآية . أي ليسوا بمبذرين في إنفاقهم ، بل عدلًا خيارًا وخير الأمور أوسطها لا هذا ولا هذا ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ الآية . وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « مِنْ فِقْهِ الرَّجُلِ قَصْدُهُ فِي مَعِيشَتِهِ »[2] . وقال الحسن البصري : ليس في النفقة في سبيل الله سرف . وقال إياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف . وقال غيره : السرف النفقة في معصية الله ﷻ .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ .

عن عبد الله بن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ أي الذنب أكبر ؟ قال : « أَنْ تَجْعَلَ للَّه أَنْدَادًا وَهُوَ خَلَقَكَ » . قال : ثم أي ؟ قال : « أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ » . قال : ثم أي ؟ قال : « أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ » . قال عبد الله : وأنزل تصديق ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾[3] الآية . وعن سلمة بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع : « أَلَا إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعٌ » فما أنا بأشح عليهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ : « لَا تُشْرِكُوا بِاللَّه شَيْئًا ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّه إِلَّا بِالحَقِّ ، وَلَا تَزْنُوا ، وَلَا تَسْرِقُوا »[4] . وعن الهيثم بن مالك الطائي عن النبي ﷺ قال : « مَا مِنْ ذَنْبٍ بَعْدَ الشِّرْكِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّه مِنْ نُطْفَةٍ وَضَعَهَا رَجُل فِي رَحِمٍ لَا يَحِلُّ له »[5] . وقال ابن عباس يحدث أن ناسًا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمدًا ﷺ فقالوا : إن الذي تقول وتدعوا إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ، فنزلت : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ الآية . ونزلت : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ روي عن عبد الله بن عمرو أنه قال : أثامًا : واد في جهنم ، وقال

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٠/٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٤/٥) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٠/١ ، ٤٣١) ورواه بنحوه مسلم في (الإيمان) (١٤١ ، ١٤٢) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٩/٤) .
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٨٠/٤) .

عكرمة : أودية في جهنم يعذب فيها الزناة . وقال قتادة : نكالًا : كنا نحدث أنه في واد جهنم .

وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول : يا بني ، إياك والزنى فإن أوله مخافة ، وآخره ندامة . وقال السدي : ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ جزاء ، وهذا أشبه بظاهر الآية ، وبهذا فسره بما بعده مبدلًا منه وهو قوله تعالى : ﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي : يكرر عليه ويغلظ . ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ أي : حقيرًا ذليلًا . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ أي : جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ أي : في الدنيا إلى الله ﷻ من جميع ذلك ، فإن الله يتوب عليه . وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل . ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ الآية . فإن هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة ، فتحمل على من لم يتب وقد ثبتت السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ بصحة توبة القاتل . وقوله تعالى : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ في معنى قوله : ﴿ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ قولان **أحدهما** : أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات . قال ابن عباس في الآية : هم المؤمنين كانوا من قبل إيمانهم على السيئات ، فرغب الله بهم عن السيئات فحولها إلى الحسنات . فأبدلهم مكان السيئات الحسنات ، وقال عطاء بن أبي رباح : هذا في الدنيا يكون الرجل على صفة قبيحة ، ثم يبدله الله بها خيرًا . وقال سعيد بن جبير : أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن ، وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين ، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات . وقال الحسن البصري : أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح . وأبدلهم بالشرك إخلاصًا ، وأبدلهم بالفجور إحصانًا ، وبالكفر إسلامًا ، وهذا قول أبي العالية وقتادة وجماعة آخرين .

والقول الثاني : أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، وما ذاك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر . فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار ، فيوم القيامة ، وإن وجده مكتوبًا عليه ؛ فإنه لا يضره ، وينقلب حسنة في صحيفته . كما ثبتت السنة بذلك ، وصحت به الآثار المروية عن السلف ؛ فعن أبي ذر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنِّي لأَعْرِفُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنَ النَّارِ ، وَآخِرَ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُولًا إِلَى الجَنَّةِ ، يُؤْتَى بِرَجُلٍ فَيَقُولُ : نَحُّوا عَنْهُ كِبَارَ ذُنُوبِهِ وَسَلُوه عَنْ صِغَارِهَا قَالَ : فَيُقَالُ لَهُ : عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا ، كَذَا وَكَذَا ، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا ، كَذَا وكَذَا ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ . لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا . فَيُقَالُ : فإِنَّ لَكَ بِكُلِّ سَيِّئَةٍ حسنة . فَيَقُولُ : يَا رَبِّ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا » . فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه (١) ، حدثنا أبو جابر أنه سمع مكحولًا يحدث قال : أنه جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه ، فقال : يا رسول الله رجل غدر وفجر ، ولم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطفها بيمينه ، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم فهل له من توبة ؟ فقال النبي ﷺ : « أَأَسْلَمْتَ ؟ » قال : أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله . فقال النبي ﷺ : « فَإِنَّ اللَّهَ غَافِرٌ لَكَ مَا كُنْتَ كَذَلِكَ ، وَمُبَدِّل سَيِّئَاتِكَ حَسَنَاتٍ » . فقال : يا رسول الله وغدراتي وفجراتي ؟ فقال :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٨/١) والترمذي في السنن (٢٥٩٥ ، ٢٥٩٦) .

« وَغَدَرَاتِكَ وَفَجَرَاتِكَ » . فولى الرجل يكبر ويهلل (١) . ثم قال تعالى مخبرًا عن عموم رحمته بعباده ، وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان جليلًا أو حقيرًا ، كبيرًا أو صغيرًا ، فقال تعالى : ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ . أي : فإن الله يقبل توبته . كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ الآية . أي لمن تاب إليه .

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ .

وهذه أيضًا من صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور ، قيل : هو الشرك وعبادة الأصنام ، وقيل : الكذب والفسق ، والكفر واللغو والباطل ، وقال محمد ابن الحنفية : هو اللغو والغناء . وقال الضحاك والربيع بن أنس : هو أعياد المشركين . وقال عمر بن قيس : هي مجالس السوء والخنا . وقال مالك عن الزهري : شرب الخمر لا يحضرونه ولا يرغبون فيه . كما جاء في الحديث : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلَا يَجْلِس عَلَى مَائِدَةٍ يُدَارُ عَلَيْهَا الْخَمْرُ » (٢) . وقيل : المراد بقوله تعالى : ﴿ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ أي : شهادة الزور وهي : الكذب متعمدًا على غيره . كما في الصحيحين عن أبي بكرة قال : قال رسول الله ﷺ « أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ؟ » ثلاثًا . قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : « الشِّرْكُ بِاللَّه ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ » . وكان متكئًا فجلس فقال : « أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ » . فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت (٣) . والأظهر من السياق أن المراد لا يشهدون الزور أي : لا يحضرونه . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ أي : لا يحضرون الزور وإذا اتفق مرورهم به مروا ، ولم يتدنسوا منه بشيء . ولهذا قال : ﴿ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ . وهذه أيضًا من صفات المؤمنين ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ . بخلاف الكافر فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ، ولا يتغير عما كان عليه ، بل يبقى مستمرًا على كفره ، وطغيانه وجهله وضلاله . كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ . فقوله : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ أي : بخلاف الكافر الذي إذا سمع آيات الله فلا تؤثر فيه ، فيستمر على حاله كأن لم يسمعها أصم أعمى . قال مجاهد : قوله : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ قال : لم يسمعوا ، ولم يبصروا ، ولم يفقهوا شيئًا ، وقال الحسن البصري رحمه الله : كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم أعمى . وقال قتادة : لم يصموا عن الحق ، ولم يعموا فيه ، فهم والله قوم عقلوا عن الحق ، وانتفعوا بما سمعوا من كتابه . وقال ابن عون : سألت الشعبي قلت : الرجل يرى القوم سجودًا ولم يسمع ما سجدوا أيسجد معهم ؟ قال : فتلا هذه الآية : يعني أنه لا يسجد معهم ؛ لأنه لم يتدبر أمر السجود ، ولا ينبغي للمؤمن أن يكون إمعة بل يكون على بصيرة

(١) أورده البيهقي في دلائل النبوة (٩٠/٦) والسيوطي في الدر (٨٠/٥) .
(٢) أخرجه الترمذي في صحيحه (٢٨٠١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧٨/١) وذكره الهندي في كنز العمال (٢٧٤٢٦) .
(٣) أخرجه البخاري مسلم في الإيمان (١٤٣) وأحمد في مسنده (١٣١/٣) .

من أمره ، ويقين واضح بيِّن وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ يعني : الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له . قال ابن عباس : يعنون من يعمل بطاعة الله ، فتقرّ به أعينهم في الدنيا والآخرة . قال عكرمة : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالًا ، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين . وسئل الحسن البصري عن هذه الآية ، فقال : أن يرى الله العبد المسلم من زوجته ، ومن أخيه ، ومن حميمه طاعة الله ، لا والله لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدًا ، أو ولد ولد ، أو أخًا ، أو حميمًا مطيعًا لله ﷻ ، قال ابن جريج في قوله : ﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ : يعبدونك فيحسبون عبادتك ، ولا يجرون علينا الجرائر . وقال ابن زيد : يعني يسألون الله تعالى لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام . وقال جبير بن نفير : جلسنا إلى المقداد بن الأسود يومًا فمر به رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رأيا رسول الله ﷺ ، لوددنا أنا رأينا ما رأيت ، وشهدنا ما شهدت ، فاستغضب المقداد ، فجعلت أعجب لأنه ما قال إلا خيرًا . ثم أقبل إليه فقال : ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضرًا غيبه الله عنه لا يدري لو شهده كيف يكون فيه ، والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام أكبهم الله على مناخرهم في جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه ، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم قد كفيتم البلاء بغيركم ؟ لقد بعث الله النبي ﷺ على أشر حال بعث عليها نبيًا من الأنبياء في فترة جاهلية ، ما يرون أن دينًا أفضل من عباده الأوثان ، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل ، وفرق بين الوالد وولده ، إن كان الرجل ليرى والده وولده وأخاه كافرًا ، وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان يعلم أنه إن هلك دخل النار ، فلا تقر عينه ، وهو يعلم أن حبيبه في النار ، وأنها التي قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ قال ابن عباس والحسن : أئمة يقتدى بنا في الخير . وقال غيرهم : هداة مهتدين دعاة إلى الخير ، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم ، وأن يكون هداهم متعديًا إلى غيرهم بالنفع وذلك أكثر ثوابًا ، وأحسن مآبًا ؛ ولهذا ثبت عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ ، أَوْ صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ »[(١)] .

﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ .

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة ، والأقوال والأفعال الجليلة ، قال بعد ذلك كله : ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ أي : المتصفون بهذه ﴿ يُجْزَوْنَ ﴾ يوم القيامة ﴿ الْغُرْفَةَ ﴾ وهي الجنة . قال الضحاك والسدي : سميت بذلك لارتفاعها ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أي : على القيام بذلك ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا ﴾ أي : في الجنة . ﴿ تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ أي يبتدرون فيها بالتحية والإكرام ، ويلقون التوقير والاحترام ، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٤/٣) .

صبرتم ، فنعم عقبى الدار ، وقوله تعالى : ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَاۚ ﴾ أي : مقيمين لا يظعنون ، ولا يحولون ولا يموتون ، ولا يزولون عنها ، ولا يبغون عنها حولاً . كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أي : حسنت منظرًا ، وطابت مقيلًا ومنزلًا . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى ﴾ أي : لا يبالي ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه ، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ، ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلًا . قال مجاهد : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى ﴾ يقول : ما يفعل بكم ربي ، وقال ابن عباس في قوله : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى ﴾ الآية يقول : لولا إيمانكم ، وأخبر تعالى الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ، ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين . وقوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ أيها الكافرون ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أي : فسوف يكون تكذيبكم لزامًا لكم يعني : مفضيًا لعذابكم وهلاككم ، ودماركم في الدنيا والآخرة ، ويدخل في ذلك يوم بدر . وقال الحسن البصري : ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أي : يوم القيامة ، ولا منافاة بينهما .

سورة الشعراء

ووقع في تفسير مالك المروي عنه تسميتها سورة الجامعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تكلمنا عليه في أول تفسير سورة البقرة . وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أي : هذه آيات القرآن المبين . أي : البين الواضح الجلي الذي يفصل بين الحق والباطل ، والغي والرشاد . وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ ﴾ أي : مهلك . ﴿ نَّفْسَكَ ﴾ أي : مما تحرص وتحزن عليهم . ﴿ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ وهذه تسلية من الله لرسوله ﷺ في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ . قال مجاهد والحسن : ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ أي : قاتل نفسك .

ثم قال تعالى : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ أي : لو نشاء لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهرًا ، ولكن لا نفعل ذلك لأنا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري . وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ الآية . فنفذ قدره ، ومضت حكمته ، وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم ، وإنزال الكتب عليهم . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ أي : كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس . كما قال تعالى : ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ . ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي : فقد كذبوا بما جاءهم من الحق ، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ ثم نبه تعالى على عظمة سلطانه ، وجلال قدره ، وهو القاهر العظيم القادر الذي خلق الأرض ، وأنبت فيها من كل زوج كريم من زروع وثمار وحيوان . قال الشعبي : الناس من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾ أي : دلالة على قدرة الخالق للأشياء الذي بسط الأرض ، ورفع بناء السماء ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس بل خالفوا أمره وارتكبوا نهيه . وقوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي : الذي عز كل شيء وقهره وغلبه ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي : بخلقه فلا يعجل على من عصاه بل يؤجله وينظره ، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر . قال ابن إسحاق : العزيز في نقمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره ، وقال سعيد بن جبير : الرحيم بمن تاب إليه وأناب .

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝ وَيَضِيقُ

صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ۝ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ .

يخبر تعالى عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام حين ناداه من جانب الطور الأيمن ، وكلمه وناجاه ، وأرسله واصطفاه ، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ هذه أعذار سأل من الله إزاحتها عنه . كما قال في سورة طه : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ إلى قوله : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ أي : بسبب قتل القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر . ﴿ قَالَ كَلَّا ﴾ أي : قال الله لا تخف من شيء من ذلك كقوله : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا – أي برهانًا – فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ . ﴿ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ . كقوله : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ أي : إنني معكما بحفظي وكلاءتي ، ونصري وتأييدي ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . أي كل منا أرسل إليك ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي : أطلقهم من إسارك وقبضتك ، وقهرك وتعذيبك ، فإنهم عباد الله المؤمنون ، وحزبه المخلصون ، فلما قال له موسى ذلك ، أعرض فرعون هنالك بالكلية ، ونظر إليه بعين الازدراء والغمض ، فقال : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ الآية . أي أما أنت الذي ربيناه ، وفي بيتنا ، وعلى فراشنا ، وأنعمنا عليه مدة من السنين . ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة ، أن قتلت منا رجلًا ، وجحدت نعمتنا عليك . ولهذا قال : ﴿ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي : الجاحدين . ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا ﴾ أي : في تلك الحال . ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أي : قبل أن يوحى إلي ، وينعم علي بالرسالة والنبوة . قال ابن عباس ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أي الجاهلين ، قال ابن جريج : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ الآية ، أي انفصل الحال الأول ، وجاء آخر فقد أرسلني الله إليك ، فإن أطعته سلمت ، وإن خالفته عطبت . ثم قال موسى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي : وما أحسنت إلي وربيتني مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل ، فجعلتهم عبيدًا تصرفهم في أعمالك ومشاق رعيتك ، أفيفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم . أي : ليس ما ذكرته شيئًا بالنسبة إلى ما فعلت بهم .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن كفر فرعون وتمرده وطغيانه وجحوده في قوله : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وذلك لأنه كان يقول لقومه : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ . ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ وكانوا يجحدون الصانع جل وعلا ، ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون . فلما قال له موسى : إني رسول

العالمين ، قال له فرعون : ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري ؟ قال السدي : هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ . ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط ، فإنه لم يكن مقرًا بالصانع حتى يسأل عن الماهية ، بل كان جاحدًا له بالكلية فيما يظهر . وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه ، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين : ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ أي : خالق جميع ذلك ومالكه ، والمتصرف فيه وإلهه لا شريك له ، هو الذي خلق الأشياء كلها ؛ العالم العلوي ، وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات والنيرات ، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار ، وجبال وأشجار ، وحيوانات ونبات ، وما يحتوي عليه الجو ، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ أي : إن كانت لكم قلوب موقنة وأبصار نافذة ، فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملئه ورؤساء دولته قائلًا لهم على سبيل التهكم والاستهزاء ، والتكذيب لموسى فيما قاله ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ أي : ألا تعجبون من هذا في زعمه أن لكم إلهًا غيري ؟ فقال لهم موسى : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي : خالقكم وخالق آبائكم الأولين الذين كانوا قبل فرعون وزمانه ﴿ قَالَ ﴾ أي : فرعون لقومه ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ أي : ليس له عقل في دعواه أن ثم ربًا غيري ﴿ قَالَ ﴾ أي : موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة ، فأجاب موسى بقوله : ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي : هو الذي جعل المشرق مشرقًا تطلع منه الكواكب ، والمغرب مغربًا تغرب فيه الكواكب ، ثوابتها وسيارتها مع هذا النظام الذي سخرها فيه وقدرها ، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقًا ، فليعكس الأمر ، وليجعل المشرق مغربًا ، والمغرب مشرقًا . كما قال تعالى عن : ﴿ ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ الآية . ولهذا لما غلب فرعون وانقطعت حجته عدل إلى استعمال جاهه ، وقوته وسلطانه ، واعتقد أن ذلك نافع له ، ونافذ في موسى عليه السلام فقال ما أخبر الله تعالى عنه .

﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۝ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ .

لما قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل ، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه . فظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال فقال : ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ فعند ذلك قال موسى : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : ببرهان قاطع واضح ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح والعظمة ، ذات قوائم وفم كبير ، وشكل هائل مزعج . ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ ﴾ أي من جيبه ﴿ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ أي : تتلألأ كقطعة من القمر ، فبادر فرعون بشقاوته إلى التكذيب والعناد فقال للملأ حوله : ﴿ إِنَّ هَٰذَا

﴿ لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أي : فاضل بارع في السحر . فروج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة ، ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته والكفر به فقال : ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ ﴾ الآية . أي أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا فيكثر أعوانه ، وأنصاره وأتباعه ، ويغلبكم على دولتكم ، فيأخذ البلاد منكم ، فأشيروا علي فيه ماذا أصنع به ؟ ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ أي : أخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك ، وأقاليم دولتك كل سحار عليم يقابلونه ، ويأتون بنظير ما جاء به ، فتغلبه أنت وتكون لك النصرة والتأييد ، فأجابهم إلى ذلك . وكان هذا من تسخير الله لهم في ذلك ليجمع الناس في صعيد واحد ، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة .

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ .

ذكر الله تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى عليه السلام والقبط ، في سورة الأعراف وفي سورة طه ، وفي هذه السورة : وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . وهذا شأن الكفر والإيمان ما تواجها وتقابلا إلا غلبه الإيمان . ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ . ولهذا جاء السحرة وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر ، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس ، وأصنعهم وأشدهم تخييلًا في ذلك ، وكان السحرة جمعًا كثيرًا ، وقال قائلهم : ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ ولم يقولوا نتبع الحق ، سواء كان من السحرة أو من موسى بل الرعية على دين ملكهم . ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ ﴾ أي : إلى مجلس فرعون ، وقد ضربوا له وطاقًا ، وجمع خدمه وحشمه ، ووزراءه ورؤساء دولته ، وجنود مملكته . فقام السحرة بين يدي فرعون يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا أي : هذا الذي جمعتنا من أجله . فقالوا : ﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي : وأخص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي ، فعادوا إلى مقام المناظرة ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ﴾ وقد اختصر هذا ها هنا ، فقال لهم موسى : ﴿ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ . وهذا كما تقول الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئًا : هذا بثواب فلان ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي : تختطفه وتجمعه من كل بقعة ، وتبتلعه فلم تدع منه شيئًا . قال تعالى : ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ . فكان هذا أمرًا عظيمًا جدًا ، وبرهانًا قاطعًا للعذر ، وحجة دامغة . وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا غلبوا ، وخضعوا وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة ، وسجدوا لله رب العالمين ، فغلب فرعون غلبًا لم يشاهد العالم مثله ، وكان وقحًا جريئًا عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . فعدل إلى المكابرة والعناد ، ودعوى الباطل فشرع يتهددهم ويتوعدهم ويقول :

﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ الآية .

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

تهددهم فلم ينفع ذلك فيهم ، وتوعدهم فما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا ؛ ولهذا لما قال لهم فرعون : ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ أي : كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم ، ولا تفتاتوا علي في ذلك ، فإن أذنت لكم فعلتم ، وإن منعتكم امتنعتم ، فإني أنا الحاكم المطاع . ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ . وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر ؟ ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب فقالوا : ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ أي : لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالي به ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ أي : المرجع إلى الله ﷻ وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء . ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ ﴾ أي ما قارفنا من الذنوب وما أكرهتنا عليه من السحر . ﴿ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان فقتلهم كلهم .

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ .

لما طال مقام موسى ﷺ ببلاد مصر ، وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه ، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال ، فأمر الله تعالى موسى ﷺ أن يخرج بني إسرائيل ليلًا من مصر ، وأن يمضي بهم حيث يؤمر ، ففعل موسى ﷺ ما أمره به ربه ﷻ . خرج بهم بعد ما استعاروا من قوم فرعون حليًا كثيرًا . وكان خروجه بهم فيما ذكره غير واحد من المفسرين وقت طلوع القمر . وذكر مجاهد رحمه الله أنه كسف القمر تلك الليلة فالله أعلم .

فلما أصبحوا وليس في ناديهم داع ولا مجيب غاظ ذلك فرعون ، واشتد غضبه على بني إسرائيل لما يريد الله به من الدمار ، فأرسل سريعًا في بلاده حاشرين أي : من يحشر الجند ويجمعه كالنقباء ، والحجاب ونادى فيهم : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ أي : لطائفة قليلة . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ أي : كل وقت يصل منهم إلينا يغيظنا . ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ أي : نحن كل وقت نحذر من غائلتهم ، وقرأ طائفة من السلف ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ أي : مستعدون بالسلاح ، وإني أريد أن أستأصل شأفتهم وأبيد خضراءهم فجوزي في نفسه ، وجنده بما أراد لهم قال الله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ أي : فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم ، وتركوا تلك المنازل العالية ، والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق ، والملك والجاه الوافر في الدنيا . ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ الآية .

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ

وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ أي : وصلوا إليهم عند شروق الشمس ، وهو طلوعها . ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ ﴾ أي : رأى كل من الفريقين صاحبه فعند ذلك . ﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ وذلك أنهم انتهى بهم السير إلى سيف البحر وهو بحر القلزم ، فصار أمامهم البحر ، وقد أدركهم فرعون بجنوده ، فلهذا قالوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ أي : لا يصل إليكم شيء مما تحذرون ، فإن الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسير هاهنا بكم ، وهو ﷻ لا يخلف الميعاد . وأوحى الله إلى موسى : ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ ﴾ . فضربه بها ففيها سلطان الله الذي أعطاه فانفلق . قال الله تعالى : ﴿ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي : كالجبل الكبير . وقال عطاء الخرساني : هو الفج بين الجبلين ، قال ابن عباس : صار البحر اثني عشر طريقًا لكل سبط طريق ، وزاد السدي : وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض ، وقام الماء على حيله كالحيطان ، وبعث الله الريح إلى قعر البحر ، فلفحته فصار يبسًا كوجه الأرض . قال تعالى : ﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ . وقال في هذه القصة : ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ أي : هنالك . قال ابن عباس : ﴿ وَأَزْلَفْنَا ﴾ أي : قربنا من البحر فرعون وجنوده ، وأدنيناهم إليه ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ أي : أنجينا موسى وبني إسرائيل ، ومن اتبعهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد . وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل إلا هلك ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ ﴾ أي في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ تقدم تفسيره .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله ، وخليله إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء . أمر الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ أن يتلوه على أمته ليقتدوا به في الإخلاص ، والتوكل وعبادة الله وحده لا شريك له ، والتبري من الشرك وأهله ، فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل ، أي : من صغره إلى كبره ، فإنه من وقت نشأ وشب أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله ﷻ : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أي : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾ أي : مقيمين على عبادتها ودعائها ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ يعني : اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئًا من ذلك ، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون ، فعند ذلك قال لهم إبراهيم : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي : إن كانت هذه الأصنام شيئًا ولها تأثير ، فلتخلص إلي بالمساءة . فإني عدو لا أبالي بها ، ولا أفكر فيها . وهذا كما قال هود عليه السلام : ﴿ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ

بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ . وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم فقال : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ ﴾ يعني لا إله إلا الله .

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ .

يعني : لا أعبد الذي يفعل هذه الأشياء ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أي : هو الخالق الذي قدر قدرًا ، وهدى الخلائق إليه فكل يجري على ما قدر له ، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ أي : هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية ، وقوله : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أسند المرض إلى نفسه ، وإن كان عن قدر الله وقضائه ، وخلقه ولكن أضافه إلى نفسه أدبًا . كما قالت الجن : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ وكذا قال إبراهيم : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أي : وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ أي : هو الذي يحيي ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه ، فإنه هو الذي يبدئ ويعيد ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ أي : لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، وهو الفعال لما يشاء .

﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

وهذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يؤتيه ربه حكمًا ، قال ابن عباس : وهو العلم ، وقال عكرمة : هو اللب . وقال مجاهد : هو القرآن . وقال السدي : هو النبوة . وقوله : ﴿ وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ أي : اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة ، كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار : « اللَّهُمَّ في الرَّفِيقِ الأَعْلَى » . قالها ثلاثًا (١) . وفي الحديث في الدعاء : « اللَّهُمَّ أَحْيِنَا مُسْلِمِينَ ، وَأَمِتْنَا مُسْلِمِينَ ، وَأَلْحِقْنَا بالصَّالِحِينَ غيرَ خَزَايَا وَلَا مُبَدِّلِينَ » (٢) . وقوله : ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾ أي : واجعل لي ذكرًا جميلًا بعدي أذكر به ، ويقتدى بي في الخير ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي : أنعم علي في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي ، وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم . وقوله : ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ ﴾ الآية . كقوله : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ ﴾ وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ . وقد قطع تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه ، فقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٣٧) ومسلم في السلام (٤٦) وأحمد في مسنده ٤٨/٦ .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٢٤/٣) .

بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي : أجرني من الخزي يوم القيامة ، ويوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يَلقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ فَيَقُولُ أَبُوهُ : فَاليَوْمَ لَا أَعْصِيكَ . فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ : يَا رَبُّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ . فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَى الكَافِرِينَ ، ثُمَّ يَقُولُ : يَا إِبْرَاهِيمُ انْظُرْ تَحْتَ رِجْلِكَ ، فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُو بِذِيخٍ مُتَلَطِّخٍ فَيُؤخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ »(١) .

وقوله : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ أي : لا يقي المرء من عذاب اللَّه ماله ، ولو افتدى بملء الأرض ذهبًا . ﴿ وَلَا بَنُونَ ﴾ أي : ولو افتدى بمن على الأرض جميعًا ، ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان باللَّه وإخلاص الدين له ، والتبري من الشرك وأهله . ولهذا قال : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أي : سالم من الدنس والشرك . قال ابن سيرين : القلب السليم أن يعلم أن اللَّه حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن اللَّه يبعث من في القبور ، وقال ابن عباس : القلب السليم : أن يشهد أن لا إله إلا اللَّه ، وقال مجاهد : ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ يعني من الشرك . قال أبو عثمان النيسابوري : هو القلب السالم من البدعة المطمئن إلى السنة .

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ ﴾ أي : قربت وأدنيت من أهلها مزخرفة مزينة لناظريها ، وهم المتقون الذين رغبوا فيها على ما في الدنيا ، وعملوا لها في الدنيا ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ أي : أظهرت وكشف عنها ، وبدت منها عنق فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر ، وقيل لأهلها تقريعًا وتوبيخًا ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ أي : ليست الآلهة التي عبدتموها من دون اللَّه من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئًا ، فإنكم وإياها اليوم حصب جهنم أنتم لها واردون . وقوله : ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾ . قال مجاهد يعني : قد هووا فيها . وقال غيره : كبوا فيها ، والكاف مكررة . كما يقال : صرصر والمراد : أنه ألقي بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك . ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ أي : ألقوا فيها عن آخرهم ﴿ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي : يقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعًا فهل أنتم مغنون عنا نصيبًا من النار ، ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة : ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي : نجعل أمركم مطاعًا كما يطاع أمر رب العالمين ، وعبدناكم مع رب العالمين ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ أي : ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴾ قال بعضهم يعني : من الملائكة . كما يقولون : ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا

(١) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٤٩٩/٨) وأخرجه بنحوه الحاكم في المستدرك (٢٣٨/٢) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٩٠/٣) .

نَعۡمَلُۚ ﴾ . وكذا قالوا : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ﴾ أي : قريب . قال قتادة : يعلمون والله أن الصديق إذا كان صالحًا نفع ، وأن الحميم إذا كان صالحًا شفع . ﴿ فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ وذلك أنهم يتمنون أنهم يردون إلى دار الدنيا ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون ، والله تعالى يعلم أنهم لو ردوا إلى دار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ أي : إن في محاجة إبراهيم لقومه وإقامة الحجج عليهم في التوحيد لآية أي : لدلالة واضحة جلية على أن لا إله إلا الله ، ﴿ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ۝ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ .

هذا إخبار من الله ﷻ عن عبده ورسوله نوح عليه السلام . وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعدما عبدت الأصنام والأنداد ، فبعثه الله ناهيًا عن ذلك ومحذرًا من وبيل عقابه ، فكذبه قومه ، فاستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم مع الله تعالى ، ونزّل الله تعالى تكذيبهم له منزلة تكذيبهم جميع الرسل . فلهذا قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي : ألا تخافون الله في عبادتكم غيره . ﴿ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴾ أي : إني رسول من الله إليكم أمين فيما بعثني الله به ، أبلغكم رسالات ربي ، ولا أزيد فيها ، ولا أنقص منها ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ ﴾ الآية . أي لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم بل أدخر ثواب ذلك عند الله ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فقد وضح لكم وبان صدقي ونصحي ، وأمانتي فيما بعثني الله به .

﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ۝ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ۝ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ .

يقولون :لا نؤمن لك ولا نتبعك ، ونتأسى في ذلك بهؤلاء الأرذلين الذين اتبعوك وصدقوك ، وهم أراذلنا ولهذا : ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ۝ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ أي : وأي شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي ، ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه ، لا يلزمني التنقيب عنهم والبحث والفحص ، إنما علي أن أقبل منهم تصديقهم إياي ، وأكل سرائرهم إلى الله ﷻ ﴿ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ۝ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ، ويتابعوه فأبى عليهم ذلك وقال : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ أي : إنما بعثت نذيرًا فمن أطاعني واتبعني ، وصدقني كان مني وأنا منه .

﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ۝ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ۝ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله تعالى ليلًا ونهارًا ، وسرًا وجهرًا ، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ ، والامتناع الشديد . وقالوا في الآخر : ﴿ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴾ أي : لئن لم تنته من دعوتك إيانا إلى دينك ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴾ أي : لنرجمنك ، فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه . فقال : ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ۝ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي

وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴾ الآية . كما قال في الآية الأخرى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ إلى آخر الآية . وقال هاهنا : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ . والمشحون هو المملوء بالأمتعة والأزواج التي حمل فيها من كل زوجين اثنين أي : أنجينا نوحًا ومن اتبعه كلهم ، وأغرقنا من كفر به وخالف أمره كلهم أجمعين ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود عليه السلام ، إنه دعا قومه عادًا ، وكان قومه يسكنون الأحقاف ، وهي جبال الرمل قريبًا من حضر موت متاخمة بلاد اليمن ، وكان زمانهم بعد قوم نوح . كما قال في سورة الأعراف ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ . وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب ، والقوة والبطش الشديد ، والطول المديد ، والأرزاق الدارّة والأموال ، والجنات والأنهار ، والأبناء . والزروع والثمار ، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه ، فبعث الله هودًا إليهم ، رجلًا منهم فدعاهم إلى الله وحده ، وحذرهم نقمته وعذابه في مخالفته وبطشه ، فقال لهم كما قال نوح لقومه إلى أن قال : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾ اختلف المفسرون في الريع بما حاصله : أنه المكان المرتفع عند جوادّ الطرق المشهورة ، يبنون هناك بنيانًا محكمًا هائلًا باهرًا . مَعْلَمًا مشهورًا ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ أي : وإنما تفعلون ذلك عبثًا لمجرد اللعب واللهو ، وإظهار القوة ؛ ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك ؛ لأنه تضييع للزمان ، وإتعاب للأبدان في غير فائدة ، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ قال مجاهد : والمصانع البروج المشيدة والبنيان المخلد . وفي رواية عنه : بروج الحمام . وقال قتادة : هي مأخذ الماء . روي أن أبا الدرداء رضي الله عنه لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البنيان ونصب الشجر ، قام في مسجدهم فنادى : يا أهل دمشق ، فاجتمعوا إليه فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ألا تستحيون ؟ ألا تستحيون ؟ تجمعون مالا تأكلون ، وتبنون ما لا تسكنون ، وتأملون ما لا تدركون ؟ إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون ، ويبنون فيوثقون ، ويأملون فيطيلون ، فأصبح أملهم غرورًا ، وأصبح جمعهم بورًا ، وأصبحت مساكنهم قبورًا ، ألا إن عادًا ملكت ما بين عدن وعمان خيلًا وركابًا ، فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين ؟ . وقوله : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ أي : يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت . ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ أي : اعبدوا ربكم وأطيعوا رسولكم ، ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي : إن كذبتم وخالفتم ، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب فما نفع فيهم .

﴿ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن جواب قوم هود له ، بعد ما حذرهم وأنذرهم ، ورغبهم ورهبهم ، وبيّن لهم الحق ووضحه : ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ أي : لا نرجع عما نحن عليه ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وهكذا الأمر فإن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . وقولهم : ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ . قرأ بعضهم : ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ بفتح الخاء وتسكين اللام . قال ابن عباس : يعنون ما هذا الذي جئتنا به إلا أخلاق الأولين . كما قال المشركون من قريش : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ . وقرأ آخرون : ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ بضم الخاء واللام [1] يعنون : دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأولين من الآباء والأجداد ، ونحن تابعون لهم سالكون وراءهم نعيش كما عاشوا ، ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا معاد . ولهذا قالوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ يقول : دين الأولين .

وقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ أي : استمروا على تكذيب نبي الله هود ، ومخالفته وعناده ، فأهلكهم الله . وقد بيّن سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن ، بأنه أرسل عليهم ريحًا صرصرًا عاتية أي : ريحًا شديدة الهبوب ذات برد شديد جدًّا ، فكان سبب إهلاكه من جنسهم ، فإنهم كانوا أعتى شيء ، وأجبره فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة . كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ وهم عاد الأولى كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴾ وهم من نسل إرم بن سام بن نوح ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ الذين كانوا يسكنون العمد ، وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ حُسُومًا ﴾ أي كاملة ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ . أي : بقوا أبدانًا بلا رءوس ، وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقتله وترفعه في الهواء ، ثم تنكسه على أم رأسه ، فتشدخ دماغه ، وتكسر رأسه ، وتلقيه كأنهم أعجاز نخل منقعر . وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات ، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم فلم يغن عنهم ذلك من أمر الله شيئًا ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ الآية .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وهذا إخبار من الله ﷻ عن عبده ورسوله صالح عليه السلام ، أنه بعثه إلى قومه ثمود ، وكانوا عربًا يسكنون مدينة الحجر التي بين وادي القرى وبلاد الشام ، ومساكنهم معروفة مشهورة ، وقد قدمنا في سورة الأعراف الأحاديث المروية في مرور رسول الله ﷺ بهم حين أراد غزو الشام فوصل إلى تبوك ، ثم عاد إلى المدينة ليتأهب لذلك . وكانوا بعد عاد وقبل الخليل عليه السلام ، فدعاهم نبيهم صالح إلى الله ﷻ أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه ، وأخبرهم ، أنه لا يبتغي بدعوتهم أجرًا منهم . وإنما يطلب ثواب ذلك من الله ﷻ ، ثم ذكّرهم آلاء الله عليهم فقال :

(١) قرأ أبو جعفر وابن كثير والبصريان والكسائي (خَلْقُ) بفتح الخاء وإسكان اللام والباقون بضمهما (انظر : تقريب النشر ص ١٥٢) .

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ .

يقول لهم واعظًا لهم ومحذرهم نقم الله أن تحل بهم ، ومذكرًا بأنعم الله فيما رزقهم من الأرزاق الدارة ، وجعلهم في أمن من المحذورات ، وأنبت لهم من الجنات ، وفجر لهم من العيون الجاريات ، وأخرج لهم من الزروع والثمرات ؛ ولهذا قال : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ قال ابن عباس : أينع وبلغ فهو هضيم وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس : معشبة ، وقال : إذا رطب واسترخى . وعن أبي العلاء قال : هو المذنب من الرطب . وقال مجاهد : هو الذي إذا يبس تهشم وتفتت وتناثر . وقال مجاهد : حين يطلع تقبض عليه فتهضمه فهو من الرطب الهضيم ومن اليابس الهشيم تقبض عليه فتهشمه . وقال قتادة : الهضيم الرطب اللين . وقال الضحاك : إذا كثر حمل الثمرة وركب بعضها بعضًا فهو هضيم ؛ وقال مرة : هو الطلع حين يتفرق ويخضر . وقال الحسن البصري : هو الذي لا نوى له .

وقوله : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴾ قال ابن عباس : يعني : حاذقين . وفي رواية عنه شرهين أشرين ، وهو اختيار مجاهد وجماعة ولا منافاة بينهما ، فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرًا وبطرًا وعبثًا من غير حاجة إلى سكناها ، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها ، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم . ولهذا قال : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ أي : أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتعبدوه وتوحدوه ، وتسبحوه بكرة وأصيلًا . ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ يعني : رؤساءهم وكبراءهم الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ، ومخالفه الحق .

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن ثمود في جوابهم لنبيهم صالح عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة ربهم عز وجل أنهم : ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ قال مجاهد : يعنون من المسحورين . وروى أبو صالح عن ابن عباس : ﴿ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ يعني من المخلوقين .

والأظهر في هذا قول مجاهد : أنهم يقولون : إنما أنت في قولك هذا مسحور لا عقل لك . ثم قالوا : ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ يعني : فكيف أوحي إليك دوننا ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم ، وقد اجتمع ملؤهم ، وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشراء - وأشاروا إلى صخرة عندهم - من صفتها كذا وكذا ، فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليتبعنه ، فأعطوه ذلك . فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى ، ثم دعا الله عز وجل أن يجيبهم إلى سؤالهم ، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عشراء على الصفة التي وصفوها ، فآمن بعضهم ، وكفر أكثرهم ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ يعني : ترد ماءكم يومًا ، ويومًا تردونه أنتم ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ

فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء ، فمكثت الناقة بين أظهرهم حينًا من الدهر ترد الماء ، وتأكل الورق والمرعى ، وينتفعون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم شربًا وريًّا ؛ فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تمالؤوا على قتلها وعقرها ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ وهو : أن أرضهم زلزلت زلزالًا شديدًا ، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون وأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله لوط عليه السلام ، وهو لوط بن هاران بن آزر ، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام . وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم عليهما السلام ، وكانوا يسكنون سدوم ، وأعمالها التي أهلكها الله بها ، وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة ، وهي مشهورة ببلاد الغور متاخمة لجبال بيت المقدس بينها وبين بلاد الكرك والشوبك ؛ فدعاها إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له ؛ وأن يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله إليهم ، ونهاهم عن معصية الله ، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم مما لم يسبقهم أحد من الخلائق إلى فعله من إتيان الذكور دون الإناث . ولهذا قال تعالى :

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

لما نهاهم نبي الله عن ارتكاب الفواحش وغشيانهم الذكور ، وأرشدهم إلى إتيان نسائهم اللاتي خلقهن الله لهم ما كان جوابهم له إلا أن قالوا : ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ ﴾ أي : عما جئتنا به ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ أي : ننفيك من بين أظهرنا . فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه ، وأنهم مستمرون على ضلالتهم تبرأ منهم . قال : ﴿ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ أي : المبغضين لا أحبه ولا أرضى به ، وإني بريء منكم ، ثم دعا الله عليهم فقال : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : كلهم . ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ وهي : امرأته ، وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع من بقي من قومها ، وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة الأعراف وهود ، وكذا في الحجر حين أمره الله أن يسري بأهله إلا امرأته ، وأنهم لا يلتفتون إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه ، فصبروا لأمر الله واستمروا ، وأنزل الله على أولئك العذاب الذي عم جميعهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

هؤلاء - يعني أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح ، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم ، وإنما لم يقل ها هنا أخوهم شعيب ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة وهي : شجرة . وقيل : شجر ملتف كالغيضة ، كانوا يعبدونها ؛ فلهذا لما قال : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ لم يقل : إذا قال لهم أخوهم شعيب : وإنما قال : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه ، وإن كان أخاهم نسبًا . ومن الناس من لم يفطن لهذه النكتة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين ، فزعم أن شعيبًا عليه السلام بعثه الله إلى أمتين . ومنهم من قال : ثلاث أمم . وقوله : ﴿ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ﴾ قوم شعيب ، وقاله إسحاق بن بشر ، وقال غير جويبر : أصحاب الأيكة ومدين هما واحد والله أعلم . والصحيح : أنهم أمة واحدة وصفوا في كل مقام بشيء ؛ ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان ، كما في قصة مدين سواء بسواء ، فدل ذلك على أنهما أمة واحدة .

﴿ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ .

يأمرهم عليه السلام بإيفاء المكيال والميزان ، وينهاهم عن التطفيف فيهما فقال : ﴿ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴾ أي : إذا دفعتم للناس فكملوا الكيل لهم ، ولا تبسخوا الكيل فتعطوه ناقصًا ، وتأخذوه إذا كان لكم تامًّا وافيًا ، ولكن خذوا كما تعطون ، وأعطوا كما تأخذون ﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ . والقسطاس : هو الميزان ، وقيل : هو القبان . قال بعضهم : هو معرب من الرومية . قال مجاهد : القسطاس المستقيم هو العدل بالرومية . وقال قتادة : القسطاس العدل . وقوله : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ أي : لا تنقصوهم أموالهم ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ يعني قطع الطريق . كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يخوفهم بأس الله الذي خلقهم وخلق آباءهم الأوائل ، قال ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ : خلق الأولين . وقرأ ابن زيد : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ .

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها تشابهت قلوبهم . حيث قالوا : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ يعنون : من المسحورين ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أي : تتعمد الكذب فيما تقوله لا أن الله أرسلك إلينا ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ قال الضحاك : جانبًا من السماء . وقال قتادة : قطعًا من السماء . وقال السدي : عذابًا من السماء . وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآية . وهكذا قال هؤلاء الكفار الجهلة . ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآية . ﴿ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يقول : الله أعلم بكم ، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به وهو غير ظالم لكم . وهكذا وقع بهم جزاء كما سألوا جزاء وفاقًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وهذا من جنس ما سألوه من إسقاط الكسف عليهم ، فإن الله ﷻ جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام لا يُكنهم منه شيء ، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر ، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شررًا من نار ، ولهبًا ووهجًا عظيمًا ، ورجفت بهم الأرض ، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ . وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ، ففي الأعراف : ذكر أنهم أخذتهم الرجفة ، فأصبحوا في دارهم جاثمين ، وذلك لأنهم قالوا : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ فأرجفوا نبي الله ومن اتبعه ، فأخذتهم الرجفة . وفي سورة هود قال : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ وذلك لأنهم استهزأوا بنبي الله في قولهم : ﴿ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ قالوا : ذلك على سبيل التهكم والازدراء ، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم فقال : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ الآية . وها هنا قالوا : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآية . على وجه التعنت والعناد ، فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه . ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ . قال ابن عباس : بعث الله عليهم رعدة وحرًا شديدًا فأخذ بأنفاسهم ، فخرجوا من البيوت هرابًا إلى البرية ، فبعث الله عليهم سحابة ، فأظلتهم من الشمس ، فوجدوا لها بردًا ولذة فنادى بعضهم بعضًا حتي إذا اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم نارًا . قال ابن عباس : فذلك عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم (١) . ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي : العزيز في انتقامه من الكافرين ، الرحيم بعباده المؤمنين .

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ أي : القرآن ﴿ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي : أنزله الله عليك وأوحاه إليك . ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ وهو جبريل عليه السلام . ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ أي : نزل به ملك كريم أمين ذو مكانة عند الله مطاع في الملأ الأعلى ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ يا محمد : سالمًا من الدنس والزيادة والنقص ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ أي : لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه ، وتبشر به المؤمنين المتبعين له . وقوله تعالى : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ أي : هذا القرآن الذي أنزلناه إليك أنزلناه باللسان العربي الفصيح الكامل الشامل ليكون بينًا واضحًا ظاهرًا للعذر ، مقيمًا للحجة ، دليلًا إلى المحجة ، وعن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه في يوم دجن إذ قال لهم : « كَيْفَ تَرَوْنَ بَوَاسِقَهَا » ؟ قالوا : ما أحسنها وأشد تراكمها . قال : « فَكَيْفَ تَرَوْنَ قَوَاعِدَهَا ؟ » قالوا : ما أحسنها وأشد تمكنها . قال : « فَكَيْفَ تَرَوْنَ جَوْنَهَا ؟ » قالوا : ما أحسنه وأشد سواده . قال : « فَكَيْفَ تَرَوْنَ رَحَاهَا اسْتَدَارَتْ ؟ » . قالوا : ما أحسنها وأشد استدارتها . قال : « فَكَيْفَ تَرَوْنَ بَرْقَهَا أَوَمِيضٌ ، أم خفق ، أَمْ يَشُقُّ شَقًّا ؟ » قالوا : بل

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٩/١٣٤) وفيه ومَدَة بدلًا من رعدة والوَمَدة : ندى يجيء من حميم الحر من قبل البحر مع سكون الريح وهو ما يعرف الآن بالرطوبة .

يشق شقًّا . قال : « الحَيَاءَ الحَيَاءَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » . قال : فقال رجل : يا رسول الله بأبي وأمي ما أفصحك ما رأيت الذي هو أعرب منك . قال : فقال : « حق لي ، وَإِنَّمَا أُنْزِلَ القُرْآنُ بِلِسَانِي ، وَاللَّهُ يَقُولُ ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ »[1] ، وقال سفيان الثوري . لم ينزل وحي إلا بالعربية ، ثم ترجم كل نبي لقومه واللسان يوم القيامة بالسريانية فمن دخل الجنة تكلم بالعربية .

﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى : وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه . كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك ، حتى قام آخرهم خطيبًا في ملئه بالبشارة بأحمد ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ .

والزبر : هاهنا هي الكتب ، وهي جمع زبور ، وكذلك الزبور ، وهو كتاب داود . وقال الله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ أي : مكتوب عليهم في صحف الملائكة ثم قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي : أوليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها والمراد : العدول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ، ومبعثه وأمته . كما أخبر بذلك من آمن منهم : كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي عمن أدركه منهم ومن شاكلهم . قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ الآية . ثم قال تعالى مخبرًا عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن : إنه لو نزل على رجل من الأعاجم ممن لا يدري من العربية كلمة ، وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته لا يؤمنون به . ولهذا قال : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ . كما أخبر عنهم في الآية الأخرى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الآية .

﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى : كذلك سلكنا التكذيب والكفر ، والجحود والعناد أي : أدخلناه في قلوب المجرمين . ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أي : بالحق . ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ أي : حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ، ولهم سوء الدار . ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أي : عذاب الله بغتة . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ أي : يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلًا ليعملوا في زعمهم بطاعة الله . وقوله تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ إنكار عليهم ، وتهديد لهم ، فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيبًا واستبعادًا : ائتنا بعذاب الله . كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ﴾ الآيات . ثم قال : ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟

(١) أورده الهندي بنحوه في كنز العمال (١٥٢٤٧) .

يمتعون ﴾ أي : لو أخرناهم وأنظرناهم ، وأملينا لهم برهة من الدهر ، وحينًا من الزمان ، وإن طال ، ثم جاءهم أمر الله أي شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعيم ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ . ولهذا قال تعالى : ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ .

وفي الحديث الصحيح : « يُؤْتَى بِالكَافِرِ فَيُغْمَسُ فِي النَّارِ غَمْسَةً ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ هَلْ رَأَيْتَ نَعِيمًا قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا واللَّهِ يَا رَبِّ ، وَيُؤْتَي بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا كَانَ فِي الدُّنْيَا ، فَيُصْبَغُ فِي الجَنَّةِ صَبْغَةً ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ »(١) . أي : ما كأن شيئًا كان .

ثم قال تعالى مخبرًا عن عدله في خلقه أنه ما أهلك أمة من الأمم إلا بعد الإعذار إليهم ، والإنذار لهم وبعثة الرسل إليهم ، وقيام الحجة عليهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ . كما قال تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ .

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن كتابه العزيز أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ، ثم ذكر أنه يمتنع عليهم ذلك من ثلاثة أوجه : أحدها : أنه ما ينبغي لهم أي : ليس هو من بغيتهم ، ولا من طلبتهم لأن من سجاياهم الفساد ، وإضلال العباد ، وهذا فيه الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ونور وهدى ، وبرهان عظيم ، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة . ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي : ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك . قال الله تعالى : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ .

ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته ، لما وصلوا إلى ذلك ؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله لأن السماء ملئت حرسًا شديدًا وشهبًا في مدة إنزال القرآن على رسول الله ، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه لئلا يشتبه الأمر . وهذا من رحمة الله بعباده ، وحفظه لشرعه ، وتأييده لكتابه ولرسوله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ . كما قال تعالى مخبرًا عن الجن : ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ .

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ .

يقول تعالى آمرًا بعبادته وحده لا شريك له ، ومخبرًا أن من أشرك به عذبه . ثم قال تعالى آمرًا لرسوله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين أي الأدنين إليه ، وأنه لا يخلص أحدًا منهم ، إلا إيمانه بربه ﷻ . وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين . ومن عصاه من خلق الله كائنًا من كان فليتبرأ منه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٢٠٣) .

بل هي فرد من أجزائها . كما قال تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ . وفي صحيح مسلم : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنَ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ » (١) . وقد وردت أحاديث كثيرة في نزول هذه الآية الكريمة .

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما أنزل الله عز وجل : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ أتى النبي ﷺ الصفا ، فصعد عليه ثم نادى : « يَا صَبَاحَاهُ » فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه ، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، يَا بَنِي فهر ، يَا بَنِي لُؤَيٍّ ، أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيكُمْ صَدَّقْتُمُونِي ؟ » قالوا : نعم . قال : « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » . فقال أبو لهب : تبًّا لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (٢) .

وعن عائشة قالت : لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ . قام رسول الله ﷺ فقال : « يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ » (٣) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشًا فعمَّ وخصَّ فقال : « يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار ، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئًا ، إلا أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها » (٤) .

وعن علي رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ جمع النبي ﷺ من أهل بيته ، فاجتمع ثلاثون ، فأكلوا وشربوا قال : وقال لهم : « مَنْ يَضْمَنُ عَنِّي دَيْنِي وَمَوَاعِيدِي ، وَيَكُونُ مَعِي فِي الْجَنَّةِ ، وَيَكُونُ خَلِيفَتِي فِي أَهْلِي ؟ » فقال رجل لم يسمه شريك : يا رسول الله أنت كنت بحرًا من يقوم بهذا ؟ قال : ثم قال الآخر - ثلاثًا - : قال : فعرض ذلك على أهل بيته فقال علي : أنا (٥) .

ومعنى سؤاله ﷺ لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه ، ويخلفوه في أهله يعني : إن قتل في سبيل الله ، كأنه خشي إذا قام بأعباء الإنذار أن يقتل . فلما أنزل الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ . فعند ذلك أمن ، وكان أولًا يحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ولم يكن أحد في بني هاشم إذ ذاك أشد إيمانًا ، وإيقانًا وتصديقًا لرسول الله ﷺ من علي رضي الله عنه ، ولهذا بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسول الله ﷺ . ثم كان بعد هذا ، والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أي :

---

(١) أخرجه مسلم في (الإيمان) (٢٤٠) .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٥٥) والإمام أحمد في مسنده (٣٠٧/١) .
(٣) أخرجه مسلم في (الإيمان) (٣٥٠) والإمام أحمد في مسنده (١٨٧/٦) .
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦٠/٢) والترمذي في سننه (٣١٨٥) .
(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١١٦/١) والهندي في الكنز (٣٦٤٠٨) .

في جميع أمورك فإنه مؤيديك وحافظك، وناصرك ومظفرك، ومعلي كلمتك، وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي: هو معتن بك. كما قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾. قال ابن عباس: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ يعني: إلى الصلاة، وقال عكرمة: يرى قيامه وركوعه وسجوده، وقال الحسن: إذا صليت وحدك، وقال الضحاك: أي: من فراشك أو مجلسك. وقال قتادة: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ ﴾ قائمًا وجالسًا وعلى حالاتك. وقوله تعالى: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ قال قتادة: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ قال: في الصلاة يراك وحدك، ويراك في الجمع. وقال مجاهد: كان رسول الله ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه. ويشهد لهذا ما صح في الحديث «سَوُّوا صُفُوفَكُمْ فَإِنِّي أَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي»(١). وروى من طريقين عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: يعني تقلبه من صلب نبي إلى صلب نبي حتى أخرجه نبيًّا. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم.

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾.

يقول تعالى مخاطبًا لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ ليس بحق، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه، أو أنه أتاه به رئي من الجان، فنزه الله ﷻ جناب رسوله عن قولهم وافترائهم، ونبه أن ما جاء به، إنما هو من عند الله، وأنه تنزيله ووحيه نزل به ملك كريم أمين عظيم، وأنه ليس من قبل الشياطين. فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم، وإنما ينزلون على من يشاكلهم، ويشابههم من الكهان الكذبة. ولهذا قال الله تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ﴾ أي: أخبركم. ﴿ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أي: كذوب في قوله وهو: الأفاك ﴿ أَثِيمٍ ﴾ وهو: الفاجر في أفعاله. فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين من الكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة. فإن الشياطين أيضًا كذبة فسقة. ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ أي: يسترقون السمع من السماء فيسمعون الكلمة من علم الغيب، فيزيدون معها مائة كذبة(٢). ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس، فيحدثون بها فيصدقهم الناس في ما قالوه بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء. كما صح بذلك الحديث، عن عائشة رضي الله عنها: سأل ناس النبي ﷺ عن الكهان فقال: «إِنَّهمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ». قالوا: يا رسول الله فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقًّا، فقال النبي ﷺ: «تِلْكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ يَخْطَفُهَا الجِنِّيُّ فَيُقَرْقِرُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجِ، فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كِذْبَةٍ»(٣). وعن سفيان حدثنا عمرو عن عكرمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خضعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهَا سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: ماذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُو

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٧٢٥) وأحمد في مسنده ٩٨/٢.
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٦١).
(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٦١) ومسلم في (السلام) (١٢٢، ١٢٤) وأحمد في مسنده (٢١٨/١).

السَّمع هَكَذَا بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْض - وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِيَدِهِ ، فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، حَتَّى يُلْقِيهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا ، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ فيكذب مَعَهَا مِائَةَ كِذْبَةٍ . فَيُقَالُ : أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا : كذا وكذا ؟ فَيُصَدقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ »(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ قال ابن عباس : يعني : الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن ، وقال عكرمة : كان الشاعران يتهاجيان ، فينتصر لهذا فئام من الناس ، ولهذا فئام من الناس . فأنزل اللَّه تعالى : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ . وعن يحنس مولى مصعب بن الزبير ، عن أبي سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول اللَّه ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر فقال النبي ﷺ : « خُذُوا الشَّيطَانَ - أَوْ أَمْسِكُوا الشَّيْطَانَ - لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحدِكُمْ قَيْحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا »(٢) . وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ قال ابن عباس : في كل لغو يخوضون . وقال الضحاك عن ابن عباس : في كل فن من الكلام . قال مجاهد وغيره : قد واللَّه رأينا أوديتهم التي يخوضون فيها مرة في شتيمة فلان ، ومرة في مديحة فلان . وقال قتادة : الشاعر يمدح قومًا بباطل ، ويذم قومًا بباطل . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : أكثر قولهم يكذبون فيه . وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنه هو الواقع في نفس الأمر . فإن الشعراء يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ، ولا عنهم فيتكثرون بما ليس لهم . ولهذا اختلف العلماء رحمهم اللَّه فيهم إذا اعترف الشاعر في شعره بما يوجب حدًّا هل يقام عليه بهذا الاعتراف أو لا ؟ لأنهم يقولون ما لا يفعلون على قولين . وقد ذكر محمد بن إسحاق ومحمد بن سعد في الطبقات ، والزبير بن بكار في كتاب الفكاهة أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : استعمل النعمان بن عدي بن نضلة على ميسان من أرض البصرة وكان يقول الشعر فقال :

أَلاَ هَلْ أَتَى الحَسْنَاءَ أَنَّ خَلِيلَهَا ... بِمَيْسَانَ يُسْقَى فِي زُجَاجٍ وَحَنْتَمِ
إِذَا شِئْتُ غَنَّتْنِي دَهَاقِينُ قَرْيَةٍ ... وَرَقَّاصَةٌ تَجْنُو عَلَى كُلِّ مَبْسِمِ
فَإِنْ كُنْتَ نُدْمَانِي فَبِالأَكْبَرِ اسْقِنِي ... وَلاَ تَسْقِنِي بِالأَصْغَرِ المُتَثَلِّمِ
لَعَلَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ يَسُوءُهُ ... تَنَادُمُنَا بِالجَوْسَقِ المُتَهَدِّمِ

فلما بلغ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : أي واللَّه إنه ليسوؤني ذلك ومن لقيه فليخبره أني قد عزلته . وكتب إليه عمر : بسم اللَّه الرحمن الرحيم ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (أما بعد) فقد بلغني قولك :

لَعَلَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ يَسُوءُهُ ... تَنَادُمُنَا بِالجَوْسَقِ المُتَهَدِّمِ

وايم اللَّه إنه ليسوؤني وقد عزلتك ، فلما قدم على عمر بكته بهذا الشعر فقال : واللَّه يا أمير المؤمنين ما شربتها قط ، وما ذاك الشعر إلا شيء طفح على لساني . فقال عمر : أظن ذلك ، ولكن

---

(١) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٠١) والترمذي في السنن (٣٢٢٣) وابن ماجه في سننه (١٩٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٨) .

والله لا تعمل لي عملًا أبدًا . وقد قلت ما قلت . فلم يذكر أنه حده على الشراب ، وقد ضمنه شعره لأنهم يقولون ما لا يفعلون ، ولكنه ذمه عمر ﷺ ، ولامه على ذلك وعزله به .

وقوله : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ عن أبي الحسن سالم البراد بن عبد الله مولى تميم الداري قال : لما نزلت : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ جاء حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون قالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء فتلا النبي ﷺ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ قال : « أنتم » . ﴿ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ قال : « أَنْتُمْ » ﴿ وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾ قال : « أنتم » [(١)] هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم ، حتى يدخل فيه من كان متلبسًا من شعراء الجاهلية يذم الإسلام وأهله ، ثم تاب وأناب ورجع وأقلع ، وعمل صالحًا ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وامتدح الإسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه .

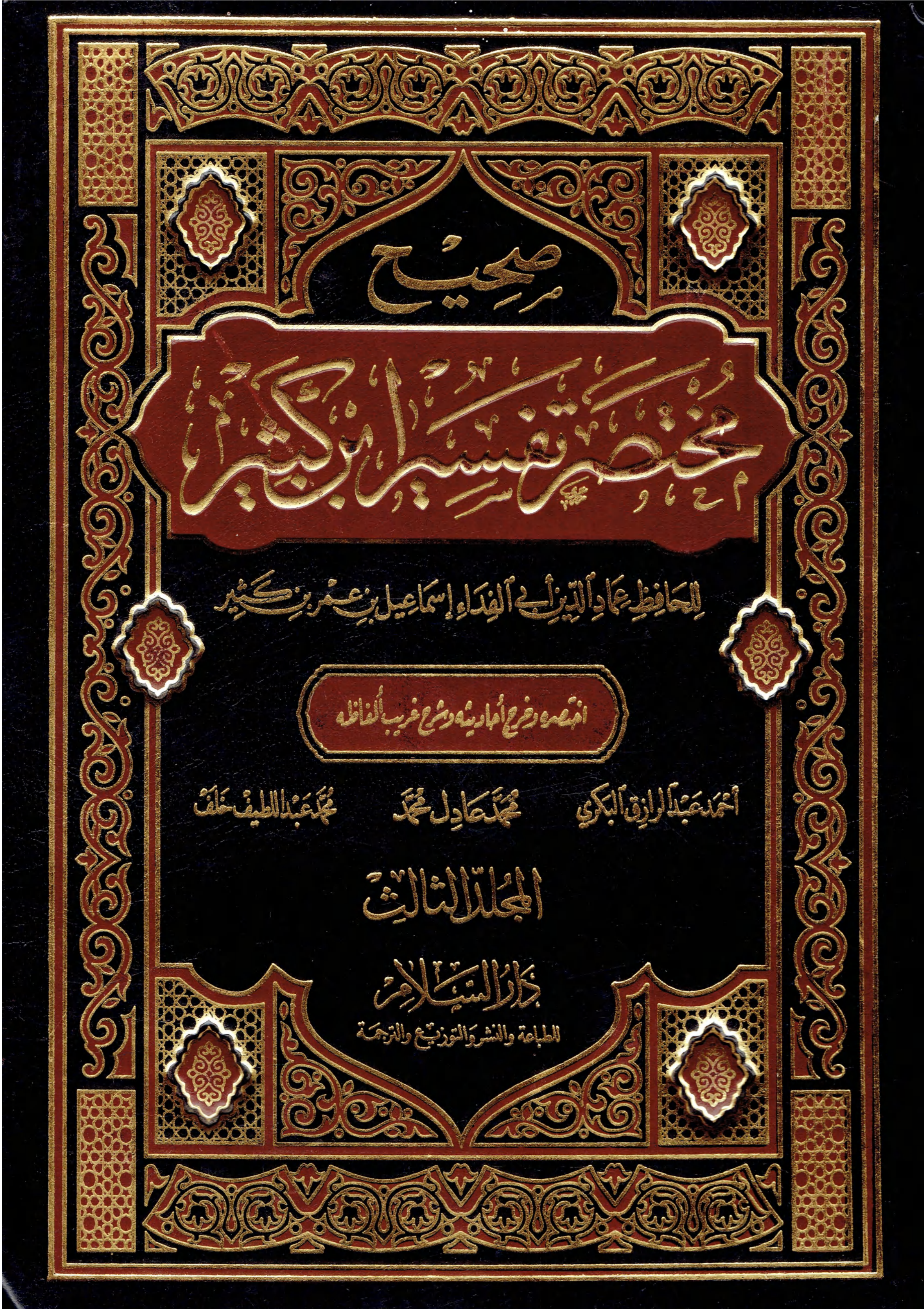
وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب كان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ، وهو ابن عمه وأكثرهم له هجوًا ، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ ، وكان يمدح رسول الله ﷺ بعد ما كان يهجوه ، ويتولاه بعد ما كان قد عاداه . وعن ابن عباس أن أبا سفيان صخر بن حرب لما أسلم قال : يا رسول الله ثلاث أعطنيهن قال : « نَعَمْ » قال : معاوية تجعله كاتبًا بين يديك ، قال : « نَعَمْ » قال : وتؤمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين ، قال : « نَعَمْ » وذكر الثالثة [(٢)] ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ قيل : معناه ذكروا الله كثيرًا في كلامهم ، وقيل : في شعرهم ، وكلاهما صحيح مكفر لما سبق .

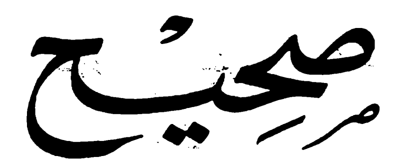
وقوله تعالى : ﴿ وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾ قال ابن عباس : يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين ، وهذا كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان : « اهْجُهُمْ - أَوْ - هَاجِهِمْ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ » [(٣)] . وعن كعب بن مالك ، أنه قال للنبي ﷺ : إن الله ﷻ قد أنزل في الشعراء ما أنزل ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ فَكَأَنَّ مَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضحُ النَّبْلِ » [(٤)] . وقوله تعالى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ الآية . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » [(٥)] . قوله تعالى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ يعني : من الشعراء وغيرهم . وقيل : المراد بهم : أهل مكة . وقيل : الذين ظلموا من المشركين . والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم ، وعن عائشة ﵂ قالت : كتب أبي في وصيته سطرين : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما وصى به أبو بكر بن أبي قحافة عند خروجه من الدنيا حين يؤمن الكافر ، وينتهي الفاجر ، ويصدق الكاذب ، إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن يعدل فذاك ظني به ورجائي فيه ، وإن يجر ويبدل فلا أعلم الغيب ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٨٨) . (٢) أخرجه مسلم في (فضائل الصحابة) (١٦٨) .
(٣) أخرجه البخاري في (المغازي) (٤١٢٣) ومسلم في (فضائل الصحابة) (٥٣ ، ١٥٧) وأحمد في مسنده (٤/٣٠٢) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤٥٦) والبيهقي في السنن (١٠/٣٢٩) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢/١٠٦) والحاكم في المستدرك (١/١١) والدارمي في السنن (٢/٤٢٠) .

فهرس المجلد الثاني


صحيح
مختصر تفسير ابن كثير
للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير
اختصره وخرج أحاديثه وشرح غريب ألفاظه
أحمد عبد الرازق البكري
محمد عادل محمد
محمد عبد اللطيف خلف
المجلد الثالث
دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



مختصر تفسير ابن كثير

للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير

اختصره وخرج أحاديثه وشرح غريب ألفاظه

أحمد عبد الرازق البكري

محمد عادل محمد

محمد عبد اللطيف خلف

المجلد الثالث

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
لصاحبها
عبد القادر محمود البكار

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م
الطبعة الثانية
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م
الطبعة الثالثة
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

القاهرة - جمهورية مصر العربية
الإدارة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
بريديًا : ص.ب ١٦١ الغورية الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

سورة النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ .

قد تقدم الكلام في سورة البقرة على الحروف المقطعة في أوائل السور . وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ﴾ أي : هذه آيات ﴿ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : بين واضح ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه ، وعمل فيه وأقام الصلاة المكتوبة ، وآتى الزكاة المفروضة ، وأيقن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت ، والجزاء على الأعمال وشرها ، والجنة والنار ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي : يكذبون بها ويستبعدون وقوعها ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي : حسنا ما هم فيه ، ومددنا لهم في غيهم فهم يتيهون في ضلالهم ، وكان هذا جزاء على ما كذبوا من الدار الآخرة . ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ أي : في الدنيا والآخرة ﴿ وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ أي : ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أي : ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ يا محمد ﴿ لَتُلَقَّى ﴾ أي : لتأخذ ﴿ ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أي : من عند حكيم عليم أي : حكيم في أمره ونهيه ، عليم بالأمور جليلها وحقيرها ، فخبره هو الصدق المحض ، وحكمه هو العدل التام .

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مذكرًا له ما كان من أمر موسى عليه السلام ، كيف اصطفاه الله ، وكلمه وناجاه ، وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة ، والأدلة القاهرة ، وابتعثه إلى فرعون وملئه ، فجحدوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له . فقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ ﴾ أي : اذكر حين سار موسى بأهله فأضل الطريق ، وذلك في ليل وظلام ، فآنس من جانب الطور نارًا أي : رأى نارًا تأجج وتضطرم . فقال : ﴿ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أي : عن الطريق ﴿ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أي : تستدفئون به . وكان كما قال فإنه رجع منها بخبر عظيم ، واقتبس منها نورًا عظيمًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي : فلما أتاها ورأى منظرًا هائلًا عظيمًا حيث انتهى إليها ، والنار تضطرم في شجرة خضراء لا تزداد النار إلا توقدًا ، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة ، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء . قال ابن عباس وغيره : لم

تكن نارًا وإنما كانت نورًا يتوهج . وفي رواية عن ابن عباس : نور رب العالمين . فوقف موسى متعجبًا مما رأى فنودي ﴿ أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾ . قال ابن عباس : تقدس . ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي : من الملائكة . وعن أبي موسى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يرْفعُ إِلَيْهِ عَمَلَ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَعَمَلَ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ » . زاد المسعودي : « وحجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كلَّ شيء أدركه البصر » . ثم قرأ أبو عبيدة : ﴿ أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [(١)] . وقوله تعالى : ﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي : الذي يفعل ما يشاء ولا يشبهه شيء من مخلوقاته ، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته ، وهو العلي العظيم المباين لجميع المخلوقات ، ولا يكتنفه الأرض والسماوات بل الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات .

وقوله تعالى : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز الذي عز كل شيء وقهره وغلبه ، الحكيم في أقواله وأفعاله ، ثم أمره أن يلقي عصاه من يده ليظهر له دليلًا واضحًا على أنه الفاعل المختار القادر على كل شيء ، فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حية عظيمة هائلة في غاية الكبر وسرعة الحركة مع ذلك ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ والجان ضرب من الحيات أسرعه حركة وأكثره اضطرابًا . وفي الحديث نهى عن قتل جنان البيوت [(٢)] . فلما عاين موسى ذلك ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي : لم يلتفت من شدة فرقه ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ أي : لا تخف مما ترى ، فإني أريد أن أصطفيك رسولًا ، وأجعلك نبيًّا وجيهًا ، وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ هذا استثناء منقطع وفيه بشارة عظيمة للبشر ، وذلك أن من كان على عمل سيئ ، ثم أقلع عنه ورجع وتاب وأناب ، فإن الله يتوب عليه . كما قال تعالى : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ هذه آية أخرى ، ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار ، وصدق من جعل له معجزة ، وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده في جيب درعه ، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر لها لمعان تتلألأ كالبرق الخاطف . وقوله تعالى : ﴿ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ ﴾ أي : هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن ، وأجعلهن برهانًا لك إلى فرعون وقومه . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ وهذه هي الآيات التسع التي قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ . كما تقدم تقرير ذلك هنالك ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ أي : بينة واضحة ظاهرة . ﴿ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وأرادوا معارضته بسحرهم ، فغلبوا وانقلبوا صاغرين ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا ﴾ أي : في ظاهر أمرهم ﴿ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ أي : علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله ، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ أي : ظلمًا من أنفسهم سجيه ملعونة ﴿ وَعُلُوًّا ﴾ أي: استكبارًا عن اتباع الحق ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي : انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم ، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة . فحوى الخطاب يقول : احذروا أيها المكذبون لمحمد الجاحدون لما جاء به من ربه أن

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٣ ، ٢٩٥) وابن ماجه في سننه (١٩٥) والإمام احمد في مسنده (٣٩٥/٤) .
(٢) أخرجه مسلم في (السلام) (١٣٤/٣١) والإمام أحمد في مسنده (١٤٦/٢) .

يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى ، فإن محمدًا ﷺ برهانه أدل وأقوى من برهان موسى بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشمائله ، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به ، وأخذ المواثيق له ، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبييه داود ، وابنه سليمان عليهما السلام ، من النعم الجزيلة ، والمواهب الجليلة ، والصفات الجميلة ، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة ، والملك والتمكين التام في الدنيا ، والنبوة والرسالة في الدين . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . روي أن عمر بن عبد العزيز كتب : إن الله لم ينعم على عبده نعمة فيحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمه لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان عليهما السلام(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ أي : في الملك والنبوة ، وليس المراد وراثة المال ؛ إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ، فإنه قد كان لدواد مائة امرأة ، ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة ، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله : « نَحْنُ مَعَاشِرَ الأنبياءِ لَا نُورثُ ، مَا تَرَكْنَاهُ فَهُوَ صَدَقَةٌ »(٢) . وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أي : أخبر سليمان بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام ، والتمكين العظيم حتى أنه سخر له الإنس والجن والطير ، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضًا ، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به رسوله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أي : مما يحتاج إليه الملك ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي : الظاهر البين لله علينا .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كَانَ دَاوُدُ عليه السلام فِيهِ غَيْرَةٌ شَدِيدَةٌ ، فَكَانَ إِذَا خَرَجَ أُغْلِقَتِ الأَبْوَابُ ، فَلَمْ يدخل عَلَى أَهْلِهِ أَحَدٌ يَرْجِعَ - قَالَ : فَخَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ وَأُغْلِقَتِ الأَبْوَابُ ، فَأَقْبَلَتَ امْرَأَةٌ تَطَلَّعُ إِلَى الدَّارِ ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ وَسَطَ الدَّارِ ، فَقَالَتْ لِمَنْ فِي البَيْتِ : مِنْ أَيْنَ دَخَلَ هَذَا الرَّجُلُ وَالدَّارُ مُغْلَقَةٌ ؟ وَاللَّهِ لَتُفْتَضَحُنَّ بِدَاوُدَ ، فَجَاءَ دَاوُدُ عليه السلام ، فَإِذَا الرَّجُلُ قَائِمٌ وَسَطَ الدَّارِ . فَقَالَ لَهُ دَاوُدُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ : الَّذِي لَا يَهَابُ المُلُوكَ ، ولَا يَمْتَنِعُ مِنَ الحُجَّابِ ، فَقَالَ دَاوُدُ : أَنْتَ إِذًا وَاللَّهِ مَلَكُ المَوْتِ ، مَرْحَبًا بِأَمْرِ اللَّهِ ، فَتَزَمَّلَ دَاوُدُ مَكَانَهُ حَتَّى قُبِضَتْ نَفْسُهُ حَتَّى فَرَغَ مِنْ شَأْنِهِ ، وَطَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ عليه السلام لِلطَّيْرِ : أَظِلِّي دَاوُدَ ، فَظَلَّلَتْ عَلَيْهِ الطَّيْرُ حَتَّى أَظْلَمَتْ عَلَيْهِ الأَرْضُ ، فَقَالَ

(١) ذكره السيوطي في الدر (٥/١٠٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٦٣) .

لَهَا سُلَيْمَانُ : اقْبِضِي جَنَاحًا جَنَاحًا » قال أبو هريرة : يا رسول الله كيف فعلت الطير ؟ فقبض رسول الله ﷺ يده وغلبت عليه يومئذ المضرحية [١] . قال أبو الفرج ابن الجوزي : المضرحية هي النسور الحمراء. وقوله تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي : وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير يعني : ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس ، وكانوا هم الذين يلونه ، والجن وهم بعدهم في المنزلة والطير ، ومنزلتها فوق رأسه ، فإن كان حر أظلته منه بأجنحتها . وقوله : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي : يكف أولهم على آخرهم لئلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له . قال مجاهد : جعل على كل صنف وزعة يردون أولاها على أخراها لئلا يتقدموا في المسير كما يفعل الملوك اليوم . وقوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ ﴾ أي : حتى إذا مر سليمان عليه السلام بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها ، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم . ففهم ذلك سليمان عليه السلام منها ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ أي : ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي من تعليمي منطق الطير والحيوان ، وعلى والدي بالإسلام لك ، والإيمان بك ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ أي : عملًا تحبه وترضاه . ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي : إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك ، والرفيق الأعلى من أوليائك . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قَرَصَتْ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَمْلَةٌ فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ ، أَفِي أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَهْلَكْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ ؟ فَهَلَّا نَمْلَةً وَاحِدَةً ؟ » [٢] .

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ .

قال ابن عباس وغيره : كان الهدهد مهندسًا يدل سليمان عليه السلام على الماء إذا كان بأرض فلاة طلبه ، فنظر له الماء في تخوم الأرض كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض ، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض ، فإذا دلهم عليه أمر سليمان عليه السلام الجان ، فحفروا له ذلك المكان حتى يستنبط الماء من قراره . فنزل سليمان عليه السلام يومًا بفلاة من الأرض ، فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره ﴿ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾ حدث يومًا عبد الله بن عباس بنحو هذا ، وفي القوم رجل من الخوارج يقال له نافع بن الأزرق ، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس فقال له : قف يا ابن عباس غلبت اليوم ، قال : ولم ؟ قال : إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض ، وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ ، ويحثو على الفخ ترابًا فيجيء الهدهد ليأخذها ، فيقع في الفخ فيصيده الصبي . فقال ابن عباس : لولا أن يذهب هذا فيقول : رددت على ابن عباس لما أجبته ثم قال له : ويحك إنه إذا نزل القدر عمي البصر ، وذهب الحذر ، فقال له نافع : والله لا أجادلك في شيء من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٤١٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١٩) ومسلم في (السلام) (١٤٨) والإمام أحمد في مسنده (٢/٤٠٣) .

القرآن أبدًا . وقوله : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ قال ابن عباس : يعني نتف ريشه ، وقال عبد الله بن شداد : نتف ريشه وتشميسه . وكذا قال غير واحد من السلف : إنه نتف ريشه وتركه ملقي يأكله الذر والنمل . وقوله : ﴿ أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾ يعني قتله ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ بعذر بيِّن واضح ، وقال سفيان بن عيينة : لما قدم الهدهد قالت الطير : ما خلفك فقد نذر سليمان دمك ، فقال : هل استثنى ؟ قالوا : نعم قال : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ قال : نجوت إذًا .

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَمَكَثَ ﴾ الهدهد . ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي : غاب زمانًا يسيرًا ، ثم جاء فقال لسليمان : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ أي : اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك . ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ أي : بخبر صدق حق يقين ، وسبأ : هم حمير ، وهم ملوك اليمن ، ثم قال : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ قال الحسن البصري : وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ ، وقال قتادة : كانت من بيت مملكة ، وكان أولو مشورتها ثلثمائة واثني عشر رجلًا كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل ، وكانت بأرض يقال لها : مأرب على ثلاثة أميال من صنعاء . وقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي : من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني : سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللآلئ . قال علماء التاريخ : وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم ، وكان فيه ثلثمائة وستون طاقة من مشرقه ، ومثلها من مغربه ، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة ، وتغرب من مقابلها ، فيسجدون لها صباحًا ومساءً . ولهذا قال : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي : عن طريق الحق ﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ﴾ معناه . ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ﴾ أي : لا يعرفون سبيل الحق التي هي : إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ . وقرأ بعضهم (ألا يا اسجدوا لله) [1] جعلها ألا الاستفتاحية ويا للنداء وحذف المنادى تقديره عندهم : ألا يا قوم اسجدوا لله . وقوله : ﴿ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ . قال ابن عباس : يعلم كل خبيئة في السماء والأرض . وقال سعيد بن المسيب : الخبء الماء . وقال عبد الرحمن بن زيد : خبء السماوات والأرض ما جعل فيهما من الأرزاق ؛ المطر من السماء ، والنبات من الأرض . وهذا

(١) قرأ أبو جعفر والكسائي ورويس (ألا يا اسجدوا) بتخفيف اللام ويقفون (ألا يا) ويبتدئون (اسجدوا) بهمزة مضمومة على الأمر فهو في تقدير (ألا يا هؤلاء اسجدوا) فهما كلمتان فمن فصلت وقفًا ، والباقون بتشديد اللام ويسجدوا كلمة واحدة فلذا لم تفصل (انظر : تقريب النشر ص : ١٥٤) .

مناسب من كلام الهدهد الذي جعل الله فيه من الخاصية ما ذكره ابن عباس وغيره من أنه يرى الماء يجري في تخوم الأرض وداخلها . وقوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي : يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال . وقوله : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أي : هو المدعو الله وهو الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم الذي ليس في المخلوقات أعظم منه . ولما كان الهدهد داعيًا إلى الخير ، وعبادة الله وحده ، والسجود له نهي عن قتله . فعن أبي هريرة ﷺ قال : نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب : النملة والنحلة والهدهد والصرد (١) .

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ۝ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ۝ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قول قول سليمان للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ ﴾ أي : في إخبارك هذا ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ في مقالتك لتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ وذلك : أن سليمان ﷺ كتب كتابًا إلى بلقيس وقومها ، وأعطاه ذلك الهدهد فحمله ، وذهب إلى بلادهم ، فجاء إلى قصر بلقيس إلى الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها ، فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها ، ثم تولى ناحية ؛ أدبًا ورياسة ، فتحيرت مما رأت وهالها ذلك ، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ، ففتحت ختمه وقرأته فإذا فيه : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فجمعت عند ذلك أمراءها وكبراء دولتها ومملكتها . ثم قالت لهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ تعني بكرمه ما رأته من عجيب أمره ، كون طائر ذهب به فألقاه إليها ، ثم تولى عنها أدبًا ، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ، ولا سبيل لهم إلى ذلك ، ثم قرأته عليهم : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فعرفوا أنه من نبي الله سليمان ﷺ ، وأنه لا قبل لهم به ، وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة ، فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها . وقال العلماء : لم يكتب أحد بسم الله الرحمن الرحيم قبل سليمان ﷺ .

وقوله : ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ ﴾ قال قتادة يقول : لا تجبروا علي ﴿ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ . وقال عبد الرحمن ابن زيد : لا تمتنعوا ولا تتكبروا عليَّ وأتوني مسلمين . قال ابن عباس : موحدين ، وقال غيره : مخلصين، وقال سفيان بن عيينة : طائعين .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ۝ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ .

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها وما قد نزل بها ولهذا قالت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ أي : حتى تحضرون وتشيرون ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٣٢٢ ، ٣٤٧) وأبو داود في سننه (٥٢٦٧) وابن ماجه في سننه (٣٢٢٤) .

﴿ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أي : منوا بعددهم وعُدَدِهم وقوتهم ، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا : ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ أي : نحن ليس لنا عاقة ، ولا بنا بأس إن شئت أن تقصديه وتحاربيه فما لنا عاقة عنه . قال الحسن البصري رحمه الله : فوضوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثدياها ، فلما قالوا لها ما قالوا كانت هي أحزم منهم ، وأعلم بأمر سليمان ، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه وما سخر له من الجن والإنس والطير ، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمرًا عجيبًا بديعًا . فقالت لهم : إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه ، فيقصدنا بجنوده ، ويهلكنا بمن معه ، ويخلص إليَّ وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا . ولهذا قالت : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ قال ابن عباس : أي إذا دخلوا بلدًا عنوة أفسدوه أي : خربوه . ﴿ وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ أي : وقصدوا من فيها من الولاة والجنود ، فأهانوهم غاية الهوان ، إما بالقتل أو بالأسر . قال ابن عباس : قالت بلقيس : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ قال الرب ﷻ : ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ ثم عدلت إلى المصالحة والمهادنة ، والمسالمة والمخادعة والمصانعة . فقالت : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ أي : سأبعث إليه بهدية تليق بمثله ، وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك فلعله يقبل ذلك منا ويكف عنا ، أو يضرب علينا خراجًا نحمله إليه في كل عام ونلتزم له بذلك ، ويترك قتالنا ومحاربتنا . قال قتادة رحمه الله : ما كان أعقلها في إسلامها وشركها ، علمت أن الهدية تقع موقعًا من الناس . وقال ابن عباس وغير واحد : قالت لقومها : إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ .

ذكر غير واحد من المفسرين من السلف وغيرهم : أنها بعثت إليه عظيمة من ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك . وقال بعضهم : أرسلت بلبن من ذهب . والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب . والظاهر أن سليمان عليه السلام لم ينظر إلى ما جاءوا به بالكلية ، ولا اعتنى به ، بل أعرض عنه ، وقال منكرًا عليهم : ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ أي : أتصانعونني بمال لأترككم على شرككم وملككم ؟ ﴿ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ ﴾ أي : الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ أي : أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف ، وأما أنا فلا أقبل إلا الإسلام أو السيف .

﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي : بهديتهم ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ أي : لا طاقة لهم بقتالهم . ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً ﴾ أي : ولنخرجنهم من بلدتهم أذلة ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أي : مهانون مدحورون . فلما رجعت إليها رسلها بهديتها ، وبما قال سليمان : سمعت وأطاعت هي وقومها ، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة معظمة لسليمان ناوية متابعته في الإسلام ، ولما تحقق سليمان عليه السلام قدومهم عليه ، ووفودهم إليه فرح بذلك وسره .

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ .

عن يزيد بن رومان قال : فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت : قد والله عرفت ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة ، وما نصنع بمكابرته شيئًا ، وبعثت إليه : إني قادمة عليك بملوك قومي لأنظر ما أمرك ، وما تدعونا إليه من دينك ، ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه . وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ ، فجعل في سبعة أبيات بعضها في بعض ، ثم أقفلت عليه الأبواب ، ثم قالت لمن خلفت على سلطانها : احتفظ بما قبلك وسرير ملكي فلا يخلص إليه أحد من عباد الله ، ولا يرينه أحد حتى آتيك ، ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف ، قيل : من ملوك اليمن تحت يدي كل قَيْلٍ منهم ألوف كثيرة ، فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة ، حتى إذا دنت جمع من الجن والإنس ممن تحت يده فقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ . وقال قتادة : لما بلغ سليمان أنها جائية ، وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه . وكان من ذهب وقوائمه لؤلؤ وجوهر ، وكان مسترًا بالديباج والحرير ، وكانت عليه تسعة مغاليق ، فكره أن يأخذه بعد إسلامهم . وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم ودماؤهم فقال : ﴿ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ وهكذا قال عطاء والسدي .

﴿ قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ فتحرم عليَّ أموالهم بإسلامهم ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ قال مجاهد : أي مارد من الجن ، قال أبو صالح : وكان كأنه جبل ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ قال ابن عباس ﷺ : يعني قبل أن تقوم من مجلسك . وقال مجاهد : مقعدك . وقال السدي وغيره : كان يجلس للناس للقضاء والحكومات ، وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس ﴿ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ قال ابن عباس : أي قوي على حمله ، أمين على ما فيه من الجوهر ، فقال سليمان عليه السلام : أريد أعجل من ذلك ، ومن ها هنا يظهر أن سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك ، وما سخر له من الجنود الذي لم يعطه أحد قبله ، ولا يكون لأحد من بعده ، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها ؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه ، هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة . فلما قال سليمان : أريد أعجل من ذلك ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ قال ابن عباس : وهو آصف كاتب سليمان ، وكان صديقًا يعلم الاسم الأعظم . وقال قتادة : كان مؤمنًا من الإنس واسمه آصف . زاد قتادة : من بني إسرائيل . وقال زهير بن محمد : هو رجل من الإنس يقال له ذو النور . وقوله : ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أي ارفع بصرك ، وانظر مد بصرك مما تقدر عليه ، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك ، فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التي فيها هذا العرش المطلوب ، ثم قام فتوضأ ودعا الله تعالى . قال مجاهد : قال : يا ذا الجلال والإكرام . قال الزهري : قال : يا إلهنا وإله كل شيء إلهًا واحدًا لا إله إلا أنت ائتني بعرشها . قال : فمثل بين يديه . قال مجاهد وغيره : لما دعا الله تعالى وسأله أن يأتيه بعرش بلقيس ، وكان في اليمن وسليمان عليه السلام ببيت المقدس غاب السرير ، وغاص في الأرض ثم نبع من بين يدي سليمان .

وقال عبد الرحمن بن زيد أسلم : لم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه قال : وكان هذا الذي جاء به من عباد البحر ، فلما عاين سليمان وملؤه ذلك ورآه مستقرًا عنده ﴿ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ

رَبِّي ﴾ أي : هذا من نعم الله عليّ ﴿ لِيَبْلُوَنِي ﴾ أي : ليختبرني ﴿ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ . كقوله : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ . وقوله : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ أي : هو غني عن العباد وعبادتهم ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أي : كريم في نفسه ، وإن لم يعبده أحد ، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد ، وهذا كما قال موسى : ﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ وفي صحيح مسلم « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذٰلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا . يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذٰلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا . يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذٰلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ » (١) .

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

لما جيء سليمان عليه السلام بعرش بلقيس قبل قدومها ، أمر به أن يغير بعض صفاته ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس بعرشها فقال : ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ قال ابن عباس : نزع منه فصوصه ومرافقه ، وقال مجاهد : أمر به فغير ما كان فيه أحمر جعل أصفر ، وما كان أخضر جعل أحمر ، غير كل شيء عن حاله . وقال عكرمة : زاودا فيه ونقصوا . وقال قتادة : جعل أسفله أعلاه ، ومقدمه مؤخره ، وزادوا فيه ونقصوا ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ أي : عرض عليها عرشها وقد غيّر ونكر ، فكان فيها ثبات وعقل ، ولها لب ودهاء وحزم ، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها ، ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته ، وإن غيّر وبدل ونكر . فقالت : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ أي : يشبهه ويقاربه . وهذا غاية في الذكاء والحزم . وقوله : ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ قال مجاهد : يقوله سليمان ، وقال تعالى : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام في قول مجاهد ، أي : قال سليمان ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ ، وهي كانت قد صدها أي : منعها من عبادة الله وحده ﴿ مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ . وهذا الذي قاله مجاهد حسن ، وقاله ابن جرير أيضًا ، ثم قال ابن جرير : ويحتمل أن يكون في قوله : ﴿ وَصَدَّهَا ﴾ ضمير يعود إلى سليمان أو إلى الله عز وجل تقديره ومنعها ﴿ مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي : صدها عن عبادة غير الله ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ قلت : ويؤيد قول مجاهد أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح كما سيأتي .

وقوله : ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ وذلك أن سليمان عليه السلام أمر الشياطين فبنوا لها قصرًا عظيمًا من قوارير ، أي : من زجاج ، وأجرى تحته الماء فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء ، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ لا

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٥) وأحمد في مسنده (٥/١٧٧) .

تشك أنه ماء تخوضه قيل لها ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ . فلما وقفت على سليمان دعاها إلى عبادة الله ﷻ وحده ، وعاتبها في عبادتها الشمس من دون الله فقالت بقول الزنادقة . فوقع سليمان ساجدًا إعظامًا لما قالت ، وسجد معه الناس ، فسقط في يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع فلما رفع سليمان رأسه قال : ويحك ماذا قلت ؟ قالت : أنسيت ما قلت ؟ فقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فأسلمت وحسن إسلامها .

قلت : أصل الصرح في كلام العرب هو : القصر وكل بناء مرتفع ، قال ﷺ إخبارًا عن فرعون لعنه الله أنه قال لوزيره هامان ﴿ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ الآية . والصرح قصر في اليمن عالي البناء ، والممرد المبني بناءً محكمًا أملس ﴿ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ أي : زجاج ، وتمريد البناء تمليسه ، ومارد : حصن بدومة الجندل . والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصرًا عظيمًا منيفًا من زجاج لهذه الملكة ليريها عظيمة سلطانه وتمكنه ، فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه ، وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله تعالى ، وعرفت أنه نبي كريم ، وملك عظيم ، وأسلمت لله ﷻ . وقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أي : بما سلف من كفرها وشركها ، وعبادته وقومها للشمس من دون الله ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده لا شريك له الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام ، حين بعثه الله إليهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ قال مجاهد : مؤمن وكافر ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أي : لم تدعون بحضور العذاب ، ولا تطلبون من الله رحمته . ولهذا قال : ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ أي : ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيرًا ، وذلك أنهم لشقائهم كان لا يصيب أحدًا منهم سوء إلا قال : هذا من قبل صالح وأصحابه . قال مجاهد : تشاءموا بهم ، وهذا كما قال الله تعالى إخبارًا عن قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ﴾ الآية . وقال هؤلاء : ﴿ اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ أي : الله يجازيكم على ذلك ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ قال قتادة : تبتلون بالطاعة والمعصية . والظاهر أن المراد بقوله : ﴿ تُفْتَنُونَ ﴾ أي : تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال .

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر ، وتكذيب صالح وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة ، وهموا بقتل صالح أيضًا ، بأن يبيتوه في أهله ليلًا ، فيقتلوه

غلية ، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه إنهم ما علموا بشيء من أمره ، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به من أنهم لم يشاهدوا ذلك . فقال تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴾ أي : مدينة ثمود ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أي : تسعة نفر ﴿ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود ؛ لأنهم كانوا كبراءهم ورؤساءهم . قال ابن عباس : هؤلاء هم الذين عقروا الناقة أي : الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم قبحهم الله ولعنهم ، وقد فعل ذلك . قال تعالى : ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴾ . وقال عطاء - ابن أبي رباح - ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ قال : كانوا يقرضون الدراهم ، يعني أنهم كانوا يأخذون منها ، وكأنهم كانوا يتعاملون بها عددًا كما كان العرب يتعاملون . وعن سعيد بن المسيب أنه قال : قطع الذهب والورق من الفساد في الأرض ، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ نهى عن كسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس (١) . والغرض أن هؤلاء الكفرة الفسقة كان من صفاتهم الإفساد في الأرض بكل طريق يقدرون عليها ، فمنها ما ذكره هؤلاء الأئمة وغير ذلك . وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾ أي : تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام من لقيه ليلًا غيلة ، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم . قال مجاهد : تقاسموا وتحالفوا على هلاكه ، فلم يصلوا إليه ، حتى هلكوا وقومهم أجمعين . وقال محمد بن إسحاق : قال هؤلاء التسعة بعدما عقروا الناقة : هلم فلنقتل صالحًا ، فإن كان صادقًا عجلناه قبلنا ، وإن كان كاذبًا كنا قد ألحقناه بناقته . فأتوه ليلًا ليبيتوه في أهله ، فدمغتهم الملائكة بالحجارة ، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح ، فوجدوهم منشدخين قد رضحوا بالحجارة ، فقالوا لصالح : أنت قتلتهم ثم هموا به ، فقامت عشيرته دونه ، ولبسوا السلاح ، وقالوا لهم : والله لا تقتلونه أبدًا ، وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث ، فإن كان صادقًا تزيدوا ربكم عليكم غضبًا ، وإن كان كاذبًا فأنتم من وراء ما تريدون ، فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك . وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم : لما عقروا الناقة قال لهم صالح : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ قالوا : زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام ، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث . وكان لصالح مسجد في الحجر عند شعيب هناك يصلي فيه ، فخرجوا إلى كهف - أي : غار - هناك ليلًا فقالوا : إذا جاء يصلي قتلناه ، ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله ، ففرغنا منهم . فبعث الله عليهم صخرة من الهضب حيالهم ، فخشوا أن تشدخهم فتبادروا ، فانطبقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار فلا يدري قومهم أين هم ، ولا يدرون ما فعل بقومهم : فعذب الله هؤلاء ها هنا ، وهؤلاء هاهنا ، وأنجى الله صالحًا ومن معه ثم قرأ : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ ﴾ أي : فارغة ليس فيها أحد ﴿ بِمَا ظَلَمُوٓا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا أَخْرِجُوٓا ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤١٩/٣) .

يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه أنذر قومه نقمةَ اللَّه بهم في فعلهم الفاحشةَ ، التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم ، وهي إتيان الذكور دون الإناث ، وذلك فاحشة عظيمة استغنى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، فقال : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أي: يرى بعضكم بعضًا ، وتأتون في ناديكم المنكر ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ أي : لا تعرفون شيئًا لا طبعًا ولا شرعًا ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ . ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ أي : يتحرجون من فعل ما تفعلونه ، ومن إقراركم على صنيعكم ، فأخرجوهم من بين أظهركم ، فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم ، فعزموا على ذلك ، فدمر اللَّه عليهم وللكافرين أمثالهم ، قال اللَّه تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أي : من الهالكين مع قومها ؛ لأنها كانت ردءًا لهم على دينهم وعلى طريقتهم ، في رضاها بأفعالهم القبيحة ، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط ليأتوا إليهم ، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبي اللَّه ﷺ لا كرامة لها . وقوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ أي : حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك ، وما هي من الظالمين ببعيد ولهذا قال : ﴿ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ أي : الذين قامت عليهم الحجة ووصل إليهم الإنذار ، فخالفوا الرسول وكذبوه ، وهموا بإخراجه من بينهم .

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي : على نعمه على عباده من النعم التي لا تعد ولا تحصى ، وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى ، وأن يسلم على عباد اللَّه الذين اصطفاهم واختارهم ، وهم رسله وأنبياؤه الكرام ، وقال الثوري : هم أصحاب محمد ﷺ ، ورضي عنهم أجمعين . ولا منافاة فإنهم إذا كانوا من عباد اللَّه الذين اصطفى فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى . والقصد أن اللَّه تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد ذكره لهم ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد ، وما أحل بأعدائه من الخزي والنكال والقهر ، أن يحمدوه على جميع أفعاله ، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار . وعن ابن عباس : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ قال : هم أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم اللَّه لنبيه ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ؟ استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع اللَّه آلهة أخرى ، ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره فقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أي : خلق تلك السماوات في ارتفاعها وصفائها . وما جعل فيها ، وخلق الأرض في استفالها وكثافتها ، وما جعل فيها . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ أي : جعله رزقًا للعباد ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ﴾ أي : بساتين . ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ أي : منظر حسن وشكل بهي ﴿ مَّا

كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ﴾ أي : لم تكونوا تقدرون على إنبات أشجارها . وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل ، بذلك المتفرد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد ، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ أي : هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له ، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق . وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة ، من هو المتفرد بالخلق والرزق ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ أي : أإله مع الله يعبد ، وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعترفون به أيضًا أنه الخالق الرازق ؟!! . ومن المفسرين من يقول : معنى قوله : ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ فعل هذا ، وهو يرجع إلى معنى الأول ؛ لأن تقدير الجواب أنهم يقولون : ليس ثم أحد فعل هذا معه بل هو المتفرد به . فيقال : كيف تعبدون معه غيره ، كما قال : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ الآية . وقوله تعالى ها هنا : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ ﴿ أَمَّنْ ﴾ في هذه الآيات كلها تقديره أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها ؟ هذا معنى السياق ، وإن لم يذكر الآخر ؛ لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك . وقد قال تعالى : ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ، ثم قال في الآية الأخرى : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ أي : يجعلون لله عدلًا ونظيرًا . وقال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي : أمن هو شهيد على أفعال الخلق حركاتهم وسكناتهم ، يعلم الغيب جليله وحقيره ، كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التي عبدوها من دون الله ؟

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أي : قارة ساكنة ثابتة لا تميد ، ولا تتحرك بأهلها ، ولا ترتجف بهم ، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة ، بل جعلها من فضله ورحمته مهادًا بساطًا ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك . ﴿ وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا ﴾ أي : جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة شقها في خلالها ، وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار ، وبين ذلك . وسيرها بحسب مصالح عباده وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه . ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ ﴾ أي : جبالًا شامخة ترسي الأرض ، وتثبتها لئلا تميد بكم . ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ أي : تجعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزًا أي : مانعًا يمنعها من الاختلاط لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا . فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه . فإن الأنهار السارحة الجارية بين الناس المقصود منها أن تكون عذبة زلالًا يسقى الحيوان والنبات والثمار منها . والبحار المالحة ماؤها ملح أجاج لئلا يفسد الهواء بريحها كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ . ولهذا قال تعالى : ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ أي : فعل هذا أو يعبد على القول الأول والآخر ؟ وكلاهما متلازم صحيح ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : في عبادتهم غيره .

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد ، المرجو عند النوازل ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ أي : من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه ، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه . عن جابر بن سليم الهجيمي قال :

أتيت رسول الله ﷺ وهو محتب بشملة ، وقد وقع هدبها على قدميه فقلت : أيكم محمد رسول الله ؟ فأومأ بيده إلى نفسه ، فقلت : يا رسول الله أنا من أهل البادية وفيّ جفاؤهم فأوصني قال : « لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئًا ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهُكَ مُنْبَسِطٌ ، وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ المُسْتَقِي ، وَإِنِ امْرُؤٌ شَتَمَكَ بِمَا يَعْلَمُ فِيكَ ، فَلَا تَشْتِمْهُ بِمَا تَعْلَمُ فِيهِ ، فَإِنَّهُ يَكُونُ لَكَ أَجْرُهُ وَعَلَيْهِ وِزْرُهُ ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الإِزَارِ ، فَإِنَّ إِسْبَالَ الإِزَارِ مِنَ المَخِيلَةِ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ المَخِيلَةَ ، وَلَا تَسُبَّنَّ أَحَدًا » . قال : فما سببت بعده أحدًا ولا شاة ولا بعيرًا [(١)] . وقال عبيد الله بن أبي صالح : دخل عليّ طاوس يعودني فقلت له : ادع الله لي يا أبا عبد الرحمن . فقال : ادع لنفسك ، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه . وقوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي : يخلف قرنًا لقرن قبلهم ، أي : أمة بعد أمة ، وجيلًا بعد جيل ، وقومًا بعد قوم ، ولو شاء لأوجدهم كلهم في وقت واحد ، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض ، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين كما خلق آدم من تراب ، ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ، ولكن لا يميت أحدًا حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد لكانت تضيق عنهم الأرض ، وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم ، ويتضرر بعضهم ببعض . ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ، ثم يكثرهم غاية الكثرة ، ويذرأهم في الأرض ، ويجعلها قرونًا بعد قرون ، حتى ينقضي الأجل وتفرغ البرية ، كما قدر ذلك تبارك وتعالى ، ثم يقيم القيامة ويوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ أي : يقدر على ذلك أو أإله مع الله بعد هذا ! وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك وحده لا شريك له ؟ ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ أي : بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ . ﴿ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ أي : بين يدي السحاب الذي فيه مطر يغيث الله به عباده المجدبين الأذلين القنطين ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ .

أي : هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ . ﴿ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي : بما ينزل من مطر السماء ، وينبت من بركات الارض ، كما قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء فيسلكه ينابيع في الأرض ، ثم يخرج به منها أنواع الزروع والثمار ، والأزاهير وغير ذلك من ألوان شتى ﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ أي : فعل هذا ، وعلى القول الآخر بعد

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٤٨٣) والبيهقي في سننه (٤/١٨٨) .

هذا ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ على صحة ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى ، ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في ذلك ، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول معلمًا لجميع الخلق أنه لا يعلم أحد من أهل السماوات والأرض الغيب إلا الله . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا اللَّهُ ﴾ استثناء منقطع أي : لا يعلم أحد ذلك إلا الله ﷻ ، فإنه المنفرد بذلك وحده لا شريك له كما قال تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ الآية . والآيات في هذا كثيرة . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي : وما يشعر الخلائق الساكنون في السماوات والأرض بوقت الساعة كما قال تعالى : ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ أي : ثقل علمها على أهل السماوات والأرض . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : من زعم أنه يعلم - يعني النبي ﷺ - ما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ . وقال قتادة : إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال : جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجومًا للشياطين ، فمن تعاطى فيها غير ذلك ، فقد قال برأيه وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به . وإن أناسًا جهلة بأمر الله قد أحدثوا من هذهِ النجومِ كهانة ، من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن ولد بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود ، والقصير والطويل ، والحسن والذميم ، وما علم هذا النجم ، وهذه الدابة ، وهذا الطير بشيء من الغيب ، وقضى الله تعالى أنه لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون . وقوله : ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ أي : إنتهى علمهم ، وعجز عن معرفة وقتها . وقرأ آخرون : ﴿ بَلِ ادْرك عِلْمُهُمْ ﴾ أي : تساوى علمهم في ذلك . كما في الصحيح لمسلم أن رسول الله ﷺ قال لجبريل وقد سأله عن وقت الساعة : « مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ » (١) أي : تساوى في العجز عن درك ذلك علم المسؤول والسائل . قال ابن عباس : أي غاب . وقال قتادة : يعني : بجهلهم بربهم ، يقول : لم ينفذ لهم علم في الآخرة . وعن عطاء الخراساني ابن عباس : ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ أي : حين لم ينفع العلم . وبه قال السدي أن علمهم إنما يدرك ، ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك . كما قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ . وعن الحسن أنه كان يقرأ : ﴿ بل أدرك علمهم ﴾ (٢) قال : اضمحل علمهم في الدنيا حين عاينوا الآخرة . وقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ عائد على الجنسِ والمراد الكافرون . أي شاكون في وجودها ووقوعها . ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ أي : في عماية وجهل كبير في أمرها وشأنها .

---

(١) أخرجه مسلم في (الإيمان) (١ ، ٧ ، ٥) والإمام أحمد في مسنده (٤٢٦/٢) .

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ بل أدرك ﴾ وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي ﴿ بل ادارك ﴾ انظر زاد المسير (١٨٨/٦) .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَآؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۝ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ۝ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن منكري البعث من المشركين أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظامًا ورفاتًا وترابًا ثم قال : ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي : ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا ، ولا نرى له حقيقة ، ولا وقوعًا ، وقولهم : ﴿ إِنْ هَٰذَآ ﴾ يعنون : ما هذا الوعد بإعادة الأبدان ﴿ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي : أخذه قوم عمن قبلهم من كتبهم يتلقاه بعض عن بعض ، وليس له حقيقة ، ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء ﴿ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : المكذبين بالرسل وبما جاءهم به من أمر المعاد وغيره ، كيف حلت بهم نقمة اللَّه وعذابه ونكاله ، ونجى اللَّه من بينهم رسله الكرام ، ومن اتبعهم من المؤمنين ، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته ، ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : المكذبين بما جئت به ولا تأسف عليهم ، وتذهب نفسك عليهم حسرات . ﴿ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أي : في كيدك ورد ما جئت به ، فإن اللَّه مؤيدك وناصرك ، ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ قال اللَّه تعالى مجيبًا لهم : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ . قال ابن عباس : أن يكون قرب أو أن يقرب لكم بعض الذي تستعجلون . وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ . وإنما دخلت اللام في قوله : ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ لأنه ضمن معنى عجل لكم ، كما قال مجاهد في رواية عنه : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم ﴾ عجل لكم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أي : في إسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم ، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي : يعلم الضمائر والسرائر ، كما يعلم الظاهر . ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ . ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السماوات والأرض ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، وهو ما غاب عن العباد ، وما شاهدوه فقال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ ﴾ قال ابن عباس يعني : وما من شيء ﴿ فِي السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ وهذه كقوله : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ۝ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي الْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن كتابه العزيز ، وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان ، أنه يقص على بني إسرائيل ، وهم حملة التوراة والإنجيل : ﴿ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ كاختلافهم في عيسى ،

وتباينهم فيه فاليهود افتروا ، والنصارى غلوا ، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام . كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : هدى لقلوب المؤمنين به ، ورحمة لهم في العمليات . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم ﴾ أي : يوم القيامة . ﴿ بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي : في انتقامه ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم . ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي : في جميع أمورك ، وبلغ رسالة ربك . ﴿ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ . أي : أنت على الحق المبين ، وإن خالفك من خالفك ممن كتبت عليه الشقاوة : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي : لا تسمعهم شيئًا ينفعهم . فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة ، وفي آذانهم وقر الكفر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي : إنما يستجيب لك من هو سميع بصير السمع والبصر النافع في القلب ، والبصيرة الخاضع لله ، ولما جاء عنه على ألسنة الرسل عليهم السلام .

﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ .

هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس ، وتركهم أوامرَ الله ، وتبديلهمُ الدينَ الحق ، يخرج الله لهم دابة من الأرض قيل : من مكة ، وقيل : من غيرها – كما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى – فتكلم الناس على ذلك . قال ابن عباس : ويروى عن علي رضي الله عنه تكلمهم كلامًا أي : تخاطبهم مخاطبة . وقال عطاء الخراساني : تكلمهم فتقول لهم : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون . وفي هذا القول نظر لا يخفى والله أعلم . وقال ابن عباس في رواية : تجرحهم ، وعنه رواية قال : كلًّا تفعل يعني هذا وهذا ، وهو قول حسن ، ولا منافاة والله أعلم . وفي الحديث : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آياتٍ : طُلُوعَ الشَّمْس مِنْ مَغْرِبِها ، وَالدُّخَانَ ، وَخُرُوجَ يَأْجُوجَ ومأجوج ، وَخُرُوجَ عِيسَى ابنِ مَرْيَمَ عليه السلام ، وَالدَّجَّالَ ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ : خَسْفٌ بِالمَغْرِبِ ، وَخَسْفٌ بِالمَشْرِقِ ، وَخَسْفٌ بِجَزيرَةِ العَرَبِ ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَن تَسُوقُ – أَوْ تَحْشُرُ – النَّاسَ تَبِيتُ مَعَهُمْ حيث بَاتُوا ، وَتَقِيلُ مَعَهمْ حَيْثُ قَالُوا » [١] .

وعنه ﷺ قال : « إِنَّ أَوَّلَ الآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى ، وأَيَّتُهُمَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا ، فَالأُخْرَى عَلَى أَثَرِهَا قَرِيبًا » [٢] .

وعنه ﷺ قال : « بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا : طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالدُّخَانَ ، والدجَّالَ ، والدَّابَّةَ ، وخَاصَّةَ أَحَدِكُمْ ، وَأَمْرَ العَامَّةِ » [٣] .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في الفتن (٤٠) والإمام أحمد في مسنده (٧/٤) والترمذي في سننه (٢١٨٣) .
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٠٦٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٨) .
(٣) أخرجه مسلم في الفتن (١٢٨ ، ١٢٩) والإمام أحمد في مسنده (٤٠٧/٢) .

يقول تعالى مخبرًا عن يوم القيامة وحشر الظالمين من المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله ﷻ ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا تقريعًا وتوبيخًا ، وتصغيرًا وتحقيرًا فقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ أي : من كل قوم وقرن فوجًا أي : جماعة ﴿ مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : يدفعون وقال قتادة : وزعة ترد أولهم على آخرهم . وقال عبد الرحمن بن زيد : يساقون ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو ﴾ ووقفوا بين يدي الله ﷻ في مقام المسألة ﴿ قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : فيسألون عن اعتقادهم وأعمالهم ، فلما لم يكونوا من أهل السعادة . وكانوا كما قال الله عنهم : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ فحينئذ قامت عليهم الحجة ، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به كما قال تعالى : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ الآية . وهكذا قال ها هنا : ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ أي : بهتوا فلم يكن لهم جواب ؛ لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد وردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية . ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ أي : في ظلام الليل لتسكن حركاتهم بسببه ، وتهدأ أنفاسهم ، ويستريحون من نصب التعب في نهارهم ﴿ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أي : منيرًا مشرقًا فبسبب ذلك يتصرفون في المعاش والمكاسب ، والأسفار والتجارات ، وغير ذلك من شؤونهم التي يحتاجون إليها . ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ۝٨٧ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝٨٨ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع في الصور ، وهو كما جاء في الحديث قرن ينفخ فيه . وفي حديث الصور أن إسرافيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى ، فينفخ فيه أولًا نفخة الفزع ويطولها ، وذلك في آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء ، فيفزع من في السماوات ، ومن في الأرض ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ وهم الشهداء ، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون . عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وجاءه رجل فقال : ما هذا الحديث الذي تحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ فقال : سبحان الله ؟ أو : لا إله إلا الله أو كلمة نحوهما . لقد هممت أن لا أحدث أحدًا شيئًا أبدًا ، إنما قلت : إنكم سترون بعد قليل أمرًا عظيمًا يخرب البيت ، ويكون ويكون - ثم قال - قال رسول الله ﷺ : « يَخْرُجُ الدَّجَّالُ في أُمَّتي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ - لَا أَدْري أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا - فَيَبْعَثُ الله عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ ، ثُمَّ يُرْسِلُ الله رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ ، فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إلا قَبَضَتْهُ ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ في كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تقبضَهُ » . قال : سمعتها من رسول الله ﷺ قال : « فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ في خِفَّةِ الطَّيرِ ، وَأَحْلام السِّبَاع لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا ، وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ : أَلَا تَسْتَجِيبُونَ ؟ فَيَقُولُونَ : فَمَا تَأْمُرُنَا ؟

فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الأَوْثَانِ ، وَهُمْ فِي ذٰلِكَ دَارٌ رِزْقُهُمْ ، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا ورفَعَ لِيتًا - قَالَ : وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حوضَ إِبِلِهِ قَالَ : فَيَصْعَقُ ، وَيُصْعَقُ النَّاسُ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ - أَوْ يُنْزِلُ اللَّهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ - أَوْ قال الظِلّ - شعبة الشاك - فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسادُ النَّاسِ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخرى ، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ، ثُمَّ يُقَالُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ ، وقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسؤُولُونَ ثُمَّ يُقَالُ : أَخرِجُوا بَعْثَ النَّارِ ، فَيُقَالُ : مِنْ كَمْ . فَيُقَالُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ قَالَ : فَذَلِكَ يَوْمَ يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيبًا ، وَذَلِكَ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ »(١). ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ أي : صاغرين مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ ﴾ وفي حديث الصور أنه في النفخة الثالثة يأمر اللَّه الأرواح ، فتوضع في ثقب في الصور ، ثم ينفخ إسرافيل فيه بعدِ ما تنبت الأجساد في قبورها وأماكنها ، فإذا نفخ في الصور طارت الأرواح تتوهج أرواح المؤمنين نورًا ، وأرواح الكافرين ظلمة . فيقول اللَّه ﷻ: وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى جسدها فتجيء الأرواح إلى أجسادها فتدب فيها كما يدب السم في اللديغ ، ثم يقومون ينفضون التراب من قبورهم . قال اللَّه تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ أي : تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه ، وهي تمر مر السحاب أي تزول عن أماكنها . كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍۚ﴾ أي : يفعل ذلك بقدرته العظيمة . ﴿ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍۚ﴾ أي : أتقن كل ما خلق ، وأودع فيه من الحكمة ما أودع ﴿ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ أي : هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر ، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء . ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ قال قتادة : بالإخلاص . وقال زين العابدين : هي لا إله إلا اللَّه ، وقد بين تعالى في الموضع الآخر أن له عشر أمثالها ﴿ وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ كما قال في الآية الأخرى : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ﴾ أي : من لقي اللَّه مسيئًا لا حسنة له ، أو قد رجحت سيئاته على حسناته كل بحسبه . ولهذا قال تعالى : ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقال ابن عباس وأبو هريرة في قوله : ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾ : يعني بالشرك .

﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا رسوله وآمرًا له أن يقول : ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍۖ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْۖ ﴾ وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف والاعتناء ، وقوله تعالى :

(١) أخرجه مسلم في الفتن (١١٦) والحاكم في المستدرك (٥٥٠/٤) والإمام أحمد في مسنده (١٦٦/٢) .

﴿ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا ﴾ أي : الذي إنما صارت حرامًا شرعًا وقدرًا بتحريمه لها . كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباسٍ قال : قال رسول اللَّه ﷺ يوم فتح مكة : « إِنَّ هَذَا البَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّه يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّه إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ ، وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ ، وَلَا يلْتَقِطُ لقطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا ، وَلَا يخْتَلى خَلَاهَا »[(١)] . الحديث بتمامه . وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍۖ ﴾ من باب عطف العام على الخاص أي : هو رب هذه البلدة ، ورب كل شيء ومليكه لا إله إلا هو . ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ أي : الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له . وقوله : ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَۖ ﴾ أي : أنا مبلغ ومنذر . ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ أي : لي أسوة بالرسل الذين أنذروا قومهم ، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم ، وخلصوا من عهدتهم ، وحساب أممهم على اللَّه تعالى كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ . ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ ﴾ أي : للَّه الحمد الذي لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه ، والإنذار إليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي : بل هو شهيد على كل شيء . عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا يَغْتَرَّنَّ أَحَدُكُمْ بِاللَّه ، فَإِنَّ اللَّه لَوْ كَانَ غَافِلًا شَيْئًا لأَغْفَلَ البَعُوضَةَ وَالخَرْدَلَةَ والذَّرَّةَ » . وعن عمر بن عبد العزيز قال : فلو كان اللَّه مغفلًا شيئًا لأغفل ما تعفي الرياح من أثر قدمي ابن آدم .

وقد ذكر عن الإمام أحمد أنه كان ينشد هذين البيتين إما له وإما لغيره :

إذا ما خلوت الدهر يومًا   لا تقل خلوت ولكن قل عليَّ رقيب
ولا تحسبن اللَّهَ يغفلُ ساعةً   ولا أنَّ ما يخفى عليه يغيبُ

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٥٧٨) ومسلم في الحج (٤٤٦) .

سورة القصص

عن معد يكرب قال : أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ علينا طسم المائتين ، فقال : ما هي معي ، ولكن عليكم بمن أخذها من رسول الله ﷺ خباب بن الأرت ، قال : فأتينا خباب بن الأرت ، فقرأها علينا رضي الله عنه (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ .

وقد تقدم الكلام على الحروف المقطعة . وقوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ أي : هذه ﴿ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أي : الواضح الجلي الكاشف عن حقائق الأمور ، وعلم ما قد كان ، وما هو كائن . وقوله : ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الآية . كما قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ أي : نذكر لك الأمر على ما كان عليه ، كأنك تشاهد وكأنك حاضر . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي : تكبر وتجبر وطغى . ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أي : أصنافًا قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته . وقوله تعالى : ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ يعني : بني إسرائيل ، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم . هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملها في أخسِّ الأعمال ، ويكدهم ليلًا ونهارًا في أشغاله وأشغال رعيته ، ويقتل مع هذا أبناءهم ، ويستحيي نساءهم إهانة لهم ، واحتقارًا ، وخوفًا من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه ، وذهاب دولته على يديه . وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل عليه السلام ، حين ورد الديار المصرية ، وجرى له مع جبارها ما جرى حين أخذ سارة ليتخذها جارية فصانها الله منه ، ومنعه منها بقدرته وسلطانه . فبشر إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك ملك مصر على يديه ، فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون ، فاحترز فرعون من ذلك ، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل . ولن ينفع حذر من قدر ؛ لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، ولكل أجل كتاب ولهذا قال تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ - إلى قوله - يَحْذَرُونَ ﴾ . وقد فعل تعالى ذلك بهم كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ - إلى قوله - يَعْرِشُونَ ﴾ . أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى ، فما نفعه ذلك مع قدرة الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدري ، وجرى قلمه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه ، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده ، وقتلت بسببه ألوفًا من الولدان ، إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفي دارك ، وغذاؤه من طعامك ، وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٩/١) .

على يديه . لتعلم أن رب السماوات العلى هو القاهر الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۝ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ذلك أنه كانت دارها على حافة النيل ، فاتخذت تابوتًا ، ومهدت فيه مهدًا ، وجعلت ترضع ولدها ، فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه ذهبت فوضعته في ذلك التابوت ، وسيرته في البحر ، وربطته بحبل عندها . فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه فذهبت فوضعته في ذلك التابوت ، وأرسلته في البحر ، وذهلت أن تربطه فذهب مع الماء واحتمله ، حتى مر به على دار فرعون فالتقطه الجواري ، فاحتملنه فذهبن به إلى امرأة فرعون . ولا يدرين ما فيه ، وخشين أن يفتتن عليها في فتحه دونها ، فلما كشفت عنه إذا هو غلام في أحسن الخلق ، وأجمله وأحلاه وأبهاه ، فأوقع اللّه محبته في قلبها حين نظرت إليه ، وذلك لسعادتها وما أراد اللّه من كرامتها وشقاوة بعلها . ولهذا قال : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ الآية . قال محمد بن إسحاق وغيره : اللام هنا لام العاقبة لا لام التعليل ؛ لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك ، ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضي ما قالوه . ولكن إذا نظر إلى معنى السياق ، فإنه تبقى اللام للتعليل ؛ لأن معناه أن اللّه تعالى قيضهم لالتقاطه ليجعله عدوًّا لهم وحزنًا ، فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ﴾ الآية . يعني أن فرعون لما رآه همَّ بقتله خوفًا من أن يكون من بني إسرائيل ، فشرعت امرأته آسيه بنت مزاحم تخاصم عنه وتذب دونه ، وتحببه إلى فرعون فقالت : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ﴾ فقال فرعون : أما لك فنعم وأما لي فلا ، فكان كذلك ، وهداها اللّه بسببه ، وأهلكه اللّه على يديه . وقوله : ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا ﴾ وقد حصل لها ذلك ، وهداها اللّه به ، وأسكنها الجنة بسببه . وقوله : ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ أي : أرادت أن تتخذه ولدًا وتتبناه ، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه . وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي : لا يدرون ما أراد اللّه منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة والحجة القاطعة .

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ۝ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر أنه أصبح فارغًا أي : من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى . ﴿ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أي : إن كادت من شدة وجدها وحزنها ، وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد ، وتخبر بحالها لولا أن اللّه ثبتها وصبَّرها . قال اللّه تعالى : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ أي : أمرت ابنتها ، وكانت

كبيرة تعي ما يقال لها فقالت لها : ﴿ قُصِّيهِ ﴾ أي : اتبعي أثره وخذي خبره ، وتطلبي شأنه من نواحي البلد ، فخرجت لذلك . ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ ﴾ . قال مجاهد : بصرت به عن جنب : عن بعد .

وقال قتادة : جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده . وذلك أنه لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون وأحبته امرأة الملك ، واستطلقته منه عرضوا عليه المراضع التي في دارهم فلم يقبل منها ثديًا ، وأبى أن يقبل شيئًا من ذلك ، فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته فلما رأته بأيديهم عرفته ، ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها . قال تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ أي : تحريمًا قدريًا ؛ وذلك لكرامته عند الله وصيانته له أن يرتضع غير ثدي أمه ، ولأن الله ﷻ جعل ذلك سببًا إلى أمه لترضعه وهي آمنة بعدما كانت خائفة . فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه قالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ قال ابن عباس : فلما قالت ذلك أخذوها وشكوا في أمرها ، وقالوا لها : وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت لهم : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في سرور الملك ، ورجاء منفعته ، فأرسلوها ، فلما قالت لهم ذلك ، وخلصت من أذاهم ، ذهبوا معها إلى منزلها ، فدخلوا به على أمه ، فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا ، وذهب البشير إلى امرأة الملك ، فاستدعت أم موسى ، وأحسنت إليها وأعطتها عطاء جزيلًا ، وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة ، ولكن لكونه وافق ثديها ، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه فأبت عليها ، وقالت : إن لي بعلًا وأولادًا ، ولا أقدر على المقام عندك ، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت . فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك ، وأجرت عليها النفقة والصلات ، والكساوي والإحسان الجزيل . ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل يوم وليلة أو نحوه والله أعلم . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ أي : به ﴿ وَلَا تَحْزَنَ ﴾ أي عليه . ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي : فيما وعدها من رده إليها ، وجعله من المرسلين ، فحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين فعاملته في تربيته ما ينبغي له طبعًا وشرعًا . وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ .

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى عليه السلام ، ذكر أنه لما بلغ أشده ، واستوى آتاه الله حكمًا وعلمًا . قال مجاهد يعني : النبوة . ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ . ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قدره له من النبوة ، والتكليم في قضية قتله ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين . فقال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ . قال ابن عباس : وذلك بين المغرب والعشاء . وعن عطاء بن يسار عن ابن عباس : كان ذلك نصف النهار . ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ أي :

يتضاربان ويتنازعان ﴿ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ أي : إسرائيلي . ﴿ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ أي : قبطي . فاستغاث الإسرائيلي بموسى عليه السلام ، فوجد موسى فرصة ، وهي غفلة الناس ، فعمد إلى القبطي ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ قال مجاهد : ﴿ فَوَكَزَهُۥ ﴾ أي : طعنه بجمع كفه . وقال قتادة : وكزه بعصا كانت معه فقضى عليه أي : كان فيها حتفه فمات . ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾ أي : بما جعلت لي من الجاه والعز والنعمة ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا ﴾ أي معينًا ﴿ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : الكافرين بك ، المخالفين لأمرك .

﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن موسى عليه السلام لما قتل ذلك القبطي أنه أصبح ﴿ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا ﴾ أي : من معرة ما فعل ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ أي : يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر . فمر في بعض الطر ق، فإذا ذلك الذي استنصره بالأمس على ذلك القبطي يقاتل آخر ، فلما مر عليه موسى استصرخه على الآخر ، فقال موسى : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي : ظاهر الغواية كثير الشر ، ثم عزم موسى على البطش بذلك القبطي ، فاعتقد الإسرائيلي لخوره وضعفه وذلته أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك ، فقال يدفع عن نفسه ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾ ؟ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى عليه السلام ، فلما سمعها ذلك القبطي لقفها من فمه ، ثم ذهب بها إلى باب فرعون ، وألقاها عنده . فعلم فرعون بذلك ، فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى ، فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك .

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ .

قال تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ ﴾ وصفه بالرجولية ؛ لأنه خالف الطريق ، فسلك طريقًا أقرب من طريق الذين بعثوا وراءه فسبق إلى موسى فقال له : يا موسى . ﴿ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أي : يتشاورون فيك ﴿ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ ﴾ أي : من البلد ﴿ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ .

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ .

لما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون ودولته في أمره ، خرج من مصر وحده ، ولم يألف ذلك قبله بل كان في رفاهية ونعمة ورياسة . ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أي : يتلفت . ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي : من فرعون وملئه ، فذكروا أن الله ﷻ بعث إليه ملكا على فرس ، فأرشده إلى الطريق فالله أعلم . ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ﴾ أي : أخذ طريقًا سالكًا مهيعًا فرح بذلك . ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي : الطريق الأقوم ، ففعل الله به ذلك ، فجعله هاديًا مهديًّا . ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ أي : لما وصل إلى مدين ، ورد ماءها ، وكان لها بئر يرده رعاء الشاء . ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ

ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ أي : جماعة يسقون . ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أي : تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذيا . فلما رآهما موسى ﷺ رق لهما ورحمهما ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أي : ما خبركما لا تردان مع هؤلاء ؟ ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ﴾ أي : لا يحصل لنا سقي إلا بعد فراغ هؤلاء . ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ أي : فهذا الحال الملجئ لنا إلى ما ترى . قال اللَّه تعالى : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ . روي عن عمر بن الخطاب ﷺ أن موسى ﷺ لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون قال : فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ، ولا يطيق رفعها إلا عشرةُ رجال ، فإذا هو بامرأتين تذودان قال : ما خطبكما ؟ فحدثتاه ، فأتى الحجر فرفعه ، ثم لم يستق إلا ذنوبًا واحدًا حتى رويت الغنم ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافيًا فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه ، وجلس في الظل ، وهو صفوة اللَّه من خلقه ، وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع وإنه لمحتاج إلى شق تمرة . وقوله : ﴿ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾ قال ابن عباس : جلس تحت شجرة ، وقال عبد اللَّه ابن مسعود : حثثت على جمل ليلتين حتى صبَّحْت مدين ، فسألت عن الشجرة التي أوى إليها موسى ، فإذا هي شجرة خضراء ترف فأهوى إليها جملي ، وكان جائعًا ، فأخذها جملي فعالجها ساعة ، ثم لفظها فدعوت اللَّه لموسى ﷺ ، ثم انصرفت (١) . وقال السدي : كانت الشجرة من شجر السمر (٢) . وقال عطاء بن السائب : لما قال موسى : ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ أسمع المرأة .

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

لما رجعت المرأتان سريعًا بالغنم إلى أبيهما ، أنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعًا ، فسألهما عن خبرهما فقصتا عليه ما فعل موسى ﷺ . فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها قال اللَّه تعالى : ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ أي : مشي الحرائر . كما روي عن عمر ﷺ أنه قال : جاءت تمشي على استحياء قائلة بثوبها على وجهها ليست بسلفع من النساء دلاجة ولاجة خراجة . قال الجوهري : السلفع من الرجال الجسور ، ومن النساء الجرية السليطة ومن النوق الشديدة . ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ وهذا تأدب في العبارة لم تطلبه طلبًا مطلقًا لئلا يوهم ريبة ، بل قالت : ﴿ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ يعني : ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا . ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ ﴾ أي : ذكر له ما كان من أمره ، وما جرى له من السبب الذي خرج من أجله من بلده ﴿ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ يقول : طب نفسًا ، وقرَّ عينًا ، فقد خرجت من مملكتهم فلا حكم لهم في بلادنا . ولهذا قال : ﴿ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ

(١) أورده ابن جرير الطبري في تفسيره (٧٢/٢٠) . (٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٢٥/٥) .

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ، وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو ؟ على أقوال ؛ أحدها أنه شعيب النبي عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين ، وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء . وقال آخرون : بل كان ابن أخي شعيب . وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب . وقال آخرون : كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة لأنه قال لقومه : ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن ، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة ؛ تزيد على أربعمائة سنة كما ذكره غير واحد ، وما قيل إن شعيبًا عاش مدة طويلة ، إنما هو والله أعلم احتراز من هذا الإشكال ، ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ها هنا . وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده .

وقوله تعالى : ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ أي : قالت إحدى ابنتي هذا الرجل ، قيل : هي التي ذهبت وراء موسى عليه السلام قالت لأبيها : ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ أي : لرعيه هذه الغنم ، قال عمر وابن عباس : لما قالت : ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ قال لها أبوها : وما علمك بذلك ؟ قالت له : إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرةُ رجال ، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي : كوني من ورائي ، فإذا اختلفت علي الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه . وقال عبد الله ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة : أبو بكر حين تفرس في عمر ، وصاحب يوسف حين قال : أكرمي مثواه ، وصاحبة موسى حين قالت : ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ . قال : ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾ أي : طلب إليه هذا الرجلُ الشيخ الكبير أن يرعى غنمه ، ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين ، وقد استدل أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية على صحة البيع فيما إذا قال : بعتك أحد هذين العبدين بمائة فقال : اشتريت ، أنه يصح . والله أعلم .

وقوله : ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ﴾ أي : على أن ترعى غنمي ثماني سنين ، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك ، وإلا ففي الثمان كفاية . ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي : لا أشاقك ولا أؤذيك ، ولا أماريك . وقوله تعالى إخبارًا عن موسى عليه السلام : ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ . إن موسى قال لصهره : الأمر على ما قلت من أنك استأجرتني على ثمان سنين ، فإن أتممت عشرًا فمن عندي ، فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد ، وخرجت من الشرط . ولهذا قال : ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ﴾ أي : فلا حرج علي مع أن الكامل ، وإن كان مباحًا ، لكنه فاضل من جهة أخرى بدليل من خارج . كما قال تعالى : ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وقال رسول الله ﷺ لحمزة بن عمرو الأسلمي رضي الله عنه ، وكان كثير الصيام ، وسأله عن الصوم في السفر فقال : « إِنْ شِئْتَ فَصُمْ وَإِنْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ » (١) . مع أن فعل الصيام راجح من دليل آخر . هذا وقد دل الدليل على أن موسى عليه السلام إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما . وعن سعيد بن جبير قال : قال سألني يهودي من أهل الحيرة : أي الأجلين قضى موسى ؟

---

(١) أخرجه مسلم في (الصيام) (١٠٣) والإمام أحمد في مسنده (٤٩٤/٣) .

فقلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله ، فقدمت على ابن عباس ﷺ ، فسألته فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل .

وعن محمد بن كعب القرظي أن النبي ﷺ سئل أي الأجلين قضى موسى ؟ - قال -: « أوفاهما وأتمهما » (١) .

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ۝ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ .

قد تقدم في تفسير الآية قبلها أن موسى ﷺ قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما ، وأكملهما وأنقاهما . وقد يستفاد هذا أيضًا من الآية الكريمة حيث قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾ أي : الأكمل منهما والله أعلم . وقال مجاهد : قضى عشر سنين ، وبعدها عشرًا أخر ، وهذا القول لم أره لغيره ، فالله أعلم . وقوله : ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾ قالوا : كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله ، فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه فتحمل بأهله ، وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره ، فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة ، فنزل منزلًا فجعل كلما أورى زنده لا يضيء شيئًا فتعجب من ذلك ، فبينما هو ذلك كذلك : ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ ﴾ أي : رأى نارًا تضيء على بعد ف ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ أي : حتى أذهب إليها ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ وذلك لأنه قد أضل الطريق . ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ أي : قطعة منها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أي : تستدفئون بها من البرد . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ ﴾ أي : من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب . والنار قد وجدها تضطرم في شجرة خضراء في لفح الجبل مما يلي الوادي ، فوقف باهتًا في أمرها . فناداه ربه ﴿ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ وعن أبي عبيدة عن عبد الله قال : رأيت الشجرة التي نودي منها موسى ﷺ سمرة خضراء ترف ، وقال قتادة : هي من العوسج ، وعصاه من العوسج ، وقوله تعالى : ﴿ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي : الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين الفعال لما يشاء لا إله غيره ، وقوله : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ ﴾ أي : التي في يدك قال تعالى : ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ فعرف وتحقق أن الذي يكلمه ويخاطبه هو الذي يقول للشيء كن فيكون . وقال ها هنا : ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ ﴾ أي : تضطرب ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ أي : في حركتها السريعة مع عظم خلقتها ، وقوائمها واتساع فمها ، واصطكاك أنيابها وأضراسها ، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها ، تنحدر في فيها تتقعقع كأنها حادة في واد فعند ذلك ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ ﴾ . أي ولم يكن يتلفت ؛ لأن طبع البشرية ينفر من ذلك ، فلما قال الله له : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾ رجع فوقف في مقامه الأول ، ثم قال الله تعالى : ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ

---

(١) الطبري في تفسيره (٢٠/٨٥) .

سُوٓءٍ ﴾ أي إذا أدخلت يدك في جيب درعك ، ثم أخرجتها ، فإنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق . ولهذا قال : ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ أي : من غير برص .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ قال مجاهد : من الفزع . وقال قتادة : من الرعب . وقال عبد الرحمن بن زيد : مما حصل لك من خوفك من الحية ، والظاهر أن المراد أعم من هذا ، وهو أنه أمر ﷺ إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب ، وهو يده ، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف . وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء ، فوضع يده على فؤاده ، فإنه يزول عنه ما يجده أو يخف إن شاء الله تعالى وبه الثقة . وقوله تعالى : ﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ ﴾ يعني إلقاء العصا ، وجعلها حية تسعى ، وإدخاله يدَه في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء ، دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار ، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ﴾ أي : وقومه من الرؤساء ، والكبراء والأتباع . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ أي : خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ودينه .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝٣٣ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٣٤ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ .

لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون الذي إنما خرج من ديار مصر فرارًا منه ، وخوفًا من سطوته . ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا ﴾ يعني ذلك القبطي ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ أي : إذا رأوني ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا ﴾ وذلك أن موسى ﷺ كان في لسانه لثغة بسبب ما كان تناول تلك الجمرة حين خير بينها وبين التمرة أو الدرة ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه ، فحصل فيه شدة في التعبير ، ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ﴾ أي : وزيرًا ومعينًا ، ومقويًا لأمري يصدقني فيما أقوله ، وأخبر به عن الله ﷻ ؛ لأن خبر الاثنين أنجع في النفوس من خبر الواحد ولهذا قال : ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ وقال محمد بن إسحاق : ﴿ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ﴾ أي : يبين لهم عني ما أكلمهم به ، فإنه يفهم عني ما لا يفهمون . فلما سأل ذلك موسى قال الله تعالى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أي : سنقوي أمرك ، ونعز جانبك الذي سألت له أن يكون نبيًا معك . وقوله تعالى : ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا ﴾ أي : حجة قاهرة ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ أي : لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ - إلى قوله - وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أي : وكفى بالله ناصرًا ومعينًا ومؤيدًا ، ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ، ولمن اتبعهما في الدنيا والآخرة ، فقال تعالى : ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ ووجه ابن جرير على أن المعنى : ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ ، ثم يبتدئ فيقول : ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ تقديره أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا . ولا شك أن هذا المعنى صحيح ، وهو حاصل من التوجيه الأول ، فلا حاجة إلى هذا والله أعلم .

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٦

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه ، وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة ، والدلالة القاهرة على صدقهما فيما أخبرا به عن الله ﷻ . فلما عاين فرعون وملؤه ذلك ، وأيقنوا أنه من عند الله عدلوا بكفرهم ، وبغيهم إلى العناد والمباهتة ، وذلك لطغيانهم ، وتكبرهم عن اتباع الحق فقالوا : ﴿ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ أي : مفتعل مصنوع وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه فما صعد معهم ذلك . وقوله : ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يعنون : عبادة الله وحده لا شريك له ، ويقولون : ما رأينا أحدًا من آبائنا على هذا الدين ، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى . فقال موسى ﵇ مجيبًا لهم : ﴿ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ ﴾ يعني : مني ومنكم ، وسيفصل بيني وبينكم ولهذا قال : ﴿ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ﴾ أي : من النصرة والظفر والتأكيد . ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ أي : المشركون بالله ﷻ .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه ، وافترائه في الإلهية لنفسه القبيحة لعنه الله : كما قال تعالى : ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ وذلك أنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية : فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم ، قال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ ؛ وانتقم الله تعالى منه فجعله عبرة لغيره في الدنيا والآخرة ، وحتى أنه واجه موسى الكليم بذلك فقال : ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ وقوله : ﴿ فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ ﴾ يعني : أمر وزيره هامان ، ومدبر رعيته ، ومشير دولته ، أن يوقد له على الطين يعني : يتخذ له آجرًا لبناء الصرح ، وهو القصر المنيف الرفيع العالي كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ۝ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ .

وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح الذي لم ير في الدنيا أعلى منه ، وإنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون ولهذا قال : ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ أي : في قوله أن ثَمَّ ربًا غيري لا أنه كذبه في أن الله تعالى أرسله ؛ لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع جل وعلا ، فإنه قال : ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ وقال : ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ وقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ أي : طغوا وتجبروا ، وأكثروا في الأرض الفساد ، واعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ ولهذا قال تعالى ها هنا :

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ أي : أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة فلم يبق منهم أحد . ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ أي : لمن سلك وراءهم ، وأخذ طريقتهم في تكذيب الرسل ، وتعطيل الصانع . ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ أي فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولًا بذل الآخرة وقوله تعالى : ﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أي وشرع الله لعنتهم ، ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله ، كما أنهم في الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء ، وأتباعهم كذلك . ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عما أنعم به على موسى الكليم ، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم ، من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملأه . وقوله تعالى : ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ يعني أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين . وقال أبو سعيد الخدري : ما أهلك الله قومًا بعذاب من السماء ، ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير أهل القرية الذين مسخوا قردة بعد موسى . ثم قرأ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [١] . وقوله : ﴿ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ أي : من العمى والغي ، ﴿ وَهُدًى ﴾ إلى الحق ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أي : إرشادًا إلى العمل الصالح ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي : لعل الناس يتذكرون به ، ويهتدون بسببه .

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا على برهان نبوة محمد ﷺ ، حيث أخبر بالغيوب الماضية خبرًا كأن سامعه شاهد وراءٍ لما تقدم ، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئًا من الكتب ، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئًا من ذلك . ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾ يعني : ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطىء الوادي ﴿ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ لذلك ، ولكن الله ﷻ أوحى إليك ذلك ليكون حجة وبرهانًا على قرون قد تطاول عهدها ، ونسوا حجج الله عليهم ، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ أي : وما كنت مقيمًا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبيها شعيب ، وما قال لقومه وما ردوا عليه : ﴿ وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أي : ولكن نحن أوحينا إليك ذلك ، وأرسلناك إلى الناس رسولًا . ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ عن أبي هريرة ﷺ قال : نودوا أن : يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني ، وأجبتكم قبل أن تدعوني [٢] .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٠/٩٨) . (٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٠/١٠٠) .

وقال مقاتل بن حيان : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أمتك في أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت . وقال قتادة : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ موسى . وهذا - والله أعلم - أشبه بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾ ثم أخبر ها هنا بصيغة أخرى أخص من ذلك ، وهو النداء كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي : ما كنت مشاهدًا لشيء من ذلك ، ولكن الله تعالى أوحاه إليك ، وأخبرك به رحمة منه بك ، وبالعباد بإرسالك إليهم : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي : لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله ﷻ ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ الآية . أي : وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة ، ولينقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم ، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير ، كما قال تعالى بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن : ﴿ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ۝ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم ، لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول . أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ قالوا على وجه التعنت والعناد ، والكفر والجهل والإلحاد : ﴿ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ﴾ الآية . يعنون والله أعلم من الآيات الكثيرة مثل : العصا واليد ، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وتنقيص الزروع والثمار ، وكفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى إلى غير ذلك من الآيات الباهرة والحجج القاهرة ، التي أجراها الله تعالى على يدي موسى عليه السلام حجة وبرهانًا له على فرعون وملئه وبني إسرائيل ، ومع هذا كله لم ينجع في فرعون وملئه . بل كفروا بموسى وأخيه هارون كما قالوا لهما : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ . ولهذا قال ها هنا : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ أي : أو لم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة ﴿ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا ﴾ أي : تعاونا ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴾ أي : بكل منهما كافرون .

قال مجاهد : أمرت اليهود قريشًا أن يقولوا لمحمد ﷺ ذلك فقال الله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا ﴾ قال : يعني موسى وهارون صلى الله عليهما وسلم . ﴿ تَظَٰهَرَا ﴾ أي : تعاونا وتناصرا ، وصدق كل منهما الآخر ؟ وبهذا قال سعيد بن جبير في قوله : (ساحران) يعنون موسى وهارون ، وهذا قول جيد قوي ، والله أعلم . وعن ابن عباس : (قالوا ساحران تظاهرا) قال : يعنون موسى ومحمدًا صلى الله عليهما وسلم ، وقال قتادة : يعني عيسى ومحمدًا صلى الله عليهما وسلم ، وهذا فيه بعد ؛ لأن عيسى لم يجر له ذكر ها هنا والله أعلم . وأما من قرأ : ﴿ سِحْرَانِ

تَظَٰهَرَا ﴾ فقال العوفي عن ابن عباس : يعنون التوراة والقرآن . قال السدي : يعني صدق كل واحد منهما الآخر . وقال عكرمة : يعنون التوراة والإنجيل ، واختاره ابن جرير . وقال الضحاك وقتادة : الإنجيل والقرآن . والله ﷻ أعلم بالصواب . والظاهر على قراءة ﴿ سِحْرَانِ ﴾ أنهم يعنون التوراة والقرآن ؛ لأنه قال بعده : ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ ﴾ ، وكثيرًا ما يقرن الله بين التوراة والقرآن كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ - إلى قوله - وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ . وقال ورقة بن نوفل : هذا الناموس الذي أنزل على موسى . وقد علم بالضرورة لذوي الألباب أن الله تعالى لم ينزل كتابًا من السماء ، فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه ، أكمل ولا أشمل ، ولا أفصح ولا أعظم ، أشرف من الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ ، وهو القرآن وبعده في الشرف والعظمة . الكتاب الذي أنزله على موسى بن عمران ﵇ ، وهو الكتاب الذي قال الله فيه : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ . والإنجيل إنما أنزل متممًا للتوراة ، ومحلًا لبعض ما حرم على بني إسرائيل ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي : فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ ﴾ أي : فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ، ولم يتبعوا الحق ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ أي : بلا دليل ولا حجة . ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي : بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ ﴾ قال مجاهد : فصلنا لهم القول . وقال السدي : بينا لهم القول . وقال قتادة : يقول تعالى : أخبرهم كيف صنع بمن مضى ، وكيف هو صانع ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ . قال مجاهد وغيره ﴿ وَصَّلْنَا لَهُمُ ﴾ يعني : قريشًا ، وهذا هو الظاهر .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن ، كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ - إلى قوله - فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ قال سعيد بن جبير : نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي ، فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم ﴿ يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ حتى ختمها ، فجعلوا يبكون ، وأسلموا ونزلت فيهم الآية الأخرى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾ . يعني : من قبل هذا القرآن كنا مسلمين أي : موحدين مخلصين لله مستجيبين له . قال الله تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ أي : هؤلاء المتصفون بهذه الصفات الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثاني ؛

ولهذا قال : ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أي على اتباع الحق ؛ فإن تجشُّم مثل هذا شديد على النفوس . وقد ورد في الصحيح عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين ؛ رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها فتزوجها » (١) . وعن القاسم بن أبي أمامة قال : إني لتحت راحلة رسول الله ﷺ يوم الفتح فقال قولًا حسنًا جميلًا ، وقال فيما قال : « مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ ، وَلَهُ مَا لَنَا وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا » (٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ أي : لا يقابلون السيِّئ بمثله ، ولكن يعفون ويصفحون .

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أي : ومن الذي رزقهم من الحلال ينفقون على خلق الله في النفقات الواجبة لأهليهم وأقاربهم ، والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات ، وصدقات النفل والقربات . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾ أي : لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم ، بل كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ . ﴿ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أي : إذا سفه عليهم سفيه ، وكلمهم بما لا يليق بهم الجواب عنه أعرضوا عنه ، ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح ، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب ، ولهذا قال عنهم أنهم قالوا : ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أي : لا نريد طريق الجاهلين ولا نحبها . قال محمد بن إسحاق في السيرة : ثم قدم على رسول الله ﷺ - وهو بمكة - عشرون رجلًا أو قريب من ذلك من النصارى ، حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه في المسجد ، فجلسوا إليه ، وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مساءلة رسول الله ﷺ عما أرادوا ، دعاهم إلى الله تعالى ، وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن ، فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به ، وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره ، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم ، وصدقتموه فيما قال ، ما نعلم ركبًا أحمق منكم ، أو كما قالوا لهم . فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه لم نأل أنفسنا خيرًا . قال ويقال : إن النفر النصارى من أهل نجران فالله أعلم أي ذلك كان . قال : ويقال - والله أعلم - : نزلت هذه الآيات : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ - إلى قوله - لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ قال : وسألت الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت . قال : ما زلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن في النجاشي وأصحابه ﷺ ، والآيات اللاتي في سورة المائدة : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا - إلى قوله - فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (٣) .

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١١) ومسلم في (الإيمان) (٢٤١) والإمام أحمد في مسنده (٤٠٢/٤) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٥٩/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٩٣/١) .
(٣) سيرة ابن هشام (٣٢/٢) .

يقول تعالى لرسوله ﷺ : إنك يا محمد ﴿ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ أي : ليس إليك ذلك ، إنما عليك البلاغ ، والله يهدي من يشاء ، له الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ أي : هو أعلم بمن يستحق الهداية ، ممن يستحق الغواية . وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله وكان يحوطه وينصره ، ويحبه حبًّا شديدًا لا شرعيًّا فلما حضرته الوفاة ، وحان أجله دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام فسبق القدر فيه ، واستمر على ما كان عليه من الكفر ، ولله الحكمة التامة ، عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة ، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال رسول الله ﷺ : « يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه كَلِمَة أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّه » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال هو : على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ : « وَاللَّه لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ » . فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ ﴾ وأنزل في أبي طالب : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ يقول تعالى مخبرًا عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ : ﴿ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ أي : نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى ، وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين أن يقصدونا بالأذى والمحاربة ، ويتخطفونا أينما كنا . قال الله تعالى مجيبًا لهم : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ يعني : هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل ؛ لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين وحرم معظَّم آمن منذ وضع ، فكيف يكون هذا الحرم آمنًا لهم في حال كفرهم وشركهم ، ولا يكون آمنًا لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق ؟ وقوله تعالى : ﴿ يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أي : من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره ، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ أي من عندنا ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ولهذا قالوا ما قالوا .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى معرضًا بأهل مكة في قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ أي : طغت وأشرت ، وكفرت نعمة الله فيما أنعم به عليهم من الأرزاق ، قال تعالى : ﴿ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي : دثرت ديارهم ، فلا ترى إلا مساكنهم . وقوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ أي : رجعت خرابًا ليس فيها أحد ، ثم قال تعالى مخبرًا عن عدله ، وأنه لا يهلك أحدًا ظالمًا له ، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا ﴾ وهي مكة ﴿ رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ فيه دلالة على أن النبي الأمي - وهو

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٧٢) ومسلم في (الإيمان) (٣٩) والإمام أحمد في مسنده (٥/٤٢٣) .

محمد ﷺ المبعوث من أم القرى - رسول إلى جميع القرى من عرب وأعجام . كما قال تعالى : ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ . فجعل تعالى بعثة النبي الأمي شاملة لجميع القرى ؛ لأنه مبعوث إلى أمها ، وأصلها التي ترجع إليها . وثبت عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : « بُعِثْتُ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ »(1) . ولهذا ختم به النبوة والرسالة ، فلا نبي بعده ولا رسول ، بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة . وقيل : المراد بقوله : ﴿ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا ﴾ أي : أصلها وعظيمتها كأمهات الرساتيق والأقاليم .

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن حقارة الدنيا ، بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ . وقال رسول الله ﷺ : « وَاللَّهِ مَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا في الآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَغْمِسُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ في اليَمِّ ، فَلْيَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ »(2) . وقوله : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي : أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة . وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ . يقول تعالى : أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح الأعمال ، كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ، فهو ممتع في الحياة الدنيا أيامًا قلائل . ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ . قال مجاهد : من المعذبين ، ثم قد قيل : إنها نزلت في رسول الله ﷺ ، وفي أبي جهل . وقيل : في حمزة وعلي وأبي جهل ، وكلاهما عن مجاهد والظاهر أنها عامة .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة حيث يناديهم فيقول : ﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ يعني : أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد ، هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟ وهذا على سبيل التقريع والتهديد . وقوله : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ يعني : الشياطين والمردة ، والدعاة إلى الكفر . ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ فشهدوا عليهم أنهم أغووهم ، فاتبعوهم ، ثم تبرؤوا من عبادتهم كما قال تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ . وقال الله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ .

---

(1) أخرجه مسلم في المساجد (٣) والإمام أحمد في مسنده (٤/١١٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٦٥) .
(2) أخرجه الترمذي في جامعه (٢٣٢٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/١٧٤) .

ولهذا قال : ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ﴾ أي ليخلصوكم مما أنتم فيه كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا . ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ أي : وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة . وقوله : ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴾ أي : فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا ، وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ . النداء الأول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوات ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم ؟ وكيف كان حالكم معهم ؟ وهذا كما يُسأل العبد في قبره : من ربك ، ومن نبيك ، وما دينك ؟ فأما المؤمن ، فيشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ، وأما الكافر فيقول : هاه هاه لا أدري ، ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت ؛ لأن من كان في هذه أعمى ، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ قال مجاهد : فعميت عليهم الحجج ، فهم لا يتساءلون بالأنساب . وقوله : ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أي : في الدنيا ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾ أي : يوم القيامة ، وعسى من الله موجبة ، فإن هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار ، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب ، قال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : ما يشاء فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده ، ومرجعها إليه . وقوله : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ نفي على أصح القولين . كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ . وقد اختار ابن جرير أن ﴿ ما ﴾ ها هنا بمعنى الذي تقديره : ويختار الذي لهم فيه خيرة ، والصحيح أنها : نافية كما نقل عن ابن عباس وغيره أيضًا ، فإن المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار ، وأنه لا نظير له في ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئًا . ثم قال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ . أي : يعلم ما تكن الضمائر ، وما تنطوي عليه السرائر ، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق . وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي : هو المنفرد بالإلهية ، فلا معبود سواه ، كما لا رب يخلق ما يشاء ويختار سواه ﴿ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي في جميع ما يفعله هو المحمود عليه بعد له وحكمته ﴿ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ أي : الذي لا معقب له لقهره ، وغلبته ، وحكمته ، ورحمته ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : جميعكم يوم القيامة ، فيجزي كل عامل بعمله من خير وشر ، ولا يخفى عليه منهم خافية في سائر العمال .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًا على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار اللذين لا قوام لهم بدونهما ، وبين أنه

لو جعل الليل دائمًا عليهم سرمدًا إلى يوم القيامة ، لأضر ذلك بهم ولسئمته النفوس ، وانحصرت منه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ﴾ أي : تبصرون به وتستأنسون بسببه ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ ؟ ثم أخبر تعالى : أنه لو جعل النهار سرمدًا أي : دائمًا مستمرًا إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم ، ولتعبت الأبدان من كثرة الحركات والأشغال ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ أي : تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ أي بكم ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ أي : خلق هذا وهذا . ﴿ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ أي : في الليل . ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أي : في النهار بالأسفار والترحال ، والحركات والأشغال ، وهذا من باب اللف والنشر . وقوله : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي : تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار ، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار ، أو بالنهار استدركه بالليل .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ .

وهذا أيضًا نداء ثان على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع الله إلهًا آخر . يناديهم الرب تعالى على رؤوس الأشهاد فيقول : ﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي : في دار الدنيا . ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ قال مجاهد : يعني رسولًا ﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ أي : على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء ﴿ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ أي : لا إله غيره ، فلم ينطقوا ، ولا يحيروا جوابًا . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ أي ذهبوا فلم ينفعوهم .

﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ ﴾ كان ابن عمه ، قال ابن جريج : هو قارون بن يصهب بن قاهث ، وموسى بن عمران بن قاهث . وزعم محمد بن إسحاق بن يسار أن قارون كان عم موسى بن عمران عليه السلام . قال ابن جريج : وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه والله أعلم . وقال قتادة ابن دعامة : كنا نحدث أنه كان ابن عم موسى ، وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة ، ولكن عدو الله نافق ، كما نافق السامري ، فأهلكه البغي لكثرة ماله ، وقال شهر بن حوشب : زاد في ثيابه شبرًا طولًا ترفعًا على قومه . وقوله : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ ﴾ أي : الأموال . ﴿ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾ أي : ليثقل حملها الفئام من الناس لكثرتها . وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ أي : وعظه فيما هو فيه صالحو قومه فقالوا ، على سبيل النصح والإرشاد : لا تفرح بما أنت فيه ، يعنون لا تبطر بما أنت فيه من المال . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ . قال ابن عباس : يعني المرحين . وقال مجاهد : يعني الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم ، وقوله : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي : استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل ، والنعمة الطائلة في طاعة ربك ، ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي : مما أباح الله فيها من

المآكل والمشارب ، والملابس والمساكن ، والمناكح ، فإن لربك عليك حقًا ، ولنفسك عليك حقًا ، ولأهلك عليك حقًا ، ولزورك عليك حقًا ، فآت كل ذي حق حقه . ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أي : أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي : لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الأرض ، وتسيء إلى خلق الله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن جواب قارون لقومه حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ أي : إنما أعطيته لعلم الله فيَّ أني أهل له ، وهذا كقوله : ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أي : على من الله بي ، وقال الله تعالى رادًا عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ أي : قد كان من هو أكثر منه مالًا ، وما كان ذلك عن محبة منا له ، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم ، وعدم شكرهم . ولهذا قال : ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ أي لكثرة ذنوبهم . قال قتادة : ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ : على خير عندي ، وقال السدي : على علم أني أهل لذلك . وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد ، فإنه قال في قوله : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ قال : لولا رضا الله عني ، ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال . وقرأ : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ الآية ، وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه لولا أن يستحق ذلك لما أعطي .

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قارون أنه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة ، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ، ويميل إلى زخارفها وزينتها ، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطي . ﴿ قالوا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أي : ذو حظ وافر من الدنيا ، فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم : ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أي : جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون . كما في الحديث الصحيح : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، وَاقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ »(١) . وقوله : ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ . قال السدي : ولا يلقى الجنة إلا الصابرون ، كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم . قال ابن جرير : ولا يلقى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا الراغبون في الدار الآخرة ، وكأنه جعل ذلك مقطوعًا من كلام أولئك ، وجعله من كلام الله ﷻ ، وإخباره بذلك .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٧٩) والإمام أحمد في مسنده (٦٦/٢) .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ۝٨١ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته وفخره على قومه ، وبغيه عليهم عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض كما ثبت في الصحيح عن سالم عن أبيه عنه ﷺ قال : « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ إِذْ خُسِفَ بِهِ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الأَرْضِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ » (١) .

وعن أبي سعيد قال : قال ﷺ : بينما رجل ممن كان قبلكم خرج في بردين أخضرين يختال فيهما أمر اللّه الأرض فأخذته ، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ أي : ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه وحشمه ، ولا دفعوا عنه نقمة اللّه وعذابه ونكاله ولا كان هو في نفسه منتصرًا لنفسه فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ ﴾ أي : الذين لما رأوه في زينته قالوا : ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ . فلما خسف به أصبحوا يقولون : ﴿ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ أي : ليس المال بدال على رضا اللّه عن صاحبه ، كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود : « إِنَّ اللّه قَسَّمَ بَيْنَكُمْ أَخلاَقَكُمْ كَمَا قَسَّمَ أَرْزَاقَكُمْ ، وَإِنَّ اللّه يُعْطِي المَالَ مَنْ يُحِبُّ ، وَمَنْ لَا يُحِبُّ ، وَلَا يُعْطِي الإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ » (٣) . ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ أي : لولا لطف اللّه بنا ، وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به لأنا وددنا أن نكون مثله ﴿ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ يعنون أنه كان كافرًا ، ولا يفلح الكافر عند اللّه لا في الدنيا ولا في الآخرة .

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٨٣ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول ، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علوًا في الأرض أي ترفعًا على خلق اللّه ، وتجبرًا بهم ، ولا فسادًا فيهم . كما قال عكرمة : العلو : التجبر . وقال سعيد بن جبير : العلو البغي . وعن مسلم البطين : العلو في الأرض التكبر بغير حق ، والفساد أخذ المال بغير حق (٤) ، وعن علي قال : إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٥) وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره . فإن ذلك مذموم . كما ثبت في الصحيح عنه ﷺ : « إِنَّهُ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٩٠) . (٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٤٠) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٣٨٧) والحاكم في المستدرك (١/٣٣) .
(٤) ذكره الطبري في تفسيره (٢٠/١٤٩) . (٥) ذكره الطبري في تفسيره (٢٠/١٤٩) .

تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَر أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا يَبغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ » (١) . وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمل ، فهذا لا بأس به . فقد ثبت أن رجلًا قال : يا رسول الله إني أحب أن يكون ردائي حسنًا ، ونعلي حسنة أفمن الكبر ذلك ؟ فقال : « لَا ، إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ » (٢) . وقال تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ ﴾ أي : يوم القيامة . ﴿ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ أي : ثواب الله خير من حسنة العبد ، فكيف والله يضاعفه أضعافًا كثيرة ، وهذا مقام الفضل . ثم قال : ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ . كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وهذا مقام الفضل والعدل .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾
وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ
ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ
إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله صلوات وسلامه عليه بيلاغ الرسالة ، وتلاوة القرآن على الناس ، ومخبرًا له بأنه سيرده إلى معاد ، وهو يوم القيامة ، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أي : افترض عليك أداءه إلى الناس . ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أي : إلى يوم القيامة ، فيسألك عن ذلك كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ .

وقال ابن عباس : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ يقول : لرادُّك إلى الجنة ، ثم سائلك عن القرآن . وقال عكرمة عن ابن عباس ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ قال : إلى يوم القيامة ، وعن سعيد ابن جبير عن ابن عباس : ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ : إلى الموت ، ولهذا طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وفي بعضها لرادك إلى معدنك من الجنة . وقال مجاهد : يحييك يوم القيامة . وقال الحسن البصري : أي والله إن له لمعادًا ، فيبعثه الله يوم القيامة ، ثم يدخله الجنة . وقد روي عن ابن عباس غير ذلك ، كما قال البخاري في التفسير من صحيحه عن ابن عباس ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ قال : إلى مكة (٣) . وقال مجاهد : إلى مولدك بمكة . وعن نعيم القاري أنه قال : إلى بيت المقدس . وهذا والله أعلم يرجع إلى قول من فسر ذلك بيوم القيامة ؛ لأن بيت المقدس هو أرض المحشر والمنتشر ، والله الموفق للصواب . ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة ، وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجل النبي ﷺ كما فسر ابن عباس سورة : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ إلى آخر السورة ، أنه أجل رسول الله ﷺ نعي إليه ، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب ، ووافقه عمر على ذلك وقال : لا أعلم منها غير الذي تعلم . ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله : ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ بالموت ، وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت ، وتارة بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله ، وإبلاغها إلى الإنس والجن ؛ ولأنه أكمل خلق الله وأفصح خلق الله على الإطلاق .

(١) أخرجه مسلم في الجنة (٦٤) وأبو داود في سننه (٤٨٩٥) .
(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٦/٢٤٨) . (٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٧٣) .

وقوله تعالى : ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ أي : قل لمن خالفك وكذبك من قومك من المشركين ، ومن تبعهم على كفرهم . قل : ربي أعلم بالمهتدي منكم ومني ، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة . ثم قال مذكرًا لنبيه نعمته العظيمة عليه ، وعلى العباد إذ أرسله إليهم : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ أي : أما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك ولكن ﴿ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ ﴾ أي : إنما أنزل الوحي عليك من اللَّه ، من رحمته بك وبالعباد بسببك ، فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا ﴾ أي معينًا . ﴿ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴾ ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم ، ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ ﴾ أي : لا تتأثر لمخالفتهم لك وصدهم الناس عن طريقك ، لا تلوي على ذلك ، ولا تباله ، فإن اللَّه معلٍ كلمتك ، ومؤيد دينك ، ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان ، ولهذا قال : ﴿ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ ﴾ أي : إلى عبادة ربك وحده لا شريك له . ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ ﴾ أي : لا تليق العبادة إلا له ، ولا تنبغي الإلهية إلا لعظمته . وقوله : ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ ﴾ إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت ، ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ ﴾ أي إلا إياه . وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عنه ﷺ قال : « أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ لَبِيدَ :

أَلَا كُلُّ شَيءٍ مَا خَلَا الله بَاطِلُ » (١)

وقال مجاهد والثوري في قوله : ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ ﴾ أي : إلا ما أريد به وجهه .

وهذا القول لا ينافي القول الأول ، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة ، إلا ما أريد به وجه اللَّه تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة ، والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وزائلة ، إلا ذاته تعالى وتقدس ، فإنه الأول الآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء . وقوله : ﴿ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ ﴾ أي : الملك والتصرف ، ولا معقب لحكمه . ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ أي يوم معادكم ، فيجزيكم بأعمالكم إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر .

---

(١) أخرجه البخاري في (الأدب) (٦١٤٧) و (مناقب الأنصار) (٣٨٤١) ومسلم في (الشعر المقدمة) (٣) والإمام أحمد في مسنده (٤٧٠/٢) .

سورة العنكبوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة . وقوله تعالى : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ استفهام إنكار ، ومعناه أن الله ﷻ لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان . كما جاء في الحديث الصحيح : « أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأمْثلُ ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَب دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَة ؛ زِيْدَ لَهُ فِي البَلَاءِ »(١) . وهذه الآية كقوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ ولهذا قال ها هنا : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أي : الذين صدقوا في دعوى الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه ، والله ﷻ يعلم ما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون . وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة . وبهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل قوله : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ ﴾ إلا لنرى ؛ وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود ، والعلم أعم من الرؤية ، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي : لا يحسبن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان ، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ماهو أغلظ من هذا وأطم ولهذا قال : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ﴾ أي : يفوتونا ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي : بئس ما يظنون .

﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَٰتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ ﴾ أي : في الدار الآخرة ، وعمل الصالحات ، ورجا ما عند الله من الثواب الجزيل ، فإن الله سيحقق له رجاءه ، ويوفيه عمله كاملًا موفرًا ؛ لأنه سميع الدعاء ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَٰتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ أي : من عمل صالحًا ، فإنه يعود نفع عمله على نفسه ، فإن الله تعالى غني عن أفعال العباد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال الحسن البصري : إن الرجل ليجاهد ، وما ضرب يومًا من الدهر بسيف . ثم أخبر تعالى أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم ، ومع بره وإحسانه بهم يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء ، فيقبل القليل من الحسنات ، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧٢/١) والحاكم في المستدرك (٣٤٣/٣) .

ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . وقال ها هنا : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده ، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان ، ولهما عليه غاية الإحسان ، فالوالد بالإنفاق ، والوالدة بالإشفاق ، ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ أي : وإن حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين ، فإياك وإياهما فلا تطعهما في ذلك ، فإن مرجعكم إليّ يوم القيامة ، فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك ، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك - وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا - فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب . أي : حبًا دينيًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ . عن سعد قال : نزلت فيَّ أربع آيات فذكر قصته وقال : قالت أم سعد : أليس الله قد أمرك بالبر ؟ والله لا أطعم طعامًا ، ولا أشرب شرابًا حتى أموت أو تكفر ، قال : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها . فنزلت : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ الآية [1] .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ۝ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ، ولم يثبت الإيمان في قلوبهم ، بأنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم ، فارتدوا عن الإسلام ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ . قال ابن عباس : يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ - إلى قوله - هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ . ثم قال ﷻ : ﴿ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ أي : ولئن جاء نصر قريب من ربك يا محمد ، وفتح ومغانم ليقولن هؤلاء لكم : إنا كنا معكم أي : إخوانكم في الدين كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وقال تعالى مخبرًا عنهم ها هنا : ﴿ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ . ثم قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : أوليس الله بأعلم بما في قلوبهم ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ أي وليختبرن الله الناس بالضراء والسراء ليتميز من هؤلاء من يطيع الله في الضراء والسراء ، ومن إنما يطيعه في حظ نفسه ، كما قال تعالى بعد وقعة أحد التي كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان : ﴿ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ الآية .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في سننه (١/١٨١ ، ١٨٦) .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن كفار قريش ، أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى : ارجعوا عن دينكم إلى ديننا واتبعوا سبيلنا ، ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ أي : وآثامكم إن كانت لكم آثام في ذلك علينا وفي رقابنا ، كما يقول القائل : افعل هذا وخطيئتك في رقبتي ، قال الله تعالى تكذيبًا لهم : ﴿ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أي : فيما قالوه إنهم يحتملون عن أولئك خطاياهم ، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ ، إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة أنهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم ، وأوزارًا أخر بسبب ما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئًا ، الآية . وفي الصحيح : « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجورِ مَنِ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَام مَنِ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْم القِيَامَةِ مِنْ غَيرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا » (١) . وفي الصحيح : « وَمَا قُتِلَتْ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا ؛ لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ » (٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي : يكذبون ، ويختلقون من البهتان ، وفي الصحيح « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَال الجِبَالِ ، وَقَدْ ظَلَمَ هذَا ، وَأَخَذَ مَالَ هذَا ، وأخذ مِنْ عَرَضِ هذَا ، فَيَأْخُذُ هذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وهذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِذَا لَمْ تَبْقَ لَهُ حَسَنَةٌ ؛ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ » (٣) .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَا ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ يخبره عن نوح عليه السلام أنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله تعالى ليلًا ونهارًا ، وسرًا وجهرًا ، ومع هذا ما آمن معه منهم إلا قليل ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ أي : بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والإنذار ، فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك ، ولا تحزن عليهم ، فإن الله يهدي من يشاء ، وبيده الأمر وإليه ترجع الأمور ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ ﴾ الآية . اعلم أن الله سيظهرك ، وينصرك ويؤيدك ، عن ابن عباس قال : بعث نوح وهو لأربعين سنة ، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ، وعاش بعد الطوفان ستين عامًا حتى كثر الناس وفشوا . وقال مجاهد : قال لي ابن عمر : كم لبث نوح في قومه ؟ قال : قلت : ألف سنة إلا خمسين عامًا . قال : فإن الناس لم يزالوا في نقصان من أعمارهم ، وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا . وقوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ السَّفِينَةِ ﴾ أي الذين آمنوا

---

(١) أخرجه مسلم في (العلم) (١٦) والإمام أحمد في مسنده (٣٩٧/٢) والترمذي في السنن (٢٦٧٤) .
(٢) أخرجه مسلم في (القسامة) (٢٧) والإمام أحمد في مسنده (٣٨٣/١) .
(٣) أخرجه بنحوه مسلم في البر (٦٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٠٣/٢) .

بنوح عليه السلام ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أي : وجعلنا تلك السفينة باقية ، إما عينها كما قال قتادة : إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي ، أو نوعها جعله الناس تذكرة لنعمه على الخلق كيف أنجاهم من الطوفان كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ . وقال ها هنا : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ . وهذا من باب التدريج من الشخص إلى الجنس كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ أي : وجعلنا نوعها رجومًا ، فإن التي يرمى بها ليست هي زينة للسماء . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ ولهذا نظائر كثيرة . وقال ابن جرير : لو قيل : إن الضمير في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ عائد إلى العقوبة لكان وجهًا ، والله أعلم .

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له والإخلاص له في التقوي ، فقال لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ أي : أخلصوا له العبادة والخوف ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة ، واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة . ثم أخبر تعالى أن الأصنام التي يعبدونها لا تضر ولا تنفع ، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء فسميتموها آلهة ، وإنما هي مخلوقة مثلكم . هكذا رواه العوفي عن ابن عباس ، وروى الوالبي عن ابن عباس ، وتصنعون إفكا أي : تنحتونها أصنامًا ، واختاره ابن جرير رحمه الله . وهي لا تملك لكم رزقًا . ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ وهذا أبلغ في الحصر ، كقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . ولهذا قال ﴿ فَابْتَغُوا ﴾ : أي فاطلبوا ﴿ عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ أي لا عند غيره فإن غيره لا يملك شيئًا . ﴿ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ أي : كلوا من رزقه واعبدوه وحده ، واشكروا له على ما أنعم به عليكم . ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله . وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ أي : فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ يعني : إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة ، والله يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء ، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ۝ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الخليل عليه السلام : أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا ثم وجدوا ، وصاروا أناسًا سامعين مبصرين ، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته ، ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآيات المشاهدة من

خلق الله الأشياء : السماوات وما فيها من الكواكب النيرة الثوابت والسيارات ، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال ، وأودية وبراري وقفار ، وأشجار وأنهار ، وثمار وبحار ، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها ، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار ، الذي يقول للشيء كن فيكون . ولهذا قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ﴾ أي : هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه ، كما جاء في الحديث : « إِنَّ اللَّهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ ، وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ ، وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ » (١) . ولهذا قال تعالى : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ أي : ترجعون يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ أي : لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه ، بل هو القاهر فوق عباده ، فكل شيء خائف منه فقير إليه ، وهو الغني عما سواه ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ﴾ أي : جحدوها وكفروا بالمعاد ﴿ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي ﴾ أي لا نصيب لهم فيها ﴿ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : موجع شديد في الدنيا والآخرة .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم ، ومكابرتهم ، ودفعهم الحق بالباطل ، أنهم ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان ﴿ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ وذلك لأنهم قام عليهم البرهان ، فعدلوا إلى استعمال جاههم ، وقوة ملكهم ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ۝ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ وذلك أنهم حشدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة ، وحوطوا حولها ، ثم أضرموا فيها النار ، فارتفع لها لهب إلى عنان السماء ، ولم توقد نار قط أعظم منها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم ، فكتموه وألقوه في كفة المنجنيق ، ثم قذفوه فيها ، فجعلها الله عليه بردًا وسلامًا ، وخرج منها سالمًا بعد ما مكث فيها أيامًا ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ أي : سلمه منها بأن جعلها عليه بردًا وسلامًا ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يقول لقومه مقرعًا لهم ، وموبخًا على سوء صنيعهم في عبادتهم للأوثان ، إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة ، وألفة منكم بعضكم لبعض في الحياة الدنيا ، وهذا على قراءة من نصب ﴿ مودة بينكم ﴾ على أنه مفعول له ، وأما على قراءة الرفع (٢) فمعناه إنما اتخاذكم هذا لتحصل لكم المودة في الدنيا فقط ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٨٢/٥) .

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ﴿ مودةً ﴾ وقرأ الأعشى ﴿ مودةٌ ﴾ وقرأ أبو عمرو والكسائي ﴿ مودةُ ﴾ (حجة القراءات ص ٥٥٠) .

ينعكس هذا الحال ، فتبقى هذه الصداقة ، والمودة بغضًا وشنآنًا ، ثم : ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ أي : تتجاحدون ما كان بينكم ﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ أي : يلعن الأتباع المتبوعين ، والمتبوعون الأتباع . ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار ، عن أم هانئ أخت علي بن أبي طالب قالت : قال لي النبي ﷺ : « أُخْبِرُكِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَجْمَعُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَمَن يَدْرِي أَيْنَ الطَّرَفَانِ ؟ » قَالَتْ : اللَّه ورسوله أعلم - « ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ يَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ فَيَشْرَئِبُّون - قَالَ : أَبُو عَاصِم يَرْفَعُونَ رُؤُوسَهُمْ - ثُمَّ يُنَادِي : يَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ ، ثُمَّ يُنَادِي الثَّالِثَةَ : يَا أَهْلَ التَّوحِيدِ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَفَا عَنْكُمْ - قال : « فَيَقُومُ النَّاسُ قَدْ تَعَلَّقَ بَعْضُهُمْ بِبَعْض فِي ظُلَامَاتِ الدُّنْيَا - يعني المظالم - ثُمَّ يُنَادِي : يَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ : لِيَعِفُ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ وَعَلَى اللَّه الثَّواب » [١] .

﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن إبراهيم أنه آمن له لوط يقال إنه ابن أخي إبراهيم ، يقولون : هو لوط بن هارون بن آزر يعني : ولم يؤمن به من قومه سواه ، وسارة امرأة إبراهيم الخليل ، لكن يقال : كيف الجمع بين هذه الآية ، وبين الحديث الوارد في الصحيح أن إبراهيم حين مر على ذلك الجبار ، فسأل إبراهيم عن سارة ما هي منه فقال : أختى ، ثم جاء إليها فقال لها : إني قد قلت له إنك أختي فلا تكذبيني ، فإنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك ، فأنت أختي في الدين [٢] . وكأنما المراد من هذا - والله أعلم - أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك ، فإن لوطًا عليه السلام آمن به من قومه ، وهاجر معه إلى بلاد الشام ، ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل سدوم وإقليمها ، وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتي . وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ﴾ يحتمل عود الضمير في قوله : ﴿ وَقَالَ ﴾ على لوط ؛ لأنه هو أقرب المذكورين ، ويحتمل عوده إلى إبراهيم . قاله ابن عباس والضحاك . وهو المكنى عنه بقوله : ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ﴾ أي : من قومه ، ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم ابتغاء إظهار الدين ، والتمكن من ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ أي : له العزة ولرسوله وللمؤمنين به الحكيم في أقواله وأفعاله ، وأحكامه القدرية والشرعية . وقال قتادة : هاجرا جميعًا من كوثى وهي من سواد الكوفة إلى الشام . وعن شهر بن حوشب قال : لما جاءتنا بيعة يزيد بن معاوية قدمت الشام ، فأخبرت بمقام يقومه نوف البكالي فجئته ، إذ جاء فانتبذ الناس ، وعليه خميصة ، فإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص ، فلما رآه نوف أمسك عن الحديث فقال عبد الله : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّهَا سَتَكُونُ هِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَة ، فَيَنْحَازُ النَّاسُ إِلَى مَهَاجَرِ إِبْرَاهِيمَ لَا يَبْقَى فِي الأَرْضِ إِلَّا شِرَارُ أَهْلِهَا ، فَتَلْفِظُهُمْ أَرْضُهُمْ ، تقذرُهُمْ نَفْسُ الرَّحْمٰنِ ، تَحْشُرُهُمُ النَّارُ مَعَ القِرَدَةِ وَالخَنَازِيرِ ، فَتَبِيتُ مَعَهُمْ إِذَا بَاتُوا ، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ إِذَا قَالُوا ، وَتَأْكُلُ مَنْ تَخَلَّفَ مِنْهُمْ » . قال : وسمعت

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/١٦١) . (٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٥٨) .

رسول الله ﷺ يقول : «سَيَخْرُجُ أُنَاسٌ مِنْ أُمَّتِي مِنْ قِبَلِ المشرقِ يَقْرَأُونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ كُلَّمَا خَرَجَ مِنْهُمْ قَرْن قطع ، كُلَّمَا خَرَجَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قطعَ - حتى عدها زيادة على عشرين مرة - كلما خرج منهم قرن حتى يخرج الدجال في بقيتهم (١).

وقال عبد الله بن عمرو : لقد رأينا وما صاحب الدينار والدرهم بأحق من أخيه المسلم ، ثم لقد رأيتنا بآخرة الآن والدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم ، وسمعت رسول الله ﷺ يقول : «لَئِنْ أَنْتُمُ اتَّبَعْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ ، وَتَبَايَعْتُمْ بِالعينةِ ، وَتَرَكْتُمْ الجِهَادَ في سَبيلِ الله ؛ لَيُلْزِمَنَّكُمُ اللهُ مَذَلَّةً في أَعْنَاقِكُمْ لَا تُنْزَعُ مِنْكُمْ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ ، وَتَتُوبُوا إِلَى اللهِ تَعَالَى » (٢). وفي الحديث : « يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يُسِيئُونَ الأَعْمَالَ يَقْرَأُونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ » قال يزيد لا أعلمه إلا قال : « يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ عِلْمَهُ مَعَ عِلْمِهِمْ ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلَامِ فَإِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ ، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ ، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ ، فَطُوبَى لمن قتلهم ، وطوبى لمن قتلوه ، كلما طلع منهم قرن قطعه الله » . فردد ذلك رسول الله ﷺ عشرين مرة أو أكثر ، وأنا أسمع (٣) .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ كقوله : ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ أي أنه لما فارق قومه أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبي ، وولد له ولد صالح نبي في حياة جده ، وكذلك قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ ﴾ أي : زيادة . كما قال تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ أي : يولد لهذا الولد ولد في حياتكما تقر به أعينكما . وكون يعقوب ولد لإسحاق نص عليه القرآن ، وثبتت به السنة النبوية . قال الله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ الآية . وفي الصحيحين : « إِنَّ الكَرِيمَ ابْنَ الكَرِيمِ ابن الكريم ابن الكريم يُوسُفُ بن يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِم الصَّلَاةُ والسَّلَامُ » (٤) . فأما ما رواه ابن عباس في قوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ قال : هما ولدا إبراهيم ، فمعناه : أن ولد الولد بمنزلة الولد ، فإن هذا الأمر يكاد يخفى على من هو دون ابن عباس .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ هذه خلعة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلًا ، وجعله للناس إمامًا أن جعل في ذريته النبوة والكتاب ، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام إلا وهو من سلالته ، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم فقام في ملئهم مبشرًا بالنبي العربي القرشي الهاشمي خاتم الرسل على الإطلاق ، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة . الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه عليه أفضل الصلاة والسلام . وقوله : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي جمع الله له بين سعادة الدنيا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٩٩/٢) والحاكم في المستدرك (٤٨٦/٤) .

(٢ ، ٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٨٤/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٨٨) والإمام أحمد في مسنده (٩٦/٢) .

الموصولة بسعادة الآخرة ، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والذكر الحسن ، وكل أحد يحبه ويتولاه كما قال ابن عباس ، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ أي : قام بجميع ما أمر به ، وكمل طاعة ربه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن نبيه لوط عليه السلام أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم ، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال في إتيانهم الذكران من العالمين ، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم ، وكانوا مع هذا يكفرون بالله ، ورسوله ، ويخالفون ويقطعون السبيل أي : يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم ﴿ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ أي : يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها لا ينكر بعضهم على بعض شيئًا من ذلك . فمن قائل : كانوا يأتون بعضهم بعضًا في الملأ ، قاله مجاهد . ومن قائل : كانوا يتضارطون ويتضاحكون ، قالته عائشة رضي الله عنها والقاسم . ومن قائل : كانوا يناطحون بين الكباش ، وينافرون بين الديوك ، وكل ذلك كان يصدر عنهم ، وكانوا شرًّا من ذلك ، وعن مجاهد ﴿ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ قال : الصفير ولعب الحمام ، والجلاهق والسؤال في المجلس ، وحل أزرار القباء . وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ وهذا من كفرهم واستهزائهم ، وعنادهم ، ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال : ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن
جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ
كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾
وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

لما استنصر لوط عليه السلام بالله عز وجل عليهم ، بعث الله لنصرته ملائكة ، فمروا على إبراهيم عليه السلام في هيئة أضياف ، فجاءهم بما ينبغي للضيف ، فلما رأى إبراهيم أنه لا همة لهم إلى الطعام ، نكرهم وأوجس منهم خيفة ، فشرعوا يؤانسونه ، ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة ، وكانت حاضرة ، فتعجبت من ذلك ، فلما جاءت إبراهيم بالبشرى ، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط أخذ يدافع لعلهم ينظرون لعل الله أن يهديهم ، ولما قالوا : إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أي : من الهالكين لأنها كانت تمالئهم على كفرهم ، وبغيهم ودبرهم ، ثم ساروا من عنده ، فدخلوا على لوط في صورة شبان حسان ، فلما رآهم كذلك ﴿ سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ أي : اغتم بأمرهم إن هو

أضافهم ، خاف عليهم من قومه ، وإن لم يضفهم خشي عليهم منهم ، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك ، وما هي من الظالمين ببعيد ، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة ، وجعلها عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذابًا يوم المعاد . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً ﴾ أي واضحة ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب عليه السلام أنه أنذر قومه أهل مدين ، فقال : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ قال ابن جرير : قال بعضهم : معناه : واخشوا اليوم الآخر ، وقوله : ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد ، وهو السعي فيها والبغي على أهلها ، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ، ويقطعون الطريق على الناس ، هذا مع كفرهم بالله ورسوله ، فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم ، وصيحةٍ أخرجت القلوب من حناجرهم ، وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها إنه كان عذاب يوم عظيم . وقوله : ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ قال قتادة : ميتين . وقال غيره : قد ألقي بعضهم على بعض .

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع في عذابهم ، فعاد قوم هود عليه السلام يسكنون الأحقاف ، وهي قريبة من حضر موت بلاد اليمن ، وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريبًا من وادي القرى . وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة ، وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله وبرسوله ﷺ ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ أي : كانت عقوبته بما يناسبه ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ وهم عاد وذلك أنهم قالوا : من أشد منا قوة ، فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد ، عاتية شديدة الهبوب جدًا ، تحمل عليهم حصاء الأرض فتلقيه عليهم وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم من الأرض إلى عنان السماء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه ، فيبقى بدنًا بلا رأس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ وهم ثمود ، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة مثل ما سألوه سواء بسواء ، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم وتهددوا نبي الله صالحًا ومن آمن معه ، وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم ، فجاءتهم صيحة أخمدت

الأصوات منهم والحركات ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ وهو قارون الذي طغى وبغى ومشى في الأرض مرحًا ، وفرح ومرح ، وتاه بنفسه واعتقد أنه أفضل من غيره ، واختال في مشيته فخسف اللَّه به وبداره الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ وهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم أغرقوا في صبيحة واحدة فلم ينج منهم مخبر ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أي فيما فعل بهم ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي : إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقًا بما كسبت أيديهم . ثم قال : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ أي : من هؤلاء المذكورين ، وإنما نبهت على هذا ؛ لأنه قد قال ابن عباس في قوله : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ قال : قوم لوط ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ قال : قوم نوح وهذا منقطع عن ابن عباس ، فإن ابن جريج لم يدركه . ثم قد ذكر اللَّه في هذه السورة إهلاك قوم نوح بالطوفان ، وقوم لوط بإنزال الرجز من السماء ، وأطال السياق والفصل بين ذلك وبين هذا السياق . وقال قتادة : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ قال : قوم لوط ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ قوم شعيب ، وهذا بعيد أيضًا لما تقدم ، واللَّه أعلم .

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ .

هذا مثل ضربه اللَّه تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون اللَّه ، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه ، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت ، فإنه لا يجدي عنه شيئًا . ثم قال تعالى متوعدًا لمن عبد غيره ، وأشرك به ، إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ويعلم ما يشركون به من الأنداد ، وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم . ثم قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ أي : وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم ، المتضلعون منه . قال عمرو بن العاص ﷺ : عقلت عن رسول اللَّه ﷺ ألف مثل [1] . وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص ﷺ حيث يقول اللَّه تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ .

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قدرته العظيمة أنه خلق السماوات والأرض بالحق يعني لا على وجه العبث واللعب ، ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية . ثم قال تعالى آمرًا رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن ، وهو قراءته وإبلاغه للناس : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ يعني : أن الصلاة تشتمل على شيئين : على ترك الفواحش والمنكرات أي : مواظبتها تحمل على ترك ذلك ، وقد جاء في الحديث من رواية عمران وابن عباس مرفوعًا : « مَنْ لم

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/٢٠٣) .

تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ ؛ لَمْ تَزِدْهُ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا » [(١)] .

وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « لا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يُطِعِ الصَّلَاة » وطاعة الصلاة أن تنهاه عن الفحشاء والمنكر . قال : وقال سفيان ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ ﴾ قال سفيان : أي والله تأمره وتنهاه [(٢)] .

وعن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إن فلانًا يصلي بالليل ، فإذا أصبح سرق . فقال : « إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا تَقُولُ » [(٣)] . وتشمتل الصلاة أيضًا على ذكر الله تعالى ، وهو المطلوب الأكبر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أي : أعظم من الأول ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ أي : يعلم جميع أعمالكم ، وأقوالكم . وقال أبو العالية في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ قال : إن الصلاة فيها ثلاث خصال ، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخصال فليست بصلاة : الإخلاص ، والخشية ، وذكر الله ؛ فالإخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكر الله القرآن يأمره وينهاه . وقال ابن عون الأنصاري : إذا كنت في صلاة فأنت في معروف ، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر ، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر . وقال حماد بن أبي سليمان : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ يعني : ما دمت فيها .

وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ يقول : ولذكر الله لعباده أكبر ، إذا ذكروه من ذكرهم إياه . وكذا روى غير واحد عن ابن عباس ، وفي رواية عن ابن عباس ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ قال : ذكر الله عند طعامك ، وعند منامك ، قلت : فإن صاحبًا لي في المنزل يقول غير الذي تقول ، قال : وأي شيء يقول ؟ قلت : قال : يقول الله تعالى : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ فلذكر الله إيانا أكبر من ذكرنا إياه ، قال : صدق . وفي رواية أخرى عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ قال : لها وجهان : قال : ذكر الله عند ما حرمه ، قال : وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه ، عن عبد الله بن ربيعة قال : قال لي ابن عباس : هل تدري ما قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ؟ قال : قلت : نعم ، قال : فما هو ؟ قلت : التسبيح ، والتحميد ، والتكبير في الصلاة ، وقراءة القرآن ونحو ذلك ، قال : لقد قلت قولًا عجيبًا ، وما هو كذلك ، ولكنه إنما يقول : ذكر الله إياكم عندما أمر به ، أو نهى عنه إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم إياه ، واختاره ابن جرير .

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ .

قال قتادة وغير واحد : هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولم يبق معهم مجادلة ، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف . وقال آخرون : بل هي باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين ، فيجادل بالتي هي أحسن ليكون أنجع فيه . كما قال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ الآية . وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾

---

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/٢٥٨) والطبراني في الكبير (١١/٥٤) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٠/١٨٩) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٤٧) .

وهذا القول اختاره ابن جرير . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾ أي : حادوا عن وجه الحق ، وعموا عن واضح المحجة ، وعاندوا وكابروا . فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد ، ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم . قال مجاهد : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾ يعني أهل الحرب ، ومن امتنع منهم من أداء الجزية . وقوله تعالى : ﴿ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ يعني : إذا أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا نقدم على تكذيبه ؛ لأنه قد يكون حقًّا . ولا تصديقه فلعله أن يكون باطلًا ، ولكن نؤمن به إيمانًا مجملًا معلقًا على شرط : وهو أن يكون منزلًا ، لا مبدلًا ، ولا مؤولًا . وفي الحديث « لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا : آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ »[(١)] .

وعن عبد اللَّه بن مسعود قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ؛ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تكذبوا بحق ، أو تصدقوا بباطل ، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية تدعوه إلى دينه كتالية المال[(٢)] . وقال ابن عباس : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ؟ وكتابكم الذي أنزل إليكم على رسول اللَّه ﷺ أحدث ، تقرأونه محضًا لم يشب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا : هو من عند اللَّه ؛ ليشتروا به ثمنًا قليلًا ؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا واللَّه ما رأينا منهم رجلًا يسألكم عن الذي أنزل عليكم[(٣)] . وقال حميد بن عبد الرحمن ، أنه سمع معاوية يحدث رهطًا من قريش بالمدينة . وذكر كعب الأحبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب[(٤)] ، قلت : معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد ؛ لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن ، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة ؛ لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة . ومع ذلك وقرب العهد وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة لا يعلمها إلا اللَّه ﷻ ، ومن منحه اللَّه علمًا بذلك . كل بحسبه وللَّه الحمد والمنة .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

قال ابن جرير : يقول اللَّه تعالى : كما أنزلنا الكتب على من قبلك يا محمد من الرسل . كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب ، وهذا الذي قاله حسن ، ومناسبته وارتباطه جيد . وقوله تعالى : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أي : الذي أخذوه فتلوه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء ، كعبد اللَّه بن سلام وسلمان الفارسي وأشباههما . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾ يعني : العرب من قريش وغيرهم . ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ أي : ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ أي : قد لبثت

(١) أخرجه البخاري في (الاعتصام) (٧٣٦٢) (والتوحيد) (٧٥٤٢) والبيهقي في سننه (١٠/١٦٣) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢١/٦) . (٣) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٦٣) .
(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٦١) .

في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمرًا ، لا تقرأ كتابًا ، ولا تحسن الكتابة ، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي ، وهكذا صفته في الكتب المتقدمة كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ الآية . وهكذا كان رسول الله ﷺ دائمًا إلى يوم الدين ، لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرًا ولا حرفًا بيده ، بل كان له كتَّاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم . ومن زعم من متأخري الفقهاء كالقاضي أبي الوليد الباجي ، ومن تابعه أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله . فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري ، ثم أخذ فكتب . وهذه محمولة على الرواية الأخرى ، ثم أمر فكتب . ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي : وتبرأوا منه وأنشدوا في ذلك أقوالًا ، وخطبوا به في محافلهم ، وإنما أراد الرجل - أعني الباجي - فيما يظهر عنه : أنه كتب ذلك على وجه المعجزة ، لا أنه كان يحسن الكتابة كما قال ﷺ إخبارًا عن الدجال : « مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِر » وفي رواية « ك ف ر ، يَقْرَؤُهَا كُلُّ مُؤْمِنٍ » (١) . وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة فضعيف لا أصل له .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو ﴾ أي : تقرأ ﴿ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ ﴾ لتأكيد النفي ﴿ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ تأكيد أيضًا ، وخرج مخرج الغالب كقوله تعالى : ﴿ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أي : لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس ، فيقول إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ وقال ها هنا : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أي : هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق ، أمرًا ونهيًا وخبرًا يحفظه العلماء ، يسره الله عليهم حفظًا وتلاوة وتفسيرًا ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ وقال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا » (٢) . وفي صحيح مسلم يقول الله تعالى : « إِنِّي مُبْتَلِيكَ بِكَ وَمُنزِلٌ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانًا » (٣) . أي : لو غسل الماء المحل المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل ؛ لأنه قد جاء في الحديث الآخر : « لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ فِي إِهَابٍ مَا أَحْرَقَتْهُ النَّارُ » (٤) ولأنه محفوظ في الصدور ، ميسر على الألسنة ، مهيمن على القلوب معجز لفظًا ومعنى . ولهذا جاء في الكتب المتقدمة في هذه صفة الأمة : أناجيلهم في صدورهم . واختار ابن جرير أن المعني في قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتابًا ، ولا تخطه بيمينك آيات

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن (٩٥) والإمام أحمد في مسنده (٥/٤٣٣) .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨١) ومسلم في الإيمان (٢٣٩) .

(٣) مسلم في (الجنة) (٦٣) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/١٥١ ، ١٥٥ ، ١٧١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١٥٨) .

بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب . قلت : وهو الذي رواه العوفي عن ابن عباس ، وهو الأظهر والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ أي : ما يكذب بها ، ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون أي : المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ، ويحيدون عنه .

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات ، يعنون ترشدهم إلى أن محمدًا رسول الله كما أتى صالح بناقته قال الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي : إنما أمر ذلك إلى الله ، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم ؛ لأن هذا سهل عليه يسير لديه ، ولكنه يعلم منكم أنكم إنما قصدتم التعنت والامتحان فلا يجيبكم إلى ذلك ، وقوله : ﴿ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : إنما بعثت نذيرًا لكم بيِّن النذارة فعليَّ أن أبلغكم رسالة الله تعالى . ثم قال تعالى مبينًا كثرة جهلهم وسخافة عقلهم حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم ، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الذي هو أعظم من كل معجزة ، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته ، بل عن معارضة عشر سور من مثله ، بل عن معارضة سورة منه . فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ أي : أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم ، ونبأ ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب ، ولم تخالط أحدًا من أهل الكتاب ، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب ، مما اختلفوا فيه وبالحق الواضح البين الجلي ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ . وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : إن في هذا القرآن ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ أي : بيانًا للحق وإزاحة للباطل ، وذكرى بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين ، والعاصين لقوم يؤمنون .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ ﴾ أي : أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب ، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه بأنه أرسلني فلو كنت كاذبًا عليه لانتقم مني ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴾ . وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به . ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ أي : لا تخفى عليه خافية ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ أي : يوم القيامة سيجزيهم على ما فعلوا ، ويقابلهم على ما صنعوا في تكذيبهم بالحق ، واتباعهم الباطل ، كذبوا برسل الله مع قيام الأدلة على صدقهم ، فسيجزيهم على ذلك إنه حكيم عليم .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ۝ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم ، وبأسَ الله من أن

يحل عليهم : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أي : لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة . لجاءهم العذاب قريبًا سريعًا كما استعجلوه . ثم قال : ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً ﴾ أي : فجأة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أي : يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لا محالة .

ثم قال ﷻ : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ . كقوله تعالى : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ الآية . فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم ، وهذا أبلغ في العذاب الحسي وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد وتقريع وتوبيخ ، وهذا عذاب معنوي على النفوس ، كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۞ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۞ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۞ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ۞ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۞ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۞ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة ، حيث يمكن إقامة الدين بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ عن الزبير بن العوام قال : قال رسول الله ﷺ : « البِلادُ بِلادُ الله ، وَالعِبادُ عِبادُ الله ، فَحَيثُمَا أَصبتَ خيرًا فأَقِمْ » (١) . ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هنالك . فوجدوا خير المنزلين هنالك ، أصحمة النجاشي ملك الحبشة رحمه الله تعالى . فآواهم وأيدهم بنصره ، وجعلهم سيومًا ببلاده ، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ والصحابة الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة . ثم قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أي : أينما كنتم يدرككم الموت . فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله ؛ فهو خير لكم . فإنه إلى الله المرجع والمآب ، فمن كان مطيعًا له جازاه أفضل الجزاء ووافاه أتم الثواب . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي : لنسكننهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار ، على اختلاف أصنافها من ماء وخمر وعسل ولبن يصرفونها ويجرونها حيث شاءوا ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي : ماكثين فيها أبدًا لا يبغون عنها حولًا ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ نعمت هذه الغرف أجرًا على أعمال المؤمنين ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أي : على دينهم وهاجروا إلى الله ونابذوا الأعداء ، وفارقوا الأهل والأقرباء ، ابتغاء وجه الله ، ورجاء ما عنده وتصديق موعوده ، وعن أبي مالك الأشعري : أن رسول الله ﷺ حدثه : أن في الجنة غرفًا ، يُرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله تعالى لمن أطعم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٦٦/١) والبيهقي في سننه (١٤٢/٦) .

الطعام، وأطاب الكلام ، وتابع الصلاة والصيام ، وقام بالليل والناس نيام [١] .

﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ في أحوالهم كلها ، في دينهم ودنياهم . ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة ، بل رزقه تعالى عام لخلقه ، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب ؛ فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ أي : لا تطيق جمعه وتحصيله ، ولا تدخر شيئًا لغد ﴿ ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ أي : اللَّه يقيض لها رزقها على ضعفها وييسره عليها ، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض ، والطير في الهواء ، والحيتان في الماء . قال تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .

وفي الحديث « سَافِرُوا تَصِحُّوا وَتَغْنَمُوا » [٢] . قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي : السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى مقررًا أنه لا إله إلا هو ؛ لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره ، معترفون بأنه المستقل بخلق السماوات والأرض ، وأنه الخالق الرازق لعباده ، ومقدر آجالهم واختلافها واختلاف أرزاقهم ، فتفاوت بينهم فمنهم الغني والفقير ، وهو العليم بما يصلح كلًّا منهم ، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر ، فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته ، وكثيرًا ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقد كان المشركون يعترفون بذلك ، كما كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكًا هو لك ، تملكه وما ملك [٣] .

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لا دوام لها ، وغاية ما فيها لهو ولعب ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾ أي : الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال له ولا انقضاء ، بل هي مستمرة أبد الآباد . وقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : لآثروا ما يبقى على ما يفنى ، ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطراب يدعونه وحده لا شريك له ، فهلا يكون هذا منهم دائمًا ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ الآية ، وقال ها هنا : ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ عن عكرمة ابن أبي جهل أنه لما فتح رسول اللَّه ﷺ مكة ذهب فارًّا منها ، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة فقال أهلها : يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء ؛ فإنه لا ينجي ها هنا إلا هو ، فقال

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥٦/١) .
(٢) أخرجه البيهقي في سننه (١٠٢/٧) .
(٣) أخرجه مسلم في الحج (٢٢) .

عكرمة : والله لئن كان لا ينجي في البحر غيره فإنه لا ينجي في البر أيضًا غيره ، اللهم لك عليَّ عهد لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد ، فلأجدنه رءوفًا رحيمًا فكان كذلك . وقوله تعالى : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ﴾ هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير لام العاقبة ؛ لأنهم لا يقصدون ذلك ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم ، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك ، وتقييضه إياهم لذلك فهي لام التعليل .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًا على قريش فيما أحلهم من حرمه الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن دخله كان آمنًا فهم في أمن عظيم ، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضًا ، ويقتل بعضهم بعضًا . وقوله تعالى : ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أي : أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به ، وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد ، و ﴿ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ فكفروا بنبي الله وعبده ورسوله ، فكذبوه فقاتلوه فأخرجوه من بين أظهرهم ، ولهذا أرغم الله آنافهم وأذل رقابهم ، ثم قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ أي لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله ، فقال : إن الله أوحى إليه ، ولم يوح إليه شيء. ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله ، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه ، فالأول مفتر والثاني مكذب . ولهذا قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ يعني الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين . ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ أي : لنبصرنهم سبلنا أي : طرقنا في الدنيا والآخرة . قال عباس الهمداني أبو أحمد من أهل عكا في قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ : الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون . قال أحمد بن أبي الحواري : فحدثت به أبا سليمان يعني الداراني فأعجبه ، وقال : ليس ينبغي لمن ألهم شيئًا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر ، فإذا سمعه في الأثر عمل به ، وحمد الله حتى وافق ما في قلبه . وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ قال الشعبي : قال عيسى ابن مريم عليه السلام : إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك ، والله أعلم .

سورة الروم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ .

نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام ، وما والاها من بلاد الجزيرة ، وأقاصى بلاد الروم ، فاضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية ، وحاصره فيها مدة طويلة ، ثم عادت الدولة لهرقل كما سيأتي .

عن مسروق قال : قال عبد الله : خمس قد مضين : الدخان واللزام والبطشة ، والقمر ، والروم[1] . وقال عبد الله بن مسعود ﷺ : كانت فارس ظاهرة على الروم ، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم . وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب ، وهم أقرب دينهم فلما نزلت : ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ قالوا : يا أبا بكر إن صاحبك يقول : إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين قال : صدق ، قالوا : هل لك أن نقامرك ؟ فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع ، فمضت السبع ولم يكن شيء ، ففرح المشركون بذلك فشق على المسلمين ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « مَا بِضْعُ سِنِينَ عِنْدَكُم ؟ » قالوا : دون العشر . قال : « اذْهَبْ فَزَايِدْهُمْ وَازْدَدْ سَنَتَيْنِ في الأجَلِ . قال : فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس ، ففرح المؤمنون بذلك وأنزل الله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾[2] .

وعن نيار بن مكرم الأسلمي قال : لما نزلت ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم ؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب ، وفي ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ . وكانت قريش تحب ظهور فارس ؛ لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ، ولا إيمان ببعث ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ فقال ناس من قريش لأبي بكر : فذاك بيننا وبينكم زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال : بلى ، وذلك قبل تحريم الرهان ، فارتهن أبو بكر والمشركون ، وتواضعوا الرهان ، وقالوا لأبي بكر : كم نجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين ؟ فسم بيننا وبينك وسطًا ننتهي إليه قال : فسموا بينهم ست سنين قال : فمضت ست السنين قبل أن يظهروا ، فأخذ المشركون رهن أبي بكر . فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس قال :

---

(١) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٦٧) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢١/٢٥) .

فعاب المسلمون على أبي بكر تسميته ست سنين . قال : لأن اللَّه يقول ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ قال : فأسلم عند ذلك ناس كثير [1] .

ولنتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمات فقوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة . وأما الروم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم ، وهم أبناء عم إسرائيل ويقال لهم : بنو الأصفر ، وكانوا على دين اليونان ، واليونان من سلالة يافث بن نوح ، أبناء عم الترك وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة . ويقال لها : المتحيرة ويصلون إلى القطب الشمالي ، وهم الذين أسسوا دمشق وبنوا معبدها ، وفيه محاريب إلى جهة الشمال ، فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلثمائة سنة . وكان من ملك منهم الشام يقال له : قيصر ، فكان أول من دخل في دين النصارى من ملوك الروم قسطنطين ابن قسطس ، وأمه مريم الهيلانية الغندقانية من أرض حران كانت قد تنصرت قبله ، فدعته إلى دينها وكان قبل ذلك فيلسوفًا فتابعها . يقال : تقية واجتمعت به النصارى ، وتناظروا في زمانه مع عبد اللَّه بن أريوس ، واختلفوا اختلافًا كثيرًا منتشرًا متشتتًا لا ينضبط ، إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلثمائة وثمانية عشر أسقفًا ، فوضعوا لقسطنطين العقيدة وهي التي يسمونها الأمانة الكبيرة وإنما هي الخيانة الحقيرة ، ووضعوا له القوانين ؛ يعنون كتب الأحكام من تحريم وتحليل وغير ذلك مما يحتاجون إليه ، وغيروا دين المسيح عليه السلام ، وزادوا فيه ، ونقصوا منه فصلوا إلى المشرق واعتاضوا عن السبت بالأحد ، وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير ، واتخذوا أعيادًا أحدثوها ، كعيد الصليب والقداس والغطاس وغير ذلك من البواعيث والشعانين ، وجعلوا له الباب ، وهو كبيرهم ، ثم البتاركة ، ثم المطارنة ، ثم الأساقفة والقساقسة ثم الشمامسة ، وابتدعوا الرهبانية ، وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد ، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهي القسطنطينية يقال : إنه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة ، وبنى بيت لحم بثلاثة محاريب وبنت أمه القمامة ، وهؤلاء هم الملكية يعنون الذين هم على دين الملك ، ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الأسكاف ، ثم النسطورية أصحاب نسطورا وهم فرق وطوائف كثيرة . كما قال رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّهُم افْتَرَقُوا على اثْنَتَيْنِ وسبعين فِرْقَةً » [2] .

والغرض أنهم استمروا على النصرانية . كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده حتى كان آخرهم هرقل ، وكان من عقلاء الرجال ومن أحزم الملوك وأدهاهم ، وأبعدهم غورًا ، وأقصاهم رأيًا ، فتملك عليهم في رياسة عظيمة ، وأبهة كثيرة فناوأه كسرى ملك الفرس ، وملك البلاد كالعراق وخراسان والري وجميع بلاد العجم ، وهو سابور ذو الأكتاف ، وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر ، وكانوا مجوسًا يعبدون النار ، فتقدم عن عكرمة أنه قال : بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه . والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده فقهره وكسره وقصره ، حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية ، فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه ، وكانت النصارى تعظمه تعظيمًا زائدًا ، ولم يقدر كسرى على فتح البلد ، ولا أمكنه ذلك لحصانتها ؛ لأن نصفها من ناحية البر ، ونصفها الآخر من

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٣١٩٤) .

(٢) أخرجه وابن ماجه في سننه (٣٩٩٢) .

ناحية البحر فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هنالك ، فلما طال الأمر ، دبر قيصر مكيدة ، ورأى في نفسه خديعة ، فطلب من كسرى أن يقلع من بلاده على مال يصالحه عليه ويشترط عليه ما شاء ، فأجابه إلى ذلك وطلب منه أموالًا عظيمة ، لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة ، فطاوعه قيصر ، وأوهمه أن عنده جميع ما طلب ، واستقل عقله لما طلب منه ما طلب ، ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عشرة ، وسأل كسرى أن يمكنه من الخروج إلى بلاد الشام ، وأقاليم مملكته ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه ، فأطلق سراحه ، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية جمع أهل ملته وقال : إني خارج في أمر قد أبرمته في جند قد عينته من جيشي ، فإن رجعت إليكم قبل الحول فأنا ملككم ، وإن لم أرجع إليكم قبلها فأنتم بالخيار ، إن شئتم استمررتم على بيعتي ، وإن شئتم وليتم عليكم غيري ، فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حيًا ، ولو غبت عشرة أعوام ، فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة في جيش متوسط ، هذا وكسرى مخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع ، فركب قيصر من فوره وسار مسرعًا حتى انتهى إلى بلاد فارس . فعاث في بلادهم قتلًا لرجالها ، ومن بها من المقاتلة أولًا فأول ، ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن ، وهي كرسي مملكة كسرى فقتل من بها وأخذ جميع حواصله وأمواله ، وأسر نساءه وحريمه وحلق رأس ولده ، وركبه على حمار ، وبعث معه من الأساورة من قومه في غاية الهوان والذلة ، وكتب إلى كسرى يقول : هذا ما طلبت فخذه ، فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم ما لا يحصيه إلا اللَّه تعالى واشتد حنقه على البلد ، فجد في حصارها بكل ممكن ، فلم يقدر على ذلك ، فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون التي لا سبيل لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها ، فلما علم قيصر بذلك . احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها ، وهو أنه أرصد جنده وحواصله التي معه عند فم المخاضة ، وركب في بعض الجيش ، وأمر بأحمال من التبن والبعر والروث فحملت معه ، وسار إلى قريب من يوم في الماء مصعدًا ، ثم أمر بإلقاء تلك الأحمال في النهر ، فلما مرت بكسرى وجنده ظن أنهم قد خاضوا من هنالك ، فركبوا في طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس ، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض والخوض فخاضوا وأسرعوا السير ، ففاتوا كسرى وجنوده ودخلوا القسطنطينية فكان ذلك يومًا مشهودًا عند النصارى ، وبقي كسرى وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون ، لم يحصلوا على بلاد قيصر ، وبلادهم قد خربتها الروم ، وأخذوا حواصلهم ، وسبوا ذراريهم ونساءهم ، فكان هذا من غلب الروم لفارس ، وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب فارس للروم ، وكانت الوقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبصرى على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما ، وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز . وقال مجاهد : كان ذلك في الجزيرة وهي أقرب بلاد الروم من فارس ، فاللَّه أعلم . ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين ، وهي تسع فإن البضع في كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع . وكذلك جاء في الحديث « أَلَّا احْتَطْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ ؟ فَإِنَّ الْبِضْعَ مَا بَيْنَ ثَلَاثٍ إِلَى تِسْعٍ » (١) .

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣١٩١) .

وقوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ أي : من قبل ذلك ومن بعده ، فبني على الضم لما قطع المضاف ، وهو قوله : ﴿ قَبْلُ ﴾ عن الإضافة ونويت ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي : للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى ، وهم المجوس . وكانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كثيرة من العلماء ، وعن أبي سعيد قال : لما كان يوم بدر ، ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين ففرحوا به ، وأنزل الله : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (١) . وقال الآخرون : بل كان نصر الروم على فارس عام الحديبية . إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين ، فلما انتصرت الروم على فارس ، فرح المؤمنون بذلك ؛ لأن الروم أهل كتاب في الجملة ؛ فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس كما قال تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ إلى قوله : ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ وقال تعالى ها هنا : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ وقال ابن الزبير الكلابي يحدث عن أبيه قال : رأيت غلبة فارس الروم ، ثم رأيت غلبة الروم فارس ، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم ، كل ذلك في خمس عشرة سنة .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي : انتصاره وانتقامه من أعدائه ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ بعباده المؤمنين . وقوله تعالى : ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ أي : هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أنا سننصر الروم على فارس وعد من الله حق ، وخبر صدق لا يخلف . ولا بد من كونه ووقوعه ؛ لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلتين إلى الحق ، ويجعل لها العاقبة ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : بحكم الله في كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل . وقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ أي : أكثر الناس ليس لهم علم ، إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها ، وهم غافلون في أمور الدين وما ينفعهم في الدار الآخرة ، كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة . قال الحسن البصري : والله ليبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه ، وما يحسن أن يصلي . وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ يعني الكفار يعرفون عمران الدنيا ، وهم في أمر الدين جهال .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا على التفكر في مخلوقاته الدالة على وجوده ، وانفراده بخلقها ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ﴾ يعني به النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي ، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة ، فيعلموا أنها ما خلقت سدى ، ولا باطلًا

---

(١) أخرجه : الترمذي في السنن (٣١٩٢) .

بل بالحق ، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى ، وهو يوم القيامة . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه ، بما أيدهم به من المعجزات والدلائل الواضحات من إهلاك من كفر بهم ، ونجاة من صدقهم . فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي : بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين . ولهذا قال : ﴿ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أي : كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم قوة ، أيها المبعوث إليهم محمد ﷺ . وما أوتيتم معشار ما أوتوا ، ومكنوا في الدنيا تمكينًا لم تبلغوا إليه ، وعمروا فيها أعمارًا طوالًا فعمروها أكثر منكم ، واستغلوها أكثر من استغلالكم ، ومع هذا فلما جاءتهم رسلهم بالبينات ، وفرحوا بما أوتوا أخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق ، ولا حالت أموالهم وأولادهم بينهم وبين بأس الله ، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة ، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي : وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله واستهزأوا بها ، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم . ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ ﴾ وعلى هذا تكون السوأى منصوبة مفعولًا لأساءوا ، وقيل : بل المعنى في ذلك ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾ أي : كانت السوأى عاقبتهم ؛ لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون . فعلى هذا تكون السوأى منصوبة خبر كان ، هذا توجيه ابن جرير ، ونقله عن ابن عباس وهو الظاهر - والله أعلم - لقوله : ﴿ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ ﴿١٦﴾ .

يقول تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ أي : كما هو قادر على بداءته ، فهو قادر على إعادته . ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : يوم القيامة ، فيجازي كل عامل بعمله . ثم قال : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ قال ابن عباس : ييأس المجرمون ، وقال مجاهد : يفتضح المجرمون ، وفي رواية : يكتئب المجرمون ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ ﴾ أي : ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى ، وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم . ثم قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ . قال قتادة : هي والله الفرقة التي لا اجتماع بعدها ، يعني أنه إذا رفع هذا إلى عليين ، وخفض هذا إلى أسفل سافلين ، فذلك آخر العهد بينهما ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قال مجاهد وقتادة : ينعمون . وقال يحيى بن أبي كثير : يعني سماع الغناء ، والحبرة أعم من هذا كله .

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ ﴿١٩﴾ .

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة ، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة

الدالة على كمال قدرته ، وعظيم سلطانه عند المساء وهو إقبال الليل بظلامه ، وعند الصباح وهو إسفار النهار بضيائه . ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح - وهو التحميد - فقال تعالى : ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي : هو المحمود على ما خلق في السماوات والأرض ، ثم قال تعالى : ﴿ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ فالعشاء هو شدة الظلام ، والإظهار قوة الضياء ، فسبحان خالق هذا وهذا ، فالق الإصباح ، وجاعل الليل سكنًا ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ . وعن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أُخْبِرُكُمْ لِمَ سَمَّى اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَهُ الَّذِي وَفَّى ؟ ! لأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ كُلَّمَا أَمْسَى : سُبْحَانَ اللَّه حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تظْهِرُونَ » (١) . وعن عبد الله بن عباس عن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يصبح : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ الآية بكمالها ، أدراك ما فاته في يومه ، ومن قالها حين يمسي أدراك ما فاته في ليلته » (٢) . وقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة ، وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط ، فإنه يذكُر فيها خلقه الأشياء وأضدادها ؛ ليدل خلقه على كمال قدرته ، فمن ذلك : إخراج النبات من الحب والحب من النبات ، والبيض من الدجاج والدجاج من البيض ، والإنسان من النطفة والنطفة من الإنسان ، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن . وقوله تعالى : ﴿ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ . كقوله تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ﴾ إلى قوله ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ . ولهذا قال ها هنا : ﴿ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته ، أنه خلق أباكم آدم من تراب . ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ فأصلكم من تراب مهين ، ثم تصوَّر فكان علقة ، ثم مضغة ، ثم صار عظامًا شكله على شكل الإنسان ، ثم كسا الله تلك العظام لحمًا ، ثم نفخ فيه الروح ، فإذا هو سميع بصير ، ثم خرج من بطن أمه صغيرًا ضعيف القوى ، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه حتى آل به الحال إلى أن صار يبني المدائن والحصون ، ويسافر في أقطار الأقاليم ، فسبحان من أقدرهم وسيَّرهم وصرَّفهم في فنون المعايش والمكاسب ، وفاوت بينهم في العلوم والفكر ، والحسن والقبح ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ وعن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدرِ الأَرْضِ ، جَاءَ مِنْهُمُ الأَبْيَضُ وَالأَحْمَرُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٣٩/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٧/١٠) .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٥٠٧٦) .

وَالخبيثُ والطَّيبُ وَالسَّهْلُ والحزْنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ »[(١)] . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أي : خلق لكم من جنسكم إناثًا تكون لكم أزواجًا ﴿ لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ يعني بذلك حواء ، خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر . ولو أنه تعالى جعل بني آدم كلهم ذكورًا ، وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم ، إما من جان أو حيوان لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس ، ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم ، وجعل بينهم وبينهن مودة - وهي : المحبة - ورحمة - وهي : الرأفة - فإن الرجل يمسك المرأة ، إما لمحبته لها ، أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد ، أو محتاجة إليه في الإنفاق ، أو للألفة بينهما ، وغير ذلك ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي : خلق السماوات في ارتفاعها واتساعها وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات ، وخلق الأرض في انخفاضها وكثافتها ، وما فيها من جبال وأودية وبحار وقفار وحيوان وأشجار . وقوله تعالى : ﴿ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ يعني : اللغات ، فهؤلاء بلغة العرب ، وهؤلاء تتر لهم لغة أخرى ، وهؤلاء كرج ، وهؤلاء فرنج ، وهؤلاء تكرور ، إلى غير ذلك ، مما لا يعلمه إلا الله تعالى من اختلاف لغات بني آدم ، واختلاف ألوانها وهي حلاهم فجميع أهل الأرض ، بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة ، كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان ، وليس يشبه واحدٌ منهم الآخر ، ولو توافق جماعة في صفة من جمال أو قبح ، لابد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر . ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ أي : ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم في الليل والنهار ، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة ، وذهاب الكلال والتعب ، وجعل لكم الانتشار والسعي في الأسباب ، والأسفار في النهار وهذا ضد النوم . ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي : يعون ، عن زيد بن ثابت ﷺ قال : أصابني أرق من الليل ، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : « قُلْ : اللَّهُمَّ غَارَتِ النجومُ ، وَهَدَأَتِ العُيُونُ ، وَأَنْتَ حَيٌّ قَيُّومُ ، يَا قَيُّومُ أَنِمْ عَيْنِي وَأَهْدِئْ لَيْلِي »[(٢)] فقلتها فذهب عني .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أي : تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة وصواعق متلفة ، وتارة ترجون وميضه ، وما يأتي بعده من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد(٤/٤٠٠ ، ٤٠٦) والحاكم في المستدرك(٢/٦١) وأبو داود في السنن(٤٦٩٣) والترمذي في السنن(٢٩٥٥) .
(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد(١٠/١٢٨) .

المطر المحتاج إليه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ أي : بعدما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء ، فلما جاءها الماء ﴿ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ وكان عمر بن الخطاب ﷺ إذا اجتهد في اليمين قال : والذي تقوم السماء والأرض بأمره ، أي : هي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيره إياها ، ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسماوات ، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ، ودعائه إياهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ أي : من الأرض كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ .

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي : ملكه وعبيده ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ أي : خاضعون خاشعون طوعًا وكرهًا ، عن أبي سعيد مرفوعًا « كُلُّ حَرْفٍ فِي القُرْآنِ يُذْكَرُ فِيهِ القُنُوتُ فَهُوَ الطَّاعَةُ » (١) . وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ قال ابن عباس يعني : أيسر عليه ، وقال مجاهد : الإعادة أهون عليه من البداءة والبداءة عليه هينة . وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ : فَقَوْلُهُ : لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي ، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ : فَقَوْلُهُ : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » (٢) . وقال آخرون : كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء . وقال العوفي عن ابن عباس : كل عليه هين . ومال إليه ابن جرير وذكر عليه شواهد كثيرة قال : ويحتمل أن يعود الضمير في قوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ إلى الخلق أي : وهو أهون على الخلق . وقوله : ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس : كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ وقال قتادة : مثله أنه لا إله إلا هو ولا رب غيره ، وهو العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع ، بل قد غلب كل شيء ، وقهر كلَّ شيء بقدرته وسلطانه الحكيم في أقواله وأفعاله شرعًا وقدرًا . وعن محمد بن المنكدر في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ قال : لا إله إلا الله .

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر (١/١١٠) بنحوه الإمام أحمد في مسنده (٣/٧٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٣٢٠) .
(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٩٤) والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٥٠ ، ٣٩٤) .

عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ .

هذا مثل ضربه تعالى للمشركين به العابدين معه غيره الجاعلين له شركاء ، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ، ملك له ، كما كانوا يقولون : لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك ، تملكه وما ملك . فقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ ﴾ أي : تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم . ﴿ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ ﴾ أي : يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكًا له في ماله ، فهو وهو فيه على السواء ﴿ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ ﴾ أي : تخافون أن يقاسموكم الأموال . قال أبو مجلز : إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك وليس له ذاك ، كذلك اللَّه لا شريك له . والمعنى : أن أحدكم يأنف من ذلك ، فكيف تجعلون للَّه الأنداد من خلقه ، وعن ابن عباس قال : كان يلبي أهل الشرك : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك ، إلا شريكًا هو لك ، تملكه وما ملك . فأنزل اللَّه تعالى : ﴿ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ ﴾ (١) ولما كان التنبيه بمثل هذا المثل على براءته تعالى ونزاهته عن ذلك بطريق الأولى والأحرى . قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ ثم قال تعالى مبينًا أن المشركين إنما عبدوا غيره سفهًا وجهلًا : ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ﴾ أي المشركون ﴿ أَهۡوَآءَهُم ﴾ أي : في عبادتهم الأنداد بغير علم ﴿ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ ﴾ أي : فلا أحد يهديهم إذا كتب اللَّه ضلالهم ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ أي : ليس لهم من قدرة اللَّه منقذ ، ولا مجير ولا محيد لهم عنه ؛ لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٠ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ .

يقول تعالى : فسدد وجهك . واستمر على الدين الذي شرعه اللَّه لك من الحنيفية ملة إبراهيم الذي هداك اللَّه لها ، وكملها لك غاية الكمال ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر اللَّه الخلق عليها ، إنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره . وفي الحديث : « إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ دِينِهِمْ » (٢) . وقوله تعالى : ﴿ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ﴾ قال بعضهم : معناه لا تبدلوا خلق اللَّه ، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم اللَّه عليها ، فيكون خبرًا بمعنى الطلب ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ ﴾ وهو معنى حسن صحيح ، وقال آخرون : هو خبر على بابه ، ومعناه : أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة ، لا يولد أحد إلا على ذلك ، ولا تفاوت بين الناس في ذلك . ولهذا قال ابن عباس في قوله : ﴿ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ﴾ أي : لدين اللَّه ، وقال البخاري : قوله : ﴿ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ﴾ لدين اللَّه ، خلق الأولين دين الأولين ، الدين والفطرة الإسلام (٣) . وعن أبي هريرة قال : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الفِطْرَةِ فَأَبَواهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ

---

(١) أخرجه مسلم في الحج (٢٢) .

(٢) أخرجه بنحوه مسلم في (الجنة) (٦٣) والطبراني في الكبير (٢٦٣/١٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة (٦٣) .

بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تحسونَ فيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ». ثم يقول : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [(١)]. عن الأسود بن سريع قال : أتيت رسول اللَّه ﷺ، وغزوت معه فأصبت ظفرًا. فقاتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان فبلغ ذلك رسول اللَّه ﷺ فقال : «مَا بَالُ أَقْوَامٍ جَاوَزَهُمُ القَتْلُ اليَوْمَ حَتَّى قَتَلُوا الذُّرِّيَّةَ ؟ » ، فقال رجل : يا رسول اللَّه أما هم أبناء المشركين ؟ فقال : لاَ ، إنما خياركم أبناء المشركين ، ثم قال : « لا تقتلوا ذرية ، لا تقتلوا ذرية » وقال : « كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها ، فأبواها يهودانها ، أو ينصرانها » [(٢)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول اللَّه ﷺ سئل عن أولاد المشركين فقال : « اللَّه أَعلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ إِذْ خَلَقَهُمْ » [(٣)].

وعن عِيَاض بن حِمَار أن رسول اللَّه ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته : « إِنَّ رَبِّي ﷻ أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي فِي يَوْمِي هَذَا : كُلُّ مَا نَحَلْتُهُ عِبَادِي حَلَالٌ . وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَأَضَلَّتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ ﷻ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ ، وَقَالَ : إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ المَاءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا ويَقْظَانَ ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَحْرِقَ قُرَيْشًا فَقُلْتُ : رَبِّ إِذًا يَثْلَغ رَأْسِي فَيَدَعهُ خبْزَةً ، قال : اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ ، وَاغْزُهُمْ نغزكَ ، وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقُ عَلَيْكَ ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَث خَمْسَةً مِثْلَهُ ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ ، قال : وأَهْلُ الجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ ؛ ذُو سُلْطَانٍ مُقسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ القَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى مُسْلِم ، وَرَجُلٌ عَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ » قال : « وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ : الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبرَ لَهُ ، الَّذِينَ فيكم هُمْ تَبَعٌ لَا يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا ، والخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى له طَمَعٌ وإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ ، وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ » [(٤)]. وذكر البخيل والكذاب والشنظير الفحاش . وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ أي : التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : فلهذا لا يعرفه أكثر الناس فهم عنه ناكبون كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ قال ابن زيد : أي : راجعين إليه ﴿ وَٱتَّقُوهُ ﴾ أي : خافوه وراقبوه ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الطاعة العظيمة ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي : بل كونوا من الموحدين المخلصين له العبادةَ لا يريدون بها سواه . قال يزيد بن أبي مريم : مر عمر رضي الله عنه بمعاذ بن جبل ، فقال عمر : ما قوام هذه الأمة ؟ قال معاذ : ثلاث وهن المنجيات ؛ الإخلاص وهي الفطرة فطرة اللَّه التي فطر الناس عليها ، والصلاة وهي الملة ، والطاعة وهي

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٧٥) ومسلم في القدر (٢٢ ، ٢٣) والإمام أحمد في مسنده (٣٤٦/٢).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٣٥/٣).
(٣) أخرجه مسلم في القدر (٢٣ - ٢٦) والإمام أحمد في مسنده (٣٢٨/١ ، ٢٤٤).
(٤) أخرجه مسلم في الجنة (٦٣).

العصمة ، فقال عمر : صدقت . وقوله تعالى : ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أي : لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم أي : بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وقرأ بعضهم (فارقوا دينهم) أي تركوا ظهورهم ، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة ، مما عدا أهل الإسلام ، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومثل باطلة . وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء . وهذه الأمة أيضًا اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة . وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه .

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الناس أنهم في حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له ، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم في حالة الاختيار يشركون بالله ويعبدون معه غيره . وقوله تعالى : ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ هي : لام العاقبة ولام التعليل عند آخرين ، ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك ثم توعدهم بقوله : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ قال بعضهم : والله لو توعدني حارس درب لخفت منه ، فكيف والمتوعد ها هنا هو الذي يقول للشيء كن فيكون . ثم قال تعالى منكرًا على المشركين فيما اختلفوا فيه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ولا برهان : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا ﴾ أي : حجة ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ أي : ينطق ﴿ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ وهذا استفهام إنكار ، أي لم يكن لهم شيء من ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ووفقه . فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال : ﴿ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ أي : يفرح في نفسه ويفخر على غيره ، وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية . قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي : صبروا في الضراء ، وعملوا الصالحات في الرخاء . كما ثبت في الصحيح : « عَجَبًا للمُؤمِنِ لَا يَقْضِي اللهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي : هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله ، فيوسع على قوم ويضيق على آخرين ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٢٤) وذكره الألباني في الصحيحة (١٤٨) .

يقول تعالى آمرًا بإعطاء كل ذي القربى حقه أي : من البر والصلة ﴿ وَٱلْمِسْكِينَ ﴾ وهو الذي لا شيء له ينفق عليه أو له شيء لا يقوم بكفايته ﴿ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ﴾ أي : النظر إليه يوم القيامة وهو الغاية القصوى ﴿ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي : في الدنيا والآخرة . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي : من أعطى عطية يريد أن يرد عليه الناس أكثر مما أهدى لهم ، فهذا لا ثواب له عند الله . بهذا فسره ابن عباس ، وهذا الصنيع مباح - وإن كان لا ثواب فيه - إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة ، قاله الضحاك واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ أي : لا تعط العطاء تريد أكثر منه . وقال ابن عباس : الربا رباءان ، فربا لا يصح - يعني : ربا البيع - وربا لا بأس به - وهو هدية الرجل يريد فضلها أضعافها - ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ وإنما الثواب عند الله في الزكاة . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ أي : الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء . كما جاء في الصحيح « وَمَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِعِدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمنُ بِيَمِينِهِ ، فَيُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُم فَلُوَّهُ (١) أَوْ فَصِيلَهُ حَتَّى تَصِيرَ التَّمْرَةُ أَعْظَمَ مِنْ أُحُدٍ » (٢) . وقوله ﷻ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾ أي : هو الخالق الرازق ، يخرج الإنسان من بطن أمه عريانًا لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوى ، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك ، والرياش واللباس والمال والأملاك والمكاسب . وعن حبةَ وسواء ابني خالد قالا : دخلنا على النبي ﷺ وهو يصلح شيئًا فأعناه فقال : « لَا تَيْأَسَا مِنَ الرِّزْقِ مَا تَهَزْهَزَتْ رُءُوسكُما ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ تَلِدُهُ أُمُّهُ أَحْمَرَ لَيْسَ عَلَيْهِ قِشْرَةٌ ، ثُمَّ يَرْزُقُهُ اللَّه ﷻ » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ أي : بعد هذه الحياة ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ أي : يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم ﴾ أي : الذين تعبدونهم من دون الله ﴿ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ﴾ ؟ أي : لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك ، بل الله ﷻ هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة ، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة ؛ ولهذا قال بعد هذا كله : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : تعالى وتنزه عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساوٍ أو ولد أو والد ، بل هو الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد .

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ .

قال ابن عباس وغيره : المراد بالبر هاهنا الفيافي ، وبالبحر الأمصار والقرى . وفي رواية عن ابن عباس وعكرمة : البحر الأمصار والقرى ما كان منها على جانب نهر . وقال آخرون : بل المراد بالبر هو البر المعروف ، وبالبحر هو البحر المعروف . وقال زيد بن رفيع : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ ﴾ يعني انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط ، وعن البحر يعني دوابه . وعن مجاهد قال : فساد البر قتل ابن آدم ، وفساد البحر أخذ السفينة غصبًا ، وقال عطاء الخراساني : المراد بالبر ما فيه من المدائن والقرى ، وبالبحر جزائره .

(١) الفلُو : الجحش أو المُهر يفطم أو يبلغ السنة . والجمع أفلاء ، المعجم الوسيط ص ٧٢٨ .
(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٠) ومسلم في الزكاة (٦٤) والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٣١ ، ٤١٩) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٤٦٩) وابن ماجه في سننه (٤١٦٥) .

والقول الأول أظهر وعليه الأكثرون ، ويؤيده ما قاله محمد بن إسحاق في السيرة : أن رسول الله ﷺ صالح ملك أيلة وكتب إليه ببحره يعني ببلده . ومعنى قوله تعالى : ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ ، أي : بان النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي . وقال أبو العالية : من عصى الله في الأرض ، فقد أفسد في الأرض ؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة . ولهذا جاء في الحديث « لَحَدٌ يُقَامُ فِي الأَرْضِ أَحَبُّ إِلَى أَهْلِهَا مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا »(١) . والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس أو أكثرهم أو كثير منهم عن تعاطي المحرمات ، وإذا تركت المعاصي كان سببًا في حصول البركات من السماء والأرض . ولهذا ثبت في الصحيحين : أن الفاجر إذا مات يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب(٢) . وعن زيد بن أسلم أن المراد بالفساد ها هنا الشرك وفيه نظر . وقوله تعالى : ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ الآية . أي : يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختبارًا منه لهم ومجازاة على صنيعهم . ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي : عن المعاصي كما قال تعالى : ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبلكم ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ أي : فانظروا ما حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم .

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته والمبادرة إلى الخيرات : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي : يوم القيامة إذا أراد كونه فلا راد له ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي : يتفرقون ؛ ففريق في الجنة وفريق في السعير ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي : يجازيهم مجازاة الفضل ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ومع هذا هو العادل فيهم الذي لا يجور .

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

يذكر تعالى نعمه على خلقه في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته بمجيء الغيث عقبها . ولهذا قال تعالى : ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي : المطر الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي : في البحر وإنما سيرها بالريح ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي : في التجارات والمعايش والسير من إقليم إلى إقليم وقطر إلى قطر ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي : تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة التي لا تعد ولا تحصى . ثم قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٣٦٢) .

(٢) انظر صحيح البخاري في الرقاق (٦٥١٢) ومسلم في الجنائز (٦١) .

بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس ، فقد كُذبت الرسلُ المتقدمون مع ما جاءوا أممهم به من الدلائل الواضحات . ولكن انتقم الله ممن كذبهم ، وخالفهم وأنجى المؤمنين بهم ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : هو حق أوجبه على نفسه الكريمة تكريمًا وتفضيلًا . كقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ . وعن أبي الدرداء ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَا مِنْ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَرُدُّ عن عِرْضِ أَخِيهِ ؛ إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَرُدَّ عَنْهُ نَارَ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ۝ فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ .

يبين تعالى كيف يخلق السحاب الذي ينزل منه الماء . فقال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ إما من البحر كما ذكره غير واحد ، أو مما يشاء الله ﷻ ﴿ فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ أي : يمده فيكثره وينميه ، ويجعل من القليل كثيرًا . ينشىء سحابة ترى في رأي العين مثل الترس ، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق ، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقالًا مملوءة . كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ وكذلك قال ها هنا : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا ﴾ قال مجاهد وغيره : يعني ، قطعًا . وقال غيره : متراكمًا ، وقال غيره : أسود من كثرة الماء تراه مدلهمًا ثقيلًا قريبًا من الأرض . وقوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ أي : فترى المطر - وهو القطر - يخرج من بين ذلك السحاب ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أي : لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ معنى الكلام أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قانطين أزلين من نزول المطر إليهم قبل ذلك . فلما جاءهم على فاقة فوقع منهم موقعًا عظيمًا . وقد اختلف النحاة في قوله : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ فقال ابن جرير : هو تأكيد ، وقال آخرون : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ ﴾ المطر ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أي الإنزال ﴿ لمبلسين ﴾ ، ويحتمل أن يكون ذلك من دلالة التأسيس . ويكون معنى الكلام أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله ومن قبله أيضًا قد فات عندهم نزوله وقتًا بعد وقت ، فترقبوه في إبانه فتأخر ، ثم مضت مدة فترقبوه فتأخر ، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط ، فبعد ما كانت أرضهم مقشعرة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ ﴾ يعني : المطر ؛ ﴿ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها . فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ أي : إن الذي فعل

---

(١) ذكره السيوطي في الدر (١٥٧/٥) .

ذلك لقادر على إحياء الأموات ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ يقول تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا ﴾ يابسة على الزرع الذي زرعوه ونبت وشب واستوى على سوقه ﴿ فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ أي : قد اصفر وشرع في الفساد ﴿ لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ ﴾ أي بعد هذا الحال ﴿ يَكْفُرُونَ ﴾ أي : يجحدون ما تقدم إليهم من النعم . كقوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ قال عبيد الله بن عمرو : الرياح ثمانية : أربعة منها رحمة ، وأربعة منها عذاب ؛ فأما الرحمة : فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات ، وأما العذاب . فالعقيم والصرصر وهما في البر ، والعاصف والقاصف وهما في البحر ، فإذا شاء ﷻ حركه بحركة الرحمة ، فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته ، ولاقحًا للسحاب تلقحه بحمله الماء ، كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل ، وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيمًا وأودعه عذابًا أليمًا وجعله نقمة على من يشاء من عباده ، فيجعله صرصرًا وعاتيًا ومفسدًا لما يمر عليه . والرياح مختلفة في مهابها ، صبا ودبور وجنوب وشمال ، وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف ، فريح لينة رطبة تغذي النبات وأبدان الحيوان وأخرى تجففه ، وأخرى تهلكه وتعطبه ، وأخرى تسيره وتصلبه ، وأخرى توهنه وتضعفه .

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝٥٢ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجداثها ، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون وهم مع ذلك مدبرون عنك ، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق ، وردهم عن ضلالتهم ، بل ذلك إلى الله ؛ فإنه تعالى بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء ، ويهدى من يشاء ويضل من يشاء وليس ذلك لأحد سواه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي : خاضعون مستجيبون مطيعون ، فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه وهذا حال المؤمنين ، والأول مثل الكافرين .

وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه الآية ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ ﴾ على توهيم عبد الله بن عمر في روايته مخاطبة النبي ﷺ القتلى الذين ألقوا في قليب بدر بعد ثلاثة أيام ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم ، حتى قال له عمر : يا رسول الله ما تخاطب من قوم قد جيفوا ؟ فقال : « وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَا يُجِيبُونَ » . وتأولته عائشة على أنه قال : « إِنَّهُم الآنَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّ مَا كُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ حَقٌّ » (١) . وقال قتادة : أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تقريعًا وتوبيخًا ونقمة . والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة . من أشهر ذلك ما روي عن ابن عباس مرفوعًا : « مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُرُّ بِقَبْرِ أَخِيهِ المُسْلِمِ كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ ؛ إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ حَتَّى يَرُدَّ عليه السلام » (٢) . وثبت عنه ﷺ لأمته إذا سلموا على

---

(١) أخرجه مسلم في (الحج) (٧٧) والإمام أحمد في مسنده (٢٨٧/٣) .

(٢) أورده الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٣٦٥/١٠) والسيوطي في الحاوى للفتاوى (٣٠٢/٢) .

أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول المسلم : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد ، والسلف مجمعون على هذا ، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف بزيارة الحي له ويستبشر .

وقد شرع السلام على الموتى ، والسلام على من لم يشعر ، ولا يعلم بالمسلم محال ، وقد علَّم النبي ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا : « سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ، وإنا إن شاء اللَّه بكم لاحقون ، يرحم اللَّه المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل اللَّه لنا ولكم العافية » (١) . فهذا سلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد ، وإن لم يسمع المسلم الرد ، واللَّه أعلم .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ .

ينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالًا بعد حال ؛ فأصله من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم يصير عظامًا ثم تكسى العظام لحمًا ، وينفخ فيه الروح ، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفًا نحيفًا واهن القوى ، ثم يشب قليلًا قليلًا حتى يكون صغيرًا ، ثم حدثًا ثم مراهقًا ثم شابًا ، وهو القوة بعد الضعف ، ثم يشرع في النقص ، فيكتهل ثم يشيخ ثم يهرم ، وهو الضعف بعد القوة ، فتضعف الهمة والحركة والبطش ، وتشيب اللمة وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة . ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي : يفعل ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ قال عطية العوفي : قرأت على ابن عمر ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا ﴾ فقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضُعف ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضُعف قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضُعفا ﴾ . ثم قال : قرأت على رسول اللَّه ﷺ كما قرأت علي فأخذ علي كما أخذت عليك (٢) .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان ، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضًا . فمنه إقسامهم باللَّه أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم . قال اللَّه تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ أي : فيرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة . كما أقاموا عليهم حجة اللَّه في الدنيا فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة ، ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أي : في كتاب الأعمال ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ أي : من يوم خلقتم إلى أن بعثتم ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ قال اللَّه تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أي : يوم القيامة

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٣٩) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥٨/٢) وأبو داود في سننه (٣٢/٤) ، وقرأ عاصم وحمزة ﴿ من ضَعف ﴾ بفتح الضاد ، والباقون ﴿ من ضعف ﴾ بالرفع (حجة القراءات ص ٥٦٢) .

﴿ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ ﴾ أي : اعتذارهم عما فعلوا ﴿ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴾ أي : ولا هم يرجعون إلى الدنيا .

﴿ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ ﴾ أي : قد بينا لهم الحق ، ووضحناه لهم ، وضربنا لهم فيه الأمثال ، ليستبينوا الحق ويتبعوه ﴿ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ ﴾ أي : لو رأوا أيّ آية كانت ، سواء كانت باقتراحهم أو غيره ، لا يؤمنون بها ويعتقدون أنها سحر وباطل . كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾ . ولهذا قال ها هنا : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ أي : اصبر على مخالفتهم وعنادهم ، فإن اللَّه تعالى منجز لك ما وعدك من نصره إياك عليهم ، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ أي : بل اثبت على ما بعثك اللَّه به ، فإنه الحق الذي لا مرية فيه ولا تعدل عنه ، وليس فيما سواه هدى يتبع ، بل الحق كله منحصر فيه ، قال قتادة : نادى رجل من الخوارج عليًا ﷺ ، وهو في صلاة الغداة فقال : ﴿ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ فأنصت له علي حتى فهم ما قال ، فأجابه وهو في الصلاة : ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ .

سورة لقمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۞ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۞ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

تقدم في أول سورة البقرة عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة ، وهو أنه ﷺ جعل هذا القرآن هدى ، وشفاء ورحمة للمحسنين ، وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة ، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها ، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة ، فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك ، ولا أرادوا جزاء من الناس ولا شكورًا ، فمن فعل ذلك كذلك ، فهو من الذين قال الله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أي على بصيرة وبينة ومنهج واضح جلي ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي في الدنيا والآخرة .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۞ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال السعداء ، وهم الذين يهتدون بكتاب الله ، وينتفعون بسماعه عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب . كما قال ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ . قال : هو والله الغناء . وقال الحسن البصري : نزلت هذه الآية : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ في الغناء والمزامير . وقال قتادة : قوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ والله لعله لا ينفق فيه مالًا ، ولكن شراؤه استحبابه بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق ، وما يضر على ما ينفع . وقيل : أراد بقوله : ﴿ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ اشتراء المغنيات من الجواري ، وقال الضحاك : يعني الشرك . واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله ، واتباع سبيله . وقوله : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي : إنما يضع هذا للتخالف للإسلام وأهله . وعلى قراءة فتح الياء تكون اللام لام العاقبة ، أو تعليلًا للأمر القدري أي : قيضوا لذلك ليكونوا كذلك . وقوله تعالى : ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ قال مجاهد : ويتخذ سبيل الله هزوًا يستهزئ بها . وقال قتادة : يعني ويتخذ آيات الله هزوًا ، وقول مجاهد أولى ، وقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي : كما استهانوا بآيات الله وسبيله ، أهينوا يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ أي : هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب إذا تليت عليه الآيات القرآنية ولّى عنها وأعرض ؛ إذ لا انتفاع له بها ، ولا أرب له فيها ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي يوم القيامة ، يؤلمه كما تألم بسماع كتاب الله وآياته .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۞ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء في الدار الآخرة الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، وعملوا

الأعمال الصالحة التابعة لشريعة اللَّه . ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي : يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسار من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب والنساء والنضرة ، والسماع الذي لم يخطر ببال أحد وهم في ذلك مقيمون دائمًا ، لا يظعنون ولا يبغون عنها حولًا . وقوله تعالى : ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ﴾ أي : هذا كائن لا محالة ؛ لأنه من وعد اللَّه واللَّه لا يخلف الميعاد . ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الذي قهر كل شيء ، ودان له كل شيء . ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في أقواله وأفعاله الذي جعل القرآن هدى للمؤمنين ، ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ الآية .

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

يبين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السماوات والأرض ، وما فيهما وما بينهما فقال تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ . قال الحسن : ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية . وقال ابن عباس : لها عمد لا ترونها . ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ ﴾ يعني : الجبال أرست الأرض وثقَّلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء . ولهذا قال : ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أي : لئلا تميد بكم . وقوله تعالى : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ أي : وذرأ فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها ، ولما قرر سبحانه أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ أي : من كل زوج من النبات ﴿ كَرِيمٍ ﴾ أي : حسن المنظر وقال الشعبي : والناس أيضًا من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم ، وقوله تعالى : ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ أي : صادر عن فعل اللَّه وخلقه وتقديره وحده لا شريك له في ذلك . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ أي : مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد ﴿ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ يعني : المشركين باللَّه العابدين معه غيره ﴿ فِى ضَلَٰلٍ ﴾ أي : جهل وعمى ﴿ مُّبِينٍ ﴾ أي : واضح ظاهر لا خفاء به .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

اختلف السلف في لقمان ، هل كان نبيًا أو عبدًا صالحًا من غير نبوة ؟ على قولين ، الأكثرون على الثاني . قال ابن عباس : كان لقمان عبدًا حبشيًا نجارًا . وقال قتادة : عن عبد اللَّه بن الزبير : قلت لجابر بن عبد اللَّه : ما انتهى إليكم من شأن لقمان ؟ قال : كان قصيرًا أفطس الأنف من النوبة ، وقال سعيد بن المسيب : كان لقمان من سودان مصر ذا مشافر أعطاه اللَّه الحكمة ، ومنعه النبوة . وقال خالد الربعي : كان لقمان عبدًا حبشيًا نجارًا فقال له مولاه : اذبح لنا هذه الشاة فذبحها ، قال : أخرج أطيب مضغتين فيها ، فأخرج اللسان والقلب ، ثم مكث ما شاء اللَّه . ثم قال : اذبح لنا هذه الشاة ، فذبحها فقال : أخرج أخبث مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب ، فقال له مولاه : أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها فأخرجتهما ، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما ، فقال لقمان : إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا (١) . وقال مجاهد : كان لقمان عبدًا صالحًا ولم يكن نبيًا . وقال الأعمش : قال مجاهد : كان لقمان عبدًا

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٨٢/٢١) .

أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين . وعن سعيد الزبيدي : كان لقمان الحكيم عبدًا حبشيًا غليظ الشفتين ، مصفح القدمين ، قاضيًا على بني إسرائيل . وذكر غيره أنه كان قاضيًا على بني إسرائيل في زمان داود عليه السلام . وقال عمرو بن قيس : كان لقمان عبدًا أسود غليظ الشفتين ، مصفح القدمين ، فأتاه رجل وهو في مجلس ناس يحدثهم فقال له : ألست الذي كنت ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا ؟ قال : نعم ، قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : صدق الحديث والصمت عما لا يعنيني(١) . فهذه الآثار منها ما هو مصرح فيه بنفي كونه نبيًا ؛ ومنها ما هو مشعر بذلك ؛ لأن كونه عبدًا قد مسه الرق ينافي كونه نبيًا ؛ لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها ؛ ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبيًا . وإنما ينقل كونه نبيًا عن عكرمة إن صح السند إليه ، فإنه رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل عن جابر عن عكرمة قال : كان لقمان نبيًا . وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي ، وهو ضعيف والله أعلم . وعن قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي : الفقه في الإسلام . ولم يكن نبيًا ولم يوح إليه . وقوله : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي : الفهم والعلم والتعبير ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ أي أمرناه أن يشكر الله عز وجل على ما آتاه الله ، ومنحه ووهبه من الفضل الذي خصصه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ أي : إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ أي : غني عن العباد لا يتضرر بذلك . ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعًا ، فإنه الغني عما سواه ؛ فلا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه .

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن وصية لقمان لولده ، الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه ، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ، ولهذا أوصاه أولًا بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا ، ثم قال محذرًا له : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : هو أعظم الظلم . وعن عبد الله قال : لما نزلت : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : أينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّهُ لَيْسَ بِذَلِكَ ، أَلَا تسمع إلى قَوْلِ لُقْمَانَ ؟ ﴿ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ »(٢) . ثم قرن بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ وكثيرًا ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن ؛ وقال ها هنا : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ قال مجاهد : مشقة وهن الولد ؛ وقال قتادة : جهدًا على جهد ؛ وقال عطاء الخرساني : ضعفًا على ضعف . وقوله : ﴿ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ أي : تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين . كما قال تعالى : ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٨٢/٢١) .
(٢) أخرجه البخاري في (التفسير) (٤٧٧٦) .

كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ الآية . ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي : فإني سأجزيك على ذلك أوفر جزاء .

وعن سعيد بن وهب قال : قدم علينا معاذ بن جبل ، وكان بعثه النبي ﷺ فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إني رسول رسول الله ﷺ إليكم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئًا ، وأن تطيعوني لا آلوكم خيرًا ، وإن المصير إلى الله ، وإلى الجنة أو إلى النار إقامة فلا ظعن ، وخلود فلا موت . وقوله : ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ أي : إن حرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك ، ولا يمنعك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفًا أي : محسنًا إليهما . ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ يعني : المؤمنين ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ عن سعد بن مالك قال : أنزلت فيّ هذه الآية ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ الآية قال : كنت رجلًا برًا بأمي ، فلما أسلمت قالت : يا سعد ما هذا الذي أراك قد أحدثت ؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتُعَيَّرَ بي فيقال : يا قاتل أمه . فقلت : لا تفعلي يا أمه فإني لا أدع ديني هذا لشيء . فمكثت يومًا وليلة لم تأكل ، فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يومًا آخر وليلة لم تأكل ، فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يومًا وليلة أخرى لا تأكل فأصبحت قد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس ، فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت ديني هذا لشيء ، فإن شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي . فأكلت .

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ .

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله سبحانه عن لقمان الحكيم . ليمتثلها الناس ويقتدوا بها فقال : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أي إن المظلمة أو الخطيئة إن كانت مثقال حبة خردل . وجوز بعضهم أن يكون الضمير في قوله : ﴿ إِنَّهَآ ﴾ ضمير الشأن والقصة ، وجوز على هذا رفع مثقال والأول أولى . وقوله ﷻ : ﴿ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ﴾ أي : أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط ، وجازى عليها إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر . كما قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ . ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صماء ، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السماوات والأرض ، فإن الله يأتي بها ؛ لأنه لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ أي : لطيف العلم ، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت . ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بدبيب النمل في الليل البهيم ، وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله : ﴿ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ ﴾ أنها صخرة تحت الأرضين السبع ، والظاهر - والله أعلم - أن المراد أن هذه الحبة في حقارتها لو كانت داخل صخرة ، فإن الله

سيبديها ويظهرها بلطيف علمه . كما قال رسول الله ﷺ : « لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ في صَخْرَةٍ صَمَّاءَ لَيْسَ لَهَا بَابٌ وَلَا كُوَّةٌ لَخَرَجَ عمله لِلنَاسِ كَائِنًا مَا كَانَ » (١) .

ثم قال : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي : بحدودها وفروضها وأوقاتها ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ أي : بحسب طاقتك وجهدك ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ ، اعلم أن الآمر بالمعروف ، والناهي عن المنكر لا بد أن يناله من الناس أذى ، فأمره بالصبر . وقوله : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ أي : إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور . وقوله : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ . يقول : لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم ، أو كلموك احتقارًا منك لهم واستكبارًا عليهم ، ولكن ألن جانبك ، وابسط وجهك إليهم ، كما جاء في الحديث : « وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِطٌ ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الإِزَارِ فَإِنَّهَا مِنَ المَخِيلَةِ ، والمخيلة لا يُحِبهَا اللَّه » (٢) . قال ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ لا تتكبر ، فتحتقر عباد الله ، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك ، وقال زيد بن أسلم : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ لا تتكلم وأنت معرض . وقال إبراهيم النخعي : يعني بذلك التشدق في الكلام ، والصواب القول الأول . قال ابن جرير : وأصل الصعر داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها ، حتى تلفت أعناقها عن رؤوسها فشبه به الرجل المتكبر .

وقوله : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أي : خيلاء متكبرًا جبارًا عنيدًا ، لا تفعل ذلك يبغضك الله ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أي : مختال معجب في نفسه ﴿ فَخُورٍ ﴾ أي : على غيره ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ وقال ثابت ابن قيس بن شماس : ذُكر الكبر عند رسول الله ﷺ ، فشدد فيه فقال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » فقال رجل من القوم : والله يا رسول الله ، إني لأغسل ثيابي ، فيعجبني بياضها ويعجبني شراك نعلي وعلاقة سوطي ، فقال : « لَيْسَ ذَلِكَ الكِبْرُ إِنَّمَا الكِبْرُ أَنْ تُسَفِّهَ الحَقَّ وتُغْمِطَ النَاسَ » (٣) . وقوله : ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ أي : امش مقتصدًا مشيًا ليس بالبطيء المتبط ولا بالسريع المفرط ، بل عدلًا وسطًا بين بين . وقوله : ﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ أي : لا تبالغ في الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه . ولهذا قال : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد : أي غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفعه ، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى ، وهذا التشبيه في هذا بالحمير ، يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم ؛ لأن رسول الله ﷺ قال : « لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوءِ العَائِدُ فِي هِبتَهِ كَالكَلْبِ يَقِيء ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ » (٤) . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللَّه مِنْ فَضْلِهِ ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الحَمِيرِ فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ، فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا » (٥) . وفي بعض الألفاظ : بالليل ، فالله أعلم . فهذه وصايا نافعة جدًا

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٥/١٠) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦٥/٤) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٨٢/٣) والحاكم في المستدرك (١٨٦/٤) والطبراني في الكبير (٦٠/٢) .
(٤) أخرجه مسلم في الهبات (١ ، ٢ ، ٧ ، ٨) والإمام أحمد في مسنده (٢١٧/١) .
(٥) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٣٠٣) ومسلم في الذكر والدعاء (٨٢) وأبو داود في سننه (٥١٠٢) .

وهي من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم . وقد روي عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة ، فلنذكر منها نموذجًا ودستورًا إلى ذلك .

عن ابن عمر قال : أخبرنا رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ لُقْمَانَ الحَكِيمَ كَانَ يَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ إِذَا اسْتُوْدِعَ شَيْئًا حَفِظَهُ » (١) . وعنه ﷺ قال : « قَالَ لُقْمَانُ الحَكِيمِ لابِنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ : يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَالتَقَنع فَإِنَّهُ مَخُوفَةٌ بِاللَّيْلِ مَذَمَّةٌ بِالنَّهَارِ » (٢) . وعن الثري بن يحيى قال : قال لقمان لابنه : يا بني إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك . وعن عون بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه : يا بني إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام - يعني السلام - ثم اجلس في ناحيتهم ، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا ، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك معهم ، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم .

فصل في الخمول والتواضع

وذلك متعلق بوصية لقمان عليه السلام لابنه ، عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رُبَّ أَشْعَثَ ذِي طِمْرَيْنِ يُصْفَحُ عَنْ أَبْوَابِ النَّاسِ إِذَا أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ » . وفي رواية : « مِنْهُمُ البَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ » (٣) . وعن عمر رضي الله عنه : أنه دخل المسجد ، فإذا هو بمعاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله ﷺ فقال له : ما يبكيك يا معاذ ؟ قال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ : سمعته يقول : « إِنَّ اليَسِيرَ مِنَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ وَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الأَتْقِيَاءَ الأَخْفِيَاءَ الأَثْرِيَاءَ الَّذِينَ إِذَا غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا ، وَإِذَا حضروا لَمْ يُعْرَفُوا ، قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الهُدَى يَنْجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ » (٤) . وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك ، واجعلني في نفسي من أوضع خلقك ، وعند الناس من أوسط خلقك .

باب ما جاء في الشهرة

عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ أَنْ يُشِيرَ النَّاسُ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ ، وَلَكِنْ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » (٥) وروي عن الحسن مرسلًا نحوه ، فقيل للحسن : فإنه يشار إليك بالأصابع ، فقال : إنما المراد من يشار إليه في دينه بالبدعة وفي دنياه بالفسق . وعن علي رضي الله عنه قال : لا تبدأ لأن تشتهر ، ولا ترفع شخصك لتذكر ، وتعلم واكتم واصمت تسلم ، تسر الأبرار وتغيظ الفجار . وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : ما صدق الله من أحب الشهرة . وقال أيوب : ما صدق اللهَ عبدٌ إلا سره أن لا يشعر بمكانه . وقال محمد بن العلاء : من أحب الله أحب أن لا يعرفه الناس . وقال سماك بن سلمة : إياك وكثرة الأخلاء . وقال أبان بن عثمان : إن أحببت أن يسلم إليك دينك ، فأقل من المعارف . كان أبو العالية

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٨٧/٢) والسيوطي في الدر المنثور (١٦٢/٥) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤١١/٢) السيوطي في الدر المنثور (١٦٢/٤) .

(٣) أخرجه بنحوه الإمام أحمد في مسنده (١٤٥/٣) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/١) .

(٥) أخرجه بنحوه الترمذي في السنن (٢٤٥٣) .

إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة نهض وتركهم . وعن أبي رجاء قال : رأى طلحة قومًا يمشون معه ، فقال : ذباب طمع وفراش النار . وقال إبراهيم النخعي : لا تلبس من الثياب ما يشهر في الفقهاء ولا ما يزدريك السفهاء . وقال الثوري : كانوا يكرهون من الثياب الجياد التي يشتهر بها ، ويرفع الناس إليه فيها أبصارهم . والثياب الرديئة التي يحتقر فيها ويستذل دينه ، وقال الحسن رحمه الله : إن قومًا جعلوا الكبر في قلوبهم والتواضع في ثيابهم ، فصاحب الكساء بكسائه أعجب من صاحب المطرف بمطرفه ما لهم تفاقدوا .

فصل في حسن الخلق

قال أنس رضي الله عنه ، كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقًا [١] . وابن عمر قيل : يا رسول الله أي المؤمنين أفضل ؟ قال : « أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا » [٢] .

وقال ميمون بن مهران عن رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ ذَنْبٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ سُوءِ الخُلُقِ » [٣] . وعن أبي هريرة مرفوعًا « إِنَّكُمْ لا تَسَعُونَ النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَسَعُهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ وجُوهٍ وَحُسْنُ خُلُقٍ » [٤] وقال محمد بن سيرين : حسن الخلق عون على الدين .

فصل في ذم الكبر

قال ابن مسعود رفعه : « لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ » [٥] . وعن أنس قال : كان أبو بكر يخطبنا ، فيذكر بدء خلق الإنسان حتى إن أحدنا ليقذر نفسه يقول : خرج من مجرى البول مرتين . وقال الحسن : عجبًا لابن آدم يغسل الخرء بيده في اليوم مرتين ثم يتكبر يعارض جبار السماوات .

فصل في الاختيال

عن ابن بريدة عن أبيه مرفوعًا : « مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ » [٦] وعن أبي هريرة مرفوعًا : « لا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ ، وَبَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي بُرْدَيْهِ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ الأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ » [٧] .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل (٥٤) وأحمد في مسنده (٣/٣٧٠) والترمذي في سننه (٢٠١٥) .
(٢) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٤٠٤) . (٣) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٤١٣) .
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/١٢٤) والسيوطي في الدر المنثور (٢/٧٣) .
(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩) .
(٦) له روايات كثيرة منها ما أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٨٣) ومسلم في اللباس (٤٥) وأحمد في مسنده (٢/٤٢) .
(٧) أخرجه البخاري في (اللباس) (٥٧٨٨) .

يقول تعالى منبهًا خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة ، بأنه سخر لهم ما في السماوات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم ، وما يخلق فيها من سحاب وأمطار وثلج وبرد ، وجعله إياها لهم سقفًا محفوظًا . وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار ، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وإزاحة الشبه والعلل . ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم ، بل منهم من يجادل في الله ، أي في توحيده وإرساله الرسلَ ومجادلته في ذلك بغير علم ولا مستند من حجة صحيحة ولا كتاب مأثور صحيح ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ أي : مبين مضيء ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ أي : لهؤلاء المجادلين في توحيد الله ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أي : على رسوله من الشرائع المطهرة ﴿ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ أي : لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين ، قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ أي : فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم ، أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عمن أسلم وجهه لله ، أي أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه ، ولهذا قال : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي : في عمله باتباع ما به أمر ، وترك ما عنه زجر ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ أي : فقد أخذ موثقًا من الله متينًا أنه لا يعذبه . ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ﴾ أي : لا تحزن عليهم يا محمد في كفرهم بالله ، وبما جئت به ، فإن قدر الله نافذ فيهم ، وإلى الله مرجعهم ، فننبئهم بما عملوا أي : فيجزيهم عليه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ فلا تخفى عليه خافية . ثم قال تعالى : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ﴾ أي : في الدنيا ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ ﴾ أي : نلجئهم ﴿ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أي : فظيع صعب مشق على النفوس .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن هؤلاء المشركين به : إنهم يعرفون أن الله خالق السماوات والأرض وحده لا شريك له ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي : إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي : هو خلقه وملكه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ أي : الغني عما سواه وكل شيء فقير إليه ، الحميد في جميع ما خلق له الحمد في السماوات والأرض على ما خلق وشرع ، وهو المحمود في الأمور كلها .

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عظمته وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ أي : ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلامًا وجعل البحر مدادًا وأمده سبعة أبحر معه ، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ونفد ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مددًا . وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة ، ولم يرد الحصر ولا أن ثم سبعة أبحر موجودة محيطة بالعالم ؛ لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته . قال الحسن البصري : لو جعل شجر الأرض أقلامًا ، وجعل البحر مدادًا ، وقال الله : إن من أمري كذا ومن أمري كذا ، لنفد ماء البحر وتكسرت الأقلام . وقال قتادة : قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفد فقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ أي : لو كان شجر الأرض أقلامًا ومع البحر سبعة أبحر ما كان لتنفد عجائب ربي وحكمته وخلقه وعلمه .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي : عزيز قد عز كل شيء وقهره وغلبه ، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه حكيم في خلقه وأمره وأقواله وأفعاله وشرعه وجميع شؤونه . وقوله تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ أي : ما خلق جميع الناس ، وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة ، الجميع هين عليه ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ أي : كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ الآية .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ .

يخبر تعالى أنه ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ يعني : يأخذ منه في النهار ، فيطول ذاك ويقصر هذا ، وهذا يكون زمن الصيف ، يطول النهار إلى الغاية ، ثم يشرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار ، وهذا يكون في الشتاء .. ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قيل : إلى غاية محدودة . وقيل : إلى يوم القيامة . وكلا المعنيين صحيح ويستشهد للقول الأول بحديث أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « يَا أَبَا ذر أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فَإِنَّهَا تَذْهَبُ فَتَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ ثُمَّ تَسْتَأْذِنُ رَبَّهَا فَيُوشِكُ أَنْ يُقَالَ لَهَا ارجعي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ »(١) . وقال ابن عباس : الشمس بمنزلة الساقية تجري بالنهار في السماء في فلكها ، فإذا غربت جرت بالليل في فلكها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها قال : وكذلك القمر ، وقوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ، كقوله : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ ومعنى هذا أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء . وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ أي : إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق ، وأن كل ما سواه باطل . فإنه الغني عما سواه

(١) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٨٠٢) ومسلم في (الإيمان) (٢٥٠) .

وكل شيء فقير إليه ؛ لأن كل ما في السماوات والأرض الجميع خلقه وعبيده لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه ، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذبابًا لعجزوا عن ذلك . ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ أي : العلي الذي لا أعلى منه الكبير الذي هو أكبر من كل شيء ، فكل خاضع حقير بالنسبة إليه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ .

يخبر تعالى أنه هو الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره أي بلطفه وتسخيره ، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت . ولهذا قال : ﴿ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ أي : من قدرته ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ . أي صبار في الضراء شكور في الرخاء . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ ﴾ أي : كالجبال والغمام . ﴿ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ قال مجاهد : أي كافر كأنه فسر المقتصد ها هنا بالجاحد . كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ وقال ابن زيد : هو المتوسط في العمل ، وهذا الذي قاله ابن زيد هو المراد في قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ الآية . فالمقتصد ها هنا هو المتوسط في العمل ، ويحتمل أن يكون مرادًا هنا أيضًا ، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال والأمور العظام ، والآيات الباهرات في البحر . ثم بعدما أنعم الله عليه بالخلاص . كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام والدؤوب في العبادة والمبادرة إلى الخيرات ، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصرًا والحالة هذه والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ . فالختار هو الغدار . قاله مجاهد والحسن وقتادة ، وهو الذي كلما عاهد نقض عهده . والختر أتم الغدر وأبلغه . وقوله : ﴿ كَفُورٍ ﴾ أي جحود للنعم لا يشكرها بل يتناساها ولا يذكرها .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ .

يقول تعالى منذرًا للناس يوم المعاد ، وآمرًا لهم بتقواه والخوف منه والخشية من يوم القيامة حيث ﴿ لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾ أي : لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه . كذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يقبل منه ، ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي : لا تلهينكم بالطمأنينة فيها على الدار الآخرة . ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ يعني الشيطان . فإنه يغر ابن آدم ويعده ويمنيه وليس من ذلك شيء ، بل كان كما قال تعالى : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ .

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها ، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها ؛

وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه ، ولكن إذا أمر بكونه ذكرًا أو أنثى أو شقيًّا أو سعيدًا علم الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه ، وكذا لا تدري نفس ماذا تكسب غدًا في دنياها وأخراها ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان ، لا علم لأحد بذلك ، وهذه شبيهة بقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ الآية . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب .

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّه ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » (١) .

وعن عبد الله بن سلمة قال : قال عبد الله : أوتي نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غير خمس ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٢) .

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يومًا بارزًا للناس إذ أتاه رجل يمشي فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : « الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّه وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَلِقَائِهِ ، وَتُؤْمِنَ بِالبَعْثِ الآخِرِ » . قال : يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : «الإِسْلَامُ ، أَنْ تَعْبُدَ اللَّه وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ » . قال : يا رسول الله ، ما الإحسان ؟ قال : «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّه كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » . قال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال : « مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا : إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من أشراطها ، وإذا كان الحفاة العراة رؤوس الناس ، فذاك من أشراطها في خمس لا يعلمهن إلا الله ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ » . ثم انصرف الرجل فقال : «رُدُّوهُ عَلَيَّ » فأخذوا ليردوه ، فلم يروا شيئًا فقال : « هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ » (٣) .

وعن ربعي بن حراش عن رجل من بني عامر أنه استأذن على النبي ﷺ فقال : أألج ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه : « اخْرُجْ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ لَا يُحْسِنُ الاسْتِئْذَانَ فَقُلْ لَهُ : فَلْيَقُلْ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أأدخل ؟ » قال : فسمعته يقول ذلك فقلت : السلام عليكم أأدخل ؟ فأذن لي فدخلت فقلت : بم أتيتنا ؟ قال : «لَمْ آتِكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ ، أَتَيْتُكُمْ بِأَنْ تَعْبُدُوا اللَّه وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنْ تَدَعُوا اللاتَ وَالعُزَّى ، وَأَنْ تُصَلُّوا بالليْلِ وَالنَّهَارِ خَمْسَ صَلَوَات ؛ وَأَنْ تَصُومُوا مِنْ السَّنَةِ شَهْرًا ، وَأَنْ تَحُجُّوا البَيْتَ ، وَأَنْ تَأْخُذُوا الزَّكَاةَ مِنْ مَالِ أَغْنِيَائِكُمْ فَتَرُدُّوهَا عَلَى فُقَرَائِكُمْ » . فقال : فهل بقي من العلم شيء لا تعلمه ؟ قال : «قَدْ عَلَّمَنِي اللَّه ﷻ خَيْرًا وَإِنَّ مِنَ العِلمِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّه ﷻ : الخمس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ

---

(١) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٧٨) وأحمد في مسنده (١٢٢/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٨٥/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في (الإيمان) (٤٧٧٧) ومسلم في (الإيمان) (٥) .

وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ الآية»[(١)] . وقال مجاهد : جاء رجل من أهل البادية فقال : إن امرأتي حبلى ، فأخبرني ما تلد ؟ وبلادنا مجدبة ، فأخبرني متى ينزل الغيث ؟ وقد علمت متى ولدت ، فأخبرني متى أموت ؟ فأنزل الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ - إلى قوله - عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ قال مجاهد : وهي مفاتيح الغيب التي قال تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : من حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت : ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ . قال قتادة : أشياء استأثر الله بهن فلم يطلع عليهن ملكًا مقربًا ولا نبيًّا مرسلًا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ ، فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة ، في أي سنة ، أو أي شهر أو ليل أو نهار . ﴿ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ليلًا أو نهارًا . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ . فلا يعلم أحد ما في الأرحام أذكر أم أنثى ، أحمر أو أسود ، وما هو . ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ أخير أم شر ، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت لعلك الميت غدًا ، لعلك المصاب غدًا ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ أي : ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض ، أفي بحر أم بر أو سهل أو جبل . وقد جاء في الحديث « إِذَا أَرَادَ اللَّهُ قَبْضَ رُوحِ عَبْدٍ بأرضٍ جَعَلَ لَهُ فِيها - أَو قَالَ بِهَا - حاجةً »[(٢)]

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٨/٥) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٢/١) .

سورة السجدة

عن أبي هريرة قال : كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿ الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ﴾ السجدة و ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾ (١) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ها هنا . وقوله : ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي : لا شك فيه ولا مرية أنه منزَّل ﴿ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ثم قال تعالى مخبرًا عن المشركين : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ أي : اختلقه من تلقاء نفسه . ﴿ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أي يتبعون الحق .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى أنه خالق للأشياء ، فخلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، وقد تقدم الكلام على ذلك . ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ أي : بل هو المالك لأزمة الأمور ، القادر على كل شيء ، فلا ولي لخلقه سواه ، ولا شفيع إلا من بعد إذنه . ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ يعني . أيها العابدون غيره المتوكلون على من عداه تعالى ، وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك ، وقوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ أي : يتنزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة . كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ الآية . وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا ، ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة ، وسمك السماء خمسمائة سنة . وقال مجاهد : النزول من الملك في مسيرة خمسمائة عام ، وصعوده في مسيرة خمسمائة عام . ولكنه يقطعها في طرفة عين . ولهذا قال تعالى : ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ أي : المدبر لهذه الأمور الذي هو شهيد على أعمال عباده ، يرفع إليه جليلها وحقيرها وصغيرها وكبيرها ، وهو عزيز في رحمته رحيم في عزته ، وهذا هو الكمال ، العزة مع الرحمة والرحمة مع العزة فهو رحيم بلا ذل .

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا أنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها . وقال زيد بن أسلم : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ قال : أحسن خلق كل شيء ، كأنه جعله من المقدم والمؤخر . ثم لما ذكر تعالى

---

(١) أخرجه البخاري في سجود القرآن (١٠٦٨) .

خلق السماوات والأرض ، شرع في ذكر خلق الإنسان ، فقال تعالى : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾ يعني : خلق أبا البشر آدم من طين . ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ . أي : يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ يعني آدم لما خلقه من تراب خلقه سويًّا مستقيمًا ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ يعني العقول ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أي : بهذه القوى التي رزقكموها الله ﷻ، فالسعيد من استعملها في طاعة ربه ﷻ.

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ۝ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين في استبعادهم المعاد ، حيث قالوا : ﴿ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : تمزقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت ﴿ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي : أئنا لنعود بعد تلك الحال ؟ يستبعدون ذلك ، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرتهم العاجزة لا بالنسبة إلى قدرة الذي بدأهم وخلقهم من العدم ، الذي إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون . ولهذا قال تعالى : ﴿ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ الظاهر من هذه الآية : أن ملك الموت شخص معين من الملائكة ، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل وهو المشهور . قاله قتادة وغير واحد وله أعوان ، وورد في الحديث أن أعوانه ينزعون الأرواح من سائر الجسد حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت ، قال مجاهد : حويت له الأرض ، فجعلت مثل الطست يتناول منها متى يشاء . وعن جعفر بن محمد ، قال : سمعت أبي يقول : نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبي ﷺ : « يَا مَلَكَ الْمَوْتِ ارْفُقْ بِصَاحِبِي فَإِنَّهُ مُؤْمِنٌ » فقال ملك الموت : يا محمد ، طب نفسًا وقر عينًا ، فإني بكل مؤمن رفيق ، واعلم أن ما في الأرض بيت مدر ، ولا شعر في بر ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات حتى إني أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم ، والله يا محمد لو أني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها (١) . قال جعفر : بلغني أنه إنما يتصفحهم عند مواقيت الصلاة ، فإذا حضرهم عند الموت ، فإن كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك ودفع عنه الشيطان ، ولقنه الملك لا إله إلا الله محمد رسول الله في تلك الحال العظيمة . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة وقالهم حين عاينوا البعث ، وقاموا بين يدي الله ﷻ حقيرين ذليلين ناكسي رؤوسهم أي : من الحياء والخجل يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ أي : نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك كما قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ . وهكذا هؤلاء يقولون :

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢/٢) والسيوطي في الدر المنثور (١٧٣/٥) .

﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا ﴾ أي : إلى دار الدنيا ﴿ نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ أي : قد أيقنا وتحققنا فيها أن وعدك حق ولقاءك حق ، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى دار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفارًا ، يكذبون بآيات الله ويخالفون رسله . كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا ﴾ الآية . وقال هاهنا : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ . ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : من الصنفين فدارهم النار لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها . نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك . ﴿ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ ﴾ أي : يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به واستبعادكم وقوعه وتناسيكم له إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ﴿ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ﴾ أي : سنعاملكم معاملة الناسي ؛ لأنه تعالى لا ينسي شيئًا ، ولا يضل عنه شيء . بل من باب المقابلة كما قال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : بسبب كفركم وتكذيبكم .

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي : إنما يصدق بها ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا ﴾ أي : استمعوا لها وأطاعوها قولًا وفعلًا . ﴿ وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي : عن اتباعها والانقياد لها كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ يعني بذلك قيام الليل ، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة ، قال مجاهد والحسن في قوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ يعني بذلك قيام الليل ، وعن أنس وعكرمة وقتادة : هو الصلاة بين العشاءين ، وعن أنس أيضًا : هو انتظار صلاة العتمة . وقال الضحاك : هو صلاة العشاء في جماعة وصلاة الغداة في جماعة . ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أي : خوفًا من وبال عقابه وطمعًا في جزيل ثوابه . ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ، فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم في الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ .

وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ : رَجُلٍ ثَارَ مِنْ وِطَائِهِ وَلِحَافِهِ مِنْ بَيْنِ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي ، وَرَجُل غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّه تَعَالَى فَانْهَزَمُوا فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الفِرَارِ وَمَا لَهُ فِي الرُّجُوعِ فَرَجَعَ حَتَّى أُهْرِيقَ دَمُهُ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي ، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ للمَلَائِكَةِ : انْظُرُوا إِلَى عَبْدِيَ رَجَعَ رَغْبَةً فِيمَا عندي وَرَهْبَةً مما عندي حَتَّى أُهْرِيقَ دَمُهُ » [١] .

وعن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير فقلت :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٦/١) والبيهقي في السنن (١٦٤/٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٥/٢) .

يا نبي الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال : « لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وتُقِيمُ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ ، وَتَحُجُّ البَيْتَ » ثُمَّ قال : « أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ ، والصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ - ثم قرأ - ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ حتى بلغ ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ » ، ثم قال : « أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ ؟ » فقلت : بلى يا رسول الله فقال : « رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامُ ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ، ثم قال : « أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ ؟ » فقلت : بلى يا نبي الله ، فأخذ بلسانه ثم قال : « كُفَّ عَلَيْكَ هذَا » . فقلت : يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : « ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أو قال : عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ؟ » (١) .

وعن معاذ أيضًا عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ قال : « قِيَامُ العَبْدِ مِنَ اللَّيْلِ » (٢) . وعن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبي ﷺ في غزوة تبوك فقال : « إِنْ شِئْتَ نَبَّأْتُكَ بِأَبْوَابِ الخَيْرِ : الصَّوْمُ جُنَّةٌ ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ ، وَقِيَامُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ » . ثم تلا رسول الله ﷺ : « ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ » (٣) الآية .

عن أبي هريرة ﷺ قال حماد : أحسبه عن النبي ﷺ قال : « مَنْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ يَنْعَمْ لا يَيْأَسْ لَا تُبْلَى ثِيَابُهُ ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ ، فِي الجَنَّةِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » (٤) .

وعن سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال : شهدت من رسول الله ﷺ مجلسًا وصف فيه الجنة حتى انتهى . ثم قال في آخر حديثه : « فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » . ثم قرأ هذه الآية : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ - إلى قوله - ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ (٥) .

وعن الشعبي يخبر عن المغيرة بن شعبة قال : سمعته على المنبر يرفعه إلى النبي ﷺ قال : سأل موسى ﷺ ربه ﷻ ، ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يجيء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له : ادخل الجنة ، فيقول : أي رب كيف وقد أخذ الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب فيقول لك ذلك ومثله ومثله ومثله فقال في الخامسة : رضيت ربي فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله معه ، ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك فيقول : رضيت رب قال : رب فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر . قال : ومصداقه من كتاب

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣١/٥) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥١٧/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٢/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٩٠/٧) .
(٣) أخرجه مسلم في الصيام (١٦١) وأحمد في مسنده (٢٥٧/٢) .
(٤) أخرجه مسلم في (الجنة) (٢١) أحمد في مسنده (٣٦٩/٢) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٤/٥) .

الله ﷻ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ الآية [١] . وعن ابن عباس عن النبي ﷺ عن الروح الأمين قال : « يُؤْتَى بِحَسَنَاتِ العَبْدِ وسَيِّئَاتِهِ يُنْقِصُ بَعْضَهَا مِنْ بَعْضٍ فَإِنْ بَقِيَتْ حَسَنَةٌ وَاحِدَةٌ وَسَّعَ اللهُ لَهُ في الجَنَّةِ » قال : فدخلت على بزداد فحدث بمثل هذا الحديث . قال : فقلت فأين ذهبت الحسنة قال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ الآية . قلت : قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ قال العبد يعمل سرًّا أسره إلى الله لم يعلم به الناس ، فأسر الله له يوم القيامة قرة أعين [٢] .

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن عدله وكرمه أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة من كان مؤمنًا بآياته متبعًا لرسله بمن كان فاسقًا أي خارجًا عن طاعة ربه مكذبًا لرسل الله إليه . كما قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ . ولهذا قال تعالى ها هنا : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ . أي : عند الله يوم القيامة ، وقد ذكر عطاء بن يسار والسدي وغيرهما أنها نزلت في علي بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط ، ولهذا فصل حكمهم فقال : ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي : صدقت قلوبهم بآيات الله ، وعملوا بمقتضاها وهي : الصالحات ﴿ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ أي : التي فيها المساكن والدور والغرف العالية ﴿ نُزُلًۢا ﴾ أي : ضيافة وكرامة ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ ﴾ أي : خرجوا عن الطاعة ﴿ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ كقوله : ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ الآية . قال الفضيل بن عياض : والله إن الأيدي لموثقة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفعهم ، والملائكة تقمعهم . ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي : يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا . وقوله تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ . قال ابن عباس : يعني بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها وما يحل بأهلها مما يبتلي الله به من عباده ليتوبوا إليه ، وقال في رواية عنه : يعني به إقامة الحدود عليهم . وقال البراء بن عازب : يعني به عذاب القبر ، وعن عبد الله ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ قال : سنون أصابتهم . وقال أبي بن كعب في هذه الآية : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ . قال : القمر والدخان قد مضيا والبطشة واللزام [٣] . وقال عبد الله بن مسعود في رواية عنه : العذاب الأدنى ما أصابهم من القتل والسبي يوم بدر ، قال السدي وغيره : لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير ، فأصيبوا أو غرموا ومنهم من جمع له الأمران . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ

---

(١) أخرجه مسلم في (الإيمان) (٣١٢) .
(٢) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٢٧/٢١) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٢٨/٥) .

عَنْهَآ ﴾ أي : لا أظلم ممن ذكَّره الله بآياته وبينها له ووضحها ، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها كأنه لا يعرفها . قال قتادة : إياكم والإعراض عن ذكر الله ، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبرالغرة ، وأعوز أشد العوز وعظم من أعظم الذنوب . ولهذا قال تعالى متهددًا لمن فعل ذلك : ﴿ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ أي : سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه آتاه الكتاب ؛ وهو التوراة . وقوله تعالى ﴿ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ قال قتادة : يعني به ليلة الإسراء . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « أُرِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي مُوسَى بنَ عِمْرَانَ رَجُلًا آدَمَ طُوَالًا جَعْدًا كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ ، وَرَأَيْتُ عِيسَى رَجُلًا مَرْبُوعَ الخَلْقِ إِلَى الحُمْرَةِ والبَيَاضِ سَبطَ الرَّأْسِ ، وَرَأَيْتُ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ والدَّجَّالَ » (١) ؟ في آيات أراهُنَّ الله إياه ﴿ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ أنه قد رأى موسى ولقي موسى ليلة أسري به .

وعن أبي العالية عن ابن عباس عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ قال : جعل موسى هدى لبني إسرائيل . وفي قوله : ﴿ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ قال : من لقاء موسى ربه عز وجل . وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ ﴾ أي : الكتاب الذي آتيناه ﴿ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ كما قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ أي : لما كانوا صابرين على أوامر الله وترك زواجره وتصديق رسله كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله ، ويدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ثم لما بدلوا وحرفوا وأوّلوا سلبوا ذلك المقام وصارت قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ، فلا عمل صالحًا ولا اعتقادًا صحيحًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ قال قتادة وسفيان : لما صبروا عن الدنيا ، وكذلك قال الحسن بن صالح قال سفيان : هكذا كان هؤلاء ، ولا ينبغي للرجل أن يكون إمامًا يقتدى به حتى يتحامى عن الدنيا ، قال وكيع قال سفيان : لابد للدين من العلم ، كما لابد للجسد من الخبز . وسئل سفيان عن قول علي رضي الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ألم تسمع قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ﴾ . قال : لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوسًا . قال بعض العلماء : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ الآية . كما قال هنا : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي : من الاعتقادات والأعمال .

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٣٥/٢١) .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : أولم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسل ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل ، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ ولهذا قال : ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ أي : وهؤلاء المكذبين يمشون في مساكن أولئك المكذبين ، فلا يرون فيها أحدًا ممن كان يسكنها ويعمرها ذهبوا منها ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ كما قال : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ وقال : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ - إلى قوله - وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ . ولهذا قال ها هنا : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي : إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل ، ونجاة من آمن بهم لآيات وعبرًا ومواعظ ودلائل متناظرة . ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ أي : أخبار من تقدم كيف كان أمرهم . وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ يبين تعالى لطفه بخلقه وإحسانه إليهم في إرساله الماء ، إما من السماء ، أو من السيح وهو ما تحمله الأنهار ويتحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ وهي : التي لا نبات فيها . كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ أي : يبسًا لا تنبت شيئًا ، وليس المراد من قوله : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ أرض مصر فقط ، بل هي بعض المقصود . وإن مثل بها كثير من المفسرين ، فليست هي المقصودة وحدها ، ولكنها مرادة قطعًا من هذه الآية ، فإنها في نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء مالو نزل عليها مطرًا لتهدمت أبنيتها ، فيسوق الله تعالى إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة وفيه طين أحمر ، فيغشى أرض مصر ، وهي أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء وذلك الطين أيضًا لينبت الزرع فيه ، فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور في غير بلادهم ، وطين جديد من غير أرضهم فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود أبدًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ الآية . ولهذا قال ها هنا : ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ قال : هي التي لا تمطر إلا مطرًا لا يغني عنها شيئًا إلا ما يأتيها من السيول ، وعن ابن عباس ومجاهد : هي أرض باليمن ، وقال الحسن رحمه الله : هي قرى فيما بين اليمن والشام . وقال عكرمة وابن زيد : الأرض الجرز التي لا نبات فيها وهي مغبرة ، قلت : وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ﴾ الآيتين .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۞ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن استعجال الكفار ، ووقوع بأس الله بهم ، وحلول غضبه ونقمته عليهم استبعادًا وتكذيبًا وعنادًا : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ ﴾ أي : متى تنصر علينا يا محمد ؟ كما تزعم أن لك وقتًا تدال علينا وينتقم لك منا فمتى يكون هذا ؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين

ذليلين . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ ﴾ أي : إذا حل بكم بأس الله ، وسخطه وغضبه في الدنيا وفي الآخرة ﴿ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ الآيتين . ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة ، فقد أبعد النجعة ، وأخطأ فأفحش . فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء ، وقد كانوا قريبًا من ألفين ، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم لقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل كقوله : ﴿ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴾ الآية . وكقوله : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ . أي : أعرض عن هؤلاء المشركين ، وبلغ ما أنزل إليك من ربك ، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك وسينصرك على من خالفك ، إنه لا يخلف الميعاد . وقوله : ﴿ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ أي : أنت منتظر وهم منتظرون ويتربصون بكم الدوائر ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم ، وسيجدون غبَّ ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك من وبيل عقاب الله لهم ، وحلول عذابه بهم . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

سورة الأحزاب

عن زر قال : قال لي أبي بن كعب : كأين تقرأ سورة الأحزاب ؟ أو كأين تعدها ؟ قال : قلت : ثلاثًا وسبعين آية ، فقال : قط ، لقد رأيتها وأنها لتعادل سورة البقرة ، ولقد قرأنا فيها : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى ، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى . وقد قال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله . قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ أي : لا تسمع منهم ولا تستشرهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أي : فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه ، فإنه عليم بعواقب الأمور ، حكيم في أقواله وأفعاله، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي : من قرآن وسنة ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ . أي : فلا تخفى عليه خافية ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي : في جميع أمورك وأحوالك ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أي : وكفى به وكيلاً لمن توكل عليه وأناب إليه .

﴿ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

يقول تعالى موطئًا قبل المقصود المعنوي أمرًا معروفًا حسيًا ، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ، ولا تصير زوجته التي يظاهر منها بقوله : أنت عليّ كظهر أمي أمًّا له ، كذلك لا يصير الدعيُّ ولدًا للرجل إذا تبناه فدعاه ابنًا له فقال : ﴿ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ هذا هو المقصود بالنفي ، فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة ﷺ مولى النبي ﷺ ، كان النبي ﷺ قد تبناه قبل النبوة ، فكان يقال : له زيد بن محمد ، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ كما قال تعالى في أثناء السورة : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ . وقال ها هنا : ﴿ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ يعني : تبنيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابنًا حقيقيًا ، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر . فما يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان . ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٢/٥) .

﴿ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ . قال سعيد بن جبير : ﴿ يَقُولُ ٱلْحَقَّ ﴾ أي : العدل ، وقال قتادة : ﴿ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ أي : الصراط المستقيم ، وقد ذكر غير واحد أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش ، كان يقال له : ذو القلبين ، وأنه كان يزعم أن له قلبين كل منهما بعقل وافر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ردًا عليه . هكذا روى العوفي عن ابن عباس ، وعن قابوس بن أبي ظبيان قال : إن أباه حدثه قال : قلت لابن عباس : أرأيت قول الله تعالى : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ ما عنى بذلك ؟ قال : قام رسول الله ﷺ يومًا يصلي فخطر خطرة فقال المنافقون الذين يصلون معه : ألا ترون له قلبين ؛ قلبًا معكم وقلبًا معهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ (١) . وعن معمر الزهري في قوله : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ قال : بلغنا أن ذلك كان في زيد بن حارثة ضرب له مثل : يقول ليس ابن رجل آخر ابنك .

وقوله ﷻ : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب ، وهم الأدعياء ، فأمر تبارك وتعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة ، وأن هذا هو العدل والقسط والبر .

وعن عبد الله بن عمر قال : إن زيد بن حارثة ﷺ مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (٢) . وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه في الخلوة بالمحارم وغير ذلك . ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبي حذيفة ﷺ : يا رسول الله كنا ندعو سالمًا ابنًا ، وإن الله قد أنزل ما أنزل ، وإنه كان يدخل عليَّ ، وإني أجد في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئًا ، فقال ﷺ : « أَرْضِعِيهِ تحرمي عَلَيْهِ » (٣) ولهذا لما نسخ هذا الحكم أباح تبارك وتعالى زوجة الدعي ، وتزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش ، مطلقة زيد بن حارثة ﷺ ، وقال ﷻ : ﴿ لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ . وقال تبارك وتعالى في آية التحريم : ﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ ﴾ احترازًا عن زوجة الدعي ، فإنه ليس من الصلب ، فأما الابن من الرضاعة فمنزَّل منزلة ابن الصلب شرعًا بقوله ﷺ في الصحيحين : « حَرِّمُوا مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ » (٤) . فأما دعوة الغير ابنًا على سبيل التكريم والتحبب فليس مما نهي عنه في هذه الآية بدليل ما رواه ابن عباس ﷺ قال : قدمنا على رسول الله ﷺ أغيلمة بني عبد المطلب على جمرات لنا من جمع ، فجعل يلطخ أفخاذنا ويقول : « أُبَيْنِيَّ لَا تَرْمُوا الجَمْرَةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ » (٥) . قال أبو عبيدة وغيره : أُبَيْنِيَّ تصغير ابني وهذا ظاهر الدلالة . فإن هذا كان في حجة الوداع سنة عشر .

وقوله : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ في شأن زيد بن حارثة ﷺ ، وقد قتل في يوم مؤتة سنة ثمان .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦٧/١) والترمذي في سننه (٣١٩٩) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨٢) ومسلم في فضائل الصحابة (٦٢) والترمذي في سننه (٣٢٠٩) .

(٣) أخرجه مسلم في الرضاع (٢٧ ، ٢٨) والإمام أحمد في مسنده (٢٠١/٦) .

(٤) أخرجه البخاري في النكاح (٥١١١) ومسلم في الرضاع (٥) والإمام أحمد في مسنده (٧٢/٦) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٤٣/١) وابن ماجه في سننه (٣٠٢٥) .

وأيضًا عن أنس بن مالك ﷺ قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يَا بُنَيَّ » (١) ، وقوله ﷻ : ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ أمر تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم إن عرفوا ، فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم ، أي عوضًا عما فاتهم من النسب ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج من مكة عام عمرة القضاء ، وتبعتهم ابنة حمزة ﵄ تنادي : يا عم ، يا عم ، فأخذها علي ﵁ وقال لفاطمة ﵂ : دونك ابنة عمك ، فاحتمليها فاختصم فيها علي وزيد وجعفر ﵁ في أيهم يكفلها فكل أدلى بحجة . فقال علي ﵁ : أنا أحق بها وهي ابنة عمي ، وقال زيد : ابنة أخي ، وقال جعفر بن أبي طالب : ابنة عمي وخالتها تحتي ، يعني أسماء بنت عميس ، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها ، وقال : « الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ » وقال لعلي ﵁ : « أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ » ، وقال لجعفر ﵁ : « أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي » . وقال لزيد ﵁ : « أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا » (٢) . ففي هذا الحديث أحكام كثيرة من أحسنها أنه ﷺ ، حكم بالحق وأرضى كلًّا من المتنازعين وقال لزيد ﵁ : « أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا » كما قال تعالى : ﴿ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ . وقد جاء في الحديث « لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يُعلمُهُ إِلَّا كَفَرَ » (٣) . ولهذا قال تعالى : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ ﴾ . إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع . فإن الله تعالى قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه ، كما أرشد إليه في قوله تبارك وتعالى آمرًا عباده أن يقولوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ . وثبت أن رسول الله ﷺ قال : « قَالَ اللهُ ﷻ : قَدْ فَعَلْتُ » (٤) وعن عمرو بن العاص ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَإِنْ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ » (٥) وفي الحديث الآخر : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى رَفَعَ عَنْ أُمَّتِي : الخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَالأَمْرَ الذي يُكْرَهُونَ عَلَيْهِ » (٦) . وقال تبارك وتعالى ها هنا : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أي : وإنما الإثم على من تعمد الباطل ، وفي القرآن المنسوخ : فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم . وفي الحديث : « ثَلَاثٌ فِي النَّاسِ كُفْرٌ : الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ ، والنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ » (٧) .

﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾ .

قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته ونصحه لهم ، فجعله أولى بهم من أنفسهم ،

---

(١) أخرجه مسلم في الآداب (٣١) .

(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٩) والإمام أحمد في مسنده (٩٨/١ ، ١٠٨ ، ١١٥) والترمذي في سننه (٣٧١٦ ، ٣٧٦٥) .

(٣) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٠٨) ومسلم في الإيمان (١١٢) والإمام أحمد في مسنده (١٦٦/٥) .

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٠٠) .

(٥) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٥٢) ومسلم في الأقضية (١٥) .

(٦) أخرجه ابن ماجه في سننه (١٦) والبيهقي في السنن (٣٥٦/٧) والحاكم في المستدرك (١٩٨/٢) .

(٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٤٢/٥) .

وحكمه فيهم كان مقدمًا على اختيارهم لأنفسهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ . وفي الصحيح : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » (١) . وفي الصحيح أيضًا : أن عمر ﷺ قال : يا رسول الله والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، فقال ﷺ : « لَا يَا عُمَرُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ » فقال : يا رسول الله والله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي ، فقال ﷺ : « الآنَ يَا عُمَرُ » (٢) . ولهذا قال تعالى في هذه الآية : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « مَا مِنْ مُؤمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ تَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا ، وَإِنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ » (٣) ؟ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ أي : في الحرمة والاحترام ، والتوقير والإكرام والإعظام ، ولكن لا تجوز الخلوة بهن ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع ، وإن سمى بعض العلماء بناتهن أخوات المؤمنين . كما هو منصوص الشافعي ﷺ في المختصر ، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم ، وهل يقال لمعاوية وأمثاله خال المؤمنين ؟ فيه قولان للعلماء ﷺ ونص الشافعي ﷺ على أنه لا يقال ذلك ، وهل لهن أمهات المؤمنات ، وهل يقال له ﷺ : أبو المؤمنين ، فيدخل النساء في جمع المذكر السالم تغليبًا ؟ فيه قولان ، صح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لا يقال ذلك ، وهذا أصح الوجهين في مذهب الشافعي ﷺ . وقد روي عن أبي بن كعب وابن عباس ﷺ أنهما قرآ (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) . وروي نحو هذا عن معاوية ومجاهد وعكرمة والحسن ، وهو أحد الوجهين في مذهب الشافعي ﷺ . واستأنسوا عليه بالحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد ، أعلمكم ، فإذا أتي أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطب بيمينه ، وكان يأمر بثلاثة أحجار وينهى عن الروث والرمة (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أي : في حكم الله ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ أي : القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار ، وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم . كما قال ابن عباس وغيره : كان المهاجريُّ يرث الأنصاريَّ دون قراباته وذوي رحمه للأخوَّة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ . وقد ورد عن الزبير بن العوام ﷺ قال : أنزل الله ﷻ فينا خاصة معشر قريش والأنصار : ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ، ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٨) ومسلم في (الإيمان) (٦٩) .
(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٣٥٣/٦ .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨١) والإمام أحمد في مسنده (٣٣٤/٢) .
(٤) أخرجه أبو داود في سننه (٨) .

الإخوان فواخيناهم ووارثناهم فآخى أبو بكر ﷺ خارجة بن زيد ، وآخى عمر ﷺ فلانًا ، وآخى عثمان ﷺ رجلًا من بني زريق ابن سعد الزرقي ، ويقول بعض الناس غيره ، قال الزبير ﷺ : وواخيت أنا كعب بن مالك فجئته فابتعلته ، فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى ، فوالله يا بني لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري . حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة فرجعنا إلى مواريثنا . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ ﴾ أي : ذهب الميراث وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية . وقوله تعالى : ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴾ أي : هذا الحكم ، وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض ، حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يبدل ولا يغير . قاله مجاهد وغير واحد ، وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت ، لما له في ذلك من الحكمة البالغة وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار في قدره الأزلي وقضائه القدري الشرعي ، والله أعلم .

﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ۝٧ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن أولي العزم الخمسة ، وبقية الأنبياء أنه أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامة دين الله تعالى ، وإبلاغ رسالته والتعاون والتناصر والإنفاق كما قال تعالى : ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ . فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم وكذلك هذا ، ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة وهم أولو العزم . وهو من باب عطف الخاص على العام ، وقد صرح بذكرهم أيضًا في هذه الآية وفي قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ . فذكر الطرفين والوسط الفاتح والخاتم ومن بينهما على الترتيب ، فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها كما قال تعالى : ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ ﴾ فبدأ في هذه الآية بالخاتم لشرفه صلوات الله عليه ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم . وقال ابن عباس : الميثاق الغليظ العهد .

وقوله تعالى : ﴿ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ ﴾ قال مجاهد : المبلغين المؤدين عن الرسل ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ أي : من أممهم ﴿ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ أي : موجعًا ، فنحن نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ونصحوا الأمم ، وأفصحوا لهم عن الحق المبين الواضح الجلي الذي لا لبس فيه ولا شك ولا امتراء ، وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين ، فما جاءت به الرسل هو الحق ، ومن خالفهم فهو على الضلال . كما يقول أهل الجنة : ﴿ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين في صرفه أعداءهم ، وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا وذلك عام الخندق ، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور ، وقال موسى بن عقبة وغيره : كان في سنة أربع وكان سبب قدوم الأحزاب : أن نفرًا من أشراف يهود بني النضير الذين كانوا قد أجلاهم رسول اللَّه ﷺ من المدينة إلى خيبر ، ومنهم سلام ابن أبي الحقيق وسلام بن مشكم وكنانة بن الربيع خرجوا إلى مكة ، فاجتمعوا بأشراف قريش ، وألبوهم على حرب النبي ﷺ ، ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة فأجابوهم إلى ذلك ، ثم خرجوا إلى غطفان ، فدعوهم فاستجابوا لهم أيضًا ، وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب ، وعلى غطفان عيينة بن حصن بن بدر ، والجميع قريب من عشرة آلاف ، فلما سمع رسول اللَّه ﷺ بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق ، وذلك بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه ، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا ونقل معهم رسول اللَّه ﷺ التراب وحفر ، وكان في حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحات . وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة قريبًا من أحد ، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة ، كما قال اللَّه تعالى : ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ . وخرج رسول اللَّه ﷺ ومن معه من المسلمين نحو ثلاثة آلاف وقيل : سبعمائة ، فأسندوا ظهورهم إلى سلع ووجوههم إلى نحو العدو ، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الخيالة والرجالة أن تصل إليهم ، وجعل النساء والذراري في آطام المدينة ، وكانت بنو قريظة وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرقي المدينة ، ولهم عهد من النبي ﷺ وذمة وهم قريب من ثمانمائة مقاتل ، فذهب إليهم حيي ابن أخطب النضري فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد ومالؤوا الأحزاب على رسول اللَّه ﷺ فعظم الخطب واشتد الأمر وضاق الحال ، ومكثوا محاصرين للنبي ﷺ وأصحابه قريبًا من شهر إلا أنهم لا يصلون إليهم ، ولم يقع بينهم قتال ، إلا أن عمرو بن عبد ودّ العامري وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية ركب ومعه فوارس فاقتحموا الخندق ، وخلصوا إلى ناحية المسلمين ، فندب رسول اللَّه ﷺ خيل المسلمين إليه فيقال : إنه لم يبرز إليه أحد ، فأمر عليًا رضي الله عنه فخرج إليه ، فتجاولا ساعة ثم قتله علي رضي الله عنه ، فكان علامة على النصر .

ثم أرسل اللَّه عز وجل على الأحزاب ريحًا شديدة الهبوب قوية حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء ، ولا توقد لهم نار ولا يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين . كما قال اللَّه عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا ﴾ قال مجاهد : وهي الصبا ، ويؤيده الحديث الآخر : « نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُورِ » [1] . وعن عكرمة قال : قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب : انطلقي ننصر رسول اللَّه ﷺ فقالت الشمال : إن الحرة لا تسري بالليل قال : فكانت الريح التي أرسلت عليهم الصبا . وعن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما قال : أرسلني خالي عثمان بن مظعون رضي الله عنه ليلة الخندق في برد شديد وريح إلى المدينة فقال : ائتنا بطعام ولحاف قال : فاستأذنت رسول اللَّه ﷺ فأذن لي وقال : « مَنْ أَتَيْتَ مِنْ أَصْحَابِي فَمُرْهُمْ يَرْجِعُوا » . قال : فذهبت

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٠٥) ومسلم في صلاة الإستسقاء (١٧) والإمام أحمد في مسنده (٢٢٨/١) .

والريح تسفي كل شيء ، فجعلت لا ألقى أحدًا إلا أمرته بالرجوع إلى النبي ﷺ قال : فما يلوي أحد منهم عنقه ، قال : وكان معي ترس لي ، فكانت الريح تضربه علي ، وكان فيه حديد قال : فضربته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفي ، فأبعدها إلى الأرض [1] .

وقوله : ﴿ وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ هم الملائكة زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف . فكان رئيس كل قبيلة يقول : يا بني فلان إلي ، فيجتمعون إليه فيقول : النجاء ، النجاء ، لما ألقى الله ﷻ في قلوبهم من الرعب .

وقال محمد بن كعب القرظي : قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان ﷺ : يا أبا عبد الله رأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه ؟ قال : نعم يا ابن أخي قال : وكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نجهد ، قال الفتى : والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ، ولحملناه على أعناقنا . قال : قال حذيفة ﷺ : يا ابن أخي والله لو رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هويًا من الليل ثم التفت فقال : « مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ؟ - يشترط له النبي ﷺ أن يرجع - أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ » . قال : فما قام رجل ، ثم صلى رسول الله ﷺ هويًا من الليل ثم التفت إلينا فقال مثله ، فما قام منا رجل ، ثم صلى رسول الله ﷺ هويًا من الليل ثم التفت إلينا فقال : « مَنْ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ ، - يشترط له رسول الله الرجعة - أسأل الله تَعَالَى أَنْ يَكُونُ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ » ، فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد ، فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ ، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني فقال ﷺ : « يَا حُذَيْفَةُ اذْهَبْ فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ فانظر مَا يفعلُونَ وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِينَا » قال : فذهبت فدخلت في القوم ، والريح وجنود الله ﷻ تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قرارًا ولا نارًا ولا بناء فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش لينظر كل امرئ من جليسه . قال حذيفة ﷺ : فأخذت بيد الرجل الذي إلى جنبي فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا فلان ابن فلان ، ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، والله ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مرتحل ، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولولا عهد رسول الله ﷺ إلي أن لا تحدث شيئًا حتى تأتيني لو شئت لقتلته بسهم ، قال حذيفة ﷺ : فرجعت إلى رسول الله ﷺ ، وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه مرحل ، فلما رآني أدخلني بين رجليه وطرح علي طرف المرط ، ثم ركع وسجد وإني لفيه ، فلما سلم أخبرته الخبر ، وسمعت غطفان بما فعلت قريش ، فانشمروا راجعين إلى بلادهم [2] .

وعن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : كنا عند حذيفة بن اليمان ﷺ فقال له رجل : لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت ، فقال له حذيفة : أنت كنت تفعل ذلك ؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٥٣/٢١) .

(٢) سيرة ابن هشام (٢٤٢/٣ - ٢٤٤) .

الأحزاب ، في ليلة ذات ريح شديدة وقر ، فقال رسول الله ﷺ : « أَلا رَجُلٌ يَأْتِي بِخَبَرِ القَوْمِ يَكُونُ مَعِي يَوْمَ القِيَامَةِ » . فلم يجبه منا أحد ، ثم الثانية ، ثم الثالثة مثله ثم قال ﷺ : « يَا حُذَيْفَةُ قُمْ فَأْتِنَا بِخَبَرٍ مِنَ القَوْمِ » فلم أجد بدًّا إذ دعاني باسمي أن أقوم فقال : « ائتِنِي بِخَبَرِ القَوْمِ وَلَا تُذْعِرْهُمْ عَلَيَّ » . قال : فمضيت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم فإذا أبو سفيان يصلي ظهره بالنار ، فوضعت سهمًا في كبد قوسي وأردت أن أرميه ، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ : « لا تُذْعِرْهُمْ عَلَيَّ » ولو رميته لأصبته قال : فرجعت كأنما أمشي في حمام فأتيت رسول الله ﷺ ، ثم أصابني البرد حين فرغت وقررت ، فأخبرت رسول الله ﷺ وألبسني من فضل عباءة كانت عليه يصلى فيها ، فلم أزل نائمًا حتى الصبح ، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ : « قُمْ يَا نَوْمَانُ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ أي : الأحزاب ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ تقدم عن حذيفة رضي الله عنه أنهم بنو قريظة ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ . أي : من شدة الخوف والفزع ﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ قال ابن جرير : ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين وأن الله سيفعل ذلك . وقال محمد بن إسحاق : ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط ، وقال الحسن في قوله عز وجل : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ ظنون مختلفة ، ظن المنافقون أن محمدًا ﷺ وأصحابه يستأصلون . وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قلنا يوم الخندق : يا رسول الله : هل من شيء نقول فقد بلغت القلوب الحناجر . قال ﷺ : « نَعَمْ ، قُولُوا : اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا ، وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا » . قال : فضرب وجوه أعدائه بالريح فهزمهم بالريح (٢) .

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن ذلك الحال حين نزلت الأحزاب حول المدينة ، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق ، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم أنهم ابتلوا واختبروا وزلزلوا زلزالًا شديدًا . فحينئذ ظهر النفاق وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ أما المنافق فنجم نفاقه ، والذي في قلبه شبهة أو حسكة ضعف حاله فتنفس بما يجده من الوسواس في نفسه لضعف إيمانه وشدة ما هو فيه من ضيق الحال . وقوم آخرون قالوا كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ ﴾ يعني : المدينة كما جاء في الصحيح : « أُرِيتُ فِي المَنَامِ دَارَ هِجْرَتِكُمْ أَرْضٌ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ ، فَذَهَبَ وَهَلِي أَنَّها هَجَرُ فَإِذَا هِيَ يَثْرِبُ » (٣) . وفي لفظ : المدينة ، ويقال : إنما كان أصل تسميتها يثرب برجل نزلها من العماليق

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد (٩٩) والبيهقي في سننه (١٤٨/٩) . (٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٥٤) والإمام أحمد في مسنده (١٩٨/٦) .

يقال له يثرب بن عبيد بن مهلاييل بن عوص بن عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح ، قاله السهيلي . قال : وروي عن بعضهم أنه قال : إن لها في التوراة أحد عشر اسمًا : المدينة وطابة وطيبة والمسكينة والجابرة والمحبة والمحبوبة والقاصمة والمجبورة والعذراء والمرحومة . قوله : ﴿ لَا مُقَامَ لَكُمْ ﴾ أي : ها هنا يعنون عند النبي ﷺ في مقام المرابطة ﴿ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ أي : إلى بيوتكم ومنازلكم ﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : هم بنو حارثة قالوا : بيوتنا نخاف عليها السراق ، وكذا قال غير واحد ، وذكر ابن إسحاق أن القائل لذلك هو أوس بن قيظي يعني : اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة أي : ليس دونها ما يحجبها من العدو فهم يخشون عليها منهم قال الله تعالى : ﴿ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ﴾ أي ليست كما يزعمون ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أي : هربًا من الزحف .

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ .

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة وقطر من أقطارها ، ثم سئلوا الفتنة وهي الدخول في الكفر لكفروا سريعًا ، وهم لا يحافظون على الإيمان ، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع . هكذا فسرها قتادة وعبد الرحمن بن زيد وابن جرير ، وهذا ذم لهم في غاية الذم . ثم قال تعالى يذكّرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف أن لا يولوا الأدبار ، ولا يفروا من الزحف . ﴿ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾ أي : وإن الله سيسألهم عن ذلك العهد لا بد من ذلك ، ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ولا يطول أعمارهم بل ربما كان ذلك سببًا في تعجيل أخذهم غرة . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي : بعد هربكم وفراركم ﴿ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي : يمنعكم ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أي ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا مغيث .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ .

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب والقائلين لإخوانهم أي : أصحابهم وعشرائهم وخلطائهم : ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ أي : إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والثمار ، وهم مع ذلك : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أي بخلاء بالمودة والشفقة عليكم ، وقال السدي : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أي : في الغنائم ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي : من شدة خوفه وجزعه ، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ أي : فإذا كان الأمن تكلموا كلامًا بليغًا فصيحًا عاليًا ، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة وهم يكذبون في ذلك . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ سَلَقُوكُم ﴾

أي : استقبلوكم ، وقال قتادة : أما عند الغنيمة فأشح قوم وأسوأه مقاسمة أعطونا أعطونا قد شهدنا معكم ، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق ، وهم مع ذلك أشحة على الخير أي : ليس فيهم خير قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير ، فهم كما قال في أمثالهم الشاعر :

أَفِي السِّلْمِ أَعْيَارٌ جفاءً وغِلْظَةً … وَفِي الحَرْبِ أَمْثَالُ النِّسَاءِ العَوَارِكِ

أي في حال المسالمة كأنهم الحمر ، والأعيار جمع عير وهو الحمار ، وفي الحرب كأنهم النساء الحيض ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أي سهلًا هينًا عنده .

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْۖ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

وهذا أيضًا من صفاتهم القبيحة في الجبن والخور والخوف ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْۖ ﴾ بل هم قريب منهم وإن لهم عودة إليهم ﴿ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْۖ ﴾ أي : ويودون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة ، بل في البادية يسألون عن أخباركم وما كان من أمركم مع عدوكم ﴿ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي : ولو كانوا بين أظهركم لما قاتلوا معكم إلا قليلًا لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم والله ﷻ العالم بهم .

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ .

هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ ، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته ، وانتظاره الفرج من ربه ﷻ ، ولهذا قال تعالى للذين تقلقلوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أي : هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ ثم قال تعالى مخبرًا عن عباده المؤمنين المصدقين بموعود الله لهم ، وجعله العاقبة حاصلة لهم في الدنيا والآخرة . فقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ ﴾ . قال ابن عباس ﵄ وقتادة : يعنون قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ أي : هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم كما قال جمهور الأئمة : إنه يزيد وينقص ، ومعنى قوله جلت عظمته : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ ﴾ أي : ذلك الحال والضيق والشدة ﴿ إِلَّآ إِيمَٰنًا ﴾ بالله ﴿ وَتَسْلِيمًا ﴾ أي انقيادًا لأوامره وطاعة لرسوله ﷺ .

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

لما ذكر ﷻ عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار ، وصف

المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق و ﴿ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ قال بعضهم : أجله وقال البخاري : عهده وهو يرجع إلى الأول ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ أي : وما غيروا عهد اللّٰه ولا نقضوه ولا بدلوه (١) ، وروي عن زيد بن ثابت قال : لما نسخنا المصحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول اللّٰه ﷺ يقرؤها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصارى ﷺ الذي جعل رسول اللّٰه ﷺ شهادته بشهادة رجلين ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ (٢) . وقال أنس بن مالك ﷺ نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر ﷺ ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ الآية (٣) .

قال أنس : عمي أنس بن النضر ﷺ سميت به لم يشهد مع رسول اللّٰه ﷺ يوم بدر فشق عليه ، وقال : أول مشهد شهده رسول اللّٰه ﷺ غبت عنه لئن أراني اللّٰه تعالى مشهدًا فيما بعد مع رسول اللّٰه ﷺ ليرين اللّٰه ﷻ ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول اللّٰه ﷺ يوم أحد . فاستقبل سعد بن معاذ ﷺ فقال له أنس ﷺ : يا أبا عمرو أين واهًا لريح الجنة إني أجده دون أحد قال : فقاتلهم حتى قتل ﷺ . قال : فوجد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية . فقالت أخته عمتي الربيع بنت النضر : فما عرفت أخي إلا ببنانه . قال فنزلت هذه الآية : ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ قال : فكانوا يرون أنها نزلت فيه ، وفي أصحابه ﷺ (٤) . قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ : يعني : عهده ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ قال : يومًا فيه القتال فيصدق في اللقاء . وقال الحسن ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ يعني موته على الصدق والوفاء ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك ، ومنهم من لم يبدل تبديلًا . وقال بعضهم : نحبه نذره .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ أي : وما غيروا عهدهم وبدلوا الوفاء بالغدر ، بل استمروا على ما عاهدوا اللّٰه عليه وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا : ﴿ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب ، فيظهر أمر هذا بالفعل ، وأمر هذا بالفعل ، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه ، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم حتى يعملوا بما يعلمه منهم . كما قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ . فهذا علم بالشيء بعد كونه ، وإن كان العلم السابق حاصلًا به قبل وجوده ؛ ولهذا قال تعالى ها هنا : ﴿ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ أي : بصبرهم على ما عاهدوا اللّٰه عليه وقيامهم به ومحافظتهم عليه ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ وهم الناقضون لعهد اللّٰه المخالفون لأوامره فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه ، ولكن هم تحت مشيئته في الدنيا إن شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقوه فيعذبهم عليه ، وإن شاء تاب عليهم ، بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان والعمل

(١) ذكره البخاري في صحيحه (تفسير القرآن) في تفسير سورة الأحزاب باب ٣ ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨٤) والترمذي في سننه (٣١٠٤) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨٣) .
(٤) أخرجه مسلم في الإمارة (١٤٨) والإمام أحمد في مسنده (١٩٣/٤) .

الصالح بعد الفسوق والعصيان . ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى بخلقه هي الغالبة لغضبه قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية ، ولولا أن اللَّه جعل رسوله رحمة للعالمين لكانت هذه الريح عليهم أشد من الريح العقيم التي أرسلها على عاد ، ولكن قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ فسلط عليهم هواء فرق شملهم كما كان سبب اجتماعهم من الهوى ، وهم أخلاط من قبائل شتى أحزاب وآراء ، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعتهم وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحنقهم ، ولم ينالوا خيرًا لا في الدنيا مما كان في أنفسهم من الظفر والمغنم ، ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول ﷺ بالعدواة وهمهم بقتله واستئصال جيشه ، ومن همَّ بشيء وصدَّقَ همه بفعله ، فهو في الحقيقة كفاعله . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ أي : لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ؛ بل كفى اللَّه وحده ونصر عبده وأعز جنده . ولهذا كان رسول اللَّه ﷺ يقول : « لَا إله إلا اللَّه وَحْدَهُ ، صَدَقَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ ، فَلَا شَيءَ بَعْدَهُ » (١) وعن عبد اللَّه بن أبي أوفى رضي الله عنه قال : دعا رسول اللَّه ﷺ على الأحزاب فقال : « اللَّهُمَّ مُنزلَ الكِتَابِ ، سَرِيعَ الحِسَابِ ، اهْزِمِ الأَحْزَابَ ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ » (٢) . وفي قوله عز وجل : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش ، وهكذا وقع بعدها لم يغزهم المشركون . بل غزاهم المسلمون في بلادهم . عن سليمان بن صرد رضي الله عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ يوم الأحزاب : « الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَا » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ أي : بحوله وقوته ردهم خائبين لم ينالوا خيرًا ، وأعز اللَّه الإسلام وأهله ، وصدق وعده ، ونصر رسوله وعبده ، فله الحمد والمنة .

﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ .

قد تقدم أن بني قريظة لما قدمت جنود الأحزاب ، ونزلوا على المدينة نقضوا ما كان بينهم وبين رسول اللَّه ﷺ من العهد ، وكان ذلك بسفارة حيي بن أخطب النضري - لعنه اللَّه - دخل حصنهم ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد وقال له فيما قال : ويحك قد جئتك بعز الدهر ، أتيتك بقريش وأحابيشها وغطفان وأتباعها ، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمدًا وأصحابه . فقال له كعب : بل واللَّه أتيتني بذل الدهر . ويحك يا حيي إنك مشؤوم فلم يزل يفتل في الذِّروة والغارب حتى أجابه ، واشترط له حيي إن ذهب الأحزاب ولم يكن من أمرهم شيء أن يدخل معهم في الحصن فيكون له أسوتهم ، فلما نقضت قريظة وبلغ ذلك رسول اللَّه ﷺ ساءه

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤١١٤) ومسلم في الذكر والدعاء (٧٧) والإمام أحمد في مسنده (٣٠٧/٢ ، ٣٤١ ، ٤٩٤) .
(٢) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٩٣٣) ومسلم في الجهاد (٢٠ - ٢٢) والإمام أحمد في مسنده (٣٥٣/٤ ، ٣٥٥) .
(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤١١٠) والإمام أحمد في مسنده (٢٦٢/٤) .

وشق عليه وعلى المسلمين جدًا ، فلما أيده اللَّه تعالى ونصره وكبت الأعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة ، ورجع رسول اللَّه ﷺ إلى المدينة مؤيدًا منصورًا ووضع الناس السلاح ، فبينما رسول اللَّه ﷺ يغتسل من وعثاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة رضي الله عنها إذ تبدى له جبريل عليه الصلاة والسلام معتجرًا بعمامة من إستبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج فقال : أوضعت السلاح يا رسول اللَّه ؟ قال ﷺ : « نعم » قال : لكن الملائكة لم تضع أسلحتها وهذا الآن رجوعي من طلب القوم . ثم قال : إن اللَّه تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة .

وفي رواية فقال له : عذيرك من مقاتل أوضعتم السلاح ؟ قال : « نعم » قال : لكنا لم نضع أسلحتنا بعد ، انهض إلى هؤلاء . قال ﷺ : « أَيْنَ ؟ » قال : بني قريظة ، فإن اللَّه تعالى أمرني أن أزلزل عليهم ، فنهض رسول اللَّه ﷺ من فوره وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة ، وكانت على أميال من المدينة وذلك بعد صلاة الظهر . وقال ﷺ : « لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمُ العَصْرَ إِلَّا في بَنِي قُرَيْظَةَ »[1] . فسار الناس فأدركتهم الصلاة في الطريق فصلى بعضهم في الطريق وقالوا : لم يرد منا رسول اللَّه ﷺ إلا تعجيل المسير ، وقال آخرون : لا نصليها إلا في بني قريظة فلم يعنف واحدًا من الفريقين ، وتبعهم رسول اللَّه ﷺ ، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه . ثم نازلهم رسول اللَّه ﷺ وحاصرهم خمسًا وعشرين ليلة ، فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس رضي الله عنه ؛ لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية ، واعتقدوا أنه يحسب إليهم في ذلك كما فعل عبد اللَّه بن أبي بن سلول في مواليه بني قينقاع حين استطلقهم من رسول اللَّه ﷺ ، فظن هؤلاء أن سعدًا سيفعل فيهم كما فعل ابن أبي في أولئك . ولم يعلموا أن سعدًا رضي الله عنه كان قد أصابه سهم في أكحله أيام الخندق ، فكواه رسول اللَّه ﷺ في أكحله وأنزله في قبة في المسجد ليعوده من قريب . وقال سعد رضي الله عنه فيما دعا به : اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقني لها ، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها ، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة ، فاستجاب اللَّه تعالى دعاءه وقدر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلبًا من تلقاء أنفسهم ، فعند ذلك استدعاه رسول اللَّه ﷺ من المدينة ليحكم فيهم ، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطئوا له عليه جعل الأوس يلوذون به ويقولون : يا سعد إنهم مواليك فأحسن فيهم ويرققونه عليهم ويعطفونه وهو ساكت لا يرد عليهم . فلما أكثروا عليه قال رضي الله عنه : لقد آن لسعد أن لا تأخذه في اللَّه لومة لائم . فعرفوا أنه غير مستبقيهم ، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول اللَّه ﷺ قال رسول اللَّه ﷺ : « قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ » فقام إليه المسلمون فأنزلوه إعظامًا وإكرامًا واحترامًا له في محل ولايته ليكون أنفذ لحكمه فيهم . فلما جلس قال له رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّ هؤلَاءِ - وأشار إليهم - قَدْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ فَاحْكُمْ فِيهِمْ بِمَا شِئْتَ » . فقال رضي الله عنه : وحكمي نافذ عليهم ؟ قال ﷺ : « نعم » قال : وعلى من في هذه الخيمة ؟ قال : « نعم » قال : وعلى من ها هنا وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول اللَّه ﷺ ، وهو معرض بوجهه عن رسول اللَّه ﷺ إجلالًا وإكرامًا وإعظامًا ، فقال له رسول اللَّه ﷺ :

(١) أخرجه البخاري بنحوه في المغازي (٤١١٧) ، (٤/١٩) .

« نَعَمْ » فقال ﷺ : إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذريتهم وأموالهم . فقال له رسول الله ﷺ : « لَقَد حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللَّه تعالى مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ » . ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد فخدت في الأرض . وجيء بهم مكتفين فضرب أعناقهم ، وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة ، وسبى من لم ينبت منهم مع النساء وأموالهم [١] . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم ﴾ أي عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يعني بني قريظة من اليهود من بعض أسباط بني إسرائيل ، كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديمًا طمعًا في اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾ فعليهم لعنة الله .

وقوله تعالى : ﴿ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ يعني حصونهم . ومنه سمي صياصي البقر ، وهي قرونها ، لأنها أعلى شيء فيها ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ وهو : الخوف لأنهم كانوا مالؤوا المشركين على حرب النبي ﷺ ، وليس من يعلم كمن لا يعلم وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليعزوهم في الدنيا فانعكس عليهم الحال ، وانقلب إليهم القتال ، انشمر المشركون ، ففازوا بصفقة المغبون ، فكما راموا العز ذلوا وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا ، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة فصارت الجملة أن هذه هي الصفقة الخاسرة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ فالذين قتلوا هم المقاتلة ، والأسراء هم الأصاغر والنساء ، عن عطية القرظي قال : عرضت على النبي ﷺ يوم قريظة فشكوا فيَّ فأمر النبي ﷺ أن ينظروا هل أنبت بعد فنظروني فلم يجدوني أنبت ، فخلى عني وألحقني بالسبي [٢] . وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ ﴾ أي : جعلها لكم من قتلكم لهم ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ﴾ قيل : خيبر ، وقيل مكة . وقيل : فارس والروم ، وقال ابن جرير : يجوز أن يكون الجميع مرادًا ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها ، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهن الله ورسوله والدار الآخرة ، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : إن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه قالت : فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال : « إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا فَلَا عَلَيْكِ أَنْ لَا تَسْتَعْجِلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ » وقد علم أن أبويّ لم يكونا يأمراني بفراقه ، قالت : ثم قال : « إن الله تعالى قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾ » إلى تمام الآيتين فقلت له : ففي أي هذا أستأمر أبويّ ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة [٣] . وعن أبي سلمة عن عائشة رضي الله عنها فذكره

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن كثير (٢٢٣/٣ - ٢٤٣) وسيرة ابن هشام (٢٤٤ - ٢٥٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٣/٤) ، (٣١١/٥) وأخرج أبو داود نحوه في سننه (٤٤٠٥) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨٥) .

وزاد قالت : ثم فعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت [١] .

وعن جابر ﷺ قال : أقبل أبو بكر ﷺ يستأذن رسول الله ﷺ ، والناس ببابه جلوس والنبي ﷺ جالس فلم يؤذن له ، ثم أقبل عمر ﷺ ، فاستأذن فلم يؤذن له ، ثم أذن لأبي بكر وعمر ﷺ فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه وهو ﷺ ساكت فقال عمر ﷺ : لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك فقال عمر ﷺ : يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتني النفقة آنفًا فوجأت عنقها . فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه وقال : « هُنَّ حَوْلِي يَسْأَلْنَنِي النَّفَقَةَ » فقام أبو بكر ﷺ إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر ﷺ إلى حفصة كلاهما يقولان : تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده ، فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن : والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده قال : وأنزل الله ﷻ الخيار ، فبدأ بعائشة ﷺ فقال : « إِنِّي أَذْكُرُ لَكِ أَمْرًا مَا أُحِبُّ أَنْ تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ » قالت : وما هو ؟ قال فتلا عليها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾ الآية . قالت عائشة ﷺ : أفيك أستأمر أبوي ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت . فقال ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّفًا وَلَكِن بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا لَا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ عَمَّا اخْتَرْتِ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا » [٢] .

﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ أي : أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن ، وقد اختلف العلماء في جواز تزوج غيره لهن لو طلقهن على قولين ؛ أصحهما : نعم لو وقع ليحصل المقصود من السراح والله أعلم . قال عكرمة : وكان تحته يومئذ تسع نسوة خمس من قريش عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضي الله عنهن ، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حيي النضرية وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية رضي الله عنهن وأرضاهن أجمعين .

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ .

يقول تعالى واعظًا نساء النبي ﷺ اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ فناسب أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء ، بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة قال ابن عباس ﷺ : وهي النشوز وسوء الخلق ، وعلى كل تقدير فهو شرط ، والشرط لا يقتضي الوقوع كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ . فلما كانت محلتهن رفيعة ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظًا صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع . ولهذا قال تعالى : ﴿ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ ﴾ عن زيد بن أسلم ﴿ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ ﴾ قال : في الدنيا والآخرة ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أي : سهلًا هينًا ، ثم ذكر عدله وفضله في قوله : ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أي : يطع الله ورسوله ويستجب ﴿ نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ أي : في الجنة فإنهن في

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨٦) .

(٢) أخرجه مسلم في (الطلاق) (٢٩) وأحمد في مسنده (٣/٣٢٨) .

منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين فوق منازل جميع الخلائق في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش .

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ .

هذه آداب أمر تعالى بها نساء النبي ﷺ ونساء الأمة تبع لهن في ذلك فقال تعالى مخاطبًا لنساء النبي ﷺ ، بأنهن إذا اتقين الله ﷻ كما أمرهن فإنه لا يشبههن أحد من النساء . ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة . ثم قال تعالى : ﴿ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ ﴾ قال السدي وغيره : يعني بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ ﴾ أي : دغل ﴿ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾ قال ابن زيد : قولًا حسنًا جميلًا معروفًا في الخير ، ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم أي : لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها . وقوله تعالى : ﴿ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ أي : الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة . ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه كما قال رسول الله ﷺ : « لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّه مَسَاجِدَ اللَّه ، وَلْيَخْرُجْنَ وَهُنَّ تَفِلَاتٌ » (١) . وفي رواية : « وَبُيُوتُهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ » (٢) . وعن أنس ﷺ قال : جئن النساء إلى رسول الله ﷺ فقلن : يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله تعالى ، فما لنا عمل ندرك به عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَعَدَتْ - أو كلمة نحوها - مِنْكُنَّ فِي بَيْتِهَا فَإِنَّهَا تُدْرِكُ عَمَلَ المُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّه تَعَالَى » (٣) .

وعن عبد الله ﷺ عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ المَرْأَةَ عَوْرَةٌ فَإِذَا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ وَأَقْرَبُ مَا تَكُونُ بروحة رَبِّهَا وَهِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا » (٤) وعن النبي ﷺ : « صَلَاةُ المَرْأَةِ فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا وَصَلَاتُهَا فِي بَيْتِهَا ، أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا » (٥) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ ﴾ قال مجاهد : كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال ، فذلك تبرج الجاهلية . وقال قتادة : ﴿ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ ﴾ يقول إذا خرجتن من بيوتكن وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج فنهى الله تعالى عن ذلك ، وقال مقاتل بن حيان : ﴿ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ ﴾ والتبرج أنها تلقي الخمار على رأسها ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعنقها ، ويبدو ذلك كله منها وذلك التبرج ، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج . وعن ابن عباس ﵄ قال : تلا هذه الآية : ﴿ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ ﴾ قال : كانت فيما بين نوح وإدريس

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٠٠) ومسلم في الصلاة (١٣٦) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٨/٣) وأبو داود في سننه (١٥٥/١) .
(٣) أورده السيوطي في الدر (١٩٧/٥) .
(٤) أخرجه الترمذي في سننه (١١٧٣) وابن خزيمة في صحيحه (١٦٨٥) .
(٥) أخرجه أبو داود في سننه (١٥٦/١) والترمذي في سننه (١٦٩٠) .

وكانت ألف سنة . وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل ، وكان رجال الجبل صباحًا وفي النساء دمامة . وكان نساء السهل صباحًا وفي الرجال دمامة ، وإن إبليس لعنه اللَّه أتى رجلًا من أهل السهل في صورة غلام فآجر نفسه منه فكان يخدمه . فاتخذ إبليس شيئًا من مثل الذي يزمر فيه الرعاء فجاء فيه بصوت لم يسمع الناس مثله فبلغ ذلك من حوله فانتابوهم يسمعون إليه ، واتخذوا عيدًا يجتمعون إليه في السنة فيتبرج النساء للرجال . قال : ويتزين الرجال لهن وإن رجلًا من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم ذلك ، فرأى النساء وصباحتهن فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحولوا إليهن فنزلوا معهن ، وظهرت الفاحشة فيهن فهو قول اللَّه تعالى : ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ نهاهن أولًا عن الشر ، ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة ، وهي عبادة اللَّه وحده لا شريك له وإيتاء الزكاة ، وهي الإحسان إلى المخلوقين ﴿ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ وهذا من باب عطف العام على الخاص . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ها هنا ؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية . وسبب النزول داخل فيه قولًا واحدًا إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح . وروي عن عكرمة أنه كان ينادي في السوق ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة (٢) . فإن كان المراد أنهن كن سبب النزول دون غيرهن فصحيح ، وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن ففي هذا نظر ، فإنه وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : إن رسول اللَّه ﷺ كان يمر بباب فاطمة رضي الله عنها ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : « الصَّلَاةَ يَا أَهْلَ البَيْتِ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » (٣) .

وعن عطاء بن أبي رباح ، حدثني من سمع أم سلمة رضي الله عنها تذكر أن النبي ﷺ ، كان في بيتها فأتته فاطمة رضي الله عنها ببرمة فيها خزيرة فدخلت عليه بها . فقال ﷺ لها : « ادْعِي زَوْجَكِ وَابْنَيْكِ » قالت : فجاء علي وحسن وحسين رضي الله عنهم فدخلوا عليه ، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة وهو على منامة له ، وكان تحته ﷺ كساء خيبري قالت : وأنا في الحجرة أصلي فأنزل اللَّه عز وجل هذه الآية : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ . قالت رضي الله عنها : فأخذ ﷺ فضل الكساء فغطاهم به ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء ثم قال : « اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي وَخَاصَّتِي فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا » قالت : فأدخلت رأسي البيت فقلت : وأنا معكم يا رسول اللَّه ؟ فقال ﷺ : « إِنَّكِ إِلَى خَيْرٍ ، إِنَّكِ إِلَى خَيْرٍ » (٤) .

وعن يزيد بن حبان قال : انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن سلمة إلى زيد بن أرقم رضي الله عنه فلما

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٧/٢٢) . (٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٣/٢٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٩/٣ ، ٢٨٥) والترمذي في سننه (٣٢٠٦) .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٩٨/٥) .

جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت يا زيد خيرًا كثيرًا رأيت رسول اللَّه ﷺ ، وسمعت حديثه ، وغزوت معه ، وصليت خلفه ، لقد لقيت يا زيد خيرًا كثيرًا . حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول اللَّه ﷺ قال : « يا ابن أخي واللَّه لقد كبرت سني وقدم عهدي ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول اللَّه ﷺ فما حدثتكم فاقبلوا ومالا فلا تكلفوا فيه ، ثم قال : قام فينا رسول اللَّه ﷺ يومًا خطيبًا بماء يدعي خمًا بين مكة والمدينة فحمد اللَّه تعالى وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال : « أَمَّا بَعْدُ أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبُ وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّه تَعَالَى فِيهِ الهُدَى والنُّورُ ، فَخذُوا بِكِتَابِ اللَّه واسْتَمْسِكُوا بِهِ » . فحث على كتاب اللَّه ﷻ ورغب فيه ثم قال : « وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمُ اللَّه فِي أَهْلِ بَيْتِي ، أُذَكِّرُكُمُ اللَّه فِي أَهْلِ بَيْتِي » ثلاثًا فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده . قال : ومن هم ؟ قال : هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس ﷺ قال : كل هؤلاء حرم الصدقة بعده ؟ قال : نعم [1] .

وروي عن زيد بن أرقم بنحو ما تقدم وفيه فقلت له : من أهل بيته نساؤه ؟ قال : لا وايم اللَّه إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها ، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده . هكذا وقع في هذه الرواية والأولى أولى والأخذ بها أحرى . وهذه الثانية تحتمل أنه أراد تفسير الأهل المذكورين في الحديث الذي رواه ، وإنما المراد بهم آله الذين حرموا الصدقة أو أنه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط ، بل هم مع آله ، وهذا الاحتمال أرجح جمعًا بينها وبين الرواية التي قبلها ، وجمعًا أيضًا بين القرآن والأحاديث المتقدمة إن صحت ، فإن في بعض أسانيدها نظرًا واللَّه أعلم . ثم الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ فإن سياق الكلام معهن ؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ أي : واعملن بما ينزل اللَّه تبارك وتعالى على رسوله ﷺ في بيوتكن من الكتاب والسنة . قاله قتادة وغير واحد . واذكرن هذه النعمة التي خصصتن بها من بين الناس ، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس ، وعائشة الصديقة بنت الصديق ﭫ أولاهن بهذه النعمة وأحظاهن بهذه الغنيمة وأخصهن من هذه الرحمة العميمة ، فإنه لم ينزل على رسول اللَّه ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها . كما نص على ذلك صلوات اللَّه وسلامه عليه . قال بعض العلماء رحمه الله : لأنه لم يتزوج بكرًا سواها ، ولم ينم معها رجل في فراشها سواه ﷺ و رضي الله عنها فناسب أن تخصص بهذه المزية ، وأن تفرد بهذه المرتبة العلية ، ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته فقرابته أحق بهذه التسمية . كما تقدم في الحديث : « وأَهْلُ بَيْتِي أَحَقُّ » وهذا يشبه ما ثبت في صحيح مسلم أن رسول اللَّه ﷺ لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم فقال : « هُوَ مَسْجِدِي هَذَا » [2] . فهذا من هذا

---

(١) أخرجه مسلم في (فضائل الصحابة) (٣٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الحج (٥١٤) وأحمد في مسنده (٨/٣) والترمذي في سننه (٣٠٩٩) .

القبيل . فإن الآية إنما نزلت في مسجد قباء كما ورد في الأحاديث الأخر . ولكن إذا كان ذاك أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ أولى بتسميته بذلك والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : واذكروا نعمة الله عليكن بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة ، فاشكرن الله تعالى على ذلك واحمدنه [١] . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ أي ذا لطف بكن إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آيات الله والحكمة وهي السنة ، خبيرًا بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجًا . وقال قتادة : ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ قال : يمتن عليهن بذلك . وقال عطية العوفي في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ يعني : لطيفًا باستخراجها خبيرًا بموضعها .

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

قال عبد الرحمن بن شيبة : سمعت أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ تقول : قلت للنبي ﷺ : ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت : فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر قالت : وأنا أسرح شعري فلففت شعري ثم خرجت إلى حجرتي حجرة بيتي ، فجعلت سمعي عند الجريد ، فإذا هو يقول عند المنبر : « يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ » إلى آخر الآية [٢] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النساء للنبي ﷺ : ما له يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴾ الآية . وعن قتادة قال : دخل نساء على نساء النبي ﷺ فقلن : قد ذكركن الله تعالى في القرآن ولم نذكر بشيء أما فينا ما يذكر ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴾ الآية [٣] . فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ دليل على أن الإيمان غير الإسلام وهو أخص منه لقوله تعالى : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ وفي الصحيحين : « لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ » [٤] فيسلبه الإيمان ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين فدل على أنه أخص منه . وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ ﴾ القنوت : هو الطاعة في سكون ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ فالإسلام بعده مرتبة يرتقي إليها ، وهو الإيمان ، ثم القنوت ناشئ عنهما . ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴾ هذا في الأقوال فإن الصدق خصلة محمودة ؛ ولهذا كان بعض الصحابة رضي الله عنهم لم تجرب عليه كذبة لا في الجاهلية ولا في الإسلام وهو علامة على الإيمان كما أن الكذب أمارة على النفاق ، ومن صدق نجا « عَلَيْكُم بِالصِّدْقِ ، فَإِنَّ الصِّدقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٣/٢٢) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠١/٦) .
(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٤/٢٢) .
(٤) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٥٧٨) والحدود (٦٧٨٢) ومسلم في الإيمان (١٠٠ ، ١٠٥) .

الجنَّةِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ ، فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجورِ ، وَإِنَّ الفُجور يَهْدِي إِلَى النَّارِ . وَلَا يَزَالُ الرجُلُ يَصْدُقُ ويَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّه صِدِّيقًا ، وَلَا يَزَالُ الرجلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّه كَذَّابًا » (١) والأحاديث فيه كثيرة جدًّا . ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ ﴾ هذه سجية الأثبات وهي الصبر على المصائب والعلم بأن المقدر كائن لا محالة ، وتلقي ذلك بالصبر والثبات ، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى . أي : أصعبه في أول وهلة ، ثم ما بعده أسهل منه وهو صدق السجية وثباتها . ﴿ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ ﴾ الخشوع : السكون والطمأنينة والتؤدة والوقار والتواضع ، والحامل عليه الخوف من اللَّه تعالى ومراقبته . كما في الحديث : « اعْبُدِ اللَّه كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » (٢) . ﴿ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ ﴾ الصدقة ، هي الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء الذين لا كسب لهم ولا كاسب يعطون من فضول الأموال طاعة للَّه وإحسانًا إلى خلقه . وقد ثبت في الصحيحين : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّه فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ - فذكر منهم - ورَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ » (٣) . وفي الحديث الآخر : « والصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ » (٤) . والأحاديث في الحث عليها كثيرة جدًّا ﴿ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ ﴾ وفي الحديث « والصَّوْمُ زَكَاةُ البَدَنِ » أي : يزكيه ويطهره وينقيه من الأخلاط الرديئة طبعًا وشرعًا . كما قال سعيد بن جبير: من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر دخل في قوله تعالى : ﴿ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ ﴾ ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة كما قال رسول اللَّه ﷺ : « يَا مَعْشَرَ الشبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكم البَاءَةَ فلْيَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ للبَصَرِ وَأَحْصَنُ للفَرْجِ ، وَمَنْ لَم يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ » (٥) ناسب أن يذكر بعده ﴿ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ ﴾ أي : عن المحارم والمآثم إلا عن المباح كما قال ﷻ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إن رسول اللَّه ﷺ قال : « إِذَا أَيْقَظَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ كَانَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا والذَّاكِرَاتِ » (٦) . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أيضًا أنه قال : قلت : يا رسول اللَّه أي العباد أفضل درجة عند اللَّه تعالى يوم القيامة ؟ قال ﷺ : « الذَّاكِرُونَ اللَّه كَثِيرًا والذَّاكِرَاتُ » قال : قلت : يا رسول اللَّه ومن الغازي في سبيل اللَّه تعالى ؟ قال : « لَوْ ضَرَبَ بِسَيفِهِ فِي الكُفَّارِ والمُشْرِكِينَ حَتَّى

(١) أخرجه مسلم في (البر والصلة) (١٠٥) وأحمد في مسنده (٣٨٤/١ ، ٤٣٢) والترمذي في سننه (١٩٧١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٢/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٤٠/٢) ، (٢١٨/٤) .
(٣) أخرجه البخاري في (الأذان) (٦٦٠) ومسلم في الزكاة (٩١) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢١/٣) ، (٢٣١/٥) .
(٥) أخرجه البخاري في (النكاح) (٥٠٦٥) ومسلم في النكاح (١ ، ٢) .
(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤١٦/٢) وأبو داود بنحوه (١٣٠٩) .

يَنْكَسِرَ ويَخْتَضِبَ دَمًا لكَانَ الذَّاكِرُونَ اللَّه تَعَالَى أَفْضَلَ مِنْهُ »[(١)].

وعن أبي هريرة ﷺ قال : كان رسول اللَّه ﷺ يسير في طريق مكة فأتى على جمدان فقال : «هَذَا جَمْدَانُ سِيرُوا فَقَدْ سَبَقَ المُفْرِدُونَ » قالوا : وما المفردون ؟ قال ﷺ : « الذَّاكِرُونَ اللَّه كَثِيرًا والذَّاكِرَاتُ ». ثم قال ﷺ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ للمُحَلِّقِينَ » قالوا : والمقصرين ؟ قال ﷺ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ للمُحَلِّقِينَ » قالوا : والمقصرين قال : « والمُقَصِّرِينَ »[(٢)]. وعن معاذ بن جبل ﷺ أنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ عَمَلًا قط أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّه تَعَالَى مِنْ ذِكْرِ اللَّه ﷻ »[(٣)]. وعن سهل ابن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه ﷺ عن رسول اللَّه ﷺ قال : إن رجلًا سأله فقال : أي المجاهدين أعظم أجرًا يا رسول اللَّه ؟ قال ﷺ : «أَكْثَرُهُمْ للَّه تَعَالَى ذِكْرًا » قال : فأي الصائمين أكثر أجرًا ؟ قال ﷺ : «أَكْثَرُهُمْ للَّه ﷻ ذِكْرًا » ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة . كل ذلك يقول رسول اللَّه ﷺ : «أَكْثَرُهُمْ للَّه ذِكْرًا » فقال أبو بكر لعمر ﷺ : ذهب الذاكرون بكل خير فقال رسول اللَّه ﷺ : «أَجل »[(٤)]. وقوله تعالى : ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم ، أي : أن اللَّه تعالى قد أعد لهم ؛ أي هيأ لهم مغفرة منه لذنوبهم وأجرًا عظيمًا وهو الجنة .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ .

قال ابن عباس ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ الآية : وذلك أن رسول اللَّه ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة ﷺ ، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية ﷺ فخطبها فقالت : لست بناكحته . فقال رسول اللَّه ﷺ : « بَلْ فانْكَحِيهِ » قالت : يا رسول اللَّه أؤامر في نفسي ؟ فبينما هما يتحدثان أنزل اللَّه هذه الآية على رسول اللَّه ﷺ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا ﴾ الآية . قالت : قد رضيته لي يا رسول اللَّه منكحًا ؟ قال رسول اللَّه ﷺ : « نَعَمْ » قالت : إذًا لا أعصي رسول اللَّه ﷺ قد أنكحته نفسي[(٥)]. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ﷺ وكانت أول من هاجر من النساء - يعني بعد صلح الحديبية - فوهبت نفسها للنبي ﷺ فقال : قد قبلت فزوجها زيد بن حارثة ﷺ يعني - واللَّه أعلم - بعد فراقه زينب فسخطت هي وأخوها وقالا : إنما أردنا رسول اللَّه ﷺ فزوجنا عبده قال : فنزل القرآن ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا ﴾ إلى آخر الآية . قال : وجاء أمر أجمع من هذا ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ ﴾ قال : فذاك خاص وهذا أجمع .

وقال أبو برزة الأسلمي : إن جليبيبًا كان امرأً يدخل على النساء يمرنهن ويلاعبهن ، فقلت

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٣).
(٢) أخرجه مسلم بنحوه في (الذكر والدعاء) (٤) وأحمد في مسنده (٤١١/٢).
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٩/٥).
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٨/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٧٤/١٠).
(٥) أورده ابن الجوزي في زاد المسير (٣٨٥/٦).

لامرأتي : لا تدخلن عليكن جليبيبًا فإنه إن دخل عليكن لأفعلن ولأفعلن . قال : وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم لم يزوجها حتى يعلم هل للنبي ﷺ فيها حاجة أم لا ، فقال النبي ﷺ لرجل من الأنصار : « زَوِّجْنِي ابنَتَكَ » قال : نعم وكرامة يا رسول اللَّه ونعمة عين ، فقال ﷺ : « إِنِّي لَسْتُ أُرِيدُهَا لِنَفْسِي » قال : فلمن يا رسول اللَّه ؟ قال ﷺ : « لجليبيب » فقال : يا رسول اللَّه أشاور أمها ، فأتى أمها ، فقال : رسول اللَّه ﷺ يخطب ابنتك ، فقالت : نعم ونعمة عين . فقال : إنه ليس يخطبها لنفسه إنما يخطبها لجليبيب فقالت : أجليبيب ابنه ، أجليبيب ابنه ؟ لا لعمر اللَّه لا نزوجه ، فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول اللَّه ﷺ فيخبره بما قالت أمها . قالت الجارية : من خطبني إليكم ؟ فأخبرتها أمها ، قالت : أتردون على رسول اللَّه ﷺ أمره ؟ ادفعوني إليه فإنه لن يضيعني . فانطلق أبوها إلى رسول اللَّه ﷺ فقال : شأنك بها فزوجها جليبيبًا قال : فخرج رسول اللَّه ﷺ في غزوة له ، فلما أفاء اللَّه عليه قال لأصحابه ﷺ : « هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ » قالوا : نفقد فلانًا ونفقد فلانًا ، قال ﷺ : « انْظُرُوا هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ » قالوا : لا ، قال ﷺ : « لكِنَّنِي أَفْقِدُ جُلَيبِيبًا » قال ﷺ : فاطْلُبُوهُ فِي القَتْلَى » فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ، ثم قتلوه . فقالوا : يا رسول اللَّه ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه . فأتاه رسول اللَّه ﷺ فقام عليه فقال : « قَتَلَ سَبْعَةً وَقَتَلُوهُ ، هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ » مرتين أو ثلاثًا ثم وضعه رسول اللَّه ﷺ على ساعديه وحفر له ، ما له سرير إلا ساعد النبي ﷺ ثم وضعه في قبره ولم يذكر أنه غسله ﷺ . قال ثابت ﷺ : فما كان في الأنصار أيم أنفق منها . وحدث إسحاق بن عبد اللَّه ابن أبي طلحة ثابتًا ، هل تعلم ما دعا لها رسول اللَّه ﷺ ؟ فقال : « اللَّهُمَّ صُبَّ عَلَيْهَا الخيرَ صبًّا ، وَلَا تَجْعَلْ عَيْشَهَا كَدًّا » . وكذا كان فما كان في الأنصار أيم أنفق منها (١) .

وقال طاووس : إنه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد العصر فنهاه . وقرأ ابن عباس ﷺ : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ فهذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم اللَّه ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد ها هنا ولا رأي ولا قول كما قال تبارك وتعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ وفي الحديث : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ » ولهذا شدد في خلاف ذلك فقال : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن نبيه ﷺ أنه قال لمولاه زيد بن حارثة ﷺ ، وهو الذي أنعم اللَّه عليه ، أي بالإسلام ومتابعة الرسول ﷺ : ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ أي : بالعتق من الرق وكان سيدًا كبير الشأن جليل القدر حبيبًا إلى النبي ﷺ يقال له : الحب ، ويقال لابنه أسامة : الحب ابن الحب . قالت عائشة ﷺ :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٤٢٢) .

ما بعثه رسول الله ﷺ في سرية إلا أمَّره عليهم ، ولو عاش بعده لاستخلفه (١) . وقال عمر بن أبي سلمة عن أبيه قال : حدثني أسامة بن زيد ﵄ قال : كنت في المسجد فأتاني العباس وعلي بن أبي طالب ﵄ فقالا : يا أسامة استأذن لنا على رسول الله ﷺ ، قال : فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فقلت : علي والعباس يستأذنان ، فقال ﷺ : « أَتَدْرِي مَا حَاجَتُهُمَا ؟ » قلت : لا يا رسول الله . قال ﷺ : « لَكِنِّي أَدْرِي » ، قال : فأذن لهما ، قالا : يا رسول الله جئناك لتخبرنا أي أهلك أحب إليك ؟ قال ﷺ : « أَحَبُّ أَهْلِي إِلَيَّ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمدٍ » . قالا : يا رسول الله ما نسألك عن فاطمة ، قال ﷺ : « فَأُسَامَةُ بنُ زَيدِ بن حَارِثَةَ الذِي أَنْعَمَ اللَّه عَلَيهِ وَأَنْعَمْتُ عَلَيْهِ » . وكان رسول الله ﷺ قد زوجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية ﵂ وأمها أميمة بنت عبد المطلب ، وأصدقها عشرة دنانير وستين درهمًا وخمارًا وملحفة ودرعًا وخمسين مدًّا من طعام وعشرة أمداد من تمر . قاله مقاتل بن حيان ، فمكثت عنده قريبًا من سنة أو فوقها ثم وقع بينهما ، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يقول له : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّه » . قال الله تعالى : ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ . وعن أنس بن مالك ﵁ قال : إن هذه الآية نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة ﵄ (٢) . وروي عن السدي قال فيها : قد أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه .

عن عائشة ﵂ أنها قالت : لو كتم محمد ﷺ شيئًا مما أوحي إليه من كتاب الله تعالى لكتم ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ (٣) . وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ الوطر : هو الحاجة والأرب أي : لما فرغ منها وفارقها زوجناكها ، وكان الذي ولي تزويجها منه هو الله ﷻ . بمعنى : أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر . فعن أنس ﵁ قال : لما انقضت عدة زينب ﵂ قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : « اذْهَبْ فَاذْكُرْهَا عَلَيَّ » فانطلق حتى أتاها وهي تخمر عجينها قال : فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ، وأقول : إن رسول ﷺ ذكرها فوليتها ظهري ونكصت على عقبي وقلت : يا زينب أبشري أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك ، قالت : ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤامر ربي ﷻ ، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن ، ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله ﷺ وأطعمنا عليها الخبز واللحم فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام ، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته فجعل ﷺ يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن : يا رسول الله كيف وجدت أهلك ؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه ، فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب ووعظ القوم بما وعظوا به ﴿ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ الآية كلها (٤) . وعن أنس بن مالك ﵁ قال : إن زينب بنت جحش ﵂ كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول : زوجكن أهاليكن وزوجني

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٧/٦) . (٢) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٨٧) .
(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٨/٢٢) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٥/٣) والسيوطي في الدر المنثور (٢٠١/٥) .

الله تعالى من فوق سبع سموات [١] ، وعن عبد الله بن جحش قال : فتفاخرت زينب وعائشة رضي الله عنهما فقالت زينب رضي الله عنها : أنا التي نزل تزويجي من السماء ، وقالت عائشة رضي الله عنها : أنا التي نزل عذري من السماء فاعترفت لها زينب رضي الله عنها . وقال الشعبي : كانت زينب رضي الله عنها تقول للنبي ﷺ : إني لأدل عليك بثلاث ، ما من نسائك امرأة تدل بهن : إن جدي وجدك واحد ، وإني أنكحنيك الله عز وجل من السماء ، وإن السفير جبريل عليه الصلاة والسلام [٢] . وقوله تعالى : ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ أي : إنما أبحنا لك تزويجها ، فعلنا ذلك ؛ لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء . وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبني زيد بن حارثة رضي الله عنه فكان يقال له : زيد بن محمد ، فلما قطع الله تعالى هذه النسبة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۞ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ثم زاد بيانًا وتأكيدًا بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها لما طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنه ، ولهذا قال تعالى في آية التحريم : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ ليحترز من الابن الدعي ، فإن ذلك كان كثيرًا فيهم . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ أي : كان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحتمه ، وهو كائن لا محالة ، كانت زينب رضي الله عنها في علم الله ستصير من أزواج النبي ﷺ .

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾ أي : فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب رضي الله عنها التي طلقها دعيه زيد بن حارثة رضي الله عنه . وقوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله ، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج . وهذا رد عن من توهم من المنافقين نقصًا في تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذي قد تبناه ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ أي : وكان أمره الذي يقدره كائنًا لا محالة وواقعًا لا محيد عنه . ولا معدل ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ۞ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ .

يمدح تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ ﴾ أي : إلى خلقه ويؤدونها بأماناتها ﴿ وَيَخْشَوْنَهُ ﴾ أي : يخافونه ولا يخافون أحدًا سواه ، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله تعالى ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أي : وكفى بالله ناصرًا ومعينًا ، وسيد الناس في المقام ، بل وفي كل مقام محمد رسول الله ﷺ فإنه قام بأداء الرسالة ، وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب ، إلى جميع أنواع بني آدم . وأظهر الله تعالى كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع ، فإنه قد كان النبي قبله إنما يبعث إلى قومه خاصة ، وأما هو ﷺ فإنه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده ، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه رضي الله عنهم بلغوا عنه كما أمرهم به ، ففي جميع أقواله وأفعاله وأحواله في ليله ونهاره وحضره وسفره وسره

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٠) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٩/٢٢) .

وعلانيته ، فرضي الله عنهم وأرضاهم . ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا ، فبنورهم يقتدي المهتدون ، وعلى منهجهم يسلك الموفقون . فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم .

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قال ﷺ : « لَا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أَنْ يَرَى أمرًا للّه فِيهِ مقَالٌ ، ثُمَّ لَا يَقُولُهُ فَيَقُولُ اللّه : مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَقُول مِنْهُ ؟ فَيَقُولُ : رَبِّ خَشِيتُ النَّاسَ ، فَيَقُولُ : فَأَنا أَحَقُّ أَنْ يُخْشَى »(١) . وقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ نهى أن يقال بعد هذا : زيد بن محمد ، أي : لم يكن أباه – وإن كان قد تبناه – فإنه ﷺ لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم ، فإنه ﷺ ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجة ﵂ فماتوا صغارًا ، وولد له ﷺ إبراهيم من مارية القبطية فمات أيضًا رضيعًا ، وكان له ﷺ من خديجة أربع بنات : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ﵃ أجمعين فمات في حياته ﷺ ثلاث ، وتأخرت فاطمة ﵂ حتى أصيبت به ﷺ ، ثم ماتت بعده لستة أشهر . وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ كقوله ﷻ : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ فهذه الآية نص في أنه لا نبيَّ بعده ، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأحرى ؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبي ولاينعكس . وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة ﷺ ، قال أبي ابن كعب عن أبيه ﷺ عن النبي ﷺ قال : « مَثَلِي فِي النَّبِيِّينَ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَحْسَنَهَا وَأَكْمَلَهَا وَتَرَكَ فِيهَا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ لَمْ يَضَعْهَا ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِالبُنْيَانِ ويعْجَبُونَ مِنْهُ وَيَقُولُونَ : لَوْ تَمَّ مَوْضِعُ هَذِهِ اللَبِنَةِ ؟ فَأَنَا فِي النَّبِيينَ مَوْضِعُ تلكَ اللَّبِنَةِ »(٢) .

وعن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إِنَّ الرِّسَالَةَ والنُّبُوَّةَ قَدْ انْقَطَعَتْ فَلَا رَسُولَ بَعْدِي وَلَا نَبِيَّ » . قال : فشق ذلك على الناس . فقال : « وَلَكِن المُبَشِّرَاتِ » قالوا : يا رسول اللّه وما المبشرات ؟ قال : « رُؤْيَا الرجلِ المسلمِ وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ النُّبُوَّةِ »(٣) .

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللّه ﷺ قال : « فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ : أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ ، ونُصِرْتُ بِالرعْبِ ، وَأُحِلَّتْ لِي الغَنَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطهُورًا ، وَأُرْسِلتُ إِلَى الخَلْقِ كَافَّةً ، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ »(٤) .

وعن جبير بن مطعم ﷺ قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « إِنَّ لِي أَسْمَاءَ : أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا أَحْمَد ، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللّه تَعَالَى بِي الكُفْرَ ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَاسُ عَلَى قَدَمِي ، وَأَنَا العَاقِبُ الَّذِي لَيسَ بَعْدَهُ نَبِي »(٥) . وقال عبد اللّه بن عمرو : خرج علينا رسول اللّه ﷺ يومًا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣٠) وابن ماجه في سننه (٤٠٠٨) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١٣٨) والترمذي في سننه (٣٦١٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢٦٧) والترمذي في سننه (٢٢٧٢) .

(٤) أخرجه مسلم في المساجد (٤) والبيهقي في الكبرى (١/٢١٣) .

(٥) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٨٩٦) ومسلم في الفضائل (١٢٤) .

كالمودّع فقال : « أَنَا مُحَمَّدٌ النَّبِيّ الأُمِّي - ثلاثًا - وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي ، أوتِيتُ فَوَاتِحَ الكَلِمِ وَجَوَامِعَهُ وَخَوَاتِمَهُ ، وعلمت كَمْ خَزَنَةُ النَّارِ وَحَمَلَةُ العَرْشِ ، وَتُجُوِّزَ بِي ، وَعُوفِيتُ وَعُوفِيَتْ أُمَّتِي ، فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا مَا دُمْتُ فِيكُمْ ، فَإِذَا ذُهِبَ بِي فَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّه تَعَالَى أَحِلُّوا حَلَالَهُ وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ »(١) .

والأحاديث في هذا كثيرة ، فمن رحمة اللَّه تعالى بالعباد ، إرسال محمد ﷺ إليهم ، ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به وإكمال الدين الحنيف له ، وقد أخبر اللَّه تبارك وتعالى في كتابه ورسوله ﷺ في السنة المتواترة عنه أنه : لا نبي بعده ؛ ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل ، ولو تخرق وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات فكلها محال وضلال عند أولي الألباب . كما أجرى اللَّه ﷻ على يد الأسود العنسي باليمن ومسيلمة الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ما علم كل ذي لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالان لعنهما اللَّه . وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال ، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق اللَّه معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها ، وهذا من تمام لطف اللَّه تعالى بخلقه . فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرون بمعروف ، ولا ينهون عن المنكر إلا على سبيل الاتفاق أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره . ويكون في غاية الإفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم كما قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ الآية . وهذا بخلاف حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فإنهم في غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ، ويأمرون به وينهون عنه ، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات والأدلة الواضحات والبراهين الباهرات . فصلوات اللَّه وسلامه عليهم دائمًا مستمرًا ما دامت الأرض والسموات .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تبارك وتعالى المنعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن لما لهم في ذلك من جزيل الثواب ، وجميل المآب . فعن أبي الدرداء ؓ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ »؟ قالوا : وما هو يا رسول اللَّه ؟ قال ﷺ : « ذِكْرُ اللَّهِ ﷻ »(٢) .

وعن عبد اللَّه بن بشر قال : جاء أعرابيان إلى رسول اللَّه ﷺ فقال أحدهما : يا رسول اللَّه أي الناس خير؟ قال ﷺ : « مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ » . وقال الآخر : يا رسول اللَّه إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا فمرني بأمر أتشبث به قال ﷺ : « لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللَّه تعالى »(٣) . وعن أبي سعيد الخدري ؓ قال : إن رسول اللَّه ﷺ قال : « أَكْثِرُوا ذِكْرَ اللَّه تَعَالَى حَتَّى يَقُولُوا مَجْنُونٌ »(٤) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢١٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١٩٥) والترمذي في سننه (٣٣٧٧) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٩٠) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٦٨ ، ٧١) .

ومن أحسن الكتب المؤلفة في ذلك ، كتاب الأذكار للشيخ محيي الدين النووي رحمه الله . وقوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي : عند الصباح والمساء كقوله ﷻ : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ هذا تهييج إلى الذكر أي : سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم . كقوله تعالى ﷻ : ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ وقال النبي ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذكرته في نفسي ، وَمَنْ ذكرني فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُ » (١) . والصلاة من اللَّه تعالى ثناؤه على العبد عند الملائكة ، قيل : الصلاة من اللَّه ﷻ الرحمة . وقد يقال : لا منافاة بين القولين واللَّه أعلم . وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار كقوله تبارك وتعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ أي : بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم ودعاء ملائكته لكم يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ أي : في الدنيا والآخرة . أما في الدنيا ، فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم وبصرهم الطريق الذي ضل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأتباعهم من الطغاة ، وأما رحمته بهم في الآخرة فآمنهم من الفزع الأكبر وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، وما ذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم .

وعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبيًا لها فألصقته إلى صدرها وأرضعته فقال رسول اللَّه ﷺ : « أَتَرَوْنَ هَذِهِ تُلْقِي وَلَدَهَا في النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ ؟ » قالوا : لا ، قال رسول اللَّه ﷺ : فَوَاللَّهِ للَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا » (٢) . وقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾ الظاهر أن المراد واللَّه أعلم تحيتهم أي : من اللَّه تعالى يوم يلقونه سلام أي يوم يسلم عليهم كما قال ﷻ : ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيي بعضهم بعضًا بالسلام يوم يلقون اللَّه في الدار الآخرة ، واختاره ابن جرير . قلت : وقد يستدل بقوله تعالى : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ يعني : الجنة وما فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح والملاذ والمناظر مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

(١) أخرجه البخاري في (التوحيد) (٧٤٠٥) وأحمد في مسنده (٢/٢٥١) .
(٢) أخرجه مسلم في التوبة (٢٢) .

عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ وحرزًا للأميين أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخَّاب في الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله فيفتح بها أعينًا عميًا ، وآذانًا صمًّا ، وقلوبًا غلفًا [(١)] .

وعن ابن عباس ﷺ قال : لما نزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ وقد كان أمر عليًّا ومعاذًا ﷺ أن يسيرا إلى اليمن فقال : « انْطَلِقَا فَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا ، ويَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا ، إِنَّهُ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ » [(٢)] . وفي رواية قال في آخره : « فَإِنَّهُ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا عَلَى أُمَّتِكَ وَمُبَشِّرًا بِالجَنَّةِ وَنَذِيرًا مِنَ النَّارِ وَدَاعِيًا إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِله إِلَّا اللَّه بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا بِالقُرْآنِ » [(٣)] . فقوله تعالى : ﴿ شَٰهِدٗا ﴾ أي لله بالوحدانية ، وأنه لا إله غيره وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا كقوله : ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ ، وقوله ﷻ : ﴿ وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ أي : بشيرًا للمؤمنين بجزيل الثواب ونذيرًا للكافرين من وبيل العقاب . وقوله جلت عظمته : ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ ﴾ أي : داعيًا للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك ﴿ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ أي : وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق كالشمس في إشراقها وإضاءتها لا يجحدها إلا معاند . وقوله جل وعلا : ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ ﴾ أي : لا تطعهم وتسمع منهم في الذي يقولونه ﴿ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ ﴾ أي : اصفح وتجاوز عنهم وكل أمرهم إلى الله تعالى ، فإن فيه كفاية لهم ، ولهذا قال جل جلاله : ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴾ .

هذه الآية فيها أحكام كثيرة ، منها إطلاق النكاح على العقد وحده ، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها ، وقد اختلفوا في النكاح هل هو حقيقة في العقد وحده أو في الوطء أو فيهما ؟ على ثلاثة أقوال : واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده إلا في هذه الآية فإنه استعمل في العقد وحده لقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها . وقوله تعالى : ﴿ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾ خرج محرج الغالب ؛ إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق . وقد استدل ابن عباس ﷺ وسعيد بن المسيب وغيرهما بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ ﴾ فعقب النكاح بالطلاق ، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله ، وهذا مذهب

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٤/٢) . (٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٢٠١/١٤) .
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٣١٢/١١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٩٢/٧) .

الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من السلف والخلف رحمهم الله تعالى ، وذهب مالك وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى إلى صحة الطلاق قبل النكاح فيما إذا قال : إن تزوجت فلانة فهي طالق ، فعندهما متى تزوجها طلقت منه ، واختلفا فيما إذا قال : كل امرأة أتزوجها فهي طالق فقال مالك : لا تطلق حتى يعين المرأة . وقال أبو حنيفة رحمه الله : كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه . فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية . عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا قال : كل امرأة أتزوجها فهي طالق قال : ليس بشيء من أجل أن الله تعالى يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ ﴾ الآية . وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا طَلَاقَ لابْنِ آدَمَ فِيمَا لَا يَمْلِكُ »(١) وعن علي والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لَا طَلَاقَ قَبْلَ النِّكَاحِ »(٢) . وقوله ﷻ : ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ هذا أمر مجمع عليه بين العلماء أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتذهب فتتزوج في فورها من شاءت . ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشرًا وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضًا . وقوله تعالى : ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ المتعة ها هنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى أو المتعة الخاصة ، إن لم يكن قد سمى لها . قال الله تعالى : ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ . وقال ﷻ : ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ . وعن سهل بن سعد قال : إن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل ، فلما أن دخلت عليه ﷺ بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيين(٣) . قال علي بن أبي طلحة رضي الله عنهما : إن كان سمى لها صداقًا ، فليس لها إلا النصف ، وإن لم يكن سمى لها صداقًا أمتعها على قدر عسره ويسره ، وهو السراح الجميل .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن وهي : الأجور ها هنا . كما قاله مجاهد وغير واحد . وقد كان مهره لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونشز وهو نصف أوقية فالجميع خمسمائة درهم إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فإنه أمهرها عنه النجاشي رحمه الله تعالى أربعمائة دينار ، وإلا صفية بنت حيي ، فإنه اصطفاها من سبي خيبر ، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها . وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها - رضي الله عنهن أجمعين - وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ أي :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٩/٢) وابن ماجه في سننه (٢٠٤٧) .
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٠٤٨ ، ٢٠٤٩) .
(٣) أخرجه البخاري في (الطلاق) (٥٢٥٦) أحمد في مسنده (٤٩٨/٣) .

وأباح لك التسري مما أخذت من المغانم ، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما ، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليهما السلام وكانتا من السراري رضي الله عنهما . وقوله تعالى : ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ﴾ الآية . هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط ، فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعدًا ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى فأباح بنت العم والعمة ، وبنت الخال والخالة ، وتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت وهذا شنيع فظيع . وإنما قال : ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ﴾ . فوحد لفظ الذكر لشرفه وجمع الإناث لنقصهن كقوله : ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ عن أم هانىء قالت : خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه فعذرني ، ثم أنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ قالت : فلم أكن أحل له ولم أكن ممن هاجر معه كنت من الطلقاء (١) . وهكذا قال أبو رزين وقتادة : إن المراد من هاجر معه إلى المدينة . وفي رواية عن قتادة : ﴿ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ أي : أسلمن ، وقال الضحاك : قرأ ابن مسعود (واللائي هاجرن معك) .

﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ ﴾ الآية . أي : ويحل لك أيها النبي المرأة المؤمنة إن وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك . وهذه الآية توالى فيها شرطان كقوله تعالى إخبارًا عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ . وقال ها هنا : ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ ﴾ الآية . عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت : يا رسول الله إني قد وهبت نفسي لك فقامت قيامًا طويلًا ، فقام رجل فقال : يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة ، فقال رسول الله ﷺ : « هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيءٍ تُصْدِقُهَا إِيَّاهُ ؟ » فقال : ما عندي إلا إزاري هذا ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنْ أَعْطَيْتَهَا إِزَارَكَ جَلَسْتَ لَا إِزَارَ لَكَ فَالتَمِسْ شَيْئًا » فقال : لا أجد شيئًا ، فقال : « التَمِسْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ » فالتمس فلم يجد شيئًا ، فقال له النبي ﷺ : « هَلْ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ شَيءٌ ؟ » قال نعم سورة كذا وسورة كذا - السور يسميها - فقال له النبي ﷺ : « زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ » (٢) .

وقال أنس : جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت : يا نبي الله هل لك فيَّ حاجة ؟ فقالت ابنته : ما كان أقل حياءها ، فقال : « هِيَ خَيْرٌ مِنْكِ رَغِبَتْ في النبي فَعَرَضَتْ عليه نَفْسَهَا » (٣) . وعن أنس بن مالك أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ابنة لي كذا وكذا فذكرت من حسنها وجمالها فآثرتك بها فقال : « قَدْ قَبِلْتُهَا » فلم تزل تمدحها حتى ذكرت أنها لم تصدع ولم تشك شيئًا قط

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٢٠/٢) ، (٥٣/٤) والطبري في تفسيره (٢٧/٢٢) .
(٢) أخرجه البخاري في (فضائل القرآن) (٥١٢٦) ومسلم في النكاح (٧٦) .
(٣) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٢٠) وأحمد في مسنده (٢٦٨/٣) .

فقال : « لَا حَاجَةَ لِي فِي ابْنَتِكِ »[1] . وعن عائشة قالت : التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم . وقال هشام بن عروة عن أبيه : إن خولة بنت حكيم بن الأوقص من بني سليم كانت من اللاتي وهبت أنفسهن لرسول الله ﷺ . وفي رواية عن هشام عن أبيه كنا نتحدث أن خولة بنت حكيم كانت وهبت لرسول الله ﷺ وكانت امرأة صالحة . فيحتمل أن أم سليم هي خولة بنت حكيم أو هي امرأة أخرى . وقال محمد بن كعب وعمر بن الحكم وعبد الله بن عبيدة : تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة ؛ ستًّا من قريش : خديجة وعائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة ، وثلاثًا من بني عامر بن صعصعة ، وامرأتين من بني هلال بن عامر : ميمونة بنت الحارث وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ ، وزينب أم المساكين ، وامرأة من بني بكر بن كلاب من القرظيات وهي التي اختارت الدنيا ، وامرأة من بني الجون وهي التي استعاذت منه ، وزينب بنت جحش الأسدية ، والسبيتين صفية بنت حيي بن أخطب وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية ، وقال ابن عباس ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ قال : هي ميمونة بنت الحارث فيه انقطاع هذا مرسل والمشهور أن زينب التي كانت تدعى أم المساكين هي : زينب بنت خزيمة الأنصاري ، وقد ماتت عند النبي ﷺ في حياته فالله أعلم . والغرض من هذا أن اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ كثير ، كما ورد عن عائشة قالت : كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول : أتهب المرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله تعالى : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ﴾ قلت : ما أرى ربك إلا يسارع في هواك[2] . وقد قال سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له[3] أي أنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له ، وإن ذلك مباحًا له ومخصوصًا ؛ لأنه مردود إلى مشيئته كما قال الله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ أي : إن اختار ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ ﴾ قال عكرمة : أي لا تحل الموهوبة لغيرك ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئًا . وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما أي أنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل ، فإنه متى دخل بها وجب عليه لها مهر مثلها . كما حكم به رسول الله ﷺ في تزويج بنت واشق لما فوضت ، فحكم لها رسول الله ﷺ بصداق مثلها لما توفي عنها زوجها . والموت والدخول سواء في تقرير المهر وثبوت مهر المثل في المفوضة لغير النبي ﷺ ، وأما هو عليه الصلاة والسلام فإنه لا يجب عليه للمفوضة شيء لو دخل بها ؛ لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولي ولا شهود كما في قصة زينب بنت جحش رضي الله عنها . ولهذا قال قتادة في قوله : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ ﴾ يقول : ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولي ولا مهر إلا للنبي ﷺ . وقوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ قال أبي بن كعب أي : من حصرهم في أربع نسوة حرائر وما شاءوا من الإماء واشتراط الولي والمهر والشهود عليهم وهم الأمة . وقد رخصنا لك في ذلك نوجب عليك شيئًا منه ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٥/٣) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨٨) .

(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٩/٢٢) (٢١٧٨٩) .

﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ .

قال هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها ، أنها كانت تغير من النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ قالت : ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق ؟ فأنزل الله ﷻ : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ الآية . قالت : إني أرى ربك يسارع لك في هواك (١) . فدل هذا على أن المراد بقوله : ﴿ تُرْجِي ﴾ أي : تؤخر ﴿ مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ﴾ أي : من الواهبات ﴿ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ أي : من شئت قبلتها ومن شئت رددتها ، ومن رددتها فأنت فيها أيضًا بالخيار بعد ذلك إن شئت عدت فيها فآويتها ولهذا قال : ﴿ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ قال عامر الشعبي في قوله تعالى : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ﴾ الآية . كن نساءًا وهبن أنفسهن للنبي ﷺ ، فدخل ببعضهن وأرجأ بعضهن لم ينكحن بعده ، منهن أم شريك . وقال آخرون : بل المراد بقوله : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ﴾ الآية . أي من أزواجك لا حرج عليك أن تترك القسم لهن ، فتقدم من شئت ، وتؤخر من شئت ، وتجامع من شئت ، وتترك من شئت . هكذا يروى عن ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم . ومع هذا كان النبي ﷺ يقسم لهن ، ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجبًا عليه ﷺ واحتجوا بهذه الآية الكريمة . وعن عائشة أن رسول الله ﷺ : كان يستأذن في اليوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ فقلت لها : ما كنت تقولين ؟ فقالت : كنت أقول : إن كان ذلك إلي ، فإني لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحدًا (٢) . فهذا الحديث عنها يدل على أن المراد من ذلك عدم وجود القسم . وحديثها الأول يقتضي أن الآية نزلت في الواهبات . ومن ها هنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء اللاتي عنده أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم ، وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي وفيه جمع بين الأحاديث : ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ أي : إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم ، فإن شئت قسمت وإن شئت لم تقسم ، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت ، ثم مع هذا أن تقسم لهن اختيارًا منك ، لا أنه على سبيل الوجوب فرحن بذلك ، واستبشرن به ، وحملن جميلك في ذلك ، واعترفن بمنتك عليهن في قسمتك لهن وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن . وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أي : من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه . كما في الحديث عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : « اللَّهُمَّ هَذَا فِعْلِي فيما أَمْلِكُ فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلا أملك » (٣) . ولهذا عقب ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾ أي بضمائر السرائر ﴿ حَلِيمًا ﴾ أي يحلم ويغفر .

﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١٥٨) . (٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٨٩) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦/١٤٤) والترمذي في سننه (١١٤٠) وابن ماجه في سننه (١٩٧١) .

ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾ .

ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس ومجاهد أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضًا عنهن على حسن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة لما خيرهن رسول الله ﷺ . كما تقدم في الآية ، فلما اخترن رسول الله ﷺ كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن ، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن ، أو يستبدل بهن أزواجًا غيرهن ، ولو أعجبه حسنهن ، إلا الإماء والسراري فلا حرج عليه فيهن ، ثم إنه تعالى رفع عنه الحرج في ذلك ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج لتكون المنة لرسول الله ﷺ عليهن . فعن عائشة رضي الله عنها قالت : ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء (١) . وعن أم سلمة إنها قالت : لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم . وذلك قول الله تعالى : ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ﴾ الآية . فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة كآيتي عدة الوفاة في البقرة ، الأولى ناسخة للتي بعدها والله أعلم ، وقال آخرون : بل معنى الآية : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾ أي : من بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتي أحللنا لك من نسائك اللاتي أتيت أجورهن وما ملكت يمينك وبنات العم والعمات والخال والخالات والواهبة وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك ، وهذا ما روي عن أبي بن كعب ومجاهد في رواية عنه وعكرمة والضحاك في رواية . وعن زياد عن رجل من الأنصار قال : قلت لأبي بن كعب : أرأيت لو أن أزواج النبي ﷺ توفين أما كان له أن يتزوج ؟ فقال : وما يمنعه من ذلك ؟ قال : قلت : قول الله تعالى : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾ فقال : إنما أحل الله له ضربًا من النساء . فقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ – إلى قوله – إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ ﴾ . ثم قيل له : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾ وعن ابن عباس قال : نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات بقوله تعالى : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ فأحل الله فتياتكم المؤمنات ، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي . وحرم كل ذات دين غير الإسلام ، ثم قال : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ – إلى قوله – خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وحرم ما سوى ذلك من أصناف النساء . وقال مجاهد : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾ أي : من بعد ما سمى لك لا مسلمة ولا يهودية ولا نصرانية ولا كافرة . وقال أبو صالح : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾ أمر أن لا يتزوج أعرابية ولا عربية ويتزوج بعد من نساء تهامة وما شاء من بنات العم والعمة والخال والخالة إن شاء ثلاثمائة . وقال عكرمة : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾ أي : التي سمى الله ، واختار ابن جرير أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء ، وفي النساء اللواتي في عصمته وكن تسعًا ، وهذا الذي قاله جيد . ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف ، فإن كثيرًا منهم روي عنه هذا وهذا ، ولا منافاة والله أعلم . ثم أورد ابن جرير على نفسه ما روي أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها ، وعزم على فراق سودة حتى وهبت يومها لعائشة ، ثم

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣٢١٦) والبيهقي في سننه (٥٤/٧) .

أجاب بأن هذا كان قبل نزول قوله تعالى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ ﴾ الآية . وهذا الذي قاله من أن هذا كان قبل نزول الآية صحيح . ولكن لا يحتاج إلى ذلك ، فإن الآية إنما دلت على أنه لا يتزوج بمن عدا اللواتي في عصمته ، وأنه لا يستبدل بهن غيرهن ، ولا يدل ذلك على أنه لا يطلق واحدة منهن من غير استبدال فالله أعلم . فأما قضية سودة ففي الصحيح عن عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها وهي سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾ الآية [(١)] . وأما قضية حفصة فروي عن ابن عباس وعن عمر : أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ، ثم راجعها [(٢)] . وعن ابن عمر قال : دخل عمر على حفصة وهي تبكي فقال : ما يبكيك ؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك ، وإنه كان طلقك مرة ثم راجعك من أجلي ، والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبدًا [(٣)] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ فنهاه عن الزيادة عليهن إن طلق واحدة منهن واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ۝ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ .

هذه آية الحجاب ، وفيها أحكام وآداب شرعية ، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه أنه قال : وافقت ربي في ثلاث ، قلت : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله تعالى : ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ وقلت : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتهن فأنزل الله آية الحجاب . وقلت لأزواج النبي ﷺ لما تمالأن عليه في الغيرة ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ فنزلت كذلك [(٤)] . عن أنس بن مالك قال : قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش التي تولى الله تعالى تزويجها بنفسه [(٥)] . وكان ذلك في ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة في قول قتادة والواقدي وغيرهما ، وزعم أبو عبيدة معمر بن المثنى وخليفة بن خياط أن ذلك كان في سنة ثلاث فالله أعلم . وعن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم ، فطعموا ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام ، فلما قام ، قام من قام وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبي ﷺ ليدخل ، فإذا القوم جلوس ، ثم

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٠١) .
(٢) أخرجه أبو داود في سنن (٢٢٨٣) .
(٣) ذكره أبو يعلى الموصلي في مسنده (١٧٢/١) .
(٤) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٠٢) .
(٥) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٩٠) .

إنهم قاموا فانطلقوا فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل . فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ ﴾ الآية (١) . وعن أنس بن مالك قال : بنى النبي ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم فأرسلت على الطعام داعيًا فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون . ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون فدعوت حتى ما أجد أحدًا أدعوه فقلت : يا رسول الله ما أجد أحدًا أدعوه قال : « ارْفَعُوا طَعَامَكُمْ » وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة رضي الله عنها فقال : « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ » قالت : وعليك السلام ورحمة الله كيف وجدت أهلك يا رسول الله بارك الله لك ؟ فتقرى حجر نسائه كلهن يقول لهن كما يقول لعائشة ، ويقلن له كما قالت عائشة . ثم رجع النبي ﷺ فإذا ثلاثة رهط في البيت يتحدثون وكان النبي ﷺ شديد الحياء فخرج منطلقًا نحو حجرة عائشة فما أدري أخبرته أم أخبر أن القوم خرجوا فرجع حتى إذا وضع رجله في أسكفة الباب داخله والأخرى خارجه أرخى الستر بيني وبينه وأنزلت آية الحجاب (٢) .

وعن عروة عن عائشة قالت : إن أزواج النبي ﷺ كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع - وهو صعيد أفيح - وكان عمر يقول لرسول الله ﷺ : احجب نساءك ، فلم يكن رسول الله ﷺ ليفعل ، فخرجت سودة بنت زمعة زوج رسول الله ﷺ وكانت امرأة طويلة فناداها عمر بصوته الأعلى : قد عرفناك يا سودة حرصًا على أن ينزل الحجاب ، قالت : فأنزل الله الحجاب (٣) . وهكذا وقع في الرواية ، والمشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب ، كما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت : خرجت سودة بعد ضرب الحجاب لحاجتها وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها فرآها عمر بن الخطاب فقال : يا سودة أما والله ما تخفين علينا فانظري كيف تخرجين . قالت : فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي وإنه ليتعشى وفي يده عرق . فدخلت فقالت : يا رسول الله إني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر كذا وكذا ، قالت : فأوحى الله إليه ، ثم رفع عنه وإن العرق في يده ما وضعه فقال : « إِنَّهُ قَدْ أُذِنَ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَاجَتِكُنْ » (٤) . فقوله تعالى : ﴿ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ ﴾ حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن . كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام حتى غار الله لهذه الأمة فأمرهم بذلك . وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة ولهذا قال رسول الله ﷺ : « إِيَّاكُمْ والدخولُ عَلَى النِّسَاءِ » الحديث (٥) . ثم استثنى من ذلك فقال تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ قال مجاهد وقتادة وغيرهما : أي غير متحينين نضجه واستواءه أي : لا ترقبوا الطعام إذا طبخ حتى إذا قارب

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٩١) ومسلم في النكاح (٨٧ ، ٩٢) .
(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٩٣) .
(٣) أخرجه البخاري في الوضوء (١٤٦) ومسلم في السلام (١٨) وصعيد أفيح أي مكان متسع .
(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٩٥) ومسلم في السلام (١٧) واللفظ للبخاري .
(٥) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢٣٢) أحمد في مسنده (١٤٩/٤) .

الاستواء تعرضتم للدخول ، فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه وهذا دليل على تحريم التطفيل . وهو الذي تسميه العرب الضيفن .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا ﴾ . عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُجِبْ ، عُرْسًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ » [(١)] وفي الصحيح أيضًا عن رسول الله ﷺ : « لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ لأَجَبْتُ ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ ، فَإِذَا فَرَغْتُمْ مِنَ الَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ فَخَفِّفُوا عَنْ أَهْلِ الْمَنْزِلِ وَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ » [(٢)] . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ أي : كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث ونسوا أنفسهم حتى شق ذلك على رسول الله ﷺ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ﴾ وقيل : المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به . ولكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه عليه السلام حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ الْحَقِّ ﴾ أي : ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه ، ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ أي : وكما نهيتكم عن الدخول عليهن ، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية ، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب . ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ أي هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ عن ابن عباس قال : نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ بعده ، قال رجل لسفيان : أهي عائشة ؟ قال : قد ذكروا ذلك ، وكذا قال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وذكر بسنده عن السدي أن الذي عزم على ذلك طلحة بن عبد الله رضي الله عنه حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك ، ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده ؛ لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين كما تقدم . واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته هل يحل لغيره أن يتزوجها ؟ على قولين ، مأخذهما هل دخلت هذه في عموم قوله : ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ أم لا ؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها فما نعلم في حلها لغيره ، والحالة هذه ، نزاعًا ، والله أعلم .

وعن عامر أن نبي الله ﷺ مات وقد ملك قيلة بنت الأشعث - يعني ابن قيس - فتزوجها عكرمة بن أبي جهل بعد ذلك فشق ذلك على أبي بكر مشقة شديدة فقال له عمر : يا خليفة رسول الله ، إنها ليست من نسائه إنها لم يخيرها رسول الله ﷺ ولم يحجبها وقد برأها الله منه بالردة التي ارتدت مع قومها ، قال : فاطمأن أبو بكر رضي الله عنه وسكن [(٣)] . وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك وشدد

(١) أخرجه مسلم في النكاح (١٠٠) وأحمد في مسنده (١٤٦/٣) وأبو داود في سننه (٣٧٣٨) .

(٢) أخرجه البخاري في (الهبة وفضلها) (٢٥٦٨) وأحمد في مسنده (٤٧٩/٢) .

(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٥٠/٢٢) (٢١٨٤١) .

فيه ، وتوعد عليه بقوله : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ أي : مهما تكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم ، فإن الله يعلمه فإنه لا تخفى عليه خافية ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ .

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾ .

لما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب بيّن أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم كما استثناهم في سورة النور عند قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ . وفيها زيادات على هذه وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته ها هنا . وقد سأل بعض السلف فقال : لم لم يذكر العم والخال في هاتين الآيتين ؟ فأجاب عكرمة والشعبي بأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما [١] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا نِسَآئِهِنَّ ﴾ يعني بذلك عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ﴾ يعني به أرقاءهن من الذكور والإناث . كما تقدم التنبيه عليه ، وإيراد الحديث فيه ، قال سعيد بن المسيب : إنما يعني به الإماء فقط . وقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾ أي : واخشينه في الخلوة والعلانية فإنه شهيد على كل شيء لا تخفى عليه خافية فراقبن الرقيب .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ .

قال أبو العالية : صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة الدعاء ، وقال ابن عباس : يصلون يبركون [٢] ؛ وروي عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم قالوا : صلاة الرب الرحمة وصلاة الملائكة الاستغفار . وعن عطاء بن أبي رباح ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ ﴾ قال : صلاته تبارك وتعالى سبوح قدوس سبقت رحمتي غضبي . والمقصود من هذه الآية أن الله ﷺ ، أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة تصلي عليه . ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعًا ، وعن ابن عباس : أن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام : هل يصلي ربك ؟ فناداه ربه ﷻ : يا موسى سألوك هل يصلي ربك فقل : نعم أنا أصلي وملائكتي على أنبيائي ورسلي ، فأنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ وقد أخبر ﷺ بأنه يصلي على عباده المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ الآية . وفي الحديث : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى مَيَامِنِ الصُّفُوفِ » [٣] .

---

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٥٢/٢٢) (٢١٨٤٥) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ، تفسير سورة الأحزاب ، قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ ﴾ الآية .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٦٧٦) وابن ماجه في سننه (١٠٠٥) .

وفي الحديث الآخر : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى » (١) . وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه ، وكيفية الصلاة عليه ونحن نذكر منها إن شاء الله ما تيسر والله المستعان . فعن كعب بن عجرة قال : قيل يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه فكيف الصلاة ؟ قال : « قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » (٢) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قلنا : يا رسول الله هذا السلام عليك فكيف نصلي عليك ؟ قال : « قُولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ » قال أبو صالح عن الليث : على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم (٣) .

وعن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه عن عمرو بن سليم أنه قال : أخبرني أبو حميد الساعدي أنهم قالوا : يا رسول الله كيف نصلي عليك ؟ قال : « قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » (٤) .

وعن أبي مسعود الأنصاري قال : أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله فكيف نصلي عليك ؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله ﷺ : « قُولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي العَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ » (٥) .

وعن محمد بن إبراهيم التيمي ومحمد بن عبد الله أبي مسعود البدري أنهم قالوا : يا رسول الله أما السلام فقد عرفناه فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا في صلاتنا ؟ فقال : « قُولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ » (٦) . ومن ها هنا ذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجب على المصلي أن يصلي على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير فإن تركه لم تصح صلاته . وقد شرع بعض المتأخرين من المالكية وغيرهم يشنع على الإمام الشافعي في اشتراطه ذلك في الصلاة ، ويزعم أنه تفرد بذلك . وحكى الإجماع على خلافه أبو جعفر الطبري والطحاوي والخطابي وغيرهم فيما نقله القاضي عياض عنهم ، وقد تعسف هذا القائل في رده على الشافعي وتكلف في دعواه الإجماع في ذلك ، وقال ما لم يحط به علمًا .

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٣٢) ومسلم في (الزكاة) (١٧٦) .
(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٧٠) . (٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٩٨) .
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٢٤/٥) وأبو داود في سننه (٩٧٩ ، ٩٨٠) .
(٥) أخرجه مسلم في الصلاة (٦٥) وأحمد في مسنده (٢٧٤/٥) والترمذي في سننه (٤٨٣) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (١١٩/٤) .

فإنا قد روينا وجوب ذلك والأمر بالصلاة على رسول الله ﷺ في الصلاة ، كما هو ظاهر الآية ، ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة منهم ابن مسعود وأبو مسعود البدري وجابر ابن عبد الله ، ومن التابعين : الشعبي وأبو جعفر الباقر ومقاتل بن حيان وإليه ذهب الشافعي لا خلاف عنه في ذلك ولا بين أصحابه أيضًا ، وإليه ذهب الإمام أحمد أخيرًا فيما حكاه عنه أبو زرعة الدمشقي به ، وبه قال إسحاق بن راهويه والفقيه الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن المواز المالكي رحمهم الله . حتى أن بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال في الصلاة عليه ﷺ ، كما علمهم أن يقولوا لما سألوه وحتى أن بعض أصحابنا أوجب الصلاة على آله فيما حكاه البندنيجي وسليم الرازي وصاحبه نصر ابن إبراهيم المقدسي ، ونقله إمام الحرمين وصاحبه الغزالي قولًا عن الشافعي . والصحيح أنه وجه ، على أن الجمهور على خلافه وحكوا الإجماع على خلافه وللقول بوجوبه ظواهر الحديث والله أعلم . والغرض أن الشافعي رحمه الله يقول بوجوب الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة سلفًا وخلفًا ، كما تقدم ولله الحمد والمنة ، فلا إجماع على خلافه في المسألة لا قديمًا ولا حديثًا والله أعلم . ومما يؤيد ذلك الحديث الآخر الذي رواه فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال : سمع رسول الله ﷺ رجلًا يدعو في صلاته لم يمجد الله ولم يصل على النبي ، فقال رسول الله ﷺ : « عجل هذا » ثم دعاه فقال له أو لغيره : « إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَمْجِيدِ اللَّه عز وجل وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلَى النبي ثُمَّ لِيَدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ » (١) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه ، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه قال : فقالوا له : علِّمنا ، قال : قولوا : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين ، وإمام المتقين وخاتم النبيين ، محمد عبدك ورسولك ، إمام الخير وقائد الخير ، ورسول الرحمة . اللهم ابعثه مقامًا محمودًا يغبطه به الأولون والآخرون ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد (٢) .

وقال أبو إسرائيل عن يونس بن خباب : خطبنا بفارس فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ فقال : أنبأني من سمع ابن عباس يقول : هكذا أنزل ، فقلنا أو قالوا : يا رسول الله علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك ؟ قال : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إبراهيمَ وعلى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، وَارْحَمْ مُحَمَّدًا وآلَ مُحَمَّدٍ كَمَا رَحِمْتَ آلَ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » فيستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبي ﷺ كما هو قول الجمهور ويعضده حديث الأعرابي الذي قال : اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا ، فقال رسول الله ﷺ : « لَقَدْ حَجَّرْتَ وَاسِعًا » (٣) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/١٨) والترمذي في سننه (٣٤٧٧) وأبو داود في سننه (١٤٨١) .
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٩٠٦) . (٣) ذكره الطبري في تفسيره (٢٢/٥٤) .

وعن عامر بن ربيعة : سمعت النبي ﷺ يقول : « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً لَمْ تَزَلِ الملَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَا صَلَّى عليَّ فَلْيُقِلَّ عَبْدٌ مِنْ ذَلِكَ أَوْ لِيُكْثِرْ » (١) .

وعن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ القِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً » (٢) .

عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّه اذْكُرُوا اللَّه ، جَاءَت الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادفة ، جاء الموت بما فيه ، جاء الموت بما فيه » . قال أبي : قلت : يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي ؟ قال : « مَا شِئْتَ » قلت : الربع ؟ قال : « مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » قلت : فالنصف ؟ قال : « مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » قلت : فالثلثين ؟ قال : « مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » . قلت : أجعل لك صلاتي كلها قال : « إِذَنْ تُكْفَى هَمَّكَ وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ » (٣) .

وعن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه : أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسرور يُرى في وجهه فقالوا : يا رسول الله إنا لنرى السرور في وجهك ؟ فقال : « إِنَّهُ أَتَانِي الْمَلَكُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَمَا يُرْضِيكَ أَنَّ رَبَّكَ ﷻ يَقُولُ : إِنَّهُ لَا يُصَلِّي عَلَيْكَ أحدٌ من أمتك إِلَّا صَلَّيْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا ، وَلَا يُسَلِّمُ عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ إِلَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا ؟ قُلْتُ : بَلَى » (٤) .

وعن أبي طلحة الأنصاري قال : أصبح رسول الله ﷺ يومًا طيب النفس يُرى في وجهه البشر ، قالوا : يا رسول الله أصبحت اليوم طيب النفس يرى في وجهك البشر. قال : « أَجَلْ آتاني آتٍ مِنْ رَبِّي ﷻ فَقَالَ : مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ مِنْ أُمَّتِكَ صَلَاةً كَتَبَ اللَّه لَهُ بِهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ ، وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ ، وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ ، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَهَا » (٥) .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهَا زَكَاةٌ لَكُمْ وَسَلُوا اللَّه لِيَ الوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا دَرَجَةٌ فِي أَعْلَى الجَنَّةِ وَلَا يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ » (٦) .

وعن على بن الحسين عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصل علي » (٧) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكرت عندهُ فلمْ يصلِّ عليَّ ، ورغِمَ أنفُ رجلٍ دخلَ عليه شهرُ رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له ، ورغِمَ أنفُ رجلٍ أَدْرَكَ عِنْدَهُ أَبواهُ الكِبَرَ فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الجَنَّةَ » (٨) . وهذا الحديث دليل على وجوب الصلاة على النبي ﷺ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٥/٣) وابن ماجه في سننه (٩٠٧/١) .
(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٤٨٤) .
(٣) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٥٠٠/٢) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/٤) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩/٤) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٥/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٣٢/١) .
(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠١/١) .
(٨) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٤/٢) ، والحاكم في المستدرك (٥٤٩/١) .

كما ذكر ، وهو مذهب طائفة من العلماء منهم الطحاوي والحليمي ويتقوى بالحديث الآخر الذي رواه ابن ماجه ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ نَسِيَ الصَّلَاةَ عَلَيَّ أَخْطَأَ طَرِيقَ الجَنَّةِ » (١) . وذهب آخرون إلى وجوب الصلاة عليه في المجلس مرة واحدة ويتأيد ذلك بحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِم تِرَةً يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ » (٢) . وحكي عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه - عليه الصلاة والسلام - في العمر مرة واحدة امتثالًا لأمر الآية . ثم هي مستحبة في كل حال ، وهذا هو الذي نصره القاضي عياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه ﷺ في الجملة . قال : وقد حكى الطبري أن محمل الآية على الندب وادعى فيه الإجماع ، قال : ولعله فيما زاد على المرة ، والواجب فيه مرة كالشهادة له بالنبوة وما زاد على ذلك فمندوب ومرغب فيه من سنن الإسلام وشعار أهله .

قلت : وهذا قول غريب ، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة ، فمنها واجب ، ومنها مستحب على ما نبينه. فمنه بعد النداء للصلاة : لحديث : « إِذَا سَمِعْتُمْ مُؤَذِّنًا فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَى عَلَيَّ صَلَى اللَّه عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ، ثُمَّ سَلُوا اللَّه لِي الوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الجَنَّةِ لا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّه ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ، فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ » (٣) .

وفي الحديث : « مَنْ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَقَالَ « : اللَّهُمَّ أَنْزِلْهُ المَقْعَدَ المُقَرَّبَ عِنْدَكَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَجَبَتْ لَهُ شفَاعَتِي » (٤) .

ومن ذلك عند دخول المسجد والخروج منه ؛ للحديث الذي روي عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ثم قال : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ » وإذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ » (٥) . وقال علي بن أبي طالب ﷺ : إذا مررتم بالمساجد فصلوا على النبي ﷺ .

وأما الصلاة عليه ﷺ في الصلاة . فقد قدمنا الكلام عليها في التشهد الأخير ، ومن ذهب إلى ذلك من العلماء : منهم الشافعي رحمه الله وأكرمه ، وأحمد ، وأما التشهد الأول فلا تجب فيه قولًا واحدًا وهل تستحب ؟ على قولين للشافعي ، ومن ذلك الصلاة عليه ﷺ في صلاة الجنازة فإن السنة أن يقرأ في التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب ، وفي الثانية : أن يصلي على النبي ﷺ ، وفي الثالثة : يدعو

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٩٠٨) والبيهقي في سننه (٢٨٦/٩) .
(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣٣٨٠) .
(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (١٥) وأحمد في مسنده (١٦٨/٢) وأبو داود في سننه (٥٢٣) والترمذي في سننه (٣٦١٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٨/٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٣/١٠) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٢/٦) وابن ماجه في سننه (٧٧١) .

للميت ، وفي الرابعة : يقول اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده . قال الشافعي رحمه الله : حدثنا مطرف ابن مازن عن معمر عن الزهري أخبرني أبو أمامة بن سهل بن حنيف أنه أخبره رجل من أصحاب النبي ﷺ أن السنة في الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام ، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرًّا في نفسه ، ثم يصلي على النبي ﷺ ويخلص الدعاء للجنازة ، وفي التكبيرات لا يقرأ في شيء منها ثم يسلم سرًّا في نفسه . وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عمر والشعبي ، ومن ذلك في صلاة العيد عن علقمة أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة خرج عليهم الوليد بن عقبة يومًا قبل العيد فقال لهم : إن هذا العيد قد دنا فكيف التكبير فيه ؟ قال عبد الله : تبدأ فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة وتحمد ربك وتصلي على النبي ﷺ ، ثم تدعو وتكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تقرأ ثم تكبر وتركع ، ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربك وتصلي على النبي ﷺ ، ثم تدعو وتكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تركع ، فقال حذيفة وأبو موسى صدق : أبو عبد الرحمن . ومن ذلك أنه يستحب ختم الدعاء بالصلاة عليه ﷺ ، وعن عمر بن الخطاب قال : الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك (١) . وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر : « اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ ، إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ » (٢) ومن ذلك أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة وليلة الجمعة .

وعن أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ؛ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ قُبِضَ ، وَفِيهِ النفخة وفيه الصَّعْقَةُ فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فيه ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ » قالوا : يا رسول الله وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت ؟ - يعني وقد بليت - قال : « إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ » (٣) .

وهكذا يجب على الخطيب أن يصلي على النبي ﷺ يوم الجمعة على المنبر في الخطبتين ولا تصح الخطبتان إلا بذلك ؛ لأنها عبادة ، وذكر الله شرط فيها فوجب ذكر الرسول ﷺ فيها كالأذان والصلاة . هذا مذهب الشافعي وأحمد رحمهما الله . ومن ذلك أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره ﷺ فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إلا رد الله عليّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عليه السلام » (٤) . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا وَلَا تجعلوا قَبْرِي عِيدًا ، وَصَلُّوا عَلَيَّ إِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُما كُنْتُمْ » (٥) . وعن

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٤٨٦) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/١٩٩) والحاكم في المستدرك (٣/١٧٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٨) وابن ماجه في سننه (١٠٨٥) .
(٤) أخرجه أبو داود في سننه (٢٠٤١) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٦٧) وأبو داود في سننه (٢٠٤٢) .

الحسن بن الحسين بن علي قال : رأى قومًا عند قومًا عند القبر فنهاهم وقال : إن النبي ﷺ قال : « لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا وَلَا تَتَّخِذُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا ، وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي » (١) . فلعله رآهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم فوق الحاجة فنهاهم . وقد روي أنه رأى رجلًا ينتاب القبر فقال : يا هذا ما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء . أي : الجميع يبلغه صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين .

وعن عبد الله بن مسعود أن رسول ﷺ قال : « إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الأَرْضِ يُبَلِّغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلَامَ » (٢) . وقد قيل : إنه ويستحب للمحرم إذا لبى وفرغ من تلبيته أن يصلي على النبي ﷺ ؛ لما روي عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال : كان يؤمر الرجل إذا فرغ من تلبيته أن يصلي على النبي ﷺ على كل حال ، وعن وهب بن الأجدع قال : سمعت عمر الخطاب ﷺ يقول : إذا قدمتم فطوفوا بالبيت سبعًا وصلوا عند المقام ركعتين ، ثم ائتوا الصفا ، فقوموا عليه من حيث ترون البيت فكبروا سبع مرات تكبيرًا بين حمد الله وثناء عليه وصلاة على النبي ﷺ ومسألة لنفسك ، وعلى المروة مثل ذلك .

قالوا : ويستحب الصلاة على النبي ﷺ مع ذكر الله عند الذبح ، واستأنسوا بقوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ قال بعض المفسرين : يقول الله تعالى : لا أُذكر إلا ذكرت معي . وخالفهم في ذلك الجمهور ، وقالوا : هذا موطن يفرد فيه ذكر الله تعالى . كما عند الأكل والدخول والوقاع وغير ذلك . مما لم ترد فيه السنة بالصلاة على النبي ﷺ .

مسألة : وقد استحب أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة على النبي ﷺ كلما كتبه ، وقد ذكر الخطيب البغدادي في كتابه [الجامع لآداب الراوي والسامع] قال : رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كثيرًا ما يكتب اسم النبي ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة قال : وبلغني أنه كان يصلي عليه لفظًا .

فصل : وأما الصلاة على غير الأنبياء ، فإن كانت على سبيل التبعية كما تقدم في الحديث : اللهم صل على محمد وآله وأزواجه وذريته فهذا جائز بالإجماع . وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم فقال قائلون : يجوز ذلك واحتجوا بقول الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ . وبقوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ الآية . وبحديث عبد الله بن أبي أوفى قال : كان رسول الله ﷺ : إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِمْ » . فأتاه أبي بصدقته فقال : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى » (٣) . قال الجمهور من العلماء : لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة ؛ لأن هذا قد صار شعارًا للأنبياء إذا ذكروا فلا يلحق بهم غيرهم فلا يقال : قال أبو بكر صلى الله عليه ، أو : قال علي صلى الله عليه ، وإن كان المعنى

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٧/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٤/٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤١/١ ، ٤٥٢) .
(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٣٢) ومسلم في الزكاة (١٧٦) .

صحيحًا . كما لا يقال : قال محمد ﷻ ، وإن كان عزيزًا جليلًا ؛ لأن هذا من شعار ذكر الله ﷻ ، وحملوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم ؛ ولهذا لم يثبت شعارًا لآل أبي أوفى ولا لغيره ، وهذا مسلك حسن . وقال آخرون : لا يجوز ذلك ؛ لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء يصلون على من يعتقدون فيهم ، فلا يقتدى بهم في ذلك والله أعلم .

ثم اختلف المانعون من ذلك هل هو من باب التحريم أو الكراهة التنزيهية أو خلاف الأولى ؟ على ثلاثة أقوال حكاه الشيخ أبو زكريا النووي في كتاب الأذكار . ثم قال : والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه مكروه كراهة تنزيه ؛ لأنه شعار أهل البدع وقد نهينا عن شعارهم ، والمكروه هو ما ورد فيه نهي مقصود . قال أصحابنا : والمعتمد في ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة في لسان السلف بالأنبياء ، كما أن قولنا ﷻ مخصوص بالله تعالى ، فكما لا يقال محمد ﷻ وإن كان عزيزًا جليلًا لا يقال أبو بكر أو علي صلى الله عليه ، هذا لفظ بحروفه ، قال : وأما السلام فقال الشخ أبو محمد الجويني من أصحابنا : هو في معني الصلاة فلا يستعمل في الغائب ولا يفرد به غيرالأنبياء ، فلا يقال علي عليه السلام وسواء في هذا الأحياء والأموات . وأما الحاضر فيخاطب به فيقال : سلام عليك وسلام عليكم أو السلام عليك أو عليكم وهذا مجمع عليه . انتهى ما ذكره .

قلت : وقد غلب هذا في عبارة كثير من النساخ للكتب أن يفرد علي رضي الله عنه بأن يقال عليه السلام من دون سائر الصحابة أو كرم الله وجهه ، وهذا وإن كان معناه صحيحًا لكن ينبغي أن يسوى بين الصحابة في ذلك ، فإن هذا من باب التعظيم والتكريم ، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان أولى بذلك منه رضي الله عنهم أجمعين . قال ابن عباس : لا تصح الصلاة على أحد إلا على النبي ﷺ ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة . وقال جعفر بن برقان : كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أما بعد فإن ناسًا من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة ، وإن ناسًا من القصَّاص قد أحدثوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل الصلاة على النبي ﷺ . فإذا جاءك كتابي هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ، ودعاؤهم للمسلمين عامة ويدعوا ما سوى ذلك .

فرع : قال النووي : إذا صلى على النبي ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم ، فلا يقتصر على أحدهما ، فلا يقول صلى الله عليه فقط ولا عليه السلام فقط ، وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ فالأولى أن يقال ﷺ تسليمًا .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴾ .

يقول تعالى متهددًا ومتوعدًا من آذنه بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك وإيذاء رسوله بعيب أو بنقص - عياذًا بالله من ذلك - قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ نزلت في المصورين . وفي الصحيحين عنه ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ ﷻ : يُؤْذِينِي ابنُ آدَم ، يَسِبُّ

الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ ، أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ » (١) . ومعنى هذا أن الجاهلية كانوا يقولون : يا خيبة الدهر فعل بنا كذا وكذا ، فيسندون أفعال الله إلى الدهر ويسبونه ، وإنما الفاعل لذلك هو الله ﷻ فنهى عن ذلك . هكذا قرره الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من العلماء رحمهم الله . وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ : نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حيي بن أخطب . والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء ومن آذاه فقد آذى الله . كما أن من أطاعه فقد أطاع الله . كما قال عبد الله بن المغفل المزني : قال رسول الله ﷺ : « اللَّه اللَّه في أَصْحَابِي ، لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي ، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّه ، وَمَنْ آذَى اللَّه يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ ﴾ أي : ينسبون إليهم ما هم براء منه ولم يعملوه ولم يفعلوه ﴿ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ وهذا هو البهت الكبير أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه على سبيل العيب والتنقص لهم . ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله ، ثم الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه ، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم ، فإن الله ﷻ قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم وينقصونهم ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبدًا ، فهم في الحقيقة منكسو القلوب يذمون الممدوحين ويمدحون المذمومين . وعن أبي هريرة أنه قيل : يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال : « ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ » قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ » (٣) . وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أَيُّ الرِّبَا أَرْبَى عِنْدَ اللَّه ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « أَرْبَى الرِّبَا عِنْدَ اللَّه اسْتِحْلَالُ عِرْضِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ » ثم قرأ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (٤) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات - خاصة أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء ، والجلباب هو الرداء فوق الخمار . قاله ابن مسعود وعبيدة وقتادة وغير واحد ، وهو بمنزلة الإزار اليوم . قال الجوهري :

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٢٦) ومسلم في الألفاظ من الأدب وغيرها (٢ ، ٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٤/٥ ، ٥٧) والترمذي في سننه (٣٨٦٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٤/٢٠ ، ٣٨٦) وأبو داود في سننه (٤٨٧٤) والترمذي في سننه (١٩٣٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٠/١) .

الجلباب : الملحفة ، قال ابن عباس : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدين عينًا واحدة . وقال محمد بن سيرين : سألت عبيدة السلماني عن قول الله ﷻ : ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى . وقال عكرمة : تغطي ثغرة نحرها بجلبابها تدنيه عليها . وعن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية : ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها . وقال يونس بن يزيد : وسألناه - يعني الزهري - هل على الوليدة خمار متزوجة أو غير متزوجة ؟ قال : عليها الخمار إن كانت متزوجة وتنهى عن الجلباب ؛ لأنه يكره لهن أن يتشبهن بالحرائر المحصنات ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ ، وروي عن سفيان الثوري أنه قال : لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة . وإنما نهى عن ذلك لخوف الفتنة لا لحرمتهن واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ أي : إذا فعلن ذلك عرفن أنهن حرائر ، لسن بإماء ولا عواهر . قال السدي في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ : كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة فيعرضون للنساء ، وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن ، فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن ، فإذا رأوا المرأة عليها جلباب قالوا : هذه حرة فكفوا عنها ، وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب قالوا هذه أمة فوثبوا عليها . وقال مجاهد : يتجلببن فيعلم أنهنَّ حرائر فلا يتعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أي : لما سلف في أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك ، ثم قال تعالى متوعدًا للمنافقين وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ﴿ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ قال عكرمة وغيره : هم الزناة ها هنا ﴿ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ يعني : الذين يقولون : جاء الأعداء وجاءت الحروب وهو كذب وافتراء لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ قال ابن عباس : أي لنسلطنك عليهم . وقال قتادة : لنحرشنك بهم ، وقال السدي : لنعلمنك بهم . ﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ ﴾ أي : في المدينة ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مَّلْعُونِينَ ﴾ حال منهم في إقامتهم في المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين ﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ ﴾ أي : وجدوا ﴿ أُخِذُوا۟ ﴾ لذلتهم وقلتهم ﴿ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ﴾ أي : هذه سنته في المنافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه ، أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أي : وسنة الله في ذلك لا تبدل ولا تغير .

﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا لرسوله صلوات الله وسلامه عليه أنه لا علم له بالساعة ، وإن سأله الناس عن ذلك ، وأرشده أن يرد علمها إلى الله ﷻ . كما قال تعالى في سورة الأعراف وهي مكية وهذه مدنية فاستمر الحال في رد علمها إلى الذي يقيمها ، لكن أخبره أنها قريبة بقوله : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ ثم قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي : أبعدهم من رحمته ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ أي : في الدار الآخرة ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أي : ماكثين مستمرين فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها ﴿ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أي : وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه ثم قال : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ . أي : يسحبون في النار على وجوهم وتلوى وجوههم على جهنم يقولون ، وهم كذلك يتمنون لو أن كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول . كما أخبر الله عنهم في حال العرصات بقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ . وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ . وقال طاوس : سادتنا يعني : الأشراف ، وكبراءنا يعني العلماء ، أي : اتبعنا السادة - وهم الأمراء والكبراء من المشيخة - وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئًا وأنهم على شيء ، فإذا هم ليسوا على شيء . ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ أي : بكفرهم وإغوائهم إيانا . ﴿ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ قرأ بعض القراء بالباء الموحدة ، وقرأ آخرون بالثاء المثلثة (١) وهما قريبا المعنى كما في حديث عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال : يا رسول الله : علمني دعاء أدعو به في صلاتي قال : « قُلِ : اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ » (٢) . يروى كثيرًا وكبيرًا وكلاهما بمعنى صحيح واستحب بعضهم أن يجمع الداعي بين اللفظين في دعائه ، وفي ذلك نظر ، بل الأولى أن يقول هذا تارة وهذا تارة . كما أن القارئ مخير بين القراءة أيتهما قرأ أحسن وليس له الجمع بينهما والله أعلم .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ مُوسَى ﵇ كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ استِحْيَاء مِنْهُ . فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا : مَا يَتَسَتَّرُ هذا التستر إِلَّا مِنْ عَيْبٍ فِي جِلْدِهِ إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُدرَةٌ وَإِمَّا آفَةٌ . وَإِنَّ اللَّهَ ﷻ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى ﵇ فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ فَخَلَعَ ثِيَابَهُ عَلَى حَجَرٍ ثُمَّ اغْتَسَلَ فَلَمَّا فَرَغَ ، أَقْبَلَ عَلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا وَإِنَّ الحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ ، فأخذ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الحَجَرَ فَجَعَلَ يَقُولُ : ثَوْبِي حَجَرُ ، ثَوْبِي حَجَرُ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلأٍ مِنْ بَنِي

(١) قرأ عاصم ﴿ كبيرًا ﴾ بالباء وقرأ الباقون ﴿ كثيرًا ﴾ بالثاء انظر حجة القراءات ص ٥٨٠ .
(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٢٦) ومسلم في الذكر والدعاء (٤٨) .

إِسْرَائِيلَ فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّه ﷻ وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ ، وَقَامَ الحَجَرُ فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ وَطَفِقَ بِالحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ فَوَاللَّه إِنَّ بِالحَجَرِ لَنُدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا - قال - فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ »(١) .

وعن الحكم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب ﷺ في قوله : ﴿ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ﴾ قال : صعد موسى وهارون الجبل فمات هارون عليه السلام فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : أنت قتلته كان ألين لنا منك وأشد حياء فآذوه من ذلك ، فأمر اللَّه الملائكة فحملته فمروا به على مجالس بني إسرائيل فتكلمت بموته فما عرف موضع قبره إلا الرخم ، وإن اللَّه جعله أصم أبكم . قال ابن جرير : وجائز أن يكون هذا هو المراد بالأذى . وجائز أن يكون الأول هو المراد . فلا قول أولى من قول اللَّه ﷻ . قلت : يحتمل أن يكون الكل مرادًا وأن يكون معه غيره . واللَّه أعلم (٢) .

وعن شقيق عن عبد اللَّه قال : قسم رسول اللَّه ﷺ ذات يومًا قسمًا فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه اللَّه قال : فقلت : يا عدو اللَّه أما لأخبرن رسول اللَّه ﷺ بما قلت فذكرت ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه ثم قال : « رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ أي له وجاهة وجاه عند ربه ﷻ . قال الحسن البصري : كان مستجاب الدعوة عند اللَّه . وقال غيره من السلف : لم يسأل اللَّه شيئًا إلا أعطاه ، ولكن منع الرؤية لما يشاء ﷻ . وقال بعضهم : من وجاهته العظيمة عند اللَّه أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله معه فأجاب اللَّه سؤاله فقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بتقواه وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه ، وأن يقولوا قولًا سديدًا أي مستقيمًا لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يوفقهم للأعمال الصالحة ، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية . وما يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ وذلك أنه يجار من نار الجحيم ويصير إلى النعيم المقيم .

عن أبو موسى الأشعري قال : صلى بنا رسول اللَّه ﷺ صلاة الظهر ، فلما انصرف أومأ إلينا بيده فجلسنا فقال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَنِي أَنْ آمُرَكُمْ أَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ وَتَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا » ثم أتى النساء فقال : « إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ آمُرَكُنَّ أَنْ تَتَّقِينَ اللَّهَ وَتَقُلْنَ قَوْلًا سَدِيدًا » (٤) . وعن ابن عباس موقوفًا قال : من سره أن يكون أكرم الناس فليتق اللَّه ، قال عكرمة : القول السديد : لا إله إلا اللَّه . وقال غيره : السديد الصدق ، وقال مجاهد : هو السداد ، وقال غيره : هو الثواب ، والكل حق .

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٠٤) والنَّدَب كالأثر وزنًا ومعنىً .

(٢) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٢/٦٥) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٥٩) ومسلم في الزكاة (١٤٠ ، ١٤١) .

(٤) أخرجه البخاري في (المغازي) (٤٣٣٥) والإمام أحمد في مسنده (١/٣٨٠) .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

قال العوفي عن ابن عباس : يعني بالأمانة الطاعة عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها فقال لآدم : إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فلم يطقنها فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يا رب وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فتحملها فذلك قوله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : الأمانة الفرائض عرضها الله على السماوات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم ، فكرهوا ذلك وأشفقوا عليه من غير معصية ولكن تعظيمًا لدين الله أن لا يقوموا بها . ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ يعني غرًّا بأمر الله . وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : عرضت على آدم فقال : خذها بما فيها فإن أطعت غفرت لك ، وإن عصيت عذبتك . قال : قبلت ، فما كان إلا مقدار ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الخطيئة . قال مجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد : إن الأمانة هي الفرائض ، وقال آخرون : هي الطاعة . وقال أبي بن كعب : من الأمانة أن المرأة أؤتمنت على فرجها . وقال قتادة : الأمانة الدين والفرائض والحدود ، وقال بعضهم : الغسل من الجنابة ، وقال زيد بن أسلم : الأمانة ثلاثة : الصلاة والصوم والاغتسال من الجنابة ، وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها ، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها ، وهو : أنه إن قام بذلك أثيب ، وإن تركها عوقب ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه إلا من وفق الله وبالله المستعان .

قال عون بن معمر يحدث عن الحسن - يعني البصري - أنه تلا هذه الآية ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾ قال : عرضها على السبع الطباق الطرائق التي زينت بالنجوم ، وحملة العرش العظيم ، فقيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : قيل لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت قالت : لا . ثم عرضها على الأرضين السبع الشداد ، التي شدت بالأوتاد ، وذللت بالمهاد ، قال : فقيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : قيل لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت ، قالت : لا . ثم عرضها على الجبال الشم الشوامخ الصعاب الصلاب قال : قيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت ، قالت : لا .

وقال مقاتل بن حيان : إن الله تعالى حين خلق خلقه جمع بين الإنس والجن والسماوات والأرض والجبال ، فبدأ بالسماوات فعرض عليهن الأمانة وهي الطاعة فقال لهن : أتحملن هذه الأمانة ولكن على الفضل والكرامة والثواب في الجنة ؟ فقلن : يا رب إنا لا نستطيع هذا الأمر وليس بنا قوة ولكنا لك مطيعين ، ثم عرض الأمانة على الأرضين فقال لهن : أتحملن هذه الأمانة وتقبلنها مني وأعطيكن الفضل والكرامة في الدنيا ؟ فقلن : لا صبر لنا على هذا يا رب ولا نطيق ، ولكنا لك سامعين مطيعين

لا نعصيك في شيء أمرتنا به . ثم قرب آدم فقال له : أتحمل هذه الأمانة وترعاها حق رعايتها ؟ فقال عند ذلك آدم : ما لي عندك ؟ قال : يا آدم إن أحسنت وأطعت ورعيت الأمانة فلك عندي الكرامة والفضل وحسن الثواب في الجنة ، وإن عصيت ولم ترعها حق رعايتها وأسأت فإني معذبك ومعاقبك وأنزلك النار . قال : رضيت يا رب وحملها . فقال الله ﷻ عند ذلك : قد حملتكها . فذلك قوله : ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ . وعن مجاهد أنه قال: عرضها على السماوات ، فقالت : يا رب حملتني الكواكب وسكان السماء وما ذكر وما أريد ثوابًا ولا أحمل فريضة . قال : وعرضها على الأرض ، فقالت : يا رب غرست فيّ الأشجار وأجريت فيّ الأنهار وسكان الأرض وما ذكر وما أريد ثوابًا ولا أحمل فريضة ، وقالت الجبال مثل ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ في عاقبة أمره . وهكذا قال ابن جريج . وعن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم في هذه الآية ، قال الإنسان : بين أذني وعاتقي فقال الله ﷻ : إني معينك عليها ، إني معينك على عينيك بطبقتين ، فإذا نازعاك إلى ما أكره فأطبق ، ومعينك على لسانك بطبقتين ، فإذا نازعك إلى ما أكره فأطبق . ومعينك على فرجك بلباس فلا تكشفه إلى ما أكره .

وعن أبي الدرداء ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « خَمْسٌ مَنْ جاء بِهِنَّ يَوْمَ القِيامَةِ مَعَ إِيمَانٍ دَخَلَ الجَنَّةَ ؛ مَنْ حَافَظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ عَلَى وُضُوئِهِنَّ وَرُكُوعِهِنَّ وَسُجُودِهِنَّ وَمَوَاقِيتِهِنَّ ، وَأَعْطَى الزَّكَاةَ مَنْ مَالِهِ طَيِّبَ النَّفْسِ بِهَا - وكان يقول - وَايْمُ اللَّه لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَأَدَّى الأَمَانَةَ » . قالوا : يا أبا الدرداء وما أداء الأمانة ؟ قال ﷺ : الغسل من الجنابة ، فإن الله تعالى لم يأمن من ابن آدم على شيء من دينه غيره [1] . وعن زاذان عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : « القَتْلُ في سَبِيلِ اللَّه يُكَفِّرُ الذُّنُوبَ كُلَّهَا - أو قال - يُكَفِّرُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الأَمَانَةَ ، يُؤْتَى بِصَاحِبِ الأَمَانَةِ فَيُقَالُ لَهُ : أَدِّ أَمَانَتَكَ ، فَيَقُولُ : أَنَّى يَا رَبِّ وَقَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيَا ؟ فَيُقَالُ لَهُ : أَدِّ أَمَانَتَكَ فَيَقُولُ : أَنَّى يَا رَبِّ وَقَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيَا ؟ فَيُقَالُ لَهُ : أَدِّ أَمَانَتَكَ ؟ فَيَقُولُ : أَنَّى يَا رَبِّ وَقَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيَا ؟ فَيَقُولُ : اذْهَبُوا بِهِ إِلَى أُمِّهِ الهَاوِيَةِ فَيُذْهَبُ بِهِ إِلَى الهَاوِيَةِ فيهوي فِيهَا حَتَّى ينتهي إِلَى قَعْرِهَا فَيَجِدُهَا هُنَالِكَ كَهَيْئَتِهَا فَيَحْمِلُهَا فَيَضَعُهَا عَلَى عَاتِقِهِ فَيَصْعَدُ بِهَا إِلَى شَفِيرِ جَهَنَّمَ حَتَّى إِذَا رَأَى أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ زَلَّتْ قَدَمُهُ فَهَوَى فِي أَثَرِهَا أَبَدَ الآبِدِينَ » . قال : والأمانة في الصلاة والأمانة في الصوم والأمانة في الوضوء والأمانة في الحديث ، وأشد ذلك الودائع . فلقيت البراء فقلت : ألا تسمع ما يقول أخوك عبد الله ؟ فقال : صدق [2] .

ومما يتعلق بالأمانة الحديث الذي روي عن حذيفة ﷺ قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة . ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال : « ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المجل كجمر دحرجته على رجلك تراه منتبرًا وليس فيه شيء -

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٢/٦٨) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٢/٦٩) .

قال : ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله قال - فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال : إن في بني فلان رجلًا أمينًا ، حتى يقال للرجل : ما أجلده وأظرفه وأعقله وما في قلبه حبة خردل من إيمان ، ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت إن كان مسلمًا ليردنه علي دينه ، وإن كان نصرانيًا أو يهوديًا ليردنه علي ساعيه ، فأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلانًا وفلانًا[1] .

وعن عبد اللَّه بن عمرو ﵄ أن رسول اللَّه ﷺ قال : « أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا : حِفْظُ أَمَانَةٍ وَصِدْقُ حَدِيثٍ وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ وَعِفَّةُ طُعْمَةٍ »[2] . وقد ورد النهي عن الحلف بالأمانة فعن أبي إسحاق الشيباني عن خناس بن سحيم أو قال جبلة بن سحيم : قال : أقبلت مع زياد بن حدير من الجابية ، فقلت في كلامي : لا والأمانة ، فجعل زياد يبكي ويبكي فظننت أني أوتيت أمرًا عظيمًا فقلت له : أكان يكره هذا ؟ قال : نعم ، كان عمر بن الخطاب ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهي . وقد ورد في ذلك حديث مرفوع عن ابن بريدة عن أبيه ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ حَلَفَ بِالأَمَانَةِ فَلَيْسَ مِنَّا »[3] . وقوله تعالى : ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾ أي : إنما حمل بني آدم الأمانة ، وهي التكاليف ؛ ليعذب اللَّه المنافقين منهم والمنافقات ، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفًا من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله ﴿ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾ وهم : الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك باللَّه ومخالفة رسله ﴿ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ ﴾ أي : وليرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا باللَّه وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في (الفتن) (٧٠٨٦) ومسلم في الإيمان (٢٣٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٨٣/٥) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧٧/٢) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٥٢/٥) وأبو داود في سننه (٣٢٥٣) .

سورة سبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ① يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ .

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة ؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ، المالك لجميع ذلك ، الحاكم في جميع ذلك كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ولهذا قال تعالى ها هنا : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : الجميع ملكه وعبيده وتحت تصرفه وقهره كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴾ ثم قال ﷻ : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ﴾ فهو المعبود أبدًا ، المحمود على طول المدى وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ أي : في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه شيء ، وقال الزهري : خبير بخلقه حكيم بأمره ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ أي : يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض والحب المبذور والكامن فيها ، ويعلم ما يخرج من ذلك عدده وكيفيته وصفاته ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي : من قطر ورزق ، ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أي : من الأعمال الصالحة وغير ذلك ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ أي : الرحيم بعباده فلا يعاجل عصاتهم بالعقوبة ، الغفور عن الذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ③ لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ④ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ⑤ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ .

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن مما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد ، فإحداهن في سورة يونس عليه السلام وهي قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ والثانية هذه ، والثالثة في سورة التغابن وهي قوله تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ . فقال تعالى : ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره فقال : ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ . قال مجاهد وقتادة : ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾ : لا يغيب عنه ، أي الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شيء ، فالعظام ، وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت ، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة فإنه بكل شيء عليم . ثم بين حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله تعالى : ﴿ لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ④ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ أي : سعوا في الصد عن سبيل الله تعالى وتكذيب رسله . ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ أي : لينعم السعداء من المؤمنين ويعذب

الأشقياء من الكافرين . كما قال ﷻ : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها ، وهي : أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله تعالى في الدنيا ، رأوه حينئذ عين اليقين ، ويقولون يومئذ أيضًا : ﴿ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ . ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ العزيز هو المنيع الجناب الذي لا يغالب ولا يمانع ، بل قد قهر كل شيء وغلبه ، الحميد في جميع أقواله وشرعه وقدره ، وهو المحمود في ذلك كله جل وعلا .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ .

هذا إخبار من الله ﷻ عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة ، واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أي : تفرقت أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أي : بعد هذا الحال ﴿ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي : تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك . وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين : إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله تعالى أنه قد أوحى إليه ذلك ، أو أنه لم يتعمد لكن لبس عليه كما يلبس على المعتوه والمجنون ولهذا قالوا : ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾ قال الله ﷻ رادًّا عليهم : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾ أي : ليس الأمر كما زعموا ، ولا كما ذهبوا إليه ، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذي جاء بالحق ، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء ﴿ فِى ٱلْعَذَابِ ﴾ أي : الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله تعالى ﴿ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾ من الحق في الدنيا ، ثم قال تعالى منبهًا لهم على قدرته في خلق السماوات والأرض : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ . أي : حيثما توجهوا وذهبوا فالسماء مطلة عليهم والأرض تحتهم ، كما قال ﷻ : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾ . وعن قتادة قال : إنك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك أو من بين يديك أو من خلفك رأيت السماء والأرض . وقوله تعالى : ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي : لو شئنا لفعلنا بهم ذلك بظلمهم وقدرتنا عليهم ، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا ثم قال : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ عن قتادة : المنيب المقبل إلى الله تعالى أي : إن في النظر إلى خلق السماوات والأرض لدلالة لكل عبد فطن لبيب رجاع إلى الله على قدرة الله تعالى على بعث الأجساد ، ووقوع المعاد ؛ لأن من قدر على خلق هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها وهذه الأرضين في انخفاضها ، وأطوالها وأعراضها إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام ، وكما قال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام ، مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن ، والجنود ذوي العُدة والعدد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات الصم الشامخات ، وتقف له الطيور السارحات ، والغاديات والرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات . وفي الصحيح أن رسول اللَّه ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري ﷺ يقرأ من الليل فوقف فاستمع لقراءته ثم قال ﷺ : « لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ »(1) . وقال أبو عثمان النهدي : ما سمعت صوت صنج ولا وتر بربط ولا أحسن من صوت أبي موسى الأشعري ﷺ ومعنى قوله تعالى : ﴿ أَوِّبِى ﴾ أي : سبحي قاله ابن عباس ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ قال الحسن البصري وقتادة والأعمش وغيرهم : كان لا يحتاج أن يدخله نارًا ولا يضربه بمطرقة بل كان يفتله بيده مثل الخيوط ولهذا قال تعالى : ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ ﴾ وهي الدروع . قال قتادة : وهو أول من عملها من الخلق ، وإنما كانت قبل ذلك صفائح ، وعن ابن شوذب قال : كان داود عليه السلام يرفع في كل يوم درعًا فيبيعها بستة آلاف درهم ألفين له ولأهله ، وأربعة آلاف درهم يطعم بها بني إسرائيل خبز الحواري ﴿ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾ هذا إرشاد من اللَّه تعالى لنبيه داود عليه السلام في تعليمه صنعة الدروع ، قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾ لا تدق المسمار فيقلق في الحلقة ولا تغلظه فيقضمها واجعله بقدر ، وقال الحكم بن عيينة : لا تغلظه فيقصم ولا تدقه فيقلق ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ﴾ أي : في الذي أعطاكم اللَّه تعالى من النعم ﴿ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي : مراقب لكم بصير بأعمالكم وأقوالكم ، لا يخفى عليَّ من ذلك شيء .

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ .

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام من تسخير الريح له تحمل بساطه غدوها شهر ورواحها شهر . وقوله تعالى : ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وعطاء الخرساني وغير واحد : القطر النحاس . قال قتادة : وكانت باليمن فكل ما يصنع الناس مما أخرج اللَّه تعالى لسليمان عليه السلام ، قال السدي : وإنما أسيلت له ثلاثة أيام . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ أي : وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن ربه ، أي : بقدره وتسخيره لهم بمشيئته ما يشاء من البنايات وغير ذلك ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ أي : ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ وهو : الحريق . وقال ابن أنعم : الجن ثلاثة أصناف ، صنف لهم الثواب وعليهم العقاب ، وصنف طيارون فيما بين السماء والأرض ، وصنف حيات وكلاب . قال بكر : ولا أعلم إلا أنه حدثني ، أن الإنس ثلاثة أصناف ،

(1) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٤٨) ومسلم في صلاة المسافرين (٣٦) .

صنف يظلهم اللَّه بظل عرشه يوم القيامة ، وصنف كالأنعام بل هم أضل سبيلًا ، وصنف في صور الناس على قلوب الشياطين . عن الحسن قال : الجن ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء مؤمنون ، ومن هؤلاء مؤمنون وهم شركاؤهم في الثواب والعقاب ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنًا فهو ولي اللَّهِ تعالى ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرًا فهو شيطان . وقوله تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ ﴾ أما المحاريب فهي البناء الحسن ، وهو أشرف شيء في المسكن وصدره . وقال مجاهد : المحاريب بنيان دون القصور . وقال الضحاك : هي المساجد . وقال قتادة : هي القصور والمساجد . وقال ابن زيد : هي المساكن . وأما التماثيل فقال عطية العوفي : التماثيل الصور . قال مجاهد : وكانت من نحاس . وقال قتادة : من طين وزجاج .

وقوله تعالى : ﴿ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ الجواب : جمع جابية ، وهي الحوض الذي يجبى فيه الماء . وعن ابن عباس ﷺ ﴿ كَٱلْجَوَابِ ﴾ أي كالجوبة من الأرض وقال العوفي عنه : كالحياض ، والقدور الراسيات أي : الثابتات في أماكنها لا تتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعظمها . كذا قال مجاهد والضحاك وغيرهما : وقال عكرمة : أثافيها منها . وقوله تعالى : ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ أي : وقلنا لهم اعملوا شكرًا على ما أنعم به عليكم في الدين والدنيا ، وشكرًا مصدر من غير الفعل ، أو أنه مفعول له وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول والنية .

قال أبو عبد الرحمن السلمي : الصلاة شكر والصيام شكر وكل خير تعمله للَّه ﷻ شكر ، وأفضل الشكر الحمد . وعن محمد بن كعب القرطبي قال : الشكر تقوى اللَّه تعالى والعمل الصالح . وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل . وقد كان آل داود ﵇ كذلك قائمين بشكر اللَّه تعالى قولًا وعملًا . وعن ثابت البناني قال : كان داود ﵇ قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة ، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي فغمرتهم هذه الآية : ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ . وفي الصحيحين عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « إِنَّ أَحَبَّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صَلَاةُ دَاوُدَ ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَه ، وينامُ سُدُسَهُ ، وَأَحَبَّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صِيَامُ دَاوُدَ ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا ، وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى »(١) . عن جابر ﵁ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ ﵉ لِسُلَيْمَانَ : يَا بُنَيَّ لَا تُكْثِرِ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ ، فَإِنَّ كثرة النَّوْمِ بِاللَّيْلِ تَتْرُكُ الرَّجُلَ فَقِيرًا يَوْمَ القِيَامَةِ »(٢) . وقال فضيل في قوله تعالى : ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ قال داود : يا رب كيف أشكرك والشكر نعمة منك ؟ قال : الآنَ شَكَرْتَنِي حِينَ عَلِمْتَ أَنَّ النِّعْمَةَ مِنِّي . وقوله تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ إخبار عن الواقع .

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ .

يذكر تعالى كيفية موت سليمان ﵇ ، وكيف عمى اللَّه موته على الجان المسخرين له في

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٣١) ومسلم في الصيام (١٨٩) .
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (١٣٣٢) .

الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئًا على عصاه وهي منسأته . كما قال ابن عباس ﷺ ومجاهد وغير واحد : مدة طويلة نحوًا من سنة ، فلما أكلتها دابة الأرض - وهي الأرضة - ضعفت وسقط إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة ، وتبينت الجن والإنس أيضًا أن الجن لا يعلمون الغيب ، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك .

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ⑮ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ⑯ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ .

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها وكانت التبابعة منهم وبلقيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام من جملتهم ، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم ، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته ، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ شذر مذر . عن عبد الرحمن بن وعلة قال : سمعت ابن عباس يقول : إن رجلًا سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو أرجل أم امرأة أم أرض ؟ قال ﷺ : « بَلْ هُوَ رَجُلٌ وُلِدَ لَهُ عَشَرَةٌ ، فسكَنَ اليَمَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ والشَّامَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ ، فَأَمَّا اليَمَانِيُّونَ فَمَذْحِجُ وَكِنْدَةُ والأَزْدُ والأَشْعَرِيُّونَ وَأَنْمَارُ وَحِمْيَرُ ، وَأَمَّا الشَّامِيَّةُ فَلَخْمٌ وَجُذَامٌ وَعَامِلَةُ وغَسَّانُ » (١) .

قال علماء النسب - منهم محمد بن إسحاق - اسم سبأ عبد الشمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وإنما سمي سبأ ؛ لأنه أول من سبأ في العرب وكان يقال له : الرائش لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه فسمي الرائش ، والعرب تسمي المال ريشًا ورياشًا . وذكروا أنه بشر برسول الله ﷺ في زمانه المتقدم وقال في ذلك شعرًا :

سَيَمْلِكُ بَعْدَنَا مُلْكًا عَظِيمًا ... نَبِيٌّ لَا يُرَخِّصُ فِي الحَرَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُ مِنْهُمْ مُلُوكٌ ... يُدِينُونَ القِيَادَ بِكُلِّ دَامِي
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُمْ مِنَّا مُلُوكٌ ... يَصِيرُ المُلْكُ فِينَا بِاقْتِسَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَ قَحْطَانَ نَبِيٌّ ... تَقِيٌّ مُخْبِتٌ خَيْرُ الأَنَامِ
يُسَمَّى أَحْمَدًا يَا لَيْتَ أَنِّي ... أُعَمَّرُ بَعْدَ مَبْعَثِهِ بِعَامِ
فَأَعْضُدُهُ وَأَحْبُوهُ بِنَصْرِي ... بِكُلِّ مُدَجَّجٍ وَبِكُلِّ رَامِ
مَتَى يَظْهَرْ فَكُونُوا نَاصِرِيهِ ... وَمَنْ يَلْقَاهُ يُبْلِغْهُ سَلَامِي

واختلفوا في قحطان على ثلاثة أقوال : أحدها : أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح . واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاثة طرائق . والثاني : أنه من سلالة عابر ، وهو هود عليه الصلاة والسلام واختلفوا أيضًا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضًا . والثالث : أنه من سلالة إسماعيل بن

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣١٦/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٣/١) .

إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام ، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضًا . وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر النمري رحمه الله في كتابه المسمى - الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواه - ومعنى قوله ﷺ : « كَانَ رَجُلًا مِنَ العَرَبِ » يعني : العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام من سلالة سام بن نوح ، وعلى القول الثالث : كان من سلالة الخليل عليه السلام ، وليس هذا بالمشهور عندهم والله أعلم .ولكن في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ مر بنفر من أسلم ينتضلون فقال : « ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا » (١) . فأسلمُ قبيلة من الأنصار ، والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ ، نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ في البلاد حين بعث الله عز وجل عليهم سيل العرم ، ونزلت طائفة منهم بالشام ، وإنما قيل لهم : غسان بماء نزلوا عليه باليمن ، وقيل : إنه قريب من المشلل كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه :

إِمَّا سَأَلْتَ فَإِنَّا مَعْشَرٌ نُجُبٌ ... الأَزْدُ نِسْبَتُنَا وَالمَاءُ غَسَّانُ

ومعنى قوله ﷺ : « وُلِدَ لَهُ عَشْرَةٌ مِنَ العَرَبِ » أي : كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن ، لا أنهم ولدوا من صلبه ، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة ، والأقل والأكثر . كما هو مقرر مبين في مواضعه من كتب النسب . ومعنى قوله ﷺ : « فَتَيَامَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ وَتَشَاءَمَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ » . أي : بعد ما أرسل الله تعالى عليهم سيل العرم منهم من أقام ببلادهم ، ومنهم من نزح عنها إلى غيرها . وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضًا سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعمد ملوكهم الأقادم فبنوا بينهما سدًّا عظيمًا محكمًا حتى ارتفع الماء وحكم على حافات ذينك الجبلين . فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن . كما ذكر غير واحد من السلف منهم قتادة أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل - وهو الذي تخترف فيه الثمار - فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف لكثرته ونضجه واستوائه . وكان هذا السد بمأرب ، بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ، ويعرف بسد مأرب ، وذكر آخرون : أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ولا شيء من الهوام ، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم ليوحدوه ويعبدوه كما قال تبارك وتعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ﴾ ثم فسرها بقوله عز وجل : ﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ أي : من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ أي : غفور لكم إن استمررتم على التوحيد . وقوله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ أي : عن توحيد الله وعبادته الله وشكره على ما أنعم به عليهم ، وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ المراد بالعرم المياه ، وقيل : الوادي . وقيل : الجرذ . وقيل : الماء الغزير . فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته مثل مسجد الجامع وسعيد كرز ، حكى ذلك السهيلي . وذكر غير واحد منهم ابن عباس أن الله عز وجل لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم بعث على السد دابة من الأرض يقال لها : الجرذ نقبته . قال وهب بن منبه : وقد كانوا يجدون في كتبهم أن

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٠٧) والحاكم في المستدرك (٩٤/٢) .

سبب خراب هذا السد هو الجرذ ، فكانوا يرصدون عنده السنانير برهة من الزمان ، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير وولجت إلى السد فنقبته فانهار عليهم . وقال قتادة وغيره : الجرذ : هو الخلد نقبت أسافله حتى إذا ضعف ووهى ، وجاءت أيام السيول صدم الماء البناء فسقط فانساب الماء في أسفل الوادي وخرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال ، فيبست وتحطمت وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم : وهو الأراك وأكلة البربر ﴿ وَأَثْلٍ ﴾ قال العوفي عن ابن عباس : هو الطرفاء وقال غيره : هو شجر يشبه الطرفاء وقيل : هو السمر والله أعلم . وقوله : ﴿ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر ﴿ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه ، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل ، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله وتكذيبهم الحقَّ ، وعدولهم عنه إلى الباطل ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ أي : عاقبناهم بكفرهم . قال مجاهد : ولا يعاقب إلا الكفور . وقال الحسن البصري : صدق الله العظيم لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور . وقال طاوس : لا يناقش إلا الكفور . وقال ابن خيره وكان من أصحاب علي ﷺ : جزاء المعصية الوهن في العبادة والضيق في المعيشة والتعسر في اللذة قيل : وما التعسر في اللذة ؟ قال : لا يصادف لذة حلال إلا جاءه من ينغصه إياها .

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

يذكر ما كانوا فيه من النعمة والغبطة والعيش الهني الرغيد ، والبلاد الرخية ، والأماكن الآمنة والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماءً وثمرًا ، ويقيل في قرية ويبيت في أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ قال وهب ابن منبه : هي قرى بصنعاء ، وقال مجاهد والحسن وسعيد بن جبير وغيرهم : يعني : قرى الشام ، يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة . وقال ابن عباس : القرى التي باركنا فيها بيت المقدس ، وقال العوفي عنه أيضًا : هي قرى عربية بين المدينة والشام ﴿ قُرًى ظَٰهِرَةً ﴾ أي : بينة واضحة يعرفها المسافرون يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ﴾ أي : جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرين إليه ﴿ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ أي : الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلًا ونهارًا ﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ وقرأ آخرون (بَعِّدْ بين أسفارنا) [١] وذلك أنهم بطروا هذه النعمة . كما قال ابن عباس وغير واحد . وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحرور والمخاوف ، كما طلب بنو إسرائيل

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (بَعِّدْ) بالتشديد والباقون بالألف (باعد) (حجة القراءات ص ٥٨٨) .

من موسى ، أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في منٍّ وسلوى وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة . ولهذا قال لهم : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ . وقال ﷻ : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ . وقال تعالى في حق هؤلاء : ﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي : بكفرهم ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ ﴾ أي : جعلناها حديثًا للناس وسمرًا يتحدثون به من خبرهم . وكيف مكر الله بهم وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء ، تفرقوا في البلاد ها هنا وها هنا . ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا : تفرقوا أيدي سبأ وأيادي سبأ ، وتفرقوا شذر مذر .

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في أول السيرة ما كان من أمر عمرو بن عامر الذي كان أول من خرج من بلاد اليمن بسبب استشعاره بإرسال العرم عليهم فقال : وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن فيما حدثني به أبو زيد الأنصاري أنه رأى جرذًا يحفر في سد مأرب الذي كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاؤوا من أرضهم ، فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك فاعتزم على النقلة عن اليمن ، وكاد قومه ، فأمر أصغر ولده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ففعل ابنه ما أمره به فقال عمرو : لا أقيم ببلد لطم وجهي فيها أصغرُ ولدي وعرض أمواله . فقال أشراف من أشراف اليمن : اغتنموا غضبة عمرو فاشتروا منه أمواله ، وانتقل هو في ولده وولد ولده ، وقالت الأسد : لا نتخلف عن عمرو بن عامر فباعوا أموالهم وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان فحاربتهم عك وكانت حربهم سجالًا ، ففي ذلك يقول عباس بن مرداس السلمي ﷺ :

وَعَكّ بْنُ عَدْنَانَ الَّذِينَ تَلَعَّبُوا ... بِغَسَّانَ حَتَّى طُرِّدُوا كُلَّ مَطْرَدِ

وهذا البيت من قصيدة له . قال : ثم ارتحلوا عنهم ، فتفرقوا في البلدان فنزل آل جفنة بن عمرو ابن عامر الشام ، ونزلت الأوس والخزرج بيثرب ، ونزلت خزاعة مرًّا . ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد عمان عمان ، ثم أرسل الله على السد السيل ، فهدمه . وفي ذلك أنزل الله ﷻ هذه الآيات . وقد ذكر السدي قصة عمرو بن عامر بنحو مما ذكر محمد بن إسحاق إلا أنه قال : فأمر ابن أخيه مكان ابنه - إلى قوله - فباع ماله وارتحل بأهله فتفرقوا . وقال ابن جرير : عن ابن إسحاق قال : يزعمون أن عمرو بن عامر - وهو عم القوم - كان كاهنًا فرأى في كهانته أن قومه سيمزقون ويباعد بين أسفارهم . فقال لهم : إني قد علمت أنكم ستمزقون فمن كان منكم ذا هم بعيد وحمل شديد ، ومزاد حديد ، فليلحق بكاس أو كرود . قال : فكانت وادعة بن عمرو . ومن كان منكم ذا هم مدن ، وأمر دعن ، فليلحق بأرض شن ، فكانت عوف بن عمرو وهم الذين يقال لهم : بارق ، ومن كان منكم يريد عيشًا آنيًا ، وحرمًا آمنًا فليلحق بالأرزين فكانت خزاعة ، ومن كان منكم يريد الراسيات في الوحل ، والمطعمات في المحل ، فليلحق بيثرب ذات النخل فكانت الأوس والخزرج ، وهما هذان الحيان من الأنصار ، ومن كان منكم يريد خمرًا وخميرًا وذهبًا وحريرًا ، وملكًا وتأميرًا ، فليلحق بكوثى وبصرى ، فكانت غسان بنو جفنة ملوك الشام ومن كان منهم بالعراق . قال ابن

إسحاق : وقد سمعت بعض أهل العلم يقول : إنما قالت هذه المقالة طريفة امرأة عمرو بن عامر ، وكانت كاهنة فرأت في كهانتها ذلك ، فالله أعلم أي ذلك كان [١] . وقال سعيد عن قتادة عن الشعبي : أما غسان فلحقوا بعمان فمزقهم الله كل ممزق بالشام ، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب ، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة ، وأما الأزد فلحقوا بعمان ، فمزقهم الله كل ممزق .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي : إن في هذا الذي حل بهؤلاء من النقمة والعذاب وتبديل النعمة ، وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام ، لعبرة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب شكور على النعم . قال سعد بن أبي وقاص ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « عَجِبْتُ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ حَمِدَ رَبَّهُ وَشَكَرَ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ حَمِدَ رَبَّهُ وَصَبَرَ . يُؤْجَرُ الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي اللُّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى فِي امْرَأَتِهِ » [٢] .

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ .

لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطان ، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى وخالف الرشاد والهدى فقال : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ . قال ابن عباس ﷺ وغيره : هذه الآية كقوله تعالى إخبارًا عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم عليه الصلاة والسلام . ثم قال : ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . وقال الحسن البصري : لما أهبط الله آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة ومعه حواء هبط إبليس فرحًا بما أصاب منهما وقال : إذا أصبت من الأبوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف ، وكان ذلك ظنًّا من إبليس فأنزل الله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فقال عند ذلك إبليس : لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح أعده وأمنيه وأخدعه ، فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا أحجب عنه التوبة ما لم يغرغر بالموت ، ولا يدعوني إلا أجبته ، ولا يسألني إلا أعطيته ، ولا يستغفرني إلا غفرت له ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ قال ابن عباس ﷺ : أي من حجة . وقال الحسن البصري : والله ما ضربهم بعصا ، ولا أكرههم على شيء . وما كان إلا غرورًا وأماني دعاهم إليها فأجابوه . وقوله ﷻ : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ أي : إنما سلطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء فيحسن عبادة ربه ﷻ في الدنيا ممن هو منها في شك .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أي : ومع حفظه ضل من ضل من أتباع إبليس ، وبحفظه وكلاءته سلم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل .

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ۝ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا

---

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٢/١٠٥) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/١٧٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٢٠٩) .

قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ .

يبين تبارك وتعالى أنه الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا نظير له ولا شريك له ، بل هو المستقل بالأمر وحده من غير مشارك ولا منازع ولا معارض . فقال : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي : الآلهة التي عبدت من دونه ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ . كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ . أي : لا يملكون شيئًا استقلالًا ولا على سبيل الشركة . ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ أي : وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور ، بل الخلق كلهم فقراء إليه عبيد لديه ، قال قتادة في قوله ﷻ : ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ من عون يعينه بشيء . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ أي : لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء إلا بعد إذنه له في الشفاعة ، كما قال ﷻ : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ولهذا ثبت عن رسول الله ﷺ - وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفيع عند الله تعالى - أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم أن يأتي ربهم لفصل القضاء قال : « فَأَسْجُدُ للَّه تَعَالَى فَيَدَعُني مَا شَاءَ اللَّه أَنْ يَدَعَني ، وَيَفْتَحُ عَلَيَّ بِمَحَامِدَ لا أُحْصِيهَا الآنَ ، ثم يقال : يا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ تُسْمَعْ ، وَسَلْ تُعْطَهْ ، وَاشْفَعْ تُشفعْ »[(١)] . الحديث بتمامه .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ وهذا أيضًا مقام رفيع في العظمة وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السموات كلامه أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي . قاله ابن مسعود ﷺ ومسروق وغيرهما . ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ أي : زال الفزع عنها . قال ابن عباس وابن عمر ﷺ وقتادة : في قوله ﷻ : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ يقول : خلى عن قلوبهم ، وقرأ بعض السلف ، وجاء مرفوعًا (إذا فرغ) بالغين المعجمة ويرجع إلى الأول ، فإذا كان كذلك سأل بعضهم بعضًا : ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ أي : أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ . وقال آخرون : بل معنى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ يعني المشركين عند الاحتضار ، ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة في الدنيا ، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة قالوا : ماذا قال ربكم ؟ فقيل لهم : الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين في الدنيا ، قال مجاهد : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ : كشف عنها الغطاء يوم القيامة ، وقال الحسن : يعني : ما فيها من الشك والتكذيب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعني : ما فيها من الشك قال : فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانيهم وما كان يضلهم . ﴿ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ قال : وهذا في بني آدم هذا عند الموت ، أقروا حين لا ينفعهم الإقرار . وقد اختار ابن جرير القول الأول ، وأن الضمير عائد على الملائكة ، وهذا هو الحق الذي لا مرية فيه لصحة الأحاديث فيه والآثار ولنذكر منها طرفًا يدل على غيره .

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٠) ومسلم في الإيمان (٣٢٢) .

عن سفيان ، حدثنا عمرو قال : سمعت عكرمة قال : سمعت أبا هريرة ﷺ قال : إن نبي الله ﷺ قال : « إِذَا قَضَى اللَّهُ تَعَالَى الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَت المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خضعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَان ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا : ماذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ : الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ . فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بيده فحرفها ونشر بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا ، كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء »(١) .

وعن ابن عباس ﵄ ، وعن قتادة أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إيحاء الله تعالى إلى محمد ﷺ بعد الفترة التي كانت بينه وبين عيسى عليه الصلاة والسلام ، ولا شك أن هذا أولى ما دخل في هذه الآية .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ۝ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

قال تعالى مقررًا تفرده بالخلق والرزق وانفراده بالإلهية أيضًا . فكما كانوا يعترفون بأنهم لا يرزقهم من السماء والأرض أي : بما ينزل من المطر وينبت من الزرع إلا الله ، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ هذا من باب اللف والنشر ، أي : واحد من الفريقين مبطل ، والآخر محق لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال ، بل واحد منا مصيب ، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد . فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ . قال قتادة : قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين ، والله ما نحن وإياكم على أمر واحد ، إن أحد الفريقين لمهتد . وقال عكرمة : معناها إنا نحن لعلى هدى وإنكم لفي ضلال مبين . وقوله تعالى : ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ معناه : التبري منهم أي : لستم منا ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيده وإفراد العبادة له ، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم ، وإن كذبتم فنحن براء منكم وأنتم براء منا . كما قال تعالى : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ أي : يوم القيامة يجمع بين الخلائق في صعيد واحد ، ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي : يحكم بيننا بالعدل . فيجزي كل عامل بعمله إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر ، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية . كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ .

ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي : الحاكم العالم بحقائق الأمور . وقوله تبارك

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٠٠) والترمذي في سننه (٣٢٢٣) وابن ماجه في سننه (١٩٤) .

وتعالى : ﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ﴾ أي : أروني هذه الآلهة التي جعلتموها للَّه أندادًا وصيرتموها له عدلًا ﴿ كَلَّا ﴾ أي : ليس له نظير ولا نديد ولا شريك ولا عديل . ولهذا قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ﴾ أي : الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي : ذو العزة الذي قد قهر بها كل شيء وغلبت كل شيء ، الحكيم في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره تبارك وتعالى وتقدس عما يقولون علوًّا كبيرًا ، واللَّه أعلم .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٨ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ تسليمًا . ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي : إلا إلى جميع الخلائق من المكلفين ؛ كقوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي : تبشر من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . كقوله ﷻ : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ . قال محمد بن كعب في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ : يعني : إلى الناس عامة . وقال قتادة في هذه الآية : أرسل اللَّه تعالى محمدًا ﷺ إلى العرب والعجم فأكرمهم على اللَّه تبارك وتعالى أطوعهم للَّه ﷻ . وعن عكرمة قال : سمعت ابن عباس ﵄ يقول : إن اللَّه تعالى فضل محمدًا ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا : يا ابن عباس فيم فضله على الأنبياء ؟ قال ﵁ : إن اللَّه تعالى قال : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ وقال للنبي ﷺ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ . فأرسله اللَّه تعالى إلى الجن والإنس . وهذا الذي قاله ابن عباس ﵄ قد ثبت في الصحيحين رفعه عن جابر ﵁ : قال رسول اللَّه ﷺ : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ ، وَأُحِلَّتْ لِي الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً » (١) . وفي الصحيح أيضًا أن رسول اللَّه ﷺ قال : « بُعِثْتُ إِلَى الأَسْوَدِ وَالأَحْمَرِ » (٢) . قال مجاهد : يعني الجن والإنس . وقال غيره : يعني العرب والعجم والكل صحيح . ثم قال ﷻ مخبرًا عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ وهذه الآية كقوله ﷻ : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾ الآية . ثم قال تعالى : ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أي : لكم ميعاد مؤجل معدود محرر لا يزاد ولا ينقص ، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۝١٠٤ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥) ومسلم في المساجد (٣) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١١٦/٤) ، (١٤٥/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦٥/٦) .

رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ .

يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم ، وبما أخبر به من أمر المعاد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ . قال الله ﷻ متهددًا لهم ومتوعدًا ومخبرًا عن مواقفهم الذليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجهم ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ ﴾ وهم الأتباع . ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ منهم وهم قادتهم وسادتهم ، ﴿ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي : لولا أنتم تصدونا لكنا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاؤونا به ، فقال لهم القادة والسادة وهم الذين استكبروا : ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ﴾ ؟ أي : نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان ، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل لشهوتكم واختياركم لذلك ؛ ولهذا قالوا : ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أي : بل كنتم تمكرون بنا ليلًا ونهارًا وتغرونا وتمنونا وتخبرونا أنا على هدى ، وأنا على شيء ، فإذا جميع ذلك باطل وكذب ومين . قال قتادة وابن زيد : ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ يقول : بل مكركم بالليل والنهار ، وكذا قال زيد بن أسلم . ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ أي نظراء وآلهة معه وتقيموا لنا شبهًا وأشياء من المحال تضلونا بها ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ أي : الجميع من السادة والأتباع كل ندم على ما سلف منه ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ وهي : السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي : إنما نجازيكم بأعمالكم كل بحسبه للقادة عذاب بحسبهم وللأتباع بحسبهم . ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَّا سِيقَ إِلَيْهَا أَهْلُهَا تَلَقَّاهُمْ لَهَبُهَا ثُمَّ لفحتهم لَفْحَةً فَلَمْ يَبْقَ لحم إِلَّا سَقَطَ عَلَى الْعُرْقُوبِ** » [(١)] .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

يقول تعالى مسليًا لنبيه ﷺ وآمرًا له بالتأسي بمن قبله من الرسل ومخبره بأنه ما بعث نبيًا في قرية إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤهم ، كما قال قوم نوح عليه الصلاة والسلام : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ﴾ . وقال جل

---

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٤/٤٨٨) .

وعلا ها هنا : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ أي : نبي أو رسول ﴿ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ ﴾ وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة . قال قتادة : هم جبابرتهم وقادتهم ورؤوسهم في الشر . ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ أي : لا نؤمن به ولا نتبعه . عن أبي رزين قال : كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر ، فلما بعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل . فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم قال : فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال : دلني عليه قال : وكان يقرأ الكتب أو بعض الكتب . قال : فأتى النبي ﷺ فقال : إِلَامَ تَدعو ؟ قال : « أَدعُو إِلَى كَذَا وَكَذَا » قال : أشهد أنك رسول الله . قال ﷺ : « وَمَا عِلْمُكَ بِذَلِكَ ؟ » قال : إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه أراذل الناس ومساكينهم . قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ الآية . قال : فأرسل إليه النبي ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ أَنْزَلَ تَصْدِيقَ مَا قُلْتَ » وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل قال فيها : وسألتك : أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم ؟ فزعمت بل ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل . وقال تبارك وتعالى إخبارًا عن المترفين المكذبين : ﴿ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ أي : افتخروا بكثرة الأموال والأولاد واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم واعتنائه بهم ، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة ، وهيهات لهم ذلك . قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ .

وقد أخبر الله ﷻ عن صاحب تينك الجنتين أنه : كان ذا مال وثمر وولد ثم لم يغن عنه شيئًا . بل سلب ذلك في الدنيا قبل الآخرة ، ولهذا قال ﷻ ها هنا : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي : يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب ، فيفقر من يشاء ويغني من يشاء وله الحكمة التامة البالغة والحجة القاطعة الدامغة ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾ أي : ليست هذه دليلًا على محبتنا لكم ولا اعتنائنا بكم . وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوالِكُمْ وَلكِنْ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » (١) . ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أي : إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح . ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾ أي : تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف . ﴿ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ أي : في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ومن كل شيء يحذر منه . وعن علي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَغُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا » فقال أعرابي : لمن هي ؟ قال ﷺ : « لِمَنْ طَيَّبَ الكَلَامَ ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ ، وَصَلَّى بِاللَّيلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ » (٢) . ﴿ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ أي : يسعون في الصد عن سبيل الله واتباع رسله والتصديق بآياته . ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ أي : جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها بحسبهم .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٢٨٥ ، ٥٣٩) وابن ماجه في سننه (٤١٤٣) والإمام مسلم في البر والصلة (٣٤) من حديث كثير بن هشام عن جعفر بن برقان به .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٢٥٢٧) والإمام أحمد في مسنده (١/١٥٦) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ أي : بحسب ماله في ذلك من الحكمة يبسط على هذا من المال كثيرًا ، ويضيق على هذا ، ويقتّر على هذا رزقه جدًّا . وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره ، كما قال تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ أي : كما هم متفاوتون في الدنيا . هذا فقير مدقع ، وهذا غني موسع عليه . فكذلك هم في الآخرة ، هذا في الغرفات في أعلى الدرجات ، وهذا في الغمرات في أسفل الدركات ؛ وأطيب الناس في الدنيا كما قال ﷺ : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أي : مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل ، وفي الآخرة بالجزاء والثواب كما ثبت في الحديث : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ » (٢) . وفي الحديث أن ملكين يصبحان كل يوم يقول أحدهما : اللهم أعط ممسكًا تلفًا ، ويقول الآخر : اللهم أعط منفقًا خلفًا (٣) . وقال رسول الله ﷺ : « أَنْفِقْ بِلَالًا وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا » (٤) . وقال مجاهد : لا يتأولن أحدكم هذه الآية ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ إذا كان عند أحدكم ما يقيمه ، فليقصد فيه ، فإن الرزق مقسوم .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورهم ليقربوهم إلى الله زلفى فيقول للملائكة : ﴿ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ أي : أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم . كما قال تعالى لعيسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ وهكذا تقول الملائكة ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أي : تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾ أي : نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ يعنون : الشياطين ؛ لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم ﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ . كما قال تبارك وتعالى : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ﴾ . قال الله ﷻ : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ أي : لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكم ، اليوم لا يملكون لكم نفعًا ولا ضرًّا ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ وهم المشركون ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أي : يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٢٥) والإمام أحمد في مسنده (١٦٨/٢ ، ١٧٣) .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٨٤) ومسلم في الزكاة (٣٦ ، ٣٧) .

(٣) أخرجه البخاري في (الزكاة) (١٤٤٢) ومسلم في الزكاة (٥٧) .

(٤) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٦/٣ ، ٢٤١/١٠) .

إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٍ ۝٤٤ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ .

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب ؛ لأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آياته بينات يسمعونها غضة طرية من لسان رسول الله ﷺ ﴿ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ ﴾ يعنون أن دين آبائهم هو الحق ، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل ، عليهم وعلى آبائهم لعائن الله تعالى . ﴿ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ ﴾ يعنون : القرآن ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ . قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ أي : ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن ، وما أرسل إليهم نبيًّا قبل محمد ﷺ ، وقد كانوا يودون ذلك ويقولون : لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكنا أهدى من غيرنا ، فلما منَّ الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه ، ثم قال تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ أي : من الأمم ﴿ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي : من القوة في الدنيا . كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ ﴾ أي : وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده ، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله ولهذا قال : ﴿ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي : فكيف كان عقابي ونكالي وانتصاري لرسلي .

﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : ﴿ قُلۡ ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون ﴿ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ ﴾ أي : إنما آمركم بواحدة وهي : ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ ﴾ أي : تقوموا قيامًا خالصًا لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضكم بعضًا : هل بمحمد من جنون ؟ فينصح بعضكم بعضًا ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ ﴾ أي : ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ويتفكر في ذلك . ولهذا قال تعالى : ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ ﴾ هذا معنى ما ذكره مجاهد والسدي وقتادة وغيرهم . وهذا هو المراد من الآية .

وقوله تعالى : ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال : « يَا صباحاه » فاجتمعت إليه قريش فقالوا : ما لك ؟ فقال : « أَرَأَيْتُم لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ العَدُوَّ يُصَبِّحُكُمْ أَوْ يُمَسِّيكُمْ أَما كُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي » قالوا : بلى ؟ قال ﷺ : « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَي عَذَابٍ شَدِيدٍ » . فقال أبو لهب : تبًّا لك ألهذا جمعتنا . فأنزل الله عز وجل : ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴾ [1] . وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال : خرج إلينا رسول الله ﷺ يومًا فنادى ثلاث مرات فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ تَدْرُونَ مَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ ؟ » قالوا : الله تعالى ورسوله أعلم ، قال ﷺ : « إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ مَثَلُ قَوْمٍ خَافُوا عَدُوًّا يَأْتِيهِمْ فَبَعَثُوا رَجُلًا يَتَرَاءَى لَهُمْ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ أَبْصَرَ العَدُوَّ فَأَقْبَلَ لِيُنْذِرَهُمْ وَخَشِيَ أَنْ يُدْرِكَهُ العَدُوُّ قَبْلَ أَنْ يُنْذِرَ قَوْمَهُ فَأَهْوَى بِثَوْبِهِ ،

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٠١) ومسلم في الإيمان (٣٥٥٢) والإمام أحمد في مسنده (٢٨١/١) .

أَيُّهَا النَّاسُ أُوتِيتُمْ ، أَيُّهَا النَّاسُ أُوتِيتُمْ » ثلاث مرات ، قال رسول الله ﷺ : « بُعِثْتُ أَنَا والسَّاعَةَ جَمِيعًا إِنْ كَادَتْ لَتَسْبِقُنِي » (١) .

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ أي : لا أريد منكم جعلًا ولا عطاء على أداء رسالة الله ﷻ إليكم ، ونصحي إياكم وأمركم بعبادة الله . ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي : إنما أطلب ثواب ذلك من عند الله ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي : عالم بجميع الأمور بما أنا عليه من إخباري عنه بإرساله إياي إليكم وما أنتم عليه . وقوله ﷻ : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ . كقوله تعالى : ﴿ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ أي : يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض وهو علام الغيوب ، فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ . أي : جاء الحق من الله والشرع العظيم وذهب الباطل ، وزهق واضمحل ، كقوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ . ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة جعل يطعن الصنم منها بسية قوسه ويقرأ : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (٢) . ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ . أي : لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة ، وزعم قتادة والسدي : أن المراد بالباطل ها هنا إبليس أي : أنه لا يخلق أحدًا ولا يعيده ولا يقدر على ذلك ، وهذا وإن كان حقًّا ولكن ليس هو المراد ها هنا والله أعلم . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ ﴾ أي : الخير كله من عند الله وفيما أنزل الله ﷻ من الوحي والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد ، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه . كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لما سئل عن تلك المسألة في المفوضة : أقول فيها برأيي ، فإن يكن صوابًا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ أي : سميع لأقوال عباده قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه . وفي الصحيحين : « إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا ، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا مُجِيبًا » (٣) .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِي شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴾ .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٤٨/٥) .

(٢) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٧٨) ومسلم في الجهاد (٨٤ ، ٨٧) والإمام أحمد في مسنده (٣٧٧/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٨٤) ومسلم في الذكر والدعاء (٤٤ ، ٤٥) .

يقول تبارك وتعالى ولو ترى يا محمد إذا فزع هؤلاء المكذبون يوم القيامة ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ أي : فلا مفر لهم ولا وزر لهم ولا ملجأ . ﴿ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أي : لم يمكنوا أن يمنعوا في الهرب ، بل أخذوا من أول وهلة . والمراد بذلك يوم القيامة وهو الطامة العظمى ، ﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ ﴾ أي : يوم القيامة يقولون : آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله . كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أي : وكيف لهم تعاطي الإيمان ، وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة ، وهي دار الجزاء ، لا دار الابتلاء فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم ، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان . كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد . قال مجاهد : ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ ﴾ قال : التناول لذلك . وقال الزهري : التناوش تناولهم الإيمان وهم في الآخرة وقد انقطعت عنهم الدنيا ، وقال الحسن البصري : أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال ، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه وليس بحين رجعة ولا توبة . وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ أي : كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة ؟ وقد كفروا بالحق في الدنيا وكذبوا الرسل ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قال مالك عن زيد بن أسلم ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ قال : بالظن ، قلت : كما قال تعالى : ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ فتارة يقولون : شاعر ، وتارة يقولون : كاهن ، وتارة يقولون : ساحر ، وتارة يقولون : مجنون ، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة ، ويكذبون بالبعث والنشور والمعاد ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ قال قتادة ومجاهد : يرجمون بالظن لا بعث ولا جنة ولا نار .

وقوله تعالى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ قال الحسن البصري والضحاك وغيرهما : يعني : الإيمان . وقال السدي : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ وهي : التوبة ، وقال مجاهد ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ من هذه الدنيا من مال وزهرة وأهل . والصحيح : أنه لا منافاة بين القولين فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين ما طلبوه في الآخرة فمنعوا منه . وقوله تعالى : ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ أي : كما جرى للأمم الماضية المكذبة بالرسل لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ (١) . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ أي : كانوا في الدنيا في شك وريبة ، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب : قال قتادة : إياكم والشك والريبة ، فإن من مات على شك بعث عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/٢٤٢) .

سورة فاطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما لصاحبه : أنا فطرتها أي : بدأتها . وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا : ﴿ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : بديع السماوات والأرض . وقال الضحاك : كل شيء في القرآن فاطر السماوات والأرض ، فهو خالق السماوات والأرض . وقوله تعالى : ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾ أي : بينه وبين أنبيائه ﴿ أُولِي أَجْنِحَةٍ ﴾ أي : يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعًا . ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ أي : منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك . كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة الإسراء ، وله ستمائة جناح بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قال السدي : يزيد في الأجنحة وخلقه ما يشاء . وقال الزهري وابن جريج في قوله تعالى : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ يعني : حسن الصوت .

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع . عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : « سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ مِلءَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيءٍ بَعْدُ ، اللَّهُمَّ أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجدِ ، أَحَقُّ مَا قَالَ العَبْدُ وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ . اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجدِّ مِنْكَ الجد » (١) وهذه الآية كقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ . ولها نظائر كثيرة . وقال الإمام مالك رحمة الله عليه : كان أبو هريرة رضي الله عنه إذا مطروا يقول : مطرنا بنوء الفتح ثم يقرأ هذه الآية : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ .

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له . كما أنه المستقل بالخلق والرزق ، فكذلك فليفرد بالعبادة ، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أي : فكيف تؤفكون بعد هذا البيان ، ووضوح هذا البرهان ، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان ، والله أعلم .

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١٩٤) .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : وإن يكذبوك يا محمد هؤلاء المشركين بالله ، ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة ، فإنهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم . ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أي : وسنجزيهم على ذلك أوفر الجزاء . ثم قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي : المعاد كائن لا محالة . ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي : العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم ، فلا تتلهوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية . ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ وهو الشيطان ؛ قاله ابن عباس ﵄ أي : لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته ، فإنه غرار كذاب أفاك ، وهذه الآية كالآية التي في آخر لقمان . ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ . وقال زيد بن أسلم : هو الشيطان . كما قال المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يضرب ﴿ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ۝ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ . ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ أي : هو مبارز لكم بالعداوة فعادوه أنتم أشد العداوة ، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به . ﴿ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ أي : إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير ، فهذا هو العدو المبين نسأل الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان ، وأن يرزقنا اتباع كتاب الله ، والاقتفاء بطريق رسوله ، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير .

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير ، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد ؛ لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن ، وأن الذين آمنوا بالله ورسله ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ . أي : لما كان منهم من ذنب ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ على ما عملوه من خير . ثم قال تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ يعني : كالكفار والفجار يعملون أعمالاً سيئة ، وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا ، أي : أفمن كان هكذا قد أضله الله ألك فيه حيلة ؟ لا حيلة لك فيه . ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ أي : بقدره كان ذلك ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ أي : لا تأسف على ذلك ، فإن الله الحكيم في قدره إنما يضل من يضل ويهدي من يهدي ؛ لما له في ذلك من الحجة البالغة والعلم التام ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ وعن عبد الله بن الديلمي قال : أتيت عبد الله بن عمرو ﵄ ، وهو في حائط بالطائف يقال له : الوهط قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ نُورِهِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ اهْتَدَى ، وَمَنْ أَخْطَأَهُ مِنْهُ ضَلَّ ؛ فَلِذَلِكَ أَقُولُ : جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى مَا عَلِمَ اللَّهُ ﷻ » (١) .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/١٧٦ ، ١٩٧) والحاكم في المستدرك (١/٣٠) .

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

كثيرًا ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ، كما في أول سورة الحج ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك ، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها ، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء ، وأنزله عليها ﴿ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ . كذلك الأجساد إذا أراد اللَّه تعالى بعثها ونشورها أنزل من تحت العرش مطرًا يعم الأرض جميعًا ، ونبتت الأجساد في قبورها ، كما تنبت الحبة في الأرض . ولهذا جاء في الصحيح : « كُلُّ ابنِ آدمَ يَبْلَى إلا عجبَ الذَّنَبِ ، مِنْهُ خُلِقَ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ »(١) . ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ وتقدم في الحج حديث أبي رزين قلت : يا رسول اللَّه كيف يحيي اللَّه الموتى ، وما آية ذلك في خلقه ؟ قال ﷺ : « يَا أَبَا رُزَيْنٍ أَمَا مَرَرْتَ بِوَادِي قَوْمِكَ مُمْحِلًا ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَزُّ خَضِرًا ؟ » قلت : بلى ، قال ﷺ : « فَكَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى »(٢) . وقوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ . أي : من كان يحب أن يكون عزيزًا في الدنيا والآخرة ، فليلزم طاعة اللَّه تعالى ، فإنه يحصل له مقصوده ؛ لأن اللَّه تعالى مالك الدنيا والآخرة وله العزة جميعًا . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ . قال مجاهد : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ ﴾ بعبادة الأوثان ﴿ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ وقال قتادة : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ أي : فليتعزز بطاعة اللَّه ﷻ . وقيل : من كان يريد علم العزة لمن هي ﴿ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ يعني : الذكر والتلاوة والدعاء ؛ قاله غير واحد من السلف ، وعن المخارق بن سليم قال : قال لنا عبد اللَّه هو ابن مسعود ﷺ : إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب اللَّه تعالى ، إن العبد المسلم إذا قال : سبحان اللَّه وبحمده والحمد للَّه ولا إله إلا اللَّه واللَّه أكبر تبارك اللَّه . أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ، ثم صعد بهن إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يجيء بهن وجه اللَّه ﷻ . ثم قرأ عبد اللَّه ﷺ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾(٣) وعن النعمان بن بشير ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ مِنْ جَلالِ اللَّهِ مِنْ تَسْبِيحِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَتَحْمِيدِهِ وَتَهْلِيلِهِ يَتَعَاطَفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ يُذَكِّرْنَ بِصَاحِبِهِنَّ ، أَلا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ لَا يَزَالَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ شَيْءٌ يُذَكِّرُ بِهِ »(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ : الكلم الطيب ذكر اللَّه تعالى يُصعد به إلى اللَّه ﷻ ، والعمل الصالح أداء الفريضة . فمن ذكر اللَّه تعالى في أداء فرائضه حمل عمله ذكر اللَّه تعالى يصعد به إلى اللَّه ﷻ . ومن ذكر اللَّه تعالى ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله فكان أولى به . وكذا قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب . وقال إياس

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٢٨/٢) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٢/٤) .
(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٤٤/٢٢) .
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦٨/٤) .

ابن معاوية القاضي : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام . وقال الحسن وقتادة : لا يقبل قول إلا بعمل .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير وشهر بن حوشب : هم المراؤون بأعمالهم ، يعني : يمكرون بالناس يوهمون أنهم في طاعة اللَّه تعالى وهم بغضاء إلى اللَّه ﷻ يراؤون بأعمالهم ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . وقال عبد الرحمن بن زيد : هم المشركون ، والصحيح أنها عامة والمشركون داخلون بطريق الأولى . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ أي : يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهى ، فإنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها اللَّه تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وما أسر أحد سريرة إلا كساه اللَّه تعالى رداءها إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ، فالمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على غبي ، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم ، بل ينكشف لهم عن قريب وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أي : ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ ﴾ أي : ذكرًا وأنثى لطفًا منه ورحمة أن جعل لكم أزواجًا من جنسكم لتسكنوا إليها . وقوله ﷻ : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ ﴾ أي : هو عالم بذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء ، بل ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .

وقوله ﷻ : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ ﴾ أي : ما يعطي بعض النطف من العمر الطويل يعلمه وهو عنده في الكتاب الأول . ﴿ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ ﴾ الضمير عائد على الجنس لا على العين ؛ لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم اللَّه تعالى لا ينقص من عمره وإنما عاد الضمير على الجنس . قال ابن جرير : وهذا كقولهم عندي ثوب ونصفه أي ونصف ثوب آخر . عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ يقول : ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر ، وقد قضيت ذلك له فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزاد عليه ، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر ، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له فذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ . يقول : كل ذلك في كتاب عنده . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه ﴿ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ ﴾ قال : ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام ، وقال عبد الرحمن في تفسيرها : ألا ترى الناس يعيش الإنسان مائة سنة ، وآخر يموت حين يولد فهذا هذا . وقال قتادة : والذي ينقص من عمره فالذي يموت قبل ستين سنة . وقال مجاهد : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ ﴾ أي : في بطن أمه يكتب له ذلك . لم يخلق الخلق على عمر واحد ، بل لهذا عمر ولهذا عمر هو أنقص من عمره ، فكل ذلك مكتوب لصاحبه بالغ ما بلغ . وقال بعضهم : بل معناه ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ ﴾ أي : ما يكتب من الأجل . ﴿ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ ﴾ وهو ذهابه قليلًا قليلًا ، الجميع معلوم عند اللَّه تعالى سنة بعد سنة وشهرًا بعد شهر ، وجمعه بعد جمعة ، ويومًا بعد يوم ، وساعة بعد ساعة . الجميع مكتوب عند اللَّه تعالى في كتابه (١) . واختار ابن جرير

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٤٦/٢٢ ، ١٤٧) .

الأول ، وهو كما قال ، وقال النسائي عند تفسير هذه الآية الكريمة : عن أنس بن مالك ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ في رِزْقِهِ وَيُنْسأَ لَهُ في أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » (١) .

وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أي : سهل عليه يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله في جميع مخلوقاته ، فإن علمه شامل للجميع لا يخفى عليه شيء منها .

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة خلق البحرين العذب الزلال ، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصغار بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار ، والعمران والبراري والقفار ، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك . ﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أي : مر وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار ،وإنما تكون مالحة زعاقًا مرة ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ يعني : السمك ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ كما قال ﷻ : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . وقوله جل وعلا : ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ أي : تمخره وتشقه بحيزومها وهو مقدمها المسنم الذي يشبه جؤجؤ الطير وهو صدره . وقال مجاهد : تمخر الريح السفن ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام . وقوله جل وعلا : ﴿ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أي : بأسفاركم بالتجارة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي : تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم ، وهو البحر ، تتصرفون فيه كيف شئتم ، وتذهبون أين أردتم ، ولا يمتنع عليكم شيء منه ، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض ، من فضله ورحمته .

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ .

وهذا أيضًا من قدرته التامة وسلطانه العظيم في تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه ، ويأخذ من طول هذا فيزيده في قصر هذا فيعتدلان ، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول هذا ويقصر هذا . ثم يتقارضان صيفًا وشتاء ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ أي : والنجوم السيارات ، والثوابت الثاقبات بأضوائهن أجرام السماوات ، الجميع يسيرون بمقدار معين ، وعلى منهاج مقنن محرر ، تقديرًا من عزيز عليم . ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي : إلى يوم القيامة ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أي : الذي فعل هذا هو الرب العظيم الذي لا إله غيره . ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ أي : من الأصنام والأنداد التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين . ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وغيرهم : القطمير هو اللفافة التي تكون على نواة التمرة أي : لا يملكون من السماوات والأرض شيئًا ولا بمقدار هذا القطمير . ثم قال تعالى : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ ﴾ يعني : الآلهة التي تدعونها من دون الله لا تسمع دعاءكم ؛ لأنها جماد لا أرواح فيها . ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٦٧) ومسلم في البر والصلة (٢٠) .

ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ﴾ أي : لا يقدرون على شيء مما تطلبون منها . ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ أي : يتبرؤون منكم . كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ أي : ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها . قال قتادة : يعني نفسه تبارك وتعالى ، فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

يخبر تعالى بغنائه عما سواه وبافتقار المخلوقات كلها إليه وتذللها بين يديه ، فقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي : هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات ، وهو تعالى الغني عنهم بالذات ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ أي : هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشرعه ، وقوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي : لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم ، وما هذا عليه بصعب ، ولا ممتنع ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا ﴾ أي : وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ﴿ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ﴾ أي : وإن كان قريبًا إليها حتى ولو كان أباها أو ابنها ، كل مشغول بنفسه وحاله ، قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا ﴾ الآية : هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة فيقول : يا رب سل هذا لم كان يغلق بابه دوني ، وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة فيقول : يا مؤمن إن لي عندك يدًا ، قد عرفت كيف كنت لك في الدنيا وقد احتجت إليك اليوم ، فلا يزال المؤمن يشفع له عند ربه حتى يرده إلى منزل دون منزله وهو في النار ، وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة فيقول : يا بني أي والد كنت لك ؟ فيثني خيرًا فيقول له : يا بني إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى . فيقول له ولده : يا أبت ما أيسر ما طلبت ولكني أتخوف مثل ما تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئًا ، ثم يتعلق بزوجته فيقول : يا فلانة ، أو يا هذه أي زوج كنت لك ؟ فتثني خيرًا فيقول لها : إني أطلب إليك حسنة واحدة تهبيها لي لعلي أنجو بها مما ترين ، قال : فتقول : ما أيسر ما طلبت ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئًا إني أتخوف مثل الذي تتخوف ، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا ﴾ الآية . ويقول تبارك وتعالى : ﴿ لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ . ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي : إنما يتغط بما جئت به أولو البصائر والنهى ، الخائفون من ربهم الفاعلون ما أمرهم به . ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ﴾ أي : ومن عمل صالحًا ، فإنما يعود نفعه على نفسه ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي : وإليه المرجع والمآب وهو سريع الحساب . وسيجزي كل عامل بعمله إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر .

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا

ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا
وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ
وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ .

يقول تعالى كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة كالأعمى والبصير لا يستويان بل بينهما فرق وبون كثير ، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات ، وهذا مثل ضربه اللّه تعالى للمؤمنين - وهم الأحياء - وللكافرين - وهم الأموات - كقوله تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ . فالمؤمن بصير سميع في نور يمشي على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون ، والكافر أعمى وأصم في ظلمات يمشي لا خروج له منها ، بل هو يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة حتى يفضي له ذلك إلى الحرور والسموم والحميم ، وظل من يحموم لا بارد ولا كريم .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾ أي : يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها . ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ أي : كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم ، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها ، كذلك هؤلاء المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم . ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ أي : إنما عليك البلاغ والإنذار واللّه يضل من يشاء ويهدي من يشاء . ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي : بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين . ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ أي : وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث اللّه تعالى إليهم النذر وأزاح عنهم العلل . كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ الآية . وقوله تبارك تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ وهي المعجزات الباهرات والأدلة القاطعات . ﴿ وَبِٱلزُّبُرِ ﴾ وهي : الكتب ﴿ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ أي : الواضح البين ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي : ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاؤوهم به فأخذتهم أي : بالعقاب والنكال . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي : فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيمًا شديدًا بليغًا واللّه أعلم .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد وهو الماء الذي نزله من السماء ، يخرج به ثمرات مختلفًا ألوانها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض ، إلى غير ذلك من ألوان الثمار ، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها . كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ

﴿ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ﴾ أي : وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان ، كما هو المشاهد أيضًا من بيض وحمر ، وفي بعضها طرائق وهي الجدد جمع جدة مختلفة الألوان أيضًا . قال ابن عباس : الجدد الطرائق ، وكذا قال أبو مالك والحسن وقتادة والسدي . ومنها ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ قال عكرمة : الغرابيب الجبال الطوال السود . وقال ابن جرير : والعرب إذا وصفوا الأسود قالوا : أسود غربيب . ولهذا قال بعض المفسرين في هذه الآية : هذا من المقدم والمؤخر في قوله تعالى : ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ أي : سود غرابيب وفيما قاله نظر . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ﴾ أي : كذلك الحيوانات من الأناسي والدواب وهو كل ما دب على القوائم ، والأنعام من باب عطف الخاص على العام ، كذلك هي مختلفة أيضًا ، فالناس منهم بربر وحبوش وطماطم في غاية السواد ، وصقالبة وروم في غاية البياض ، والعرب بين ذلك والهنود دون ذلك ، ولهذا قال تعالى في الآية الآخرى : ﴿ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ . وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى في الجنس الواحد ، بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان ، بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون وهذا اللون ، فتبارك الله أحسن الخالقين . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : أيصبغ ربك ، قال ﷺ : « نَعَمْ صَبْغًا لَا يُنْفَضُ ، أَحْمَرَ وَأَصْفَرَ وَأَبْيَضَ »[(١)] . ولهذا قال تعالى بعد هذا : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى ، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر .

عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ قال ابن عباس : الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير . وقال عكرمة عن ابن عباس : العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك شيئًا ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، وحفظ وصيته ، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله . وقال سعيد بن جبير : الخشية : هي التي تحول بينك وبين معصية الله ﷻ . وقال الحسن البصري : العالم من خشي الرحمن بالغيب ورغب فيما رغب الله فيه ، وزهد فيما سخط الله فيه . ثم تلا الحسن : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ . وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث ولكن العلم عن كثرة الخشية . وعن ابن وهب عن مالك قال : إن العلم ليس بكثرة الرواية ، وإنما العلم نور يجعله الله في القلب . قال أحمد بن صالح المصري : معناه أن الخشية لا تدرك بكثرة الرواية ، وإنما العلم الذي فرض الله ﷻ أن يتبع ؛ فإنما هو الكتاب والسنة ، وما جاء عن الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من أئمة المسلمين . فهذا لا يدرك إلا بالرواية ، ويكون تأويل قوله : نور يريد به فهم العلم ومعرفة معانيه . وقال أبو حيان التيمي عن رجل قال : كان يقال : العلماء ثلاثة ؛ عالم بالله عالم بأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله ، فالعالم بالله وبأمر الله الذي يخشى الله تعالى ، ويعلم الحدود والفرائض ، والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله : الذي يخشي الله ولا يعلم الحدود والفرائض ، والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله الذي يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله ﷻ .

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٨/٥) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه من إقام الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله تعالى في الأوقات المشروعة ليلًا ونهارًا سرًّا وعلانية ، ﴿ يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ أي : يرجون ثوابًا عند الله لا بد من حصوله ، كما قدمنا في أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه : إن كل تاجر من وراء تجارته وإنك اليوم من وراء كل تجارة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ أي : ليوفيهم ثواب ما عملوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ﴿ إِنَّهُۥ غَفُورٌ ﴾ أي : لذنوبهم ﴿ شَكُورٌ ﴾ للقليل من أعمالهم . قال قتادة : كان مطرف رَحِمَهُ اللَّهُ إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه آية القراء . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّه تَعَالَى إِذَا رَضِيَ عَنِ العَبْدِ أَثْنَى عَلَيْهِ بِسَبْعَةِ أَصْنَافٍ مِنَ الخَيْرِ لَمْ يَعْمَلْهُ ، وَإِذَا سَخِطَ عَلَى العَبْدِ أَثْنَى عَلَيهِ بِسَبْعَةِ أَصْنَافٍ مِنَ الشَّرِّ لَمْ يَعْمَلْهُ » (١) .

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ يا محمد من الكتاب ؛ وهو القرآن ﴿ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي : من الكتب المتقدمة يصدقها كما شهدت هي له بالتنويه وأنه منزل من رب العالمين . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ أي : هو خبير بهم بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه ؛ ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر ، وفضل النبيين بعضهم على بعض ، ورفع بعضهم درجات . وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ .

يقول تعالى : ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم المصدق لما بين يديه من الكتب الذين اصطفينا من عبادنا وهم هذه الأمة ، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع ، فقال تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ وهو المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ وهو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات ، وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات . ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات ، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ قال : هم أمة محمد ﷺ ورَّثهم الله تعالى كل كتاب أنزله فظالمهم يغفر له ، ومقتصدهم يحاسب حسابًا يسيرًا ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب . وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم : « شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي » (٢) . قال ابن عباس رضي الله عنهما : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ . وكذا روي عن غير

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٨/٣) وقال عنه ابن كثير : غريب جدًا .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢١٣/٣) وأبو داود في سننه (٤٧٣٩) والترمذي في سننه (٢٤٣٦) والطبراني في الكبير (٢٣٢/١) .

واحد من السلف ، أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين على ما فيه من عوج وتقصير . وقال آخرون : بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ، ولا من المصطفين الوارثين للكتاب .

قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ قال : هو الكافر . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ قال : هم أصحاب المشأمة . وقال مالك عن زيد بن أسلم والحسن وقتادة : هو المنافق . ثم قد قال ابن عباس والحسن وقتادة : وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة في أول سورة الواقعة وآخرها ، والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، وهذا اختيار ابن جرير . كما هو ظاهر الآية . وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشد بعضها بعضًا .

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ . فأمَّا الَّذِينَ سَبَقُوا فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَابٍ ، وَأَمَّا الَّذِينَ اقْتَصَدُوا فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يُحَاسَبُونَ حِسَابًا يَسِيرًا ، وَأَمَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يُحْبَسُونَ فِي طُولِ المحشر ثُمَّ هُمُ الَّذِينَ تَلافَاهُمُ اللَّه بِرَحْمَتِهِ فَهُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ »(١) .

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ الآية . قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّهُمْ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ »(٢) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : إن هذه الأمة ثلاث أثلاث يوم القيامة ، ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حسابًا يسيرًا ، وثلث يجيؤون بذنوب عظام حتى يقول الله عز وجل : ما هؤلاء ؟ وهو أعلم تبارك وتعالى فتقول الملائكة : هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا بك شيئًا ، فيقول الرب عز وجل : أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي . وتلا عبد الله رضي الله عنه هذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الآية .

وعن عقبة بن صهبان الهنائي قال : سألت عائشة رضي الله عنها عن قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ الآية . فقالت لي : يا بني هؤلاء في الجنة ، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق ، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم قال : فجعلت نفسها رضي الله عنها معنا وهذا منها رضي الله عنها من باب الهضم والتواضع ، وإلا فهي من أكبر السابقين بالخيرات ؛ لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام . وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في قوله تبارك وتعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ قال : هي لأهل بدونا ومقتصدنا أهل حضرنا وسابقنا أهل الجهاد .

فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام . وإذا تقرر هذا ، فإن الآية عامة في

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٩٨/٥) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣١/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٩٦/٧) .

جميع الأقسام الثلاثة في هذه الأمة ، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة وأولى الناس بهذه الرحمة ، وعن قيس ابن كثير قال : قدم رجل من أهل المدينة إلى أبي الدرداء ﷺ وهو بدمشق فقال : ما أقدمك أي أخي ؟ قال حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ ، قال : أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا ، قال : أما قدمت لحاجة ، قال : لا ؟ ، قال : أما قدمت إلا في طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم . قال ﷺ : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهَا عِلْمًا سَلَكَ اللَّه تَعَالَى بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ ، وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ العِلمِ وَإِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ لِلعَالِمِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ فِي المَاءِ ، وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ . إِنَّ العُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ ، وإن الأنبياء لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ » (١) .

وعن ثعلبة بن الحكم ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : « يَقُولُ اللَّه تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ لِلعُلَمَاءِ : إِنِّي لَمْ أَضَعْ عِلْمِي وَحِكْمَتِي فِيكُمْ إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَغْفِرَ لَكُمْ عَلَى مَا كَانَ مِنْكُمْ وَلَا أُبَالِي » (٢) .

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ .

يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة ، مأواهم جنات عدن ، أي جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على الله ﷻ : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ . كما ثبت عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تَبْلُغُ الحِلْيَةُ مِنَ المُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الوُضُوءُ » (٣) . ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ولهذا كان محظورًا عليهم في الدنيا فأباحه الله تعالى لهم في الآخرة ، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ : « مَنْ لَبِسَ الحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الآخِرَةِ » (٤) .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : إن أبا أمامة ﷺ حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم وذكر حلي أهل الجنة فقال : « مُسَوَّرُونَ بِالذَّهَبِ والفِضَّةِ مُكَلَّلَةً بِالدُّرِّ أَكَالِيلُ مِن دُرٍّ وَيَاقُوتٍ مُتَوَاصِلَةٌ ، وَعَلَيْهِمْ تَاجٌ كَتَاجِ المُلُوكِ ، شَبَابٌ جُرْدٌ مردٌ مُكْحُولونَ » (٥) . ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾ . وهو الخوف من المحذور أزاحه عنا وأراحنا مما كنا نتخوفه ونحذره من هموم الدنيا والآخرة .

قال ابن عباس ﷺ وغيره : غفر لهم الكثير من السيئات ، وشكر لهم اليسير من الحسنات . ﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ ﴾ . يقولون الذي أعطانا هذه المنزلة ، وهذا المقام من فضله ومنه ورحمته لم تكن أعمالنا تساوي ذلك كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « لَنْ يُدْخِلَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٩٦/٥) وأبو داود في سننه (٣٦٤١) .
(٢) ذكره السيوطي في الدر (٣٥٠/١) والألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٨٦٧) .
(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (٤٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٧١/٢) .
(٤) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٣٤) ومسلم في اللباس (٢١ ، ٢٢) .
(٥) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٢/١٠ ، ٣٣٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤١٦/٢) .

أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « وَلَا أَنَا إِلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّه تَعَالَى بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ » (١) . ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ أي : لا يمسنا فيها عناء . والنصب واللغوب كل منها يستعمل في التعب ، وكأن المراد بنفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم والله أعلم . فمن ذلك أنهم كانوا يدئبون أنفسهم في العبادة في الدنيا . فسقط عنهم التكليف بدخولها وصاروا في راحة دائمة مستمرة ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ .

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء شرع في بيان ما للأشقياء فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾ . ثبت أن رسول الله ﷺ قال : « أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أهلها فَلَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحيونَ » (٢) . وقال ﷻ : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ، ولكن لا سبيل إلى ذلك . قال الله تعالى : ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ . كما قال ﷻ : ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ . أي : هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق . وقوله جلت عظمته : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ أي : ينادون فيها يجأرون إلى الله ﷻ بأصواتهم : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أي : يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول ، وقد علم الرب جل جلاله أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ أي : أو ما عشتم في الدنيا أعمارًا لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم ؟

وقد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد هاهنا . فروي عن علي بن الحسين زين العابدين رضي الله عنهما أنه قال : مقدار سبع عشرة سنة . وقال قتادة : اعلموا أن طول العمر حجة فنعوذ بالله أن نعير بطول العمر . قد نزلت هذه الآية ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ وإن فيهم لابن ثماني عشرة سنة . وقال وهب بن منبه في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ قال : عشرين سنة . وقال الحسن : أربعين سنة ، وقال مسروق : إذا بلغ أحدكم أربعين سنة فليأخذ حذره من الله ﷻ ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : العمر الذي أعذر الله تعالى لابن آدم ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ : أربعون سنة (٣) ؟ . وهذا القول هو اختيار ابن جرير ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ستون سنة . فهذه الراوية أصح عن ابن عباس رضي الله عنهما وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضًا . لما ثبت في ذلك من الحديث . كما سنورده لا كما زعمه ابن جرير من أن الحديث لم يصح في ذلك ؛ لأن في

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٧٣) ومسلم في (صفات المنافقين) (٧٥) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٠٦) . (٣) ذكره الطبري في تفسيره (١٦٩/٢٢) .

إسناده من يجب التثبت في أمره .

وقد روى أصبغ بن نباته عن علي ﷺ أنه قال : ستون سنة .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَعْذَرَ اللَّهُ ﷻ إِلَى امْرِئٍ أُخرَ عُمْرُهُ حَتَّى بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً » (١) .

وذكر بعضهم أن العمر الطبيعي عند الأطباء مائة وعشرون سنة ، فالإنسان لا يزال في ازدياد إلى كمال الستين ، ثم يشرع بعد هذا في النقص والهرم كما قال الشاعر :

إِذَا بَلَغَ الفَتَى سِتِّينَ عَامًا فَقَدْ ذَهَبَ المَسَرَّةُ والفَتَاءُ

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله إلى عباده به ويزيح به عنهم العلل . كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة . كما ورد بذلك الحديث . فعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ » (٢) .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثًا وستين سنة (٣) ، وقيل : ستين . وقيل : خمسًا وستين . والمشهور الأول والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ روي عن ابن عباس ﵄ وعكرمة وأبي جعفر الباقر ﷺ وقتادة وسفيان بن عيينة أنهم قالوا : يعني الشيب . وقال السدي : يعني به رسول الله ﷺ ، وقرأ ابن زيد ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾ وهذا الصحيح عن قتادة فيما رواه شيبان عنه أنه قال : احتج عليهم بالعمر والرسل ، وهذا اختيار ابن جرير وهو الأظهر . لقوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ أي : لقد بينا لكم الحق على ألسنة الرسل فأبيتم وخالفتم . وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ أي : فذوقوا عذاب النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعمالكم . فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ .

يخبر تعالى بعلمه غيب السماوات والأرض ، وأنه يعلم ما تكنه السرائر ، وما تنطوي عليه الضمائر . وسيجازي كل عامل بعمله . ثم قال ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي : يخلف قوم لآخرين قبلهم وجيل لجيل قبلهم . كما قال تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ .

﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ﴾ أي : فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره . ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ﴾ أي : كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة بخلاف المؤمنين ، فإنهم كلما طال عمر أحدهم ، وحسن عمله ارتفعت درجته ومنزلته في الجنة ، وزاد أجره وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٩) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٥٠) وابن ماجه في سننه (٤٢٣٦) .

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل (١١٤ ، ١١٥) .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ . أي : من الأصنام والأنداد ﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أي : ليس لهم شيء من ذلك ما يملكون من قطمير . وقوله : ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ﴾ أي : أم أنزلنا عليهم كتابًا بما يقولونه من الشرك والكفر ؟ ليس الأمر كذلك ﴿ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ أي : بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التي تمنوها لأنفسهم وهي غرور وباطل وزور ، ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ أي : أن تضطربا عن أماكنهما . كما قال ﷻ : ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ . ﴿ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ . أي : لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو ، وهو مع ذلك حليم غفور أي : يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجل ، ويستر آخرين ويغفر . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ وعن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ، يُخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ النُّورُ أَوِ النَّار ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سَبحاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ » (١) .

وعن أبي وائل قال : جاء رجل إلى عبد اللّه هو ابن مسعود ﷺ فقال : من أين جئت ؟ قال : من الشام قال : من لقيت ؟ قال : لقيت كعبًا قال : ما حدثك ؟ قال : حدثني أن السماوات تدور على منكب ملك ، قال : أفصدقته أو كذبته ؟ قال : ما صدقته ولا كذبته ، قال : لوددت أنك افتديت من رحلتك إليه براحتك ورحلها كذب كعب . إن اللّه تعالى يقول : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ (٢) .

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ .

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا باللّه جهد أيمانهم قبل إرسال الرسول إليهم ﴿ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ﴾ أي : من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل ، قاله الضحاك وغيره ، كقوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٤ ، ٢٩٥) والإمام أحمد في مسنده (٣٩٥/٤) وابن ماجه في سننه (١٩٥ ، ١٩٦) .
(٢) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧٣/٢٢) .

مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ وهو محمد ﷺ بما أنزل معه من الكتاب العظيم ، وهو القرآن المبين ﴿ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ أي : ما ازدادوا إلا كفرًا إلى كفرهم ثم بين ذلك بقوله : ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي : استكبروا عن اتباع آيات الله ﴿ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ﴾ أي : ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ أي : وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم . وقال محمد بن كعب القرظي : ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزل به مكر أو بغي أو نكث وتصديقها في كتاب الله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ ، ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ وقوله ﷻ : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يعني : عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره . ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أي : لا تغير ولا تبدل ، بل هي جارية كذلك في كل مكان مكذب ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ أي : ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ﴾ ولا يكشف ذلك عنهم ويحوله عنهم أحد والله أعلم .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة : سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل ، كيف دمر الله عليهم ، وللكافرين أمثالها فخلت منهم منازلهم ، وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة ، وكثرة الأموال والأولاد فما أغنى ذلك شيئًا ، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك ؛ لأنه تعالى لا يعجزه شيء إذا أراد كونه في السماوات والأرض . ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ أي : عليم بجميع الكائنات قدير على مجموعها . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ أي : لو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك جميع أهل السماوات والأرض وما يملكونه من دواب وأرزاق . وعن أبي الأحوص عن عبد الله قال : كاد الجعل أن يعذب في جحره بذنب ابن آدم ثم قرأ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ . وقال سعيد ابن جبير والسدي : أي : لما سقاهم المطر فماتت جميع الدواب . ﴿ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي : ولكن ينظرهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ ، ويوفي كل عامل بعمله فيجازي بالثواب أهل الطاعة ، وبالعقاب أهل المعصية . ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ .

سورة يس

روي عن الحسن قال : سمعت أبا هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَرَأَ يس في لَيْلَةٍ أَصْبَحَ مَغْفُورًا لَهُ ، وَمَنْ قَرَأَ حم التي يُذْكَرُ فِيهَا الدُّخَانُ أَصْبَحَ مَغْفُورًا لَهُ » (١) .

وعن معقل بن يسار ﷺ قال : إن رسول الله ﷺ قال : « البَقَرَةُ سَنَامُ القُرْآنِ وَذِرْوَتُهُ نَزَلَ مَعَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهَا ثَمَانُونَ مَلَكًا ، واستخرجت ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ من تحت العرش فوصلت بها أو فوصلت بسورة البقرة – ويس قَلْبُ القُرْآنِ لَا يَقْرَؤُهَا رَجُلٌ يُرِيدُ اللَّه تَعَالَى وَالدَّارَ الآخِرَةَ إِلَّا غَفَرَ لَهُ ، وَاقْرَؤُوهَا عَلَى مَوْتَاكُمْ » (٢) . ولهذا قال بعض العلماء : من خصائص هذه السورة أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره الله تعالى ، وكأن قراءتها عند الميت لتتنزل الرحمة والبركة وليسهل عليه خروج الروح ، والله تعالى أعلم . وعن صفوان قال : كان المشيخة يقولون : إذا قرئت – يعني يس – عند الميت خفف الله عنه بها (٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يس ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۝ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة . وروي عن ابن عباس ﷺ وعكرمة والضحاك : أن يس بمعنى يا إنسان ، وقال سعيد بن جبير : وهو كذلك في لغة الحبشة ، وقال زيد ابن أسلم : هو اسم من أسماء الله تعالى ﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ أي : المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ﴿ إِنَّكَ ﴾ أي : يا محمد ﴿ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أي : على منهج ودين قويم وشرع مستقيم ﴿ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ أي : هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت به تنزيل من رب العزة الرحيم بعباده المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ يعني بهم العرب ، فإنه ما أتاهم من نذير من قبله ، وذكرهم وحدهم لا ينفي من عداهم كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة في عموم بعثته ﷺ عند قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ ﴾ . قال ابن جرير : لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله تعالى قد حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله ولا يصدقون رسله (٤) .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ۝ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ

(١) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤٤٨/٢) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣١١/٦) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٠٥/٤) . (٤) ذكره الطبري في تفسيره (١٨٠/٢٢) .

ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴾ .

يقول تعالى : إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جعل في عنقه غل ، فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه فارتفع رأسه فصار مقمحًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ﴾ والمقمح هو الرافع رأسه ، واكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين وإن كانتا مرادتين كما قال الشاعر :

فَمَا أَدْرِي إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضًا ... أُرِيدُ الخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي
أَأَلْخَيْرُ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ ... أَمِ الشَّرُّ الَّذِي لَا يَأْتَلِينِي

فاكتفى بذكر الخير عن ذكر الشر لما دل الكلام والسياق عليه . وهكذا هذا لما كان الغل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق اكتفى بذكر العنق عن اليدين . وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ﴾ قال : هو كقوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ يعني : بذلك أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم لا يستطيعون أن يبسطوها بخير . وقال مجاهد : ﴿ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ﴾ قال : رافعي رؤوسهم وأيديهم موضوعة على أفواههم ، فهم مغلولون عن كل خير . وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا ﴾ قال مجاهد : عن الحق . ﴿ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا ﴾ قال مجاهد : عن الحق فهم يترددون . وقال قتادة : في الضلالات .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ ﴾ أي : أغشينا أبصارهم عن الحق ﴿ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾ أي : لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه ، قال ابن جرير : وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقرأ (فأعشيناهم) بالعين المهملة من العشا وهو داء في العين ، وقال عبد الرحمن بن زيد : جعل الله تعالى هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان فهم لا يخلصون إليه . وقرأ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾ ثم قال : من منعه الله تعالى لا يستطيع (١) . وقال عكرمة : قال أبو جهل : لئن رأيت محمدًا لأفعلن ولأفعلن . فأنزلت : ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾ . قال : وكانوا يقولون : هذا محمد ، فيقول : أين هو أين هو ؟ لا يبصره (٢) . وعن محمد بن كعب قال : قال أبو جهل وهم جلوس : إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكًا ، فإذا متم بعثتم بعد موتكم ، وكانت لكم جنات خير من جنات الأردن ، وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح ، ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تعذبون بها ، وخرج عليهم رسول الله ﷺ عند ذلك وفي يده حفنة من تراب ، وقد أخذ الله تعالى على أعينهم دونه فجعل يذرها على رؤوسهم ويقرأ : ﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ حتى انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾ . وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته وباتوا رصداء على بابه حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار فقال : ما لكم ؟ قالوا : ننتظر محمدًا ، قال : قد خرج عليكم فما بقي منكم من رجل إلا

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٨٢/٢٢) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٨٣/٢٢) .

وضع على رأسه ترابًا ثم ذهب لحاجته ، فجعل كل منهم ينفض ما على رأسه من التراب . قال : وقد بلغ النبيَّ ﷺ قولُ أبي جهل فقال : « وأنا أَقُولُ ذَٰلِكَ إِنَّ لَهُمْ مِنِّي لَذَبْحًا وَإِنَّهُ لآخِذُهُمْ »(١) .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : قد ختم الله عليهم بالضلالة فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به . ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ﴾ أي : إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر ، وهو القرآن العظيم ﴿ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي : حيث لا يراه أحد إلا الله تبارك وتعالى يعلم أن الله مطلع عليه وعالم بما يفعل . ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ أي : لذنوبه ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أي : كثير واسع حسن جميل . ثم قال ﷻ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ . أي يوم القيامة ، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة فيهديهم بعد ذلك إلى الحق ، كما قال تعالى بعد ذكر قسوة القلوب : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ ﴾ أي : من الأعمال : وفي قوله تعالى : ﴿ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ قولان :

أحدهما : نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم وآثارهم التي أثروها من بعدهم فنجزيهم على ذلك أيضًا إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر ، كقوله ﷺ : « مَنْ سَنَّ فِي الإسْلامِ سُنَّةً حسنةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلام سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا »(٢) .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا مَاتَ ابنُ آدمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلاثٍ : مِنْ عِلْم يُنْتَفعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ مِنْ بَعْدِهِ »(٣) . وقال سفيان الثوري : عن أبي سعيد ﷺ قال : سمعت مجاهدًا يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ : ما أورثوا من الضلالة . وقال سعيد بن جبير في قوله : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ : يعني : ما أثروا ، يقول : ما سنوا من سنة فعمل بها قوم من بعد موتهم ، فإن كانت خيرًا فلهم مثل أجورهم لا ينقص من أجر من عمل به شيئًا ، وإن كانت شرًا فعليهم مثل أوزارهم ولا ينقص من أوزار من عمل بها شيئًا .

والقول الثاني : إن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية ، قال مجاهد : ﴿ مَا قَدَّمُوا۟ ﴾ : أعمالهم ﴿ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ قال : خطاهم بأرجلهم . وكذا قال الحسن وقتادة : ﴿ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ يعني : خطاهم . وقال قتادة : لو كان الله ﷻ مغفلًا شيئًا من شأنك يا ابن آدم أغفل ما تعفي الرياح من هذه الآثار ، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله تعالى ، أو من معصيته ، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله تعالى فليفعل . وقد وردت في هذا المعنى أحاديث :

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال : خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فقال لهم : « إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُم تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ

---

(١) ذكره بنحوه الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٧٨) .
(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (٦٩) والإمام أحمد في مسنده (٤/٣٥٧) .
(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (١٣) والترمذي في سننه (١٣٧٦) .

المَسْجِدِ »؟ قالوا : نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك ، فقال ﷺ : يا بني سلمة : « ديارَكم تُكْتَبْ آثارُكم ، ديارَكم تُكْتَبْ آثارُكم » [١] .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : توفي رجل بالمدينة فصلى عليه النبي ﷺ وقال : « يَا لَيتَهُ مَاتَ في غَيرِ مَوْلِدِهِ » فقال رجل من الناس : ولم يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الرَجلَ إِذَا تُوفِّي في غَيرِ مَوْلِدِهِ قِيسَ لَهُ مِن مَوْلِدِهِ إِلَى مُنقَطَعِ أَثَرِهِ في الجَنَّةِ » [٢] . وعن ثابت قال : مشيت مع أنس رضي الله عنه فأسرعت المشي فأخذ بيدي فمشينا رويدًا ، فلما قضينا الصلاة قال أنس : مشيت مع زيد بن ثابت فأسرعت المشي فقال : يا أنس أما شعرت أن الآثار تكتب ؟ [٣] . وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول . بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأحرى . فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب فلأن تكتب تلك التي فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : وجميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ ، والإمام المبين ههنا هو أم الكتاب قاله مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وكذا في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ أي : بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير أو شر . كما قال عز وجل : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ .

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ .

يقول تعالى : واضرب يا محمد لقومك الذين كذبوك ﴿ مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : إنها مدينة أنطاكية . وهكذا روي عن بريدة بن الخصيب وعكرمة وقتادة والزهري وقد استشكل بعض الأئمة كونها أنطاكية بما سنذكره بعد تمام القصة إن شاء الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ أي : بادروهما بالتكذيب ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ أي : قويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث . ﴿ فَقَالُوٓا۟ ﴾ أي : لأهل تلك القرية ﴿ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ أي : من ربكم الذي خلقكم يأمركم بعبادته وحده لا شريك له ، قاله أبو العالية وزعم قتادة بن دعامة أنهم كانوا رسل المسيح عليه السلام إلى أهل أنطاكية ، ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أي : فكيف أوحي إليكم وأنتم بشر فلم لا أوحي إلينا مثلكم ؟ ولو كنتم رسلًا لكنتم ملائكة وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله عز وجل : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ أي : استعجبوا من ذلك وأنكروه ، ولهذا قال هؤلاء : ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ أي أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين : الله يعلم أنا رسله إليكم ، ولو كنا كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام ، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٢٨٠) والإمام أحمد في مسنده (٣/٣٣٢) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٧٢) والهندي في كنز العمال (١٦٦٩٢) .
(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٢/١٨٥) .

وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار . كقوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ . ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ . يقولون : إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم ، فإذا أطعتم كانت لكم السعادة في الدنيا والأخرى ، وإن لم تجيبوا فستعملون غب ذلك ، والله أعلم .

﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ .

فعند ذلك قال لهم أهل القرية : ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أي : لم نر على وجوهكم خيرًا في عيشنا . وقال قتادة : يقولون : إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم . وقال مجاهد : يقولون لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ قال قتادة : بالحجارة ، وقال مجاهد : بالشتم . ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : عقوبة شديدة ، فقالت لهم رسلهم : ﴿ طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ أي : مردود عليكم ، كقوله تعالى في قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ أي : من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له قابلتمونا بهذا الكلام وتوعدتمونا وتهددتمونا ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ . وقال قتادة : أي إن ذكرناكم بالله تطيرتم منا بل أنتم قوم مسرفون .

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ .

قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله عنهما وكعب الأحبار ووهب بن منبه : إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم ، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى أي لينصرهم من قومه . قالوا : وهو حبيب وكان يعمل الحرير وهو الحباك ، وكان رجلًا سقيمًا قد أسرع فيه الجذام ، وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه مستقيم الفطرة ، وقال السدي : كان قصارًا . وقال عمر بن الحكم : كان إسكافًا . وقال قتادة : كان يتعبد في غار هناك ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ﴿ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ أي : على إبلاغ الرسالة ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ أي : وما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : يوم المعاد فيجازيكم على أعمالكم ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر . ﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ ؟ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ﴿ إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ أي : هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئًا . فإن الله تعالى لو أرادني بسوء ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه ولا ينقذوني مما فيه ﴿ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : إن اتخذتها آلهة من دون الله ، وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله عنهما وكعب ووهب يقول لقومه : ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ الذي كفرتم به

﴿ فَٱسۡمَعُونِ ﴾ أي : فاسمعوا قولي ، ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله : ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ ﴾ أي الذي أرسلكم ﴿ فَٱسۡمَعُونِ ﴾ أي : فاشهدوا لي بذلك عنده . وقد حكاه ابن جرير فقال : وقال آخرون : بل خاطب بذلك الرسل وقال لهم : اسمعوا قولي لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي : إني آمنت بربكم واتبعتكم وهذا القول الذي حكاه عن هؤلاء أظهر في المعنى والله أعلم .

﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴾ .

قال ابن مسعود ﷺ : إنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قصه من دبره ، وقال الله له : ﴿ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ ﴾ فدخلها فهو يرزق فيها قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها . وقال مجاهد : قيل لحبيب النجار ، ادخل الجنة ، وذلك أنه قتل فوجبت له فلما رأى الثواب ﴿ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴾ قال قتادة : لا تلقى المؤمن إلا ناصحًا لا تلقاه غاشًا . لما عاين ما عاين من كرامة الله تعالى ﴿ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هجم عليه . وقال ابن عباس : نصح قومه في حياته بقوله : ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ وبعد مماته في قوله : ﴿ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ قال عاصم الأحوال عن أبي مجلز ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ : بإيماني بربي وتصديقي المرسلين ، ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل لي من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل فرحمه الله ورضي عنه ، فلقد كان حريصًا على هداية قومه . قال عروة بن مسعود الثقفي ﷺ للنبي ﷺ : ابعثني إلى قومي أدعوهم إلى الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَقْتُلُوكَ » فقال : لو وجدوني نائمًا ما أيقظوني ، فقال له رسول الله ﷺ : « انْطَلِق » فانطلق فمر على اللات والعزى فقال : لأصبحنك غدًا بما يسوؤك فغضبت ثقيف ، فقال : يا معشر ثقيف إن اللات لا لات ، وإن العزى لا عزى أسلموا تسلموا ، يا معشر الأحلاف إن العزى لا عزى ، وإن اللات لا لات أسلموا تسلموا ، قال ذلك ثلاث مرات ، فرماه رجل فأصاب أكحله فقتله فبلغ رسول الله ﷺ فقال : « هَذَا مَثَلُهُ كَمَثَلِ صَاحِبِ يس » ، ﴿ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ (١) .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه غضبًا منه تبارك وتعالى عليهم ؛ لأنهم كذبوا رسله ، وقتلوا وليه ، ويذكر ﷻ أنه ما أنزل عليهم وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم ، بل الأمر كان أيسر من ذلك . قال ابن مسعود أي : ما كاثرناهم بالجموع ، والأمر كان أيسر علينا من ذلك .

﴿ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴾ قال : فأهلك الله تعالى ذلك الملك الجبار ، وأهلك أهل أنطاكية فبادوا عن وجه الأرض فلم يبق منهم باقية . وقيل : ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ أي : وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم بل نبعث عليهم عذابًا يدمرهم . وقيل : المعنى في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي : من رسالة أخرى إليهم . قاله مجاهد وقتادة ، قال

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٦١٥/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٨٦/٩) .

قتادة : فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله . ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ . قال ابن جرير : والأول أصح ؛ لأن الرسالة لا تسمى جندًا [1] . قال المفسرون : بعث الله تعالى إليهم جبريل عليه الصلاة والسلام ، فأخذ بعضادتي باب بلدهم ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم لم تبق بهم روح تتردد في جسد . وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلًا من عند المسيح ابن مريم عليه الصلاة والسلام . كما نص عليه قتادة وغيره ، وهو الذي لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره . وفي ذلك نظر من وجوه :

أحدها : أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا كذبوا رسل الله ﷻ ، لا من جهة المسيح ﷺ كما قال تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ - إلى أن قالوا - ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۞ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ . ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح ﷺ والله تعالى أعلم . ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : ﴿ مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ .

الثاني : أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح ؛ ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللاتي فيهن بتاركة ، وهنَّ : القدس ؛ لأنها بلد المسيح ، وأنطاكية ؛ لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها ، والإسكندرية ؛ لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البتاركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهابين . ثم رومية ؛ لأنها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم وأوطده ، ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البترك من رومية إليها . كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم ، كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين ، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت ، فأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم ، والله أعلم .

الثالث : أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدري ﷺ وغير واحد من السلف أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوارة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين . ذكروه عند قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾ . فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية . كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضًا . أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظًا في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة ، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك . والله ﷻ أعلم .

﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۞ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ۞ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ .

عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ أي : يا ويل العباد . وقال قتادة : أي : يا حسرة العباد على أنفسهم على ما ضيعت من أمر الله وفرطت في جنب الله ، وفي بعض القراءات - يا حسرة العباد على أنفسها - ومعنى هذا يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب كيف كذبوا

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٤/٢٣) .

رسل الله ، وخالفوا أمر الله ، فإنهم كانوا في الدار الدنيا المكذبون منهم ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي يكذبونه ويستهزئون به ويجحدون ما أرسل به من الحق . ثم قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي : ألم يتعظوا بمن أهلك قبلهم من المكذبين للرسل ، كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة ، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفجرتهم من قولهم : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ . وهم القائلون بالدور من الدهرية وهم الذين يعتقدون جهلًا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا ، كما كانوا فيها ، فرد الله تبارك وتعالى عليهم باطلهم فقال تبارك وتعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ . وقوله ﷻ : ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أي : وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله جل وعلا فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها ، ومعنى هذا كقوله جل وعلا : ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ وقد اختلف القراء في أداء هذا الحرف فمنهم من قرأ ﴿ وَإِن كُلٌّ لَمَا ﴾ بالتخفيف فعنده أنَّ ﴿ وَإِن ﴾ للإثبات ومنهم من شدد ﴿ لَّمَّا ﴾ وجعل إن نافية و ﴿ لَّمَّا ﴾ بمعني إلا ، تقديره : وما كل إلا جميع لدينا محضرون ، ومعنى القراءتين واحد ، والله ﷻ أعلم .

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ أي : دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة ، وإحيائه الموتى ﴿ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ أي : إذا كانت ميتة هامدة لا شيء فيها من النبات ، فإذا أنزل الله تعالى عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ أي : جعلناه رزقًا لهم ولأنعامهم ، ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾ أي جعلنا فيها أنهارًا سارحة في أمكنة يحتاجون إليها ليأكلوا من ثمره : لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم عطف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها . وقوله جل وعلا : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي: وما ذاك كله إلا من رحمة الله تعالى بهم لا بسعيهم ولا كدهم ولا بحولهم وقوتهم . قاله ابن عباس ﵄ : ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ أي : فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى ، واختار ابن جرير - بل جزم به ، ولم يحك غيره إلا احتمالًا - أن ما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ بمعنى الذي تقديره : ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أي : غرسوه ونصبوه ، قال : وهي كذلك في قراءة ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ، ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾ . أي من زروع وثمار ونبات ﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ فجعلهم ذكرًا وأنثى ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : من مخلوقات شتى لا يعرفونها كما قال جلت عظمته : ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ

سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ .

يقول تعالى ومن الدلالة لهم على قدرته تبارك وتعالى العظيمة خلق الليل والنهار ، هذا بظلامه ، وهذا بضيائه ، وجعلهما يتعاقبان يجيء هذا فيذهب هذا ، ويذهب هذا فيجيء هذا ، كما قال تعالى : ﴿ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا ﴾ ولهذا قال ﷻ ها هنا : ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ أي : نصرمه منه فيذهب فيقبل الليل ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴾ . كما جاء في الحديث : « إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَا هُنَا ، وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَا هُنَا ، وَغَرَبَتْ الشَّمْسُ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ »[(١)] . هذا هو الظاهر من الآية ، وزعم قتادة أنها كقوله تعالى : ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ ﴾ وقد ضعف ابن جرير قول قتادة ها هنا ، وقال : إنما معنى الإيلاج الأخذ من هذا في هذا وليس هذا مرادًا في هذه الآية[(٢)] ، وهذا الذي قاله ابن جرير حق . وقوله ﷻ : ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ في معنى قوله : ﴿ لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ﴾ قولان أحدهما : أن المراد مستقرها المكاني وهو تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجانب ، وهي أينما كانت فهي تحت العرش هي وجميع المخلوقات ؛ لأنه سقفها وليس بكرة كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة ، وإنما هو قبة ذات قوائم تحمله الملائكة ، وهو فوق العالم مما يلي رؤوس الناس ، فالشمس إذا كانت في قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون إلى العرش ، فإذا استدارت في فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام ، وهو وقت نصف الليل صارت أبعد ما تكون إلى العرش ، فحينئذ تسجد وتستأذن في الطلوع . كما جاءت بذلك الأحاديث . فعن أبي ذر ﷺ قال : كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس فقال ﷺ : « يَا أَبَا ذَرٍّ أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال ﷺ : « فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ »[(٣)] . وعن أبي ذر ﷺ ، قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ﴾ قال ﷺ : « مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ العَرْشِ »[(٤)] .

القول الثاني : إن المراد بمستقرها هو منتهى سيرها وهو يوم القيامة يبطل سيرها ، وتسكن حركتها وتكور ، وينتهي هذا العالم إلى غايته وهذا هو مستقرها الزماني . قال قتادة : ﴿ لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ﴾ لوقتها ولأجل لا تعدوه ، وقيل : المراد أنها لا تزال تنتقل في مطالعها الصيفية إلى مدة لا تزيد عليها . ثم تنتقل في مطالع الشتاء إلى مدة لا تزيد عليها ، يروى هذا عن عبد الله بن عمرو ﷺ . وقرأ ابن مسعود وابن عباس ﷺ : (والشمس تجري لا مستقر لها) أي : لا قرار لها ولا سكون ، بل هي سائرة ليلًا ونهارًا لا تفتر ولا تقف . كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ ﴾ . أي : لا يفتران ولا يقفان إلى يوم القيامة ﴿ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ﴾ أي : الذي لا يخالف ولا يمانع ﴿ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ بجميع الحركات والسكنات ، وقد قدّر ذلك ووقّته ذلك على منوال لا اختلاف فيه ولا تعاكس .

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٥٤) والإمام أحمد في مسنده (٣٨٠/٤) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٧/٢٣ ، ٨) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٠٢) والترمذي في سننه (٢١٨٦) .

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٣٣) ومسلم في الإيمان (٢٥١) .

ثم قال جل وعلا : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ أي : جعلناه يسير سيرًا آخر يستدل به على مضي الشهور ، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار . كما قال ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ الآية . وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ فجعل الشمس لها ضوء يخصها والقمر له نور يخصه ، وفاوت بين سير هذه وهذا ، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره على ضوء واحد ، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفًا وشتاء يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهار ، وجعل سلطانها بالنهار فهي كوكب نهاري ، وأما القمر فقدَّره منازل يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلًا قليل النور ، ثم يزداد نورًا في الليلة الثانية ، ويرتفع منزلة ثم كلما ارتفع ازداد ضياء وإن كان مقتبسًا من الشمس حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة ، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم . قال ابن عباس ﵄ : وهو أصل العذق . وقال مجاهد : العرجون القديم أي : العذق اليابس . يعني ابن عباس ﵄ ، أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى .

وكذا قال غيرهما ، ثم بعد هذا يبديه اللَّه تعالى جديدًا في أول الشهر الآخر ، والعرب تسمي كل ثلاث ليال من الشهر باسم باعتبار القمر ، فيسمون الثلاث الأول : غرر ، واللواتي بعدها : نفل واللواتي بعدها : تسع ؛ لأن آخرهن التاسعة فاللواتي بعدها : عشر ؛ لأن أولاهن العاشرة ، واللواتي بعدها : البيض ؛ لأن ضوء القمر فيهن إلى آخرهن ، واللواتي بعدهن : درع جمع درعاء ؛ لأن أولهن أسود لتأخر القمر في أولهن منه . ومنه الشاة الدرعاء وهي التي رأسها أسود ، وبعدهن ثلاث ظلم ، ثم ثلاث حنادس ، وثلاث دأدي ، وثلاث محاق لانمحاق القمر أول الشهر فيهن ، وكان أبو عبيدة ﵁ ينكر التسع والعشر . وكذا قال : في كتاب غريب المصنف .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾ . قال مجاهد : لكل منهما حد لا يعدوه ولا يقصر دونه إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا ،وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا ، وعن الحسن في قوله تعالى : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾ قال : ذلك ليلة الهلال . وقال أبو صالح : لا يدرك هذا ضوء هذا ولا هذا ضوء هذا . وقال عكرمة : يعني أن لكل منهما سلطانًا فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ يقول : لا ينبغي إذا كان الليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار ، فسلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل . وقال الضحاك : لا يذهب الليل من هاهنا حتى يجيء النهار من ها هنا وأومأ بيده إلى المشرق . وقال مجاهد : ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ يطلبان حثيثين يسلخ أحدهما من الآخر . والمعنى في هذا أنه لا فترة بين الليل والنهار بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ ؛ لأنهما مسخران دائبين يتطلبان طلبًا حثيثًا . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يعني : الليل والنهار والشمس والقمر كلهم يسبحون أي : يدورون في فلك السماء . وقال ابن عباس ﵄ وغير واحد من السلف : في فلكة كفلكة المغزل ، وقال مجاهد : الفلك كحديدة الرحى ، أو كفلكة المغزل لا تدور المغزل إلا بها ولا تدور إلا به .

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ۝ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ۝ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : ودلالة لهم أيضًا على قدرته تبارك وتعالى ، تسخيره البحر ليحمل السفن ، فمن ذلك بل أوله سفينة نوح عليه الصلاة والسلام التي أنجاه الله تعالى فيها بمن معه من المؤمنين الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم عليه الصلاة والسلام غيرهم ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أي : آباءهم ﴿ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ أي في السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات التي أمره الله تبارك وتعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : المشحون الموقر ، وقال الضحاك وقتادة وابن زيد : وهي سفينة نوح عليه الصلاة والسلام . وقوله جل وعلا : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : يعني بذلك الإبل فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها . قال السدي في رواية : هي الأنعام . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أتدرون ما قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ ؟ قلنا : لا ، قال : هي السفن جعلت من بعد سفينة نوح عليه الصلاة والسلام على مثلها [1] . ويقوي هذا المذهب في المعني قوله جل وعلا : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ . وقوله ﷻ : ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ يعني الذين في السفن ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ أي : فلا مغيث لهم هم فيه ﴿ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ أي : مما أصابهم ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ وهذا استثناء منقطع تقديره ولكن برحمتنا نسيركم في البر والبحر ، ونسلمكم إلى أجل مسمى . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي : إلى وقت معلوم عند الله ﷻ .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم ، وعدم اكتراثهم بذنوبهم التي أسلفوها ، وما يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ قال مجاهد : من الذنوب . وقال غيره : بالعكس ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي : لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه . وتقديرالكلام أنهم لا يجيبون إلى ذلك بل يعرضون عنه ، واكتفى عن ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ أي : على التوحيد وصدق الرسل ﴿ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أي : لا يتأملونها ولا يقبلونها ولا ينتفعون بها . وقوله ﷻ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي : وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء ، والمحاويج من المسلمين ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ أي عن الذين آمنوا من الفقراء أي : قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجين لهم فيما أمروهم به : ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾ ؟ أي : هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم ، لو شاء الله لأغناهم ولأطعمهم من رزقه فنحن نوافق مشيئة الله تعالى فيهم . ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : في أمركم لنا بذلك .

---

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٣/٢٣) .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم : ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ قال الله ﷻ : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أي : ما ينتظرون إلا صيحة واحدة . وهذه والله أعلم نفخة الفزع . ينفخ في الصور نفخة الفزع والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم ، فبينما هم كذلك إذ أمر الله ﷻ إسرافيل فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدها ، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتًا ورفع ليتًا ، وهي صفحة العنق يتسمع الصوت من قبل السماء ، ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار تحيط بهم من جوانبهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ أي : على ما يملكونه ، الأمر أهم من ذلك ﴿ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ وقد وردت ها هنا آثار وأحاديث ذكرناها في موضع آخر ، ثم يكون بعد هذا نفخة الصعق التي تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحي القيوم ، ثم بعد ذلك نفخة البعث .

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

هذه هي النفخة الثالثة ، وهي نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ والنسلانِ هو المشي السريع . كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ يعنون قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها ، فلما عاينوا ما كذبوا به في محشرهم ، ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد . وقال أبي بن كعب ﷺ ومجاهد والحسن وقتادة : ينامون نومة قبل البعث . قال قتادة : وذلك بين النفختين ، فلذلك يقولون : من بعثنا من مرقدنا . فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ وقال الحسن : إنما يجيبهم بذلك الملائكة ، ولا منافاة إذا الجمع ممكن والله ﷺ أعلم . وقال عبد الرحمن بن زيد : الجميع من قول الكفار . ﴿ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ . نقله ابن جرير واختار الأول وهو أصح .

وقوله تعالى : ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ . كقوله ﷻ : ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ . وقال جل جلاله : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي : إنما نأمركم أمرًا واحدًا ، فإذا الجميع محضرون . ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ أي : من عملها ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل الجنة . أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات فنزلوا في روضات الجنات

أنهم في شغل عن غيرهم بما هم فيه من النعيم المقيم والفوز العظيم . قال الحسن البصري وإسماعيل ابن أبي خالد : في شغل عما فيه أهل النار من العذاب . وقال مجاهد : ﴿ فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴾ أي : في نعيم معجبون أي به ، وكذا قال قتادة : وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ فَٰكِهُونَ ﴾ أي فرحون ، قال عبد الله بن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم وسعيد بن المسيب وغيرهم : شغلهم افتضاض الأبكار وقوله عز وجل : ﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ ﴾ قال مجاهد : حلائلهم ﴿ فِي ظِلَٰلٍ ﴾ أي في ظلال الأشجار ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والسدي وخصيف : ﴿ ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ هي : السرر تحت الحجال قلت : نظيره في الدنيا هذه التخوت تحت البشاخين والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقوله عز وجل : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ ﴾ أي : من جميع أنواعها ﴿ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾ : مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ .

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا هَلْ مُشَمِّرٌ إِلَى الجَنَّةِ ! فَإِنَّ الجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا ، هِيَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ نُورٌ كُلُّها يَتَلأْلأُ ، وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ وَنَهْرٌ مُطَّرِدٌ ، وَثَمَرَةٌ نَضِيجَةٌ ، وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ ، وَمَقَامٌ فِي أَبَدٍ فِي دَارِ سَلَامَةٍ ، وَفَاكِهَةٌ خَضِرَةٌ ، وَخَيْرٌ وَنِعْمَةٌ فِي مَحلَّةٍ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ » . قالوا : نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها ، قال ﷺ : « قُولُوا إِنْ شَاءَ اللَّهُ » فقال القوم : إن شاء الله[1] . وقوله تعالى : ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ فإن الله تعالى نفسه سلام على أهل الجنة . وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنهما كقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾ .

﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا بمعنى : يتميزون عن المؤمنين في موقفهم كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ أي : يصيرون صدعين فرقتين ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ هذا تقريع من الله تعالى للكفرة من بني آدم الذين أطاعوا الشيطان ، وهو عدو لهم مبين ، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي : قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان ، وأمرتكم بعبادتي . وهذا هو الصراط المستقيم فسلكتم غير ذلك واتبعتم الشيطان فيما أمركم به . ولهذا قال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ يقال : جبلًا بكسر الجيم وتشديد اللام ، ويقال : جُبُلًا بضم الجيم والباء وتخفيف اللام ، ومنهم من يسكن الباء والمراد بذلك الخلق الكثير[2] . قاله مجاهد وقتادة والسدي . وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٣٣٢) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٦/١) ، (١٨٧/٢) .

(٢) قرأ أبو عمرو وابن عامر ﴿ جُبْلًا ﴾ بضم الجيم وسكون الباء ، وابن كثير وحمزة والكسائي ﴿ جُبُلًا ﴾ بضمتين ، والباقون ﴿ جِبِلًّا ﴾ (انظر : حجة القراءات ص ٦٠٢) .

﴿تَعۡقِلُونَ﴾ أي أفما كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له وعدولكم إلى اتباع الشيطان . وعن أبي هريرة ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى جَهَنَّمَ فَيَخْرُجُ مِنْهَا عُنُقٌ سَاطِعٌ مُظْلِمٌ يقول : ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ۝ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ . ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [1] فيتميز الناس ويجثون ، وهي التي يقول الله ﷻ : ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ .

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ۝ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ۝ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ﴾ .

يقال للكفرة من بني آدم يوم القيامة وقد برزت الجحيم لهم تقريعًا وتوبيخًا : ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ أي : هذه التي حذرتكم الرسل فكذبتموهم ﴿ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة حين ينكرون ما اجترموه في الدنيا ويحلفون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم بما عملت .

فعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ في حديث القيامة الطويل قال فيه : « ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ فَيَقُولُ : مَا أَنْتَ ؟ فَيَقُولُ : أَنَا عَبْدُكَ آمَنْتُ بِكَ وَبِنَبِيِّكَ وَبِكِتَابِكَ ، وَصُمْتُ وَصَلَّيْتُ وَتَصَدَّقْتُ ، وَيُثْنِي بِخَيْرِ مَا اسْتَطَاعَ » قال - فَيُقَالُ لَهُ : أَلَا نَبْعَثُ عَلَيْكَ شَاهِدَنَا ؟ - قَالَ : فَيُفَكِّرُ فِي نَفْسِهِ مَن الَّذِي يَشْهدُ عَلَيْهِ ، فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ : انْطِقِي » قال : « فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِمَا كَانَ يَعْمَلُ . وَذَلِكَ المُنَافِقُ ، وَذَلِكَ لِيُعْذَرَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ » [2] .

وعن عقبة بن عامر ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ أَوَّلَ عَظْمٍ مِنَ الإِنْسَانِ يَتَكَلَّمُ يَوْمَ يُخْتَمُ عَلَى الأَفْوَاهِ فَخِذُهُ مِنَ الرِّجْلِ اليُسْرَى » [3] . وقال أبو موسى الأشعري ﷺ : يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة فيعرض عليه ربه عمله فيما بينه وبينه ، فيعترف فيقول : نعم أي رب عملت عملت عملت قال : فيغفر الله تعالى له ذنوبه ويستره منها ، قال : فما على الأرض خليقة ترى من تلك الذنوب شيئًا وتبدو حسناته فودَّ أن الناس كلهم يرونها ، ويدعى الكافر والمنافق للحساب ، فيعرض عليه ربه عمله فيجحد ويقول : أي رب : وعزتك لقد كتب علي هذا الملك ما لم أعمل ، فيقول له الملك : أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا ؟ فيقول : لا وعزتك أي رب ما عملته ، فإذا فعل ذلك ختم الله تعالى على فيه . قال أبو موسى الأشعري ﷺ : فإني أحسب أول ما ينطق منه الفخذ اليمنى . ثم تلا : ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [4] .

---

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٨/٢٣) .
(٢) أخرجه مسلم في الزهد (١٦) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٥١/٤) .
(٤) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٣٠/٢٣) .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها : ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى فكيف يهتدون ؟ وقال مرة : أعميناهم . وقال الحسن البصري : لو شاء الله لطمس على أعينهم فجعلهم عميًا يترددون . وقال السدي : يقول : ولو نشاء أعمينا أبصارهم . وقال مجاهد وأبو صالح وقتادة والسدي : ﴿ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ ﴾ يعني الطريق . وقال ابن زيد : يعني : الحق ، فأنى يبصرون وقد طمسنا على أعينهم ؟ . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : فأني يبصرون ، لا يبصرون الحق . وقوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : أهلكناهم . وقال السدي : لغيرنا خلقهم . وقال أبو صالح : لجعلناهم حجارة ، وقال الحسن البصري وقتادة : لأقعدهم على أرجلهم ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا ﴾ أي : إلى أمام ﴿ وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ إلى وراء بل يلزمون حالًا واحدًا لا يتقدمون ولا يتأخرون .

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره رد إلى الضعف بعد القوة ، والعجز بعد النشاط . كما قال تبارك وتعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ والمراد من هذا والله أعلم الإخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال لا دار دوام واستقرار ؛ ولهذا قال عز وجل : ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي : يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم ، ثم صيرورتهم إلى سن الشيبة ثم إلى الشيخوخة ، ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى لا زوال لها ولا انتقال منها ولا محيد عنها . وهي الدار الآخرة . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ يقول عز وجل مخبرًا عن نبيه محمد ﷺ ، أنه ما علمه الشعر ﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ أي : ما هو في طبعه فلا يحسنه ولا يحبه ولا تقتضيه جبلته . ولهذا أورد أنه ﷺ كان لا يحفظ بيتًا على وزن منتظم ، بل إن أنشده زحّفه أو لم يتمه . وعن الشعبي أنه قال : ما ولد عبد المطلب ذكرًا ولا أنثى إلا يقول الشعر إلا رسول الله ﷺ . وعن الحسن هو البصري قال : إن رسول الله ﷺ كان يتمثل بهذا البيت :

كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهيا

فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله :

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

قال أبو بكر أو عمر رضي الله عنهما : أشهد أنك رسول الله يقول تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾(١) .

وعن قتادة : قيل لعائشة رضي الله عنها : هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر ؟ قالت رضي الله عنها : كان أبغض الحديث إليه ، غير أنه ﷺ كان يتمثل ببيت أخي بني قيس فيجعل أوله آخره وأخره أوله فقال أبو بكر رضي الله عنه : ليس هذا هكذا يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَنَا بِشَاعِرٍ وَمَا يَنْبَغِي لِيَ »(٢) . وثبت في الصحيح أنه ﷺ تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٦/٦) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٣٤/٢٣) والسيوطي في الدر (٧١/٧) .

ولكن تبعًا لقول أصحابه ﷺ فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون فيقولون :

لا هُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

إِنَّ الأُولَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

ويرفع ﷺ صوته بقوله : أبينا ويمدها (١) . وقد روي هذا بزحاف أيضًا ، وكذا ثبت أنه ﷺ قال يوم حنين وهو راكب البغلة يقدم بها في نحور العدو :

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ (٢)

لكن قالوا : هذا وقع اتفاقًا من غير قصد لوزن شعر بل جرى على اللسان من غير قصد إليه . وكذلك ما ثبت عن جندب بن عبد الله ﷺ قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غار فنكبت أصبعه فقال ﷺ :

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ وفِي سَبِيلِ اللَّه مَا لَقِيتِ (٣)

وسيأتي عند قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ ﴾ إنشاد :

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا (٤)

وكل هذا لا ينافي كونه ﷺ ما علم شعرًا وما ينبغي له ، فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش ولا كهانة ولا مفتعل ولا سحر يؤثر ، كما تنوعت فيه أقوال الضلال وآراء الجهال . وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعًا وشرعًا ، كما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَا أُبَالِي مَا أَوْتِيتُ إِنْ أَنَا شَرِبْتُ تِرْيَاقًا ، أَوْ تَعَلَّقْتُ تَمِيمَةً ، أَوْ قُلْتُ الشِّعرَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِي » (٥) .

على أن الشعر فيه ما هو مشروع وهو هجاء المشركين الذين كان يتعاطاه شعراء الإسلام كحسان ابن ثابت ﷺ . وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة وأمثالهم وأضرابهم ﷺ أجمعين . ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب . كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية . ومنهم أمية بن أبي الصلت الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « آمَنَ شِعْرُهُ وَكَفَرَ قَلْبُهُ » (٦) . وقد أنشد بعض الصحابة ﷺ للنبي ﷺ مائة بيت يقول ﷺ عقب كل بيت : « هيه » (٧) . يعني : يستطعمه فيزيده من ذلك . وقد روى أبو

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٠٦) والإمام أحمد في مسنده (٢٨٢/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣١٥ ، ٤٣١٦) ومسلم في الجهاد والسير (٧٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٢) ومسلم في الجهاد (١١٢) والترمذي في سننه (٣٣٤٥) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٦٩/٢) .

(٥) أخرجه أبو داود في السنن (٣٨٦٩) والبيهقي في السنن (٣٥٥/٩) .

(٦) ذكره الهندي في كنز العمال (١٥٢٤١) .

(٧) أخرجه مسلم في الشعر (١) وابن ماجه في سننه (٣٧٥٨) والبيهقي في الكبرى (٢٢٧/١٠) .

داود من حديث أبي بن كعب وبريدة بن الحصيب وعبد الله بن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ مِنَ البَيَانِ سِحْرًا ، وَإِنَّ مِنَ الشِّعرِ حكمًا » (١) . ولهذا قال : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ ﴾ يعني محمدًا ﷺ ما علمه الشعر ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ أي : وما يصلح له ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : ما هذا الذي علمناه ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : بين واضح جلي لمن تأمله وتدبره ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ أي : لينذر هذا القرآن المبين كل حي على وجه الأرض . وإنما ينتفع بنذارته من هو حي القلب مستنير البصيرة . كما قال قتادة : حي القلب حي البصر . وقال الضحاك : يعني : عاقلًا ﴿ وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي : هو رحمة للمؤمنين وحجة على الكافرين .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم ﴿ فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴾ قال قتادة : مطيقون أي : جعلهم يقهرونها . وهي ذليلة لهم لا تمتنع منهم بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه ، ولو شاء لأقامه وساقه ، وذاك ذليل منقاد معه . وكذا لو كان القطار مائة بعير أو أكثر لسار الجميع بسير الصغير . وقوله تعالى : ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ أي : منها ما يركبون في الأسفار ، ويحملون عليه الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ إذا شاءوا نحروا واجتزروا ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾ أي : من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ أي : من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى ونحو ذلك ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ أي : أفلا يوحدون خالق ذلك ومسخره ولا يشركون به غيره ؟

﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى ، قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ أي : لا تقدر الآلهة على نصر عابديها ، بل هي أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحقر وأدحر ، بل لا تقدر على الاستنصار لأنفسها ولا الانتقام ممن أرادها بسوء ؛ لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ قال مجاهد : يعني عند الحساب ، يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة محضرة عند حساب عابديها ؛ ليكون ذلك أبلغ في حزنهم وأدل عليهم في إقامة الحجة عليهم . وقال قتادة : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ يعني : الآلهة ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ والمشركون يغضبون الآلهة في الدنيا ، وهي لا تسوق إليهم خيرًا ولا تدفع عنهم شرًا ، وإنما هي أصنام ، وهكذا قال الحسن البصري ، وهذا القول : حسن وهو اختيار ابن جرير رحمه الله تعالى . وقوله تعالى ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ أي تكذيبهم لك وكفرهم بالله ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي : نحن نعلم جميع ما هم فيه وسنجزيهم وصفهم ، ونعاملهم على ذلك يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلًا ولا حقيرًا ولا صغيرًا ولا كبيرًا ، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديمًا وحديثًا .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦٩/١) وأبو داود في سننه (٥٠١١ ، ٥٠١٢) .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ .

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة : جاء أبي بن خلف - لعنه اللَّه - إلى رسول اللَّه ﷺ وفي يده عظم رميم ، وهو يفته ويذروه في الهواء وهو يقول : يا محمد أتزعم أن اللَّه يبعث هذا ؟ قال ﷺ : « نَعَمْ يُمِيتُكَ اللَّه تَعَالَى ، ثُمَّ يَبْعَثُكَ ، ثُمَّ يَحْشُرُكَ إِلَى النَّارِ »(١) . ونزلت هذه الآيات من آخر يس ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ إلى آخرهن .

والألف واللام في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ للجنس يعم كل منكر للبعث ﴿ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : أولم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة . فإن اللَّه ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين ، كما قال ﷻ : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ أي : من نطفة من أخلاط متفرقة فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته ؟ كما قال بشر بن جحاش : إن رسول اللَّه ﷺ بصق يومًا في كفه فوضع عليها إصبعه . ثم قال رسول اللَّه ﷺ : « قَالَ اللَّه تَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ ، إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَّلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْكَ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ ، حَتَّى إِذَا بلغت التراقِي قُلْتَ : أَتَصَدَّقُ ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ ؟ »(٢) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ . أي : استبعد إعادة اللَّه تعالى ذي القدرة العظيمة التي خلقت السماوات والأرض للأجساد والعظام الرميمة ونسي نفسه ، وأن اللَّه تعالى خلقه من العدم إلى الوجود فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده . ولهذا قال ﷻ : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ أي : يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت . فعن عبد الملك ابن عمير عن ربعي قال : قال عقبة بن عمرو لحذيفة رضي الله عنهما : ألا تحدثنا ما سمعت من رسول اللَّه ﷺ فقال : سمعته ﷺ يقول : « إِنَّ رَجُلًا حَضَرَهُ الْمَوْتُ ، فَلَمَّا أَيِسَ مِنَ الحَيَاةِ أَوْصَى أَهْلَهُ إِذَا أَنَا مُتُّ فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا كَثِيرًا جَزْلًا ، ثُمَّ أَوْقِدُوا فِيهِ نَارًا ، حَتَّى إِذَا أَكَلَتْ لَحْمِي وَخَلَصَتْ إِلَى عَظْمِي فَامْتُحِشْتُ ، فَخُذُوهَا فَدُقُّوهَا فَذَرُّوهَا في اليَمِّ ، ففَعَلُوا ، فَجَمَعَهُ اللَّه تَعَالَى إِلَيهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ : لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ ؟ قال : مِنْ خَشْيَتِكَ ، فَغَفَرَ اللَّه ﷻ لَهُ » . فقال عقبة بن عمرو : وأنا سمعته ﷺ يقول ذلك . وكان نباشًا(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ أي : الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضرًا نضرًا ذا ثمر وينع ثم أعاده إلى أن صار يابسًا توقد به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء قادر على ما يريد لا يمنعه شيء . قال قتادة في قوله : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤٠/٧) . (٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢١٠/٤) .
(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٥٢) ومسلم في الإمارة (٤٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٩٥/٥) .

﴿ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ﴾ يقول : الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر على أن يبعثه . وقيل : المراد بذلك شجر المرخ والعفار ينبت في أرض الحجاز ، فيأتي من أراد قدح نار وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ويقدح أحدهما بالآخر فتتولد النار من بينهما كالزناد سواء . وروي هذا عن ابن عباس ﵄ ، وفي المثل : لكل شجر نار واستمجد المرخ والعفار ، وقال الحكماء : في كل شجر نار إلا العناب .

﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا منبهًا على قدرته العظيمة على خلق السماوات السبع بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت ، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار وما بين ذلك . ومرشدًا إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة . كقوله تعالى : ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ وقال ﷻ ها هنا : ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ﴾ أي : مثل البشر فيعيدهم كما بدأهم ، قاله ابن جرير ، وهذه الآية الكريمة كقوله ﷻ : ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ . وقال تبارك وتعالى ها هنا : ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي : إنما يأمر بالشيء أمرًا واحدًا لا يحتاج إلى تكرر وتأكيد .

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ قَوْلَةً فَيَكُونُ

وعن أبي ذر ﵁ قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : يَا عِبَادِي ، كُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلَّا مَنْ عَافَيْتُ ، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ ، وَكُلُّكُمْ فَقِيرٌ إِلَّا مَنْ أَغْنَيْتُ ، إِنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ وَاجِدٌ أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ ، عَطَائِي كَلَامٌ ، وَعَذَابِي كَلَامٌ ، إِذَا أَرَدْتُ شَيْئًا فَإِنَّمَا أَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »(١) . وقوله تعالى : ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي : تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحي القيوم الذي بيده مقاليد السماوات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، وله الخلق والأمر وإليه ترجع العباد يوم المعاد ، فيجازي كل عامل بعمله وهو العادل المنعم المتفضل . ومعنى قوله ﷻ : ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ كقوله ﷻ : ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ فالملك والملكوت واحد في المعنى كرحمة ورحموت ورهبة ورهبوت وجبر وجبروت . ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجساد ، والملكوت هو عالم الأرواح . والصحيح الأول ، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم .

وعن حذيفة ﵁ ، أنه رأى رسول الله ﷺ يصلي من الليل وكان يقول : « اللَّهُ أَكْبَرُ - ثلاثًا - ذِي المَلَكُوتِ وَالجَبَرُوتِ وَالكِبْرِيَاءِ وَالعَظَمَةِ » . ثم استفتح فقرأ البقرة ثم ركع فكان ركوعه نحوًا من قيامه ، وكان يقول في ركوعه : « سُبْحَانَ رَبِّيَ العَظِيمِ » ثم رفع رأسه من الركوع ، فكان قيامه نحوًا من ركوعه ، وكان يقول في قيامه : « لِرَبِّيَ الحَمْدُ » ثم سجد فكان سجوده نحوًا من قيامه ، وكان

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/١٧٧) .

يقول في سجوده : « سُبْحَانَ رَبِّي الأَعْلَى » ثم رفع رأسه من السجود ، وكان يقعد فيما بين السجدتين نحوًا من سجوده وكان يقول : « رَبِّ اغْفِرْ لِي ، رَبِّ اغْفِرْ لي » فصلى أربع ركعات ، فقرأ فيهن البقرة ، وآل عمران والنساء ، والمائدة أو الأنعام - شك شعبة [(١)] .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٩٨/٥) وأبو داود في سننه (٨٧٤) والنسائي في سننه (٢٣١/٢) .

سورة الصافات

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ويؤمنا بالصافات [١] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾ هي الملائكة ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴾ هي الملائكة ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ هي الملائكة ، وكذا قال ابن عباس رضي الله عنهما ومسروق وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد ، وعن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « فُضِّلنا عَلَى النَّاسِ بثلاثٍ : جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الملائكةِ ، وجُعِلَتْ لَنَا الأرضُ كُلُّها مَسْجِدًا ، وجُعِلَ لَنَا تُرابُها طَهورًا إذا لم نجد الماءَ » [٢] وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا تصفُّونَ كَمَا تُصَفُّ الملائكةُ عِنْدَ رَبِّهم ؟ » قلنا : وكيف تصفُّ الملائكةُ عندَ ربِّهم؟ قال ﷺ : « يتمُّون الصفوفَ المتقدمةَ ، ويتراصُّونَ في الصفِّ » [٣] ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴾ قال السدي : أنها تزجر السحاب ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ قال السدي : الملائكة يجيؤون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس . وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ هذا هو المقسم عليه أنه تعالى لا إله إلا هو رب السموات والأرض ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي من المخلوقات ﴿ وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ أي هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات تبدو من المشرق وتغرب من المغرب . واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه وقد صرح بذلك في قوله ﷻ : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ .

يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض ﴿ بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ ، قرئ بالإضافة وبالبدل وكلاهما بمعنى واحد [٤] ؛ فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوؤها جرم السماء الشفاف فتضيء لأهل الأرض ﴿ وَحِفْظًا ﴾ تقديره وحفظناها حفظًا ﴿ مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾ يعني المتمرد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهاب ثاقب ، فأحرقه ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ ﴾ أي لئلا

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (٢/٩٥) بلفظ : « يأمر بالتخفيف » .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٤) والبيهقي في السنن (١/٢١٣) .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٢/٢٩) وابن ماجه في السنن (٩٩٢) .

(٤) قرأ حفص وحمزة : « بزينةٍ » منون ، « الكواكبِ » جر ، وقرأ أبو بكر عن عاصم « بزينةٍ » بالتنوين ، « الكواكبَ » نصب مفعول بها ، وقرأ الباقون « بزينةِ الكواكبِ » مضافًا (انظر : حجة القراءات ص : ٦٠٤) .

يصلوا إلى الملأ الأعلى وهي السموات ومن فيها من الملائكة إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى مما يقوله من شرعه وقدره ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيُقْذَفُونَ ﴾ أي يرمون ﴿ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ أي من كل جهة يقصدون السماء منها ﴿ دُحُورًا ﴾ أي رجمًا يدحرون به ويزجرون ويمنعون من الوصول إلى ذلك ويرجمون ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ أي في الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجع مستمر كما قال جلت عظمته : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ ﴾ أي إلا من اختطف من الشياطين الكلمة التي يسمعها من السماء ، فيلقيها إلى الذي تحته ، ويلقيها الآخر إلى الذي تحته ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها بقدر الله تعالى قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه فيذهب بها الآخر إلى الكاهن ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ أي مستنير . عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان للشياطين مقاعد في السماء قال : فكانوا يستمعون الوحي قال : وكانت النجوم لا تجري وكانت الشياطين لا ترمى ، قال : فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض فزادوا في الكلمة تسعًا ، قال : فلما بعث رسول الله ﷺ جعل الشيطان إذا قعد مقعده جاءه شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه ، قال : فشكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله ، فقال : ما هو إلا من أمر حدث ، قال : فبعث جنوده فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي بين جبلي نخلة . قال وكيع : يعني بطن نخلة ، قال : فرجعوا إلى إبليس فأخبروه فقال : هذا الذي حدث (١) .

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝١٧ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ۝١٨ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۝١٩ ﴾ .

يقول تعالى : فسل هؤلاء المنكرين للبعث أيهما أشد خلقًا ، هم أم السموات والأرض وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة ؟ وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه : « أم من عددنا » فإنهم يقرون أن هذه المخلوقات أشد خلقًا منهم ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلم ينكرون البعث ؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا ثم بين أنهم خلقوا من شيء ضعيف فقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ قال مجاهد وسعيد ابن جبير والضحاك : هو الجيد الذي يلتزق بعضه ببعض ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة : هو اللزج الجيد ، وقوله عز وجل : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ أي بل عجبت يا محمد من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث ، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله تعالى من الأمر العجيب وهو إعادة الأجسام بعد فنائها ، وهم بخلاف أمرك من شدة تكذيبهم ، يسخرون مما تقول لهم من ذلك .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً ﴾ أي دلالة واضحة على ذلك ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ يستهزئون ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ما هذا الذي جئت به إلا سحر مبين ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ يستبعدون ذلك ويُكذبون به ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ أي قل لهم يا محمد : نعم تبعثون يوم القيامة بعدما تصيرون ترابًا وعظامًا ﴿ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ أي حقيرون تحت القدرة العظيمة . ثم قال جلت عظمته : ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ أي فإنما هو أمر واحد من الله عز وجل ، يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض ، فإذا هم قيام بين يديه ينظرون إلى أهوال يوم القيامة .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٣/١) .

﴿ وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن قيل الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة ، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدار الدنيا ، فإذا عاينوا أهوال القيامة ندموا كل الندم حيث لا ينفعهم الندم ﴿ وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ فتقول لهم الملائكة والمؤمنون : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ وهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ ، ويأمر الله تعالى الملائكة أن تميز الكفار من المؤمنين في الموقف في محشرهم ومنشرهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ قال النعمان بن بشير ﷺ : يعني بأزواجهم : أشباههم وأمثالهم ، وعن ابن عمر والسدي قال : يجيء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر . وقوله تعالى : ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي أرشدوهم إلى طريق جهنم ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ أي قفوهم حتى يسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا قال ابن عباس : يعني احبسوهم إنهم محاسبون . وعن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أيُّما داعٍ دعَا إلى شيْءٍ ؛ كان مَوقوفًا مَعَهُ إلى يومِ القيامةِ لا يُغادِرُهُ ولا يُفارِقُهُ ، وإن دعَا رجلٌ رجلًا » ثم قرأ ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾[1] ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ أي كما زعمتم أنكم جميع منتصر ﴿ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ أي منقادون لأمر الله لا يخالفونه ولا يحيدون عنه .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ۝ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ۝ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ۝ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ۝ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ .

يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة كما يتخاصمون في دركات النار ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ قال ابن عباس : يقولون : كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا ؛ لأنا كنا أذلاء وكنتم أعزاء ، وقال مجاهد : يعني عن الحق ، والكفار تقوله للشياطين . وقال السدي : تأتوننا من قبل الحق وتزينوا لنا الباطل وتصدونا عن الحق ، وقال ابن زيد : معناه تحولون بيننا وبين الخير ، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذي أمرنا به . وقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ تقول القادة من الجن والإنس للأتباع : ما الأمر كما تزعمون ، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان قابلة للكفر والعصيان ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ﴾ أي من حجة على صحة ما دعوناكم إليه ﴿ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴾ أي بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق ؛ فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذي جاءتكم به الأنبياء وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاءوكم به فخالفتموهم ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ۝ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴾ يقول الكبراء للمستضعفين : حقت علينا كلمة الله إنا من الأشقياء الذائقين للعذاب يوم القيامة ﴿ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ ﴾ أي دعوناكم إلى الضلالة ﴿ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴾ أي فدعوناكم إلى ما نحن

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٣٢٢٨) .

فيه فاستجبتم لنا ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ أي الجميع في النار كل بحسبه ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ ﴾ أي في الدار الدنيا ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون . عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله ؛ فقد عصم مني ماله ونفسه ، إلا بحقه ، وحسابه على الله ﷻ »(١) ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ أي أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون ؛ يعنون رسول الله ، قال الله تعالى تكذيبًا لهم وردًّا عليهم : ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ ﴾ يعني رسول الله ﷺ جاء بالحق في جميع شرعة الله تعالى له من الأخبار والطلب ﴿ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي صدقهم فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة ، والمناهج السديدة ، وأخبر عن الله تعالى في شرعه وأمره كما أخبروا ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ الآية .

﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا للناس : ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين . ولهذا قال جلا وعلا ههنا ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أي ليسوا يذوقون العذاب الأليم ولا يناقشون في الحساب ، بل يتجاوز عن سيئاتهم إن كان لهم سيئات ، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة إلى ما شاء الله تعالى من التضعيف ، . وقوله جل وعلا : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ قال قتادة والسدي : يعني الجنة ، ثم فسره بقوله : ﴿ فَوَٰكِهُ ﴾ أي متنوعة ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴾ أي يخدمون ويرفهون وينعمون ﴿ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ قال مجاهد : لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض . وقوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ نزه الله ﷻ خمر الجنة عن الآفات التي في خمر الدنيا من صداع الرأس ، ووجع البطن ، وهو الغول ، وذهابها بالعقل جملة ، فقال تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ أي بخمر من أنهار جارية لا يخافون انقطاعها ولا فراغها ، قال زيد بن أسلم : خمر جارية بيضاء ، أي لونها مشرق حسن بهي لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء من حمرة أوسواد أو اصفرار أو كدورة إلى غيرذلك مما ينفر الطبع السليم .

وقوله ﷻ ﴿ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ أي طعمها طيب كلونها ، وطيب الطعم دليل على طيب الريح بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك . وقوله تعالى : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ يعني لا تؤثر فيهم غولًا وهو وجع البطن . قال مجاهد : كما تفعله خمر الدنيا من القولنج ونحوه لكثرة مائيتها ، وقيل : المراد بالغول ههنا صداع الرأس ، وقال قتادة : هو صداع الرأس ووجع البطن . وعن السدي : لاتغتال عقولهم كما قال الشاعر :

فما زالت الكأس تغتالنا وتذهب بالأول الأول(٢)

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٤) ومسلم في الإيمان (٣٤) وأبو داود في السنن (٢٦٠٦) .
(٢) البيت من شواهد أبي عبيد في مجاز القرآن (١٦٩/٢) ، وهو منسوب لمطيع بن إياس بن أبي قزعة كما في الأغاني (٧٠/١٣) .

وقال سعيد بن جبير : لا مكروه فيها ولا أذى ، والصحيح قول مجاهد ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ قال مجاهد : لا تذهب عقولهم ، وقال ابن عباس : في الخمر أربع خصال : السكر ، والصداع ، والقيء ، والبول ، فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال . وقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ أي عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ عِينٌ ﴾ أي حسان الأعين وهي النجلاء العيناء ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴾ .

وقوله ﷻ : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان ، قال ابن عباس ﵄ : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ أي اللؤلؤ المكنون .

وقال الحسن : يعني محصون لم تمسه الأيدي ، وقال السدي : بياض البيض حين نزع قشرته ، واختاره ابن جرير قال : والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش وتنالها الأيدي بخلاف داخلها ، والله أعلم . وعن أم سلمة ﵂ قالت : قلت : يا رسول الله أخبرني عن قول الله ﷻ : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ قال : « العين : الضخام العيون ، شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر » قلت : يا رسول الله أخبرني عن قول الله ﷻ ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ قال : « رقتهن كرقة الجلدة التي رأسها في داخل البيضة التي تلي القشر وهي الغرقئ »(1) .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، أي عن أحوالهم ، وكيف كانوا في الدنيا ، وماذا يعانون فيها ، وذلك من حديثهم على شرابهم واجتماعهم في تنادمهم ومعاشرتهم في مجالسهم وهم جلوس على السرر والخدم بين أيديهم يسعون ويجيئون بكل خيرعظيم من مآكل ومشارب وملابس وغير ذلك مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴾ قال مجاهد : يعني شيطانًا . وعن ابن عباس : هو الرجل المشرك يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا ، ولا تنافي بين كلام مجاهد وابن عباس ﵄ ؛ فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس في النفس ويكون من الإنس فيقول كلامًا تسمعه الأذنان وكلاهما يتعاونان ، وكل منهما يوسوس ، ولهذا ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾ أي : أأنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء ، يعني يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد ، والكفر والعناد ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ قال مجاهد والسدي : لمحاسبون . وقال ابن عباس : لمجزيون بأعمالنا ، وكلاهما صحيح . قال تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾ أي مشرفون ، ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة والسدي : يعني في وسط الجحيم ، وقال الحسن

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٦٨/٢٣) .

البصري : في وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد ، وقال قتادة : ذكر لنا أنه اطلع فرأى جماجم القوم تغلي ، ﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ يقول المؤمن مخاطبًا للكافر : والله إن كدت لتهلكني لوأطعتك ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ أي ولولا فضل الله عليَّ لكنتُ مثلك في سواء الجحيم حيث أنت محضر معك في العذاب ولكنه تفضل عليَّ ورحمني فهداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ هذا من كلام المؤمن مغبطًا نفسه بما أعطاه الله تعالى من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة بلا موت فيها ولا عذاب ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ . وقال الحسن البصري : علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه فقالوا : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ قيل : لا ، قالوا : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ وقوله ﷻ : ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ قال قتادة : هذا من كلام أهل الجنة ، وقال ابن جرير : هو من كلام الله تعالى ومعناه : لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا ، ليصيروا إليه في الآخرة وقد ذكروا قصة رجلين كانا شريكين في بني إسرائيل تدخل في ضمن عموم هذه الآية الكريمة ، قال أبو جعفر بن جرير في تفسيره : إن رجلين كانا شريكين فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينار ، وكان أحدهما له حرفة والآخر ليس له حرفة ، فقال الذي له حرفة للآخر : ليس عندك حرفة ما أراني إلا مفارقك ومقاسمك ، فقاسمه ، وفارقه ثم إن الرجل اشترى دارًا بألف دينار كانت لملك مات ، فدعا صاحبه فأراه فقال : كيف ترى هذه الدار ابتعتها بألف دينار ؟ قال : ما أحسنها ، فلما خرج قال : اللهم إن صاحبي هذا ابتاع هذه الدار بألف دينار ، وإني أسألك دارًا من دور الجنة ، فتصدق بألفِ دينار ، ثم مكث ما شاء الله تعالى أن يمكث ، ثم إنه تزوج بامرأة بألف دينار فدعاه وصنع له طعامًا ، فلما أتاه قال : إني تزوجت هذه المرأة بألف دينار ، قال : ما أحسن هذا ، فلما انصرف قال : يارب إن صاحبي تزوج امرأة بألف دينار ، وإني أسألك امرأة من الحور العين ، فتصدق بألف دينار ، ثم إنه مكث ما شاء الله تعالى أن يمكث ، ثم اشترى بستانين بألفي دينار ثم دعاه فأراه فقال : إني ابتعت هذين البستانين بألفي دينار . فقال : ما أحسن هذا ، فلما خرج قال : يا رب إن صاحبي قد اشترى بستاتين بألفي دينار وأنا أسألك بستانين في الجنة ، فتصدق بألفي دينار ، ثم أن الملك أتاهما فتوفاهما ، ثم انطلق بهذا المتصدق فأدخله دارًا تعجبه ، وإذا بامرأةٍ تطلع يضيء ما تحتها من حسنها ، ثم أدخله بستانين وشيئًا الله به عليم ، فقال عند ذلك : ما أشبه هذا برجل كان من أمره كذا وكذا ، قال : فإنه ذاك ولك هذا المنزل والبستانان والمرأة ، قال : فإنه كان لي صاحب يقول : ﴿ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴾ قيل له : فإنه في الجحيم ، ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ فقال عند ذلك : ﴿ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ الآيات [١] قال ابن جرير : وهذا يقوي قراءة من قرأ ﴿ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ ﴾ بالتشديد [٢] .

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ۝ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ۝ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝ ثُمَّ إِنَّ

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٧٠/٢٣) ، والسيوطي في الدر المنثور (٩/٧) وعزاه لسعيد بن منصور .
(٢) وهي قراءة حمزة (انظر : الدر المنثور ٥٩/٦) والقرطبي (٨٢/١٥) .

مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ .

يقول الله تعالى أهذا الذي ذكره من نعيم الجنة وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ خير ضيافة وعطاء ﴿ أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾ التي في جهنم ، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة ، كما قال بعضهم : إنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم ، كما أن شجرة طوبى ما من دار في الجنة إلا وفيها منها غصن ، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر يقال له الزقوم . وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴾ قال قتادة : ذكرت شجرة الزقوم فافتتن بها أهل الضلالة ، وقالوا : صاحبكم ينبئكم أن في النار شجرة والنار تأكل الشجر ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ غذيت من النار ومنها خلقت .

قلت : ومعنى الآية : إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختبارًا نختبر به الناس من يصدق منهم ممن يكذب . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ أي أصل منبتها في قرار النار ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ تبشيع لها وتكريه لذكرها . قال وهب بن منبه : شعور الشياطين قائمة إلى السماء ، وإنما شبهها برؤوس الشياطين - وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين - لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر ، وقيل : المراد بذلك ضرب من الحيات رؤوسها بشعة المنظر .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التي لا أبشع منها ولا أقبح من منظرها مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع ؛ فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها ؛ لأنهم لا يجدون إلا إياها وما هو في معناها ، كما قال تعالى : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ وعن ابن عباس ﵄ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية وقال : « اتقوا الله حق تقاته ، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامه ؟ »(١) . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ قال ابن عباس ﵄ : يعني شرب الحميم على الزقوم ، وقال غيره : يمزج لهم الحميم بصديد وغساق مما يسيل من فروجهم وعيونهم . وعن سعيد بن جبير قال : إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم ، فلو أن مارًا مر بهم يعرفهم ، لعرفهم بوجوههم فيها ، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل ، وهو الذي قد انتهى حره ، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود ويصهر ما في بطونهم فيمشون تسيل أمعاؤهم وتتساقط جلودهم ثم يضربون بمقامع من حديد ، فيسقط كل عضو على حياله يدعون بالثبور . وقوله ﷻ : ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ أي ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج وجحيم تتوقد وسعير تتوهج ، فتارة في هذا ، وتارة في هذا .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴾ أي إنما جازيناهم بذلك ؛ لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك من غير دليل ولا برهان ، ولهذا قال : ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ قال مجاهد : شبيهة بالهرولة ، وقال سعيد بن جبير : يسفهون .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٧/٢) ، والترمذي في السنن (٢٥٨٥) .

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع اللَّه آلهة أخرى ، وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين ينذرونهم بأس اللَّه ، ويحذرونهم سطوته ونقمته ممن كفر به وعبد غيره ، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم ، فأهلك اللَّه المكذبين ودمرهم ، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ۝ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ۝ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ .

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة ، شرع يبين ذلك مفصلًا فذكر نوحًا - عليه الصلاة والسلام - وما لقي من قومه من التكذيب ، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة ، لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم ، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ فغضب اللَّه تعالى لغضبه عليهم ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ له ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ وهو التكذيب والأذى ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم تبق إلا ذرية نوح عليه السلام [1] . وعن سمرة عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ قال : « سام ، وحام ، ويافث » [2] . وعنه أيضًا أن نبي اللَّه ﷺ قال : « سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم » [3] والمراد بالروم ههنا هم الروم الأول ، وهم اليونان المنتسبون إلى رومي بن ليطي بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : يذكر بخير ، وقال مجاهد : يعني لسان صدق للأنبياء كلهم ، وقال قتادة والسدي : أبقى اللَّه عليه الثناء الحسن في الآخرين . وقوله تعالى : ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ مفسر لما أبقى عليه الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة اللَّه تعالى ونجعل له لسان صدق يذكر به بعده بحسب مرتبته في ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي المصدقين الموحدين الموقنين ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ أي أهلكناهم فلم يبق منهم عين تطرف ، ولا ذكر ولا عين ولا أثر ، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة .

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ۝ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ۝ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ أي من أهل دينه ، وقال مجاهد : على منهاجه وسنته ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ قال ابن عباس : يعني شهادة أن لا إله إلا اللَّه . سأل عوف محمد

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/٩٩) ونسبه إلى ابن المنذر وابن جرير .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٣٠) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٣١) وأحمد في مسنده (٥/٩) والطبراني في الكبير (٧/٢٥٤) .

ابن سيرين : ما القلب السليم ؟ قال : يعلم أن الله حق وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، وقال الحسن : سليم من الشرك ، وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد ؛ ولهذا قال ﷺ : ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال قتادة : يعني ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لاقيتموه وقد عبدتم معه غيره .

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ .

إنما قال إبراهيم لقومه ذلك ؛ ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم ، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيد لهم ، فأحب أن يختلي بآلهتهم ليكسرها ، فقال لهم كلامًا هو حق في نفس الأمر ، فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه ﴿ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ قال قتادة : والعرب تقول لمن تفكر : نظر في النجوم ، يعني قتادة : أنه نظر إلى السماء متفكرًا فيما يلهيهم به ﴿ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ أي ضعيف . وقال سفيان : يعني طعين ، وكانوا يفرون من المطعون ، فأراد أن يخلو بآلهتهم . وقيل : أراد ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ أي مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله تعالى ولهذا قال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ أي ذهب إليها بعد ما خرجوا في سرعة واختفاء ، ﴿ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديهم طعامًا قربانًا لتبرك لهم فيه .

وقوله تعالى : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ قال الفراء : معناه مال عليهم ضربًا باليمين . وقال قتادة والجوهري : فأقبل عليهم ضربًا باليمين . وإنما ضربهم باليمين ؛ لأنها أشد وأنكى ؛ ولهذا تركهم جذاذًا إلا كبيرًا لهم لعلهم إليه يرجعون . وقوله ﴿ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ قال مجاهد وغيره : أي يسرعون ؛ فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة مَنْ فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا ، فعرفوا أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - هو الذي فعل ذلك . فلما جاءوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعيبهم فقال : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ أي أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يحتمل أن تكون ما مصدرية فيكون تقدير الكلام : خلقكم وعملكم ، ويحتمل أن تكون بمعنى الذي تقديره : والله خلقكم والذي تعملونه ، وكلا القولين متلازم ، والأول أظهر لما رواه حذيفة ﷺ مرفوعًا قال : « إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته » (١) فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر فقالوا : ﴿ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾ فنجاه الله من النار وأظهره عليهم ، وأعلى حجته ونصرها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا

---

(١) ذكره الألباني في الصحيحة (١٦٧٣) .

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه بعد ما نصره الله تعالى على قومه وأيس من إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة ، هاجر من بين أظهرهم وقال : ﴿ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ يعني أولادًا مطيعين عوضًا من قومه وعشيرته الذين فارقهم ، قال الله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام ، فإنه أول ولد بشّر به إبراهيم عليه السلام ، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب ؛ بل في نص كتابهم أن إسماعيل عليه السلام ولد ولإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة ، وولد إسحاق وعمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة ، وعندهم أن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده ، وفي نسخة أخرى : بكْره فأقحموا ههنا كذبًا وبهتانًا إسحاق ، ولا يجوز هذا ؛ لأنه مخالف لنص كتابهم ، وإنما أقحموا إسحاق ؛ لأنه أبوهم وإسماعيل أبو العرب ، فحسدوهم فزادوا ذلك وحرفوا وَحِيدَك بمعنى الذي ليس عندك غيره ، فإن إسماعيل كان قد ذهب به وبأمه إلى مكة ، وهو تأويل وتحريف باطل ؛ فإنه لا يقال : وحيدك إلا لمن ليس له غيره ، وأيضًا فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد ، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار . وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق وحكي ذلك عن طائفة من السلف حتى نقل عن بعض الصحابة ﷺ أيضًا ، وليس ذلك في كتاب ولا سنة ، وما أظن ذلك تُلُقِّيَ إلا عن أحبار أهل الكتاب ، وأُخذ ذلك مسلَّمًا من غير حجة ، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل ؛ فإنه ذكر البشارة بغلام حليم وذكر أنه الذبيح ، ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا : ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ أي يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب ، فيكون من ذريته عقب ونسل ، وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير ؛ لأن الله تعالى قد وعدهما بأنه سيعقب ويكون له نسل ، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيرًا ؟ وإسماعيل وصف ههنا بالحليم ؛ لأنه مناسب لهذا المقام .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ أي كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه . ﴿ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « رؤيا الأنبياء في المنام وحي » (١) . وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه ، وليختبر صبره وجلده وعزمه في صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ أي امض لما أمرك الله من ذبحي ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أي سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل ، وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد قال تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ أي فلما تشهدا وذكرا الله تعالى ، إبراهيم على الذبح والولد شهادة الموت ، وقيل : ﴿ أَسْلَمَا ﴾ يعني استسلما وانقادا ، إبراهيم امتثل أمر الله تعالى ، وإسماعيل طاعةً لله ولأبيه ، ومعنى ﴿ وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ أي صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه . قال ابن عباس ومجاهد

(١) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٢٣٩/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٦/٧) وعزاه للطبراني في الكبير ، وليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه .

والضحاك : ﴿ وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ أكبّه على وجهه . وقال : لما أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالمناسك عرض له الشيطان عند السعي ، فسابقه فسبقه إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ثم ذهب به جبريل عليه الصلاة والسلام إلى جمرة العقبة ، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات ، ثم تله للجبين وعلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام قميص أبيض ، فقال له : يا أبت إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفنني فيه فعالجه ليخلعه فنودي من خلفه ﴿ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين ، قال ابن عباس : لقد رأيتنا نتتبع ذلك الضرب من الكباش [1] ، وروي أن أبا هريرة وكعب اجتمعا فجعل أبو هريرة ﷺ يحدث عن النبي ﷺ فجعل كعب يحدث عن الكتب ، فقال أبو هريرة ﷺ قال النبي ﷺ : « إن لكل نبي دعوة مستجابة ، وإني قد خبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » [2] ، فقال له كعب : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، قال : فداك أبي وأمي - أو فداه أبي وأمي - أفلا أخبرك عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ؟ إنه لما أُرِيَ ذَبْحَ ابنهِ إسحاق قال الشيطان : إن لم أفتن هؤلاء عند هذه لم أفتنهم أبدًا ، فخرج إبراهيم عليه الصلاة والسلام بابنه ليذبحه ، فذهب الشيطان فدخل على سارة فقال : أين ذهب إبراهيم بابنك ؟ قالت : غدا به لبعض حاجته ، قال : فإنه لم يغد به لحاجة ، إنما ذهب به ليذبحه ، قالت : ولم يذبحه ؟ قال : زعم أن ربه أمره بذلك ، قالت : فقد أحسن أن يطيع ربه ، فذهب الشيطان في أثرهما فقال للغلام : أين يذهب بك أبوك ؟ قال : لبعض حاجته ، قال : فإنه لا يذهب بك لحاجة ولكنه يذهب بك ليذبحك ، قال : ولم يذبحني ؟ قال : يزعم أن ربه أمره بذلك ، قال : فو الله لئن كان الله تعالى أمره بذلك ليفعلن ، قال : فيئس منه فتركه ولحق بإبراهيم عليه الصلاة والسلام فقال : أين غدوت بابنك ؟ قال : لحاجة ، قال : فإنك لم تغد به لحاجة وإنما غدوت به لتذبحه ، قال : ولم أذبحه ؟ قال : تزعم أن ربك أمرك بذلك ، قال : فوالله لئن كان الله تعالى أمرني بذلك لأفعلن ، قال : فتركه ويئس أن يطاع [3] . وقوله تعالى : ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ أي قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح ، وذكر السدي وغيره أنه أمرَّ السكين على رقبته فلم تقطع شيئًا ، بل حال بينها وبينه صفحة من نحاس ونودي إبراهيم عليه الصلاة والسلام عند ذلك ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد ، ونجعل لهم من أمرهم فرجًا ومخرجًا كقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ وقد استدل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل خلافًا لطائفة من المعتزلة . والدلالة من هذه ظاهرة ؛ لأن الله تعالى شرع لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ذبح ولده ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء ، وإنما كان المقصود من شرعه أولًا : إثابة الخليل على الصبر على

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٧/١) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٦/٢) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٠٨/٧) وعزاه إلى عبد الرزاق في مصنفه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقي .

ذبح ولده وعزمه على ذلك ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي الاختبار الواضح الجلي ؛ حيث أمر بذبح ولده فسارع إلى ذلك مستسلمًا لأمر الله تعالى منقادًا لطَاعته ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ بكبش أبيض أعين أقرن قد ربط بسمرة ، عن ابن عباس ﵄ قال : كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفا . وعن صفية بنت شيبه قالت : أخبرتني امرأة من بني سليم ولَّدت عامة أهل دارنا ، أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة ﵁ ، وقالت مرة : إنها سألت عثمان لم دعاك النبي ﷺ ؟ قال : قال لي رسول الله ﷺ : « إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت ، فنسيت أن آمرك أن تخمرهما ، فخمرهما ؛ فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي » (١) قال سفيان : لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا ، وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام ؛ فإن قريشا توارثوا قرني الكبش الذي فدى به إبراهيم خلفًا عن سلف وجيلًا بعد جيل إلى أن بعث الله رسوله ﷺ ، والله أعلم .

فصل في ذكر الآثار الواردة عن السلف في أن الذبيح من هو :

ذكر من قال هو إسحاق عليه الصلاة والسلام : قال حمزة الزيات عن أبي ميسرة ﵀ قال : قال يوسف عليه الصلاة والسلام للملك في وجهه : ترغب أن تأكل معي وأنا - والله - يوسف بن يعقوب ، نبي الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله (٢) .

ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو الصحيح المقطوع به : عن ابن عباس ﵄ أنه قال : المفدي إسماعيل ﵇ وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود ، وعن ابن عمر ﵄ قال : الذبيح إسماعيل ، وقال الشعبي : هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وقد رأيت قرني الكبش في الكعبة . عن الحسن البصري أنه كان لا يشك في ذلك ، أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم إسماعيل ﵇ ، قال ابن إسحاق وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول : إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل ، وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى ، وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال تعالى : ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ويقول الله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ يقول : بابن وابن ابن ، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل . وذكر محمد بن كعب القرظي ذلك لعمر بن عبد العزيز ﵁ وهو خليفة فقال : إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه ، وإني لأراه كما قلت ، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهوديًا فأسلم وحسن إسلامه ، وكان يرى أنه من علمائهم ، فسأله عمر بن عبد العزيز ﵁ عن ذلك ، قال محمد بن كعب : وأنا عند عمر بن عبد العزيز ، فقال له عمر : أي ابني إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال : إسماعيل والله يا أمير المؤمنين ، وإن يهود لتعلم بذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكونَ أباكم الذي كان من أمر الله فيه ، والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبرهِ لما أمر به ، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق ؛ لأن

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٦٨) .

(٢) ذكرت روايات عديدة أن الذبيح هو إسحاق ﵇ ، ولكن جميع هذه الأقوال لا يرقى إلى درجة الحديث الصحيح ، وكلها مأخوذة عن كعب الأحبار ؛ لذا آثرنا عدم ذكرها نظرًا لما فيها من الإسرائيليات .

إسحاق أبوهم ، والله أعلم أيهما كان ، وكل قد كان طاهرًا طيبًا مطيعًا لله ﷻ .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : سألت أبي عن الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحاق ؟ فقال : إسماعيل وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله تعالى : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ وأجاب عن البشارة بيعقوب ؛ بأنه قد كان بلغ معه السعي أي العمل ، ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضًا قال : وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة ؛ فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد كنعان ، قال : وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك ، هذا ما اعتمد عليه في تفسيره ، وليس ما ذهب إليه بمذهب ولا لازم ، بل هو بعيد جدًّا ، والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه اسماعيل أثبت وأصح وأقوى ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ لما تقدمت البشارة بالذبيح وهو إسماعيل عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق . وعن ابن عباس ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ قال : بشر به حين ولد وحين نبئ ، وقوله تعالى : ﴿ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ كقوله تعالى ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه ، وما كان يعتمد في حقهم من الإساءة العظيمة من قتل الأبناء واستحياء النساء ، واستعمالهم في أخس الأشياء - ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم وأقر أعينهم منهم فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم ، ثم أنزل الله ﷻ على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستبين وهو التوارة كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً ﴾ وقال ﷻ ههنا : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي في الأقوال والأفعال ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ أي أبقينا لهما من بعدهما ذكرًا جميلًا وثناء حسنًا ، ثم فسره بقوله تعالى : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقال : إلياس هو إدريس ، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : إلياس هو ادريس ، ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي ألا تخافون الله ﷻ في عبادتكم غيره ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدي : بعلًا يعني ربًّا . وهي لغة أهل اليمن ، وقال ابن

إسحاق : أخبرني بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها بعل . وقال زيد بن أسلم : هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها : بعلبكّ غربي دمشق ، وقوله تعالى : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أي أتعبدون صنمًا ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۝ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، قال الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي للعذاب يوم الحساب ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي الموحدين منهم وهذا استثناء منقطع من مثبت . وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أي ثناء جميلًا ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴾ كما يقال في إسماعيل إسماعين وهي لغة بني أسد .

وقرأ آخرون ﴿ سلام على إدراسين ﴾ وهي قراءة ابن مسعود ﷺ ، وقرأ آخرون ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴾ (١) يعني آل محمد ﷺ .

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ۝ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ۝ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ۝ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط ﷺ أنه بعثه إلى قومه فكذبوه فنجاه الله تعالى من بين أظهرهم هو وأهله إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها ؛ فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح ، وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلا ونهارًا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ۝ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي أفلا تعتبرون بهم كيف دمر الله عليهم وتعلمون أن للكافرين أمثالها .

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۝ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ۝ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ ۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ۝ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ .

عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » ونسبه إلى أمه (٢) . وفي رواية « إلى أبيه » وقوله تعالى : ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ قال ابن عباس ﵄ : هو الموقر أي المملوء بالأمتعة ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ أي قارع ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ أي المغلوبين ؛ وذلك أن السفينة تلعبت بها الأمواج من كل جانب ، وأشرفوا على الغرق ، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقى في البحر لتخف بهم السفينة ، فوقعت القرعة على نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات ، وهم يضنون به أن يلقى من بينهم فتجرد من ثيابه ليلقي نفسه وهم يأبون عليه ذلك ، وأمر الله تعالى حوتًا من البحر الأخضر أن يشق البحار وأن يلتقم يونس ﷺ ، فلا يهشم له لحمًا ولايكسر له عظمًا ، فجاء ذلك الحوت وألقى يونس ﷺ نفسه ، فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها . ولما استقر يونس في بطن الحوت حسب أنه قد مات ، ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حي ، واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت فقيل : ثلاثة أيام ، وقيل : سبعة ، وقيل : أربعين يوما ، والله تعالى أعلم بمقدار ذلك .

---

(١) قرأ نافع وابن عامر ﴿ سلامٌ على آلِ ياسين ﴾ بفتح الألف وكسر اللام ، وقرأ الباقون ﴿ الياسين ﴾ بكسر الألف ساكنة اللام (انظر : حجة القراءات ص ٦١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤١٣) وأبو داود في السنن (٤٦٦٩) وأحمد في مسنده (٤٠٥/٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ قيل : لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء ، واختاره ابن جرير وفي حديث ابن عباس « تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة » (١) . وقيل : المراد ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ هو قوله ﷻ ﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

عن أنس بن مالك ﷺ - ولا أعلم أنسًا إلا يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ : إن يونس النبي عليه الصلاة والسلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت ، فقال : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فأقبلت الدعوة تحن بالعرش ، قالت الملائكة : يا رب هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة ، فقال الله تعالى : أما تعرفون ذلك ؟ قالوا : يا رب ومن هو ؟ قال ﷻ : عبدي يونس ، قالوا : عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة ، قالوا : يا رب أولا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه في البلاء ، قال : بلى ، فأمر الحوت فطرحه بالعراء » (٢) .

قال تعالى : ﴿ فَنَبَذْنَٰهُ ﴾ أي ألقيناه ﴿ بِٱلْعَرَآءِ ﴾ قال ابن عباس ﵄ وغيره : وهي الأرض التي ليس بها نبت ولا بناء ، قيل : على جانب دجلة وقيل : بأرض اليمن فالله أعلم ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ أي ضعيف البدن ، ﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس ﷺ وغيرهما : اليقطين هو القرع . وقال سعيد بن جبير : كل شجرة لا ساق لها فهي من اليقطين ، وفي رواية عنه : كل شجرة تهلك من عامها فهي من اليقطين ، وذكر بعضهم في القرع فوائد منها : سرعة نباته ، وتظليل ورقه لكبره ونعومته ، وأنه لا يقربها الذباب ، وجودة تغذية ثمره ، وأنه يؤكل نيًّا ومطبوخاً بلبه وقشره أيضًا ، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحب الدباء ويتتبعه من نواحي الصحفة (٣) .

قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ عن ابن عباس ﵄ أنه قال : إنما كانت رسالة يونس عليه الصلاة والسلام بعدها نبذه الحوت عن مجاهد : أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت . (قلت) ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولاً أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت فصدقوه كلهم وآمنوا به ، وحكى البغوي : أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت كانوا مائة ألف أو يزيدون وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ قال ابن عباس ﵄ : بل يزيدون .

وقال مكحول : كانوا مائة ألف وعشرة آلاف . عن أبي بن كعب ﷺ أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ قال : « يزيدون عشرين ألفًا ؟ » (٤) قال ابن جرير : وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول في ذلك : معناه إلى المائة الألف أو كانوا يزيدون عندكم ، يقول : كذلك كانوا عندكم . وقوله تعالى : ﴿ فَـَٔامَنُوا۟ ﴾ أي فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس ﵇ جميعهم ﴿ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي إلى وقت آجالهم ، كقوله جلت عظمته : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٠٧) .
(٢) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٥٥٧٦) والسيوطي في الدر المنثور (٤/٣٣٤) والطبري في تفسيره (٢٣/٦٤) .
(٣) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٤٣٣) ومسلم في الأطعمة (٢١) والدارمي في الأطعمة (١٩) .
(٤) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٣٢٢٩) .

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على هؤلاء المشركين في جعلهم لله تعالى البنات - سبحانه - ولهم ما يشتهون أي من الذكور، أي يودون لأنفسهم الجيد ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي يسوؤه ذلك ولا يختار لنفسه إلا البنين، يقول ﷻ فكيف نسبوا إلى الله تعالى القسم الذي لا يختارونه لأنفسهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ أي سلهم على سبيل الإنكار عليهم ﴿ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ كقوله جل وعلا: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ أي يسألون عن ذلك يوم القيامة. وقوله جلت عظمته ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ ﴾ أي من كذبهم ﴿ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾ أي صدر منه الولد ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فذكر الله تعالى عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب، فأولًا: جعلوهم بنات الله فجعلوا لله ولدًا تعالى وتقدس، وجعلوا ذلك الولد أنثى، ثم عبدوهم من دون الله تعالى وتقدس. وكل منها كاف في التخليد في نار جهنم. ثم قال تعالى منكرًا عليهم ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴾ أي أيُّ شيء يحمله علي أن يختار البنات دون البنين كقوله ﷻ: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أي مالكم عقول تتدبرون بها ما تقولون ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴾ أي حجة على ما تقولونه، ﴿ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي هاتوا برهانًا على ذلك يكون مستندًا إلى كتاب منزل من السماء عن الله تعالى أنه اتخذ ما تقولونه، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل، بل لا يجوزه العقل بالكلية. وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بنات الله تعالى، فقال أبو بكر ﷺ: فمن أمهاتهن، قالوا: بنات سروات الجن [1] ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ ﴾ أي الذين نسبوا إليهم ذلك ﴿ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي إن الذين قالوا ذلك لمحضرون في العذاب يوم الحساب لكذبهم في ذلك وافترائهم وقولهم الباطل بلا علم، وقوله جلت عظمته: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد وعما يصفه به الظالمون الملحدون علوًّا كبيرًا. وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ استثناء منقطع وهو من مثبت إلا أن يكون الضمير في قوله تعالى: ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ عائد إلى الناس جميعهم، ثم استثنى منهم المخلصين، وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي مرسل.

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا المشركين: ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٢٩/٢٣) .

أي إنما ينقاد لمقالتكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة من هو أضل منكم ممن ذرئ للنار فهذا الضرب من الناس هو الذي ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة كما قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أي إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل ، ثم قال تبارك وتعالى منزهًا للملائكة مما نسبوا إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ أي له موضع مخصوص في السموات ومقامات العبادات لا يتجاوزه ولا يتعداه فعن العلاء بن سعد - وكان ممن بايع يوم الفتح - أن رسول الله ﷺ قال يومًا لجلسائها : « أطت السماء وحق لها أن تئط ، ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد » ثم ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ أي نقف صفوفًا في الطاعة ، عن الوليد بن عبد الله بن أبي مغيث قال : كانوا لا يصفون في الصلاة حتى نزلت ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ فصفوا : وقال أبو نضرة : كان عمر ﷺ إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال : أقيموا صفوفكم ، استووا قيامًا ، يريد الله تعالى بكم هدي الملائكة ثم يقول : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ تأخر يا فلان تقدم يا فلان ثم يتقدم فيكبر (٢) . وعن حذيفة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ « فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض مسجدًا ، وتربتها طهورًا » (٣) ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ أي نصطف ، فنسبح الرب ونمجده ونقدسه وننزهه عن النقائص فنحن عبيد له فقراء إليه خاضعون لديه . وقال ابن عباس ﷺ ومجاهد : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ الملائكة ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ الملائكة ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ الملائكة تسبح الله ﷻ . وقوله جل وعلا : ﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ۝ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أي قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله وما كان من أمر القرون الأولى ويأتيهم بكتاب الله كما قال ﷻ : ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ وعيد أكيد وتهديد شديد على كفرهم بربهم ﷻ وتكذيبهم رسوله ﷺ .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي تقدم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ ولهذا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٣/٥) ، والترمذي في الزهد (٢٣١٢) وابن ماجه في السنن (٤٩٠) والأطيط : صوت الأقتاب ؛ أي أن كثرة الملائكة في السماء قد أثقلها حتى أطت ، وهذا كناية عن كثرة الملائكة ، أريد بها تقرير عظمة الله تعالى .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٣٥/٧) ، وعزاه لمحمد بن نصر المروزي وابن جرير وابن جرير وابن مردويه وابن أبي حاتم .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (٤) والبيهقي في السنن (٢١٣/١) ، وابن خزيمة في صحيحه (٢٦٤) .

قال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴾ أي في الدنيا والآخرة كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم ، كيف أهلك الله الكافرين ونجى عباده المؤمنين ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ أي تكون لهم العاقبة . وقوله جل وعلا : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي اصبر على أذاهم لك ، وانتظر إلى وقت مؤجل فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر ، ولهذا قال بعضهم : نسأ ذلك إلى يوم بدر وما بعدها أيضًا في معناها ، وقوله جلت عظمته : ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ أي أنظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتكذيبك ، ولهذا قال تعالى على وجه التهديد والوعيد ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ ثم قال ﷻ : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم بك ؛ فإن الله تعالى يغضب عليهم بذلك ويعجل لهم العقوبة ، ومع هذا أيضًا كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴾ أي فإذا نزل العذاب بمحلتهم فبئس ذلك اليوم يومهم بإهلاكهم ودمارهم ، عن أنس ﷺ قال : صبح رسول ﷺ خيبر ، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش رجعوا وهم يقولون : محمد والله ، محمد والخميس ، فقال النبي ﷺ : « الله أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » [(١)] ، وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك .

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۝ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

ينزه تبارك وتعالى نفسه ويقدسها ويبرئها عما يقول الظالمون المكذبون المعتدون ، تعالى وتنزه وتقدس عن قولهم علوًا كبيرًا ؛ ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ ﴾ أي ذي العزة التي لا ترام ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي عن قول هؤلاء المعتدين المفترين ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة ؛ لسلامة ما قالوه في ربهم وصحته وحقيقته ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال ، ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة ، ويستلزم إثبات الكمال ، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة ، ويستلزم التنزيه من النقص قرن بينهما في هذا الموضع ؛ وفي مواضع كثيرة من القرآن ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۝ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، عن قتادة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا سلَّمتُمْ عليَّ فسلِّموا على المرسَلِين ؛ فإنما أنا رَسُولٌ من المرسَلِين » [(٢)] .

عن عبد الله بن زيد بن أرقم عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من قال دبر كل صلاة : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۝ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ثلاث مرات ؛ فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر » [(٣)] وقد وردت أحاديث في كفارة المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك [(٤)] .

---

(١) أخرجه البخاري في صلاة الخوف (٩٤٧) ومسلم في الجهاد والسير (١٢٠) والنسائي في السنن (١٣٢/٦) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٣٩/٢٣) ، والسيوطي في الدر المنثور (١٤٠/٧) ، وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن منذر .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٦٩٢٦) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤٥٤/٢) والهيثمي (١٠٢/١٠) .

(٤) أخرجه أبو داود (٤٨٥٨) والنسائي في السنن (٢٢٣/٢) .

سورة ص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا . وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ أي والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد ونفع لهم في المعاش والمعاد ، قال الضحاك في قوله تعالى : ﴿ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ أي تذكيرهم ، وقال ابن عباس وغيره : ذي الشرف أي ذي الشأن والمكانة ، ولا منافاة بين القولين ؛ فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار ، واختلفوا في جواب هذا القسم فقال بعضهم : هو قوله تعالى : ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ وقيل : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ وهذا الثاني فيه بعد كبير وضعفه ابن جرير ، وقال قتادة : جوابه ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ أي إن في هذا القرآن لذكرى لمن يتذكر وعبرة لمن يعتبر ، وإنما لم ينتفع به الكافرون ؛ لأنهم ﴿ فِى عِزَّةٍ ﴾ أي استكبار عنه وحمية ﴿ وَشِقَاقٍ ﴾ أي ومخالفة له ومعاندة ومفارقة ، ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء ، فقال تعالى : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ أي من أمة مكذبة ﴿ فَنَادَوا۟ ﴾ أي حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله تعالى وليس ذلك بمجد عنهم شيئًا كما قال ﷻ : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ أي يهربون ﴿ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما عن قول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ . قال : ليس بحين نداء ولا نزو ولا فرار .

وقال محمد بن كعب في قوله تعالى : ﴿ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ يقول : نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم ، واستناصوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم ، وقال قتادة : لما رأوا العذاب أرادوا التوبة في غير حين النداء ، وقال مجاهد ﴿ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ ليس بحين فرار ولا إجابة وقد روي نحو هذا عن عكرمة وسعيد بن جبير ، وهذه الكلمة وهي لات : هي لا التي للنفي زيدت معها التاء كما تزاد في ثم فيقولون : ثمت ، ورب فيقولون : ربت وهي مفصولة والوقف عليها ، ومنهم من حكى عن المصحف الإمام فيما ذكره ابن جرير أنها متصلة بحين ولا تحين مناص والمشهور الأول ، ثم قرأ الجمهور بنصب حين تقديره ، وليس الحين حين مناص ، ومنهم من جوز النصب بها ، وأنشد :

تذكر حب ليلى لات حينًا ... وأضحى الشيب قد قطع القرينا (١)

ومنهم من جوز الجر بها وأنشد :

ولات ساعة مندم (٢)

---

(١) البيت لعمرو بن شاس (انظر : معاني القرآن للفراء ص : ٢٧٦ ، وهمع الهوامع ١/١٢٦) .

(٢) هو جزء من بيت للمهلهل بن مالك الكناني ، وقيل : لمحمد بن عيسى بن طلحة (انظر : خزانة الأدب ٤/١٧٥ ، وشرح شذور الذهب ص : ٢٦٠) .

بخفض الساعة ، وأهل اللغة يقولون : النوص التأخر والبوص التقدم ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ أي ليس الحين حين فرار ولا ذهاب .

﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ۝ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَـٰبِ ۝ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين في تعجبهم من بعثة رسول الله ﷺ بشيرًا ونذيرًا : ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي بشر مثلهم ، ﴿ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ﴾ أي أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو ؟ أنكر المشركون ذلك قبحهم الله تعالى ، وتعجبوا من ترك الشرك بالله ؛ فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم ، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم وإفراد الإله بالوحدانية أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ ﴾ وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين ﴿ أَنِ ٱمْشُوا۟ ﴾ أي استمروا على دينكم ﴿ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ قال ابن جرير : إن هذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء وأن يكون له منكم أتباع ولسنا نجيبه إليه .

ذكر سبب نزول هذه الآيات الكريمات : قال السدي : إن ناسًا من قريش اجتمعوا فيهم أبو جهل بن هشام والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب والأسود بن عبد يغوث في نفر من مشيخة قريش ، فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى أبي طالب فلنكلمه فيه فلينصفنا منه فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه الذي يعبده ؛ فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا إليه شيء ، فتعيرنا به العرب يقولون : تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه ؟ فبعثوا رجلًا منهم يقال له : المطلب ، فاستأذن لهم على أبي طالب فقال : هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم يستأذنون عليك ، قال : أدخلهم ، فلما دخلوا عليه قالوا : يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك فمره فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه ، قال : فبعث إليه أبو طالب فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال : يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ، ويدعوك وإلهك قال ﷺ : « ياعم أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم ؟ » ، قال : وإلام تدعوهم ؟ قال ﷺ : « أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ، ويملكون بها العجم » فقال أبو جهل لعنه الله من بين القوم : ما هي وأبيك لنعطينكها وعشرًا أمثالها ، قال ﷺ : « تقولون لا إله إلا الله » فنفروا وقالوا : سلنا غيرها : قال ﷺ : « لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها » فقاموا من عنده غضابًا وقالوا : والله لنشتمنك ، وإلهك الذي أمرك بهذا ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ فلما خرجوا دعا رسول الله ﷺ عمه إلى قول لا إله إلا الله فأبى وقال : بل على دين الأشياخ ونزلت ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ (١) .

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٣٢٣٢) وأحمد في مسنده (٣٦٢/١) كلاهما بنحوه ، والطبري في تفسيره (١٥٢/٢٣) بلفظه .

وقولهم : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ أي ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد في الملة الآخرة .

قال مجاهد وقتادة وأبو زيد : يعنون دين قريش ، وقال ابن عباس ﵄ : ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة يعني النصرانية قالوا : لوكان هذا القرآن حقًّا لأخبرتنا به النصارى ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ قال مجاهد وقتادة : كذب وقال ابن عباس : تخرص . وقولهم : ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ﴾ يعني أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم ، ولهذا لما قالوا هذا الذي دلّ على جهلهم وقلة عقلهم في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم . قال الله تعالى : ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ أي إنما يقولون هذا ؛ لأنهم ماذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذابَ الله تعالى ونقمته ، سيعلمون غب ماقالوا وما كذبوا به يوم يدعون إلى نارجهنم دعًّا . ثم قال تعالى مبينًا أنه المتصرف في ملكه الفعال لما يشاء الذي يعطي من يشاء ما يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، ويهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده ، ويختم على قلب من يشاء فلا يهديه أحد من بعد الله ، وإن العباد لا يملكون شيئًا من الأمر ، وليس إليهم من التصرف في الملك ولامثقال ذرة وما يملكون من قطمير . ولهذا قال تعالى منكرًا عليهم ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾ أي العزيز الذي لا يرام جنابه الوهاب الذي يعطي ما يريد لمن يريد .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ أي إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب . قال ابن عباس ﵄ ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم : يعني طرق السماء ، وقال الضحاك : فليصعدوا إلى السماء السابعة .

ثم قال ﷻ : ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴾ أي هؤلاء الجند المكذبون الذين هم في عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكبتون كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن هؤلاء القرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات في مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقد تقدمت قصصهم مبسوطة في أماكن متعددة ، وقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴾ أي كانوا أكثر منكم وأشد قوة وأكثر أموالًا وأولادًا ، فما دفع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ فجعل علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل ، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ قال زيد بن أسلم : أي ليس لها مثنوية ، أي ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها ، أي فقد اقتربت ودنت وأزفت ، وهذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله تعالى إسرافيل أن يطولها فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع ، إلا من استثنى الله ﷻ . وقوله ﷻ : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ هذا

إنكار من الله تعالى على المشركين في دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب ؛ فإن القط هو الكتاب ، وقيل : هو الحظ والنصيب . قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والحسن وغير واحد : سألوا تعجيل العذاب ، وقيل : سألوا تعجيل نصيبهم من الجنة إن كانت موجودة ليلقوا ذاك في الدنيا وإنما خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتكذيب . وقال ابن جرير : سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخيرأو الشر في الدنيا ، وهذا الذي قاله جيد . ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد . قال الله تعالى لرسوله ﷺ آمرًا له بالصبر على أذاهم ومبشرًا له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر .

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ .

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام أنه كان ذا أيد ، والأيد القوة في العلم والعمل . وقال قتادة : أعطي داود عليه الصلاة والسلام قوة في العبادة وفقهًا في الإسلام ، وقد ذكر لنا أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم ثلث الليل ويصوم نصف الدهر ، وهذا ثابت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله ﷻ صيام داود ؛ كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا ، ولا يفر إذا لاقى ، وأنه كان أوابًا » [(١)] وهو الرجاع إلى الله ﷻ في جميع أموره وشؤونه . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ أي أنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار ، كما قال ﷻ : ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾ وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وترجع بترجيعه إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور ، لا يستطيع الذهاب بل يقف في الهواء ويسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات ترجع معه وتسبح تبعًا له . وعن عبد الله بن الحارث بن نوفل أن ابن عباس رضي الله عنهما كان لا يصلي الضحى ، قال : فأدخلته على أم هانئ رضي الله عنها فقلت : أخبري هذا ما أخبرتني ، فقالت : دخل علي رسول الله ﷺ يوم الفتح في بيتي ، ثم أمر بماء صب في قصعة ، ثم أمر بثوب فأخذ بيني وبينه فاغتسل ، ثم رش ناحية البيت فصلى ثمان ركعات وذلك من الضحى قيامهن وركوعهن وسجودهن وجلوسهن سواء ، قريب بعضهن من بعض ، فخرج ابن عباس رضي الله عنهما وهو يقول : لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت صلاة الضحى إلا الآن ﴿ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ وكنت أقول : أين صلاة الإشراق وكان بعد يقول : صلاة الإشراق [(٢)] . ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ أي محبوسة في الهواء ﴿ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ أي مطيع يسبح تبعًا له .

وقوله تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾ أي جعلنا له ملكًا كاملًا من جميع ما يحتاج إليه الملوك وقوله ﷻ : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ قال مجاهد : يعني الفهم والعقل والفطنة ، وقال مرة : الحكمة والعدل ، وقال مرة : الصواب ، وقوله ﷻ : ﴿ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ قال شريح القاضي والشعبي : فصل الخطاب الشهود والأيمان وقال قتادة : شاهدان على المدعي أو يمين المدعى عليه هو فصل الخطاب الذي فصل به الأنبياء

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٣١) ومسلم في الصيام (١٨٩) والنسائي في السنن (٢١٤/٣) وابن ماجه في السنن (١٧١٢) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٣/٤) وقال : صحيح على شرط الشيخين .

والرسل ، أو قال : المؤمنون والصالحون ، وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة ، وقال مجاهد أيضًا : هو الفصل في الكلام وفي الحكم وهذا يشمل هذا كله وهو المراد واختاره ابن جرير ، وعن أبي موسى ﷺ قال : أول من قال : أما بعد داودُ ﷺ ، وهو فصل الخطاب (١) .

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه ، وهو أشرف مكان في داره وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب ، أي احتاطا به يسألانه عن شأنهما . وقوله ﷻ : ﴿ وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾ أي غلبني . وقوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ ﴾ قال ابن عباس ﷺ : أي اختبرناه . وقوله تعالى ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ أي ساجدًا ﴿ وَأَنَابَ ﴾ ويحتمل أنه ركع أولًا ثم سجد بعد ذلك ، ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ﴾ أي ما كان منه مما يقال : فيه إن حسنات الأبرار سيئات المقربين .

وقد اختلف الأئمة في سجدة ﴿ صٓ ﴾ هل هي من عزائم السجود؟ على قولين : الجديد من مذهب الشافعي ﷺ أنها ليست من عزائم السجود بل هي سجدة شكر ، والدليل على ذلك ما روي عن ابن عباس ﷺ قال : السجدة في ﴿ صٓ ﴾ ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها (٢) . عن ابن عباس ﷺ قال : إن النبي ﷺ سجد في ﴿ صٓ ﴾ وقال : « سجدها داود علية الصلاة والسلام توبة ، ونسجدها شكرا » (٣) وعن ابن عباس ﷺ قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني رأيت فيما يرى النائم كأني أصلي خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدت ، فسجدت الشجرة بسجودي فسمعتها تقول وهي ساجدة : اللَّهم اكتب لي بها عندك أجرًا ، واجعلها لي عندك ذخرًا ، وضع بها عني وزرًا ، واقبلها مني كما قبلتها من عبدك داود . قال ابن عباس ﷺ : فرأيت النبي ﷺ قام فقرأ السجدة ثم سجد ، فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة (٤) . عن العوام قال : سألت مجاهدًا عن سجدة ﴿ صٓ ﴾ فقال : سألت ابن عباس ﷺ : من أين سجدت ؟ فقال : أو ما تقرأ ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾ ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ فكان داود عليه الصلاة والسلام ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به فسجدها داود عليه الصلاة والسلام فسجدها رسول الله ﷺ (٥)

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٦٧/١٢) .

(٢) أخرجه البخاري في سجود القرآن (١٠٦٩) والترمذي في الصلاة (٥٧٧) وأبو داود في الصلاة (١٤٠٩) . وقال الحافظ في الفتح (٤٥٦/٢) والمراد بالعزائم ما وردت العزيمة على فعله كصيغة الأمر مثلًا .

(٣) أخرجه النسائي في السنن (١٥٩/٢) .

(٤) أخرجه الترمذي في الصلاة (٥٧٩) والحاكم في المستدرك (٢١٩/١) وابن خزيمة في صحيحه (٥٦٢) .

(٥) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٢١) .

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر ﴿ صٓ ﴾ ، فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه ، فلما كان يوم آخر قرأها ، فلما بلغ السجدة تشرف الناس للسجود فقال ﷺ : « إنما هي توبة نبي ، ولكني رأيتكم تشرفتم » فنزل وسجد (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ أي وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله ﷻ بها وحسن مرجع وهو الدرجات العالية في الجنة لتوبته وعدله التام في ملكه كما جاء في الصحيح : « المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين ؛ الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا » (٢) وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسًا : إمام عادل ، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابًا إمام جائر » (٣) .

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ .

هذه وصية من الله ﷻ لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله ، وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد . وعن أبي زرعة وكان قد قرأ الكتاب أن الوليد بن عبد الملك قال له : أيحاسب الخليفة ؟ فإنك قد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن وفقهت ، فقلت : يا أمير المؤمنين أقول ؟ قال : قل في أمان الله ، قلت : يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام ، إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة ، ثم توعده في كتابه فقال تعالى : ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وقال عكرمة ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ هذا من المقدم والمؤخر ، لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا ، وقال السدي : لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب وهذا القول أمشى على ظاهر الآية والله ﷻ الموفق للصواب .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ .

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثًا وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه ، ثم يجمعهم يوم الجمع فيثيب المطيع ويعذب الكافر ؛ ولذا قال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي الذين لا يرون بعثًا ولا معادًا وإنما يعتقدون هذه الدار فقط ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ أي ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم ، ثم بين تعالى أنه ﷻ من عدله وحكمته لا يساوي بين المؤمنين والكافرين فقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (١٤١٠) وابن ماجه في السنن (١٩٩٨) والحاكم في المستدرك (٢٨٤/١) وابن خزيمة في صحيحه (١٤٥٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٣/٢) ومسلم في الإمارة (١٨) والنسائي في السنن (٢٢١/٨) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٣٢٩) وأحمد في مسنده ٢٢/٣ ، والبيهقي في السنن (٨٨/١٠) .

أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ أي لا نفعل ذلك ولا يستوون عند الله ، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ويعاقب فيها هذا الفاجر ، وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء ، فإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك ، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده ، فلابد في حكمة الحكيم العليم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا ، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار ، فتعين أن هناك دارًا أخرى لهذا الجزاء والمواساة . ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة قال تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي ذوو العقول ، قال الحسن البصري : والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى أن أحدهم ليقول : قرأت القرآن كله مايرى له القرآن في خلق ولا عمل ؟ .

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا أنه وهب لداود سليمان أي نبيًّا كما قال ﷻ : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ ، أي في النبوة . وقوله تعالى : ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ ثناء على سليمان بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله ﷻ .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ أي إذ عرض على سليمان عليه الصلاة والسلام في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات ، قال مجاهد : وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة ، والجياد السراع وكذا قال غير واحد من السلف . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر وفي سهوتها ستر ، فهبت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة رضي الله عنها ، لعب ، فقال ﷺ : « ما هذا يا عائشة ؟ » قالت رضي الله عنها : بناتي ، ورأى بينهن فرسًا له جناحان من رقاع فقال ﷺ : « ما هذا الذي أرى وسطهن ؟ » قالت رضي الله عنها : فرس ، قال رسول الله ﷺ : « ما هذا الذي عليه ؟ » قالت رضي الله عنها : جناحان . قال رسول الله ﷺ : « فرس له جناحان ؟ » قالت رضي الله عنها : أما سمعت أن سليمان عليه الصلاة والسلام كانت له خيل لها أجنحة ؟ قالت رضي الله عنها : فضحك ﷺ حتى رأيت نواجذه (١) .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر ، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمدًا بل نسيانًا كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب ، عن جابر رضي الله عنه قال : جاء عمر رضي الله عنه يوم الخندق بعدما غربت الشمس ، فجعل يسب كفار قريش ويقول : يا رسول الله والله ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب ، فقال رسول الله ﷺ : « والله ما صليتها » فقال : فقمنا إلى بطحان فتوضأ نبي الله ﷺ للصلاة وتوضأنا لها ، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب (٢) ويحتمل أنه كان سائغًا في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٩٣٢) « وسهوتها » البيت الصغير المنحدر قليلًا في الأرض .

(٢) أخرجه البخاري في المواقيت (٥٩٦) والترمذي في السنن (١٨٠) وبطحان : واد بالمدينة وهو أحد أوديتها الثلاث وهي : العقيق ، وبطحان ، وقناة .

والقتال ، والخيل تراد للقتال وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعًا فنسخ ذلك بصلاة الخوف ، ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسايفة والمضايقة حيث لا تمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود كما فعل الصحابة ﷺ في فتح تستر [١] والأول أقرب ؛ لأنه قال بعده ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ ، قال الحسن البصري : لا ، قال : والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ماعليك ، ثم أمر بها فعقرت ، وقال السدي : ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف . وقال ابن عباس ﷺ : جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبًا لها ، وهذا القول اختاره ابن جرير قال : لأنه لم يكن ليعذب حيوانًا بالعرقبة ويهلك مالًا من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها ، وهذا الذي رجح به ابن جرير فيه نظر ؛ لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا ولا سيما إذا كان غضبًا لله تعالى بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة ؛ ولهذا لما خرج عنها الله تعالى عوضه الله ﷻ ما هو خير منها وهو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، غدوها شهر ورواحها شهر ، فهذا أسرع وخير من الخيل ، عن أبي قتادة وأبي الدهماء - وكانا يكثران السفر نحو البيت - قالا : أتينا على رجل من أهل البادية فقال لنا البدوي : أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله ﷻ وقال : « إنك لا تدع شيئًا اتقاء الله تعالى إلا أعطاك الله ﷻ خيرًا منه » [٢] .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ۝ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۝ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ۝ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ۝ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ ، أي اختبرناه بأن سلبناه الملك ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ ، قال ابن عباس ﷺ ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم : يعني شيطانًا ﴿ أَنَابَ ﴾ أي رجع إلى ملكه وسلطانه وأبهته . ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ ، قال بعضهم : لا ينبغي لأحد من بعدي ، أي لا يصلح لأحد أن يسلبنيه بعدى ، كما كان من قضية الجسد الذي ألقي على كرسيه لا أنه يحجر على من بعده من الناس ، والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكًا لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله وهذا هو ظاهر السياق من الآية وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ .

فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « إن عفريتًا من الجن تفلت عليّ البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع علي الصلاة فأمكنني اللة تبارك وتعالى منه ، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أخي سليمان عليه الصلاة والسلام : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ ، قال روح : فرده خاسئًا [٣] . وعن أبي الدرداء ﷺ قال : قام رسول الله ﷺ يصلي ، فسمعناه يقول : « أعوذ بالله منك » ثم قال : « ألعنك بلعنة الله » ثلاثًا وبسط يده كأنه يتناول

---

(١) « تستر » أعظم مدن خوزستان قديمًا من بلاد فارس (انظر : معجم البلدان ٢٩/٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٧٨/٥) .
(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٦١) وأحمد في مسنده (٢٩٨/٢) وأبو عوانة في مسنده (١٤٤/٢) .

شيئًا ، فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله سمعناك تقول في الصلاة شيئًا لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك قال ﷺ : « إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي ، فقلت : أعوذ بالله منك ثلاث مرات ، ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ثلاث مرات ، ثم أردت أن آخذه ، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقًا يلعب به صبيان أهل المدينة »[(١)] . وعن ربيعة بن يزيد بن عبد الله الديلمي قال : دخلت على عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وهو في حائط له بالطائف يقال له : الوهط وهو محاصرٌ فتى من قريش يزني ويشرب الخمر ، فقلت : بلغني عنك حديث أنه من شرب شربة من الخمر لم يقبل الله عز وجل له توبة أربعين صباحًا ، وأن الشقي من شقي في بطن أمه ، وأنه من أتى بيت المقدس لا تنهزه إلا الصلاة فيه ، خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه ، فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجتذب يده من يده ثم انطلق ، فقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : إني لا أحل لأحد أن يقول عليَّ ما لم أقل ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من شرب من الخمر شربة لا تقبل له صلاة أربعين صباحًا ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا ، فإن تاب تاب الله عليه » قال : فلا أدري في الثالثة أو الرابعة قال : « فإن عاد كان حقًا على الله تعالى أن يسقيه من طينة الخبال يوم القيامة » قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى ، ومن أخطأه ضل ؛ فلذلك أقول : جف القلم على علم الله عز وجل »[(٢)] وسمعت رسول الله يقول : « إن سليمان عليه السلام سأل الله تعالى ثلاثًا فأعطاه اثنتين ، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة ، سأله حكما يصادف حكمه فأعطاه إياه ، وسأله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده ، فأعطاه إياه ، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه ، فنحن نرجو أن يكون الله عز وجل قد أعطانا إياها »[(٣)] .

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : ما سمعت رسول الله ﷺ دعا إلا استفتحه : « سبحان الله ربي العلي الأعلى الوهاب »[(٤)] . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ قال الحسن البصري رحمه الله : لما عقر سليمان عليه الصلاة والسلام الخيل غضبًا لله عز وجل عوضه الله تعالى ما هو خير منها وأسرع ، الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر .

وقوله جل وعلا : ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي حيث أراد من البلاد . وقوله عز وجل : ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ أي منهم ما هو مستعمل في الأبنية الهائلة من محاريبَ وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر ، وطائفة غواصون في البحار يستخرجون ما فيها من اللآلىء والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ أي موثقون في الأغلال والأكبال ممن قد تمرد وعصى وامتنع من العمل وأبى ، أو قد أساء في صنيعه واعتدى .

وقوله عز وجل : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي هذا الذي أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا ، فأعط من شئت ، واحرم من شئت ، لا حساب عليك ، أي مهما فعلت فهو جائز

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (١٣/٣) ومسلم في المساجد (٤٠) والبيهقي في السنن (٢٦٤/٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٦/٢ ، ١٩٧) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٦/٢) والنسائي في السنن (٤٣/٢) وابن ماجه في السنن (١٤٠٨) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٥٤/٤) .

لك ، احكم بما شئت فهو صواب . وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خير بين أن يكون عبدًا رسولًا - وهو الذي يفعل ما يؤمر به وإنما هو قاسم يقسم بين الناس كما أمره الله تعالى به - وبين أن يكون نبيًّا ملكًا يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح ، اختار المنزلة الأولى بعدما استشار جبريل عليه الصلاة والسلام ، فقال له : تواضع فاختار المنزلة الأولى ؛ لأنها أرفع قدرًا عند الله ﷻ وأعلى منزلة في المعاد ، وإن كانت المنزلة الثانية وهي النبوة مع الملك عظيمة أيضًا في الدنيا والأخرة ، ولهذا لما ذكر تبارك وتعالى ما أعطى سليمان عليه الصلاة والسلام في الدنيا نبه تعالى على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضًا فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ أي في الدار الآخرة .

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

يذكر تبارك وتعالى عبده ورسوله أيوب عليه الصلاة والسلام وما كان ابتلاه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده حتى لم يبق في جسده مغرز إبرة سليماً سوى قلبه ، ولم يبق له من الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هوفيه غيرأن زوجته حفظت وده ؛ لإيمانها بالله تعالى ورسوله ؛ فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه نحوًا من ثماني عشرة سنة ، وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعة طائلة في الدنيا ، فسلب جميع ذلك ، عن أنس بن مالك ﷺ قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين ، قال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به ، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب عليه الصلاة والسلام : لا أدري ما تقول غير أن الله ﷻ يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله تعالى إلا في حق ، قال : وكان يخرج إلى حاجته ، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها فأوحى الله تبارك وتعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام أن ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ ثم فاستبطأته فالتفتت تنظر فأقبل عليها وقد أذهب الله مابه من البلاء وهو على أحسن ما كان ، فلما رأته قالت : أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلى ، فوالله القدير على ذلك مارأيت رجلًا أشبه به منك إذ كان صحيحًا ، قال : فإني أنا هو ، قال : وكان له أندران (١) أندر للقمح وأندر للشعير ، فبعث الله تعالى سحابتين ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير حتى فاض (٢) .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما أيوب يغتسل عريانًا خر عليه جراد من ذهب ، فجعل أيوب عليه الصلاة والسلام يحثو في ثوبه فناداه ربه ﷻ : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال عليه الصلاة والسلام : بلى يارب ولكن لا غنى بي عن بركتك » (٣) ، ولهذا قال

---

(١) الأندر : البيدر من القمح خاصة . (٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٣/١٩٩) .
(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٩١) وأحمد في مسنده (٢/٣١٤) والبيهقي في السنن (١/١٩٨) .

تبارك وتعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ قال الحسن وقتادة : أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم .

وقوله ﷻ : ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أي به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته ﴿ وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي لذوي العقول ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة . وقوله جلت عظمته : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ وذلك أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان قد غضب على زوجته ووجد عليها في أمر فعلته فلامها على ذلك وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة ، فلما شفاه الله عز وجلِ وعافاه ماكان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب ، فأفتاه الله ﷻ أن يأخذ ضغثا وهو الشمراخ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة ، وقد برت يمينه وخرج من حنثه ووفى بنذره ، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأناب إليه ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ أي رجاع منيب .

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى مخبرًا عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة . قال ابن عباس ﵄ : ﴿ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى ﴾ أولي القوة ﴿ وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ يقول : الفقه في الدين . وقال مجاهد : ﴿ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى ﴾ يعني القوة في طاعة الله تعالى ﴿ وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ يعني البصر في الحق .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ قال مجاهد : أي جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم همٌّ غيرها . وقال مالك بن دينار : نزع الله تعالى من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ أي لمن المختارين المجتبين الأخيار فهم أخيار مختارون .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما أغنى عن إعادته ههنا .

وقوله ﷻ : ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾ أي هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر ، قال السدي : يعني القرآن العظيم .

﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ .

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء أن لهم في الدار الآخرة لحسن مآب وهو المرجع والمنقلب ، ثم فسره بقوله تعالى : ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾ أي جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب أي إذا جاءوها فتحت لهم أبوابها ، عن عبد الله بن عمرو ﵄ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة قصرًا يقال له : عدن حوله البروج والمروج ، له خمسة آلاف باب عند كل باب ، خمسة آلاف حبرة ، لا يدخله - أو لا يسكنه - إلا نبي أو صديق أو شهيد أو إمام عدل (١) » .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٧/٤) .

وقوله ﷻ : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا ﴾ قيل : متربعين على سرر تحت الحجال ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ أي مهما طلبوا وجدوا وأحضر كما أرادوا ﴿ وَشَرَابٍ ﴾ أي من أي أنواعه شاؤوا أتتهم به الخدام ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ أي عن غير أزواجهن ، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ أي متساويات في السن والعمر ، هذا معنى قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي هذا الذي ذكرنا من صفة الجنة هي التي وعدها لعباده المتقين التي يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار . ثم أخبرتبارك وتعالى عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا زوال ولا انقضاء ولا انتهاء فقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ كقوله ﷻ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ ﴾ .

﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ۝ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ۝ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ .

لما ذكر تبارك وتعالى مآل السعداء ثنى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم فقال ﷻ : ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ ﴾ ، وهم الخارجون عن طاعة الله ﷻ المخالفون لرسول الله ﷺ ﴿ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ أي لسوء منقلب ومرجع . ثم فسره بقوله جل وعلا : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أي يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم ﴿ فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ أما الحميم : فهو الحار الذي قد انتهى حره ، وأما الغساق : فهو ضده وهو البارد الذي لا يستطاع من شدة برده المؤلم .

ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ أي وأشياء من هذا القبيل : الشيء وضده يعاقبون بها . عن أبي سعيد ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لو أن دلوًا من غساق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا »(١) . وقال الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ ألوان من العذاب ، وقال غيره : كالزمهرير والسموم وشرب الحميم وأكل الزقوم والصعود والهوي إلى غيرذلك من الأشياء المختلفة المتضادة والجميع مما يعذبون به ، ويهانون بسببه .

وقوله ﷻ : ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعضهم لبعض ، كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ ﴾ يعني بدل السلام يتلاعنون . ويتكاذبون ويكفر بعضهم ببعض ، فتقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى إذا أقبلت التي بعدها مع الخزنة من الزبانية : ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ ﴾ أي داخل ﴿ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴾ أي لأنهم من أهل جهنم ﴿ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ﴾ أي فيقول لهم الداخلون ﴿ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ أي أنتم دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ﴿ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ أي فبئس المنزل والمستقر والمصير ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴾ كما قال ﷻ : ﴿ قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ أي لكل منكم عذاب بحسبه ﴿ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ . هذا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢٨) والترمذي في السنن (٢٥٨٤) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/٤٧٨) .

إخبار عن الكفار في النار أنهم يفتقدون رجالًا كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة وهم المؤمنون في زعمهم ، قالوا : مالنا لا نراهم معنا في النار ؟ قال مجاهد : هذا قول أبي جهل يقول : مالي لا أرى بلالا وعمارًا وصهيبًا وفلانا وفلانا ، وهذا ضرب مثل ، وإلا فكل الكفار هذا حالهم يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار ، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم ، فقالوا : ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ۞ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ أي في الدار الدنيا ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴾ يسلّون أنفسهم بالمحال ، يقولون : أو لعلهم معنا في جهنم ولكن لم يقع بصرنا عليهم ، فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ أي إن هذا الذي أخبرناك به يامحمد من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض ولعن بعضهم لبعض لحق لا مرية فيه ولا شك .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۞ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ۞ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۞ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۞ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۞ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله : إنما أنا منذر ولست كما تزعمون ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ أي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه ﴿ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ أي غفار مع عظمته وعزته ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ أي خبرعظيم وشأن بليغ وهو إرسال الله تعالى إياي إليكم ﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ أي غافلون ، قال مجاهد وشريح القاضي والسدي في قوله ﷻ : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني القرآن .

وقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ أي لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملأ الأعلى ؟ يعني في شأن آدم عليه الصلاة والسلام وامتناع إبليس من السجود له ومحاجته ربه في تفضيله عليه . فأما الحديث الذي رواه معاذ ﷺ قال : احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى قرن الشمس ، فخرج ﷺ فثوب بالصلاة ، فصلى وتجوز في صلاته ، فلما سلم قال ﷺ : « كما أنتم » ثم أقبل إلينا فقال : « إني قمت من الليل فصليت ما قدر لي ، فنعست في صلاتي حتى استيقظت فإذا أنا بربي ﷻ في أحسن صورة ، فقال : يا محمد أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ، قلت : لا أدري يارب - أعادها ثلاثًا - فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدري ، فتجلى لي كل شيء وعرفت فقال : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : في الكفارات . قال : وما الكفارات ؟ قلت : نقل الأقدام في الجماعات والجلوس في المساجد بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات . قال : وما الدرجات ؟ قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة والناس نيام ، قال : سل ، قلت : اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت فتنة بقوم فتوفني غير مفتون ، وأسألك حبك ، وحب من يحبك ، وحب عمل يقربني إلى حبك - وقال رسول الله عليه ﷺ : « إنها حق فادرسوها وتعلموها » [1] فهو حديث المنام المشهور ، ومن جعله يقظة فقد غلط .

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۞ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٣/٥) والترمذي في السنن (٣٢٣٥) والألباني في إرواء الغليل (١٤٨/٣) .

كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

هذه القصة ذكرها الله تبارك وتعالى في سورة البقرة وهي أن الله ﷻ أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام بأنه سيخلق بشرًا من صلصال من حمإٍ مسنون ، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكرامًا وإعظاما واحترامًا وامتثالاً لأمر الله ﷻ فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس ولم يكن منهم جنسًا . كان من الجن فخانه طبعه وجبلته أحوج ماكان إليه فاستنكف عن السجود لآدم وخاصم ربه ﷻ فيه وادعى أنه خير من آدم فإنه مخلوق من نار وآدم خلق من طين ، والنار خير من الطين في زعمه ، وقد أخطأ في ذلك وخالف أمر الله تعالى وكفر بذلك فأبعده الله ﷻ وأرغم أنفه وطرده عن باب رحمته ومحل أنسه ، وحضرة قدسه ، وسماه إبليس إعلامًا له بأنه قد أبلس من الرحمة وأنزله من السماء مذمومًا مدحورًا إلى الأرض ، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث ، فأنظره الحليم الذي لايعجل على من عصاه . فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى وقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع الحق الأول وفسره مجاهد بأن معناه : أنا الحق والحق أقول ، وفي رواية عنه : الحق مني وأقول الحق ، وقرأ آخرون بنصبهما ، قال السدي هو قسم أقسم الله به [1] (قلت) وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ .

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجرًا تعطونيه من عرض الحياة الدنيا ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ أي وما أريد على ما أرسلني الله تعالى به ولا أبتغي زيادة عليه ؛ بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه ، وإنما أبتغي بذلك وجه الله ﷻ والدار الآخرة ، قال مسروق : أتينا عبد الله بن مسعود ﷺ فقال : يا أيها الناس من علم شيئًا فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم ؛ فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم : الله أعلم ؟ فإن الله ﷻ قال لنبيكم ﷺ : ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [2] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ يعني القرآن ذكر لجميع المكلفين به من الإنس والجن ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ ﴾ أي خبره وصدقه ﴿ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ أي عن قريب ، قال قتادة : بعد الموت ، وقال عكرمة : يعني يوم القيامة ؟ ولا منافاة بين القولين ؛ فإن من مات فقد دخل في حكم القيامة .

(١) قرأ عاصم وحمزة ﴿ قال فالحقُّ ﴾ بالضم ﴿ والحقَّ ﴾ بالنصب وقرأ الباقون بالنصب فيهما . انظر حجة القراءات ص ٦١٨ .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٠٩) .

سورة الزمر

عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول : ما يريد أن يفطر ، ويفطر حتى نقول : ما يريد أن يصوم ، وكان ﷺ يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ .

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن العظيم من عنده تبارك وتعالى فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك كما قال ﷻ : ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ وقال جل وعلا هاهنا ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ ﴾ أي المنيع الجناب ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾ أي فاعبد الله وحده لاشريك له وادع الخلق إلى ذلك ، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده ، وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ أي لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له .

ثم أخبر ﷻ عن عبّاد الأصنام من المشركين أنهم يقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ أي إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم فعبدوا تلك الصور تنزيلًا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا ، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به . قال قتادة والسدي ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد : ﴿ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ أي ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة ؛ ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكًا هو لك ، تملكه وما ملك . وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردها والنهي عنها والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له وإن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه ولا رضي به ؛ بل أبغضه ونهى عنه وأخبر أن الملائكة التي في السموات من الملائكة المقربين وغيرهم كلهم عبيد خاضعون لله لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى ، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا .

وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي سيفصل بين الخلائق يوم معادهم ويجزي كل عامل بعمله ، وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ أي لا يرشد

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (٤/١٥٠) وأحمد في مسنده (٦٥/٦٨) والحاكم في المستدرك (٢/٤٣٢) .

إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله تعالى وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه ، ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة ، والمعاندون من اليهود والنصارى في العزير وعيسى ؛ فقال تبارك وتعالى : ﴿ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي لكان الأمر على خلاف ما يزعمون وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه ؛ بل هو محال ، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه .

وقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ أي تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد ، فإنه الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذي كل شيء عبد لديه فقير إليه وهو الغني عما سواه الذي قد قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت ، تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا .

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ۝ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه الخالق لما في السموات والأرض وما بين ذلك من الأشياء ، وبأنه مالك الملك المتصرف فيه يقلب ليله ونهاره ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ أي سخرهما يجريان متعاقبين لايفتران كل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا . وقوله ﷻ : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ، أي إلى مدة معلومة عند الله تعالى ؛ ثم ينقضي يوم القيامة ﴿ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ ، أي مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثمَّ تاب وأناب إليه .

وقوله جلت عظمته ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ، أي خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم من نفس واحدة وهو آدم عليه الصلاة والسلام ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ وهي حواء عليها السلام ، كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ أي خلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج وهي المذكورة في سورة الأنعام ، ثمانية أزواج : من الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين ، ومن الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين . وقوله ﷻ : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ أي قدركم في بطون أمهاتكم ﴿ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ ، يكون أحدكم أولًا نطفة ثم يكون علقة ثم يكون مضغة ثم يخلق فيكون لحمًا وعظمًا وعصبًا وعروقًا وينفخ فيه الروح فيصير خلقًا آخر ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ .

وقوله جل وعلا : ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ يعني في ظلمة الرحم وظلمة المشيمة التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد وظلمة البطن . وقوله ﷻ : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أي هذا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم ، هو الرب له الملك والتصرف في جميع ذلك ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ أي فكيف تعبدون معه غيره ؟ وأين يذهب بعقولكم ؟ .

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ ۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ

مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى مخبرًا عن نفسه : أنه الغني عما سواه من المخلوقات كما قال موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِن تَكْفُرُوٓا أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ وفي صحيح مسلم : « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم مانقص ذلك من ملكي شيئًا » (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ أي لا يحبه ولا يأمر به ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ أي يحبه لكم ويزدكم من فضله ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أي لا تحمل نفس عن نفس شيئًا بل كل مطالب بأمر نفسه ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي فلا تخفى عليه خافية .

وقوله ﷻ : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ أي عند الحاجة يتضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ أي في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع كما قال ﷻ : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ أي في حال العافية يشرك بالله ويجعل له أندادًا ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ أي قل لمن هذه حالته وطريقته ومسلكه تمتع بكفرك قليلًا وهو تهديد شديد ووعيد أكيد كقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

يقول ﷻ : أمَّنْ هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أندادًا ، لا يستوون عند الله كما قال تعالى : ﴿ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ وقال تبارك وتعالى ههنا ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴾ أي في حال سجوده وفي حال قيامه ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة ، ليس هو القيام وحده كما ذهب إليه آخرون . وعن ابن مسعود ﵁ أنه قال : القانت المطيع لله ﷻ ولرسوله ﷺ . وقال ابن عباس ﵄ والحسن والسدي : ﴿ آناء الليل ﴾ جوف الليل . وقوله تعالى : ﴿ يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ أي في حال عبادته خائف راج ، ولابد في العبادة من هذا وهذا ، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه . وعن أنس ﵁ قال : دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت فقال له : « كيف تجدك ؟ » فقال : أرجو وأخاف ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ﷻ الذي يرجو وأمنه الذي يخافه » (٢) . وسمع ابن

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٥) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٩٨٣) وابن ماجه في السنن (٤٢٦١) .

عمر ﷺ يقرأ ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ قال ابن عمر : ذاك عثمان بن عفان ﷺ وإنما قال ابن عمر ﷺ ذلك لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان ﷺ بالليل وقراءته حتى أنه ربما قرأ القرآن في ركعة ، وعن تميم الداري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ بمائة آية في ليلة ؛ كتب له قنوت ليلة (١) » . قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل أندادًا ليضل عن سبيله ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل ، والله أعلم .

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ أي لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم ، وقوله ﴿ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾ قال مجاهد : فهاجروا فيها وجاهدوا واعتزلوا الأوثان ، وقال عطاء في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾ : إذا دعيتم إلى معصية فاهربوا ثم قرأ ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قال الأوزاعي : ليس يوزن لهم ولا يكال لهم إنما يغرف لهم غرفًا ، وقال ابن جريج : بلغني أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط ، ولكن يزادون على ذلك . وقوله ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ أي إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ قال السدي : يعني من أمته ﷺ .

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ .

يقول تعالى : قل يامحمد وأنت رسول الله ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهو يوم القيامة ، وهذا شرط ، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ وهذا أيضًا تهديد وتبرؤ منهم ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ أي إنما الخاسرون كل الخسران ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي تفارقوا فلا التقاء لهم أبدًا وسواء ذهب أهلوهم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار أو أن الجميع أسكنوا النار ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور ﴿ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي هذا هو الخسران المبين الظاهر الواضح ثم وصف حالهم في النار فقال : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ كما قال ﷻ : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وقوله ﷻ : ﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ﴾ أي إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده لينزجروا عن المحارم والمآثم . وقوله تعالى : ﴿ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ أي اخشوا بأسي وسطوتي وعذابي ونقمتي .

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٣/٤) .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذر وسلمان الفارسي رضي اللَّه تعالى عنهم ، والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان وأناب إلى عبادة الرحمن فهؤلاء هم الذين لهم البشرى ، في الحياة الدنيا وفي الآخرة ثم قال ﷻ : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ أي يفهمونه ويعملون بما فيه ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ﴾ أي المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم اللَّه في الدنيا والآخرة ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أي ذوو العقول الصحيحة والفطر المستقيمة .

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ۝ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾ .

يقول تعالى : أفمن كتب اللَّه أنه شقي ، أتقدر أن تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك ؟ أي لايهديه أحد من بعد اللَّه ؛ لأنه من يضلل اللَّه فلا هادي له ، ومن يهده فلا مضل له . ثم أخبر ﷻ عن عباده السعداء أن لهم غرفًا في الجنة وهي القصور أي الشاهقة ﴿ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ طباق فوق طباق مبنيات محكمات مزخرفات عاليات . عن علي ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إن في الجنة لغرفًا يرى بطونها من ظهورها ، وظهورها من بطونها » فقال أعرابي : لمن هي يارسول اللَّه ؟ قال ﷺ : « لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وصلى بالليل والناس نيام » (١) .

عن أبي المدله مولى أم المؤمنين رضي الله عنها أنه سمع أبا هريرة ﷺ يقول : قلنا : يا رسول اللَّه إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة ، فإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد ، قال ﷺ : « لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم ، ولزارتكم في بيوتكم ، ولو لم تذنبوا ، لجاء اللَّه ﷻ بقوم يذنبون كي يغفر لهم » قلنا : يارسول اللَّه حدثنا عن الجنة وما بناؤها ؟ قال ﷺ : « لبنة ذهب ولبنة فضة ، وملاطها المسك الأذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا ييأس ، ويخلد ولا يموت ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ، ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السموات ويقول الرب تبارك وتعالى : وعزتي لأنصرنك ، ولو بعد حين» (٢) ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي تسلك الأنهار بين خلال ذلك كما يشاءوا وأين أرادوا ﴿ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ أي هذا الذي ذكرناه وعده اللَّه عباده المؤمنين ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

يخبر تعالى أن أصل الماء في الأرض من السماء كما قال ﷻ : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ فإذا أنزل الماء من السماء كمن في الأرض ، ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء ، وينبعه عيونا ما

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/١٥٥) والترمذي في السنن (٢٥٢٧) والحاكم في المستدرك (١/٨٠) والبيهقي في السنن (٤/٣٠١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٠٥) والترمذي في السنن (٢٥٢٦) والطبراني في الكبير (٤/١٣) والألباني في الصحيحة (٩٦٩) .

بين صغار وكبار بحسب الحاجة إليها ؛ ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ عن ابن عباس ﵄ في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ قال : ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء ولكن عروق في الأرض تغيره ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فمن سره أن يعود الملح عذبا فليصعده ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ أي ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعًا مختلفًا ألوانه أي أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أي بعد نضارته وشبابه يكتهل فتراه مصفرًا قد خالطه اليبس ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ﴾ أي ثم يعود يابسًا يتحطم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة نضرة حسناء ، ثم تعود عجوزًا شوهاء ، والشاب يعود شيخًا هرمًا كبيرًا ضعيفًا وبعد ذلك كله الموت ، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير ، وكثيرًا ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء وينبت به زروعًا وثمارًا ثم يكون بعد ذلك حطامًا كما قال تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ وقوله تبارك وتعالى ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ ﴾ أي هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ أي فلا تلين عند ذكره ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ .

هذا مدح من الله ﷻ لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم . قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ ﴾ ، عن ابن عباس ﵄ قال : القرآن يشبه بعضه بعضًا ويرد بعضه على بعض ، وقال بعض العلماء : معنى قوله تعالى : ﴿ مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ ﴾ أن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد فهذا من المتشابه ، وتارة تكون بذكر الشيء وضده كذكر المؤمنين ثم الكافرين ، وكصفة الجنة ثم صفة النار وما أشبه هذا ، فهذا من المثاني كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ وكقوله ﷻ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ - إلى أن قال - كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ - إلى أن قال - هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ ونحو هذا من السياقات فهذا كله من المثاني أي في معنيين اثنين ، وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضًا ؛ فهو المتشابه وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله تعالى : ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ ﴾ ذاك معنى آخر . وقوله تعالى : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ أي هذه صفة الأبرار ، عند سماع كلام الجبار ، المهيمن العزيز الغفار ، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد ، والتخويف والتهديد تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه ، فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه : أحدها : أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات ، وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات القينات ، الثاني : أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدًا وبكيًا بأدب وخشية

ورجاء ومحبة وفهم وعلم . قال تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ أي لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها بل مصغين إليها فاهمين بصيرين بمعانيها فلهذا إنما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم .

الثالث : أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة ﷺ عند سماعهم كلامَ اللّٰه تعالى من تلاوة رسول اللّٰه ﷺ تقشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر اللّٰه . لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون بما ليس فيهم ، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك ؛ ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة . قال معمر : تلا قتادة رحمه اللّٰه ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ قال : هذا نعت أولياء اللّٰه ، نعتهم اللّٰه ﷻ بأن تقشعر جلودهم وتبكي أعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر اللّٰه ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما هذا في أهل البدع ، وهذا من الشيطان .

وقال السدي : ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي إلى وعد اللّٰه ، وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي هذه صفة من هداه اللّٰه ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله اللّٰه ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ .

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ويقرع فيقال له ولأمثاله من الظالمين : ﴿ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ كمن يأتي آمنًا يوم القيامة كما قال ﷻ : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وقوله جلت عظمته : ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يعني القرون الماضية المكذبة للرسل أهلكهم اللّٰه بذنوبهم وما كان لهم من اللّٰه من واق ، وقوله جل وعلا : ﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي بما أنزل بهم من العذاب والنكال وتشفي المؤمنين منهم ، فليحذر المخاطبون من ذلك ؛ فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل وخاتم الأنبياء ﷺ والذي أعده اللّٰه ﷻ لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظم مما أصابهم في الدنيا ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ .

يقولى تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي بينا للناس فيه بضرب الأمثال ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فإن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان كما قال تبارك وتعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي تعلمونه من أنفسكم ، وقال ﷻ : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ وقوله جل وعلا : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ أي هو قرآن بلسان عربي مبين لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لباس بل هو بيان ووضوح وبرهان ، وإنما جعله اللّٰه تعالى كذلك ، وأنزله بذلك

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي يحذرون مافيه من الوعيد ويعملون بما فيه من الوعد . ثم قال : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ أي يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا ﴾ أي سالمًا ﴿ لِّرَجُلٍ ﴾ أي خالصًا لا يملكه أحد غيره ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ ؟ أي لا يستوي هذا وهذا . كذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له . فأين هذا من هذا ؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وغير واحد : هذه الآية ضربت مثلًا للمشرك والمخلص ، ولما كان هذا المثل ظاهرًا بينًا جليًا قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي على إقامة الحجة عليهم ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي فلهذا يشركون بالله . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق رضي الله عنه عند موت الرسول ﷺ حتى تحقق الناس موته ، ومعنى هذه الآية : أنكم ستنقلون من هذه الدار لامحالة ، وستجتمعون عند الله تعالى في الدار الآخرة وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله عز وجل فيفصل بينكم ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم ، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين . ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين . ثم إن هذه الآية وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة ؛ فإنها شاملة لكل المتنازعين في الدنيا ؛ فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة .

عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ قال الزبير رضي الله عنه : أي رسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال ﷺ : « نعم ، ليكررن عليكم حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه » قال الزبير رضي الله عنه : والله إن الأمر لشديد (١) . وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أول الخصمين يوم القيامة جاران » (٢) وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال : رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان فقال : « أتدري فيم ينتطحان يا أبا ذر ؟ » قلت : لا ، قال ﷺ : « لكن الله يدري وسيحكم بينهما » (٣) وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يخاصم الصادق الكاذب ، والمظلوم الظالم ، والمهتدي الضال ، والضعيف المستكبر ، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : نزلت هذه الآية وما نعلم في أي شيء نزلت ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ قال : قلنا : من نخاصم ؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة ، فمن نخاصم ؟ حتي وقعت الفتنة ، فقال ابن عمر رضي الله عنهما : هذا الذي وعدنا ربنا عز وجل نختصم فيه .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول عز وجل مخاطبًا للمشركين الذين افتروا على الله وجعلوا معه آلهة أخرى وادعوا أن الملائكة بنات الله ، وجعلوا لله ولدًا تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا ، ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٧/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥١/٤) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٢/٥) .

ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ﴾ أي لا أحد أظلم من هذا ؛ لأنه جمع بين طرفي الباطل كذب على الله وكذب رسول الله ، قالوا الباطل وردوا الحق، ولهذا قال جلت عظمته متوعدًا لهم : ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾ وهم الجاحدون المكذبون . ثم قال جل وعلا : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ قال مجاهد وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد : الذي جاء بالصدق هو الرسول ﷺ . وقال السدي : هو جبريل عليه السلام ﴿ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ يعني محمدًا ﷺ . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ ﴾ من جاء بلا إله إلا الله ﴿ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ يعني رسول الله ﷺ . قال مجاهد أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة فيقولون : هذا ما أعطيتمونا فعملنا فيه بما أمرتمونا. وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين ؛ فإن المؤمنين يقولون الحق ويعملون به ، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول في هذه الآية على هذا التفسير ؛ فإنه جاء بالصدق وصدق المرسلين وآمن بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : اتقوا الشرك ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ يعني في الجنة مهما طلبوا وجدوا ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٤ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ۝٣٧ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝٣٨ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣٩ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ وقرأ بعضهم ﴿ عبادة ﴾ (١) يعني أنه تعالى يكفي مَنْ عبده وتوكل عليه . وعن فضالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « أفلح من هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافًا وقنع به » (٢) ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ يعني المشركين يخوفون الرسول ﷺ ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التي يدعونها من دون الله جهلًا منهم وضلالًا ؛ ولهذا قال عز وجل : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ أي منيع الجناب لايضام من استند إلى جنابه ولجأ إلى بابه ، فإنه العزيز الذي لا أعز منه ولا أشد انتقامًا منه ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ يعني المشركين كانوا يعترفون بأن الله عز وجل هو الخالق للأشياء كلها ، ومع هذا يعبدون معه غيره مما لا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ﴾ أي لاتستطيع شيئًا من الأمر ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك

---

(١) قرأ حمزة والكسائي ﴿ عباده ﴾ بالألف ، وقرأ الباقون ﴿ عبده ﴾ . (انظر حجة القراءات ٦٢٢) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (١٢٢/٤) والطبراني في الكبير (٣٠٥/١٨) .

في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك ، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، جفت الصحف ورفعت الأقلام ، واعمل لله بالشكر في اليقين ، واعلم أن في الصبر على ماتكره خيرًا كثيرًا . وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرًا » (١) ﴿ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ﴾ أي الله كافيّ ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ وعن ابن عباس ﵄ رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال : « من أحب أن يكون أقوى الناس ؛ فليتوكل على الله تعالى ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس ؛ فليكن بما في يد الله ﷻ أوثق منه بما في يديه ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس ؛ فليتق الله ﷻ» (٢) وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي على طريقتكم وهذا تهديد ووعيد ﴿ إِنِّي عَٰمِلٌ ﴾ أي على طريقتي ومنهجي ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي ستعلمون غبَّ ذلك ووباله ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أي في الدنيا ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي دائم مستمر لامحيد له عنه وذلك يوم القيامة ، أعاذنا الله منها .

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا ﷺ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يعني القرآن ﴿ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ أي فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أي إنما يرجع وبال ذلك على نفسه ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أي بموكل أن يهتدوا ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ . ثم قال تعالى مخبرًا عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان والوفاة الصغرى عند المنام ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فيه دلالة على أنها تجتمع في الملأ الأعلى كما ورد بذلك الحديث المرفوع عن أبي هريرة ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا آوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره ؛ فإنه لا يدري ما خلفه عليه ، ثم ليقل : باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » (٣) . وقال بعض السلف : تقبض أرواح الأموات إذا ماتوا وأرواح الأحياء إذا ناموا فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف ﴿ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ ﴾ التي قد ماتت ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قال السدي : إلى بقية أجلها ، وقال ابن عباس ﵄ : يمسك أنفس الأموات ويرسل أنفس الأحياء ولا يغلط ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥١٦) وأحمد في مسنده (٢٩٣/١) والحاكم في المستدرك (٥٤١/٣) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٧٠/٤) بنحوه وابن عدي في الضعفاء (١٨٢/٥) .
(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٦٤) وأبو داود في السنن (٥٠٥٠) وأحمد في مسنده (٤٣٢/٢) .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى ذامًّا للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله وهم الأصنام والأنداد التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حداهم على ذلك ، وهي لا تملك شيئًا من الأمر ، بل وليس لها عقل تعقل به ، ولا سمع تسمع به ، ولا بصر تبصر به ؛ بل هي جمادات أسوأ من الحيوان بكثير ، ثم قال : ﴿ قُل ﴾ أي يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله تعالى ، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له فمرجعها كلها إليه ﴿ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي هو المتصرف في جميع ذلك ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي يوم القيامة فيحكم بينكم بعدله ويجزي كلًّا بعمله ، ثم قال تعالى ذامًّا للمشركين أيضًا ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ أي إذا قيل : لا إله إلا الله وحده ﴿ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ قال مجاهد : اشمأزت : انقبضت ، وقال السدي : نفرت ، وقال قتادة : كفرت واستكبرت ، قال تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أي يفرحون ويسرون .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ۝ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر من المذمة لهم في حبهم الشرك ونفرتهم عن التوحيد ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أي ادع أنت الله وحده لا شريك له الذي خلق السموات والأرض وفطرها ، أي جعلها على غير مثال سبق ﴿ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أي السر والعلانية ﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي في دنياهم ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم . عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : سألت عائشة رضي الله عنها : بأي شيء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل ؟ قالت رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم »(١) . وعن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « من قال اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ؛ إني أعهد اليك في هذه الدنيا أني أشهد أن لا إله إلا أنت ، وحدك لا شريك لك ، وأن محمدًا عبدك ورسولك ، فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير ، وإني لا أثق إلا برحمتك ، فاجعل لي عندك عهدًا توفينيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ، إلا قال عز وجل لملائكته يوم القيامة : إن عبدي قد عهد إليّ عهدًا فأوفوه إياه فيدخله الله الجنة »(٢) .

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠٠) والنسائي في السنن (٢١٣/٣) والترمذي في السنن (٣٤٢٠) والحاكم في المستدرك (٦٢٢/٣) وأحمد في المسند (٦١/٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٩/١) والترمذي في السنن (٣٥٢٩) وأبو داود في السنن (٥٠٨٣) .

عن أبي راشد الحبراني قال : أتيت عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما فقلت له : حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ فألقى بين يدي صحيفة فقال : هذا ما كتب لي رسول الله ﷺ فنظرت فيها ، فإذا فيها أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال : يا رسول الله علمني ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت ، فقال له رسول الله ﷺ : « يا أبا بكر قل : اللَّهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة لا إله إلا أنت رب كل شيء ومليكه ، أعوذ بك من شر نفسي ، وشر الشيطان وشركه ، أن اقترف على نفسي سوءًا أو أجره إلى مسلم »(١) . وقوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ وهم المشركون ﴿ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ أي ولو أن جميع ما في الأرض وضعفه معه ﴿ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ ﴾ أي الذي أوجبه الله تعالى لهم يوم القيامة ، ومع هذا لا يقبل منهم الفداء ولوكان ملء الأرض ذهبًا كما قال في الآية الأخرى ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ أي وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أي وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا .

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى مخبرًا عن الإنسان أنه في حال الضراء يتضرع إلى الله عز وجل وينيب إليه ويدعوه ، وإذا خوله نعمة منه بغى وطغى وقال : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أي لما يعلم الله تعالى من استحقاقي له ، ولولا أني عند الله خصيص لما خولني هذا ، ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ أي ليس الأمر كما زعم بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصي مع علمنا المتقدم بذلك ؛ فهي فتنة أي اختبار ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ؛ فلهذا يقولون ما يقولون ويدعون ما يدعون ﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ ﴾ أي من المخاطبين ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أي كما أصاب أولئك ﴿ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يوسعه على قوم ويضيقه على آخرين ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لعبرًا وحججًا .

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٢٩) وأحمد في مسنده (١٩٦/٢) .

فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها وإن كانت مهما كانت ، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر ، ولا يصح حمل هذه على غير توبة ؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه . عن ابن عباس ﷺ أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، فأتوا محمدًا ﷺ فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ ونزل ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [(١)] وعن عمرو بن عنبسة ﷺ قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ شيخ كبير يدعم على عصا له فقال : يا رسول الله إن لي غدرات وفجرات ، فهل يغفر لي ؟ فقال ﷺ : « ألست تشهد أن لا إله إلا الله » قال : بلى ، وأشهد أنك رسول الله ، فقال ﷺ : « قد غفر لك كدراتك وفجراتك » [(٢)] .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد ﷺ عن رسول الله ﷺ حديث الذي قتل تسعًا وتسعين نفسًا ثم ندم وسأل عابدًا من عباد بني إسرائيل هل له من توبة ، فقال : لا ، فقتله وأكمل به مائة ، ثم سأل عالمًا من علمائهم هل له من توبة ، فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها ، فقصدها فأتاه الموت في أثناء الطريق فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فأمر الله ﷻ أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها ، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشبر ، فقبضته ملائكة الرحمة ، وذكر أنه نأى بصدره عند الموت ، وأن الله تبارك وتعالى أمر البلدة الخيرة أن تقترب وأمر تلك البلدة أن تتباعد [(٣)] ، وعن سنيد بن شكل أنه قال : سمعت ابن مسعود يقول أن أعظم آية في كتاب الله ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ وأن أجمع آية في القرآن بخير وشر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ وإن أكثر آية في القرآن فرحًا في سورة الزمر ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ وأن أشد آية في كتاب الله تفويضًا ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ فقال له مسروق : صدقت .

[ذكر أحاديث فيها نفي القنوط]

عن حسن السدوسي قال : دخلت على أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله تعالى لغفر لكم ، والذي نفس محمد ﷺ بيده لو لم تخطئوا ؛ لجاء الله ﷻ بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم » [(٤)] .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨١٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٥/٤) وقد ورد في هذا المعنى الكثير من الآيات التي تؤدي إلى نفس المعنى .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٧٢/٣) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٨/٣) وذكره الألباني في الصحيحة (١٩٥١) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « كفارة الذنب الندامة »[(١)] وقال رسول الله ﷺ : « لو لم تذنبوا لجاء الله تعالى بقوم يذنبون فيغفر لهم »[(٢)] .

ثم استحث تبارك وتعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة فقال : ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾ الآية ، أي ارجعوا إلى الله واستسلموا له ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ أي بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ وهو القرآن العظيم ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أي من حيث لا تعلمون ولا تشعرون ثم قال ﷻ : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ أي يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله ﷻ ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ أي إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي تود لو أعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل . قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أخبر الله ﷻ ما العباد قائلون قبل أن يقولوه ، وعملهم قبل أن يعملوه وقال تعالى : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فأخبر الله ﷻ أن لو ردوا لما قدروا على الهدى فقال : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أهل النار يرى مقعده من الجنة ، فيقول : لو أن الله هداني فتكون عليه حسرة » قال : « وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول : لولا أن الله هداني ، قال : فيكون له الشكر »[(٣)] . ولما تمنى أهل الجرائم العود إلى الدنيا وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله ، قال الله ﷻ : ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه - آياتي في الدار الدنيا وقامت حججي عليك فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها وكنت من الكافرين بها الجاحدين لها .

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه وتبيض فيه وجوه ، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف ، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، قال تعالى ههنا ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي في دعواهم له شريكا وولدًا ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ أي بكذبهم وافترائهم ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي أليست جهنم كافية لهم سجنًا وموئلًا ، لهم فيها الخزي والهوان بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق . عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجنًا من النار في واد يقال له : بولس من نار الأنيار ، ويسقون من

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٨٩) والطبراني في الكبير (١٢/١٧٢) والعجلوني في كشف الخفاء (١/١٦٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٤١٤) والترمذي في السنن (٢٥٢٦) .
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٤٣٥) وأحمد في مسنده (٢/٥١٢) .

عصارة أهل النار ومن طينة الخبال »[1] . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ أي بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله ﴿ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ﴾ ، أي يوم القيامة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي ولا يحزنهم الفزع الأكبر ، بل هم آمنون من كل فزع مزحزحون عن كل شر نائلون كل خير .

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ۝ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلِّها وربُّها ومليكُها والمتصرفُ فيها ، وكلٌّ تحت تدبيره وقهره وكلاءته ، وقوله ﷻ : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال مجاهد : المقاليد هي المفاتيح بالفارسية ، وقال السدي : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي خزائن السموات والأرض ، والمعنى على كلا القولين أن أزمَّةَ الأمور بيده تبارك وتعالى له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي حججه وبراهينه ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ ذكروا في سبب نزولها ما روي عن ابن عباس ﵄ أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ويعبدوا معه إلهه فنزلت ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ۝ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ وهذه كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره وهو العظيم الذي لا أعظم منه ، القادر على كل شيء ، المالك لكل شيء ، وكل شيء تحت قهره وقدرته ، قال مجاهد : نزلت في قريش ، وقال السدي : ما عظموه حق تعظيمه ، وقال محمد بن كعب : لو قدروه حق قدره ما كذبوا ، وعن ابن عباس ﵄ قال : هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم . فمن آمن أن الله على كل شيء قدير ، فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك ؛ فلم يقدر الله حق قدره وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف وهو إمرارها كما جاءت من غيرتكييف ولا تحريف . وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، إنا نجد أن الله ﷻ يجعل السموات على إصبع والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله عنه ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ الآية[2] وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (١٠/٩٥) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٤) ومسلم في المنافقين (١٩) والترمذي في السنن (٣٢٣٨) وأحمد في مسنده (١/٤٢٩) .

« يقبض اللَّه تعالى الأرض ويطوي السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ » [(١)] .

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى مخبرًا عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة فقوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ هذه النفخة هي الثانية وهي نفخة الصعق ، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء اللَّه كما جاء مصرحًا به مفسرًا في حديث الصور المشهور ، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولًا وهو الباقي آخرًا بالديمومة والبقاء ويقول : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ ثلاث مرات ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول : ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ أنا الذي كنت وحدي ، وقد قهرت كل شيء ، وحكمت بالفناء على كل شيء ، ثم يحيي أول من يحيي إسرافيل ويأمره أن ينفخ في الصور مرة أخرى وهي النفخة الثالثة نفخة البعث ، قال اللَّه ﷻ : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ أي أحياء بعدما كانوا عظامًا ورفاتًا صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ . ورد أن رجلًا قال لعبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما : إنك تقول : الساعة تقوم إلى كذا وكذا ، قال : لقد هممت أن لا أحدثكم شيئًا ، إنما قلت : سترون بعد قليل أمرًا عظيمًا ، ثم قال عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما : قال رسول اللَّه ﷺ : « يخرج الدجال في أمتي فيمكث فيهم أربعين لا أدري أربعين يومًا ، أو أربعين شهرًا ، أو أربعين عاما ، أو أربعين ليلة ؛ فيبعث اللَّه تعالى عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام كأنه عروة بن مسعود الثقفي ، فيظهر فيهلكه اللَّه تعالى ثم يلبث الناس بعده سنين سبعًا ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل اللَّه تعالى ريحًا باردة من قبل الشام فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته ، حتى أن لو كان أحدهم كان في كبد جبل لدخلت عيه » قال : سمعتها من رسول اللَّه ﷺ : « ويبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا ، قال : فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها ؛ وهم في ذلك دارَّةٌ أرزاقهم ، حسن عيشهم ، ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتًا ، ورفع ليتًا ، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه فيصعق ، ثم لا يبقى أحد إلا صُعق ، ثم يرسل اللَّه تعالى أو ينزل اللَّه ﷻ مطرًا كأنه الطَّلُّ - أو الظل شك نعمان - فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ قال : ثم يقال : أخرجوا بعث النار قال : فيقال : كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، فيومئذ تُبعث الولدان شيبًا ، ويومئذ يُكشف عن ساق » [(٢)] .

عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه يحدث عن النبي ﷺ قال : « ما بين النفختين أربعون » قالوا : يا

---

(١) أخرجه مسلم في صفات المؤمنين (٢٣) وابن ماجه في السنن (١٩٢) والدارمي في السنن (٣٢٥/٢) وأحمد في مسنده (٣٧٤/٢) .
(٢) أخرجه مسلم في الفتن (١١٦) وأحمد في مسنده (١٦٦/٢) والحاكم في المستدرك (٥٥٠/٤) .

أبا هريرة أربعون يومًا ؟ قال رضي الله تعالى عنه : أبيت ، قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون شهرًا ؟ قال : أبيت ، ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه ، فيه يركب الخلق (١) .

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « سألت جبريل عليه الصلاة والسلام عن هذه الآية ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ من الذين لم يشأ الله تعالى أن يصعقهم؟ قال : هم الشهداء ، يتقلدون أسيافهم حول عرشه تتلقاهم ملائكة يوم القيامة الى المحشر بنجائب من ياقوت نمارها ألين من الحرير ، مد خطاها مد أبصار الرجال يسيرون في الجنة يقولون عند طول النزهة : انطلقوا بنا الى ربنا لننظر كيف يقضي بين خلقه ، يضحك إليهم إلهي ، وإذا ضحك الى عبد في موطن فلا حساب عليه » (٢) . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ أي أضاءت يوم القيامة اذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ قال قتادة : كتاب الأعمال ﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم ﴿ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ أي الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بالعدل ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أي من خيرأو شر ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون الى النار وإنما يساقون سوقًا عنيفًا بزجر وتهديد ووعيد وهم عطاش ظماء وهم في تلك الحال صم وبكم وعمي ، منهم من يمشي على وجهه ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ أي بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعًا لتعجل لهم العقوبة ، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية الذين هم غلاظ الأخلاق شداد القوى على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ أي من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ ﴾ أي يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه ﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ أي ويحذرونكم من شر هذا اليوم ، فيقول الكفار لهم : ﴿ بَلَىٰ ﴾ أي قد جاءونا وأنذرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة التي كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب ؛ ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين ؛ بل أطلقه ليدل

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٣٥) ومسلم في الفتن (١٤١) .
(٢) ذكره الهندي في كنز العمال (١١١١١) والطبري في تفسيره (٢٠/١٤) .

على أن الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ماهم فيه بما حكم العدل الخبيرعليهم به ؛ ولهذا قال جل وعلا : ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكثين فيها لا خروج لكم منها ولازوال لكم عنها ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي فبئس المصير وبئس المقيل لكم بسبب تكبركم في الدنيا وإبائكم عن اتباع الحق ؛ فهو الذي صيركم الى ما أنتم فيه ، فبئس الحال وبئس المآل .

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ .

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفدًا الى الجنة زمرًا ، أي جماعة بعد جماعة : المقربون ، ثم الأبرار ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كل طائفة مع من يناسبهم : الأنبياء مع الأنبياء ، والصديقون مع أشكالهم ، والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم ، وكل صنف مع صنف ، كل زمرة تناسب بعضها بعضًا ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا ﴾ أي وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة . عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة ، لا يبولون ، ولايتغوطون ولا يتفلون ، ولا يمتخطون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوة ، وأزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعًا في السماء » (١) . وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول ﷺ قال : « ويدخل الجنة من أمتي زمرة هم سبعون ألفًا تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر » فقام عكّاشة بن محصن فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال ﷺ : اللّهم اجعله منهم . ثم قام رجل من الأنصار فقال يا رسول الله ادع الله تعالى أن يجعلني منهم . فقال ﷺ : « سبقك بها عكّاشة » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ لم يذكر الجواب ههنا ، وتقديره : حتى إذا جاءوها وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكرامًا وتعظيمًا وتلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء كما تلقى الزبانية الكفرة بالتثريب والتأنيب ، فتقديره : إذا كان هذا سعدوا وطابوا وسروا وفرحوا بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم ، وإذا حذف الجواب ههنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل ، ومن زعم أن الواو في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ واو الثمانية واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية فقد أبعد النجعة وأغرق في النزع ، وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة .

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله تعالى دعي من أبواب الجنة ، وللجنة أبواب ، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٦) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (١٥) والترمذي في السنن (٢٥٢٢) وأحمد في مسنده (٢/٥٠٤) .

(٢) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨١١) ومسلم في الإيمان (٣٦٧) .

من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان » فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : يارسول الله ما على أحد من ضرورة دعي من أيها دعي ، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « نعم ، وأرجو أن تكون منهم »[(١)] عن سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة ثمانية أبواب ، باب منها يسمى الريان لايدخله إلا الصائمون »[(٢)] عن عمر بن الخطاب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ ، أو فيسبغ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ؛ إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء »[(٣)] .

ذكر سعة أبواب الجنة - نسأل الله من فضله العظيم أن يجعلنا من أهلها

عن أبي هريرة ﷺ في حديث الشفاعة الطويل : « ... فيقول الله تعالى : يا محمد أدخل من لاحساب عليه من أمتك من الباب الأيمن وهم شركاء الناس في الأبواب الأخر ، والذي نفس محمد بيده إن مابين المصراعين من مصاريع الجنة مابين عضادتي الباب لكما من مكة وهجر - أوهجر ومكة - وفي رواية - مكة وبصرى[(٤)] عن أبي سعيد ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : « إن ما بين مصراعين في الجنة مسيرة أربعين سنة[(٥)] . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ أي طابت أعمالكم وأقوالكم وطاب سعيكم وطاب جزاؤكم ، وقوله : ﴿ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ أي ماكثين فيها أبدًا لايبغون عنها حولًا ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾ أي يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر والعطاء العظيم والنعيم المقيم والملك الكبيريقولون عند ذلك : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾ أي الذي كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ وقولهم : ﴿ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ قال أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسدي وابن زيد : أي أرض الجنة ، و ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ﴾ أي أين شئنا حللنا فنعم الأجر أجرنا على عملنا .

عن أبي سعيد ﷺ قال : إن رسول الله ﷺ سأل ابن صائد عن تربة الجنة فقال : در مكة بيضاء مسك خالص ، فقال رسول الله ﷺ : « صدق »[(٦)] .

﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار وأنه نزّل كلًّا في المحل الذي يليق به ويصلح له ، وهو العادل في ذلك الذي لايجور ، أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول العرش المجيد يسبحون

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٦٦) ومسلم في الزكاة (٨٥) والترمذي في السنن (٣٦٧٤) .
(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٨٩٦) ومسلم في الصوم (١٦٦) والبيهقي في السنن (٣٠٥/٤) جميعهم بنحوه .
(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (١٧) وأحمد في مسنده (١٥٣/٤) .
(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٢) ومسلم في الإيمان (٣٢٧) وأحمد في مسنده (٤٣٦/٢) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٥) .
(٦) أخرجه مسلم في الفتن (٩٣) .

بحمد ربهم ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور ، وقد فصل القضية ، وقضي الأمر ، وحكم بالعدل ولهذا ، قال ﷻ : ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم ﴾ أي بين الخلائق ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ . ثم قال : ﴿ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي نطق الكون أجمعه ، ناطقه وبهيمه لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله ؛ ولهذا لم يسند القول إلى قائل ، بل أطلقه ؛ فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد .

سورة غافر

قال عبد الله بن مسعود ﷺ آل حم ديباج القرآن . وقال ابن عباس ﷺ : إن لكل شيء لبابًا ، ولباب القرآن آل حم أو قال : الحواميم . وقال مسعر بن كدام : كان يقال لهن العرائس ، وروي أن رجلًا رأى أبا الدرداء ﷺ يبني مسجدًا فقال له : ما هذا ؟ فقال : أبنيه من أجل آل حم ، وقد يكون هذا المسجد الذي بناه أبو الدرداء ﷺ هو المسجد المنسوب إليه داخل قلعة دمشق ، وقد يكون صيانتها وحفظها ببركته وبركة ماوضع له ، فإن هذا الكلام يدل على النصر على الأعداء كما قال رسول الله ﷺ لأصحابه في بعض الغزوات « إن بيّتم الليلة فقولوا : حم ، لاينصرون - وفي رواية - لا تنصرون » (١) وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ آية الكرسي وأول حم المؤمن ؛ عصم ذلك اليوم من كل سوء » (٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۞ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا وقد قيل إن ﴿حمٓ﴾ اسم من أسماء الله ﷻ وأنشدوا في ذلك بيتًا :

يذكّرني حم والرمح شاجر ... فهلا تلا حم قبل التقدم (٣)

وقوله تعالى : ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ أي تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن من الله ذي العزة والعلم فلا يرام جنابه ولايخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابه . وقوله ﷻ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ أي يغفر ما سلف من الذنب ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه . وقوله جل وعلا : ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ أي لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا وعتا عن أوامر الله تعالى وبغى . وقوله تعالى ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾ ، قال ابن عباس ﷺ : يعني السّعة والغنى ، وقال يزيد بن الأصم : ذي الطول يعني الخير الكثير . وقال عكرمة : ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾ ذي المن . وقال قتادة : ذي النعم والفواضل ، والمعنى أنه المتفضل على عباده المتطول عليهم بما هم فيه من المنن والإنعام التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها . وقوله جلت عظمته : ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ أي لا نظير له في جميع صفاته فلا إله غيره ولا رب سواه ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي المرجع والمآب فيجازي كل عامل بعمله .

عن يزيد بن الأصم قال : كان رجل من أهل الشام ذو بأس وكان يفد إلى عمر بن الخطاب ﷺ ففقده عمر فقال : ما فعل فلان ابن فلان ، فقالوا : يا أمير المؤمنين تتابع في هذا الشراب . قال فدعا عمر كاتبه فقال : اكتب : من عمر بن الخطاب إلى فلان ابن فلان ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢٥٩٧) والترمذي في سننه (١٦٨٢) وأحمد في مسنده (٦٥/٤) .

(٢) ذكره النووي في الأذكار (١٠٢) .

(٣) البيت لشريح بن أوفى العبسي وهو من شواهد أبي عبيد في مجاز القرآن (١٩٣/٢) وشواهد الكشاف ص : ٢٦١ .

إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير . ثم قال لأصحابه : ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه ويتوب الله عليه ، فلما بلغ الرجلَ كتابُ عمر ﷺ جعل يقرؤه ويردده ويقول : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ﴾ ، قد حذرني عقوبته ووعدني أن يغفر لي . وزاد : فلم يزل يرددها على نفسه ثم بكى ، ثم نزع فأحسن النزع ، فلما بلغ عمرَ خبرُه قال : هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخًا لكم زل زلة فسددوه ووثقوه ، وادعوا الله له أن يتوب عليه ولا تكونوا أعوانًا للشيطان عليه .

﴿ مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ .

يقول تعالى ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ أي في أموالها ونعيمها وزهرتها ، ثم قال تعالى مسليًا لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه بأن له أسوةٌ فيمن سلف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإنه قد كذبهم أممهم وخالفوهم وما آمن بهم منهم إلا قليل فقال : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ وهو أول رسول بعثه الله ينهى عن عبادة الأوثان ﴿ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ أي من كل أمة ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ أي حرصوا على قتله بكل ممكن ومنهم من قتل رسوله ﴿ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ أي ماحلوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي . عن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ قال : « من أعان باطلًا ليدحض به حقًا ؛ فقد برئت منه ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ » (١) وقوله جلت عظمته ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ أي أهلكتهم على ماصنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أي فكيف بلغك عذابي لهم ونكالي بهم قد كان شديدًا موجعًا مؤلمًا . قال قتادة كان شديدًا والله . وقوله ﷻ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ أي كما حقت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يامحمد بطريق الأولى والأحرى ؛ لأن من كذبك فلا وثوق له بتصديق غيرك ، والله أعلم .

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش الأربعة ومن حوله من الملائكة الكروبيين بأنهم يسبحون بحمد ربهم أي يقرنون بين التسبيح الدال على نفي النقائص والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أي خاشعون له أذلاء بين يديه وأنهم ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي من أهل الأرض ممن آمنوا بالغيب فقيض الله تعالى ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب ، ولما

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/١٠٠) والطبراني في الكبير (١١/٢١٦) .

كان هذا من سجايا الملائكة عليهم الصلاة والسلام كانوا يؤمّنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب . كما ثبت في صحيح مسلم : « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب ، قال الملك : آمين ولك بمثله » [(١)] .

وعن ابن عباس ﵄ قال : قال رسول الله ﷺ : « صدق أمية بن أبي الصلت في شيء من شعره فقال :

زحل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد

فقال رسول الله ﷺ : « صدق » فقال :

والشمس تطلع كل آخر ليلة حمراء يصبح لونها يتورد

تأبى فما تطلع لنا في رسلها إلا معذبة وإلا تجلد

فقال رسول الله ﷺ : « صدق » [(٢)] ، وهو يقتضي أن حملة العرش اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية كما قال تعالى : ﴿ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴾ وهنا سؤال وهو أن يقال : ما الجمع بين المفهوم من هذه الآية ودلالة هذا الحديث ؟ وبين الحديث الذي رواه العباس بن عبد المطلب ﵁ قال : كنت بالبطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ ، فمرت بهم سحابة ، فنظر إليها فقال : « ما تسمون هذه ؟ » قالوا : السحاب ، قال : « والمزن ؟ » قالوا : والمزن قال : « والعنان ؟ » قالوا : والعنان ، قال : « هل تدرون بُعد ما بين السماء والأرض ؟ » قالوا : لا ندري ، قال : بُعد ما بينهما إما واحدة ، أو اثنتان ، أو ثلاث وسبعون سنة ، ثم السماء فوقها كذلك حتى عد سبع سموات ، ثم فوق السماء السابعة بحر ما بين أسفله وأعلاه مثل بين سماء إلى سماء ، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم الله تبارك وتعالى فوق ذلك » [(٣)] ، وهذا يقتضي أن حملة العرش ثمانية . ﴿ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا ﴾ أي رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم ، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم ﴿ فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ ﴾ أي فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك المنكرات ﴿ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ أي وزحزحهم عن عذاب الجحيم وهو العذاب الموجع الأليم ﴿ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ ﴾ أي اجمع بينهم وبينهم لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة . وقال سعيد بن جبير : إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه : أين هم ؟ فيقال : إنهم لم يبلغوا طبقتك في العمل فيقول : إني إنما عملت لي ولهم ، فيلحقون به في الدرجة ، ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية : ﴿ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ ، قال مطرف بن عبد الله بن الشخير : أنصح عباد الله للمؤمنين الملائكة ثم تلا هذه الآية : ﴿ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ ﴾ ، الآية وأغش عباده للمؤمنين الشياطين . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ ، أي الذي لا يمانع ولا يغالب وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، الحكيم في أقوالك وأفعالك من شرعك وقدرك ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ ، أي فعلها أو

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (١٥٣٤) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٦/١) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٤٧٢٣) وابن ماجه في السنن (١٩٣٠) .

وبالها ممن وقعت منه ﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ﴾ أي لطفت به ونجيته من العقوبة ﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾
قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ
وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار أنهم ينادون يوم القيامة وهم في غمرات النيران يتلظون ، وذلك عندما باشروا من عذاب الله تعالى ما لا قبل لأحد به ، فمقتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البغض بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة التي كانت سببَ دخولهم إلى النار ، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخبارًا عاليًا ، نادوهم نداء بأن مقت الله تعالى لهم في الدنيا حين كان يعرض عليهم الإيمان فيكفرون أشد من مقتكم أيها المعذَّبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة . قال قتادة في قوله تعالى : ﴿ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ يقول لمقت الله أهلَ الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فتركوه وأبوا أن يقبلوه أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة . وقوله : ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ عن ابن مسعود ﷺ : هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وكذا قال ابن عباس والضحاك وقتادة وأبو مالك وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية . والمقصود من هذا أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله ﷻ في عرصات القيامة كما قال ﷻ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ . فلا يجابون ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا عليها ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة فلا يجابون ، فإذا دخلوا النار وذاقوا مسَّها وحسيسها ومقامعها وأغلالها ؛ كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم وتلطفوا في السؤال وقدموا بين يدي كلامهم مقدمة وهي قولهم : ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ أي قدرتك عظيمة ؛ فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتًا ثم أمتَّنا ثم أحييتنا ، فأنت قادر على ما تشاء ، وقد اعترفنا بذنوبنا وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ أي فهل أنت مجيبنا الى أن تعيدنا الى الدار الدنيا فإنك قادر على ذلك لنعمل غير الذي كنا نعمل ، فإن عدنا الى ماكنا فيه فإنا ظالمون ، فأجيبوا أن لاسبيل إلى عودكم ومرجعكم الى الدار الدنيا ، ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لاتقبل الحق ولاتقتضيه بل تمجه وتنفيه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ﴾ أي أنتم هكذا تكونون وإن رُددتم إلى الدار الدنيا : ﴿ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ أي هو الحاكم في خلقه العادل الذي لا يجور فيهدي من يشاء ويضل من يشاء ، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء ، لا إله إلا هو .

وقوله ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ أي يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

رِزۡقٗاۚ ﴾ وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والثمار ماهو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه وطعومه وروائحه وأشكاله وألوانه ، وهو ماء واحد فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ أي يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ أي من هو بصير منيب إلى الله تبارك وتعالى : وقوله ﷻ : ﴿ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ أي فأخلصوا للّه وحده العبادة والدعاء وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم .

وقد ثبت في الصحيح عن ابن الزبير رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات : « لا إله إلا اللّه وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لاحول ولاقوة إلا باللّه ، لا إله إلا اللّه ، ولانعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » (١) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ادعوا اللّه تباركَ وتعالى وأنتمْ موقنونَ بالإجابة ، واعلَموا أنَّ اللّه تعالى لايستجيب دعاءً من قلْبٍ غافلٍ لاهٍ » (٢) .

﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ۝١٦ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عظمته وكبريائه وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف ، وقد ذكر غيرواحد أن العرش من ياقوتة حمراء ، اتساع ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة ، وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة (٣) . وقوله تعالى : ﴿ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ كقوله جلت عظمته : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ ولهذا قال ﷻ : ﴿ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ عن ابن عباس : يوم التلاق اسم من أسماء يوم القيامة حذر الله منه عباده ، وعنه أيضًا : يلتقي فيه آدم وآخر ولده . وقال قتادة والسدي وبلال بن سعد وسفيان بن عيينة : يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض والخالق والخلق . وقال ميمون بن مهران : يلتقي الظالم والمظلوم وقد يقال : إن يوم التلاق يشمل هذا كله ، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمله من خير وشر كما قاله آخرون .

وقوله ﷻ : ﴿ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ ﴾ أي ظاهرون بادون كلهم لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم ؛ ولهذا قال ﴿ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ ﴾ أي الجميع في علمه على السواء . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ أي الذي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ينادي مناد بين يدي الساعة : يا أيها الناس أتتكم الساعة فيسمعها الأحياء والأموات ، قال : وينزل الله ﷻ إلى السماء الدنيا ويقول : ﴿ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ . وقوله جلت عظمته : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ يخبر تعالى

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٣٧٣) ومسلم في الحج (١٤٧) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٤٣٧٩) .
(٣) ذكره الهندي في كنزل العمال (١٥/٩٥) والسيوطي في الدر المنثور (٢٩٧/٣) .

عن عدله في حكمه بين خلقه أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر ، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها وبالسيئة واحدة ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾ كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر ﷺ عن رسول الله ﷺ فيما يحكي عن ربه ﷻ أنه قال : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا - إلى أن قال - يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرًا فليحمد الله تبارك وتعالى ، ومن وجد غيرذلك فلا يلومن إلا نفسه »(١) وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفسًا واحدة .

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

﴿ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ ﴾ اسم من أسماء يوم القيامة وسميت بذلك لاقترابها . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾ أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه ، وقال ابن جريج : ﴿ كَٰظِمِينَ ﴾ أي باكين . وقوله ﷻ : ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ولا شفيع يشفع فيهم ، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير . وقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ يخبر ﷻ عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ، دقيقها ولطيفها ، ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويتقوه حق تقواه ، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه ؛ فإنه ﷻ يعلم العينَ الخائنة وإن أبدت أمانة ، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر . قال ابن عباس ﵄ في قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ : هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم وفيهم المرأة الحسناء ، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء ، فإذا غفلوا لحظ إليها ، فإذا فطنوا غض بصره عنها ، فإذا غفلوا لحظ فإذا فطنوا غض . وقد اطلع الله تعالى من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها . وقال الضحاك : ﴿ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾ هو الغمز . وقول الرجل : رأيت ولم ير . أو : لم أر وقد رأى . وقال ابن عباس ﵄ في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا ؟ وقال السدي : ﴿ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ أي من الوسوسة .

وقوله ﷻ : ﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ﴾ أي يحكم بالعدل . وقال ابن عباس : قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ وهذا الذي فسر به ابن عباس ﵄ هذه الآية كقوله تبارك وتعالى : ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾ وقوله جل وعلا : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ أي من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ﴾ أي لا يملكون شيئًا ولا يحكمون بشيء ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ أي سميع لأقوال خلقه بصير بهم ، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٥) وأحمد في المسند (٥/١٦٠) .

فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي من الأمم المكذبة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما حل بهم من العذاب والنكال مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة ﴿ وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي أثروا في الأرض من البنايات والمعالم والديارات ما لا يقدر هؤلاء عليه ، أي مع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد أخذهم الله بذنوبهم وهي كفرهم برسلهم ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ أي وما دفع عنهم عذاب الله أحد ولا رده عنهم راد ، ولا وقاهم واق ، ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنوبهم التي ارتكبوها واجترموها فقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ أي بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات ﴿ فَكَفَرُوا ﴾ أي مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ تعالى أي أهلكهم ودمر عليهم وللكافرين أمثالها ﴿ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أي ذو قوة عظيمة وبطش شديد وهو ﴿ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أي عقابه أليم شديد وجيع ، أعاذنا الله تبارك وتعالى منه .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا ٱقْتُلُوٓا أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ .

يقول تعالى مسليًا لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ومبشرًا له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة كما جرى لموسى بن عمران عليه السلام ، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات . والدلائل الواضحات . ولهذا قال تعالى : ﴿ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ والسلطان هو الحجة والبرهان ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ وهو ملك القبط بالديار المصرية ﴿ وَهَـٰمَـٰنَ ﴾ وهو وزيره في مملكته ﴿ وَقَـٰرُونَ ﴾ وكان أكثر الناس في زمانه مالًا وتجارة ﴿ فَقَالُوا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ أي كذبوه وجعلوه ساحرًا مجنونًا مموهًا كذابًا في أن الله أرسله ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا ﴾ أي بالبرهان القاطع الدال على أن الله ﷻ أرسله إليهم ﴿ قَالُوا ٱقْتُلُوٓا أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا نِسَآءَهُمْ ﴾ وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل . أما الأول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم أو لمجموع الأمرين ؟ وأما الأمر الثاني فللعلة الثانية ولإهانة هذا الشعب ولكي يتشاءموا بموسى عليه السلام قال الله ﷻ : ﴿ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴾ أي وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل لئلا ينصروا عليهم إلا ذاهب وهالك في ضلال ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ وهذا عزم من فرعون – لعنه الله تعالى – على قتل موسى عليه الصلاة والسلام أي قال لقومه : دعوني حتى أقتل لكم هذا ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ أي لا أبالي منه . وهذا في غاية الجحد والتجهرم والعناد .

وقوله قبحه الله ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ يعني موسى ، وهذا كما يقال في المثل : صار فرعون مذكرًا ؛ يعني واعظا يشفق على الناس من موسى عليه السلام . وقرأ الأكثرون (أن يبدل دينكم وأن يظهر في الأرض الفساد) وقرأ الآخرون (أن يبدل دينكم أو أن

يظهر في الأرض الفساد) وقرأ بعضهم (يظهر في الأرض الفساد) بالضم (١) ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي لما بلغه قول فرعون ﴿ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ قال موسى عليه السلام : استجرت بالله وعذت به من شره وشر أمثاله ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم ﴾ أيها المخاطَبون ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أي عن الحق مجرمًا ﴿ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ ولهذا جاء في الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوما قال : « اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم وندرأ بك في نحورهم » (٢) .

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۝٢٨ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ .

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطيًا من آل فرعون ويقال : إنه الذي نجا مع موسى عليه الصلاة والسلام . واختاره ابن جرير ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيليًا ؛ لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه وكف عن قتل موسى عليه السلام ، ولو كان إسرائيليًا لأوشك أن يعاجل بالعقوبة ؛ لأنه منهم . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون . والذي قال : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ وقد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون ﴿ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ فأخذت الرجلَ غضبةٌ لله عز وجل . وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾ . وعن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال : بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا ، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ ثم قال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ (٣) وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ أي كيف تقتلون رجلًا لكونه يقول : ربي الله وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق . ثم تنزل معهم في المخاطبة فقال : ﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ يعني إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه فلا تؤذوه ؛ فإن يك كاذبا فإن الله جل جلاله سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة ، وإن يك صادقًا وقد آذيتموه يصبكم بعضُ الذي يعدكم ؛ فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة ، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقًا ؛ فينبغي على هذا أن لا تتعرضوا له بل اتركوه وقومه

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٤١٤) والطبراني في الصغير (٩/٨٤) .

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ أو أن يُظهِرَ ﴾ وقرأ الباقون ﴿ وأن يظهر ﴾ . وقرأ نافع وأبو عمر وحفص ﴿ يُظهِرَ - الفسادَ ﴾ وقرأ الباقون ﴿ يَظْهَر - الفسادُ ﴾ انظر (حجة القراءات ص ٩٢٩ ، ٩٣٠) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨١٥) .

يدعوهم ويتبعونه . وهكذا أخبر الله ﷻ عن موسى ﷺ أنه طلب من فرعون وقومه الموادعة في قوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۝ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ۝ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾ وهكذا قال رسول الله ﷺ لقريش أن يتركوه يدعو إلى الله تعالى عباد الله ولا يمسوه بسوء ، ويصلوا ما بينه وبينهم من القرابة في ترك أذيته ، قال الله ﷻ : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ أي أن لا تؤذوني فيما بيني وبينكم من القرابة ، فلا تؤذوني وتتركوا بيني وبين الناس . وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية وكان فتحًا مبينا . وقوله جل وعلا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ أي لو كان هذا الذي يزعم أن الله تعالى أرسله إليكم كاذبًا كما تزعمون لكان أمره بينًا يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله فكانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب ، وهذا نرى أمره سديدًا ومنهجه مستقيمًا ، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله ؟ ثم قال المؤمن محذرًا قومه زوال نعمة الله عنهم وحلول نقمة الله بهم : ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض فراعوا هذه النعمة بشكر الله تعالى وتصديق رسوله ﷺ ، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ أي لا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر ولا ترد عنا شيئًا من بأس الله إن أرادنا بسوء ، قال فرعون لقومه رادًا على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذي كان أحق بالملك من فرعون ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ ﴾ أي ما أقول لكم وأشيرعليكم إلا ما أراه لنفسي وقد كذب فرعون فإنه كان يتحقق صدق موسى ﷺ فيما جاء به من الرسالة ، فقوله ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ ﴾ كذب فيه وافترى وخان الله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ ورعيته فغشهم وما نصحهم ، وكذا قوله : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ أي وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد ، وقد كذب أيضًا في ذلك وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ وفي الحديث « ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته ؛ إلا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام »(١) .

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ۝ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ۝ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ۝ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ۝ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ .

هذا إخبار من الله ﷻ عن هذا الرجل الصالح مؤمن آل فرعون أنه حذر قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة فقال : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ أي الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذبة كيف حل بهم بأس الله وما رده عنهم راد ولا

(١) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٥١) ومسلم في الإيمان (٢٢٧) .

صده عنهم صاد ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ أي إنما أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وتكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره فأنفذ فيهم قدره ثم قال : ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ يعني يوم القيامة ، وقيل : سمي بذلك لمناداة أهلِ الجنة أهلَ النار ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ ﴾ ومناداة أهل النار أهلَ الجنة ﴿ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ولمناداة أصحابِ الأعراف أهلَ الجنة وأهلَ النار كما هو مذكور في سورة الأعراف . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ أي ذاهبين هاربين ﴿ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أي لا مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ أي من أضله الله فلا هادي له غيره . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ يعني أهل مصر وقد بعث الله فيهم رسولًا من قبل موسى عليه الصلاة والسلام وهو يوسف عليه الصلاة والسلام كان عزيز أهل مصر وكان رسولًا يدعو إلى الله تعالى أمته بالقسط فما أطاعوه تلك الطاعة إلا بمجرد الوزارة والجاه الدنيوي ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾ أي يئستم فقلتم طامعين ﴿ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ أي كحالكم هذا يكون حال من يضله الله لإسرافه في أفعاله وارتياب قلبه ، ثم قال ﷻ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ﴾ أي الذين يدفعون الحق بالباطل ويجادلون بالحجج بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى فإن الله ﷻ يمقت على ذلك أشد المقت ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي والمؤمنون أيضًا يبغضون من تكون هذه صفته فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه فلا يعرف بعد ذلك معروفًا ولا ينكر منكرًا ؛ ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أي على اتباع الحق ﴿ جَبَّارٍ ﴾ .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون وعتوه وتمرده وافترائه في تكذيبه موسى عليه الصلاة والسلام أنه أمر وزيره هامان أن يبني له صرحًا وهو القصر العالي المنيف الشاهق ، وكان اتخاذه من الآجر المضروب من الطين المشوي ، وقوله : ﴿ لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ إلخ قال سعيد بن جبيروأبو صالح : أبواب السموات وقيل : طرق السموات ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ وهذا من كفره وتمرده أنه كذب موسى عليه الصلاة والسلام في أن الله ﷻ أرسله إليه ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي بصنعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئًا يتوصل به إلى تكذيب موسى عليه الصلاة والسلام ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : يعني إلا في خسار .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا ونسي الجبار الأعلى فقال لهم : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ لا كما كذب فرعون في قوله : ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ ثم زهدهم في الدنيا التي قد آثروها على الأخرى وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه الصلاة والسلام فقال : ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ ﴾ أي قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتضمحل ﴿ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ أي الدار التي لا زوال لها ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها ، بل إما نعيم وإما جحيم ، ولهذا قال جلت عظمته : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ أي واحدة مثلها ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي لا يتقدر بجزاء بل يثيبه الله ﷻ ثوابًا كثيرًا لا انقضاء له ولا نفاد .

﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ .

يقول لهم المؤمن : ما بالي أدعوكم إلى النجاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله ﷺ الذي بعثه ﴿ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أي على جهل بلا دليل ﴿ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴾ أي هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ قال السدي وابن جرير : معنى قوله ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ حقًّا ، وقال الضحاك : لا كذب ، ﴿ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ قال السدي : لا يجيب داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة وقوله : ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي في الدار الآخرة فيجازي كلًّا بعمله ولهذا قال : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ أي خالدين فيها بإسرافهم وهو شركهم بالله ﷻ : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ أي سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه ونصحتكم ووضحت لكم وتتذكرونه وتندمون حيث لا ينفعكم الندم ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي وأتوكل على الله وأستعينه وأقاطعكم وأباعدكم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ أي هو بصير بهم تعالى وتقدس فيهدي من يستحق الهداية ويضل من يستحق الإضلال وله الحجة البالغة والحكمة التامة والقدر النافذ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام وأما في الآخرة فبالجنة ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ وهو الغرق في اليم ثم النقلة منه إلى الجحيم ، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحًا ومساء إلى قيام الساعة ، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار ولهذا قال : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ أي أشده ألمًا وأعظمه نكالًا ، وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور وهي قوله تعالى : ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ .

ولكن هنا سؤال وهو أنه لا شك أن هذه الآية مكية وقد استدلوا بها على عذاب القبرفي البرزخ

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن يهودية كانت تخدمها فلا تصنع عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إليها شيئًا من المعروف إلا قالت لها اليهودية وقاك الله عذاب القبر قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : فدخل رسول الله ﷺ عليَّ فقلت : يا رسول الله هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة ؟ قال ﷺ : « لا ، من زعم ذلك ؟ » قالت : هذه اليهودية لا أصنع إليها شيئًا من المعروف إلا قالت : وقاك الله عذاب القبر ، قال ﷺ : « كذبت يهود وهم على الله أكذب لا عذاب دون يوم القيامة » ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث ، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملًا بثوبه محمرة عيناه وهو ينادي بأعلى صوته : « القبر كقطع الليل المظلم ، أيها الناس لوتعلمون ما أعلم بكيتم كثيرًا وضحكتم قليلًا ، أيها الناس استعيذوا بالله من عذاب القبر ، فإن عذاب القبر حق » (١). فيقال : فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية وفيها الدلالة على عذاب البرزخ ؟ والجواب أن الآية دلت على عرض الأرواح على النار غدوًّا وعشيًّا في البرزخ وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها في القبور ؛ إذ قد يكون ذلك مختصًا بالروح ، فأما حصول ذلك للجسد في البرزخ وتألمه بسببه فلم يدل عليه إلا السنة في الأحاديث المرضية الآتي ذكرها . وقد يقال إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار في البرزخ ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن في قبره بذنب .

وقد يقال أن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح في البرزخ ولا يلزم من ذلك أن يتصل في الأجساد في قبورها فلما أوحي إلى النبي ﷺ في ذلك بخصوصه استعاذ منه ، وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن يهودية دخلت عليها فقالت : نعوذ بالله من عذاب القبر ، فسألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسول الله ﷺ عن عذاب القبر فقال ﷺ : « نعم عذاب القبر حق » قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر (٢) . فهذا يدل على أنه بادر ﷺ إلى تصديق اليهودية في هذا الخبر وقرر عليه . وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ صباحًا ومساء ما بقيت الدنيا ، يقال لهم : يا آل فرعون هذه منازلكم ، توبيخًا ونقمة وصغارا لهم ، وقال ابن زيد : هم فيها اليوم يغدى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة . وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال : « ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أثابه الله تعالى » قال : قلنا : يا رسول الله ما إثابة الله الكافر ؟ فقال : « إن كان قد وصل رحمًا أو تصدق بصدقة أو عمل حسنة أثابه الله تبارك وتعالى المال والولد والصحة وأشباه ذلك » قلنا : فما إثابته في الآخرة ؟ قال ﷺ عذابا دون العذاب » وقرأ ﴿ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ (٣) .

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله عَزَّ وَجَلَّ إليه يوم القيامة » (٤) .

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٨١/٦) .
(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٧٢) والنسائي في السنن (١٣٠٨) وأحمد في مسنده (١٧٤/٦) .
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٥٣/٢) .
(٤) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٧٩) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٦٥) وأحمد في مسنده (١١٣/٢) .

ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ .

يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار وتخاصمهم ، وفرعون وقومه من جملتهم ، فيقول الضعفاء وهم الأتباع للذين استكبروا وهم القادة والسادة والكبراء ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أي أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ أي قسطًا تتحملونه عنا ، ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ ﴾ أي لا نتحمل عنكم شيئًا كفى بنا ما عندنا وما حملنا من العذاب والنكال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ أي قسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ لما علموا أن الله ﷻ لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم بل قد قال ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ سألوا الخزنة وهم كالسجانين لأهل النار أن يدعوا لهم الله تعالى أن يخفف عن الكافرين ولو يومًا واحدًا من العذاب ، فقالت لهم الخزنة رادين عليهم ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي أوما قامت عليكم الحجج في الدنيا على ألسنة الرسل ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ﴾ أي أنتم لأنفسكم فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم ، ونحن منكم برآء ، ثم نخبركم أنه سواء دعوتم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم ، ولا يخفف عنكم ، ولهذا قالوا : ﴿ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ أي إلا في ذهاب لا يقبل ولا يستجاب .

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

أورد ابن جرير رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ سؤالًا فقال : قد علم أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعياء ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجرًا كإبراهيم ، وإما إلى السماء كعيسى فأين النصرة في الدنيا ، ثم أجاب عن ذلك بجوابين : أحدهما : أن يكون الخبر خرج عامًّا والمراد به البعض ، قال : وهذا سائغ في اللغة : الثاني : أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم ، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم كما فعل بقتلة يحيى وزكريا وشعياء ، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم ، وقد ذكر أن النمرود أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود ؛ فسلط الله تعالى عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم وأظهرهم الله تعالى عليهم ، ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إمامًا عادلًا وحكمًا مقسطًا ؛ فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود ، ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام ، وهذه نصرة عظيمة وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر

وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم ممن آذاهم [(١)] . وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله تبارك وتعالى : من عادى لي وليا فقد بارزني بالحرب » [(٢)] ولهذا أهلك الله ﷻ قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط وأهل مدين وأشباههم وأضرابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق . وأنجى الله تعالى من بينهم المؤمنين ، فلم يهلك منهم أحدًا ، وعذب الكافرين فلم يفلت منهم أحدًا ، قال السدي : لم يبعث الله ﷻ رسولًا قط إلى قوم فيقتلونه أو قومًا من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون ، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم ، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا قال : فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها . وهكذا نصر الله نبيه محمدًا ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذبه وعاداه ؛ فجعل كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان ، وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية وجعل له فيها أنصارًا وأعوانًا ، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم وخذلهم وقتل صناديدهم ، وأسر سراتهم فاستاقهم مقرنين في الأصفاد ، ثم منَّ عليهم بأخذه الفداءَ منهم ، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة فقرت عينه ببلده وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم ، فأنقذه الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك ، وفتح له اليمن ، ودانت له جزيرة العرب بكاملها ، ودخل الناس في دين الله أفواجًا ، ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده فبلغوا عنه دين الله ﷻ ، ودعوا عباد الله تعالى إلى الله جل وعلا ، وفتحوا البلاد والرساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها . ثم لا يزال هذا الدين قائمًا منصورًا ظاهرًا إلى قيام الساعة ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴾ أي يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل ، قال مجاهد : الأشهاد الملائكة . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ بدل من قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴾ وقرأ آخرون يوم بالرفع كأنه فسره به ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ۝ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ ﴾ وهم المشركون ﴿ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ أي لا يقبل منهم عذر ولا فدية ﴿ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ أي الإبعاد والطرد من الرحمة ﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴾ وهي النار. وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴾ أي سوء العاقبة . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ ﴾ وهو ما بعثه الله ﷻ به من الهدى والنور ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَٰبَ ﴾ ، أي جعلنا لهم العاقبة وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه بما صبروا على طاعة الله تبارك وتعالى واتباع رسوله موسى عليه الصلاة والسلام ، وفي الكتاب الذي أورثوه وهو التوراة ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى الْأَلْبَٰبِ ﴾ وهي العقول الصحيحة السليمة . وقوله ﷻ ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ أي يا محمد ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ ، أي وعدناك أنا سنعلي كلمتك ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك والله لا يخلف الميعاد ، وهذا الذي أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ هذا تهييج للأمة على الاستغفار ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِىِّ ﴾ أي في أواخر النهار وأوائل الليل ﴿ وَالْإِبْكَٰرِ ﴾

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/٩٣ ، ٩٤) .
(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢) .

وهي أوائل النهار وأواخر الليل . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ﴾ أي يدفعون الحق بالباطل ، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾ أي ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق واحتقار لمن جاءهم به ، وليس ما يرومونه من إخماد الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم ؛ بل الحق هو المرفوع وقولهم وقصدهم هو الموضوع ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ أي من حال مثل هؤلاء ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ أو من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان [1] .

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة وأن ذلك سهل عليه يسير لديه بأنه خلق السموات والأرض ، وخلقهما أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة ، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله تعالى خلق السموات والأرض وينكرون المعاد استبعادًا وكفرًا وعنادًا وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئًا والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره ؛ بل بينهما فرق عظيم كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار ﴿ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ ، أي ما أقل ما يتذكر كثير من الناس ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ﴾ أي لكائنة وواقعة ﴿ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لا يصدقون بها بل يكذبون بوجودها .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه وتكفل لهم بالإجابة كما كان سفيان الثوري يقول : يا من أَحَبُّ عباده إليه من سأله فأكثر سؤاله ، ويا من أبْغَضُ عباده إليه من لم يسأله وليس أحد كذلك غيرك يا رب . وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

اللَّه يغضب إن تركت سؤاله وبُنَيُّ آدم حين يُسأل يغضبُ

عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل قال : « أربع خصال واحدة منهن لي ، وواحدة لك وواحدة فيما بيني وبينك ، وواحدة فيما بينك وبين عبادي ، فأما التي لي : فتعبدني لا تشرك بي شيئًا ، وأما التي لك علي : فما عملت من خير جزيتك به ، وأما التي بيني وبينك ، فمنك الدعاء وعلي الإجابة ، وأما التي بينك وبين عبادي : فارض لهم ما ترضى لنفسك » [2] . وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الدعاء هو العبادة » ثم قرأ ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) تفسير الطبري (٩٧/٢٤) .
(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٢٧٥٧/٥) والمجروحين لابن حبان (٣٧٢/١) والحديث إسناده ضعيف .

يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (١) وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم يَدْعُ اللَّه ﷻ غضب عليه » (٢) وعن محمد بن سعيد قال : لما مات محمد بن مسلمة الأنصاري وجدنا في ذؤابة سيفه كتابًا : باسم اللَّه الرحمن الرحيم سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « إن لربكم في بقية أيام دهركم نفحات ، فتعرضوا له ، لعل دعوة أن توافق رحمة فيسعد بها صاحبها سعادة لا يخسر بعدها أبدًا » (٣) . وقوله ﷻ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ أي عن دعائي وتوحيدي ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أي صاغرين حقيرين ، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس ، يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجنًا في جهنم يقال له : بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار » (٤) .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًا على خلقه بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه ، ويستريحون فيه من حركات ترددهم في المعايش بالنهار وجعل ﴿ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أي مضيئًا ليتصرفوا فيه بالأسفار وقطع الأقطار والتمكن من الصناعات ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ أي لا يقومون بشكر نعم اللَّه عليهم ، ثم قال ﷻ : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي الذي فعل هذه الأشياء هو اللَّه الواحد الأحد خالقُ الأشياء الذي لا إله غيره ولا رب سواه ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أي فكيف تعبدون غيره من الأصنام التي لا تخلق شيئًا بل هي مخلوقة منحوتة .

وقوله ﷻ : ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أي كما ضل هؤلاء بعبادة غير اللَّه كذلك أفك الذين من قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الجهل والهوى . وجحدوا حجج اللَّه وآياته وقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أي جعلها لكم مستقرًا بساطًا مهادًا تعيشون عليها وتتصرفون فيها وتمشون في مناكبها وأرساها بالجبال لئلا تميد بكم ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ أي سقفًا للعالم محفوظًا ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أي فخلقكم في أحسن الأشكال ومنحكم أكمل الصور في أحسن تقويم ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ أي من المآكل والمشارب في الدنيا ؛ فذكر أنه خالق الدار والسكان والأرزاق فهو الخالق الرزاق ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين ، ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي هو الحي أزلًا وأبدًا لم يزل ولا يزال ؛ وهو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٧/٤) وابن ماجه في السنن (٣٨٢٧) والحاكم في المستدرك (٤٩٠/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٧٧/٢) .
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٣٤/١٩) والألباني في الصحيحة (١٨٩٠) .
(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٩٢) وأحمد في مسنده (١٧٩/٢) والحميدي في مسنده (٥٩٨) .

نظير له ولا عديل له ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي موحدين له مقرين بأنه لا إله إلا هو ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال ابن جرير : كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال : لا إله إلا اللّٰه أن يتبعها بالحمد للّٰه رب العالمين عملًا بهذه الآية .

وعن ابن عباس قال : من قال : لا إله إلا اللّٰه فليقل على أثرها : الحمد للّٰه رب العالمين (١) .

عن أبي الزبير محمد بن مسلم بن بدر المكي قال : كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم : لا إله إلا اللّٰه وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لاحول ولا قوة إلا باللّٰه ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا اللّٰه مخلصين له الدين ولوكره الكافرون . قال : وكان رسول اللّٰه ﷺ يهل بهن دبر كل صلاة (٢) .

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : إن الله ﷻ ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان ، وقد بين تبارك وتعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه في قوله جلت عظمته : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ﴾ أي هو الذي يقلبكم في هذه الأطواركلها وحده لا شريك له ، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم بل تسقطه أمه سقطًا ، ومنهم من يتوفى صغيرًا وشابًّا وكهلًا قبل الشيخوخة كقوله تعالى : ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وقال ﷻ ههنا : ﴿ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، قال ابن جريج : تتذكرون البعث ، ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أي هو المتفرد بذلك لا يقدر على ذلك أحد سواه ﴿ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي لايخالَف ولا يمانَع بل ماشاء كان لا محالة .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله ويجادلون في الحق بالباطل كيف

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٠٢/٢٤) .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (١٣٩) وقوله : يهل به : أي يرفع صوته بتلك الكلمات .

تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ﴾ ، أي من الهدى والبيان ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ هذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، من الرب ﷻ لهؤلاء ، وقوله ﷻ ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ ﴾ ، أي متصلة بالأغلال بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم ، وتارة إلى الجحيم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يُسْحَبُونَ ۝ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ وقال تعالى بعد ذكر أكلهم الزقومَ وشربهم الحميمَ ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾ عن يعلى بن منبه رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال : « ينشئ الله ﷻ سحابة لأهل النار سوداء مظلمة ويقال : يا أهل النار أي شيء تطلبون ؟ فيذكرون بها سحاب الدنيا فيقولون : نسأل بارد الشراب فتمطرهم أغلالًا تزيد في أغلالهم ، وسلاسل تزيد في سلاسلهم ، وجمرًا يلهب النار عليهم »(١) . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ، أي قيل لهم أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله ؛ هل ينصرونكم اليوم ؛ ﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ أي ذهبوا فلم ينفعونا ﴿ بل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾ أي جحدوا عبادتهم كقوله جلت عظمته : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ أي تقول لهم الملائكة هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير حق ومرحكم وأشركم وبطركم ﴿ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي فبئس المنزل والمقيل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه ، والله أعلم .

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه ، فإن الله تعالى سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ ﴾ أي في الدنيا ، وكذلك وقع ؛ فإن الله تعالى أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم ؛ أبيدوا في يوم بدر ، ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في حياته ﷺ . وقوله ﷻ : ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ أي فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة ، ثم قال تعالى مسليًا له ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ أي منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم ، مع قومهم كيف كذبوهم ، ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة ﴿ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات إلا أن يأذن الله له في ذلك فيدله ذلك على صدقه فيما جاءهم به ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ ﴾ فينجي المؤمنين ، ويهلك الكافرين ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ .

---

(١) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤٧٣/٤) والسيوطي في الدر المنثور (٣٥٧/٥) .

﴿ اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًا على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب ويحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال إلى البلاد النائية ، والأقطار الشاسعة ، والبقر تؤكل ويشرب لبنها وتحرث عليها الأرض ، والغنم تؤكل ويشرب لبنها ، والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها ؛ فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة ؛ ولذا قال ﷻ ﴿ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ وقوله جل وعلا ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم ﴿ فَأَىَّ ءَايَٰتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ أي لا تقدرون على إنكار شيء من آياته إلا أن تعاندوا وتكابروا .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَٰفِرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر وماذا حل بهم من العذاب الشديد مع شدة قواهم وما أثروه في الأرض وجمعوه من الأموال ، فما أغنى عنهم ذلك شيئًا ، ولا رد عنهم ذرة من بأس الله ؛ وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات ، والحجج القاطعات ، والبراهين الدامغات ، لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم ، واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل . قال مجاهد : قالوا : نحن أعلم منهم لن نبعث ولن نعذب ، وقال السدي : فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم ، فأتاهم من بأس الله تعالى ما لا قبل لهم به ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي أحاط بهم ﴿ مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي يكذبون ويستبعدون وقوعه ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ أي عاينوا وقوع العذاب بهم ﴿ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴾ أي وحدوا اللَّه ﷻ وكفروا بالطاغوت ، ولكن حيث لا تقال العثرات ولا تنفع المعذرة ، وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ قال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أي فلم يقبل الله منه ؛ لأنه قد استجاب لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام دعاءه حين قال : ﴿ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وهكذا قال تعالى ههنا : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ﴾ أي هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب أنه لا يقبل ، ولهذا جاء في الحديث : « إن اللَّه تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »[1] أي فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة وعاين الملك فلا توبة حينئذ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَٰفِرُونَ ﴾ .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٣٧) وأحمد في مسنده (٤٢٥/٣) والحاكم في المستدرك (٢٥٧/٤) .

سورة فصلت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يعني القرآن منزل من الرحمن الرحيم : ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ أي بينت معانيه وأحكمت أحكامه ﴿ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أي في حال كونه قرآنًا عربيًّا بينًا واضحًا فمعانيه مفصلة وألفاظه واضحة غير مشكلة أي هو معجز من حيث لفظه ومعناه ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ ، أي إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماءُ الراسخون ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي تارة يبشر المؤمنين وتارة ينذرالكافرين ﴿ فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ ، أي أكثر قريش فهم لا يفهمون منه شيئًا مع بيانه ووضوحه ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ ﴾ أي في غلف مغطاة ﴿ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ ﴾ أي صمم عما جئتنا به ﴿ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ ﴾ فلا يصل إلينا شيء مما تقول ﴿ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ .

عن محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة - وكان سيدًا - قال يومًا وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورًا لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ﷺ ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون ، فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، فقم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها . قال : فقال له رسول الله ﷺ : « قل يا أبا الوليد أسمع » قال : يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا ، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك ، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ؛ فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ، أو كما قال له ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال : « أفرغت يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم . قال : « فاسمع مني » قال : أفعل . قال ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرؤها عليه . فلما سمع عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك » فقام

عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أني سمعت قولًا والله ماسمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب ؛ فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب ؛ فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم (١) .

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين إنما الله إله واحد ﴿ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ أي أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ أي لسالف الذنوب ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي دمار لهم وهلاك عليهم ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ عن ابن عباس : يعني الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله ، والمراد بالزكاة ههنا طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك ، وزكاة المال إنما سميت زكاة ؛ لأنها تطهره من الحرام وتكون سببًا لزيادته وبركته وكثرة نفعه وتوفيقًا إلى استعماله في الطاعات ، وقال السدي : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أي لا يؤدون الزكاة ، وقال قتادة : يمنعون زكاة أموالهم وهذا هو الظاهر عند كثيرمن المفسرين واختاره ابن جرير وفيه نظر ؛ لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة الى المدينة على ما ذكره غير واحد وهذه الآية مكية ، اللهم إلا أن يقال : لا يبعد أن يكون أصل الصدقة والزكاة وكان مأمورًا به في ابتداء البعثة كقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ فأما الزكاة ذات النصب والمقادير ؛ فإنما بين أمرها بالمدينة ويكون هذا جمعًا بين القولين كما أن أصل الصلاة كان واجبًا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابتداء البعثة ، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف فرض الله تعالى على رسوله ﷺ الصلوات الخمس وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك شيئًا فشيئًا . ثم قال ﷻ بعد ذلك ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قال مجاهد وغيره : غير مقطوع ولا مجبوب كقوله تعالى : ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ .

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ .

هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره وهو الخالق لكل شيء القاهر لكل شيء ، المقتدر على كل شيء فقال : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١/٧٥) والسيوطي في الدر المنثور (٥/٣٥٨) .

أندادًا ﴾ أي نظراء وأمثالا تعبدونها معه ﴿ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم . وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ ففصل ههنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء فذكر أنه خلق الأرض أولًا لأنها كالأساس ، والأصل أن يبدأ بالأساس ثم بعده بالسقف . عن سعيد بن جبير قال : قال رجل لابن عباس ﭫ : إني لأجد في القرآن أشياء تختلف علي ، قال : ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ ، ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ ، ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ ، ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فقد كتموا في هذه الآية ، وقال تعالى : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴾ إلى قوله ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ فذكر خلق السماء قبل الأرض ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ إلى قوله : ﴿ طَآئِعِينَ ﴾ فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء قال : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ، ﴿ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ ، ﴿ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ فكأنه كان ثم مضى فقال ابن عباس ﭫ : ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ في النفخة الأولى ، ثم ينفخ في الصور ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ﴾ فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون ، ثم في النفخة الأخرى ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ وأما قوله : ﴿ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ فإن اللّه تعالى يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم فيقول المشركون : تعالوا نقول : لم نكن مشركين ، فيختم على أفواههم فتنطق أيديهم ؛ فعند ذلك يعرف أن اللّه تعالى لا يكتم حديثا ، وعنده ﴿ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ الآية ، وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين ، ثم دحى الأرض ، ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾ وقوله : ﴿ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وخلق السموات في يومين ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ سمي نفسه بذلك وذلك قوله ؛ أي لم يزل كذلك فإن اللّه تعالى لم يرد شيئًا إلا أصاب به الذي أراد ، فلا يختلفن عليك القرآن ؛ فإن كلا من عند اللّه ﷻ[1] . وقوله ﴿ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ يعني يوم الأحد ويوم الاثنين ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا ﴾ أي جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس يعني يوم الثلاثاء والأربعاء فهما مع اليومين السابقين أربعة ولهذا قال : ﴿ فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ أي لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه . وقال عكرمة ومجاهد في قوله ﷻ : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ جعل في كل أرض ما لا يصلح في غيرها ومنه العصب باليمن ، والسابوري بسابور ، والطيالسة بالري ، وقال ابن عباس وقتادة والسدي في قوله تعالى : ﴿ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ أي لمن أراد السؤال عن ذلك ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ وهو بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ أي استجيبا لأمري وانفعلا لفعلي طائعتين أو مكرهتين ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ أي بل نستجيب لك مطيعين بما فينا مما تريد خلقه من الملائكة والجن والإنس جميعًا

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (تفسير سورة حم السجدة).

مطيعين لك ، حكاه ابن جرير عن بعض أهل العربية قال : وقيل تنزيلًا لهن معاملة من يعقل بكلامهما ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ أي ففرغ من تسويتهن سبع سموات في يومين أي آخرين وهما يوم الخميس ويوم الجمعة ﴿ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ أي ورتب مقررًا في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو ﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ وهي الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض ﴿ وَحِفْظًا ﴾ أي حرسًا من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ أي العزيز الذي قد عز كل شيء فغلبه وقهره ، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم ، عن أبي هريرة ﷺ قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال : « خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة ، آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة فيما بين العصر إلى الليل »[١] .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله تعالى ؛ فإني أنذركم حلول نقمة الله بكم كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين ﴿ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ أي ومن شاكلهما ممن فعل كفعلهما ﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ ﴾ أي في القرى المجاورة لبلادهم بعث الله اليهم الرسل يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له ومبشرين ومنذرين ، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم ، وما ألبس أولياءه من النعم ، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا بل كذبوا وجحدوا وقالوا : ﴿ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ أي لو أرسل الله رسلًا لكانوا ملائكة من عنده ﴿ فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ ﴾ أي أيها البشر ﴿ كَٰفِرُونَ ﴾ أي لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي بغوا وعتوا وعصوا ﴿ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ أي مَنُّوا بشدة تركيبهم وقواهم واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أي أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها وأن بطشه شديد فبارزوا الجبار بالعداوة ؛ وجحدوا بآياته وعصوا رسله فلهذا قال : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ قال بعضهم : وهي شديدة الهبوب ، وقيل : الباردة . وقيل : هي التي لها صوت ، والحق أنها متصفة بجميع ذلك . وقوله تعالى : ﴿ فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ أي متتابعات أي ابتدأوا العذاب في يوم نحس عليهم واستمر بهم هذا النحس ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٢٧) وأحمد في مسنده (٣٢٧/٢) والحاكم في المستدرك (٤٥٠/٢) .

وَنَمْنِيَةَ أَيَامِ حُسُومًا ﴾ حتى أبادهم عن آخرهم واتصل بهم خِزي الدنيا بعذاب الآخرة ولهذا قال : ﴿ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ﴾ أي أشد خزيًا لهم ﴿ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ أي في الآخرة كما لم ينصروا في الدنيا ، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب ويدرأ عنهم النكال ، وقوله ﷻ : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ قال ابن عباس وقتادة والسدي وغيرهم : بينا لهم ، وقال الثوري : دعوناهم ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ أي بصرناهم وبينا لهم ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام فخالفوه وكذبوه وعقروا ناقة الله تعالى التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ ﴾ أي بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلًا وهوانًا وعذابًا ونكالًا ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي من التكذيب والجحود ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي من بين أظهرهم لم يمسهم سوء ولا نالهم من ذلك ضرر ؛ بل نجاهم الله تعالى مع نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام بإيمانهم بتقواهم الله ﷻ .

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار يوزعون أي تجمع الزبانية أولهم على آخرهم . وقوله ﷻ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا ﴾ أي وقفوا عليها ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي بأعمالهم مما قدموه وأخروه لا يكتم منه حرف ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ أي لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم فعند ذلك أجابتهم الأعضاء ﴿ قَالُوٓا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي فهو لا يخالف ولا يمانع وإليه ترجعون .

عن أنس بن مالك ﷺ قال : ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم فقال ﷺ : « ألا تسألوني عن أي شيء ضحكت ؟ » قالوا : يا رسول الله عن أي شيء ضحكت ؟ قال ﷺ : « عجبت من مجادلة العبد ربَّه يوم القيامة يقول : أي ربي أليس وعدتني أن لا تظلمني ؟ قال : بلى ، فيقول : فإني لا أقبل علي شاهدًا إلا من نفسي ، فيقول الله تبارك وتعالى : أو ليس كفى بي شهيدًا وبالملائكة الكرام الكاتبين - قال : فيردد هذا الكلام مرارًا - قال : فيختم على فيه وتتكلم أركانه بما كان يعمل ، فيقول : بعدًا لكن وسحقًا ، عنكن كنت أجادل » (١) . وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال : لما رجعت إلى رسول الله ﷺ مهاجرة البحر قال : « ألا تحدثون بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة ؟ » فقال فتية منهم : بلى يا رسول الله ، بينما نحن جلوس إذ مرت علينا عجوز من عجائز رهابينهم تحمل على رأسها قلة من ماء ، فمرت بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كتفيها ، ثم دفعها فخرت

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٨/١) والحاكم في المستدرك (٦٠١/٤) والطبراني في الكبير (٤٧/٨) .

على ركبتيها فانكسرت قلتها ، فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت : سوف تعلم يا غدر إذا وضع الله الكرسي وجمع الأولين والآخرين ، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غدًا ؟ قال : يقول رسول الله ﷺ : « صدقت صدقت ؛ كيف يقدس الله قومًا لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم ؟ » (١) وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ أي تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم ما كنتم تكتمون منا الذي كنتم تفعلونه ؛ بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي ولا تبالون منه في زعمكم ؛ لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ أي هذا الظن الفاسد وهو اعتقادكم أن الله تعالى لا يعلم كثيرًا مما تعملون هو الذي أتلفكم وأرداكم عند ربكم ﴿ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ أي في مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم . عن عبد الله ﷺ قال : كنت مستترًا بأستار الكعبة ، فجاء ثلاثة نفر قرشي وختناه ثقفيان - أوثقفي وختناه قرشيان - كثير شحم بطونهم ، قليل فقه قلوبهم فتكلموا بكلام لم أسمعه ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا هذا ؟ فقال الآخر : إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه وإذا لم نرفعه لم يسمعه ، فقال الآخر : إن سمع منه شيئًا سمعه كله . قال : فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله ﷻ ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (٢) ، وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ قال : « إنكم تدعون يوم القيامة مفدمًا على أفواهكم بالفدام ، فأول شيء يبين عن أحدكم فخذه وكفه » (٣) وعن جابر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن ؛ فإن قومًا قد أرداهم سوء ظنهم بالله فقال الله تعالى : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ » (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ أي سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا هم في النار لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها ، وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذارًا ، فما لهم أعذار ولا تقال لهم عثرات .

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ .

يذكر تعالى أنه هو الذي أضل المشركين وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته ، وهو الحكيم في أفعاله بما قيض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن ﴿ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي حسنوا

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٠١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨١/١) والترمذي في السنن (٣٢٤٩) والختن : الصهر ، أو كل قريب من قبل المرأة والأب والأخ .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٠٨/١٩) والألباني في الضعيفة (٤٣٣) .

(٤) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٨١) وأحمد في مسنده (٣٩٠/٤) والبيهقي في السنن (٣٧٨/٣) .

لهم أعمالهم في الماضي والمستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ أي كلمة العذاب ، كما حق على أمم قد خلت من قبلهم ممن فعل كفعلهم من الجن والإنس ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ أي استووا هم وإياهم في الخسار والدمار . وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ أي تواصوا فيما بينهم أن لا يطيعوا للقران ولا ينقادوا لأوامره ﴿ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ ﴾ أي إذا تلي لا تسمعوا له كما قال مجاهد ﴿ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ ﴾ يعني بالمكاء والصفير والتخليط في المنطق على رسول الله إذا قرأ القرآن ، ثم قال ﷻ منتصرًا للقرآن ومنتقمًا ممن عاداه من أهل الكفران : ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أي في مقابلة ما اعتمدوه في القرآن وعند سماعه ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي بشر أعمالهم وسيئ أفعالهم ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ عن علي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا ﴾ قال : إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه . وقال السدي : عن علي ﷺ : فإبليس يدعو به كل صاحب شرك ، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة ، فإبليس : الداعي إلى كل شر من شرك فما دونه ، وابن آدم الأول كما ثبت في الحديث : « ما قتلت نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه أول من سن القتل » (١) . وقولهم : ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ أي أسفل منا في العذاب ليكونا أشد عذابًا منا ، ولهذا قالوا : ﴿ لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ أي في الدرك الأسفل من النار .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ أي أخلصوا العمل لله وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم ، وعن أنس بن مالك ﷺ قال : قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم ، فمن قالها حتى يموت فقد استقام عليها (٢) ، وعن سعيد بن عمران قال : قرأت عند أبي بكر الصديق ﷺ هذه الآية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ قال : هم الذين لم يشركوا بالله شيئًا (٣) . وعن عكرمة قال : سئل ابن عباس ﵄ : أي آية في كتاب الله تبارك وتعالى أرخص ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله .

وعن ابن عباس ﵄ : ﴿ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ على أداء فرائضه ، وكذا قال قتادة . قال : وكان الحسن يقول : اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة ، وقال أبو العالية : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ أخلصوا له الدين والعمل .

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٥) ومسلم في القسامة (٢٧) وأحمد في مسنده (٣٨٣/١) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٥٠) . (٣) أورده الطبري في تفسيره (١٤٣/٢٤) .

عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت : يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به ، قال ﷺ : « قل ربي الله ثم استقم » قلت : يا رسول الله ما أكثر ما تخاف علي ؟ فأخذ رسول الله ﷺ : بطرف لسان نفسه ثم قال : « هذا » [١] . وقوله تعالى : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ قال مجاهد والسدي وزيد بن أسلم : وابنه : يعني عند الموت قائلين ﴿ أَلَّا تَخَافُوا۟ ﴾ أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا۟ ﴾ على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أو دين ؛ فإنا نخلفكم فيه ﴿ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير . وهذا كما جاء في حديث البراء ﷺ قال : « إن الملائكة تقول لروح المؤمن : اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب ، كنت تعمرينه ، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان » [٢] وقيل : إن الملائكة تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم . وقال زيد بن أسلم : يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث ، وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جدًّا وهو الواقع .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار نحن كنا أولياءكم في الحياة الدنيا نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله ، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور وعند النفخة في الصور ، ونؤمنكم يوم البعث والنشور ، ونجاوز بكم الصراط المستقيم ، ونوصلكم إلى جنات النعيم ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ ﴾ أي في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس وتقر به العيون ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ أي مهما طلبتم وجدتم وحضر بين أيديكم كما اخترتم ﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ أي ضيافة وعطاء وإنعامًا من غفور لذنوبكم رحيم بكم رءوف ؛ حيث غفر وستر ورحم ولطف . عن سعيد بن المسيب أنه لقي أبا هريرة ﷺ فقال أبو هريرة ﷺ : أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة ، فقال سعيد : أوفيها سوق ؟ فقال : نعم ، أخبرنا رسول الله ﷺ أن أهل الجنة إذا دخلوا فيها ونزلوا بفضل أعمالهم ، فيؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيزورون الله ﷻ ، ويبرز لهم عرشه ، ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة ، ويوضع لهم منابر من نور ، ومنابر من لؤلؤ ، ومنابر من ياقوت ، ومنابر من زبرجد ، ومنابر من ذهب ، ومنابر من فضة ، ويجلس أدناهم وما فيهم دنيء على كثبان المسك والكافور ما يرون أن أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلسًا . قال أبو هريرة ﷺ : قلت : يا رسول الله وهل نرى ربنا ؟ قال ﷺ : « نعم ، هل تتمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر ؟ » قلنا : لا . قال ﷺ : « فكذلك لا تتمارون في رؤية ربكم تعالى ، ولا يبقى في ذلك المجلس أحد إلا حاضره الله محاضرة ، حتى إنه ليقول للرجل منهم : يا فلان ابن فلان أتذكر يوم عملت كذا وكذا ؟ - يذكره ببعض غدراته في الدنيا - فيقول : أي رب أفلم تغفر لي ؟ فيقول : بلى ، فبسعة مغفرتي بلغت منزلتك هذه» قال : « فبينما هم على ذلك ؛ غشيتهم سحابة من فوقهم فأمطرت عليهم طيبًا لم يجدوا مثل ريحه شيئًا قط» قال : « ثم يقول ربنا ﷻ : قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة وخذوا ما اشتهيتم» قال : « فنأتي سوقًا قد حفت به الملائكة ، فيها ما لم تنظر

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٦٢) وأحمد في مسنده (٤١٣/٣) .
(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢٥٥/٧) .

العيون إلى مثله ، ولم تسمع الآذان ، ولم يخطر على القلوب ، قال : فيحمل لنا ما اشتهينا ليس يباع فيه شيء ولا يشترى ، وفي ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضهم بعضًا . قال : فيقبل الرجل ذو المنزلة الرفيعة فيلقى من هو دونه وما فيهم دنيء ، فيروعه ما يرى عليه من اللباس ، فما ينقضي آخرحديثه حتى يتمثل عليه أحسن منه ؛ وذلك لأنه لا ينبغي لأحد أن يحزن فيها ، ثم ننصرف إلى منازلنا ، فيتلقانا أزواجنا فيقلن : مرحبًا وأهلًا بحبيبنا ، لقد جئت وإن بك من الجمال والطيب أفضل مما فارقتنا عليه ، فيقول : إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار تبارك وتعالى ، وبحقنا أن ننقلب بمثل ما انقلبنا به » (١) .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

يقول ﷻ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي دعا عباد الله إليه ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ أي هو في نفسه مهتد بما يقوله فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعد ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه وينهون عن المنكر ويأتونه ؛ بل يأتمر بالخير ويترك الشر ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى ، وهذه عامة في كل من دعا إلى خير وهو في نفسه مهتد ، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك ، وقيل : المراد بها المؤذنون الصلحاء كما ثبت في صحيح مسلم : « المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة » (٢) وفي السنن مرفوعًا : « الإمام ضامن ، والمؤذن مؤتمن ، فأرشد الله الأئمة ، وغفر للمؤذنين » (٣) . وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ أنه قال : سهام المؤذنين عند الله تعالى يوم القيامة كسهام المجاهدين وهو بين الأذان والاقامة كالمتشحط في سبيل الله تعالى في دمه . قال : وقال ابن مسعود ﷺ: لوكنت مؤذنًا ما باليت أن لا أحج ولا أعتمر ولا أجاهد ، قال : وقال عمر بن الخطاب ﷺ : لوكنت مؤذنًا لكمل أمري ، وما باليت أن لا أنتصب لقيام الليل ، ولا لصيام النهار ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اللّهم اغفر للمؤذنين » ثلاثًا ، قال : فقلت : يا رسول الله تركتنا ونحن نجتلد على الأذان بالسيوف ، قال ﷺ : « كلا يا عمر ، إنه سيأتي على الناس زمان يتركون الأذان على ضعفائهم ، وتلك لحوم حرمها الله ﷻ على النار لحوم المؤذنين » (٤) قال : وقالت عائشة ﵂ : ولهم هذه الآية ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ ، قالت : فهو المؤذن إذا قال : حي على الصلاة ؛ فقد دعا الى الله . وعن أبي أمامة الباهلي ﷺ أنه قال في قوله ﷻ : ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ يعني صلاة ركعتين بين الأذان والإقامة (٥) . وعن أنس بن مالك قال : - قال الثوري : لا أراه إلا قد رفعه إلى النبي ﷺ - : « الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة » (٦) . والصحيح أن الآية عامة

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٣٣٦) .
(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (١٤) وابن ماجه في السنن (٧٢٥) والبيهقي في السنن (٤٣٣/١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٨/٢) .
(٤) ذكره الهندي في كنز العمال (٢٣١٥٨) والسيوطي في جمع الجوامع (٩٧٦٨) .
(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٩٤) وأحمد في مسنده (١١٩/٣) .
(٦) أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٩٤ ، ٣٥٩٥) والإمام أحمد في مسنده (١١٩/٣) .

في المؤذنين وفي غيرهم فأما حال نزول هذه الآية : فإنه لم يكن الأذان مشروعًا بالكلية ؛ لأنها مكية والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة حين أريه عبد الله بن عبد ربه الأنصاري ﷺ في منامه فقصه على رسول الله ﷺ فأمره أن يلقيه على بلال ﷺ فإنه أندى صوتًا كما هو مقرر في موضعه ؛ فالصحيح إذن أنها عامة ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾ أي فرق عظيم بين هذه وهذه ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أي من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه كما قال عمر ﷺ : ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . وقوله ﷻ : ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ وهو الصديق إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك حتى يصير كأنه قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك ، ثم قال ﷻ : ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ أي وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك ، فإنه يشق على النفوس ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أي ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة ، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعلوا ذلك ؛ عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم . وقوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ أي إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلطه عليك ، فإذا استعذت بالله والتجأت إليه ؛ كفه عنك ورد كيده ، وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » (١) .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ۝ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا خلقه على قدرته وأنه الذي لا نظير له على ما يشاء قادر ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ أي أنه خلق الليل بظلامه والنهار بضيائه وهما متعاقبان لا يفتران ، والشمس ونورها وإشراقها ، والقمر وضياءه وتقدير منازله في فلكه واختلاف سيره في سمائه ؛ ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار ، والجمع والشهور والأعوام ، ويتبين بذلك حلول الحقوق وأوقات العبادات والمعاملات . ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي ، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده تحت قهره وتسخيره فقال : ﴿ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ أي ولا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره ؛ فإنه لا يغفر أن يشرك به ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ أي عن إفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره ﴿ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ يعني الملائكة ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾ عن جابر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٥٠) والبيهقي في السنن (٢/٣٤) .

تسبوا الليل ولا النهار، ولا الشمس ولا القمر، ولا الرياح ؛ فإنها ترسل رحمة لقوم وعذابًا لقوم »(١).

قوله ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ أي على قدرته على إعادة الموتى ﴿ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً ﴾ أي هامدة لا نبات فيها بل هي ميتة ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ أي أخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ قال ابن عباس : الإلحاد وضع الكلام على غير مواضعه . وقال قتادة وغيره : هو الكفر والعناد . وقوله ﷻ : ﴿ لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ فيه تهديد شديد ووعيد أكيد، أي إنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي أيستوي هذا وهذا ؟ لا يستويان . ثم قال ﷻ تهديدًا للكفرة : ﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ﴾ أي من خير أو شر إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم، ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ثم قال ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ قال الضحاك والسدي وقتادة : وهو القرآن ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ أي منيع الجناب لا يرام أن يأتي أحد بمثله ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ أي ليس للبطلان إليه سبيل ؛ لأنه منزل من رب العالمين، ولهذا قال : ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ أي حكيم في أقواله وأفعاله حميد بمعنى محمود أي في جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محمودة عواقبه وغاياته . ثم قال ﷻ : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ قال قتادة والسدي وغيرهما : ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك، فكما كذبت كذبوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم، فاصبر أنت على أذى قومك لك . وهذا اختيار ابن جرير .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ أي لمن تاب إليه ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي لمن استمر على كفره وطغيانه وعناده وشقاقه ومخالفته .

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ .

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته وأحكامه في لفظه ومعناه ومع هذا لم يؤمن به المشركون، نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم لقالوا على وجه التعنت والعناد ﴿ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ أي لقالوا هلا أنزل مفصلًا بلغة العرب ولأنكروا ذلك فقالوا : أأعجمي وعربي، أي كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه ؟ وقيل : المراد بقولهم : ﴿ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ أي هل أنزل بعضها بالأعجمي وبعضها بالعربي ؟ هذا قول الحسن البصري وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام في قوله أعجمي وهو رواية عن سعيد بن جبير(٢)، وهو في

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٢١٩٢) بلفظه، والترمذي في السنن (٢٢٥٣) بنحوه .

(٢) قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿ أأعجمي ﴾ بهمزتين، وقرأ القواس ﴿ أعجمي ﴾ بهمزة واحدة على وجه الخبر لا على معنى الاستفهام، وقرأ الباقون ﴿ آعجمي ﴾ بهمزة واحدة ومد . انظر حجة القراءات ص ٦٣٧ .

التعنت والعناد أبلغ ، ثم قال ﷻ : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ أي قل يا محمد : هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ أي لا يفهمون ما فيه ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ أي لا يهتدون إلى ما فيه من البيان ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ يعني بعيد من قلوبهم . قال ابن جرير : معناه كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول .

قلت : وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ وقال الضحاك : ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ أي كُذب وأوذي ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ بتأخير الحساب إلى يوم المعاد ﴿ لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أي وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا بل كانوا شاكين فيما قالوه غير محققين لشيء كانوا فيه .

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ أي إنما يعود نفع ذلك على نفسه ﴿ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ أي إنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أي لا يعاقب أحدًا إلا بذنبه ولا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه . ثم قال جل وعلا : ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ أي لا يعلم ذلك أحد سواه كما قال محمد ﷺ - وهو سيد البشر - لجبريل عليه الصلاة والسلام - وهو من سادات الملائكة - حين سأله عن الساعة فقال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل »⁽¹⁾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ أي الجميع بعلمه ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وقد قال ﷻ : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ .

وقوله جل وعلا : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى ﴾ أي يوم القيامة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق ، أين شركائي الذين عبدتموهم معي ؟ ﴿ قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ ﴾ أي أعلمناك ﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ أي ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكا ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾ أي ذهبوا فلم ينفعوهم ﴿ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أي وظن المشركون يوم القيامة وهذا بمعنى اليقين ﴿ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أي لا محيد لهم عن عذاب الله .

﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠) ومسلم في الإيمان (١ ، ٥ ، ٧) .

يقول تعالى : لا يمل الإنسان من دعاء ربه بالخير وهو المال وصحة الجسم وغير ذلك ؛ فإن مسه الشر وهو البلاء أو الفقر ﴿ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴾ أي يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾ أي إذا أصابه خيرورزق بعد ما كان في شدة ليقولن هذا لي إني كنت أستحقه عند ربي ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ أي يكفر بقيام الساعة أي لأجل أنه خول نعمة يبطر ويفخر ويكفر ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ أي ولئن كان ثم معاد فليحسنن إلي ربي كما أحسن إلي في هذه الدار ، يتمنى على الله ﷻ مع إساءته العمل وعدم اليقين ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ أي أعرض عن الطاعة واستكبرعن الانقياد لأوامر الله ﷻ ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾ أي الشدة ﴿ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ أي يطيل المسألة في الشيء الواحد ؛ فالكلام العريض ما طال لفظه وقل معناه ، والوجيز عكسه وهو ما قل ودل .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ أي كيف ترون حالكم عند الذي أنزله على رسوله ؟ ولهذا قال ﷻ : ﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أي في كفر وعناد ومشاقة للحق ومسلك بعيد من الهدى ثم قال ﷻ : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقًّا منزلًا من عند الله على رسول الله ﷺ بدلائل خارجية ﴿ فِى ٱلْءَافَاقِ ﴾ من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان ، قال مجاهد والحسن والسدي : ودلائل في أنفسهم قالوا : وقعة بدروفتح مكة ونحوذلك من الوقائع التي حلت بهم نصر الله فيها محمدًا ﷺ وصحبه وخذل فيها الباطل وحزبه .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي كفى بالله شهيدًا على أفعال عباده وأقوالهم وهو يشهد أن محمدًا ﷺ صادق فيما أخبر به عنه كما قال : ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ ﴾ أي في شك من قيام الساعة ، ولهذا لا يتفكرون فيه ولا يعملون له ولا يحذرون منه ؛ بل هو عندهم هدر لا يعبأون به وهو كائن لا محالة وواقع لا ريب فيه . عن سعيد الأنصاري قال : إن عمر بن عبد العزيز ﵁ صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد : أيها الناس فإني لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم ، ولكن فكرت في هذا الأمر الذي أنتم إليه صائرون ، فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحمق والمكذب به هالك ، ثم نزل . ومعنى قوله ﵁ : إن المصدق به أحمق : أي لأنه لا يعمل له عمل مثله ، ولا يحذر منه ، ولا يخاف من هوله ، وهو مع ذلك مصدق به موقن

بوقوعه ، وهو مع ذلك يتمادى في لعبه وغفلته وشهواته وذنوبه ، فهو أحمق بهذا الاعتبار ، والأحمق في اللغة ضعيف العقل ، وقوله : والمكذب به هالك ، هذا واضح ، والله أعلم . ثم قال تعالى مقررًا أنه على كل شيء قدير وبكل شيء محيط ، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ أي المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته وتحت طي علمه ، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن لا إله إلا هو .

سورة الشورى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ۝ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة . وقوله ﷻ : ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي كما أنزل اليك هذا القرآن ، كذلك أنزل الكتب والصحف ، على الأنبياء قبلك . وقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي في انتقامه ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في أقواله وأفعاله .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : إن الحارث بن هشام سأل رسول الله فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحيانًا يأتيني الملك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول » قالت عائشة رضي الله عنها : فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا (١) . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي الجميع عبيد له وملك له تحت قهره وتصريفه ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ . وقوله ﷻ : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ أي فرقا من العظمة ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ كقوله جل وعلا ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ وقوله ﷻ : ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ إعلام بذلك وتنويه به ، وقوله ﷻ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ يعني المشركين ﴿ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي شهيد على أعمالهم يحصيها ويعدها عدًا ، وسيجزيهم بها أوفر الجزاء ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أي إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

يقول تعالى : وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أي واضحًا جليًا بينًا ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ ﴾ وهي مكة ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي من سائر البلاد شرقًا وغربًا ، وسميت مكة أم القرى ؛ لأنها أشرف من سائر البلاد لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها ، ومن أوجز ذلك وأدله ما قال عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحزورة في سوق مكة : « والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت » (٢) . وقوله ﷻ : ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ ﴾ وهو يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد . قوله تعالى : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي لا شك في وقوعه وأنه كائن لا محالة ، وقوله جل

---

١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٢) .

٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٥/٤) والترمذي في السنن (٣٩٢٥) والحاكم في المستدرك (٧/٣) والدارمي في السنن (٢٣٩/٢) .

وعلا : ﴿ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾ أي يغبن أهل الجنة أهل النار ، عن عبد الله بن عمرو ﭫ قال : خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال : « أتدرون ما هذان الكتابان ؟ » قلنا : لا ، إلا أن تخبرنا يا رسول الله . قال ﷺ للذي في يمينه : « هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم - ثم أجمل على آخرهم - لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدًا » - ثم قال ﷺ للذى في يساره : « هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدًا » فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فلأي شيء نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه ؟ قال رسول الله ﷺ : سددوا وقاربوا ، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل ، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار ، وإن عمل أي عمل » ثم قال ﷺ بيده فقبضها ثم قال : « فرغ ربكم ﻷ من العباد » - ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال - « فريق في الجنة - ونبذ باليسرى وقال - فريق في السعير » (١)

وعن أبي نضرة قال : إن رجلًا من أصحاب النبي ﷺ يقال له : أبو عبد الله دخل عليه أصحابه يعني يزورونه فوجدوه يبكي ، فقالوا له : ما يبكيك ؟ ألم يقل لك رسول الله ﷺ : « خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقاني ؟ » ، قال : بلى ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى قبض بيمينه قبضة وأخرى باليد الأخرى قال : هذه لهذه ، وهذه لهذه ولا أبالي » فلا أدري في أي القبضتين أنا (٢) . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي إما على الهداية أو على الضلالة ، ولكنه تعالى فاوت بينهم ، فهدى من يشاء إلى الحق ، وأضل من يشاء عنه ، وله الحكمة والحجة البالغة ، ولهذا قال ﻷ : ﴿ وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

عن ابن حجيرة أنه بلغه أن موسى عليه الصلاة والسلام قال : يا رب خلقك ، الذين خلقتهم جعلت منهم فريقًا في الجنة وفريقًا في النار ، لوما أدخلتهم كلهم الجنة ؟ فقال : يا موسى ارفع درعك ، فرفع ، قال : قد رفعت ، قال : ارفع ، فرفع ، فلم يترك شيئا ، قال : يا رب قد رفعت ، قال : ارفع ، قال : قد رفعت إلا ما لا خير فيه ، قال : كذلك أدخل خلقي كلهم الجنة إلا ما لا خير فيه (٣) .

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله ومخبرًا أنه هو الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده ، فإنه هو القادرعلى إحياء الموتى وهو على كل شيء قدير . ثم قال ﻷ : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي مهما اختلفتم فيه من الأمور وهذا عامٌّ في جميع الأشياء ﴿ فَحُكْمُهُۥٓ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٧/٢) والترمذي في السنن (٢١٤١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٦/٤) والألباني في الصحيحة (٤٧) .
(٣) ذكره الطبري في تفسيره (١٥/٢٥) .

إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي هو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيه ﷺ ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ أي الحاكم في كل شيء ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي أرجع في جميع الأمور. وقوله ﷻ : ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي خالقهما وما بينهما ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أي من جنسكم وشكلكم منة عليكم وتفضلًا جعل من جنسكم ذكرًا وأنثى ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ﴾ أي وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج . وقوله تبارك وتعالى ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ أي يخلقكم فيه أي في ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذرؤكم فيه ذكورًا وإناثًا خلقًا من بعد خلق وجيلًا بعد جيل ، ونسلًا بعد نسل من الناس والأنعام ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ أي ليس كخالق الأزواج كلها شيء ؛ لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ المتصرف الحاكم فيهما ﴿ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء ، وله الحكمة والعدل التام ﴿ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟
ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾
وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ
ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ .

يقول تعالى لهذه الأمة أن أول الرسل بعد آدم عليه السلام وهو نوح عليه السلام وآخرهم وهو محمد ﷺ . ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم : وهم إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم . وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة والدين والذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال ﷻ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ وفي الحديث : « نحن معشر الأنبياء أولاد علات ، ديننا واحد »[1] أي القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ أي وصى الله تعالى جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالائتلاف والجماعة . ونهاهم عن الافتراق والاختلاف . وقوله ﷻ : ﴿ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ أي شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد . ثم قال ﷻ : ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ أي هو الذي يقدر الهداية لمن يستحقها ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ أي إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم وقيام الحجة عليهم وما حملهم على ذلك إلا البغي والعناد والمشاقة . ثم قال ﷻ : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي لولا الكلمة السابقة من الله تعالى بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد لعجل عليهم العقوبة في الدنيا سريعًا . وقوله جلت عظمتها : ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ يعني الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب للحق ﴿ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أي ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا برهان ، وهم في حيرة من أمرهم وشك مريب وشقاق بعيد .

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ

(١) سبق تخريجه .

بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات ، كل منها منفصلة عن التي قبلها حكم برأسها ، قالوا : ولا نظير لها سوى آية الكرسي ، فإنها أيضًا عشرة فصول كهذه .

وقوله : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ﴾ أي فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك ، أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولي العزم وغيرهم فادع الناس إليه . وقوله ﷻ : ﴿ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ أي واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله تعالى كما أمركم الله ﷻ ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ يعني المشركين فيما اختلقوه وكذبوه وافتروه من عبادة الأوثان .

وقوله جل وعلا : ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾ أي صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء ، لا نفرق بين أحد منهم . وقوله : ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ أي في الحكم كما أمرني الله ، وقوله جلت عظمته : ﴿ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ أي هو المعبود لا إله غيره ، فنحن نقر بذلك اختيارًا وأنتم وإن لم تفعلوه اختيارًا ؛ فله يسجد من في العالمين طوعًا واجبارًا . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ أي نحن برآء منكم ، وقوله تعالى : ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ قال مجاهد : أي لا خصومة : وقوله ﷻ : ﴿ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ أي يوم القيامة ، وقوله جل وعلا : ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي المرجع والمآب يوم الحساب .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ .

يقول تعالى متوعدًا الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ ﴾ أي يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي باطلة عند الله ﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ أي منه ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أي يوم القيامة ، وقال قتادة : هم اليهود والنصارى ، قالوا لهم : ديننا خيرمن دينكم ونبينا قبل نبيكم ، ونحن خيرمنكم وأولى بالله منكم ، وقد كذبوا في ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ يعنى الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ وهو العدل والإنصاف ، قاله مجاهد وقتادة ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ فيه ترغيب فيها وترهيب منها وتزهيد في الدنيا .

وقوله ﷻ : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ أي : يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، وإنما يقولون ذلك تكذيبًا واستبعادًا وكفرًا وعنادًا ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ أي خائفون وجلون من وقوعها ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾ أي كائنة لا محالة ؛ فهم مستعدون لها عاملون من أجلها . وقد روي أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوري وهو في بعض أسفاره ، فناداه فقال : يا محمد ، فقال له رسول الله ﷺ نحوًا من صوته « هاؤم » ، فقال له : متى الساعة ؟ فقال رسول الله ﷺ ويحك إنها كائنة فما أعددت لها ؟ » فقال : حب الله ورسوله . فقال ﷺ : « أنت مع من

أحببت »[١] ، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة بل أمره بالاستعداد لها . وقوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ ﴾ أي يجادلون في وجودها ويدفعون وقوعها ﴿ لَفِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴾ أي في جهل بين ؛ لأن الذي خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى ؟ كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ .

﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم عن آخرهم لا ينسى أحدا منهم ، سواء في رزقه البروالفاجر ، وقوله جل وعلا : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ أي يوسع على من يشاء ﴿ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي لا يعجزه شيء ثم قال ﷻ ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي عمل الآخرة ﴿ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ أي نقويه ونعينه على ما هو بصدده ونكثر نماءه ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ أي ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا وليس له إلى الآخرة هم البتة بالكلية ؛ حرمه الله الآخرة ؛ والدنيا إن شاء أعطاه منها ، وإن لم يشأ لم يحصل لا هذه ولا هذه ، وفاز الساعي بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة ، والدليل على هذا أن هذه الآية ههنا مقيدة بالآية التي في سبحان وهي قوله تبارك وتعالى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ .

عن أبي بن كعب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا ، لم يكن له في الآخرة من نصيب »[٢] .

وقوله جل وعلا : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ أي هم لايتبعون ماشرع الله لك من الدين القويم ، بل يتبعون ماشرع لهم شياطينهم من الجن والإنس من تحريم ماحرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالات الباطلة التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم من التحليل والتحريم والعبادات الباطلة والأموال الفاسدة ، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال : «رأيت عمرو بن لحي بن قمعة يجر قصبه في النار » ؛ لأنه أول من سيب السوائب[٣] . وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة ، وهو أول من فعل هذه الأشياء ، وهو

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٦٧) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٤/٥) والحاكم في المستدرك (٤٤٤/٤) والمنذري في الترغيب والترهيب (٦٢/١) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٥) وأحمد في مسنده (٢٧٥/٢) .

الذي حمل قريشًا على عبادة الأصنام ، لعنه الله وقبحه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي لعوجلوا بالعقوبة لولا ماتقدم من الإنظار إلى يوم المعاد ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي شديد موجع في جهنم وبئس المصير . ثم قال تعالى : ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ ﴾ أي في عرصات القيامة ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾ أي الذي يخافون منه واقع بهم لامحالة هذا حالهم يوم معادهم وهم في هذا الخوف والوجل ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ فأين هذا من هذا ؟ أي أين من هو في العرصات في الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه ممن هو في روضات الجنات فيما يشاء من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومناظر ومناكح وملاذ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ أي الفوز العظيم والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة .

﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ .

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنات ، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي هذا حاصل لهم كائن لامحالة ببشارة الله تعالى لهم به . وقوله ﷻ : ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ أي قل يامحمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالا تعطونيه ، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني وتذروني أبلغ رسالات ربي إن لم تنصروني ، فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة . عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ فقال سعيد بن جبير : قربى آل محمد ، فقال ابن عباس : عجلت ، إن النبي ﷺ : لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ، فقال : « إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة »(١) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « لا أسألكم على ما آتيتكم من البينات والهدى أجرًا إلا أن تودوا الله تعالى ، وأن تقربوا إليه بطاعته »(٢) .

وعن أبي الديلم قال : لما جيء بعلي بن الحسين رضي الله عنه أسيرًا فأقيم على درج دمشق ، قام رجل من أهل الشام فقال : الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم وقطع قرن الفتنة ، فقال له علي بن الحسين رضي الله عنه : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم ، قال : أقرأت آل حم ؟ قال : قرأت القرآن ولم أقرأ آل حم ؟ قال : ماقرأت ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ قال : وإنكم لأنتم هم ؟ قال : نعم . عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قالت الأنصار : فعلنا وفعلنا ، وكأنهم فخروا ، فقال ابن عباس أو العباس رضي الله عنهما - شك عبد السلام - : لنا الفضل عليكم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتاهم في مجالسهم فقال : « يا معشر الأنصار ، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بي ؟ » قالوا : بلى يارسول الله ، قال ﷺ : ألم

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨/٨) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٨/١) والحاكم في المستدرك (٤٤٤/٢) والطبراني في الكبير (٩١/١١) .

تكونوا ضلالًا فهداكم الله بي ؟ » قالوا : بلى يارسول الله ، قال ﷺ : « أفلا تجيبوني ؟! » قالوا : ما نقول يارسول الله ؟ قال : « ألا تقولون ألم يخرجك قومك فآويناك ، أوَلم يكذبوك فصدقناك ؟ أوَلم يخذلوك فنصرناك ؟ » قال : فمازال ﷺ يقول حتى جثوا على الركب ، وقالوا : أموالنا في أيدينا لله ولرسوله ، قال : فنزلت ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ (١) .

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغدير خم : « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ، وإنهما لم يفترقا حتى يردا علي الحوض » (٢) . وعن العباس بن عبد المطلب ﷺ قال : قلت : يا رسول الله ، إن قريشًا إذا لقي بعضهم بعضًا لقوهم ببشر حسن ، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها ، قال : فغضب النبي ﷺ غضبًا شديدًا وقالَ : « والذي نفسي بيده لايدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله » (٣) .

عن ابن عمر ﷺ عن أبي بكر - هو الصديق - ﷺ قال : ارقبوا محمدًا ﷺ في أهل بيته (٤) . وفي الصحيح : أن الصديق ﷺ قال لعلي ﷺ : والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي (٥) . وقال عمر بن الخطاب للعباس ﷺ: والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم ؛ لأن اسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب . فحال الشيخين ﷺ هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك ، ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين ﷺ وعن سائر الصحابة أجمعين .

وعن يزيد بن حيان قال : انطلقت أنا وحصين بن ميسرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم ﷺ ، فلما جلسنا إليه قال حصين : لقد لقيت يازيد خيرًا كثيرًا ، رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت معه ، لقد رأيت يا زيد خيرًا كثيرًا ، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ ، فقال : يا ابن اخي لقد كبرسني وقدم عهدي ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ فما حدثتكم فاقبلوه ، وما لا فلا تكلفونيه ، ثم قال ﷺ : قام رسول الله ﷺ يومًا خطيبًا فينا بماء يدعى خمًّا بين مكة والمدينة ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه وذكر ووعظ ، ثم قال ﷺ : « أما بعد ، أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ، وإني تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله ورغب فيه ، وقال ﷺ : « وأهل بيتي ، أذكّركم الله في أهل بيتي ، أذكّركم الله في أهل بيتي فقال له حصين : ومن أهل بيته يازيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : إن نساءه لسن من أهل بيته » ، ولكن أهل بيته من حرم عليه الصدقة بعده ، قال : ومن هم ؟ قال : هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس ﷺ ، قال : أكلّ هؤلاء حرم عليه الصدقة ؟ قال : نعم (٦) .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٣٣/٢٥) .
(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٣٦) وأحمد في مسنده (١٧/٣) والحاكم في المستدرك (١٤٨/٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٧/١) والترمذي في السنن (٣٧٥٨) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٨/١) .
(٥) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٣٦) وأحمد في مسنده (٣٦٧/٤) والبيهقي في السنن (١٤٨/٢) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٦/٤) .

وقوله ﷻ : ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ﴾ أي ومن يعمل حسنة نزد له فيها حسنًا أي أجرًا وثوابًا ، وقال بعض السلف : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ أي يغفر الكثير من السيئات ، ويكثر القليل من الحسنات ، فيستر ويغفر ويضاعف فيشكر ، وقوله جل وعلا : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ أي لو افتريت عليه كذبًا كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ أي يطبع على قلبك ، وسلبك ماكان آتاك من القرآن .

وقوله جلت عظمته : ﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ ﴾ ليس معطوفًا على قوله ﴿ يَخْتِمْ ﴾ فيكون مجزومًا بل هو مرفوع على الابتداء ، قاله ابن جرير ، قال : وحذفت من كتابته الواو في رسم مصحف الإمام ، كما حذفت في قوله : ﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ . وقوله ﷻ : ﴿ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ﴾ معطوف على ﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ ﴾ أي يحققه ويثبته ويبينه ويوضحه بكلماته ، أي بحججه وبراهينه ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي بما تكنه الضمائر وتنطوي عليه السرائر .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًا على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه : أنه من كرمه وحلمه أن يعفو ويصفح ويستر ويغفر ، وقد ثبت عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لله تعالى أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللَّهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » (١) .

وقوله ﷻ : ﴿ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أي يقبل التوبة في المستقبل ، ويعفو عن السيئات في الماضي ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ أي هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم ومع هذا يتوب على من تاب إليه .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ قال ابن جرير : معناه يستجيب لهم الدعاء لأنفسهم ولأصحابهم وإخوانهم ، وحكاه عن بعض النحاة ، عن سلمة بن سبرة قال : خطبنا معاذ ﷺ بالشام ، فقال : أنتم المؤمنون وأنتم أهل الجنة ، والله إني لأرجو أن يدخل الله تعالى من تسبون من فارس والروم الجنة ؛ وذلك بأن أحدكم إذا عمل له - يعني أحدهم عملًا - قال : أحسنت رحمك الله ، أحسنت بارك الله فيك ، ثم قرأ ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ .

وقوله ﷻ : ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ لما ذكر المؤمنين ومالهم من الثواب الجزيل ، ذكر الكافرين ومالهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجع المؤلم يوم معادهم وحسابهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشرًا وبطرًا . وقال قتادة : كان يقال خير

(١) أخرجه مسلم في التوبة (٢) وأحمد في مسنده (٢/٣١٦) والبيهقي في السنن (١٠/١٨٨) .

العيش مالا يلهيك ولايطغيك . وقوله ﷻ : ﴿ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾ أي ولكن يرزقهم من الرزق مايختاره مما فيه صلاحهم وهو أعلم بذلك ، فيغني من يستحق الغنى ويفقر من يستحق الفقر ، كما جاء في الحديث المروي : « إن من عبادي من لايصلحه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادي من لايصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ أي من بعد إياس الناس من نزول المطر ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه . وقوله ﷻ : ﴿ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥ ﴾ أي يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية . قال قتادة : ذكر لنا أن رجلًا قال لعمر بن الخطاب ﷺ : يا أمير المؤمنين قحط المطر وقنط الناس . فقال عمر ﷺ : مطرتم ، ثم قرأ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ أي هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم ، وهو المحمود العاقبة في جميع مايقدره ويفعله .

﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا ﴾ أي ذرأ فيهما أي في السموات والأرض ﴿ مِن دَآبَّةٖۚ ﴾ وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم وقد فرقهم في أرجاء أقطار السموات والأرض ﴿ وَهُوَ ﴾ ، مع هذا كله ﴿ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ﴾ أي يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق .

وقوله ﷻ : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ أي مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما هي عن سيئات تقدمت لكم ﴿ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ أي من السيئات ، فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ ﴾ وفي الحديث الصحيح : « والذي نفسي بيده ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ؛ إلا كفر الله عنه بها من خطاياه حتى الشوكة يشاكها » (٢) .

وعن عائشة ﵂ قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له مايكفرها ابتلاه الله تعالى بالحزن ليكفرها » (٣) .

وعن الضحاك قال : ما نعلم أحدًا حفظ القرآن ثم نسيه إلا بذنب ، ثم قرأ الضحاك ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ ثم يقول الضحاك : وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن .

---

(١) ذكره ابن أبي حاتم في علل الحديث ٣٢/١ .

(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٤١) ومسلم في البر (٥٢) وأحمد في مسنده (٣٠٣/٢) والوصب الوجع اللازم الثابت ، والنصب : التعب .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٧/٦) .

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ۝ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ۝ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ .

يقول تعالى ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه تسخيره البحر لتجري فيه الفلك بأمره كالجبال في البر ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ ﴾ أي التي تسيرفي البحر بالسفن لوشاء لسكنها حتى لا تحرك السفن بل تبقى راكدة لا تجيء . ولا تذهب ، بل واقفة على ظهره ، أي على وجه الماء ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أي في الشدائد ﴿ شَكُورٍ ﴾ أي إن في تسخيره البحر وإجرائه في الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم لدلالات على نعمه تعالى على خلقه ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أي في الشدائد ﴿ شَكُورٍ ﴾ في الرخاء .

وقوله ﷻ ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ ﴾ أي ولو شاء لأهلك السفن وغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون فيها ﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ أي من ذنوبهم ، ولو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر .

وقال بعض علماء التفسير : معنى قوله تعالى : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ ﴾ أي لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم فصرفتها ذات اليمين أو ذات الشمال آبقة لا تسير على طريق ولا إلى جهة مقصد ، وهذا القول يتضمن هلاكها وهو مناسب للأول ، وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح فوقفت ، أو لقوّاه فشردت وأبقت وهلكت ، ولكن من لطفه ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة كما يرسل المطر بقدر الكفاية ، ولو أنزله كثيرًا جدًّا لهدم البنيان ، أو قليلًا لما أنبت الزرع والثمار حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سيحًا من أرض أخرى غيرها ؛ لأنهم لا يحتاجون إلى مطر ، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم وأسقط جدرانهم . وقوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أي لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا فإنهم مقهورون بقدرتنا .

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى محقرًا لشأن الحياة الدنيا وزينتها وما فيها من الزهرة والنعيم الفاني بقوله تعالى : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به فإنما هو متاع الحياة الدنيا وهي دار دنيئة فانية زائلة لا محالة ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ أي وثواب اللَّه تعالى خير من الدنيا وهو باق سرمدي ، فلا تقدموا الفاني على الباقي ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي للذين صبروا على ترك الملاذ في الدنيا ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات وترك المحرمات .

ثم قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أي سجيتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس ليس سجيتهم الانتقام من الناس . وقد ثبت في الصحيح أن رسول اللَّه ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات اللَّه (١) .

وقوله ﷻ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ ﴾ أي اتبعوا رسله وأطاعوا أمره واجتنبوا زجره ﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وهي أعظم العبادات للَّه ﷻ ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ أي لا يبرمون أمرا حتى يتشاوروا فيه

(١) أخرجه البخاري في المحاربين (٦٨٣٥) .

ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها ولهذا كان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها، ليطيب بذلك قلوبهم، وهكذا لما حضرت عمرَ بن الخطاب ﵁ الوفاةُ حين طعن جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر وهم: عثمان وعلي وطلحة والزبيروسعد وعبد الرحمن بن عوف ﵃ فاجتمع رأي الصحابة كلهم ﵃ على تقديم عثمان عليهم ﵁ ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ وذلك بالإحسان إلى خلق الله الأقرب إليهم منهم فالأقرب.

وقوله ﷿: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ أي فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، فإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم مَنَّ عليهم مع قدرته على الانتقام، وكذلك عفوه ﷺ عن غورث بن الحارث الذي أراد الفتك به حين اخترط سيفه وهو نائم فاستيقظ ﷺ وهو في يده مصلتًا فانتهره، فوضعه من يده وأخذ رسول الله ﷺ السيف في يده ودعا أصحابه ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل وعفا عنه (١)، وكذلك عفا ﷺ عن لبيد ابن الأعصم الذي سحره ﵇، مع قدرته عليه، وكذلك عفوه ﷺ عن المرأة اليهودية - وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخيبري الذي قتله محمود بن سلمة - التي سمت الذراع يوم خيبر - فأخبره الذراع بذلك فدعاها فاعترفت فقال ﷺ: «ما حملك على ذلك؟» قالت: أردت إن كنت نبيًّا لم يضرك، وإن لم تكن نبيًّا استرحنا منك، فأطلقها عليه الصلاة والسلام ولكن لما مات منه بشر بن البراء ﵁ قتلها به (٢)، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جدًّا.

﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤٢ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾.

قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ كقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ فشرع العدل وهو القصاص وندب إلى الفضل وهو العفو ولهذا قال: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي لا يضيع ذلك عند الله كما صح ذلك في الحديث: «وما زاد الله تعالى عبدًا بعفو إلا عزًّا» (٣) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي المعتدين وهو المبتدئ بالسيئة.

ثم قال جل وعلا: ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ أي ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم. عن عروة، قال: قالت عائشة ﵂: ما علمت حتى دخلت علي زينب بغير إذن وهي غضبى، ثم قالت لرسول الله ﷺ: حسبك إذا قلبت لك ابنة أبي بكر درعها، ثم أقبلت

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣١١) والبيهقي في السنن (٦/٣١٩).
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٠٥) والحاكم في المستدرك (١/٤٨٣) وابن ماجه في السنن (٢٠٦٥).
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٠٢٩) ومالك في الموطأ (١٢) وأحمد في مسنده (٢/٣٨٦).

علي فأعرضت عنها ، حتى قال النبي ﷺ : « دونك فانتصري » فأقبلت عليها حتى رأيت ريقها قد يبس في فمها ماترد علي شيئًا ، فرأيت النبي ﷺ يتهلل وجهه [(١)] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » [(٢)] . وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ ﴾ أي إنما الحرج والعنت ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ أي يبدءون الناس بالظلم ، كما جاء في الحديث الصحيح : « المستبان ما قالا ، فعلى البادئ ما لم يعتد المظلوم » [(٣)] ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي شديد موجع .

ثم إن الله تعالى ، لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص ، قال نادبًا إلى العفو والصفح : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ أي صبر على الأذى ، وستر السيئة ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ قال سعيد بن جبير : يعني لمن حق الأمور التي أمر الله تعالى بها ، أي لمن الأمور المشكورة ، والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل ، وثناء جميل .

قال الفضيل بن عياض : إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلًا ، فقل : يا أخي اعف عنه ؛ فإن العفو أقرب للتقوى ، فإن قال : لا يحتمل قلبي العفو ، ولكن أنتصر كما أمرني الله ﷻ ، فقل له : إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلى باب العفو ؛ فإنه باب واسع ؛ فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله ، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل ، وصاحب الانتصار يقلب الأمور .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن رجلًا شتم أبا بكر رضي الله عنه والنبي ﷺ جالس ، فجعل النبي ﷺ يعجب ويتبسم ، فلما أكثر رد عليه بعض قوله ، فغضب النبي وقام ، فلحقه أبو بكر رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ، إنه كان يشتمني وأنت جالس ، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت ، قال : « إنه كان معك ملك يرد عنك ، فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان ، فلم أكن لأقعد مع الشيطان - ثم قال : « يا أبا بكر ، ثلاث كلهن حق : ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله ؛ إلا أعزه الله تعالى بها ونصره ، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة ؛ إلا زاده الله بها كثرة ، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة ؛ إلا زاده الله ﷻ بها قلة » [(٤)] .

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن نفسه الكريمة أنه ما شاء كان ولاراد له ، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له ، وأنه من هداه فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، ثم قال ﷻ مخبرًا عن الظالمين وهم المشركون بالله ﴿ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ﴾ أي يوم القيامة تمنوا الرجعة إلى الدنيا ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٩٣/٦) وابن ماجه في السنن (١٩٨١) والألباني في الصحيحة (١٨٦٢) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٥٢) .
(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٨) وأبو داود في السنن (٤٨٩٤) وأحمد في مسنده (٢٣٥/٢) والترمذي في السنن (١٩٨١) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٦/٢) وأبو داود في السنن (٤٨٩٦) .

سَبِيلٍ ﴾ . وقوله ﷻ : ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أي على النار ﴿ خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ أي الذي قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله تعالى ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ قال مجاهد : يعني ذليل ، أي ينظرون إليها مسارقة خوفًا منها ، والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة ، وما هو أعظم مما في نفوسهم ، أجارنا الله من ذلك ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أي يقولون يوم القيامة ﴿ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ أي الخسار الأكبر ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي ذهب بهم إلى النار فعدموا لذتهم في دار الأبد وخسروا أنفسهم ، وفرق بينهم وبين أحبابهم وأصحابهم وأهاليهم وقراباتهم فخسروهم ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ أي دائم سرمدي أبدي لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴾ أي ليس له خلاص .

﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾
فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ .

لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة ، حذر منه وأمر بالاستعداد له ، فقال ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ أي إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون ، وليس له دافع ولامانع . وقوله ﷻ : ﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ أي ليس لكم حصن تتحصنون فيه ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه فتغيبون عن بصره تبارك وتعالى ، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته ، فلا ملجأ منه إلا إليه . وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ ﴾ يعني المشركين ﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أي لست عليهم بمسيطر ، وقال جل وعلا : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ أي إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم .

ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ﴾ أي إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ ﴾ يعني الناس ﴿ سَيِّئَةٌۢ ﴾ أي جدب ونقمة وبلاء وشدة ﴿ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ أي يجحد ما تقدم من النعم ولا يعرف إلا الساعة الراهنة ، فإن أصابته نعمة أشر وبطر ، وإن أصابته محنة يئس وقنط ، فالمؤمن كما قال ﷺ : « إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن »[1] .

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ
يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ .

يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، وأنه يخلق ما يشاء ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا ﴾ أي يرزقه البنات فقط . قال البغوي : ومنهم لوط عليه الصلاة والسلام . ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ أي يرزقه البنين فقط ، قال البغوي : كإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٦٤) وأحمد في مسنده (٣٣٢/٤) .

لم يولد له أنثى ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾ أي ويعطي لمن يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى أي من هذا وهذا ، قال البغوي : كمحمد ﷺ ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ أي لا يولد له . قال البغوي : كيحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، فجعل الناس أربعة أقسام : منهم من يعطيه البنات ، ومنهم من يعطيه البنين ، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورًا وإناثًا ، ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيما لا نسل له ولا ولد له ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أي بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام ﴿ قَدِيرٌ ﴾ أي على من يشاء من تفاوت الناس في ذلك ، وهذا المقام شبيه بقوله تبارك وتعالى عن عيسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي دلالة لهم على قدرته تعالى وتقدس حيث خلق الخلق على أربعة أقسام : فآدم عليه الصلاة والسلام مخلوق من تراب لا من ذكر ولا أنثى ، وحواء عليها السلام مخلوقة من ذكر بلا أنثى ، وسائر الخلق سوى عيسى عليه السلام من ذكر وأنثى ، وعيسى عليه السلام من أنثى بلا ذكر ، فتمت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ فهذا المقام في الآباء والمقام الأول في الأبناء وكل منهما أربعة أقسام ، فسبحان العليم القدير .

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٥١ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ .

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عز وجل ، وهو أنه تبارك وتعالى تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئًا لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل ، كما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن روح القدس نفث في روعي أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » (١) . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام ؛ فإنه سأل الرؤية بعد التكليم فحجب عنها .

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله رضي الله عنهما : « ما كلم الله أحدًا إلا من وراء حجاب ، وإنه كلم أباك كفاحًا » (٢) ، وكان قد قتل يوم أحد ، ولكن هذا في عالم البرزخ ، والآية إنما هي في الدار الدنيا . وقوله عز وجل : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ كما ينزل جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ فهو علي عليم خبير حكيم .

وقوله عز وجل : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ يعني القرآن ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ أي على التفصيل الذي شرع لك في القرآن ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ ﴾ أي القرآن ﴿ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ أي يا محمد ﴿ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو الخلق القويم ، ثم فسره بقوله تعالى : ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ أي وشرعه الذي أمر به الله ﴿ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما والحاكم الذي لا معقب لحكمه ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ أي ترجع الأمور فيفصلها ، ويحكم فيها سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا .

---

(١) ذكره البغوي في شرح السنة (٣٠٤/١٤) والمراد بروح القدس : جبريل عليه السلام .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠١٠) وابن ماجه في السنن (١٩٠) بنحوه .

سورة الزخرف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۞ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۞ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۞ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۞ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۞ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۞ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ حمٓ ۞ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أي البين الواضح الجلي المعاني والألفاظ ؛ لأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ ﴾ أي أنزلناه ﴿ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ أي بلغة العرب فصيحًا واضحًا ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي تفهمونه وتتدبرونه . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ بين شرفه في الملأ الأعلى ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ أي القرآن ﴿ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي اللوح المحفوظ ﴿ لَدَيْنَا ﴾ أي عندنا ، ﴿ لَعَلِىٌّ ﴾ ، أي ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أي محكم بريء من اللبس والزيغ . وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۞ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۞ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۞ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۞ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۞ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۞ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۞ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴾ ولهذا استنبط العلماء ﷺ من هاتين الآيتين ان المحدث لايمس المصحف كما ورد به الحديث إن صح ، لأن الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن في الملأ الأعلى ، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى ؛ لأنه نزل عليهم ، وخطابه متوجه إليهم ، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم ، والانقياد له بالقبول والتسليم ، لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ .

وقوله ﷻ : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ اختلف المفسرون في معناها ، فقيل : معناها أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به ، قاله ابن عباس ومجاهد والسدي واختاره ابن جرير ، وقال قتادة : والله لو أن هذا القرآن رفع حين ردته أوائل هذه الأمة لهلكوا ، ولكن الله تعالى عاد بعائدته ورحمته فكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة أو ماشاء الله من ذلك ، وقول قتادة لطيف المعنى جدًا ، وحاصله أنه يقول في معناه : أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لايترك دعاءهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم وهو القرآن ، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه بل أمر به ليهتدي به من قدر هدايته ، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته .

ثم قال جل وعلا مسليًا لنبيه ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه وآمرًا له بالصبر عليهم ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي في شيع الأولين ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي يكذبونه ويسخرون به . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ أي فأهلكنا المكذبين بالرسل ، وقد كانوا أشد بطشًا من هؤلاء المكذبين لك يا محمد .

وقوله ﷻ : ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ قال مجاهد : سنتهم . وقال قتادة : عقوبتهم .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا
وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ
تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا
نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

يقول تعالى : ولئن سألت يامحمد هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿ مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ أي ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لاشريك له ، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد . ثم قال تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ أي فراشًا قرارًا ثابتة تسيرون عليها وتقومون وتنامون وتنصرفون ، مع أنها مخلوقة على تيار الماء ، لكنه أرساها بالجبال لئلا تميد هكذا ولاهكذا ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أي طرقًا بين الجبال والأودية ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي في سيركم من بلد الى بلد ، وقطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ أي بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أي أرضًا ميتة ، فلما جاءها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ثم نبه تعالى بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها ، فقال : ﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ ثم قال ﷻ : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ أي مما تنبت الأرض من سائر الأصناف من نبات وزروع وثمار وأزاهير وغير ذلك . ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ ﴾ أي السفن ﴿ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ أي ذللها لكم وسخرها ويسرها لأكلكم لحومها وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ﴾ أي لتستووا متمكنين مرتفعين ﴿ عَلَىٰ ظُهُورِهِ ﴾ أي على ظهور هذا الجنس ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ ﴾ أي فيما سخر لكم ﴿ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ أي مقاومين ، ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه . قال ابن عباس وقتادة والسدي : مقرنين ، أي مطيقين ﴿ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ أي لصائرون إليه بعد مماتنا وإليه سيرنا الأكبر ، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة ، كما نبه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي في قوله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ وباللباس الدنيوي على الأخروي في قوله تعالى : ﴿ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ .

ذكر الاحاديث الواردة عند ركوب الدابة : عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، قال : إن رسول الله ﷺ أردفه على دابته ، فلما استوى عليها كبر رسول الله ﷺ ثلاثًا ، وحمد ثلاثًا ، وسبح ثلاثا ، وهلل واحدة . ، ثم استلقى عليه وضحك ، ثم أقبل عليه فقال : « ما من امرئ مسلم يركب دابة فيصنع كما صنعت ؛ إلا أقبل الله ﷻ عليه ، فضحك إليه كما ضحكت اليك » (١) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : إن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثًا ثم قال : « ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ ثم يقول : « اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتعوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هون علينا السفر واطو لنا البعيد ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٠/١) .

اللّهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل ، اللّهم اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا » .
وكان ﷺ إذا رجع الى أهله قال : « آيبون تائبون إن شاء اللّه عابدون لربنا حامدون [١] » .

عن أبي لاس الخزاعي قال : حملنا رسول اللّه ﷺ على إبل من إبل الصدقة إلى الحج ، فقلنا : يا رسول اللّه ما نرى أن تحملنا هذه ، فقال له ﷺ : « ما من بعير إلا في ذروته شيطان ، فاذكروا اسم اللّه عليها إذا ركبتموها كما آمركم ، ثم امتهنوها لأنفسكم فإنما يحمل اللّه ﷻ » [٢] .

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۞ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ۞ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۞ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ۞ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين فيما افتروه وكذبوه في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها للّه تعالى ، وكذلك جعلوا له في قسمي البنات والبنين أخسهما وأردأهما وهو البنات ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۞ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ وقال جل وعلا ههنا ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ ثم قال جل وعلا : ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴾وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار . ثم ذكر تمام الإنكار ، فقال جلت عظمته : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه للّه من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة ، وتعلوه كآبة من سوء مابشر به ، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك ، يقول تبارك وتعالى : فكيف تأنفون أنتم من ذلك وتنسبونه إلى اللّه ﷻ . ثم قال ﷻ : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أي المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلي منذ تكون طفلة ، وإذا خاصمت فلا عبارة لها ، بل هي عاجزة عيية ، أو من يكون هكذا ينسب إلى جناب اللّه العظيم ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ﴾ أي اعتقدوا فيهم ذلك ، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك فقال : ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ أي شاهدوه وقد خلقهم اللّه إناثًا ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ ﴾ أي بذلك ﴿ وَيُسْأَلُونَ ﴾ عن ذلك يوم القيامة ، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ﴾ أي لو أراد اللّه لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام التي هي على صور الملائكة التي هي بنات اللّه ؛ فإنه عالم بذلك ، وهو يقررنا عليه ، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ :

أحدها : جعلهم للّه تعالى ولدًا ، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوًّا كبيرًا .

الثاني : دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا .

الثالث : عبادتهم لهم مع ذلك كله بلا دليل ولا برهان ولا إذن من اللّه ﷻ ، بل بمجرد الآراء والأهواء والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء والخبط في الجاهلية الجهلاء .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٤٤٧) وأبو داود في السنن (٢٥٩٩) والدارمي في السنن (٢٨٧/٢) وأحمد في مسنده (١٤٤/٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢١/٤) والحاكم في المستدرك (٤٤٤/١) وابن خزيمة في صحيحه (٢٥٤٣) .

الرابع : احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قدرًا ، وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلًا كبيرًا ؛ فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار ؛ فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له ، وينهى عن عبادة ما سواه قال تعالى : ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ وقال جل وعلا في هذه الآية بعد أن ذكر حجتهم هذه ﴿ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي بصحة ما قالوه واحتجوا به ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أي يكذبون ويتقولون ، وقال مجاهد يعني مايعلمون قدرة الله تبارك وتعالى على ذلك .

﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ۝ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۝ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على المشركين في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ أي من قبل شركهم ﴿ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ أي فيما هم فيه أي ليس الأمر كذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ أي ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد بأنهم كانوا على أمة ، والمراد بها الدين ههنا . وقولهم ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم ﴾ أي وراءهم ﴿ مُّهْتَدُونَ ﴾ دعوى منهم بلا دليل . ثم بين جل وعلا أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل ، تشابهت قلوبهم فقالوا مثل مقالتهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ ثم قال ﷺ : ﴿ قَٰلَ ﴾ أي يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ أي ولو علموا وتيقنوا صحة ماجئتهم به لما انقادوا لذلك لسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله . قال الله تعالى : ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أي من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب كما فصله تبارك وتعالى في قصصهم ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي كيف بادوا وهلكوا وكيف نجى الله المؤمنين .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء ووالد من بعث بعده من الأنبياء ، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها ، أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان ، فقال : ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ

مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ ﴾ أي هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان ، وهي لا إله إلا الله ، أي جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله تعالى من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ أي إليها .

قال عكرمة ومجاهد والضحاك وغيرهم في قوله ﷻ : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ ﴾ يعني لا إله إلا الله لا يزال في ذريته من يقولها ، ثم قال جل وعلا : ﴿ بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يعني المشركين ﴿ وَءَابَآءَهُمۡ ﴾ أي : فتطاول عليهم العمر في ضلالهم ﴿ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ﴾ أي بين الرسالة والنذارة ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ أي كابروه وعاندوه ودفعوا بالصدور والراح كفرًا وحسدًا وبغيًا ﴿ وَقَالُواْ ﴾ أي كالمعترضين على الذي أنزله تعالى وتقدس ﴿ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾ أي هل كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القريتين ؟ يعنون مكة والطائف ، قال ابن عباس وغير واحد : إنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي . وعن مجاهد : يعنون عمير بن عمرو بن مسعود الثقفي . وعن ابن عباس : جبارًا من جبابرة قريش ، وعنه أنهم يعنون الوليد بن المغيرة وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي ، وعن مجاهد : يعنون عتبة بن ربيعة بمكة وابن عبد ياليل بالطائف ، والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان . قال الله تبارك وتعالى رادًّا عليهم في هذا الاعتراض : ﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ ﴾ أي ليس الأمر مردودًا إليهم . بل إلى الله ﷻ ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته ؛ فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلبًا ونفسًا . وأشرفهم بيتًا ، وأطهرهم أصلًا .

ثم قال ﷻ مبينًا أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة ، فقال : ﴿ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ ﴾ الآية . وقوله جلت عظمته ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ ﴾ قيل : معناه ليسخر بعضهم بعضًا في الأعمال لاحتياج هذا إلى هذا ، وهذا إلى هذا . ثم قال ﷻ : ﴿ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ أي رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا ، ثم قال ﷻ : ﴿ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ أي لولا أن يعتقد كثيرمن الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه فيجتمعوا على الكفر لأجل المال ﴿ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ ﴾ أي سلالم ودرجًا من فضة ﴿ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ﴾ أي يصعدون ﴿ وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا ﴾ أي أغلاقا على أبوابهم ﴿ وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴾ أي جميع ذلك يكون فضة ﴿ وَزُخۡرُفٗاۚ ﴾ أي وذهبًا .

ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ ﴾ أي إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى ، أي يعجل لهم بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشارب ليوافوا الآخرة ، وليس لهم عند الله تبارك وتعالى حسنة يجزيهم بها . ثم قال ﷻ : ﴿ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ أي هي لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد غيرهم ، ولهذا لما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله ﷺ حين صعد إليه في تلك المشربة لما آلى ﷺ من نسائه فرآه على رمال حصيرقد أثر بجنبه ، فابتدرت عيناه بالبكاء وقال : يا رسول الله هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وأنت صفوة

الله من خلقه ، وكان رسول الله ﷺ متكئًا فجلس وقال : « أوفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟ » ثم قال ﷺ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا (١) » . وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « لوكانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ؛ ما سقى منها كافرًا شربة ماء أبدا (٢) » .

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ۝ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ۝ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ۝ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ ﴾ أي يتعامى ويتغافل ويعرض ﴿ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ والعشا في العين ضعف بصرها ، والمراد ههنا عشا البصيرة ﴿ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ الآية ، ولهذا قال تبارك وتعالى ههنا : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا ﴾ أي هذا الذي تغافل عن الهدى نقيض له من الشياطين من يضله ويهديه إلى صراط الجحيم . فإذا وافى الله ﷻ يوم القيامة يتبرم بالشيطان الذي وكل به ، فقال : ﴿ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ وقرأ بعضهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَانَا ﴾ يعني القرين والمقارن . والمراد بالمشرقين ها هنا هو ما بين المشرق والمغرب ، وإنما استعمل ها هنا تغليبًا كما يقال : القمران والعمران والأبوان .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ أي لا يغني عنكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب الأليم . وقوله جلت عظمته ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي ليس ذلك إليك إنما عليك البلاغ وليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الحكم العدل في ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ أي لا بد أن ننتقم منهم ونعاقبهم ولو ذهبت أنت ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾ أي نحن قادرون على هذا وعلى هذا ، ولم يقبض الله تعالى رسوله ﷺ حتى أقر عينه من أعدائه وحكمه في نواصيهم ، وملكه ماتضمنته صياهم .

وفي الحديث : « والنجوم أمنة للسماء ، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد ، وأنا أمنة لأصحابي ، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون » (٣) ثم قال ﷻ : ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي خذ بالقرآن المنزل على قلبك ، فإنه هو الحق وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم الموصل إلى جنات النعيم والخير الدائم المقيم .

ثم قال ﷻ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ قيل : معناه لشرف لك ولقومك ، قاله ابن عباس ومجاهد ،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١٣) وأحمد في مسنده (١٤٠/٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣٢٠) والألباني في الصحيحة (٦٨٦) .

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٧) وأحمد في مسنده (٣٩٩/٤) والحاكم في المستدرك (٤٥٧/٣) ومعنى الحديث : أن النجوم مادامت باقية في السماء فإن السماء باقية ، فإذا انكدرت النجوم وتناثرت في السماء وهنت السماء فانفطرت وانشقت وذهبت .

واختاره ابن جرير ولم يحك سواه . وعن معاوية ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن هذا الأمر في قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا أكبه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين »(١) ومعناه أنه شرف لهم من حيث أنه أنزل بلغتهم ؛ فهم أفهم الناس له ، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه ، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخلص من المهاجرين السابقين الأولين ومن شابههم وتابعهم ، وقيل : معناه ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ أي لتذكير لك ولقومك ، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم ﴿ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ أي عن هذا القرآن ، وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له .

وقوله ﷺ : ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ أي جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ۝ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ۝ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله موسى ﷺ أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة والأتباع والرعايا من القبط وبني إسرائيل يدعوهم إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، وينهاهم عن عبادة ما سواه ، وأنه بعث معه آيات عظامًا كيده وعصاه ، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، ومن نقص الزروع ، والأنفس والثمرات ، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها ، وكذبوها وسخروا منها وضحكوا ممن جاءهم بها ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ ومع هذا مارجعوا عن غيهم وضلالهم ، وجهلهم وخبالهم ، وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى عليه الصلاة والسلام ويتلطفون له في العبارة بقولهم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ﴾ أي العالم ، قاله ابن جرير ، وكان علماء زمانهم هم السحرة . ولم يكن السحر في زمانهم مذمومًا عندهم ؛ فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم ؛ لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لاتناسب ذلك ، وإنما هو تعظيم في زعمهم ، ففي كل مرة يعدون موسى ﷺ إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا به ويرسلوا معه بني إسرائيل ، وفي كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه .

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده : أنه جمع قومه فنادى فيهم متبجحًا مفتخرًا بملك مصر وتصرفه فيها ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾ قال قتادة : قد كانت لهم جنات وأنهار ماء ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ أي أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك ، يعني موسى وأتباعه فقراء ضعفاء .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٦/٤) والبيهقي في السنن (١٤٣/٨) والطبراني في الكبير (٣٣٨/١٩) .

وقوله : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴾ قال السدي : يقول بل أنا خير من هذا الذي هو مهين ، وهكذا قال بعض نحاة البصرة : أن أم ههنا بمعنى بل ويؤيد هذا ما حكاه الفراء عن بعض القراء أنه قرأها (أما أنا خير من هذا الذي هو مهين) قال ابن جرير : ولو صحت هذه القراءة لكان معناها واضحًا ولكنها خلاف قراءة الأمصار فإنهم قرأوا ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴾ على الاستفهام . قلت : وعلى كل تقدير فإنما يعني فرعون لعنه اللَّه بذلك أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام ، وقد كذب في قوله هذا كذبًا بينًا ، واضحًا فعليه لعائن اللَّه المتتابعة إلى يوم القيامة . ويعني بقوله مهين كما قال سفيان : حقير ، وقال قتادة والسدي : يعني ضعيف . وقال ابن جرير : يعني لا ملك له ولا سلطان ولا مال ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ يعني لا يكاد يفصح عن كلامه فهو عيي حصر . قال السدي : ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ أي لا يكاد يفهم . وقال قتادة والسدي وابن جرير : يعني عيي اللسان ، وقال سفيان : يعني في لسانه شيء من الجمرة حين وضعها في فمه وهو صغير ، وهذا الذي قاله فرعون لعنه اللَّه كذب واختلاق ، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد وهو ينظر إلى موسى عليه الصلاة والسلام بعين كافرة شقية ، وقد كان موسى عليه السلام من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة يبهر أبصار ذوي الألباب .

وقوله : ﴿ مَهِينٌ ﴾ كذب ، بل هوالمهين الحقيرخلقة وخلقًا ودينًا ، وموسى هو الشريف الرئيس الصادق البار الراشد . وقوله : ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ افتراء أيضا فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة ، فقد سأل اللَّه عز وجل أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله ، وقد استجاب اللَّه تبارك وتعالى له ذلك في قوله : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ وبتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته ، كما قاله الحسن البصري ، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام ، فالأشياء الخلقية التي ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها ، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل ، فهو يدري هذا ، وإنما أراد الترويج على رعيته ؛ فإنهم كانوا جهلة أغبياء ، وهكذا قوله : ﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ وهي مايجعل في الأيدي من الحلي ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ أي يكتنفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه ، نظر إلى الشكل الظاهر ولم يفهم السر المعنوي الذي هو أظهر مما نظر إليه لو كان يفهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ أي استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ قال اللَّه تعالى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ عن ابن عباس : ﴿ آسَفُونَا ﴾ أسخطونا .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيت اللَّه تبارك وتعالى يعطي العبد مايشاء وهو مقيم على معاصيه ؛ فإنما ذلك استدراج منه له » ثم تلا صلى الله عليه وسلم ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١) . وقوله جل وعلا : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ قال أبو مجلز : سلفًا لمثل من عمل بعملهم . وقال مجاهد : ﴿ وَمَثَلًا ﴾ أي عبرة لمن بعدهم .

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ۝ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٥/٤) والألباني في الصحيحة (٤/٣) .

مَلَٰٓئِكَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن تعنت قريش في كفرهم وتعمدهم العناد والجدل ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والسدي والضحاك : يضحكون أي أعجبوا بذلك ، وقال قتادة : يجزعون ويضحكون . وقال إبراهيم النخعي : يعرضون ، وكأن السبب في ذلك ماذكره محمد بن إسحاق في السيرة حيث قال : وجلس رسول الله ﷺ ، فيما بلغني ، يومًا مع الوليد بن المغيرة في المسجد ، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم ، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله ﷺ ، فعرض له النضر بن الحارث ، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ، ثم تلا عليه ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ الآيات . ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبعرى التميمي حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة له : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم ، فقال عبد الله الزبعرى : أما والله لو وجدته لخصمته ، سلوا محمدًا أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ، فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيرًا ، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم ، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده ؛ فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته » فأنزل الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴾ ، أي عيسى وعزير ومن عبد معهما من الأحبار والرهبان ، الذين مضوا على طاعة الله ﷻ ، فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله ، ونزل فيما يذكر من أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴾ الآيات . ونزل فيما يذكر من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام ، وأنه يعبد من دون الله ، وعجب الوليد ومن حضر من حجته وخصومته ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴾ أي يصدون عن أمرك بذلك من قوله . ثم ذكر عيسى عليه الصلاة والسلام فقال : ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ ﴾ أي ماوضع على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام فكفى به دليلًا على علم الساعة يقول : ﴿ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾ .

وقوله ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ ﴾ قال قتادة : يقولون آلهتنا خير منه .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ ﴾ أي مراء ، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية ، لأنها لما لا يعقل ، وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ ثم هي خطاب لقريش ، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد ، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه ،

فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلًا منهم ليسوا يعتقدون صحتها ، عن أبي أمامة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أورثوا الجدل » ثم تلا رسول الله له هذه الآية ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [1] وقوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ يعني عيسى عليه الصلاة والسلام . ماهو إلا عبد من عباد الله ﷻ أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي دلالة وحجة وبرهانا على قدرتنا على ما نشاء . وقوله ﷻ : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً ﴾ أي بدلكما ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ قال السدي : يخلفونكم فيها ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة : يخلف بعضهم بعضا كما يخلف بعضكم بعضًا ، وهذا القول يستلزم الأول .

وقوله ﷺ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ أي أمارة ودليل على وقوع الساعة . قال مجاهد : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ أي آية للساعة خروج عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة ، وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عباس وأبي العالية وأبي مالك وغيرهم ، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إمامًا عادلًا وحكمًا مقسطًا .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ أي لا تشكوا فيها أنها واقعة وكائنة لا محالة ﴿ وَٱتَّبِعُونِ ﴾ أي فيما أخبركم به ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ ولايصدنكم الشيطان ! أي عن اتباع الحق ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ أي بالنبوة ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ قال ابن جرير : يعني من الأمور الدينية لا الدنيوية . وقوله ﷻ : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي فيما أمركم به ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما جئتكم به ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي أنا وأنتم عبيد له فقراء إليه مشتركون في عبادته وحده لا شريك له ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي هذا الذي جئتكم به هو الصراط المستقيم وِ هو عبادة الرب جل وعلا وحده . وقوله ﷺ : ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ أي اختلفت الفرق وصاروا شيعا فيه ، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق ، ومنهم من يدعي أنه ولد الله ، ومنهم من يقول إنه الله . تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل ﴿ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي فإنها كائنة لا محالة وواقعة ، وهؤلاء غافلون عنها غيرمستعدين فاذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها فحينئذ يندمون كل الندم حيث لا ينفعهم ولايدفع عنهم ، وقوله تعالى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي كل صداقة وصحابة لغير الله فانها تنقلب يوم القيامة عداوة ، إلا ما كان لله ﷻ فإنه دائم بدوامه . عن علي ﷺ : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٦/٢) والترمذي في السنن (٣٢٥٣) والحاكم في المستدرك (٤٤٧/٢) .

لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ قال : خليلان مؤمنان وخليلان كافران ، فتوفي أحد المؤمنين وبشر بالجنة ، فذكر خليله فقال : اللَّهم إن فلانًا خليلي كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر ، وينبئني أني ملاقيك ، اللَّهم فلا تضله بعدي حتى تريه مثل ما أريتني ، وترضى عنه كما رضيت عني ، فيقال له : اذهب فلو تعلم ماله عندي لضحكت كثيرًا وبكيت قليلًا ، قال : ثم يموت الآخر فتجتمع أرواحهما فيقال : ليثنِ أحدكما على صاحبه ، فيقول كل واحد منهما لصاحبه : نعم الأخ ونعم الصاحب ونعم الخليل . وإذا مات أحد الكافرين وبشر بالنار ذكر خليله فيقول : اللَّهم إن خليلي فلانًا كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك . ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ، ويخبرني أني غيرملاقيك . اللَّهم فلا تهده بعدي حتى تريه مثل ما أريتني ، وتسخط عليه كما سخطت علي قال : فيموت الكافر الآخر فيجمع بين أرواحهما فيقال : ليثنِ كل واحد منكما على صاحبه فيقول كل واحد منهما لصاحبه : بئس الأخ وبئس الصاحب وبئس الخليل .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ ثم بشرهم فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ أي آمنت قلوبهم وبواطنهم ، وانقادت لشرع اللَّه جوارحهم وظواهرهم ، قال المعتمر بن سليمان عن أبيه : إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع فينادي مناد ﴿ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ فيرجوها الناس كلهم ، قال : فيتبعها ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ قال : فييأس الناس منها غير المؤمنين . ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾ أي يقال لهم ادخلوا الجنة ﴿ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ ﴾ أي نظراؤكم ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ أي تتنعمون وتسعدون ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾ أي زبادي آنية الطعام ﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ وهي آنية الشراب أي من ذهب لا خراطيم لها ولا عرى ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي ٱلْأَنفُسُ ﴾ وقرأ بعضهم ﴿ تشتهيه الأنفس ﴾ (١) . ﴿ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ أي طيب الطعام والريح وحسن المنظر .

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة من له سبع درجات وهو على السادسة وفوقه السابعة ، وإن له ثلثمائة خادم ، ويغدى عليه ويراح كل يوم بثلثمائة صحفة - ولا أعلمه إلا قال : من ذهب ، في كل صحفة لون ليس في الأخرى ، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره ، ومن الأشربة ثلثمائة إناء في كل إناء لون ليس في الآخر ، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره ، وإنه ليقول : يارب ، لو أذنت لي لأطعمت أهل الجنة وسقيتهم ، لم ينقص مما عندي شيء ، وإن له من الحور العين لاثنين وسبعين زوجة سوى أزواجه من الدنيا ، وإن الواحدة منهن لتأخذ مقعدها قدر ميل من الأرض » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ فِيهَا ﴾ أي في الجنة ﴿ خَـٰلِدُونَ ﴾ ، أي لاتخرجون منها ولاتبغون عنها حولًا .

ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، أي أعمالكم الصالحة كانت سببًا لشمول رحمة اللَّه إياكم ؛ فإنه لا يدخل أحدًا عمله الجنة ، ولكن برحمة اللَّه وفضله ، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات ، عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللَّه

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وحفص ﴿ وفيها ما تشتهيه ﴾ بإثبات الهاء بعد الياء وقرأ الباقون بحذف الهاء (حجة القراءات ص ٦٥٤) .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٣١١) والترمذي في السنن (٢٥٥٣) وأحمد في مسنده ٢٧/٣ .

ﷺ : « كل أهل النار يرى منزله من الجنة حسرة ، فيكون له فيقول : ﴿ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول : ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ فيكون له شكرًا »(١) قال : وقال رسول الله ﷺ : « ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار ، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار . والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة »(٢) . وذلك قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ ﴾ أي من جميع الأنواع ﴿ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي مهما اخترتم وأردتم . ولما ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة .

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال السعداء ثنى بذكر الأشقياء فقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ ﴾ أي ساعة واحدة ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أي آيسون من كل خير ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجة عليهم . وإرسال الرسل إليهم ، فكذبوا وعصوا فجوزوا بذلك جزاء وفاقًا ومابربك بظلام للعبيد ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ ﴾ وهو خازن النار . عن صفوان ابن يعلى عن أبيه ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر : ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾(٣) ، أي يقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه فإنهم كما قال تعالى : ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالكا ﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ أي لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها ، ثم ذكر سبب شقوتهم ، وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بيناه لكم ووضحناه وفسرناه ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ أي ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه ، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه ، وتصد عن الحق وتأباه وتبغض أهله ، فعودوا على أنفسكم بالملامة . واندموا حيث لا تنفعكم الندامة ، ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ قال مجاهد : أرادوا كيد شر ، فكدناهم ؛ وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون في رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه ، فكادهم الله تعالى ورد وبال ذلك عليهم ، ولهذا قال : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ﴾ أي سرهم وعلانيتهم ﴿ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أي نحن نعلم ما هم عليه والملائكة أيضًا يكتبون أعمالهم صغيرها وكبيرها .

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٥١٢/٢ ، والحاكم في المستدرك ٤٣٥/٢ بتقديم أهل النار على أهل الجنة .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٣/٦) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨١٩) .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ ، أي لو فرض هذا لعبدته على ذلك ؛ لأني عبد من عبيده مطيع لجميع ما يأمرني به ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته ، فلو فرض هذا لكان هذا ، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى ، وقال بعض المفسرين في قوله تعالى : ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ أي الآنفين ، ويقال : ﴿ أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ الجاحدين من عبد يعبد[1] . وقال قتادة : هي كلمة من كلام العرب ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ أي إن ذلك لم يكن فلا ينبغي ، وقال أبو صخر : أي فأنا أول من عبده بأن لا ولد له ، وأول من وحده ، وقال مجاهد : أي أول من عبده ووحده وكذبكم ، وقال البخاري : ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ الآنفين وهما لغتان رجل عابد وعبد . والأول أقرب على أنه شرط وجزاء ولكن هو ممتنع ، وقال السدي : لوكان له ولد كنت أول من عبده بأن له ولد ولكن لا ولد له ، وهو اختيار ابن جرير ، ورد قول من زعم أن إن نافية . ولهذا قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد ؛ فإنه فرد أحد صمد ، لا نظير له ولا كفء له فلا ولد له .

وقوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا ﴾ أي في جهلهم وضلالهم ﴿ وَيَلْعَبُوا ﴾ في دنياهم ﴿ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ وهو يوم القيامة ، أي فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم ومآلهم وحالهم في ذلك اليوم . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ أي هو إله من في السماء وإله من في الأرض يعبده أهلهما وكلهم خاضعون له أذلاء بين يديه ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي هوخالقهما ومالكهما ، والمتصرف فيهما بلا مدافعة ولا ممانعة ، فسبحانه وتعالى عن الولد وتبارك ، أي استقر له السلامة من العيوب والنقائص ؛ لأنه الرب العلي العظيم المالك للأشياء الذي بيده أزمة الأمور نقضًا وإبرامًا ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أي لا يجليها لوقتها إلا هو ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي فيجازي كلًّا بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ أي من الأصنام والأوثان ﴿ الشَّفَاعَةَ ﴾ أي لا يقدرون على الشفاعة لهم ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ هذا استثناء منقطع ؛ أي لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم ، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له . ثم قال ﷻ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أي ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿ مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ أي هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها وحده لاشريك له في ذلك ، ومع هذا يعبدون معه غيره ممن لا يملك شيئًا ولا يقدر على شيء ؛ فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ .

وقوله جل وعلا : ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي وقال محمد ﷺ : قيله أي شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه ، فقال : يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ، قال البخاري : وقرأ عبد الله - يعني ابن مسعود - ﷺ(وقال الرسول يارب ، وقال مجاهد : في قوله : ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ قال : يؤثر الله ﷻ قول محمد ﷺ . ثم حكى ابن جرير في قوله تعالى : ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ ﴾ ، قراءتين إحداهما النصب ، ولها توجيهان : أحدهما أنه معطوف على قوله تبارك

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨١٩) .

وتعالى : ﴿ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ﴾ والثاني : أن يقدر فعل وقال : قيله ، والثانية : الخفض[١] وقيله عطفًا على قوله : ﴿ وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ وتقديره وعلم قيله . وقوله تعالى : ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ أي المشركين ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ ﴾ ، أي لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلًا وقولًا ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ هذا تهديد من اللّٰه تعالى لهم ، ولهذا أحل بهم بأسه الذي لا يرد وأعلى دينه وكلمته ، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد حتى دخل الناس في دين اللّٰه أفواجًا ، وانتشر الاسلام في المشارق والمغارب واللّٰه اعلم .

---

(١) قرأ عاصم وحمزة ﴿ وقيله يا ربِّ ﴾ بكسر اللام ، والباقون بالنصب (حجة القراءات ص : ٦٥٥) .

سورة الدخان

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حم الدخان في ليلة ، أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك »[(١)] .

وعن زيد بن حارثة أن رسول الله ﷺ قال لابن صياد : « إني قد خبأت خبأ فما هو ؟ » وخبأ له رسول الله ﷺ سورة الدخان ، فقال : هو الدخ . فقال : « اخسأ ماشاء الله » ثم انصرف[(٢)] .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن القرآن العظيم أنه أنزله في ليلة مباركة ، وهي ليلة القدر وكان ذلك في شهر رمضان ، ومن قال : إنها ليلة النصف من شعبان كما روي عن عكرمة فقد أبعد النجعة ، فإن نص القرآن أنها في رمضان : وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ أي معلمين الناس ماينفعهم ويضرهم شرعًا لتقوم حجة الله على عباده .

وقوله : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ أي في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة ، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق وما يكون فيها إلى آخرها . وهكذا روي عن ابن عمر ومجاهد وأبي مالك والضحاك وغير واحد من السلف . وقوله جل رعلا : ﴿ حَكِيمٍ ﴾ ، أي محكم لا يبدل ولا يغير ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ﴾ ، أي جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوحيه فبأمره وإذنه وعلمه ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أي إلى الناس رسولا يتلو عليهم آيات الله مبينات ، فإن الحاجة كانت ماسة إليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ أي الذي أنزل القرآن هو رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ أي إن كنتم متحققين . ثم قال تعالى : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ الآية .

﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون ، أي : قد جاءهم الحق اليقين وهم يشكون فيه ويمترون ولا يصدقون به ، ثم قال ﷻ متوعدًا لهم ومهددًا : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ عن

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٨٨) بنحوه .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٨/٥) والطبراني في الكبير (١٦٢/١٢) .

مسروق قال : دخلنا المسجد ، يعني مسجد الكوفة عند أبواب كندة ، فإذا رجل يقص على أصحابه ﴿ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ تدرون ما ذلك الدخان؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام ، قال : فأتينا ابن مسعود ﷺ ، فذكرنا له ذلك وكان مضطجعًا ، ففزع فقعد وقال : إن الله ﷻ قال لنبيكم ﷺ : ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم الله أعلم ، سأحدثكم عن ذلك ، إن قريشا لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف ، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة ، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان ، قال الله تعالى : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فأتى رسول الله ﷺ فقيل : يا رسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت ، فاستسقى ﷺ لهم فسقوا فنزلت ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾ قال ابن مسعود ﷺ : فيكشف عنهم العذاب يوم القيامة ، فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ قال : يعني يوم بدر ، قال ابن مسعود ﷺ : فقد مضى خمسة : الدخان ، والروم والقمر ، والبطشة ، واللزام [(١)] .

وقال آخرون : لم يمض الدخان بعد ، بل هو من أمارات الساعة عن أبي سريحة حذيفة بن أسيد الغفاري ﷺ ، قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من عرفة ونحن نتذاكر الساعة فقال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس - أو تحشر الناس - تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا » [(٢)] . عن أبي مالك الأشعري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن ربكم أنذركم ثلاثا : الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة ، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه ، والثانية الدابة ، والثالثة الدجال » [(٣)] .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بين واضح يراه كل أحد ، وعلى ما فسر به ابن مسعود ﷺ إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد ، وهكذا قوله تعالى : ﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ أي يتغشاهم ويعمهم ، ولو كان أمرًا خياليًا يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه ﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا كقوله ﷻ : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أو يقول بعضهم لبعض ذلك . وقول الله ﷻ : ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ أي يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم كقوله جلت عظمته ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهكذا قال جل وعلا ههنا : ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ ثُمَّ

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٥٤) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٧) والترمذي في السنن (٢١٨٣) .
(٣) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٥٤) ومسلم في الزكاة (١٢٩) .

تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ . يقول : كيف لهم بالتذكر وقد أرسلنا إليهم رسولًا بين الرسالة والنذارة ، ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه بل كذبوه وقالوا : معلم مجنون .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ يحتمل معنيين : (أحدهما) أنه بقوله تعالى ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا ، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب . و (الثاني) : أن يكون المراد إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلًا بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم . وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال ، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم كقوله تعالى : ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم بل كان قد انعقد سببه عليهم ، ولا يلزم أيضًا أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه .

وقوله ﷻ : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ فسر ذلك ابن مسعود ﷺ بيوم بدر ، والظاهر أن ذلك يوم القيامة وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضًا .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ⑰ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ⑱ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ⑲ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ⑳ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ㉑ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ㉒ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ㉓ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ㉔ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ㉕ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ㉖ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ㉗ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ㉘ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ㉙ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ㉚ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ㉛ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ㉜ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴾ .

يقول تعالى : ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون وهم قبط مصر ﴿ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ يعني موسى الكليم عليه الصلاة والسلام ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أي مأمون على ما أبلغكموه .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ أي لا تستكبروا عن اتباع آياته والانقياد لحججه والإيمان ببراهينه ﴿ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بحجة ظاهرة واضحة وهي ما أرسله الله تعالى به من الآيات البينات والأدلة القاطعات ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ قال ابن عباس ﷺ وأبو صالح : هو الرجم باللسان وهو الشتم . وقال قتادة : الرجم بالحجارة ؛ أي أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم من أن تصلوا إلي بسوء من قول أو فعل ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾ أي فلا تتعرضوا لي ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أن يقضي الله بيننا . فلما طال مقامه ﷺ بين أظهرهم وأقام حجج الله تعالى عليهم . كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا ، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج ببني إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه ولهذا قال ﷻ : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ .

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر ، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان ، ليصير حائلًا بينهم وبين فرعون فلا يصل إليهم ، فأمره الله تعالى أن يتركه على حاله ساكنًا وبشره بأنهم جند مغرقون فيه ، وأنه لا

يخاف دركًا ولا يخشى ، قال ابن عباس ﵄ ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ كهيئته وامضه ، وقال مجاهد : ﴿ رَهْوًا ﴾ طريقًا يبسًا كهيئته . يقول : لا تأمره يرجع ، اتركه حتى يرجع آخرهم ، ثم قال تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ ﴾ وهي البساتين ﴿ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ ﴾ والمراد بها الأنهار والآبار ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ وهي المساكن الأنيقة والأماكن الحسنة ، وقال مجاهد وسعيد بن جبير ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ المنابر ، وقال في قول الله تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ قال : كانت الجنان بحافتي نهر النيل من أوله إلى آخره في الشقين جميعًا ، ما بين أسوان إلى رشيد ، وكان له تسع خلج : خليج الأسكندرية ، وخليج دمياط ، وخليج سردوس ، وخليج منف ، وخليج الفيوم ، وخليج المنتهى ، متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء ، وزرع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء ، وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعًا لما قدروا ودبروا من قناطرها وجسورها وخلجها .

﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ أي عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاءوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد ، فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة ، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير ، واستولى على البلاد المصرية وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو إسرائيل كما قال تبارك وتعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ .

وقال ﷻ ههنا : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ وهم بنو إسرائيل كما تقدم . وقوله ﷻ : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ أي لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم ، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها فقدتهم ، فلهذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم إجرامهم وعتوهم وعنادهم . عن أنس بن مالك ﵁ عن النبي ﷺ قال : « ما من عبد إلا وله في السماء بابان : باب يخرج منه رزقه ، وباب يدخل منه عمله وكلامه ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه » وتلا هذه الآية ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ (١) . وذكر أنهم لم يكونوا عملوا على الأرض عملًا صالحًا يبكي عليهم ، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح ، فتفقدهم فتبكي عليهم .

وعن عباد بن عبد الله قال : سأل رجل عليًا ﵁ : هل تبكي السماء والأرض على أحد ؟ فقال له : لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك ، إنه ليس من عبد إلا له مصلى في الأرض ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض ولا عمل يصعد في السماء ، ثم قرأ علي ﵁ ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ . وقال مجاهد : ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحًا ، قال : فقلت له : أتبكي الأرض ؟ فقال : أتعجب ؟ وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود ؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوي كدوي النحل ؟

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۝ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ يمتن عليهم تعالى بذلك حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم ،

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٤١٣٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١٠٥) .

وتسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة ، وقوله تعالى : ﴿ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا ﴾ أي مستكبرًا جبارًا عنيدًا ﴿ مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ أي مسرف في أمره سخيف الرأي على نفسه . وقوله ﷻ : ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال مجاهد : على من هم بين ظهريه . وقال قتادة : اختيروا على أهل زمانهم ذلك ، وكان يقال : إن لكل زمان عالمًا ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أي أهل زمانه ذلك . وقوله ﷻ : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي الحجج والبراهين وخوارق العادات ﴿ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴾ أي اختبار ظاهر جلي لمن اهتدى به .

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد ، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا ولا حياة بعد الممات ولا بعث ولا نشور ، ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا ، فإن كان البعث حقًا ﴿ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة ، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في الدار الدنيا بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها ، يعيد الله العالمين خلقًا جديدًا ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودًا ، يوم تكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا ، ثم قال تعالى متهددًا لهم ومتوعدًا ومنذرًا لهم بأسه الذي لا يرد كما حل بأشباههم ونظرائهم من المشركين المنكرين للبعث كقوم تبع ، وهم سبأ ، حيث أهلكهم الله ﷻ وخرب بلادهم وشردهم في البلاد وفرقهم شذر مذر ، كما تقدم ذلك في سورة سبأ وهي مصدرة بإنكار المشركين للمعاد ، وكذلك ههنا شبههم بأولئك وقد كانوا عربًا من قحطان ، كما أن هؤلاء عرب من عدنان ، وقد كانت حمير وهم سبأ كلما ملك فيهم رجل سموه تبعًا ، كما يقال : كسرى لمن ملك الفرس ، وقيصر لمن ملك الروم ، وفرعون لمن ملك مصر كافرا ، والنجاشي لمن ملك الحبشة وغير ذلك من أعلام الأجناس .

ولكن اتفق أن بعض تبابعتهم خرج من اليمن وسار في البلاد حتى وصل إلى سمرقند واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه ، واتسعت مملكته وكثرت رعاياه وهو الذي مصر الحيرة ، فاتفق أنه مر بالمدينة النبوية وذلك في أيام الجاهلية ، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقاتلوه بالنهار ، وجعلوا يقرونه بالليل فاستحيا منهم وكف عنهم ، واستصحب معه حبرين من أحبار يهود كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة ، فإنها مهاجر نبي يكون في آخر الزمان ، فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن ، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة فنهياه عن ذلك أيضًا وأخبراه بعظمة هذا البيت ، وأنه من بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، وأنه سيكون له شأن عظيم على يدي ذلك النبي المبعوث في آخر الزمان ، فعظمها وطاف بها وكساها الملاء والوصائل والحبر ، ثم كر راجعًا إلى اليمن ودعا أهلها إلى التهود معه ، وكان إذا ذاك دين موسى عليه الصلاة والسلام فيه من يكون من الهداية قبل بعثة المسيح عليه الصلاة والسلام ، فتهود معه عامة أهل اليمن ، وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق في كتابه السيرة [١] ، وقال سعيد بن جبير : كسا تبع الكعبة وكان سعيد ينهى عن سبه ، وتبع هذا

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٠ - ٢٧ .

هو تبع الأوسط ، واسمه أسعد أبو كريب بن مليكرب اليماني ، ذكروا أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وستًا وعشرين سنة ، ولم يكن في حمير أطول مدة منه ، وتوفي قبل مبعث رسول اللَّه ﷺ بنحو من سبعمائة سنة . وذكروا أنه لما ذكر له الحبران من يهود المدينة أن هذه البلدة مهاجر نبي في آخر الزمان اسمه أحمد ، قال في ذلك شعرًا واستودعه عند أهل المدينة ، فكانوا يتوارثونه ويروونه خلفًا عن سلف ، وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن يزيد الذي نزل رسول اللَّه ﷺ في داره وهو :

شهدت على أحمد أنه رسول من اللَّه باري النسم
فلو مد عمري إلى عمره لكنت وزيرًا له وابن عم
وجاهدت بالسيف أعداءه وفرجت عن صدره كل غم

وذكر ابن أبي الدنيا أنه حفر قبر بصنعاء في الإسلام فوجدوا فيه امرأتين صحيحتين ، وعند رؤوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب : هذا قبر حيي وتميس ، وروي أن حيي وتماضر ابنتي تبع ، ماتتا وهما تشهدان أن لا إله إلا اللَّه ولا تشركان به شيئًا ، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما وكانت عائشة رضي الله عنها تقول : لا تسبوا تبعًا فإنه قد كان رجلًا صالحًا . وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه يقول : قال رسول اللَّه ﷺ : « لا تسبوا تبعًا ؛ فإنه قد كان أسلم » (١) .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث والباطل كقوله جل وعلا : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وهو يوم القيامة يفصل اللَّه تعالى فيه بين الخلائق ، فيعذب الكافرين ويثيب المؤمنين . وقوله ﷻ ﴿ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، أي يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا ﴾ أي لا ينفع قريب قريبا . وقوله جل وعلا ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي لا ينصر القريب قريبه ولا يأتيه نصره من خارج ، ثم قال : ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ﴾ أي لا ينفع يومئذ إلا رحمة اللَّه ﷻ بخلقه ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي هو عزيز ذو رحمة واسعة .

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما يعذب به الكافرين الجاحدين للقائه ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾ الأثيم أي في قوله وفعله ، وهو الكافر ، وذكر غير واحد أنه أبو جهل ، ولا شك في دخوله في هذه الآية ، ولكن ليست خاصة به . وقوله : ﴿ كَٱلْمُهْلِ ﴾ قالوا : كعكر الزيت ﴿ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٣٤٠) والطبراني في الكبير (١١/٢٩٦) .

﴿ ٱلْحَمِيمِ ﴾ أي من حرارتها ورداءتها ، وقوله : ﴿ خُذُوهُ ﴾ أي الكافر ، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية خذوه ابتدره سبعون ألفًا منهم . وقوله : ﴿ فَٱعْتِلُوهُ ﴾ أي سوقوه سحبًا ودفعًا في ظهره ، قال مجاهد : أي خذوه فادفعوه ﴿ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي وسطها ﴿ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ وقد تقدم أن الملك يضربه بمقمعة من حديد ، فتفتح دماغه ثم يصب الحميم على رأسه فينزل في بدنه ، فيسلت ما في بطنه من أمعائه حتى تمرق من كعبيه ، أعاذنا اللّٰه تعالى من ذلك . وقوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ أي قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ ، وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما : أي لست بعزيز ولا كريم . عن عكرمة قال : لقي رسول اللّٰه ﷺ أبا جهل لعنه اللّٰه فقال : « إن اللّٰه تعالى أمرني أن أقول لك : أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى » قال : فنزع ثوبه من يده وقال : ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء ، ولقد علمت أني أمنع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم ، قال : فقتله اللّٰه تعالى يوم بدر وأذله وعيره بكلمته وأنزل ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ . وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء ولهذا سمي القرآن مثاني ، فقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي للّٰه في الدنيا ﴿ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ أي في الآخرة وهو الجنة ، قد أمنوا فيها من الموت والخروج ، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب ومن الشيطان وكيده وسائر الآفات والمصائب ﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ وهذا في مقابلة ما أولئك فيه من شجرة الزقوم وشرب الحميم . وقوله تعالى : ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ ﴾ وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ وهو ما فيه بريق ولمعان وذلك كالرياش وما يلبس على أعالي القماش ﴿ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ أي على السرر لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره . وقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أي هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحسان الحور العين اللاتي ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ عن أنس رضي الله عنه رفعه قال : لو أن حوراء بزقت في بحر لجي لعذب ذلك الماء لعذوبة ريقها [(١)] .

وقوله ﷻ : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ أي مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم ، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه ؛ بل يحضر إليهم كلما أرادوا . وقوله : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ هذا استثناء يؤكد النفي فإنه استثناء منقطع ، ومعناه أنهم لا يذوقون فيها الموت أبدًا كما ثبت أن رسول اللّٰه ﷺ قال : « يؤتى بالموت في صورة كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، ثم يذبح ، ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت » [(٢)] وعن

---

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب ٥٣٥/٤ .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٣٠) وأحمد في مسنده (٢٦١/٢) والحاكم في المستدرك (٨٣/١) .

أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول ﷺ : « يقال لأهل الجنة : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدًا ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدأ » (١) وعن جابر رضي الله عنه قال : سئل نبي اللَّه ﷺ : أينام أهل الجنة ؟ فقال ﷺ : «النوم أخو الموت ، وأهل الجنة لا ينامون » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم وسلمهم ونجاهم وزحزحهم عن العذاب الأليم في دركات الجحيم ، فحصل لهم المطلوب ونجاهم من المرهوب ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ أي إنما كان هذا بفضله عليهم وإحسانه إليهم كما ثبت عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « اعملوا وسددوا وقاربوا ، واعلموا أن أحدًا لن يدخله عمله الجنة » قالوا : ولا أنت يا رسول اللَّه ؟ قال ﷺ : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني اللَّه برحمة منه وفضل » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلًا واضحًا بينا جليًا بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأعلاها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي يتفهمون ويعلمون .

ثم لما كان مع هذا الوضوح والبيان من الناس من كفر وخالف وعاند قال اللَّه تعالى لرسوله ﷺ مسليًا له وواعدًا له بالنصر ، ومتوعدًا لمن كذبه بالعطب والهلاك : ﴿ فَٱرْتَقِبْ ﴾ أي انتظر ﴿ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ أي فسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة ، فإنها لك يا محمد ولإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ الآية .

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٢) والترمذي في التفسير (٣٣٤٦) وأحمد في مسنده (٣٨/٣) .
(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩٢٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٤١٥/١٠) والألباني في الصحيحة (١٠٨٧) .
(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٦٤) ومسلم في صفات المنافقين (٧١) وأحمد في مسنده (٢٣٥/٢) جميعهم بنحوه .

سورة الجاثية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

يرشد تعالى خلقه إلى التفكر في آلائه ونعمه ، وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والأرض ، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس ، والأنواع من الملائكة والجن والإنس والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات ، وما في البحر من الأصناف المتنوعة واختلاف الليل والنهار في تعاقبهما دائبين لا يفتران ، هذا بظلامه وهذا بضيائه ، وما أنزل الله تبارك وتعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه ، وسماه رزقًا ؛ لأن به يحصل الرزق ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء . وقوله ﷻ : ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾ أي جنوبًا وشمالًا ودبورًا وصبا ، برية وبحرية ، ليلية ونهارية . ومنها ما هو للمطر ، ومنها ما هو للقاح ، ومنها ما هو غذاء للأرواح ، ومنها ما هو عقيم لا ينتج ، وقال ﷻ : أولًا : ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ثم يوقنون ، ثم يعقلون ، وهو ترق من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى .

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ يعني القرآن بما فيه من الحجج والبينات ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي متضمنة الحق من الحق ، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أي أفاك في قوله كذاب حلاف مهين أثيم في فعله وقلبه كافر بآيات الله ولهذا قال : ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أي تقرأ عليه ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾ أي على كفره وجحوده استكبارًا وعنادًا ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ أي كأنه ما سمعها ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي فأخبره أن له عند الله تعالى يوم القيامة عذابًا أليمًا موجعًا ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ أي إذا حفظ شيئًا من القرآن كفر به واتخذه سخريا وهزوًا ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به ، ولهذا روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو (١) . ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال : ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة ﴿ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا ﴾ أي لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ﴿ وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئًا

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٩٩٠) ومسلم في الإمارة (٩٢) وأبو داود في السنن (٢٦١٠) وأحمد في مسنده (٦/٢) .

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ هَٰذَا هُدًى ﴾ يعني القرآن ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ وهو المؤلم الموجع .

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ .

يذكر تعالى نعمه على عبيده فيما سخر لهم من البحر ﴿ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ ﴾ وهي السفن فيه بأمره تعالى ، فإنه هو الذي أمر البحر بحملها ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ أي في المتاجر والمكاسب ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي على حصول المنافع المجلوبة من الأقاليم النائية والآفاق القاصية ، ثم قال ﷻ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي من الكواكب والجبال والبحار والأنهار ، وجميع ما تنتفعون به أي الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه ولهذا قال ﴿ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ أي من عنده وحده لا شريك له في ذلك ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ أي ليصفحوا عنهم ويتحملون الأذى منهم ، وكان هذا في ابتداء الإسلام ، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ؛ ليكون ذلك كالتأليف لهم ، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد . هكذا روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة ، وقال مجاهد : لا ينالون نعم الله تعالى ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي إذا صفحوا عنهم في الدنيا فإن الله ﷻ مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ أي تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم عليه فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

يذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم وجعله الملك فيهم ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أي من المآكل والمشارب ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أي في زمانهم ﴿ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ﴾ أي حججًا وبراهين وأدلة قاطعات ، فقامت عليهم الحجج ، ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة ، وإنما كان ذلك بغيًا منهم على بعضهم بعضًا ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يا محمد ﴿ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي سيفصل بينهم بحكمه العدل ، وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم وأن تقصد منهجهم ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ﴾ أي اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين ، وقال ﷻ ههنا : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أي وماذا تغني عنهم ولا يتهم لبعضهم

بعضًا ؛ فإنهم لا يزيدونهم إلا خسارًا ودمارًا وهلاكًا ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، ثم قال ﷻ : ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ ﴾ يعني القرآن ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٢ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : لا يستوي المؤمنون والكافرون وقال تبارك وتعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أي عملوها وكسبوها ﴿ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ أي نساويهم بهم في الدنيا والآخرة ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نساوي بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة وفي هذه الدار . عن أبي ذر ؓ قال : إن اللَّه تعالى بنى دينه على أربعة أركان ، فمن صبر عليهن ولم يعمل بهن لقي اللَّه من الفاسقين ، قيل : وما هن يا أبا ذر ؟ قال : يسلم حلال اللَّه للَّه ، وحرام اللَّه للَّه ، وأمر اللَّه للَّه ، ونهي اللَّه للَّه ، لا يؤتمن عليهن إلا اللَّه ، قال أبو القاسم ﷺ : « كما أنه لا يجتنى من الشوك العنب كذلك لا ينال الفجار منازل الأبرار »(١) . وقال ﷻ : ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بالعدل ﴿ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

ثم قال جل وعلا : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ أي إنما يأتمر بهواه ، فما رآه حسنًا فعله وما رآه قبيحًا تركه ، وهذا قد يستدل به على المعتزلة في قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين ، وعن مالك فيما روي عنه من التفسير لا يهوى شيئًا إلا عبده . وقوله : ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ يحتمل قولين : أحدهما : وأضله اللَّه لعلمه أنه يستحق ذلك ، والآخر : وأضله اللَّه بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه . والثاني يستلزم الأول ولا ينعكس ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ أي فلا يسمع ما ينفعه ولا يعي شيئًا يهتدي به ولا يرى حجة يستضيء بها . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٢٤ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٥ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ أي ما ثمّ إلا هذه الدار ، يموت قوم ويعيش آخرون ، وما ثمّ معاد ولا قيامة ، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون المعاد ، وتقوله الفلاسفة الإلهيون منهم ، وهم ينكرون البداءة والرجعة ، وتقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع ، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه ، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى ، فكابروا العقول وكذبوا المنقول ، ولهذا قالوا . ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ أي يتوهمون ويتخيلون . عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « يقول تعالى : يؤذيني ابن آدم ،

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/٣٠٨) .

يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب ليله ونهاره »[١] وفي رواية : « لا تسبوا الدهر فان اللّه تعالى هو الدهر»[٢] . وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللّه ﷺ قال : « يقول اللّه تعالى : استقرضت عبدي فلم يعطني وسبني عبدي ، يقول : وادهراه ، وأنا الدهر »[٣] قال الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله ﷺ : « لا تسبوا الدهر فإن اللّه هو الدهر » كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا : يا خيبة الدهر ، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه ، وإنما فاعلها هو اللّه تعالى فكأنهم إنما سبوا اللّه ﷻ ؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة ، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار ، لأن اللّه تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال ، هذا أحسن ما قيل في تفسيره وهو المراد ، واللّه أعلم ، وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدهم الدهر من الأسماء الحسنى أخذًا من هذا الحديث .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ أي إذا استدل عليهم وبين لهم الحق ، وأن اللّه تعالى قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي أحيوهم إن كان ما تقولونه حقًّا . قال اللّه تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ أي كما تشاهدون ذلك يخرجكم من العدم إلى الوجود أي فالذي قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي إنما يجمعكم إلى يوم القيامة لايعيدكم في الدنيا حتى تقولوا ﴿ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي لا شك فيه ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي فلهذا ينكرون المعاد ويستبعدون قيام الأجساد قال اللّه تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ أي يرون وقوعه بعيدًا والمؤمنون يرون ذلك سهلًا قريبًا .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٢٧ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٨ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض والحاكم فيهما في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ وهم الكافرون باللّه الجاحدون بما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات .

ثم قال تعالى : ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ أي على ركبها من الشدة والعظمة ، ويقال إن هذا إذا جيء بجهنم فإنها تزفر زفرة ، لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه ، حتى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ويقول : نفسي نفسي ! لا أسألك اليوم إلا نفسي . وحتى إن عيسى عليه الصلاة والسلام ليقول : لا أسألك اليوم إلا نفسي ، لا أسألك مريم التي ولدتني . وعن عبد اللّه بن باباه أن رسول اللّه ﷺ قال : « كأني أراكم جاثين بالكوم دون جهنم »[٤] .

وقوله ﷻ : ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ﴾ يعني كتاب أعمالها ولهذا قال ﷺ : ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٩١) وأحمد في مسنده (٢/٢٧٢) .
(٢) أخرجه مسلم في الأدب (٥) وأحمد في مسنده (٢/٣٩٥) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٠٠) والحاكم في المستدرك (٢/٤٩١) .
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/٢٧٢) .

تَعْمَلُونَ ﴾ أي تجازون بأعمالكم خيرها وشرها ولهذا قال جلت عظمته ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أي يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص . وقوله ﷻ ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم . قال ابن عباس ﵄ وغيره : تكتب الملائكة أعمال العباد ثم تصعد بها إلى السماء ، فيقابلون الملائكة الذين في ديوان الأعمال على ما بأيدي الكتبة ، مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر ، مما كتبه الله في القدم على العباد قبل أن يخلقهم فلا يزيد حرفًا ولا ينقص حرفًا ثم قرأ ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عن حكمه في خلقه يوم القيامة ، فقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي : آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة وهي الخالصة الموافقة للشرع ﴿ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ﴾ وهي الجنة كما ثبت في الصحيح أن الله تعالى قال للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء (١) ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي البين الواضح . ثم قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا : أما قرئت عليكم آيات الله تعالى فاستكبرتم عن اتباعها ، وأعرضتم عن سماعها ، وكنتم قومًا مجرمين في أفعالكم مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب ؟ ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ ، أي إذ قال لكم المؤمنون ذلك ﴿ قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ أي لانعرفها ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾ أي إن نتوهم وقوعها إلا توهمًا أي مرجوحًا ولهذا قال : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ أي بمتحققين . قال الله تعالى : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ ﴾ أي وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي أحاط بهم ﴿ مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي من العذاب والنكال ﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ ﴾ أي نعاملكم معاملة الناسي لكم في نار جهنم ﴿ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ أي فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به ﴿ وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ . وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة «ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى يا رب . فيقول : أفظننت أنك ملاقي ؟ فيقولى : لا . فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتني » (٢) .

قال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾ أي إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخريا تسخرون وتستهزئون بها ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي خدعتكم فاطمأننتم

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٥٠) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٤) وأحمد في مسنده (٢/٢٧٦) .
(٢) أخرجه مسلم في الزهد (١٥) .

إليها فأصبحتم من الخاسرين ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ أي من النار ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي لا يطلب منهم العتبى بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب ثم لما ذكر تعالى حكمه في المؤمنين والكافرين ، قال ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي المالك لهما وما فيهما ، ولهذا قال : ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ثم قال جل وعلا ﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قال مجاهد : يعني السلطان أي هو العظيم الممجد الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه . وقد ورد في الحديث الصحيح « يقول اللّٰه تعالى : العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي فمن ، نازعني واحدًا منهما أسكنته ناري »[1] . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي الذي لا يغالب ولا يمانع ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره تعالى وتقدس لا إله إلا هو .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٢/٢) والحاكم في المستدرك (١٦/١) .

سورة الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه أنزل الكتاب على عبده ورسوله محمد ﷺ ، ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام ، الحكمة في الأقوال والأفعال ، ثم قال تعالى : ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي لا على وجه العبث والباطل ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي وإلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴾ أي لاهون عما يراد بهم ، وقد أنزل الله تعالى إليهم كتابًا وأرسل إليهم رسولًا ، وهم معرضون عن ذلك كله أي وسيعلمون غبَّ ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ أي لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره ﴿ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أي ولاشرك لهم في السموات ولافي الأرض وما يملكون من قطمير ، إن الملك والتصرف كله إلا لله ﷻ ، فكيف تعبدون معه غيره وتشركون به ؟ من أرشدكم إلى هذا ؟ من دعاكم إليه ؟ أهو أمركم به ؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم ؟ ولهذا قال : ﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ ﴾ أي هاتوا كتابًا من كتب الله المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، يأمركم بعبادة هذه الأصنام ﴿ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ أي دليل بين على هذا المسلك الذي سلكتموه ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي لا دليل لكم لا نقليًا ولا عقليًا على ذلك ، ولهذا قرأ آخرون : أو ﴿ أو أَثَرة من علم ﴾ أي : أو علم صحيح تؤثرونه عن أحد ممن قبلكم ، كما قال مجاهد في : ﴿ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ : أو أحد يأثر علما ، وقال العوفي عن ابن عباس : أو بنية من الأحقاف .

وعن ابن عباس ﵄ ، قال أو أثرة من علم ، قال : الخط [١] . وقال أبو بكر بن عياش : أو بقية من علم .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ أي لا أضل ممن يدعو من دون الله أصنامًا ، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة ، وهي غافلة عما يقول لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش ، لأنها جماد وحجارة صم . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ كقوله ﷻ : ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أي سيخونونهم أحوج مايكونون إليهم .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ قُلْ مَا كُنتُ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٦/١) .

بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

يقول ﷻ مخبرًا عن المشركين في كفرهم وعنادهم : إنهم إذا تتلى عليهم آيات الله بينات ، أي في حال بيانها ووضوحها وجلائها ، يقولون : ﴿ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي سحر واضح وقد كذبوا وافتروا وضلوا وكفروا ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ ﴾ يعنون محمد ﷺ قال الله ﷻ : ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ ﴾ أي لوكذبت عليه وزعمت أنه أرسلني وليس كذلك لعاقبني أشد العقوبة ، ولم يقدر أحد من أهل الأرض لا أنتم ولا غيركم ، أن يجيرني منه ، ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ ﴾ هذا تهديد لهم ووعيد أكيد وترهيب شديد .

وقوله جل وعلا : ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة ، أي ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم تاب عليكم وعفا عنكم وغفر ورحم ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ أي لست بأول رسول طرق العالم بل قد جاءت الرسل من قبلي ، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكرون وتستبعدون بعثتي إليكم ؛ فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم ، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ ما أنا بأول رسول .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية : نزل بعدها ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ ، وهكذا قال عكرمة والحسن وقتادة : والذي هو ثابت في الصحيح أن المؤمنين قالوا : هنيئًا لك يا رسول الله فما لنا ؟ فأنزل الله ﷻ هذه الآية . وقال الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ ﴾ قال : أما في الآخرة فمعاذ الله وقد علم أنه في الجنة ، ولكن قال : لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا ، أخرج كما أخرجت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قبلي ؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي ؟ ولا أدري أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة ؟ وهذا القول هو الذي عول عليه ابن جرير وأنه لايجوز غيره ، ولاشك أن هذا هو اللائق به ﷺ ، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه ، وأما في الدنيا ؛ فلم يدر ماكان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا ، أيؤمنون أم يكفرون ، فيعذبون فيستأصلون بكفرهم .

روي عن أم العلاء وكانت بايعت رسول الله ﷺ قالت : طار لهم في السكني حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمان بن مظعون رضي الله عنه فاشتكى عثمان رضي الله عنه عندنا فمرضناه ، حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، شهادتي عليك لقد أكرمك الله ﷻ ، فقال رسول الله ﷺ : « وما يدريك أن الله تعالى أكرمه ؟ » فقلت : لا أدري بأبي أنت وأمي ، فقال رسول الله ﷺ « أما هو فقد جاءه اليقين من ربه ، وإني لأرجو له الخير ، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي » . قالت : والله لا أزكي أحدًا بعده أبدًا وأحزنني ذلك فنمت فرأيت لعثمان رضي الله عنه عينًا تجري ، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « ذاك عمله » (١) .

وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نص الشارع على تعيينهم كالعشرة وابن سلام والعميصاء وبلال وسراقة ، وعبد الله بن عمرو ابن حرام والد جابر ، والقراء السبعين

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٤٣) .

الذين قتلوا ببئر معونة ، وزيد بن حارثة وجعفر بن رواحة وما أشبه هؤلاء ﷺ . وقوله ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ . أي إنما اتبع ما ينزله الله علي من الوحي ﴿ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي بين النذارة أمري ظاهر لكل ذي لب وعقل ، والله أعلم .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ أي ماظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي جمعكم به قد أنزل علي لأبلغكموه ، وقد كفرتم به وكذبتموه ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾ أي وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبلي ، بشرت به واخبرت بمثل ما اخبر هذا القرآن به . وقوله ﷻ ﴿ فَـَٔامَنَ ﴾ أي هذا الذي شهد بصدقه من بني إسرائيل لمعرفته بحقيقته ﴿ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أنتم عن اتباعه ، وقال مسروق : فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام ﷺ وغيره ، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام ﷺ ، عن عامر ابن سعد عن أبيه قال : ماسمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض أنه من أهل الجنة ، إلا لعبد الله بن سلام ﷺ ، قال : وفيه نزلت ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ أي قالوا عن المؤمنين بالقرآن لوكان القرآن : خيرًا ماسبقنا هؤلاء إليه ، يعنون بلالًا وعمارًا وصهيبًا وخبابًا ﷺ ، وأشباههم وأضرابهم من المستضعفين والعبيد والإماء ، وماذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية ، وقد غلطوا في ذلك غلطًا فاحشًا وأخطأوا خطأ بينًا ولهذا قالوا : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ وأما أهل السنة والجماعة ، فيقولون : في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة ﷺ هو بدعة ؛ لأنه لوكان خيرًا لسبقونا إليه ؛ لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي بالقرآن ﴿ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ : أي كذب قديم ، أي مأثور عن الناس الأقدمين فينتقصون القرآن وأهله ، وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله ﷺ : « بطر الحق ، وغمط الناس » (٢) . ثم قال تعالى : ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ وهو التوراة ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ ﴾ يعني القرآن ﴿ مُّصَدِّقٌ ﴾ أي لما قبله من الكتب ﴿ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أي فصيحًا بينًا واضحًا ﴿ لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي مشتمل على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين ، وقوله

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨١٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٠٩٢) وأحمد في مسنده (١/٣٨٥) .

تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي فيما يستقبلون ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ماخلفوا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسبوغها عليهم ، والله أعلم .

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه ، عطف بالوصية بالوالدين كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن كقوله ﷻ : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ . وقال ﷻ ههنا : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾ أي أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما عن سعد ﷺ قال : قالت أم سعد لسعد : أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين ؟ فلا آكل طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى تكفر بالله تعالى ، فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يفتحون فاها بالعصا ونزلت هذه الآية ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾ الآية (١) . ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا ﴾ أي قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعبًا من وحم وغشيان وثقل وكرب ، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة ، ﴿ وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ أي بمشقة أيضا من الطلق وشدته ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ وقد استدل علي ﷺ بهذه الآية مع التي في لقمان ﴿ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ وقوله تبارك وتعالى ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وهو استنباط قوي صحيح ، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة ﷺ .

وعن ابن عباس قال : إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهرًا ، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرًا ، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ أي قوي وشب وارتجل . ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ أي تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه .. ويقال : إنه لا يتغير غالبًا عما يكون عليه ابن الأربعين ، عن القاسم بن عبد الرحمن قال : قلت لمسروق : متى يؤخذ الرجل بذنوبه ؟ قال : إذا بلغت الأربعين فخذ حذرك .

عن عثمان ﷺ عن النبي ﷺ قال : « العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة ، خفف الله تعالى حسابه ، وإذا بلغ ستين سنة رزقه الله تعالى الإنابة إليه ، وإذا بلغ سبعين سنة أحبه أهل السماء ، وإذا بلغ ثمانين سنة ثبت الله تعالى حسناته ومحا سيئاته ، وإذا بلغ تسعين سنة غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، وشفعه الله تعالى في أهل بيته ، وكتب في السماء أسير الله في أرضه » (٢) وقد قال الحجاج بن عبد الله الحكمي أحد أمراء بني أمية بدمشق ، تركت المعاصي والذنوب أربعين سنة حياء من الناس ، ثم تركتها حياء من الله ﷻ :

﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ ﴾ أي ألهمني ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٤٣) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٨/٣) .

أي في المستقبل ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ﴾ أي نسلي وعقبي ﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله ﷻ ويعزم عليها ، عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم أن يقولوا في التشهد : « اللَّهم ألف بين قلوبنا ، وأصلح ذات بيننا ، واهدنا سبل السلام ، ونجنا من الظلمات إلى النور ، وجنبنا الفواحش ماظهر منها ومابطن ، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا ، وتب علينا إنك أنت التوّاب الرحيم ، واجعلنا شاكرين نعمتك ، مثنين بها عليك قابليها ، وأتممها علينا (١) » .

قال الله ﷻ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي هؤلاء المتصفون بما ذكرنا ، التائبون إلى الله المنيبون إليه ، المستدركون مافات بالتوبة والاستغفار ، هم الذين نتقبل عنهم أحسن ماعملوا ونتجاوز عن سيئاتهم ؛ فنغفر لهم الكثير من الزلل ، ونتقبل منهم اليسير من العمل .

﴿ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي هم في جملة أصحاب الجنة ؟ وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله ﷻ من تاب إليه وأناب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ ، عن الروح الأمين عليه الصلاة والسلام قال : « يؤتى بحسنات العبد وسيئاته ، فيقتص بعضها ببعض ، فإن بقيت حسنة وسع الله تعالى له في الجنة » قال : فدخلت على يزداد ، فحدث بمثل هذا ، قال : قلت : فإن ذهبت الحسنة ؟ قال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ (٢) .

عن محمد بن حاطب قال : ونزل في داري حيث ظهر علي ﷺ على أهل البصرة فقال لي يومًا : لقد شهدت أمير المؤمنين عليًا ﷺ ، وعنده عمار وصعصعة والأشتر ومحمد بن أبي بكر ﷺ ، فذكروا عثمان ﷺ فنالوا منه ، فكان علي ﷺ على السرير ومعه عود في يده ، فقال قائل منهم : إن عندكم من يفصل بينكم ، فسألوه ، فقال علي ﷺ : كان عثمان ﷺ من الذين قال الله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ قال : والله عثمان وأصحاب عثمان ﷺ ، قالها ثلاثًا . قال يوسف : فقلت لمحمد بن حاطب : آلله لسمعت هذا من علي ﷺ ؟ قال : آلله لسمعت هذا من علي ﷺ .

﴿ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز ، والنجاة ، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال : ﴿ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ وهذا عام في كل من قال هذا ، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ فقوله ضعيف ؛ لأن عبد الرحمن بن أبي

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٩٦٥) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٤/٢٦) .

بكر ﷺ أسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه . عن يوسف بن ماهك قال : كان مروان على الحجاز ، استعمله معاوية بن أبي سفيان ﷺ فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه ، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ شيئًا ، فقال : خذوه ، فدخل بيت عائشة ﷺ فلم يقدروا عليه ، فقال مروان : إن هذا الذي أنزل فيه : ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى ﴾ فقالت عائشة ﷺ من وراء الحجاب : ما أنزل الله ﷻ فينا شيئًا من القرآن إلا أن الله تعالى أنزل عذري (١) .

وقوله : ﴿ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أي أبعث ﴿ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى ﴾ أي قد مضى الناس فلم يرجع منهم مخبتر ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ ﴾ أي يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما ﴿ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ أي دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم ، من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . وقوله ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ بعد قوله ﴿ وَالَّذِى قَالَ ﴾ دليل على ماذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك . وقال الحسن وقتادة : هو الكافر الفاجر العاق لوالديه المكذب بالبعث .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾ أي لكل عذاب بحسب عمله ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أي لا يظلمهم ، من مثقال ذرة فما دونها . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : درجات النار تذهب سفالًا ، ودرجات الجنة تذهب علوًا . وقوله ﷻ : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخًا ، وقد تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ عن كثيرمن طيبات المآكل والمشارب . وتنزه عنها ويقول : إني أخاف أن أكون كالذين قال الله لهم ووبخهم وقرعهم . ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ . وقال أبو مجلز : ليفقدن أقوام حسنات كانت لهم في الدنيا فيقال لهم : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

وقوله ﷻ : ﴿ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ فجوزوا من جنس عملهم ، فكما متعوا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق وتعاطوا الفسق والمعاصي ، جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون ، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجعة والحسرات المتتابعة والمنازل في الدركات المفظعة ، أجارنا الله ﷻ من ذلك كله .

﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

يقول تعالى مسليًا لنبيه ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ ﴾ وهو هود عليه الصلاة والسلام ، بعثه الله ﷻ إلى عاد الأولى وكانوا يسكنون الأحقاف ، جمع حقف وهو الجبل

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٢٧) .

من الرمل ، قال ابن زيد ، وقال عكرمة : الأحقاف الجبل والغار ، وقال علي بن أبي طالب ﷺ : الأحقاف واد بحضرموت يدعى برهوت تلقى فيه أرواح الكفار ، عن ابن عباس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « يرحمنا الله وأخا عاد »[1] . وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ ﴾ يعني وقد أرسل الله تعالى إلى من حول بلادهم في القرى مرسلين ومنذرين كقوله ﷻ : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي قال لهم هود ذلك ، فأجابه قومه قائلين ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ أي لتصدنا عن آلهتنا ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعادًا منهم وقوعه ﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فسيفعل ذلك بكم ، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به ﴿ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ أي لا تعقلون ولا تفهمون .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ أي لما رأوا العذاب مستقبلهم اعتقدوا أنه عارض ممطر ، ففرحوا واستبشروا به وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر . قال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي هو العذاب الذي قلتم : فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴿ تُدَمِّرُ ﴾ أي تخرب ﴿ كُلَّ شَىْءٍۭ ﴾ من بلادهم مما من شأنه الخراب ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أي بإذن الله لها في ذلك . ولهذا قال ﷻ : ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ أي قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا وخالف أمرنا . عن الحارث البكري قال : خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ ، فمررت بالربذة فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها ، فقالت لي : ياعبد الله إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة ، فهل أنت مبلغي إليه ؟ قال : فحملتها فأتيت بها المدينة ، فإذا المسجد غاص بأهله ، وإذا راية سوداء تخفق ، وإذا بلال ﷺ ، متقلدًا السيف بين يدي رسول الله ﷺ فقلت : ما شأن الناس ؟ قالوا : يريد أن يبعث عمرو بن العاص ﷺ وجهًا قال : فجلست فدخل منزله - أو قال : رحله - فاستأذنت عليه ، فإذن لي ، فدخلت فسلمت ، فقال ﷺ : « هل كان بينكم وبين تميم شيء ؟ » قلت : نعم وكانت لنا الدائرة عليهم ، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها ، فسألتني أن أحملها اليك فهاهي بالباب ، فأذن لها فدخلت فقلت : يارسول الله ان رأيت إن تجعل بيننا وبين تميم حاجزًا فاجعل الدهناء ، فحميت العجوز واستوفزت وقالت : يا رسول الله فإلى أين يضطر مضطرك ؟ قال : قلت : إن مثلي ماقال الأول معزى حملت حتفها ، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصما ، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد ، قال لي وما وافد عاد ؟ ، - وهو أعلم بالحديث منه ، ولكن يستطعمه - قلت : إن عادًا قحطوا فبعثوا وفدًا لهم يقال له قيل ، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهرًا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما : الجرادتان ، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة ، فقال : اللّهم إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه ، اللّهم اسق عادًا ماكنت تسقيه ، فمرت به سحابات سود فنودي منها : اختر . فأومأ إلى سحابة منها سوداء فنودي منها ، خذها رمادا رمددًا ، لاتبقي

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٨٥٢) .

من عاد أحدًا ، قال : فما بلغني أنه أرسل عليهم من الريح إلا قدر مايجري في خاتمي هذا حتى هلكوا ، قال أبو وائل : وصدق وكانت المرأة والرجل اذا بعثوا وافدا لهم قالوا : لاتكن كوافد عاد [(١)] . وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا ضاحكًا حتى أرى منه لهواته إنما كان يبتسم . وقالت : كان رسول الله ﷺ إذا رأى غيمًا أو ريحًا عرف ذلك في وجهه . قالت : يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية ، فقال رسول الله ﷺ : « يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ؟ قد عذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب وقالوا : هذا عارض ممطرنا » [(٢)] . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فتح على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم ، ثم أرسلت عليهم في البدو إلى الحضر ، فلما رآها أهل الحضر قالوا : هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا ، وكان أهل البوادي فيها ، فألقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا - قال - : عتت على خزانها حتى خرجت من خلال الأبواب » [(٣)] .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد ، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريبًا منه ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي وأحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه ، أي فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ يعني أهل مكة ، وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها كعاد ، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن ، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام ، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن ، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة ، وكذلك بحيرة قوم لوط كانوا يمرون بها أيضا . وقوله عز وجل : ﴿ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ ﴾ أي بيناها وأوضحناها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ﴾ أي فهل نصروهم عند احتياجهم إليهم ؟ ﴿ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ﴾ أي بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم ﴿ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ ﴾ أي : كذبهم ﴿ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ أي وافتراؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها واعتمادهم عليها ، والله أعلم .

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٨٣/٣) والطبراني في الكبير (٢٨٨/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٢٨ ، ٤٨٢٩) ومسلم في صلاة الاستسقاء (١٦) وأحمد في مسنده ٦٦/٦ ، ولهواته : جمع لهاة وهي اللحمة الحمراء المعلقة في أعلى الحنك .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٢/١٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٣/٧) .

﴿أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ .

عن الزبير ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ قال : بنخلة ، ورسول الله ﷺ يصلي العشاء الآخرة [(١)] ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ قال سفيان : اللبد بعضهم على بعض كاللبد بعضه على بعض ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم ، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين ، إلى قومهم فقالوا : ما لكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب ، قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء . فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامدًا إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا : هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ وأنزل الله على نبيه ﷺ : ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وإنما أوحي إليه قول الجن [(٢)] .

وذكر محمد بن كعب القرظي قصة خروج النبي ﷺ إلى الطائف ودعائه إياهم إلى الله ﷻ وإبائهم عليه ، فذكر القصة بطولها وأورد ذلك الدعاء الحسن : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت أرحم الراحمين وأنت رب المستضعفين ، وأنت ربي إلى من تكلني ؟ إلى عدو بعيد يتجهمني ، أم إلى صديق قريب ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، غير أن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك ، أو يحل بي سخطك ، ولك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » [(٣)] .

قال : فلما انصرف عنهم بات بنخلة فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه الجن من أهل نصيبين ، وهذا صحيح ، ولكن قوله : إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر ؛ فإن الجن كان استماعهم في ابتداء الإيحاء كما دل عليه حديث ابن عباس المذكور ، وخروجه ﷺ إلى الطائف كان بعد موت عمه ، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ قال : صه ، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة ، فأنزل الله ﷻ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ إلى : ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فهذا مع الأول من رواية ابن عباس رضي الله عنهما يقتضي أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة ، وإنما استمعوا قراءته ثم رجعوا إلى قومهم ، ثم

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٧/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٢/١) والحاكم في المستدرك (٥٠٣/٢) والترمذي في السنن (٣٣٢٣) .
(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٥/٦) والسيوطي في جمع الجوامع (٩٧٤٣) .

بعد ذلك وفدوا إليه أرسالًا قومًا بعد قوم ، وفوجًا بعد فوج .

عن معن بن عبد الرحمن ، قال : سمعت أبي يقول : سألت مسروقًا من آذن النبي ﷺ ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : حدثني . أبوك - يعني ابن مسعود ﷺ - أنه آذنته بهم شجرة (١) ، فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى ويكون إثباتًا مقدمًا على نفي ابن عباس ﷺ ، ويحتمل أن يكون في الأولى ، ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة أي أعلمته باجتماعهم ، والله أعلم ، ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات ، والله أعلم .

قال الحافظ البيهقي : وهذا الذي حكاه ابن عباس ﷺ إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ ، وعلمت حاله ، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم ، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله ﷻ كما رواه عبد الله بن مسعود ﷺ .

ذكر الرواية عنه بذلك : عن علقمة قال : قلت لعبد الله بن مسعود ﷺ : هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحدًا فقال : ما صحبه منا أحد ، ولكنا فقدناه ذات ليلة بمكة ، فقلنا : اغتيل ؟ استطير ؟ ما فعل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما كان في وجه الصبح - أو قال في السحر - : إذ نحن به يجيء من قبل حراء ، فقلنا : يارسول الله ، فذكروا له الذي كانوا فيه فقال : « إنه أتاني داعي الجن ، فأتيتهم فقرأت عليهم » قال : فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، قال : قال الشعبي : سألوه الزاد ، قال عامر : سألوه بمكة وكانوا من جن الجزيرة فقال : « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحمًا ، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم » - قال - : « فلا تستنجوا بهما ، فإنهما زاد إخوانكم من الجن » (٢) .

عن ابن عباس عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : إنه كان مع رسول الله ﷺ ليلة الجن فقال رسول الله ﷺ : « يا عبد الله أمعك ماء ؟ » قال : معي نبيذ في إداوة . قال ﷺ : « اصبب عليَّ فتوضأ . فقال النبي ﷺ : « يا عبد الله شراب وطهور » (٣) . وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ خط حوله ، فكان أحدهم مثل سواد النحل ، وقال : « لا تبرح مكانك فأقرئهم كتاب الله » فلما رأى المرعى قال : كأنهم هؤلاء وقال النبي ﷺ : « أمعك ماء ؟ » قلت : لا . قال : « أمعك نبيذ ؟ » قلت : نعم ، فتوضأ به (٤) .

وعن قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ قال : ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نينوى وأن نبي الله ﷺ قال : « إني أمرت أن أقرأ على الجن فأيكم يتبعني ؟ » فاطرقوا ثم استتبعهم ، فأطرقوا ثم استتبعهم الثالثة ، فقال رجل : يارسول الله إن ذاك لذو ندبة ، فأتبعه ابن مسعود ﷺ أخو هذيل ، قال : فدخل النبي ﷺ شعبا يقال له : شعب الحجون وخط عليه ، وخط على ابن مسعود ﷺ خطا ليثبته بذلك ، قال : فجعلت أهال وأرى أمثال النسور تمشي في دفونها ، وسمعت لغطًا شديدًا حتى خفت على نبي الله ﷺ ، ثم تلا القرآن فلما رجع رسول الله ﷺ قلت : يا رسول الله

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٥٩) ومسلم في الصلاة (١٥٣) .
(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (١٥٢) والترمذي في السنن (٣٢٥٨) وأحمد في مسنده (٤٣٦/١) والبيهقي في السنن (١١/١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٨/١) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٥/١) .

ما اللغط الذي سمعت ؟ قال ﷺ : « اختصموا في قتيل ، فقضي بينهم بالحق »[(١)] .

فهذه الطرق كلها تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصدًا ، فتلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله ﷻ وشرع الله تعالى لهم على لسانه ماهم محتاجون إليه في ذلك الوقت ، وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم ، كما قال ابن عباس ﵄ . ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود ﵁ ، وأما ابن مسعود ﵁ فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم ، وإنما كان بعيدًا منه ، ولم يخرج مع النبي ﷺ أحد سواه ، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة ، هذه طريقة البيهقي ، وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ﷺ ابن مسعود ﵁ ولا غيره ، عن سعيد بن عمرو قال : كان أبو هريرة ﵁ يتبع رسول الله ﷺ بإدواة لوضوئه وحاجته ، فأدركه يومًا فقال : « من هذا ؟ » قال : أنا أبو هريرة . قال ﷺ : « ائتني بأحجار استنج بها ، ولا تأتني بعظم ولاروثة » فأتيته بأحجار في ثوبي فوضعتها إلى جنبه حتى إذا فرغ وقام اتبعته ، فقلت : يا رسول الله ما بال العظم والروثة ؟ قال ﷺ : « أتاني وفد جن نصيبين فسألوني الزاد ، فدعوت الله تعالى لهم أن لايمروا بروثة ولا عظم إلا وجدوه طعامًا »[(٢)] فهذا يدل على ماتقدم على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك .

وقد روي عن ابن عباس غير ما روي عنه أولًا من وجه جيد ، في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ الآية . قال : كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين ، فجعلهم رسول الله رسلًا إلى قومهم . فهذا يدل على أنه قد روى القصتين .

عن ابن مسعود ﵁ : كانوا تسعة أحدهم زوبعة ، أتوه من أصل نخلة ، وتقدم عنهم أنهم كانوا خمسة عشر ، وفي رواية : أنهم كانوا على ستين راحلة ، وتقدم عنه أن اسم سيدهم وردان ، وقيل : كانوا ثلثمائة ، وتقدم عن عكرمة أنهم كانوا اثني عشر ألفًا ، فلعل هذا الاختلاف دليل على تكرر وفادتهم عليه ﷺ ، ومما يدل على ذلك قول عبد الله بن عمر ﵄ : ما سمعت عمر ﵁ يقول لشيء قط إني لأظنه هكذا إلا كان كما يظن ، بينما عمر بن الخطاب ﵁ جالس ؛ إذ مر به رجل جميل فقال : لقد أخطأ ظني - أو أن هذا على دينه في الجاهلية ، أو لقد كان كاهنهم - علي بالرجل ، فدعي له ، فقال له ذلك ، فقال : ما رأيت كاليوم استقبل به رجل مسلم ، قال : فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني قال : كنت كاهنهم في الجاهلية قال : فما أعجب ما جاءتك به جنيتك ، قال : بينما أنا يومًا في السوق جاءتني أعرف فيها الفزع فقالت :

ألم تر الجن وإبلاسها ... ويأسها من بعد انكاسها
ولحوقها بالقلاص وأحلاسها

قال عمر ﵁ : صدق ، بينما أنا نائم عند آلهتهم ؛ إذ جاء رجل بعجل فذبحه فصرخ به صارخ لم أسمع صارخًا قط أشد صوتًا منه يقول : ياجليح ، أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول لا إله إلا الله قال : فوثب القوم فقلت : لا أبرح حتى أعلم ماوراء هذا ، ثم نادى : ياجليح ، أمر نجيح ، رجل فصيح يقول : لا إله إلا الله ، فقمت فما نشبنا أن قيل : هذا نبي[(٣)] .

---

(١) ذكره ابن جرير في تفسيره (٤١/٢٦) .
(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٦٠) .
(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٦٦) .

وعن البراء ﷺ قال : بينما عمر بن الخطاب ﷺ يخطب الناس على منبر رسول الله ﷺ إذ قال : أيها الناس أفيكم سواد بن قارب ؟ قال : فلم يجبه أحد تلك السنة . فلما كانت السنة المقبلة قال : أيها الناس أفيكم سواد بن قارب ؟ قال : فقلت : يا أمير المؤمنين وماسواد بن قارب ؟ قال : فقال له عمر ﷺ : إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئًا عجيبًا ، قال : فبينما نحن كذلك ؛ إذ طلع سواد ابن قارب قال : فقال له عمر ﷺ يا سواد حدثنا ببدء إسلامك كيف كان ؟ قال سواد ﷺ : فإني كنت نازلًا بالهند وكان لي رئي من الجن ، قال : فبينما أنا ذات ليلة نائم إذ جاءني في منامي ذلك ، قال : قم فافهم واعقل إن كنت تعقل ، قد بعث رسول من لؤي بن غالب ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتحساسها ... وشدها العيس بأحلاسها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... ما خير الجن كأنجاسها
فانهض إلى الصفوة من هاشم ... واسم بعينك إلى رأسها

قال : ثم أنبهني فأفزعني وقال : يا سواد بن قارب ، إن الله ﷻ بعث نبيًا فانهض إليه تهتد وترشد ، فلما كان من الليلة الثانية أتاني فأنبهني ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتطلابها ... وشدها العيس بأقتابها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... ليس قداماها كأذنابها
فانهض إلى الصفوة من هاشم ... واسم بعينك إلى قابها

فلما كان في الليلة الثالثة أتاني فأنبهني ثم قال :

عجبت للجن وتخبارها ... وشدها العيس بأكوارها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... ليس ذوو الشر كأخيارها
فانهض إلى الصفوة من هاشم ... ما مؤمنو الجن ككفارها

قال : فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة وقع في قلبي حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ما شاء الله ، قال : فانطلقت إلى رحلي فشددته على راحلتي ، فما حللت تسعة ولا عقدت أخرى حتى أتيت رسول الله ﷺ فإذا هو بالمدينة يعني مكة ، والناس عليه كعرف الفرس ، فلما رآني النبي ﷺ قال : « مرحبًا بك يا سواد بن قارب قد علمنا ماجاء بك ، قال : قلت : يا رسول الله قد قلت شعرًا فاسمعه مني قال ﷺ : « قل ياسواد » فقلت :

اتاني رئيي بعد ليل وهجعة ... ولم يك فيما قد بلوت بكاذب
ثلاث ليال قوله كل ليلة ... أتاك رسول من لؤي بن غالب
فشمرت عن ساقي الإزار ووسطت ... بي الدِّعْلِبُ الوجناء بين السَّبَاسِبِ
فأشهد أن الله لا رب غيره ... وأنك مأمون على كل غائب
وأنك أدنى المرسلين وسيلة ... إلى الله يا ابن الأكرمين الأطايب

فمرنا بما ياتيك يا خير مرسل وإن كان فيما جاء شيب الذوائب
وكن لي شفيعًا يوم لاذو شفاعة سواك بمغن عن سواد بن قارب

قال : فضحك ، النبي ﷺ حتى بدت نواجذه وقال لي : « أفلحت ياسواد » فقال له عمر ﷺ : هل يأتيك رئيك الآن ؟ فقال : منذ قرأت القرآن لم يأتني ، ونعم العوض كتاب الله ﷻ من الجن (١) .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ أي طائفة من الجن ﴿ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ﴾ أي استمعوا وهذا أدب منهم .

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال : قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال : « ما لي أراكم سكوتا ؟ للجن كانوا أحسن منكم ردًا ، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إلا قالوا : ولابشيء من آلائك أو نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » (٢) . وقوله ﷻ ﴿ فَلَمَّا قُضِىَ ﴾ أي فرغ كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ ﴾ ﴿ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ أي رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نذر وليس فيهم رسل ، ولاشك أن الجن لم يبعث الله تعالى منهم رسولًا لقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ ﴾ . وقال عن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ﴾ فكل نبي بعثه الله تعالى بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته .

فأما قوله تبارك وتعالى في الأنعام : ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ فالمراد هنا مجموع الجنسين فيصدق على أحدهما وهو الإنس كقوله : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ أي أحدهما ، ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبرا عنهم : ﴿ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ ولم يذكروا عيسى لأن عيسى ﷺ أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم ، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة فالعمدة هو التوراة ، فلهذا قالوا : أنزل من بعد موسى ، وهكذا قال ورقة بن نوفل حين أخبره النبي ﷺ بقصة نزول جبريل عليه الصلاة والسلام أول مرة فقال : بخ بخ ! هذا الناموس الذي كان يأتي موسى ، ياليتني أكون فيه جذعًا . ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي من الكتب المنزلة على الأنبياء قبله . وقوله ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾ أي في الاعتقاد والإخبار ﴿ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ في الأعمال ؛ فإن القرآن مشتمل على شيئين خبر وطلب ، فخبره صدق ، وطلبه عدل ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ .

وهكذا قالت الجن ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾ في الاعتقادات ﴿ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي في العمليات ﴿ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ ﴾ فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمدًا ﷺ إلى الثقلين الجن والإنس ، حيث دعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم وهي سورة الرحمن ولهذا قال : ﴿ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ قيل : إن من ههنا زائدة ، وفيه نظر ؛ لأن زيادتها في الإثبات قليل ، وقيل : إنها

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٢٥١) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٤٧٣) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/١٧) .

على بابها للتبعيض ﴿ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي ويقيكم من عذابه الأليم ، وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لايدخلون الجنة ، وإنما جزاء صالحيهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة ، ولهذا قالوا هذا في هذا المقام وهو مقام تبجح ومبالغة ، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه . عن ابن عباس ﵄ قال : لايدخل مؤمنو الجن الجنة ؛ لأنهم من ذرية إبليس ، ولاتدخل ذرية إبليس الجنة ، والحق أن مؤمنيهم كمؤمني الإنس يدخلون الجنة كما هو مذهب جماعة من السلف ، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله ﷻ : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ وفي هذا الاستدلال نظر ، وأحسن منه قوله جل وعلا : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة ، وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولي أبلغ من الإنس فقالوا : ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد ، فلم يكن تعالى ليمتن عليهم بجزاء لايحصل لهم ، وأيضًا فإنه إذا كان يجازي كافرهم بالنار وهو مقام عدل ؛ فلأن يجازي مؤمنهم بالجنة وهو مقام فضل بطريق الأولى والأحرى .

وقد أفردت هذه المسألة في جزء على حدة ولله الحمد والمنة ، وهذه الجنة لايزال فيها فضل حتى ينشئ الله تعالى لها خلقًا ، أفلا يسكنها من آمن به وعمل له صالحًا ؟ وماذكروه ههنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجارة من العذاب الأليم ، هو يستلزم دخول الجنة ؛ لأنه ليس في الآخرة إلا الجنة أو النار ، فمن أجيرمن النار دخل الجنة لامحالة ، ولم يرد معنا نص صريح ولاظاهر عن الشرع أن مؤمني الجن لايدخلون الجنة ، وإن أجيروا من النار ، ولو صح لقلنا به ، والله أعلم ، ثم قال مخبرًا عنهم ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي بل قدرة الله شاملة له ومحيطة به ﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ﴾ أي لايجيرهم منه أحد ﴿ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ وهذا مقام تهديد وترهيب فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب ، ولهذا نجع في كثير منهم . وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وفودا وفودًا .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

يقول تعالى : أولم يرَ هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ أي ولم يكرثه خلقهم ، بل قال لها : كوني فكانت بلا ممانعة ولا مخالفة بل طائعة مجيبة خائفة وجلة ، فليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ثم قال ﷻ مهددا ومتوعدًا لمن كفر به ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ﴾ أي يقال لهم : أما هذا حق أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون ؟ ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ أي لايسعهم إلا الاعتراف ﴿ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ثم قال تبارك وتعالى آمرًا رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ أي على تكذيب قومهم لهم . وقد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال وأشهرها أنهم : نوح وإبراهيم

وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ ، وقد نص الله تعالى على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سورتي الأحزاب والشورى ، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرسل فتكون ﴿ مِنَ ﴾ في قوله ﴿ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ لبيان الجنس ، والله أعلم .

وعن مسروق قال : قالت لي عائشة رضي الله عنها : ظل رسول الله ﷺ صائمًا ثم طواه ، ثم ظل صائمًا ، ثم طواه ، ثم ظل صائما ثم قال : « يا عائشة إن الدنيا لاتنبغي لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله تعالى لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها والصبر على محبوبها ، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ماكلفهم فقال : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ وإني والله لأصبرن كما صبروا جهدي ولاقوة إلا بالله (١) ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ أي لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم . وقوله جل وعلا ﴿ بَلَٰغٌ ﴾ . قال ابن جرير : يحتمل معنيين : أحدهما : أن يكون تقديره : وذلك لبث بلاغ ، والآخر : أن يكون تقديره هذا القرآن بلاغ . وقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ أي لايهلك على الله إلا هالك ، وهذا من عدله عز وجل أنه لايعذب إلا من يستحق العذاب ، والله أعلم .

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٤٥) .

سورة محمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي بآيات الله ﴿ وَصَدُّوا ﴾ غيرهم ﴿ عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي أبطلها وأذهبها ولم يجعل لها ثوابا ولاجزاء . ثم قال جل وعلا : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي آمنت قلوبهم وسرائرهم وانقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم ﴿ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ عطف خاص على عام ، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ جملة معترضة حسنة ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي أمرهم . وقال مجاهد : شأنهم . وقال قتادة وابن زيد : حالهم ، والكل متقارب . وقد جاء في حديث تشميت العاطس « يهديكم الله ويصلح بالكم » [1] ثم قال ﷻ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ ﴾ أي إنما أبطلنا أعمال الكفار . وتجاوزنا عن سيئات الأبرار ، وأصلحنا شؤونهم ؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل أي اختاروا الباطل على الحق ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ أي يبين لهم مآل أعمالهم ، ومايصيرون إليه في معادهم .

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

يقول تعالى مرشدًا للمؤمنين إلى مايعتمدونه في حروبهم مع المشركين ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ أي إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدًا بالسيوف ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ أي أهلكتموهم قتلا ﴿ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ﴾ الأسارى الذين تأسرونهم ، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون في أمرهم ، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أسراهم مجانًا ، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه ، والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر ، فإن الله ﷻ عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ، ليأخذوا منهم الفداء والتقليل من القتل يومئذ فقال : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ الآية ، وقال الآخرون وهو الأكثرون : ليست بمنسوخة ، ثم قال بعضهم : إنما الإمام مخير بين المن على

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن(٥٠٣٣) والترمذي في السنن(٢٧٤١) وأحمد في مسنده(٤١٩/٥) والحاكم في المستدرك(٢٦٦/٤) .

الأسيرومفاداته فقط ، ولا يجوز له قتله . وقال آخرون منهم : بل له أن يقتله إن شاء لحديث قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط من أسارى بدر . وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له : « ماعندك يا ثمامة ؟ » فقال إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تمنن تمنن على شاكر ، وإن كنت تريد المال فاسأل تعط منه ما شئت [١] . وزاد الشافعي رحمة الله عليه فقال : الإمام مخير بين قتله أو المن عليه أو مفاداته أو استرقاقه أيضًا .

وقوله ﷻ : ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ﴾ قال مجاهد : حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، وكأنه أخذه من قوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال » [٢] . عن جبير بن نفير قال : إن سلمة بن نفيل أخبرهم أنه أتى رسول الله ﷺ فقال : «إني سيبت الخيل وألقيت السلاح ووضعت الحرب أوزارها وقلت : لا قتال ، فقال له النبي ﷺ : «الآن جاء القتال ، لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس ، يزيغ الله تعالى قلوب أقوام فيقاتلونهم ، ويرزقهم الله منهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ، ألا إن عقد دار المؤمنين بالشام ، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة » [٣] .

وقال قتادة : ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ﴾ حتى لا يبقى شرك ، . ثم قال بعضهم : ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ﴾ أي أوزار المحاربين وهم المشركون بأن يتوبوا إلى الله ﷻ ، وقيل : أوزار أهلها بأن يبذلوا الوسع في طاعة الله تعالى . وقوله ﷻ : ﴿ ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ ﴾ أي ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده ﴿ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ ﴾ أي ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم ، ويبلو أخباركم ثم لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ أي لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها . ومنهم من يجري عليه عمله طول برزخه .

فعن المقدام بن معد يكرب الكندي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن للشهيد عند الله ست خصال : أن يغفر له في أول دفقة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويحلى حلة الإيمان ، ويزوج الحور العين ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار مرصع بالدر والياقوت ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع في سبعين إنسانًا من أقاربه » [٤] . وعن أبي قتادة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين » [٥] . وقال أبو الدرداء ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته » [٦] .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ سَيَهۡدِيهِمۡ ﴾ أي إلى الجنة ﴿ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴾ أي أمرهم وحالهم ﴿ وَيُدۡخِلُهُمُ

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٧٢) ومسلم في الجهاد (٥٩) وأحمد في مسنده (٤٥٢/٢) وابن خزيمة في صحيحه (٢٥٣) .
(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٢٤٨٤) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٩٢) وابن ماجه في السنن (٦) وأحمد في مسنده (٩٧/٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٣١/٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩٣/٥) .
(٥) أخرجه مسلم في الإمارة (١١٩) وأحمد في مسنده (٢٢٠/٢) والحاكم في المستدرك (١١٩/٢) .
(٦) أخرجه أبو داود في السنن (٢٥٢٢) والبيهقي في السنن (١٦٥/٩) .

﴿ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي عرفهم بها وهداهم إليها . قال مجاهد : يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم ، وحيث قسم الله لهم منها لايخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا لايستدلون عليها أحد ، وقال محمد بن كعب : يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة . وقال مقاتل بن حيان : بلغنا أن الملك الذي كان وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة ، ويتبعه ابن آدم حتى يأتي أقصى منزل هو له ، فيعرفه كل شيء أعطاه الله تعالى في الجنة ، فإذا انتهى إلى أقصى منزله في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار : يتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا ؛ أذن لهم في دخول الجنة ، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله فى الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا » [1] .

ثم قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل ولهذا قال تعالى : ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ كما جاء في الحديث « من بلغ ذا سلطان حاجة من لايستطيع إبلاغها ؛ ثبت الله تعالى قدميه على الصراط يوم القيامة » [2] ثم قال تبارك وتعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله تعالى ولرسوله ﷺ ، وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة ، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش [3] » أي فلا شفاه الله عز وجل . وقوله جل وعلا : ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي أحبطها وأبطلها ، ولهذا قال ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي لايريدونه ولا يحبونه ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ .

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۝ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ .

يقول تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ يعني المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم ، أي ونجى المؤمنين من بين أظهرهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ ثم قال : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ لهذا لما قال أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركين يوم أحد ، حين سأل عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فلم يجب ، وقال : أما هؤلاء فقد هلكوا ، وأجابه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : كذبت يا عدو الله بل أبقى الله تعالى لك ما يسوءك ، وإن الذين عددت لأحياء ، فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، أما إنكم ستجدون مثلة لم آمر بها ، ولم أنه عنها ، ثم ذهب يرتجز ويقول : أعل هبل ، أعل هبل . فقال رسول الله ﷺ : « ألا تجيبوه ؟ » فقالوا : يارسول الله ومانقول ، قال : « قولوا : الله أعلى وأجل » ثم قال أبو سفيان : لنا العزى ولاعزى لكم ، فقال ﷺ : « ألا تجيبوه ؟ » قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟ قال : « قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم » .

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٤٠) ومسلم في الإيمان (٣٠٢) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤١٣٥) والبيهقي في السنن (١٥٩/٩) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢٤٧/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٣/٤) .

ثم قال ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴾ أي في دنياهم يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام خضمًا وقضمًا ، وليس لهم همة إلا في ذلك ، ولهذا ثبت في الصحيح « المؤمن يأكل في معى واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء »[(١)] ثم قال تعالى : ﴿ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ أي يوم جزائهم ، وقوله ﷻ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ﴾ يعني مكة ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ ، وهو سيد الرسل وخاتم الأنبياء ، فإذا كان الله ﷻ قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم ، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء ، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى ؟

فإن رفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة ، فإن العذاب يوفر على الكافرين به في معادهم .

وقوله تعالى : ﴿ مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ﴾ أي الذين أخرجوك من بين أظهرهم . عن ابن عباس ﵄ ، أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار ، وأتاه فالتفت إلى مكة وقال : « أنت أحب بلاد الله إلى الله ، وأنت أحب بلاد الله إلي ، ولولا أن المشركين أخرجوني لم أخرج منك »[(٢)] .

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ۝١٤ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ أي على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه بما أنزل في كتابه من الهدى والعلم ، وبما جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة ، ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴾ أي ليس هذا كهذا ، ثم قال ﷻ : ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ قال عكرمة : أي نعتها ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ قال ابن عباس ﵄ والحسن وقتادة : يعني غير متغير . وقال قتادة والضحاك وعطاء الخراساني : غير منتن ، والعرب تقول : أسن الماء إذا تغير ريحه ، قال عبد الله ﵁ : أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ أي بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة ، ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ أي ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ أي وهو في غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح .

عن حكيم بن معاوية عن أبيه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « في الجنة بحر اللبن ، وبحر الماء ، وبحر العسل ، وبحر الخمر ، ثم تشقق الأنهار منها بعد »[(٣)] . وعن عبد الله بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ : « هذه الأنهار تشخب من جنة عدن في جوبة ، ثم تصدع بعد أنهارا »[(٤)] وفي الصحيح « إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة

---

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٣٩٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٩٢٥) والحاكم في المستدرك (٣/٧) وأحمد في مسنده (٣٠٥/٤) جميعهم بنحوه ، والطبري في تفسيره (٣١/٢٦) بلفظه .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٥) والترمذي في السنن (٢٥٧١) .

(٤) أخرجه أبو عوانة في مسنده (١٥٧/١) .

وفوقه عرش الرحمن (١) .

وعن عاصم بن لقيط قال : إن لقيط بن عامر خرج وافدًا إلى رسول الله ﷺ قلت : يارسول الله فعلى ما نطلع من الجنة ؟ قال ﷺ على أنهار من عسل مصفى ، وأنهار من خمر مابها من صداع ولاندامة ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وماء غيرآسن ، وفاكهة ، لعمر إلهك ما تعلمون ، وخير من مثله ، وأزواج مطهرة » قلت : يا رسول الله أولنا فيها أزواج مصلحات ؟ قال الصالحات للصالحين ، تلذونهن مثل لذاتكم في الدنيا ، ويلذونكم غير أن لا توالد (٢) » .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ كقوله ﷻ ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴾ وقوله ﷻ : ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أي مع ذلك كله . وقوله ﷻ : ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ﴾ أي هؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار ؟ ليس هؤلاء كهؤلاء ، وليس من هو في الدرجات كمن هو في الدركات ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا ﴾ أي حارًا شديد الحر لايستطاع ﴿ فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ أي قطع مافي بطونهم من الأمعاء والأحشاء .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم ، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئًا فإذا خرجوا من عنده ﴿ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ من الصحابة ﷺ ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾ أي الساعة . لايعقلون ماقال ولايكترثون له . قال الله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي فلا فهم صحيح ولا قصد صحيح . ثم قال ﷻ : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ أي والذين قصدوا الهداية وفقهم الله تعالى لها فهداهم إليها وثبتهم عليها وزادهم منها ﴿ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ أي ألهمهم رشدهم . وقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أي وهم غافلون عنها ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أي أمارات اقترابها كقوله تبارك وتعالى : ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴾ فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة ؛ لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله تعالى به الدين وأقام به الحجة على العالمين .

وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله ، كما هو مبسوط في موضعه . وقال الحسن البصري : بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة وهوكما قال ، ولهذا جاء في أسمائه ﷺ أنه نبي التوبة ونبي الملحمة ، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه ، والعاقب الذي ليس بعده نبي (٣) .

وعن سهل بن سعد ﷺ قال : رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تليها

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٥/٢) والبيهقي في السنن (١٥/٩) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٩٦) ومسلم في الفضائل (١٢٤ ، ١٢٥) .

« بعثت أنا والساعة كهاتين » (١) ثم ثم قال تعالى : ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ أي فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة حيث لاينفعهم ذلك . وقوله ﷻ : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ هذا إخبار بأنه لا إله إلا اللّه ولا يتأتى كونه آمرًا بعلم ذلك ، ولهذا عطف عليه قوله ﷻ : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ وفي الصحيح : أن رسول اللّه ﷺ كان يقول : « اللّهم اغفر لي خطيئتي وجهلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به في ، اللّهم اغفر لي هزلي وجدي ، وخطئي وعمدي ، وكل ذلك عندي » (٢) . وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة : « اللّهم اغفر لي ماقدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت إلهي لا إله إلا أنت » (٣) وفي الصحيح أنه قال : « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني استغفر اللّه وأتوب اليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » (٤) .

عن أبي بكر الصديق ﷺ عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « عليكم بلا إله إلا اللّه والاستغفار ، فأكثروا منهما ؛ فإن إبليس قال : إنما أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا اللّه والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء ، فهم يحسبون أنهم مهتدون » (٥) وفي الأثر المروي : فقال إبليس وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم مادامت أرواحهم في أجسادهم . فقال اللّه ﷻ : وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني (٦) . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ أي يعلم تصرفكم في نهاركم ومستقركم في ليلكم وهذا القول ذهب إليه ابن جريج وهو اختيار ابن جرير ، وعن ابن عباس ﷺ متقلبكم في الدنيا ، ومثواكم في الآخرة ، وقال السدي : متقلبكم في الدنيا ومثواكم في قبوركم ، والأول أولى وأظهر ، واللّه أعلم .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۝ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد ، فلما فرضه اللّه ﷻ وأمر به نكل عنه كثير من الناس وقال ﷻ : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ أي مشتملة على حكم القتال ولهذا قال : ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ أي من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء ، ثم قال مشجعا لهم ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ أي وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا أي في الحالة الراهنة ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾ أي جد الحال ، وحضر القتال ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا ﴾ أي أخلصوا له النية ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٤) ومسلم في الفتن (١٣٥) والترمذي في السنن (٢٢١٤) وابن ماجه في السنن (٤٥) .
(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٩٩) ومسلم في الذكر والدعاء (٧٠) وأحمد في مسنده (٥٥/٤) .
(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٩٨) ومسلم في الذكر والدعاء (٧٠) وأحمد في مسنده (٩٥/١) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢١١/٤) .
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧٧/٢) ، (٦٢/٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٠٧/١٠) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩/٣) وأبو يعلي في مسنده (١٢٣/١) .

وقوله ﷺ : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي عن الجهاد ونكلتم عنه ﴿ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ ، أي تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عمومًا ، وعن قطع الأرحام خصوصًا ، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام ، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال ، وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة ووجوه كثيرة ، عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « خلق الله تعالى الخلق ، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقوي الرحمن ﷻ فقال : مه ، فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، فقال تعالى : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى ، قال : فذاك لك » قال أبو هريرة ﷺ : اقرأوا إن شئتم ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ (١) .

وعن أبي بكر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من ذنب أحرى أن يعجل الله تعالى عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم (٢) » . وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله : إن لي ذوي أرحام ، أصل ويقطعون ، وأعفو ويظلمون ، وأحسن ويسيئون ، أفأكافئهم ؟ قال ﷺ : « لا ، إذن تتركون جميعًا ، ولكن جُد بالفضل وصلهم ؛ فإنه لن يزال معك ظهير من الله ﷻ ما كنت على ذلك » (٣) .

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ قال : « قال رسول الله ﷺ : « إن الرحم معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها (٤) » .

وعن إبراهيم بن عبد الله بن فارض ، أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف ﷺ وهو مريض ، فقال له عبد الرحمن ﷺ : وصلتك رحم ، إن رسول الله ﷺ قال : قال الله ﷻ : أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسمًا من اسمي ، فمن يصلها أصله ، ومن يقطعها أقطعه فأبته » أو قال : « من بتها أبته » (٥) .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۝ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۝ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا بتدبر القرآن وتفهمه وناهيًا عن الإعراض عنه فقال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ أي بل على قلوب أقفالها ، فهي مطبقة لايخلص إليها شيء من معانيه ، عن هشام بن

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٠٢) ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٤) ومعنى : « فأخذت بحقوي الرحمن » : أي استجارت واعتصمت بالله تعالى .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨/٥) والترمذي في السنن (٢٥١١) والدارمي في السنن (٢٥٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٨١/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٨٩) وأحمد في مسنده (١٦٣/٢) والبيهقي في السنن (٢٧٠/٧) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٩١/١) .

عروة عن أبيه ﷺ قال : تلا رسول ﷺ يوما ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ فقال شاب من أهل اليمن : بل عليها أقفالها حتى يكون الله تعالى يفتحها أو يفرجها ، فما زال الشاب في نفس عمر ﷺ حتى ولي فاستعان به (١) . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ﴾ أي فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ أي زين لهم ذلك وحسنه ﴿ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ أي غرهم وخدعهم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾ أي مالؤوهم وناصحوهم في الباطن على الباطل ، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون ، ولهذا قال الله ﷻ : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ أي ما يسرون ومايخفون ، الله مطلع عليه وعالم به كقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ أي كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعاصت الأرواح في أجسادهم واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب ، كما قال ﷻ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ الآية . ولهذا قال ههنا : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَآ أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَٰنَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ۝٢٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٠ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾ أي أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ، بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر ، وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة براءة فبين فيها فضائحهم ، وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم ، ولهذا كانت تسمى الفاضحة . والأضغان : جمع ضغن وهو مافي النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره . وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ يقول ﷻ : ولو نشاء يامحمد لأريناك أشخاصهم فعرفتهم عيانًا ، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترًا منه على خلقه ، وحملًا للأمور على ظاهر السلامة ، وردًا للسرائر إلى عالمها ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ أي فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه ، وهو المراد من لحن القول كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه .

وفي الحديث : « ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى جلبابها إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر (٢) عن أبي مسعود عقبة بن عمرو ﷺ قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : « إن منكم منافقين فمن سميت فليقم » - ثم قال : « قم يا فلان ، قم يافلان ، قم يافلان » حتى سمى ستة وثلاثين رجلًا ثم قال : « إن فيكم - أو منكم - منافقين فاتقوا الله » قال فمر عمر ﷺ برجل ممن سمى مقنع قد كان يعرفه فقال : مالك ؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ فقال : بعدًا لك

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٧٥/٢٦) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٨٤/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٥/١٠) .

سائر اليوم (١) . وقوله ﷻ ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ أي لنختبرنكم بالأوامر والنواهي ، ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ ، وليس في تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب ، فالمراد حتى نعلم وقوعه ، ولهذا يقول ابن عباس ﵄ في مثل هذا : إلا لنعلم أي لنرى .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۝ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ .

يخبر تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله وخالف الرسول وشاقه ، وارتد عن الإيمان من بعد ماتبين له الهدى أنه لن يضر الله شيئًا ، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها ، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه بردته مثقال بعوضة من خير ، بل يحبطه ويمحقه بالكلية كما أن الحسنات يذهبن السيئات ، وعن أبي العالية : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع « لا إلا الله » ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل . وعن ابن عمر ﵄ قال : كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ ، فقلنا : ماهذا الذي يبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والفواحش حتى نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش ونرجو لمن لم يصبها .

ثم أمر تبارك وتعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ أي بالردة ، ولهذا قال بعدها ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ . ثم قال جلا وعلا لعباده المؤمنين ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ ﴾ أي لا تضعفوا عن الأعداء ﴿ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ ﴾ أي المهادنة والمسالمة ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم وكثرة عددكم وعددكم ، .. ولهذا قال : ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ أي في حال علوكم على عدوكم . . فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين ، ورأى الإمام في المهادنة ، والمعاهدة مصلحة ؛ فله أن يفعل ذلك ، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة ودعوه إلى الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين فأجابهم ﷺ إلى ذلك . وقوله جلت عظمته ﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ أي ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها بل يوفيكم ثوابها ولاينقصكم منها شيئًا ، والله أعلم .

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ۝ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٣/٥) والبخاري في التاريخ الكبير (٢٢/٧) .

يقول تعالى تحقيرًا لأمر الدنيا وتهوينًا لشأنها ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ أي حاصلها ذلك إلا ماكان منها لله ﷻ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾ أي هو غني عنكم لايطلب منكم شيئًا وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء ، ليعود نفع ذلك عليكم ويرجع ثوابه إليكم ، ثم قال ﷻ : ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ ﴾ أي يحرجكم تبخلوا ﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴾ قال قتادة : قد علم الله تعالى إن في إخراج الأموال إخراج الأضغان . وصدق قتادة ؛ فإن المال محبوب ولايصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه . وقوله تعالى : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ﴾ أي لايجيب إلى ذلك ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ أي إنما نقص نفسه من الأجر وإنما يعود وبال ذلك عليه ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ ﴾ أي عن كل ماسواه وكل شيء فقير إليه دائمًا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ أي بالذات إليه ، فوصفه بالغنى وصف لازم له ، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم لاينفكون عنه .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ ﴾ أي عن طاعته واتباع شرعه ﴿ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ أي ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره . عن أبي هريرة ﷺ قال : إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ قالوا : يارسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ثم لايكونوا أمثالنا ؟ قال : فضرب بيده على كتف سلمان الفارسي ﷺ ثم قال : « هذا وقومه ، ولوكان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس » (١) .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٦٠) والألباني في الصحيحة (١٠١٧) .

سورة الفتح

عن عبد الله بن مغفل يقول : قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيرة سورة الفتح على راحلته ، فرجع فيها . قال معاوية : لولا أني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت قراءته (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ .

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ ، من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة ، حين صده المشركون عن الوصول الى المسجد الحرام فيقضي عمرته فيه ، وحالوا بينه وبين ذلك ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل ، فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة ، منهم عمربن الخطاب ﷺ ، فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع أنزل الله ﷻ هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل ذلك الصلح فتحا باعتبار ما فيه المصلحة وما آل الأمر إليه ، وعن البراء ﷺ قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحًا ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة ، والحديبية بئر فنزحناها ، فلم نترك فيها قطرة ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ، ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد ، ثم أنها أصدرتنا ماشئنا نحن وركائبنا (٢) .

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر قال : فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد علي ، قال : فقلت في نفسي : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ألحت على رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك ؟ قال : فركبت راحلتي فحركت بعيري فتقدمت مخافة أن يكون نزل فيَّ شيء ، قال : فإذا أنا بمناد يا عمر ، قال : فرجعت وأنا أظن أنه نزل فيَّ شيء ، قال : فقال النبي ﷺ « نزل علي البارحة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ » (٣) ، وعن مجمع بن حارثة الأنصاري ﷺ ، وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباعر ، فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ قالوا : أوحي إلى رسول الله ﷺ فخرجنا مع الناس نوجف ، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ قال : فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ : أي رسول الله أو فتح هو ؟ قال ﷺ : « إي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح » قسمت خيبر على أهل الحديبية ، لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية ، فقسمها رسول الله ﷺ ثمانية عشر سهما . وكان الجيش ألفًا وخمسمائة منهم ثلثمائة

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٣٥) وأحمد في مسنده (٥/٢٤) .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٥٠) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٣٣) والترمذي في السنن (٣٢٦٢) كلاهما بنحوه ، وأحمد في مسنده (١/٣١) بلفظه .

فارس ، فأعطي الفارس سهمين ، وأعطي الراجل سهمًا (١) .

وعن المغيرة بن شعبة يقول : كان النبي ﷺ يصلّي حتى ترم قدماه ، فقيل له : أليس قد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال ﷺ : « أفلا أكون عبدًا شكورًا » (٢) فقوله : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ أي بينًا وظاهرًا ، والمراد به صلح الحديبية ، فإنه حصل بسببه خير جزيل ، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض ، وتكلم المؤمن مع الكافر وانتشر العلم النافع والإيمان .

وقوله تعالى : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ هذا من خصائصه ﷺ التي لايشاركه فيها غيره ، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر ، وهذا فيه تشريف لرسول الله ﷺ ، وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه لا من الأولين ولا من الآخرين ، وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق وسيدهم في الدنيا والآخرة ، ولما كان أطوع خلق الله تعالى وأشدهم تعظيمًا لأوامره ونواهيه قال : حين بركت به الناقة : « حبسها حابس الفيل » ثم قال ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئًا يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها » (٣) فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح قال الله تعالى له : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ أي بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم ﴿ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ أي بسبب خضوعك لأمر الله ﷻ يرفعك الله وينصرك على أعدائك كما جاء في الحديث الصحيح « ومازاد الله عبدا بعفو إلا عزًّا ، وما تواضع أحد لله ﷻ إلا رفعه الله تعالى » (٤) .

﴿ هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ وَيُعَذِّبَ الْمُنَٰفِقِينَ وَالْمُنَٰفِقَٰتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَٰتِ الظَّآنِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ السَّكِينَةَ ﴾ أي جعل الطمأنينة ، قال ابن عباس ، الرحمة ، وقال قتادة : الوقار في قلوب المؤمنين ، وهم الصحابة يوم الحديبية الذين استجابوا لله ولرسوله وانقادوا لحكم الله ورسوله ، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت زادهم إيمانًا مع إيمانهم ، وقد استدل بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب ، ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين فقال ﷻ : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي ولو أرسل عليهم ملكًا واحدًا لأباد خضراءهم ، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال ، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة والبراهين الدامغة ، ولهذا قال جلت عظمته ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

ثم قال ﷻ : ﴿ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ قد تقدم حديث أنس رضي الله عنه

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٠/٣) .
(٢) أخرجه البخاري في التهجد (٤٨٣٦) ومسلم في صفات المنافقين (٧٩) وابن ماجه في السنن (١٤١٩) وأحمد في مسنده (١١٥/٦) .
(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٢١٩/٩) .
(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٩) والدارمي في السنن (٣٥) ومالك في الموطأ (١٢) .

حين قالوا : هنيئًا لك يارسول الله ، هذا لك فما لنا ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكثين فيها أبدًا ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ ! أي خطاياهم وذنوبهم فلا يعاقبهم عليها ، بل يعفو ويصفح ويغفر ويستر ويرحم ويشكر ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ أي يتهمون الله تعالى في حكمه ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه ﷺ أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ ، ثم قال ﷻ مؤكدًا لقدرته على الانتقام من الأعداء ، أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ﴾ أي على الخلق ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ أي للمؤمنين ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ أي للكافرين ﴿ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ قال ابن عباس ﵄ وغير واحد : تعظموه ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ أي تسبحون الله ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي أول النهار وآخره . ثم قال ﷻ لرسوله ﷺ تشريفًا له وتعظيمًا وتكريمًا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم ؛ فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسول الله ﷺ . عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من سل سيفه في سبيل الله فقد بايع الله » (١) وعن ابن عباس ﵄ قال : قال رسول الله ﷺ في الحجر « والله ليبعثنه الله ﷻ يوم القيامة له عينان ينظر بهما ، ولسان ينطق به ، ويشهد على من استلمه بالحق ، فمن استلمه فقد بايع الله تعالى » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (٢) . ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ أي إنما يعود وبال ذلك على الناكث والله غني عنه ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي ثوابًا جزيلًا . وهذه البيعة هي بيعة الرضوان وكانت تحت شجرة سمرة بالحديبية ، وكان الصحابة ﷺ الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ قيل ألفًا وثلثمائة ، وقيل وأربعمائة ، وقيل وخمسمائة ، والأوسط أصح .

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك : عن جابر ﷺ قال : كنا يومئذ ألفًا وأربعمائة ، ووضع يده في ذلك الماء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه حتى رووا كلهم ، وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية ، وأن رسول الله ﷺ أعطاهم سهمًا من كنانته فوضعوه في بئر الحديبية ، فجاشت بالماء حتى كفتهم فقيل لجابر ﷺ : كم كنتم يومئذ ؟ قال : كنا ألفًا وأربعمائة ولوكنا مائة ألف لكفانا (٣) ، وعنه أنهم كانوا خمس عشرة مائة (٤) .

---

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (١٠٤٨٩) وعزاه لابن مردويه .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٩٦١) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٠) .
(٤) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٧٧) .

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة : ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إلى مكة ، ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال : يا رسول الله إني أخاف قريشًا على نفسي ، وليس بمكة من بني عدي بن كعب من يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظي عليها ، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني ، عثمان بن عفان رضي الله عنه ، نبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وأنه إنما جاء زائرًا لهذا البيت ومعظما لحرمته . فخرج عثمان رضي الله عنه إلى مكة ، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها ، فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ ، فانطلق عثمان رضي الله عنه حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به ، فقالوا لعثمان رضي الله عنه حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ . واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان رضي الله عنه قد قتل . قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله ابن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل : « لانبرح حتى نناجز القوم » (١) .

ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله ﷺ على الموت ، وكان جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول : إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت ، ولكن بايعنا على أن لا نفر ، فبايع الناس ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بني سلمة ، فكان جابر رضي الله عنه يقول : والله لكأني أنظر إليه لاصقًا بإبط ناقته قد صبأ إليها يستتر بها من الناس ، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان رضي الله عنه باطل ، وذكر عن عروة بن الزبير قريبًا من هذا السياق ، وزاد في سياقه أن قريشًا بعثوا - وعندهم عثمان رضي الله عنه - سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص إلى رسول الله ﷺ فبينما هم عندهم ؛ إذ وقع كلام بين بعض المسلمين وبعض المشركين ، وتراموا بالنبل والحجارة وصاح الفريقان كلاهما ، وارتهن كل من الفريقين من عنده من الرسل ، ونادى منادي رسول الله ﷺ : ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله ﷺ وأمر بالبيعة ، فاخرجوا على اسم الله تعالى فبايعوا ، فسار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة فبايعوه على أن لا يفروا أبدًا . فأرعب ذلك المشركين وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين ودعوا إلى الموادعة والصلح .

وعن نافع رضي الله عنه قال : إن الناس يتحدثون أن ابن عمر رضي الله عنهما أسلم قبل عمر وليس كذلك ، ولكن عمر رضي الله عنه يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار ، أن يأتي به ، ليقاتل عليه ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة ، وعمر رضي الله عنه لا يدري بذلك ، فبايعه عبد الله رضي الله عنه ، ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر رضي الله عنه ، وعمر رضي الله عنه يستلئم للقتال ، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة ، فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ وهي التي يتحدث عنها . الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر رضي الله عنهما (٢) .

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٨٦) .

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤٢٢/٧) .

وعن معقل بن يسار ﷺ قال : لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس ، وأنا رافع غصنًا من أغصانها على رأسه ، ونحن أربع عشرة مائة ، قال : ولم نبايعه على الموت ، ولكن بايعناه على أن لا نفر [١] . وعن سلمة بن الأكوع ﷺ قال : بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة . قال يزيد : قلت : يا أبا مسلمة على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ ؟ قال : على الموت [٢] .

وعن سلمة بن الأكوع ﷺ أيضًا قال : قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة ، وعليها خمسون شاة لا ترويها ، فقعد رسول الله ﷺ على جباها ، يعني الركي ، فإما دعا وإما بصق فيها فجاشت فسقينا واستقينا . قال : ثم إن رسول الله ﷺ دعا إلى البيعة في أصل الشجرة ، فبايعته أول الناس ثم بايع وبايع حتى إذا كان في وسط الناس قال ﷺ : « بايعني يا سلمة » قال : قلت : يا رسول الله : قد بايعتك في أول الناس قال ﷺ : « وأيضًا » قال ورآني رسول الله ﷺ عزلًا فأعطاني حجفة أو درقة ، ثم بايع ، حتى إذا كان في آخر الناس ، قال ﷺ : « ألا تبايع يا سلمة ؟ » قال : قلت : يا رسول الله قد بايعتك في أول الناس وأوسطهم ، قال ﷺ : « وأيضًا » فبايعته الثالثة ، فقال رسول الله ﷺ : « يا سلمة أين حجفتك أو درقتك التي أعطيتك ؟ » قال : قلت : يا رسول الله لقيني عامر عزلًا فأعطيتها إياه فضحك رسول الله ﷺ ثم قال : « إنك كالذي قال الأول اللهم ابغني حبيبًا هو أحب إلي من نفسي » قال : ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا في الصلح حتى مشى بعضنا في بعض فاصطلحنا . قال : وكنت خادمًا لطلحة بن عبيد الله ﷺ أسقي فرسه وأجنبه وآكل من طعامه ، وتركت أهلي ومالي مهاجرًا إلى الله ورسوله ، فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة واختلط بعضنا في بعض أتيت شجرة فكشحت شوكها ، ثم اضطجعت في أصلها - في ظلها - فأتاني أربعة من مشركي أهل مكة ، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ فأبغضتهم وتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا ، فبينما هم كذلك ؛ إذ نادى مناد من أسفل الوادي : ياللمهاجرين قتل ابن زنيم ، فاخترطت سيفي فشددت على أولئك الأربعة ، وهم رقود ، فأخذت سلاحهم وجعلته ضغثًا في يدي ثم قلت : والذي كرم وجه محمد ﷺ لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه ، قال : ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ قال : وجاء عمي عامر برجل من العبلات يقال له : مكرز من المشركين يقوده حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ في سبعين من المشركين ، فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال : « دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناؤه » فعفا عنهم رسول الله ﷺ وأنزل الله ﷻ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [٣] .

وعن جابر ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : « من يصعد الثنية ثنية المرار ؛ فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل » فكان أول من صعد خيل بني الخزرج ثم تبادر الناس بعد ، فقال النبي ﷺ : « كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر » فقلنا : تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ . فقال : والله لأن أجد ضالتي أحب إلي من أن يستغفر لي صاحبكم ، فإذا هو رجل ينشد ضالة [٤] .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٠) . (٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٩٩) .
(٣) أخرجه مسلم في الجهاد (١٣٢) وأحمد في مسنده (٥٤/٤) .
(٤) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (١٢) والحاكم في المستدرك (٨٣/٤) .

وعن أبي الزبير أنه سمع جابرًا ﷺ يقول : أخبرتني أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة رضي الله عنها : « لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد » قالت : بلى يا رسول الله ، فانتهرها ، فقالت حفصة رضي الله عنها : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ فقال النبي ﷺ : قد قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ (١) .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ۝ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ۝ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا رسوله ﷺ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهليهم وشغلهم وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ فاعتذروا بشغلهم بذلك وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد بل على وجه التقية والمصانعة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ أي لا يقدر أحد أن يرد ما أراده الله فيكم تعالى وتقدس ، وهو العليم بسرائركم وضمائركم وإن صانعتمونا ونافقتمونا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ أي لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص بل تخلف نفاق ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ أى اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم ، وتستباد خضراؤهم ولا يرجع منهم مخبر ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ أي هلكى . قاله ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وغير واحد ، وقال قتادة : فاسدين ، وقيل هي لغة عمان . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله فإن الله تعالى سيعذبه في السعير ، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر . ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السموات والأرض ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أي لمن تاب إليه وأناب وخضع لديه .

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية ، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه ﷺ إلى خيبر يفتحونها إنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم ، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم ، فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يأذن لهم في ذلك معاقبة لهم من جنس ذنبهم ، فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم ، لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين ، فلا يقع غير ذلك شرعًا ولا قدرًا ولهذا قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ قال مجاهد وقتادة وجويبر وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة(١٦٣) وأحمد في مسنده(٤٢٠/٦) وأبو داود في السنن(٤٦٥٣)

واختاره ابن جرير . وقال ابن جرير ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ يعني بتثبيطهم المسلمين عن الجهاد ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ أي وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أي أن نشرككم في المغانم ﴿ بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ولكن لافهم لهم .

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم الذين هم أولو بأس شديد على أقوال أحدها ، أنهم هوازن ؟ الثاني : ثقيف . الثالث : بنو حنيفة . الرابع : هم أهل فارس وقال كعب الأحبار : هم الروم ، وعن ابن أبي ليلى وعطاء والحسن وقتادة : هم فارس والروم ، وعن مجاهد : هم أهل الأوثان ، وعنه أيضًا : هم رجال أولو بأس شديد ، ولم يعين فرقة ، وبه يقول ابن جريج وهو اختيار ابن جرير . وعن الزهري في قوله تعالى : ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ قال : لم يأت أولئك بعد .

عن أبي هريرة ﷺ في قوله تعالى : ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ قال : هم البارزون . وعنه عن النبي ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قومًا صغار الأعين ذلف الأنوف ، كأن وجوههم المجان المطرقة » (١) قال سفيان : هم الترك ، وقوله تعالى : ﴿ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ يعني شرع لكم جهادهم وقتالهم ، فلا يزال ذلك مستمرًا عليهم ، ولكم النصرة عليهم أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار .

ثم قال ﷻ : ﴿ فَإِن تُطِيعُواْ ﴾ أي تستجيبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه ﴿ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ ﴾ يعني زمن الحديبية حيث دعيتم فتخلفتم ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ . ثم ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر ، وعارض كالمرض الذي يطرأ أيامًا ثم يزول ، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ . ثم قال تبارك وتعالى مرغبًا في الجهاد وطاعة الله ورسوله ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أي ينكل عن الجهاد ويقبل على المعاش ﴿ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ، في الدنيا بالمذلة وفي الآخرة بالنار ، والله تعالى أعلم .

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، عن طارق أن عبد الرحمن ﷺ قال : انطلقت حاجًا فمررت بقوم يصلون فقلت : ما هذا المسجد ؟ قالوا : هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان ، فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته ، فقال سعيد : حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، قال : فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر

(١) أخرجه مسلم في الفتن (٦٤) والترمذي في السنن (٢٢١٥) وابن ماجه في السنن (٤٠٩٦) وأحمد في مسنده (٣١/٣) .

عليها ، فقال سعيد : إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم ، فأنتم أعلم (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أي من الصدق والوفاء والسمع والطاعة ﴿ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ ﴾ وهي الطمأنينة ﴿ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ وهو ما أجرى الله ﷻ على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم ، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة ، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ .

قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ هي جميع المغانم إلى اليوم ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ يعني فتح خيبر ، وروى العوفي عن ابن عباس ﵄ ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ يعني صلح الحديبية ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾ أي لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال ، وكذلك كف أيدي الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء ظهوركم عن عيالكم وحريمكم ﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي يعتبرون بذلك ، فإن الله تعالى حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم ، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العالم بعواقب الأمور ، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه في الظاهر كما قال ﷻ : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ أي وغنيمة أخرى وفتحًا آخر معينًا لم تكونوا تقدرون عليها ، قد يسرها الله عليكم وأحاط بها لكم ، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون ، وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة ما المراد بها ، فقال ابن عباس ﵄ : هي خيبر ، وهذا على قوله في قوله ﷻ ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ إنها صلح الحديبية ، وقال قتادة : هي مكة واختاره ابن جرير ، وقال ابن أبي ليلى والحسن البصري : هي فارس والروم ، وقال مجاهد : هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة . عن ابن عباس قال : هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ يقول ﷻ مبشرًا لعباده المؤمنين ، بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم ، ولانهزم جيش الكفر فارًّا مدبرًا لا يجدون وليًّا ولا نصيرًا ؛ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين . ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أي هذه سنة الله وعادته في خلقه ، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلا نصر الله الإيمان على الكفر فرفع الحق ووضع الباطل ، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين مع قلة عدد المسلمين وعددهم وكثرة المشركين وعددهم .

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٦٣) .

وقوله ﷺ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين حين كف أيدي المشركين عنهم فلم يصل إليهم منهم سوء ، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، بل صان كلًّا من الفريقين وأوجد بينهم صلحًا فيه خيرة للمؤمنين وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة ، وعن أنس بن مالك ؓ قال : لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلًا من أهل مكة بالسلاح ، من قبل جبل التنعيم ، يريدون غرة رسول الله ﷺ فدعا عليهم فأخذوا . قال عفان : فعفا عنهم ونزلت هذه الآية ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

وعن عبد الله بن مغفل المزني ؓ قال : كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال تعالى في القرآن ، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب ؓ ، وسهيل بن عمرو بين يديه فقال رسول الله ﷺ لعلي ؓ : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » فأخذ سهيل بيده وقال : ما نعرف الرحمن الرحيم ، اكتب في قضيتنا ما نعرف فقال : « اكتبْ باسمِكَ اللّهمَّ » - وكتب - هذا ما صَالحَ عليهِ محمدٌ رسولُ اللّهِ أهلَ مكةَ » فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال : لقد ظلمناك إن كنت رسوله ، اكتب في قضيتنا ما نعرف ، فقال : « اكتب هذا ما صالح عليه محمدُ بن عبد الله » فبينا نحن كذلك ؛ إذ خرج علينا ثلاثون شابًّا عليهم السلاح ، فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم رسول الله ﷺ ، فأخذ الله تعالى بأسماعهم فقمنا إليهم فأخذناهم فقال رسول الله ﷺ : « هل جئتم في عهدِ أَحَدٍ ؟ أو هل - جعل لكم أحدٌ أمانًا ؟ » فقالوا : لا ، فخلى سبيلهم فأنزل الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٢) الآية .

وعن ابن أبزى قال : لما خرج النبي ﷺ بالهدي وانتهى إلى ذي الحليفة قال له عمر ؓ : يا نبي الله ، تدخل على قوم لك حرب بغيرسلاح ولا كراع ؟ قال : فبعث ﷺ إلى المدينة فلم يدع فيها كراعًا ولا سلاحًا إلا حمله ، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل فسار حتى أتى منى ، فنزل بمنى فأتاه عينه أن عكرمة بن أبي جهل قد خرج عليك في خمسمائة ، فقال لخالد بن الوليد ؓ : « يا خالدُ هذا ابنُ عمِّكَ قد أتاكَ في الخيلِ » فقال خالد ؓ : أنا سيف الله وسيف رسوله ، فيومئذ سمي سيف الله ، فقال : يارسول الله ابعثني أين شئت ، فبعثه على خيل فلقي عكرمة في الشعب فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، ثم عاد في الثانية فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، ثم عاد في الثالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ - إلى قوله تعالى - عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ قال فكف الله ﷻ النبي ﷺ عنهم من بعد أن أظفره عليهم لبقايا من المسلمين كانوا أبقوا فيها كراهية أن تطأهم الخيل (٣) .

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٢/٣) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٨/٣) والبيهقي في السنن (٢٢٠/٩) .
(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٢٣/٢٦) .

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار من مشركي العرب من قريش ، ومن مالأهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي هم الكفار دون غيرهم ﴿وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي أنتم أحق به وأنتم أهله في نفس الأمر ﴿وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾ أي وصدوا الهدي أن يصل إلى محله ، وهذا من بغيهم وعنادهم ، وكان الهدي سبعين بدنة ، وقوله ﷻ : ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ﴾ أي بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم ، لملنا سلطانكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم ، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل ، ولهذا قال تعالى : ﴿لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ﴾ أي إثم وغرامة ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين ، وليرجع كثيرمنهم إلى الإسلام ، ثم قال تبارك وتعالى : ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ﴾ أي لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي لسلطانكم عليهم لقتلتموهم وهم قتلًا ذريعًا .

وعن عبد الله بن عمرو قال : سمعت جنيد بن سبيع يقول : قاتلت رسول الله ﷺ أول النهار كافرًا ، وقاتلت معه آخر النهار مسلمًا ، وفينا نزلت ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ﴾ قال : كنا تسعة نفر ، سبعة رجال وأمرأتين .

وقوله ﷻ : ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا : بسم الله الرحمن الرحيم ، وأبوا أن يكتبوا : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ وهي قول : لا إله إلا الله فعن أبي بن كعب ؓ ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ ، قال « لا إله إلا الله »[(١)] .

وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فمن قال : لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله ﷻ »[(٢)] وأنزل الله ﷻ في كتابه وذكر قوما فقال : ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ وقال الله جل ثناؤه ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ﴾ ، وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فاستكبروا عنها ، واستكبرعنها المشركون يوم الحديبية فكاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة وقال مجاهد : كلمة التقوى الإخلاص ، وقال عطاء بن أبي رباح : هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، وعن عروة بن المسور : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وعن علي ؓ : لا إله إلا الله والله أكبر ، وعن سعيد بن جبير : لا إله إلا الله والجهاد في سبيله . ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ﴾ ، كان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ أي هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر ، عن أبي بن كعب ؓ أنه كان يقرأ ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٦٥) وذكره الطبري في تفسيره (١٣٥/٢٦) والإمام أحمد بنحوه في مسنده (١٣٨/٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٤) ومسلم في الإيمان (٣٣) وأبو داود في السنن (١٥٥٦) والترمذي في السنن (٢٦٠٦) .

﴿ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ ولو حميتم كما حَمَوا لفسد المسجد الحرام ، فبلغ ذلك عمر ﷺ فأغلظ له فقال : إنك لتعلم أني كنت أدخل على رسول الله ﷺ فيعلمني مما علمه الله تعالى ، فقال عمر ﷺ : بل أنت رجل عندك علم وقرآن ، فاقرأ وعلم مما علمك الله تعالى ورسوله .

وهذا ذكر الأحاديث الواردة في قصة الحديبية وقصة الصلح

عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، يصدر كل واحد منهما حديث صاحبه ، قالا : خرج رسول الله ﷺ من الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه ، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدي وأشعره وأحرم منها بعمرة ، وبعث عينًا من خزاعة ، وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه فقال : إن قريشًا قد جمعوا لك جموعًا وقد جمعوا لك الأحابيش ، وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك . فقال ﷺ : « أشيروا أيها الناس علي ، أترون أن نميل على عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ؟ » في لفظ : « فإن قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محزونين ، وإن نجوا يكن عنقًا قطعها الله ﷻ . أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه » .

فقال أبو بكر ﷺ : يا رسول الله خرجت عامدًا لهذا البيت ، لا تريد قتل أحد ولا حربًا ، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه ، فقال النبيّ ﷺ « فَرُوحوا إذن » : حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ : « إن خالد بن الوليد في خيل لقريش طليعة ، فخذوا ذات اليمين » فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش ، فانطلق يركض نذيرًا لقريش ، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته ، فقال الناس : حل حل فألحت ، فقالوا : خلأت القصواء ، خلأت القصواء . فقال النبي ﷺ « ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخُلُق ، ولكن حبسها حابس الفيل » ، ثم قال ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظّمون فيها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم أياها » . ثم زجرها فوثبت فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرُّضًا ، فلم يلبث الناس حتى نزحوه ، وشُكي إلى رسول الله العطش ، فانتزع ﷺ من كنانته سهمًا ثم أمرهم أن يجعلوه فيه فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه .

فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة ، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ ، من أهل تهامة . فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا عند مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت . فقال النبي ﷺ : « إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب ، فأضرت بهم ، فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس ، فإن أظهر ، فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد حموا ، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره » . قال بديل : سأبلغهم ما تقول . فانطلق حتى أتى قريشًا فقال : إنا قد جئنا من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولًا ، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا ، فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء . وقال ذوو الرأي منهم : هاتْ ما سمعته يقول . قال : سمعته يقول كذا وكذا ، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ فقام عروة بن مسعود فقال : أي قوم ، ألستم بالوالد ؟ قالوا : بلى ، قال : أولست بالولد ؟

قالوا : بلى ، قال : فهل تتهموني ؟ قالوا : لا ، قال : ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ ، فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني ؟ قالوا : بلى . قال : فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آته . قالوا : ائته . فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ فقال النبي ﷺ له نحوًا من قوله لبديل بن ورقاء ، فقال عروة عند ذلك : أي محمد ، أرأيت إن استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك ؟ وإن تك الأخرى فإني والله لأرى وجوهًا ، وإني لأرى أشوابًا من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك ، فقال له أبو بكر ﷺ : امصص بظر اللات ، أنحن نفر وندعه ؟ قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر . قال : أما والذي نفسي بيده لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك . قال : وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته ﷺ ، والمغيرة بن شعبة ﷺ قائم على رأس النبي ﷺ ، ومعه السيف وعليه المغفر ، وكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال : أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ . فرفع عروة رأسه وقال : من هذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة . قال : أي غدر ألست أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة بن شعبة ﷺ صحب قومًا في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم ، فقال النبي ﷺ : « أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه في شيء » .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه قال : فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم ، فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، فإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون النظر إليه تعظيما له ﷺ ، فرجع عروة إلى أصحابه . فقال : أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي ، والله ما رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا ، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون النظر إليه تعظيمًا له ، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها .

فقال رجل منهم من بني كنانة : دعوني آته . فقالوا : ائته . فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه ﷺ ، قال النبي ﷺ : « هذا فلان ، وهومن قوم يعظمون البدن فابعثوها له » . فبعثت له واستقبله الناس يلبون . فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت ، فلما رجع إلى أصحابه قال : رأيت البدن قد قلدت وأشعرت ، فما أرى أن يصدوا عن البيت . فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص ، فقال : دعوني آته . فقالوا : ائته . فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ : « هذا مكرز ، وهو رجل فاجر » فجعل يكلم النبي ﷺ ، فبينما هو يكلم ؛ إذ جاء سهيل بن عمرو ، وقال معمر : أخبرني أيوب عن عكرمة أنه قال : لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ : « قد سُهِّلَ لكم من أمركم » . فجاء سهيل بن عمرو فقال : هات اكتب بيننا وبينك كتابا . فدعا النبي ﷺ بعلي ﷺ وقال : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل بن عمرو : أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ، ولكن اكتب باسمك اللّهم كما كنت تكتب . فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم . فقال النبي ﷺ اكتب باسمك اللّهم- ثم قال - هذا ما قاضى عليه

محمد رسول الله فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله . فقال له النبي ﷺ : « والله إني لرسول الله وإن كذبتموني ، اكتب محمد بن عبد الله » قال الزهري : وذلكِ لقوله « والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها » فقال له النبي ﷺ : » على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به . فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ، ولكن ذلك من العام المقبل ، فكتب ، فقال سهيل : وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا فقال المسلمون : سبحان الله ! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلمًا ؟ .

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فقال سهيل : هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليَّ . فقال النبي ﷺ : « إنا لم نقض الكتاب بعد » قال : فوالله إذًا لا أصالحك على شيء أبدًا ، فقال النبي ﷺ : « فأجِزْهُ لي » قال : ما أنا بمجيز ذلك لك قال ﷺ : « بلى فافعل » قال : ما أنا بفاعل . قال مكرز : بلى قد آجزناه لك . قال أبو جندل : أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلمًا ، ألا ترون ما قد لقيت ؟ وكان قد عذب عذابًا شديدًا في الله ﷻ . قال عمر ﷺ : فأتيت نبي الله ﷺ فقلت ألست نبي الله حقًّا ؟ قال ﷺ : « بلى » قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال ﷺ : « بلى » قلت فلم نعطى الدنية في ديننا إذًا ؟ قال ﷺ : « إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري » قلت : أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال ﷺ : « بلى أفأخبرتك أنا نأتيه العام ؟ » . قلت : لا . قال ﷺ : « فإنك آتيه ومطوِّف به » قال : فأتيت فقلت : يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقًّا ؟ قال : بلى . قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . قلت : فلِمَ نعطى الدنية في ديننا إذًا ؟ قال : أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصي ربه ، وهو ناصره فاستمسك بغرزه ، فوالله إنه على الحق . قلت : أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا . قال : فإنك تأتيه وتطوف به .

قال الزهري : قال عمر ﷺ : فعملت لذلك أعمالًا . قال فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « قوموا فانحروا ثم احلقوا » قال : فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ﷺ ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد دخل ﷺ على أم سلمة ﵂ ، فذكر لها ما لقي من الناس ، قالت له أم سلمة ﵂ : يا نبي الله أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك فخرج رسول الله ﷺ ، فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك ، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غمًّا ، ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله ﷻ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ - حتى بلغ - ﴿ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ فطلق عمر ﷺ يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك ، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان ، والأخرى صفوان بن أمية .

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم ، فأرسلوا في طلبه رجلين

فقالوا : العهد الذي جعلت لنا ، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى إذا بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : واللَّه إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدًا ، فاستله الآخر فقال : أجل واللَّه إنه لجيد ، لقد جربت منه ثم جربت . فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه ، فأمكنه منه فضربه حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة ، فدخل المسجد يعدو ، فقال رسول اللَّه ﷺ حين رآه « لقد رأى هذا ذعرًا » فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال : قتل واللَّه صاحبي وإني لمقتول . فجاء أبو بصير فقال : يا رسول اللَّه قد واللَّه أوفى اللَّه ذمتك ، قد رددتني إليهم ثم نجاني اللَّه تعالى منهم . فقال النبي ﷺ : « ويل أمه مُسْعِر حرب لو كان معه أحد » .

فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، قال : وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل ، فلحق بأبي بصير ، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير ، حتى اجتمعت منهم عصابة ، فواللَّه ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها ، فقتلوهم وأخذوا أموالهم . فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده اللَّه والرحم لما أرسل إليهم ، فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل النبي ﷺ إليهم وأنزل اللَّه ﷻ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ - حتى بلغ- حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ وكانت حميتهم أنهم لم يقروا رسول اللَّه ، ولم يقروا ببسم اللَّه الرحمن الرحيم ، وحالوا بينهم وبين البيت (١) . وعن حبيب بن أبي ثابت قال : أتيت أبا وائل أسأله ، فقال : كنا بصفين ، فقال رجل : ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب اللَّه ، فقال علي بن أبي طالب ﷺ : نعم ، فقال سهل بن حنيف : اتهموا أنفسكم فلقد رأيتنا يوم الحديبية يعني الصلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين ، ولو نرى قتالًا لقاتلنا ، فجاء عمر ﷺ فقال : ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ فقال : « بلى » . قال : ففيم نعطى الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم اللَّه بيننا ؟ فقال ﷺ : « يا ابن الخطاب إني رسول اللَّه ولن يضيعني اللَّه أبدًا » فرجع متغيظًا فلم يصبر حتى جاء أبا بكر ﷺ فقال : يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال : يا ابن الخطاب إنه رسول اللَّه ولن يضيعه اللَّه أبدًا ، فنزلت سورة الفتح (٢) .

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

كان رسول اللَّه ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت ، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام ، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل وقع في نفس بعض الصحابة ﷺ من ذلك شيء ، حتى سأل عمر بن الخطاب ﷺ في ذلك فقال له فيما قال : أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : « بلى أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا ؟ » قال : لا ، قال النبي ﷺ :

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط (٢٧٣٢) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٤) ومسلم في الجهاد (٦٤) وأحمد في مسنده (٣/٤٨٦) .

« فإنك آتيه ومطوف به » وبهذا أجاب الصديق ﷺ أيضًا حذو القذة بالقذة ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده وليس هذا من الاستثناء في شيء . وقوله ﷻ : ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ أي في حال دخولكم ، وقوله : ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ حال مقدرة ؛ لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا محلقين ومقصرين وإنما كان هذا في ثاني الحال . كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره ، وثبت أن رسول الله ﷺ قال « رحم الله المحلقين » قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « رحم الله المحلقين » قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « رحم الله المحلقين » قالوا والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « والمقصرين » في الثالثة أو الرابعة [1] . وقوله ﷻ : ﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾ حال مؤكدة في المعنى فأثبت لهم الأمن حال الدخول ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد ، وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة ، فأقام بها ذا الحجة والمحرم وخرج في صفر إلى خيبر ، ففتحها الله عليه بعضها عنوة وبعضها صلحًا ، وهي إقليم عظيم كثير النخل والزروع ، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم ، ولم يشهدها أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، وأبو موسى الأشعري وأصحابه ﷺ ، ولم يغب منهم أحد ، قال ابن زيد : إلا أبا دجانة سماك بن خرشة ، كما هو مقرر في موضعه ثم رجع إلى المدينة .

فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع خرج ﷺ إلى مكة معتمرًا هو وأهل الحديبية ، فأحرم من ذي الحليفة وساق معه الهدي ، قيل : كان ستين بدنة ، فلبي وسار أصحابه يلبون . فلما كان ﷺ قريبًا من مر الظهران بعث محمد بن سلمة بالخيل والسلاح أمامه . فلما رآه المشركون رعبوا رعبًا شديدًا ، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم ، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين ، فذهبوا فأخبروا أهل مكة ، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج ، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قربها كما شارطهم عليه . فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص فقال : يا محمد ما عرفناك تنقض العهد ، فقال ﷺ : « وما ذاك ؟ » قال : دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح . فقال : ﷺ : « لم يكن ذلك وقد بعثنا به إلى يأجج » . فقال : بهذا عرفناك بالبر والوفاء ، وخرجت رؤوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه ﷺ غيظًا وحنقًا . وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان ، فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فدخلها عليه الصلاة والسلام وبين يديه أصحابه يلبون ، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد الله بن رواحة الأنصاري آخذ بزمام ناقة رسول الله يقودها وهو يقول :

باسم الذي لادين إلا دينه ... باسم الذي محمدٌ رسولُه
خلُّوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تأويله

---

(١) أخرجه مسلم في الحج (٣١٦) والترمذي في السنن (٩١٣) وابن ماجه في السنن (٣٠٤٤) وأحمد في مسنده (١١٩/٢) .

كما ضربناكم على تنزيله ضربا يُزيل الهامَ عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله قد أنزل الرحمن في تنزيله
في صحف تُتْلَى على رسوله بأن خير القتل في سبيله
يارب إني مؤمن بقيله (١)

عن البراء ﷺ قال : اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة ، حتى قاضاهم على أن يقيموا بها ثلاثة أيام ، فلما كتبوا الكتاب كتبوا : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، قالوا : لا نقر بهذا ، ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئًا ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله . قال ﷺ : « أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله » ثم قال ﷺ لعلي بن أبي طالب ﷺ : « امح رسول الله » قال ﷺ : لا والله لا أمحوك أبدًا ، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب : « هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله أن لا يدخل مكة بالسلاح إلا بالسيف في القراب ، وأن لا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يتبعه ، وأن لايمنع من أصحابه أحدًا إن أراد أن يقيم بها » . فلما دخلها ومضى الأجل أتوا عليًا فقالوا : قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل ، فخرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة ﷺ تنادي يا عم يا عم ، فتناولها علي ﷺ فأخذ بيدها وقال لفاطمة ﷺ : دونك ابنة عمك فحملتها ، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر ﷺ فقال علي ﷺ : أنا أخذتها وهي ابنة عمي . وقال جعفر ﷺ : ابنة عمي وخالتها تحتي ، وقال زيد ﷺ : ابنة أخي ، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال : « الخالة بمنزلة الأم » وقال لعلي ﷺ : « أنت مني وأنا منك » وقال لجعفر ﷺ « أشبهت خَلْقي وخُلُقي » وقال ﷺ لزيد ﷺ : « أنت أخونا ومولانا » قال عليّ ﷺ : ألا تتزوج ابنة حمزة ﷺ ؟ قال ﷺ : « إنها ابنة أخي من الرضاعة » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ أي فعلم الله ﷻ من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ ﴾ أي قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبي ﷺ ﴿ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ ، وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين ، ثم قال تبارك وتعالى مبشرًا للمؤمنين بنصرة الرسول ﷺ على عدوه ، وعلى سائر أهل الأرض ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ أي بالعلم النافع والعمل الصالح ، فإن الشريعة تشتمل على شيئين : علم وعمل ، فالعلم الشرعي صحيح ، والعمل الشرعي مقبول ، فإخباراتها حق وإنشاءاتها عدل ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ أي على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ومسلمين ومشركين ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ أي أنه رسوله وهو ناصره ، والله ﷻ أعلم .

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٥/١) .
(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٩) والبيهقي في السنن (٢٣٦/١٠) والطبراني في الكبير (٧٤/٧) .

سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ .

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقًّا بلا شك ولا ريب فقال : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ ﴾ وهذا مبتدأ وخبر ، وهو مشتمل على كل وصف جميل ، ثم ثنى بالثناء على أصحابه ﷺ فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ كما قال ﷻ : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدًا عنيفًا على الكفار ، رحيما برًّا بالأخيار ، غضوبًا عبوسًا في وجه الكافر ضحوكًا بشوشًا في وجه أخيه المؤمن وقال النبي ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » (١) .
وقال ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا . وشبك ﷺ بين أصابعه (٢) .

وقوله ﷻ : ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ ﴾ وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهي خير الأعمال ، ووصفهم بالإخلاص فيها لله ﷻ والاحتساب عند الله تعالى بجزيل الثواب ، وهو الجنة المشتملة على فضل الله ﷻ وهو سعة الرزق عليهم ورضاه تعالى عنهم ، وهو أكثر من الأول وقوله ﷻ : ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾ عن ابن عباس : يعني السمت الحسن . وقال مجاهد وغير واحد : يعني الخشوع والتواضع . عن مجاهد قال : الخشوع . قلت : ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه . فقال : ربما كان بين عيني من هو أقسى قلبًا من فرعون . وقال السدي : الصلاة تحسن وجوههم ، وقال بعض السلف : من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار ، عن جابر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار » (٣) . وقال بعضهم : إن للحسنة نورًا في القلب وضياء في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الناس .

وقال أمير المؤمنين عثمان ﷺ : ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه ، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى أصلح الله ﷻ ظاهره للناس ، وعن أبي سعيد ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائنًا ما كان » (٤) .

وعن ابن عباس ﷺ ، عن النبي ﷺ قال : « إن الهدي الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة » (٥) ، فالصحابة ﷺ خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم ، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم . وقال مالك ﷺ : بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة ﷺ الذين فتحوا الشام يقولون : والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا ، وصدقوا في ذلك فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة ، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ ، وقد نوه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة ، ولهذا قال ﷻ ههنا : ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ ﴾ ثم قال : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ ﴾ أي فراخه ﴿ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾ أي شده

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٦) وأحمد في مسنده (٢٧٠/٤) والبيهقي في السنن (٣٥٣/٣) .
(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٦) ومسلم في البر والصلة (٦٥) والترمذي في السنن (١٩٢٨) وأحمد في مسنده (٤٠٤/٤) .
(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٢٢/١) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/٣) والطبراني في الكبير (١٨٤/٢) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٩/١) .

﴿ فَاسْتَغْلَظَ ﴾ أي شب وطال ﴿ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾ أي فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ .

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمة الله عليه ، في رواية عنه ، بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة ﷺ قال : لأنهم يغيظونهم ومن غاظ الصحابة ﷺ فهو كافر لهذه الآية ، ووافقه طائفة من العلماء ﷺ على ذلك ، والأحاديث في فضل الصحابة ﷺ والنهي عن التعرض لهم بمساويهم كثيرة ، ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم . ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم ﴾ من هذه لبيان الجنس ﴿ مَّغْفِرَةً ﴾ أي لذنوبهم ﴿ وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي ثوابًا . جزيلًا ورزقًا كريمًا . ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل ، وكل من اقتفى أثر الصحابة ﷺ فهو في حكمهم ، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة ، ﷺ وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مأواهم ، وقد فعل . عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه »(١) .

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٢٢) وأحمد في مسنده (٥٤/٣) والبيهقي في السنن (٢٠٣/١٠) .

سورة الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ① يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ② إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

هذه آيات أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين ، فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ ﴾ أي لا تسارعوا في الأشياء بين يديه أي قبله ، بل كونوا تبعًا له في جميع الأمورحتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديث معاذ ﷺ حيث قال له النبي ﷺ حين بعثه إلي اليمن « بم تحكم ؟ » قال : بكتاب الله تعالى ، قال ﷺ : « فإن لم تجد ؟ » قال : بسنة رسول الله ﷺ ، قال ﷺ : « فإن لم تجد ؟ » قال ﷺ : أجتهد رأيي ، فضرب في صدره وقال : « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضي رسولى الله ﷺ »(١) .

وعن ابن عباس ﷺ ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ ﴾ : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة ، وقال العوفي عنه : نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه ، وقال مجاهد : لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضي الله تعالى على لسانه ، وقال الضحاك : لا تقضوا أمرًا دون الله ورسوله من شرائع دينكم ، وقال سفيان الثوري : بقول ولا فعل ، وقال الحسن البصري : لا تدعوا قبل الإمام ، وقال قتادة : ذكر لنا أن ناسًا كانوا يقولون : لو أنزل في كذا وكذا ، لو صح كذا ، فكره الله تعالى ذلك وتقدم فيه ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾ أي فيما أمركم به ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي لأقوالكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنياتكم .

وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ هذا أدب ثان أدب الله تعالى به المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته ، وقد روي أنها نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر ﷺ . وعن ابن أبي مليكة ، قال : كاد الخيّران أن يهلكا أبو بكر وعمر ﷺ ، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم ، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس ﷺ أخي بني مجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر ، قال نافع : لا أحفظ اسمه ، فقال أبو بكر لعمر ﷺ : ما أردت إلا خلافي ، قال : ما أردت خلافك ، فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل اله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ قال ابن الزبير ﷺ فما كان عمر ﷺ يسمع رسول ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه(٢) .

وعن أنس بن مالك ﷺ ، أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس ﷺ فقال رجل : يا رسول الله أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده في بيته منكساً رأسه فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شر ، كان يرفع

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١٣٢٧) وأحمد في مسنده (٢٣٦/٥) والدارمي في السنن (٦٠/١) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٥) .

صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله فهو من أهل النار ، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا ، قال موسى : فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة ، فقال : « اذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار ، ولكن من أهل الجنة » (١) .

وعنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ - إلى قوله - وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت فقال : أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ ، أنا من أهل النار حبط عملي ، وجلس في أهله حزينًا ففقده رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له : تفقدك رسول الله ﷺ ما لك ؟ قال : أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ وأجهر له بالقول ، حبط عملي أنا من أهل النار ، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال ، فقال النبي ﷺ : « بل هو من أهل الجنة » قال أنس ﷺ : فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة ، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف فجاء ثابت بن قيس بن شماس ، وقد تحنط ولبس كفنه فقال : بئسما تعودون أقرانكم فقاتلهم حتى قتل ﷺ (٢) .

كذلك فقد نهى الله ﷻ عن رفع الأصوات بحضرة رسول ﷺ ، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما ، فجاء فقال : أتدريان أين أنتما ؟ ثم قال : من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف ، فقال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربًا . وقال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه محترم حيًا وفي قبره ﷺ دائمًا ، ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبة ممن عداه ، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ .

وقوله ﷻ : ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أو أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده ، خشية أن يغضب من ذلك فيغضب الله تعالى لغضبه ، فيحبط عمل من أغضبه ، وهو لا يدري كما جاء في الصحيح : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقي لها بالًا يكتب له بها الجنة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يُلقي لها بالًا يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض » (٣) ثم ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عنده وحث على ذلك ، وأرشد إليه ، ورغب فيه فقال ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أي أخلصها لها وجعلها أهلًا ومحلًا ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ عن مجاهد قال : كتب إلي عمر : يا أمير المؤمنين ، رجل لا يشتهي المعصية ، ولا يعمل بها أفضل ، أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها ، فكتب عمر ﷺ : إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٦) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٧/٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٩/٣) والحاكم في المستدرك (٤٦/١) والألباني في الصحيحة (٨٨٨) .

ثم إنه تبارك وتعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات وهي بيوت نسائه ، كما يصنع أجلاف الأعراب فقال : ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ثم أرشد تعالى الى الأدب في ذلك فقال ﷻ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ أي لكان لهم في ذلك الخيرة والمصلحة في الدنيا والآخرة . ثم قال جل ثناؤه داعيًا لهم إلى التوبة والإنابة ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقد ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي ﷺ فيما أورده غير واحد . عن الأقرع بن حابس ﷺ ، أنه نادى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد يا محمد ، وفي رواية : يا رسول الله ، فلم يجبه فقال : يا رسول الله إن حمدي لزين ، وإن ذمي لشين ، فقال ﷺ : « ذاك الله ﷻ » (١) وعن زيد بن أرقم ﷺ قال : اجتمع أناس من العرب فقالوا : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل فإن يك نبيًا فنحن أسعد الناس به ، وإن يك ملكا نعش بجناحه . قال : فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا ، فجاءوا إلى حجرة النبي ﷺ فجعلوا ينادونه وهو في حجرته : يا محمد يا محمد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ قال : فأخذ رسول الله ﷺ بأذني ، فمدها فجعل يقول : « لقد صدّق الله تعالى قولك يا زيد ، لقد صدّق الله قولك يا زيد » (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له لئلا يحكم بقوله ، فيكون في نفس الأمر كاذبًا أو مخطئًا ، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه ، وقد نهى الله ﷻ عن اتباع سبيل المفسدين ، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر ، وقبلها آخرون ؛ لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق ، وهذا ليس بمحقق الفسق ؛ لأنه مجهول الحال ، وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق (٣) . وعن الحارث بن أبي ضرار الخزاعي ﷺ قال : قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الاسلام فدخلت فيه وأقررت به ، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها ، وقلت : يا رسول الله أرجع إليهم فأدعوهم إلى الاسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته . وترسل إلي يارسول الله رسولاً إبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة . فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه احتبس عليه الرسول ولم يأته وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله ، فدعا بسروات قومه . فقال لهم : إن رسول الله ﷺ كان وقت لي وقتًا يرسل إلي رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله ﷺ الخلف ، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة ، فانطلقوا بنا نأتي رسول الله ﷺ ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٨٨/٣) والترمذي في السنن (٣٢٦٨) .
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤٠/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٨/٧) .
(٣) أسباب النزول للنيسابوري (ص ٢١٧) .

الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق أي خاف ، فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن الحارث قد منعني الزكاة وأراد قتلي ، فغضب رسول الله ﷺ وبعث البعث إلى الحارث ﷺ وأقبل الحارث بأصحابه حتى اذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا : هذا الحارث ، فلما غشيهم قال لهم : إلى من بعثتم ؟ قالوا : إليك . قال : ولمَ ؟ قالوا : إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله . قال ﷺ : لا والذي بعث محمدًا ﷺ بالحق ما رأيته بتة ولا أتاني .

فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال : « منعتَ الزكاة وأردتَ قتلَ رسولي ؟ » قال : لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني وما أقبلت الا حين احتبس عليَّ رسول رسول الله ﷺ ، خشيت أن يكون كانت سخطة من الله تعالى ورسوله . قال فنزلت الحجرات ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ إلى قوله ﴿ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ أي اعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه وتأدبوا معه وانقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم ، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ ثم بيَّن أن رأيهم سخيف بالنسبة الى مراعاة مصالحهم فقال : ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ أي لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرجكم ، وقوله ﷻ : ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ أي حببه إلى نفوسكم وحسنه في قلوبكم .

وعن أنس ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ يقولُ : « الإسلام علانية والإيمان في القلب » قال ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات ثم يقول : « التقوى ههنا ، التقوى ههنا » (٢) ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾ أي وبغض إليكم الكفر والفسوق وهي الذنوب الكبار ﴿ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾ ، وهي جميع المعاصي وهذا تدريج لكمال النعمة ، وقوله تعالى : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ أي المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين قد آتاهم الله رشدهم .

عن أبي رفاعة الزرقي عن أبيه قال : لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال رسول الله ﷺ : « استووا حتى أثني على ربي ﷻ » فصاروا خلفه صفوفًا ، فقال ﷺ : « اللّٰهم لك الحمد كله ، اللّٰهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مباعد لمن قربت . اللّٰهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك ، اللّٰهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول . اللّٰهم إني أسألك النعيم يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف ، اللّٰهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا ومن شر ما منعتنا . اللّٰهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين . اللّٰهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٩/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٤/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٥٢/١) .

ولا مفتونين ، اللَّهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك ، اللَّهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق » (١) . ﴿ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ أي هذا العطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا بالاصلاح بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ فسماهم مؤمنين مع الاقتتال ، وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت ، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم ، وهكذا ثبت عن أبي بكرة ﷺ قال : إن رسول اللَّه ﷺ خطب يومًا ، ومعه على المنبر الحسن بن علي ﷺ ، فجعل ينظر اليه مرة ، وإلى الناس أخرى ويقول : « إن ابني هذا سيد ولعل اللَّه تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » (٢) . فكان كما قال ﷺ ، أصلح اللَّه تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة ، والواقعات المهولة . وقوله تعالى : ﴿ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي حتى ترجع إلى أمر اللَّه ورسوله ، وتسمع للحق وتطيعه ، عن أنس ﷺ ، أن رسول اللَّه ﷺ قال : « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا » قلت : يا رسول اللَّه ، هذا نصرته مظلومًا ، فكيف أنصره ظالمًا ؟ قال ﷺ : « تمنعه من الظلم ؛ فذاك نصرك إياه » (٣) .

وروي أن أنسًا ﷺ قال : قيل للنبي ﷺ : لو أتيت عبد اللَّه بن أبي ، فانطلق إليه النبي ﷺ ، وركب حمارًا وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة ، فلما انطلق النبي ﷺ إليه قال : إليك عني ، فواللَّه لقد آذاني ريح حمارك ، فقال رجل من الأنصار : واللَّه لحمار رسول اللَّه ﷺ أطيب ريحًا منك . قال : فغضب لعبد اللَّه رجال من قومه ، فغضب لكل واحد منهما أصحابه ، قال : فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال ، فبلغنا أنه أنزلت فيهم ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ (٤) .

وذكر سعيد بن جبير أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسعف والنعال ، فأنزل اللَّه تعالى هذه الأية فأمر بالصلح بينهما . وقوله ﷻ : ﴿ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ أي اعدلوا بينهما فيما كان أصاب بعضهم لبعض بالقسط وهو العدل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ .

عن عبد اللَّه بن عمرو ﷺ عن النبي ﷺ قال : « المقسطون عند اللَّه تعالى يوم القيامة على منابر من

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٤/٣) والحاكم في المستدرك (٥٠٦/١) والطبراني في الكبير (٤٠/٥) .
(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٧٠٤) وأحمد في مسنده (٣٨/٥) .
(٣) أخرجه البخاري في اللقطة (٢٤٤٣) وأحمد في مسنده (٢٩٩/٣) والترمذي في السنن (٢٢٥٥) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٧/٣) .

نور على يمين العرش ، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وماوُلُّوا » (١) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أي الجميع أخوة في الدين ، كما قال رسول الله ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » (٢) وفي الصحيح « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » (٣) وفي الصحيح أيضًا « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك : آمين ولك مثله » (٤) ، وفي الصحيح « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائرُ الجسد بالحمى والسهر » (٥) .

وقوله تعالى ﴿ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ يعني الفئتين المقتتلتين ، ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي في جميع أموركم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ .

ينهى تعالى عن السخرية بالناس وهو احتقارهم والاستهزاء بهم ، كما ثبت في الصحيح عن رسول ﷺ أنه قال : « الكبر بطر الحق وغمص الناس » ويروى « وغمط الناس » (٦) والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم ، وهذا حرام فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرًا عند الله تعالى ، وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ فنص على نهي الرجال ، وعطف بنهي النساء . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي لا تلمزوا الناس . والهماز اللماز من الرجال مذموم ملعون والهمز بالفعل واللمز بالقول .

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة ومقاتل بن حيان ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي لا يطعن بعضكم على بعض ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ﴾ أي لا تداعوا بالألقاب ، وهي التي يسوء الشخص سماعها . عن أبي جبيرة بن الضحاك ، قال : فينا نزلت في بني سلمة ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ﴾ قال : قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة ، فكان إذا دعا أحدًا منهم باسم من تلك الأسماء ، قالوا : يا رسول الله إنه يغضب من هذا ، فنزلت ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ﴾ (٧) . وقوله جل وعلا : ﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ أي بئس الصفة والاسم الفسوق ، وهو التنابز بالألقاب ، كما كان أهل الجاهلية يتناعتون بعد ما دخلتم في الإسلام وعقلتموه ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ ﴾ أيَ من هذا ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن كثير من الظن ، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٣/٢) والحاكم في المستدرك (٨٨/٤) والبيهقي في السنن (٨٧/١٠) .
(٢) أخرجه البخاري في اللقطة (٢٤٤٢) ومسلم في البر والصلة (٥٨) وأحمد في مسنده (٣١١/٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٢/٢) . (٤) أخرجه أبو داود في السنن (١٥٣٤) .
(٥) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٦) ومسلم في البر والصلة (٦٥) وأحمد في مسنده (٤٠٤/٤) .
(٦) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧) والترمذي في السنن (١٩٩٩) .
(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٦٩/٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١١/٧) .

في غير محله ؛ لأن بعض ذلك يكون إثمًا محضًا ، فليجتنب كثيرًا منه احتياطًا . وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال : ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرًا ، وأنت تجد لها في الخيرمحملًا . وعن عبد الله بن عمر ﷺ قال : رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول : « ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك ، ماله ودمه وأن يظن به الا خيرًا » (١) وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والظن ؛ فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ، ولا تحسسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانًا » (٢) .

وعن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ، وكونوا عباد الله إخوانًا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام » (٣) . وعن حارثة بن النعمان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث لازمات لأمتي : الطيرة والحسد وسوء الظن » فقال الرجل : وما يذهبن يا رسول الله ممن هن فيه ؟ قال ﷺ : « إذا حسدت فاستغفر الله ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض » (٤) . وعن دجين كاتب عقبة قال : قلت لعقبة : إن لنا جيرانًا يشربون الخمر وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم . قال : لا تفعل ولكن عظهم وتهددهم ، قال : ففعل فلم ينتهوا . قال : فجاءه دجين فقال : إني قد نهيتهم فلم ينتهوا ، وإني داع لهم الشرط فتأخذهم ، فقال له عقبة : ويحك لا تفعل ؟ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها » (٥) وعن معاوية ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم » فقال أبو الدرداء ﷺ : كلمة سمعها معاوية ﷺ من رسول الله ﷺ نفعه الله تعالى بها (٦) .

﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ أي على بعضكم بعضًا والتجسس غالبًا يطلق في الشر ومنه الجاسوس . وأما التحسس : فيكون غالبًا في الخير كما قال ﷻ إخبارًا عن يعقوب أنه قال : ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ ﴾ وقد يستعمل كل منهما في الشركما ثبت في الصحيح ان رسول الله ﷺ قال « لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانًا » (٧) وقال الأوزاعي : التجسس البحث عن الشيء . والتحسس الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون أو يتسمع على أبوابهم ، والتدابر : الصرم ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ ﴾ فيه نهي عن الغيبة ، وقد فسرها الشارع كما جاء في الحديث عن أبي هريرة قال : قيل : يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال ﷺ : « ذكرك أخاك بما يكره » قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال ﷺ : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » (٨) عن عائشة ﵂ قالت : قلت للنبي ﷺ حسبك من

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٩٣٢) والطبراني في الكبير (٣٧/١١) والمنذري في الترغيب الترهيب (٢٩٤/٣) .
(٢) أخرجه البخاري فى الأدب (٦٠٦٤) ومسلم في البر والصلة (٢٨) والترمذي في السنن (١٩٨٨) ومالك في الموطأ (٩٠٨) .
(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٠) والترمذي في السنن (١٩٣٥) وأحمد في مسنده (١٦٥/٣) .
(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٥٨/٣) والهندي في كنز العمال (٤٣٩١٩) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٣/٤) . (٦) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨٨٨) والطبراني في الكبير (٣٧٩/١٩) .
(٧) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٩) .
(٨) أخرجه الترمذي في السنن (١٩٣٤) وأبو داود في السنن (٤٨٧٤) والبيهقي في السنن (٤٧/١٠) .

صفية كذا وكذا . تعني قصيرة ، فقال ﷺ : « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » قالت : وحكيت له إنسانًا فقال : « ما أحب أني حكيت إنسانًا وإن لي كذا وكذا » [١] والغيبة محرمة بالاجماع ، ولا يستثنى من ذلك إلا من رجحت مصلحته ، كما في الجرح والتعديل والنصيحة كقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس رضي الله عنها ، وقد خطبها معاوية وأبو الجهم : « أما معاوية فصعلوك ، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه » [٢] وكذا ما جرى مجرى ذلك ، ثم بقيتها على التحريم الشديد ، وقد ورد فيها الزجر الأكيد ، ولهذا شبهها تبارك وتعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت كما قال عز وجل : ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي كما تكرهون هذا طبعا فاكرهوا ذاك شرعًا ، فإن عقوبته أشد من هذا ، وهذا من التنفير عنها والتحذير منها كما قال ﷺ : « العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يرجع في قيئه » [٣] وثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من غير وجه أنه ﷺ قال في خطبة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا » [٤] .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام ماله وعرضه ودمه ، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » [٥] وعن أبي بردة البلوي قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته » [٦] وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، قلت : من هؤلاء يا جبرائيل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم » [٧] .

عن عبيد مولى رسول ﷺ أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ ، وأن رجلًا أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ان ههنا امرأتين صامتا وإنهما كادتا تموتان من العطش ، أراه قال : بالهاجرة ، فأعرض عنه أو سكت عنه ، فقال : يا نبي الله إنهما والله قد ماتتا أو كادتا تموتان ، فقال : ادعهما . فجاءتا قال : فجيء بقدح أو عس ، فقال لإحداهما : قيئي . فقاءت من قيح ودم وصديد حتى قاءت نصف القدح ، ثم قال للأخرى : قيئي ، فقاءت قيحًا ودمًا وصديدًا ولحمًا ودمًا عبيطًا وغيره حتى ملأت القدح ، ثم قال : « إن هاتين صامتا عما أحل الله تعالى لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما ، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس » [٨] .

وعن ابن عمر لأبي هريرة أن ماعزًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني قد زنيت ، فأعرض عنه حتى قالها أربعًا ، فلما كان في الخامسة قال : « زنيت ؟ » قال : نعم . قال : « وتدري ما الزنا ؟ » قال : نعم أتيت منها حرامًا ما يأتي الرجل من امرأته حلالًا . قال : « ما تريد إلى هذا القول ؟ »

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨٧٦) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٠٥/٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٢/٦) . (٣) أخرجه البخاري بنحوه في الهبة (٢٦٢٢) .
(٤) أخرجه مسلم في الحج (١٤٧) وأحمد في مسنده (٣٢٠/١) .
(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٢) والترمذي في السنن (١٩٢٧) وابن ماجه في السنن (٣٩٣٣) وأبو داود في السنن (٤٨٨٢) .
(٦) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨٨٠) والبيهقي في السنن (٢٤٧/١٠) .
(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٤/٣) .
(٨) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣١/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧١/٣) .

قال : أريد أن تطهرني . قال : فقال رسول الله ﷺ : «أدخلت ذلك منك في ذلك منها كما يغيب الميل في المكحلة والرشا في البئر ؟ قال : نعم يا رسول الله قال : فأمر برجمه ، فرجم ؟ فسمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه : ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه ، فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب؟ ثم سار النبي ﷺ حتى مر بجيفة حمار فقال : «أين فلان وفلان ؟ انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار » . قالا : غفر الله لك يا رسول الله وهل يؤكل هذا ؟ قال ﷺ : «ما نلتما من أخيكما آنفًا أشد أكلًا منه ، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها » (١) .

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال : كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح جيفة منتنة . فقال رسول الله ﷺ : « أتدرون ما هذه الريح ؟ هذه ريح الذين يغتابون الناس » (٢) .

وقوله ﷻ : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي فيما أمركم به ونهاكم عنه فراقبوه في ذلك واخشوا منه ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ أي تواب على من تاب إليه رحيم لمن رجع إليه واعتمد عليه . قال الجمهور من العلماء : طريق المغتاب للناس في توبته أن يقلع عن ذلك ويعزم على أن لايعود ، وهل يشترط الندم على ما فات ؟ فيه نزاع ، وأن يتحلل من الذي اغتابه . وقال آخرون : لا يشترط أن يتحلله ؛ فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه ، فطريقه إذًا أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها ، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته ، لتكون تلك بتلك ، وعن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه ﷺ عن النبي ﷺ قال : «من حمى مؤمنًا من منافق يغتابه ، بعث الله تعالى إليه ملكًا يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم ، ومن رمى مؤمنًا بشيء يريد سبه ؛ حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال » (٣) وعن جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل الأنصاري ﷺ قالا : قال رسول الله ﷺ : «ما من امرئ يخذل امرأ مسلمًا في موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه ، إلا خذله الله تعالى في مواطن يحب فيها نصرته ، وما من امرئ ينصر امرأ مسلمًا في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله ﷻ في مواطن يحب فيها نصرته » (٤) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا للناس أنه خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ، وهما آدم وحواء ، وجعلهم شعوبًا وهي أعم من القبائل ، وبعد القبائل مراتب أخر ، كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك ، وقيل : المراد بالشعوب بطون العجم ، وبالقبائل بطون العرب ، كما أن الأسباط بطون بني إسرائيل ، فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء ﷺ سواء ، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية وهي طاعة الله تعالى ومتابعة رسوله ﷺ ، ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضًا ، منبهًا على تساويهم في البشرية ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٨/٢٢٧) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣٥١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤٤١) .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٢٨٨٤) وأحمد في مسنده (٤/٣٠) والدارمي في السنن (١/٢٤٣) .

وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ أي ليحصل التعارف بينهم ، كل يرجع إلى قبيلته ، وقال مجاهد في قوله ﷻ : ﴿ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ كما يقال : فلان بن فلان من كذا وكذا ، أي قبيلة كذا وكذا ، وقال سفيان الثوري : كانت حمير ينتسبون إلى مخاليفها ، وكانت عرب الحجاز ينتسبون إلى قبائلها .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ أي إنما تتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى لا بالأحساب ، وعن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أي الناس أكرم ؟ قال : « أكرمهم عند الله أتقاهم » قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : « فأكرم الناس يوسف نبي الله ، ابن نبي الله ، ابن نبي الله ، ابن خليل الله » قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : « فعن معادن العرب تسألوني ؟ » قالوا : نعم . قال : « فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا » (١)

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » (٢) وعن أبي ذر ﷺ قال : إن النبي ﷺ قال له : « انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله » (٣) .

وعن عقبة بن عامر ﷺ قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد ، كلكم بنو آدم طف الصاع لم يملؤوه ، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى ، وكفى بالرجل أن يكون بذيًّا بخيلًا فاحشًا » (٤) .

وعن درة بنت أبي لهب ﷺ قالت : قام رجل إلى النبي ﷺ هو على المنبر فقال : يا رسول الله أي الناس خير ؟ قال ﷺ : « خير الناس أقرأهم وأتقاهم لله ﷻ ، وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم » (٥) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ أي عليم بكم خبير بأموركم ، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء ، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء ، ويفضل من يشاء على من يشاء ، وهو الحكيم العليم الخبيرفي ذلك كله ، وقد استدل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لاتشترط ولايشترط سوى الدين لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى مذكورة في كتب الفقه .

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٨٣) وأحمد في مسنده (٩٦/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٤) وابن ماجه في السنن (٤١٤٣) وأحمد في السنن (٢٨٥/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٨/٥) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٥/٤) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٢/٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٣/٧) .

يقول تعالى منكرًا على الأعراب الذين أول مادخلوا في الإسلام ، ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، ويدل عليه حديث جبريل عليه الصلاة والسلام حين سأل عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان ، فترقى من الأعم إلى الأخص ثم للأخص منه . وعن سعد بن أبي وقاص ﵁ قال : أعطى رسول الله ﷺ رجالًا ولم يعط رجلًا منهم شيئًا ، فقال سعد رضي الله تعالى عنه : يارسول الله أعطيت فلانًا وفلانًا ولم تعط فلانًا شيئًا ، وهو مؤمن ، فقال النبي ﷺ : « أو مسلم ؟ » حتى أعادها سعد ﵁ ثلاثًا والنبي ﷺ يقول : « أو مسلم ؟ » ثم قال النبي ﷺ : « إني لأعطي رجالًا وأدع من هو أحب إليَّ منهم ، فلم أعطه شيئًا مخافة أن يكبوا في النار على وجوههم » [1] . ودل ذلك على أن ذاك الرَّجل كان مسلمًا ليس منافقًا لأنه تركه من العطاء ، ووكله إلى ماهو فيه من الإسلام ، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين ، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم ، فادعوا لأنفسهم مقامًا أعلى مما وصلوا إليه فأدبوا في ذلك ، وهذا معنى قول ابن عباس ﵄ وإبراهيم النخعي وقتادة واختاره ابن جرير . وإنما قلنا هذا لأن البخاري ﵀ ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرون الإيمان وليسوا كذلك .

وقد روي عن سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد أنهم قالوا في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ أي استسلمنا ، خوف القتل والسبي . قال مجاهد : نزلت في بني أسد بن خزيمة . وقال قتادة : نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ ، والصحيح الأول أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ، ولم يحصل لهم بعد ، فأدِّبوا ، وأعلمهم أن ذلك لم يصلوا إليه بعد . ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا كما ذكر المنافقون في سورة براءة ، وإنما قيل لهؤلاء تأديبًا ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ أي لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ﴾ أي لاينقصكم من أجوركم شيئًا . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي لمن تاب إليه وأناب . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي إنما المؤمنون الكمل ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ أي لم يشكوا ولاتزلزلوا بل ثبتوا على حال واحدة هي التصديق المحض ﴿ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ أي في قولهم إذا قالوا أنهم مؤمنون ، لاكبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة .

وعن أبي سعيد ﵁ قال : إن النبي ﷺ قال : « المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء : الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ، والذي إذا أشرف على طمع تركه لله ﷻ » [2] وقوله ﷺ : ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ أي أتخبرونه بما في ضمائركم ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي لايخفى عليه

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٦/١) والنسائي في السنن (٤٩٩٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٨/٣) .

مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ ﴾ يعني الأعراب الذين يمنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول ﷺ يقول الله تعالى ردًّا عليهم ﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ ﴾ فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم ولله المنة عليكم فيه ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي في دعواكم ذلك كما قال النبي ﷺ للأنصار يوم حنين « يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي ؟ » كلما قال شيئًا قالوا : الله ورسوله أمنُّ [1] .

ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات وبصره بأعمال المخلوقات فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٣٠) ومسلم في الزكاة (١٣٩) وأحمد في مسنده (٥٧/٣) .

سورة ق

هذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح وقيل : من الحجرات . وأما مايقوله العوام إنه من (عم) فلا أصل له ولم يقله أحد من العلماء ﷺ المعتبرين فيما نعلم . والدليل على أن هذه السورة هي أول المفصل مارواه أوس بن حذيفة قال : قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف ، قال : فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة ﷺ ، وأنزل الرسول ﷺ بني مالك في قبة له ، قال مسدد : وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف ، قال : كان رسول الله ﷺ كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا - قال أبو سعيد : قائمًا على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام ، فأكثرمايحدثنا ﷺ مالقي من قومه قريش ثم يقول ﷺ « لا أساء ، وكنا مستضعفين مستذلين » - قال مسدد : « بمكة - فلما خرجنا الى المدينة كانت الحرب سجالًا بيننا وبينهم ندال عليهم ويدالون علينا » فلما كانت ليلة أبطأ عنا ﷺ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه ، فقلنا : لقد أبطأت علينا الليلة ، قال ﷺ « إنه طرأ على حزبي من القرآن فكرهت أن أجيء حتى أتمه » قال أوس : سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن ؟ فقالوا : ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة ، وحزب المفصل وحده (١) .

إذا علم هذا فإذا عددت ثمانيًا وأربعين سورة فالتي بعدهن سورة ق . بيانه : ثلاث : البقرة وآل عمران والنساء . وخمس : المائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة . وسبع : يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل . وتسع : سبحان والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان . وإحدى عشرة : الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان وآلم السجدة والأحزاب وسبأ وفاطر ويس . وثلاث عشرة : الصافات وص والزمر وغافر وحم السجدة وحم عسق والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف والقتال والفتح والحجرات . ثم بعد ذلك الحزب المفصل كما قاله االصحابة ﷺ . فتعين أن أوله سورة ق وهو الذي قلنا ولله الحمد والمنة . عن عبد الله بن عبيد الله أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي : ماكان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد ؟ قال : بقاف واقتربت (٢) .

وعن أم هشام بنت حارثة قالت : لقد كان تنورنا وتنور النبي ﷺ واحدًا سنتين أو سنة وبعض سنة ، وما أخذت ﴿ قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ ، وكان يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس (٣) .

والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار كالعيد والجمع لاشتمالها على ابتداء الخلق ، والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٣٤٥) وأحمد في مسنده (٩/٤) .
(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢١٧/٥) . (٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٤٣٥/٦) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ .

﴿ قٓ ﴾ : حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور ، وقد روي عن بعض السلف أنهم قالوا : ق جبل محيط بجميع الأرض يقال له جبل قاف ، وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس لما رأى من جواز الرواية عنهم مما لايصدق ولايكذب ، وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبسون به على الناس أمر دينهم ، كما افترى في هذه الأمة مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها أحاديث عن النبي ﷺ وما بالعهد من قدم ، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى وقلة الحفاظ النقاد فيهم وشربهم الخمور ، وتحريف علماءهم الكلم عن مواضعه وتبديل كتب الله وآياته ، وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله : « وحدثوا عن بني إسرائيل ولاحرج »[1] فيما قد يجوزه العقل ، فأما فيما تحيله العقول ويحكم فيه بالبطلان ويغلب على الظنون كذبه ؛ فليس من هذا القبيل ، والله أعلم .

وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين ، وكذا طائفة كثيرة من الخلف من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد ، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﷻ ﴿ قٓ ﴾ هو اسم من أسماء الله ﷻ . والذي ثبت عن مجاهد أنه حرف من حروف الهجاء كقوله تعالى : (ص - ن - حم - طس- الم) .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ أي الكريم العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد واختلفوا في جواب القسم ما هو ؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة أنه قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ وفي هذا نظر بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم ، وهو إثبات النبوة وإثبات المعاد وتقريره وتحقيقه ، وإن لم يكن القسم يلتقى لفظًا ، وهذا كثير في أقسام القرآن كما تقدم في قوله : ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ وهكذا قال ههنا ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أي تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر .

ثم قال ﷻ مخبرًا عنهم في تعجبهم أيضًا من المعاد واستبعادهم لوقوعه ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ أي يقولون أئذا متنا وبلينا وتقطعت الأوصال منا وصرنا ترابا ، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب ؟ ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ أي بعيد الوقوع . والمعنى : أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه . قال الله تعالى رادًا عليهم : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ أي ما تأكل من أجسادهم في البلى ، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان وأين ذهبت وإلى أين صارت ﴿ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ أي حافظ لذلك ؛ فالعلم شامل ، والكتاب أيضًا فيه كل الأشياء مضبوطة .

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١) وأحمد في مسنده (٤٦/٣) .

ثم بين تبارك وتعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ أي وهذا حال كل من خرج عن الحق مهما قال بعد ذلك فهو باطل ، والمريج : المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلاله .

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۞ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۞ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۞ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۞ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۞ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا للعباد على قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعها ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ أي بالمصابيح ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ قال مجاهد : يعني من شقوق ، وقال غيره : فتوق ، وقال غيره : صدوع ، والمعنى متقارب . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ أي وسعناها وفرشناها ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ وهي الجبال لئلا تميد بأهلها وتضطرب ، فإنها مقرة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ أي من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع . وقوله ﴿ بَهِيجٍ ﴾ أي حسن المنظر ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ أي ومشاهدة خلق السموات والأرض وما جعل الله فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب أي خاضع خائف وجل رجاع إلى الله ﷻ .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾ أي نافعا ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ ﴾ أي حدائق من بساتين ونحوها ﴿ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ وهو الزرع الذي يراد لحبه وادخاره ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ ﴾ أي طوالا شاهقات ، قال ابن عباس ﵄ ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي وغيرهم : الباسقات الطوال ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ أي منضود ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ أى للخلق ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ وهي الأرض التي كانت هامدة ، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج من أزاهير وغير ذلك ، مما يحار الطرف في حسنها ، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها فأصبحت تهتز خضراء ، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك ، كذلك يحيي الله الموتى وهذه المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۞ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۞ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۞ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ .

يقول تعالى مهددا لكفار قريش ، بما أحله بأشباههم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم ، من النقمات والعذاب الأليم في الدنيا كقوم نوح وما عذبهم الله تعالى به من الغرق العام لجميع أهل الأرض وأصحاب الرس ﴿ وَثَمُودُ ۞ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴾ وهم أمته الذين بعث إليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور ، وكيف خسف الله تعالى بهم الأرض ، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ ﴾ وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ وهو اليماني .

﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾ أي كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذب رسولهم ، ومن كذب رسولًا فكأنما كذب جميع الرسل ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أي فحق عليهم ما أوعدهم الله تعالى على التكذيب من

العذاب والنكال ، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك . وقوله تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾ أي أفأعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شك من الإعادة ؟ ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ والمعنى أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه كما قال ﷻ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ .

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه وعلمه محيط بجميع أموره ، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخيروالشر . وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل » (١) وقوله ﷻ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ يعني ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه ، ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد وهما منفيان بالإجماع ، تعالى الله وتقدس ، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل : وأنا أقرب إليه من حبل الوريد وإنما قال : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ كما قال في المحتضر ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ يعني ملائكته ، وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بأقدار الله جل وعلا لهم على ذلك . فللملك لمة من الإنسان كما أن للشيطان لمة ، وكذلك الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق (٢) ، ولهذا قال تعالى ههنا ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ يعني الملكين الذين يكتبان عمل الإنسان .

﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ أي مترصد ﴿ مَّا يَلْفِظُ ﴾ أي ابن آدم ﴿ مِن قَوْلٍ ﴾ أي ما يتكلم بكلمة ﴿ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ أي إلا ولها من يرقبها معد لذلك يكتبها لايترك كلمة ولاحركة . وقد اختلف العلماء هل يكتب الملك كل شيء من الكلام ؟ . وهو قول الحسن وقتادة ، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب ؟ كما هو قول ابن عباس رضي الله عنهما . فعلى قولين وظاهر الآية الأول لعموم قوله تبارك وتعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ . عن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه قال : قال رسول ﷺ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله ﷻ له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه الى يوم يلقاه ، فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث (٣) .

وقال الأحنف بن قيس : صاحب اليمين يكتب الخير وهو أمين على صاحب الشمال ، فإن أصاب العبد خطيئة قال له : أمسك ، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها وإن أبى كتبها .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ قال : يكتب كل ما تكلم به من خير أو

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٦٩) ومسلم في الإيمان (٢٠١) والنسائي في السنن (١٥٧/٦) وابن ماجه في السنن (٢٠٤٠) .
(٢) انظر أحمد في مسنده (١٥٦/٣) وابن ماجه في السنن (٥٦٥/١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٩/٣) والحاكم في المستدرك (٥٩٧/٤) والطبراني في الكبير (٣٥٤/١) .

شر حتى أنه ليكتب قوله : أكلت شربت ذهبت جئت رأيت ، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خيرأو شر وألقى سائره ، وذلك قوله تعالى : ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه فبلغه عن طاوس أنه قال يكتب الملك كل شيء حتى الأنين ؛ فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ يقول عز وجل : ﴿ وَجَآءَتْ ﴾ أيها الإنسان ﴿ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمتري فيه ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أي هذا هو الذي كنت تفر منه قد جاءك فلا محيد ولامناص ولافكاك ولاخلاص .

وقد اختلف المفسرون في المخاطب بقوله ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو ، وقيل : الكافر ، وقيل : غير ذلك . عن عائشة رضي الله عنها قالت : حضرت أبي رضي الله عنه وهو يموت ، وأنا جالسة عند رأسه فأخذته غشية ، فتمثلت ببيت من الشعر :

من لايزال دمعه مقنعًا فإنه لابد مرة مدفوق

قالت : فرفع رضي الله عنه رأسه فقال : يا بنية ليس كذلك ، ولكن كما قال تعالى : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول « سبحان الله إن للموت لسكرت » (١) . وفي قوله : ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ قولان : أحدهما : أن ما ههنا موصولة أي الذي كنت منه تحيد بمعنى تبتعد وتتناءى وتفر ، قد حل بك ونزل بساحتك . والقول الثاني : أن ما نافية بمعنى ذلك ما كنت تقدر على الفراق منه ، ولا الحيد عنه . عن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل الذي يفر من الموت مثل الثعلب تطلبه الأرض بدين ، فجاء يسعى حتى إذا أعيي وأسهد دخل جحره ، وقالت له الأرض : يا ثعلب ديني ، فخرج وله حصاص ، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه ومات » (٢) ومضمون هذا المثل كما لا انفكاك له ولا محيد عن الأرض ، كذلك الإنسان لا محيد له عن الموت . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴾ وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له ؟ » قالوا : يا رسول الله كيف نقول ؟ قال ﷺ : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » فقال القوم : حسبنا الله ونعم الوكيل (٣) ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ أي ملك يسوقه إلى المحشر وملك يشهد عليه بأعماله . هذا هو الظاهر من الآية الكريمة . وهو اختيار ابن جرير . وعن يحيى بن رافع - مولى لثقيف - قال : سمعت عثمان بن عفان رضي الله عنه يخطب فقرأ هذه الآية ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ فقال : سائق يسوقها إلى الله تعالى وشاهد يشهد عليها بما عملت . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : السائق ، الملك والشهيد العمل ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : السائق من الملائكة والشهيد الإنسان نفسه ، يشهد على نفسه .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦٤/٦) .

(٢) أخرجه الطبراني في الصغير (٢٦٨/٧) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢٠/٢) والحصاص : شدة العدو .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٣١) والحاكم في المستدرك (٥٥٩/٤) وأحمد في مسنده (٧/٣) .

وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال في المراد بهذا الخطاب في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ أحدها : أن المراد بذلك الكافر . والثاني : أن المراد بذلك كل أحد من بر وفاجر ؛ لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة ، والدنيا كالمنام ، وهذا اختيار ابن جرير . والثالثة : أن المخاطب بذلك النبي ﷺ وبه يقول زيد بن أسلم وابنه ، والمعنى على قولهما : لقد كنت في غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك ، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك فبصرك اليوم حديد ، والظاهر من السياق خلاف هذا بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو ، والمراد بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ يعني من هذا اليوم ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ أي قوي ؛ لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصرًا حتى الكفار في الدنيا ، يكونون يوم القيامة على الاستقامة ، لكن لا ينفعهم ذلك . قال اللَّه تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ .

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الملك الموكل بعمل ابن آدم إنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل ويقول : ﴿ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾ أي معتد محضر بلا زيادة ولا نقصان . وقال مجاهد : هذا كلام الملك السائق ، يقول هذا ابن آدم الذي وكلتني به قد أحضرته ، وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد ، وله اتجاه وقوة ، فعند ذلك يحكم اللَّه تعالى في الخليقة بالعدل فيقول : ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ وقد اختلف النحاة في قوله : ﴿ أَلْقِيَا ﴾ فقال بعضهم : هي لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالتثنية كما روي عن الحجاج أنه كان يقول : يا حرسي اضربا عنقه ، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد ، فالسائق أحضره الى عرصة الحساب ، فلما أدى الشهيد عليه أمرهما اللَّه تعالى بإلقائه في نار جهنم ، وبئس المصير ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أي كثير الكفر والتكذيب بالحق عنيد معاند للحق ، معارض له بالباطل مع علمه بذلك ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ أي لا يؤدي ما عليه من الحقوق ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ أي فيما ينفقه ويصرفه يتجاوز فيه الحد . وقال قتادة : معتد في منطقه وسيره وأمره ﴿ مُّرِيبٍ ﴾ أي شاك في أمره مريب لمن نظر في أمره ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ أي أشرك باللَّه فعبد معه غيره ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « يخرج عنق من النار يتكلم يقول : وكلت اليوم بثلاثة : بكل جبار عنيد ، ومن جعل مع اللَّه إلهًا آخرًا ، ومن قتل نفسًا بغير نفس ، فتنطوي عليهم فتقذفهم في غمرات جهنم »[1] .

﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة وغيرهم : هو الشيطان الذي وكل به ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ﴾ أي يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافرًا يتبرأ منه شيطانه فيقول : ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ﴾ أي ما أضللته ﴿ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴾ أي بل كان هو في نفسه ضالًا قابلًا للباطل معاندًا للحق ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠/٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢٩٧/٣) والألباني في الصحيحة (٥١٣) . والعنق : دابة وحشية أكبر من السنور وأصغر من الكلب .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ ﴾ يقول الرب ﷻ للإنسي وقرينه من الجن ، وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق تعالى ، فيقول الإنسي : يارب هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني ، ويقول الشيطان : ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴾ أي عن منهج الحق ، فيقول الرب ﷻ لهما : ﴿ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ ﴾ أي عندي ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴾ أي قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل ، وأنزلت الكتب وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ قال مجاهد : يعني قد قضيت ما أنا قاض ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أي لست أعذب أحدًا إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه .

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة : ﴿ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ ﴾ ؟ وذلك لأنه تبارك وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين ، فهو ﷻ يأمر بمن يأمر به إليها ويلقى وهي تقول : هل من مزيد أي هل بقي شيء تزيدوني ؟ هذا هو الظاهر في سياق الآية وعليه تدل الأحاديث . عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال : « يلقى في النار وتقول : هل من مزيد ؟ » حتى يضع قدمه فتقول : قط قط [1] . وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟ قال الله ﷻ للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منكما ملؤها ، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فيها فتقول : قط قط ، فهنالك تمتلئ وينزوي بعضها إلى بعض ولا يظلم الله ﷻ من خلقه أحدًا ، وأما الجنة : فإن الله ﷻ ينشئ لها خلقًا آخر » [2] .

عن أبي بن كعب ﷺ قال : إن رسول الله ﷺ قال : « يعرفني الله تعالى نفسه يوم القيامة ، فأسجد سجدة يرضى بها عني ، ثم أمدحه مدحة يرضى بها عني ، ثم يؤذن لي في الكلام ، ثم تمر أمتي على الصراط مضروب بين ظهراني جهنم ، فيمرون أسرع من الطرف والسهم وأسرع من أجود الخيل ، حتى يخرج الرجل منها يحبو وهي الأعمال ، وجهنم تسأل المزيد حتى يضع فيها قدمه ، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول : قط قط وأنا على الحوض » قيل : وما الحوض يارسول الله ؟ قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده إن شرابه أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأبرد من الثلج وأطيب ريحًا من المسك ، وآنيته أكثر من عدد النجوم ، لا يشرب منه إنسان فيظمأ أبدًا ، ولا يصرف فيروى أبدًا » [3] وهذا القول هو اختيار ابن جرير .

وعن مجاهد يقول : لا يزال يقذف فيها حتى تقول : قد امتلأت فتقول : هل في مزيد فعند هؤلاء أن قوله تعالى ﴿ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ ﴾ إنما هو بعدما يضع عليها قدمه فتنزوي وتقول حينئذ : هل بقي في مزيد يسع شيئًا ؟ قال ابن عباس : وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبرة وقوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٨) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٧) وأحمد في مسنده (٣/٢٣٤) .
(٢) أخرجه البخاري فى تفسير القرآن (٤٨٥٠) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٥) وأحمد في مسنده (٢/٢١٤) .
(٣) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٩١٩٦) وابن حجر في فتح الباري (١١/٤٣٧) والسيوطي في الدر المنثور (٦/١٠٧) .

بَعِيدٍ ﴾ قال قتادة وأبو مالك والسدي : ﴿ وَأُزْلِفَتِ ﴾ أدنيت وقربت من المتقين ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ وذلك يوم القيامة ، وليس ببعيد لأنه واقع لا محالة وكل ما هو آت قريب ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ أي رجاع تائب مقلع ﴿ حَفِيظٍ ﴾ أي يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكثه ، وقال عبيد بن عمير : الأواب الحفيظ الذي لا يجلس مجلسًا فيقوم حتى يستغفر الله ﷻ ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ﴾ أي من خاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلا الله ﷻ كقوله ﷺ : « ورجل ذكر الله تعالى خاليا ، ففاضت عيناه » [1] ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ أي ولقي الله ﷻ يوم القيامة بقلب منيب سليم إليه خاضع لديه ﴿ ادْخُلُوهَا ﴾ أي الجنة ﴿ بِسَلَامٍ ﴾ قال قتادة : سلموا من عذاب الله ﷻ ، وسلم عليهم ملائكة الله . وقوله ﷻ : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ أي يخلدون في الجنة فلا يموتون أبدًا ، ولا يظعنون أبدًا ولا يبغون عنها حولًا ، وقوله جلت عظمته : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا ﴾ أي مهما اختاروا وجدوا من أي أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم . عن كثير بن مرة قال : من المزيد أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول : ماذا تريدون « فأمطره لكم ؟ فلا يدعون بشيء إلا أمطرتهم ، قال كثير : لئن أشهدني الله تعالى ذلك لأقولن : أمطرينا جواري مزينات .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة واحدة » [2] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ هو كقوله ﷻ ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ عن صهيب بن سنان الرومي : أنها النظر الى وجه الله الكريم . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله ﷻ : ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ قال : يظهر لهم الرب ﷻ في كل جمعة . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أتى جبرائيل عليه الصلاة والسلام بمرآة بيضاء فيها نكتة إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ . « ما هذه » فقال : هذه الجمعة فضلت بها أنت وأمتك ، فالناس لكم فيها تبع اليهود والنصارى ، ولكم فيها خير ، ولكم فيها ساعة لايوافقها مؤمن يدعو الله تعالى فيها بخير إلا استجيب له وهو عندنا يوم المزيد . قال النبي ﷺ : « يا جبريل وما يوم المزيد ؟ » قال عليه السلام : إن ربك تبارك وتعالى اتخذ في الفردوس واديًا أفيح فيه كثب المسك ، فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله تعالى ما شاء من ملائكته ، وحوله منابر من نور عليها مقاعد النبيين ، وحفت تلك المنابر من ذهب ، مكللة بالياقوت والزبرجد عليها الشهداء والصديقون ، فجلسوا من ورائهم على تلك الكثب ، فيقول الله ﷻ : أنا ربكم قد صدقتكم وعدي ، فسلوني أعطكم ، فيقولون : ربنا نسألك رضوانك ، فيقول : قد رضيت عنكم ولكم علي ما تمنيتم ولدي مزيد . فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربهم تبارك وتعالى من الخير ، وهو اليوم الذي استوى فيه ربكم على العرش ، وفيه خلق آدم ، وفيه تقوم الساعة » [3] . وعن أبي سعيد رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن الرجل في الجنة ليتكئ في الجنة سبعين سنة قبل أن يتحول ، ثم تأتيه امرأة تضرب على منكبه فينظر وجهه في خدها أصفى من المرآة ، وإن أدق لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب ، فتسلم عليه فيرد السلام فيسألها من أنت فتقول : أنا من المزيد ، وإنه ليكون عليها سبعون حلة أدناها مثل النعمان من طوبى ، فينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك ، وإن عليها من التيجان ، إن أدني لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب » [4] .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٩) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٩/٣) .
(٣) أخرجه الشافعي في مسنده (١٠٤/٦) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٣) والسيوطي في جمع الجوامع (٥٥٢٧) .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم ﴾ قبل هؤلاء المكذبين ﴿ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ أي كانوا أكثر منهم وأشد قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : أثروا فيها . وقال مجاهد : ضربوا في الأرض ، وقال قتادة : فساروا في البلاد أي ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم بها ، ويقال لمن طوف في البلاد نقب فيها .

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ أي هل مِن مفر كان لهم من قضاء الله وقدره ، وهل نفعهم ما جمعوه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل ، فأنتم أيضًا لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص . وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ أي لعبرة ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ أي لب يعي به . وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ فيه تقرير للمعاد ؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأحرى ، وقال قتادة : قالت اليهود - عليهم لعائن الله - : خلق الله السموات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت ، وهم يسمونه يوم الراحة فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ أي من إعياء ولا تعب ولا نصب .

وقوله عز وجل : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ يعني المكذبين اصبرعليهم واهجرهم هجرًا جميلًا ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتين قبل طلوع الشمس في وقت الفجر وقبل الغروب في وقت العصر ، وقيام الليل كان واجبًا على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أمته حولًا ثم نسخ في حق الأمة وجوبه ، ثم بعد ذلك نسخ الله تعالى ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات ، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . عن جرير بن عبد الله رضي الله عنهما قال : كنا جلوسًا عند النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : « أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر لاتضامون فيه ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ أي فصل له ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما : هو التسبيح بعد الصلاة . يؤيد هذا ما ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : جاء فقراء المهاجرين فقالوا : يارسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « وذاك ؟ » قالوا : يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نعتق . قال صلى الله عليه وسلم : « أفلا أعلمكم شيئًا إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم ؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين » قال : فقالوا : يا رسول

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٦٥) ومسلم في المساجد (٢١٢) والطبراني في الكبير (٢/٣٣٢) .

الله سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله . فقال ﷺ : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء »[١] .

والقول الثاني : أن المراد بقوله تعالى : ﴿ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ هما الركعتان بعد المغرب . عن علي رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يصلي على أثر كل صلاة مكتوبة ركعتين إلا الفجر والعصر . وقال عبد الرحمن : دبر كل صلاة[٢] .

﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَٱسْتَمِعْ ﴾ يا محمد ﴿ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ قال قتادة : قال كعب الأحبار : يأمر الله تعالى ملكًا أن ينادي على صخرة بيت المقدس أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة ، إن الله تعالى يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ﴾ يعني النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ أي من الأجداث ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وإليه مصير الخلائق كلهم ، فيجازي كلًّا بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ وذلك إن الله عز وجل ينزل مطرًا من السماء ينبت به أجساد الخلائق كلها في قبورها ، كما ينبت الحب في الثرى بالماء ، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله تعالى إسرافيل فينفخ في الصور ، وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور ، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض ، فيقول الله عز وجل : وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره ، فترجع كل روح إلى جسدها ، فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ ، وتنشق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب سراعًا مبادرين إلى أمر الله عز وجل ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « أنا أول من تنشق عنه الأرض »[٣] . وقوله عز وجل : ﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ أي تلك إعادة سهلة علينا ، يسيرة لدينا .

وقوله جل وعلا : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أي نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يهولنك ذلك ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ أي ولست بالذي تجبر هؤلاء على الهدى ، وليس ذلك مما كلفت به . وقال مجاهد وقتادة والضحاك : ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ أي لا تتجبر عليهم ، والقول الأول أولى ، ولو أراد ما قالوه لقال : ولا تكن جبارًا عليهم ، وإنما قال : ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ بمعنى وما أنت بمجبرهم على الإيمان إنما أنت مبلغ ، قال الفراء : سمعت العرب تقول : جبر فلان فلانا على كذا بمعنى أجبره ، ثم قال عز وجل : ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ أي بلغ أنت رسالة ربك فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ وقوله جل جلاله ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٤٣) ومسلم في الإيمان (١٧٩) والترمذي في السنن (٧٣١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/١٢٤) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣١٤٨) وابن ماجه في السنن (٤٣٠٨) وأحمد في مسنده (١/٢٨١) والحاكم في المستدرك (٢/٤٦٥) .

سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ .

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ، أنه صعد منبر الكوفة فقال : لاتسألوني عن آية في كتاب الله تعالى ، ولا عن سنة عن رسول الله إلا أنبأتكم بذلك ، فقام إليه ابن الكواء ، فقال : يا أمير المؤمنين ما معنى قوله تعالى : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾ قال علي ﷺ : الريح ، قال : ﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴾ قال ﷺ : السحاب ، قال : ﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾ قال ﷺ : السفن ، قال : ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ قال ﷺ : الملائكة .

وقال بعضهم : هي النجوم تجري يسرًا في أفلاكها ليكون ذلك ترقيًا من الأدنى إلى الأعلى إلى ما هو أعلى منه ، فالرياح فوقها السحاب ، والنجوم فوقه كذلك ، والمقسمات أمرًا : الملائكة فوق ذلك تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية ، وهذا قسم من الله ﷻ على وقوع المعاد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ أي لخبر صدق ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ ﴾ وهو الحساب ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ أي لكائن لا محالة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ قال ابن عباس ﷺ : ذات الجمال والبهاء والحسن والاستواء ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم . وقال الضحاك والمنهال بن عمرو وغيرهما : مثل تجعد الماء والرمل والزرع ، إذا ضربته الريح فينسج بعضه بعضًا طرائق طرائق ، فذلك الحبك . عن أبي قلابة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن من ورائكم الكذاب المضل ، وإن رأسه من ورائه حُبُكًا حُبُكًا » (١) يعني بالحبك الجعودة . وعن أبي صالح : ﴿ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ الشدة . وعن عبد الله بن عمرو ﷺ : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ يعني السماء السابعة ، وكأنه والله أعلم أراد بذلك السماء التي فيها الكواكب الثابتة ، وهي عند كثير من علماء الهيئة في الفلك الثامن الذي فوق السابع ، والله أعلم . وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد وهو الحسن والبهاء كما قال ابن عباس ﷺ ، فإنها من حسنها مرتفعة شفافة صفيقة شديدة البناء متسعة الأرجاء أنيقة البهاء ، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات ، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ أي إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل لفي قول مختلف مضطرب لايلتئم ولايجتمع ، وقال قتادة : إنكم لفي قول مختلف مابين مصدق بالقرآن ومكذب به . ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أي إنما يروج على من هو ضال في نفسه ؛ لأنه قول باطل إنما ينقاد له ويضل بسببه ، ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال غمر لا فهم له قال ابن عباس ﷺ والسدي : ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ يضل عنه من ضل . وقال مجاهد : يؤفن عنه من أفن ، وقال الحسن البصري : يصرف عن هذا القرآن من كذب به . وقوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ قال مجاهد : الكذابون ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٤١٠) وذكره الطبرى في تفسيره (٢٦/٢٤٥) .

قال : وهي مثل التي في عبس ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ والخراصون الذين يقولون لانبعث ولايوقنون . قال ابن عباس : أي لعن المرتابون . وهكذا كان معاذ ﷺ يقول في خطبته . هلك المرتابون . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ قال ابن عباس ﷺ وغير واحد : في الكفر والشك غافلون لاهون ﴿ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ وإنما يقولون هذا تكذيبًا وعنادًا وشكًا واستبعادًا ، قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد : ﴿ يُفْتَنُونَ ﴾ يعذبون . قال مجاهد : كما يفتن الذهب على النار ، وقال جماعة آخرون : يحرقون ﴿ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ ﴾ قال مجاهد : حريقكم ، وقال غيره : عذابكم ﴿ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا وتحقيرًا وتصغيرًا ، والله أعلم .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المتقين لله ﷻ أنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال . وقوله تعالى : ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ قال ابن جرير : أي عاملين بما أتاهم الله من الفرائض ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ أي قبل أن يفرض عليهم الفرائض كانوا محسنين في الأعمال أيضًا .

وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ ﴾ أي في الدار الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ كقوله ﷻ : ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ ثم إنه تعالى بين إحسانهم في العمل فقال جل وعلا ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ اختلف المفسرون في ذلك على قولين : أحدهما ، أن ما نافية تقديره : كانوا قليلا من الليل لايهجعونه ، قال ابن عباس ﷺ : لم تكن تمضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئًا ، وقال قتادة عن مطرف بن عبد الله : قل ليلة تأتي عليهم إلا يصلون فيها لله ﷻ ، إما من أولها وإما من أوسطها . وقال أنس بن مالك وأبو العالية : كانوا يصلون بين المغرب والعشاء . القول الثاني : أن ما مصدرية تقديره كانوا قليلًا من الليل هجوعهم ونومهم ، واختاره ابن جرير .

وقال الحسن البصري : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلا أقله ، ونشطوا فمدوا إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر . وقال الحسن البصري : كان الأحنف بن قيس يقول : عرضت عملي على عمل أهل الجنة ، فإذا قوم قد باينونا بونًا بعيدًا ، إذا قوم لانبلغ أعمالهم كانوا قليلًا من الليل ما يهجعون ، وعرضت عملي على عمل أهل النار ، فإذا قوم لا خير فيهم مكذبون بكتاب الله وبرسل الله ، مكذبون بالبعث بعد الموت ، فقد وجدت من خيرنا منزلة قومًا خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : قال رجل من بني تميم لأبي : يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا ، ذكر الله تعالى قوما فقال : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ ونحن والله قليلا من الليل ما نقوم ، فقال له أبي ﷺ : طوبى لمن رقد إذا نعس واتقى الله إذا استيقظ . وقال عبد الله ابن سلام ﷺ : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه ، فكنت فيمن انجفل ، فلما رأيت

وجهه ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب ، فكان أول ماسمعته ﷺ يقول : « يا أيها الناس أطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وأفشوا السلام ، وصلوا بالليل والناس نيام ؛ تدخلوا الجنة بسلام » (١) .

وعن عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما قال : إن رسول اللّه ﷺ قال : « إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها » فقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : لمن هي يارسول اللّه ؟ قال ﷺ : « لمن ألان الكلام ، وأطعم الطعام ، وبات للّه قائما والناس نيام » (٢) .

وقوله عز وجل : ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ قال مجاهد وغير واحد : يصلون . وقال آخرون : قاموا الليل وأخروا الاستغفار إلى الأسحار كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن . وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « إن اللّه تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فيقول : هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من سائل فيعطى سؤله ؟ حتى يطلع الفجر » (٣) وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخبارًا عن يعقوب أنه قال لبنيه : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ﴾ : قالوا : أخرهم إلى وقت السحر .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ لما وصفهم بالصلاة ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة فقال : ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ ﴾ أي جزء مقسوم قد أفرزوه للسائل والمحروم . أما السائل فمعروف وهو الذي يبتدئ بالسؤال ، وله حق ، عن الحسين بن علي رضي الله عنهما قال : قال رسول اللّه ﷺ : « للسائل حق وإن جاء على فرس » (٤) وأما المحروم : فقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد : هو المحارف الذي ليس له في الإسلام سهم ؛ يعني لا سهم له في بيت المال ولاكسب له ولا حرفة يتقوت منها ، وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : هو المحارف الذي لايكاد يتيسر له مكسبه ، وقال الضحاك : هو الذي لايكون له مال إلا ذهب ، قضى اللّه تعالى له ذلك . وقال قتادة والزهري : المحروم الذي لايسأل الناس شيئا .

قال الزهري : وقد قال رسول اللّه ﷺ : « ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ؛ ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه » (٥) ، وقوله عز وجل : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ أي فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار ، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى ، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات والسعادة والشقاوة ، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ قال قتادة :

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن(٢٤٨٥) والحاكم في المستدرك(١٣١/٣) وأحمد في مسنده(٤٥١/٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده(٣٤٣/٥) والحاكم في المستدرك(٣٧١/١) والبيهقي في السنن(٣٠١/٤) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده(٣٨٨/١) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده(٢٠١/١) وأبو داود في السنن(١٦٦٦) والبيهقي في السنن(٢٣/٧) .
(٥) أخرجه البخاري في الزكاة(١٤٧٦) ومسلم في الزكاة(١٠٢) وأبو داود في السنن(١٦٣٢) وأحمد في مسنده(٣٩٥/٢) .

من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ ﴾ يعني المطر ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ يعني الجنة ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وغير واحد . وقال سفيان الثوري : قرأ واصل الأحدب هذه الآية ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ فقال : ألا أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض ، فدخل خربة فمكث ثلاثًا لا يصيب شيئًا ، فلما أن كان في اليوم الثالث إذا هو بدوخلة من رطب ، وكان له أخ أحسن نية منه ، دخل معه فصارتا دوخلتين ، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق بينهما الموت .

وقوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة ، وهوحق لا مرية فيه ، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون ، وكان معاذ رضي الله عنه إذا حدث بالشيء يقول لصاحبه : إن هذا لحق كما أنك ههنا .

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ أي الذين أرصد لهم الكرامة ، وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل ، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل . وقوله تعالى : ﴿ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ﴾ الرفع أقوى وأثبت من النصب ، فرده أفضل من التسليم ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ فالخليل اختار الأفضل ، وقوله تعالى : ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ وذلك أن الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل قدموا عليه في صورة شبان حسان عليهم مهابة عظيمة ولهذا قال : ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ ﴾ أي انسل خفية في سرعة ﴿ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ أي من خيار ماله ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ ﴾ أي أدناه منهم ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ تلطف في العبارة وعرض حسن ، وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة ، ولم يمتن عليهم أولًا فقال : نأتيكم بطعام بل جاء به بسرعة وخفاء ، وأتى بأفضل ما وجد من ماله ، وهوعجل فتي سمين مشوي ، فقربه إليهم لم يضعه وقال : اقتربوا ، بل وضعه بين أيديهم ولم يأمرهم أمرًا يشق على سامعه بصيغة الجزم بل قال : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ على سبيل العرض والتلطف ، كما يقول القائل : اليوم إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ هذا محال على ما تقدم في القصة في السورة الأخرى وهي قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ ﴾ أي استبشرت بهلاكهم لتمردهم وعتوهم على الله تعالى ، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ ولهذا قال الله تعالى ههنا ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ فالبشارة له هي بشارة لها . لأن الولد منهما فكل منهما بشر به . وقوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ ﴾ أي في صرخة عظيمة ورنة ، قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم

وهي قولها : يا ويلتاه ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ أي ضربت بيدها على جبينها ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أي كيف ألد وأنا عجوز وقد كنت في حال الصبا عقيما لا أحبل ، ﴿ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ أي عليم بما تستحقون من الكرامة ، حكيم في أقواله وأفعاله .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ .

قال الله تعالى مخبرًا عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ أي ما شأنكم وفيما جئتم ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ يعنون قوم لوط ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً ﴾ أي معلمة ﴿ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ أي مكتتبة عنده بأسمائهم كل حجر عليه اسم صاحبه ، ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ احتج بهذه من ذهب إلى رأي المعتزلة ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام ، لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين ، وهذا الاستدلال ضعيف ؛ لأن هؤلاء كانوا قومًا مؤمنين ، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس ، فاتفق الاسمان ههنا لخصوصية الحال ، ولا يلزم ذلك في كل حال . وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ أي جعلناها عبرة بما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل ، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة ، ففي ذلك عبرة للمؤمنين .

﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بدليل باهر وحجة قاطعة ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ ﴾ أي فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين استكبارًا وعنادًا . وقال مجاهد : تعزز بأصحابه ، وقال قتادة : غلب عدو الله على قومه ، وقال ابن زيد : ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ ﴾ أي بجموعه التي معه ثم قرأ ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ والمعنى الأول قوي ﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ أي لا يخلو أمرك فيما جئتني به من أن تكون ساحرًا أو مجنوناً ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ ﴾ أي ألقيناهم ﴿ فِي الْيَمِّ ﴾ وهو البحر ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند .

ثم قال ﷻ : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ أي المفسدة التي لا تنتج شيئًا ، قاله الضحاك وقتادة وغيرهما ولهذا قال تعالى : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ ﴾ أي مما تفسده الريح . وإلا جعلته كالرميم أي كالشيء الهالك البالي ، قال سعيد بن المسيب وغيره في قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ قالوا : هي الجنوب . عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدَّبور »[1] . ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ قال ابن جرير : يعني إلى وقت فناء آجالكم .

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٠٥) ومسلم في صلاة الاستسقاء (١٧) وأحمد في مسنده (١/ ٣٥٥) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥٦) .

والظاهر ان هذه كقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ ﴾ وهكذا قال ههنا : ﴿ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ۝ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار ﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ ﴾ أي من هرب ولا نهوض ﴿ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴾ أي لا يقدرون على أن ينتصروا مما هم فيه . وقوله ﷻ : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾ أي وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ وكل هذه القصص قد تقدمت مبسوطة في أماكن كثيرة من سور متعددة ، والله تعالى أعلم .

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا على خلق العالم العلوي والسفلي ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا ﴾ أي جعلناها سقفًا محفوظا رفيعًا ﴿ بِأَيْي۟دٍ ﴾ أي بقوة ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثوري وغير واحد ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ أي قد وسعنا أرجاءها فرفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هي ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا ﴾ أي جعلناها فراشًا للمخلوقات ﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾ أي وجعلناها مهدًا لأهلها ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ أي جميع المخلوقات أزواج سماء وأرض ، وليل ونهار ، وشمس وقمر ، وبر وبحر ، وضياء وظلام ، وإيمان وكفر ، وموت وحياة ، وشقاء وسعادة ، وجنة ونار ، حتى الحيوانات والنباتات ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي الجأوا إليه واعتمدوا في أموركم عليه ﴿ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ أي لاتشركوا به شيئا ﴿ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ .

يقول تعالى مسليًا لنبيه ﷺ وكما قال لك هؤلاء المشركون قال المكذبون الأولون لرسلهم : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ قال الله ﷻ : ﴿ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ﴾ أي أوصى بعضهم بعضًا بهذه المقالة ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أي لكن هم قوم طغاة تشابهت قلوبهم ، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم . قال الله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي فأعرض عنهم يا محمد ﴿ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ يعني فما نلومك على ذلك ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة ، ثم قال ﷻ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم . وقال ابن عباس ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي إلا ليقروا بعبادتي طوعًا أو كرهًا . وهذا اختيار ابن جرير . وقال ابن جريج : إلا ليعرفون ، وقال الربيع بن أنس : أي إلا للعبادة ، وقال السدي : من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ هذا منهم عبادة وليس ينفعهم مع الشرك ، وقال الضحاك : المراد بذلك المؤمنون .

وقوله تعالى : ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ عن

عبد الله بن مسعود ﷺ قال : أقرأني رسول الله (إني أنا الرزاق ذو القوة المتين) [١] . ومعنى الآية : أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له ، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ، ومن عصاه عذبه أشد العذاب . وأخبر أنه غير محتاج إليهم بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم . فهو خالقهم ورازقهم . عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإلا تفعل ؛ ملأت صدرك شغلًا ، ولم أسد فقرك » [٢] . وقد ورد في بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبني تجدني ، فان وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا ﴾ أي نصيبًا من العذاب ﴿ مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ أي فلا يستعجلون ذلك فإنه واقع لا محالة ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ يعني يوم القيامة .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٤/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٨/٢) .

سورة الطور

عن جبير بن مطعم : سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور ، فما سمعت أحدًا أحسن صوتا أو قراءة منه [١] . عن أم سلمة قالت : شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي فقال : « طوفي من وراء الناس وأنت راكبة » فطفت ورسول الله يصلي إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور [٢] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالطُّورِ ۝ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۝ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۝ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ۝ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة ، أن عذابه واقع بأعدائه ، وأنه لا دافع عنهم ، فالطور هو الجبل الذي يكون فيها أشجار مثل الذي كلم الله عليه موسى وأرسل منه عيسى ، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طورا إنما يقال له جبل ﴿ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾ قيل : هو اللوح المحفوظ ، وقيل : الكتب المنزلة المكتوبة التي تقرأ على الناس جهارًا ، ولهذا قال : ﴿ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۝ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة : « ثم رفع بي إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفًا لا يعودونُ إليه آخر ما عليهم » يعني يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم ، كذلك ذاك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة ، ولهذا وجد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مسندًا ظهره إلى البيت المعمور ؛ لأنه باني الكعبة الأرضية ، والجزاء من جنس العمل ، وهو بحيال الكعبة ، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه والذي في السماء الدنيا يقال له بيت العزة .

وقال قتاده والربيع بن أنس والسدي : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يومًا لأصحابه : « هل تدرون ما البيت المعمور ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإنه مسجد في السماء بحيال الكعبة لوخر لخر عليها ، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم » [٣] وزعم الضحاك أنه يعمره طائفة من الملائكة يقال لهم الجن من قبيلة إبليس ، فالله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ عن علي ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ يعني السماء . وكذا قال مجاهد وقتادة والسدي وابن جريج وابن زيد واختاره ابن جرير . وقال الربيع بن أنس : هو العرش ، يعني أنه سقف لجميع المخلوقات ، وله اتجاه وهو مراد مع غيره كما قاله الجمهور .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ قال الربيع بن أنس : هو الماء الذي تحت العرش الذي ينزل الله

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٥٤) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٥٣) ومسلم في الحج (٢٥٨) وأبو داود في السنن (١٨٨٢) وأحمد في مسنده (٦/٢٩٠) .
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/١١٨) والقرطبي في تفسيره (٧/٤٠٤) .

منه المطر ، الذي تحيا به الأجساد في قبورها يوم معادها ، وقال الجمهور : هو هذا البحر ، واختلف في معنى قوله : ﴿ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ ، فقال بعضهم : المراد أنه يوقد يوم القيامة نارًا كقوله : ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ أي أضرمت فتصير نارًا تتأجج محيطة بأهل الموقف . وقال العلاء بن بدر : إنما سمي البحر المسجور لأنه لايشرب منه ماء ولايسقى به زرع وكذلك البحار يوم القيامة . وقال قتادة : المسجور المملوء ، واختاره ابن جرير ووجهه بأنه ليس موقدا فهو مملؤ . وقيل : المراد به الفارغ . وقيل : المراد بالمسجور الممنوع المكفوف عن الأرض لئلا يغمرها فيغرق أهلها ، قاله ابن عباس وبه يقول السدي وغيره ، وعليه يدل الحديث الذي رواه عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ قال : « ليس من ليلة إلا البحر يشرف فيها ثلاث مرات ، يستأذن الله تعالى أن ينفضح عليهم ، فيكفه الله ﷻ »(١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ هذا هو المقسم عليه أي لواقع بالكافرين كما قال في الآية الأخرى ﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ أي ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك . عن جعفر بن زيد العبدي قال : خرج عمر يعس في المدينة ذات ليلة ، فمر بدار رجل من المسلمين فوافقه قائمًا يصلي فوقف يستمع قراءته فقرأ ﴿ وَٱلطُّورِ ﴾ حتى إذا بلغ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ قال : قسم - ورب الكعبة - حق ، فنزل عن حماره واستند إلى حائط فمكث مليًا ثم رجع إلى منزله ، فمكث شهرًا يعوده الناس لا يدرون ما مرضه ﷺ . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ قال ابن عباس وقتادة : تتحرك تحريكا . وقال مجاهد : تدور دورًا ، وقال الضحاك : استدارتها وتحركها لأمر الله وموج بعضها في بعض . وهذا اختيار ابن جرير أنه التحرك في استدارة ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ أي تذهب فتصير هباء منبثًا وتنسف نسفًا ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم وعقابه لهم ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ أي هم في الدنيا يخوضون في الباطل ويتخذون دينهم هزوًا ولعبا ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ ﴾ أي يدفعون ويساقون ﴿ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ قال مجاهد والشعبي وغيرهما : يدفعون فيها دفعًا ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أي تقول لهم الزبانية ذلك تقريعا وتوبيخًا ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ ٱصْلَوْهَا ﴾ أي ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته ﴿ فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي ولا يظلم الله أحدا بل يجازي كلًّا بعمله .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ .

أخبر الله تعالى عن حال السعداء فقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال ﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم من أصناف الملاذ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك ﴿ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ ووقاهم ربهم عذاب الجحيم أي وقد نجاهم من عذاب النار ، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حدتها مع ما أضيف اليها من دخول الجنة التي فيها من السرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣/١) .

على قلب بشر . وقوله تعالى : ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ أي هذا بذاك تفضلًا منه واحسانًا .. وقوله تعالى : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ عن ابن عباس : السرر في الحجال ، عن الهيثم بن مالك الطائي يقول : إن رسول الله ﷺ قال : « إن الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول عنه ولا يمله ، يأتيه ما اشتهت نفسه ولذت عينه »(١) ﴿ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أي وجعلنا لهم قرينات صالحات وزوجات حسانًا من الحور العين ، وقال مجاهد : ﴿ وَزَوَّجْنَٰهُم ﴾ أنكحناهم بحور عين .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عن فضله وكرمه وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه ، أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بآبائهم في المنزلة ، وإن لم يبلغوا عملهم لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم ، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل ، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته للتساوي بينه وبين ذاك ، ولذا قال : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ عن ابن عباس قال : إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه ، ثم قرأ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ قال : هم ذرية المؤمن يموتون على الإيمان ، فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم ، ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوها شيئًا . وعن ابن عباس ، أظنه عن النبي ﷺ قال : « إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده ، فيقال : إنهم لم يبلغوا درجتك ، فيقول : يارب قد عملت لي ولهم ، فيؤمر بالحاقهم به وقرأ ابن عباس ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ﴾(٢) الآية .

عن علي قال : سألت خديجة النبي ﷺ عن ولدين ماتا لها في الجاهلية ، فقال رسول الله ﷺ : « هما في النار » فلما رأى الكراهية في وجهها قال : « لو رأيت مكانهما لأبغضتهما » قالت : يا رسول الله فولدي منك ؟ قال : « في الجنة » قال : ثم قال رسول ﷺ : « إن المؤمنين وأولادهم في الجنة ، وإن المشركين وأولادهم في النار » ثم قرأ رسول الله ﷺ : « ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ﴾ »(٣) الآية ، هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء ، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول : يا رب أنى لي هذه ؟ فيقول : باستغفار ولدك لك »(٤) . وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٧٥) بنحوه والسيوطي في الدر المنثور (٤/٢٢٢) بلفظه .
(٢) أخرجه الطبراني في الصغير (١/٢٢٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١١٤) .
(٣) رواه ابن أبي عاصم في السنة (١/١٢٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٢١٧) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٥٠٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢١٠) .

انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »[(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ لما أخبرعن مقام الفضل وهورفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك ، أخبر عن مقام العدل وهو أنه لا يؤاخذ أحدًا بذنب أحد ، فقال تعالى : ﴿ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ أي مرتهن بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس ، سواء كان أبًا أو ابنًا وقوله ﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى مما يستطاب ويشتهى . وقوله ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ أي يتعاطون فيها كأسًا أي من الخمر ، قاله الضحاك ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ أي لا يتكلمون فيها بكلام لاغ أي هذيان ولا إثم أي فحش كما يتكلم به الشربة من أهل الدنيا ، قال ابن عباس : اللغو الباطل والتأثيم الكذب ، وقال مجاهد : لا يستبون ولا يؤثمون . وقال قتادة : كان ذلك في الدنيا مع الشيطان فنزه اللَّه خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها ، كما تقدم ، فنفى عنها صداع الرأس ، ووجع البطن ، وإزالة العقل بالكلية ، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيء الفارغ عن الفائدة المتضمن هذيانًا وفحشًا ، وأخبر بحسن منظرها وطيب طعمها ومخبرها . وقوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ إخبار عن خدمهم وحشمهم في الجنة ، كأنهم اللؤلؤ الرطب المكنون في حسنهم وبهائهم ونظافتهم وحسن ملابسهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أي أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا ، وهذا كما يتحدث أهل الشراب على شرابهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أي كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ أي فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ أي نتضرع إليه فاستجاب لنا وأعطانا سؤلنا ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

عن أنس قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، اشتاقوا إلى الإخوان ، فيجيء سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا فيتحدثان ، فيتكئ هذا ويتكئ هذا ، فيتحدثان بما كان في الدنيا ، فيقول أحدهما لصاحبه : يا فلان تدري أي يوم غفر اللَّه لنا يوم كنا في موضع كذا وكذا ، فدعونا اللَّه ﷻ فغفر لنا »[(٢)] وعن عائشة أنها قرأت هذه الآية ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فقالت : اللَّهم مُنَّ علينا وقنا عذاب السموم إنك أنت البر الرحيم . قيل للأعمش : في الصلاة ؟ قال : نعم .

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ بأن يبلغ رسالته إلى عباده ، وأن يذكرهم بما أنزل اللَّه عليه ، ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ أي لست

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١٣٧٦) والمنذري في الترغيب والترهيب (٩٩/١) .

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٢١/١٠) والبزار في مسنده (٣٥٥٣) .

بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش ، والكاهن الذي يأتيه الرئي من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء ﴿ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ وهو الذي يتخبطه الشيطان من المس . ثم قال تعالى منكرا عليهم في قولهم في الرسول ﷺ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ أي قوارع الدهر ، والمنون الموت ، يقولون : ننتظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ أي انتظروا فاني منتظر معكم ، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة . عن ابن عباس رضي الله عنهما : إن قريشا لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ قال قائل منهم : احتبسوه في وثاق وتربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء : زهير والنابغة ، إنما هو كأحدهم ، فأنزل الله تعالى ذلك من قولهم ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ﴾ أي عقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولونه فيك من الأقاويل الباطلة التي يعلمون في أنفسهم أنها كذب وزور ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أي ولكن هم قوم طاغون ضلال معاندون ، فهذا هو الذي يحملهم على ما قالوه فيك . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ﴾ أي اختلقه وافتراه من عند نفسه ، يعنون القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي كفرهم هو الذي يحملهم على هذه المقالة ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ أي إن كانوا صادقين في قولهم : تقوّله وافتراه ، فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن ، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس ماجاءوا بمثله ، ولا بعشر سور من مثله ، ولا بسورة من مثله .

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية فقال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ أي أوجدوا من غيره موجد ، أم هم أوجدوا أنفسهم ، أي لا هذا ولا هذا ، بل الله هو الذي حنفهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا . عن جبير بن مطعم قال : سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴾ كاد قلبي أن يطير (1) . وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى ، وكان إذ ذاك مشركًا ، فكان سماعه هذه الآيةَ من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ أي أهم خلقوا السموات والأرض ، وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله ، وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له ، ولكن عدم إيقانهم هو الذي يحملهم على ذلك ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴾ أي هم يتصرفون في الملك وبيدهم مفاتيح الخزائن ﴿ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴾ أي المحاسبون للخلائق ، ليس الأمر كذلك بل الله ﷻ هو المالك المتصرف الفعال لما يريد .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (١٨٥٣) وأحمد في مسنده (٢٩٠/٦) .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ أي مرقاة إلى الملأ الأعلى ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي فليأت الذي يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال ، أي وليس لهم سبيل إلى ذلك فليسوا على شيء ولا لهم دليل ، ثم قال منكرًا عليهم فيما نسبوه إليه من البنات وجعلهم الملائكةَ إناثًا ، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث ، بحيث إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهوكظيم ، هذا وقد جعلوا الملائكة بنات اللّٰه وعبدوهم مع اللّٰه فقال : ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا ﴾ أي أجرة على إبلاغك إياهم رسالة اللّٰه ، أي لست تسألهم على ذلك شيئًا ﴿ فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ أي فهم من أدنى شيء يتبرمون منه ويثقلهم ويشق عليهم ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أي ليس الأمر كذلك ، فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا اللّٰه ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ يقول تعالى : أم يريد هؤلاء بقولهم هذا في الرسول وفي الدين غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه ، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنامَ والأنداد مع اللّٰه ، ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون فقال : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا ﴾ ، أي عليهم يعذبون به لما صدقوا ، ولما أيقنوا بل يقولون : هذا سحاب مركوم ، أي متراكم وقال اللّٰه تعالى ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ أي دعهم يا محمد ﴿ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ أي لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم الذي استعملوه في الدنيا ، لا يجزي عنهم يوم القيامة شيئا ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أي قبل ذلك في الدار الدنيا ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي نعذبهم في الدنيا ونبتليهم فيها بالمصائب لعلهم يرجعون وينيبون فلا يفهمون ما يراد بهم ، بل إذا جلي عنهم مما كانوا فيه ، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه كما جاء في بعض الأحاديث : « إن المنافق إذا مرض وعوفي مثله في ذلك كمثل البعير ، لا يدري فيما عقلوه ولا فيما أرسلوه » (١) وفي الأثر الإلهي : كم أعصيك ولا تعاقبني؟ قال اللّٰه تعالى : يا عبدي كم أعافيك وأنت لا تدري ، وقوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي اصبر على أذاهم ولا تبالهم فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا واللّٰه يعصمك من الناس . وقوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ قال الضحاك : أي إلى الصلاة . سبحانك اللّٰهم وبحمدك وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك . وعن أبي سعيد وغيره ، عن النبي ﷺ أنه كان يقول ذلك (٢) . وقال أبو الجوزاء

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٣٠٨٩) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/٢٩٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٥٠) والنسائي في السنن (٢/١٣٢) .

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي من نومك من فراشك ، واختاره ابن جرير ويتأيد هذا القول بما روي عن عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال : « من تعار من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله . ثم قال : رب اغفر لي - أو قال ثم دعا - استجيب له فإن عزم ، فتوضأ ثم صلى قبلت صلاته » (١) .

وقد وردت أحاديث مسندة من طرق يقوي بعضها بعضًا بذلك ، فمن ذلك حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه ، فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، إلا غفر الله له ما كان في مجلسه ذلك » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ ﴾ أي اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة في الليل ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ قد تقدم في حديث ابن عباس ، أنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر ؛ فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم أي عند جنوحها للغيبوبة . وقد روي عن أبي هريرة مرفوعا : « لا تدعوهما وإن طردتكم الخيل » يعني ركعتي الفجر (٣) . ومن هذا الحديث حكي عن بعض أصحاب أحمد القول بوجوبهما ، وهو ضعيف لحديث « خمس صلوات في اليوم والليلة » قال : هل علي غيرها ؟ قال : « لا إلا أن تطوع » (٤) . وقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها قالت : « لم يكن رسول الله ﷺ : على شيء من النوافل أشد تعاهدا منه على ركعتي الفجر » (٥) .

---

(١) أخرجه البخاري فى التهجد (١١٥٤) وأحمد في مسنده (٣١٣/٥) والترمذي في السنن (٣٤١٤) وابن ماجه في السنن (٣٨٧٨) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٤٣٣) وأحمد في مسنده (٤٩٤/٢) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (١٢٥٨) والبيهقي في السنن (٤٧١/٢) .
(٤) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٧٨) ومسلم في الإيمان (٨) وأبو داود في السنن (٣٩١) والنسائي في السنن (١١٨/٨) .
(٥) أخرجه البخاري في التهجد (١١٦٩) .

سورة النجم

عن عبد اللّٰه قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة « والنجم » قال : فسجد النبي ﷺ وسجد من خلفه ، إلا رجلًا رأيته أخذ كفًّا من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافرًا وهو أمية بن خلف (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ .

قال الشعبي وغيره : الخالق يقسم بما شاء من خلقه ، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق واختلف المفسرون في معنى قوله ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ فقال مجاهد : يعني بالنجم الثريا إذا سقطت مع الفجر ، وكذا روي عن ابن عباس وسفيان الثوري واختاره ابن جرير ، وزعم السدي أنها الزهرة وعن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ يعني القرآن إذا نزل ، وقوله تعالى : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ هذا هو المقسم عليه ، وهو الشهادة للرسول ﷺ بأنه راشد تابع للحق ليس بضال ، وهو الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم ، والغاوي هو العالم بالحق ، العادل عنه قصدًا إلى غيره ، فنزه اللّٰه رسوله ﷺ عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود . وهي علم الشيء وكتمانه ، والعمل بخلافه ، بل هو صلاة اللّٰه وسلامه عليه وما بعثه اللّٰه به من الشرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ أي ما يقول قولًا عن هوى وغرض ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ أي إنما يقول ما أمر به يبلغه إلى الناس كاملًا موفورًا من غير زيادة ولا نقصان . عن أبي أمامة أنه سمع رسول اللّٰه ﷺ يقول : « ليدخل الجنة بشفاعة رجل ليس بنبي مثل الحيين - أو مثل أحد الحيين - ربيعة ومضر » فقال رجل : يا رسول اللّٰه أو ما ربيعة من مضر ؟ قال : « إنما أقول ما أقول » (٢) .

وعن عبد اللّٰه بن عمرو قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول اللّٰه ﷺ أريد حفظه ، فنهتني قريش فقالوا : إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول اللّٰه ﷺ ، ورسول اللّٰه ﷺ بشر يتكلم في الغضب ، فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول اللّٰه ﷺ فقال : « اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق » (٣) وعن أبي هريرة عن رسول اللّٰه ﷺ أنه قال : « لا أقول إلا حقًّا » قال بعض أصحابه : فإنك تداعبنا يا رسول اللّٰه ، قال : « إني لا أقول إلا حقًّا » (٤) .

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٣) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٢/٢) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٠/٢) والترمذي في السنن (١٩٩٠) والبيهقي في السنن (٢٤٨/١٠) .

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله محمد ﷺ أنه علمه الذي جاء به إلى الناس ﴿ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ وهو جبريل عليه الصلاة والسلام ، ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ أي ذو قوة ، قاله مجاهد والحسن وابن زيد . وقال ابن عباس : ذو منظر حسن وقال قتادة : ذو خلق قوي حسن ولا منافاة بين القولين فإنه عليه السلام ذو منظر حسن وقوة شديدة . وقوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ يعني جبريل عليه السلام ، ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ يعني جبريل استوى في الأفق الأعلى ، قال عكرمة : والأفق الأعلى الذي يأتي منه الصبح . وقال مجاهد : هو مطلع الشمس . وقال قتادة : هو الذي يأتي منه النهار ، وكذا قال ابن زيد وغيرهم .

وعن عبد الله بن مسعود ، أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل في صورته إلا مرتين : أما واحدة فإنه سأله أن يراه في صورته فسد الأفق . وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد ، فذلك قوله : ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ وقد قال ابن جرير ههنا قولًا لم أره لغيره ، ولا حكاه هو عن أحد ؛ وحاصله أنه ذهب إلى أن المعنى فاستوى أي هذا الشديد القوي ذو المرة هو ومحمد ﷺ بالأفق الأعلى ، أي استويا جميعًا بالأفق الأعلى وذلك ليلة الإسراء ، كذا قال ، ولم يوافقه أحد على ذلك ، ثم شرع يوجه ما قاله من حيث العربية فقال وهو كقوله ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ ﴾ فعطف بالآباء على المكنى في ﴿ كُنَّا ﴾ من غير إظهار نحن فكذلك قوله : ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ وهو ، قال : وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده :

ألم تر أن النبع يصلب عوده ولا يستوي والخروع المتقصف

وهذا الذي قاله من جهة العربية متجه ، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك ، فإن هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء بل قبلها ، ورسول الله ﷺ في الأرض ، فهبط عليه جبريل عليه السلام وتدلى إليه فاقترب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح ، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى يعني ليلة الإسراء ، وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة بعدما جاءه جبريل عليه السلام أول مرة ، فأوحى الله إليه صدر سورة اقرأ ، ثم فتر الوحي فترة ذهب النبي ﷺ فيها مرارًا ليتردى من رؤوس الجبال ، فكلما همّ بذلك ناداه جبريل من الهواء ، يا محمد أنت رسول الله حقًّا وأنا جبريل ، فيسكن لذلك جأشه وتقر عينه ، وكلما طال عليه الأمر عاد لمثلها حتى تبدى له جبريل ورسول الله ﷺ بالأبطح في صورته التي خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح قد سد عظم خلقه الأفق ، فاقترب منه وأوحى إليه عن الله عز وجل ما أمره به ، فعرف عند ذلك عظمة الملك الذي جاءه بالرسالة وجلالة قدره وعلو مكانته عند خالقه الذي بعثه إليه .

عن عبد الله أنه قال : « رأى رسول الله ﷺ : جبريل في صورته وله ستمائة جناح ، كل جناح منها قد سد الأفق ، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم » (١) . وعن ابن عباس قال : سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته فقال : ادع ربك ، فدعا الله عز وجل فطلع عليه سواد من قبل المشرق فجعل يرتفع وينتشر ، فلما رآه النبي ﷺ صعق فأتاه فنعشه ومسح البزاق عن شدقه (٢) .

وعن هناد بن الأسود قال : كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام فتجهزت معهما ، فقال ابنه عتبة : والله لأنطلقن إلى محمد ولأذينه في ربه ﷻ ، فانطلق حتي أتى النبي ﷺ فقال :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٩٥) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٢٢) .

يا محمد هو يكفر بالذي دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ، فقال النبي ﷺ : « اللَّهم سلط عليه كلبا من كلابك » ثم انصرف عنه فرجع الى أبيه فقال : يا بني ما قلت له ، فذكر له ما قاله ، فقال : فما قال لك ، قال : قال : « اللَّهم سلط عليه كلبًا من كلابك » قال : يا بني واللَّه ما آمن عليك دعاءه ، فسرنا حتى نزلنا أبواء وهي في سدة ، ونزلنا إلى صومعة راهب فقال الراهب : يامعشر العرب ، ما أنزلكم هذه البلاد فإنها يسرح الأسد فيها كما تسرح الغنم . فقال لنا أبو لهب : إنكم قد عرفتم كبر سني وحقي ، وإن هذا الرجل قد دعا على ابني دعوة ، واللَّه ما آمنها عليه ، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة وافرشوا لابني عليها ثم افرشوا حولها ، ففعلنا فجاء الأسد فشم وجوهنا فلما لم يجد ما يريد تقبض فوثب وثبة فإذا هو فوق المتاع ، فشم وجهه ثم هزمه ، ففسخ رأسه ، فقال أبو لهب : قد عرفت أنه لا يتفلت عن دعوة محمد (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ أي فاقترب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض حتى كان بينه وبين محمد ﷺ قاب قوسين ، أي بقدرهما إذا مدا ، قاله مجاهد وقتادة ، وقد قيل إن المراد بذلك بُعْد ما بين وتر القوس إلى كبدها . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ : قال عبد اللَّه بن مسعود في هذه الآية ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ قال : قال رسول ﷺ : « رأيت جبريل له ستمائة جناح » (٢) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان أول شأن رسول اللَّه ﷺ أنه رأى في منامه جبريل بأجياد ، ثم إنه خرج ليقضي حاجته فصرخ به جبريل : يا محمد يا محمد ، فنظر رسول اللَّه ﷺ يمينًا وشمالاً فلم ير أحدًا ثلاثا ، ثم رفع بصره فإذا هو ثاني إحدى رجليه مع الأخرى على أفق السماء ، فقال : يا محمد جبريل جبريل يسكنه . فهرب النبي ﷺ حتى دخل في الناس ، فنظر فلم ير شيئا ، ثم خرج من الناس ثم نظر فرآه فدخل في الناس فلم ير شيئًا ، ثم خرج فنظر فرآه ، فذلك قول اللَّه عز وجل : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ - إلى قوله - ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ (٣) يعني جبريل إلى محمد عليهما الصلاة والسلام ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ ويقولون : القاب نصف إصبع ، وقال بعضهم : ذراعين كان بينهما .

وقوله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ عن ابن عباس قال : رآه بفؤاده مرتين ، وقد خالفه ابن مسعود وغيره ، وفي رواية عنه : أنه أطلق الرؤية وهي محمولة على المقيدة بالفؤاد ، ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة رضي الله عنهم .

عن أبي ذر قال : سألت رسول اللَّه ﷺ : هل رأيت ربك ؟ فقال : « نور أنى أراه » وفي رواية « رأيت نورا » (٤) وعن ابن عباس أن رسول اللَّه ﷺ قال : « أتاني ربي الليلة في أحسن صورة - أحسبه يعني في النوم - فقال : يا محمد أتدري فيمَ يختصم الملأ الأعلى ؟ قال : قلت لا ، فوضع يده على كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي - أو قال : نحري - فعلمت ما في السموات وما في الأرض . ثم قال : يا محمد ، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قال : قلت : نعم ، يختصمون

---

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (١٦٣) وابن حجر في فتح الباري (٣٩/٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٠/١) والطبراني في الكبير (٢٣٤/١٠) .
(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور (١٢٣/٦) والطبري في تفسيره (٦١/٢٦) .
(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩١) والترمذي في السنن (٣٢٨٣) وأحمد في مسنده (١٧٥/٥) .

في الكفارات والدرجات ، قال : وما الكفارات ؟ قال : قلت : المكث في المساجد بعد الصلوات ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، وإبلاغ الوضوء في المكاره ، من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير ، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه . وقال : قل يا محمد إذا صليت : اللَّهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة أن تقبضني إليك غير مفتون ، وقال : والدرجات : بذل الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول اللَّه ﷺ فيها جبريل على صورته التي خلقه اللَّه عليها وكانت ليلة الإسراء . وعن ابن مسعود في هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « رأيت جبريل وله ستمائة جناح ينتثر من ريشه التهاويل من الدر والياقوت » (٢) .

وعن ابن مسعود قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « رأيت جبريل على سدرة المنتهى وله ستمائة جناح » (٣) سألت عاصما عن الأجنحة فأبى أن يخبرني ، قال : فأخبرني بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب ، وعن ابن مسعود قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « أتاني جبريل عليه السلام في حصر معلق به الدر » (٤) .

وعن مسروق قال : كنت عند عائشة فقلت : أليس اللَّه يقول ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ ، فقالت : أنا أول هذه الأمة سألت رسول اللَّه ﷺ عنها فقال : « إنما ذاك جبريل » لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين ، رآه منهبطًا من السماء إلى الأرض سادًّا عظم خلقه ما بين السماء والأرض (٥) .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ قد تقدم في أحاديث الإسراء أنه غشيتها الملائكة مثل الغربان ، وغشيها نور الرب ، وغشيها ألوان ما أدري ما هي . عن عبد اللَّه هو ابن مسعود قال : لما أسري برسول اللَّه ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السابعة إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض ، فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ قال : فراش من ذهب . قال : وأعطي رسول اللَّه ﷺ ثلاثًا : أعطي الصلوات الخمس ، وأعطي خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك باللَّه شيئًا من أمته المقحمات (٦) .

وقوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما ذهب يمينًا ولا شمالاً ﴿ وَمَا طَغَىٰ ﴾ ما جاوز ما أمر به ، وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة ، فإنه ما فعل إلا ما أمر به ، ولا سأل فوق ما أعطي ، وما أحسن ما قال الناظم :

رأى جنة المأوى وما فوقها ولو   رأى غيره ما قد رآه لتاها

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ كقوله : ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾ أي الدالة على قدرتنا وعظمتنا ، وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع ؛ لأنه

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٦٦) والترمذي في السنن (٣٢٣٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٦٠) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٠٧) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٠٧) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٤٦١) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٢٢) .

قال : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس ، وقد تقدم تقرير ذلك في سورة سبحان .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ۝ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ .

يقول تعالى مقرعًا للمشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان ، واتخاذهم لها البيوت مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن عليه السلام ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ ﴾ وكانت اللات صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف ، له أستار وسدنة وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف من تابعها ، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش ، قال ابن جرير : وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله فقالوا : اللات ، يعنون مؤنثة منه ، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا ، وحكي عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس أنهم قرأوا ﴿ اللاتّ ﴾ بتشديد التاء [1] وفسروه بأنه كان رجلا يلتّ للحجيج في الجاهلية السويق ، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه . وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ قال : كان اللات رجلًا يلت السويق سويق الحجاج [2] ، قال ابن جرير : وكذا العزى من العزيز ، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، وهي بين مكة والطائف ، كانت قريش يعظمونها كما قال أبو سفيان يوم أحد : لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله ﷺ : « قولوا الله مولانا ولا مولى لكم » [3] .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من حلف فقال في حلفه واللات والعزى فليقل : لا إله إلا الله ، ومن قال لصاحبه : تعال أقامرك فليتصدق » [4] فهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك ، كما كانت ألسنتهم قد اعتادته من زمن الجاهلية ، وعن سعد بن أبي وقاص قال : حلفت باللات والعزى ، فقال لي أصحابي : بئس ما قلت ! قلت هجرًا . فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال : « قل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، وانفث عن شمالك ثلاثًا ، وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم لا تعد » [5] .

وأما مناة فكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة . وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة ، غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز ، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها .

قال ابن إسحاق في السيرة : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب ويهدى لها كما يهدى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنحر عندها ، وهي تعرف فضل الكعبة عليها ؛ لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام

---

(١) قرأ رويس ﴿ اللاتّ ﴾ بتشديد التاء والباقون بتخفيفها (تقريب النشر ص : ١٧٧) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٥٩) . (٣) أخرجه البخاري في الجهاد (٣٠٣٩) وأحمد في مسنده (٢٩٣/٤) .
(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٠) . (٥) أخرجه النسائي في السنن (٨/٧) .

ومسجده : فكانت لقريش ولبني كنانة العزى بنخلة ، وكان سدنتها وحجابها بني شيبان من سليم ، حلفاء بني هاشم ، قال : بعث إليها رسول ﷺ خالد بن الوليد فهدمها وجعل يقول :

يا عزى كفرانك لاسبحانك ... إني رأيت اللّه قد أهانك

قال ابن إسحاق : وكانت اللات لثقيف بالطائف ، وكان سدنتها وحجابها بني معتب . قلت : وقد بعث إليها رسول اللّه ﷺ ، المغيرة بن شعبة ، وأبا سفيان صخر بن حرب ، فهدماها وجعلا مكانها مسجدًا بالطائف . قال ابن إسحاق : وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد ، فبعث رسول اللّه ﷺ إليها أبا سفيان صخر بن حرب فهدمها ، ويقال علي بن أبي طالب قال : وكانت ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة ، ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة . قلت : وكان يقال لها الكعبة اليمانية ، وللكعبة التي بمكة الكعبة الشامية ، فبعث إليه رسول اللّه ﷺ جرير بن عبد اللّه البجلي فهدمه ، قال : وكانت قيس لطي ومن يليها بجبل طي بين سلمى وأجأ ، قال ابن هشام : فحدثني بعض أهل العلم أن رسول اللّه ﷺ بعث إليه علي بن أبي طالب فهدمه ، واصطفى منه سيفين : الرسوب والمخزم ، فنفله إياهما رسول اللّه ﷺ فهما سيفا علي . قال ابن إسحاق : وكان لحمير وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له ريام ، وذكر أنه كان به كلب أسود وأن الحبرين اللذين ذهبا مع تبع استخرجاه وقتلاه وهدما البيت . قال ابن إسحاق : وكانت رضاء بيتًا لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، ولها يقول المستوغر بن ربيعة بن كعب بن سعد حين هدمها في الإسلام :

ولقد شددت على رضاء شدة ... فتركتها قفرًا بقاع أسحما

قال ابن إسحاق : وكان ذو الكعبات لبكر وتغلب ابني وائل وإياد بسنداد ، وله يقول أعشى بن قيس بن ثعلبة :

بين الخورنق والسدير وبارق ... والبيت ذو الكعبات من سنداد (١)

ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴾ أي أتجعلون له ولدًا وتجعلون ولده أنثى ، وتختارون لأنفسكم الذكور ، فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت ﴿ قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴾ أي جورا باطلة ، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جورًا وسفهًا ، ثم قال تعالى منكرًا عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم ﴾ أي من تلقاء أنفسكم ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ ﴾ أي من حجة ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ ﴾ أي ليس له مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم ، وإلا حظ نفوسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين . ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾ أي ولقد أرسل اللّه إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة ، ومع هذا ما اتبعوا ما جاءوهم به ولا انقادوا له .

---

(١) راجع السيرة لابن هشام (١/٨٧ - ٩١

ثم قال تعالى : ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ أي ليس كل من تمنى خيرًا حصل له ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال ، ولا كل من ود شيئًا يحصل له . عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى ، فإنه لا يدري ما يكتب له من أمنيته » (١) وقوله : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ أي إنما الأمر كله للّه مالك الدنيا والآخرة والمتصرف في الدنيا والآخرة ، فهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وقوله تعالى : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين ، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند اللّه ، وهو تعالى لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها ، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على المشركين في تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى ، وجعلهم لها أنها بنات اللّه ، تعالى اللّه عن ذلك ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي ليس لهم علم صحيح بصدق ما قالوه ، بل هو كذب وزور وافتراء وكفر شنيع . ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ أي لا يجدي شيئًا ولا يقوم أبدًا مقام الحق ، وقد ثبت في الصحيح أن رسول ﷺ قال : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾ أي أعرض عن الذي أعرض عن الحق واهجره . وقوله : ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي وإنما أكثر همه ومبلغ علمه الدنيا ، فذاك هو غاية مالا خير فيه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ أي طلب الدنيا والسعي لها هو غاية ما وصلوا إليه . وقد روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول اللّه ﷺ : « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » (٣) وفي الدعاء المأثور : « اللّهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا » (٤) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ أي هو الخالق لجميع المخلوقات والعالم بمصالح عباده ، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته وهو العادل الذي لا يجور أبدًا في شرعه ولا في قدره .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه الغني عما سواه ، الحاكم في خلقه بالعدل وخلق

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٧/١) .
(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٦) ومسلم في البر والصلة (٢٨) والترمذي في السنن (١٩٨٨) وأحمد في مسنده (٢٤٥/٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٧١/٦) والمنذري في الترغيب والترهيب (١٧٨/٤) .
(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٢) .

الخلق بالحق ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ أي يجازي كلا بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ، ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، أي لا يتعاطون المحرمات الكبائر ، وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستر عليهم كما قال في الآية الأخرى ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ وقال ههنا ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ وهذا استثناء منقطع ، لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال . عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئًا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن اللّٰه تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تتمنى وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » (١)

وقال عبد الرحمن بن نافع الذي يقال له ابن لبابة الطائفي قال : سألت أبا هريرة عن قول اللّٰه ﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ قال : القبلة والغمزة والنظرة والمباشرة ، فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل ، وهو الزنا . وعن مجاهد أنه قال : الذي يلم بالذنب ثم يدعه ، قال الشاعر :

إن تغفر اللّٰهم تغفر جما وأي عبد لك ما ألما

عن الحسن في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ قال : اللمم من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر ثم لايعود إليه .

وعن ابن عباس في قوله : ﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ كل شيء بين الحدين حد الدنيا وحد الآخرة ، تكفره الصلوات فهو اللمم ، وهو دون كل موجب ، فأما حد الدنيا : فكل حد فرض اللّٰه عقوبته في الدنيا ، وأما حد الآخرة : فكل شيء ختمه اللّٰه بالنار وأخر عقوبته إلى الآخرة . وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ أي رحمته وسعت كل شيء ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها وقوله تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي هو بصير بكم عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التي ستصدر عنكم ، وتقع منكم حين أنشأ أباكم آدم من الأرض ، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر ، ثم قسمهم فريقين : فريقًا للجنة وفريقًا للسعير . وكذا قوله ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ قد كتب الملك الذي يوكل به رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد ، قال مكحول : كنا أجنة في بطون أمهاتنا فسقط منا من سقط ، وكنا فيمن بقي ، ثم كنا مراضيع فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقي ، ثم صرنا يفعة فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقي ، ثم صرنا شبانا فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقي ثم صرنا شيوخًا لا أبا لك فماذا بعد هذا ننتظر ؟ .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ عن محمد بن عمرو بن عطاء قال : سميت ابنتي برة ، فقالت لي زينب بنت أبي سلمى : إن رسول اللّٰه ﷺ نهى عن هذا الاسم ، وسميت برة ، فقال رسول اللّٰه ﷺ : « ولا تزكوا أنفسكم ، إن اللّٰه أعلم بأهل البر منكم » فقالوا : بمَ نسميها ، قال : « سموها زينب » (٢) وعن أبي بكرة قال :

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٤٣) ومسلم في القدر (٢٠) وأحمد في مسنده (٢/٢٧٦) وأبو داود في السنن (٢١٥٢) .
(٢) أخرجه مسلم في الأدب (١٩) وأبو داود في السنن (٤٩٥٣) .

مدح رجل رجلًا عند النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « ويلك قطعت عنق صاحبك - مرارًا - إذا كان أحدكم مادحًا صاحبه لا محالة فليقل : أحسب فلانًا والله حسيبه ولا أزكي على الله أحدًا ، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك » (١)

وعن همام بن الحارث قال : جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه في وجهه قال : فجعل المقداد بن الأسود يحثو في وجهه التراب ويقول : أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين أن نحثو في وجوههم التراب (٢) .

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ .

يقول تعالى ذامًا لمن تولى عن طاعة الله ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴾ قال ابن عباس : أطاع قليلًا ثم قطعه ، وكذا قال مجاهد وغير واحد . قال عكرمة وسعيد : كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئرًا ، فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل فيقولون أكدينا ، ويتركون العمل . وقوله تعالى : ﴿ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴾ أي أعند هذا الذي قد أمسك يده خشية الإنفاق وقطع معروفه ، أعنده علم الغيب أنه سينفد ما في يده حتى قد أمسك عن معروفه فهو يرى ذلك عيانًا ، أي ليس الأمر كذلك . وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلًا وشحًا وهلعًا ، ولهذا جاء في الحديث : « أنفق بلالًا ولا تخش من ذي العرش إقلالًا » (٣) وقد قال الله تعالى ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ قال سعيد بن جبير والثوري : أي بلغ جميع ما أمر به ، وقال ابن عباس : ﴿ وَفَّىٰٓ ﴾ لله بالبلاغ ، وقال سعيد بن جبير ﴿ وَفَّىٰٓ ﴾ ما أمر به ، وقال قتادة : ﴿ وَفَّىٰٓ ﴾ طاعة الله وأدى رسالته إلى خلقه وهذا القول هو اختيار ابن جرير ، وهو يشمل الذي قبله ويشهد له قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ ﴾ فقام بجميع الأوامر وترك جميع النواهي وبلغ الرسالة على التمام والكمال ، فاستحق بهذا أن يكون للناس إمامًا يقتدى به في جميع أحواله وأقواله وأفعاله .

عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ألا أخبركم لم سمى الله تعالى إبراهيم خليله الذي وفى ؟ إنه كان يقول كلما أصبح وأمسى : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ » حتى ختم الآية (٤) .

ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى فقال : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أي كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها لا يحمله عنها أحد ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ أي كما لا يحمل عليه وزر غيره ، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٦٢) وأحمد في مسنده (٤٦/٥) والبيهقي في السنن (٢٤٢/١٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٦) ومسلم في الزهد (٦٨) .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٩٢/١٠) والسيوطي في جمع الجوامع (٤٥٨٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٩/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٧/١٠) .

هو لنفسه ، ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رحمه الله ومن اتبعه ، أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه ، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء ، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما .

وأما الحديث الذي روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم ينتفع به » (١) فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله ، كماجاء في الحديث : « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه » (٢) والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هي من آثار عمله ووقفه ، وقد قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ الآية . والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضًا من سعيه وعمله ، وثبت في الصحيح « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ أي الأوفر .

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ أي المعاد يوم القيامة . عن عمرو بن ميمون الأودي قال : قام فينا معاذ بن جبل فقال : يا بني أود إني رسول رسول الله ﷺ إليكم ، تعلمون أن المعاد إلى الله ، إلى الجنة أو إلى النار . وعن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ قال : لا فكرة في الرب . قال البغوي : وهذا مثل ما روي عن أبي هريرة مرفوعا : « تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق ؛ فإنه لا تحيط به الفكرة » (٤) وكذا أورده وليس بمحفوظ بهذا اللفظ ، وإنما الذي في الصحيح « يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربك ؟ فإذا بلغ أحدكم ذلك فليستعذ بالله ولينته » (٥) وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ أي خلق في عباده الضحك والبكاء وسببهما وهما مختلفان ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ كقوله ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ كقوله ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ أي كما خلق البداءة هو قادر على الإعادة وهي النشأة

---

(١) أخرجه مسلم في الوصية (١٤) وأبو داود في السنن (٢٨٨٠) والترمذي في السنن (١٣٧٦) والنسائي في السنن (٢٥١/٦) .
(٢) أخرجه النسائي في السنن (٢٤١/٧) وابن ماجه في السنن (٢١٣٧) وأحمد في مسنده (٢٣١/٦) والبيهقي في السنن (٤٨٠/٧) .
(٣) أخرجه مسلم في العلم (١٦) والترمذي في السنن (٢٦٧٤) وابن ماجه في السنن (٢٠٦) وأحمد في مسنده (٣٩٧/٢) .
(٤) ذكره الهندي في كنز العمال (٥٧٠٦) والسيوطي في الدر المنثور (١١٠/٢) والألباني في الصحيحة (١٧٨٨) بنحوه .
(٥) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٧٦) .

الآخرة يوم القيامة ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ﴾ أي ملك عباده المال وجعله لهم قنية مقيمًا عندهم لا يحتاجون إلى بيعه ، فهذا تمام النعمة عليهم ، وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين ، منهم أبو صالح وابن جرير وغيرهما ، وعن مجاهد ﴿ أَغۡنَىٰ ﴾ موّل ﴿ وَأَقۡنَىٰ ﴾ أخدم ، وكذا قال قتادة ، وقال ابن عباس ومجاهد أيضاً ﴿ أَغۡنَىٰ ﴾ أعطى ﴿ وَأَقۡنَىٰ ﴾ رضي . وقيل : معناه أغنى نفسه وأفقر الخلائق إليه ، وقوله ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم : هو هذا النجم الوقاد الذي يقال له مرزم الجوزاء كانت طائفة من العرب يعبدونه ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴾ وهم قوم هود ويقال لهم عاد بن إرم بن سام بن نوح كما قال تعالى : ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ فكانوا من أشد الناس وأقواهم وأعتاهم على الله تعالى وعلى رسوله فأهلكهم الله ﴿ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا ﴾ أي متتابعة .

وقوله تعالى : ﴿ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴾ أي دمرهم فلم يبق منهم أحدًا ﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُ ﴾ أي من قبل هؤلاء ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴾ أي أشد تمردًا من الذين من بعدهم ﴿ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ﴾ يعني مدائن لوط قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها ، وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود ، ولهذا قال : ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ يعني من الحجارة التي أرسلها عليهم ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ أي ففي أي نعم الله عليك أيها الإنسان تمتري ؟ قاله قتادة وقال ابن جريج ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ يا محمد والأول أولى ، وهو اختيار ابن جرير .

﴿ هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ۝ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ۝ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝ أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ۝ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ۝ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ۝ فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ۩ ﴾ .

﴿ هَٰذَا نَذِيرٞ ﴾ يعني محمدًا ﷺ ﴿ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ﴾ أي من جنسهم أرسل كما أرسلوا ﴿ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ﴾ أي اقتربت القريبة وهي القيامة ﴿ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أي لا يدفعها إذًا من دون الله أحد ولا يطلع على علمها سواه ، ثم قال تعالى منكرًا على المشركين في استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلهيهم ﴿ تَعۡجَبُونَ ﴾ من أن يكون صحيحًا ﴿ وَتَضۡحَكُونَ ﴾ منه استهزاء وسخرية ﴿ وَلَا تَبۡكُونَ ﴾ أي كما يفعل الموقنون به .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ﴾ . عن ابن عباس قال : الغناء هي يمانية أسمد لنا : غن لنا وقال الحسن : غافلون ، وهو رواية عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ثم قال تعالى آمرًا لعباده بالسجود له والعبادة المتابعة لرسوله ﷺ والتوحيد والإخلاص ﴿ فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ ﴾ أي فاخضعوا له وأخلصوا ووحدوه . عن ابن عباس قال : سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس (١) . وعن المطلب بن أبي وداعة قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم فسجد وسجد من عنده فرفعت رأسي فأبيت أن أسجد ، ولم يكن أسلم يومئذ المطلب فكان بعد ذلك لا يسمع أحدًا يقرؤها إلا سجد معه (٢) .

ذكر حديث له مناسبة بما تقدم من قوله تعالى ﴿ هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ۝ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ﴾ فإن

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٢) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٩/٦) .

النذير هو الحذر لما يعاين من الشر الذي يخشى وقوعه فيمن أنذرهم كما قال : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ وفي الحديث « أنا النذير العريان » أيِ الذي أعجله شدة ما عاين من الشر عن أن يلبس عليه شيئا ، بل بادر إلى إنذار قومه قبل ذلك فجاءهم عريانًا مسرعًا ، وهو مناسب لقوله : ﴿ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴾ أي اقتربت القريبة يعني يوم القيامة . عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا ببطن واد ، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم ، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه » (١) وقال : قال رسول الله ﷺ : « مثلي ومثل الساعة كهاتين » وفرق بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام ثم قال « مثلي ومثل الساعة كمثل فرسي رهان » (٢) ثم قال : « مثلي ومثل الساعة كمثل رجل بعثه قومه طليعة ، فلما خشي أن يسبق ألاح بثوبه أتيتم أتيتم » ثم يقول رسول الله ﷺ : « أنا ذلك » (٣) وله شواهد من وجوه أخر من صحاحٍ وحسان .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٢/١) والطبراني في الكبير (٢٦١/١٠) والألباني في الصحيحة (٣٨٩) .
(٢) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٨٣٣٤) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣١/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٨/١٠) .

سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ .

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها كما قال تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ وقد وردت الأحاديث بذلك . فعن أنس أن رسول اللَّه ﷺ خطب أصحابه ذات يوم ، وقد كادت الشمس أن تغرب ، فلم يبق منها إلا سف يسير فقال : « والذي نفسي بيده ما بقي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه وما نرى من الشمس إلا يسيرًا » (١) .

وعن ابن عمر قال : كنا جلوسًا عند النبي ﷺ والشمس على قعيقعان بعد العصر فقال : « ما أعماركم في أعمار من مضى إلا كما بقي من النهار فيما مضى » (٢) وعن سهل بن سعد قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « بعثت أنا والساعة هكذا » وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى (٣) .

وعن خالد بن عمير قال : خطب عتبة بن غزوان ، قال بهز : وقال قبل هذه المرة : خطبنا رسول اللَّه ﷺ ، قال : فحمد اللَّه تعالى وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء ، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها ، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها ، فانتقلوا منها بخير ما يحضرنكم ، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفيرجهنم فيهوي فيها سبعين عامًا ما يدرك لها قعرًا ، واللَّه لتملؤنه ، أفعجبتم واللَّه لقد ذكر لنا أن ما بين مصراعي الجنة مسيرة أربعين عامًا ، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام » (٤) .

وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال : نزلنا المدائن فكنا منها على فرسخ ، فجاءت الجمعة ، فحضر أبي وحضرت معه ، فخطبنا حذيفة فقال : ألا إن اللَّه يقول : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق ، فقلت لأبي : أيستبق الناس غدًا ؟ فقال : يا بني إنك لجاهل ، إنما هو السباق بالأعمال ، ثم جاءت الجمعة الأخرى ، فحضرنا فخطب حذيفة فقال : ألا إن اللَّه ﷻ يقول ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغدًا السباق ، ألا وإن الغاية النار ، والسابق من سبق إلى الجنة . وقوله تعالى : ﴿ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ قد كان هذا في زمان رسول اللَّه ﷺ ، كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة . عن ابن مسعود أنه قال : « خمس قد مضين : الروم ، والدخان ، واللزام ، والبطشة ، والقمر » (٥) وهذا أمر متفق

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣١١/١٠) والهندي في كنز العمال (٣٨٣٥٩) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١١٥/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٣) ومسلم في الفتن (١٣٥) وأحمد في مسنده (٢٣٧/٣) والترمذي في السنن (٢٢١٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٤/٤) .

(٥) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٢٠) وأحمد في مسنده ١٢٨/٥ .

عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات .

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك

عن أنس بن مالك قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ آية ، فانشق القمر بمكة مرتين فقال : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ (١) وعن جبير بن مطعم قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين : فرقة على هذا الجبل ، وفرقة على هذا الجبل ، فقالوا : سحرنا محمد . فقالوا : إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم (٢) .

وعن ابن عباس قال : انشق القمر في زمان النبي ﷺ (٣) . وعن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين ، حتى نظروا إليه ، فقال رسول الله ﷺ : « اشهدوا » (٤) .

وقوله تعالى ، ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً ﴾ أي دليلًا وحجة وبرهانًا ﴿ يُعْرِضُوا۟ ﴾ أي لا ينقادوا له بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم ﴿ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ أي ويقولون هذا الذي شاهدناه من الحجج سحر سحرنا به ومعنى ﴿ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ أي ذاهب ، وقال مجاهد وقتادة وغيرهما : أي باطل مضمحل لا دوام له ﴿ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ أي كذبوا بالحق إذ جاءهم ، واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقلهم .

وقوله : ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ قال قتادة : معناه أن الخير واقع بأهل الخير والشر واقع بأهل الشر ، وقال ابن جريج : مستقر بأهله ، وقال مجاهد : أي يوم القيامة ، وقال السدي : أي واقع ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ ﴾ أي من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسل وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب مما يتلى عليهم في هذا القرآن ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ أي ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادي على التكذيب . وقوله تعالى : ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ﴾ أي في هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله ﴿ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ يعني أي شيء تغني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة وختم على قلبه فمن الذي يهديه من بعد الله .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ .

يقول تعالى : فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضوا ويقولوا هذا سحر مستمر ، أعرض عنهم وانتظرهم ﴿ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴾ أي إلى شيء منكر فظيع ، وهو موقف الحساب وما فيه من البلاء بل والزلازل والأهوال ، ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ أي ذليلة أبصارهم ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾ وهي القبور ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ أي كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي جراد منتشر في الآفاق ، ولهذا قال ﴿ مُّهْطِعِينَ ﴾ أي مسرعين ﴿ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾ لا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٥/٣) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٤) وأحمد في مسنده (٨١/٤) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٦) .
(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٤) وأحمد في مسنده (٣٧٧/١) .

يخالفون ولا يتأخرون ﴿ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ أي يوم شديد الهول عبوس قمطير .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ﴾ قبل قومك يا محمد ﴿ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا ﴾ أي صرحوا له بالتكذيب واتهموه بالجنون ﴿ وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾ قال مجاهد : وازدجر . أي استطير جنونًا ، وقيل : وازدجر أي انتهروه وزجروه وتواعدوه لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ، قاله ابن زيد ، وهذا متوجه حسن ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ أي إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم فانتصر أنت لدينك . قال اللَّه تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ قال السدي : وهو الكثير ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ أي نبعت جميع أرجاء الأرض حتى التنانير التي هي محال النيران نبعت عيونا ، ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ ﴾ ، أي من السماء والأرض ﴿ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي أمرٍ مقدر .

وعن ابن عباس ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ كثير لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب ، فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم ، فالتقى الماءان على أمر قد قدر ، ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ ، قال ابن عباس وسعيد بن جبير والقرظي وقتادة وابن زيد : هي المسامير ، واختاره ابن جرير ، قال : وواحدها دسار . وقال مجاهد : الدسر أضلاع السفينة . وقال عكرمة والحسن : هو صدرها الذي يضرب به الموج . وقال الضحاك : الدسر طرفاها وأصلها ، وقوله : ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ أي جزاء لهم على كفرهم باللَّه وانتصارًا لنوح عليه السلام .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً ﴾ قال قتادة : أبقى اللَّه سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة ، والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن ، كقوله تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ ، ولهذا قال ههنا ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي فهل من يتذكر ويتعظ . وعن أبي إسحاق أنه سمع رجلًا يسأل الأسود : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أو مذكر ؟ قال : سمعت عبد اللَّه يقرأ ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ وقال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقرؤها ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ دالًا [(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ أي كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذب رسلي ، ولم يتعظ بما جاءت به نذري ، وكيف انتصرت لهم وأخذت لهم بالثأر ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ أي سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراده ليتذكر الناس ، وعن ابن عباس : لولا أن اللَّه يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام اللَّه عز وجل ، قلت : ومن تيسيره تعالى على الناس تلاوة القرآن ما تقدم عن النبي ﷺ أنه قال : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » [(٢)] وقوله ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يسر اللَّه حفظه ومعناه ؟ ، وقال محمد ابن كعب القرظي : فهل من منزجر عن المعاصي .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٧١) .
(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٩٢) .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عاد قوم هود ، أنهم كذبوا رسولهم أيضًا ، كما صنع قوم نوح وأنه تعالى أرسل عليهم ﴿ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ وهي الباردة الشديدة البرد ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ أي عليهم ، ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ عليهم نحسه ودماره ؛ لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي . بقوله تعالى : ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار ، ثم تنكسه على أم رأسه فيسقط إلى الأرض ، فتثلغ رأسه فيبقى جثة بلا رأسه ، ولهذا قال : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ۝ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ۝ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ۝ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ۝ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ۝ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ۝ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحًا ﴿ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ يقولون : لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كلنا قيادنا لواحد منا . ثم تعجبوا من إلقاء الوحي عليه خاصة من دونهم ثم رموه بالكذب فقالوا : ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ أي متجاوز في حد الكذب ، قال الله تعالى : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ وهذا تهديد لهم شديد ووعيد أكيد . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ أي اختبارًا لهم ، أخرج الله لهم ناقة عظيمة عشراء ، من صخرة صماء طبق ما سألوا ، لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح عليه السلام فيما جاءهم به ، ثم قال تعالى آمرًا لعبده ورسوله صالح : ﴿ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴾ أي انتظر ما يؤول إليه أمرهم ، واصبر عليهم فإن العاقبة لك ، والنصر في الدنيا والآخرة ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ﴾ أي يوم لهم ويوم للناقة .

وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ قال مجاهد : إذا غابت حضروا الماء . وإذا جاءت حضروا اللبن ، ثم قال تعالى : ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ قال المفسرون : هو عاقر الناقة واسمه قدار بن سالف وكان أشقى قومه . ﴿ فَتَعَاطَىٰ ﴾ أي حسر ﴿ فَعَقَرَ ۝ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أي فعاقبتهم فكيف كان عقابي لهم على كفرهم بي وتكذيبهم رسولي ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ أي فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية ، وخمدوا وهمدوا كما يهمد يبيس الزرع والنبات والمحتظر هو المرعى بالصحراء حين ييبس ويحترق وتسفيه الريح ، وقال ابن زيد : كانت العرب يجعلون حظارا على الإبل والمواشي .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ۝ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ۝ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ۝ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ۝ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۝ فَذُوقُوا۟ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه ، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور وهي الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، ولهذا أهلكهم الله هلاكًا لم يهلكه أمة

من الأمم ، فإنه تعالى أمر جبريل عليه السلام فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم وأرسلها وأتبعت بحجارة من سجيل منضود ، ولهذا قال ههنا ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ وهي الحجارة ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴾ أي خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم ، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد ، حتى ولا امرأته ، أصابها ما أصاب قومها ، وخرج نبي اللّه لوط وبنات له من بين أظهرهم سالمًا لم يمسسه سوء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ۝ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا ﴾ أي ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس اللّه وعذابه فما التفتوا إلى ذلك ولا أصغوا إليه ، بل شكوا فيه وتماروا به ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ ﴾ وذلك ليلة ورد عليه الملائكة في صور شباب مرد حسان محنة من اللّه بهم ، فأضافهم لوط عليه السلام ، وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها فأعلمتهم بأضياف لوط ، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان ، فأغلق لوط دونهم الباب ، فجعلوا يحاولون كسر الباب ، وذلك عشية ، ولوط عليه السلام يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه قال اللّه تعالى ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ أي لا محيد لهم عنه ولا انفكاك لهم منه ﴿ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ۝ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون وقومه : إنهم جاءهم رسول اللّه موسى وأخوه هارون بالبشارة إن آمنوا ، والنذارة إن كفروا ، وأيدهما بمعجزات عظيمة وآيات متعددة فكذبوا بها كلها ، فأخذهم اللّه أخذ عزيز مقتدر أي فأبادهم اللّه ولم يبق منهم مخبر ولا عين ولا أثر . ثم قال تعالى : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ ﴾ أي أيها المشركون من كفار قريش ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ ﴾ يعني من الذين تقدم ذكرهم ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل وكفرهم بالكتب ، أأنتم خير من أولئكم ، ﴿ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ أي أم معكم من اللّه براءة أن لا ينالكم عذاب ولا نكال ، ثم قال تعالى مخبرًا عنهم : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ أي يعتقدون أنهم يتناصرون بعضهم بعضًا ، وأن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء . قال اللّه تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ أي سيتفرق شملهم ويغلبون .

عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر : « أنشدك عهدك ووعدك ، اللّهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبدا » فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده وقال : حسبك يا رسول اللّه ألححت على ربك ، فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ (١) وعن يوسف بن ماهك قال : إني عند عائشة أم المؤمنين فقالت : نزل على محمد ﷺ بمكة وإني لجارية ألعب ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ۝ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٧٧) والبيهقي في السنن (٩/٤٦) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٤٤) .

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ .

يخبرنا تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق ، وسعر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء ، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق ، ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ أي كما كانوا في سعر وشك وتردد ، أورثهم ذلك النار ، وكما كانوا ضلالًا يسحبون فيها على وجوههم لا يدرون أين يذهبون ، ويقال لهم تقريعًا وتوبيخًا ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ كقوله : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ ، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه ، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها ، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على الفرقة القدرية ، الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة .

عن أبي هريرة قال : جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر فنزلت ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۝ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (١) .

عن ابن زرارة عن أبيه عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۝ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ قال : « نزلت في أناس من أمتي يكونون في آخر الزمان يكذبون بقدر الله » (٢) . وعن عبد الله بن عباس قال : قيل له أن رجلًا قدم علينا يكذب بالقدر ، فقال : دلوني عليه وهو أعمى ، قالوا : وما تصنع به يا أبا عباس ، قال : والذي نفسي بيده لئن استمكنت منه لأعضن أنفه حتى أقطعه ، ولئن وقعت رقبته في يدي لأدقنها فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كأني بنساء بني فهر يطفن بالخزرج تصطفق ألياتهن مشركات ، هذا أول شرك هذه الأمة ، والذي نفسي بيده لينتهين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يكون قدر خيرا ، كما أخرجوه من أن يكون قدر شرًا » (٣) .

وعن نافع قال : كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكاتبه . فكتب إليه عبد الله بن عمر أنه بلغني أنك تكلمت في شيء من القدر ، فإياك أن تكتب إلي فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر » (٤) وعن طاوس اليماني قال : سمعت ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « كل شيء بقدر حتى العجز والكيس » (٥) . وفي الحديث الصحيح : « استعن بالله ولاتعجز ، فإن أصابك أمر فقل ، قدر الله وما شاء فعل ، ولا تقل ، لو أني فعلت لكان كذا فإن لو تفتح عمل الشيطان » (٦) وفي حديث ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قال له : « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك جفت الأقلام وطويت الصحف » (٧) وعن عبد الله بن عمرو قال :

---

(١) أخرجه مسلم في القدر (١٩) والترمذي في السنن (٣٢٩٠) وأحمد في مسنده (٢/٤٤٤) .
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٥/٣١٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١١٧) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٣٠) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٩٠) .
(٥) أخرجه مسلم في القدر (٨) وأحمد في مسنده (٢/١١٠) .
(٦) أخرجه مسلم في القدر (٣٤) وابن ماجه في السنن (٧٩) والبيهقي في السنن (١/١٤٨) .
(٧) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٩٣) .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » زاد ابن وهب ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه ، كما أخبر بنفوذ قدره فيهم فقال : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ ﴾ أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لا نحتاج إلى تأكيد بثانية ، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلاً موجودًا كلمح البصر ، لايتأخر طرفة عين ، وما أحسن ماقال بعض الشعراء :

إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له كن قولةً فيكونُ

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ ﴾ يعني أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة المكذبين بالرسل ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك وقدر لهم من العذاب ، وقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ أي مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ﴾ أي من أعمالهم ﴿ مُّسْتَطَرٌ ﴾ أي مجموع عليهم ومسطر في صحائفهم ، لايغادر صغيرة ولا كبيرة ألا أحصاها ، وعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ أي بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر والسحب في النار على وجوههم ، مع التوبيخ والتقريع والتهديد . وقوله تعالى : ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ أي في دار كرامة الله ورضوانه وفضله وامتنانه وجوده وإحسانه ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ أي عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها . وهو مقتدر على مايشاء مما يطلبون ويريدون . عن عبد الله بن عمرو يبلغ به النبي ﷺ قال : « المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا » (٣) .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٢٦٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٧٠) والدارمي في السنن (٢/٣٠٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣/٣١٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٠٣) والحاكم في المستدرك (٤/٨٨) والبيهقي في السنن (١٠/٨٧) .

سورة الرحمن

عن زر أن رجلًا قال : كيف تعرف هذا الحرف من ماء غير آسن أو أسن ، فقال : كل القرآن قد قرأت . قال : إني لأقرأ المفصل في ركعة واحدة ، فقال : أهذًا كهذ الشعر لا أبالك ، قد علمت قرائن النبي ﷺ التي كان يقرن قرينتين قرينتين من أول المفصل ، وكان أول مفصل ابن مسعود ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ (١) .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقه أنه أنزل على عباده القرآن ، ويسر حفظه وفهمه على من رحمه فقال تعالى : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾ قال الحسن : يعني النطق ، وقال الضحاك وقتادة وغيرهما : يعني الخير والشر ، وقول الحسن ههنا أحسن وأقوى ؛ لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن ، وهو أداء تلاوته ، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق ، وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين على اختلاف مخارجها وأنواعها . وقوله تعالى : ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴾ أي يجريان متعاقبين بحساب مقنن لا يختلف ولا يضطرب .

وعن عكرمة أنه قال : لو جعل الله نور جميع أبصار الإنس والجن والدواب والطير في عيني عبد ، ثم كشف حجابًا واحدًا من سبعين حجابًا دون الشمس ، لما استطاع أن ينظر إليها . ونور الشمس جزء من سبعين جزءًا من نور الكرسي ، ونور الكرسي جزء من سبعين جزءًا من نور العرش ، ونور العرش جزء من سبعين جزءًا من نور الستر . فانظر ماذا أعطى اللَّه عبده من النور في عينيه وقت النظر إلى وجه ربه الكريم عيانًا . وقوله تعالى : ﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾ قال ابن جرير : اختلف المفسرون في معنى قوله ﴿ وَٱلنَّجۡمُ ﴾ بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : النجم ما انبسط على وجه الأرض يعني من النبات وقد اختاره ابن جرير رحمه الله تعالى . وقال مجاهد : النجم الذي في السماء . وهذا القول هو الأظهر واللَّه أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴾ يعني العدل ﴿ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴾ أي خلق السموات والأرض بالحق والعدل لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴾ أي لا تبخسوا الوزن بل زنوا بالحق والقسط وقوله تعالى : ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴾ أي كما رفع السماء وضع الأرض ومهدها وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات ، لتستقر بما على وجهها من الأنام وهم الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم في سائر أقطارها وأرجائها .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٢/١) .

﴿ فِيهَا فَٰكِهَةٌ ﴾ أي مختلفة الألوان والطعوم والروائح ﴿ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴾ أفرده بالذكر لشرفه ونفعه رطبًا ويابسًا ، ﴿ ٱلْأَكْمَامِ ﴾ : هي أوعية الطلع ، وهو الذي يطلع فيه القنو ثم ينشق عن العنقود ، فيكون بسرًا ثم رطبًا ثم ينضج ويتناهى يفعه واستواؤه . ﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾ قال ابن عباس : يعني التبن . وقال : العصف ورق الزرع الأخضر الذي قطع رؤوسه ، فهو يسمى العصف إذا يبس ، وقال : والريحان يعني الورق . وقال الحسن : هو ريحانكم هذا ، وقال ابن عباس : والريحان خضر الزرع ، ومعنى هذا - والله أعلم - أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له في حال نباته عصف ، وهو ما على السنبلة ، وريحان وهو الورق الملتف على ساقها .

وقوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي فبأي الألاء يا معشر الثقلين من الإنس والجن تكذبان ؟ قاله مجاهد وغير واحد ، ويدل عليه السياق بعده ، أي النعم ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها ، فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون به : اللهم ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد . عن أسماء بنت أبي بكر قالت : سمعت رسول الله ﷺ وهو يقرأ وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يستمعون ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١) .

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٣ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٢٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

يذكر تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلقه الجان من مارج من نار وهو طرف لهبها ، وعن عائشة ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » (٢) . وقوله تعالى : ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ يعني مشرقي الصيف والشتاء ومغربي الصيف والشتاء ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق من الجن والإنس قال : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ قال ابن عباس : أي أرسلهما . وقوله ﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾ قال ابن زيد : أي منعهما أن يلتقيا بما جعل بينهما من البرزخ الحاجز الفاصل بينهما ، والمراد بقوله ﴿ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ الملح والحلو ، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس وقد اختار ابن جرير ههنا أن المراد بالبحرين : بحر السماء وبحر الأرض قال ابن جرير : لأن اللؤلؤ يتولد من ماء السماء وأصداف بحر الأرض ، وهذا وإن كان هكذا ليس المراد بذلك ما ذهب إليه ، فإنه لا يساعده اللفظ ؛ فإنه تعالى قد قال : ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ أي وجعل بينهما برزخًا ، وهو الحاجز من الأرض لئلا يبغي هذا على هذا ، وهذا على هذا ، فيفسد كل واحد منهما الآخر ويزيله عن صفته التي هي مقصودة منه ، وما بين السماء والأرض لايسمى برزخًا وحجرًا محجورًا .

وقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ أي من مجموعهما ، فإذا وجد ذلك من أحدهما

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٩/٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (٦٠) والبيهقي في السنن (٣/٩) وأحمد في مسنده (١٥٣/٦) .

كفى . واللؤلؤ معروف ، وأما المرجان فقيل : هو صغار اللؤلؤ ، وقيل : كباره وجيده ، وقيل : هو نوع من الجواهر أحمر اللون عن عبد الله قال : المرجان الخرز الأحمر . وعن ابن عباس قال : إذا أمطرت السماء فتحت الأصداف في البحر أفواهها فما وقع فيها ، يعنى من قطر فهو اللؤلؤ ولما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض ، امتن بها عليهم فقال : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ ﴾ يعني السفن التي تجري ﴿ فِي الْبَحْرِ ﴾ قال مجاهد : ما رفع قلعه من السفن فهي منشآت وما لم يرفع قلعه فليس بمنشآت ، وقال قتادة : المنشآت يعني المخلوقات ، وقال غيره : المنشئات بكسر الشين يعني البادئات ﴿ كَالْأَعْلَامِ ﴾ أي كالجبال في كبرها وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم ، مما فيه صلاح الناس في جلب مايحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع ، ولهذا قال : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ عن عمرة بن سويد قال : كنت مع علي بن أبي طالب ﷺ على شاطئ الفرات إذ أقبلت سفينة مرفوع شراعها ، فبسط علي يديه ثم قال : يقول الله ﷻ : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ والذي أنشأها تجري في بحوره ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون ، وكذلك أهل السماوات إلا من شاء الله ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم ، فإن الرب تعالى وتقدس لا يموت بل هو الحي الذي لا يموت أبدًا ، قال قتادة : أنبأ بما خلق ثم أنبأ أن ذلك كله فان . وفي الدعاء المأثور : يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام ، لا إله إلا أنت برحمتك نستغيث ، أصلح لنا شأننا كله ، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، ولا إلى أحد من خلقك . وقال الشعبي : إذا قرأت ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ فلا تسكت حتى تقرأ ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية بأنه ذو الجلال والإكرام أي هو أهل أن يجل فلا يعصى ، وأن يطاع فلا يخالف قال ابن عباس : ﴿ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ ذو العظمة والكبرياء ، ولما أخبر تعالى عن تساوي أهل الأرض كلهم في الوفاة ، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل قال ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ وهذا إخبار عن غناه عما سواه وافتقار الخلائق إليه في جميع الآنات وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم ، وأنه كل يوم هو في شأن ، فمن شأنه أن يجيب داعيًا أويعطي سائلًا ، أويفك عانيًا أو يشفي سقيمًا . وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « قال الله ﷻ ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ قال - من شأنه أن يغفر ذنبًا ، ويفرج كربًا ، ويرفع قومًا ، ويضع آخرين »(١) .

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٧٣/١) .

تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ وعيد من الله تعالى للعباد وليس بالله شغل وهو فارغ ، وقال ابن جريج : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾ أي سنقضي لكم ، وقال البخاري : سنحاسبكم لا يشغله شيء عن شيء ، وهومعروف في كلام العرب ، يقال لأتفرغن لك وما به شغل ، يقول : لآخذنك على غرتك (١) . وقوله تعالى : ﴿ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ الثقلان : الإنس والجن كما جاء في الصحيح « يسمعه كل شيء إلا الثقلين » (٢) ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ أي لا تستطيعون هربًا من أمر الله وقدره ؛ بل هو محيط بكم ، لا تقدرون على التخلص من حكمه ولا النفوذ عن حكمه فيكم ، أينما ذهبتم أحيط بكم ، وهذا في مقام الحشر ، الملائكة محدقة بالخلائق سبع صفوف من كل جانب فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ أي إلا بأمر الله . ولهذا قال تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ قال ابن عباس الشواظ : هو لهب النار ، وقال الدخان ، وقال مجاهد : هو اللهب الأخضر المنقطع ، وقال أبو صالح : هو اللهب الذي فوق النار ودون الدخان . وقال الضحاك سيل من نار . وقوله تعالى : ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ قال ابن عباس دخان النار ، وروي مثله عن أبي صالح وسعيد ابن جبير وأبي سنان . وقال ابن جرير : والعرب تسمي الدخان نحاسا ، بضم النون وكسرها ، والقراء مجمعة على الضم (٣) . وقال مجاهد : النحاس الصفر يذاب فيصب على رؤوسهم ، وكذا قال قتادة ، وقال الضحاك : ونحاس سيل من نحاس ، والمعنى على كل قول : لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار ، والنحاس المذاب عليكم لترجعوا ، ولهذا قال : ﴿ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ يوم القيامة ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ أي تذوب كما يذوب الدردي والفضة في السبك ، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها ، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء ، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم ، وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « يبعث الناس يوم القيامة والسماء تطش عليهم » (٤) قال الجوهري : الطش المطر الضعيف ، وقوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ قال مجاهد : لاتسأل الملائكة عن المجرمين بل يعرفون بسيماهم ، وكأن هذا بعدما يؤمر بهم إلى النار فذلك الوقت لايسألون عن ذنوبهم بل يقادون إليها ويلقون فيها كما قال تعالى : ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ ﴾ أي بعلامات تظهر

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (تفسير سورة الرحمن باب ٥٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤) .

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وروح ﴿ ونحاسٍ ﴾ بالخفض ، والباقون بالرفع وانفرد ابن مهران عن روح (انظر : تقريب النشر ص : ١٧٨) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢٦٧) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٣٤) .

عليهم . وقال الحسن وقتادة : يعرفون باسوداد الوجوه وزرقة العيون . قلت : وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء . وقوله تعالى : ﴿ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ أي يجمع الزبانية ناصيته مع قدميه ويلقونه في النار كذلك ، وقال ابن عباس : يؤخذ بناصيته وقدميه فيكسر كما يكسر الحطب في التنور ، وقال الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة وراء ظهره ، وقال السدي : يجمع بين ناصية الكافر وقدميه فتربط ناصيته بقدمه ويفتل ظهره .

وقوله تعالى : ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ أي هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها ، هاهي حاضرة تشاهدونها عيانًا ، يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا وتصغيرًا وتحقيرًا . وقوله تعالى : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ أي تارة يعذبون في الجحيم وتارة يسقون من الحميم ، وهو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب يقطع الأمعاء والأحشاء ، وقوله تعالى : ﴿ ءَانٍ ﴾ أي حار قد بلغ الغاية في الحرارة لايستطاع من شدة ذلك ، قال ابن عباس في قوله ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ أي قد انتهى غليه واشتد حره ، وقال قتادة : قد آن طبخه منذ خلق اللّه السموات والأرض ، وقال محمد ابن كعب القرظي : يؤخذ العبد فيحرك بناصيته في ذلك الحميم حتى يذوب اللحم ويبقى العظم والعينان في الرأس وهي كالتي يقول اللّه تعالى : ﴿ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ والحميم الآن يعني الحار ، فقوله ﴿ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ حميم حار جدًّا . ولما كان معاقبة العصاة المجرمين وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه ، وكان إنذاره لهم عن عذابه وبأسه مما يزجرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك قال ممتنًّا بذلك على بريته ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

قال ابن شوذب وعطاء الخراساني : نزلت هذه الآية ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ في أبي بكر الصديق ، وقال عطية بن قيس نزلت في الذي قال : أحرقوني بالنار لعلي أضل اللّه ، قال : تاب يومًا وليلة ، بعد أن تكلم بهذا ، فقبل الله منه وأدخله الجنة ، والصحيح أن هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره. ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ ولم يطغ ولا آثر الحياة الدنيا ، وعلم أن الآخرة خير وأبقى فأدى فرائض الله واجتنب محارمه ، فله يوم القيامة عند ربه جنتان ، عن عبد الله بن قيس أن رسول اللّه ﷺ قال : « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما ومافيهما ، ومابين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم ﷻ إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » (١) .

وعن أبي الدرداء أن رسول اللّه ﷺ قرأ يومًا هذه الآية ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق ؟ فقال : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق فقال : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق يارسول اللّه ، فقال « وإن رغم أنف أبي الدرداء » (٢) . وهذه الآية عامة في الإنس والجن ، فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا ، ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٤٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٨٦٠١) .

ثم نعت هاتين الجنتين فقال : ﴿ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴾ أي أغصان نضرة حسنة تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قال عطاء الخراساني وجماعة : أن الأفنان أغصان الشجر يمس بعضها بعضًا ، وعن ابن عباس : ﴿ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴾ ذواتا ألوان ، ومعنى هذا القول أن فيهما فنونًا من الملاذ ، واختاره ابن جرير . وقال عطاء : كل غصن يجمع فنونًا من الفاكهة ، وقال الربيع بن أنس واسعتا الفناء وكل هذه الأقوال صحيحة ولامنافات بينها ، وعن أسماء بنت أبي بكر قالت : سمعت رسول الله ﷺ وذكر سدرة المنتهى ، فقال : « يسير في ظل الفنن منها الراكب مائة سنة » أو قال : « يستظل في ظل الفنن منها مائة راكب ؛ فيها فراش الذهب كأن ثمرها القلال » (١) .

﴿ فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ﴾ أي تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان فتثمر من جميع الألوان ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قال الحسن البصري : إحداهما يقال لها : تسنيم ، والأخرى : السلسبيل وقال عطية : إحداهما من ماء غير آسن ، والأخرى : من خمر لذة للشاربين ، ولهذا قال بعد هذا ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ﴾ : أي من جميع أنواع الثمار مما يعلمون وخير مما يعلمون ، ومما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ عن ابن عباس ، مافي الدنيا ثمرة حلوة ولامرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل .

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ ﴾ يعني أهل الجنة ، والمراد بالاتكاء ههنا الاضطجاع ويقال : الجلوس على صفة التربيع ﴿ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ ﴾ وهو ما غلظ من الديباج ، وقال أبو عمران الجوني : هو الديباج المزين بالذهب ، فنبه على شرف الظهارة بشرف البطانة ، فهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى . عن عبد الله بن مسعود قال : هذه البطائن ، فكيف لو رأيتم الظواهر . وقال مالك بن دينار : بطائنها من إستبرق وظواهرها من نور ، وقال سفيان الثوري أو شريك : بطائنها من إستبرق وظواهرها من نور جامد ﴿ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴾ أي ثمرهما قريب إليهم متى شاءوا تناولوه على أي صفة كانوا ، أي لاتمتنع ممن تناولها بل تنحط إليه من أغصانها ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك ﴿ فِيهِنَّ ﴾ أي في الفرش ﴿ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ ﴾ أي غضيضات عن غير أزواجهن فلا يرين شيئًا في الجنة أحسن من أزواجهن ، وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلها : والله ما أرى في الجنة شيئًا أحسن منك ، ولافي الجنة شيئًا أحب إلي منك فالحمد لله الذي جعلك لي وجعلني لك .

﴿ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴾ أي بل هن أبكار عرب أتراب لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن ، وهذه أيضًا من الأدلة على دخول مؤمني الجن الجنة ، قال أرطأه بن المنذر : سئل ضمرة بن حبيب هل يدخل الجن الجنة ، قال : نعم وينكحون ، للجن جنيات وللإنس إنسيات ، وذلك قوله : ﴿ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٤١) .

ثم قال : ينعتهم للخطاب ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال : « إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من حرير حتى يرى مخها » وذلك قول الله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ فأما الياقوت ؛ فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لرأيته من ورائه(١) .

وعن محمد بن سيرين قال : إما تفاخروا وإما تذاكروا ، الرجال أكثر في الجنة أم النساء ؟ فقال أبو هريرة : أو لم يقل أبو القاسم ﷺ : « إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والتي تليها على أضوء كوكب دري في السماء ، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يري مخ سوقهما من وراء اللحم وما في الجنة أعزب » (٢) وعن أنس ، أن رسول الله ﷺ قال : « لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدِّهِ - يعني سوطه - من الجنة خير من الدنيا ومافيها ، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحا ولطاب ما بينهما ، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ أي لا لمن أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة ، ولما كان في الذي ذكر نعم عظيمة لا يقاومها عمل بل مجرد تفضل وامتنان قال بعد ذلك كله : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ومما يتعلق بقوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ ما رواه أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » (٤) .

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٣ مُدْهَآمَّتَانِ ۝٦٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٥ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۝٦٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٧ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۝٦٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٩ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٧٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٥ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ۝٧٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٧ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ .

هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ وقد تقدم في الحديث : جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، فالأوليان للمقربين والأخريان لأصحاب اليمين ، وقال أبو موسى : جنتان من ذهب للمقربين ، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين ، وقال ابن عباس : من دونهما في الدرج ، وقال ابن زيد : من دونهما في الفضل . والدليل على شرف الأولين على الأخرين وجوه : أحدها : أنه نعت الأولين قبل هاتين ، والتقديم يدل على الاعتناء ثم قال : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ وهذا ظاهر في شرف التقدم وعلوه على الثاني ، وقال هناك ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ وهي الأغصان أو الفنون في الملاذ ، وقال ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ ، أي سوداوان من شدة الري من الماء قال ابن عباس في قوله : ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ قد اسودتا من الخضرة من شدة

(١) أخرجه الترمذي في السنن(٢٥٣٣) والمنذري في الترغيب والترهيب(٥٣٣/٤) .
(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها(١٤) وأحمد في مسنده(٢٣٠/٢) والترمذي في السنن(٢٥٥) .
(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير(٢٧٩٢) ومسلم في الإمارة(١١٢) والترمذي في السنن(١٦٥١) وأحمد في مسنده(٢٦٦/٥) .
(٤) أخرجه الترمذي في السنن(٢٤٥٠) والحاكم في المستدرك(٣١٨/٤) .

الري من الماء ، وقال محمد بن كعب : ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ ممتلئتان من الخضرة ، وقال قتادة : خضروان من الري ناعمتان ولاشك في نضارة الأغصان على الأشجار المشتبكة بعضها في بعض .

وقال هناك : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ وقال ههنا ﴿ نَضَّاخَتَانِ ﴾ قال ابن عباس ، أي فياضتان والجري أقوى من النضخ ، وقال الضحاك أي ممتلئتان ولا تنقطعان وقال هناك : ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ وقال ههنا ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ ولاشك أن الأولى أعم وأكثر في الإفراد والتنويع على فاكهة ، وهي نكرة في سياق الإثبات لا تعم ، ولهذا ليس قوله ﴿ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ من باب عطف الخاص على العام لما قرره البخاري وغيره ، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما . وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كالبعير المقتب »(١) .

ثم قال ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ قيل : المراد خيرات كثيرة حسنة في الجنة وقيل : خيرات جمع خيرة وهي المرأة الصالحة الحسنة الخلق الحسنة الوجه ، ورُوي مرفوعًا عن أم سلمة ، وفي الحديث الآخر الذي سنورده في سورة الواقعة إن شاء الله تعالى أن الحور العين يغنين : نحن الخيرات الحسان خلقنا لأزواج كرام ، ولهذا قرأ بعضهم ﴿ فِيهِنَّ خَيِّرَاتٌ ﴾ بالتشديد(٢) ﴿ حِسَانٌ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ثم قال : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾ وهناك قال ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ ولاشك أن التي قد قصرت طرفها بنفسها أفضل ممن قصرت وإن كان الجميع مخدرات ، وقوله تعالى : ﴿ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾ عن بن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلًا ، في كل زاوية منها أهل مايرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمنون »(٣) .

عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم ، واثنتان وسبعون زوجة ، وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية وصنعاء »(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ قد تقدم مثله سواء ، إلا أنه زاد في وصف الأوائل بقوله ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴾ قال ابن عباس : الرفرف المحابس ، وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وغيرهم ، وقال عاصم الجحدري : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ يعني الوسائد ، وهو قول الحسن البصري في رواية عنه ، وقال سعيد بن جبير : الرفرف رياض الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴾ قال ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي : العبقري الزرابي ، وقال سعيد بن جبير : هي عتاق الزرابي يعني جيادها ، وقال مجاهد : العبقري الديباج ، وسئل الحسن البصري عن قوله تعالى : ﴿ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴾ فقال : هي بسط أهل الجنة لا أبالكم فاطلبوها ، وقال الخليل بن أحمد : كل شيء نفيس من الرجال وغير ذلك يسمى عند العرب عبقريًا ، ومنه قول النبي ﷺ في عمر : « فلم أرَ عبقريًا يفري فريه »(٥) وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنتين

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (١٥٠/٦) .
(٢) قرأ معاذ القارئ وعاصم الجحدري وأبو نهيك ﴿ خيِّرات ﴾ بتشديد الراء . انظر زاد المسير (١٢٥/٨) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٧٩) .
(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٦٢) بنحوه .
(٥) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٦٤) ومسلم في فضائل الصحابة (١٧) .

الأولين أرفع وأعلى من هذه الصفة فإنه قد قال هناك ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ ﴾ فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظهائرها اكتفاء بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأحرى . وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ فوصف أهلها بالإحسان ، وهو أعلى المراتب والنهايات كما في حديث جبريل لما سأل عن الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان ، فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنتين الأولين على هاتين الأخريين ، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من الأولين .

ثم قال : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ أي هو أهل أن يجل فلا يعصى ، وأن يكرم فيعبد ، ويشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى ، وقال ابن عباس : ﴿ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ ذي العظمة والكبرياء . عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « أجلوا الله يغفر لكم » (١) وفي الحديث الآخر : « إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم ، وذي السلطان ، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه » (٢) وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام » (٣) .

وقال الجوهري : ألظ فلان بفلان إذا لزمه ، وقول ابن مسعود ألظوا بياذا الجلال والإكرام أي الزموا ، يقال : الإلظاظ هو الإلحاح . قلت ، وكلاهما قريب من الآخر ، والله أعلم ، وهو المداومة واللزوم والإلحاح . فعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد ؛ يعني بعد الصلاة إلا بقدر ما يقول : « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام » (٤) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٩/٥) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨٤٣) والبيهقي في السنن (١٦٣/٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٧/٤) .

(٤) أخرجه مسلم في المساجد (١٣٦) والنسائي في السنن (٦٩/٣) وأحمد في مسنده (٢٧٥/٥) والبيهقي في السنن (١٨٣/٢) .

سورة الواقعة

عن ابن عباس قال : قال أبو بكر : يارسول الله قد شبت ، قال : « شيبتني هود والواقعة والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت »(١) عن أبي ظبية قال : مرض عبد الله مرضه الذي توفي فيه ، فعاده عثمان بن عفان فقال : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي . قال : ألا آمر لك بطبيب ؟ قال : الطبيب أمرضني . قال : ألا آمر لك بعطاء ؟ قال : لاحاجة لي فيه . قال : يكون لبناتك من بعدك . قال : أتخشى على بناتي الفقر ؟ إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة ، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا »(٢) . وعن سماك بن حرب أنه سمع جابر بن سمرة يقول : كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات كنحو من صلاتكم التي تصلون اليوم ، ولكنه كان يخفف ، كانت صلاته أخف من صلاتكم ، وكان يقرأ في الفجر الواقعة ونحوها من السور(٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ۝ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ۝ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ .

الواقعة من أسماء يوم القيامة سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها كما قال تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ أي ليس لوقوعها إذا أراد الله كونها صارف يصرفها ولا دافع يدفعها . ومعنى ﴿ كَاذِبَةٌ ﴾ كما قال محمد بن كعب : لابد أن تكون ، وقال قتادة : ليس فيها مثنوية ولا ارتداد ولارجعة وقوله تعالى : ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ أي تخفض أقوامًا إلى أسفل سافلين إلى الجحيم ، وإن كانوا في الدنيا أعزاء ، وترفع آخرين إلى أعلى عليين إلى النعيم المقيم ، وإن كانوا في الدنيا وضعاء وعن ابن عباس قال : تخفض أقوامًا وترفع آخرين وقال عكرمة : خفضت فأسمعت الأدنى ، ورفعت فأسمعت الأقصى ، وقوله تعالى : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴾ أي حركت تحريكًا فاهتزت واضطربت بطولها وعرضها ، ولهذا قال ابن عباس وغير واحد : أي زلزلت زلزالًا ، وقال الربيع بن أنس : ترج بما فيها كرج الغربال بما فيه . وقوله تعالى : ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴾ أي فتتت فتًا ، وقوله تعالى : ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴾ عن علي ﷺ : هباء منبثًا كرهج الغبار يسطع ثم يذهب فلا يبقى منه شيء ، وقال ابن عباس : الهباء الذي يطيرمن النار إذا اضطرمت يطير منه الشرر فإذا وقع لم يكن شيئًا ، وقال عكرمة : المنبث الذي قد ذرته الريح وبثته . وهذه الآية كأخواتها الدالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة وذهابها وتسييرها ونسفها أي قلعها وصيرورتها كالعهن المنفوش .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٩٧) والحاكم في المستدرك (٣٤٣/٢) .

(٢) أورده الهندي في كنز العمال (٢٦٤٠) والسيوطي في الدر المنثور (١٥٣/٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٤/٥) .

وقوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ أي ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف : قوم عن يمين العرش . وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن ويؤتون كتبهم بأيمانهم ويؤخذ بهم ذات اليمين ، وقال السدي : وهم جمهور أهل الجنة ، وآخرون عن يسار العرش وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر ويؤتون كتبهم بشمالهم ويؤخذ بهم ذات الشمال وهم عامة أهل النار وطائفة سابقون بين يديه ﷻ ، وهم أخص وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين الذين هم سادتهم ، فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء ، وهم أقل عددًا من أصحاب اليمين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ وهكذا قسمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة في آخر السورة وقت احتضارهم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ قال : هي التي في سورة الملائكة ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ وقال مجاهد ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ يعني فرقًا ثلاثة . وقال ميمون بن مهران : أفواجًا ثلاثة .

عن معاذ بن جبل أن رسول اللّه ﷺ تلا هذه الآية ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ فقبض بيده قبضتين فقال : « هذه للجنة ولا أبالي ، وهذه للنار ولا أبالي » (١) وعن عائشة عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « أتدرون من السابقون إلى ظل اللّه يوم القيامة ؟ » قالوا : اللّه ورسوله أعلم . قال : « الذين إذا أعطوا الحق قبلوه وإذا سئلوه بذلوه ، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم » (٢) وقال محمد بن كعب وأبو حرزة يعقوب بن مجاهد ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ هم الأنبياء عليهم السلام ، وقال السدي : هم أهل عليين ، وقال عن ابن عباس : يوشع بن نون ، سبق إلى موسى ، ومؤمن آل يس سبق إلى عيسى ، وعلي بن أبي طالب سبق إلى محمد رسول اللّه ﷺ ، عن ابن سيرين الذين صلوا إلى القبلتين . وقال الحسن وقتادة أي من كل أمة ، وهذه الأقوال كلها صحيحة فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا ، كما قال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ فمن سابق في هذه الدنيا وسبق إلى الخير كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة ، فإن الجزاء من جنس العمل ، وكما تدين تدان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ .

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ۝ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝ وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ۝ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن هؤلاء السابقين المقربين أنهم ﴿ ثُلَّةٌ ﴾ أي جماعة من الأولين ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ من الآخرين ، وقد اختلفوا في المراد بقوله الأولين والآخرين فقيل : المراد بالأولين الأمم الماضية ، وبالآخرين هذه الأمة ، هذا رواية عن مجاهد والحسن البصري وهو اختيار ابن جرير واستأنس بقوله ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة » (٣) ولم يحك غيره ولا عزاه إلى أحد ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٩/٥) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٧/٦) .
(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٩٥) وأحمد في مسنده (٣٤١/٢) والبيهقي في السنن (٢٩٨/١) .

ومما يستأنس به لهذا القول مارواه أبو هريرة قال : لما نزلت ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ فنزلت ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ فقال النبي ﷺ : « إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ثلث أهل الجنة ، بل أنتم نصف أهل الجنة ، أو شطر أهل الجنة وتقاسمونهم النصف الثاني » [١] .

وهذا الذي اختاره ابن جرير ههنا فيه نظر بل هو قول ضعيف ؛ لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن ، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها ، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة ، والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم والله أعلم . فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح ، وهو أن يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي من صدر هذه الأمة ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ أي من هذه الأمة .

وعن محمد بن سيرين أنه قال في هذه الآية ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ قال : كانوا يقولون أو يرجون أن يكونوا كلهم من هذه الأمة ، فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة ، ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها ، فيحتمل أن تعم الآية جميع الأمم كل أمة بحسبها ، ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » [٢] الحديث بتمامه . فأما الحديث الذي رواه عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل أمتي مثل المطر لايدرى أوله خير أم آخره » [٣] فهذا الحديث ، بعد الحكم بصحة إسناده ، محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في إبلاغه إلى من بعدهم ، كذلك هو محتاج إلى القائمين به في أواخرها وتثبيت الناس على السنة وروايتها وإظهارها ، والفضل للمتقدم ، وكذلك الزرع هو محتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثاني ، ولكن العمدة الكبرى على الأول واحتياج الزرع إليه آكد ، فإنه لولاه ما نبت في الأرض ولا تعلق أساسه فيها ولهذا قال ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة » وفي لفظ : « حتى يأتي أمر الله تعالى وهم كذلك » [٤] والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم ، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة لشرف دينها وعظم نبيها ، ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر أن في هذه الأمة سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب وفي لفظ « مع كل ألف سبعون ألفًا » [٥] - وفي آخر - « مع كل واحد سبعون ألفًا » .

وعن أبي زمل الجهني ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح يقول وهو ثان رجليه : « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله إن الله كان توابًا » سبعين مرة ثم يقول : « سبعين بسبعمائة لا خير لمن كانت ذنوبه في يوم واحد أكثر من سبعمائة » ثم يقول ذلك مرتين ثم يستقبل الناس بوجهه [٦] .

وكان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا ثم يقول : « هل رأى أحد منكم شيئًا » قال أبو زمل : فقلت

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣١٦٨) وأحمد في مسنده (٤٣٢/٤) ومسلم في الإيمان (٣٧٧) .
(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٢٩) والترمذي في السنن (٢٣٠٢) وأحمد في مسنده (٧٨/١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٩/٤) . (٤) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٤٠) .
(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٧١ ، ٣٧٢) وأحمد في مسنده ٤٠٠/٢ ، والطبري في الكبير ١٨٢/٨ .
(٦) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٣) ومسلم في الإيمان (٣٦٧) .

أنا يا رسول الله ، فقال : « خير تلقاه ، وشر توقاه ، وخير لنا ، وشر على أعدائنا الحمد لله رب العالمين اقصص رؤياك » فقلت : رأيت جميع الناس على طريق رحب سهل لاحب والناس على الجادة منطلقين ، فبينما هم كذلك ، إذ أشفى ذلك الطريق على مرج لم تر عيني مثله ، يرف رفيفًا يقطر ماؤه فيه من أنواع الكلأ ، قال : وكانوا بالرعلة الأولى حين أشفوا على المرج كبروا ثم أكبوا رواحلهم في الطريق ، فلم يظلموه يمينًا ولاشمالاً ، قال فكأني أنظر إليهم منطلقين ، ثم جاءت الرعلة الثانية ، وهم أكثر منهم أضعافًا فلما أشفوا على المرج كبروا ثم أكبوا رواحلهم في الطريق ، فمنهم المرتع ، ومنهم الآخذ الضغث ، ومضوا على ذلك ، قال : ثم قدم عظم الناس ، فلما أشفوا على المرج كبروا وقالوا : هذا خير المنزل ، كأني أنظر إليهم يميلون يمينًا وشمالاً ، فلما رأيت ذلك لزمت الطريق حتى آتي أقصى المرج ، فإذا أنا بك يا رسول الله على منبر فيه سبع درجات وأنت في أعلاها درجة ، وإذا عن يمينك رجل آدم شثل أقنى إذا هو تكلم يسمو فيقرع الرجال طولًا ، وإذا عن يسارك رجل ربعة باز كثير خيلان الوجه ، كأنما حمم شعره بالماء إذا هو تكلم أصغيتم إكراما له ، وإذا أمام ذلك رجل شيخ أشبه الناس بك خلقًا ووجهًا ، كلكم تأمونه تريدونه ، وإذا أمام ذلك ناقة عجفاء شارف ، وإذا أنت يا رسول الله كأنك تبعثها . قال : فامتقع لون رسول الله ﷺ ساعة ثم سري عنه ، وقال رسول الله ﷺ : « أما مارأيت من الطريق السهل الرحب اللاحب : فذاك ماحملتكم عليه من الهدى وأنتم عليه ، وأما المرج الذي رأيت : فالدنيا وغدارة عيشها ، مضيت أنا وأصحابي لم نتعلق منها بشيء ولم تتعلق منا ، ولم نردها ولم تردنا ، ثم جاءت الرعلة الثانية من بعدنا وهم أكثر منا أضعافًا ، فمنهم المرتع ومنهم الآخذ الضغث ونجوا على ذلك ، ثم جاء عظم الناس فمالوا في المرج يمينًا وشمالاً ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . وأما أنت : فمضيت على طريقة صالحة ، فلن تزال عليها حتى تلقاني ، وأما المنبر الذي رأيت فيه سبع درجات وأنا في أعلاها درجة : فالدنيا سبعة آلاف سنة ، أنا في آخرها ألفًا ، وأما الرجل الذي رأيت على يمين الأدم الشثل : فذلك موسى عليه السلام ، إذا تكلم يعلو الرجال بفضل كلام الله إياه ، والذي رأيت عن يساري الباز الربعة الكثير خيلان الوجه كأنما حمم شعره بالماء ، فذلك عيسى ابن مريم نكرمه لإكرام الله إياه ، وأما الشيخ الذي رأيت أشبه الناس بي خلقًا ووجهًا فذاك أبونا إبراهيم كلنا نؤمه ونقتدي به ، وأما الناقة التي رأيت ورأيتني أبعثها : فهي الساعة علينا تقوم ، لا نبي بعدي ولا أمة بعد أمتي » قال : فما سأل رسول ﷺ عن رؤيا بعد هذا إلا أن يجيء الرجل فيحدثه بها متبرعًا (١) .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ قال ابن عباس : أي مرمولة بالذهب يعني منسوجة به ، وكذا قال مجاهد وغيره ، وقال ابن جرير : ومنه يسمى وضين الناقة الذي تحت بطنها ، وهو فعيل بمعنى مفعول ؛ لأنه مضفور ، وكذلك السرر في الجنة مضفورة بالذهب واللآلى .

وقوله تعالى : ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض ليس أحد وراء أحد ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أي مخلدون على صفة واحدة لا يتكبرون عنها ولا يشيبون ولا يتغيرون

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٦١/١٠) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٣/٧) والرعل : القطعة من الفرسان .

﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ أما الأكواب : فهي الكيزان التي لا خراطيم لها ولا آذان ، والأباريق التي جمعت الوصفين ، والكؤوس الهنابات ، والجميع من خمر من عين جارية معين ، ليس من أوعية تنقطع وتفرغ بل من عيون سارحة . وقوله تعالى : ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ أي لا تصدع رؤوسهم ولا تنزف عقولهم ، بل هي ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة عن ابن عباس أنه قال : في الخمر أربع خصال : السكر ، والصداع ، والقيء ، والبول ، فذكر اللّه تعالى خمر الجنة ونزهها عن هذه الخصال وقالوا في قوله : ﴿ وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ أي لاتذهب بعقولهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۞ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار ، وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها ، ويدل على ذلك حديث عكراش بن ذؤيب قال : بعثني مرة في صدقات أموالهم إلى رسول اللّه ﷺ ، فقدمت المدينة فإذا هو جالس بين المهاجرين والأنصار ، وقدمت عليه بإبل كأنها عروق الأرطى قال : « من الرجل ؟ » قلت : عكراش بن ذؤيب ، قال : « ارفع في النسب » فانتسبت له إلى مرة بن عبيد ، وهذه صدقة مرة بن عبيد ، فتبسم رسول اللّه ﷺ وقال : « هذه إبل قومي ، هذه صدقات قومي » ثم أمر بها أن توسم بميسم إبل الصدقة وتضم إليها ، ثم أخذ بيدي فانطلقنا إلى منزل أم سلمة فقال : « هل من طعام ؟ » فأتينا بجفنة كالقصعة كثيرة الثريد والوذر ، فجعل يأكل منها ، فأقبلت أخبط بيدي في جوانبها ، فقبض رسول اللّه ﷺ بيده اليسرى على يدي اليمنى ، فقال : « يا عكراش ، كل من موضع واحد ؛ فإنه طعام واحد . ثم أتينا بطبق فيه تمر أو رطب شك عبيد اللّه رطبًا كان أو تمرًا ، فجعلت آكل من بين يدي ، وجالت يد رسول اللّه ﷺ في الطبق وقال : « يا عكراش ، كل من حيث شئت ، فإنه غير لون واحد » . ثم أتينا بماء فغسل رسول اللّه ﷺ يده ومسح ببلل كفيه وجهه وذراعيه ورأسه ثلاثًا ثم قال : « يا عكراش هذا الوضوء مما غيرت النار » (١) .

قال أنس كان رسول اللّه ﷺ تعجبه الرؤيا ، فربما رأى الرجل الرؤيا فسأل عنه إذا لم يكن يعرفه ، فإذا أثني عليه معروف كان أعجب لرؤياه إليه ، فأتته امرأة فقالت : يارسول اللّه رأيت كأني أتيت فأخرجت من المدينة فأدخلَت الجنة ، فسمعت وجبة انتحبت لها الجنة ، فنظرت فإذا فلان ابن فلان وفلان ابن فلان فسمت اثني عشر رجلًا ، كان النبي ﷺ قد بعث سرية قبل ذلك فجيء بهم عليهم ثياب طلس تشخب أوداجهم ، فقيل : اذهبوا بهم إلى نهر البيدخ أو البيذخ ، قال : فغمسوا فيه ، فخرجوا ووجوههم كالقمر ليلة البدر ، فأتوا بصفحة من ذهب فيها بسر ، فأكلوا من بسره ما شاءوا فما يقلبونها من وجه إلا أكلوا من الفاكهة ما أرادوا ، وأكلت معهم ، فجاء البشير من تلك السرية ، فقال ، ماكان من رؤيا كذا وكذا ، فأصيب فلان وفلان حتى عد اثني عشر رجلًا ، فدعا رسول اللّه ﷺ المرأة ، فقال : قصي رؤياك . فقصتها وجعلت تقول : فجيء بفلان وفلان (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ عن أنس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن طير الجنة كأمثال البخت يرعى في شجر الجنة » . فقال أبو بكر : يارسول اللّه إن هذه لطير ناعمة ، فقال :

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٢٧٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١٣٥) .

« آكلها أنعم منها - قالها ثلاثًا - وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها » [١] وعن ابن عمر قال ذكرت عند النبي ﷺ طوبى فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا بكر هل بلغك ماطوبى ؟ » قال : الله ورسوله أعلم . قال : « طوبى شجرة في الجنة ما يعلم طولها إلا الله ، يسير الراكب تحت غصن من أغصانها سبعين خريفًا ورقها الحلل ، يقع عليها الطير كأمثال البخت » فقال أبو بكر : يا رسول الله إن هناك لطيرًا ناعمًا ، قال : « أنعم منه من يأكله ، وأنت منهم إن شاء الله تعالى » [٢] .

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ سئل عن الكوثر فقال : « نهر أعطانيه ربي ﷻ في الجنة أشد بياضًا من اللبن ، وأحلى من العسل ، فيه طيور أعناقها يعني كأعناق الجزر » فقال عمر : إنها لناعمة ، قال رسول الله ﷺ : « آكلها أنعم منها » [٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ قرأ بعضهم بالرفع [٤] وتقديره ، ولهم فيها ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴾ وقراءة الجر تحتمل معنيين : أحدهما : أن يكون الإعراب على الاتباع بما قبله كقوله تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ والاحتمال الثاني : أن يكون مما يطوف به الولدان المخلدون عليهم الحور العين ، ولكن يكون ذلك في القصور لابين بعضهم بعضًا ، بل في الخيام يطوف عليهم الخدام بالحور العين ، والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ أي كأنهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه كما تقدم في سورة الصافات ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ ولهذا قال : ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي هذا الذي أتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل .

ثم قال تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ أي لا يسمعون في الجنة كلامًا لاغيأ أي عبثًا خاليًا من المعنى أو مشتملًا على معنى حقير أو ضعيف ﴿ وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ أي ولا كلامًا فيه قبح ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ أي إلا التسليم منهم بعضهم على بعضا وكلامهم أيضًا سالم من اللغو والإثم .

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ .

لما ذكر تعالى مآل السابقين وهم المقربون ، عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين وهم الأبرار ، كما قال ميمون بن مهران : أصحاب اليمين منزلتهم دون المقربين فقال : ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي أيُّ شيء أصحاب اليمين وما حالهم وكيف مآلهم . ثم فسر ذلك فقال تعالى : ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو الأحوص وغيرهم : هو الذي لا شوك فيه ، وعن ابن عباس : هو الموقر بالثمر ، والظاهر أن المراد هذا وهذا ، فإن سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢٢١) . (٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٤/٦٢) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٥٩) والحاكم في المستدرك (٢/٥٣٧) .

(٤) قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي ﴿ وَحُورٍ عِينٍ ﴾ بخفض الاثنين والباقون بالرفع (انظر : تقريب النشر ص : ١٧٨) .

وفي الآخرة على العكس من هذا لا شوك فيه وفيه الثمر الكثير الذي قد أثقل أصله ، عن سليم بن عامر قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم ، قال : أقبل أعرابي يومًا فقال : يا رسول الله ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ، فقال رسول الله ﷺ : « وما هي ؟ » قال : السدر ؛ فإن له شوكًا مؤذيًا ، فقال رسول الله ﷺ : « أليس الله تعالى يقول : ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فإنها لتنبت ثمرًا تفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونًا من طعام ، مافيها من لون يشبه الآخر » (١) .

وقوله : ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ الطلح شجر عظام يكون بأرض الحجاز من شجر العضاه واحدته طلحة ، وهو شجر كثير الشوك وقال مجاهد ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ أي متراكم الثمر يذكر بذلك قريشًا ؛ لأنهم كانوا يعجبون من وج وظلاله من طلح وسدر . وقال السدي : ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ مصفود . قال ابن عباس : يشبه طلح الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل ، قال الجوهري : والطلح لغة في الطلع قلت : وقد روي من حديث الحسن بن سعد عن شيخ من همدان قال : سمعت عليًا يقول : هذا الحرف في طلح منضود ، قال : طلع منضود ، فعلى هذا يكون من صفة السدر ، فكأنه وصفه بأنه مخضود ، وهو الذي لا شوك له ، وأن طلعه منضود وهو كثرة ثمره ، والله أعلم . قال مجاهد وابن زيد أهل اليمن يسمون الموز الطلح ، ولم يحك ابن جرير غير هذا القول .

وقوله تعالى : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ عن أبي هريرة ، يبلغ به النبي ﷺ قال : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، اقرءوا إن شئتم ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ » (٢) . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما في الجنة شجرة إلا ساقها من ذهب » (٣) ، وقال الضحاك والسدي وأبو حزرة في قوله تعالى : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ لا ينقطع ، ليس فيها شمس ولا حر مثل قبل طلوع الفجر ، وقال ابن مسعود : الجنة سجسج كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ قال الثوري : يجري في غير أخدود ، وقد تقدم الكلام عند تفسير قوله تعالى : ﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾ الآية . بما أغنى عن إعادته ههنا .

وقوله تعالى : ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ أي وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وفي ذكر سدرة المنتهى : « فإذا ورقها كآذان الفيلة ، ونبقها مثل قلال هجر » (٤) وعن ابن عباس قال : خسفت الشمس فصلى رسول الله ﷺ والناس معه فذكر الصلاة ، وفيه قالوا : يا رسول الله رأيناك تناولت شيئًا في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت ، قال : « إني رأيت الجنة فتناولت منها عنقودًا ، ولو أخذته ؛ لأكلتم منه ما بقيت الدنيا » (٥) وعن عتبة بن عبد السلمي يقول : « جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ ، فسأله عن الحوض وذكر الجنة ، ثم قال الأعرابي : فيها فاكهة ؟ قال : « نعم ، وفيها شجرة تدعى طوبى » قال : فذكر

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (١٥٦/٦) . (٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٢) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٢٥) .
(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٧) ومسلم في الإيمان (٢٥٩) وأحمد في مسنده (١٦٤/٣) .
(٥) أخرجه البخاري في الأذان (٦٠٩) ومسلم في الكسوف (١٧) وأحمد في مسنده (٣٥٨/١) والنسائي في السنن (١٤٧/٣) .

شيئًا لا أدري ما هو ، قال : أي شجرة أرضنا تشبه ؟ قال : ليست تشبه شيئًا من شجر أرضك ، فقال النبي ﷺ : « أتيت الشام ؟ » قال : لا . قال : « تشبه شجرة بالشام تدعى الجوزة تنبت على ساق واحد وينفرش أعلاها » . قال : ما عظم العنقود ؟ قال : « مسيرة شهر للغراب الأبقع لا يفتر » . قال : وعظم أصلها ؟ قال : « لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هرمًا » . قال : فيها عنب ؟ قال : « نعم » قال : فما عظم الحبة ؟ قال « هل ذبح أبوك تيسًا من غنمه قط عظيمًا ؟ » قال : نعم ، قال : « فسلخ إهابه فأعطاه أمك : فقال اتخذي لنا منه دلوًا ؟ » قال : نعم . قال الأعرابي : فإن تلك الحبة لتشبعني وأهل بيتي ، قال : « نعم ، وعامة عشيرتك » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ أي لا تنقطع شتاء ولا صيفًا بل أكلها دائم مستمر أبدًا ، مهما طلبوا وجدوا لا يمتنع عليهم بقدرة الله شيء . وقال قتادة : لا يمنعهم من تناولها عود ولا شوك ولا بعد ، وقوله تعالى : ﴿ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴾ أي عالية وطيئة ناعمة عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴾ قال : ارتفاعها كما بين السماء والأرض ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ۝ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۝ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ جرى الضمير على غير مذكور . لكن لما دل السياق وهو ذكر الفرش على النساء اللاتي يضاجعن فيها اكتفى بذلك عن ذكرهن وعاد الضمير عليهن ، وقال الأخفش في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴾ أضمرهن ولم يذكرن قبل ذلك ، وقال أبو عبيدة : ذكرن في قوله تعالى : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ فقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴾ أي أعدناهن في النشأة الأخرى بعد ما كن عجائز رمصًا ، صرن أبكارًا عربًا أي بعد الثيوبة عدن أبكارًا عربًا متحببات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة . وقال بعضهم : ﴿ عُرُبًا ﴾ أي غنجات ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴾ قال : « نساء عجائز كن في الدنيا عمشًا رمصا » (٣) . وعن الحسن قال : أتت عجوز فقالت : يا رسول الله ادع الله تعالى أن يدخلني الجنة فقال : « يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز » قال : فولت تبكي . قال : « أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز ، إن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ۝ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ (٤) .

وعن أم سلمة قالت : قلت يا رسول الله أخبرني عن قول الله تعالى : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ قال : « حور بيض ضخام العيون ، شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر » قلت : أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ قال : « صفاؤهن صفاء الدر الذي في الأصداف الذي لم تمسه الأيدي » قلت : أخبرني عن قوله : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ قال : « خيرات الأخلاق حسان الوجوه » قلت : أخبرني عن قوله : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ قال : « رقتهن كرقة الجلد الذي رأيت في داخل البيضة مما يلي القشر وهو الغرقيء » قلت : يا رسول الله أخبرني عن قوله : ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ قال : « هن اللواتي قبضن في الدار الدنيا عجائز رمصًا شمطًا ، خلقهن الله بعد الكبر فجعلهن عذارى عربًا متعشقات محببات أترابًا على ميلاد واحد » قلت : يا رسول الله نساء الدنيا أفضل أم الحور العين ؟ قال : « بل

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٨٤) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٩٤) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٣٦) .
(٤) ذكره البغوي في تفسيره (٧/١٩) .

نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة » قلت : يارسول الله وبم ذاك ؟ قال : « بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله ﷻ ، ألبس الله وجوههن النور وأجسادهن الحرير . بيض الألوان خضر الثياب صفر الحلي ، مجامرهن الدر ، وأمشاطهن الذهب ، يقلن : نحن الخالدات فلا نموت أبدًا ، ونحن الناعمات فلا نبأس أبدًا ، ونحن المقيمات فلا نظعن أبدًا ، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبدًا ، طوبى لمن كنا له وكان لنا » قلت : يارسول الله المرأة منا تتزوج زوجين والثلاثة والأربعة ، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها ، من يكون زوجها ؟ قال : « يا أم سلمة إنها تخير فتختار أحسنهم خلقًا ، فتقول : يارب إن هذا كان أحسن خلقًا معي فزوجنيه ، يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة » (١) . وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا في النساء ، قلت : يا رسول الله ويطيق ذلك ؟ قال : يعطى قوة مائة » (٢) .

وقوله ﴿ عُرُبًا ﴾ قال ابن عباس : يعني متحببات إلى أزواجهن ، ألم تر إلى الناقة الضبعة هي كذلك ، وسأل ابن عباس عن قوله ﴿ عُرُبًا ﴾ قال : هي الملقة لزوجها . وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ عُرُبًا ﴾ قال : « كلامهن عربي » . وقوله ﴿ أَتْرَابًا ﴾ قال ابن عباس : في سن واحدة ثلاث وثلاثين سنة ، وقال مجاهد : الأتراب المستويات ، وفي رواية عنه الأمثال ، وقال عطية : الأقران وقال السدي : أي في الأخلاق المتواخيات بينهن ، ليس بينهن تباغض ولا تحاسد ، يعني لا كما كن ضرائر متعاديات . وعن علي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة لمجتمعًا للحور العين يرفعن أصواتًا لم تسمع الخلائق بمثلها - قال - يقلن : نحن الخالدات فلا نبيد ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له » (٣) . وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إن الحور العين ليغنين في الجنة يقلن : نحن خيرات حسان خبئنا لأزواج كرام » (٤) وقوله تعالى : ﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي خلقن لأصحاب اليمين أو ادخرن لأصحاب اليمين أو زوجن لأصحاب اليمين . والأظهر أنه متعلق بقوله ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ فتقديره : أنشأناهن لأصحاب اليمين ، وهذا توجيه ابن جرير .

قلت : ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ متعلقًا بما قبله وهو قوله ﴿ أَتْرَابًا ۝ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي في أسنانهم ، كما جاء عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة ، لا يبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يتفلون ، ولا يتمخطون ، أمشاطهم الذهب ، وريحهم المسك ، ومجامرهم الألوة ، وأزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعًا في السماء » (٥) وعن بن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال : « يدخل

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب(٥٣٦/٤) والهيثمي في مجمع الزوائد(٤١٧/١٠) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن(٢٥٣٦) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن(٢٥٦٤) وأحمد في مسنده(١٥٦/١) والمنذري في الترغيب والترهيب(٥٣٧/٤) .
(٤) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب(٥٣٨/٤) والسيوطي في جمع الجوامع(٥٤٥٤) والهيثمي في مجمع الزوائد(٤١٩/١٠) .
(٥) أخرجه البخاري في بدء الخلق(٣٢٥٤) والترمذي في السنن(٢٥٣٧) والحاكم في المستدرك(٢٢٨/٣) وأحمد في مسنده(٢٥٧/٢) .

أهل الجنة الجنة جُرْدًا مُرْدًا مكحَّلين بَني ثلاثٍ وثلاثين سنة »[١] .

وعن عبد الله بن مسعود قال : وكان بعضهم يأخذ عن بعض قال : أكربنا ذات ليلة عند رسول الله ﷺ ثم غدونا عليه فقال : « عرضت عليَّ الأنبياء وأتباعها بأممها ، فيمر عليَّ النبي ، والنبي في العصابة ، والنبي في الثلاثة والنبي وليس معه أحد - وتلا قتادة هذه الآية ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ قال : حتى مر علي موسى بن عمران في كبكبة من بني إسرائيل قال : قلت : ربي من هذا ؟ قال : هذا أخوك موسى بن عمران ومن تبعه من بني إسرائيل ! قال : قلت : رب فأين أمتي ؟ قال : انظر عن يمينك في الضراب قال : فإذا وجوه الرجال ، قال : قال : أرضيت ؟ قال : قلت : قد رضيت رب . قال : انظر إلى الأفق عن يسارك ، فإذا وجوه الرجال ، قال : أرضيت ؟ قلت : قد رضيت رب . قال : فإن مع هؤلاء سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب » . قال : وأنشأ عكاشة بن محصن من بني أسد - قال سعيد : وكان بدريا - قال : يا نبي الله ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : فقال : « اللهم اجعله منهم » قال : أنشأ رجل آخر قال : يا نبي الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال : « سبقك بها عكاشة » قال : فقال رسول الله ﷺ : « فإن استطعتم فداكم أبي وأمي أن تكونوا من أصحاب السبعين فافعلوا ، وإلا فكونوا من أصحاب الضراب ، وإلا فكونوا من أصحاب الأفق ، فإني قد رأيت ناسًا كثيرًا قد ناشبوا أحوالهم » ثم قال : « إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة » فكبرنا ، ثم قال : « إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة » قال : فكبرنا قال : « إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » قال : فكبرنا ، قال : ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ قال : فقلنا بيننا : من هؤلاء السبعون ألفًا ، فقلنا : هم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا . قال : فبلغه ذلك فقال : « بل هم الذين لا يكتوون ، ولا يسترقون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون »[٢] .

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ۝ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۝ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال أصحاب اليمين عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال فقال ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾ أي أيّ شيء هم فيه أصحاب الشمال ، ثم فسر ذلك فقال ﴿ فِى سَمُومٍ ﴾ وهو الهواء الحار ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ وهو الماء الحار ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ قال ابن عباس : ظل الدخان ، ﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ أي ليس طيب الهبوب ولا حسن المنظر ، وقال الضحاك : كل شراب ليس بعذب فليس بكريم .

وقال ابن جرير : العرب تتبع هذه اللفظة في النفي فيقولون : هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم ، هذا اللحم ليس بسمين ولا كريم . وهذه الدار ليست بنظيفة ولا كريمة . ثم ذكر تعالى استحقاقهم لذلك فقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ أي كانوا في الدار الدنيا منعمين مقبلين على

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٥/٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٠٠/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٠/٢) والحاكم في المستدرك (٥٧٧/٤) والطبراني في الكبير (٦/١٠) .

لذات أنفسهم لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل ﴿ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ ﴾ أي يقيمون ولا ينوون توبة ﴿ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ وهو الكفر بالله وجعل الأوثان والأنداد أربابًا من دون الله . قال ابن عباس : الحنث العظيم : الشرك . وقال الشعبي : هو اليمين الغموس ﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ يعني أنهم يقولون ذلك مكذبين به مستبعدين لوقوعه ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ۝ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أي أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بني آدم سيجمعون إلى عرصات القيامة لا يغادر منهم أحد ، ولهذا قال : ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أي هو موقت بوقت محدود ، لايتقدم ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينقص .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾ وذلك أنهم يقبضون ويسجرون حتى يأكلوا من شجر الزقوم حتى يملأوا منها بطونهم ، ﴿ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴾ وهي الإبل العطاش ، وعن عكرمة أنه قال : الهيم الإبل المراض تمص الماء مصًا ولا تروى . وقال السدي : الهيم داء يأخذ الإبل فلا تروى أبدًا حتى تموت ، فكذلك أهل جهنم لا يروون من الحميم أبدًا . ثم قال تعالى : ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ أي هذا الذي وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مقررًا للمعاد ، ورادًا على المكذبين به من أهل الزيغ والإلحاد ، من الذين قالوا ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد . فقال تعالى : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ أي نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا ، أفليس الذي قدر على البداءة بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى ! ولهذا قال ﴿ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ أي فهلا تصدقون بالبعث ! ثم قال تعالى مستدلًا عليهم بقوله : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ أي أنتم تقرونه في الأرحام وتخلقونه فيها أم الله الخالق لذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ أي صرفناه بينكم ، وقال الضحاك : ساوى فيه بين أهل السماء والأرض ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي وما نحن بعاجزين ﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ ﴾ أي نغير خلقكم يوم القيامة .

﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي من الصفات والأحوال . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا ، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة وهي البداءة ، قادر على النشأة الأخرى وهي الإعادة بطريق الأولى والأحرى ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ .

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ وهو شق الأرض وإثارتها والبذر فيها ﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ ﴾ أي تنبتونه في الأرض ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ أي بل نحن الذي نقره قراره ونبته في الأرض . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقولن زرعت ، ولكن قل : حرثت » قال أبو هريرة : ألم تسمع إلى قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا ﴾ أي نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا وأبقيناه لكم رحمة بكم ولو نشاء لجعلناه حطامًا أي لأيبسناه قبل استوائه واستحصاده ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ ثم فسر ذلك بقوله ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي لو جعلناه حطامًا لظللتم تفكهون في المقالة تنوعون كلامكم فتقولون تارة ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ أي لملقون ، وقال مجاهد وعكرمة : إنا لموقع بنا . وقال قتادة : معذبون ، وتارة تقولون ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ . قال مجاهد أيضا : ملقون للشر أي بل نحن محارفون أي لا يثبت لنا مال ولا ينتج لنا ربح ، وقال مجاهد : مجدودون يعني لا حظ لنا ، وقال ابن عباس ومجاهد ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ تعجبون . وقال مجاهد أيضا : تفجعون وتحزنون على ما فاتكم من زرعكم ، وهذا يرجع إلى الأول ، وهو التعجب من السبب الذي من أجله أصيبوا في مالهم ، وهذا اختيار ابن جرير . وقال عكرمة ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ : تلاومون ، وقال الحسن وقتادة والسدي : تندمون ، ومعناه إما على ما أنفقتم أو على ما أسلفتم من الذنوب ، قال الكسائي : تفكه من الأضداد ، تقول العرب تفكهت بمعنى تنعمت ، وتفكهت بمعنى حزنت .

ثم قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ ﴾ يعني السحاب ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾ يقول : بل نحن المنزلون ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا ﴾ أي زعاقًا مرًّا لا يصلح لشرب ولا زرع ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ أي فهلا تشكرون نعمة الله عليكم في إنزاله المطر عليكم عذبًا زلالًا . وعن أبي جعفر عن النبي ﷺ أنه كان إذا شرب الماء قال : « الحمد لله الذي سقانا عذبا فراتا برحمته ، ولم يجعله ملحًا أجاجًا بذنوبنا » (٢) ثم قال : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾ أي تقدحون من الزناد وتستخرجونها من أصلها ﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾ أي بل نحن الذين جعلناها مودعة في موضعها . وللعرب شجرتان إحداهما : المرخ ، والأخرى : العفار ، إذا أخذ منها غصنان أخضران فحك أحدهما بالآخر تناثر من بينهما شرر النار . وقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً ﴾ قال مجاهد وقتادة : أي تذكر النار الكبرى ، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم » فقالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية ، فقال : « فإنها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءا » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والنضر بن عربي : يعني بالمقوين المسافرين ، واختاره ابن جرير وقال : ومنه قولهم : أقوت الدار إذا رحل أهلها ، وقال

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٣/٨) وعزاه إلى البزار وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في شعب الإيمان .
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦١/٦) والهندي في كنز العمال (١٨٢٢٦) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٧/٢) والحاكم في المستدرك (٥٩٣/٤) وبنحوه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٥) والترمذي في السنن (٢٥٩٠) .

غيره : القي والقواء القفر الخالي البعيد من العمران . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : المقوي ههنا الجائع . وقال مجاهد : للحاضر والمسافر لكل طعام لا يصلحه إلا النار ، وقال أيضًا : يعني للمستمتعين من الناس أجمعين ، وهذا التفسير أعم من غيره ، فإن الحاضر والبادي من غني وفقير الجميع محتاجون إليها للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع ، ثم من لطف اللَّه تعالى أن أودعها في الأحجار وخالص الحديد بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه ، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأورى وأوقد ناره فاطبخ بها واصطلى بها واشتوى ، واستأنس بها وانتفع بها سائر الانتفاعات ، فلهذا أفرد المسافرون وإن كان ذلك عامًّا في حق الناس كلهم ! وقد يستدل له بحديث أبي خداش حبان بن زيد الشرعبي الشامي عن رجل من المهاجرين من قرن أن رسول اللَّه ﷺ قال : « المسلمون شركاء في ثلاثة : النار والكلأ والماء » (١) وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « ثلاثة لا يمنعن : الماء والكلأ والنار » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي الذي بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة : الماء الزلال العذب البارد ولو شاء لجعله ملحًا أجاجًا كالبحار المغرقة ، وخلق النار المحرقة وجعل ذلك مصلحة للعباد ، وجعل هذا منفعة لهم في معاش دنياهم وزجرًا لهم في المعاد .

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ .

الذي عليه الجمهور أنه قسم من اللَّه تعالى يقسم بما شاء من خلقه ، وهو دليل على عظمته ، ثم قال بعض المفسرين : لا ههنا زائدة وتقديره : أقسم بمواقع النجوم ويكون جوابه ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ وقال آخرون : ليست لا زائدة لا معنى لها بل يؤتى بها في أول القسم إذا كان مقسمًا به على منفي كقول عائشة رضي الله عنها : لا واللَّه ما مست يد رسول اللَّه ﷺ يد امرأة قط (٣) . وهكذا ههنا تقدير الكلام : لا أقسم بمواقع النجوم ، ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر أو كهانة بل هو قرآن كريم . وقال ابن جرير : وقال بعض أهل العربية : معنى قوله ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ ﴾ فليس الأمر كما تقولون ثم استأنف القسم بعد ذلك فقيل : أقسم ، واختلفوا في معنى قوله ﴿ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ فعن ابن عباس : يعني نجوم القرآن فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقًا في السنين بعد . ثم قرأ ابن عباس هذه الآية ، وقال الضحاك عن ابن عباس : نزل القرآن جملة من عند اللَّه من اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا ، فنجمته السفرة على جبريل عشرين ليلة ، ونجمه جبريل على محمد ﷺ عشرين سنة فهو قوله ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ نجوم القرآن ، وقال مجاهد أيضًا : مواقع النجوم في السماء ويقال : مطالعها ومشارقها .

وكذا قال الحسن وقتادة وهو اختيار ابن جرير ، وعن قتادة : مواقعها : منازلها . وعن الحسن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٤/٥) وأبو داود في السنن (٣٤٧٧) وابن ماجه في السنن (٢٤٧٢) والبيهقي في السنن (١٥٠/٦) .
(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٤٧٣) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٠٦) والألباني في الصحيحة (٥٢٩) .

أيضًا : أن المراد بذلك انتثارها يوم القيامة . وقوله ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ أي وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم ، لو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم به عليه ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ أي إن هذا القرآن الذي نزل على محمد لكتاب عظيم ﴿ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ أي معظم ، في كتاب معظم محفوظ موقر . وعن ابن عباس ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ قال : الكتاب الذي في السماء . وقال ﴿ ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ : يعني الملائكة ، وكذا قال أنس ومجاهد وعكرمة وغيرهم .

وقال قتادة : لا يمسه عند الله إلا المطهرون ، فأما في الدنيا فإنه يمسه المجوسي النجس ، والمنافق الرجس ، وقال أبو العالية : ليس أنتم أصحاب الذنوب ، وقال ابن زيد : زعمت كفار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون ، وهذا القول قول جيد ، وهو لا يخرج عن الأقوال التي قبله . وقال الفراء : لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به . وقال آخرون ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ أي من الجنابة والحدث ، قالوا : ولفظ الآية خبر ومعناها الطلب ، قالوا : والمراد بالقرآن ههنا المصحف ، كما روى ابن عمر أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو [1] . واحتجوا في ذلك بما ورد في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم أن لا يمس القرآن إلا طاهر [2] .

وقوله تعالى : ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي هذا القرآن منزل من الله رب العالمين وليس هوكما يقولون إنه سحر أو كهانة أو شعر ، بل هو الحق الذي لا مرية فيه وليس وراءه حق نافع . وقوله تعالى : ﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾ قال ابن عباس : أي مكذبون غير مصدقين ، وقال مجاهد : أي تريدون أن تمالئوهم فيه وتركنوا إليهم ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ قال بعضهم : معنى ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ بمعنى شكركم ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي : تكذبون بدل الشكر ، وقد روي عن علي وابن عباس أنهما قرأها (وَتَجْعَلُونَ شكركم أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ) .

وعن علي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ يقول : شكركم ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ تقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا بنجم كذا وكذا » [3] وعن زيد بن خالد الجهني أنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : « هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ؛ فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكواكب » [4] وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ، ينزل الغيث فيقولون : بكوكب كذا وكذا » [5] . وقال مجاهد ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ قال : قولهم في

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٨٧٩) وأحمد في مسنده (١٦٣/٢) والبيهقي في السنن (١٠٨/٩) .
(٢) أخرجه الدارمي في السنن (١٦١/٢) والبيهقي في السنن (٨٨/١) والدارقطني في السنن (١٢١/١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٨/١) .
(٤) أخرجه البخاري في الاستسقاء (١٠٣٨) ومسلم في الإيمان (١٢٥)وأحمد في مسنده (١١٧/٤) وأبو داود في السنن (٣٩٠٦) .
(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٦) .

الأنواء : مطرنا بنوء كذا ، وبنوء كذا ، يقول : قولوا : هو من عند الله وهو رزقه .

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن
كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ﴾ أي الروح ﴿ ٱلْحُلْقُومَ ﴾ أي الحلق وذلك حين الاحتضار ، ولهذا قال : ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ أي إلى المحتضر وما يكابده من سكرات الموت ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ أي بملائكتنا ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ أي ولكن لا ترونهم . وقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَآ ﴾ معناه فهلا ترجعون هذه النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول ومقرها من الجسد إن كنتم غير مدينين . قال ابن عباس : يعني محاسبين ، وقال سعيد بن جبير والحسن البصري ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ : غير مصدقين أنكم تدانون وتبعثون وتجزون فردوا هذه النفس ، وعن مجاهد غير موقنين . وقال ميمون بن مهران : غير معذبين مقهورين .

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ
أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ
ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

هذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم ، إما أن يكون من المقربين ، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين ، وإما أن يكون من المكذبين بالحق الضالين عن الهدى الجاهلين بأمر الله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ ﴾ أي المحتضر ﴿ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ أي فلهم روح وريحان وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت كما تقدم في حديث البراء « أن ملائكة الرحمة تقول : أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرينه ، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان » . قال ابن عباس ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ يقول : راحة وريحان ، يقول : مستراحة ، وكذا قال مجاهد : إن الروح الاستراحة ، وقال أبو حزرة : الراحة من الدنيا ، وعن مجاهد ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ جنة ورخاء وقال قتادة : ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ فرحمة ، وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير : ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ ورزق ، وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة ، فإن من مات مقربًا حصل له جميع ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة ، والفرح والسرور والرزق الحسن ، ﴿ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ قال أبو العالية : لا يفارق أحد من المقربين حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيقبض روحه فيه . وقال محمد بن كعب : لا يموت أحد من الناس حتى يعلم أمن أهل الجنة هو أم من أهل النار ، وعن تميم الداري عن النبي ﷺ يقول : « يقول الله تعالى لملك الموت : انطلق إلى فلان فائتني به فإنه قد جربته بالسراء والضراء فوجدته حيث أُحِبُّ ، ائتني فلأريحه قال : فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة معهم أكفان وحنوط من الجنة ، ومعهم ضبائر الريحان - أصل الريحانة واحد - وفي رأسها عشرون لونًا لكل لون منها ريح سوى ريح صاحبه ، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك »[1] .

وعن عائشة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقرأ ﴿ فرُوح وَرَيْحَانٌ ﴾ برفع الراء[2] ، وهذه القراءة هي

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (١٦٤/٦) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٦/٦) .

قراءة يعقوب وحده وخالفه الباقون فقرءوا ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ بفتح الراء [١] . وعن أم هانئ ، أنها سألت رسول الله ﷺ : أنتزاور إذا متنا ويرى بعضنا بعضًا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « يكون النسم طيرًا يعلق بالشجر حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس في جسدها » [٢]. هذا الحديث فيه بشارة لكل مؤمن ، ومعنى يعلق يأكل ، وعن عطاء بن السائب قال : كان أول يوم عرفت فيه عبد الرحمن بن أبي ليلى رأيت شيخًا أبيض الرأس واللحية على حمار ، وهو يتبع جنازة فسمعته يقول : حدثني فلان ابن فلان سمع رسول الله ﷺ يقول : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » قال : فأكب القوم يبكون ، فقال : « ما يبكيكم ؟ » فقالوا : إنا نكره الموت ، قال : « ليس ذاك ، ولكنه إذا احتضر ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ فإذا بشر بذلك أحب لقاء الله ﷻ ، والله ﷻ للقائه أحب ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ فإذا بشر بذلك كره لقاء الله والله تعالى للقائه أكره » [٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي وأما إذا كان المحتضر من أصحاب اليمين ﴿ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي تبشرهم الملائكة بذلك تقول لأحدهم : سلام لك أي لا بأس عليك أنت إلى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين . وقال قتادة وابن زيد : سلم من عذاب الله وسلمت عليه ملائكة الله ، وقال البخاري ﴿ فَسَلَٰمٌ لَّكَ ﴾ أي مسلم لك أنك من أصحاب اليمين ، وألغيت إن وبقي معناها كما تقول : أنت مصدق مسافر عن قليل إذا كان قد قال : إني مسافر عن قليل ، وقد يكون كالدعاء له كقولك : سقيًا لك من الرجال إن رفعت السلام ، فهو من الدعاء [٤] . وقد حكاه ابن جرير هكذا عن بعض أهل العربية ومال إليه والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أي وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق الضالين عن الهدى ﴿ فَنُزُلٌ ﴾ أي فضيافة ﴿ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ وهو المذاب الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أي وتقرير له في النار التي تغمره من جميع جهاته . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ أي إن هذا الخبر لهو حق اليقين الذي لا مرية فيه ولا محيد لأحد عنه ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ . عن عقبة بن عامر الجهني قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ قال : « اجعلوها في ركوعكم » ولما نزلت ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ قال رسول الله ﷺ : « اجعلوها في سجودكم » [٥] وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال : سبحان الله العظيم وبحمده ، غرست له نخلة في الجنة » [٦] وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » [٧] .

---

(١) روى رويس ﴿ فرُوحٌ ﴾ بضم الراء وانفرد به ابن مهران عن روح ، والباقون بالفتح (انظر : تقريب النشر ص : ١٧٨) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٥/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٧) ومسلم في الذكر والدعاء (١٤) والترمذي في السنن (١٠٦٦) وأحمد في مسنده (٣٤٦/٢) .
(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (تفسير سورة الواقعة) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٥/٤) .
(٦) أخرجه الترمذي في السنن (٣٤٦٤) والحاكم في المستدرك (٥٠١/١) والألباني في الصحيحة (٦٤) .
(٧) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٤٠٦) ومسلم في الذكر والدعاء (٣١) والترمذي في السنن (٣٤٦٧) وابن ماجه في السنن (٣٨٠٦) .

سورة الحديد

عن عرباض بن سارية أنه حدثهم أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد وقال : « إن فيهن آية أفضل من ألف آية » (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات والأرض أي من الحيوانات والنباتات ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أي الذي قد خضع له كل شيء ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في خلقه وأمره وشرعه ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أي هو المالك المتصرف في خلقه فيحيي ويميت ويعطي من يشاء ما يشاء ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ وهذه الآية هي المشار إليها في حديث عرباض بن سارية أنها أفضل من ألف آية ، عن أبي زميل قال : سألت ابن عباس فقلت : ما شيء أجده في صدري ، قال : ما هو ؟ قلت : والله لا أتكلم به . قال : فقال لي : أشيء من شك ؟ قال وضحك ، قال : ما نجا من ذلك أحد ، قال : حتى أنزل الله تعالى : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ الآية ، قال : وقال لي : إذا وجدت في نفسك شيئًا فقل ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) وقد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية وأقوالهم على نحو من بضعة عشر قولا .

قال البخاري : قال يحيى : الظاهر على كل شيء علمًا والباطن على كل شيء علمًا . وعن سهيل قال : كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ، ثم يقول : اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته ، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر (٣) .

وعن أبي هريرة قال : بينما نبي الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب فقال نبي الله ﷺ : « هل تدرون ما هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هذا العنان ، هذه روايا الأرض تسوقه إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه » ثم قال : « هل تدرون ما فوقكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها الرفيع سقف محفوظ وموج مكفوف » ثم قال : « هل تدرون كم بينكم وبينها ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « بينكم وبينها خمسمائة سنة » ثم قال : « هل تدرون ما فوق ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن فوق ذلك سماء بُعْدُ ما بينهما مسيرةُ ستمائة سنة - حتى عدَّ سبع

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٨/٤) . (٢) أخرجه أبو داود في السنن (٥١١٠) .
(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٦١) وابن ماجه في السنن (٣٨٧٣) وأحمد في مسنده (٥٣٦/٢) .

سموات - ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض » ثم قال : « هل تدرون ما فوق ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء مثل بُعْدِ ما بين السماءين » ثم قال : « هل تدرون ما الذي تحتكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها الأرض » ثم قال : « هل تدرون ما الذي تحت ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن تحتها أرضًا أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة - حتى عد سبع أرضين - بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة » ثم قال : « والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم حبلًا إلى الأرض السفلى لهبط على الله ثم قرأ : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ » (١) .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ .

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم أخبر تعالى باستوائه على العرش بعد خلقهن ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية وأشباهها في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته هنا . وقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من نبات وزرع وثمار ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي من الأمطار . والثلوج والبرد والأقدار . والأحكام مع الملائكة الكرام ، ما ينزل من قطرة من السماء إلا ومعها ملك يقررها في المكان الذي يأمر الله به حيث يشاء الله تعالى . وقوله تعالى ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أي : من الملائكة والأعمال ، كما جاء في الصحيح : « يُرْفَع إليْهِ عملُ اللَّيْلِ قبْلَ النهارِ ، وعملُ النَّهارِ قبلَ اللَّيلِ » (٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم من بر أو بحر ، في ليل أو نهار ، في البيوت أو في القفار ، الجميع في علمه على السواء وتحت بصره وسمعه ، فيسمع كلامكم ويرى مكانكم ، ويعلم سركم ونجواكم .

فلا إله غيره ولا رب سواه ، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال لجبريل لما سأله عن الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٣) وعن عبد الله بن معاوية الغاضري مرفوعًا : « ثلاث من فعلهن فقد طعم الإيمان ، إن عَبدَ الله وحده وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه في كل عام ، ولم يُعْطِ الهَرِمَةَ ولا الرذية ولا الشرِطَةَ اللئيمة ولا المريضة ، ولكن من أوسط أموالكم وزكى نفسه » وقال رجل : يا رسول الله ما تزكية المرء نفسه ، فقال : « يعلم أن الله معه حيث كان » (٤) وكان الإمام أحمد رحمه الله تعالى ينشد هذين البيتين :

إِذَا مَا خَلوتَ الدَّهرَ يومًا فلا تَقُلْ ... خلوتُ ولكن قُلْ عَليَّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ اللَّه يغفلُ ساعةً ... ولا أنَّ ما تُخْفِي عليه يغيبُ

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٩٨) .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٣ ، ٢٩٥) .
(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٧٧) ومسلم في الإيمان (١) وأحمد في مسنده (٢/٤٢٦) .
(٤) أخرجه أبو داود في السنن (١٥٨٢) والبيهقي في السنن (٤/٩) والألباني في الصحيحة (١٠٤٦) .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أي هو المالك للدنيا والآخرة كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ وهو المحمود على ذلك كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ ۖ ﴾ فجميع ما في السموات والأرض ملك له ، وأهلهما عبيد أرقاء أذلاء بين يديه ولهذا قال : ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أي إليه المرجع يوم القيامة فيحكم في خلقه بما يشاء وهو العادل الذي لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة ، بل إن يكن عمل أحدهم حسنة واحدة يضاعفها إلى عشر أمثالها ﴿ وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ ﴾ أي هو المتصرف في الخلق يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار ، وتارة بالعكس ، وتارة يتركهما معتدلين ، وتارة يكون الفصل شتاء ثم ربيعًا ثم قيظاً ثم خريفًا ، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريده بخلقه ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي يعلم السرائر وإن دقت أو خفيت .

﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ .

أمر تبارك وتعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل ، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار ، وحث على الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه ؛ أي مما هو معكم على سبيل العارية ؛ فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ، ثم صار إليكم ، فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال في طاعته ، فإن يفعلوا وإلا حاسبهم عليه وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه ، وقوله تعالى : ﴿ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفًا عنك ، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك ، أو يعصي الله فيه فتكون قد سعيت في معاونته على الإثم والعدوان . عن عبد الله بن الشخير قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : « ألهاكم التكاثر » ، يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت »(١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ترغيب في الإيمان والإنفاق في الطاعة ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ ﴾ أي وأي شيء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به . وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ ويعني بذلك بيعة الرسول ﷺ ، وزعم ابن جرير أن المراد بذلك الميثاق الذي أخذ عليهم في صلب آدم وهو مذهب مجاهد ، فالله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ أي حججًا واضحات ودلائل باهرات وبراهين قاطعات ﴿ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ أي من ظلمات الجهل والكفر والآراء المتضادة إلى نور الهدى واليقين والإيمان ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/٤) .

أي في إنزاله الكتب وإرساله الرسل لهداية الناس وإزاحة العلل وإزالة الشبه ، ولما أمرهم أولًا بالإيمان والإنفاق ثم حثهم على الإيمان وبين أنه قد أزال عنهم موانعه حثهم أيضًا على الإنفاق فقال : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي أنفقوا ولا تخشوا فقرا وإقلالًا ؛ فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالك السموات والأرض وبيده مقاليدهما وعنده خزائنهما ، وهو مالك العرش بما حوى ، وهو القائل : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ .

فمن توكل على الله أنفق ولم يخش من ذي العرش إقلالًا ، وعلم أن الله سيخلفه عليه . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ﴾ أي لا يستوي هذا ومن لم يفعل كفعله ، وذلك أنه قبل فتح مكة كان الحال شديدًا فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون ، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهورًا عظيمًا ودخل الناس في دين الله أفواجًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ والجمهور على أن المراد بالفتح ههنا فتح مكة ، وعن الشعبي وغيره أن المراد بالفتح ههنا صلح الحديبية ، وقد يستدل لهذا القول بما روي عن أنس قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ، فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي ﷺ فقال : « دعوا لي أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهبا ما بلغتم أعمالهم » (١) ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة ، وكانت هذه المشاجرة بينهما في بني جذيمة الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد بعد الفتح ، فجعلوا يقولون : صبأنا صبأنا ، فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم ، فخالفه عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر وغيرهما ، فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك ، والذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » (٢) .

وعن عطاء بن يسار عن أبي سعيد ذكر الخوارج : « تَحْقِرُونَ صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية .. » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ يعني المنفقين قبل الفتح وبعده ، كلهم لهم ثواب على ما عملوا ، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء ، وفي الصحيح : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كلٍّ خير » (٤) وإنما نبه بهذا لئلا يهدر جانب الآخر بمدح الأول دون الآخر ، فيتوهم متوهم ذمه ، فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه مع تفضيل الأول عليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن فعل ذلك بعد ذلك ، وما ذاك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيق ، وفي الحديث « سَبَقَ درهمٌ مائةَ ألفٍ » (٥) ولا شك عند أهل

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢٦٦) .

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٢١) والترمذي في السنن (٣٨٦١) وابن ماجه في السنن (١٦١) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٥٣) .

(٤) أخرجه مسلم في القدر (٣٤) وابن ماجه في السنن (٧٩) وأحمد في مسنده (٢/٣٧٠) والبيهقي في السنن (١٠/٨٩) .

(٥) أخرجه النسائي في السنن (٥/٥٩) .

الإيمان أن الصديق أبا بكر ﷺ ، له الحظ الأوفر من هذه الآية ، فإنه سيد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء ؛ فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله ﷻ ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها . وقوله تعالى : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ قال عمر بن الخطاب : هو الإنفاق في سبيل الله ، وقيل : هو النفقة على العيال ، والصحيح أنه أعم من ذلك ، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة ، وعزيمة صادقة دخل في عموم هذه الآية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾ أي جزاء جميل ورزق باهر ، وهو الجنة يوم القيامة .

وعن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله ، وإن الله ليريد منا القرض ، قال : « نعم يا أبا الدحداح » قال : أرني يدك يا رسول الله . قال : فناوله يده . قال : فإني قد أقرضت ربي حائطي - وله حائط فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعيالها - قال : فجاء أبو الدحداح فناداها يا أم الدحداح . قالت : لبيك ، قال : اخرجي فقد أقرضته ربي ﷻ » وفي رواية أنها قالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح ، ونقلت منه متاعها وصبيانها ، وإن رسول ﷺ قال : « كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح » وفي لفظ : « رب نخلة مدلاة عروقها در وياقوت لأبي الدحداح في الجنة » (١) .

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ۝ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المؤمنين المتصدقين أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة ، بحسب أعمالهم كما قال عبد الله بن مسعود في قوله تعالى : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ قال : على قدر أعمالهم يمرون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نورًا من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ مرة ، وعن جنادة بن أبي أمية قال : إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم وسيماكم وحلاكم ونجواكم ومجالسكم ، فإذا كان يوم القيامة ، قيل : يا فلان هذا نورك ، يا فلان لا نور لك ، وقرأ ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ .

وعن أبي الدرداء وأبي ذر يخبران عن النبي ﷺ قال : « أنا أول من يؤذن له يوم القيامة بالسجود ، وأول من يؤذن الله برفع رأسه ، فأنظر من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ، فأعرف أمتي من بين الأمم » فقال له رجل : يا نبي الله كيف تعرف أمتك من بين الأمم ما بين نوح إلى أمتك ؟ فقال : « أعرفهم محجلون من أثر الوضوء ، ولا يكون لأحد من الأمم غيرهم ، وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم ، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم » (٢) .

---

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٤/٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٩/٥) والحاكم في المستدرك (٤٧٨/٢) والبيهقي في السنن (١٧٢/٦) .

وقوله : ﴿ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ قال الضحاك : أي وبأيمانهم كتبهم وقوله : ﴿ بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي يقال لهم : بشراكم اليوم جنات أي لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكثين فيها أبدًا ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ وقوله ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأهوال المزعجة والزلازل العظيمة ، والأمور الفظيعة ، وإنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله وعمل بما أمر الله به وترك ما عنه زجر . وعن سليم بن عامر قال : خرجنا على جنازة في باب دمشق ومعنا أبو أمامة الباهلي ، فلما صلى على الجنازة وأخذوا في دفنها قال أبو أمامة : أيها الناس إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات ، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر وهو هذا - يشير إلى القبر - بيت الوحدة وبيت الظلمة وبيت الدود وبيت الضيق إلا ما وسع الله ، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة ، فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله فتبيض وجوه وتسود وجوه ، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فيغشى الناس ظلمة شديدة ، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نورًا ، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئًا ، وهو المثل الذي ضربه الله تعالى في كتابه فقال : ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير ، ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا ﴾ وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال : ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئًا ، فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ﴿ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ الآية .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم سترًا منه على عباده ، وأما عند الصراط : فإن الله تعالى يعطي كل مؤمن نورًا وكل منافق نورًا ، فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات ، فقال المنافقون : انظرونا نقتبس من نوركم ، وقال المؤمنون : ربنا أتمم لنا نورنا ، فلا يذكر عند ذلك أحد أحدًا » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ قال الحسن وقتادة : هو حائط بين الجنة والنار ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو الذي قال الله تعالى : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ وهكذا روي عن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغير واحد وهو الصحيح ﴿ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ ﴾ أي الجنة وما فيها ﴿ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي النار . قال ابن جرير : وقد قيل إن ذلك السور سور بيت المقدس عند وادي جهنم ، وعن أبي العوام مؤذن بيت المقدس قال : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : إن السور الذي ذكره الله في القرآن ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ وهو السور الشرقي باطنه المسجد وما يليه وظاهره وادي جهنم . وروي عن عبادة بن الصامت وغيره مثل ذلك ، وهذا محمول منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى ومثالًا لذلك ، لا أن هذا هو الذي

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٢٤٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٥٩/١٠) .

أريد من القرآن هذا الجدار المعين ونفس المسجد ، وما وراءه من الوادي المعروف بوادي جهنم ، فإن الجنة في السموات في أعلى عليين والنار في الدركات أسفل سافلين ، وقول كعب الأحبار : إن الباب المذكور في القرآن هو باب الرحمة الذي هو أحد أبواب المسجد فهذا من إسرائيلياته وترهاته ، وإنما المراد بذلك سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين ، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه ، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة .

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين أما كنا معكم في الدار الدنيا نشهد معكم الجمعات ونصلي معكم الجماعات ، ونقف معكم بعرفات ، ونحضر معكم الغزوات ونؤدي معكم سائر الواجبات ، ﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ أي فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين : بلى قد كنتم معنا ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ قال بعض السلف : أي فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ أي أخرتم التوبة من وقت إلى وقت . وقال قتادة ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالحق وأهله ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ أي بالبعث بعد الموت ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ أي قلتم سيغفر لنا وقيل : غرتكم الدنيا ﴿ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أي ما زلتم في هذا حتى جاءكم الموت ﴿ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ أي الشيطان ، قال قتادة : كانوا على خدعة من الشيطان ، والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار . ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين أنكم كنتم معنا أي بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها ، وإنما كنتم في حيرة وشك ، فكنتم تراءون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلًا ، قال مجاهد : كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم ويغشونهم ويعاشرونهم ، وكانوا معهم أمواتًا ويعطون النور جميعًا يوم القيامة ، ويطفأ النور من المنافقين إذا بلغوا السور ويماز بينهم حينئذ .

وهذا القول من المؤمنين لا ينافي قولهم الذي أخبر الله تعالى به عنهم حيث يقول ، وهوأصدق القائلين ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ . فهذا إنما خرج منهم على وجه التقريع لهم والتوبيخ . ثم قال تعالى ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ كما قال ههنا ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهبا ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله ما قبل منه . وقوله تعالى : ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أي هي مصيركم وإليها منقلبكم ، وقوله تعالى : ﴿ هِيَ مَوْلَاكُمْ ﴾ أي : هي أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ؟ أي تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه . عن ابن عباس أنه قال : إن الله استبطأ قلوب المؤمنين

فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ الآية وعن ابن مسعود ﷺ قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ الآية ، إلا أربع سنين (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى ، لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمنًا قليلًا ونبذوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا الرجال في دين الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله ، فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ أي في الأعمال فقلوبهم فاسدة وأعمالهم باطلة ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية .

عن إبراهيم قال : جاء عتريس بن عرقوب إلى ابن مسعود فقال : يا عبد الله هلك من لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر ، فقال عبد الله : هلك من لم يعرف قلبه معروفًا ولم ينكر قلبه منكرًا . إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم اخترعوا كتابًا من بين أيديهم وأرجلهم استهوته قلوبهم واستحلته ألسنتهم ، وقالوا نعرض بني إسرائيل على هذا الكتاب ، فمن آمن به تركناه ، ومن كفر به قتلناه ، قال : فجعل رجل منهم كتاب الله في قرن ثم جعل القرن بين ثندوتيه ، فلما قيل له : أتؤمن بهذا ، قال : آمنت به ويومئ إلى القرن بين ثندوتيه ، وما لي لا أؤمن بهذا الكتاب ، فمن خير مللهم اليوم ملة صاحب القرن (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ويهدي الحيارى بعد ضلتها ، ويفرج الكروب بعد شدتها ، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل ، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل ، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل ، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال ، والمضل لمن أراد بعد الكمال ، الذي هو لما يشاء فعال ، وهو الحكيم العدل في جميع الفعال ، اللطيف الخبير الكبير المتعال .

﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ .

يخبر تعالى عما يثيب به المصدقين والمصدقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ﴿ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ أي دفعوه بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكورا ، ولهذا قال : ﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمْ ﴾ أي يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها ، ويزاد على ذلك إلى سبعمائة ضعف ، وفوق ذلك ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أي ثواب جزيل حسن ومرجع صالح ومآب

(١) أخرجه مسلم في التفسير (٢٤) وابن ماجه في السنن (٤٢٩٢) .

(٢) ذكره الطبرى في تفسيره (٢٩٧/٢٧) .

كريم . وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ هذا تمام الجملة ، وصف المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون ، عن ابن عباس : قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ هذه مفصولة ، ﴿ وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ وعن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى : ﴿ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ قال : هم ثلاثة أصناف : يعني المصدقين والصديقين والشهداء ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّۦنَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّٰلِحِينَ ﴾ ففرق بين الصديقين والشهداء ، فدل على أنهما صنفان ولا شك أن الصديق أعلى مقامًا من الشهيد ، فعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ : قال « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم » قال : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : « بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين »(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي في جنات النعيم كما جاء في الحديث : « إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال : ماذا تريدون ؟ ! فقالوا : نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فيك كما قتلنا أول مرة ، فقال : إني قد قضيت أنهم إليها لا يرجعون »(٢) . وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ أي لهم عند الله أجر جزيل ونور عظيم يسعى بين أيديهم وهم في ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال ، وعن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله فقتل فذاك الذي ينظر الناس إليه هكذا ورفع رأسه حتى سقطت قلنسوة رسول الله ﷺ وقلنسوة عمر ، والثاني مؤمن لقي العدو فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح جاءه سهم غرب فقتله فذاك في الدرجة الثانية ، والثالث : رجل مؤمن خلط عملا صالحًا وآخر سيئًا لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الثالثة ، والرابع : رجل مؤمن أسرف على نفسه إسرافًا كثيرًا لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الرابعة »(٣) وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴾ لما ذكر السعداء ومآلهم عطف بذكر الأشقياء وبين حالهم .

﴿ اعْلَمُوٓا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى الْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ۝٢٠ سَابِقُوٓا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

يقول تعالى موهنًا أمر الحياة الدنيا ومحقرًا لها ﴿ اعْلَمُوٓا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ ﴾ أي إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا ، ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ وهو المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس كما قال

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٥٥) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (١١) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٦٤١) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣١٦/٢) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٦٤٤) وأحمد في مسنده (٢٣/١) .

تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ أي يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث ، وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار ، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾ أي يهيج ذلك الزرع فتراه مصفرًّا بعد ما كان خضرًا نضرًا ، ثم يكون بعد ذلك كله حطامًا أي يصير يبسًا متحطمًا ، هكذا الحياة الدنيا تكون أولًا شابة ثم تكتهل ثم تكون عجوزًا شوهاء ، والإنسان يكون كذلك في أول عمره وعنفوان شبابه غضًّا طريًّا لين الأعطاف ، بهي المنظر ، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغيرطباعه ويفقد بعض قواه ، ثم يكبر فيصيرشيخًا كبيرًا ضعيف القوى ، قليل الحركة يعجزه الشيء اليسيركما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ ولما كان هذا المثل دالًّا على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة ، وأن الآخرة كائنة لا محالة ، حذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير فقال : ﴿ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ أي وليس في الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا : إما عذاب شديد ، وإما مغفرة من اللَّه ورضوان .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ أي هي متاع فانٍ غار لمن ركن إليه ، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها ، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى دار الآخرة . وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، اقرؤوا ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ » (١) وعن عبد اللَّه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « للجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك » (٢) . ففي هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان ، وإذا كان الأمر كذلك ؛ فلهذا حثه اللَّه تعالى على المبادرة إلى الخيرات من فعل الطاعات وترك المحرمات التي تكفر عنه الذنوب والزلات وتحصل له الثواب والدرجات فقال تعالى : ﴿ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ والمراد جنس السماء والأرض كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وقال ههنا ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي هذا الذي أهلهم اللَّه له هو من فضله ومنه عليهم وإحسانه إليهم ، كما قدمنا في الصحيح أن فقراء المهاجرين قالوا : يا رسول اللَّه ذهب أهل الدثور بالأجور : بالدرجات العلى والنعيم المقيم قال : « وما ذاك ؟ » قالوا : يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نعتق . قال : « أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم . تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين » قال : فرجعوا فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « ذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء » (٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٨٨) وأحمد في مسنده (١/٣٨٧) .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٨٤٣) ومسلم في المساجد (١٤٢) والدارمي في السنن (الصلاة ٩٠) وأحمد في مسنده (٥/١٦٧) .

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝٢٣ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ .

يخبر تعالى عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية فقال : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي في الآفاق وفي نفوسكم ﴿ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ أي من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة . وقال بعضهم : من قبل أن نبرأها عائد على النفوس ، وقيل : عائد على المصيبة ، والأحسن عوده على الخليقة والبرية لدلالة الكلام عليها وقال قتادة : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ هي السنون يعني الجدب ﴿ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ يقول : الأوجاع والأمراض ، قال : وبلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود ولا نكبة قدم ولا خلجان عرق إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر .

وهذه الآية الكريمة العظيمة من أدل دليل على القدرية نفاة العلم السابق - قبحهم الله - عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة »(١) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أي أن علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابته لها طبق ما يوجد في حينها سهل على الله ﷻ ؛ لأنه يعلم ماكان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

وقوله تعالى : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ أي أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها ، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها ، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم ، فلا تأسوا على ما فاتكم لأنه لو قدر شيء لكان ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ أي جاءكم ، وتفسير ﴿ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ أي أعطاكم وكلاهما متلازم ؛ أي لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم ، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم ، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم فلا تتخذوا نعم الله أشرًا وبطرًا تفخرون بها على الناس ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أي مختال في نفسه متكبر فخور أي على غيره . وقال عكرمة : ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا الفرح شكرًا والحزن صبرًا . ثم قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾ أي يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أي عن أمر الله وطاعته ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ كما قال موسى عليه السلام ﴿ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي بالمعجزات ، والحجج الباهرات ، والدلائل القاطعات ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وهو النقل الصدق ﴿ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ وهو العدل ، وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة ولهذا قال ﴿ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أي بالحق والعدل وهو اتباع الرسل فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا به ، فإن الذي جاءوا به هو الحق

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٩/٢) والترمذي في السنن (٢١٥٦) .

الذي ليس وراءه حق كما قال : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ أي صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأوامر والنواهي ، ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوأوا غرف الجنات ، والمنازل العاليات ، والسرر المصفوفات ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ أي وجعلنا الحديد رادعًا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه ، ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية وكلها جدال مع المشركين وبيان وإيضاح للتوحيد وبينات ودلالات ، فلما قامت الحجة على من خالف شرع الله أمرهم بالهجرة وأمرهم بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب والهام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده . عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » (١) ولهذا قال تعالى : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ يعني السلاح كالسيوف والحراب والسنان والنصال والدروع ونحوها ﴿ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ أي في معايشهم كالسكة والفأس والقدوم والمنشار والإزميل والمجرفة والآلات التي يستعان بها في الحراثة والحياكة والطبخ والخبز ، وما لا قوام للناس بدونه وغير ذلك . عن ابن عباس قال : ثلاثة أشياء نزلت مع آدم : السندان والكلبتان والميقعة يعني المطرقة ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي من نيته في حمل السلاح نصرة الله ورسوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ أي هو قوي عزيز ينصر من نصره ، من غير احتياج منه إلى الناس ، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحًا عليه السلام لم يرسل بعده رسولًا ولا نبيًا إلا من ذريته ، وكذلك إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن ، لم ينزل من السماء كتابًا ولا أرسل رسولًا ولا أوحى إلى بشر من بعده إلا وهو من سلالته حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم الذي بشر من بعده بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ وهم الحواريون ﴿ رَأْفَةً ﴾ أي رقة وهي الخشية ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ بالخلق . وقوله : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ أي ابتدعها أمة النصارى ﴿ مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي ما شرعناها وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾ فيه قولان أحدهما : أنهم قصدوا بذلك رضوان الله ، والآخر : ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله . وقوله تعالى : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أي فما قاموا بما التزموه حق القيام ، وهذا ذم لهم من وجهين : أحدهما : الابتداع في دين

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٥٠) .

الله ما لم يأمر به الله ، والثاني : في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله ﷻ .

عن ابن مسعود قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يا ابن مسعود » قلت : لبيك يا رسول الله . قال : « هل علمت أن بني إسرائيل افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة ، لم ينج منها إلا ثلاث فرق ، قامت بين الملوك والجبابرة بعد عيسى ابن مريم عليه السلام ، فدعت إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم ، فقاتلت الجبابرة فقتلت فصبرت ونجت ، ثم قامت طائفة أخرى لم تكن لها قوة بالقتال ، فقامت بين الملوك والجبابرة فدعوا إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم فقتلت ، وقطعت بالمناشير وحرقت بالنيران فصبرت ونجت ، ثم قامت طائفة أخرى لم يكن لها قوة بالقتال ولم تطق القيام بالقسط ، فلحقت بالجبال فتعبدت وترهبت وهم الذين ذكر الله تعالى : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [1] .

وعن سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء أن سهل بن أبي أمامة حدثه أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك بالمدينة زمان عمر بن عبد العزيز وهو أمير ، وهو يصلي صلاة خفيفة كأنها صلاة مسافر أو قريبًا منها ، فلما سلم قال : يرحمك الله أرأيت هذه الصلاة المكتوبة أم شيء تنفلته ؟ قال : إنها لمكتوبة وإنها صلاة رسول الله ﷺ ما أخطأت إلا شيئًا سهوت عنه ، إن رسول الله ﷺ كان يقول : « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم ؛ فإن قومًا شددوا على أنفسهم فشُدد عليهم ، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » ثم غدوا من الغد فقالوا : نركب فننظر ونعتبر ، قال : نعم فركبوا جميعًا فإذا هم بديار قفر قد باد أهلها وانقرضوا وفنوا خاوية على عروشها ، فقالوا : أتعرف هذه الديار ؟ قال : ما أعرفني بها وبأهلها ، هؤلاء أهل الديار أهلكهم البغي والحسد ، إن الحسد يطفئ نور الحسنات والبغي يصدق ذلك أو يكذبه ، والعين تزني والكف والقدم والجسد واللسان والفرج يصدق ذلك أو يكذبه [2] . وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قالَ : « لكل نبي رهبانية » ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله ﷻ» [3] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٨ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

عن ابن عباس أنه حمل هذه الآية على مؤمني أهل الكتاب وأنهم يؤتون أجرهم مرتين كما في الآية التي في القصص ، وعن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران ، ورجل أدب أَمَتَهُ فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران » [4] وقال سعيد بن جبير : لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله تعالى عليه هذه الآية في حق هذه الأمة : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ﴾ أي ضعفين ﴿ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ وزادهم

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢١٢/١٠) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٩٠٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٦/٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٦/٣) .

(٤) أخرجه البخاري في العلم (٢٦٧٢) والترمذي في السنن (١١١٦) وأحمد في مسنده (٤٠٥/٤) والدارمي في السنن (١٥٥/٢) .

﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ يعني هدى يتبصر به من العمى والجهالة ويغفر لكم ، ففضلهم بالنور والمغفرة .

وقال سعيد بن عبد العزيز : سأل عمر بن الخطاب حبرًا من أحبار يهود أفضل ما ضعف لكم حسنة قال : كفل ثلاثمائة وخمسين حسنة ، قال : فحمد اللَّه عمر على أنه أعطانا كفلين ، ثم ذكر سعيد قول اللَّه ﷻ : ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ قال سعيد : والكفلان في الجمعة مثل ذلك (١) .

ومما يؤيد هذا القول ما روي عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استعمل قومًا يعملون له عملًا يومًا إلى الليل على أجر معلوم ، فعملوا إلى نصفِ النهار فقالوا : لا حاجة لنا في أجرك الذي شرطت لنا وما عملنا باطل ، فقال لهم : لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملًا ، فأبوا وتركوا ، واستأجر آخرين بعدهم فقال : أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر ، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر قالوا : ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه . فقال : أكملوا بقية عملكم فإنما بقي من النهار شيء يسير ، فأبوا . فاستأجر قومًا أن يعملوا له بقية يومهم فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس ، فاستكملوا أجرة الفريقين كليهما فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور » (٢) ولهذا قال تعالى : ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ أي ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رد ما أعطاه الله ولا إعطاء مامنع الله ﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ . قال ابن جرير ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي ليعلم وقد ذكر عن ابن مسعود أنه قرأها (لكي يعلم) وكذا عطاء بن عبد اللَّه وسعيد بن جبير . قال ابن جرير : لأن العرب تجعل لا صلة في كل كلام دخل في أوله أو آخره جحد غير مصرح ، فالسابق كقوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ ، و ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، باللّه ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ .

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٣١٥/٢٧) .
(٢) أخرجه البخاري في الإجارة (٢٢٧١) والبيهقي في السنن (١١٩/٦) .

سورة المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ .

عن عائشة قالت الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقوله ، فأنزل الله ﷻ ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ إلى آخر الآية (١) وعن عائشة أنها قالت : تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء ، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول : يارسول الله أكل مالي وأفنى شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني ، اللهم إني أشكو إليك ، قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ . قالت : وزوجها أوس بن الصامت .

﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۞ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۞ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

عن خويلة بنت ثعلبة قالت : فيَّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة ، قالت : كنت عنده وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه ، قالت : فدخل علي يومًا فراجعته بشيء ، فغضب فقال : أنت علي كظهر أمي . قالت : ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة ، ثم دخل علي فإذا هو يريدني عن نفسي قالت : قلت : كلا ، والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إلي ، وقد قلت ماقلت ، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه ، قالت : فواثبني ، فامتنعت منه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فألقيته عني ، قالت : ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثيابًا ، ثم خرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ فجلست بين يديه ، فذكرت له ما لقيت منه وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه ، قالت : فجعل رسول الله ﷺ يقول : « يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه » . قالت : فوالله ما برحت حتى نزل فيَّ قرآن ، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ثم سري عنه فقال لي « يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآناً - ثم قرأ علي ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ إلى قوله ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ » قالت : فقال لي رسول الله ﷺ : « مُريه فليعتق رقبة » قالت : فقلت يا رسول الله ما عنده ما يعتق ، قال : « فليصم شهرين متتابعين » قالت : فقلت : والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام قال : « فليطعم ستين مسكينًا وسقا من تمر » قالت : فقلت : والله يا رسول الله ما ذاك عنده ، قالت ، فقال رسول الله ﷺ : « فإنا سنعينه بفرق من تمر » قالت : فقلت : يا رسول الله وأنا سأعينه

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٤٦) وأخرجه البخاري في (التوحيد) (باب ٩) تعليقًا .

بفرق آخر قال : « قد أصبت وأحسنت ، فاذهبي فتصدقي به عنه ، ثم استوصي بابن عمك خيرًا » قالت : ففعلت [(١)] . فقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ﴾ أصل الظهار مشتق من الظهر ، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا ظاهر أحدهم من امرأته قال لها : أنت علي كظهر أمي ، ثم في الشرع كان الظهار في سائر الأعضاء قياسًا على الظهر ، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقًا فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفارة ولم يجعله طلاقًا كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم ، هكذا قال غير واحد من السلف .

عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية : أنت علي كظهر أمي حرمت عليه ، فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس ، وكان تحته ابنة عم له يقال لها خويلة بنت ثعلبة ، فظاهر منها فأسقط في يديه ، وقال : ما أراك إلا قد حرمت علي ، وقالت له مثل ذلك ، قال : فانطلقي إلى رسول الله ﷺ ، فأتت رسول الله ﷺ فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه فقال : « يا خويلة ما أمرنا في أمرك بشيء » فأنزل الله على رسول الله ﷺ فقال : « يا خويلة أبشري » قالت : خيرا - فقرأ عليها ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ إلى قوله ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ قالت : وأي رقبة لنا ؟ والله ما يجد رقبة غيري ، قال : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ قالت : والله لولا أنه يشرب في اليوم ثلاث مرات لذهب بصره قال : ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ قالت : من أين ؟ ما هي إلا أكلة إلى مثلها ، قال : فدعا بشطر وسق ثلاثين صاعًا ، والوسق ستون صاعا فقال : « ليطعم ستين مسكينًا وليراجعك » [(٢)] .

وقال سعيد بن جبير : كان الإيلاء والظهار من طلاق الجاهلية ، فوقت الله الإيلاء أربعة أشهر وجعل في الظهار الكفارة ، وقد استدل الإمام مالك على أن الكافر لا يدخل في هذه الآية بقوله منكم فالخطاب للمؤمنين ، وأجاب الجمهور بأن هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له ، واستدل الجمهور عليه بقوله : ﴿ مِن نِّسَائِهِمْ ﴾ على أن الأمة لا ظهار منها ولا تدخل في هذا الخطاب .

وقوله تعالى : ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ أي لا تصير المرأة بقول الرجل أنت علي كأمي أو مثل أمي أو كظهر أمي وما أشبه ذلك ، لا تصير أمه بذلك إنما أمه التي ولدته ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ أي كلامًا فاحشًا باطلًا ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ أي عما كان منكم في حال الجاهلية ، وهكذا أيضًا عما خرج من سبق اللسان ، ولم يقصد إليه المتكلم ، كما روي أن رسول الله ﷺ سمع رجلًا يقول لامرأته يا أختي ، فقال : « أختك هي ؟ » [(٣)] فهذا إنكار ، ولكن لم يحرمها عليه بمجرد ذلك ؛ لأنه لم يقصده ولو قصده

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٠/٦) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٣٨٣/٧) وذكره الطبري في تفسيره ٥/٢٨ .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢٢١٠) .

لحرمت عليه ؛ لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة وما أشبه ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ ﴾ اختلف السلف والأئمة في المراد بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ ﴾ فقال بعض الناس : العود هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره ، وهذا القول باطل وهو اختيار ابن حزم وقول داود حكاه أبو عمر بن عبد البر عن بكير بن الأشج والفراء وفرقة من أهل الكلام ، وقال الشافعي : هو أن يمسكها بعد المظاهرة زمانًا يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق ، وقال أحمد بن حنبل : هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا تحل له حتى يكفر بهذه الكفارة ، وقد حكي عن مالك أنه العزم على الجماع أو الإمساك عنه ، وعنه أنه الجماع ، وقال أبو حنيفة : هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية ، فمتى ظاهر الرجل من امرأته فقد حرمها تحريمًا لا يرفعه إلا الكفارة ، وإليه ذهب أصحابه والليث بن سعد . وعن سعيد بن جبير : يعني يريدون أن يعودوا في الجماع الذي حرموه على أنفسهم .

وقال الحسن البصري : يعني الغشيان في الفرج وكان لا يرى بأسًا أن يغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفر ، وقال ابن عباس : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ والمس النكاح ، وقال الزهري : ليس له أن يقبلها ولا يمسها حتى يكفر . وقد روى أهل السنن من حديث عكرمة عن ابن عباس أن رجلًا قال : يا رسول اللّه ، إني ظاهرت من امرأتي فوقعت عليها قبل أن أكفر . فقال : « ما حملك على ذلك يرحمك اللّه » . قال : رأيت خلخالها في ضوء القمر ، قال : « فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك اللّه ﷻ » [(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أي فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسا ، فههنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان وفي كفارة القتل مقيدة بالإيمان ، فحمل الشافعي رحمه الله ما أطلق ههنا على ما قيد هناك لاتحاد الموجب وهو عتق الرقبة ، واعتضد في ذلك بما روي عن معاوية ابن الحكم السلمي في قصة الجارية السوداء ، وأن رسول اللّه ﷺ قال : « أعتقها فإنها مؤمنة » [(٢)] .

وعن ابن عباس ، قال : أتى رسول اللّه ﷺ رجل فقال : إني ظاهرت من امرأتي ثم وقعت عليها قبل أن أكفر ، فقال رسول اللّه ﷺ : « ألم يقل اللّه تعالى : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ ؟ » قال : أعجبتني ، قال : « أمسك حتى تُكفِّرَ » [(٣)] وفيه من الفقه أنه لم يأمره إلا بكفارة واحدة .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ﴾ أي تزجرون به ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي خبير بما يصلحكم عليم بأحوالكم ، وقوله تعالى ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ ﴿ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أي شرعنا هذا لهذا . وقوله تعالى :

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١١٩٩) والنسائي في السنن (١٦٧/٦) والطبراني في الكبير (٢٣٦/١١) .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٣٣) وأحمد في مسنده (٣٨٨/٤) والبيهقي في السنن (٣٨٨/٧) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٠٤/٢) بنحوه والزيلعي في نصب الراية (٢٤٦/٣) والسيوطي في الدر المنثور (١٨٣/٦) .

﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أي محارمه فلا تنتهكوها . وقوله تعالى : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي الذين لم يؤمنوا ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة ، لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء ، كلا ليس الأمر كما زعموا بل لهم عذاب أليم أي في الدنيا والآخرة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

يخبر تعالى عمن شاقوا اللّه ورسوله وعاندوا شرعه ﴿ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي أهينوا ولعنوا وأخزوا كما فعل بمن أشبههم ممن قبلهم ﴿ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أي واضحات لايعاندها ولا يخالفها إلا كافر فاجر مكابر ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي في مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع اللّه والانقياد له والخضوع لديه .

ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ وذلك يوم القيامة يجمع اللّه الأولين والآخرين في صعيد واحد ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ أي فيخبرهم بالذي صنعوا من خير وشر ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ أي ضبطه اللّه وحفظه عليهم وهم قد نسوا ما كانوا عملوا ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي لا يغيب عنه شيء ولا يخفى ولا ينسى شيئًا ، ثم قال تعالى مخبرًا عن إحاطة علمه بخلقه واطلاعه عليهم وسماعه كلامهم ، ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأينما كانوا فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ ﴾ أي من سر ثلاثة ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ أي مطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم ورسله أيضًا مع ذلك تكتب ما يتناجون به مع علم اللّه به وسمعه له ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى ولا شك في إرادة ذلك ، ولكن سمعه أيضًا مع علمه محيط بهم وبصره نافذ فيهم ؛ فهو سبحانه وتعالى مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء ، ثم قال تعالى ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ قال الإمام أحمد : افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

عن مجاهد ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ قال : اليهود ، وكذا قال مقاتل بن حيان وزاد : كان بين النبي ﷺ وبين اليهود موادعة ، وكانوا إذا مر بهم الرجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن ، فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم فترك طريقه عليهم ، فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى ، فأنزل اللّه تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ أي يتحدثون فيما بينهم بالإثم وهو ما يختص بهم ﴿ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ وهو مايتعلق بغيرهم ، ومنه معصية الرسول ومخالفته يصرون عليها ويتواصون بها وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ عن عائشة قالت : دخل على رسول اللّه ﷺ يهودُ فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم فقالت عائشة : وعليكم السام قالت : فقال رسول اللّه ﷺ : « يا عائشة إن اللّه لا يحب الفحش ولا التفحش » قلت : ألا تسمعهم يقولون : السام عليك ، فقال رسول اللّه ﷺ : « أو سمعت ما أقول وعليكم ؟ » (١) فأنزل اللّه تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ أي يفعلون هذا ويقولون مايحرفون من الكلام وإيهام السلام وإنما هو شتم في الباطن ، ومع هذا يقولون في أنفسهم لو كان هذا نبيًا لعذبنا اللّه بما نقول له في الباطن لأن اللّه يعلم ما نسره ، فلوكان هذا نبيًا حقًا لأوشك أن يعاجلنا اللّه بالعقوبة في الدنيا . فقال اللّه تعالى : ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي جهنم كفايتهم في الدار الآخرة ﴿ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ، ثم قال اللّه تعالى مؤدبا عباده المؤمنين أن لا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ أي : كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب ومن مالأهم على ضلالهم من المنافقين ﴿ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أي فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي قد أحصاها عليكم وسيجزيكم بها ، وعن صفوان بن محرز قال : كنت آخذًا بيد ابن عمر ؛ إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول اللّه ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « إن اللّه يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أن قد هلك قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة اللّه على الظالمين » (٢) . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي إنما النجوى وهي المسارة حيث يتوهم مؤمن بها سوءًا ﴿ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يعني إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه ﴿ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي ليسوءهم وليس ذلك بضارهم شيئًا إلا بإذن اللّه ، ومن أحس من ذلك شيئا فليستعذ باللّه وليتوكل على اللّه فإنه لا يضره شيء بإذن اللّه . وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي حيث يكون في ذلك تأذ على مؤمن ، عن ابن عمر قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه ، فإن ذلك يحزنه » (٣) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٨٤/٦) . (٢) أخرجه البخاري في اللقطة (٢٤٤١) وأحمد في مسنده (٧٤/٢) .
(٣) أخرجه مسلم في السلام (٣٧) والترمذي في السنن (٢٨٢٥) وأحمد في مسنده (١٨/٢) .

يقول تعالى مؤدبًا عباده المؤمنين وآمرًا لهم أن يحسن بعضهم إلى بعض في المجالس ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ ﴾ وقرئ ﴿ فِى المجلس ﴾ [١] ﴿ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل كما جاء في الصحيح : « من بنى لله مسجدًا بنى الله له بيتا في الجنة » [٢] وفي الحديث الآخر : « ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ماكان العبد في عون أخيه » [٣] ولهذا أشباه كثيرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ قال قتادة : نزلت هذه الآية في مجالس الذكر ، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلًا ضنوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ فأمرهم الله تعالى أن يفسح بعضهم لبعض .

وقال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية يوم الجمعة ، وكان رسول الله ﷺ يومئذ في الصفة وفي المكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس ، فقاموا حيال رسول الله ﷺ فقالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فرد النبي ﷺ عليهم ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم ، فعرف النبي ﷺ مايحملهم على القيام فلم يفسح لهم ، فشق ذلك على النبي ﷺ فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر : « قم يا فلان وأنت يا فلان » فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه وعرف النبي ﷺ الكراهة في وجوههم ، فقال المنافقون : ألستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس ؟ والله ما رأيناه قبل عدل على هؤلاء إن قومًا أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب من نبيهم فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه ، فبلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « رحم الله رجلًا يفسح لأخيه » فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعا فيفسح القوم لإخوانهم ونزلت هذه الآية يوم الجمعة [٤] . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لا يقم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن افسحوا يفسح الله لكم » [٥] .

وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذ جاء على أقوال : فمنهم من رخص في ذلك محتجًا بحديث : « قوموا إلى سيدكم » [٦] ومنهم من منع من ذلك محتجًا بحديث : « من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار » [٧] ومنهم من فصل فقال : يجوز عند القدوم من سفر وللحاكم في محل ولايته ، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ ، فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكمًا في بني قريظة فرآه مقبلا قال للمسلمين : « قوموا إلى سيدكم » وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه والله أعلم . فأما اتخاذه ديدنًا فإنه من شعار العجم ، وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أجل إليهم من رسول الله ﷺ وكان إذا جاء لايقومون له لما يعلمون من كراهته لذلك .

---

(١) قرأ عاصم ﴿ ٱلْمَجَـٰلِسِ ﴾ بالألف جمعًا ، والباقون بغير ألف إفرادًا . (انظر تقريب النشر ص : ١٧٩) .
(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٥٠) ومسلم في المساجد (٢٤) وأحمد في مسنده (٦١/١) .
(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٨) وأحمد في مسنده (٩٢/٢) .
(٤) أورده السيوطي في الدر المنثور (٢٦٠/٣) . (٥) أخرجه أحمد في مسنده (٦٢٣/٢) .
(٦) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٢١) ومسلم في الجهاد (٦٤) والترمذي في السنن (٨٥٦) .
(٧) أخرجه أبو داود في السنن (٥٢٢٩) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤٣١/٣) .

وفي الحديث المروي في السنن أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس ، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس ، فكان الصحابة ﷺ يجلسون منه على مراتبهم ، فالصديق ﷺ يجلسه عن يمينه وعمر عن يساره ، وبين يديه غالبًا عثمان وعلي لأنهما كانا ممن يكتب الوحي ، وكان يأمرهما بذلك ، وعن أبي مسعود قال : كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول : « استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، ليليني منكم أولو الأحلام والنُّهى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشد اختلافا (١) . وإذا كان هذا أمره لهم في الصلاة أن يليه العقلاء منهم والعلماء فبطريق الأولى أن يكون ذلك في غير الصلاة .

وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « أقيموا الصفوف ، وحاذوا بين المناكب ، وسدوا الخلل ، ولينوا بأيدي إخوانكم ، ولا تذروا فرجات للشياطين ، ومن وصل صفًّا وصله الله ، ومن قطع صفًّا قطعه الله » (٢) ولهذا كان أبي بن كعب سيد القراء إذا انتهى إلى الصف الأول انتزع منه رجلًا يكون من أفناد الناس ، ويدخل هو في الصف المقدم ويحتج بهذا الحديث : « ليليني منكم أولو الأحلام والنُّهى » وأما عبد الله بن عمر فكان لا يجلس في المكان الذي يقوم له صاحبه عنه عملًا بمقتضى ما تقدم من روايته الحديث الذي أوردناه ، ولنقتصر على هذا المقدار من الأنموذج المتعلق بهذه الآية ، وإلا فبسطه يحتاج إلى غير هذا الموضع . وفي الحديث الصحيح : بينا رسول الله ﷺ جالس إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأما أحدهم فوجد فرجة في الحلقة فدخل فيها ، وأما الآخر فجلس وراء الناس ، وأدبر الثالث ذاهبا فقال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخبر الثلاثة ؟ أما الأول فأوى إلى الله فآواه الله ، وأما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه » (٣) .

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما » (٤) وقد روي عن ابن عباس والحسن البصري وغيرهما أنهم قالوا في قوله تعالى : ﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ يعني في مجالس الحرب ..قالوا : ومعنى قوله ﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ ﴾ أي انهضوا للقتال . وقال قتادة ﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ ﴾ أي إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا ، وقال مقاتل : إذا دعيتم إلى الصلاة فارتفعوا إليها . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كانوا إذا كانوا عند النبي ﷺ في بيته فأرادوا الانصراف ، أحب كل منهم أن يكون هو آخرهم خروجًا من عنده ، فربما يشق ذلك عليه ، عليه الصلاة والسلام وقد تكون له الحاجة ، فأمروا أنهم إذا أمروا بالانصراف أن ينصرفوا .

وقوله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي لا تعتقدوا أنه إذا فسح أحد منكم لأخيه إذا أقبل أو إذا أمر بالخروج فخرج ، أن يكون ذلك نقصًا في حقه بل هو رفعة ورتبة عند الله ، والله تعالى لا يضيع ذلك له ، بل يجزيه بها في الدنيا والآخرة فإن من تواضع لأمر الله رفع الله قدره ونشر ذكره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١٢٢) وابن خزيمة في صحيحه (١٥٤٢) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٦٦٦) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣١٩/١) .
(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٧٤) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٣/٢) .

أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي خبير بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحقه ، وعن عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان ، وكان عمر استعمله على مكة ، فقال له عمر : من استخلفت على أهل الوادي ؟ قال : استخلفت عليهم ابن أبزى - رجل من موالينا - فقال عمر : استخلفت عليهم مولى ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين إنه قارئ لكتاب الله عالم بالفرائض قاض ، فقال عمر ﷺ : أما إن نبيكم ﷺ قد قال « إن الله يرفع بهذا الكتاب قومًا ويضع به آخرين » (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجي رسول الله ﷺ أي يساره فيما بينه وبينه أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا ﴾ أي إلا من عجز عن ذلك لفقره ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فما أمر بها إلا من قدر عليها . ثم قال تعالى : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ أي أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فنسخ وجوب ذلك عنهم ، وقد قيل : إنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها سوى علي بن أبي طالب ﷺ . قال علي ﷺ : آية في كتاب الله ﷻ لم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي ، كان عندي دينار فصرفته بعشرة دراهم ، فكنت إذا ناجيت رسول الله ﷺ تصدقت بدرهم ، فنسخت ولم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ الآية . وعن علي ﷺ قال : قال النبي ﷺ : « ما ترى ، دينار ؟ » قال : لايطيقون . قال : « نصف دينار » قال : لا يطيقون . قال « ما ترى ؟ » قال : شعيرة . فقال له النبي ﷺ : « إنك لزهيد» قال : فنزلت ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ قال علي : فبي خفف الله عن هذه الأمة (٢) . عن ابن عباس قوله : ﴿ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه ، فأراد الله أن يخفف عن نبيه عليه الصلاة والسلام ، فلما قال ذلك جبن كثير من المسلمين وكفوا عن المسألة ، فأنزل الله بعد هذا ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ فوسع الله عليهم ولم يضيق .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥/١) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٠٠) .

يقول اللّه تعالى منكرًا على المنافقين في موالاتهم الكفار في الباطن ، وهم في نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين . ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ يعني اليهود الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم في الباطن ثم قال تعالى : ﴿ مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ أي هؤلاء المنافقون ليسوا في الحقيقة منكم أيها المؤمنون ، ولا من الذين يوالونهم وهم اليهود ، ثم قال تعالى : ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني المنافقين يحلفون على الكذب ، وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا وهي اليمين الغموس ، ولاسيما في مثل حالهم اللعين عياذًا باللّه منه ، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا جاءوا الرسول حلفوا له باللّه إنهم مؤمنون ، وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به ؛ لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه وإن كان في نفس الأمر مطابقًا ، ولهذا شهد اللّه بكذبهم في أيمانهم وشهادتهم لذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي أرصد اللّه لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة وهي موالاة الكافرين ونصحهم ومعاداة المؤمنين ، وغشهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر واتقوا بالأيمان الكاذبة ، فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغتر بهم ، فحصل بهذا صد عن سبيل اللّه لبعض الناس ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي في مقابلة ما امتهنوا من الحلف باسم اللّه العظيم في الأيمان الكاذبة الحانثة ، ثم قال تعالى : ﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أي لن يدفع ذلك عنهم بأسا إذا جاءهم ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ أي يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحدًا ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أي يحلفون باللّه ﷻ أنهم كانوا على الهدى والاستقامة كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا ؛ لأن من عاش على شيء مات عليه وبعث عليه ، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند اللّه كما كان ينفعهم عند الناس فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة ولهذا قال : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أي حلفهم بذلك لربهم ﷻ .

ثم قال تعالى منكرا عليهم حسبانهم ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ فأكد الخبر عنهم بالكذب . وعن ابن عباس أن النبي ﷺ كان في ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين قد كاد يقلص عنهم الظل قال : « إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان فإذا أتاكم فلا تكلموه » فجاء رجل أزرق ، فدعاه رسول اللّه ﷺ فكلمه فقال « علام تشتمني أنت وفلان وفلان » نفر دعاهم بأسمائهم ، قال : فانطلق الرجل فدعاهم فحلفوا له واعتذروا إليه ، قال : فأنزل اللّه ﷻ ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ (١) .

وحال هؤلاء كما أخبر اللّه تعالى عن المشركين حيث يقول ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ أي استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا اللّه ﷻ ، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه ، ولهذا قال أبو الدرداء : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان ، فعليك بالجماعة ؛ فإنما

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٦٧) والحاكم في المستدرك (٢/٤٨٢) .

يأكل الذئب القاصية »[1] قال زائدة : قال السائب : يعني الصلاة في الجماعة . ثم قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴾ يعني الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ثم قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار المعاندين المحادين لله ورسوله ، يعني الذين هم في حد والشرع في حد ، أي مجانبون للحق مشاقون له هم في ناحية والهدى في ناحية ﴿ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ أي في الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب الأذلين في الدنيا والآخرة . ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ أي قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل ، بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أي كتب القوي العزيز أنه الغالب لأعدائه ، وهذا قدر محكم وأمر مبرم أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة ثم قال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ أي لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين . قال سعيد بن عبد العزيز وغيره : أنزلت هذه الآية ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر ، ولهذا قال عمر بن الخطاب ﷺ حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك الستة ﷺ : ولو كان أبو عبيدة حيًا لاستخلفته . وقيل في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾ نزلت في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر ﴿ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ في الصديق . همَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن ﴿ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾ في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ﴿ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ في عمر قتل قريبًا له يومئذ أيضًا ، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ .

قلت : ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين في أسارى بدر ، فأشار الصديق بأن يفادوا فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين ، وهم بنو العم والعشيرة ، ولعل الله تعالى أن يهديهم ، وقال عمر : لا أرى ما رأى ، يارسول الله هل تمكنني من فلان قريب لعمر فأقتله ، وتمكن عليا من عقيل وتمكن فلانًا من فلان ليعلم الله أنه ليست في قلوبنا موادة للمشركين . القصة بكمالها . وقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ أي من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه ، فهذا ممن كتب الله في قلبه الإيمان أي كتب له السعادة وقررها في قلبه وزين الإيمان في بصيرته . قال السدي : ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ جعل في قلوبهم الإيمان . وقال ابن عباس ﴿ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ أي قواهم .

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٥٤٧) والنسائي في السنن (١٠٦/٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ﴾ كل هذا تقدم تفسيره غير مرة ، وفي قوله تعالى : ﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ﴾ سر بديع وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى عوضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم والفضل العميم . وقوله تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي هؤلاء حزب الله أي عباد الله وأهل كرامته . وقوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم في الدنيا والآخرة في مقابلة ما ذكر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان ثم قال : ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

وعن الذيال بن عباد قال : كتب أبو حازم الأعرج إلى الزهري : اعلم أن الجاه جاهان : جاه يجريه الله تعالى على أيدي أوليائه لأوليائه ، وأنهم الخامل ذكرهم ، الخفية شخوصهم ، ولقد جاءت صفتهم على لسان رسول الله ﷺ : « إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يدعوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل فتنة سوداء مظلمة » (١) فهؤلاء أولياء الله تعالى الذين قال الله ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٩٨٩) والحاكم في المستدرك (٤/١) .

سورة الحشر

عن سعيد بن جبير : قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ، قال : سورة بني النضير [١] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أن جميع ما في السموات والأرض من شيء يسبح له ويمجده ويقدسه ويصلي له ويوحده . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي منيع الجناب ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي قدره وشرعه . وقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يعني يهود بني النضير . قاله ابن عباس ومجاهد والزهري وغير واحد . كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهدًا وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه ، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه ، فأحل الله بهم بأسه الذي لا مرد له ، وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يصد ، فأجلاهم النبي ﷺ وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون ، وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله ، فما أغنى عنهم من الله شيئًا وجاءهم من الله ما لم يكن ببالهم ، وسيرهم رسول الله ﷺ وأجلاهم من المدينة ، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالي الشام ، وهي أرض المحشر والمنشر ، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر ، وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم ، فكانوا يخربون ما في بيوتهم من المنقولات التي لا يمكن أن تحمل معهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أي تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم .

عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ : أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أُبي ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس والخزرج ، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل رجعة بدر : إنكم أدنيتم صاحبنا وإنا نقسم بالله لنقاتلنه ، أو لنخرجنكم ، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونسبي نساءكم ، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان أجمعوا لقتال النبي ﷺ ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال : « لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريد أن تكيدوا به أنفسكم ، يريدون أن يقاتلوا أبناءكم وإخوانكم » فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا ، فبلغ ذلك كفار قريش فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى الجهود : إنكم أهل الحلقة والحصون وإنكم لتقاتلن مع صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا ، ولا يحول بيننا

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٨٣) .

وبين خدم نسائكم شيء وهو الخلاخيل ، فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ أيقنت بنو النضير بالغدر ، فأرسلوا إلى النبي ﷺ : اخرج إلينا في ثلاثين رجلًا من أصحابك ليخرج منا ثلاثون حبرًا حتى نلتقي بمكان النصف ، وليسمعوا منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك .

فلما كان الغد غدا عليهم رسول اللّه ﷺ بالكتائب فحصرهم فقال لهم : « إنكم واللّه لا تؤمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه » فأبوا أن يعطوه عهدًا فقاتلهم يومهم ذلك ، ثم غدا من الغد على بني قريظة بالكتائب وترك بني النضير ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه ، فانصرف عنهم وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء ، فجلت بنو النضير واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها ، وكان نخل بني النضير لرسول اللّه ﷺ خاصة أعطاه اللّه إياها وخصه بها فقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ﴾ يقول : بغير قتال ، فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين قسمها بينهم وقسم منها لرجلين من الأنصار ، وكانا ذوي حاجة ولم يقسم من الأنصار غيرهما ، وبقي منها صدقة رسول اللّه ﷺ التي في أيدي بني فاطمة [1] . ولنذكر ملخص غزوة بني النضير على وجه الاختصار وباللّه المستعان .

وكان سبب ذلك فيما ذكره أصحاب المغازي والسير أنه لما قتل أصحاب بئر معونة من أصحاب رسول اللّه ﷺ وكانوا سبعين وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمري ، فلما كان في أثناء الطريق راجعًا إلى المدينة قتل رجلين من بني عامر ، وكان معهما عهد من رسول اللّه ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو ، فلما رجع أخبر رسول اللّه ﷺ فقال له رسول اللّه ﷺ : « لقد قتلت رجلين لأدينهما » وكان بين بني النضير وبني عامر حلف وعهد ، فخرج رسول اللّه ﷺ إلى بني النضير ليستعينهم في دية ذينك الرجلين ، وكانت منازل بني النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيها .

قال ابن إسحاق : ثم خرج رسول اللّه ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري للجوار الذي كان رسول اللّه ﷺ عقد لهما فيما حدثني يزيد بن رومان ، وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف ، فلما أتاهم رسول اللّه ﷺ يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول اللّه ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم - فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه ، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم فقال : أنا لذلك فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال ، ورسول اللّه ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي ﷺ فأتى رسول اللّه ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعًا إلى المدينة .

فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلًا مقبلًا من المدينة ، فسألوه عنه ، فقال : رأيته داخلًا المدينة ، فأقبل أصحاب رسول اللّه ﷺ حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به ، وأمر رسول اللّه بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم ، ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٣٠٠٤) .

منه في الحصون ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها ، فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض وتعيبه على من يصنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها ، وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبي ابن سلول ووديعة ومالك بن أبي قوقل وسويد وداعس قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا ، فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن خرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا ، فقذف في قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعلوا ، فاحتملوا عن أموالهم ما استقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن إيجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به ، فخرجوا إلى خيبرومنهم من سار إلى الشام وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ فكانت لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء ، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة - سماك بن خرشة - ذكرا فقرًا فأعطاهما رسول الله ﷺ ، قال : ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان : يامين بن عمرو بن كعب عم عمرو بن جحاش ، وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاها .

قال ابن إسحاق : وقد حدثني بعض آل يامين أن رسول الله ﷺ قال ليامين : « ألم تر ما لقيت من ابن عمك وما هم به من شأني ؟ » فجعل يامين بن عمرو لرجل جعلًا على أن يقتل عمرو بن جحاش فقتله فيما يزعمون . قال ابن إسحاق : ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها فقوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يعني بني النضير ﴿ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾ عن ابن عباس قال : من شك في أن أرض المحشر ههنا يعني الشام - فليقرأ هذه الآية ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾ قال لهم رسول الله ﷺ : « اخرجوا » قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى أرض المحشر » وقوله تعالى : ﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ﴾ أي في مدة حصاركم لهم وقدرها وكانت ستة أيام مع شدة حصونهم ومنعتها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ﴾ أي جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال . وقوله تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ أي الخوف والهلع والجزع وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذي نصر بالرعب مسيرة شهر صلوات الله وسلامه عليه . وقوله : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهو نقض ما استحسنوه من سقوفهم وأبوابهم وتحملها على الإبل ، وقال مقاتل بن حيان : كان رسول الله ﷺ يقاتلهم فإذا ظهر على درب أو دار هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال ، وكان اليهود إذا علوا مكانًا أو غلبوا على درب أو دار ؛ نقبوا من أدبارها ثم حصنوها ودربوها ، يقول الله تعالى : ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ . وقوله : ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ أي لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء وهو النفي من ديارهم وأموالهم ؛ لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبي ونحو ذلك ؛ لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم في الدار الدنيا مع ما أعد لهم في الدار الآخرة من العذاب في نار جهنم .

عن عروة بن الزبير قال : ثم كانت وقعة بني النضير ، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر ، وكان منزلهم بناحية من المدينة فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء ، وأن

لهم ما أقلت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة وهي السلاح ، فأجلاهم رسول اللّه ﷺ قبل الشام ، قال : والجلاء أنه كتب عليهم في آي من التوراة وكانوا من سبط لم يصبهم الجلاء قبل ما سلط عليهم رسول اللّه ﷺ وأنزل اللّه فيهم ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ - إلى قوله - ﴿ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ وقال عكرمة : الجلاء القتل ، وفي رواية عنه : الفناء ، وقال قتادة : الجلاء خروج الناس من البلد إلى البلد . وقال الضحاك : أجلاهم إلى الشام وأعطى كل ثلاثة بعيرًا وسقاء ، فهذا الجلاء .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾ أي حتم لازم لابد لهم منه . وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أي إنما فعل اللّه بهم ذلك وسلط عليهم رسوله وعباده المؤمنين ؛ لأنهم خالفوا اللّه ورسوله وكذبوا بما أنزل اللّه على رسله المتقدمين في البشارة بمحمد ﷺ وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم . ثم قال : ﴿ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ اللين نوع من التمر وهو جيد ، قال أبو عبيدة : وهو ما خالف العجوة والبرني من التمر ، وقال كثيرون من المفسرين : اللينة ألوان التمر سوى العجوة . قال ابن جرير : هو جميع النخل . عن ابن عباس في قوله ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ قال : يستنزلونهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل فحاك في صدورهم ، فقال المسلمون : قطعنا بعضًا وتركنا بعضًا فلنسألن رسول اللّه ﷺ هل لنا فيما قطعنا من أجر ، وهل علينا فيما تركنا من وزر ، فأنزل اللّه ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ ﴾ (١) وعن ابن عمر ، أن رسول اللّه ﷺ قطع نخل بني النضير وحرق (٢) . وعن ابن عمر ، قال : حاربت النضير وقريظة فأجلى بني النضير وأقر قريظة ومن عليهم حتى حاربت قريظة ، فقتل من رجالهم وسبى وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ فأمنهم وأسلموا وأجلى يهود المدينة كلهم بني قينقاع ، وهم رهط عبد اللّه بن سلام ويهود بني حارثة وكل يهود بالمدينة (٣) . وعن ابن عمر أن رسول اللّه ﷺ حرق نخل بني النضير ، وقطع ، وهي البويرة ، فأنزل اللّه ﷻ فيه ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (٤) . وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول اللّه ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع وهي البويرية ، ولها يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

وهان على سراة بني لؤي ... حريق بالبويرة مستطير

فأجابه أبو سفيان بن الحارث يقول :

أدام اللّه ذلك من صنيع ... وحرق في نواحيها السعير
ستعلم أينا منها بنزه ... وتعلم أي أرضينا نضير (٥)

وقد أورد ابن إسحاق رحمه الله أشعارًا كثيرة فيها آداب ومواعظ وحكم وتفاصيل للقصة ، قال أبو

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٠٣) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٧) .
(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٢٨) .
(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٨٤) والترمذي في السنن (٣٣٠٢) .
(٥) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٣٢) .

إسحاق : كانت وقعة بني النضير بعد وقعة أحد وبعد بئر معونة . وعن عروة أنه قال : كانت وقعة بني النضير بعد بدر بستة أشهر (١) .

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ .

يقول تعالى مبينًا ما الفيء وما صفته وماحكمه ، فالفيء كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب ؛ كأموال بني النضير هذه فإنها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، أي لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ ، فأفاءه الله على رسوله ، ولهذا تصرف فيه كما يشاء ، فرده على المسلمين في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله ﷻ في هذه الآيات فقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ ﴾ ، أي من بني النضير ﴿ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ يعني الإبل ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي هو قدير لا يغالب ولا يمانع بل هو القاهر لكل شيء .

ثم قال تعالى : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ﴾ أي جميع البلدان التي تفتح هكذا فحكمها حكم أموال بني النضير ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ إلى آخرها والتي بعدها فهذه مصارف أموال الفيء ووجوهه . عن عمر ﷺ قال : كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته ، وقال مرة : قوت سنته وما بقي جعله في الكراع والسلاح في سبيل الله ﷻ (٢) . وعن مالك بن أوس قال : أرسل إلي عمر بن الخطاب ﷺ حين تعالى النهار فجئته فوجدته جالسًا على سرير مفضيًا إلى رماله فقال حين دخلت عليه : يا مالك إنه قد دف أهل أبيات من قومك ، وقد أمرت فيهم بشيء فاقسم فيهم ، قلت : لو أمرت غيري بذلك ، فقال : خذه ، فجاءه يرفأ ، فقال : يا أمير المؤمنين هل لك في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص ؟ قال : نعم . فأذن لهم فدخلوا ، ثم جاءه يرفأ فقال : يا أمير المؤمنين هل لك في العباس وعلي ؟ قال : نعم ، فأذن لهما فدخلا ، فقال العباس : يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا يعني عليًا ، فقال بعضهم : أجل يا أمير المؤمنين اقض بينهما وأرحهما ، قال مالك بن أوس : خيل إلي أنهما قدما أولئك النفر لذلك ، فقال عمر ﷺ : اتئد ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ما تركنا صدقة » قالوا : نعم . ثم أقبل على علي والعباس فقال : أنشدكما بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ما تركنا صدقة ؟ » فقالا : نعم . فقال : إن الله خص رسوله بخاصة لم يخص بها أحدًا من الناس فقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (باب حديث بني النضير) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٥) .

﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فكان الله تعالى أفاء على رسوله أموال بني النضير ، فوالله ما استأثر بها عليكم ولا أحرزها دونكم ، فكان رسول الله ﷺ يأخذ منها نفقة سنة أو نفقته ونفقة أهله سنة ، ويجعل مابقي أسوة المال . ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمون ذلك ؟ قالوا : نعم .

ثم أقبل على علي والعباس فقال : أنشدكما بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمان ذلك ، قالا : نعم . فلما توفي رسول الله ﷺ قال أبو بكر : أنا ولي رسول الله ﷺ ، فجئت أنت وهذا إلى أبي بكر تطلب أنت ميراثك من ابن أخيك ، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها ، فقال أبو بكر ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « لا نورث ما تركنا صدقة » والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق فوليها أبو بكر ، فلما توفي قلت : أنا ولي رسول الله وولي أبي بكر فوليتها ما شاء الله أن أليها ، فجئت أنت وهذا وأنتما جميع وأمركما واحد فسألتمانيها ، فقلت : « إن شئتما فأنا أدفعها إليكما على أن عليكما عهد الله أن تلياها بالذي كان رسول الله له يليها ، فأخذتماها مني على ذلك ثم جئتماني لأقضي بينكما بغير ذلك والله لا أقضي بينكما بغير ذلك ، حتى تقوم الساعة فإن عجزتما عنها فرداها إلي (١) .

عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : إن الرجل كان يجعل له من ماله النخلات أو كما شاء الله حتى فتحت عليه قريظة والنضير ، قال فجعل يرد بعد ذلك ، قال : وإن أهلي أمروني أن آتي النبي ﷺ فأسأله الذي كان أهله أعطوه أو بعضه ، وكان نبي الله ﷺ قد أعطاه أم أيمن أو كما شاء الله قال : فسألت النبي ﷺ فأعطانيهن ، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب في عنقي وجعلت تقول : كلا والله الذي لا إله إلا هو لا يعطيكهن وقد أعطانيهن ، أو كما قالت فقال نبي الله : « لك كذا وكذا » قال وتقول كلا والله قال ويقول : « لك كذا وكذا » قال : وتقول : كلا والله ، قال : « ويقول لك كذا وكذا » قال : حتى أعطاها - حسبت أنه قال : عشرة أمثاله أو قال قريبًا من عشرة أمثاله ، أو كما قال (٢) . وهذه المصارف المذكورة في هذه الآية هي المصارف المذكورة في خمس الغنيمة .

وقوله تعالى : ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ أي جعلنا هذه المصارف لمال الفيء كيلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء ، ولا يصرفون منه شيئًا إلى الفقراء . وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ أي مهما أمركم به فافعلوه ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شرٍّ . عن عبد الله هو ابن مسعود قال : لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن ، المغيرات خلق الله ﷻ ، قال : فبلغ امرأة من بني أسد في البيت يقال لها : أم يعقوب ، فجاءت إليه فقالت : بلغني أنك قلت كيت وكيت ، قال : ما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وفي كتاب الله تعالى ، فقالت إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته ، فقال : إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه أما قرأت : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ قالت : بلى . قال : فإن رسول الله ﷺ نهى عنه . قالت : إني لأظن أهلك

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/١٠) والبخاري في الاعتصام (٧٣٠٥) وأبو داود في السنن (٢٩٦٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢١٩) .

يفعلونه ، قال : اذهبي فانظري فذهبت فلم تر من حاجتها شيئًا ، فجاءت فقالت : ما رأيت شيئًا ، قال : لو كان كذا لما تجامعنا [١] . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » [٢] وعن عمر وابن عباس أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه نهى عن الدباء والحنتم والنقير والمزفت ، ثم تلا رسول الله ﷺ و﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أي اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجره فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه وارتكب ماعنه زجره ونهاه .

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى مبينًا حال الفقراء المستحقين لمال الفيء أنهم ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ أي خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿ وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ أي هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم وهؤلاء هم سادات المهاجرين . ثم قال تعالى مادحًا للأنصار ومبينًا فضلهم وشرفهم وكرمهم ، وعدم حسدهم وإيثارهم مع الحاجة فقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم . قال عمر : وأوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم كرامتهم ، وأوصيه بالأنصار خيرًا الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل ، أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم [٣] .

قوله تعالى : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم عن أنس قال : قال المهاجرون : يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلًا في كثير ، لقد كفونا المؤنة ، وأشركونا في المهنأ حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله . قال : « لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم » [٤] . وعن أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال دعا النبي ﷺ الأنصار أن يقطع لهم البحرين . قالوا : لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثله ، قال : « إما لا فاصبروا حتى تلقوني ؛ فإنه سيصيبكم أثرة » [٥] .

﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾ أي ولا يجدون في أنفسهم حسدًا للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة . قال الحسن البصري : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ يعني الحسد ﴿ مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾ قال قتادة : يعني فيما أعطي إخوانهم ومما يستدل به

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٤٣) ومسلم في اللباس (١٢٠) وأحمد في مسنده (٤٣٣/١) .
(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨) ومسلم في الحج (٤١٢) وأحمد في مسنده (٥٠٨/٢) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٨٨) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٠/٣) .
(٥) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٧٩٤) .

على هذا المعنى ما رواه أنس قال : كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ فقال : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد علق نعليه بيده الشمال ، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان في اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ مثل مقالته أيضًا ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى ، فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال : إني لا حيت أبي فأقسمت أني لا أدخل عليه ثلاثًا ، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت قال « نعم » .

قال أنس : فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئًا غير أنه إذا تعار تقلب على فراشه ذكر الله وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر ، قال عبد الله : غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرا ، فلما مضت الليالي الثلاث وكدت أن أحتقر عمله ، قلت : يا عبد الله لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لنا ثلاث مرات « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلعت أنت الثلاث المرات ، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به ، فلم أرك تعمل كبيرعمل ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت ، فلما وليت دعاني فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشًا ولا أحسد أحدًا على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله : فهذه التي بلغت بك وهي التي لا تطاق [1]

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾ يعني مما أوتي المهاجرون ، قال : وتكلم في أموال بني النضير بعض من تكلم في الأنصار فعاتبهم الله في ذلك فقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قال : وقال رسول الله ﷺ : « إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم » فقالوا : أموالنا بيننا قطائع ، فقال رسول الله ﷺ : « أو غير ذلك ؟ » قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر » فقالوا : نعم يا رسول الله [2] . وقوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ ﴾ يعني حاجة أي يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ويبدأون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك .

وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أفضل الصدقة جهد المقل » [3] وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ ، وقوله ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ماتصدقوا به ، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به ، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه ، ومن هذا المقام تصدق الصديق ﷺ بجميع ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما أبقيت لأهلك ؟ » فقال ﷺ : أبقيت لهم الله ورسوله [4] ، وهكذا الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه ، وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء ، فرده الآخر إلى الثالث فما وصل إلى الثالث

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٦/٣) . (٢) ذكره الطبري في تفسيره (٥٤/٢٨) .
(٣) ذكره الألباني في إرواء الغليل (٤١٤/٣) والصحيحة (٥٦٦) .
(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٣٦٧٥) وأبو داود في السنن (١٦٧٨) والحاكم في المستدرك (٤١٤/١) .

حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم ﷺ وأرضاهم .

وعن أبي هريرة قال : أتى رجل رسول اللّه ﷺ فقال : يا رسول اللّه أصابني الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا ، فقال النبي ﷺ : « ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله ؟ » فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول اللّه ، فذهب إلى أهله فقال لامرأته : هذا ضيف رسول اللّه ﷺ لا تدخريه شيئًا ، فقالت : واللّه ما عندي إلا قوت الصبية . قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم ، وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة ، ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول اللّه ﷺ فقال : « لقد عجب اللّه ﷻ - أو ضحك - من فلان وفلانة » وأنزل اللّه تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح . فعن جابر بن عبد اللّه أن رسول اللّه ﷺ قال : « إياكم والظلم ؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم ؛ حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » (٢) .

وعن أبي هريرة أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول : « لا يجتمع غبار في سبيل اللّه ودخان جهنم في جوف عبد أبدًا ، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدا » (٣) وعن الأسود بن هلال قال : جاء رجل إلى عبد اللّه فقال : يا أبا عبد الرحمن إني أخاف أن أكون قد هلكت ، فقال له عبد اللّه : وما ذاك ، قال : سمعت اللّه يقول ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ وأنا رجل شحيح لا أكاد أن أخرج من يدي شيئًا ، فقال عبد اللّه : ليس ذلك بالشح الذي ذكر اللّه في القرآن ، إنما الشح الذي ذكر اللّه في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلمًا ، ولكن ذاك البخل ، وبئس الشيء البخل .

وعن أبي الهياج الأسدي قال : كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلًا يقول : اللّهم قني شح نفسي . لا يزيد على ذلك ، فقلت له ، فقال : إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ، ولم أزن ، ولم أفعل ، وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء وهم المهاجرون ثم الأنصار ثم التابعون لهم بإحسان فالتابعون لهم بإحسان هم المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة الداعون لهم في السر والعلانية ، ولهذا قال تعالى : في هذه الآية الكريمة ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ ﴾ أي قائلين ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا ﴾ أي بغضا وحسدًا ﴿ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب ، لعدم اتصافه بما مدح اللّه به هؤلاء في قولهم ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٨٩) ومسلم في الأشربة (١٧٣) والحاكم في المستدرك (١٣٠/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٣/٣) والحاكم في المستدرك (١١/١) والألباني في الصحيحة (٢٣٩/٢) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٦٣٣) والنسائي في السنن (١٣/٦) وابن ماجه في السنن (٢٧٧٤) والحاكم في المستدرك (٧٢/٢) .

وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وعن عائشة قالت : أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ فسببتموهم سمعت نبيكم ﷺ يقول : « لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها »[(١)] قال عمر ﷺ : هذه لرسول الله ﷺ خاصة وقرى عرينة وكذا وكذا مما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل - وللفقراء المهاجرين الذي أخرجوا من ديارهم وأموالهم - والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم - والذين جاءوا من بعدهم ، فاستوعبت هذه الآية الناس فلم يبق أحد من المسلمين إلا له فيها حق . إلا بعض من تملكون من أرقائكم[(٢)] . وعن مالك بن أوس بن الحدثان قال : قرأ عمر بن الخطاب ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ - حتى بلغ - عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ثم قال : هذه لهؤلاء ، ثم قرأ ﴿ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ الآية . ثم قال : هذه لهؤلاء ، ثم قرأ ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ - حتى بلغ ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ - ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ ثم قال : استوعبت هذه المسلمين عامة وليس أحد إلا وله فيها حق ، ثم قال : لئن عشت ليأتين الراعي وهو بسرو حمير نصيبه فيها لم يعرق فيها جبينه[(٣)] .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر من أنفسهم فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أي لكاذبون فيما وعدوهم به إما لأنهم قالوا لهم قولا ومن نيتهم أن لا يفوا لهم به ، وإما لأنهم لا يقع منهم الذي قالوه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ ﴾ أي لا يقاتلون معهم ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ ﴾ أي قاتلوا معهم ﴿ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ وهذه بشارة مستقلة بنفسها ، ثم قال تعالى : ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله كقوله تعالى : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ ولهذا

---

(١) أخرجه الطبراني في الصغير (٨٣/٢) وابن أبي شيبة في مصنفه (١٢٥/١٥) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (١٣٧/٧) .

(٣) أورده الطبراني في تفسيره (٤٨/٢٨) والسيوطي في الدر المنثور (١٠٢/٧) وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو داود وابن المنذر وغيرهم .

قال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ﴾ يعني أنهم من جبنهم وهلعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقابلة بل إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة . ثم قال تعالى : ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ أي : عداوتهم فيما بينهم شديدة ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ أي : تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين وهم مختلفون غاية الاختلاف . قال إبراهيم النخعي : يعني أهل الكتاب والمنافقين ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قيل : كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر .

وقال ابن عباس : كمثل الذين من قبلهم يعني يهود بني قينقاع . وهذا القول أشبه بالصواب فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا . وقوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ ﴾ يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين وقول المنافقين لهم : لئن قوتلتم لننصرنكم ، ثم لما حقت الحقائق وجدَّ بهم الحصار والقتال تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة ، مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذ سوَّل للإنسان - والعياذ بالله - الكفر فإذا دخل فيما سوله له تبرأ منه وتنصل وقال : ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . وقد ذكر بعضهم ههنا قصة لبعض عبّاد بني إسرائيل هي كالمثال لهذا المثل لا أنها المرادة وحدها بالمثل بل هي منه مع غيرها من الوقائع المشاكلة لها ، عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال : كانت امرأة ترعى الغنم وكان لها أربعة إخوة وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب قال : فنزل الراهب ففجر بها فحملت فأتاه الشيطان فقال له : اقتلها ثم ادفنها فإنك رجل مصدَّق يسمع قولك ، فقتلها ثم دفنها . قال : فأتى الشيطان إخوتها في المنام فقال لهم : إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا فلما أصبحوا قال رجل منهم : والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري أقصها عليكم أم أترك ؟ قالوا : لا بل قصها علينا قال : فقصها ، فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت ذلك ، فقال الآخر : وأنا والله قد رأيت ذلك ؛ قالوا : فوالله ما هذا إلا لشيء ، قال : فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب ، فأتوه فأنزلوه ثم انطلقوا به ، فلقيه الشيطان فقال : إني أنا الذي أوقعتك في هذا ولن ينجيك منه غيري فاسجد لي واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه ، قال فسجد له ، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منهم وأخذ فقتل [(١)] . وقوله تعالى : ﴿ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ﴾ أي فكان عاقبة الأمر بالكفر والفاعل له ومصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي جزاء كل ظالم .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ .

---

(١) أورده الطبري في تفسيره (٦٤/٢٨) والسيوطي في الدر المنثور (١١٣/٧) وعزاه لابن أبي حاتم .

عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار قال : « فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء متقلدي السيوف عامتهم من مضر بل كلهم من مضر ، فتغيّر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة قال : فدخل ثم خرج فأمر بلالًا فأذّن وأقام الصلاة فصلّى ثم خطب فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ .. ﴾ إلى آخر الآية وقرأ الآية التي في الحشر ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ » حتى قال : « وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ » قال : فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت ، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه كأنه مذهبة ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنة حَسَنَة ؛ فَلَهُ أَجْرُهَا وأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنة سَيِّئَة كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أمر بتقواه وهو يشمل فعل ما به أمر وترك ما عنه زجر .

وقوله تعالى : ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ تأكيد ثان ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ . أي لا تنسوا ذكر الله تعالى فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم التي تنفعكم في معادكم فإن الجزاء من جنس العمل ولهذا قال تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ أي الخارجون عن طاعة الله الهالكون يوم القيامة الخاسرون يوم معادهم . عن نعيم بن نمحة قال : كان في خطبة أبي بكر الصديق ﷺ : أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم ؟ فمن استطاع أن يقضي الأجل وهو في عمل الله ﷻ فليفعل ، ولن تنالوا ذلك إلّا بالله ﷻ ، إن قومًا جعلوا آجالهم لغيرهم فنهاكم الله ﷻ أن تكونوا أمثالهم ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أين من تعرفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدموا في أيام سلفهم وخلوا بالشقوة والسعادة ، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تفنى عجائبه فاستضيئوا منه ليوم ظلمة ، واستضيئوا بسنائه وبيانه ، إن الله تعالى أثنى على زكريا وأهل بيته فقال تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ لا خير في قول لا يراد به وجه الله ، ولا خير في مال لا ينفق في سبيل الله ، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه ، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم (٢) . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي : لا يستوى هؤلاء وهؤلاء في حكم الله تعالى يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٤٣٢) ومسلم في الزكاة (٦٩) والطبراني في الكبير (٢/٣٧٤) .
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١/٦٠) .

مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ وهناك آيات أخر دالات على أن الله تعالى يكرم الأبرار ويهين الفجار ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ أي الناجون المسلمون من عذاب الله ﷻ .

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

يقول تعالى معظمًا لأمر القرآن ومبينًا علو قدره وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ . أي : فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبَّر ما فيه فيه لخشع وتصدَّع من خوف الله ﷻ ، فكيف يليق بكم يا أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ عن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا ﴾ إلى آخرها يقول : لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه لتصدع وخشع من ثقله ومن خشية الله فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع . ثم قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وثبت في الحديث المتواتر أن رسول الله ﷺ لما عمل له المنبر ، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد ، فلما وضع المنبر أول ما وضع وجاء النبيّ ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر ، فعند ذلك حنَّ الجذع وجعل يئن كما يئن الصبي الذي يسكن لما كان يسمع من الذكر والوحي عنده . ففي بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصري بعد إيراده : فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع .

وهكذا هذه الآية الكريمة : إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت وتصدعت من خشيته فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم ؟ ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ أخبر تعالى أنه الذي لا إله إلَّا هو فلا رب غيره ولا إله للوجود سواه ، وكل ما يعبد من دونه فباطل ، وأنه عالم الغيب والشهادة أي يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا ، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء من جليل وحقير وصغير وكبير حتى الذر في الظلمات . وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ المراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما وقد قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ ﴾ أي المالك لجميع الأشياء المتصرِّف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة . وقوله تعالى : ﴿ الْقُدُّوسُ ﴾ : أي الطاهر ، وقيل : تقدِّسه الملائكة الكرام ﴿ السَّلَامُ ﴾ أي من جميع العيوب والنقائص لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله .

وقوله تعالى : ﴿ الْمُؤْمِنُ ﴾ أي :أمن خلقه من أن يظلمهم . وقيل : أمن بقوله إنه حق . وقيل : صدق عباده المؤمنين في إيمانهم به . وقوله تعالى : ﴿ الْمُهَيْمِنُ ﴾ أي الشاهد على خلقه بأعمالهم ،

بمعنى هو رقيب عليهم . وقوله تعالى : ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي الذي قد عزَّ كل شيء فقهره وغلب الأشياء فلا ينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه ولهذا قال تعالى : ﴿ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ أي : الذي لا تليق الجبرية إلَّا له ولا التكبُّر إلَّا لعظمته كما تقدم في الصحيح : « العَظَمَةُ إِزَارِي وَالكِبْرِيَاءُ رِدَائِي ، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ » (١) . وقال قتادة : الجبار الذي جبر خلقه على ما يشاء . وقال ابن جرير : ﴿ ٱلْجَبَّارُ ﴾ المصلح أمور خلقه ، والمتصرِّف فيهم بما فيه صلاحهم . وقال قتادة : ﴿ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ يعني عن كل سوء . ثم قال تعالى : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ الخالق : القدير والبرء هو : الفري وهو التنفيذ وإبراز ما قدّره وقرّره إلى الوجود وليس كل من قدّر شيئًا ورتبه على تنفيذه وإيجاده سوى الله ﷻ .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ أي الذي إذا أراد شيئًا قال له : كن فيكون على الصفة التي يريد والصورة التي يختار ، ولهذا قال : ﴿ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ أي الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها وقوله تعالى : ﴿ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « إِنَّ للّه تَعَالَى تِسْعَةً وَتِسْعِينَ مِائَةٌ اسمًا إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجنَّةَ ، وَهُوَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي فلا يرام جنابه ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في شرعه وقدره . عن معقل بن يسار عن النبيِّ ﷺ قال : « مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ : أَعُوذُ بِاللَّه السَّمِيعِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، ثم قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر ؛ وَكَّلَ اللَّه بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يُمْسِي ، وَإِنْ مَاتَ فِي ذلِكَ اليَوْمِ مَاتَ شَهِيدًا ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي كَانَ بِتِلْكَ المَنْزِلَةِ » (٣) .

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٩٠) وابن ماجه في الزهد (٤١٧٤) وأحمد في مسنده (٣٧٦/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٩٢) ومسلم في الذكر والدعاء (٦) والترمذي في السنن (٣٥٠٦) وأحمد في مسنده (٢٥٨/٢) والحاكم في المستدرك (١٦/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦/٥) والترمذي في السنن (٢٩٢٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤٧٧/١) .

سورة الممتحنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

كان سبب نزول من هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبي بلتعة فعن عبيد اللَّه بن أبي رافع أنه سمع عليًّا ﷺ يقول : بعثني رسول اللَّه ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال : « انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخ فَإِنَّ بِهَا ظَعِينة مَعَهَا كِتَابٌ فَخُذوهُ مِنْهَا » ، فانطلقنا تعادى بنا خلينا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة ، قلنا : أخرجي الكتاب ، قالت : ما معي كتاب ، قلنا : لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب ، قال : فأخرجت الكتاب من عقاصها ، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول اللَّه ﷺ ، فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول اللَّه ﷺ . فقال رسول اللَّه ﷺ : « يَا حَاطِبُ مَا هذَا ؟ » . قال : لا تعجل عليَّ إني كنت امرأ ملصقًا في قريش ولم أكن من أنفسهم . وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدًا يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفرًا ولا ارتدادًا عن ديني ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام . فقال رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّهُ صَدَقَكُمْ » . فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّه اطَّلَعَ إلى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ »(١) . فأنزل اللَّه السورة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ .

وقد ذكر ذلك أصحاب المغازي والسير فقال محمّد بن إسحاق بن يسار فيما يرويه عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا قال : لما أجمع رسول اللَّه ﷺ المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابًا إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول اللَّه ﷺ من الأمر في السير إليهم ثم أعطاه امرأة ، زعم محمّد بن جعفر أنها من مزينة ، وزعم غيره أنها سارة مولاة لبني عبد المطلب ، وجعل لها جعلًا على أن تبلغه لقريش فجعلته في رأسها ثم فتلت عليه قرونها ثم خرجت به ، وأتى رسول اللَّه ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث علي بن أبي طالب والزبير ابن العوام فقال : « أَدْرِكَا امْرَأَة قَدْ كَتَبَ مَعَهَا حَاطِبٌ كِتَابًا إِلَى قُرَيْشٍ يُحَذِّرُهُمْ مَا قَدْ أَجْمَعْنَا لَهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ » فخرجا حتى أدركاها بالحليفة حليفة بني أبي أحمد فاستنزلاها بالحليفة فالتمسا في رحلها فلم يجدا شيئًا ، فقال لها علي بن أبي طالب : إني أحلف باللَّه ما كذب رسول اللَّه وما كذبنا ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك ، فلما رأت الجد منه قالت : أعرض ، فأعرض فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها فدفعته إليه فأتى

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٠) ومسلم في الفضائل (١٦١) وأحمد في مسنده (٧٩/١) والترمذي في السنن (٣٣٠٥) وروضة خاخ : موضع بين الحرمين بقرب صحراء الأسد من المدينة (انظر معجم البلدان) والعقاص : خيط تشد به المرأة أطراف ذوائبها .

به رسول الله ﷺ فدعا رسول الله ﷺ حاطبًا فقال : « يَا حَاطِبُ مَا حَمَلَكَ عَلَى هذَا ؟ » . فقال : يا رسول الله أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله ما غيرت ولا بدلت ولكني كنت امرأ ليس لي في القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق . فقال رسول الله ﷺ : « وَمَا يُدْرِيكَ يَا عُمَرُ ؟! لَعَلَّ اللَّه قَد اطَّلَعَ إِلَى أَصْحَابِ بَدْرٍ يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ » . فأنزل الله ﷻ في حاطب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ .. ﴾ إلى قوله : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ إلى آخر القصة [1] .

وعن حذيفة يقول : ضرب لنا رسول الله ﷺ أمثالًا واحدًا وثلاثة وخمسة وسبعة وتسعة وأحد عشر قال : فضرب لنا منها مثلًا وترك سائرها قال : « إِنَّ قَوْمًا كَانُوا أَهْلَ ضَعْفٍ وَمَسْكَنَةٍ قَاتَلَهُمْ أَهْلُ تَجَبُّرٍ وَعِدَاءٍ ، فَأَظْهَرَ اللَّهُ أَهْلَ الضَّعْف عَلَيْهِمْ ، فَعَمَدُوا إِلَى عَدُوِّهِمْ فَاسْتَعْمَلُوهُمْ وَسَلَّطُوهُمْ فَأَسْخَطُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ » [2] . وقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم ؛ لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده . ولهذا قال تعالى : ﴿ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ أي : لم يكن لكم عندهم ذنب إلَّا إيمانكم بالله رب العالمين . وقوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ﴾ أي : إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم فلا توالوا أعدائي وأعداءكم وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حنقًا عليكم وسخطًا لدينكم . وقوله تعالى : ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ﴾ أي :تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر . ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ﴾ أي : لو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال ﴿ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي : ويحرصون على أن لا تنالوا خيرًا فهم عداوتهم لكم كامنة وظاهرة ، فكيف توالون مثل هؤلاء ؟ وهذا تهييج على عداوتهم أيضًا . وقوله تعالى : ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي : قراباتكم لا تنفعكم عند الله إذا أراد الله بكم سوءًا ونفعهم لا يصل إليكم إذا ارضيتموهم بما يسخط الله ، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر وضل عمله ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد ولو كان قريبًا إلى نبي من الأنبياء . عن أنس أن رجلًا قال : يا رسول الله أين أبي ؟ قال : « فِي النَّارِ » . فلما قفى دعاه فقال : « إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ » [3] .

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٤/٤٠ - ٤١) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٤٠٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٤٧) وأحمد في مسنده (٣/١٧٧) وابن ماجه في السنن (١٥٧٣) والبيهقي في السنن (٧/١٩٠) .

ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ .

يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين وعداوتهم ومجانبتهم والتبري منهم ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ أي : وأتباعه الذين آمنوا معه ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا مِنكُمْ ﴾ أي تبرأنا منكم ﴿ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ أي بدينكم وطريقكم ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا ﴾ يعني وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم ما دمتم على كفركم ، فنحن أبدًا نتبرأ منكم ونبغضكم ﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ أي : إلى أن توحدوا اللّٰه فتعبدوه وحده لا شريك له تخلعوا ما تعبدون معه من الأوثان والأنداد . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ أي : لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها إلَّا في استغفار إبراهيم لأبيه ؛ فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو للّٰه تبرأ منه ، وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم ويقولون : إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه فأنزل اللّٰه ﷻ : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُولِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ . وقال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا مِنكُمْ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ ﴾ أي ليس لكم في ذلك أسوة أي في الاستغفار للمشركين .

ثم قال تعالى مخبرًا عن قول إبراهيم والذين معه حين فارقوا قومهم وتبرأوا منهم ، فلجأوا إلى اللّٰه وتضرعوا إليه : فقالوا ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي : توكلنا عليك في جميع الأمور وسلمنا أمورنا إليك وفوضناها إليك ﴿ وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي المعاد في الدار الآخرة ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قال مجاهد : معناه لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا ، وقال قتادة : لا تظهرهم علينا فيفتتنوا بذلك ؛ يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه . واختاره ابن جرير ، وقال ابن عبّاس : لا تسلطهم علينا فيفتنونا . وقوله تعالى : ﴿ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي : واستر ذنوبنا عن غيرك واعف عنها فيما بيننا وبينك ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي الذي لا يضام من لاذ بجنابك ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك . ثم قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَۚ ﴾ وهذا تأكيد لما تقدم ومستثنى منه ما تقدم أيضًا ؛ لأن هذه الأسوة المثبتة ههنا هي الأولى بعينها ، وقوله تعالى : ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَۚ ﴾ تهييج إلى ذلك لكل مؤمن باللّٰه والمعاد . وقوله تعالى ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أي : عما أمر اللّٰه به ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ عن ابن عبّاس : ﴿ ٱلْغَنِيُّ ﴾ الذي قد كمل في غناه وهو اللّٰه هذه صفته لا تنبغي إلَّا له ، ليس له كفؤ وليس كمثله شيء ، سبحانه اللّٰه الواحد القهار ، و ﴿ ٱلْحَمِيدُ ﴾ المستحمد إلى خلقه أي هو المحمود في جميع أقواله وأفعاله لا إله غيره ولا رب سواه .

﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةًۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ

لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةًۚ ﴾ أي محبة بعد البغضة ومودة بعد النفرة وألفة بعد الفرقة ﴿ وَٱللَّهُ قَدِيرٌۚ ﴾ أي على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة والمتباينة والمختلفة ، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة فتصبح مجتمعة متفقة ، كما قال تعالى ممتنًا على الأنصار : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ ﴾ الآية . وكذا قال لهم النبيُّ ﷺ : « أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي ؟ » (١) . وفي الحديث : « أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عسى أن يَكونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا ، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا » (٢) . وقال الشاعر :

وَقَدْ يَجْمَعُ اللَّه الشَّتِيتَيْنِ بَعْدَمَا ... يَظُنَّانِ كُلَّ الظَّنِّ أَنْ لَا تَلَاقِيَا

وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه وأنابوا إلى ربهم وأسلموا له وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه من أي ذنب كان .

قال مقاتل بن حيان : إن هذه الآية نزلت في أبي سفيان صخر بن حرب ، فإن رسول الله ﷺ تزوج ابنته فكانت هذه مودة ما بينه وبينه ، وفي هذا الذي قاله مقاتل نظر ؛ فإن رسول الله ﷺ تزوج بأم حبيبة بنت أبي سفيان قبل الفتح وأبو سفيان إنما أسلم ليلة الفتح بلا خلاف ، وأحسن من هذا ما رواه ابن شهاب أن رسول الله ﷺ استعمل أبا سفيان صخر بن حرب على بعض اليمن فلما قبض رسول الله ﷺ أقبل فلقي ذا الخمار مرتدًا فقاتله ؛ فكان أول من قاتل في الردة وجاهد عن الدين ، قال ابن شهاب : وهو ممن أنزل الله فيه : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةًۚ ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾ ولم يظاهروا أي : يعانوا على إخراجكم أي : لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم في الدين كالنساء والضعفة منهم ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ أي : تحسنوا إليهم ﴿ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ ﴾ أي تعدلوا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ . عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا فأتيت النبيَّ ﷺ فقلت : يا رسول الله إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصلها ؟ قال : « نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ وقد ورد في الحديث الصحيح : « الْمُقْسِطُونَ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عن يَمِينِ الْعَرْشِ ؛ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهَالِيهِمْ وَمَا وُلُّوا » (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ ﴾ أي : إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة فقاتلوكم وأخرجوكم وعاونوا على إخراجكم ينهاكم الله عز وجل عن موالاتهم ويأمركم بمعاداتهم . ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال :

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٣٠) . (٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٩٩٧) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٧/٦) والبخاري في الهبة (٢٦٢٠) ومسلم في الزكاة (٥٠) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٣/٢) والحاكم في المستدرك (٨٨/٤) والبيهقي في السنن (٨٧/١٠) .

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ .

تقدم في سورة الفتح ذكر صلح الحديبية الذي وقع بين رسول اللَّه ﷺ وبين كفار قريش ، فكان فيه : على أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلَّا رددته إلينا ، وفي رواية : على أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلَّا رددته إلينا . فعلى هذه الرواية تكون هذه الآية مخصِّصة للسنة ، وهذا من أحسن أمثلة ذلك وعلى طريقة بعض السلف ناسخة ، فإن اللَّه عز وجل أمر عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهن فإن علموهن مؤمنات فلا يرجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهنَّ . وعن عبد اللَّه بن أبي أحمد قال : هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط في الهجرة فخرج أخواها عمارة والوليد حتى قدما على رسول اللَّه فكلماه فيها أن يردها إليهما فنقض اللَّه العهد بينه وبين المشركين في النساء خاصة فمنعهم أن يردوهن إلى المشركين وأنزل اللَّه آية الامتحان (١) . وعن أبي نصر الأسدي قال : سئل ابن عبَّاس كيف كان امتحان رسول اللَّه ﷺ النساء ؟ قال : كان يمتحنهن باللَّه ما خرجت من بغض زوج ، وباللَّه ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، وباللَّه ما خرجت التماس دنيا ، وباللَّه ما خرجت إلَّا حبًا للَّه ولرسوله . ثم رواه من وجه آخر عن الأغر بن الصباح به . وكذا رواه البزار من طريقه وذكر فيه أن الذي كان يحلفهن عن أمر رسول اللَّه ﷺ له عمر بن الخطاب (٢) .

وقال ابن عباس : كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلَّا اللَّه وأن محمَّدًا عبد اللَّه ورسوله ، وقال مجاهد : ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ فاسألوهن عما جاء بهن فإن كان جاء بهن غضب على أزواجهن أو سخطة أو غيره ولم يؤمنَّ فأرجعوهنَّ إلى أزواجهنَّ ، وقال عكرمة : يقال لها : ما جاء بك إلَّا حب اللَّه ورسوله ، وما جاء بك عشق رجل منا ولا فرار من زوجك ، فذلك قوله ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ وقال قتادة : كانت محنتهن أن يستحفلن باللَّه ما أخرجكن النشوز وما أخرجكن إلَّا حب الإسلام وأهله وحرص عليه ، فإذا قلن ذلك قبل منهن . وقوله تعالى : ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقينًا . وقوله تعالى : ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين وقد كان جائزًا في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة ، ولهذا كان أمر أبي العاص بن الربيع زوج ابنة النبيّ ﷺ زينب رضي الله عنها وقد كانت مسلمة وهو على دين قومه ، فلما وقع في الأسارى يوم بدر بعثت امرأته زينب في فدائه بقلادة لها كانت لأمها خديجة ، فلما رآها رسول اللَّه ﷺ رقَّ لها رقة شديدة ، وقال للمسلمين : « إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا فَافْعَلُوا » (٣) ففعلوا ، فأطلقه رسول اللَّه ﷺ على أن يبعث ابنته إليه فوفى له بذلك وصدقه فيما وعده وبعثها إلى

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢٢/٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٣/٧) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٨٥/٢٨ ، ٨٦) والسيوطي في الدر المنثور (١٣٧/٧) وعزاه إلى البزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦١/١) وابن ماجه في السنن (٦٤٧/١) .

رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة ﷺ فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر وكانت سنة اثنتين إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان فردها إليه بالنكاح الأول ولم يحدث لها صداقًا . ومنهم من يقول بعد سنتين وهو صحيح ؛ لأن إسلامه كان بعد تحريم المسلمات على المشركين بسنتين .

وأجاب الجمهور عن حديث ابن عبّاس بأن ذلك كان قضية عين يحتمل أنه لم تنقض عدتها منه ؛ لأن الذي عليه الأكثرون أنها متى انقضت العدة ولم يسلم انفسخ نكاحها منه . وقال آخرون : بل إذا انقضت العدة هي بالخيار إن شاءت أقامت على النكاح واستمرت ، وإن شاءت فسخته وذهبت فتزوجت ، وحملوا عليه حديث ابن عبّاس والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ﴾ يعني أزواج المهاجرات من المشركين ادفعوا إليهم الذي غرموه عليهن من الأصدقة . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ يعني إذا أعطيتموهن أصدقتهن فأنكحوهن أي تزوجوهن بشرطه من انقضاء العدة والولي وغير ذلك . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ تحريم من الله ﷻ على عباده المؤمنين نكاح المشركات والاستمرار معهن .

عن المسور ومروان بن الحكم أن رسول الله ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء من المؤمنات فأنزل الله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ فطلق عمر بن الخطّاب يومئذ امرأتين تزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية [(١)] . وعن الزهري : أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو بأسفل الحديبية حين صالحهم على أنه من أتاه منهم رده إليهم فلما جاء النساء نزلت هذه الآية وأمره أن يرد الصداق إلى أزواجهن وحكم على المشركين مثل ذلك ؛ إذا جاءتهم امرأة من المسلمين أن يردوا الصداق إلى أزواجهن وقال : ﴿ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ . قال الزهري : طلق عمر يومئذ قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة فتزوجها معاوية ، وأم كلثوم بنت عمرو بن جرول الخزاعية وهي أم عبد الله فتزوجها أبو جهم ابن حذيفة بن غانم رجل من قومه وهما على شركهما ، وطلّق طلحة بن عبد الله أروى بنت ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب فتزوجها بعده خالد بن سعيد بن العاص . .

وقوله تعالى : ﴿ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ﴾ أي وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم اللاتي يذهبن إلى الكفار إن ذهبن ، وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين . وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ أي في الصلح واستثناء النساء منه ، والأمر بهذا كله هو حكم الله يحكم به بين خلقه ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عليم بما يصلح عباده حكيم في ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ﴾ قال مجاهد وقتادة : هذا في الكفار الذين ليس لهم عهد إذا فرت إليهم امرأة ولم يدفعوا إلى زوجها شيئًا ، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها شيء حتى يدفع إلى زوج الذاهبة إليهم مثل نفقته عليها . وقال الزهري : أقر المؤمنون بحكم الله فأدّوا ما أمروا به من نفقات المشركين التي أنفقوا على نسائهم وأبى المشركون أن يقرّوا بحكم الله فيما فرض عليه من أداء نفقات المسلمين ، فقال الله تعالى للمؤمنين به : ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط (٢٧٣١) وأحمد في مسنده (٢٣١/٤) .

أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ فلو أنها ذهبت بعد هذه الآية امرأة من أزواج المؤمنين إلى المشركين رد المؤمنون إلى زوجها النفقة التي أنفق عليها من العقب الذي بأيديهم الذي أمروا أن يردوه على المشركين من نفقاتهم التي أنفقوا على أزواجهم اللاتي آمنَّ وهاجرن ، ثم ردوا إلى المشركين فضلًا إن كان بقي لهم ، والعقب ما كان بقي من صداق نساء الكفار حين آمنَّ وهاجرن . ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ أصبتم غنيمة من قريش أو غيرهم ﴿ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ﴾ يعني مهر مثلها . وهذا لا ينافي الأول ؛ لأنه إن أمكن الأول فهو الأولى وإلَّا فمن الغنائم اللاتي تؤخذ من أيدي الكفار ، وهذا أوسع ، وهو اختيار ابن جرير ولله الحمد والمنة .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

عن عائشة زوج النبيِّ ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يمتحنِ من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قالت عائشة : فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ : « قَدْ بَايَعْتُكِ » كلامًا ، ولا والله ما مسَّت يده يد امرأة في المبايعة قط ، ما يبايعهن إلَّا بقوله : « قَدْ بَايَعْتُكِ عَلَى ذٰلِكَ » (١) . وعن أميمة بنت رقيقة قالت : أتيت رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه فأخذ علينا ما في القرآن أن لا نشرك بالله شيئًا الآية وقال : « فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ » . قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ، قلنا : يا رسول الله ألا تصافحنا ؟ قال : « إِنِّي لَا أُصَافِحُ النِّسَاءَ ، إِنَّمَا قَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ قَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ » (٢) .

وعن سلمى بنت قيس – وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ وقد صلت معه القبلتين ، وكانت إحدى نساء بني عدي بن النجار – قالت : جئت رسول الله ﷺ نبايعه في نسوة من الأنصار فلما شرط علينا ألا نشرك بالله شيئًا ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف ، قال : « وَلَا تَغْشُشْنَ أَزْوَاجَكُنَّ » ، قالت : فبايعناه ، ثم انصرفنا ، فقلت لامرأة منهن : ارجعي فسلي رسول الله ﷺ : ما غش أزواجنا ؟ قال : فسألته فقال : « تَأْخُذُ مَالَهُ فَتُحَابِي بِهِ غَيْرَهُ » (٣) .

وعن أم عطية قالت : أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة أن لا ننوح فما وفت منا امرأة غير خمس نسوة : أم سليم وأم العلاء وابنة أبي سبرة امرأة معاذ وامرأتان أو ابنة أبي سبرة وامرأة معاذ وامرأة أخرى(٤) . وقد كان رسول الله ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة يوم العيد . وعن ابن عبَّاس قال : شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فكلهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب بعد ، فنزل نبي الله ﷺ فكأني أنظر إليه حين يجلس الرجال بيده ، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ حتى فرغ من الآية كلها ، ثم قال حين فرغ : « أَنْتُنَّ عَلَى ذٰلِكَ ؟ » . فقالت امرأة واحدة ولم يجبه غيرها : نعم يا رسول

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٧/٦) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٩/٦) .
(٤) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٠٦) .

اللَّه - لا يدري حسن من هي - قال : فَتَصَدَّقْنَ قال : وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفتخ والخواتيم في ثوب بلال (١) . وعن عبادة بن الصامت قال : كنا عند رسول اللَّه ﷺ في مجلس فقال : « تُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّه شَيْئًا وَلَا تَسْرِقُوا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ - قرأ الآية التي أخذت على النساء ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ ﴾ فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّه ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللَّه عَلَيْهِ فَهُوَ إِلَى اللَّه إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ » (٢) .

وعن عائشة قالت : جاءت هند بنت عتبة إلى رسول اللَّه ﷺ لتبايعه فنظر إلى يدها فقال : « اذْهَبِي فَغَيِّرِي يَدَكِ » فذهبت فغيرتها بحناء ثم جاءت فقال : « أُبَايِعُكِ عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكِي بِاللَّه شَيْئًا » فبايعته وفي يدها سواران من ذهب فقالت : ما تقول في هذين السوارين ؟ فقال : « جَمْرَتَانِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ » (٣) .

فقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ أي من جاءك منهن يبايع على هذه الشروط فبايعها على أن لا يشركن باللَّه شيئًا ولا يسرقن أموال الناس الأجانب ، فأما إذا كان الزوج مقصرًا في نفقتها فلها أن تأكل من ماله بالمعروف ما جرت به عادة أمثالها وإن كان من غير علمه عملًا بحديث هند بنت عتبة أنها قالت : يا رسول اللَّه ﷺ إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بنيَّ ، فهل علي جناح إن أخذت من ماله بغير علمه ؟ فقال رسول اللَّه ﷺ : « خُذِي مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ مَا يَكْفِيكِ وَيَكْفِي بَنِيكِ » (٤) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزْنِينَ ﴾ عن عائشة قالت : جاءت فاطمة بنت عتبة تبايع رسول اللَّه ﷺ فأخذ عليها ﴿ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ ﴾ الآية قال : فوضعت يدها على رأسها حياء فأعجبه ما رأى منها ، فقالت عائشة : أقري أيتها المرأة فواللَّه ما بايعنا إلَّا على هذا ، قالت : فنعم إذًا ، فبايعها بالآية (٥) . وعن عامر الشعبي قال : بايع رسول اللَّه ﷺ النساء وعلى يده ثوب قد وضعه على كفه ثم قال : « ولا تقتلن أولادكن » . فقالت امرأة : تقتل آباءهم وتوصي بأولادهم ؟ قال : وكان بعد ذلك إذا جاءت النساء يبايعنه جمعهن فعرض عليهن فإذا أقررن رجعن ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ ﴾ وهذا يشمل قتله بعد وجوده كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق ويعم قتله وهو جنين كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء تطرح نفسها لئلا تحبل إما لغرض فاسد أو ما أشبهه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ قال ابن عبَّاس : يعني لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم ، وعن أبي هريرة أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعنة : « أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَدْخَلَتْ عَلَى قَوْمٍ مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ فَلَيْسَتْ مِنَ اللَّه فِي شَيْءٍ ، وَلَنْ يُدْخِلَهَا اللَّه الجَنَّةَ ، وَأَيُّمَا رَجُلٍ جَحَدَ وَلَدَهُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ احْتَجَبَ اللَّه مِنْهُ وَفَضَحَهُ عَلَى رُؤُوسِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ » (٦) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ يعني فيما أمرتهن به من معروف ونهيتهن عنه من منكر . عن

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٥) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٤) ومسلم في الحدود (٤١) والترمذي في السنن (١٤٣٩) وأحمد في مسنده (٣١٤/٥) .
(٣) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٧/٦) وأبو يعلى في مسنده (٤٧٥٤) .
(٤) أخرجه البخاري في النفقات (٥٣٧٠) ومسلم في الأقضية (٧) والنسائي في السنن (٢٤٧/٨) والدارمي في السنن (١٥٩/٢) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٥١/٦) . (٦) أخرجه الدارمي في السنن (١٥٣/٢) .

ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ قال : إنما هو شرط شرطه اللَّه للنساء [١] . وقال ميمون بن مهران : لم يجعل اللَّه طاعة لنبيه إلَّا في المعروف والمعروف طاعة ، وقال ابن زيد : أمر اللَّه بطاعة رسوله وهو خيرة اللَّه من خلقه في المعروف . وعن ابن عبّاس وأنس بن مالك وسالم بن أبي الجعد وأبي صالح وغير واحد نهاهن يومئذ عن النوح . وعن أم عطية قالت : لما قدم رسول اللَّه ﷺ جمع نساء الأنصار في بيت ، ثم أرسل إلينا عمر بن الخطاب ﷺ فقام على الباب وسلّم علينا فرددن أو فرددنا عليه السلام ثم قال : أنا رسول رسول اللَّه ﷺ إليكن ، فقالت : فقلنا : مرحبًا برسول اللَّه وبرسول رسول اللَّه ، فقال : تبايعن على أن لا تشركن باللَّه شيئًا ولا تسرقن ولا تزنين ، قالت : فقلنا : نعم ، قالت : فمد يده من خارج الباب أو البيت ومددنا أيدينا من داخل البيت ثم قال : اللهم اشهد ، قالت : وأمرنا في العيدين أن نخرج فيه الحيض والعواتق ولا جمعة علينا ، ونهانا عن اتباع الجنائز ، قال إسماعيل : فسألت جدتي عن قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ قالت : النياحة .

عن عبد اللَّه بن مسعود قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ وَشَقَّ الجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ » [٢] . وعن أبي موسى أن رسول اللَّه ﷺ برئ من الصالقة والحالقة والشاقة [٣] . وعنه ﷺ قال : « أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ : الفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ » وقال : « النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ » [٤] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾ .

ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر هذه السورة كما نهى عنها في أولها فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني اليهود والنصارى ، وسائر الكفّار ممن غضب اللَّه عليه ولعنه واستحق من اللَّه الطرد والإبعاد ، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء وقد يئسوا من الآخرة ، أي من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم اللَّه ﷻ . وقوله تعالى : ﴿ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾ فيه قولان أحدهما : كما يئس الكفار الأحياء من قراباتهم الذين في القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك ؛ لأنهم لا يعتقدون بعثًا ولا نشورًا فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه . قال ابن عبّاس : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ إلى آخر السورة يعني من مات من الذين كفروا فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم أو يبعثهم اللَّه ﷻ ، وقال الحسن البصري : ﴿ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾ قال : الكفار الأحياء قد يئسوا من الأموات ، وقال قتادة : كما يئس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا ، وكذا قال الضحاك رواهن ابن جرير . والقول الثاني : معناه كما يئس الكفار الذين هم في القبور من كل خير . وعن ابن مسعود قال : كما يئس هذا الكافر إذا مات وعاين ثوابه واطلع عليه .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٣) .

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥١٩) ومسلم في الإيمان (١٦٥) وأحمد في مسنده (١/٣٨٦) والبيهقي في السنن (٤/٦٣) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٦٥) .

(٤) أخرجه مسلم في الجنائز (٢٩) والترمذي في السنن (١٠٠١) وأحمد في مسنده (٢/٤٥٥) والبيهقي في السنن (٤/٦٣) .

سورة الصف

عن عبد اللَّه بن سلام قال : قعدنا نفرًا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ فتذاكرنا فقلنا : لو نعلم أي الأعمال أحبُّ إلى اللَّه ﷻ لعملناه فأنزل اللَّه تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ قال عبد اللَّه بن سلام : فقرأها علينا رسول اللَّه ﷺ قال أبو سلمة : فقرأها علينا ابن سلام . قال يحيى : فقرأها علينا أبو سلمة ، قال ابن كثير : فقرأها علينا الأوزاعي . قال عبد اللَّه : فقرأها علينا ابن كثير(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ إنكار على من يعد وعدًا أو يقول قولًا لا يفي به ، ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقًا سواء ترتب عليه عزم للموعود أم لا ، واحتجوا أيضًا من السنّة بما ثبت في الصحيحين أن رسول اللَّه ﷺ قال : « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثَة : إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ » (٢) . وفي الحديث الآخر : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فيه كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا» (٣) . ولهذا أكد اللَّه تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ . عن عبد اللَّه بن عامر بن ربيعة قال : أتانا رسول اللَّه ﷺ وأنا صبي فذهبت لأخرج لألعب ، فقالت أمي : يا عبد اللَّه تعال أعطك ، فقال لها رسول اللَّه ﷺ : « وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيهِ ؟» فقالت : تمرًا ، فقال : « أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تَفْعَلِي كُتِبَتْ عَلَيْكِ كِذْبَة » (٤) . وذهب الإمام مالك رحمه اللَّه تعالى إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزم على الموعود وجب الوفاء به ، كما لو قال لغيره تزوج ولك علي كل يوم كذا ، فتزوج ، وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك لأنه تعلق به حق آدمي وهو مبني على المضايقة . وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقًا ، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم فلما فرض نكل عنه بعضهم . عن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لوددنا أن اللَّه ﷻ دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به ، فأخبر اللَّه نبيّه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به . فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره ، فقال اللَّه ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ وهذا اختيار

(١) أخرجه الترمذي في السنن(٣٣٠٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان(٣٣) ومسلم في الإيمان(١٠٧) وأحمد في مسنده(٣٥٧/٢) والبيهقي في السنن(٦/ ٢٨٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان(٣٤) ومسلم في الإيمان(١٠٦) وأحمد في مسنده(١٨٩/٢) والبيهقي في السنن(٢٣٠/٩) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده(٤٤٧/٣) .

ابن جرير . وقال مقاتل بن حيان : قال المؤمنون : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به ، فدلهم الله على أحب الأعمال إليه فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾ فبين لهم فابتلوا يوم أُحد بذلك فولوا عن النبيّ ﷺ مدبرين فأنزل الله في ذلك ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ وقال : أحبكم إلي من قاتل في سبيلي . ومنهم من يقول : أنزلت في شأن القتال يقول الرجل قاتلت ولم يقاتل ، وطعنت ولم يطعن ، وضربت ولم يضرب ، وصبرت ولم يصبر . وقال ابن زيد : نزلت في قوم من المنافقين كانوا يعدون المسلمين النصر ، ولا يفون لهم بذلك . وعن أبي الأسود الديلي قال : بعث أبو موسى إلى قراء أهل البصرة فدخل عليه منهم ثلاثمائة رجل كلهم قد قرأ القرآن . فقال : أنتم قرّاء أهل البصرة وخيارهم . وقال : كنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات فأنسيناها غير أني قد حفظت منها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ فهذا إخبار من الله تعالى بمحبته عباده المؤمنين إذا صفوا مواجهين لأعداء الله في حومة الوغى يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله لتكون كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان .

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثَةٌ يَضْحَكُ اللهُ إِلَيْهِمْ : الرَّجُلُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ ، وَالقَوْمُ إِذَا صَفُّوا لِلصَّلَاةِ ، وَالقَوْمُ إِذَا صَفُّوا لِلْقِتَالِ » (١) . وعن عبد الله بن الشخير قال : قال مطرف : كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه فلقيته فقلت : يا أبا ذر كان يبلغني عنك حديث فكنت أشتهي لقاءك ، فقال : لله أبوك فقد لقيت فهات . فقلت : كان يبلغني عنك أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدَّثكم أن الله يبغض ثلاثة ويحب ثلاثة . قال : أجل فلا أخالني أكذب على خليلي ﷺ . قلت : فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله ﷻ ؟ قال : رجل غزا في سبيل الله خرج محتسبًا مجاهدًا فلقي العدو وأنتم تجدونه في كتاب الله المنزل ثم قرأ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ وذكر الحديث . وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾ قال : كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلّا أن يصافهم ، وهذا تعليم من الله للمؤمنين . قال : وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ أي ملتصق بعضه في بعض ، من الصف في القتال ، وقال ابن عباس : مثبت لا يزول ملصق بعضه ببعض . وقال قتادة ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه . كذلك الله ﷻ لا يحب أن يختلف أمره ، وإن الله صف المؤمنين في قتالهم وصفهم في صلاتهم فعليكم بأمر الله فإنه عصمته لمن أخذ به ، وعن أبي بحرية قال : كانوا يكرهون القتال على الخيل ويستحبون القتال على الأرض لقول الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ قال : وكان أبو بحرية يقول : إذا رأيتموني ألتفت في الصف فجئُوا في لحيي .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٨٠) .

ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران ﷺ أنه قال لقومه : ﴿ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ أي : لم توصلون الأذى إليَّ وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة ، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفّار من قومه وغيرهم وأمر له الصبر ، ولهذا قال : « رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى مُوسَى : لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هذَا فَصَبَرَ » (١) . وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبيّ ﷺ أو يوصلوا إليه إذى . وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أي : فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به ، أزاغ اللَّه قلوبهم عن الهدى وأسكنها الشك والحيرة والخذلان . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ يعني التوراة قد بشرت بي وأنا مصداق ما أخبرت عنه وأنا مبشر بمن بعدي وهو الرسول النبي الأمّي العربي المكي أحمد ، فعيسى ﷺ هو خاتم أنبياء بني إسرائيل وقد أقام في ملأ بني إسرائيل مبشرًا بمحمد وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة ، وما أحسن ما قال جبير بن مطعم : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « إِنَّ لِي أَسْمَاءً : أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا أَحْمَدُ ، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّه بِهِ الكُفْرَ ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي ، وَأَنَا العَاقِبُ » (٢) .

وعن أبي موسى قال : سمّى لنا رسول اللَّه ﷺ نفسه أسماء منها ما حفظنا فقال : « أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا أَحْمَدُ ، وَالحَاشِرُ ، وَالمُقَفِّي ، ونبيُّ الرَّحْمةِ وَالتَّوْبَةِ وَالمَلْحَمَةِ » (٣) . وقد قال اللَّه تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ . قال ابن عبّاس : ما بعث اللَّه نبيًّا إِلَّا أخذ عليه العهد لئن بعث محمّد وهو حي ليتبعنه ، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمّد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه . وعن العرباض بن سارية قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِنِّي عِنْدَ اللَّه لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ ذلِكَ دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبِشَارَةُ عِيسَى بِي وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ ، وَكَذلِكَ أُمَّهَاتُ النَّبِيِّينَ يَرَيْنَ » (٤) .

وعن أبي أمامة قال : قلت : يا رسول اللَّه ما كان بدء أمرك ؟ قال : « دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبُشْرَى عِيسى ، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّام « (٥) . وعن عبد اللَّه بن مسعود قال : بعثنا رسول اللَّه ﷺ إلى النجاشي ونحن نحو من ثمانين رجلًا منهم عبد اللَّه بن مسعود وجعفر وعبد اللَّه بن رواحة وعثمان بن مظعون وأبو موسى فأتوا النجاشي ، وبعثت قريش

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٥٩) وأحمد في مسنده (٣٨٠/١) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٦) وأحمد في مسنده (٨٠/٤) والطبراني في الكبير (١٢٢/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل (٢٦) وأحمد في بسنده (٣٩٥/٤) والحاكم في المستدرك (٦٠٤/٢) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٦٠٠/٢) وأبو نعيم في دلائل النبوة (٩/١) والطبراني في الكبير (٢٥٣/١٨) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٢/٥) .

عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدية ، فلما دخلا على النجاشي سجدا له ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ثم قالا له : إن نفرًا من بني عمّنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا . قال : فأين هم ؟ قالا : هم في أرضك فابعث إليهم . فبعث إليهم ، فقال جعفر : أنا خطيبكم اليوم ، فاتبعوه فسلّم ولم يسجد ، فقالوا له : ما لك لا تسجد للملك ؟ قال : إنا لا نسجد إلّا للّه ﷻ . قال : وما ذاك ؟ قال : إن اللّه بعث إلينا رسوله فأمرنا أن لا نسجد لأحد إلّا للّه ﷻ ، وأمرنا بالصلاة والزكاة ، قال عمرو بن العاص : فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم . قال : ما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه ؟ قال : نقول كما قال اللّه ﷻ هو كلمة اللّه وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسها بشر ولم يعترضها ولد ، قال : فرفع عودًا من الأرض ثم قال : يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان واللّه ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يساوي هذا ، مرحبًا بكم وبمن جئتم من عنده أشهد أنه رسول اللّه وأنه الذي نجد في الإنجيل وأنه الذي بَشّر به عيسى ابن مريم ، انزلوا حيث شئتم ، واللّه لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه ، وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما ، ثم تعجل عبد اللّه بن مسعود حتى أدرك بدرًا وزعم أن النبيّ ﷺ استغفر له حين بلغه موته [(١)] . والمقصد أن الأنبياء عليهم السلام لم تزل تنعته وتحكيه في كتبها على أممها وتأمرهم باتباعه ونصره ومؤازرته إذا بعث ، وكان أول ما اشتهر الأمر في أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده حين دعا لأهل مكّة أن يبعث اللّه فيهم رسولًا منهم ، وكذا على لسان عيسى ابن مريم . ولهذا قالوا : أخبرنا عن بدء أمرك يعني في الأرض . قال : « دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبِشَارَةُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَرُؤْيَا أُمِّي التي رَأَتْ » . أي ظهر في أهل مكة أثر ذلك ، والإرهاص فذكره صلوات اللّه وسلامه عليه .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ﴾ أي لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على اللّه ، ويجعل له أندادًا وشركاء وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي يحاولون أن يردوا الحق بالباطل ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس بفيه ، وكما أن هذا مستحيل كذاك ذلك مستحيل . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

تقدم في حديث عبد اللّه بن سلام أن الصحابة رضي الله عنهم أرادوا أن يسألوا رسول اللّه ﷺ عن أحب الأعمال إلى اللّه ﷻ ليفعلوه فأنزل اللّه تعالى هذه السورة ومن جملتها هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٦١) .

أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ثم فسّر هذه التجارة العظيمة التي لا تبور ، التي هي محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور فقال تعالى : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي من تجارة الدنيا والكد لها والتصدي لها وحدها ثم قال تعالى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ أي : إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه غفرت لكم الزلات وأدخلتكم الجنّات والمساكن الطيبات والدرجات العاليات . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ ﴾ أي وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها وهي ﴿ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ ﴾ أي إذا قاتلتم في سبيله ونصرتم دينه تكفل الله ينصركم ، وقوله تعالى : ﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ ﴾ أي عاجل فهذه الزيادة هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة لمن أطاع الله ورسوله ونصر الله ودينه . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم وأن يستجيبوا لله ولرسوله كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال : ﴿ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ﴾ أي : من معيني في الدعوة إلى الله ﷻ ﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ ﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ ﴾ أي نحن أنصارك على ما أرسلت به ومؤازروك على ذلك ، ولهذا بعثهم دعاة إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيليين واليونانيين ، وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج : « مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِينِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي »(١) . حتى قيض الله ﷻ له الأوس والخزرج من أهل المدينة فبايعوه ووازروه وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم ، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفوا له بما عاهدوا الله عليه ، ولهذا سمّاهم الله ورسوله الأنصار ، وصار ذلك علمًا عليهم ﷺ وأرضاهم .

وقوله تعالى : ﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ ﴾ أي لما بلّغ عيسى ابن مريم عليه الصّلاة والسّلام رسالة ربه إلى قومه ووازره من وازره من الحواريين اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به وجحدوا نبوته ورموه وأمه بالعظائم ، وهم اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ، وغلت فيه طائفة ممن اتبعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة وافترقوا فرقًا وشيعًا ، فمن قائل منهم إنه ابن الله ، وقائل إنه ثالث ثلاثة : الأب والابن وروح القدس ، ومن قائل إنه الله ، وكل هذه الأقوال مفصلة في سورة النساء .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ﴾ أي : نصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ أي : عليهم وذلك ببعثة محمّد ﷺ . عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : لما أراد الله ﷻ أن يرفع عيسى إلى السماء ، خرج إلى أصحابه وهم في بيت اثنا عشر رجلًا ، من عين في البيت ، ورأسه يقطر ماء فقال : إن منكم من يكفر بي اثنتي عشر مرة بعد أن آمن بي ، قال : ثم قال : أيكم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٢/٣) .

يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي ؟ قال : فقام شاب من أحدثهم سنًّا فقال : أنا ، فقال له : اجلس ، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال : أنا ، فقال له : اجلس . ثم عاد عليهم فقام الشاب فقال : أنا ، فقال : نعم أنت ذاك ، قال : فألقي عليه شبه عيسى ورفع عيسى عليه السلام من روزنة في البيت إلى السماء . قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا شبيهه فقتلوه وصلبوه وكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمنوا به فتفرقوا فيه ثلاث فرق فقالت فرقة : كان اللَّه فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء وهؤلاء اليعقوبية . وقالت فرقة : كان فينا ابن اللَّه ما شاء ثم رفعه إليه وهؤلاء النسطورية . وقالت فرقة : كان فينا عبد اللَّه ورسوله ما شاء اللَّه ثم رفعه اللَّه إليه ، وهؤلاء المسلمون فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث اللَّه محمدًا ﷺ ﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴾ يعني الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى والطائفة التي آمنت في زمن عيسى ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ بإظهار محمّد ﷺ دينهم على دين الكفار [1] . فأمة محمّد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر اللَّه وهم كذلك وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح .

(١) تفسير الطبري (١١٧/٢٨) .

سورة الجمعة

عن ابن عباس وأبي هريرة ﷺ : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يسبِّح له ما في السموات وما في الأرض أي : من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها ، ثم قال تعالى : ﴿ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ ﴾ أي : هو مالك السموات والأرض المتصرف فيهما بحكمه، وهو المقدس أي المنزَّه عن النقائص الموصوف بصفات الكمال ﴿ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ تقدم تفسيرهما غير مرة ، وقوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ الأميون هم العرب كما قال تعالى : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به ، وهذا لا ينافي قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ وقوله تعالى إخبارًا عن القرآن : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق أحمرهم وأسودهم .

وهذه الآية هي مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، فبعثه الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة على حين فترة من الرسل وطموس من السبل ، وقد اشتدت الحاجة إليه وقد مقت الله أهل الأرض عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب أي نزرًا يسيرًا ممن تمسك بما بعث الله به عيسى ابن مريم عليه السلام ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ وذلك أن العرب كانوا قديمًا متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام فبدلوه وغيّروه وقلبوه وخالفوه ، واستبدلوا بالتوحيد شركًا وباليقين شكًا ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله . وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيّروها وأوّلوها فبعث الله محمدًا صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق ، فيه هدايتهم ، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ورضا الله عنهم والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله تعالى ، حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول والفروع ، وجمع له تعالى وله الحمد والمنة جميع المحاسن ممن كان قبله وأعطاه ما لم يعط أحدًا من الأولين ولا يعطيه أحدًا من الآخرين فصلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين ، وقوله

(١) أخرجه مسلم في الجمعة (٦٤) .

تعالى : ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . عن أبي هريرة ﷺ قال : كنا جلوسًا عند النبيِّ ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ قالوا : من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثًا وفينا سلمان الفارسي فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي ثم قال : « لَوْ كَانَ الإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ - أَوْ رَجُلٌ - مِنْ هؤُلَاءِ » (١) .

ففي هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس ؛ لأنه فسَّر قوله تعالى : ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ ﴾ بفارس ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم يدعوهم إلى الله ﷻ وإلى اتباع ما جاء به ولهذا قال مجاهد وغير واحد في قوله تعالى : ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ قال : هم الأعاجم وكل من صدَّق النبيَّ ﷺ من غير العرب . وعن سهل بن سعد الساعدي قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ في أَصلَابِ أَصلَابِ أصلاب رِجَالٍ وَنَسَاءٍ مِنْ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ثم قرأ ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ (٢) يعني بقية من بقي من أمة محمَّد ﷺ ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي ذو العزة والحكمة في شرعه وقدره ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ يعني ما أعطاه الله محمَّدًا ﷺ من النبوة العظيمة وما خصَّ به أمته من بعثه ﷺ إليهم .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى ذامًّا لليهود الذين أعطوه التوراة وحملوها للعمل بها ثم لم يعملوا بها مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارًا ؛ أي كمثل الحمار إذا حمل كتبًا لا يدري ما فيها فهو يحملها حملًا حسيًّا ولا يدري ما عليه ، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه حفظوه لفظًا ولم يتفهموه ولا عملوا بمقتضاه ، بل أوَّلوه وحرَّفوه وبدَّلوه ، فهم أسوأ حالًا من الحمير ؛ لأن الحمار لا فهم له هؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها ، وقال تعالى : ﴿ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ . عن ابن عبَّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تَكَلَّمَ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَالإِمَامُ يَخْطُبُ فَهُوَ كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ، وَالَّذِي يَقُولُ لَهُ أَنْصِتْ ؛ لَيْسَ لَهُ جُمُعَةٌ » (٣) . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي : إن كنتم تزعمون أنكم على هدى ، وأن محمَّدًا وأصحابه على ضلالة فادعوا بالموت على الضال من الفئتين إن كنتم صادقين ، أي فيما تزعمونه . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي بما يعملون لهم من الكفر والظلم والفجور ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ عن ابن عبَّاس قال : قال أبو جهل لعنه الله : إن رأيت محمَّدًا عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه قال : فقال رسول الله ﷺ :

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٧) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣١) وأحمد في مسنده (٤١٧/٢) .
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤٨/٦) والهندي في كنز العمال (٣٤٥٧٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٠/١) .

« لَوْ فَعَلَ لَأَخَذَتْهُ المَلَائِكَةُ عِيَانًا ، وَلَوْ أَنَّ اليَهُودَ تَمَنَّوُا المَوْتَ لَمَاتُوا وَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . عن سمرة مرفوعًا : « مَثَلُ الَّذِي يَفِرُّ مِنَ المَوْتِ كَمَثَلِ الثَّعْلَبِ تَطْلُبُهُ الأَرْضُ بِدَيْنٍ ، فَجَاءَ يَسْعَى حَتَّى إِذَا أَعْيَا وَانْبَهَرَ دَخَلَ جِحْرَهُ فَقَالَتْ لَهُ الأَرْضُ : يَا ثَعْلَبُ دَيْنِي فَخَرَجَ لَهُ حصاصٌ فَلَمْ يَزَلْ كَذلِكَ حَتَّى تَقَطَّعَتْ عُنُقُهُ فَمَاتَ » (٢) .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

إنما سميت الجمعة جمعة لأنها مشتقة من الجمع ؛ فإن أهل الإسلام يجتمعون في كل أسبوع مرة بالمعابد الكبار وفيه كمل جميع الخلائق فإنه اليوم السادس من السنة التي خلق اللَّه فيها السموات والأرض ، وفيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنَّة ، وفيه أخرج منها ، وفيه تقوم الساعة ، وفيه ساعة لايوافقها عبد مؤمن يسأل اللَّه فيها خيرًا إلَّا أعطاه إياه (٣) . وعن سلمان قال : قال أبو القاسم ﷺ : « يَا سَلْمَانُ مَا يَوْمُ الجُمُعَةِ ؟ » . قلت : اللَّه ورسوله أعلم ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « يَوْمُ الجُمُعَةِ يَوْم جَمَّعَ اللَّه فِيهِ أَبَوَاكُمْ - أَوْ أَبُوكُمْ » (٤) . وقد كان يقال له في اللغة القديمة يوم العروبة ، وثبت أن الأمم قبلنا أمروا به فضلوا عنه ، واختار اليهود يوم السبت الذي لم يقع فيه خلق آدم ، واختار النصارى يوم الأحد الذي ابتدئ فيه الخلق ، واختار اللَّه لهذه الأمة يوم الجمعة الذي أكمل اللَّه فيه الخليقة ، وروي عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا ، ثُمَّ إِنَّ هذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فَرَضَ اللَّه عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ ، فَهَدَانَا اللَّه لَهُ ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ ، اليَهُودُ غَدًا ، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ » (٥) . وفي لفظ : « أَضَلَّ اللَّه عَنِ الجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الأَحَدِ ، فَجَاءَ اللَّه بِنَا فَهَدَانَا لِيَوْمِ الجُمُعَةِ ، فجعل الجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالأَحَدَ وَكَذلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ القِيَامَةِ نَحْنُ الآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالأَوَّلُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ المَقْضِي بَيْنَهُمْ قَبْلَ الخَلَائِقِ » (٦) . وقد أمر اللَّه المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة فقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي اقصدوا واعمدوا واهتموا في سيركم إليها ، وليس المراد بالسعي ههنا المشي وإنما هو الاهتمام بها ، وكان عمر بن

---

(١) أخرجه البخاري فى تفسير القرآن (٤٩٥٨) والترمذي في السنن (٣٣٤٨) وأحمد في مسنده (٣٦٨/١) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٦٨/٧) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢٠/٢) .

(٣) راجع الحديث في مسلم في الجمعة (١٧) وأبو داود في السنن (١٠٤٦) والترمذي في السنن (٤٩١) وأحمد في مسنده (٤٠١/٢) والنسائي في السنن (١١٤/٣) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٧٧/١) وابن خزيمة في صحيحه (١٧٤/٢) .

(٥) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٩٦) ومسلم في الجمعة (١٩) وابن ماجه في السنن (٤٢٩٠) وأحمد في مسنده (٢٤٩/٢) .

(٦) أخرجه مسلم في الجمعة (٢٢) والنسائي في السنن (٨٧/٣) وابن ماجه في السنن (١٠٨٣) .

الخطاب وابن مسعود رضي الله عنهما يقرآنها - فامضوا إلى ذكر الله - فأما المشي السريع إلى الصلاة فقد نهي عنه لما روي عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا تَأْتُوها تَسْعَوْنَ ، وَلَكِنْ ائْتُوهَا تَمْشُونَ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ وَالوَقَارُ فَمَا أَدْرَكْتُم فَصَلُّوا ، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا » (١) . قال الحسن : أما والله ما هو بالسعي على الأقدام ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلّا وعليهم السكينة والوقار ولكن بالقلوب والنية والخشوع . وقال قتادة في قوله : ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ يعني أن تسعى بقلبك وعملك وهو المشي إليها ، وكان يتأول قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ أي المشي معه .

ويستحب لمن جاء إلى الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه إليها ، فعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الجُمُعَةَ فَلْيَغْتَسِلْ » (٢) . وعن أبي سعيد ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « غُسْلُ يَوْمِ الجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ » (٣) . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «حَقُّ اللَّهِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّام ، يَغْسِلُ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ » (٤) . وعن أوس بن أوس الثقفي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ غَسَّلَ وَاغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمُعَة ، وَبَكَّرَ وَابْتَكَرَ وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ ، وَدَنَا مِنَ الإِمَامِ وَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْغُ ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ أَجْرُ سَنَةٍ ، صِيَامِهَا ، وَقِيَامِهَا » (٥) . وعن أبي هريرة ﷺ قال : إن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ غُسْلَ الجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الأُولَى فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَة ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرة ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَة ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَة ، فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ حَضَرَتِ المَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ » (٦) . ويستحب له أن يلبس أحسن ثيابه ويتطيب ويتسوك ويتنظف ويتطهر ، وعن أيوب الأنصاري سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَمَسَّ مِنْ طِيبِ أَهْلِهِ إِنْ كَانَ عِنْدَهُ ، وَلَبِسَ مِنْ أَحْسَنِ ثِيَابِهِ ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى يَأْتِيَ المَسْجِدَ فَيَرْكَع إِنْ بَدَا لَهُ وَلَمْ يُؤْذِ أَحَدًا ، ثُمَّ أَنْصَتَ إِذَا خَرَجَ إِمَامُهُ حَتَّى يُصَلِّي ؛ كَانَتْ كَفَّارة لما بَيْنَهَا وَبَيْنَ الجُمُعَةِ الأُخْرَى » (٧) .

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم الجمعة فرأى عليهم ثياب النمار فقال : «مَا عَلَى أَحدكُمْ إِنْ وَجَدَ سَعَة أَنْ يَتَّخِذَ ثَوْبَيْنِ لِجُمعَتِهِ سِوَى ثَوْبَي مهْنَتِهِ » (٨) . وقوله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ المراد بهذا النداء هو النداء الثاني الذي كان يفعل بين يدي رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر ؛ فإنه كان حينئذ يؤذن بين يديه فهذا هو المراد ، فأما النداء الأول الذي زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفّان ﷺ فإنما كان هذا لكثرة الناس ، وعن السائب بن يزيد قال : كان النداء يوم

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٠٨) ومسلم في المساجد (١٥١) وأبو داود في السنن (٥٧٢) والترمذي في السنن (٣٢٧).
(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١٠٢) وأحمد في مسنده (١٠٥/٢) والدارمي في السنن (٣٦١/١).
(٣) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٧٩) ومسلم في الجمعة (٧) والنسائي في السنن (٩٣/٣).
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٢/٢).
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٩/٢) والحاكم في المستدرك (٨٢/١).
(٦) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٨١) ومسلم في الجمعة (١٠) والترمذي في السنن (٤٩٩) والنسائي في السنن (٩٩/٣).
(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٠/٥).
(٨) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٠٩٦).

الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر ، فلما كان عثمان بعد زمن وكثر الناس زاد النداء الثاني على الزوراء[(١)] يعني يؤذن به على الدار التي تسمى بالزوراء وكانت أرفع دار بالمدينة بقرب المسجد . وإنما يؤمر بحضور الجمعة الرجال الأحرار دون العبيد والنساء والصبيان ويعذر المسافر والمريض وقيم المريض وما أشبه ذلك من الأعذار كما هو مقرر في كتب الفروع .

وقوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ﴾ أي : اسعوا إلى ذكر الله واتركوا البيع إذا نودي للصلاة ، ولهذا اتفق العلماء ﷺ على تحريم البيع بعد النداء الثاني ، واختلفوا هل يصح إذا تعاطاه متعاط أم لا ؟ على قولين وظاهر الآية عدم الصحة كما هو مقرر في موضعه . وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي تركم البيع وإقبالكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة خير لكم ، أي في الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون . وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ ﴾ أي : فرغ منها ﴿ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ لما حجر عليهم في التصرُّف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع ، أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله كما كان عراك بن مالك ﷺ إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : اللهم إني أجبت دعوتك وصليت فريضتك وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين . وروي عن بعض السلف أنه قال : من باع واشترى في يوم الجمعة بعد الصلاة بارك الله له سبعين مرة ، لقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي : في حال بيعكم وشرائكم وأخذكم وإعطائكم اذكروا الله ذكرًا كثيرًا ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة . وقال مجاهد : لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرًا حتى يذكر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ .

يعاتب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذ فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ ﴾ أي : على المنبر تخطب ، هكذا ذكره غير واحد من التابعين ، وزعم مقاتل بن حيان أن التجارة كانت لدحية بن خليفة قبل أن يسلم وكان معها طبل فانصرفوا إليها وتركوا رسول الله ﷺ قائمًا على المنبر إلّا القليل منهم وقد صح بذلك الخبر . فعن جابر قال : قدمت عير مرة المدينة ورسول الله ﷺ يخطب فخرج الناس وبقي اثنا عشر رجلًا فنزلت ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾[(٢)] . وعن جابر بن عبد الله قال : بينما النبيُّ ﷺ يخطب يوم الجمعة فقدمت عير إلى المدينة فابتدرها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلّا اثنا عشر رجلا . فقال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ تَتَابَعْتُمْ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْكُمْ أَحَدٌ لَسَالَ بِكُمُ الوَادِي نَارًا » ونزلت هذه الآية ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ ﴾[(٣)] . وقال : كان في الاثني عشر الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ : أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وفي قوله تعالى :

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩١٢) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٩) وأحمد في مسنده (٣١٣/٣) .

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٩٧٩) بلفظه ، وبنحوه البخاري في الجمعة (٩٣٦) والترمذي في سننه (٣٣٠٨) والدارقطني في سننه (٥/٢) .

﴿ وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ ﴾ دليل على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائمًا . فعن جابر بن سمرة قال : كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكِّر الناس [(١)] ولكن ههنا شيء ينبغي أن يعلم وهو أن القصة قد قيل إنها كانت لما كان رسول الله ﷺ يقدم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة ، وعن أبي معاذ بكير بن معروف أنه سمع مقاتل بن حيان يقول : كان رسول الله ﷺ يصلي يوم الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين حتى إذا كان يوم والنبيّ ﷺ يخطب وقد صلى الجمعة فدخل رجل فقال : إن دحية بن خليفة قد قدم بتجارة ، يعني فانفضوا ولم يبق معه إلَّا نفر يسير [(٢)] . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي الذي عند الله من الثواب في الدار الآخرة ﴿ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ أي لمن توكل عليه وطلب الرزق في وقته .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٣/٢١٠).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٢٢٠).

سورة المنافقون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المنافقين أنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاءوا النبيَّ ﷺ فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك بل على الضد من ذلك ولهذا قال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ أي : إذا حضروا عندك واجهوك بذلك ، وأظهروا لك ذلك ، وليس كما يقولون ، ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله فقال : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي : فيما أخبروا به وإن كان مطابقًا للخارج ؛ لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه ، وهذا كذَّبهم بالنسبة إلى اعتقادهم . وقوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي : اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة والحلفان الآثمة ليصدَّقوا فيما يقولون فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم فاعتقدوا أنهم مسلمون ، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون وصدَّقهم فيما يقولون وهو من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالًا ، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ولهذا كان الضحاك بن مزاحم يقرؤها ﴿ اتَّخَذُوا إِيمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ أي تصديقهم الظاهر جنة أي : تقية يتقون به القتل ، والجمهور يقرؤها ﴿ أَيْمَانَهُمْ ﴾ جمع يمين . وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أي إنما قدِّر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران واستبدالهم الضلالة بالهدى ﴿ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أي فلا يصل إلى قلوبهم هدى ولا يخلص إليها خير فلا تعي ولا تهتدي .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ أي وكانوا أشكالًا حسنة وذوي فصاحة وألسنة ، وإذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم ، وهم مع ذلك في غاية الضعف والخور والهلع والجزع والجبن ولهذا قال تعالى : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أي كلما وقع أمر أو كائنة أو خوف يعتقدون لجبنهم أنه نازل بهم ، فهم جهامات وصور بلا معاني ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أي كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال . عن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ لِلْمُنَافِقِينَ عَلَامَاتٍ يُعْرَفُونَ بِهَا : تَحِيَّتُهُمْ لَعْنَةٌ ، وَطَعَامُهُمْ نُهْبَةٌ ، وَغَنِيمَتُهُمْ غُلُولٌ ، وَلَا يَقْرَبُونَ الْمَسَاجِدَ إِلَّا هجرًا ، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا دُبُرًا ، مُسْتَكْبِرِينَ لَا يَأْلَفُونَ وَلَا يُؤْلَفُونَ : خُشُبٌ بِاللَّيْلِ ، صُخُبٌ بِالنَّهَارِ » (١) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٩٣) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المنافقين عليهم لعائن اللَّه أنهم ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ ﴾ أي صدوا وأعرضوا عما قيل لهم استكبارًا عن ذلك واحتقارًا لما قيل لهم ولهذا قال تعالى : ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ ثم جازاهم على ذلك فقال تعالى : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ .

وقال سفيان ﴿ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ ﴾ قال ابن أبي عمر : حوَّل سفيان وجهه على يمينه ونظر بعينه شزرًا ثم قال : هو هذا . وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله في عبد اللَّه بن أبي ابن سلول . قال قتادة والسدي : أنزلت هذه الآية في عبد اللَّه بن أبي وذلك أن غلامًا من قرابته انطلق إلى رسول اللَّه ﷺ فحدثه بحديث عنه وأمر شديد ، فدعاه رسول اللَّه ﷺ فإذا هو يحلف باللَّه ويتبرأ من ذلك وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعزلوه وأنزل اللَّه فيه ما تسمعون ، وقيل لعدو اللَّه : لو أتيت رسول اللَّه ﷺ فجعل يلوي رأسه ، أي لست فاعلًا [(١)] .

وعن جابر بن عبد اللَّه قال : كنا مع رسول اللَّه ﷺ في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار . فقال الأنصاري : يا للأنصار ، وقال المهاجري : يا للمهاجرين ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « مَا بَالُ دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ ؟ دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ » ، وقال عبد اللَّه بن أُبي ابن سلول وقد فعلوها ، واللَّه لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال جابر : وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول اللَّه ﷺ ثم كثر المهاجرون بعد ذلك . فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ » [(٢)] .

وعن زيد بن أرقم قال : خرجت مع عمي في غزاة فسمعت عبد اللَّه بن أُبي ابن سلول يقول لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول اللَّه ، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فذكرت ذلك لعمي ، فذكره عمي لرسول اللَّه ﷺ فأرسل إليَّ رسول اللَّه ﷺ فحدثته فأرسل إلى عبد اللَّه بن أُبي ابن سلول وأصحابه فحلفوا باللَّه ما قالوا ، فكذَّبني رسول اللَّه ﷺ وصدَّقه فأصابني همٌّ لا يصبني مثله قط وجلست في البيت فقال عمي : ما أردت إلَّا أن كذبك رسول اللَّه ﷺ ومقتك ! قال : حتى أنزل اللَّه : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾ قال : فبعث إليَّ رسول اللَّه ﷺ فقرأها رسول اللَّه ﷺ علي ثم قال : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ » [(٣)] .

---

(١) أسباب النزول للنيسابوري (ص : ٢٣٧ ، ٢٣٨) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٠٥) ومسلم في البر والصلة (٦٣) والترمذي في السنن (٣٣١٥) وأحمد في مسنده (٣/٣٩٣) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٠٠) .

وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ قال : كانوا رجالًا أجمل شيء [١] .

وعن عروة بن الزبير وعمر بن ثابت الأنصاري أن رسول الله ﷺ غزا غزوة المريسيع وهي التي هدم رسول الله ﷺ فيها مناة الطاغية التي كانت بين قفا المشلل وبين البحر فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فكسر مناة ، فاقتتل رجلان في غزوة رسول الله ﷺ تلك أحدهما من المهاجرين والآخر من بهز، وهم حلفاء الأنصار فاستعلى الرجل الذي من المهاجرين على البهزى ، فقال البهزي : يا معشر الأنصار ، فنصره رجال من الأنصار . وقال المهاجري : يا معشر المهاجرين فنصره رجال من المهاجرين حتى كان بين أولئك الرجال من المهاجرين والرجال من الأنصار شيء من القتال ، ثم حجز بينهم ، فانكفأ كل منافق أو رجل في قلبه مرض إلى عبد الله بن أبي ابن سلول فقال : قد كنت ترجى وتدفع ، فأصبحت لا تضر ولا تنفع ، قد تناصرت علينا الجلابيب وكانوا يدعون كل حديث الهجرة الجلابيب ، فقال عبد الله بن أبي عدو الله : والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال مالك بن الدخشن - وكان من المنافقين - : ألم أقل لكم لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ؟ فسمع بذلك عمر بن الخطاب فأقبل يمشي حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لي في هذا الرجل الذي قد أفتن الناس أضرب عنقه - يريد عمر عبد الله بن أبي - فقال رسول الله ﷺ لعمر : « أَوَ قَاتِلُهُ أَنْتَ إِنْ أَمَرْتُكَ بِقَتْلِهِ ؟ » . قال عمر : نعم لئن أمرتني بقتله لأضربن عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : « اجْلِسْ » . فأقبل أسيد بن حضير وهو أحد الأنصار ثم أحد بني عبد الأشهل حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لي في هذا الرجل الذي قد أفتن الناس أضرب عنقه . قال رسول الله ﷺ : « أَوَ قَاتِلُهُ أَنْتَ إِنْ أَمَرْتُكَ بِقَتْلِهِ ؟ » . قال : نعم والله لئن أمرتني بقتله لأضربن بالسيف تحت قرط أذنيه ، فقال رسول الله ﷺ : « اجْلِسْ » . ثم قال رسول الله ﷺ : « آذِنُوا بِالرَّحِيلِ » فهجَّر بالناس فسار يومه وليلته والغد حتى متع النهار ، ثم نزل ثم هجَّر بالناس مثلها حتى صبَّح بالمدينة في ثلاثة سارها من قفا المشلل ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أرسل إلى عمر فدعاه فقال له رسول الله ﷺ : « أَيْ عُمَرُ أَكُنْتَ قَاتِلَهُ لَوْ أَمَرْتُكَ بِقَتْلِهِ ؟ » قال عمر : نعم ، فقال رسول الله ﷺ : « وَاللَّهِ لَوْ قَتَلْتَهُ يَوْمَئِذٍ لأَرْغَمْتَ أُنُوفَ رِجَالٍ لَوْ أَمَرْتُهُمْ الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلُوه ، فَيَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنِّي قَدْ وَقَعْتُ عَلَى أَصْحَابِي فَأَقْتُلُهُمْ صَبْرًا » . وأنزل الله ﷻ ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ [٢] الآية .

وعن عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله بن عبد الله بن أبي لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أُبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلًا فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرَّ بوالده مني ، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٧٣) .
(٢) سيرة ابن هشام (٣/٣٠٣ - ٣٠٤) .

يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمنًا بكافر ، فأدخل النار ، فقال رسول الله ﷺ : « بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا » . وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة واستل سيفه فجعل الناس يمرون عليه فلما جاء أبوه عبد الله بن أُبي قال له ابنه : وراءك ، فقال : ما لك ويلك ؟! فقال : والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل ، فلما جاء رسول الله ﷺ وكان إنما يسير ساقة فشكا إليه عبد الله بن أُبي ابنه ، فقال ابنه عبد الله : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له فأذن له رسول الله ﷺ ، فقال : أما إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن [١] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا لعباده المؤمنين بكثرة ذكره ، وناهيًا عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ، ومخبرًا لهم بأنه من التهى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خلق له من طاعة ربه وذكره فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ثم حثَّهم على الإنفاق في طاعته . فقال : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فكل مفرط يندم عند الاحتضار ويسأل طول المدة ولو شيئًا يسيرًا ليستعتب ويستدرك ما فاته وهيهات ، كان ما كان أوتي ما هو آت ، وكل بحسب تفريطه ، أما الكفار فكما قال تعالى : ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي : لا ينظر أحدًا بعد حلول أجله . وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقًا في قوله وسؤاله ممن لو رد لعاد إلى شر مما كان عليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ . عن ابن عبَّاس قال : من كان له مال يبلغه حج بيت ربه أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت . فقال رجل : يا ابن عبَّاس اتق الله فإنما يسأل الرجعة الكفار ، فقال : سأتلوا عليك بذلك قرآنًا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ قال : فما يوجب الزكاة ؟ قال : إذا بلغ المال مائتين فصاعدًا ، قال : فما يوجب الحج ؟ قال : الزاد والبعير [٢] .

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/٣٠٥) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٣١٦) .

سورة التغابن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

هذه السورة هي آخر المسبِّحات وقد تقدَّم الكلام على تسبيح المخلوقات لبارئها ومالكها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ أي هو المتصرف في جميع الكائنات ، المحمود على جميع ما يخلقه ويقدِّره وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي : مهما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع وما لم يشأ لم يكن . وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ أي : هو الخالق لكم على هذه الصفة وأراد منكم ذلك فلا بد من وجود مؤمن وكافر ، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال ، وهو شهيد على أعمال عباده وسيجزيهم بها أتم الجزاء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أي بالعدل والحكمة ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أي أحسن أشكالكم . وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أي المرجع والمآب . ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السماوية والأرضية والنفسية فقال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الأمم الماضين وما حلَّ بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل والتكذيب بالحق فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ﴾ أي : خبرهم وما كان من أمرهم ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أي : وخيم تكذيبهم ورديء أفعالهم ، وهو ما حل بهم في الدنيا من العقوبة والخزي ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : في الدار الآخرة مضاف إلى هذا الدنيوي . ثم علَّل ذلك فقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالحجج والدلائل والبراهين ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ أي استبعدوا أن تكون الرسالة في البشر وأن يكون هداهم على يدي بشر مثلهم ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا ﴾ أي : كذبوا بالحق ونكلوا عن العمل ﴿ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ﴾ أي عنهم ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار والمشركين والملحدين إنهم يزعمون أنهم لا يبعثون ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ أي لتخبرن بجميع أعمالكم جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ﴿ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ

يَسِيرٌ ﴾ أي بعثكم ومجازاتكم ، وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه ﷻ على وقوع المعاد ووجوده ، فالأولى في سورة يونس ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ والثانية في سورة سبأ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ الآية ، والثالثة هي هذه ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ ﴾ يعني القرآن ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي فلا تخفي عليه من أعمالكم خافية . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ﴾ وهو يوم القيامة سمي بذلك لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ ﴾ قال ابن عبّاس : هو اسم من أسماء يوم القيامة وذلك أن أهل الجنّة يغبنون أهل النار . وقال مقاتل بن حيان : لا غبن أعظم من أن يدخل هؤلاء إلى الجنّة ويذهب بأولئك إلى النار . قلت : وقد فسّر ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : بأمر الله يعني عن قدره ومشيئته ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي : ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه . وعوّضه عما فاته من الدنيا هدًى في قلبه ويقينًا صادقًا ، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه أو خيرًا منه . وعن ابن عبّاس ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ ﴾ يعني يهدي قلبه لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

وعن أبي ظبيان قال : كنا عند علقمة فقرئ عنده هذه الآية ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ ﴾ فسئل عن ذلك فقال : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلّم . وقال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ ﴾ يعني يسترجع يقول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ .

وفي الحديث المتفق عليه : « عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شكر فَكَانَ خَيْرًا له ، وَلَيْسَ ذلِكَ لِأَحدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ » (١) .

وعن عبادة بن الصامت قال : إن رجلًا أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ قال : « إِيمَانٌ بِاللَّه وَتَصْدِيقٌ بِهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللَّه » . قال : أريد أهون من هذا يا رسول الله . قال : « لَا تَتَّهِمِ اللَّه فِي شَيْءٍ قَضَى لَكَ بِهِ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ ﴾ أمر بطاعة الله ورسوله فيما شرع وفعل ما به أمر ، وترك ما عنه نهى وزجر ثم قال تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي إن نكلتم

(١) أخرجه أحمد في مسنده(٢٤/٥) والألباني في الصحيحية(١٤٨) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده(٣١٨/٥) .

عن العمل فإنما عليه ما حمّل من البلاغ وعليكم ما حمّلتم من السمع والطاعة . قال الزهري : من الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم .

ثم قال تعالى مخبرًا أنه الأحد الصمد الذي لا إله غيره فقال تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فالأول خبر عن التوحيد ومعناه معنى الطلب أي وحدوا الإلهية له ، وأخلصوها لديه ، وتوكلوا عليه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ۗ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الأزواج والأولاد أن منهم من هو عدو الزوج والولد بمعنى أنه يلتهي به عن العمل الصالح ولهذا قال تعالى ﴿ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ قال ابن زيد : يعني على دينكم ، وقال مجاهد : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ ﴾ قال : يحمل الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه . وسئل ابن عباس عن هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ قال : فهؤلاء رجال أسلموا من مكة فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين ، فهمّوا أن يعاقبوهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ يقول تعالى : إنما الأموال والأولاد فتنة أي اختبار وابتلاء من الله تعالى لخلقه ليعلم من يطيعه ممن يعصيه . وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ عن أبي بريدة قال : كان رسول الله ﷺ يخطب فجاء الحسن والحسين رضي الله عنهما عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال : « صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ، نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ ، فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا » (٢) . وعن الأشعث بن قيس قال : قدمت على رسول الله ﷺ في وفد كندة فقال لي : « هَلْ لَكَ مِنْ وَلَدٍ ؟ » قلت : غلام ولد لي في مخرجي إليك من ابنة حمد ، ولوددت أن بمكانه سبع القوم فقال : « لَا تَقُولَنَّ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ فِيهِمْ قُرَّةَ عَيْنٍ وَأَجْرًا إِذَا قُبِضُوا » ، ثم قال : « وَلَئِنْ قُلْتَ ذَاكَ إِنَّهُمْ لَمَجْبَنَةٌ مَحْزَنَةٌ » (٣) . وعن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « لَيْسَ عَدُوُّكَ الَّذِي إِنْ قَتَلْتَهُ كَانَ فوزًا لَكَ ، وَإِنْ قَتَلَكَ دَخَلْتَ الْجَنَّةَ ، وَلَكِن الذي لَعَلَّهُ عَدُوٌّ لَكَ وَلَدُكَ الَّذِي خَرَجَ مِنْ صُلْبِكَ ، ثُمَّ أَعْدَى عَدُوٌّ لك مَالُكَ الَّذِي مَلَكَتْ يَمِينُكَ » (٤) .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣١٧) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٧٧٤) وابن ماجه في السنن (٣٦٠٠) والحاكم في المستدرك (١/٢٨٧) وأحمد في مسنده (٥/٣٥٤) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٣٥) .
(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/٣٣٤) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/١٨٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ أي جهدكم وطاقتكم . عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ » (١) . وقد قال بعض المفسرين : إن هذه الآية ناسخة للتي في آل عمران وهي قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ . عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ قال : لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم فأنزل اللّٰه تعالى هذه الآية تخفيفًا على المسلمين : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ فنسخت الآية الأولى . وقوله تعالى ﴿ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ ﴾ أي : كونوا منقادين لما يأمركم اللّٰه به ورسوله ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة ، ولا تقدموا بين يدي اللّٰه ورسوله ولا تتخلفوا عما به أمرتم . ولا ترتكبوا ما عنه زجرتم . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ﴾ أي وابذلوا مما رزقكم اللّٰه على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحاجات ، وأحسنوا إلى خلق اللّٰه كما أحسن اللّٰه إليكم يكن خيرًا لكم في الدنيا والآخرة ، وإن لا تفعلوا يكن شرًا لكم في الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أي : مهما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، ومهما تصدقتم من شيء فعليه جزاؤه ، ونزل ذلك منزلة القرض له كما ثبت في الصحيحين : أن اللّٰه تعالى يقول : من يقرض غير ظلوم ولا عديم (٢) . ولهذا قال تعالى يضاعفه لكم ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أي ويكفّر عنكم السيئات . ولهذا قال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ شَكُورٌ ﴾ أي يجزي على القليل بالكثير ﴿ حَلِيمٌ ﴾ أي يصفح ويغفر ويستر ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ تقدم تفسيره غير مرة .

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨) ومسلم في الحج (٤١٢) وأحمد في مسنده (٥٠٨/٢) والدارقطني في السنن (٢٨١/٢) .
(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢/٣) .

سورة الطلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ .

خوطب النبيُّ ﷺ أولًا تشريفًا وتكريمًا ، ثم خاطب الأمة تبعًا فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ عن أنس قال : طلَّق رسول اللَّه ﷺ حفصة فأتت أهلها ، فأنزل اللَّه تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ فقيل له : راجعها فإنها صوامة قوامة وهي من أزواجك ونساءك في الجنَّة ، وقد ورد من غير وجه أن رسول اللَّه ﷺ طلَّق حفصة ثم راجعها .

عن عبد اللَّه بن عمر أنه طلَّق امرأة له وهي حائض فذكر عمر لرسول اللَّه ﷺ فتغيظ رسول اللَّه ﷺ ثم قال : « لِيُرَاجِعْهَا ثُمَّ يُمْسِكهَا حَتَّى تَطْهُرَ ثُمَّ تَحِيض فتطهر فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا ؛ فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا ، فَتِلْكَ العِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّه ﷻ »(١) . وروي عن عبد الرَّحمن بن أيمن مولى عزة أنه سأل ابن عمر ، وأبو الزبير يسمع : كيف ترى في الرجل طلق امرأته حائضًا ؟ فقال : طلق ابن عمر امرأته حائضًا على عهد رسول اللَّه ﷺ فقال رسول اللَّه ﷺ : « لِيُرَاجِعْهَا » فردها وقال : « إِذَا طَهُرَتْ فَلْيُطَلِّقْ أَوْ يُمْسِكْ » . قال ابن عمر : وقرأ النبيُّ ﷺ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾(٢) . وعن عبد اللَّه في قوله تعالى : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ قال : الطهر من غير جماع ، وقال ابن عباس : لا يطلقها وهي حائض ولا في طهر قد جامعها فيه ؛ ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة . وقال عكرمة : العدة الطهر ، والقرء : الحيضة أن يطلقها حبلى مستبينًا حملها ، ولا يطلقها وقد طاف عليها ولا يدري حبلى هي أم لا ، ومن ههنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سنة ، وطلاق بدعي ، فطلاق السنَّة : أن يطلقها طاهرة من غير جماع أو حاملًا قد استبان حملها ، والبدعي : هو أن يطلقها في حال الحيض أو في طهر قد جامعها فيه ولا يدري أحملت أم لا ، وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة وهو طلاق الصغيرة والآيسة وغير المدخول بها ، وتحرير الكلام في ذلك وما يتعلق به مستقصى في كتب الفروع ، وقوله تعالى ﴿ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ﴾ أي احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها لئلا تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ أي في ذلك . وقوله تعالى : ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ ﴾ أي : في مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه ؛ فليس للرجل أن يخرجها ولا يجوز لها أيضًا وقوله تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ أي : لا يخرجن من بيوتهن إلَّا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة فتخرج من المنزل

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٦٠) ومسلم في الطلاق (١٤) والنسائي في السنن (٦/١٣٩) .
(٢) أخرجه مسلم في الطلاق (١٠) .

والفاحشة المبينة تشمل الزنى ، وتشمل ما إذا نشزت المرأة أو بذت على أهل الرجل وآذتهم في الكلام والفعال ، وقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ أي شرائعه ومحارمه ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ أي : يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ أي بفعل ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ أي إنما أبقينا المطلقة في منزل الزوج في مدة العدة لعل الزوج يندم على طلاقها ويخلق اللَّه تعالى في قلبه رجعتها فيكون ذلك أيسر وأسهل . عن فاطمة بنت قيس في قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ قالت : هي الرجعة ، ومن ههنا ذهب من ذهب من السلف ومن تابعهم كالإمام أحمد بن حنبل رحمه اللَّه تعالى إلى أنه لا تجب السكنى للمبتوتة أي المقطوعة وكذا المتوفى عنها زوجها ، واعتمدوا أيضًا على حديث فاطمة بنت قيس الفهرية حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات وكان غائبا عنها باليمن ، فأرسل إليها بذلك ، فأرسل إليها وكيله بشعير يعني نفقة فتسخطته فقال : واللَّه ليس لك علينا نفقة ، فأتت رسول اللَّه ﷺ فقال : « لَيْسَ لَكِ عَلَيْهِ نَفَقَةٌ » وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك ، ثم قال : « تِلْكَ امْرَأَةٌ يَغْشَاهَا أَصْحَابِي ، اعْتَدِّي عِنْدَ ابنِ أُمِّ مَكْتُومٍ ؛ فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَعْمَى تَضَعِينَ ثِيَابَكِ » (١) .

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ .

يقول تعالى : فإذا بلغت المعتدات أجلهن أي : شارفن على انقضاء العدة وقاربن ذلك ولكن لم تفرغ العدة بالكلية فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي محسنًا إليها في صحبتها ، وإما أن يعزم على مفارقتها بمعروف ، أي من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ أي على الرجعة إذا عزمتم عليها ، وعن عمران بن حصين أنه سئل عن الرجل يطلق المرأة ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها فقال : طلَّقت لغير سنة ورجعت لغير سنة ، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعد ، وكان عطاء يقول : ﴿ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ قال : لا يجوز في نكاح ولا طلاق ولا رجاع إلَّا شاهدا عدل كما قال اللَّه ﷻ إلَّا أن يكون من عذر . وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ أي هذا الذي أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة إنما يأتمر به من يؤمن باللَّه واليوم الآخر ، وأنه شرع هذا ومن يخاف عقاب اللَّه في الدار الآخرة ، ومن ههنا ذهب الشافعي في أحد قوليه إلى وجوب الإشهاد في الرجعة كما يجب في ابتداء النكاح ، وقد قال بهذا طائفة من العلماء ومن قال بهذا يقول : إن الرجعة لا تصح إلَّا بالقول ليقع الإشهاد عليها . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ أي ومن يتق اللَّه فيما أمره به وترك ما نهاه عنه يجعل له من أمره مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، أي من جهة لا تخطر بباله . وعن أبي ذر قال : جعل رسول اللَّه ﷺ يتلو علي

---

(١) أخرجه مسلم في الطلاق (٣٦) وأحمد في مسنده (٦/٤١٢) وأبو داود في السنن (٢٢٨٤) والبيهقي في السنن (٧/١٧٧) .

هذه الآية ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ حتى فرغ من الآية ثم قال : « يَا أَبَا ذَرٍّ لَوْ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ أَخَذُوا بِهَا كَفَتْهُمْ » قال : فجعل يتلوها ويرددها علي حتى نعست ثم قال : « يَا أَبَا ذَرٍّ كَيْفَ تَصْنَعُ إِذَا خَرَجْتَ مِنَ الْمَدِينَةِ ؟ » قلت : إلى السعة والدعة أنطلق فأكون حمامة من حمام مكة قال : « كَيْفَ تَصْنَعُ إِذَا خَرَجْتَ مِنْ مَكَّةَ ؟ » قال : قلت : إلى السعة والدعة إلى الشام والأرض المقدسة ، قال : « وَكَيْفَ تَصْنَعُ إِذَا أُخرِجْتَ مِنَ الشَّامِ » قلت : إذًا والذي بعثك بالحق أضع سيفي على عاتقي ، قال : « أَوْ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ ؟ » قلت : أو خير من ذلك . قال : « تَسْمَعُ وَتُطِيعُ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا » (١) .

وعن عبد اللَّه بن عباس قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ أَكْثَرَ مِنَ الاسْتِغْفَارِ ؛ جَعَلَ اللَّه لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا ، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » (٢) وقال ابن عباس : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ يقول : ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة . وقال الربيع بن خيثم ﴿ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ : أي من كل شيء ضاق على الناس . وقال عكرمة : من طلق كما أمره اللَّه يجعل له مخرجًا ، وقال ابن مسعود ومسروق : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ يعلم أن اللَّه إن شاء أعطى وإن شاء منع ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ أي من حيث لا يدري . وقال قتادة : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ أي من شبهات الأمور والكرب عند الموت ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ من حيث لا يرجو ولا يأمل ، وقال السدي : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ يطلّق للسنة ، ويراجع للسنة ، وعن ثوبان قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّ العَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ ، وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ » (٣) وقال محمّد بن إسحاق : جاء مالك الأشجعي إلى رسول اللَّه ﷺ فقال له : أسر ابني عوف ، فقال له رسول اللَّه ﷺ : « أَرْسِلْ إِلَيْهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ يَأْمُرُكَ أَنْ تُكْثِرَ مِنْ قَوْلِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّه » وكانوا قد شدوه بالقد فسقط القد عنه ، فخرج فإذا هو بناقة لهم فركبها وأقبل فإذا بسرح القوم الذين كانوا قد شدوه ، فصاح بهم فاتبع أولها آخرها ، فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادي بالباب ، فقال أبوه : عوف ورب الكعبة ، فقالت أمه : واسوأتاه وعوف كيف يقدم لما هو فيه من القد ، فاستبقا الباب والخادم فإذا عوف قد ملأ الفناء إبلًا ، فقص على أبيه أمره وأمر الإبل ، فقال أبوه : قفا حتى آتي رسول اللَّه ﷺ فأسأله عنها ، فأتى رسول اللَّه ﷺ فأخبره بخير عوف وخبر الإبل ، فقال له رسول اللَّه ﷺ : « اصْنَعْ بِهَا مَا أَحْبَبْتَ وَمَا كُنْتَ صَانِعًا بِمَالِكَ » ونزل ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (٤) .

وعن عمران بن حصين قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنِ انْقَطَعَ إِلَى اللَّه كَفَاهُ اللَّه كُلَّ مُؤْنَةٍ وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنِ انْقَطَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَكَلَهُ إِلَيْهَا » (٥) . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ عن عبد اللَّه بن عباس أنه ركب خلف رسول اللَّه ﷺ يومًا فقال له رسول اللَّه ﷺ : « يَا غُلَامُ إِنِّي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١٧٨) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٤٨) والحاكم في المستدرك (٤/٢٦٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٧٧) .
(٤) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٢/٦١٩) .
(٥) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٢/٥٣٧) والطبراني في الصغير (١/١٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٠٣) .

مُعلِّمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ ؛ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»[(١)] .

وعن عبد اللَّه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ نَزَلَ بِهِ حَاجَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ كَانَ قَمِنًا أَنْ لا تُسَهَّلَ حَاجَتُهُ ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللَّهِ تَعَالَى أَتَاهُ اللَّهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ بِمَوْتٍ آجِلٍ»[(٢)] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِۦ ﴾ أي منفذ قضاياه وأحكامه في خلقه بما يريده ويشاءه ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ .

﴿وَالَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ .

يقول تعالى مبينًا لعدة الآيسة وهي التي قد انقطع عنها المحيض لكبرها أنها ثلاثة أشهر عوضًا عن ثلاثة قروء في حق من تحيض كما دلَّت على ذلك آية البقرة ، وكذا الصغار اللائي لم يبلغن سن الحيض أن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر ولهذا قال تعالى : ﴿وَالَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إِنِ ارْتَبْتُمْ ﴾ فيه قولان : أحدهما : وهو قول طائفة من السلف كمجاهد والزهري وابن زيد : أي إن رأين دمًا وشككتم في كونه حيضًا أو استحاضة وارتبتم فيه ، والقول الثاني : إن ارتبتم في حكم عدتهن ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر ، وهذا مروي عن سعيد بن جبير وهو اختيار ابن جرير وهو أظهر في المعنى واحتج عليه بما رواه عمرو بن سالم قال : قال أُبي بن كعب : يا رسول اللَّه إن عددًا من عدد النساء لم تذكر في الكتاب الصغار والكبار وأولات الأحمال ، قال : فأنزل اللَّه ﷻ ﴿وَالَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾[(٣)]

وقوله تعالى : ﴿وَأُوْلَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ يقول تعالى : ومن كانت حاملًا فعدتها بوضعه ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفواق ناقة في قول جمهور العلماء من السلف والخلف كما هو نص هذه الآية الكريمة وكما وردت به السنَّة النبوية ، وقد روي عن علي وابن عبَّاس رضي الله عنهما أنهما ذهبا في المتوفى عنها زوجها أنها تعتد بأبعد الأجلين من الوضع والأشهر عملًا بهذه الآية والتي في سورة البقرة . وعن أبي سلمة قال : جاء رجل إلى ابن عبَّاس وأبو هريرة جالس فقال : أفتني في امراة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة ، فقال ابن عبَّاس : آخر الأجلين ، قلت أنا : ﴿وَأُوْلَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ قال أبو هريرة : أنا مع ابن أخي - يعني أبا سلمة - فأرسل ابن عبَّاس غلامه كريم إلى أم سلمة يسألها فقالت : قتل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى فوضعت بعد موته بأربعين ليلة ، فخطبت فأنكحها رسول اللَّه ﷺ وكان أبو السنابل فيمن خطبها[(٤)] . وعن عبيد اللَّه بن عبد اللَّه بن عتبة أن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٣/١) والترمذي في السنن (٢٥١٦) والحاكم في المستدرك (٥٤١/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٩/١) . (٣) تفسير الطبري (١٨٠/٢٨) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٠٩) وأحمد في مسنده (٣٢٧/٤) .

أباه كتب إلى عمر بن عبد الله بن الأرقم الزهري يأمره أن يدخل على سبيعة بنت الحارث الأسلمية فيسألها عن حديثها وعما قال لها رسول الله ﷺ حين استفتته ، فكتب عمر بن عبد الله يخبره أن سبيعة أخبرته أنها كانت تحت سعد بن خولة وكان ممن شهد بدرًا فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته ، فلما تعلَّت من نفاسها تجملت للخطَّاب ، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك ، فقال لها : مالي أراك متجملة ؟ لعلك ترجين النكاح ؟ إنك والله ما أنت بنكاح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر ،قالت سبيعة : فلما قال لي ذلك جمعت عليَّ ثيابي حين أمسيت فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي ، وأمرني بالتزويج إن بدا لي (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ أي يسهل أمره وييسره عليه ويجعل له فرجًا قريبًا ومخرجًا عاجلًا ثم قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ﴾ أي حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسول الله ﷺ ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ أي يذهب عنه المحذور ويجزل له الثواب على العمل اليسير .

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده إذا طلق أحدهم المرأة أن يسكنها في منزل حتى تنقضي عدتها فقال : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ أي عندكم ﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ قال ابن عبَّاس ومجاهد وغير واحد : يعني سعتكم حتى قال قتادة : إن لم تجد إلَّا جنب بيتك فأسكنها فيه ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ﴾ قال مقاتل بن حيان : يعني يضاجرها لتفتدي منه بمالها أو تخرج من مسكنه ، وقال أبو الضحى : يطلقها فإذا بقي يومان راجعها ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ قال كثير من العلماء منهم ابن عبَّاس وطائفة من السلف وجماعات من الخلف : هذه في البائن إن كانت حاملًا أنفق عليها حتى تضع حملها . قالوا : بدليل أن الرجعية تجب نفقتها سواء كانت حاملًا أو حائلًا ، وقال آخرون : بل السياق كله في الرجعيات وإنما نص على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعية ؛ لأن الحمل تطول مدته غالبًا فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق إلى الوضع لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة ، ثم اختلف العلماء ، هل النفقة لها بواسطة الحمل أم للحمل وحده ؟ على قولين منصوصين عن الشافعي وغيره ، ويتفرع عليها مسائل كثيرة مذكورة في علم الفروع .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ أي إذا وضعن حملهن وهن طوالق فقد بنَّ بانقضاء عدتهن ، ولها حينئذ أن ترضع الولد ولها أن تمتنع منه ، ولكن بعد أن تغذيه باللبأ وهو باكورة اللبن الذي لا قوام للمولود غالبًا إلا به ، فإن أرضعت استحقت أجر مثلها ، ولها أن تعاقد أباه أو ليه على ما يتفقان عليه من أجرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم

(١) أخرجه مسلم في الطلاق (٥٦) .

بِمَعۡرُوفٖۖ ﴾ أي ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف من غير إضرار ولا مضارة .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ﴾ أي وإن اختلف الرجل والمرأة فطلبت المرأة في أجرة الرضاع كثيرًا ولم يجبها الرجل إلى ذلك أو بذل الرجل قليلًا ولم توافقه عليه فليسترضع له غيرها فلو رضيت الأم بما استؤجرت به الأجنبية فهي أحق بولدها . وقوله تعالى : ﴿ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ ﴾ أي لينفق على المولود والده أو وليه بحسب قدرته ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ ﴾ . عن أبي سنان ، قال : سأل عمر بن الخطّاب عن أبي عبيدة فقيل : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل أخشن الطعام ، فبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول : انظر ما يصنع بها إذا هو أخذها ؟ فما لبث أن لبس اللين من الثياب ، وأكل أطيب الطعام ، فجاءه الرسول فأخبره . فقال : رحمه اللَّه تعالى تأول هذه الآية ﴿ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ ﴾[(١)] .

وعن شِريح بن عبيد بن أبي مالك الأشعري واسمه الحارث قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « ثَلَاثَةُ نَفَرٍ كَانَ لأحدهم عشرة دنانير فتصدق منها بدينار ، وكان لآخر عشر أواق فتصدق منها بأوقية ، وكان لآخر مائة أوقية فتصدق منها بعشر أواق ، فقال رسول اللَّه ﷺ : هم في الأجر سواء ، كل قد تصدق بعشر ماله ، قال اللَّه تعالى ﴿ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ ﴾[(٢)] » وقوله تعالى : ﴿ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴾ وعد منه تعالى ووعده حق لا يخلفه . قال أبو هريرة : بينما رجل وامرأة له في السلف الخالي لايقدران على شيء فجاء الرجل من سفره فدخل على امرأته جائعًا قد أصابته مسغبة شديدة ، فقال لامرأته : عندك شيء ؟ قالت : نعم أبشر أتانا رزق اللَّه ، فاستحثها ، فقال : ويحك ابتغي إن كان عندك شيء ، قالت : نعم هنيهة ترجو رحمة اللَّه ، حتى إذا طال عليه الطول ، قال : ويحك قومي فابتغي إن كان عندك شيءِ فائتيني به فإني قد بلغت وجهدت ، فقالت : نعم ، الآن نفتح التنور فلا تعجل فلما أن سكت عنها ساعة وتحينت أن يقول لها ، قالت من عند نفسها : لو قمت فنظرت إلى تنوري ، فقامت فنظرت إلى تنورها ملآن من جنوب الغنم ورحييها تطحنان ، فقامت إلى الرحى فنفضتها واستخرجت ما في تنورها من جنوب الغنم ، قال أبو هريرة فوالذي نفس أبي القاسم بيده هو قول محمَّد ﷺ : « لَوْ أَخذتْ مَا فِي رَحَيَيْهَا وَلَمْ تَنْفُضْهَا لَطَحَنَتَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ »[(٣)] .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا ٩ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ١٠ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ﴾ .

يقول تعالى متوعدًا لمن خالف أمره وكذّب رسله وسلك غير ما شرعه ومخبرًا عما حل بالأمم السالفة بسبب ذلك فقال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ ﴾ أي تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر اللَّه ومتابعة رسله ﴿ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴾ أي منكرًا فظيعًا

(١) تفسير الطبري (٢٨/١٩٠) .
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/٣٣١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣/١١١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٢١) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٥٧) .

﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ أي غب مخالفتها وندموا حيث لا ينفعهم الندم ﴿ وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أي في الدار الآخرة مع ما محل لهم من العذاب في الدنيا ثم قال تعالى بعد ما قص من خبر هؤلاء : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي : الأفهام المستقيمة لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم يا أولي الألباب : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي : صدقوا بالله ورسله ﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ يعني القرآن . وقوله تعالى : ﴿ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ قال بعضهم : ﴿ رَسُولًا ﴾ منصوب على أنه بدل اشتمال وملابسة لأن الرسول هو الذي بلغ الذكر . وقال ابن جرير : الصواب أن الرسول ترجمة عن الذكر يعني تفسيرًا له ولهذا قال تعالى : ﴿ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ أي في حال كونها بينة واضحة جلية ﴿ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أي من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم ، وقد سمى الله تعالى الوحي الذي أنزله نورًا لما يحصل به من الهدى كما سماه روحًا لما يحصل به من حياة القلوب .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾ قد تقدم تفسير مثل هذا غير مرة بما أغنى عن إعادته هنا .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قدرته التامة وسلطانه العظيم ليكون ذلك باعثًا على تعظيم ما شرع من الدين القويم ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ كقوله تعالى إخبارًا عن نوح أنه قال لقومه : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ أي سبعًا أيضًا كما ثبت في الصحيحين : « مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ » (١) . وقد ذكرت طرقه وألفاظه وعزوه في أول البداية والنهاية عند ذكر خلق الأرض ولله الحمد والمنة ومن حمل على سبعة أقاليم فقد أبعد النجعة وأغرق في النزع وخالف القرآن والحديث بلا مستند . وعن ابن عبَّاس في قوله تعالى : ﴿ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ قال : لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم ، وكفركم تكذيبكم بها .

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣١٩٥) .

سورة التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ﴾ .

اختلف في سبب نزول صدر هذه السورة فقيل نزلت في شأن مارية وكان رسول الله ﷺ قد حرمها فنزل قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ ﴾ الآية .

عن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها فأنزل الله ﷻ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ ﴾ . وعن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ أصاب أم إبراهيم في بيت بعض نسائه فقالت : أي رسول الله في بيتي وعلى فراشي ؟! فجعلها عليه حرامًا فقالت : أي رسول الله كيف تحرم عليك الحلال ؟! فحلف لها بالله لا يصيبها فأنزل الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ ﴾ قال زيد بن أسلم : فقوله أنت علي حرام لغو [(١)] وعن ابن عبّاس قال : قلت لعمر ابن الخطاب : من المرأتان ؟ قال : عائشة وحفصة وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم القبطية أصابها النبيُّ ﷺ في بيت حفصة ، في نوبتها فوجدت حفصة فقالت : يا نبي الله لقد جئت إلي شيئًا ما جئت إلى أحد من أزواجك في يومي وفي دوري وعلى فراشي ، قال : « أَلَا تَرْضِينَ أَنْ أُحَرِّمَهَا فَلَا أَقْرَبُهَا ؟ » . قالت : بلى . فحرمها ، وقال لها : « لَا تَذْكُري ذَلِكَ لأَحَدٍ » ، فذكرته لعائشة فأظهره الله عليه فأنزل الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ ﴾ الآيات كلها ، فبلغنا أن رسول الله ﷺ كفَّر عن يمينه وأصاب جاريته [(٢)] .

وعن ابن عبَّاس : في الحرام يمين تكفر . وقال ابن عباس ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ ﴾ [(٣)] . وعن ابن عبَّاس : قال : نزلت هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ ﴾ في المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ . وهذا قول غريب ، والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل كما ورد عن عائشة قالت : كان النبيُّ ﷺ يشرب عسلًا عند زينب بنت جحش ويمكث عندها فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير إني أجد منك ريح مغافير . قال : « لَا وَلَكِنِّي أَشْربُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ، فَلَنْ أَعُودَ لَهُ وَقَدْ حَلَفْتُ لا تُخْبِرِي بِذلِكَ أَحَدًا » [(٤)] . ﴿ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ ﴾ والمغافير شبيه بالصمغ يكون في الرمث فيه حلاوة ، أغفر الرمث إذا ظهر فيه ، وأحدها

(١) أخرجه النسائي في السنن (٣٩٥٩) .
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٢٣٩) والهندي في كنز العمال (٤٦٦٨) وابن جرير في تفسيره (٢٨/٢٠٢) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١١) . (٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١٢) .

مغفور ، ويقال : مغافير . وهكذا قال الجوهري : وقد يكون المغفور أيضًا للعشر والثمام والسلم والطلح ، قال : والرمث بالكسر مرعى من مراعي الإبل وهو من الحمض ، قال : والعرفط شجر من العضاه ينضج المغفور .

وعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يحب الحلوى والعسل وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن ، فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس ، فغرت فسألت عن ذلك فقيل لي : أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل فسقت النبيَّ ﷺ منه شربة . فقلت : أما والله لنحتالن له ، فقلت لسودة ابنة زمعة : إنه سيدنو منك فإذا دنا منك فقولي : أكلت مغافير ؛ فإنه سيقول لك لا ، فقولي له : ما هذه الريح التي أجد ، فإنه سيقول لك : سقتني حفصة شربة عسل فقولي : جرست نحله العرفط وسأقول ذلك ، وقولي له أنت يا صفية ذلك ، قالت : تقول سودة : فوالله ما هو إلَّا أن قام على الباب فأردت أن أناديه بما أمرتني فرقًا منك ، فلما دنا منها قالت له سودة : يا رسول الله أكلت مغافير ؟ قال : « لَا » . قالت : فما هذه الريح التي أجد منك ؟ قال : « سَقَتْنِي حَفْصَةُ شرْبَةَ عَسَلٍ » ، قالت : جرست نحله العرفط ، فلما دار إلي قلت نحو ذلك فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك ، فلما دار إلى حفصة قالت له : يا رسول الله ألا أسقيك منه ؟ قال : « لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ » ، قالت : تقول سودة : والله لقد حرمناه ، قلت لها : اسكتي [1] . وعن عائشة أن زينب بنت جحش هي التي سقته العسل وإن عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه . وقد يقال إنهما واقعتان ولا بعد في ذلك إلَّا أن كونهما سببًا لنزول هذه الآية فيه نظر ، ومما يدل على أن عائشة وحفصة رضي الله عنهما هما المتظاهرتان أن ابن عبَّاس قال : لم أزل حريصًا على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ حتى حج عمر وحججت معه ، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة ، فتبرز ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ ، فقلت : يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبيِّ ﷺ اللتان قال الله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ ؟ فقال عمر : وا عجبًا لك يا ابن عبَّاس - قال الزهري : كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه - قال : هي عائشة وحفصة .

قال : ثم أخذ يسوق الحديث قال : كنا معشر قريش قومًا نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، قال : وكان منزلي في دار أمية بن زيد بالعوالي ، قال : فغضبت يومًا على امرأتي فإذا هي تراجعني ، فأنكرت أن تراجعني ، فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ، قال : فانطلقت فدخلت على حفصة ، فقلت : أتراجعين رسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم ، قلت : وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل ؟ قالت : نعم . قلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت ؟ لا تراجعي رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئًا وسليني من مالي ما بدا لك ، ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم - أي أجمل -

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٦٨) ومسلم في الطلاق (٢١) والبيهقي في السنن (٧/٣٥٤) .

وأحب إلى رسول الله ﷺ منك - يريد عائشة - قال : وكان لي جار من الأنصار وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ ينزل يومًا وأنزل يومًا فيأتيني بخبر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك ، قال : وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا ، فنزل صاحبي يومًا ثم أتى عشاء فضرب بابي ثم ناداني فخرجت إليه فقال : حدث أمر عظيم ، فقلت : وما ذاك أجاءت غسان ؟ قال : لا بل أعظم من ذلك وأطول ؛ طلّق رسول الله ﷺ نساءه ، فقلت : قد خابت حفصة وخسرت ؛ قد كنت أظن هذا كائنًا ، حتى إذا صليت الصبح شددت علي ثيابي ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي ، فقلت : أطلقكن رسول الله ﷺ ؟ فقالت : لا أدري هو هذا معتزل في هذه المشربة ، فأتيت غلامًا له أسود فقلت : استأذن لعمر ، فدخل الغلام ثم خرج إلي فقال : ذكرتك له فصمت ، فانطلقت حتى أتيت المنبر فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم فجلست عنده قليلًا ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام فقلت : استأذن لعمر ، فدخل ثم خرج إلي فقال : قد ذكرتك له فصمت ، فخرجت فجلست إلى المنبر ثم غلبني ما أجد ، فأتيت الغلام فقلت : استأذن لعمر ، فدخل ثم خرج إلي فقال : قد ذكرتك له ، فصمت ، فوليت مدبرًا فإذا الغلام يدعوني فقال : ادخل قد أذن لك ، فدخلت فسلمت على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رمال حصير - وقد أثّر في جنبه فقلت : أطلقت يا رسول الله نساءك ؟ فرفع رأسه إليَّ ، وقال : « لَا » . فقلت : الله أكبر ! ولو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قومًا نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، فغضبت على امرأتي يومًا فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني ، فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبيّ ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ، فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسرت ، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت ؟ فتبسم رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله قد دخلت على حفصة فقلت : لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم أو أحب إلى رسول الله ﷺ فتبسم أخرى ، فقلت : أستأنس يا رسول الله ؟ قال : « نَعَمْ » ، فجلست فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت في البيت شيئًا يرد البصر إلَّا أهبة مقامه ، فقلت : ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسَّع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله ، فاستوى جالسًا وقال : « أَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ ؟ أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا » ، فقلت : استغفر لي يا رسول الله ، وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهرًا من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله ﷻ (١) .

وعن أنس قال : قال عمر : اجتمع نساء النبيّ ﷺ في الغيرة عليه فقلت لهن : عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن . فنزلت هذه الآية (٢) . وقد تقدم أنه وافق القرآن في أماكن منها في نزول الحجاب ، ومنها في أسارى بدر ، ومنها قوله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ ومعنى قوله : ﴿ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ ﴾ ظاهر . وقوله تعالى : ﴿ سَٰٓئِحَٰتٍ ﴾ أي صائمات ، قاله أبو هريرة وعائشة وابن عباس وعكرمة

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣/١) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١٦) .

ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم . وقال زيد بن أسلم : ﴿ سَٰٓئِحَٰتٍ ﴾ أي مهاجرات ، وتلا عبد الرحمن ﴿ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ﴾ أي المهاجرين والقول الأول أولى والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ أي منهن ثيبات ومنهن أبكارًا ليكون ذلك أشهى إلى النفس ؛ فإن التنوع يبسط النفس ولهذا قال : ﴿ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ . عن ابن بريدة عن أبيه ﴿ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ قال : وعد الله نبيّه ﷺ في الآية أن يزوجه فالثيب آسية امرأة فرعون ، وبالأبكار مريم بنت عمران .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

عن رجل عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ يقول : أدبوهم وعلموهم . وقال ابن عبّاس : اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصي الله وأمروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار ، وقال مجاهد : اتقوا الله وأوصوا أهليكم بتقوى الله وقال قتادة : تأمرهم بطاعة الله وتنهاهم عن معصية الله وأن تقوم عليهم بأمر الله وتساعدهم عليه فإذا رأيت لله معصية قذعتهم عنها وزجرتهم عنها . وهكذا قال الضحاك ومقاتل : حق على المسلم أن يعلم أهله من قرابته وإمائه وعبيده ما فرض الله عليهم وما نهاهم الله عنه . عن عبد الملك بن الربيع بن سبرة عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « مُرُوا الصَّبِيَّ بِالصَّلَاةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ ، فَإِذَا بَلَغَ عَشْرَ سِنِينَ فَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا » (١) . قال الفقهاء : وهكذا في الصوم ليكون ذلك تمرينًا له على العبادة لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر ، والله الموفق .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ ﴿ وَقُودُهَا ﴾ أي حطبها الذي يلقى فيها جثث بني آدم ﴿ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ قيل : المراد بها الأصنام التي تعبد ، وقيل : هي حجارة من كبريت ، أنتن من الجيفة ، وعن عبد العزيز بن أبي داود قال : بلغني أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ وعنده بعض أصحابه وفيهم شيخ فقال الشيخ : يا رسول الله حجارة جهنم كحجارة الدنيا ؟ فقال النبيُّ ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَصَخْرَةٌ مِنْ صَخْرِ جَهَنَّمَ أَعْظَمُ مِنْ جِبَالِ الدُّنْيَا كُلِّهَا » قال : فوقع الشيخ مغشيًا عليه فوضع النبيُّ ﷺ يده على فؤاده فإذا هو حي فناداه قال : « يَا شَيْخُ قُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه » فقالها فبشره بالجنّة قال : فقال أصحابه : يا رسول الله أمن بيننا ؟ قال : « نَعَمْ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ » (٢) وقوله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ أي طباعهم غليظة قد نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ﴿ شِدَادٌ ﴾ أي تركيبهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج . عن عكرمة أنه قال : إذا وصل أول

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (٤٩٤) والهيثمي في السنن (٢/١١) .
(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٤/٧٣) .

أهل النار إلى النار وجدوا على الباب أربعمائة ألف من خزنة جهنم سود وجوههم ، كالحة أنيابهم ، قد نزع الله من قلوبهم الرحمة ، ليس في قلب واحد منهم مثقال ذرة من الرحمة ، لو طير الطير من منكب أحدهم لطار شهرين قبل أن يبلغ منكبه الآخر ، ثم يجدون على الباب التسعة عشر ، عرض صدر أحدهم سبعون خريفًا ، ثم يهوون من باب إلى باب خمسمائة سنة ، ثم يجدون على كل باب منها مثل ما وجدوا على الباب الأول حتى ينتهوا إلى آخرها ، وقوله : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ . أي مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه لا يتأخرون عنه طرفة عين وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه وهؤلاء هم الزبانية - عياذًا بالله منهم - وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي يقال للكفرة يوم القيامة : لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم ولا تجزون اليوم إلا ما كنتم تعملون ، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم ، ثم قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ أي توبة صادقة جازمة تمحوا ما قبلها من السيئات ، وتلم شعث التائب وتجمعه وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات .

وعن النعمان سئل عمر عن التوبة النصوح فقال : أن يتوب الرجل من العمل السيئ ثم لا يعود إليه أبدًا .

ولهذا قال العلماء : التوبة النصوح هو أن يقلع عن الذنب في الحاضر ويندم على ما سلف منه في الماضي ويعزم على أن لا يفعل في المستقبل ، ثم إن كان الحق لآدمي رده إليه بطريقه . عن عبد الله بن مغفل قال : دخلت مع أبي على عبد الله بن مسعود فقال : أنت سمعت النبيَّ ﷺ يقول : « النَّدَمُ تَوْبَةٌ » ؟ قال : نعم . وقال مرة : نعم سمعته يقول : « النَّدَمُ تَوْبَةٌ » (١) . عن أُبيِّ بن كعب قال : قيل لنا : أشياء تكون في آخر هذه الأمة عند اقتراب الساعة ، منها نكاح الرجل امرأته أو أمته في دبرها وذلك مما حرم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله ، ومنها نكاح الرجل الرجل وذلك مما حرم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله ، ومنها نكاح المرأة المرأة وذلك ما حرم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله ، وليس لهؤلاء صلاة ما أقاموا على هذا حتى يتوبوا إلى الله توبة نصوحًا ، قال زر : فقلت لأبي بن كعب : فما التوبة النصوح ؟ فقال : سألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : « هُوَ النَّدَمُ عَلَى الذَّنْبِ حِينَ يَفْرُطُ مِنْكَ فَتَسْتَغْفِرَ اللَّه بِنَدَامَتِكَ مِنْهُ عِنْدَ الحَاضِرِ ثُمَّ لَا تَعُودَ إِلَيْهِ أَبَدًا » (٢) وعن الحسن قال : التوبة النصوح أن تبغض الذنب كما أحببته وتستغفر منه إذا ذكرته ، فأما إذا جزم بالتوبة وصمم عليها فإنها تجب ما قبلها من الخطيئات كما ثبت في الصحيح : « الإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ ، وَالتَّوْبَةُ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا » (٣) . وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرار على ذلك إلى الممات - كما تقدم في الحديث وفي الأثر - ثم لا يعود فيه أبدًا ، أو يكفي العزم على أن لا يعود في تكفير الماضي بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك لا يكون ذلك ضارًا في تكفير ما تقدم لعموم قوله عليه الصلاة والسلام : « التَّوْبَةُ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا » وللأول أن يحتج بما ثبت في الصحيح أيضًا « مَنْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٤٦) .
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٢٤٥) والهندي في كنز العمال (١٠٤٢٧) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٢٠٥) .

أَحْسَنَ فِي الإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الجَاهِلِيَّةِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الإِسْلَامِ أُخِذَ بِالأَوَّلِ وَالآخِرِ » (١) فإذا كان هذا في الإسلام هو الذي أقوى من التوبة فالتوبة بطريق الأولى ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ وعسى من الله موجبة ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾ أي : ولا يخزيهم معه يعني يوم القيامة ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ ﴾ قال مجاهد والضحَّاك والحسن البصري وغيرهم : هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طفئ . وعن رجل من بني كنانة قال : صلَّيت خلف رسول الله ﷺ عام الفتح فسمعته يقول : « اللَّهُمَّ لا تُخْزِنِي يَوْمَ القِيَامَةِ » (٢) . وعن عبد الرَّحمن بن جبير بن نفير أنه سمع أبا ذر وأبا الدرداء قالا : قال رسول الله ﷺ : « أَنَا أَوَّلُ مَنْ يُؤْذَنُ لَهُ فِي السُّجُودِ يومَ القِيَامَةِ ، وَأَوَّلُ مَنْ يُؤْذَنُ لَهُ بِرفْعِ رَأْسِهِ فَأَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيَّ فَأَعْرِفُ أُمَّتِي مِنْ بَيْنِ الأُمَمِ ، وَأَنْظُرُ عَنْ يَمِينِي فَأَعْرِفُ أُمَّتِي مَنْ بَيْنِ الأُمَمِ ، وَأَنْظُرُ عَنْ شِمَالِي فَأَعْرِفُ أُمَّتِي مِنْ بَيْنِ الأُمَمِ » فقال رجل : يا رسول الله : وكيف تعرف أمتك من بين الأمم ؟ قال : « غُرٌّ مُحَجَّلُونَ مِنْ آثارِ الطُّهُورِ ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ مِنَ الأُمَمِ كَذلِكَ غَيْرهم ، وَأَعْرِفُهُمْ يُؤْتَوْنَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِم ، وَأَعْرِفُهُم بِسِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، وَأَعْرِفُهُمْ بِنُورِهِمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » (٣) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ بجهاد الكفَّار والمنافقين ، هؤلاء بالسلاح والقتال ، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم ﴿ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي في الدنيا ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي في الآخرة ، ثم قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم أن ذلك لا يجدي عنهم شيئًا ولا ينفعهم عند الله إن لم يكن الإيمان حاصلًا في قلوبهم ، ثم ذكر المثل فقال : ﴿ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ ﴾ أي : نبيين رسولين عندهما في صحبتهما ليلًا ونهارًا يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ أي في الإيمان لم يوافقاهما على الإيمان ولا صدقاهما في الرسالة ، فلم يجد ذلك كله شيئًا ولا دفع عنهما محذورًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أي لكفرهما ﴿ وَقِيلَ ﴾ أي للمرأتين ﴿ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ وليس المراد بقوله ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ في فاحشة ، بل في الدين فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة ، لحرمة الأنبياء ؛ فعن ابن عبَّاس في هذه الآية ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ قال : ما زنتا ، أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه . وقد استدل بهذه الآية الكريمة بعض العلماء على ضعف الحديث

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٩٠) وأحمد في مسنده (٤٣١/١) وابن ماجه في السنن (٤٢٤٢) والبيهقي في السنن (١٢٣/٩) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٣/٤) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٩/٥) والحاكم في المستدرك (٤٧٨/٢) والبيهقي في السنن (١٧٢/٦) .

الذي يأثره كثير من الناس : من أكل مع مغفور له غفر له . وهذا الحديث لا أصل له وإنما يروى هذا عن بعض الصالحين أنه رأى النبيَّ ﷺ في المنام فقال : يا رسول الله أنت قلت : من أكل مع مغفور له غفر له ؟ قال : لا ، ولكني الآن أقوله .

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ .

وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم . قال قتادة : كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم ، فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها ، ليعلموا أن الله تعالى حكم عدل لا يؤاخذ أحدًا إلّا بذنبه . عن سلمان قال : كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس فإذا انصرف عنها أظلّتها الملائكة بأجنحتها وكانت ترى بيتها في الجنة . وعن القاسم بن أبي بزة قال : كانت امرأة فرعون تسأل من غلب ؟ فيقال : غلب موسى وهارون فتقول : آمنت برب موسى وهارون ، فأرسل إليها فرعون ، فقال : انظروا أعظم صخرة تجدونها فإن مضت على قولها فألقوها عليها وإن رجعت عن قولها فهي امرأتي ، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها في الجنّة فمضت على قولها وانتزعت روحها وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح [1] . فقولها ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ قال العلماء : اختارت الجار قبل الدار ، وقد ورد شيء من ذلك في حديث مرفوع ﴿ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ ﴾ أي خلصني منه فإني أبرأ إليك من عمله ﴿ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها. عن أبي العالية قال : كان إيمان امرأة فرعون من قبل إيمان امرأة خازن فرعون ، وذلك أنها جلست تمشط ابنة فرعون فوقع المشط من يدها . فقالت : تعس من كفر بالله ، فقالت لها بنت فرعون : ولك رب غير أبي ؟ قالت : ربي ورب أبيك ورب كل شيء الله ، فلطمتها بنت فرعون وضربتها وأخبرت أباها ، فأرسل إليها فرعون فقال : تعبدين ربًّا غيري ؟ قالت : نعم ربي وربك رب كل شيء الله وإياه أعبد ، فعذبها فرعون وأوتد لها أوتادًا فشدَّ يديها ورجليها وأرسل عليها الحيات فكانت كذلك فأتى عليها يومًا فقال لها : ما أنت منتهية ؟ فقالت له : ربي وربك ورب كل شيء الله . فقال لها : إني ذابح ابنك في فيك إن لم تفعلي . فقالت له : اقض ما أنت قاض ، فذبح ابنها في فيها ، وإن روح ابنها بشّرها ، قال لها : أبشري يا أمه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا ، فصبرت ، ثم أتى عليها فرعون يومًا آخر فقال لها مثل ذلك ، فقالت له مثل ذلك ، فذبح ابنها الآخر في فيها ، فبشَّرها روحه أيضًا ، وقال لها : اصبري يا أمه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا ، قال : سمعت امرأة فرعون كلام روح ابنها الأكبر ثم الأصغر فآمنت امرأة فرعون وقبض الله روح امرأة خازن فرعون وكشف الغطاء عن ثوابها ومنزلتها وكرامتها في الجنّة لامرأة فرعون حتى رأت فازدادت إيمانًا ويقينًا وتصديقًا فأطلع الله فرعون على إيمانها فقال للملأ : ما تعلمون من آسية بنت مزاحم ؟ فأثنوا عليها فقال لهم :

---

(١) تفسير الطبري (٢١٨/٢٨) .

إنها تعبد غيري . فقالوا له : اقتلها ، فأوتد لها أوتادًا فشد يديها ورجليها ، فدعت آسية ربها فقالت : ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ فوافق ذلك أن حضرها فرعون فضحكت حين رأت بيتها في الجنة . فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها إنا نعذّبها وهي تضحك ، فقبض اللَّه روحها في الجنَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أي حفظته وصانته ، والإحصان : هو العفاف والحرية ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ أي : بواسطة الملك وهو جبريل ، فإن اللَّه بعثه إليها فتمثل لها في صورة بشر سوي وأمره اللَّه تعالى أن ينفخ بفيه في جيب درعها فنزلت النفخة فولجت في فرجها فكان منه الحمل بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ولهذا قال تعالى ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾ أي بقدره وشرعه ﴿ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ . عن ابن عبَّاس قال : خطَّ رسول اللَّه ﷺ في الأرض أربعة خطوط وقال : « أَتَدرُونَ مَا هذَا ؟ » قالوا : اللَّه ورسوله أعلم ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ : خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَونَ » (١) . وعن أبي موسى الأشعري عن النبيِّ ﷺ قال : « كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ » (٢) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٣/١) والحاكم في المستدرك (٥٩٤/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٣٧٦٩) ومسلم في فضائل الصحابة (٧٠) والترمذي في الترمذي (١٨٣٤) وأحمد في مسنده (٣٩٤/٤) .

سورة الملك

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ سُورَةً فِي القُرْآنِ ثَلَاثِينَ آيَةً شَفَعَتْ لِصَاحِبِها حَتَّى غُفِرَ لَهُ : تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ » (١) . وعن ابن عبَّاس قال : ضرب بعض أصحاب النبيِّ ﷺ خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فأتي النبيَّ ﷺ فقال : يا رسول الله ضربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر فإذا إنسان يقرأ سورة الملك : تبارك حتى ختمها ، فقال رسول الله ﷺ : « هِيَ المَانِعَةُ ، هِيَ المُنْجِيَةُ ، تُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ » (٢) . وعن جابر أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ : ألم تنزيل وتبارك الذي بيده الملك (٣) ، وقال ليث عن طاوس : يفضلان كل سورة في القرآن بسبعين حسنة .

وعن ابن عبَّاس أنه قال لرجل : ألا أتحفك بحديث تفرح به ! قال : بلى ، قال : اقرأ تبارك الذي بيده الملك وعلِّمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك فإنها المنجية والمجادلة ، أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها وتطالب له أن ينجيه من عذاب النار وينجى بها صاحبها من عذاب القبر . قال رسول الله ﷺ : « لَوَدِدْتُ أَنَّهَا فِي قَلْبِ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ أُمَّتِي » (٤) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

يمجِّد تعالى نفسه الكريمة ويخبر أنه بيده الملك أي هو المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه ولا يُسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ واستدل بهذه الآية من قال : إن الموت أمر وجودي لأنه مخلوق . ومعنى الآية أنه أوجد الخلائق من العدم ليبلوهم أيهم أي يختبرهم أيهم أحسن عملًا فسمى الحال الأول وهو العدم موتًا ، وسمى هذه النشأة حياة ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أي خير عملًا ولم يقل أكثر عملًا . ثم قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ أي هو العزيز العظيم المنيع الجناب وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأناب بعد ما عصاه وخالف أمره وإن كان تعالى عزيزًا هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز . ثم قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ أي طبقة بعد طبقة وهل هن متواصلات بمعنى أنهن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢١/٢) والترمذي في السنن (٢٨٩١) وابن ماجه في السنن (٣٧٨٦) والحاكم في المستدرك (٤٩٧/٢).

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٩٠) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٧٧/٢) والألباني في الصحيحة (١١٤٠).

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٩٢).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٦٥/١)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٧٧/٢).

علويات بعضهن على بعض ، أو متفاصلات بينهن خلاء ، فيه قولان أصحهما الثاني كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره ، وقوله تعالى : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ أي بل وهو مصطحب مستو ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة ولا نقص ولا عيب ولا خلل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ أي : انظر إلى السماء فتأملها هل ترى فيها عيبًا أو نقصًا أو خللًا أو فطورًا ؟ ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ أي : شقوق وقال السدي : من خروق . وقال ابن عباس : من وهاء . وقال قتادة : هل ترى خللًا يا ابن آدم ؟

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ أي مرتين ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا ﴾ قال ابن عباس : ذليلًا . وقال مجاهد : صاغرًا ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ يعني وهو كليل ، وقال مجاهد والسدي : الحسير المنقطع من الإعياء ، ومعنى الآية : إنك لو كررت البصر مهما كررت لانقلب إليك أي لرجع إليك البصر ﴿ خَاسِئًا ﴾ عن أن يرى عيبًا أو خللًا ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ أي كليل قد انقطع من الإعياء من كثرة التكرر ولا يرى نقصًا ، ولما نفى عنها في خلقها النقص بيّن كمالها وزينتها فقال : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ وهي الكواكب التي وضعت فيها من السيارات والثوابت . وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ عاد الضمير في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا ﴾ على جنس المصابيح لا على عينها ؛ لأنه لا يرمى بالكواكب التي في السماء ؛ بل بشهب من دونها ، وقد تكون مستمدة منها ، والله أعلم .

وقوله تعالى ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ أي : جعلنا للشياطين هذا الخزي في الدنيا وأعتدنا لهم عذاب السعير في الأخرى . قال قتادة : إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال : خلقها الله زينة للسماء ، ورجومًا للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأوّل فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به .

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ و ﴾ أعتدنا ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي بئس المآل والمنقلب ﴿ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا ﴾ قال ابن جرير : يعني الصياح ﴿ وَهِىَ تَفُورُ ﴾ قال الثوري : تغلي بهم كما يغلي الحب القليل في الماء الكثير . وقوله تعالى : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ أي تكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ يذكر تعالى عدله في خلقه وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه ، وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة وندموا حيث لا تنفعهم الندامة فقالوا : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ أي لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزله الله من الحق لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاغترار به ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم . قال الله تعالى : ﴿ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ . عن أبي البحتري الطائي قال : أخبرني من سمعه

من رسول الله ﷺ أنه قال : « لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » (١) وفي حديث آخر : « لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ النَّارَ إِلَّا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ النَّارَ أَوْلَى بِهِ مِنَ الجَنَّةِ » (٢) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائبًا عن الناس فينكف عن المعاصي ويقوم بالطاعات حيث لا يراه أحد إلَّا اللَّه تعالى بأنه له مغفرة وأجر كبير ؛ أي تكفَّر عنه ذنوبه ويجازى بالثواب الجزيل كما ثبت في الصحيحين : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّه تَعَالَى فِي ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ » . فذكر منهم « رَجُلًا دَعَتْهُ امرأة ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللَّه ، وَرَجُلًا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ » (٣) . وعن أنس قال : قالوا : يا رسول اللَّه إنا نكون عندك على حال فإذا فارقناك كنا على غيره ، قال : « كَيْفَ أَنْتُمْ وَرَبُّكُمْ ؟ » . قالوا : اللَّه ربنا في السر والعلانية ، قال : « لَيْسَ ذلِكُمُ النِّفَاقُ » (٤) . ثم قال تعالى منبهًا على أنه مطلع على الضمائر والسرائر ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي بما يخطر في القلوب ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ أي ألا يعلم الخالق ، وقيل : معناه ألا يعلم اللَّه مخلوقه . والأول أولى لقوله ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ ، ثم ذكر نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض وتذليله إياها لهم بأن جعلها قارة ساكنة لا تميد ولا تضطرب ؛ بما جعل فيها من الجبال ، وأنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهيأ فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار ، فقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ أي فسافروا حيث شئتم من أقطارها ، وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات ، واعلموا أن سعيكم لا يجدي عليكم شيئًا إلَّا أن ييسره اللَّه لكم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ فالسعي في السبب لا ينافي التوكل . عن عمر بن الخطاب إنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول : « لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّه حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا » (٥) . فأثبت لها رواحًا وغدوًّا لطلب الرزق مع توكلها على اللَّه ﷻ وهو المسخِّر المسيِّر المسبِّب ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ أي المرجع يوم القيامة . قال ابن عبَّاس ومجاهد والسدي وقتادة : مناكبها أطرافها وفجاجها ونواحيها ، وقيل : مناكبها الجبال . عن بشير بن كعب أنه قرأ هذه الآية ﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ فقال لأم ولد له : إن علمت ما مناكبها فأنت عتيقة ، فقالت : هي الجبال ، فسأل أبا الدرداء فقال : هي الجبال .

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾ .

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٣٤٧) وأحمد في مسنده (٢٩٣/٥) .
(٢) أخرجه الطبرني في الكبير (١٤١/١١) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٧/٧) .
(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٣) ومسلم في الزكاة (٩١) والترمذي في السنن (٢٣٩١) وأحمد في مسنده (٤٣٩/٢) .
(٤) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٣٢/٢) والسيوطي في الدر المنثور (٥٤/٤) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/١) والألباني في الصحيحة (٣١٠) وابن حبان في صحيحه (٢٥٤٨) .

وهذا أيضًا من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره وهو مع هذا يحلم ويصفح ويؤجل ولا يعجل وقال ههنا : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ أي : تذهب وتجيء وتضطرب ﴿ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ ﴾ أي : ريحًا فيها حصباء تدمغكم ، وهكذا توعدهم ههنا بقوله ﴿ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴾ أي : كيف يكون إنذاري وعاقبة من تخلف عنه وكذب به . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ أي من الأمم السالفة والقرون الخالية ﴿ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي : فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم ، أي عظيمًا شديدًا أليمًا . ثم قال تعالى : ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ ﴾ أي تارة يصففن أجنحتهن في الهواء وتارة تجمع جناحًا وتنشر جناحًا ﴿ مَا يُمۡسِكُهُنَّ ﴾ أي في الجو ﴿ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ ﴾ أي بما سخر لهن من الهواء من رحمته ولطفه ﴿ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴾ أي : بما يصلح كل شيء من مخلوقاته .

﴿ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴾ .

يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا معه غيره يبتغون عندهم نصرًا ورزقًا منكرًا عليهم فيما اعتقدوه ومخبرًا لهم أنه لا يحصل لهم ما أملوه فقال تعالى : ﴿ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ ﴾ أي ليس لكم من دونه من ولي ولا واق ولا ناصر لكم غيره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ ﴾ أي من هذا الذي إذا قطع الله عنكم رزقه يرزقكم بعده أي لا أحد يعطي ويمنع ويخلق ويرزق وينصر إلا الله ﷻ وحده لا شريك له ، أي وهم يعلمون ذلك ومع هذا يعبدون غيره . ولهذا قال تعالى : ﴿ بَل لَّجُّواْ ﴾ أي استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ﴾ أي في معاندة واستكبار ونفور على إدبارهم عن الحق لا يسمعون له ولا يتبعونه ، ثم قال تعالى : ﴿ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكبًا على وجهه أي يمشي منحنيًا لا مستويًا على وجهه ، أي لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب ، بل تائه حائر ضال أهذا أهدى ﴿ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا ﴾ أي منتصب القامة ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ أي على طريق واضح بيِّن وهو في نفسه مستقيم وطريقه مستقيمة ، هذا مثلهم في الدنيا وكذلك يكونون في الآخرة ، فالمؤمن يحشر يمشي سويًا على صراط مستقيم مفض به إلى الجنة الفيحاء ، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم ﴿ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ الآيات ، أزواجهم أشباههم . عن أنس بن مالك قال : قيل : يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم فقال : « أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ قَادِرًا على أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ ؟ » [1] . وقوله تعالى : ﴿ قُلۡ هُوَ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٧/٣) .

﴿ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ ﴾ أي ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ أي العقول والإدراك ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أي قلما تستعملون هذه القوى التي أنعم اللّٰه بها عليكم في طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي بثكم ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها ، مع اختلاف ألسنتكم في لغاتكم وألوانكم ، وحلاكم وأشكالكم وصوركم ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أي : تجمعون بعد هذا التفرّق والشتات يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم . ثم قال تعالى مخبرًا عن الكفار المنكرين للمعاد المستبعدين وقوعه ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي : متى يقع هذا الذي تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرق ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلَّا اللّٰه ﷻ ولكنه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه ﴿ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : وإنما عليَّ البلاغ وقد أديته إليكم .

قال اللّٰه تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ ، أي لما قامت القيامة وشاهدوا الكفّار ورأوا أن الأمر كان قريبًا ؛ لأن كل ما هو آت آت وإن طال زمنه ، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك لما يعلمون ما لهم هناك من البشر ، أي فأحاط بهم ذلك وجاءهم من أمر اللّٰه ما لم يكن لهم في بال ولا حساب ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ . ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ ﴿ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴾ أي تستعجلون .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمَّد لهؤلاء المشركين باللّٰه الجاحدين لنعمه ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي خلصوا أنفسكم فإنه لا منقذ لكم من اللّٰه إلَّا التوبة والإنابة والرجوع إلى دينه ، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنكال فسواء عذبنا اللّٰه أو رحمنا فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أي : آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم وعليه توكلنا في جميع أمورنا كما قال تعالى : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : منا ومنكم ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة ، ثم قال تعالى إظهارًا للرحمة في خلقه ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ أي ذاهبًا في الأرض إلى أسفل فلا ينال بالفؤوس الحداد ولا السواعد الشداد ، والغائر عكس النابع ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴾ أي نابع سائح جار على وجه الأرض ، أي : لا يقدر على ذلك إلَّا اللّٰه ﷻ فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه وأجراها في سائر أقطار الأرض بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة ، فللّٰه الحمد والمنة .

سورة القلم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ .

المراد بقوله ﴿ نٓ ﴾ حوت عظيم على تيار الماء العظيم المحيط وهو حامل للأرضين السبع . عن ابن عبَّاس قال : أول ما خلق الله القلم قال : اكتب . قال : وماذا أكتب ، قال : اكتب القدر ، فجرى بما يكون من ذلك اليوم إلى قيام الساعة ، ثم خلق النون ورفع بخار الماء ففتقت منه السماء ، وبسطت الأرض على ظهر النون فاضطرب النون فمادت الأرض فأثبتت بالجبال ، فإنها لتفخر على الأرض .

روي عن أنس أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم رسول الله ﷺ المدينة فأتاه فسأله عن أشياء قال : إني سائلك عن أشياء لا يعلمها إلَّا نبي ، قال ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه ؟ وما بال الولد ينزع إلى أمه ؟ قال : « أَخْبَرَنِي بِهِنَّ جِبْرِيلُ آنِفًا » . قال ابن سلام : فذاك عدو اليهود من الملائكة قال : « أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ : فَنَارٌ تَحْشُرُهُمْ مِنَ المشرق إلى المَغْرِبِ ، وَأَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ : زِيَادَةُ كَبِدِ الحُوتِ ، وَأَمَّا الوَلَدُ فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ المَرْأَةِ نَزَعَ الوَلَدَ ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ المَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ نَزَعَتْ » (١) . وعن ثوبان أن حبرًا سأل رسول الله ﷺ عن مسائل فكان منها أن قال : فما تحفتهم - يعني أهل الجنَّة - حين يدخلون الجنة قال : « زِيَادَةُ كَبِدِ الحُوتِ » . قال : فما غذاؤهم على أثرها ؟ قال : « يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : فما شرابهم عليه ؟ قال : « مِنَ عَيْنٍ فِيْهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلا » (٢) . وقيل : المراد بقوله ﴿ نٓ ﴾ لوح من نور . وعن معاوية بن قرة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ لَوْحٌ مِنْ نُورٍ ، وَقَلَمٌ مِنْ نُور ، يَجْرِي بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْقَلَمِ ﴾ الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به ، فهو قسم منه تعالى وتنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ يعني وما يكتبون وقال السدي : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ يعني الملائكة وما تكتب من أعمال العباد . وقال آخرون : بل المراد ههنا بالقلم الذي أجراه الله بالقدر حين كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرضين بخمسين ألف عام ، وعن الوليد بن عبادة بن الصامت قال : دعاني أبي حين حضره الموت فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ فَقَالَ لَهُ : اكْتُبْ . قَالَ : يَا رَبِّ وَمَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اكْتُب القَدَرَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ » (٤) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١٨٩) والبخاري في مناقب الأنصار (٣٩٣٨) .

(٢) أخرجه مسلم في الحيض (٣٤) وأحمد في مسنده (٣/١٨٩) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٢٥٠) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٣١٧) وأبو داود في السنن (٤٧٠٠) والبيهقي في السنن (١٠/٢٠٤) والترمذي في السنن (٣٣١٩) .

وعن مجاهد : ﴿ وَٱلْقَلَمِ ﴾ يعني الذي كتب به الذكر . وقوله تعالى ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أي : يكتبون كما تقدم .

وقوله تعالى : ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ أي : لست ولله الحمد بمجنون كما يقوله الجهلة من قومك المكذبون بما جئتهم به من الهدى والحق المبين فنسبوك فيه إلى الجنون : ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أي : بل إن لك الأجر العظيم والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق وصبرك على أذاهم ، ومعنى غير ممنون ؛ أي غير مقطوع عنهم . وقال مجاهد : أي غير محسوب وهو يرجع إلى ما قلناه . وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قال ابن عبَّاس : وإنك لعلى دين عظيم وهو الإسلام . وقال عطية : لعلى أدب عظيم . قال قتادة : سئلت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ قالت : كان خلقه القرآن تقول كما هو في القرآن (١) . وعن رجل من بني سواد قال : سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ . فقالت : أما تقرأ القرآن ؟ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قال : قلت : حدثيني عن ذاك . قالت : صنعت له طعامًا وصنعت له حفصة طعامًا ، فقلت لجاريتي : اذهبي فإن جاءت هي بالطعام فوضعته قبل فاطرحي الطعام . فجاءت بالطعام . قالت : فألقت الجارية فوقعت القصعة فانكسرت وكان نطع ، قالت : فجمعه رسول الله ﷺ وقال : « اقتصوا - أو اِقْتَصِّي شك أسود - ظَرْفًا مَكَانَ ظَرْفِكِ » . قالت : فما قال شيئًا (٢) .

ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمرًا ونهيًا سجية له وخلقًا تطبعه وترك طبعه الجبلي ، فمهما أمره القرآن فعله ومهما نهاه عنه تركه ، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم وكل خلق جميل . عن أنس قال : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط ، ولا قال لشيء فعلتُه لم فعلته ؟ ولا لشيء لم أفعله ألا فعلته ؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقًا ، ولا مسست خزًا ولا حريرًا ولا شيئًا كان ألين من كف رسول الله ﷺ ، ولا شممت مسكًا ولا عطرًا كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ (٣) ، وعن أبي إسحاق قال : سمعت البراء يقول : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا وأحسن الناس خلقًا ، ليس بالطويل ولا بالقصير (٤) وعن عائشة قالت : ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادمًا له قط ولا ضرب امرأة ولا ضرب بيده شيئًا قط إلَّا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا خيِّر بين شيئين قط إلَّا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثمًا ، فإذا كان إثمًا ، كان أبعد الناس من الإثم ، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلَّا أن تنتهك حرمات الله فيكون هو ينتقم لله ﷻ (٥) . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلَاقِ » (٦) .

وقوله تعالى : ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ أي : فستعلم يا محمَّد وسيعلم مخالفوك ومكذبوك من المفتون الضال منك ومنهم ، قال ابن عبَّاس في هذه الآية : ستعلم ويعلمون يوم القيامة .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٣/٦) والبيهقي في السنن (٤٩٩/٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١١١/٦) .
(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٣٨) .
(٤) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٤٩) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٢/٦) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨١/٢) .

وقال ابن عبّاس : ﴿ بِأَيِيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ أي المجنون . وقال قتادة وغيره : ﴿ بِأَيِيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ أي أولى بالشيطان . ومعنى المفتون : الذي قد افتتن عن الحق وضل عنه ، وإنما دخلت الباء في قوله : ﴿ بِأَيِيِّكُمُ ﴾ لتدل على تضمين الفعل في قوله : ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾ وتقديره فستعلم ويعلمون أي فستخبر ويخبرون بأيكم المفتون ، والله أعلم . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ أي هو يعلم تعالى أي الفريقين منكم ومنهم هو المهتدي ويعلم الحزب الضال عن الحق .

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۞ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۞ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۞ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۞ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۞ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۞ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۞ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ .

يقول تعالى كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم والخلق العظيم ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۞ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ قال ابن عبّاس : لو ترخص لهم فيرخصون . وقال مجاهد : تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق . ثم قال تعالى ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقي بأيمانه الكاذبة التي يجترئ بها على أسماء الله تعالى ، واستعمالها في كل وقت في غير محلها . قال ابن عبّاس : المهين الكاذب . وقال مجاهد : هو الضعيف القلب . قال الحسن : ﴿ كُلَّ حَلَّافٍ ﴾ مكابر ﴿ مَّهِينٍ ﴾ ضعيف . وقوله تعالى : ﴿ هَمَّازٍ ﴾ قال ابن عبّاس وقتادة : يعني الاغتياب ﴿ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ يعني الذي يمشي بين الناس ويحرش بينهم وينقل الحديث لفساد ذات البين ، وهي الحالقة . عن ابن عبّاس قال : مرّ رسول الله ﷺ بقبرين فقال : « إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ، أَمَّا أَحَدُهُمَا : فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ ، وَأَمَّا الآخَرُ : فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ » (١) . وعن حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ » (٢) . وعن أسماء بنت يزيد بن السكن أن النبيّ ﷺ قال : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخِيَارِكُمْ ؟ » . قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ ﷻ » ثم قال : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ المَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ ، المُفْسِدُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ البَاغُونَ لِلْبُرَآءِ العنت » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ أي : يمنع ما عليه وما لديه من الخير ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ في تناول ما أحل الله له يتجاوز فيها الحد المشروع ﴿ أَثِيمٍ ﴾ أي : يتناول المحرمات ، وقوله تعالى : ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ أما العتل : فهو الفظ الغليظ الصحيح الجموع المنوع . عن حارثة بن وهب قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَهْلِ الجَنَّةِ ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ ، أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ » (٤) . عون زيد بن أسلم قال : قال رسول الله ﷺ : « تَبْكِي السَّمَاءُ مِنْ عَبْدٍ أَصَحَّ اللَّهُ جِسْمَهُ ، وَأَرْحَبَ جَوْفَهُ ، وَأَعْطَاهُ مِنَ الدُّنْيَا هَضْمًا ، فَكَانَ لِلنَّاسِ ظَلُومًا . قال :

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٦١) والترمذي في السنن (٧٠) والنسائي في السنن (٤/١٠٦) وابن ماجه في السنن (٣٤٧) .
(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٥٦) ومسلم في الإيمان (١٦٩) وأبو داود في السنن (٤٨٧١) والترمذي في السنن (٢٠٢٦) وأحمد في مسنده (٥/٣٩٧) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٤٥٩) .
(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١٨) وأحمد في مسنده (٤/٣٠٦) .

فذلِكَ العُتُلُّ الزَّنِيمُ »(١) . وأما الزنيم : فقال ابن عبَّاس : رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة ، ومعنى هذا أنه كان مشهورًا بالسوء كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها ، وإنما الزنيم في لغة العرب هو الدعي في القوم : ومنه قول حسان بن ثابت يذم بعض كفار قريش :

وَأَنْتَ زَنِيمٌ نِيط فِي آلِ هَاشِمٍ كَمَا نيط خَلْفَ الرَّاكِبِ القدح الفرد

عن ابن عبَّاس في قوله : ﴿ زَنِيمٍ ﴾ قال : الدعي الفاحش اللئيم . ثم قال ابن عبَّاس :

زَنِيمٌ تَدَاعَاهُ الرِّجَالُ زِيَادَة كَمَا زِيدَ فِي عَرْضِ الأَدِيمِ الأَكَارِع

ويقال : الزنيم رجل كانت به زنمة يعرف بها ويقال : هو الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة ، وزعم أناس من بني زهرة أن الزنيم الأسود بن عبد يغوث الزهري وليس به ، وعن ابن عبَّاس أنه زعم أن الزنيم الملحق النسب ، وعن سعيد بن المسيب أنه سمعه يقول في هذه الآية ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ قال سعيد : هو الملصق بالقوم ليس منهم . وسئل عكرمة عن الزنيم قال : هو ولد الزنى ، وقال : يعرف المؤمن من الكافر مثل الشاة الزنماء ، والزنماء من الشياه التي في عنقها هنتان معلقتان في حلقها . وعن سعيد بن جبير قال : الزنيم الذي يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها ، والزنيم الملصق ، ويقال : هو اللئيم الملصق في النسب ، وقال مجاهد : الذي يعرف بهذا الوصف كما تعرف الشاة ، وقال أبو رزين : الزنيم علامة الكفر ، وقال عكرمة : الزنيم الذي يعرف باللؤم كما تعرف الشاة بزنمتها . والأقوال في هذا كثيرة. وترجع إلى ما قلناه وهو أن الزنيم هو المشهور بالشر الذي يعرف به من بين الناس وغالبًا يكون دعيًا ولد زنى ؛ فإنه في الغالب يتسلط الشيطان عليه ما لا يتسلط على غيره كما جاء في الحديث : « لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ وَلَدُ زِنًى »(٢) . وفي الحديث الآخر : « وَلَدُ الزِّنَى شَرُّ الثَّلَاثَةِ إِذَا عَمِلَ بِعَمَلِ أَبَوَيْهِ »(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يقول تعالى هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين كفر بآيات الله ﷻ وأعرض عنها وزعم أنها كذب مأخوذ من أساطير الأولين . وقال تعالى ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ قال ابن جرير : سنبين أمره بيانًا واضحًا حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم كما لا تخفى عليهم السمة على الخراطيم ، وهكذا قال قتادة ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ شين لا يفارقه آخر ما عليه . وفي رواية عنه : سيما على أنفه ، وقال ابن عبَّاس ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ يقاتل يوم بدر فيخطم بالسيف في القتال ، وقال آخرون : ﴿ سَنَسِمُهُۥ ﴾ سمة أهل النار يعني نسود وجهه يوم القيامة وعبر عن الوجه بالخرطوم ، حكى ذلك كله أبو جعفر ابن جرير ومال إلى أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه في الدنيا والآخرة . وهو متجه . وعن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِنَّ العَبْدَ يُكْتَبُ مُؤْمِنًا أَحْقَابًا ثُمَّ يَمُوتُ وَاللَّه عَلَيْهِ سَاخِطٌ ، وَإِنَّ العَبْدَ يُكْتَبُ كَافِرًا

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٢٥٢/٦) والطبري في تفسيره (٣٠/٢٨) .

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٢٥٧/٢) والبيهقي في السنن (٥٨/١٠) والدارمي في السنن (١١٢/٢) والألباني في الصحيحة (٢٨٥/٢) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٣٩٦٣) وأحمد في مسنده (٣١١/٢) والحاكم في المستدرك (١٠٠/٤) والبيهقي في السنن (٩١/٣) .

أَحْقَابًا ثُمَّ أَحْقَابًا ثُمَّ يَمُوتُ وَاللَّهُ عَلَيْهِ رَاضٍ ، وَمَنْ مَاتَ هَمَّازًا لَمَّازًا مُلَقَّبًا لِلنَّاسِ ؛ كَانَ عَلَامَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَسِمَهُ اللَّهُ عَلَى الخرطومِ مِنْ كِلا الشَّفَتَيْنِ »[1] .

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ .

هذا مثل ضربه اللَّه تعالى لكفَّار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة الجسيمة وهو بعثة محمَّد ﷺ إليهم ، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ ﴾ أي اختبرناهم ﴿ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أي حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمرها ليلًا لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ أي : فيما حلفوا به ، ولهذا حنثهم اللَّه في أيمانهم فقال تعالى : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ أي : أصابتها آفة سماوية ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ قال ابن عبَّاس : أي كالليل الأسود . وقال الثوري والسدي : مثل الزرع إذا حصد أي هشيمًا يبسًا . وعن ابن مسعود قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَالمَعَاصِي ؛ إِنَّ العَبْدَ لَيُذْنِبُ الذنب فَيُحْرَمُ بِهِ رِزقًا قَدْ كَانَ هُيِّئَ لَهُ » . ثم تلا رسول اللَّه ﷺ : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾[2] قد حرموا خير جنتهم بذنبهم ﴿ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴾ أي لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضًا ليذهبوا إلى الجذاذ أي القطع ﴿ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴾ أي : تريدون الصرام . قال مجاهد : كان حرثهم عنبًا ﴿ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴾ أي يتناجون فيما بينهم بحيث لا يسمعون أحدًا كلامهم .

ثم فسر اللَّه سبحانه وتعالى عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به فقال تعالى : ﴿ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ أي : يقول بعضهم لبعض : لا تمكنوا اليوم فقيرًا يدخلها عليكم . قال اللَّه تعالى : ﴿ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أي قوة وشدة ، وقال مجاهد : جد ، وقال الشعبي : على المساكين ، وقال السدي : كان اسم قريتهم حرد . فأبعد السدي في قوله هذا ﴿ قَٰدِرِينَ ﴾ أي عليها فيما يزعمون ويرومون ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ أي : فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها وهي على الحالة التي قال اللَّه ﷻ قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مدلهمة لا ينتفع بشيء منها . فاعتقدوا أنهم قد أخطأوا الطريق ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ أي قد سلكنا إليها غير الطريق فتهنا عنها . قاله ابن عباس وغيره ، ثم رجعوا عما كانوا فيه وتيقنوا أنها هي فقالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي بل هي هذه ولكن نحن لا حظ لنا ولا نصيب ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أي أعدلهم وخيرهم ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ أي لولا تستثنون .قال السدي : وكان استثناؤهم في ذلك الزمان تسبيحًا ، وقال ابن جرير : هو قول القائل إن شاء اللَّه ، وقيل معناه : هلا تسبحون اللَّه وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد(٢١٣/٧) .
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٥٣/٦ .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أتوا بالطاعة حيث لا تنفع وندموا واعترفوا حيث لا ينجع.

ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴾ أي يلوم بعضهم بعضًا على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلَّا الاعتراف بالخطيئة والذنب ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ أي اعتدينا وبغينا وطغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ قيل : رغبوا في بذلها لهم في الدنيا ، وقيل : احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة ، والله أعلم . ثم قد ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن ، قال سعيد بن جبير : كانوا من قرية يقال لها ضروان على ستة أميال من صنعاء . وقيل : كانوا من أهل الحبشة وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنَّة وكانوا من أهل الكتاب ، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة ، فكان ما يستغل منها يرد فيها ما تحتاج إليه ويدخر لعياله قوت سنتهم ويتصدق بالفاضل ، فلما مات وورثه بنوه قالوا : لقد كان أبونا أحمق ، إذ كان يصرف من هذه شيئًا للفقراء ، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك علينا ، فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم ، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية : رأس المال والربح والصدقة فلم يبق لهم شيء ، قال تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ﴾ أي هكذا عذاب من خالف أمر الله وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ومنع حق المسكين والفقير وذوي الحاجات وبدَّل نعمة الله كفرًا ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أي هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم وعذاب الآخرة أشق.

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۝ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾.

لما ذكر تعالى حال أهل الجنة الدنيوية وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا الله ﷻ وخالفوا أمره ، بيَّن أن لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم التي لا تبيد ولا تفرغ ولا ينقضي نعيمها ، ثم قال تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء ؟ كلا ورب الأرض والسماء ، ولهذا قال : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أي كيف تظنون ذلك ؟ ثم قال تعالى : ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ يقول تعالى أفبأيديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف متضمن حكمًا مؤكدًا كما تدعونه ؟ ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ أي أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ أي أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾ أي : قل لهم من هو المتضمن المتكفل بهذا ؟ قال ابن عبَّاس : أيهم لذلك كفيل ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾ أي : من الأصنام والأنداد ﴿ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾.

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ۝ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾.

لما ذكر تعالى أن للمتقين عند ربهم جنات النعيم ؛ بيَّن متى ذلك كائن وواقع فقال تعالى : ﴿ يَوْمَ

يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴾ يعني يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والزلازل والبلاء والامتحان والأمور العظام . عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت النبيَّ ﷺ يقول : « يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ ومُؤْمِنَةٍ ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمعة ، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا »(١) . وعن ابن عبّاس ﴿ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ ﴾ قال : هو يوم القيامة يوم كرب وشدة . وعن مجاهد : ﴿ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ ﴾ قال : شدة الأمر ، وقال ابن عباس : هي أشد ساعة تكون في يوم القيامة ، وقال مجاهد ﴿ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ ﴾ قال : شدة الأمر وجده . وقال ابن عبّاس : هو الأمر الشديد الفظيع من الهول يوم القيامة ، وقال أيضًا : حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال ، وكشفه دخول الآخرة وكشف الأمر عنه . وقوله تعالى : ﴿ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ ﴾ أي : في الدار الآخرة بإجرامهم وتكبّرهم في الدنيا فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه ، ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة ، إذا تجلى الرب ﷻ فيسجد له المؤمنون لا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد بل يعود ظهر أحدهم طبقًا واحدًا كلما أراد أحدهم أن يسجد خرَّ لقفاه عكس السجود كما كانوا في الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون .

ثم قال تعالى : ﴿ فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ ﴾ يعني القرآن ، وهذا تهديد شديد أي دعني وإياه مني منه أنا أعلم به كيف أستدرجه وأمده في غيه وأنظره ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ أي وهم لا يشعرون بل يعتقدون أن ذلك من اللَّه كرامة وهو في نفس الأمر إهانة ولهذا قال : ﴿ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾ أي : وأؤخرهم وأنظرهم وأمدهم وذلك من كيدي ومكري بهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾ أي عظيم لمن خالف أمري وكذَّب رسلي واجترأ على معصيتي .

وفي الصحيحين عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » .

ثم قرأ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴾(٢) . وقوله تعالى : ﴿ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ۝ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴾ والمعنى في ذلك أنك يا محمَّد تدعوهم إلى اللَّه ﷻ بلا أجر تأخذه منهم بل ترجو ثواب ذلك عند اللَّه تعالى وهم يكذبون بما جئتهم به بمجرد الجهل والكفر والعناد .

﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ۝ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ۝ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ۝ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ .

يقول تعالى ﴿ فَٱصۡبِرۡ ﴾ يا محمَّد على أذى قومك لك وتكذيبهم ؛ فإن اللَّه سيحكم لك عليهم

(١) أخرجه البخاري في تفسيره (٤٩١٩) .
(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦١) والترمذي في السنن (٣١١٠) وابن ماجه في السنن (٤٠١٨) .

ويجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ يعني ذا النون وهو يونس ابن متى عليه السلام حين ذهب مغاضبًا على قومه فكان من أمره ما كان من ركوبه في البحر والتقام الحوت له وشرود الحوت به في البحار وظلمات غمرات اليم ، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلي القدير الذي لا يرد ما أنفذه من التقدير ، فحينئذ نادى في الظلمات ﴿ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وقال ههنا : ﴿ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ وهو مغموم ، وقيل : مكروب . عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ أَنا خَيرٌ مِن يُونُسَ بْنَ مَتَّى » (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ ﴾ قال ابن عبَّاس ومجاهد وغيرهما ﴿ لَيُزْلِقُونَكَ ﴾ لينفذونك ﴿ بِأَبْصَٰرِهِمْ ﴾ أي يعينونك بأبصارهم بمعنى يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك وحمايته إيَّاك منهم ، وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة .

عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حمةٍ أَوْ دَمٍ لا يَرْقَأُ » (٢) . وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ العَيْنَ لَتُولِعُ الرَّجُلَ بِإِذْنِ اللَّه فَيَتَصَاعَدُ حَالِقًا ثُمَّ يَتَرَدَّى مِنْهُ » (٣) .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لَا بَأس فِي الهَام ، وَالعَيْنُ حَق ، وَأَصْدَق الطيرَة الفَأْل » (٤) .

وعنه ﷺ قال : « العَيْنُ حَقٌّ ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقٌ القَدَرَ سَبَقَتِ العَيْنُ وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا » (٥) .

وعن ابن عبَّاس قال : كان رسول الله ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين يقول : « أُعِيذُكُما بِكَلِمَاتِ اللَّه التَّامَّةِ مِنْ كلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ . وَمِنْ كلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ » . ويقول : « هكَذَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يُعَوِّذُ إِسْحَاقَ وَإِسْمَاعِيلَ عليهما السلام » (٦) .

وعن أبي أمامة أسعد بن سهل بن حنيف قال : مر عامر بن ربيعة بسهل بن حنيف وهو يغتسل . فقال : لم أر كاليوم ولا جلد مخبأة . فما لبث أن لبط به فأتي به رسول الله ﷺ فقيل له : أدرك سهلًا صريعًا قال : « مَنْ تَتَّهِمُونَ بِهِ ؟ » . قالوا : عامر بن ربيعة ، قال : « عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أخاه ؟ إذا رأى أحدكم مِنْ أَخِيهِ مَا يُعْجِبُهُ فَلْيَدْعُ لَهُ بِالبَرَكَةِ » . ثم دعا بماء فأمر عامرًا أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين وركبتيه وداخلة إزاره ، وأمره أن يصب عليه (٧) . وعن أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنس ، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سوى ذلك (٨) . وعن أبي سعيد أن جبريل أتى النبيَّ ﷺ فقال : اشتكيت يا محمَّد ؟ قال :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٠/١) والبخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤١٦) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٣٨٨٩) والترمذي في السنن (٢٠٥٧) وابن ماجه في السنن (٣٥١٣) وأحمد في مسنده (٤٣٨/٤) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٧/٥) والألباني في الصحيحة (٨٨٩) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٦٧/٤) والترمذي في السنن (٢٠٦١) والطبراني في الكبير (١٩٢/٨) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٤/١) ومسلم في السلام (٤١) .
(٦) أخرجه أبو داود في السنن (٤٧٣٧) والترمذي في السنن (٢٠٦٠) .
(٧) أخرجه النسائي في السنن (القسامة ب ٤) والبيهقي في السنن (٣٦١/٩) .
(٨) أخرجه الترمذي في السنن (٢٠٥٨) .

« نَعَمْ » . قال : باسم اللّه أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس وعين تشنيك ، واللّه يشفيك ، باسم اللّه أرقيك » (١) .

وعن عبد اللّه بن عمرو قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لَا عَدْوَى ، وَلَا طِيَرَةَ ، وَلَا هَامَّةَ ، وَلَا حَسَدَ ، وَالعَيْنُ حَقٌّ » (٢) وعن علي رضي الله عنه أن جبريل أتى النبي فوافقه مغتمًا فقال : يا محمَّد ما هذا الغم الذي أراه في وجهك ؟ قال : « الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ أَصَابَتْهُمَا عَيْنٌ » قال : صدّق بالعين ،فإن العين حق ، أفلا عوذتهما بهؤلاء الكلمات ؟ قال : « وَمَا هُنَّ يَا جِبْرِيلُ ؟ » قال : قل : اللّهمَّ ذا السلطان العظيم والمن القديم ذا الوجه الكريم ولي الكلمات التامات والدعوات المستجابات عاف الحسن والحسين من أنفس الجن وأعين الإنس . فقالها النبيُّ ﷺ فقاما يلعبان بين يديه فقال النبيُّ ﷺ : « عَوِّذُوا أَنْفُسَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ بِهَذَا التَّعْوِيذِ فَإِنَّهُ لَمْ يَتَعَوَّذِ المُتَعَوِّذُونَ بِمِثْلِهِ » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ أي يزدرونه بأعينهم ويؤذونه بألسنتهم ويقولون إنه لمجنون أي لمجيئه بالقرآن ، قال اللّه تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٤٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٢٢) .

(٣) أورده الهندي في كنز العمال (٢٨٥٤٦) .

سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَاقَّةُ ۝ مَا الْحَاقَّةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ۝ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ۝ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ .

﴿ الْحَاقَّةُ ﴾ من أسماء يوم القيامة لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد ، ولهذا عظَّم الله أمرها فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ وهي الصيحة التي أسكتتهم والزلزلة التي أسكنتهم ، وقال مجاهد : الطاغية الذنوب ، وقال السدي : ﴿ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ قال : يعني عاقر الناقة ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ أي باردة ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ أي شديدة الهبوب . قال قتادة : عتت عليهم حتى نقبت عن أفئدتهم . وقال الضحَّاك ﴿ صَرْصَرٍ ﴾ باردة ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة . وقال علي وغيره : عتت على الخزنة فخرجت بغير حساب . ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي سلَّطها عليهم ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ أي كوامل متتابعات مشائيم . قال ابن مسعود وابن عبَّاس ومجاهد وغيرهم : حسومًا متتابعات . قال الربيع : وكان أولها الجمعة وقال غيره الأربعاء ويقال : إنها التي تسميها الناس الأعجاز ، وكأن الناس أخذوا ذلك من قوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ وقيل : لأنها تكون في عجز الشتاء ويقال : أيام العجوز ؛ لأن عجوزًا من قوم عاد دخلت سربًا فقتلها الريح في اليوم الثامن ، قال ابن عبَّاس : ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ خربة ، وقيل : بالية أي جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخر ميتًا على أمِّ رأسه فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامدة كأنها قائمة النخلة إذا خرَّت بلا أغصان . وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نُصِرْتُ بِالصَّبَا ، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ »(١) . عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا فَتَحَ اللَّه عَلَى عادٍ مِنَ الرِّيحِ الَّتِي هَلَكُوا بِهَا إِلَّا مِثْلَ مَوْضِعِ الخَاتَمِ ، فَمَرَّتْ بِأَهْلِ البَادِيَةِ فَحَمَلَتْهُمْ وَمَوَاشِيَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، فَجَعَلَتْهُمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، فَلَمَّا رَأَى ذلِكَ أَهْلُ الحَاضِرَةِ مِنْ عَادٍ الرِّيحَ وَمَا فِيهَا ، قَالوا : هذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ، فَأَلْقَتْ أَهْلَ البَادِيَةِ وَمَوَاشِيَهُمْ عَلَى أَهْلِ الحَاضِرَةِ »(٢) . وعن مجاهد : الريح لها جناحان وذنب ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ أي هل تحس منهم من أحد من بقاياهم أو ممن ينتسب إليهم بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خلفًا ثم قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ ﴾ قرئ بكسر القاف أي : ومن عنده ممن في زمانه من أتباعه من كفار القبط ، وقرأ آخرون بفتحها(٣) أي ومن قبله من الأمم المشبهين له . وقوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ ﴾ وهم الأمم المكذبون بالرسل ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ وهي التكذيب بما أنزل الله .

---

(١) أخرجه البخاري في الاستسقاء (١٠٣٥) وأحمد في مسنده (٣٥٥/١) والحاكم في المستدرك (٤٥٦/٢) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٢/١٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٣/٧) .

(٣) قرأ البصريان والكسائي ﴿ من قِبَله ﴾ بكسر القاف وفتح الباء والباقون بفتح القاف وإسكان الباء (انظر : تقريب النشر ص ١٨٣) .

قال الربيع : ﴿ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴾ أي : بالمعصية . وقال مجاهد : بالخطايا . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ وهذا جنس أي كلٌّ كذَّب رسول اللَّه إليهم ، ومن كذب برسول فقد كذب بالجميع ، وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد ولهذا قال ههنا : ﴿ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ أي عظيمة شديدة أليمة ، وقال مجاهد : شديدة . وقال السدي : مهلكة .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ ﴾ أي زاد على الحد بإذن اللَّه وارتفع على الوجود ، وقال ابن عبَّاس وغيره : طغى الماء كثر . وذلك بسبب دعوة نوح عليه السلام على قومه حين كذبوه وخالفوه فعبدوا غير اللَّه فاستجاب اللَّه له وعمَّ أهل الأرض بالطوفان إلَّا من كان مع نوح في السفينة ، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته . عن علي بن أبي طالب قال : لم تنزل قطرة من ماء إلَّا بكيل على يدي ملك ، فلما كان يوم نوح أذن للماء دون الخزان فطغى الماء على الخزان فخرج ، فذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ ﴾ أي زاد على الحد بإذن اللَّه ﴿ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ ولم ينزل شيء من الريح إلَّا بكيل على يدي ملك إلَّا يوم عاد ؛ فإنه أذن لها دون الخزان فخرجت ، فذلك قوله تعالى : ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ أي عتت على الخزان [1] . ولهذا قال تعالى ممتنًّا على الناس : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ وهي السفينة الجارية على وجه الماء ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ عاد الضمير على الجنس لدلالة المعنى عليه ، أي وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء في البحار . وقال قتادة : أبقى اللَّه السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة ، والأول أظهر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ أي وتفهم هذه النعمة وتذكرها أذن واعية ، قال ابن عبَّاس : حافظة سامعة . وقال قتادة ﴿ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ عقلت عن اللَّه فانتفعت بما سمعت من كتاب اللَّه . وقال الضحاك : أي : من له سمع صحيح وعقل رجيح ، وهذا عام في كل من فهم ووعى .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن أهوال يوم القيامة وأول ذلك نفخة الفزع ، ثم يعقبها نفخة الصعق حين يصعق من في السموات ومن في الأرض إلَّا من شاء اللَّه ، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور وهي هذه النفخة وقد أكدها ههنا بأنها واحدة ؛ لأن أمر اللَّه لا يخالف ولا يمانع ولا يحتاج إلى تكرار ولا تأكيد ، وقال الربيع : هي النفخة الأخيرة ، والظاهر ما قلناه ، ولهذا قال ههنا : ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي فمدت مد الأديم العكاظي وتبدلت الأرض غير الأرض ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ أي : قامت القيامة ﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ . عن علي قال : تنشق السماء من المجرة . وقال ابن عبَّاس : متخرقة والعرش بحذائها ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ ﴾ الملك اسم جنس أي الملائكة على أرجاء السماء أي حافاتها وقال الضحاك : أطرافها . وقال الحسن البصري : أبوابها ، وقال الربيع بن أنس : على ما استدق من السماء ينظرون إلى أهل الأرض . وقوله تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ أي : يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة ،

---

(١) أورده الطبري في تفسيره (٦٢/٢٨) .

ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش : العرش العظيم ، أو العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء ، والله أعلم بالصواب . وفي حديث العباس بن عبد المطلب في ذكر حملة العرش أنهم ثمانية أوعال ، وقال عبد الله بن عمرو : حملة العرش ثمانية ما بين موق أحدهما إلى مؤخر عينه مسيرة مائة عام . وعن محمّد بن المنكدر عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْ عَنْ مَلَكٍ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ بُعْدُ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ وَعُنُقِهِ مَخْفَقُ الطَّيْرِ سَبْعُمَائَةِ عَامٍ » (١) .

وعن سعيد بن جبير قال : ثمانية صفوف من الملائكة . وعن ابن عبّاس : الكروبيون ثمانية أجزاء كل جزء منهم بعدة الإنس والجن والشياطين والملائكة . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ أي تعرضون على عالم السر والنجوى الذي لا يخفي عليه شيء من أموركم بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ قال عمر بن الخطاب ﷺ : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أخف عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ . عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « يُعْرَضُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ ، فَأَمَّا عَرْضَتَانِ فَجِدَالٌ وَمَعَاذِيرُ ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَطِيرُ الصُّحُفُ فِي الْأَيْدِي ، فَآخِذٌ بِيَمِينِهِ ، وَآخِذٌ بِشِمَالِهِ » (٢) .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ .

يخبر تعالى عن سعادة من يؤتى كتابه يوم القيامة بيمينه وفرحه بذلك وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ أي خذوا اقرأوا كتابيه لأنه يعلم أن الذي فيه خير وحسنات محضة ، لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات . عن أبي عثمان قال : المؤمن يعطى كتابه بيمينه في ستر من الله فيقرأ سيئاته فكلما قرأ سيئة تغير لونه حتى يمر بحسناته فيقرؤها فيرجع إليه لونه ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات قال : فعند ذلك يقول : هاؤم اقرأوا كتابيه . عن عبد الله بن عبد الله حنظلة ، غسيل الملائكة قال : إن الله يوقف عبده يوم القيامة فيبدي أي يظهر سيئاته في ظهر صحيفته فيقول له : أنت عملت هذا ؟ فيقول : نعم أي رب ، فيقول له : إني لم أفضحك به وإني قد غفرت لك ، فيقول عند ذلك : ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ حين نجا من فضيحته يوم القيامة . وعن ابن عمر حين سئل عن النجوى فقال : سمعت رسول الله ﷺ : « يُدْنِي اللَّهُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ كُلِّهَا ، حَتَّى إِذَا رَأَى أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : إِنِّي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ، ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ بِيَمِينِهِ . وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ : هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ أي قد كنت موقنًا في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أي مرضية ﴿ فِي جَنَّةٍ

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٧٢٧) والألباني في الصحيحة (١٥١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٤/٤) والترمذي في السنن (٢٤٢٥) وأبو داود في السنن (٤٢٧٧) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٥) وأحمد في مسنده (١٠٥/٢) .

عَالِيَةٍ﴾ أي رفيعة قصورها ، حسان حورها ، نعيمة دورها ، دائم حبورها .

وقد ثبت في الصحيح « إِنَّ الجَنَّةَ مِائَةَ دَرَجَةٍ مَا بين كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ قال البراء بن عازب : أي قريبة يتناولها أحدهم وهو نائم على سريره . وقوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ أي يقال لهم ذلك تفضلًا عليهم وامتنانًا وإنعامًا وإحسانًا وإلَّا فقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اعْمَلُوا وَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَنْ يُدخِلَهُ عَمَلُهُ الجَنَّةَ » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « وَلَا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ » (٢) .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطي أحدهم كتابه في العرصات بشماله ، فحينئذ يندم غاية الندم ﴿ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴾ قال الضحَّاك : يعني موتة لا حياة بعدها . وقال قتادة : تمنَّى الموت ولم يكن شيء في الدنيا أكره إليه منه ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ أي لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذاب الله وبأسه بل خلص الأمر إليَّ وحدي فلا معين لي ولا مجير فعندها يقول الله ﷻ : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أي : يأمر الزبانية أن تأخذه عنفًا من المحشر فتغله أي تضع الأغلال في عنقه ثم توردہ إلى جهنم فتصليه إيَّاها أي تغمره فيها . عن المنهال بن عمرو قال : إذا قال الله تعالى : خذوه ، ابتدره سبعون ألف ملك ، إن الملك منهم ليقول هكذا فيلقي سبعين ألفًا في النار . وقال الفضيل بن العياض : إذا قال الرب ﷻ ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ ابتدره سبعون ألف ملك أيهم يجعل الغل في عنقه ﴿ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أي اغمروه فيها ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ قال ابن عبَّاس : ﴿ فَٱسْلُكُوهُ ﴾ تدخل في سته ثم تخرج من فيه ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود حين يشوى . عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « لَوْ أَنَّ رُضَاضَةً مِثْلَ هذِهِ - وأشار إلى جمجمة - أُرْسِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ وَهِيَ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ لَبَلَغَتِ الأَرْضَ قَبْلَ اللَّيْلِ ، وَلَوْ أَنَّهَا أُرْسِلَتْ مِنْ رَأْسِ السِّلْسِلَةِ لَسَارَتْ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ قَعْرَهَا أَوْ أَصْلَهَا » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ أي لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته ولا ينفع خلقه ويؤدي حقهم ، فإن لله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئًا ، وللعباد بعضهم على بعض حق الإحسان والمعاونة على البر والتقوى ، ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وقبض النبيُّ ﷺ وهو يقول : « الصَّلاة وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم » (٤) . وقوله تعالى : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٣٠) والبيهقي في السنن (٩/١٥) .

(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٧٣) ومسلم في صفة الجنة (٧٥) وأحمد في مسنده (٢/٢٦٤) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٨٨) والحاكم في المستدرك (٢/٤٣٨) وأحمد في مسنده (٢/١٩٧) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٦٩٧) وأحمد في مسنده (٣/١١٧) .

وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝ لَا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ أي ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله تعالى لا حميم ، وهو لقريب ، ولا شفيع يطاع ، ولا طعام له ههنا إلّا من غسلين قال قتادة : وهو شر طعام أهل النار . وقال الضحاك : شجرة في جهنم ، وقال ابن عباس : الدم والماء يسيل من لحومهم . وقال علي بن أبي طلحة : صديد أهل النار .

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

يقول تعالى مقسمًا لخلقه بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته الدالة على كماله في أسمائه وصفاته وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم إن القرآن كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة ، فقال تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يعني محمّدًا ﷺ ، أضافه إليه على معنى التبليغ ؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل ، ولهذا أضافه في سورة التكوير إلى الرسول الملكي ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ .

وهذا جبريل عليه السلام ، ثم قال تعالى ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ يعني محمّدًا ﷺ ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ يعني أن محمّدًا رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ أي بمتهم ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ وهكذا قال ههنا : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ فأضافه الله تارة إلى قول الرسول الملكي ، وتارة إلى الرسول البشري ؛ لأن كلًّا منهما مبلغ عن الله ما استأمنه عليه من وحيه وكلامه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال عمر بن الخطّاب : خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم فوجدته قد سبقني إلى المسجد ، فقمت خلفه فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن قال : فقلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش ، قال : فقرأ ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ قال : فقلت : كاهن ، قال : فقرأ ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ إلى آخر السورة ، قال : فوقع الإسلام في قلبي كل موقع (١) ، هذا من جملة الأسباب التي جعلها الله تعالى مؤثرة في هداية عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا ﴾ أي محمّد ﷺ لو كان كما يزعمون مفتريًا علينا فزاد في الرسالة أو نقص منها أو قال شيئًا من عنده فنسبه إلينا وليس كذلك لعاجلناه بالعقوبة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾ قيل : معناه لانتقمنا منه باليمين ؛ لأنها أشد في البطش ، وقيل : لأخذنا بيمينه ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ قال ابن عبّاس : وهو نياط القلب وهو العرق الذي القلب معلق فيه ، وقال محمّد بن كعب : هو القلب ومراقه وما يليه . وقوله تعالى : ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ أي فما يقدر أحد منكم على أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئًا من ذلك . والمعنى في هذا : بل هو صادق

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧/١) .

بار راشد ؛ لأن الله ﷻ مقرر له ما يبلغه عنه ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يعني القرآن ، ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴾ أي مع هذا البيان والوضوح سيوجد منكم من يكذب بالقرآن . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ قال ابن جرير : وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة . عن أبي مالك ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ يقول : لندامة ، ويحتمل عود الضمير على القرآن أي وإن القرآن والإيمان به لحسرة في نفس الأمر على الكافرين . ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ أي الخبر الصدق الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب ، ثم قال تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي الذي أنزل هذا القرآن العظيم .

سورة المعارج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ .

﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ فيه تضمين دل عليه حرف الباء كأنه مقدر ، استعجل سائل بعذاب واقع ، أي وعذابه واقع لا محالة . عن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ قال : ذلك سؤال الكفّار عن عذاب الله وهو واقع بهم ، وعن مجاهد : دعا داع بعذاب واقع يقع في الآخرة : وهو قولهم : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي مرصد معد للكافرين . وقال ابن عبّاس : ﴿ وَاقِعٍ ﴾ : جاءٍ ﴿ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴾ أي لا دافع له إذا أراد الله كونه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴾ عن ابن عبّاس قال : ذو الدرجات ، وعنه قال : ﴿ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴾ يعني العلو والفواضل . وقال مجاهد : معارج السماء وقوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ عن قتادة : ﴿ تَعْرُجُ ﴾ تصعد . وأما الروح فقال أبو صالح : هم خلق من خلق الله يشبهون الناس وليسوا ناسًا ، قلت : ويحتمل أن يكون المراد به جبريل ويكون من باب عطف الخاص على العام ، ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بني آدم ؛ فإنها إذا قبضت يصعد بها إلى السماء .

وقوله تعالى : ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ فيه أربعة أقوال : أحدها : أن المراد بذلك مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين وهو قرار الأرض السابعة وذلك مسيرة خمسين ألف سنة ، هذا ارتفاع العرش عن المركز الذي في وسط الأرض السابعة ، وكذلك اتساع العرش من قطر إلى قطرة مسيرة خمسين ألف سنة وأنه من ياقوتة حمراء . عن ابن عبّاس قال : غلظ كل أرض خمسمائة عام ، وبين كل أرض إلى أرض خمسمائة عام ، فذلك سبعة آلاف عام ، وغلظ كل سماء خمسمائة عام ، وبين السماء إلى السماء خمسمائة عام ، فذلك أربعة عشر ألف عام ، وبين السماء السابعة وبين العرش مسيرة ستة وثلاثين ألف عام ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ .

القول الثاني : أن المراد بذلك مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة . عن عكرمة قال : الدنيا من أولها إلى آخرها مقدار خمسين ألف سنة لا يدري أحدكم مضى ولا كم بقي إلّا الله ﷻ .

القول الثالث : أنه اليوم الفاصل بين الدنيا والآخرة وهو قول غريب جدًّا . عن محمّد بن كعب قال : هو يوم الفصل بين الدنيا والآخرة .

القول الرابع : أن المراد بذلك يوم القيامة . عن ابن عبّاس قال : هو يوم القيامة جعله الله تعالى على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة ، وقد وردت أحاديث في معنى ذلك ، فعن أبي سعيد قال : قيل لرسول الله ﷺ : ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ ما أطول هذا اليوم ، فقال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا

فِي الدُّنْيَا » (١) . وعن أبي عمر العداني قال : كنت عند أبي هريرة فمر رجل من بني عامر بن صعصعة فقيل له : هذا أكثر عامري مالًا ، فقال أبو هريرة : ردوه إِلَيَّ ، فردوه فقال : نبئت أنك ذو مال كثير ، فقال العامري : أي واللَّه إن لي لمائة حمرًا ومائة أدمًا ، حتى عد من ألوانِ الإبل وأفنان الرقيق ورباط الخَيل . فقال أبو هريرة : إياك وأخفاف الإبل وأظلاف النعم ، يردد ذلك عليه حتى جعل لون العامري يتغير . فقال : ما ذاك يا أبا هريرة ؟ قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « مَنْ كَانَتْ لَهُ إِبِلٌ لَا يُعْطِي حَقَّهَا فِي نَجْدَتِهَا وَرِسْلِهَا » قلنا : يا رسول اللَّه ما نجدتها ورسلها ؟ قال : « فِي عُسْرِهَا وَيُسْرِهَا ؛ فَإِنَّهَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغَذِّ مَا كَانَتْ وَأَكْثَرِهِ وَأَسْمَنِهِ وَآشَرِهِ ، حَتَّى يُبْطَحُ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ فَتَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا ، فَإِذَا جَاوَزَتْهُ أُخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أُوْلَاهَا ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، حَتَّى يُقضى بَيْنَ النَّاسِ فَيُرَى سَبِيلَهُ ، وَإِذَا كَانَتْ لَهُ بَقَرٌ لَا يعطِي حَقَّهَا فِي نَجْدَتِهَا وَرِسْلِهَا فَإِنَّهَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغَذِّ مَا كَانَتْ وَأَكْثَرِهِ وَأَسْمَنِهِ وَآشَرِهِ ثُمَّ يُبْطَحُ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ فَتَطَؤُهُ كُلُّ ذَاتِ ظَلَفٍ بِظِلْفِهَا ، وَتَنْطَحُهُ كُلُّ ذَاتِ قَرْنٍ بِقَرْنِهَا لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءُ ولا عَضْبَاءُ إِذَا جَاوَزَتْهُ أُخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فَيُرَى سَبِيلَهُ ، وَإِذَا كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ لَا يُعْطِي حَقَّهَا فِي نَجْدَتِهَا وَرِسْلِهَا ؛ فَإِنَّهَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغَذِّ مَا كَانَتْ وَأَسْمَنِهِ وَآشَرِهِ حَتَّى يُبْطَحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ فَتَطَؤُهُ كُلُّ ذَاتِ ظِلْفٍ بِظِلْفِهَا ، وَتَنْطَحُهُ كُلُّ ذَاتِ قَرْنٍ بِقَرْنِهَا ، لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءُ ولا عَضْبَاءُ إِذَا جَاوَزَتْهُ أُخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أُوْلَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فَيُرَى سَبِيلَهُ » . فقال العامري : وما حق الإبل يا أبا هريرة ؟ قال : أن تعطي الكريمة ، وتمنح الغزيرة ، وتفقر الظهر ، وتسقي الإبل ، وتطرق الفحلَ (٢) .

والغرض من إيراده ههنا قوله : « حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » . وسأل رجل ابن عبّاس عن قوله : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ فقال : ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، قال : فاتهمه ، فقال : إنما سألتك لتحدّثني ، قال : هما يومان ذكرهما اللَّه ، اللَّه أعلم بهما ، وأكره أن أقول في كتاب اللَّه بما لا أعلم . وقوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ أي اصبر يا محمّد على تكذيب قومك لك واستعجالهم العذاب استبعادًا لوقوعه ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴾ أي وقوع العذاب وقيام الساعة يراه الكفرة بعيد الوقوع بمعنى مستحيل الوقوع ﴿ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ أي المؤمنون يعتقدون كونه قريبًا وإن كان له أمد لا يعلمه إلّا اللَّه ﷻ ، ولكن كل ما هو آت فهو قريب وواقع لا محالة .

﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ .

يقول تعالى العذاب واقع بالكافرين ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾ أي كدردي الزيت ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ أي كالصوف المنفوش . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ أي لا يسأل

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٩٠/٢) .

القريب قريبه عن حاله وهو يراه في أسوأ الأحوال فتشغله نفسه عن غيره . قال ابن عبّاس : يعرف بعضهم بعضًا ويتعارفون بينهم ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك . وقوله تعالى ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝ كَلَّآ ﴾ أي لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض وبأعز ما يجده من المال ولو بملء الأرض ذهبًا أو من ولده الذي كان في الدنيا حشاشة كبده ، يود يوم القيامة إذا رأى الأهوال أن يفتدي من عذاب اللّه به ولا يقبل منه . قال مجاهد والسدي : ﴿ وَفَصِيلَتِهِ ﴾ قبيلته وعشيرته ، وقال عكرمة : فخذه الذي هو منهم . وقال أشهب عن مالك : أمه . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴾ يصف النار وشدة حرها ﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد : جلدة الرأس وقال العوفي عن ابن عباس : الجلود والهام ؛ وقال مجاهد : ما دون العظم من اللحم ، وقال سعيد بن جبير : للعصب والعقب . وقال أبو صالح : أطراف اليدين والرجلين ، وعنه قال : لحم الساقين . وقال الحسن البصري : مكارم وجهه ، وقال قتادة : نزاعة لهامته ومكارم وجهه وخلقه وأطرافه . وقال الضحّاك : تبري اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك منه شيئًا . وقوله تعالى : ﴿ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴾ أي تدعو النار إليها أبناءها الذين خلقهم اللّه لها ، وقدر لها أنهم في الدار الدنيا يعملون عملها فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق ، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطير الحب ، وذلك أنهم كما قال اللّه عَزَّ وَجَلَّ كانوا ممن أدبر وتولى أي كذب بقلبه وترك العمل بجوارحه ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴾ أي جمع المال بعضه على بعض فأوعاه أي أوكاه ، ومنع حق اللّه منه من الواجب عليه في النفقات ومن إخراج الزكاة . وقد ورد في الحديث : « وَلَا تُوعِي فيوعي اللّه عَلَيْكِ »[(١)] . وقال الحسن البصري : يا ابن آدم سمعت وعيد اللّه ثم أوعيت الدنيا .

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ ثم فسّره بقوله : ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ أي إذا مسه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ أي إذا حصلت له نعمة من اللّه بخل بها على غيره ومنع حق اللّه تعالى فيها . عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ : شُحٌّ هَالِعٌ ، وَجُبْنٌ خَالِعٌ »[(٢)] . ثم قال تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ أي الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم إلّا من عصمه اللّه ووفقه وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه وهم المصلون ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ قيل : معناه يحافظون على أوقاتها وواجباتها ، وقيل : المراد بالدوام ههنا السكون والخشوع ، ومنه الماء الدائم

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٣٣) ومسلم في الزكاة (٨٩) وأحمد في مسنده (٣٤٦/٦) والبيهقي في السنن (١٨٧/٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٠/٢) .

وهو الساكن الراكد ، وهذا يدل على وجوب الطمأنينة في الصلاة ؛ فإن الذي لا يطمئن في ركوعه وسجوده ليس بدائم على صلاته ؛ لأنه لم يسكن فيها ولم يدم بل ينفرها نقر الغراب فلا يفلح في صلاته ، وقيل : المراد بذلك الذين إذا عملوا عملًا داوموا عليه وأثبتوه . عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أَحَبُّ الأَعْمَالِ إلى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ »(١). قالت : وكان رسول الله ﷺ إذا عمل عملًا داوم عليه ، وفي لفظ : أثبته (٢) وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ ذكر لنا أن دانيال عليه السلام نعت أمة محمّد ﷺ فقال : يصلون صلاة لو صلاها قوم نوح ما غرقوا ، أو قوم عاد ما أرسلت عليهم الريح العقيم ، أو ثمود ما أخذتهم الصيحة ، فعليكم بالصلاة . فإنها خلق للمؤمنين حسن .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ أي في أموالهم نصيب مقرر لذوي الحاجات ، وقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ أي يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء ، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ أي خائفون وجلون ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ أي لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلَّا بأمان من الله تبارك وتعالى وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾ أي يكفونها عن الحرام ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ أي من الإماء ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ أي إذا اؤتمنوا لم يخونوا ، وإذا عاهدوا لم يغدروا ، وهذه صفات المؤمنين وضدها صفات المنافقين كما ورد في الحديث الصحيح : « آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ » (٣) . وقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾ أي محافظون عليها لا يزيدون فيها ولا ينقصون منها ولا يكتمونها .

ثم قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أي على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها فافتتح الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ أي مكرمون بأنواع الملاذ والمسار .

﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ۝ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على الكفار الذين كانوا في زمن النبيّ ﷺ وهم مشاهدون له ولما أرسله الله به من الهدى وما أيّده الله به من المعجزات الباهرات ، ثم هم مع هذا كله فارون منه متفرقون عنه ، شاردون يمينًا وشمالًا فرقًا فرقًا ، وشيعًا شيعًا ، ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ أي فما لهؤلاء الكفّار الذين عندك يا محمّد ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي مسرعين نافرين منك وقال الحسن البصري : منطلقين ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢١٨) وأحمد في مسنده (١٦٥/٦) .
(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (١٤١) وأبو داود في السنن (التطوع ب ٢٨) والبيهقي في السنن (٤٨٥/٢) .
(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٣) ومسلم في الإيمان (١٠٧) وأحمد في مسنده (٣٥٧/٢) والبيهقي في السنن (٢٨٨/٦) .

﴿ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ واحدها عزة أي متفرقين ، وهو حال من ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي في حال تفرقهم واختلافهم ، كما قال الإمام أحمد في أهل الأهواء فهم مخالفون للكتاب مختلفون في الكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب . وقال ابن عبّاس : قبلك ينظرون ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ قال : العزين : العصب من الناس عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به ، وعن الحسن في قوله : ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ أي متفرقين يأخذون يمينًا وشمالاً يقولون : ما قال هذا الرجل ؟ وقال قتادة : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ عامدين ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ أي فرقًا حول النبيّ ﷺ لا يرغبون في كتاب الله ولا في نبيه ﷺ . عن جابر بن سمرة : أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم حلق فقال : « مَا لِي أَرَاكُمْ عِزِينَ ؟ » [(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝ كَلَّآ ﴾ أي أيطمع هؤلاء والحالة هذه من فرارهم عن الرسول ﷺ ونفارهم عن الحق أن يدخلوا جنات النعيم ؟ كلا بل مأواهم جهنم . ثم قال تعالى مقررًا لوقوع المعاد والعذاب بهم الذي أنكروا كونه واستبعدوا وجوده مستدلاً عليهم بالبداءة التي الإعادة أهون منها وهو معترفون بها فقال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ أي من المني الضعيف ، ثم قال تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾ أي الذي خلق السموات والأرض وجعل مشرقًا ومغربًا وسخّر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها . وتقرير الكلام ليس الأمر كما تزعمون أن لا معاد ولا حساب ولا بعث ولا نشور ؛ بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة ، ولهذا أتى بلا في ابتداء القسم ليدل على أن المقسم عليه نفي وهو مضمون الكلام ، وهو الرد على زعمهم الفاسد في نفي يوم القيامة ، وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى ما هو أبلغ من إقامة القيامة وهو خلق السموات والأرض وتسخير ما فيهما من المخلوقات من الحيوانات والجمادات وسائر صنوف الموجودات . وقال : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ أي يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه ، فإن قدرته صالحة لذلك ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي بعاجزين . واختار ابن جرير ﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ أي أمة تطيعنا ولا تعصينا . والمعنى الأول أظهر لدلالة الآيات الأخر عليه ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، ثم قال تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ أي يا محمّد ﴿ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ ﴾ أي دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم ﴿ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ أي فسيعلمون غبَّ ذلك ويذوقون وباله ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ أي يقومون من القبور إذا دعاهم الرب تبارك وتعالى لموقف الحساب ينهضون سراعًا ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ قال ابن عباس : إلى علم يسعون ، وقال أبو العالية : إلى غاية يسعون إليها ، وقد قرأ الجمهور : إلى نصب ، بفتح النون ، وإسكان الصاد [(٢)] . وهو مصدر بمعنى المنصوب ، وقرأ الحسن البصري نصب بضم النون وهو الصنم أي كأنهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه ﴿ يُوفِضُونَ ﴾ يبتدرون أيهم يستلمه أول . وقوله تعالى ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ أي خاضعة ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أي في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١١٩) وأحمد في مسنده (٥/١٠١) والبيهقي في السنن (٣/٢٣٤) .
(٢) قرأ ابن عامر وحفص ﴿ نُصُبٍ ﴾ بضم النون والصاد ، والباقون بفتح النون وإسكان الصاد (انظر : تقريب النشر ص ١٨٣) .

سورة نوح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن نوح عليه السلام أنه أرسله إلى قومه آمرًا له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي بيّن النذارة ظاهر الأمر واضحه ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ﴾ أي اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي إذا فعلتم ما آمركم به وصدقتم ما أرسلت به إليكم غفر الله لكم ذنوبكم ، ومن ههنا قيل : إنها زائدة ، ولكن القول بزيادتها في الإثبات قليل ، ومنه قول بعض العرب : قد كان من مطر ، وقيل : إنها بمعنى عن تقديره يصفح لكم عن ذنوبكم ، واختاره ابن جرير ، وقيل : إنها للتبعيض أي يغفر لكم الذنوب العظيمة التي وعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي يمد في أعماركم ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تجتنبوا ما نهاكم عنه أوقعه بكم ، وقد يستدل بهذه الآية من يقول : إن الطاعة والبر وصلة الرحم يزاد بها في العمر حقيقة كما ورد به الحديث : « صِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي العُمُرِ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة ؛ فإنه إذا أمر تعالى بكون ذلك لا يردُّ ولا يمانع ؛ فإنه العظيم الذي قد قهر كل شيء . العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ
فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ
إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ
وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥
وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨ وَٱللَّهُ
جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام أنه اشتكى إلى ربه عز وجل ما لقي من قومه وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عامًا ، وما بيّن لقومه ووضّح لهم ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ أي لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار امتثالًا لأمرك وابتغاءً لطاعتك ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أي كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق فروا منه وحادوا عنه ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ أي سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه ﴿ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ ﴾ قال ابن عباس : تنكروا له لئلا يعرفهم .

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٣٢/٢) والألباني في الصحيحة (١٩٠٨) .

وقال سعيد بن جبير : غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول ﴿ وَأَصَرُّوا ﴾ أي استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم الفظيع ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ أي واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ أي جهرة بين الناس ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ ﴾ أي كلامًا ظاهرًا بصوت عال ﴿ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ أي فيما بيني وبينهم ، فنوّع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ أي ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه وتوبوا إليه من قريب ؛ فإنه من تاب إليه تاب عليه ، ولو كانت ذنوبه مهما كانت في الكفر والشرك ، ولهذا قال : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ أي متواصلة الأمطار ، ولهذا تستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية ، وهكذا روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه صعد المنبر ليستسقي فلم يزد على الاستغفار وقراءة الآيات في الاستغفار ومنها هذه الآية ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ ثم قال : لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر . وقوله تعالى : ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ أي إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق عليكم وأسقاكم من بركات السماء ، وأنبت لكم من بركات الأرض ، وأنبت لكم الزرع ، وأدر لكم الضرع ، وأمدكم بأموال وبنين ، أي أعطاكم الأموال والأولاد ، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار وخللها بالأنهار الجارية بينها ، هذا مقام الدعوة بالترغيب ، ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ أي : عظمة ، وقال ابن عبّاس : لا تعظمون الله حق عظمته أي لا تخافون من بأسه ونقمته ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ قيل : معناه من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ أي واحدة فوق واحدة ، وهل هذا يتلقى من جهة السمع فقط ؟ أو هو من الأمور المدركة بالحس مما علم من التسيير والكسوفات ، فإن الكواكب السبعة السيارة يكسف بعضها بعضًا ، فأدناها القمر في السماء الدنيا وهو يكسف ما فوقه ، وعطارد في الثانية ، والزهرة في الثالثة ، والشمس في الرابعة ، والمريخ في الخامسة ، والمشتري في السادسة ، وزحل في السابعة ، وأما بقية الكواكب وهي الثوابت ففي فلك ثامن يسمونه فلك الثوابت والمتشرعون منهم يقولون : هو الكرسي ، والفلك التاسع وهو الأطلس والأثير عندهم الذي حركته على خلاف حركة سائر الأفلاك ، وذلك أن حركته مبدأ الحركات وهي من المغرب إلى المشرق ؛ وسائر الأفلاك عكسه من المشرق إلى المغرب ومعها يدور سائر الكواكب تبعًا ، ولكن للسيارة حركة معاكسة لحركة أفلاكها ؛ فإنها تسير من المغرب إلى المشرق ، وكل يقطع فلكه بحسبه ، فالقمر يقطع فلكه في كل شهر مرة ، والشمس في كل سنة مرة ، وزحل في كل ثلاثين سنة مرة ، وذلك بحسب اتساع أفلاكها وإن كانت حركة الجميع في السرعة متناسبة ، وهذا ملخص ما يقولونه في هذا المقام على اختلاف بينهم في مواضع كثيرة لسنا بصدد بيانها ، وإنما المقصود أن الله سبحانه وتعالى : ﴿ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ أي فاوت بينهما في الاستنارة فجعل كلًّا منهما أنموذجًا على حدة ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها ، وقدّر للقمر منازل وبروجًا وفاوت نوره ، فتارة يزداد حتى يتناهى ، ثم يشرع في النقص حتى يستسر ليدل على مضي الشهور والأعوام . وقوله تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴾ هذا اسم مصدر والإتيان به ههنا أحسن ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا ﴾ أي إذا متم ﴿ وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴾ أي يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴾ أي بسطها ومهدها وقررها وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات ﴿ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ﴾ أي خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها وأقطارها ، وكل هذا مما ينبههم به نوح عليه السلام على قدرة اللَّه وعظمته في خلق السموات والأرض ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية ، فهو الخالق الرزّاق ، جعل السماء بناءً والأرض مهادًا وأوسع على خلقه من رزقه فهو الذي يجب أن يعبد ويوحد ولا يشرك به أحد ؛ لأنه لا نظير له ولا عديل له ولا ند ولا كفء ولا صاحبة ولا ولد ولا وزير ولا مشير بل هو العلي الكبير .

﴿ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن نوح عليه السلام أنه أنهى إليه ، وهو العليم الذي لا يعزب عنه شيء ، أنه مع البيان المتقدم ذكره والدعوة المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى ، أنهم عصوه وخالفوه وكذبوه واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر اللَّه ، ومتع بمال وأولاد وهي في نفس الأمر استدراج وإنظار ، لا إكرام ولهذا قال : ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ﴾ قرئ وولده بالضم وبالفتح (١) . وكلاهما متقارب وقوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ﴾ قال مجاهد : أي عظيمًا . وقال ابن زيد : كبير والعرب تقول : أمر عجيب وعجاب وعجاب ، ورجل حسان وحسان وجمّال بالتخفيف والتشديد بمعنى واحد ، والمعنى في قوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ﴾ أي بأتباعهم في تسويلهم لهم أنهم على الحق والهدى كما يقولون لهم يوم القيامة ، ولهذا قال ههنا : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴾ وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون اللَّه . وقال ابن عبّاس : صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد : أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي كلاع ، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت (٢) . عن أبي المطهر قال : ذكروا عند أبي جعفر وهو قائم يصلي يزيد بن المهلب ، قال : فلما انفتل من صلاته قال : ذكرتم يزيد بن مهلب ، أما إنه قتل في أول أرض عبد فيها غير اللَّه ، قال : ثم ذكروا رجلًا مسلمًا وكان محببًا في قومه ، فلما مات اعتكفوا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه ، فلما رأى جزعهم عليه تشبه في صورة إنسان ثم قال : إني أرى جزعكم على هذا الرجل فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونه ؟ قالوا : نعم ،

---

(١) قرأ المدنيان وابن عامر وعاصم ﴿ وولده ﴾ بفتح الواو واللام والباقون بضم الواو وإسكان اللام (انظر : تقريب النشر ص ١٨٣) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٢٠) .

فصور لهم مثله قال : ووضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه ؛ فلما رأى ما بهم من ذكره ، قال : هل لكم أن أجعل في منزل كل رجل منكم تمثالًا مثله فيكون له في بيته فتذكرونه ؟ قالوا : نعم ، قال : فمثل لكل أهل بيت تمثالًا مثله فأقبلوا ، فجعلوا يذكرونه به . قال : وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به . قال : وتناسلوا ودرس أمر ذكرهم إياه حتى اتخذه إلهًا يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم ، فكان أول عبد من دون الله : الصنم الذي سموه ودًّا .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ يعني الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقًا ، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ : دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم كما دعا موسى على فرعون وملئه في قوله : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به .

﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ .

يقول تعالى : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ ﴾ وقرئ خطاياهم (١) ﴿ أُغْرِقُوا ﴾ أي من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾ أي نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴾ أي : لم يكن لهم معين ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ أي لا تترك على وجه الأرض منهم أحدًا ولا ديارًا وهذه من صيغ تأكيد النفي ، قال الضحاك : ديارًا واحدًا . وقال السدي : الديار الذي يسكن الدار ، فاستجاب الله له فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن أبيه ، وقال : ﴿ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ عن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « لَوْ رَحِمَ اللَّه مِنْ قَوْمِ نُوح أَحَدًا لَرَحِمَ امْرَأَةً لَمَّا رَأَتِ المَاءَ حَمَلَتْ وَلَدَهَا ثُمَّ صَعِدَت الجَبَلَ ، فَلَمَّا بَلَغَهَا المَاءُ صَعِدَتْ بِهِ مَنْكِبَهَا ، فَلَمَّا بَلَغَ المَاءُ مَنْكِبَهَا وَضَعَتْ وَلَدَهَا عَلَى رَأْسِهَا ، فَلَمَّا بَلَغَ المَاءُ رَأْسَهَا ، رَفَعَتْ وَلَدَهَا بِيَدِهَا ، فَلَو رحِمَ اللَّه مِنْهُمْ أَحَدًا لَرَحِمَ هذِهِ المَرْأَةَ » (٢) . ونجى الله أصحاب السفينة الذين آمنوا مع نوح عليه السلام وهم الذين أمره الله بحملهم معه .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ أي إنك إن أبقيت منهم أحدًا أضلوا عبادك أي الذين تخلقهم بعدهم ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ أي فاجرًا في الأعمال كافر القلب ، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ثم قال : ﴿ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ

(١) قرأ أبو عمرو ﴿ مما خطاياهم ﴾ بفتح الطاء والياء وألف بعدها من غير همز ولا تاء ، والباقون بكسر الطاء وياء ساكنة بعدها وهمزة مفتوحة بعد الياء بعدها ألف وتاء مكسورة (انظر تقريب النشر ص ١٨٣) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٣٤٢) .

بَيْتِيَ مُؤْمِنًا ﴾ قال الضحَّاك : يعني مسجدي ، ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن . عن أبي سعيد أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول : « لَا تَصْحَبْ إِلا مُؤْمِنًا ، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ دعاء لجمع المؤمنين والمؤمنات وذلك يعم الأحياء منهم والأموات ، ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء اقتداء بنوح ﷺ وبما جاء في الآثار والأدعية المشهورة المشروعة ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ إلَّا هلاكًا ، وقال مجاهد : إلَّا خسارًا أي الدنيا والآخرة .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨/٣) والترمذي في السنن (٢٣٩٥) وأبو داود في السنن (٤٨٣٢) .

سورة الجن

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ۝ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ۝ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ۝ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ۝ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ۝ وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يخبر قومه أن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وصدقوه وانقادوا له فقال تعالى : ﴿ قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ ﴾ أي إلى السداد والنجاح ﴿ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ عن ابن عبّاس قال : أي فعله وأمره وقدرته . وقال الضحاك : جد اللّه آلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه ، وقال مجاهد وعكرمة : جلال ربنا . وقال قتادة : تعالى جلاله وعظمته وأمره . وقال أبو الدرداء : تعالى ذكره . وقوله تعالى : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ﴾ أي تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد ، أي قالت الجن : تنزه الرب جلّ جلاله حين أسلموا وآمنوا بالقرآن عن اتخاذ الصاحبة والولد ، ثم قالوا : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ﴾ قال قتادة وغيره : ﴿ سَفِيهُنَا ﴾ أي إبليس ﴿ شَطَطٗا ﴾ قال السدي : أي جورًا ، وقال ابن زيد : أي ظلمًا كبيرًا ، ويحتمل أن يكون المراد بقولهم : ﴿ سَفِيهُنَا ﴾ اسم جنس لكل من زعم أن للّه صاحبة أو ولدًا ، ولهذا قالوا : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ أي قبل إسلامه ﴿ عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ﴾ أي باطلًا وزورًا . ولهذا قالوا : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾ أي ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالؤون على الكذب على اللّه تعالى في نسبة الصاحبة والولد إليه ، فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على اللّه في ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ﴾ أي كنا نرى أن لنا فضلًا على الإنس ؛ لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا واديًا أو مكانًا موحشًا من البراري وغيرها ، كما كانت عادة العرب في جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسوؤهم ، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته ، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقًا ، أي خوفًا وإرهابًا وذعرًا ، حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذًا بهم . كما قال قتادة ﴿ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ﴾ أي إثمًا ، وازدادت الجن عليهم بذلك جرأة ، أي ازدادت الجن عليهم جرأة . وعن عكرمة قال : كان الجن يفرقون من الإنس كما يفرق الإنس منهم أو أشد ، فكان الإنس إذا نزلوا واديًا هرب الجن فيقول سيد القوم : نعوذ بسيد أهل هذا الوادي فقال الجن : نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم ، فدنوا من الإنس فأصابوهم بالخبل والجنون ، فذلك قول اللّه ﷻ : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ﴾ أي إثمًا . وقال زيد بن أسلم : أي خوفًا .

عن كردم بن أبي السائب الأنصاري قال : خرجت مع أبي من المدينة في حاجة وذلك أول ما ذكر

ذكر رسول الله ﷺ بمكة ، فآوانا المبيت إلى راعي غنم ، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملًا من الغنم ، فوثب الراعي فقال : يا عامر الوادي جارك ، فنادى مناد لا نراه يقول : يا سرحان أرسله . فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمة . وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ وقد يكون هذا الذئب الذي أخذ الحمل وهو ولد الشاة كان جنيًا حتى يرهب الإنسي ويخاف منه رده عليه لما استجار به ليضله ويهينه ويخرجه عن دينه ، والله أعلم ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴾ أي لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولًا .

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ .

يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمدًا ﷺ وأنزل عليه القرآن ، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرسًا شديدًا ، وحفظت من سائر أرجائها ، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك لئلا يسترقوا شيئًا من القرآن فيلقوه على ألسنة الكهنة فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق ، وهذا من لطف الله تعالى بخلقه ، ورحمته بعباده ، وحفظه لكتابه العزيز ، ولهذا قال الجن : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ أي من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهابًا مرصدًا لا يتخطاه ولا يتعداه بل يمحقه ويهلكه ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ أي ما ندري هذا الأمر الذي قد حدث في السماء ﴿ لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ وهذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل والخير أضافوه إلى الله ﷻ . وقد ورد في الصحيح « وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيْكَ » (١) . وقد كانت الكواكب يرمي بها قبل ذلك ، ولكن ليس بكثير بل في الأحيان بعد الأحيان كما في حديث العباس : بينما جلوس مع رسول الله ﷺ إذا رمي بنجم فاستنار فقال : « مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ في هذَا ؟ » فقلنا : كنا نقول : يولد عظيم ، يموت عظيم فقال : « لَيْسَ كَذلِكَ ؛ وَلكِنَّ اللَّهَ إِذَا قَضَى الأَمْرَ في السَّمَاءِ » (٢) وذكر تمام الحديث . وهذا هو السبب الذي حملهم على تطلب السبب في ذلك فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة ، فعرفوا أن هذا هو الذي حفظت من أجله السماء ، فآمن من آمن منهم وتمرد في طغيانه من بقي ، ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر وهو كثرة الشهب في السماء والرمي بها ، هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا له وارتاعوا لذلك وظنوا أن ذلك لخراب العالم كما قال السدي ، لم تكن السماء تحرس إلَّا أن يكون في الأرض نبي أو دين لله ظاهر ، فكانت الشياطين قبل محمد ﷺ قد اتخذت المقاعد في السماء الدنيا يستمعون ما يحدث في السماء من أمر ، فلما بعث الله محمدًا ﷺ نبيًا رجموا ليلة من الليالي ، ففزع لذلك أهل الطائف ، فقالوا : هلك أهل السماء لما رأوا من شدة النار في السماء واختلاف الشهب ، فجعلوا يعتقون أرقاءهم ، ويسيبون مواشيهم ، فقال لهم عبد ياليل بن

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٨/١) والبيهقي في السنن (١٣٨/٨) والترمذي في السنن (٣٢٢٤) .

عمرو بن عمير : ويحكم يا معشر أهل الطائف ! امسكوا عن أموالكم وانظروا إلى معالم النجوم ، فإن رأيتموها مستقرة في أمكنتها فلم يهلك أهل السماء ، إنما هذا من أجل ابن أبي كبشة ، يعني محمَّدًا ﷺ وإن نظرتم فلم تروها ، فقد هلك أهل السماء ، فنظروا فروأها فكفوا عن أموالهم ، ففزعت الشياطين في تلك الليلة ، فأتوا إبليس فحدَّثوه بالذي كان من أمرهم فقال : ائتوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمها ، فأتوه فشم فقال : صاحبكم بمكة ، فبعث سبعة نفر من جن نصيبين فقدموا مكة فوجدوا نبي اللَّه ﷺ قائمًا يصلي في المسجد الحرام يقرأ القرآن ، فدنوا منه حرصًا على القرآن حتى كادت كلاكلهم تصيبه . ثم أسلموا ، فأنزل اللَّه تعالى أمرهم على رسوله ﷺ .

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الجن أنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أي غير ذلك ﴿ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ أي طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة ، قال الأعمش : تروح إلينا جني فقلت له : ما أحب الطعام إليكم ؟ فقال : الأرز ، قال : فأتيناهم به فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحدًا ، فقلت : فيكم من هذه الأهواء التي فينا ؟ قال : نعم ، فقلت : فما الرافضة فيكم ؟ قال : شرنا .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا ﴾ أي نعلم أن قدرة اللَّه حاكمة علينا وأنا لا نعجزه في الأرض ولو أمعنا في الهرب ؛ فإنه علينا قادر لا يعجزه أحد منا ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ ﴾ يفتخرون بذلك وهو مفخر لهم وشرف رفيع وصفة حسنة ، وقولهم : ﴿ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ قال ابن عبَّاس وقتادة وغيرهما : فلا يخاف أن ينقص من حسناته أو يحمل عليه غير سيئاته ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ ﴾ أي منا المسلم ومنا القاسط وهو الجائر عن الحق الناكب عنه ، بخلاف المقسط ، فإنه العادل ﴿ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدًا ﴾ أي طلبوا لأنفسهم النجاة ﴿ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ أي وقودًا تسعر بهم وقوله تعالى : ﴿ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ ﴾ اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين : أحدهما : وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها ﴿ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ أي كثيرًا ، والمراد بذلك سعة الرزق وعلى هذا يكون معنى قوله : ﴿ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ ﴾ أي لنختبرهم ، وقيل : لنبتليهم من يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية . قال بهذا القول ابن عبَّاس ومجاهد وقتادة كل هؤلاء أو أكثرهم قالوا في قوله : ﴿ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ ﴾ أي لنبتليهم به . وقال مقاتل : نزلت في الكفار قريش حين منعوا المطر سبع سنين .

والقول الثاني : ﴿ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ ﴾ الضلال ﴿ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ أي لأوسعنا عليهم الرزق استدراجًا ، وهذا قول أبي مجلز لاحق بن حميد ؛ فإنه قال في قوله تعالى : ﴿ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ ﴾ : أي طريقة الضلالة وله اتجاه ويتأيد بقوله : لنفتنهم فيه . وقوله : ﴿ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ أي عذابًا مشقًّا شديدًا موجعًا مؤلمًا وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد :

مشقة لا راحة معها ، وعن ابن عبّاس : جبل في جهنم . وعن سعيد بن جبير : بئر فيها .

﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۝ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۚ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۝ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده أن يوحدوه في مجال عبادته ولا يدعى معه أحد ولا يشرك به ، كما قال قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ قال : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله فأمر الله نبيّه ﷺ أن يوحّدوه وحده . وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ قال : لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلّا المسجد الحرام ومسجد إيليا بيت المقدس . وقال الأعمش : قالت الجن : يا رسول الله ائذن لنا فنشهد معك الصلوات في مسجدك ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ يقول : صلوا لا تخالطوا الناس . وعن سعيد بن جبير قال : قالت الجن لنبي الله ﷺ : كيف لنا أن نأتي المسجد ونحن ناءون – أي بعيدون – عنك ؟ وكيف نشهد الصلاة ونحن ناؤون عنك ؟ فنزلت ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ .

قال عكرمة : نزلت في المساجد كلها ، وقال سعيد بن جبير : نزلت في أعضاء السجود أي هي لله فلا تسجدوا بها لغيره . وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ : عَلَى الْجَبْهَةِ – أشار بيده إلى أنفه – وَالْيَدَيْنِ ، وَالرُّكْبَتَيْنِ ، وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ »(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ عن ابن عبّاس قال : لما سمعوا النبيّ ﷺ يتلو القرآن كادوا يركبونه من الحرص لمّا سمعوه يتلو القرآن ، ودنوا منه ، لم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ يستمعون القرآن . وعن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال : قال الجن لقومهم : ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ قال : لما رأوه يصلي وأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده قال : عجبوا من طواعية أصحابه له قال : فقالوا لقومهم ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ وقال الحسن : لما قام رسول الله ﷺ يقول : لا إله إلّا الله ويدعو الناس إلى ربهم كادت العرب تلبد عليه جميعًا وقال قتادة : تلبّدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه فأبى الله إلّا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناوأه ، وهو اختيار ابن جرير وهو الأظهر ، لقوله بعده ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ أي قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه كذبوه وتظاهروا عليه ليبطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته ﴿ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي ﴾ أي إنما أعبد ربي وحده لا شريك له وأستجير به وأتوكل عليه ﴿ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ أي إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي وعبد من عباد الله ليس إليّ من الأمر شيء في هدايتكم

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨١٢) ومسلم في الصلاة (٢٢٨) والنسائي في السنن (٢٠٩/٢) وابن ماجه في السنن (٨٨٣) وأحمد في مسنده (٣٠٥/١) .

ولا غوايتكم بل المرجع في ذلك كله إلي الله ﷻ ، ثم أخبر عن نفسه أيضًا أنه لا يجيره من الله أحد أي لو عصيته فإنه لا يقدر أحد على إنقاذي من عذابه ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ قال قتادة : أي لا ملجأ . وقال أيضًا : أي لا نصير ولا ملجأ . وفي رواية : لا ولي ولا موئل .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾ قال بعضهم : هو مستثنى من قوله : ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا ﴾ ويحتمل أن يكون استثناء من قوله : ﴿ لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ ﴾ أي لا يجيرني منه ولا يخلصني إلّا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها علي . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أي أنا أبلغكم رسالة الله فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ ، أي : لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها . وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ أي حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة ، فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصرًا وأقل عددًا ، هم أم المؤمنون الموحدون لله تعالى ؛ أي بل المشركون لا ناصر لهم بالكلية وهم أقل عددًا من جنود الله ﷻ .

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول للناس إنه لا علم له بوقت الساعة ولا يدري أقريب وقتها أم بعيد ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴾ أي مدة طويلة وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الحديث الذي يتداوله كثير من الجهلة من أنه عليه الصلاة والسلام لا يؤلف تحت الأرض كذب لا أصل له ولم نره في شيء من الكتب وقد كان ﷺ يسأل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها ولما تبدى له جبريل في صورة أعرابي كان فيما سأله أن قال : يا محمَّد فأخبرني عن الساعة ؟ قال : « مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ » [1] . ولما ناداه ذلك الأعرابي بصوت جهوري فقال : يا محمَّد متى الساعة قال : « وَيْحَكَ إِنَّهَا كَائِنَةٌ فَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا ! » . قال : أما إني لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام ولكني أحب الله ورسوله قال : « فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » . قال أنس : فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث [2] . وعن سعد بن أبي وقاص عن النبيِّ ﷺ أنه قال : « إِنِّي لأَرْجُو أَنْ لَا تَعْجَزَ أُمَّتِي عِنْدَ رَبِّهَا أَنْ يُؤَخِّرَهُمْ نِصْفَ يَوْمٍ » . قيل لسعد : وكم نصف يوم ؟ قال : خمسمائة عام [3] .

وقوله تعالى : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ إنه يعلم الغيب والشهادة وإنه لا يطلع أحد من خلقه على شيء من علمه إلّا مما أطلعه تعالى عليه ولهذا قال ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ وهذا يعم الرسول الملكي والبشري . ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ أي يخصه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٧٧) ومسلم في الإيمان (٥) وأحمد في مسنده (٤٢٦/٢) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢٢١/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٠/١) وأبو داود في السنن (٤٣٥٠) والألباني في صحيحة (١٦٤٣) .

أمر الله ، ويساوقونه على ما معه من وحي الله ولهذا قال : ﴿ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ وقد اختلف المفسرون في الضمير الذي في قوله ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ إلى من يعود ؟ فقيل : إنه عائد إلى النبيّ ﷺ وعن سعيد بن جبير في قوله ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ قال : أربعة حفظة من الملائكة مع جبريل ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ محمَّد ﷺ ﴿ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ وعن قتادة ﴿ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ قال : ليعلم نبي الله أن الرسل قد بلغت عن الله وأن الملائكة حفظتها ودفعت عنها ، وقيل غير ذلك ، وعن ابن عبَّاس في قوله : ﴿ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ قال : هي معقبات من الملائكة يحفظون النبيّ ﷺ من الشيطان حتى يتبين الذين أرسل إليهم ، وذلك حين يقول ليعلم أهل الشرك أن قد أبلغوا رسالات ربهم . وعن مجاهد قال : ليعلم من كذب الرسل أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وفي هذا نظر . وقال البغوي قرأ يعقوب ﴿ ليُعلم ﴾ بالضم أي ليعلم الناس أن الرسل قد بلغوا . ويحتمل أن يكون الضمير عائدًا إلى الله ﷻ ، وهو قول حكاه ابن الجوزي في زاد المسير [1] ، ويكون المعنى في ذلك أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، ويكون ذلك كقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ إلى أمثال ذلك من العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعًا لا محالة ، ولهذا قال بعد هذا ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ .

(١) روى رويس ليُعلم بضم الياء والباقون بفتحها . (تقريب النشر ١٨٤) .

سورة المزمل

عن عبد الله بن محمّد بن عقيل بن جابر قال : اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا : سموا هذا الرجل اسمًا يصد الناس عنه فقالوا : كاهن قالوا : ليس بكاهن قالوا : مجنون قالوا : ليس بمجنون قالوا : ساحر قالوا : ليس بساحر ، فتفرق المشركون على ذلك فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فتزمّل في ثيابه وتدثر فيها . فأتاه جبريل عليه السلام فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ .

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل وهو التغطي في الليل وينهض إلى القيام لربه عز وجل وكذلك كان ﷺ ممتثلًا ما أمره الله تعالى به من قيام الليل وقد كان واجبًا عليه وحده ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ وههنا بيّن له مقدار ما يقوم فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ قال السدي ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ يعني يا أيها النائم ، قال قتادة : المزمل في ثيابه ، وعن ابن عباس : يا محمّد زملت القرآن . وقوله تعالى : ﴿ نِّصْفَهُۥٓ ﴾ بدل من الليل ﴿ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ أي أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل لا حرج عليك في ذلك . وقوله تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ أي اقرأه على تمهل فإنه يكون عونًا على فهم القرآن وتدبره . وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه ، قالت عائشة رضي الله عنها كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها . وعن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال : كانت مدًّا ثم قرأ : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم (١) وعن أم سلمة رضي الله عنها أنها سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت : كان يقطع قراءته آية آية ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ . وعن عبد الله بن عمرو عن النبيّ ﷺ قال : « يُقَالُ لِقَارِئِ القُرْآنِ : اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدنيا فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عَنْدَ آخرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا » (٢) . وقد قدمنا في أول التفسير الأحاديث الدالة على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة كما في الحديث و « لَقَدْ أُوتِيَ هذا مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آل دَاوُدَ » (٣) . يعني أبا موسى فقال أبو موسى كنت أعلم أنك تسمع قراءتي لحبرته لك تحبيرًا ، وعن ابن مسعود أنه قال : لا تنثروه نثر الرمل ولا تهذوه هذّ الشعر قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة . وعن أبي وائل قال : جاء رجل إلى ابن مسعود

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٤٦) وأحمد في مسنده (٣٠٢/٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠/٣) وابن ماجه في سننه (٣٧٨٠) .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٣٦) والنسائي في السنن (١٨١/٢) وابن ماجه في السنن (١٣٤١) وأحمد في مسنده (٤٥٠/٢) .

فقال : قرأت المفصل الليلة في ركعة . فقال هذًا كهذّ الشعر لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن فذكر عشرين سورة من المفصل سورتين في ركعة وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ قال الحسن وقتادة : أي العمل به وقيل : ثقيل وقت نزوله من عظمته ، كما قال زيد بن ثابت ﷺ أنزل على رسول الله ﷺ وفخده على فخدي فكادت ترض فخذي .

وعن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : « أَحْيَانًا يَأْتِي فِي مِثْلِ صلصلة الجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي المَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ » . قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا [١] وعن هشام بن عروة عن أبيه أن النبيّ ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها فما تستطيع أن تحرك حتى يسرّى عنه [٢] وهذا مرسل ، الجران هو باطن العنق ، واختار ابن جرير أنه ثقيل من الوجهين معًا كما قال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم كما ثقل في الدنيا ثقل يوم القيامة في الموازين .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ عن ابن عباس : نشأ : قام بالحبشية ، وقال عمر وابن عبّاس وابن الزبير : الليل كله ناشئة ، يقال : نشأ إذا قام من الليل وفي رواية عن مجاهد : بعد العشاء والغرض أن : ناشئة الليل هي : ساعاته وأوقاته وكل ساعة منه تسمى ناشئة وهي الآنات ، والمقصود أن قيام الليل وهو أشد مواطأة بين القلب واللسان وأجمع على التلاوة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش . وعن الأعمش أن أنس بن مالك قرأ هذه الآية - إن ناشئة الليل هي أشد وطئًا وأصوب قيلًا - فقال له رجل : إنما نقرؤها وأقوم قيلًا ، فقال له : إن أصوب وأقوم وأهيأ وأشباه هذا واحد . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ قال عطاء بن أبي مسلم : الفراغ والنوم ، وقال سفيان الثوري : فراغًا طويلًا . وقال السدي : تطوعًا كثيرًا وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ لحوائجك فأفرغ لدينك الليل ، قال : وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة ثم إن الله تبارك وتعالى منَّ على عباده فخففها ووضعها وقرأ ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ إلى آخر الآية وعن سعيد بن هشام : أنه طلق امرأته ثم ارتحل إلى المدينة ليبيع عقارًا له بها ويجعله في الكراع والسلاح ثم يجاهد الروم حتى يموت ، فلقي رهطًا من قومه فحدثوه أن رهطًا من قومه ستة أرادوا ذلك على عهد رسول الله ﷺ فقال : " أَلَيْسَ لَكُمْ فِيَّ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ؟ » . فنهاهم عن ذلك ، فأشهدهم على رجعتها ثم رجع إلينا فأخبرنا أنه أتى ابن عبّاس فسأله عن الوتر فقال : ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، قال : ائت عائشة فسلها ثم ارجع إلي فأخبرني بردّها عليك . قال فأتيت على حكيم بن أفلح فاستلحقته إليها فقال : ما أنا بقاربها إني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئًا فأبت فيهما إلّا

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٢) وأحمد فى مسنده (٢٥٧/٦) والترمذي في السنن (٣٦٣٤) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٠٥/٢) .

مضيًا ، فأقسمت عليه فجاء معي فدخلنا عليها فقالت : حكيم وعرفته قال : نعم قالت : من هذا الذي معك ؟ قال : سعيد بن هشام . قالت : من هشام ؟ قال : ابن عامر . قال : فترحمت عليه وقالت : نعم المرء كان عامرًا . قلت : يا أمّ المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : ألست تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت : فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن فهممت أن أقوم ثم بدا لي قيام رسول الله ﷺ قلت : يا أم المؤمنين أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ قالت : ألست تقرأ هذه السوة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ ؟ قلت : بلى . قالت : فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة ، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولًا حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهرًا ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعًا من بعد فريضة . فهممت أن أقوم ثم بدا لي وتر رسول الله ﷺ فقلت : يا أم المؤمنين انبئيني عن وتر رسول الله ﷺ . قالت : كنا نعد له سواكه وطهوره فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلي ثمان ركعات لا يجلس فيهن إلّا عند الثامنة ، فيجلس ويذكر ربه تعالى ويدعو ثم ينهض وما يسلم ، ثم يقوم ليصلي التاسعة ثم يقعد فيذكر الله وحده ثم يدعوه ثم يسلم تسليمًا يسمعنا ، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني ، فلما أسن رسول الله ﷺ وأخذه اللحم أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعد ما يسلّم فتلك تسع يا بني ، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة حتى أصبح ولا صام شهرًا كاملًا غير رمضان . فأتيت ابن عباس فحدثته بحديثها فقال : صدقت أما لو كنت أدخل عليها لأتيتها حتى تشافهني مشافهة (١) .

وعن ابن عباس قال : أول ما نزل أول المزمل كانوا يقومون نحوًا من قيامهم في شهر رمضان وكان بين أولها وآخرها قريب من سنة ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ أي أكثر من ذكره وانقطع إليه وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك وما تحتاج إليه من أمور دنياك ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾ أي فرغت من أشغالك فانصب في طاعته وعبادته لتكون فارغ البال . قال ابن عبّاس ومجاهد وأبو صالح وعطية والضحاك والسدي ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ أي : أخلص له العبادة . وقال الحسن : اجتهد وأبتل إليه نفسك . وقال ابن جرير : يقال للعابد متبتل . ومنه الحديث المروي نهي عن التبتل يعني الانقطاع إلى العبادة وترك التزوج (٢) . وقوله تعالى : ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ أي هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب الذي لا إله إلّا هو ، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل فاتخذه وكيلًا .

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٤/٦) .
(٢) تفسير الطبري (١٦٤/٢٨) .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله من كذّبه من سفهاء قومه وأن يهجرهم هجرًا جميلًا وهو الذي لا عتاب معه ، ثم قال له ستهددًا لكفّار قومه ومتوعدًا وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ ﴾ أي دعني والمكذبين المترفين أصحاب الأموال فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم ، وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ أي رويدًا . ولهذا قال ههنا ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا ﴾ وهي القيود . ﴿ وَجَحِيمًا ﴾ وهي السعير المضطرمة ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ﴾ قال ابن عبّاس : ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج ﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ أي تزلزل ﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ أي تصير ككثبان الرمل بعد ما كانت حجارة صماء ثم إنها تنسف نسفًا فلا يبقى منها شيء إلّا ذهب حتى تصير الأرض قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا أي واديًا ولا أمتًا أي رابية ومعناه لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع ثم قال تعالى مخاطبًا لكفار قريش والمراد سائر الناس ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ أي بأعمالكم ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة والسدي والثوري ﴿ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ أي شديدًا أي فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول فيصيبكم ما أصاب فرعون حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتم رسولكم لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران .

وقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ يحتمل أن يكون يومًا معمولًا لتتقون كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود فكيف تخافون أيها الناس يومًا يجعل الولدان شيبًا إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به ؟ ويحتمل أن يكون معمولًا لكفرتم فعلى الأول كيف يحصل لكم أمان من يوم هذا الفزع العظيم إن كفرتم ، وعلى الثاني كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه ، وكلاهما معنى حسن ولكن الأول أولى والله أعلم ، ومعنى قوله : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ أي من شدة أهواله وزلازله وبلابله وذلك حين يقول الله لآدم : ابعث بعث النار فيقول : من كم ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنّة . وقوله تعالى : ﴿ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ أي بسببه من شدته وهوله ، ومنهم من يعيد الضمير على الله تعالى ، وقوله تعالى : ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾ أي كان وعد هذا اليوم مفعولًا أي واقعًا لا محالة وكائنًا لا محيد عنه .

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ ﴾ أي السورة ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ أي يتذكر بها أولو الألباب . ولهذا قال تعالى ﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ أي ممن شاء الله تعالى هدايته ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ أي تارة هكذا وتارة هكذا وذلك كله من غير قصد منكم ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل لأنه يشق عليكم ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أي تارة يعتدلان وتارة يأخذ هذا من هذا وهذا من هذا ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾

أي الفرض الذي أوجبه عليكم ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ ﴾ أي من غير تحديد بوقت أي ولكن قوموا من الليل ما تيسر ، وعبَّر عن الصلاة بالقراءة ، وقد استدل أصحاب الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الآية وهي قوله : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ ﴾ على أنه لا يجب تعين قراءة الفاتحة في الصلاة بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ولو بآية أجزأه واعتضدوا بحديث المسيء صلاته : « ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ » (١) . وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت أيضًا أن رسول الله ﷺ قال : « لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ » (٢) . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كُلُّ صَلَاةٍ لَا يُقْرَأُ فِيهَا بِأُمِّ القُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ فَهِيَ خِدَاجٌ فَهِيَ خداجٌ غَيْرُ تَمَامٍ » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار في ترك قيام الليل من مرضى لا يستطيعون ذلك ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل الله ، وهذه الآية بل السورة كلها مكية ولم يكن القتال شرع بعد فهي من أكبر دلائل النبوة لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقلة ولهذا قال تعالى : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ أي قوموا بما تيسر عليكم منه .

عن أبي رجاء محمّد قال : قلت للحسن : يا أبا سعيد ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه ولا يقوم به إنما يصلي المكتوبة . وقال : يتوسد القرآن لعن الله ذاك ، قال الله تعالى للعبد الصالح : ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾ ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ قلت : يا أبا سعيد قال الله تعالى ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ ﴾ قال : نعم ولو خمس آيات وهذا ظاهر من مذهب الحسن البصري أنه كان يرى حقًّا واجبًا على حملة القرآن أن يقوموا ولو بشيء منه في الليل ، ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل نام حتى أصبح فقال : « ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِهِ » (٤) . فقيل : معناه نام عن المكتوبة ، وقيل : عن قام الليل ، وفي الحديث : « مَنْ لَمْ يُوتِرْ فَلَيْسَ مِنَّا » (٥) . وأغرب من هذا ما حكي عن أبي بكر بن عبد العزيز من الحنابلة من إيجابه قيام شهر رمضان فالله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ﴾ أي أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم وآتوا الزكاة المفروضة ، وهنا يدل لمن قال بأن فرض الزكاة نزل بمكة لكن مقادير النصب والمخرج لم تبين إلّا بالمدينة والله أعلم ، وقد قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغير واحد من السلف : إن هذه الآية نسخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولًا من قيام الليل ، واختلفوا في المدة التي بينهما على أقوال كما تقدم ، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل : « خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ » . قال : هل عليّ غيرها ؟ قال : « لَا إِلّا أَنْ تَطَّوَّعَ » (٦) . وقوله تعالى : ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ يعني من الصدقات فإن الله يجازي على ذلك أحسن الجزاء وأوفره ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٧٢/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٧٥٦) ومسلم في الصلاة (٣٤) والترمذي في السنن (٢٤٧) وأحمد في السنن (٣٢٢/٥) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٠/٢) .
(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠٥) والنسائي في السنن (٢٠٤/٣) وأحمد في مسنده (٤٢٧/١) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٧/٥) .
(٦) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٧٨) ومسلم في الإيمان (٨) وأبو داود في السنن (٣٩١) .

تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ أي جميع ما تقدموه بين أيديكم فهو لكم حاصل وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا ، وقال عبد الله : قال رسول الله ﷺ : « أَيُّكُمْ مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيهِ مِنْ مَالِ وَارِثِهِ ؟ » قالوا :يا رسول الله ما منا من أحد إلَّا ماله أحب إليه من مال وارثه . قال : « اعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » . قالوا : ما نعلم إلَّا ذلك يا رسول الله ؟ قال : « إِنَّمَا مَالُ أَحَدِكُمْ مَا قَدَّمَ وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ » [١] . ثم قال تعالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ أي أكثروا من ذكره واستغفاره في أموركم كلها فإنه غفور رحيم لمن استغفره .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٢) .

سورة المدثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ .

عن جابر أنه كان يقول : أول شيء نزل من القرآن ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ وخالفه الجمهور فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولًا قوله تعالى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ وعن أبي سلمة قال : أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدِّث عن فترة الوحي فقال في حديثه : « فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاء قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَجَثَيْتُ مِنْهُ حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ فَجِئْتُ إِلَى أَهْلِي فَقُلْتُ : زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُونِي فَأَنْزَلَ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَاهْجُرْ ﴾ قال أبو سلمة : والرجز الأوثان - ثُمَّ حَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ » . وهذا السياق هو المحفوظ وهو يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا لقوله « فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي كَانَ بِحِرَاءَ » . وهو جبريل حين أتاه بقوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . ثم إنه حصل بعد هذا فترة ثم نزل الملك بعد هذا . ووجه الجمع أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذا السورة ، وعن ابن شهاب قال : سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن يقول : أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ثُمَّ فَتَرَ الْوَحْيُ عَنِّي فَتْرَةً ، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فجثيتُ منه فَرَقًا حتى هويتُ إلى الأرض فَجِئْتُ أَهْلِي فَقُلْتُ لَهُمْ : زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُونِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ ثُمَّ حَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ » [1] . وعن ابن عبّاس قال : إن الوليد ابن المغيرة صنع لقريش طعامًا فلما أكلوا منه قال : ما تقولون في هذا الرجل ؟ فقال بعضهم : ساحر ، وقال بعضهم : ليس بساحر ، وقال بعضهم : كاهن ، وقال بعضهم : ليس بكاهن ، وقال بعضهم : شاعر ، وقال بعضهم : ليس بشاعر ، وقال بعضهم : بل سحر يؤثر فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فحزن وقنع رأسه وتدثر فأنزل الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ أي شمر عن ساق العزم وأنذر الناس ، وبهذا حصل الإرسال كما حصل بالأول النبوة ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أي عظم وقوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال ابن عباس : لا تلبسها على معصية ولا على غدرة .

وعنه في هذه الآية قال : من الإثم . وقال مجاهد : نفسك ليس ثيابه ، وعنه قال : عملك فأصلح ، قال

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٥/٣) والبخاري في تفسير القرآن (٤٩٢٤) .

قتادة : طهرها من المعاصي . وكانت العرب تسمي الرجل إذا نكث ولم يف بعهد الله إنه لدنس الثياب وإذا وفّى وأصلح إنه لمطهر الثياب ، وقال عكرمة والضحاك : لا تلبسها على معصية . وقال الشاعر :

إِذَا المَرْءُ لَمْ يُدَنَّسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ

وقال ابن زيد : كان المشركون لا يتطهرون فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه وهذا القول اختاره ابن جرير وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب فإن العرب تطلق الثياب عليه كما قال امرؤ القيس :

أَفَاطِمُ مَهْلًا بَعْضَ هذَا التَّدَلُّلِ وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ هَجْرِي فَأَجْمِلِي

وَإِنْ تَكُ قَدْ سَاءَتْكِ مِنِّي خَلِيقَةٌ فَسُلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكِ تَنْسلِ

وقال سعيد بن جبير ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ وقلبك ونيتك فطهر ، وقال محمّد بن كعب القرظبي والحسن البصري : وخلقك فحسّن ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ قال ابن عبّاس : والرجز وهو الأصنام فاهجر . وقال الضحاك : أي اترك المعصية ، وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ قال ابن عباس : لا تعط العطية تلتمس أكثر منها وروي عن ابن مسعود أنه قرأ - ولا تمنن أن تستكثر - وقال الحسن البصري : لا تمنن بعملك على ربك تستكثره وقال مجاهد : لا تضعف أن تستكثر من الخير قال : تمنن في كلام العرب تضعف ، وقال ابن زيد : لا تمنن بالنبوة على الناس تستكثرهم بها تأخذ عليه عوضًا من الدنيا . فهذه أربعة أقوال والأظهر القول الأول والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ أي اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك ﷻ . وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ ﴿ ٱلنَّاقُورِ ﴾ الصور . وهو كهيئة القرن ، وعن ابن عبّاس ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ : « كَيْفَ أَنْعَم وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ ؟ » . فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : « قُولُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلِ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا » (١) . وقوله تعالى : ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ أي شديد ﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ أي غير سهل عليهم ، وعن زرارة بن أوفى قاضي البصرة أنه صلى بهم الصبح فقرأ هذه السورة فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ شهق شهقة ثم خرّ ميتًا رحمه الله تعالى .

. ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ۝ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ۝ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝ كَلَّآ إِنَّهُ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ۝ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ۝ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ .

يقول تعالى متوعدًا لهذا الخبيث الذي أنعم الله عليه بنعم الدنيا فكفر بأنعم الله وبدلها كفرًا وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها وجعلها من قول البشر وقد عدّد الله عليه نعمه حيث قال تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ أي خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد ثم رزقه الله تعالى ،

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٣١) وأحمد في مسنده (٣٧٤/٤) .

﴿ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴾ أي واسعًا كثيرًا قيل : ألف دينار ، وقيل : مائة ألف دينار ، وقيل : أرضًا يستغلها ، وقيل : غير ذلك ، وجعل له ﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ قال مجاهد : لا يغيبون أي حضورًا عنده لا يسافرون بالتجارات بل مواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود عند أبيهم يتمتع بهم ويتملى بهم ، وكانوا فيما ذُكر ثلاثة عشر وقيل : كانوا عشرة وهذا أبلغ في النعمة وهو إقامتهم عنده ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴾ أي مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۞ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴾ أي معاندًا وهو الكفر على نعمه بعد العلم ، قال اللَّه تعالى : ﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾ عن أبي سعيد عن رسول اللَّه ﷺ قال : « وَيْلٌ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ يَهْوِي فِيهِ الكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَهُ وَالصَّعُودُ جَبَلٌ مِنْ نَارٍ يَتَصَعَّدُ فِيهِ الكَافِرُ سَبْعِينَ خَرِيفًا ثُمَّ يَهْوِي بِهِ كَذَلِكَ فِيهِ أَبَدًا » (١) . وعن ابن عبّاس : صعودًا صخرة في جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه . وقال السدي : صعودًا صخرة ملساء في جهنم يكلف أن يصعدها . وقال مجاهد ﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾ أي مشقة من العذاب . وقال قتادة : عذابًا لا راحة فيه واختاره ابن جرير . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ أي إنما أرهقناه صعودًا أي قربناه من العذاب الشاق لبعده عن الإيمان لأنه فكّر وقدّر أي تروّى ماذا يقول في القرآن حين سئل عن القرآن ففكّر ماذا يختلق من المقال ﴿ وَقَدَّرَ ﴾ أي تروى . ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۞ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ دعاء عليه ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ أي أعاد النظرة والتروي ﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ أي قبض بين عينيه وقطّب ﴿ وَبَسَرَ ﴾ أي كلح وكره وقوله : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ أي صرف عن الحق ورجع القهقرى مستكبرًا عن الانقياد للقرآن ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ أي هذا سحر ينقله محمّد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم ولهذا قال : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ أي ليس بكلام اللَّه وهذا المذكور في هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء قريش لعنه اللَّه وكان من خبره في هذا ما روي عن ابن عبّاس قال : دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر ابن أبي قحافة فسأله عن القرآن فلما أخبره خرج على قريش فقال : يا عجبًا لما يقول ابن أبي كبشة فواللَّه ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي من الجنون وإن قوله لمن كلام اللَّه . فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا وقالوا : واللَّه لئن صبأ الوليد لتصبوا قريش ، فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال : أنا واللَّه أكفيكم شأنه فانطلق حتى دخل عليه بيته ، فقال للوليد : ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة ؟ فقال : ألست أكثرهم مالًا وولدًا فقال له أبو جهل : يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه ، فقال الوليد : أقد تحدث به عشيرتي ! فلا واللَّه لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة وما قوله إلّا سحر يؤثر . فأنزل اللَّه على رسوله ﷺ : ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ - إلى قوله - ﴿ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴾ وقال قتادة : زعموا أنه قال : واللَّه لقد نظرت فيما قال الرجل فإذا هو ليس بشعر وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يعلى عليه وما أشك أنه سحر . فأنزل اللَّه ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ الآية ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ قبض ما بين عينيه وكلح .

قال اللَّه تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ أي سأغمره فيها من جميع جهاته ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴾ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم ، ثم فسّر ذلك بقوله تعالى : ﴿ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴾ أي تأكل

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣١٦٤) وأحمد في مسنده (٣/٧٥) .

لحومهم وعروقهم وعصبهم وجلودهم ثم تبدل غير ذلك وهم في ذلك لا يموتون ولا يحيون .

وقوله تعالى ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ قال مجاهد : أي للجلد ، وقال أبو رزين : تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل ، وقال زيد بن أسلم : تلوح أجسادهم عليها . وقال قتادة : أي حراقة للجلد . وقال ابن العباس : تحرق بشرة الإنسان . وقوله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ أي من مقدمي الزبانية عظيم خلقهم غليظ خلقهم .

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال : جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال : يا محمّد ، غلب أصحابك اليوم فقال : « بِأَيِّ شَيْءٍ » . قال : سألتهم يهود هل أعلمكم نبيكم عدة خزنة أهل النار ؟ قالوا : لا نعلم حتى نسأل نبينا ﷺ قال رسول الله ﷺ : « أَفُغْلِبَ قَوْمٌ يُسْأَلُونَ عَمَّا لَا يَعْلَمُونَ » فَقَالُوا : لا نَعْلَمُ حَتَّى نَسْأَلَ نَبِيَّنَا ﷺ ؟ عَلَيَّ بِأَعْدَاءِ اللَّهِ لكِنَّهُمْ قَدْ سألوا نبيهم أن يُرِيَهُمُ اللَّهُ جَهْرَةً » . فأرسل إليهم فدعاهم قالوا : يا أبا القاسم كم عدة خزنة أهل النار ؟ قال : « هكَذَا » . وطبق كفيه ثم طبق كفيه مرتين وعقد واحدة وقال لأصحابه : « إِنْ سُئِلْتُمْ عَنْ تربة الجَنَّةِ فَهِيَ الدَّرْمَكُ » . فلما سألوه فأخبرهم بعدة خزنة أهل النار قال لهم رسول الله ﷺ : « مَا تُرْبَةُ الجَنَّةِ » . فنظر بعضهم إلى بعض ، فقالوا : خبزة يا أبا القاسم فقال : « الخُبْزُ مِنَ الدَّرْمَكِ » [1] .

﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ ﴾ أي خزانها ﴿ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾ أي زبانية غلاظًا شدادًا ؛ وذلك رد على مشركي قريش حين ذكر عدد الخزنة . فقال أبو جهل : يا معشر قريش أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم ، فقال الله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾ أي شديدي الخلق لا يقاومون ولا يغالبون ، وقد قيل : إن أبا الأشدين واسمه كلدة بن أسيد بن خلف قال : يا معشر قريش اكفوني منهم اثنين وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر إعجابًا منه بنفسه ، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدميه فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه ، قال السهيلي : وهو الذي دعا رسول الله ﷺ إلى مصارعته وقال : إن صرعتني آمنت بك فصرعه النبي ﷺ مرارًا فلم يؤمن . قال : وقد نسب ابن إسحاق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب قلت : ولا منافاة بين ما ذكراه والله أعلم ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر اختبارًا منا للناس ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي يعلمون أن هذا الرسول حق فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ﴾ أي إلى إيمانهم بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمّد ﷺ ﴿ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي من

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٢٧) .

المنافقين ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ أي يقولون ما الحكمة في ذكر هذا ههنا ؟ قال اللّه تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ أي من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام ويتزلزل عند آخرين وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي ما يعلم عددهم وكثرتهم إلَّا هو تعالى لئلا يتوهم أنهم تسعة عشر فقط كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة من الفلاسفة اليونانيين ومن شايعهم من الملتين سمعوا هذه الآية فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة والنفوس التسعة التي اخترعوا دعواها وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها ، فأفهموا صدر هذه الآية وقد كفروا بآخرها وهو قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ وقد ثبت في حديث الإسراء عن رسول اللّه ﷺ أنه قال في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة « فَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يعودون إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ » .

وعن أبي ذر قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعِ أَرْبَعِ أَصَابعَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الفُرُشَاتِ ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللّه تَعَالَى » . فقال أبو ذر : واللّه لوددت أني شجرة تعضد (١) . وعن جابر بن عبد اللّه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مَا فِي السَّمواتِ السَّبْعِ مَوْضِعُ قَدَم وَلَا شِبْرٍ وَلَا كَفٌّ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ مَلَكٌ رَاكِعٌ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ قَالُوا جَمِيعًا : سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ إِلَّا أَنَّا لَمْ نُشْرِكْ بِكَ شَيْئًا » (٢) . وعن عباد بن منصور قال : سمعت عدي بن أرطأة وهو يخطبنا على منبر المدائن قال : سمعت رجلًا من أصحاب النبيّ ﷺ عن رسول اللّه ﷺ قال : « إِنَّ للّه تَعَالَى مَلَائِكَةً تُرْعَدُ فَرَائِصُهُمْ مِنْ خِيفَتِهِ مَا مِنْهُمْ مَلَكٌ تَقْطُرُ مِنْهُ دَمْعَةٌ مِنْ عَيْنِهِ إِلَّا وَقَعَتْ عَلَى مَلَكٍ يُصَلِّي وَإِنَّ مِنْهُمْ مَلَائِكَةً سُجُودًا مُنْذُ خَلَقَ اللّه السَّمواتِ وَالأَرْضَ لَمْ يَرْفَعُوا رُؤُوسَهُمْ وَلَا يَرْفَعُونَهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَلَائِكَةً رُكوعًا لَمْ يَرْفَعُوا رُؤُوسَهُمْ مُنْذُ خَلَقَ اللّه السَّمواتِ وَالأَرْض وَلَا يَرْفَعُونَهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، فَإِذَا رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ نَظَرُوا إِلَى وَجْهِ اللّه ﷻ قَالُوا : سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد ﴿ وَمَا هِىَ ﴾ أي النار التي وصفت ﴿ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ أي ولى ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾ أي أشرق ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴾ أي العظائم يعني النار ، ﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ أي لمن شاء أن يقبل النذارة ويهتدي للحق أو يتأخر عنها ويولي ويردها .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ۝ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ۝ بَلْ

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣١٢) وابن ماجه في السنن (٤١٩٠) وأحمد في مسنده (١٧٣/٥) والحاكم في المستدرك (٥١٠/٢) .
(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٥١/١) والهندي في كنز العمال (٢٨٩٣٩) والألباني في الصحيحة (١٠٥٩) .
(٣) أورده الهندي في كنز العمال (٢٩٨٣٦) .

يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ .

يقول تعالى مخبرًا أن ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ أي : معتقلة ، بعملها يوم القيامة . ﴿ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾ فإنهم ﴿ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : يسألون المجرمين وهم في الغرفات وأولئك في الدركات قائلين لهم ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴾ أي : ما عبدنا ربنا ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا . ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴾ أي : نتكلم فيما لا نعلم . وقال قتادة : كلما غوى غاو غوينا معه ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾ يعني الموت كقوله تعالى : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ وقال رسول اللَّه ﷺ : « أَمَّا هُوَ - يَعْنِي عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ - فَقَدْ جَاءَهُ اليَقِينُ مِنْ رَبِّهِ » (١) قال تعالى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ أي من كان متصفًا بمثل هذه الصفات فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه ، لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلًا فأما من وافى اللَّه كافرًا يوم القيامة فإن له النار لا محالة خالدًا فيها ، ثم قال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ أي فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك عما تدعوهم إليه وتذكرهم به معرضين ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴾ أي كأنهم في نفارهم عن الحق وإعراضهم عنه حمر من حمر الوحش إذا فرت ممن يريد صيدها من أسد ، وقال ابن عبّاس : الأسد بالعربية ، ويقال له بالحبشية : قسورة ، وبالفارسية : شير ، وبالنبطية : أوبا . وقوله تعالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾ أي بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاب كما أنزل على النبيّ ﷺ وفي رواية عن قتادة يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل فقوله تعالى : ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ أي : إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها وتكذيبهم بوقوعها .

ثم قال تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴾ أي : حقًّا إن القرآن تذكرة ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ أي هو أهل أن يخاف منه وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأناب . وعن أنس بن مالك ﷺ قال : قرأ رسول اللَّه ﷺ هذه الآية ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ وقال : « قَالَ رَبُّكُمْ أَنَا أَهْلٌ أَن أُتَّقَى ، فَلَا يُجْعَلُ مَعِي إِلَهٌ فَمَنِ اتَّقَى أَنْ يَجْعَلَ مَعِي إِلَهًا كَانَ أَهْلًا أَنْ أَغْفِرَ لَهُ » (٢) .

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٤٣) والبغوي في شرح السنة (٢٤٣/١٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٢/٣) والدارمي في السنن (٣٠٣/٢) .

سورة القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ .

قد تقدم غير مرة أن المقسم عليه إذا كان منتفيًا جاز الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفي . والمقسم عليه ههنا هو إثبات المعاد والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بعث الأجساد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ قال الحسن : أَقْسَمَ بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة ، وقال قتادة : بل أقسم بهما جميعًا ، وعن الحسن والأعرج أنهما قرآ - لأقسم بيوم القيامة (١) - وهذا يوجه قول الحسن ؛ لأنه أثبت القسم بيوم القيامة ونفى القسم بالنفس اللوامة ، والصحيح أنه أقسم بهما جميعًا معًا ، فأما يوم القيامة فمعروف ، وأما النفس اللوامة ، قال الحسن البصري في هذه الآية : إن المؤمن والله ما نراه إلَّا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتي ، ما أردت بأكلتي ، ما أردت بحديث نفسي ، وإن الفاجر يمضي قدمًا قدمًا ما يعاتب نفسه ، وعن جويبر عن الحسن البصري قال : ليس أحد من أهل السموات والأرضين إلا يلوم نفسه يوم القيامة . وقال عكرمة : يلوم على الخير والشر لو فعلت كذا وكذا ، وقال سعيد بن جبير : تلوم على الخير والشر ، وقال مجاهد : تندم على ما فات وتلوم عليه ، وقال ابن عبّاس : ﴿ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ المذمومة ، وقال قتادة : ﴿ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ الفاجرة . قال ابن جرير : وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى ، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر وتندم على ما فات .

وقوله تعالى : ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾ ؟ أي يوم القيامة أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾ قال ابن عبّاس : أن نجعله خفًّا أو حافرًا . ووجهه ابن جرير : بأنه تعالى لو شاء لجعل ذلك في الدنيا ، والظاهر من الآية أن قوله تعالى : ﴿ قَٰدِرِينَ ﴾ حال من قوله تعالى : ﴿ نَّجۡمَعَ ﴾ أي أيظن الإنسان أنا لا نجمع عظامه ؟ بلى سنجمعها . قادرين على أن نسوي بنانه ، أي قدرتنا صالحة لجمعها ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان فنجعل بنانه وهي أطراف أصابعه مستوية . وقوله : ﴿ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ﴾ قال ابن عباس : يعني يمضي قدمًا ، ويقال : هو الكفر بالحق بين يدي القيامة . وقيل : ليمضي أمامه راكبًا رأسه ، وقيل : لا يلقى ابن آدم إلَّا تنزع نفسه إلى معصية الله قدمًا قدمًا إلَّا من عصمه الله تعالى ، وروي أنه هو الذي يعجل الذنوب ويسوِّف التوبة وقيل : هو الكافر يكذب بيوم الحساب ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ أي يقول : متى يكون يوم القيامة وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه وتكذيب لوجوده . ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ﴾ قرأ أبو عمرو بن العلاء : برِق بكسر الراء أي حار . وقرأ آخرون برَق بالفتح وهو قريب في

(١) قرأ ابن كثير ﴿ لأقسم ﴾ وقرأ الباقون (لا أقسم) . انظر حجة القراءات ص ٧٣٥ .

المعنى من الأول [(١)] ، والمقصود أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخشع وتحار وتذل من شدة الأهوال ومن عظم ما نشاهده يوم القيامة من الأمور . وقوله تعالى : ﴿ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴾ أي ذهب ضوءه ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ قال مجاهد : كورًا ، وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾ أي إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة حينئذ يريد أن يفر ويقول : أين المفر أي هل من ملجأ أو موئل . قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ قال ابن مسعود وابن عبّاس وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف : أي لا نجاة ، ﴿ لَا وَزَرَ ﴾ أي ليس لكم مكان تعتصمون فيه . ولهذا قال : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ أي المرجع والمصير . ثم قال تعالى : ﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ أي يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها ، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها ، وهكذا قال ههنا : ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ أي هو شهيد على نفسه عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر ، وقال ابن عبّاس : سمعه وبصره ويديه ورجليه وجوارحه . وقال قتادة : شاهد على نفسه . وفي رواية قال : إذا شئت والله رأيته بصيرًا بعيوب الناس وذنوبهم غافلًا عن ذنوبه وكان يقال : إن في الإنجيل مكتوبًا يا ابن آدم تبصر القذاة في عين أخيك ، وتترك الجذع في عينك لا تبصره .

وقال مجاهد : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ ولو جادل عنها فهو بصير عليها . وقال قتادة : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه . وقال السدي : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ حجته . وقال قتادة عن ابن عبّاس : لو ألقى ثيابه . وقال الضحّاك : ولو ألقى ستوره ، وأهل اليمن يسمون الستر المعذار . والصحيح قول مجاهد .

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ۝ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ .

هذا تعليم من الله ﷻ لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك فإنه كان يبادر إلى أخذه ويسابق الملك في قراءته فأمره الله ﷻ إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له ، وتكفل الله له أن يجمعه في صدره وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه ، وأن يبيّنه له ويفسره ويوضحه . فالحالة الأولى جمعه في صدره ، والثانية تلاوته ، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾ أي بالقرآن . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ ﴾ أي في صدرك ﴿ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ أي أن تقرأه ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ ﴾ أي إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى ﴿ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ أي فاستمع له ثم اقرأه كما أقرأك ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ أي بعد حفظه وتلاوته نبيّنه لك ونوضحه ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا . وعن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرك شفتيه قال : فقال لي ابن عبّاس : أنا أحرك شفتيَّ كما كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه . وقال لي سعيد : وأنا أحرك شفتي كما رأيت ابن عبّاس يحرك شفتيه فأنزل الله ﷻ ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ قال : جمعه في صدرك ثم تقرأه ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ أي فاستمع له وأنصت ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما

(١) قرأ نافع (فإذا برَق البصرُ) بفتح الراء وقرأ الباقون (برِقَ) بالكسر . انظر حجة القراءات ص ٧٣٦ .

أقرأه [١] . وعن ابن عبّاس ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾ قال : كان لا يفتر من القرآن مخافة أن ينساه فقال اللَّه تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ ﴾ أي : نجمعه لك ﴿ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ أن نقرئك فلا تنسى ، وقال ابن عبّاس وعطية العوفي : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ تبيين حلاله وحرامه وكذا قال قتادة . وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ أي إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزله اللَّه ﷻ على رسوله ﷺ من الوحي الحق والقرآن العظيم إنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة . ثم قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ من النضارة أي حسنة بهية مشرقة مسرورة ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ أي تراه عيانًا كما رواه البخاري : « إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عَيَانًا » [٢] . وقد ثبتت رؤية المؤمنين للَّه ﷻ في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها وعن جرير قال : نظر رسول اللَّه ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال : « إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هذَا القَمَرَ ، فَإِن اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَلَا قَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا » [٣] . وعن أبي موسى قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى اللَّه ﷻ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ » [٤] . وعن صهيب عن النبيّ ﷺ قال : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةِ - قَالَ - يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجَنَّةَ وَتُنْجِنَا مِنَ النَّارِ ؟ فَيُكْشَفُ الحِجَابُ ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ وَهِيَ الزِّيَادَةُ » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [٥] .

وعن جابر « أَنَّ اللَّه يَتَجَلَّى لِلْمُؤْمِنِينَ يَضْحَكُ » . يعني في عرصات القيامة ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم ﷻ في العرصات روضات الجنّات . عن ابن عمر قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً لَيَنْظُرُ فِي مُلْكِهِ أَلْفَي سَنَةٍ يَرَى أقصاه كما يرى أَدْنَاهُ ، يَنْظُرُ إِلَى أَزْوَاجِهِ وَخَدَمِهِ ، وَإِنَّ أَفْضَلَهُم مَنْزِلَةً فِي وَجْهِ اللَّه كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ » [٦] . ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن ، ولكن ذكرنا ذلك مفرقًا في مواضع من هذا التفسير وباللَّه التوفيق ، وهذا بحمد اللَّه مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام . وهداة الأنام ، ومن تأوّل ذلك بأن المراد بإلى مفرد الآلاء وهي النعم ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة ، قال قتادة : كالحة وقال السدي : تغير ألوانها وقال ابن زيد ﴿ بَاسِرَةٌ ﴾ أي عابسة ﴿ تَظُنُّ ﴾ أي تستيقن ﴿ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ قال مجاهد : داهية ، وقال قتادة : شر . وقال السدي : تستيقن أنها

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٣/١) وبنحوه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٢٨) .
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٣٥) . (٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٥١) .
(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٧٨) .
(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٧) والحاكم في المستدرك (٨٢/١) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٦٤/٢) والترمذي في السنن (٣٣٣٠) .

هالكة وقال ابن زيد : تظن أن ستدخل النار .

﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ۝ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ۝ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ .

يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال ثبتنا الله هنالك بالقول الثابت فقال تعالى : ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴾ إن جعلنا كلًا رادعة فمعناها لست يا ابن آدم هناك تكذب بما أخبرت به ، بل صار ذلك عندك عيانًا ، وإن جعلناها بمعنى حقًا فظاهر أي حقًا إذا بلغت التراقي ، أي انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك ، والتراقي جمع ترقوة وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق ﴿ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴾ أي من راق يرقى ، وقيل : من طبيب شاف عن ابن عبّاس : ﴿ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴾ قيل من يرقى بروحه ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ فعلى هذا يكون من كلام الملائكة ، وعنه في قوله ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ قال : التفت عليه الدنيا والآخرة وعنه يقول : آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة فتلتقي الشدة بالشدة إلَّا من رحمه الله . وقال عكرمة : ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ الأمر العظيم بالأمر العظيم ، وقال مجاهد : بلاء ببلاء ، وقال الحسن البصري : هما ساقاك إذا التفتا ، وقيل : هو لفهما في الكفن ، وقال الضحاك : ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ اجتمع عليه أمران : الناس يجهزون جسده ، والملائكة يجهزون روحه وقوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ أي المرجع والمآب ، وذلك أن الروح ترفع إلى السموات فيقول الله عز وجل : ردوا عبدي إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى .

وقوله جلَّ وعلا : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ هذا إخبار عن الكافر الذي كان في الدار الدنيا مكذبًا للحق بقلبه متوليًا عن العمل بقالبه فلا خير فيه باطنًا ولا ظاهرًا ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴾ أي جذلان أشرًا بطرًا كسلانًا لا همة له ولا عمل . عن ابن عبّاس ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴾ أي : يختال . وقال قتادة وزيد بن أسلم : يتبختر قال الله تعالى : ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴾ وهذا تهديد ووعيد أكيد من الله تعالى للكافر به المتبختر في مشيه أي يحق لك أن تمشي هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك ، كما يقال في مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد كقوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ .

وعن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴾ ؟ قال : قاله رسول الله ﷺ لأبي جهل ثم أنزله الله عز وجل ، وقوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ . يعني لا يبعث وقيل : يعني لا يؤمر ولا ينهى ، والظاهر أن الآية تعم الحالين ، أي ليس يترك في هذه الدنيا مهملًا لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك في قبره سدى لا يبعث ، بل هو مأمور منهي في الدنيا محشور إلى الله في الدار الآخرة ، والمقصود هنا إثبات المعاد والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد ، ولهذا قال تعالى مستدلًا على الإعادة بالبداءة فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴾ أي : أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين ﴿ يُمْنَىٰ ﴾ يراق من الأصلاب في الأرحام . ﴿ ثُمَّ

كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ أي فصار علقة ثم شُكِّل ونفخ فيه الروح فصار خلقًا آخر سويًّا سليم الأعضاء ذكرًا أو أنثى بإذن الله وتقديره . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي أما هذا الذي أنشأ هذا الخلق السوي من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه . وتناول القدرة للإعادة إما بطريق الأولى بالنسبة إلى البداءة وإما مساوية على القولين في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ والأول أشهر . وعن موسى بن أبي عائشة قال : كان رجل يصلي فوق بيته فكان إذا قرأ ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ قال : سبحانك فبلى . فسألوه عن ذلك فقال : سمعته من رسول الله ﷺ . ، وعن أبي هريرة : قال قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَرَأَ مِنْكُمْ بِالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ فَانْتَهَى إِلى آخِرِهَا ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ فَلْيَقُلْ : بَلَى وَأَنَا عَلَى ذٰلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ، وَمَنْ قَرَأَ ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ فَانْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ فَلْيَقُلْ : بَلَى ، وَمَنْ قَرَأَ : ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ ﴾ فَبَلَغَ ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ فَلْيَقُلْ : آمَنَّا بِاللَّهِ » [١] وعن قتادة قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ﴾ ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأها قال : « سُبْحَانَكَ وَبَلَى » [٢] .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢/٣١٠) والبغوي في شرح السنة (٣/١٠٤) .

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٨/٣٦٣) وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد .

سورة الإنسان

عن ابن عبّاس أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿ الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ﴾ السجدة و ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ ﴾ (١) .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئًا يذكر لحقارته وضعفه ، فقال تعالى : ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾ ثم بيَّن ذلك فقال ﷻ : ﴿ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ ﴾ أي أخلاط ، والمشج والمشيج : الشيء المختلط بعضه في بعض ، قال ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ ﴾ يعني ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا ، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور وحال إلى حال ولون إلى لون . وقوله تعالى ﴿ نَّبۡتَلِيهِ ﴾ أي نختبره ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴾ أي جعلنا له سمعًا وبصرًا يتمكن بهما من الطاعة والمعصية ، وقوله جل وعلا : ﴿ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ أي بيناه له ووضحناه وبصرناه به . كقوله ﴿ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴾ أي بينّا له طريق الخير وطريق الشر . وقيل خروجه من الرحم وهذا قول غريب ، والصحيح المشهور الأول . وقوله تعالى : ﴿ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ منصوب على الحال من الهاء في قوله : ﴿ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ تقديره فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد ، فعن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا أَوْ مُعْتِقُهَا » (٢) .

وعن جابر بن عبد الله أن النبيّ ﷺ قال لكعب بن عجرة : « أَعَاذَكَ اللَّه مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ » . قال : وما إمارة السفهاء ؟ قال : « أُمَرَاءُ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِي لَا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ ، وَلَا يَسْتَنُّون بِسنَّتِي فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَأُولئِكَ لَيْسُوا مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُمْ وَلَا يَرِدُونَ عَلَيَّ حَوْضِي ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بكذبهم وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَأُولئِكَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ ، وَسَيَرِدُونَ عَلَيَّ حوضي يَا كَعْبُ بْنُ عجرَة : الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِيءُ الخَطِيئَةَ ، وَالصَّلَاةُ قُرُبَاتٌ - أَو قال بُرْهَانٌ - يَا كَعْبُ بْنَ عجرَة إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِن سُحْتٍ ، النَّارُ أَوْلَى بِهِ ، يَا كَعْبُ : النَّاسُ غَادِيَانِ فَمُبْتَاعٌ نَفْسَه فَمُعْتِقُها ، وَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا » (٣) .

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبيّ ﷺ قال : « مَا مِنْ خَارِجٍ يَخْرُجُ إِلَّا بِبَابِهِ رَايَتَانِ ، رَايَةٌ بِيَدِ مَلَكٍ وَرَايَةٌ بِيَدِ شَيْطَانٍ ، فَإِنْ خَرَجَ لِمَا يُحِبُّ اللَّه اتَّبَعَهُ المَلَكُ برايته ، فَلَمْ يَزَلْ تَحْتَ رَايَةِ المَلَكِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ ؛ وَإِنْ خَرَجَ لما يُسْخِطُ اللَّه اتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ بِرَايَتِهِ ، فَلَمْ يَزَلْ تَحْتَ رَايَةِ الشَّيْطَانِ حتى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ » (٤) .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٨٢١) وأحمد في مسنده (٣٣٤/١) والبيهقي في السنن (٢٠٠/٣) .
(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (١) والترمذي في السنن (٣٥١٧) وابن ماجه في السنن (٢٨٠) وأحمد في مسنده (٣٤٣/٥) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢١/٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (١٩٤/٣) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٣/٢) وابن خزيمة في صحيحه (١٩٣) .

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ .

يخبر تعالى عما أرصده للكافرين من خلقه به من السلاسل والأغلال والسعير وهو اللهب والحريق في نار جهنم ولما ذكر ما أعده لهؤلاء الأشقياء من السعير قال بعده : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ وقد علم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاذة في الجنّة . قال الحسن : برد الكافور في طيب الزنجبيل ؛ ولهذا قال : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أي هذا الذي مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد اللَّه صرفًا بلا مزج ويروون بها ؛ ولهذا ضمّن يشرب معنى يروي حتى عداه بالباء ونصب عينًا على التمييز ، قال بعضهم هذا الشراب في طيبه كالكافور ، وقال بعضهم : هو من عين كافور ، وقال بعضهم : يجوز أن يكون منصوبًا بيشرب ، حكى هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير . وقوله تعالى : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أي يتصرفون فيها حيث شاءوا وأين شاءوا قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم ، والتفجير هو الإنباع ، وقال مجاهد : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ يقودونها حيث شاءوا ، وقال الثوري : يصرفونها حيث شاءوا ، وقوله تعالى : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ أي يتعبدون للّه فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر . عن عائشة رضي الله عنها أن رسول اللَّه ﷺ قال : « مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّه فَلْيُطِعْهُ ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّه فَلَا يَعْصِهِ »(١) . ويتركون المحرمات التي نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد ، وهو اليوم الذي يكون شره مستطيرًا ، أي منتشرًا عامًّا على الناس إلا من رحم اللَّه ، قال ابن عباس : فاشيًا ، وقال قتادة : استطار واللَّه شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض ، وقوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ قيل على حب اللَّه تعالى ، وجعلوا الضمير عائدًا إلى اللَّه عز وجل لدلالة السياق عليه ، والأظهر أن الضمير عائد على الطعام أي ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له ، عن نافع قال : مرض ابن عمر فاشتهى عنبًا أول ما جاء العنب ، فأرسلت صفية يعني امرأته فاشترت عنقودًا بدرهم فاتبع الرسولَ سائلٌ فلما دخل به قال السائل : السائل ، فقال ابن عمر : أعطوه إياه ، فأرسلَت بدرهم آخر فاشترت عنقودًا فاتبع الرسول السائل فلما دخل قال السائل : السائل فقال ابن عمر : أعطوه إياه ، فأعطوه إياه ، فأرسلَت صفية إلى السائل فقالت : واللَّه إن عدت لا تصيب منه خيرًا أبدًا ، ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به(٢) . وفي الصحيح : « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَأْمُلُ الغِنَى وَتَخْشَى الفَقْرَ »(٣) . أي في حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ أما المسكين واليتيم فقد

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن(٣٢٨٩) والترمذي في السنن(١٥٢٦) وأحمد في مسنده(٤١/٦) .
(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى(١٨٥/٤) . (٣) أخرجه مسلم في الزكاة(٩٢) .

تقدم بيانهما وصفتهما ، وأما الأسير فقال سعيد بن جبير والحسن والضحّاك : الأسير من أهل القبلة ، وقال ابن عبّاس : كان أسراؤهم يومئذ مشركين ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء . وقال عكرمة : هم العبيد ، واختاره ابن جرير لعموم الآية للمسلم والمشرك ، وقد وصى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء في غير ما حديث حتى أنه كان آخر ما أوصى أن جعل يقول : « الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » (١) . قال مجاهد : هو المحبوس أي يطعمون الطعام لهؤلاء وهم يشتهونه ويحبونه قائلين بلسان الحال ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ أي رجاء ثواب الله ورضاه ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ أي لا نطلب منكم مجازاة تكافئوننا بها ولا أن تشكرونا عند الناس .

قال سعيد بن جبير : أما والله ما قالوه بألسنتهم ولكن علم الله به من قلوبهم فأثنى عليهم به ليرغب في ذلك راغب ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ أي إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه في اليوم العبوس القمطرير . قال ابن عبّاس : عبوسًا ضيقًا ، قمطريرًا طويلًا ، قال ابن جرير : والقمطرير هو الشديد يقال هو يوم قمطرير ويوم قماطر ويوم عصيب وقد اقمطر اليوم يقمطر اقمطرارًا وذلك أشد الأيام وأطولها في البلاء والشدة ومنه قول بعضهم :

بَنِي عَمِّنَا هَلْ تَذْكُرُونَ بَلَاءَنَا ؟ عَلَيْكُمْ إِذَا مَا كَانَ يَوْمٌ قُمَاطِرُ (٢)

قال الله تعالى : ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ وهذا من باب التجانس البليغ ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ ﴾ أي آمنهم مما خافوا منه ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً ﴾ أي في وجوههم ﴿ وَسُرُورًا ﴾ أي في قلوبهم ، وذلك أن القلب إذا سر استنار الوجه ، قال كعب بن مالك في حديثه الطويل وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه (٣) حتى كأنه فلقة قمر ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا ﴾ أي بسبب صبرهم أعطاهم ونولهم وبوّأهم ﴿ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ ، أي منزلًا رحبًا وعيشًا رغدًا ولباسًا حسنًا .

﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل الجنّة وما هم فيه من النعيم المقيم وما أسبغ عليهم من الفضل العظيم فقال تعالى : ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الصافات وذكر الخلاف في الاتكاء هل هو الاضطجاع أو التمرفق أو التربع أو التمكن في الجلوس ، وأن الأرائك هي السرر تحت الحجال وقوله تعالى : ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ أي ليس عندهم حر مزعج ولا برد مؤلم ، هي مزاج واحد دائم سرمدي لا يبغون عنها حولًا ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا ﴾ أي قريبة إليهم أغصانها ﴿ وَذُلِّلَتْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١٧/٣) وابن ماجه في السنن (٢٦٩٧) .
(٢) معاني القرآن للفراء (ص ٣٥١) ، تفسير الطبري (٢٦٢/٢٨) .
(٣) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٦) ومسلم في التوبة (٥٣) والحاكم في المستدرك (٦٠٥/٢) وأحمد في مسنده (٣٩٠/٦) .

قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ أي متى تعاطاه دنا القطف إليه تدلى من أعلى غصنه كأنه سامع طائع ، قال مجاهد : ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ إن قام ارتفعت معه بقدر ، وإن قعد تذللت له حتى ينالها ، وإن اضطجع تذللت له حتى ينالها ، فذلك قوله تعالى ﴿ تَذْلِيلًا ﴾ وقال قتادة : لا يرد أيديهم عنها شوك ولا بعد ، وقال مجاهد أرض الجنة من ورق وترابها المسك ، وأصول شجرها من ذهب وفضة ، وأفنانها من اللؤلؤ الرطب والزبرجد والياقوت والورق ، والثمر بين ذلك فمن أكل منها قائمًا لم تؤذه ، ومن أكل منها قاعدًا لم تؤذه ، ومن أكل منها مضطجعًا لم تؤذه . وقوله جلّت عظمته : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أي يطوف عليهم الخدم بأواني الطعام وهي من فضة وأكواب الشراب وهي الكيزان التي لا عرى لها ولا خراطيم وقوله : ﴿ قَوَارِيرَا ۝ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ ﴾ فالأول منصوب بخبر كان أي كانت قوارير ، والثاني منصوب إما على البدلية أو تمييز ؛ لأنه بيّنه بقوله جل وعلا ﴿ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ ﴾ قيل : بياض الفضة في صفاء الزجاج والقوارير لا تكون إلّا من زجاج ، فهذه الأكواب هي من فضة وهي مع هذا شفافة يرى ما في باطنها من ظواهرها وهذا مما لا نظير له في الدنيا .

وعن ابن عبّاس : ليس في الجنّة شيء إلّا قد أعطيتم في الدنيا شبهه إلّا قوارير من فضة . وقوله تعالى : ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ أي على قدر ريّهم لا تزيد عنه ولا تنقص ، بل هي معدّة لذلك مقدرة بحسب ري صاحبها ، وهذا أبلغ في الاعتناء والشرف والكرامة ، وقال الضحّاك : على قدر كف الخادم وهذا لا ينافي القول الأول فإنها مقدرة في القدر والري .

وقوله تعالى : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾ أي ويسقون : يعني الأبرار أيضًا في هذه الأكواب ﴿ كَأْسًا ﴾ أي خمرًا ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾ فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد ، وتارة بالزنجبيل وهو حار ليعتدل الأمر ، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ، ومن هذا تارة ، وأما المقرّبون فإنهم يشربون من كل منهما صرفًا كما قاله قتادة وغير واحد . وقد تقدم قوله جلّ وعلا : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ وقال ههنا : ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾ أي الزنجبيل عين في الجنّة تسمى سلسبيلًا . قال عكرمة : اسم عين في الجنّة ، وقال مجاهد : سميت بذلك لسلاسة مسيلها وحدة جريها : وقوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ أي يطوف على أهل الجنّة للخدمة ولدان من ولدان الجنة ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أي على حالة واحدة مخلدون عليها لا يتغيرون عنها لا تزيد أعمارهم عن تلك السن ، ومن فسرهم بأنهم مخرصون في آذانهم الأقرطة فإنما عبر عن المعنى بذلك لأن الصغير هو الذي يليق له ذلك دون الكبير .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ أي إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة وكثرتهم وصباحة وجوههم وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم حسبتهم لؤلؤًا منثورًا ، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن . عن عبد اللّه بن عمرو : ما من أهل الجنّة من أحد إلّا يسعى عليه ألف خادم كل خادم على عمل ما عليه صاحبه . وقوله جلّ وعلا : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ﴾ أي وإذا رأيت يا محمّد ﴿ ثَمَّ ﴾ أي هناك يعني في الجنّة ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الحبرة والسرور ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ أي مملكة للّه هنالك عظيمة

وسلطانًا باهرًا . وثبت أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجًا منها وآخر أهل الجنّة دخولًا إليها : إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها . وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً لَمَنْ يَنْظُرُ فِي مُلْكِهِ مَسِيرَةَ أَلْفَي سَنَةٍ يَنْظُرُ إِلَى أَقْصَاهُ كَمَا يَنْظُرُ إِلَى أَدْنَاهُ » (١) .

وقوله ﷻ : ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ أي لباس أهل الجنّة فيها الحرير ومنه سندس وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم ، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان وهو مما يلي الظاهر كما هو المعهود في اللباس ﴿ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ وهذه صفة الأبرار ، وأما المقربون فكما قال تعالى : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلي قال بعده : ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ أي طهّر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة ، كما روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﵁ أنه قال : إذا انتهى أهل الجنّة إلى باب الجنّة وجدوا هنالك عينين فكأنما ألهموا ذلك فشربوا من إحداهما فأذهب الله ما في بطونهم من أذى ثم اغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم ، فأخبر سبحانه وتعالى بحالهم الظاهر وجمالهم الباطن وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ أي يقال لهم ذلك تكريمًا لهم وإحسانًا إليهم . قال تعالى ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ أي جزاكم الله تعالى على القليل بالكثير .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴾ .

يقول تعالى ممتنًا على رسوله ﷺ بما أنزله عليه من القرآن العظيم تنزيلًا ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أي كما أكرمتك بما أنزلت فاصبر على قضائه وقدره واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ أي لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل إليك ، بل بلغ ما أنزل إليك من ربك وتوكل على الله فإن الله يعصمك من الناس ، فالآثم هو الفاجر في أفعاله ، والكفور هو الكافر قلبه . ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي أول النهار وآخره ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ ثم قال تعالى منكرًا على الكفّار ومن أشبههم في حب الدنيا والإقبال عليها والانصباب إليها وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ يعني يوم القيامة ثم قال تعالى : ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وغير واحد : يعني خلقهم ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ أي وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة وبدلناهم فأعدناهم خلقًا جديدًا ، وهذا استدلال بالبداءة على الرجعة ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ﴾ يعني هذه السورة تذكرة ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ أي طريقًا ومسلكًا أي من شاء اهتدى بالقرآن ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/٤٣٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٤٢٠) .

تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ أي لا يقدر أحد أن يهدي نفسه ولا يدخل في الإيمان ولا يجر لنفسه نفعًا ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أي عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له ويقيض له أسبابها ، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى . وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ثم قال : ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴾ أي يهدي من يشاء ويضل من يشاء فمن يهده فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له .

سورة المرسلات

عن عبد الله - هو ابن مسعود - ﷺ قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غار بمنى إذ نزلت عليه ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ ﴾ فإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه وإن فاه لرطب بها إذ وثبت علينا حية ، فقال النبيّ ﷺ : « اقْتُلُوهَا » . فابتدرناها فذهبت . فقال النبيّ ﷺ : « وُقِيَتْ شَرَّكُمْ كَمَا وُقِيتُمْ شَرَّهَا » (١) . وعن ابن عبّاس أن أمّ الفضل سمعته يقرأ ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴾ فقالت : يا بني أذكرتني بقراءتك هذه السورة إنها لآخر ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب (٢) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

عن أبي هريرة ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴾ قال : الملائكة ، وقيل : هي الرسل ، وهكذا قال أبو صالح في العاصفات والناشرات والفارقات والملقيات أنها الملائكة . وعن أبي العبيدين قال : سألت ابن مسعود عن المرسلات عرفًا قال : الريح ، وكذا قال في ﴿ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴾ إنها الريح وكذا قال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة وتوقف ابن جرير في ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴾ هل هي الملائكة إذا أرسلت بالعرف أو كعرف الفرس يتبع بعضهم بعضًا ، أو هي الرياح إذا هبت شيئًا فشيئًا ؟ وقطع بأن العاصفات عصفًا الرياح وقوله تعالى : ﴿ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ يعني الملائكة ولا خلاف ههنا : فإنها تنزل بأمر الله على الرسل تفرق بين الحق والباطل ، والهدى والغي ، والحلال والحرام ، وتلقي إلى الرسل وحيًا فيه إعذار إلى الخلق وإنذار لهم عقاب الله إن خالفوا أمره .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴾ هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام أي ما وعدتم به من قيام الساعة والنفخ في الصور وبعث الأجساد وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد ومجازاة كل عامل بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ، إن هذا كله لواقع ، أي لكائن لا محالة . ثم قال تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ أي ذهب ضوؤها . ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴾ أي انفطرت وانشقت وتدلت أرجاؤها ووهت أطرافها ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ أي ذهب بها فلا يبقى لها عين ولا أثر . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ : جمعت . وقيل : أجلت . وقيل : أوعدت ثم قال تعالى : ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ يقول تعالى لأي يوم أجلت الرسل وأرجىء أمرها حتى تقوم الساعة . ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي ويل لهم من عذاب الله غدًا وقد قدمنا في الحديث أن ويل واد في جهنم ، ولا يصح .

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ۝ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٣٤) ومسلم في السلام (١٣٧) والنسائي في السنن (٢٠٨/٥) وأحمد في مسنده (٤٢٨/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٨/٦) .

مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يعني من المكذبين للرسل المخالفين لما جاؤوهم به ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ أي ممن أشبههم . ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ثم قال تعالى ممتنًا على خلقه ومحتجًا على الإعادة بالبداءة ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ أي ضعيف حقير بالنسبة إلى قدرة الباري ﷻ . ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ يعني جمعناه في الرحم وهو قرار الماء من الرجل والمرأة والرحم معد لذلك حافظ لما أودع فيه من الماء . وقوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ يعني إلى مدة معينة من ستة أشهر أو تسعة أشهر . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴾ قال ابن عبّاس : ﴿ كِفَاتًا ﴾ ، كنًّا . وقال مجاهد : يكفت الميت فلا يرى منه شيء . وقال الشعبي : بطنها لأمواتكم وظهرها لأحيائكم ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ ﴾ يعني الجبال أرسى بها الأرض لئلا تميد وتضطرب ﴿ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴾ أي عذبًا زلالًا من السحاب أو مما أنبعه من عيون الأرض ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها ثم بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره .

﴿ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار أنهم يقال لهم يوم القيامة : ﴿ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴾ يعني لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان ، فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب ﴿ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴾ أي ظل الدخان المقابل للهب ﴿ لَّا ظَلِيلٍ ﴾ هو في نفسه ﴿ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴾ يعني ولا يقيهم حرّ اللهب . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴾ أي يتطاير الشرر من لهبها كالقصر . قال ابن مسعود : كالحصون ، وقال ابن عبّاس وغيره يعني أصول الشجر ﴿ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾ أي كالإبل السود . وقيل يعني حبال السفن ، وقيل قطع نحاس . وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما ﴿ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴾ قال : كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع ، وفوق ذلك فنرفعه للشتاء فنسميه القصر ﴿ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾ حبال السفن تجمع حتى تكون كأوساط الرجال ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ أي لا يتكلمون ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ أي لا يقدرون على كلام ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا ، بل قد قامت عليهم الحجة ، ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ، وعرصات القيامة حالات والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة وعن هذه الحال تارة ليدل على شدة الأهوال والزلازل يومئذ ، ولهذا يقول بعد كل فصل من هذا الكلام ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ وهذه مخاطبة من الخالق تعالى لعباده يقول لهم : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يعني أنه جمعهم بقدرته في صعيد

واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر . وقوله تعالى : ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد أي إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتي وتنجوا من حكمي فافعلوا فإنكم لا تقدرون على ذلك . وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ﴾ وفي الحديث : « يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي »(١) .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عباده المتقين الذين عبدوه بأداء الواجبات ، وترك المحرمات ، إنهم يوم القيامة يكونون في جنات وعيون أي بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من ظل اليحموم وهو الدخان الأسود المنتن ، وقوله تعالى : ﴿ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي ومن سائر أنواع الثمار مهما طلبوا وجدوا ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم . ثم قال تعالى مخبرًا خبرًا مستأنفًا ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾ خطاب للمكذبين بيوم الدين وأمرهم أمر تهديد ووعيد فقال تعالى : ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا ﴾ أي مدة قليلة قصيرة ﴿ إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾ أي ثم تساقون إلى نار جهنم التي تقدم ذكرها ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴾ أي إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن ، فبأي كلام يؤمنون به ؟ .

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٥) .

سورة النبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۞ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۞ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۞ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۞ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۞ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۞ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۞ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۞ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۞ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۞ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۞ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۞ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۞ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۞ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۞ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة إنكارًا لوقوعها ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۞ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ أي عن أي شيء يتساءلون ؟ عن أمر القيامة ، وهو النبأ العظيم ، يعني الخبر الهائل المفظع الباهر . ﴿ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ يعني الناس فيه على قولين : مؤمن به وكافر . ثم قال تعالى متوعدًا لمنكري القيامة ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۞ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد . ثم شرع تبارك وتعالى يبيِّن قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره فقال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴾ أي ممهدة للخلائق ذلولًا لهم قارة ساكنة ثابتة ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ أي جعلها لها أوتادًا أرساها بها وثبتها وقررها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها . ثم قال تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ يعني ذكرًا وأنثى يتمتع كل منهما بالآخر ويحصل التناسل بذلك وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ أي قطعًا للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد والسعي في المعايش في عرض النهار . ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أي يغشى الناس ظلامه وسواده وقيل سكنًا . وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ أي جعلناه مشرقًا نيرًا مضيئًا ليتمكن الناس من التصرف والذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات وغير ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ يعني السموات السبع في اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها وتزيينها بالكواكب الثوابت والسيارات . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ يعني الشمس المنيرة على جميع العالم ، التي يتوهج ضوؤها لأهل الأرض كلهم . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ قال ابن عبّاس : المعصرات : الريح . ومعنى هذا القول أنها تستدر المطر من السحاب ، وقال ابن عبّاس ﴿ مِنَ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ أي من السحاب واختاره ابن جرير ، وقال الفراء : هي السحاب التي تتحلب المطر بعد ، كما يقال امرأة معصر إذا دنا حيضها ولم تحض . قوله جلَّ وعلا : ﴿ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ أي منصبًا وقيل : متتابعًا . وقيل : كثيرًا قال ابن جرير : ولا يعرف في كلام العرب في صفة الكثرة الثج وإنما الثج الصب المتتابع ومنه قول النبيّ ﷺ : « أَفْضَلُ الحَجِّ العَجُّ وَالثَّجُّ » (١) . يعني صب دماء البدن هكذا قال ، قلت وفي حديث المستحاضة حين قال لها رسول اللّه ﷺ : « أَنْعَتُ لَكِ الكرسفَ » (٢) . يعني أن تحتشي بالقطن . فقالت : يا رسول اللّه هو أكثر من ذلك إنما أثج ثجًا . وهذا فيه دلالة على استعمال الثج في الصب المتتابع الكثير ، وقوله تعالى : ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا

---

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/٢٢٤) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (١/٣٨٨) والكُرْسُفُ القطنُ . المعجم الوسيط (٨١٤) .

وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ أي لنخرج بهذا الماء الكثير الطيب النافع المبارك ﴿ حَبًّا ﴾ يدخر للأناسي والأنعام ﴿ وَنَبَاتًا ﴾ أي خضرًا يؤكل رطبًا ﴿ وَجَنَّٰتٍ ﴾ أي بساتين وحدائق من ثمرات متنوعة وألوان مختلفة وطعوم وروائح متفاوتة ، وإن كان ذلك في بقعة واحدة من الأرض مجتمعًا ، ولهذا قال : وجنات ألفافًا ، قال ابن عبّاس وغيره : ألفافًا : مجتمعة .

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن يوم الفصل وهو يوم القيامة أنه مؤقت بأجل معدود لا يزاد عليه ولا ينقص منه ولا يعلم وقته على التعيين إلّا اللّه ﷻ ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ قال مجاهد : زمرًا زمرًا . قال ابن جرير يعني تأتي كل أمة مع رسولها . عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ » . قالوا : أربعون يومًا ؟ قال : « أَبَيْتُ » . قالوا : أربعون شهرًا ؟ قال : « أَبَيْتُ » . قالوا : أربعون سنة ؟ قال : « أَبَيْتُ » قال : « ثُمَّ يُنْزِلُ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاء فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ البَقْلُ لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَةِ » [1] . ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾ أي طرقًا ومسالك لنزول الملائكة ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ وقال ههنا ﴿ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ أي يخيل إلى الناظر أنها شيء وليست بشيء وبعد هذا تذهب بالكلية فلا عين ولا أثر . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ أي مرصدة معدة ﴿ لِّلطَّٰغِينَ ﴾ وهم المردة العصاة المخالفون للرسل ﴿ مَـَٔابًا ﴾ أي مرجعًا ومنقلبًا ومصيرًا ونزلًا .

وقوله تعالى : ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾ أي ماكثين فيها أحقابًا وهي جمع حقب وهو المدة من الزمان ، قال علي بن أبي طالب لهلال الهجري : ما تجدون الحقب في كتاب اللّه المنزل ؟ قال : نجده ثمانين سنة ، لكل سنة اثنا عشر شهرًا ، كل شهر ثلاثون يومًا ، كل يوم ألف سنة . وعن عبد اللّه بن عمرو : الحقب أربعون سنة كل يوم منها كألف سنة مما تعدون . وقال بشير بن كعب : ذكر لي أن الحقب الواحد ثلاثمائة سنة ، كل سنة ثلاثمائة وستون يومًا ، كل يوم منها كألف سنة . عن ابن عمر عن النبيّ ﷺ أنه قال : « وَاللّهِ لَا يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ أَحَدٌ حَتَّى يَمْكُثَ فِيهَا أَحْقَابًا » . قال والحقب بضع وثمانون ، كل سنة ثلاثمائة وستون يومًا مما تعدون [2] وقد قال مقاتل بن حيان إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ وقال خالد بن معدان هذه الآية وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ في أهل التوحيد . ثم قال ويحتمل أن يكون قوله تعالى : ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾ متعلقًا بقوله تعالى : ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ ثم يحدث اللّه لهم بعد ذلك عذابًا من شكل آخر ونوع آخر ثم قال : والصحيح أنها لا انقضاء لها ، وعن سالم سمعت الحسن يسأل عن قوله تعالى ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٣٥) ومسلم في الفتن (١٤١) .
(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٩٥) والبزار في مسنده (٣٥٠٣) .

أَحۡقَابٗا ﴾ قال : أما الأحقاب فليس لها عدة إلَّا الخلود في النار ، ولكن ذكروا أن الحقب سبعون سنة كل يوم منها كألف سنة مما تعدون ، وقال الربيع بن أنس ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴾ لا يعلم عدة هذه الأحقاب إلَّا اللَّه ﷻ ، وذكر لنا أن الحقب الواحد ثمانون سنة ، والسنة ثلاثمائة وستون يومًا كل يوم كألف سنة مما تعدون . وقوله تعالى : ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ﴾ أي لا يجدون في جهنم بردًا لقلوبهم ولا شرابًا طيبًا يتغذون به ولهذا قال تعالى : ﴿ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ﴾ قال أبو العالية استثنى من البرد الحميم ومن الشراب الغساق فأما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حره وحموّه ، والغساق هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم فهو بارد لا يستطاع من برده ولا يواجه من نتنه ، قال ابن جرير : وقيل المراد بقوله : ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا ﴾ يعني النوم كما قال الكندي :

بَرَدَتْ مَرَاشِفُهَا عَلَيَّ فَصَدَّنِي عَنْهَا وَعَنْ قُبُلَاتِهَا الْبَرْدُ

وقوله تعالى : ﴿ جَزَآءٗ وِفَاقًا ﴾ أي هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة وفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ﴾ أي لم يكونوا يعتقدون أن ثم دارًا يجازون فيها ويحاسبون ﴿ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ﴾ أي وكانوا يكذبون بحجج اللَّه ودلائله على خلقه التي أنزلها على رسله صلى اللَّه عليهم وسلم فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة وقوله : ﴿ كِذَّابٗا ﴾ أي تكذيبًا ، وهو مصدر من غير الفعل ، قالوا : وقد سمع أعرابي يستفتي الفراء على المروة : الحلق أحب إليك أو القصار ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ﴾ أي وقد علمنا أعمال العباد كلهم وكتبناهم عليهم وسنجزيهم على ذلك إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ، وقوله تعالى : ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ﴾ أي يقال لأهل النار : ذوقوا ما أنتم فيه فلن نزيدكم إلَّا عذابًا من جنسه وآخر من شكله أزواج . وعن عبد اللَّه بن عمرو قال : لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه الآية ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ﴾ قال : فهم في مزيد من العذاب أبدًا .

﴿ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ۝٣٣ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ۝٣٤ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ۝٣٥ جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن السعداء وما أعد اللَّه تعالى لهم من الكرامة والنعيم المقيم فقال تعالى : ﴿ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ قال ابن عبّاس والضحاك : متنزهًا . وقال مجاهد وقتادة : فازوا فنجوا من النار . والأظهر ههنا قول ابن عبّاس ؛ لأنه قال بعده ﴿ حَدَآئِقَ ﴾ والحدائق البساتين من النخيل وغيرها ﴿ وَأَعۡنَٰبٗا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ﴾ أي وحورًا كواعب ، قال ابن عبّاس ومجاهد وغير واحد ﴿ وَكَوَاعِبَ ﴾ أي نواهد ، يعنون أن ثديهن نواهد لم يتدلين ؛ لأنهن أبكار عرب أتراب ، أي في سن واحد ، وعن أبي أمامة أنه سمعه يحدِّث عن النبيّ ﷺ أنه قال : « إِنَّ قُمُصَ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَتَبْدُو مِنْ رضوانِ اللَّه ، وَإِنَّ السَّحَابَةَ لَتَمُرُّ بِهِمْ فَتُنَادِيهِمْ : يا أَهْلَ الجَنَّةِ مَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ أُمْطِرَكُمْ ؟ حَتَّى إِنَّهَا لَتُمْطِرُهُمُ الكَوَاعِبَ الأَتْرَابَ » [1] وقوله تعالى : ﴿ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ﴾ قيل : مملوءة متتابعة . وقيل : صافية ، وقيل : الملأى

---

(١) أورده أبو نعيم في تاريخ أصبهان (١/١٩٥) .

المترعة ، وقيل : هي المتتابعة . وقوله تعالى : ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴾ كقوله : ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ أي ليس فيها كلام لا عار عن الفائدة ولا إثم كذب ، بل هي دار السلام وكل ما فيها سالم من النقص . وقوله : ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ أي هذا الذي ذكرناه جازاهم اللَّه به وأعطاهموه بفضله ومنّه وإحسانه ورحمته ﴿ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ أي كافيًا وافيًا سالمًا كثيرًا ، تقول العرب : أعطاني فأحسبني أي كفاني ومنه حسبي اللَّه أي اللَّه كافيَّ .

﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ .

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وأنه رب السموات والأرض وما فيه وما بينهما وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء ، وقوله تعالى : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ أي لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلَّا بإذنه . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ ﴾ اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا ما هو ؟ على أقوال أحدها : أنهم أرواح بني آدم ، الثاني : هم بنو آدم ، الثالث : أنهم خلق من خلق اللَّه على صور بني آدم وليسوا بملائكة - ولا ببشر وهم يأكلون ويشربون . الرابع : هم جبريل ويستشهد لهذا القول بقوله ﷻ ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ وقال مقاتل بن حيان : الروح هو أشرف الملائكة وأقربهم إلى الرب ﷻ وصاحب الوحي . الخامس : أنه القرآن . والسادس : أنه ملك من الملائكة بقدر جميع المخلوقات ، عن ابن عبّاس قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ ﴾ قال : هو ملك عظيم من أعظم الملائكة خلقًا .

والأشبه عندي واللَّه أعلم أنهم بنو آدم . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ كقوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ وكما ثبت في الصحيح « وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ أي حقًّا ومن الحق لا إله إلَّا اللَّه ، وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي الكائن لا محالة ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾ أي مرجعًا وطريقًا يهتدي إليه ومنهجًا يمر به عليه وقوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ يعني يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريبًا ؛ لأن كل ما هو آت آت ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أي يعرض عليه جميع أعماله خيرها وشرها ، قديمها وحديثها ﴿ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ أي يود الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا ترابًا ولم يكن خلق ولا خرج إلى الوجود ، وذلك حين عاين عذاب اللَّه ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سطرت عليه بأيدي الملائكة السفرة الكرام البررة ، وقيل : إنما يود ذلك حين يحكم اللَّه بين الحيوانات التي كانت في الدنيا فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور حتى إنه ليقتص للشاة الجماء من القرناء ، فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها : كوني ترابًا فتصير ترابًا فعند ذلك يقول الكافر : ﴿ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ أي كنت حيوانًا فأرجع إلى التراب .

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٠٦) ومسلم في الإيمان (٢٩٩) .

سورة النازعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ۝ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ .

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ : الملائكة يعنون حين تنزع أرواح بني آدم فمنهم من تأخذ روحه بعسر فتغرق في نزعها ، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلته من نشاط ، وهو قوله : ﴿ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ عن ابن عبّاس قيل : هي أنفس الكفّار تنزع ثم تغرق في النار . وقيل : الموت ، وقيل : هي النجوم ، وقيل : هي القسي في القتال . والصحيح الأول وعليه الأكثرون . وأما قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾ قيل : هي الملائكة ، وقيل : الموت وقيل : هي النجوم ، وقيل : هي السفن . وقوله تعالى ﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴾ يعني الملائكة ، قال الحسن سبقت إلى الإيمان والتصديق . وقيل : الموت وقيل : هي النجوم وقيل : هي الخيل في سبيل الله .

وقوله تعالى : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ هي : الملائكة تدبر الأمر من السماء إلى الأرض يعني بأمر ربها ﷻ ولم يختلفوا في هذا ، ولم يقطع ابن جرير بالمراد في شيء من ذلك إلّا أنه حكى في المدبرات أمرًا أنها الملائكة ولا أثبت ولا نفى . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ قال ابن عبّاس : هما النفختان الأولى والثانية . وعن مجاهد أما الأولى وهي قوله جل وعلا : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ فكقوله جلّت عظمته ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ الثانية : وهي الرادفة فهي كقوله : ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ عن أُبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ » . فقال رجل : يا رسول الله أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك ؟ قال : « إِذًا يَكْفِيكَ اللَّهُ مَا أَهَمَّكَ مِنْ دُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ قال ابن عبّاس : يعني خائفة . ﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ أي أبصار أصحابها وإنما أضيفت إليها للملابسة أي ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال .

وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ يعني : مشركي قريش ، ومن قال بقولهم في إنكار المعاد يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى الحافرة وهي القبور ، وبعد تمزق أجسادهم وتفتت عظامهم ونخورها . ولهذا : قالوا ﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴾ وقرئ ﴿ نَاخِرَةً ﴾ (٢) أي بالية وهو العظم إذا بلي ودخلت الريح فيه ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ وعن ابن عبّاس وغيره : ﴿ الْحَافِرَةِ ﴾ الحياة بعد الموت ، وقال ابن زيد : الحافرة النار وما أكثر أسماءها ! هي النار والجحيم وسقر وجهنم والهاوية

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٦/٥) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٠٠/٢) .

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر ورويس ﴿ نَاخِرَةً ﴾ بالألف ، والباقون بغير ألف والوجهان عن الدوري عن الكسائي والعمل على الحذف (تقريب النشر ص ١٨٦) .

والحافرة ولظى والحطمة ، وأما قولهم ﴿ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ فقال محمّد بن كعب : قالت قريش : لئن أحيانا اللَّه بعد أن نموت لنخسرن . قال اللَّه تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ أي فإنما هو أمر من اللَّه لا مثنوية فيه ولا تأكيد فإذا الناس قيام ينظرون وهو أن يأمر تعالى إسرافيل فينفخ في الصور نفخة البعث فإذا الأولون والآخرون قيام بين يدي الرب ﷻ ينظرون . قال مجاهد : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ صيحة واحدة . وقال الحسن البصري : زجرة من الغضب . وعن الربيع بن أنس : هي النفخة الآخرة . وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ قال ابن عبّاس : الساهرة الأرض كلها . وقال ابن زيد : الساهرة وجه الأرض . وقال الثوري : أرض الشام ، وقال عثمان بن أبي العاتكة : الساهرة أرض المقدس وهذه أقوال كلها غريبة ، والصحيح أنها الأرض وجهها الأعلى ، وعن سهل بن سعد الساعدي ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ قال : أرض بيضاء عفراء خالية كالخبزة النقي .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ۝ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ۝ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ .

يخبر تعالى رسوله محمدًا ﷺ عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه ابتعثه إلى فرعون ، وأيّده اللَّه بالمعجزات ومع هذا استمر على كفره وطغيانه حتى أخذه اللَّه أخذ عزيز مقتدر ، وكذلك عاقبة من خالفك وكذب بما جئت به . ولهذا قال في آخر القصة : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ فقوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴾ أي : هل سمعت بخبره ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ ﴾ أي كلمه نداء ﴿ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ ﴾ أي المطهر ، ﴿ طُوًى ﴾ وهو اسم الوادى على الصحيح فقال له : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ أي تجبَّر وتمرَّد وعتا ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ أي قل له : هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تزكى به ، وتسلم وتطيع ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أي أدلك إلى عبادة ربك ﴿ فَتَخْشَىٰ ﴾ أي فيصير قلبك خاضعًا له مطيعًا خاشعًا بعد ما كان قاسيًا خبيثًا بعيدًا من الخير ﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴾ يعني فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجة قوية ودليلًا واضحًا على صدق ما جاءه به من عند اللَّه ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴾ أي فكذب بالحق وخالف ما أمره به من الطاعة ، وحاصله أنه كفر قلبه فلم ينفعل لموسى بباطنه ولا بظاهره وعلمه بأن ما جاء به حق لا يلزم منه أنه مؤمن به ؛ لأن المعرفة علم القلب والإيمان عمله وهو الانقياد للحق والخضوع له . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴾ أي في مقابلة الحق بالباطل وهو جمعه السحرةَ ليقابلوا ما جاء به موسى عليه السلام من المعجزات الباهرات ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴾ أي في قومه ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد : وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ بأربعين سنة . قال اللَّه تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴾ أي انتقم اللَّه منه انتقامًا جعله به عبرة ونكالًا لأمثاله من المتمردين في الدنيا وهذا هو الصحيح في الآية معنى أن المراد بقوله ﴿ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴾ أي الدنيا والآخرة وقيل : المراد بذلك كلماته الأولى والثانية ، وقيل : كفره وعصيانه ، والصحيح الذي لا شك فيه الأول ، وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ أي لمن يتعظ وينزجر .

﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ۝

﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ .

يقول تعالى محتجًا على منكري البعث في إعادة الخلق بعد بدئه ﴿ ءَأَنتُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ﴾ يعني بل السماء أشد خلقًا منكم ، وقوله تعالى : ﴿ بَنَاهَا ﴾ فسره بقوله : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ أي جعلها عالية البناء بعيدة الفناء مستوية الأرجاء مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء . وقوله تعالى : ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أي جعل ليلها مظلمًا أسود حالكًا ، ونهارها مضيئًا مشرقًا نيرًا واضحًا ، قال ابن عبّاس : أغطش ليلها أظلمه ، ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أي أنار نهارها . وقوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴾ فسّره بقوله تعالى : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ وقد تقدم في سورة السجدة أن الأرض خلقت قبل خلق السماء ولكن إنما دحيت بعد خلق السماء بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل . عن ابن عبّاس ﴿ دَحَاهَا ﴾ ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى وشقق فيها الأنهار وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام . فذلك قوله : ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ أي قررها وأثبتها وأكدها في أماكنها وهو الحكيم العليم . الرؤوف بخلقه الرحيم .

وعن أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ قال : « لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الأَرْضَ جَعَلَتْ تَمِيدُ فَخَلَقَ الجِبَالَ فَأَلْقَاهَا عَلَيْهَا فَاسْتَقَرَّتْ فَتَعَجَّبَتِ الملَائِكَةُ مِنْ خَلْقِ الجِبَالِ ، فَقَالَتْ : يَا رَبُّ ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الجِبَالَ ؟ قَالَ : نَعَم : الحَدِيدُ . قَالَتْ : يَا رَبُّ فَهل مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الحَدِيدَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، النَّارُ . قَالَتْ : يَا رَبُّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ النَّارِ ؟ قَالَ نَعَمْ ، الماءُ . قَالَتْ : يَا رَبُّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الماءِ ؟ قَالَ : نَعَمْ : الرِّيحُ ، قَالَتْ : يَا رَبُّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أشد مِنَ الرِّيحِ ؟ قَالَ : نَعَمْ : ابْنُ آدمَ يَتَصَدَّقُ بِيَمِينِهِ يُخْفِيهَا عَنْ شِمَالِهِ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ أي دحا الأرض فأنبع عيونها ، وأظهر مكنونها ، وأجرى أنهارها ، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها ، وثبت جبالها لتستقر بأهلها ، كل ذلك متاعًا لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار إلى أن ينتهي الأمد وينقضي الأجل .

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴾ وهو يوم القيامة ، قاله ابن عبّاس سميت بذلك ؛ لأنها تطم على كل أمر هائل مفظع ، ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴾ أي حينئذ يتذكر ابن آدم جميع عمله خيره وشره . ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾ أي أظهرت للناظرين فرآها الناس عيانًا ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴾ أي تمرد وعتا ﴿ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أي قدّمها على أمر دينه وأخراه ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ أي فإن مصيره إلى

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٤/٣) .

الجحيم وإن مطعمه من الزقوم ومشربه من الحميم ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ أي خاف القيام بين يدي الله ﷻ وخاف حكم الله فيه ونهى نفسه عن هواها وردها إلى طاعة مولاها ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ أي منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنّة الفيحاء ثم قال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾ أي ليس عملها إليك ولا إلى أحد من الخلق ، بل مردها ومرجعها إلى الله ﷻ فهو الذي يعلم وقتها على التعيين ؛ ولهذا لما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة قال : « مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ »[1] . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾ أي إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه فمن خشي الله وخاف مقامه ووعيده اتبعك فأفلح ، وأنجح والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك . وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ أي إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مدة الحياة الدنيا حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضحى من يوم ، عن ابن عبّاس ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ أما عشية فما بين الظهر إلى الغروب الشمس ﴿ أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار وقال قتادة : وقت الدنيا في أعين القوم حين عاينوا الآخرة .

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١) وأحمد في مسنده (٤٢٦/٢) .

سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ④ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ⑤ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ⑥ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ⑦ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ⑧ وَهُوَ يَخْشَىٰ ⑨ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ⑩ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ⑪ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ⑫ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ⑬ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ⑭ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ⑮ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ⑯ ﴾ .

ذكر غير واحد من المفسِّرين أن رسول اللَّه ﷺ كان يومًا يخاطب أحد عظماء قريش وقد طمع في إسلامه فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم وكان ممن أسلم قديمًا فجعل يسأل رسول اللَّه ﷺ عن شيء ويلح عليه ، وود النبيّ ﷺ أن لو كف ساعته تلك ؛ ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعًا ورغبة في هدايته . وعبس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه وأقبل على الآخر ، فأنزل اللَّه تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ أي يحصل له زكاة وطهارة في نفسه ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾ أي يحصل له اتعاظ وازدجار عن المحارم ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ⑤ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾ أي أما الغني فأنت تتعرض له لعله يهتدي ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾ أي ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ⑧ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾ أي يقصدك ويؤمك ليهتدي بما تقول له ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ أي تتشاغل ، ومن ههنا أمر اللَّه تعالى رسول اللَّه ﷺ أن لا يخص بالإنذار أحدًا ، بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف والفقير والغني والسادة والعبيد والرجال والنساء والصغار والكبار . ثم اللَّه تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة .

عن عائشة قالت : أنزلت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى أتى إلى رسول اللَّه ﷺ فجعل يقول : أرشدني . قالت : وعند رسول اللَّه ﷺ رجل من عظماء المشركين . قالت : فجعل النبيّ ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول : « أَتَرَى بِمَا أَقُولُ بَأْسًا ؟ » . فيقول : لا ! ففي هذا أنزلت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ وعن هشام بن عروة عن أبيه قال : أنزلت عبس وتولى في ابن أم مكتوم ولم يذكر فيه عن عائشة [١] .

قلت : كذلك هو في الموطأ . وعن عبد اللَّه بن عمر يقول : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « إِنَّ بِلَالًا يُؤَذِّنُ بِلَيْلٍ فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى تَسْمَعُوا أَذَانَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ » [٢] . وهو الأعمى الذي أنزل اللَّه تعالى فيه ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ وكان يؤذن مع بلال ، قال سالم : وكان رجلًا ضرير البصر فلم يك يؤذن حتى يقول له الناس حين ينظرون إلى بزوغ الفجر : أذن . وذكر عروة بن الزبير ومجاهد وغير واحد من السلف والخلف : أنها نزلت في ابن أم مكتوم والمشهور أن اسمه عبد اللَّه ويقال : عمرو واللَّه أعلم ، وقوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ أي هذه السورة أو الوصية بالمساواة بين الناس في إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم ، وقال قتادة والسدي : ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ يعني القرآن ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ أي فمن شاء ذكر اللَّه تعالى في جميع أموره ويحتمل عود الضمير إلى الوحي لدلالة الكلام عليه .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٣١) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦١٧) ومسلم في الصيام (٣٧) والترمذي في السنن (٢٠٣) والنسائي في السنن (٢/١٠) وأحمد في مسنده (٢/٥٧) .

وقوله تعالى : ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ أي هذه السورة أو العظة وكلاهما متلازم بل جميع القرآن ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴾ أي معظمة موقرة ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ أي عالية القدر ﴿ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ أي من الدنس والزيادة والنقص ، وقوله تعالى : ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ : هي الملائكة . وقال وهب بن منبه : هم أصحاب محمّد ﷺ وقال قتادة : هم القراء ، وقال ابن جرير : والصحيح أن السفرة الملائكة ، والسفرة يعني بين الله تعالى وبين خلقه ومنه السفير الذي يسعى بين الناس في الصلح والخير .

وقال البخاري : سفرة : الملائكة ، سفرت أصلحت بينهم وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله تعالى وتأديته كالسفير الذي يصلح بين القوم . وقوله تعالى : ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ أي خلقهم كريم حسن شريف ، وأخلاقهم وأفعالهم بارة وطاهرة كاملة ، ومن ههنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد . عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله : « الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ ، وَالَّذِي يَقْرَؤُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ ، لَهُ أَجْرَانِ » (١) .

﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۝ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۝ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۝ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ۝ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ۝ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ .

يقول تعالى ذامًّا لمن أنكر البعث والنشور من بني آدم ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ قال الضحاك عن ابن عبّاس ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ ﴾ لعن الإنسان ، وهذا لجنس الإنسان المكذب لكثرة تكذيبه بلا مستند بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم ، قال ابن جريج ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ أي ما أشد كفره ، وقال ابن جرير : ويحتمل أن يكون المراد أي شيء جعله كافرًا أي ما حمله على التكذيب بالمعاد . وقال قتادة : ما ألعنه ، ثم بيَّن تعالى له كيف خلقه من الشيء الحقير وأنه قادر على إعادته كما بدأه فقال تعالى : ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ أي قدَّر أجله ورزقه وعمله وشقي أو سعيد ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ قال ابن عبّاس ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه ، واختاره ابن جرير ، وهذا هو الأرجح والله أعلم وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أي أنه بعد خلقه له أماته فأقبره أي جعله ذا قبر ، والعرب تقول : قبرت الرجل إذا ولي ذلك منه ، وأقبره الله ، وعضبت قرن الثور وأعضبه الله وبترت ذنب البعير وأبتره الله ، وطردت عني فلانًا وأطرده الله ، أي جعله طريدًا ، قال الأعشى :

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتًا إِلَى صَدْرِهَا عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرِ

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ أي بعثه بعد موته ومنه يقال : البعث والنشور . وعن أبي هريرة عنه ﷺ قال : « كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجْبُ الذَّنْبِ مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ قال ابن جرير : يقول جل ثناؤه : ﴿ كَلَّا ﴾ ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر من أنه قد أدّى حق الله عليه في نفسه وماله ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ يقول : لم يؤد ما فرض عليه ﷻ من الفرائض لربّه ﷻ . وعن مجاهد : لا يقضي أحد أبدًا كل ما أُفترض

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٣٧) وأحمد في مسنده (٤٨/٦) وأبو داود في السنن (١٤٥٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الفتن (١٤٢) والنسائي في السنن (١١/٤) وابن حبان في صحيحه (٢٥٧٤) .

عليه ، ولم أجد للمتقدمين فيه كلامًا سوى هذا ، والذي يقع لي في معنى ذلك والله أعلم أن المعنى ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ أي بعثه ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ أي لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة ويفرغ القدر من بني آدم ممن كتب الله أن سيوجد منهم ، ويخرج إلى الدنيا ، وقد أمر به تعالى كونًا وقدرًا فإذا تناهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم . روي عن وهب بن منبه قال : قال عزير ﷺ : قال الملك الذي جاءني : فإن القبور هي بطن الأرض ، وإن الأرض هي أم الخلق ، فإذا خلق الله ما أراد أن يخلق وتمت هذه القبور التي مد الله لها انقطعت الدنيا ومات من عليها ولفظت الأرض ما في جوفها وأخرجت القبور ما فيها ، وهذا شبيه بما قلنا من معنى الآية والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب . وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾ فيه امتنان وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعدما كانت عظامًا بالية وترابًا متمزقًا ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴾ أي أنزلناه من السماء على الأرض ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴾ أي أسكناه فيها فيدخل في تخومها وتخلل في أجزاء الحب المودع فيها فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض ﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ فالحب كل ما يذكر من الحبوب ، والعنب معروف ، والقضب هو الفصفصة التي تأكلها الدواب رطبة ويقال لها : القت أيضًا . وقال الحسن البصري : القضب العلف ﴿ وَزَيْتُونًا ﴾ وهو معروف وهو أدم وعصيره أدم ويستصبح به ويدهن به ﴿ وَنَخْلًا ﴾ يؤكل بلحًا وبسرًا ورطبًا وتمرًا أو نيئًا ومطبوخًا ويعتصر منه رب وخل ﴿ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴾ : أي بساتين وقال قتادة : ﴿ غُلْبًا ﴾ نخل غلاظ كرام ، وقال ابن عباس : كل ما التف واجتمع . وقال عنه : الشجر الذي يستظل به ، وقال عكرمة : غلاظ الرقاب ، ألم تر إلى الرجل إذا كان غليظ الرقبة قيل : والله إنه لأغلب ، وأنشد ابن جرير للفرزدق :

عَوَى فَأَثَارَ أَغْلَبَ ضَيْغَمِيًّا فَوَيْلُ ابْنِ المَرَاغَةِ مَا اسْتَثَارَا

وقوله تعالى : ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ أما الفاكهة فكل ما يتفكه به من الثمار . وقال ابن عباس : كل ما أكل رطبًا ، والأب ما أنبتت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس ، وهو الحشيش للبهائم . وقال مجاهد وسعيد بن جبير : الأب : الكلأ . وقال الحسن : الأب للبهائم كالفاكهة لبني آدم ، وقال عطاء : كل شيء نبت على وجه الأرض فهو أب ، وعن ابن عبّاس : الأب نبت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس . وعن أنس قال : قرأ عمر بن الخطاب ﷺ ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ فلما أتى هذه الآية ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ قال : قد عرفنا الفاكهة فما الأب ؟ . فقال : لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف . وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه وإلّا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض لقوله ﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ أي عيشة لكم ولأنعامكم في هذه الدار إلى يوم القيامة .

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾ .

قال ابن عبّاس : ﴿ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ اسم من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذره عباده . قال ابن جرير : لعله اسم للنفخة في الصور ، وقال البغوي : ﴿ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ يعني صيحة يوم القيامة سميت بذلك ؛ لأنها

تصخ الأسماع أي تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمها ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾ أي يراهم ويفر منهم يبتعد عنهم ؛ لأن الهول عظيم والخطب جليل ، قال عكرمة : يلقى الرجل زوجته فيقول لها : يا هذه أي بعل كنت لك ؟ فتقول : نعم البعل كنت ، وتثني بخيرٍ ما استطاعت فيقول لها : فإني أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهبيها لي لعلي أنجو مما ترين . فتقول له : ما أيسر ما طلبت ولكن لا أطيق أن أعطيك شيئًا أتخوف مثل الذي تخاف .

قال : وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به ، فيقول : يا بني أي والد كنت لك ؟ فيثني بخير . فيقول له : يا بني إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلي أنجو بها مما ترى . فيقول ولده : يا أبت ما أيسر ما طلبت ولكني أتخوف مثل الذي تتخوف فلا أستطيع أن أعطيك شيئًا . يقول اللَّه تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾ . وفي الحديث الصحيح في أمر الشفاعة أنه إذا طلب إلى كل من أولي العزم أن يشفع عند اللَّه في الخلائق يقول : نفسي نفسي ، لا أسألك اليوم إلَّا نفسي ، حتى إن عيسى ابن مريم يقول : لا أسأله اليوم إلَّا نفسي لا أسأله مريم التي ولدتني ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾ قال قتادة : الأحب فالأحب والأقرب فالأقرب : من هول ذلك اليوم . وقوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ أي هو في شغل شاغل عن غيره ، عن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ قال : « تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا » . فقالت امرأة : أيبصر أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال : « يَا فُلَانَةُ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » [1] .
عن عائشة أن رسول اللَّه ﷺ قال : « يُبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا » . فقالت عائشة : يا رسول اللَّه فكيف بالعورات ؟ فقال : « لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » [2] . وقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أي يكون الناس هنالك فريقين وجوه مسفرة أي مستنيرة ﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أي مسرورة فرحة من السرور في قلوبهم ، قد ظهر البشر على وجوههم وهؤلاء هم أهل الجنّة ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أي يعلوها وتغشاها قترة أي سواد ، قال رسول اللَّه ﷺ : « يَلْجُمُ الكَافِرَ العَرَقُ ثُمَّ تَقَعُ الغَبَرَةُ عَلَى وُجُوهِهِمْ » قال فهو قوله تعالى : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أي يغشاها سواد الوجوه وقوله تعالى : ﴿ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾ أي الكفرة قلوبهم الفجرة في أعمالهم .

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٧) والترمذي في السنن (٣٣٣٢) والحاكم في المستدرك (٢/٢٥١) .
(٢) أخرجه النسائي في السنن (٤/١١٤) والحاكم في المستدرك (٤/٥٦٤) .

سورة التكوير

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ »(١) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ .

عن ابن عبّاس ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ : يعني أظلمت . وقال العوفي : ذهبت . وقال مجاهد : اضمحلت وذهبت . وقال الضحاك : ذهب ضوؤها . وقال الربيع : رمي بها . قال ابن جرير : والصواب من القول عندنا في ذلك أن التكوير جمع الشيء بعضه على بعض ، ومنه تكوير العمامة وجمع الثياب بعضها إلى بعض . فمعنى قوله تعالى ﴿ كُوِّرَتْ ﴾ جمع بعضها إلى بعض ثم لفت فرُميَ بها ، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوؤها . وعن ابن عبّاس : إذا الشمس كورت قال : يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر ويبعث الله ريحًا دبورًا فتضرمها نارًا . وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ : « الشَّمْسُ وَالقَمَرُ يُكَوَّرَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ »(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾ أي انتثرت كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾ وأصل الانكدار الانصباب . عن أُبيّ بن كعب قال : ست آيات قبل يوم القيامة ، بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت ففزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن ، واختلطت الدواب والطير والوحوش فماجوا بعضهم في بعض ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ قال : اختلطت ﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ قال : أهملها أهلها ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ قال : قالت الجن : نحن نأتيكم بالخبر . قال : فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تتأجج ، قال : فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا ، قال : فبينما هم كذلك إذا جاءتهم الريح فأماتتهم . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ أي زالت عن أماكنها ونسفت فتركت الأرض قاعًا صفصفًا .

وقوله : ﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ تركت وسيّبت وقال أبي بن كعب : أهملها أهلها . وقال الربيع ابن خيثم : لم تحلب ولم تصر تخلى منها أربابها . وقال الضحاك : تركت لا راعي لها ، والمعنى في هذا كله متقارب ، والمقصود أن العشار من الإبل وهي خيارها والحوامل منها التي قد وصلت في حملها إلى الشهر العاشر - واحدتها عشراء . ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع - قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها بعد ما كانوا أرغب شيء فيها ، بما دهمهم من الأمر العظيم المفظع

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦/٢) والترمذي في السنن (٣٣٣٣) والألباني في الصحيحة (١٠٨١) .
(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٤) .

الهائل وهو أمر يوم القيامة وانعقاد أسبابها ووقوع مقدماتها ، وقيل بل يكون ذلك يوم القيامة يراها أصحابها كذلك لا سبيل لهم إليها ، وقد قيل في العشار : إنها السحاب تعطل عن المسير بين السماء والأرض لخراب الدنيا وقيل إنها الأرض التي تعشر ، وقيل : إنها الديار التي كانت تسكن تعطلت لذهاب أهلها . حكى هذه الأقوال كلها الإمام أبو عبد الله القرطبي في كتابه التذكرة ، ورجح أنها الإبل وعزاه إلى أكثر الناس . قلت : لا يعرف عن السلف والأئمة سواه . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ أي جمعت . قال ابن عبّاس : يحشر كل شيء حتى الذباب . وكذا قال قتادة في تفسير هذه الآية : إن هذه الخلائق موافية فيقضي الله فيها ما يشاء ، وقال عكرمة : حشرها موتها . وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ قال : حشر البهائم موتها وحشر كل شيء الموت غير الجن والإنس ، فإنهما يوقفان يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ قال علي ﷺ لرجل من اليهود : أين جهنم ؟ قال : البحر . فقال : ما أراه إلّا صادقًا ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ . ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ . وقال مجاهد والحسن بن مسلم : سجرت أوقدت . وقال الحسن : يبست . وقال قتادة : غاض ماؤها فذهب فلم يبق فيها قطرة . وقال السدي : فتحت وصيرت . وقال الربيع بن خيثم : سجرت فاضت . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ أي جمع كل شكل إلى نظيره ، عن النعمان بن بشير أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ - قال - الضُّرَبَاءُ كُلُّ رَجُلٍ مَعَ كُلِّ قَوْمٍ كَانُوا يَعْمَلُونَ عَمَلَهُ »[1] . وذلك بأن الله ﷻ يقول : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ . قال : هم الضرباء ، عن النعمان قال : سئل عمر عن قوله تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قال : يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح ، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار ، فذلك تزويج الأنفس . وعن مجاهد ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قال : الأمثال من الناس جمع بينهم . واختاره ابن جرير وهو الصحيح .

قول آخر في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ عن ابن عبّاس قال : يسيل واد من أصل العرش من ماء فيما بين الصيحتين ومقدار ما بينهما أربعون عامًا ، فينبت منه كل خلق بلي من الإنسان أو طير أو دابة ، ولو مر عليهم مارٌّ قد عرفهم قبل ذلك لعرفهم على وجه الأرض قد نبتوا ثم ترسل الأرواح فتزوج الأجساد فذلك قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ وقيل : زوج المؤمنون بالحور العين وزوج الكافرون بالشياطين . حكاه القرطبي في التذكرة . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ الموءودة هي التي كان أهل الجاهلية يدسونها في التراب كراهية البنات ، فيوم القيامة تسأل الموءودة على أي ذنب قتلت ليكون ذلك تهديدًا لقاتلها فإنه إذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذًا ؟ وقد وردت أحاديث تتعلق بالموءودة ، فعن عائشة عن جذامة بنت وهب أخت عكاشة قالت : حضرت رسول الله ﷺ في ناس وهو يقول : « لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنِ الغيلَةِ فَنَظَرْتُ فِي الرُّومِ وَفَارِسَ فَإِذَا هُمْ يُغِيلُونَ أَوْلَادَهُمْ وَلَا يَضُرُّ أَوْلَادَهُمْ ذلِكَ شَيْئًا » . ثم سألوه عن العزل فقال رسول الله

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٥٤/٦) والطبري في تفسيره (٨٨/٢٩) .

ﷺ : « ذلِكَ الوَأْدُ الخَفِيُّ وَهُوَ المَوْءُودَةُ سُئِلَتْ »[(١)] . وعن سلمة بن يزيد الجعفي قال : انطلقت أنا وأخي إلى رسول الله ﷺ فقلنا : يا رسول الله إن أمنا مليكة كانت تصل الرحم وتقري الضيف وتفعل ، هلكت في الجاهلية فهل ذلك نافعها شيئًا ! قال : « لَا » قلنا : فإنها كانت وأدت أختًا لنا في الجاهلية فهل ذلك نافعها شيئًا قال : « الوَائِدَةُ وَالمَوْءُودَةُ فِي النَّارِ إِلَّا أَنْ يُدْرِكَ الوَائِدَةَ الإِسْلَامُ فَيَعْفُوَ اللّٰهُ عَنْهَا »[(٢)] قال ابن عبّاس : أطفال المشركين في الجنّة فمن زعم أنهم في النار فقد كذب . يقول الله تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ قال ابن عبّاس : هي المدفونة . وعن عمر بن الخطاب في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴾ قال : جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني وأدت بنات لي في الجاهلية قال : « أَعْتِقْ عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ رَقَبَةً » قال يا رسول الله : إني صاحب إبل قال : « فَانْحَرْ عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ بَدَنَةً »[(٣)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ قال الضحّاك : أعطي كل إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله . وقال قتادة : يا ابن آدم تملي فيها ثم تطوى ثم تنشر عليك يوم القيامة فلينظر رجل ماذا يملي في صحيفته . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴾ قال مجاهد : اجتذبت ، وقال السدي : كشفت ، وقال الضحّاك تنكشط فتذهب .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ قال السدي : أحميت ، وقال قتادة : أوقدت ، قال : وإنما يسعرها غضب الله وخطايا بني آدم . وقوله : ﴿ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ قال الضحّاك وغيره قربت إلى أهلها ، وقوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ هذا هو الجواب أي إذا وقعت هذه الأمور حينئذ تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها . عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : لما نزلت ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ قال عمر : لما بلغ ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ قال : لهذا أجري الحديث .

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

عن عمرو بن حريث قال : صليت خلف النبيّ ﷺ الصبح فسمعته يقرأ ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ وعن أبي إسحاق عن رجل من مراد عن علي ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ قال : هي النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل . وعن خالد عن علي قال : هي النجوم ، وقال بعض الأئمة : إنما قيل للنجوم : الخنس أي في حال طلوعها ثم هي جوار في فلكها وفي حال غيبوبتها يقال لها كنس . ومن قول العرب : أوى الظبي إلى كناسه إذا تغيب فيه . وقال الأعمش عن إبراهيم قال : قال عبد الله ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴾ قال : بقر الوحش ،

---

(١) أخرجه مسلم في النكاح (١٤١) وأبو داود في السنن (٣٨٨٢) وأحمد في مسنده (٤٣٤/٦) واالترمذي في السنن (٢٠٧٧) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٧٨/٣) .
(٣) أخرجه البيهقي في السنن (١٦/٨) والطبراني في الكبير (٣٣٨/١٨) .

وقال ابن عبّاس : هي الظباء ، وعن إبراهيم ومجاهد أنهما تذاكرا هذه الآية ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴾ فقال إبراهيم لمجاهد : قل فيها بما سمعت ، قال : فقال مجاهد : كنا نسمع فيها شيئًا وناس يقولون إنها النجوم ، قال : فقال إبراهيم : قل فيها بما سمعت ، قال : فقال مجاهد : كنا نسمع أنها بقر الوحش حين تكنس في حجرتها ، قال : فقال إبراهيم : إنهم يكذبون عليّ على هذا ، كما رووا عن علي أنه ضمن الأسفل الأعلى والأعلى الأسفل . وتوقف ابن جرير في المراد بقوله : ﴿ بِٱلۡخُنَّسِ ۝ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴾ هل هو النجوم أو الظباء وبقر الوحش قال : ويحتمل أن يكون الجميع مرادًا ، وقوله تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ فيه قولان أحدهما : إقباله بظلامه ، والثاني : إذا أدبر عن أبي عبد الرَّحمن السلمي قال : خرج علينا علي ﷺ حين ثوّب المثوب بصلاة الصبح فقال : أين السائلون عن الوتر ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ هذا حين أدبر حسن . وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله ﴿ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ إذا أدبر قال لقوله ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أي أضاء واستشهد بقول الشاعر أيضًا :

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهُ تَنَفَّسَا وَانْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسْعَسَا [1]

أي أدبر وعندي أن المراد بقوله ﴿ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ إذا أقبل وإن كان يصح استعماله في الإدبار أيضًا لكن الإقبال ههنا أنسب ، كأنه أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل وبالفجر وضيائه إذا أشرق ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ . وغير ذلك من الآيات ، وقال كثير من علماء الأصول : إن لفظة عسعس تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما والله أعلم . وقال ابن جرير : وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب يزعم أن عسعس دنا من أوله وأظلم ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ قال الضحاك : إذا طلع ، وقال قتادة : إذا أضاء وأقبل . وقال سعيد بن جبير : إذا نشأ وهو المروي عن علي . وقال ابن جرير : يعني ضوء النهار إذا أقبل وتبين . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾ يعني إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم أي ملك شريف حسن الخلق بهي المنظر وهو جبريل عليه الصلاة والسلام . ﴿ ذِي قُوَّةٍ ﴾ أي شديد الخلق شديد البطش والفعل ﴿ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴾ أي له مكانة عند الله ﷻ ومنزلة رفيعة ، قال أبو صالح في قوله تعالى : ﴿ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴾ قال جبريل يدخل في سبعين حجابًا من نور بغير إذن ﴿ مُّطَاعٖ ثَمَّ ﴾ أي له وجاهة وهو مسموع القول مطاع في الملأ الأعلى . قال قتادة : ﴿ مُّطَاعٖ ثَمَّ ﴾ أي في السموات يعني ليس هو من أفناد الملائكة بل هو من السادة والأشراف معتنى به انتخب لهذه الرسالة العظيمة .

وقوله تعالى : ﴿ أَمِينٖ ﴾ صفة لجبريل بالأمانة وهذا عظيم جدًّا أن الرب ﷻ يزكي عبده ورسوله الملكي كما زكى عبده ورسوله البشري محمّدًا ﷺ بقوله تعالى ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴾ يعني محمّدًا ﷺ ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ يعني ولقد رأى محمّد جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله ﷻ على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح ﴿ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ أي البين وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء ، والدليل عليه أن المراد بذلك جبريل عليه السلام ، والظاهر والله أعلم أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء لأنه لم يذكر فيها إلّا هذه الرؤية وهي الأولى ، وأما

(١) البيت من شواهد الفراء في معاني القرآن (ص : ٣٠) والطبري في تفسيره (٢٩/٩٨) .

الثانية وهي المذكورة في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ . فتلك إنما ذكرت في سورة النجم وقد نزلت بعد سورة الإسراء . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بظنين ﴾ أي وما محمّد على ما أنزله الله إليه ﴿ بِضَنِينٍ ﴾ أي بمتهم . ومنهم من قرأ ذلك بالضاد[1] أي ببخيل بل يبذله لكل أحد . قال سفيان بن عيينة : ظنين وضنين سواء أي ما هو بكاذب وما هو بفاجر . والظنين المتهم والضنين البخيل . وقال قتادة : كان القرآن غيبًا فأنزله الله على محمّد فما ضنَّ به على الناس بل نشره وبلَّغه وبذله لكل من أراده ، واختار ابن جرير قراءة الضاد قلت : وكلاهما متواتر ومعناه صحيح كما تقدَّم ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ أي وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم أي لا يقدر على حمله ولا يريده ولا ينبغي له ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ أي فأين تذهب عقولكم في تكذيبهم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه وبيان كونه حقًّا من عند الله ﷻ كما قال الصدِّيق ﷺ لوفد بني حنيفة حين قدموا مسلمين وأمرهم فتلوا عليه شيئًا من قرآن مسيلمة الكذاب الذي هو في غاية الهذيان والركاكة فقال : ويحكم أين تذهب عقولكم ؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إل ، أي من إله ، وقال قتادة : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ أي عن كتاب الله وعن طاعته .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي هذا القرآن ذكر لجميع الناس يتذكرون به ويتعظون ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ أي لمن أراد الهداية فعليه بهذا القرآن فإنه مناجاة له وهداية ، ولا هداية فيما سواه ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي ليست المشيئة موكولة إليكم فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين . عن سليمان بن موسى لما نزلت هذه الآية ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ قال أبو جهل : الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي (بظنين) وقرأ الباقون (بضنين) (حجة القراءات ص ٧٥٢) .

سورة الانفطار

عن جابر قال : قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطوّل فقال النبيّ ﷺ : « أَفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ ؟ أَيْنَ كُنْتَ عَنْ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ، وَالضُّحَى ، وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ! » (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾ أي انشقت ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾ أي تساقطت ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ : فجر الله بعضها في بعض وقال الحسن : فجر الله بعضها في بعض ، فذهب ماؤها . وقال قتادة : اختلط عذبها بمالحها .

﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ قال ابن عباس : بحثت ، وقال السدي : تبعثر تحرك فيخرج من فيها ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ أي إذا كان هذا حصل هذا ، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ هذا تهديد لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب حيث قال الكريم حتى يقول قائلهم غره كرمه بل المعنى في هذه الآية : ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم أي العظيم حتى أقدمت على معصيته وقابلته بما لا يليق وقال قتادة : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ شيء ، ما غرّ ابن آدم غير هذا العدو الشيطان . وقال الفضيل بن عياض : لو قال لي ما غرّك بي لقلت : ستورك المرخاة . وقال أبو بكر الورّاق : لو قال لي ما غرك بربك الكريم لقلت : غرّني كرم الكريم . وقال بعض أهل الإشارة : إنما قال ﴿ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ دون سائر أسمائه وصفاته كأنه لقنه الإجابة ، وهذا الذي تخيله هذا القائل ليس بطائل لأنه إنما أتى باسمه الكريم لينبه على أنه لا ينبغي أن يقابل الكريم بالأفعال القبيحة وأعمال الفجور . وقد حكى البغوي عن الكلبي ومقاتل أنهما قالا : نزلت هذا الآية في الأسود بن شريق ضرب النبيّ ﷺ ولم يعاقب في الحالة الراهنة فأنزل الله تعالى ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ أي ما غرك بالرب الكريم ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ أي جعلك سويًّا مستقيمًا معتدل القامة منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال ، عن بشر ابن جحاش القرشي أن رسول الله ﷺ بصق يومًا في كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال : « قَالَ اللَّهُ ﷻ : يَا ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هذِه ؟ حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ ، وَلِلأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ قُلْتَ أَتَصَدَّقُ وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ ؟ » (٢) . وعن أبي هريرة أن رجلًا قال : يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلامًا أسود ، قال : « هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ ؟ » . قال : نعم ، قال : « فَمَا أَلْوَانُهَا » . قال : حمر . قال : « فَهَلْ فِيهَا مِنْ

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١٧٨) وأحمد في مسنده (٢٩٩/٣) والنسائي في السنن (١٦٨/٢) وابن خزيمة في صحيحه (١٦١١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٠/٤) .

أَوْرَقَ » . قال : نعم ، قال : « فَأَنَّى أَتَاهَا ذلِكَ » . قال : عسى أن يكون نزعه عرق قال : « وَهذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَه عِرْقٌ » (١) ﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ قال عكرمة إن شاء في صورة كلب وإن شاء في صورة حمار وإن شاء في صورة خنزير . ومعنى هذا القول عند هؤلاء أن الله ﷻ قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة الخلق ، ولكن بقدرته ولطفه وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم معتدل تام حسن المنظر والهيئة .

وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴾ أي إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي تكذيب في قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ يعني وإن عليكم لملائكة حفظة كرامًا فلا تقابلوهم بالقبائح فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم .

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ .

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم وهم الذين أطاعوا الله ﷻ ولم يقابلوه بالمعاصي . ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم ولهذا قال : ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ أي يوم الحساب والجزاء والقيامة ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴾ أي لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة ، ولا يخفف عنهم من عذابها ، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ولو يومًا واحدًا ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ تعظيم لشأن يوم القيامة ثم أكده بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ ، ثم فسره بقوله ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ أي لا يقدر أحد على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه إلَّا أنْ يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، ونذكر ههنا حديث : « يَا بَنِي هَاشِم أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّه شَيْئًا » (٢) . ولهذا قال : ﴿ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ قال قتادة ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ والأمر والله اليوم لله ولكنه لا ينازعه فيه يومئذ أحد .

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣١٤) ومسلم في اللعان (١٨) والترمذي في السنن (٢١٢٨) وأحمد في مسنده (٤٠٩/٢) .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٤٨) والنسائي في السنن (٢٤٨/٦) وأحمد في مسنده (٥١٩/٢) .

سورة المطففين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

عن ابن عبّاس قال : لما قدم النبيّ ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلًا فأنزل اللَّه تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ فحسنوا الكيل بعد ذلك [(١)] . وعن عبد اللَّه قال : قال له رجل يا أبا عبد الرحمن إن أهل المدينة ليوفون الكيل قال : وما يمنعهم أن يوفوا الكيل وقد قال اللَّه تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ – حتى بلغ – يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ والمراد بالتطفيف ههنا البخس في المكيال والميزان إما بالازدياد إن اقتضى من الناس وإما بالنقصان إن قضاهم ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك وهو الويل بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ أي من الناس ﴿ يَسْتَوْفُونَ ﴾ أي يأخذون حقهم بالوافي والزائد ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ أي ينقصون ، والأحسن أن يجعل كالوا ووزنوا متعديًا ويكون هم في محل نصب ، ومنهم من يجعلها ضميرًا مؤكدًا للمستتر في قوله كالوا ووزنوا ويحذف المفعول لدلالة الكلام عليه وكلاهما متقارب . وقد أمر اللَّه تعالى بالوفاء في الكيل والميزان فقال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ وأهلك اللَّه قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس في الميزان والمكيال . ثم قال تعالى متوعدًا لهم : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي ما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر في يوم عظيم الهول كثير الفزع جليل الخطب من خسر فيه أدخل نارًا حامية ؟ وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي يقومون حفاة عراة غرلًا في موقف صعب حرج ضيق ضنك على المجرم ويغشاهم من أمر اللَّه تعالى ما تعجز القوى والحواس عنه .

عن ابن عمر أن النبيّ ﷺ قال : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ » [(٢)] .

عن المقداد بن الأسود الكندي قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « إِذَا كَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ أُدْنِيَتَ الشَّمْسُ مِنَ العِبَادِ حَتَّى تَكُونَ قَدْرَ مِيلٍ أَوْ مِيلَيْنِ – قال – فَتَصْهَرُهُمُ الشَّمْسُ فَيَكُونُونَ فِي العَرَقِ كَقَدرِ أَعْمَالِهِمْ ، مِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى عَقِبَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى حَقْوَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ إِلجَامًا » [(٣)] . وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ لبشير الغفاري : « كَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ فِي يَوْمٍ يَقُومُ النَّاسُ فِيهِ ثَلَاثَمائَةِ سَنَةٍ لِرَبِّ العَالَمِينَ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا لَا يَأْتِيهِمْ فِيهِ خَبَرٌ مِنَ السَّمَاءِ وَلَا يُؤْمَرُ فِيهِمْ بِأَمْرٍ ؟ » قال بشير : المستعان اللَّه ، قال : « فَإِذَا أَوَيْتَ إِلَى

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (٤٥٩٠) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٣٨) وأحمد في مسنده (٦٤/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٦) والترمذي في السنن (٢٤٢١) .

فِرَاشِكَ فَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ وَسُوءِ الحِسَابِ »(١) . وعن ابن مسعود : يقومون أربعين سنة رافعي رؤوسهم إلى السماء لا يكلمهم أحد قد ألجم العرق برّهم وفاجرهم ، وعن ابن عمر : يقومون مائة سنة ، وعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يفتتح قيام الليل : يكبّر عشرًا ويحمد عشرًا ، ويسبّح عشرًا ويستغفر عشرًا ويقول : « اللَّهُمَّ اغْفِر لِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي وَعَافِنِي » . ويتعوّذ من ضيق المقام يوم القيامة (٢) .

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ .

يقول تعالى حقًّا ﴿ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ أي أن مصيرهم ومأواهم لفي سجين فعيل من السجن وهو الضيق كما يقال فسيق وشريب وخمير وسكير ونحو ذلك ؛ ولهذا عظم أمره فقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ أي هو أمر عظيم وسجن مقيم وعذاب أليم ، ثم قد قال قائلون : هي تحت الأرض السابعة ، وقد تقدم في حديث البراء بن عازب في حديثه الطويل : يقول الله ﷻ في روح الكافر اكتبوا كتابه في سجين . وسجين هي تحت الأرض السابعة وقيل صخرة تحت السابعة خضراء ، وقيل بئر في جهنم ، وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال : « الفَلَقُ جُبٌّ في جَهَنَّمَ مُغَطًّى وَأَمَّا سِجِّينٌ فَمَفْتُوحٌ » (٣) . والصحيح أن سجينًا مأخوذ من السجن وهو الضيق فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق وكل ما تعالى منها اتسع فإن الأفلاك السبعة كل واحد منها أوسع وأعلى من الذي دونه وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التي دونها حتى ينتهي السفول المطلق والمحل الأضيق إلى المركز في وسط الأرض السابعة ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل السافلين كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ وقال ههنا ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ وهو يجمع الضيق والسفول كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴾ ليس تفسيرًا لقوله : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين أي مرقوم مكتوب مفروغ منه لا يزاد فيه أحد ولا ينقص منه أحد . قاله محمّد بن كعب القرظي .

ثم قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من السجن والعذاب المهين ، وقد تقدم الكلام على قوله ويل بما أغنى عن إعادته وأن المراد من ذلك الهلاك والدمار كما يقال : ويل لفلان ، وكما جاء عن معاوية بن حيدة قال : قال رسول الله ﷺ : « وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ النَّاسَ وَيْلٌ لَهُ » (٤) . ثم قال تعالى مفسرًا للمكذبين الفجار الكفرة ﴿ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ أي لا يصدقون بوقوعه ولا يعتقدون كونه ويستبعدون أمره ، قال الله تعالى :

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٣٢٤/٦) .
(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٣٥٦) وأحمد في مسنده (١٤٣/٦) والنسائي في السنن (٢٨٤/٨) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦١/٣) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٧/٥) والدارمي في السنن (٢٩٦/٢) وأبو داود في السنن (٤٩٩٠) .

﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ أي معتد في أفعاله من تعاطي الحرام والمجاوزة في تناول المباح ، والأثيم في أقواله إن حدث كذب ، وإن وعد أخلف ، وإن خاصم فجر ، وقوله تعالى : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي إذا سمع كلام الله تعالى من الرسول يكذب به ويظن به ظن السوء ، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل . قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا إن هذا القرآن أساطير الأولين بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرين الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ والرين يعتري قلوب الكافرين ، والغيم للأبرار والغين للمقربين . وقد روى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاء في قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغفرَ صقلَ قَلْبُهُ فَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ وَذَاكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي القُرْآنِ ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ »(١) . وقال الحسن البصري هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت . وقوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ أي لهم يوم القيامة منزل ونزل سجين ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم ، قال الإمام أبو عبد الله الشافعي : وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل يومئذ وهذا الذي قاله الإمام الشافعي رحمه الله في غاية الحسن وهو استدلال بمفهوم هذه الآية . كما دل عليه منطوق قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة في رؤية المؤمنين ربهم عز وجل في الدار الآخرة رؤية بالأبصار في عرصات القيامة وفي روضات الجنان الفاخرة . وعن الحسن في قوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ قال : يكشف الحجاب فينظر إليه المؤمنون والكافرون ثم يحجب عنه الكافرون ، وينظر إليه المؤمنون كل يوم غدوة وعشية أو كلامًا هذا معناه ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن من أهل النيران ﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ والتصغير والتحقير .

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

يقول تعالى حقًّا إن كتاب الأبرار وهم بخلاف الفجار ﴿ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ أي مصيرهم إلى عليين وهو بخلاف سجين . عن ابن عبّاس في قوله ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ يعني الجنّة . وفي رواية العوفي عنه : أعمالهم في السماء عند الله ، وقال قتادة : عليون ساق العرش اليمنى ، وقال غيره : عليون عند سدرة المنتهى والظاهر أن عليين مأخوذ من العلو ، وكلما علا الشيء وارتفع عظم واتسع ولهذا قال تعالى معظمًا أمره ومفخمًا شأنه ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ ثم قال تعالى مؤكدًا لما كتب لهم ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ وهم الملائكة . وقال ابن عباس : يشهده من كل سماء مقربوها . ثم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٩٧) .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ أي يوم القيامة هم في نعيم مقيم وجنات فيها فضل عميم ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ وهي السرور تحت الحجاب ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ قيل معناه ينظرون في ملكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذي لا ينقضي ولا يبيد وقيل معناه ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ إلى الله ﷻ ، وهذا مقابل لما وصف به أولئك الفجار ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله ﷻ وهم على سررهم وفرشهم ورد في حديث ابن عمر : « إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً لَمَنْ يَنْظُرُ فِي مُلْكِهِ مَسِيرَةَ أَلْفَي سَنَةٍ يَرَى أَقْصَاهُ كَمَا يَرَى أَدْنَاهُ وَإِنَّ أَعْلاَهُمْ لَمَنْ يَنْظُرُ إِلَى اللَّهِ ﷻ فِي اليَوْمِ مَرَّتَيْنِ » [(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي تعرف إذا نظرت إليهم في وجوههم نضرة النعيم أي صفة الترافة والحشمة والسرور والدعة والرياسة مما هم فيه من النعيم العظيم . وقوله تعالى : ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾ أي يسقون من خمر من الجنّة والرحيق من أسماء الخمر . عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري أراه قد رفعه إلى النبيّ ﷺ قال : « أَيُّمَا مُؤْمِنٍ سَقَى مُؤْمِنًا شَرْبَةَ مَاءٍ عَلَى ظَمَأٍ سَقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الرَّحِيقِ المَخْتُومِ ، وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ أَطْعَمَ مُؤْمِنًا عَلَى جُوعٍ أَطْعَمَهُ اللَّهُ مِنْ ثِمَارِ الجَنَّةِ ، وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ كَسَا مُؤْمِنًا ثوبا على عري كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ خضرِ الجَنَّةِ » [(٢)] . وقال ابن مسعود في قوله : ﴿ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ﴾ أي خلطه مسك ، وقال ابن عبّاس : طيب الله لهم الخمر فكان آخر شيء جعل فيها مسك ختم بمسك ، وقال إبراهيم والحسن : ختامه مسك أي عاقبته مسك وعن أبي الدرداء ﴿ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ﴾ قال : شراب أبيض مثل الفضة يختمون به شرابهم ولو أن رجلًا من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلّا وجد طيبها . وقوله تعالى : ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ أي وفي مثل هذا الحال فليتفاخر المتفاخرون وليتباهى ويكاثر ويستبق إلى مثله المستبقون وقوله تعالى : ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ أي ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم أي من شراب يقال له تسنيم وهو أشرف شراب أهل الجنّة وأعلاه ، ولهذا قال : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ أي يشربها المقربون صرفًا وتمزج لأصحاب اليمين مزجًا قاله ابن مسعود وابن عبّاس ومسروق وقتادة وغيرهم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا في الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين أي يستهزئون بهم ويحتقرونهم ، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم أي محتقرين لهم ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴾ أي وإذا انقلب أي رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم انقلبوا إليها فاكهين أي مهما طلبوا وجدوا ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحتقرونهم ويحسدونهم ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ أي لكونهم على غير دينهم قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴾ أي وما بعث هؤلاء المجرمون حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر منهم من أعمالهم وأقوالهم ولا كلفوا بهم ؟ فلم اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم ؟ ولهذا قال : ﴿ فَٱلْيَوْمَ ﴾ يعني

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣/٣) .

يوم القيامة ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ أي في مقابلة ما ضحك بهم أولئك ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ أي إلى الله ﷻ في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون ليسوا بضالين بل هم من أولياء الله المقربين ينظرون إلى ربهم في دار كرامته . وقوله تعالى : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ أي هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقيص أم لا ، يعني قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله .

سورة الانشقاق

عن أبي رافع قال : صلّيت مع أبي هريرة العتمة فقرأ ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ فسجد فقلت له فقال : سجدت خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه (١) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ أي استمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق وذلك يوم القيامة ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أي وحق لها أن تطيع أمره لأنه العظيم الذي لا يمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شيء وذل له كل شيء ثم قال : ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ أي بسطت وفرشت ووسعت .

عن علي بن الحسين أن النبيّ ﷺ قال : « إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ مَدَّ اللَّه الأَرْضَ مَدَّ الأَدِيمِ حَتَّى لَا يَكُونَ لِبَشَرٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَوْضِعُ قَدَمَيْهِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُدْعَى وَجِبْرِيلُ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمنِ وَاللَّه مَا رَآه قَبْلَهَا فَأَقُولُ يَا رَبِّ إِنَّ هذَا أَخْبَرَنِي أَنَّكَ أَرْسَلْتَهُ إِلَيَّ ، فَيَقُولُ اللَّه ﷻ صَدَقَ ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَأَقُولُ يَا رَبِّ عِبَادُكَ عبدوك فِي أَطْرَافِ الأَرْضِ - قال - وَهُوَ المَقَامُ المَحْمُودُ » (٢) وقوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ أي ألقت ما في بطنها من الأموات وتخلت منهم . وقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ أي إنك ساع إلى ربك سعيًا وعامل عملًا ﴿ فَمُلَٰقِيهِ ﴾ ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر . ويشهد لذلك ما روي عن جابر قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « قَالَ جِبْرِيلُ يَا مُحَمَّدُ عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مفارقه ، واعمل ماشئت فإنك مُلاقِيهِ » (٣) . ومن الناس من يعيد الضمير على قوله ﴿ رَبِّكَ ﴾ أي فملاق ربك ومعناه فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك ، وعلى هذا فكلا القولين متلازم . قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ أي سهلًا بلا تعسير أي لا يحقق عليه جميع دقائق أعماله فإن من حوسب كذلك هلك لا محالة . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ » . قالت : فقلت : أفليس قال اللَّه تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ قال : « لَيْسَ ذَاكَ بِالحِسَاب وَلكِنَّ ذلِكَ العَرْض ، مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ يَوْمَ القِيَامَةِ عُذِّبَ » (٤) . وعن عائشة قالت : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول في بعض صلاته :

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٧٦٦) وأبو داود في السنن (١٤٠٨) .

(٢) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٩٠٩٤) .

(٣) هذا الحديث من الأحاديث المشهورة على ألسنة الناس وهو من الأحاديث الموضوعة ، فقد ذكره السيوطي في اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (١٦/٢) والفتني في تذكرة الموضوعات (٢٠٠) والعجلوني في كشف الخفاء (٧٨/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٣٦) وأحمد في مسنده (٤٧/٦) والترمذي في السنن (٣٣٣٧) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٧٩) .

« اللَّهُمَّ حَاسِبْنِي حِسَابًا يَسِيرًا » . فلما انصرف قلت يا رسول اللّه ما الحساب اليسير ؟ قال : « أَنْ يُنْظَرَ فِي كِتَابِهِ فَيَتَجَاوَز لَهُ عَنْهُ إِنَّهُ مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ يَا عَائِشَةُ يَوْمَئِذٍ هَلَكَ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ أي ويرجع إلى أهله في الجنّة ، مسرورًا أي فرحًا مغتبطًا بما أعطاه اللّه ﷻ .

عن ثوبان مولى رسول اللّه ﷺ أنه قال : إنكم تعملون أعمالًا لا تعرف ويوشك الغائب أن يثوب إلى أهله فمسرورًا أو مكظوم (٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴾ أي بشماله من وراء ظهره تثنى يده إلى ورائه ويعطى كتابه بها كذلك ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴾ أي خسارًا وهلاكًا ﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ أي فرحًا لا يفكر في عواقب ولا يخاف مما أمامه فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل . ﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ أي كان يعتقد أنه لا يرجع إلى اللّه ولا يعيده بعد موته قاله ابن عبّاس وقتادة وغيرهما ، والحور هو الرجوع قال اللّه : ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾ يعني بلى سيعيده اللّه كما بدأه ويجازيه على أعماله خيرها وشرها فإنه كان به بصيرًا أي عليمًا خبيرًا .

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴾ .

روي عن علي وابن عبّاس وعبادة بن الصامت وأبي هريرة وشداد بن أوس وابن عمر وغيرهم أنهم قالوا : الشفق الحمرة . وعن أبي هريرة قال : الشفق البياض ، فالشفق هو حمرة الأفق إما قبل طلوع الشمس ، وإما بعد غروبها ، كما هو معروف عند أهل اللغة . قال الخليل بن أحمد : الشفق : الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة فإذا ذهب قيل غاب الشفق . وقال الجوهري : الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها في أول الليل إلى قريب من العتمة . وكذا قال عكرمة : الشفق الذي يكون بين المغرب والعشاء . وفي الصحيح عن عبد اللّه بن عمرو عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : «وَقْتُ المَغْرِبِ مَا لَمْ يَغِبِ الشَّفَقُ » (٣) . ففي هذا كله دليل على أن الشفق هو كما قاله الجوهري والخليل . ولكن صح عن مجاهد أنه قال في هذه الآية ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴾ : هو النهار كله وفي رواية عنه أيضًا أنه قال الشفق الشمس ، وإنما حمله على هذا قرنه بقوله تعالى ﴿ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ أي جمع كأنه أقسم بالضياء والظلام . قال ابن جرير : أقسم اللّه بالنهار مدبرًا وبالليل مقبلًا .

وقد قال عكرمة : ﴿ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ يقول : ما ساق من ظلمة إذا كان الليل ذهب كل شيء إلى مأواه . وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴾ قال ابن عبّاس : إذا اجتمع واستوى ، وعن سعيد بن جبير ومسروق وأبو صالح والضحاك وابن زيد ﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴾ إذا استوى . وقال قتادة : إذا استدار . ومعنى كلامهم أنه إذا تكامل نوره وأبدر جعله مقابلًا لليل وما وسق ، وقوله تعالى : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ قال ابن عبّاس ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ حالًا بعد حال قال هذا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٦/٦) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٨٠) والترمذي في السنن (٢٤٢٦).
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٩/٢). (٣) أخرجه البيهقي في السنن (٣٦٦/١).

نبيكم ﷺ [١] ، وعن الشعبي قال : لتركبنّ يا محمّد سماء بعد سماء . قلت يعنون ليلة الإسراء ؟ وقال ابن عبّاس : ﴿ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ منزلًا على منزل ، قلت : كأنه أراد معنى الحديث الصحيح : « لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ القذَّةِ بالقذَّةِ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ » . قالوا : يا رسول اللَّه : اليهود والنصارى قال « فَمَنْ ؟ » [٢] . وهذا محتمل .

قال عبد اللَّه : السماء تنشقُّ ثم تحمر ثم تكون لونًا بعد لون . وقال الحسن البصري ﴿ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ يقولا حالًا بعد حال ، رخاء بعد شدة وشدة بعد رخاء ، وغنى بعد فقر وفقرًا بعد غنى ، وصحة بعد سقم ، وسقمًا بعد صحة ، ثم قال ابن جرير بعدما حكى أقوال الناس في هذه الآية من القرّاء والمفسّرين : والصواب من التأويل قول من قال لتركبن أنت يا محمّد حالًا بعد حال وأمرًا بعد أمر من الشدائد والمراد بذلك إن كان الخطاب موجهًا إلى رسول اللَّه ﷺ جميع الناس وأنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأحواله أهوالًا . وقوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ أي فماذا يمنعهم من الإيمان باللَّه ورسوله واليوم الآخر وما لهم إذا قرئت عليهم آيات اللَّه وكلامه وهو هذا القرآن لا يسجدون إعظامًا وإكرامًا واحترامًا . وقوله تعالى : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴾ أي من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ أي يكتمون في صدورهم ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي فأخبرهم يا محمّد بأن اللَّه ﷻ قد أعد لهم عذابًا أليمًا .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ هذا استثناء منقطع يعني لكن الذين آمنوا أي بقلوبهم ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي بجوارحهم ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير منقوص ، وقال مجاهد والضحاك : غير محسوب وحاصل قولهما أنه غير مقطوع . وقال السدي : منقوص ، وقال بعضهم : غير ممنون عليهم وهذا القول الأخير عن بعضهم قد أنكره غير واحد فإن اللَّه ﷻ له المنة على أهل الجنة في كل حال وآن ولحظة ، وإنما دخلوها بفضله ورحمته لا بأعمالهم ، فله عليهم المنّة دائمًا سرمدًا ، والحمد للَّه وحده أبدًا ؛ ولهذا يلهمون تسبيحه وتحميده كما يلهمون النفس ، وآخر دعواهم أن الحمد للَّه رب العالمين .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٤٠) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٥٥/٤) وأحمد في مسنده (٣٤٠/٥) .

سورة البروج

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج والسماء والطارق [١] . وعنه أيضًا أن رسول الله ﷺ أمر أن يقرأ بالسموات في العشاء [٢] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ .

يقسم تعالى بالسماء وبروجها وهي النجوم العظام . قال ابن عبّاس ومجاهد والضحاك وغيرهم : البروج النجوم وعن مجاهد أيضًا : البروج التي فيها الحرس . وقال يحي بن رافع : البروج قصور في السماء ، وقال المنهال بن عمرو ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ الخلق الحسن . واختار ابن جرير أنها منازل الشمس والقمر وهي اثنا عشر برجًا تسير الشمس في كل واحد منها شهرًا ويسير القمر في كل واحد منها يومين وثلثًا فذلك ثمانية وعشرين منزلة ويستسر ليلتين ، وقوله تعالى : ﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ اختلف المفسرون في ذلك . فعن أبي هريرة أنه قال في هذه الآية ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ قال : الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة والموعود يوم القيامة [٣] . وعن أبي هريرة أيضًا أنه قال : اليوم الموعود يوم القيامة . وكذلك قال الحسن وقتادة وابن زيد ولم أرهم يختلفون في ذلك ولله الحمد .

وعن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَإِنَّ الشَّاهِدَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَإِنَّ الْمَشْهُودَ يَوْمُ عَرَفَةَ وَيَوْمُ الْجُمُعَةِ ذَخَرَهُ اللَّهُ لَنَا » [٤] . وعن ابن عبّاس قال : الشاهد هو محمّد ﷺ والمشهود يوم القيامة ، ثم قرأ : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ وعن شباك قال : سأل رجل الحسن بن علي عن ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ قال : سألت أحدًا قبلي ؟ قال : نعم سألت ابن عمر وابن الزبير فقالا : يوم الذبح ويوم الجمعة ، فقال : لا ، ولكن الشاهد محمّد ﷺ ثم قرأ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ والمشهود يوم القيامة ثم قرأ ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ وقال مجاهد وعكرمة والضحّاك : الشاهد ابن آدم والمشهود يوم القيامة . وعن عكرمة أيضًا الشاهد محمّد ﷺ والمشهود يوم الجمعة ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس : الشاهد الله والمشهود يوم القيامة . وقال الأكثرون : على أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة . وقوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ أي لعن أصحاب الأخدود وجمعه أخاديد وهي الحفر في الأرض ، وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله ﷻ فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم فأبوا عليهم ، فحفروا لهم في الأرض أخدودًا وأججوا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٦/٢) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٧/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٨/٢) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٣٩) والطبراني في الكبير (٣٣٨/٣) والألباني في الصحيحة (١٥٠٢) .

فيه نارًا وأعدوا لها وقودًا يسعرونها به ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم فقذفوهم فيها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ أي مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ أي وما كان لهم عندهم ذنب إلّا إيمانهم بالله العزيز الذي لا يضام من لاذ بجنابه المنيع الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ، وإن كان قد قدر على عباده هؤلاء هذا الذي وقع بهم بأيدي الكفار به فهو العزيز الحميد ، وإن خفي سبب ذلك على كثير من الناس . ثم قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ من تمام الصفة أنه المالك لجميع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي لا يغيب عنه شيء في جميع السموات والأرض ولا تخفى عليه خافية .

وقد اختلف أهل التفسير في أهل هذه القصة من هم فعن علي أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل تزويج المحارم فامتنع عليه علماؤهم فعمد إلى حفر أخدود فقذف فيه من أنكر عليه منهم واستمر فيهم تحليل المحارم إلى اليوم . وعنه أنهم كانوا قومًا باليمن اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم فغلب مؤمنوهم على كفارهم ، ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين فخدوا لهم الأخاديد وأحرقوهم فيها ، وعنه أنهم كانوا من أهل الحبشة واحدهم حبشي ، وقال ابن عبّاس ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴾ قال : ناس من بني إسرائيل خدوا أخدودًا في الأرض ثم أوقدوا فيه نارًا ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالًا ونساء فعرضوا عليها . وزعموا أنه دانيال وأصحابه . وهكذا قال الضحاك بن مزاحم وقيل غير ذلك .

عن صهيب الرومي أن رسول الله ﷺ قال : « كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مَلِكٌ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبُرَ السَّاحِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ : إِنِّي قَدْ كَبُرَ سِنِّي وَحَضَرَ أَجَلِي فَادْفَعْ إِلَيَّ غُلَامًا لِأُعَلِّمَهُ السِّحْرَ ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ غُلَامًا كَانَ يُعَلِّمُهُ السِّحْرَ ، وَكَانَ بَيْنَ السَّاحِرِ وَبَيْنَ الْمَلِكِ رَاهِبٌ ، فَأَتَى الغُلَامُ عَلَى الرَّاهِبِ فَسَمِعَ مِنْ كَلَامِهِ فَأَعْجَبَهُ نَحْوُهُ وَكَلَامُهُ ، وَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ وَقَالَ : مَا حَبَسَكَ ، وَإِذَا أَتَى أَهْلَهُ ضَرَبُوهُ وَقَالُوا : مَا حَبَسَكَ ، فَشَكَا ذلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ : إِذَا أَرَادَ السَّاحِرُ أَنْ يَضْرِبَكَ فَقُلْ حَبَسَنِي أَهْلِي وإذا أراد أَهْلُكَ أَنْ يَضْرِبُوكَ فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاحِرُ . قال : فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ فَظِيعَةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَجُوزُوا . فَقَالَ : الْيَوْمَ أَعْلَمُ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ أَمْ أَمْرُ السَّاحِرِ ، قَالَ : فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ وَأَرْضَى مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَجُوزَ النَّاسُ ، وَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ فَأَخْبَرَ الرَّاهِبَ بِذلِكَ فَقَالَ : أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ أَفْضَلُ مِنِّي وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ ، فَكَانَ الغُلَامُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَسَائِرَ الأَدْوَاءِ وَيَشْفِيهِمْ ، وَكَانَ لِلْمَلِكِ جَلِيسٌ فَعَمِيَ فَسَمِعَ بِهِ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ : اشْفِنِي وَلَكَ مَا ههُنَا أَجْمَع فَقَالَ : مَا أَنَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ ﷻ فَإِنْ آمَنْتَ بِهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ ، فَآمَنَ فَدَعَا اللهَ فَشَفَاهُ ، ثُمَّ أَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ مِنْهُ نَحْوَ مَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : يَا فُلَانُ مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ ؟ فَقَالَ : رَبِّي ؟ فَقَالَ : أَنَا ! قَالَ : لَا ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ ، قَالَ : وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي ؟ قَالَ : نَعَمْ رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الغُلَام فَبَعَثَ إِلَيْهِ فَقَالَ : أَيْ بُنَيَّ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ أَنْ تُبْرِئَ

الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَهَذِهِ الأَدْوَاء ! قَالَ : مَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّه ﷻ ، قَالَ : أَنَا ، قَالَ : لَا . قَالَ : أَوَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي ؟ قال : رَبِّي وَرَبكَ اللَّه ، فَأَخَذَهُ أَيْضًا بِالعَذَابِ ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَأُتِيَ بِالرَّاهِبِ . فَقَالَ : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ ، فَأَبَى فَوَضَعَ المِنْشَارَ فِي مَفرقِ رَأْسِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ، وَقَالَ لِلأَعْمَى : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى فَوَضَعَ المِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ إِلَى الأَرْضِ . وَقَالَ لِلغُلَامِ : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَفَرٍ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا وَقَالَ : إِذَا بَلَغْتُم ذِرْوَتَهُ فَإِنْ رَجعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَدَهْدِهُوهُ ، فَذَهَبُوا بِهِ فَلَمَّا عَلَوْا بِهِ الجَبَلَ قَالَ : اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ ، فَرَجَفَ بِهِمُ الجَبَلُ فَدُهْدِهُوا أَجْمَعُونَ وَجَاءَ الغُلَامُ يَتَلَمَّسُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى المَلِكِ . فَقَالَ : مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ ؟ فَقَالَ : كَفَانِيهِمُ اللَّه تَعَالَى فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَفَرٍ فِي قُرْقُورٍ ، فَقَالَ : إِذَا لَجَجْتُمْ بِهِ البَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَغَرِّقُوهُ فِي البَحْرِ ، فَلَجَّجُوا بِهِ البَحْرَ ، فَقَالَ الغُلَامُ : اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ فَغَرِقُوا أَجْمَعُونَ ، وَجَاءَ الغُلَامُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى المَلِكِ ، فَقَالَ : مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ ؟ فَقَالَ : كَفَانِيهِمُ اللَّه تَعَالَى ، ثُمَّ قَالَ لِلْمَلِكِ : إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ فَإِنْ أَنْتَ فَعَلْتَ مَا آمُرُكَ بِهِ قَتَلْتَنِي وَإِلَّا فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعَ قَتْلِي ، قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ تَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ وَتَأْخُذُ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ، ثم قل : باسم اللَّه رب الغلام ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني ، ففعل ووضع السهم في كبد قوسه ثُمَّ رَمَاهُ ، وَقَالَ : بِاسْمِ اللَّه رَبِّ الغُلَامِ ؛ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ فوضع الغُلَامُ يَدَهُ عَلَى مَوْضِعِ السَّهْمِ وَمَاتَ . فَقَالَ النَّاسُ : آمَنَّا بِرَبِّ الغُلَامِ . فَقِيلَ لِلْمَلِكِ : أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ ؟ فَقَدْ وَاللَّه نزلَ بِكَ ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ ، فَأَمَرَ بِأَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ فِيهَا الأَخَادِيدُ وَأُضْرِمَتْ فِيهَا النِّيرَانُ وَقَالَ : مَنْ رَجعَ عَنْ دِينِهِ فَدَعُوهُ وَإِلَّا فَأَقْحِمُوهُ فِيهَا ، قَالَ : فَكَانُوا يَتَعادونَ فِيهَا وَيَتَدَافَعُونَ ، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ بِابْنٍ لَهَا تُرْضِعُهُ ، فَكَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِي النَّار ، فَقَالَ الصَّبِيُّ : اصْبِرِي يَا أُمَّاهُ فَإِنَّكِ عَلَى الحَقِّ » (١) .

وقال ابن إسحاق : فيما يرويه عن محمّد بن عمرو بن حزم أنه حدَّث أن رجلًا من أهل نجران كان في زمان عمر بن الخطاب حفر خربة من خرب نجران لبعض حاجته فوجد عبد اللَّه بن الثامر تحت دفن فيها قاعدًا واضعًا يده على ضربة في رأسه ممسكًا عليها بيده فإذا أخذت يده عنها تنبعث دمًا ، وإذا أرسلت يده ردت عليها فأمسكت دمها وفي يده خاتم مكتوب فيه ربي اللَّه فكتب فيه إلى عمر بن الخطاب يخبره بأمره فكتب عمر إليهم أن أقروه على حاله وردوا عليه الذي كان عليه ففعلوا (٢) . وروي عن عبد اللَّه بن جعفر عن بعض أهل العلم أن أبا موسى لما افتتح أصبهان وجد حائطًا من حيطان المدينة قد سقط فبناه فسقط ثم بناه فسقط ، فقيل له : إن تحته رجلًا صالحًا ، فحفر الأساس فوجد فيه رجلًا قائمًا معه سيف فيه مكتوب : أنا الحارث بن مضاض نقمت على أصحاب الأخدود ، فاستخرجه أبو موسى ، وبنى الحائط فثبت ، قلت : هو الحارث بن مضاض بن عمرو بن مضاض الجرهمي أحد ملوك جرهم الذين ولوا أمر الكعبة بعد ولد ثابت بن إسماعيل بن إبراهيم ، وولد

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧/٦) والترمذي في السنن (٣٣٤٠) ورواه مسلم بنحوه عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة في الزهد (٧٣) .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣٧/١ ، ٣٨) .

الحارث هذا هو عمرو بن الحارث بن مضاض هو آخر ملوك جرهم بمكة لما أخرجتهم خزاعة وأجلوهم إلى اليمن وهو القائل في شعره الذي قال ابن هشام إنه أول شعر قالته العرب :

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الحُجُون إِلَى الصَّفَا ... أَنِيسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ

بَلَى نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَبَادَنَا ... صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالجُدُودُ العَوَاثِرُ (١)

وهذا يقتضي أن هذه القصة كانت قديمًا بعد زمان إسماعيل عليه السلام بقرب من خمسمائة سنة أو نحوها وما ذكره ابن إسحاق يقتضي أن قصتهم كانت في زمن الفترة التي بين عيسى ومحمّد عليهما من الله السلام وهو أشبه والله أعلم .

وقد يحتمل أن ذلك قد وقع في العالم كثيرًا . قال أسباط عن السدي في قوله تعالى ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ قال : كانت الأخدود ثلاثة : خد بالعراق ، وخد بالشام ، وخد باليمن . وعن مقاتل قال : كانت الأخدود ثلاثة : واحدة بنجران باليمن والأخرى بالشام والأخرى بفارس حرقوا بالنار ، أما التي بالشام فهو انطنانوس الرومي ، وأما التي بفارس فهو بختنصر ، وأما التي بأرض العرب فهو يوسف ذو نواس ، فأما التي بفارس والشام فلم ينزل الله تعالى فيهما قرآنًا وأنزل في التي كانت بنجران . وقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أي حرقوا ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ ﴾ أي لم يقلعوا عما فعلوا ويندموا على ما أسلفوا ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل . قال الحسن البصري انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾ .

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين أن ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم ولهذا قال : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أي إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره لشديد عظيم قوي ، فإنه تعالى ذو القوة المتين الذي ما شاء كان كما يشاء في مثل لمح البصر أو هو أقرب . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ أي من قوته وقدرته التامة يبدئ الخلق ويعيده كما بدأه بلا مانع ولا مدافع ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ أي يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه ولو كان الذنب من أي شيء كان ، والودود قال ابن عبّاس وغيره هو الحبيب ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾ أي صاحب العرش العظيم العالي على جميع الخلائق والمجيد فيه قراءتان الرفع على أنه صفة للرب عز وجل والجر على أنه صفة للعرش وكلاهما معنى صحيح ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ أي مهما أراد فعله لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقهره وحكمته وعدله ، كما روينا عن أبي بكر

(١) كان السبب في قول هذا الشعر : أن عمرو بن الحارث ضلت له إبل فبحث عنها حتى أتى الحرم ، فأراد دخوله ليأخذ إبله ، فنادى عمرو ابن لحي : من وجد جرهميًا فلم يقتله قطعت يده ، فسمع بذلك عمرو ، وأشرف على جبل من جبال مكة فرأى إبله تنحر ويوزع لحمها ، فانصرف بائسًا خائفًا ، وأبعد في الأرض ، وبغربته يضرب المثل ، ثم قال هذا الشعر (انظر : السيرة النبوية ١٢٠/١) .
والحجون : جبل بأعلى مكة ، والجدودة الحظوظ .

الصدّيق أنه قيل له وهو في مرض الموت هل نظر إليك الطبيب ؟ قال : نعم . قالوا : فما قال لك ؟ قال : قال لي إني فعال لما أريد وقوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۝ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ أي هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس وأنزل عليهم من النقمة التي لم يردها عنهم أحد ؟ وهذ تقرير لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أي إذا أخذ الظالم أخذه أخذًا أليمًا شديدًا أخذ عزيز مقتدر . عن عمرو بن ميمون قال : مرَّ النبيّ ﷺ على امرأة تقرأ ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ فقام يستمع فقال : « نَعَمْ قَدْ جَاءَنِي » . وقوله تعالى : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴾ أي هم في شك وريب وكفر وعناد ﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ أي هو قادر عليهم قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴾ أي عظيم كريم ﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ أي هو الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل .

سورة الطارق

عن خالد بن أبي حبل العدواني عن أبيه أنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا ، حين أتاهم يبتغي عندهم النصر فسمعته يقول : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ . حتى ختمها . قال : فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك ثم قرأتها في الإسلام . قال : فدعتني ثقيف . فقالوا : ماذا سمعت من هذا الرجل ؟ فقرأتها عليهم ، فقال من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا لو كنا نعلم ما يقول حقًّا لاتبعناه [١] . وعن جابر قال : صلى معاذ المغرب فقرأ البقرة والنساء فقال النبيّ ﷺ : «أَفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ ! مَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقْرَأَ بِالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ والشمس وَضُحَاهَا وَنَحْوِهَا ؟ » [٢] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ .

يقسم تبارك وتعالى بالسماء وما جعل فيها من الكواكب النيرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ ثم فسّره بقوله : ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ قال قتادة وغيره : إنما سمي النجم طارقًا لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح نهى أن يطرق الرجل أهله طروقًا [٣] أي يأتيهم فجأة بالليل ، وفي الحديث الآخر المشتمل على الدعاء « إِلَّا طَارِقًا بِخَيْرٍ يَا رَحْمنُ » [٤] . وقوله تعالى : ﴿ الثَّاقِبُ ﴾ قال ابن عبّاس : المضيء وقال السدي : يثقب الشياطين إذا أرسل عليها وقال عكرمة : هو مضيء ومحرق للشيطان .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ أي كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات ، وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه ، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد ؛ لأن من قدر على البداءة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى ، وقوله تعالى : ﴿ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ يعني المني يخرج دفقًا من الرجل ومن المرأة فيتولد منهما الولد بإذن الله ﷻ ولهذا قال : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ يعني صلب الرجل وترائب المرأة وهو صدرها . وعن ابن عبّاس قال : هذه الترائب ووضع يده على صدره . وقال عطية عن ابن عباس : تريبة المرأة موضع القلادة ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : الترائب بين ثدييها ، وعن مجاهد : الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر وعنه أيضًا : الترائب أسفل من التراقي ، وقال سفيان الثوري : فوق الثديين وعن سعيد بن جبير : الترائب أربعة أضلاع من هذا الجانب الأسفل . وعن الضحاك : الترائب بين الثديين والرجلين والعينين ، وعن معمر بن أبي حبيبة المدني أنه بلغه في قول الله ﷻ : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ قال : هو عصارة القلب من هناك يكون الولد . وعن قتادة ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ من بين صلبه ونحره وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ فيه قولان :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٥/٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٩/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في العمرة (١٨٠١) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٩/٣) .

أحدهما : على رجع هذا الماء الدافق إلى مقره الذي خرج منه لقادر على ذلك ، والقول الثاني : إنه على رجع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق أي إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر ؛ لأن من قدر على البداءة قدر على الإعادة ، وقد ذكر الله ﷻ هذا الدليل في القرآن في غير ما موضع ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ أي يوم القيامة تبلى فيه السرائر أي تظهر وتبدو ويبقى السر علانية والمكنون مشهورًا ، وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ عِنْدَ اسْتِهِ يُقَالُ : هذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ ابْنِ فُلَانٍ » [1] . وقوله تعالى ﴿ فَمَا لَهُۥ ﴾ أي الإنسان يوم القيامة ﴿ مِن قُوَّةٍ ﴾ أي في نفسه ﴿ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ أي من خارج منه أي لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله ولا يستطيع له أحد ذلك .

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾ ﴾ .

قال ابن عبّاس : الرجع المطر وعنه هو السحاب فيه المطر وعنه ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴾ تمطر ثم تمطر ، وقال قتادة : ترجع رزق العباد كل عام ، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم ، وقال ابن زيد : ترجع نجومها وشمسها وقمرها يأتين من ههنا ﴿ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴾ قال ابن عبّاس : هو انصداعها عن النبات . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ قال ابن عبّاس : حق ، وقيل : حكم عدل ﴿ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾ أي بل هو جد حق ، ثم أخبر عن الكافرين بأنهم يكذبون به ويصدون عن سبيله فقال : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ أي يمكرون بالناس في دعوتهم إلى خلاف القرآن ثم قال تعالى : ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي أنظرهم ولا تستعجل لهم ﴿ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ أي قليلًا أي وسترى ماذا أحل بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك .

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٨٦) ومسلم في الجهاد (١١ - ١٤) وأحمد في مسنده (٤٦/٣) والبيهقي في السنن (١٦٠/٨) .

سورة الأعلى

سورة سبح مكية والدليل على ذلك ما روي عن البراء بن عازب قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبيّ ﷺ مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم ، فجعلا يقرئاننا القرآن ثم جاء عمار وبلال وسعد ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين ثم جاء النبيّ ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولائد والصبيان يقولان هذا رسول الله ﷺ قد جاء فما جاء حتى قرأت ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ في سور مثلها (١) . وعن علي ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ . وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هَلَّا صَلَّيْتَ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى » (٢) . وعن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قرأ في العيدين بسبّح اسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية ، وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعًا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ۝ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ .

عن إياس بن عامر : سمعت عقبة بن عامر الجهني لما نزلت ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ قال لنا رسول الله ﷺ : « اجْعَلُوها في رُكُوعِكم » . فلما نزلت ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ قال : « اجْعَلُوهَا في سُجُودِكُمْ » (٣) . وعن ابن عبّاس أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ قال : « سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى » (٤) . وعن عبد خير قال : سمعت عليًا قرأ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ فقال : سبحان ربي الأعلى . وعن أبي إسحاق الهمداني أن ابن عبّاس كان إذا قرأ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ يقول : سبحان ربي الأعلى وإذا قرأ ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ فأتى على آخرها ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ يقول : « سُبْحَانَكَ وَبَلَى » ، وقال قتادة : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان إذا قرأها قال : « سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى » ، وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ أي خلق الخليقة وسوى كل مخلوق في أحسن الهيئات .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ قال مجاهد : هدى الإنسان للشقاوة والسعادة وهدى الأنعام لمراتعها . وهذه الآية كقوله تعالى إخبارًا عن موسى أنه قال لفرعون ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ أي قدّر قدرًا وهدى الخلائق إليه . وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ قدَّر مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ » (٥) . وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴾ أي من جميع صنوف النباتات والزروع ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴾ قال ابن عبّاس : هشيمًا متغيرًا . قال ابن جرير : وكان بعض أهل العلم بكلام العرب يرى أن ذلك من المؤخر

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٤١) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧١/٤) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥٥/٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٢/١) وأبو داود في السنن (استفتاح الصلاة : ٣٨٥) والبيهقي في السنن (٣١٠/٢) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠١/٣) .

الذي معناه التقديم وأن معنى الكلام والذي أخرج المرعى ، أحوى أخضر إلى السواد فجعله غثاء بعد ذلك ثم قال ابن جرير : وهذا وإن كان محتملاً إلّا أنه غير صواب لمخالفته أقوال أهل التأويل ؛ وقوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ أي يا محمّد ﴿ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ وهذا إخبار من اللّه تعالى ووعد منه له ، بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ وهذا اختيار ابن جرير وقال قتادة : كان رسول اللّه ﷺ لا ينسى شيئًا إلّا ما شاء اللّه وقيل المراد بقوله ﴿ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ طلب وجعلوا معنى الاستثناء على هذا ما يقع من النسخ أي لا تنسى ما نقرئك إلّا ما يشاء اللّه رفعه فلا عليك أن تتركه . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ أي يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم لا يخفى عليه من ذلك شيء .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ أي نسهل عليك أفعال الخير وأقواله ونشرع لك شرعًا سهلًا سمحًا مستقيمًا عدلًا لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر . وقوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ أي ذكّر حيث تنفع التذكرة ، ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم فلا يضعه عند غير أهله ، كما قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلّا كان فتنة لبعضهم ، وقال : حدث الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذّب اللّه ورسوله . وقوله تعالى : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ أي سيتعظ بما تبلغه يا محمّد من قلبه يخشى اللّه ويعلم أنه ملاقيه ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ أي لا يموت فيستريح ولا يحيى حياة تنفعه ، بل هي مضرة عليه لأن بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب وأنواع النكال . وعن أبي سعيد قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ ، وَأَمَّا أُنَاسٌ يُرِيدُ اللّه بِهِمِ الرَّحْمَةَ فَيُمِيتُهُمْ فِي النَّارِ فَيَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الشُّفَعَاءُ فَيَأْخُذُ الرَّجُلُ الضَّبَارَةَ فَيُنْبِتُهُمْ - أو قال - يُنْبَتُونَ فِي نَهْرِ الحَيَا - أو قال الحَيَاةِ ، أو قال الحَيَوَانِ ، أو قال نَهرِ الجَنَّةِ فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الحَبَّةِ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ » . قال : وقال النبيّ ﷺ : « أَمَا تَرَوْنَ الشَّجَرَةَ تَكُونُ خَضْرَاءَ ثُمَّ تكون صَفْرَاءَ ثُمَّ تَكُونُ خَضْرَاءَ ؟ » . قال : فقال بعضهم كأن النبيّ ﷺ كان بالبادية [(١)] .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ أي طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة وتابع ما أنزل اللّه على الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه ﴿ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ أي أقام الصلاة في أوقاتها ابتغاء رضوان اللّه وطاعة لأمر اللّه وامتثالًا لشرع اللّه . وعن جابر بن عبد اللّه عن النبيّ ﷺ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ قال : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إله إِلَّا اللّه وَخَلَعَ الأَنْدَادَ وَشَهِدَ أَنِّي رَسُولُ اللّه » . ﴿ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ قال : « هِيَ الصَّلَوَاتُ الخَمْسِ وَالمُحَافَظَةُ عَلَيْهَا وَالاهْتِمَامُ بِهَا » [(٢)] . وعن أبي خلدة قال : دخلت على أبي العالية فقال لي : إذا غدوت غدًا إلى العيد فمر بي . قال : فمررت به . فقال : هل طعمت شيئًا ؟ قلت : نعم قال : أفضت على نفسك من الماء؟ قلت : نعم . قال : فأخبرني ما فعلت زكاتك !

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٣) .

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٧/٧) والبزار في مسنده (٢٢٨٤) .

قلت : قد وجهتها . قال : إنما أردتك لهذا ثم قرأ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ وقال : إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها ومن سقاية الماء قلت : وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كان يأمر الناس بإخراج صدقة الفطر ويتلو هذه الآية ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ وقال أبو الأحوص : إذا أتى أحدكم سائل وهو يريد الصلاة فليقدم بين يدي صلاته زكاة فإن الله تعالى يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ وقال قتادة في هذه الآية : زكى ماله وأرضى خالقه .

ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي تقدمونها على أمر الآخرة وتبدونها على ما فيه نفعكم وصلاحكم في معاشكم ومعادكم ﴿ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أي ثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى ، فإن الدنيا دانية فانية والآخرة شريفة باقية ، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى ويهتم بما يزول عنه قريبًا ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد . وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لَا دَارَ لَهُ ، وَمَالُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ » (١) . وعن عرفجة الثقفي قال : استقرأت ابن مسعود ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ - فلما بلغ - ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ ترك القراءة وأقبل على أصحابه وقال: آثرنا الدنيا على الآخرة ، فسكت القوم . فقال : آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها وزويت عنا الآخرة فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل ، وهذا منه على وجه التواضع والهضم أو هو إخبار عن الجنس من حيث هو والله أعلم . وعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى » (٢) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ قال النبيّ ﷺ : « كَانَ كُلُّ هذَا - أو كَانَ هذَا - في صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى » . وعن عكرمة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ يقول : الآيات التي في سبّح اسم ربك الأعلى ، وقال أبو العالية : قصة هذه السورة في الصحف الأولى ، واختار ابن جرير أن المراد بقوله ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ إشارة إلى قوله ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ أي مضمون هذا الكلام ﴿ لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ وهذا الذي اختاره حسن قوي .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧١/٦) والمنذري في الترغيب والترهيب (١٧٨/٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٢/٤) .

سورة الغاشية

عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بسبح اسم ربك الأعلى والغاشية في صلاة العيد ويوم الجمعة . وعن عبيد الله بن عبد الله أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة ؟ قال : هل أتاك حديث الغاشية (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ .

الغاشية من أسماء يوم القيامة ؛ لأنها تغشى الناس وتعمهم ، فعن عمرو بن ميمون قال : مرَّ النبيّ ﷺ على امرأة تقرأ ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴾ فقام يستمع ويقول : « نعم قد جاءني » . وقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ﴾ أي : ذليلة . قال ابن عبّاس : تخشع ولا ينفعها عملها وقوله تعالى : ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ أي قد عملت عملًا كثيرًا ونصبت فيه ، وصليت يوم القيامة نارًا حامية . وعن أبي عمران الجوني يقول : مرَّ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بدير راهب فناداه ، يا راهب فأشرف ، قال : فجعل عمر ينظر إليه ويبكي فقيل له : يا أمير المؤمنين ما يبكيك من هذا ؟ قال ذكرت قول الله ﷻ في كتابه ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ فذاك الذي أبكاني . وقال ابن عبّاس ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ النصارى (٢) ، وعن عكرمة والسدي عاملة في الدنيا بالمعاصي ناصبة في النار بالعذاب والإهلاك ، ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ أي حارة شديدة الحر ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴾ أي قد انتهى حرها وغليانها . وقوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ قال ابن عباس : شجر من نار ، وقال سعيد بن جبير : هو الزقوم ، وقال قتادة : هو الشبرق ، وقال عكرمة : وهو شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض . وقال مجاهد : الضريع نبت يقال له الشبرق يسميه أهل الحجاز الضريع إذا يبس وهو سم (٣) ، وعن قتادة أيضًا قال : من شر الطعام وأبشعه وأخبثه ؛ وقوله تعالى : ﴿ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ يعني لا يحصل به مقصود ولا يندفع به محذور .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً ۝ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ .

لما ذكر حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء فقال : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ نَّاعِمَةٌ ﴾ أي يعرف النعيم فيها ، وإنما حصل لها ذلك بسعيها ، وقال سفيان ﴿ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ قد رضيت عملها . وقوله تعالى : ﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أي رفيعة بهية في الغرفات آمنون ﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً ﴾ أي لا تسمع في الجنّة التي هم فيها كلمة لغو ، ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ أي سارحة وهذه نكرة في سياق الإثبات ، وليس المراد بها عينًا واحدة وإنما هذا جنس يعني فيها عيون جاريات ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أنهارُ

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٣/٢٠١) وأحمد في مسنده (٤/٢٧٠) .

(٢ ، ٣) أخرجه البخاري في (تفسير سورة الغاشية) .

الجَنَّةِ تُفجَّرُ مِن تَحْتِ تِلاَلِ - أَو مِنْ تَحْتِ جِبَالِ - المِسْكِ »[(١)] . ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ أي عالية ناعمة كثيرة الفرش ، مرتفعة السمك عليها الحور العين . قالوا فإذا أراد وليّ الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له ﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ يعني أواني الشرب معدة مرصدة لمن أرادها من أربابها ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾ : النمارق الوسائد . وقوله تعالى : ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ : الزرابي البسط ، ومعنى مبثوثة أي ههنا وههنا لمن أراد الجلوس عليها ؛ ونذكر ههنا هذا الحديث الذي رواه أسامة بن زيد يقول : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا هَلْ مِنْ مُشَمِّرٍ لِلجَنَّةِ فَإِنَّ الجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا ، هِيَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلَأْلأُ ، وَرَيْحَانَةٌ تَهتَزُّ ، وَقَصْرٌ مشيدٌ ، وَنَهرٌ مُطَّرِدٌ وثمرةٌ نَضِيجَةٌ ، وَزَوجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ ، وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ ، وَمُقَامٌ فِي أَبَدٍ فِي دَارٍ سَلِيمَة ، وَفَاكِهَةٌ وَخُضْرَةٌ ، وَحبرَةٌ وَنِعْمَةٌ ، فِي مَحَلَّةٍ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ ؟ » . قالوا : نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها ، قال : « قُولُوا إِنْ شَاءَ اللَّه » . قال القوم : إن شاء الله[(٢)] .

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ فإنها خلق عجيب وتركيبها غريب ، فإنها في غاية القوة والشدة ، وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل وتنقاد للقائد الضعيف وتؤكل وينتفع بوبرها ويشرب لبنها ، ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل ، وكان شريح القاضي يقول : اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت ! أي كيف رفعها الله ﷻ عن الأرض هذا الرفع العظيم ﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ أي جعلت منصوبة فإنها ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها ، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ أي كيف بسطت ومدت ومهدت ، فنبه البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه ، والسماء التي فوق رأسه ، والجبل الذي تجاهه والأرض التي تحته على قدرة خالق ذلك وصانعه وأنه الرب العظيم الخالق المالك المتصرف وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه ؛ وهكذا أقسم ضمام في سؤاله على رسول الله ﷺ فعن أنس قال : كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع فجاء رجل من أهل البادية فقال : يا محمّد إنه أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ، قال : « صَدَقَ » . قال : فمن خلق السماء ! . قال : « اللّه » قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : « اللّه » قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ! قال : « اللّه » . قال : فبالذي خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال آللّه أرسلك ؟ قال : « نَعَمْ » . قال : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا؟ قال : « صَدَقَ » . قال : فبالذي أرسلك ، آللّه أمرك بهذا ؟ قال : « نَعَمْ » . قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا ؟ قال : « صدق » . قال : فبالذي أرسلك آللّه أمرك بهذا؟ قال : « نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلًا . قال :

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢٦٢٢) . (٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد (٤٣٣٢) .

« صَدَقَ » . قال : ثم ولى فقال : والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن شيئًا ولا أنقص منهن شيئًا . فقال النبيّ ﷺ : « إِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّةَ » (١) .

وعن ابن عمر قال : كان رسول اللَّه ﷺ كثيرًا ما كان يحدث عن امرأة في الجاهلية على رأس جبل معها ابن صغير لها ترعى غنمًا ، فقال لها ابنها : يا أمه من خلقك ؟ قالت : اللَّه . قال : فمن خلق أبي ؟ قالت : اللَّه ، قال : فمن خلقني ؟ قالت : اللَّه ، قال : فمن خلق السماء ؟ قالت : اللَّه . قال : فمن خلق الأرض ؟ قالت : اللَّه . قال : فمن خلق الجبل ؟ قالت : اللَّه . قال : فمن خلق هذه الغنم ؟ قالت : اللَّه . قال : فإني لأسمع للَّه شأنًا وألقى نفسه من الجبل فتقطع . وقوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ أي فذكر يا محمّد الناس بما أرسلت به إليهم ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ ولهذا قال : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ : قال مجاهد : لست عليهم بجبار أي لست تخلق الإيمان في قلوبهم ، وقال ابن زيد : لست بالذي تكرههم على الإيمان . وعن جابر قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حتَّى يَقُولُوا : لَا إِله إِلَّا اللَّه فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّه ﷻ » (٢) . ثم قرأ ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾ أي تولى عن العمل بأركانه وكفر بالحق بجنانه ولسانه ، ولهذا قال : ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾ روي أن أبا أمامة الباهلي مرَّ على خالد بن معاوية فسأله عن ألين كلمة سمعها من رسول اللَّه ﷺ فقال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « أَلَا كُلُّكُمْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ شَرَدَ عَلَى اللَّه شِرَادَ البَعِيرِ عَلَى أَهْلِهِ » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾ أي مرجعهم ومنقلبهم ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ أي نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٣/٣) .
(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٤) ومسلم في الإيمان (٣٢ ، ٣٣) وأبو داود في السنن (١٥٥٦) وأحمد في مسنده (١١/١ ، ١٩) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٨/٥) .

سورة الفجر

عن جابر قال : صلى معاذ صلاة فجاء رجل فصلى معه فطول في ناحية المسجد ثم انصرف فبلغ ذلك معاذًا فقال : منافق . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل الفتى فقال : يا رسول الله جئت أصلي معه فطول علي فانصرفت وصليت في ناحية المسجد فعلفت ناقتي . فقال رسول الله ﷺ : « أَفَتَّانٌ يَا مُعَاذُ ؟ أَيْنَ أَنْتَ مِنْ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ، وَالفَجْرِ ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى » (١) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ .

أمّا الفجر : فمعروف وهو الصبح ، والمراد به فجر يوم النحر خاصة وهو خاتمة الليالي العشر ، وقيل المراد بذلك الصلاة التي تفعل عنده وقال عكرمة : المراد به جميع النهار . والليالي العشر المراد بها عشر ذي الحجة ، وعن ابن عبّاس مرفوعًا « مَا مِنْ أَيَّامِ الْعَمَلُ الصَّالِحُ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ فِيهِنَّ مِنْ هذِهِ الأَيَّامِ » . يعني عشر ذي الحجة قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « وَلَا الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا رَجُلًا خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذلِكَ بِشَيْءٍ » (٢) . وقيل المراد بذلك العشر الأول من المحرم حكاه أبو جعفر بن جرير ولم يعزه إلى أحد ، وقد روي عن ابن عباس ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ قال : هو العشر الأول من رمضان ، والصحيح القول الأول . وعن جابر عن النبيّ ﷺ قال : « إِنَّ العَشْرَ عَشْرُ الأَضْحَى ، وَالوَتْرَ يَوْمُ عَرَفَةَ وَالشَّفْعَ يَوْمُ النَّحرِ » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾ قد تقدم في هذا الحديث أن الوتر يوم عرفة لكونه التاسع وأن الشفع يوم النحر لكونه العاشر . قول ثان . عن واصل بن السائب قال : سألت عطاء عن قوله تعالى : ﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾ قلت : صلاتنا وترنا هذا؟ قال : لا ولكن الشفع يوم عرفة والوتر ليلة الأضحى . قول ثالث : عن أبي سعيد بن عوف قال : سمعت عبد الله بن الزبير يخطب الناس فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين أخبرني عن الشفع والوتر . فقال : الشفع قول الله تعالى : ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ والوتر قوله تعالى : ﴿ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ وقال محمّد بن المرتفع أنه سمع ابن الزبير يقول : الشفع أوسط أيام التشريق والوتر آخر أيام التشريق . وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « إِنَّ للَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ وَهُوَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ » (٤) . قول رابع : قال الحسن البصري : الخلق كلهم شفع ووتر أقسم تعالى بخلقه وهو رواية عن مجاهد والمشهور عنه الأول . وقال ابن عبّاس : ﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾ قال : الله وتر واحد وأنتم شفع . ويقال : الشفع صلاة الغداة والوتر صلاة المغرب .

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (١٦٨/٢) والبيهقي في السنن (١١٢/٣) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٧٢٧) وأحمد في مسنده (٢٢٤/١) والبيهقي في السنن (٤٨٤/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٧/٣) .

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٩٢) ومسلم في الذكر والدعاء (٦) والترمذي في السنن (٣٥٠٦) .

قول خامس : عن مجاهد ﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾ قال : الشفع الزوج ، والوتر : الله ﷻ . وقال : الله الوتر وخلقه الشفع الذكر والأنثى . وقال مجاهد : كل شيء خلقه الله شفع . السماء والأرض والبر والبحر والجن والإنس والشمس والقمر ونحو هذا ، ونحا مجاهد في هذا ما ذكروه في قوله تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي لتعلموا أن خالق الأزواج واحد . قول سادس : عن الحسن ﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾ : هو العدد منه شفع ومنه وتر . قول سابع في الآية الكريمة : عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : « الشَّفْعُ اليَوْمَانِ ، وَالوَتْرُ اليَوْمُ الثَّالِثُ » (١) . وقال أبو العالية والربيع بن أنس وغيرهما : هي الصلاة منها شفع كالرباعية والثنائية ومنها وتر كالمغرب فإنها ثلاث وهي وتر النهار ، وكذلك صلاة الوتر في آخر التهجد من الليل . وعن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ سئل عن الشفع والوتر فقال : « هِيَ الصَّلَاةُ بَعْضُها شَفْعٌ ، وَبَعْضُها وَتْرٌ » (٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ أي إذا ذهب ، وقال عبد الله بن الزبير : حتى يذهب بعضه بعضًا ، وقال ابن زيد : إذا سار ، ويحتمل أن يكون المراد إذا سار أي أقبل وقد يقال إن هذا أنسب لأنه في مقابلة قوله : ﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴾ فإن الفجر وهو إقبال النهار وإدبار الليل فإذا حمل قوله : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ على إقباله كان قسمًا بإقبال الليل وإدبار النهار وبالعكس وقال عكرمة ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ يعني ليلة جمع ليلة المزدلفة . وعن كثير بن عبد الله بن عمرو قال : سمعت محمّد بن كعب القرظي يقول في قوله : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ قال : اسر يا سار ولا تبيتن إلّا بجمع ، وقوله تعالى : ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ أي لذي عقل ولب ودين وحجا ، وإنما سمي العقل حجرًا لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال ، ومنه حجر البيت لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجداره الشامي ، ومنه حجر اليمامة ، وحجر الحاكم على فلان إذا منعه التصرف ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ كل هذا من قبيل واحد ، ومعنى متقارب ، وهذا القسم هو بأوقات العبادة وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التي يتقرب بها إليه عباده المتقون المطيعون له الخائفون منه المتواضعون لديه الخاشعون لوجهه الكريم ، ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم قال بعده : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين خارجين عن طاعته ، مكذبين لرسله جاحدين لكتبه ، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم وجعلهم أحاديث وعبرًا فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ وهؤلاء عاد الأولى وهم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح قاله ابن إسحاق وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هودًا ﵇ فكذبوه وخالفوه ، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم ، وأهلكهم ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير ما موضع ليعتبر بمصرعهم المؤمنون فقوله تعالى : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ عطف بيان زيادة تعريف بهم وقوله تعالى ﴿ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقواهم بطشًا ، ولهذا ذكرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم

---

(١) أخرجه احمد في مسنده (٣٢٧/٣) ، والحاكم في المستدرك (٢٢٠/٤) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٤٢) .

فقال : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ وقال ههنا : ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ أي القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم ، قال مجاهد : إرم ، أمة قديمة يعني : عادًا الأولى ، قال قتادة بن دعامة والسدي : إن إرم بيت مملكة عاد ، وهذا قول حسن جيد قوي ، وقال مجاهد وقتادة والكلبي في قوله ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ كانوا أهل عمد لا يقيمون ، وقال ابن عبّاس : إنما قيل لهم ذات العماد لطولهم ، واختار الأول ابن جرير وَرَدّ الثاني فأصاب ، وقوله تعالى : ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ أعاد ابن زيد الضمير على العماد لارتفاعها وقال : بنوا عمدًا بالأحقاف لم يخلق مثلها في البلاد ، وأما قتادة وابن جرير فأعاد الضمير على القبيلة أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد يعني في زمانهم ، وهذا القول هو الصواب ، وقول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف لأنه لو كان المراد ذلك لقال التي لم يعمل مثلها في البلاد وإنما قال ﴿ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ عن المقدام عن النبيّ ﷺ أنه ذكر إرم ذات العماد فقال : « كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَأْتِي عَلَى الصَّخْرَةِ فَيَحْمِلُهَا عَلَى الحَيِّ فَيُهْلِكُهُمْ » (١) . وعن ثور بن زيد الديلي قال : قرأت كتابًا وقد سمي حيث قرأه أنا شداد بن عاد ، وأنا الذي رفعت العماد ، وأنا الذي شددت بذراعي نظر واحد ، وأنا الذي كنزت كنزًا على سبعة أذرع لا يخرجه إلا أمة محمّد ﷺ . قلت : فعلى كل قول سواء كانت العماد أبنية بنوها أو أعمدة بيوتهم للبدو أو سلاحًا يقاتلون به أو طول الواحد منهم ، فهم قبيلة وأمة من الأمم وهم المذكورون في القرآن في غير ما موضع المقرونون بثمود كما ههنا واللَّه أعلم .

ومن زعم أن المراد بقوله : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ مدينة إما دمشق أو إسكندرية ففيه نظر فإنه كيف يلتئم الكلام على هذا ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ إن جعل ذلك بدلًا أو عطف بيان ، فإنه لا يتسق الكلام حينئذ ، ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد وما أحل اللَّه بهم من بأسه الذي لا يرد لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم . وإنما نبهت على ذلك لئلا يغتر بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية من ذكر مدينة يقال لها : إرم ذات العماد ، مبنية بلبن الذهب والفضة قصورها ودورها وبساتينها ، وأن حصباءها لآلئ وجواهر ، وترابها بنادق المسك وأنهارها سارحة وثمارها ساقطة ودورها لا أنيس بها وسورها وأبوابها تصفر ليس بها داع ولا مجيب ، وأنها تنتقل فتارة تكون بأرض الشام ، وتارة باليمن ، وتارة بالعراق ، وتارة بغير ذلك من البلاد فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين ، من وضع بعض زنادقتهم ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك .

وذكر الثعلبي وغيره أن رجلًا من الأعراب وهو عبد اللَّه بن قلابة في زمان معاوية ذهب في طلب أباعر له شردت فبينما هو يتيه في ابتغائها إذ اطلع على مدينة عظيمة لها سور وأبواب فدخلها فوجد فيها قريبًا مما ذكرناه من صفات المدينة الذهبية التي تقدم ذكرها وأنه رجع فأخبر الناس فذهبوا معه إلى المكان الذي قال فلم يروا شيئًا ، فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها ولو صح إلى ذلك الأعرابي فقد يكون اختلق ذلك أو أنه أصابه نوع من الهوس والخبال فأعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٤٧/٦) .

وليس كذلك ، وهذا مما يقطع بعدم صحته ، وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتحيلين من وجود مطالب تحت الأرض فيها قناطير الذهب والفضة وألوان الجواهر واليواقيت واللآلئ والإكسير الكبير ، ولكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء فيأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاقير ونحو ذلك من الهذيانات ويطنزون بهم ، والذي يجزم به أن في الأرض دفائن جاهلية وإسلامية وكنوزًا كثيرة من ظفر بشيء منها أمكنه تحويله ، فأما على الصفة التي زعموها فكذب وافتراء وبهت ولم يصح في ذلك شيء مما يقولون إلا عن نقلهم أو نقل من أخذ عنهم والله سبحانه وتعالى الهادي للصواب . وقول ابن جرير يحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ قبيلة أو بلدة كانت عاد تسكنها فلذلك لم تصرف فيه نظر ، لأن المراد من السياق إنما هو الإخبار عن القبيلة ، ولهذا قال بعده ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ يعني يقطعون الصخر بالوادي . قال ابن عباس : ينحتونها ويخرقونها ، ومنه يقال : مجتابي النمار إذا خرقوها واجتاب الثوب إذا فتحه ومنه الجيب أيضًا ، وقال ابن إسحاق : كانوا عربًا وكان منزلهم بوادي القرى . وقوله تعالى : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴾ قال ابن عبّاس : الأوتاد الجنود الذين يشدون له أمره ، ويقال : كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلقهم بها . وقال السدي : كان يربط الرجل كل قائمة من قوائمه في وتد ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فيشدخه وقال قتادة : بلغنا أنه كان له مظال وملاعب يلعب له تحتها من أوتاد وحبال . وعن أبي رافع : قيل لفرعون ذي الأوتاد لأنه ضرب لامرأته أربعة أوتاد ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت . وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴾ أي تمردوا وعتوا وعاثوا في الأرض بالإفساد والأذية للناس ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أي أنزل عليهم رجزًا من السماء وأحل بهم عقوبة لا يردها عن القوم المجرمين .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ قال ابن عبّاس : يسمع ويرى يعني يرصد خلقه فيما يعملون ويجازي كلًّا بسعيه في الدنيا والأخرى وسيعرض الخلائق كلهم عليه فيحكم فيهم بعدله ويقابل كلًّا بما يستحقه وهو المنزه عن الظلم والجور .

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على الإنسان في اعتقاده إذا وسَّع الله تعالى عليه في الرزق ليختبره في ذلك فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له ، وليس كذلك بل هو ابتلاء وامتحان ، وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق يعتقد أن ذلك من الله إهانة له قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ أي ليس الأمر كما زعم لا في هذا ولا في هذا فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب ، ويضيق على من يحب ومن لا يحب ، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين إذا كان غنيًّا بأن يشكر الله على ذلك وإذا كان فقيرًا بأن يصبر . وقوله تعالى : ﴿ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴾

فيه أمر بالإكرام له كما جاء عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ « خَيْرُ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ وَشَرُّ بَيْتٍ في المسلمين بيت فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ - ثم قال بأصبعه - أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيم فِي الجَنَّةِ هكَذَا » [١] . وعن سهل يعني ابن سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيم كَهَاتَيْنِ فِي الجَنَّةِ » . وقرن بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام [٢] . ﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴾ يعني لَا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ويحث بعضهم على بعض في ذلك ﴿ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ ﴾ يعني الميراث ﴿ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴾ أي من أي جهة حصل لهم من حلال أو حرام ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴾ أي كثيرًا زاد بعضهم فاحشًا .

﴿ كَلَّآۖ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ .

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة فقال تعالى : ﴿ كَلَّآۖ ﴾ أي حقًا ﴿ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴾ أي وطئت ومهدت وسويت الأرض والجبال وقام الخلائق من قبورهم لربهم ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ يعني لفصل القضاء بين خلقه وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمّد صلوات الله وسلامه عليه بعد ما يسألون أولي العزم من الرسل واحدًا بعد واحد ، فكلهم يقول : لست بصاحب ذاكم حتى تنتهي النوبة إلى محمّد ﷺ فيقول : « أَنَا لَهَا ، أَنَا لَهَا » [٣] . فذهب فيشفع عند الله تعالى في أن يأتي لفصل القضاء ، فيشفعه الله تعالى في ذلك وهي أول الشفاعات ، وهي المقام المحمود كما تقدم بيانه في سورة سبحان فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء كما يشاء ، والملائكة يجيؤون بين يديه صفوفًا صفوفًا وقوله تعالى : ﴿ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ ﴾ عن عبد الله هو ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا » [٤] .

وقوله تعالى : ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ ﴾ أي عمله وما كان أسلفه في قديم دهره وحديثه ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴾ أي وكيف تنفعه الذكرى ﴿ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾ يعني يندم على ما كان سلف منه من المعاصي إن كان عاصيًا ويود لو كان ازداد من الطاعات إن كان طائعًا ، وعن محمّد بن عمرة وكان من أصحاب رسول الله ﷺ قال : لو أن عبدًا خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت في طاعة الله لحقره يوم القيامة ولودّ أنه رد إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب . قال الله تعالى : ﴿ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴾ أي ليس أحد أشد عذابًا من تعذيب الله من عصاه ﴿ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴾ أي وليس أحد أشد قبضًا ووثقًا من الزبانية لمن كفر بربهم ﷻ وهذا في حق المجرمين من الخلائق والظالمين ، فأما النفس الزكية المطمئنة وهي الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق فيقال لها : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٦٧٩) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٤٨/٣) .
(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠٥) وأبو داود في السنن (٥١٥٠) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٢/١) . (٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٩٥/٤) .

﴿ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ أي إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده في جنته ﴿ رَاضِيَةً ﴾ أي في نفسها ﴿ مَّرْضِيَّةً ﴾ أي قد رضيت عن الله ورضي عنها وأرضاها ﴿ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴾ أي في جملتهم ﴿ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ وهذا يقال لها عند الاحتضار وفي يوم القيامة أيضًا كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره فكذلك ههنا .

ثم اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية . فن ابن عبّاس نزلت في عثمان بن عفّان . وعن بريدة بن الحصيب نزلت في حمزة بن عبد المطلب ﷺ . وقال العوفي عن ابن عبّاس : يقال للأرواح المطمئنة يوم القيامة ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ يعني صاحبك وهو بدنها الذي كانت تعمره في الدنيا ﴿ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ وروي عنه أنه كان يقرؤها ﴿ فادخلي في عبدي وادخلي جنتي ﴾ وكذا قال عكرمة والكلبي واختاره ابن جرير وهو غريب والظاهر الأول لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾ أي إلى حكمه والوقوف بين يديه . وعن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ قال : نزلت وأبو بكر جالس فقال : يا رسول الله ما أحسن هذا : فقال : « أَمَا إِنَّهُ سَيُقَالُ لَكَ هذَا » . وعن سعيد بن جبير قال : مات ابن عباس بالطائف فجاء طير لم ير على خلقته فدخل نعشه ثم لم ير خارجًا منه فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لا يدرى من تلاها ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ . وعن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال لرجل : « قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ نَفْسًا بِكَ مُطْمَئِنَّةً تُؤْمِنُ بِلِقَائِكَ وَتَرْضَى بِقَضَائِكَ وَتَقْنَعُ بِعَطَائِكَ » [1] .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٣٥١) ، والهندي في كنز العمال (٣٧٣٥) .

سورة البلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ .

هذا قسم من اللَّه تبارك وتعالى بمكة أُم القرى في حال كون الساكن فيها حلالًا لينبّه على عظمة قدرها في حال إحرام أهلها ، عن مجاهد : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ لا رد عليهم . أقسم بهذا البلد ، وقال ابن عبّاس ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ يعني مكة ﴿ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ قال : أنت يا محمّد يحل لك أن تقاتل به ، وقال مجاهد : ما أصبت فيه فهو حلال لك وقال قتادة : أنت به من غير حرج ولا إثم ، وقال الحسن البصري : أحلها اللَّه له ساعة من نهار ، وهذا المعنى قد ورد به الحديث المتفق على صحته : « إِنَّ هذا البَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّه يَوْمَ خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّه إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لَا يُعْضَدُ شَجَرُهُ وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ ، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا اليَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ أَلَا فَلْيُبْلِغ الشَّاهِدُ الغَائِبَ » . وفي لفظ آخر « فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّه فَقُولُوا إِنَّ اللَّه أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ »[1] . وقوله تعالى : ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ الوالد الذي يلد وما ولد العاقر الذي لا يولد له ، وقال عكرمة : الوالد العاقر ، وما ولد الذي يلد . وقيل : يعني بالوالد آدم وما ولد ولده ، وهذا حسن قوي لأنه تعالى لما اقسم بأم القرى وهي المساكن أقسم بعده بالساكن وهو آدم أبو البشر وولده .

وقال ابن جرير : أنه عام في كل والد وولده وهو محتمل أيضًا ، وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ روي عن ابن مسعود وابن عبّاس وعكرمة وغيرهم : يعني منتصبًا زاد ابن عبّاس في رواية عنه منتصبًا في بطن أمه والكبد الاستواء والاستقامة ، ومعنى هذا القول : لقد خلقناه سويًّا مستقيمًا . وعن ابن عبّاس : ﴿ فِى كَبَدٍ ﴾ قال : في شدة خلق ألم تر إليه وذكر مولده ونبات أسنانه . وقال مجاهد ﴿ فِى كَبَدٍ ﴾ : نطفة ثم علقة ثم مضغة يتكبد في الخلق . قال مجاهد : وهو كقوله تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ وأرضعته كرهًا ومعيشته كره فهو يكابد ذلك . وقال سعيد بن جبير : في شدة وطلب معيشة . وقال عكرمة : في شدة وطول وقال قتادة : في مشقة .

وروي أن الحسن قرأ هذه الآية ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ قال : يكابد أمرًا من أمر الدنيا وأمرًا من أمر الآخرة ، وفي رواية يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة . واختار ابن جرير أن المراد بذلك مكابدة الأمور ومشاقها . وقوله تعالى ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ قال الحسن البصري : يعني يأخذ ماله . وقال قتادة : ابن آدم يظن أن لن يسأل عن هذا المال من أين اكتسبه وأين أنفقه . وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴾ أي يقول ابن آدم أنفقت مالًا لبدًا أي كثيرًا ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٥٨٧) ومسلم في الحج (٤٤٥) .

أَحَدٌ ﴾ قال مجاهد : أي أيحسب أن لم يره الله ﷻ وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴾ أي يبصر بهما ﴿ وَلِسَانًا ﴾ أي ينطق به فيعبر عما في ضميره ﴿ وَشَفَتَيْنِ ﴾ يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام وجمالًا لوجهه وفمه .

﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ : الطريقين ، وعن عبد الله بن مسعود قال : الخير والشر ، وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « هُمَا نَجْدَانِ ، فَمَا جَعَلَ نَجْدَ الشَّرِّ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِنْ نَجْدِ الخَيْرِ »[(١)] . وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ قال : الثديين . ورواه ابن جرير ثم قال : والصواب القول الأول .

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴾ .

عن ابن عمر في قوله تعالى : ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ﴾ أي دخل ﴿ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ قال : جبل في جهنم . وقال الحسن البصري : ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ قال : عقبة في جهنم . وقال قتادة : إنها عقبة قحمة شديدة فاقتحموها بطاعة الله تعالى . وقال قتادة : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴾ ثم أخبر تعالى عن اقتحامها فقال : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَٰمٌ ﴾ أي أفلا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير ثم بينها فقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَٰمٌ ﴾ قرئ فك رقبة بالإضافة وقرئ على أنه فعل وفيه ضمير الفاعل والرقبة مفعوله وكلتا القراءتين معناهما متقارب[(٢)] . وعن أبي هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ إِرْبٍ - أي عضو - مِنْهَا إِرْبًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُعْتِقُ بِاليَدِ اليَدَ وَبِالرِّجْلِ الرِّجْلَ وَبِالفَرْجِ الفَرْجَ » . فقال علي بن الحسين : أنت سمعت هذا من أبي هريرة ؟ فقال سعيد : نعم فقال علي بن الحسين لغلام له أفره غلمانه ادع مطرفًا فلما قام بين يديه قال : اذهب فأنت حر لوجه الله[(٣)] وعند مسلم أن هذا الغلام الذي أعتقه علي بن الحسين زين العابدين كان قد أعطي فيه عشرة آلاف درهم ، وعن أبي نجيح قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أَيُّمَا مُسْلِمٍ أَعْتَقَ رَجُلًا مُسْلِمًا فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ وَفَاءَ كُلِّ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِهِ عَظْمًا مِنْ عِظَامِ مُحَرَّرِهِ مِنَ النَّارِ وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ أعتقت امرأة مسلمةً فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ وَفَاءَ كُلِّ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِهَا عَظْمًا مِنْ عِظَامِهَا مِنَ النَّارِ »[(٤)] .

وعن عمرو بن عبسة أنه حدَّثهم أن النبيّ ﷺ قال : « مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِيُذْكَرَ اللَّهُ فِيهِ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الجَنَّةِ ، وَمَنْ أَعْتَقَ نَفْسًا مُسْلِمَةً كَانَتْ فِدْيَتَهُ مِنْ جَهَنَّمَ ، وَمَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الإِسْلَامِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ القِيَامَةِ »[(٥)] .

وعن أبي أمامة عن عمرو بن عبسة : قال السلمي قلت له : حدِّثنا حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ ليس فيه انتقاص ولا وهم قال : سمعته يقول : « مَنْ وُلِدَ لَهُ ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ فِي الإِسْلَامِ فَمَاتُوا قَبْلَ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٣٥٣) .

(٢) قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر ويعقوب وخلف العاشر ﴿ فك ﴾ برفع الكاف ، وقرأ الباقون ﴿ فكَّ ﴾ بفتح الكاف (المهذب ص ٤٥٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٢٢) .

(٤) أخرجه البخاري في العتق (٢٥١٧) ومسلم في العتق (٢٤) والترمذي في السنن (١٥٤٧) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٨٦) .

أَنْ يَبْلُغُوا الحنث أَدْخَلَهُ اللَّه الجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ ، وَمَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي سَبِيلِ اللَّه كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَمَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّه بَلَغَ بِهِ العَدُوَّ أَصَابَ أَوْ أَخْطَأَ كَانَ لَهُ عِتْق رَقَبَةٍ وَمَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً أَعْتَقَ اللَّه بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ ، وَمَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّه فَإِنَّ لِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ يُدْخِلُهُ اللَّه مِنْ أَيِّ بَابٍ شَاءَ مِنْهَا » [١] .

وعن العريف بن عياش الديلمي قال : أتينا واثلة بن الأسقع فقلنا له : حدِّثنا حديثا ليس فيه زيادة ولا نقصان فغضب وقال : إن أحدكم ليقرأ ومصحفه معلق في بيته فيزيد وينقص ، قلنا إنما أردنا حديثًا سمعته من رسول اللَّه قال : أتينا رسول اللَّه ﷺ في صاحب لنا قد أوجب يعني النار بالقتل فقال : « أَعْتِقُوا عَنْهُ يُعْتِقْ اللَّه بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ » [٢] .

وعن البراء بن عازب قال : جاء أعرابي إلى رسول اللَّه ﷺ فقال : يا رسول اللَّه علِّمني عملًا يدخلني الجنّة ، فقال : « لَئِنْ كُنْتَ أَقْصَرْتَ الخُطْبَةَ لَقَدْ أَعْرَضْتَ المَسْأَلَةَ ، أَعْتِقِ النَّسَمَةَ وَفُكَّ الرَّقَبَةَ » . فقال : يا رسول اللَّه أو ليستا بواحدة ، قال : « لَا إِنَّ عِتْقَ النَّسَمَةِ أَنْ تَنْفَرِدَ بِعِتْقِهَا ، وَفَكَّ الرَّقَبَةِ أَنْ تُعِينَ فِي عِتْقِهَا ، وَالمِنْحَة الوَكُوفِ ، وَالفَيْءِ عَلَى ذِي الرَّحِمِ الظَّالِمِ فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذلِكَ فَأَطْعِمِ الجَائِعَ ، وَاسْقِ الظَّمْآنَ وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنْكَرِ ، فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَلِكَ فَكُفَّ لِسَانَكَ إِلَّا مِنَ الخَيْرِ » [٣] . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ قال ابن عباس : أي ذي مجاعة ، وقال إبراهيم النخعي : في يوم الطعام فيه عزيز ، وقال قتادة : في يوم مشتهى فيه الطعام .

وقوله تعالى : ﴿ يَتِيمًا ﴾ أي أطعم في مثل هذا اليوم يتيمًا ﴿ ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ أي ذا قرابة منه كما جاء في الحديث عن سلمان بن عامر قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « الصَّدَقَةُ عَلَى المِسْكِينِ صَدَقَةٌ وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ ، صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ » [٤] . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أي فقيرًا مدقعًا لاصقًا بالتراب وهو الدقعاء أيضًا . قال ابن عبّاس : ذا متربة هو المطروح في الطريق ، الذي لا بيت له ولا شيء يقيه من التراب . وفي رواية هو الذي لصق بالدقعاء من الفقر والحاجة ليس له شيء . وفي رواية عنه : هو البعيد التربة ، قال ابن أبي حاتم : يعني الغريب عن وطنه . وقال عكرمة : هو الفقير المديون المحتاج ، وقال سعيد بن جبير : هو الذي لا أحد له . وقال ابن عبّاس وسعيد وقتادة ومقاتل : هو ذو العيال ، وكل هذه قريبة المعنى . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة مؤمن بقلبه محتسب ثواب ذلك عند اللَّه ﷻ وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ أي كان من المؤمنين العاملين صالحًا ، المتواصين بالصبر على أذى الناس وعلى الرحمة بهم كما جاء في الحديث « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ » [٥] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٦/٤) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢١٢/٢) وأبو داود في السنن (٣٩٦٤) وأحمد في مسنده (٤٩١/٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٩/٤) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٤/٤) .
(٥) أخرجه أبو داود في السنن (٤٩٤١) والترمذي في السنن (١٩٢٤) وأحمد في مسنده (١٦٠/٢) .

وعن عبد الله بن عمرو يرويه قال : من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا [١] . وقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ أي المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين . ثم قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ أي أصحاب الشمال ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴾ أي مطبقة عليهم فلا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها . قال أبو هريرة وابن عبّاس وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم ﴿ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴾ أي مطبقة وقال ابن عباس : مغلقة الأبواب ، وقال الضحاك ﴿ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴾ حيط لا باب له وقال قتادة : مطبقة فلا ضوء فيها ولا فرج ولا خروج منها آخر الأبد ، وقال أبو عمران الجوني : إذا كان يوم القيامة أمر الله بكل جبار وكل شيطان وكل من كان يخاف الناس في الدنيا شره فأوثقوا بالحديد ثم أمر بهم إلى جهنم ثم أوصدوها عليهم أي أطبقوها قال : فلا والله لا تستقر أقدامهم على قرار أبدًا ، ولا والله لا ينظرون فيها إلى أديم سماء أبدًا ولا والله لا تلتقي جفون أعينهم على غمض نوم أبدًا ، ولا والله لا يذوقون فيها بارد شراب أبدًا .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٢/٢) والحاكم في المستدرك (١٧٨/٤) .

سورة الشمس

تقدم حديث الذي ورد عن جابر أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلا صليت بسبّح اسم ربك الأعلى والشمس وضحاها والليل إذا يغشى ؟ »(١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ .

قال مجاهد ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ : أي وضوئها . وقال قتادة : النهار كله . قال ابن جرير : والصواب أن يقال أقسم الله بالشمس ونهارها لأن ضوء الشمس الظاهر هو النهار ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴾ قال مجاهد : تبعها . وقال قتادة : ليلة الهلال إذا سقطت الشمس رئي الهلال ، وقال ابن زيد : هو يتلوها في النصف الأول من الشهر ثم هي تتلوه وهو يتقدمها في النصف الأخير من الشهر ، وقال أيضًا إذا تلاها ليلة القدر . وقوله تعالى : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴾ قال مجاهد : أضاء وقال قتادة : إذا غشيها النهار ، وقال ابن جرير : وكان بعض أهل العربية يتأول ذلك بمعنى والنهار إذا جلا الظلمة لدلالة الكلام عليها قلت : ولو أن القائل تأول ذلك بمعنى ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴾ أي البسيطة لكان أولى ولصح تأويله في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ فكان أجود وأقوى والله أعلم ولهذا قال مجاهد ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴾ أنه كقوله تعالى : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ وأما ابن جرير فاختار عود الضمير في ذلك كله على الشمس لجريان ذكرها وقالوا في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ يعني إذا يغشى الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق .

وقال يزيد بن ذي حمامة : إذا جاء الليل قال الرب جل جلاله : غشي عبادي خلقي العظيم ، فالليل يهابه والذي خلقه أحق أن يهاب . وقوله تعالى ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ يحتمل أن تكون ما ههنا مصدرية بمعنى والسماء وبنائها ، ويحتمل أن تكون بمعنى من يعني والسماء وبانيها وهو قول مجاهد وكلاهما متلازم والبناء هو الرفع وهكذا قوله تعالى ﴿ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴾ قال مجاهد : طحاها دحاها ، وقال ابن عباس : أي خلق فيها وقال أيضًا : طحاها قسمها ، وقال ابن زيد : بسطها وهذا أشهر الأقوال وعليه الأكثر من المفسرين وهو المعروف عند أهل اللغة ، وقال الجوهري : طحوته مثل دحوته أي بسطته ، وقوله تعالى ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ أي خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة وقال رسول الله ﷺ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُوْلَدُ عَلَى الفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُوْلَدُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ؟ »(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ أي فأرشدها إلى فجورها وتقواها أي بيَّن ذلك لها وهداها إلى ما قدّر لها . قال ابن عباس : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ بيَّن لها الخير والشر . وقال

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧١/٤) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٧١٤) وأحمد في مسنده (٢٣٣/٢) .

الضحاك والثوري : ألهمها الخير والشر . وقال ابن زيد : جعل فيها فجورها وتقواها . وعن أبي الأسود الديلي قال : قال لي عمران بن حصين : أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون فيه ؟ أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأكدت عليهم الحجة ؟ قلت : بل شيء قضي عليهم ، قال : فهل يكون ذلك ظلمًا ؟ قال : ففزعت منه فزعًا شديدًا قال : قلت له ليس شيء إلا وهو خلقه وملك يده لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . قال : سدَّدك اللَّه إنما سألتك لأخبر عقلك إن رجلًا من مزينة أو جهينة أتى رسول اللَّه ﷺ فقال : يا رسول اللَّه أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق أم شيء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأكدت به عليهم الحجة ، قال : « بَلْ شَيْءٌ قَدْ قُضِيَ عَلَيْهِمْ » . قال : ففيم نعمل ؟ قال : « مَنْ كَانَ اللَّه خَلَقَهُ لِإِحْدَى الْمَنْزِلَتَيْنِ يُهَيِّئُهُ لها وتصديق ذلِكَ فِي كِتَابِ اللَّه تَعَالَى ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ يحتمل أن يكون المعنى ، قد أفلح من زكى نفسه أي بطاعة اللَّه ، كما قال قتادة وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل ، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ أي دسسها أي أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصي وترك طاعة اللَّه ﷻ . وقد يحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من زكى اللَّه نفسه ، وقد خاب من دسّى اللَّه نفسه . وعن ابن عبّاس قال : كان رسول اللَّه ﷺ إذا مر بهذه الآية ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ وقف ثم قال : « اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا ، وَخَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا »[2] . وعن عائشة أنها فقدت النبيّ ﷺ من مضجعه فلمسته بيدها فوقعت عليه وهو ساجد وهو يقول : « رَبِّ أَعْطِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا ، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا »[3] .

وعن زيد بن أرقم قال : كان رسول اللَّه ﷺ يقول : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ ، وَالْهَرَمِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ . اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا ، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا . اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ . وَعِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَدَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا » . قال زيد : كان رسول اللَّه ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكوهن[4] .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ .

يخبر تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي ، فأعقبهم ذلك تكذيبًا في قلوبهم بما جاءهم به رسولهم عليه الصلاة والسلام من الهدى واليقين ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴾ أي أشقى القبيلة وهو قدار بن سالف عاقر الناقة وهو أحيمر ثمود وهو الذي قال اللَّه تعالى : ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ الآية وكان هذا الرجل عزيزًا فيهم شريفًا في قومه نسيبًا رئيسًا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٤٣٨) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٧٣) وأحمد في مسنده (٤/٣٧١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٢١٩) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٧١) .

مطاعًا ، وعن عبد اللَّه بن زمعة قال : خطب رسول اللَّه ﷺ فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال : «إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا انْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَارِمٍ عَزِيزٌ مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ مِثْلُ أَبِي زُمْعَةَ » (١) وقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ يعني صالحًا ﷺ ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ ﴾ أي احذروا ناقة اللَّه أن تمسوها بسوء ﴿ وَسُقْيَٰهَا ﴾ أي لا تعتدوا عليها في سقياها فإن لها شرب يوم ، ولكم شرب يوم معلوم . قال اللَّه تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ أي كذبوه فيما جاءهم به فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التي أخرجها اللَّه من الصخرة آية لهم وحجة عليهم ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ ﴾ أي غضب عليهم فدمّر عليهم ﴿ فَسَوَّىٰهَا ﴾ أي فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء . قال قتادة : بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم ، فلما اشترك القوم في عقرها دمدم اللَّه عليهم بذنبهم فسواها . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَخَافُ ﴾ وقرئ ﴿ فلا يخافُ ﴾ (٢) ﴿ عُقْبَٰهَا ﴾ قال ابن عبّاس : لا يخاف اللَّه من أحد تبعة . وقال السدي : لم يخف الذي عقرها عاقبة ما صنع ، والقول الأول أولى لدلالة السياق عليه واللَّه أعلم .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧/٤) .

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ﴿ فلا يخاف ﴾ بالفاء والباقون بالواو (المهذب ص : ٤٥٩) .

سورة الليل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ ﴾ .

عن علقمة أنه قدم الشام فدخل مسجد دمشق فصلى فيه ركعتين وقال : اللهم ارزقني جليسًا صالحًا قال : فجلس إلى أبي الدرداء فقال له أبو الدرداء : ممن أنت ؟ قال : من أهل الكوفة ، قال : كيف سمعت ابن أم عبد يقرأ ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ قال علقمة ﴿ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴾ فقال : أبو الدرداء : لقد سمعتها من رسول الله ﷺ فما زال هؤلاء حتى شككوني ثم قال : ألم يكن فيكم صاحب السواد وصاحب السر الذي لا يعلمه أحد غيره ، والذي أجير من الشيطان على لسان محمّد ﷺ ؟ (١) وعن إبراهيم قال : قدم أصحاب عبد الله على أبي الدرداء فطلبهم فوجدهم ، فقال : أيكم يقرأ علي قراءة عبد الله ؟ قالوا : كلنا ، قال : أيكم أحفظ ؟ فأشاروا إلى علقمة فقال : كيف سمعته يقرأ ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾ - قال - ﴿ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴾ قال : أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ هكذا وهو لا يريدني على أن أقرأ ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴾ والله لا أتابعهم (٢) . هكذا قرأ ذلك ابن مسعود وأبو الدرداء ورفعه أبو الدرداء ، وأما الجمهور فقرأوا ذلك كما هو المثبت في المصحف الإمام العثماني في سائر الآفاق ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴾ فأقسم تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾ أي إذا غشى الخليقة بظلامه ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ أي بضيائه وإشراقه ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴾ :

ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان المقسم عليه أيضًا متضادًا ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴾ أي أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة أيضًا ومتخالفة ، فمن فاعل خيرًا ومن فاعل شرًا قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾ أي أعطى ما أمر بإخراجه واتقى الله في أموره ﴿ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ أي بالمجازاة على ذلك ، وقال خصيف : بالثواب . وقال زيد بن أسلم : بالخلف . وقال الضحاك : بلا إله إلا الله ، وقال عكرمة : بما أنعم الله عليه ، وفي رواية عن زيد بن أسلم قال : الصلاة والزكاة والصوم ، وعن أُبيّ بن كعب قال : سألت رسول الله ﷺ عن الحسنى قال : « الحُسْنَى : الجنَّةُ » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴾ قال ابن عباس : يعني للخير ، وقال زيد بن أسلم : للجنة وقال بعض السلف : من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ ﴾ أي بما عنده ﴿ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴾ أي بخل بماله واستغنى عن ربه ﷻ ﴿ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ أي بالجزاء في الدار الآخرة ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴾ أي لطريق الشر كما قال تعالى ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله ﷻ يجازي من قصد الخير بالتوفيق له ، ومن قصد الشر بالخذلان ، وكل ذلك بقدر مقدر .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٤٤٩) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٤٤) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٣٠٥) .

والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة ؛ فعن عبد الله بن عبد الرّحمن بن أبي بكر الصدِّيق قال : سمعت أبي يذكر أن أباه سمع أبا بكر وهو يقول : قلت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله أنعمل على ما فرغ منه أو على أمر مؤتنف ؟ قال : « بَلْ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ » . قال : ففيم العمل يا رسول الله ؟ قال : « كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خَلَقَهُ » [١] . وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال : كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة فقال : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الجنة ومقعده من النَّارِ » . فقالوا : يا رسول الله أفلا نتكل ؟ فقال : « اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ » . ثم قرأ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ - إلى قوله - فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [٢] .

وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ يَوْمٍ غَرَبَتْ فِيهِ شَمْسُهُ إِلَّا وَبِجَنْبَتَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ يَسْمَعُهُمَا خَلْقُ اللهِ كُلُّهُمْ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا وَأَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا » [٣] . وأنزل الله في ذلك القرآن ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ » . وعن ابن عبّاس أن رجلًا كان له نخيل ، ومنها نخلة فرعها في دار رجل صالح فقير ذي عيال ، فإذا جاء الرجل فدخل داره فيأخذ الثمرة من نخلته فتسقط الثمرة فيأخذها صبيان الرجل الفقير ، فينزل من نخلته فينتزع الثمرة من أيديهم ، وإن أدخل أحدهم الثمرة في فمه أدخل أصبعه في حلق الغلام ونزع الثمرة من حلقه ، فشكا ذلك الرجل إلى النبيّ ﷺ أخبره بما هو فيه من صاحب النخلة ، فقال له النبيّ ﷺ : « اِذْهَبْ » ، ولقي النبيّ ﷺ صاحب النخلة فقال له : « أَعْطِنِي نَخْلَتَكَ الَّتِي فَرْعُهَا فِي دَارِ فُلَانٍ وَلَكَ بِهَا نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ » ، فقال له : لقد أعطيت ولكن يعجبني ثمرها وإن لي لنخلًا كثيرًا ما فيها نخلة أعجب إلي ثمرة من ثمرها ، فذهب النبيّ ﷺ فتبعه رجل كان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ ومن صاحب النخلة فقال الرجل : يا رسول الله إن أخذت النخلة فصارت لي النخلة فأعطيتك إياها أتعطيني ما أعطيته بها نخلة في الجنة ؟ قال : « نَعَمْ » . ثم إن الرجل لقي صاحب النخلة ولكلاهما نخل : فقال له : أخبرك أن محمّدًا أعطاني بنخلتي المائلة في دار فلان نخلة في الجنّة فقلت له : قد أعطيت ولكن يعجبني ثمرها ، فسكت عنه الرجل ، فقال له : أراك إذًا بعتها قال : لا ، إلا أن أعطى بها شيئًا ولا أظنني أعطاه قال : وما مناك ؟ قال : أربعون نخلة . فقال الرجل : لقد جئت بأمر عظيم نخلتك تطلب بها أربعين نخلة ، ثم سكتا وأنشآ في كلام آخر ، ثم قال : أنا أعطيتك أربعين نخلة . فقال : اشهد لي إن كنت صادقًا ، فأمر بأناس فدعاهم فقال : اشهدوا أني قد أعطيته من نخلي أربعين نخلة بنخلته التي فرعها في دار فلان ابن فلان ثم قال : ما تقول ؟ فقال صاحب النخلة : قد رضيت ، ثم قال بعد : ليس بيني وبينك بيع لم نفترق فقال له : قد أقالك الله ولست بأحمق حين أعطيتك أربعين نخلة بنخلتك المائلة . فقال صاحب النخلة : قد رضيت على أن تعطني الأربعين على ما أريد . قال : تعطينيها على ساق ثم مكث ساعة ثم قال : هي لك على ساق ، وأوقف له شهودًا وعد له أربعين نخلة على ساق فتفرقا ، فذهب الرجل إلى رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٤٥) .
(٣) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (١١٩/٤) .

فقال : يا رسول الله إن النخلة المائلة في دار فلان قد صارت لي فهي لك ، فذهب رسول الله ﷺ إلى الرجل صاحب الدار فقال له : « النَّخْلَةُ لَكَ وَلِعِيَالِكَ » . وقال عكرمة قال ابن عباس : فأنزل الله ﷻ ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ – إلى قوله – فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴾ إلى آخر السورة .

قال ابن جرير وذكر أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصدّيق ﷺ ، فعن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر ﷺ يعتق على الإسلام بمكة فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن ، فقال له أبوه : أي بني أراك تعتق أناسًا ضعفاء فلو أنك تعتق رجالًا جلداء يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك . فقال : أي أبت إنما أريد – أظنه قال – ما عند الله ، قال فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية أنزلت فيه ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ قال مجاهد : أي إذا مات . وقال زيد بن أسلم : إذا تردى في النار .

﴿ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ۝ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ۝ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ۝ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴾ .

قال قتادة ﴿ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ﴾ أي نبينُ الحلال والحرام ، وقيل : من سلك طريق الهدى وصل إلى الله وجعله كقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ﴾ أي الجميع ملكنا وأنا المتصرف فيهما ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ﴾ قال مجاهد : أي توهج . وعن النعمان بن بشير خطب قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول : « إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ رَجُلٌ تُوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهما دِمَاغُهُ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ﴾ أي لا يدخلها دخولًا يحيط به من جميع جوانبه إلَّا الأشقى ، ثم فسره فقال : ﴿ ٱلَّذِي كَذَّبَ ﴾ أي بقلبه ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أي عن العمل بجوارحه وأركانه .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا شَقِيٌّ » . قيل : ومن الشقي قال : « الَّذِي لَا يعمل بِطَاعَةٍ وَلَا يَتْرُكُ لله مَعْصِيَةً » (٢) .

وعن أبي هريرة أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ أُمَّتِي تَدْخُلُ الجَنَّةَ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَّا مَنْ أَبَى » . قالوا : ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال : « مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴾ أي وسيزحزح عن النار التقي النقي الأتقى ، ثم فسّره بقوله : ﴿ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ أي يصرف ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴾ أي ليس بذله ماله في مكافأة من أسدى إليه معروفًا فهو يعطي في مقابلة ذلك وإنما دفعه ذلك ﴿ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ أي طمعًا في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات قال الله تعالى : ﴿ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴾ أي ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٢/٤) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٢٩٨) وأحمد في مسنده (٤٣٩/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦١/٢) .

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ ، حتى أن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك ، ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها ، فإن لفظها لفظ العموم ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴾ ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة ، وكان صدّيقًا تقيًا كريمًا بذّالًا لأمواله في طاعة مولاه ونصرة رسول الله ﷺ ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم ، ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها ، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل . ولهذا قال له عروة بن مسعود وهو سيد ثقيف يوم صلح الحديبية : أما والله لولا يدٌ لك عندي لم أجزك بها لأجبتك ، وكان الصدّيق قد أغلظ له في المقابلة . فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّه دَعَتْهُ خَزَنَةُ الجَنَّةِ يَا عَبْدَ اللَّه هذَا خَيْرٌ » ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ما على من يدعى منها ضرورة فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال : « نَعَمْ وَأَرجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ » [1] .

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢١٦) ومسلم في الزكاة (٨٥) .

سورة الضحى

عبد الله بن أبي بزة المقري قال : قرأت على عكرمة بن سليمان وأخبرني أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عباد فلما بلغت والضحى قالا لي : كبّر حتى تختم مع خاتمة كل سورة ، فإنا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك ، وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك ، وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عبّاس فأمره بذلك ، وأخبره ابن عبّاس أنه قرأ على أُبيّ بن كعب فأمره بذلك ، وأخبره أُبيّ أنه قرأ على رسول الله ﷺ فأمره بذلك . فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمّد بن عبد الله البزي من ولد القاسم بن أبي بزة وكان إمامًا في القراءات . فأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي وقال : لا أحدِّث عنه . وكذلك أبو جعفر العقيلي قال : هو منكر الحديث لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في شرح الشاطبية عن الشافعي أن سمع رجلًا يكبّر هذا التكبير في الصلاة فقال : أحسنت وأصبت السنة وهذا يقتضي صحة هذا الحديث . ثم اختلف القرّاء في موضع هذا التكبير وكيفيته فقال بعضهم : يكبّر من آخر ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾ ، وقال آخرون : من آخر ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾ ، وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول : الله أكبر ويقتصر ، ومنهم من يقول : الله أكبر لا إله إلّا الله والله أكبر . وذكر القراء في مناسبة التكبير من أول سورة الضحى أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ وفتر تلك المدة ثم جاء الملك فأوحى إليه ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ السورة بتمامها كبّر فرحًا وسرورًا .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾ .

عن الأسود بن قيس قال : سمعت جندبًا يقول : اشتكى النبيّ ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين ، فأتت امرأة فقالت : يا محمّد ما أرى شيطانك إلّا قد تركك . فانزل الله ﷻ ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (١) وعن الأسود بن قيس أنه سمع جندبًا يقول : رمي رسول الله ﷺ بحجر في أصبعه فقال : « هَلْ أَنْتَ إِلَّا أُصْبُعٌ دُمِيتِ ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ » (٢) .

قال : فمكث ليلتين أو ثلاثًا لا يقوم . فقالت له امرأة : ما أرى شيطانك إلا قد تركك . فنزلت ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ والسياق لأبي سعيد قيل إن هذه المرأة هي أم جميل امرأة أبي لهب ، وذكر أن أصبعه ﷺ دميت ، وقوله هذا الكلام الذي اتفق أنه موزون ثابت في الصحيحين ولكن الغريب ههنا جعله سببًا لتركه القيام ونزول هذا السورة .

وقد ذكر بعض السلف منهم ابن إسحاق أن هذه السورة هي التي أوحاها جبريل إلى رسول الله ﷺ حين تبدى له في صورته التي خلقه الله عليها ودنا إليه وتدلى منهبطًا عليه وهو بالأبطح ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٢/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٠٢) ومسلم في الجهاد (١١٢) والترمذي في السنن (٣٣٤٥) .

إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ قال : قال له هذه السورة ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ قال ابن عباس : لما نزل على رسول الله ﷺ القرآن أبطأ عنه جبريل أيامًا فتغير بذلك . فقال المشركون : ودعه ربه وقلاه فأنزل الله ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ وهذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ أي سكن فأظلم وادلهم ، وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا ، وقوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ أي ما تركك ﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾ أي وما أبغضك ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ أي وللدار الآخرة خير لك من هذه الدار ، ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس في الدنيا وأعظمهم لها اطراحًا كما هو معلوم بالضرورة من سيرته ، ولما خيِّر عليه الصلاة والسلام في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ثم الجنة ، وبين الصيرورة إلى الله ﷻ اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية . وعن عبد الله هو ابن مسعود قال : اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر في جنبه فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه وقلت : يا رسول الله ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئًا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مَا لِي وَلِلدُّنْيَا إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَاكِبٍ ظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا »(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ أي في الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه في أمته وفيما أعده له من الكرامة ، ومن جملته نهر الكوثر الذي حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ، وطينه مسك أذفر ، وعن عبد الله بن عباس عن أبيه قال : عرض وعلى رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أُمته من بعده كنزًا كنزًا فسر بذلك فأنزل الله ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ فأعطاه في الجنة ألف ألف قصر في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم . وعن ابن عبّاس من رضاء محمّد ﷺ أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار . وقال الحسن : يعني بذلك الشفاعة ، وعن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ اخْتَارَ اللَّهُ لَنَا الآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا ، ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ »(٢) .

ثم قال تعالى يعدّد نعمه على عبده ورسوله محمّد صلوات الله وسلامه عليه ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ وذلك أن أباه توفي وهو حمل في بطن أمه ، وقيل بعد أن ولد عليه الصلاة والسلام ، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين ، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين فكفله عمه أبو طالب ، ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويوقره ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره ، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان ، وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره إلى أن توفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل فأقدم عليه سفهاء قريش وجهالهم ، فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج ، كما أجرى الله سنته على الوجه الأتم الأكمل فلما وصل إليهم آووه ونصروه وحاطوه وقاتلوا بين يديه رضي الله عنهم أجمعين ، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به ، وقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ ومنهم من قال إن المراد بهذا أن النبيّ ﷺ ضلّ في شعاب مكة وهو صغير ثم رجع ، وقيل إنه ضل وهو مع عمه في طريق الشام وكان راكبًا ناقة في الليل فجاء

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩١/١) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٤/١٠) والبغوي في شرح السنة (٢٤٨/١٤) .

إبليس فعدل بها عن الطريق ، فجاء جبريل فنفخ إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة ثم عدل بالراحلة إلى الطريق .

وقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ أي كنت فقيرًا ذا عيال فأغناك الله عمن سواه فجمع له بين مقامي الفقير الصابر والغني الشاكر صلوات الله وسلامه عليه . وقال قتادة في قوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ قال : كانت هذه منازل رسول الله ﷺ قبل أن يبعثه الله ﷻ . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ وَلكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ » (١) . وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَنَّعَهُ اللَّه بِمَا آتاهُ » (٢) . ثم قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ أي كما كنت يتيمًا فآواك الله فلا تقهر اليتيم ، أي لا تذله وتنهره وتهنه ولكن أحسن إليه وتلطف به ، قال قتادة : كن لليتم كالأب الرحيم ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ أي وكما كنت ضالًا فهداك الله فلا تنهر السائل في العلم المسترشد . قال ابن إسحاق : فلا تكن جبارًا ولا متكبرًا ولا فحاشًا ولا فظًا على الضعفاء من عباد الله وقال قتادة : يعني ردَّ المسكين برحمة ولين ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ أي وكما كنت عائلًا فقيرًا فأغناك الله فحدث بنعمة الله عليك ، وعن أبي نضرة ، قال : كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدث بها .

عن أنس أن المهاجرين قالوا : يا رسول الله ذهب الأنصار بالأجر كله قال : « لَا مَا دَعَوْتُمُ اللَّه لَهُمْ وَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ » (٣) . وعن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال : « لَا يَشْكُرُ اللَّه من لا يشكر النَّاسَ » (٤) . وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَ فَلْيُجْزِ بِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُثْنِ بِهِ ، فَمَنْ أَثْنَى بِهِ فَقَدْ شَكَرَهُ ، وَمَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ » (٥) . وقال مجاهد : يعني النبوة التي أعطاك ربك . وفي رواية عنه القرآن ، وعن الحسن بن علي ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ قال : ما عملت من خير فحدِّث إخوانك ، وقال محمد بن إسحاق : ما جاءك من الله من نعمة وكرامة من النبوة فحدِّث بها واذكرها وادع إليها . قال : فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه من النبوة سرًا إلى من يطمئن إليه من أهله وافترضت عليه الصلاة فصلى .

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٢٠) والترمذي في السنن (٢٣٧٣) وأحمد في مسنده (٢/٢٦١) .

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (١٢٥) وأحمد في مسنده (٢/١٧٣) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨١٢) والترمذي في السنن (٢٤٨٧) والحاكم في المستدرك (٣/٦٣) .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨١١) وأحمد في مسنده (٢/٢٠٣) والبيهقي في السنن (٦/١٨٢) .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٢٠٣٤) والبيهقي في السنن (٦/١٨٢) والألباني في الصحيحة (٦١٧) .

سورة الشرح

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴾ يعني أنا شرحنا لك صدرك أي نورناه وجعلناه فسيحًا رحيبًا واسعًا ، وكما شرح اللّه صدره ، كذلك جعل شرعه فسيحًا واسعًا سمحًا سهلًا لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق . وقيل المراد بقوله ﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴾ شرح صدره ليلة الإسراء كما تقدم من رواية مالك ابن صعصعة وقد أورده الترمذي ههنا وهذا وإن كان واقعًا ليلة الإسراء كما رواه مالك بن صعصعة ولكن لا منافاة فإن من جملة شرح صدره ليلة الإسراء وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضًا فاللّه أعلم .

وعن أُبي بن كعب أن أبا هريرة كان جريئًا على أن يسأل رسول اللّه ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره . فقال : يا رسول اللّه ما أول ما رأيت من أمر النبوة ؟ فاستوى رسول اللّه ﷺ جالسًا وقال : « لَقَدْ سَأَلْتَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، إِنِّي فِي الصَّحْرَاء ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ وَأَشْهُرٍ ، وَإِذَا بِكَلَام فَوْقَ رَأْسِي وَإِذَا رَجُلٌ يَقُولُ لِرَجُلٍ : أَهُوَ هو ؟ فَاسْتَقْبَلَانِي بِوُجُوهٍ لَمْ أَرَهَا قَطُّ ، وَأَرْوَاحٍ لَمْ أَجِدْهَا مِنْ خَلْقٍ قَطُّ ، وَثِيَابٍ لَمْ أَرَهَا عَلَى أَحَدٍ قَطُّ ، فَأَقْبَلَا إِلَيَّ يَمْشِيَانِ حَتَّى أَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِعَضُدِي لَا أَجِدُ لِأَحَدِهِمَا مَسًّا فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : أَضْجِعْهُ ، فَأَضْجَعَانِي بِلَا قَصْرٍ وَلَا هَصْرٍ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : افْلِقْ صَدْرَهُ ، فَهَوَى أَحَدُهُمَا إِلَى صدري فَفَلَقَهُ فِيمَا أَرَى بِلَا دَم وَلَا وَجَعٍ . فَقَالَ لَهُ : أَخْرِجِ الغِلَّ وَالحَسَدَ . فَأَخْرَجَ شَيْئًا كَهَيْئَةِ العَلَقَةِ ، ثُمَّ نَبَذَهَا فَطَرَحَهَا . فَقَالَ لَهُ : أَدْخِلِ الرَّأْفَةَ وَالرَّحْمَةَ . فَإِذَا مِثْلُ الَّذِي أَخْرَجَ شَبَهُ الفِضَّةِ ، ثُمَّ هَزَّ إِبْهَامَ رِجْلِيَ اليُمْنَى ، فَقَالَ : أعد وَاسْلَمْ ، فَرَجَعْتُ بِهَا أَغْدُو رِقَّةً عَلَى الصَّغِيرِ ، وَرَحْمَةً لِلكَبِيرِ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ﴾ بمعنى ﴿ لِيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ ﴿ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ﴾ الإنقاض الصوت وقال غير واحد من السلف : أي أثقلك حمله ، وقوله تعالى ﴿ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴾ قال مجاهد : لا أذكر إلَّا ذكرت معي أشهد أن لا إله إلَّا اللّه وأشهد أن محمّدًا رسول اللّه وقال قتادة : رفع اللّه ذكره في الدنيا والآخرة فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلَّا ينادي بها أشهد أن لا إله إلَّا اللّه وأن محمّدًا رسول اللّه .

وعن ابن عبّاس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « سَأَلْتُ رَبِّي مَسْأَلَةً وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ ، قُلْتُ : قَدْ كَانَ قَبْلِي أَنْبِيَاء مِنْهُمْ مَنْ سُخِّرَتْ لَهُ الرِّيحُ وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْيِي المَوْتَى ، قَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَيْتُكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَبِّ . قَالَ : أَلَمْ أَجِدْكَ ضَالًا فَهَدَيْتُكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَبِّ . قَالَ : أَلَمْ أَجِدْكَ عَائِلًا فَأَغْنَيْتُكَ ؟ . قُلْتُ : بَلَى يَا رَبِّ . قَالَ : أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ؟ أَلَمْ أَرْفَعْ لَكَ ذِكْرَكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَبِّ » (٢) . وعن ابن عبّاس ومجاهد أن المراد بذلك الأذان يعني ذكره فيه وأورد من شعر حسان بن ثابت :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٩/٥) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٥٥/١١) .

أَغَـرُّ عَـلَـيْـهِ لِـلـنُّـبُـوَّةِ خَـاتَـمٌ مِنَ اللَّه مِنْ نُورٍ يَلُوحُ وَيُشْهَدُ
وَضَمَّ الإِلٰهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذَا قَالَ فِي الخَمْسِ المُؤَذِّنُ أَشْهَدُ
وَشَـقَّ لَـهُ مِـنْ اسْـمِـهِ لِـيُـجِـلَّـهُ فَذُو العَرْشِ مَحْمُودٌ وَهذَا مُحَمَّدُ

وقال آخرون : رفع اللَّه ذكره في الأولين والآخرين ، ونوه به حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به وأن يأمروا أممهم بالإيمان به ، ثم شهر ذكره في أمته فلا يذكر اللَّه إلَّا ذكر معه ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ أخبر تعالى أن مع العسر يوجد اليسر ثم أكد هذا الخبر . وعن أنس بن مالك يقول : كان النبيّ ﷺ جالسًا وحياله جحر فقال : « لَوْ جَاءَ العُسْرُ فَدَخَلَ هذَا الجُحْرَ لَجَاءَ اليُسْرُ حَتَّى يَدْخُلَ عَلَيْهِ فَيُخْرِجَهُ » (١) . فأنزل اللَّه ﷻ ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ وعن الحسن قال : خرج النبيّ ﷺ يومًا مسرورًا فرحًا وهو يضحك وهو يقول : « لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ ، لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ » (٢) . ومعنى هذا أن العسر معرف في الحالين فهو مفرد واليسر منكر فتعدّد ؛ ولهذا قال : « لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ» . يعني قوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ فالعسر الأول عين الثاني واليسر تعدّد .
ومما يروى عن الشافعي أنه قال :

صَبْرًا جَمِيلًا مَا أَقْرَبَ الفَرَجَا مَنْ رَاقَبَ اللَّه فِي الأُمُورِ نَجَا
مَنْ صَدَّقَ اللَّه لَمْ يَنَلْهُ أَذَى وَمَنْ رَجَاهُ يَكُونُ حَيْثُ رَجَا

وقال آخر :

وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يَضِيقُ بِهَا الفَتَى ذَرْعًا وَعِنْدَ اللَّه مِنْهَا المَخْرَجُ
كَمُلَتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتُهَا فُرِجَتْ وَكَانَ يَظُنُّهَا لَا تُفْرَجُ

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ أي إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة وقم إليها نشيطًا فارغ البال وأخلص لربك النية والرغبة ، ومن هذا القبيل قوله ﷺ في الحديث المتفق على صحته « لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ طَعَامٍ وَلَا وَهُوَ يُدَافِعُهُ الأَخْبَثَانِ » (٣) . وقوله ﷺ : « إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ وَحَضَرَ العَشَاءُ فَابْدَؤُوا بِالعَشَاءِ » (٤) . قال مجاهد في هذه الآية : إذا فرغت من أمر الدنيا فقمت إلى الصلاة فانصبْ لربك ، وفي رواية عنه : إذا قمت إلى الصلاة فانصب في حاجتك . وعن ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل .
وقال زيد بن أسلم والضحاك : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ أي من الجهاد ﴿ فَٱنصَبْ ﴾ أي في العبادة ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ قال الثوري : اجعل نيتك ورغبتك إلى اللَّه ﷻ .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٥٥/٢) . (٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٢٨/٢) .
(٣) أخرجه مسلم في المساجد (٦٧) والبيهقي في السنن (٧٣/٣) .
(٤) أخرجه الطبراني في الصغير (٨٤/٢) .

سورة التين

عن البراء بن عازب كان النبيّ ﷺ يقرأ في سفره في إحدى الركعتين بالتين والزيتون فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا أو قراءة منه .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ .

اختلف المفسرين ههنا على أقوال كثيرة فقيل : المراد بالتين مسجد دمشق . وقيل : وهي نفسها . وقيل : الجبل الذي عندها . وقال القرطبي : هو مسجد أصحاب الكهف . وعن ابن عبّاس : أنه مسجد نوح الذي على الجودي ، وقال مجاهد : هو تينكم هذا ﴿ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ قال كعب الأحبار وقتادة : هو مسجد بيت المقدس . وقال مجاهد وعكرمة : هو هذا الزيتون الذي تعصرون ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ وقيل : هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ يعني مكة قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما ولا خلاف في ذلك ، وقال بعض الأئمة : هذه محال ثلاثة بعث الله في كل واحد منها نبيًا مرسلًا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار فالأول محله التين والزيتون وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم عليه السلام والثاني طور سينين وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران والثالث مكة وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمنًا ، وهو الذي أرسل فيه محمّدًا ﷺ . قالوا وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة : جاء الله من طور سيناء – يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران – وأشرق من ساعير – يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى – واستعلن من جبال فاران – يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمّدًا ﷺ فذكرهم مخبرًا عنهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان ، ولهذا أقسم بالأشرف ثم الأشرف منه ثم بالأشرف منهما .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ هذا هو المقسم عليه وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة وشكل منتصب القامة سوي الأعضاء حسنها ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ أي إلى النار ، قاله مجاهد وأبو العالية وغيرهما ثم بعد هذا الحسن والنضارة مصيرهم إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل . ولهذا قال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ وقال بعضهم ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ أي إلى أرذل العمر ، وروي هذا عن عكرمة قال : من جمع القرآن لم يرد إلى أرذل العمر واختار ذلك ابن جرير ، ولو كان هذا هو المراد لما حسن استثناء المؤمنين من ذلك ، لأن الهرم قد يصيب بعضهم ، وإنما المراد ما ذكرناه . وقوله تعالى : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير مقطوع كما تقدم ، ثم قال : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ أي يا ابن آدم ﴿ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴾ أي بالجزاء في المعاد ولقد علمت البدأة وعرفت أن من قدر على البدأة فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى ، فأي شيء يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا . عن منصور قال : قلت لمجاهد ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴾ عنى به النبيّ ﷺ قال : معاذ الله ، عنى به الإنسان . وقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ أي أما هو أحكم الحاكمين الذي لا يجور ولا يظلم أحدًا ومن عدله أن يقيم القيامة فينتصف للمظلوم في الدنيا ممن ظلمه .

سورة العلق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

عن عائشة قالت : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبّب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى فجأه الوحي وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ ، قال رسول الله ﷺ : « فَقُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ - قال - فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجُهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : اقْرَأْ . فَقُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجُهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : اقْرَأْ فَقُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجُهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ - حتى بلغ - ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ » . قال : فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال : « زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي » . فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع فقال : « يَا خُدِيجَةَ مَا لِي ؟ » . وأخبرها الخبر وقال : « قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي » . فقالت له : كلّا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق ، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي وهو ابن عم خديجة أخي أبيها وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العربي وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب وكان شيخًا كبيرًا قد عمي . فقالت خديجة : أي ابن عم اسمع من ابن أخيك . فقال ورقة : ابن أخي ما ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى ، فقال ورقة : هذا الناموس الذي أنزل على موسى ليتني فيها جذعًا ليتني أكون حيًّا حين يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ : « أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ ؟ » فقال ورقة : نعم لم يأت رجل قط بما جئت به إلّا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا . ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله ﷺ فيما بلغنا حزنًا غدًا منه مرارًا كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال : يا محمّد إنك رسول الله حقًّا ، فيسكن بذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فإذا أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له : مثل ذلك [1] .

فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات ، وهي أول رحمة رحم الله بها العباد وأول نعمة أنعم الله بها عليهم ، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقه ، وأن من كرمه تعالى أن علّم الإنسان ما لم يعلم فشرّفه وكرّمه بالعلم وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة ، والعلم تارة يكون في الأذهان . وتارة يكون في اللسان وتارة يكون في الكتابة بالبنان ذهني ولفظي ورسمي . والرسم يستلزمهما من غير عكس . فلهذا قال : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ وفي الأثر قيدوا العلم بالكتابة ، وفيه أيضًا من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يكن يعلم .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٢٣٢) .

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۞ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۞ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۞ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۞ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۞ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ۞ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۞ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۞ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۞ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ۞ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ۞ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۞ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴾ .

يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله ، ثم تهدده وتوعده ووعظه فقال ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴾ أي إلى الله المصير والمرجع وسيحاسبك على مالك من أين جمعته وفيم صرفته . عن عون قال : قال عبد الله : منهومان لا يشبعان صاحب العلم وصاحب الدنيا ولا يستويان فأما صاحب العلم فيزداد رضى الرحمن وأما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان ، قال ثم قرأ عبد الله ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ وقال للآخر : ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ ﴾ وقد روي هذا مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ « مَنْهُومَانِ لَا يَشْبعَانِ طَالِبُ عِلْمٍ وَطَالِبُ دُنْيَا » (١) ثم قال تعالى : ﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۞ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ نزلت في أبي جهل لعنه الله ، توعد النبيّ ﷺ على الصلاة عند البيت فوعظه تعالى بالتي هي أحسن أولًا فقال : ﴿ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾ أي فما ظنك إن كان هذا الذي تنهاه على الطريق المستقيمة في فعله ﴿ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ﴾ بقوله وأنت تزجره وتتوعده على صلاته ولهذا قال : ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ أي أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ، ويسمع كلامه وسيجازيه على فعله أتم الجزاء . ثم قال تعالى متوعدًا ومتهددًا ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ ﴾ أي لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد ﴿ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ أي لنسمنها سوادًا يوم القيامة . ثم قال : ﴿ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ﴾ يعني ناصية أبي جهل كاذبة في مقالها خاطئة في أفعالها ﴿ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ﴾ أي قومه وعشيرته أي ليدعهم يستنصر بهم ﴿ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ وهم ملائكة العذاب حتى يعلم من يغلب أحزبنا أو حزبه ؟ وعن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمّدًا يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه ، فبلغ النبيّ ﷺ فقال : « لَئِنْ فَعَلَ لأَخَذَتْهُ الملائكةُ » (٢) .

وعن أبي هريرة قال : قال أبو جهل : هل يعفر محمّد وجهه بين أظهركم . قالوا : نعم ، قال : فقال : واللات والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه في التراب ؛ فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته ، قال : فما فجأهم منه إلَّا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه ، قال : فقيل له ما لك ؟ فقال : إن بيني وبينه خندقًا من نار وهولًا وأجنحة قال : فقال رسول الله ﷺ : « لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ المَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا » . قال وأنزل الله لا أدري في حديث أبي هريرة أم لا ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴾ إلى آخر السورة (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ ﴾ يعني يا محمّد لا تطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها وصل حيث شئت ، ولا تباله فإن الله حافظك وناصرك وهو يعصمك من الناس ﴿ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴾ كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ » (٤) . وتقدم أيضًا أن رسول الله ﷺ كان يسجد في ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴾ و ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٩٢/١) والطبراني في الكبير (٢٢٣/١٠) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٤٨) وأحمد في مسنده (٢٤٨/١) . (٣) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٣٨) .

(٤) أخرجه مسلم في الصلاة (٢١٥) وأبو داود في السنن (٧٨٥) وأحمد في مسنده (٢٤١/٢) .

سورة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ .

يخبر تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر ، وهي الليلة المباركة التي قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ وهي ليلة القدر وهي من شهر رمضان كما قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ قال ابن عبّاس وغيره : أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ثم نزل مفصلًا حسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ ثم قال تعالى معظمًا لشأن ليلة القدر : التي اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها فقال : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ . عن القاسم بن الفضل الحداني عن يوسف بن سعد قال : قام رجل إلى الحسن ابن علي بعدما بايع معاوية فقال : سودت وجوه المؤمنين أو يا مسود وجوه المؤمنين فقال : لا تؤنبني رحمك الله ، فإن النبيّ ﷺ أري بني أمية على منبره فساءه ذلك فنزلت ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ يا محمّد يعني نهرًا في الجنة ونزلت ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ يملكها بعدك بنو أمية يا محمّد ، قال القاسم : فعددنا إذا هي ألف شهر لا تزيد يومًا ولا تنقص .

قلت : وقول القاسم بن الفضل الحداني إنه حسب مدة بني أمية فوجدها ألف شهر لا تزيد يومًا ولا تنقص ليس بصحيح ، فإن معاوية بن أبي سفيان ﷺ استقل بالملك حين سلم إليه الحسن بن علي الإمرة سنة أربعين ، واجتمعت البيعة لمعاوية وسمي ذلك عام الجماعة ، ثم استمروا فيها متتابعين بالشام وغيرها لم تخرج عنهم إلّا مدة دولة عبد الله بن الزبير في الحرمين والأهواز وبعض البلاد قريبًا من تسع سنين ، ولكن لم تزل يدهم عن الإمرة بالكلية بل عن بعض البلاد إلى أن استلبهم بنو العباس الخلافة في سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، فيكون مجموع مدتهم اثنتين وتسعين سنة ، وذلك أزيد من ألف شهر فإن الألف شهر عبارة عن ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر ، وكأن القاسم بن الفضل أسقط من مدتهم أيام ابن الزبير وعلى هذا فيقارب ما قاله الصحة في الحساب والله أعلم ، ومما يدل على ضعف هذا الحديث أنه سيق لذم دولة بني أمية ، ولو أريد ذلك لم يكن بهذا السياق ، فإن تفضيل ليلة القدر على أيامهم لا يدل على ذم أيامهم ، فإن ليلة القدر شريفة جدًّا ، والسورة الكريمة إنما جاءت لمدح ليلة القدر ، فكيف تمدح بتفضيلها على أيام بني أمية التي هي مذمومة بمقتضى هذا الحديث وهل هذا إلّا كما قال القائل :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ ينقصُ قَدْرُه ... إِذَا قِيلَ إِنَّ السَّيفَ أَمْضَى مِنَ العَصَا

وقال آخر :

إِذَا أَنْتَ فَضَّلْتَ امْرأً ذَا بَرَاعَةٍ ... عَلَى نَاقِصٍ كَانَ المَدِيحُ مِنَ النَّقْصِ

ثم الذي يفهم من الآية أن الألف شهر المذكورة في الآية هي أيام بني أمية ، والسورة مكية فكيف يحال على ألف شهر هي دولة بني أمية ولا يدل عليها لفظ الآية ولا معناها والمنبر إنما صنع

بالمدينة بعد مدة من الهجرة ، فهذا كله مما يدل على ضعف الحديث ونكارته [١] ، والله أعلم .

وقال سفيان الثوري : بلغني عن مجاهد ليلة القدر خير من ألف شهر قال : عملها صيامها وقيامها خير من ألف شهر . وعن مجاهد : ليلة القدر خير من ألف شهر ليس في تلك الشهور ليلة القدر . وقال عمرو بن قيس الملائي : عمل فيها وخير من عمل ألف شهر ، وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ليس فيها ليلة القدر . وهو اختيار ابن جرير وهو الصواب لا ما عداه وهو كقوله ﷺ : « رِبَاطُ لَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ المَنَازِلِ » [٢] . وكما جاء في قاصد الجمعة بهيئة حسنة ، ونية صالحة أنه يكتب له عمل سنة أجر صيامها وقيامها إلى غير ذلك من المعاني المشابهة لذلك .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما حضر رمضان قال رسول الله ﷺ : « قَدْ جَاءَكُمْ شَهْرُ رَمَضَانَ شَهْرٌ مُبَارَكٌ افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ ، تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ الجَنَّةِ وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الجَحِيمِ ، وَتُغَلُّ فِيهِ الشَّيَاطِينِ ، فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ » [٣] . ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر ثبت عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » [٤] ، وقوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أي تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها ، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ويحيطون بحلق الذكر ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيمًا له وأما الروح فقيل المراد به ههنا جبريل عليه السلام فيكون من باب عطف الخاص على العام وقيل هم ضرب من الملائكة وقوله تعالى : ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ قال مجاهد : سلام هي من كل أمر . وعنه في قوله ﴿ سَلَٰمٌ هِىَ ﴾ قال : هي سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءًا أو يعمل فيها أذى ، وقال قتادة وغيره : تقضى فيها الأمور وتقدر الآجال والأرزاق . كما قال تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ عن الشعبي في قوله تعالى : ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ قال : تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد حتى يطلع الفجر . وقال قتادة وابن زيد في قوله ﴿ سَلَٰمٌ هِىَ ﴾ يعني هي خير كلها ليس فيها شر إلى مطلع الفجر ، ويؤيد هذا المعنى ما روي عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال : « لَيْلَةُ القَدْرِ فِي العَشْرِ البَوَاقِي ، مَنْ قَامَهُنَّ ابْتِغَاءَ حِسْبَتِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ وَهِيَ لَيْلَةٌ وِتْرٌ : تِسْعٌ أو سبع أَوْ خَامِسَةٌ أَوْ ثَالِثَةٌ أَوْ آخِرُ لَيْلَةٍ » . وقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَمَارَةَ لَيْلَةِ أَنَّهَا صَافِيَةٌ بلْجَةٌ كَأَنَّ فِيهَا قَمَرًا سَاطِعًا سَاكِنَةٌ سَاجِيَةٌ لَا بَرْدَ فِيهَا وَلَا حَرَّ وَلَا يَحِلُّ لِكَوْكَبٍ يُرْمَى بِهِ حَتَّى يُصْبِحَ ، وَأَنَّ أَمَارَتَهَا أَنَّ الشَّمْسَ صَبِيحَتِهَا تَخْرُجُ مُسْتَوِيَةً لَيْسَ لَهَا شُعَاعٌ مِثْلُ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ وَلَا يَحِلُّ لِلشَّيْطَانِ أَنْ يَخْرُجَ مَعَهَا يَوْمَئِذٍ » [٥] .

فصل : اختلف العلماء هل كانت ليلة القدر في الأمم السالفة أو هي من خصائص هذه الأمة ؟ على

(١) انظر الحديث في الترمذي في السنن (٣٣٥٠) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٦٦٤) وأحمد في مسنده (٧٥/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٠/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٠١) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٤/٥) .

قولين . قال مالك : أنه بلغه أن رسول الله ﷺ أري أعمار الناس قبله أو ما شاء الله من ذلك فكأنه تقاصر أعمار أُمته أن لا يبلغوا من العمل الذي بلغ غيرهم في طول العمر فأعطاه الله ليلة القدر خيرًا من ألف شهر . وهذا الذي قاله مالك يقتضي تخصيص هذه الأمة بليلة القدر وقد نقله صاحب العدة أحد أئمة الشافعية عن جمهور العلماء فالله أعلم . وحكى الخطابي عليه الإجماع ونقله الراضي جازمًا به عن المذهب ، والذي دلّ عليه الحديث أنها كانت في الأمم الماضين كما هي في أمتنا .

وعن مرثد قال : سألت أبا ذر قلت : كيف سألت رسول الله ﷺ عن ليلة القدر ؟ قال : أنا كنت أسأل الناس عنها قلت : يا رسول الله أخبرني عن ليلة القدر أفي رمضان هي أو في غيره ؟ قال : « بَلْ هِيَ فِي رَمَضَانَ » . قلت : تكون مع الأنبياء ما كانوا فإذا قبضوا رفعت أم هي إلى يوم القيامة ؟ قال « بَلْ هِيَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ » . قلت : في أي رمضان هي قال : « التَمِسُوهَا فِي العَشْرِ الأَوَّلِ وَالعَشْرِ الأخرِ » . ثم حدَّث رسول الله ﷺ وحدَّث ثم اهتبلت غفلته ، قلت : في أي العشرين هي ؟ قال : « اِبْتَغُوهَا فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ ، لَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا » . ثم حدَّث رسول الله ﷺ ثم اهتبلت غفلته فقلت : يا رسول الله أقسمت عليك بحقي عليك لما أخبرتني في أي العشر هي ؟ فغضب علي غضبًا لم يغضب مثله منذ صحبته وقال : « اِلْتَمِسُوهَا فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ ، لَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا » (١) . ففيه دلالة على ما ذكرناه وفيه أنها تكون باقية إلى يوم القيامة في كل سنة بعد النبيّ ﷺ لا كما زعمه بعض طوائف الشيعة من رفعها بالكلية على ما فهموه من الحديث الذي سنورده بعد من قوله عليه الصلاة والسلام « فَرفِعَتْ وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ » . لأن المراد رفع علم وقتها عينًا . وفيه دلالة على أن ليلة القدر يختص وقوعها بشهر رمضان من بين سائر الشهور ، لا كما روي عن ابن مسعود ومن تابعه من علماء أهل الكوفة من أنها توجد في جميع السنة وترتجى في جميع الشهور على السواء .

وقد ترجم أبو داود في سننه على هذا فقال : باب بيان أن ليلة القدر في كل رمضان . عن عبد الله ابن عمر قال : سئل رسول الله ﷺ وأنا أسمع عن ليلة القدر . فقال : « هِيَ فِي كُلِّ رَمَضَانَ » (٢) .

فصل : ثم قد قيل إنها تكون في أول ليلة من شهر رمضان ، وقيل : إنها تقع ليلة سبع عشرة وروى فيه أبو داود حديثًا مرفوعًا عن ابن مسعود وروي موقوفًا عليه وعلى زيد بن أرقم وعثمان بن أبي العاص وهو قول عن محمّد بن إدريس الشافعي ، ويحكى عن الحسن البصري ، ووجهوه بأنها ليلة بدر وكانت جمعة هي السابعة عشرة من شهر رمضان ، في صبيحتها كانت وقعة بدر وهو اليوم الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ﴾ وقيل : ليلة تسع عشرة ، وقيل : ليلة إحدى وعشرين ؛ لحديث أبي سعيد الخدري قال : اعتكف رسول الله ﷺ في العشر الأول من رمضان واعتكفنا معه فأتاه جبريل فقال : إن الذي تطلب أمامك فاعتكف العشر الأوسط فاعتكفنا معه فأتاه جبريل فقال الذي تطلب أمامك ثم قام النبيّ ﷺ خطيبًا صبيحة عشرين من رمضان ، فقال : « مَنْ كَانَ اعْتَكَفَ مَعِي فَلْيَرْجِعْ فَإِنِّي رَأَيْتُ لَيْلَةَ القَدْرِ وَإِنِّي أُنْسِيتُهَا وَإِنَّهَا فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ فِي وِتْرٍ وَإِنِّي رَأَيْتُ كَأَنِّي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧١/٥) والحاكم في المستدرك (٤٣٣/١) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (١٣٨٧) والبيهقي في السنن (٣٠٧/٤) .

أَسْجُدُ فِي طِينٍ وَمَاءٍ » . وكان سقف المسجد جريدًا من النخل وما نرى في السماء شيئًا فجاءت قزعة فمطرنا فصلّى بنا النبيّ ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ تصديق رؤيا . وفي لفظ : في صبح إحدى وعشرين [١] قال الشافعي : وهذا الحديث أصح الروايات ، وقيل ليلة ثلاث وعشرين لحديث عبد الله بن أنيس وهو قريب السياق من رواية أبي سعيد فالله أعلم ، وقيل ليلة أربع وعشرين . عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « لَيْلَةُ القَدْرِ لَيْلَةُ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ » [٢] . وقد تقدم في سورة البقرة حديث واثلة بن الأسقع مرفوعًا « إِنَّ القُرْآنَ أُنْزِلَ ليلة أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ » . وقيل تكون ليلة خمس وعشرين لما رواه عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ قال « التمسوها في العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَان فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَي فِي سابعة تبقى فِي خَامِسَةٍ تَبْقَى » [٣] . فسره كثيرون بليالي الأوتار وهو أظهر وأشهر ، وحمله آخرون على الأشفاع . عن أبي سعيد أنه حمله على ذلك والله أعلم ، وقيل إنها تكون ليلة سبع وعشرين لما رواه أبي فقال : والله الذي لا إله إلّا هو إنها لفي رمضان يحلف ما يستثني ووالله إني لأعلم أي ليلة القدر هي التي أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها هي ليلة سبع وعشرين ، وأمارتها أن تطلع الشمس في صبيحتها بيضاء لا شعاع لها ، وفي الباب عن معاوية وابن عمر وابن عباس وغيرهم عن رسول الله ﷺ أنها ليلة سبع وعشرين وهو قول طائفة من السلف وهو الجادة من مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وهو رواية عن أبي حنيفة أيضًا وقد حكي عن بعض السلف أنه حاول استخراج كونها ليلة سبع وعشرين من القرآن من قوله ﴿ هِيَ ﴾ لأنها الكلمة السابعة والعشرين من السورة فالله أعلم .

قال ابن عبّاس : دعا عمر بن الخطاب أصحاب محمّد ﷺ فسألهم عن ليلة القدر فأجمعوا أنها في العشر الأواخر ، قال ابن عبّاس : فقلت لعمر : إني لأعلم - أو إني لأظن - أي ليلة القدر هي فقال عمر : وأي ليلة هي ؟ فقلت : سابعة تمضي - أو سابعة تبقى - من العشر الأواخر فقال عمر : من أين علمت ذلك قال ابن عبّاس فقلت : خلق الله سبع سموات وسبع أرضين وسبعة أيام وإن الشهر يدور على سبع وخلق الإنسان من سبع ويأكل من سبع ويسجد على سبع والطواف بالبيت سبع ورمي الجمار سبع لأشياء ذكرها . فقال عمر : لقد فطنت لأمر ما فطنا له ، وعن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر فقال رسول الله ﷺ : « في رَمَضَانَ فَالْتَمِسُوهَا فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ فَإِنَّهَا فِي وِتْرٍ إِحْدَى وَعِشْرِينَ أَوْ ثَلَاث وَعِشْرِينَ أَوْ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ أَوْ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ أَوْ تسع وعشرين أو في آخر لَيْلَةٍ » [٤] . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر : « إِنَّهَا فِي لَيْلَةِ سَابِعَةٍ أَوْ تَاسِعَةٍ وَعِشْرِينَ وَإِنَّ المَلَائِكَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي الأَرْضِ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ الحَصَى » [٥] . وعن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال : « فِي تِسْعٍ يَبْقَيْنَ أَوْ سَبْعٍ يَبْقَيْنَ أَوْ خَمْسٍ يَبْقَيْنَ أَوْ ثَلَاثٍ أَوْ آخِرِ لَيْلَةٍ يَعْنِي الْتَمِسُوا لَيْلَةَ القَدْرِ » . وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ في ليلة القدر « إِنَّهَا آخِرُ لَيْلَةٍ » .

(١) أخرجه البخاري في الاعتكاف (٢٠٤٠) والبيهقي في السنن (٢/٢٨٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦/١٢) .
(٣) أخرجه البخاري في ليلة القدر (٢٠٢١) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٣٢٠) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٥١٦) .

فصل : قال الشافعي في هذه الروايات : صدرت من النبيّ ﷺ جوابًا للسائل إذا قيل له أنلتمس ليلة القدر في الليلة الفلانية ؟ يقول : « نَعَمْ » . وإنما ليلة القدر ليلة معينة لا تنتقل . وروي عن أبي قلابة أنه قال : ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر وهذا الذي حكاه عن أبي قلابة نص عليه مالك والثوري وأحمد بن حنبل وغيرهم . وهو محكي عن الشافعي وهو الأشبه والله أعلم . وقد يستأنس لهذا القول بما ثبت عن عبد الله بن عمر أن رجالًا من أصحاب النبيّ ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان ، فقال رسول الله ﷺ : « أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ فَمَنْ كَانَ مُتَحَرِّيهَا فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ » (١) . وفيها أيضًا عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « تَحَرَّوْا لَيْلَةَ القَدْرِ فِي الوِتْرِ مِنَ العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ » (٢) . ويحتج للشافعي أنها لا تنتقل وأنها معينة من الشهر ، بما رواه عبادة بن الصامت قال : خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين فقال : « خَرَجْتُ لأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ القَدْرِ فَتَلَاحَى فُلَانٌ وَفُلَانٌ فَرُفِعَتْ وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ فَالْتَمِسُوها فِي التَّاسِعَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالخَامِسَةِ » (٣) . وجه الدلالة منه أنها لو لم تكن معينة مستمرة التعيين لما حصل لهم العلم بعينها في كل سنة ؛ إذ لو كانت تنتقل لما علموا تعيينها إلا ذلك العام فقط ، اللهم إلا أن يقال : إن إنما خرج ليعلمهم بها تلك السنة فقط . وقوله : « فَتَلَاحَى فُلَانٌ وَفُلَانٌ فَرُفِعَتْ » . فيه استئناس لما يقال إن المماراة تقطع الفائدة والعلم النافع كما جاء في الحديث « إِنَّ العَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ » (٤) . وقوله : « فَرُفِعَتْ » . أي رفع علم تعيينها لكم لا أنها رفعت بالكلية من الوجود ، كما يقوله جهلة الشيعة لأنه قد قال بعد هذا « فَالْتَمِسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالخَامِسَةِ » . وقوله : « وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ » . يعني عدم تعيينها لكم فإنها إذا كانت مبهمة اجتهد طلابها في ابتغائها في جميع رجائها فكان أكثر للعبادة بخلاف ما إذا علموا عينها ، فإنها كانت الهمم تتقاصر على قيامها فقط ، وإنما اقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميع الشهر في ابتغائها ، ويكون الاجتهاد في العشر الأخير أكثر ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل ثم اعتكف أزواجه من بعده (٥) ، وقالت عائشة : كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله وشد المئزر (٦) ، ولمسلم عنها كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره (٧) ، وهذا معنى قولها وشد المئزر ، وقيل المراد بذلك اعتزال النساء ويحتمل أن يكون كناية عن الأمرين لما روي عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا بقي عشر من رمضان شد مئزره واعتزل نساءه (٨) . وقد حكي عن مالك رحمه الله أن جميع ليالي العشر في تطلب ليلة القدر على السواء لا يترجح منها ليلة على أخرى ، والمستحب الإكثار من

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام (٢٠٥) وأحمد في مسنده (٥/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠١٧) ومسلم في الصيام (٢١٩) .

(٣) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠٢٣) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٨٠/٥) .

(٥) أخرجه مسلم الاعتكاف (١) والبخاري في الاعتكاف (٢٠٣٣) .

(٦) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠٢٤) ومسلم في الاعتكاف (٧) .

(٧) أخرجه مسلم في الاعتكاف (٨) والترمذي في السنن (٧٩٦) .

(٨) أخرجه احمد في مسنده (٦٧/٦) .

الدعاء في جميع الأوقات ، وفي شهر رمضان أكثر وفي العشر الأخير منه ، ثم في أوتاره أكثر . والمستحب أن يكثر من هذا الدعاء : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني . فعن عائشة قالت : قلت يا رسول اللّٰه أرأيت إن علمت أي ليلة ليلة القدر ما أقول فيها ؟ قال : « قُولِي : اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي » [1] .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥١٣) وابن ماجه في السنن (٣٨٥٠) وأحمد في مسنده (١٨٣/٦) .

سورة البينة

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب : « إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ » . قال : وسماني لك ؟ قال [١] : « نَعَمْ » . فبكى .

وعن أُبي بن كعب قال : إن رسول الله ﷺ قال لي : « إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ – قال : فقرأ – ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ – قال : فقرأ فيها – وَلَوْ أَنَّ آدَمَ سَأَلَ وَادِيًا مِنْ مَالٍ فَأُعْطِيَهُ لَسَأَلَ ثَانِيًا ، وَلَوْ سَأَلَ ثَانِيًا فَأُعْطِيَهُ لَسَأَلَ ثَالِثًا ، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدم إِلَّا التُّرَابُ ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ ، وَإِنَّ ذَاتَ الدِّينِ عِنْدَ اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ غَيْرُ الْمُشْرِكَةِ وَلَا الْيَهُودِيَّةِ وَلَا النَّصْرَانِيَّةِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ خَيْرًا فَلَنْ يَكْفُرَهُ » [٢] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ .

أما أهل الكتاب فهم اليهود والنصارى والمشركون عبدة الأوثان والنيران من العرب ومن العجم ، وقال مجاهد : لم يكونوا ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ يعني منتهين حتى يتبين لهم الحق . وهكذا قال قتادة ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ أي هذا القرآن ولهذا قال تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ . ثم فسر البينة بقوله ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ يعني محمدًا ﷺ وما يتلوه من القرآن العظيم الذي هو مكتتب في الملأ الأعلى في صحف مطهرة . وقوله تعالى : ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ قال ابن جرير : أي في الصحف المطهرة كتب من الله قيمة عادلة مستقيمة ليس فيها خطأ لأنها من عند الله ﷻ وقوله تعالى ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ يعني بذلك أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبينات تفرقوا واختلفوا في الذي أراده الله من كتبهم واختلفوا اختلافًا كثيرًا كما جاء في الحديث « إِنَّ الْيَهُودَ اخْتَلَفُوا عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَإِنَّ النَّصَارَى اخْتَلَفُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَسَتَفْتَرِقُ هذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً » قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : « مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي » [٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ كقوله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ ولهذا قال ﴿ حُنَفَاءَ ﴾ أي متحنفين من الشرك إلى التوحيد ﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ وهي أشرف عبادات البدن ﴿ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وهي الإحسان إلى الفقراء والمحاويج ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ أي الملة القائمة العادلة أو الأمة المستقيمة المعتدلة ، وقد استدل كثير من الأئمة كالزهري والشافعي بهذه الآية الكريمة على أن الأعمال داخلة في الإيمان ولهذا قال : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٥٩) وأحمد في مسنده (١٣٠/٣) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٦٠) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٥/٣) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ .

يخبر تعالى عن مآل الفجار من كفرة أهل الكتاب والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة وأنبياء الله المرسلة أنهم يوم القيامة في نار جهنم خالدين فيها ، أي ماكثين فيها لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ أي شر الخليقة التي برأها الله وذرأها . ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بأبدانهم ، بأنهم خير البرية ، وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء على تفضيل المؤمنين من البرية الملائكة لقوله : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أي بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ ومقام رضاه أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ فيما منحهم من الفضل العميم . وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ أي هذا الجزاء حاصل لمن خشي الله واتقاه حق تقواه ، وعبده كأنه يراه ، وعلم أنه إن لم يره فإنه يراه . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ البَرِيَّةِ ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله قال : « رَجُلٌ أَخَذَ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّه ، كُلَّما كَانَتْ هَيْعَةٌ اسْتَوَى عَلَيْهِ . أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ البَرِيَّةِ ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « رَجُلٌ فِي ثُلَّةٍ مِنْ غَنَمِهِ يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَر البَرِيَّةِ ؟ » قالوا : بلى . قال : « الَّذِي يُسْأَلُ بِاللَّه وَلَا يُعْطِي بِهِ » (١) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٦/٢) .

سورة الزلزلة

عن عبد الله بن عمرو قال : أتى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أقرئني يا رسول الله . قال له : « اِقْرَأْ ثَلَاثًا مِنْ ذَوَاتِ الرَّاءِ » فقال له الرجل : كبر سني واشتد قلبي وغلظ لساني ، قال : « فَاقْرَأْ مِنْ ذَوَاتِ حم » فقال مثل مقالته الأولى ، فقال : « اِقْرَأْ ثَلَاثًا مِنَ الْمُسَبِّحَاتِ » فقال مثل مقالته ، فقال الرجل : ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة فأقرأه ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ حتى إذا فرغ منها قال الرجل : والذي بعثك بالحق نبيًّا لا أزيد عليها أبدًا ثم أدبر الرجل . فقال رسول الله ﷺ : « أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ ، أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ - ثم قال - عَلَيَّ بِهِ - فجاءه فقال له - أُمِرْتُ بِيَوْمِ الأَضْحَى جَعَلَهُ اللَّهُ عِيدًا لِهَذِهِ الأُمَّةِ » فقال له الرجل : أرأيت إن لم أجد إلَّا منيحة أنثى فأضحي بها ، قال : « لَا وَلَكِنَّكَ تَأْخُذُ مِنْ شَعْرِكَ وَتُقَلِّمُ أَظْفَارَكَ وَتَقُصُّ شَارِبَكَ وَتَحْلِقُ عَانَتَكَ فَذَاكَ تَمَامُ أُضْحِيَتِكَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ » (١) وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ، وَإِذَا زُلْزِلَتْ تَعْدِلُ رُبُعَ الْقُرْآنِ » (٢) وعن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا زُلْزِلَتْ تَعْدِلُ نِصْفَ الْقُرْآنِ ، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ، وَقُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ تَعْدِلُ رُبُعَ الْقُرْآنِ » (٣) وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه : « هَلْ تَزَوَّجْتَ يَا فُلَانُ » قال : لا والله يا رسول الله ولا عندي ما أتزوج ؟ قال : « أَلَيْسَ مَعَكَ قُلْ هُو اللَّهُ أَحَدٌ ؟ » قال : بلى قال : ثلث القرآن - قال : أَلَيْسَ مَعَكَ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ - قال : بلى ، قال : رُبُعُ الْقُرْآنِ - قال : أَلَيْسَ مَعَكَ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ؟ - قال : بلى قال - رُبُعُ الْقُرْآنِ - قال أَلَيْسَ مَعَكَ إذا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ - قال : بلى ، قال : رُبُعُ الْقُرْآنِ ، تَزَوَّجْ (٤) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ۝ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ .

قال ابن عبّاس : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ أي تحركت من أسفلها ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ يعني ألقت ما فيها من الموتى . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « تُلْقِي الأَرْضُ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا أَمْثَالَ الأُسْطُوَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ فَيَجِيءُ القَاتِلُ فَيَقُولُ فِي هذَا قَتَلْتُ ، وَيَجِيءُ القَاطِعُ فَيَقُولُ فِي هذَا قَطَعْتُ رَحِمِي ، وَيَجِيءُ السَّارِقُ فَيَقُولُ في هذا قطعت يَدِي ، ثُمَّ يَدَعُونَهُ فَلا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا » (٥) وقوله عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴾ أي استنكر أمرها بعدما كانت قارة ساكنة ثابتة وهو

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٩/٢) وأبو داود في السنن (١٣٩٩) والحاكم في المستدرك ٥٣٢/٢ .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٥٩) والترمذي في السنن (٢٨٩٩) والنسائي في السنن ٢٥٠/٢) ، وأحمد في مسنده (٤١٨/٥) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٩٤) والحاكم في المستدرك (٥٦٦/١) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٩٥) .

(٥) أخرجه مسلم في الزكاة (٢) والترمذي في السنن (٢٢٠٨) .

مستقر على ظهرها ، أي تقلبت الحال فصارت متحركة مضطربة قد جاءها من أمر الله تعالى ما قد أعده لها من الزلزال الذي لا محيد لها عنه ثم ألقت ما في بطنها من الأموات من الأولين والآخرين وحينئذ استنكر الناس أمرها وتبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ أي تحدث بما عمل العاملون على ظهرها . عن أبي هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال : « أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال : « فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَأَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا ، أَنْ تَقُولَ عَمِلَ كَذَا وكذا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا فَهذِهِ أَخْبَارُهَا » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ قال البخاري : أوحى لها وأوحى إليها ووحى لها ووحى إليها واحد . وكذا قال ابن عبّاس أوحى لها أي أوحى إليها . والظاهر أن هذا مضمن بمعنى أذن لها . وقال ابن عبّاس ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال : قال لها ربها قولي فقالت ، وقال مجاهد : أوحى لها أي أمرها . وقال القرظي أمرها أن تنشق عنهم . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾ أي يرجعون عن موقف الحساب أشتاتًا أي أنواعًا وأصنافًا ما بين شقي وسعيد مأمور به إلى الجنة ومأمور به إلى النار ، قال ابن جريج : يتصدعون أشتاتًا فلا يجتمعون آخر ما عليهم . وقال السدي أشتاتًا فرقًا . وقوله تعالى : ﴿ لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي ليعلموا ويجازوا بما عملوه في الدنيا من خير وشر لهذا قال : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « الخَيْلُ لِثَلَاثَةٍ ؛ لِرَجُلٍ أَجْرٌ ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ ، وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ . فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا في سَبِيلِ اللهِ فَأَطَالَ طِيلَهَا في مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ ، فَمَا أَصَابَتْ في طِيلِهَا ذلِكَ في المَرْجِ وَالرَّوْضَةِ كَانَ لَهُ حَسَنَاتٍ ، وَلَو أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيلَهَا فَاسْتَنَّتْ شرفًا أَوْ شرفَيْنِ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ . وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يرد أَنْ تُسَقَى بِهِ كَانَ ذلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ ، وهِيَ لِذلِكَ الرَّجُلِ أَجْرٌ . وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغَنِّيًا وتعففا وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللهِ في رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَنوَاءً فَهِيَ عَلَى ذلِكَ وِزْرٌ » فسئل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال : « مَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا هذِهِ الآيَةَ الفَاذَّةَ الجَامِعَةَ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (٢) .

وعن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق أنه أتى النبيّ ﷺ فقرأ عليه ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ قال حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها . وعن عدي مرفوعًا « اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ » (٣) وله أيضًا « لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ في إِنَاءِ المُسْتَسْقِي وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِطٌ » (٤) وفي الصحيح : « يَا مَعْشَرَ نِسَاءِ المُؤْمِنَاتِ لَا تحقرن جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فرسنَ شَاةٍ » يعني ظلفها (٥) . عن

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٥٣) وأحمد في مسنده (٣٧٤/٢) والحاكم في المستدرك (٢٥٦/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٧٣٥٦) والترمذي في السنن (١٦٣٦) والبيهقي في السنن (١٥/١٠) .
(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٦٣) ومسلم في الزكاة (٦٨) والنسائي في السنن (٧٥/٥) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٦٤/٥) والألباني في الصحيحة (١٣٥٢) .
(٥) أخرجه مسلم في الزكاة (٩٠) والترمذي في السنن (٢١٣٠) .

عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « يَا عَائِشَةُ اسْتَتِرِي مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِنَّهَا تَسُدُّ مِنَ الجَائِعِ مَسَدَّهَا مِنَ الشَّبْعَانِ » [(١)] . وروي عن عائشة أنها تصدقت بعنبة وقالت : كم فيها من مثقال ذرة .
وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : لما أنزلت ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ وأبو بكر الصديق ﷺ قاعد فبكى ، حين أنزلت ، فقال له رسول الله ﷺ : « مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَا بَكْرٍ » قال : يبكيني هذه السورة . فقال له رسول الله ﷺ : « لَوْلَا أَنَّكُمْ تُخْطِئُونَ وَتُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ لَخَلَقَ اللَّهُ أُمَّةً يُخْطِئُونَ وَيُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ » [(٢)] .

وعن سعيد بن جبير في قول الله تعالى ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ وذلك لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه ، فيجيء المسكين إلى أبوابهم فيستقلون أن يعطوه التمرة والكسرة والجوزة ونحو ذلك فيردونه ويقولون : ما هذا بشيء إنما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه ، وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير : الكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك يقولون : إنما وعد الله النار على الكبائر فرغّبهم في القليل من الخير أن يعملوه فإنه يوشك أن يكثر ، وحذرهم اليسير من الشر فإنه يوشك أن يكثر فنزلت ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ يعني وزن أصغر النمل ﴿ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ يعني في كتابه ويسره ذلك قال يكتب لكل بر وفاجر بكل سيئة سيئة واحدة ، وبكل حسنة عشر حسنات ، فإذا كان يوم القيامة ضاعف الله حسنات المؤمنين أيضًا بكل واحدة عشرًا ويمحو عنه بكل حسنة عشر سيئات فمن زادت حسناته على سيئاته مثقال ذرة دخل الجنة . وعن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ » وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلًا كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحفر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود حتى جمعوا سوادًا وأججوا نارًا وأنضجوا ما قذفوا فيها [(٣)] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٩/٦) والمنذري في الترغيب (١٠/٢) والألباني في الصحيحة (٥٢٣) .
(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤١/٧) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٢/١) .

سورة العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴾ .

يقسم تعالى بالخيل إذا أجريت في سبيله فعدت وضبحت وهو الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو ﴿ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ﴾ يعني اصطكاك نعالها للصخر فتقدح منه النار ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ يعني الإغارة وقت الصباح كما كان رسول الله ﷺ يغير صباحًا ويستمع الأذان فإن سمع أذانًا وإلا أغار . وقوله تعالى : ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ يعني غبارًا في مكان معترك الخيول ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ أي توسطن ذلك المكان كلهن جمع . وعن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس حدَّثه قال : بينا أنا في الحجر جالسًا جاءني رجل فسألني عن : ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴾ فقلت له : الخيل حين تغير في سبيل الله ثم تأوي إلى الليل فيصنعون طعامهم ويورون نارهم . فانفتل عني فذهب إلى علي ﷺ وهو عند سقاية زمزم ، فسأله عن العاديات ضبحًا فقال : سألت عنها أحدًا قبلي ؟ قال : نعم سألت ابن عبّاس فقال : الخيل حين تغير في سبيل الله . قال : اذهب فادعه لي فلما وقف على رأسه قال : أتفتي الناس بما لا علم لك . والله لئن كان أول غزوة في الإسلام بدر وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد فكيف تكون العاديات ضبحًا . إنما العاديات ضبحًا من عرفة إلى المزدلفة ومن المزدلفة إلى منى ، قال ابن عباس : فنزعت عن قولي ورجعت إلى الذي قال علي ﷺ ، ﴿ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ﴾ يعني : بحوافرها وقيل : أسعرت الحرب بين ركبانهن ، وقال مجاهد : يعني : مكر الرجال وقيل : هو إيقاد النار إذا رجعوا إلى منازلهم من الليل . وقيل المراد بذلك نيران القبائل . وقال من فسرها بالخيل هو إيقاد النار بالمزدلفة . قال ابن جرير : والصواب الأول : أنها الخيل حين تقدح بحوافرها .

وقوله تعالى : ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ قال ابن عباس وقتادة : يعني : إغارة الخيل صبحًا في سبيل الله ، وقال من فسرها بالإبل هو : الدفع صبحًا من المزدلفة إلى منى . وقالوا كلهم في قوله : ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ هو : المكان الذي حلت فيه أثارت به الغبار إما في حج أو غزو . وقوله تعالى : ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ يعني : جمع الكفار من العدو ويحتمل أن يكون فوسطن بذلك المكان جميعًا ويكون جمعًا منصوبًا على الحال المؤكدة . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ هذا هو المقسم عليه بمعنى أنه لنعم ربه لكفور جحود . قال أنس وابن زيد : الكنود الكفور . قال الحسن : الكنود هو الذي يعد المصائب وينسى نعم الله عليه . وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ قال قتادة وسفيان الثوري : وإن الله على ذلك لشهيد ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان فيكون تقديره : وإن الإنسان على كونه كنودًا لشهيد أي بلسان حاله أي : ظاهر ذلك عليه في أقواله وأفعاله . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ أي : وإنه لحب الخير وهو المال لشديد ، وفيه مذهبان : أحدهما أن المعنى إنه لشديد المحبة للمال والثاني : وإنه لحريص بخيل من محبة

المال وكلاهما صحيح . ثم قال تبارك وتعالى مزهدًا في الدنيا ومرغِّبًا في الآخرة ومنبهًا على ما هو كائن بعد هذه الحال وما يستقبله الإنسان من الأهوال ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ أي : أخرج ما فيها من الأموات . ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ قال ابن عبّاس وغيره يعني أبرز وأظهر ما كانوا يسرون في نفوسهم ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ أي : لعالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون ومجازيهم عليه أوفر الجزاء ولا يظلم مثقال ذرة .

سورة القارعة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴾ .

القارعة من أسماء يوم القيامة كالحاقة والطامة والصاخة والغاشية وغير ذلك . ثم قال تعالى معظمًا أمرها ومهولًا لشأنها ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ ثم فسر ذلك بقوله : ﴿ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ﴾ أي في انتشارهم وتفرقهم وذهابهم ومجيئهم من حيرتهم مما هم فيه كأنهم فراش مبثوث . وقوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ﴾ يعني صارت كأنها الصوف المنفوش الذي قد شرع في الذهاب والتمزُّق . ثم أخبر تعالى عما يؤول إليه عمل العاملين ، وما يصيرون إليه من الكرامة والإهانة بحسب أعمالهم فقال : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أي رجحت حسناته على سيئاته ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴾ يعني في الجنة ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أي رجحت سيئاته على حسناته ، وقوله تعالى : ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ﴾ قيل : معناه فهو ساقط هاوٍ بأمِّ رأسه في نار جهنم وعبرّ عنه بأمه يعني دماغه . وقال قتادة : يهوي في النار على رأسه ، وقيل : معناه فأمه التي يرجع إليها ويصير في المعاد إليها هاوية وهي اسم من أسماء النار ، قال ابن جرير : إنما قيل للهاوية أمه لأنه لا مأوى له غيرها ، عن الأشعث بن عبد الله الأعمى قال : إذا مات المؤمن ذهب بروحه إلى أرواح المؤمنين فيقولون : روحوا أخاكم ، فإنه كان في غم الدنيا ، قال فيسألونه : ما فَعَل فلان ، فيقول : مات ، أو ما جاءكم ؟ فيقولون : ذهب به إلى أمه الهاوية . وقوله تعالى : ﴿ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴾ أي حارة شديدة الحر قوية اللهب والسعير . عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال : « نَارُ بَنِي آدَمَ الَّتِي تُوقِدُونَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ » قالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية ؟ فقال : « إِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا » (١) و عن يحيى بن جعدة . . عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ : « إِنَّ نَارَكُمْ هذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ وَضُرِبَتْ بِالبَحْرِ مَرَّتَيْنِ ، وَلَوْلَا ذلِكَ مَا جَعَلَ اللَّه فِيهَا مَنْفَعَة لِأَحَدٍ » (٢) وعن أبي هريرة ﷺ عن النبيّ ﷺ قال : « هذِهِ النَّارُ جُزْءٌ مِنْ مِائَةِ جُزْءٍ مِنْ جَهَنَّمَ » (٣) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أُوقِدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ » (٤) وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال : « إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ نَعْلَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ » (٥) وثبت أن رسول الله ﷺ قال : « اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ : يَا رَبِّ ، أكل

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٧/٢) ومالك في الموطأ (٩٩٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٤/٢) والدرامي في السنن (٣٤٠/٢) وابن ماجه في السنن (٤٣١٨) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٩/٢) .
(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٩١) .
(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (٤٦٣) .

بَعْضِي بَعْضًا فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ نَفَس في الشِّتَاءِ وَنَفَس فِي الصَّيْفِ فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ في الشِّتَاءِ مِنْ بَرْدِهَا وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ في الصَّيْفِ مِنْ حَرِّهَا »[1] وقال : « إِذَا اشْتَدَّ الحَرُّ فَأَبْرِدُوا عَنِ الصَّلَاةِ فَإِنَّ شِدَّةَ الحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ »[2] .

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٣٧) ، مسلم في المساجد (١٨٥) والترمذي في السنن (٥٩٢) .
(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٣٣) مسلم في المساجد (١٨) وأبو داود في السنن (٤٠٢) .

سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ .

يقول تعالى : أشغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها ، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر وصرتم من أهلها .

عن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ عَنِ الطَّاعَةِ ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ حَتَّى يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ » وقال الحسن البصري : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ في الأموال والأولاد ، وعن أنس بن مالك عن أُبيّ بن كعب قال : كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ يعني : « لَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وَادٍ مِنْ ذَهَبٍ » (١) وعن عبد الله بن الشخير قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : « ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي ، مالي ، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ » ؟ (٢) وعن أنس بن مالك : قال رسول الله ﷺ : « يَتْبَعُ المَيِّتَ ثَلَاثَةٌ فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ : يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ » (٣) وعن أنس أن النبيّ ﷺ قال : « يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَبْقَى مَعَهُ اثْنَتَانِ : الحِرْصُ وَالأَمَلُ » (٤) وذكر في ترجمة الأحنف بن قيس واسمه الضحاك أنه رأى في يد رجل درهمًا فقال : لمن هذا الدرهم ؟ فقال الرجل : لي ، فقال : إنما هو لك إذا أنفقته في أجر أو ابتغاء شكر ، ثم أنشد الأحنف متمثلًا قول الشاعر :

أَنْتَ لِلْمَالِ إِذَا أَنْسَكْتَهُ فَإِذَا أَنْفَقْتَهُ فَالمَالُ لَكْ

وعن ابن بريدة في قوله : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ قال : نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار بني حارثة وبني الحارث تفاخروا وتكاثروا فقالت إحداهما : فيكم مثل فلان بن فلان وفلان . وقال الآخرون مثل ذلك تفاخروا بالأحياء ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان يشيرون إلى القبور ومثل فلان . وفعل الآخرون مثل ذلك فأنزل الله : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل . وقال قتادة : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ كانوا يقولون : نحن أكثر من بني فلان ، ونحن أعدُّ من بني فلان وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم . والصحيح أن المراد بقوله : ﴿ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ أي : صرتم إليها ودفنتم فيها . كما في الصحيح أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعوده فقال : « لَا بَأْسَ طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّه » فقال : قلت : طهور بل هي حمى تفور ، على شيخ كبير تزيره القبور ،

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٠) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥١٤) ومسلم في الزهد (٥) والترمذي في السنن (٢٣٧٩) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣٣٩) وأحمد في مسنده (١٩٢/٣) والطبراني في الكبير (٢٥٨/٧) .

قال : « فَنَعَمْ إِذَنْ »(١) . وعن علي قال : ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ وعن ميمون بن مهران قال : كنت جالسًا عند عمر بن عبد العزيز فقرأ : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ فلبث هنيهة ثم قال : يا ميمون ما أرى المقابر إلَّا زيارة وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله . قال أبو محمّد يعني أن يرجع إلى منزله أي : إلى جنة أو إلى نار . وهكذا ذكر أن بعض الأعراب سمع رجلًا يتلو هذه الآية ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ فقال : بعث اليوم ورب الكعبة أي أن الزائر سيرحل من مقامه ذلك إلى غيره . وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ . قال الحسن البصرى : هذا وعيد بعد وعيد . وقال الضحّاك : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني أيها الكفار ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني أيها المؤمنون . وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ أي : لو علمتم حق العلم لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة حتى صرتم إلى المقابر . ثم قال : ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ هذا تفسير الوعيد المتقدم وهو قوله : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ . توعدهم بهذا الحال وهو رؤية أهل النار التي إذا زفرت زفرة واحدة خر كل ملك مقرب ونبي مرسل على ركبتيه من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال على ما جاء به الأثر المروي في ذلك . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي : ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم اللَّه به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته . عن أبي هريرة ﷺ قال : بينما أبو بكر وعمر جالسان إذ جاءهما النبيّ ﷺ فقال : « مَا أَجْلَسَكُمَا هَهُنَا ؟ » قالا : والذي بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلَّا الجوع ، قال : « وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالحَقِّ مَا أَخْرَجَنِي غَيْرُهُ » . فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار فاستقبلتهم المرأة ، فقال لها النبيّ ﷺ : « أَيْنَ فُلَان ؟ » فقالت : ذهب يستعذب لنا ماء فجاء صاحبهم يحمل قربته ؛ فقال : مرحبًا . ما زار العبادَ شيءٌ أفضل من نبي زارني اليوم ، فعلّق قربته بكرب نخلة ، وانطلق فجاءهم بعذق ، فقال النبي ﷺ : « أَلا كُنْتَ اجْتَنَيْتَ » ؟ فقال : أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم ، ثم أخذ الشفرة فقال له النبيّ ﷺ : « إِيَّاكَ وَالحَلُوبُ » فذبح لهم يومئذٍ فأكلوا فقال النبيّ ﷺ : « لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هذَا يَوْمَ القِيَامَةِ . أَخْرَجَكُمُ الجُوعُ فَلَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَبْتُمْ هذا فَهذَا مِنَ النَّعِيمِ »(٢) . وعن أبي عسيب - مولى رسول اللَّه ﷺ - قال : خرج رسول اللَّه ﷺ ليلًا فمر بي فدعاني فخرجت إليه ثم مر بأبي بكر فدعاه فخرج إليه ثم مرّ بعمر فدعاه فخرج إليه ، فانطلق حتى دخل حائطًا لبعض الأنصار فقال لصاحب الحائط : « أَطْعِمْنَا » فجاءه بعذق فوضعه فأكل رسول اللَّه ﷺ وأصحابه ثم دعا بماء بارد فشرب وقال : « لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هذَا يَوْمَ القِيَامَةِ » قال : فأخذ عمر العذق فضرب به الأرض حتى تناثر البسر قِبَل رسول اللَّه ﷺ ثم قال : يا رسول اللَّه إنا لمسؤولون عن هذا يوم القيامة ؟ قال : « نَعَمْ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ : خِرْقَةٌ لَفَّ بِهَا الرَّجُلُ عَوْرَتَهُ ، أَوْ كِسْرَةٌ سَدَّ بِهَا جَوْعَتَهُ ، أَوْ جُحْرٌ يَدْخُلُ فِيهِ مِنَ الحَرِّ وَالقرِّ »(٣) .

وعن جابر بن عبد اللَّه قال : أكل رسول اللَّه ﷺ وأبو بكر وعمر رطبًا وشربوا ماء فقال رسول

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٧٠) والبيهقي في السنن (٣٨٣/٣) والطبراني في الكبير (٣٤٢/١١) .
(٢) أخرجه مسلم في الأشربة (١٤٠) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٨١/٥) .

الله : « هذَا مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ » (١) وعن محمود بن الربيع قال : لما نزلت : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ قالوا : يا رسول الله عن أي نعيم نسأل ؟ وإنما هما الأسودان الماء والتمر وسيوفنا على رقابنا والعدو حاضر فعن أي نعيم نسأل ؟ قال : « أَمَا إِنَّ ذلِكَ سَيَكُونُ » (٢) وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال النبيّ ﷺ : « إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ - يَعْنِي يَوْمَ القِيَامَةِ - العَبْدُ مِنَ النَّعِيمِ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ بَدَنَكَ ونرَوِّكَ مِنَ المَاءِ البَارِدِ » ؟ (٣) وعن ابن مسعود عن النبيّ ﷺ في قوله : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ قال : « الأَمْنُ وَالصِّحَّةُ » (٤) وقال زيد بن أسلم عن رسول الله ﷺ : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ يعني : شبع البطون وبارد الشراب وظلال المساكن واعتدال الخلق ولذة النوم .

وقال سعيد بن جبير : حتى عن شربة عسل . وقال مجاهد : عن كل لذة من لذات الدنيا . وقال الحسن البصري : من النعيم الغداء والعشاء . وقال أبو قلابة : من النعيم أكل السمن والعسل بالخبز النقي . وقول مجاهد أشمل هذه الأقوال ، وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ قال : النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، يسأل الله العباد فيما استعملوها وهو أعلم بذلك منهم وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ . وعن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ » (٥) . ومعنى هذا أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين لا يقومون بواجبهما ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون . عن أبي هريرة ﷺ عن النبيّ ﷺ قال : « يَقُولُ اللَّهُ ﷻ - قال عفان يوم القيامة - : يَا ابْنَ آدَمَ حَمَلْتُكَ عَلَى الخَيْلِ وَالإِبِلِ وَزَوَّجتُكَ النِّسَاءَ وَجَعَلْتُكَ تَرْبَعُ وَتَرْأَسُ فَأَيْنَ شُكْرُ ذلِكَ ؟ » (٦)

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣٥١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/١٦٤) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٥٨) .
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٣٨٨) .
(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣٠٤) وابن ماجه في السنن (٤١٧٠) وأحمد في مسنده (١/٣٤٤) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٩٢) .

سورة العصر

ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب وذلك بعد ما بعث رسول الله ﷺ وقبل أن يسلم عمرو فقال له مسيلمة : ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة ! فقال : لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة ، فقال : وما هي ؟ فقال : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ ففكّر مسيلمة هنيهة ثم قال : وقد أنزل علي مثلها ، فقال له عمرو وما هي ؟ فقال : يا وبر يا وبر وإنما أنت أذنان وصدر وسائرك حفر نقر ، ثم قال : كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب . والوبر دويبة تشبه الهر أعظم شيء فيه أذناه وصدره وباقيه دميم فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن . فلم يخرج ذلك على عابد الأوثان في ذلك الزمان . وعن عبيد الله بن حفص قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله إذا التقيا لم يفترقا إلّا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ثم يسلم أحدهما على الآخر . وقال الشافعي رحمه الله : لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ .

العصر : الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم من خير وشر . وقال مالك عن زيد بن أسلم : هو العصر ، والمشهور الأول فأقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفي خسر أي في خسارة وهلاك ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ، ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ ﴾ وهو : أداء الطاعات ، وترك المحرمات ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ أي : على المصائب والأقدار وأذى من يؤذي ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر .

سورة الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ① الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ② يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ③ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ④ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ⑤ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ⑥ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ⑦ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ⑧ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ⑨ ﴾ .

الهماز بالقول واللماز بالفعل يعني : يزدري الناس وينتقص بهم ، قال ابن عبّاس : ﴿ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ طعان معياب . وقال الربيع بن أنس : الهمزة يهمزه في وجهه ، واللمزة من خلفه . وقال قتادة : الهمزة واللمزة لسانه وعينه ويأكل لحوم الناس ويطعن عليهم . وقال مجاهد : الهمزة باليد والعين واللمزة باللسان ، وهكذا قال ابن زيد . وقال مالك عن زيد بن أسلم : همزة لحوم الناس . ثم قال بعضهم : المراد بذلك الأخنس بن شريق ، وقيل غيره . وقال مجاهد : هي عامة . وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴾ أي : جمعه بعضه على بعض وأحصى عدده ، وقال محمد بن كعب : ألهاه ماله بالنهار هذا إلى هذا فإذا كان الليل نام كأنه جيفة منتنة . وقوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ أي : يظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار . ﴿ كَلَّا ﴾ أي : ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب . ثم قال تعالى : ﴿ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ أي : ليلقين هذا الذي جمع مالًا فعدده في الحطمة ، وهي : اسم صفة من أسماء النار ؛ لأنها تحطم من فيها . ولهذا قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ⑤ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ⑥ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾ قال ثابت البناني : تحرقهم إلى الأفئدة وهم أحياء ، ثم يقول : لقد بلغ منهم العذاب ثم يبكي . وقال محمّد بن كعب : تأكل كل شيء من جسده حتى إذا بلغت فؤاده حذو حلقه ترجع على جسده . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أي مطبقة . وقوله تعالى : ﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ : عمد من حديد ، وقال السدي : من نار ، وقال ابن عبّاس : يعني : الأبواب هي الممدة ، وقال قتادة في قراءة عبد الله بن مسعود – إنها عليهم مؤصدة بعمد ممدة – وقال ابن عبّاس : أدخلهم في عمد ممدة عليهم بعماد في أعناقهم السلاسل فسدت بهاالأبواب . وقال قتادة : كنا نحدث أنهم يعذبون في النار . واختاره ابن جرير . وقال أبو صالح ﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ : يعني : القيود الثقال .

سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ .

هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود فأبادهم الله وأرغم آنافهم وخيب سعيهم وأضل عملهم وردهم بشرّ خيبة . وكانوا قومًا نصارى وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان ، ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال ولسان حال القدر يقول : لم ننصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيرتكم عليهم ، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمّد صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء . وهذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار والتقريب ، قد تقدم في قصة أصحاب الأخدود : أن ذا نواس وكان آخر ملوك حمير وكان مشركًا ، وهو الذي قتل أصحاب الأخدود وكانوا نصارى وكانوا قريبًا من عشرين ألفًا ، فلم يفلت منهم إلا دوس ذو ثعلبان فذهب فاستغاث بقيصر ملك الشام وكان نصرانيًا فكتب له إلى النجاشي ملك الحبشة لكونه أقرب إليهم ، فبعث معه أميرين أرياط وأبرهة بن الصباح أبا يكسوم في جيش كثيف ، فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار ، واستلبوا الملك من حمير ، وهلك ذو نواس غريقًا في البحر . واستقل الحبشة بملك اليمن وعليهم هذان الأميران أرياط وأبرهة فاختلفا في أمرهما وتصاولا وتقاتلا وتصافًا ، فقال أحدهما للآخر : إنه لا حاجة بنا إلى اصطدام الجيشين بيننا ، ولكن ابرز إلي وأبرز إليك فأينا قتل الآخر استقل بعده بالملك ، فأجابه إلى ذلك فتبارزا وخلف كل واحد منهما قناة فحمل أرياط على أبرهة فضربه بالسيف فشرم أنفه وفمه وشق وجهه ، وحمل عتودة مولى أبرهة على أرياط فقتله ورجع أبرهة جريحًا فداوى جرحه فبرأ واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن فكتب إليه النجاشي يلومه على ما كان منه ويتوعده ويحلف ليطأنّ بلاده ويجزنّ ناصيته ، فأرسل إليه أبرهة يترقق له ويصانعه وبعث مع رسوله بهدايا وتحف وبجراب فيه من تراب اليمن وجز ناصيته فأرسلها معه ويقول في كتابه : ليطأ الملك على هذا الجراب فيبر قسمه وهذه ناصيتي قد بعثت بها إليك ، فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه ورضي عنه وأقرّه على عمله ، وأرسل أبرهة يقول للنجاشي : إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يبن قبلها مثلها ، فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء رفيعة البناء عالية الفناء مزخرفة الأرجاء سمتها العرب : القليس ؛ لارتفاعها ؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها ، وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف حج العرب إليها كما يحج إلى الكعبة بمكة ونادى بذلك في مملكته فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك ، وغضبت قريش لذلك غضبًا شديدًا حتى قصدها بعضهم وتوصل إلى أن دخلها ليلاً فأحدث فيها وكرّ راجعًا ، فلما

رأى السدنة ذلك الحدث رفعوا أمره إلى ملكهم أبرهة ، وقالوا له : إنما صنع هذا بعض قريش غضبًا لبيتهم الذي ضاهيت هذا به . فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة وليخربنه حجرًا حجرًا .

وذكر مقاتل بن سليمان أن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها نارًا وكان يومًا فيه هواء شديد فاحترقت وسقطت إلى الأرض فتأهب أبرهة لذلك ، وسار في جيش كثيف عرمرم لئلا يصده أحد عنه واستصحب معه فيلًا عظيمًا كبير الجثة لم ير مثله يقال له : محمود . وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك . ويقال : كان معه ثمانية أفيال وقيل : اثنا عشر فيلًا غيره فالله أعلم . يعني : ليهدم به الكعبة بأن يجعل السلاسل في الأركان وتوضع في عنق الفيل ، ثم يزجر ليلقى الحائط جملة واحدة ، فلما سمعت العرب بمسيره أعظموه ذلك جدًا ، ورأوا أن حقًا عليهم المحاجبة دون البيت ، ورد من أراده بكيد فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم ، يقال له : ذو نفر فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله وما يريده من هدمه وخرابه ، فأجابوه وقاتلوا أبرهة فهزمهم لما يريده الله ﷻ من كرامة البيت وتعظيمه وأسر ذو نفر فاستصحبه معه ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم اعترض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قومه شهران وناهس ، فقاتلوه ، فهزمهم أبرهة ، وأسر نفيل بن حبيب فأراد قتله ثم عفا عنه واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز ، فلما اقترب من أرض الطائف خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم الذي عندهم الذي يسمونه اللات فأكرمهم ، وبعثوا معه أبا رغال دليلًا فلما انتهى أبرهة إلى المغمس وهو قريب من مكة نزل به وأغار جيشه على سرح أهل مكة من الإبل وغيرها فأخذوه وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب ، وكان الذي أغار على السرح بأمر أبرهة أمير المقدمة وكان يقال له : الأسود بن مقصود ، فهجاه بعض العرب فيما ذكره ابن إسحاق ، وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة وأمره أن يأتيه بأشراف قريش وأن يخبره أن الملك لم يجيء لقتالكم إلَّا أن تصدوه عن البيت ، فجاء حناطة فدل على عبد المطلب بن هاشم وبلَّغه عن أبرهة ما قال ، فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخلي بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه . فقال له حناطة : فاذهب معي إليه ، فذهب معه فلما رآه أبرهة أجلّه ، وكان عبد المطلب رجلًا جسيمًا حسن المنظر ، ونزل أبرهة عن سريره وجلس معه على البساط ؛ وقال لترجمانه : قل له : ما حاجتك ؟ فقال للترجمان : إن حاجتي أن يرد عليَّ الملك مائتي بعير أصابها لي ، فقال أبرهة لترجمان : لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك ؟ وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه لا تكلمني فيه ، فقال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل وإن للبيت ربًّا سيمنعه . قال : ما كان ليمتنع مني قال : أنت وذاك ، ويقال إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشراف العرب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت فأبى عليهم ، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة والتحصن في رؤوس الجبال تخوفًا عليهم من معرة الجيش ، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لَا هُـمَّ إِنَّ المَرْءَ يَمْـ ـنَعُ رَحْلَـهُ فَـامْـنَـعْ رِحَـالَـكْ
لَا يَـغْـلِـبَنَّ صَـلِـيـبُـهُـمْ وَمِـحَـالُـهُـمْ أَبَـدًا مِـحَـالَـكْ

قال ابن إسحاق : ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب ثم خرجوا إلى رؤوس الجبال . وذكر مقاتل بن سليمان أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مقلدة لعل بعض الجيش ينال منها شيئًا بغير حق فينتقم اللَّه منهم . فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله وكان اسمه محمودًا ، وعبأ جيشه فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال : ابرك محمود وارجع راشدًا من حيث جئت ، فإنك في بلد اللَّه الحرام ثم أرسل أذنه ، فبرك الفيل وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل ، وضربوا الفيل ليقوم فأبى فضربوا في رأسه بالطبرزين وأدخلوا محاجن لهم في مراقه فنزعوه بها ليقوم فأبى فوجهوه راجعًا إلى اليمن . فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك . وأرسل اللَّه عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس لا يصيب منهم أحدًا إلَّا هلك وليس كلهم أصابت ؟ وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق ويسألون عن نفيل ليدلّهم على الطريق ، هذا ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز ينظرون ماذا أنزل اللَّه بأصحاب الفيل من النقمة ، وجعل نفيل يقول :

أَيْـنَ المَفَـرُّ وَالإِلَـهُ الـطَّـالِـبُ وَالأَشْرَمُ المَغْلُوبُ لَيْسَ الغَـالِـبُ

قال ابن إسحاق وقال نفيل في ذلك أيضًا :

أَلَا حُـيِّـيـتَ عَـنَّـا يَـا رُدَيْـنَـا نَـعِـمْـنَـاكُـمْ مَـعَ الإِصْـبَـاحِ عَـيْـنَا
رُدَيْـنَـةُ لَـوْ رَأَيْـتِ وَلَا تَـرِيـهِ لَـدَى جَنْبِ المُحَصَّبِ مَـا رَأَيْـنَـا
إِذًا لَـعَـذَرْتِـنِـي وَحَـمِـدْتِ أَمْـرِي وَلَمْ تَـأْسَـيْ عَـلَـى مَـا فَـاتَ بَـيْـنَـا
حَـمِـدْتُ اللَّهَ إِذْ أَبْصَرْتُ طَـيْـرًا وَخِفْتُ حِجَارَةً تُلْـقَى عَـلَـيْـنَـا
فَـكُـلُّ الـقَـوْمِ تَسْأَلُ عَـنْ نُـفَـيْـلٍ كَـأَنَّ عَـلَـيَّ لِـلْـحُـبْـشَـانِ دَيْـنَا (١)

وذكر الواقدي بإسناده أنهم لما تعبؤوا لدخول الحرم ، هيأوا الفيل جعلوا لا يصرفونه إلى جهة من سائر الجهات إلَّا ذهب فيها فإذا وجهوه إلى الحرم ربض وصاح ، وجعل أبرهة يحمل على سائس الفيل وينهره ويضربه ليقهر الفيل على دخول الحرم وطال الفصل في ذلك ، هذا وعبد المطلب وجماعة من أشراف مكة فيهم المطعم بن عدي وعمرو بن عائد بن عمران بن مخزوم ومسعود بن عمرو الثقفي على حراء ينظرون ما الحبشة يصنعون ، وماذا يلقون من أمر الفيل وهو العجب العجاب ، فبينما هم كذلك إذ بعث اللَّه عليهم طيرًا أبابيل أي : قطعًا قطعًا صفرًا دون الحمام وأرجلها حمر ومع كل طائر ثلاثة أحجار وجاءت فحلقت عليهم وأرسلت تلك الأحجار ، عليهم فهلكوا . وقال محمّد بن إسحاق : جاؤوا بفيلين فأما محمود فربض ، وأما الآخر فشجع فحصب .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٥) .

وقال وهب بن منبه : كان معهم فيلة ، فأما محمود وهو فيل الملك فربض ليقتدي به بقية الفيلة ، وكان فيها فيل تشجع فحصب فهربت بقية الفيلة . وقال عطاء بن يسار وغيره : ليس كلهم أصابه العذاب في الساعة الراهنة ، بل منهم من هلك سريعًا ومنهم من جعل يتساقط عضوًا عضوًا وهم هاربون . وكان أبرهة ممن تساقط عضوًا عضوًا حتى مات ببلاد خثعم . وقال ابن إسحاق : فخرجوا يتساقطوا بكل طريق ويهلكون على كل منهل وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر . فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون .

وذكر مقاتل بن سليمان أن قريشًا أصابوا مالًا جزيلًا من أسلابهم وما كان معهم ، وأن عبد المطلب أصاب يومئذ من الذهب ما ملأ حفرة . قال ابن إسحاق : وحدَّثني يعقوب بن عتبة أنه حدث أن أول ما رئيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام ، وأنه أول ما رئي به مرائر الشجر الحرمل والحنظل والعسر ذلك العام ، وهكذا روي عن عكرمة من طريق جيد . قال ابن إسحاق : فلما بعث الله محمّدًا ﷺ كان فيما يعد به على قريش من نعمته عليهم وفضله ما رد عليهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۞ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۞ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۞ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۞ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ قال ابن هشام : الأبابيل الجماعات ولم تتكلم العرب بواحدة . قال : وأما السجيل فعن يونس النحوي وأبي عبيدة أنه عند العرب الشديد الصلب . قال وذكر بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية جعلتهما العرب كلمة واحدة وإنما هو سنج وجل يعني بالسنج الحجر والجل الطين . يقول الحجارة من هذين الجنسين الحجر والطين قال : والعصف ورق الزرع الذي لم يقضب ، واحدته عصفة انتهى ما ذكره . وعن عبد الله وأبي سلمة بن عبد الرَّحمن ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ قال : الفرق . وقال ابن عبّاس والضحّاك : أبابيل يتبع بعضها بعضًا . وقال الحسن البصري وقتادة : الأبابيل الكثيرة . وقال مجاهد : شتى متتابعة مجتمعة . وقال ابن زيد : الأبابيل المختلفة تأتي من ههنا ومن ههنا أتتهم من كل مكان ، وقال الكسائي : سمعت بعض النحويين يقول : واحد الأبابيل إبيل .

عن ابن عبّاس ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ قال : لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأكفّ الكلاب . عن عكرمة في قوله تعالى : ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ قال : كانت طيرًا خضرًا خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع . وعن عبيد بن عمير قال : هي طيور سود بحرية في مناقيرها وأظافيرها الحجارة . وقال سعيد بن جبير : كانت طيرًا خضرًا لها مناقير صفر تختلف عليهم . وعن ابن عبّاس ومجاهد وعطاء : كانت الطير الأبابيل مثل التي يقال لها : عنقاء مغرب ، وعن عبيد بن عمير قال : لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل بعث عليهم طيرًا أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف ، كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار مجزعة حجرين في رجليه وحجرًا في منقاره . قال : فجاءت حتى صفت على رؤوسهم ثم صاحت ، وألقت ما في أرجلها ومناقيرها فما يقع على رأس رجل إلّا خرج من دبره ولا يقع على شيء من جسده إلّا خرج من الجانب الآخر وبعث الله ريحًا شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعًا .

وقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ قال سعيد بن جبير : يعني التبن الذي تسميه العامة هبور ، وقال سعيد : ورق الحنطة وعنه : العصف التبن والمأكول القصيل يجز للدواب . وعن ابن عبّاس : العصف القشرة التي على الحبة كالغلاف على الحنطة .

وقال ابن زيد : العصف ورق الزرع وورق البقل إذا أكلته البهائم فراثته فصار درينًا ، والمعنى : أن اللّه سبحانه وتعالى أهلكهم ودمّرهم وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيرًا وأهلك عامتهم ولم يرجع منهم مخبر إلّا وهو جريح كما جرى لملكهم أبرهة فإنه انصدع صدره عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء وأخبرهم ماذا جرى لهم ثم مات . فملك بعده ابنه يكسوم ، ثم من بعده أخوه مسروق ابن أبرهة . ثم خرج سيف بن ذي يزن الحميري إلى كسرى فاستعانه على الحبشة فأنفذ معه من جيوشه ، فقاتلوا معه فرد اللّه إليهم ملكهم وما كان في آبائهم من الملك ، وجاءته وفود العرب بالتهنئة . وعن عائشة قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان .

قلت : كان اسم قائد الفيل أنيسًا . وقد ذكر الحافظ أبو نعيم في كتاب دلائل النبوة قصة أصحاب الفيل ولم يذكر أن أبرهة قدم من اليمن ، وإنما بعث على الجيش رجلًا يقال له : شمر بن مقصود وكان الجيش عشرين ألفًا وذكر أن الطير طرقتهم ليلًا فأصبحوا صرعى . وهذا السياق غريب جدًّا وإن كان أبو نعيم قد قواه ورجحه على غيره . والصحيح أن أبرهة الأشرم الحبشي قدم مكة كما دل على ذلك السياقات والأشعار . وهكذا روي عن عروة أن أبرهة بعث الأسود بن مقصود على كتيبة معهم الفيل ولم يذكر قدوم أبرهة نفسه ، والصحيح قدومه ولعل ابن مقصود كان على مقدمة الجيش واللّه أعلم . ثم ذكر ابن إسحاق شيئًا من أشعار العرب فيما كان من قصة أصحاب الفيل فمن ذلك شعر عبد اللّه بن الزبعرى :

تَنَكَّلُوا عَنْ بَطْنِ مَكَّةَ إِنَّهَا ... كَانَتْ قَدِيمًا لَا يُرَامُ حَرِيمُهَا
لَمْ تَخْلُقِ الشِّعْرَى لَيَالِي حرمَتْ ... إِذْ لَا عَزِيزَ مِنَ الأَنَامِ يَرُومُهَا
سَائِلْ أَمِيرَ الجَيْشِ عَنْهَا مَا رَأَى ... فَلَسَوفَ يُنْبِي الجَاهِلِينَ عَلِيمُهَا
سِتُّونَ أَلْفًا لَمْ يَؤُوبُوا أَرْضَهُمْ ... بَلْ لَمْ يَعِشْ بَعْدَ الإِيَابِ سَقِيمُهَا
كَانَتْ بِهَا عَادٌ وَجُرْهُمُ قَبْلَهُمْ ... وَاللّه مِنْ فَوْقِ العِبَادِ يُقِيمُهَا

وقد قدمنا في تفسير سورة الفتح أن رسول اللّه ﷺ لما أطل يوم الحديبية على الثنية التي تهبط به على قريش بركت ناقته فزجروها فألحت فقالوا : خلأت القصواء أي : حرنت فقال رسول اللّه ﷺ : « مَا خَلأَتِ القَصْوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ وَلكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ - ثم قال - وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي اليَوْمَ خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللّه إِلَّا أَجَبْتُهُمْ إِلَيْهَا » ثم زجرها فقامت [١] ، وروي أن رسول اللّه ﷺ قال يوم فتح مكة : « إِنَّ اللّه حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الفِيلَ ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالمُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّهُ قَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا اليَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ ، أَلَا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ » [٢] .

(١) أخرجه أبو داود في السنن(٢٦٧٥) والبيهقي في السنن(٢١٩/٩) .
(٢) أخرجه مسلم في الحج(٤٤٧) وأبو داود في السنن(٢٠١٧) والدارمي في السنن(٢٦٥/٢) .

سورة قريش

ذكر حديث غريب في فضلها : عن عن أم هانىء بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال : « فَضَّلَ اللَّه قُرَيْشًا بِسَبْعِ خِلَالٍ : إِنِّي مِنْهُمْ ، وَإِنَّ النُّبُوَّةَ فِيهِمْ ، وَالحِجَابَةُ وَالسِّقَايَةُ فِيهِمْ ، وَإِنَّ اللَّه نَصَرَهُمْ عَلَى الفِيلِ ، وَإِنهُمْ عَبَدُوا اللَّه ﷻ عَشْرَ سِنِينَ لَا يَعْبُدُهُ غَيْرُهُمْ ، وَإِنَّ اللَّه أَنْزَلَ فِيهِمْ سُورَةً مِنَ القُرْآن - ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۞ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۞ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۞ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ » [١] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۞ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۞ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۞ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ .

هذه السورة مفصولة عن التي قبلها في المصحف الإمام كتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم وإن كانت متعلقة بما قبلها كما صرح بذلك محمّد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ؛ لأن المعنى عندهما : حبسنا عن مكة الفيل وأهلكنا أهله لإيلاف قريش أي لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين ، وقيل : المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم لعظمتهم عند الناس لكونهم سكان حرم الله فمن عرفهم بل احترمهم بل من صوفي إليهم وسار معهم أمن بهم ، وهذا حالهم في أسفارهم ورحلتهم في شتائهم وصيفهم ، وأما في حال إقامتهم في البلد فكما قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ . ولهذا قال تعالى : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۞ إِيلَافِهِمْ ﴾ بدل من الأول ومفسر له ولهذا قال تعالى : ﴿ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ .

وقال ابن جرير : الصواب : أن اللام لام التعجب كأنه يقول : اعجبوا لإيلاف قريش ونعمتي عليهم في ذلك . قال : وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان مستقلتان . ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة فقال : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴾ أي : فليوحدوه بالعبادة كما جعل لهم حرمًا آمنًا وبيتًا محرمًا . وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾ أي : هو رب البيت وهو الذي أطعمهم من جوع ﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ أي : تفضل عليهم بالأمن والرخص ، فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ، ولا يعبدوا من دونه صنمًا ولا ندًا ولا وثنًا . ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة ، ومن عصاه سلبهما منه ، عن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « وَيْلٌ لَكُمْ قُرَيْشُ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ » [٢] .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٣٦/٢) والألباني في الصحيحة (١٩٤٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٠/٦) والطبراني في الكبير (١٧٧/٢٤ - ١٧٨) .

سورة الماعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ .

يقول تعالى : أرأيت يا محمّد الذي يكذب بالدين وهو المعاد والجزاء والثواب . ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾ أي : هو الذي يقهر اليتيم ويظلمه حقه ولا يطعمه ولا يحسن إليه . ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ يعني الفقير الذي لا شيء له يقوم بأوده وكفايته . ثم قال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ . قال ابن عبّاس وغيره : يعني المنافقين الذين يصلون في العلانية ولا يصلون في السر . ولهذا قال : ﴿ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ الذين هم من أهل الصلاة ، وقد التزموا بها ثم هم عنها ساهون . إما عن فعلها بالكلية كما قاله ابن عبّاس ، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعًا فيخرجها عن وقتها بالكلية . وقال عطاء بن دينار : الحمد للّه الذي قال : ﴿ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ولم يقل : في صلاتهم ساهون . وإما عن وقتها الأول فيؤخرها إلى آخره دائمًا أو غالبًا ، وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به ، وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها ، فاللفظ يشمل ذلك كله . ولكلّ من اتصف بشيء من ذلك قسط من هذه الآية ، ومن اتصف بجميع ذلك فقد تم له نصيبه وكمل له النفاق العملي . كما ثبت أن رسول اللّه ﷺ قال : « تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَي الشَّيْطَانِ قَامَ فَنَقَرَ أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللّهَ فِيهَا قَلِيلًا » (١) فهذا آخر صلاة العصر التي هي الوسطى كما ثبت به النص إلى آخر وقتها وهو وقت كراهة ، ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب لم يطمئن ولا خشع فيها أيضًا ؛ ولهذا قال : لا يذكر اللّه فيها إلّا قليلًا ولعله إنما حمله على القيام إليها مراءاة الناس لا ابتغاء وجه اللّه فهو كما إذا لم يصل بالكلية : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ عن عمرو بن مرة قال : كنا جلوسًا عند أبي عبيدة فذكروا الرياء فقال رجل يكنى بأبي يزيد : سمعت عبد اللّه ابن عمرو يقول : قال رسول اللّه ﷺ : « مَنْ سَمَّعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ سَمَّعَ اللّهُ بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ وَحَقَّرَهُ وَصَغَّرَهُ » (٢) ، ومما يتعلق بقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ أن من عمل عملًا للّه فاطّلع عليه الناس فأعجبه ذلك أن هذا لا يعد رياء . والدليل على ذلك ما روي عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رجل : يا رسول اللّه الرجل يعمل العمل يسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لَهُ أَجْرَانِ : أَجْرُ السِّرِّ وَأَجْرُ الْعَلَانِيَةِ » . وعن أبي برزة الأسلمي قال : قال رسول اللّه ﷺ : لما نزلت هذه الآية : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ، « اللّهُ أَكْبَرُ هَذَا خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ لَوْ أُعْطِيَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِثْلَ جَمِيعِ الدُّنْيَا ، هُوَ الَّذِي إِنْ صَلَّى لَمْ يَرْجُ خَيْرَ صَلَاتِهِ وَإِنْ تَرَكَهَا لَمْ يَخَفْ رَبَّهُ » (٣)

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد (١٩٥) وأبو داود في السنن (٤١٣) وأحمد في مسنده (١٤٩/٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٢/٢) . (٣) ذكره الطبري في تفسيره (٤٠٤/٣٠) .

وعن سعد بن أبي وقاص قال : سألت رسول الله ﷺ عن الذين هم عن صلاتهم ساهون قال : « هُمُ الَّذِينَ يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا » (١) قلت : وتأخير الصلاة عن وقتها يحتمل تركها بالكلية ويحتمل صلاتها بعد وقتها شرعًا أو تأخيرها عن أول الوقت .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ أي : لا أحسنوا عبادة ربهم ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم . فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى . وعن مجاهد قال علي : الماعون الزكاة . قال الحسن البصري : إن صلى راءى ، وإن فاتته لم يأس عليها ، ويمنع زكاة ماله . وفي لفظ : صدقة ماله . وقال زيد بن أسلم : هم المنافقون ظهرت الصلاة فصلوها ، وخفيت الزكاة فمنعوها . سأل عبد الله بن مسعود عن الماعون فقال : هو ما يتعاوره الناس بينهم من الفأس والقدر . عن عبد الله قال : كنا مع نبينا ﷺ نقول : الماعون منع الدلو وأشباه ذلك . عن ابن عبّاس ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ : يعني : متاع البيت . وقال : لم يجئ أهلها بعد . وقال ابن عباس : اختلف الناس في ذلك فمنهم من قال : يمنعون الزكاة ، ومنهم من قال : يمنعون الطاعة ، ومنهم من قال : يمنعون العارية . وعن علي : الماعون منع الناس الفأس والقدر والدلو . وقال عكرمة : رأس الماعون زكاة المال وأدناه المنخل والدلو والإبرة . وهذا الذي قاله عكرمة حسن فإنه يشمل الأقوال كلها وترجع كلها إلى شيء واحد وهو ترك المعاونة بمال أو منفعة . ولهذا قال محمّد بن كعب : ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ : المعروف . ولهذا جاء في الحديث : « كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ » (٢) . وعن الزهري ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ قال : بلسان قريش المال . وعن علي بن فلان النميري : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ إِذَا لَقِيَهُ جَاءَ بِالسَّلَامِ وَيَرُدُّ عَلَيْهِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ لَا يَمْنَعِ الْمَاعُونَ » . قلت : يا رسول الله ما الماعون ؟ قال : « الْحَجَرُ وَالْحَدِيدُ وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ » (٣) .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢/٢١٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (١/٣٢٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢١) ومسلم في الزكاة (٥٢) .

(٣) ذكره الهندي في كنز العمال (٧٥٤) والسيوطي في الدر المنثور (٦/٤٠٠) .

سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ .

عن أنس بن مالك قال : أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه متبسمًا إما قال لهم وإما قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّهُ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ » فقرأ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ حتى ختمها فقال : « هَلْ تَدْرُونَ مَا الكَوْثَرُ ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هُوَ نَهْرٌ أَعْطَانِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي الجَنَّةِ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ الكَوَاكِبِ يُخْتَلَجُ العَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ : يَا رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي ، فَيُقَالُ : إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ » (١) وقد ورد في صفة الحوض يوم القيامة أنه يشخب فيه ميزابان من السماء من نهر الكوثر ، وأن آنيته عدد نجوم السماء .

وقد استدل كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية ، وكثير من الفقهاء على أن البسملة من السورة وأنها منزلة معها . فأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ فقد تقدم في هذا الحديث أنه نهر في الجنة . وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِنَهْرٍ حَافَّتَاهُ خِيَامُ اللُّؤْلُؤِ فَضَرَبْتُ بِيَدِي إِلَى مَا يَجْرِي فِيهِ المَاءُ فَإِذَا مِسْكٌ أَذْفَرُ ، قُلْتُ : مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَذَا الكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ » (٢) . وعنه قال : لما عرج بالنبيّ ﷺ إلى السماء قال : « أَتَيْتُ عَلَى نَهْرٍ حَافَّتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ المُجَوَّفِ : فَقُلْتُ ما هذا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هذَا الكَوْثَرُ » (٣) وعن أنس أن رجلًا قال : يا رسول الله : ما الكوثر ؟ قال : « هُوَ نَهْرٌ فِي الجَنَّةِ أَعْطَانِيهِ رَبِّي لَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ ، فِيهِ طُيُورٌ أَعْنَاقُهَا كأعناق الجزرِ » . قال عمر : يا رسول الله ، إنها لناعمة . قال : « آكِلُهَا أَنْعَمُ مِنْهَا يَا عُمَرُ » (٤) . وعن عائشة قالت : الكوثر نهر في الجنة شاطئاه در مجوف . وقال إسرائيل : نهر في الجنة عليه من الآنية عدد نجوم السماء . وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر : هو الخير الذي أعطاه الله إياه ، قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير : فإن ناسًا يزعمون أنه نهر في الجنة ، فقال سعيد : النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه . عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : الكوثر الخير الكثير . وهذا التفسير يعمّ النهر وغيره لأن الكوثر من الكثرة ، وهو الخير الكثير ومن ذلك النهر . وقال مجاهد : هو الخير الكثير في الدنيا والآخرة . وقال عكرمة : هو النبوة والقرآن وثواب الآخرة . وقد صح عن ابن عبّاس أنه فسره بالنهر ، فقال : الكوثر نهر في الجنة حافتاه ذهب وفضة يجري على الياقوت والدر ، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل . عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « الكَوْثَرُ نَهْرٌ فِي الجَنَّةِ حَافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ وَالمَاءُ يَجْرِي عَلَى اللُّؤْلُؤِ وَمَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِن العَسَلِ » (٥) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١٠٢) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١١٥) والحاكم في المستدرك (١/٨٠) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٦٤) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢٢٠) .
(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٦١) وأحمد في مسنده (٢/١٥٨) والحاكم في المستدرك (٣/١٧١) .

عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ أتى حمزة بن عبد المطلب يومًا ، فلم يجده ، فسأل عنه امرأته وكانت من بني النجار . فقالت : خرج يا نبي الله آنفًا عامدًا نحوك فأظنه أخطأك في بعض أزقة بني النجار ، أوَ لا تدخل يا رسول الله ؟ فدخل ، فقدمت إليه حيسًا فأكل منه فقالت : يا رسول الله هنيئًا لك ومريئًا ، لقد جئت وأنا أريد أن آتيك فأهنيك وأمريك أخبرني أبو عمارة أنك أعطيت نهرًا في الجنّة يدعى الكوثر فقال : « أَجَلْ وعرصته - يعني أرضه - يَاقُوتٌ وَمَرْجَانٌ وَزَبَرْجَدٌ وَلُؤْلُؤٌ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ أي : كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة ومن ذلك النهر الذي تقدم صفته ، فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ، وتحرك فاعبده وحده لا شريك له وانحر على اسمه وحده لا شريك له . ويعني بذلك نحر البدن ونحوها . وهذا بخلاف ما كان عليه المشركون من السجود لغير الله والذبح على غير اسمه . وقيل : المراد بقوله : ﴿ وَٱنْحَرْ ﴾ وضع اليد على اليسرى تحت النحر ، يروى هذا عن علي ولا يصح . وعن أبي جعفر الباقر : رفع اليدين عند افتتاح الصلاة ، وقيل : استقبل بنحرك القبلة . ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير . وقد روي عن علي بن أبي طالب قال : لما نزلت هذه السورة على النبيّ ﷺ ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « يَا جِبْرِيلُ مَا هذِهِ النَّحِيرَةُ الَّتِي أَمَرَنِي بِهَا رَبِّي ؟ » فقال : ليست بنحيرة ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة ارفع يديك إذا كبّرت وإذا ركعت وإذا رفعت رأسك من الركوع ، وإذا سجدت ، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين في السموات السبع ، وإن لكل شيء زينة ، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة (٢) .

وعن عطاء الخراساني : ارفع صلبك بعد الركوع واعتدل وأبرز نحرك يعني به الاعتدال . وكل هذه الأقوال غريبة جدًّا . والصحيح القول الأول : أن المراد بالنحر ذبح المناسك ؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلي العيد ، ثم ينحر نسكه . ويقول : « مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا ، ونسكَ نُسُكَنَا فَقَدْ أَصَابَ النُّسُكَ ، ومن نسك قَبْلَ الصَّلَاةِ فَلَا نُسُكَ لَهُ » . فقام أبو بردة بن نيار فقال : يا رسول الله إني نسكت شاتي قبل الصلاة وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم قال : « شَاتُكَ شَاةُ لَحْمٍ » ، قال : فإن عندي عناقًا هي أحب إليّ من شاتين أفتجزئ عني ؟ قال : « تُجْزِئُكَ وَلَا تُجْزِئُ أَحَدًا بَعْدَكَ » (٣) . قال أبو جعفر بن جرير : والصواب قول من قال إن معنى ذلك : فاجعل صلاتك كلها لربك خالصًا دون ما سواه من الأنداد والآلهة ، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان شكرًا له على ما أعطاك من الكرامة والخير الذي لا كفاء له وخصك به . وهذا الذي قاله في غاية الحسن .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ أي : إن مبغضك يا محمّد ، ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين ، هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع ذكره . قال ابن عبّاس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة : نزلت في العاص بن وائل . وعن يزيد بن رومان : قال : كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول : دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له ، فإذا هلك انقطع

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٦٧/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٦٣/١٠) .
(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٥٣٨/٢) . (٣) أخرجه البخاري في العيدين (٩٨٣) .

ذكره . فأنزل اللّٰه هذه السورة . وقال شمر بن عطية : نزلت في عقبة بن أبي معيط . وقال ابن عباس وعكرمة : نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش . وعن ابن عبّاس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش : أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا الصنبر المنبتر من قومه ؟ يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية ، فقال : أنتم خير منه . قال : فنزلت : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ وعن عطاء نزلت في أبي لهب وذلك حين مات ابن لرسول اللّٰه ﷺ فذهب أبو لهب إلى المشركين فقال : بتر محمّد الليلة ، فأنزل اللّٰه في ذلك : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ .

وعن ابن عبّاس : نزلت في أبي جهل ، وعنه ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾ يعني : عدوك وهذا يعم جميع من اتصف بذلك ممن ذكر وغيرهم . وقال عكرمة : الأبتر الفرد ، وقال السدي : كانوا إذا مات ذكور الرجل قالوا : بتر ، فلما مات أبناء رسول اللّٰه ﷺ قالوا : بتر محمد فأنزل اللّٰه : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبتر الذي إذا مات انقطع ذكره ، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره ، وحاشا وكلا ، بل قد أبقى اللّٰه ذكره على رؤوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقاب العباد ، مستمرًا على دوام الآباد ، إلى يوم المحشر والمعاد ، صلوات اللّٰه وسلامه عليه دائمًا إلى يوم التناد .

سورة الكافرون

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعًا وعشرين مرة ، أو بضع عشرة مرة ، قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد (١) . وعن ابن عمر قال : رمقت النبي ﷺ أربعًا وعشرين أو خمسًا وعشرين مرة يقرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بقل يا أيها الكافرون وقل هوالله أحد (٢) وعن ابن عمر قال : رمقت النبيّ ﷺ شهرًا وكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد (٣) . وقد تقدم في الحديث أنها تعدل ربع القرآن ، وعن فروة بن نوفل – هو ابن معاوية – عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال له : « هَلْ لَكَ فِي رَبِيبَةٍ لَنَا تَكْفُلُهَا ؟ » قال : أَرَاهَا زَيْنب قال : ثم جاء فسأله النبيّ ﷺ عنها قال : « مَا فَعَلَتِ الجَارِيَةُ ؟ » قال : تركتها عند أمها قال : « فمجيء ما جاء بك » قال : جئت لتعلمني شيئًا أقوله عند منامي قال : « اقْرَأْ ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ثُمَّ نَمْ عَلَى خَاتِمَتِهَا فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ » (٤) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ .

هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركين ، وهي آمرة بالإخلاص فيه فقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض ، ولكن المواجهون بهذا الخطاب هم كفار قريش . وقيل : إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة ويعبدون معبوده سنة . فأنزل الله هذه السورة وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية فقال : ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يعني : من الأصنام والأنداد . ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ وهو الله وحده لا شريك له ، فما ههنا بمعنى من ، ثم قال : ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ أي : ولا أعبد عبادتكم أي لا أسلكها ولا أقتدي بها ، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ أي : لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته بل قد اخترعتم شيئًا من تلقاء أنفسكم فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه ، فإن العابد لا بد له من معبود يعبده وعبادة يسلكها إليه فالرسول ﷺ وأتباعه يعبدون الله بما شرعه ؛ ولهذا كان كلمة الإسلام : لا إله إلّا الله محمّد رسول الله أي : لا معبود إلّا الله ولا طريق إلا بما جاء به الرسول ﷺ ، والمشركون يعبدون غير الله عباة لم يأذن بها الله ؛ ولهذا قال لهم الرسول ﷺ ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ قال البخاري : يقال ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ الكفر ﴿ وَلِىَ دِينِ ﴾ الإسلام ، ولم يقل : ديني لأن الآيات بالنون فحذف الياء كما قال : ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ وقال غيره : لا أعبد ما تعبدون الآن ، ولا أجيبكم بما بقى

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٩٩) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٩٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٤٥٦) والبيهقي في السنن (٨/٢٤١) .

من عمري ولا أنتم عابدون ما أعبد ، وهم الذين قال : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ انتهى ما ذكره .

ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية أن ذلك من باب التأكيد ، كقوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ . فهذه ثلاثة أقوال : أولها : ما ذكرناه أولاً ، الثاني : ما حكاه البخاري وغيره من المفسرين أن المراد ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ في الماضي ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ في المستقبل ، الثالث : أن ذلك تأكيد محض . وثم قول رابع : وهو أن المراد بقوله : ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ نفي الفعل لأنها جملة فعلية ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية ؛ لأن النفي بالجملة الاسمية آكد ، فكأنه نفى الفعل وكونه قابلاً لذلك ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان-الشرعي أيضًا . وهو قول حسن أيضًا والله أعلم . وقد استدل الإمام أبو عبد الله الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة ، فورث اليهود من النصارى وبالعكس إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به لأن الأديان ما عدا الإسلام كلها كالشيء الواحد في البطلان . وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود وبالعكس لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَتَّى » (١)

(١) أخرجه الترمذي في السنن(٢١٠٨) والحاكم في المستدرك(٢٤٠/٢) وأحمد في مسنده(١٩٥/٢) والدار قطني في السنن(٧٢/٤) .

سورة النصر

عن عبد المجيد بن سهيل عن عبيد الله بن عبيد الله بن عتبة قال : قال لي ابن عبّاس : يا ابن عتبة أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت ؟ قلت نعم : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ قال : صدقت . وعن ابن عمر قال : أنزلت هذه السورة : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق فعرفت أنه الوداع فأمر براحلته القصواء فرحلت ثم قام فخطب الناس ، وعن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة وقال : « إِنَّهُ قَدْ نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي » فبكت ثم ضحكت وقالت : أخبرني أنه نعيت إليه نفسه فبكيت . ثم قال : « اصْبِرِي فَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لُحُوقًا بِي » فضحكت [1] .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .

عن ابن عبّاس قال : كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال : لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ، فقال عمر : إنه ممن قد علمتم ، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم فقال : ما تقولون في قول الله ﷻ : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا . فقال لي : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا ، فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له قال : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ فذلك علامة أجلك . ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ فقال عمر بن الخطّاب : لا أعلم منها إلا ما تقول [2] . وعن ابن عبّاس قال : بينما رسول الله ﷺ في المدينة إذ قال : « اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ ، جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالفَتْحُ ، جَاءَ أَهْلُ اليَمَنِ - قيل : يا رسول الله وما أهل اليمن ؟ قال : قَوْمٌ رَقِيقَةٌ قُلُوبُهُمْ لَيِّنَةٌ طِبَاعُهُمْ ، الإِيمَانُ يَمَانٍ ، وَالفِقْهُ يَمَانٍ ، وَالحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ » [3] .

وعن ابن عبّاس قال : لما نزلت ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ علم النبيّ ﷺ أن قد نُعِيَتْ إِلَيه نفسه فقيل : إذا جاء نصر الله والفتح السورة كلها [4] ، وعن ابن عبّاس قال : آخر سورة نزلت من القرآن جميعًا ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ وعن أبي سعيد الخدري أنه قال : لما نزلت هذه السورة : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها فقال : « النَّاسُ خَيْرٌ وَأَنَا وَأَصْحَابِي خَيْرٌ - وقال - لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ » فقال له مروان : كذبت وعنده رافع بن خديج وزيد بن ثابت قاعدان معه على السرير فقال أبو سعيد : لو شاء هذان لحدثاك ولكن هذا يخاف أن تنزعه عن عرافة قومه ، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة . فرفع مروان عليه الدرة ليضربه فلما رأيا ذلك قالا : صدق [5] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٧/١) والطبراني في الكبير (١١٩٠٧) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٧٠) .
(٣) ذكره الهيثمي في موارد الظمآن (٢٢٩٩) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٤/١) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢/٣) .

وعن ابن عبّاس أن رسول اللّه ﷺ قال يوم الفتح : « لَا هِجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ ، وَلَكِنْ إِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا » (١) . فالذي فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر ﷺ أجمعين من أنه قد أمرنا إذا فتح اللّه علينا المدائن والحصون أن نحمدَ اللّهَ ونشكره ونسبّحه ، يعني نصلّي له ونستغفره . معنى مليح صحيح وقد ثبت له شاهد من صلاة النبيّ ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى ثماني ركعات ، فقال قائلون : هي صلاة الضحى وأجيبوا بأنه لم يكن يواظب عليها فكيف صلاها ذلك اليوم ، وقد كان مسافرًا لم ينو الإقامة بمكة ؟ ولهذا أقام فيها إلى آخر شهر رمضان قريبًا من تسعة عشر يومًا ، يقصر الصلاة ، ويفطر هو وجميع الجيش ، وكانوا نحوًا من عشرة آلاف . قال : هؤلاء وإنما كانت صلاة الفتح قالوا : فيستحب لأمير الجيش إذا فتح بلدًا أن يصلي فيه أول ما يدخله ثماني ركعات ، وهكذا فعل سعد بن أبي وقاص يوم فتح المدائن .

ثم قال بعضهم : يصليها كلها بتسليمة واحدة . والصحيح أنه يسلّم من كل ركعتين كما ورد في سنن أبي داود أن رسول اللّه ﷺ كان يسلّم يوم الفتح من كل ركعتين . وأما ما فسر به ابن عبّاس وعمر رضي اللّه تعالى عنهما من أن هذه السورة نعي فيها إلى رسول اللّه ﷺ روحه الكريمة ، واعلم أنك إذا فتحت مكة وهي قريتك التي أخرجتك ودخل الناس في دين اللّه أفواجًا فقد فرغ شغلنا بك في الدنيا ، فتهيأ للقدوم علينا والوفود إلينا فالآخرة خير لك من الدنيا ، ولسوف يعطيك ربك فترضى . ولهذا قال : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ .

وعن مسروق قال : قالت عائشة : كان رسول اللّه ﷺ يكثر في آخر أمره من قول : « سُبْحَانَ اللّهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ » وقال : « إِنَّ رَبِّي كَانَ أَخْبَرَنِي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي وَأَمَرَنِي إذا رأيتُها أَنْ أُسَبِّحَ بِحَمْدِهِ وَأَسْتَغْفِرَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ، فَقَدْ رَأَيْتُهَا ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ » (٢) . وعن عبد اللّه قال : لما نزلت على رسول اللّه ﷺ ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ كان يكثر إذا قرأها وركع أن يقول : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيم » ثلاثًا (٣) ، والمراد بالفتح ههنا فتح مكة قولًا واحدًا ، فإن أحياء العرب كانت تتلوم بإسلامها فتح مكة يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبي ، فلما فتح اللّه عليه مكة دخلوا في دين اللّه أفواجًا ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيمانًا ، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلّا مظهر للإسلام وللّه الحمد والمنة . وعن جار لجابر بن عبد اللّه قال : قدمت من سفر فجاءني جابر بن عبد اللّه فسلم عليّ ، فجعلت أحدثه عن افتراق الناس وما أحدثوا ، فجعل جابر يبكي ثم قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « إِنَّ النَّاسَ دَخَلُوا فِي دِينِ اللّهِ أَفْوَاجًا وَسَيَخْرُجُونَ مِنْهُ أَفْوَاجًا » (٤) .

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٨٣) ومسلم في الإمارة (٨٥) والترمذي في السنن (١٥٩٠) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٣٥) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٦٧) ومسلم في الصلاة (٢١٧) والنسائي في السنن (٢/٢١٩) وأحمد في مسنده (٢/٤٩٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣٤٣) .

سورة المسد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ .

عن ابن عبّاس أن النبيّ ﷺ خرج إلى البطحاء ، فصعد الجبل فنادى : « يَا صَبَاحَاهُ » فاجتمعت إليه قريش فقال : « أَرَأَيْتُمْ إِنْ حَدَّثْتُكُمْ أَنَّ العَدُوَّ مُصَبِّحُكُمْ أَوْ مُمَسِّيكُمْ أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي ؟ - قالوا : نعم ، قال : فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَي عَذَاب شَدِيد » فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا ، تبًّا لك فأنزل اللَّه : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ إلى آخرها (١) . وفي رواية : فقام ينفض يديه وهو يقول : تبًّا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل اللَّه : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ الأول : دعاء عليه والثاني : خبر عنه ، فأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول اللَّه واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتيبة ، وإنما سمي أبا لهب لإشراق وجهه ، وكان كثير الأذية لرسول اللَّه ﷺ والبغضة له والازدراء به والتنقص له ولدينه . عن أبي الزناد قال : أخبرني رجل يقال له : ربيعة بن عباد من بني الديل وكان جاهليًّا فأسلم قال : رأيت النبيّ ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قولوا لَا إِلهَ إِلَّا اللَّه تُفْلِحُوا » . والناس مجتمعون عليه وراءه رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين يقول : إنه صابئ كاذب يتبعه حيث ذهب فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب (٢) . فقوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ أي خسرت وخابت وضل عمله وسعيه ﴿ وَتَبَّ ﴾ أي : وقد تبّ تحقّق خسارته وهلاكه .

وقوله تعالى : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ قال ابن عبّاس وغيره : ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ يعني : ولده ، وذكر عن ابن مسعود أن رسول اللَّه ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان قال أبو لهب : إن كان ما يقول ابن أخي حقًّا ، فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي ، فأنزل اللَّه تعالى : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ أي : ذات شرر ولهب وإحراق شديد ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ وكانت زوجته من سادات نساء قريش ، وهي أم جميل واسمها أروى بنت حرب بن أمية وهي أخت أبي سفيان ، وكانت عونًا لزوجها على كفره وجحوده وعناده ، فلهذا تكون يوم القيامة عونًا عليه في عذابه في نار جهنم . ولهذا قال تعالى : ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ يعني : تحمل الحطب فتلقي على زوجها ، ليزداد على ما هو فيه . هي مهيأة لذلك مستعدة له ، قال مجاهد والسدي : كانت تمشي بالنميمة وقال الضحاك : كانت تضع الشوك في طريق رسول اللَّه ﷺ قال ابن جرير : وقيل : كانت تعير النبي ﷺ بالفقر ، وكانت تحتطب فعيرت بذلك والصحيح الأول واللَّه أعلم . قال سعيد بن المسيب : كانت لها قلادة فاخرة فقالت : لأنفقنّها في عداوة محمّد يعني : فأعقبها اللَّه منها حبلًا في جيدها من مسد النار . وروي عن الشعبي : المسد الليف ، وعن عروة : المسد : سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا ،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٧٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤١/٤) .

وعن الثوري : هو قلادة من نار طولها سبعون ذراعًا . وعن مجاهد : طوق من حديد ، ألا ترى أن العرب يسمون البكرة مسدًا ؟ وعن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما نزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة ، وفي يدها فهر وهي تقول :

مُذَمَّمًا أَبَيْنَا وَدِينَهُ قَلَيْنَا وَأَمْرَهُ عَصَيْنَا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر ، فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله قد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي » وقرأ قرآنًا اعتصم به . كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم ترَ رسول الله ﷺ ، فقالت : يا أبا بكر ، إني أخبرت أن صاحبك هجاني قال : لا ورب هذا البيت ما هجاك . فولّت وهي تقول : قد علمت قريش أني ابنة سيدها . قال : وقال الوليد في حديثه أو غيره : فعثرت أم جميل في مرطها وهي تطوف بالبيت فقالت : تعس مذمم ، فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب : إني لحصان فما أكلم ، وثقاف فما أعلم . وكلتانا من بني العم ، وقريش بعد أعلم [1] . وقد قال بعض أهل العلم في قوله تعالى : ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ أي : في عنقها حبل من نار جهنم ، ترفع به إلى شفيرها ثم ترمي إلى أسفلها . ثم لا تزال كذلك دائمًا ، قال العلماء : وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة فإنه منذ نزل قوله تعالى : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ فأخبر عنهما بالشقاء ، وعدم الإيمان ، لم يقيض لهما أن يؤمنا ، ولا واحد منهما لا باطنًا ولا ظاهرًا ، ولا مسرًا ولا معلنًا ، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة على النبوة الظاهرة .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٣٦١) وأبو يعلى في مسنده (٢٣٥٨) .

سورة الإخلاص

ذكر سبب نزولها وفضلها

عن أُبي بن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : يا محمّد ، انسب لنا ربك ؛ فأنزل اللَّه تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (١) . زاد ابن جرير والترمذي قال : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ الذي لم يلد ولم يولد ، لأنه ليس شيء يولد إلَّا سيموت ، وليس شيء يموت إلَّا سيورث ، وإن اللَّه ﷻ لا يموت ولا يورث . ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ولم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شيء (٢) .

عن عائشة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ بعث رجلًا على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو اللَّه أحد ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبيّ ﷺ فقال : « سَلُوهُ لأيِّ شيْءٍ يَصْنَعُ ذلِكَ ؟ » فسألوه فقال : لأنَّهَا صفة الرحمن ، وأنا أُحب أن أقرأ بها . فقال النبيّ ﷺ : « أَخْبِرُوه أَنَّ اللَّه تَعَالَى يُحِبُّهُ » (٣) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء ، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بقل هو اللَّه أحد ، حتى يفرغ منها . ثم كان يقرأ سورة أخرى معها ، وكان يصنع ذلك في كل ركعة ، فكلمه أصحابه فقالوا : إنك تفتتح بهذه السورة ، ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى ، فإما أن تقرأ بها ، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى ، فقال : ما أنا بتاركها إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت ، وإن كرهتم تركتكم . وكانوا يرون أنه من أفضلهم وكرهوا أن يؤمهم غيره . فلما أتاهم النبيّ ﷺ أخبروه الخبر فقال : « يَا فَلَانُ ، مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ أَصْحَابُكَ وَمَا حَمَلَكَ عَلَى لُزُوم هَذَهَ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ ؟ » قال : إني أحبها ، قال : « حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الـجَنَّة » (٤) . وعن أبي سعيد أن رجلًا سمع رجلًا يقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يرددها فلما أصبح جاء إلى النبيّ ﷺ فذكر ذلك له وكأن الرجل يتقالها ، فقال النبيُّ ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُث القُرْآن » (٥) وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ لأصحابه : « أَيَعْجَزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ القُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ ؟ » . فشق ذلك عليهم ، وقالوا : أيُّنا يطيق ذلك يا رسول اللَّه . فقال : « اللَّه الوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ القُرْآن » (٦) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : بات قتادة بن النعمان يقرأ الليل كله بقل هو اللَّه أحد فذكر ذلك للنبيّ ﷺ فقال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَده إِنَّهَا لَتَعْدِلُ نِصْفَ القُرْآنِ - أو ثلثه - » (٧) .

وعن عبيد بن حنين قال : سمعت أبا هريرة يقول : أقبلت مع النبيّ ﷺ فسمع رجلًا يقرأ : قل هو اللَّه أحد فقال رسول اللَّه : « وَجَبَتْ - قلت : وما وجبت ؟ قال - الـجَنَّةُ » (٨) وعن عبد اللَّه بن حبيب قال :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٣/٥) . (٢) أخرجه الترمذي في التفسير (٥) .

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٧٥) ومسلم في صلاة المسافرين (٢٦٣) .

(٤) أخرجه البخاري (٧٤٨٨) والترمذي في السنن (٢٩٠١) والبيهقي في السنن (٢٤١/١) .

(٥) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٧٤) . (٦) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠١٥) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٣/٢) .

(٨) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٩٧) وأبو داود في السنن (١٧١/٢) والحاكم في المستدرك (٥٦٦/١) .

أصابنا عطش وظلمة فانتظرنا رسول الله ﷺ يصلي بنا فخرج فأخذ بيدي فقال : « قل » فسكت قال : « قل » قلت : ما أقول ؟ قال : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَالمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِحُ ثَلاثًا ، تَكْفِيكَ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ » (١) وعن تميم الداري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَاحِدًا أَحَدًا صَمَدًا لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ عَشْرَ مَرَّاتٍ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَرْبَعِينَ أَلْفَ حَسَنَةٍ » (٢) .

وعن معاذ بن أنس الجهني عن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ حَتَّى يَخْتِمَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ بَنَى لَهُ قَصْرًا فِي الجَنَّةِ » فقال عمر : إذًا نستكثر يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُ أَكْثَرُ وَأَطْيَبُ » (٣) وروي عن النبيّ ﷺ قال : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنَامَ عَلَى فِرَاشِهِ فَنَامَ عَلَى يَمِينِهِ ثُمَّ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ مِائَةَ مَرَّةٍ فَإِذَا كَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ يَقُولُ لَهُ الرَّبُّ ﷻ : يَا عَبْدِي ادْخُلْ عَلَى يَمِينِكَ الجَنَّةَ » (٤) .

حديث آخر في الدعاء بما تضمنته من الأسماء : عن بريدة : أنه دخل مع رسول الله ﷺ المسجد ، فإذا رجل يصلي يدعو يقول : اللهم إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد . قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَهُ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ به أَعْطَى وَإِذَا دُعِيَ به أَجَابَ » (٥) . وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثٌ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ مَعَ الإِيمَانِ دخل مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الجَنَّةِ شَاءَ ، وَزُوِّجَ مِنَ الحُورِ العِينِ حَيْثُ شَاءَ : مَنْ عَفَا عَنْ قَاتِلِهِ ، وَأَدَّى دَيْنًا خَفِيًّا ، وَقَرَأَ فِي دُبُرِ كل صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ عَشْرَ مَرَّاتٍ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » قال : فقال أبو بكر : أو إحداهن يا رسول الله ؟ قال : « أَوْ إِحْدَاهُنَّ » (٦) .

حديث في الإكثار من قراءتها في سائر الأحوال : عن أنس قال : نزل جبريل على النبيّ ﷺ فقال : مات معاوية بن معاوية الليثي ، فتحب أن تصلي عليه ؟ قال : « نعم » فضرب بجناحه الأرض فلم تبق شجرة ولا أكمة إلا تضعضعت ، فرفع سريره فنظر إليه فكبر عليه ، وخلفه صفان من الملائكة في كل صف سبعون ألف ملك فقال النبيّ ﷺ : « يَا جِبْرِيلُ بِمَ نَالَ هَذِهِ المَنْزِلَةَ مِنَ اللَّه تَعَالَى » قال : بحبه قل هو الله أحد وقراءته إياها ذاهبًا وجائيًا قائمًا وقاعدًا وعلى كل حال (٧) .

حديث آخر في فضلها مع المعوذتين : عن عقبة بن عامر قال : لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته فأخذت بيده فقلت : يا رسول الله بمَ نجاة المؤمن ؟ قال : « يَا عُقْبَةُ أَخْرِسْ لِسَانَكَ ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ » . قال : ثم لقيني رسول الله ﷺ فابتدأني فأخذ بيدي فقال : « يَا عُقْبَةُ بْنَ عَامِرٍ أَلَا أُعَلِّمُكَ خَيْرَ ثَلَاثِ سُوَرٍ أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَالقُرْآنِ العَظِيمِ » . قال : قلت : بلى جعلني الله فداك قال : فأقرأني : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٣١٢) والترمذي في السنن (٣٥٧٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٠٣) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤٣٧) .
(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٩٨) والمنذري في الترغيب والترهيب (١/٤١٦) .
(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٣٤٧٥) وأحمد في مسنده (٥/٣٤٩) .
(٦) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٤٠٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٣٠١) .
(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٤٨) .

بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ ثم قال : « يَا عُقْبَةُ لَا تَنْسَهُنَّ وَلَا تَبِتْ لَيْلَةً حَتَّى تَقْرَأَهُنَّ » قال : فما نسيتهن منذ قال : لا تنسهن ، وما بتّ ليلة قط حتى أقرأهن ، قال عقبة : ثم لقيت رسول اللَّه ﷺ فابتدأته فأخذت بيده فقلت : يا رسول اللَّه أخبرني بفواضل الأعمال فقال : « يَا عُقْبَةُ صِلْ مَنْ قَطَعَكَ ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ ، وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ » (١) .

حديث آخر في الاستشفاء بهن ؛ عن عائشة أن النبيّ ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة ، جمع كفيه ، ثم نفث فيهما وقرأ فيهما : قل هو اللَّه أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات (٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ .

قال عكرمة : لما قالت اليهود : نحن نعبد عزير ابن اللَّه ، وقالت النصارى : نحن نعبد المسيح ابن اللَّه ، وقالت المجوس : نحن نعبد الشمس والقمر ، وقالت المشركون : نحن نعبد الأوثان ؛ أنزل اللَّه على رسوله ﷺ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يعني هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا وزير ولا نديد ولا شبيه ولا عديل ، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على اللَّه ﷻ ؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله . وقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ : يعني : الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم ، وعن ابن عباس : هو السيد الذي قد كمل في سؤدده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والعليم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته . وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، وهو اللَّه سبحانه ، هذه صفته لا تنبغي إلا له ، ليس له كفء وليس كمثله شيء ، سبحان اللَّه الواحد القهار ، وعن الحسن : هو الباقي بعد خلقه . وعنه أيضًا : الحي القيوم الذي لا زوال له ، وعن عكرمة : الذي لم يخرج منه شيء ، ولا يطعم ، وعن الربيع بن أنس : هو الذي لم يلد ولم يولد كأنه جعل ما بعده تفسيرًا له وهو قوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ وهو تفسير جيد . وعن أبي رباح وعطية العوفي وغيره : ﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾ الذي لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب .

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في كتاب السنة له بعد إيراده كثيرًا من هذه الأقوال في تفسير الصمد : وكل هذه صحيحة ، وهي صفات ربنا ﷻ ، هو الذي يصمد إليه في الحوائج ، وهو الذي قد انتهى سؤدده . وهو الصمد الذي لا جوف له ولا يأكل ولا يشرب ، وهو الباقي بعد خلقه . وقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ أي : ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة . قال مجاهد : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ يعني : لا صاحبة له . وفي الحديث « لا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٤٨) .
(٢) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٤٨) وأبو داود في السنن (٥٠٥٦) والترمذي في السنن (٣٤٠٢) .

أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذى سَمِعَهُ مِنَ اللَّه ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ » [1] . وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال : « قَالَ اللَّه ﷻ : كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذلِكَ ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ : اتَّخَذَ اللَّه وَلَدًا وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أولَد ولم يَكُنْ لي كُفُوًا أَحَد » [2] .

---

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٤٩) وأحمد في مسنده (٣٩٥/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٨٢) والنسائي في السنن (١١٢/٤) .

سورة الفلق

عن زر بن حبيش قال : قلت لأُبي بن كعب : إن ابن مسعود لا يكتب المعوذتين في مصحفه فقال : أشهد أن رسول الله ﷺ أخبرني أن جبريل عليه السلام قال له : قل أعوذ برب الفلق فقلتها ، قال : قل أعوذ برب الناس فقلتها ، فنحن نقول ما قال النبيّ ﷺ (١) . وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتْ هذِهِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ . ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ » (٢) وعن عقبة بن عامر قال : بينا أنا أقود برسول الله ﷺ في نقب من تلك النقاب إذ قال لي : « يَا عُقْبَةُ أَلَا تَرْكَبُ » قال ، فأشفقت أن تكون معصية قال : فنزل رسول الله ﷺ وركبت هنية ثم ركب ثم قال : « يَا عُقْبَ أَلَا أُعَلِّمُكَ سُورَتَيْنَ مِنْ خَيْرِ سُورَتَيْنِ قَرَأَ بِهِمَا النَّاسُ » قلت : بلى يا رسول الله فأقرأني : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ ثم أقيمت الصلاة ، فتقدم رسول الله ﷺ يقرأ بهما ، ثم مر بي فقال : « كَيْفَ رَأَيْتَ يا عُقْبَ اقْرَأْ بِهِمَا كُلَّمَا نِمْتَ وَكُلَّمَا قُمْتَ » (٣) وعن عقبة بن عامر أنه قال : إن رسول الله ﷺ أهديت له بغلة شهباء ، فركبها ، فأخذ عقبة يقودها له ، فقال رسول الله ﷺ : « اقْرَأْ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَق » فأعادها له حتى قرأها ، فعرف أني لم أفرح بها جدًّا فقال : « لَعَلَّكَ تَهَاوَنْتَ بِهَا ؟ فَمَا قُمْتَ تُصَلِّي بِشَيءٍ مِثْلِها » (٤) وعن عقبة بن عامر قال : اتبعت رسول الله ﷺ وهو راكب ، فوضعت يدي على قدميه ، فقلت : أقرئني سورة هود أو سورة يوسف فقال : « لَنْ تَقْرَأَ شَيْئًا أَنْفَعَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ » (٥) . وعن أبي عبد الله بن عابس الجهني أن النبيّ ﷺ قال له : « يَا ابْنَ عَابِسٍ أَلَا أَدُلُّكَ - أو ألا أخبرك - بِأَفْضَلِ مَا يَتَعَوَّذُ بِهِ المُتَعَوِّذُونَ ؟ » . قال : بلى يا رسول الله ، قال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ ، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ هَاتَانِ السُّورَتَانِ » (٦) .

وعن أبي العلاء قال : قال رجل : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، والناس يعتقبون وفي الظهر قلة ، فحانت نزلة رسول الله ﷺ ونزلتي ، فلحقني فضرب منكبي فقال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ فقرأها رسول الله ﷺ فقرأتها معه . ثم قال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ فقرأها رسول الله ﷺ فقرأتها معه فقال : « إِذَا صَلَّيْتَ فَاقْرَأْ بِهِمَا » (٧) الظاهر أن هذا الرجل هو عقبة بن عامر والله أعلم .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ① مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ④ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ .

عن جابر قال ﴿ ٱلْفَلَقِ ﴾ الصبح وعن ابن عباس ﴿ ٱلْفَلَقِ ﴾ الخلق ، أمر الله نبيّه أن يتعوذ من

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٩/٥) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٤/٤) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٤/٤) .
(٤) أخرجه النسائي في السنن (٢٥٤/٨) وأحمد في مسنده (١٤٩/٤) .
(٥) أخرجه النسائي في السنن (١٥٨/٢) وأحمد في مسنده (١٥٩/٤) .
(٦) أخرجه النسائي في السنن (٢٥٢/٨) وأحمد في مسنده (١٤٤/٤) والألباني في الصحيحة (١١٠٤) .
(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/٥) .

الخلق كله ، وقال كعب الأحبار : ﴿ ٱلْفَلَقِ ﴾ بيت في جهنم ، إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره . وقيل : جب في قعر جهنم ، عليه غطاء ، فإذا كشف عنه خرجت منه نار تضج منه جهنم من شدة حر ما يخرج منه .

قال ابن جرير : والصواب القول الأول : إنه فلق الصبح وهذا هو الصحيح ، وهو اختيار البخاري في صحيحه رحمه الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أي : من شر جميع المخلوقات ، وقال ثابت البناني والحسن البصري : جهنم وإبليس وذريته مما خلق ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ : قال مجاهد : غاسق الليل إذا وقب غروب الشمس ، وقال ابن نجيح وقتادة : إنه الليل إذا أقبل بظلامه . وقال الزهري : الشمس إذا غربت ، وعن عطية وقتادة : الليل إذا ذهب . وعن أبي هريرة : الكوكب . وعن ابن زيد : كانت العرب تقول : الغاسق سقوط الثريا ، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها ، وترتفع عند طلوعها . عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ : « ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ النَّجْمُ الغَاسِقُ » . قلت وهذا الحديث لا يصح رفعه إلى النبيّ ﷺ ، قال ابن جرير ، وقال آخرون : هو القمر ، قلت : وعمدة أصحاب هذا القول ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأراني القمر حين طلع وقال : « تَعَوَّذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا ، هَذَا الغَاسِقُ إِذا وَقَبَ » [(١)] قال أصحاب القول الأول : وهو آية الليل إذا ولج وهذا لا ينافي قولنا ؛ لأن القمر آية الليل ، ولا يوجد له سلطان إلا فيه ، وكذلك النجوم لا تضيء إلّا بالليل ، فهو يرجع إلى ما قلناه ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ : يعني السواحر . قال مجاهد : إذا رقين ونفثن في العقد . وعن طاوس قال : ما من شيء أقرب من الشرك من رقية الحية والمجانين . وعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ، ولا يأتيهن ، قال سفيان : وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا . فقال : « يَا عَائِشَةُ أَعَلِمْتِ أَنَّ اللَّه قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ ؟ أَتَانِي رَجُلَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالآخَرُ عند رجليَّ فَقَالَ الَّذِي عند رَأْسِي لِلآخَرِ : مَا بَالُ الرَّجُلِ ؟ قَالَ : مَطْبُوبٌ ، قال : وَمَنْ طَبَّهُ ؟ قال : لَبِيدُ بنُ أَعْصَمَ رَجُلٌ مِنْ بني زُرَيْقٍ حَلِيفُ اليَهُود كَانَ مُنَافِقًا ، قَالَ : وَفِيمَ ؟ قال : فِي مُشْطٍ وَمِشَاطَةٍ ، قَالَ : وَأَيْنَ ؟ قال : فِي جُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ تَحْتَ رَاعُوفَةٍ فِي بِئْرِ ذرْوَانَ » قالت : فأتى البئر حتى استخرجه فقال : « هَذِهِ بِئْرُ الَّتِي أُرِيتُهَا وَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الحِنَّاءِ ، وَكَأَنَّ نَخلَهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ » . قال : فاستخرج ، فقلت : أفلا تنشّرت ؟ فقال : «أَمَّا اللَّه فَقَدْ شَفَانِي وَأَكْرَهُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ شَرًّا » [(٢)] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦١/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٦٣) .

سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ .

هذه ثلاث صفات من صفات الرب ﷻ : الربوبية والملك والإلهية ، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه فجميع الأشياء مخلوقة له مملوكة عبيد له ، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات من شر الوسواس الخناس وهو الشيطان الموكل بالإنسان ، فإنه ما من أحد من بني آدم إلَّا وله قرين يزيّن له الفواحش ، ولا يألوه جهدًا في الخبال ، والمعصوم من عصمه اللَّه .

وقد ثبت في الصحيح : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ » قالوا : وأنت يا رسول اللَّه قال : « نَعَمْ إِلَّا أَنَّ اللَّه أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَم فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ » (١) . وثبت عن أنس في قصة زيارة صفية للنبي ﷺ وهو معتكف وخروجه معها ليلًا ليردها إلى منزلها فلقيه رجلان من الأنصار فلما رأيا النبيّ ﷺ أسرعا فقال رسول اللَّه ﷺ : « على رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ » فقالا : سبحان اللَّه يا رسول اللَّه فقال : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِن ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا - أو قال شَرًّا - » (٢) .

عن رديف رسول اللَّه ﷺ قال : عثر بالنبي ﷺ حماره فقلت : تعس الشيطان فقال النبيّ ﷺ : « لَا تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ فَإِنَّكَ إذا قُلْتَ تَعِسَ الشَّيْطَانُ تَعَاظَمَ . وقال : بِقُوَّتِي صَرَعْتُهُ وَإِذَا قُلْتَ بِاسْمِ اللَّه تَصَاغَرَ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابِ » (٣) ، وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر اللَّه تصاغر الشيطان وغلب ، وإن لم يذكر اللَّه تعاظم وغلب . وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ فِي الْمَسْجِدِ جَاءَ الشَّيْطَانُ فَأَبَسَّ بِهِ كَمَا يُبِسُّ الرَّجُلُ بِدَابَّتِهِ ، فَإِذَا سَكَنَ لَهُ زَنَقَهُ أَوْ أَلْجَمَهُ » قال أبو هريرة ﷺ : وأنتم ترون ذلك أما المزنوق فتراه مائلًا كذا لا يذكر اللَّه ، وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر اللَّه ﷻ (٤) . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ قال : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس فإذا ذكر اللَّه خنس . وقال المعتمر بن سليمان عن أبيه : ذكر لي أن الشيطان الوسواس ينفث في قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح ، فإذا ذكر اللَّه خنس . وقال العوفي عن ابن عباس : هو الشيطان يأمر فإذا أطيع خنس .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ هل يختص هذا ببني آدم كما هو الظاهر أو يعم بني آدم والجن ؟ فيه قولان ويكونون قد دخلوا في لفظ الناس تغليبًا . وقال ابن جرير : وقد

---

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٦٩) وأحمد في مسنده (٣٨٥/١) .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٨١) ومسلم في الإسلام (٢٤) وأبو داود في السنن (٢٤٧٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥٩/٥) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٠/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٤٢/١) .

استعمل فيهم رجال من الجن فلا بدع في إطلاق الناس عليهم . وقوله تعالى : ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ هل هو تفصيل لقوله : ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ ثم بيّنهم فقال : ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ وهذا يقوي القول الثاني وقيل : قوله : ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ تفسير للذي يوسوس في صدور الناس ، من شياطين الإنس والجن ، وعن أبي ذر قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد ، فجلست فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ صَلَّيْتَ ؟ » قلت : لا قال : « قُمْ فَصَلِّ » قال : فقمت فصليت ثم جلست فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ تَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ » . قال : فقلت : يا رسول الله وللإنس شياطين ؟ قال : « نَعَمْ » قال : فقلت يا رسول الله الصلاة ؟ قال : « خَيْرٌ مَوْضُوعٌ مَنْ شَاءَ أَقَلَّ وَمَنْ شَاءَ أَكْثَرَ » قلت : يا رسول الله فالصوم ؟ قال : « فَرْضٌ مُجْزِئٌ وَعِنْدَ اللَّهِ مَزِيدٌ » . قلت : يا رسول الله فالصدقة ؟ قال : « أَضْعَافٌ مُضَاعَفَةٌ » قلت : يا رسول الله أيها أفضل ؟ قال : « جُهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ أَوْ سِرٌّ إِلَى فَقِيرٍ » قلت : يا رسول الله أي الأنبياء كان أول ؟ قال : « آدَم » قلت : يا رسول الله ونبيًّا كان ؟ قال : « نَعَمْ نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ » قلت : يا رسول الله كم المرسلون ؟ قال : « ثَلَاثُمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا » وقال مرة « خَمْسَةَ عَشَرَ » قلت : يا رسول الله أيما أنزل عليك أعظم ؟ قال : « آيَةُ الكُرْسِيِّ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ » (١) وعن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني لأحدث نفسي بالشيء لأن أخر من السماء أحب إليّ من أن أتكلم به قال : فقال النبيّ ﷺ : « اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ ، الحَمْدُ للَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الوَسْوَسَةِ » (٢) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٥/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٩/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٥/١) وأبو داود في السنن (٥٠٤) .

الفهارس والمراجع

فهرس القراءات القرآنية

الآيـــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾	الفاتحة	٢	٣٢
﴿ ملك يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾	الفاتحة	٤	٣٤
﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾	الفاتحة	٦	٣٦
﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾	البقرة	١٠	٥٢
﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا ﴾	البقرة	٦١	٨٥
﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ ننسأها ﴾	البقرة	١٠٦	١١٩
﴿ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾	البقرة	١١٩	١٣٠
﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾	البقرة	١٣٢	١٤٥
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾	البقرة	٢٠٨	٢٠٠
﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾	البقرة	٢١٩	٢٠٧
﴿ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾	البقرة	٢٥٩	٢٥١
﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ ﴾	البقرة	٢٦٥	٢٥٤
﴿ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾	البقرة	٢٧٠	٢٥٨
﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾	آل عمران	٣٦	٢٨٩
﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾	آل عمران	٧٩	٣٠٥
﴿ قُتِلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾	آل عمران	١٤٦	٣٣٢
﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يُغَل ﴾	آل عمران	١٦١	٣٤٠
﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾	آل عمران	١٨٨	٣٥٤
﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامِ ﴾	النساء	١	٣٦٣
﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾	النساء	٢٥	٣٨٧
﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾	النساء	٢٩	٣٩١
﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾	النساء	٤٣	٤٠٨
﴿ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾	المائدة	٦	٥٠٢
﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾	المائدة	٢٣	٥١٣
﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ ﴾	المائدة	٤٥	٥٣٠
﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ ﴾	المائدة	٤٧	٥٣٢

الآيـــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴾	المائدة	٥٣	٥٣٥
﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ ﴾	المائدة	٥٧	٥٣٨
﴿ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ ﴾	المائدة	٦٠	٥٣٩
﴿ فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴾	المائدة	٩٥	٥٥٧
﴿ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ ﴾	المائدة	١٠٦	٥٦٧
﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ ﴾	المائدة	١٠٧	٥٦٨
﴿ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾	المائدة	١١٢	٥٧١
﴿ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾	الأنعام	٥٥	٥٩٠
﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً ﴾	الأنعام	٧٤	٥٩٨
﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ ﴾	الأنعام	٨٣	٦٠٢
﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ ﴾	الأنعام	٩٤	٦٠٦
﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ ﴾	الأنعام	١٠٥	٦١١
﴿ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا تُؤۡمِنُونَ ﴾	الأنعام	١٠٩	٦١٣
﴿ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا ﴾	الأنعام	١١١	٦١٤
﴿ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ ﴾	الأنعام	١١٩	٦١٦
﴿ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا ﴾	الأنعام	١٢٥	٦٢٢
﴿ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾	الأنعام	١٥٢	٦٣٦
﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ﴾	الأعراف	٢٧	٦٥٧
﴿ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ ﴾	الأعراف	٥٤	٦٧٠
﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا ﴾	الأعراف	٥٧	٦٧١
﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ ﴾	الأعراف	١٠٥	٦٨٣
﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ ﴾	الأعراف	١٢٧	٦٨٦
﴿ جَعَلَهُۥ دَكّٗا ﴾	الأعراف	١٤٣	٦٩١
﴿ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا ﴾	الأعراف	١٤٩	٦٩٤
﴿ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ ﴾	الأعراف	١٦٤	٧٠١

الآيـــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾	الأعراف	٢٠١	٧١٩
﴿ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾	الأنفال	٩	٧٣٠
﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ ﴾	الأنفال	٧٣	٧٦٥
﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾	التوبة	١٧	٧٧٤
﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾	التوبة	٨٩	٨١٢
﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾	التوبة	١٠٠	٨١٥
﴿ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾	التوبة	١٠٣	٨١٧
﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ﴾	يونس	٣٠	٨٤٥
﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾	يونس	٨٨	٨٥٧
﴿ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾	الرعد	٤٠	٩٤١
﴿ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾	إبراهيم	٢	٩٤٣
﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾	إبراهيم	٤٦	٩٥٩
﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾	النحل	٨١	٩٩٨
﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾	الإسراء	١٦	١٠٢٤
﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ﴾	الإسراء	٣٥	١٠٣٠
﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾	الإسراء	١٠٢	١٠٥٤
﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾	الإسراء	١٠٥	١٠٥٥
﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾	الكهف	٥	١٠٦٠
﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾	الكهف	٤٤	١٠٧٢
﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾	الكهف	٧٩	٩٤٧
﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا ﴾	مريم	٢٤	١٠٩٩
﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا ﴾	مريم	٥١	١١٠٤
﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾	طه	٥٣	١١٣٢
﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ﴾	الحج	٢	١١٧٥
﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾	النور	٣٥	١٢٥٢
﴿ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾	الفرقان	١٨	١٢٧٣
﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾	الشعراء	١٣٧	١٣٠١

الآيـــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾	النمل	٢٥	١٣١٩
﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾	النمل	٦٦	١٣٢٩
﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾	العنكبوت	٢٥	١٣٦١
﴿ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾	الأحزاب	٦٨	١٤٥٩
﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾	سبأ	١٩	١٤٧١
﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾	يس	٦١	١٥١١
﴿ بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾	الصافات	٦	١٥١٩
﴿ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴾	الصافات	٩٥	١٥٢٤
﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴾	الصافات	١٣١	١٥٣٢
﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾	ص	٨٤	١٥٥٠
﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾	الزمر	٣٦	١٥٥٩
﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾	غافر	١٦	١٥٧٧
﴿ لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾	فصلت	٤٤	١٦٠١
﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ ﴾	الزخرف	٧١	١٦٢٩
﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ ﴾	النجم	١٩	١٧٣٣
﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾	الرحمن	٣٥	١٧٥٢
﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ ﴾	الرحمن	٧٠	١٧٥٦
﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾	الواقعة	٢٢	١٧٦٤
﴿ فَرُوحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾	الواقعة	٨٩	١٧٧٤
﴿ فِي الْمَجَالِسِ ﴾	المجادلة	١١	١٧٩٤
﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ ﴾	الحاقة	٩	١٨٧٢
﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾	المعارج	٤٢	١٨٨٢
﴿ وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوُلْدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾	نوح	٢١	١٨٨٥
﴿ لِيَعْلَمَ ﴾	الجن	٢٨	١٨٩٣
﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾	نوح	٢٥	١٨٨٦
﴿ لَأُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾	القيامة	١	١٩٠٦
﴿ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴾	النازعات	١١	١٩٢٤
﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾	التكوير	٢٤	١٩٣٦

فهرس الأحاديث

[حرف الباء]

[حرف الكاف]

[حرف اللام]

[حرف الميم]

[حرف النون]

[حرف اللام ألف]

[حرف الياء]

فهرس الآثار

[حرف العين]

[حرف الغين]

[حرف الفاء]

[حرف القاف]

[حرف الكاف]

[حرف اللام]

[حرف الميم]

[حرف النون]

[حرف الهاء]

المصادر والمراجع

– الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان للأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت : ٧٣٩ هـ) تحقيق : كمال يوسف الحوت . مؤسسة الكتب الثقافية ١٩٨٧ م .
– إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل لمحمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ١٩٨٥ م .
– أسباب النزول لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت : ٤٦٨ هـ) . دار الفكر بيروت (١٩٩٨ م) .
– تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري (ت ١٣٥٣ هـ) ط . دار الاتحاد العربي للطباعة . القاهرة . بدون تاريخ .
– الترغيب والترهيب للحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (ت : ٦٥٦ هـ) تحقيق : مصطفى محمد عمارة . دار إحياء التراث العربي – ١٩٦٨ م .
– جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري (ت : ٢١٠ هـ) ط . المكتبة التجارية ١٩٩٥ م .
– الجامع الصحيح للإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت : ٢٥٦ هـ) ط . دار الفكر ١٩٩٤ م .
– الجامع الصحيح للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت : ٢٧٩ هـ) ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت . بدون تاريخ .
– الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (ت : ٦٧١ هـ) ط . دار الفكر ١٩٨٧ م .
– الجامع الصغير وزيادته لمحمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ١٩٧٩ م .
– الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام السيوطي (ت : ٩١١ هـ) ط . دار المعرفة . بيروت . بدون تاريخ .
– زاد المسير في علم التفسير للإمام ابن الجوزي (ت : ٥٩٧ هـ) ط . المكتب الإسلامي ١٩٨٤ م .
– سلسلة الأحاديث الضعيفة لمحمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ١٩٨٥ م .
– سلسلة الأحاديث الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ١٩٨٥ م .
– سنن ابن ماجه للإمام ابن ماجه (ت : ٢٧٠ هـ) ط . دار الفكر العربي ١٩٥٤ م .
– سنن أبي داود للإمام سليمان بن الأشعث السجستاني (ت : ٢٧٥ هـ) ط . دار الكتب العلمية . بيروت . بدون تاريخ .
– سنن الدارقطني للإمام علي بن عمر الدارقطني ط . دار المحاسن للطباعة . مصر ١٩٦٦ م .
– السنن الكبرى للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسن البيهقي (ت : ٤٥٨ هـ) ط . دار الفكر . بدون تاريخ .
– سنن النسائي للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب . ط . مكتبة المطبوعات الإسلامية . حلب ١٩٨٦ م .
– السيرة النبوية لابن هشام . تحقيق : مصطفى السقا وآخرين . دار إحياء التراث العربي – بيروت – بدون تاريخ .
– شرح السنة للإمام الحسين بن مسعود البغوي (ت : ٥١٦ هـ) تحقيق شعيب الأرناؤوط

ومحمد زهير الشاويش . المكتب الإسلامي ١٩٨٣ م .

- صحيح ابن خزيمة للإمام أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري (ت : ٣١١ هـ) تحقيق د . محمد مصطفى الأعظمي . المكتب الإسلامي ١٩٧٥ م .

- غريب الحديث لأبي القاسم بن سلام (ت : ٢٢٥ هـ) ط . حيدر آباد . بدون تاريخ .

- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس لإسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (ت : ١١٦٢ هـ) . تحقيق أحمد القلاش . مؤسسة الرسالة ١٩٨٥ م .

- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال لعلاء الدين المتقي بن حسام الدين الهندي ، (ت : ٩٧٥ هـ) تحقيق : بكري حياني ، وصفوة السقا - مؤسسة الرسالة ١٩٨٩ م .

- لسان العرب لابن منظور الأنصاري (ت : ٧١١ هـ) ط . دار المعارف . بدون تاريخ .

- مختار الصحاح للرازي (ت : ٦٦٦ هـ) ط . دار البصائر ١٩٨٥ م .

- المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم النيسابوري (ت : ٤٠٥ هـ) . دار الكتاب العربي . بيروت . بدون تاريخ .

- مسند أبي يعلى الموصلي للحافظ أحمد بن علي بن المثنى التميمي (ت : ٣٠٧) تحقيق : حسين سليم أسد - دار المأمون للتراث ١٩٨٤ م .

- مسند أبي عوانة للإمام أبي عوانة يعقوب بن إسحاق الإسفرائيني (ت : ٣١٦ هـ) . دار المعرفة - بيروت - بدون تاريخ .

- المسند للإمام أحمد بن حنبل (ت : ٢٤١ هـ) ط . المكتب الإسلامي ١٩٨٣ م .

- مشكاة المصابيح لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزي . تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ١٩٨٥ م .

- المصباح المنير للفيومي (ت : ٧٧٠ هـ) المطبعة الأميرية . مصر . ط ثالثة ١٩١٢ م .

- المصنف لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت : ٢١١ هـ) تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي - المكتب الإسلامي ١٩٨٣ م .

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت : ٨٠٧) . مكتبة القدسي - بدون تاريخ .

- المعجم الأوسط لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (ت : ٣٦٠ هـ) تحقيق د . محمود الطحان . مكتبة المعارف الرياض ١٩٨٥ م .

- المعجم الصغير لأبي القاسم سليمان أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (ت : ٣٦٠ هـ) تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان . دار الفكر بيروت ١٩٨١ م .

- المعجم الكبير لأبي القاسم سليمان أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (ت : ٣٦٠ هـ) تحقيق : حمدي عبد المجيد السلفي - بدون تاريخ .

- المعجم الوسيط . مجمع اللغة العربية ط . ثالثة ١٩٨٥ م .

- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (ت : ٦٠٦ هـ) ط . الخيرية . بدون تاريخ .

فهرس المجلد الثالث

رقم الإيداع

2000/2608

I.S.B.N **الترقيم الدولي**

977-5146-84-4